إحياء علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

(٤٥٠-٥٠٥ هـ)

ومعه

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل العراقي

(٧٢٥-٨٠٦ هـ)

دار ابن حزم

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطَّبعَة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ISBN 9953-81-190-3

ISBN 9953-81-190-3

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 ـ 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة الإمام أبي حامد الغزالي

(٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ ـ ١١١١م)

هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف.

مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان)، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته.

نسبته إلى صناعة الغزّل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غَزَالة من قرى طوس (لمن قال بالتخفيف)[1].

قرأ الفقه في صباه في بلده ولازم إمام الحرمين فجد واجتهد حتى برع في الجدل والمنطق والمذهب والخلاف، وقرأ الفلسفة والحكمة وتمكن من ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وصنّف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها.

كان شديد الذكاء والفطنة، وناظر العلماء والأئمة في مجالسه حتى أصبح أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه. وقصد الوزير نظام الملك فلازم مجلسه وحدّث وناظر وتصدى.

أشهر كتبه «إحياء علوم الدين» الذي يعتبر من أعظم التصانيف التي صُنّفت في معرفة قواعد الأحكام، وبيّن الحلال والحرام وجمع فيه دقائق الأسرار.

له الكثير من المصنفات نذكر منها:

- تهافت الفلاسفة.
- الاقتصاد في الاعتقاد.
- الوقف والابتداء ـ وهو في التفسير ـ.
- البسيط ـ وهو في الفقه ـ.
- بداية الهداية.
- فضائح الباطنية ـ ويُعرف بالمستظهري، وبفضائح المعتزلة.
- التبر المسبوك في نصيحة الملوك ـ وهو بالفارسية وتُرجم إلى العربية.
- منهاج العابدين ـ قيل: هو آخر تآليفه ـ.
- شفاء العليل ـ وهو في أصول الفقه ـ.
- المستصفى من علم الأصول.
- الوجيز ـ وهو في فروع الشافعية ـ.
- ياقوت التأويل في تفسير التنزيل ـ كبير، قيل: في نحو أربعين مجلداً ـ.
- الإملاء عن إشكالات الإحياء.

توفي رحمه الله سنة ٥٠٥هـ في بلدته طوس ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

(١) في اللباب ٢/١٧٠ ما يستفاد منه أن تخفيف الزاي في الغزالي، خلاف المشهور. الأعلام للزركلي ٧/٢٣.

ترجمة العلامة الحافظ العراقي
(٧٢٥ ـ ٨٠٦هـ = ١٣٢٥ ـ ١٤٠٤م)

هو عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمٰن، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي: بحاثة، من كبار حفاظ الحديث.

أصله من الكرد ومولده في رازنان (من أعمال إربل)، وتحوّل صغيراً مع أبيه إلى مصر، فتعلم ونبغ فيها.

كان صالحاً ومتواضعاً، وشرع في إملاء الحديث، وقام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين، وعاد إلى مصر فتوفي في القاهرة.

له العديد من المؤلفات نذكر منها:

- الألفية ـ وهي أشهر كتبه، وهي في مصطلح الحديث، وشرحها ـ.
- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ـ وهو في تخريج أحاديث الإحياء ـ.
- نكت منهاج البيضاوي ـ وهو في الأصول ـ.
- ذيل على الميزان.
- فتح المغيث.
- التحرير ـ وهو في أصول الفقه ـ.
- نظم الدرر السنية ـ وهي منظومة في السيرة النبوية ـ.
- الألفية ـ وهي في غريب القرآن ـ.
- ذيل على ذيل العبر ـ للذهبي ـ.
- معجم ـ ترجم به جماعة من أهل القرن الثامن للهجرة ـ.
- تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد.
- التقييد والإيضاح ـ وهو في مصطلح الحديث ـ.
- طرح التثريب في شرح التقريب.

توفي رحمه الله سنة ٨٠٦هـ في القاهرة ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة كتاب إحياء علوم الدين

أحمد الله أولاً، حمداً كثيراً متوالياً؛ وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين. وأصلي وأسلم على رسله ثانياً، صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين. وأستخيره تعالى ثالثاً فيما انبعث له

خطبة كتاب المغني عن حمل الأسفار

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها، وأعيا فهوم الملحدين عن دركها فرجعت بكلالها، أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها، وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضالها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها، واقية من حلول الدركات وأهوالها، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به فجر الإيمان من ظلمة القلوب وضلالها، وأسمع به وقر الآذان وجلاً به زين القلوب بصقالها، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم لا قاطع لاتصالها.

وبعد: فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث «إحياء علوم الدين» في سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف على بعض أحاديثه فأخرت تبييضه إلى سنة ستين، فظفرت بكثير مما عزب عني علمه ثم شرعت في تبييضه في مصنف متوسط حجمه وأنا مع ذلك متباطىء في إكماله غير متعرض لتركه وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه وتكرَّر السؤال من جماعة في إكماله فأجبت وبادرت إليه ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار، فاقتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبيّن ما ليس له أصل في كتب الأصول، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسؤول.

فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه وإلا عزوته إلى من خرَّجه من بقية الستة وحيث كان في أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون في كتاب التزم مخرّجه الصحة أو يكون أقرب إلى لفظه في الإحياء، وحيث كرر المصنف ذكر الحديث، فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لغرض أو لذهول عن كونه تقدم، وإن كرره في باب آخر ذكرته ونبهت على أنه قد تقدم وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه، وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت ما يغني عنه غالباً وربما لم أذكره. وسميته:

«المغني عن حمل الأسفار في الأسفاره في تخريج ما في الإحياء من الأخبار»

جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ووسيلة إلى النعيم المقيم.

عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين. وأنتدب لقطع تعجبك رابعاً أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين، المسرف في التقريع والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين؛ فلقد حل عن لساني عقدة الصمت وطوّقني عهدة الكلام وقلادة النطق: ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل، والتشغيب على من آثر النزوع قليلاً عن مراسم الخلق ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما تعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب، وتداركاً لبعض ما فرط من إضاعة العمر يائساً عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازاً عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه: **«أَشَدُّ النَّاسِ عَذاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ الله سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ»**[1]، ولعمري إنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجم الغفير، بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر إدّ والخطب جدّ والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سدّ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكدّ: فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظلّ علم الدين مندرساً، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام؛ إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام.

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه: فقهاً وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً.

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً وخطباً مدلهماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، إحياءً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين.

وقد أسسته على أربعة أرباع وهي: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات.

وصدرت الجملة بكتاب العلم، لأنه غاية المهم لأكشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله ﷺ الأعيان بطلبه؛ إذ قال رسول الله ﷺ: **«طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ»**[2] وأميز فيه العلم النافع من الضارّ؛ إذ قال ﷺ: **«نَعُوذُ بِالله مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ»**[3]، وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب.

أحاديث الخطبة

(١) حديث: **«أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»**، رواه الطبراني في الصغير، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»**، رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه، أحمد والبيهقي وغيرهما.

(٣) حديث: **«نعوذ بالله من علم لا ينفع»**، رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن.

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب:

كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب:

كتاب آداب الأكل، وكتاب آداب النِّكاح، وكتاب أحكام الكسب، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب العزلة، وكتاب آداب السفر، وكتاب السَّماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب:

كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس، وكتاب آفات الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال والبخل، وكتاب ذم الجاه والرياء، وكتاب ذم الكبر والعجب، وكتاب ذم الغرور.

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب:

كتاب التوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخوف والرجاء، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوحيد والتوكل، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا، وكتاب النية والصدق والإخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكُّر، وكتاب ذكر الموت.

فأما ربع العبادات، فأذكر فيه من خفايا آدابها، ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيات.

وأما ربع العادات، فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق، وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي مما لا يستغني عنها متدين.

وأما ربع المهلكات، فأذكر فيه كل خُلُقٍ مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حدّه وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم الآفات التي عليها تترتب ثم العلامات التي بها تتعرف، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص، كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار.

وأما ربع المنجيات، فأذكر فيه كل خُلُقٍ محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدّها وحقيقتها، وسببها الذي به تجتلب، وثمرتها التي منها تستفاد، وعلامتها التي بها تتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل؛ ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور:

الأول: حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه.

الثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه.

الثالث: إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه.

الرابع: حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه.

الخامس: تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام، لم يتعرض لها في الكتب أصلاً إذ الكل وإن

تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرّد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه، أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده في الكتب، أو لا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف؛ فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم.

وإنما حملني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران:

أحدهما: ـ وهو الباعث الأصلي ـ أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهيم كالضرورة لأن العلم الذي يتوجّه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة، وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط، وأعني بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به، والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر الصديقين، وعلم المعاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه. وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال، علماً منهم بقصور أفهام الخَلْق عن الاحتمال ـ والعلماء ورثة الأنبياء ـ فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسّي والاقتداء، ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر، أعني العلم بأعمال الجوارح ـ وإلى علم باطن ـ أعني العلم بأعمال القلوب والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة، والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم، فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن. والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود، فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام.

الباعث الثاني: أني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى، المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته في المنافسات، وهو مرتب على أربعة أرباع والمتزيي بزي المحبوب محبوب، فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفاً في استدراج القلوب، ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم، موضوعاً في الجداول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون أنسهم بذلك الجنس، جاذباً لهم إلى المطالعة والتلطُّف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطُّف في اجتذابها إلى الطبِّ الذي لا يفيد إلا صحة الجسد، فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح، المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد، إنه كريم جواد.

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في فضل العلم والتعليم والتعلم.

الباب الثاني: في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم، وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا.

الباب الثالث: فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منه، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره.

الباب الرابع: في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل.

الباب الخامس: في آداب المعلم والمتعلم.

الباب السادس: في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة.

الباب السابع: في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار.

* * *

الباب الأول

في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرآن قوله عزّ وجلّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنّى بالملائكة، وثلّث بأهل العلم؛ وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً. وقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجَادلة: ١١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام. وقال عزّ وجلّ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فَاطِر: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣] وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ﴾ [النَّمل: ٤٠] تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القَصَص: ٨٠] بيّن أن عظم قدر الآخرة يُعلَمُ بالعلم. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العَنكبوت: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النّساء: ٨٣] ردّ حكمه في الوقائع إلى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله. وقيل في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ يعني العلم ﴿وَرِيشًا﴾ يعني اليقين ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ [الأعرَاف: ٢٦] يعني الحياء. وقال عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢] وقال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرَّحمٰن: ٣، ٤] وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان.

وأما الأخبار فقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ وَيُلْهِمْهُ رُشْدَهُ»**[(١)]. وقال ﷺ: **«العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ»**[(٢)]، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال ﷺ: **«يَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ ما فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ»**[(٣)]، وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له. وقال ﷺ: **«إنَّ الحِكْمَةَ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفاً وَتَرْفَعُ المَمْلُوكَ حَتَّىٰ يُدْرِكَ مَدَارِكَ المُلُوكِ»**[(٤)]، وقد نبه بهذا على ثمراته في الدنيا، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى. وقال ﷺ: **«خَصْلَتَانِ لا يَكُونَانِ فِي مُنَافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ وَفِقْهٌ فِي الدِّينِ»**[(٥)]، ولا تشكَّنّ في الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان، فإنه ما أراد به الفقه الذي ظننته، وسيأتي معنى الفقه. وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء. وقال ﷺ: **«أَفْضَلُ النَّاسِ المُؤْمِنُ العَالِمُ الَّذِي إنْ احْتِيجَ إلَيْهِ نَفَعَ، وَإِنِ اسْتُغْنِيَ عَنْهُ أَغْنَىٰ نَفْسَهُ»**[(٦)]. وقال ﷺ: **«الإِيمَانُ عُرْيَانٌ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَىٰ وَزِينَتُهُ الحَيَاءُ وَثَمَرَتُهُ العِلْمُ»**[(٧)]. وقال ﷺ: **«أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ أَهْلُ العِلْمِ وَالجِهَادِ، أَمَّا أَهْلُ العِلْمِ فَدَلُّوا النَّاسَ عَلَىٰ ما جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَمَّا أَهْلُ الجِهَادِ فَجَاهَدُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَىٰ ما جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ»**[(٨)]. وقال ﷺ: **«لَمَوْتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِمٍ»**[(٩)]. وقال عليه الصلاة والسلام: **«النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، فَخِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا»**[(١٠)]. وقال ﷺ: **«يُوزَنُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِدَادُ العُلَمَاءِ بِدَمِ**

كتاب العلم:
الباب الأول

(١) حديث: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده»** متفق عليه من حديث معاوية دون قوله: **«ويلهمه رشده»** وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير.

(٢) حديث: **«العلماء ورثة الأنبياء»** أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء.

(٣) حديث: **«يستغفر للعالم ما في السموات والأرض»** هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم.

(٤) حديث: **«الحكمة تزيد الشريف شرفاً. . . .»** الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن عبدالبر في بيان العلم، وعبدالغني الأزدي في آداب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٥) حديث: **«خصلتان لا تجتمعان في منافق. . .»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حديث غريب.

(٦) حديث: **«أفضل الناس المؤمن العالم. . .»** الحديث. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على أبي الدرداء بإسناد ضعيف ولم أره مرفوعاً.

(٧) حديث: **«الإيمان عريان. . . .»** الحديث. أخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

(٨) حديث: **«أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد. . .»** الحديث. أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٩) حديث: **«لموت قبيلة أيسر من موت عالم»** أخرجه الطبراني، وابن عبدالبر من حديث أبي الدرداء، وأصل الحديث عند أبي الدرداء.

(١٠) حديث: **«الناس معادن. . .»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الشُّهَدَاءِ»(١). وقال ﷺ: «مَنْ حَفِظَ عَلَىٰ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثاً مِنَ السُّنَّةِ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَها إِلَيْهِمْ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً وَشَهِيداً يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢). وقال ﷺ: «مَنْ حَمَلَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثاً لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ فَقِيهاً عَالِماً»(٣). وقال ﷺ: «مَنْ تَفَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ما أَهَمَّهُ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»(٤). وقال ﷺ: «أَوْحَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ: يا إِبْرَاهِيمُ إِنِّي عَلِيمٌ أُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ»(٥). وقال ﷺ: «العَالِمُ أَمِينُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الأَرْضِ»(٦). وقال ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلُحُوا صَلُحَ النَّاسُ وَإِذَا فَسَدُوا فَسَدَ النَّاسُ: الأُمَرَاءُ والفُقَهَاءُ»(٧). وقال عليه السلام: «إِذَا أَتَىٰ عَلَيَّ يَوْمٌ لا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْماً يُقَرِّبُنِي إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذٰلِكَ اليَوْمِ»(٨)، وقال ﷺ في تفضيل العلم على العبادة والشهادة: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدْنَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي»(٩). فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوّة وكيف حط رتبة العمل المجرّد عن العلم، وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة؟ وقال ﷺ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَوَاكِبِ»(١٠). وقال ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةٌ: الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ العُلَمَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ»(١١). فأعظِم بمرتبة هي تلو النبوّة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة. وقال رسول الله ﷺ: «ما عُبِدَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي الدِّينِ، وَلَفَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَىٰ الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ وَعِمَادُ هٰذَا الدِّينِ الفِقْهُ»(١٢) وقال ﷺ: «خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ وَخَيْرُ العِبَادَةِ الفِقْهُ»(١٣). وقال ﷺ: «فَضْلَ

---

(١) حديث: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء» أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

(٢) حديث: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة» أخرجه ابن عبدالبر في العلم من حديث ابن عمر وضعفه.

(٣) حديث: «من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فقيهاً عالماً» أخرجه ابن عبدالبر من حديث أنس وضعفه.

(٤) حديث: «من تفقه في دين الله كفاه الله ما أهمّه...» الحديث. رواه الخطيب في التاريخ من حديث عبدالله بن جزء الزبيدي بإسناد ضعيف.

(٥) حديث: «أوحى الله إلى إبراهيم: يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم» ذكره ابن عبدالبر تعليقاً ولم أظفر له بإسناد.

(٦) حديث: «العالم أمين الله في الأرض» أخرجه ابن عبدالبر من حديث معاذ بسند ضعيف.

(٧) حديث: «صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس...» الحديث. أخرجه ابن عبدالبر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(٨) حديث: «إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقرّبني...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، وابن عبدالبر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

(٩) حديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن صحيح.

(١٠) حديث: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم.

(١١) حديث: «يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» رواه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف.

(١٢) حديث: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين...» الحديث. رواه الطبراني في الأوسط، وأبو بكر الآجري في كتاب فضل العلم، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف. وعند الترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف: «فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد».

(١٣) حديث: «خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه» أخرجه ابن عبدالبر من حديث أنس بسند ضعيف، والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع بإسناد جيد، والشطر الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

المُؤمِنُ العَالِمُ عَلَىٰ المُؤمِنِ العَابِدِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةٍ»(١). وقال ﷺ: **«إنَّكُمْ أَصْبَحْتم فِي زَمَنٍ كَثِيرٍ فُقَهَاؤُهُ قَلِيلٍ قُرَّاؤُهُ وَخُطَبَاؤُهُ قَلِيلٍ سَائِلُوهُ كَثِيرٍ مُعْطُوهُ، العَمَلُ فِيهِ خَيرٌ مِنَ العِلْمِ. وَسَيأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ مُعْطُوهُ كَثِيرٌ سَائِلُوهُ، والعِلْمُ فِيهِ خَيرٌ مِنَ العَمَلِ»**(٢). وقال ﷺ: **«بَيْنَ العَالِمِ وَالعَابِدِ مِائَةُ دَرَجَةٍ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ حُضْرُ الجَوَادِ المُضَمَّرِ سَبْعِينَ سَنَةً»**(٣) وقيل: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ فقال: **«العِلْمُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»** فقيل: أي العلم تريد؟ قال ﷺ: **«العِلْمُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ»** فقيل له: نسأل عن العمل وتجيب عن العلم! فقال ﷺ: **«إنَّ قَلِيلَ العَمَلِ يَنفَعُ مَعَ العِلْمِ باللَّهِ وَإنَّ كَثِيرَ العَمَلِ لا يَنفَعُ مَعَ الجَهْلِ بِاللَّهِ»**(٤) وقال ﷺ: **«يَبْعَثُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ العِبَادَ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَبْعَثُ العُلَمَاءَ ثُمَّ يَقُولُ: يا مَعْشَرَ العُلَمَاءِ، إنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ إلاَّ لِعِلْمِي بِكُمْ، وَلَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ لأُعَذِّبَكُمْ، اذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**(٥) نسأل الله حسن الخاتمة.

وأما الآثار: فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل: يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق. وقال عليٌّ أيضاً رضي الله عنه: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه، وقال رضي الله تعالى عنه نظماً:

ما الفخرُ إلا لأهلِ العِلْمِ إنَّهم ... على الهدى لمن استهدى أدِلاَّءُ
وَقَدْرُ كلِّ امرئٍ ما كان يُحْسِنُه ... والجاهلُونَ لأهل العلم أعداءُ
فَفُزْ بعلمٍ تَعِشْ حيّاً به أبداً ... النَّاسُ مَوْتى وأهلُ العِلْمِ أحياءُ

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه، وسئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين. ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم؛ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بِعِظَمِهِ فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا

---

(١) حديث: **«فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة»** أخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف، ولأبي يعلى نحوه من حديث عبدالبر بن عوف.

(٢) حديث: **«إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه. . . .»** الحديث. أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمّه، وقيل: عن أبيه وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: **«بين العالم والعابد مائة درجة»** الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال: **«سبعون درجة»** بسند ضعيف، وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: قيل: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ فقال: **«العلم بالله. . .»** الحديث. أخرجه ابن عبدالبر من حديث أنس بسند ضعيف.

(٥) حديث: **«يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء. . .»** الحديث. رواه الطبراني من حديث أبي موسى بسند ضعيف.

وقال ﷺ: «إِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتِها لِطَالِبِ العِلْم رضاءً بِمَا يَصْنَعُ»[١] وقال ﷺ: «لأَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ بَاباً مِنَ العِلْمِ خَيرٌ مِنْ أَنْ تُصَلّي مِائَةَ رَكْعَةٍ»[٢]، وقال ﷺ: «بَابٌ مِنَ العِلْمِ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيهَا»[٣]، وقال ﷺ: «اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ»[٤]، وقال ﷺ: «طَلب العِلْم فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِم»، وقال عليه الصلاة والسلام: «العِلْمُ خَزائِنُ مَفَاتِيحُها السُّؤَالُ، أَلاَ فَاسأَلُوا فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ، وَالعَالِمُ، وَالمُسْتَمِعُ، وَالمُحِبُّ لَهُمْ»[٥] وقال ﷺ: «لا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَىٰ جَهْلِهِ وَلا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَىٰ عِلْمِهِ»[٦]. وفي حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه: «حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعيادة ألف مريض وشهود ألف جنازة»، فقيل: يا رسول الله، ومن قراءة القرآن؟ فقال ﷺ: «وَهَلْ يَنْفَعُ القُرْآنُ إِلاَّ بِالعِلْمِ؟»[٧] وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ جَاءَهُ المَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ العِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلامَ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَنْبِيَاءِ فِي الجَنَّةِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ»[٨].

وأما الآثار؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالباً فعززت مطلوباً. وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله: ما رأيت مثل ابن عباس، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجهاً، وإذا تكلم فأعرب الناس لساناً، وإذا أفتى فأكثر الناس علماً. وقال ابن المبارك رحمه الله: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة؟ وقال بعض الحكماء: إني لا أرحم رجالاً كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهم، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لأن أتعلم مسألة أحبّ إليّ من قيام ليلة. وقال أيضاً: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك. وقال عطاء: مجلس علم يكفّر سبعين مجلساً من مجالس اللهو. وقال عمر رضي الله عنه: موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصيرٍ بحلال الله وحرامه. وقال الشافعي رضي الله عنه: طلب العلم أفضل من النافلة. وقال ابن عبدالحكم رحمه الله: كنت عند مالك أقرأ عليه العلم، فدخل الظهر

---

(١) حديث: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع» أخرجه أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال.

(٢) حديث: «لأن تغدو فتتعلم باباً من الخير خير من أن تصلي مائة ركعة» أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذاك، والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر.

(٣) حديث: «باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا» أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء، وابن عبدالبر موقوفاً على الحسن البصري، ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ: «خير له من مائة ركعة» رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر.

(٤) حديث: «اطلبوا العلم ولو بالصين» أخرجه ابن عدي، والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس، وقال البيهقي: متنه مشهور وأسانيده ضعيفة.

(٥) حديث: «العلم خزائن مفاتيحها السؤال...» الحديث. رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعاً بإسناد ضعيف.

(٦) حديث: «لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله» أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه في التفسير، وابن السني، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف.

(٧) حديث أبي ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة...» الحديث. ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر.

(٨) حديث: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم...» الحديث. أخرجه الدارمي وابن السني في رياضة المتعلمين من حديث الحسن، فقيل: هو ابن علي، وقيل: هو ابن يسار البصري مرسلاً.

فجمعت الكتب لأصلي فقال: يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحّت النية. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: من رأى أن الغدوّ إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله.

فضيلة التعليم:

أما الآيات فقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] والمراد هو التعليم والإرشاد. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وهو إيجاب للتعليم. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وهو تحريم للكتمان، كما قال تعالى في الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال ﷺ: **«ما آتَىٰ اللَّهُ عَالِماً عِلْماً إلاَّ وَأَخَذَ عَلَيهِ مِنَ المِيثَاقِ ما أَخَذَ عَلَىٰ النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُوهُ»**(١). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]. **وأما الأخبار** فقوله ﷺ لما بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن: **«لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيهِا»**(٢) وقال ﷺ: **«مَنْ تَعَلَّمَ بَاباً مِنَ العِلْمِ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أُعْطِيَ ثَوَابَ سَبْعِينَ صِدِّيقاً»**(٣) وقال عيسى ﷺ: من عَلِم وعمل وعلَّم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السموات. وقال رسول الله ﷺ: **«إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَابِدِينَ وَالمُجَاهِدِينَ: ادْخُلُوا الجَنَّةَ، فَيَقُولُ العُلَمَاءُ: بِفَضْلِ عِلْمِنَا تَعَبَّدُوا وَجَاهَدُوا، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْتُمْ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلائِكَتِي اشْفَعُوا تُشَفَّعُوا فَيَشْفَعُونَ ثُمَّ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ»**(٤) وهذا إنما يكون بالعلم المتعدّي بالتعليم لا العلم اللازم الذي لا يتعدّى. وقال ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَنْتَزِعُ العِلْمَ انْتِزَاعاً مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إِيَّاهُ وَلٰكِنْ يَذْهَبُ بِذَهَابِ العُلَمَاءِ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذَهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ العِلْمِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً إِنْ سُئِلُوا أَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ»**(٥). وقال ﷺ: **«مَنْ عَلِمَ عِلْماً فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»**(٦). وقال ﷺ: **«نِعْمَ العطيَّةُ وَنِعْمَ الهديَّةُ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ تَسْمَعُها فَتَطْوِي عَلَيْها ثُمَّ تَحْمِلُها إِلَىٰ أَخٍ لَكَ مُسْلِمٍ تُعَلِّمُهُ إِيَّاها تعدل عِبَادَةَ سَنَةٍ»**(٧). وقال ﷺ: **«الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إِلاَّ ذِكْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ**

---

(١) حديث: **«ما آتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين...»** الحديث. أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه، وفي الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث قاله لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك...»** الحديث. أخرجه أحمد من حديث معاذ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلي.

(٣) حديث: **«من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطي ثواب سبعين صديقاً»** رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٤) حديث: **«إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين: ادخلوا الجنة...»** الحديث. أخرجه أبو العباس الذهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(٥) حديث: **«إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس..»** الحديث. متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو.

(٦) حديث: **«من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»** رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة، قال الترمذي: حديث حسن.

(٧) حديث: **«نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها...»** الحديث. أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف.

وَما وَالاهُ أَوْ مُعَلِّماً أَوْ مُتَعَلِّماً»(١)، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ سَمْوَاتِهِ وَأَرْضِهِ حَتَّىٰ النَّمْلَةَ فِي جُحْرِها حَتَّىٰ الحُوتَ فِي البَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»(٢)، وقال ﷺ: «ما أَفَادَ المُسْلِمُ أَخاهُ فَائِدَةً أَفْضَلَ مِنْ حَدِيثٍ حَسَنٍ بَلَغَهُ فَبَلَّغَهُ»(٣) وقال ﷺ: «كَلِمَةٌ مِنَ الخَيْرِ يَسْمَعُها المُؤْمِنُ فَيُعَلِّمُها وَيَعْمَلُ بِهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ»(٤)، وخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين، أحدهما يدعون الله عزّ وجلّ ويرغبون إليه، والثاني يعلّمون الناس، فقال: «أَمَّا هٰؤُلاءِ فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هٰؤُلاءِ فَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ وَإِنَّما بُعِثْتُ مُعَلِّماً»(٥) ثُمَّ عَدَلَ إِلَيْهِمْ وَجَلَسَ مَعَهُمْ، وقال ﷺ: «مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ والعلمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَت الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنها بُقْعَةٌ أَمْسَكَت المَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْها وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَكَانَتْ مِنْها طَائِفَةٌ قِيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً»(٦) اهـ، فالأول ذكره مثلاً للمنتفع بعلمه، والثاني ذكره مثلاً للنافع، والثالث للمحروم منهما. وقال ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ...»(٧) الحديث. وقال ﷺ: «الدَّالُّ عَلَىٰ الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»(٨)، وقال ﷺ: «لا حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِها وَيُعَلِّمُها النَّاسَ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالاً فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الخَيْرِ»(٩)، وقال ﷺ: «عَلَىٰ خُلَفَائِي رَحْمَةُ اللَّهِ» قيل: ومن خلفاؤك؟ قال: «الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللَّهِ»(١٠).

وأما الآثار: فقد قال عمر رضي الله عنه: من حدّث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك

---

(١) حديث: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها...**» الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، قال الترمذي: حسن غريب.

(٢) حديث: «**إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير**» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: غريب، وفي نسخة: حسن صحيح.

(٣) حديث: «**ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن..**» الحديث. أخرجه ابن عبدالبر من رواية محمد بن المنكدر مرسلاً نحوه، ولأبي نعيم من حديث عبدالله بن عمرو: «**ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى**».

(٤) حديث: «**كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها...**» الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسلاً نحوه، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: «**كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة**».

(٥) حديث: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله...» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث عبدالله بن عمرو بسند ضعيف.

(٦) حديث: «**مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٧) حديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وتمامه: «**علم ينتفع به، أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له**».

(٨) حديث: «**الدال على الخير كفاعله**» أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال: غريب. ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي وصححه عن أبي مسعود البدري بلفظ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**».

(٩) حديث: «**لا حسد إلا في اثنتين...**» الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(١٠) حديث: «**على خلفائي رحمة الله...**» الحديث. رواه ابن عبدالبر في العلم، والهروي في ذم الكلام من حديث الحسن، فقيل: هو ابن علي وقيل: ابن يسار البصري فيكون مرسلاً، ولابن السني وأبي نعيم في رياضة المتعلمين من حديث علي نحوه.

العمل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر. وقال بعض العلماء: العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل.

وروي: أن سفيان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان، فقال: اكروا لي لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم. وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به. وقال عطاء رضي الله عنه: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء. وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة، كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره. وقال الحسن رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم، أي: أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية. وقال عكرمة: إن لهذا العلم ثمناً. قيل: وما هو؟ قال: أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه. وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة. وقيل: أول العلم الصَّمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره. وقيل: علِّم علمك من يجهل وتعلَّم ممن يعلم ما تجهل؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت. وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورأيته أيضاً مرفوعاً: **«تَعَلَّمُوا العِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُدَارَسَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ مَنْ لا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ، وَهُوَ الأَنِيسُ فِي الوَحْدَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ الدِّينِ، وَالمُصَبِّرُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالوَزِيرُ عِنْدَ الأَخِلاَّءِ، وَالقَرِيبُ عِنْدَ الغُرَبَاءِ، وَمَنَارُ سَبِيلِ الجَنَّةِ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَاماً فَيَجْعَلُهُمْ فِي الخَيْرِ قَادَةً سَادَةً هُدَاةً، يُقْتَدَىٰ بِهِمْ، أَدِلَّةً فِي الخَيْرِ تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ وَتُرْمَقُ أَفْعَالُهُمْ وَتَرْغَبُ المَلائِكَةُ في خُلَّتِهِمْ وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، وَكُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُ حَتَّىٰ حِيتَانُ البَحْرِ وَهَوَامُّهُ وَسِبَاعُ البَرِّ وَأَنْعَامُهُ وَالسَّمَاءُ وَنُجُومُهَا»**[1]، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عزّ وجلّ وبه يعبد، وبه يوحد وبه يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء. نسأل الله تعالى حسن التوفيق.

في الشواهد العقلية:

اعلم: أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته، وما لم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لا يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيداً حكيم أم لا، وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها. والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة؛ فإذا تشارك شيئان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال: فَضَله، وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء، كما يقال: الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكرّ والفرّ وشدة العدو وحسن الصورة، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل؛ لأنّ تلك زيادة في الجسم ونقصان في المعنى وليست من الكمال في

---

(١) حديث معاذ: «**تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة..**» الحديث بطوله رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب، وابن عبدالبر وقال: ليس له إسناد قوي.

شيء، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه؛ فإذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات؛ بل شدّة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة؛ فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء، بل الكيِّس من الخيل خير من البليد فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة. واعلم: أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره، وإلى ما يطلب لذاته، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً، فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره، والمطلوب لغيره: الدراهم والدنانير فإنهما حجران لا منفعة لهما، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة. والذي يطلب لذاته: فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى. والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن، فإن سلامة الرجل مثلاً مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للمشي بها والتوصل إلى المآرب والحاجات.

وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يُتَوَصَّلُ إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته! وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى، هذا في الآخرة، وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها. هذه فضيلة العلم مطلقاً، ثم تختلف العلوم كما سيأتي بيانه وتتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها. وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل، وبيانه: أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عزّ وجلّ لمن اتخذها آلة ومنزلاً لمن يتخذها مستقراً ووطناً، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين. وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام:

أحدها: أصول لا قوام للعالم دونها، وهي أربعة: الزراعة، وهي للمطعم. والحياكة، وهي للملبس. والبناء، وهو للمسكن. والسياسة، وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها.

الثاني: ما هي مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها: كالحدادة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلاجة، والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها.

الثالث: ما هي متممة للأصول ومزينة، كالطحن والخبز للزراعة؛ وكالقصارة والخياطة للحياكة؛ وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملته فإنها ثلاثة أضرب أيضاً: إما أصول كالقلب والكبد والدماغ، وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين، وأشرف هذه الصناعات أصولها، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات، ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة

في استصلاح الخَلْقِ وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجّي في الدنيا والآخرة على أربع مراتب:

الأولى: وهي العليا: سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً في ظاهرهم وباطنهم.

والثانية: الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً، ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم.

والثالثة: العلماء بالله عزّ وجلّ وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء، وحكمهم على باطن الخاصة فقط، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع.

والرابعة: الوعّاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم؛ وإنما قلنا: إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور: إما بالالتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية؛ إذ تدرك الحكمة بالعقل، واللغة بالسمع، والعقل أشرف من السمع؛ وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة، وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة؛ إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة؛ وليس يخفى أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتي بيانه؛ إذ به تقبل أمانة الله، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه. وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة. وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عزّ وجلّ، فتعليم العلم من وجه: عبادة لله تعالى، ومن وجه خلافة لله تعالى، وهو من أجل خلافة الله؛ فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذي هو أخص صفاته، فهو كالخازن لأنفس خزائنه، ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه؛ فأي رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى، جعلنا الله منهم بكرمه؛ وصلى الله على كل عبد مصطفى.

* * *

الباب الثاني

في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ما هو فَرْضُ عَيْنٍ وما هو فرض كفاية، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة.

بيان العلم الذي هو فرض عين:

قال رسول الله ﷺ: «**طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ**» وقال أيضاً ﷺ: «**اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ**» واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم، فتفرّقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، ولا نطيل بنقل التفصيل، ولكن حاصله أن كل فريق نزّل الوجوب على العلم الذي هو بصدده، فقال

المتكلمون: هو علم الكلام؛ إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة، وقال المفسرون والمحدّثون: هو علم الكتاب والسنّة؛ إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها. وقال المتصوّفة: المراد به هذا العلم، فقال بعضهم: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عزّ وجلّ. وقال بعضهم: هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمّةِ الملك من لمّة الشيطان. وقال بعضهم: هو علم الباطن، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه. وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام، وهو قوله ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ...**»(١) إلى آخر الحديث، لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب.

والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره: وهو أن العلم كما قدّمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة. والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد، وفعل، وترك؛ فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السنّ ضحوة نهار مثلاً فأوّل واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وليس يجب عليه أن يحصّل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، بل يكفيه أن يصدّق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، وذلك قد يحصل بمجرّد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان؛ إذ اكتفى رسول الله ﷺ من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل(٢). فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما، وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عزّ وجلّ غير عاص له، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض، وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصوّر الانفكاك، وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد.

أما الفعل: فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدّد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم، فلا يبعد أن يقال: الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت. ويحتمل أن يقال: وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال، وهكذا في بقية الصلوات، فإن عاش إلى رمضان تجدّد بسببه وجوب تعلم الصوم: وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس؛ وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين؛ فإن تجدّد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة، ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام؛ فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وكذلك في سائر الأصناف، فإذا دخل في أشهر

الباب الثاني

(١) حديث: «**بُني الإسلام على خمس...**» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٢) حديث: «اكتفى رسول الله ﷺ من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل» مشهور في كتب السير والحديث؛ فعند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة.

الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور، ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي عل كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكاً حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة، فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله، فإن فعل ذلك نَفْلٌ فعلمه أيضاً نفل فلا يكون تعلمه فرض عين، وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه، وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين.

وأما التروك: فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابساً للحرير، أو جالساً في الغصب، أو ناظراً إلى غير ذي محرم، فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابساً له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه.

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك. فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلاً للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات فقد مات على الإسلام إجماعاً، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق، فإنه لو أُلقي إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العلم الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضاً ولكن في حق من يتصدى له، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المُهْلِكَاتْ ما يرى نفسه محتاجاً إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ**»(١). ولا ينفك عنها بشر.

وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات، وإزالتها فرض عين، ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها؛ فإن من لا يعرف الشر يقع فيه، والعلاج هو مقابلة السبب بضده، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب، وأكثر ما ذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناس كافة اشتغالاً بما لا يعني. ومما ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى: الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق، وهو من تتمة كلمتي الشهادة، فإنه بعد

---

(١) حديث: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع...**» الحديث. أخرجه البزار، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف.

التصديق بكونه عليه السلام رسولاً ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها: وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة، ومن عصاهما فله النار، فإذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا، وتحققت أن كل عبد هو في مجاري أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عبادته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر، ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً؛ فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرّف بالألف واللام في قوله ﷺ: «**طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِم**»؛ علم العمل الذي هو مشهور الوجوه على المسلمين لا غير؛ فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه، والله أعلم.

بيان العلم الذي هو فرض كفاية:

اعلم: أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية؛ وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة. فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة. أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما. وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحُجّام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعدّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله. وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه. وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات. وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سُخْفَ فيها، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

أما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان: فهي محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة فتنقسم إلى المحمودة والمذمومة، أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة أضرب:

الضرب الأول: الأصول: وهي أربعة: كتاب الله عزّ وجلّ، وسنّة رسول الله عليه السلام، وإجماع الأمة وآثار الصحابة، والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة، وكذا الأثر فإنه أيضاً يدل على السنة؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه، وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرائن، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم، وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه بهذا الفنّ.

الضرب الثاني: الفروع: وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام: «لا

يَقْضِي القَاضِي وَهُوَ غَضْبَانُ»[١] أنه لا يقضي إذا كان خائفاً أو جائعاً أو متألماً بمرض. وهذا على ضربين:

أحدهما: يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا.

والثاني: ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة، وما هو مرضي عند الله تعالى، وما هو مكروه وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب، أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها، وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب.

والضرب الثالث: المقدمات: وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو؛ فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة، ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضرورياً إذ كان رسول الله ﷺ أمياً[٢]. ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة، ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضرورياً.

الضرب الرابع: المتممات: وذلك في علم القرآن؛ فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير، فإن اعتماده أيضاً على النقل؛ إذ اللغة بمجردها لا تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض، وهو العلم الذي يسمى: أصول الفقه، ويتناول السنة أيضاً. وأما المتممات في الآثار والأخبار: فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة، والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوي، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند وكذلك ما يتعلق به؛ فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات.

فإن قلت: لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا؟ فاعلم: أن الله عزّ وجلّ أخرج آدم عليه السلام من التراب، وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر، ثم إلى العرض، ثم إلى الجنة أو النار؛ فهذا مبدؤهم وهذه غايتهم وهذه منازلهم، وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود؛ فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به؛ فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات؛ فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم

---

(١) حديث: **«لا يقضي القاضي وهو غضبان»** متفق عليه من حديث أبي بكرة.

(٢) حديث: «كان رسول ﷺ أمياً» أي: لا يحسن الكتابة: أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً: **«أنا محمد النبي الأمي»** وفيه ابن لهيعة، ولابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه من حديث ابن مسعود: **«قولوا: اللهم صلّ على محمد النبي الأمي»** وللبخاري من حديث البراء: **«وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب»**.

باستقامتهم أمورهم في الدنيا، ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا. والملك والدين توأمان؛ فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه. وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى؛ بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به، فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس من العرب في الطريق، ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء ثان، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع، وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة، ويدل على ذلك ما روي مسنداً: **«لا يفتي الناس إلا ثلاثة: أمير أو مأمور أو متكلف»**(١)، فالأمير هو الإمام وقد كانوا هم المفتون، والمأمور نائبه، والمتكلف غيرهما: وهو الذي يتقلد تلك العهدة من غير حاجة، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحترزون عن الفتوى، حتى كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه، وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة، وفي بعض الروايات بدل المتكلف: المرائي؛ فإن من تقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال.

فإن قلت: هذا إن استقام لك في أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة، ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام، فاعلم: أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام؛ فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر. أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان. وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال: **«هَلاَّ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟»**(٢). للذي قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذراً بأنه قال ذلك من خوف السيف، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة، ولكنه مشير على صاحب السيف، فإن السيف ممتد إلى رقبته واليد ممتدة إلى ماله، وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله ما دام له رقبة ومال، وذلك في الدنيا، ولذلك قال ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوها فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ»**(٣). جعل أثر ذلك في الدم والمال. وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها، وليس ذلك من الفقه، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الكلام والطب وكان خارجاً عن فنه. وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط، وإن كان غافلاً في جميع صلاته

---

(١) حديث: **«لا يفتي الناس إلا ثلاثة...»** الحديث. أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: **«لا يقضي على الناس»** وإسناده حسن.

(٢) حديث: **«هلا شققت عن قلبه»** أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد.

(٣) حديث: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله..»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وعمر، وابن عمر.

من أولها إلى آخرها مشغولاً بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة، كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع، ولكن الفقيه يفتي بالصحة أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عن القتل والتعزير، فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجاً عن فنه، وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته.

وحكي: أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطاً للزكاة، فحكي ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال: ذلك من فقهه. وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا، ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل جناية، ومثل هذا هو العلم الضار. وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين، ولكن الورع له أربع مراتب:

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة: وهو الذي يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر.

الثانية: ورع الصالحين: وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات. قال ﷺ: «**دَعْ ما يُرِيبُكَ إِلَىٰ ما لا يُرِيبُكَ**»(١). وقال ﷺ: «**الإِثْمُ حَزَّازُ القُلُوبِ**»(٢).

الثالثة: ورع المتقين: وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام. قال ﷺ: «**لا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ ما لا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مِمَّا بِهِ بَأْسٌ**»(٣)، وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة، والتورّع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدي إلى مقارفة المحظورات.

الرابعة: ورع الصدّيقين: وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عزّ وجلّ، وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضي إلى حرام، فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى: وهو ورع الشهود والقضاء وما يقدح في العدالة، والقيام بذلك لا ينفي الإثم في الآخرة، قال رسول الله ﷺ لوابصة: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ**»(٤) والفقيه لا يتكلم في حزازات القلوب وكيفية العمل بها، بل فيما يقدح في العدالة فقط، فإن جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة، فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام، وكما تدخل الحكمة في النحو والشعر. وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول: (إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة)، كيف وقد اتفقوا على

---

(١) حديث: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن حبان من حديث الحسن بن علي.

(٢) حديث: «**الإثم حزاز القلوب**» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود، ورواه العدني في مسنده موقوفاً عليه.

(٣) حديث: «**لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به..**» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي.

(٤) حديث: «**استفت قلبك وإن أفتوك...**» الحديث أخرجه أحمد من حديث وابصة.

أن الشرف في العلم العمل به، فكيف يظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف، ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون، وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات، والشرف هو تلك الأعمال.

فإن قلت: لِمَ سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه علم شرعي إذ هو مستفاد من النبوّة، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع.

والثاني: أنه لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض، وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون.

والثالث: أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة؛ لأنه نظر في أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب، فالمحمود من الأعمال يصدر من الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب، وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء في المزاج والأخلاط، وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب، فمهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة.

فإن قلت: فصِّل لي علم طريق الآخرة تفصيلاً يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله. فاعلم أنه قسمان: علم مكاشفة وعلم معاملة.

فالقسم الأوّل: علم المكاشفة: وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم: بدعة، أو كبر. وقيل: من كان محباً للدنيا أو مصراً على هوًى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئاً وينشد على قوله:

وارضَ لمن غاب عنك غيبته ... فذاك ذنبٌ عقابه فيه

وهو علم الصدّيقين والمقرّبين، أعني: علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه، وبصفاته الباقيات التامات، وبأفعاله، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوّة والنبيّ، ومعنى الوحي، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السموات والأرض، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤] ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. ومعنى لقاء الله عزّ وجلّ والنظر إلى وجهه الكريم، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة

الملائكة والنبيين، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرّي في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله؛ إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذي أعدّه الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء، وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عزّ وجلّ الاعتراف بالعجز عن معرفته، وبعضهم يدّعي أموراً عظيمة في المعرفة بالله عزّ وجلّ، وبعضهم يقول: حدّ معرفة الله عزّ وجلّ ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام: وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم، فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا، وإنما نعني بعلم طريق الآخرة: العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في جميع أحوالهم، فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذي به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعها، وبالعلم والتعليم، وهذه هي العلوم التي لا تُسَطَّر في الكتب ولا يتحدّث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة، وبطريق الأسرار، وهذا هو العلم الخفي الذي أراده ﷺ بقوله: **«إِنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يَجْهَلْهُ إلاَّ أَهْلُ الاغْتِرَارِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، فَلا تَحقرُوا عَالِماً آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِلْماً مِنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحقرْهُ إِذْ آتَاهُ إِيَّاهُ»**(١).

وأما القسم الثاني: وهو علم المعاملة، فهو علم أحوال القلب. أما ما يحمد منها فكالصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والرضا، والزهد، والتقوى، والقناعة، والسخاء، ومعرفة المنّة لله تعالى في جميع الأحوال، والإحسان، وحسن الظن، وحسن الخلق وحسن المعاشرة، والصدق، والإخلاص؛ فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب وثمرتها وعلامتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة. وأما ما يذم، فخوف الفقر، وسخط المقدور، والغلّ، والحقد، والحسد، والغش، وطلب العلو، وحب الثناء، وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع، والكبر، والرياء، والغضب، والأنفة، والعداوة، والبغضاء والطمع، والبخل، والرغبة، والبذخ، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، والفخر، والخيلاء، والتنافس، والمباهاة، والاستكبار عن الحق، والخوض فيما لا يعني، وحب كثرة الكلام، والصلف، والتزين للخلق، والمداهنة، والعجب، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس، وزوال الحزن من القلب، وخروج الخشية منه، وشدّة الانتصار للنفس إذا نالها الذل، وضعف الانتصار للحق، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر، والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى في سلب ما أعطى، والاتكال على الطاعة، والمكر، والخيانة، والمخادعة وطول الأمل، والقسوة، والفظاظة، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها، والأنس بالمخلوقين والوحشة

---

(١) حديث: «**إن من العلم كهيئة المكنون...**» الحديث. رواه أبو عبدالرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

لفراقهم، والجفاء، والطيش، والعجلة، وقلة الحياء، وقلة الرحمة. فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة. وأضدادها ـ وهي الأخلاق المحمودة ـ منبع الطاعات والقربات، فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة، فالمُعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أنّ المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا، فنظر الفقهاء في فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة. ولو سئل فقيه عن معنًى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة، ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين، وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين، بل قدّم عليه كثيراً من فروض الكفايات؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع؛ فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدّم به على الأقران والتسلط به على الأعداء؟ هيهات هيهات، قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء؛ فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يُسخِطُ الرّحمٰن ويضحك الشيطان، وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرّين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب: كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله: كيف يفعل في كذا وكذا؟ فيقال له: مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول: إنّ هذا وُفق لما أغفلناه. وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه، وكيف وقد قال رسول الله ﷺ لما قيل له: كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب ولا سنة؟ فقال ﷺ: **«سَلُوا الصَّالِحِينَ وَاجْعَلُوهُ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ»**(١) ولذلك قيل: علماء الظاهر زينة الأرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت.

وقال الجنيد رحمه الله: قال لي السري شيخي يوماً: إذا قمت من عندي فمن تجالس؟ قلت: المحاسبي، فقال: نعم خذ من علمه وأدبه، ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين، ثم لما وليت سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث. أشار إلى أنّ من حصَّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه.

فإن قلت: فلم لم تورد في أقسام العلوم: الكلام والفلسفة، وتبين أنهما مذمومان أو محمودان؟

---

(١) حديث: «قيل له كيف نفعل إذا جاء أمر لم نجده في كتاب الله ولا سنة رسوله؟...» الحديث. رواه الطبراني من حديث ابن عباس وفيه عبدالله بن كيسان ضعفه الجمهور.

فاعلم: أنّ حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، ونبغت جماعة لَفّقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً، فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذوناً فيه، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة، وذلك إلى حدّ محدود ـ سنذكره في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى ـ وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء:

أحدها: الهندسة والحساب؛ وهما مباحان كما سبق، ولا يمنع عنهما إلا من يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة؛ فإن أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع، فيصان الضعيف عنهما ـ لا لعينهما ـ كما يصان الصبيّ عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر، وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه، مع أن القوي لا يندب إلى مخالطتهم.

الثاني: المنطق؛ وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه، ووجه لحدّ وشروطه، وهما داخلان في علم الكلام.

الثالث: الإلهيات؛ وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته؛ وهو داخل في الكلام أيضاً، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم، بل انفردوا بمذاهب: بعضها كفر وبعضها بدعة، وكما أنّ الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين، وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة، فكذلك الفلاسفة.

والرابع: الطبيعيات، وبعضها مخالف للشرع والدين والحق، فهو جهل وليس بعلم حتى نورده في أقسام العلوم، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها، وهو شبيه بنظر الأطباء؛ إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح، وهم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرّك؛ ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه، وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها، فإذن الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيّلات المبتدعة، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الإنسان إلى استئجار البذرقة في طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق، ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج؛ فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضي الله عنهم؛ فليعلم المتكلم حدّه من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج، فإذا تجرّد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج، والمتكلم إذا تجرّد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلاً، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي شاركه فيها سائر العوام وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان، وإنما يتميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام، بل يكاد أن يكون الكلام حجاباً عليه ومانعاً عنه، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فإن قلت: فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة، كما أن حد البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذي به يكفف السلطان شر بعض أهل العدوان عن بعض، وهاتان رتبتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين، وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله تعالى، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين؟ فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم، فقد أجمع الذين عرضت بذكرهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها، وما فضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام، ولكن بشيء وقر في صدره[1]، كما شهد له سيد المرسلين ﷺ، فليكن حرصك في طلب ذلك السر فهو الجوهر النفيس والدر المكنون، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها، فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله، أثنى عليهم رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام، ولا نصَّب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلاً، ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل: اذهب إلى فلان الأمير الذي تقلد أمور الناس، وضعها في عنقه، إشارة إلى أن الفتيا في القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة، ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود: مات تسعة أعشار العلم، فقيل له: أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟ فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى، أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل، فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره، وهو الذي سد باب الكلام والجدل وضرب ضبيغاً بالدرة لما أورد عليه سؤالاً في تعارض آيتين في كتاب الله، وهجره وأمر الناس بهجره.

وأما قولك: إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون، فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شيء وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر؛ فلقد كانت شهرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذي وقر في قلبه، وكانت شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته، ويقصده التقرب إلى الله عزّ وجلّ في ولايته وعدله وشفقته على خلقه، وهو أمرٌ باطن في سره، فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب في الشهرة، فتكون الشهرة فيما هو المهلك، والفضل فيما هو سر لا يطّلع عليه أحد، فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء، وقد انقسموا، فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه وذبِّه عن سنة نبيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة، فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم، فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب، وليس كل عمل علماً، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثاباً على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضياً عند الله سبحانه ومثاباً، لا

(١) حديث: «ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا كثرة صيام. . .» الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبدالله المزني ولم أجده مرفوعاً.

من حيث إنه متكفل بعلم الدين، بل من حيث هو متقلّد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عزّ وجلّ بعلمه. وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة: علم مجرد وهو علم المكاشفة، وعمل مجرّد وهو كعدل السلطان مثلاً وضبطه للناس، ومركّب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعاً، فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة في حزب علماء الله، أو عمال الله تعالى، أو في حزبيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما، فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل:

خُـذْ مَـا تَـرَاهُ وَدَعْ شَـيْـئـاً سَـمِـعْـتَ بِـهِ ... فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

على أنا سننقل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم، وأنهم من أشد خصمائهم يوم القيامة، فإنهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى، وقد شوهد من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كما سيأتي بيانه في باب علامات علماء الآخرة، فإنهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه، بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ما صرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه، مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى والصوارف والدواعي متيقنة، ولا حاجة إلى ذكرها.

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعناً فيهم، بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلاً مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم، فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق ـ أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب ـ خمسة: الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وأبو حنيفة، وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى. وكل واحد منهم كان عابداً وزاهداً وعالماً بعلوم الآخرة وفقيهاً في مصالح الخلق في الدنيا ومريداً بفقهه وجه الله تعالى، فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة وهي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه، لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة، وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة، إن أريد بها الآخرة قلّ صلاحها للدنيا شمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الأئمة، وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدادين، فلنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع، فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة.

أما الإمام الشافعي رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابداً: ما روي أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً للعلم، وثلثاً للعبادة، وثلثاً للنوم. قال الربيع: كان الشافعي رحمه الله يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة. وكان البويطي أحد أصحابه يختم القرآن في رمضان في كل يوم مرة. وقال الحسن الكرابيسي: بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة آية، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين. وكأنما جمع له الرجاء والخوف معاً، فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها. وقال الشافعي رحمه الله: ما شبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة. فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع، ثم في جدّه في العبادة؛ إذ طرح الشبع لأجلها، ورأس التعبد تقليل الطعام. وقال الشافعي رحمه الله: ما حلفت بالله تعالى لا صادقاً ولا كاذباً قط. فانظر إلى حرمته وتوقيره لله تعالى، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه. وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى

أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي؟ فانظر في مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطاً على الفقهاء وأعصاها عن الضبط والقهر، وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب. وقال أحمد بن يحيى بن الوزير: خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوماً من سوق القناديل فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلينا وقال: نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي بها قائلها. وقال الشافعي رضي الله عنه: كتب حكيم إلى حكيم: قد أوتيت علماً فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وأما زهده رضي الله عنه: فقد قال الشافعي رحمه الله: من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب. وقال الحميدي: خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة، فانصرف إلى مكة بعشرة الآف درهم فضرب له خباء في موضع خارجاً من مكة فكان الناس يأتونه، فما برح من موضعه ذلك حتى فرقها كلها. وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامي مالاً كثيراً. وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين ديناراً. وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى، ورأس الزهد السخاء، لأن من أحب شيئاً أمسكه ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد. ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة: ما روي أنه روى سفيان بن عيينة حديثاً في الرقائق فغشي على الشافعي فقيل له: قد مات، فقال: إن مات فقد مات أفضل زمانه. وما روى عبدالله بن محمد البلوي قال: كنت أنا وعمر بن نباتة جلوساً نتذاكر العباد والزهاد فقال لي عمر: ما رأيت أورع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه؛ خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا وكان الحارث تلميذاً لصالح المري فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت، فقرأ هذه الآية عليه ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المُرسَلات: ٣٥، ٣٦] فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطراباً شديداً وخرَّ مغشياً عليه فلما أفاق جعل يقول: أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين، وذلت لك رقاب المشتاقين، إلهي هب لي جودك وجللني بسترك واعف عن تقصيري بكرم وجهك. قال: ثم مشى وانصرفنا، فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مرَّ بي رجل فقال لي: يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة، فالتفت فإذا أنا برجل يتبعه جماعة، فأسرعت في وضوئي وجعلت أقفو أثره، فالتفت إليَّ فقال: هل لك من حاجة؟ فقلت: نعم، تعلمني مما علمك الله شيئاً، فقال لي: اعلم أن من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرّت عيناه مما يراه من ثواب الله تعالى غداً، أفلا أزيدك؟ قلت: نعم، قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان: من أمر بالمعروف وائتمر، ونهى عن المنكر وانتهى، وحافظ على حدود الله تعالى، ألا أزيدك؟ قلت: بلى، فقال: كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين، ثم مضى، فسألت: من هذا؟ فقالوا: هو الشافعي. فانظر إلى سقوطه مغشياً عليه ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه! ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عزّ وجلّ فإنَّهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨] ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه، بل هو

من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار إذ حِكَم الأولين والآخرين مودعة فيهما.

وأما كونه عالماً بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه، روي أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة: الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء، فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب؟ وفي أي ثواب ترغب؟ ومن أي عقاب ترهب؟ وأي عافية تشكر؟ وأي بلاء تذكر؟ فإنك إذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال صغر في عينك عملك. فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب! وقال الشافعي رضي الله عنه: من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. وقال رحمه الله: من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره. وقال: ما من أحد إلا له محب ومبغض، فإذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عزّ وجلّ.

وروي: أن عبدالقاهر بن عبدالعزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع، والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه، وقال للشافعي يوماً: أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكن؛ ألا ترى أن الله عزّ وجلّ امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه مُلكاً، والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤] الآية. فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء، وكل ذلك من علوم الآخرة. وقيل للشافعي رحمه الله: متى يكون الرجل عالماً؟ قال: إذا تحقق في علم الدين فعلمه، وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالماً، فإنه قيل لجالينوس: إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمعة! فقال: إنما المقصود منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الإفراد قاتل، فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة.

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى؛ فيدل عليه ما روي عنه أنه قال: وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلي شيء منه. فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له، وكيف كان منزه القلب عن الالتفات إليه مجرد النية فيه لوجه الله تعالى. وقال الشافعي رضي الله عنه: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطىء. وقال: ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفق ويُسدد ويُعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه. وقال: ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته. فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط، ثم كيف خالفوه فيها أيضاً، ولهذا قال أبو ثور رحمه الله: ما رأيت ولا رأى الراؤون مثل الشافعي رحمه الله تعالى. وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى. فانظر إلى إنصاف الداعي وإلى درجة المدعو له وقِس به الأقران والأمثال من العلماء

في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء، ولكثرة دعائه له قال له ابنه: أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال أحمد: يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف. وكان أحمد رحمه الله يقول: ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منّة. وقال يحيى بن سعيد القطان: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عزّ وجلّ عليه من العلم ووفقه للسداد فيه. ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله فإن ذلك خارج عن الحصر، وأكثر هذه المناقب نقلناها من الكتاب الذي صنّفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين.

وأما الإمام مالك رضي الله عنه؛ فإنه كان أيضاً متحلياً بهذه الخصال الخمس، فإنه قيل له: ما تقول يا مالك في طلب العلم؟ فقال: حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه. وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغاً، حتى كان إذا أراد أن يحدّث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدّث، فقيل له في ذلك فقال: أحب أن أعظِّم حديث رسول الله ﷺ. وقال مالك: العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية. وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى.

وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم؛ فيدل عليه قوله: الجدل في الدين ليس بشيء. ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله: إني شهدت مالكاً وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري. ومن يرد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقرّ على نفسه بأنه لا يدري، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه: إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، وما أحد أمنّ عليّ من مالك. وروي: أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله، فروى على ملأ من الناس: ليس على مستكره طلاق، فضربه بالسياط، ولم يترك رواية الحديث. وقال مالك رحمه الله: ما كان رجل صادقاً في حديثه ولا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف.

وأما زهده في الدنيا؛ فيدل عليه ما روي أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له: هل لك من دار؟ فقال: لا ولكن أحدّثك: سمعت ربيعة بن أبي عبدالرحمٰن يقول: نسب المرء داره، وسأله الرشيد: هل لك دار؟ فقال: لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال: اشتر بها داراً فأخذها ولم ينفقها، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله: ينبغي أن تخرج معنا فإني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن، فقال له: أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل، لأن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدّثوا، فعند كل أهل مصر علم وقد قال ﷺ: **«اخْتِلافُ أُمّتِي رَحْمَةٌ»**[1] وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله ﷺ: **«المَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»**[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: **«المَدِينَةُ تَنْفِي**

---

(١) حديث: «**اختلاف أمتي رحمة**» ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقاً وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ: «**اختلاف أصحابي لكم رحمة**» وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: «**المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**» متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير.

خَبَثَهَا كَما يَنفِي الكِيرُ خَبثَ الحَدِيدِ»(١)، وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها. يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إليَّ فلا أؤثر الدنيا على مدينة رسول الله ﷺ، فهكذا كان زهد مالك في الدنيا. ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرّقها في وجوه الخير، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال؛ وإنما الزهد فراغ القلب عنه. ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد. ويدل على احتقاره للدنيا ما روي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان ـ ويقال: مصر ـ ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك رحمه الله: ما أحسنه فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبدالله، فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال: إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله ﷺ بحافر دابة. فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة، وإلى توقيره لتربة المدينة. ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاره للدنيا: ما روي أنه قال: دخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا أبا عبدالله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ، قال: فقلت: أعز الله مولانا الأمير، إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعززتموه عزَّ، وإن أنتم أذللتموه ذلَّ، والعلم يؤتى ولا يأتي، فقال: صدقت، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى؛ فلقد كان أيضاً عابداً زاهداً عارفاً بالله تعالى، خائفاً منه، مريداً وجه الله تعالى بعلمه، فأما كونه عابداً فيعرف بما روي عن ابن المبارك أنه قال: كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة. وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله. وروي أنه كان يحيي نصف الليل فمرّ يوماً في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشي فقال لآخر: هذا هو الذي يحيي الليل كله، فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله، وقال: أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس فيَّ من عبادته.

وأما زهده؛ فقد روي عن الربيع بن عاصم قال: أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه، فأراده أن يكون حاكماً على بيت المال فأبى، فضربه عشرين سوطاً. فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب! قال الحكم بن هشام الثقفي: حدثت بالشام حديثاً في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة، وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره، فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى. وروي أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك، فقال: أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففرّ منها. وروي عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة: قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم. قال: فما رضي أبو حنيفة، قال: فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال، فدخل عليه، فلم يكلمه، فقال بعض من حضر: ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة، أي: هذه عادته. فقال: ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه: إذا مت ودفنتموني فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له: خذ وديعتك التي أودعتها أبا حنيفة. قال ابنه: ففعلت ذلك، فقال الحسن: رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحاً على

---

(١) حديث: «المدينة تنفي خبثها..» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

دينه. وروي أنه دعي إلى ولاية القضاء فقال: أنا لا أصلح لهذا، فقيل له: لم؟ فقال: إن كنت صادقاً فما أصلح لها، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء. وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عزّ وجلّ؛ فيدل عليه شدّة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا، وقد قال ابن جريج: قد بلغني عن كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى. وقال شريك النخعي: كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس، فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطني والاشتغال بمهمات الدين، فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله، فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة.

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى؛ فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء، وسفيان أقل أتباعاً من أحمد، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر، وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن، فانظر الآن في غير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرّد لله عزّ وجلّ هل يثمرها مجرّد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان؟ أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه، وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا في دعواهم أم لا؟.

* * *

الباب الثالث

فيما يُعِدُّهُ العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم، وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها.

بيان علة ذم العلم المذموم:

لعلك تقول: العلم هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى، فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة:

الأول: أن يكون مؤدياً إلى ضرر إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق؛ إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين، وقد سُحِر[(١)] رسول الله ﷺ ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور، ومعرفة هذه الأسباب

الباب الثالث

(١) حديث: «سحر رسول الله ﷺ» متفق عليه من حديث عائشة.

من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر شر، فكان ذلك هو السبب في كونه علماً مذموماً، بل من اتبع ولياً من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه؛ بل وجب الكذب فيه؛ وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشيء على ما هو عليه، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر.

الثاني: أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته؛ إذ هو قسمان: قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب؛ إذ قال عزّ وجلّ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾ [الرَّحمٰن: ٥] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝﴾ [يس: ٣٩]. والثاني: الأحكام، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة لمجاري سنّة الله تعالى وعادته في خلقه ولكن قد ذمه الشرع. قال ﷺ: «**إِذَا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا**»[1]. وقال ﷺ: «**أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي بَعْدِي ثَلاثاً: حَيْفَ الأَئِمَّةِ، وَالإِيمَانَ بِالنُّجُومِ، وَالتَّكْذِيبَ بِالقَدَرِ**»[2]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية، ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتاً إليها، ويرى الخير والشر محذوراً أو مرجوّاً من جهتها، وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى، ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس، مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهي تنظر إلى سواد الخط يتجدّد، فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى في نظرها إلى مشاهدة الأصابع، ثم منها إلى اليد، ثم منها إلى الإرادة المحركة اليد، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة؛ فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة، مقطوع من الترقي إلى مسبب الأسباب. فهذا أحد أسباب النهي عن النجوم.

وثانيها: أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، فالحكم به حكم بجهل، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم، فلقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع على حقائقها، فإن اتفق أن قدّر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة، وإن لم يقدر أخطأ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرّك ظنه بذلك، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم، وربما يكون

---

(١) حديث: «**إذا ذكر القدر فأمسكوا**...» الحديث. رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

(٢) حديث: «**أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة**...» الحديث. أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبي محجن بإسناد ضعيف.

بخلافه، ومجرّد الغيم ليس كافياً في مجيء المطر وبقية الأسباب لا تدرى، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتماداً على ما ألفه من العادة في الرياح ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها، فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطىء، ولهذه العلة يمنع القول عن النجوم أيضاً.

وثالثها: أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة وذلك غاية الخسران؛ فقد مرَّ رسول الله ﷺ برجل والناس مجتمعون عليه فقال: **«ما هذا؟»** فقالوا: رجل علاَّمة. فقال: **«بماذا؟»** قالوا: بالشعر وأنساب العرب. فقال: **«علم لا ينفع وجهل لا يضر»**[1]. وقال ﷺ: **«إِنَّما العِلْمُ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ»**. فإذن: الخوض في النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض في جهالة من غير فائدة، فإن ما قدّر كائن، والاحتراز منه غير ممكن، بخلاف الطب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته بما يطلع عليه، وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة ولا خطر فيه.

السبب الثالث: الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم، فهو مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية؛ إذ يَطّلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء، فيجب كف الناس عن البحث عنها وردّهم إلى ما نطق به الشرع، ففي ذلك مقنع للموفق، فكم من شخص خاض في العلوم واستضر بها ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدين مما صار إليه، ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع، بل رُبَّ شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور، فلقد حكي: أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لا تلد، فجسّ الطبيب نبضها وقال: لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوماً، وقد دل النبض عليه، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنغص عليها عيشها، وأخرجت أموالها وفرقتها، وأوصت، وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت، فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له: لم تمت، فقال الطبيب: قد علمت ذلك فجامعها الآن فإنها تلد، فقال: كيف ذاك؟ قال: رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها، فعلمت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت، فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة. فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله ﷺ: **«نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ»**[2]. فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بحاثاً عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها، ولازم الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم، واقتصر على اتباع السنة، فالسلامة في الاتباع، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه، فأي ضرر في التفكُّر في العلم فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر، وكم من شيء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته.

---

(١) حديث: «مر رسول الله ﷺ برجل والناس مجتمعون فقال: **ما هذا؟** فقالوا: رجل علامة...» الحديث. أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبي هريرة وضعفه. وفي آخر الحديث: «**إنما العلم آية محكمة**...» إلى آخره. وهذه القطعة عند أبي داود، وابن ماجه من حديث عبدالله بن عمرو.

(٢) حديث: «**نعوذ بالله من علم لا ينفع**» أخرجه ابن عبدالبر من حديث جابر بسند حسن، وهو عند ابن ماجه بلفظ: «**تعوذوا**» وقد تقدم.

واعلم: أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعدها من لا يعرفها فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية، فلا تتحكم على سننهم بمعقولك فتهلك، فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضي عقله أن يطليه، حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه بِطَلْي الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن؟ فهكذا الأمر في طريق الآخرة، وفي دقائق سنن الشرع وآدابه، وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد. فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال، وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير. وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها؛ فالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة إليها، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لو رجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى وعن الأعمال المبعدة عنه، وكذا عن العقائد، وذلك مما لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبيّ ﷺ ويفهمك موارد إشاراته، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام؛ ولذلك قال ﷺ: **«إنَّ مِنَ العِلْمِ جَهْلاً وَإنَّ مِنَ القَوْلِ عِياً»**[(١)]، ومعلوم أن العلم لا يكون جهلاً ولكنه يؤثر تأثير الجهل في الإضرارَ. وقال أيضاً ﷺ: **«قَلِيلٌ مِنَ التَّوْفِيقِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ العِلْمِ»**[(٢)]، وقال عيسى عليه السلام: ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر وليس كلها بطيب، وما أكثر العلومَ وليس كلها بنافع!

بيان ما بدل من ألفاظ العلوم:

اعلم: أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة؛ فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم.

اللفظ الأول: الفقه، فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل؛ إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها. فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. ويدلك عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ

(١) حديث: «إن من العلم جهلاً...» الحديث. رواه أبو داود من حديث بريدة وفي إسناده من يجهل.

(٢) حديث: «قليل من التوفيق خير من كثير من العلم» لم أجد له أصلاً، وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء، وقال: «العقل» بدل «العلم»، ولم يخرجه ولده في مسنده.

وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة؛ فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسّي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى، ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنًى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديماً وحديثاً. قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣] الآية؛ فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه. فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم.

وقال ﷺ: «**عُلَمَاء حُكَمَاء فُقَهَاء**»[١] للذين وفدوا عليه. وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله: أي أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى؛ فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه، والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأقضية. وقال ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِالفَقِيهِ كُلِّ الفَقِيهِ؟**» قالوا: بلى، قال: «**مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَيِّسْهُم مِنْ رَوحِ اللَّهِ، وَلَمْ يَدَعِ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَىٰ ما سِوَاهُ**»[٢] ولما روى أنس بن مالك قوله ﷺ: «**لأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ مِنْ غَدْوَةٍ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ**»[٣] قال: فالتفت إليّ زيد الرقاشي وزياد النميري وقال: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سرداً، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعد نعم الله علينا تفقهاً، فسمى تدبر القرآن وعدّ النعم تفقهاً. قال ﷺ: «**لا يَفْقَهُ العَبْدُ كُلَّ الفِقْهِ حَتَّىٰ يَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَحَتَّىٰ يَرَىٰ لِلْقُرْآنِ وُجُوهاً كَثِيرَةً**»[٤] وروي أيضاً موقوفاً على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله: «ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتاً» وقد سأل فرقد السبخي الحسن عن الشيء فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك؛ فقال الحسن رحمه الله: ثكلتك أمك فُريقد، وهل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم، ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر. فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرّد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب، ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر، فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع.

---

(١) حديث: «**علماء حكماء فقهاء**» رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد، والخطيب في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «**ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه...**» الحديث. رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، وأبو بكر بن السني وابن عبدالبر من حديث علي. وقال ابن عبدالبر: أكثرهم يوقفونه عن علي.

(٣) حديث أنس: «**لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس...**» الحديث. رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٤) حديث: «**لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله...**» الحديث. أخرجه ابن عبدالبر من حديث شداد بن أوس وقال: لا يصح مرفوعاً.

اللفظ الثاني: العلم؛ وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى أنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله: لقد مات تسعة أعشار العلم. فعرّفه بالألف واللام ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال: هو العالم على الحقيقة، وهو الفحل في العلم، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعدّ من جملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم. وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته. وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية، فيعدّ بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره، وصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من أهل الطلب للعلم.

اللفظ الثالث: التوحيد؛ وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدّق فيها بتكثير الأسئلة، وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد، مع أنّ جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأوّل، بل كان يشتدّ منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة. فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أوّل السماع فلقد كان ذلك معلوماً للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به: وهو أن يرى الأمور كلها من الله عزّ وجلّ رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله، فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل. ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية الخلق، وترك الغضب عليهم، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى. وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه لما قيل له في مرضه: أنطلب لك طبيباً فقال: الطبيب أمرضني، وقول آخر لما مرض فقيل له: ماذا قال لك الطبيب في مرضك؟ فقال: قال لي: إني فعّال لما أريد. وسيأتي في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك.

والتوحيد جوهر نفيس، وله قشران: أحدهما أبعد عن اللب من الآخر، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية؛ **فالقشر الأوّل**: هو أن تقول بلسانك: لا إله إلا الله، وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرح به النصارى، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره. **والقشر الثاني**: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده، وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق، والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة. **والثالث**: وهو ـ اللباب ـ أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده. قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقال ﷺ: «**أَبْغَضُ إِلٰهٍ عُبِدَ فِي الأَرْضِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ هُوَ الهَوَىٰ**»(١). وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد

---

(١) حديث: «**أبغض إله عبد في الأرض عند الله هو الهوى**» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف.

الصنم وإنما يعبد هواه؛ إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى، ويخرج من هذا التوحيد التّسخّط على الخلق والالتفات إليهم، فإنّ من يرى الكل من الله عزّ وجلّ كيف يتسخط على غيره، فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصدّيقين، فانظر إلى ماذا حوّل وبأي قشر قنع منه، وكيف اتخذوا هذا معتصماً في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي، وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وهو أوّل كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص، فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات، والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إليه، تعالى عن أن تحدّه الجهات والأقطار. وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق في قوله وقلبه متردّد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب، ومتوجه بالكلية إليها، فمتى وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد، فالموحد هو الذي لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه، وهو امتثال قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وليس المراد به القول باللسان، فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى. وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب، وهو معدن التوحيد ومنبعه.

اللفظ الرابع: الذكر والتذكير، فقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]. وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة كقوله ﷺ: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا**». قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «**مَجَالِسُ الذِّكْرِ**»[١] وفي الحديث: «**إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الدُّنْيا سِوَىٰ مَلَائِكَةِ الخَلْقِ، إِذَا رَأَوْا مَجَالِسَ الذِّكْرِ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً: أَلاَ هَلُمُّوا إِلَىٰ بُغْيَتِكُمْ، فَيَأْتُونَهُمْ وَيَحُفُّونَ بِهِمْ وَيَسْتَمِعُونَ. أَلا فَاذْكُرُوا اللَّهَ وَذَكِّرُوا أَنْفُسَكُمْ**»[٢]، فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والشطح والطامات، أما القصص فهي بدعة، وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصّاص وقالوا: لم يكن ذلك في زمن رسول الله ﷺ[٣]، ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص. وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال: ما أخرجني إلا القاصّ ولولاه لما خرجت. وقال ضمرة: قلت لسفيان الثوري: نستقبل القاص بوجوهنا؟ فقال: ولّوا البدع ظهوركم. وقال ابن عون: دخلت على ابن سيرين فقال: ما كان اليوم من خبر؟ فقلت: نهى الأمير القصّاص أن يقصوا، فقال: وفق للصواب. ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصّاً يقصّ ويقول: حدّثنا الأعمش، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه، فقال القاصّ: يا شيخ، ألا تستحي فقال: لم؟ أنا في سُنة وأنت في كذب، أنا الأعمش وما حدّثتك. وقال أحمد: أكثر الناس كذباً القصّاص والسؤال. وأخرج علي رضي الله عنه القصاص من مسجد جامع

---

(١) حديث: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه.

(٢) حديث: «**إن لله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله: «**في الهواء**» والترمذي: «**سياحين في الأرض**» وقال مسلم: «**سيارة**».

(٣) حديث: «**لم تكن القصص في زمن رسول الله ﷺ**». رواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن.

البصرة، فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرجه إذ كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكّر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره، ويعرّف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها. فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الذي روي الحث عليه في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه حيث قال: «**حُضُور مَجْلِسِ ذِكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْـــمٍ أَفْضَلُ مِنْ عِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْـــمٍ أَفْضَلُ مِنْ شُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ**، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وِمِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ قَالَ: **وَهَلْ تَنفَعُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ إِلاَّ بِالْعِلْمِ**»[1]. وقال عطاء رحمه الله: مجلس ذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو، فقد اتخذ المزخرفونَ هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود، واشتغلوا بالقصص التي تتطرّق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها، فإن من القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر وإن كان صدقاً. ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضارّ، فمن هذا نهى عنه، ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله: ما أحوج الناس إلى قاص صادق، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاصّ صادقاً صحيح الرواية فلست أرى به بأساً، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتفكيرات متداركة بحسنات تغطي عليها، فإن العامي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته، ويمهد لنفسه عذراً فيه، ويحتج بأنه حكي كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر، فكلنا بصدد المعاصي، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني، ويفيده ذلك جرأة على الله تعالى من حيث لا يدري، فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار. ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق، فهذه من نزعات الشيطان، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ غنية عن الاختراع في الوعظ، كيف وقد كره تكلف السجع وعدّ ذلك من التصنع. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر ـ وقد سمعه يسجع ـ: هذا الذي يبغضك إلي، لا قضيت حاجتك أبداً حتى تتوب ـ وقد كان جاءه في حاجة ـ وقد قال ﷺ لعبدالله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات: «**إِيَّاكَ وَالسَّجْعَ يا ابْنَ رَوَاحَةَ**»[2] فكأن السجع المحذور المتكلف ما زاد على كلمتين؛ ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين: كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح ولا استهل، ومثل ذلك يطل، فقال النبي ﷺ «**أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الأَعْرَابِ**»[3]، وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم. قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٥] وقال تعالى:

---

(١) حديث أبي ذر: «**حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة**» تقدم في الباب الأول.

(٢) حديث: «**إياك والسجع يا ابن رواحة**» لم أجده هكذا، ولأحمد، وأبي يعلى، وابن السني، وأبي نعيم في كتاب الرياضة من حديث عائشة بإسناد صحيح أنها قالت للسائب: إياك والسجع فإن النبي ﷺ وأصحابه كانوا لا يسجعون، ولابن حبان: «**واجتنب السجع**»، وفي البخاري نحوه من قول ابن عباس.

(٣) حديث: «**أسجع كسجع الأعراب**» أخرجه مسلم من حديث المغيرة.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار: ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق، والمجلس لا يحوي إلا أجلاف العوام، وبواطنهم مشحونة بالشهوات، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة؛ فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها فتشتعل فيها نيران الشهوات، فيزعقون ويتواجدون. وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس. وقد قال ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً»[1] ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم، فإن أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولي على قلبه، كما سيأتي تحقيق ذلك في كتاب السماع، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلاً، فإن كثروا لم يتكلم، وما تم أهل مجلسه قط عشرين. وحضر جماعة باب دار ابن سالم، فقيل له: تكلم فقد حضر أصحابك، فقال: لا، ما هؤلاء أصحابي، إنما هم أصحاب المجلس، إن أصحابي هم الخواص. وأما الشطح: فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق، وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سبحاني سبحاني، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدال، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق، فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة، وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وإن سمع ذلك منه، فلعله كان يحكيه عن الله عزّ وجلّ في كلام يردده في نفسه، كما لو سمع وهو يقول: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية.

الصنف الثاني: من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره؛ لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه. وقد قال ﷺ: «ما

---

(١) حديث: «**إن من الشعر لحكمة**» أخرجه البخاري من حديث أبي بن كعب.

حَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوْماً بِحَدِيثٍ لا يَفْقَهُونَهُ إلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ»(١)، وقال ﷺ: «كَلِّمُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا ما يُنْكِرُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟»(٢)، وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قائله. فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره. وقال عيسى عليه السلام: لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء. وفي لفظ آخر: من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل، ومن منعها أهلها فقد ظلم؛ إن للحكمة حقاً وإن لها أهلاً، فأعط كل ذي حق حقه.

وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشَّرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات؛ فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم؛ فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى، وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب «المستظهر» المصنف في الرد على الباطنية. ومثال تأويل أهل الطامات: قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤] أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغي على كل إنسان. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]، أي: ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عزّ وجلّ فينبغي أن يلقيه. وفي قوله ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السُّحورِ بَرَكَةً»(٣) أراد به الاستغفار في الأسحار، وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء، وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً، كتنزيل فرعون على القلب، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له، وكأبي جهل وأبي لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحسّ حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه، وكذا حمل السحور على الاستغفار، فإنه كان ﷺ يتناول الطعام ويقول: «تَسَحَّرُوا»(٤) و«هَلُمُّوا إِلَىٰ الغِذَاءِ المُبَارَكِ»(٥). فهذه أمور يُدْرَك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً، وبعضها يعلم بغالب الظن، وذلك في أمور لا يتعلق بها الإحساس، فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن

---

(١) حديث: «ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهم» رواه العقيلي في الضعفاء، وابن السني، وأبو نعيم في الرياء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف، ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفاً على ابن مسعود.

(٢) حديث: «كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون...» الحديث. رواه البخاري موقوفاً على علي، ورفعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم.

(٣) حديث: «تسحروا فإن في السحور بركة» متفق عليه من حديث أنس.

(٤) حديث: «تناول الطعام في السحور» رواه البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ وزيد بن ثابت تسحرا.

(٥) حديث: «هلموا إلى الغذاء المبارك» رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان من حديث العرباض بن سارية وضعفه ابن القطان.

الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم، فلا يظهر لقوله ﷺ: «مَنْ فَسَّرَ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١)، معنى إلا هذا النمط: وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه، فيستجر شهادة القرآن إليه، ويحمله عليه، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية، ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة، ونعلم أن جميعها غير مسموع من النبي ﷺ فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر، ولهذا قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»(٢). ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله ﷺ، لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع، كمن يضع في كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبي ﷺ فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ متعمّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(٣) بل الشر في تأويل هذه الألفاظ أطمُّ وأعظم؛ لأنها مبطلة للثقة بالألفاظ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية، فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامي، فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيماً، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ.

اللفظ الخامس: وهو الحكمة، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجِّم حتى على الذي يدحرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق. والحكمة هي التي أثنى الله عزّ وجلّ عليها فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] وقال ﷺ: «كَلِمَةٌ مِنَ الحِكْمَةِ يَتَعَلَّمُها الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيهَا»(٤)، فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه، وإلى ماذا نقل، وقِسْ به بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء، فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين؛ إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن شر الخلق أبى وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ» حتى كرّروا عليه فقال: «هُمْ عُلَمَاءُ السُّوءِ»(٥)، فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما

---

(١) حديث: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه، وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد، وعند النسائي في الكبرى.

(٢) حديث: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» قاله لابن عباس رواه البخاري من حديث ابن عباس دون قوله: «وعلمه التأويل» وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» متفق عليه من حديث أبي هريرة وعلي وأنس.

(٤) حديث: «كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا» تقدم بنحوه.

(٥) حديث: لما سئل عن شر الخلق أبى وقال: «اللهم اغفر» الحديث. ورواه الدارمي بنحوه من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً وهو ضعيف، ورواه البزار في مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف.

أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث، وقد صح قول رسول الله ﷺ: «**بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ**»، فقيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ ما أَفْسَدَهُ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي وَالَّذِينَ يُحْيُونَ ما أَمَاتُوهُ مِنْ سُنَّتِي**»(١) وفي آخر: «**هُم المُتَمَسِّكُونَ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ اليَوْمَ**»(٢) وفي حديث آخر: «**الغُرَبَاءُ نَاسٌ قَلِيلٌ صَالِحُونَ بَيْنَ نَاسٍ كَثِيرٍ، مَنْ يُبْغِضُهُمْ فِي الخَلْقِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُحِبُّهُمْ**»(٣) وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يُمْقَتُ ذاكرها، ولذلك قال الثوري رحمه الله: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه يخلط، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه.

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة:

اعلم: أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام: قسم هو مذموم قليله وكثيره، وقسم هو محمود قليله وكثيره، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه، وهو مثل أحوال البدن، فإن منها ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال، ومنها ما يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق، ومنها ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فإنّ التبذير لا يحمد فيه وهو بذل، وكالشجاعة فإن التهور لا يحمد فيها، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم.

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا؛ إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السّحر والطلسمات والنجوم، فبعضه لا فائدة فيه أصلاً، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة، وإضاعة النفيس مذمومة. ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر في الدنيا، فإنّ ذلك لا يعتدّ به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه.

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء: فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسّر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوّتهم وتفاوت تقدير الله تعالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطّر في الكتب، ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة، كما سيأتي علامتهم، هذا في أول الأمر ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد، فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها.

وأما العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص: فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل، واقتصاداً وهو الوسط، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مردّ له إلى آخر العمر، فكن أحد رجلين: إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ

---

(١) حديث: «**بدأ الإسلام غريباً...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً، وهو بتمامه عند الترمذي من حديث عمرو بن عوف وحسنه.

(٢) حديث: «**هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم**» يقوله في وصف الغرباء، لم أر له أصلاً.

(٣) حديث: «**الغرباء ناس قليلٌ صالحون**» أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو.

من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يُصلِح غيرك قبل إصلاح نفسك، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم، وإنما الأهم الذي أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم؛ إذ لا ينفك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات، وإهمالها من الواجبات، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدماميل والتهاون بإخراج المادة بالفصد والإسهال، وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن، وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب، وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرّة، فلا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد وتتضاعف به الأمراض. فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة وهارباً من الهلاك الأبدي فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلناه في ربع المهلكات، ثم ينجرّ بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربع المنجيات لا محالة، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود، والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك، فلا تشتغل بفروض الكفاية لا سيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به.

وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدناً لك وعادة متيسرة فيك - وما أبعد ذلك منك - فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها، فابتدىء بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسول الله ﷺ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السُّنة، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف، ثم بأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت؛ ولا تستغرق عمرك في فنٍ واحدٍ منها طلباً للاستقصاء؛ فإن العلم كثير والعمر قصير، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه؛ فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه، واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء، ونحن نشير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها، فالاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه علي الواحدي النيسابوري وهو الوجيز؛ والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنَّفه من الوسيط فيه، وما وراء ذلك استقصاء مستغنًى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر.

وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث.

وأما حفظ أسامي الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك، ولك أن تعول على كتبهم، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلاً تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة؛ وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة. وأما

الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي، والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم.

وأما الفقه: فالاقتصار فيه على ما يحويه «مختصر المزني» رحمه الله وهو الذي رتبناه في خلاصة المختصر، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذي أوردناه في «الوسيط» من المذهب، والاستقصاء ما أوردناه في «البسيط» إلى ما وراء ذلك من المطولات.

وأما الكلام: فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير؛ وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقتها، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصار منه بمعتقد مختصر؛ وهو القدر الذي أوردناه في كتاب «قواعد العقائد» من جملة هذا الكتاب، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذي أوردناه في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد»، ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي، وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً فقلّما ينفع معه الكلام؛ فإنك إن أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره جواباً ما وهو عاجز عنه، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة. وأما العامي إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء، فإذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم؛ إذ التعصب سببٌ يرسّخ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء؛ فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه، ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة ـ لا في معرض التعصب والتحقير ـ لنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم، وسمّوه ذبّاً عن الدين ونضالاً عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس.

وأما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يُعهد مثلها في السلف فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتها. وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك، فعلى الخبير سقطت. فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زماناً، وزاد فيه على الأوّلين تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه. فلا يغرّنّك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف، فإن علل المذهب مذكورة في المذهب، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأوّلون ولا الصحابة وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم، بل هي مع أنها غير مفيدة في علم المذهب ضارّة مفسدة لذوق الفقه، فإن الذي يشهد له حدس المفتي إذا صح ذوقه في الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل في أكثر الأمر، فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعلل بأنه يطلب علل المذهب، وقد ينقضي عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب، فكن من شياطين الجن في أمان، واحترز من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والإضلال، وبالجملة فالمرضيّ عند العقلاء أن تقدّر نفسك في العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت

والعرض والحساب والجنة والنار، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك، ودع عنك ما سواه والسلام.

وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء في المنام فقال له: ما خبر تلك العلوم التي كنت تجادل فيها وتناظر عليها؟ فبسط يده ونفخ فيها وقال: طاحت كلها هباء منثوراً وما انتفعت إلا بركعتين خلصتا لي في جوف الليل. وفي الحديث: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ**»[1] ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] وفي الحديث في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] الآية: «**هُمْ أَهْلُ الجَدَلِ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]»[2] وقال بعض السلف: يكون في آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ويفتح لهم باب الجدل. وفي بعض الأخبار: إنكم في زمان أُلهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل[3]، وفي الخبر المشهور: «**أَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ الأَلَدُّ الخَصِمُ**»[4] وفي الخبر: «**مَا أُوتِيَ قَوْمٌ المَنْطِقَ إِلاَّ مُنِعُوا العَمَلَ**»[5]. والله أعلم.

* * *

الباب الرابع

في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم: أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرّغ العلماء لعلم الآخرة وتجرّدوا لها، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم، فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام، اضطرّوا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمرّ على الطّراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا؛ فاضطرّ الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال

الباب الرابع

(١) حديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث أبي أمامة. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) حديث: «هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله: فاحذرهم» متفق عليه من حديث عائشة.

(٣) حديث: «إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل» لم أجده.

(٤) حديث: «أبغض الخلق إلى الله الألد الخصم» متفق عليه من حديث عائشة.

(٥) حديث: «ما أوتي قوم المنطق إلا منعوا العمل» لم أجد له أصلاً.

الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم، فاشرأبوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة؛ فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة، وتعرّفوا إليهم، وطلبوا الولايات والصلات منهم، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال، فأصبح الفقهاء ـ بعد أن كانوا مطلوبين ـ طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين، أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله. وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدّة الحاجة إليها في الولايات والحكومات، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها، فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام، فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذبّ عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين، إشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم. ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه؛ لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص، فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبو فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرّون عليه إلى الآن، ولسنا ندري ما الذي يُحْدِثُ الله فيما بعدنا من الأعصار، فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم، ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرّب إلى رب العالمين.

بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف:

اعلم: أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر، هكذا كان عادة الصحابة رضي الله عنهم في مشاوراتهم كتشاورهم في مسألة الجدّ والأخوة وحدّ شرب الخمر ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ، كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفاً من عمر رضي الله عنه. وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعي وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى. ويطلعك على هذا التلبيس ما أذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان:

الأول: أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب. ومثاله: من يترك الصلاة في نفسه

ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول: غرضي أستر عورة من يصلي عرياناً ولا يجد ثوباً؛ فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التي عنها البحث في الخلاف ممكن. والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هي فرض عين بالاتفاق، ومن توجه عليه رد وديعة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به، فلا يكفي في كون الشخص مطيعاً كون فعله من جنس الطاعات ما لم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب.

الثاني: أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله، وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة، وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس، وإذا قيل له: في البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية، فيقول: هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية. فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهملة لا قائم بها، فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب؛ إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعوّل فيه على قول الطبيب شرعاً ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات، وربما يكون المناظر في مجلس مناظرته مشاهداً للحرير ملبوساً ومفروشاً، وهو ساكت ويناظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات. وقد روى أنس رضي الله عنه أنه قيل: يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ فقال عليه السلام: «**إِذَا ظَهَرَتِ المُدَاهَنَةُ فِي خِيَارِكُمْ وَالفَاحِشَةُ فِي شِرَارِكُمْ وَتَحَوَّلَ المُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ وَالفِقْهُ فِي أَرَاذِلِكُمْ**»(١).

الثالث: أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما، حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك ما يوافق رأي الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم والأئمة. فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتي فيما يسأل عنه ناقلاً عن مذهب صاحبه، فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه، فأي فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره؟ وما يشكل عليه يلزمه أن يقول: لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فإني لست مستقلاً بالاجتهاد في أصل الشرع، ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه، فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث ميلاً إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتاً.

الرابع: أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً، فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض، ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها، بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما

---

(١) حديث أنس: «قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..» الحديث. أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن.

كان الأمر، وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون: هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات، فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الإخبار! أو لأنها ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام. والمقصود في الحقّ أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول.

الخامس: أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين، فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق، وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقاً كان أو مبطلاً، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدّة طويلة فلا يكلمه، وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم مجمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزعاً حتى يكون هو المتخصص بالكلام.

السادس: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرّق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به؛ فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم، حتى أن امرأة ردّت على عمر رضي الله عنه ونبهته على الحق وهو في خطبته على مَلإٍ من الناس فقال: أصابت امرأة وأخطأ رجل. وسأل رجل علياً رضي الله عنه فأجابه فقال: ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا فقال: أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذي علم عليم. واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم، وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقُتل فقال: هو في الجنة ـ وكان أمير الكوفة ـ فقام ابن مسعود فقال: أعده على الأمير فلعله لم يفهم؟ فأعادوا عليه فأعاد الجواب، فقال ابن مسعود: وأنا أقول: إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة. فقال أبو موسى: الحق ما قال. وهكذا يكون إنصاف طالب الحق. ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال: لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد. فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسودّ وجه أحدهم إذا اتضح الحق عل لسان خصمه وكيف يخجل به، وكيف يجتهد في مجاحدته بأقصى قدرته وكيف يذم من أفحمه طول عمره، ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق!

السابع: أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال، فهكذا كانت مناظرات السلف، ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه كقوله: هذا لا يلزمني ذكره، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك؛ فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله. وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المدافعات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصلٍ بعلة يظنها فيقال له: ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة؟ فيقول: هذا ما ظهر لي؛ فإن ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه، فيصر المعترض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لا يلزمني ذكرها، ويقول المستدل: عليك إيراد ما تدّعيه وراء هذا، ويصر المعترض على أنه لا يلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله، ولا يعرف هذا المسكين أن قوله: إني أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمني، كذب على الشرع، فإنه إن كان لا يعرف معناه

وإنما يدعيه ليُعْجِزَ خصمه فهو فاسق كذّاب عصى الله تعالى وتعرّض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها، وإن كان صادقاً فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع، وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه، فإن كان قوياً رجع إليه، وإن كان ضعيفاً أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم. ولا خلاف أن إظهار ما عُلِمَ من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم فمعنى قوله لا يلزمني: أي في شرع الجدل الذي أبدعناه بحكم التشهي والرغبة في طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمني وإلا فهو لازم بالشرع، فإنه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق. فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضي الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهي هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه.

الثامن: أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم. والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفاً من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم طمعاً في ترويج الباطل عليهم. ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة، ولكن في هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر لله ومن يناظر لعلة. واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستولٍ على قلبه وهو أعدى عدوّ له ولا يزال يدعوه إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره في المسائل التي المجتهد فيها مصيب، أو مساهم للمصيب في الأجر فهو ضحكة للشيطان وعبرة للمخلصين، ولذلك شمَّت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التي نعدّدها ونذكر تفاصيلها، فنسأل الله حسن العون والتوفيق.

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق:

اعلم: وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدّق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدوّ الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة، وكما أن الذي خُيِّرَ بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره، فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة. وهذه الأخلاق ستأتي أدلة مذمتها من الأخبار والآيات في ربع المهلكات، ولكنا نشير الآن إلى مجامع ما تهيجه المناظرة.

فمنها: الحسد، وقد قال رسول الله ﷺ: «**الْحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ**»[(١)]، ولا ينفك المناظر عن الحسد فإنه تارة يغلب وتارة يُغلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره. فما دام يبقى في الدنيا واحد يذكره بقوّة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً، فلا بدّ أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه. والحسد نارٌ محرقةٌ فمن بلي به فهو

(١) حديث: «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة، وقال البخاري: لا يصح. وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن.

في العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأعظم؛ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة.

ومنها: التكبر والترفع على الناس، فقد قال ﷺ: «**مَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللَّهُ**»(١)، وقال ﷺ حكاية عن الله تعالى: «**العَظَمَةُ إِزَارِي وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ**»(٢)، ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر، والبعد منها والتقدّم في الدخول عند مضايق الطرق، وربما يتعلل الغبي والمكّار الخدّاع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم، «**وأن المؤمن منهيٌ عن الإذلال لنفسه**»(٣)، فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما.

ومنها: الحقد، فلا يكاد المناظر يخلو عنه. وقد قال ﷺ: «**المُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودٍ**»(٤)، وورد في ذم الحقد ما لا يخفى. ولا ترى مناظراً يقدر على أن لا يضمر حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء، بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق ويترشح منه إلى الظاهر لا محالة في غالب الأمر. وكيف ينفك عن هذا ولا يتصوّر اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه، انغرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر.

ومنها: الغيبة، وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فإنه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه، فيحكي عنه لا محالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة.

فأما الكذب، فبهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرّض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغي إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة.

ومنها: تزكية النفس، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوّة والغلبة والتقدم على الأقران ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله: لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور، وأنا المتفنن في العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدّح به تارة

---

(١) حديث: «**من تكبر وضعه الله**...» الحديث أخرجه الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح وقال: غريب من حديث الثوري. ولابن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن.

(٢) حديث: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**...» الحديث. أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي هريرة. وهو عند مسلم بلفظ: «**الكبرياء رداؤه**» من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

(٣) حديث: «**نهي المؤمن عن إذلال نفسه**» أخرجه الترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث حذيفة: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه**».

(٤) حديث: «**المؤمن ليس بحقود**» لم أقف له على أصل.

على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه. ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعاً وعقلاً.

ومنها: التجسس وتتبع عورات الناس، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحُجرَات: ١٢] والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده، فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به إن كان متماسكاً، ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحاً بالسفاهة والاستهزاء، كما حكي عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم.

ومنها: الفرح لمساءة الناس والغم لمسارّهم، ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسره لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل، ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر، فكما أنّ إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفرّ لونها، فكذا ترى المناظر إذا رأى مناظراً تغير لونه واضطرب عليه فِكْرُهُ فكأنه يشاهد شيطاناً مارداً أو سبعاً ضارياً، فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم في السرّاء والضرّاء حتى قال الشافعي رضي الله عنه: العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل؟ فلا أدري كيف يدعي الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة! فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة؟ هيهات هيهات، وناهيك بالشر شراً أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين.

ومنها: النفاق، فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه، فإنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياعهم ولا يجدون بدّاً من التودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم، ويعلم ذلك المخاطِب والمخاطَب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور، فإنهم متوَدِّدون بالألسنة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منهم؛ فقد قال ﷺ: «**إِذَا تَعَلَّمَ النَّاسُ العِلْمَ وَتَرَكُوا العَمَلَ وَتَحَابُّوا بِالأَلْسُنِ وَتَبَاغَضُوا بِالقُلُوبِ وَتَقَاطَعُوا فِي الأَرْحَامِ لَعَنَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذٰلِكَ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ**»(١). رواه الحسن، وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة.

ومنها: الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه، حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق، ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية، فلا يسمع كلاماً إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه، حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع، فيضرب البعض منها بالبعض، والمراء في مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله ﷺ إلى ترك المراء بالحق على

---

(١) حديث: «**إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب...**» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث سلمان بإسناد ضعيف.

الباطل. قال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي أَعْلَىٰ الجَنَّةِ»[1]. وقد سوّى الله تعالى بين من افترى على الله كذباً وبين من كذب بالحق فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العَنكبوت: ٦٨] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزُّمَر: ٣٢].

ومنها: الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم. والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر ـ كما سيأتي في كتاب الرياء ـ والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه؛ فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدي إلى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب والأخذ باللحى وسب الوالدين وشتم الأستاذين والقذف الصريح، فإن أولئك ليسوا معدودين في زمرة الناس المعتبرين، وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال العشر، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة. ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل: الأنفة، والغضب، والبغضاء، والطمع، وحب طلب المال والجاه للتمكن من الغلبة، والمباهاة، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء، والخوض فيما لا يعني، وكثرة الكلام، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب، واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدري المصلي منهم في صلاته ما صلى وما الذي يقرأ ومن الذي يناجيه؟ ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة: من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى. والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتّى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها.

واعلم: أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة، وهي لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدّم على الأقران. وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة، فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد، ولذلك قال ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لا يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ» فلقد ضره مع أنه لم ينفعه؛ وليته نجا منه رأساً برأس، وهيهات هيهات فخطر العلم عظيم، وطالبه طالب الملك المؤبد، والنعيم السرمد، فلا ينفك عن الملك أو الهلك؛ وهو كطالب الملك في الدنيا، فإن لم يتفق له الإصابة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال بل لا بدّ من لزوم أفضح الأحوال.

فإن قلت: في الرخصة في المُنَاظَرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم، فقد صدقت فيما ذكرته من وجه، ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب

---

(١) حديث: «من ترك المراء وهو مبطل...» الحديث. أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف. قال الترمذي: حسن.

بالعصافير ما رغب الصبيان في المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة، ولولا حب الرياسة لاندرس العلم. ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج، بل هو من الذين قال ﷺ فيهم: **«إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هٰذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لا خَلاَقَ لَهُمْ»**(١)، وقال ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هٰذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ»**(٢). فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا، وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف، ولكنه يضمر قصد الجاه، فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاح غيره في هلاكه، فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها. فالعلماء ثلاثة: إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها، وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه، فانظر من أي الأقسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له؟ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل، وسيأتيك في كتاب الرياء بل في جميع ربع المهلكات ما ينفي عنك الريبة فيه إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب الخامس

في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل:

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف. قال ﷺ: **«بُنِيَ الدِّينُ عَلَىٰ النَّظَافَةِ»**(٣) وهو كذلك باطناً وظاهراً قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبَة: ٢٨] تنبيهاً للعقول على أنَّ الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر، أي باطنه ملطخ بالخبائث. والنجاسة عبارة عما يُجْتَنَبُ ويُطلب البعد منه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب، فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل. ولذلك قال ﷺ: **«لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ»**(٤)، والقلب بيت

---

(١) حديث: **«إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»** أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح.

(٢) حديث: **«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»** متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الباب الخامس:

في آداب المتعلم والمعلم

(٣) حديث: **«بني الدين على النظافة»** لم أجده هكذا. وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: **«تنظفوا فإن الإسلام نظيف»** وللطبراني في الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود: **«النظافة تدعو إلى الإيمان»**.

(٤) حديث: **«لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب»** متفق عليه من حديث أبي طلحة الأنصاري.

هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المُقدسون المُطهرون المُبرؤون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيباً ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيباً طاهراً. ولست أقول المراد بلفظ «البيت» هو القلب و«بالكلب» هو الغضب والصفات المذمومة، ولكني أقول هو تنبيه عليه، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر، ففارق الباطنية بهذه الدقيقة، فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار؛ إذ معنى الاعتبار أن يَعْبُر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبه لكونه أيضاً عرضة للمصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب، فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة، فاعبر أنت أيضاً من البيت الذي هو بناء الخلق إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى، ومن الكلب الذي ذم لصفته ـ لا لصورته ـ وهو ما فيه من سبعية ونجاسة إلى الروح الكلبية وهي السبعية.

واعلم: أن القلب المشحون بالغضب والشَّرَهِ إلى الدنيا والتكلّب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة. فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور، والصور في هذا العالم غالبة على المعاني والمعاني باطنة فيها، وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني. فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية: «فيحشر الممزق لأعراض الناس كلباً ضارياً، والشره إلى أموالهم ذئباً عادياً، والمتكبر عليهم في صورة نمر، وطالب الرئاسة في صورة أسد»[(١)]. وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوي البصائر والأبصار.

فإن قلت: كم من طالبِ رديء الأخلاق حصّل العلوم؟ فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة، وهل رأيت من يتناول سماً مع علمه بكونه سماً قاتلاً؟ إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب. وقال بعضهم: إنما العلم الخشية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم. ولذلك قال بعض المحققين: معنى قولهم: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، أن العلم أبى وامتنع علينا، فلم تنكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه.

فإن قلت: إني أرى جماعة من العلماء، الفقهاء المحققين برزوا في الفروع والأصول وعُدّوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها؟ فيقال: إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علماً، وإنما غناؤه من حيث كونه عملاً لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى، وقد سبقت إلى هذا إشارة، وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى.

---

(١) حديث: «حُشِرَ المُمَزق لأعراض الناس في صورة كلب ضار. . .» الحديث. أخرجه الثعلبي في التفسير من حديث البراء بسند ضعيف.

الوظيفة الثانية: أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإنّ العلائق شاغلة وصارفة ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرّق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع.

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمّر على معلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته. قال الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ (١). وقال ﷺ: «**لَيسَ مِنَ أَخْلاقِ المُؤمِنِ التَّمَلُّقُ إلاَّ فِي طَلَبِ العِلْم**»(٢)، فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة، فإن العلم سبب النجاة والسعادة، ومن يطلب مهرباً من سبع ضارٍ يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهّال بالله تعالى أشدّ من ضراوة كل سبع، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنّة لمن ساقها إليه كائناً من كان؛ فلذلك قيل:

العلمُ حربٌ للفتى المتعالي ... كالسيل حرب للمكان العالي

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧]، ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلاً للعلم فهماً، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقي إليه بحسن الإصغاء والضّراعة والشكر والفرح وقبول المنة. فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً فتشربت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله. ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه؛ إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها، فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لا خبرة له به، وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨]، ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما. وبالجملة: كل متعلم استبقى لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران.

---

(١) حديث: «أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت» وقوله: «هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء» أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا: «هكذا نفعل» قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم.

(٢) حديث: «**ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا في طلب العلم**» أخرجه ابن عدي من حديث معاذ، وأبي أمامة بإسنادين ضعيفين.

فإن قلت: فقد قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فالسؤال مأمور به؟ فاعلم: أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال؛ أي دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف. وما لم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراقي الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه. وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنّته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سراً ولا تغتابن أحداً عنده ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.

الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه. وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأي واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم، ومن هذا حاله يعد في عمى الحيرة وتيه الجهل، ومنع المبتدىء عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار، وندب القوي إلى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوي على مخالطة الكفار؛ ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له. ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عن المساهلات جائز، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء. وفي ذلك قال بعضهم: من رآني في البداية صار صديقاً، ومن رآني في النهاية صار زنديقاً؛ إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض؛ فيتراءى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال، وهيهات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام، وتشبه الضعيف بالقوي فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهي اعتذار من يلقي نجاسة يسيرة في كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى في البحر، والبحر أعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز، ولا يدري المسكين أن البحر بقوّته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته، والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته، ولمثل هذا جُوِّز للنبي ﷺ ما لم يجوز لغيره حتى أبيح له تسع نسوة[1]. إذ كان له من القوّة ما يتعدّى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما بينهن من الضرار إليه حتى ينجر إلى معصية الله تعالى في طلبه رضاهن. فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين.

الوظيفة الخامسة: أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطّلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحّر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الانفكاك

---

(١) حديث: «أبيح له ﷺ تسع نسوة» وهو معروف. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: «كان عند النبي ﷺ تسع...» الحديث.

عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]. قال الشاعر:

ومَــــنْ يَــــكُ ذا فــــمٍ مُــــرٌّ مــــريــــضٍ   يــــجــــد مــــرّاً بــــه الــــمــــاء الــــزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة، ولها منازل مرتَّبة في القرب والبعد من المقصود، والقوّام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى.

الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيءٍ أحسنه ويكتفي منه بشمه ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة، أعني قسمي المعاملة والمكاشفة، فغاية المعاملة المكاشفة، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى، ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة أو تلقفاً، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح[1]، كما شهد له به سيد البشر ﷺ، فما عندي أن ما يعتقده العامي ويرتبه المتكلم الذي لا يزيد على العامي إلا في صنعة الكلام، ولأجله سميت صناعته كلاماً، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسِّر الذي وقر في صدره. والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم يزدري ما يسمعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول؛ فينبغي أن تتئد في هذا فعنده ضيعت رأس المال، فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب.

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عزّ وجلّ وهو بحر لا يُدْرَكُ منتهى غوره، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم. وقد روي أنه رئي صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها: إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء، وفي يد الآخر: كنت قبل أن أعرف الله أشرب وأظمأ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب.

الوظيفة السابعة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله؛ فإن العلوم مرتَّبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ١٢١] أي لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملاً، وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي إلى ما هو فوقه، فينبغي ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل، فترى جماعة تركوا

---

(١) حديث: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح» أخرجه ابن عدي من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، ورواه البيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بإسناد صحيح.

النظر في العقليات والفقهيات، متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها، وقد مضى كشف هذه الشبه في كتاب (معيار العلم)، وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر. والكل خطأ، بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص، ولذلك قال علي رضي الله عنه: لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

الوظيفة الثامنة: أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان: **أحدهما**: شرف الثمرة، **والثاني**: وثاقة الدليل وقوته، وذلك كعلم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية، فيكون علم الدين أشرف. ومثل علم الحساب وعلم النجوم، فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى؛ ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين. وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عزّ وجلّ وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم، فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه.

الوظيفة التاسعة: أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران وإن كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة، ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعني علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في المقدّمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية، ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم الردء، ومنهم الذي يسقيهم الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم، فكذلك العلماء قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣] والفضيلة نسبية. واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظنّ أنّ ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر، بل الرتبة العليا للأنبياء، ثم الأولياء، ثم العلماء الراسخين في العلم، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم، وبالجملة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ومن قصد الله تعالى بالعلم أي علم كان نفعه ورفعه لا محالة.

الوظيفة العاشرة: أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ـ ومعنى المهم ما يهمك ـ ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة. وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً والبدن مركباً والأعمال سعياً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله، وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأقلون. والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم ـ أعني النظر الذي طلبه الأنبياء وفهموه دون ما سبق إلى فهم العوام والمتكلمين ـ على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال، وهو أن العبد الذي علق عتقه

وتمكينه من الملك بالحج وقيل له: إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعاً، وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقك في الطريق مانع ضروري فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل؛ **الأول**: تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة. **والثاني**: السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل. **والثالث**: الاشتغال بأعمال الحج ركناً بعد ركن ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة، وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره، ومن أول سلوك البوادي إلى آخره، ومن أول أركان الحج إلى آخره. وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه، فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام: قسم يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة، وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا. وقسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين، فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله، وكما لا يغني علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها كذلك لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب، ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن. وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم المكاشفة، وههنا نجاة وفوز بالسعادة، والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة.

وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى، وهم المقربون المُنَعَّمون في جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم، وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقِعَة: ٨٨ ـ ٩١]، وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية، بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم.

واعلم: أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين؛ أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار، وترقَّوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع، وحالهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق، وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان. فالسعادة وراء علم المكاشفة، وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات، وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات، وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة، وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الفقيه، وأما أسباب الصحة ففي ناصية الطبيب، ومن قال: «العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان» وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة.

فإن قلت: لِمَ شبَّهت علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة؟ فاعلم: أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سرّ من أسرار الله عزّ

وجلّ لا يدركه الحس، ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة، والشرع يعبر عنه بالقلب، لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضنون به بل لا رخصة في ذكره، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودرّ عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية وإنما هو أمر إلهي كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: ٨٥]، وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى، ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن، فللّه الخلق والأمر جميعاً، والأمر أعلى من الخلق. وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرض والجبال إذ أَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها من عالم الأمر، ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها، فإن القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدري ما يقول فلنقبض عنان البيان عن هذا الفنّ فهو وراء ما نحن بصدده.

والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فمنه مصدرها وإليه مرجعها، وأما البدن فمطيتها التي تركبها وتسعى بواسطتها، فالبدن لها في طريق الله تعالى كالناقة للبدن في طريق الحج وكالراوية الخازنة للماء الذي يفتقر إليه البدن، فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية. ولا يخفى أن الطب كذلك فإنه قد يُحْتَاج إليه في حفظ الصحة على البدن ولو كان الإنسان وحده لا يحتاج إليه؛ والفقه يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغني عنه، ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسعي وحده في تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والخبز والطبخ وفي تحصيل الملبس والمسكن، وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة. ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل، وبالطب يحفظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأفعال فقه، وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية، فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج، والمستغرق عمره في دقائق الكلمات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكي طريق الحج أو ملابسي أركانه. فتأمل هذا أوّلاً واقبل النصيحة مجاناً ممن قام عليه ذلك غالباً ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة، فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم.

بيان وظائف المرشد المعلم:

اعلم: أن للإنسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال: إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسباً، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاً، وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله. فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب واكتساب، وحال تحصيل يغني عن السؤال، وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال، فمن علم وعمل وعلّم فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات،

فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيِّب غيره وهو طيب. والذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، وكالمِسَنِّ الذي يشحذ غيره ولا يقطع، والإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية، وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق كما قيل:

ما هو إلا ذبالة وقدت تضيء للناس وهي تحترقُ

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلَّد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه.

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ**»(١)، بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا؛ ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية. ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة. أعني معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا، فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه. وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابّوا ويتعاونوا على المقاصد كلها، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التّحاب والتوادد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا. فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا، وسنوها وشهورها منازل الطريق. والترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه؟ ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم. والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، وداخلون في مقتضى قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرُف: ٦٧].

الوظيفة الثانية: أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلِّم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرّب إليه ولا يرى لنفسه منّة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض، فكيف تقلده منة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هُود: ٢٩]، فإن المال وما في الدنيا خادم البدن، والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس. فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه، فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً وذلك هو الانتكاس على أم الرأس، ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربهم. وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم. فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما؟ فإنهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة

---

(١) حديث: «**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده**» أخرجه أبو داود والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي هريرة.

السلاطين لاستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم، ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة وينصر وليه ويعادي عدوه وينتهض جهاراً له في حاجاته، ومسخراً بين يديه في أوطاره، فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه. فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول: غرضي من التدريس نشر العلم تقرّباً إلى الله تعالى ونصرة لدينه! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات.

الوظيفة الثالثة: أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدّي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده؛ فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه فإن كان هو علم الخلاف في الفقه، والجدل في الكلام، والفتاوى في الخصومات والأحكام، فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها: «تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله»، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأوّلون يشتغلون به من علم الآخرة، ومعرفة أخلاق النفس، وكيفية تهذيبها، فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يثمر له طمعاً في الوعظ والاستتباع، ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة، وذلك يوشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره. ويجري حب القبول والجاه مجرى الحب الذي ينثر حوالي الفخ ليقتنص به الطير، وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل، وخلق أيضاً حب الجاه ليكون سبباً لإحياء العلوم وهذا متوقع في هذه العلوم، فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة، فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوةً في القلب وغفلةً عن الله تعالى وتمادياً في الضلال وطلباً للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية. ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة، فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد والله المستعان. وقد رؤي سفيان الثوري رحمه الله حزيناً فقيل له: ما لَكَ؟ فقال: صرنا متجراً لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهرماناً.

الوظيفة الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم أن يُزْجَرَ المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال ﷺ وهو مرشد كل معلم: «**لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتِّ البَعْرِ لَفَتُّوهُ وَقَالُوا: ما نُهِينا عَنْهُ إلاّ وَفِيهِ شَيْءٌ**»(١). وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمراً بل لتتنبه بها على سبيل العبرة، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته.

الوظيفة الخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وأن ذلك نقل

---

(١) حديث: «**لو منع الناس عن فت البعر لفتوه...**» الحديث. لم أجده.

محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام ينفّر عن الفقه ويقول: ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمٰن؟ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وإن كان متكفلاً بعلوم، فينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة.

الوظيفة السادسة: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر ﷺ حيث قال: «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ**»[1]، فليبثَّ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها، وقال ﷺ: «**ما أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْماً بِحَدِيثٍ لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَىٰ بَعْضِهِمْ**». وقال علي رضي الله عنه ـ وأشار إلى صدره ـ: إن هٰهنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة. وصدق رضي الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار. فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟ وقال عيسى عليه السلام: لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير. ولذلك قيل: كِلْ لكُلِّ عبد بمعيار عقله وَزِنْ له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار، وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل: أما سمعت رسول الله ﷺ قال: «**من كَتَمَ عِلْماً نَافِعاً جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**»[2]؟ فقال: اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني فقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النِّساء: ٥]، تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق:

أأنثُرُ درّاً بين سارحة النعم ... فأصبح مخزوناً براعية الغنم
لأنهم أمسوا بجهلٍ لقدره ... فلا أنا أضحي أن أطوّقه البهم
فإنْ لطفَ اللَّهُ اللطيف بلطفه ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحِكَم
نشَرْت مفيداً واستفدت مودّةً ... وإلاّ فمخزون لدي ومُكْتتم
فمن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يُلْقَى إليه الجلي اللائق به ولا يذكر أن له وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق. فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله. وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده، بل ينبغي أن يخلى وحرفته، فإنه لو ذكر

---

(١) حديث: «**نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم...**» الحديث. رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشِّخّير من حديث عمر أخصر منه. وعند أبي داود من حديث عائشة: «**أنزلوا الناس منازلهم**».

(٢) حديث: «**من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار**» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف؛ وتقدم حديث أبي هريرة بنحوه.

له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخوض فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره؛ بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن، ولا يحرّك عليهم شبهة، فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك. وبالجملة: لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص.

الوظيفة الثامنة: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر. فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وكل من تناول شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنه سمّ مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج؟ ولذلك قيل في المعنى:

لا تــنــهَ عَــن خُــلُــقٍ وتــأتــيَ مــثــلــه ... عــارٌ عــلــيــك إذا فَــعَــلْــتَ عــظــيــمُ

وقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٤٤] ولذلك كان وزر العَالِم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عَالَمٌ كثير ويقتدون به، ومن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك. فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرّهم بتهتكه. والله أعلم.

❋ ❋ ❋

الباب السادس

في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ما ورد من فضائل العلم والعلماء، وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة. فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها، قال ﷺ: «**إنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ**». وعنه ﷺ أنه قال: «**لا يَكُونُ المَرْءُ عَالِماً حَتَّىٰ يَكُونَ بِعِلْمِهِ عَامِلاً**»[(١)]، وقال ﷺ: «**العِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ عَلَىٰ اللِّسَانِ فَذٰلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَعِلْمٌ فِي القَلْبِ فَذٰلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**يَكُونُ**

الباب السادس

(١) حديث: «**لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً**» أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء، والبيهقي في المدخل موقوفاً على أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً.

(٢) حديث: «**العلم علمان علم على اللسان...**» الحديث. إخرجه الترمذي الحكيم في النوادر، وابن عبدالبر من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي.

فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِبَادٌ جُهَّالٌ وَعُلَمَاءُ فُسَّاقٌ»[(١)]، وقال ﷺ: «لا تَتَعَلَّمُوا العِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ العُلَمَاءَ وَلِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلِتَصْرِفُوا بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ»[(٢)]، وقال ﷺ: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً عِنْدَهُ أَلْجَمَهُ اللّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»، وقال ﷺ: «لأَنَا مِنْ غَيْرِ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَّالِ». فقيل: وما ذلك؟ فقال: «مِنَ الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ»[(٣)]، وقال ﷺ: «مَنِ ازْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللّهِ إِلاَّ بُعْداً»[(٤)]، وقال عيسى عليه السلام: إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين. فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم، فإن العالم إما متعرّض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد، وإنه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة.

وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه: إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم. قالوا: وكيف يكون منافقاً عليماً؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب والعمل. وقال الحسن رحمه الله: لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء. وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال: كفى بترك العلم إضاعة له. وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندماً؟ قال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما عند الموت فعالم مفرّط. وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه. وقال سفيان الثوري رحمه الله: يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وقال ابن المبارك: لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: إني لأرحم ثلاثة: عزيز قوم ذلّ، وغني قوم افتقر، وعالماً تلعب به الدنيا. وقال الحسن: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشدوا:

عجبتُ لمبتاع الضلالة بالهُدى ... ومن يشتري دنياه بالدين أعجبُ
وأعجبُ من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذَيْنِ أعجبُ

وقال ﷺ: «إِنَّ العَالِمَ لَيُعَذَّبُ عَذَاباً يُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ اسْتِعْظَاماً لِشِدَّةِ عَذَابِهِ»[(٥)]، أراد به العالم الفاجر. وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤْتَىٰ بِالعَالِمِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِها كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَىٰ فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا لك؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُ

---

(١) حديث: «يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق» أخرجه الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف.

(٢) حديث: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء» أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح.

(٣) حديث: «لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال..» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد.

(٤) حديث: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وحديث علي بإسناد ضعيف إلا أنه قال: «زهداً»، وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقوفاً على الحسن: «من ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بعداً» وروى أبو الفتح الأزدي في الضعفاء من حديث علي: «من ازداد بالله علماً ثم ازداد للدنيا حباً ازداد الله عليه غضباً».

(٥) حديث: «إن العالم يعذب عذاباً يطيف به أهل النار..» الحديث. لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده.

بالخَيرِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ»[1]، وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم، ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النّساء: ١٤٥]، لأنهم جحدوا بعد العلم، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا: إنه ثالث ثلاثة، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٨٩]، وقال تعالى ـ في قصة بلعام بن باعوراء ـ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعرَاف: ١٧٥]، حتى قال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعرَاف: ١٧٦] فكذلك العالم الفاجر، فإن بلعام أوتي كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات فشبّه بالكلب أي سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات.

وقال عيسى عليه السلام: مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى. فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخبس حالاً وأشدّ عذاباً من الجاهل. وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات:

فمنها: أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر. فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل، فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع في غير مطمع؟ فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم، بل هو كافر بالقرآن كله من أوّله إلى آخره، فكيف يعدّ من زمرة العلماء؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟.

وفي أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى: إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، يا داود، لا تسأل عني عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي، يا داود، إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً؛ يا داود، من رد إليّ هارباً كتبته جهبذاً ومن كتبته جهبذاً لم أعذبه أبداً. ولذلك قال الحسن رحمه الله: عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة. ولذلك قال يحيى بن معاذ: إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا. وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص. وقال عمر رضي الله عنه: إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب.

---

(١) حديث أسامة بن زيد: «يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى في النار فتندلق أقتابه..» الحديث. متفق عليه بلفظ: «الرجل» بدل «العالم».

وقال مالك بن دينار رحمه الله: قرأت في بعض الكتب السالفة أن الله تعالى يقول: إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا: أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه. وكتب رجل إلى أخ له: إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم. وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية؟ قال الشاعر:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئابُ؟

وقال الآخر:

يا معشرَ القرّاء يا ملحَ البلد ما يصلح المِلْحَ إذا الملحُ فسدْ؟

وقيل لبعض العارفين: أترى أن من تكون المعاصي قرة عينه لا يعرف الله؟ قال: لا شك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى. وهذا دون ذلك بكثير ولا تظنن أن ترك المال يكفي في اللحوق بعلماء الآخرة فإن الجاه أضرُّ من المال. ولذلك قال بشر: «حدثنا» باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول: «حدّثنا» فإنما يقول: أوسعوا لي. ودفن بشر بن الحارث بضعة عشر ما بين قمطرة وقوصرة من الكتب، وكان يقول: أنا أشتهي أن أحدث، ولو ذهبت عني شهوة الحديث لحدثت، وقال هو وغيره: إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت فإذا لم تشته فحدث. وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا، فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا. ولذلك قال الثوري: فتنة الحديث أشدّ من فتنة الأهل والمال والولد، وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال سهل رحمه الله: العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله هباء إلا الإخلاص. وقال: الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين، والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين، والمخلص على وَجَلٍ حتى يدري ماذا يختم له به. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا، وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طلب الآخرة. وقال عيسى عليه السلام: كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟ وقال صالح بن كيسان البصري: أدركت الشيوخ وهم يتعوّذون بالله من الفاجر العالم بالسنة.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ طَلَبَ عِلْماً مِمَّا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(١).

وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد، فقال عزّ وجلّ في علماء الدنيا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ١٨٧]، وقال تعالى في علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) حديث أبي هريرة: «من طلب علماً مما يبتغي به وجه الله ليصيب به عرضاً. . .» الحديث. أخرجه أبو داود، وابن ماجه بإسناد جيد.

لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٩]، وقال بعض السلف: العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين. وفي معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه.

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**أَوْحَىٰ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ: قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ وَيَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ العَمَلِ وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الكِباشِ وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ الذِّئَابِ. أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَىٰ مِنَ العَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبِرِ إِيَّايَ يُخَادِعُونَ وَبِي يَسْتَهْزِئُونَ لأفتحنّ لَهُمْ فِتْنَةً تَذَرُ الحَلِيمَ حَيْرَانَ**»[1] وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُلَمَاءُ هٰذِهِ الأُمَّةِ رَجُلانِ: رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ عِلْماً فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعاً وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَناً، فَذٰلِكَ يُصَلِّي عَلَيْهِ طَيْرُ السَّمَاءِ وَحِيتَانُ المَاءِ وَدَوَابُّ الأَرْضِ وَالكِرَامُ الكَاتِبُونَ يَقْدَمُ عَلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ سَيِّداً شَرِيفاً حَتَّىٰ يُوَافِقَ المُرْسَلِينَ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ عِلْماً فِي الدُّنْيا فَضَنَّ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعاً وَاشْتَرَىٰ بِهِ ثَمَناً فَذٰلِكَ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يُنَادِي مُنَادٍ عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلائِقِ هٰذَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ آتاهُ اللَّهُ عِلْماً فِي الدُّنْيا فَضَنَّ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَأَخَذَ بِهِ طَمَعاً وَاشْتَرَىٰ بِهِ ثَمَناً فَيُعَذَّبُ حَتَّىٰ يُفْرَغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ**»[2]. وأشد من هذا ما روي: «أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول: حدّثني موسى صفي الله، حدّثني موسى نجي الله، حدثني موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم. قال: هو هذا الخنزير، فقال موسى: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين». وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً في رواية عن النبيّ ﷺ قال: «**مِنْ فِتْنَةِ العَالِمِ أَنْ يَكُونَ الكَلامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الاسْتِمَاعِ**»[3]، وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ، وفي الصمت سلامة وعلم.

ومن العلماء من يُخَزّن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك في الدرك الأوّل من النار. ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان إن رُدَّ عليه شيء من علمه أو تُهُوِنَ بشيء من حقه غضب، فذلك في الدرك الثاني من النار. ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً، فذلك في الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ والله تعالى يبغض المتكلفين، فذلك في الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه، فذلك في الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلاً وذكراً في الناس فذلك في الدرك السادس من النار. ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب فإن

---

(١) حديث أبي الدرداء: «**أوحى الله إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين..**» الحديث. أخرجه ابن عبدالبر بإسناد ضعيف.

(٢) حديث ابن عباس: «**علماء هذه الأمة رجلان..**» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف.

(٣) حديث معاذ: «**من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع..**» الحديث. أخرجه أبو نعيم وابن الجوزي في الموضوعات.

وَعظ عنَّف وإن وُعظ أنَف، فذلك في الدرك السابع من النار. فعليك يا أخي بالصمت فبه تغلب الشيطان. وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمشي في غير أرب.

وفي خبر آخر: «**إن العبد لينتشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة**»(١)، وروي أن الحسن حمل إليه رجل من خراسان كيساً بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال: يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة، فقال الحسن: عافاك الله تعالى، ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك إنه من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له. وعن جابر رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَجْلِسُوا عِنْدَ كُلِّ عَالِمٍ إلاَّ إِلَىٰ عَالِمٍ يَدْعُوكُمْ مِنْ خَمْسٍ إِلَىٰ خَمْسٍ: مِنَ الشَّكِّ إِلَىٰ اليَقِينِ، وَمِنَ الرِّيَاءِ إِلَىٰ الإِخْلاصِ، وَمِنَ الرَّغْبَةِ إِلَىٰ الزُّهْدِ، وَمِنَ الكِبْرِ إِلَىٰ التَّوَاضُعِ، وَمِنَ العَدَاوَةِ إِلَىٰ النَّصِيحَةِ**»(٢)، وقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ [القَصَص: ٧٩، ٨٠] الآية، فعرّف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا.

ومنها: أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أوّل عامل به. قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٣]، وقال تعالى في قصة شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هُود: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ [البَقَرَة: ١٩٤]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [المَائدة: ١٠٨]، وقال تعالى لعيسى عليه السلام: «يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني»، وقال رسول الله ﷺ: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِأَقْوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَأْمُرُ بِالخَيْرِ وَلاَ نَأْتِيهِ وَنَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ**»(٣) وقال ﷺ: «**هَلاكُ أُمَّتِي عَالِمٌ فَاجِرٌ وَعَابِدٌ جَاهِلٌ، وَشَرُّ الشِّرَارِ شِرَارُ العُلَمَاءِ، وَخَيْرُ الخِيَارِ خِيَارُ العُلَمَاءِ**»(٤).

وقال الأوزاعي رحمه الله: شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها: بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات. وقال الشعبي: يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم: ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله وننهى عن الشر ونفعله. وقال حاتم الأصم رحمه الله: ليس في القيامة أشدّ حسرة من رجل علّم

---

(١) حديث: «**إن العبد لينتشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة**» لم أجده هكذا. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**».

(٢) حديث جابر: «**لا تجلسوا عند كل عالم..**» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن الجوزي في الموضوعات.

(٣) حديث: «**مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار..**» الحديث. أخرجه ابن حبان من حديث أنس.

(٤) حديث: «**هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء..**» الحديث. أخرجه الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً بآخر الحديث نحوه وقد تقدم، ولم أجد صدر الحديث.

الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو. وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا. وأنشدوا:

يا واعِظَ النَّاسِ قد أصبحت متَّهماً ... إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحتَ تنصحهم بالوعظ مجتهداً ... فالموبقات لعمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر:

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: مررت بحجر بمكة مكتوب عليه «اقلبني تعتبر» فقلبته فإذا عليه مكتوب «أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم»؟ وقال ابن السماك رحمه الله: كم من مذكر بالله ناس لله! وكم من مخوّف بالله جريء على الله! وكم من مقرّب إلى الله بعيد عن الله! وكم من داع إلى الله فارّ من الله! وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله! وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحنا في أعمالنا فلم نعرب. وقال الأوزاعي: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع. وروى مكحول عن عبدالرحمن بن غنم أنه قال: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«تَعَلَّمُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا فَلَنْ يَأْجُرَكُمُ اللَّهُ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا»**(١). وقال عيسى عليه السلام: مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت، فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد. وقال معاذ رحمه الله: احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته. وقال عمر رضي الله عنه: إذا زل العالم زل بزلته عَالَمٌ من الخَلْقِ. وقال عمر رضي الله عنه: ثلاث بهن ينهدم الزمان إحداهن زلة العالم. وقال ابن مسعود: سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذٍ عالمه ولا متعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله، فما أخصب الألسن يومئذٍ وما أجدب القلوب! فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى. وفي التوراة والإنجيل مكتوب: لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم. وقال حذيفة رضي الله عنه: إنكم في زمان من ترك فيه عُشْرَ ما يعلم هلك، وسيأتي زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين.

واعلم: أن مثل العالم مثل القاضي وقد قال ﷺ: **«القُضَاةُ ثَلاثَةٌ: قَاضٍ قَضَىٰ بَالحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَذٰلِكَ فِي الجَنَّةِ، وَقَاضٍ قَضَىٰ بِالجُوْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَوْ لا يَعْلَمُ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَىٰ بِغَيْرِ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ فِي**

---

(١) حديث عبدالرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا» علقه ابن عبدالبر، وأسنده ابن عدي وأبو نعيم والخطيب ـ في كتاب اقتضاء العلم للعمل ـ من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمي موقوفاً على معاذ بسند صحيح.

النَّارِ»(١). وقال كعب رحمه الله: يكون في آخر الزمان علماء يُزهِدونَ الناس في الدنيا ولا يَزْهَدون، ويخوّفون الناس ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم، ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بألسنتهم، يقرّبون الأغنياء دون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره، أولئك الجبارون أعداء الرحمن. وقال ﷺ: «**إنَّ الشَّيْطَانَ رُبَّما يُسَوِّفُكُمْ بِالعِلْمِ**»، فقيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال ﷺ: «**يَقُولُ: اطْلُبِ العِلْمَ وَلا تَعْمَلْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ فَلا يَزَالُ لِلْعِلْمِ قَائِلاً وَلِلْعَمَلِ مُسَوِّفاً حَتَّىٰ يَمُوتَ وَما عَمِلَ**»(٢)، وقال سري السقطي: اعتزل رجل للتعبد كان حريصاً على طلب علم الظاهر فسألته فقال: رأيت في النوم قائلاً يقول لي: إلى كم تضيع العلم ضيعك الله؟ فقلت: إني لأحفظه، فقال: حفظ العلم العمل به، فتركت الطلب وأقبلت على العمل. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية. وقال الحسن: تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء همتهم الرواية والعلماء همتهم الرعاية. وقال مالك رحمه الله: إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فلا تؤثرن عليه شيئاً. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم، والعالم الذي لا يعمل كالمريض الذي يصف الدواء وكالجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها. وفي مثله قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وفي الخبر: «**إنَّما أَخافُ عَلَى أُمَّتِي زَلَّةَ عَالِمٍ وَجِدالَ مُنَافِقٍ فِي القُرْآنِ**»(٣).

ومنها: أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغّب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال. فمثال من يعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به، وذلك محض السفه. وقد روي «أنّ رجلاً جاء رسول الله ﷺ فقال: عَلِّمْنِي مِنْ غَرَائِبِ العِلْم، فقال له: **مَا صَنَعْتَ فِي رَأْسِ العِلْمِ**؟ فقال: وَمَا رَأْسُ العِلْمِ؟ فقال ﷺ: **هَلْ عَرَفْتَ الرَّبَّ تَعَالَىٰ**؟ قال: نَعَمْ. قال: **فَمَا صَنَعْتَ فِي حَقِّهِ**؟ قال: ما شاءَ اللَّهُ، فقال ﷺ: **هَلْ عَرَفْتَ المَوْتَ**؟ قال: نَعَمْ، قال: **فَمَا أَعْدَدْتَ لَهُ**؟ قال: ما شاءَ اللَّهُ، قال ﷺ: **اذْهَبْ فَاحْكُمْ ما هُنَاكَ ثُمَّ تَعَالَ نُعَلِّمْكَ مِنْ غَرَائِبِ العِلْمِ**»(٤). بل ينبغي أن يكون المتعلم من جنس ما روي عن حاتم الأصم ـ تلميذ شقيق البلخي رضي الله عنهما ـ أنه قال له شقيق: منذ كم صحبتني؟ قال حاتم: منذ ثلاث وثلاثين سنة، قال: فما تعلمت مني في هذه المدّة؟ قال: ثماني مسائل، قال شقيق له: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل؟ قال: يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإني لا أحب أن أكذب، فقال: هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها.

---

(١) حديث: «**القضاة ثلاثة..**» الحديث. أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح.

(٢) حديث: «**إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم..**» الحديث. في الجامع من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث: «**إنما أخاف على أمتي زلة عالم..**» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء، ولابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين.

(٤) حديث: «أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: علمني من غرائب العلم...» الحديث. رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبدالبر من حديث عبدالله بن المسور مرسلاً وهو ضعيف جداً.

قال حاتم: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي. فقال: أحسنت يا حاتم، فما الثانية؟

فقال: نظرت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النّازعات: ٤٠،٤١]، فعلمت أنّ قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرّت على طاعة الله تعالى.

الثالثة: أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظاً.

الرابعة: أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً.

الخامسة: أني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضاً وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرُف: ٣٢]، فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عني.

السادسة: نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً فرجعت إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: ٦]، فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذري منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدوّ لي فتركت عداوة الخلق غيره.

السابعة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: ٦]، فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها، فاشتغلت بما لله تعالى علي وتركت مالي عنده.

الثامنة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق ـ هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وهذا على صحة بدنه ـ وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله، فرجعت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: ٣]، فتوكلت على الله عزّ وجلّ فهو حسبي.

قال شقيق: يا حاتم، وفقك الله تعالى، فإني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم، فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة، فهذا الفن من العلم لا يهتم بإدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة، فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه، ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام. وقال الضحاك بن مزاحم: أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وهم اليوم ما يتعلمون إلا بالكلام.

ومنها: أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب والتنعم في الملبس والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى، ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك، وكلما زاد إلى طرف القلة ميله ازداد من الله قربه وارتفع في علماء الآخرة حزبه.

ويشهد لذلك ما حكي عن أبي عبدالله الخواص ـ وكان من أصحاب حاتم الأصم ـ قال: دخلت مع حاتم إلى الريّ ومعنا ثلاثمائة وعشرون رجلاً يريدون الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام، فدخلنا على رجل من التجار متقشف يحب المساكين فأضافنا تلك الليلة، فلما كان من الغد قال لحاتم: ألك حاجة فإني أريد أن أعود فقيهاً لنا هو عليل؟ قال حاتم: عيادة المريض فيها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضاً أجيء معك. وكان العليل محمد بن مقاتل ـ قاضي الري ـ فلما جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن، فبقي حاتم متفكراً يقول: باب عالم على هذه الحالة؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حسناء فوراء واسعة نزهة وإذا بزة وستور، فبقي حاتم متفكراً ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه وإذا بفرش وطيئة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مِذَبّة، فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس، فقال: لا أجلس. فقال: لعل لك حاجة. فقال: نعم، قال: وما هي؟ قال: مسألة أسألك عنها. قال: سل، قال: قم فاستو جالساً حتى أسألك، فاستوى جالساً. قال حاتم: علمك هذا من أين أخذته؟ فقال: من الثقات حدثوني به، قال: عمن؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال: وأصحاب رسول الله ﷺ عمن؟ قال: عن رسول الله ﷺ قال: ورسول الله ﷺ عمن؟ قال: عن جبرائيل عليه السلام عن الله عزّ وجلّ. قال حاتم: ففيما أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عزّ وجلّ إلى رسول الله ﷺ وأداه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات، وأداه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان في داره إشراف وكانت سعتها أكثر كان له عند الله عزّ وجلّ المنزلة أكبر؟ قال: لا. قال: فكيف سمعت؟ قال: سمعت أنه من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كانت له عند الله المنزلة، قال له حاتم: فأنت بمن اقتديت أبالنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم والصالحين رحمهم الله، أم بفرعون ونمرود أول من بنى بالجص والآجر؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول: العالم على هذه الحالة أفلا أكون أنا شراً منه؟ وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضاً. وبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له: إن الطنافسي بقزوين أكثر توسعاً منه. فسار حاتم متعمداً فدخل عليه فقال: رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني مبدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة؟ قال: نعم وكرامة، يا غلام، هات إناء فيه ماء. فأتي به فقعد الطنافسي فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال: هكذا فتوضأ. فقال حاتم: مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد، فقام الطنافسي وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعاً أربعاً فقال الطنافسي: يا هذا أسرفت. قال له حاتم: فبماذا؟ قال: غسلت ذراعيك أربعاً. فقال حاتم: يا سبحان الله العظيم أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف؟ فعلم الطنافسي أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوماً، فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا: يا أبا عبدالرحمٰن أنت رجل ولكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعته، قال: معي ثلاث خصال أظهر بهن على خصمي: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي أن لا أجهل عليه. فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه، فلما دخلوا عليه قال له: يا أبا عبدالرحمن ما السلامة من الدنيا؟ قال: يا أبا عبدالله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال: تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك منهم، وتبذل لهم شيئك، وتكون من شيئهم آيساً، فإذا كنت هكذا سلمت. ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال: يا قوم أية مدينة هذه؟ قالوا: مدينة رسول الله ﷺ قال: فأين قصر رسول الله ﷺ حتى أصلي فيه؟ قالوا: ما

كان له قصر إنما كان له بيت لاطىء بالأرض، قال: فأين قصور أصحابه رضي الله عنهم؟ قالوا: ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض، قال حاتم: يا قوم، فهذه مدينة فرعون، فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا: هذا العجمي يقول: هذه مدينة فرعون، قال الوالي: ولم ذلك؟ قال حاتم: لا تعجل عليَّ أنا رجل أعجمي غريب دخلت البلد فقلت: مدينة من هذه؟ فقالوا: مدينة رسول الله ﷺ فقلت: فأين قصر... وقص القصة، ثم قال: وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فأنتم بمن تأسيتم أبرسول الله ﷺ أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجرّ؟ فخلوا عنه وتركوه. فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى. وسيأتي من سيرة السلف في البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه.

والتحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس بحرام، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة، ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور أخرى هي محظورة، والحزم اجتناب ذلك؛ لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها البتة، ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان ﷺ لا يبالغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم[(١)]، ونزع خاتم الذهب في أثناء الخطبة[(٢)]، إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

وقد حكي: أن يحيى بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك بن أنس رضي الله عنهما: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين، من يحيى بن يزيد بن عبدالملك إلى مالك بن أنس، أما بعد: فقد بلغني أنك تلبس الدقاق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجباً، وقد جلست مجلس العلم، وقد ضربت إليك المطي، وارتحل إليك الناس، واتخذوك إماماً ورضوا بقولك؛ فاتق الله تعالى يا مالك وعليك بالتواضع. كتبت إليك بالنصيحة مني كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام» فكتب إليه مالك: «بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك، أما بعد: فقد وصل إليّ كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب. أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأما ما ذكرت لي أني آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطيء، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه. ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام». فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيهما جميعاً، ومثل مالك في منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف في مثل هذه النصيحة فتقوى أيضاً نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لا يحمله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكروهات، وأما غيره فلا يقدر عليه، فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية، وخاصية علماء الله تعالى الخشية، وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر.

ومنها: أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً،

---

(١) حديث: «نزع القميص المعلم» متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث: «نزع الخاتم الذهب في أثناء الخطبة» متفق عليه من حديث ابن عمر.

بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاؤوا إليه، فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم، فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً لهم، أو يتكلف في كلامه كلاماً لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت، وسيأتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الإدرار والجوائز وغيرها. وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط. وقد قال ﷺ: «**مَنْ بَدا جَفا** ـ يعني من سكن البادية جفا ـ **وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفِلَ وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ**»(١) وقال ﷺ: «**سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ بَرِىءَ وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلٰكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ أَبْعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ**». قيل: أفلا نقاتلهم؟ قال ﷺ: «**لا مَا صَلَّوْا**»(٢). وقال سفيان: في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه. وقال رسول الله ﷺ: «**العُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السَّلاطِينَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ وَاعْتَزِلُوهُمْ**»(٣). رواه أنس. وقيل للأعمش: لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك فقال: لا تعجلوا، ثلث يموتون قبل الإدراك، وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق، والثلث الباقي لا يفلح منه إلا القليل. ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص.

وقال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً. وقال رسول الله ﷺ: «**شِرَارُ العُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الأُمَرَاءَ وَخِيَارُ الأُمَرَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ العُلَمَاءَ**»(٤). وقال مكحول الدمشقي رحمه الله: من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صَحِبَ السلطان تملقاً إليه وطمعاً فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه. وقال سمنون: ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال: هو عند الأمير! قال: وكنت أسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك؛ إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه، ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافاً مع أني لا آخذ منه شيئاً ولا أشرب له شربة ماء. ثم قال: وعلماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق هواه، ولو أخبروه بالذي عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم. وقال الحسن: كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم في الإسلام وصحبة لرسول الله ﷺ ـ قال عبدالله بن المبارك: عنى به سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ـ قال: وكان لا

---

(١) حديث: «**من بدا جفا..**» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث ابن عباس.

(٢) حديث: «**سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون..**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أم سلمة.

(٣) حديث أنس «**العلماء أمناء الرسل على عباد الله..**» الحديث. أخرجه العقيلي في الضعفاء، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(٤) حديث: «**شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء**» أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

يغشى السلاطين وينفر عنهم، فقال له بنوه: يأتي هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم في الإسلام فلو أتيتهم، فقال: يا بني آتي جيفة قد أحاط بها قوم، والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها؛ قالوا: يا أبانا إذن نهلك هزالاً، قال: يا بني: لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إليّ من أن أموت منافقاً سميناً. قال الحسن: خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان. وفي هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لا يسلم من النفاق ألبتة وهو مضاد للإيمان. وقال أبو ذرّ لسلمة: يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه. وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لا سيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو؛ إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه: أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين. وكان يقال: العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا.

وكتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى الحسن: أما بعد؛ فأشر عليّ بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى. فكتب إليه: أما أهل الدين فلا يريدونك، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة. هذا في عمر بن عبدالعزيز رحمه الله وكان أزهد أهل زمانه! فإذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستنسب طلب غيرهم ومخالطته؟ ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثوري وابن المبارك والفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط، يتكلمون في علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما لميلهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين.

ومنها: أن لا يكون مسارعاً إلى الفتيا، بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلي أفتى، وإن سئل عما يشك فيه قال: لا أدري، وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية. هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم. وفي الخبر: «**العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري**»(١). قال الشعبي: لا أدري نصف العلم، ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجراً ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشدّ على النفس. فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضي الله عنهم. كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال: اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلد أمور الناس فضعها في عنقه. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون، وقال: جنة العالم «لا أدري» فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم، يقول: انظروا إلى هذا سكوته أشدّ عليّ من كلامه. ووصف بعضهم الأبدال فقال: أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة؛ أي لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا، فإن اضطروا أجابوا، وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام. ومرّ علي وعبدالله رضي الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقال: هذا يقول اعرفوني. وقال بعضهم: إنما العالم الذي إذا سئل عن المسألة فكأنما يقلع ضرسه. وكان ابن عمر يقول: تريدون أن تجعلونا جسراً تعبرون علينا إلى

---

(١) حديث: «**العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري**» أخرجه الخطيب في أسماء من روى عن مالك موقوفاً على ابن عمر، ولأبي داود، وابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً نحوه مع اختلاف، وقد تقدم.

جهنم. وقال أبو حفص النيسابوري: العالم هو الذي يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة: من أين أجبت؟ وكان إبراهيم التيمي إذا سئل عن مسألة يبكي ويقول: لم تجدوا غيري حتى احتجتم إليّ. وكان أبو العالية الرياحي وإبراهيم بن أدهم والثوري يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير، فإذا كثروا انصرفوا. وقال ﷺ: **«مَا أَدْرِي أَعُزَيْرٌ نَبِيٌّ أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ مَلْعُونٌ أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي ذُو القَرْنَيْنِ نَبِيٌّ أَمْ لا؟»**(١) ولما سئل رسول الله ﷺ عن خير البقاع في الأرض وشرها قال: **«لا أَدْرِي»**، حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فسأله فقال: **«لا أَدْرِي»** إلى أن أعلمه الله عزّ وجلّ: **«أن خير البقاع المساجد وشرها الأسواق»**(٢) وكان ابن عمر رضي الله عنهما يُسْأَلُ عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة. وكان في الفقهاء من يقول: «لا أدري» أكثر ممن يقول: «أدري» منهم سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، والفضيل بن عياض، وبشر بن الحارث. وقال عبدالرحمن بن أبي ليلى: أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه ذلك. وفي لفظ آخر: كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأوّل. وروي أن أصحاب الصفّة أهدي إلى واحد منهم رأس مشوي وهو في غاية الضر فأهداه إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر، هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول.

فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوباً والمطلوب مهروباً منه؟ ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ما روي مسنداً عن بعضهم أنه قال: لا يفتي الناس إلا ثلاثة: أمير أو مأمور أو متكلف. وقال بعضهم: كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء: الإمامة والوصية والوديعة والفتيا. وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علماً وأشدهم دفعاً لها أورعهم. وكان شغل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ وذلك لما سمعوه من قوله ﷺ: **«كُلُّ كَلامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لا لَهُ إلاَّ ثَلاثَةً: أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَىٰ»**(٣) وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النّساء: ١١٤] الآية.

ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأي من أهل الكوفة في المنام فقال: ما رأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأي؟ فكره وجهه وأعرض عنه وقال: ما وجدناه شيئاً وما حمدنا عاقبته. وقال ابن حصين: إن أحدهم ليفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر. فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة. وفي الحديث: **«إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُوتِيَ صَمْتاً وَزُهْداً فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الحِكْمَةَ»**(٤) وقيل: العالم إما عالم عامة وهو المفتي وهم أصحاب السلاطين، أو

---

(١) حديث: **«ما أدري أعزير نبي أم لا..»** الحديث. أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «لما سئل عن خير البقاع وشرها قال: **لا أدري حتى نزل جبريل..»** الحديث. أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر.

(٣) حديث: **«كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة..»** الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أم حبيبة. قال الترمذي: حديث غريب.

(٤) حديث: **«إذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتاً وزهداً..»** الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث ابن خلاد بإسناد ضعيف.

عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب، وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون. وكان يقال: مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل أحد يغترف منها، ومثل بشر بن الحارث مثل بئر عذبة مغطاة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد. وكانوا يقولون: فلان عالم وفلان متكلم وفلان أكثر كلاماً وفلان أكثر عملاً. وقال أبو سليمان: المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام. وقيل: إذا كثر العلم قل الكلام، وإذا كثر الكلام قل العلم. وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما ـ وكان قد آخى بينهما رسول الله ﷺ (١) ـ: يا أخي بلغني أنك قعدت طبيباً تداوي المرضى، فانظر فإن كنت طبيباً فتكلم فإن كلامك شفاء، وإن كنت متطبباً فالله الله لا تقتل مسلماً. فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل. وكان أنس رضي الله عنه إذا سئل يقول: سلوا مولانا الحسن، وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا سئل يقول: سلوا حارثة بن زيد، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: سلوا سعيد بن المسيب.

وحكي أنه روى صحابي في حضرة الحسن عشرين حديثاً فسئل عن تفسيرها فقال: ما عندي إلا ما رويت، فأخذ الحسن في تفسيرها حديثاً حديثاً، فتعجبوا من حسن تفسيره وحفظه، فأخذ الصحابي كفاً من حصى ورماهم به وقال: تسألوني عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم.

ومنها: أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تفضي إلى المشاهدة، ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب، وأما الكتب والتعليم فلا تفي بذلك، بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعدّ إنما تتفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عزّ وجلّ في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة، وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب، ولذلك قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ**»(٢)، وفي بعض الكتب السالفة: «يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به إلى الأرض، ولا في تخوم الأرض من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به، العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا لي بأخلاق الصديقين أظهر العلم في قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم». وقال سهل بن عبدالله التستري رحمه الله: خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية. ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال ﷺ: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ**» وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى: «**لا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ...**»(٣) الحديث. فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجرّدين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير، ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين، وإذا

---

(١) حديث: «مؤاخاته ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء» أخرجه البخاري من حديث أبي جحفة.

(٢) حديث: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه.

(٣) حديث: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً» متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «سمعه وبصره» وهو في الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف.

انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه. وكذلك في علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب، فإن كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه، وإنما يخوضه كل طالب بقدر ما رزق منه وبحسب ما وفق له من حسن العمل. وفي وصف هؤلاء العلماء قال علي رضي الله عنه في حديث طويل: القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: عالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق، والعلم دين يدان به تكتسب به الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومنفعة المال تزول بزواله، مات خُزّانُ الأموال وهم أحياء والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر، ثم تنفس الصعداء وقال: هاه إن ههنا علماً جمّاً لو وجدت له حملة، بل أجد طالباً غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجته على خلقه، أو منقاداً لأهل الحق، لكن ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك أو منهوماً باللذات سلس القياد في طلب الشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاداً لهواه أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة، اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور؛ لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته وكم وأين أولئك؟ هم الأقلون عدداً الأعظمون قدراً، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله عزّ وجلّ من خلقه وأمناؤه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه، ثم بكى وقال: واشوقاه إلى رؤيتهم. فهذا الذي ذكره أخيراً هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة.

ومنها: أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين، فإن اليقين هو رأس مال الدين. قال رسول الله ﷺ: «**اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ**»(١) فلا بد من تعلم علم اليقين أعني أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه، ولذلك قال ﷺ: «**تَعَلَّمُوا اليَقِينَ**»(٢)، ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوي يقينهم وقليلٌ من اليقين خيرٌ من كثير من العمل. وقال ﷺ لما قيل له: رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين، فقال ﷺ: «**ما مِنْ آدَمِيٍّ إلاَّ وَلَهُ ذُنُوبٌ وَلٰكِنْ مَنْ كَانَ غَرِيزَتُهُ العَقْلَ وَسَجِيَّتُهُ اليَقِينَ لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ؛ لأَنَّهُ كُلَّمَا أَذْنَبَ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ وَنَدِمَ فَتُكَفَّرُ ذُنُوبُهُ وَيَبْقَىٰ لَهُ فَضْلٌ يَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ**»(٣)، ولذلك قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُم: اليَقِينَ وَعَزِيمَةَ الصَّبْرِ، وَمَنْ**

---

(١) حديث: «**اليقين الإيمان كله**» أخرجه البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

(٢) حديث: «**تعلموا اليقين**» أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلاً وهو معضل. رواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول خالد بن معدان.

(٣) حديث: «قيل له: رجل حسن اليقين كثير الذنوب...» الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أنس بإسناد مظلم.

أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُما لَمْ يُبَالِ ما فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ»(١). وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه. وقال يحيى بن معاذ: إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين. وأراد به اليقين، وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات.

فإن قلت: فما معنى اليقين وما معنى قوّته وضعفه فلا بد من فهمه أولاً، ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه فإن ما لا تفهم صورته لا يمكن طلبه؟ فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين. أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات:

الأول: أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك، كما إذا سئلت عن شخص معين، أن الله تعالى يعاقبه أم لا؟ وهو مجهول الحال عندك فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي، بل يستوي عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً.

الثاني: أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح. ومع هذا فأنت تجوّز اختفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريرته، فهذا التجويز مساوٍ لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه، فهذه الحالة تسمى ظناً.

الثالث: أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله، ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع، حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله.

الرابع: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يُشك فيه ولا يتصوّر الشك فيه، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء، ومثاله أنه إذا قيل للعاقل: هل في الوجود شيء هو قديم؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحس، وليس العلم بوجوده شيء قديم أزلي ضرورياً مثل العلم بأنّ الاثنين أكثر من الواحد، ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، فإن هذا أيضاً ضروري فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة، ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدّق بالسماع تصديقاً جزماً ويستمرّ عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام. ومن الناس من يصدّق به بالبرهان وهو أن يقال له: إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة، فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال، فالمؤدي إلى المحال محال، فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة: وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها

---

(١) حديث: «من أولى ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر..» الحديث. لم أقف له على أصل. وروى ابن عبدالبر من حديث معاذ: «ما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من الحلم» الحديث.

حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة، فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم، وإن كان الكل حادثاً فهو محال إذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب، فيثبت القسم الثالث أو الأول. وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب، أو بتواتر كالعلم بوجود مكة، أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل، أو بدليل كما ذكرنا. فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء، وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك.

الاصطلاح الثاني: اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء؛ وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل حتى يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه؛ ويقال: فلان قوي اليقين في إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه، فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع سمي ذلك يقيناً، ولا شك في أن الناس يشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعاً لغيره فيعبّر عن مثل هذه الحالة بقوّة اليقين؛ ولذلك قال بعضهم: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت، وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوّة، ونحن إنما أردنا بقولنا: «إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين» بالمعنيين جميعاً وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها. فإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا: «إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام» بالقوّة والضعف والكثرة والقلة والخفاء والجلاء، فأما بالقوّة والضعف فعلى الاصطلاح الثاني وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب، ودرجات معاني اليقين في القوّة والضعف لا تتناهى، وتفاوت الخلق في الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني. وأما التفاوت بالخفاء والجلاء في الاصطلاح الأوّل فلا ينكر أيضاً، أما فيما يتطرّق إليه التجويز فلا ينكر ـ أعني الاصطلاح الثاني ـ وفيما انتفى الشك أيضاً عنه لا سبيل إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فدك مثلاً، وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام، مع أنك لا تشك في الأمرين جميعاً فمستندهما جميعاً التواتر، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني؛ لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين، وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعروفة بالأدلة فإنه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك، وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال. وأما القلة والكثرة؛ فذلك بكثرة متعلقات اليقين، كما يقال: فلان أكثر علماً من فلان، أي معلوماته أكثر. ولذلك قد يكون العالم قوي اليقين في جميع ما ورد الشرع به وقد يكون قوي اليقين في بعضه.

فإن قلت: قد فهمت اليقين وقوّته وضعفه وكثرته وقلته وجلاءه وخفاءه بمعنى نفي الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب، فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه وفي ماذا يطلب اليقين فإني ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه؟ فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين، فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقه المعلومات التي وردت بها الشرائع فلا مطمع في إحصائها ولكني أشير إلى بعضها وهي أمهاتها:

فمن ذلك: التوحيد. . . وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها فالمصدق بهذا موقن، فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين، فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم، ونزلت الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع، فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين فقد صار موقناً بالمعنى الثاني وهو الإشراف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته. ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجمادات والنبات والحيوان وكل مخلوق فهي مسخَّراتٍ بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب، وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم، وصار موقناً بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق، فهذا أحد أبواب اليقين.

ومن ذلك: الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ما قدّر له سيساق إليه، ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملاً في الطلب ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما فاته، وأثمر هذا اليقين أيضاً جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة.

ومن ذلك: أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع، ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك، فكما يحرص على التحصيل للخبز طلباً للشبع فيحفظ قليله وكثيره، فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها، فكذلك يجتنب المعاصي قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها؛ فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة في التقوى والتحرّز عن كل السيئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ.

ومن ذلك: اليقين بأن الله تعالى مطَّلعٌ عليك في كل حال، ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأوّل وهو عدم الشك، وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لا يزال مطرقاً متأدباً في جميع أعماله متماسكاً محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب، ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره، فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة، فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة، وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها، وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرّعة من الأغصان، فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه. وسيأتي ذلك في ربع المنجيات إن شاء الله تعالى، وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن.

ومنها: أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته

وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكِّراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله، فالجواد عينه مرآته، وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والذلة والتواضع، وقد قيل: ما ألبس الله عبداً لبسة أحسن من خشوع في سكينة، فهي لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء، وأما التهافت في الكلام والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق، فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به، وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التستري رحمه الله: عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله وهم المفتون في الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية، وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم، وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة، فمن أحاط علمه بذلك عَظُمَ خوفه وظهر خشوعه. وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم. ويقال: ما آتى الله عبداً علماً إلا آتاه معه حلماً وتواضعاً وحسن خلق ورفقاً فذلك هو العلم النافع. وفي الأثر: من آتاه الله علماً وزهداً وتواضعاً وحسن خلق فهو إمام المتقين. وفي الخبر: «**إن من خيار أمتي قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويبكون سراً من خوف عذابه، أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة**»(١). وقال الحسن: الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله. وقال بشر بن الحارث: من طلب الرئاسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببغضه فإنه ممقوت في السماء والأرض. ويروى في الإسرائيليات: أن حكيماً صنف ثلاثمائة وستين مصنفاً في الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان قد ملأت الأرض نفاقاً ولم تزدني من ذلك بشيء وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً. فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة في الأسواق وواكل بني إسرائيل وتواضع في نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له الآن وفقت لرضاي. وحكى الأوزاعي رحمه الله عن بلال بن سعد أنه كان يقول: ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيذ بالله منه، وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوقين إلى الرئاسة فلا يمقتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطي. وروي أنه قيل: «يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: **اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ وَلاَ يَزَالُ فُوكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى**، قيل: فأي الأصحاب خير؟ قال ﷺ: **صَاحِبٌ إِنْ ذَكَرْتَ اللَّهَ أَعَانَكَ وَإِنْ نَسِيتَهُ ذَكَّرَكَ**، قيل: فأي الأصحاب شر؟ قال ﷺ: **صَاحِبٌ إِنْ نَسِيتَ لَمْ يُذَكِّرْكَ وَإِنْ ذَكَرْتَ لَمْ يُعِنْكَ**، قيل: فأي الناس أعلم؟ قال: **أَشَدُّهُمْ لِلَّهِ خَشْيَةً**، قيل: فأخبرنا بخيارنا نجالسهم؟ قال ﷺ: **الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ**، قيل: فأي الناس شر؟ قال: **اللَّهُمَّ غُفْراً**، قالوا: أخبرنا يا رسول الله، قال: **الْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا**»(٢)، وقال ﷺ: «**إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ أَمَاناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ فِكْراً فِي الدُّنْيَا، وَأَكْثَرَ النَّاسِ ضَحِكاً فِي الآخِرَةِ أَكْثَرُهُمْ بُكَاءً فِي**

---

(١) حديث: «**إن من خيار أمتي قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويبكون سراً من خوف عذابه..**» الحديث. أخرجه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان.

(٢) حديث: «قيل: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: **اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله..**» الحديث. لم أجده هكذا بطوله، وفي زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسلاً: «سئل النبي ﷺ أي الأعمال=

الدُّنيا، وَأَشَدُّ النَّاسِ فَرَحاً فِي الآخِرَةِ أَطْوَلُهُمْ حُزْناً فِي الدُّنْيا»[(١)]. وقال علي رضي الله عنه في خطبة له: ذمتي رهينة وأنا به زعيم إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظمأ على الهدى سنخ أصل، وإنَّ أجهل الناس من لا يعرف قدره، وإنَّ أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمش علماً أغار به في أغباش الفتنة سماه أشباه، له من الناس وأرذالهم عالماً ولم يعش في العلم يوماً سالماً، تكثَّر واستكثر فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهى، حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلماً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المهمات هيأ لها من رأيه حشو الرأي فهو من قطع الشبهات في مثل نسج العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب؟ ركّاب جهالات خبّاط عشوات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعضُّ على العلم بضرس قاطع فيغنم، تبكي منه الدماء وتستحل بقضائه الفروج الحرام لا مليء والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فوّض إليه، أولئك الذين حلت عليهم المثلات وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا. وقال علي رضي الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب. وقال بعض السلف: العالم إذا ضحك ضحكة مجّ من العلم مجة. وقيل: إذا جمع المعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم: الصبر والتواضع وحسن الخلق. وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المعلم: العقل والأدب وحسن الفهم. وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرئاسة.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل[(٢)]. وفي خبر آخر بمثل معناه: كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن وسيأتي بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده وحقوقه، يقولون: قرأنا فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا؟ فذلك حظهم[(٣)]. وفي لفظ: أولئك شرار هذه الأمة. وقيل: خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات في كتاب الله عزّ وجلّ: الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد، فأما الخشية فمن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأما الخشوع فمن قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩] وأما التواضع فمن قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأما الزهد فمن

= أفضل؟ قال: **أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى»** وللدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً: **«ألا إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء»** وقد تقدم.

(١) حديث: **«إن أكثر الناس أمناً يوم القيامة أكثرهم خوفاً في الدنيا..»** الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث ابن عمر: «لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن...» الحديث. أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقي.

(٣) حديث: «كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن..» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث جندب مختصراً مع اختلاف.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠]، ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فقيل له: ما هذا الشرح؟ فقال: «**إِنَّ النُّورَ إِذَا قُذِفَ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ**» قيل: فهل لذلك من علامة؟ قال ﷺ: «**نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الْخُلُودِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**»(١).

ومنها: أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر، فإن أصل الدين التوقي من الشر، ولذلك قيل:

عَرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقِّيهِ ... ومَن لا يعرفِ الشرَّ مِنَ النَّاسِ يقعْ فيهِ

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وإنما الشأن في معرفة ما لا يفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة، وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات في الحكومات والأقضية ويتعبون في وضع صور تنقضي الدهور ولا تقع أبداً، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم، وما أبعد عن السعادة من باع مُهِمّ نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثاراً للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه وشَرَهاً في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق، وجزاؤه من الله أن لا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق، بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الخسران المبين، ولقد كان الحسن البصري رحمه الله أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هدياً من الصحابة رضي الله عنهم، اتفقت الكلمة في حقه على ذلك، وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس، وقد قيل له: يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته؟ قال: من حذيفة بن اليمان. وقيل لحذيفة: نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته؟ قال: خصني به رسول الله ﷺ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه(٢). وقال مرة: فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير. وفي لفظ آخر: كانوا يقولون: يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا؟ يسألونه عن فضائل الأعمال، وكنت أقول: يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا؟ فلما رآني أسأله عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم. وكان حذيفة رضي الله عنه أيضاً قد خُصّ بعلم المنافقين وأُفرِدَ بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضي الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة، وكان يُسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقي منهم ولا يخبر بأسمائهم، وكان عمر رضي الله عنه يسأل عن نفسه هل

---

(١) حديث: «لما تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] . .» الحديث. أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث حذيفة: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر . .» الحديث. أخرجاه مختصراً.

يعلم فيه شيئاً من النفاق؟ فبرَّأه من ذلك، وكان عمر رضي الله عنه إذا دعي إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك، وكان يسمى صاحب السر. فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة؛ لأن القلب هو الساعي إلى قرب الله تعالى، وقد صار هذا الفن غريباً مندرساً وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد. وقيل: هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق؟ ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات، ولقد صدق من قال:

الطرق شتَّى وطرق الحقِّ مفردة ... والسالكون طريق الحقِّ أفرادُ
لا يُعرفون ولا تُدرى مقاصدهم ... فهم على مهل يمشون قُصَّاد
والناس في غفلة عما يُراد بهم ... فجلُّهم عن سبيل الحقِّ رُقَّادُ

وعلى الجملة؛ فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم، فإن الحق مرّ والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة، فإن ذلك نزع للروح على الدوام، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء، وينزل منزلة من جعل مدّة العمر صومه فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت، ومتى تكثر الرغبة في هذا الطريق؟ ولذلك قيل: إنه كان في البصرة مائة وعشرون متكلماً في الوعظ والتذكير ولم يكن من يتكلم في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة: منهم ـ سهل التستري والصبيحي وعبدالرحيم ـ وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذي لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة، لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما يبذل للعموم فأمره قريب.

ومنها: أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله، وإنما يقلد الصحابة رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ، ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع ﷺ فعله، وفعله لا بد وأن يكون لسر فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالماً. ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم؛ فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار. ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعاً مقلداً فلا ينبغي أن يقلد غيره. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله ﷺ (١)، وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أُبيّ بن كعب ثم خالفهما في الفقه والقراءة جميعاً. وقال بعض السلف: ما جاءنا عن رسول الله ﷺ قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم فنأخذ منه ونترك، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال، وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله ﷺ واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرائن، فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوّة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ. وإذا كان الاعتماد على

---

(١) حديث ابن عباس «ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله ﷺ» أخرجه الطبراني من حديثه يرفعه بلفظه: «من قوله ويدع».

المسموع من الغير تقليداً غير مرضي فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد، بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين، وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضي الله عنهم، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين، بل كان الأوّلون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا: احفظوا كما كنا نحفظ. ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم تصحيف القرآن في مصحف وقالوا: كيف نفعل شيئاً ما فعله رسول الله ﷺ؟ وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا: نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم، حتى أشار عمر رضي الله عنه وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفاً من تخاذل الناس وتكاسلهم، وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو قراءة من المتشابهات، فانشرح صدر أبي بكر رضي الله عنه لذلك فجمع القرآن في مصحف واحد.

وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك في تصنيفه الموطأ ويقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضي الله عنهم. وقيل: أوّل كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضي الله عنهم بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سنناً مأثورة نبوية، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس، ثم جامع سفيان الثوري. ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض في الجدال والغوص في إبطال المقالات، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها، فأخذ علم اليقين في الاندراس من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكائد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقلون، فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً؛ وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم، فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره، ولم تكن سيرة الصحابة رضي الله عنهم وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم، فاستمرّ عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطوياً، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم: فلان أعلم أم فلان؟ يقولون: فلان أكثر علماً وفلان أكثر كلاماً. فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام.

هكذا ضعف الدين في قرون سالفة، فكيف الظن بزمانك هذا؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنسبته إلى الجنون، فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت.

ومنها: أن يكون شديد التوقي من مُحْدِثاتِ الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يغرنّه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم، وما كان فيه أكثر همهم أكان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولي الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة؟ أم كان في الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن، واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكائد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن؟ واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين. ولذلك قال علي رضي الله عنه: خيرنا أتبعنا لهذا الدين، لما قيل له: خالفت فلاناً. فلا ينبغي أن يكترث بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله ﷺ، فإن الناس رأوا رأياً فيما هم فيه لميل طباعهم إليه ولم

تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه. ولذلك قال الحسن: محدثان أحدثا في الإسلام: رجل ذو رأي سيّيءٍ زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوهما إلى النار. وإن رجلاً أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه، وصاحب هوًى يدعوه إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يحن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتفي آثارهم متعرّض لأجر عظيم فكذلك كونوا.

وقد روي عن ابن مسعود موقوفاً ومسنداً أنه قال: «إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ الْكَلَامُ وَالْهَدْيُ، فَأَحْسَنُ الْكَلَامُ كَلَامُ الله تَعَالَىٰ، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيَ رَسُولِ الله تَعَالَىٰ ﷺ، أَلاَ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتُ الأُمُورِ، فَإِنَّ شَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، أَلاَ لاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ، أَلاَ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، أَلا إِنَّ الْبَعِيدَ مَا لَيْسَ بِآتٍ»(١).

وفي خطبة رسول الله ﷺ: **«طُوبَىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَخَالَطَ أَهْلَ الفِقْهِ وَالحِكَمِ وَجَانَبَ أَهْلَ الزَّلَلِ وَالمَعْصِيَةِ. طُوبَىٰ لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وَصَلُحَتْ سَرِيرَتُهُ وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ. طُوبَىٰ لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَأَنْفَقَ الفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ وَلَمْ يَعْدُهَا إِلَىٰ بِدْعَةٍ»**(٢).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: حسن الهدى في آخر الزمان خيرٌ من كثير من العمل، وقال: أنتم في زمان خيركم فيه المسارع في الأمور وسيأتي بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات. وقد صدق فمن لم يتوقف في هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه هلك كما هلكوا. وقال حذيفة رضي الله عنه: أعجب من هذا أنّ معروفكم اليوم منكر زمانٍ قد مضى، وأنّ منكركم اليوم معروف زمانٍ قد أتى، وإنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به. ولقد صدق فإنّ أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات في عصر الصحابة رضي الله عنهم؛ إذ من غرر المعروفات في زماننا تزيين المساجد وتنجيدها وإنفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها، ولقد كان يعدّ فرش البواري في المسجد بدعة، وقيل إنه من محدثات الحجاج. فقد كان الأوّلون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً. وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمون أنه من أعظم القربات، وقد كان من المنكرات. ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان، ومن ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب، مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك. ولقد صدق ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعاً للهوى. وقد كان أحمد بن حنبل يقول: تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ما أقل العلم فيهم والله المستعان. وقال مالك بن أنس رحمه الله: لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم، ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال، ولكن أدركتهم

---

(١) حديث ابن مسعود «إنما هما اثنتان الكلام والهدى» الحديث. أخرجه ابن ماجه.

(٢) حديث: **«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق مالاً اكتسبه..»** الحديث. أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف، والبزار من حديث أنس أول الحديث وآخره، والطبراني والبيهقي من حديث ركب المصري وسط الحديث وكلها ضعيفة.

يقولون: مستحب ومكروه (ومعناه أنهم كانوا ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان فحشه ظاهراً). وكان هشام بن عروة يقول: لا تسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فإنهم قد أعدوا له جواباً، ولكن سلوهم عن السنة، فإنهم لا يعرفونها. وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول: لا ينبغي لمن أُلهِمَ شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما في نفسه، وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب، وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقاً فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار. ولهذا لما أحدث مروان المنبر في صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال: يا مروان ما هذه البدعة؟ فقال: إنها ليست ببدعة إنها خير مما تعلم، إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت، فقال أبو سعيد: والله لا تأتون بخير مما أعلم أبداً ووالله لا صليت وراءك اليوم، وإنما أنكر ذلك عليه «لأن رسول الله ﷺ كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر»(١). وفي الحديث المشهور: «مَنْ أَحْدَثَ فِي دِيننا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(٢) وفي خبر آخر: «مَنْ غَشَّ أُمَّتِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، قيل: يا رسول الله وما غش أمتك؟ قال: أَنْ يَبْتَدِعَ بِدْعَةً يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا»(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكاً يُنَادِي كُلَّ يَوْم مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ تَنَلْهُ شَفَاعَتُهُ»(٤)، ومثال الجاني على الدين بإبداع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنباً، مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معينة، وذلك قد يغفر له فأما في قلب الدولة فلا. وقال بعض العلماء: ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف. وقال غيره: الحق ثقيل من جاوزه ظلم ومن قصر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى. وقال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالنَّمَطِ الأَوْسَطِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ العَالِي وَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ التَّالِي»(٥)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها، قال الله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، فكل ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو. وحكي عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئاً وقد أتعبونا! فقال: إنكم لا تقدرون عليهم قد صحبوا

---

(١) حديث: «كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا» أخرجه الطبراني من حديث البراء ونحوه في يوم الأضحى ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف، رواه في الصغير من حديث سعد القرظي: «كان إذا خطب في العيدين خطب على قوس وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا» وهو عند ابن ماجه بلفظ: «كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس. .» الحديث.

(٢) حديث: «من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد» متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «في أمرنا ما ليس منه» وعند أبي داود «فيه».

(٣) حديث: «من غش أمتي فعليه لعنة الله. .» الحديث. أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أنس بسند ضعيف جداً.

(٤) حديث: «إن لله ملكاً ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعته» لم أجد له أصلاً.

(٥) حديث: «عليكم بالنمط الأوسط. .» الحديث. أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث موقوفاً على علي بن أبي طالب ولم أجده مرفوعاً.

نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم، ولكن سيأتي بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم. فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين فقالوا: ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات! فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئاً لصحة توحيدهم واتباعهم لسنّة نبيهم، ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تقرّ أعينكم بهم تلعبون بهم لعباً وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم، إن استغفروا لم يغفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات، قال: فجاء قوم بعد القرن الأوّل فبث فيهم الأهواء وزيّن لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها، فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاؤوا.

فإن قلت: من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدّثه بذلك؟ فاعلم أنّ أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة، وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة ـ كما يكون في المنام ـ وهذا أعلى الدرجات، وهي من درجات النبوّة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة. فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك، ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول، فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى، ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجاً عن الدين بالكلية. قال بعض العارفين: إنما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء. قال سهل التستري رضي الله عنه: إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة. وكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصغى إلى قوله، بل ينبغي أن يتهم في كل ما يقول لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ويدفع ما لا يوافق محبوبه، ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. والعوام العصاة أسعد حالاً من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء؛ لأن العامي العاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب، وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر؛ بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت. وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلاّ من عصمه الله تعالى وانقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لذي الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم ـ كما سيأتي في كتاب العزلة بيانه إن شاء الله تعالى ـ ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي: ما ظنك بمن بقي لا يجد أحداً يذكر الله تعالى معه إلا كان آثماً أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله؟ ولقد صدق فإن مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر وأن أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيده، ولو تأمّل هذا المسكين وعلم أنّ إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرئاسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر، فيكون هو معيناً له على ذلك ورداً وظهيراً ومهيئاً لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق. فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو، ولذلك لا يرخص له في البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق.

فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة، تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف؛ فكن أحد رجلين إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به، وإياك أن تكون

الثالث فتلبس على نفسك بأن تبدل آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين. نعوذ بالله من خدع الشيطان، فبها هلك الجمهور. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور.

* * *

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل:

اعلم: أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل؟ حتى إن أعظم البهائم بدناً وأشدّها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل. ولذلك قال ﷺ: «**الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ**»[١] وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوّته، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله. ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع. ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله ﷺ فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرّته الكريمة هابوه وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوّة، وإن كان ذلك باطناً في نفسه بطون العقل فشرف العقل ما يدرك بالضرورة. وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه، وقد سماه الله نوراً في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النّور: ٣٥]، وسمي العلم المستفاد منه روحاً ووحياً وحياة فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْقِلُوا عَنْ رَبِّكُمْ وَتَوَاصَوْا بِالعَقْلِ تَعْرِفُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُنْجِدُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ العَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ دَمِيمَ المَنْظَرِ حَقِيرَ الخَطَرِ دَنِيءَ المَنْزِلَةِ رَثَّ الهَيْئَةِ، وَأَنَّ الجَاهِلَ مَنْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ جَمِيلَ المَنْظَرِ عَظِيمَ الخَطَرِ شَرِيفَ المَنْزِلَةِ حَسَنَ الهَيْئَةِ فَصِيحاً نَطُوقاً فَالقِرَدَةُ وَالخَنَازِيرُ أَعْقَلُ عِنْدَ**

الباب السابع

في العقل

(١) حديث: «**الشيخ في قومه كالنبي في أمته**»، أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمرو، وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف.

اللَّهِ تَعالَىٰ مِمَّنْ عَصاهُ، وَلا تَغْتَرَّ بِتَعْظِيمِ أَهْلِ الدُّنيا إِيّاهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ»[١]. وقال ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ العَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي ما خَلَقْتُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، بِكَ آخُذُ وبِكَ أُعْطِي وَبِكَ أُثِيبُ وَبِكَ أُعَاقِبُ»[٢].

فإن قلت: فهذا العقل إن كان عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام؟ وإن كان جوهراً فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز؟ فاعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: أثنى قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا فقال ﷺ: «كَيْفَ عَقْلُ الرَّجُلِ؟» فقالوا: نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال ﷺ: «إِنَّ الأَحْمَقَ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فُجُورِ الفَاجِرِ، وَإِنَّما يَرْتَفِعُ العِبَادُ غَداً فِي الدَّرَجَاتِ الزُّلْفَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ»[٣].

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اكْتَسَبَ رَجُلٌ مِثْلَ فَضْلِ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَىٰ الهُدَىٰ وَيَرُدُّهُ عَنْ رَدَىً وَما تَمَّ إِيمَانُ عَبْدٍ وَلا اسْتَقَامَ دِينُهُ حَتَّىٰ يَكْمُلَ عَقْلُهُ»[٤]. وقال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ وَلا يَتِمُّ لِرَجُلٍ حُسْنُ خُلُقِهِ حَتَّىٰ يَتِمَّ عَقْلُهُ فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَمَّ إِيمَانُهُ وَأَطَاعَ رَبَّهُ وَعَصَىٰ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ»[٥]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ المُؤْمِنِ عَقْلُهُ فَبِقَدْرِ عَقْلِهِ تَكُونُ عِبَادَتُهُ أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الفُجَّارِ فِي النَّارِ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: ١٠]»[٦]، وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لتميم الداري: «ما السؤدد فيكم؟ قال: العقل: قال: صدقت سألت رسول الله ﷺ كما سألتك فقال كما قلت، ثم قال: سَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ما السُّؤْدَدُ؟ فَقَالَ: العَقْلُ»[٧] وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كثرت المسائل يوماً على رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةً وَمَطِيَّةُ المَرْءِ العَقْلُ، وَأَحْسَنُكُمْ دَلالَةً وَمَعْرِفَةً بِالحُجَّةِ أَفْضَلُكُمْ عَقْلاً»[٨]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما رجع

---

(١) حديث: «يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل..» الحديث. أخرجه داود بن المجبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة، وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود.

(٢) حديث: «أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل..» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين.

(٣) حديث أنس: «أثنى قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا في الثناء فقال: كيف عقل الرجل..» الحديث. أخرجه ابن المجبر في العقل بتمامه والترمذي والحكيم في النوادر مختصراً.

(٤) حديث عمر: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل..» الحديث. أخرجه ابن المجبر في العقل وعنه الحارث بن أبي أسامة.

(٥) حديث: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله..» الحديث. أخرجه ابن المجبر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذي مختصر دون قوله: «ولا يتم» من حديث عائشة وصححه.

(٦) حديث: أبي سعيد «لكلّ شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله...» الحديث. أخرجه ابن المجبر وعنه الحارث.

(٧) حديث عمر أنه قال لتميم الداري: «ما السؤدد فيكم، قال: العقل قال: صدقت سألت رسول الله ﷺ...» الحديث. أخرجه ابن المجبر وعنه الحارث.

(٨) حديث البراء «كثرت المسائل على رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إن لكل شيء مطية..» الحديث. أخرجه ابن المجبر وعنه الحارث.

رسول الله ﷺ من غزوة أُحُد سمع الناس يقولون: فلان أشجع من فلان، وفلان أبلى ما لم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا هٰذا فَلا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَىٰ قَدْرِ ما قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ العَقْلِ وَكَانَتْ نُصْرَتُهُمْ وَنِيَّتُهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ فَأُصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أُصِيبَ عَلَىٰ مَنَازِلَ شَتَّىٰ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ اقْتَسَمُوا المَنَازِلَ عَلَىٰ قَدْرِ نِيَّاتِهِمْ وَقَدْرِ عُقُولِهِمْ»(١). وعن البراء بن عازب أنه ﷺ قال: «جَدَّ المَلائِكَةُ وَاجْتَهَدُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِالعَقْلِ وَجَدَّ المُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ فَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْفَرُهُمْ عَقْلاً»(٢)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: «بِالعَقْلِ»، قلت: وفي الآخرة؟ قال: «بِالعَقْلِ»، قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ فقال ﷺ: «يَا عَائِشَةُ وَهَلْ عَمِلُوا إِلاَّ بِقَدْرِ ما أَعْطَاهُمْ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ العَقْلِ؟ فَبِقَدْرِ ما أُعْطُوا مِنَ العَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ وَبِقَدْرِ ما عَمِلُوا يُجْزَوْنَ»(٣)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَعُدَّةٌ وَإِنَّ آلَةَ المُؤْمِنِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ المَرْءِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الدِّينِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ غَايَةٌ وَغَايَةُ العُبَّادِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ وَدَاعِي العَابِدِينَ العَقْلُ، وَلِكُلِّ تَاجِرٍ بِضَاعَةٌ وَبِضَاعَةُ المُجْتَهِدِينَ العَقْلُ، وَلِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ قَيِّمٌ وَقَيِّمُ بُيُوتِ الصِّدِّيقِينَ العَقْلُ، وَلِكُلِّ خَرَابٍ عِمَارَةٌ وَعِمَارَةُ الآخِرَةِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ امْرِىءٍ عَقِبٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُ بِهِ وَعَقِبُ الصِّدِّيقِينَ الَّذِي يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُونَ بِهِ العَقْلُ، وَلِكُلِّ سَفَرٍ فُسْطَاطٌ وَفُسْطَاطُ المُؤْمِنِينَ العَقْلُ»(٤)، وقال ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ المُؤْمِنِينَ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ نَصَبَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَصَحَ لِعِبَادِهِ وَكَمُلَ عَقْلُهُ وَنَصَحَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ وَعَمِلَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ»(٥)، وقال ﷺ: «أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ خَوْفاً وَأَحْسَنُكُمْ فِيما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ نَظَراً وَإِنْ كَانَ أَقَلَّكُمْ تَطَوُّعاً»(٦).

بيان حقيقة العقل وأقسامه:

اعلم: أن الناس اختلفوا في حدّ العقل وحقيقته وذُهِلَ الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم. والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان ـ كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدّة ـ وما يجري هذا المجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حدّ واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

---

(١) حديث أبي هريرة: «لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة أحد سمع الناس يقولون: كان فلان أشجع من فلان..» الحديث. أخرجه ابن المجبر.

(٢) حديث البراء بن عازب: «جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل..» الحديث. أخرجه ابن المجبر كذلك وعنه الحارث في مسنده، ورواه البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذي رواه ابن المجبر.

(٣) حديث عائشة: «قالت: قلت: يا رسول الله، بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: بالعقل..» الحديث. أخرجه ابن المجبر والترمذي الحكيم في النوادر نحوه.

(٤) حديث ابن عباس: «لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل..» الحديث. أخرجه ابن المجبر وعنه الحارث.

(٥) حديث: «إن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله..» الحديث. أخرجه ابن المجبر من حديث ابن عمر، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسناد آخر ضعيف.

(٦) حديث: «أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً..» الحديث. أخرجه ابن المجبر من حديث أبي قتادة.

فالأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعدّ به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حدّ العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا، ورد العقل إلى مجرّد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية، فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية، ولو جاز أن يسوّى بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية، فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمار والبهائم لجاز أن يسوي بين الحمار والجماد في الحياة، ويقال: لا فرق إلا أن الله عزّ وجلّ يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة، فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتاً لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه، فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد. وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقته للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة، فكذا مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزةٍ يُعَبّر عنها بالعقل وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة. وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية، فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر، فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة.

الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو أيضاً صحيح في نفسه؛ لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإنَّ مَنْ حَنَّكَتْهُ التجاربُ وهذبَتْهُ المذاهبُ يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غير جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان، **فالأول**: هو الأس والسنخ والمنبع. **والثاني**: هو الفرع الأقرب إليه. **والثالث**: فرع الأول والثاني؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب. **والرابع**: هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب. ولذلك قال علي كرّم الله وجهه:

رأيتُ العقلَ عقلين ... فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفعُ مسموعٌ ... إذا لم يكُ مطبوعُ
كما لا تنفعُ الشمسُ ... وضَوْءُ العينِ ممنوعُ

والأول: هو المراد بقوله ﷺ: «مَا خَلَقَ الله عَزَّ وَجَلَّ خَلْقاً أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنَ العَقْلِ»(١)، والأخير هو المراد بقوله ﷺ: «إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ بِأَبْوَابِ البِرِّ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ»(٢)، وهو المراد بقول رسول الله ﷺ لأبي الدرداء رضي الله عنه: «ازْدَدْ عَقْلاً تَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْباً، فقال: بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك؟ فقال: اجْتَنِبْ مَحَارِمَ الله تَعَالَى وَأَدِّ فَرَائِضَ الله سُبْحَانَهُ تَكُنْ عَاقِلاً، وَاعْمَلْ بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الأَعْمَالِ تَزْدَدْ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا رِفْعَةً وَكَرَامَةً وَتَنَلْ فِي آجِلِ الْعُقْبَىٰ بِهَا مِنْ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْبَ وَالعِزَّ»(٣)، وعن سعيد بن المسيب: أن عمر وأُبيّ بن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله من أعلم الناس؟ فقال ﷺ «العَاقِلُ» قالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: «العاقل». قالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: «العَاقِلُ». قالوا: أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته؟ فقال ﷺ: «﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، إِنَّ العَاقِلَ هُوَ المُتَّقِي وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيا خَسِيساً ذَلِيلاً»(٤). قال ﷺ في حديث آخر: «إِنَّما العَاقِلُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَصَدَّقَ رُسُلَهُ وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ»(٥)، ويشبه أن يكون أصل الاسم في أصل اللغة تلك الغريزة وكذلك في الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشيء بثمرته فيقال: العلم هو الخشية والعالم من يخشى الله تعالى، فإن الخشية ثمرة العلم فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة، ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة.

والمقصود: أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها، ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأوّل، والصحيح وجودها بل هي الأصل. وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت، ومثاله الماء في الأرض فإنه يظهر بحفر البئر ويجتمع ويتميز بالحس لا بأن يساق إليها شيء جديد، وكذلك الدهن في اللوز، وماء الورد في الورد، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقر وإلى جاحد، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، معناه إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم

---

(١) حديث: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل» أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة.

(٢) حديث: «إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي: «إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب» وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: «ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً . .» الحديث. قاله لأبي الدرداء. أخرجه ابن المجبر ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة والترمذي الحكيم في النوادر.

(٤) حديث ابن المسيب: «أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، من أعلم الناس فقال: العاقل . .» الحديث. أخرجه ابن المجبر.

(٥) حديث: «إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته» أخرجه ابن المجبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلاً وفيه قصة.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]، أي كل آدمي فُطِرَ على الإيمان بالله عزّ وجلّ، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه، أعني أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك. ثم لما كان الإيمان مركوزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من أعرض فنسي وهم الكفار، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها. ولذلك قال عزّ وجلّ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢١]. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦ﴾ [المَائدة: ٧] . ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القَمَر: ١٧]، وتسمية هذا النمط تذكراً ليس ببعيد، فكأنّ التذكر ضربان: **أحدهما**: أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود. **والآخر**: أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة. وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه[1] السماع والتقليد دون الكشف والعيان، ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات، ويتعسف في تأويل التذكر بإقرار النفوس أنواعاً من التعسفات، ويتخايل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار ويعتقد فيها التهافت. ومثاله مثال الأعمى الذي يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة في الدار فيقول: ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها؟ فيقال له: إنها في مواضعها وإنما الخلل في بصرك. فكذلك خلل البصيرة يجري مجراه وأطم منه وأعظم؛ إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر من عمى الفرس ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر. قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النَّجم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعَام: ٧٥]، الآية، وسمى ضده عمى فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسرَاء: ٧٢]، وهذه الأمور التي كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية. وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة لم يعلق به من الدين إلا قشوره وأمثلته دون لبابه وحقائقه. فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها.

بيان تفاوت النفوس في العقل:

قد اختلف الناس في تفاوت العقل، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قلّ تحصيله، بل الأَوْلى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق. والحق الصريح فيه أن يقال: إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى **القسم الثاني**: وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً، وكذا سائر النظائر وكل ما يدركه إدراكاً محققاً من غير شك، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها، أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه، فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرئاسة تزداد قوّة بالكبر لا ضعفاً. وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة وقد لا يقدر من يساويه في

---

(١) قوله: «يستروجه» من الرواج أي يكون السماع والتقليد رائجاً عنده، فتأمل. اهـ. مصححه.

العقل على ذلك إذا لم يكن طبيباً وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة، لكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جنداً للعقل وعدة له في قمع الشهوات وكسرها. وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوّة علمه بضرر المعاصي، وأعني به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان. فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل، وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلاً أيضاً، فإنه يقوي غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه، وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشدّ.

وأما القسم الثالث: وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة وإما تفاوتاً في الممارسة، فأما الأوّل وهو الأصل أعني الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده فإنه مثل نور يشرق عل النفس ويطلع صبحه ومبادئ إشراقه عند سن التمييز، ثم لا يزال ينمو ويزداد نمواً خفي التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس. وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر، بل سنّة الله عزّ وجلّ جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد، حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج، وكذلك جميع القوى والصفات، ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل، ومن ظن أن عقل النبي ﷺ مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفيهم إلا بعد تعب طويل من المعلم، وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة، وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النُّور: ٣٥]، وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام، وعن مثله عبر النبي ﷺ حيث قال: **«إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي: أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُه وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُجْزِيٌّ بِهِ»**(١). وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر عن هذا بالنفث في الروع. ودرجات الوحي كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة. ولا تظنن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خالياً عنها، فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبياً ولا ولياً، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقياً. وانقسام الناس إلى من يتنبّه من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتنبيهٍ وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضاً ولا التنبيه، كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسهٰ عيوناً وإلى ما يحتاج إلى

(١) حديث: «إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه..» الحديث. أخرجه الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه، والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف.

الحفر ليخرج إلى القنوات وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل. ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل، ما روي: أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه سأل النبي ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عِظَم العرش وأن الملائكة قالت: «يَا رَبَّنَا هَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَعْظَمَ مِنَ العَرْشِ؟ قَالَ: نَعَمْ، العَقْلَ، قَالُوا: وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ؟ قَالَ: هَيْهَاتَ لا يُحَاطُ بِعِلْمِهِ، هَلْ لَكُمْ عِلْمٌ بِعَدَدِ الرَّمْلِ؟ قَالُوا: لا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَإِنِّي خَلَقْتُ العَقْلَ أَصْنَافاً شَتَّىٰ كَعَدَدِ الرَّمْلِ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّةً وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّتَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ الثلاثَ وَالأَرْبَعَ وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ فَرَقاً وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ وَسْقاً وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ»[1].

فإن قلت: فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات، وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرّروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب، فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم. فأما نور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله، فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه، وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضاً مذموماً ولا يلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإنا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور، وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ. فهذا القدر كاف في بيان العقل والله أعلم.

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنّه،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى
من أهل الأرض والسماء. يتلوه إن شاء الله تعالى
كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أوّلاً وآخراً

(١) حديث ابن سلام: «سئل النبي ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت: «يا رب خلقت شيئاً أعظم من العرش..» الحديث. أخرجه ابن المجبر من حديث أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فنقول وبالله التوفيق: الحمد لله المبدىء المعيد الفعال لما يريد ذي العرش المجيد والبطش الشديد، الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد، المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، المعرّف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له صمد لا ضدّ له منفرد لا ندّ له، وأنه واحد قديم لا أول له أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [الحديد: ٣].

التنزيه: وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولا هو مثل شيء. وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات. وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواء منزّهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال. لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته. وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلى تخوم الثريا، فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى. وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سَبَإ: ٤٧]، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء. تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن يَخْلِق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان. وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته، وأنه مقدّس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت جلاله منزهاً عن الزوال

وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال. وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئي الذات بالأبصار نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار وإتماماً منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

الحياة والقدرة: وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر، والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون في قبضته. وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع. خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته.

العلم: وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حركة الذرّ في جو الهواء ويعلم السر وأخفى، ويطلع عل هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال.

الإرادة: وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجري في الملك والملكوت قليلٌ أو كثيرٌ، صغيرٌ أو كبيرٌ، خيرٌ أو شرٌ، نفعٌ أو ضرٌ، إيمانٌ أو كفرٌ، عرفانٌ أو نكرٌ، فوزٌ أو خسرانٌ، زيادةٌ أو نقصانٌ، طاعةٌ أو عصيانٌ إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر، بل هو المبدىء المعيد الفعال لما يريد لا رادَّ لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوّة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته، فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك. وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفاً بها مريداً في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدَّرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدّم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدّل ولا تغير. دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

السمع والبصر: وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ولا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق، ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام. ويرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان، كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة؛ إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

الكلام: وأنه تعالى متكلم آمر، ناه واعد متوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان. وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام. وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق. وأن موسى ﷺ سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض. وإذا كانت له هذه الصفات كان حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً، متكلماً بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرّد الذات.

الأفعال: وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنه حكيم في أفعاله عادل في أقضيته، لا يقاس عدله بعدل العباد؛ إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئاً إذ كان فيه موجوداً وحده ولم يكن معه غيره، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهاراً لقدرته وتحقيقاً لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته. وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطوّل بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادراً على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب، ولو فعل ذلك لكان منه عدلاً ولم يكن منه قبيحاً ولا ظلماً. وأنه عزّ وجلّ يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق. وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة، فبلّغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاؤوا به.

معنى الكلمة الثانية: وهي الشهادة للرسل بالرسالة وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمداً ﷺ برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرّره منها، وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول: «لا إله إلا الله» ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك: «محمد رسول الله» وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة. وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، **وأوّله**: سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟[1] وهما فتانا القبر[2]، وسؤالهما أوّل فتنة بعد الموت[3]. وأن يؤمن بعذاب القبر[4]، وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء. وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى، والصنج يومئذ مثاقيل الذرّ والخردل تحقيقاً لتمام العدل، وتوضع صحائف

كتاب قواعد العقائد

(١) حديث: «سؤال منكر ونكير» أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة: «**إذا قبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير**» وفي الصحيحين من حديث أنس: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه..**» الحديث.

(٢) حديث: «إنهما فتانا القبر» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبدالله بن عمرو: «أن رسول الله ﷺ ذكر فتاني القبر فقال عمر: أترد علينا عقولنا؟..» الحديث.

(٣) حديث: «إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت» لم أجده.

(٤) حديث: «عذاب القبر» أخرجاه من حديث عائشة: «**إنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم..**» الحديث. ولهما من حديث أبي هريرة وعائشة: «استعاذته ﷺ من عذاب القبر».

الحسنات في صورة حسنة في كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله، وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله[١] . وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوي بهم إلى النار، وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار[٢] . وأن يؤمن بالحوض المورود حوض محمد ﷺ يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط[٣] . من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، عرضه مسيرة شهر ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل. حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء[٤] . فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر[٥] . وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقرّبون[٦] . فيسأل الله تعالى من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن

---

(١) حديث: «الإيمان بالميزان ذي الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طباق السموات والأرض» أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر: «**قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان...**» الحديث. وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان، ولأن داود من حديث عائشة: «**أما في ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل؟**» زاد ابن مردويه في تفسيره «قالت عائشة: أي حتى قد علمنا الموازين هي الكفتان فيوضع في هذه الشيء ويوضع في هذه الشيء فترجح إحداهما وتخف الأخرى» والترمذي وحسنه من حديث أنس: «**واطلبني عند الميزان**» ومن حديث عبدالله بن عمر في حديث البطاقة: «**فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة..**» الحديث. وروى ابن شاهين في كتاب السنة عن ابن عباس: «**كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها**».

(٢) حديث: «الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر» أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة: «**ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم**» ولهما من حديث أبي سعيد: «**ثم يضرب الجسر على جهنم**» زاد مسلم: «قال أبو سعيد: **إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف**» ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب، والبعث من حديث أنس وضعفه، وفي البعث من رواية عبدالله بن عمير مرسلاً، ومن قول ابن مسعود: «**الصراط كحد السيف**» وفي آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع.

(٣) حديث: «الإيمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون» أخرجه مسلم من حديث أنس في نزول: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]: «**هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم**». ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة بن عامر وجندب وسهل بن سعد: «**أنا فرطكم على الحوض**» ومن حديث ابن عمر: «**أما لكم حوض كما بين جرباء وأدرج**». وقال الطبراني: «**كما بينكم وبين جرباء وأدرح**» وهو الصواب. وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبدالله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وحابس بن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء.

(٤) حديث: «**من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، عرضه مسيرة شهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء**» من حديث عبدالله بن عمرو. ولهما من حديث أنس: «**فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء**» وفي رواية لمسلم: «**أكثر من عدد النجوم**».

(٥) حديث: «**فيه ميزابان يصبان من الكوثر**» أخرجه مسلم من حديث ثوبان: «**يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق**».

(٦) حديث: «الإيمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقش في الحساب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب» أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر فقال: «يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت والبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله..**» الحديث. وهو عند مسلم دون ذكر: «**الحساب**» وللشيخين من حديث عائشة: «**من نوقش الحساب عذب**، قالت: قلت: يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝﴾ [الانشقاق: الآية ٨]، قال: «**ذلك العرض**». ولهما من حديث ابن عباس: «**عرضت علي**=

تكذيب المرسلين[١]، ويسأل المبتدعة عن السنة[٢]، ويسأل المسلمين عن الأعمال[٣]. وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحّدٌ بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار موحد[٤]. وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى، ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عزّ وجلّ فلا يخلد في النار مؤمن، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان[٥]. وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأنّ أفضل الناس بعد النبيّ ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم[٦]. وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ عليهم أجمعين[٧].

= الأمم فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ولمسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب». زاد البيهقي في البعث من حديث عمرو بن حزم: «وأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً». زاد أحمد من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر بعده هذه الزيادة فقال: «فهلا استزدته قال: قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً» قال عمر: فهلا استزدته قال: «قد استزدته فأعطاني هكذا ـ وفرج عبدالرحمن بن أبي بكر بين يديه ـ...» الحديث.

(١) حديث: «سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد: «يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول نعم، فيقال لأمته فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك فيقول: محمد وأمته..» الحديث. ولابن ماجه: «يجيء النبي يوم القيامة...» الحديث. وفيه: «فيقال له: هل بلغت قومك...» الحديث.

(٢) حديث: «سؤال المبتدعة عن السنة» رواه ابن ماجه من حديث عائشة: «من تكلم بشيء من القدر سئل عنه يوم القيامة» ومن حديث أبي هريرة: «ما من داع يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لازماً لدعوة ما دعا إليه وإن دعا رجل رجلاً» وإسنادهما ضعيف.

(٣) حديث: «سؤال المسلمين عن الأعمال» أخرجه أصحاب السنن، من حديث أبي هريرة: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته..» الحديث. وسيأتي في الصلاة.

(٤) حديث: «إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه» أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة في حديث طويل: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول: لا إله إلا الله..» الحديث.

(٥) حديث: «شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان» أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» وقد تقدم في العلم. وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدري: «من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه» وفي رواية: «من خير» وفيه: «فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط..» الحديث.

(٦) حديث: «أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي» أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال: «كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ فَنُخَيِّر أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان» ولأبي داود: «كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: أفضل أمة النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم» زاد الطبراني: «ويسمع ذلك النبي ﷺ ولا ينكره».

(٧) حديث: «إحسان الظن بجميع الصحابة والثناء عليهم» أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن مغفل: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي» وللشيخين من حديث أبي سعيد: «لا تسبوا أصحابي» وللطبراني من حديث ابن مسعود: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا».

فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقناً به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة. فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم: أنّ ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أوّل نشؤه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان. فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أوّل نشؤه للإيمان من غير حاجةٍ إلى حُجَّةٍ وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المجرّد والتقليد المحض؟ نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرّد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى، أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقي إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل. وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيئاتهم في الخضوع لله عزّ وجلّ والخوف منه والاستكانة له، فيكون أوّل التلقين كإلقاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة؛ فإنّ ما يشوّشه الجدل أكثر مما يمهده وما يفسره أكثر مما يصلحه، بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب. والمشاهدة تكفيك في هذا بياناً فناهيك بالعيان برهاناً، فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحرّكه الدواهي والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل في الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا، إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً؛ إذ لا فرق في التقليد بين تعليم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه. ثم الصبي إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق؛ إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً. وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور

إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عزّ وجلّ إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصدّيقين والمقرّبين، وإليه الإشارة بالسر الذي وقر في صدر أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق. وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم؛ إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة، وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه.

مسألة: فإن قلت: تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه؟ فاعلم: أنّ للنّاس في هذا غلواً وإسرافاً في أطراف، فمن قائل إنه بدعة أو حرام وأنّ العبد إن لقي الله عزّ وجلّ بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى. وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف. قال ابن عبدالأعلى رحمه الله: سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصاً الفرد ـ وكان من متكلمي المعتزلة ـ يقول: لأن يلقى الله عزّ وجلّ العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام، ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه، وقال أيضاً: قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام.

وحكى الكرابيسي: أنّ الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال: سل عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه، أخزاهم الله، ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له: من أنا؟ فقال: حفص الفرد، لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه. وقال أيضاً: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد، وقال أيضاً: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى؟ فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له. قال الزعفراني: قال الشافعي: حكمي في أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد ويُطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام. إلا وفي قلبه دغل، وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة وقال له: ويحك ألست تحكي بدعتهم أوّلاً ثم ترد عليهم، ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث؟ وقال أحمد رحمه الله: علماء الكلام زنادقة. وقال مالك رحمه الله: أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟ يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت. وقال مالك رحمه الله أيضاً: لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء، فقال بعض أصحابه ـ في تأويله ـ إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا. وقال أبو يوسف: من طلب العلم بالكلام تزندق. وقال الحسن: لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم. وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا: ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلاّ لعلمهم بما يتولد منه من الشر. ولذلك قال النبي ﷺ:

«هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»(١). أي المتعمقون في البحث والاستقصاء.

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أربابه، فقد علمهم الاستنجاء(٢)، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم(٣)، ونهاهم عن الكلام في القدر وقال: «أمسكوا(٤) عن القدر». وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم، وهم الأستاذون والقدوة ونحن الأتباع والتلامذة.

وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا: إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم فالأمر فيه قريب؛ إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه، ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه، فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح. وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع، فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل؟ وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضي إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه، كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرئاسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١١١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ [يُونس: ٦٨]، أي حجة وبرهان، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعَام: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨]، إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه في معرض الثناء عليه وقال عزّ وجلّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعَام: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هُود: ٣٢]، وقال تعالى في قصة فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٣ ـ ٣٠].

وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجّة مع الكفار، فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبيَاء: ٢٢]، وفي النبوّة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٣]، وفي البعث: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، إلى غير ذلك من الآيات والأدلة. ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: ١٢٥]، فالصحابة رضي الله عنهم أيضاً كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة، وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم. وأوّل من سنّ دعوة

---

(١) حديث: «هلك المتنطعون» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث: «أن النبيّ ﷺ علمهم الاستنجاء» أخرجه مسلم من حديث سلمان الفارسي.

(٣) حديث: «ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة: «**تعلموا الفرائض وعلموها الناس**...» الحديث. وللترمذي من حديث أنس: «**وأفرضهم زيد بن ثابت**».

(٤) حديث: «نهاهم عن الكلام في القدر وقال: **أمسكوا**» تقدم في العلم.

المبتدعة بالمجادلة إلى الحق: علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال: ما تنقمون على إمامكم؟ قالوا: قاتل ولم يَسْب ولم يغنم، فقال: ذلك في قتال الكفار! أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها في يوم الجمل فوقعت عائشة رضي الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب؟ فقالوا: لا، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان. وروي أن الحسن ناظر قدرياً فرجع عن القدر. وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلاً من القدرية. وناظر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يزيد بن عميرة في الإيمان، قال عبدالله: لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة؟ فقال له يزيد بن عميرة: يا صاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة؟ ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة، فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة، فقال ابن مسعود: صدقت والله إنها مني زلة. فينبغي أن يقال: كان خوضهم فيه قليلاً لا كثيراً، وقصيراً لا طويلاً وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة، فيقال: أما قلة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان، وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة، فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم، وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها، وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضاً، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور إما ادّخاراً ليوم وقوعها وإن كان نادراً أو تشحيذاً للخواطر فنحن أيضاً نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشحيذ الخاطر أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال، كمن يعد السلاح قبل القتال. ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين.

فإن قلت: فما المختار عندك فيه؟ فاعلم أن الحق فيه أنَّ إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل. فاعلم أوّلاً أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة، وأعني بقولي «لذاته» أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت. وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار، وإباحة تجرّع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر، وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار والبيع وقت النداء، وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار، وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قليله وكثيره، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بالمحرور، وكأكل الطين، وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال. فإن تصدّى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل فنعود إلى علم الكلام ونقول: إن فيه منفعة وفيه مضرة، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام. أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في الاعتقاد الحق، وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتدّ حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل، ولذلك ترى

المبتدع العامي يمكن أن يزول اعتقاده باللطف في أسرع زمان إلا إذا كان نشوءه في بلد يظهر فيه الجدل والتعصب، فإنه لو اجتمع عليه الأوّلون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره، بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولي على قلبه ويمنعه من إدراك الحق، حتى لو قيل له: هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرّفك بالعيان أنَّ الحق مع خصمك؟ لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه، وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره.

وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدّث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود. ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على الندور في أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام، بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه. والناس متعبّدون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها، والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب، وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته، فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا في موضعه وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة. وتفصيله: أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التي اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه، فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم؛ إذ ربما يثير لهم شكاً ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح.

وأما العامي المعتقد للبدعة، فينبغي أن يُدْعَى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير، فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين؛ إذ العامي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدّر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضاً يقدرون على دفعه. فالجدل مع هذا ومع الأوّل حرام، وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام. واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض عامي اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه، فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه. وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ولا يتعرّض للأدلة ويتربص وقوع شبهة، فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة، فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب (الرسالة القدسية) ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم، وهذا مقدار مختصر، وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه

لموضع سؤال أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء، فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) ـ وهو قدر خمسين ورقة ـ وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين. فإن أقنعه ذلك كف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالباً والمرض سارياً، فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه أو يستمرّ على الشك والشبهة إلى ما قدّر له، فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه.

فأما الخارج منه فقسمان: **أحدهما**: بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان وعن الإدراكات وعن الخوض في الرؤية هل لها ضدّ يسمى المنع أو العمى؟ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئي يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات.

والقسم الثاني: زيادة تقرير لتلك الأدلة في غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة، وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضلالاً وجهلاً في حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضاً. ولو قال قائل: البحث عن حكم الإدراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر، والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر فهو من الدين أيضاً، وذلك هوس فإنّ الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة، فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التي يذم فيها والحال التي يحمد فيها والشخص الذي ينتفع به والشخص الذي لا ينتفع به.

فإن قلت: مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة، فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما؟ وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم، ولو ترك بالكلية لاَنْدَرَسَ وليس في مجرّد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة ما لم يتعلم، فينبغي أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضي الله عنهم، فإن الحاجة ما كانت ماسة إليه. فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير، فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر. فالعالم ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال:

إحداها: التجرد للعلم والحرص عليه، فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت.

الثانية: الذكاء والفطنة والفصاحة، فإن البليد لا ينتفع بفهمه والفدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه.

الثالثة: أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليه، فإن الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين، فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع السّدّ الذي بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه.

وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام، إنما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل في التقسيمات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس، وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتلبيس، فإذا قابله مثله في الصنعة قاومه. وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرّد له لما فيه من الضرر الذي نبهنا عليه. وأن ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج، وما نقل عن علي رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلي الظاهر وفي محل الحاجة، وذلك محمود في كل حال. نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك، فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها، فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات، وهي رحمة من الله عزّ وجلّ تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله.

مسألة: فإن قلت: هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها، جلي يبدو أولاً وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسير الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب، وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه؟ فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفيةٍ وجليةٍ لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال ﷺ: «**إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَحَدّاً وَمَطْلَعاً**»[1]، وقال علي رضي الله عنه ـ وأشار إلى صدره ـ: إنّ هٰهنا علوماً جمة لو وجدت لها حملة. وقال ﷺ: «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ**»[2]، وقال ﷺ: «**مَا حَدَّثَ أَحَدٌ قَوْماً بِحَدِيثٍ لَمْ تَبْلُغْهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَيهِمْ**»[3]، وقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العَنكبوت: ٤٣] وقال ﷺ: «**إِنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ العَالِمُونَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ**»[4] الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم. وقال ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**»[5] فليت شعري إن لم يكن ذلك سراً منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر فلم لم يذكره لهم، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطّلاق: ١٢]، لو ذكر تفسيره لرجمتموني. وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر. وقال أبو هريرة رضي الله عنه:

---

(١) حديث: «إن للقرآن ظاهراً وباطناً. .» الحديث. أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه.

(٢) حديث: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم. .» الحديث. تقدم في باب العلم.

(٣) حديث: «ما حدث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم. . .» الحديث. تقدم في باب العلم.

(٤) حديث: «إن من العلم كهيئة المكنون. .» الحديث. تقدم في العلم.

(٥) حديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» أخرجاه من حديث عائشة وأنس.

حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم. وقال ﷺ: «**مَا فَضلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صِيَامٍ وَلا صَلاةٍ وَلٰكِنْ بِسِرٍّ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ**»(١) رضي الله عنه، ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقاً بقواعد الدّين غير خارج منها، وما كان من قواعد الدين لم يكن خافياً بظواهره على غيره. وقال سهل التستري رضي الله عنه: للعالم ثلاثة علوم: علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد. وقال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر. وقال بعضهم: للربوبية سر لو أُظهِر لبطلت النبوّة، وللنبوّة سر لو كُشِفَ لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوّة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق، بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، وملاك الورع النبوة.

مسألة: فإن قلت: هذه الآيات والأخبار يتطرّق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن، فإنّ الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع، وهو قول من قال: إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو، فيزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحد؟ فاعلم: أن هذا السؤال يحرّك خطباً عظيماً، وينجرّ إلى علوم المكاشفة، ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب، فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في الشطر الأوّل من الكتاب، وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه، ولكن إذا انجرّ الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله. فمن قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان، بل الأسرار التي يختص بها المقرّبون بدركها ولا يشاركهم الأكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكلّ أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك. وإخفاء سر الروح وكف رسول الله ﷺ عن بيانه(٢) من هذا القسم فإن حقيقته بما تكلّ الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصوّر كنهه. ولا تظنن أنّ ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله ﷺ فإنّ من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه، ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه، بل في صفات الله عزّ وجلّ من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه، ولم يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم؛ إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة. ولو ذكر من

---

(١) حديث: «**ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام..**» الحديث. تقدم في باب العلم.

(٢) حديث: «كف رسول الله ﷺ عن بيان الروح» أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال: «فأمسك النبيّ ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً...» الحديث.

صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه، بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبي أو العِنّين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهماً على التحقيق، والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل. وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه مما هي حاضرة له في الحال أو مما كانت له من قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره، ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتاً في الشرف والكمال فليس في قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف، فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال. ولذلك قال ﷺ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**»[1] وليس المعنى أني أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله. ولذلك قال بعضهم: ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عزّ وجلّ. وقال الصدّيق رضي الله عنه: الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته. ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملته الروح ومن جملته بعض صفات الله تعالى. ولعل الإشارة إلى مثله في قوله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ مَنْ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ**»[2].

القسم الثاني: من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصدّيقون عن ذكرها، ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه لكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصدّيقين. وسر القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضراً ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجعل، وكيف يبعد هذا وقولنا: إن الكفر والزنا والمعاصي والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق في نفسه، وقد أضَرّ سماعه بقوله إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم؟ وقد ألحد ابن الراوندي وطائفة من المخذولين بمثل ذلك. وكذلك سر القدر لو أفشي لأوهم عند أكثر الخلق عجزاً إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم، ولو قال قائل: إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوماً، ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفاً من الضرر، فلعل المدّة إليها بعيدة فيطول الأمد، وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قلَّ اكتراثها ولعلها كانت قريبة في علم الله سبحانه، ولو ذكرت لعظم الخوف، وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا، فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالاً لهذا القسم.

---

(١) حديث: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» أخرجه مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك في سجوده.

(٢) حديث: «**إن لله سبعين حجاباً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره**» أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة: «**بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاباً من نور**» وإسناده ضعيف. وفيه أيضاً من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**هل ترى ربك؟** قال: إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور» وفي الأكبر للطبراني من حديث سهل بن سعد: «**دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة**». ولمسلم من حديث أبي موسى: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» ولابن ماجه: «**شيء أدركه بصره**».

القسم الثالث: أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ولم يكن فيه ضرر، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب، وله مصلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه، كما لو قال قائل: رأيت فلاناً يقلد الدرّ في أعناق الخنازير، فكنى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ، والمحقق إذا نظر وعلم أنَّ ذلك الإنسان لم يكن معه درّ ولا كان في موضعه خنزير تفطن لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس في ذلك، ومن هذا قال الشاعر:

رجلان خياط وآخر حائك متقابلان على السماك الأعزلِ
لا زال ينسجُ ذاك خرقة مدبر ويخيط صاحبه ثياب المقبلِ

فإنه عبر عن سبب سماوي في الإقبال والإدبار برجلين صانعين، وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله، ومنه قوله ﷺ: «**إِنَّ المَسْجِدَ لَيَنْزَوِي مِنَ النُّخَامَةِ كَمَا تَنْزَوِي الجِلْدَةُ عَلَىٰ النَّارِ**»(١)، وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة، ومعناه أن روح المسجد كونه معُظماً ورمي النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة، وكذلك قوله ﷺ: «**أَمَا يَخْشَىٰ الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟**»(٢)، وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون، ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهي البلادة والحمق، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى؛ إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان. وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلي أو شرعي، أما العقلي فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله ﷺ: «**قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ**»(٣). إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فعلم أنها كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً في تفهم تمام الاقتدار. ومن هذا القبيل في كنايته عن الاقتدار قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠]، فإن ظاهره ممتنع إذ قوله: ﴿كُن﴾ إن كان خطاباً للشيء قبل وجوده فهو محال إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين، ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها. وأما المدرك بالشرع، فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكناً، ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرّعد: ١٧] الآية. وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هي القلوب وأنّ بعضها احتملت شيئاً كثيراً وبعضها قليلاً وبعضها لم يحتمل، والزبد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن ظهر وطفا على رأس الماء، فإنه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمكث. وفي هذا القسم تعمق جماعة فأوّلوا ما ورد في الآخرة من الميزان والصراط

---

(١) حديث: «**إن المسجد لينزوي من النخامة..**» الحديث. لم أجد له أصلاً.
(٢) حديث: «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام..**» الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.
(٣) حديث: «**قلب العبد بين إصبعين من أصابع الرحمن**» أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو.

وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر.

القسم الرابع: أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق والذوق بأن يصير حالاً ملابساً له فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب، والأول كالظاهر والثاني كالباطن. وذلك كما يتمثل للإنسان في عينه شخص في الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم، فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما، ولا يكون الأخير ضدّ الأول بل هو استكمال له. فكذلك العلم والإيمان والتصديق؛ إذ قد يصدّق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه، ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع، بل للإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة: **الأول**: تصديقه بوجوده قبل وقوعه. **والثاني**: عند وقوعه. **والثالث**: بعد تصرمه. فإن تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقيق به قبل الزوال، وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقاً فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها. ففي هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلام.

القسم الخامس: أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقاً، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال: سل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي؟ فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصّلت: ١١]، فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدّر لهما حياة وعقلاً وفهماً للخطاب وخطاباً هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصّلت: ١١]، والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير. ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياةً وعقلاً ونطقاً بصوت وحرف حتى يقول: «سبحان الله» ليتحقق تسبيحه. والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبّحاً بوجوده ومقدّساً بذاته وشاهداً بوحدانية الله سبحانه كما يقال:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحدُ

وكما يقال: هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال. وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده في أطواره، فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وأما القاصرون فلا يفقهون أصلاً، وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله إذ لكل شيء شهادات شتّى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته، وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة. فهذا الفن أيضاً مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر. وفي هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن مسرف في رفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥]،

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فُصِّلَت: ٢١]، وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير، وفي الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعرَاف: ٥٠]، زعموا أن ذلك كله بلسان الحال. وغلا آخرون في حسم الباب منهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه، حتى منع تأويل قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعَام: ٧٣]، وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون كل مكوّن، حتى سمعت بعض أصحابه يقول: إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ: قوله ﷺ: «**الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ**»(١)، وقوله ﷺ: «**قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ**»، وقوله ﷺ: «**إِنِّي لأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ مِنْ جَانِبِ اليَمَنِ**»(٢)، ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر. والظن بأحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه علم أنَّ الاستواء ليس هو الاستقرار، والنزول ليس هو الانتقال، ولكنه منع من التأويل حسماً للباب ورعاية لصلاح الخلق، فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حدّ الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط فلا بأس بهذا الزجر، ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون: أمروها كما جاءت، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية. وزاد المعتزلة عليهم حتى أوّلوا من صفاته تعالى الرؤية وأوّلوا كونه سميعاً بصيراً، وأوّلوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد، وأوّلوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة، ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق الجلود ويذيب الشحوم. ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأوّلوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون. وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرّروه وما خالف أوّلوه. فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرّد فلا يستقرّ له فيها قدم ولا يتعين له موقف. والألْيَقُ بالمقتصر على السمع المجرّد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله، والآن فكشف الغطاء عن حدّ الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه، والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له، فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة. وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حررناها وأنهم لا يكلفون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق. فلنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها

---

(١) حديث: «**الحجر يمين الله في الأرض**» أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمر.

(٢) حديث: «**إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن**» أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه: «**وأجد نفس ربكم من قبل اليمن**» ورجاله ثقات.

على ما حرّرناه لأهل القدس وسميناه «الرسالة القدسية في قواعد العقائد» وهي مودعة في هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب.

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس

فنقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ميّز عصابة السنة بأنوار اليقين، وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين، وجنّبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين، ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين، وسدّدهم للتأسّي بصحبه الأكرمين، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين، ومن سير الأوّلين وعقائدهم بالمنهج المبين، فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول، وتحققوا أنّ النطق بما تعبدوا به من قول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول، وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول:

الركن الأوّل: في معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول: وهي العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وأنه سبحانه ليس مختصاً بجهة ولا مستقرّاً على مكان وأنه يرى وأنه واحد.

الركن الثاني: في صفاته ويشتمل على عشرة أصول: وهو العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً منزهاً عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة.

الركن الثالث: في أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول: وهي أنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى، وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأنّ له تعالى تكليف ما لا يطاق، وأنّ له إيلام البريء ولا يجب عليه رعاية الأصلح، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأنّ بعثه الأنبياء جائز، وأنّ نبوّة نبينا محمد ﷺ ثابتة مؤيدة بالمعجزات.

الركن الرابع: في السمعيات ومداره على عشرة أصول: وهي إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأنّ فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة.

❋ ❋ ❋

فأما الركن الأول من أركان الإيمان
في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى
وأنّ الله تعالى واحد، ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول: معرفة وجوده تعالى وأوّل ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح: ١٥-١٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ إلى قوله: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٧٣]، فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أنّ هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: «لا إله إلا الله» وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله، فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشؤهم وفي عنفوان شبابهم. ولذلك قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، فإذاً في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان. ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول من بداءة العقول: إن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب يحدثه، والعالم حادث فإذاً لا يستغني في حدوثه عن سبب. أما قولنا: «إن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب»، فجلي فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيره فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلى المخصص. وأما قولنا: «العالم حادث»، فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى:

الأولى: قولنا: «إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون»، وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار، فإن من عقل جسماً لا ساكناً ولا متحرّكاً كان لمتن الجهل راكباً وعن نهج العقل ناكباً.

الثانية: قولنا: «إنهما حادثان»، ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض، وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته،

وما من متحرّك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارىء منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه ـ على ما سيأتي بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس ـ.

الثالثة: قولنا: «ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث»، وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أوّل لها، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال وانقضاء ما لا نهاية له محال؛ ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعاً أو وتراً أو شفعاً ووتراً جميعاً أو لا شفعاً ولا وتراً، ومحال أن تكون شفعاً ووتراً جميعاً أو لا شفعاً ولا وتراً، فإن ذلك جمع بين النفي والإثبات؛ إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر. ومحال أن يكون شفعاً لأن الشفع يصير وتراً بزيادة واحد، وكيف يعوز ما لا نهاية له: واحد؟ ومحال أن يكون وتراً إذ الوتر يصير شفعاً بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها؟ ومحال أن يكون لا شفعاً ولا وتراً إذ له نهاية. فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث. وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة.

الأصل الثاني: العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل، أزلي ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحي. وبرهانه أنه لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر هو أيضاً إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية، وما تسلسل لم يتحصّل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأوّل، وذلك هو المطلوب الذي سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه.

الأصل الثالث: العلم بأنه تعالى مع كونه أزلياً أبدياً ليس لوجوده آخر فهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه. وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده، ولو جاز أن ينعدم شيء يتصوّر دوامه لجاز أن يوجد شيء يتصوّر عدمه بنفسه فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب. وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده؛ لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصوّر الوجود معه. وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه، فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضدّه؟ فإن كان الضدّ المعدم حادثاً كان محالاً؛ إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحادث حتى يدفع وجوده، بل الدفع أهون من القطع والقديم أقوى وأولى من الحادث.

الأصل الرابع: العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدّس عن مناسبة الحيز. وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيّزه ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحرّكاً عنه، فلا يخلو عن الحركة أو السكون وهما حادثان، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. ولو تصوّر جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم، فإن سماه مُسَمٍّ جوهراً ولم يرد به المتحيز كان مخطئاً من حيث اللفظ لا من حيث المعنى.

الأصل الخامس: العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر. إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيز بطل كونه جسماً؛ لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوّه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث. ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو

لشيء آخر من أقسام الأجسام. فإن تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسماً من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطاً في الاسم مع الإصابة في نفي معنى الجسم.

الأصل السادس: العلم بأنه تعالى ليس بعرضٍ قائم بجسم أو حال في محل لأن العرض ما يحل في الجسم، فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكونُ محدِثه موجوداً قبله. فكيف يكون حالاً في الجسم وقد كان موجوداً في الأزل وحده وما معه غيره، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق ـ كما سيأتي بيانه ـ وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه مستقل بذاته. وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فإذاً لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء بل هو الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء، وأنَّى يشبه المخلوق خالقه والمقدور مقدّره والمصوّر مصوّره والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته.

الأصل السابع: العلم بأنّ الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات، فإن الجهة إما فوق وإما أسفل وإما يمين وإما شمال أو قدّام أو خلف، وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رِجلاً، والآخر يقابله ويسمى رأساً. فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرأس واسم السفل لما يلي جهة الرِجل، حتى إنّ النملة التي تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق في حقها تحتاً وإن كان في حقنا فوقاً. وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى في الغالب، فحدث اسم اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التي تلي اليمين يميناً والأخرى شمالاً. وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرّك إليه فحدث اسم القدام للجهة التي يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها. فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديراً كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود البتة. فكيف كان في الأزل مختصاً بجهة والجهة حادثة؟ وكيف صار مختصاً بجهة بعد أن لم يكن له؟ أبأن خلق العالم فوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس، والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس، أو خلق العالم تحته، فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلي جهة الرِجل، وكل ذلك مما يستحيل في العقل ولأن المعقول من كونه مختصاً بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصاص العرض، وقد ظهر استحالة كونه جوهراً أو عرضاً فاستحال كونه مختصاً بالجهة. وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطاً في الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذياً له، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدّر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر. فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء، وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيهاً بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء، فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء.

الأصل الثامن: العلم بأنه تعالى مستوٍ على عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء، وهو الذي أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال في القرآن: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فُصّلَت: ١١]، وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر:

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سيفٍ ودَم مهراقِ

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطرّ أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحَديد: ٤]، إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم، وحمل قوله ﷺ: «**قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ**»، على القدرة والقهر، وحمل قوله ﷺ: «**الْحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي أَرْضِهِ**»، على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسماً مماساً للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محال، وما يؤدي إلى المحال فهو محال.

الأصل التاسع: العلم بأنه تعالى مع كونه منزهاً عن الصورة والمقدار مقدّساً عن الجهات والأقطار مرئيّاً بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيَامَة: ٢٢،٢٣]، ولا يرى في الدنيا تصديقاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعَام: ١٠٣]، ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعرَاف: ١٤٣]. وليت شعري كيف عرف المعتزل من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالاً؟ ولعل الجهل بذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم، وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال، فإن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم، فإذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة، وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة، وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك.

الأصل العاشر: العلم بأنّ الله عزّ وجلّ واحد لا شريك له فرد لا ندّ له انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساهمه ويساويه ولا ضدّ له فينازعه ويناويه. وبرهانه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وبيانه أنه لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمراً فالثاني إن كان مضطراً إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهوراً عاجزاً ولم يكن إلهاً قادراً، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعته كان الثاني قوياً قاهراً والأول ضعيفاً قاصراً ولم يكن إلهاً قادراً.

* * *

الركن الثاني
العلم بصفات الله تعالى، ومداره على عشرة أصول

الأصل الأوّل: العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المَائدة: ١٢٠]، صادق لأن العالم محكم في صنعته مرتب في خلقته، ومن رأى ثوباً من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لا قدرة له كان منخلعاً عن غريزة العقل ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل.

الأصل الثاني: العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، صادق في قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٩] ومرشد

إلى صدقه بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤]، أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب في دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب، ولو في الشيء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف.

الأصل الثالث: العلم بكونه عزّ وجلّ حياً فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حياً لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند ترددها في الحركات والسكنات، بل في حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس في غمرة الجهالات والضلالات.

الأصل الرابع: العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدىء المعيد والفعال لما يريد، وكيف لا يكون مريداً وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضدّه، وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده؟ والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين. ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حتى يقال: إنما وجد في الوقت الذي سبق العلم بوجوده لجاز أن يغني عن القدرة حتى يقال: وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه.

الأصل الخامس: العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. وكيف لا يكون سميعاً بصيراً والسمع والبصر كمال لا محالة وليس بنقص؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص في جهته والكمال في خلقه وصنعته؟ أو كيف تستقيم حجة إبراهيم ﷺ على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلاً وغياً فقال له: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريَم: ٤٢]، ولو انقلب ذلك عليه في معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعَام: ٨٣]، وكما عقل كونه فاعلاً بلا جارحة وعالماً بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيراً بلا حدقة وسميعاً بلا أذن إذ لا فرق بينهما.

الأصل السادس: أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف، بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشبه وجوده وجود غيره. والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفاً للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم:

إنّ الكلامَ لفي الفؤادِ وإنّما ... جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلاً

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول: لساني حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتي الحادثة قديم، فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطابه لسانك. ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء، وأن الباء قبل السين في قولك بسم الله فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديماً، فنزه عن الالتفات إليه قلبك، فلله سبحانه سر في إبعاد بعض العباد ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٣٣]، ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاماً ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن

يرى في الآخرة موجوداً ليس بجسم ولا لون، وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل في حاسة السمع ما عقله في حاسة البصر. وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه من العبارات. وإن عقل كون السمٰوات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئي في مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحدقة والقلب والورقة، فليعقل كون الكلام مقروءاً بالألسنة محفوظاً في القلوب مكتوباً في المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها؛ إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق، وحلت ذات النار بكتابة اسمها في الورق ولاحترق.

الأصل السابع: أنَّ الكلام القَائم بنفسه قديم، وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث داخلاً تحت التغير، بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات، بل لم يزل في قدمه موصوفاً بمحامد الصفات ولا يزل في أبده كذلك منزهاً عن تغير الحالات، لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرّضها للتغير وتقلب الأوصاف، فكيف يكون خالقها مشاركاً لها في قبول التغير؟ وينبني على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه، وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علماً متعلقاً بما في قلب أبيه من الطلب صار مأموراً بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له، فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢]، بذات الله ومصير موسى عليه السلام مخاطباً به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب، وسمع لذلك الكلام القديم.

الأصل الثامن: أنَّ علمه قديم فلم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها، بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي؛ إذ لو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديراً حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوماً لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر. فهكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى.

الأصل التاسع: أنَّ إرادته قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريداً لها كما لا تكون أنت متحركاً بحركة ليست في ذاتك وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى، وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية، ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة.

الأصل العاشر: أنَّ الله تعالى عالم بعلم، حي بحياة، قادر بقدرة، ومريد بإرادة، ومتكلم بكلام، وسميع بسمع، وبصير ببصر، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة. وقول القائل: عالم بلا علم كقوله: غَنِيٌّ بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل، وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل، ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل، كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم، بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك

بعض منها عن البعض، فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف.

❊ ❊ ❊

الركن الثالث
العلم بأفعال الله تعالى، ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول: العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لا خالق له سواه ولا محدث له إلا إياه. خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم، فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقاً له في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرّعد: ١٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافات: ٩٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٣، ١٤]، أمر العباد بالتحرّز في أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإضمارهم لعلمه بموارد أفعالهم. واستدل على العلم بالخلق، وكيف لا يكون خالقاً لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها وهي متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لذاتها، فما الذي يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها؟ أو كيف يكون الحيوان مستبدّاً بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوي الألباب، فكيف انفردت هي باختراعها دون ربِّ الأرباب وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب؟ هيهات هيهات! ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت جبار الأرض والسموات.

الأصل الثاني: أنّ انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار والمختار جميعاً. فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له. وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسباً. وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية؟ أو كيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب. وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط؛ إذ قدرة الله تعالى في الأزل قد كانت متعلقة بالعالم، ولم يكن الاختراع حاصلاً بها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعاً آخر من التعلق فيه يظهر أنّ تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها.

الأصل الثالث: أنّ فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه، فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته. ومنه الشر والخير، والنفع والضرّ، والإسلام والكفر، والعرفان والنكر، والفوز والخسران، والغواية

والرشدُ، والطاعة والعصيان، والشرك والإيمان. لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة: «ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن» وقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرّعد: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السَّجدَة: ١٣]، ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها، وإنما هي جارية على وفق إرادة العدوّ إبليس لعنه الله مع أنه عدوّ لله سبحانه، والجاري على وفق إرادة العدوّ أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى، فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رئاسة زعيم ضيعة لاستنكف منها؛ إذ لو كان ما يستمرّ لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته. والمعصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز، تعالى ربُّ الأرباب عن قول الظالمين علوّاً كبيراً. ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له.

فإن قيل: فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد؟ قلنا: الأمر غير الإرادة. ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرّد عبده عليه فكذبه السلطان ـ فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه ـ فقال له: أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان، فهو يأمره بما لا يريد امتثاله، ولو لم يكن آمراً لما كان عذره عند السلطان ممهداً، ولو كان مريداً لامتثاله لكان مريداً لهلاك نفسه وهو محال.

الأصل الرابع: أنّ الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطوّل بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه. وقالت المعتزلة: وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد، وهو محال؛ إذ هو الموجب والآمر والناهي وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرّض للزوم وخطاب؟ والمراد بالواجب أحد أمرين: إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل، كما يقال: يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار، أو ضرر عاجل، كما يقال: يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت. وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال: وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلاً. فإن أراد الخصم بأنّ الخلق واجب على الله بالمعنى الأوّل فقد عرّضه للضرر، وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلم؛ إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم، وإن أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم. وقوله: «يجب لمصلحة عباده»، كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى. ثم إنّ مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فأما أن يخلقهم في دار البلايا ويعرّضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب.

الأصل الخامس: أنّه يجوّز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه ـ خلافاً للمعتزلة ـ ولو لم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه وقد سألوا ذلك فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، ولأنّ الله تعالى أخبر نبيه ﷺ بأنّ أبا جهل لا يصدقه، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدّقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدّقه، فكيف يصدّقه في أنه لا يصدّقه وهل هذا إلا محال وجوده؟

الأصل السادس: أنّ لله عزّ وجلّ إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق ـ خلافاً للمعتزلة ـ، لأنه متصرف في ملكه ولا يتصوّر أن يعدو تصرفه ملكه، والظلم هو عبارة عن

التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، ويدل على جواز ذلك وجوده، فإنّ ذبح البهائم إيلام لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة.

فإن قيل: إنّ الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه؟ فقول: من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وُطِئَت وكل بقة عُرِكَتْ حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل؛ إذ يقال: وصف الثواب والحشر بكونه واجباً عليه إن كان المراد به أنه يتضرر بتركه فهو محال، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعاني المذكورة للواجب.

الأصل السابع: أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء، بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وليت شعري بما يجيب المعتزلي في قوله: «إنّ الأصلح واجب عليه»، في مسألة نعرضها عليه: وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ ماتا مسلمين، فإنّ الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي، لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ، ويجب عليه ذلك ـ عند المعتزلي ـ فلو قال الصبي: يا رب لِمَ رفعت منزلته عليّ؟ فيقول: لأنه بلغ واجتهد في الطاعات، ويقول الصبي: أنت أمتني في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد، فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضلته؟ فيقول الله تعالى: لأني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا ـ هذا عذر المعتزلي عن الله عزّ وجلّ ـ وعند هذا ينادي الكفار من دركات لظى ويقولون: يا رب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا، فهلا أمتنا في الصبا فإنّا رضينا بما دون منزلة الصبي المسلم؟ فبماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند هذا إلا القطع بأنّ الأمور الإلٰهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال؟

فإن قيل: مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبحاً لا يليق بالحكمة؟ قلنا: القبح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشيء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه. فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصوّر منه قبح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصوّر منه التصرف في ملك الغير. وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلِمَ قلتم إن ذلك عليه محال؟ وهل هذا إلا مجرد تشبه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار؟ ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته، وهذا من أين يوجب رعاية الأصلح؟ وأما الحكيم منا يراعي الأصلح نظراً لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثواباً أو يدفع به عن نفسه آفة. وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى.

الأصل الثامن: أنّ معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل ـ خلافاً للمعتزلة ـ لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فإن العقل لا يوجب العبث، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالى، فإنه يتقدّس عن الأغراض والفوائد بل الكفر، والإيمان والطاعة والعصيان في حقّه تعالى سيّان، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضاً محال لأنه لا غرض له في الحال، بل يتعب به وينصرف عن الشهوات لسببه وليس في المآل إلا الثواب والعقاب. ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب

على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان؛ إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع، ولقد زل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر .

فإن قيل: فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع، والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه، فإذا قال المكلف للنبي: إن العقل ليس يوجب عليّ النظر والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر ولست أقدم على النظر، أدى ذلك إلى إفحام الرسول ﷺ، قلنا: هذا يضاهي قول القائل للواقف في موضع من المواضع: إن وراءك سبعاً ضارياً فإن لم تبرح عن المكان قتلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقي، فيقول الواقف: لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي ولا ألتفت ورائي، ولا أنظر ما لم يثبت صدقك، فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادي المرشد، فكذلك النبي ﷺ يقول: إِنَّ وَرَاءَكُمُ المَوْتَ وَدُونَهُ السِّبَاعُ الضَّارِيَةُ وَالنِّيرَانُ المُحْرِقَةُ إِنْ لَمْ تَأْخُذُوا مِنْها حِذْرَكُمْ وَتَعْرِفُوا لِي صِدْقِي بِالالْتِفَاتِ إِلَىٰ مُعْجِزَتِي وَإِلاَّ هَلَكْتُمْ، فَمَنِ الْتَفَتَ عَرَفَ وَاحْتَرَزَ وَنَجا، وَمَنْ لَمْ يَلْتَفِتْ وَأَصَرَّ هَلَكَ وَتَرَدَّىٰ وَلا ضَرَرَ عَلَيَّ إِنْ هَلَكَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، وَإِنَّما عَلَيَّ البَلاغُ المُبِينُ. فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت، والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل، والطبع يستحث على الحذر من الضرر، ومعنى كون الشيء واجباً أن في تركه ضرراً، ومعنى كون الشرع موجباً أنه معرف للضرر المتوقع، فإن العقل لا يهدي إلى التهدف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتاً؛ إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر في الآخرة.

الأصل التاسع: أنه ليس يستحيل بعثه الأنبياء عليهم السلام ـ خلافاً للبراهمة ـ حيث قالوا: لا فائدة في بعثتهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة كما لا يهدي إلى الأدوية المفيدة للصحة، فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبيّ بالمعجزة.

الأصل العاشر: أن الله سبحانه قد أرسل محمداً ﷺ خاتماً للنبيين وناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر[1]، وتسبيح الحصى[2]، وإنطاق العجماء[3]، وما تفجر من بين أصابعه من الماء. ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها ـ مع كافة العرب ـ القرآن العظيم فإنهم مع تمييزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبّه ونهبه وقتله وإخراجه ـ كما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم ـ ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن؛ إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أمياً غير ممارس للكتب والإنباء عن الغيب

---

(١) حديث: «انشقاق القمر» متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس.

(٢) حديث: «تسبيح الحصى» أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي ذر. وقال صالح بن أبي الأخضر: ليس بالحافظ والمحفوظ رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أبي ذر.

(٣) حديث: «إنطاق العجماء» أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة في البعير الذي شكا إلى النبيّ ﷺ أهله. وقد ورد في كلام الضب والذئب والحمرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل.

في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الرُّوم: ١-٤]، ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلاً لله تعالى، فمهما كان مقروناً بتحدي النبي ﷺ ينزل منزلة قوله: «صدقت» وذلك مثل القائم بين يدي الملك المدعي على رعيته أنه رسول الملك إليهم فإنه مهما قال للملك: إن كنت صادقاً فقم على سريرك ثلاثاً واقعد ـ على خلاف عادتك ـ ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله: «صدقت».

* * *

الركن الرابع
في السمعيات وتصديقه ﷺ فيما أخبر عنه، ومداره على عشرة أصول:

الأصل الأوّل: الحشر والنشر[1]، وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن، ومعناه الإعادة بعد الإفناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء، قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، فاستدل بالابتداء على الإعادة. وقال عزّ وجلّ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأوّل.

الأصل الثاني: سؤال منكر ونكير[2]، وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعي إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به فهم الخطاب، وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له، فإن النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبه، وقد كان رسول الله ﷺ يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه[3]، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه.

---

(١) حديث: «الحشر والنشر»، أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس: «**إنكم لمحشورون إلى الله..**» الحديث. ومن حديث سهل: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء..**» الحديث. ومن حديث عائشة: «**يحشرون يوم القيامة حفاة**». ومن حديث أبي هريرة: «**يحشر الناس على ثلاث طرائق..**» الحديث. ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبيّ ﷺ: «**أفتنا في بيت المقدس وأرض المحشر والمنشر..**» الحديث. وإسناده جيد.

(٢) حديث: «سؤال منكر ونكير» تقدم.

(٣) حديث: «كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه» أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت: «قال رسول الله ﷺ يوماً: **يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام** فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى» قلت: وهذا هو الأغلب وإلا فقد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبدالله وكعب بن مالك وغيرهم.

الأصل الثالث: عذاب القبر، وقد ورد الشرع به قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، واشتهر عن رسول الله ﷺ والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر(١). وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيور؛ فإن المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها.

الأصل الرابع: الميزان، وهو حق، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ ٱلنَّارُ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، الآية ووجهها أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزناً بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب.

الأصل الخامس: الصراط، وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحدّ من السيف. قال الله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصَّافات: ٢٣، ٢٤]، وهذا ممكن فيجب التصديق به فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسيّر الإنسان على الصراط.

الأصل السادس: أن الجنة والنار مخلوقتان، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣]، فقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه، ولا يقال لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الأصل السابع: أنّ الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ولم يكن نص رسول الله ﷺ على إمام أصلاً؛ إذ لو كان لكان أوْلَى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفي هذا؟ وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا؟ فلم يكن أبو بكر إماماً إلا بالاختيار والبيعة، وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله ﷺ وخرق الإجماع، وذلك مما لا يستجرىء على اختراعه إلا الروافض، واعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان مبنياً على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الإمامة؛ إذ ظن علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب، وظن معاوية أنّ تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك. وقد قال أفاضل العلماء: كل مجتهد مصيب. وقال القائلون: المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة عليّ ذو تحصيل أصلاً.

الأصل الثامن: أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على حسب ترتيبهم في الخلافة؛ إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عزّ وجلّ وذلك لا يطّلع عليه إلا رسول الله ﷺ، وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة(٢)، وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحي والتنزيل بقرائن

---

(١) حديث: «الاستعاذة من عذاب القبر» أخرجاه من حديث أبي هريرة وعائشة، وقد تقدم.

(٢) حديث: «الثناء على الصحابة» تقدم من حديث ابن عمر.

الأحوال ودقائق التفصيل، فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف.

الأصل التاسع: أنّ شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة: الذكورة، والورع، والعلم، والكفاية، ونسبة قريش؛ لقوله ﷺ: «**الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ**»[1] وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق، والمخالِف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق.

الأصل العاشر: أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدّى للإمامة وكان في صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته؛ لأنا بين أن نحرّك فتنة بالاستبدال، فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفاً بمزاياها كالذي يبني قصراً ويهدم مصراً، وبين أن نحكم بخلّو البلاد عن الإمام وبفساد الأقضية وذلك محال. ونحن نقضي بنفوذ قضاء أهل البغي في بلادهم لمسيس حاجتهم، فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة؟ فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هي قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقاً لأهل السنة ومبايناً لرهط البدعة. فالله تعالى يسدّدنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بمنّه وسعة جوده وفضله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى.

* * *

الفصل الرابع

من قواعد العقائد في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرّق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه، وفيه ثلاث مسائل

مسألة:

اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره؟ وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه؟ فقيل: إنهما شيء واحد، وقيل: إنهما شيئان لا يتواصلان، وقيل: إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر. وقد أورد أبو طالب المكي في هذا كلاماً شديد الاضطراب كثير التطويل، فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل ما لا تحصيل له، فنقول: في هذا ثلاثة مباحث: بحث عن موجب اللفظين في اللغة، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة، والبحث الأوّل لغوي، والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي.

البحث الأول: في موجب اللغة، والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: ١٧]، أي: بمصدق، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرّد والإباء والعناد. وللتصديق محل خاص وهو القلب، واللسان ترجمان، وأما التسليم فإنه

---

(١) حديث: «الأئمة من قريش» أخرجه النسائي من حديث أنس والحاكم.

عامٌّ في القلب واللسان والجوارح، فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود، وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح. فموجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام؛ فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً.

البحث الثاني: عن إطلاق الشرع؛ والحق فيه أنّ الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل، أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد، وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ**»(١)، وسئل رسول الله ﷺ مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس(٢)، وأما الاختلاف، فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، ومعناه استسلمنا في الظاهر، فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب فقط وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره**، فقال: فما الإسلام؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس»(٣) فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل. وفي الحديث عن سعد أنه ﷺ: «أعطى رجلاً عطاء ولم يعط الآخر، فقال له سعد: يا رسول الله تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن؟ فقال ﷺ: «**أوَ مسلم**» فأعاد عليه فأعاد رسول الله ﷺ»(٤) وأما التداخل فما روي أيضاً أنه سئل فقيل: أي الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: «**الإِسْلَامُ**»، فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال ﷺ: «**الإيمان**»(٥) وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات في اللغة؛ لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة.

أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً وهو أيضاً موافق للغة، فإنّ التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم

---

(١) حديث: «**بني الإسلام على خمس**» أخرجاه من حديث ابن عمر.

(٢) حديث: «سئل عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس» أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس: «**تدرون ما الإيمان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام**» والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج، وزاد: «**وأن تؤتوا خمساً من المغنم**».

(٣) حديث جبريل لما سأله عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته..**» الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر «**الحساب**» فرواه البيهقي في البعث وقد تقدم.

(٤) حديث سعد: «**أعطى رجلاً عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد: يا رسول الله، تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن فقال: أو مسلم...**» الحديث. أخرجاه بنحوه.

(٥) حديث: «**سئل أي الأعمال أفضل؟ فقال: الإسلام. فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال: الإيمان**» أخرجه أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عنبسة بالشطر الأخير: «**فقال: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان**» وإسناده صحيح.

التسليم، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه، فإنّ من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامساً وإن لم يستغرق جميع بدنه، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان، وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحُجرَات: ١٤]، وقوله ﷺ في حديث سعد: «**أَوْ مُسْلِم**» لأنه فضّل أحدهما على الآخر، ويريد بالاختلاف تفاضل المسلمين. وأما التداخل فموافق أيضاً للغة في خصوص الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل في الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذي عنيناه بالتداخل وهو موافق للغة في خصوص الإيمان وعموم الإسلام للكل، وعلى هذا خرج قوله: «**الإيمان**» في جواب قول السائل «أي الإسلام أفضل» لأنه جعل الإيمان خصوصاً من الإسلام فأدخله فيه، وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً فإنّ كل ذلك تسليم وكذا الإيمان ويكون التصرف في الإيمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر في معناه وهو جائز؛ لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفاً لاسم الإسلام ومطابقاً له فلا يزيد عليه ولا ينقص، وعليه خرّج قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذّاريَات: ٣٦].

البحث الثالث: عن الحكم الشرعي والإسلام والإيمان حكمان أخروي ودنيوي. أما الأخروي: فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله ﷺ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**»(١). وقد اختلفوا في أن هذا الحكم على ماذا يترتب؟ وعبّروا عنه بأن الإيمان ماذا هو؟ فمن قائل إنه مجرد العقد، ومن قائل يقول: إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان، ومن قائل يزيد ثالثاً وهو العمل بالأركان، ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول: من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف في أن مستقره الجنة وهذه درجة.

الدرجة الثانية: أن يوجد اثنان وبعض الثالث ـ وهو القول والعقد وبعض الأعمال ـ ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر، فعند هذا قالت المعتزلة: خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل في الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخلد في النار، وهذا باطل كما سنذكره.

الدرجة الثالثة: أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح، وقد اختلفوا في حكمه، فقال أبو طالب المكي: العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه، وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥]، إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان وإلا فيكون العمل في حكم المعاد، والعجب أنه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله ﷺ: «**لا يَكْفُرُ أَحَدٌ إِلاَّ بَعْدَ جُحُودِهِ لِمَا أَقَرَّ بِهِ**»(٢) وينكر

---

(١) حديث: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان**» أخرجاه من حديث أبي سعيد الخدري في الشفاعة، وفيه: «**اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه..**» الحديث. ولهما من حديث أنس: «**فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة ـ أو خردلة ـ من إيمان**» لفظ البخاري: «**منهما**» وله تعليقاً من حديث أنس: «**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان**» وهو عندهما متصل بلفظ: «**خير**» مكان «**إيمان**».

(٢) حديث: «**لا تكفروا أحداً إلا بجحود بما أقر به**» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد: «**لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحود ما دخل فيه**» وإسناده ضعيف.

على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر، والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة؛ إذ يقال له: من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة؟ فلا بد أن يقول: نعم، وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل، فنزيد ونقول: لو بقي حياً حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات، فهل يخلد في النار؟ فإن قال: نعم فهو مراد المعتزلة، وإن قال: لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركناً من نفس الإيمان ولا شرطاً في وجوده ولا في استحقاق الجنة به، وإن قال: أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية، فنقول: فما ضبط تلك المدة، وما عدد تلك الطاعات التي بتركها يبطل الإيمان، وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الإيمان؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلاً.

الدرجة الرابعة: أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات، فهل نقول مات مؤمناً بينه وبين الله تعالى؟ وهذا مما اختلف فيه، ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال ﷺ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الإِيمَانِ**»، وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يخلد في النار؟ ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق.

الدرجة الخامسة: أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتي الشهادة وعلم وجوبها، ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة، ونقول هو مؤمن غير مخلد في النار، والإيمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكون الإيمان موجوداً بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر؛ إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب. وقد قال ﷺ: «**يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ**»، ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب، وقال قائلون: القول ركن إذ ليس كلمتا الشهادة إخباراً عن القلب، بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر، وقد غلا في هذا طائفة المرجئة فقالوا: هذا لا يدخل النار أصلاً وقالوا: إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم.

الدرجة السادسة: أن يقول بلسانه: «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله»، ولكن لم يصدق بقلبه، فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلد في النار، ولا نشك في أنه في حكم الدنيا للذي يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه، وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطو عليه في قلبه وإنما نشك في أمر ثالث وهو الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى، وذلك بأن يموت له في الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتي ويقول: كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح؟ هذا محل نظر فيحتمل أن يقال: أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهراً وباطناً، ويحتمل أن يقال: تناط بالظاهر في حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله تعالى، والأظهر والعلم عند الله تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح، ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين، وعمر رضي الله عنه كان يراعي ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضي الله عنه، والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كانت من العبادات. والتوقي عن الحرام أيضاً من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله ﷺ: «**طَلَبُ الحَلالِ فَرِيضَةٌ**

بَعْدَ فريضة»، وليس هذا مناقضاً لقولنا: إن الإرث حكم الإسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن، وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغي أن يظنّ القاصر في العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده في فن الكلام الذي يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى العادات والمراسم في العلوم.

فإن قلت: فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حُجَّة بطلان قولهم؟ فأقول: شبهتهم عمومات القرآن، أما المرجئة فقالوا: لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصي لقوله عز وجلّ: ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] الآية، ولقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [المُلك: ٨، ٩]، فقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ عام فينبغي أن يكون من ألقي في النار مكذباً، ولقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥، ١٦]، وهذا حصر وإثبات ونفي، ولقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل: ٨٩]، فالإيمان رأس الحسنات، ولقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ولا حجة لهم في ذلك فإنه حيث ذكر الإيمان في هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل؛ إذ بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل، ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة في معاقبة العاصين ومقادير العقاب، وقوله ﷺ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ». فكيف يخرج إذا لم يدخل؟ ومن القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء: ٤٨]، والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الجن: ٢٣]، وتخصيصه بالكفر تحكم، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النَّمل: ٩٠]، فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بدّ من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأنّ العصاة يعذبون(١) بل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريَم: ٧١]، كالصريح في أنّ ذلك لا بد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥، ١٦]، أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقى شخصاً معيناً أيضاً، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [المُلك: ٨]، أي فوج من الكفار، وتخصيص العمومات قريب. ومن هذه الآية وقع للأشعري وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم وأنّ هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها. وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العَصر: ١-٣]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريَم: ٧١]، ثم قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريَم: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] وكل آية ذكر الله عزّ وجلّ العمل الصالح فيها مقروناً بالإيمان، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النّساء: ٩٣]، وهذه العمومات أيضاً

(١) حديث: «تعذيب العصاة» أخرجه البخاري من حديث أنس: «ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها..» الحديث. ويأتي في ذكر الموت عدة أحاديث.

مخصوصة بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء: ٤٨]، فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ما سوى الشرك. وكذلك قوله عليه السلام: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبَة: ١٢٠]، فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة؟ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النّساء: ٩٣]، أي لإيمانه وقد ورد على مثل هذا السبب.

فإن قلت: فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل، وقد اشتهر عن السلف قولهم: الإيمان عقد وقول وعمل، فما معناه؟ قلنا: لا يبعد أن يعدّ العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان، ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنساناً بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد، وكذلك يقال: التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقدها، فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض، وقد قال ﷺ: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[1]، والصحابة رضي الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقاً إيماناً تاماً كاملاً، كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بإنسان أي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الإنسانية.

مسألة:

فإن قلت: فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ـ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ـ فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصوّر فيه زيادة ولا نقصان؟ فأقول: السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده، بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشيء لا يزيد بذاته، فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمنه، ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود، بل تزيد بالآداب والسنن، فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان.

فإن قلت: فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة؟ فأقول: إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول: الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلاً. ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودي وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان، وكذلك النصراني والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع

---

(١) حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

أنه غير شاك في عقده كالأوّل ولكنهما متفاوتان في شدّة التصميم. وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضاً، والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقال ﷺ فيما يروى في بعض الأخبار: «**الإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ**»[١]، وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرّد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال، حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك، بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة. وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها، وسيأتي هذا في ربع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد والقلوب، فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت، وأعني بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة، والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك، ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة. ومن أدرك الأمرين وأدرك تعدّدهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال:

رقَّ الزجاجُ ورقّتِ الخمرُ ... وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

ولنرجع إلى المقصود، فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضاً اتصال وارتباط، فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تنكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإطلاق، ولهذا قال علي كرّم الله وجهه: إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه، فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] الآية.

الإطلاق الثاني: أن يراد به التصديق والعمل جميعاً كما قال ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَاباً**»[٢]، وقال ﷺ: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»، وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه، وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق؟ هذا فيه نظر. وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه.

---

(١) حديث: «**الإيمان يزيد وينقص**» أخرجه ابن عدي في الكامل وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة وقال ابن عدي: باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحي يتعمد الكذب، وهو عند ابن ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء.

(٢) حديث: «**الإيمان بضع وسبعون باباً**»، وذكر بعد هذا فزاد فيه: «**أدناها إماطة الأذى عن الطريق**» أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة: «**الإيمان بضع وسبعون**»، زاد مسلم في رواية: «**وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها**» فذكره ورواه بلفظ المصنف الترمذي وصححه.

الإطلاق الثالث: أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة، وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكني أقول: الأمر اليقيني الذي لا شك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه، فليس طمأنينة النفس إلى أنَّ الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث، وإن كان لا شك في واحد منهما فإن اليقينيّات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها، وقد تعرّضنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة. وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق، وكيف لا وفي الأخبار: «**أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**». وفي بعض المواضع في خبر آخر «**مِثْقَالُ دِينارٍ**»[1]، فأي معنًى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت؟.

مسألة:

فإن قلت: ما وجه قول السلف: «أنا مؤمن إن شاء الله»، والاستثناء شك والشك في الإيمان كفر، وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه. فقال سفيان الثوري رحمه الله: من قال: أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال: أنا مؤمن حقاً فهو بدعة، فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه، ومن كان مؤمناً في نفسه كان مؤمناً عند الله؟ كما أن من كان طويلاً وسخياً في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله، وكذا من كان مسروراً أو حزيناً أو سميعاً أو بصيراً، ولو قيل للإنسان: هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول: أنا حيوان إن شاء الله. ولما قال سفيان ذلك قيل له: فماذا نقول؟ قال: قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وأي فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن؟ وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ فقال: إن شاء الله، فقيل له: لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق عليَّ الكلمة. وكان يقول: ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني وقال: اذهب لا قبلت لك عملاً، فأنا أعمل في غير معمل. وقال إبراهيم بن أدهم: إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا الله، وقال مرة: قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة. وقيل لعلقمة: أمؤمن أنت؟ قال: أرجو إن شاء الله. وقال الثوري: نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندري ما نحن عند الله تعالى. فما معنى هذه الاستثناءات؟ فالجواب: أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه: وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان ولكن في خاتمته أو كماله، ووجهان لا يستندان إلى الشك.

الوجه الأوّل: الذي لا يستند إلى معارضة الشك: الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النساء: ٥٠]، وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟: فقال: ثناء المرء على نفسه. والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها نقل من عرف التزكية، كما يقال للإنسان: أنت طبيب أو فقيه أو مفسر؟ فيقول: نعم إن شاء الله، لا في معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة الترديد والتضعيف لنفس الخبر

---

(١) حديث: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار**»، متفق عليه من حديث أبي سعيد، وسيأتي ذكر الموت وما بعده.

ومعناه التضعيف للازم من لوازم الخبر وهو التزكية. وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء.

الوجه الثاني: التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه، فقد أدب الله سبحانه نبيه ﷺ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وكان الله سبحانه عالماً بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاءه، ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله ﷺ في كل ما كان يخبر عنه معلوماً كان أو مشكوكاً، حتى قال ﷺ لما دخل المقابر: «**السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ**»(١)، واللحوق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به، وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار بعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمني، فإذا قيل لك: إن فلاناً يموت سريعاً فتقول: إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لا تشككك، وإذا قيل لك: فلان سيزول مرضه ويصح فتقول: إن شاء الله بمعنى الرغبة، فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة، وكذلك العدول إلى معنى التأدب بذكر الله تعالى كيف كان الأمر.

الوجه الثالث: مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقاً إن شاء الله؛ إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]، فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر. والشك في كمال الإيمان حق من وجهين: **أحدهما**: من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه. **والثاني**: أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال. أما العمل فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝﴾ [الحجرات: ١٥]، فيكون الشك في هذا الصدق، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فشرط عشرين وصفاً كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] الآية. وقد قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال ﷺ: «**الإِيمَانُ عُرْيَانٌ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَىٰ**»(٢) الحديث. وقال ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَاباً أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ**»، فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال، وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّىٰ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(٣)، وفي بعض الروايات: «وإذا عَاهَدَ غَدَرَ» وفي حديث أبي سعيد الخدري: «**القلوب أربعة: قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها**

---

(١) حديث: «لما دخل المقابر قال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين. .**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «**الإيمان عريان**» تقدم في العلم.

(٣) حديث: «**أربع من كن فيه فهو منافق. . .**» الحديث. متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو.

الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلب عليه حكم له بها»[(١)]، وفي لفظ آخر: «**غلبت عليه ذهبت به**»، وقال عليه السلام: «**أَكْثَرُ مُنَافِقِي هٰذِهِ الأُمَّةِ قُرَّاؤُهَا**»[(٢)] وفي حديث: «**الشِّرْكُ أَخْفَىٰ فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَىٰ الصَّفَا**»[(٣)]، وقال حذيفة رضي الله عنه: «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقاً إلى أن يموت وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات»[(٤)]، وقال بعض العلماء: أقرب الناس من النفاق من يرى أنه بريء من النفاق. وقال حذيفة: المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبيّ ﷺ فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه، وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله وهو خفي، وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه بريء منه. فقد قيل للحسن البصري: يقولون أن لا نفاق اليوم، فقال: يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق. وقال هو أو غيره: لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا. وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلاً يتعرّض للحجاج فقال: أرأيت لو كان حاضراً يسمع أكنت تتكلم فيه؟ فقال: لا، فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ [(٥)]. وقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ فِي الدُّنْيا جَعَلَهُ اللَّهُ ذَا لِسَانَيْنِ فِي الآخِرَةِ**»، وقال أيضاً ﷺ: «**شَرُّ النَّاسِ ذُو الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هٰؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هٰؤُلاءِ بِوَجْهٍ**». وقيل للحسن: إنّ قوماً يقولون إنا لا نخاف النفاق، فقال: والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحب إليَّ من تلاع الأرض ذهباً. وقال الحسن: إنّ من النفاق اختلاف اللسان والقلب، والسر والعلانية، والمدخل والمخرج. وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: إني أخاف أن أكون منافقاً، فقال: لو كنت منافقاً ما خفت النفاق إنّ المنافق قد أمن من النفاق. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين ومائة ـ وفي رواية خمسين ومائة ـ من أصحاب النبيّ ﷺ كلهم يخافون النفاق. وروي «أنّ رسول الله ﷺ كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا: يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه، فقال ﷺ: **أَرَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ سُفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ**، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم، فقال ﷺ: **نَشَدْتُكَ اللَّهَ هَلْ حَدَّثْتَ نَفْسَكَ حِينَ أَشْرَفْتَ عَلَىٰ القَوْمِ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ خَيرٌ مِنْكَ**؟ فقال: اللهم نعم»[(٦)]، فقال ﷺ في دعائه: **اللَّهُمَّ إِنِّي**

---

(١) حديث: «**القلوب أربعة: قلب أجرد. .**» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

(٢) حديث: «**أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها**» أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر.

(٣) حديث: «**الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا**»، أخرجه أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر ولأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى، وسيأتي في ذم الجاه والرياء.

(٤) حديث حذيفة: «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقاً. .» الحديث. أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة، وحديث حذيفة: «المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله ﷺ. . .» الحديث. أخرجه البخاري إلا أنه قال: «شر» بدل أكثر.

(٥) حديث: «سمع ابن عمر رجلاً يتعرض للحجاج فقال: أرأيت لو كان حاضراً أكنت تتكلم فيه قال: لا، قال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ» رواه أحمد والطبراني بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج.

(٦) حديث: «كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً فأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء. .» الحديث. أخرجه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس.

أَسْتَغْفِرُكَ لِمَا عَلِمْتُ وَلِمَا لَمْ أَعْلَمْ، فقيل له: أتخاف يا رسول الله؟ فقال: **وَمَا يُؤْمِنُنِي وَالْقُلُوبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ وقد قال سبحانه**: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧]»[١]، قيل في التفسير: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات.

وقال سري السقطي: لو أنّ إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة، فقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً في يديها. فهذه الأخبار والآثار تعرّفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه، حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين؟ وقال أبو سليمان الداراني: سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي فكففت. وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله. فالنفاق نفاقان: **أحدهما**: يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار. **والثاني**: يفضي بصاحبه إلى النار مدّة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصدّيقين وذلك مشكوك فيه، ولذلك حسن الاستثناء فيه. وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية، والأمن من مكر الله والعجب، وأمور أخر لا يخلو عنها إلا الصدّيقون.

الوجه الرابع: وهو أيضاً مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا يدري أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا؟ فإن ختم له الكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال: أنا صائم قطعاً، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار. وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه، والعاقبة مخوفة ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التي لا تظهر إلا بظهور المقضي به ولا مطلع عليه لأحد من البشر، فخوف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر في الحال ما سبقت الكلمة بنقيضه، فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى؟ وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، أي بالسابقة يعني أظهرتها. وقال بعض السلف: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها. وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه. وقيل: من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك. وقيل: هي عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء. وقال بعض العارفين: لو عُرِضَتْ عليَّ الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار. وقال بعضهم: لو عرفت واحداً بالتوحيد خمسين سنة، ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد. وفي الحديث:

---

(١) حديث: «**اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم**..» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة: «**اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل**» ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل: «**وشر ما أعلم وشر ما لا أعلم**».

«مَنْ قَالَ أَنَا مُؤْمِنٌ فَهُوَ كَافِرٌ وَمَنْ قَالَ أَنَا عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ»[1]، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدقاً لمن مات على الإيمان وعدلاً لمن مات على الشرك، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، فمهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجباً؛ لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرىء الذمة، وما فسد قبل الغروب لا يبرىء الذمة فيخرج عن كونه صوماً، فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضي الذي لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال: أصمت بالأمس؟ فيقول: نعم إن شاء الله تعالى؛ إذ الصوم الحقيقي هو المقبول والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فمن هذا حسن الاستثناء في جميع أعمال البر ويكون ذلك شكاً في القبول؛ إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفيّة لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله فيحسن الشك فيه. فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به «كتاب قواعد العقائد».

تم الكتاب بحمد الله تعالى
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

---

(١) حديث: «من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال: أنا عالم فهو جاهل» أخرجه الطبراني في الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سليم تقدم، والشطر الأول روي من قول يحيى بن أبي كثير رواه الطبراني في الأصغر بلفظ: «من قال أنا في الجنة فهو في النار» وسنده ضعيف.

كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه، وأعدّ لظواهرهم تطهيراً لها الماء المخصوص بالرقة واللطافة، وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافة، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفة. أما بعد، فقد قال النبيّ ﷺ: «**بُنِيَ الدِّينُ عَلَىٰ النَّظَافَةِ**»(١)، وقال ﷺ: «**مِفْتَاحُ الصَّلاةِ الطُّهُورُ**»(٢)، وقال الله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال النبيّ ﷺ: «**الطُّهُورُ نِصْفُ الإِيمَانِ**»(٣)، وقال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر؛ إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: «**الطُّهُورُ نِصْفُ الإِيمَانِ**»، عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار. هيهات هيهات، والطهارة لها أربع مراتب:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصدّيقين، والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها فإن الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته، ولن تحل معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر ما لم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه. ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، لأنهما لا يجتمعان في قلب ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، وأما عمل القلب، فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني،

كتاب الطهارة

(١) حديث: «**بني الدين على النظافة**» لم أجده هكذا، وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: «**تنظفوا فإن الإسلام نظيف**»، والطبراني في الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود: «**النظافة تدعو إلى الإيمان**».

(٢) حديث: «**مفتاح الصلاة الطهور**»، أخرجه أبو داود والترمذي من حديث علي، قال الترمذي: هذا أصح شيء في هذا الباب وأحسن.

(٣) حديث: «**الطهور نصف الإيمان**»، أخرجه الترمذي من حديث رجل من بني سليم وقال: حسن، ورواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ «**شطر**» كما في الإحياء.

فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد الشطرين وهو الشطر الأوّل الذي هو شرط في الثاني، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأوّل وعمارتها بالطاعات الشطر الثاني، فهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات، وكلما عزَّ المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته، فلا تظنّ أنّ هذا الأمر يدرك وينال بالهوينى، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب، فصار يمعن فيها ويستقصي في مجاريها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظناً منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل أنّ الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهالة بسيرة الأوّلين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب، وتساهلهم في أمر الظاهر، حتى إنّ عمر رضي الله عنه مع علوّ منصبه توضأ من ماء في جرّة نصرانية، وحتى إنهم ما كانوا يغسلون اليد من الدسومات والأطعمة، بل كانوا يمسحون أصابعهم بأخمص أقدامهم وعدّوا الأشنان من البدع المحدثة، ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون حفاة في الطرقات، ومن كان لا يجعل بينه وبين الأرض حاجزاً في مضجعه كان من أكابرهم، وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء. وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة: «كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى ثم نفركها بالتراب ونكبر»(١)، وقال عمر رضي الله عنه: «ما كنا نعرف الأشنان في عصر رسول الله ﷺ وإنما كانت مناديلنا بطون أرجلنا. كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها»(٢)، ويقال: أوّل ما ظهر من البدع بعد رسول الله ﷺ أربع: المناخل والأشنان والموائد والشبع. فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم: الصلاة في النعلين أفضل؛ لأن رسول الله ﷺ لما نزع نعليه في صلاته بإخبار جبريل عليه السلام له أنّ بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال ﷺ: «لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ؟»(٣) وقال النخعي في الذين يخلعون نعالهم: وددت لو أنّ محتاجاً جاء إليها فأخذها، منكراً لخلع النعال. فهكذا كان تساهلهم في هذه الأمور، بل كانوا يمشون في طين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون في المساجد على الأرض، ويأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه، ولا يحترزون من عرق الإبل والخيل مع كثرة تمرّغها في النجاسات، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال في دقائق النجاسات، فهكذا كان تساهلهم فيها. وقد انتهت النّوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هي مبنى الدين فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر، كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر

---

(١) حديث: «كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصباء. . .» الحديث. أخرجه من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء ولم أره من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث عمر: «ما كنا نعرف الأشنان على عهد رسول الله ﷺ وإنما كانت مناديلنا باطن أرجلنا. .» الحديث. لم أجده من حديث عمر ولابن ماجه نحوه مختصراً من حديث جابر.

(٣) حديث: «خلع نعليه في الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة» أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري.

والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر، أو مشى على الأرض حافياً، أو صلى على الأرض، أو على بواري المسجد من غير سجادة مفروشة، أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من أدم، أو توضأ من آنية عجوز أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدّوا عليه النكير ولقبوه بالقذر وأخرجوه من زمرتهم واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته. فسموا البذاذة التي هي من الإيمان قذارة والرعونة نظافة، فانظر كيف صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه.

فإن قلت: أفنقول: إن هذه العادات التي أحدثها الصوفية في هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات؟ فأقول: حاشا لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل، ولكني أقول: إنّ هذا التنظيف والتكلف وإعداد الأواني والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المقنع به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرّد فهي من المباحات، وقد يقترن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات، فأما كونها مباحة في نفسها فلا يخفى أنّ صاحبها متصرف بها في ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف، وأما مصيرها منكراً فبأن يجعل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله ﷺ: «**بُنِيَ الدِّينُ عَلَىٰ النَّظَافَةِ**»، حتى ينكر به على من يتساهل فيه تساهل الأوّلين أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين موقع نظرهم، فإن ذلك هو الرياء المحظور فيصير منكراً بهذين الاعتبارين، أما كونه معروفاً فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين، وأن لا ينكر على من ترك ذلك، ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات، ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره، فإذا لم يقترن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن أن يجعل قربة بالنية، ولكن لا يتيسر ذلك إلا للبطالين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيما لا يعني فيصير شغلهم به أَوْلَى؛ لأن الاشتغال بالطهارات يجدّد ذكر الله تعالى وذكر العبادات، فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف.

وأما أهل العلم والعمل، فلا ينبغي أن يصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر في حقهم وتضييع العمر الذي هو أنفس الجواهر وأعزها في حق من قدر على الانتفاع به، ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين. ولا ينبغي للبطال أن يترك النظافة وينكر على المتصوّفة ويزعم أنه يتشبه بالصحابة؛ إذ التشبه بهم في أن لا يتفرّغ إلا لما هو أهم منه، كما قيل لداود الطائي: لم لا تسرح لحيتك؟ قال: إني إذن لفارغ. فلهذا لا أرى للعالم ولا للمتعلم ولا للعامل أن يضيع وقته في غسل الثياب احترازاً من أن يلبس الثياب المقصورة وتوهماً بالقصار تقصيراً في الغسل، فقد كانوا في العصر الأوّل يصلّون في الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فرّق بين المقصورة والمدبوغة في الطهارة والنجاسة، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدققون نظرهم في استنباط الاحتمالات الدقيقة، بل كانوا يتأملون في دقائق الرياء والظلم، حتى قال سفيان الثوري لرفيق له كان يمشي معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمور: لا تفعل ذلك فإنّ الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف. فالناظر إليه معين له على الإسراف. فكانوا يعدّون جمام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا في احتمالات النجاسة. فلو وجد العالم عامياً يتعاطى له غسل الثياب محتاطاً فهو أفضل فإنه بالإضافة إلى التساهل خير، وذلك العامي ينتفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمّارة بالسوء بعمل المباح في نفسه فيمتنع عليه المعاصي في تلك الحال، والنفس إن لم تشتغل بشيء شغلت صاحبها، وإذا قصد به التقرّب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات، فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظاً عليه،

وأشرف وقت العامي أن يشتغل بمثله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها، وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على بعض، فتدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق في أمور الدنيا بحذافيرها. وإذا عرفت هذه المقدّمة واستبنت أنّ الطهارة لها أربع مراتب فاعلم: أنّا في هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا في المرتبة الرابعة وهي نظافة الظاهر لأنا في الشطر الأوّل من الكتاب لا نتعرض قصداً إلا للظواهر. فنقول: طهارة الظاهر ثلاثة أقسام: طهارة عن الخبث، وطهارة عن الحدث، وطهارة عن فضلات البدن، وهي التي تحصل بالقلم والاستحداد واستعمال النورة والختان وغيره.

* * *

القسم الأوّل: في طهارة الخبث، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة

الطرف الأوّل: في المزال:

وهي النجاسة والأعيان ثلاثة: جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات. أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر وكل منتبذ مسكر. والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما، فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة: الآدمي والسمك والجراد ودود التفاح ـ وفي معناه كل ما يستحيل من الأطعمة ـ وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه. وأما أجزاء الحيوانات فقسمان: **أحدهما**: ما يقطع منه وحكمه حكم الميت. والشعر لا ينجس بالجز، والموت والعظم ينجس. **الثاني**: الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلاً ولا له مقرّ فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط، وما له مقرّ وهو مستحيل فنجس، إلا ما هو مادة الحيوان كالمني والبيض. والقيح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها. ولا يعفى عن شيء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة: **الأول**: أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعفى عنه ما لم يَعْدُ المَخْرَجَ. **والثاني**: طين الشوارع وغبار الروث في الطريق يعفى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه، وهو الذي لا ينسب المتلطخ به إلى تفريط أو سقطة. **الثالث**: ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعفى عنه بعد الدلك للحاجة. **الرابع**: دم البراغيث ما قلّ منه أو كثر إلا إذا جاوز حدّ العادة سواء كان في ثوبك أو في ثوب غيرك فلبسته. **الخامس**: دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد. ودَلَّك ابن عمر رضي الله عنه بثرة على وجهه فخرج منها الدم وصلى ولم يغتسل. وفي معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التي تدوم غالباً، وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادراً من خراج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة، ولا يكون في معنى البثرات التي لا يخلو الإنسان عنها في أحواله. ومسامحة الشرع في هذه النجاسات الخمس تعرّفك أن أمر الطهارة على التساهل وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها.

الطرف الثاني: في المزال به:

وهو إما جامد وإما مائع: أما الجامد؛ فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون

صلباً طاهراً منشفاً غير محترم. وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشيء منها إلا الماء، ولا كل ماء بل الطاهر الذي لم يتفاحش تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه. ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه. فإن لم يتغير وكان قريباً من مائتين وخمسين مناً ـ وهو خمسمائة رطل برطل العراق ـ لم ينجس لقوله ﷺ: «إِذَا بَلَغَ المَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبَثاً»[1] وإن كان دونه صار نجساً عند الشافعي رضي الله عنه. هذا في الماء الراكد. وأما الماء الجاري إذا تغير بالنجاسة فالجَرْية المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحتها لأن جريات الماء متفاصلات. وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقعها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين. وإن كان جري الماء أقوى من جري النجاسة فما فوق النجاسة طاهر وما سفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر، إلا إذا اجتمع في حوض قدر قلتين. وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجساً بالتفريق. هذا هو مذهب الشافعي رضي الله عنه. وكنت أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضي الله عنه في أن الماء وإن قل لا ينجس إلا بالتغير إذ الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشتراط القلتين، ولأجله شق على الناس ذلك، وهو لعمري سبب المشقة ويعرفه من يجربه ويتأمله. ومما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطاً لكان أولى المواضع بتعسر الطهارة: مكة والمدينة؛ إذ لا يكثر فيهما المياه الجارية ولا الراكدة الكثيرة. ومن أوّل عصر رسول الله ﷺ إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة في الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات، وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات. وقد توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية، وهذا كالصريح في أنه لم يعوّل إلا على عدم تغير الماء وإلا فنجاسة النصرانية وإنائها غالبة تعلم بظن قريب. فإذاً عسر القيام بهذا المذهب. وعدم وقوع السؤال في تلك الأعصار **دليل أوّل**. وفعل عمر رضي الله عنه **دليل ثان**. **والدليل الثالث**: إصغاء رسول الله ﷺ الإناء للهرة[2]، وعدم تغطية الأواني منها: بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الآبار. **والرابع**: أن الشافعي رضي الله عنه نصَّ على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت، وأي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه؟ وأي معنى لقول القائل: إنّ قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة؟ وإن أحيل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضاً ماسة إلى هذا، فلا فرق بين طرح الماء في إجانة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس في الإجانة وفيها ماء وكل ذلك معتاد في غسل الثياب والأواني. **والخامس**: أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة، ولا خلاف في مذهب الشافعي رضي الله عنه أنه إذا وقع بول في ماءٍ جارٍ ولم يتغير أنه يجوز التوضؤ به وإن كان قليلاً. وأي فرق بين الجاري والراكد؟ وليت شعري هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوّة الماء بسبب الجريان؟ ثم ما حدّ تلك القوة أتجري في المياه الجارية في أنابيب الحمامات أم لا؟ فإن لم تجر فما الفرق، وإن جرت فما الفرق بين ما يقع فيها وبين ما يقع في مجرى الماء من الأواني على الأبدان وهي أيضاً جارية؟ ثم البول أشد اختلاطاً بالماء الجاري من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضي بأن ما يجري عليها وإن

---

(١) حديث: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً». أخرجه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث ابن عمر.

(٢) حديث: «إصغاء الإناء للهرة». أخرجه الطبراني في الأوسط والدارقطني من حديث عائشة، وروى أصحاب السنن ذلك من فعل أبي قتادة.

لم يتغير نجس أن يجتمع في مستنقع قلتان، فأي فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة؟ **والسادس**: أنه إذا وقع رطل من البول في قلتين ثم فرقتا فكل كوز يغترف منه طاهر، ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل، وليت شعري هل تعليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوّة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها؟ **والسابع**: أن الحمامات لم تزل في الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدي والأواني في تلك الحياض مع قلة الماء، ومع العلم بأن الأيدي النجسة والطاهرة كانت تتوارد عليها. فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوّي في النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معوّلين على قوله ﷺ: «**خُلِقَ المَاءُ طَهُوراً لا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إلاَّ ما غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ لَوْنَهُ أَوْ رِيحَهُ**»[1]، وهذا فيه تحقيق، وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل ما يقع فيه وكان مغلوباً من جهته، فكما ترى الكلب يقع في المملحة فيستحيل ملحاً ويحكم بطهارته بصيرورته ملحاً وزوال صفة الكلبية عنه، فكذلك الخل يقع في الماء، وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب، وتعرف غلبته بغلبة طعمه أو لونه أو ريحه فهذا المعيار. وقد أشار الشرع إليه في الماء القوي على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يعوّل عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهوراً إذ يغلب عليه فيطهره، كما صار كذلك فيما بعد القلتين، وفي الغسالة، وفي الماء الجاري، وفي إصغاء الإناء للهرة، ولا تظن ذلك عفوا إذ لو كان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقي له نجساً ولا ينجس بالغسالة ولا بولوغ السنور في الماء القليل. وأما قوله ﷺ: «**لا يَحْمِلُ خَبَثاً**»، فهو في نفسه مبهم فإنه يحمل إذا تغير.

فإن قيل: أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال: إنه أراد به أنه في الغالب لا يتغير بالنجاسات المعتادة. ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التي ذكرناها ممكن وقوله: «**لا يحمل خبثاً**»، ظاهره نفي الحمل أي يقلبه إلى صفة نفسه، كما يقال للمملحة لا تحمل كلباً ولا غيره أن ينقلب، وذلك لأن الناس قد يستنجون في المياه القليلة وفي الغدران ويغمسون الأواني النجسة فيها، ثم يترددون في أنها تغيرت تغيراً مؤثراً أم لا؟ فتبين أنه إذا كان قلتين لا يتغير بهذه النجاسة المعتادة.

فإن قلت: فقد قال النبي ﷺ: «**لا يَحْمِلُ خَبَثاً**»، ومهما كثرت حملها، فهذا ينقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها، حكماً كما حملها حساً، فلا بد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعاً. وعلى الجملة: فميلي في أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فهماً من سيرة الأولين وحسماً لمادة الوسواس، وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه في مثل هذه المسائل.

* * *

الطرف الثالث: في كيفية الإزالة:

والنجاسة إن كانت حكمية وهي التي ليس لها جرم محسوس فيكفي إجراء الماء على جميع

---

(١) حديث: «**خلق الله الماء طهوراً لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه**». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف. وقد رواه بدون الاستثناء أبو داود، والنسائي، والترمذي من حديث أبي سعيد، وصححه أبو داود وغيره.

مواردها، وإن كانت عينية فلا بد من إزالة العين، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحت والقرص. أما الرائحة: فبقاؤها يدل على بقاء العين ولا يعفى عنها إلا إذا كان الشيء له رائحة فائحة يعسر إزالتها، فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص في اللون. والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فما لا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقيناً يصلي معه، ولا ينبغي أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات.

* * *

القسم الثاني: طهارة الأحداث، ومنها الوضوء والغسل والتيمم، ويتقدمها الاستنجاء

فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى.

باب

آداب قضاء الحاجة

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء وأن يستتر بشيء إن وجده، وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس، وأن يستقبل الشمس والقمر، وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلا إذا كان في بناء، والعدول أيضاً عنها في البناء أحب، وإن استتر في الصحراء براحلته جاز وكذلك بذيله، وأن يتقي الجلوس في متحدّث الناس، وأن لا يبول في الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر، وأن يتقي الموضع الصلب ومهاب الرياح في البول استنزاهاً من رشاشه، وأن يتكىء في جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان في بنيان يقدم الرجل اليسرى في الدخول واليمنى في الخروج ولا يبول قائماً. قالت عائشة رضي الله عنها: «من حدّثكم أن النبي ﷺ كان يبول قائماً فلا تصدّقوه»[١]، وقال عمر رضي الله عنه: رآني رسول الله ﷺ وأنا أبول قائماً فقال: «**يا عُمَرُ لا تَبُلْ قَائِماً**»[٢]، قال عمر: فما بلت قائماً بعد، وفيه رخصة إذ روى حذيفة رضي الله عنه: «أنه عليه الصلاة والسلام بال قائماً فأتيته بوضوء فتوضأ ومسح على خفيه»[٣]، ولا يبول في المغتسل، قال ﷺ: «**عَامَّةُ الوَسْوَاسِ مِنْهُ**»[٤]، وقال

(١) حديث عائشة: «من حدثكم أن النبيّ ﷺ كان يبول قائماً فلا تصدقوه». أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه. قال الترمذي: هو أحسن شيء في هذا الباب وأصح.

(٢) حديث عمر: «رآني النبيّ ﷺ وأنا أبول قائماً فقال: **يا عمر لا تبل قائماً**». أخرجه ابن ماجه بإسناد ضعيف، رواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر لعمر.

(٣) حديث: «أنه عليه الصلاة والسلام بال قائماً..» الحديث. متفق عليه.

(٤) حديث: «قال في البول في المغتسل: **عامة الوسواس منه**». أخرجه أصحاب السنن من حديث عبدالله بن مغفل. قال الترمذي: غريب. قلت: وإسناده صحيح.

ابن المبارك: قد وسع في البول في المغتسل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذي. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي مُسْتَحَمِّهِ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فِيهِ فَإِنَّ عَامَّةَ الوَسْوَاسِ مِنْهُ»، وقال ابن المبارك: إن كان الماء جارياً فلا بأس به ولا يستصحب شيئاً عليه اسم الله تعالى أو رسوله ﷺ ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس. وأن يقول عند الدخول: «بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم»، وعند الخروج: «الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني» ويكون ذلك خارجاً عن بيت الماء، وأن يعد النبل قبل الجلوس، وأن لا يستنجي بالماء في موضع الحاجة، وأن يستبرىء من البول بالتنحنح والنثر ـ ثلاثاً ـ وإمرار اليد على أسفل القضيب، ولا يكثر التفكر في الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء، فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى في نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس. وفي الخبر: أنه ﷺ فعله أعني رش الماء[1]، وقد كان أخفهم استبراء أفقههم فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه. وفي حديث سلمان رضي الله عنه: «علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة فأمرنا أن لا نستنجي بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول»[2]، وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه: لا أحسبك تحسن الخراء قال: بلى وأبيك إني لأحسنها وإني بها لحاذق أبعد الأثر وأعد المدر وأستقبل الشيح وأستدبر الريح وأقعي إقعاء الظبي وأجفل إجفال النعام ـ الشيح: نبت طيب الرائحة بالبادية، والإقعاء هٰهنا: أن يستوفز على صدور قدميه، والإجفال: أن يرفع عجزه ـ. ومن الرخصة أن يبول الإنسان قريباً من صاحبه مستتراً عنه[3]. فعل ذلك رسول الله ﷺ مع شدة حيائه ليبين للناس ذلك.

كيفية الاستنجاء:

ثم يستنجي لمقعدته بثلاثة أحجار، فإن أنقى وإلا استعمل رابعاً، فإن أنقى وإلا استعمل خامساً لأن الإنقاء واجب والإيتار مستحب. قال عليه السلام: «مَنِ اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ»[4]، ويأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدّم المقعدة قبل موضع النجاسة ويمره بالمسح والإدارة إلى المؤخر، ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدّمة، ويأخذ الثالث فيديره حول المسربة إدارة فإن عسرت الإدارة ومسح من المقدمة إلى المؤخر أجزأه، ثم يأخذ حجراً كبيراً بيمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه ويحرك اليسار فيمسح ثلاثاً في ثلاثة مواضع أو في ثلاثة أحجار أو في ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لا يرى الرطوبة في محل المسح، فإن حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة، ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر، وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للإيتار. ثم ينتقل من ذلك الموضع إلى موضع آخر ويستنجي بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجو ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس اللمس، ويترك الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فإن ذلك منبع الوسواس، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه

---

(١) حديث: «رش الماء بعد الوضوء» وهو الانتضاح أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه من حديث سفيان بن الحكم الثقفي أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كما قاله الترمذي وابن عبدالبر.

(٢) حديث سلمان: «علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة. . .» الحديث. أخرجه مسلم وقد تقدم في قواعد العقائد.

(٣) حديث: «البول قريباً من صاحبه». متفق عليه من حديث حذيفة.

(٤) حديث: «من استجمر فليوتر» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحدّ ظهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس. ويقول عند الفراغ من الاستنجاء: «اللهم طهّر قلبي من النفاق وحصّن فرجي من الفواحش» ويدلك يده بحائط أو بالأرض إزالة للرائحة إن بقيت. والجمع بين الماء والحجر مستحب، فقد روي: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، قال رسول الله ﷺ لأهل قباء: **«ما هٰذِهِ الطَّهارَةُ الَّتِي أَثْنَىٰ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ؟»**، قالوا: كنا نجمع بين الماء والحجر[١].

كيفية الوضوء:

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء، فلم يُرَ رسول الله ﷺ قط خارجاً من الغائط إلا توضأ. ويبتدىء بالسواك، فقد قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقُ القُرْآنِ فَطَيِّبُوها بِالسِّوَاكِ»**[٢]، فينبغي أن ينوي عند السواك تطهير فمه لقراءة القرآن وذكر الله تعالى في الصلاة، وقال ﷺ: **«صَلاةٌ عَلَىٰ أَثَرِ سِوَاكٍ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ صَلاةً بِغَيْرِ سِوَاكٍ»**[٣]، وقال ﷺ: **«لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ»**[٤]، وقال ﷺ: **«ما لِي أَرَاكُمْ تَدْخُلُونَ عَلَيَّ قُلْحاً اسْتاكُوا»**[٥]. أي: صفر الأسنان. وكان عليه الصلاة والسلام يستاك في الليلة مراراً[٦]. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «لم يزل ﷺ يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء»[٧]، وقال عليه السلام: **«عَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ فَإِنَّهُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ وَمَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»**[٨]، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم. و«كان أصحاب النبي ﷺ يروحون والسواك على آذانهم»[٩].

---

(١) حديث: «لما نزل قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨] الحديث في أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء؟». أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف، ورواه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أيوب وجابر وأنس في الاستنجاء بالماء ليس فيه ذكر: «الحجر» وقول النووي تبعاً لابن الصلاح «إن الجمع بين الماء والحجر في أهل قباء لا يعرف» مردود بما تقدم.

(٢) حديث: **«إن أفواهكم طرق القرآن»**، أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي ورواه ابن ماجه موقوفاً على علي وكلاهما ضعيف.

(٣) حديث: **«صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك»**، رواه أبو نعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، ورواه أبو داود، والحاكم وصححه والبيهقي وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ: **«من سبعين صلاة»**.

(٤) حديث: **«لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»**، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: **«ما لي أراكم تدخلون علي قلحاً استاكوا»**، أخرجه البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبدالمطلب وأبو داود والبغوي من حديث تمام بن العباس، والبيهقي من حديث عبدالله بن عباس وهو مضطرب.

(٦) حديث: «كان يستاك من الليل مراراً»، أخرجه مسلم من حديث ابن عباس.

(٧) حديث ابن عباس «لم يزل يأمرنا رسول الله ﷺ بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء» رواه أحمد.

(٨) حديث: **«عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم مرضاة للرب»**، أخرجه البخاري تعليقاً مجزوماً من حديث عائشة والنسائي وابن خزيمة موصولاً، قلت: وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس الذي قبله وقد رواه من حديث ابن عباس الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان.

(٩) حديث: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يروحون والسواك على آذانهم»، أخرجه الخطيب في كتاب أسماء من روى عن مالك، وعند أبي داود، والترمذي وصححه: «أن زيد بن خالد كان يشهد الصلوات وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب».

وكيفيته: أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلح ويستاك عرضاً وطولاً وإن اقتصر فعرضاً. ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يصل عقيبه، وعند تغير النكهة بالنوم أو طول الأزم أو كل ما تكره رائحته. ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول: «بسم الله الرحمن الرحيم». قال ﷺ: **«لا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يُسَمِّ اللَّهَ تَعَالَىٰ»**[١]، أي: لا وضوء كامل. ويقول عند ذلك: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ»، ثم يغسل يديه ثلاثاً قبل أن يدخلهما الإناء، ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْيُمْنَ وَالْبَرَكَةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشُّؤْمِ وَالْهَلَكَةِ»، ثم ينوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة، ويستديم النية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجه لم يجزه، ثم يأخذ غَرْفَة لفيه بيمينه فيتمضمض بها ثلاثاً ويغرغر بأن يرد الماء إلى الغلصمة إلا أن يكون صائماً فيرفق ويقول: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ تِلاوَةِ كِتَابِكَ وَكَثْرَةِ الذِّكْرِ لَكَ»، ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثاً ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول في الاستنشاق: «اللَّهُمَّ أَوْجِدْ لِي رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَأَنْتَ عَنِّي رَاضٍ» وفي الاستنثار: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ رَوَائِحِ النَّارِ وَمِنْ سُوءِ الدَّارِ»؛ لأن الاستنشاق إيصال والاستنثار إزالة. ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول، ومن الأذن إلى الأذن في العرض، ولا يدخل في حدّ الوجه النزعتان اللتان على طرفي الجبينين فهما من الرأس، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه، مهما وضع طرف الخيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة: الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب؛ لأنها خفيفة في الغالب. والعذاران هما ما يوازيان الأذنين من مبدأ اللحية. ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة، أعني: ما يقبل من الوجه وأما الكثيفة فلا، وحكم العنفقة حكم اللحية في الكثافة والخفة، ثم يفعل ذلك ثلاثاً ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية، ويدخل الأصابع في محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما. فقد روي: أنه عليه السلام فعل ذلك[٢]، ويأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو، ويقول عنده: «اللهم بيِّض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسوّد وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك»، ويخلل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب، ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثاً ويحرك الخاتم ويطيل الغرة ويرفع الماء إلى أعلى العضد فإنهم يحشرون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، كذلك ورد الخبر.

قال عليه السلام: **«مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»**[٣]، وروي أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء[٤]، ويبدأ باليمنى ويقول: «اللهم أعطني كتابي بيميني وحاسبني حساباً يسيراً»، ويقول عند غسل الشمال: «اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري»، ثم يستوعب رأسه بالمسح؛

---

(١) حديث: **«لا وضوء لمن لم يسم الله»**. أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة. ونقل الترمذي عن البخاري أنه أحسن شيء في هذا الباب.

(٢) حديث: «إدخاله الأصبع في محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل»، أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة، كان يتعاهد المنافقين. ورواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف: **«أشربوا الماء أعينكم»**.

(٣) حديث: **«من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»**، أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: **«تبلغ الحلية من المؤمن ما يبلغ ماء الوضوء»**، أخرجاه من حديثه.

بأن يبل يديه ويلصق رؤوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى المقدمة، وهذه مسحة واحدة، يفعل ذلك ثلاثاً ويقول: «اللهم غشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك»، ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد؛ بأن يدخل مسبحتيه في صماخي أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهاراً، ويكرره ثلاثاً ويقول: «اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعني منادي الجنة مع الأبرار»، ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله ﷺ: «**مَسْحُ الرَّقَبَةِ أَمَانٌ مِنَ الغِلِّ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١)، ويقول: «اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال»، ثم يغسل رجليه، اليمنى ثلاثاً ويخلل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى ويختم بالخنصر من الرجل اليسرى ويقول: «اللهم ثبّت قدمي على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام في النار»، ويقول عند غسل اليسرى: «أعوذ بك أن تزل قدمي على الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين» ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين. فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي أستغفرك اللهم وأتوب إليك فاغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين، واجعلني من عبادك الصالحين، واجعلني عبداً صبوراً شكوراً، واجعلني أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلاً» يقال: إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

ويكره في الوضوء أمور: منها: أن يزيد على الثلاث فمن زاد فقد ظلم، وأن يسرف في الماء، توضأ عليه السلام ثلاثاً وقال: «**مَنْ زَادَ فَقَدْ ظَلَمَ وَأَسَاءَ**»(٢)، وقال: «**سَيَكُونُ قَوْمٌ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ**»(٣)، ويقال: من وهن علم الرجل ولوعه بالماء في الطهور(٤). وقال إبراهيم بن أدهم: يقال: إن أول ما يبتدىء الوسواس من قبل الطهور. وقال الحسن: إن شيطاناً يضحك بالناس في الوضوء يقال له الولهان. ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم في أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطماً. وكره قوم التنشيف وقالوا: الوضوء يوزن، قاله سعيد بن المسيب والزهري، لكن روى معاذ رضي الله عنه: «أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه»(٥)، وروت عائشة رضي الله عنها: «أنه ﷺ كانت له منشفة»(٦)، ولكن طعن في هذه الرواية عن عائشة. ويكره أن يتوضأ من إناء صفر وأن

---

(١) حديث: «**مسح الرقبة أمان من الغل**»، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عمر وهو ضعيف.

(٢) حديث: «توضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال: **من زاد فقد أساء وظلم**» أخرجه أبو داود، والنسائي، واللفظ له وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) حديث: «**سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور**»، أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم من حديث عبدالله بن مغفل.

(٤) حديث: «من وهن علم الرجل ولوعه في الماء في التطهير» لم أجد له أصلاً.

(٥) حديث معاذ «أن النبيّ ﷺ مسح وجهه بطرف ثوبه». أخرجه الترمذي وقال: غريب وإسناده ضعيف.

(٦) حديث عائشة: «أن النبيّ ﷺ كان له منشفة». أخرجه الترمذي وقال: ليس بالقائم، قال: ولا يصح عن النبيّ ﷺ في هذا الباب شيء.

يتوضأ بالماء المشمس وذلك من جهة الطب. وقد روي عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما كراهية إناء الصفر. وقال بعضهم: أخرجت لشعبة ماء في إناء صفر فأبى أن يتوضأ منه. ونقل كراهية ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما. ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه. وليحقق أن طهارة القلب بالتوبة والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى، وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكاً إلى بيته فتركه مشحوناً بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البراني من الدار. وما أجدر مثل هذا الرجل بالتعرض للمقت والبوار، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فضيلة الوضوء:

قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ فِيهِما بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنيا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»**[(١)]، وفي لفظ آخر: **«وَلَمْ يَسْهَ فِيهِما غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**، وقال ﷺ أيضاً: **«أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِما يُكَفِّرُ اللَّهُ بِهِ الخَطَايا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجاتِ؟ إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَىٰ المَكَارِهِ وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ»** ـ ثلاث مرات ـ[(٢)].
«وتوضأ ﷺ مرة مرة وقال: **هٰذا وُضُوءٌ لا يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلاةَ إِلاَّ بِهِ**، وتوضأ مرتين مرتين وقال: **مَنْ تَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ آتاهُ اللَّهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ**، وتوضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال: **هٰذا وُضُوئِي وَوُضُوءُ الأَنْبِياءِ مِنْ قَبْلِي وَوُضُوءُ خَلِيلِ الرَّحْمٰنِ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ**»[(٣)]، وقال ﷺ: **«مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ وُضُوئِهِ طَهَّرَ اللَّهُ جَسَدَهُ كُلَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ لَمْ يَطْهُرْ مِنْهُ إِلاَّ ما أَصابَ الماءُ»**[(٤)]، وقال ﷺ: **«مَنْ تَوَضَّأَ عَلَىٰ طُهْرٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ»**[(٥)]، وقال ﷺ: **«الوُضُوءُ عَلَىٰ الوُضُوءِ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ»**[(٦)]، وهذا كله حث على تجديد الوضوء.
وقال عليه السلام: **«إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ فَتَمَضْمَضَ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ فِيهِ، فَإِذا اسْتَنْثَرَ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ أَنْفِهِ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ وَجْهِهِ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ يَدَيْهِ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ، فَإِذَا مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ رَأْسِهِ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أُذُنَيْهِ، وَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ رِجْلَيْهِ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ**

---

(١) حديث: **«من توضأ وأسبغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»** وفي لفظ آخر: **«لم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه»** أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد والرقائق باللفظين معاً وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله: **«بشيء من الدنيا»** ودون قوله: **«لم يسه فيهما»** وأخرجه أبو داود من حديث زيد بن خالد: **«ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما»** الحديث.

(٢) حديث: **«ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات..»** الحديث. أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

(٣) حديث: «توضأ مرة مرة وقال: **هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به..»** الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٤) حديث: **«من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله..»** الحديث. رواه الطبراني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(٥) حديث: **«من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات»**. أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٦) حديث: **«الوضوء على الوضوء نور على نور»**. لم أجد له أصلاً.

أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ ثُمَّ كَانَ مَشْيُهُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ وَصَلاتُهُ نَافِلَةً لَهُ»(١)، ويروى: «إِنَّ الطَّاهِرَ كَالصَّائِمِ»(٢) قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(٣)، وقال عمر رضي الله عنه: إنّ الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان. وقال مجاهد: من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل فإنّ الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

كيفية الغسل:

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمي الله تعالى ويغسل يديه ثلاثاً، ثم يستنجي كما وصفت لك ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما، فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً، ثم يدلك ما أقبل من بدنه ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منه أو خف، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أنّ الماء لا يصل إلى خلال الشعر، ويتعهد معاطف البدن وليتق أن يمس ذكره في أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد الوضوء، وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل.

فهذه سنن الوضوء والغسل ذكرنا منها ما لابدّ لسالك طريق الآخرة من علمه وعمله، وما عداه من المسائل التي يحتاج إليها في عوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه. والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل أمران: النية واستيعاب البدن بالغسل.

وفروض الوضوء: النية، وغسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح ما ينطلق عليه الاسم من الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين، والترتيب. وأما الموالاة فليست بواجبة. والغسل الواجب بأربعة: بخروج المني، والتقاء الختانين، والحيض، والنفاس، وما عداه من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة، وثلاثة أغسال أيام التشريق، ولطواف الوداع ـ على قول ـ والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولمن غسل ميتاً، فكل ذلك مستحب.

كيفية التيمم:

من تعذر عليه استعمال الماء ـ لفقده بعد الطلب أو بمانع له عن الوصول إليه من سبع أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو لعطش رفيقه، أو كان ملكاً لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من ثمن

---

(١) حديث: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه...» الحديث. أخرجه أبو داود، وابن ماجه من حديث الصنابحي. إسناده صحيح، ولكن اختلف في صحته، وعند مسلم من حديث أبي هريرة وعمرو بن عنبسة نحوه مختصراً.

(٢) حديث: «الطاهر النائم كالصائم». أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث: «الطاهر النائم كالصائم القائم» وسنده ضعيف.

(٣) حديث: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله...» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث عقبة بن عامر وهو عند مسلم دون قوله: «ثم رفع» هكذا عزاه المزي في الأطراف وقد رواه النسائي في اليوم والليلة من رواية عقبة بن عامر، وكذا رواه الدارمي في مسنده.

المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا ـ فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة، ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار، ويضرب عليه كفيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة، وينوي عند ذلك استباحة الصلاة، ولا يكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفت أو كثفت، ويجتهد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار ـ ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فإنّ عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين ـ ويكفي في الاستيعاب غالب الظنّ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج فيها بين أصابعه، ثم يلصق ظهور أصابع يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى ـ بحيث لا يجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عرض المسبحة من الأخرى ـ ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق، ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمرها إلى الكوع، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى، ثم يفعل باليسرى كذلك، ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه. وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب إلى المرفقين بضربة واحدة، فإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة. وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء، فإن جمع بين فريضتين فينبغي أن يعيد التيمم للثانية. وهكذا يفرد كل فريضة بتيمم والله أعلم.

* * *

القسم الثالث من النظافة: التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهي نوعان: أوساخ وأجزاء

النوع الأوّل: الأوساخ والرطوبات المترشحة وهي ثمانية:

الأول: ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل، فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين إزالة للشعث عنه، وكان ﷺ يدهن الشعر ويرجله غباً ويأمر به[1]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**ادهنوا غباً**»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرَةَ فَلْيُكْرِمْها**»[3]. أي: ليصنها عن الأوساخ. ودخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال: «**أما كَانَ لِهٰذَا دُهْنٌ يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟**» ثم قال: «**يَدْخُلُ أَحَدُكُم كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ**»[4].

---

(١) حديث: «كان يدهن الشعر ويرجله». أخرجه الترمذي في الشمائل بإسناد ضعيف من حديث أنس: «كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته». وفي الشمائل أيضاً بإسناد حسن من حديث صحابي لم يسم: «أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غباً».

(٢) حديث: «ادهنوا غباً». قال ابن الصلاح: لم أجد له أصلاً، وقال النووي: غير معروف. وعند أبي داود والترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن مغفل: «النهي عن الترجل إلا غباً» بإسناد صحيح.

(٣) حديث: «من كانت له شعرة فليكرمها». من حديث أبي هريرة وقال: «به شعر فليكرمه» وليس إسناده بالقوي.

(٤) حديث: «دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال: أما كان لهذا دهن يسكن به شعره..» الحديث. أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد.

الثاني: ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن، والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر الصماخ، فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام؛ فإن كثرة ذلك ربما تضر بالسمع.

الثالث: ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبه ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار.

الرابع: ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان من القلح فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناهما.

الخامس: ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط. وفي الخبر المشهور: أنه ﷺ: «كان لا يفارقه المشط والمدرى والمرآة في سفر ولا حضر»(١) وهي سنّة العرب. وفي خبر غريب: «أنه ﷺ كان يسرح لحيته في اليوم مرتين»(٢) وكان ﷺ كث اللحية(٣)، وكذلك كان أبو بكر، وكان عثمان طويل اللحية رقيقها، وكان علي عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه. وفي حديث أغرب منه: قالت عائشة رضي الله عنها: «اجتمع قوم بباب رسول الله ﷺ فخرج إليهم فرأيته يطلع في الحب يسوّي من رأسه ولحيته(٤)، فقلت: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال: **نَعَمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَتَجَمَّلَ لإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ**»، والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياساً على أخلاق غيره وتشبيهاً للملائكة بالحدادين وهيهات! فقد كان رسول الله ﷺ مأموراً بالدعوة، وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم؛ كيلا تزدريه نفوسهم ويحسّن صورته في أعينهم كيلا تستصغره أعينهم فينفرهم ذلك، ويتعلق المنافقون بذلك في تنفيرهم. وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عزّ وجلّ، وهو أن يراعي من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه. والاعتماد في مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال في أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود، فالتزين على هذا القصد محبوب وترك الشعث في اللحية إظهاراً للزهد وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلاً بما هو أهم منه محبوب. وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عزّ وجلّ، والناقد بصير والتلبيس غير رائج عليه بحال، وكم من جاهل يتعاطى هذه الأمور التفاتاً إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويزعم أن قصده الخير، فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعمون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمجادلين والتقرّب إلى الله تعالى به. وهذا أمر ينكشف يوم تبلى السرائر، ويوم يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور، فعند ذلك تتميز السبيكة الخالصة من البهرجة، فنعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر.

---

(١) حديث: «كان لا يفارقه المشط والمدرى في سفر ولا حضر» أخرجه ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سعيد: «كان لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه». ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة وإسنادهما ضعيف. وسيأتي في آداب السفر مطولاً.

(٢) حديث: «كان يسرح لحيته كل يوم مرتين». تقدم حديث أنس: «كان يكثر تسريح لحيته» وللخطيب في الجامع من حديث الحكم مرسلاً: «كان يسرح لحيته بالمشط».

(٣) حديث: «كان كث اللحية» أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة وأبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي وأصله عند الترمذي.

(٤) حديث عائشة «اجتمع قوم بباب رسول الله ﷺ خرج إليهم فرأيته يطلع في الحب يسوي من رأسه ولحيته» أخرجه ابن عدي وقال: حديث منكر.

السادس: وسخ البراجم وهي معاطف ظهور الأنامل، كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام، فيجتمع في تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله ﷺ بغسل البراجم(١).

السابع: تنظيف الرواجب(٢). أمر رسول الله ﷺ العرب بتنظيفها وهي رؤوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ؛ لأنها كانت لا يحضرها المقراض في كل وقت فتجتمع فيها أوساخ، فوقت لهم رسول الله ﷺ قلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً(٣)، لكنه أمر رسول الله ﷺ بتنظيف ما تحت الأظفار(٤)، وجاء في الأثر: «أن النبي ﷺ استبطأ الوحي فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له: كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم(٥)، وقلحاً لا تستاكون. مُرْ أمتك بذلك» والأف وسخ الظفر، والتف وسخ الأذن، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسرَاء: ٢٣]، تعبهما أي بما تحت الظفر من الوسخ، وقيل: لا تتأذ بهما كما تتأذى بما تحت الظفر.

الثامن: الدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذلك يزيله الحمام ولا بأس بدخول الحمام، دخل أصحاب رسول الله ﷺ حمامات الشام وقال بعضهم: نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر النار. روي ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهما. وقال بعضهم: بئس البيت بيت الحمام يبدي العورة ويذهب الحياء. فهذا تعرض لآفته وذاك تعرض لفائدته ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته. ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات، فعليه واجبان في عورته وواجبان في عورة غيره. أما الواجبان في عورته: فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مسّ الغير فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده، ويمنع الدلاك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة، وفي إباحة مس ما ليس بسوأة لإزالة الوسخ احتمال، ولكن الأقيس التحريم إذا ألحق مس السوأتين في التحريم بالنظر، فكذلك ينبغي أن تكون بقية العورة أعني الفخذين. والواجبان في عورة الغير: أن يغض بصر نفسه عنها وأن ينهي عن كشفها لأن النهي عن المنكر واجب، وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو ما يجري عليه مما هو حرام في نفسه، فليس عليه أن ينكر حراماً يرهق المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر. فأما قوله: اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به، فهذا لا يكون عذراً بل لا بدّ من الذكر، فلا يخلو قلب عن التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي، وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه

---

(١) حديث: «الأمر بغسل البراجم». أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث عبدالله بن بسر: «**نقوا براجمكم**»، ولابن عدي في حديث لأنس: «**وأن يتعاهد البراجم إذا توضأ**»، ولمسلم من حديث عائشة: «**عشر من الفطرة ـ وفيه ـ وغسل البراجم**».

(٢) «الأمر بتنظيف الرواجب» أخرجه أحمد من حديث ابن عباس: «**أنه قيل له: يا رسول الله، لقد أبطأ عنك جبريل، فقال: ولم لا يبطىء وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظافركم ولا تقصون شواربكم ولا تنقون رواجبكم**» وفيه إسماعيل بن عياش.

(٣) حديث: «التوقيت في قلم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً» أخرجه مسلم من حديث أنس.

(٤) حديث: «الأمر بتنظيف ما تحت الأظافر». أخرجه الطبراني من حديث وابصة بن سعيد: «**سألت النبي ﷺ عن كل شيء حتى سألته عن الوسخ الذي يكون بين الأظافر فقال: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**».

(٥) حديث: «استبطاء الوحي: فلما هبط عليه جبريل قال له: كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم» تقدم قبل هذا بحديثين.

وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه، ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام في هذه الأوقات؛ إذ لا تخلو عن عورات مكشوفة لا سيما ما تحت السرة إلى ما فوق العانة؛ إذ الناس لا يعدّونها عورة وقد ألحقها الشرع بالعورة وجعلها كالحريم لها ولهذا يستحب تخلية الحمام. وقال بشر بن الحارث: ما أعنف رجلاً لا يملك إلا درهماً دفعه ليخلى له الحمام. ورؤي ابن عمر رضي الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الحائط وقد عصب عينيه بعصابة. وقال بعضهم: لا بأس بدخول الحمام ولكن بإزارين: إزار للعورة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه.

وأما السنن فعشرة: **فالأوّل**: النية وهو أن لا يدخل لعاجل دنيا ولا عابثاً لأجل هوى بل يقصد به التنظف المحبوب تزيناً للصلاة، ثم يعطي الحمامي الأجرة قبل الدخول فإن ما يستوفيه مجهول وكذا ما ينتظره الحمامي، فتسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهالة من أحد العوضين وتطييب لنفسه، ثم يقدّم رجله اليسرى عند الدخول ويقول: «بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم» ثم يدخل وقت الخلوة أو يتكلف تخلية الحمام؛ فإنه إن لم يكن في الحمام إلا أهل الدين والمحتاطين للعورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر في العورات، ثم لا يخلو الإنسان في الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف في أطراف الإزار فيقع البصر على العورة من حيث لا يدري، ولأجله عصب ابن عمر رضي الله عنهما عينيه. ويغسل الجناحين عند الدخول ولا يعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق في الأوّل، وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحمامي لكرهه، لا سيما الماء الحار فله مؤونة وفيه تعب، وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدّر نفسه محبوساً في البيت الحارّ ساعة ويقيسه إلى جهنم، فإنه أشبه بيت بجهنم: النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله من ذلك، بل العاقل لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة فإنها مصيره ومستقرّه، فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة، فإن المرء ينظر بحسب همته. فإذا دخل بزازٌ ونجارٌ وبناءٌ وحائكٌ داراً معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها، والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها، والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها، والبناء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها. فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئاً إلا ويكون له موعظة وذكرى للآخرة، بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عزّ وجلّ له طريق عبرة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم، وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكراً ونكيراً والزبانية، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة، وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول، وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لا يصرفه عنه إلا مهمات الدنيا! فإذا نسب مدة المقام في الدنيا إلى مدة المقام في الآخرة استحقرها إن لم يكن ممن أغفل قلبه وأعميت بصيرته.

ومن السنن: أن لا يسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام، بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال: «عافاك الله»، ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول: «عافاك الله» لابتداء الكلام. ثم لا يكثر الكلام في الحمام ولا يقرأ القرآن إلا سراً ولا بأس بإظهار الاستعاذة من الشيطان، ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريباً من الغروب فإن ذلك وقت انتشار الشياطين، ولا بأس أن يدلكه غيره، فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن يغسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال: إنه دلكني في الحمام

مرة فأردت أن أكافئه بما يفرح به وإنه ليفرح بذلك. ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة: «أن رسول الله ﷺ نزل منزلاً في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره فقلت: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: **إِنَّ النَّاقَةَ تَقَحَّمَتْ بِي**»(١)، ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عزّ وجلّ على هذه النعمة. فقد قيل: الماء الحار في الشتاء من النعيم الذي يسأل عنه. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الحمام من النعيم الذي أحدثوه. هذا من جهة الشرع. أما من جهة الطب: فقد قيل: الحمام بعد النورة أمان من الجذام. وقيل: النورة في كل شهر مرة تطفىء المرة الصفراء وتنقي اللون وتزيد في الجماع. وقيل: بولة في الحمام قائماً في الشتاء أنفع من شربة دواء. وقيل: نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء، وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس، ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه، هذا حكم الرجال. وأما النساء؛ فقد قال ﷺ: «**لا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُدْخِلَ حَلِيلَتَهُ الحَمَّامَ**»(٢) وفي البيت مستحم، والمشهور: أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر،(٣) وحرام على المرأة دخول الحمام إلا نفساء أو مريضة. ودخلت عائشة رضي الله عنها حماماً من سقم بها. فإن دخلت لضرورة فلا تدخل إلا بمئزر سابغ، ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام فيكون معيناً لها على المكروه.

* * *

النوع الثاني: فيما يحدث في البدن من الأجزاء، وهي ثمانية:

الأول: شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله إلا إذا تركه قزعاً، أي قطعاً وهو دأب أهل الشطارة، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعاراً لهم، فإنه إذا لم يكن شريفاً كان ذلك تلبيساً.

الثاني: شعر الشارب، وقد قال ﷺ: «**قُصوا الشَّوارِبَ**» وفي لفظ آخر: «**جُزُّوا الشَّوارِبَ**»، وفي لفظ آخر: «**حُفُّوا الشَّوارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَىٰ**»(٤). أي اجعلوها حفاف الشفة أي حولها، وحفاف الشيء: حوله. ومنه ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزُّمَر: ٧٥] وفي لفظ آخر: «**أَحْفُوا**» وهذا يشعر بالاستئصال وقوله: «**حفوا**» يدل على ما دون ذلك. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾

---

(١) حديث: «نزل منزلاً في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمر بسند ضعيف.

(٢) حديث: «لا يحل لرجل أن يدخل حليلته الحمام..» الحديث. يأتي في الذي يليه مع اختلاف.

(٣) حديث: «حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر..» الحديث. أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث جابر: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام**» وللحاكم من حديث عائشة: «**الحمام حرام على نساء أمتي**» قال: صحيح الإسناد ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر: «**فلا يدخلها الرجال إلا بإزار وامنعوها النساء إلا من مريضة أو نفساء**».

(٤) حديث: «**قصوا**» وفي لفظ: «**جزوا**» وفي لفظ: «**احفوا الشوارب وأعفوا اللحى**» متفق عليه من حديث ابن عمر بلفظ: «**أحفوا**» ولمسلم من حديث أبي هريرة: «**جزوا**» ولأحمد من حديثه: «**قصوا**».

[محمّد: ٣٧]، أي يستقصي عليكم، وأما الحلق فلم يرد. والإحفاء القريب من الحلق. نقل عن الصحابة: نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه فقال: ذكرتني أصحاب رسول الله ﷺ. وقال المغيرة بن شعبة: «نظر إليّ رسول الله ﷺ وقد طال شاربي فقال: **تعال فقصه لي على سواك**»[(١)]، ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب، فعل ذلك عمر وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه. وقوله ﷺ: «**أَعْفُوا اللِّحَىٰ**» أي كثروها، وفي الخبر: «**إِنَّ اليَهُودَ يُعْفُونَ شَوَارِبَهُمْ وَيَقُصُّونَ لِحَاهُمْ فَخَالِفُوهُمْ**»[(٢)]، وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة.

الثالث: شعر الإبط ويستحب نتفه في كل أربعين يوماً مرة وذلك سهل على من تعوّد نتفه في الابتداء، فأما من تعوّد الحلق فيكفيه الحلق إذ في النتف تعذيب وإيلام، والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ في خللها ويحصل ذلك بالحلق.

الرابع: شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ولا ينبغي أن تتأخر عن أربعين يوماً.

الخامس: الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ. قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَلِّمْ أَظْفَارَكَ فَإِنَّ الشَّيطَانَ يَقْعُدُ عَلَىٰ ما طَالَ مِنْها**»[(٣)]، ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء، ولأنه يتساهل فيه للحاجة لاسيما في أظفار الرجل وفي الأوساخ التي تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدي من العرب وأهل السواد، وكان رسول الله ﷺ يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة، ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والزجر عن ذلك. ولم أر في الكتب خبراً مروياً في ترتيب قلم الأظفار، ولكن سمعت: «أنه ﷺ بدأ بمسبحته اليمنى وختم بإبهامه اليمنى وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام»[(٤)]، ولما تأملت في هذا خطر لي من المعنى ما يدل على أنّ الرواية فيه صحيحة؛ إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوّة، وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه. فالذي لاح لي فيه والعلم عند الله سبحانه: أنه لا بدّ من قلم أظفار اليد والرجل، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها؛ إذ هي المشيرة في كلمتي الشهادة من جملة الأصابع، ثم بعدها ينبغي أن يبتدىء بما على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الطهور وغيره على اليمين، وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالإبهام هو اليمين، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هي اليمنى، واليد إذا تركت بطبعها

---

(١) حديث المغيرة بن شعبة: «نظر إلي رسول الله ﷺ وقد طال شاربي فقال: **تعال فقصه لي على سواك**». أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي في الشمائل.

(٢) حديث: «**إن اليهود يعفون شواربهم ويقصون لحاهم فخالفوهم**». أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة: «قلنا: يا رسول الله إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال: **قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب**». قلت: والمشهور أن هذا فعل المجوس ففي صحيح ابن عمر في المجوس: «أنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم».

(٣) حديث: «**يا أبا هريرة قلم ظفرك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها**». أخرجه الخطيب في الجامع بإسناد ضعيف من حديث جابر: «**قصوا أظافيركم، فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر**».

(٤) حديث: «البداءة في قلم الأظافر بمسبحة اليمنى والختم بإبهامها وفي اليسرى بالخنصر إلى الإبهام»، لم أجد له أصلاً وقد أنكره أبو عبدالله المازري في الرد على الغزالي وشنع عليه به.

كان الكف مائلاً إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار واستتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عالياً فما يقتضيه الطبع أولى، ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة، فيقتضي ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بإبهامها ويبقى إبهام اليمنى فيختم به التقليم. وإنما قدّرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها. وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فإن ذلك لا يقتضيه الطبع. وأما أصابع الرجل: فالأولى عندي ـ إن لم يثبت فيها نقل ـ أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى كما في التخليل، فإنّ المعاني التي ذكرناها في اليد لا تتجه ههنا إذ لا مسبحة في الرجل. وهذه الأصابع في حكم صف واحد ثابت على الأرض فيبدأ من جانب اليمنى فإنّ تقديرها حلقة بوضع الأخمص على الأخمص يأباه الطبع بخلاف اليدين. وهذه الدقائق في الترتيب تنكشف بنور النبوّة في لحظة واحدة وإنما يطول التعب علينا. ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب في ذلك ربما لم يخطر لنا. وإذا ذكرنا فعله ﷺ وترتيبه ربما تيسر لنا بما عاينه ﷺ بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى، ولا تظنن أنّ أفعاله ﷺ في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب، بل جميع الأمور الاختيارية التي ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسامٍ كان لا يقدّم على واحد معين بالاتفاق، بل بمعنى يقتضي الإقدام والتقديم، فإنّ الاسترسال مهملاً ـ كما يتفق ـ سجية البهائم، وضبط الحركات بموازين المعاني سجية أولياء الله تعالى. وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه سدى أبعد، كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عزّ وجلّ أظهر؛ إذ القريب من النبي ﷺ هو القريب من الله عزّ وجلّ، والقريب من الله لا بد أن يكون قريباً، فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره، فنعوذ بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا في يد الشيطان بواسطة الهوى. واعتبر في ضبط الحركات باكتحاله ﷺ «فإنه كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنين»[1] فيبدأ باليمنى لشرفها. وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وتراً، فإنّ للوتر فضلاً عن الزوج؛ فإنّ الله سبحانه وتر يحب الوتر، فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى؛ ولذلك استحب الإيتار في الاستجمار. وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر؛ لأنّ اليسرى لا يخصها إلا واحدة والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالكحل، وإنما خصص اليمين بالثلاث؛ لأنّ التفضيل لا بدّ منه للإيتار واليمين أفضل فهي بالزيادة أحق.

فإن قلت: فلم اقتصر على اثنين لليسرى وهي زوج؟ فالجواب: أنّ ذلك ضرورة؛ إذ لو جعل لكل واحدة وتراً لكان المجموع زوجاً إذ الوتر مع الوتر زوج، ورعايته الإيتار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد. ولذلك أيضاً وجه وهو أن يكتحل في كل واحدة ثلاثاً على قياس الوضوء[2]، وقد نقل ذلك في الصحيح وهو الأولى. ولو ذهبت أستقصي دقائق ما راعاه ﷺ في حركاته لطال الأمر فقس بما سمعته ما لم تسمعه. واعلم أنّ العالم لا يكون وارثاً للنبيّ ﷺ إلا إذا اطلع

---

(١) حديث: «كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنين». أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «الاكتحال في كل عين ثلاثاً». قال الغزالي: ونقل ذلك في الصحيح، قلت: هو عند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس. قال الترمذي: حديث حسن.

على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي ﷺ إلا درجة واحدة وهي درجة النبوّة، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث؛ إذ الموروث: هو الذي حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه، والوارث: هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له، فأمثال هذه المعاني مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداء إلا الأنبياء، ولا يستقل باستنباطها تلقياً بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

السادس والسابع: زيادة السرة وقلفة الحشفة؛ أما السرة فتقطع في أوّل الولادة. وأما التطهير بالختان فعادة اليهود في اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يثغر الولد أحب وأبعد عن الخطر. قال ﷺ: «**الخِتَانُ سُنَّةٌ لِلرِّجَالِ وَمَكْرُمَةٌ لِلنِّسَاءِ**»(١)، وينبغي أن لا يبالغ في خفض المرأة. قال ﷺ لأم عطية وكانت تخفض: «**يَا أُمَّ عَطِيَّةَ أَشِمِّي وَلا تُنْهِكِي فَإِنَّهُ أَسْرَىٰ لِلْوَجْهِ وَأَحْظَىٰ عِنْدَ الزَّوْجِ**»(٢)، أي: أكثر لماء الوجه ودمه وأحسن في جماعها، فانظر إلى جزالة لفظه ﷺ في الكناية وإلى إشراق نور النبوّة من مصالح الآخرة التي هي أهم مقاصد النبوة إلى مصالح الدنيا، حتى انكشف له وهو أمي من هذا الأمر النازل قدره ما لو وقعت الغفلة عنه خيف ضرره، فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم بيمن بعثته مصالح الدنيا والدين ﷺ.

الثامن: ما طال من اللحية وإنما أخرناها لنلحق بها ما في اللحية من السنن والبدع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها، وقد اختلفوا فيما طال منها فقيل: إن قبض الرجل على لحيته وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين، وكرهه الحسن وقتادة وقالا: تركها عافية أحب لقوله ﷺ: «**أَعْفُوا اللِّحَىٰ**»، والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب، فإن الطول المفرط قد يشوّه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذ إليه فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية. وقال النخعي: عجبت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين فإن التوسط في كل شيء حسن، ولذلك قيل: كلما طالت اللحية تشمر العقل.

* * *

فصل

في اللحية

وفي اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشدّ كراهة من بعض: خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت ونتفها ونتف الشيب منها، والنقصان منها والزيادة وتسريحها تصنعاً لأجل الرياء، وتركها شعثة

(١) حديث: «**الختان سنة الرجال مكرمة النساء**». أخرجه أحمد، والبيهقي من رواية أبي المليح بن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «**أم عطية أشمي ولا تنهكي...**». الحديث. أخرجه الحاكم، والبيهقي من حديث الضحاك بن قيس، ولأبي داود ونحوه من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف.

إظهاراً للزهد، والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب وإلى بياضها تكبراً بعلوّ السن وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبهاً بالصالحين.

أما الأوّل: وهو الخضاب بالسواد فهو منهي عنه لقوله ﷺ: «**خَيْرُ شَبَابِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِشُيُوخِكُمْ وَشَرُّ شُيُوخِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِشَبَابِكُمْ**»(١)، والمراد بالتشبه بالشيوخ في الوقار لا في تبييض الشعر، ونهى عن الخضاب بالسواد(٢) وقال: «**هُوَ خِضَابُ أَهْلِ النَّارِ**»(٣)، وفي لفظ آخر: «**الخِضَابُ بِالسَّوَادِ خِضَابُ الكُفَّارِ**»، وتزوّج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان يخضب بالسواد فنصل خضابه وظهرت شيبته فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضي الله عنه فرد نكاحه وأوجعه ضرباً وقال: غرّرت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك. ويقال: أوّل من خضب بالسواد فرعون لعنه الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يُخَضِّبُونَ بِالسَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ لا يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»(٤).

الثاني: الخضاب بالصفرة والحمرة، وهو جائز تلبيساً للشيب على الكفار في الغزو والجهاد، فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم، وقد قال رسول الله ﷺ: «**الصُّفْرَةُ خِضَابُ المُسْلِمِينَ وَالحُمْرَةُ خِضَابُ المُؤْمِنِينَ**»(٥)، وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لا بأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة.

الثالث: تبييضها بالكبريت استعجالاً؛ لإظهار علو السن توصلاً إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ وترفعاً عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً، وهيهات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلاً فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشيب فيها، ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته، وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما آتى الله عزّ وجلّ عبداً علماً إلا شاباً والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وكان أنس رضي الله عنه يقول: «قبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، فقيل له: يا أبا

---

(١) حديث: «**خير شبابكم من تشبه بكهولكم...**» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث واثلة بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «نهى عن الخضاب بالسواد» أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عمرو بن العاص بإسناد منقطع، ولمسلم من حديث جابر: «**وغيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد**» قاله حين رأى بياض شعر أبي قحافة.

(٣) حديث: «**الخضاب بالسواد خضاب أهل النار**» وفي لفظ: «**خضاب الكفار**» أخرجه الطبراني، والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ: «**الكافر**» قال ابن أبي حاتم منكر.

(٤) حديث: «**يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد...**» الحديث. أخرجه أبو داود، والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد جيد.

(٥) حديث: «**الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين**» أخرجه الطبراني، والحاكم بلفظ الإفراد من حديث ابن عمر. قال ابن أبي حاتم: منكر.

حمزة فقد أسن، فقال: لم يشنه الله بالشيب فقيل: أهو شين؟ فقال: كلكم يكرهه»[١]، ويقال: إن يحيى بن أكثم ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة، فقال له رجل في مجلسه يريد أن يخجله بصغر سنه: كم سن القاضي أيده الله؟ فقال: مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاّه رسول الله ﷺ إمارة مكة وقضاءها، فأفحمه[٢]. وروي عن مالك رحمه الله أنه قال: قرأت في بعض الكتب: لا تغرنكم اللحى فإن التيس له لحية. وقال أبو عمرو بن العلاء: إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية، فاقضِ عليه بالحمق ولو كان أمية بن عبد شمس. وقال أيوب السختياني: أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه. وقال علي بن الحسين: من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سناً منك. وقيل لأبي عمرو بن العلاء: أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير؟ فقال: إن كان الجهل يقبح به فالتعلم يحسن به. وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشي خلف بغلة الشافعي: يا أبا عبدالله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشي خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه؟ فقال له أحمد: لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر، إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلو ولا نزول.

الرابع: نتف بياضها استنكافاً من الشيب، وقد نهى عليه السلام عن نتف الشيب وقال: «**هُوَ نُورُ المُؤْمِنِ**»[٣]، وهو في معنى الخضاب بالسواد وعلة الكراهية ما سبق، والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور.

الخامس: نتفها أو نتف بعضها بحكم العبث والهوس وذلك مكروه ومشوّه للخلقة ونتف الفنيكين بدعة وهما جانبا العنفقة. شهد عند عمر بن عبدالعزيز رجل كان ينتف فنيكيه فرد شهادته. ورد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن أبي ليلى قاضي المدينة شهادة من كان ينتف لحيته. وأما نتفها في أول النبات تشبهاً بالمرد فمن المنكرات الكبار فإن اللحية زينة الرجال، فإن لله سبحانه ملائكة يقسمون: والذي زين بني آدم باللحى، وهو من تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء، وقيل في غريب التأويل: اللحية هي المراد بقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فَاطِر: ١]. قال أصحاب الأحنف بن قيس: وددنا أن نشتري للأحنف لحية ولو بعشرين ألفاً. وقال شريح القاضي: وددت أن لي لحية ولو بعشرة آلاف، وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار والرفع في المجالس

---

(١) حديث: «قُبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له: يا أبا حمزة وقد أسن فقال: لم يشنه الله بالشيب». متفق عليه من حديث أنس دون قوله: «فقيل... الخ» ولمسلم من حديثه: «وسئل عن شيب رسول الله ﷺ قال: ما شانه الله ببيضاء».

(٢) حديث يحيى بن أكثم «ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقيل له: كم سن القاضي؟ فقال: مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله ﷺ إمارة مكة وقضاءها يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله ﷺ قاضياً على أهل اليمن» أخرجه الخطيب في التاريخ بإسناده فيه نظر وما ذكره ابن أكثم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين الولاية ابن عشرين، وأما بالنسبة إلى معاذ فإنما يتم له ذلك على قول يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك وابن أبي حاتم إنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمان عشرة والله أعلم.

(٣) حديث: «نهى عن نتف الشيب وقال: **هو نور المؤمن**». أخرجه أبو داود، والترمذي، وحسنه النسائي، وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض؟ فإنّ من يشتم يعرض باللحية إن كان للمشتوم لحية. وقد قيل: إنّ أهل الجنة مرد إلا هارون أخا موسى صلى الله عليهما وسلم، فإن له لحية إلى سرته تخصيصاً له وتفضيلاً.

السادس: تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة للتزين للنساء والتصنع. قال كعب: يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة ويعرقبون نعالهم كالمناجل أولئك لا خلاق لهم.

السابع: الزيادة فيها وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغين وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحى وينتهي إلى نصف الخدّ وذلك يباين هيئة أهل الصلاح.

الثامن: تسريحها لأجل الناس. قال بشر: في اللحية شركان: تسريحها لأجل الناس وتركها متفتلة لإظهار الزهد.

التاسع والعاشر: النظر في سوادها أو في بياضها بعين العجب، وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن، بل في جميع الأخلاق والأفعال على ما سيأتي بيانه. فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة، وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس(١)، والمضمضة، والاستنشاق(٢)، وقص الشارب، والسواك، وثلاثة في اليد والرجل وهي القلم وغسل البراجم وتنظيف الرواجب(٣)، وأربعة في الجسد وهي نتف الإبط والاستحداد والختان والاستنجاء بالماء، فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك، وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرّض للطهارة الظاهرة دون الباطنة، فلنقتصر على هذا وليتحقق أنّ فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى وسيأتي تفصيلها في ربع المهلكات مع تعريف الطرق في إزالتها وتطهير القلب منها إن شاء الله عزّ وجلّ.

تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه
ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة
والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

---

(١) حديث: «فرق شعر الرأس.. الخ». من حديث ابن عباس «أن رسول الله ﷺ كان يسدل شعره إلى أن قال: ثم فرق رسول الله ﷺ رأسه».

(٢) حديث: «**عشر من الفطرة..**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة ولفظه: «**قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء**» ـ قال وكيع: يعني الاستنجاء ـ قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. ضعفه النسائي، ولأبي داود، وابن ماجه من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتضاح ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء. قال أبو داود: روي نحوه عن ابن عباس قال: «خمس كلها في الرأس». وذكر منها «الفرق» ولم يذكر «إعفاء اللحية» وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**الفطرة خمس: الختان..**» الحديث.

(٣) حديث: «تنظيف الرواجب» تقدم.

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي غمر العباد بلطائفه، وعمّر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه، فارق الملوك مع التفرّد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق في السؤال والدعاء فقال: هل من داع فأستجيب له وهل من مستغفرٍ فأغفر له؟ وباين السلاطين بفتح الباب، ورفع الحجاب فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات في الجماعات والخلوات، ولم يقتصر على الرخصة بل تلطف بالترغيب والدعوة، وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه، وأتم لطفه، وأعم إحسانه. والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليه المجتبى وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليماً.

أما بعد: فإنّ الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، ورأس القربات، وغرّة الطاعات، وقد استقصينا في فن الفقه ـ في بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه ـ أصولها وفروعها، صارفين جمام العناية إلى تفاريعها النادرة. ووقائعها الشاذة لتكون خزانة للمفتي منها يستمدّ ومعوّلاً له إليها يفزع ويرجع. ونحن الآن في هذا الكتاب نقتصر على ما لا بدّ للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكره في فن الفقه، ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب:

الباب الأوّل: في فضائل الصلاة.

الباب الثاني: في تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة.

الباب الثالث: في تفضيل الأعمال الباطنة منها.

الباب الرابع: في الإمامة والقدوة.

الباب الخامس: في صلاة الجمعة وآدابها.

الباب السادس: في مسائل متفرّقة تعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها.

الباب السابع: في التطوعات وغيرها.

* * *

الباب الأول

في فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان:

قال ﷺ: «ثَلاثَةٌ يَوْمَ القِيامَةِ عَلَىٰ كَثِيبٍ مِنْ مِسْكٍ أَسْوَدَ لا يَهُولُهُمْ حِسَابٌ وَلا يَنَالُهُمْ فَزَعٌ حَتَّىٰ يُفْرَغَ مِمَّا بَيْنَ النَّاسِ: رَجُلٌ قَرَأَ القُرْآنَ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّ بِقَوْمٍ وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ، وَرَجُلٌ أَذَّنَ فِي

مَسْجِدٍ وَدَعَا إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ ابْتُلِيَ بِالرِّزْقِ فِي الدُّنْيا فَلَمْ يَشْغَلْهُ ذٰلِكَ عَنْ عَمَلِ الآخِرَةِ»(١)، وقال ﷺ: «لا يَسْمَعُ نِداءَ المُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلا إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ إِلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ»(٢)، وقال ﷺ: «يَدُ الرَّحْمٰنِ عَلَىٰ رَأْسِ المُؤَذِّنِ حَتَّىٰ يَفْرَغَ مِنْ أَذَانِهِ»(٣)، وقيل في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فُصّلت: ٣٣] نزلت في المؤذنين، وقال ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُم النِّدَاءَ فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ المُؤَذِّنُ»(٤)، وذلك مستحب إلا في الحيعلتين فإنه يقول فيهما: لا حول ولا قوّة إلا بالله، وفي قوله: قد قامت الصلاة: أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض، وفي التثويب صدقت وبررت ونصحت، وعند الفراغ يقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد. وقال سعيد بن المسيب: من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك، فإن أذّن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة.

فضيلة المكتوبة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النّساء: ١٠٣]، وقال ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَىٰ العِبَادِ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ وَلَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئاً اسْتِخْفافاً بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ»(٥)، وقال ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهرٍ عَذْبٍ غَمْرٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا تَرَوْنَ ذٰلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟ قالوا: لا شيء، قال ﷺ: فَإِنَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ تُذْهِبُ الذُّنُوبَ كَمَا يُذْهِبُ المَاءُ الدَّرَنَ»(٦)، وقال ﷺ: «إِنَّ الصَّلَوَاتِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ ما اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»(٧)، وقال ﷺ: «بَيْنَنَا وَبَيْنَ المُنَافِقِينَ شُهُودُ العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لا يَسْتَطِيعُونَهُمَا»(٨)، وقال ﷺ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ مُضَيِّعٌ لِلصَّلاةِ لَمْ يَعْبَأ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ»(٩)، وقال ﷺ: «الصَّلاةُ عِمَادُ الدِّينِ فَمَنْ تَرَكَها فَقَدْ هَدَمَ

باب أسرار الصلاة

(١) حديث: «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك. .» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر مختصراً وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف.

(٢) حديث: «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد.

(٣) حديث: «يد الرحمٰن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه» أخرجه الطبراني في الأوسط والحسن بن سعيد في مسنده من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٤) حديث: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن» متفق عليه من حديث أبي سعيد.

(٥) حديث: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد. . .» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث عبادة بن الصامت وصححه ابن عبدالبر.

(٦) حديث: «مثل خمس صلوات كمثل نهر. .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث جابر ولهما نحوه من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: «الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٨) حديث: «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح» أخرجه مالك من رواية سعيد بن المسيب مرسلاً.

(٩) حديث: «من لقي الله مضيعاً للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته» وفي معناه حديث: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة» وفيه: «فإن فسدت فسد سائر عمله» رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس.

الدِّين»[(١)]، وسئل ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «**الصَّلاةُ لِمَوَاقِيتِهَا**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَىٰ الخَمْسِ بِإِكْمَالِ طُهُورِها وَمَوَاقِيتِهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً وَبُرْهاناً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ ضَيَّعَها حُشِرَ مَعَ فِرْعَونَ وَهَامَانَ**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**مِفْتَاحُ الجَنَّةِ الصَّلاةُ**»[(٤)]، وقال: «**ما افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ بَعْدَ التَّوحِيدِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الصَّلاةِ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنها لَتَعَبَّدَ بِهِ مَلائِكَتَهُ فَمِنْهُمْ رَاكِعٌ وَمِنْهُمْ سَاجِدٌ وَمِنْهُمْ قَائِمٌ وَقَاعِدٌ**»[(٥)] وقال النبيّ ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ صَلاةً مُتَعَمِّداً فَقَدْ كَفَرَ**»[(٦)] أي قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها. وقال ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ صَلاةً مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَرِىءَ مِنْ ذِمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلامُ**»[(٧)]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وأنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإنّ أعظمكم أجراً أبعدكم داراً، قالوا: لم يا أبا هريرة؟ قال: من أجل كثرة الخطا. ويروى: «**إن أوّل ما يُنْظَرُ فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة**[(٨)]، **فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله، وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله**» وقال ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِيكَ بِالرِّزْقِ مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِبُ**»[(٩)]، وقال بعض العلماء: مثل المصلي مثل التاجر الذي لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال، وكذلك المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة. وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فأطفئوها.

فضيلة إتمام الأركان:

قال ﷺ: «**مَثَلُ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ كَمَثَلِ المِيزَانِ مَنْ أَوْفَىٰ اسْتَوْفَىٰ**»[(١٠)]، وقال يزيد الرقاشي: «كانت

---

(١) حديث: «**الصلاة عماد الدين**». رواه البيهقي في الشعب بسند ضعفه من حديث عمر. قال الحاكم: عكرمة لم يسمع من عمر قال: ورواه ابن عمر لم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط: إنه غير معروف.

(٢) حديث: «سئل أي الأعمال أفضل؟ فقال: **الصلاة لمواقيتها**». متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) حديث: «**من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً.** .» الحديث. أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبدالله بن عمرو.

(٤) حديث: «**مفاتيح الجنة الصلاة**». رواه أبو داود الطيالسي من حديث جابر وهو عند الترمذي ولكن ليس داخلاً في الرواية.

(٥) حديث: «**ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة.** .» الحديث. لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر.

(٦) حديث: «**من ترك صلاة متعمداً فقد كفر**». أخرجه البزار من حديث أبي الدرداء بإسناد فيه مقال.

(٧) حديث: «**من ترك صلاة متعمداً فقد تبرأ من ذمة محمد ﷺ**» أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله ثقات.

(٨) حديث: «**أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة.** .» الحديث. رويناه في الطيوريات من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف ولأصحاب السنن الحاكم وصحح إسناده نحوه من حديث أبي هريرة وسيأتي.

(٩) حديث: «**يا أبا هريرة، مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك الرزق من حيث لا تحتسب**» لم أقف له على أصل.

(١٠) حديث: «**مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى**» أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث الحسن مرسلاً وأسنده البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد فيه جهالة.

صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة»[١] وقال ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَيْنِ مِنْ أُمَّتِي لَيَقُومَانِ إِلَىٰ الصَّلاةِ وَرُكُوعُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَاحِدٌ وَإِنَّ ما بَيْنَ صَلاتَيهِمَا ما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»[٢] وأشار إلى الخشوع، وقال ﷺ: «**لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَىٰ العَبْدِ لا يُقِيمُ صُلْبَهُ بَيْنَ رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ**»[٣]، وقال ﷺ: «**أَمَا يَخَافُ الَّذِي يُحَوِّلُ وَجْهَهُ فِي الصَّلاةِ أَنْ يُحَوِّلَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَجْهَ حِمَارٍ؟**»[٤]، وقال ﷺ: «**مَنْ صَلَّىٰ صَلاةً لِوَقْتِهَا وَأَسْبَغَ وُضُوءَهَا وَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَخُشُوعَهَا عَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضَاءُ مُسْفِرَةٌ تَقُولُ: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، وَمَنْ صَلَّىٰ لِغَيْرِ وَقْتِهَا وَلَمْ يُسْبِغْ وُضُوءَهَا وَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا وَلا سُجُودَهَا وَلا خُشُوعَهَا عَرَجَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ: ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الخَلِقُ فَيُضْرَبُ بِها وَجْهُهُ**»[٥]، وقال ﷺ: «**أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلاتِهِ**»[٦]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه، وسلمان رضي الله عنه: الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى، ومن طفف فقد علم ما قال الله في المطففين.

فضيلة الجماعة:

قال ﷺ: «**صَلاةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»[٧] وروى أبو هريرة أنه ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات فقال: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّي بِالنَّاسِ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَىٰ رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَأُحَرِّقَ عليهم بُيُوتَهُمْ**»[٨]، وفي رواية أخرى: «**ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَىٰ رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَآمُرَ بِهِمْ فَتُحَرَّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتُهُمْ بِحُزَمِ الحَطَبِ وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْماً سَمِيناً أَوْ مَرْمَاتَيْنِ لَشَهِدَهَا**» يعني صلاة العشاء. وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعاً: «**من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة**»[٩]

---

(١) حديث يزيد الرقاشي «كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة». رواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف.

(٢) حديث: «**إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد..**» الحديث. أخرجه ابن المجبر في العقل من حديث أبي أيوب الأنصاري بنحوه وهو موضوع ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن ابن المجبر.

(٣) حديث: «**لا ينظر الله إلى عبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده**» أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

(٤) حديث: «**أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار**». أخرجه ابن عدي في عوالي مشايخ مصر من حديث جابر: «**ما يؤمنه إذا التفت في صلاته أن يحول الله عز وجل وجهه وجه كلب أو وجه خنزير**». قال: منكر بهذا الإسناد. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله وجهه وجه حمار**».

(٥) حديث: «**من صلى الصلاة لوقتها فأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني..**» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث عبادة بن الصامت بسند ضعيف نحوه.

(٦) حديث: «**أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته**». أخرجه أحمد والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي قتادة.

(٧) حديث: «**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**» متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٨) حديث أبي هريرة: «**لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون..**» الحديث. متفق عليه.

(٩) حديث عثمان: «**من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة..**» الحديث. أخرجه مسلم من حديثه مرفوعاً. قال الترمذي: وروي عن عثمان موقوفاً.

وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ صَلاةً فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ مَلأَ نَحْرَهُ عِبَادَةً»[(١)]، وقال سعيد بن المسيب: ما أُذِّنَ مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد. وقال محمد بن واسع: ما أشتهي من الدنيا إلا ثلاثة: أخاً إنه إن تعوجت قوّمني، وقوتاً من الرزق عفواً من غير تبعة، وصلاة في جماعة يرفع عني سهوها ويكتب لي فضلها. وروي أن أبا عبيدة بن الجراح أمَّ قوماً مرة فلما انصرف قال: ما زال الشيطان بي آنفاً حتى أُريتُ أنّ لي فضلاً عن غيري لا أؤم أبداً. وقال الحسن: لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء. وقال النخعي: مثل الذي يؤم الناس بغير علم مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدري زيادته من نقصانه. وقال حاتم الأصم: فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشر آلاف، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سمع المنادي فلم يجب لم يرد خيراً ولم يرد به خير. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لئن تملأ أذن ابن آدم رصاصاً مذاباً خير له من أن يسمع النداء ثم لا يجيب. وروي أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له: إن الناس قد انصرفوا فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦]، لفضل هذه الصلاة أحب إليَّ من ولاية العراق. وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ أَرْبَعِينَ يَوْماً الصلوات فِي جَمَاعَةٍ لا تَفُوتُهُ فِيهَا تَكْبِيرَةُ الإِحْرَامِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بَرَاءَتَيْنِ: بَرَاءَةً مِنَ النِّفَاقِ وَبَرَاءَةً مِنَ النَّارِ»[(٢)]، ويقال: إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدري فتقول لهم الملائكة: ما كانت أعمالكم؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال: كنا نتوضأ قبل الوقت، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون: كنا نسمع الأذان في المسجد. وروي أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعاً إذا فاتتهم الجماعة.

فضيلة السجود:

قال رسول الله ﷺ: «مَا تَقَرَّبَ العبدُ إِلَىٰ اللَّهِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ سُجُودٍ خَفِيٍّ»[(٣)]، وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً»[(٤)]، وروي: أنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة، فقال ﷺ: «أَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[(٥)] وقيل: «إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ سَاجِداً»[(٦)].

---

(١) حديث: «من صلى في جماعة فقد ملأ نحره عبادة» لم أجده مرفوعاً وإنما من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة.

(٢) حديث: «من صلى أربعين يوماً الصلوات في جماعة لا تفوته تكبيرة الإحرام..» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أنس بإسناد رجاله ثقات.

(٣) حديث: «ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي». رواه ابن المبارك في الزهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً.

(٤) حديث: «ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة». أخرجه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت بإسناد صحيح. ولمسلم نحوه من حديث ثوبان وأبي الدرداء.

(٥) حديث: «إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مرافقتك في الجنة..». الحديث. أخرجه مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك.

(٦) حديث: «إن أقرب ما يكون العبد إلى الله أن يكون ساجداً». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وهو معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العَلَق: ١٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفَتح: ٢٩] فقيل: هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود، وقيل: هو نور الخشوع، فإنه يشرق من الباطن على الظاهر، وهو الأصح. وقيل: هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء، وقال ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي وَيَقُولُ: يا وَيْلاهُ أُمِرَ هٰذَا بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ وَأُمِرْتُ أَنَا بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِيَ النَّارُ**»(١) ويروى عن علي بن عبدالله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد. ويروى أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب. وكان يوسف بن أسباط يقول: يا معشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده، وقد حيل بيني وبين ذلك. وقال سعيد بن جبير: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود. وقال عقبة بن مسلم: ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عزّ وجلّ من رجل يحب لقاء الله عزّ وجلّ، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عزّ وجلّ منه حيث يخر ساجداً. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أقرب ما يكون العبد إلى الله عزّ وجلّ إذا سجد، فأكثروا الدعاء عند ذلك.

فضيلة الخشوع:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقال عزّ وجلّ: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النِّساء: ٤٣] قيل: سكارى من كثرة الهم وقيل: من حب الدنيا. وقال وهب: المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النِّساء: ٤٣] وكم من مصل لم يشرب خمراً وهو لا يعلم ما يقول في صلاته. وقال النبي ﷺ: «**مَنْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢) وقال ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّلاةُ تَمَسْكُنٌ وَتَوَاضُعٌ وَتَضَرُّعٌ وَتَأَوُّهٌ وَتَنَادُمٌ وَتَضَع يَدَيْكَ فَتَقُولُ: اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهِيَ خِدَاجٌ**»(٣) وروي عن الله سبحانه في الكتب السالفة أنه قال: «ليس كل مصل أتقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على عبادي وأطعم الفقير الجائع لوجهي»، وقال ﷺ: «**إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلاةُ وَأُمِرَ بِالحَجِّ وَالطَّوَافِ وَأُشْعِرَتِ المَنَاسِكُ لإِقَامَةِ ذِكْرِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِكَ لِلْمَذْكُورِ الَّذِي هُوَ المَقْصُودُ وَالمُبْتَغَىٰ عَظَمَةٌ وَلا هَيْبَةٌ فَمَا قِيمَةُ ذِكْرِكَ**»(٤)،

---

(١) حديث: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي..**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «**من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه**» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسلاً وهو في الصحيحين من حديث عثمان بزيادة في أوله دون قوله: «**بشيء من الدنيا**» وزاد الطيالسي: «**إلا بخير**».

(٣) حديث: «**إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع..**» الحديث. أخرجه الترمذي والنسائي بنحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب.

(٤) حديث: «**إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله**» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عائشة نحوه دون ذكر: «**الصلاة**» قال الترمذي: حسن صحيح.

وقال ﷺ للذي أوصاه: «وَإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّع»[(١)]، أي مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه، كما قال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣]، وقال ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ بُعْداً»[(٢)]، والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة؟ وقال بكر بن عبدالله: يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت، قيل: وكيف ذلك؟ قال: تسبغ وضوءك وتدخل محرابك فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه»[(٣)] اشتغالاً بعظمة الله عزّ وجلّ. وقال ﷺ: «لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَىٰ صَلاةٍ لا يَحْضرُ الرَّجُلُ فِيهَا قَلْبَهُ مَعَ بَدَنِهِ»[(٤)]. وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وَجِيبُ قلبه على ميلين. وكان سعيد التنوخي إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته. ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هٰذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»[(٥)]. ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول: «اللهم زوجني الحور العين» فقال: بئس الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى. وقيل لخلف بن أيوب: ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطردها قال: لا أعود نفسي شيئاً يفسد عليّ صلاتي، قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويفتخرون بذلك، فأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذبابة؟ ويروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله: تحدّثوا أنتم فإني لست أسمعكم. ويروى عنه أنه كان يصلي يوماً في جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة. وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلوّن وجهه فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله

---

(١) حديث: «**إذا صليت فصلِّ صلاة مودع**». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أيوب. والحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص، وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي في الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث أنس بنحوه.

(٢) حديث: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً**». أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، ورواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس بإسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود: «**من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر**..» الحديث. وإسناده صحيح.

(٣) حديث عائشة «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه» أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلاً: «كان النبيّ ﷺ إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحداً من الناس».

(٤) حديث: «**لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه**». لم أجده بهذا اللفظ. وروى محمد بن نصر في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً: «**لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه**». ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف.

(٥) حديث: «رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: **لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**». أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف أنه من قول سعيد بن المسيب. رواه ابن أبي شيبة في المصنف وفيه رجل لم يسم.

على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها. ويروى عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفرّ لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟ ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «قال داود ﷺ في مناجاته: إلٰهي من يسكن بيتك وممن تتقبل الصلاة؟ فأوحى الله إليه: يا داود إنما يسكن بيتي وأقبل الصلاة منه من تواضع لعظمتي وقطع نهاره بذكري وكفّ نفسه عن الشهوات من أجلي، يطعم الجائع ويؤوي الغريب ويرحم المصاب، فذلك الذي يضيء نوره في السموات كالشمس إن دعاني لبيته وإن سألني أعطيته، أجعل له في الجهل حلماً وفي الغفلة ذكراً وفي الظلمة نوراً، وإنما مثله في الناس كالفردوس في أعلى الجنان لا تيبس أنهارها ولا تتغير ثمارها»، ويروى عن حاتم الأصم رضي الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال: إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل الكعبة بين حاجبي والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيراً بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً بتخشع، وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أَقُبِلَتْ مني أم لا؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

فضيلة المسجد وموضع الصلاة:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال ﷺ: **«مَنْ بَنَىٰ لِلَّهِ مَسْجِداً وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ قَصْراً فِي الجَنَّةِ»**(١)، وقال ﷺ: **«مَنْ أَلِفَ المَسْجِدَ أَلِفَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ»**(٢)، وقال ﷺ: **«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ»**(٣)، وقال ﷺ: **«لاَ صَلاَةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إِلاَّ فِي المَسْجِدِ»**(٤)، وقال ﷺ: **«المَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ما لَمْ يُحْدِثْ أَوْ يَخْرُجْ مِنَ المَسْجِدِ»**(٥)، وقال ﷺ: **«يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ المَسَاجِدَ فَيَقْعُدُونَ فِيها حِلَقاً حِلَقاً ذِكْرُهُمْ الدُّنْيَا وَحُبُّ الدُّنْيَا لا تُجَالِسُوهُمْ فَلَيْسَ لِلَّهِ بِهِمْ حَاجَةٌ»**(٦)، وقال ﷺ: **«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَعْضِ الكُتُبِ: إِنَّ بُيُوتِي فِي أَرْضِي المَسَاجِدُ وَإِنَّ زُوَّارِي فِيها عُمَّارُها فَطُوبَىٰ لِعَبْدٍ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ زَارَنِي**

---

(١) حديث: «**من بنى لله مسجداً ولو مثل مفحص قطاة...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان من حديث أبي ذر وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله: «**ولو مثل مفحص القطاة**».

(٢) حديث: «**من ألف المسجد ألفه الله تعالى**» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد بسند ضعيف.

(٣) حديث: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس**» متفق عليه من حديث أبي قتادة.

(٤) حديث: «**لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد**». أخرجه الدارقطني من حديث جابر وأبي هريرة بإسنادين ضعيفين والحاكم من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: «**الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «**يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً حلقاً ذكرهم الدنيا...**» الحديث. أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح الإسناد.

فِي بَيْتِي فَحَقٌّ عَلَىٰ المَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ»(١)، وقال ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ»(٢)، وقال سعيد بن المسيب: من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيراً. ويروى في الأثر أو الخبر: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش»(٣) وقال النخعي: كانوا يرون أن المشي في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة.

وقال أنس بن مالك: من أسرج في المسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوءه. وقال علي كرّم الله وجهه: إذا مات العبد يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، ثم قرأ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدّخان: ٢٩]، وقال ابن عباس: تبكي عليه الأرض أربعين صباحاً. وقال عطاء الخراساني: ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت. وقال أنس بن مالك: ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاةٍ أو ذكرٍ إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عزّ وجل إلى منتهاها من سبع أرضين وما من عبد يقوم يصلي إلا تزخرفت له الأرض. ويقال: ما من منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلعنهم.

***

الباب الثاني

في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

ينبغي للمصلي إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخبث في البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة، أن ينتصب قائماً متوجهاً إلى القبلة ويراوح بين قدميه ولا يضمهما، فإنّ ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل وقد «نهى ﷺ عن الصفن والصفد في الصلاة»(٤) والصفد: هو اقتران القدمين معاً ومنه قوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩]، والصفن: هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، هذا ما يراعيه في رجليه عند القيام ويراعي في

---

(١) حديث: «قال الله تعالى: إن بيوتي في أرضي المساجد وإن زواري فيها عمارها..» الحديث. أخرجه أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: أين جيراني؟ فتقول الملائكة: من هذا الذي ينبغي له أن يجاورك؟ فيقول: أين قراء القرآن وعمار المساجد؟». وهو في الشعب نحوه موقوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ بإسناد صحيح، وأسند ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه.

(٢) حديث: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان». رواه الترمذي وحسنه. وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد.

(٣) حديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش». لم أقف له على أصل.

الباب الثاني

(٤) حديث: «النهي عن الصفن والصفد في الصلاة». عزاه رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده ولا عند غيره وإنما ذكره أصحاب الغريب كابن الأثير في النهاية. وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلاً صافاً أو صافناً قدميه فقال: أخطأ هذا السنة.

ركبتيه ومعقد نطاقه الانتصاب، وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق؛ والإطراق أقرب للخشوع وأغض للبصر ولْيَكُن بصره محصوراً على مصلاه الذي يصلي عليه، فإن لم يكن له مصلى فليقرب من جدار الحائط أو ليخط خطاً، فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفوق الفكر، وليحجر على بصره أن يجاوز أطراف المصلى وحدود الخط، وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات. هذا أدب القيام فإذا استوى قيامه واستقباله وإطراقه كذلك فليقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ [النَّاس: ١] تحصناً به من الشيطان، ثم ليأت بالإقامة، وإن كان يرجو حضور من يقتدي به فليؤذن أولاً، ثم ليحضر النية وهو أن ينوي في الظهر مثلاً ويقول بقلبه: أؤدي فريضة الظهر لله، ليميزها بقوله أؤدي عن القضاء وبالفريضة عن النفل وبالظهر عن العصر وغيره، ولتكن معاني هذه الألفاظ حاضرةً في قلبه فإنه هو النية، والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها، ويجتهد أن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب، فإذا حضر في قلبه ذلك فليرفع يديهِ إلى حذو منكبيه بعد إرسالهما بحيث يحاذي بكفيه منكبيه وبإبهاميه شحمتي أذنيه وبرؤوس أصابعه رؤوس أذنيه(١)، ليكون جامعاً بين الأخبار الواردة فيه، ويكون مقبلاً بكفيه وإبهاميه إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها، ولا يتكلف فيها تفريجاً ولا ضماً بل يتركها على مقتضى طبعها؛ إذ نقل في الأثر النشر والضم(٢)، وهذا بينهما فهو أولى. وإذا استقرّت اليدان في مقرهما ابتدأ التكبير مع إرسالهما وإحضار النية، ثم يضع اليدين على ما فوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمنى على اليسرى إكراماً لليمنى بأن تكون محمولة، وينشر المسبحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالإبهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى، وقد روي أن التكبير مع رفع اليدين(٣) ومع استقرارهما(٤) ومع الإرسال(٥)، فكل ذلك لا حرج فيه وأراه بالإرسال أليق فإنه كلمة العقد، ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآخره الوضع، ومبدأ التكبير الألف وآخره الراء فيليق مراعاة التطابق بين الفعل والعقد، وأما رفع اليد فكالمقدمة لهذه البداية. ثم لا ينبغي أن يرفع يديه إلى قدام رفعاً عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفضهما عن يمين وشمال نفضاً إذا فرغ من التكبير ويرسلهما إرسالاً خفيفاً رفيقاً ويستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الإرسال، وفي بعض الروايات أنه ﷺ «كان إذا كبَّر أرسل يديه وإذا أراد

---

(١) حديث: «رفع اليدين إلى حذو المنكبين» وورد: «إلى شحمة أذنيه» وورد: «إلى رؤوس أذنيه» متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول وأبو داود من حديث وائل بن حجر بإسناد ضعيف: «إلى شحمة أذنيه» ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث: «فروع أذنيه».

(٢) حديث: «نشر الأصابع عند الافتتاح». ونقل: «ضمها» وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هريرة والبيهقي: «ولم يفرج بين أصابعه ولم يضمها». ولم أجد التصريح بضم الأصابع.

(٣) حديث: «التكبير مع رفع اليدين». أخرجه البخاري من حديث ابن عمر: «كان يرفع يديه حين يكبر» ولأبي داود من حديث وائل: «يرفع يديه مع التكبير».

(٤) حديث: «التكبير مع استقرار اليدين». أي مرفوعتين أخرجه مسلم من حديث ابن عمر: «كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر». زاد أبو داود: «وهما كذلك».

(٥) حديث: «التكبير مع إرسال اليدين». أخرجه أبو داود من حديث أبي حميد: «كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم كبر حتى يقر كل عظم في موضعه معتدلاً» قال ابن الصلاح في المشكل فكلمة: «حتى» التي هي للغاية تدل بالمعنى على ما ذكره أي من ابتداء التكبير مع الإرسال.

أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى»[١]، فإن صح هذا فهو أولى مما ذكرناه. وأما التكبير فينبغي أن يضم الهاء من قوله «الله» ضمة خفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو، وذلك ينساق إليه بالمبالغة، ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفاً، كأنه يقول «أكبار» ويجزم راء التكبير ولا يضمها فهذه هيئة التكبير وما معه.

القراءة:

ثم يبتدىء بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر: «**الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا**»[٢] **وجهت وجهي** ـ إلى قوله ـ **وأنا من المسلمين**»[٣]، ثم يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك وجل ثناؤك ولا إله غيرك**»[٤]، وليكون جامعاً بين متفرّقات ما ورد في الأخبار. وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم يقرأ الفاتحة يبتدىء فيها بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» بتمام تشديداتها وحروفها ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء ويقول «آمين» في آخر الفاتحة ويمدّها مدّاً، ولا يصل «آمين» بقوله «ولا الضالين» وصلاً. ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموماً، ويجهر بالتأمين. ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوي بأن يفصل بينهما بقدر قوله: «سبحان الله» ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره، وفي الظهر والعصر والعشاء نحو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البُرُوج: ١]، وما قاربها. وفي الصبح في السفر: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافِرون: ١] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية، وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أوّل الصلاة.

الركوع ولواحقه:

ثم يركع ويراعي فيه أموراً وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمدّ التكبير مدّاً إلى الانتهاء إلى الركوع، وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق، وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما، وأن يمدّ ظهره مستوياً، وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفيحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه.

---

(١) حديث: «كان إذا كبر أرسل يديه فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى». أخرجه الطبراني من حديث معاذ بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «أنه يقول بعد قوله الله أكبر: **الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً**». أخرجه مسلم من حديث ابن عمر قال: «بينا نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيراً...» الحديث. أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم: «أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي صلاة قال: الله أكبر كبيراً...» الحديث.

(٣) حديث: «دعاء الاستفتاح وجهت وجهي...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث علي.

(٤) حديث: «**سبحانك اللهم وبحمدك**...» الحديث. في الاستفتاح أيضاً أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث عائشة وضعفه الترمذي والدارقطني ورواه مسلم موقوفاً على عمر، وعند البيهقي من حديث جابر الجمع بين: «**وجهت**» وبين: «**سبحانك اللهم**».

وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبيها. وأن يقول: «سبحان ربي العظيم» ثلاثاً والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن إن لم يكن إماماً، ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول: «سمع الله لمن حمده»، ويطمئن في الاعتدال ويقول: «ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد»، ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسبيح والكسوف والصبح. ويَقْنُتُ في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود(١).

السجود:

ثم يهوي إلى السجود مكبِّراً فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوي ولا يرفع يديه في غير ركوع، وينبغي أن يكون أوّل ما يقع منه على الأرض ركبتاه وأن يضع بعدهما يديه، ثم يضع بعدهما وجهه وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه ولا تفعل المرأة ذلك، وأن يفرّج بين رجليه، ولا تفعل المرأة ذلك، وأن يكون في سجوده مخوياً على الأرض، ولا تكون المرأة مخوية. والتخوية: رفع البطن عن الفخذين والتفريج بين الركبتين. وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرّج بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس، ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب(٢) فإنه منهي عنه. وأن يقول: «سبحان ربي الأعلى» ثلاثاً فإن زاد فحسن إلا أن يكون إماماً. ثم يرفع من السجود فيطمئن جالساً معتدلاً فيرفع رأسه مكبراً ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذيه والأصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها، ويقول: «رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني واجبرني وعافني واعف عني» ولا يطوّل هذه الجلسة إلا في سجود التسبيح. ويأتي بالسجدة الثانية كذلك ويستوي منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة في كل ركعة لا تشهد عقيبها. ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدّم إحدى رجليه في حال الارتفاع، ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام، بحيث تكون الهاء من قوله: «الله» عند استوائه جالساً، وكاف «أكبر» عند اعتماده على اليد للقيام، وراء «أكبر» في وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدىء في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط انتقاله، ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم. ويصلي الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعوّذ كالابتداء.

التشهد:

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأوّل. ثم يصلي على رسول الله ﷺ وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه الأيمن ويقبض أصابعه اليمنى إلا المسبحة، ولا بأس بإرسال الإبهام أيضاً، ويشير بمسبحة يمناه وحدها عند قوله: «إلا الله» لا عند قوله: «لا إله» ويجلس في هذا التشهد على رجله

---

(١) حديث: «القنوت في الصبح بالكلمات المأثورة» أخرجه البيهقي من حديث ابن عباس: «كان النبيّ ﷺ يقنت في صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات: **اللهم اهدني فيمن هديت**...» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث الحسن: «أن النبيّ ﷺ كان يعلمه هؤلاء الكلمات يقولهن في الوتر» وإسناده صحيح.

(٢) حديث: «النهي عن أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب» متفق عليه من حديث أنس.

اليسرى كما بين السجدتين. وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور[(١)] بعد الصلاة على النبي ﷺ وسننه كسنن التشهد الأوّل، لكن يجلس في الأخير على وركه الأيسر؛ لأنه ليس مستوفزاً للقيام بل هو مستقر، ويضجع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه. ثم يقول: «السلام عليكم ورحمة الله» ويلتفت يميناً بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب اليمين ويلتفت شمالاً كذلك. ويسلم تسليمة ثانية وينوي الخروج من الصلاة بالسلام وينوي بالسلام من على يمينه الملائكة والمسلمين في الأولى، وينوي مثل ذلك في الثانية. ويجزم التسليم[(٢)] ولا يمده مداً فهو السنة. وهذه هيئة صلاة المنفرد، ويرفع صوته بالتكبيرات ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه. وينوي الإمام الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاة القوم إذا نووا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد، ويجهر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح وأوليي العشاء والمغرب، وكذلك المنفرد. ويجهر بقوله: «آمين» في الصلاة الجهرية وكذلك المأموم. ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيباً. ويسكت الإمام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام. ولا يقرأ المأموم السورة في الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام. ويقول الإمام: «سمع الله لمن حمده» عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم. ولا يزيد الإمام على الثلاث في تسبيحات الركوع والسجود، ولا يزيد في التشهد الأوّل بعد قوله: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد» ويقتصر في الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطوّل على القوم ولا يزيد على دعائه في التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله ﷺ وينوي عند السلام السلام على القوم والملائكة، وينوي القوم بتسليمهم جوابه، ويثبت الإمام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ويقبل على الناس بوجهه. والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال نساء لينصرفن قبله، ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم. وينصرف الإمام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إليّ. ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول: «اللهم اهدنا» ويجهر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور، ويمسح الوجه عند ختم الدعاء لحديث نقل فيه، وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما في آخر التشهد.

المنهيات:

نهى رسول الله ﷺ عن الصفن في الصلاة والصفد وقد ذكرناهما، وعن الإقعاء[(٣)]، وعن السدل[(٤)]

---

(١) حديث: «الدعاء المأثور بعد التشهد» أخرجه مسلم من حديث علي في دعاء الاستفتاح قال: «ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: **اللهم اغفر لي ما قدمت..**» الحديث. وفي الصحيحين من حديث عائشة: «**إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع: من عذاب جهنم...**» الحديث. وفي الباب غير ذلك جميعها في الأصل.

(٢) حديث: «جزم السلام سنة». أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن. وضعفه ابن القطان.

(٣) حديث: «النهي عن الإقعاء» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث علي بسند ضعيف: «**لا يقعِ بين السجدتين**» ومسلم من حديث عائشة: «كان ينهى عن عقبة الشيطان». والحاكم من حديث سمرة وصححه: «نهى عن الإقعاء».

(٤) حديث: «النهي عن السدل في الصلاة» أخرجه أبو داود، والترمذي، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.

والكفت[١]، وعن الاختصار[٢] وعن الصلب[٣]، وعن المواصلة[٤]، وعن صلاة الحاقن[٥]، والحاقب[٦]، والحازق[٧]، وعن صلاة الجائع والغضبان والمتلثم[٨] وهو ستر الوجه. أما الإقعاء: فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركيه وينصب ركبتيه ويجعل يديه على الأرض كالكلب. وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جاثياً وليس على الأرض منه إلا رؤوس أصابع الرجلين والركبتين. وأما السدل: فمذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك، وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم. والقميص في معناه فلا ينبغي أن يركع ويسجد ويداه في بدن القميص. وقيل: معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه، والأوّل أقرب. وأما الكف: فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود. وقد يكون الكف في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهي للرجال. وفي الحديث: **«أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ وَلاَ أَكُفَّ شَعْراً وَلاَ ثَوْباً»**[٩]، وكره أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن يأتزر فوق القميص في الصلاة ورآه من الكفت. وأما الاختصار: فأن يضع يديه على خاصرتيه. وأما الصلب: فأن يضع يديه على خاصرتيه في القيام ويجافي بين عضديه في القيام. وأما المواصلة: فهي خمسة: اثنان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيرة الإحرام ولا ركوعه بقراءته، واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام ولا تسليمه بتسليمه، وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمة الفرض بالتسليمة الثانية وليفصل بينهما. وأما الحاقن: فمن البول، والحاقب: من الغائط. والحازق: صاحب الخف الضيق. فإنّ كل ذلك يمنع من

---

(١) حديث: «النهي عن الكفت في الصلاة». متفق عليه من حديث ابن عباس: «أمرنا النبيّ ﷺ أن نسجد على سبعة أعظم ولا نكفت شعراً ولا ثوباً».

(٢) حديث: «النهي عن الاختصار». أخرجه أبو داود، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ: «نهى أن يصلي الرجل مختصراً».

(٣) حديث: «النهي عن الصلب في الصلاة». أخرجه أبو داود، والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح.

(٤) حديث: «النهي عن المواصلة». عزاه رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده، وقد فسره الغزالي بوصل القراءة بالتكبير ووصل القراءة بالركوع وغير ذلك. وقد روى أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث سمرة: «سكتتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ إذا دخل في صلاته: إذا فرغ من قراءته وإذا فرغ من قراءة القرآن» وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «كان يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة. . » الحديث.

(٥) حديث: «النهي عن صلاة الحاقن». أخرجه ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يصلي الرجل وهو حاقن»، وأبو داود من حديث أبي هريرة: **«لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حاقن»** له وللترمذي وحسنه نحوه من حديث ثوبان ومسلم من حديث عائشة: **«لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان»**.

(٦) حديث: «النهي عن صلاة الحاقب». لم أجده بهذا اللفظ وفسره المصنف تبعاً للأزهري بمدافعة الغائط وفيه حديث عائشة الذي قبل هذا.

(٧) حديث: «النهي عن صلاة الحازق». عزاه رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده والذي ذكره أصحاب الغريب حديث: **«لا رأي لحازق»**، وهو صاحب الخف الضيق.

(٨) حديث: «النهي عن التلثم في الصلاة». أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند حسن: «نهى أن يغطي الرجل فاه في الصلاة» رواه الحاكم وصححه قال الخطابي: هو التلثم على الأفواه.

(٩) حديث: **«أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكف شعراً ولا ثوباً»** متفق عليه من حديث ابن عباس.

الخشوع. وفي معناه الجائع والمهتم. وفهم نهي الجائع من قوله ﷺ: «**إِذَا حَضَرَ العَشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَابْدَؤُوا بالعَشاءِ إلاَّ أَنْ يَضِيقَ الوَقْتُ أَوْ يَكُونَ سَاكِنَ القَلْبِ**»(١)، وفي الخبر: «**لاَ يَدْخُلَنَّ أَحَدُكُمُ الصَّلاةَ وَهُوَ مُقَطِّبٌ وَلا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمْ وَهُوَ غَضْبَانٌ**»(٢). وقال الحسن: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع. وفي الحديث: «**سَبْعَةُ أَشْيَاءَ فِي الصَّلاةِ مِنَ الشَّيطَانِ: الرُّعَافُ والنُّعَاسُ وَالوَسْوَسَةُ وَالتَّثَاؤُبُ وَالحُكَاكُ وَالالْتِفَاتُ وَالعَبَثُ بِالشَّيْءِ**»(٣)، وزاد بعضهم: «**السَّهْوُ وَالشَّكُّ**» وقال بعض السلف: أربعة في الصلاة من الجفاء: الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تصلي بطريق من يمرّ بين يديك. «ونهى أيضاً عن أن يشبك أصابعه(٤)، أو يفرقع أصابعه(٥)، أو يستر وجهه(٦)، أو يضع إحدى كفيه على الأخرى يدخلهما بين فخذيه في الركوع»(٧)، وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: كنا نفعل ذلك فنهينا عنه. ويكره أيضاً أن ينفخ في الأرض عند السجود للتنظيف وأن يسوّي الحصى بيده فإنها أفعال مستغنى عنها، ولا يرفع إحدى قدميه فيضمها على فخذه، ولا يستند في قيامه إلى حائط فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسقط فالأظهر بطلان صلاته، والله أعلم.

تمييز الفرائض والسنن:

جملة ما ذكر يشتمل على فرائض وسنن وآداب وهيئات مما ينبغي لمريد طريق الآخرة أن يراعي جميعها. فالفرض من جملتها اثنتا عشرة خصلة: النية والتكبير والقيام والفاتحة، والانحناء في الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائماً، والسجود مع الطمأنينة، ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعداً، والجلوس للتشهد الأخير، والتشهد الأخير، والصلاة على النبي ﷺ والسلام الأوّل. فأما نية الخروج فلا تجب وما عدا هذا فليس بواجب بل هي سنن وهيئات فيها وفي الفرائض.

---

(١) حديث: «**إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء**». متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة.

(٢) حديث: «**لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان**» لم أجده.

(٣) حديث: «**سبعة أشياء من الشيطان في الصلاة: الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والالتفات**»، وزاد بعضهم: «**السهو والشك**» أخرجه الترمذي من رواية عدي بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتثاؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال: حديث غريب، ولمسلم من حديث عثمان بن أبي العاص: «يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي» الحديث. وللبخاري من حديث عائشة في الالتفات في الصلاة: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم**». وللشيخين من حديث أبي هريرة «**التثاؤب من الشيطان**» ولهما من حديث أبي هريرة: «**إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فيلبس عليه صلاته حتى لا يدري كم صلى**».

(٤) حديث: «النهي عن تشبيك الأصابع». أخرجه أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة، وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان نحوه من حديث كعب بن عجرة.

(٥) حديث: «النهي عن تفقيع الأصابع في الصلاة». أخرجه ابن ماجه من حديث علي بإسناد ضعيف: «**لا تفقع أصابعك في الصلاة**».

(٦) حديث: «النهي عن ستر الوجه». أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: «النهي عن التطبيق في الركوع». متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص: كنا نفعله فنهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدي على الركب.

أما السنن فمن الأفعال أربعة: رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الهوي إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام، والجلسة للتشهد الأوّل. فأما ما ذكرناه من كيفية نشر الأصابع وحدّ رفعها فهي هيئات تابعة لهذه السنة، والتورك والافتراش هيئات تابعة للجلسة، والإطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته، وجلسة الاستراحة لم نعدّها من أصول السنة في الأفعال لأنها كالتحسين لهيئة الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة في نفسها ولذلك لم تفرد بذكر.

وأما السنن من الأذكار: فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله: «آمين» فإنه سنّة مؤكدة، ثم قراءة السورة، ثم تكبيرات الانتقالات، ثم الذكر في الركوع والسجود والاعتدال عنهما، ثم التشهد الأوّل والصلاة فيه على النبي ﷺ، ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير، ثم التسليمة الثانية. وإن جمعناها في اسم السنّة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو، وأما من الأفعال فواحدة: وهي الجلسة الأولى للتشهد الأوّل فإنها مؤثرة في ترتيب نظم الصلاة في أعين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا، بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر في تغيير النظم فعبر عن ذلك بالبعض. وقيل: الأبعاض تجبر بالسجود.

وأما الأذكار فكلها لا تقتضي سجود السهو إلا ثلاثة: القنوت، والتشهد الأول، والصلاة على النبي ﷺ فيه، بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما، لأنّ الركوع والسجود في صورتهما مخالفان للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار وعن تكبيرات الانتقالات فعدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة. وأما الجلسة للتشهد الأوّل ففعل معتاد وما زيدت إلا للتشهد فتركها ظاهر التأثير.

وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركهما لا يؤثر مع أنّ القيام صار معموراً بالفاتحة ومميزاً عن العادة بها، وكذلك الدعاء في التشهد الأخير والقنوت أبعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مدّ الاعتدال في الصبح لأجله، فكان كمدّ جلسة الاستراحة إذ صارت بالمدّ مع التشهد جلسة للتشهد الأوّل، فبقي هذا قياماً ممدوداً معتاداً ليس فيه ذكر واجب وفي الممدود احتراز عن غير الصبح وفي خلوّه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام في الصلاة.

فإن قلت: تمييز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها، فأما تمييز سنّة عن سنّة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب في ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه؟ فاعلم أنّ اشتراكهما في الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما، ولنكشف ذلك لك بمثال: وهو أنّ الإنسان لا يكون إنساناً موجوداً كاملاً إلا بمعنًى باطن وأعضاء ظاهرة، فالمعنى الباطن هو الحياة والروح، والظاهر أجسام أعضائه. ثم بعض تلك الأعضاء ينعدم الإنسان بعدمها كالقلب والكبد والدماغ، وكل عضو تفوت الحياة بفواته، وبعضها لا تفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان، وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون، وبعضها لا يفوت بها أصل الجمال ولكن كماله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهداب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالبياض في اللون فهذه درجات متفاوتة، فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبدنا

باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والإخلاص ـ كما سيأتي ـ ونحن الآن في أجزائها الظاهرة، فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجري منها مجرى القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها. والسنن التي ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأوّل تجري منها مجرى اليدين والعينين والرجلين، ولا تفوت الصحة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء، ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوّه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه، فكذلك من اقتصر على أقل ما يجزي من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبداً حياً مقطوع الأطراف. وأما الهيئات وهي ما وراء السنن فتجري مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون، وأما وظائف الأذكار في تلك السنن فهي مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرها. فالصلاة عندك قربة وتحفة تتقرّب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم وهذه التحفة تعرض على الله عزّ وجلّ، ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة في تحسين صورتها وتقبيحها، فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها. ولا ينبغي أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتتركها فإن ذلك يضاهي قول الطبيب: إن فقء العين لا يبطل وجود الإنسان، ولكن يخرجه عن أن يصدّق رجاء المتقرب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية، فهكذا ينبغي أن تفهم مراتب السنن والهيئات والآداب، فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول على صاحبها تقول: ضيعك الله كما ضيعتني. فطالع الأخبار التي أوردناها في كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها.

* * *

الباب الثالث

في الشروط الباطنة من أعمال القلب

ولنذكر في هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب. ثم نذكر المعاني الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها. ثم لنذكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة.

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب:

اعلم: أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، نهي وظاهره التحريم وقوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّلاةُ تَمَسْكُنٌ وَتَوَاضُعٌ**». حصر بالألف واللام وكلمة «إنما» للتحقيق والتوكيد، وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام: «**إِنَّمَا الشُّفْعَةُ فِيما لَمْ يُقْسَمْ**»، الحصر والإثبات والنفي، وقوله ﷺ: «**مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللّهِ إِلاّ بُعْداً**»، وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء

والمنكر، وقال ﷺ: «كَمْ مِنْ قَائِـمٍ حَظُّهُ مِنْ صَلاتِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ»[١]، وما أراد به إلا الغافل. وقال ﷺ: «لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ إِلاَّ مَا عَقَلَ مِنْهَا»[٢]، والتحقيق فيه أن المصلي مناج ربه عزّ وجلّ[٣]، كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة، وبيانه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلاً فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة، وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن، أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، فأما الذكر فإنه محاورة ومناجاة مع الله عزّ وجلّ، فإما أن يكون المقصود منه كونه خطاباً ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحاناً للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك في الصوم، وكما يمتحن البدن بمشاق الحج، ويمتحن القلب بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق. ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث إنه عمل، بل المقصود الحروف من حيث إنه نطق، ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما في الضمير ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب، فأي سؤال في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: ٦]، إذا كان القلب غافلاً؟ وإذا لم يقصد كونه تضرعاً ودعاء، فأي مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد الاعتياد؟ هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال: لأشكرنّ فلاناً وأثني عليه وأسأله حاجة، ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه، ولو جرت على لسانه في ظلمة وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه ما لم يكن هو حاضراً في قلبه، فلو كانت تجري هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصر باراً في يمينه. ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء، والمخاطب هو الله عزّ وجلّ وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده، بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عزّ وجلّ ورسوخ عقد الإيمان به! هذا حكم القراءة والذكر. وبالجملة فهذه الخاصيّة لا سبيل إلى إنكارها في النطق وتمييزها عن الفعل.

وأما الركوع والسجود، فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ولو جاز أن يكون معظِّماً لله عزّ وجلّ بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظماً لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه، أو يكون معظماً للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس

الباب الثالث

(١) حديث: «كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب». أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة: «رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر» ولأحمد: «رب قائم حظه من صلاته السهر» وإسناده حسن.

(٢) حديث: «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل» لم أجده مرفوعاً. وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً: «لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه». ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب. ولابن المبارك في الزهد موقوفاً على عمار: لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه.

(٣) حديث: «المصلي يناجي ربه» متفق عليه من حديث أنس.

فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره، بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتنقيص المال. قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، أي الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة، فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفعالها؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب.

فإن قلت: إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها خالفت إجماع الفقهاء فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير؟ فاعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم: أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة، بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح، وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان، فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعي الإجماع. فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته. وروي عن الحسن أنه قال: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع. وعن معاذ بن جبل: من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو في الصلاة فلا صلاة له. وروي أيضاً مسنداً قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاةَ لا يُكْتَبُ لَهُ سُدُسُهَا وَلا عُشْرُهَا وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا»**(١)، وهذا لو نُقِلَ عن غيره لَجُعِلَ مذهباً فكيف لا يتمسك به؟ وقال عبدالواحد بن زيد: أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، فجعله إجماعاً، وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورّعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى. والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار، والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق. فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين، وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقتصرنا على التكليف بذلك. ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية، فإنه على الجملة أقدم على العمل ظاهراً وأحضر القلب لحظة. وكيف لا، والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره، ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا، والذي يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالاً من الذي يعرض عن الخدمة؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مخطراً في نفسه فإليك الخيرة بعده في الاحتياط والتساهل. ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة، فإن ذلك من ضرورة الفتوى ـ كما سبق التنبيه عليه ـ ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها.

---

(١) حديث: «**إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها...**» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه.

ولكن قد ذكرنا في باب ـ الفرق بين العلم الباطن والظاهر ـ في كتاب (قواعد العقائد) أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع. فلنقتصر على هذا القدر من البحث فإن فيه مقنعاً للمريد الطالب لطريق الآخرة، وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن. وحاصل الكلام: أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة. وكم من حي لا حراك به قريب من ميت؟ فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حي لا حراك به نسأل الله حسن العون.

بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة:

اعلم: أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها، ولكن يجمعها ست جمل وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء. فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج في اكتسابها.

أما التفاصيل: **فالأوّل**: حضور القلب ونعني به أن يفرّغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب. ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم، وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات. وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أموراً، تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة. وأما التعظيم، فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظماً له فالتعظيم زائد عليهما. وأما الهيبة، فزائدة على التعظيم، بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة، والهيبة خوف مصدرها الإجلال. وأما الرجاء، فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكاً من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مثوبته. والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله عزّ وجلّ كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عزّ وجلّ. وأما الحياء، فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب، ويتصوّر التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

وأما أسباب هذه المعاني الستة: فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك، ومهما أهمك أمرٌ حضر القلب فيه شاء أم أبى، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه. والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل جائلاً فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور

القلب في الصلاة، ويمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضرر فلا تظنن أن له سبباً سوى ضعف الإيمان، فاجتهد الآن في تقوية الإيمان ـ وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع ـ وأما التفهم: فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر. وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة، لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر. وأما التعظيم، فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين، **إحداهما**: معرفة جلال الله عزّ وجلّ وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه. **الثانية**: معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة، ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله؛ لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه. وأما الهيبة: والخوف، فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأوّلين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض. وبالجملة، كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة ـ وسيأتي أسباب ذلك في كتاب الخوف من ربع المنجيات ـ. وأما الرجاء: فسببه معرفة لطف الله عزّ وجلّ وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة. وأما الحياء: فباستشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عزّ وجلّ ويقوي ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عزّ وجلّ، والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء. فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه، ففي معرفة السبب معرفة العلاج. ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين أعني به هذه المعارف التي ذكرناها، ومعنى كونها يقيناً انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم، وبقدر اليقين يخشع القلب، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». وقد روي أنّ الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يديّ فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلبٍ وجلٍ ولسانٍ صادق»، وروي أنّ الله تعالى أوحى إليه: «قل لعصاة أمتك لا يذكروني فإني آليت على نفسي أنّ من ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة» هذا في عاصٍ غير غافل في ذكره، فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان؟ وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه في

لحظة منها، وإلى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه. ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الأسطوانة في المسجد عندما اجتمع الناس عليها. وبعضهم كان يحضر الجماعة مدّة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره. ووجيب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين. وجماعة كانت تصفرّ وجوههم وترتعد فرائصهم. وكل ذلك غير مستبعد، فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم، حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدّثه بمهمته ثم يخرج، ولو سئل عمن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همّه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات. ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة. ولقد صدق فإنه يحشر كلٌّ على ما مات عليه ويموت على ما عاش عليه، ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان الدواء النافع في حضور القلب:

اعلم: أن المؤمن لا بد أن يكون معظّماً لله عزّ وجلّ وخائفاً منه وراجياً له ومستحيياً من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه، وإن كانت قوّتها بقدر قوّة يقينه فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرّق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة. ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه. وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً.

أما الخارج؛ فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإنّ ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل، ويكون الإبصار سبباً للافتكار، ثم تصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض. ومن قويت نيته وعَلَتْ همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف لا بدّ وأن يتفرّق به فكره. وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلي في بيت مظلم أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة. ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع لهم. والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلاة في أن لا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم. وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يدع في موضع الصلاة مصحفاً ولا سيفاً إلا نزعه ولا كتاباً إلا محاه.

وأما الأسباب الباطنة؛ فهي أشدّ فإنّ من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فنٍ واحدٍ بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لا يغنيه، فإن ما وقع في القلب من قبل كافٍ للشغل، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره،

ويعينه على ذلك أن يستعدّ له قبل التحريم بأن يجدّد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره. قال رسول الله ﷺ لعثمان بن أبي شيبة: **«إِنِّي نَسِيتُ أَنْ أَقُولَ لَكَ أَنْ تُخَمِّرَ القِدْرَ الَّذِي فِي البَيْتِ»**(١)، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم، فهذا طريق تسكين الأفكار.

فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضدّ دينه وجند إبليس عدوّه فإمساكه أضر عليه من إخراجه فيتخلص منه بإخراجه، كما روي أنه ﷺ: «لما لبس الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته، وقال ﷺ: **«اذْهَبُوا بِها إِلَىٰ أَبِي جَهْم فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفاً عَنْ صَلاتِي وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْم»**(٢). وأمر رسول الله ﷺ: بتجديد شراك نعله ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديداً فأمر أن ينزع منها ويرد الشراك الخلق(٣). وكان ﷺ قد احتذى نعلاً فأعجبه حسنها فسجد وقال: **«تَوَاضَعْتُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ كَيْ لا يَمْقُتَنِي»**، ثم خرج بها فدفعها إلى أوّل سائل لقيه، ثم أمر علياً رضي الله عنه أن يشتري له نعلين سبتيتين جرداوين فلبسهما(٤). وكان ﷺ في يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه وقال: **«شغلني هذا، نظرةٌ إليه ونظرةٌ إليكم»**(٥). وروي: أن أبا طلحة صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسي طار في الشجر يلتمس مخرجاً فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدر كم صلى؟ فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة ثم قال: يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت(٦). وعن رجل آخر أنه صلى في حائط له والنخل مطوّقة بثمرها فنظر إليها فأعجبته ولم يدرِ كم صلى؟ فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الله عزّ وجلّ فباعه عثمان بخمسين ألفاً. فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة، وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ولا يغني غيره.

فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر، فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والهمم التي لا تشغل إلا حواشي القلب. فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال

---

(١) حديث: «**إني نسيت أن أقول لك تخمر القربتين اللتين في البيت.**» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث عثمان الحجبي وهو عثمان بن طلحة كما في مسند أحمد ووقع للمصنف أنه قال ذلك لعثمان بن أبي شيبة وهو وهم.

(٢) حديث: «نزع الخميصة وقال: **ائتوني بأنبجانية أبي جهم**». متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم في العلم.

(٣) حديث: «أمره بنزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق إذ نظر إليه في صلاته» أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث أبي النضر مرسلاً بإسناد صحيح.

(٤) حديث: «احتذى نعلاً فأعجبه حسنها فسجد وقال: **تواضعت لربي..**» الحديث. أخرجه أبو عبدالله بن حقيق في شرف الفقراء من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

(٥) حديث: «رميه بالخاتم الذهب من يده وقال: **شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم**». أخرجه النسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهباً ولا فضة إنما هو مطلق.

(٦) حديث: «**إن أبا طلحة صلى في حائط له فيه شجر فأعجبه ريش طائر في الشجر..**» الحديث. أخرجه في سهوه في الصلاة وتصدقه بالحائط مالك عن عبدالله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصاري فذكره بنحوه.

تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله: رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تشوّش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنقير بالخشبة، فقيل له: إنّ هذا أسير السواني ولا ينقطع فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة. فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرّعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقذار والشغل يطول في دفعها فإنّ الذباب كلما ذُبَّ آب ولأجله سمي ذباباً، فكذلك الخواطر. وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد.

ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة، فإنّ من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته. وهمة الرجل مع قرّة عينه، فإن كانت قرّة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه، ولكن مع هذا لا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة. فهذا هو الدواء المرّ ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالاً، حتى إنّ الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدّثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بخل فبقدر ما ندخل فيه من الماء يخرج منه من الخل لا محالة ولا يجتمعان.

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب ـ عند كل ركن وشرط ـ من أعمال الصلاة:

فنقول: حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل أوّلاً عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها. أما الشروط السوابق: فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائماً والنية. فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة؛ فإنّ المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فاعرض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم: أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء. ولذلك قال ﷺ: **«أرحنا يا بلال»**[1]، أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كان قرة عينه فيها ﷺ.

وأما الطهارة، فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى، فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فرّطت، وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك.

---

(١) حديث: **«ابها أرحنا يا بلال»** أخرجه الدارقطني في العلل من حديث بلال، ولأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح.

وأما ستر العورة؛ فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإنّ ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عزّ وجلّ؟ فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر. وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما، فتذل بها نفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدي الله عزّ وجلّ قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

وأما الاستقبال؛ فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، أفترى أنّ صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عزّ وجلّ ليس مطلوباً منك هيهات فلا مطلوب سواه. وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عزّ وجلّ فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك. فاعلم: أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عزّ وجلّ إلا بالتفرغ عما سواه، وقد قال ﷺ: **«إِذَا قَامَ العَبْدُ إِلَىٰ صَلاتِهِ فَكَانَ هَوَاهُ وَوَجْهُهُ وَقَلْبُهُ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ انْصَرَفَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»**(١).

وأما الاعتدال قائماً؛ فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عزّ وجلّ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطأطئاً متنكساً، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عزّ وجلّ في هول المطلع عند العرض للسؤال. واعلم في الحال: أنك قائم بين يدي الله عزّ وجلّ وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، بل قدّر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: إنك تدّعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى؟ ولذلك لما قال أبو هريرة: كيف الحياء من الله؟ فقال ﷺ: **«تَسْتَحِي مِنْهُ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ»**(٢)، وروي: **«مِنْ أَهْلِكَ»**.

وأما النية؛ فاعزم على إجابة الله عزّ وجلّ في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها، والكف عن نواقضها

---

(١) حديث: «**إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهواه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه**» لم أجده.

(٢) حديث: «**قال أبو هريرة: كيف الحياء من الله؟ قال: تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك**». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسلاً بنحوه، وأرسله البيهقي بزيادة ابن عمر في السند وفي العلل للدارقطني عن ابن عمر له وقال: إنه أشبه شيء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد: أحد العشرة المبشرين بالجنة.

ومفسداتها، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقربة منه متقلداً للمنة منه بإذنه. إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك، وعظِّم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي؟ وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفرّ وجهك من الخوف.

وأما التكبير؛ فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد أنك لكاذب، وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم: إنه ﷺ رسول الله. فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عزّ وجلّ فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك أن يكون قولك «الله أكبر» كلاماً باللسان المجرّد وقد تخلف القلب عن مساعدته؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه.

وأما دعاء الاستفتاح؛ فأول كلماته قولك: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض»، وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة، والله سبحانه يتقدس عن أن تحدّه الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه. وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض فانظر إليه أمتُوَجِّهٌ هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبلٌ على فاطر السموات؟ وإياك أن تكون أوّل مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق. ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه، وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقاً. وإذا قلت: «حنيفاً مسلماً» فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال. وإذا قلت: «وما أنا من المشركين» فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس، وكن حذراً مشفقاً من هذا الشرك، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه. وإذا قلت: «محياي ومماتي لله» فاعلم: أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائماً للحال. وإذا قلت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فاعلم: أنه عدوّك مترصد لصرف قلبك عن الله عزّ وجلّ حسداً لك على مناجاتك مع الله عزّ وجلّ وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عزّ وجلّ لا بمجرد قولك، فإن من قصده سبع أو عدوّ ليفترسه أو يقتله فقال: أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا ينفعه، بل لا يعيذه إلا تبديل المكان؛ فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عزّ وجلّ عن شر الشيطان، وحصنه «لا إله إلا الله» إذ قال عزّ وجلّ فيما أخبر عنه نبينا ﷺ: **«لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي»**(١)، والمتحصن به لا

---

(١) حديث: **«قال الله تعالى: لا إله إلا الله حصني»**. أخرجه الحاكم في التاريخ، وأبو نعيم في الحلية من طريق أهل البيت من حديث علي بإسناد ضعيف جداً، وقول أبي منصور الديلمي: إنه حديث ثابت، مردود عليه.

معبود له سوى الله سبحانه، فأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عزّ وجلّ. واعلم: أن من مكائده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ. فاعلم: أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها. فأما القراءة؛ فالناس فيها ثلاثة، رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجات أصحاب اليمين، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه. ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقرّبون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب. وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت: «بسم الله الرحمن الرحيم» فانوِ به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه، وافهم أنّ معناها أنّ الأمور كلها بالله سبحانه، وأنّ المراد بالاسم ههنا هو المسمى. وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان «الحمد لله» ومعناه أنّ الشكر لله إذ النعم من الله. ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عزّ وجلّ، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى. فإذا قلت: «الرحمن الرحيم» فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك. ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك: «مالك يوم الدين» أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه. ثم جدّد الإخلاص بقولك: «إياك نعبد». وجدّد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوّة بقولك: «وإياك نستعين» وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأنّ له المِنَّة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين. ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك: «بسم الله الرحمن الرحيم» ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل: «اهدنا الصراط المستقيم» الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك. وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين، ثم التمس الإجابة وقل: «آمين» فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي ﷺ: **«قسمتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ نِصْفُهَا لِي وَنِصْفُها لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، يقول العبد: «الحمد لله رب العالمين» فيقول الله عزّ وجلّ: حمدني عبدي وأثنى عليّ. وهو معنى قوله: «سمع الله لمن حمده...»**[1] الحديث إلخ، فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرؤه من السور ـ كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن ـ فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه وإحسانه. ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد، والخوف حق الوعيد، والعزم حق الأمر والنهي، والاتعاظ حق الموعظة، والشكر حق ذكر المنة، والاعتبار حق إخبار الأنبياء. وروي أن زرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدّثّر: ٨]، خرّ ميتاً. وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: ١]، اضطرب حتى تضطرب أوصاله. وقال عبدالله بن واقد: رأيت ابن عمر يصلي مغلوباً عليه. وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده فإنه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر، وتكون هذه

---

(١) حديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين...» الحديث. أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر.

والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً. ثم يراعي الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل. ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد. كان النخعي إذا مرَّ بمثل قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، يخفض صوته كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به. وروي أنه يقال لقارىء القرآن: «**اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا**»(١). وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عزّ وجلّ على نعت واحد من الحضور. قال ﷺ: «**إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُقبِلٌ عَلَىٰ المُصَلِّي مَا لَمْ يَلْتَفِتْ**»(٢)، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات، فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة. فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجي عند غفلة المناجي ليعود إليه. وألزم الخشوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر. قال ﷺ وقد رأى رجلاً مصلياً يعبث بلحيته: «**أَمَّا هٰذَا لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**»، فإنّ الرعية بحكم الراعي. ولهذا ورد في الدعاء: «اللهم أصلح الراعي والرعية»(٣). وهو القلب والجوارح. وكان الصدّيق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد. وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عود. وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد. وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك؟ وكل من يطمئن بين يدي غير الله عزّ وجلّ خاشعاً وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثاً فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عزّ وجلّ وعن اطلاعه على سره وضميره. وقال عكرمة في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٨،٢١٩]، قال: قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه.

وأما الركوع والسجود فينبغي أن تجدّد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيراً بعفو الله عزّ وجلّ من عقابه بتجديد نية ومتبعاً سنة نبيه ﷺ، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلوّ ربك. وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم، وتكرّر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار. ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه راحم لك ومؤكداً للرجاء في نفسك بقولك: «سمع الله لمن حمده» أي أجاب لمن شكره. ثم تردف ذلك الشكر المتقاضي للمزيد فتقول: «ربنا لك الحمد» وتكثر الحمد بقولك: «ملء السموات وملء الأرض». ثم تهوي إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل. وإذا وضعت نفسك موضع الذل

---

(١) حديث: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق..**» الحديث. أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث عبدالله بن عمر، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) «**إن الله يقبل على المصلي ما لم يلتفت**»، أخرجه أبو داود، والنسائي، والحاكم وصحح إسناده أبو ذر.

(٣) حديث: «اللهم أصلح الراعي والرعية» لم أقف له على أصل، فسره المصنف بالقلب والجوارح.

فاعلم: أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت وإليه تعود، فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل: «سبحان ربي الأعلى»، وأكده بالتكرار فإنّ الكرّة الواحدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك في رحمة الله، فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبراً وسائلاً حاجتك وقائلاً: «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم» أو ما أردت من الدعاء. ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانياً كذلك.

وأما التشهد؛ فإذا جلست له فاجلس متأدباً وصرح بأن جميع ما تدلي به من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة لله. وكذلك الملك لله وهو معنى «التحيات» وأحضر في قلبك النبي ﷺ وشخصه الكريم وقل: «سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه. ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين، ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاماً وافياً بعدد عباده الصالحين. ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه ﷺ بالرسالة مجدّداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ومستأنفاً للتحصن بها. ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة، وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين. واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانوِ ختم الصلاة به. واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة. وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها. وقال ﷺ للذي أوصاه: «صَلِّ صَلاةَ مُوَدِّع»، ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة، وخَفْ أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتاً بذنبٍ ظاهرٍ أو باطنٍ فترد صلاتك في وجهك، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله.

كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة. وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض. فهذا تفصيل الخاشعين، الذين هم في صلاتهم خاشعون... والذين هم على صلواتهم يحافظون والذين هم على صلاتهم دائمون، والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية. فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة، فبالقدر الذي يسر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر وفي مداراة ذلك ينبغي أن يجتهد. وأما صلاة الغافلين فهي مخطرة إلا أن يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض، فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته. واعلم: أنّ تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عزّ وجلّ وأداءها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة. فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لا سيما في السجود إذ يتقرّب العبد من ربه عزّ وجلّ بالسجود. ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العَلق: ١٩]، وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقوّة والضعف والقلة والكثرة وبالجلاء والخفاء، حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله، كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة، والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها. ويختلف أيضاً بما فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله، ولبعضهم من أفعاله ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة. ويكون لتعين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى وأشدّها مناسبة الهمة،

فإنها إذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالانكشاف، ولما كانت هذه الأمور لا تتراءى إلا في المرائي الصقيلة، وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لخبث متراكم الصدأ على مصب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك؛ إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر، ولو كان للجنين عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان في متسع الهواء، ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض، وهكذا الإنسان في كل طور يكاد ينكر ما بعده. ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوة، وقد خلق الخلق أطواراً فلا ينبغي أن ينكر كل واحد ما وراء درجته، نعم لما طلبوا هذا من المجادلة والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عزّ وجلّ فقدوه فأنكروه. ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالغيب ويصدّق به إلى أن يشاهد بالتجربة ففي الخبر: «إنّ العبد إذا قام في الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلّون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه وينادي مناد: لو علم هذا المناجي من يناجي ما التفت. وإنّ أبواب السماء تفتح للمصلين. وإن الله عزّ وجلّ يباهي ملائكته بعبده المصلي»[1] ففتح أبواب السماء ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه كناية عن الكشف الذي ذكرناه.

وفي التوراة مكتوب: يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلياً باكياً فأنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري، قال: فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذي يجده المصلي في قلبه من دنوّ الرب سبحانه من القلب. وإذا لم يكن هذا الدنوّ هو القرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنوّ بالهداية والرحمة وكشف الحجاب. ويقال: إن العبد إذا صلى ركعتين عَجِبَ منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف وباهى الله به مائة ألف ملك. وذلك أن العبد قد جمع في الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود وقد فرّق الله ذلك على أربعين ألف ملك، فالقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وهكذا الراكعون والقاعدون، فإن ما رزق الله تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم مستمرّ على حال واحد لا يزيد ولا ينقص لذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤]، وفارق الإنسان الملائكة في الترقي من درجة إلى درجة، فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فيستفيد مزيد قربه وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبته التي هي وقف عليها. وعبادته التي هو مشغول بها لا ينتقل إلى غيرها ولا يفتر عنها ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلوات. قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ١، ٢]، فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع. ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩]، ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، فوصفهم بالفلاح أوّلاً وبوراثة الفردوس آخراً، وما عندي أن هذرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهي إلى هذا الحدّ، ولذلك قال الله عزّ

---

(١) حديث: «إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده..» الحديث. لم أجده.

وجلّ في أضدادهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدّثّر: ٤٢، ٤٣]، فالمصلون هم ورثة الفردوس، وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوّه من قلوبهم. نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفى.

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضي الله عنهم:

اعلم: أنّ الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عزّ وجلّ، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعاً في الصلاة وفي غير الصلاة بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد. فمن هذه المعارف يتولّد الخشوع وليست مختصة بالصلاة، ولذلك روي عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياءً من الله سبحانه وخشوعاً له، وكان الربيع بن خيثم من شدّة غضّه لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رأته جاريته قالت لابن مسعود: صديقك الأعمى قد جاء، فكان يضحك ابن مسعود من قولها، وكان إذا دقّ الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقاً غاضاً بصره، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحَج: ٣٤]، أما والله لو رآك محمد ﷺ لفرح بك، وفي لفظ آخر: لأحبك، وفي لفظ آخر: لضحك.

ومشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تلتهب صعق وسقط مغشياً عليه، وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق فحمله على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشياً عليه إلى مثل الساعة التي صعق فيها ففاتته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله هو الخوف. وكان الربيع يقول: ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول وما يقال لي، وكان عامر بن عبدالله من خاشعي المصلين، وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدّث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله، وقيل له ذات يوم: هل تحدّثك نفسك في الصلاة بشيء؟ قال: نعم بوقوفي بين يدي الله عزّ وجلّ ومنصرفي إلى إحدى الدارين، قيل: فهل تجد شيئاً مما نجد من أمور الدنيا؟ فقال: لئن تختلف الأسنّة فيَّ أحب إليَّ من أن أجد في صلاتي ما تجدون وكان يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وقد كان مسلم بن يسار منهم، وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط أسطوانة في المسجد وهو في الصلاة. وتأكل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يكن منه فقيل: إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه؛ فقطع وهو في الصلاة. وقال بعضهم: الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها خرجت من الدنيا. وقيل لآخر: هل تحدّث نفسك بشيء من الدنيا في الصلاة؟ فقال: لا في الصلاة ولا في غيرها. وسئل بعضهم: هل تذكر في الصلاة شيئاً؟ فقال: وهل شيء أحب إليَّ من الصلاة فأذكره فيها؟ وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ. وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس، وروي أنّ عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفّها فقيل له: خففت يا أبا اليقظان فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً؟ قالوا: لا، قال: إني بادرت سهو الشيطان، إن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاةَ لا يُكْتَبُ لَهُ نِصْفُهَا، وَلا ثُلُثُهَا، وَلا رُبُعُهَا، وَلا خُمُسُهَا، وَلا سُدُسُهَا، وَلا عُشْرُهَا**»، وكان يقول:

«إِنَّما يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ ما عَقَلَ مِنْهَا»[١] ويقال: إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا أخفّ الناس صلاة، وقالوا: نبادر بها وسوسة الشيطان.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر: إنّ الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عزّ وجلّ فيها. وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون: ٥]، قال: هو الذي يسهو في صلاته فلا يدري على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر؟ وقال الحسن: هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج. وقال بعضهم: هو الذي إنْ صلاها في أول الوقت لم يفرح وإن أخّرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيراً ولا تأخيرها إثماً. واعلم: أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن كان الفقيه يقول: إن الصلاة في الصحة لا تتجزأ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه، وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل[٢]. وفي الخبر: «قال عيسى عليه السلام: يقول الله تعالى بالفرائض نجا مني عبدي، وبالنوافل تقرّب إليّ عبدي» وقال النبي ﷺ: **«قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: لا يَنْجُو مِنِّي عَبْدِي إلاَّ بِأَدَاءِ ما افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»**[٣]، وروي «أن النبي ﷺ: صلّى صلاة فترك من قراءتها آية، فلما انفتل قال: **ماذا قرأت**، فسكت القوم، فسأل أبيّ بن كعب رضي الله عنه فقال: قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما ندري أنسخت أم رفعت؟ فقال: **أَنْتَ لَهَا يَا أُبَيُّ**، ثم أقبل على الآخرين فقال: **مَا بَالُ أقوام يَحْضُرُونَ صَلاتَهُمْ وَيُتِمُّونَ صُفُوفَهُمْ وَنَبِيُّهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لا يَدْرُونَ ما يَتْلُو عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ أَلاَ إنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَذَا فَعَلُوا فَأَوْحَىٰ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ نَبِيِّهِمْ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: تُحْضِرُونِي أَبْدَانَكُمْ وَتُعْطُونِي أَلْسِنَتَكُمْ وَتَغِيبُونَ عَنِّي بِقُلُوبِكُمْ بَاطِلٌ ما تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ»**[٤]، وهذا يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه بَدَلٌ عن قراءة السورة بنفسه. وقال بعضهم: إن الرجل يسجد السجدة عنده أنه تقرّب بها إلى الله عزّ وجلّ ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا، قيل: وكيف يكون ذلك؟ قال: يكون ساجداً عند الله وقلبه مصغ إلى هوًى ومشاهد لباطل قد استولى عليه. فهذه صفة الخاشعين. فدلت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على أن الأصل في الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد والله أعلم. نسأل الله حسن التوفيق.

❋ ❋ ❋

---

(١) حديث: «أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقيل له: خففت يا أبا اليقظان..» الحديث. وفيه: **«إن العبد ليصلي صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها...»**، إلى آخره أخرجه أحمد بإسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند أبي داود والنسائي.

(٢) حديث: «جبر نقصان الفرائض بالنوافل»، رواه أصحاب السنن، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة: **«إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته»** وفيه: **«فإن انتقص من فرضه شيئاً قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما نقص من الفريضة»**.

(٣) حديث: **«قال الله تعالى: لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما افترضت عليه»** لم أجده.

(٤) حديث: «صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما التفت قال: **ماذا قرأت** فسكت القوم فسأل أبي بن كعب..» الحديث. رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة مرسلاً وأبو منصور الديلمي من حديث أبي بن كعب، ورواه النسائي مختصراً من حديث عبدالرحمن بن أبزى بإسناد صحيح.

الباب الرابع

في الإمامة والقدوة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان الصلاة وبعد السلام

أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فستة:

أولها: أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين، فإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولى وفي الحديث: «**ثَلاثَةٌ لا تُجَاوِزُ صَلاتُهُمْ رُؤوسَهُمْ: العَبْدُ الآبِقُ، وَامْرَأَةٌ زَوْجُهَا سَاخِطٌ عَلَيْهَا، وَإِمَامٌ أَمَّ قَوْماً وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ**»(١)، وكما ينهى عن تقدمه مع كراهيتهم فكذلك ينهى عن التقدمة إن كان وراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم، فإن لم يكن شيء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة. ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل: إن قوماً تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخسف بهم. وما روي من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضي الله عنهم فسببه إيثارهم من رأوه أنه أولى بذلك أو خوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاتهم، فإن الأئمة ضمناء، وكأن من لم يتعوّد ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص في صلاته حياء من المقتدين لا سيما في جهره بالقراءة، فكان لاحتراز من احترز أسباب من هذا الجنس.

الثانية: إذا خُيِّرَ المرء بين الأذان والإمامة، فينبغي أن يختار الإمامة فإن لكل واحد منهما فضلاً، ولكن الجمع مكروه بل ينبغي أن يكون الإمام غير المؤذن، وإذا تعذر الجمع فالإمامة أولى. وقال قائلون: الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان ولقوله ﷺ: «**الإِمَامُ ضَامِنٌ وَالمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ**»(٢). فقالوا: فيها خطر الضمان. وقال ﷺ: «**الإِمَامُ أَمِينٌ فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا**»(٣)، وفي الحديث: «**فَإِنْ أَتَمَّ فَلَهُ وَلَهُمْ وَإِنْ نَقَصَ فَعَلَيْهِ لا عَلَيْهِمْ**»(٤)، ولأنه ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ أَرْشِدِ الأَئِمَّةَ وَاغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ**»(٥)، والمغفرة أولى بالطلب فإن الرشد يراد للمغفرة. وفي الخبر: «**مَنْ أَمَّ فِي مَسْجِدٍ سَبْعَ**

الباب الرابع

(١) حديث: «**ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رؤوسهم: العبد الآبق...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن غريب وضعفه البيهقي.

(٢) حديث: «**الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن**». أخرجه أبو داود، والترمذي من حديث أبي هريرة، وحكي عن ابن المديني أنه لم يثبته ورواه أحمد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن.

(٣) حديث: «**الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا..**» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله: «**الإمام أمين**» وهو بهذه الزيادة في مسند الحميري وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة.

(٤) حديث: «**فإن أتم فله ولهم وإن انتقص فعليه ولا عليهم**» أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم وصححه من حديث عقبة بن عامر والبخاري من حديث أبي هريرة: «**يصلون بكم فإن أصابوا فلكم وإن أخطؤوا فلكم وعليهم**».

(٥) حديث: «**اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين**» هو بقية حديث: «**الإمام ضامن**» وتقدم قبل بحديثين.

سِنِينَ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ بِلا حِسَابٍ، وَمَنْ أَذَّنَ أَرْبَعِينَ عَاماً دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[1]، ولذلك نقل عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون الإمامة. والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما والأئمة بعدهم. نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر، كما أن رتبة الإمارة أفضل لقوله ﷺ: «لَيَوْمٌ مِنْ سُلْطَانٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً»[2] ولكن فيها خطر. ولذلك وجب تقديم الأفضل والأفقه فقد قال ﷺ: «أَئِمَّتُكُمْ شُفَعَاؤُكُمْ ـ أو قال: وَفْدُكُمْ إِلَى اللَّهِ ـ فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُزَكُّوا صَلاتَكُمْ فَقَدِّمُوا خِيَارَكُمْ»[3]، وقال بعض السلف: ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء، ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين، لأن هؤلاء قاموا بين يدي الله عزّ وجلّ وبين خلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بعماد الدين وهو الصلاة. وبهذه الحجة احتج الصحابة في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنهم للخلافة؛ إذ قالوا: نظرنا فإذا الصلاة عماد الدين، فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا[4]، وما قدموا بلالاً احتجاجاً بأنه رضيه للأذان[5]، وما روي «أنه قال له رجل: يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة قال: كُنْ مُؤَذِّناً، قال: لا أستطيع، قال: كُنْ إِمَاماً، قال: لا أستطيع، فقال: صَلِّ بِإِزَاءِ الإِمَامِ»[6]، فلعله ظن أنه لا يرضى بإمامته إذ الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمهم له، ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها.

الثالثة: أن يراعي الإمام أوقات الصلوات فيصلي في أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه، ففضل أول

---

(١) حديث: «**من أذن في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاماً دخل الجنة بغير حساب**». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بالشطر الأول نحوه قال الترمذي: حديث غريب.

(٢) حديث: «**اليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة**». أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ: «ستين».

(٣) حديث: «**أئمتكم وفدكم إلى الله تعالى فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم**» أخرجه الدارقطني والبيهقي وضعف إسناده من حديث ابن عمر، والبغوي وابن قانع والطبراني في معاجمهم، والحاكم من حديث مرثد بن أبي مرثد نحوه وهو منقطع وفيه يحيى بن يحيى الأسلمي وهو ضعيف.

(٤) حديث: «تقديم الصحابة أبا بكر وقولهم: اخترنا لدنيانا من اختاره رسول الله ﷺ لديننا»، أخرجه ابن شاهين في شرح مذهب أهل السنة من حديث علي قال: «لقد أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس وإني شاهد ـ ما أنا بغائب ولا بي مرض ـ فرضينا لدنيانا ما رضي به النبيّ ﷺ لديننا». والمرفوع منه متفق عليه من حديث عائشة وأبي موسى في حديث: «**قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

(٥) حديث: «تقديم الصحابة بلالاً» احتجاجاً بأن رسول الله ﷺ رضيه للأذان أما المرفوع منه فرواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث عبدالله بن زيد في بدء الأذان وفيه: «**قم مع بلال فألق عليه ما رأيت فيؤذن به. . .**» الحديث. وأما تقديمهم له بعد موت النبيّ ﷺ فروى الطبراني: «**أن بلالاً جاء إلى أبي بكر فقال:** يا خليفة رسول الله ﷺ أردت أن أربط نفسي في سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر: أنشدك بالله يا بلال وحرمتي وحقي لقد كبرت سني وضعفت قوتي واقترب أجلي فأقام بلال معه، فلما توفي أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأبي بكر عليه فقال عمر: فمن يا بلال، فقال: إلى سعد فإنه قد أذن بقباء على عهد رسول الله ﷺ فجعل عمر الأذان إلى سعد وعقبة» وفي إسناده جهالة.

(٦) حديث: «قال له رجل: يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة فقال: **كن مؤذناً. . .**» الحديث. أخرجه البخاري في التاريخ والعقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا[(١)]، هكذا روي عن رسول الله ﷺ. وفي الحديث: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاةَ فِي آخِرِ وَقْتِها وَلَمْ تَفُتْهُ، وَلَمَا فَاتَهُ مِنْ أَوَّلِ وَقْتِهَا خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[(٢)]، ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة، بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة. وقد قيل: كانوا إذا حضر اثنان في الجماعة لم ينتظروا الثالث، وإذا حضر أربعة في الجنازة لم ينتظروا الخامس. وقد تأخر رسول الله ﷺ عن صلاة الفجر وكانوا في سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر، وقدم عبدالرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله ﷺ ركعة فقام يقضيها، قال: فأشفقنا من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**قَدْ أَحْسَنْتُمْ. هٰكَذا فَافْعَلُوا**»[(٣)]. «وقد تأخر في صلاة الظهر، فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء رسول الله ﷺ وهو في الصلاة فقام إلى جانبه»[(٤)]، وليس على الإمام انتظار المؤذن، وإنما على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فإذا حضر فلا ينتظر غيره.

الرابعة: أن يؤم مخلصاً لله عزّ وجلّ ومؤدياً أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته. أما الإخلاص؛ فبأن لا يأخذ عليها أجرة، فقد أمر رسول الله ﷺ عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال: «**اتَّخِذْ مُؤَذِّناً لا يَأْخُذُ عَلَىٰ الأَذَانِ أَجْراً**»[(٥)]، فالأذان طريق إلى الصلاة فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر، فإن أخذ رزقاً من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه. والكراهية في الفرائض أشدّ منها في التراويح، وتكون أجرة له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة. وأما الأمانة؛ فهي الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر، فالمترشح للإمامة ينبغي أن يحترز عن ذلك بجهده فإنه كالوفد والشفيع للقوم، فينبغي أن يكون خير القوم وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فإنه لا يطّلع عليه سواه، فإن تذكر في أثناء صلاته حدثاً أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه، «فقد تذكر رسول الله ﷺ الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في الصلاة»[(٦)]، وقال سفيان: صلِّ خلف كل بر وفاجر إلا مدمن خمر أو معلن بالفسوق أو عاق لوالديه أو صاحب بدعة أو عبد آبق.

الخامسة: أن لا يكبر حتى تستوي الصفوف فليلتفت يميناً وشمالاً فإن رأى خللاً أمر بالتسوية.

---

(١) حديث: «فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفته..**» الحديث. أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد ضعيف.

(٣) حديث: «تأخر رسول الله ﷺ يوماً عن صلاة الفجر وكان في سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبدالرحمن بن عوف..» الحديث. متفق عليه من حديث المغيرة.

(٤) حديث: «تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر..» الحديث. متفق عليه من حديث سهل بن سعد.

(٥) حديث: «**اتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجرة**» أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي.

(٦) حديث: «تذكر النبيّ ﷺ الجنابة في صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع» أخرجه أبو داود من حديث أبي بكرة بإسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستخلاف وإنما قال: «**ثم أومأ إليهم أن مكانكم..**» الحديث. وورد الاستخلاف من فعل عمر وعلي وعند البخاري استخلاف عمر في قصة طعنه.

قيل: كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب. ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة. والمؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة. ففي الخبر: «**ليتمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره**»[(١)]، وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين[(٢)]، وأمر بتقديم العَشَاءِ على العِشَاءِ[(٣)]؛ طلباً لفراغ القلب.

السادسة: أن يرفع صوته بتكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات، ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه. وينوي الإمامة لينال الفضل فإن لم يَنْوِ صحت صلاته وصلاة القوم إذا نووا الاقتداء، ونالوا فضل القدوة وهو لا ينال فضل الإمامة، وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبيرة الإمام فيبتدىء بعد فراغه، والله أعلم.

وأما وظائف القراءة فثلاثة:

أولها: أن يُسِرَّ بدعاء الاستفتاح والتعوّذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأوليي العشاء والمغرب وكذلك المنفرد. ويجهر بقوله: «آمين» في الصلاة الجهرية، وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيباً، ويجهر بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»[(٤)] والأخبار فيه متعارضة[(٥)]، واختيار الشافعي رضي الله عنه الجهر.

الثانية: أن يكون للإمام في القيام ثلاث سكتات[(٦)]. هكذا رواه سمرة بن جندب وعمران بن الحصين عن رسول الله ﷺ أولاهن: إذا كبر وهي الطولى منهن مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح، فإنه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع فيكون عليه ما نقص من

---

(١) حديث: «**يمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره**» أخرجه الترمذي والحاكم من حديث جابر: «**يا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الآكل من أكله والشارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته**». قال الترمذي: إسناده مجهول، وقال الحاكم: ليس في إسناده مطعون فيه غير عمرو بن قايد. قلت: بل فيه عبدالمنعم الدباجي منكر الحديث قاله البخاري وغيره.

(٢) حديث: «النهي عن مدافعة الأخبثين». أخرجه مسلم من حديث عائشة بلفظ: «**صلاة**» وللبيهقي: «**لا يصلين أحدكم..**» الحديث.

(٣) حديث: «الأمر بتقديم العشاء على العشاء» تقدم من حديث ابن عمر وعائشة: «**إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء**» متفق عليه.

(٤) حديث الجهر بـ«**بسم الله الرحمن الرحيم**». أخرجه الدارقطني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس.

(٥) حديث: «ترك الجهر بها». أخرجه مسلم من حديث أنس: «صليت خلف النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحداً منهم يقرأ ببسم الله الرحمن الرحيم»، وللنسائي يجهر له: «ببسم الله الرحمن الرحيم».

(٦) حديث سمرة بن جندب وعمران بن حصين في سكتات الإمام رواه الإمام أحمد من حديث سمرة قال: «**كانت لرسول الله ﷺ سكتات في صلاته. وقال عمران: أنا أحفظها عن رسول الله ﷺ فكتبوا في ذلك إلى أبي بن كعب؟ فكتب: إن سمرة قد حفظ**»، هكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من المسند والمعروف أن عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا في غير موضع من المسند رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان، وروى الترمذي: «فأنكر ذلك عمران وقال: حفظنا سكتة» وقال: حديث حسن انتهى، وليس في حديث سمرة إلا سكتتان، ولكن اختلف عنه في محل الثانية. فروي عنه بعد الفاتحة وروي عنه بعد السورة، وللدارقطني من حديث أبي هريرة وضعفه: «**من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب في سكتاته**».

صلاتهم، فإن لم يقرؤوا الفاتحة في سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك عليه لا عليهم. السكتة الثانية: إذا فرغ من الفاتحة ليتم من يقرأ الفاتحة في السكتة الأولى فاتحته وهي كنصف السكتة الأولى. السكتة الثالثة: إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهي أخفها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير فقد نهي عن الوصل فيه. ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلا الفاتحة فإن لم يسكت الإمام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصر هو الإمام. وإن لم يسمع المأموم في الجهرية لبعده أو كان في السرية فلا بأس بقراءة السورة.

الوظيفة الثالثة: أن يقرأ في الصبح سورتين من المثاني ما دون المائة فإنّ الإطالة في قراءة الفجر والتغليس بها سنّة، ولا يضره الخروج منها مع الإسفار، ولا بأس بأن يقرأ في الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختمها لأنّ ذلك لا يتكرّر على الأسماع كثيراً فيكون أبلغ في الوعظ وأدعى إلى التفكر، وإنما كَرِهَ بعض العلماء قراءة بعض أوّل السور وقطعها. وقد روي أنه ﷺ قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع[(١)]، وروي أنه ﷺ قرأ في الفجر آية من البقرة[(٢)] وهي قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البَقَرَة: ١٣٦]، وفي الثانية: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ [آل عِمرَان: ٥٣]. وسمع بلالاً يقرأ من ههنا وههنا، فسأله عن ذلك فقال: أخلط الطيب بالطيب، فقال: «**أحسنت**»[(٣)]. ويقرأ في الظهر بطوال المفصل إلى ثلاثين آية، وفي العصر بنصف ذلك، وفي المغرب بأواخر المفصل. وآخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ المغرب، قرأ فيها سورة المرسلات ما صلى بعدها حتى قبض[(٤)].

وبالجملة، التخفيف أولى لا سيما إذا كثر الجمع. قال ﷺ في هذه الرخصة: «**إِذَا صَلَّىٰ أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ، وَإِذَا صَلَّىٰ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ ما شَاءَ**»[(٥)]، وقد كان معاذ بن جبل يصلي بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه، فقالوا: نافق الرجل، فتشاكيا إلى رسول الله ﷺ فزجر رسول الله ﷺ معاذاً فقال: «**أَفَتَّانٌ أَنْتَ يا مُعَاذُ، اقْرَأْ سُورَةَ سَبِّحِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاها**»[(٦)].

---

(١) حديث: «قرأ بعض سورة يونس، فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع وركع». أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن السائب وقال: سورة المؤمنين، وقال: موسى وهارون، وعلقه البخاري.

(٢) حديث: قرأ في الفجر ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٣٦] الآية، وفي الثانية ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ [آل عِمرَان: ٥٣]، أخرجه مسلم من حديث ابن عباس: كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منها: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البَقَرَة: ١٣٦] الآية التي في البقرة وفي الآخرة منها: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٥٢]، رواه أبو داود من حديث أبي هريرة: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [آل عِمرَان: ٨٤] الآية وفي الركعة الآخرة: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ [آل عِمرَان: ٥٣] أو ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [البَقَرَة: ١١٩].

(٣) حديث: «سمع بلالاً يقرأ من ههنا ومن ههنا». فسأله عن ذلك فقال: «أخلط الطيب بالطيب فقال: **أحسنت**» أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح نحوه.

(٤) حديث: «قراءته في المغرب بالمرسلات وهي آخر صلاة صلاها» متفق عليه من حديث أم الفضل.

(٥) حديث: «**إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف**..» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «صلى معاذ بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة..» الحديث. متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطَّارق: ١] وهي عند البيهقي.

وأما وظائف الأركان فثلاثة:

أولها: أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسبيحات على ثلاث، فقد روي عن أنس أنه قال: «ما رأيت أخف صلاة من رسول الله ﷺ في تمام»[(١)] . نعم روي أيضاً: «أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبدالعزيز وكان أميراً بالمدينة قال: «ما صليت وراء أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الشاب قال: وكنا نسبح وراءه عشراً عشراً»[(٢)] ، وروي مجملاً أنهم قالوا: «كنا نسبح وراء رسول الله ﷺ في الركوع والسجود عشراً عشراً»[(٣)] وذلك حسن، ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن. فإذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر، هذا وجه الجمع بين الروايات. وينبغي أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع «سمع الله لمن حمده».

الثانية: في المأموم؛ ينبغي أن لا يساوي الإمام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوي للسجود إلا إذا وصلت جبهة الإمام إلى المسجد، هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله ﷺ[(٤)] ، ولا يهوي للركوع حتى يستوي الإمام راكعاً. وقد قيل: إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام: طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الإمام؛ وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساوونه، وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسابقون الإمام. وقد اختلف في أنَّ الإمام في الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم لتلك الركعة؟ ولعل الأولى أنّ ذلك مع الإخلاص لا بأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين، فإن حقهم مرعي في ترك التطويل عليهم.

الثالثة: لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حذراً من التطويل، ولا يخصُّ نفسه في الدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول: «اللهم اغفر لنا» ولا يقول: «اغفر لي» فقد كره للإمام أن يخص نفسه، ولا بأس أن يستعيذ في التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله ﷺ فيقول: **«نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَعَذَابِ القَبْرِ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَاقْبِضْنا إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونِينَ»**[(٥)] ، وقيل: سمي مسيحاً لأنه يمسح الأرض بطولها. وقيل: لأنه ممسوح العين أي مطموسها.

---

(١) حديث أنس: «ما رأيت أخف صلاة من رسول الله ﷺ في تمام» متفق عليه.

(٢) حديث أنس: «أنه صلى خلف عمر بن عبدالعزيز فقال: ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الشاب. .» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد جيد وضعفه ابن القطان.

(٣) حديث: «كنا نسبح وراء رسول الله ﷺ في الركوع والسجود عشراً». لم أجد له أصلاً في الحديث الذي قبله وفيه: «فخررنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات».

(٤) حديث: «كان الصحابة لا يهوون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبيّ ﷺ إلى الأرض». متفق عليه من حديث البراء بن عازب.

(٥) حديث: «التعوذ في التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر. .» الحديث. تقدم، وزاد فيه الغزالي هنا: **«وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين»** ولم أجده مقيداً بآخر الصلاة، وللترمذي من حديث ابن عباس: **«وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»** روى الحاكم نحوه من حديث ثوبان وعبدالرحمن بن عياش وصححهما، وسيأتي في الدعاء.

وأما وظائف التحلل فثلاثة:

أولها: أن ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة.

الثانية: أن يثبت عقيب السلام. كذلك فعل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصلي النافلة في موضع آخر. فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن(١)، وفي الخبر المشهور: «أنه ﷺ لم يكن يقعد إلا قدر قوله: **اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»(٢).

الثالثة: إذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس، ويكره للمأموم القيام قبل انتقال الإمام. فقد روي عن طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما صليا خلف إمام، فلما سلما قالا للإمام: ما أحسن صلاتك وأتمها إلا شيئاً واحداً أنك لما سلمت لم تنفتل بوجهك، ثم قالا للناس: ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم. ثم ينصرف الإمام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب. هذه وظيفة الصلوات، وأما الصبح فزيد فيها القنوت فيقول الإمام: «اللهم اهدنا» ولا يقول: «اللهم اهدني» ويؤمن المأموم فإذا انتهى إلى قوله: «إنك تقضي ولا يقضى عليك» فلا يليق به التأمين وهو ثناء، فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» أو «صدقت وبررت» وما أشبه ذلك. وقد روي حديث في رفع اليدين في القنوت(٣)، فإذا صح الحديث استحب ذلك، وإن كان على خلاف الدعوات في آخر التشهد إذ لا يرفع بسببها اليد، بل التعويل على التوقيف، وبينهما أيضاً فرق أن للأيدي وظيفة في التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لهما ههنا، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة في القنوت، فإنه لائق بالدعاء والله أعلم. فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الموفق.

❊ ❊ ❊

الباب الخامس

فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة:

اعلم: أن هذا يوم عظيم عظّم الله به الإسلام وخصص به المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجُمُعَة: ٩] فحرَّم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة. وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُم الجُمُعَةَ فِي يَوْمِي هٰذَا فِي مقامِي هٰذَا**»(٤)،

---

(١) حديث: «المكث بعد السلام». أخرجه البخاري من حديث أم سلمة.

(٢) حديث: «إنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله: **اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**». أخرجه مسلم من حديث عائشة.

(٣) حديث: «رفع اليدين في القنوت». أخرجه البيهقي من حديث أنس بسند جيد في قصة قتل القراء: «ولقد رأيت رسول الله ﷺ كلما صلى الغداة رفع يديه» يدعو عليهم.

الباب الخامس

(٤) حديث: «**إن الله فرض عليكم الجمعة في يومي هذا..**» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد ضعيف.

وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الجُمُعَةَ ثَلاثاً مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ»(١)، وفي لفظ آخر: «فَقَدْ نَبَذَ الإِسْلاَمَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ»(٢)، واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة، فقال: في النار، فلم يزل يتردد إليه شهراً يسأله عن ذلك وهو يقول: في النار. وفي الخبر: «إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه وهدانا الله تعالى له وأخّره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم، فهم أولى الناس به سبقاً وأهل الكتابين لهم تبع»(٣). وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي كَفِّهِ مِرْآةٌ بَيْضَاءُ وَقَالَ: هٰذِهِ الجُمُعَةُ يَفْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ لِتَكُونَ لَكَ عِيداً وَلأُمَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ. قُلْتُ: فَمَا لَنَا فِيهَا؟ قَالَ: لَكُمْ فِيهَا خَيْرُ سَاعَةٍ مَنْ دَعَا فِيهَا بِخَيْرٍ قُسِمَ لَهُ أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِيَّاهُ أَوْ لَيْسَ لَهُ قِسْمٌ ذَخَرَ لَهُ ما هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، أَوْ تَعَوَّذَ مِنْ شَرٍّ هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلاَّ أَعَاذَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَهُوَ سَيِّدُ الأَيَّامِ عِنْدَنَا وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ المَزِيدِ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَ فِي الجَنَّةِ وَادِياً أَفْيَحَ مِنَ المِسْكِ أَبْيَضَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ نَزَلَ تَعَالَىٰ مِنْ عِلِّيِّينَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ فَيَتَجَلَّىٰ لَهُمْ حَتَّىٰ يَنْظُرُوا إِلَىٰ وَجْهِهِ الكَرِيمِ»(٤)، وقال ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عليهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُهْبِطَ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمُ المَزِيدِ كَذٰلِكَ تُسَمِّيهِ المَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ يَوْمُ النَّظَرِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الجَنَّةِ»(٥). وفي الخبر: «إن لله عزّ وجلّ في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار»(٦)، وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إِذَا سَلِمَتِ الجُمُعَةُ سَلِمَتِ الأَيَّامُ»(٧)، وقال ﷺ: «إِنَّ الجَحِيمَ تُسَعَّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ قَبْلَ الزَّوَالِ عِنْدَ اسْتِوَاءِ الشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ فَلاَ تُصَلُّوا فِي هٰذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَإِنَّهُ صَلاَةٌ كُلُّهُ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لا تُسَعَّرُ فِيهِ»(٨)، وقال كعب: إن الله عزّ وجلّ فضّل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر. ويقال: إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضاً في يوم الجمعة فتقول: سلام سلام يوم صالح. وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ وَوُقِيَ فِتْنَةَ القَبْرِ»(٩).

---

(١) حديث: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه». أخرجه أحمد واللفظ له وأصحاب السنن ورواه الحاكم وصححه من حديث أبي الجعد الضمري.

(٢) حديث: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس.

(٣) حديث: «إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه..» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٤) حديث أنس: «أتاني جبريل في كفه مرآة بيضاء فقال: هذه الجمعة..» الحديث. أخرجه الشافعي في المسند والطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف.

(٥) حديث: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة..» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «إن لله في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار» أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء وفي الشعب من حديث أنس، قال الدارقطني في العلل: والحديث غير ثابت.

(٧) حديث أنس: «إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام» أخرجه ابن حبان في الضعفاء، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أنس.

(٨) حديث: «إن الجحيم تسعر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس ـ إلى أن قال ـ إلا يوم الجمعة..» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث أبي قتادة وأعله بالانقطاع.

(٩) حديث: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقي فتنة القبر» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث جابر. روى الزندي نحوه مختصراً من حديث عبدالله بن عمر وقال: غريب ليس إسناده بمتصل. قلت: وصله الترمذي الحكيم في النوادر.

بيان شروط الجمعة:

اعلم: أنها تشارك جميع الصلوات في الشروط وتتميز عنها بستة شروط:

الأوّل: الوقت؛ فإن وقعت تسليمة الإمام في وقت العصر فاتت الجمعة وعليه أن يتمها ظهراً أربعاً، والمسبوق إذا وقعت ركعته الأخيرة خارجاً من الوقت ففيه خلاف.

الثاني: المكان؛ فلا تصح في الصحاري والبراري وبين الخيام، بل لا بد من بقعة جامعة لأبنية لا تنقل، يجمع أربعين ممن تلزمهم الجمعة والقرية فيه كالبلد، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحب استئذانه.

الثالث: العدد؛ فلا تنعقد بأقل من أربعين ذكوراً مكلفين أحراراً مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفاً، فإن انفضوا حتى نقص العدد إما في الخطبة أو في الصلاة لم تصح الجمعة، بل لا بد منهم من الأوّل إلى الآخر.

الرابع: الجماعة؛ فلو صلى أربعون في قرية أو في بلد متفرّقين لم تصح جمعتهم. ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد بالركعة الثانية، وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر، وإذا سلم الإمام تممها ظهراً.

الخامس: أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى في ذلك البلد. فإن تعذر اجتماعهم في جامع واحد جاز في جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة، وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التي يقع بها التحريم أولاً. وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الإمامين، فإن تساويا فالمسجد الأقدم، فإن تساويا ففي الأقرب، ولكثرة الناس أيضاً فضل يراعى.

السادس: الخطبتان؛ فهما فريضتان والقيام فيهما فريضة والجلسة بينهما فريضة. وفي الأولى أربع فرائض: التحميد وأقله الحمد لله. والثانية: الصلاة على النبي ﷺ. والثالثة: الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى. والرابعة: قراءة آية من القرآن. وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة. واستماع الخطبتين واجب من الأربعين.

وأما السنن: فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية، والكلام لا ينقطع إلا بافتتاح الخطبة. ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام، فإذا فرغ المؤذن قام مقبلاً على الناس بوجهه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ويشغل يديه بقائم السيف أو العنزة والمنبر كي لا يعبث بهما أو يضع إحداهما على الأخرى. ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة. ولا يستعمل غريب اللغة ولا يمطط ولا يتغنى، وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة. ويستحب أن يقرأ آية في الثانية أيضاً. ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جواباً، والإشارة بالجواب حسن، ولا يشمت العاطسين أيضاً. هذه شروط الصحة.

فأما شروط الوجوب: فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل مسلم حرّ مقيم في قرية تشتمل على أربعين جامعين لهذه الصفات، أو في قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف بابها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجُمُعَة: ٩]، ويرخص لهؤلاء في ترك الجمعة لعذر المطر والوحل والفزع والمرض والتمريض إذا لم يكن للمريض قيم غيره. ثم يستحب لهم ـ أعني أصحاب الأعذار ـ تأخير الظهر إلى

أن يفرغ الناس من الجمعة، فإن حضر الجمعة مريضٌ أو مسافرٌ أو عبدٌ أو امرأةٌ صحت جمعتهم وأجزأت عن الظهر، والله أعلم.

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر جمل:

الأول: أن يستعد لها يوم الخميس عزماً عليها واستقبالاً لفضلها، فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس؛ لأنها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة في يوم الجمعة. قال بعض السلف: إنّ لله عزّ وجلّ فضلاً سوى أرزاق العباد لا يعطي من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة. ويغسل في هذا اليوم ثيابه ويبيضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده، ويفرغ قلبه من الأشغال التي تمنعه من البكور إلى الجمعة، وينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلاً وليكن مضموناً إلى يوم الخميس أو السبت ـ لا مفرداً فإنه مكروه ـ ويشتغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن فلها فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة. ويجامع أهله في هذه الليلة أو في يوم الجمعة فقد استحب ذلك قوم حملوا عليه قوله ﷺ: **«رَحِمَ اللَّهُ مَنْ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ وَغَسَّلَ وَاغْتَسَلَ»**(١)، وهو حمل الأهل على الغسل. وقيل: معناه غسل ثيابه ـ فروي بالتخفيف ـ واغتسل لجسده. وبهذا تتم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا: ما هذا اليوم؟ قال بعض السلف: أوفى الناس نصيباً من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس، وأخفهم نصيباً من إذا أصبح يقول: أيش اليوم؟ وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع لأجلها.

الثاني: إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر، وإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحب ليكون أقرب عهداً بالنظافة، فالغسل مستحب استحباباً مؤكداً، وذهب بعض العلماء إلى وجوبه. قال ﷺ: **«غُسْلُ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مُحْتَلِم»**(٢)، والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: **«مَنْ أَتَىٰ الجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ»**(٣)، وقال ﷺ: **«مَنْ شَهِدَ الجُمُعَةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَلْيَغْتَسِلْ»**(٤)، وكان أهل المدينة إذا تساب المتسابان يقول أحدهما للآخر: لأنت أشر ممن لا يغتسل يوم الجمعة. وقال عمر لعثمان رضي الله عنهما لما دخل وهو يخطب: «أهذه الساعة؟ ـ منكراً عليه ترك البكور ـ فقال: ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت، فقال: والوضوء أيضاً، وقد علمت أنّ رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالغسل»(٥). وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضي الله تعالى عنه، وبما روي أنه ﷺ قال: **«مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَبِها وَنِعْمَتْ وَمَنِ اغْتَسَلَ فَالغُسْلُ أَفْضَلُ»**(٦)، ومن اغتسل

---

(١) حديث: «**ارحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل..**» الحديث. رواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أوس بن أوس: «**من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر..**» الحديث. وحسنه الترمذي.

(٢) حديث: «**غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم**» متفق عليه من حديث أبي سعيد.

(٣) حديث نافع عن ابن عمر: «**من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل**» متفق عليه، وهذا لفظ ابن حبان.

(٤) حديث: «**من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا**». أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث ابن عمر.

(٥) حديث: «قال عمر لعثمان لما دخل وهو يخطب: أهذه الساعة... الحديث ـ إلى أن قال ـ والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل» متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يسم البخاري عثمان.

(٦) حديث: «**من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت...**» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، ورواه النسائي من حديث سمرة.

للجنابة فليفض الماء على بدنه مرة أخرى على نية غسل الجمعة، فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة. وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له: أللجمعة؟ فقال: بل عن الجنابة، فقال: أعد غسلاً ثانياً، ورُوي الحديث في غسل الجمعة على كل محتلم. وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه. وكان لا يبعد أن يقال: المقصود النظافة وقد حصلت دون النية، ولكن هذا ينقدح في الوضوء أيضاً وقد جعل في الشرع قربة فلا بدّ من طلب فضلها. ومن اغتسل ثم أحدث توضأ ولم يبطل غسله والأحب أن يحترز عن ذلك.

الثالث: الزينة؛ وهي مستحبة في هذا اليوم وهي ثلاثة: الكسوة والنظافة وتطييب الرائحة. أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق في كتاب الطهارة. قال ابن مسعود: من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عزّ وجلّ منه داء وأدخل فيه شفاء. فإن كان قد دخل الحمام في الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود، فليتطيب في هذا اليوم بأطيب طيبٍ عنده ليغلب بها الروائح الكريهة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره «وَأَحَبُّ طِيبِ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنُهُ وَطِيبُ النِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ»(١)، ورُوي ذلك في الأثر. وقال الشافعي رضي الله عنه: من نظف ثوبه قل هَمّهُ، ومن طاب ريحه زاد عقله. وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب ـ إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض ـ ولا يلبس ما فيه شهرة. ولبس السواد ليس من السّنة ولا فيه فضل، بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله ﷺ، والعمامة مستحبة في هذا اليوم. روى واثلة بن الأسقع أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ أَصْحَابِ العَمَائِمِ يَوْمَ الجُمُعَةِ**»(٢)، فإن أكربه الحرّ فلا بأس بنزعها قبل الصلاة وبعدها، ولكن لا ينزع في وقت السعي من المنزل إلى الجمعة ولا في وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام المنبر وفي خطبته.

الرابع: البكور إلى الجامع؛ ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاث وليبكر. ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر، وفضل البكور عظيم. وينبغي أن يكون في سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناوياً للاعتكاف في المسجد إلى وقت الصلاة قاصداً للمبادرة إلى جواب نداء الله عزّ وجلّ إلى الجمعة إياه والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه، وقد قال ﷺ: «**مَنْ رَاحَ إِلَىٰ الجُمُعَةِ فِي السَّاعَةِ الأُولَىٰ فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّما قَرَّبَ كَبْشاً أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّما أَهْدَىٰ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّما أَهْدَىٰ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طُوِيَتِ الصُّحُفُ وَرُفِعَتِ الأَقْلامُ وَاجْتَمَعَتِ المَلائِكَةُ عِنْدَ المِنْبَرِ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ، فَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَإِنَّما جَاءَ لِحَقِّ الصَّلاةِ لَيْسَ لَهُ مِنَ الفَضْلِ شَيْءٌ**»(٣)، والساعة الأولى إلى طلوع الشمس، والثانية إلى ارتفاعها، والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى

---

(١) حديث: «طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه». أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث واثلة بن الأسقع: «**إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة**». أخرجه الطبراني وعدي، وقال: منكر من حديث أبي الدرداء ولم أره من حديث واثلة.

(٣) حديث: «**من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة..**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة وأنس وفيه: «**ورفعت الأقلام**»، وهذه اللفظة عند البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

الزوال وفضلها قليل؛ ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه. وقال ﷺ: **«ثَلاثٌ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِيهِنَّ لَرَكَضُوا رَكْضَ الإِبِلِ فِي طَلَبِهِنَّ: الأَذَانُ وَالصَّفُّ الأَوَّلُ وَالغُدُوُّ إِلَىٰ الجُمُعَةِ»**(١)، وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: أفضلهن الغدوّ إلى الجمعة. وفي الخبر: **«إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَتِ المَلائِكَةُ عَلَى أَبْوابِ المَسَاجِدِ بِأَيْدِيهِمْ صُحُفٌ مِنْ فِضَةٍ وَأَقْلامٌ مِنْ ذَهَبٍ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فالأوَّل عَلَىٰ مَرَاتِبِهِمْ»**(٢)، وجاء في الخبر: **«إِنَّ المَلائِكَةَ يَتَفَقَّدُونَ الرَّجُلَ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَنْهُ: مَا فَعَلَ فُلانٌ وَمَا الَّذِي أَخَّرَهُ عَنْ وَقْتِهِ؟ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَخَّرَهُ فَقْرٌ فَأَغْنِهِ، وَإِنْ أَخَّرَهُ مَرَضٌ فَاشْفِهِ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَهُ شُغْلٌ فَفَرِّغْهُ لِعِبَادَتِكَ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَهُ لَهْوٌ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ طَاعَتِكَ»**(٣)، وكان يرى في القرن الأول سحراً وبعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون في السرج ويزدحمون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل: أوّل بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجامع. وكيف لا يستحي المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد؟ وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى رحاب الأسواق للبيع والشراء والربح فلم لا يسابقهم طلاب الآخرة؟ ويقال: إنّ الناس يكونون في قربهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة. ودخل ابن مسعود رضي الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور فاغتم لذلك وجعل يقول في نفسه معاتباً لها: رابع أربعة، وما رابع أربعة من البكور ببعيد.

الخامس: في هيئة الدخول، ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم، والبكور يسهل ذلك عليه، فقد ورد وعيد شديد في تخطي الرقاب وهو أنه يجعل جسراً يوم القيامة يتخطاه الناس(٤). وروى ابن جريج مرسلاً: «أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس، فلما قضى النبي ﷺ صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال: **«يا فلان ما منعك أن تجمع اليوم معنا؟»** قال: يا نبي الله قد جمعت معكم: فقال النبي ﷺ **ألم نرك تتخطى رقاب الناس»**(٥).

---

(١) حديث: **«ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل في طلبهن: الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة»** أخرجه أبو الشيخ في ثواب الأعمال من حديث أبي هريرة: **«ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن ما أخذنهن إلا بالاستهام عليهن حرصاً على ما فيهن من الخير والبركة..»** الحديث. قال: **«والتهجير إلى الجمعة»** وفي الصحيحين من حديثه: **«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه»**.

(٢) حديث: **«إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب..»** الحديث. أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بإسناد ضعيف: **«إذا كان يوم الجمعة نزل جبريل فركز لواءه بالمسجد الحرام وغدا سائر الملائكة إلى المساجد التي يجمع فيها يوم الجمعة فركزوا ألويتهم وراياتهم بباب المساجد ثم نشروا قراطيس من فضة وأقلاماً من ذهب»**.

(٣) حديث: **«إن الملائكة يفتقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضاً ما فعل فلان»**، أخرجه البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زيادة ونقص بإسناد حسن. واعلم أن المصنف ذكر هذا فإن لم يرد به حديثاً مرفوعاً فليس من شرطنا وإنما ذكرناه احتياطاً.

(٤) حديث: **«من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم»**. أخرجه الترمذي وضعفه، وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس.

(٥) حديث ابن جريج مرسلاً: **«أن النبيّ ﷺ بينما هو يخطب إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس..»** الحديث. وفيه: **«ما منعك أن تجمع معنا اليوم»** أخرجه ابن المبارك في الرقائق.

أشار به إلى أنه أحبط عمله. وفي حديث مسند أنه قال: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّي مَعَنَا**؟ قال: أو لم ترني يا رسول الله؟ فقال ﷺ: **رَأَيْتُكَ تَأَنَّيْتَ وَآذَيْتَ**»[(١)]، أي تأخرت عن البكور وآذيت الحضور. ومهما كان الصف الأوّل متروكاً خالياً فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة. قال الحسن: تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم. وإذا لم يكن في المسجد إلا من يصلي فينبغي أن لا يسلم لأنه تكليف جواب في غير محله.

السادس: أن لا يمرّ بين الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمرون بين يديه، أعني بين يدي المصلي، فإن ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهي عنه. قال ﷺ: «**لأَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ عاماً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**لأَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ رَمَاداً أَوْ رميماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي**»[(٣)]، وقد روي في حديث آخر في المار والمصلي حيث صلى على الطريق أو قصر في الدفع فقال: «**لَوْ يَعْلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي وَالمُصَلِّيْ مَا عَلَيْهِمَا فِي ذٰلِكَ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ سَنَةً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدِيهِ**»[(٤)]، والأسطوانة والحائط والمصلي المفروش حدّ للمصلي، فمن اجتاز به فينبغي أن يدفعه. قال ﷺ: «**لِيَدْفَعْهُ فَإِنْ أَبَىٰ فَلْيَدْفَعْهُ فَإِنْ أَبَىٰ فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ**»[(٥)]، وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصرعه، فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه عند مروان فيخبره أن النبي ﷺ أمره بذلك. فإن لم يجد أسطوانة فلينصب بين يديه شيئاً طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحدّه.

السابع: أن يطلب الصف الأول فإنّ فضله كثير كما رويناه، وفي الحديث: «**مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ وَبَكَّرَ وابْتَكَرَ ودنا مِنَ الإمَامِ وَاسْتَمَعَ كَانَ ذٰلِكَ له كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ وَزِيَادَةَ ثَلَاثَةِ أَيَامٍ**»[(٦)] وفي لفظ آخر: «**غفر الله له إلى الجمعة الأخرى** ـ وقد اشترط في بعضها ـ **وَلَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ**»[(٧)]. ولا يغفل في طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور:

أولها: أنه إذا كان يرى بقرب الخطيب منكراً يعجز عن تغييره ـ من لبس حرير من الإمام أو غيره

---

(١) حديث: «**ما منعك أن تصلي معنا؟** فقال: أو لم ترني؟ قال: **رأيتك آنيت وآذيت**». أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبدالله بن بسر مختصراً.

(٢) حديث: «**لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدي المصلي**». أخرجه البزار من حديث زيد بن خالد، وفي الصحيحين من حديث أبي جهم: «**أن يقف أربعين**» قال أبو النضر: «لا أدري أربعين يوماً أو شهراً أو سنة» رواه أبو داود وابن حبان من حديث أبي هريرة: «**مائة عام**».

(٣) حديث: «**لأن يكون الرجل رماداً تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدي المصلي**». أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان، وابن عبدالبر في التمهيد موقوفاً على عبدالله بن عمر وزاد: «**متعمداً**».

(٤) حديث: «**لو يعلم المار بين يدي المصلي والمصلي ما عليهما في ذلك..**» الحديث. رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى السراج في مسنده من حديث زيد بن خالد بإسناد صحيح.

(٥) حديث أبي سعيد: «**فليدفعه فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان**» متفق عليه.

(٦) حديث: «**من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع..**» الحديث. أخرجه الحاكم من حديث أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن.

(٧) حديث: «أنه اشترط في بعضها: «**ولم يتخط رقاب الناس**» أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم.

أو صلى في سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك ـ مما يجب فيه الإنكار فالتأخر له أسلم وأجمع للهم، فعل ذلك جماعة من العلماء طلباً للسلامة. قيل لبشر بن الحارث: نراك تبكر وتصلي في آخر الصفوف، فقال: إنما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد. وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه. ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى الخطبة من أبي جعفر المنصور فلما فرغ من الصلاة قال: شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاماً يجب عليك إنكاره فلا تقوم به؟ ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال: يا أبا عبدالله أليس في الخبر: «**ادْنُ واسْتَمِعْ**»[1] فقال: ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين، فأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عزّ وجلّ. وقال سعيد بن عامر: صليت إلى جنب أبي الدرداء فجعل يتأخر في الصفوف حتى كنا في آخر صف، فلما صلينا قلت له: أليس يقال: خير الصفوف أولها؟ قال: نعلم، إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم[2]، فإن الله تعالى إذا نظر إلى عبدٍ في الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس، فإنما تأخرت رجاء أن يغفر لي بواحد منهم ينظر الله إليه. وروى بعض الرواة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك، فمن تأخر على هذه النية إيثاراً وإظهاراً لحسن الخلق فلا بأس، وعند هذا يقال: «**الأعمال بالنيات**».

ثانيها: إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عن المسجد للسلاطين فالصف الأول محبوب، وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة. كان الحسن وبكر المزني لا يصليان في المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلاطين وهي بدعة أحدثت بعد رسول الله ﷺ في المساجد، والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافه. وصلى أنس بن مالك وعمران بن حصين في المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب. ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجب كراهة.

وثالثها: أنَّ المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر وما على طرفيه مقطوع. وكان الثوري يقول: الصف الأول هو الخارج بين يدي المنبر وهو متجه لأنه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه. ولا يبعد أن يقال: الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعى هذا المعنى. وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب.

الثامن: أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ويقطع الكلام أيضاً، بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة. وقد جرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين، ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر، ولكنه إن وافق سجود تلاوة فلا بأس بها للدعاء لأنه وقت فاضل، ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا سبب لتحريمه. وقد روي عن علي وعثمان رضي الله عنهما أنهما قالا: من استمع وأنصت فله أجران، ومن لم يستمع وأنصت فله أجر، ومن سمع ولغا فعليه وزران، ومن لم يسمع ولغا

---

(١) حديث: «**ادن فاستمع**». أخرجه أبو داود من حديث سمرة: «**احضروا الذكر وادنوا من الإمام**»، وتقدم بلفظ: «**من هجر ودنا واستمع**» وهو عند أصحاب السنن من حديث شداد.

(٢) حديث أبي الدرداء: «إن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس» لم أجده.

فعليه وزر واحد. وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ: أَنْصِتْ أَوْ مَهْ فَقَدْ لَغَا وَمَنْ لَغَا وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَلَا جُمُعَةَ لَهُ»[1]، وهذا يدل على أن الإسكات ينبغي أن يكون بإشارة أو رمي حصاة لا بالنطق. وفي حديث أبي ذرّ: «أنه لما سأل أبيّاً والنبي ﷺ يخطب فقال: متى أنزلت هذه السورة؟ فأومأ إليه أن اسكت: فلما نزل رسول الله ﷺ قال له أبي: اذهب فلا جمعة لك، فشكاه أبو ذرّ إلى النبي ﷺ فقال: صَدَقَ أُبَيٌّ»[2] وإن كان بعيداً من الإمام فلا ينبغي أن يتكلم في العلم وغيره، بل يسكت لأن كل ذلك يتسلل ويفضي إلى هينمة حتى ينتهي إلى المستمعين، ولا يجلس في حلقة من يتكلم فمن عجز عن الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب. وإذا كان تكره الصلاة في وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية. وقال علي كرم الله وجهه: تكره الصلاة في أربع ساعات: بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام يخطب.

التاسع: أن يراعي في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة. فإذا فرغ من الجمعة قرأ «الحمد لله» سبع مرات قبل أن يتكلم «وقل هو الله أحد والمعوذتين» سبعاً سبعاً، وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزاً له من الشيطان. ويستحب أن يقول بعد الجمعة «اللهم يا غني يا حميد يا مبدىء يا معيد يا رحيم يا ودود أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك». يقال: من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب. ثم يصلي بعد الجمعة ست ركعات، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين[3]، وروى أبو هريرة أربعاً[4] وروى علي وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم ستاً[5]، والكل صحيح في أحوال مختلفة، والأكمل أفضل.

العاشر: أن يلازم المسجد حتى يصلي العصر، فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل. يقال: من صلى العصر في الجامع كان له ثواب الحج، ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمرة، فإن لم يأمن التصبع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعني، فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذاكراً الله عزّ وجلّ مفكراً في آلائه شاكراً الله تعالى على توفيقه خائفاً من تقصيره مراقباً لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تفوته الساعة الشريفة. ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع وغيره من

---

(١) حديث: «**من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا لا جمعة له**». أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة. روى الترمذي قوله: «**ومن لغا فلا جمعة له**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ: «**إذا قلت لصاحبك**»، أخرجه أبو داود من حديث علي: «**من قال صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له**».

(٢) حديث أبي ذر: «لما سأل أبياً والنبي ﷺ يخطب وقال: متى أنزلت هذه السورة. .» الحديث. أخرجه البيهقي وقال في المعرفة: إسناده صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بسند صحيح أن السائل له أبو الدرداء وأبو ذر، ولأحمد من حديث أبي الدرداء أنه سأل أبياً ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عبدالله بن مسعود ولأبي يعلى من حديث جابر قال: «**قال سعد بن أبي وقاص لرجل: لا جمعة لك فقال له النبيّ ﷺ: لم يا سعد؟ فقال: لأنه كان يتكلم وأنت تخطب. فقال: صدق سعد**».

(٣) حديث ابن عمر في الركعتين بعد الجمعة. متفق عليه.

(٤) حديث أبي هريرة في الأربع ركعات بعد الجمعة أخرجه مسلم: «**إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعاً**».

(٥) حديث علي وعبدالله في صلاة ست ركعات بعد الجمعة أخرجه البيهقي مرفوعاً عن علي، وله موقوفاً على ابن مسعود أربعاً وأبو داود من حديث ابن عمر: «كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستاً».

المساجد بحديث الدنيا. قال ﷺ: «يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ حَدِيثُهُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ أَمْرَ دُنْيَاهُمْ لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ فِيهِمْ حَاجَةٌ فَلا تُجَالِسُوهُمْ»(١).

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعمّ جميع النهار، وهي سبعة أمور:

الأوّل: أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر، ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير في كلامهم. ولا ينبغي أن يخلو المريد في جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو في خير، ولا ينبغي أن يحضر الحِلَق قبل الصلاة. وروى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة»(٢)، إلا أن يكون عالماً بالله يذكر بأيام الله ويفقه في دين الله يتكلم في الجامع بالغداة فيجلس إليه فيكون جامعاً بين البكور وبين الاستماع. واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من اشتغاله بالنوافل فقد روى أبو ذرّ: «إن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة»(٣). قال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠]: أما إنه ليس بطلب دنيا ولكن عيادة مريضٍ وشهود جنازةٍ وتعلم علم وزيارة أخ في الله عزّ وجلّ. وقد سمى الله عزّ وجلّ العلم فضلاً في مواضع. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سَبَإ: ١٠]، يعني العلم فتعلم العلم في هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات. والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع. بكّر ابن عمر رضي الله عنهما إلى مجلسه في المسجد الجامع، فإذا قاص يقص في موضعه فقال: قم عن مجلسي فقال: لا أقوم وقد جلست وسبقتك إليه، فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه. فلو كان ذلك من السنة لما جازت إقامته، فقد قال ﷺ: «لا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلٰكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا»(٤)، وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه. وروي أن قاصّاً كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضي الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر: إن هذا قد آذاني بقصصه وشغلني عن سبحتي، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده.

الثاني: أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة، ففي الخبر المشهور: «إِنَّ فِي الجُمُعَةِ سَاعَةً لا يُوَافِقُها عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيه شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ»(٥)، وفي خبر آخر: «لا يصادفها عبد

---

(١) حديث: «يأتي على أمتي زمن يكون حديثهم في مساجدهم أمر دنياهم...» الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً وأسنده الحاكم من حديث أنس وصحح إسناده، وأخرج ابن حبان نحوه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

(٢) حديث: «عبدالله بن عمر في النهي عن التحلق يوم الجمعة». أخرجه أبو داود والنسائي، ورواه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من حديث ابن عمر.

(٣) حديث أبي ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة» تقدم في العلم.

(٤) حديث: «لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه..» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٥) حديث: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن عوف المزني.

يصلي»[(١)]، واختلف فيها فقيل: إنها عند طلوع الشمس، وقيل: عند الزوال، وقيل: مع الأذان، وقيل: إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة، وقيل: إذا قام الناس إلى الصلاة، وقيل: آخر وقت العصر ـ أعني وقت الاختيار ـ وقيل: قبل غروب الشمس. «وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعي ذلك الوقت وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس، وتخبر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أبيها ﷺ وعليها»[(٢)]. وقال بعض العلماء: هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر حتى تتوفر الدواعي على مراقبتها. وقيل: إنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر، وهذا هو الأشبه، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره، ولكن ينبغي أن يصدق بما قال ﷺ: **«إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا»**[(٣)]، ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغي أن يكون العبد في جميع نهاره متعرضاً لها بإحضار القلب وملازمة الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا فعساه يحظى بشيء من تلك النفحات. وقد قال كعب الأحبار: إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب، فقال أبو هريرة: وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يُوَافِقُها عَبْدٌ يُصَلِّي وَلاتَ حِينَ صَلاةٍ»**! فقال كعب: ألم يقل رسول الله ﷺ: **«من قعد ينتظر الصلاة فهو في الصلاة»**[(٤)] قال: بلى، قال: فذلك صلاة، فسكت أبو هريرة. وكان كعب مائلاً إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقائمين بحق هذا اليوم وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل. وبالجملة، هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيهما.

الثالث: يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله ﷺ في هذا اليوم، فقد قال ﷺ: **«مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ ثَمَانِينَ مَرَّةً غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَ ثَمَانِينَ سَنَةً**، قيل: يا رسول الله كيف الصلاة عليك؟ قال: **تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، وَتَعْقِدُ وَاحِدَةً، وَإِنْ قُلْتَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آله محمد صَلاةً تَكُونُ لَكَ رِضَاءً وَلِحَقِّهِ أَدَاءً وَأَعْطِهِ الوَسِيلَةَ وَابْعَثْهُ المَقَامَ المَحْمُودَ الَّذِي وَعَدْتَهُ وَاجْزِهِ عَنَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ وَاجْزِهِ أَفْضَلَ ما جَازَيْتَ نَبِيّاً عَنْ أُمَّتِهِ وَصَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ جَمِيعِ إِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»**[(٥)]، تقول هذا سبع مرات فقد قيل: من قالها

---

(١) حديث: «**لا يصادفها عبد مصلي**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث فاطمة: «**في ساعة الجمعة**» أخرجه الدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب وعلته الاختلاف.

(٣) حديث: «**إن لربكم في أيام دهركم نفحات...**» الحديث. أخرجه الحكيم في النوادر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة، ولابن عبدالبر في التمهيد نحوه من حديث أنس، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة واختلف في إسناده.

(٤) حديث: «اختلاف كعب وأبي هريرة في ساعة الجمعة وقول أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: **لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة** فقال كعب: ألم يقل عليه الصلاة والسلام: **من قعد ينتظر الصلاة فهو في صلاة**»، قلت: في الإحياء أن كعباً هو القائل إنها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبدالله بن سلام، وأما كعب فإنما قال: إنها في كل سنة مرة ثم رجع، والحديث: رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث أبي هريرة وابن ماجه ونحوه من حديث عبدالله بن سلام.

(٥) حديث: «**من صلى علي في يوم الجمعة ثمانين مرة...**» الحديث. أخرجه الدارقطني من رواية ابن المسيب قال: أظنه عن أبي هريرة وقال: حديث غريب، وقال ابن النعمان: حديث حسن.

في سبع جمع في كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته ﷺ، وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال: «**اللهم اجعل فضائل صلواتك ونوامي بركاتك وشرائف زكواتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين، قائد الخير وفاتح البر ونبي الرحمة وسيد الأمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً تزلف به قربه وتقرّ به عينه يغبطه به الأوّلون والآخرون. اللهم أعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة المنيفة، اللهم أعط محمداً سؤله وبلغه مأموله واجعله أوّل شافع وأول مشفع، اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلج حجته وارفع في أعلى المقرّبين درجته، اللهم احشرنا في زمرته واجعلنا من أهل شفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فاتنين ولا مفتونين آمين يا رب العالمين**»[(١)]. وعلى الجملة فكل ما أتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمشهورة في التشهد كان مصلياً. وينبغي أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضاً مستحب في هذا اليوم.

الرابع: قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة. فقد روي عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما: «أنّ من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطي نوراً من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام، وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعوفي من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال»[(٢)]، ويستحب أن يختم القرآن في يوم الجمعة وليلتها إن قدر، وليكن ختمه للقرآن في ركعتي الفجر إن قرأ بالليل أو في ركعتي المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم. وكان العابدون يستحبون أن يقرؤوا يوم الجمعة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، ألف مرة، ويقال: إنّ من قرأها في عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة، وكانوا يصلون على النبي ﷺ ألف مرة، وكانوا يقولون: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» ألف مرة، وإن قرأ المسبعات الست في يوم الجمعة أو ليلتها فحسن. وليس يروى عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ سوراً بأعيانها إلا في يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة: سورة الجمعة والمنافقين[(٣)]. وروي أنه ﷺ كان يقرؤهما في ركعتي الجمعة. وكان يقرأ في الصبح يوم الجمعة: سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان[(٤)].

الخامس: الصلوات، يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصلي أربع ركعات يقرأ فيهن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، مائتي مرة في كل ركعة خمسين مرة[(٥)]، فقد نقل عن

---

(١) حديث: «**اللهم اجعل فضائل صلواتك..**» الحديث. أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة على النبيّ ﷺ من حديث ابن مسعود نحوه بسند ضعيف وقفه على ابن مسعود.

(٢) حديث ابن عباس وأبي هريرة: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة..» الحديث. لم أجده من حديثهما.

(٣) حديث: «القراءة في المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، وفي عشائها الجمعة والمنافقين». أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث سمرة، وفي ثقات ابن حبان المحفوظ عن سماك مرسلاً. قلت: لا يصح مسنداً ولا مرسلاً.

(٤) حديث: «القراءة في الجمعة بالجمعة والمنافقين، وفي صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى». أخرجه مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة.

(٥) حديث: «**من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ فيها قل هو الله أحد مائتي مرة..**» الحديث. أخرجه الخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال: غريب جداً.

رسول الله ﷺ: «أَنَّ مَنْ فَعَلَهُ لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ أَوْ يُرَىٰ لَهُ». ولا يدع ركعتي التحية وإن كان الإمام يخطب ولكن يخفف، أمر رسول الله ﷺ بذلك[(١)]، وفي حديث غريب: «أنه ﷺ سكت للداخل حتى صلاهما»[(٢)]، فقال الكوفيون: إن سكت له الإمام صلاهما. ويستحب في هذا اليوم أو في ليلته أن يصلي أربع ركعات بأربع سور: الأنعام والكهف وطه ويس. فإن لم يحسن قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك. ولا يدع قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة ففيها فضل كثير. ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة الختمة. ويكثر من قراءة سورة الإخلاص. ويستحب أن يصلي صلاة التسبيح ـ كما سيأتي في باب التطوّعات كيفيتها ـ لأنه ﷺ قال لعمه العباس: «**صَلِّهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ**»[(٣)]، وكان ابن عباس رضي الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال وكان يخبر عن جلالة فضلها. والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد صلاة الجمعة إلى العصر لاستماع العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستغفار.

السادس: الصدقة مستحبة في هذا اليوم خاصة فإنها تتضاعف، إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم في كلام الإمام فهذا مكروه. وقال صالح بن محمد: سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب ـ وكان إلى جانب أبي ـ فأعطى رجل أبي قطعة ليناوله إياها فلم يأخذها منه أبي. وقال ابن مسعود: إذا سأل الرجل في المسجد فقد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه. ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال في الجامع الذين يتخطون رقاب الناس، إلا أن يسأل قائماً أو قاعداً في مكانه من غير تخط. وقال كعب الأحبار: من شهد الجمعة ثم انصرف فتصدّق بشيئين مختلفين من الصدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما وخشوعهما ثم يقول: اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، لم يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه. وقال بعض السلف: من أطعم مسكيناً يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحداً ثم قال حين يسلم الإمام: «بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم أسألك أن تغفر لي وترحمني وتعافيني من النار» ثم دعا بما بدا له استجيب له.

السابع: أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يبتدىء فيه السفر فقد روي أنّه: «**من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه**»[(٤)]، وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت. وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء ليشربه أو يسبله

---

(١) حديث: «الأمر بالتخفيف في التحية إذا دخل والإمام يخطب». أخرجه مسلم من حديث جابر والبخاري: «الأمر بالركعتين» ولم يذكر التخفيف.

(٢) حديث: «سكوته ﷺ عن الخطبة للداخل حتى فرغ من التحية». أخرجه الدارقطني من حديث أنس وقال: أسنده عبيد بن محمد ووهم فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسلاً.

(٣) حديث: «صلاة التسبيح وقوله لعمه العباس: **صلها في كل جمعة**». أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس، وقال العقيلي وغيره: ليس فيها حديث صحيح.

(٤) حديث: «**من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه**». أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عمر وفيه ابن لهيعة وقال: غريب، والخطيب في الرواة عن مالك من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

حتى لا يكون مبتاعاً في المسجد فإن البيع والشراء في المسجد مكروه. وقالوا: لا بأس لو أعطي القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد. وبالجملة ينبغي أن يزيد في الجمعة في أوراده وأنواع خيراته، فإنّ الله سبحانه إذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسيىء الأعمال، ليكون ذلك أوجع في عقابه وأشدّ لمقته لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت. ويستحب في الجمعة دعوات، وسيأتي ذكرها في كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى. وصلى الله على كل عبد مصطفى.

***

الباب السادس

في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها

فأما المسائل التي تقع نادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه:

مسألة: الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجة، وذلك في دفع المار وقتل العقرب التي تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضربتين فإذا صارت ثلاثاً فقد كثرت وبطلت الصلاة، وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بهما كان له دفعهما، وكذلك حاجته إلى الحك الذي يشوّش عليه الخشوع. كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث في الصلاة. وابن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يده. وقال النخعي: يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها. وقال ابن المسيب: يأخذها ويخدّرها ثم يطرحها. وقال مجاهد: الأحب إليّ أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قدر ما لا تؤذي ثم يلقيها. وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل. ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب وقال: لا أعوّد نفسي ذلك فيفسد عليّ صلاتي، وقد سمعت أن الفساق بين يدي الملوك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون. ومهما تثاءب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأولى. وإن عطس حمد الله عزّ وجلّ في نفسه ولا يحرّك لسانه. وإن تجشأ فينبغي أن لا يرفع رأسه إلى السماء وإن سقط رداؤه فلا ينبغي أن يسوّيه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا لضرورة.

مسألة: الصلاة في النعلين جائزة وإن كان نزع النعلين سهلاً، وليست الرخصة في الخُفّ لعسر النزع بل هذه النجاسة معفوّ عنها. وفي معناه المداس «صلى رسول الله ﷺ في نعليه، ثم نزع فنزع الناس نعالهم فقال: **لم خلعتم نعالكم؟** قالوا: رأيناك خلعت فخلعنا فقال ﷺ: **إنَّ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ بِهِمَا خَبَثاً، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُم المَسْجِدَ فَلْيَقْلِبْ نَعْلَيْهِ وَلْيَنْظُرْ فِيهِمَا فَإِنْ رَأَى خَبَثاً فَلْيَمْسَحْهُ بِالأَرْضِ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا**»(١)، وقال بعضهم: الصلاة في النعلين أفضل لأنه ﷺ قال: «**لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ؟**»

الباب السادس

(١) حديث: «صلى في نعليه ثم نزع فنزع الناس نعالهم..» الحديث. أخرجه أحمد واللفظ لابن ماجه وأبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد.

وهذه مبالغة فإنه ﷺ سألهم ليبين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته. وقد روى عبدالله بن السائب «أن النبي ﷺ خلع نعليه»(١)، فإذن قد فعل كليهما فمن خلع فلا ينبغي أن يضعهما عن يمينه ويساره فيضيق الموضع ويقطع الصف بل يضعهما بين يديه ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتاً إليهما. ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راعى هذا المعنى وهو التفات القلب إليهما. روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا صَلَّىٰ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ نَعْلَيْهِ بَيْنَ رِجْلَيْهِ**»(٢)، وقال أبو هريرة لغيره: اجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلماً. ووضعهما رسول الله ﷺ على يساره وكان إماماً(٣)، فللإمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره. والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فيشغلانه ولكن قدام قدميه، ولعله المراد بالحديث. وقد قال جبير بن مطعم: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

مسألة: إذا بزق في صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل، وما لا يحصل به صوت لا يعد كلاماً وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه، فينبغي أن يحترز منه إلا كما أذن رسول الله ﷺ فيه إذ روى بعض الصحابة: «أن رسول الله ﷺ رأى في القبلة نخامة فغضب غضباً شديداً ثم حكها بعرجون كان في يده وقال: **ائْتُونِي بِعَبِيرٍ**، فلطخ أثرها بزعفران ثم التفت إلينا وقال: **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُبْزَقَ فِي وَجْهِهِ؟** فقلنا: لا أحد، قال: **فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ**»(٤)، وفي لفظ آخر: «**وَاجَهَهُ الله تَعَالَىٰ فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكم تِلْقَاءَ وَجْهِهِ وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ وَلٰكِنْ عَنْ شِمَالِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَىٰ، فَإِنْ بَدَرَتْهُ بَادِرَةٌ فَلْيَبْصُقْ فِي ثَوْبِهِ وَلْيَقُلْ بِهِ هٰكَذَا ـ وَدَلَكَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ـ**».

مسألة: لوقوف المقتدي: سنة وفرض. أما السنة: فأن يقف الواحد عن يمين الإمام متأخراً عنه قليلاً، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام، فإن وقفت بجنب الإمام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة، فإن كان معها رجل وقف الرجل عن يمين الإمام وهي خلف الرجل. ولا يقف أحد خلف الصف منفرداً بل يدخل في الصف أو يجرّ إلى نفسه واحداً من الصف، فإن وقف منفرداً صحت صلاته مع الكراهية.
وأما الفرض: فاتصال الصف وهو أن يكون بين المقتدي والإمام رابطة جامعة فإنهما في جماعة فإن كانا في مسجد كفى ذلك جامعاً لأنه بني له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الإمام. صلى أبو هريرة رضي الله عنه على ظهر المسجد بصلاة الإمام. وإذا كان المأموم على فناء المسجد في طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرق فيكفي القرب بقدر غلوة سهم وكفى بها رابطة إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر. وإنما يشترط إذا وقف في صحن دار على يمين المسجد أو يساره وبابها لاطىء في المسجد فالشرط أن يمدّ صف المسجد في دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن، ثم تصح صلاة من في ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدّم عليه وهكذا حكم الأبنية المختلفة، فأما البناء الواحد والعرصة الواحدة فكالصحراء.

---

(١) حديث عبدالله بن السائب في: «خلع النبيّ ﷺ نعليه» أخرجه مسلم.
(٢) حديث أبي هريرة: «**إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه**»، أخرجه أبو داود بسند صحيح وضعفه المنذري وليس بجيد.
(٣) حديث: «وضعه نعليه على يساره»، أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن السائب.
(٤) حديث: «**رأى في القبلة نخامة فغضب**..» الحديث. أخرجه مسلم من حديث جابر واتفقا عليه مختصراً من حديث أنس وعائشة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر.

مسألة: المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أوّل صلاته فليوافق الإمام وليبن عليه وليقنت في الصبح في آخر صلاة نفسه. وإن قنت مع الإمام وإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها، فإن ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله من الركوع فليتم، فإن عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق. وإن ركع الإمام وهو في السورة فليقطعها. وإن أدرك الإمام في السجود أو التشهد كبر للإحرام، ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فإنه يكبر ثانياً في الهوي لأن ذلك انتقال محسوب له. والتكبيرات للانتقالات الأصلية في الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة. ولا يكون مدركاً للركعة ما لم يطمئن راكعاً في الركوع والإمام بعد في حدّ الراكعين. فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الإمام حدّ الراكعين فاتته تلك الركعة.

مسألة: من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أوّلاً ثم العصر، فإن ابتدأ بالعصر أجزأه ولكن ترك الأولى واقتحم شبهة الخلاف. فإن وجد إماماً فليصل العصر، ثم ليصل الظهر بعده فإن الجماعة بالأداء أولى. فإن صلى منفرداً في أوّل الوقت ثم أدرك جماعة صلى في الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحتسب أيهما شاء، فإن نوى فائتة أو تطوّعاً جاز. وإن كان قد صلى في الجماعة فأدرك جماعة أخرى فلينو الفائتة أو النافلة فإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له، وإنما احتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة.

مسألة: من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه. ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم والأحب الاستئناف. وأصل هذا قصة خلع النعلين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ بأن عليهما نجاسة، فإنه ﷺ لم يستأنف الصلاة.

مسألة: من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله ﷺ في التشهد الأول أو فعل فعلاً سهواً وكانت تبطل الصلاة بتعمده أو شك فلم يدرِ أصلّى ثلاثاً أو أربعاً، أخذ باليقين وسجد سجدتي السهو قبل السلام، فإن نسي فبعد السلام مهما تذكر على القرب. فإن سجد بعد السلام وبعد أن أحدث بطلت صلاته، فإنه لما دخل في السجود كأنه جعل سلامه نسياناً في غير محله فلا يحصل التحلل به وعاد إلى الصلاة، فلذلك يستأنف السلام بعد السجود. فإن تذكر سجود السهو بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفصل فقد فات.

مسألة: الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل أو جهل بالشرع؛ لأن امتثال أمر الله عزّ وجلّ مثل امتثال أمر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره في حق القصد. ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال: نويت أن أنتصب قائماً تعظيماً لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلاً عليه بوجهي، كان سفهاً في عقله بل كما يراه ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظماً إلا إذا قام لشغل آخر أو في غفلة. واشتراط كون الصلاة ظهراً أداء فرضاً في كونه امتثالاً كاشتراط كون القيام مقروناً بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواه، وقصد التعظيم به ليكون تعظيماً، فإنه لو قام مدبراً عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدّة لم يكن معظماً. ثم هذه الصفات لا بدّ وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة، وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظاً باللسان وإما تفكراً بالقلب. فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية. فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلي في وقت فأجبت وقمت فالوسوسة محض الجهل. فإن هذه القصود وهذه العلوم تجتمع في النفس في حالة واحدة ولا تكون مفصلة الآحاد في الذهن بحيث تطالعها النفس وتتأملها.

وفرق بين حضور الشيء في النفس وبين تفصيله بالفكر. والحضور مضاد للعزوب والغفلة، وإن لم يكن مفصلاً. فإن من علم الحادث مثلاً فيعلمه بعلم واحد في حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوماً هي حاضرة وإن لم تكن مفصلة، فإن من علم الحادث فقد علم الموجود والمعدوم والتقدم والتأخر والزمان، وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود، فهذه العلوم منطوية تحت العلم بالحادث، بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له: هل علمت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدّم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدّم والمتأخر؟ فقال: ما عرفته قط، كان كاذباً وكان قوله مناقضاً لقوله: إني أعلم الحادث. ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس فإن الموسوس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظهرية والأدائية والفرضية في حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها وذلك محال، ولو كلف نفسه ذلك في القيام لأجل العالم لتعذر عليه. فبهذه المعرفة يندفع الوسواس وهو أن يعلم أنّ امتثال أمر الله سبحانه في النية كامتثال أمر غيره. ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول: لو لم يفهم الموسوس النية إلا بإحضار هذه الأمور مفصلة ولم يمثل في نفسه الامتثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك في أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كفاه ذلك، ولا نكلفه أن يقرن الجميع بأوّل التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شطط، ولو كان مأموراً به لوقع للأولين سؤال عنه ولوسوس واحد من الصحابة في النية، فعدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل، فكيفما تيسرت النية للموسوس ينبغي أن يقنع به حتى يتعوّد ذلك وتفارقه الوسوسة، ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد في الوسوسة. وقد ذكرنا في الفتاوى وجوهاً من التحقيق في تحقيق العلوم والقصود المتعلقة بالنية تفتقر العلماء إلى معرفتها. أما العامة فربما ضرها سماعها ويهيج عليها الوسواس فلذلك تركناها.

مسألة: ينبغي أن لا يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما ولا في سائر الأعمال، ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقفو أثره فهذا معنى الاقتداء، فإن ساواه عمداً لم تبطل صلاته كما لو وقف بجنبه غير متأخر عنه. فإن تقدّم عليه ففي بطلان صلاته خلاف، ولا يبعد أن يقضي بالبطلان تشبيهاً بما لو تقدّم في الموقف على الإمام، بل هذا أولى لأنّ الجماعة اقتداء في الفعل لا في الموقف فالتبعية في الفعل أهم. وإنما شرط ترك التقدّم في الموقف تسهيلاً للمتابعة في الفعل وتحصيلاً لصورة التبعية؛ إذ اللائق بالمقتدى به أن يتقدّم فالتقدّم عليه في الفعل لا وجه له إلا أن يكون سهواً. ولذلك شدّد رسول الله ﷺ النكير فيه فقال: «**أَمَا يَخْشَىٰ الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟**»(١)، وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة، وذلك بأن يعتدل الإمام عن ركوعه وهو بعد لم يركع، ولكن التأخر إلى هذا الحدّ مكروه، فإن وضع الإمام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حدّ الراكعين بطلت صلاته. وكذا إن وضع الإمام جبهته للسجود الثاني وهو بعد لم يسجد السجود الأوّل.

مسألة: حقٌ على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره وينكر عليه، وإن صدر من جاهلٍ رفق بالجاهل وعلّمه. فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف

---

(١) حديث: «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

خارج الصف، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور. فقد قال ﷺ: «**وَيْلٌ لِلْعَالِمِ مِنَ الجَاهِلِ حَيْثُ لا يَعْلَمُهُ**»[١]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من رأى من يسيء صلاته فلم ينهه فهو شريكه في وزرها. وعن بلال بن سعد أنه قال: الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغير أضرت بالعامة. وجاء في الحديث «أنّ بلالاً كان يسوّي الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة»[٢]. وعن عمر رضي الله عنه قال: تفقدوا إخوانكم في الصلاة فإذا فقدتموهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم. والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ولا ينبغي أن يتساهل فيه وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذي يتأخر عن الجماعة دون الحي. ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد يمين الصف؛ ولذلك تزاحم الناس عليه في زمن رسول الله ﷺ حتى قيل له: تعطلت الميسرة فقال ﷺ: «**مَنْ عَمَرَ مَيْسَرَةَ المَسْجِدِ كَانَ لَهُ كِفْلانِ مِنَ الأَجْرِ**»[٣]، ومهما وجد غلاماً في الصف ولم يجد لنفسه مكاناً فله أن يخرجه إلى خلف ويدخل فيه ـ أعني إذا لم يكن بالغاً ـ وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التي تعم بها البلوى. وسيأتي أحكام الصلوات المتفرّقة في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى.

***

الباب السابع

في النوافل من الصلوات

اعلم: أنّ ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن ومستحبات وتطوّعات. ونعني بالسنن ما نقل عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات، وصلاة الضحى، والوتر، والتهجد وغيرها؛ لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة. ونعني بالمستحبات ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه ـ كما سننقله في صلوات الأيام والليالي في الأسبوع ـ وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله. ونعني بالتطوعات ما وراء ذلك مما لم يرد في عينه أثر ولكنه تطوّع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله عزّ وجلّ بالصلاة التي ورد الشرع بفضلها مطلقاً، فكأنه متبرع به إذ لم يندب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقاً، والتطوّع عبارة عن التبرع. وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملتها زائد على الفرائض، فلفظ: النافلة والسنة والمستحب والتطوّع أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد، ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة في الألفاظ بعد فهم المقاصد. وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته في

(١) حديث: «**ويل للعالم من الجاهل**..» الحديث. أخرجه صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث: «أن بلالاً كان يسوي الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة» لم أجده.

(٣) حديث: «قيل له: قد تعطلت الميسرة فقال: **من عمر ميسرة المسجد**...» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث عمر بسند ضعيف.

الفضل بحسب ما ورد فيها من الأخبار والآثار المعرّفة لفضلها، وبحسب طول مواظبة رسول الله ﷺ عليها، وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها، ولذلك يقال: سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد. وأفضل سنن الجماعات: صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء. وأفضل سنن الانفراد: الوتر ثم ركعتا الفجر ثم ما بعدهما من الرواتب على تفاوتها. واعلم: أن النوافل باعتبار الإضافة إلى متعلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء وإلى ما يتعلق بأوقات، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بتكرر اليوم والليلة أو بتكرر الأسبوع أو بتكرر السنة، فالجملة أربعة أقسام.

* * *

القسم الأول
ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية، خمسة هي رواتب الصلوات الخمس، وثلاثة وراءها وهي صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجد

الأولى: راتبة الصبح وهي ركعتان، قال رسول الله ﷺ: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[١]. ويدخل وقتها بطلوع الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل، وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير في أوله إلا أن يتعلم منازل القمر أو يعلم اقتران طلوعه بالكواكب الظاهرة للبصر، فيستدل بالكواكب عليه. ويعرف بالقمر في ليلتين من الشهر فإن القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين، ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثني عشر من الشهر هذا هو الغالب، ويتطرق إليه تفاوت في بعض البروج وشرح ذلك يطول. وتعلم منازل القمر من المهمات للمريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح. ويفوت وقت ركعتي الفجر بفوات وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس، ولكن السنة أداؤهما قبل الفرض. فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه ﷺ قال: «**إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَلا صَلاةَ إِلاَّ المَكْتُوبَةَ**»[٢]. ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما وصلاهما. والصحيح أنهما أداء ما وقعتا قبل طلوع الشمس لأنهما تابعتان للفرض في وقته، وإنما الترتيب بينهما سُنّة في التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة، فإذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقيتا أداء. والمستحب أن يصليهما في المنزل ويخففهما، ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يجلس ولا يصلي إلى أن يصلي المكتوبة. وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب فيه الذكر والفكر والاقتصار على ركعتي الفجر والفريضة.

الثانية: راتبة الظهر وهي ست ركعات: ركعتان بعدها وهي أيضاً سنّة مؤكدة، وأربع قبلها وهي

الباب السابع

(١) حديث: «ركعتا الفجر خير من الدنيا..» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة.

(٢) حديث: «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

أيضاً سنّة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين. روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«مَنْ صَلَّىٰ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ بَعْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ يُحْسِنُ قِرَاءَتَهُنَّ وَرُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ صَلَّىٰ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّىٰ اللَّيْلِ»**(١)، وكان ﷺ لا يدع أربعاً بعد الزوال يطيلهن ويقول: **«إِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ تُفْتَحُ فِي هٰذِهِ السَّاعَةِ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ لِي فِيهَا عَمَلٌ»**(٢)، رواه أبو أيوب الأنصاري وتفرّد به، ودل عليه أيضاً ما روت أم حبيبة زوج النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ صَلَّىٰ فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً غَيْرَ المَكْتُوبَةِ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ: رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الفَجْرِ وَأَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ العَصْرِ وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ»**(٣)، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: حفظت من رسول الله ﷺ في كل يوم عشر ركعات(٤)، فذكر ما ذكرته أم حبيبة رضي الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال: تلك ساعة لم يكن يدخل فيها عليّ رسول الله ﷺ ولكن حدّثتني أختي حفصة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يصلي ركعتين في بيتها ثم يخرج. وقال في حديثه: ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء. فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة، ويدخل وقت ذلك بالزوال. والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبة مائلة إلى جهة الشرق؛ إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب المغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار، فيكون ذلك منتهى نقصان الظل. فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس دخل وقت الظهر. ويعلم قطعاً أن الزوال في علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكاليف لا ترتبط إلا بما يدخل تحت الحس. والقدر الباقي من الظل الذي منه يأخذ في الزيادة يطول في الشتاء ويقصر في الصيف، ومنتهى طوله بلوغ الشمس أول الجدي، ومنتهى قصره بلوغها أول السرطان، ويعرف ذلك بالأقدام والموازين. ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالي بالليل ويضع على الأرض لوحاً مربعاً وضعاً مستوياً بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب، بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض، ثم توهمت خطاً من مسقط الحجر إلى الضلع الذي يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أي لا يكون الخط مائلاً إلى أحد الضلعين، ثم تنصب عموداً على اللوح نصباً مستوياً في موضع علامة «ه» وهو بإزاء القطب فيقع ظله على اللوح في أول النهار مائلاً إلى جهة المغرب في صوب خط «أ» ثم لا يزال يميل إلى أن ينطبق على خط «ب»، بحيث لو مدّ رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر، ويكون موازياً للضلع الشرقي والغربي غير مائل إلى أحدهما، فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربي فالشمس في

---

(١) حديث أبي هريرة: «من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن..» الحديث. ذكره عبدالملك بن حبيب بلاغاً من حديث أبي مسعود ولم أره من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث أبي أيوب: «كان لا يدع أربعاً بعد الزوال...» الحديث. أخرجه أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أبي داود وابن ماجه مختصراً، وروى الترمذي نحوه من حديث عبدالله بن السائب وقال: حسن.

(٣) حديث أم حبيبة: «من صلى في يوم اثنتي عشرة ركعة..» الحديث. أخرجه النسائي والحاكم وصحح إسناده على شرط مسلم، ورواه مسلم مختصراً ليس فيه تعيين أوقات الركعات.

(٤) حديث ابن عمر: «حفظت من النبيّ ﷺ في كل يوم عشر ركعات..» الحديث. متفق عليه واللفظ للبخاري ولم يقل: «في كل يوم».

منتهى الارتفاع، فإذا انحرف الظل عن الخط الذي على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس. وهذا يدرك بالحس تحقيقاً في وقت هو قريب من أول الزوال في علم الله تعالى، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة، فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر. فهذا القدر لا بأس بمعرفته في علم الزوال وهذه صورته.

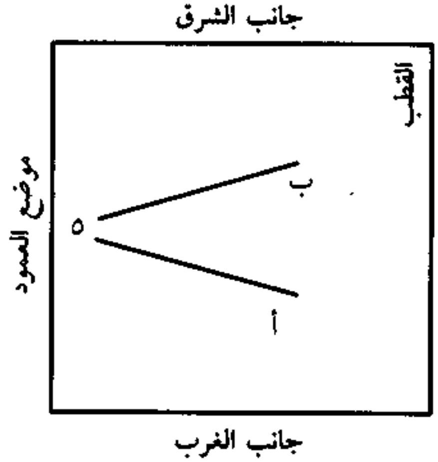

الثالثة: راتبة العصر، وهي أربع ركعات قبل العصر. روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً صَلَّىٰ قَبْلَ العَصْرِ أَرْبَعاً**»[1]، ففعل ذلك على رجاء الدخول في دعوة رسول الله ﷺ مستحب استحباباً مؤكداً، فإن دعوته تستجاب لا محالة. ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر.

الرابعة: راتبة المغرب، وهما ركعتان بعد الفريضة لم تختلف الرواية فيهما، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامة المؤذن على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة، كأبيّ بن كعب، وعبادة بن الصامت، وأبي ذرّ، وزيد بن ثابت وغيرهم. قال عبادة أو غيره: كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله ﷺ السواري يصلون ركعتين[2]. وقال بعضهم: كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنّا صلينا فيسأل: أصليتم المغرب[3]؟ وذلك يدخل في عموم قوله ﷺ: «**بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاةٌ لِمَنْ شَاءَ**»[4]، وكان أحمد بن حنبل يصليهما فعابه الناس فتركهما فقيل له في ذلك فقال: لم أر الناس يصلونهما فتركتهما وقال: لئن صلاهما الرجل في بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن. ويدخل وقت المغرب بغيبوبة الشمس عن الأبصار في الأراضي المستوية التي ليست محفوفة بالجبال، فإن كانت محفوفة بها في جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق. قال ﷺ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيلُ مِنْ هٰهُنا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هٰهُنا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**»[5]، والأحب المبادرة في صلاة المغرب خاصة وإن أخرت وصليت قبل غيبوبة الشفق الأحمر وقعت أداء ولكنه مكروه. وأخّر عمر رضي الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة، وأخّرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين.

---

(١) حديث أبي هريرة: «**رحم الله عبداً صلى أربعاً قبل العصر**»، أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان من حديث ابن عمر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث عبادة أو غيره: «**في ابتدار أصحاب رسول الله ﷺ السواري إذا أذن لصلاة المغرب**» متفق عليه من حديث أنس لا من حديث عبادة، وروى عبدالله بن أحمد في زيادات المسند: «**أن أبي بن كعب، وعبدالرحمن بن عوف كانا يركعان حين تغرب الشمس ركعتين قبل المغرب**».

(٣) حديث: «**كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا**». أخرجه مسلم من حديث أنس.

(٤) حديث: «**بين كل أذانين صلاة لمن شاء**». متفق عليه من حديث عبدالله بن مغفل.

(٥) حديث: «**إذا أقبل الليل من ههنا..**» الحديث. متفق عليه من حديث عمر.

الخامسة: راتبة العشاء الآخرة أربع ركعات بعد الفريضة قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام»(١)، واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة: ركعتان قبل الصبح، وأربع قبل الظهر، وركعتان بعدها، وأربع قبل العصر، وركعتان بعد المغرب، وثلاث بعد العشاء الآخرة وهي الوتر(٢). ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير، فقد قال ﷺ: «**الصَّلاةُ خَيرُ مَوْضعٍ فَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ وَمَنْ شَاءَ أَقَلَّ**»(٣)، فإذاً اختيار كل مريد من هذه الصلاة بقدر رغبته في الخير، فقد ظهر فيما ذكرناه أن بعضها آكد من بعض، وترك الآكد أبعد لا سيما والفرائض تكمل بالنوافل، فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر.

السادسة: الوتر: قال أنس بن مالك: «كان رسول الله ﷺ يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات، يقرأ في الأولى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾(٤)، وجاء في الخبر: «أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُصَلِّي بَعْدَ الوِتْرِ رَكْعَتَيْنِ جَالِساً وَفِي بَعْضِهَا مُتَرَبِّعاً»(٥)، وفي بعض الأخبار: «إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد يقرأ فيهما: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وسورة التكاثر»(٦)، وفي رواية أخرى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١]، ويجوز الوتر مفصولاً وموصولاً بتسليمة واحدة وتسليمتين. وقد أوتر رسول الله ﷺ: بركعة(٧)، وثلاث(٨)، وخمس(٩)، وهكذا بالأوتار(١٠)، إلى إحدى عشرة ركعة(١١)، والرواية مترددة في ثلاث عشرة(١٢)، وفي

---

(١) حديث عائشة: «كان يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام» أخرجه أبو داود.

(٢) حديث: «الوتر بثلاث بعد العشاء». أخرجه أحمد واللفظ له والنسائي من حديث عائشة: «كان يوتر بثلاث لا يفصل بينهن».

(٣) حديث: «الصلاة خير موضع». أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي ذر.

(٤) حديث أنس «كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبح..» الحديث. أخرجه ابن عدي في ترجمة محمد بن أبان، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند صحيح.

(٥) حديث: «كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً» أخرجه مسلم من حديث عائشة.

(٦) حديث: «إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين..» الحديث. أخرجه البيهقي من حديث أبي أمامة وأنس نحوه وضعفه وليس فيه: «زحف إليه» ولا ذكر: «ألهاكم التكاثر».

(٧) حديث: «الوتر بركعة». متفق عليه من حديث ابن عمرو وهو لمسلم من حديث عائشة.

(٨) حديث: «الوتر بثلاث» تقدم.

(٩) حديث: «الوتر بخمس» من حديث عائشة: «يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء إلا في آخرها».

(١٠) حديث: «الوتر بسبع». أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي واللفظ له من حديث عائشة: «أن رسول الله ﷺ لما كبر وضعف أوتر بسبع ركعات لا يقعد إلا في السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلي السابعة» حديث: «الوتر بتسع» أخرجه مسلم من حديث عائشة وهو في الذي قبله.

(١١) حديث: «الوتر بإحدى عشرة» أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عائشة «كان يوتر بأربع وثلاث، وست وثلاث، وثمان وثلاث، وعشر وثلاث..» الحديث. ولمسلم من حديثها: «كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة..» الحديث.

(١٢) حديث: «الوتر بثلاث عشرة». تقدم في الذي قبله، وللترمذي والنسائي من حديث أم سلمة: «كان يوتر بثلاث عشرة، وقال الترمذي: حسن. ولمسلم من حديث عائشة: «كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة» زاد في رواية: «بركعتي الفجر».

حديث شاذ: «سبع عشرة ركعة»(١)، وكانت هذه الركعات ـ أعني ما سمينا جملتها وتراً ـ صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنّة مؤكدة ـ وسيأتي ذكر فضلها في كتاب الأوراد ـ وفي الأفضل خلاف فقيل: إن الإيتار بركعة فردة أفضل إذ صح أنه ﷺ كان يواظب على الإيتار بركعة فردة، وقيل: الموصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لا سيما الإمام إذ قد يقتدي به من لا يرى الركعة الفردة صلاة، فإن صلى موصولاً نوى بالجميع الوتر، وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتي العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وصح؛ لأن شرط الوتر أن يكون في نفسه وتراً، وأن يكون موتراً لغيره مما سبق قبله، وقد أوتر الفرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح أي لا ينال فضيلة الوتر الذي هو خير له من حمر النعم(٢)، كما ورد به الخبر. وإلاّ فركعة فردة صحيحة في أي وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق في الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به وتراً. فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففي نيته في الركعتين نظر، فإنه إن نوى بهما التهجد أو سنّة العشاء لم يكن هو من الوتر، وإن نوى الوتر لم يكن هو في نفسه وتراً، وإنما الوتر ما بعده. ولكن الأظهر أن ينوي الوتر كما ينوي في الثلاث الموصولة الوتر. ولكن للوتر معنيان: أحدهما: أن يكون في نفسه وتراً، والآخر: أن ينشأ ليجعل وتراً بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وتراً، والركعتان من جملة الثلاث إلا أن وِتْرِيَّتَهُ موقوفة على الركعة الثالثة. وإذا كان هو على عزم أن يوترهما بثالثة كان له أن ينوي بهما الوتر، والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها. والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وتراً بأنفسهما ولكنهما موترتان بغيرهما. والوتر ينبغي أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد. وسيأتي فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما في كتاب ترتيب الأوراد.

السابعة: صلاة الضحى، فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات. روت أم هانيء أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «أنه ﷺ صلّى الضحى ثماني ركعات أطالهن وحسنهن»(٣)، ولم ينقل هذا القدر غيرها. فأما عائشة رضي الله عنها فإنها ذكرت: «أنه ﷺ كان يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله سبحانه»(٤)، فلم تحد الزيادة أي أنه كان يواظب على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات. وروي في حديث مفرد أن النبي ﷺ: «كَانَ يُصَلِّي صَلاةَ الضُّحَىٰ سِتَّ رَكَعاتٍ»(٥). وأما وقتها فقد روى علي رضي الله عنه: «أنه ﷺ كان يصلي الضحى ستاً في وقتين، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين ـ وهو أوّل الورد الثاني من أوراد النهار كما سيأتي ـ وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى

---

(١) حديث: «الوتر سبع عشرة». أخرجه ابن المبارك من حديث طاوس مرسلاً: «كان يصلي سبع عشرة ركعة من الليل».

(٢) حديث: «الوتر خير من حمر النعم». أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث خارجة بن حذافة: «إن الله أمدكم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم» وضعفه البخاري وغيره.

(٣) حديث أم هانيء: «صلى الضحى ثماني ركعات أطالهن وأحسنهن». متفق عليه دون زيادة: «أطالهن وأحسنهن» وهي منكرة.

(٤) حديث عائشة: «كان يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله» أخرجه مسلم.

(٥) حديث: «كان يصلي الضحى ست ركعات». أخرجه الحاكم في فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورجاله ثقات.

أربعاً»[١]، فالأوّل إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح، والثاني إذا مضى من النهار ربعه بإزاء صلاة العصر، فإنّ وقته أن يبقى من النهار ربعه، والظهر على منتصف النهار، ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال، كما أنّ العصر على منتصف ما بين الزوال إلى الغروب. وهذا أفضل الأوقات. ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة.

الثامنة: إحياء ما بين العشاءين وهي سنّة مؤكدة، ومما نقل عدده من فعل رسول الله ﷺ بين العشاءين ست ركعات[٢]، ولهذه الصلاة فضل عظيم. وقيل: إنها المراد بقوله عزّ وجلّ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السّجدة: ١٦]، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: **«مَنْ صَلَّىٰ بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فَإِنَّهَا مِنْ صَلاةِ الأَوَّابِينَ»**[٣]، وقال ﷺ: **«مَنْ عَكَفَ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ إِلاَّ بِصَلاةٍ أَوْ بِقُرْآنٍ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ قَصْرَيْنِ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ كُلِّ قَصْرٍ مِنْهُما مِائَةُ عَامٍ وَيَغْرِسَ لَهُ بَيْنَهُمَا غِرَاساً لَوْ طَافَهُ أَهْلُ الأَرْضِ لَوَسِعَهُمْ»**[٤]، وسيأتي بقية فضائلها في كتاب الأوراد إنْ شاء الله تعالى.

* * *

القسم الثاني
ما يتكرر بتكرر الأسابيع وهي صلاة أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام: فنبدأ فيها بيوم الأحد.

يوم الأحد: روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الأَحَدِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ، وَ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥]، مَرَّةً كُتِبَ لَهُ بِعَدَدِ كُلِّ نَصْرَانِيٍّ وَنَصْرَانِيَّةٍ حَسَنَاتٍ، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ نَبِيٍّ وَكَتَبَ لَهُ حَجَّةً وَعُمْرَةً، وَكَتَبَ لَهُ بِكُلِّ رَكْعَةٍ**

---

(١) حديث: «كان إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع النهار من جانب المشرق صلى أربعاً». أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث علي كان نبي الله ﷺ «إذا زالت الشمس من مطلعها قيد رمح أو رمحين كقدر صلاة العصر من مغربها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات». لفظ النسائي، وقال الترمذي: حسن.

(٢) حديث: «صلى بين العشاءين ست ركعات». أخرجه ابن منده في الضحى والطبراني في الأوسط والأصغر من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف والترمذي وضعفه من حديث أبي هريرة: **«من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن له بعبادة اثنتي عشرة سنة»**.

(٣) حديث: **«من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين»**. أخرجه ابن المبارك في الرقائق من رواية ابن المنذر مرسلاً.

(٤) حديث: **«من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة»**. أخرجه أبو الوليد الصفار في ـ كتاب الصلاة ـ من طريق عبدالملك بن حبيب بلاغاً له من حديث عبدالله بن عمر.

أَلْفَ صَلاةٍ، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ فِي الجَنَّةِ بِكُلِّ حَرْفٍ مَدِينَةً مِنْ مِسْكٍ أَذْفَرَ»[(١)]، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «وَحِّدُوا اللَّهَ بِكَثْرَةِ الصَّلاةِ يَوْمَ الأَحَدِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الأَحَدِ بَعْدَ صلاة الظُّهْرِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ بَعْدَ الفَرِيضَةِ وَالسُّنَّةِ يَقْرَأُ فِي الأُولَىٰ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَتَنْزِيلَ السَّجْدَةِ، وَفِي الثَّانِيَةِ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَتَبَارَكَ المُلْكَ، ثُمَّ تَشَهَّدَ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ يَقْرَأُ فِيهِما فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَسُورَةَ الجُمُعَةِ، وَسَأَلَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ حَاجَتَهُ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»[(٢)].

يوم الاثنين: روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الاثْنَيْنِ عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ مَرَّةً، وَآيَةَ الكُرْسِيِّ مَرَّةً، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالمُعَوِّذَتَيْنِ مَرَّةً مَرَّةً، فَإِذَا سَلَّمَ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَشْرَ مَرَّاتٍ وَصَلَّىٰ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ مَرَّاتٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ كُلَّهَا»[(٣)]، وروى أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الاثْنَيْنِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ مَرَّةً، فَإِذَا فَرَغَ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ واستغفر اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً يُنَادَىٰ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ فُلانُ بْنُ فُلان لِيَقُمْ فَلْيَأْخُذْ ثَوَابَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَأَوَّلُ ما يُعْطَىٰ مِنَ الثَّوَابِ أَلْفُ حُلَّةٍ وَيُتَوَّجُ وَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ فَيَسْتَقْبِلُهُ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ هَدِيَّةٌ يُشَيِّعُونَهُ حَتَّىٰ يَدُورَ عَلَىٰ أَلْفِ قَصْرٍ مِنْ نُورٍ يَتَلألأُ»[(٤)].

يوم الثلاثاء: روى يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الثُّلاثَاءِ عَشْرَ رَكَعَاتٍ عِنْدَ انْتِصَافِ النَّهَارِ»[(٥)]، وفي حديث آخر: «عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ مَرَّةً، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ إِلَىٰ سَبْعِينَ يَوْماً، فَإِنْ مَاتَ إِلَىٰ سَبْعِينَ يَوْماً مَاتَ شَهِيداً وَغُفِرَ لَهُ ذُنُوبُ سَبْعِينَ سَنَةً».

يوم الأربعاء: روى أبو إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ مَرَّةً، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَالمُعَوِّذَتَيْنِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، نَادَىٰ مُنَادٍ عِنْدَ العَرْشِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اسْتَأْنِفِ العَمَلَ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَرَفَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْكَ عَذَابَ القَبْرِ وَضِيقَهُ وَظُلْمَتَهُ وَرَفَعَ عَنْكَ شَدَائِدَ القِيَامَةِ، وَرُفِعَ لَهُ مِنْ يَوْمِهِ عَمَلُ نَبِيٍّ»[(٦)].

---

(١) حديث: «من صلى يوم الأحد أربع ركعات...» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٢) حديث علي: «وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد..» الحديث. ذكره أبو موسى المديني فيه بغير إسناد.

(٣) حديث جابر: «من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين..» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً وهو حديث منكر.

(٤) حديث أنس: «من صلى يوم الاثنين، اثنتي عشرة ركعة...» الحديث. ذكره أبو موسى المديني بغير سند وهو منكر.

(٥) حديث يزيد الرقاشي عن أنس: «من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار..» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف ولم يقل: «عند انتصاف النهار ولا عند ارتفاعه».

(٦) حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ: «من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة...» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني وقال: رواته ثقات والحديث مركب. قلت: بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد الكذابين.

يوم الخميس: عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الخَمِيسِ بَيْنَ الظُّهرِ وَالعَصْرِ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي الأُولَىٰ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ فَاتِحَةَ الكتابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَيُصَلِّي عَلَىٰ مُحَمَّدٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ مَنْ صَامَ رَجَبَ وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ مِثْلُ حَاجِّ البَيْتِ، وَكُتِبَ لَهُ بِعَدَدِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ حَسَنَةٌ»(١).

يوم الجمعة: روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يَوْمُ الجُمُعَةِ صَلاةٌ كُلُّهُ ما مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ قَامَ إِذَا اسْتَقَلَّتِ الشَّمْسُ وَارْتَفَعَتْ قَدْرَ رُمْحٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ أَسْبَغَ الوُضُوءَ فَصَلَّىٰ سُبْحَةَ الضُّحَىٰ رَكْعَتَيْنِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِائَتَيْ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ مِائَتَيْ سَيِّئَةٍ، وَمَنْ صَلَّىٰ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ رَفَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ أَرْبَعمِائَةِ دَرَجَةٍ، وَمَنْ صَلَّىٰ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ فِي الجَنَّةِ ثَمَانِمِائَةِ دَرَجَةٍ وَغَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ كُلَّهَا، وَمَنْ صَلَّىٰ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ فِي الجَنَّةِ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْ دَرَجَةٍ»(٢)، وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ دَخَلَ الجَامِعَ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَصَلَّىٰ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ قَبْلَ صَلاةِ الجُمُعَةِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ الحَمْدُ لِلَّهِ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْسِينَ مَرَّةً لَم يَمُتْ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ فِي الجَنَّةِ أَوْ يُرَىٰ لَهُ»(٣).

يوم السبت: روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ السَّبْتِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ مَرَّةً، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا فَرَغَ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ حَجَّةً وَعُمْرَةً وَرَفَعَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله عزّ وجلّ بكل حرف ثَوَابَ شَهِيدٍ، وَكَانَ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِ اللَّهِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ»(٤).

وأما الليالي: **ليلة الأحد**: روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه ﷺ قال: «مَنْ صَلَّىٰ لَيْلَةَ الأَحَدِ عِشْرِينَ رَكْعَةً يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْسِينَ مَرَّةً وَالمُعَوِّذَتَيْنِ مَرَّةً مَرَّةً، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَاسْتَغْفَرَ لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَالْتَجَأَ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ آدَمَ صَفْوَةُ اللَّهِ وَفِطْرَتُهُ، وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، وَمُوسَىٰ كَلِيمُ اللَّهِ، وَعِيسَىٰ رُوحُ اللَّهِ، وَمُحَمَّداً حَبِيبُ اللَّهِ كَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ بِعَدَدِ مَنْ دَعَا لِلَّهِ وَلَداً، وَمَنْ لَمْ يَدْعُ لِلَّهِ وَلَداً وَبَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الآمِنِينَ، وَكَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ مَعَ النَّبِيِّينَ»(٥).

---

(١) حديث عكرمة عن ابن عباس: «من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين...» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً.

(٢) حديث علي: «يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس..» الحديث. لم أجد له أصلاً وهو باطل.

(٣) حديث نافع عن ابن عمر: «من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات..» الحديث. أخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال: لا يصح وعبدالله بن وصيف مجهول، والخطيب في الرواة عن مالك وقال: غريب جداً ولا أعرف له وجهاً غير هذا.

(٤) حديث أبي هريرة: «من صلى يوم السبت أربع ركعات..» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني في كتاب وظائف الليالي والأيام بسند ضعيف جداً.

(٥) حديث: «من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة..» الحديث. ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد وهو منكر، وروى أبو موسى من حديث أنس: «في فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات» وكلاهما ضعيف جداً.

ليلة الاثنين: روى الأعمش عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ لَيلَةَ الاثْنَيْنِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ يَقرَأُ فِي الرَّكْعَةِ الأُولَىٰ الحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَفِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عِشْرِينَ مَرَّةً، وَفِي الثَّالِثَةِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلاثِينَ مَرَّةً، وَفِي الرَّابِعَةِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، ثُمَّ يُسَلِّمُ وَيَقرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْساً وَسَبْعِينَ مَرَّةً وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ خَمْساً وَسَبْعِينَ مَرَّةً، ثُمَّ سَأَلَ اللَّهَ حَاجَتَهُ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا سَأَلَ»(١)، وهي صلاة الحاجة.

ليلة الثلاثاء: من صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوّذتين خمس عشرة مرة، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسي واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم. وروي عن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّىٰ لَيلَةَ الثُّلاثَاءِ رَكْعَتَيْنِ يَقرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ مَرَّةً، وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعْتَقَ اللَّهُ رَقَبَتَهُ مِنَ النَّارِ، وَيَكُونُ يَوْمَ القِيَامَةِ قَائِدَهُ وَدَلِيلَهُ إِلَى الجَنَّةِ»(٢).

ليلة الأربعاء: روت فاطمة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّىٰ لَيلَةَ الأَرْبعاءِ رَكْعَتَيْنِ يَقرَأُ فِي الأُولَىٰ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ بَعْدَ الفَاتِحَةِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ عَشْرَ مَرَّاتٍ ثُمَّ إِذَا سَلَّمَ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَشْرَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يُصَلِّي عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ عَشْرَ مَرَّاتٍ نَزَلَ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَكْتُبُونَ ثَوَابَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»(٣)، وفي حديث آخر: «سِتَّ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَقرَأُ بَعْدَ الفَاتِحَةِ ما شَاءَ اللَّهُ وَيَقرَأُ فِي آخِرِ الرَّكْعَتَيْنِ آيَةَ الكُرْسِيِّ ثَلاثِينَ مَرَّةً، وَفِي الأُولَيَيْنِ ثَلاثِينَ مَرَّةً قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُشَفَّعُ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِمُ النَّارُ»، وروت فاطمة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ لَيلَةَ الأَرْبعاءِ سِتَّ رَكَعَاتٍ قَرَأَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بَعْدَ الفَاتِحَةِ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ يَقُولُ: جَزَىٰ اللَّهُ مُحَمَّداً عَنَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ غُفِرَ لَهُ ذُنُوبُ سَبْعِينَ سَنَةً وَكُتِبَ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ»(٤).

ليلة الخميس: قال أبو هريرة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ لَيلَةَ الخَمِيسِ ما بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ رَكْعَتَيْنِ يَقرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ خَمْسَ مَرَّاتٍ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْسَ مَرَّاتٍ وَالمُعَوِّذَتَيْنِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً وَجَعَلَ ثَوَابَهُ لِوَالِدَيْهِ فَقَدْ أَدَّىٰ حَقَّ وَالِدَيْهِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ عَاقًّا لَهُمَا، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ما يُعْطِي الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ»(٥).

---

(١) حديث: الأعمش عن أنس «من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات..» الحديث. ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير إسناد من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثاً: «في صلاة ست ركعات فيها» وهو منكر.

(٢) حديث: «الصلاة في ليلة الثلاثاء ركعتين..» الحديث. ذكره أبو موسى بغير إسناد حكاية عن بعض المصنفين وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثاً: «في صلاة أربع ركعات فيها» وكلها منكرة.

(٣) حديث: «من صلى ليلة الأربعاء ركعتين..» الحديث. لم أجد فيه إلا حديث جابر: «في صلاة أربع ركعات فيها» ورواه أبو موسى المديني، وروي من حديث أنس: «ثلاثين ركعة».

(٤) حديث فاطمة: «من صلى ست ركعات ـ أي ليلة الأربعاء...» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً.

(٥) حديث أبي هريرة: «من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين..» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف جداً وهو منكر.

ليلة الجمعة: قال جابر، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ لَيلَةَ الجُمُعَةِ بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ اثْنَتَي عَشْرَةَ رَكْعَةً يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ مَرَّةً وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ مَرَّةً، فَكَأَنَّمَا عَبَدَ اللَّهَ تَعَالَىٰ اثْنَتَي عَشْرَةَ سَنَةً صِيامَ نَهَارِها وَقِيَامَ لَيلِها»(١)، وقال أنس: قال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ لَيلَةَ الجُمُعَةِ صَلاةَ العِشَاءِ الآخِرَةِ فِي جَمَاعَةٍ وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيِ السُّنَّةِ ثُمَّ صَلَّىٰ بَعْدَهُمَا عَشْرَ رَكَعَاتٍ قَرَأَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالمُعَوِّذَتَيْنِ مَرَّةً مَرَّةً، ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلاثِ رَكَعَاتٍ وَنَامَ عَلَىٰ جَنْبِهِ الأَيْمَنِ وَجْهُهُ إِلَىٰ القِبْلَةِ فَكَأَنَّما أَحْيَا لَيلَةَ القَدْرِ»(٢)، وقال ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنَ الصَّلاةِ عَلَيَّ فِي اللَّيلَةِ الغَرَّاءِ وَاليَوْمِ الأَزْهَرِ لَيلَةِ الجُمُعَةِ وَيَوْمِ الجُمُعَةِ»(٣).

ليلة السبت: قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ لَيلَةَ السَّبْتِ بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ اثْنَتَي عَشْرَةَ رَكْعَةً بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي الجَنَّةِ، وَكَأَنَّما تَصَدَّقَ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَتَبَرَّأَ مِنَ اليَهُودِ وَكَانَ حَقّاً عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ»(٤).

***

القسم الثالث
ما يتكرر بتكرر السنين

وهي أربعة: صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان.

الأولى: صلاة العيدين: وهي سنّة مؤكدة وشعار من شعائر الدين، وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور:

الأوّل: التكبير ثلاثاً نسقاً فيقول: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»، يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد، وفي العيد الثاني يفتتح التكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر، وهذا أكمل الأقاويل. ويكبر عقيب الصلوات المفروضة وعقيب النوافل وهو عقيب الفرائض آكد.

---

(١) حديث جابر: «من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة..» الحديث. باطل لا أصل له.

(٢) حديث أنس: «من صلى ليلة الجمعة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات..» الحديث. باطل لا أصل له، وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرآن، وإبراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرآن للميت من حديث أنس: «من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمس عشرة مرة» وقال إبراهيم بن المظفر: «خمسين مرة أمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة»، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضاً وكلها ضعيفة منكرة وليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء والله أعلم.

(٣) حديث: «أكثروا عليّ من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهر». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبدالمنعم بن بشير ضعفه ابن معين وابن حبان.

(٤) حديث أنس: «من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة..» الحديث. لم أجد له أصلاً.

الثاني: إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه في الجمعة والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال، وليجنب الصبيان الحرير والعجائز التزين عند الخروج.

الثالث: أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر(١)، هكذا فعل رسول الله ﷺ وكان ﷺ: «يَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ العَوَاتِقِ وَذَوَاتِ الخُدُورِ»(٢).

الرابع: المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد، ويجوز في يوم الصحو أن يأمر الإمام رجلاً يصلي بالضعفة في المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين.

الخامس: يراعى الوقت فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال، ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر يوم الثالث عشر. ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها. هذه سنَّة رسول الله ﷺ(٣).

السادس: في كيفية الصلاة؛ فليخرج الناس مكبرين في الطريق، وإذا بلغ الإمام المصلى لم يجلس ولم يتنفل ويقطع الناس التنفل، ثم ينادي مناد: الصلاة جامعة. ويصلي الإمام بهم ركعتين يكبِّر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» ويقول: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض»، عقيب تكبيرة الافتتاح ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ «سورة ق» في الأولى بعد الفاتحة «واقتربت» في الثانية. والتكبيرات الزائدة في الثانية خمس سوى تكبيرتي القيام والركوع. وبين كل تكبيرتين ما ذكرناه. ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة، ومن فاتته صلاة العيد قضاها.

السابع: أن يضحي بكبش. ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين وذبح بيده وقال: «**بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ هٰذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي**»(٤)، وقال ﷺ: «**مَنْ رَأَىٰ هِلاَلَ ذِي الحِجَّةِ وَأَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْ شَعْرِهِ وَلاَ مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئاً**»(٥)، قال أبو أيوب الأنصاري: كان الرجل يضحي على عهد رسول الله ﷺ بالشاة عن أهل بيته ويأكلون ويطعمون(٦). وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما

---

(١) حديث: «الخروج في طريق والرجوع في أخرى» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «كان يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور» متفق عليه من حديث أم عطية.

(٣) حديث: «تعجيل صلاة الأضحى وتأخير صلاة الفطر». أخرجه الشافعي من رواية أبي الحويرث مرسلاً أن النبيّ ﷺ كتب إلى عمرو بن حزم وهو بنجران أن عجل الأضحى وأخر الفطر.

(٤) حديث: «ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال: **بسم الله والله أكبر هذا عني وعمن لم يضح من أمتي**». متفق عليه دون قوله: «عني...» الخ من حديث أنس، وهذه الزيادة عند أبي داود والترمذي من حديث جابر، وقال الترمذي: غريب ومنقطع.

(٥) حديث: «**من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره وأظفاره**» أخرجه من حديث أم سلمة.

(٦) حديث أبي أيوب: «**كان الرجل يضحي على عهد رسول الله ﷺ الشاة عن أهله فيأكلون ويطعمون**». أخرجه الترمذي وابن ماجه، قال الترمذي: حسن صحيح.

فوق، وردت فيه الرخصة بعد النهي عنه. وقال سفيان الثوري: يستحب أن يصلي بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة، وبعد عيد الأضحى ست ركعات(١)، وقال هو من السنّة.

الثانية: التراويح؛ وهي عشرون ركعة وكيفيتها مشهورة وهي سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين، واختلفوا في أنّ الجماعة فيها أفضل أم الانفراد؟ وقد خرج رسول الله ﷺ فيها ليلتين أو ثلاثاً للجماعة ثم لم يخرج وقال: **«أَخَافُ أَنْ تُوجَبَ عَلَيْكُمْ»**(٢)، وجمع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحي، فقيل: إنّ الجماعة أفضل لفعل عمر رضي الله عنه، ولأنّ الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض، ولأنه ربما يكسل في الانفراد وينشط عند مشاهدة الجمع. وقيل: الانفراد أفضل؛ لأنّ هذه سنّة ليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بصلاة الضحى وتحية المسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة. وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معاً ثم لم يصلوا التحية بالجماعة، ولقوله ﷺ: **«فَضْلُ صَلاةِ التَّطَوُّعِ فِي بَيْتِهِ عَلَىٰ صَلاتِهِ فِي المَسْجِدِ كَفَضْلِ صَلاةِ المَكْتُوبَةِ فِي المَسْجِدِ عَلَىٰ صَلاتِهِ فِي البَيْتِ»**(٣). وروي أنه ﷺ قال: **«صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هٰذا أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ صَلاةٍ فِي غَيْرِهِ مِنَ المَسَاجِدِ، وَصَلاةٌ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِي مَسْجِدِي، وَأَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ رَجُلٌ يُصَلِّي فِي زَاوِيَةِ بَيْتِهِ رَكْعَتَيْنِ لا يَعْلَمُهُمَا إِلاَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»**(٤)، وهذا لأنّ الرياء والتصنع ربما يتطرّق إليه في الجمع ويأمن منه في الوحدة فهذا ما قيل فيه. والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضي الله عنه. فإنّ بعض النوافل قد شرعت فيها الجماعة وهذا جدير بأن يكون من الشعائر التي تظهر. وأما الالتفات إلى الرياء في الجمع والكسل في الانفراد عدول عن مقصود النظر في فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة، وكأنّ قائله يقول: الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء. فلنفرض المسألة فيمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفرد ولا يرائي لو حضر الجمع فأيهما أفضل له؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوّة الإخلاص وحضور القلب في الوحدة، فيجوز أن يكون في تفضيل

(١) قال سفيان الثوري: من السنة أن يصلي بعد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد الأضحى ست ركعات. لم أجد له أصلاً في كونه سنة، وفي الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه ﷺ لم يصل قبلها ولا بعدها، وقد اختلفوا في قول التابعي: من السنة كذا، وأما قول تابعي التابع كذلك كالثوري فهو مقطوع.

(٢) حديث: «خروجه لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثاً ثم لم يخرج وقال: **أخاف أن يوجب عليكم**». متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: **«خشيت أن تفرض عليكم»**.

(٣) حديث: **«فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت»**. رواه آدم بن أبي إياس في كتاب القوات من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف فجعله عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ موقوفاً. وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت: **«صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة»**.

(٤) حديث: **«صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي وأفضل من هذا كله رجل يصلي ركعتين في زاوية بيته لا يعلمها إلا الله»**. أخرجه أبو الشيخ في الثواب من حديث أنس: **«صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفي صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا وجه الله عز وجل»**. وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة تعليقاً من حديث الأوزاعي قال: دخلت على يحيى فأسند لي حديثاً فذكره، إلا أنه قال في الأولى: **«ألف»** وفي الثانية: **«مائة»**.

أحدهما على الآخر تردد. ومما يستحب القنوت في الوتر في النصف الأخير من رمضان.

أما صلاة رجب: فقد روي بإسناد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما مِنْ أحَدٍ يَصُومُ أوَّلَ خَمِيسٍ مِنْ رَجَبَ، ثُمَّ يُصَلِّي فِيما بَيْنَ العِشَاءِ وَالعَتَمَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَفصِلُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ بِتَسْلِيمَةٍ يَقرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ مَرَّةً، وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ ثلاثَ مَرَّاتٍ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ صَلَّىٰ عَلَيَّ سَبْعِينَ مَرَّةً يَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ وَعَلَىٰ آلِهِ ثُمَّ يَسْجُدُ وَيَقُولُ فِي سُجُودِهِ سَبْعِينَ مَرَّةً: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلائِكَةِ وَالرُّوحِ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ سَبْعِينَ مَرَّةً: رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَتَجَاوَزْ عَمَّا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَةً أُخْرَىٰ وَيَقُولُ فِيها مِثْلَ ما قَالَ فِي السَّجْدَةِ الأُولَىٰ ثُمَّ يَسْأَلُ حَاجَتَهُ فِي سُجُودِهِ فَإِنَّها تُقْضَىٰ**»(١)، قال رسول الله ﷺ: «**لا يُصَلِّي أَحَدٌ هٰذِهِ الصَّلاةَ إِلاَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ، وَعَدَدِ الرَّمْلِ، وَوَزْنِ الجِبَالِ، وَوَرَقِ الأَشْجَارِ، وَيُشَفَّعُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مِمَّنْ قَدِ اسْتَوْجَبَ النَّارَ**»، فهذه صلاة مستحبة، وإنما أوردناها في هذا القسم لأنها تتكرر بتكرر السنين، وإن كانت رتبتها لا تبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد، لأنّ هذه الصلاة نقلها الآحاد، ولكني رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها فأحببت إيرادها.

وأما صلاة شعبان: فليلة الخامس عشر منه يصلي مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد، فهذا أيضاً مروي في جملة الصلوات. كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويجتمعون فيها وربما صلوها جماعة. روي عن الحسن أنه قال: حدّثني ثلاثون من أصحاب النبي ﷺ «أنّ من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة»(٢).

* * *

القسم الرابع
من النوافل: ما يتعلق بأسباب عارضة
ولا يتعلّق بالمواقيت وهي تسعة

صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتي الوضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه، ونظائر ذلك فنذكر منها ما يحضرنا الآن.

الأولى: صلاة الخسوف، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يُخْسَفانِ**

---

(١) حديث: «**ما من أحد يصوم أول خميس من رجب...**» الحديث. في صلاة الرغائب أورده رزين في كتابه وهو حديث موضوع.

(٢) حديث: «صلاة ليلة نصف شعبان» حديث باطل. رواه ابن ماجه من حديث علي: «**إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها**» وإسناده ضعيف.

لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذٰلِكَ فَافْزَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلاةِ»(١)، قال ذلك لما مات ولده إبراهيم ﷺ وكسفت الشمس فقال الناس: إنما كسفت لموته. والنظر في كيفيتها ووقتها، أما الكيفية: فإذا كسفت الشمس في وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودي «الصلاة جامعة» وصلى الإمام بالناس في المسجد ركعتين وركع في كل ركعة ركوعين أوائلهما أطول من أواخرهما. ولا يجهر، فيقرأ في الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة، وفي الثانية الفاتحة وآل عمران، وفي الثالثة الفاتحة وسورة النساء، وفي الرابعة الفاتحة وسورة المائدة، أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد، ولو اقتصر على الفاتحة في كل قيام أجزأه ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس. ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الانجلاء. ويسبح في الركوع الأوّل قدر مائة آية، وفي الثاني قدر ثمانين، وفي الثالث قدر سبعين، وفي الرابع قدر خمسين. وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة. ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة. وكذلك يفعل بخسوف القمر إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلية. فأما وقتها: فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة. وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يبطل سلطان الليل ولا تفوت بغروب القمر خاسفاً لأن الليل كله سلطان القمر، فإن انجلى في أثناء الصلاة أتمها مخففة. ومن أدرك الركوع الثاني مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأوّل.

الثانية: صلاة الاستسقاء، فإذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أو انهارت قناة فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام وما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصي، ثم يخرج بهم في اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان متنظفين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين ـ بخلاف العيد ـ وقيل: يستحب إخراج الدواب لمشاركتها في الحاجة ولقوله ﷺ: **«لَوْلاَ صِبْيَانٌ رُضَّعٌ وَمَشَايِخُ رُكَّعٌ وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ لَصُبَّ عَلَيْكُمُ العَذَابُ صَبّاً»**(٢)، ولو خرج أهل الذمة أيضاً متميزين لم يمنعوا، فإذا اجتمعوا في المصلى الواسع من الصحراء نودي «الصلاة جامعة» فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد ـ بغير تكبير ـ ثم يخطب خطبتين وبينهما جلسة خفيفة، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين، وينبغي في وسط الخطبة الثانية، أن يستدبر الناسَ ويستقبل القبلة ويحوّل رداءه في هذه الساعة تفاؤلاً بتحويل الحال(٣). هكذا فعل رسول الله ﷺ فيجعل أعلاه أسفله وما على اليمين على الشمال وما على الشمال على اليمين. وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الساعة سراً، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أرديتهم محوّلة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب. ويقول في الدعاء: اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإجابتك في سقيانا وسعة أرزاقنا. ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات في الأيام الثلاثة قبل الخروج، ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد المظالم وغيرها، وسيأتي ذلك في كتاب الدعوات.

الثالثة: صلاة الجنائز، وكيفيتها مشهورة، وأجمع دعاء مأثور ما روي في الصحيح عن عوف بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه: **«اللّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ**

---

(١) حديث: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله..**» الحديث. أخرجاه من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) حديث: «**لولا صبيان رضع ومشايخ ركع..**» الحديث. أخرجه البيهقي وضعفه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «استدبار الناس واستقبال القبلة وتحويل الرداء في الاستسقاء» أخرجاه من حديث عبدالله بن زيد المازني.

عَنهُ وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَطَايا كَمَا يُنَقَّىٰ الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَاراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ وَأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ، وأدخله الجنة وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ»[1] . حتى قال عوف: تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت. ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغي أن يراعي ترتيب الصلاة في نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام، فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذي فات كفعل المسبوق، فإنه لو بادر التكبيرات لم تبق للقدوة في هذه الصلاة معنى، فالتكبيرات هي الأركان الظاهرة، وجدير بأن تقام مقام الركعات في سائر الصلوات، هذا هو الأوجه عندي وإن كان غيره محتملاً. والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنازة وتشييعها مشهورة فلا نطيل بإيرادها، وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفايات؟ وإنما تصير نفلاً في حق من لم تتعين عليه بحضور غيره، ثم ينال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يتعين لأنهم بجملتهم قاموا بما هو فرض الكفاية وأسقطوا الحرج عن غيرهم، فلا يكون ذلك كنفل لا يسقط به فرض عن أحد. ويستحب طلب كثرة الجمع تبركاً بكثرة الهمم والأدعية واشتماله على ذي دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس: أنه مات له ابن فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال: تقول هم أربعون قلت: نعم، قال: أخرجوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَىٰ جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئاً إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ»[2] ، وإذا شيع الجنازة فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال: السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سوّى على الميت قبره قام عليه وقال: اللهم عبدك رد إليك فارأف به وارحمه، اللهم جاف الأرض عن جنبيه وافتح أبواب السماء لروحه وتقبله منك بقبول حسن، اللهم إن كان محسناً فضاعف له في إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه.

الرابعة: تحية المسجد: ركعتان فصاعداً سنّة مؤكدة، حتى أنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة مع تأكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب. وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لا يخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياماً بحق المسجد. ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء، فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، يقولها أربع مرات يقال: إنها عدل ركعتين في الفضل. ومذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تكره التحية في أوقات الكراهية، وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب، لما روي: أنه ﷺ صلى ركعتين بعد العصر فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: «هُمَا رَكْعَتَانِ كُنْتُ أُصَلِّيهِما بَعْدَ الظُّهْرِ فَشَغَلَنِي عَنْهُمَا الوَفْدُ»[3]، فأفاد هذا الحديث فائدتين: إحداهما: أنّ الكراهية

---

(١) حديث عوف بن مالك في الصلاة على الجنازة: «**اللهم اغفر لي وله وارحمني وارحمه وعافني وعافه..**» الحديث. أخرجه مسلم دون الدعاء للمصلي.

(٢) حديث ابن عباس: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون...**» الحديث. أخرجه مسلم.

(٣) حديث: «صلى ركعتين بعد العصر قيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: **هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر...**» الحديث. أخرجاه من حديث أم سلمة، ولمسلم من حديث عائشة: «كان يصلي ركعتين قبل العصر ثم إنه شغل عنهما..» الحديث.

مقصودة على صلاة لا سبب لها، ومن أضعف الأسباب قضاء النوافل إذ اختلف العلماء في أنّ النوافل هل تقضى وإذا فعل مثل ما فاته هل يكون قضاء؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فبأحرى أن تنتفي بدخول المسجد وهو سبب قوي. ولذلك لا تكره صلاة الجنازة إذا حضرت ولا صلاة الخسوف والاستسقاء في هذه الأوقات لأن لها أسباباً. الفائدة الثانية: قضاء النوافل إذ قضى رسول الله ﷺ ذلك ولنا فيه أسوة حسنة. وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتي عشرة ركعة»[(١)]، وقد قال العلماء: من كان في الصلاة ففاته جواب المؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت، ولا معنى الآن لقول من يقول: إنّ ذلك مثل الأول وليس يقضى؛ إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله ﷺ في وقت الكراهة. نعم من كان له ورد فعاقه عن ذلك عذر فينبغي أن لا يرخص لنفسه في تركه، بل يتداركه في وقت آخر حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية، وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه ﷺ قال: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُها وَإِنْ قَلَّ**»[(٢)]، فيقصد به أن لا يفتر في دوام عمله. وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادَةٍ ثُمَّ تَرَكَهَا مَلالَةً مَقَتَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[(٣)]، فليحذر أن يدخل تحت الوعيد. وتحقيق هذا الخبر أنه مقته الله تعالى بتركها ملالة فلولا المقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه.

الخامسة: ركعتان بعد الوضوء مستحبتان؛ لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيع السعي، فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الفوات. وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال ﷺ: «**دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ بِلالاً فِيها فَقُلْتُ لِبِلالٍ: بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَىٰ الجَنَّةِ؟ فَقَالَ بِلالٌ: لا أَعْرِفُ شَيْئاً إِلاَّ أَنّي لا أُحْدِثُ وُضُوءاً إِلاَّ أُصَلِّي عَقِيبَهُ رَكْعَتَيْنِ**»[(٤)].

السادسة: ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه، روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَنْزِلِكَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ يَمْنَعَانِكَ مَخْرَجَ السُّوءِ، وَإِذَا دَخَلْتَ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ يَمْنَعَانِكَ مَدْخَلَ السُّوءِ**»[(٥)]، وفي معنى هذا كل أمر يبتدأ به مما له وقع، ولذلك ورد ركعتان عند الإحرام[(٦)] وركعتان عند ابتداء السفر[(٧)] وركعتان عند الرجوع من السفر[(٨)] في المسجد قبل

---

(١) حديث عائشة: «كان إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة . . » الحديث. أخرجه مسلم.

(٢) حديث: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ**» أخرجاه من حديث عائشة.

(٣) حديث عائشة: «**من عبد الله عبادة ثم تركها ملالة مقته الله**». ورواه ابن السني في رياضة المتعبدين موقوفاً على عائشة.

(٤) حديث: «**دخلت الجنة فرأيت بلالاً فيها فقلت: يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ . .** » الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث أبي هريرة: «**إذا خرجت من منزلك فصلّ ركعتين يمنعانك مخرج السوء وإذا دخلت منزلك . .** » الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من رواية بكر بن عمرو عن صفوان بن سليم، قال بكر: حسبته عن أبي هريرة فذكره. وروى الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة: «**إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل له من ركعتيه خيراً**» قال ابن عدي: وهو بهذا الإسناد منكر وقال البخاري: لا أصل له.

(٦) حديث: «ركعتي الإحرام» أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

(٧) حديث: «صلاة ركعتين عند ابتداء السفر» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس: «**ما استخلف في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصليهن العبد في بيته إذا شد عليه ثياب سفره . .** » الحديث. وهو ضعيف.

(٨) حديث: «الركعتين عند القدوم من السفر» أخرجاه من حديث كعب بن مالك.

دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله ﷺ. وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين، وكذلك في كل أمر يحدثه. وبداية الأمور ينبغي أن يتبرك فيها بذكر الله عزّ وجلّ وهي على ثلاث مراتب: بعضها يتكرر مراراً كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عزّ وجلّ، وقال ﷺ: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَبْتَرُ**»[(١)]. الثانية: ما لا يكثر تكرره وله وقع كعقد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة، فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله فيقول المزوج: «الحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ زوجتك ابنتي»، ويقول القابل: «الحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ قبلت النكاح»، وكانت عادة الصحابة رضي الله عنهم في ابتداء أداء الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحميد. الثالثة: ما لا يتكرر كثيراً وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة والإحرام وما يجري مجراه، فيستحب تقديم ركعتين عليه وأدناه الخروج من المنزل والدخول إليه فإنه نوع سفر قريب.

السابعة: صلاة الاستخارة؛ فمن همّ بأمر وكان لا يدري عاقبته ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الإقدام عليه فقد أمره رسول الله ﷺ: «بِأَنْ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي الأُولَىٰ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَقُلْ يَا أَيُّها الكَافِرُونَ، وَفِي الثَّانِيَةِ الفَاتِحَةَ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَإِذَا فَرَغَ دَعَا وَقَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِيَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَعَاجِلِهِ وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ ثُمَّ يَسِّرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَعَاجِلِهِ وَآجِلِهِ فَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ أَيْنَمَا كَانَ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[(٢)]. رواه جابر بن عبدالله قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن». وقال ﷺ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِأَمْرٍ فَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لِيُسَمِّ الأَمْرَ وَيَدْعُو بِمَا ذَكَرْنَاهُ**»، وقال بعض الحكماء: من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً: من أعطى الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب.

الثامنة: صلاة الحاجة[(٣)]؛ فمن ضاق عليه الأمر ومسته حاجة في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة، فقد روي عن وهيب بن الورد أنه قال: إن من الدعاء الذي لا يرد أن يصلي العبد اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد، فإذا فرغ خرّ ساجداً ثم قال: «سبحان الذي لبس العز وقال به سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي المن والفضل، سبحان ذي العز والكرم، سبحان ذي الطول أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم

---

(١) حديث: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبتر**». أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «صلاة الاستخارة» أخرجه البخاري من حديث جابر. قال أحمد: حديث منكر.

(٣) حديث ابن مسعود: «في صلاة الحاجة اثنتي عشرة ركعة» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسنادين ضعيفين جداً فيهما عمرو بن هارون البلخي كذبه ابن معين وفيه علل أخرى، وقد وردت: «**صلاة الحاجة ركعتين**». رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبدالله بن أبي أوفى وقال الترمذي: حديث غريب وفي إسناده مقال.

وجدّك الأعلى وكلماتك التامات العامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر أن تصلي على محمد وعلى آل محمد»، ثم يسأل حاجته التي لا معصية فيها فيجاب إن شاء الله عزّ وجلّ. قال وهيب: بلغنا أنه كان يقال: لا تعلموها لسفهائكم فيتعاونون بها على معصية الله عزّ وجلّ.

التاسعة: صلاة التسبيح، وهذه الصلاة مأثورة على وجه ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة. فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ﷺ قال للعباس بن عبدالمطلب: **«أَلاَ أُعْطِيكَ أَلاَ أَمْنَحُكَ أَلاَ أَحْبُوكَ بِشَيءٍ إِذَا أَنْتَ فَعَلْتَهُ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ سِرَّهُ وَعَلانِيَتَهُ؟ تُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ تَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَسُورَةً، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ القِرَاءَةِ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ وَأَنْتَ قَائِمٌ تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً، ثُمَّ تَرْكَعُ فَتَقُولُها وأنت راكع عشر مرات، ثم ترفع من الركوع فتقولها قائماً عَشْراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثُمَّ تَرْفَعُ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُها جَالِساً عَشْراً، ثُمَّ تَسْجُدُ فَتَقُولُها وَأَنْتَ سَاجِدٌ عَشْراً، ثُمَّ تَرْفَعُ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُها عَشْراً، فَذٰلِكَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ تَفْعَلُ ذٰلِكَ فِي أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُصَلِّيَها فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي السَّنَةِ مَرَّةً»**[1]، وفي رواية أخرى: أنه يقول في أوّل الصلاة: **«سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وتقدّست أسماؤك ولا إله غيرك»**، ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشراً بعد القراءة والباقي كما سبق عشراً عشراً ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعداً، وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك. والمجموع من الروايتين ثلاثمائة تسبيحة، فإن صلاها نهاراً فبتسليمة واحدة وإن صلاها ليلاً فبتسليمتين أحسن؛ إذ ورد: **«أَنَّ صَلاةَ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى»**[2]، وإن زاد بعد التسبيح قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فهو حسن، فقد ور. ذلك في بعض الروايات. فهذه الصلوات المأثورة. ولا يستحب شيء من هذه النوافل في الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد، وما أوردناه بعد التحية من ركعتي الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخارة فلا؛ لأن النهي مؤكد وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الخسوف والاستسقاء والتحية. وقد رأيت بعض المتصوّفة يصلي في الأوقات المكروهة ركعتي الوضوء وهو في غاية البعد؛ لأن الوضوء لا يكون سبباً للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء، فينبغي أن يتوضأ ليصلي لا أنه يصلي لأنه توضأ. وكل محدث يريد أن يصلي في وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصلي فلا يبقى للكراهية معنى. ولا ينبغي أن ينوي ركعتي الوضوء كما ينوي ركعتي التحية، بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوّعاً كيلا يتعطل وضوؤه كما كان يفعله بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء. وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب كالخسوف والتحية حتى ينوي ركعتي الوضوء فيستحيل أن ينوي بالصلاة الوضوء بل ينبغي أن ينوي بالوضوء الصلاة. وكيف ينتظم أن يقول في وضوئه: أتوضأ لصلاتي، وفي صلاته يقول: أصلي لوضوئي، بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل في وقت الكراهية فلينو قضاء إن كان يجوز أن يكون في ذمته صلاة تطرّق إليها خلل لسبب من الأسباب، فإن قضاء الصلوات في أوقات الكراهية غير مكروه، فأما نيّة التطوّع فلا وجه لها. ففي النهي في أوقات الكراهية مهمات ثلاثة:

---

(١) حديث: «صلاة التسبيح» تقدم.

(٢) حديث: «صلاة الليل مثنى مثنى» أخرجاه من حديث ابن عمر.

أحدها: التوقي من مضاهاة عبدة الشمس، **والثاني**: الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ لَتَطْلُعُ وَمَعَها قَرْنُ الشَّيْطَانِ فَإِذَا طَلَعَتْ قَارَنَها وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فَارَقَها، فَإِنِ اسْتَوَتْ قَارَنَها فَإِذَا زَالَتْ فَارَقَها، فَإِذَا تَضَيَّفَتْ لِلْغُرُوبِ قَارَنَها فَإِذَا غَرَبَتْ فَارَقَها**»[١]. ونهى عن الصلوات في هذه الأوقات ونَبَّهَ به على العلة، **والثالث**: أن سالكي طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات في جميع الأوقات. والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل، ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعي، والإنسان حريص على ما منع منه ففي تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار انقضاء الوقت، فخصصت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار حذراً من الملل بالمداومة وتفرجاً بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر. ففي الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط، وفي الاستمرار على شيء واحد استثقال وملال. ولذلك لم تكن الصلاة سجوداً مجرداً ولا ركوعاً مجرداً ولا قياماً مجرداً بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة، فإن القلب يدرك من كل عمل منهما لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واظب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل. فإذا كانت هذه أموراً مهمة في النهي عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار أخر ليس في قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها، فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة في الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد. فأما ما ضعف عنها فلا ينبغي أن يصادم به مقصود النهي. هذا هو الأوجه عندها، والله أعلم.

كمل كتاب أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين
يتلوه إن شاء الله كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

(١) حديث: «إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها...» الحديث. أخرجه النسائي من حديث عبدالله الصنابحي وهو مرسل، ومالك هو الذي يقول عبدالله الصنابحي ووهم فيه والصواب عبدالرحمن، ولم ير النبيّ ﷺ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب أسرار الزكاة

الحمد لله الذي أسعد وأشقى، وأمات وأحيا، وأضحك وأبكى، وأوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأضر وأقنى الذي خلق الحيوان من نطفة تمنى، ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى، ثم خصص بعض عباده بالحسنى فأفاض عليهم من نعمه ما أيسر به من شاء واستغنى، وأحوج إليه من أخفق في رزقه وأكدى إظهاراً للامتحان والابتلاء. ثم جعل الزكاة للدين أساساً ومبنى، وبيَّن أن بفضله تزكي من عباده من تزكى، ومن غناه زكى ماله من زكى، والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى.

أما بعد: فإن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مباني الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي أعلى الأعلام، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: ٤٣]، وقال ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ**»(١)، وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبَة: ٣٤]، ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة. قال الأحنف بن قيس: كنت في نفر من قريش فمرّ أبو ذرّ فقال: بشر الكانزين بكيّ في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكيّ في أقفائهم يخرج من جباههم. وفي رواية: أنه يوضع على حلمة ثدي أحدهم فيخرج من نغض كتفيه، ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل، وقال أبو ذرّ: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: «**هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، فقلت: ومن هم؟ قال: **الأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً إِلاَّ مَنْ قَالَ هٰكَذا وَهٰكَذا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ، ما مِنْ صَاحِبِ إِبلٍ وَلا بَقَرٍ وَلا غَنَمٍ لا يُؤَدِّي زَكَاتَها إِلاَّ جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْظَمَ ما كَانَتْ وَأَسْمَنَهُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِها وَتَطَؤُهُ بِأَظْلافِها كُلَّما نَفِدَتْ أُخْرَاها عَادَتْ عَلَيْهِ أُولاها حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ**»(٢)، وإذا كان هذا التشديد مخرّجاً في الصحيحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخفية ومعانيها الظاهرة والباطنة، مع الاقتصار على ما لا يستغني عن معرفته مؤدي الزكاة وقابضها، وينكشف ذلك في أربعة فصول:

الفصل الأول: في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها.

الثاني: آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة.

الثالث: في القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه.

الرابع: في صدقة التطوع وفضلها.

كتاب أسرار الزكاة

(١) حديث: «بني الإسلام على خمس» أخرجاه من حديث ابن عمر.

(٢) حديث أبي ذر «انتهيت إلى النبيّ ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: **هم الأخسرون ورب الكعبة. .**» الحديث. أخرجاه مسلم والبخاري.

الفصل الأول

في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها، والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع: زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر

النوع الأول: زكاة النعم:

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم. ولا يشترط البلوغ، بل تجب في مال الصبي والمجنون هذا شرط من عليه. وأما المال فشروطه خمسة: أن يكون نعماً سائمة باقية حولاً نصاباً كاملاً مملوكاً على الكمال.

الشرط الأول: كونه نعماً فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم. أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها.

الثاني: السوم، فلا زكاة في معلوفة وإذا أسيمت في وقت وعلفت في وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها.

الثالث: الحول، قال رسول الله ﷺ: **«لا زَكَاةَ فِي مَالٍ حَتَّىٰ يَحُولَ عَلَيْهِ الحَوْلُ»**[1]، ويستثنى من هذا نتاج الحول.

الرابع: كمال الملك والتصرف، فتجب الزكاة في الماشية المرهونة لأنه الذي حجر على نفسه فيه، ولا تجب في الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فيجب زكاة ما مضى عند عوده. ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه، فإنه ليس غنياً به إذ الغنى ما يفضل عن الحاجة.

الخامس: كمال النصاب.

أما الإبل: فلا شيء فيها حتى تبلغ خمساً ففيها جذعة من الضأن، والجذعة هي التي تكون في السنة الثانية، أو ثنية من المعز وهي التي تكون في السنة الثالثة. وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه. وفي عشرين أربع شياه. وفي خمس وعشرين بنت مخاض وهي التي في السنة الثانية، فإن لم يكن في ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر، وهو الذي في السنة الثالثة يؤخذ إن كان قادراً على شرائها. وفي ست وثلاثين ابنة لبون. ثم إذا بلغت ستاً وأربعين ففيها حقة وهي التي في السنة الرابعة. فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهي التي في السنة الخامسة، فإذا صارت ستاً وسبعين ففيها بنتا لبون. فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان. فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون. فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقرّ الحساب، ففي كل خمسين حقة، وفي كل أربعين بنت لبون.

وأما البقر: فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذي في السنة الثانية. ثم في أربعين مسنّة وهي التي في السنة الثالثة. ثم في ستين تبيعان. واستقرّ الحساب بعد ذلك، ففي كل أربعين مسنّة، وفي كل ثلاثين تبيع.

---

(١) حديث: **«لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول»**. أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد جيد، وابن ماجه من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

وأما الغنم: فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز. ثم لا شيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان، إلى مائتي شاة وواحدة ففيها ثلاث شياه، إلى أربعمائة ففيها أربع شياه. ثم استقر الحساب في كل مائة شاة. وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب، فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة. وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة على جميعهم. وخلطة الجوار كخلطة الشيوع، ولكن يشترط أن يريحا معاً ويسقيا معاً ويحلبا معاً ويسرحا معاً ويكون المرعى معاً ويكون إنزاء الفحل معاً، وأن يكونا جميعاً من أهل الزكاة، ولا حكم للخلطة مع الذمي والمكاتب. ومهما نزل في واجب الإبل عن سنّ إلى سنّ فهو جائز ما لم يجاوز بنت مخاض في النزول، ولكن تضم إليه جبران السنّ لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهماً، ولسنتين أربع شياه أو أربعين درهماً. وله أن يصعد في السنّ ما لم يجاوز الجذعة في الصعود ويأخذ الجبران من الساعين من بيت المال. ولا تؤخذ في الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحاً ولو واحدة. ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللئام لئيمة. ولا يؤخذ من المال الأكولة ولا الماخض ولا الربا ولا الفحل ولا غراء المال.

النوع الثاني: زكاة المعشرات:

فيجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة منّ، ولا شيء فيما دونها ولا في الفواكه والقطن، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب. ويعتبر أن تكون ثمانمائة منّ تمراً أو زبيباً لا رطباً وعنباً، ويخرج ذلك بعد التجفيف. ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر في خلطة الشيوع كالبستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة منّ من زبيب، فيجب على جميعهم ثمانون مناً من زبيب بقدر حصصهم. ولا يعتبر خلطة الجوار فيه. ولا يكمل نصاب الحنطة بالشعير، ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه. هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسيح أو قناة، فإن كان يسقى بنضح أو دالية فيجب نصف العشر، فإن اجتمعا فالأغلب يعتبر. وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية. ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير. ولا يمنع من هذه القسمة قولنا: إنّ القسمة بيع، بل يرخص في مثل هذا للحاجة. ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتدّ الحب. ووقت الأداء بعد الجفاف.

النوع الثالث: زكاة النقدين:

فإذا تم الحول على وزن مائتي درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم، وهو ربع العشر، وما زاد فبحسابه ولو درهماً. ونصاب الذهب عشرون مثقالاً خالصاً بوزن مكة ففيها ربع العشر، وما زاد فبحسابه، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة. وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة. وتجب الزكاة في التبر وفي الحلي المحظور كأواني الذهب والفضة ومراكب الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال. ولا تجب في الحلي المباح. وتجب في الدين الذي هو على مليء، ولكن تجب عند الاستيفاء، وإن كان مؤجلاً فلا تجب إلا عند حلول الأجل.

النوع الرابع: زكاة التجارة:

وهي كزكاة النقدين، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذي به اشترى البضاعة إن كان النقد نصاباً، فإن كان ناقصاً أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء. وتؤدى الزكاة من نقد

البلد وبه يقوّم. فإن كان ما به الشراء نقداً وكان نصاباً كاملاً كان التقويم به أولى من نقد البلد. ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرّد نيته حتى يشتري به شيئاً ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة. والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة، وما كان من ربح في السلعة في آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولاً كما في النتاج. وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات، وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة، هذا هو الأقيس.

النوع الخامس: الركاز والمعدن:

والركاز: مال دفن في الجاهلية ووجد في أرض لم يجر عليها في الإسلام ملك، فعلى واجده في الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر. والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً؛ لأنّ إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة. واعتباره أيضاً ليس ببعيد؛ لأنه مصرف الزكاة ولذلك يخصص على الصحيح بالنقدين.

وأما المعادن: فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة، ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين، وعلى هذا يعتبر النصاب. وفي الحول قولان، وفي قول: يجب الخمس، فعلى هذا لا يعتبر. وفي النصاب قولان والأشبه ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن يلحق في قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب في الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ويعتبر النصاب كالمعشرات، والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير، وفي عين النقدين أيضاً خروجاً عن شبهة هذه الاختلافات فإنها ظنون قريبة من التعارض وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه.

النوع السادس: في صدقة الفطر:

وهي واجبة ـ على لسان رسول الله ﷺ ـ: «**عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ فَضَلَ عَنْ قُوتِهِ وَقُوتِ مَنْ يَقُوتُهُ يَوْمَ الفِطْرِ وَلَيْلَتَهُ صَاعٌ مِمَّا يَقْتَاتُ**»(١)، بصاع رسول الله ﷺ وهو منوانِ وثلثا منّ، يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه. فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير، وإن اقتات حبوباً مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزأه. وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف. ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق. ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو في نفقته ـ أعني من تجب عليه نفقته ـ من الآباء والأمهات والأولاد. قال ﷺ: «**أَدُّوا صَدَقَةَ الفِطْرِ عَمَّنْ تَمُونُونَ**»(٢)، وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر. وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها وللزوج الإخراج عنها دون إذنها. وإن فضل عنه ما يؤدي عن بعضهم أدى عن بعضهم، وأولاهم بالتقديم من كانت نفقته آكد. «وقد قدّم رسول الله ﷺ نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم»(٣)

---

(١) حديث: «وجوب صدقة الفطر على كل مسلم». أخرجاه من حديث ابن عمر قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان. . » الحديث.

(٢) حديث: «أدوا زكاة الفطر عمن تمونون». أخرجه الدارقطني والبيهقي من حديث ابن عمر: «أمر رسول الله ﷺ بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد ممن تمونون» قال البيهقي: إسناده غير قوي.

(٣) حديث: «قدم رسول الله ﷺ نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم». أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند صحيح، وابن حبان، والحاكم وصححه ورواه النسائي وابن حبان بتقديم «الزوجة على الولد» وسيأتي.

فهذه أحكام فقهية لا بدّ للغني من معرفتها، وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم: أنه يجب على مؤدي الزكاة خمسة أمور:

الأوّل: النية؛ وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفرض ويسنّ عليه تعيين الأموال. فإن كان له مال غائب فقال: هذا عن مالي الغائب إن كان سالماً وإلا فهو نافلة جاز؛ لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه. ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي، ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة، ولكن في ظاهر حكم الدنيا ـ أعني في قطع المطالبة عنه ـ أما في الآخرة فلا، بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة. وإذا وكّل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكّل الوكيل بالنية كفاه؛ لأنّ توكيله بالنية نية.

الثاني: البدار عقيب الحول، وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر، ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان، ووقت تعجيلها شهر رمضان كله. ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق. وإن أخّر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه. وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول. ويجوز تعجيل زكاة حولين. ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أو ارتدّ أو صار غنياً بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات، فالمدفوع ليس بزكاة، واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن المعجل مراقباً آخر الأمور وسلامة العاقبة.

الثالث: أن لا يُخرِج بدلاً باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه، فلا يجزىء ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه في القيمة. ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعي رضي الله عنه يتساهل في ذلك ويلاحظ المقصود من سدّ الخلة وما أبعده عن التحصيل، فإنّ سدّ الخلة مقصود وليس هو كل المقصود، بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام: قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه وذلك كرمي الجمرات مثلاً إذ لا حظ للجمرة في وصول الحصى إليها، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية؛ إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنى آخر. وأكثر أعمال الحج كذلك، ولذلك قال ﷺ في إحرامه: «**لَبَّيْكَ بِحَجَّةٍ حَقّاً تَعَبُّداً وَرِقّاً**»[1]، تنبيهاً على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحثّ عليه. القسم الثاني: من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول

(١) حديث: «**لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً**» أخرجه البزار والدارقطني في العلل من حديث أنس.

وليس يقصد منه التعبد، كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته. ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع. فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك في دركهما جميع الناس. والقسم الثالث: هو المركب الذي يقصد منه الأمران جميعاً وهو حظ العباد وامتحان المكلف بالاستعباد، فيجتمع فيه تعبد رمي الجمار وحظ رد الحقوق فهذا قسم في نفسه معقول، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ولا ينبغي أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما، ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القبيل ولم يتنبه له غير الشافعي رضي الله عنه، فحظ الفقير مقصود في سدّ الخلة وهو جلي سابق إلى الأفهام وحق التعبد في اتباع التفاصيل مقصود للشرع، وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج في كونها من مباني الإسلام. ولا شك في أن على المكلف تعباً في تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته، ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتي، والتساهل فيه غير قادح في حظ الفقير لكنه قادح في التعبد. ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها في كتب الخلاف من الفقهيات، ومن أوضحها أنّ الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقدين والتقويم، وإن قدّر أنّ ذلك لقلة النقود في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهماً في الجبران مع الشاتين فلم يذكر في الجبران قدر النقصان من القيمة؟ ولم قدر بعشرين درهماً وشاتين؟ وإن كانت الثياب والأمتعة كلها في معناها. فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما في الحج ولكن جمع بين المعنيين. والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه.

الرابع: أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها، وفي النقل تخييب للظنون. فإن فعل ذلك أجزأه في قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال من تلك البلدة. ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء في تلك البلدة.

الخامس: أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده، فإن استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية. فإنه يشبه قول المريض: إنما ثلث مالي للفقراء والمساكين، وذلك يقتضي التشريك في التمليك، والعبادات ينبغي أن يُتَوَقَّى عن الهجوم فيها على الظواهر. وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد: وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة. ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف: الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون ـ أعني أبناء السبيل ـ، وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض: وهم الغزاة والمكاتبون. فإن وجد خمسة أصناف مثلاً قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعيَّن لكل صنف قسم، ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أو متفاوتة، وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد. وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغي أن ينقص في كل صنف عن ثلاثة إن وجد. ثم لو لم يجب إلا صاع للفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفراً، ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد. فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليتشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه، فإن ذلك لا بد منه.

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة:

اعلم: أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف:

الوظيفة الأولى: فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها وأنها لم جعلت من مباني الإسلام مع أنها تصرف مالي وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاث معان:

الأوّل: أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد، فإن المحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم، وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبَة: ١١١]، وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عزّ وجلّ والمسامحة بالمال أهون. ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم صدّقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدّخروا ديناراً ولا درهماً فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم: كم يجب من الزكاة في مائتي درهم؟ فقال: أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع، ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله، وعمر رضي الله عنه بشطر ماله، فقال ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، فقال: مثله، وقال لأبي بكر رضي الله عنه: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، قال: الله ورسوله فقال ﷺ: «**بَيْنَكُمَا مَا بَيْنَ كَلِمَتَيْكُمَا**»[(١)]، فالصدّيق وفى بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله. القسم الثاني: درجتهم دون درجة هذا وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة. وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد. قال الشعبي بعد أن قيل له: هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم أما سمعت قوله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] الآية. واستدلوا بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنَافِقون: ١٠]، وزعموا أنّ ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، بل هو داخل في حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة، والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع مسلم، ولكن يحتمل أن يقال: ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة قرضاً ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه، ويحتمل أن يقال: يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض، أي لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه، والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام، وهي درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على

---

(١) حديث: «جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشطر ماله...» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله: «بينكما ما بين كلمتيكما».

أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهي أقل الرتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ [محمّد: ٣٧]، يحفكم أي يستقصي عليكم، فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأنّ له الجنة، وبين عبد لايستقصى عليه لبخله، فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال.

المعنى الثاني: التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات، قال ﷺ: «**ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوَى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ**»(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وسيأتي في ربع المهلكات وجه كونه مهلكاً وكيفية التقصي منه، وإنما تزول صفة البخل بأن تتعوّد بذل المال فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتياداً. فالزكاة بهذا المعنى طهرة أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى.

المعنى الثالث: شكر النعمة؛ فإن لله عزّ وجلّ على عبده نعمة في نفسه وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال. وما أخسَّ من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله.

الوظيفة الثانية: في وقت الأداء؛ ومن آداب ذوي الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات، وعلماً بأن في التأخير آفات مع ما يتعرّض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب. ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن، فينبغي أن يغتنم فإنّ ذلك لمة الملك «**وَقَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ**»، فما أسرع تقلبه والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر. وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعاً شهراً معلوماً وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سبباً لنماء قربته وتضاعف زكاته، وذلك كشهر المحرّم فإنه أوّل السنة وهو من الأشهر الحرم، أو رمضان فقد كان ﷺ أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئاً(٢)، ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن. وكان مجاهد يقول: لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان. وذو الحجة أيضاً من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهرٌ حرامٌ وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهي العشر الأول والأيام المعدودات وهي أيام التشريق. وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر، وأفضل أيام ذي الحجة العشر الأول.

الوظيفة الثالثة: الإسرار فإنّ ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ المُقِلِّ إِلَىٰ فَقِيرٍ فِي سِرٍّ**»(٣). وقال بعض العلماء: ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة(٤)، وقد روي أيضاً

---

(١) حديث: «**ثلاث مهلكات..**» الحديث. تقدم.

(٢) حديث: «كان رسول الله ﷺ أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان..» الحديث. أخرجاه من حديث ابن عباس.

(٣) حديث: «**أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر**»، أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبي ذر، ولأبي داود من حديث أبي هريرة: «أي الصدقة أفضل؟ قال: **جهد المقل**».

(٤) حديث: «ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة». أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

مسنداً. وقال ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلاً فِي السِّرِّ فَيَكْتُبُهُ اللَّهُ لَهُ سِرّاً، فَإِنْ أَظْهَرَهُ نُقِلَ مِنَ السِّرِّ وَكُتِبَ فِي العَلانِيَةِ، فَإِنْ تَحَدَّثَ بِهِ نُقِلَ مِنَ السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ وَكُتِبَ رِياءً»(١). وفي الحديث المشهور: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ أَحَدُهُمْ: رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَلَمْ تَعْلَمْ شِمَالُهُ بِمَا أَعْطَتْ يَمِينُهُ»(٢). وفي الخبر: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ»(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٧١]. وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة، فقد قال ﷺ: «لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُسْمِعٍ وَلا مُرَاءٍ وَلا مَنَّانٍ وَالمُتَحَدِّثُ بِصَدَقَتِهِ يَطْلُبُ السُّمْعَةَ وَالمُعْطِي فِي مَلأٍ مِنَ النَّاسِ يَبْغِي الرِّيَاءَ، وَالإِخْفَاءَ وَالسُّكُوتَ هُوَ المُخَلِّصُ مِنْهُ»(٤). وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي، فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطي، وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي، وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه، كل ذلك توصلاً إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازاً من الرياء والسمعة. ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى؛ إذ في معرفة المسكين الرياء والمنة جميعاً وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء. ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله، لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال، وحب الجاه أشدّ استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة، ولكن صفة البخل تنقلب في القبر في حكم المثال عقرباً لادغاً، وصفة الرياء تنقلب في القبر أفعى من الأفاعي وهو مأمور بتضعيفهما أو قتلهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما، فمهما قصد الرياء والسمعة فكأنه جعل بعض أطراف العقرب مقوّياً للحية فبقدر ما ضعف من العقرب زاد في قوّة الحية، ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه. وقوّة هذه الصفات التي بها قوّتها العمل بمقتضاها، وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها، فأي فائدة في أن يخالف دواعي البخل ويجيب دواعي الرياء فيضعف الأدنى ويقوّي الأقوى؟ وستأتي أسرار هذه المعاني في ربع المهلكات.

الوظيفة الرابعة: أن يظهر حيث يعلم أنَّ في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذي سنذكره في معالجة الرياء في كتاب الرياء، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧١]، وذلك حيث يقتضي الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل عن ملإٍ من الناس، فلا ينبغي أن يترك التصدّق خيفة من الرياء في الإظهار، بل ينبغي أن يتصدّق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان، وهذا لأن في الإظهار محذوراً ثالثاً سوى المنّ والرياء وهو هتك

---

(١) حديث: «إن العبد ليعمل عملاً في السر فيكتبه الله له سراً فإن أظهره نقل من السر..» الحديث. أخرج الخطيب في التاريخ من حديث أنس نحوه بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «سبعة يظلّهم الله في ظله..» الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «صدقة السر تطفىء غضب الرب». أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة، ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب، والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد كلاهما ضعيف، والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة: «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب». ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً.

(٤) حديث: «لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان» لم أظفر به هكذا.

ستر الفقير، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه، فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محظور، والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهي عنه، فأما من أظهره فإقامة الحدّ عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها. وبمثل هذا المعنى قال ﷺ: «مَنْ أَلْقَىٰ جِلْبَابَ الحَيَاءِ فَلا غِيبَةَ لَهُ»[1]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرّعد: ٢٢]. ندب إلى العلانية أيضاً لما فيها من فائدة الترغيب، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل. ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال.

الوظيفة الخامسة: أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى، قال الله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤]، واختلفوا في حقيقة المن والأذى، فقيل: المن أن يذكرها، والأذى أن يظهرها. وقال سفيان: من منَّ فسدت صدقته فقيل له: كيف المن؟ فقال: أن يذكره ويتحدّث به. وقيل: المن أن يستخدمه بالعطاء، والأذى أن يعيره بالفقر. وقيل: المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة. وقد قال ﷺ: «لا يَقْبَلُ اللَّهُ صَدَقَةَ مَنَّانٍ»[2]. وعندي أنّ المن له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح. فأصله أن يرى نفسه محسناً إليه ومنعماً عليه، وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عزّ وجلّ منه الذي هي طهرته ونجاته من النار، وأنه لو لم يقبله لبقي مرتهناً به فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائباً عن الله عزّ وجلّ في قبض حق الله عزّ وجلّ. قال رسول الله ﷺ: «إن الصَّدَقَةَ تَقَعُ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ»[3]، فليتحقق أنه مسلم إلى الله عزّ وجلّ حقه، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عزّ وجلّ. ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذي هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدي الدين كون القابض تحت منته سفهاً وجهلاً، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه، أما هو فإنما يقضي الذي لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع في حق نفسه فلم يمن به على غيره. ومهما عرف المعاني الثلاثة التي ذكرناها في فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه، إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى، أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل، أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد. وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حين يرى نفسه محسناً إليه، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسناً إليه تفرّع منّه على ظاهره ما ذكر في معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور، فهذه كلها ثمرات المنة. ومعنى المنة في الباطن ما ذكرناه.

وأما الأذى: فظاهره التوبيخ والتعيير، وتخشين الكلام، وتقطيب الوجه، وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف، وباطنه وهو منبعه أمران: **أحدهما**: كراهيته لرفع اليد عن المال وشدّة ذلك على

---

(١) حديث: «**من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له**». أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**لا يقبل الله صدقة منان**» هو كالذي قبله بحديث لم أجده.

(٣) حديث: «**إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل**». أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس، وقال: غريب من حديث عكرمة عنه، ورواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

نفسه فإنّ ذلك يضيق الخلق لا محالة. **والثاني**: رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه، وكلاهما منشؤه الجهل. أما كراهية تسليم المال فهو حمق؛ لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوي ألفاً فهو شديد الحمق، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عزّ وجلّ والثواب في الدار الآخرة، وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكراً لطلب المزيد، وكيفما فرض فالكراهة لا وجه لها. وأما الثاني: فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام. ولذلك قال ﷺ: «**هُمُ الأَخسَرُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ** فقال أبو ذر: من هم؟ قال: **هُمُ الأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً**» الحديث، ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له؟ إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد في حفظه بمقدار الحاجة، وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلم إليه، فالغني مستخدم للسعي في رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه، فإن مهما انتقلت الكراهية وتبدّلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له أداء الواجب وتفضيله الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ، وتقطيب الوجه وتبدّل بالاستبشار والثناء وقبول المنة، فهذا منشأ المنّ والأذى.

فإن قلت: فرؤيته نفسه في درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسناً؟ فاعلم أنّ له علامة دقيقة واضحة، وهو أن يقدّر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالأ عدوّاً له عليه مثلاً هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدّق؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك.

فإن قلت: فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه؟ فاعلم: أنَّ له دواءً باطناً ودواءً ظاهراً. أما الباطن: فالمعرفة بالحقائق التي ذكرناها في فهم الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه في تطهيره بالقبول. وأما الظاهر: فالأعمال التي يتعاطاها متقلد المنة فإن الأفعال التي تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق ـ كما سيأتي أسراره في الشطر الأخير من الكتاب ـ ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويتمثل قائماً بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده. وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هي العليا. وكانت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول: احفظ ما يدعو به، ثم كانتا تردان عليه مثل قوله وتقولان: هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا. فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله. وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبدالله رضي الله عنهما. وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم، ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل. وهذه الشريطة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة، وثبت ذلك بقوله ﷺ: «**لَيسَ لِلْمَرْءِ مِنْ صَلاتِهِ إلاَّ ما عَقَلَ مِنْها**»[1]. وهذا كقوله ﷺ: «**لا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ صَدَقَةَ مَنَّانٍ**»، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿**لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ**﴾

---

(١) حديث: «**ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها**»، تقدم في الصلاة.

[البَقَرَة: ٢٦٤]، وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط فحديث آخر، وقد أشرنا إلى معناه في كتاب الصلاة.

الوظيفة السادسة: أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبَة: ٢٥] ويقال: إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عزّ وجلّ، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عزّ وجلّ. وقيل: لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور: تصغيره وتعجيله وستره. وليس الاستعظام هو المن والأذى، فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى، بل العجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل. أما العلم: فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخسّ درجات البذل ـ كما ذكرنا في فهم الوجوب ـ فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه؟ فالمال لله عزّ وجلّ وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه؟ وأما العمل: فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عزّ وجلّ، فتكون هيئته الانكسار والحياء، كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض، لأن المال كله لله عزّ وجلّ وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ [محَمَّد: ٣٧].

الوظيفة السابعة: أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإذا كان المخرج منه شبهة فربما لا يكون ملكاً له مطلقاً فلا يقع الموقع. وفي حديث أبان عن أنس بن مالك: «**طُوبَىٰ لِعَبْدٍ أَنْفَقَ مِنْ مَالٍ اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ**»(١)، وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عزّ وجلّ غيره، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره، هذا إن كان نظره إلى الله عزّ وجلّ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى، والذي يأكله قضاء وطر في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٧]، أي لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض فلا تؤثروا به ربكم. وفي الخبر: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ**»(٢)، وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عزّ وجلّ بشيء مما يحبه. وبذلك ذم الله تعالى قوماً جعلوا لله ما يكرهون، فقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢]. وقف بعض القراء على النفي تكذيباً لهم، ثم ابتدأ

---

(١) حديث أنس: «**طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية**» أخرجه ابن عدي والبزار.

(٢) حديث: «**سبق درهم مائة ألف**». أخرجه النسائي وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة.

وقال: ﴿جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل: ٦٢]، أي كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار.

الوظيفة الثامنة: أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفي بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية، فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهي ستة:

الأولى: أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجرّدين لتجارة الآخرة. قال ﷺ: «**لا تَأْكُلْ إلاَّ طَعَامَ تَقِيٍّ وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ**»(١)، وهذا لأن التقي يستعين به على التقوى فتكون شريكاً في طاعته بإعانتك إياه، وقال ﷺ: «**أَطْعِمُوا طَعَامَكُمْ الأَتْقِيَاءَ وَأَوْلُوا مَعْرُوفَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ**»(٢)، وفي لفظ آخر: «**أَضِفْ بِطَعَامِكَ مَنْ تُحِبُّهُ فِي الله تَعَالَى**»(٣)، وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له: لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل، فقال: لا هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه فإذا طرقتهما فاقة تشتت هم أحدهم، فلأن أرد همة واحد إلى الله عزّ وجلّ أحب إليّ من أن أعطي ألفاً ممن همته الدنيا، فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال: هذا ولي من أولياء الله تعالى، وقال: ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا، ثم حكي أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالاً وقال: اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك، وكان هذا الرجل بقالاً لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه.

الصفة الثانية: أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية. وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له: لو عممت، فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل.

الصفة الثالثة: أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد. وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عزّ وجلّ وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة، فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه. وفي وصية لقمان لابنه: لا تجعل بينك وبين الله منعماً واعدد نعمة غيره عليك مغرماً. ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عزّ وجلّ إذ سلط الله تعالى عليه دواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عزّ وجلّ في قلبه أن صلاح دينه ودنياه في فعله. فمهما قوي الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوي الذي لا تردد فيه، والله عزّ وجلّ خالق للبواعث ومهيجها ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث. فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب، وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطي من ثناء غيره وشكره، فذلك حركة لسان يقل في الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيع. وأما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء، وأحواله

---

(١) حديث: «**لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي**». أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد بلفظ: «**لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

(٢) حديث: «**أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين**». أخرجه ابن المبارك في البر والصلة من حديث أبي سعيد الخدري. قال ابن طاهر: غريب فيه مجهول.

(٣) حديث: «**أضف بطعامك من يحبه الله**». أخرجه ابن المبارك أنبأنا جويبر عن الضحاك مرسلاً.

متفاوتة. وقد روي أنه ﷺ بعث معروفاً إلى بعض الفقراء، وقال للرسول: «احفظ ما يقول»؛ فلما أخذ قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ولا يضيع من شكره، ثم قال: اللهم إنك لم تنس فلاناً ـ يعني نفسه ـ فاجعل فلاناً لا ينساك ـ يعني بفلان نفسه ـ فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فسُرّ وقال ﷺ: «عَلِمْتُ أَنَّهُ يَقُولُ ذٰلِكَ»(١). فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده، وقال ﷺ لرجل: «تب». فقال: أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد؟ فقال ﷺ: «عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ»(٢). ولما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك قال أبو بكر رضي الله عنه: قومي فقبلي رأس رسول الله ﷺ فقالت: والله لا أفعل ولا أحمد إلا الله فقال ﷺ: «دَعْهَا يَا أَبَا بَكْرٍ»(٣)، وفي لفظ آخر: «أنها رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه: بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك، فلم ينكر رسول الله ﷺ عليها ذلك مع أن الوحي وصل إليها على لسان رسول الله ﷺ، ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٥]، ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي سره، فليتق الله سبحانه في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه.

الصفة الرابعة: أن يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى، أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته، فهو يتعيش في جلباب التجمل. قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣]، أي لا يلحون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم، وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال.

الصفة الخامسة: أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣]، أي حبسوا في طريق الآخرة

---

(١) حديث: «بعث معروفاً إلى بعض الفقراء وقال للرسول: «احفظ ما يقول» فلما أخذه قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره. . .» الحديث. لم أجد له أصلاً إلا في حديث ضعيف من حديث ابن عمر، وروى ابن مندة في الصحابة أوله ولم يسق هذه القطعة التي أوردها المصنف وسمي الرجل حديراً، فقد روينا من طريق البيهقي: «أنه وصل لحدير من أبي الدرداء شيء فقال: اللهم إنك لم تنس حديراً فاجعل حديراً لا ينساك» وقيل: إن هذا آخر لا صحبة له يكنى أبا جريرة وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

(٢) حديث: «قال لرجل: تب فقال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد. .» الحديث. أخرجه أحمد والطبراني من حديث الأسود بن سريع بسند ضعيف.

(٣) حديث: «لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر: قومي فقبلي رأس رسول الله ﷺ . .» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ: «فقال أبواي: قومي فقبلي رأس رسول الله ﷺ فقلت: أحمد الله لا إياكما»، وللبخاري تعليقاً «فقال أبواي: قومي إليه فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمدكما ولكن أحمد الله»، وله ولمسلم «فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله» وللطبراني «فقالت: بحمد الله لا بحمد صاحبك»، وله من حديث ابن عباس: «فقالت: لا بحمدك ولا بحمد صاحبك»، وله من حديث ابن عمر «فقال أبو بكر: قومي فاحتضني رسول الله ﷺ فقالت: لا والله لا أدنو منه. .» الحديث. وفيه «أنها قالت للنبيّ ﷺ بحمد الله لا بحمدك».

بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣]، لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف. فلهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطي أهل البيت القطيع من الغنم ـ العشرة فما فوقها ـ وكان ﷺ يعطي العطاء على مقدار العَيْلة[1]. وسئل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء، فقال: كثرة العيال وقلة المال.

الصفة السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى. قال علي رضي الله عنه: لأن أصل أخاً من إخواني بدرهم أحبّ إليّ من أن أتصدق بعشرين درهماً، ولأن أصله بعشرين درهماً أحب إليّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة. والأصدقاء وإخوان الخير أيضاً يقدّمون على المعارف كما يتقدّم الأقارب على الأجانب، فليراع هذه الدقائق.

فهذه هي الصفات المطلوبة، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى. ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، فإن أحد أجريه في الحال تطهير نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عزّ وجلّ في قلبه واجتهاده في طاعته، وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه فتشوّقه إلى لقاء الله عزّ وجلّ. والأجر الثاني: ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل، فإن أصاب حصل الأجران، وإن أخطأ حصل الأوّل دون الثاني، فبهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد ههنا وفي سائر المواضع، والله أعلم.

* * *

الفصل الثالث

في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق:

اعلم: أنه لا يستحق الزكاة إلا حرّ مسلمٌ ليس بهاشمي ولا مطلبي، اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عزّ وجلّ. ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبي. أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما. فلنذكر صفات الأصناف الثمانية.

الصنف الأوّل: الفقراء، والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين، وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير، وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولا سراويل، ولم تكن قيمة القميص بحيث تفي بجميع ذلك كما

---

(١) حديث: «كان يعطي العطاء على مقدار العيلة»، لم أر له أصلاً ولأبي داود من حديث عوف بن مالك: «أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه وأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حظاً».

يليق بالفقراء فهو فقير، لأنه في الحال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه، فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة فإن هذا غلو، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرجه عن الفقر كونه معتاداً للسؤال، فلا يجعل السؤال كسباً بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرجه عن الفقر، فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة، وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير، وإن كان متفقهاً ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته، وإن كان متعبداً يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك. قال ﷺ: «طَلَبُ الحَلالِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ الفَرِيضَةِ»(١)، وأراد به السعي في الاكتساب. وقال عمر رضي الله عنه: كسب في شبهة خير من مسألة. وإن كان مكتفياً بنفقة أبيه أو من تجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير.

الصنف الثاني: المساكين؛ والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه، فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأساً وحبلاً وهو غني، والدويرة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين، وكذا أثاث البيت ـ أعني ما يحتاج إليه ـ وذلك ما يليق به، وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكنة، وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر، وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه، ولكن ينبغي أن يحتاط في قطع الحاجة بالكتاب، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض: التعليم والاستفادة والتفرّج بالمطالعة. أما حاجة التفرج فلا تعتبر كاقتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع في الآخرة ولا يجري في الدنيا إلا مجرى التفرج والاستئناس، فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر وتمنع اسم المسكنة. وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم والمدرس بأجره فهذه آلته فلا تباع في الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين، وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة. وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به، فإن كان في البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه. ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدّة فينبغي أن يضبط مدّة الحاجة. والأقرب أن يقال: ما لا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه فإنّ من فضل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة. فإذا قدرنا القوت باليوم فحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغي أن تقدّر بالسنة، فلا تباع ثياب الصيف في الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه، وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداهما.

فإن قال: إحداهما أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما؟ قلنا: اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرّج والترفه، وإن كان نسختان من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى وجيزة، فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة فائدة ليست في الأخرى. وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرّض له في فنّ الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره. فإنّ استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدّى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مقدارها وعددها ونوعها وفي ثياب البدن وفي الدار وسعتها وضيقها. وليس لهذه الأمور حدود

---

(١) حديث: «**طلب الحلال فريضة بعد الفريضة**». أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

محدودة ولكنّ الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويقتحم فيه خطر الشبهات. والمتورّع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه. والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولا ينجي منها إلا الاحتياط، والله أعلم.

الصنف الثالث: العاملون؛ وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضي، ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفي والحافظ والنقال ولا يزاد واحد منهم على أجرة المثل، فإن فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كمل من مال المصالح.

الصنف الرابع: المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون في قومهم، وفي إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم.

الصنف الخامس: المكاتبون؛ فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعدّ عبداً له.

الصنف السادس: الغارمون؛ والغارم هو الذي استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير فإن استقرض في معصية فلا يعطى إلا إذا تاب، وإن كان غنياً لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة.

الصنف السابع: الغزاة؛ الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم، وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو.

الصنف الثامن: ابن السبيل؛ وهو الذي شخص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إن كان فقيراً وإن كان له مال ببلد آخر أعطي بقدر بلغته.

فإن قلت: فبم تعرف هذه الصفات؟ قلنا: أما الفقر والمسكنة، فبقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا يحلف بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه. وأما الغزو والسفر، فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله: إني غاز، فإن لم يف به استرد. وأما بقية الأصناف فلا بدّ فيها من البينة. فهذه شروط الاستحقاق. وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتي.

بيان وظائف القابض وهي خمسة:

الأولى: أن يعلم أنّ الله عزّ وجلّ أوجب صرف الزكاة إليه ليكفي همه ويجعل همومه هماً واحداً. فقد تعبد الله عزّ وجلّ الخلق بأن يكون همهم واحداً وهو الله سبحانه واليوم الآخر، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهي تفرّق همه اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكفي الحاجات، فأكثر الأموال وصبها في أيدي عباده لتكون آلة لهم في دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم، فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقحمه في الخطر، ومنهم من أحبه فحماه عن الدنيا كما يحمي المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب في الجمع والحفظ عليهم، وفائدته تنصب إلى الفقراء فيتجرّدون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تشغلهم عن التأهب الفاقة وهذا منتهى النعمة. فحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أنّ فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه ـ كما سيأتي في كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى ـ فليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقاً له وعوناً له على الطاعة ولتكن نيته فيه أن يتقوّى به على طاعة الله فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عزّ وجلّ، فإن استعان به

على معصية الله كان كافراً لأنعم الله عزّ وجلّ مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه.

الثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة، وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه، فقد قال ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ**»[(١)]، وقد أثنى الله عزّ وجلّ على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، إلى غير ذلك. وليقل القابض في دعائه: طهّر الله قلبك في قلوب الأبرار، وزكّى عملك في عمل الأخيار، وصلّى على روحك في أرواح الشهداء، وقد قال ﷺ: «**مَنْ أَسْدَىٰ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»[(٢)]، ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيّره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه. فوظيفة المعطي الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام، وعلى كل عبد القيام بحقه، وذلك لا تناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض. والنافع للمعطي ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه. وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عزّ وجلّ، فإن من لا يرى الواسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلاً.

الثالثة: أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع عنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ولن يعدم المتورّع عن الحرام فتوحاً من الحلال، فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكاً معيناً فله أن يأخذ بقدر الحاجة، فإنّ فتوى الشرع في مثل هذا أن لا يتصدّق به ـ على ما سيأتي بيانه في كتاب الحلال والحرام ـ وذلك إذا عجز عن الحلال فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام.

الرابعة: أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا المقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق. فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل. وإن أعطى زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطي حتى يتبرع به. وإن كان مسافراً لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده، وإن كان غازياً لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة، وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حدّ، وكذا زاد السفر، والورع ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه. وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أوّلاً إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها ما يستغني عنه بعينه أو يستغني عن نفاسته فيمكن أن يبدل بما يكفي ويفضل بعض قيمته؟ وكل ذلك إلى اجتهاده. وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق وبينهما أوساط مشتبهة، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، والاعتماد في هذا على قول الآخذ ظاهراً. وللمحتاج في تقدير الحاجات مقامات في التضييق والتوسيع، ولا تحصر مراتبه وميل الورع إلى التضييق

---

(١) حديث: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**». أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد، وله ولأبي داود وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح.

(٢) حديث: «**من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه...**» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ: «من صنع».

وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجاً إلى فنون من التوسع وهو ممقوت في الشرع. ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالاً كثيراً بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة، فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إنّ السنة إذا تكرّرت تكرّرت أسباب الدخل، ومن حيث إنّ رسول الله ﷺ ادخر لعياله قوت سنة(١)، فهذا أقرب ما يحدّ به حدّ الفقير والمسكين، ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى. ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة، فمن مبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية: «أنه ﷺ نهى عن السؤال مع الغنى فسئل عن غناه فقال ﷺ: **غَدَاؤُهُ وَعَشَاؤُهُ**»(٢)، وقال آخرون: يأخذ إلى حدّ الغنى، وحدّ الغنى نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا: له أن يأخذ لنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة. وقال آخرون: حد الغنى خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود أنه ﷺ قال: «**مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَالٌ يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَفِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ**»، فسئل: وما غناه؟ قال: «**خَمْسُونَ دِرْهَماً أَوْ قِيمَتُهَا مِنَ الذَّهَبِ**»(٣)، وقيل: راويه ليس بقوي. وقال قوم: أربعون، لما رواه عطاء بن يسار منقطعاً أنه ﷺ قال: «**مَنْ سَأَلَ وَلَهُ أُوقِيَةٌ فَقَدْ أَلْحَفَ فِي السُّؤَالِ**»(٤)، وبالغ آخرون في التوسيع فقالوا: له أن يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغني به طول عمره أو يهيىء بضاعة ليتجر بها ويستغني بها طول عمره لأن هذا هو الغنى، وقد قال عمر رضي الله عنه: إذا أعطيتم فأغنوا. حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال. ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال: جعلته صدقة، فقال ﷺ: «**اجْعَلْهُ فِي قَرَابَتِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»(٥)، فأعطاه حسان وأبا قتادة. فحائط من نخل لرجلين كثير مغن، وأعطى عمر رضي الله عنه أعرابياً ناقة معها ظئر لها فهذا ما حكي فيه. فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر، بل التجويز إلى أن يشتري ضيعة فيستغني بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضاً مائل إلى الإسراف. والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فما وراءه فيه خطر وفيما دونه تضييق. وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له. ثم يقال للورع: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ**»(٦)، كما قاله ﷺ إذ الإثم حزاز القلوب، فإذا وجد القابض في نفسه شيئاً مما يأخذه فليتق الله فيه ولا يترخص تعللاً بالفتوى

---

(١) حديث: «ادخر لعياله قوت سنة». أخرجاه من حديث عمر: «كان يعزل نفقة أهله سنة» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس: «كان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقي» قال الذهبي: حديث منكر.

(٢) حديث سهل بن الحنظلية: «في النهي عن السؤال مع الغنى فيسأل ما يغنيه فقال: **غداؤه وعشاؤه**». أخرجه أبو داود وابن حبان بلفظ: «**من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم..**» الحديث.

(٣) حديث ابن مسعود: «**من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش..**» الحديث. أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي وضعفه النسائي والخطابي.

(٤) حديث عطاء بن يسار منقطعاً: «**من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال**». أخرجه أبو داود والنسائي من رواية عطاء عن رجل من بني أسد متصلاً وليس بمنقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته، وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد.

(٥) حديث: «لما شغل أبا طلحة بستانه عن الصلاة قال: جعلته صدقة» تقدم في الصلاة.

(٦) حديث: «**استفت قلبك وإن أفتوك**» تقدم في العلم.

من علماء الظاهر، فإن لفتواهم قيوداً ومطلقات من الضرورات، وفيها تخمينات واقتحام شبهات. والتوقي من الشبهات من شيم ذوي الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة.

الخامسة: أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه، فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن فلينقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه. وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق، فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم. وسيأتي ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال في كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى.

***

الفصل الرابع

في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة:

من الأخبار: قوله ﷺ: «**تَصَدَّقُوا وَلَوْ بِتَمْرَةٍ فَإِنَّها تَسُدُّ مِنَ الجَائِعِ وَتُطْفِىءُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ المَاءُ النَّارَ**»[١]، وقال ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»[٢]، وقال ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ طَيِّباً إِلاَّ كَانَ اللَّهُ آخِذَها بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيها كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَصِيلَهُ حَتَّىٰ تَبْلُغَ التَّمْرَةُ مِثْلَ أُحُدٍ**»[٣]. وقال ﷺ لأبي الدرداء: «**إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَها ثُمَّ انْظُرْ إِلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهُ بِمَعْرُوفٍ**»[٤]، وقال ﷺ: «**مَا أَحْسَنَ عَبْدٌ الصَّدَقَةَ إِلاَّ أَحْسَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الخِلافَةَ عَلَىٰ تَرِكَتِهِ**»[٥]، وقال ﷺ: «**كُلُّ امْرِىءٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ**»[٦]،

---

(١) حديث: «**تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار**» أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عكرمة مرسلاً. ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن: «**استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان**» ولأبي يعلى والبزار من حديث أبي بكر: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقوم العوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان**»، وإسناده ضعيف وللترمذي والنسائي في الكبرى وابن ماجه في حديث معاذ: «**والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار**».

(٢) حديث: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة**» أخرجاه من حديث عدي بن حاتم.

(٣) حديث: «**ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً..**» الحديث. أخرجه البخاري تعليقاً ومسلم والترمذي والنسائي في الكبرى، واللفظ لابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «**قال لأبي الدرداء: إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها..**» الحديث. أخرجه من حديث أبي ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبي الدرداء وهم.

(٥) حديث: «**ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته**». أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث ابن شهاب مرسلاً بإسناد صحيح وأسنده الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه.

(٦) حديث: «**كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس**» أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة بن عامر.

وقال ﷺ: «الصَّدَقَةُ تَسُدُّ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الشَّرِّ»(١)، وقال ﷺ: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِىءُ غَضَبَ الربِّ عَزَّ وَجَلَّ»، وقال رسول الله ﷺ: «ما الَّذِي أَعْطَىٰ مِنْ سَعَةٍ بِأَفْضَل أَجراً مِنَ الَّذِي يَقْبَلُ مِنْ حَاجَةٍ»(٢)، ولعل المراد به الذي يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساوياً للمعطي الذي يقصد بإعطائه عمارة دينه. وسئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ البَقَاءَ وَتَخْشَىٰ الفَاقَةَ وَلا تُمْهِلَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلانٍ كَذا وَلِفُلانٍ كَذا وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ»(٣)، وقد قال ﷺ يوماً لأصحابه: «تَصَدَّقُوا» فقال رجل: إن عندي ديناراً، فقال: «أَنْفِقْهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ» فقال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقْهُ عَلَىٰ زَوْجَتِكَ» قال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقْهُ عَلَىٰ وَلَدِكَ» قال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقْهُ عَلَىٰ خَادِمِكَ» قال: إن عندي آخر، قال ﷺ: «أَنْتَ أَبْصَرُ بِهِ»(٤)، وقال ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّما هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ»(٥)، وقال: «رُدُّوا مَذَمَّةَ السَّائِلِ وَلَوْ بِمِثْلِ رَأْسِ الطَّائِرِ مِنَ الطَّعَامِ»(٦)، وقال ﷺ: «لَوْ صَدَقَ السَّائِلُ ما أَفْلَحَ مَنْ رَدَّهُ»(٧). وقال عيسى عليه السلام: من رد سائلاً خائباً من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام. وكان نبينا ﷺ لا يكل خصلتين إلى غيره: كان يضع طهوره بالليل ويخمره وكان يناول المسكين بيده(٨)، وقال ﷺ: «لَيسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ إِنَّما المِسْكِينُ المُتَعَفِّفُ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣]»(٩)، وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِماً إِلاَّ كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا دَامَتْ عَلَيْهِ مِنْهُ رُقْعَةٌ»(١٠).

الآثار: قال عروة بن الزبير: لقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بخمسين ألفاً وإن درعها لمرقع، وقال مجاهد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسَان: ٨]، فقال:

---

(١) حديث: «الصدقة تسد سبعين باباً من الشر». أخرجه ابن المبارك في البر من حديث أنس بسند ضعيف: «إن الله ليدرأ بالصدقة سبعين باباً من ميتة السوء».

(٢) حديث: «ما المعطي من سعة بأفضل أجراً من الذي يقبل من حاجة». أخرجه ابن حبان في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث أنس ورواه في الكبير من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٣) حديث: «سئل أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح...» الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «قال يوماً لأصحابه تصدقوا فقال رجل: إن عندي ديناراً، فقال: أنفقه على نفسك..» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي واللفظ له وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة. وقد تقدم قبل بيسير.

(٥) حديث: «لا تحل الصدقة لآل محمد..» الحديث. أخرجه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة.

(٦) حديث: «ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام» أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث عائشة.

(٧) حديث: «لو صدق السائل ما أفلح من رده» أخرجه العقيلي في الضعفاء وابن عبدالبر في التمهيد من حديث عائشة، قال العقيلي: لا يصح في هذا الباب شيء، وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

(٨) حديث: «كان لا يكل خصلتين إلى غيره..» الحديث. أخرجه الدارقطني من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك في البر مرسلاً.

(٩) حديث: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان..» الحديث. متفق عليه من حديث عائشة.

(١٠) حديث: «ما من مسلم يكسو مسلماً إلا كان في حفظ الله..» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس، وفيه خالد بن طهمان ضعيف.

وهم يشتهونه. وكان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوي الحاجة منا. وقال عمر بن عبدالعزيز: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه. وقال ابن أبي الجعد: إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء وفضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفاً وإنها لتفك لحي سبعين شيطاناً. وقال ابن مسعود: إن رجلاً عَبَدَ الله سبعين سنة، ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة. وقال لقمان لابنه: إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة. وقال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة. وقال عبدالعزيز بن أبي روّاد: كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة: كتمان المرض، وكتمان الصدقة، وكتمان المصائب، وروي مسنداً. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن. وكان عبدالله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول: سمعت الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٢]، والله يعلم أني أحب السكر. وقال النخعي: إذا كان الشيء لله عزّ وجلّ لا يسرني أن يكون فيه عيب. وقال عبيد بن عمير: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، وأعرى ما كانوا قط، فمن أطعم لله عزّ وجلّ أشبعه الله، ومن سقى لله عزّ وجلّ سقاه الله، ومن كسا لله عزّ وجلّ كساه الله. وقال الحسن: لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض. وقال الشعبي: من لم يَرَ نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه. وقال مالك: لا نرى بأساً بشرب المؤمن من الماء الذي يتصدق به ويسقى في المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان، ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص. ويقال: إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال للنخاس: أترضى في ثمنها الدرهم والدرهمين؟ قال: لا، قال: فاذهب فإن الله عزّ وجلّ رضي في الحور العين بالفلس واللقمة.

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها:

قد اختلف طريق طلاب الإخلاص في ذلك؛ فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل، ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل، ونحن نشير إلى ما في كل واحد من المعاني والآفات، ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه.

أما الإخفاء ففيه خمسة معان:

الأول: أنه أبقى للستر على الآخذ، فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المروءة، وكشف عن الحاجة، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف.

الثاني: أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم، فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء أو ينسبونه إلى أخذ زيادة. والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى. وقال أبو أيوب السختياني: إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسداً. وقال بعض الزهاد: ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون: من أين له هذا؟ وعن إبراهيم التيمي أنه رئي عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه: من أين لك هذا؟ فقال: كسانيه أخي خيثمة ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته.

الثالث: إعانة المعطي على إسرار العمل، فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر، والإعانة

على إتمام المعروف معروف، والكتمان لا يتم إلا باثنتين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى. ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فرده إليه، ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله، فقيل له في ذلك فقال: إن هذا عمل الأدب في إخفاء معروفه فقبلته، وذاك أساء أدبه في عمله فرددته عليه. وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئاً في الملأ فرده، فقال له: لم ترد على الله عزّ وجلّ ما أعطاك؟ فقال: إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عزّ وجلّ فرددت عليك شركك. وقبل بعض العارفين في السر شيئاً كان رده في العلانية فقيل له في ذلك، فقال: عصيت الله بالجهر، فلم أكُ عوناً لك على المعصية، وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك. وقال الثوري: لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته.

الرابع: أنّ في إظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً وليس للمؤمن أن يذل نفسه. كان بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية ويقول: إنّ في إظهاره إذلالاً للعلم وامتهاناً لأهله فما كنت بالذي أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله.

الخامس: الاحتراز عن شبهة الشركة. قال ﷺ: **«مَنْ أُهْدِيَ لَهُ هَدِيَّةٌ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَهُمْ شُرَكَاؤُهُ فِيهَا»**[(١)]، وبأن يكون ورقاً أو ذهباً لا يخرج عن كونه هدية، قال ﷺ: **«أَفْضَلُ مَا يُهْدِي الرَّجُلُ إِلَىٰ أَخِيهِ وَرِقاً أَوْ يُطْعِمُهُ خُبْزاً»**[(٢)]، فجعل الورق هدية بانفراده فما يعطى في الملأ مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة.

أما الإظهار والتحدث به ففيه معان أربعة:

الأول: الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة.

الثاني: إسقاط الجاه والمنزلة، وإظهار العبودية والمسكنة، والتبرّي عن الكبرياء ودعوى الاستغناء، وإسقاط النفس من أعين الخلق. قال بعض العارفين لتلميذه: أظهر الأخذ على كل حال إن كنت آخذاً فإنك لا تخلو عن أحد رجلين: رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك، أو رجل تزداد في قلبه بإظهارك الصدق فذلك الذي يريده أخوك لأنه يزداد ثواباً بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك، فتؤجر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه.

الثالث: هو أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عزّ وجلّ، والسر والعلانية في حقه واحد فاختلاف الحال شرك في التوحيد. قال بعضهم: كنا لا نعبأ بدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية. والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان في الحال، بل ينبغي أن يكون النظر مقصور على الواحد الفرد.

حكي أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين فشق على الآخرين فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال: لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد، فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فإنه رد الدجاجة، فسألهم فقالوا: فعلنا ما

---

(١) حديث: «من أهدي له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها». أخرجه العقيلي وابن حبان في الضعفاء والطبراني في الأوسط، والبيهقي من حديث ابن عباس. قال العقيلي: لا يصح في هذا المتن حديث.

(٢) حديث: «أفضل ما يهدي الرجل إلى أخيه ورقاً أو يطعمه خبزاً». أخرجه ابن عدي وضعفه من حديث ابن عمر: «أفضل العمل عند الله أن يقضي عن مسلم دينه أو يدخل عليه سروراً أو يطعمه خبزاً». ولأحمد والترمذي وصححه من حديث البراء: «من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدى رقاقاً فهو كعتاق نسمة».

أمرنا به الشيخ، فقال الشيخ للمريد: ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال ذلك المريد: لم أقدر على مكان لا يراني فيه أحد فإن الله يراني في كل موضع، فقال الشيخ: لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عزّ وجلّ.

الرابع: أنَّ الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، والكتمان كفران النعمة، وقد ذم الله عزّ وجلّ من كتم ما آتاه الله عزّ وجلّ وقرنه بالبخل فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٧]، وقال ﷺ: «**إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ تُرَىٰ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ**»(١). وأعطى رجل بعض الصالحين شيئاً في السر فرفع به يده وقال: هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر في أمور الآخرة أفضل. ولذلك قال بعضهم: إذا أعطيت في الملأ فخذ ثم اردد في السر، والشكر فيه محثوث عليه. قال ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ**»(٢)، والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال ﷺ: «**مَنْ أَسْدَىٰ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَأَثْنُوا عَلَيْهِ بِهِ خَيْراً وَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»، ولما قال المهاجرون في الشكر: يا رسول الله، ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال ﷺ: «**كُلُّ مَا شَكَرْتُمْ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيهِم بِهِ فَهُوَ مُكَافَأَةٌ**»(٣).

فالآن إذا عرفت هذه المعاني فـ**اعلم**: أنّ ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافاً في المسألة بل هو اختلاف حال، فكشف الغطاء في هذا أنّا لا نحكم حكماً بتاً بأن الإخفاء أفضل في كل حال أو الإظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص. فينبغي أن يكون المخلص مراقباً لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان، والمكر والخداع أغلب في معاني الإخفاء منه في الإظهار مع أن له دخلاً في كل واحد منهما. فأما مدخل الخداع في الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من خفض الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء وإلى المعطي بعين المنعم المحسن، فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس. والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتعلل بالمعاني الخمسة التي ذكرناها. ومعيار كل ذلك وَمَحَكّه أمرٌ واحدٌ وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله، فإنه إن كان يبغي صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن أو يتقي انتهاك الستر أو إعانة المعطي على الإسرار أو صيانة العلم عن الابتذال، فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعاني أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه، فإن إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو. والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص، ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه، وإلا فلا يزال كثير العمل قليل

---

(١) حديث: «**إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى عليه**». أخرجه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) حديث: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**» تقدم.

(٣) حديث: «**قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عليهم. .**» الحديث. أخرجه الترمذي وصححه من حديث أنس، ورواه مختصراً أبو داود والنسائي في اليوم والليلة والحاكم وصححه ابن ماجه.

الحظ. وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطييب لقلب المعطي واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتفقده وهذا داء دفين في الباطن، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يُرَوِّجُ عليه هذا الخبث في معرض السنة ويقول له: الشكر من السّنة والإخفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار، وقصده الباطن ما ذكرناه، ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهي الخبر إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه، وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفي ولا يشكر. فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة وإلا فهو مغرور. ثم إذا علم أن باعثه السنة في الشكر فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطى، فينظر فإن كان هو ممن يحب الشكر والنشر، فينبغي أن يخفي ولا يشكر؛ لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم. وإذا علم من حاله أنه لا يحب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته. ولذلك قال ﷺ للرجل الذي مدح بين يديه: «**ضَرَبْتُمْ عُنُقَهُ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ**»(١)، مع أنه ﷺ كان يثني على قوم في وجوههم لثقته بيقينهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد في رغبتهم في الخير فقال لواحد: «**إِنَّهُ سَيِّدُ أَهْلِ الوَبَرِ**»(٢) ،وقال ﷺ في آخر: «**إِذَا جَاءَكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**»(٣)، وسمع كلام رجل فأعجبه، فقال ﷺ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً**»(٤)، وقال ﷺ: «**إِذَا عَلِمَ أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ خَيْراً فَلْيُخْبِرْهُ فَإِنَّهُ يَزْدادُ رَغْبَةً فِي الخَيْرِ**»(٥)، وقال ﷺ: «**إِذَا مُدِحَ المُؤْمِنُ رَبَا الإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ**»(٦)، وقال الثوري: من عرف نفسه لم يضره مدح الناس. وقال أيضاً ليوسف بن أسباط: إذا أوليتك معروفاً كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عزّ وجلّ عليّ فاشكر وإلا فلا تشكر. ورقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعي قلبه فإنّ أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع، ومثل هذا العلم هو الذي يقال فيه: إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة؛ إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمل وبالجهل به تموت عبادة العمل كله وتتعطل. وعلى الجملة فالأخذ في الملأ والرد في السر أحسن المسالك وأسلمها، فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن

---

(١) حديث: «قال للرجل الذي مدح بين يديه: **ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح**»، متفق عليه من حديث أبي بكر بلفظ: «**ويحك قطعت عنق صاحبك**»، زاد الطبراني في رواية: «**والله لو سمعها ما أفلح أبداً**». وفي سنده علي بن زيد بن جدعان متكلم فيه وابن ماجه نحوه من حديث أبي موسى.

(٢) حديث: «**إنه سيد الوبر**». أخرجه العنبري والطبراني وابن قانع في معاجمهم وابن حبان في الثقات من حديث قيس بن عاصم المقري: «**أن النبيّ ﷺ قال له ذلك**».

(٣) حديث: «**إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه**». أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر، ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الشعبي مرسلاً بسند صحيح، وقال: روي متصلاً وهو ضعيف، والحاكم نحوه من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه وصحح إسناده.

(٤) حديث: «**إن من البيان لسحراً**». أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

(٥) حديث: «**إذا علم أحدكم من أخيه خيراً فليخبره فإنه يزداد رغبة في الخير**». أخرجه الدارقطني في العلل من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة، وقال: لا يصح عن الزهري، وروي عن ابن المسيب مرسلاً.

(٦) حديث: «**إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه**». أخرجه الطبراني من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف.

تكمل المعرفة بحيث يستوي السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يتحدث به ولا يرى. نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق.

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة:

كان إبراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل، فإن في أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقاً عليهم، ولأنه ربما لا يكمل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز، وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع. وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب. ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا، ولأن الزكاة لا منّة فيها وإنما هو واجب لله سبحانه رزقاً لعباده المحتاجين، ولأنه أخذ بالحاجة، والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعاً. وأخذ الصدقة أخذ بالدين فإنّ الغالب أنّ المتصدّق يعطي من يعتقد فيه خيراً، ولأنّ مرافقة المساكين أدخل في الذل والمسكنة وأبعد من التكبر؛ إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية فلا تتميز عنه، وهذا تنصيص على ذلّ الآخذ وحاجته. والقول الحق في هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية، فإن كان في شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة، فإذا علم أنه مستحق قطعاً إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه في قضائه فهو مستحق قطعاً. فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدّق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة؛ فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين. وإن كان المال معرّضاً للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير والأمر فيهما يتفاوت. وأخذ الزكاة أشدّ في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال، والله أعلم.

كمل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم، والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين
وعلى الملائكة والمقرّبين من أهل السموات والأرضين
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين
والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب أسرار الصوم

الحمد لله الذي أعظم على عباده المنة، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه، ورد أمله وخيب ظنه؛ إذ جعل الصوم حصناً لأوليائه وجُنّة، وفتح لهم به أبواب الجنّة، وعرّفهم أنّ وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة، وإنّ بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة في قصم خصمها قوية المنة، والصلاة على محمد قائد الخلق وممهد السنّة وعلى آله وأصحابه ذوي الأبصار الثاقبة والعقول المرجحة وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد: فإن الصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله ﷺ: **«الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»**(١)، وبمقتضى قوله ﷺ: **«الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ»**(٢)، ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان. إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه ﷺ: **«كُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلاَّ الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»**(٣)، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠]، والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب، وناهيك في معرفة فضله قوله ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ. يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّمَا يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لأَجْلِي فَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»**(٤)، وقال ﷺ: **«لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ لا يَدْخُلُهُ إِلاَّ الصَّائِمُونَ وَهُوَ مَوْعُودٌ بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي جُزْءِ صَوْمِهِ»**(٥)، وقال ﷺ: **«لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ»**(٦)، وقال ﷺ: **«لِكُلِّ شَيْءٍ بَابٌ وَبَابُ العِبَادَةِ الصَّوْمُ»**(٧)، وقال ﷺ: **«نَوْمُ الصَّائِمِ عِبَادَةٌ»**(٨)، وروى أبو هريرة رضي الله عنه، أنه ﷺ قال: **«إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَنَادَىٰ مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الخَيْرِ هَلُمَّ وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ»**(٩)، وقال

كتاب أسرار الصيام

(١) حديث: **«الصوم نصف الصبر»**. أخرجه الترمذي وحسنه من حديث رجل من بني سليم، وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«الصبر نصف الإيمان»**. أخرجه أبو نعيم في الحلية، والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن.

(٣) حديث: **«كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم...»**. الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: **«والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم..»** الحديث. أخرجاه من حديثه وهو بعض الذي قبله.

(٥) حديث: **«للجنة باب يقال له الريان..»** الحديث. أخرجاه من حديث سهل بن سعد.

(٦) حديث: **«للصائم فرحتان..»** الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: **«لكل شيء باب وباب العبادة الصوم»**. أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

(٨) حديث: **«نوم الصائم عبادة»**. رويناه في أمالي ابن منده من رواية ابن المغيرة القواس عن عبدالله بن عمر بسند ضعيف ولعله عبدالله بن عمرو فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة رواية إلا عنه، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبدالله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو النخعي أحد الكذابين.

(٩) حديث: **«إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة»**. أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه، والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي هريرة، وصحح البخاري وقفه على مجاهد، وأصله متفق عليه دون قوله: **«ونادى مناد»**.

وكيع في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقّة: ٢٤] هي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب، وقد جمع رسول الله ﷺ في رتبة المباهاة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ بِالشَّابِّ العَابِدِ فَيَقُولُ: أَيُّهَا الشَّابُّ التَّارِكُ شَهْوَتَهُ لأَجْلِي المُبْذِلِ شَبَابَهُ لِي أَنْتَ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلَائِكَتِي**»[1]، وقال ﷺ في الصائم: «**يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا يَا مَلَائِكَتِي إِلَىٰ عَبْدِي تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَلَذَّتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي**»[2]، وقيل في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السّجدَة: ١٧]، قيل: كان عملهم الصيام لأنه قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠]، فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغاً ويجازف جزافاً فلا يدخل تحت وهم وتقدير، وجدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفاً بالنسبة إليه، وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعنيين:

أحدهما: أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يراه إلا الله عزّ وجلّ فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرّد.

والثاني: أنه قهر لعدوّ الله عزّ وجلّ، فإن وسيلة الشيطان لعنه الله الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب. لذلك قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالجُوعِ**»[3]، ولذلك قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**دَاوِمِي قَرْعَ بَابِ الجَنَّةِ**، قالت: بماذا؟ قال ﷺ: **بِالجُوعِ**»[4]، وسيأتي فضل الجوع في كتاب ـ شره الطعام وعلاجه من ربع المهلكات ـ فلما كان الصوم على الخصوص قمعاً للشيطان وسدّاً لمسالكه وتضييقاً لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ، ففي قمع عدوّ الله نصرة لله سبحانه، وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له، قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمَّد: ٧] فالبداية بالجهد من العبد والجزاء بالهداية من الله عزّ وجلّ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العَنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١]، وإنما التغيير تكثير الشهوات فهي مرتع الشياطين ومرعاهم فما دامت مخصبة لم ينقطع ترددهم وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوباً عن لقائه. وقال ﷺ: «**لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَىٰ قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَىٰ مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ**»[5]، فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنّة وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحدّ فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة، ونبين ذلك بثلاثة فصول.

* * *

(١) حديث: «**إن الله تعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول: أيها الشاب التارك شهوته..**» الحديث. أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**يقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي**».

(٣) حديث: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم..**» الحديث. متفق عليه من حديث صفية دون قوله: «**فضيقوا مجاريه بالجوع**».

(٤) حديث: «**قال لعائشة: داومي قرع باب الجنة..**» الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٥) حديث: «**لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم..**» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه.

الفصل الأول

في الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فستة:

الأول: مراقبة أوّل شهر رمضان؛ وذلك برؤية الهلال، فإن غُمّ فاستكمال ثلاثين يوماً من شعبان. ونعني بالرؤية العلم، ويحصل ذلك بقول عدل واحد. ولا يثبت هلال شوّال إلا بقول عدلين احتياطاً للعبادة. ومن سمع عدلاً ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم، وإن لم يقض القاضي به فليتبع كل عبد في عبادته موجب ظنه. وإذا رئي الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل، وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولا يتعدّى الوجوب.

الثاني: النية؛ ولا بد لكل ليلة من نية مبينة معينة جازمة، فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه، وهو الذي عنينا بقولنا: «كل ليلة»، ولو نوى بالنهار لم يجزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوّع، وهو الذي عنينا بقولنا: «مبيتة» ولو نوى الصوم مطلقاً أو الفرض مطلقاً لم يجزه حتى ينوي فريضة الله عزّ وجلّ صوم رمضان، ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غداً إن كان من رمضان لم يجزه، فإنها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل، واحتمال غلط العدل أو كذبه لا يبطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال كالشك في الليلة الأخيرة من رمضان، فذلك لا يمنع جزم النية أو يستند إلى اجتهاد كالمحبوس في المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشكه لا يمنعه من النية. ومهما كان شاكاً ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان، فإن النية محلها القلب، ولا يتصوّر فيه جزم القصد مع الشك كما لو قال في وسط رمضان: أصوم غداً إن كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ ومحل النية لا يتصوّر فيه تردد، بل هو قاطع بأنه من رمضان. ومن نوى ليلاً ثم أكل لم تفسد نيته، ولو نوت امرأة في الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها.

الثالث: الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم؛ فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة، ولا يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وإدخال الميل في الأذن والإحليل إلا أن يقطر فيه ما يبلغ المثانة. وما يصل بغير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة، فلا يفطر إلا إذا بالغ في المضمضة فيفطر لأنه مقصر وهو الذي أردنا بقولنا: «عمداً» فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناسي فإنه لا يفطر. أما من أكل عامداً في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل نهاراً بالتحقيق فعليه القضاء، وإن بقي على حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه ولا ينبغي أن يأكل في طرفي النهار إلا بنظر واجتهاد.

الرابع: الإمساك عن الجماع؛ وحدّه مغيب الحشفة وإن جامع ناسياً لم يفطر، وإن جامع ليلاً أو احتلم فأصبح جنباً لم يفطر، وإن طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع في الحال صح صومه فإن صبر فسد ولزمته الكفارة.

الخامس: الإمساك عن الاستمناء، وهو إخراج المنيّ قصداً بجماع أو بغير جماع فإن ذلك يفطر، ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم يُنزل، لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخاً أو مالكاً لإربه، فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى. وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنيّ أفطر لتقصيره.

السادس: الإمساك عن إخراج القيء، فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند ذلك.

وأما لوازم الإفطار فأربعة:

القضاء والكفارة والفدية وإمساك بقية النهار تشبيهاً بالصائمين.

أما القضاء: فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر، فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد، وأما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم. ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان، ولكن يقضي كيف شاء متفرقاً ومجموعاً.

وأما الكفارة: فلا تجب إلا بالجماع وأما الاستمناء والأكل والشرب وما عدا الجماع لا يجب به كفارة، فالكفارة عتق رقبة فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فإطعام ستين مسكيناً مدّاً مدّاً.

وأما إمساك بقية النهار: فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه. ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها، ولا على المسافر إذا قدم مفطراً من سفر بلغ مرحلتين. ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك. والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق، ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيماً في أوله ولا يوم يقدم إذا قدم صائماً.

وأما الفدية: فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما، لكل يوم مدّ حنطة لمسكين واحد مع القضاء، والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مداً.

وأما السنن فست: تأخير السحور، وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة، وترك السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضان لما سبق من فضائله في الزكاة، ومدارسة القرآن، والاعتكاف في المسجد، لا سيما في العشر الأخير فهو عادة رسول الله ﷺ: «كَانَ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ الأَوَاخِرُ طَوَىٰ الفِرَاشَ وَشَدَّ المِئْزَرَ وَدَأَبَ وَأَدْأَبَ أَهْلَهُ»(١)، أي أداموا النصب في العبادة إذ فيها ليلة القدر، والأغلب أنها في أوتارها وأشبه الأوتار ليلة إحدى وثلاث وخمس وسبع. والتتابع في هذا الاعتكاف أولى فإن نذر اعتكافاً متتابعاً أو نواه انقطع تتابعه بالخروج من غير ضرورة، كما لو خرج لعيادة أو شهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة، وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع، وله أن يتوضأ في البيت، ولا ينبغي أن يعرج على شغل آخر. «كان ﷺ لا يخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض إلا ماراً»(٢) ويقطع التتابع بالجماع ولا ينقطع بالتقبيل. ولا بأس في المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والنوم وغسل اليد في الطست، فكل ذلك قد يحتاج إليه في التتابع. ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه. «كان ﷺ يدني رأسه فترجله عائشة رضي الله عنها وهي في الحجرة»(٣)، ومهما خرج المعتكف

---

(١) حديث: «كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش..» الحديث. متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «أحيا الليل وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئزر».

(٢) حديث: «كان لا يخرج إلا لحاجة ولا يسأل عن المريض إلا ماراً» متفق على الشطر الأول من حديث عائشة، والشطر الثاني، رواه أبو داود بنحوه بسند لين.

(٣) حديث: «كان يدني رأسه لعائشة» متفق عليه من حديثها.

لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغي أن يستأنف النية إلا إذا كان قد نوى أولاً عشرة أيام مثلاً. والأفضل مع ذلك التجديد.

***

الفصل الثاني

في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم: أنَّ الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص. أما صوم العموم: فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله. وأما صوم الخصوص: فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وأما صوم خصوص الخصوص: فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عزّ وجلّ بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عزّ وجلّ واليوم الآخر وبالفكر في الدنيا، إلا دنيا تراد للدين فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا، حتى قال أرباب القلوب: من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عزّ وجلّ وقلة اليقين برزقه الموعود، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقرّبين ولا يطوّل النظر في تفصيلها قولاً ولكن في تحقيقها عملاً، فإنه إقبال بكنه الهمة على الله عزّ وجلّ وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعَام: ٩١]، وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين، فهو كف الجوارح عن الآثام، وتمامه بستة أمور:

الأول: غض البصر وكفُه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عزّ وجلّ. قال ﷺ: **«النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ فَمَنْ تَرَكَها خَوفاً مِنَ اللَّهِ آتاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إيمَاناً يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»**(١)، وروى جابر عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«خَمْسٌ يُفَطِّرْنَ الصَّائِمَ: الكَذِبُ وَالغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ وَاليَمِينُ الكَاذِبَةُ وَالنَّظَرُ بِشَهْوَةٍ»**(٢).

الثاني: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان. وقد قال سفيان: الغيبة تفسد الصوم. رواه بشر بن الحارث عنه. وروى ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب. وقال ﷺ: **«إِنَّما الصَّوْمُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً فَلا يَرْفُثْ وَلا يَجْهَلْ وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ:**

---

(١) حديث: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس..**» الحديث. أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة.

(٢) حديث جابر عن أنس: «**خمس يفطرن الصائم..**» الحديث. أخرجه الأزدي في الضعفاء من رواية جابان عن أنس وقوله: جابر تصحيف، قال أبو حاتم الرازي: هذا كذاب.

إنّي صَائِمٌ إنّي صَائِمٌ»[(١)]، وجاء في الخبر: أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش في آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذناه في الإفطار فأرسل إليهما قدحاً، وقال ﷺ: **«قُلْ لَهُمَا قِيئَا فِيهِ مَا أَكَلْتُمَا»**، فقاءت إحداهما نصفه دماً عبيطاً ولحماً غريضاً، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه، فعجب الناس من ذلك، فقال ﷺ: **«هاتانِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمَا وَأَفْطَرَتَا عَلَىٰ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمَا. قَعَدَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَىٰ الأُخْرَىٰ فَجَعَلَتَا يَغْتَابَانِ النَّاسَ فَهٰذَا مَا أَكَلَتَا مِنْ لُحُومِهِمْ»**[(٢)].

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه؛ لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه، ولذلك سوّى الله عزّ وجلّ بين المستمع وآكل السحت، فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المَائدة: ٤٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المَائدة: ٦٣] فالسكوت على الغيبة حرام، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النّساء: ١٤٠]، ولذلك قال ﷺ: **«المُغْتَابُ وَالمُسْتَمِعُ شَرِيكَانِ فِي الإِثْمِ»**[(٣)].

الرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار. فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام، فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصراً ويهدم مصراً فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه، فالصوم لتقليله. وتارك الاستكثار من الدواء خوفاً من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيهاً. والحرام سم مهلك للدين، والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره، وقصد الصوم تقليله. وقد قال ﷺ: **«كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إلاّ الجُوعُ وَالعَطَشُ»**[(٤)]، فقيل: هو الذي يفطر على الحرام، وقيل: هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام، وقيل: هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام.

الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه فما من وعاء أبغض إلى الله عزّ وجلّ من بطن مليء من حلال. وكيف يستفاد من الصوم قهر عدوّ الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتى استمرت العادات بأن تُدَخَّرُ جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدّة أشهر. ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى. وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها. فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها

---

(١) حديث: **«إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً. .»** الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ. .»** الحديث. في الغيبة للصائم. أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ بسند فيه مجهول.

(٣) حديث: **«المغتاب والمستمع شريكان في الإثم»** غريب، وللطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف: «نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة».

(٤) حديث: **«كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»** أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

كل ليلة لو لم يصم، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً فلم ينتفع بصومه. بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه، ويستديم في كل ليلة قدراً من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء. وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞﴾ [القدر: ١]، ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب. ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته من غير الله عزّ وجلّ وذلك هو الأمر كله، ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام. وسيأتي له مزيد بيان في كتاب الأطعمة إن شاء الله عزّ وجلّ.

السادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها، فقد روي عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه مرّ بقوم وهم يضحكون فقال: إن الله عزّ وجلّ جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ـ أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسدّ عليه باب الضحك ـ. وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له: إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال: إني أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه. فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم.

فإن قلت: فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء: صومه صحيح، فما معناه؟ فاعلم أنّ فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لا سيما الغيبة وأمثالها، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته. فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول وبالقبول الوصول إلى المقصود، ويفهمون أنّ المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عزّ وجلّ وهو الصمدية، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات. والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة. والملائكة مقرّبون من الله عزّ وجلّ والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عزّ وجلّ كقربهم، فإنّ الشبيه من القريب قريب، وليس القرب ثَمّ بالمكان بل بالصفات. وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب فأي جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الأخر طول النهار؟ ولو كان لمثله جدوى فأي معنى لقوله ﷺ: **«كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إلاّ الجُوعُ وَالعَطَشُ»**، ولهذا قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف لا يعيبون صوم الحمقى وسهرهم! ولذرة من ذوي يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترّين. ولذلك قال بعض العلماء: كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم. والمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب، والصائم المفطر هو الذي يجوع ويعطش ويطلق جوارحه. ومن فهم معنى الصوم

وسره علم أنّ مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات، فقد وافق في الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل. ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال. وقد قال ﷺ: «**إِنَّ الصَّوْمَ أَمَانَةٌ فَلْيَحْفَظْ أَحَدُكُمْ أَمَانَتَهُ**»(١)، ولما تلا قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وضع يده على سمعه وبصره فقال: «**السمع أمانة والبصر أمانة**»(٢)، ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال ﷺ: «**فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ**» أي إني أودعت لساني لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك؟ فإذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً وقشراً ولباً ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات. فإليك الخيرة الآن في أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب.

* * *

الفصل الثالث

في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم: أنَّ استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة، وبعضها يوجد في كل شهر، وبعضها في كل أسبوع. أما في السنة بعد أيام رمضان: فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذي الحجة والعشر الأول من المحرّم. وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم وهي أوقات فاضلة «كان رسول الله ﷺ يكثر صوم شعبان حتى كان يظنّ أنه في رمضان»(٣)، وفي الخبر: «**أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم**»(٤). لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته. وقال ﷺ: «**صَوْمُ يَوْمٍ مِنْ شَهْرٍ حَرَامٍ أَفْضَلُ مِنْ ثَلاثِينَ مِنْ غَيْرِهِ، وَصَوْمُ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْ ثَلاثِينَ مِنْ شَهْرٍ حَرَامٍ**»(٥)، وفي الحديث: «**مَنْ صَامَ ثَلاثَةَ أَيَامٍ مِنْ شَهْرٍ حَرَامٍ، الخَمِيس والجمعة والسبت كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ عِبَادَةَ تِسْعِمِائَةِ عَامٍ**»(٦)، وفي الخبر: «**إذا كان النصفُ من شعبان**

(١) حديث: «**إنما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته**». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود في حديث في الأمانة والصوم وإسناده حسن.

(٢) حديث: «لما تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النّساء: ٥٨]، وضع يده على سمعه وبصره وقال: **السمع أمانة والبصر أمانة**»، أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة دون قوله: «**السمع أمانة**».

(٣) حديث: «كان يكثر صيام شعبان. . » الحديث. متفق عليه من حديث عائشة.

(٤) حديث: «**أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: «**صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين. . .**» الحديث. لم أجده هكذا، وفي المعجم الصغير للطبراني من حديث ابن عباس: «**من صام يوماً من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوماً**».

(٦) حديث: «**من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت. .**» الحديث. أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث أنس.

فلا صوم حتى رمضان»[١]، ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياماً فإن وصل شعبان برمضان فجائز[٢]، فعل ذلك رسول الله ﷺ مرة وفصل مراراً كثيرة[٣]. ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق ورداً له، وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهي بشهر رمضان. **فالأشهر الفاضلة**: ذو الحجة والمحرّم ورجب وشعبان. **والأشهر الحرم**: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب. واحد فرد وثلاثة سرد. وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات. وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج، وشوّال من أشهر الحج وليس من الحرم، والمحرّم ورجب ليسا من أشهر الحج. وفي الخبر: «**ما من أيام العمل فيهنّ أفضل وأحب إلى الله عزّ وجلّ من أيام عشر ذي الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر**، قيل: ولا الجهاد في سبيل الله تعالى، قال: **ولا الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ إلا من عقر جواده وأهريق دمه**»[٤]. **وأما ما يتكرر في الشهر**: فأوّل الشهر وأوسطه وآخره، ووسطه الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر. **وأما في الأسبوع**: فالاثنين والخميس والجمعة، فهذه هي الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات. وأما صوم الدهر فإنه شامل للكل وزيادة، وللسالكين فيه طرق، فمنهم من كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته. والصحيح أنه إنما يكره لشيئين: **أحدهما**: أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله[٥]، **والآخر**: أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل الصوم حجراً على نفسه مع أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه. فإذا لم يكن شيء من ذلك ورأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك، فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. وقال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري: «**مَنْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ ضُيِّقَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمُ وَعَقَدَ تِسْعِينَ**»[٦]، ومعناه لم يكن له فيها موضع، ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها، وقد ورد في فضله

---

(١) حديث: «**إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان**». أخرجه الأربعة من حديث أبي هريرة وابن حبان في صحيحه عنه: «**إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى بجيء رمضان**» وصححه الترمذي.

(٢) حديث: «وصل شعبان برمضان مرة». أخرجه الأربعة من حديث أم سلمة: «لم يكن يصوم من السنة شهراً تاماً إلا شعبان يصل به رمضان». وأخرج أبو داود والنسائي نحوه من حديث عائشة.

(٣) حديث: «فصل شعبان من رمضان مراراً». أخرجه أبو داود من حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يتحفظ من هلال شعبان ما لا يتحفظ من غيره فإن غم عليه عد ثلاثين يوماً ثم صام»، وأخرجه الدارقطني وقال: إسناده صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٤) حديث: «**ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله من عشر ذي الحجة**...» الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة دون قوله: «قيل ولا الجهاد...» الخ، وعند البخاري من حديث ابن عباس: «**ما العمل في أيام أفضل من العمل في هذا العشر قالوا: ولا الجهاد قال: ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء**».

(٥) الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر، أخرجها البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن عمرو، وفي حديث لابن ماجه: «**لا صام من صام الأبد**». ولمسلم من حديث أبي قتادة: «قيل: يا رسول الله، كيف بمن صام الدهر؟ قال: **لا صام ولا فطر**»، وأخرج النسائي نحوه من حديث عبدالله بن عمر وعمران بن حصين وعبدالله بن الشخير.

(٦) حديث أبي موسى الأشعري: «**من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين**» أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى وابن حبان، وحسنه أبو علي الطوسي.

أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم، فقد قال ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَكُنُوزُ الأَرْضِ فَرَدَدْتُهَا وَقُلْتُ: أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً أَحْمَدُكَ إِذَا شَبِعْتُ وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ إِذَا جُعْتُ»[١]. وقال ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً»[٢]، ومن ذلك: منازلته ﷺ لعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول: إني أطيق أكثر من ذلك، فقال ﷺ: «صُمْ يَوْماً وَأَفْطِرْ يَوْماً»، فقال: إني أريد أفضل من ذلك، فقال ﷺ: «لا أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ»[٣] وقد روي: «أنه ﷺ ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان»[٤] بل كان يفطر منه، ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه وهو أن يصوم يوماً ويفطر يومين. وإذا صام ثلاثة من أوّل الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث، وواقع في الأوقات الفاضلة. وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث. وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عزّ وجلّ. والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضي حاله دوام الصوم، وقد يقتضي دوام الفطر، وقد يقتضي مزج الإفطار بالصوم. وإذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيباً مستمراً. ولذلك روي: «أنه ﷺ كَانَ يَصُومُ حَتَّىٰ يُقَالَ: لا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ يُقَالَ: لا يَصُومُ، وَيَنَامُ حَتَّىٰ يُقَالَ: لا يَقُومُ، وَيَقُومُ حَتَّىٰ يُقَالَ: لا يَنَامُ»[٥]، وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوّة من القيام بحقوق الأوقات. وقد كره العلماء أن يوالى بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديراً بيوم العيد وأيام التشريق، وذكروا أن ذلك يقسي القلب ويولد رديء العادات ويفتح أبواب الشهوات، ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لا سيما من يأكل في اليوم والليلة مرتين. فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوّع به والله أعلم بالصواب.

تم كتاب أسرار الصوم، والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، على جميع نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء. يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الحج، والله المعين لا رب غيره وما توفيقي إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) حديث: «عرضت علي مفاتيح خزائن الدنيا..» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة بلفظ: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً» وقال: حسن.

(٢) حديث: «أفضل الصيام صوم أخي داود..» الحديث. أخرجاه من حديث عبدالله بن عمر.

(٣) حديث: «منازلته لعبدالله بن عمر وقوله: صم يوماً وأفطر يوماً..» الحديث. أخرجاه من حديثه.

(٤) حديث: «ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان» أخرجاه من حديث عائشة.

(٥) حديث: «كان يصوم حتى يقال لا يفطر..» الحديث. أخرجاه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر: «القيام والنوم» والبخاري من حديث أنس: «كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئاً ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئاً وكان لا تشاء تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب أسرار الحج

الحمد لله الذي جعل كلمة التوحيد لعباده حرزاً وحصناً. وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمناً، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفاً وتحصيناً ومنّاً، وجعل زيارته والطواف به حجاباً بين العبد وبين العذاب ومجنّاً، والصلاة على محمد نبي الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد: فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين. فيه أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وفيه قال ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيّاً وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيّاً»[١]، فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال، ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الضلال، وأجدر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها. وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عزّ وجلّ في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها.

الباب الثاني: في أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع.

الباب الثالث: في آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة. فلنبدأ بالباب الأوّل وفيه فصلان:

الفصل الأول

في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى، وشدّ الرحال إلى المساجد

فضيلة الحج:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] وقال قتادة: لما أمر الله عزّ وجلّ إبراهيم ﷺ وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن في الناس بالحج نادى: يا أيها الناس إن الله عزّ وجلّ بنى بيتاً فحجوه، وقال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] قيل: التجارة في الموسم والأجر في الآخرة. ولما سمع بعض السلف هذا قال:

كتاب أسرار الحج

(١) حديث: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً». أخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة والترمذي نحوه من حديث علي وقال: غريب وفي إسناده مقال.

غفر لهم ورب الكعبة. وقيل في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، أي طريق مكة يقعد الشيطان عليها ليمنع الناس منها، وقال ﷺ: «**مَنْ حَجَّ البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»(١)، وقال أيضاً ﷺ: «**مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ فِي يَوْمٍ أَصْغَرَ وَلا أَدْحَرَ وَلا أَحْقَرَ وَلا أَغْيَظَ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ**»(٢)، وما ذلك إلا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ يقال: «إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوباً لا يُكَفِّرُها إِلاَّ الوُقُوفُ بِعَرَفَةَ»(٣)، وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله ﷺ. وذكر بعض المكاشفين من المقرّبين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له في صورة شخص بعرفة فإذا هو ناحل الجسم مصفرّ اللون باكي العين مقصوف الظهر فقال له: ما الذي أبكى عينك؟ قال: خروج الحاج إليه بلا تجارة، أقول: قد قصدوه أخاف أن لا يخيبهم فيحزنني ذلك قال: فما الذي أنحل جسمك؟ قال: صهيل الخيل في سبيل الله عزّ وجلّ ولو كانت في سبيلي كان أحب إليّ، قال: فما الذي غيَّر لونك؟ قال: تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إليّ قال: فما الذي قصف ظهرك؟ قال: قول العبد: أسألك حسن الخاتمة، أقول: يا ويلتي متى يعجب هذا بعمله أخاف أن يكون قد فطن؟ وقال ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً فَمَاتَ أُجْرِيَ لَهُ أَجْرُ الحَاجِّ المُعْتَمِرِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الحَرَمَيْنِ لَمْ يُعْرَضْ وَلَمْ يُحَاسَبْ وَقِيلَ لَهُ ادْخُلِ الجَنَّةَ**»(٤)، وقال ﷺ: «**حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَحَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ لَيْسَ لَهَا جَزَاءٌ إِلاَّ الجَنَّةُ**»(٥)، وقال ﷺ: «**الحُجَّاجُ وَالعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَزُوَّارُهُ إِنْ سَأَلُوهُ أَعْطَاهُمْ، وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ، وَإِنْ دَعَوْا اسْتُجِيبَ لَهُمْ، وَإِنْ شَفَعُوا شُفِّعُوا**»(٦)، وفي حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام: «**أَعْظَمُ النَّاسِ ذَنْباً مَنْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ فَظَنَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَمْ يَغْفِرْ لَهُ**»(٧)، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَنْزِلُ عَلَىٰ هٰذَا البَيْتِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ رَحْمَةً سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ**»(٨)، وفي الخبر: «**اسْتَكْثِرُوا مِنَ الطَّوَافِ بِالبَيْتِ فَإِنَّهُ مِنْ أَجَلِّ شَيْءٍ تَجِدُونَهُ فِي صُحُفِكُمْ يَوْمَ**

---

(١) حديث: «**من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**» أخرجاه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «**ما رئي الشيطان في يوم هو أصغر..**» الحديث. أخرجه مالك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبدالله بن كريز مرسلاً.

(٣) حديث: «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «**من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات أجرى الله له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة**». أخرجه البيهقي في الشعب بالشطر الأول من حديث أبي هريرة. وروى هو والدارقطني من حديث عائشة الشطر الثاني نحوه وكلاهما ضعيف.

(٥) حديث: «**حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة**». أخرجاه من حديث أبي هريرة الشطر الثاني بلفظ: «**الحج المبرور**» وقال: «**إن الحجة المبرورة**» وعند ابن عدي: «**حجة مبرورة**».

(٦) حديث: «**الحجاج والعمار وفد الله وزواره..**» الحديث. أخرجه من حديث أبي هريرة دون قوله: «**وزواره**» ودون قوله: «**إن سألوه أعطاهم وإن شفعوا شفعوا**» وله من حديث ابن عمر: «**وسألوه فأعطاهم**» ورواه ابن حبان.

(٧) حديث: «**أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له**». أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق وأبو منصور شهر دار بن شيرويه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٨) حديث: «**ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة**» أخرجه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد حسن، وقال أبو حاتم: حديث منكر.

الْقِيَامَةِ وَأَغْبَطِ عَمَلٍ تَجِدُونَهُ»[١]، ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة، وفي الخبر: **«من طاف أسبوعاً حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة، ومن طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما سلف من ذنبه»**[٢] ويقال: إن الله عزّ وجلّ إذا غفر لعبد ذنباً في الموقف غفره لكل من أصابه في ذلك الموقف. وقال بعض السلف: إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل يوم في الدنيا. وفيه حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، وكان واقفاً إذ نزل قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣][٣] قال أهل الكتاب: لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد، فقال عمر رضي الله عنه: أشهد لقد أنزلت هذه الآية في يوم عيدين اثنين: يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة. وقال ﷺ: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْحَاجِّ وَلِمَنِ اسْتَغْفَرَ لَهُ الحَاجُّ»**[٤]، ويروى أن علي بن موفق حج عن رسول الله ﷺ حججاً قال: فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا ابن موفق حججت عني؟ قلت: نعم، قال: ولبيت عني؟ قلت: نعم، قال: أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب. وقال مجاهد وغيره من العلماء: إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل وصافحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وقال الحسن: من مات عقيب رمضان، أو عقيب غزو، أو عقيب حج مات شهيداً. وقال عمر رضي الله عنه: الحاج مغفور له ولمن يستغفر له في شهر ذي الحجة والمحرّم وصفر وعشرين من ربيع الأوّل. وقد كان من سنّة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام. ويروى عن علي بن موفق قال: حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمنى في مسجد الخيف، فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه: يا عبدالله، فقال الآخر: لبيك يا عبدالله. قال: تدري كم حج بيت ربنا عزّ وجلّ في هذه السنة؟ قال: لا أدري، قال: حج بيت ربنا ستمائة ألف، أفتدري كم قبل منهم؟ قال: لا، قال: ستة أنفس، قال: ثم ارتفعا في الهواء فغابا عني فانتبهت فزعاً واغتممت غماً شديداً وأهمني أمري فقلت: إذا قبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا في ستة أنفس؟ فلما أفضت من عرفة قمت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر في كثرة الخلق وفي قلة من قبل منهم؛ فحملني النوم فإذا الشخصان قد نزلا على هيئتهما؛ فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بعينه ثم قال: أتدري ماذا حكم ربنا عزّ وجلّ في هذه الليلة؟ قال: لا، قال: فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف،

---

(١) حديث: **«استكثروا من الطواف بالبيت..»** الحديث. أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عمر: **«استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة»** وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) حديث: **«من طاف أسبوعاً حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه»**. لم أجده هكذا، وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر: **«من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة»** لفظ الترمذي وحسنه.

(٣) حديث: «وقوفه في حجة الوداع يوم الجمعة ونزول ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: ٣]». الحديث أخرجاه من حديث عمر.

(٤) حديث: **«اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج»**. أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم.

قال: فانتبهت وبي من السرور ما يجل عن الوصف. وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: حججت سنة فلما قضيت مناسكي تفكرت فيمن لا يقبل حجه فقلت: اللهم إني قد وهبت حجتي وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجته قال: فرأيت رب العزة في النوم جل جلاله فقال لي: يا عليّ تتسخى عليَّ وأنا خلقت السخاء والأسخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجود والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته.

فضيلة البيت ومكة المشرفة:

قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَعَدَ هٰذَا البَيْتَ أَنْ يَحُجَّهُ كُلَّ سَنَةٍ سِتُّمِائَةِ أَلْفٍ فَإِنْ نَقَصُوا أَكْمَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ المَلائِكَةِ، وَإِنَّ الكَعْبَةَ تُحْشَرُ كَالعَرُوسِ المَزْفُوفَةِ، وَكُلُّ مَنْ حَجَّهَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْتَارِهَا يَسْعَوْنَ حَوْلَها حَتَّىٰ تَدْخُلَ الجَنَّةَ فَيَدْخُلُونَ مَعَهَا**»(١)، وفي الخبر: «**إِنَّ الحَجَرَ الأَسْوَدَ يَاقُوتَةٌ مِنْ يَوَاقِيتِ الجَنَّةِ، وإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشْهَدُ لِكُلِّ مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍ وَصِدْقٍ**»(٢) وكان ﷺ يقبله كثيراً(٣)، وروي أنه ﷺ سجد عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن(٤)، وقبله عمر رضي الله عنه ثم قال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع(٥)، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، ثم بكى حتى علا نشيجه فالتفت إلى ورائه فرأى علياً كرّم الله وجهه ورضي الله عنه فقال: يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات، فقال علي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع، قال: وكيف؟ قال: إنّ الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرّية كتب عليهم كتاباً ثم ألقمه هذا الحجر؛ فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود. قيل: فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام: «اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك». وروي عن الحسن البصري رضي الله عنه: أنّ صوم يوم فيها بمائة ألف يوم، وصدقة درهم بمائة ألف درهم، وكذلك كل حسنة بمائة ألف. ويقال: طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة. وفي الخبر الصحيح: «**عمرة في رمضان كحجة معي**»(٦)، وقال ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ**

---

(١) حديث: «**إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه في كل سنة ستمائة ألف..**» الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «**إن الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة ويبعث يوم القيامة له عينان..**» الحديث. أخرجه الترمذي وصححه النسائي من حديث ابن عباس: «**الحجر الأسود من الجنة**» لفظ النسائي، وباقي الحديث رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضاً، وللحاكم من حديث أنس: «**إن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة**» وصحح إسناده، ورواه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبدالله بن عمرو.

(٣) حديث: «أنه ﷺ كان يقبله كثيراً» أخرجاه من حديث عمر دون قوله: «كثيراً» والنسائي: «**أنه كان يقبله كل مرة ثلاثاً إن رآه خالياً**».

(٤) حديث: «أنه كان يسجد عليه». أخرجه البزار والحاكم من حديث عمر وصحح إسناده.

(٥) «قبله عمر وقال: إني لأعلم أنك حجر». أخرجاه دون الزيادة التي رواها علي، ورواه بتلك الزيادة الحاكم وقال: ليس من شرط الشيخين.

(٦) حديث: «**عمرة في رمضان كحجة معي**». أخرجاه من حديث ابن عباس دون قوله: «**معي**» فهي عند مسلم على الشك: «**تقضي حجة أو حجة معي**» ورواه الحاكم بزيادتها من غير شك.

الأَرْضُ ثُمَّ آتِي أَهْلَ البَقِيعِ فَيُحْشَرُونَ مَعِي ثُمَّ آتِي أَهْلَ مَكَّةَ فَأُحْشَرُ بَيْنَ الحَرَمَيْنِ»(١). وفي الخبر: «إنّ آدم ﷺ لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا: برّ حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام»(٢). وجاء في الأثر: إن الله عزّ وجلّ ينظر في كل ليلة إلى أهل الأرض فأوّل من ينظر إليه أهل الحرم، وأوّل من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام، فمن رآه طائفاً غفر له، ومن رآه مصلياً غفر له، ومن رآه قائماً مستقبل الكعبة غفر له. وكوشف بعض الأولياء رضي الله عنهم قال: إني رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لجدّة. ويقال: لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال، ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى الناس لها أثراً، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد. ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف، ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة. ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغاني وأخبار الجاهلية، ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب التي تتوقع ولادتها. وفي الخبر: «اسْتَكْثِرُوا مِنَ الطَّوَافِ بِهَذَا الْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ فَقَدْ هُدِمَ مَرَّتَيْنِ وَيُرْفَعُ فِي الثَّالِثَةِ»(٣)، وروي عن علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُخَرِّبَ الدُّنْيَا بَدَأْتُ بِبَيْتِي فَخَرَّبْتُهُ ثُمَّ أُخَرِّبُ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ»(٤).

فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكراهيته:

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة:

الأول: خوف التبرم والأنس بالبيت؛ فإنّ ذلك ربما يؤثر في تسكين حرقة القلب في الاحترام، وهكذا كان عمر رضي الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم. ولذلك همّ عمر رضي الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف، وقال: خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت.

الثاني: تهييج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العودة، فإنّ الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمناً، أي يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطراً. وقال بعضهم: تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر.

---

(١) حديث: «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتي أهل البقيع فيحضرون معي..» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه ابن حبان من حديث ابن عمر.

(٢) حديث: «إن آدم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا: بر حجك يا آدم..» الحديث. رواه المفضل الجعدي ومن طريقه ابن الجوزي في العلل من حديث ابن عباس وقال: لا يصح. ورواه الأزرقي في تاريخ مكة موقوفاً على ابن عباس.

(٣) حديث: «استكثروا من الطواف بهذا البيت..» الحديث. أخرجه البزار وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر: «استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة».

(٤) حديث: «قال الله: إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتي فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره» ليس له أصل.

وقال بعض السلف: كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به؟ ويقال: إن لله تعالى عباداً تطوف بهم الكعبة تقرّباً إلى الله عزّ وجلّ.

الثالث: الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها، فإنّ ذلك مخطر وبالحري أن يورث مقت الله عزّ وجلّ لشرف الموضع. وروي عن وهيب بن الورد المكي قال: كنت ذات ليلة في الحجر أصلي فسمعت كلاماً بين الكعبة والأستار يقول: إلى الله أشكو ثم إليك يا جبرائيل ما ألقى من الطائفين حولي من تفكرهم في الحديث ولغوهم ولهوهم، لئن لم ينتهوا عن ذلك لأنتفضن انتفاضة يرجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قطع منه. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، أي إنه على مجرد الإرادة. ويقال: إنّ السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم، وقيل: الكذب أيضاً، وقال ابن عباس: لأن أذنب سبعين ذنباً بركية أحب إليّ من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة. وركية منزل بين مكة والطائف. ولخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لم يقض حاجته في الحرم، بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة. وبعضهم أقام شهراً وما وضع جنبه على الأرض. وللمنع من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة. ولا تظنن أنّ كراهة المقام يناقض فضل البقعة لأنّ هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع، فمعنى قولنا: إنّ ترك المقام به أفضل أي بالإضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم، إما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيهات! وكيف لا، ولما عاد رسول الله ﷺ إلى مكة استقبل الكعبة وقال: «**إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَحَبُّ بِلادِ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَيَّ وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ لَمَا خَرَجْتُ**»(١) وكيف لا، والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه.

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد:

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله ﷺ فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة. قال ﷺ: «**صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هٰذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيما سِوَاهُ إِلاَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ**»(٢)، وكذلك كل عمل بالمدينة بألف، وبعد مدينته الأرض المقدّسة، فإن الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام، وكذلك سائر الأعمال. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «**صَلاةٌ فِي مَسْجِدِ المَدِينَةِ بِعَشَرَةِ آلافِ صَلاةٍ، وَصَلاةٌ فِي المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ بِأَلْفِ صَلاةٍ، وَصَلاةٌ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلاةٍ**»(٣)، وقال ﷺ:

---

(١) حديث: «**إنك لخير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**» أخرجه الترمذي، وصححه النسائي في الكبرى وابن ماجه وابن حبان من حديث عبدالله بن عدي بن الحمراء.

(٢) حديث: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**». متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث ابن عمر.

(٣) حديث ابن عباس: «**صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة، وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة، وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة**». غريب لم أجده بجملته هكذا، وأخرجه ابن ماجه من حديث ميمونة بإسناد جيد في بيت المقدس: «**ائتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة في غيره**»، ولابن ماجه من حديث أنس: «**صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة**»، وليس في إسناده من ضعف، وقال الذهبي: إنه منكر.

«مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ شِدَّتِهَا وَلأْوَائِهَا كُنتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)]، وقال ﷺ: **«مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ فَإِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ كُنتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ القِيَامَةِ»**[(٢)]، وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فإن المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم. ولذلك قال ﷺ: **«لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَىٰ ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ وَمَسْجِدِي هٰذَا وَالمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ»**[(٣)]، وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء، وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها. قال ﷺ: **«كُنتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا وَلا تَقُولُوا هُجْراً»**[(٤)]، والحديث إنما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد؛ لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر. وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عزّ وجلّ، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشدّ الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء. ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام، فالمنع من ذلك في غاية الإحالة، فإذا جوّز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد. هذا في الرحلة. أما المقام فالأولى بالمريد أن يلازم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه، فإن لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له، قال ﷺ: **«البِلادُ بِلادُ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالخَلْقُ عِبَادُهُ فَأَيُّ مَوْضِعٍ رَأَيْتَ فِيهِ رِفْقاً فَأَقِمْ وَاحْمَدِ اللّهَ تَعَالَىٰ»**[(٥)]، وفي الخبر: **«من بورك له في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه»**[(٦)] وقال أبو نعيم: رأيت سفيان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعليه بيده فقلت: إلى أين يا أبا عبدالله؟ قال: إلى بلد أملأ فيه جرابي بدرهم. وفي حكاية أخرى: بلغني عن قرية فيها رخص أقيم فيها، قال فقلت: وتفعل هذا يا أبا عبدالله؟ فقال: نعم إذا سمعت برخص في بلد فاقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لهمك، وكان يقول: هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين، فكيف بالمشهورين؟ هذا زمان تَنَقُّلٍ يتنقل الرجل من قرية إلى قرية يفرّ بدينه من الفتن. ويحكى عنه أنه قال: والله ما أدري أي البلاد أسكنُ؟ فقيل له: خراسان، فقال: مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، قيل: فالشام،

---

(١) حديث: **«لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة»**. من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد.

(٢) حديث: **«من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها..»** الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) حديث: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

(٤) حديث: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»**. أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب.

(٥) حديث: **«البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقاً فأقم»**. أخرجه أحمد والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف.

(٦) حديث: **«من رزق في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه»**. أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن، ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ: **«إذا سبب الله لأحدكم رزقاً من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له»**.

قال: يشار إليك بالأصابع ـ أراد الشهرة ـ قيل: فالعراق، قال: بلد الجبابرة، قيل: مكة، قال: مكة تذيب الكيس والبدن. وقال له رجل غريب: عزمت على المجاورة بمكة فأوصني، قال: أوصيك بثلاث: لا تصلين في الصف الأول ولا تصحبن قرشياً ولا تظهرن صدقة. وإنما كره الصف الأول لأنه يشتهر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع.

***

الفصل الثاني

في شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشرائط فشرط صحة الحج اثنان: الوقت والإسلام. فيصح حج الصبي ويحرم بنفسه إن كان مميزاً ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً ويفعل به ما يفعل في الحج من الطواف والسعي وغيره. وأما الوقت، فهو شوّال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، فمن أحرم بالحج في غير هذه المدّة فهي عمرة وجميع السنة وقت العمرة، ولكن من كان معكوفاً على النسك أيام منى فلا ينبغي أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمكن من الاشتغال عقيبه لاشتغاله بأعمال منى. وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فخمسة: الإسلام والحرّية والبلوغ والعقل والوقت، فإن أحرم الصبي أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبي بعرفة أو بمزدلفة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزأهما عن حجة الإسلام، لأن الحج عرفة، وليس عليهما دم إلا شاة. وتشترط هذه الشرائط في وقوع العمرة عن فرض الإسلام إلا الوقت. وأما شروط وقوع الحج نفلاً عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الإسلام فحج الإسلام متقدّم، ثم القضاء لمن أفسده في حالة الوقوف، ثم النذر، ثم النيابة، ثم النفل، وهذا الترتيب مستحق، وكذلك يقع وإن نوى خلافه. وأما شروط لزوم الحج فخمسة: البلوغ والإسلام والعقل والحرّية والاستطاعة. ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة. ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطاباً لزمه الإحرام على قول، ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج. **وأما الاستطاعة فنوعان: أحدهما:** المباشرة وذلك له أسباب أما في نفسه فبالصحة، وأما في الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدوّ قاهر، وأما في المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ـ كان له أهل أو لم يكن ـ لأن مفارقة الوطن شديدة، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدّة، وأن يملك ما يقضي به ديونه وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة. **وأما النوع الثاني:** فاستطاعة المعضوب بماله، وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه. ويكفي نفقة الذهاب بزاملة في هذا النوع، والابن إذا عرض طاعته على الأب الزّمِن صار به مستطيعاً ولو عرض ماله لم يصر به مستطيعاً؛ لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد، وبذل المال فيه منة على الوالد. ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو في آخر عمره سقط عنه، وإن مات قبل الحج لقي الله عزّ وجلّ عاصياً بترك الحج، وكان الحج في تركته يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه. وإن استطاع في سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله في تلك السنة ـ قبل حج الناس ـ ثم مات لقي الله عزّ وجلّ ولا حج عليه. ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى. قال

عمر رضي الله عنه: لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلاً. وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاوس: لو علمت رجلاً غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه. وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه. وكان ابن عباس يقول: من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، قال: الحج. وأما الأركان التي لا يصح الحج بدونها فخمسة: الإحرام والطواف والسعي بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول، وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف. والواجبات المجبورة بالدم ست: الإحرام من الميقات فمن تركه وجاوز الميقات محلاً فعليه شاة، والرمي فيه الدم قولاً واحداً، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمبيت بمنى وطواف الوداع، فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين، وفي القول الثاني فيها دم على وجه الاستحباب. وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة:

الأول: الإفراد، وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده، فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر. وأفضل الحل لإحرام العمرة الجعرّانة ثم التنعيم ثم الحديبية. وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع.

الثاني: القران، وهو أن يجمع فيقول: «لبيك بحجة وعمرة معاً» فيصير محرماً بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل، إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من النسكين وأما طوافه فغير محسوب؛ لأن شرط الطواف الفرض في الحج أن يقع بعد الوقوف. وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكياً فلا شيء عليه؛ لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة.

الثالث: التمتع، وهو أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج، ولا يكون متمتعاً إلا بخمس شرائط: **أحدها**: أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام، وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة. **الثاني**: أن يقدم العمرة على الحج. **الثالث**: أن تكون عمرته في أشهر الحج.

الرابع: أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج.

الخامس: أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد. فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً ولزمه دم شاة، فإن لم يجد فصيام ثلاثة في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن، وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتابعاً أو متفرقاً. وبدل دم القران والتمتع سواء. والأفضل الإفراد ثم التمتع ثم القران.

وأما محظورات الحج والعمرة فستة:

الأول: اللبس للقميص والسراويل والخف والعمامة، بل ينبغي أن يلبس إزاراً ورداء ونعلين، فإن لم يجد نعلين فمكعبين فإن لم يجد إزاراً فسراويل. ولا بأس بالمنطقة والاستظلال في المحمل، ولكن لا ينبغي أن يغطي رأسه فإن إحرامه في الرأس. وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها في وجهها.

الثاني: الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة.

الثالث: الحلق والقلم؛ وفيهما الفدية أعني دم شاة، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر.

الرابع: الجماع؛ وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه، وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه.

والخامس: مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا في الاستمناء، ويحرم النكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد.

السادس: قتل صيد البر؛ أعني ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام، فإن قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الخلقة. وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه.

❊ ❊ ❊

الباب الثاني

في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع، وهي عشر جمل

الجملة الأولى: في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية:

الأولى: في المال؛ فينبغي أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ما عنده من الودائع. ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تقتير بل على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء. ويتصدق بشيء قبل خروجه ويشتري لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف أو يكتريها، فإن اكترى فليظهر للمكاري كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه.

الثانية: في الرفيق؛ ينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه، إن نسي ذكره وإن ذكره أعانه وإن جبن شجعه وإن عجز قوّاه وإن ضاق صدره صبره. ويودع رفقاءه المقيمين وإخوانه وجيرانه فيودعهم ويلتمس أدعيتهم، فإن الله تعالى جاعل في أدعيتهم خيراً، والسنة في الوداع أن يقول: **«أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»**(١)، وكان ﷺ يقول لمن أراد السفر: **«فِي حِفْظِ اللَّهِ وَكَنَفِهِ زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَىٰ وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجَّهَكَ لِلْخَيْرِ أَيْنَمَا كُنْتَ»**(٢).

الباب الثاني

في ترتيب الأفعال الظاهرة

(١) حديث: **«أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»**. أخرجه الترمذي وصححه والنسائي من حديث ابن عمر: «أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: ادن حتى أودعك كما كان رسول الله ﷺ يودعنا».

(٢) حديث: «كان ﷺ يقول لمن أراد سفراً: **في حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر الله ذنبك ووجهك للخير أينما توجهت**». أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذي وحسنه دون قوله: **«في حفظ الله وكنفه»**.

الثالثة: في الخروج من الدار؛ ينبغي إذا همّ بالخروج أن يصلي ركعتين أولاً يقرأ في الأولى بعد الفاتحة: قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص، فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة وقال: اللهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة. اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى. اللهم إنا نسألك أن تطوي لنا الأرض وتهون علينا السفر، وأن ترزقنا في سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد ﷺ، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب. اللهم اجعلنا وإياهم في جوارك ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك.

الرابعة: إذا حصل على باب الدار قال: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، ربِّ أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ أو أَذِلَّ أو أُذَلَّ أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليَّ. اللهم إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقاً إلى لقائك. فإذا مشى قال: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت. اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به، وما أنت أعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك. اللهم زوّدني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت. ويدعو بهذا الدعاء في كل منزل يدخل عليه.

الخامسة: في الركوب؛ فإذا ركب الراحلة يقول: بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إني وجهت وجهي إليك، وفوضت أمري كله إليك، وتوكلت في جميع أموري عليك أنت حسبي ونعم الوكيل. فإذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ـ سبع مرات ـ وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور.

السادسة: في النزول؛ والسنّة أن لا ينزل حتى يحمى النهار ويكون أكثر سيره بالليل. قال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَىٰ بِاللَّيْلِ مَا لا تُطْوَىٰ بِالنَّهَارِ**»(١)، وليقلل نومه بالليل حتى يكون عوناً على السير. ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السمٰوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه اصرف عني شر شرارهم. فإذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهنّ بر ولا فاجر من شر ما خلق. فإذا جنّ عليه الليل يقول: يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب، ومن شر ساكن البلد ووالد وما ولد. ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣].

السابعة: في الحراسة؛ ينبغي أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفرداً خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو

---

(١) حديث: «**عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار**». أخرجه أبو داود من حديث أنس دون قوله: «**ما لا تطوى بالنهار**»، وهذه الزيادة في الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسلاً.

ينقطع، ويكون بالليل متحفظاً عند النوم، فإن نام في ابتداء الليل افترش ذراعه، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصباً وجعل رأسه في كفه، هكذا كان ينام رسول الله ﷺ في سفره(١)، لأنه ربما استثقل النوم فتطلع الشمس وهو لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج، والأحب في الليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر(٢)، فهو السنة، فإن قصده عدوّ أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي، وشهد الله، والإخلاص، والمعوّذتين، وليقل بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله، توكلت على الله، ما شاء الله لا يأتي بالخير إلا الله، ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، وليس وراء الله منتهى، ولا دون الله ملجأ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾ [المجَادلة: ٢١]، تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحي الذي لا يموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكنفنا بركنك الذي لا يرام. اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا. اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين.

الثامنة: مهما علا نشزاً من الأرض في الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثاً ثم يقول: اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال. ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة في سفره قال: سبحان الله الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السمٰوات بالعزة والجبروت.

الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة:

الأول: أن يغتسل وينوي به غسل الإحرام، أعني إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه. ويتمم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التي ذكرناها في الطهارة.

الثاني: أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبي الإحرام فيرتدي ويتزر بثوبين أبيضين، فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عزّ وجلّ، ويتطيب في ثيابه وبدنه، ولا بأس بطيب يبقى جرمه بعد الإحرام؛ فقد رئي وبيص المسك على مفرق رسول الله ﷺ بعد الإحرام مما كان استعمله قبل الإحرام(٣).

الثالث: أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكباً أو يبدأ بالسير إن كان راجلاً، فعند ذلك ينوي الإحرام بالحج أو بالعمرة قراناً أو إفراداً كما أراد. ويكفي مجرد النية لانعقاد الإحرام، ولكن السنّة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول: «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن

---

(١) حديث: «كان إذا نام في أول الليل افترش ذراعه وإذا نام في آخر الليل نصب ذراعه نصباً وجعل ذراعه في كفه»، أخرجه أحمد والترمذي في الشمائل من حديث أبي قتادة بإسناد صحيح، وعزاه أبو مسعود الدمشقي والحميدي إلى مسلم ولم أره فيه.

(٢) حديث: «تناوب الرفيقين في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر». أخرجه البيهقي من طريق ابن إسحاق من حديث جابر في حديث فيه: «فقال الأنصاري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه أوله أو آخره؟ فقال: بل اكفني أوله فاضطجع المهاجري. . .» الحديث. والحديث عند أبي داود ولكن ليس فيه قول الأنصاري للمهاجري.

(٣) حديث: «رؤية وبيص المسك على مفرق رسول الله ﷺ بعد الإحرام». متفق عليه من حديث عائشة قالت: «كأنما أنظر إلى وبيص المسك» الحديث.

الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» وإن زاد قال: «لبيك وسعديك والخير كان بيديك والرغباء إليك لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الرابع: إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول: اللهم إني أريد الحج فيسره لي وأعني على أداء فرضه وتقبله مني. اللهم إني نويت أداء فريضتك في الحج فاجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلني من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم. اللهم فيسِّر لي أداء ما نويت من الحج، اللهم قد أحرم لك لحمي وشعري ودمي وعصبي ومخي وعظامي، وحرّمت على نفسي النساء والطيب ولبس المخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة. ومن وقت الإحرام حرم عليه المحظورات الستة التي ذكرناها من قبل فليجتنبها.

الخامس: يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام خصوصاً عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس، وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعاً بها صوته بحيث لا يبح حلقه ولا ينبهر، فإنه لا ينادي أصماً ولا غائباً[(١)]، كما ورد في الخبر. ولا بأس برفع الصوت بالتلبية في المساجد الثلاثة فإنها مظنة المناسك ـ أعني المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات ـ وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت. وكان النبي ﷺ إذا أعجبه شيء قال: «**لَبَّيْكَ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ**»[(٢)].

الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة:

الأول: أن يغتسل بذي طوى لدخول مكة، والاغتسالات المستحبة المسنونة في الحج تسعة: الأول، للإحرام من الميقات، ثم لدخول مكة، ثم لطواف القدوم، ثم للوقوف بعرفة، ثم للوقوف بمزدلفة، ثم ثلاثة أغسال لرمي الجمار الثلاث، ولا غسل لرمي جمرة العقبة، ثم لطواف الوداع. ولم ير الشافعي رضي الله عنه في الجديد: الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سبعة.

الثاني: أن يقول عند الدخول في أوّل الحرم وهو خارج مكة: اللهم هذا حرمك وأمنك، فحرّم لحمي ودمي وشعري وبشري على النار وآمني من عذابك يوم تبعث عبادك واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك.

الثالث: أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو ثنية كداء ـ بفتح الكاف ـ عدل رسول الله ﷺ من جادة الطريق إليها[(٣)]، فالتأسي به أولى، وإذا خرج خرج من ثنية كُدى ـ بضم الكاف ـ وهي الثنية السفلى والأولى هي العليا.

---

(١) حديث: «**إنكم لا تنادون أصم ولا غائباً**» متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٢) حديث: «كان إذا أعجبه شيء قال: «**لبيك إن العيش عيش الآخرة**» أخرجه الشافعي في المسند من حديث مجاهد مرسلاً بنحوه، وللحاكم وصححه من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ وقف بعرفات فلما قال: «**لبيك اللهم لبيك**» قال: «**إنما الخير خير الآخرة**».

(٣) حديث: «دخول رسول الله ﷺ من ثنية كداء ـ بفتح الكاف ـ». متفق عليه من حديث ابن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التي بالبطحاء..» الحديث.

الرابع: إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت فليقل: «لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته اللهم فزده تعظيماً وزده تشريفاً وتكريماً وزده مهابة وزد من حجه براً وكرامة، اللهم افتح لي أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم».

الخامس: إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بني شيبة وليقل: بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله ﷺ، فإذا قرب من البيت قال: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك، وليرفع يديه وليقل: اللهم إني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تتقبل توبتي وأن تتجاوز عن خطيئتي وتضع عني وزري، الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمناً وجعله مباركاً وهدى للعالمين. اللهم إني عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك جئتك أطلب رحمتك وأسألك مسألة المضطر الخائف من عقوبتك الراجي لرحمتك الطالب مرضاتك.

السادس: أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول: اللهم أمانتي أديتها وميثاقي وفيته اشهد لي بالموافاة، فإن لم يستطع التقبيل وقف في مقابلته ويقول ذلك. ثم لا يعرّج على شيء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس في المكتوبة فيصلي معهم ثم يطوف.

الجملة الرابعة: في الطواف:

فإذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغي أن يراعي أموراً ستة:

الأول: أن يراعي شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث في الثوب والبدن والمكان وستر العورة، فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام. وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر فيرخي طرفاً وراء ظهره وطرفاً على صدره، ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتغل بالأدعية التي سنذكرها.

الثاني: إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتنح عنه قليلاً ليكون الحجر قدامه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه في ابتداء طوافه، وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً من البيت فإنه أفضل ولكيلا يكون طائفاً على الشاذروان فإنه من البيت، وعند الحجر الأسود قد يتصل الشاذروان بالأرض ويلتبس به، والطائف عليه لا يصح طوافه؛ لأنه طائف في البيت. والشاذروان هو الذي فضل عن عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار، ثم من هذا الموقف يبتدىء الطواف.

الثالث: أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل في ابتداء الطواف: «بسم الله والله أكبر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ» ويطوف. فأوّل ما يجاوز الحجر ينتهي إلى باب البيت فيقول: «اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار» وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام: «اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذني من النار ومن الشيطان الرجيم وحرّم لحمي ودمي على النار وآمني من أهوال يوم القيامة واكفني مؤنة الدنيا والآخرة»، ثم يسبح الله تعالى ويحمده حتى يبلغ الركن العراقي فعنده يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء

المنظر في الأهل والمال والولد» فإذا بلغ الميزاب قال: «اللهم أظلنا تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك اللهم اسقني بكأس محمد ﷺ شربة لا أظمأ بعدها أبداً»، فإذا بلغ الركن الشامي قال: «اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وتجارة لن تبور يا عزيز يا غفور، رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم» فإذا بلغ الركن اليماني قال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من الخزي في الدنيا والآخرة» ويقول بين الركن اليماني والحجر الأسود: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار»، فإذا بلغ الحجر الأسود قال: «اللهم اغفر لي برحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر»، وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية في كل شوط.

الرابع: أن يرمل في ثلاثة أشواط ويمشي في الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة. ومعنى الرمل الإسراع في المشي مع تقارب الخطى، وهو دون العدو وفوق المشي المعتاد. والمقصود منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوّة، هكذا كان القصد أولاً قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة[1]، والأفضل الرمل مع الدنوّ من البيت فإن لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل فليخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثاً ثم ليقرب إلى البيت في المزدحم وليمش أربعاً. وإن أمكنه استلام الحجر في كل شوط فهو الأحب، وإن منعه الزحمة أشار باليد وقبل يده، وكذلك استلام الركن اليماني يستحب من سائر الأركان. وروي «أنه ﷺ كان يستلم الركن اليماني[2]، ويقبله[3]، ويضع خدّه عليه»[4]، ومن أراد تخصيص الحجر بالتقبيل واقتصر في الركن اليماني على الاستلام أغنى عن اللمس باليد فهو أولى.

الخامس: إذا تم الطواف سبعاً فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب هو موضع استجابة الدعوة، وليلتزق بالبيت وليتعلق بالأستار وليلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خدّه الأيمن وليبسط عليه ذراعيه

---

(١) حديث: «مشروعية الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة» أما الرمل: فمتفق عليه من حديث ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبيّ ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة..» الحديث. وأما الاضطباع فروى أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر قال: «فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ».

(٢) حديث: «استلامه ﷺ للركن اليماني». متفق عليه من حديث ابن عمر قال: «رأيت رسول الله ﷺ حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود..» الحديث. ولهما من حديثه: «لم أر رسول الله ﷺ يمس من الأركان إلا اليمانيين» ولمسلم من حديث ابن عباس: «لم أره يستلم غير الركنين اليمانيين». وله من حديث جابر الطويل: «حتى إذا أتيت البيت معه استلم الركن».

(٣) حديث: «تقبيله ﷺ له». متفق عليه من حديث عمر: «أنه قبل الحجر وقال: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك» وللبخاري من حديث ابن عمر: «رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله» وله في التاريخ من حديث ابن عباس: «كان النبيّ ﷺ إذا استلم الركن اليماني قبله».

(٤) حديث: «وضع الخد عليه». أخرجه الدارقطني من حديث ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ قبل الركن اليماني..» الحديث. قال الحاكم: صحيح الإسناد. قلت: فيه عبدالله بن مسلم بن هرمز ضعفه الجمهور.

وكفيه، وليقل: «اللهم يا رب البيت العتيق أعتق رقبتي من النار وأعذني من الشيطان الرجيم وأعذني من كل سوء وقنعني بما رزقتني وبارك لي فيما آتيتني. اللهم إنّ هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار. اللهم اجعلني من أكرم وفدك عليك»، ثم ليحمد الله كثيراً في هذا الموضع وليصل على رسوله ﷺ وعلى جميع الرسل كثيراً وليدع بحوائجه الخاصة وليستغفر من ذنوبه. كان بعض السلف في هذا الموضع يقول لمواليه: تنحوا عني حتى أقرّ لربي بذنوبي.

السادس: إذا فرغ من ذلك ينبغي أن يصلي خلف المقام ركعتين يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص وهما ركعتا الطواف. قال الزهري: مضت السنة أن يصلي لكل سبع ركعتين[(١)]، وإن قرن بين أسابيع وصلى ركعتين جاز[(٢)]، فعل ذلك رسول الله ﷺ وكل أسبوع طواف. وليدع بعد ركعتي الطواف وليقل: اللهم يسر لي اليسرى وجنبني العسرى واغفر لي في الآخرة والأولى واعصمني بألطافك حتى لا أعصيك وأعني على طاعتك بتوفيقك وجنبني معاصيك واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين. اللهم حببني إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين اللهم فكما هديتني إلى الإسلام فثبتني عليه بألطافك وولايتك واستعملني لطاعتك وطاعة رسولك وأجرني من مضلات الفتن. ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف، قال ﷺ: «**مَنْ طَافَ بِالبَيْتِ أُسْبُوعاً وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ فَلَهُ مِنَ الأَجْرِ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ**»[(٣)] وهذه كيفية الطواف. والواجب من جملته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعاً بجميع البيت، وأن يبتدىء بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لا على الشاذروان ولا في الحجر، وأن يوالي بين الأشواط ولا يفرّقها تفريقاً خارجاً عن المعتاد وما عدا هذا فهو سنن وهيئات.

الجملة الخامسة: في السعي:

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو في محاذاة الضلع الذي بين الركن اليماني والحجر. فإذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجات في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل. رقى رسول الله ﷺ حتى بدت له الكعبة[(٤)]، وابتداء السعي من أصل الجبل كاف

---

(١) حديث الزهري: «مضت السنة أن يصلي لكل أسبوع ركعتين». ذكره البخاري تعليقاً السنة أفضل لم يطف النبيّ ﷺ أسبوعاً إلا صلى ركعتين، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: «قدم رسول الله ﷺ وطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين».

(٢) حديث: «قرانه ﷺ بين أسابيع». رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر: «أن النبيّ ﷺ قرن ثلاثة أطواف ليس بينهما صلاة»، ورواه العقيلي في الضعفاء وابن شاهين في أماليه من حديث أبي هريرة وزاد: «ثم صلى لكل أسبوع ركعتين» وفي إسنادهما عبدالسلام بن أبي الحبوب منكر الحديث.

(٣) حديث: «**من طاف بالبيت أسبوعاً وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة**». أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر: «**من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة**». لفظ ابن ماجه وقال: «**الآخر من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة**» وللبيهقي في الشعب: «**من طاف أسبوعاً وركع ركعتين كانت كعتاق رقبة**».

(٤) حديث: «أنه رقى على الصفا حتى بدت له الكعبة». أخرجه مسلم من حديث جابر: «فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت» وله من حديث أبي هريرة: «أتى الصفا فعلا عليه حتى نزل إلى البيت».

وهذه الزيادة مستحبة، ولكن بعض تلك الدرج مستحدثة فينبغي أن لا يخلفها وراء ظهره فلا يكون متمماً للسعي، وإذا ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات. وعند رقيه في الصفا ينبغي أن يستقبل البيت ويقول: «الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين. ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرُّوم: ١٧-٢٠]، اللهم إني أسألك إيماناً دائماً، ويقيناً صادقاً، وعلماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وأسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة، ويصلي على محمد ﷺ ويدعو الله عزّ وجلّ بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء. ثم ينزل ويبتدىء السعي وهو يقول: «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم. اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، ويمشي على هينة حتى ينتهي إلى الميل الأخضر وهو أوّل ما يلقاه إذا نزل من الصفا ـ وهو على زاوية المسجد الحرام ـ فإذا بقي بينه وبين محاذاة الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهي إلى الميلين الأخضرين. ثم يعود إلى الهينة فإذا انتهى إلى المروة صعدها كما صعد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء، وقد حصل السعي مرة واحدة، فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان. يفعل ذلك سبعاً ويرمل في موضع الرمل في كل مرة ويسكن في موضع السكون ـ كما سبق ـ وفي كل نوبة يصعد الصفا والمروة فإذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف القدوم والسعي وهما سنتان. والطهارة مستحبة للسعي وليست بواجبة بخلاف الطواف. وإذا سعى فينبغي أن لا يعيد السعي بعد الوقوف ويكتفي بهذا ركناً؛ فإنه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن. نعم شرط كل سعي أن يقع بعد طواف أي طواف كان.

الجملة السادسة: في الوقوف وما قبله:

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات يتفرّغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف، وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرماً إلى اليوم السابع من ذي الحجة. فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها، وبالغدوّ منها إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال؛ إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر، فينبغي أن يخرج إلى منى ملبياً. ويستحب له المشي من مكة في المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه، والمشي من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وآكد. فإذا انتهى إلى منى قال: اللهم هذه منى فامنن عليّ بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك. وليمكث هذه الليلة بمنى ـ وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك ـ فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات ويقول: اللهم اجعلها خير غدوةٍ غدوتها قط وأقربها من رضوانك وأبعدها من سخطك. اللهم إليك غدوت وإياك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلني ممن تباهي به اليوم من هو خير مني

وأفضل. فإذا أتى عرفات فليضرب خباءه بنمرة قريباً من المسجد، فثمّ ضرب رسول الله ﷺ قبته[(١)]. ونمرة: هي بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة. وليغتسل للوقوف فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقعد، وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان، وفرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن. ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين، وقصر الصلاة، وراح إلى الموقف فليقف بعرفة ولا يقفن في وادي عرنة.

وأما مسجد إبراهيم عليه السلام فصدره في الوادي وأخرياته من عرفة فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة. ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم، والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلاً للقبلة راكباً. وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عزّ وجلّ والدعاء والتوبة. ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء. ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبي تارة ويكب على الدعاء أخرى. وينبغي أن لا ينفصل من طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار، وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان الغلط في الهلال فهو الحزم وبه الأمن من الفوات. ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج، فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دماً لأجل الفوات، ثم يقضي العام الآتي، وليكن أهم اشتغاله في هذا اليوم الدعاء، ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى إجابة الدعوات. والدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ[(٢)]، وعن السلف في يوم عرفة أول ما يدعو به فليقل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير. اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي لساني نوراً. اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري. وليقل: اللهم رب الحمد لك الحمد كما تقول وخيراً مما نقول لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي وإليك ثوابي. اللهم إني أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر

---

(١) حديث: «ضربه ﷺ قبته بنمرة» أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل: «أمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة..» الحديث.

(٢) حديث: «الدعاء المأثور في يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له..» الحديث. أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن النبيّ ﷺ قال: **خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» وقال: حسن غريب. وله من حديث علي قال: «أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة في الموقف: **اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي ولك رب تراثي اللهم إني أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح**» وقال: ليس بالقوي إسناده، وروى المستغفري في الدعوات من حديثه: «**يا علي، إن أكثر دعاء من قبلي يوم عرفة أن أقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم اجعل في صدري نوراً وفي سمعي نوراً وفي قلبي نوراً. اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري. اللهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار وشر ما تهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر**». وإسناده ضعيف، وروى الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال: «كان مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة: **اللهم إنك ترى مكاني وتسمع كلامي وتعلم سري وعلانيتي ولا يخفى عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير**»، فذكر الحديث إلى قوله: «**يا خير المسؤولين ويا خير المعطين**» وإسناده ضعيف وباقي الدعاء من دعاء بعضه السلف في بعض ما هو مرفوع ولكن ليس مقيداً بموقف عرفة.

وعذاب القبر. اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل، ومن شر ما يلج في النهار ومن شر ما تهب به الرياح، ومن شر بوائق الدهر. اللهم إني أعوذ بك من تحوّل عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك. اللهم اهدني بالهدى واغفر لي في الآخرة والأولى يا خير مقصود وأسنى منزول به وأكرم مسؤول ما لديه، أعطني العشية أفضل ما أعطيت أحداً من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين. اللهم يا رفيع الدرجات ومنزل البركات ويا فاطر الأرضين والسمٰوات ضجت إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن لا تنساني في دار البلاء إذا نسيني أهل الدنيا. اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي ولا يخفى عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف بذنبه أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته وذل لك جسده ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيّاً وكن بي رؤوفاً رحيماً يا خير المسؤولين وأكرم المعطين، إلهي من مدح لك نفسه فإني لائم نفسي. إلهي أخرست المعاصي لساني فمالي وسيلة عن عمل ولا شفيع سوى الأمل. إلهي إني أعلم أنّ ذنوبي لم تبق لي عندك جاهاً ولا للاعتذار وجهاً ولكنك أكرم الأكرمين. إلهي إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء. إلهي إنّ ذنوبي وإن كانت عظاماً ولكنها صغار في جنب عفوك فاغفرها لي يا كريم. إلهي أنت أنت وأنا أنا، أنا العوّاد إلى الذنوب وأنت العوّاد إلى المغفرة. إلهي إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون. إلهي تجنبت عن طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً فسبحانك ما أعظم حجتك علي وأكرم عفوك عني فبوجوب حجتك عليّ وانقطاع حجتي عنك وفقري إليك وغناك عني إلا غفرت لي يا خير من دعاه داع، وأفضل من رجاه راج بحرمة الإسلام وبذمة محمد عليه السلام أتوسل إليك، فاغفر لي جميع ذنوبي واصرفني من موقفي هذا مقضي الحوائج وهب لي ما سألت وحقق رجائي فيما تمنيت. إلهي دعوتك بالدعاء الذي علمتنيه فلا تحرمني الرجاء الذي عرّفتنيه. إلهي ما أنت صانع العشية بعبد مقرّ لك بذنبه خاشع لك بذلته مستكين بجرمه متضرع إليك من عمله، تائب إليك من اقترافه، مستغفر لك من ظلمه، مبتهل إليك في العفو عنه، طالب إليك نجاح حوائجه، راج إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه، فيا ملجأ كل حي وولي كل مؤمن من أحسن فبرحمتك يفوز ومن أخطأ فبخطيئته يهلك. اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنخنا وإياك أملنا وما عندك طلبنا ولإحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأثقال الذنوب هربنا ولبيتك الحرام حججنا. يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، يا من ليس معه رب يدعى، ويا من ليس فوقه خالق يخشى، ويا من ليس له وزير يؤتى ولا حاجب يرشى، يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا جوداً وكرماً وعلى كثرة الحوائج إلا تفضلاً وإحساناً. اللهم إنك جعلت لكل ضيف قرى ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة. اللهم إن لكل وفد جائزة، ولكل زائر كرامة، ولكل سائل عطية، ولكل راج ثواباً، ولكل ملتمس لما عندك جزاء، ولكل مسترحم عندك رحمة، ولكل راغب إليك زلفى، ولكل متوسل إليك عفواً وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المشاعر العظام، وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا. إلهنا تابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطقت الصوامت بحجتك، وظاهرت المنن حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقك، وأظهرت الآيات حتى أفصحت السمٰوات والأرض بأدلتك، وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك، إذا أساء عبادك حلمت وأمهلت،

وإن أحسنوا تفضلت وقبلت، وإن عصوا سترت، وإن أذنبوا عفوت وغفرت، وإذا دعونا أجبت، وإذا نادينا سمعت، وإذا أقبلنا إليك قربت، وإذا ولينا عنك دعوت. إلهنا إنك قلت في كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فأرضاك عنهم الإقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود، وإنا نشهد لك بالتوحيد مخبتين ولمحمد بالرسالة مخلصين فاغفر لنا بهذه الشهادة سوالف الإجرام، ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل في الإسلام. إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعتق ما ملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالتفضل فاعتقنا. وإنك أمرتنا أن نتصدّق على فقرائنا ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتطول فتصدّق علينا. ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فاعف عنا. ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار». وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو أن يقول: «يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الأصوات، يا من لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا تضجره مسألة السائلين أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك»، وليدع بما بدا له وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وليلح في الدعاء وليعظم المسألة، فإن الله لا يتعاظمه شيء. وقال مطرِّف بن عبدالله وهو بعرفة: اللهم لا ترد الجميع من أجلي. وقال بكر المزني: قال رجل: لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم.

الجملة السابعة: في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف:

فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس، فينبغي أن يكون على السكينة والوقار وليجتنب وجيف الخيل وإيضاع الإبل كما يعتاده بعض الناس. فإن رسول الله ﷺ نهى عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل وقال: «**اتَّقُوا الله وَسِيرُوا سَيْراً جَمِيلاً لاَ تَطَؤُوا ضَعِيفاً وَلا تُؤْذُوا مُسْلِماً**»(١)، فإذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأن المزدلفة من الحرم فليدخله بغسل. وإن قدر على دخوله ماشياً فهو أفضل وأقرب إلى توقير الحرم. ويكون في الطريق رافعاً صوته بالتلبية فإذا بلغ المزدلفة قال: «اللهم إن هذه مزدلفة جمعت فيها ألسنة مختلفة تسألك حوائج مؤتنفة فاجعلني ممن دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيته»، ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً له بأذان وإقامتين ليس بينهما نافلة، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين، ويبدأ بنافلة المغرب ثم بنافلة العشاء كما في الفريضتين؛ فإن ترك النوافل في السفر خسران ظاهر، وتكليف إيقاعها في الأوقات إضرار وقطع للتبعية بينهما وبين الفرائض، فإذا جاز أن يؤدي النوافل مع الفرائض بتيمم واحد بحكم التبعية فبأن يجوز أداؤهما على حكم الجمع بالتبعية أولى. ولا يمنع من هذا مفارقة النفل للفرض في جواز أدائه على الراحلة لما أومأنا إليه من التبعية والحاجة. ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة وهو مبيت نسك، ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبت فعليه دم، وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه، ثم إذا

---

(١) حديث: «نهى النبي ﷺ عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل». أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث أسامة بن زيد: «**عليكم بالسكينة والوقار فإن البر ليس في إيضاع الإبل**»، وقال الحاكم: «**ليس البر بإيجاف الخيل والإبل**»، وللبخاري من حديث ابن عباس: «**فإن البر ليس بالإيضاع**».

انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها ـ ففيها أحجار رخوة ـ فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة، ولا بأس بأن يستظهر بزيادة فربما يسقط منه بعضها، ولتكن الحصى خفافاً بحيث يحتوي عليه أطراف البراجم. ثم ليغلس بصلاة الصُبح وليأخذ في المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الإسفار ويقول: «اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام» ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له: وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي، وإن كان راجلاً أسرع في المشي. ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبي تارة ويكبر أخرى. فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر، حتى ينتهي إلى جمرة العقبة وهي على يمين مستقبل القبلة في الجادة ـ والمرمى مرتفع قليلاً في سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات ـ ويرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح. وكيفيته أن يقف مستقبلاً القبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس ويرمي سبع حصيات رافعاً يده، ويبدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصاة: «الله أكبر على طاعة الرحمن، ورغم الشيطان اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك» فإذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق. ولا يقف في هذا اليوم للدعاء بل يدعو في منزله. وصفة التكبير أن يقول: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر»، ثم ليذبح الهدي إن كان معه، والأولى أن يذبح بنفسه وليقل: «بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك وإليك تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم»، والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاة. والشاة أفضل من مشاركة ستة في البدنة أو البقرة. والضأن أفضل من المعز. قال رسول الله ﷺ: **«خَيْرُ الأُضْحِيَةِ الكَبْشُ الأَقْرَنُ وَالبَيْضَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الغَبْرَاءِ وَالسَّوْدَاءِ»**(١)، وقال أبو هريرة: البيضاء أفضل في الأضحى من دم سوداوين. وليأكل منه إن كانت من هدي التطوع. ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء. والجدع في الأنف والأذن للقطع منهما، والعضب في القرن وفي نقصان القوائم، والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق، والخرقاء من أسفل، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام، والمدابرة من خلف، والعجفاء المهزولة التي لا تنقي أي لا مخ فيها من الهزال. ثم ليحلق بعد ذلك، والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدىء بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقي ويقول: «اللهم أثبت لي بكل شعرة حسنة وامح عني بها سيئة وارفع لي بها عندك درجة» والمرأة تقصر الشعر. والأصلع يستحب له إمرار الموسى على رأسه. ومهما حلق بعد رمي الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحذورات إلا النساء والصيد. ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه، وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة، وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أي وقت شاء، ولكن يبقى مقيداً بعلقة الإحرام

---

(١) حديث: **«خير الأضحية الكبش»**. أخرجه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت، والترمذي من حديث أبي أمامة، قال الترمذي: غريب، وعفير يضعف في الحديث.

فلا تحل له النساء إلى أن يطوف. فإذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق إلا الرمي أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحج، وكيفية هذا الطواف مع الركعتين كما سبق في طواف القدوم. فإذا فرغ من الركعتين فليسع كما وصفنا إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم، وإن كان قد سعى فقد وقع ذلك ركناً فلا ينبغي أن يعيد السعي. وأسباب التحلل ثلاثة: الرمي والحلق والطواف الذي هو ركن، ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين، ولا حرج عليه في التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح، ولكن الأحسن أن يرمي ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف.

والسنة للإمام في هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال وهي خطبة وداع رسول الله ﷺ، ففي الحج أربع خطب: خطبة يوم السابع، وخطبة يوم عرفة، وخطبة يوم النحر[(١)]، وخطبة يوم النفر الأول، وكلها عقيب الزوال وكلها إفراد إلا خطبة يوم عرفة فإنها خطبتان بينهما جلسة. ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمي فيبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القرّ؛ لأن الناس في غد يقرّون بمنى ولا ينفرون. فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجمرة الأولى التي تلي عرفة وهي على يمين الجادة ويرمي إليها بسبع حصيات، فإذا تعداها انحرف قليلاً عن يمين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلّل وكبّر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلاً على الدعاء، ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمي كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأولى، ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمي سبعاً، ولا يعرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول، ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق رمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذي قبله. ثم هو مخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة. فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه، وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني أحداً وعشرين حجراً كما سبق، وفي ترك المبيت والرمي إراقة دم وليتصدق باللحم. وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى. كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك[(٢)]، ولا يتركنّ حضور الفرائض مع الإمام في مسجد الخيف فإنّ فضله عظيم. فإذا أفاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلي العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقدة[(٣)] فهو السنّة، رواه جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. فإن لم يفعل ذلك فلا شيء عليه.

---

(١) حديث: «الخطبة يوم النحر وهي خطبة وداع رسول الله ﷺ. أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة: «خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر»، وله من حديث ابن عباس: «خطب الناس يوم النحر»، وفي حديث علقه البخاري ووصله ابن ماجه من حديث ابن عمر: «وقف النبيّ ﷺ يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها فقال: أي يوم هذا؟...» الحديث. وفيه: «ثم ودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع».

(٢) حديث: «زيارة البيت في ليالي منى والمبيت بمنى». أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث طاوس: «قال: أشهد أن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يزور البيت أيام منى» وفيه عمرو بن رباح ضعيف والمرسل صحيح الإسناد، ولأبي داود من حديث عائشة: «أن النبيّ ﷺ مكث بمنى ليالي أيام التشريق».

(٣) حديث: «نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والرقود به رقدة». أخرجه البخاري من حديث أنس: «أن النبيّ ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء ثم هجع هجعة..» الحديث.

الجملة الثامنة: في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع:

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق في الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية. وينوي العمرة ويلبي ويقصد مسجد عائشة رضي الله عنها ويصلي ركعتين ويدعو بما شاء. ثم يعود إلى مكة وهو يلبي حتى يدخل المسجد الحرام، فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعاً وسعى سبعاً كما وصفنا. فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته. والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتمار والطواف، وليكثر النظر إلى البيت. فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافياً موقراً. قيل لبعضهم: هل دخلت بيت ربك اليوم؟ فقال: والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي فكيف أراهما أهلاً لأن أطأ بهما بيت ربي! وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا. وليكثر شرب ماء زمزم وليستق بيده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع وليقل: اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الإخلاص واليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة. قال ﷺ: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»[(١)]، أي يشفي ما قصد به.

الجملة التاسعة: في طواف الوداع:

مهما عنّ له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فلينجز أولاً أشغاله وليشد رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت، ووداعه بأن يطوف به سبعاً كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع. فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم. ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول: «اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتني على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك وبلغتني بنعمتك حتى أعنتني على قضاء مناسكك، فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضاً وإلا فمنّ الآن قبل تباعدي عن بيتك هذا أوان انصرافي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك. اللهم أصحبني العافية في بدني والعصمة في ديني وأحسن منقلبي وارزقني طاعتك أبداً ما أبقيتني واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير. اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدي فعوضني عنه الجنة»، والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه.

الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها:

قال ﷺ: «**مَنْ زَارَنِي بَعْدَ وَفَاتِي فَكَأَنَّما زَارَنِي فِي حَيَاتِي**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**مَنْ وَجَدَ سَعَةً وَلَمْ يَفِدْ**

---

(١) حديث: «**ماء زمزم لما شرب له**». أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند ضعيف، ورواه الدارقطني والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس، قال الحاكم: صحيح الإسناد إن سلم من محمد بن حبيب الجلارودي. قال ابن القطان: سلم منه فإن الخطيب قال فيه: كان صدوقاً، قال ابن القطان: لكن الراوي عنه مجهول وهو محمد بن هشام المروزي.

(٢) حديث: «**من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي**». أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث ابن عمر.

إِلَيَّ فَقَدْ جَفَانِي»[1]، وقال ﷺ: «مَنْ جَاءَنِي زَائِراً لا يَهُمُّهُ إِلاّ زِيَارَتِي كَانَ حَقّاً عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ شَفِيعاً»[2]، فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله ﷺ في طريقه كثيراً. فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال: «اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب»، وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليتطيب وليلبس أنظف ثيابه. فإذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظماً وليقل: بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]، ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين، ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله ﷺ قبل أن يغير المسجد. وليجتهد أن يصلي في المسجد الأول قبل أن يزاد فيه. ثم يأتي قبر النبي ﷺ فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر، ويجعل القنديل على رأسه، وليس من السنّة أن يمس الجدار ولا أن يقبّله بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام، فيقف ويقول: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا أمين الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا ماحي، السلام عليك يا عاقب، السلام عليك يا حاشر، السلام عليك يا بشير، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا طهر، السلام عليك يا طاهر، السلام عليك يا أكرم ولد آدم، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك يا قائد الخير، السلام عليك يا فاتح البر، السلام عليك يا نبي الرحمة، السلام عليك يا هادي الأمة، السلام عليك يا قائد الغرّ المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته، وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وكلما غفل عنك الغافلون، وصلى عليك في الأوّلين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرّم وعظم. وإن كان قد أوصي بتبليغ سلام فيقول: «السلام عليك من ـ فلان ـ السلام عليك من ـ فلان ـ»، ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه

---

(١) حديث: «من وجد سعة ولم يفد إليّ فقد جفاني». أخرجه ابن عدي والدارقطني في غرائب مالك وابن حبان في الضعفاء والخطيب في الرواة عن مالك في حديث ابن عمر: «من حج ولم يزرني فقد جفاني». وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وروى ابن النجار في تاريخ المدينة من حديث أنس: «ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر».

(٢) حديث: «من جاءني زائراً لا تهمه إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً». أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن.

لأن رأسه عند منكب رسول الله ﷺ ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه. ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول: «السلام عليكما يا وزيري رسول الله ﷺ والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته، فجزاكما خير ما جزى وزيري نبي عن دينه». ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله ﷺ ـ بين القبر والأسطوانة اليوم ـ ويستقبل القبلة وليحمد الله عزّ وجلّ وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ثم يقول: «اللهم إنك قد قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النّساء: ٦٤]، اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللهم علينا وشفّع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك. اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان. اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين.

ثم يأتي الروضة فيصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله ﷺ: **«مَا بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ وَمِنْبَرِي عَلَىٰ حَوْضِي»**(١)، ويدعو عند المنبر ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التي كان رسول الله ﷺ يضع يده عليها عند الخطبة(٢)، ويستحب له أن يأتي أحداً يوم الخميس ويزور قبور الشهداء فيصلي الغداة في مسجد النبي ﷺ، ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يفوته فريضة في الجماعة في المسجد. ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله ﷺ ويزور قبر عثمان رضي الله عنه وقبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، وفيه أيضاً قبر علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم، ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها، ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وقبر صفية عمة رسول الله ﷺ فذلك كله بالبقيع. ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصلي فيه لما روي أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ حَتَّىٰ يَأْتِيَ مَسْجِدَ قُبَاءَ وَيُصَلِّي فِيهِ كَانَ لَهُ عِدْلُ عُمْرَةٍ»**(٣)، ويأتي بئر أريس يقال: إن النبي ﷺ تفل فيها وهي عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من مائها(٤)، ويأتي مسجد الفتح وهو على الخندق. وكذا يأتي سائر المساجد والمشاهد. ويقال: إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعاً يعرفها أهل البلد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله ﷺ يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها(٥)، وهي

---

(١) حديث: **«ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي»**. متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبدالله بن زيد.

(٢) حديث: «وضعه ﷺ يده عند الخطبة على رمانة المنبر». لم أقف له على أصل، وذكر محمد بن الحسن بن زبالة في تاريخ المدينة أن طول رمانتي المنبر اللتين كان يمسكهما ﷺ بيديه الكريمتين إذا جلس شبر وأصبعان.

(٣) حديث: **«من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان عدل عمرة»**. أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح.

(٤) حديث: «أن النبيّ ﷺ تفل في بئر أريس». لم أقف له على أصل وإنما ورد أنه تفل في بئر البصة وبئر غرس ـ كما سيأتي عند ذكرها ـ.

(٥) حديث: «الآبار التي كان النبيّ ﷺ يتوضأ ويغتسل ويشرب منها» وهي سبعة آبار. =

سبع آبار طلباً للشفاء وتبركاً به ﷺ، وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم. قال ﷺ: «**لا يَصْبِرُ عَلَىٰ لأْوائِهَا وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ إلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ القِيَامَةِ**»[1]، وقال ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ فَإِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ بِها أَحَدٌ إلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً يَوْمَ القِيَامَةِ**»[2]، ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتي القبر الشريف

= قلت: وهي بئر أريس وبئرحا وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السقيا أو العهن أو بئر جمل..

فحديث: «بئر أريس» رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري في حديث فيه: «حتى دخل بئر أريس قال: فجلست عند بابها وبابها من حديد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ..» الحديث.

وحديث: «بئرحا» متفق عليه من حديث أنس قال: «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً وكان أحب أمواله إليه بئرحا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب...» الحديث.

وحديث: «بئر رومة» رواه الترمذي والنسائي من حديث عثمان: «أنه قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال: **من يشتري بئر رومة ويجعل دلوه مع دلاء المسلمين**...» الحديث. قال الترمذي: حديث حسن. وفي رواية لهما: «هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بالثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل...» الحديث. وقال: حسن صحيح، وروى البغوي والطبراني من حديث بشير الأسلمي قال: «لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء وكان لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بمد..» الحديث.

وحديث: «بئر غرس»، رواه ابن حبان في الثقات من حديث أنس: «أنه قال: ائتوني بماء من بئر غرس فإني رأيت رسول الله ﷺ يشرب منها ويتوضأ» ولابن ماجه بإسناد جيد مرفوعاً: «**إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قرب من بئر غرس**» وروينا في تاريخ المدينة لابن النجار بإسناد ضعيف مرسلاً: «أن النبيّ ﷺ توضأ منها وبزق فيها وغسل منها حين توفي».

وحديث: «بئر بضاعة» رواه أصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري: «أنه قيل لرسول الله ﷺ: أنتوضأ من بئر بضاعة» وفي رواية: «أنه يستقي لك من بئر بضاعة..» الحديث. قال يحيى بن معين: إسناده جيد، وقال الترمذي: حسن، وللطبراني من حديث أبي أسيد: «بصق النبيّ ﷺ في بئر بضاعة». ورويناه أيضاً في تاريخ ابن النجار من حديث سهل بن سعد.

وحديث: «بئر البصة» رواه ابن عدي من حديث أبي سعيد الخدري: «أن النبيّ ﷺ جاءه يوماً فقال: **هل عندكم من سدر أغسل به رأسي فإن اليوم الجمعة؟** قال: نعم، فأخرج له سدراً وخرج معه إلى البصة فغسل رسول الله ﷺ رأسه وصب غسالة رأسه ومراق شعره في البصة» وفيه محمد بن الحسن بن زبالة ضعيف.

وحديث: «بئر السقيا» رواه أبو داود من حديث عائشة: «أن النبيّ ﷺ كان يستعذب له من بيوت السقيا» زاد البزار في مسنده: «أو من بئر السقيا» ولأحمد من حديث علي: «خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالسقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص قال رسول الله ﷺ: **ائتوني بوضوء** فلما توضأ قام..» الحديث.

وأما بئر جمل ففي الصحيحين من حديث أبي الجهم: «أقبل رسول الله ﷺ نحو بئر جمل..» الحديث. وصله البخاري وعلقه مسلم. والمشهور أن الآبار بالمدينة سبعة. وقد روى الدارمي من حديث عائشة: «أن النبيّ ﷺ قال في مرضه: **صبوا عليّ سبع قرب من آبار شتى**..» الحديث. وهو عند البخاري دون قوله: «من آبار شتى».

(١) حديث: «**لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة**» تقدم في الباب قبله.

(٢) حديث: «**من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها**..» الحديث. تقدم في الباب قبله.

ويعيد دعاء الزيارة ـ كما سبق ـ ويودع رسول الله ﷺ ويسأل الله عزّ وجلّ أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره. ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله ﷺ قبل أن زيدت المقصورة في المسجد. فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولاً ثم اليمنى وليقل: «اللهم صلِّ على محمد وعلى وآل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزاري بزيارته وأصحبني في سفري السلامة ويسر رجوعي إلى أهلي ووطني سالماً يا أرحم الراحمين»، وليتصدّق على جيران رسول الله ﷺ بما قدر عليه، وليتتبع المساجد التي بين المدينة ومكة فيصلي فيها وهي عشرون موضعاً.

* * *

فصل

في سنن الرجوع من السفر

كان رسول الله ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: «**لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وحده لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»[(١)]، وفي بعض الروايات: «**وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون**»، فينبغي أن يستعمل هذه السنة في رجوعه. وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً». ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كي لا يقدم عليهم بغتة فذلك هو السنة[(٢)]، ولا ينبغي أن يطرق أهله ليلاً فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أوّلاً وليصل ركعتين فهو السنة[(٣)]، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ. فإذا دخل بيته قال: «تَوْباً تَوْباً لِرَبِّنَا أَوْباً لا يُغَادِرُ عَلَيْنَا حَوْباً» فإذا استقرّ في منزله فلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه ﷺ فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو والخوض في المعاصي، فما ذلك علامة الحج المبرور، بل علامته أن يعود زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت.

* * *

---

(١) حديث: «كان النبيّ ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر، وما زاده في آخره في بعض الروايات من قوله: «**وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون**» رواه المحاملي في الدعاء بإسناد جيد.

(٢) حديث: «إرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة» لم أجد فيه ذكر الإرسال، وفي الصحيحين من حديث جابر: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل فقال: **أمهلوا حتى ندخل ليلاً أي عشاء كي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة**».

(٣) حديث: «صلاة ركعتين في المسجد عند القدوم من السفر» تقدم في الصلاة.

الباب الثالث

في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب وهي عشرة:

الأول: أن تكون النفقة حلالاً وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، حتى يكون الهم مجرداً لله تعالى والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره. وقد روي في خبر من طريق أهل البيت: **«إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للمسألة وقراؤهم للسمعة»**(١)، وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصوّر أن تتصل بالحج، فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص، لا سيما إذا كان متجرّداً بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة. وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد، لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين، فعند ذلك ينبغي أن يكون قصده زيارة بيت الله عزّ وجلّ ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرض عنه. وفي مثله ينزل قول رسول الله ﷺ: **«يُدْخِلُ اللّهُ سُبْحَانَهُ بالحجَّةِ الوَاحِدَةِ ثَلاثَةَ الجَنَّةَ: المُوَصِّيَ بِها وَالمُنَفِّذَ لَها وَمَنْ حَجَّ بِها عَنْ أَخِيهِ»**(٢)، ولست أقول لا تحل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الإسلام عن نفسه، ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره، فإنّ الله عزّ وجلّ يعطي الدنيا بالدين ولا يعطي الدين بالدنيا. وفي الخبر: **«مثل الذي يغزو في سبيل الله عزّ وجلّ ويأخذ أجراً مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجرها»**(٣)، فمن كان مثاله في أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فإنه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه، وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الإرضاع بتلبيس حالها عليهم.

الثاني: أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين في الطريق، فإن تسليم المال إليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم

الباب الثالث

في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

(١) حديث: **«إذا كان في آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة»**. أخرجه الخطيب من حديث أنس بإسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين، ورواه أبو عثمان الصابوني في كتاب المائتين فقال: **«تحج أغنياء أمتي للنزهة وأوساطهم للتجارة وفقراؤهم للمسألة وقراؤهم للرياء والسمعة»**.

(٢) حديث: **«يدخل بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة: الموصي بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه»**، أخرجه البيهقي من حديث جابر بسند ضعيف.

(٣) حديث: **«مثل الذي يغزو ويأخذ أجراً مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»**. أخرجه ابن عدي من حديث معاذ وقال: مستقيم الإسناد منكر المتن.

فهو كالإعانة بالنفس، فليتلطف في حيلة الخلاص. فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء ـ ولا بأس بما قاله ـ: إنّ ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة، فإن هذه بدعة أحدثت وفي الانقياد لها ما يجعلها سنّة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية. ولا معنى لقول القائل: إن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر فإنه لو قعد في البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء، بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان في زي الفقراء لم يطالب فهو الذي ساق نفسه إلى حالة الاضطرار.

الثالث: التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف بل على اقتصاد، وأعني بالإسراف التنعم بأطيب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين. فأما كثرة البذل فلا سرف فيه؛ إذ لا خير في السرف ولا سرف في الخير، كما قيل، وبذل الزاد في طريق الحج نفقته في سبيل الله عزّ وجلّ والدرهم بسبعمائة درهم. قال ابن عمر رضي الله عنهما: من كرم الرجل طيب زاده في سفره. وكان يقول: أفضل الحاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقيناً. وقال ﷺ: «**الحَجُّ المَبْرُورُ لَيسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الجَنَّةَ**»، فقيل له: يا رسول الله، ما بر الحج؟ فقال: «**طِيبُ الكَلامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ**»[1].

الرابع: ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن. والرفث اسم جامع لكل لغو وخنى وفحش من الكلام، ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن والتحدّث بشأن الجماع ومقدّماته، فإن ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعي إلى المحظور محظور. والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عزّ وجلّ. والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق في الحال الهمة ويناقض حسن الخلق. وقد قال سفيان: من رفث فسد حجه. وقد جعل رسول الله ﷺ طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج. والمماراة تناقض طيب الكلام، فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه، بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عزّ وجلّ ويلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى. وقيل: سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال. ولذلك قال عمر رضي الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلاً: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، فقال: ما أراك تعرفه.

الخامس: أن يحج ماشياً إن قدر عليه فذلك الأفضل. أوصى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما بنيه عند موته فقال: يا بني حجوا مشاة فإن للحاج الماشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف. والاستحباب في المشي في المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى آكد منه في الطريق. وإن أضاف إلى المشي الإحرام من دويرة أهله فقد قيل: إن ذلك من إتمام الحج، قاله عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦]، وقال بعض العلماء: الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقلّ لأذاه وأقرب إلى سلامته وتمام حجه. وهذا عند التحقيق ليس مخالفاً للأول بل ينبغي أن يفصل ويقال: من سهل عليه المشي فهو أفضل، فإن كان

---

(١) حديث: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، قيل له: ما بر الحج؟ قال: طيب الكلام وإطعام الطعام**». أخرجه أحمد من حديث جابر بإسناد لين، ورواه الحاكم مختصراً وقال: صحيح الإسناد.

يضعف ويؤدي به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل، كما أن الصوم للمسافر أفضل وللمريض ما لم يفض إلى ضعف وسوء خلق. وسئل بعض العلماء عن العمرة: أيمشي فيها أو يكتري حماراً بدرهم؟ فقال: إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالكراء أفضل من المشي، وإن كان المشي أشدّ عليه كالأغنياء فالمشي له أفضل، فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه. ولكن الأفضل له أن يمشي ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكاري عوضاً عن ابتذال الدابة، فإذا كانت لا تتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه.

السادس: أن لا يركب إلا زاملة أما المحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف من الزاملة أن لا يستمسك عليها لعذر، وفيه معنيان: أحدهما: التخفيف على البعير فإن المحمل يؤذيه. والثاني: اجتناب زي المترفين والمتكبرين. «حج رسول الله ﷺ على راحلة وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم[١]، وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشمائله»[٢]، وقال ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»[٣]، وقيل: إنّ هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء في وقته ينكرونها. فروى سفيان الثوري عن أبيه أنه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل وما رأيت في جميعهم إلا محملين. وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزي والمحامل يقول: الحاج قليل والركب كثير، ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالق فقال: هذا نعم من الحجاج.

السابع: أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في ديوان المتكبرين المترفهين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين، فقد أمر ﷺ بالشعث والاحتفاء[٤]، ونهى عن التنعم والرفاهية[٥] في حديث فضالة بن عبيد، وفي الحديث: «**إنما الحاج الشعث التفث**[٦]، **ويقول الله تعالى: انظروا إلى زوار بيتي قد جاؤوني شعثاً غبراً من كل فج عميق**»[٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ [الحَج: ٢٩]، والتفث الشعث والاغبرار، وقضاؤه بالحلق وقص الشارب والأظفار. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: اخلولقوا واخشوشنوا. أي البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة في الأشياء. وقد قيل: زين

---

(١) حديث: «حج رسول الله ﷺ على راحلته وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم». أخرجه الترمذي في الشمائل وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث: «طوافه ﷺ على راحلته» تقدم.

(٣) حديث: «**خذوا عني مناسككم**» أخرجه مسلم والنسائي واللفظ له من حديث جابر.

(٤) حديث: «الأمر بالشعث والاحتفاء». أخرجه البغوي والطبراني من حديث عبدالله بن أبي حدرد قال: «قال رسول الله ﷺ: **تمعددوا واخشوشنوا وانتضلوا وامشوا حفاة**» وفيه اختلاف، ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف.

(٥) حديث فضالة بن عبيد: «في النهي عن التنعم والرفاهية وأن النبيّ ﷺ كان ينهى عن كثير من الإرفاء». ولأحمد من حديث معاذ: «**إياك والتنعم**. .» الحديث.

(٦) حديث: «**إنما الحاج الشعث التفث**». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال: غريب.

(٧) حديث: «**يقول الله تعالى: انظروا إلى زوار بيتي قد جاؤوا شعثاً غبراً من كل فج عميق**». أخرجه الحاكم وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله: «**من كل فج عميق**». وكذا رواه أحمد من حديث عبدالله بن عمر.

الحجيج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف. فينبغي أن يجتنب الحمرة في زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم. فقد روي: «أنه ﷺ كان في سفر فنزل أصحابه منزلاً فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال ﷺ: «**أَرَىٰ هٰذِهِ الْحُمْرَةَ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْكُمْ**»[(١)]، قالوا: فقمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل».

الثامن: أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق والمحمل خارج عن حدّ طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها. كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل، قال ﷺ: «**لا تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ كَرَاسِيَّ**»[(٢)]، ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وعشية يروّحها بذلك فهو سنة[(٣)]، وفيه آثار عن السلف. وكان بعض السلف يكتري بشرط أن لا ينزل ويوفي الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسناً إلى الدابة، فيكون في حسناته ويوضع في ميزانه لا في ميزان المكاري. وكل من آذى بهيمة وحملها ما لا تطيق طولب به يوم القيامة. قال أبو الدرداء لبعير له عند الموت: يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك. وعلى الجملة في كل كبد حرّاء أجر فليراع حق الدابة وحق المكاري جميعاً. وفي نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكاري. قال رجل لابن المبارك: احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله فقال: حتى أستأمر الجمال فإني قد اكتريت. فانظر يكف تورع من استصحاب كتاب لا وزن له؟ وهو طريق الحزم في الورع فإنه إذا فتح باب القليل انجرّ إلى الكثير يسيراً يسيراً.

التاسع: أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجباً عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه، وليأكل منه إن كان تطوعاً ولا يأكل منه إن كان واجباً. قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحَجّ: ٣٢]، إنه تحسينه وتسمينه. وسوق الهدي من الميقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده. وليترك المكاس في شرائه فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهنّ: الهدي والأضحية والرقبة، فإن أفضل ذلك أغلاه ثمناً وأنفسه عند أهله، وروى ابن عمر: أنّ عمر رضي الله عنهما أهدي نجيبة فطلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال: «**بل أَهْدِهَا**»[(٤)]. وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون، وفي ثلاثمائة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم، ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عزّ وجلّ فـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحَجّ: ٣٧]، وذلك يحصل بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أو قلّ. وسئل رسول الله ﷺ: ما برّ الحج؟ فقال:

---

(١) حديث: «أنه ﷺ كان في سفر فنزل أصحابه منزلاً فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال: **أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم**..» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث رافع بن خديج وفيه رجل لم يسم.

(٢) حديث: «**لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي**». أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ بسند ضعيف، ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه.

(٣) حديث: «النزول عن الدابة غدوة وعشية يريحها بذلك». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بإسناد جيد: «أن النبيّ ﷺ كان إذا صلى الفجر في السفر مشى»، ورواه البيهقي في الأدب وقال: «مشى قليلاً وناقته تقاد».

(٤) حديث ابن عمر: «أن عمر أهدي نجيبة فطلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال: **بل أهدها**» أخرجه أبو داود وقال: «**انحرها**».

«العَجُّ والثَّجُّ»[(١)]. والعج هو رفع الصوت بالتلبية، والثج هو نحر البدن. وروت عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِلَ آدَمِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ إِهْرَاقِهِ دَماً وَإِنَّها لَتَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَظْلافِهَا وَإِنَّ الدَّمَ يَقَعُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ بِالأَرْضِ فَطِيبُوا بها نَفْساً»[(٢)]. وفي الخبر: «لَكُمْ بِكُلِّ صُوفَةٍ مِنْ جِلْدِهَا حَسَنَةٌ وَكُلِّ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهَا لَتُوضَعُ فِي المِيزَانِ فَأَبْشِرُوا»[(٣)]. وقال ﷺ: «اسْتَنْجِدُوا هَدَايَاكُمْ فَإِنَّها مَطَايَاكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ».

العاشر: أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدي؛ وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن إن أصابه ذلك، فإن ذلك من دلائل قبول حجه. فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله عزّ وجلّ الدرهم بسبعمائة درهم بمثابة الشدائد في طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شيء عند الله عزّ وجلّ. ويقال: إن من علامة قبول الحج أيضاً ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يتبدل بإخوانه البطالين إخواناً صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة، وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره:

اعلم أن أول الحج الفهم ـ أعني فهم موقع الحج في الدين ـ ثم الشوق إليه، ثم العزم عليه، ثم قطع العلائق المانعة منه، ثم شراء ثوب الإحرام، ثم شراء الزاد، ثم اكتراء الراحلة، ثم الخروج، ثم المسير في البادية، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية، ثم دخول مكة، ثم استتمام الأفعال كما سبق. وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر وتنبيه للمريد الصادق وتعريف وإشارة للفطن. فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشف لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه.

أما الفهم: اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرّد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات. ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عزّ وجلّ، فتركوا لله عزّ وجلّ اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعاً في الآخرة، وأثنى الله عزّ وجلّ عليهم في كتابه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

---

(١) حديث: «سئل رسول الله ﷺ: ما بر الحج؟ فقال: **العج والثج**». أخرجه الترمذي واستغربه وابن ماجه والحاكم وصححه والبزار واللفظ له من حديث أبي بكر، وقال الباقولي: «أي الحج أفضل».

(٢) حديث عائشة: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه دماً..**» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه ابن ماجه وضعفه ابن حبان، وقال البخاري: إنه مرسل، ووصله ابن خزيمة.

(٣) حديث: «**لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا**». أخرجه ابن ماجه، وصححه البيهقي من حديث زيد بن أرقم في حديث فيه: «**بكل شعرة حسنة قالوا: فالصوف قال: بكل شعرة من الصوف حسنة**»، وفي رواية البيهقي: «**بكل قطرة حسنة**» قال البخاري: لا يصح. وروى أبو الشيخ في كتاب الضحايا من حديث علي: «**أما إنها يجاء بها يوم القيامة بلحومها ودمائها حتى توضع في ميزانك**» يقولها لفاطمة.

[المائدة: ٨٢]، فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عزّ وجلّ وفتروا عنه بعث الله عزّ وجلّ نبيه محمداً ﷺ لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنّة المرسلين في سلوكها. فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسّياحة في دينه فقال ﷺ: «**أَبْدَلَنا اللَّهُ بها الجِهَادَ وَالتَّكْبِيرَ عَلَىٰ كُلّ شَرَفٍ**»[1]، يعني الحج. وسئل ﷺ عن السائحين فقال: «**هُمُ الصَّائِمُونَ**»[2]. فأنعم الله عزّ وجلّ على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى، ونصبه مقصداً لعباده وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره. وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوّار من كل فج عميق ومن كل أوبٍ سحيق شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعاً لجلاله واستكانةً لعزته، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وانقيادهم. ولذلك وظف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار. وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية. فإن الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل. والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدوّ الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل. والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عزّ وجلّ بأفعال هي هيئة التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عزّ وجلّ. فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط، وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد. ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «**لَبَّيْكَ بِحَجَّةٍ حَقّاً تَعَبُّداً وَرِقّاً**»[3]، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها. وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد، كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق. وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات. وهذا القدر كافٍ في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى.

---

(١) حديث: «سئل عن الرهبانية والسياحة فقال: **بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف**»، أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال: **إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**»، رواه الطبراني بلفظ: «**إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو**»، وللبيهقي في الشعب من حديث أنس: «**رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله**» وكلاهما ضعيف، والترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأوصني، قال: **عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف**».

(٢) حديث: «سئل عن السائحين فقال: **هم الصائمون**»، أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال: المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلاً.

(٣) حديث: «**لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً**» تقدم في الزكاة.

وأما الشوق: فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأنّ البيت بيت الله عزّ وجلّ وأنه وضع على مثال حضرة الملوك، فقاصده قاصد إلى الله عزّ وجلّ وزائر له وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة في ميعاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار، من حيث إن العين القاصرة الفانية في دار الدنيا لا تتهيأ لقبول النظر إلى وجه الله عزّ وجلّ ولا تطيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها، وأنها إن أمدّت في الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار، ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم. فالشوق إلى لقاء الله عزّ وجلّ يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عزّ وجلّ فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل.

وأما العزم: فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهٌ إلى زيارة بيت الله عزّ وجلّ، وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظيماً خاطر بعظيم. وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإنّ من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره، فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة، فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وأما قطع العلائق: فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادي عليه ويقول: إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستهين به ومهمل له؟ أو لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم وتب إليه أولاً من جميع المعاصي، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجهاً إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك. فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولاً إلا النصب والشقاء، وآخراً إلا الطرد والرد. وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدّر أن لا يعود إليه، وليكتب وصيته لأولاده وأهله، فإن المسافر وماله لعلى خطر إلا من وقى الله سبحانه. وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة، فإنّ ذلك بين يديه على القرب وما يقدمه من هذا السفر طمع في تيسير ذلك السفر فهو المستقر وإليه المصير، فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السفر عن الاستعداد بهذا السفر.

وأما الزاد: فليطلبه من موضع حلال، وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد، فليتذكر أنّ سفر الآخرة أطول من هذا السفر، وأنّ زاده التقوى وأن ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أوّل منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيراً محتاجاً لا حيلة له، فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت، بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير.

وأما الراحلة: إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عزّ وجلّ له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة. وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنازة التي يحمل عليها، فإنّ أمر الحج من وجه يوازي أمر السفر إلى الآخرة، ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون

زاداً له لذلك السفر على ذلك المركب؟ فما أقرب ذلك منه. وما يدريه لعل الموت قريب ويكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للجمل. وركوب الجنازة مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه، فكيف يحتاط في أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن؟.

وأما شراء ثوبي الإحرام: فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه، فإنه سيرتدي ويتزر بثوبي الإحرام عند القرب من بيت الله عزّ وجلّ وربما لا يتم سفره إليه، وأنه سيلقى الله عزّ وجلّ ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة. فكما لا يلقى بيت الله عزّ وجلّ إلا مخالفاً عادته في الزي والهيئة فلا يلقى الله عزّ وجلّ بعد الموت إلا في زي مخالف لزي الدنيا، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن.

وأما الخروج من البلد: فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله عزّ وجلّ في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا، فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوّقوا فاشتاقوا واستنهضوا فنهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عزّ وجلّ الذي فخم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسلياً بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم. وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالاً بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال، ولكن ثقة بفضل الله عزّ وجلّ ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته. وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لقي الله عزّ وجلّ وافداً إليه إذ قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النّساء: ١٠٠].

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات: فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات. وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعي والحيات، ومن انفراده من أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته. وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوّداً لمخاوف القبر.

وأما الإحرام والتلبية من الميقات: فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عزّ وجلّ، فارج أن تكون مقبولاً واخش أن يقال لك: لا لبيك ولا سعديك، فكن بين الرجاء والخوف متردداً وعن حولك وقوّتك متبرئاً وعلى فضل الله عزّ وجلّ وكرمه متكلاً، فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهي محل الخطر. قال سفيان بن عيينة: حج علي بن الحسين رضي الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرّ لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقيل له: لم لا تلبي؟ فقال: أخشى أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك، فلما لبى غشي عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه. وقال أحمد بن أبي الحواري: كنت مع أبي سليمان الداراني رضي الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلبِّ حتى سرنا ميلاً فأخذته الغشية ثم أفاق وقال: يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام: مُرْ ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة. ويحك يا أحمد بلغني أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عزّ وجلّ: لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك، فما نأمن أن يقال لنا ذلك. وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عزّ وجلّ إذ قال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحَج: ٢٧]، ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم في

عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه، ومنقسمين إلى مقرّبين وممقوتين، ومقبولين ومردودين، ومترددين في أوّل الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا؟.

وأما دخول مكة: فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عزّ وجلّ وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للمقت. وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً فالكرم عميم، والرب رحيم، وشرف البيت عظيم، وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير اللائذ غير مضيع.

وأما وقوع البصر على البيت: فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدّر كأنه مشاهد لرب البيت لشدّة تعظيمه إياه. وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم، واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه. واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين. ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة.

وأما الطواف بالبيت: فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة. واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقرّبين الحافين حول العرش الطائفين حوله. ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت. واعلم: أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب. وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب، وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السموات بإزاء الكعبة، فإن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت، ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم[1]، والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال: إن الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى.

وأما الاستلام: فاعتقد عنده أنك مبايع لله عزّ وجلّ على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر في المبايعة استحق المقت. وقد روى ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ كَمَا يُصَافِحُ الرَّجُلُ أَخَاهُ»**[2].

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم: فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حباً وشوقاً

(١) حديث: «**من تشبه بقوم فهو منهم**». أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح.

(٢) حديث ابن عباس: «**الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه..**» الحديث. تقدم في العلم من حديث عبدالله بن عمرو.

للبيت ولرب البيت وتبركاً بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لا في البيت. ولتكن نيتك في التعلق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان، كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه، وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل.

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت: فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى. وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة، وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات، وليتذكر تردده بين الكفتين ناظراً إلى الرجحان والنقصان متردداً بين العذاب والغفران.

وأما الوقوف بعرفة: فاذكر ـ بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيراً بسيرهم ـ عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عزّ وجلّ فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين وحقق رجاءك بالإجابة، فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض. ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم. ولذلك قيل: إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له. وكأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده، فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد.

وأما رمي الجمار: فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه. ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عزّ وجلّ أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله. فإن خطر لك: أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه، وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان؟ فاعلم: أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به؟ فاطرده عن نفسك بالجدّ والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان، واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه.

وأما ذبح الهدي: فاعلم: أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال، فأكمل الهدي وارج أن يعتق الله

بكل جزء منه جزءاً منك من النار(١)، فهكذا ورد الوعد. فكلما كان الهدي أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم.

وأما زيارة المدينة: فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ، وجعل إليها هجرته وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عزّ وجلّ وسننه وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ، ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضي الله عنهما. ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند تردداته فيها وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل. وتذكر مشيه وتخطيه في سككها وتصور خشوعه وسكينته في المشي، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى، حتى قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته. ثم تذكر ما منَّ الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضي الله عنهم. ثم اذكر أنك قد فاتتك رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر، وأنك ربما لا تراه إلا بحسرة، وقد حيل بينك وبين قبوله إياك بسوء عملك، كما قال ﷺ: **«يَرْفَعُ اللَّهُ إِلَيَّ أَقْوَاماً فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: بُعْداً وَسُحْقاً»**(٢)، فإن تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن محجته. وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره؛ إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة، فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لنبيه ﷺ ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة، وأن فرائض الله سبحانه أوّل ما أقيمت في تلك العرصة، وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً، فليعظم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً. وما أجدر هذا المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن، كما حكي عن أبي سليمان أنه قال: حج أويس القرني رضي الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له: هذا قبر النبي ﷺ فغشي عليه، فلما أفاق قال: أخرجوني فليس يلذ لي بلد فيه محمد ﷺ مدفون.

وأما زيارة رسول الله ﷺ: فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفنا وتزوره ميتاً كما تزوره حياً، ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً، وكما كنت ترى الحرمة في أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلاً بين يديه، فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود. واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك، فمثّل

---

(١) حديث: «أنه يعتق بكل جزء من الأضحية جزءاً من المضحي من النار» لم أقف له على أصل، وفي كتاب الضحايا لأبي الشيخ من حديث أبي سعيد: **«فإن لك بأول قطرة تقطر من دمها أن يغفر لك ما تقدم من ذنوبك»** يقوله لفاطمة رضي الله عنها وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: **«يرفع إليّ أقوام فيقولون: يا محمد يا محمد فأقول: يا رب أصحابي فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: بعداً وسحقاً»** متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله: **«يا محمد يا محمد»**.

صورته الكريمة في خيالك موضوعاً في اللحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك، فقد روي عنه ﷺ: «أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته»(١)، هذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرّته الكريمة؟ وقد قال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْراً»(٢)، فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه؟ ثم ائت منبر الرسول ﷺ وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر ومثل في قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم وهو ﷺ يحثهم على طاعة الله عزّ وجلّ بخطبته، وسل الله عزّ وجلّ أن لا يفرّق في القيامة بينك وبينه. فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج.

فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدري أقبل منه حجه وأثبت في زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق بالمطرودين؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافياً عن دار الغرور وانصرافاً إلى دار الأنس بالله تعالى، ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه، ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه إبليس لعنه الله، فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره: العناء والتعب. نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك.

تم كتاب أسرار الحج
يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آداب تلاوة القرآن

---

(١) حديث: «إن الله وكّل بقبره ﷺ ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته». أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام».

(٢) حديث: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشراً». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وعبدالله بن عمرو.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب آداب تلاوة القرآن

الحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل ﷺ وكتابه المنزل الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فُصّلت: ٤٢] حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام، وفرّق بين الحلال والحرام، فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور. ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله. هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى، وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير. لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى غرائبه، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد. هو الذي أرشد الأولين والآخرين، ولما سمعه الجنّ لم يلبثوا أن ولّوا إلى قومهم منذرين ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ [الجنّ: ١، ٢]، فكل من آمن به فقد وفق، ومن قال به فقد صدق، ومن تمسك به فقد هدي، ومن عمل به فقد فاز. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته، مع القيام بآدابه وشروطه والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة. وذلك لا بد من بيانه وتفصيله وتنكشف مقاصده في أربعة أبواب:

الباب الأول: في فضل القرآن وأهله.

الباب الثاني: في آداب التلاوة في الظاهر.

الباب الثالث: في الأعمال الباطنة عند التلاوة.

الباب الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره.

* * *

الباب الأول

في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

فضيلة القرآن:

قال ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ ثُمَّ رَأَىٰ أَنَّ أَحَداً أُوتِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُوتِيَ فَقَدِ اسْتَصْغَرَ ما عَظَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ»** (١)، وقال ﷺ: **«ما مِنْ شَفِيعٍ أَفْضَلُ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ القُرْآنِ لا نَبِيّ وَلا مَلَك**

كتاب آداب تلاوة القرآن

الباب الأول: في فضل القرآن وأهله

(١) حديث: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله». أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو بسند ضعيف.

وَلا غَيرُهُ»[١] وقال ﷺ: «لَوْ كَانَ القُرْآنُ فِي إهابٍ ما مَسَّتْهُ النَّارُ»[٢]، وقال ﷺ: «أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي تِلاوَةُ القُرْآنِ»[٣]، وقال ﷺ أيضاً: «إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَرَأَ طٰهَ وَيس قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ الخَلْقُ بِأَلْفِ عَامٍ فَلَمَّا سَمِعَتِ المَلائِكَةُ القُرْآنَ قَالَتْ: طُوبَىٰ لأُمَّةٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ هٰذا وَطُوبَىٰ لأَجْوَافٍ تَحْمِلُ هٰذا وَطُوبَىٰ لأَلْسِنَةٍ تَنْطِقُ بِهٰذا»[٤]، وقال ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٥]، وقال ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ القُرْآنِ عَنْ دُعَائِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ الشَّاكِرِينَ»[٦]، وقال ﷺ: «ثَلاثَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ كَثِيبٍ مِنْ مِسْكٍ أَسْوَدَ لا يَهُولُهُمْ فَزَعٌ وَلا يَنَالُهُمْ حِسَابٌ حَتَّىٰ يَفْرَغَ ما بَيْنَ النَّاسِ: رَجُلٌ قَرَأَ القُرْآنَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وآخر أَمَّ بِهِ قَوْماً وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ»[٧]، وقال ﷺ: «أَهْلُ القُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»[٨]، وقال ﷺ: «إِنَّ القُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الحَدِيدُ» فقيل: يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال: «تِلاوَةُ القُرْآنِ وَذِكْرُ المَوْتِ»[٩]، وقال ﷺ: «للَّهُ أَشَدُّ أَذَناً إِلَىٰ قَارِىءِ القُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ القَيْنَةِ إِلَىٰ قَيْنَتِهِ»[١٠].

الآثار:

قال أبو أمامة الباهلي: اقرؤوا القرآن ولا تغرّنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن. وقال ابن مسعود: إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأوّلين

---

(١) حديث: «ما من شفيع أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره»، رواه عبدالملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً، وللطبراني من حديث ابن مسعود: «القرآن شافع مشفع». ولمسلم من حديث أبي أمامة: «اقرؤوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه».

(٢) حديث: «لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار». أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل بن سعد، ولأحمد والدارمي والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة، ورواه ابن عدي والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة بن مالك بإسناد ضعيف.

(٣) حديث: «أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن» أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس وإسنادهما ضعيف.

(٤) حديث: «إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام..» الحديث. أخرجه الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٥) حديث: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان.

(٦) حديث: «يقول الله: من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته ثواب الشاكرين». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد: «من شغله القرآن عن ذكري أو مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». وقال: حسن غريب. ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف.

(٧) حديث: «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك..» الحديث. تقدم في الصلاة.

(٨) حديث: «أهل القرآن أهل الله وخاصته». أخرجه النسائي في الكبرى، وابن ماجه والحاكم من حديث أنس بإسناد حسن.

(٩) حديث: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل: ما جلاؤها قال: تلاوة القرآن وذكر الموت». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(١٠) حديث: «لله أشد أذناً إلى قارىء القرآن من صاحب القينة إلى قينته». أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد.

والآخرين. وقال أيضاً: اقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات أما إني لا أقول: الحرف (ألم) ولكنّ الألف حرف واللام حرف والميم حرف. وقال أيضاً: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله ﷺ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله ﷺ. وقال عمرو بن العاص: كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم. وقال أيضاً: من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوّة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه. وقال أبو هريرة: إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين، وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عزّ وجلّ ضاق بأهله وقلّ خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين. وقال أحمد بن حنبل: رأيت الله عزّ وجلّ في المنام فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرّب به المتقرّبون إليك؟ قال: بكلامي يا أحمد، قال: قلت: يا رب، بفهم أو بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم.

وقال محمد بن كعب القرظي: إذا سمع الناس القرآن من الله عزّ وجلّ يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قط. وقال الفضيل بن عياض: ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه. وقال أيضاً: حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن. وقال سفيان الثوري: إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه. وقال عمرو بن ميمون: من نشر مصحفاً حين يصلي الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عزّ وجلّ له مثل عمل جميع أهل الدنيا. ويروى: «أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: اقرأ عليّ القرآن، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] الآية، فقال له: أعد، فأعاد فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر»[1]. وقال الحسن: والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة. وقال الفضيل: من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء، ومن قرأها حين يمسي ثم مات من ليلته ختم له بطابع الشهداء. وقال القاسم بن عبدالرحمن: قلت لبعض النساك: ما ههنا أحد نستأنس به؟ فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال: هذا. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم: السواك والصيام وقراءة القرآن.

في ذم تلاوة الغافلين:

قال أنس بن مالك: رُبَّ تال للقرآن والقرآن يلعنه. وقال ميسرة: الغريب هو القرآن في

---

(١) حديث: «أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: اقرأ عليّ القرآن فقرأ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال: أعد فأعاد فقال: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر» ذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب بغير إسناد، ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال: «الوليد بن المغيرة» بدل «خالد بن عقبة» وكذا ذكره ابن إسحاق في السيرة بنحوه.

جوف الفاجر. وقال أبو سليمان الداراني: الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عزّ وجلّ منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن. وقال بعض العلماء: إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له: ما لك ولكلامي. وقال ابن الرماح: ندمت على استظهاري القرآن لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة. وقال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا صياحاً ولا صخّاباً ولا حديداً. وقال ﷺ: «**أَكْثَرُ مُنَافِقِي هٰذِهِ الأُمَّةِ قُرّاؤُها**»[1]، وقال ﷺ: «**اقْرأ القُرْآنَ ما نَهاكَ فَإنْ لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَؤهُ**»[2]، وقال ﷺ: «**ما آمَنَ بِالقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحارِمَهُ**»[3]، وقال بعض السلف: إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها، فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: إذا أحل حلالها وحرّم حرامها صلت عليه وإلا لعنته. وقال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: ١٨]، وهو ظالم نفسه؛ ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هُود: ١٨] وهو منهم. وقال الحسن: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار. وقال ابن مسعود: أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به. وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضي الله عنهما: «لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها. ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل»[4]. وقد ورد في التوراة: يا عبدي أما تستحي مني يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك شيء منه، وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟ يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك؟

* * *

(١) حديث: «**أكثر منافقي أمتي قراؤها**». أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبدالله بن عمرو وفيهما ابن لهيعة.

(٢) حديث: «**اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه**». أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو بسند ضعيف.

(٣) حديث: «**ما آمن بالقرآن من استحل محارمه**». أخرجه الترمذي من حديث صهيب، وقال: ليس إسناده بالقوي.

(٤) حديث ابن عمر وحديث جندب: «لقد عشنا دهراً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن..» الحديث. تقدما في العلم.

الباب الثاني

في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة

الأوّل: في حال القارىء؛ وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب والسكون إما قائماً وإما جالساً مستقبل القبلة مطرقاً رأسه غير متربع ولا متكىء ولا جالس على هيئة التكبر، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه. وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال. فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعاً في الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١]، فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعاً. قال علي رضي الله عنه: من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة، ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات. وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب. قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: إنّ كثرة السجود بالنهار وإنّ طول القيام بالليل أفضل.

الثاني: في مقدار القراءة؛ وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار، فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة وبعضهم مرتين، وانتهى بعضهم إلى ثلاث، ومنهم من يختم في الشهر مرة، وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلاثٍ لَمْ يَفْقَهْهُ»**[(1)]، وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل. وقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها ـ لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذراً ـ: «إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت»، وأمر النبي ﷺ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع [(2)]، وكذلك كان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يختمون القرآن في كل جمعة، كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبيّ بن كعب رضي الله عنهم. ففي الختم أربع درجات: الختم في يوم وليلة وقد كرهه جماعة، والختم في كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءاً ـ وكأنه مبالغة في الاقتصار كما أن الأول مبالغة في الاستكثار ـ وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما في الأسبوع مرة والثانية في الأسبوع مرتين تقريباً من الثلاث. والأحب أن يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار، ويجعل ختمه بالنهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما، ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما، ليستقبل أوّل النهار وأوّل الليل بختمه، فإن الملائكة عليهم السلام تصلي عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح وإن كان نهاراً حتى يمسي فتشمل بركتهما جميع الليل والنهار. والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع. وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن

الباب الثاني: في ظاهر آداب التلاوة

(١) حديث: «**من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه**»، أخرجه أصحاب السنن من حديث عبدالله بن عمرو وصححه الترمذي.

(٢) حديث: «**أمر رسول الله ﷺ عبدالله بن عمرو أن يختم القرآن في كل أسبوع**» متفق عليه من حديثه.

يقتصر في الأسبوع على مرة، وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل.

الثالث: في وجه القسمة؛ أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب، فقد حزَّب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزاباً[1]، فروي أن عثمان رضي الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطٰه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صّ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمٰن، ويختم ليلة الخميس. وابن مسعود كان يقسمه أقساماً لا على هذا الترتيب، وقيل: أحزاب القرآن سبعة، فالحزب الأول ثلاث سور، والحزب الثاني خمس سور، والحزب الثالث سبع سور، والرابع تسع سور، والخامس إحدى عشرة سورة، والسادس ثلاث عشرة سورة، والسابع المفصل من قّ إلى آخره. فهكذا حزبه الصحابة رضي الله عنهم وكانوا يقرؤونه كذلك. وفيه خبر عن رسول الله ﷺ. وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأجزاء فما سوى هذا محدث.

الرابع: في الكتابة؛ يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها فإنها تزيين وتبيين وصدّ عن الخطأ واللحن لمن يقرأه. وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء. وروي عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجرة على ذلك، وكانوا يقولون: جرّدوا القرآن. والظنّ بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفاً من أن يؤدي إلى إحداث زيادات وحسماً للباب وتشوّقاً إلى حراسة القرآن عما يطرّق إليه تغييراً. وإذا لم يؤد إلى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به. ولا يمنع من ذلك كونه محدثاً فكم من محدث حسن كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر رضي الله عنه وأنها بدعة حسنة. إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنّة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها. وبعضهم كان يقول: أقرأ من المصحف في المنقوط ولا أنقطه بنفسي. وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجرّداً في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا: لا بأس به فإنه نور له، ثم أحدثوا بعده نقطاً كباراً عند منتهى الآي فقالوا: لا بأس به يعرف به رأس الآية، ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح. قال أبو بكر الهذلي: سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال: وما تنقيطها؟ قلت: يعربون الكلمة بالعربية قال: أما إعراب القرآن فلا بأس به. وقال خالد الحذاء: دخلت على ابن سيرين فرأيته يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط. وقيل: إنّ الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القرّاء حتى عدّوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءاً وإلى أقسام أخر.

الخامس: الترتيل؛ هو المستحب في هيئة القرآن لأنّا سَنُبَيِّنُ أنّ المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه. «ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة

---

(١) حديث: «تحزيب القرآن على سبعة أجزاء». أخرجه ابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة في حديث فيه: «طرأ على حزبي من القرآن»، قال أوس: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل. وفي رواية للطبراني: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ كيف كان رسول الله ﷺ يجزىء القرآن؟ فقالوا: كان يجزئه ثلاثاً. فذكره مرفوعاً وإسناده حسن.

حرفاً حرفاً»(١). وقال ابن عباس رضي الله عنه: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن هذرمة. وقال أيضاً: لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحبّ إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً. وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة فكان قيامهما واحداً إلا أنّ أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله، فقال: هما في الأجر سواء. واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرّد التدبر، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة؛ لأنّ ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشدّ تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال.

السادس: البكاء؛ البكاء مستحب مع القراءة، قال رسول الله ﷺ: «**اتْلُوا القُرْآنَ وَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوا**»(٢)، وقال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ**»(٣)، وقال صالح المرّي: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء. قال ﷺ: «**إِنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَتَحَازَنُوا**»(٤)، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي. فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإنّ ذلك أعظم المصائب.

السابع: أن يراعي حق الآيات؛ فإذا مر بآية سجدة سجد، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة. وفي القرآن أربع عشرة سجدة، وفي الحج سجدتان وليس في ص سجدة. وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض، وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٥]، فيقول: «اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك»، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسرَاء: ١٠٩]، فيقول: «اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك»، وكذلك كل سجدة. ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث، ومن لم يكن على طهارة عند السماع فإذا تطهر يسجد. وقد قيل في كمالها: أنه يكبر رافعاً يديه لتحريمه ثم يكبر للهوي للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم. وزاد زائدون التشهد، ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فإنه ورد الأمر في السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيرة الهوي أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بعد. ثم المأموم ينبغي أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموماً.

الثامن: أن يقول في مبتدأ قراءته: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ

---

(١) حديث: «نعتت أم سلمة قراءة النبي ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً» أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) حديث: «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا» أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد.

(٣) حديث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا» أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧،٩٨]، وليقرأ: قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله، وليقل عند فراغه من القراءة: صدق الله تعالى وبلغ رسول الله ﷺ اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحي القيوم. وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مر بمرجوّ سأل وإن مرَّ بمخوف استعاذ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول: سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا. قال حذيفة: صليت مع رسول الله ﷺ فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمرّ بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح[١]. فإذا فرغ قال ما كان يقوله صلوات الله وسلامه عليه عند ختم القرآن: **«اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِالْقُرْآنِ وَاجْعَلْهُ لِي إِمَاماً وَنُوراً وَهُدًى وَرَحْمَةً، اللَّهُمَّ ذَكِّرْنِي مِنْهُ ما نَسِيتُ وَعَلِّمْنِي مِنْهُ ما جَهِلْتُ وَارْزُقْنِي تِلاوَتَهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهارِ وَاجْعَلْهُ لِي حُجَّةً يَا رَبَّ العَالَمِينَ»**[٢].

التاسع: في الجهر بالقراءة، ولا شك في أنه لا بدّ أن يجهر به إلى حدّ يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف، ولا بدّ من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته. فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر. ويدل على استحباب الإسرار، ما روي أنه ﷺ قال: **«فَضْلُ قِرَاءَةِ السِّرِّ عَلَىٰ قِرَاءَةِ الْعَلاَنِيَةِ كَفَضْلِ صَدَقَةِ السِّرِّ عَلَىٰ صَدَقَةِ الْعَلاَنِيَةِ»**، وفي لفظ آخر: **«الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة»**[٣]، وفي الخبر العام: **«يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً»**[٤]، وكذلك قوله ﷺ: **«خَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي وَخَيْرُ الذِّكْرِ الخَفِيُّ»**[٥]، وفي الخبر: **«لاَ يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالعِشَاءِ»**[٦]، وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبدالعزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه: اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته، فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب، فرفع سعيد صوته وقال: يا أيها المصلي إن كنت تريد الله عزّ وجلّ بصلاتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، فسكت عمر بن عبدالعزيز وخفف ركعته فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة. ويدل

---

(١) حديث حذيفة: «كان لا يمر بآية عذاب إلا تعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح» أخرجه مسلم مع اختلاف لفظ.

(٢) حديث: «كان رسول الله ﷺ يقول عند ختم القرآن: **اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماماً وهدى ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يا رب العالمين**» رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجاني في فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك في الشمائل كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داود بن قيس معضلاً.

(٣) حديث: «**فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية**». قال وفي لفظ آخر: «**الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة**»، أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من حديث عقبة بن عامر باللفظ الثاني.

(٤) حديث: «**يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفاً**». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة.

(٥) حديث: «**خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي**». أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٦) حديث: «**لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء**». رواه أبو داود من حديث البياضي دون قوله: «بين المغرب والعشاء»، والبيهقي في الشعب من حديث علي: «**قبل العشاء وبعدها**» وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف.

على استحباب الجهر ما روي: «أن النبي ﷺ سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوّب ذلك»(١)، وقد قال ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي فَلْيَجْهَرْ بِالقِرَاءَةِ فَإِنَّ المَلائِكَةَ وَعُمَّارَ الدَّارِ يَسْتَمِعُونَ قِرَاءَتَهُ وَيُصَلُّونَ بِصَلاتِهِ**»(٢)، «ومرّ ﷺ بثلاثة من أصحابه رضي الله عنهم مختلفي الأحوال، فمر على أبي بكر رضي الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال: إن الذي أناجيه هو يسمعني. ومرّ على عمر رضي الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال: أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان. ومرّ على بلال وهو يقرأ آياً من هذه السورة وآياً من هذه السورة فسأله عن ذلك فقال: أخلط الطيب بالطيب. فقال ﷺ: «**كُلُّكُمْ قَدْ أَحْسَنَ وَأَصَابَ**»(٣).

فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث: أن الإسرار أبعد عن الرّياء والتصنع، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوّش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته أيضاً تتعلق بغيره، فالخير المتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه، ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة، فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل، وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم، فإن كان في العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشرة أجور. ولهذا نقول: قراءة القرآن في المصاحف أفضل إذ يزيد في العمل النظر، وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه. وقد قيل: الختمة في المصحف بسبع؛ لأن النظر في المصحف أيضاً عبادة. وخرق عثمان رضي الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما، فكان كثير من الصحابة يقرؤون في المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف. ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعي رضي الله عنه في السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعي: شغلكم الفكر عن القرآن إني لأصلي العتمة وأضع المصحف بين يدي فما أطبقه حتى أصبح.

العاشر: تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم، فذلك سنّة. قال ﷺ: «**زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»(٤). وقال عليه السلام: «**ما أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِحَسَنِ الصَّوْتِ**

---

(١) حديث: «أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك» ففي الصحيحين من حديث عائشة: «أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله ﷺ: **رحم الله فلاناً...**» الحديث. ومن حديث أبي موسى قال: «قال رسول الله ﷺ: **لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك البارحة..**» الحديث. ومن حديث أيضاً: «**إنما أعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن...**» الحديث.

(٢) حديث: «**إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمّار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته**». رواه بنحوه بزيادة فيه أبو بكر البزار ونصر المقدسي في المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع.

(٣) حديث: «مروره ﷺ بأبي بكر وهو يخافت وبعمر وهو يجهر وببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة..» الحديث. تقدم في الصلاة.

(٤) حديث: «**زينوا القرآن بأصواتكم**». أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب.

بِالقُرْآنِ»[١]، وقال ﷺ: «لَيسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ»، فقيل: أراد به الاستغناء، وقيل: أراد به الترنم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة. وروي أن رسول الله ﷺ كان ليلة ينتظر عائشة رضي الله عنها فأبطأت عليه فقال ﷺ: «ما حَبَسَكِ؟» قالت: يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه، فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال ﷺ: «هٰذا سَالِمٌ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَهُ»[٢]، واستمع ﷺ أيضاً ذات ليلة إلى عبدالله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فوقفوا طويلاً ثم قال ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ غَضاً طَرِياً كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[٣]، وقال ﷺ لابن مسعود: «اقْرَأْ عَلَيَّ» فقال: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال ﷺ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فكان يقرأ وعينا رسول الله ﷺ تفيضان[٤]. واستمع ﷺ إلى قراءة أبي موسى فقال: «لَقَدْ أُوتِيَ هٰذا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»، فبلغ ذلك أبا موسى فقال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً[٥].

ورأى هيثم القارىء رسول الله ﷺ في المنام قال: فقال لي: «أَنْتَ الهَيْثَمُ الَّذِي تُزَيِّنُ القُرْآنَ بِصَوْتِكَ؟» قلت: نعم. قال: «جَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً». وفي الخبر: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن، وقد كان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما: ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال: يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة، فيقول: أولسنا في صلاة؟ إشارة إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العَنكبوت: ٤٥]، وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَىٰ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ القِيَامَةِ»[٦]، وفي الخبر: كتب له عشر حسنات. ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالي هو السبب فيه كان شريكاً في الأجر إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع.

* * *

(١) حديث: «ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن». متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن» زاد مسلم: «النبي حسن الصوت»، وفي رواية له: «كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن».

(٢) حديث: «كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال: ما حبسك؟ قالت: يا رسول الله، كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه، فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال: هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله». أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات.

(٣) حديث: «استمع ذات ليلة إلى عبدالله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلاً ثم قال: من أراد أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد». أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود: «أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله ﷺ قال: من أحب أن يقرأ القرآن...» الحديث. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) حديث: «أنه قال لابن مسعود: اقرأ، فقال: يا رسول الله، أقرأ وعليك أنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من غيري...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٥) حديث: «استمع إلى قراءة أبي موسى فقال: لقد أوتي هذا من مزامير آل داود». متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٦) حديث: «من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً يوم القيامة» وفي الخبر: «كتب له عشر حسنات» أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة» وفيه ضعف وانقطاع.

الباب الثالث

في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة

فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري.

فالأول: فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش الجلالة إلى درجة إفهام خلقه. فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات، هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عزّ وجلّ إلا بوسيلة صفات نفسه. ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره. ولولا تبين الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادي تجلّيه حيث صار دكاً. ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حدّ فهم الخلق. ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال: إن كل حرف من كلام الله عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف، وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطاقوه حتى يأتي إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله بإذن الله عزّ وجلّ ورحمته لا بقوّته وطاقته، ولكن الله عزّ وجلّ طوّقه ذلك واستعمله به.

ولقد تألق بعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع علوّ درجته إلى فهم الإنسان وتثبيته مع قصور رتبته وضرب له مثلاً لم يقصر فيه، وذلك أنه دعا بعض الملوك حكيماً إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه، فقال الملك: أرأيت ما تأتي به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عزّ وجلّ فكيف يطيق الناس حمله؟ فقال الحكيم: إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنه وتزيينه وبديع نظمه، فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لائقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطيقوا حملها. وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عزّ وجلّ بكنهه وكمال صفاته، فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التي سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذي سمعت به الدواب من الناس. ولم يمنع ذلك معاني الحكمة المخبوءة في تلك الصفات من أن شرف الكلام أي الأصوات لشرفها وعظم لتعظيمها، فكان الصوت للحكمة جسداً ومسكناً والحكمة للصوت نفساً وروحاً. فكما أن أجساد البشر تكرم وتعز لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها. والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم في الحق والباطل، وهو القاضي العدل والشاهد المرتضى يأمر وينهى. ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط. فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه النافذ

أمره، وكالشمس العزيزة الظاهرة مكنون عنصرها وكالنجوم الزهرة التي قد يهتدي بها من لا يقف على سيرها، فهو مفتاح الخزائن النفيسة وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام الذي من سقي منه لم يسقم. فهذا الذي ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغي أن يقتصر عليه.

الثاني: التعظيم للمتكلم؛ فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن في تلاوة كلام الله عزّ وجلّ غاية الخطر فإنه تعالى قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩]، وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير. وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب. ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ويقول: هو كلام ربي هو كلام ربي. فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله. فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسمٰوات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمة والتعالي فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس؛ قيل في تفسير ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، أي بجد واجتهاد وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه من غيره. وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدّث نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحبّ إليَّ من القرآن حتى أحدّث به نفسي! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن المعظم للكلام الذي يتلوه ويستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه ومتفرج والذي يتفرّج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها؟ فقد قيل: إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضاً وخانات، فالميمات ميادين القرآن، والراءات بساتين القرآن والحاءات مقاصيره، والمسبحات عرائس القرآن، والحاميمات ديابيج القرآن، والمفصل رياضة والخانات ما سوى ذلك، فإذا دخل القارىء الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الرياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره.

الرابع: التدبر؛ وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. والمقصود من القراءة التدبر، ولذلك سنّ لأن الترتيل فيه الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن. قال علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها. وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام، فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئاً مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه، وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس. فقد روي عن عامر بن عبد قيس أنه قال: الوسواس يعتريني في الصلاة، فقيل: في أمر الدنيا؟ فقال: لأن تختلف

فيّ الأسنّة أحبّ إليّ من ذلك، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي عزّ وجلّ وأني كيف أنصرف. فعدّ ذلك وسواساً وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهم ديني ولكن يمنعه به عن الأفضل. ولما ذكر ذلك للحسن قال: إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا. ويروى: «أنه ﷺ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة»[١]، وإنما رددها ﷺ لتدبره في معانيها. وعن أبي ذر قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المَائدة: ١١٨][٢] الآية. وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجَاثيَة: ٢١] الآية. وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال بعضهم: إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر. وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثواباً. وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها. وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكرّرها ولا يفرغ من التدبر فيها. وقال بعض العارفين: لي في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد. وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه. وكان هذا أيضاً يقول: أقمت نفسي مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة.

الخامس: التفهم؛ وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزّ وجلّ، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عزّ وجلّ؛ فكقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وكقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين، وإليه أشار علي رضي الله عنه بقوله: «ما أسر إليّ رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عزّ وجلّ عبداً فهماً في كتابه فليكن حريصاً على طلب ذلك الفهم»[٣]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن. وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عزّ وجلّ وصفاته إذ

الباب الثالث

في أعمال الباطن في التلاوة

(١) حديث: «أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة» رواه أبو ذر الهروي في معجمه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٢) حديث أبي ذر «قام رسول الله ﷺ فينا ليلة بآية يرددها وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المَائدة: ١١٨]». أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

(٣) حديث علي: «ما أسر إلي رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في كتابه». أخرجه النسائي من رواية أبي جحيفة قال: «سألنا علياً فقلنا: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء سوى القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبداً فهماً في كتابه. . » الحديث. وهو عند البخاري بلفظ: «هل عندكم من رسول الله ﷺ ما ليس في القرآن» وفي رواية: «وقال مرة: ما ليس عند الناس» ولأبي داود والنسائي: «فقلنا: هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس؟ قال: لا إلا ما في كتابي هذا. . . » الحديث. ولم يذكر: «الفهم في القرآن».

لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها.

وأما أفعاله تعالى، فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها، فليفهم التالي منها صفات الله عزّ وجلّ وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته. فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق. ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل وأن كل شيء هالك إلا وجهه، لا أنه سيبطل في ثاني الحال، بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عزّ وجلّ وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض، وهذا مبدأ من مبادىء علم المكاشفة، ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الواقعة: ٦٣]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الواقعة: ٦٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الواقعة: ٧١]، فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧]، فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع.

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم فليفهم منه صفة الاستغناء لله عزّ وجلّ عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئاً. وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عزّ وجلّ وإرادته لنصرة الحق.

وأما أحوال المكذبين، كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه، وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية. وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأنّ ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد بقدر رزقه، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ولذلك قال علي رضي الله عنه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب. فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه. ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمّد: ١٦]، والطابع هي الموانع التي سنذكرها في موانع الفهم. وقد قيل: لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان من المزيد ويستغني بالمولى عن العبيد.

السادس: التخلي عن موانع الفهم، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن. قال ﷺ: «**لَوْلا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَىٰ قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَىٰ المَلَكُوتِ**»(١)، ومعاني القرآن من جملة الملكوت وكل ما غاب عن

---

(١) حديث: «**لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت**» تقدم في الصلاة.

الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت. وحُجُب الفهم أربعة:

أولها: أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكّل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عزّ وجلّ فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه. فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعاني؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس.

ثانيها: أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة. فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله. ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب، وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم. فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً، كمن يعتقد في الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له مثلاً في القدّوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه.. ولو استقر في نفسه لانجرّ إلى كشف ثان وثالث ولتواصل، ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل. وقد يكون حقاً ويكون أيضاً مانعاً من الفهم والكشف؛ لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن، وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن ـ كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن في كتاب قواعد العقائد ـ.

ثالثها: أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون. وكلما كانت الشهوات أشدّ تراكماً كانت معاني الكلام أشد احتجاباً وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة، ولذلك قال ﷺ: **«إِذَا عَظَّمَتْ أُمَّتِي الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الإِسْلامِ، وَإِذَا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ حُرِمُوا بَرَكَةَ الوَحْيِ»**[1]، قال الفضيل: يعني حرموا فهم القرآن. وقد شرط الله عزّ وجلّ الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾ [ق: ٨]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن

---

(١) حديث: «إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحي». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف معضلاً من حديث الفضل بن عياض قال: ذكر عن نبي الله ﷺ.

ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة. وسنبين معنى التفسير بالرأي في الباب الرابع وأن ذلك لا يناقض قول علي رضي الله عنه: إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن، وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه.

السابع: التخصيص؛ وهو أن يقدّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته. ولذلك قال تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، فليقدّر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى. وكيف لا يقدّر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَٰبِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمّد: ٣]، ﴿وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزُّمَر: ٥٥]، ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارىء الواحد مقصود فما له ولسائر الناس فليقدّر أنه المقصود، قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله. وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عزّ وجلّ بعهوده نتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات. وكان مالك بن دينار يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض. وقال قتادة: لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى: ﴿هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الثامن: التأثر؛ وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره. ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ [طه: ٨٢]، ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، ذكر أربعة شروط، وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإحسان يجمع الكل، وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره. ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن. ولذلك قال الحسن: والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته. وقال وهيب بن الورد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرق للقلوب ولا أشدّ استجلاباً للحزن من قراءة القرآن

وتفهمه وتدبره. فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته، وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عزّ وجلّ كذكرهم لله عزّ وجلّ ولداً وصاحبة يغض صوته وينكسر في باطنه حياء قبح مقالتهم، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها. ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ علي»[1] قال: فافتتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي: «حسبك الآن» وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية. ولقد كان في الخائفين من خرّ مغشياً عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات في سماع الآيات. فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه. فإذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]، ولم يكن خائفاً كان حاكياً، وإذا قال: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المُمتحنَة: ٤]، ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً، وإذا قال: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة. فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هُود: ١٨]، وفي قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصَّف: ٣]، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وفي قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النَّجم: ٢٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات، وكان داخلاً في معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البَقَرَة: ٧٨]، يعني التلاوة المجردة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٥]، لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها. ولذلك قيل: إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى: ما لك ولكلامي وأنت معرض عني دع عنك كلامي إن لم تتب إليّ. ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه، فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت. ولذلك قال يوسف بن أسباط: إني لأهم بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار. والمعرض عن العمل به أريد بقوله عزّ وجلّ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٧]، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اقْرَؤُوا القُرْآنَ ما ائْتَلَفَتْ عَلَيهِ قُلُوبُكُمْ ولانَتْ لَهُ جُلُودُكُمْ فَإذَا اخْتَلَفْتُمْ فَلَسْتُمْ تَقْرَؤُونَهُ» ـ وفي بعضها ـ «فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ»[2] قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال ﷺ: «إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ صَوْتاً بِالقُرْآنِ الَّذِي

---

(١) حديث: «أنه قال لابن مسعود: «اقرأ علي...» الحديث. تقدم في الباب قبله.

(٢) حديث: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرؤونه». وفي بعضها: «فإذا اختلفتم فقوموا عنه»، متفق عليه من حديث جندب بن عبدالله البجلي في اللفظ الثاني دون قوله: «ولانت جلودكم».

إِذَا سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى»(1)، وقال ﷺ: «لا يُسْمَعُ القُرْآنُ مِنْ أَحَدٍ أَشْهَى مِمَّنْ يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»(2)، فالقرآن يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به، وإلا فالمؤنة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة. ولذلك قال بعض القراء: قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانياً فانتهرني، وقال: جعلت القرآن عليّ عملاً اذهب فاقرأ على الله عزّ وجلّ. فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك. وبهذا كان شغل الصحابة رضي الله عنهم في الأحوال والأعمال. فمات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف في اثنين منهم، وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم(3). ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧،٨]، قال: يكفي هذا وانصرف، فقال ﷺ: «انْصَرَفَ الرَّجُلُ وَهُوَ فَقِيهٌ»(4). وإنما العزيز مثل تلك الحالة التي منّ الله عزّ وجلّ بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية. فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى، بل التالي باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، وبقوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦] أي تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فإن المقصر

---

(١) حديث: «إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى» أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف.

(٢) حديث: «لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى». رواه أبو عبدالله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم الغافقي في كتاب فضائل القرآن.

(٣) حديث: «مات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة ـ اختلف في اثنين منهم ـ وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم».
قلت: قوله «مات عن عشرين ألفاً» لعله أراد بالمدينة وإلا فقد روينا عن أبي زرعة الرازي أنه قال: قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه، انتهى. وأما من حفظ القرآن في عهده ففي الصحيحين من حديث أنس قال «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة ـ كلهم من الأنصار ـ أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد وأبو زيد».
قلت: «ومن أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي» وزاد ابن أبي شيبة كالمصنف من رواية الشعبي مرسلاً وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد، وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو: «استقرئوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب» وروى ابن الأنباري بسنده إلى عمر قال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة من يحفظ من القرآن السورة ونحوها...» الحديث. وسنده ضعيف، وللترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال: اذهب فأنت أميرهم...» الحديث.

(٤) حديث: «الرجل الذي جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧،٨] فقال: يكفيني هذا وانصرف، فقال النبي ﷺ: انصرف الرجل وهو فقيه» أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمر وقال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله...» الحديث. وفيه: «فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهما أبداً، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرويجل أفلح الرويجل» ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال: «حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها».

في الأمر يقال: إنه نسي الأمر، وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار. فاللسان يرتّل والعقل يترجم والقلب يتعظ.

التاسع: الترقي؛ وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عزّ وجلّ لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث، أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرأه على الله عزّ وجلّ واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال. الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عزّ وجلّ يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصوراً لهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين.

وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال: والله لقد تجلّى الله عزّ وجلّ لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون. وقال أيضاً وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه فلما سري عنه قيل له في ذلك فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته، ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة. ولذلك قال بعض الحكماء: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه. وقال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما: لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن، وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام. ولذلك قال ثابت البناني: كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة. وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١]، فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمّن التفاته شيئاً من الشرك الخفي، بل التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عزّ وجلّ.

العاشر: التبري؛ وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوّته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا تلا بآيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوّف إلى أن يلحقه الله عزّ وجلّ بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدّر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً. ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقيل ليوسف بن أسباط: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: بماذا أدعو أستغفر الله عزّ وجلّ من تقصيري سبعين مرة. فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه، فإن من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه. ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا صار محجوباً بنفسه، فإذا جاوز حدّ الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته كشف له سر الملكوت. قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه:

وعد ابن ثوبان أخاً له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه من الغد فقال له: وعدتني أنك تفطر عندي فأخلفت، فقال: لولا ميعادي معك ما أخبرتك الذي حبسني عنك، إني لما صليت العتمة قلت: أوتر قبل أن أجيئك لأني لا آمن ما يحدث من الموت، فلما كنت في الدعاء من الوتر رفعت إلي روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت. وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها، ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عياناً، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها. وذلك لأن كلام الله عزّ وجلّ يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرجو والمخوف وذلك بحسب أوصافه؛ إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش، فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقارنها؛ إذ يستحيل أن يكون حالة المستمع واحداً والمسموع مختلفاً إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لا يبالي وكلام حنّان متعطف لا يهمل.

* * *

الباب الرابع

في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

لعلك تقول: عظّمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه، فكيف يستحب ذلك وقد قال ﷺ: **«مَنْ فَسَّرَ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**[1] وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوّف من المقصرين المنسوبين إلى التصوّف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر، فإن صح ما قاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله ﷺ: **«مَنْ فَسَّرَ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**؟ فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطىء في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم[2]. قال علي رضي الله عنه: إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن. فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟ وقال ﷺ: **«إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَهْراً وَبَطْناً وَحَدّاً وَمَطْلِعاً»**[3]، ويروى أيضاً عن ابن مسعود موقوفاً عليه

الباب الرابع

في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

(١) حديث: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». تقدم في الباب الثالث من العلم.

(٢) حديث: «الأخبار والآثار الدالة على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم». تقدم قول علي في الباب: «إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في كتابه».

(٣) حديث: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً» تقدم في قواعد العقائد.

وهو من علماء التفسير. فما معنى الظهر والبطن والحد والمطلع؟ وقال علي كرم الله وجهه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب. فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار؟ وقال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً. وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر. وقال آخرون: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم. ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحدّ ومطلع. وترديد رسول الله ﷺ: «بسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ عِشْرِينَ مَرَّةً»(١)، لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليتدبر القرآن. وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عزّ وجلّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن ،ومجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها. فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره؟ ولذلك قال ﷺ: **«اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ»**(٢)، وقال ﷺ في حديث علي كرم الله وجهه: **«وَالَّذِي بَعَثَنِي بالحَقِّ نَبِيّاً لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَنْ أَصْلِ دِينِها وَجَماعَتِها عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّها ضَالَّةٌ مُضِلَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ النَّارِ، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ فِيهِ نَبَأَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَنَبَأَ ما يَأْتِي بَعْدَكُمْ وَحُكْمَ ما بَيْنَكُمْ، مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الجَبَابِرَةِ قَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ العِلْمَ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ المَتِينُ وَنُورُهُ المُبِينُ وَشِفَاؤُهُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمَ وَلا يَزِيغُ فَيُسْتَقِيمَ وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَلا يُخْلِقُهُ كَثْرَةُ التَّرْدِيدِ»**(٣). الحديث. وفي حديث حذيفة: لما أخبره رسول الله ﷺ بالاختلاف والفرقة بعده قال: فقلت يا رسول الله فماذا تأمرني إن أدركت ذلك؟ فقال: **«تَعَلَّمْ كِتَابَ اللَّهِ وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ فَهُوَ المَخْرَجُ مِنْ ذٰلِكَ»**، قال: فأعدت عليه ذلك ثلاثاً، فقال ﷺ ثلاثاً: **«تَعَلَّمْ كِتَابَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ فَفِيهِ النَّجَاةُ»**(٤)، وقال علي كرم الله وجهه: من فهم القرآن فسر به جمل العلم. أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩]، يعني الفهم في القرآن. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَٰنَ

(١) حديث: «تكرير النبي ﷺ البسملة عشرين مرة» تقدم في الباب قبله.

(٢) حديث: **«اقرؤوا القرآن والتمسوا غرائبه»**. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الموصلي والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بلفظ: **«أعربوا»** وسنده ضعيف.

(٣) حديث علي: **«والذي بعثني بالحق لتفترقن أمتي على أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة تدعو إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فإن فيه نبأ من كان قبلكم. . .»** الحديث. بطوله هو عند الترمذي دون ذكر افتراق الأمة بلفظ: **«ألا إنها ستكون فتنة مضلة فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ من قبلكم»** فذكره مع اختلاف وقال: غريب وإسناده مجهول.

(٤) حديث حذيفة في الاختلاف والفرقة بعده «فقلت: ما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: **تعلم كتاب الله واعمل بما به. . .**» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وفيه: **«تعلم كتاب الله واتبع ما فيه ـ ثلاث مرات ـ»**.

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، سمى ما آتاهما علماً وحكماً وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدماً على الحكم والعلم. فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه. فأما قوله ﷺ: «**مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ**» ونهيه عنه(١) ﷺ وقول أبي بكر رضي الله عنه: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي؟ إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم، أو المراد به أمراً آخر. وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه:

أحدها: أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله ﷺ ومسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن، فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأي لأنهم لم يسمعوه من رسول الله ﷺ وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

والثاني: أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله ﷺ محال، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي، فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه، حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل: إن «الر» هي حروف من الرحمن، وقيل: إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم، وقيل غير ذلك. والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً؟.

الثالث: أنه ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنه وقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»(٢)، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظاً مثله فما معنى تخصيصه بذلك؟

الرابع: أنه قال عزّ وجلّ: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فأثبت لأهل العلم استنباطاً، ومعلوم أنه وراء السماع. وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحدّ عقله. وأما النهي فإنه ينزل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. وهذا تارة يكون مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه. وتارة يكون مع الجهل، ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسر برأيه، أي رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه مما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً**»(٣)، ويزعم أن المراد به التسحر

---

(١) حديث: «النهي عن تفسير القرآن بالرأي» غريب.

(٢) حديث دعائه لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» تقدم في الباب الثاني من العلم.

(٣) حديث: «**تسحروا فإن في السحور بركة**» تقدم في الباب الثالث من العلم.

بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل، وكالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله عزّ وجلّ: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝﴾ [طه: ٢٤]، ويشير إلى قلبه ويومىء إلى أنه المراد بفرعون. وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع. وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي. . ويكون المراد بالرأي الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح، والرأي يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأي.

والوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع، والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير. فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي. فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أوّلاً ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك. فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها للفهم. وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة:

منها: الإيجاز بالحذف والإضمار كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء، ولم يدر أنهم بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، أي حب العجل، فحذف الحب، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥]، أي ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فحذف العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز في فصيح اللغة. وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، أي أهل العير فالأهل فيهما محذوف مضمر. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، معناه خفيت على أهل السموات والأرض، والشيء إذا خفي ثقل فأبدل اللفظ به وأقيم (في) مقام (على) وأضمر الأهل وحذف. وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٨٢]، أي شكر رزقكم. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، أي على ألسنة رسلك فحذف ألسنة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾ [القدر: ١]، أراد القرآن، وما سبق له ذكر. وقال عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، أراد الشمس، وما سبق لها ذكره. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، أي يقولون: ما نعبدهم. وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩]، معناه: لا يفقهون حديثاً يقولون: ما أصابك من حسنة فمن الله، فإن لم يرد هذا كان مناقضاً لقوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية.

ومنها: المنقول المنقلب كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التِّين: ٢]، أي طور سيناء. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ [الصَّافات: ١٣٠]، أي على إلياس، وقيل: إدريس، لأن في حرف ابن مسعود: ﴿**سلام على إدراسين**﴾.

ومنها: المكرر القاطع لوصل الكلام في الظاهر كقوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [يونس: ٦٦]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، معناه: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا.

ومنها: المقدم والمؤخر، وهو مظنة الغلط كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝١٢٩﴾ [طه: ١٢٩]، معناه: لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاماً، ولولاه لكان نصباً كاللزام. وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي يسألونك عنها كأنك حفي بها، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٤، ٥]، فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، إلى قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: ١ ـ ٥] أي فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كارهون، فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره، ومن هذا النوع قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [المُمتحنة: ٤] الآية.

ومنها: المبهم، وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف. أما الكلمة فكالشيء والقرين والأمة والروح ونظائرها. قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٧٥]، أراد به النفقة مما رزق. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النّحل: ٧٦]، أي الأمر بالعدل والاستقامة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ [الكهف: ٧٠]، أراد به من صفات الربوبية، وهو العلوم التي لا يحل السؤال عنها حتى يبتدىء بها العارف في أوان الاستحقاق. وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطُّور: ٣٥]، أي من غير خالق، فربما يتوهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء. وأما القرين فكقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ [ق: ٢٣، ٢٤]، أراد به الملك الموكل به. وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧]، أراد به الشيطان.

وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه: الأمة: الجماعة. كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وأتباع الأنبياء كقولك عن أمة محمد ﷺ ورجل جامع للخير يقتدى به كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، والأمة: الدين. كقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، والأمة: الحين والزمان. كقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هُود: ٨]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يُوسُف: ٤٥]، والأمة: القامة. يقال: فلان حسن الأمة أي القامة. وأمة: رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد قال ﷺ: «**يُبْعَثُ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ أُمَّةً وَحْدَهُ**»[1] والأمة: الأم، يقال: هذه أمة زيد أي أم زيد.

---

(١) حديث: «**ايبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وَحْدَهُ**». أخرجه النسائي في الكبرى من حديث زيد بن حارثة، وأسماء بنت أبي بكر بإسنادين جيدين.

والروح أيضاً ورد في القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها. وكذلك قد يقع الإبهام في الحروف مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝﴾ [العَاديَات: ٤،٥]، فالهاء الأولى: كناية عن الحوافر وهي الموريات أي أثرن بالحوافر نقعاً، والثانية: كناية عن الإغارة وهي المغيرات صبحاً، فوسطن به جمعاً جمع المشركون فأغاروا بجمعهم. وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعرَاف: ٥٧]، يعني السحاب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعرَاف: ٥٧]، يعني الماء. وأمثال هذا في القرآن لا ينحصر.

ومنها: التدريج في البيان كقوله عزّ وجلّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار، وبان بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدّخَان: ٣]، ولم يظهر به أي ليلة فظهر بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾ [القَدر: ١]، وربما يظن في الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات، فهذا وأمثاله مما لا يغني فيه إلا النقل والسماع، فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب، فكان مشتملاً على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير، ليكون ذلك مفحماً لهم ومعجزاً في حقهم. فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه، مثل: أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه، فإذا سمعه في موضع آخر مال برأيه إلى ما سمعه من مشهور معناه وترك تتبع النقل في كثير معانيه، فهذا ما يمكن أن يكون منهياً عنه دون التفهم لأسرار المعاني ـ كما سبق ـ فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ، ولا يكفي ذلك في فهم حقائق المعاني. ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال: وهو أن الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفَال: ١٧]، فظاهر تفسيره واضح وحقيقة معناه غامض، فإنه إثبات للرمي ونفي له، وهما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه، ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله عزّ وجلّ. وكذلك قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التّوبَة: ١٤]، فإذا كانوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب؟ وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال؟ فحقيقة هذا يستمدّ من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة، ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عزّ وجلّ حتى ينكشف ـ بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة ـ صدق قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفَال: ١٧] ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدّماته ولواحقه لانقضى العمر قبل استيفاء جميع لواحقه، وما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك. وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حدّ في الترقي إلى درجة أعلى منه. فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً، فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عزّ وجلّ. فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه. ومثاله: فهم بعض أرباب القلوب من قوله ﷺ في سجوده: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**

لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»(١)، أنه قيل له: اسجد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض، فإنّ الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقى إلى الذات فقال: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»، ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**» ثم علم أن ذلك قصور فقال: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**»، فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب، ثم لها أغوار وراء هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به، وأسرار ذلك كثيرة، ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضاً لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره، فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم.

تم كتاب آداب التلاوة
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين
وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم
يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأذكار والدعوات
والله المستعان لا رب سواه

---

(١) حديث: «قوله ﷺ في سجوده: أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة.

كتاب الأذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة رأفته العامة رحمته الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكره، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢]، ورغبهم في السؤال والدعاء بأمره فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فأطمع المطيع والعاصي والداني والقاصي في الانبساط إلى حضرة جلاله برفع الحاجات والأماني بقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، والصلاة على محمد سيد أنبيائه وعلى آله وأصحابه خيرة أصفيائه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فليس بعد تلاوة كتاب الله عزّ وجلّ عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى. فلا بدّ من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في أعيان الأذكار. وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها.

ويتحرّر المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة.

الباب الأول: في فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلاً.

الباب الثاني: في فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ.

الباب الثالث: في أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها.

الباب الرابع: في أدعية منتخبة محذوفة الإسناد من الأدعية المأثورة.

الباب الخامس: في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث.

* * *

الباب الأول

في فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات: قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢]، قال ثابت البناني رحمه الله: إني أعلم متى يذكرني ربي عزّ وجلّ، ففزعوا منه وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني. وقال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨]، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النِّساء: ١٠٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي

بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية. وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النّساء: ١٤٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العَنكبوت: ٤٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: له وجهان: أحدهما: أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه، والآخر: أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأخبار: فقد قال رسول الله ﷺ: «**ذَاكِرُ اللَّهِ فِي الغَافِلِينَ كَالشَّجَرَةِ فِي وَسَطِ الهَشِيمِ**»[١]. وقال ﷺ: «**ذَاكِرُ اللَّهِ فِي الغَافِلِينَ كَالمُقَاتِلِ بِينَ الفَارِّينَ**»، وقال ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا مَعَ عَبْدِي ما ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ شَفَتَاهُ بِي**»[٢]، وقال ﷺ: «**ما عَمِلَ ابْنُ آدَمَ مِنْ عَمَلٍ أَنْجَىٰ لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»، قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**وَلا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إلاَّ أَنْ تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ، ثُمَّ تَضْرِبَ بِهِ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ، ثُمَّ تَضْرِبَ بِهِ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ**»[٣]، وقال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ فَلْيُكْثِرْ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[٤]، وسئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ فقال: «**أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[٥]، وقال ﷺ: «**أَصْبِحْ وَأَمْسِ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللَّهِ تُصْبِحْ وَتُمْسِي وَلَيسَ عَلَيْكَ خَطِيئَةٌ**»[٦]، وقال ﷺ: «**لَذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ أَفْضَلُ مِنْ حَطْمِ السُّيُوفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمِنْ إِعْطَاءِ المَالِ سَحاً**»[٧]، وقال ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إِذَا ذَكَرَنِي عَبْدِي فِي**

كتاب الأذكار والدعوات

الباب الأول:

في فضيلة الذكر

(١) حديث: «**ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم**». أخرجه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال: «**في وسط الشجر**» الحديث.

(٢) حديث: «**يقول الله تعالى: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**». أخرجه البيهقي وابن حبان من حديث أبي هريرة، والحاكم من حديث أبي الدرداء وقال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث: «**ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله** قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال «**ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ـ ثلاث مرات ـ**» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، والطبراني من حديث معاذ بإسناد حسن.

(٤) حديث: «**من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى**» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف، ورواه الطبراني في الدعاء من حديث أنس، وهو عند الترمذي بلفظ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» وقد تقدم في الباب الثالث من العلم.

(٥) حديث: «سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: **أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى**» أخرجه ابن حبان والطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ.

(٦) حديث: «**أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسي وليس عليك خطيئة**». أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس: «**من أصبح وأمسى ولسانه رطب من ذكر الله يمسي ويصبح وليس عليه خطيئة**» وفيه من لا يعرف.

(٧) حديث: «**الذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سحاً**». رويناه من حديث أنس بسند ضعيف في الأصل، وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبدالبر في التمهيد.

نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِذَا ذَكَرَنِي فِي مَلأ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِ، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً وَإِذَا مَشَىٰ إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْهِ»[(١)] يعني بالهرولة سرعة الإجابة. وقال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ـ من جملتهم ـ رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»[(٢)]، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِها فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الوَرِقِ وَالذَّهَبِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُونَ أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُونَ أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ دَائِماً»[(٣)]، وقال ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ما أُعْطِي السَّائِلِينَ»[(٤)].

وأما الآثار: فقد قال الفضيل: بلغنا أن الله عزّ وجلّ قال: يا عبدي، اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما. وقال بعض العلماء: إن الله عزّ وجلّ يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه. وقال الحسن: الذكر ذكران: ذكر الله عزّ وجلّ بين نفسك وبين الله عزّ وجلّ ما أحسنه وأعظم أجره، وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عندما حرم الله عزّ وجلّ. ويروى: «إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عزّ وجلّ». وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها، والله تعالى أعلم.

فضيلة مجالس الذكر:

قال رسول الله ﷺ: «ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ حَفَّتْ بِهِمُ المَلاَئِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[(٥)] وقال ﷺ: «ما مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ لا يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ إِلاَّ وَجْهَهُ إِلاَّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: قُومُوا مَغْفُوراً لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ لَكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ»[(٦)]، وقال أيضاً ﷺ: «ما قَعَدَ قَوْمٌ مَقْعَداً لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ إِلاَّ كَانَ

---

(١) حديث: «قال الله عز وجل: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ من جملتهم ـ رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» متفق عليه من حديث أبي هريرة أيضاً.

(٣) حديث: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم...» الحديث. أخرجه الترمذي والحاكم وابن ماجه وصحح إسناده من حديث أبي الدرداء.

(٤) حديث: «قال الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» أخرجه البخاري في التاريخ، والبزار في المسند، والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب، وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً.

(٥) حديث: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء: قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات» أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف من حديث أنس.

عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ»[١] وقال داود ﷺ: «إلهي إذا رأيتني أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلي دونهم فإنها نعمة تنعم بها عليّ». وقال ﷺ: **«المَجْلِسُ الصَّالِحُ يُكَفِّرُ عَنِ المُؤْمِنِ أَلْفَيْ أَلْفِ مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ السُّوءِ»**[٢] وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أهل السماء ليتراؤون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم. وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا، فيقول الشيطان للدنيا: ألا ترين ما يصنعون؟ فتقول الدنيا: دعهم فإنهم إذا تفرّقوا أخذت بأعناقهم إليك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه دخل السوق وقال: أراكم ههنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثاً، فقالوا: يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد؟ قال: فماذا رأيتم؟ قالوا: رأينا قوماً يذكرون الله عزّ وجلّ ويقرؤون القرآن، قال: فذلك ميراث رسول الله ﷺ[٣]. وروى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عنه ﷺ أنه قال: **«إنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ فَضْلاً عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا بُغْيَتَكُمْ فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيُسَبِّحُونَكَ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: وَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لا، فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَسْبِيحاً وَتَحْمِيداً وَتَمْجِيداً. فَيَقُولُ لَهُمْ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَوَّذُونَ؟ فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. فَيَقُولُ تَعَالَىٰ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدَّ هَرَباً مِنها وَأَشَدَّ نُفُوراً. فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَيَّ شَيْءٍ يَطْلُبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: الجَنَّةَ. فَيَقُولُ تَعَالَىٰ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُولُ تَعَالَىٰ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَو رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً. فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَيَقُولُونَ: كَانَ فِيهِمْ فُلانٌ لَمْ يُرِدْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَىٰ جَلِيسُهُمْ»**[٤].

فضيلة التهليل:

قال ﷺ: **«أَفْضَلُ ما قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ»**[٥] وقال ﷺ: **«مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ**

---

(١) حديث: **«ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي ﷺ فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»**. أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي مجلس من مجالس السوء»** ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرجه ولده وكذلك لم أجد له إسناداً.

(٣) حديث أبي هريرة: «أنه دخل السوق وقال: أراكم ههنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد! فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق. . .» الحديث. أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة أو انقطاع.

(٤) حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري عنه ﷺ أنه قال: **«إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كتاب الناس. . .»** الحديث. رواه الترمذي من هذا الوجه، والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة وحده، وقد تقدم في الباب الثالث من العلم.

(٥) حديث: **«أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله. . .»** الحديث. تقدم في الباب الثاني من الحج.

كَانَتْ لَهُ عِدْلَ عَشْرِ رِقابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذٰلِكَ حَتَّىٰ يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ»[(١)] وقال ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّها شَاءَ»[(٢)] وقال ﷺ: «لَيْسَ عَلَىٰ أَهْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ وَلا فِي نُشُورِهِمْ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الصَّيْحَةِ يَنْفُضُونَ رُؤُوسَهُمْ مِنَ التُّرَابِ وَيَقُولُونَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»[(٣)] وقال ﷺ أيضاً لأبي هريرة: «يا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّ كُلَّ حَسَنَةٍ تَعْمَلُها تُوزَنُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ شَهَادَةَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَإِنَّها لا تُوضَعُ فِي مِيزَانٍ؛ لأَنَّها لَوْ وُضِعَتْ فِي مِيزَانِ مَنْ قَالَها صَادِقاً وَوُضِعَت السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَما فِيهِنَّ كَانَ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ أَرْجَحَ مِنْ ذٰلِكَ»[(٤)] وقال ﷺ: «لَوْ جَاءَ قَائِلُ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ صَادِقاً بِقُرَابِ الأَرْضِ ذُنُوباً لَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذٰلِكَ»[(٥)] وقال ﷺ: «يا أَبَا هُرَيْرَةَ لَقِّنِ المَوْتَىٰ شَهَادَةَ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ فَإِنَّها تَهْدِمُ الذُّنُوبَ هَدْماً»، قلت: يا رسول الله: هذا للموتى فكيف للأحياء؟ قال ﷺ: «هِيَ أَهْدَمُ وَأَهْدَمُ»[(٦)]، وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ لا إِلٰهَ الاَّ اللَّهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الجَنَّةَ»[(٧)]. وقال ﷺ: «لَتَدْخُلُنَّ الجَنَّةَ كُلُّكُمْ إِلاَّ مَنْ أَبَىٰ وَشَرَدَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شِرَادَ البَعِيرِ عَنْ أَهْلِهِ». فقيل: يا رسول الله: من الذي يأبى ويشرد عن الله؟ قال: «مَنْ لَمْ يَقُلْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ»[(٨)]. «فأكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها فإنها

---

(١) حديث: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله...» الحديث. أخرجه من حديث عقبة بن عامر، وقد تقدم في الطهارة.

(٣) حديث: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في النشور..» الحديث. أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٤) حديث: «يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لا توضع في ميزان؛ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك».

قلت: وصية أبي هريرة هذه موضوعة. وآخر الحديث رواه المستغفري في الدعوات: «ولو جعلت لا إله إلا الله» وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إله إلا الله» رواه النسائي في اليوم والليلة، وابن حبان والحاكم وصححه.

(٥) حديث: «لو جاء حامل لا إله إلا الله صادقاً بقراب الأرض ذنوباً لغفر الله له» غريب بهذا اللفظ. وللترمذي في حديث لأنس: «يقول الله يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أنس: «يا رب ما جزاء من هلل مخلصاً من قلبه؟ قال: جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب» وفيه انقطاع.

(٦) حديث: «يا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب...» الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق ابن المقري من حديث أبي هريرة، وفيه موسى بن وردان مختلف فيه، ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف، ورواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين من حديث الحسن مرسلاً.

(٧) حديث: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.

(٨) حديث: «لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد على الله شرود البعير على أهله» أخرجه البخاري من حديث أبي=

كلمة التوحيد، وهي كلمة الإخلاص، وهي كلمة التقوى، وهي الكلمة الطيبة، وهي دعوة الحق، وهي العروة الوثقى، وهي ثمن الجنة». وقال الله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٦٠] فقيل: الإحسان في الدنيا قول لا إله إلا الله وفي الآخرة الجنة. وكذا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وروى البراء بن عازب أنه ﷺ قال: **«مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ عَشْرَ مَرَّاتٍ ـ كَانَتْ لَهُ عِدْلَ رَقَبَةٍ أو قال: نَسَمَةٍ»**(١) وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مِائَتَيْ مَرَّةٍ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ كَانَ قَبْلَهُ وَلا يُدْرِكُهُ أَحَدٌ كَانَ بَعْدَهُ إِلاَّ مَنْ عَمِلَ بِأَفْضَلَ مِنْ عَمَلِهِ»**(٢) وقال ﷺ: **«مَنْ قَالَ فِي سُوقٍ مِنَ الأَسْوَاقِ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَبَنَىٰ لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ»**، ويروى: **«إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلا الله أَتَتْ إِلَىٰ صَحِيفَتِهِ فَلاَ تَمُرُّ عَلَىٰ خَطِيئَةٍ إِلاَّ مَحَتْهَا حَتَّىٰ تَجِدَ حَسَنَةً مِثْلَهَا فَتَجْلِسَ إِلَىٰ جَنْبِهَا»**(٣) وفي الصحيح عن أبي أيوب عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ﷺ»**(٤) وفي الصحيح أيضاً عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلَهَ إِلاَّ**

= هريرة: **«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»** زاد الحاكم وصححها: **«وشرد على الله شرود البعير على أهله»**. قال البخاري: «قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: **من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»** ولابن عدي وأبي يعلى والطبراني في الدعاء من حديثه: **«أكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها»** وفيه ابن وردان أيضاً، ولأبي الشيخ في الثواب من حديث الحكم بن عمير الثمالي مرسلاً: **«إذا قلت: لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد...»** الحديث. والحكم ضعيف، ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل من حديث ابن مسعود في إجابة المؤذن: **«اللهم رب هذه الدعوة المجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص»** ولابن عدي من حديث ابن عمر في إجابة المؤذن: **«دعوة الحق»** وللطبراني في الدعاء عن عبدالله بن عمرو: **«كلمة الإخلاص لا إله إلا الله...»** الحديث. وللطبراني من حديث سلمة بن الأكوع: **«وألزمهم كلمة التقوى قال: لا إله إلا الله»** وللطبراني في الدعاء عن ابن عباس: **«كلمة طيبة قال: شهادة أن لا إله إلا الله»** وله عنه في قوله: **«دعوة الحق»** قال: **«شهادة أن لا إله إلا الله»** وله عنه: **«فقد استمسك بالعروة الوثقى»** قال: **«لا إله إلا الله»** ولابن عدي والمستغفري من حديث أنس: **«ثمن الجنة لا إله إلا الله»** ولا يصح شيء منها.

(١) حديث البراء: **«من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له...»** الحديث. أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، وهو في مسند أحمد دون قوله: **«عشر مرات»**.

(٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: **«أنه ﷺ قال: من قال في كل يوم مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له...»** الحديث. أخرجه أحمد بلفظ: **«مائة»** وكذا رواه الحاكم في المستدرك وإسناده جيد، وهكذا هو في بعض نسخ الإحياء.

(٣) حديث: **«إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إليها»** أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف.

(٤) حديث أبي أيوب: **«من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»** متفق عليه.

اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي غُفِرَ لَهُ، أَوْ دَعا اسْتُجِيبَ لَهُ، فإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّىٰ قُبِلَتْ صَلاتُهُ»(١).

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار:

قال ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَحَمِدَ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَكَبَّرَ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَخَتَمَ المِائَةَ بلا إِلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»(٢) وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»(٣) وروي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: تولت عني الدنيا وقلّت ذات يدي فقال رسول الله ﷺ: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ صَلاةِ المَلائِكَةِ وَتَسْبِيحِ الخَلائِقِ وَبِها يُرْزَقُونَ؟ قال: فقلت: وماذا يا رسول الله؟ قال: «قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ ما بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَىٰ أَنْ تُصَلِّي الصُّبْحَ تَأْتِيكَ الدُّنْيا رَاغِمَةً صَاغِرَةً، وَيَخْلُقُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ مَلَكاً يُسَبِّحُ اللَّهَ تَعَالَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ لَكَ ثَوَابُهُ»(٤). وقال ﷺ: «إِذَا قَالَ العَبْدُ: الحَمْدُ لِلَّهِ مَلأَتْ ما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الثَّانِيَةَ مَلأَتْ ما بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَىٰ الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَإِذَا قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الثَّالِثَةَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: سَلْ تُعْطَهْ»(٥) وقال رفاعة الزرقي: «كنا يوماً نصلي وراء رسول الله ﷺ فلما رفع رأسه من الركوع وقال: سمع الله لمن حمده، قال رجل وراء رسول الله ﷺ: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف رسول الله ﷺ عن صلاته قال: من المتكلم آنفاً؟ قال: أنا يا رسول الله، فقال ﷺ: لَقَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكاً يَبْتَدِرُونَها أَيُّهُمْ يَكْتُبُها أَوَّلاً»(٦) وقال رسول الله ﷺ: «البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ هُنَّ لا إِلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ»(٧) وقال ﷺ: «مَا عَلَىٰ الأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ لا إِلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ

---

(١) حديث عبادة بن الصامت: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله...» الحديث. رواه البخاري.

(٢) حديث: «من سبّح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: تولت عني الدنيا وقلّت ذات يدي، فقال رسول الله ﷺ: «فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون...» الحديث. أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث ابن عمر، وقال: غريب من حديث مالك ولا أعرف له أصلاً في حديث مالك. ولأحمد من حديث عبدالله بن عمرو: «أن نوحاً قال لابنه: آمرك بلا إله إلا الله...» الحديث. قال: «وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق» وإسناده صحيح.

(٥) حديث: «إذا قال العبد: الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض، وإذا قال: الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض، وإذا قال: الحمد لله الثالثة قال الله تعالى: سل تعطه» غريب بهذا اللفظ لم أجده.

(٦) حديث رفاعة الزرقي: «كنا يوماً نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركوع وقال: سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه...» الحديث. رواه البخاري.

(٧) حديث: «الباقيات الصالحات هن لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله» أخرجه النسائي في اليوم والليلة، وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة دون قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بالله».

لِلَّهِ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ إلاَّ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»[١] رواه ابن عمر. وروى النعمان بن بشير عنه ﷺ أنه قال: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ مِنْ جَلالِ اللَّهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ العَرْشِ لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَوَلا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لا يَزَالُ عِنْدَ اللَّهِ ما يُذَكِّرُ بِهِ؟»[٢] وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «لأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[٣] وفي رواية أخرى زاد: «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ» وقال: «هِيَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيها»، وقال ﷺ: «أَحَبُّ الكَلام إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»[٤] رواه سمرة بن جندب.

وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ تملأُ المِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ والله أكبر يَمْلآنِ ما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُها أَوْ مُشْتَرٍ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها»[٥] وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمٰنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيم»[٦]. وقال أبو ذر رضي الله عنه، قلت لرسول الله ﷺ: أي الكلام أحب إلى الله عزّ وجلّ؟ قال ﷺ: «ما اصْطَفَىٰ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِمَلائِكَتِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيم»[٧]، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ اصْطَفَىٰ مِنَ الكَلامِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلٰهَ إلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»[٨] فإذا قال العبد: «سبحان الله» كتبت له عشرون حسنة وتحط عنه عشرون سيئة، وإذا قال: «الله أكبر» فمثل

---

(١) حديث: «ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» أخرجه الحاكم من حديث عبدالله بن عمرو وقال: صحيح على شرط مسلم وهو عند الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة مختصراً دون قوله: «سبحان الله والحمد لله».

(٢) حديث النعمان بن بشير: «الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتمجيده وتهليله وتحميده ينعطف حول العرش له دوي كدوي النحل يُذكِّرن بصاحبهن. . .» الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم.

(٣) حديث أبي هريرة: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» وزاد في رواية: «ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال: خير من الدنيا وما فيها» أخرجه مسلم باللفظ الأول وللمستغفري في الدعوات من رواية مالك بن دينار: «أن أبا أمامة قال للنبي ﷺ قلت: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا وما فيها، قال: أنت أغنم القوم» وهو مرسل جيد الإسناد.

(٤) حديث سمرة بن جندب: «أحب الكلام إلى الله أربع. . .» الحديث. رواه مسلم.

(٥) حديث أبي مالك الأشعري: «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان. . .» الحديث. رواه مسلم، وقد تقدم في الطهارة.

(٦) حديث أبي هريرة: «كلمتان خفيفتان على اللسان. . .» الحديث. متفق عليه.

(٧) حديث أبي ذر: «أي الكلام أحب إلى الله قال: ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي: قوله: «سبحان الله العظيم».

(٨) حديث: «إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله. . .» الحديث. أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد إلا أنهما قالا في ثواب الحمد لله: «كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة».

ذلك، وذكر إلى آخر الكلمات. وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»[١] وعن أبي ذرّ رضي الله عنه أنه قال: قال الفقراء لرسول الله ﷺ: ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدّقون بفضول أموالهم فقال: «**أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ ما تَصدَّقُونَ بِهِ؟ إِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَتَحْمِيدةٍ صَدَقَةً وَتَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً وَتَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَةً وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةً وَيَضَعُ أَحَدُكُم اللُّقْمَةَ فِي فِي أَهْلِهِ فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ. وَفِي بِضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**». قالوا: يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال ﷺ: «**أَرَأَيْتُم لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيها وِزْرٌ؟**» قالوا: نعم. قال: «**كَذٰلِكَ إِنْ وَضَعَها فِي الحَلالِ كَانَ لَهُ فِيها أَجْرٌ**»[٢].

وقال أبو ذر رضي الله عنه: قلت لرسول الله ﷺ: سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق، فقال رسول الله ﷺ: «**أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ أَدْرَكْتَ مَنْ قَبْلَكَ وَفُقْتَ مَنْ بَعْدَكَ إِلاَّ مَنْ قَالَ مِثْلَ قَوْلِكَ؟ تُسَبِّحُ اللَّهَ بَعْدَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَتَحْمَدُهُ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَتُكَبِّرُ أَرْبَعاً وَثَلاثِينَ**»[٣]. وروت بسرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**عَلَيْكُنَّ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ فَلا تَغْفُلْنَ وَاعْقِدْنَ بِالأَنَامِلِ فَإِنَّها مُسْتَنْطَقَاتٌ**»[٤] يعني بالشهادة في القيامة. وقال ابن عمر: رأيته ﷺ يعقد التسبيح[٥]، وقد قال ﷺ فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري: «**إِذَا قَالَ العَبْدُ: لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقَ عَبْدِي لا إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ، وَإِذَا قَالَ العَبْدُ: لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: صَدَقَ عَبْدِي لا إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا أَنا وَحْدِي لا شَرِيكَ لِي، وَإِذَا قَالَ: لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: صَدَقَ عَبْدِي لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِي. وَمَنْ قَالَهُنَّ عِنْدَ المَوْتِ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ**»[٦] وروى مصعب بن سعد عن أبيه عنه ﷺ أنه قال: «**أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسَبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**يُسَبِّحُ اللَّهَ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ وَيُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ سَيِّئَةٍ**»[٧]. وقال ﷺ: «**يا**

---

(١) حديث جابر: «**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**» أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وصححه.

(٢) حديث أبي ذر: «**قال الفقراء لرسول الله ﷺ ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي...**» الحديث. رواه مسلم.

(٣) حديث أبي ذر: «**قلت لرسول الله ﷺ: سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق...**» الحديث. رواه ابن ماجة إلا أنه قال: قال سفيان: لا أدري أيتهن أربع. ولأحمد في هذا الحديث: «**وتحمد أربعاً وثلاثين**» وإسنادهما جيد ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء: «**وتكبر أربعاً وثلاثين**» كما ذكر المصنف.

(٤) حديث بسرة: «**عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات**» أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم بإسناد جيد.

(٥) حديث ابن عمر: «رأيته ﷺ يعقد التسبيح». قلت: إنما هو عبدالله بن عمرو بن العاص كما رواه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه والحاكم.

(٦) حديث أبي هريرة وأبي سعيد: «**إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله صدق عبدي...**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه، والحاكم وصححه.

(٧) حديث مصعب بن سعد عن أبيه: «**أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة...**» الحديث. أخرجه مسلم إلا أنه قال: «**أو يحط**» كما ذكره المصنف وقال: حسن صحيح.

عَبْدَ اللّهِ بْنَ قَيْسٍ ـ أَوْ يَا أَبَا مُوسَىٰ ـ أَوَلا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟» قال: بلى، قال: «قُلْ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللّهِ»[(١)] وفي رواية أخرى: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللّهِ» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ: قَوْلُ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللّهِ، يَقُولُ اللّهُ تَعَالَىٰ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ»[(٢)] وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ رَضِيتُ بِاللّهِ رَبّاً وَبِالإِسْلام دِيناً وَبِالقُرْآنِ إِمَاماً وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيّاً رَسُولاً كَانَ حَقّاً عَلَىٰ اللّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٣)] وفي رواية: «من قال ذلك رضي الله عنه» وقال مجاهد: إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، قال الملك: هديت، فإذا قال: توكلت على الله، قال الملك: كفيت، وإذا قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله، قال الملك: وقيت، فتتفرق عنه الشياطين فيقولون: ما تريدون من رجل قد هدي وكفي ووقي؟ لا سبيل لكم إليه.

فإن قلت: فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها؟ فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة. والقدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة: أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى. وفي الأخبار ما يدل عليه أيضاً[(٤)]، وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله عزّ وجلّ مع الاشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى. بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية. وللذكر أوّل وآخر، فأوّله يوجب الأنس والحب لله وآخره يوجب الأنس والحب ويصدر عنه، والمطلوب ذلك الأنس والحب، فإن المريد في بداية أمره قد يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عزّ وجلّ، فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور. ولا ينبغي أن يتعجب من هذا فإن من المشاهد في العادات أن تذكر غائباً غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر، ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أوّلاً صار مضطراً إلى كثرة الذكر آخراً بحيث لا يصبر عنه. فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، ومن أكثر ذكر شيء ـ وإن كان تكلفاً ـ أحبه. فكذلك أوّل الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له، ثم يمتنع الصبر عنه آخراً فيصير الموجب موجباً والثمر مثمراً. وهذا معنى قول بعضهم: كابدت

---

(١) حديث: «**يا عبدالله بن قيس ـ أو يا أبا موسى ـ ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: بلى. قال: قل لا حول ولا قوة إلا بالله**» متفق عليه.

(٢) حديث أبي هريرة: «**عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله: أسلم عبدي واستسلم**» أخرجه النسائي في اليوم والليلة، والحاكم: «**من قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله قال: أسلم عبدي واستسلم**» وقال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث: «**من قال حين يصبح رضيت بالله رباً...**» الحديث. أخرجه أبو داود، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث خادم النبي ﷺ، ورواه الترمذي من حديث ثوبان وحسنه، وفيه نظر ففيه سعد بن المرزبان ضعيف جداً.

(٤) حديث: «**الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى**» أخرجه الترمذي وقال: حسن، والحاكم وقال: حديث مستقيم الإسناد من حديث أبي هريرة: «**واعلموا أن الله لا يقبل الدعاء من قلب لاه**».

القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة. ولا يصدر التنعم إلا من الأنس والحب، ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً. فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أوّلاً ويكابد أكله ويواظب عليه فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه، فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف.

* هـي النـفـس مـا عـوّدتـهـا تـتـعـوّد *

أي: ما كلفتها أوّلاً يصير لها طبعاً آخراً. ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع عن غير ذكر الله، وما سوى الله عزّ وجلّ هو الذي يفارقه عند الموت فلا يبقى معه في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عزّ وجلّ. فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه؛ إذ ضرورات الحاجات في الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عزّ وجلّ، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلي بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه عما به أنسه. ولذلك قال ﷺ: **«إنّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي روعِي أَحْبِبْ من أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ»**(1). أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك يفنى في حقه بالموت فـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٢٦، ٢٧] وإنما تفنى الدنيا بالموت في حقه إلى أن تفنى في نفسها عند بلوغ الكتاب أجله. وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله عزّ وجلّ ويترقى من الذكر إلى اللقاء، وذلك بعد أن يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور. ولا ينكر بقاء ذكر الله عزّ وجلّ معه بعد الموت فيقول: إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عزّ وجلّ؟ فإنه لم يعدم عدماً يمنع الذكر بل عدماً من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم الملكوت. وإلى ما ذكرناه الإشارة بقوله ﷺ: **«القَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ»**(2) وبقوله ﷺ: **«أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ»**(3) وبقوله ﷺ لقتلى بدر من المشركين: **«يَا فُلانُ يَا فُلانُ** - وقد سماهم النبي ﷺ - **هَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً»**(4)، فسمع عمر رضي الله عنه قوله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعون وأنّى يجيبون وقد جيفوا؟ فقال ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِكَلامِي مِنْهُمْ وَلٰكِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا»**. والحديث في الصحيح. هذا قوله عليه السلام في المشركين، فأما المؤمنون والشهداء فقد قال ﷺ: **«أَرْوَاحُهُمْ فِي**

---

(1) حديث: **«إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه»** تقدم في الكتاب السابع من العلم.

(2) حديث: **«القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة»** أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد بتقديم وتأخير وقال: غريب. قلت: فيه عبيد الله بن الوليد الوصافي ضعيف.

(3) حديث: **«أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر»** أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود: «أنه سئل عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩] الآية. قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: **أرواحهم في جوف طير خضر** فلم يسم فيه النبي ﷺ وفي رواية الترمذي: **«أما إنا سألنا عن ذلك فأخبرنا»** وذكر صاحب مسند الفردوس أن ابن منيع صرح برفعه في مسنده.

(4) حديث: «ندائه لقتلى بدر من المشركين: **يا فلان يا فلان** - وقد سماهم - **إني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟»** أخرجه مسلم من حديث أنس.

حَواصِلِ طُيورٍ خُضرٍ مُعَلَّقةٍ تَحتَ العَرشِ»[1] وهذه الحالة وما أشير بهذه الألفاظ إليه لا ينافي ذكر الله عزّ وجلّ. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩، ١٧٠] الآية. ولأجل شرف ذكر الله عزّ وجلّ عظمت رتبة الشهادة، لأن المطلوب الخاتمة، ونعني بالخاتمة وداع الدنيا والقدوم على الله والقلب مستغرق بالله عزّ وجلّ منقطع العلائق عن غيره. فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقاً بالله عزّ وجلّ فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال، فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كلها فإنه يريدها لحياته، وقد هوّن على قلبه حياته في حب الله عزّ وجلّ وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك، ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيها من الفضائل ما لا يحصى. فمن ذلك أنه لما استشهد عبدالله بن عمرو الأنصاري يوم أُحد قال رسول الله ﷺ لجابر: «**أَلاَ أُبَشِّرُكَ يَا جَابِرُ**؟ قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحيَا أَبَاكَ فَأَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سِتْرٌ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: تَمَنَّ عَلَيَّ يا عَبْدِي ما شِئْتَ أُعْطِيكَهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَىٰ الدُّنْيَا حَتَّىٰ أُقْتَلَ فِيكَ وَفِي نَبِيِّكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ. فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: سَبَقَ القَضَاءُ مِنِّي بِأَنَّهُمْ إِلَيها لا يَرْجِعُونَ**»[2]. ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة، فإنه لو لم يقتل وبقي مدّة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عزّ وجلّ؛ ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة، فإن القلب وإن ألزم ذكر الله عزّ وجلّ فهو متقلب لا يخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعتريه، فإذا تمثل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا؛ وذلك لقلة حظه في الآخرة إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه. فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذا لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك[3]، كما ورد به الخبر بل حب الله عزّ وجلّ وإعلاء كلمته، فهذه الحالة هي التي عبر عنها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة. وحالة الشهيد توافق معنى قولك: «لا إله إلا الله» فإنه لا مقصود له سوى الله عزّ وجلّ وكل مقصود معبود وكل معبود إله، فهذا الشهيد قائل بلسان حاله: «لا إله إلا الله» إذ لا مقصود له سواه. ومن يقول

---

(١) حديث: «**أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش**» أخرجه ابن ماجه من حديث كعب بن مالك: «**أن أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة**» وروى النسائي بلفظ: «**إنما نسمة المؤمن طائر**» ورواه الترمذي بلفظ: «**أرواح الشهداء**» وقال: حسن صحيح.

(٢) حديث: «**ألا أبشرك يا جابر؟** قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: **إن الله أحيا أباك وأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى: تمن علي...**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه، والحاكم وصحح إسناده من حديث جابر.

(٣) حديث: «**الرجل يقاتل لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك**» متفق عليه من حديث أبي موسى قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عزّ وجلّ ولا يؤمن في حقه الخطر. ولذلك فضل رسول الله ﷺ قول: لا إله إلا الله على سائر الأذكار(١)، وذكر ذلك مطلقاً في مواضع الترغيب. ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والإخلاص، فقال مرة: «**من قال لا إله إلا الله مخلصاً**» ومعنى الإخلاص مساعدة الحال للمقال. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالاً ومقالاً ظاهراً وباطناً حتى نودع الدنيا غير متلفتين إليها بل متبرمين بها ومحبين للقاء الله، فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فهذه مرامز إلى معاني الذكر التي لا يمكن الزيادة عليها في علم المعاملة.

❊ ❊ ❊

الباب الثاني

في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ

فضيلة الدعاء:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وروى النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ** ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾»(٢) [غافر: ٦٠] الآية. وقال ﷺ: «**الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ**»(٣). وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الدُّعَاءِ**»(٤) وقال ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لا يُخطِئُهُ مِنَ الدُّعَاءِ إِحْدَىٰ ثَلاثٍ: إِمَّا ذَنْبٌ يُغْفَرُ لَهُ، وَإِمَّا خَيْرٌ يُعَجَّلُ لَهُ، وَإِمَّا خَيْرٌ يُدَّخَرُ**

---

(١) حديث: «تفضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار» أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث جابر.

الباب الثاني

في آداب الدعاء وفضله

(٢) حديث النعمان بن بشير: «**إن الدعاء هو العبادة**» أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) حديث: «**الدعاء مخ العبادة**» أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال: غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(٤) حديث أبي هريرة: «**ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء**» أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

لَهُ»[(١)]. وقال أبو ذر رضي الله عنه: يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح. وقال ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَأَفْضَلُ العِبَادَةِ انْتِظَارُ الفَرَجِ»[(٢)].

آداب الدعاء وهي عشرة:

الأول: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل. قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨] وقال ﷺ: «يَنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَخِيرِ فَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[(٣)]، وقيل: إن يعقوب ﷺ إنما قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨] ليدعو في وقت السحر، فقيل: إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه، فأوحى الله عزّ وجلّ إني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء.

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها. وقال مجاهد: إن الصلاة جعلت في خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات. وقال ﷺ: «الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ لا يُرَدُّ»[(٤)] وقال ﷺ أيضاً: «الصَّائِمُ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُ»[(٥)] وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوّشات. ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عزّ وجلّ، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها. وحالة السجود أيضاً أجدر بالإجابة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «أَقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ»[(٦)]. وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ رَاكِعاً أَوْ سَاجِداً، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ بِالدُّعَاءِ فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[(٧)].

---

(١) حديث: «إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث: إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له» أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث أنس وفيه روح. أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عياش وكلاهما ضعيف. ولأحمد والبخاري في الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد: «إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها».

(٢) حديث: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج» أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال: حماد بن واقد ليس بالحافظ.
قلت: وضعفه ابن معين وغيره.

(٣) حديث: «ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد» أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة، والترمذي وحسنه من حديث أنس، وضعفه ابن عدي وابن القطان، ورواه في اليوم والليلة بإسناد آخر جيد، وابن حبان والحاكم وصححه.

(٥) حديث: «الصائم لا ترد دعوته» أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه من حديث أبي هريرة بزيادة فيه.

(٦) حديث أبي هريرة: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء» رواه مسلم.

(٧) حديث ابن عباس: «إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً...» الحديث. أخرجه مسلم أيضاً.

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه. وروى جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ «أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس»(١) وقال سلمان: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبِيدِهِ إِذَا رَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهَا صِفْراً**»(٢). وروى أنس أنه ﷺ: «كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه»(٣) وروى أبو هريرة رضي الله عنه: «أنه ﷺ مر على إنسان يدعو ويشير بأصبعيه السبابتين فقال ﷺ: «**أحد أحد**»(٤). أي اقتصر على الواحدة. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال. ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء. قال عمر رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا مدّ يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه»(٥). وقال ابن عباس: «كان ﷺ إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه»(٦)، فهذه هيئات اليد. ولا يرفع بصره إلى السماء. قال ﷺ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ عِنْدَ الدُّعَاءِ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ**»(٧).

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما روي أن أبا موسى الأشعري قال: قدمنا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبّر وكبّر الناس ورفعوا أصواتهم، فقال النبي ﷺ: «**يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ لَيْسَ بِأَصَمَّ وَلا غَائِبٍ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْنَاقِ رِكَابِكُمْ**»(٨). وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله عز جل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠](٩) أي بدعائك. وقد أثنى الله عزّ وجلّ على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] وقال عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف

---

(١) حديث جابر: «أن رسول الله ﷺ أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس...» الحديث. أخرجه مسلم دون قوله: «يدعو» فقال مكانها: «واقفاً» والنسائي من حديث أسامة بن زيد «كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو» ورجاله ثقات.

(٢) حديث سلمان: «**إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً**» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه والحاكم وقال: إسناده صحيح على شرطهما.

(٣) حديث أنس: «كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه» أخرجه مسلم دون قوله: «ولا يشير بأصبعه» والحديث متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاء.

(٤) حديث أبي هريرة: «مر على إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله ﷺ: **أحد أحد**» أخرجه النسائي وقال: حسن وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٥) حديث عمر: «كان رسول الله ﷺ إذا مدّ يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه» أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم في المستدرك وسكت عليه، وهو ضعيف.

(٦) حديث ابن عباس: «كان ﷺ إذا دعا ضم كفّيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه» أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضعيف.

(٧) حديث: «**لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال: عند الدعاء في الصلاة.

(٨) حديث أبي موسى الأشعري: «**يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب**» متفق عليه مع اختلاف، واللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود.

(٩) حديث عائشة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بدعائك متفق عليه.

لا يناسبه. قال ﷺ: «**سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ**»[(١)] وقد قال عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥] قيل: معناه التكلف للأسجاع، والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فإنه قد يعتدي في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء، ولذلك روي عن معاذ رضي الله عنه: إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة: تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء. وقد قال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالسَّجْعَ فِي الدُّعَاءِ، حَسْبُ أَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ**»[(٢)] وفي الخبر: «**سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطهور**». ومرّ بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له: أعلى الله تبالغ؟ أشهد لقد رأيت حبيباً العجمي يدعو وما يزيد على قوله: اللهم اجعلنا جيدين، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة، اللهم وفقنا للخير، والناس يدعون من كل ناحية وراءه، وكان يعرف بركة دعائه. وقال بعضهم: ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق. ويقال: إن العلماء والأبدال لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها، ويشهد له آخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك. واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام، فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله ﷺ: «**أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الوَعِيدِ وَالجَنَّةَ يَوْمَ الخُلُودِ مَعَ المُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ المُوفِينَ بِالعُهُودِ إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ إِنَّكَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ**»[(٣)] وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف، فالتضرع هو المحبوب عند الله عزّ وجلّ.

السادس: التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وقال ﷺ «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْداً ابْتَلاهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ**»[(٤)].

السابع: أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه. قال رسول الله ﷺ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ**

---

(١) حديث: «**سيكون قوم يعتدون في الدعاء**» وفي رواية: «**والطهور**» أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبدالله بن مغفل.

(٢) حديث: «**إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل**» غريب بهذا السياق، وللبخاري عن ابن عباس: «وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلون إلا ذلك» وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد من حديث عائشة: «**عليك بالكوامل**» وفيه: «**وأسألك الجنة... إلى آخره**».

(٣) حديث: «**أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود إنك تفعل ما تريد**». أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس: «سمعت رسول الله ﷺ يقول ليلة حين فرغ من صلاته... فذكر حديثاً طويلاً من جملته هذا» وقال: حديث غريب انتهى. وفيه محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى سيىء الحفظ.

(٤) حديث: «**إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس: «**إذا أحب الله عبداً صب عليه البلاء صباً...**» الحديث. وفيه: «**دعه فإني أحب أن أسمع صوته**» وللطبراني من حديث أبي أمامة: «**إن الله يقول للملائكة: انطلقوا إلى عبدي فصبوا عليه البلاء...**» الحديث. وفيه: «**فإني أحب أن أسمع صوته**» وسندهما ضعيف.

إِذَا دَعَا: اللّهُمَّ اغفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ»[1] وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللّهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ»[2] وقال ﷺ: «ادْعُوا اللّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ»[3] وقال سفيان بن عيينة: لا يمنعنّ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عزّ وجلّ أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحجر: ٣٦، ٣٧].

الثامن: أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً. قال ابن مسعود: كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً[4]. وينبغي أن لا يستبطىء الإجابة لقوله ﷺ: «يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ ما لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي، فَإِذَا دَعَوْتَ فَاسْأَلِ اللّهَ كَثِيراً فَإِنَّكَ تَدْعُو كَرِيماً»[5] وقال بعضهم: إني أسأل الله عزّ وجلّ منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرجو الإجابة، سألت الله تعالى أن يوفقني لترك ما لا يعنيني. وقال ﷺ: «إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ مَسْأَلَةً فَتَعَرَّفَ الإِجَابَةَ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَمَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لِلّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ»[6].

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله عزّ وجلّ، فلا يبدأ بالسؤال. قال سلمة بن الأكوع: ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول: «سُبْحَانَ رَبِّي العَلِيِّ الأَعْلَىٰ الوَهَّابِ»[7]. قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ثم يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ فإن الله عزّ وجلّ يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما، وروي في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةً فَابْتَدِئُوا بِالصَّلاةِ عَلَيَّ فَإِنَّ اللّهَ تَعَالَىٰ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَرُدَّ الأُخْرَىٰ»[8] رواه أبو طالب المكي.

العاشر: وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة: التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عزّ وجلّ بكنه الهمة، فذلك هو السبب القريب في الإجابة. فيروى عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناس

---

(١) حديث: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء» أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: غريب، والحاكم وقال: مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة. قلت: لكنه ضعيف في الحديث.

(٤) حديث ابن مسعود: «كان ﷺ إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً» رواه مسلم وأصله متفق عليه.

(٥) حديث: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال» أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة، وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصراً بإسناد ضعيف.

(٧) حديث سلمة بن الأكوع: «ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا استفتحه وقال: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب» أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد. قلت: فيه عمر بن راشد اليماني ضعفه الجمهور.

(٨) حديث: «إذا سألتم الله حاجة فابدؤوا بالصلاة عليّ فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطي إحداهما ويرد الأخرى» لم أجده مرفوعاً وإنما هو موقوف على أبي الدرداء.

قحط شديد على عهد موسى رسول الله ﷺ فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقي بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام، فقال موسى: يا رب ومن هو حتى نخرجه من بيننا؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً! فقال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث. وقال سعيد بن جبير: قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبني إسرائيل: ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينه، قيل له: وكيف تقدر أن تؤذيه وهو في السماء؟ فقال: أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له، فأرسل الله تعالى عليهم السماء. وقال سفيان الثوري: بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل، وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى أنبيائهم عليهم السلام: لو مشيتم إليّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فإني لا أجيب لكم داعياً ولا أرحم لكم باكياً حتى تردوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا من يومهم. وقال مالك بن دينار: أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مراراً فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيهم: أن أخبرهم أنكم تخرجون إليّ بأبدان نجسة وترفعون إليّ أكفاً قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام، الآن قد اشتدّ غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعداً. وقال أبو الصدّيق الناجي: خرج سليمان عليه السلام يستسقي فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا، فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر ألستم مقرّين بالإساءة؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا قد سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة: ٩١] وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا، اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا ربك، فقال: إنكم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجارة. وروي أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام: من أصاب منكم ذنباً فليرجع، فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد، فقال له عيسى عليه السلام: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانتزعتها وتبعت المرأة بها، فقال له عيسى عليه السلام: فادع الله حتى أؤمن على دعائك، قال: دعا فتجللت السماء سحاباً ثم صبت فسقوا. وقال يحيى الغساني: أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا، وقال الثالث: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا، فسقوا. وقال عطاء السلمي: منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسعدون المجنون في المقابر فنظر إليّ فقال: يا عطاء أهذا يوم النشور أو بعثر ما في القبور؟ فقلت: لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فقال: يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية؟ فقلت: بل بقلوب سماوية، فقال: هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين

لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير، ثم رمق السماء بطرفه وقال: إلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك، ولكن بالسر المكنون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلا ما سقيتنا ماء غدقاً فراتاً تحيي به العباد وتروي به البلاد يا من هو على كل شيء قدير، قال عطاء: فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول:

أفلَحَ الزاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهم أجاعُوا البطونا
أسهروا الأعيُنَ العليلة حبّاً ... فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغَلَتهم عبادة الله حتى ... حسب الناس أن فيهم جُنُونا

وقال ابن المبارك: قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه، فجلس إلى جنبي فسمعته يقول: إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوىء الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك، فأسألك يا حليماً ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعة، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب، قال ابن المبارك: فجئت إلى الفضيل، فقال: ما لي أراك كئيباً؟ فقلت أمر سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخرّ مغشياً عليه. ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه، فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك ﷺ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكبير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، قال: فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال.

فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ وفضله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] وروي أنه ﷺ جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال ﷺ: **«إِنَّهُ جَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ: أَمَا تَرْضَىٰ يا مُحَمّدُ أَنْ لا يُصَلِّيَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمّتِكَ صَلاةً وَاحِدَةً إِلاَّ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْراً وَلا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمّتِكَ إِلاَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْراً»**[(١)]. وقال ﷺ: **«مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلائِكَةُ ما صَلَّىٰ عَلَيَّ فَلْيُقْلِلْ عِنْدَ ذٰلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ»**[(٢)] وقال ﷺ: **«إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِي أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاةً»**[(٣)]

(١) حديث: «أنه ﷺ جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال: **إنه جاءني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً**» أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أبي طلحة بإسناد جيد.

(٢) حديث: «**من صلى عليّ صلت عليه الملائكة ما صلى فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر**» أخرجه ابن ماجه من حديث عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

(٣) حديث: «**إن أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة**» أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال: حسن غريب، وابن حبان.

وقال ﷺ: «بِحَسْبِ المُؤمِنِ مِنَ البُخْلِ أَنْ أُذكَرَ عِنْدَهُ فَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ»(١) وقال ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنَ الصَّلاةِ عَلَيَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ»(٢) وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ مِنْ أُمَّتِي كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ»(٣) وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الأَذَانَ وَالإِقَامَةَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ القَائِمَةِ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَأَعْطِهِ الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ وَالدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ وَالشَّفَاعَةَ يَوْمَ القِيَامَةِ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي»(٤) وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ المَلائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذٰلِكَ الكِتَابِ»(٥) وقال ﷺ: «إِنَّ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلامَ»(٦). وقال ﷺ: «لَيسَ أَحَدٌ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ»(٧). وقيل له: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(٨).

---

(١) حديث: «بحسب امرىء من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي عليّ» أخرجه قاسم بن أصبغ من حديث الحسن بن علي هكذا، والنسائي وابن حبان من حديث أخيه الحسين: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ» ورواه الترمذي من رواية الحسين بن علي عن أبيه وقال: حسن صحيح.

(٢) حديث: «أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة» أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري من حديث أوس بن أوس، وذكره ابن أبي حاتم في العلل، وحكى عن أبيه أنه حديث منكر.

(٣) حديث: «من صلى عليّ من أمتي كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات» أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه: «مخلصاً من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات»، وله في السير ولابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله: «مخلصاً من قلبه» ودون ذكر: محو السيئات. ولم يذكر ابن حبان أيضاً: رفع الدرجات.

(٤) حديث: «من قال حين يسمع الأذان والإقامة: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي» أخرجه البخاري من حديث جابر دون ذكر الإقامة والشفاعة والصلاة على النبي ﷺ وقال: النداء، وللمستغفري في الدعوات: «حين يسمع الدعاء للصلاة» وزاد ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف، وزاد الحسن بن علي المعمري في اليوم والليلة من حديث أبي الدرداء ذكر الصلاة فيه، وله وللمستغفري في الدعوات سند ضعيف من حديث أبي رافع: «كان رسول الله ﷺ إذا سمع الأذان» فذكر حديثاً فيه: «وإذا قال: قد قامت الصلاة قال: اللهم رب هذه الدعوة التامة...» الحديث. وزاد: «وتقبل شفاعته في أمته» ولمسلم من حديث عبدالله بن عمرو: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ ثم سلوا الله لي الوسيلة» وفيه: «فمن سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

(٥) حديث: «من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب» أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ في الثواب، والمستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٦) حديث: «إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» تقدم في آخر الحج.

(٧) حديث: «ليس أحد يسلم عليّ إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام» أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند جيد.

(٨) حديث: «قيل له: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي حميد الساعدي.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع بعد موت رسول الله ﷺ يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عزّ وجلّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النّساء: ٨٠] بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب فقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبَة: ٤٣] بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأحزَاب: ٧] الآية. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون ﴿يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزَاب: ٦٦]، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان عيسى ابن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مشوية فقالت لك الذراع: لا تأكلني فإني مسمومة، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نُوح: ٢٦] ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا؛ فلقد وطىء ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد اتبعك في قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سِنه وطول عمره، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفؤاً لك ما جالستنا، ولو لم تنكح إلا كفؤاً لك ما نكحت إلينا، ولو لم تؤاكل إلا كفؤاً لك ما واكلتنا، فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعاً منك، صلى الله عليك وسلم(١).

---

(١) حديث عمر: «في حنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه والإسراء به على البراق إلى السماء السابعة، ثم صلاة الصبح من ليلته بالأبطح، وكلام الشاة المسمومة وأنه دمي وجهه وكسرت رباعيته فقال: **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**، وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولعق أصابعه» وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى. فحديث حنين الجذع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر، وحديث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وغيره، وحديث الإسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح، وحديث كلام الشاة المسمومة رواه أبو داود من حديث جابر وفيه انقطاع، وحديث أنه دمي وجهه وكسرت رباعيته متفق عليه من حديث سهل بن سعد في غزوة أُحد، وحديث: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»** رواه البيهقي في دلائل النبوة، والحديث في الصحيح من حديث ابن مسعود أنه ﷺ حكاه عن نبي من الأنبياء ضربه قومه، وحديث لبس الصوف رواه الطيالسي من حديث سهل بن سعد، وحديث ركوبه الحمار وإردافه خلفه متفق عليه من حديث أسامة بن زيد، وحديث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد في الزهد من حديث الحسن مرسلاً، وللبخاري من حديث أنس ما أكل رسول الله ﷺ على خوان قط، وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك.

وقال بعضهم: كنت أكتب الحديث وأصلي على النبي ﷺ فيه ولا أسلم، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: «أما تتم الصلاة عليّ في كتابك؟» فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه. ورُوي عن أبي الحسن قال: «رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله بم جوزي الشافعي عنك حيث يقول في كتابه الرسالة: وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون؟» فقال ﷺ: «جوزي عني أنه لا يوقف للحساب».

فضيلة الاستغفار:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥] وقال علقمة والأسود: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنهم: في كتاب الله عزّ وجلّ آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما واستغفر الله عزّ وجلّ إلا غفر الله تعالى له: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥] الآية. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النِّساء: ١١٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النّصر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧] وكان ﷺ يكثر أن يقول: **«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»**(١) وقال ﷺ: **«مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»**(٢) وقال ﷺ: **«إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»**(٣) هذا مع أنه ﷺ غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. وقال ﷺ: **«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي حَتَّىٰ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ»**(٤)، وقال ﷺ: **«مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَىٰ فِرَاشِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ـ أو عدد رمل عالج أَوْ عَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ أَوْ عَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا ـ»**(٥)، وقال ﷺ في

---

(١) حديث: «كان النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول: **سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم**» أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح إن كان أبو عبيدة سمع من أبيه، والحديث متفق عليه من حديث عائشة: «أنه كان يكثر أن يقول ذلك في ركوعه وسجوده» دون قوله: **«إنك أنت التواب الرحيم»**.

(٢) حديث: **«من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل غم مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»** أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان.

(٣) حديث: **«إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة»** أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة إلا أنه قال: **«أكثر من سبعين»** وهو في الدعاء للطبراني كما ذكره المصنف.

(٤) حديث: **«إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»** أخرجه مسلم من حديث الأغر.

(٥) حديث: **«من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر. . .»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالله بن الوليد الوصافي. قلت: الوصافي وإن كان ضعيفاً فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة، ورواه البخاري في التاريخ دون قوله: **«حين يأوي إلى فراشه»** وقوله: **«ثلاث مرات»**.

حديث آخر: «مَنْ قَالَ ذٰلِكَ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ فَاراً مِنَ الزَّحْفِ»(١) وقال حذيفة: كنت ذرب اللسان على أهلي فقلت: «يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلني لساني النار، فقال النبي ﷺ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ؟ فَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(٢) وقالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذَّنْبِ النَّدَمُ وَالاسْتِغْفَارُ»(٣) وكان ﷺ يقول في الاستغفار: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذٰلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(٤) وقال علي رضي الله عنه: كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله عزّ وجلّ بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدّثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف صدّقته، قال: وحدّثني أبو بكر وصدق أبو بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْباً فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ، ثُمَّ تَلا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥] الآية»(٥). وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ مِنها فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّىٰ تَغْلُفَ قَلْبَهُ»(٦)، فذلك الرّان الذي ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ فِي الجَنَّةِ فَيَقُولُ: يا رَبِّ أَنَّىٰ لِي هٰذِهِ؟ فَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ»(٧) وروت عائشة رضي الله عنها: أنه ﷺ قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا وَإِذَا أَسَاؤُوا اسْتَغْفَرُوا»(٨)، وقال ﷺ: «إِذَا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْباً فَقَالَ:

---

(١) حديث: «من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الزحف» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث زيد مولى النبي ﷺ وقال: غريب. قلت: ورجاله موثقون، ورواه ابن مسعود والحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) حديث حذيفة: «كنت ذرب اللسان على أهلي...» الحديث. وفيه: «أين أنت من الاستغفار» أخرجه النسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٣) حديث عائشة: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار» متفق عليه دون قوله: «فإن التوبة... الخ» وزاد: «وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» وللطبراني في الدعاء: «فإن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر له».

(٤) حديث: «كان يقول: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي» متفق عليه من حديث أبي موسى واللفظ لمسلم.

(٥) حديث علي عن أبي بكر: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له» أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي.

(٦) حديث أبي هريرة: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه...» الحديث. أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه وابن حبان والحاكم.

(٧) حديث أبي هريرة: «إن الله ليرفع العبد الدرجة في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه فيقول: باستغفار ولدك لك» رواه أحمد بإسناد حسن.

(٨) حديث عائشة: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفروا» أخرجه ابن ماجه وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه.

اللّهُمّ اغفِرْ لِي، فَيَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ، عَبْدِي اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[(١)] وقال ﷺ: **«مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»**[(٢)] وقال ﷺ: **«إِنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ نَظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَ: إِنَّ لِي رَبّاً يَا رَبِّ اغْفِرْ لِي، فَقَالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ غَفَرْتُ لَكَ»**[(٣)] وقال ﷺ: **«مَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ اللّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ»**[(٤)] وقال ﷺ: **«يَقُولُ اللّهُ تَعَالَىٰ: يا عِبَادِي كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلاَّ مَنْ عَافَيْتُهُ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَمَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَىٰ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ غَفَرْتُ لَهُ وَلا أُبَالِي»**[(٥)] وقال ﷺ: **«مَنْ قَالَ: سُبْحَانَكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَعَمِلْتُ سُوءاً فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ كَمَدَبِّ النَّمْلِ»**[(٦)]. وروي: **«إن أفضل الاستغفار: اللهم أنت ربي وأنا عبدك خلقتني وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء على نفسي بذنبي فقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت فإنه لا يغفر الذنوب جميعها إلا أنت»**[(٧)].

والآثار: قال خالد بن معدان: يقول الله عزّ وجلّ: إنّ أحب عبادي إليَّ المتحابون بحبي والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار، أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم. وقال قتادة رحمه الله: القرآن يدلكم عن دائكم ودوائكم. أما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار. وقال علي كرم الله وجهه: العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وكان يقول: ما ألهم الله سبحانه عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه. وقال الفضيل: قول العبد: «أستغفر الله» تفسيرها: أقلني. وقال بعض العلماء: العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار. وقال الربيع بن خيثم رحمه الله: لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباً

---

(١) حديث: **«إذا أذنب العبد فقال: اللهم اغفر لي يقول الله: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويغفر الذنب...»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»** أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر وقال: غريب وليس إسناده بالقوي.

(٣) حديث: **«إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء فقال: إن لي رباً يا رب اغفر لي فقال الله تعالى: قد غفرت لك»** لم أقف له على أصل.

(٤) حديث: **«من أذنب فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر»** أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٥) حديث: **«يقول الله: يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفروني أغفر لكم ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي»** أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر، وقال الترمذي: حسن. وأصله عند مسلم بلفظ آخر.

(٦) حديث: **«من قال: سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه وإن كانت كمدب النمل»** أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث علي **«أن رسول الله ﷺ قال: ألا أعلمك كلمات تقولهن لو كان عليك كعدد النمل ـ أو كعدد الذر ـ ذنوباً غفرها الله لك»** فذكره بزيادة: **«لا إله إلا أنت»** في أوله وفيه ابن لهيعة.

(٧) حديث: **«أفضل الاستغفار: اللهم أنت ربي وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت...»** الحديث. أخرجه البخاري من حديث شداد بن أوس دون قوله: **«وقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي»** ودون قوله: **«ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت»** ودون قوله: **«جميعاً»**.

وكذباً إن لم يفعل، ولكن ليقل: اللهم اغفر لي وتب عليّ. وقال الفضيل رحمه الله: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وقالت رابعة العدوية رحمها الله: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. وقال بعض الحكماء: من قدّم الاستغفار على الندم كان مستهزئاً بالله عزّ وجلّ وهو لا يعلم. وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري للؤم وإن تركي استغفارك مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إليّ بالنعم مع غناك عني وكم أتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك! يا من إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين. وقال أبو عبدالله الوراق: لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوباً لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصاً إن شاء الله تعالى: اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ولم أوف لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على معصيتك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته في ضياء النهار وسواد الليل في ملأ أو خلاء وسر وعلانية يا حليم. ويقال: إنه استغفار آدم عليه السلام، وقيل: الخضر عليه الصلاة والسلام.

* * *

الباب الثالث

في أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها المرء صباحاً ومساء وبعقب كل صلاة

فمنها: دعاء رسول الله ﷺ بعد ركعتي الفجر:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعثني العباس إلى رسول الله ﷺ فأتيته ممسياً وهو في بيت خالتي ميمونة فقام يصلي من الليل، فلما صلى ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِها قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِها شَمْلِي، وَتَلُمُّ بِها شَعَثِي، وَتَرُدُّ بِها الفِتَنَ عَنِّي، وَتُصْلِحُ بِها دِينِي، وَتَحْفَظُ بِها غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِها شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُبَيِّضُ بِها وَجْهِي، وَتُلْهِمُنِي بِها رُشْدِي، وَتَعْصِمُنِي بِها مِنْ كُلِّ سُوءٍ. اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيماناً صَادِقاً وَيَقِيناً لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ، وَرَحْمَةً أَنالُ بِها شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الفَوْزَ عِنْدَ القَضَاءِ وَمَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ وَمُرَافَقَةَ الأَنْبِيَاءِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي وَإِنْ ضَعُفَ رَأْيِي وَقَلَّتْ حِيلَتِي وَقَصُرَ عَمَلِي وَافْتَقَرْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ، فَأَسْأَلُكَ يا كَافِيَ الأُمُورِ وَيا شَافِيَ الصُّدُورِ كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ البُحُورِ أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ وَمِنْ دَعْوَةِ الثُّبُورِ وَمِنْ فِتْنَةِ القُبُورِ. اللَّهُمَّ ما قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي وَضَعُفَ عَنْهُ عَمَلِي وَلَمْ تَبْلُغْهُ نِيَّتِي وَأُمْنِيَّتِي مِنْ خَيْرٍ وَعَدْتَهُ أَحَداً مِنْ عِبَادِكَ أَوْ خَيْرٍ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ فَإِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ وَأَسْأَلُكَهُ يا رَبَّ العَالَمِينَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ وَلا مُضِلِّينَ، حَرْباً لأَعْدَائِكَ وَسِلْماً لأَوْلِيَائِكَ نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَطَاعَكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ مِنْ خَلْقِكَ. اللَّهُمَّ هٰذا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الإِجَابَةُ وَهٰذا الجَهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكَلانُ وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ ذِي الحَبْلِ

الشَّدِيدِ وَالأَمْرِ الرَّشِيدِ، أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الوَعِيدِ وَالجَنَّةَ يَوْمَ الخُلُودِ مَعَ المُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ المُوفِينَ بِالعُهُودِ إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ. سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ العِزَّ وَقَالَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ بِالمَجْدِ وَتَكَرَّمَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلاَّ لَهُ، سُبْحَانَ ذِي الفَضْلِ وَالنِّعَمِ، سُبْحَانَ ذِي العِزَّةِ وَالكَرَمِ، سُبْحَانَ الَّذِي أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُوراً فِي قَلْبِي وَنُوراً فِي قَبْرِي، وَنُوراً فِي سَمْعِي وَنُوراً فِي بَصَرِي، وَنُوراً فِي شَعْرِي ونوراً في بشري، وَنُوراً فِي لَحْمِي وَنُوراً فِي دَمِي، وَنُوراً فِي عِظَامِي وَنُوراً مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَنُوراً مِنْ خَلْفِي، وَنُوراً عَنْ يَمِينِي وَنُوراً عَنْ شِمَالِي، وَنُوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ تَحْتِي، اللَّهُمَّ زِدْنِي نُوراً وَأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً»(١).

دعاء عائشة رضي الله عنها:

قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «عَلَيْكِ بِالجَوَامِعِ الكَوَامِلِ، قُولِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ ما عَلِمْتُ مِنْهُ وَما لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ ما عَلِمْتُ منه وَما لَمْ أَعْلَمْ، وَأَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَما قَرَّبَ إِلَيها مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَما قَرَّبَ إِلَيها مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ ما سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَسْتَعِيذُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَسْأَلُكَ ما قَضَيْتَ لِي مِنْ أَمْرٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَداً بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»(٢).

دعاء فاطمة رضي الله عنها:

قال رسول الله ﷺ: «يَا فَاطِمَةُ ما يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي: يا حَيُّ يا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ لا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ»(٣).

دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

علَّم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ وَمُوسَىٰ نَجِيِّكَ وَعِيسَىٰ كَلِمَتِكَ وَرُوحِكَ، وَبِتَوْرَاةِ مُوسَىٰ وَإِنْجِيلِ عِيسَىٰ وَزَبُورِ دَاوُدَ وَفُرْقَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَبِكُلِّ وَحْيٍ أَوْحَيْتَهُ أَوْ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ أَوْ سَائِلٍ أَعْطَيْتَهُ أَوْ غَنِيٍّ أَفْقَرْتَهُ

الباب الثالث
في أدعية مأثورة

(١) حديث ابن عباس: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعثي...» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب ولم يذكر في أوله: بعث العباس لابنه عبدالله ولا نومه في بيت ميمونة، وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني.

(٢) حديث قوله لعائشة: «عليك بالجوامع الكوامل قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم...» الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها.

(٣) حديث: «يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله» أخرجه النسائي في اليوم والليلة، والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

أَوْ فَقِيرٍ أَغْنَيْتَهُ أَوْ ضَالٌّ هَدَيْتَهُ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ ﷺ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي بَثَثْتَ بِهِ أَرْزَاقَ العِبَادِ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَىٰ الأَرْضِ فَاسْتَقَرَّتْ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَىٰ السَّمٰوَاتِ فَاسْتَقَلَّتْ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَىٰ الجِبَالِ فَرَسَتْ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي اسْتَقَلَّ بِهِ عَرْشُكَ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الطُّهْرِ الطَّاهِرِ الأَحَدِ الصَّمَدِ الوِتْرِ المُنْزَلِ فِي كِتَابِكَ مِنْ لَدُنْكَ مِنَ النُّورِ المُبِينِ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَىٰ النَّهَارِ فَاسْتَنَارَ وَعَلَىٰ اللَّيْلِ فَأَظْلَمَ وَبِعَظَمَتِكَ وَكِبْرِيَائِكَ وَبِنُورِ وَجْهِكَ الكَرِيمِ أَنْ تَرْزُقَنِي القُرْآنَ وَالعِلْمَ بِهِ، وَتَخْلُطَهُ بِلَحْمِي وَدَمِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي، وَتَسْتَعْمِلَ بِهِ جَسَدِي بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، فَإِنَّهُ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»(١).

دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه:

وروي أنه قال له رسول الله ﷺ: «يا بُرَيْدَةُ أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيراً عَلَّمَهُنَّ إِيَّاهُ ثُمَّ لَمْ يُنْسِهُنَّ إِيَّاهُ أَبَداً؟ قال: فقلت بلى يا رسول الله قال: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّ فِي رِضَاكَ ضَعْفِي وَخُذْ إِلَىٰ الخَيْرِ بِنَاصِيَتِي وَاجْعَلِ الإِسْلامَ مُنْتَهَىٰ رِضَايَ، اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي وَإِنِّي ذَلِيلٌ فَأَعِزَّنِي وَإِنِّي فَقِيرٌ فَأَغْنِنِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»(٢).

دعاء قبيصة بن المخارق:

إذ قال لرسول الله ﷺ علمني كلمات ينفعني الله عزّ وجلّ بها، فقد كبر سني وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها، فقال عليه السلام: «أَمَّا لِدُنْيَاكَ فَإِذَا صَلَّيْتَ الغَدَاةَ فَقُلْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَهُنَّ أَمِنْتَ مِنَ الغَمِّ وَالجُذَامِ وَالبَرَصِ وَالفَالِجِ. وَأَمَّا لآخِرَتِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي مِنْ عِنْدِكَ وَأَفْضِلْ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِكَ وَانْشُرْ عَلَيَّ مِنْ رَحْمَتِكَ وَأَنْزِلْ عَلَيَّ مِنْ بَرَكَاتِكَ». ثم قال ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ إِذَا وَافَىٰ بِهِنَّ عَبْدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ لَمْ يَدَعْهُنَّ فُتِحَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ مِنَ الجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(٣).

دعاء أبي الدرداء رضي الله عنه:

قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه: قد احترقت دارك ـ وكانت النار قد وقعت في محلته ـ فقال: ما كان الله ليفعل ذلك، فقيل له ذلك ثلاثاً وهو يقول: ما كان الله ليفعل ذلك. ثم أتاه آت فقال: يا أبا

---

(١) حديث: «علم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول: **اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك...**» الحديث. في الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب الثواب من رواية عبدالملك بن هارون بن عبثرة عن أبيه: «أن أبا بكر أتى النبي ﷺ فقال: إني أتعلم القرآن وينفلت مني» فذكره، وعبدالملك وأبوه ضعيفان، وهو منقطع بين هارون وأبي بكر.

(٢) حديث: «**يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه...**» الحديث. أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث: «إن قبيصة بن المخارق قال لرسول الله ﷺ علمني كلمات ينفعني الله بها فقد كبرت سني وعجزت...» الحديث. أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديث ابن عباس، وهو عند أحمد في المسند مختصراً من حديث قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم.

الدرداء إن النار حين دنت من دارك طفئت، قال: قد علمت ذلك، فقيل له: ما ندري أي قوليك أعجب؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يَقُولُ هٰؤُلاءِ الكَلِمَاتِ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ لَمْ يَضِرْهُ شَيْءٌ» وقد قلتهن وهي: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ، ما شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

كان يقول إذا أصبح: اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه عليَّ بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها وضعفها لي، وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم. قال: ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه.

دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام:

كان يقول: اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهناً بعملي فلا فقير أفقر مني. اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط عليَّ من لا يرحمني يا حي يا قيوم.

دعاء الخضر عليه السلام:

يقال: إن الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا في كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات: «بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ما شاء الله كل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله» فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق إن شاء الله تعالى.

دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه:

قال محمد بن حسان: قال لي معروف الكرخي رحمه الله: «ألا أعلمك عشر كلمات خمس للدنيا وخمس للآخرة من دعا الله عزّ وجلّ بهن وجد الله تعالى عندهن؟ قلت: اكتبها لي، قال: لا، ولكن أرددها عليك كما رددها عليَّ بكر بن خنيس رحمه الله: حسبي الله لديني، حسبي الله لدنياي، حسبي الله الكريم لما أهمني، حسبي الله الحليم القوي لمن بغى عليَّ، حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء، حسبي الله الرحيم عند الموت، حسبي الله الرؤوف عند المسألة في القبر، حسبي الله الكريم عند الحساب، حسبي الله اللطيف عند الميزان، حسبي الله القدير عند الصراط، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم». وقد روي عن أبي الدرداء أنه قال: مَنْ قال في كل يوم سبع

---

(١) حديث: «قيل لأبي الدرداء: أحرقت دارك فقال: ما كان الله ليفعل ذلك...» الحديث. أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء ضعيف.

مرات: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩] كفاه الله عزّ وجلّ ما أهمه من أمر آخرته صادقاً كان أو كاذباً.

دعاء عتبة الغلام:

وقد رئي في المنام بعد موته فقال: دخلت الجنة بهذه الكلمات: اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، آمين يا رب العالمين.

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما أراد الله عزّ وجلّ أن يتوب على آدم ﷺ طاف بالبيت سبعاً وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء، ثم قام فصلى ركعتين ثم قال: اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي. اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبته عليّ والرضا بما قسمته لي يا ذا الجلال والإكرام. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه إني قد غفرت لك، ولم يأتني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذي دعوتني به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه، ونزعت الفقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها.

دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

رواه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُمَجِّدُ نَفْسَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَقُولُ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ. إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا الحَيُّ القَيُّومُ. إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا العَلِيُّ العَظِيمُ. إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ. إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا العَفُوُّ الغَفُورُ. إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا مُبْدِىءُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيَّ يَعُودُ، العَزِيزُ الحَكِيمُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ خَالِقُ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، خَالِقُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، الوَاحِدُ الأَحَدُ الفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً، الفَرْدُ الوِتْرُ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ الخَالِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ الكَبِيرُ المُتَعَالِ المُقْتَدِرُ القَهَّارُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ. أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ أَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ القَادِرُ الرَّزَّاقُ فَوْقَ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ**»[1] وذكر قبل كل كلمة: «**إِنِّي أَنَا الله لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا**» كما أوردناه في الأول فمن دعا بهذه الأسماء فليقل: «إنك أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا»، فمن دعا بهنّ كتب من الساجدين المخبتين الذين يجاورون محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم في دار الجلال، وله ثواب العابدين في السمٰوات والأرضين، وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى.

---

(١) حديث علي: «**إن الله تعالى يمجد نفسه كل يوم فيقول: إني أنا الله رب العالمين إني أنا الله لا إله إلا أنا الحي القيوم...**» الحديث. بطوله لم أجد له أصلاً.

دعاء ابن المعتمر وهو سليمان التيمي وتسبيحاته رضي الله عنه:

روي أن يونس بن عبيد رأى رجلاً في المنام ممن قتل شهيداً ببلاد الروم فقال: ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال؟ قال: رأيت تسبيحات ابن المعتمر من الله عزّ وجلّ بمكان وهي هذه: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد ما خلق وعدد ما هو خالق، وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق، وملء ما خلق وملء ما هو خالق، وملء سمْواته وملء أرضه، ومثل ذلك وأضعاف ذلك، وعدد خلقه وزنة عرشه، ومنتهى رحمته ومداد كلماته، ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضي، وعدد ما ذكره به خلقه في جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروه فيما بقي في كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم ونفس من الأنفاس وأبد من الآباد من أبد إلى أبد، أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوّله ولا ينفد آخره.

دعاء إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه:

روى إبراهيم بن بشار خادمه: أنه كان يقول هذا الدعاء في كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى: مرحباً بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب الشهيد، يومنا هذا يوم عيد، اكتب لنا فيه ما نقول، بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال في خلقه ما يريد. أصبحت بالله مؤمناً وبلقائه مصدّقاً وبحجته معترفاً ومن ذنبي مستغفراً ولربوبية الله خاضعاً ولسوى الله في الآلهة جاحداً وإلى الله فقيراً وعلى الله متكلاً وإلى الله منيباً. أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً، وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكراً ونكيراً حق ووعدك حق ووعيدك حق ولقاءك حق والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله. اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذي شر. اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت. لبيك وسعديك والخير كله بيديك أنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك. آمنت اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب، وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً خاتم كلامي ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يا رب العالمين. اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشرباً روياً سائغاً هنياً لا نظمأ بعده أبداً، واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوباً علينا ولا ضالين، اللهم اعصمني من فتن الدنيا ووفقني لما تحب وترضى وأصلح لي شأني كله وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولا تضلني وإن كنت ظالماً سبحانك، سبحانك يا علي يا عظيم يا بارىء يا رحيم يا عزيز يا جبار، سبحان من سبحت له السمْوات بأكنافها، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها، وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغتها، وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراجها، وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها وثمارها، وسبحان من سبحت له السمْوات السبع والأرضون السبع ومن فيهنّ ومن عليهنّ، سبحان من سبح له كل شيء من مخلوقاته، تباركت وتعاليت

سبحانك، سبحانك يا حي يا قيوم يا عليم يا حليم، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تحيي وتميت وأنت حي لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير.

* * *

الباب الرابع

في أدعية مأثورة عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله

يستحب للمريد إذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء - كما سيأتي ذكره في كتاب الأوراد - فإن كنت من المريدين لحرث الآخرة المقتدين برسول الله ﷺ فيما دعا به فقل في مفتتح دعواتك[(١)] أعقاب صلواتك[(٢)]: **سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.** وقل: **رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً**[(٣)] - ثلاث مرات - وقل: **اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشرّ الشيطان وشركه**[(٤)] وقل: **اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي وأقل عثراتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي**[(٥)]. **اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا تنزع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين**[(٦)].

الباب الرابع:

في أدعية مأثورة عن النبي ﷺ

(١) حديث: «افتتاح الدعاء بسبحان ربي العلي الأعلى الوهاب»، تقدم في الباب الثاني في الدعاء.

(٢) حديث: «القول عقب الصلوات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة.

(٣) حديث: «رضيت بالله رباً...» الحديث. تقدم في الباب الأول من الأذكار.

(٤) حديث: «**اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه**» أخرجه أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة: «أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: **قل اللهم**» فذكره.

(٥) حديث: «**اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتي وآمن روعتي وأقل عثرتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي**» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر: «قال لم يكن النبي ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح».

(٦) حديث: «**اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا ترفع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين**» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس دون قوله: «**ولا تولني غيرك**» وإسناده ضعيف.

وقل: **اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**(١) ـ ثلاث مرات ـ وقل: **اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت**(٢) ـ ثلاث مرات ـ وقل: **اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدي أو يعتدى عليّ أو أكسب خطيئة أو ذنباً لا تغفره**(٣). **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلباً خاشعاً سليماً وخلقاً مستقيماً ولساناً صادقاً وعملاً متقبلاً، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب**(٤). **اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، فإنك أنت المقدّم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد**(٥). **اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد وقرّة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد**(٦). **اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين. أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب عليّ وتغفر لي وترحمني، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**(٧). **اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، وأعوذ**

---

(١) حديث: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» أخرجه البخاري من حديث شداد بن أوس وقد تقدم.

(٢) حديث: «**اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت** ـ ثلاث مرات ـ» أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بكرة، وقال النسائي: جعفر بن ميمون ليس بالقوي.

(٣) حديث: «**اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء**...» الحديث. إلى قوله: «**أو ذنباً لا يغفر**» أخرجه أحمد والحاكم من حديث زيد بن ثابت في أثناء الحديث وقال: صحيح الإسناد.

(٤) حديث: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**...» الحديث. إلى قوله: «**وأنت علام الغيوب**» أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث شداد بن أوس. قلت: بل هو منقطع وضعيف.

(٥) حديث: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت**...» الحديث. إلى قوله: «**وعلى كل غيب شهيد**» متفق عليه من حديث أبي موسى دون قوله: «**وعلى كل غيب شهيد**» وقد تقدم في الباب الثاني من هذا الكتاب.

(٦) حديث: «**اللهم أني أسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد وقرة عين الأبد**...» الحديث. أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث عبدالله بن مسعود دون قوله: «**وقرة عين الأبد**» وقال: صحيح الإسناد، والنسائي من حديث عمار بن ياسر بإسناد جيد: «**وأسألك نعيماً لا يبيد وقرة عين لا تنقطع**».

(٧) حديث: «**اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات**...» الحديث. إلى قوله: «**غير مفتون**» أخرجه الترمذي من حديث معاذ: «**اللهم أني أسألك فعل الخيرات**...» الحديث. وقال: حسن صحيح ولم يذكر: «**الطيبات**» وهي في الدعاء للطبراني من حديث عبدالرحمن بن عايش، وقال أبو حاتم: ليست له صحبة.

بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين(١). اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة(٢). اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك فرقاً وأسكن في نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك، واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك(٣). اللهم اجعل أوّل يومنا هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وآخره نجاحاً. اللهم اجعل أوّله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة ومغفرة(٤). الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء لملكه واستسلم كل شيء لقدرته، والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل شيء بحكمته وتصاغر كل شيء لكبريائه(٥). اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذرّيته وبارك على محمد وعلى آله وأزواجه وذرّيته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد(٦). اللهم صلِّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذي وعدته يوم الدين(٧). اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمرضاتك عنا ووفقنا لمحابك منا وصرفنا بحسن اختيارك لنا(٨). نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه

---

(١) حديث: «اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي...» الحديث. إلى قوله: «واجعلنا هداة مهتدين» أخرجه النسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث عمار بن ياسر، قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو به».

(٢) حديث: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك...» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري من حديث ابن عمر: «أن النبي ﷺ كان يختم مجلسه بذلك».

(٣) حديث: «اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك فرحاً...» الحديث. إلى قوله: «واجعلنا أخشى لك من سواك» لم أقف له على أصل.

(٤) حديث: «اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وآخره نجاحاً اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة» أخرجه عبد بن حميد في المنتخب، والطبراني من حديث ابن أبي أوفى بالشطر الأول فقط إلى قوله: «نجاحاً» وإسناده ضعيف.

(٥) حديث: «الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته...» الحديث. إلى قوله: «وتصاغر كل شيء لكبريائه» أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله: «والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته» إلى آخره، وكذلك رواه في الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضاً.

(٦) حديث: «اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته...» الحديث. إلى قوله: «حميد مجيد» تقدم في الباب الثاني.

(٧) حديث: «اللهم صلِّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسول الأميين وأعطه المقام المحمود يوم الدين» لم أجده بهذا اللفظ مجموعاً والبخاري من حديث أبي سعيد: «اللهم صل على محمد عبدك ورسولك» وابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي من حديث ابن مسعود: «اللهم صلِّ على محمد النبي الأمي» والنسائي من حديث جابر: «وابعثه المقام المحمود الذي وعدته» وهو عند البخاري بلفظ: «وابعثه مقاماً محموداً» قال الدارقطني: إسناده حسن، وقال الحاكم: صحيح، وقال البيهقي في المعرفة: إسناده صحيح.

(٨) حديث: «اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين...» الحديث. إلى قوله: «صرفنا بحسن اختيارك لنا» لم أقف له على أصل.

وخواتمه[(١)] . اللهم بقدرتك عليَّ تب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك عني اعف عني إنك أنت الغفار الحليم وبعلمك بي ارفق بي إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لي ملكني نفسي ولا تسلطها علي إنك أنت الملك الجبار[(٢)] . سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي إنك أنت ربي ولا يغفر الذنوب إلا أنت[(٣)] . اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي[(٤)] . اللهم ارزقني حلالاً لا تعاقبني عليه وقنعني بما رزقتني واستعملني به صالحاً تقبله مني[(٥)] . اللهم إني أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة[(٦)] . يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين. أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم. ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ـ إلى قوله عزّ وجلّ: إنك لا تخلف الميعاد. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ـ إلى آخر السورة[(٧)] ـ رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني

---

(١) حديث: «نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه» أخرجه الطبراني من حديث أم سلمة: «أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات» فذكر منها: «اللهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين» فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روى عنه إلا موسى بن عقبة.

(٢) حديث: «اللهم بقدرتك علي تب علي إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك علي اعف عني. . .» الحديث. إلى قوله: «إنك الملك الجبار» لم أقف له على أصل.

(٣) حديث: «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي أنت ربي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث علي دون قوله: «ذنبي إنك أنت ربي» وقد تقدم في الباب الثاني.

(٤) حديث: «اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي» أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين: «أن النبي ﷺ علمه لحصين» وقال: حسن غريب، ورواه النسائي في اليوم والليلة، والحاكم من حديث حصين والد عمران وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٥) حديث: «اللهم ارزقني حلالاً لا تعاقبني فيه بما رزقتني واستعملني به صالحاً تقبله مني» أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس: «كان النبي ﷺ يدعو: اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه وأخلف علي كل غائبة لي بخير» وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٦) حديث: «اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة وحسن اليقين في الدنيا والآخرة» أخرجه النسائي من حديث أبي بكر الصديق بلفظ: «سلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة» وفي رواية للبيهقي: «سلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولى والآخرة فإنه ما أوتي العبد بعد اليقين خيراً من العافية» وفي رواية لأحمد: «أسأل الله العفو والعافية».

(٧) حديث: «يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف.

صغيراً. واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات(١). رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً(٢).

أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي ﷺ:

«اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر(٣). اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع، ومن طمع في غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع(٤) اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع. وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن والهرم، ومن أن أرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات. اللهم إنا نسألك قلوباً أوّاهة مخبتة منيبة في سبيلك. اللهم إني أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار(٥). اللهم إني أعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الغم والغرق والهدم، وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك من أن أموت في تطلب الدنيا(٦). اللهم إني أعوذ بك من شر

---

(١) حديث: «رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً، واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات» أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن من حديث أبي أسيد الساعدي: «قال رجل من بني سلمة: هل بقي عليّ من بر أبوي شيء؟ قال: نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما...» الحديث. ولأبي الشيخ ابن حبان في الثواب، والمستغفري في الدعوات من حديث أنس: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه عن كل مؤمن مضى من أول الدهر أو هو كائن إلى يوم القيامة». وسنده ضعيف، وفي صحيح ابن حبان من حديث أبي سعيد: «أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليقل في دعائه اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك وصلِّ على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فإنها زكاة».

(٢) حديث: «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين». أخرجه أحمد من حديث أم سلمة: «أن رسول الله ﷺ كان يقول: رب اغفر وارحم واهدني السبيل الأقوم» وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه، وللطبراني في الدعاء من حديث ابن مسعود: «أنه ﷺ كان يقول: إذا سعى في بطن المسيل اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، ورواه موقوفاً عليه بسند صحيح.

(٣) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر». أخرجه البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٤) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع وطمع في غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع». أخرجه أحمد والحاكم من حديث معاذ وقال: مستقيم الإسناد.

(٥) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع...» الحديث. إلى قوله: «والنجاة من النار» أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح الإسناد، وليس كما قال إلا أنه ورد مفرقاً في أحاديث جيدة الأسانيد.

(٦) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من التردي وأعوذ بك من الغم...» الحديث. إلى قوله: «وأعوذ بك أن أموت في تطلب الدنيا» أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي اليسر واسمه كعب بن عمر بزيادة فيه دون قوله: «وأعوذ بك أن أموت في تطلب دنيا» وتقدم من عند البخاري الاستعاذة من فتنة الدنيا.

ما علمت ومن شر ما لم أعلم(١). اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء(٢). اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء(٣). اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدَّين والفقر، وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال(٤). اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر لساني وقلبي وشر منيي(٥). اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحوّل(٦). اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام(٧). اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك(٨). اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من المغرم والمأثم(٩). اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من شر الغم وفتنة الصدر(١٠). اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدوّ

---

(١) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم». وقلت: هكذا في غير نسخة: «علمت» وإنما هو: «عملت، وأعمل» كذا رواه مسلم من حديث عائشة، ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل في الاستعاذة وفيه: «وشر ما لم أعمل وشر ما لم أعلم».

(٢) حديث: «اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء». أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك.

(٣) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء». متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من فتنة الدجال». أخرجه النسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ «أنه كان يقول: «من الكفر والدين» وفي رواية للنسائي: «من الكفر والفقر» ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أنه كان يتعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال». وللشيخين من حديث عائشة في حديث قال فيه: «ومن شر فتنة المسيح الدجال».

(٥) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وقلبي وشر منيي». أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه الحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن حميد.

(٦) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول». أخرجه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٧) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام». أخرجه أبو داود والنسائي مقتصرين على الأربعة الأخيرة والحاكم بتمامه من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٨) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك ومن جميع سخطك». أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

(٩) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من المأثم والمغرم». متفق عليه من حديث عائشة.

(١٠) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب، وأعوذ بك من سوء العمر وفتنة الصدر». أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم في أثناء حديث: «اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ونفس لا تشبع وعمل لا يرفع ودعوة لا يستجاب لها وصلاة لا تنفع». وشك أبو المعتمر في سماعه من أنس، وللنسائي بإسناد جيد من حديث عمر في أثناء حديث: «وأعوذ بك» وأبو داود من حديث أنس: «اللهم إني أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فتنة الصدر».

وشماتة الأعداء»(١). وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين.

***

الباب الخامس

في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن، وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاء والخروج منه وأدعية الوضوء في كتاب الطهارة. فإذا خرجت إلى المسجد فقل: **«اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً واجعل خلفي نوراً وأمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً، اللهم أعطني نوراً»**(٢)، وقل أيضاً: **اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**(٣)، فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل: **«بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل عليّ**(٤) **بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم بسم الله التكلان على الله»**(٥) فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل: **«اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وسلم. اللهم اغفر لي جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»**(٦) وقدِّم رجلك اليمنى في الدخول، فإذا رأيت في المسجد من يبيع أو يبتاع فقل: **«لا أربح الله تجارتك»**(٧) وإذا

---

(١) حديث: **«اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء»**. أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبدالله بن عمرو وقال: صحيح على شرط مسلم.

الباب الخامس

في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث

(٢) حديث: «القول عند الخروج إلى المسجد: **اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً...»** الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٣) حديث: **«اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك...»** الحديث. من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن.

(٤) حديث: «القول عند الخروج من المنزل لحاجته: **بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي»** أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) حديث: **«بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله»** أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ كان إذا خرج من منزله قال: بسم الله» فذكره إلا أنه لم يقل: **«الرحمن الرحيم»** وفيه ضعف.

(٦) حديث: «القول عند دخول المسجد: اللهم صلّ على محمد اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك» أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، قال الترمذي: حسن وليس إسناده بمتصل، ولمسلم من حديث أبي حميد أو أبي أسيد: **«إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك»** وزاد أبو داود في أوله: **«فليسلم على النبي ﷺ»**.

(٧) حديث: «القول إذا رأى من يبيع أو يبتاع في المسجد: **لا أربح الله تجارتك»** أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي هريرة.

رأيت من ينشد ضالة في المسجد فقل: «لا رَدَّها اللَّهُ عَلَيْكَ». أمر به رسول الله ﷺ[(١)]. فإذا صليت ركعتي الصبح فقل: «بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِها قَلْبِي..» الدعاء إلى آخره[(٢)]. كما أوردناه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. فإذا ركعت فقل في ركوعك: «**اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَلَكَ خَشَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. أَنْتَ رَبِّي خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**»[(٣)] وإن أحببت فقل: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيم ـ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ـ**»[(٤)] أو «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلائِكَةِ وَالرُّوحِ**»[(٥)] فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنا لَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمٰوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ وَمِلْءَ ما شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ أَحَقُّ ما قَالَ العَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ. لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»[(٦)]، وإذا سجدت فقل: «**اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين. اللهم سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي، أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي وهذا ما جنيت على نفسي فاغفر لي فإنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[(٧)]. أو تقول: «**سبحان ربي الأعلى ـ ثلاث مرات ـ**»[(٨)] فإذا فرغت من الصلاة فقل: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[(٩)]، وتدعو بسائر الأدعية التي ذكرناها. فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس فقل: «**سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[(١٠)]، فإذا دخلت السوق فقل: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير**»[(١١)]. **بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما**

---

(١) حديث: «القول إذا رأى من ينشد ضالة في المسجد: **لا ردها الله عليك**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث ابن عباس في القول بعد ركعتي الصبح: «**اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي**» الخ. قد تقدم في الدعاء.

(٣) حديث ابن عباس في القول في الركوع: «**اللهم لك ركعت ولك أسلمت...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث علي.

(٤) حديث القول فيه: «**سبحان ربي العظيم**» ثلاثاً. أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع.

(٥) حديث القول فيه: «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**» أخرجه مسلم من حديث عائشة.

(٦) حديث القول فيه عند الرفع من الركوع: «**سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس دون قوله: «**سمع الله لمن حمده**» فهي في اليوم والليلة للحسن بن علي المعمري وهي عند مسلم من حديث ابن أبي أوفى، وعند البخاري من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث القول في السجود: «**اللهم لك سجدت...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث علي: «**اللهم سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي، أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي وهذا ما جنيت على نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح الإسناد، وليس كما قال بل هو ضعيف.

(٨) حديث: «**سبحان ربي الأعلى**» ثلاثاً. أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي من حديث ابن مسعود وهو منقطع.

(٩) حديث القول إذا فرغ من الصلاة: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» أخرجه مسلم من حديث ثوبان.

(١٠) حديث: «**كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت**» أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث رافع بن خديج بإسناد حسن.

(١١) حديث القول عند دخول السوق: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير**» من حديث عمر وقال: غريب، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

فيها، اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها. اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة»[(١)]، فإن كان عليك دين فقل: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك»[(٢)] فإذا لبست ثوباً جديداً فقل: «اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»[(٣)] وإذا رأيت شيئاً من الطيرة تكرهه فقل: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله»[(٤)] وإذا رأيت الهلال فقل: «اللهم أهلّه علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عمن تسخط، ربي وربك الله»[(٥)]. ويقول: «هلال رشد وخير آمنت بخالقك»[(٦)]. «اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر»[(٧)]. وتكبر قبله أولاً ثلاثاً. وإذا هبت الريح فقل: «اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شر ما أرسلت به»[(٨)]. وإذا بلغك وفاة أحد فقل: «﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزّخرُف: ١٤] اللهم اكتبه في المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في

---

(١) حديث: «بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها، اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها. اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة» أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال: أقربها لشرائط هذا الكتاب حديث بريدة. قلت: فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليمان الأسدي مختلف فيه.

(٢) حديث دعاء الدين: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك» أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث علي بن أبي طالب.

(٣) حديث الدعاء إذا لبس ثوباً جديداً: «اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي سعيد الخدري، ورواه ابن السني بلفظ المصنف.

(٤) حديث القول إذا رأى شيئاً من الطيرة يكرهه: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله» أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليلة، والبيهقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلاً ورجاله ثقات، وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبة بن عامر فجعله مسنداً.

(٥) حديث: «التكبير عند رؤية الهلال ـ ثلاثاً ـ ثم يقول: اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله» أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل: «ثلاثاً» ورواه الترمذي وحسنه من حديث طلحة بن عبيدالله دون ذكر التكبير، وللبيهقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلاً: «كان النبي ﷺ إذا رأى الهلال كبر ثلاثاً».

(٦) حديث: «هلال خير ورشد آمنت بخالقك» أخرجه أبو داود مرسلاً من حديث قتادة «أنه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالذي خلقك ـ ثلاث مرات ـ». وأسنده الدارقطني في الأفراد، والطبراني في الأوسط من حديث أنس، وقال أبو داود: وليس في هذا عن النبي ﷺ حديث مسند صحيح.

(٧) حديث: «اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر» أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في مسنديهما من حديث عبادة بن الصامت، وفيه من لم يسم بل قال الراوي عنه: حدثني من لا أتهم.

(٨) حديث: «القول إذا هبت الريح: اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بن كعب.

الغابرين. **اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله»**[(١)]. وتقول عند التصدّق: «﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٢٧] وتقول عند الخسران: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القَلَم: ٣٢] وتقول عند ابتداء الأمور: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ [طٰه: ٢٥، ٢٦] وتقول عند النظر إلى السماء: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمـرَان: ١٩١] ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفُرقان: ٦١] وإذا سمعت صوت الرعد فقل: «**سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**»[(٢)] فإن رأيت الصواعق فقل: «**اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك**»[(٣)]. قاله كعب. فإذا أمطرت السماء فقل: «**اللهم سقياً هنيئاً وصيباً نافعاً**[(٤)] **اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب**»[(٥)]، فإذا غضبت فقل: «**اللهم اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم**»[(٦)]، فإذا خفت قوماً فقل: «**اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم**»[(٧)] فإذا غزوت فقل: «**اللهم أنت عضدي ونصيري وبك أقاتل**»[(٨)]، وإذا طنّت أذنك فصلِّ على محمد ﷺ وقل: «**ذكر الله من ذكرني بخير**»[(٩)]، فإذا رأيت استجابة دعائك فقل: «**الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات**». وإذا أبطأت فقل: «**الحمد لله على كل حال**»[(١٠)]، وإذا سمعت أذان المغرب

---

(١) حديث: «القول إذا بلغه وفاة أحد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ اللهم اكتبه من المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله» أخرجه ابن السني في اليوم والليلة، وابن حبان من حديث أم سلمة: «**إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون**» ولمسلم من حديثها: «**اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونوّر له فيه**».

(٢) حديث: «القول إذا سمع صوت الرعد: **سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته**» أخرجه مالك في الموطأ عن عبدالله بن الزبير موقوفاً ولم أجده مرفوعاً.

(٣) حديث: «القول عند الصواعق: **اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك**» أخرجه الترمذي وقال: غريب، والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن عمر، وابن السني بإسناد حسن.

(٤) حديث: «القول عند المطر: **اللهم سقياً هنيئاً وصيباً نافعاً**» أخرجه البخاري من حديث عائشة: «كان إذا رأى المطر قال: **اللهم اجعله صيباً نافعاً**» وابن ماجه: «سيباً» بالسين أوله، والنسائي في اليوم والليلة: «**اللهم اجعله صيباً هنيئاً**» وإسنادهما صحيح.

(٥) حديث: «**اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب**». أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث سعيد بن المسيب مرسلاً.

(٦) حديث: «القول إذا غضب: **اللهم اغفر ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم**» أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف.

(٧) حديث: «القول إذا خاف قوماً: **اللهم إني أجعلك في نحورهم وأعوذ بك من شرورهم**» أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي موسى بسند صحيح.

(٨) حديث: «القول إذا غزا: **اللهم أنت عضدي ونصيري بك أقاتل**» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث أنس، قال الترمذي: حسن غريب.

(٩) حديث: «القول عند طنين الأذن: **اللهم صلِّ على محمد ذكر الله بخير من ذكرني**» أخرجه الطبراني وابن عدي وابن السني في اليوم والليلة من حديث أبي رافع بسند ضعيف.

(١٠) حديث: «القول إذا رأى استجابة دعائه: **الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**» تقدم في الدعاء.

فقل: «اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي»[(١)] وإذا أصابك همّ فقل: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء غمي وذهاب حزني وهمّي»[(٢)]. قال ﷺ: «ما أَصَابَ أَحَداً حُزْنٌ فَقَالَ ذٰلِكَ إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً» فقيل له: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال ﷺ: «بَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا» وإذا وجدت وجعاً في جسدك أو جسد غيرك فارقه برقية رسول الله ﷺ: «كان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحاً وضع سبابته على الأرض ثم رفعها وقال: بسم الله، تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا»[(٣)] وإذا وجدت وجعاً في جسدك فضع يدك على الذي يتألم من جسدك وقل: «بسم الله ـ ثلاثاً ـ وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[(٤)] فإذا أصابك كرب فقل: «لا إله إلا الله العلي الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السمٰوات السبع ورب العرش الكريم»[(٥)]. فإن أردت النوم فتوضأ أولاً ثم توسد على يمينك مستقبل القبلة ثم «كبّر الله تعالى أربعاً وثلاثين وسبحه ثلاثاً وثلاثين واحمده ثلاثاً وثلاثين»[(٦)]، ثم قل: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك، اللهم إني لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك[(٧)]. اللهم باسمك أحيا وأموت[(٨)]. اللهم رب السمٰوات ورب الأرض ورب كل شيء ومليكه فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء. اقض عني الدين وأغنني من الفقر[(٩)]. اللهم إنك خلقت نفسي وأنت

---

(١) حديث: «القول إذا سمع أذان المغرب: اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي» أخرجه الترمذي وأبو داود وقال: غريب، والحاكم من حديث أم سلمة دون قوله: «وحضور صلواتك» فإنها عند الخرائطي في مكارم الأخلاق، والحسن بن علي المعمري في اليوم والليلة.

(٢) حديث: «القول إذا أصابه هم: اللهم إني عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك...» الحديث. أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه.

(٣) حديث: «رقية رسول الله ﷺ: بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا» متفق عليه من حديث عائشة.

(٤) حديث: «وضع يده على الذي يألم من جسده ويقول: بسم الله ـ ثلاثاً ـ ويقول: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات» أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص.

(٥) حديث: «دعاء الكرب لا إله إلا الله العلي الحليم...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٦) حديث: «التكبير عند النوم أربعاً وثلاثين والتسبيح ثلاثاً وثلاثين والتحميد ثلاثاً وثلاثين» متفق عليه من حديث علي.

(٧) حديث: «القول عند إرادة النوم: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك» أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث علي، وفيه انقطاع.

(٨) حديث: «اللهم باسمك أحيا وأموت» أخرجه البخاري من حديث حذيفة، ومسلم من حديث البراء.

(٩) حديث: «اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء ومليكه فالق الحب والنوى...» الحديث. إلى قوله: «وأغننا من الفقر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

تتوفاها. لك مماتها ومحياها، اللهم إن أمتها فاغفر لها وإن أحييتها فاحفظها. اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة[(١)]. باسمك ربي وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي[(٢)]. اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك[(٣)]. اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت»[(٤)]. ويكون هذا آخر دعائك، فقد أمر رسول الله ﷺ بذلك. وليقل قبل ذلك: «اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستعملني بأحب الأعمال إليك، تقرّبني إليك زلفى وتبعدني من سخطك بعداً، أسألك فتعطيني وأستغفرك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي»[(٥)]، فإذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور[(٦)]. أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله[(٧)]. أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين[(٨)]. اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير[(٩)]. اللهم إني أسألك أن تبعثنا في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً أو نجره إلى مسلم فإنك قلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم

---

(١) حديث: «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها...» الحديث. إلى قوله: «اللهم إني أسألك العافية» أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

(٢) حديث: «باسمك ربي وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي» أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عبدالله بن عمرو بسند جيد، وللشيخين من حديث أبي هريرة: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها» وقال البخاري: «فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

(٣) حديث: «اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك» أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث ابن مسعود، وهو عند أبي داود من حديث حفصة بلفظ: «تبعث»، وكذا رواه الترمذي من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه.

(٤) حديث: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك...» الحديث. متفق عليه من حديث البراء.

(٥) حديث: «اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستعملني في أحب الأعمال إليك تقربني إليك زلفى وتبعدني من سخطك بعداً أسألك فتعطيني وأستغفرك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس: «اللهم ابعثنا في أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفر لنا» وإسناده ضعيف، وهو معروف من قول حبيب الطائي، كما رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء.

(٦) حديث: «القول إذا استيقظ من منامه: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» أخرجه البخاري من حديث حذيفة، ومسلم من حديث البراء.

(٧) حديث: «أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة: «أصبحنا وأصبح الملك والحمد والحول والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالمين» وله في الدعاء من حديث ابن أبي أوفى: «أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيهما لله» وإسنادهما ضعيف، ولمسلم من حديث ابن مسعود: «أصبحنا وأصبح الملك لله».

(٨) حديث: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عبدالرحمن بن أبزى بسند صحيح، ورواه أحمد من حديث ابن أبزى عن أبي بن كعب مرفوعاً.

(٩) حديث: «اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير» أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وحسنه الترمذي إلا أنهم قالوا: «وإليك النشور» ولابن السني: «وإليك المصير».

بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠][(١)]. **اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه**[(٢)] **بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ما شاء الله كل نعمة من الله. ما شاء الله الخير كله بيد الله. ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله**[(٣)]. **رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ـ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير**[(٤)] ـ وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول: «أمسينا»، ويقول مع ذلك: **أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراط مستقيم**[(٥)]. وإذا نظر في المرآة قال: **الحمد لله الذي سوّى خلقي فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين**[(٦)]. وإذا

---

(١) حديث: «**اللهم إنا نسألك أن تبعثنا في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً أو نجره إلى مسلم...**» الحديث. لم أجد أوله، والترمذي من حديث أبي بكر في حديث له: «**وأعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه وأن نقترف على أنفسنا سوءاً أو نجره إلى مسلم**» رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشعري بإسناد جيد.

(٢) حديث: «**اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه**». قلت: هو مركب من حديثين. فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو: **اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً اقض عني الدين وأغنني من الفقر وقوني على الجهاد في سبيلك**» وللدارقطني في الأفراد من حديث البراء: «**نسألك خير هذا اليوم وخير ما بعده ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده**»، وأبو داود من حديث أبي مالك الأشعري: «**اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهداه وبركته، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده**» وسنده جيد، وللحسن بن علي المعمري في اليوم والليلة من حديث ابن مسعود: «**اللهم إني أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده**». والحديث عند مسلم في المساء: «**خير ما في هذه الليلة...**» الحديث. ثم قال: وإذا أصبح قال ذلك أيضاً.

(٣) حديث: «**بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة فمن الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله**» عد في الكامل من حديث ابن عباس، ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ: قال: «**يلتقي الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم بمنى فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات**» فذكره ولم يقل: «**الخير كله بيد الله**» قال موضعها: «**لا يسوق الخير إلا الله**» قال ابن عباس: من قالهن حين يصبح وحين يمسي أمنه الله من الغرق والحرق وأحسبه قال: ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب. أورده في ترجمة الحسين بن رزين قال: ليس بالمعروف وهذا بهذا الإسناد منكر.

(٤) حديث: «**رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً**» تقدم في الباب الأول.

(٥) حديث: «القول عند المساء مثل الصباح إلا أنك تقول: **أمسينا وتقول مع ذلك: أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم**» أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث عبدالرحمن بن عوف: «**من قال حين يصبح: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر من شر ما خلق وبرأ وذرأ اعتصم من شر الثقلين...**» الحديث. وفيه: «**وإن قالهن حين يمسي كان له كذلك حتى يصبح**»، وفيه ابن لهيعة. ولأحمد من حديث عبدالرحمن بن حسن في حديث: «**إن جبريل قال: يا محمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء...**» الحديث. وإسناده جيد، ولمسلم من حديث أبي هريرة في الدعاء عند النوم: «**أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها**»، وللطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء: «**اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة... الخ**» الحديث. وقد تقدم في الباب الثاني.

(٦) حديث: «القول إذا نظر في المرآة: **الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين**» أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن السني في اليوم والليلة من حديث أنس بسند ضعيف.

اشتريت خادماً أو غلاماً أو دابة فخذ بناصيته وقل : **اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه ، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه**[١] . وإذا هنأت بالنكاح فقل : **بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير**[٢] . وإذا قضيت الدين فقل للمقضي له : **بارك الله لك في أهلك ومالك**» إذ قال ﷺ : «**وإنما جَزَاءُ السَّلَفِ الحَمْدُ وَالأَدَاءُ**»[٣] .

فهذه أدعية لا يستغني المريد عن حفظها ، وما سوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها في كتاب الحج والصلاة والطهارة .

فإن قلت : فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟ فاعلم : أن من القضاء رد البلاء بالدعاء . فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة ، كما أن الترس سبب لرد السهم ، والماء سبب لخروج النبات من الأرض . فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان ، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان . وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح ، وقد قال تعالى : ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النّساء : ٧١] وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذر ، فيقال : إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت . بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب ، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج ، والتقدير هو القدر ، والذي قدر الخير قدره بسبب ، والذي قدّر الشر قدر لدفعه سبباً ، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته . ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر ، فإنه يستدعي حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ، ولذلك قال ﷺ : «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»[٤] والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عزّ وجلّ إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمة ، فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض . فالحاجة تحوج إلى الدعاء ، والدعاء يرد القلب إلى الله عزّ وجلّ بالتضرع والاستكانة ، فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات . ولذلك صار البلاء موكلاً بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل ؛ لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عزّ وجلّ ويمنع من نسيانه ، وأما الغنى فسبب للبطر في غالب الأمور ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . فهذا ما أردنا أن نورده من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير . وأما بقية الدعوات في الأكل والسفر وعيادة المريض وغيرها فستأتي في مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان .

نَجَزَ كتاب الأذكار والدعوات بكماله، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأوراد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) حديث : «القول إذا اشترى خادماً أو دابة : **اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه**» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد .

(٢) حديث : «التهنئة بالنكاح : **بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير**» أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة . قال الترمذي : حسن صحيح .

(٣) حديث : «الدعاء لصاحب الدين إذا قضى الله دينه : **بارك الله لك في أهلك ومالك . إنما جزاء السلف الحمد والأداء**» أخرجه النسائي من حديث عبدالله بن أبي ربيعة قال : «استقرض مني النبي ﷺ أربعين ألفاً فجاءه مال فدفعه إلي» قال : فذكره وإسناده حسن .

(٤) حديث : «**الدعاء مخ العبادة**» تقدم في الباب الأول .

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين
وبه اختتام ربع العبادات نفع الله به المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على آلائه حمداً كثيراً، ونذكره ذكراً لا يغادر في القلب استكباراً ولا نفوراً، ونشكره إذ جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً، ونصلي على نبيه الذي بعثه بالحق بشيراً ونذيراً، وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا في عبادة الله غدوة وعشياً وبكرة وأصيلاً، حتى أصبح كل واحد منهم نجماً في الدين هادياً وسراجاً منيراً.

أما بعد: فإن الله تعالى جعل الأرض ذلولاً لعباده لا ليستقروا في مناكبها بل ليتخذوها منزلاً فيتزودوا منها زاداً يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم، ويكتنزون منها تحفاً لنفوسهم عملاً وفضلاً محترزين من مصائدها ومعاطبها، ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها. فالناس في هذا العالم سفر، وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار. والعمرة مسافة السفر؛ فسنوه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم. فالغافل في نفس من أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقرّبه إلى الله زلفى متعرض في يوم التغابن لغبينة وحسرة ما لها منتهى، ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الجدّ، وودعوا بالكلية ملاذ النفس، واغتنموا بقايا العمر، ورتبوا بحسب تكرر الأوقات وظائف الأوراد حرصاً على إحياء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار، والسعي إلى دار القرار. فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات، ويتضح هذا المهم بذكر بابين:

الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار.

الباب الثاني: في كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به.

* * *

الباب الأول

في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى:

اعلم: أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالى وعارفاً بالله سبحانه، وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله. وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة، وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار. والنفس لما جبلت عليه من السآمة والملال لا تصبر على فنّ واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر، بل إذا ردت إلى نمط أظهرت الملال والاستثقال وأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا، فمن ضرورة اللطف بها أن تروّح بالتنقل من فنّ إلى فن، ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت؛ لتغزر بالانتقال لذتها، وتعظم باللذة رغبتها، وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها. فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة، فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها، فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا. فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلاً، والشطر الآخر إلى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساوياً فأنى يتقاومان والطبع لأحدهما مرجح؛ إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو في طلبهما القلب ويتجرد. وأما الرد إلى العبادات فمتكلف ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات، فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة، ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته، فإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فأمره مخطر، ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر، فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه.

فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة، فإن لم تكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبسه بنور الإيمان، فقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ [المزمل: ٧، ٨] وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٣٩، ٤٠] وقال سبحانه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور: ٤٨-٤٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٦] وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠] وقال عز وجلّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]. ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩] وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝٦٤﴾ [الفرقان: ٦٤] وقال عزّ وجلّ: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] وقال عزّ وجلّ:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الرُّوم: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعَام: ٥٢] فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام. ولذلك قال ﷺ: «**أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالأَظِلَّةَ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى**»(١) وقد قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٥] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفُرقان: ٤٥، ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعَام: ٩٧] فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب، ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا، بل لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفُرقان: ٦٢] أي: يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر، وبين أن ذلك للذكر والشكر لا غير. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسرَاء: ١٢] وإنما الفضل المبتغى هو الثواب والمغفرة، ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه.

بيان أعداد الأوراد وترتيبها:

اعلم: أن أوراد النهار سبعة: فما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال وردان، وما بين الزوال إلى وقت العصر وردان، وما بين العصر إلى المغرب وردان. والليل ينقسم إلى أربعة أوراد: وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر. فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به.

فالورد الأوّل: ما بين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التّكوير: ١٨] وتمدحه به إذ قال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعَام: ٩٦] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفَلَق: ١] وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفُرقان: ٤٦] وهو وقت قبض ظل الليل ببسط نور الشمس، وإرشاده الناس إلى التسبيح فيه بقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الرُّوم: ١٧] وبقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسَان: ٢٥].

فأما ترتيبه:س فليأخذ من وقت انتباهه من النوم، فإذا انتبه فينبغي أن يبتدىء بذكر الله تعالى فيقول: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور... إلى آخر الأدعية، والآيات التي ذكرناها في

كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل

الباب الأوّل: في فضيلة الأوراد

(١) حديث: «أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله» أخرجه الطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن أبي أوفى بلفظ: «خيار عباد الله».

دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات، وليلبس ثوبه وهو في الدعاء وينوي به ستر عورته؛ امتثالاً لأمر الله تعالى واستعانة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة، ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء، ويدخل أوّلاً رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التي ذكرناها فيه في كتاب الطهارة عند الدخول والخروج. ثم يستاك على السنّة ـ كما سبق ـ ويتوضأ مراعياً لجميع السنن والأدعية التي ذكرناها في الطهارة فإنا إنما قدمنا آحاد العبادات لكي نذكر في هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط. فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتي الفجر؛ أعني السنّة في منزله[١]، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ، ويقرأ بعد الركعتين سواء أداهما في البيت أو المسجد الدعاء الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ويقول: «**اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي إلى آخر الدعاء...**»[٢]، ثم يخرج من البيت متوجهاً إلى المسجد، ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسعى إلى الصلاة سعياً، بل يمشي وعليه السكينة والوقار[٣]، كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه. ويدخل المسجد ويقدّم رجله اليمنى ويدعو بالدعاء المأثور لدخول المسجد[٤]، ثم يطلب من المسجد الصف الأوّل إن وجد متسعاً ولا يتخطى رقاب الناس ولا يزاحم ـ كما سبق ذكره في كتاب الجمعة ـ ثم يصلي ركعتي الفجر إن لم يكن صلاهما في البيت ويشتغل بالدعاء المذكور بعدهما، وإن كان قد صلى ركعتي الفجر صلى ركعتي التحية وجلس منتظراً للجماعة. والأحب التغليس بالجماعة، فقد كان ﷺ يغلس بالصبح[٥]، ولا ينبغي أن يدع الجماعة في الصلاة عامة وفي الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل. فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال في صلاة الصبح: «**مَنْ تَوَضَّأَ ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لِيُصَلِّيَ فِيهِ الصَّلاةَ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةٌ وَمُحِيَ عَنْهُ سَيِّئَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، فَإِذَا صَلَّىٰ ثُمَّ انْصَرَفَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِهِ حَسَنَةٌ وَانْقَلَبَ بِحَجَّةٍ مَبْرُورَةٍ، فَإِنْ جَلَسَ حَتَّىٰ يَرْكَعَ الضُّحَىٰ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ رَكْعَةٍ أَلْفَا أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَنْ صَلَّىٰ الْعَتَمَةَ فَلَهُ مِثْلُ ذٰلِكَ وَانْقَلَبَ بِعُمْرَةٍ مَبْرُورَةٍ**»[٦]، وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر. قال رجل من التابعين: دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فلقيت أبا هريرة قد سبقني فقال لي: يا ابن أخي لأي شيء خرجت من منزلك في هذه الساعة؟ فقلت: لصلاة الغداة فقال: أبشر فإنا كنا نعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله تعالى[٧]. أو

---

(١) حديث: «صلاة ركعتي الصبح في المنزل» متفق عليه من حديث حفصة.

(٢) حديث: «الدعاء بعد ركعتي الصبح: **اللهم إني أسألك رحمة من عندك...**» الحديث. تقدم.

(٣) حديث: «المشي إلى الصلاة وعليه السكينة» متفق عليه من حديث حفصة.

(٤) حديث: «الدعاء المأثور لدخول المسجد» تقدم في الباب الخامس من الأذكار.

(٥) حديث: «التغليس في الصبح» متفق عليه من حديث عائشة.

(٦) حديث أنس في صلاة الصبح: «**من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحي عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها، وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة، فإن جلس حتى يركع كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة، ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة**» لم أجد له أصلاً بهذا السياق، وفي شعب الإيمان للبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف: «**ومن صلى المغرب في جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة متقبلة**».

(٧) حديث أبي هريرة «كنا نعد خروجنا وقعودنا في المجلس في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله» لم أقف له على أصل.

قال: ـ مع رسول الله ﷺ ـ وعن علي رضي الله عنه: «أنّ النبي ﷺ طرقه وفاطمة رضي الله عنهما وهما نائمان فقال: **«ألا تصليان؟»** قال علي: فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثها بعثها، فانصرف ﷺ فسمعته وهو منصرف يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]»(١). ثم ينبغي أن يشتغل بعد ركعتي الفجر ودعائه بالاستغفار والتسبيح إلى أن تقام الصلاة فيقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه سبعين مرة، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة، ثم يصلي الفريضة مراعياً جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة في الصلاة والقدوة. فإذا فرغ منها قعد في المسجد إلى طلوع الشمس في ذكر الله تعالى ـ كما سنرتبه ـ فقد قال ﷺ: **«لأَنْ أَقْعُدَ فِي مَجْلِسِي أَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَىٰ فِيهِ مِنْ صَلاةِ الغَدَاةِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَ رِقابٍ»**(٢). وروي: «أنه ﷺ كان إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس ـ وفي بعضها ـ ويصلي ركعتين»(٣). أي بعد الطلوع. وقد ورد في فضل ذلك ما لا يحصى. وروى الحسن: «أن رسول الله ﷺ كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول: إنه قال: **«يا ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي بَعْدَ صَلاةِ الفَجْرِ سَاعَةً وَبَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ سَاعَةً أَكْفِكَ ما بَيْنَهُمَا»**(٤)، وإذا ظهر فضل ذلك فليقعد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس، بل ينبغي أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع: أدعية وأذكار ويكررها في سبحة، وقراءة قرآن وتفكر.

أما الأدعية: فكلما يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وسلم. اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»، ثم يفتتح الدعاء بما كان يفتتح به رسول الله ﷺ وهو قوله: **«سُبْحَانَ رَبِّيَ العَلِيِّ الأَعْلَىٰ الوَهَّابِ، لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ أَهْلُ النِّعْمَةِ وَالفَضْلِ وَالثَّنَاءِ الحَسَنِ. لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَلا نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ»**(٥)، ثم يبدأ بالأدعية التي أوردناها في الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملتها ما يراه أوفق بحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه.

وأما الأذكار المكررة: فهي كلمات ورد في تكرارها فضائل لم نطوّل بإيرادها، وأقل ما ينبغي أن

---

(١) حديث علي: «أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة وهما نائمان فقال: **«ألا تصليان؟»** قال علي: فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله. . .» الحديث. متفق عليه.

(٢) حديث: **«لأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب»** أخرجه أبو داود من حديث أنس، وتقدم في الباب الثالث من العلم.

(٣) حديث: «كان إذا صلى الغداة قعد في مُصَلاّه حتى تطلع الشمس ـ وفي بعضها ـ ويصلي ركعتين» أي بعد الطلوع. أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون ذكر الركعتين، والترمذي من حديث أنس وحسنه: **«من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة»**.

(٤) حديث الحسن: «أن رسول الله ﷺ كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال: **يا ابن آدم اذكرني من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما**» أخرجه ابن المبارك في الزهد هكذا مرسلاً.

(٥) حديث: «كان يفتتح الدعاء بسبحان ربي العلي الأعلى الوهاب» تقدم.

يكرّر كل واحد منها ثلاثاً أو سبعاً وأكثره مائة أو سبعون وأوسطه عشر، فليكرّرها بقدر فراغه وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر، والأوسط الأقصد أن يكرّرها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه، وخير الأمور أدومها وإن قلّ. وكل وظيفة لا يمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشدّ تأثيراً في القلب من كثيرها مع الفترة. ومثال القليل الدائم: كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالي فتحدث فيها حفيرة ولو وقع ذلك على الحجر. ومثال الكثير المتفرّق: ماء يصب دفعة أو دفعات متفرّقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر. وهذه الكلمات عشرة:

الأولى: قوله: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير**»(١).

الثانية: قوله: «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم**»(٢).

الثالثة: قوله: «**سبوح قدوس رب الملائكة والرّوح**»(٣).

الرابعة: قوله: «**سبحان الله العظيم وبحمده**»(٤).

الخامسة: قوله: «**أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة**»(٥).

السادسة: قوله: «**اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ**»(٦).

---

(١) حديث: «الفضل في تكرار: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير**» تقدم من حديث أبي أيوب تكرارها عشراً دون قوله: «**يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير**» فإنها في اليوم والليلة للنسائي من حديث أبي ذر دون قوله: «**وهو حي لا يموت**» وهي كلها عند البزار من حديث عبدالرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء، وتقدم تكرارها مائة ومائتين، وللطبراني الدعاء من حديث عبدالله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: «الفضل في تكرار: **سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله**» أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري: «**استكثروا من الباقيات الصالحات**» فذكرها.

(٣) حديث: «تكرار: **سبوح قدوس رب الملائكة والروح**». لم أجد ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة: «أنه ﷺ كان يقولها في ركوعه وسجوده» وقد تقدم. ولأبي الشيخ في الثواب من حديث البراء: «أكثر من أن تقول: **سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح**».

(٤) حديث: «تكرار: **سبحان الله وبحمده**» متفق عليه من حديث أبي هريرة: «**من قال ذلك في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**».

(٥) حديث: «تكرار: **أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة**» أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث معاذ: «**أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات كفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر**» ولفظه: «**وأتوب إليه**» وفيه ضعف، وهكذا رواه الترمذي في حديث أبي سعيد في قولها: «**ثلاثاً**» وللبخاري من حديث أبي هريرة: «**إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» ولم يقل الطبراني «**أكثر**» ولمسلم من حديث الأعرابي: «**لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة**» تقدمت هذه الأحاديث في الباب الثاني من الأذكار.

(٦) حديث: «تكرار: **اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»، لم أجد تكرارها في حديث وإنما وردت مطلقة عقب الصلوات وفي الرفع من الركوع.

السابعة: قوله: «**لا إله إلا الله الملك الحق المبين**»(١).

الثامنة: قوله: «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**»(٢).

التاسعة: «**اللهم صلِّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم**»(٣).

العاشرة: قوله: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون**»(٤). فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة، فهو أفضل من أن يكرر ذكراً واحداً مائة مرة؛ لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلاً على حياله، وللقلب بكل واحد نوع تنبه وتلذذ، وللنفس في الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل.

فأما القراءة: فيستحب له قراءة جملة من الآيات وردت الأخبار بفضلها: وهو أن يقرأ سورة الحمد(٥)،

---

(١) حديث: «تكرار: **لا إله إلا الله الملك الحق المبين**» أخرجه المستغفري في الدعوات، والخطيب في الرواة عن مالك من حديث علي: «**من قالها في يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجلب به الغنى واستقرع باب الجنة**»، وفيه الفضل بن غانم ضعيف، ولأبي نعيم في الحلية: «**من قال ذلك في كل يوم وليلة مائتي مرة لم يسأل الله فيهما حاجة إلا قضاها**» وفيه سليم الخواص ضعيف، وقال فيه: أظنه عن علي.

(٢) حديث: «تكرار: **بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**» أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان: «**من قال ذلك ثلاث مرات حين يمسي لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي**» قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٣) حديث: «تكرار: **اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد**» ذكره أبو القاسم محمد بن عبدالواحد الغافقي في فضائل القرآن من حديث ابن أبي أوفى: «**من أراد أن يموت في السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات**» فذكره وهو منكر.

قلت: ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعبير لهذه الصيغة. رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء بلفظ: «**من صلّى عليّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة**» وفيه انقطاع.

(٤) حديث: «تكرار: **أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون**» أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكّل الله به سبعين ألف ملك..**» الحديث. «**ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة**» وقال: حسن غريب، ولابن أبي الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله: «**من قالها حين يصبح عشر مرات أجير من الشيطان إلى الصبح...**» الحديث. ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة: «**ألا أعلمك يا خالد كلمات تقولها ثلاث مرات؟ قل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون**» والحديث عند أبي داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه فيما يقال عند الفزع، دون تكرارها ثلاثاً من حديث عبدالله بن عمرو.

(٥) حديث: «فضل سورة الحمد» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنها أعظم السور في القرآن، ومسلم من حديث ابن عباس: «في الملك الذي نزل إلى الأرض وقال للنبي ﷺ: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته».

وآية الكرسي[١]، وخاتمة البقرة[٢]. من قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥] و ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ١٨][٣] و ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦] الآيتين[٤]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبَة: ١٢٨] إلى آخرها[٥] وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفَتْح: ٢٧] إلى آخرها[٦] وقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسرَاء: ١١١][٧] الآية، وخمس آيات من أول الحديد[٨]، وثلاثاً من آخر سورة الحشر[٩]، وإن قرأ المسبعات العشر التي أهداها الخضر عليه السلام

---

(١) حديث: «فضل آية الكرسي» أخرجه مسلم من حديث أبي بن كعب: «**يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟** قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم...» الحديث. والبخاري من حديث أبي هريرة في توكيله بحفظ تمر الصدقة ومجيء الشيطان إليه وقوله: «**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ...**» الحديث. وفيه: «فقال رسول الله ﷺ: **أما إنه قد صدقك وهو كذوب**».

(٢) حديث: «فضل خاتمة البقرة» متفق عليه من حديث أبي مسعود: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**» وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث.

(٣) حديث: «فضل شهد الله» أخرجه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب الثواب من حديث ابن مسعود: «**من قرأ شهد الله - إلى قوله - الإسلام ثم قال: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عنده وديعة جيء به يوم القيامة فقيل له: عبدي هذا عهد إلي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة**» وفيه عمر بن المختار روى الأباطيل، قاله ابن عدي، وسيأتي حديث علي بعده.

(٤) حديث: «فضل: قل اللهم مالك الملك الآيتين» أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث علي: «أن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله: الإسلام، وقل اللهم مالك الملك إلى قوله: بغير حساب معلقات ما بينهن وبين الله حجاب..» الحديث. وفيه: «**فقال الله: لا يقرأكن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه...**» الحديث. وفيه الحارث بن عمير وفي ترجمته ذكره ابن حبان في الضعفاء وقال: موضوع لا أصل له، والحارث يروي عن الأثبات الموضوعات. قلت: وثقه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي وروى له البخاري تعليقاً.

(٥) حديث: «فضل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبَة: ١٢٨] إلى آخرها» أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف: «علمني رسول الله ﷺ ما أحترز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عنيد» فذكر حديثاً وفي آخره: «**فقل حسبي الله إلى آخر السورة**» وذكره أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن في رغائب القرآن لعبدالملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار: «أن رسول الله ﷺ قال: **من لزم قراءة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾... إلى آخر السورة لم يمت هدماً ولا غرقاً ولا حرقاً ولا ضرباً بحديدة**» وهو ضعيف.

(٦) حديث: «**فضل: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾** [الفَتْح: ٢٧] لم أجد فيه حديثاً يخصها، لكن في فضل سورة الفتح ما رواه أبو الشيخ في كتاب من حديث أبي بن كعب: «**من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبي ﷺ**» وهو حديث موضوع.

(٧) حديث: «فضل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسرَاء: ١١١].. الآية» أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بن أنس: «**آية العز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾** [الإسرَاء: ١١١]...» الآية كلها، وإسناده ضعيف.

(٨) حديث: «فضل: خمس آيات من أول الحديد» ذكر أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن من حديث علي: «**إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقرأ خمس آيات من أول سورة الحديد إلى قوله - عليم بذات الصدور - ومن آخر سورة الحشر من قوله - لو أنزلنا هذا القرآن على جبل - إلى آخر السورة ثم تقول: يا من هو كذا افعل بي كذا وتدعو بما تريد**».

(٩) حديث: «فضل: ثلاث آيات من آخر سورة الحشر» أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا وللبيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف: «**من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته فقد أوجب الله له الجنة**».

إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية، فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة. فقد روي عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال: أتاني أخ لي من أهل الشام فأهدى لي هدية وقال: يا كرز اقبل مني هذه الهدية فإنها نعمت الهدية، فقلت: يا أخي ومن أهدى لك هذه الهدية؟ قال: أعطانيها إبراهيم التيمي، قلت: أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها؟ قال: كنت جالساً في فناء الكعبة وأنا في التهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد، فجاءني رجل فسلم عليَّ وجلس عن يميني فلم أر في زماني أحسن منه وجهاً ولا أحسن منه ثياباً ولا أشد بياضاً ولا أطيب ريحاً منه، فقلت: يا عبدالله من أنت ومن أين جئت؟ فقال: أنا الخضر، فقلت: في أي شيء جئتني؟ فقال: جئتك للسلام عليك وحباً لك في الله، وعندي هدية أريد أن أهديها لك، فقلت: ما هي؟ قال: أن تقول قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل الغروب سورة الحمد، وقل أعوذ برب الناس، وقل أعوذ برب الفلق، وقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي كل واحدة سبع مرات وتقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعاً، وتصلي على النبي ﷺ سبعاً، وتستغفر لنفسك ولوالديك وللمؤمنين والمؤمنات سبعاً وتقول: اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل، إنك غفور حليم جواد كريم رؤوف رحيم سبع مرات، وانظر أن لا تدع ذلك غدوة وعشية. فقلت: أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة؟ فقال: أعطانيها محمد ﷺ[1]. فقلت: أخبرني بثواب ذلك؟ فقال: إذا لقيت محمداً ﷺ فاسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك، فذكر إبراهيم التيمي: أنه رأى ذات يوم في منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة، فرأى ما فيها ووصف أموراً عظيمة مما رآه في الجنة. قال: فسألت الملائكة فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: للذي يعمل مثل عملك، وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال: فأتاني النبي ﷺ ومعه سبعون نبياً وسبعون صفاً من الملائكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب فسلم عليَّ وأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله، الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث فقال: «**صدق الخضر صدق الخضر**»، وكل ما يحكيه فهو حق، وهو عالم أهل الأرض، وهو رئيس الأبدال، وهو من جنود الله تعالى في الأرض. فقلت: يا رسول الله، فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامي هل يعطى شيئاً مما أعطيته؟ فقال: والذي بعثني بالحق نبياً؛ إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرني ولم ير الجنة، إنه ليغفر له جميع الكبائر التي عملها، ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته، ويأمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة، والذي بعثني بالحق نبياً ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيداً ولا يتركه إلا من خلقه الله شقياً. وكان إبراهيم التيمي يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب، فلعله كان بعد هذه الرؤيا. فهذه وظيفة القراءة. فإن أضاف إليها شيئاً مما انتهى إليه ورده من القرآن أو اقتصر عليه فهو حسن؛ فإن القرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه في باب التلاوة.

وأما الأفكار: فليكن ذلك إحدى وظائفه ـ وسيأتي تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته في كتاب التفكر من ربع المنجيات ـ ولكن مجامعه ترجع إلى فنين:

---

(١) حديث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمي: «أن الخضر علمه المسبعات العشرة» وقال في آخرها: «أعطانيها محمد ﷺ»، ليس له أصل، ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي ﷺ ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته.

أحدهما: أن يتفكر فيما ينفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره، ويرتب وظائفه في يومه الذي بين يديه، ويدبر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير، ويتذكر تقصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ليصلحه، ويحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملته للمسلمين.

والفنّ الثاني: فيما ينفعه في علم المكاشفة. وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى وتواتر آلاته الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها، أو في عقوباته ونقماته لتزيد معرفته بقدرة الإله واستغنائه ويزيد خوفه منها. ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكر فيها على بعض الخلق دون البعض، وإنما نستقصي ذلك في كتاب التفكر. ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات؛ إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين، **أحدهما**: زيادة المعرفة؛ إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف. **والثاني**: زيادة المحبة؛ إذ لا يحب القلوب إلا من اعتقد تعظيمه، ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وعجائب أفعاله. فيحصل من الفكر المعرفة، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة. والذكر أيضاً يورث الأنس وهو نوع من المحبة، ولكن المحبة التي سببها المعرفة أقوى وأثبت وأعظم. ونسبة محبة العارف إلى أنس الذاكر من غير تمام الاستبصار كنسبة عشق من شاهد جمال شخص بالعين، واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرر على سمعه وصف شخص غائب عن عينه بالحسن في الخلق والخلق مطلقاً من غير تفصيل وجوه الحسن فيهما، فليس محبته له كمحبة المشاهد، وليس الخبر كالمعاينة.

فالعباد المواظبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدي ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جميلة اعتقدوها بتصديق من وصفها لهم. والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر، لأن أحداً لم يحط بكنه جلاله وجماله، فإن ذلك غير مقدور لأحد من الخلق، ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها. وإنما عدد حجبها التي استحقت أن تسمى نوراً وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجاباً. قال ﷺ: «**إِنَّ لِلّٰهِ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ ما أَدْرَكَ بَصَرُهُ**»[1]، وتلك الحجب أيضاً مترتبة وتلك الأنوار متفاوتة في الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب، ويبدو في الأول أصغرها ثم ما يليه، وعليه أوّل بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل ﷺ في ترقيه وقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] أي أظلم عليه الأمر ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] أي وصل إلى حجاب من حجب النور فعبر عنه بالكوكب، وما أريد به هذه الأجسام المضيئة، فإن آحاد العوام لا يخفى عليهم أن الربوبية لا تليق بالأجسام، بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم، فما لا يضلل العوام لا يضلل الخليل عليه السلام. والحجب المسماة أنواراً ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر، بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النّور: ٣٥] الآية. ولنتجاوز هذه المعاني فإنها خارجة عن علم المعاملة، ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي وقل من ينفتح له بابه، والمتيسر على جماهير الخلائق الفكر فيما يفيد في علم المعاملة، وذلك أيضاً مما تغزر فائدته ويعظم نفعه.

---

(١) حديث: «إن لله سبعين حجاباً من نور. . .» الحديث. تقدم في قواعد العقائد.

فهذه الوظائف الأربعة ـ أعني: الدعاء والذكر والقراءة والفكر ـ ينبغي أن تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح، بل في كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة، فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع، ويقوّي على ذلك بأن يأخذ سلاحه ومجنته، والصوم هو الجنة التي تضيق مجاري الشيطان المعادي الصارف له عن سبيل الرشاد. وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتي الفجر، وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يشتغلون في هذا الوقت بالأذكار(١)، وهو الأولى إلى أن يغلبه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به.

الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار، وأعني بالضحوة: منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال، وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار؛ إذ فرض النهار اثنتي عشرة ساعة وهو الربع. وفي هذا الربع من النهار وظيفتان زائدتان:

إحداهما: صلاة الضحى ـ وقد ذكرناها في كتاب الصلاة ـ وأن الأولى أن يصلي ركعتين عند الإشراق وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف رمح، ويصلي أربعاً أو ستاً أو ثمانياً إذا رمضت الفصال وضحيت الأقدام بحرّ الشمس. فوقت الركعتين هو الذي أراد الله تعالى بقوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] فإنه وقت إشراق الشمس؛ وهو ظهور تمام نورها بارتفاعها عن موازاة البخارات والغبارات التي على وجه الأرض، فإنها تمنع إشراقها التام. ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذي أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾ [الضحى: ١، ٢]. وخرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته: «**أَلاَ إِنَّ صَلاَةَ الأَوَّابِينَ إِذَا رَمِضَتِ الفِصَالُ**»(٢)، فلذلك نقول: إذا كان يقتصر على مرة واحدة في الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى، وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفي وقتي الكراهة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطلوع نصف رمح بالتقريب إلى ما قبل الزوال في ساعة الاستواء. واسم الضحى ينطلق على الكل، وكأن ركعتي الإشراق تقع في مبتدأ وقت الإذن في الصلاة وانقضاء الكراهة إذ قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ وَمَعَهَا قَرْنُ الشَّيطَانِ فَإِذَا ارْتَفَعَتْ فَارَقَهَا**»(٣). فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا يراعى بالتقريب.

الوظيفة الثانية: في هذا الوقت: الخيرات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادات بكرة من عيادة مريض، وتشييع جنازة، ومعاونة على بر وتقوى، وحضور مجلس علم، وما يجري مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها. فإن لم يكن شيء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع ـ التي قدّمناها من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلوات ـ المتطوّع بها إن شاء، فإنها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن. فتصير الصلاة قسماً خامساً من جملة وظائف هذا الوقت لمن أراده، أما بعد فريضة

(١) حديث: «اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس» تقدم حديث جابر بن سمرة عند مسلم في جلوسه ﷺ إذا صلى الفجر في مجلسه حتى تطلع الشمس، وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وإنما هو من قوله عما تقدم من حديث أنس.

(٢) حديث: «خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته: **ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال**» أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم دون قوله: «فنادى بأعلى صوته»، وهو عند مسلم دون ذكر الإشراق.

(٣) حديث: «**إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها**»، تقدم في الصلاة.

الصبح فتكره كل صلاة لا سبب لها. وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتي الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة، بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفكر.

الورد الثالث: من ضحوة النهار إلى الزوال، ونعني بالضحوة المنتصف وما قبله بقليل، وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة، فإذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها وقبل مضيها صلاة الضحى. فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر. فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر. فإذا مضت ثلاث أخرى فالمغرب. ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كمنزلة العصر بين الزوال والغروب، إلا أن الضحى لم تفرض لأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم فخفف عنهم.

الوظيفة الرابعة: في هذا الوقت الأقسام الأربعة، وزيد أمران:

أحدهما: الاشتغال بالكسب وتدبير المعيشة وحضور السوق، فإن كان تاجراً فينبغي أن يتجر بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صناعة فبنصح وشفقة، ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله، ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب في كل يوم لقوته. فإذا حصل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليتزوّد لآخرته، فإن الحاجة إلى زاد الآخرة أشدّ والتمتع به أدوم، فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت. فقد قيل: لا يوجد المؤمن إلا في ثلاث مواطن: مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لا بدّ منها. وقل من يعرف القدر فيما لا بدّ منه، بل أكثر الناس يقدّرون فيما عنه بدّ أنه لا بدّ لهم منه، وذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه ويجمعون ما لا يأكلون خيفة الفقر، والله يعدهم مغفرة منه وفضلاً فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه.

الأمر الثاني: القيلولة؛ وهي سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن التسحر سنّة يستعان به على صيام النهار. فإن كان لا يقوم بالليل لكن لو لم ينم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدّث معهم، فالنوم أحب له إذا كان لا ينبعث نشاطه للرجوع إلى الأذكار والوظائف المذكورة؛ إذ في النوم الصمت والسلامة، وقد قال بعضهم: يأتي على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم. وكم من عابد أحسن أحواله النوم، وذلك إذا كان يرائي بعبادته ولا يخلص فيها. فكيف بالغافل الفاسق؟ قال سفيان الثوري رحمه الله: كان يعجبهم إذا تفرّغوا أن يناموا طلباً للسلامة، فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة. ولكن ينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة، فإن ذلك من فضائل الأعمال، وإن لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار؛ لأنه وقت غفلة الناس عن الله عزّ وجلّ واشتغالهم بهموم الدنيا، فالقلب المتفرّغ لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه جدير بأن يزكيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته. وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فإن الليل وقت الغفلة بالنوم، وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا، وأحد معنيي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢] أي يخلف أحدهما الآخر في الفضل والثاني: أنه يخلفه فيتدارك فيه ما فات في أحدهما.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر وراتبته، وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها. فإذا كان قد توضأ قبل الزوال وحضر المسجد فمهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه، ثم ليقم إلى إحياء ما بين الأذان والإقامة فهو وقت الإظهار الذي أراده الله تعالى

بقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الرُّوم: ١٨] وليصلّ في هذا الوقت أربع ركعات لا يفصل بينهن بتسليمة واحدة[1]، وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصليها بتسليمة واحدة، ولكن طعن في تلك الرواية، ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يصلي مثنى مثنى كسائر النوافل ويفصل بتسليمة[2]، وهو الذي صحت به الأخبار، وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه في باب صلاة التطوّع، وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المئين أو أربعاً من المثاني، فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء. وأحب رسول الله ﷺ أن يرتفع له فيها عمل، ثم يصلي الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة ـ كما سبق ـ أو قصيرة لا ينبغي أن يدعها. ثم ليصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعاً، فقد كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها من غير فاصل. ويستحب أن يقرأ في هذه النافلة آية الكرسي وآخر سورة البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول؛ ليكون ذلك جامعاً له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر، ويستحب فيه العكوف في المسجد مشتغلاً بالذكر والصلاة أو فنون الخير، ويكون في انتظار الصلاة معتكفاً. فمن فضائل الأعمال: انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف، كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دوياً كدوي النحل من التلاوة. فإن كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه، فالبيت أفضل في حقه، فإحياء هذا الورد وهو أيضاً وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث في الفضل. وفي هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال؛ إذ يكره نومتان بالنهار. قال بعض العلماء: ثلاث يمقت الله عليها: الضحك بغير عجب، والأكل من غير جوع، والنوم بالنهار من غير سهر بالليل. والحد من النوم: أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال في نومه ثمان ساعات في الليل والنهار جميعاً، فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار، فحسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة. ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث، ولكن لما كان النوم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان وكما أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه. وقدر الاعتدال هذا، والنقصان منه ربما يفضي إلى اضطراب البدن، إلا من يتعود السهر تدريجاً فقد يمرّن نفسه عليه من غير اضطراب. وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتعها للعباد، وهو أحد الآصال التي ذكرها الله تعالى إذ قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرّعد: ١٥] وإذا سجد لله عزّ وجلّ الجمادات، فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات؟

الورد السادس: إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس، وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ [العَصر: ١] هذا أحد معنيي الآية، وهو المراد بالآصال في أحد التفسيرين وهو العشي المذكور في قوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ [الرُّوم: ١٨] وفي قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة ـ كما سبق في الظهر ـ ثم يصلي الفرض ويشتغل

---

(١) حديث: «صلاة أربع بعد الزوال بتسليمة واحدة» وفيه: «**أنها فيها تفتح أبواب السماء، وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء فأحب أن يرفع لي فيها عمل صالح**». أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أيوب، وقد تقدم في الصلاة في الباب السادس.

(٢) حديث: «**صلاة الليل والنهار مثنى مثنى**» أخرجه أبو داود وابن حبان من حديث ابن عمر.

بالأقسام الأربعة المذكورة في الورد الأوّل إلى أن ترتفع الشمس إلى رؤوس الحيطان وتصفر. والأفضل فيه إذ منع عن الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتفهم؛ إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر، فيندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة.

الورد السابع: إذا اصفرّت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطي نورها العبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صفرة في ضوئها دخل وقت هذا الورد، وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الرُّوم: ١٧] وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] قال الحسن: كانوا أشد تعظيماً للعشي منهم لأول النهار. وقال بعض السلف: كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة. فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول مثل أن يقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥] والاستغفار على الأسماء التي في القرآن أحب كقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نُوح: ١٠]، ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النّصر: ٣] ﴿رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨] ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩] ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس: والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، والمعوذتين. ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار، فإذا سمع الأذان قال: اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك ـ كما سبق ـ ثم يجيب المؤذن ويشتغل بصلاة المغرب. وبالغروب قد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه، فقد انقضى من طريقه مرحلة، فإن ساوى يومه أمسه فيكون مغبوناً، وإن كان شراً منه فيكون ملعوناً، فقد قال ﷺ: **«لا بُورِكَ لِي فِي يَوْمٍ لا أَزْدَادُ فِيهِ خَيراً»**[1] فإن رأى نفسه متوفراً على الخير جميع نهاره مترفهاً عن التجشم كانت بشارة، فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه، وإن تكن الأخرى فالليل خلفه النهار فليعزم على تلافي ما سبق من تفريطه؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات. وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك تقصيره، وليحضر في قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع، وعند ذلك يغلق باب التدارك والاعتذار، فليس العمر إلا أياماً معدودة تنقضي لا محالة جملتها بانقضاء آحادها.

بيان أوراد الليل وهي خمسة:

الأول: إذا غربت الشمس صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين، فآخر هذا الورد عند غيبوبة الشفق؛ أعني الحمرة التي بغيبوبتها يدخل وقت العتمة، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ [الانشقاق: ١٦] والصلاة فيه هي ناشئة الليل؛ لأنه أوّل نشوء ساعاته، وهو آن من الآناء المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠] وهي صلاة الأوابين.

(١) حديث: «لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً». تقدم في العلم في الباب الأول، إلاّ أنه قال: «علماً» بدل: «خيراً».

وهي المراد بقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدَة: ١٦] روي ذلك عن الحسن وأسنده ابن أبي زياد إلى رسول الله ﷺ: أنه سئل عن هذه الآية فقال ﷺ: **«الصَّلاةُ بَيْنَ العِشاءَيْنِ»**، ثم قال ﷺ: **«عَلَيْكُمْ بِالصَّلاةِ بَيْنَ العِشاءَيْنِ فَإِنَّها تَذْهَبُ بِمُلاغَاتِ النَّهَارِ وَتُهَذِّبُ آخِرَهُ»**[١]، والملاغات: جمع ملغاة من اللغو. وسئل أنس رحمه الله عمن ينام بين العشاءين فقال: لا تفعل فإنها الساعة المعنية بقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدَة: ١٦] وسيأتي فضل إحياء ما بين العشاءين في الباب الثاني. وترتيب هذا الورد: أن يصلي بعد المغرب ركعتين أوّلاً يقرأ فيهما: قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل، ثم يصلي أربعاً يطيلها، ثم يصلي إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له، وإن كان المسجد قريباً من المنزل فلا بأس أن يصليها في بيته إن لم يكن عزمه العكوف في المسجد، وإن عزم على العكوف في انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان آمناً من التصنع والرياء.

الورد الثاني: يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حدّ نومة الناس وهو أول استحكام الظلام، وقد أقسم الله تعالى به إذ قال: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ [الانشقاق: ١٧] أي: وما جمع من ظلمته، وقال: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسرَاء: ٧٨] فهناك يغسق الليل وتستوسق ظلمته. وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور:

الأول: أن يصلي سوى فرض العشاء عشر ركعات أربعاً قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين، وستاً بعد الفرض، ركعتين ثم أربعاً، ويقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها.

والثاني: أن يصلي ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر، فإنه أكثر ما روي أن النبي ﷺ صلى بها من الليل[٢]. والأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقوياء من آخره. والحزم التقديم فإنه ربما لا يستيقظ أو يثقل عليه القيام، إلا إذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل. ثم ليقرأ في هذه الصلاة قدر

---

(١) حديث: «سئل عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدَة: ١٦] فقال: **الصلاة بين العشاءين، ثم قال: عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره**». قال المصنف: أسنده ابن أبي الزناد إلى رسول الله ﷺ. قلت: إنما هو إسماعيل بن أبي زياد بالياء المثناة من تحت. رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية إسماعيل بن أبي زياد الشامي عن الأعمش. حدثنا أبو العلاء العنبري عن سلمان قال: «قال رسول الله ﷺ: **عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات أول النهار ومهذبة آخره**»، وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله الدارقطني. واسم أبي زياد: مسلم وقد اختلف فيه على الأعمش، ولابن مردويه من حديث أنس: «أنها نزلت في الصلاة بين المغرب والعشاء» والحديث عند الترمذي وحسنه بلفظ: **«نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة»**.

(٢) حديث: «الوتر ثلاث عشرة ركعة ـ يعني بالليل ـ وأنه أكثر ما صلى به النبي ﷺ من الليل» أخرجه أبو داود من حديث عائشة: «لم يكن يوتر بأنقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة»، والبخاري من حديث ابن عباس: «وكانت صلاته ثلاث عشرة ركعة ـ يعني بالليل ـ»، ومسلم: «كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة»، وفي رواية للشيخين: «منها ركعتا الفجر» ولهما أيضاً: «ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة».

ثلاثمائة آية من السور المخصوصة التي كان النبي ﷺ يكثر قراءتها مثل: يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة(١)، فإن لم يصلِّ فلا يدع قراءة هذه السورة أو بعضها قبل النوم، فقد روي في ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله ﷺ في كل ليلة، أشهرها: السجدة، وتبارك الملك(٢) والزمر، والواقعة. وفي رواية: الزمر وبني إسرائيل(٣). وفي أخرى: أنه كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول: فيها آية أفضل من ألف آية(٤). وكان العلماء يجعلونها ستاً فيزيدون سبح اسم ربك الأعلى إذ في الخبر: «أنه ﷺ كان يحب سبح اسم ربك الأعلى. وكان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور: سبح اسم ربك الأعلى(٥)، وقل يا أيها الكافرون، والإخلاص(٦). فإذا فرغ قال: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مرات.

الثالث: الوتر، وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام. قال أبو هريرة رضي الله عنه: أوصاني رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر(٧)، وإن كان معتاداً صلاة الليل فالتأخير أفضل. قال ﷺ: «**صَلاةُ اللَّيلِ مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ فَإِذَا خِفتَ الصُّبحَ فَأَوتِرْ بِرَكعَةٍ**»(٨)، وقالت عائشة رضي الله عنها: «أوتر رسول الله ﷺ أوّل الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر»(٩)، وقال علي رضي الله عنه: الوتر على ثلاثة أنحاء؛ إن شئت أوترت أوّل الليل ثم صليت ركعتين ركعتين، يعني أنه يصير وتراً بما مضى، وإن شئت أوترت بركعة، فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل، وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك. هذا ما روي مطلقاً عنه والطريق الأوّل والثالث لا بأس به، وأما نقض الوتر

---

(١) حديث: «إكثاره ﷺ من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة» غريب لم أقف على ذكر الإكثار فيه، وابن حبان من حديث جندب: «**من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له**» والترمذي من حديث جابر: «كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك» وله من حديث عائشة: «كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر» وقال: حسن غريب، وله من حديث أبي هريرة: «**من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك**» قال: غريب، ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة: «**من قرأ في ليلة الم تنزيل ويس وتبارك الذي بيده الملك واقتربت كن له نوراً...**» الحديث. ولأبي منصور المظفر بن الحسين الغزنوي في فضائل القرآن من حديث علي: «**يا علي أكثر من قراءة يس...**» الحديث. وهو منكر، وللحارث بن أبي أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف: «**من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً**» والترمذي من حديث ابن عباس: «**شيبتني هود والواقعة...**» الحديث. وقال: حسن غريب.

(٢) حديث: «كان يقرأ في كل ليلة السجدة وتبارك الملك» أخرجه الترمذي. وتقدم في الحديث قبله.

(٣) حديث: «كان يقرأ في كل ليلة الزمر وبني إسرائيل» أخرجه الترمذي. وتقدم أيضاً.

(٤) حديث: «كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول: **فيهن آية أفضل من ألف آية**» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن، والنسائي في الكبرى من حديث عرباض بن سارية.

(٥) حديث: «كان يحب سبح اسم ربك الأعلى» أخرجه أحمد والبزار من حديث علي بسند ضعيف.

(٦) حديث: «كان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والإخلاص». أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح. وتقدم في الصلاة من حديث أنس.

(٧) حديث أبي هريرة: «أوصاني رسول الله ﷺ **أن لا أنام إلا على وتر**» متفق عليه بلفظ: «**أن أوتر قبل أن أنام**».

(٨) حديث: «**صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة**» متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٩) حديث عائشة: «أوتر رسول الله ﷺ أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر» متفق عليه.

فقد صح فيه نهي فلا ينبغي أن ينقض[(١)]. وروي مطلقاً أنه ﷺ قال: **«لا وِتْرَانِ فِي لَيلَةٍ»**[(٢)]. ولمن يتردد في استيقاظه تلطف استحسنه بعض العلماء: وهو أن يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً على فراشه عند النوم. كان رسول الله ﷺ يزحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت وألهاكم[(٣)]؛ لما فيهما من التحذير والوعيد، وفي رواية: قل يا أيها الكافرون لما فيها من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى، فقيل: إن استيقظ قامتا مقام ركعة واحدة، وكان له أن يوتر بواحدة في آخر صلاة الليل وكأنه صار ما مضى شفعاً بهما، وحسن استئناف الوتر. واستحسن هذا أبو طالب المكي وقال: فيه ثلاثة أعمال: قصر الأمل، وتحصيل الوتر، والوتر آخر الليل، وهو كما ذكره لكن ربما يخطر أنهما لو شفعتا ما مضى لكان كذلك، وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول، فكونه شافعاً إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه نظر، إلا أن يصح من رسول الله ﷺ إيتاره قبلهما وإعادته الوتر، فيفهم منه أن الركعتين شفع بصورتهما وتر بمعناهما، فيحسب وتراً إن لم يستيقظ وشفعاً إن استيقظ. ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت، وتعززت بالقدرة وقهرت العباد بالموت. روي أنه ﷺ ما مات حتى كان أكثر صلاته جالساً إلا المكتوبة[(٤)]. وقد قال: **«لِلْقَاعِدِ نِصْفُ أَجْرِ القَائِمِ وَلِلنَّائِمِ نِصْفُ أَجْرِ القَاعِدِ»**[(٥)]، وذلك يدل على صحة النافلة دائماً.

الورد الثالث: النوم، ولا بأس أن يعد ذلك في الأوراد؛ فإنه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة، فقد قيل: إنّ للعبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصلياً حتى يستيقظ ويدخل في شعاره ملك، فإن تحرّك في نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله[(٦)]. وفي الخبر: **«إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش»**[(٧)]، هذا في العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية؟ فإنهم يكاشفون بالأسرار في النوم، ولذلك قال ﷺ: **«نَوْمُ العَالِمِ عِبَادَةٌ وَنَفَسُهُ تَسْبِيحٌ»**[(٨)]، وقال معاذ لأبي

---

(١) حديث: «النهي عن نقض الوتر» قال المصنف: صح فيه نهي. قلت: وإنما صح من قول عابد بن عمرو وله صحبة كما رواه البخاري، ومن قول ابن عباس كما رواه البيهقي ولم يصرح بأنه مرفوع، فالظاهر أنه إنما ما ذكرناه عن الصحابة.

(٢) حديث: «**لا وتران في ليلة**» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث طلق بن علي.

(٣) حديث: «الركعتين بعد الوتر جالساً». تقدم في الصلاة، رواه مسلم من حديث عائشة.

(٤) حديث: «ما مات حتى كان أكثر صلاته جالساً إلا المكتوبة» متفق عليه من حديث عائشة: «لما بدن النبي ﷺ وثقل كان أكثر صلاته جالساً».

(٥) حديث: «**للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد**» أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين.

(٦) حديث: «قيل: إنه إذا نام على طهارة ذاكراً لله تعالى يكتب مصلياً ويدخل في شعاره ملك..» الحديث. أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمر: «**من بات طاهراً بات في شعاره ملك فلم يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهراً**».

(٧) حديث: «**إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش**» أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي الدرداء، والبيهقي في الشعب موقوفاً على عبدالله بن عمرو بن العاص. وروى الطبراني في الأوسط من حديث علي: «**ما من عبد ولا أمة تنام فتثقل نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي الرؤيا التي تكذب**» هو ضعيف.

(٨) حديث: «**نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح**». قلت: المعروف فيه الصائم دون العالم. وقد تقدم في الصوم.

موسى: كيف تصنع في قيام الليل؟ فقال: أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئاً وأتفوق القرآن فيه تفوقاً. قال معاذ: لكني أنا أنام ثم أقوم وأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «معاذ أفقه منك»[(١)]. وآداب النوم عشرة:

الأول: الطهارة والسواك، قال ﷺ: «**إِذَا نَامَ العَبْدُ عَلَىٰ طَهَارَةٍ عُرِجَ بِرُوحِهِ إِلَىٰ العَرْشِ، فَكَانَتْ رُؤْيَاهُ صَادِقَةً، وَإِنْ لَمْ يَنَمْ عَلَىٰ طَهَارَةٍ قَصُرَتْ رُوحُهُ عَنِ البُلُوغِ، فَتِلْكَ المَنَامَاتُ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ لا تَصْدُقُ**»[(٢)]. وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعاً، وطهارة الباطن هي المؤثرة في انكشاف حجب الغيب.

الثاني: أن يعدّ عند رأسه سواكه وطهوره وينوي القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك، كذلك كان يفعله بعض السلف. وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستاك في كل ليلة مراراً عند كل نومة وعند التنبه منها[(٣)]، وإن لم يتيسر له الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء، فإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليشتغل بالذكر والدعاء والتفكر في آلاء الله تعالى وقدرته، فذلك يقوم مقام قيام الليل. وقال ﷺ: «**مَنْ أَتَىٰ فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّىٰ يُصْبِحَ كُتِبَ لَهُ ما نَوَىٰ وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ**»[(٤)].

الثالث: أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه؛ فإنه لا يأمن القبض في النوم، فإنّ من مات من غير وصية لم يؤذن له في الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة، يتزاوره الأموات ويتحدّثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض: هذا المسكين مات من غير وصية. وذلك مستحب خوف موت الفجأة، وموت الفجأة تخفيف إلا لمن ليس مستعداً للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم.

الرابع: أن ينام تائباً من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد، ولا يعزم على معصية إن استيقظ، قال ﷺ: «**مَنْ أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ لا يَنْوِي ظُلْمَ أَحَدٍ وَلا يَحْقِدُ عَلَىٰ أَحَدٍ غُفِرَ لَهُ ما اجْتَرَمَ**»[(٥)].

الخامس: أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه. كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك تكلفاً. وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً، ويقولون: منها خلقنا وإليها نرد، وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم، فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد.

---

(١) حديث: «قال معاذ لأبي موسى: كيف تصنع في قيام الليل؟ فقال: أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئاً وأتفوق القرآن تفوقاً، قال معاذ: لكني أنام ثم أقوم وأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **معاذ أفقه منك**» متفق عليه بنحوه من حديث أبي سعيد وليس فيه: «أنهما ذكرا ذلك للنبي ﷺ» ولا قوله: «**معاذ أفقه منك**» وإنما زاد فيه الطبراني: «**فكان معاذ أفضل منه**».

(٢) حديث: «**إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة**». الحديث. تقدم.

(٣) حديث: «أنه كان يستاك في كل ليلة مراراً عند كل نومة وعند التنبه منها». تقدم في الطهارة.

(٤) حديث: «**من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه**» أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح.

(٥) حديث: «**من أوى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب النية من حديث أنس: «**من أصبح ولم يهم بظلم أحد غفر له ما اجترم**» وسنده ضعيف.

السادس: أن لا ينام ما لم يغلبه النوم، ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل، فقد كان نومهم غلبة وأكلهم فاقة وكلامهم ضرورة، ولذلك وصفوا بأنهم: كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا يدري ما يقول فلينم حتى يعقل ما يقول. وكان ابن عباس رضي الله عنه يكره النوم قاعداً. وفي الخبر: «**لا تكابدوا الليل**»(١)، وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصلي بالليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل، فنهى عن ذلك وقال: «**لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ ما تَيَسَّرَ لَهُ فَإِذَا غَلَبَهُ النَّوْمُ فَلْيَرْقُدْ**»(٢)، وقال ﷺ: «**تَكَلَّفُوا مِنَ العَمَلِ ما تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يَمَلَّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**»(٣). وقال ﷺ: «**خَيْرُ هٰذا الدِّينِ أَيْسَرُهُ**»(٤)، وقيل له ﷺ: «إنّ فلاناً يصلي فلا ينام ويصوم فلا يفطر، فقال: **لٰكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ هٰذِهِ سُنَّتِي فَمَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَلَيْسَ مِنِّي**»(٥). وقال ﷺ: «**لا تُشَادُّوا هٰذا الدِّينَ فَإِنَّهُ مَتِينٌ فَمَنْ يُشَادَّهُ يَغْلِبْهُ فَلا تُبَغِّضْ إِلَىٰ نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ**»(٦).

السابع: أن ينام مستقبل القبلة. والاستقبال على ضربين: أحدهما: استقبال المحتضر ـ وهو المستلقي على قفاه ـ فاستقباله أن يكون وجهه وأخمصاه إلى القبلة. والثاني: استقبال اللحد وهو أن ينام على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه إذا نام على شقه الأيمن.

الثامن: الدعاء عند النوم فيقول: باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه، إلى آخر الدعوات المأثورة التي أوردناها في كتاب الدعوات(٧)، ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل: آية الكرسي وآخر البقرة وغيرهما. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤] يقال: إنّ من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه ويقرأ من سورة الأعراف هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤ ـ ٥٦] وآخر بني إسرائيل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الإسراء: ١١٠] الآيتين، فإنه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له. ويقرأ المعوّذتين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده، كذلك

---

(١) حديث: «**لا تكابدوا الليل**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف، وفي جامع سفيان الثوري موقوفاً على ابن مسعود: «لا تغالبوا هذا الليل».

(٢) حديث: «قيل له: إن فلانة تصلي فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهاهن عن ذلك..» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

(٣) حديث: «**تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا**» متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «**اكلفوا**».

(٤) حديث: «**خير هذا الدين أيسره**» أخرجه أحمد من حديث محجن بن الأدرع وتقدم في العلم.

(٥) حديث: «قيل له: إن فلاناً يصلي ولا ينام ويصوم ولا يفطر فقال: **لكنني أصلي وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني**» أخرجه النسائي من حديث عبدالله بن عمرو دون قوله: «**هذه سنتي**» الخ.. وهذه الزيادة لابن خزيمة: «**من رغب عن سنتي فليس مني**» وهو متفق عليه من حديث أنس.

(٦) حديث: «**لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة: «**لن يشاد هذا الدين أحداً إلا غلبه فسددوا وقاربوا**» وللبيهقي من حديث جابر: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله**» ولا يصح إسناده.

(٧) حديث: «الدعاء المأثور عند النوم: **باسمك اللهم رب وضعت جنبي...**» الحديث. إلى آخر الدعوات المأثورة التي أوردناها في الدعوات تقدم هناك وبقية الدعوات.

روي من فعل رسول الله ﷺ(١) وليقرأ عشراً من أول الكهف وعشراً من آخرها، وهذه الآي للاستيقاظ لقيام الليل. وكان عليّ كرم الله وجهه يقول: ما أرى أن رجلاً مستكملاً عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل خمساً وعشرين مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة.

التاسع: أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة والتيقظ نوع بعث، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] فسماه توفياً، وكما أن المستيقظ تنكشف له مشاهدة لا تناسب أحواله في النوم فكذلك المبعوث يرى ما لم يخطر قط بباله ولا شاهده حسه. ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة. وقال لقمان لابنه: يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تنم، فكما أنك تنام كذلك تموت، وإن كنت تشك في البعث فلا تنتبه، فكما أنك تنتبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك. وقال كعب الأحبار: إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت في ليلته تلك: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ رَبَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ**»(٢) الدعاء إلى آخره كما ذكرناه في كتاب الدعوات. فحق على العبد أن يفتش عن ثلاثة عند نومه: أنه على ماذا ينام، وما الغالب عليه حب الله تعالى وحب لقائه أو حب الدنيا؟ وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه، فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب.

العاشر: الدعاء عند التنبه. فليقل في تيقظاته وتقلباته مهما تنبه ما كان يقوله رسول الله ﷺ: «**لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما العَزِيزُ الغَفَّارُ**»(٣)، وليجتهد أن يكون آخر ما يجري على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى، وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى فهو علامة الحب، ولا يلازم القلب في هاتين إلا ما هو الغالب عليه فليجرب قلبه به فهو علامة الحب، فإنها علامة تنكشف من باطن القلب، وإنما استحبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى، فإذا استيقظ ليقوم قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» إلى آخر ما أوردنا من أدعية التيقظ.

الورد الرابع: يدخل بمضي النصف الأوّل من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد، فاسم التهجد يختص بما بعد الهجود والهجوع وهو النوم، وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذي بعد الزوال وهو وسط النهار، وبه أقسم الله تعالى فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ٢] أي: إذا سكن، وسكونه هدوءه في هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. وقيل: إذا سجى: إذا امتد وطال. وقيل: إذا أظلم. وسئل رسول الله ﷺ: أي الليل أسمع؟

---

(١) حديث: «قراءة المعوذتين عند النوم ينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده» متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث عائشة: «كان آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى: **اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم..**» الحديث. تقدم في الدعوات دون: وضع الخد على اليد، وتقدم من حديث حفصة.

(٣) حديث: «كان يقول عند تيقظه: **لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار**» أخرجه ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة.

فقال: «**جوف الليل**»[(١)]. وقال داود ﷺ: إلهي إني أحب أن أتعبد لك فأي وقت أفضل؟ فأوحى الله تعالى: يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره، فإن من قام أوله نام آخره، ومن قام آخره لم يقم أوله، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك، وارفع إليَّ حوائجك. وسئل رسول الله ﷺ: أي الليل أفضل؟ فقال: «**نِصْفُ اللَّيْلِ الغَابِرِ**»[(٢)]. يعني الباقي. وفي آخر الليل وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار تعالى إلى سماء الدنيا[(٣)]. وغير ذلك من الأخبار.

وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التي للاستيقاظ يتوضأ وضوءاً ـ كما سبق ـ بسننه وآدابه وأدعيته، ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلاً القبلة، ويقول: «**الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً**» ثم يسبح عشراً وليحمد الله عشراً ويهلل عشراً وليقل: «**الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة**» وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله ﷺ في قيامه للتهجد: «**اللهم لك الحمد أنت نور السمٰوات والأرض، ولك الحمد أنت بهاء السمٰوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السمٰوات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السمٰوات والأرض ومن فيهن ومن عليهن. أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت. أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت**»[(٤)]. **اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**[(٥)]. **اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**[(٦)]. **أسألك**

---

(١) حديث: «سئل أي الليل أسمع؟ قال: **جوف الليل**» أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث عمرو بن عنبسة.

(٢) حديث: «سئل أي الليل أفضل؟ قال: **نصف الليل الغابر**» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبي ذر دون قوله: «**الغابر**» وهي في بعض طرق حديث عمرو بن عبسة.

(٣) حديث: «الأخبار الواردة في اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن في آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا»؛ أما حديث النزول فقد تقدم، وأما الباقي فهي آثار رواها محمد بن نصر في قيام الليل من رواية سعيد الجريري: قال: «قال داود: يا جبريل أي الليل أفضل؟ قال: ما أدري غير أن العرش يهتز من السحر» وفي رواية له عن الجريري عن سعيد بن أبي الحسن قال: «إذا كان من السحر ألا ترى كيف تفوح ريح كل شجر» وله من حديث أبي الدرداء مرفوعاً: «**إن الله تبارك وتعالى لينزل في ثلاث ساعات بقين من الليل بفتتح الذكر في الساعة الأولى**» وفيه: «**ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن**. . .» الحديث. وهو مثله.

(٤) حديث: «القول في قيامه للتهجد: **اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض**. . .» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله: «**أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض**» ودون قوله: «**ومن عليهن ومنك الحق**».

(٥) حديث: «**اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**» أخرجه أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة: «**أنها فقدت النبي ﷺ في مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول: رب أعط نفسي تقواها**. . .» الحديث.

(٦) حديث: «**اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**» أخرجه مسلم من حديث علي عن رسول الله ﷺ: «أنه كان إذا قام إلى الصلاة» فذكره بلفظ: «**لأحسن الأخلاق**» وفيه زيادة في أوله.

مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الذليل، فلا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً يا خير المسؤولين وأكرم المعطين»(١). وقالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: **«اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم»**(٢)، ثم يفتتح الصلاة ويصلي ركعتين خفيفتين، ثم يصلي مثنى مثنى ما تيسر له ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح ويزيد نشاطه للصلاة. وقد صح في صلاة رسول الله ﷺ بالليل أنه صلى أولاً ركعتين خفيفتين، ثم ركعتين طويلتين، ثم ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة(٣)، وسئلت عائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله ﷺ يجهر في قيام الليل أم يسر؟ فقالت: ربما جهر وربما أسر(٤). وقال ﷺ: **«صَلاةُ اللَّيْلِ مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ فَإِذَا خِفْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِرَكْعَةٍ»**(٥)، وقال: **«صَلاةُ المَغْرِبِ أَوْتَرَتْ صَلاةَ النَّهَارِ فَأَوْتِرُوا صَلاةَ اللَّيْلِ»**(٦)، وأكثر ما صح عن رسول الله ﷺ في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة(٧). ويقرأ في هذه الركعات من ورده من القرآن أو من السور المخصوصة ما خف عليه، وهو في حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل.

الورد الخامس: السدس الأخير من الليل؛ وهو وقت السحر فإن الله تعالى قال: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات: ١٨] قيل: يصلون لما فيها من الاستغفار، وهو مقارب للفجر الذي هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار، وقد أمر بهذا الورد سلمان أخاه أبا الدرداء رضي الله عنهما ليلة زاره(٨) في حديث طويل قال في آخره: فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان: نم فنام، ثم ذهب ليقوم فقال له: نم فنام، فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن، فقاما فصليا، فقال: إن لنفسك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه ـ وذلك أن امرأة أبي الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل ـ قال: فأتيا النبي ﷺ فذكرا ذلك له فقال: **«صدق سلمان»**. وهذا هو الورد الخامس، وفيه يستحب السحور وذلك عن خوف طلوع الفجر،

---

(١) حديث: **«أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المضطر الذليل..»** الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس: **«أنه كان من دعاء النبي ﷺ عشية عرفة»** تقدم في الحج.

(٢) حديث عائشة: «كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: **اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض...»** الحديث. رواه مسلم.

(٣) حديث: «أنه صلى بالليل أولاً ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة» أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني.

(٤) حديث: «سئلت عائشة: أكان يجهر رسول الله ﷺ في قيام الليل أم يسر؟ فقالت: ربما جهر وربما أسر» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح.

(٥) حديث: **«صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة»** متفق عليه، وقد تقدم.

(٦) حديث: **«صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل»** أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح.

(٧) حديث: «القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة فإنه أكثر ما صح عنه» تقدم.

(٨) حديث: «زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان: نم فنام...» الحديث. وفي آخره فقال: **«صدق سلمان»** أخرجه البخاري من حديث أبي جحيفة.

والوظيفة في هذين الوردين الصلاة. فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصلي ركعتي الفجر، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطُّور: ٤٩] ثم يقرأ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] إلى آخرها. ثم يقول: وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من خلقه، وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله تعالى وديعة وأسأله حفظها حتى يتوفاني عليها. اللهم احطط عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً واحفظها علي وتوفني عليها حتى ألقاك غير مبدّل تبديلاً. فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلَّت وعيادة مريض وشهود جنازة. ففي الخبر: «**من جمع بين هذه الأربع في يوم غفر له**»(١). وفي رواية: «**دخل الجنة**» فإن أنفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته، وكانوا يكرهون أن ينقضي اليوم ولم يتصدّقوا فيه بصدقة ولو بتمرة أو بصلة أو كسرة خبز؛ لقوله ﷺ: «**الرَّجُلُ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ**»(٢)، ولقوله ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(٣). ودفعت عائشة رضي الله عنها إلى سائل عنبة واحدة فأخذها، فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت: ما لكم إن فيها لمثاقيل ذرّ كثير؟ وكانوا لا يستحبون رد السائل؛ إذ كان من أخلاق رسول الله ﷺ ذلك، ما سأله أحد شيئاً فقال: لا، ولكنه إن لم يقدر عليه سكت(٤). وفي الخبر: «**يُصْبِحُ ابنُ آدَمَ وَعَلَىٰ كُلِّ سُلَامَىٰ مِنْ جَسَدِهِ صَدَقَةٌ** - يعني المفصل - **وَفِي جَسَدِهِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مِفْصَلاً فَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَحَمْلُكَ عَنِ الْضَعِيفِ صَدَقَةٌ، وَهِدَايَتُكَ إِلَىٰ الْطَرِيقِ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الأَذَىٰ صَدَقَةٌ** - حَتَّىٰ ذكر التسبيح والتهليل - ثم قال: **وَرَكْعَتَا الضُّحَىٰ تَأْتِي عَلَىٰ ذٰلِكَ كُلِّهِ أَوْ تَجْمَعَنَّ لَكَ ذٰلِكَ كُلَّهُ**»(٥).

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال:

اعلم: أن المريد لحرث الآخرة السالك لطريقها لا يخلو عن ستة أحوال فإنه: إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره.

الأوّل: العابد؛ وهو المتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلاً ولو ترك العبادة لجلس بطالاً، فترتيب أوراده ما ذكرناه. نعم، لا يبعد أن تختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما في الصلاة أو في القراءة أو في التسبيحات، فقد كان في الصحابة رضي الله عنهم من ورده في اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة، وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفاً، وكان فيهم من ورده ثلاثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة، وأقل ما نقل في أورادهم من الصلاة مائة ركعة في اليوم والليلة. وكان بعضهم أكثر ورده القرآن،

---

(١) حديث: «**من جمع بين صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود جنازة في يوم غفر له**» وفي رواية: «**دخل الجنة**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: «**ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة**».

(٢) حديث: «**الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس**» تقدم في الزكاة.

(٣) حديث: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» تقدم في الزكاة.

(٤) حديث: «**ما سأله أحد شيئاً فقال: لا إن لم يقدر عليه سكت**» أخرجه مسلم من حديث جابر، وللبزار من حديث أنس: «**أو يسكت**».

(٥) حديث: «**يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي ذر.

وكان يختم الواحد منهم في اليوم مرة، وروي مرتين عن بعضهم، وكان بعضهم يقضي اليوم أو الليل في التفكر في آية واحدة يرددها. وكان كرز بن وبرة مقيماً بمكة فكان يطوف في كل يوم سبعين أسبوعاً وفي كل ليلة سبعين أسبوعاً، وكان مع ذلك يختم القرآن في اليوم والليلة مرتين. فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ، ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وختمتان وعشرة فراسخ.

فإن قلت: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟ **فاعلم**: أن قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص، ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإيناسه به، فلينظر المريد إلى قلبه فما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه، فإذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره، ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات ـ كما سبق ـ والانتقال فيها من نوع إلى نوع؛ لأن الملال هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد في ذلك أيضاً تختلف. ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى، فإن سمع تسبيحة مثلاً وأحس لها بوقع في قلبه فليواظب على تكرارها ما دام يجد لها وقعاً. وقد روي عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال: أنه قام ذات ليلة يصلي على شاطىء البحر، فسمع صوتاً عالياً بالتسبيح ولم ير أحداً فقال: من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك؟ فقال: أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت، قلت: فما اسمك؟ قال: مهلهيائيل، قلت: فما ثواب من قاله؟ قال: من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له. والتسبيح هو قوله: «سبحان الله العلي الديان. سبحان الله الشديد الأركان. سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار. سبحان من لا يشغله شأن عن شأن. سبحان الله الحنان المنان. سبحان الله المسبح في كل مكان». فهذا وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له في قلبه وقعاً فليلازمه، وأياً ما وجد القلب عنده وفتح له فيه خير فليواظب عليه.

الثاني: العالم الذي ينفع الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف، فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد؛ فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة، ويحتاج إلى مدة لها لا محالة، فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات ورواتبها. ويدل على ذلك جميع ما ذكرناه في فضيلة التعليم والتعلم في كتاب العلم. وكيف لا يكون كذلك وفي العلم المواظبة على ذكر الله تعالى؟ وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله. وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة. ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره، ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً. وإنما نعني بالعلم المقدم على العبادة، العلم الذي يرغب الناس في الآخرة ويزيدهم في الدنيا، أو العلم الذي يعينهم على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك، دون العلوم التي تزيد بها الرغبة في المال والجاه وقبول الخلق، والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضاً فإنه استغراق الأوقات في ترتيب العلم لا يحتمله الطبع. فينبغي أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه في الورد الأول. وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار في الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علماً لأجل الآخرة، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات. ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يتركها إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة إن طال النهار. ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع. ومن

الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح، فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان، ووِرده الثاني في عمل القلب بالفكر إلى الضحوة، ووِرده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد وبالمطالعة والكتابة، ووِرده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليروّح فيه العين واليد؛ فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضر بالعين. وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع. وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعي رضي الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول، وثلثاً للصلاة وهو الوسط، وثلثاً للنوم وهو الأخير. وهذا يتيسر في ليالي الشتاء، والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار فهذا نستحبه من ترتيب أوراد العالم.

الثالث: المتعلم؛ والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل، فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد، ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف، ويرتب أوقاته كما ذكرنا. وكل ما ذكرناه في فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل، بل إن لم يكن متعلماً على معنى أنه يعلق ويحصل ليصير عالماً، بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات. ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه: «إنَّ حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعيادة ألف مريض»[(١)]. وقال ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمْ رِيَاضَ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا فِيها**، فقيل: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: **حِلَقُ الذِّكْرِ**»[(٢)]. وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: لو أن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذي إمارة إمارته وكل ذي سوق سوقه. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عزّ وجلّ لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء. وقال رجل للحسن رحمه الله: أشكو إليك قساوة قلبي، فقال: أدنه من مجالس الذكر. ورأى عمار الزاهدي مسكينة الطفاوية في المنام وكانت من المواظبات على حِلَق الذكر فقال: مرحباً يا مسكينة، فقالت: هيهات هيهات ذهبت المسكنة وجاء الغنى! فقال: هيه! فقالت: ما تسأل عمن أبيح لها الجنة بحذافيرها؟ قال: وبم ذلك؟ قالت: بمجالسة أهل الذكر. وعلى الجملة، فما ينحل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام زكي السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتمال القلب على حب الدنيا.

الرابع: المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله، فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات في العبادات، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب، ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته، بل يواظب على التسبيحات والأذكار وقراءة القرآن، فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل. وإنما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناظوراً فإنه لا يعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه. ثم مهما فرغ من كفايته ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد، وإن داوم على الكسب وتصدّق بما

---

(١) حديث أبي ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة...» الحديث. تقدم في العلم.

(٢) حديث: «**إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها...**» الحديث. تقدم في العلم.

فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التي ذكرناها؛ لأن العبادات المتعدّية فائدتها أنفع من اللازمة، والصدقة والكسب على هذه النية عبادة له في نفسه تقرّبه إلى الله تعالى، ثم يحصل به فائدة للغير وتنجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر.

الخامس: الوالي؛ مثل الإمام والقاضي والمتولي في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهاراً ويقتصر على المكتوبة ويقيم الأوراد المذكورة بالليل، كما كان عمر رضي الله عنه يفعله؛ إذ قال: ما لي وللنوم، فلو نمت بالنهار ضيعت المسلمين ولو نمت بالليل ضيعت نفسي. وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدّم على العبادات البدنية أمران: أحدهما: العلم، والآخر: الرفق بالمسلمين؛ لأنَّ كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدّى فائدته وانتشار جدواه فكانا مقدّمين عليه.

السادس: الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح وهمومه هم واحد، فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله تعالى فيه. فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنويع الأوراد واختلافها، بل كان ورده بعد المكتوبات واحداً وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال، فلا يخطر بقلوبهم أمر ولا يقرع سمعهم قارع ولا يلوح لأبصارهم لائح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد، فلا محرك لهم ولا مسكن إلا الله تعالى، فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لازديادهم فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة، وهم الذين فروا إلى الله عزّ وجلّ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥٠] وتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦] وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصّافات: ٩٩]. وهذه منتهى درجات الصدّيقين ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهراً طويلاً، فلا ينبغي أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويفتر عن وظائف عبادته، فذلك علامته أن لا يهجس في قلبه وسواس ولا يخطر في قلبه معصية ولا تزعجه هواجم الأهوال ولا تستفزه عظائم الأشغال، وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد. فيتعين على الكافة ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء: ٨٤] فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض. وفي الخبر: «**الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة**»[1] وقال بعض العلماء: الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقاً بعدد الرسل، فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله. فإذن، الناس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلهم على الصواب: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] وإنما يتفاوتون في درجات القرب لا في أصله، وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به، وأعرفهم به لا بدّ وأن يكون أعبدهم له، فمن عرفه لم يعبد

---

(١) حديث: «**الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة**» أخرجه ابن شاهين واللالكائي في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية المغيرة بن عبدالرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده: «**الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهن دخل الجنة**» وقال الطبراني والبيهقي: «**ثلاثمائة وثلاثون**» وفي إسناده جهالة.

غيره. والأصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس المداومة فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة. وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع، فإذا لم يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً ولم يردف بثان وثالث على القرب انمحى الأثر الأوّل، وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس فإنه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير، فلو بالغ ليلة في التكرار وترك شهراً أو أسبوعاً ثم عاد وبالغ ليلة لم يؤثر هذا فيه، ولو وزع ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه. ولهذا السر قال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللّٰهِ أَدْوَمُها وَإِنْ قَلَّ**»[(١)]. وسئلت عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ فقالت: كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته[(٢)]. ولذلك قال ﷺ: «**مَنْ عَوَّدَهُ اللّٰهُ عِبَادَةً فَتَرَكَها مَلالَةً مَقَتَهُ اللّٰهُ**»[(٣)]، وهذا كان السبب في صلاته بعد العصر تداركاً لما فاته من ركعتين شغله عنهما الوفد، ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر ولكن في منزله لا في المسجد كيلا يقتدى به[(٤)]. روته عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما.

فإن قلت: فهل لغيره أن يقتدي به في ذلك مع أن الوقت وقت كراهية؟ **فاعلم**: أن المعاني الثلاثة التي ذكرناها في الكراهية من الاحتراز عن التشبه بعبدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان، أو الاستراحة عن العبادة حذراً من الملال لا يتحقق في حقه فلا يقاس عليه في ذلك غيره. ويشهد لذلك فعله في المنزل حتى لا يقتدى به ﷺ

❊ ❊ ❊

الباب الثاني

في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين، وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين:

قال رسول الله ﷺ فيما روت عائشة رضي الله عنها: «**إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ عِنْدَ اللّٰهِ صلاةُ المَغْرِبِ لَمْ يَحُطَّهَا عَنْ مُسَافِرٍ وَلا عَنْ مُقِيمٍ، فَتَحَ بِها صَلاةَ اللَّيْلِ وَخَتَمَ بِها صَلاةَ النَّهارِ، فَمَنْ صَلَّىٰ**

---

(١) حديث: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**» متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث: «سئلت عائشة عن عمل رسول الله ﷺ فقالت: كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته» رواه مسلم.

(٣) حديث: «**من عوده الله عبادة فتركها ملالاً مقته الله**» تقدم في الصلاة وهو موقوف على عائشة.

(٤) حديث: «**شغله الوفد عن ركعتين فصلاهما بعد العصر ثم لم يزل يصليهما بعد العصر في منزله**» متفق عليه من حديث أم سلمة: «**أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال: شغلني ناس من عبدالقيس عن الركعتين بعد الظهر**» ولهما من حديث عائشة: «ما تركهما حتى لقي الله وكان النبي ﷺ يصليهما ولا يصليهما في المسجد مخافة أن يثقل على أمته» والله الموفق للصواب.

المَغْرِبَ وَصَلَّىٰ بَعْدَها رَكْعَتَيْنِ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ قَصْراً فِي الجَنَّةِ»(١). قال الراوي: لا أدري من ذهب أو فضة؟ «ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة ـ أو قال: ـ أربعين سنة» وروت أم سلمة وأبو هريرة رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّىٰ سِتَّ رَكَعَاتٍ بَعْدَ المَغْرِبِ عَدَلَتْ لَهُ عِبَادَةَ سَنَةٍ كَامِلَةٍ أَوْ كَأَنَّهُ صَلَّىٰ لَيْلَةَ القَدْرِ»(٢) وعن سعيد بن جبير عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَكَفَ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ إِلاَّ بِصَلاةٍ أَوْ قُرْآنٍ كَانَ حَقّاً عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ قَصْرَيْنِ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَةُ كُلِّ قَصْرٍ مِنْهُمَا مِائَةُ عَامٍ، وَيَغْرِسَ لَهُ بَيْنَهُمَا غِرَاساً لَوْ طَافَهُ أَهْلُ الدُّنْيَا لَوَسِعَهُمْ»(٣). وقال ﷺ: «مَنْ رَكَعَ عَشْرَ رَكَعَاتٍ مَا بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ قَصْراً فِي الجَنَّةِ. فقال عمر رضي الله عنه: إذاً تكثر قصورنا يا رسول الله!! فقال: اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَفْضَلُ ـ أو قال ـ أَطْيَبُ»(٤). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ المَغْرِبَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ صَلَّىٰ بَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ فِيمَا بَيْنَ ذٰلِكَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَيَقْرَأُ فِي الرَّكْعَةِ الأُولَىٰ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَعَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ وَآيَتَيْنِ مِنْ وَسَطِهَا ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤]، إلى آخر الآية، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ١] خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ثُمَّ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ، فَإِذَا قَامَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ قَرَأَ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ وَآيَتَيْنِ بَعْدَهَا إِلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩] وَثَلاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] إلى آخرها. و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ١] خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً»(٥). وصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن الحصر. وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال: قلت للخضر عليه السلام: علمني شيئاً أعمله في كل ليلة، فقال: إذا صليت المغرب فقم

الباب الثاني: في الأسباب الميسرة لقيام الليل

(١) حديث عائشة: «إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم...» الحديث. رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصفار في كتاب الصلاة، ورواه الطبراني في الأوسط مختصراً وإسناده ضعيف.

(٢) حديث أم سلمة عن أبي هريرة: «من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر» أخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ: «اثنتي عشرة سنة»، وضعفه الترمذي، وأما قوله: «كأنه صلى ليلة القدر» فهو من قول كعب الأحبار كما رواه أبو الوليد الصفار، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس: «من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحداً وضعت له في عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر في المسجد الأقصى» وسنده ضعيف.

(٣) حديث سعيد بن جبير عن ثوبان: «من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقاً على الله أن يبني له قصرين في الجنة» لم أجد له أصلاً من هذا الوجه، وقد تقدم في الصلاة من حديث ابن عمر.

(٤) حديث: «من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى الله له قصراً في الجنة، فقال عمر: إذاً تكثر قصورنا يا رسول الله...» الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عبدالكريم بن الحارث مرسلاً.

(٥) حديث أنس: «من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولا يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد...» الحديث. أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف.

إلى وقت صلاة العشاء مصلياً من غير أن تكلم أحداً وأقبل على صلاتك التي أنت فيها وسلم من كل ركعتين، واقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] ـ ثلاثاً ـ فإن فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحداً وصل ركعتين واقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات في كل ركعة، ثم اسجد بعد تسليمك واستغفر الله تعالى سبع مرات، وقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات، ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالساً وارفع يديك وقل: يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا إله الأولين والآخرين يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا رب يا رب يا رب يا الله يا الله يا الله، ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك، وصلِّ على النبي ﷺ وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم، فقلت له: أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا؟ فقال: إني حضرت محمداً ﷺ حيث علم هذا الدعاء وأوحى إليه به، فكنت عنده وكان ذلك بمحضر مني فتعلمته ممن علمه إياه(١). ويقال: إنّ هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليهما بحسن يقين وصدق نية رأى رسول الله ﷺ في منامه قبل أن يخرج من الدنيا، وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله ﷺ وكلمه وعلمه. وعلى الجملة: ما ورد في فضل إحياء ما بين العشاءين كثير، حتى قيل لعبيدالله مولى رسول الله ﷺ: هل كان رسول الله ﷺ يأمر بصلاة غير المكتوبة؟ قال: ما بين المغرب والعشاء(٢)، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ ما بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فَذٰلِكَ صَلاةُ الأَوَّابِينَ»(٣) وقال الأسود: ما أتيت ابن مسعود رضي الله عنه في هذا الوقت إلا ورأيته يصلي، فسألته فقال: نعم هي ساعة الغفلة. وكان أنس رضي الله عنه يواظب عليها ويقول: هي ناشئة الليل، ويقول: فيها نزل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدَة: ١٦] وقال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: أصوم النهار وأتعشى بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار وأحيي ما بينهما؟ فقال: اجمع بينهما، فقلت: إن لم يتيسر؟ قال: أفطر وصلِّ ما بينهما.

فضيلة قيام الليل:

أما من الآيات: فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ [المُزمّل: ٢٠] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المُزمّل: ٦] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدَة: ١٦] وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزُّمَر: ٩] الآية. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ [الفُرقان: ٦٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البَقَرَة: ٤٥] قيل: هي قيام الليل يستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس.

---

(١) حديث كرز بن وبرة «أن الخضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء، وفيه أن كرزاً سأل الخضر: ممن سمعت هذا؟ قال: إني حضرت محمداً ﷺ حين علم هذا الدعاء...» الحديث. وهذا باطل لا أصل له.

(٢) حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ وقيل له: «هل كان رسول الله يأمر بصلاة غير المكتوبة؟ قال: ما بين المغرب والعشاء» رواه أحمد وفيه رجل لم يسم.

(٣) حديث: «من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين». تقدم في الصلاة.

ومن الأخبار: قوله ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيطَانُ عَلَىٰ قَافِيَةِ رأس أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ مَكَانَ كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيقَظَ وَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَىٰ انحلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انحلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّىٰ انحلَّتْ عُقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ»(١). وفي الخبر: «أنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»(٢). وفي الخبر «إنّ للشيطان سعوطاً ولعوقاً وذروراً فإذا أسعط العبد ساء خلقه، وإذا ألعقه ذرب لسانه بالشر، وإذا ذره نام الليل حتى يصبح»(٣). وقال ﷺ: «رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا العَبْدُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيها وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي لَفَرَضْتُهُمَا عَلَيهِمْ»(٤). وفي الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةً لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَيْراً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» وفي رواية: «يسأل الله تعالى خيراً من الدنيا والآخرة وذلك في كل ليلة». وقال المغيرة بن شعبة: قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه فقيل له: أما قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً»(٥). ويظهر من معناه: أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة، فإن الشكر سبب المزيد. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال ﷺ: «يا أَبَا هُرَيْرَةَ أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَياً وَمَيتاً وَمَقْبُوراً وَمَبْعُوثاً، قُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلِّ وَأَنْتَ تُرِيدُ رِضَا رَبِّكَ. يا أَبَا هُرَيْرَةَ صَلِّ فِي زَوَايا بَيتِكَ يَكُنْ نُورُ بَيْتِكَ فِي السَّمَاءِ كَنُورِ الكَوَاكِبِ وَالنَّجْمِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا»(٦). وقال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ. فَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَكْفِيرٌ لِلذُّنُوبِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الجَسَدِ وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ»(٧) وقال ﷺ: «مَا مِنِ امْرِىءٍ تَكُونُ لَهُ صَلاَةٌ بِاللَّيْلِ فَغَلَبَهُ عَلَيْهَا النَّوْمُ إِلاَّ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ صَلاَتِهِ وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ»(٨) وقال ﷺ لأبي ذر: «لو أَرَدْتَ سَفَراً أَعْدَدتَ لَهُ عدَّة؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ سفر طَرِيقِ القِيامَة. ألا

---

(١) حديث: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) حديث: «إن للشيطان سعوطاً ولعوقاً وذروراً...» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أنس: «إن للشيطان لعوقاً وكحلاً فإذا لعق الإنسان من لعوقه ذرب لسانه بالشر وإذا كحله من كحله نامت عيناه عن الذكر» ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب وسندهما ضعيف.

(٤) حديث: «ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم» أخرجه آدم بن أبي إياس في الثواب، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلاً، ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح.

(٥) حديث المغيرة بن شعبة: «قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه...» الحديث. متفق عليه.

(٦) حديث: «يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حياً وميتاً ومقبوراً قم من الليل فصلّ وأنت تريد رضا ربك، يا أبا هريرة صلّ في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا» باطل لا أصل له.

(٧) حديث: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث بلال وقال: غريب ولا يصح، ورواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن، وقال الترمذي: إنه أصح.

(٨) حديث: «ما من امرىء يكون له صلاة بالليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه» أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عائشة، وفيه رجل لم يسم سماه النسائي في رواية الأسود بن يزيد لكن في طريقه ابن جعفر الرازي، قال النسائي: ليس بالقوي، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء نحوه بسند صحيح، وتقدم في الباب قبله.

أنبئك يا أبَا ذرّ بِمَا يَنفَعُكَ ذَلِكَ اليَوْمَ؟ قَالَ: بَلَى بِأبِي أنتَ وأمّي، قَالَ: صم يَوماً شَدِيدَ الحَرّ لِيَوم النُّشور، وَصَلِّ رَكعَتَينِ فِي ظُلمة اللَّيلِ لوحشة القُبُورِ، وحجّ حَجَّة لِعَظَائِم الأمُورِ، وتَصَدّق بِصَدَقَةٍ عَلَى مِسْكِينٍ أو كَلِمَة حَق تَقُولُهَا أو كَلِمَة شَرّ تسْكت عَنْهَا»(١). وروي: أنه كانَ على عهد النبي ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول: يا رب النار أجرني منها، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إذَا كَانَ ذَلِكَ فآذِنُونِي، فَأتَاهُ فاسْتَمَع فَلَمَّا أصْبَحَ قَالَ: يا فُلان هلا سَأَلْتَ الله الجَنَّة؟ قال: يا رسُول الله، إنّي لَسْتُ هُنَاكَ ولا يَبْلُغ عَمَلِي ذَاك فَلَمْ يَلْبَثْ إلاّ يَسِيراً حَتَّى نَزَل جِبْرَائِيل عَلَيْهِ السَّلاَم وقال: أخْبر فُلاناً أنَّ الله قَدْ أجَارَه مِنَ النَّار وأدْخَلَهُ الجَنَّة»(٢). ويروى: «أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي ﷺ: نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل، فأخبره النبي ﷺ بذلك، فكان يداوم بعده على قيام الليل»(٣) قال نافع: كان يصلي بالليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا، فيقوم لصلاته ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: نعم، فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر. وقال علي بن أبي طالب: شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير، فنام عن ورده حتى أصبح، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى أوجدت داراً خيراً لك من داري؟ أم وجدت جواراً خيراً لك من جواري؟ فوعزتي وجلالي يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقاً، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح. وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال: «سَيَنهَاهُ مَا يَعْمَلُ»(٤). وقال ﷺ: «رَحِمَ الله رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيلِ فَصَلَّى ثُمَّ أيقَظَ امْرَأتَهُ فَصَلَّت، فَإذَا أبَتْ نضح فِي وَجْهِهَا المَاء»(٥). وقال ﷺ: «رَحِمَ الله امْرَأة قَامَتْ مِن اللَّيلِ فَصَلَّتْ ثُمّ أيقَظَت زَوْجها فَصَلّى فَإنْ أبَى نَضحت فِي وَجْهه المَاء». وقال ﷺ: «مَنْ اسْتَيقَظَ من اللَّيلِ وأيقَظَ امْرَأته فَصَلّيا رَكْعَتَيْنِ كُتِبَا من الذّاكِرِينَ الله كَثِيراً والذَّاكِرات»(٦). وقال ﷺ: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»(٧). وقال عمر بن الخطاب

---

(١) حديث أنه قال لأبي ذر: «لو أردت سفراً أعددت له عدة فكيف بسفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم؟ قال: بلى بأبي وأمي. قال: صم يوماً شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التهجد من رواية السري بن مخلد مرسلاً. والسري ضعفه الأزدي.

(٢) حديث: «أنه كان على عهد رسول الله ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول: يا رب النار أجرني منها. فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: إذا كان ذلك فآذنوني...» الحديث. لم أقف له على أصل.

(٣) حديث: «أن جبريل قال للنبي ﷺ: نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر: «أن النبي ﷺ قال ذلك» وليس فيه ذكر لجبريل.

(٤) حديث: «قيل له: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال: سينهاه ما يعمل» أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت...» الحديث. أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح.

(٧) حديث: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

رضي الله عنه: قال ﷺ: **«مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ بِاللَّيلِ فَقَرَأَهُ بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ والظُّهرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»**(1).

الآثار: روي أن عمر رضي الله عنه: كان يمرّ بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياماً كثيرة كما يُعاد المريض. وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح. ويقال: إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام تلك الليلة حتى أصبح. وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة ثم يثب ويصلي إلى الصباح ثم يقول: طير ذكر جهنم نوم العابدين. وقال الحسن رحمه الله: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال، فقيل له: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره. وقدم بعض الصالحين من سفره فمهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده، فحلف أن لا ينام بعدها على فراش أبداً. وكان عبدالعزيز بن روّاد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول: إنك للين ووالله إن في الجنة لألين منك ولا يزال يصلي الليل كله. وقال الفضيل: إني لأستقبل الليل من أوله فيهولني طوله فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتي. وقال الحسن: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل. وقال الفضيل: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك. وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلي الليل كله، فإذا كان في السحر قال: إلهي ليس مثلي يطلب الجنة ولكن أجرني برحمتك من النار. وقال رجل لبعض الحكماء: إني لأضعف عن قيام الليل، فقال له: يا أخي لا تعص الله تعالى ولا تقم بالليل. وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم، فلما كان في جوف الليل قامت الجارية فقالت: يا أهل الدار الصلاة الصلاة، فقالوا: أصبحنا أطلع الفجر؟ فقالت: وما تصلون إلا المكتوبة؟ قالوا: نعم، فرجعت إلى الحسن فقالت: يا مولاي بعتني من قوم لا يصلون إلا المكتوبة؟ ردني، فردها. وقال الربيع: بت في منزل الشافعي رضي الله عنه ليالي كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيراً. وقال أبو الجويرية: لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض. وكان أبو حنيفة يحيي نصف الليل، فمرّ بقوم فقالوا: إنّ هذا يحيي الليل كله، فقال: إني أستحي أن أوصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يحيي الليل كله. ويروى أنه ما كان له فراش بالليل. ويقال: إنّ مالك بن دينار رضي الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] الآية. وقال المغيرة بن حبيب: رمقت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه، فقبض على لحيته فخنقته العبرة، فجعل يقول: حرم شيبة مالك على النار، إلهي قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأي الرجلين مالك؟ وأي الدارين دار مالك؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر. وقال مالك بن دينار: سهوت ليلة عن وردي ونمت، فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون وفي يدها رقعة فقالت لي: أتحسن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت إليّ الرقعة فإذا فيها:

---

(١) حديث عمر: **«من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل»** رواه مسلم.

أألهتك اللذائذ والأماني عن البيض الأوانس في الجنانِ
تعيش مخلّداً لا موتَ فيها وتلهو في الجنان مع الحِسَانِ
تنبّه مِنْ مَنَامِكَ إنّ خيراً مِنَ النَّوْمِ التهجّد بالقرآنِ

وقيل: حج مسروق فما بات ليلة إلا ساجداً. ويروى عن أزهر بن مغيث ـ وكان من القوّامين ـ: أنه قال: رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت لها: من أنت؟ قالت: حوراء، فقلت: زوجيني نفسك، فقالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني؛ فقلت: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد. وقال يوسف بن مهران: بلغني أنّ تحت العرش ملكاً في صورة ديك براثنه من لؤلؤ وصئصئه من زبرجد أخضر، فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقّاً وقال: ليقم القائمون، فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقّى وقال: ليقم المتهجدون، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقّى وقال: ليقم المصلون؛ فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقّاً وقال: ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم. وقيل: إنّ وهب بن منبه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول: لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب إليّ من أن أرى في بيتي وسادة؛ لأنها تدعو إلى النوم، وكانت له مسورة من أدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفزع إلى الصلاة. وقال بعضهم: رأيت رب العزة في النوم فسمعته يقول: وعزتي وجلالي لأكرمن مثوى سليمان التيمي فإنه صلى لي الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة. ويقال: كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلب بطل الوضوء. وروي في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال: إن عبدي الذي هو عبدي حقاً الذي لا ينتظر بقيامه صياح الديكة.

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل:

اعلم: أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً.

فأما الظاهرة فأربعة أمور:

الأول: أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام. كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسروا عند الموت كثيراً. وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام.

الثاني: أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب؛ فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها سنّة؛ للاستعانة على قيام الليل[1].

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار؛ فإن ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعدّ طهوري فما بالي لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيدتك. وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول: أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيلون. وقال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته،

(١) حديث: «الاستعانة بقيلولة النهار على قيام الليل» أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقد تقدم.

قيل: وما ذاك الذنب؟ قال: رأيت رجلاً يبكي فقلت في نفسي: هذا مراء. وقال بعضهم: دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي، فقلت: أتاك نعي بعض أهلك؟ فقال: أشد، فقلت: وجع يؤلمك؟ قال: أشد، قلت: فما ذاك؟ قال: بابي مغلق وستري مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة وما ذاك إلا بذنب أحدثته. وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجرّ إلى الكثير. ولذلك قال أبو سليمان الداراني: لا تفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب. وكان يقول: الاحتلام بالليل عقوبة والجنابة بُعد. وقال بعض العلماء: إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر وعلى أي شيء تفطر، فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى. فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل، وأخصها بالتأثير تناول الحرام. وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له. ولذلك قال بعضهم: كم من أكلة منعت قيام ليلة، وكم من نظرة منعت قراءة سورة؟ وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة. وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات. وقال بعض السجانين: كنت سجاناً نيفاً وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل: إنه هل صلى العشاء في جماعة؟ فكانوا يقولون: لا. وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطي الفحشاء والمنكر.

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور:

الأول: سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام، وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يجول إلا في وساوسه، وفي مثل ذلك يقال:

يخبرني البوّاب أنك نائمٌ ... وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائمُ

الثاني: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل، فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره، كما قال طاوس: إنّ ذكر جهنم طير نوم العابدين. وكما حكي أن غلاماً بالبصرة اسمه صهيب: كان يقوم الليل كله فقالت له سيدته: إنّ قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار، فقال: إنّ صهيباً إذا ذكر النار لا يأتيه النوم. وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال: إذا ذكرت النار اشتدّ خوفي وإذا ذكرت الجنة اشتدّ شوقي، فلا أقدر أن أنام. وقال ذو النون المصري رحمه الله:

منع القرآن بوعده ووعيده ... مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه ... فرقابهم ذلت إليه تَخَضُّعا

وأنشدوا أيضاً:

يا طويلَ الرقادِ والغفلات ... كثرةُ النوم تورث الحسراتِ
إن في القبرِ إنْ نزلت إليه ... لرقاداً يطول بعد المماتِ
ومهاداً ممهداً لك فيه ... بذنوب عملت أو حسناتِ
أأمنت البيات من ملك المو ... ت وكم نال آمناً بَبياتِ

وقال ابن المبارك:

إذا ما الليلُ أظلم كابدوه فيسفر عنهم وَهُمُ ركوعُ
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمنِ في الدنيا هجوعُ

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه، فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة من درجات الجنان؛ كما حكي أن بعض الصالحين رجع من غزوته فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره، فدخل المسجد ولم يزل يصلي حتى أصبح، فقالت له زوجته: كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح؟ قال: والله إني كنت أتفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل، فنسيت الزوجة والمنزل فقمت طول ليلتي شوقاً إليها.

الرابع: وهو أشرف البواعث؛ الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام. ولا ينبغي أن يستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل؟!

فأما العقل: فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله.

فإن قلت: إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لا يرى؟ **فاعلم**: أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان في بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواه، وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه، وإن كان ذلك أيضاً معلوماً عنده.

فإن قلت: إنه ينتظر جوابه فيتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى؟ **فاعلم**: أنه إن كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضاً لذة في عرض أحواله عليه ورفع سريرته إليه. كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته فيتلذذ به؟ وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جنح الليل يتلذذ به في رجاء إنعامه، والرجاء في حق الله تعالى أصدق، وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره، فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه في الخلوات؟

وأما النقل: فيشهد له أحوال قوّام الليل في تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب؛ حتى قيل لبعضهم: كيف أنت والليل؟ قال: ما راعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته بعد. وقال آخر: أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقني إلى الفجر ومرة يقطعني عن الفكر. وقيل لبعضهم: كيف الليل عليك؟ فقال: ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتم بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط. وقال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر. وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس عليَّ. وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا. وقال أيضاً: لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم. وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة. وقال بعضهم: لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم، وقال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا

ثلاث: قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة. وقال بعض العارفين: إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنواراً فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين. وقال بعض العلماء من القدماء: إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصدّيقين: إن لي عباداً أحبهم ويحبونني، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك، قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنّهُمُ الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليّ بإنعامي، فبين صارخ وباكي وبين متأوّه وشاكي، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، أوّل ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السمٰوات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، أفَتَرى مَن أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ وقال مالك بن دينار رحمه الله: إذا قام العبد يتهجد من الليل قرب منه الجبار عزّ وجلّ. وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب، وهذا له سر وتحقيق ستأتي الإشارة إليه في كتاب المحبة.

وفي الأخبار عن الله عزّ وجلّ: «أي عبدي: أنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري» وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم، فقال أستاذه: يا بني: إن لله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطىء القلوب النائمة فتعرّض لتلك النفحات، فقال: يا سيدي تركتني لا أنام بالليل ولا بالنهار.

واعلم: أن هذه النفحات بالليل أرجى؛ لما في قيام الليل صفاء القلب واندفاع الشواغل. وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إِنَّ مِنَ اللَّيلِ سَاعَةً لاَ يُوافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَيراً إلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»**[1] . وفي رواية أخرى: **«يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة»**. ومطلوب القائمين تلك الساعة وهي مبهمة في جملة الليل كليلة القدر في شهر رمضان، وكساعة يوم الجمعة وهي ساعة النفحات المذكورة والله أعلم.

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل:

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب:

الأولى: إحياء كل الليل، وهذا شأن الأقوياء الذي تجرّدوا لعبادة الليل وتلذذوا بمناجاته، وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم، فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار وفي وقت اشتغال الناس، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء. حكى أبو طالب المكي، أن ذلك حكي على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين، وكان فيهم من واظب

---

(١) حديث جابر: **«إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة»** رواه مسلم.

عليه أربعين سنة، قال: منهم سعيد بن المسيب، وصفوان بن سليم ـ المدنيان ـ وفضيل بن عياض، ووهيب بن الورد ـ المكيان ـ وطاوس، ووهب بن منبه ـ اليمانيان ـ والربيع بن خيثم، والحكم ـ الكوفيان ـ وأبو سليمان الداراني، وعلي بن بكار ـ الشاميان ـ وأبو عبدالله الخواص، وأبو عاصم ـ العباديان ـ وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلماني ـ الفارسيان ـ ومالك بن دينار وسليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء ـ البصريون ـ وكهمس بن المنهال وكان يختم في الشهر تسعين ختمة وما لم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى. وأيضاً من أهل المدينة: أبو حازم ومحمد بن المنكدر في جماعة يكثر عددهم.

المرتبة الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف. وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأوّل من الليل والسدس الأخير منه؛ حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه فهو الأفضل.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير. وبالجملة: نوم آخر الليل محبوب؛ لأنه يذهب النعاس بالغداة، وكانوا يكرهون ذلك، ويقلل صفرة الوجه والشهرة به، فلو قام أكثر الليل ونام سحراً قلّت صفرة وجهه وقلّ نعاسه. وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة»[(١)]، وقالت أيضاً رضي الله عنها: «ما ألفيته بعد السحر إلا نائماً»[(٢)]، حتى قال بعض السلف: هذه الضجعة قبل الصبح سنّة، منهم أبو هريرة رضي الله عنه. وكان نوم هذا الوقت سبباً للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب، وذلك لأرباب القلوب، وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار وقيام ثلث الليل من النصف الأخير. ونوم السدس الأخير قيام داود ﷺ.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه، وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه.

المرتبة الخامسة: أن لا يراعي التقدير، فإن ذلك يتيسر لنبي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويوقظه، ثم ربما يضطرب في ليالي الغيم، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم، فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم. فيكون له في الليل نومتان وقومتان، وهو من

---

(١) حديث: «كان رسول الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذن بالصلاة» أخرجه مسلم من حديث عائشة: «كان ينام أول الليل ويحيي آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام» وقال النسائي: «فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فإذا كان له حاجة إلى أهله»، ولأبي داود: «كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مستيقظة حدثني وإن كنت نائمة أيقظني وصلى الركعتين ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه بصلاة الصبح فيصلي ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة» وهو متفق عليه بلفظ: «كان إذا صلى فإن كنت مستيقظة حدثني وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة» وقال مسلم: «إذا صلى ركعتي الفجر».

(٢) حديث عائشة: «ما ألفيته بعد السحر الأعلى إلا نائماً» متفق عليه بلفظ: «ما ألفى رسول الله ﷺ السحر الأعلى في بيتي أو عندي إلا نائماً» لم يقل البخاري: «الأعلى» وقال ابن ماجه: «ما كنت ألقى أو ألفى النبي ﷺ من آخر الليل إلا وهو نائم عندي».

مكابدة الليل وأشدّ الأعمال وأفضلها، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله ﷺ[(١)]، وهو طريقة ابن عمر وأولي العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضي الله عنهم. وكان بعض السلف يقول: هي أول نومة فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لي عيناً. فأما قيام رسول الله ﷺ من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد، بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه[(٢)]. يختلف ذلك في الليالي ودل عليه قوله تعالى في الموضعين في سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المُزمّل: ٢٠] فأدنى من ثلثي الليل كأنه نصفه ونصف سدسه، فإن كسر قوله: ﴿وَنِصْفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ﴾ [المُزمّل: ٢٠] كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع، وإن نصب كان نصف الليل. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ يقوم إذا سمع الصارخ[(٣)]. يعني الديك، وهذا السدس فما دونه. وروى غير واحد أنه قال: «راعيت صلاة رسول الله ﷺ في السفر ليلاً فنام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عِمران: ١٩١ ـ ١٩٤] ثم استل من فراشه سواكاً فاستاك به وتوضأ وصلى حتى قلت: صلى مثل الذي نام، ثم اضطجع حتى قلت: نام مثل ما صلى، ثم استيقظ فقال ما قال أوّل مرة وفعل ما فعل أوّل مرة»[(٤)].

المرتبة السادسة: وهي الأقل؛ أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، أو تتعذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلاً بالذكر والدعاء فيكتب في جملة قوام الليل برحمة الله وفضله. وقد جاء في الأثر: «صلِّ من الليل ولو قدر حلب شاة»[(٥)] فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه ما يراه أيسر

---

(١) حديث: «قيامه أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان» أخرجه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث أم سلمة: «كان يصلي وينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح» وللبخاري من حديث ابن عباس: «صلى العشاء ثم جاء فصلى أربع ركعات ثم نام ثم قام» وفيه: «فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطه...» الحديث.

(٢) حديث: «ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه» أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس: «قام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ...» الحديث. وفي رواية البخاري: «فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء...» الحديث. ولأبي داود: «قام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ...» الحديث. لمسلم من حديث عائشة: «فيبعثه الله بما شاء أن يبعثه من الليل».

(٣) حديث عائشة: «كان يقوم إذا سمع الصارخ» متفق عليه.

(٤) حديث: «غير واحد قال: راعيت صلاة رسول الله ﷺ في السفر ليلاً فنام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال: **ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك** ـ حتى بلغ ـ **إنك لا تخلف الميعاد**، ثم استل من فراشه سواكاً فاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت: صلى مثل ما نام...» الحديث. أخرجه النسائي من رواية حميد بن عبدالرحمن بن عوف: «أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قال: قلت وأنا في سفر مع رسول الله ﷺ: والله لأرقبن رسول الله ﷺ» فذكر نحوه، وروى أبو الوليد بن مغيث في كتاب الصلاة من رواية إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة: «أن رجلاً قال: لأرمقن صلاة رسول الله» فذكر الحديث. وفيه: «أنه أخذ سواكه من مؤخر الرحل» وهذا يدل أنه أيضاً كان في سفر.

(٥) حديث: «صل من الليل ولو قدر حلب شاة» أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس في صلاة الليل مرفوعاً: «**نصفه ثلثه ربعه فواق حلب ناقة فواق حلب شاة**» ولأبي الوليد بن مغيث من رواية اياس بن معاوية مرسلاً: «**لا بد من صلاة الليل ولو حلبة ناقة أو حلبة شاة**».

عليه. وحيث يتعذر عليه القيام في وسط الليل فلا ينبغي أن يهمل إحياء ما بين العشاءين والورد الذي بعد العشاء. ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح نائماً، ويقوم بطرفي الليل، وهذه هي:

المرتبة السابعة. ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره.

وأما في المرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيهما إلى القدر، فليس يجري أمرهما في التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ما ذكرناه في السادسة، ولا الخامسة دون الرابعة.

بيان الليالي والأيام الفاضلة:

اعلم: أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة لا ينبغي أن يغفل المريد عنها، فإنها مواسم الخيرات ومظان التجارات، ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح، ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح. فستة من هذه الليالي في شهر رمضان: خمس في أوتار العشر الأخير إذ فيها يطلب ليلة القدر، وليلة سبع عشرة من رمضان، فهي ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر، وقال ابن الزبير رحمه الله: هي ليلة القدر. وأما التسع الأخر: فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأوّل ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه وهي ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة، فقد قال ﷺ: «**وَلِلْعَامِلِ هٰذِه اللَّيْلَةَ حَسَنَاتُ مائَةِ سَنَةٍ. فمن صلى في هذه الليلة اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ثم يقول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة، ثم يستغفر الله مائة مرة ويصلي على النبي ﷺ مائة مرة، ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائماً فإنَّ الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو في معصية**»[(١)] وليلة النصف من شعبان، ففيها مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات، كانوا لا يتركونها كما أوردناه في صلاة التطوع وليلة عرفة. وليلتا العيدين، قال ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا لَيْلَتَي العِيدَيْنِ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ القُلُوبُ**»[(٢)].

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم. روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ صَامَ يَوْمَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَجَب كَتَبَ اللَّهُ لَهُ صِيَامَ سِتِّينَ شَهْراً**»[(٣)]، وهو اليوم الذي أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد ﷺ بالرسالة. ويوم سبعة عشر من رمضان؛ وهو يوم وقعة بدر. ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوما العيدين والأيام المعلومات؛ وهي عشر من ذي الحجة، والأيام المعدودات؛ وهي

---

(١) حديث: «الصلاة المأثورة في ليلة السابع والعشرين من رجب» ذكر أبو موسى المديني في كتاب فضائل الأيام والليالي: أن أبا محمد الحباري رواه من طريق الحاكم أبي عبدالله من رواية محمد بن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعاً، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان جداً والحديث منكر.

(٢) حديث: «من أحيا ليلتي العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب» أخرجه بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة.

(٣) حديث أبي هريرة: «من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً وهو اليوم الذي هبط فيه جبريل على محمد ﷺ» رواه أبو موسى المديني في كتاب فضائل الأيام والليالي من رواية شهر بن حوشب عنه.

أيام التشريق. وقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِذَا سَلِمَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ سَلِمَت الأَيَّامُ، وَإِذَا سَلِمَ شَهْرُ رَمَضَانَ سَلِمَتِ السَّنَةُ**»[1]، وقال بعض العلماء: من أخذه مهناة في الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهناة في الآخرة؛ وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء. ومن فواضل الأيام في الأسبوع: يوم الخميس والاثنين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى. وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام في كتاب الصوم، فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين.

تم الربع الأول من كتاب: إحياء علوم الدين وهو ربع العبادات
ويتلوه: الربع الثاني: وهو ربع العادات

(١) حديث أنس: «**إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة**» تقدم في الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط، وقد رواه بجملته ابن حبان في الضعفاء، وأبو نعيم في الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف.

كتاب آداب الأكل

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو الكتاب الأول من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي أحسن تدبير الكائنات، فخلق الأرض والسمٰوات. وأنزل الماء الفرات من المعصرات، فأخرج به الحب والنبات، وقدّر الأرزاق والأقوات، وحفظ بالمأكولات قوى الحيوانات، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات، والصلاة على محمد ذي المعجزات الباهرات، وعلى آله وأصحابه صلاة تتوالى على ممرّ الأوقات، وتتضاعف بتعاقب الساعات، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن مقصد ذوي الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلاْ بالعلم والعمل، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات، فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدين، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ويقوى به على التقوى فلا ينبغي أن يترك نفسه مهملاً سدى، يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى، فإن ما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه. وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التي يزم العبد بزمامها ويلجم المتقي بلجامها، حتى يتزن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامها وإحجامها، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر وإن كان فيها أوفى حظّ للنفس. قال ﷺ: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْجَرُ حَتَّىٰ فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إلى فِيهِ وَإلى في امْرَأَتِهِ»**(١) وإنما ذلك إذا رفعها بالدين وللدين مراعياً فيه آدابه ووظائفه.

وها نحن نرشد إلى وظائف الدين في الأكل، فرائضها وسننها وآدابها ومروءاتها وهيئاتها في أربعة أبواب، وفصل في آخرها.

الباب الأول: فيما لا بد للآكل من مراعاته وإن انفرد بالأكل.

كتاب آداب الأكل

(١) حديث: «إن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى فيه وإلى في امرأته» أخرجه البخاري من حديث لسعد بن أبي وقاص: «وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك».

الباب الثاني: فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع على الأكل.

الباب الثالث: فيما يخص تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين.

الباب الرابع: فيما يخص الدعوة والضيافة وأشباهها.

* * *

الباب الأول

فيما لا بد للمنفرد منه وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول: في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي سبعة:

الأول: أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه طيباً في جهة مكسبه، موافقاً للسنّة والورع، لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع، ولا بحكم هوى ومداهنة في دين ـ على ما سيأتي في معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام ـ وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل؛ تفخيماً لأمر الحرام وتعظيماً لبركة الحلال فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] إلى قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ الآية [النساء: ٢٩]، فالأصل في الطعام كونه طيباً، وهو من الفرائض وأصول الدين.

الثاني: غسل اليد، قال ﷺ: **«الوُضُوءُ قَبْلَ الطَّعَامِ يَنْفِي الفَقْرَ وَبَعْدَهُ يَنْفِي اللَّمَمَ»**[1] وفي رواية: **«يَنْفِي الفَقْرَ قَبْلَ الطَّعَامِ وَبَعْدَهُ»** ولأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة. ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة؛ فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجري منه مجرى الطهارة من الصلاة.

الثالث: أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة، كان رسول الله ﷺ إذا أتي بطعام وضعه على الأرض[2]. فهذا أقرب إلى التواضع. فإن لم يكن فعلى السفرة؛ فإنها تذكر السفر ويتذكر من السفر سفر الآخرة وحاجته

الباب الأول

(١) حديث: **«الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم»**، وفي رواية: **«ينفي الفقر قبل الطعام وبعده»** أخرجه القضاعي في مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آبائه متصلاً باللفظ الأول، وللطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس: **«الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفي الفقر»**. ولأبي داود والترمذي من حديث سلمان: **«بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده»** وكلها ضعيفة.

(٢) حديث: **«كان إذا أتي بطعام وضعه على الأرض»** أخرجه أحمد في كتاب الزهد من رواية الحسن مرسلاً، ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه وفيه جماعة. وثقه أحمد وضعفه الدارقطني.

إلى زاد التقوى. وقال أنس بن مالك رحمه الله: «مَا أَكَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَىٰ خِوانٍ وَلاَ فِي سكرجَةٍ»[(١)] . قيل: فعلى ماذا كنتم تأكلون؟ قال: على السفرة. وقيل: أربع أحدِثت بعد رسول الله ﷺ: الموائد والمناخل والأشنان والشبع. واعلم: أنّا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على المائدة منهي عنه نهي كراهة أو تحريم إذا لم يثبت فيه نهي، وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهياً، بل المنهي بدعة تضاد سنّة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس في المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه. والأربع التي جمعت في أنها مبدعة ليست متساوية بل الأشنان حسن لما فيه من النظافة، فإن الغسل مستحب للنظافة والأشنان أتم في التنظيف، وكانوا لا يستعملونه لأنه ربما كان لا يعتاد عندهم أو لا يتيسر، أو كانوا مشغولين بأمور أهم من المبالغة في النظافة، فقد كانوا لا يغسلون اليد أيضاً، وكانت مناديلهم أخمص أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل مستحباً. وأما المنخل فالمقصود منه تطييب الطعام وذلك مباح ما لم ينته إلى التنعم المفرط. وأما المائدة فتيسير للأكل وهو أيضاً مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعاظم. وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهييج الشهوات وتحريك الأدواء في البدن، فلتدرك التفرقة بين هذه المبدعات.

الرابع: أن يحسن الجلسة على السفرة في أوّل جلوسه ويستديمها. كذلك كان رسول الله ﷺ ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه، وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى[(٢)] وكان يقول: «**لاَ آكُلُ مُتَّكِئاً**[(٣)] **إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ**»[(٤)] والشرب متكئاً مكروه للمعدة أيضاً، ويكره الأكل نائماً ومتكئاً إلا ما يتنقل به من الحبوب. روي عن علي كرم الله وجهه أنه أكل كعكاً على ترس وهو مضطجع ويقال منبطح على بطنه والعرب قد تفعله.

الخامس: أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى؛ ليكون مطيعاً بالأكل ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل، قال إبراهيم بن شيبان: منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئاً لشهوتي. ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل، فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل ما دون الشبع؛ فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوي عليها، فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإيثار القناعة على الاتساع، قال

---

(١) حديث أنس: «ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة....» الحديث. رواه البخاري. والسكرجة: تشبه الطبلية.

(٢) حديث: «ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى» أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن بشير في أثناء حديث: «أتوا تلك القصعة فالتفوا عليها فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ ..» الحديث. وله وللنسائي من حديث أنس: «رأيته يأكل وهو مقنع من الجوع»، وروى أبو الحسن بن المقري في الشمائل من حديثه: «كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد**»» وإسناده ضعيف.

(٣) حديث كان يقول: «**لا آكل متكئاً**» أخرجه البخاري من حديث أبي جحيفة.

(٤) حديث: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد**» تقدم قبله من حديث أنس بلفظ: «**وأفعل**» بدل: «**وأجلس**» ورواه البزار من حديث ابن عمر دون قوله «**وأجلس**».

رسول الله ﷺ: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِن بَطْنِهِ. حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَثُلُثٌ طَعَامٌ وَثُلُثٌ شَرَابٌ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ**»(١). ومن ضرورة هذه النية: أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحد ما لا بد من تقديمه على الأكل، ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب، وسيأتي فائدة قلة الأكل وكيفية التدريج في التقليل منه في كتاب كسر شهوة الطعام من ربع المهلكات.

السادس: أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام، ولا يجتهد في التنعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم، بل من كرامة الخبز أن لا ينتظر به الأدم، وقد ورد الأمر بإكرام الخبز(٢)، فكل ما يديم الرمق ويقوي على العبادة فهو خير كثير لا ينبغي أن يستحقر، بل لا ينتظر بالخبز الصلاة إن حضر وقتها إذا كان في الوقت متسع، قال ﷺ: «**إِذَا حَضَرَ العِشَاءُ وَالعَشَاءُ فَابْدَؤُوا بِالعَشَاءِ**»(٣). وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشائه، ومهما كانت النفس لا تتوق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة، فأما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان في التأخير ما يبرد الطعام أو يشوش أمره فتقديمه أحب عند اتساع الوقت، تاقت النفس أو لم تتق؛ لعموم الخبر، ولأن القلب لا يخلو عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالباً.

السابع: أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده. قال ﷺ: «**اجْتَمِعُوا عَلَىٰ طَعَامِكُمْ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**»(٤). وقال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ لا يأكل وحده»(٥). وقال ﷺ: «**خَيْرُ الطَّعَامِ مَا كَثُرَتْ عَلَيْهِ الأَيْدِي**».

القسم الثاني: في آداب حالة الأكل:

وهو أن يبدأ بـ «بسم الله» في أوّله وبـ «الحمد لله» في آخره. ولو قال مع كل لقمة «بسم الله» فهو حسن حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى، ويقول مع اللقمة الأولى «بسم الله» ومع الثانية «بسم الله الرحمن» ومع الثالثة «بسم الله الرحمن الرحيم» ويجهر به ليذكر غيره. ويأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به، ويصغّر اللقمة ويجوّد مضغها، وما لم يبتلعها لم يمدّ اليد إلى الأخرى؛ فإن ذلك عجلة في الأكل، وأن لا يذم مأكولاً. «كَانَ ﷺ لاَ يَعِيبُ مَأْكُولاً؛ كَانَ إِذَا أَعْجَبَهُ أَكَلَهُ وَإِلاَّ تَرَكَهُ»(٦) وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فإن له أن يجيل يده فيها، قال ﷺ: «**كُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»(٧). ثم كان ﷺ يدور على الفاكهة، فقيل له

---

(١) حديث: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه...**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي وابن ماجه من حديث المقداد بن معد يكرب.

(٢) حديث: «**أكرموا الخبز**» أخرجه البزار والطبراني وابن قانع من حديث عبدالله بن أم حرام بإسناد ضعيف جداً، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(٣) حديث: «**إذا حضر العشاء والعشاء فابدؤوا بالعشاء**» تقدم في الصلاة والمعروف «**وأقيمت الصلاة**».

(٤) حديث: «**اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه**» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشي بن حرب بإسناد حسن.

(٥) حديث أنس «كان رسول الله ﷺ لا يأكل وحده» رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

(٦) حديث أنس «كان لا يعيب مأكولاً إن أعجبه أكله وإلا تركه» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: «**كل مما يليك**» متفق عليه من حديث عمر بن أبي سلمة.

في ذلك فقال: «**لَيْسَ هُوَ نَوْعاً وَاحِداً**»[١]. وأن لا يأكل من دورة القصعة ولا من وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قلَّ الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكين،[٢] ولا يقطع اللحم أيضاً فقد نهى عنه وقال: «**انْهَشُوهُ نَهْشاً**»[٣]. ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يأكل به، قال ﷺ: «**أَكْرِمُوا الخُبْزَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْزَلَهُ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ**» ولا يمسح يده بالخبز. وقال ﷺ: «**إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا وَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذَىٰ وَلاَ يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، وَلاَ يَمْسَحْ يَدَهُ بِالمِنْدِيلِ حَتَّىٰ يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ البَرَكَةَ**»[٤]، ولا ينفخ في الطعام الحار[٥] فهو منهي عنه، بل يصبر إلى أن يسهل أكله، ويأكل من التمر وتراً سبعاً أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو ما اتفق، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق ولا يجمع في كفه، بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقيها، وكذا كل ما له عجم وثفل، وأن لا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله. وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غصَّ بلقمة أو صدق عطشه؛ فقد قيل: إن ذلك مستحب في الطب وإنه دباغ المعدة.

وأما الشرب، فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول: «بسم الله» ويشربه مصاً لا عباً. قال ﷺ: «**مُصُّوا المَاءَ مَصّاً وَلاَ تَعُبُّوهُ عَبّاً فَإِنَّ الكُبَادَ مِنَ العَبِّ**»[٦] ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً فإنه ﷺ نهى عن الشرب قائماً[٧]، وروي أنه ﷺ شرب قائماً[٨] ولعله كان لعذر. ويراعي أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه وينظر في الكوز قبل الشرب، ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز، بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية. وقد قال ﷺ بعد الشرب: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَهُ عَذْباً فُرَاتاً بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحاً أُجَاجاً بِذُنُوبِنَا**»[٩]. والكوز وكل ما يدار على القوم يدار يمنة، وقد شرب رسول الله ﷺ لبناً وأبو بكر

---

(١) حديث: «كان يدور على الفاكهة وقال: **«ليس هو نوعاً واحداً»**» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عكراش بن ذؤيب وفيه «وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق فقال: **يا عكراش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد**» قال الترمذي: غريب، ورواه ابن حبان في الضعفاء.

(٢) حديث: «النهي عن قطع الخبز بالسكين» رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة، وفيه نوح بن أبي مريم وهو كذاب، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أم سلمة بسند ضعيف.

(٣) حديث: «**النهي عن قطع اللحم بالسكين**» أخرجه أبو داود من حديث عائشة وقال: «**فانهشوه نهشاً**» قال النسائي: منكر. وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث صفوان بن أمية: «**وانهشوا اللحم نهشاً**» وسنده ضعيف.

(٤) حديث: «**إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة**» أخرجه مسلم من حديث أنس وجابر.

(٥) حديث: «**النهي عن النفخ في الطعام والشراب**» أخرجه أحمد في مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبي داود والترمذي، وصححه ابن ماجه إلا أنهم قالوا: «**في الإناء**» وأخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي سعيد «نهى عن النفخ في الشراب».

(٦) حديث: «**مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بالشطر الأول ولأبي داود في المراسيل من رواية عطاء بن أبي رباح «**إذا شربتم فاشربوا مصاً**».

(٧) حديث: «النهي عن الشرب قائماً» أخرجه مسلم من حديث أنس وأبي سعيد وأبي هريرة.

(٨) حديث: «أنه ﷺ شرب قائماً» متفق عليه من حديث ابن عباس، «وذلك من زمزم».

(٩) حديث: «كان يقول بعد الشرب: **الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا**» أخرجه الطبراني في الدعاء مرسلاً من رواية أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين.

رضي الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه وعمر ناحيته، فقال عمر رضي الله عنه: أعط أبا بكر فناول الأعرابي وقال: «**الأيمن فالأيمن**»، ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله في أواخرها ويسمي الله في أوائلها، ويقول في آخر النفس الأول: «الحمد لله» وفي الثاني يزيد «رب العالمين» وفي الثالث يزيد «الرحمن الرحيم» فهذا قريب من عشرين أدباً في حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار.

القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام:

وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه ثم يمسح بالمنديل ثم يغسلها ويلتقط فتات الطعام. قال ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ مَا يَسْقُطُ مِنَ المَائِدَةِ عَاشَ فِي سِعَةٍ وَعُوفِيَ فِي وَلَدِهِ**»[(١)]. ويتخلل ولا يبتلع كل ما يخرج من بين أسنانه بالخلال إلا ما يجمع من أصول أسنانه بلسانه، أما المخرج بالخلال فيرميه وليتمضمض بعد الخلال ففيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام. وأن يلعق القصعة ويشرب ماءها، ويقال: من لعق القصعة وغسلها وشرب ماءها كان له عتق رقبة. وأن التقاط الفتات مهور الحور العين، وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه، قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٢] ومهما أكل حلالاً قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات، اللهم أطعمنا طيباً واستعملنا صالحاً. وإن أكل شبهة فليقل: الحمد لله على كل حال، اللهم لا تجعله قوّة لنا على معصيتك، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولإيلاف قريش، ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أوّلاً، فإن أكل طعام الغير فليدع له وليقل: اللهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته، ويسر له أن يفعل فيه خيراً، وقنعه بما أعطيته، واجعلنا وإياه من الشاكرين. وإن أفطر عند قوم فليقل: أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة. وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبهة، ليطفىء بدموعه وحزنه حرّ النار التي تعرض لها لقوله ﷺ: «**كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ حَرَامٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ**»[(٢)] وليس من يأكل ويبكي كمن يأكل ويلهو. وليقل إذا أكل لبناً: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه[(٣)]، فإن أكل غيره قال: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وارزقنا خيراً منه، فذلك الدعاء مما خص به رسول الله ﷺ اللبن لعموم نفعه. ويستحب عقيب الطعام أن يقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، سيدنا ومولانا يا كافي من كل شيء ولا يكفي منه شيء أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد، آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت من عيلة فلك الحمد حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه، اللهم أطعمتنا طيباً فاستعملنا صالحاً واجعله عوناً لنا على طاعتك، ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك. وأما غسل اليدين بالأشنان فكيفيته: أن يجعل الأشنان

---

(١) حديث: «**من أكل ما سقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده**» أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر بلفظ: «**أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحمق**» وله من حديث الحجاج بن علاط: «**أعطي سعة من الرزق ووقي في ولده**» وكلاهما منكر جداً.

(٢) حديث: «**كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به**» هو في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ: «**سحت**» وهو عند الترمذي وحسنه بلفظ: «**لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به**».

(٣) حديث: «القول عند أكل اللبن: **اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه**» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عباس: «**إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، ومن سقاه الله لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه**».

في كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليد اليمنى أوّلاً، ويضرب أصابعه على الأشنان اليابس فيمسح به شفتيه، ثم ينعم غسل الفم بأصبعه، ويدلك ظاهر أسنانه وباطنها والحنك واللسان، ثم يغسل أصابعه من ذلك بالماء، ثم يدلك ببقية الأشنان اليابس أصابعه ظهراً وبطناً، ويستغني بذلك عن إعادة الأشنان إلى الفم وإعادة غسله.

❋ ❋ ❋

الباب الثاني

فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة:

الأول: أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به، فحينئذ ينبغي أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له.

الثاني: أن لا يسكتوا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم، ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدّثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

الثالث: أن يرفق برفيقه في القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله، فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً، بل ينبغي أن يقصد الإيثار، ولا يأكل تمرتين في دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم. فإن قلل رفيقه نشطه ورغبه في الأكل وقال له: «كُلْ» ولا يزيد في قوله: «كُلْ» على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإفراط، كان رسول الله ﷺ إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث[1]، وكان ﷺ يكرّر الكلام ثلاثاً[2]، فليس من الأدب الزيادة عليه، فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع؛ قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: الطعام أهون من أن يحلف عليه.

الرابع: أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له: كُلْ، قال بعض الأدباء: أحسن الآكلين أكلاً من لا يحوج صاحبه إلى أن يتفقده في الأكل وحمل عن أخيه مؤنة القول، ولا ينبغي أن يدع شيئاً مما يشتهيه لأجل نظر الغير إليه، فإن ذلك تصنع بل يجري على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئاً في الوحدة، ولكن يعوّد نفسه حسن الأدب في الوحدة؛ حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع. نعم لو قلل من أكله إيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن، وإن زاد في الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم في الأكل فلا بأس به بل هو حسن، وكان ابن المبارك يقدّم فاخر الرطب إلى إخوانه ويقول: من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهماً. وكان يعد النوى ويعطي كل من له فضل نوى بعدده دراهم، وذلك لدفع الحياء وزيادة النشاط في الانبساط، وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما: أحب إخواني إليّ أكثرهم أكلاً

الباب الثاني

فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

(١) حديث: «كان إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث» أخرجه أحمد من حديث جابر في حديث طويل ومن حديث أبي حدرد أيضاً وإسنادهما حسن.

(٢) حديث: «كان يكرر الكلمة ثلاثاً» أخرجه البخاري من حديث أنس: «كان يعيد الكلمة ثلاثاً».

وأعظمهم لقمة وأثقلهم عليّ من يحوجني إلى تعهده في الأكل، وكل هذا إشارة إلى الجري على المعتاد وترك التصنع، وقال جعفر رحمه الله أيضاً: تتبين جودة محبة الرجل لأخيه بجودة أكله في منزله.

الخامس: أن غسل اليد في الطست لا بأس به وله أن يتنخم فيه إن أكل وحده، وإن أكل مع غيره فلا ينبغي أن يفعل ذلك، فإذا قدّم الطست إليه غيره إكراماً له فليقبله، اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني رضي الله عنهما على طعام فقدّم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس: إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها فإنما يكرم الله عزّ وجلّ. وروي أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فصب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال: يا أبا معاوية تدري من صب على يديك؟ فقال: لا، قال: صبه أمير المؤمنين، فقال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته، فأجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله. ولا بأس أن يجتمعوا على غسل اليد في الطست في حالة واحدة فهو أقرب إلى التواضع وأبعد عن طول الانتظار، فإن لم يفعلوه فلا ينبغي أن يصب ماء كل واحد بل يجمع الماء في الطست، قال ﷺ: **«اجْمَعُوا وَضُوءَكُمْ جَمَعَ الله شَمْلَكُمْ»**[1] قيل: إن المراد به هذا، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الأمصار: لا يرفع الطست من بين يدي قوم إلا مملوءة ولا تشبهوا بالعجم، وقال ابن مسعود: اجتمعوا على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الأعاجم. والخادم الذي يصب الماء على اليد كره بعضهم أن يكون قائماً وأحب أن يكون جالساً لأنه أقرب إلى التواضع، وكره بعضهم جلوسه، فروي أنه صب الماء على يد واحد خادم جالساً فقام المصبوب عليه فقيل له: لم قمت؟ فقال: أحدنا لا بدّ وأن يكون قائماً. وهذا أولى؛ لأنه أيسر للصب وللغسل وأقرب إلى تواضع الذي يصب وإذا كان له نية فيه فتمكينه من الخدمة ليس فيه تكبر فإن العادة جارية بذلك. ففي الطست إذاً سبعة آداب: أن لا يبزق فيه، وأن يقدم به المتبوع، وأن يقبل الإكرام بالتقديم، وأن يدار يمنة، وأن يجتمع فيه جماعة، وأن يجمع الماء فيه، وأن يكون الخادم قائماً، وأن يمج الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه، وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أوّل نزوله عليه وقال: لا يروعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض.

السادس: أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون، بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده، بل يمدّ اليد ويقبضها ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا فإن كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقلّل الأكل حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيراً، فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعاً للخجلة عنهم.

السابع: أن لا يفعل ما يستقذره غيره، فلا ينفض يده في القصعة ولا يقدّم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة فقد يكرهه غيره، واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرقة والخل، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات.

❋ ❋ ❋

---

(١) حديث: «اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم» رواه القضاعي في مسند الشهاب في حديث أبي هريرة بإسناد لا بأس به، وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة إبراهيم وقال: إنه معضل وفيه نظر.

الباب الثالث

في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير. قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما: إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس، فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم. وقال الحسن رحمه الله: كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها ألبتة إلا نفقة الرجل على إخوانه في الطعام فإن الله يستحيي أن يسأله عن ذلك. هذا مع ما ورد من الأخبار في الإطعام. قال ﷺ: **«لاَ تَزَالُ المَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَتْ مَائِدَتُهُ مَوْضُوعَةً بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّىٰ تُرْفَعَ»**[1] وروي عن بعض علماء خراسان: أنه كان يقدّم إلى إخوانه طعاماً كثيراً لا يقدرون على أكل جميعه، وكان يقول بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يحاسب من أكل فضل ذلك»**[2] فأنا أحب أن أستكثر مما أقدّمه إليكم لنأكل فضل ذلك، وفي الخبر: **«لا يحاسب العبد على ما يأكله مع إخوانه»**[3] وكان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة لذلك ويقلل إذا أكل وحده، وفي الخبر: **«ثلاثة لا يحاسب عليها العبد: أكلة السحور، وما أفطر عليه، وما أكل مع الإخوان»**[4] وقال علي رضي الله عنه: لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه، وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون: الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق، وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرّقون إلا عن ذواق، وقيل: اجتماع الإخوان على الكفاية مع الأنس والألفة ليس هو من الدنيا. وفي الخبر: **«يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة: يا ابن آدم جعت فلم تطعمني فيقول كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: جاع أخوك المسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتني»**[5]. وقال ﷺ: **«إِذَا جَاءَكُم الزَّائِرُ فَأَكْرِمُوهُ»**[6] وقال ﷺ: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، هِيَ لِمَنْ أَلاَنَ الكَلاَمَ وَأَطْعَمَ**

الباب الثالث

في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

(١) حديث: «لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف.

(٢) حديث: «إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لا يحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام» لم أقف له على أصل.

(٣) حديث: «لا يحاسب العبد بما يأكله مع إخوانه» هو في الحديث الذي بعده بمعناه.

(٤) حديث: «ثلاثة لا يحاسب عليها العبد: أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان» أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث جابر: «ثلاثة لا يسألون عن النعيم: الصائم والمتسحر والرجل يأكل مع ضيفه» أورده في ترجمة سليمان بن داود الجزري وقال فيه: منكر الحديث، ولأبي منصور والديلمي في مسند الفردوس نحوه من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: «يقول الله للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جعت فلم تطعمني. . .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «استطعمتك فلم تطعمني».

(٦) حديث: «إذا جاءكم الزائر فأكرموه» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس وهو حديث منكر، قاله ابن أبي حاتم في العلل عن أبيه.

الطَّعَامَ وَصَلَّىٰ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(١) . وقال ﷺ : **«خَيْرُكُمْ مَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ»**(٢) . وقال ﷺ : **«مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ حَتَّىٰ يُشْبِعَهُ وَسَقَاهُ حَتَّىٰ يُرْوِيَهُ بَعَّدَهُ الله مِنَ النَّارِ بِسَبْعِ خَنَادِقَ مَا بَيْنَ كُلِّ خَنْدَقَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ»**(٣) .

وأما آدابه : فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام. أما الدخول : فليس من السنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل، فإن ذلك من المفاجأة، وقد نهي عنه. قال الله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعني منتظرين حينه ونضجه. وفي الخبر : **«مَنْ مَشَىٰ إِلَىٰ طَعَام لَمْ يُدْعَ إِلَيْهِ مَشَىٰ فَاسِقاً وَأَكَلَ حَرَاماً»**(٤) ولكن حق الداخل إذا لم يتربص واتفق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له، فإذا قيل له : كُلْ. نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد، وإن كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغي أن يأكل، بل ينبغي أن يتعلل، أما إذا كان جائعاً فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به. «قصد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعاً»(٥) والدخول على مثل هذه الحالة إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السلف. وكان عون بن عبدالله المسعودي له ثلاثمائة وستون صديقاً يدور عليهم في السنة. ولآخر ثلاثون يدور عليهم في الشهر. ولآخر سبعة يدور عليهم في الجمعة. فكان إخوانهم معلومهم بدلاً عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادة لهم، فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقاً بصداقته عالماً بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه؛ إذ المراد من الإذن الرضا لا سيما في الأطعمة وأمرها على السعة. فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه، وربّ غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب. وقد قال تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١] ودخل رسول الله ﷺ دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان الطعام من الصدقة فقال : **«بَلَغَتِ الصَّدَقَةُ مَحِلَّهَا»**(٦) وذلك لعلمه

---

(١) حديث: **«إن في الجنة غرفاً يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام»**. أخرجه الترمذي من حديث علي وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق وقد تكلم فيه من قبل حفظه.

(٢) حديث: **«خيركم من أطعم الطعام»** أخرجه أحمد والحاكم من حديث صهيب وقال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث: **«من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام»** أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمر، وقال ابن حبان: ليس من حديث رسول الله ﷺ، وقال الذهبي: غريب منكر.

(٤) حديث: **«من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقاً وأكل حراماً»** أخرجه البيهقي من حديث عائشة نحوه وضعفه، ولأبي داود من حديث ابن عمر **«من دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مغيراً»** إسناده ضعيف.

(٥) حديث: «قصد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لمنزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه» أما قصة أبي الهيثم فرواها الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن غريب صحيح، والقصة عند مسلم لكن ليس فيها ذكر لأبي الهيثم وإنما قال: «رجل من الأنصار»، وأما حديث قصدهم منزل أبي أيوب: فرواها الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(٦) حديث: **«دخل رسول الله ﷺ دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان من الصدقة فقال: بلغت الصدقة مكانها»** متفق عليه من حديث عائشة «أهدي لبريرة لحم فقال النبي ﷺ: **هو لها صدقة ولنا هدية**» وأما قوله **«بلغت محلها»** فقاله في الشاة التي أعطيتها نسيبة من الصدقة وهو متفق عليه أيضاً من حديث أم عطية.

بسرورها بذلك، لذلك يجوز أن يدخل الدار بغير استئذان اكتفاء بعلمه بالإذن، فإن لم يعلم فلا بد من الاستئذان أوّلاً ثم الدخول. وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول: هكذا كنا، وروي عن الحسن رضي الله عنه أنه كان قائماً يأكل من متاع بقال في السوق يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه قسبة، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع، تأكل متاع الرجل بغير إذنه؟ فقال: يا لكع اتل عليَّ آية الأكل، فتلا إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النُّور: ٦١] فقال: فمن الصديق يا أبا سعيد؟ قال: من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب، ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون، فدخل الثوري وجعل يقول: ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا. وزار قوم بعض التابعين ولم يكن عنده ما يقدمه إليهم، فذهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه في المنزل فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبزه وغير ذلك فحمله كله فقدمه إلى أصحابه وقال: كلوا، فجاء رب المنزل فلم ير شيئاً، فقيل له: قد أخذ فلان، فقال: قد أحسن، فلما لقيه قال: يا أخي إن عادوا فعد. فهذه آداب الدخول.

وأما آداب التقديم: فترك التكلف أوّلاً وتقديم ما حضر، فإن لم يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه، وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم. دخل بعضهم على زاهد وهو يأكل فقال: لولا أني أخذته بدين لأطعمتك منه، وقال بعض السلف في تفسير التكلف: أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت بل تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة. وكان الفضيل يقول: إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه. وقال بعضهم: ما أبالي بمن أتاني من إخواني فإني لا أتكلف له إنما أقرب ما عندي، ولو تكلفت له لكرهت مجيئه وملته. وقال بعضهم: كنت أدخل على أخ لي فيتكلف لي فقلت له: إنك لا تأكل وحدك هذا ولا أنا فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه؟ فإما أن تقطع هذا التكلف أو أقطع المجيء، فقطع التكلف ودام اجتماعنا بسببه، ومن التكلف: أن يقدم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم، روي أن رجلاً دعا علياً رضي الله عنه فقال علي: أجيبك على ثلاث شرائط: لا تدخل من السوق شيئاً، ولا تدخر ما في البيت، ولا تجحف بعيالك. وكان بعضهم يقدم من كل ما في البيت فلا يترك نوعاً إلا ويحضر شيئاً منه. وقال بعضهم: دخلنا على جابر بن عبدالله فقدم إلينا خبزاً وخلاً وقال: لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم[1]. وقال بعضهم: إذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر وإن استزرت فلا تبق ولا تذر. وقال سلمان: أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا[2]. وفي حديث يونس النبي ﷺ أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسراً وجزَّ لهم بقلاً كان يزرعه ثم قال لهم: كلوا لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره من

(١) حديث: «دخلنا على جابر بن عبدالله فقدم إلينا خبزاً وخلاً وقال: لولا أنا نهينا عن التكلف لكم لتكلفت لكم» رواه أحمد دون قوله «لولا أنا نهينا» وهو من حديث سلمان الفارسي وسيأتي بعده وكلاهما ضعيف، وللبخاري عن عمر بن الخطاب «نهينا عن التكلف».

(٢) حديث سلمان «أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، ولأحمد «لولا أن رسول الله ﷺ نهانا ـ أو لولا أنا نهينا ـ أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلفنا لك» وللطبراني: «نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا».

الصحابة: أنهم كانوا يقدمون ما حضر من الكسر اليابسة وحشف التمر ويقولون: لا ندري أيهما أعظم وزراً؛ الذي يحتقر ما يقدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه؟.

الأدب الثاني: وهو للزائر؛ أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور إحضاره فإن خيَّره أخوه بين طعامين فليتخير أيسرهما عليه، كذلك السنَّة. ففي الخبر أنه ما خير رسول الله ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسرهما[(١)] وروى الأعمش عن أبي وائل أنه قال: مضيت مع صاحب لي نزور سلمان فقدم إلينا خبز شعير وملحاً جريشاً، فقال صاحبي: لو كان في هذا الملح سعتراً كان أطيب، فخرج سلمان فرهن مطهرته وأخذ سعتراً، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا. فقال سلمان: لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة. هذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه أو كراهته له، فإن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح؛ فعل الشافعي رضي الله عنه ذلك مع الزعفراني إذ كان نازلاً عنده ببغداد وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام وألحق بها لوناً آخر بخطه، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر وقال: ما أمرت بهذا؟ فعرضت عليه الرقعة ملحقاً فيها خط الشافعي فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سروراً باقتراح الشافعي عليه. وقال أبو بكر الكتاني: دخلت على السري فجاء بفتيت وأخذ يجعل نصفه في القدح فقلت له: أي شيء تعمل وأنا أشربه كله في مرة واحدة؟ فضحك وقال: هذا أفضل لك من حجة. وقال بعضهم: الأكل على ثلاثة أنواع، مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط، ومع أبناء الدنيا بالأدب.

الأدب الثالث: أن يُشهّي المزور أخاه الزائر، ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح، فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل. قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَادَفَ مِنْ أَخِيهِ شَهْوَةً غُفِرَ لَهُ وَمَنْ سَرَّ أَخَاهُ المُؤْمِنَ فَقَدْ سَرَّ الله تَعَالَىٰ»**[(٢)] وقال ﷺ فيما رواه جابر: **«مَنْ لَذَّذَ أَخَاهُ بِمَا يَشْتَهِي كَتَبَ الله لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ وَأَطْعَمَهُ الله مِنْ ثَلَاثِ جَنَّاتٍ: جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ وَجَنَّةُ عَدَنٍ وَجَنَّةُ الخُلْدِ»**[(٣)].

الأدب الرابع: أن لا يقول له: هل أقدّم لك طعاماً؟ بل ينبغي أن يقدّم إن كان. قال الثوري: إذا زارك أخوك فلا تقل له: أتأكل؟ أو أقدّم إليك؟ ولكن قدّم فإن أكل وإلا فارفع. وإن كان يريد أن يطعمهم طعاماً فلا ينبغي أن يظهرهم عليه أو يصفه لهم. قال الثوري: إذا أردت أن لا تطعم عيالك مما تأكله فلا تحدّثهم به ولا يرونه معك. وقال بعض الصوفية: إذا دخل عليكم الفقراء فقدموا إليهم طعاماً، وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألة، فإذا دخل القراء فدلوهم على المحراب.

❋ ❋ ❋

(١) حديث: «ما خير رسول الله ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسرهما» متفق عليه من حديث عائشة وزاد «ما لم يكن إثماً» ولم يذكرها مسلم في بعض طرقه.

(٢) حديث: **«من صادف من أخيه شهوة غفر الله له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله عز وجل»** أخرجه البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء: **«من وافق من أخيه شهوة غفر له»** قال ابن الجوزي حديث موضوع، وروى ابن حبان والعقيلي في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق: **«من سر مؤمناً فإنما سر الله...»** الحديث. قال العقيلي: باطل لا أصل له.

(٣) حديث جابر: **«من لذذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة...»** الحديث. ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر، وقال أحمد بن حنبل: هذا باطل كذب.

الباب الرابع

في آداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة: الدعوة أوّلاً، ثم الإجابة، ثم الحضور، ثم تقديم الطعام، ثم الأكل، ثم الانصراف. ولنقدم على شرحها إن شاء الله تعالى.

فضيلة الضيافة: قال ﷺ: **«لاَ تَكَلَّفُوا لِلضَّيْفِ فَتُبْغِضُوهُ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْغَضَ الضَّيْفَ فَقَدْ أَبْغَضَ الله وَمَنْ أَبْغَضَ الله أَبْغَضَهُ الله»**(١). وقال ﷺ: **«لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يُضِيفُ»**(٢). ومرَّ رسول الله ﷺ برجل له إبلٍ وبقر كثيرة فلم يضيفه ومرَّ بامرأة لها شويهات فذبحت له. فقال ﷺ: **«انْظُرُوا إِلَيْهِمَا إِنَّمَا هٰذِهِ الأَخْلاَقُ بِيَدِ الله فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَمْنَحَهُ خُلُقاً حَسَناً فَعَلَ»**(٣) وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ إنه نزل به ﷺ ضيف فقال: **«قُلْ لِفُلاَنِ اليَهُودِيّ نَزَلَ بِي ضَيْفٌ فَأَسْلِفْنِي شَيْئاً مِنَ الدَّقِيقِ إِلَىٰ رَجَبٍ»**، فقال اليهودي: والله ما أسلفه إلا برهنٍ، فأخبرته فقال: **«وَالله إِنِّي لأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي الأَرْضِ وَلَوْ أَسْلَفَنِي لأَدَّيْتُهُ فَاذْهَبْ بِدِرْعِي وَارْهَنْهُ عِنْدَهُ»**(٤)، وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغدّى معه وكان يكنى أبا الضيفان، ولصدق نيته فيه دامت ضيافته في مشهده إلى يومنا هذا، فلا تنقضي ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة. وقال قوّام الموضع: إنه لم يخل إلى الآن ليلة عن ضيف. وسئل رسول الله ﷺ ما الإيمان؟ فقال: **«إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَبَذْلُ السَّلاَمِ»**(٥). وقال ﷺ: **«فِي الكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَالصَّلاَةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»**(٦) وسئل عن الحج المبرور فقال: **«إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَطِيبُ الكَلاَمِ»**(٧) وقال أنس رضي الله عنه: كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة. والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لا تحصى فلنذكر آدابها.

الباب الرابع في آداب الضيافة

(١) حديث: **«لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله، ومن أبغض الله أبغضه الله»** أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث سلمان: **«لا يتكلفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه»** وفيه محمد بن الفرج الأزرق متكلم فيه.

(٢) حديث: **«لا خير فيمن لا يضيف»** أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة.

(٣) حديث: «مر رسول الله ﷺ برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضفه ومر بامرأة لها شويهات فذبحت له. . .» الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية أبي المنهال مرسلاً.

(٤) حديث أبي رافع «أنه نزل برسول الله ﷺ ضيف فقال: **«قل لفلان اليهودي: نزل بي ضيف فأسلفني شيئاً من الدقيق إلى رجب»**. . .» الحديث. رواه إسحاق بن راهويه في مسنده والخرائطي في مكارم الأخلاق وابن مردويه في التفسير بإسناد ضعيف.

(٥) حديث: «سئل رسول الله ﷺ ما الإيمان؟ قال: **«إطعام الطعام وبذل السلام»**» متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «أي الإسلام خير؟ قال: **«تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف»**».

(٦) حديث: قال ﷺ: **«في الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام»** أخرجه الترمذي وصححه والحاكم من حديث معاذ، وقد تقدم بعضه في الباب الرابع من الأذكار وهو حديث **«اللهم إني أسألك فعل الخيرات»**.

(٧) حديث: سئل عن الحج المبرور فقال: **«إطعام الطعام وطيب الكلام»** تقدم في الحج.

أما الدعوة: فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق. قال ﷺ: «**أَكَلَ طَعَامَكَ الأَبْرَارُ**»(١) في دعائه لبعض من دعا له. وقال ﷺ: «**لاَ تَأْكُلْ إِلاَّ طَعَامَ تَقِيٍّ وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»(٢). ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص. قال ﷺ: «**شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الوَلِيمَةِ يُدْعَىٰ إِلَيْهَا الأَغْنِيَاءُ دُونَ الفُقَرَاءِ**»(٣)، وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته؛ فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم، وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض إيحاشاً لقلوب الباقين. وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استمالة قلوب الإخوان والتسنن بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين. وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب. وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته، قال سفيان: من دعا أحداً إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة، فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان؛ لأنه حمله على الأكل مع كراهة ولو علم ذلك لما كان يأكله. وإطعام التقي إعانة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق؛ قال رجل خياط لابن المبارك: أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة؟ قال: لا إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة أما أنت فمن الظلمة نفسهم. وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة وقد قيل بوجوبها في بعض المواضع. قال ﷺ: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ كراعٍ لأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ**»(٤).

وللإجابة خمسة آداب:

الأول: أن لا يميز الغني بالإجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه، ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة وقال: انتظار المرقة ذل، وقال آخر: إذا وضعت يدي في قصعة غيري فقد ذلت له رقبتي، ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف السنة؛ كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين(٥)، ومر الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على قارعة الطريق وقد نشروا كسراً على الأرض في الرمل وهم يأكلون وهو على بغلته فسلم عليهم فقالوا له: هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله ﷺ فقال: نعم، إن الله لا يحب المستكبرين، فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ثم سلم عليهم وركب وقال: قد أجبتكم فأجيبوني، قالوا: نعم، فوعدهم وقتاً معلوماً فحضروا فقدّم إليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم. وأما قول القائل: إن من وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي، فقد قال بعضهم: هذا خلاف السنّة وليس كذلك، فإن ذلك إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد منة وكان يرى ذلك يداً له على المدعو، ورسول الله ﷺ كان يحضر لعلمه أن الداعي له يتقلد منة ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة، فهذا يختلف باختلاف الحال، فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام، وإنما يفعل ذلك مباهاة

---

(١) حديث: «**أكل طعامكم الأبرار**» أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد صحيح.
(٢) حديث: «**لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي**» تقدم في الزكاة.
(٣) حديث: «**شر الطعام طعام الوليمة...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٤) حديث: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدي إليّ ذراع لقبلت**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.
(٥) حديث: «كان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس دون ذكر المسكين، وضعفه الترمذي وصححه الحاكم.

أو تكلفاً فليس من السنة إجابته[١] بل الأولى التعلل، ولذلك قال بعض الصوفية: لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك، وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه. وقال سري السقطي رحمه الله: آه على لقمة ليس على الله فيها تبعة ولا لمخلوق فيها منة. فإذا علم المدعوّ أنه لا منة في ذلك فلا ينبغي أن يرد. وقال أبو تراب النخشبي رحمة الله عليه: عرض عليّ طعام فامتنعت، فابتليت بالجوع أربعة عشر يوماً فعلمت أنه عقوبته. وقيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه: كُلُّ مَن دعاك تمر إليه؟ فقال: أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني.

الثاني: أنه لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه، بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجل ذلك، يقال في التوراة أو بعض الكتب: سر ميلاً عد مريضاً، سر ميلين شيع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زر أخاً في الله. وإنما قدم إجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء حق الحي فهو أولى من الميت، وقال ﷺ: «**لَوْ دُعِيت إِلَىٰ كراعٍ بِالغَمِيم لأَجَبْتُ**»[٢] وهو موضع على أميال من المدينة أفطر فيه رسول الله ﷺ في رمضان[٣] لما بلغه وقصر عنده في سفره[٤].

الثالث: أن لا يمتنع لكونه صائماً بل يحضر، فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم وأفضل وذلك في صوم التطوّع، وإن لم يتحقق سرور قلبه فليصدّقه بالظاهر وليفطر، وإن تحقق أنه متكلف فليتعلل. وقد قال ﷺ لمن امتنع بعذر الصوم: «**تَكَلَّفَ لَكَ أَخُوكَ وَتَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ**»[٥]. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار، فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق، فثوابه فوق ثواب الصوم. ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب. وقد قيل: الكحل والدهن أحد القرائين.

الرابع: أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال، أو كان يقام في الموضع منكر من فرش ديباج أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط، أو سماع شيء من المزامير والملاهي، أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب

---

(١) حديث: «**ليس من السنة إجابة من يطعم مباهاة أو تكلفاً**» أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ «نهى عن طعام المتبارين» قال أبو داود: من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس، وللعقيلي في الضعفاء «نهى النبي ﷺ عن طعام المتباهين» والمتباريان: المتعارضان بفعلهما للمباهاة والرياء؛ قاله أبو موسى المديني.

(٢) حديث: «**لو دعيت إلى كراع بالغميم لأجبت**» ذكر الغميم فيه ليعرف والمعروف: «**لو دعيت إلى كراع**» كما تقدم قبله بثلاثة أحاديث، ويرد هذه الزيادة ما رواه الترمذي من حديث أنس «**لو أهدي إلي كراع لقبلت**».

(٣) حديث: «**إفطاره ﷺ في رمضان لما بلغ كراع بالغميم**» رواه مسلم من حديث جابر في عام الفتح.

(٤) حديث: «**قصره ﷺ في سفره عند كراع بالغميم**» لم أقف له على أصل، وللطبراني في الصغير من حديث ابن عمر: «كان يقصر الصلاة بالعقيق» يريد إذا بلغه، وهذا يرد الأول؛ لأن بين العقيق وبين المدينة ثلاثة أميال أو أكثر، وكراع الغميم بين مكة وعسفان والله أعلم.

(٥) حديث: «وقال لمن امتنع بعذر الصوم «**تكلف لك أخوك وتقول إني صائم**»» أخرجه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري «صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً وأتاني هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من القوم: إني صائم، فقال رسول الله ﷺ: «**دعاكم أخوكم وتكلف لكم.**»» الحديث. وللدارقطني نحوه من حديث جابر.

واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب وشبه ذلك مما يمنع الإجابة واستحبابها ويوجب تحريمها أو كراهيتها، وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو مبتدعاً أو فاسقاً أو شريراً أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر.

الخامس: أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملاً في أبواب الدنيا، بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للآخرة، وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ في قوله: **«لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ كراعٍ لأَجَبْتُ»** وينوي الحذر من معصية الله تعالى لقوله ﷺ: **«مَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ فَقَدْ عَصَىٰ الله وَرَسُولَهُ»**(١) وينوي إكرام أخيه المؤمن اتباعاً لقوله ﷺ: **«مَنْ أَكْرَمَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فَكَأَنَّمَا أَكْرَمَ الله»**(٢) وينوي إدخال السرور على قلبه امتثالاً لقوله ﷺ: **«مَنْ سَرَّ مُؤْمِناً فَقَدْ سَرَّ الله»**(٣). وينوي مع ذلك زيارته ليكون من المتحابين في الله؛ إذ شرط رسول الله ﷺ فيه التزاور والتباذل لله(٤). وقد حصل البذل من أحد الجانبين فتحصل الزيارة من جانبه أيضاً، وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظنّ في امتناعه، ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم أو ما يجري مجراه. فهذه ست نيات تلحق إجابته بالقربات آحادها فكيف مجموعها؟ وكان بعض السلف يقول: أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية حتى في الطعام والشراب، وفي مثل هذا قال ﷺ: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ الله وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»**(٥). والنية إنما تؤثر في المباحات والطاعات أما المنهيات فلا، فإنه لو نوى أن يسر إخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر لم تنفع النية ولم يجز أن يقال الأعمال بالنيات، بل لو قصد بالغزو الذي هو طاعة المباهاة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة. وكذلك المباح المردد بين وجوه الخيرات وغيرها يلتحق بوجوه الخيرات بالنية فتؤثر النية في هذين القسمين لا في القسم الثالث.

وأما الحضور: فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدّر فيأخذ أحسن الأماكن، بل يتواضع ولا يطوّل الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوّش عليه، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراماً فليتواضع؛ قال ﷺ: **«إِنَّ مِنَ التَّوَاضُعِ لله الرِّضَا بِالدُّونِ مِنَ الْمَجْلِسِ»**(٦). ولا ينبغي أن يجلس

---

(١) حديث: **«من لم يجب الداعي فقد عصى الله ورسوله»** متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله تعالى»** ذكره الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث جابر، والعقيلي في الضعفاء من حديث أبي بكر وإسنادهما ضعيف.

(٣) حديث: **«من سرّ مؤمناً فقد سرّ الله»** تقدم في الباب قبله.

(٤) حديث: **«وجبت محبتي للمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ولم يذكر المصنف هذا الحديث وإنما أشار إليه.

(٥) حديث: **«الأعمال بالنيات»** متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب.

(٦) حديث: **«إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس»** أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد بسند جيد.

في مقابلة باب الحجرة الذي للنساء وسترهم، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره. ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس. وإذا دخل ضيف للمبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء، كذلك فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما. وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم وقال: الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى، لأنه يدعو الناس إلى كرمه، فحكمه أن يتقدّم بالغسل، وفي آخر الطعام يتأخر بالغسل لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه. وإذا دخل فرأى منكراً غيّره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف، والمنكر: فرش الديباج واستعمال أواني الفضة والذهب والتصوير على الحيطان وسماع الملاهي والمزامير، وحضور النسوة المتكشفات الوجوه وغير ذلك من المحرّمات، حتى قال أحمد رحمه الله: إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ينبغي أن يخرج، ولم يأذن في الجلوس إلا في ضبة وقال: إذا رأى كلة فينبغي أن يخرج فإن ذلك تكلف لا فائدة فيه، ولا تدفع حرّاً ولا برداً ولا تستر شيئاً، وكذلك قال: يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة. وقال: إذا اكترى بيتاً فيه صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغي أن يحكها فإن لم يقدر خرج. وكل ما ذكره صحيح وإنما النظر في الكلة وتزيين الحيطان بالديباج فإن ذلك لا ينتهي إلى التحريم؛ إذ الحرير يحرم على الرجال، قال رسول الله ﷺ: «**هٰذَانِ حَرَامٌ عَلَىٰ ذُكُورِ أُمَّتِي حِلٌ لإِنَاثِهَا**»(١) وما على الحائط ليس منسوباً إلى الذكور ولو حرّم هذا لَحُرّم تزيين الكعبة بل الأولى إباحته لموجب قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] لا سيما في وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر، وإن تخيل أن الرجال ينتفعون بالنظر إليه، ولا يحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباج مهما لبسه الجواري والنساء، والحيطان في معنى النساء إذ لسن موصوفات بالذكورة.

وأما إحضار الطعام، فله آداب خمسة:

الأول: تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف، وقد قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»(٢) ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضر في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير، إلا أن يكون المتأخر فقيراً أو ينكسر قلبه بذلك فلا بأس في التأخير وأحد المعنيين في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤] أنهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم دل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: ٢٦] والروغان: الذهاب بسرعة وقيل في خفية. وقيل جاء بفخذ من لحم وإنما سمي عجلاً لأنه عجله ولم يلبث. قال حاتم الأصم: «العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنّة رسول الله ﷺ؛ إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر،

---

(١) حديث: «**هذان حرامان على ذكور أمتي**» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي، وفيه أبو أفلح الهمداني جهله ابن القطان والنسائي والترمذي وصححه من حديث أبي موسى بنحوه.
قلت: الظاهر انقطاعه بين سعيد بن أبي هند وأبي موسى فأدخل أحمد بينهما رجلاً لم يسم.

(٢) حديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» متفق عليه من حديث أبي سريج.

وقضاء الدين، والتوبة من الذنب»(١) ويستحب التعجيل في الوليمة؛ قيل: الوليمة في أول يوم سنة، وفي الثاني معروف، وفي الثالث رياء.

الثاني: ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن كانت، فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استحالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾ [الواقِعَة: ٢٠] ثم قال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقِعَة: ٢١] ثم أفضل ما يقدّم بعد الفاكهة اللحم والثريد فقد قال عليه السلام: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ**»(أ)، فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات. ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم إذ أحضر العجل الحنيذ ـ أي المحنوذ وهو الذي أجيد نضجه(٢) ـ وهو أحد معنى الإكرام أعني: تقديم اللحم، وقال تعالى في وصف الطيبات: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٥٧] المن: العسل، والسلوى: اللحم(٣)، سمي سلوى لأنه يتسلى به عن جميع الإدام ولا يقوم غيره مقامه، ولذلك قال ﷺ «**سَيِّدُ الإِدَامِ اللَّحْمُ**»، ثم قال بعد ذكر المنّ والسلوى ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٥٧] فاللحم والحلاوة من الطيبات، قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: أكل الطيبات يورث الرضا عن الله. وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل. قال المأمون: شرب الماء بثلج يخلص الشكر. وقال بعض الأدباء: إذا دعوت إخوانك فأطعمتهم حصرمية وبورانية وسقيتهم ماء بارداً فقد أكملت الضيافة. وأنفق بعضهم دراهم في ضيافة، فقال بعض الحكماء: لم نكن نحتاج إلى هذا إذا كان خبزك جيداً وماؤك بارداً وخلك حامضاً فهو كفاية. وقال بعضهم: الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان، والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين. ويقال: إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل، فذلك أيضاً مستحب ولما فيه من التزين بالخضرة. وفي الخبر: إن المائدة التي أنزلت على بني إسرائيل كان عليها من كل البقول إلا الكرّاث، وكان عليها سمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح، وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان، فهذا إذا اجتمع حسن للموافقة.

الثالث: أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفي منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده، وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده، وهو خلاف السنة فإنه حيلة في استكثار الأكل، وكان من سنة المتقدمين أن يقدموا جملة الألوان دفعة واحدة ويصففون

---

(١) حديث حاتم الأصم: «العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله ﷺ إطعام الطعام وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب» أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد: «**الأناة من الله والعجلة من الشيطان**» وسنده ضعيف، وأما الاستثناء فروى أبو داود من حديث سعد بن أبي وقاص: «**التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة**» قال الأعمش: لا أعلم إلا أنه رفعه، وروى المزني في التهذيب في ترجمة محمد بن موسى بن نفيع عن مشيخة من قومه: أن النبي ﷺ قال: «**الأناة في كل شيء إلا في ثلاث إذا صيح في خيل الله وإذا نودي بالصلاة وإذا كانت الجنازة...**» الحديث. مرسل، والترمذي من حديث علي: «**ثلاثة لا تؤخرها: الصلاة إذا أتت والجنازة إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفؤاً**» وسنده حسن.

(أ) حديث فضل عائشة لم يخرجه العراقي وخرجه الشارح عن الترمذي في الشمائل وغيره.

(٢) شواء لا طبخاً.

(٣) المنّ: نوع من الحلوى ينزل كالندى على ورق الشجر في موسم معين، والسلوى: طائر الفر.

القصاع من الطعام على المائدة ليأكل كل واحد مما يشتهي، وإن لم يكن عنده إلا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيب منه. ويحكى عن بعض أصحاب المروءات أنه كان يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ويعرض على الضيفان. وقال بعض الشيوخ: قدّم إليّ بعض المشايخ لوناً بالشام، فقلت: عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخراً، فقال: وكذا عندنا بالشام، ولم يكن له لون غيره فخجلت منه. وقال آخر: كنا جماعة في ضيافة فقدم إلينا ألوان من الرؤوس المشوية طبيخاً وقديداً، فكنا لا نأكل ننتظر بعدها لوناً أو حملاً، فجاءنا بالطست ولم يقدم غيرها، فنظر بعضنا إلى بعض فقال بعض الشيوخ وكان مزاحاً: إن الله تعالى يقدر أن يخلق رؤوساً بلا أبدان، قال: وبتنا تلك الليلة جياعاً نطلب فتيتاً إلى السحور. فلهذا يستحب أن يقدم الجميع أو يخبر بما عنده.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه، أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتنغص عليه بالمبادرة، وهي من التمكن على المائدة التي يقال إنها خير من لونين فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستعجال، ويحتمل أن يكون أراد به سعة المكان حكي عن الستوري وكان صوفياً مزاحاً فحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدّم إليهم حمل ـ وكان في صاحب المائدة بخل ـ فلما رأى القوم مزقوا الحمل كل ممزق ضاق صدره وقال: يا غلام ارفع إلى الصبيان، فرفع الحمل إلى داخل الدار، فقام الستوري يعدو خلف الحمل، فقيل له: إلى أين؟ فقال: آكل مع الصبيان، فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل. ومن هذا الفن: أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون، بل ينبغي أن يكون آخرهم أكلاً. كان بعض الكرام يخبر القوم بجميع الألوان ويتركهم يستوفون، فإذا قاربوا الفراغ جثا على ركبتيه ومد يده إلى الطعام وأكل وقال: بسم الله ساعدوني بارك الله فيكم وعليكم، وكان السلف يستحسنون ذلك منه.

الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية؛ فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة، والزيادة عليه تصنع ومراءاة لا سيما إذا كانت نفسه لا تسمح بأن يأكلوا الكل، إلا أن يقدم الكثير وهو طيب النفس لو أخذوا الجميع ونوى أن يتبرك بفضلة طعامهم؛ إذ في الحديث: لا يحاسب عليه. أحضر إبراهيم بن أدهم رحمه الله طعاماً كثيراً على مائدته فقال له سفيان: يا أبا إسحاق أما تخاف أن يكون هذا سرفاً؟ فقال إبراهيم: ليس في الطعام سرف، فإن لم تكن هذه النية فالتكثير تكلف. قال ابن مسعود رضي الله عنه: نهينا أن نجيب دعوة من يباهي بطعامه، وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة. ومن ذلك كان لا يرفع من بين يدي رسول الله ﷺ فضلة طعام قط لأنهم كانوا لا يقدمون إلا قدر الحاجة ولا يأكلون تمام الشبع.

وينبغي أن يعزل أولاً نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتنطلق في الضيفان ألسنتهم، ويكون قد أطعم الضيفان ما يتبعه كراهية قوم وذلك خيانة في حقهم. وما بقي من الأطعمة فليس للضيفان أخذه وهو الذي تسميه الصوفية الزلة، إلا إذا صرح صاحب الطعام بالإذن فيه عن قلب راض أو علم ذلك بقرينة حاله وأنه يفرح به، فإن كان يظن كراهيته فلا ينبغي أن يؤخذ، وإذا عُلم رضاه فينبغي مراعاة العدل والنصفة مع الرفقاء، فلا ينبغي أن يأخذ الواحد إلا ما يخصه أو ما يرضى به رفيقه عن طوع لا عن حياء.

فأما الانصراف، فله ثلاثة آداب:

الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنّة وذلك من إكرام الضيف وقد أمر بإكرامه، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**». وقال عليه السلام: «**إِنَّ مِنْ سُنَّةِ الضَّيْفِ أَنْ يُشَيَّعَ إِلَى بَابِ الدَّارِ**». قال أبو قتادة: قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله: فقال: «**كَلاَّ، إِنَّهُمْ كَانُوا لأَصْحَابِي مُكْرِمِينَ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أُكَافِئَهُمْ**». وتمام الإكرام: طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة، قيل للأوزاعي رضي الله عنه: ما كرامة الضيف؟ قال: طلاقة الوجه وطيب الحديث. وقال يزيد بن أبي زياد: ما دخلت على عبدالرحمن بن أبي ليلى إلا حدثنا حديثاً حسناً وأطعمنا طعاماً حسناً.

الثاني: أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير، فذلك من حسن الخلق والتواضع. قال ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ**». ودعي بعض السلف برسول فلم يصادفه الرسول فلما سمع حضر وكانوا قد تفرقوا وفرغوا وخرجوا فخرج إليه صاحب المنزل وقال: قد خرج القوم، فقال: هل بقي بقية؟ قال: لا، قال: فكسرة إن بقيت؟ قال: لم تبق، قال: فالقدر أمسحها؟ قال: قد غسلتها؟ فانصرف يحمد الله تعالى، فقيل له في ذلك فقال: قد أحسن الرجل دعانا بنية وردنا بنية، فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق. وحكي أن أستاذ أبي القاسم الجنيد دعاه صبي إلى دعوة أبيه أربع مرات فرده الأب في المرات الأربع وهو يرجع في كل مرة تطييباً لقلب الصبي بالحضور ولقلب الأب بالانصراف، فهذه نفوس قد ذللت بالتواضع لله تعالى واطمأنت بالتوحيد، وصارت تشاهد في كل رد وقبول عبرة فيما بينها وبين ربها، فلا تنكسر بما يجري من العباد من الإذلال كما لا تستبشر بما يجري منهم من الإكرام، بل يرون الكل من الواحد القهار. ولذلك قال بعضهم: أنا لا أجيب الدعوة إلا لأني أتذكر بها طعام الجنة أي هو طعام طيب يحمل عنا كدّه ومؤنته وحسابه.

الثالث: أن لا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة، وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه. قال ﷺ: «**الضِّيَافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا زَادَ فَصَدَقَةٌ**»(١). نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك، ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف النازل، قال رسول الله ﷺ: «**فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لِلْمَرْأَةِ وَفِرَاشٌ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ**»(٢).

❋ ❋ ❋

(١) حديث: «**الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة**» متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي.

(٢) حديث: «**فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان**» أخرجه مسلم من حديث جابر.

فصل

يجمع آداباً ومناهي طبية وشرعية متفرقة

الأول: حكي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الأكل في السوق دناءة(١)، وأسنده إلى رسول الله ﷺ وإسناده قريب. وقد نقل ضده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام(٢). ورئي بعض المشايخ من المتصوّفة المعروفين يأكل في السوق فقيل له في ذلك فقال: ويحك أجوع في السوق وآكل في البيت، فقيل تدخل المسجد؟ قال: أستحي أن أدخل بيته للأكل فيه. ووجه الجمع: أن الأكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن، وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه، وهو مختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص، فمن لا يليق ذلك بسائر أعماله حمل ذلك على قلة المروءة وفرط الشره ويقدح ذلك في الشهادة، ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعاً.

الثاني: قال علي رضي الله عنه: من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء، ومن أكل في يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئاً يكرهه، واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والبسقارجات تعظم البطن وترخي الأليتين، ولحم البقر داء ولبنها شفاء، وسمنها دواء والشحم يخرج مثله من الداء، ولن تستشفي النفساء بشيء أفضل من الرطب، والسمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم، ومن أراد البقاء ولا بقاء فليباكر بالغداء وليكرر العشاء وليلبس الحذاء، ولن يتداوى الناس بشيء مثل السمن وليقل غشيان النساء وليخفف الرداء وهو الدَّين.

الثالث: قال الحجاج لبعض الأطباء: صف لي صفة آخذ بها ولا أعدوها، قال: لا تنكح من النساء إلا فتاة، ولا تأكل من اللحم إلا فتيا، ولا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه، ولا تشربن دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، ولا تأكلن طعاماً إلا أجدت مضغه، وكُلْ ما أحببت من الطعام ولا تشربن عليه، فإذا شربت فلا تأكلن عليه شيئاً، ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة، وفي معناه قول العرب: تغد تمد تعش تمش، يعني تمدد كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة: ٣٣] أي يتمطط. ويقال: إن حبس البول يفسد الجسد كما يفسد النهر ما حوله إذا سد مجراه.

الرابع: في الخبر: «**قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرمة**»(٣)، والعرب تقول: ترك الغداء يذهب بشحم الكاذة ـ يعني الألية ـ وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني لا تخرج من منزلك حتى تأخذ

---

(١) حديث: «**الأكل في السوق دناءة**» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة وهو ضعيف، ورواه ابن عدي في الكامل من حديثه وحديث أبي هريرة.

(٢) حديث ابن عمر «كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام» أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه وابن حبان.

(٣) حديث: «**قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرمة**» أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث عبدالله بن جراد بالشطر الأول، والترمذي من حديث أنس بالشطر الثاني وكلاهما ضعيف، وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث جابر.

حلمك أي تتغذى؛ إذ به يبقى الحلم ويزول الطيش وهو أيضاً أقل لشهوته لما يرى في السوق. وقال حكيم لسمين: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فمم هي؟ قال: هي أكل لباب البر وصغار المعز، وأدهن بجام بنفسج وألبس الكتان.

الخامس: الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمريض، هكذا قيل. وقال بعضهم: من احتمى فهو على يقين من المكروه، وعلى شك من العوافي، وهذا حسن في حال الصحة. ورأى رسول الله ﷺ صهيباً يأكل تمراً وإحدى عينيه رمداء فقال: **«أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَأَنْتَ رَمِدٌ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا آكُلُ بِالشِّقِّ الآخَرِ»**(١) يعني جانب السليمة فضحك رسول الله ﷺ

السادس: أنه يستحب أن يحمل طعام إلى أهل الميت، ولما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال عليه السلام: **«إِنَّ آلَ جَعْفَرٍ شُغِلُوا بِمَيِّتِهِمْ عَنْ صُنْعِ طَعَامِهِمْ فَاحْمِلُوا إِلَيْهِمْ مَا يَأْكُلُونَ»**(٢) فذلك سنّة. وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه إلا ما يهيأ للنوائح والمعينات عليه بالبكاء والجزع فلا ينبغي أن يؤكل معهم.

السابع: لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم، فإن أكره فليقلل الأكل ولا يقصد الطعام الأطيب. رد بعض المزكين شهادة من حضر طعام سلطان فقال: كنت مكرهاً، فقال: رأيتك تقصد الأطيب وتكبر اللقمة وما كنت مكرهاً عليه؟ وأجبر السلطان هذا المزكي على الأكل فقال: إما أن آكل وأخلي التزكية أو أزكي ولا آكل، فلم يجدوا بداً من تزكيته فتركوه. وحكي أن ذا النون المصري حبس ولم يأكل أياماً في السجن فكانت له أخت في الله فبعثت إليه طعاماً من مغزلها على يد السجان فامتنع فلم يأكل، فعاتبته المرأة بعد ذلك فقال: كان حلالاً ولكن جاءني على طبق ظالم، وأشار به إلى يد السجان، وهذا غاية الورع.

الثامن: حكي عن فتح الموصلي رحمه الله: أنه دخل على بشر الحافي زائراً فأخرج بشر درهماً فدفعه لأحمد الجلاء خادمه وقال: اشتر به طعاماً جيداً وأدماً طيباً، قال: فاشتريت خبزاً نظيفاً وقلت: لم يقل رسول الله ﷺ لشيء: **«اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه»**(٣) سوى اللبن فاشتريت اللبن واشتريت تمراً جيداً، فقدمت إليه فأكل وأخذ الباقي. فقال بشر: أتدرون لِمَ قلت اشتر طعاماً طيباً؟ لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر، أتدرون لم لم يقل لي كُلْ؟ لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كُلْ، أتدرون لم حمل ما بقي؟ لأنه إذا صح التوكل لم يضر الحمل. وحكى أبو علي الروذباري رحمه الله تعالى: أنه اتخذ ضيافة فأوقد فيها ألف سراج فقال له رجل: قد أسرفت، فقال له: ادخل فكل ما أوقدته لغير الله فأطفئه فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحد منها فانقطع. واشترى أبو علي الروذباري أحمالاً من السكر وأمر الحلاويين حتى بنوا جداراً من السكر عليه شرف ومحاريب على أعمدة منقوشة كلها من سكر ثم دعا الصوفية حتى هدموها وانتهبوها.

---

(١) حديث: «رأى رسول الله ﷺ صهيباً يأكل تمراً وإحدى عينيه رمدة، فقال له: **أتأكل التمر وأنت رمد؟** فقال: إنما أمضغ بالشق الآخر فضحك ﷺ» أخرجه ابن ماجه من حديث صهيب بإسناد جيد.

(٢) حديث: «لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال ﷺ: **إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون**» أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبدالله بن جعفر نحوه بسند حسن، ولابن ماجه نحوه من حديث أسماء بنت عميس.

(٣) حديث: «**اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه**» قاله عند شرب اللبن تقدم في آخر الباب الأول من آداب الأكل.

التاسع: قال الشافعي رضي الله عنه: «الأكل على أربعة أنحاء: الأكل بأصبع من المقت، وبأصبعين من الكبر، وبثلاث أصابع من السنة[١]، وبأربع وخمس من الشره. وأربعة أشياء تقوي البدن: أكل اللحم، وشم الطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتان. وأربعة توهن البدن: كثرة الجماع، وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحموضة. وأربعة تقوي البصر: الجلوس تجاه القبلة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف الملبس. وأربعة توهن البصر: النظر إلى القذر، والنظر إلى المصلوب، والنظر إلى فرج المرأة، والقعود في استدبار القبلة. وأربعة تزيد في الجماع: أكل العصافير، وأكل الإطريفل الأكبر، وأكل الفستق، وأكل الجرجير. والنوم على أربعة أنحاء: فنوم على القفا، وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون في خلق السمٰوات والأرض، ونوم على اليمين، وهو نوم العلماء والعباد، ونوم على الشمال؛ وهو نوم الملوك لهضمهم طعامهم، ونوم على الوجه؛ وهو نوم الشياطين. وأربعة تزيد في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين والعلماء. وأربعة هن من العبادة: لا يخطو خطوة إلا على وضوء، وكثرة السجود، ولزوم المساجد، وكثرة قراءة القرآن. وقال أيضاً: عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت؟ وعجبت لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموت؟ وقال: لم أر شيئاً أنفع في الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب. والله أعلم بالصواب.

---

(١) حديث: «الأكل بثلاث أصابع من السنة» أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك: «كان النبي ﷺ يأكل بثلاث أصابع» وروى ابن الجوزي في العلل من حديث ابن عباس موقوفاً «كُلْ بثلاث أصابع فإنه من السنّة».

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب آداب النكاح

وهو الكتاب الثاني
من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي لا تصادف سهام الأوهام في عجائب صنعه مجرى، ولا ترجع العقول عن أوائل بدائعها إلا والهة حيرى، ولا تزال لطائف نعمه على العالمين تترى، فهي تتوالى عليهم اختياراً وقهراً. ومن بدائع ألطافه أن خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها إلى الحراثة جبراً، واستبقى بها نسلهم إقهاراً وقسراً. ثم عظم أمر الأنساب وجعل لها قدراً فحرم بسببها السفاح وبالغ في تقبيحه ردعاً وزجراً، وجعل اقتحامه جريمة فاحشة وأمر إمراً، وندب إلى النكاح وحث عليه استحباباً وأمراً. فسبحان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدماً وكسراً، ثم بث بذور النطف في أراضي الأرحام وأنشأ منها خلقاً وجعله لكسر الموت جبراً. تنبيهاً على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعاً وضراً وخيراً وشراً، وعسراً ويسراً وطياً ونشراً، والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالإنذار والبشرى، وعلى آله وأصحابه صلاة لا يستطيع لها الحساب عداً ولا حصراً وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن النكاح معين على الدين، ومهين للشياطين، وحصن دون عدو الله حصين، وسبب للتكثير الذي به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين؛ فما أحراه بأن تتحرى أسبابه، وتحفظ سننه وآدابه، وتشرح مقاصده وآرابه، وتفصل فصوله وأبوابه. والقدر المهم من أحكامه ينكشف في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الترغيب فيه وعنه.

الباب الثاني: في الآداب المرعية في العقد والعاقدين.

الباب الثالث: في آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق.

* * *

الباب الأول

في الترغيب في النكاح والترغيب عنه

اعلم: أن العلماء قد اختلفوا في فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلي لعبادة الله، واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلي لعبادة الله، مهما لم تتق النفس إلى النكاح توقاناً يشوش الحال ويدعو إلى الوقاع، وقال آخرون: الأفضل تركه في زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة. ولا ينكشف الحق فيه إلا بأن نقدم أولاً ما ورد من الأخبار والآثار في الترغيب فيه والترغيب عنه، ثم نشرح فوائد النكاح وغوائله؛ حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه في حق كل من سلم من غوائله أو لم يسلم منها.

الترغيب في النكاح:

أما من الآيات: فقد قال الله تعالى ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النُّور: ٣٢] وهذا أمر. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٢] وهذا منع من العضل ونهي عنه. وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرّعد: ٣٨] فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل. ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفُرقان: ٧٤] الآية، ويقال: إن الله تعالى لم يذكر في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين، فقالوا: إن يحيى ﷺ قد تزوج ولم يجامع. قيل: إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة، وقيل: لغض البصر، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له.

وأما الأخبار: فقوله ﷺ: **«النِّكَاحُ سُنَّتِي فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَقَدْ رَغِبَ عَنِّي»**. وقال ﷺ: **«النِّكَاحُ سُنَّتِي فَمَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي»**(١) وقال أيضاً ﷺ: **«تَنَاكَحُوا تَكْثُرُوا فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى بِالسِّقْطِ»**(٢). وقال أيضاً عليه السلام: **«مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي وَإِنَّ مِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ فَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي»**(٣). وقال النبي ﷺ: **«مَنْ تَرَكَ التَّزْوِيجَ مَخَافَةَ العيلَةِ فَلَيْسَ مِنَّا»**(٤). وهذا ذم

كتاب آداب النكاح

الباب الأول في الترغيب في النكاح

(١) حديث: **«النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي»** أخرجه أبو يعلى في مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن.

(٢) حديث: **«تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط»** أخرجه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر دون قوله: **«حتى بالسقط»** وإسناده ضعيف وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المعرفة عن الشافعي أنه بلغه.

(٣) حديث: **«من رغب عن سنتي فليس مني، وإن من سنتي النكاح فمن أحبني فليستن بسنتي»** متفق على أوله من حديث أنس **«من رغب عن سنتي فليس مني»** وباقيه تقدم قبله بحديث.

(٤) حديث: **«من ترك التزويج خوف العيلة فليس منا»** رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف، وللدارمي في مسنده، والبغوي في معجمه، وأبي داود في المراسيل من حديث أبي نجيح: **«من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس منا»** وأبو نجيح اختلف في صحبته. العيْلة: الفقر.

لعلة الامتناع لا لأصل الترك، وقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَتَزَوَّجْ**»(١). وقال: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُم البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لاَ فَلْيَصُمْ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ**»(٢). وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج. والوجاء هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته، فهو مستعار للضعف عن الوقاع في الصوم. وقال ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**»(٣). وهذا أيضاً تعليل الترغيب لخوف الفساد. وقال ﷺ: «**مَنْ نَكَحَ للهِ وَأَنْكَحَ للهِ اسْتَحَقَّ وِلاَيَةَ اللهِ**»(٤) وقال ﷺ: «**مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ شَطْرَ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي**»(٥) وهذا أيضاً إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة تحصناً من الفساد فكأن المفسد لدين المرء في الأغلب فرجه وبطنه وقد كفى بالتزويج أحدهما. وقال ﷺ: «**كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ يَنْقَطِعُ إِلاَّ ثَلاَثٌ: وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ...**»(٦). الحديث. ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح.

وأما الآثار: فقال عمر رضي الله عنه: لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور. فبين أن الدين غير مانع منه، وحصر المانع في أمرين مذمومين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج. يحتمل أن جعله من النسك وتتمة له، ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب، ولذلك كان يجمع غلمانه لما أدركوا عكرمة وكريباً وغيرهما ويقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزباً. وماتت امرأتان لمعاذ بن جبل رضي الله عنه في الطاعون وكان هو أيضاً مطعوناً فقال: زوجوني فإني أكره أن ألقى الله عزباً. وهذا منهما يدل على أنهما رأيا في النكاح فضلاً لا من حيث التحرز عن غائلة الشهوة. وكان عمر رضي الله عنه يكثر النكاح ويقول: ما أتزوج إلا لأجل الولد. وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجة إن طرقته، فقال له رسول الله ﷺ: «**أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟**» فقال: يا رسول الله إني فقير لا شيء لي وأنقطع عن خدمتك فسكت. ثم عاد ثانياً فأعاد الجواب. ثم تفكر الصحابي وقال: والله لرسول الله ﷺ أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقرّبني إلى الله مني، ولئن قال لي الثالثة لأفعلن. فقال له الثالثة: «**أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟**» قال: فقلت يا رسول الله

---

(١) حديث: «**من كان ذا طول فليتزوج**» أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**من استطاع منكم الباءة فليتزوج**» الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) حديث: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، ونقل عن البخاري أنه لم يعده محفوظاً، وقال أبو داود: إنه خطأ، ورواه الترمذي أيضاً من حديث أبي حاتم المزني وحسنه، ورواه أبو داود في المراسيل، وأعله ابن القطان بإرساله وضعف رواته.

(٤) حديث: «**من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله عز وجل**» أخرجه أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس: «**من أعطى لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه**».

(٥) حديث: «**من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الآخر**» أخرجه ابن الجوزي في العلل من حديث أنس بسند ضعيف، وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ: «**فقد استكمل نصف الإيمان**» وفي المستدرك وصحح إسناده بلفظ: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه...**» الحديث.

(٦) حديث: «**كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثة**» فذكر فيه «**وولد صالح يدعو له**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بنحوه. وتمام الحديث: «**صدقة جارية، أو علم ينتفع به، وولد صالح يدعو له**».

زوجني، قال: «اذْهَبْ إِلَىٰ بَنِي فُلَانٍ فَقُلْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُزَوِّجُونِي فَتَاتَكُمْ» قال: فقلت يا رسول الله لا شيء لي، فقال لأصحابه: «اجْمَعُوا لأَخِيكُمْ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ» فجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له: «أَوْلِمْ» وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة[1]. وهذا التكرير يدل على فضل في نفس النكاح، ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح.

وحكي أن بعض العباد في الأمم السالفة فاق أهل زمانه في العبادة فذكر لنبي زمانه حسن عبادته فقال: نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشيء من السنة، فاغتم العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك فقال: أنت تارك للتزويج، فقال: لست أحرّمه ولكني فقير وأنا عيال على الناس، قال: أنا أزوجك ابنتي فزوجه النبي عليه السلام ابنته. وقال بشر بن الحرث: فضل عليّ أحمد بن حنبل بثلاث: بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسي فقط، ولاتساعه في النكاح وضيقي عنه، ولأنه نصب إماماً للعامة. ويقال إن أحمد رحمه الله تزوج في اليوم الثاني لوفاة أم ولده عبدالله وقال: أكره أن أبيت عزباً. وأما بشر[2] فإنه لما قيل له: إن الناس يتكلمون فيك لتركك النكاح ويقولون هو تارك للسنّة، فقال: قولوا لهم هو مشغول بالفرض عن السنة. وعوتب مرة أخرى فقال: ما يمنعني من التزويج إلا قوله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨] فذكر ذلك لأحمد فقال: وأين مثل بشر؟ إنه قعد على مثل حد السنان. ومع ذلك فقد روي أنه رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: رفعت منازلي في الجنة وأشرف بي على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منازل المتأهلين. وفي رواية قال لي: «ما كنت أحب أن تلقاني عزباً» قال: فقلنا له: ما فعل أبو نصر التمار؟ فقال رفع فوقي بسبعين درجة، قلنا: بماذا، فقد كنا نراك فوقه؟ قال: بصبره على بنياته والعيال. وقال سفيان بن عيينة: كثرة النساء ليست من الدنيا، لأن علياً رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية. فالنكاح سنّة ماضية وخُلُق من أخلاق الأنبياء. وقال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة فقال: لروعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه، قال: فما الذي يمنعك من النكاح، فقال: ما لي حاجة في امرأة، وما أريد أن أغر امرأة بنفسي. وقد قيل: فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد. وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب.

وأما ما جاء في الترهيب عن النكاح: فقد قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ المِائَتَيْنِ الخَفِيفُ الحَاذِ[3] الَّذِي لاَ أَهْلَ لَهُ وَلاَ وَلَدَ»[4] وقال ﷺ: «يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَىٰ يَدِ زَوْجَتِهِ وَأَبَوَيْهِ وَوَلَدِهِ يُعَيِّرُونَهُ بِالفَقْرِ وَيُكَلِّفُونَهُ مَا لاَ يُطِيقُ، فَيَدْخُلُ المَدَاخِلَ الَّتِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ فَيَهْلِكُ»[5] وفي الخبر:

---

(١) حديث: «كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله ﷺ ويبيت عنده لحاجة إن طرقته فقال له رسول الله ﷺ: ألا تتزوج. . .» الحديث أخرجه من حديث ربيعة الأسلمي في حديث طويل ـ وهو صاحب القصة ـ بإسناد حسن.

(٢) بشر بن الحرث صحابي ـ رضي الله عنه ـ من العلماء الزهاد.

(٣) أي: السريع.

(٤) حديث: «خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد» أخرجه أبو يعلى من حديث حذيفة، ورواه الخطابي في العزلة من حديثه وحديث أبي أمامة، وكلاهما ضعيف.

(٥) حديث: «يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر ويكلفونه ما لا يطيق فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك» أخرجه الخطابي في العزلة من حديث ابن مسعود نحوه، وللبيهقي في الزهد نحو في حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف.

«قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين»[1] وسئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار. وقال أيضاً: الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل. وقال مرة: ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى. وقال أيضاً: ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشاً أو تزوج امرأة أو كتب الحديث. وقال الحسن رحمه الله: إذا أراد الله بعبد خيراً لم يشغله بأهل ولا مال، وقال ابن أبي الحواري: تناظر جماعة في هذا الحديث فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لا يكونا له بل أن يكونا له ولا يشغلانه، وهو إشارة إلى قول أبي سليمان الداراني: ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم. وبالجملة: لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقاً إلا مقروناً بشرط. وأما الترغيب في النكاح فقد ورد مطلقاً ومقروناً بشرط، فلنكشف الغطاء عنه بحصر آفات النكاح وفوائده.

آفات النكاح وفوائده، وفيه فوائد خمسة: الولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، ومجاهدة النفس بالقيام بهن.

الفائدة الأولى: الولد؛ وهو الأصل وله وضع النكاح. والمقصود: إبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالموكل بالفحل في إخراج البذر، وبالأنثى في التمكين من الحرث تلطفاً بهما في السياقة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع، كالتلطف بالطير في بث الحب الذي يشتهيه ليساق إلى الشبكة. وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها إظهاراً للقدرة، وإتماماً لعجائب الصنعة، وتحقيقاً لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وجرى به القلم. وفي التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه هي الأصل في الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزباً.

الأول: موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان.

والثاني: طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته.

والثالث: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده.

والرابع: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله.

أما الوجه الأول: فهو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الجماهير، وهو أحقها وأقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنع الله تعالى ومجاري حكمه. وبيانه: أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهيأ له أرضاً مهيأة للحراثة، وكان العبد قادراً على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها، فإن تكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعاً حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقاً للمقت والعتاب من سيده. والله تعالى خلق الزوجين، وخلق الذكر والأنثيين، وخلق النطفة في الفقار وهيأ لها في الأنثيين عروقاً ومجاري، وخلق الرحم قراراً ومستودعاً للنطفة، وسلط متقاضي الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثى، فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلق في الإعراب عن مراد

---

(١) حديث: «قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبدالله بن عمر، وابن هلال المزني كلاهما بالشطر الأول بسندين ضعيفين.

خالقها، وتنادي أرباب الألباب بتعريف ما أعدت له. هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رسول الله ﷺ بالمراد حيث قال: «**تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا**». فكيف وقد صرح بالأمر وباح بالسر؟ فكل ممتنع عن النكاح: معرض عن الحراثة مضيع للبذر معطل لما خلق الله من الآلات المعدة، وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي ليس برقم حروف وأصوات، يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية، ولذلك عظم الشرع الأمر في القتل للأولاد وفي الوأد؛ لأنه منع لتمام الوجود، وإليه أشار من قال: العزل أحد الوأدين، فالناكح ساع في إتمام ما أحب الله تعالى تمامه، والمعرض معطل ومضيع لما كره الله ضياعه، ولأجل محبة الله تعالى لبقاء النفوس أمر بالإطعام وحث عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥].

فإن قلت: قولك: إن بقاء النسل والنفس محبوب يوهم أن فناءها مكروه عند الله، وهو فرق بين الموت والحياة بالإضافة إلى إرادة الله تعالى، ومعلوم أن الكل بمشيئة الله، وأن الله غني عن العالمين فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم، أو بقاؤهم عن فنائهم؟ فاعلم أن هذه الكلمة حق أريد بها باطل فإن ما ذكرناه لا ينافي إضافة الكائنات كلها إلى إرادة الله خيرها وشرها ونفعها وضرها، ولكن المحبة والكراهية يتضادان وكلاهما لا يضادان الإرادة، فرب مراد مكروه، ورب مراد محبوب، فالمعاصي مكروهة وهي مع الكراهة مرادة، والطاعات مرادة وهي مع كونها مرادة محبوبة ومرضية. أما الكفر والشر فلا نقول إنه مرضي ومحبوب بل هو مراد. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]. فكيف يكون الفناء بالإضافة إلى محبة الله وكراهته كالبقاء؟ فإنه تعالى يقول: «**ما ترددت في شيء كترددي في قبض روح عبدي المسلم هو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له من الموت**»[(١)] فقوله: «**لا بد له من الموت**» إشارة إلى سبق الإرادة والتقدير المذكور في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقِعَة: ٦٠] وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [المُلك: ٢] ولا مناقضة بين قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقِعَة: ٦٠] وبين قوله «**وأنا أكره مساءته**»، ولكن إيضاح الحق في هذا يستدعي تحقيق معنى الإرادة والمحبة والكراهة وبيان حقائقها، فإن السابق إلى الأفهام منها أمور تناسب إرادة الخلق ومحبتهم وكراهتهم، وهيهات، فبين صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد ما بين ذاته العزيز وذاتهم، وكما أنّ ذوات الخلق جوهر وعرض وذات الله مقدّس عنه، ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض، فكذا صفاته لا تناسب صفات الخلق، وهذه الحقائق داخلة في علم المكاشفة، ووراءه سر القدر الذي منع من إفشائه، فلنقصر عن ذكره، ولنقتصر على ما نبهنا عليه من الفرق بين الإقدام على النكاح والإحجام عنه، فإنّ أحدهما مضيع نسلاً أدام الله وجوده من آدم ﷺ عقباً بعد عقب إلى أن انتهى إليه، فالممتنع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فمات أبتر لا عقب له، ولو كان الباعث على النكاح مجرّد دفع الشهوة لما قال معاذ في الطاعون: زوجوني لا ألقى الله عزباً.

فإن قلت: فما كان معاذ يتوقع ولداً في ذلك الوقت فما وجه رغبته فيه؟ فأقول: الولد يحصل

---

(١) حديث أنه تعالى يقول: «**ما ترددت في شيء كترددي في قبض روح عبدي المسلم يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، انفرد به مخلد القطواني وهو متكلم فيه.

بالوقاع بباعث الشهوة، وذلك أمر لا يدخل في الاختيار، إنما المعلق باختيار العبد إحضار المحرّك للشهوة، وذلك متوقع في كل حال؛ فمن عقد فقد أدى ما عليه وفعل ما إليه، والباقي خارج عن اختياره، ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضاً، فإن نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها، حتى إن الممسوح الذي لا يتوقع ولد لا ينقطع الاستحباب أيضاً في حقه على الوجه الذي يستحب للأصلع إمرار الموسى على رأسه اقتداء بغيره وتشبهاً بالسلف الصالحين، وكما يستحب الرمل والاضطباع في الحج الآن وقد كان المراد منه أوّلاً إظهار الجلد للكفار، فصار الاقتداء والتشبه بالذين أظهروا الجلد سنة في حق من بعدهم، ويضعف هذا الاستحباب بالإضافة إلى الاستحباب في حق القادر على الحرث، وربما يزداد ضعفاً بما يقابله من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر، فإنّ ذلك لا يخلو عن نوع من الخطر، فهذا المعنى هو الذي ينبه على شدّة إنكارهم لترك النكاح مع فتور الشهوة.

الوجه الثاني: السعي في محبة رسول الله ﷺ ورضاه بتكثير ما به مباهاته؛ إذ قد صرح رسول الله ﷺ بذلك، ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجوه كلها ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان ينكح كثيراً ويقول: إنما أنكح للولد. وما روي من الأخبار في مذمة المرأة العقيم؛ إذ قال عليه السلام: «**لَحَصِيرٌ فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ خَيْرٌ مِنِ امْرَأَةٍ لاَ تَلِدُ**»(١) وقال: «**خَيْرُ نِسَائِكُمْ الوَلُودُ الوَدُودُ**»(٢) وقال: «**سَوْدَاءُ وَلُودٌ، خَيْرٌ مِنْ حَسْنَاءَ لاَ تَلِدُ**»(٣)، وهذا يدل على أن طلب الولد أدخل في اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع غائلة الشهوة، لأن الحسناء أصلح للتحصين وغض البصر وقطع الشهوة.

الوجه الثالث: أن يبقى بعده ولداً صالحاً يدعو له، كما ورد في الخبر: أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثاً فذكر الولد الصالح، وفي الخبر: «**إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور**»(٤)، وقول القائل: إنّ الولد ربما لم يكن صالحاً لا يؤثر فإنه مؤمن، والصلاح هو الغالب على أولاد ذوي الدين لا سيما إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح، وبالجملة: دعاء المؤمن لأبويه مفيد براً كان أو فاجراً، فهو مثاب على دعواته وحسناته فإنه من كسبه وغير مؤاخذ بسيئاته، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطُّور: ٢١] أي ما نقصناهم من أعمالهم، وجعلنا أولادهم مزيداً في إحسانهم.

الوجه الرابع: أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعاً، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الطِّفْلَ يَجُرُّ بِأَبَوَيْهِ إِلَىٰ الجَنَّةِ**»(٥). وفي بعض الأخبار: «**يَأْخُذُ بِثَوْبِهِ كَمَا أَنَا الآنَ آخِذٌ بِثَوْبِكَ**»(٦)،

---

(١) حديث: «**لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد**» أخرجه أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين موقوفاً على عمر بن الخطاب، ولم أجده مرفوعاً.

(٢) حديث: «**خير نسائكم الولود الودود**» أخرجه البيهقي من حديث ابن أبي أدية الصدفي، وقال البيهقي: وروي بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلاً.

(٣) حديث: «**سوداء ولود خير من حسناء لا تلد**» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح.

(٤) حديث: «**إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور**» رويناه في الأربعين المشهورة من رواية أبي هدية عن أنس في الصدقة عن الميت، وأبو هدية كذاب.

(٥) حديث: «**إن الطفل يجر أبويه إلى الجنة**» أخرجه ابن ماجه من حديث علي وقال: «**السقط**» بدل: «**الطفل**» وله من حديث معاذ: «**إن الطفل ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا هي احتسبته**» وكلاهما ضعيف.

(٦) حديث: «**إنه يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقال أيضاً ﷺ: «إِنَّ المَوْلُودَ يُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ فَيَقِفُ عَلَىٰ بَابِ الجَنَّةِ فَيَظَلُّ مُحْبَنْطِئاً» أي ممتلئاً غيظاً وغضباً ويقول: «لاَ أَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ وَأَبَوَايَ مَعِي، فَيُقَالُ: أَدْخِلُوا أَبَوَيْهِ مَعَهُ الجَنَّةَ»(١)، وفي خبر آخر: «إِنَّ الأَطْفَالَ يَجْتَمِعُونَ فِي مَوْقِفِ القِيَامَةِ عِنْدَ عَرْضِ الخَلاَئِقِ لِلْحِسَابِ فَيُقَالُ لِلْمَلاَئِكَةِ: اذْهَبُوا بِهٰؤُلاَءِ إِلَىٰ الجَنَّةِ فَيَقِفُونَ عَلَىٰ بَابِ الجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَرْحَباً بِذَرَارِي المُسْلِمِينَ ادْخُلُوا لاَ حِسَابَ عَلَيْكُمْ، فَيَقُولُونَ: فَأَيْنَ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا؟ فَيَقُولُ الخَزَنَةُ: إِنَّ آبَاءَكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ لَيْسُوا مِثْلَكُمْ، إِنَّهُ كَانَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ وَسَيِّئَاتٌ فَهُمْ يُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا وَيُطَالَبُونَ، قَالَ: فَيَتَضَاغَوْنَ وَيَضِجُّونَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ضَجَّةً وَاحِدَةً، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مَا هٰذِهِ الضَّجَّةُ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَطْفَالُ المُسْلِمِينَ قَالُوا: لاَ نَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ مَعَ آبَائِنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: تَخَلَّلُوا الجَمْعَ فَخُذُوا بِأَيْدِي آبَائِهِمْ فَأَدْخِلُوهُمْ الجَنَّةَ»(٢). وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَهُ اثْنَانِ مِنَ الوَلَدِ فَقَدِ احْتَظَرَ بِحِظَارٍ مِنَ النَّارِ»(٣). وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلاَثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ». قيل: يا رسول الله واثنان؟ قال: «وَاثْنَانِ»(٤).

وحكي أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبى برهة من دهره، قال فانتبه من نومه ذات يوم وقال: زوّجوني زوجوني، فزوّجوه، فسئل عن ذلك فقال: لعل الله يرزقني ولداً ويقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة، ثم قال: رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة الخلائق في الموقف، وبي من العطش ما كاد أن يقطع عنقي، وكذا الخلائق في شدة العطش والكرب، فنحن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع، عليهم مناديل من نور، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب، وهم يسقون الواحد بعد الواحد، يتخللون الجمع ويتجاوزون أكثر الناس، فمددت يدي إلى أحدهم وقلت: اسقني فقد أجهدني العطش، فقال: ليس لك فينا ولد، إنما نسقي آباءنا، فقلت: ومن أنتم؟ فقالوا: نحن من مات من أطفال المسلمين. وأحد المعاني المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣] تقديم الأطفال إلى الآخرة؛ فقد ظهر بهذه الوجوه الأربعة أن أكثر فضل النكاح لأجل كونه سبباً للولد.

---

(١) حديث: «إن المولود يقال له ادخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبنطئاً ـ أي: ممتلئاً غيظاً وغضباً ـ ويقول: لا أدخل إلا وأبواي معي...» الحديث. أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح، والنسائي من حديث أبي هريرة: «يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا فيقال: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم» وإسناده جيد.

(٢) حديث: «إن الأطفال يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة: اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم: مرحباً بذراري المسلمين ادخلوا لا حساب عليكم فيقولون: أين آباؤنا وأمهاتنا...» الحديث بطوله لم أجد له أصلاً يعتمد عليه.

(٣) حديث: «من مات له اثنان من الولد احتظر بحظار من النار» أخرجه البزار والطبراني من حديث زهير بن أبي علقمة: «جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنه مات لي ابنان سوى هذا فقال: لقد احتظرت من دون النار بحظار شديد» ولمسلم من حديث أبي هريرة في المرأة التي قالت: دفنت ثلاثة: «لقد احتظرت بحظار شديد من النار».

(٤) حديث: «من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، قيل: يا رسول الله واثنان، قال: واثنان» أخرجه البخاري من حديث أنس دون ذكر الاثنين، وهو عند أحمد بهذه الزيادة من حديث معاذ، وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد بلفظ «أيما امرأة» بنحو منه.

الفائدة الثانية: التحصن عن الشيطان، وكسر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**مَنْ نَكَحَ فَقَدْ حَصَّنَ نِصْفَ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي الشَّطْرِ الآخَرِ**»، وإليه الإشارة بقوله: «**عَلَيْكُمْ بِالبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ**»، وأكثر ما نقلناه من الآثار والأخبار إشارة إلى هذا المعنى، وهذا المعنى دون الأول؛ لأن الشهوة موكلة بتقاضي تحصيل الولد؛ فالنكاح كاف لشغله، دافع لجعله، وصارف لشر سطوته، وليس من يجيب مولاه رغبة في تحصيل رضاه، كمن يجيب لطلب الخلاص عن غائلة التوكيل، فالشهوة والولد مقدّران وبينهما ارتباط، وليس يجوز أن يقال: المقصود اللذة، والولد لازم منها كما يلزم مثلاً قضاء الحاجة من الأكل وليس مقصوداً في ذاته، بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة، والشهوة باعثة عليه، ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الإرهاق إلى الإيلاء، وهو ما في قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لو دامت، فهي منبهة على اللذات الموعودة في الجنان؛ إذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقاً لا ينفع، فلو رغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة الملك والسلطنة لم ينفع الترغيب.

وإحدى فوائد لذات الدنيا: الرغبة في دوامها في الجنة؛ ليكون باعثاً على عبادة الله. فانظر إلى الحكمة، ثم إلى الرحمة، ثم إلى التعبية الإلهية كيف عبيت تحت شهوة واحدة حياتان؛ حياة ظاهرة وحياة باطنة، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله فإنه نوع من دوام الوجود، والحياة الباطنة هي الحياة الأخروية، فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرّك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام، فيستحث على العبادة الموصلة إليها، فيستفيد العبد بشدّة الرغبة فيها تيسر المواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان، وما من ذرّة من ذرّات بدن الإنسان باطناً وظاهراً، بل ذرات ملكوت السمٰوات والأرض، إلا وتحتها من لطائف الحكمة وعجائبها ما تحار العقول فيها، ولكن إنما ينكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفائها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها، فالنكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل من لا يؤتى عن عجز وعنة وهم غالب الخلق، فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوّة التقوى جرّت إلى اقتحام الفواحش، وإليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] وإن كان ملجماً بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة، فيغض البصر ويحفظ الفرج، فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تحت اختياره، بل لا تزال النفس تجاذبه وتحدثه بأمور الوقاع ولا يفتر عنه الشيطان الموسوس إليه في أكثر الأوقات، وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجري على خاطره من أمور الوقاع ما لو صرح به بين يدي أخس الخلق لاستحيى منه، والله مطلع على قلبه، والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق، ورأس الأمور للمريد في سلوك طريق الآخرة قلبه، والمواظبة على الصوم لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن ينضاف إليه ضعف في البدن وفساد في المزاج، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح. وهذه محنة عامة قلّ من يتخلص منها. قال قتادة في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] هو الغلمة. وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالا في معنى قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]: أنه لا يصبر عن النساء. وقال فياض بن نجيح: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله. وبعضهم يقول: ذهب ثلث دينه. وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: ٣] قال قيام الذكر، وهذه بلية غالبة إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين، وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة

على الحياتين كما سبق فهي أقوى آلة الشيطان على بني آدم، وإليه أشار عليه السلام بقوله: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذَوِي الأَلْبَابِ مِنْكُنَّ**»(١) وإنما ذلك لهيجان الشهوة. وقال ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَبَصَرِي وَقَلْبِي وَشَرِّ مَنِيِّي**»(٢). وقال: «**أَسْأَلُكَ أَنْ تُطَهِّرَ قَلْبِي وَتُحَفِّظَ فَرْجِي**»(٣). فما يستعيذ منه رسول الله ﷺ كيف يجوز التساهل فيه لغيره، وكان بعض الصالحين يكثر النكاح حتى لا يكاد يخلو من اثنتين وثلاث، فأنكر عليه بعض الصوفية فقال: هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف بين يديه موقفاً في معاملة فخطر على قلبه خاطر شهوة، فقالوا: يصيبنا من ذلك كثيراً، فقال: لو رضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوجت، لكني ما خطر على قلبي خاطر يشغلني عن حالي إلا نفذته فأستريح وأرجع إلى شغلي، ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبي معصية. وأنكر بعض الناس حال الصوفية فقال له بعض ذوي الدين: ما الذي تنكر منهم؟ قال: يأكلون كثيراً، قال: وأنت أيضا لو جعت كما يجوعون لأكلت كما يأكلون، قال: ينكحون كثيراً، قال: وأنت أيضاً لو حفظت عينيك وفرجك كما يحفظون لنكحت كما ينكحون. وكان الجنيد يقول: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب، ولذلك أمر رسول الله ﷺ كل من وقع نظره على امرأة فتاقت إليها نفسه أن يجامع أهله(٤) لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس. وروى جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج. وقال ﷺ: «**إِنَّ المَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِصُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا**»(٥) وقال عليه السلام: «**لاَ تَدْخُلُوا عَلَىٰ المُغِيبَاتِ** ـ وهي التي غاب زوجها عنها ـ **فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَىٰ الدَّمِ**». قلنا: ومنك؟ قال: «**وَمِنِّي، وَلٰكِنَّ الله أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ**»(٦). قال سفيان بن عيينة: فأسلم معناه فأسلَم أنا منه، هذا معناه، فإن الشيطان لا يسلم، وكذلك يحكي على ابن عمر رضي الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم أنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل، أنه جامع ثلاثاً من جواريه في شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة. وقال ابن عباس: خير هذه الأمة أكثرها نساء(٧). ولما

---

(١) حديث: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكن**» أخرجه مسلم من حديث ابن عمر، واتفقا عليه من حديث أبي سعيد ولم يسق مسلم لفظه.

(٢) حديث: «**اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر منيي**» تقدم في الدعوات.

(٣) حديث: «**أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي**» أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أم سلمة بإسناد فيه لين.

(٤) حديث: «أمر رسول الله ﷺ كل من وقع بصره على امرأة فتاقت نفسه إليها أن يجامع أهله» أخرجه أحمد من حديث أبي كبشة الأنماري، حين مرت به امرأة فوقع في قلبه شهوة النساء فدخل فأتى بعض أزواجه وقال: «**فكذلك فافعلوا، فإنه من أماثل أفعالكم إتيان الحلال**»، وإسناده جيد.

(٥) حديث جابر «رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته» الحديث. رواه مسلم والترمذي واللفظ له وقال: حسن صحيح.

(٦) حديث: «**لا تدخلوا على المغيبات فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم. . .**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث جابر وقال غريب، ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر «**ولا يدخل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان**».

(٧) حديث ابن عباس: «**خير هذه الأمة أكثرها نساء**» يعني النبي ﷺ رواه البخاري.

كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشدّ، ولأجل فراغ القلب أبيح نكاح الأمة عند خوف العنت مع أن فيه إرقاق الولد وهو نوع إهلاك، وهو محرّم على كل من قدر على حرة، ولكن إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين، وليس فيه إلا تنغيص الحياة على الولد مدّة، وفي اقتحام الفاحشة تفويت الحياة الأخروية التي تستحقر الأعمار الطويلة بالإضافة إلى يوم من أيامها. وروي أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس وبقي شاب لم يبرح، فقال له ابن عباس: هل لك من حاجة؟ قال: نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس، وأنا الآن أهابك وأجلك. فقال ابن عباس: إن العالم بمنزلة الوالد، فما كنت أفضيت به إلى أبيك فأفض إليَّ به، فقال: إني شاب لا زوجة لي، وربما خشيت العنت على نفسي، فربما استمنيت بيدي، فهل في ذلك معصية؟ فأعرض عنه ابن عباس ثم قال: أفٍ وتف نكاح الأمة خير منه، وهو خير من الزنى. فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور أدناها نكاح الأمة، وفيه إرقاق الولد، وأشدّ منه الاستمناء باليد، وأفحشه الزنى، ولم يطلق ابن عباس الإباحة في شيء منه لأنهما محذوران يفزع إليهما حذراً من الوقوع في محذور أشدّ منه، كما يفزع إلى تناول الميتة حذراً من هلاك النفس، فليس ترجيح أهون الشرين في معنى الإباحة المطلقة ولا في معنى الخير المطلق، وليس قطع اليد المتأكلة من الخيرات وإن كان يؤذن فيه عند إشراف النفس على الهلاك، فإذن في النكاح فضل من هذا الوجه، ولكن هذا لا يعم الكل بل الأكثر، فرب شخص فترت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره فينعدم هذا الباعث في حقه، ويبقى ما سبق من أمر الولد، فإن ذلك عام إلا للممسوح وهو نادر، ومن الطباع ما تغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع، فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن وإلا فيستحب له الاستبدال، فقد نكح علي رضي الله عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال، ويقال: إن الحسن بن علي كان منكاحاً حتى نكح زيادة على مائتي امرأة، وكان ربما عقد على أربع في وقت واحد، وربما طلق أربعاً في وقت واحد واستبدل بهن، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي»[(١)]. وقال ﷺ: «حَسَنٌ مِنِّي وَحُسَيْنٌ مِنْ عَلِيٍّ»[(٢)]، فقال: إن كثرة نكاحه أحد ما أشبه به خلق رسول الله ﷺ، وتزوج المغيرة بن شعبة بثمانين امرأة، وكان في الصحابة من له الثلاث والأربع، ومن كان له اثنتان لا يحصى، ومهما كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس فلينظر إليه في الكثرة والقلة.

الفائدة الثالثة: ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول وهي عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت، وإذا روّحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروّح القلب، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات

---

(١) حديث أنه قال للحسن بن علي: «أشبهت خلقي وخلقي».

قلت: المعروف أنه قال هذا اللفظ لجعفر بن أبي طالب، كما هو متفق عليه من حديث البراء، ولكن الحسن أيضاً كان يشبه النبي ﷺ كما هو متفق عليه من حديث أبي جحيفة، وللترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس «لم يكن أحد أشبه برسول الله ﷺ من الحسن».

(٢) حديث: «حسن مني وحسين من علي» رواه أحمد من حديث المقداد بن معد يكرب بسند جيد.

بالمباحات، ولذلك قال الله تعالى ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقال علي رضي الله عنه: روّحوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عميت. وفي الخبر: «**على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه. فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات**»(١). ومثله بلفظ آخر: «**لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم**»(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «**لِكُلِّ عَامِلٍ شِرَّةٌ وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَىٰ**»(٣). والشرة الجدّ والمكابدة بحدّة وقوة، وذلك في ابتداء الإرادة، والفترة: الوقوف للاستراحة، وكان أبو الدرداء يقول: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو لأتقوى بذلك فيما بعد على الحق. وفي بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**شَكَوْتُ إِلَىٰ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَعْفِي عَنِ الوِقَاعِ فَدَلَّنِي عَلَىٰ الهَرِيسَةِ**(٤)»(٥)، هذا إن صح لا محمل له إلا الاستعداد للاستراحة، ولا يمكن تعليله بدفع الشهوة فإنه استثارة للشهوة، ومن عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الأنس.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٦). فهذه أيضاً فائدة لا ينكرها من جرب إتعاب نفسه في الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال، وهي خارجة عن الفائدتين السابقتين، حتى إنها تطرد في حق الممسوح ومن لا شهوة له، إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالإضافة إلى هذه النية، وقل من يقصد بالنكاح ذلك. وأما قصد الولد وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو مما يكثر. ثم رب شخص يستأنس بالنظر إلى الماء الجاري والخضرة وأمثالها ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن. فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليتنبه له.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده؛ إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للآخرة، وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً. وقال محمد بن كعب القرظي في

---

(١) حديث: «**على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه**» رواه ابن حبان من حديث أبي ذر في حديث طويل: **أن ذلك في صحف إبراهيم**.

(٢) حديث: «**لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم**» رواه ابن حبان من حديث أبي ذر الطويل: أن ذلك في صحف إبراهيم.

(٣) حديث: «**لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى**» رواه أحمد والطبراني من حديث عبدالله بن عمرو. وللترمذي نحو من هذا من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح.

(٤) الهريسة: طعام يصنع من اللحم والحب المهروس.

(٥) حديث: «**شكوت إلى جبريل ضعفي عن الوقاع فدلني على الهريسة**» أخرجه ابن عدي من حديث حذيفة، وابن عباس، والعقيلي من حديث معاذ وجابر بن سمرة، وابن حبان في الضعفاء من حديث حذيفة، والأزدي في الضعفاء من حديث أبي هريرة بطرق كلها ضعيفة. قال ابن عدي: موضوع، وقال العقيلي: باطل.

(٦) حديث: «**حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة**» رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد، وضعفه العقيلي.

معنى قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] قال: المرأة الصالحة. وقال عليه الصلاة والسلام: «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْباً شَاكِراً وَلِسَاناً ذَاكِراً وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَىٰ آخِرَتِهِ»(١)، فانظر كيف جمع بينها وبين الذكر والشكر. وفي بعض التفاسير في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: الزوجة الصالحة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أعطي العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة، وإن منهن غنماً لا يحذى منه، ومنهن غلاً لا يفدى منه. وقوله: لا يحذى أي يعتاض عنه بعطاء. وقال عليه الصلاة والسلام: «فُضِّلْتُ عَلَىٰ آدَمَ بِخَصْلَتَيْنِ: كَانَتْ زَوْجَتُهُ عَوْناً لَهُ عَلَىٰ المَعْصِيَةِ، وَأَزْوَاجِي أَعْوَانٌ لِي عَلَىٰ الطَّاعَةِ، وَكَانَ شَيْطَانُهُ كَافِراً وَشَيْطَانِي مُسْلِمٌ لاَ يَأْمُرُ إِلاَّ بِخَيْرٍ»(٢)، فعد معاونتها على الطاعة فضيلة؛ فهذه أيضاً من الفوائد التي يقصدها الصالحون إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كافل لهم ولا مدبر، ولا تدعو إلى امرأتين بل الجمع ربما ينغص المعيشة وتضطرب به أمور المنزل، ويدخل في هذه الفائدة قصد الاستكثار بعشيرتها وما يحصل من القوة بسبب تداخل العشائر، فإن ذلك مما يحتاج إليه في دفع الشرور وطلب السلامة، ولذلك قيل: ذل من لا ناصر له، ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله وفرغ قلبه للعبادة، فإن الذل مشوش للقلب، والعز بالكثرة دافع للذل.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربيته لأولاده، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام: «يَوْمٌ مِنْ وَالٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً»، ثم قال: «أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٣)، وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله، ولذلك قال بشر: فضل عليَّ أحمد بن حنبل بثلاث: إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَا أَنْفَقَهُ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ الرَّجُلَ يُؤْجَرُ فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَىٰ فِي امْرَأَتِهِ»(٤) وقال بعضهم لبعض العلماء: من كل عمل أعطاني الله نصيباً حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما

(١) حديث: «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته» أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه واللفظ له من حديث ثوبان، وفيه انقطاع.

(٢) حديث: «فضلت على آدم ﷺ بخصلتين: كانت زوجته عوناً له على المعصية وأزواجي أعوان لي على الطاعة، وكان شيطانه كافراً وشيطاني مسلم لا يأمر إلا بخير» رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عمر، وفيه محمد بن وليد بن أبان بن القلانسي. قال ابن عدي: كان يضع الحديث، ولمسلم من حديث ابن مسعود: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وأنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ولا يأمرني إلا بخير».

(٣) حديث: «يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة» ثم قال: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» رواه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس، وقد تقدم بلفظ: «ستين سنة» دون ما بعده فإنه متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٤) حديث: «ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وأن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في امرأته» متفق عليه من حديث ابن مسعود: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة» ولهما من حديث سعد بن أبي وقاص: «ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك».

فقال له: أين أنت من عمل الأبدان؟ قال: وما هو؟ قال: كسب الحلال، والنفقة على العيال. وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو: تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم ذلك. قال: أنا أعلم. قالوا: فما هو؟ قال رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه، فعمله أفضل مما نحن فيه. وقال ﷺ: **«مَنْ حَسُنَتْ صَلاَتُهُ وَكَثُرَ عِيَالُهُ وَقَلَّ مَالُهُ وَلَمْ يَغْتَبِ المُسْلِمِينَ كَانَ مَعِي فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ»**(١) وفي حديث آخر: **«إِنَّ الله يُحِبُّ الفَقِيرَ المُتَعَفِّفَ أَبَا العِيَالِ»**(٢). وفي الحديث: **«إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ العَبْدِ ابْتَلاَهُ الله بِهَمِّ العِيَالِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ»**(٣)، وقال بعض السلف: من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الغم بالعيال، وفيه أثر عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لاَ يُكَفِّرُهَا إِلاَّ الهَمُّ بِطَلَبِ المَعِيشَةِ»**(٤)، وقال ﷺ: **«مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ فَأَنْفَقَ عَلَيْهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُنَّ الله عَنْهُ أَوْجَبَ لَهُ الجَنَّةَ الْبَتَّةَ، إِلاَّ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلاً لاَ يُغْفَرُ لَهُ»**(٥). وكان ابن عباس إذا حدث بهذا قال: والله هو من غرائب الحديث وغرره. وروي أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت، فعرض عليه التزويج فامتنع وقال: الوحدة أروح لقلبي وأجمع لهمي، ثم قال: رأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً، فكلما نزل واحد نظر إليَّ وقال لمن وراءه: هذا هو المشؤوم، فيقول الآخر: نعم، ويقول الثالث، كذلك، ويقول الرابع: نعم، فخفت أن أسألهم هيبة من ذلك إلى أن مرَّ بي آخرهم وكان غلاماً فقلت له: يا هذا من هذا المشؤوم الذي تومئون إليه؟ فقال: أنت. فقلت: ولم ذاك؟ قال: كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله، فمنذ جمعة أمرنا أن نضع عملك مع الخالفين، فما ندري ما أحدثت؟ فقال لإخوانه: زوجوني زوجوني، فلم يكن تفارقه زوجتان أو ثلاث. وفي أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوماً دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأضافهم، فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت، فتعجبوا من ذلك فقال: لا تعجبوا فإني سألت الله تعالى وقلت: ما أنت معاقب لي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال: إن عقوبتك بنت فلان، تتزوج بها، فتزوجت بها وأنا صابر على ما ترون منها.

وفي الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الغضب وتحسين الخلق؛ فإن المنفرد بنفسه أو المشارك لمن حسن خلقه لا تترشح منه خبائث النفس الباطنة ولا تنكشف بواطن عيوبه، فحق على سالك طريق

---

(١) حديث: **«من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغتب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين»** أخرجه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بسند ضعيف.

(٢) حديث: **«إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال»** أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف.

(٣) حديث: **«إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهمّ العيال ليكفرها»** رواه أحمد من حديث عائشة إلا أنه قال: **«بالحزن»** وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

(٤) حديث: **«من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة»** أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب في التخليص المتشابه من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(٥) حديث: **«من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبتة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له»** رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس بسند ضعيف، وهو عنده بلفظ آخر، ولأبي داود واللفظ له والترمذي من حديث أبي سعيد: **«من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة»** ورجاله ثقات، وفي سنده اختلاف.

الآخرة أن يجرّب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المحرّكات، واعتياد الصبر عليها؛ لتعتدل أخلاقه وترتاض نفسه، ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه، والصبر على العيال مع أنه رياضة ومجاهدة تكفل لهم وقيام بهم وعبادة في نفسها، فهذه أيضاً من الفوائد، ولكنه لا ينتفع بها إلا أحد رجلين: إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأخلاق لكونه في بداية الطريق، فلا يبعد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة وترتاض به نفسه، وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب، وإنما عمله عمل الجوارح بصلاة أو حج أو غيره، فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم والقيام بتربيتهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه التي لا يتعدّى خيرها إلى غيره، فأما الرجل المهذب الأخلاق إما بكفاية في أصل الخلقة أو بمجاهدة سابقة إذا كان له سير في الباطن وحركة بفكر القلب في العلوم والمكاشفات فلا ينبغي أن يتزوج لهذا الغرض؛ فإن الرياضة هو مكفي فيها. وأما العبادة في العمل بالكسب لهم فالعلم أفضل من ذلك، لأنه أيضاً عمل، وفائدته أكثر من ذلك وأعم وأشمل لسائر الخلق من فائدة الكسب على العيال، فهذه فوائد النكاح في الدين التي بها يحكم له بالفضيلة.

أما آفات النكاح فثلاث:

الأولى: وهي أقواها العجز عن طلب الحلال، فإنّ ذلك لا يتيسر لكل أحد، لا سيما في هذه الأوقات مع اضطراب المعايش فيكون النكاح سبباً في التوسع للطلب والإطعام من الحرام، وفيه هلاكه وهلاك أهله والمتعزب في أمن من ذلك، وأما المتزوج ففي الأكثر يدخل في مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه. وفي الخبر: «**إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عائلته والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، حتى يستغرق بتلك المطالبات كل أعماله، فلا تبقى له حسنة، فتنادي الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا وارتهن اليوم بأعماله**»(١) ويقال إنّ أول ما يتعلق بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون: يا ربنا خذ لنا بحقنا منه فإنه ما علمنا ما نجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم، فيقتص لهم منه. وقال بعض السلف: إذا أراد الله بعبد شراً سلّط عليه في الدنيا أنياباً تنهشه يعني العيال. وقال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ يَلْقَىٰ الله أَحَدٌ بِذَنْبٍ أَعْظَمَ مِنْ جَهَالَةِ أَهْلِهِ**»(٢) فهذه آفة عامة قلّ من يتخلص منها إلا من له مال موروث أو مكتسب من حلال يفي به وبأهله، وكان له من القناعة ما يمنعه من الزيادة، فإنّ ذاك يتخلص من هذه الآفة، أو من هو محترف ومقتدر على كسب حلال من المباحات باحتطاب أو اصطياد، أو كان في صناعة لا تتعلق بالسلاطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير، ومن ظاهره السلامة وغالب ماله الحلال. وقال ابن سالم رحمه الله ـ وقد سئل عن التزويج ـ فقال: هو أفضل في زماننا هذا لمن أدركه شبق غالب، مثل الحمار يرى الأتان فلا ينتهي عنها بالضرب ولا يملك نفسه، فإن ملك نفسه فتركه أولى.

---

(١) حديث: «**إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ويسأل عن رعاية عياله والقيام بهن...**» الحديث. لم أقف له على أصل.

(٢) حديث: «**لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله**» ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي سعيد، ولم يجده ولده أبو منصور في مسنده.

الآفة الثانية: القصور عن القيام بحقهن، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، وهذه دون الأولى في العموم، فإنّ القدرة على هذا أيسر من القدرة على الأولى، وتحسين الخلق مع النساء والقيام بحظوظهن أهون من طلب الحلال وفي هذا أيضاً خطر، لأنه راع ومسؤول عن رعيته. وقال عليه الصلاة والسلام: «**كَفَىٰ بِالمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضِيعَ مَنْ يَعُولُ**»[1]. وروي: أن الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم، ومن يقصر عن القيام بحقهن وإن كان حاضراً فهو بمنزلة هارب، فقد قال تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] أمرنا أن نقيهم النار كما نقي أنفسنا، والإنسان قد يعجز عن القيام بحق نفسه، وإذا تزوّج تضاعف عليه الحق وانضافت إلى نفسه نفس أخرى والنفس أمارة بالسوء، إن كثرت عليها الحقوق كثر الأمر بالسوء غالباً، ولذلك اعتذر بعضهم من التزويج وقال: أنا مبتلى بنفسي وكيف أضيف إليها نفساً أخرى؟ كما قيل:

لم يَسَعِ الفأرة جحرُها علقت المكنس في دبرها

وكذلك اعتذر إبراهيم بن أدهم رحمه الله وقال: لا أغر امرأة بنفسي ولا حاجة لي فيهن: أي من القيام بحقهن وتحصينهن وإمتاعهن وأنا عاجز عنه، وكذلك اعتذر بشر وقال: يمنعني من النكاح قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وكان يقول: لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أصير جلاداً على الجسر. ورئي سفيان بن عيينة رحمه الله على باب السلطان فقيل له: ما هذا موقفك! فقال: وهل رأيت ذا عيال أفلح؟ وكان سفيان يقول:

يا حبذا العزبة والمفتاح ومسكن تخرقه الرياح
لا صخب فيه ولا صياح

فهذه آفة عامة أيضاً وإن كانت دون عموم الأولى، لا يسلم منها إلا حكيم عاقل، حسن الأخلاق، بصير بعادات النساء، صبور على لسانهن، وقاف عن اتباع شهواتهن، حريص على الوفاء بحقهن، يتغافل عن زللهن، ويداري بعقله أخلاقهن، والأغلب على الناس السفه والفظاظة، والحدّة والطيش وسوء الخلق، وعدم الإنصاف مع طلب تمام الإنصاف، ومثل هذا يزداد بالنكاح فساداً من هذا الوجه لا محالة، فالوحدة أسلم له.

الآفة الثالثة: وهي دون الأولى والثانية: أن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى، وجاذباً له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم، وطلب التفاخر والتكاثر بهم، وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشؤوم على صاحبه، ولست أعني بهذا أن يدعو إلى محظور؛ فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية، بل أن يدعوه إلى التنعم بالمباح بل إلى الإغراق في ملاعبة النساء ومؤانستهن والإمعان في التمتع بهن، ويثور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس تستغرق القلب، فينقضي الليل والنهار ولا يتفرغ المرء فيهما للتفكر في الآخرة والاستعداد لها، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: من تعوّد أفخاذ النساء لم يجىء منه شيء. وقال أبو سليمان رحمه الله: من تزوّج فقد ركن إلى الدنيا؛ أي يدعوه ذلك إلى الركون إلى الدنيا.

---

(١) حديث: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول» رواه أبو داود والنسائي بلفظ: «من يقوت» وهو عند مسلم بلفظ آخر.

فهذه مجامع الآفات والفوائد، فالحكم على شخص واحد بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً قصور عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبراً ومحكماً، ويعرض المريد عليه نفسه، فإن انتفت في حقه الآفات واجتمعت الفوائد بأن كان له مال حلال وخلق حسن وجدّ في الدين تام لا يشغله النكاح عن الله، وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة، فلا يمارى في أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد، فإن انتفت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له، وإن تقابل الأمران وهو الغالب فينبغي أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات في النقصان منه، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به، وأظْهَرُ الفوائدِ الولدُ وتسكين الشهوة، وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله، فلنفرض تقابل هذه الأمور فنقول: من لم يكن في أذية من الشهوة وكانت فائدة نكاحه في السعي لتحصيل الولد وكانت الآفة الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فالعزوبة له أولى، فلا خير فيما يشغل عن الله، ولا خير في كسب الحرام، ولا يفي بنقصان هذين الأمرين أمر الولد، فإن النكاح للولد سعي في طلب حياة للولد موهومة، وهذا نقصان في الدين ناجز، فحفظه لحياة نفسه وصونها عن الهلاك أهم من السعي في الولد وذلك ربح والدين رأس مال، وفي فساد الدين بطلان الحياة الأخروية وذهاب رأس المال، ولا تقاوم هذه الفائدة إحدى هاتين الآفتين. وأما إذا انضاف إلى أمر الولد حاجة كسر الشهوة لتوقان النفس إلى النكاح، نظر: فإن لم يقو لجام التقوى في رأسه وخاف على نفسه الزنا فالنكاح له أولى؛ لأنه متردد بين أن يقتحم الزنا أو يأكل الحرام، والكسب الحرام أهون الشرين، وإن كان يثق بنفسه أنه لا يزني، ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام، فترك النكاح أولى؛ لأن النظر حرام والكسب من غير وجهه حرام، والكسب يقع دائماً وفيه عصيانه وعصيان أهله، والنظر يقع أحياناً وهو يخصه وينصرم على قرب، والنظر زنا العين ولكن إذا لم يصدّقه الفرج فهو إلى العفو أقرب من أكل الحرام، إلا أن يخاف إفضاء النظر إلى معصية الفرج فيرجع ذلك إلى خوف العنت، وإذا ثبت هذا فالحالة الثالثة: وهو أن يقوى على غض البصر ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب فذلك أولى بترك النكاح، لأن عمل القلب إلى العفو أقرب، وإنما يراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام وأكله وإطعامه، فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ويحكم بحسبها، ومن أحاط بهذا لم يشكل عليه شيء مما نقلنا عن السلف من ترغيب في النكاح مرة ورغبة عنه أخرى؛ إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح.

فإن قلت: فمن أمن الآفات فما الأفضل له: التخلي لعبادة الله، أو النكاح؟

فأقول: يجمع بينهما؛ لأن النكاح ليس مانعاً من التخلي لعبادة الله من حيث إنه عقد، ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب، فإن قدر على الكسب الحلال فالنكاح أيضاً أفضل، لأنّ الليل وسائر أوقات النهار يمكن التخلي فيه للعبادة، والمواظبة على العبادة من غير استراحة غير ممكن، فإن فرض كونه مستغرقاً بالكسب حتى لا يبقى له وقت سوى أوقات المكتوبة والنوم والأكل وقضاء الحاجة؛ فإن كان الرجل ممن لا يسلك سبيل الآخرة إلا بالصلاة النافلة أو الحج وما يجري مجراه من الأعمال البدنية فالنكاح له أفضل؛ لأن في كسب الحلال والقيام بالأهل والسعي في تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعاً من العبادات لا يقصر فضلها عن نوافل العبادات، وإن كان عبادته بالعلم والفكر وسير الباطن والكسب يشوّش عليه ذلك، فترك النكاح أفضل.

فإن قلت: فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله؟ وإن كان الأفضل التخلي لعبادة الله فلم استكثر رسولنا ﷺ من الأزواج؟ فاعلم أنّ الأفضل: الجمع بينهما في حق من قدر ومن قويت منته وعلت همته فلا يشغله عن الله شاغل، ورسولنا عليه السلام أخذ بالقوّة، وجمع بين فضل العبادة والنكاح، ولقد كان مع تسع من النسوة[1] متخلياً لعبادة الله، وكان قضاء الوطر بالنكاح في حقه غير مانع، كما لا يكون قضاء الحاجة في حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعاً لهم عن التدبير، حتى يشتغلون في الظاهر بقضاء الحاجة وقلوبهم مشغوفة بهممهم غير غافلة عن مهماتهم، وكان رسول الله ﷺ لعلوّ درجته لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى، فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته[2]، ومتى سلم مثل هذا المنصب لغيره فلا يبعد أن يغير السواقي ما لا يغير البحر الخضم، فلا ينبغي أن يقاس عليه غيره. وأما عيسى ﷺ فإنه أخذ بالحزم لا بالقوّة، واحتاط لنفسه، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل، أو يتعذر معها طلب الحلال، أو لا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة، فآثر التخلي للعبادة، وهم أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم في طيب المكاسب وأخلاق النساء، وما على الناكح من غوائل النكاح وما له فيه، ومهما كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل، فحقنا أن ننزل أفعال الأنبياء على الأفضل في كل حال، والله أعلم.

❋ ❋ ❋

الباب الثاني

فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

أما العقد، فأركانه وشروطه لينعقد ويفيد الحل أربعة:

الأول: إذن الولي، فإن لم يكن فالسلطان.

الثاني: رضا المرأة إن كانت ثيباً بالغاً أو كانت بكراً بالغاً، ولكن يزوّجها غير الأب والجدّ.

الثالث: حضور شاهدين ظاهري العدالة، فإن كانا مستورين حكمنا بالانعقاد للحاجة.

الرابع: إيجاب وقبول متصل به بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة، سواء كان هو الزوج أو الولي أو وكيلهما.

وأما آدابه: فتقديم الخطبة مع الولي لا في حال عدة المرأة، بل بعد انقضائها إن كانت معتدة، ولا

---

(١) حديث: «جمعه ﷺ بين تسع نسوة» أخرجه البخاري من حديث أنس، وله من حديثه أيضاً «وهن إحدى عشرة».

(٢) حديث: «كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته» أخرجه البخاري من حديث أنس: **«يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها»**.

في حال سبق غيره بالخطبة؛ إذ نهي عن الخطبة على الخطبة[١]. ومن آدابه: الخطبة قبل النكاح، ومزج التحميد بالإيجاب والقبول؛ فيقول المزوج: الحمد لله والصلاة على رسول الله زوجتك ابنتي فلانة، ويقول الزوج: الحمد لله والصلاة على رسول الله قبلت نكاحها على هذا الصداق. وليكن الصداق معلوماً خفيفاً، والتحميد قبل الخطبة أيضاً مستحب. ومن آدابه: أن يلقي أمر الزوج إلى سمع الزوجة وإن كانت بكراً فذلك أحرى وأولى بالألفة، ولذلك يستحب النظر إليها قبل النكاح؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينهما. ومن الآداب: إحضار جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة، ومنها: أن ينوي بالنكاح إقامة السنّة وغض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد التي ذكرناها، ولا يكون قصده مجرّد الهوى والتمتع، فيصير عمله من أعمال الدنيا، ولا يمنع ذلك هذه النيات، فرب حق يوافق الهوى. قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: إذا وافق الحق الهوى فهو الزبد بالنرسيان، ولا يستحيل أن يكون كل واحد من حظ النفس وحق الدين باعثاً معاً، ويستحب أن يعقد في المسجد وفي شهر شوّال. قالت عائشة رضي الله عنها: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوّال[٢].

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نوعان: أحدهما: للحل. والثاني: لطيب المعيشة وحصول المقاصد.

النوع الأوّل ما يعتبر فيها للحل: وهو أن تكون خلية عن موانع النكاح، والموانع تسعة عشر:

الأول: أن تكون منكوحة للغير.

الثاني: أن تكون معتدة للغير سواء كانت عدّة وفاة أو طلاق أو وطء شبهة أو كانت في استبراء وطء عن ملك يمين.

الثالث: أن تكون مرتدّة عن الدين؛ لجريان كلمة على لسانها من كلمات الكفر.

الرابع: أن تكون مجوسية.

الخامس: أن تكون وثنية أو زنديقة لا تنسب إلى نبي وكتاب، ومنهنّ المعتقدات لمذهب الإباحة فلا يحل نكاحهنّ، وكذلك كل معتقدة مذهباً فاسداً يحكم بكفر معتقده.

السادس: أن تكون كتابية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد مبعث رسول الله ﷺ، ومع ذلك فليست من نسب بني إسرائيل، فإذا عدمت كلتا الخصلتين لم يحل نكاحها، وإن عدمت النسب فقط ففيه خلاف.

السابع: أن تكون رقيقة والناكح حرّاً قادراً على طول الحرّة أو غير خائف من العنت.

الثامن: أن تكون كلها أو بعضها مملوكاً للناكح ملك يمين.

التاسع: أن تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله أو فصوله، أو فصول أوّل أصوله، أو من أوّل فصل من كل أصل بعده أصل، وأعني بالأصول: الأمهات والجدّات، وبفصوله: الأولاد والأحفاد،

الباب الثاني

فيما يراعي حالة العقد

(١) حديث النهي عن الخطبة على الخطبة: متفق عليه من حديث ابن عمر، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله ويأذن له.

(٢) حديث عائشة: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال. رواه مسلم.

وبفصول أول أصوله: الإخوة وأولادهم، وبأوّل فصل من كل أصل بعده أصل: العمات والخالات دون أولادهن.

العاشر: أن تكون محرّمة بالرضاع، ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب من الأصول والفصول كما سبق، ولكن المحرّم خمس رضعات وما دون ذلك لا يحرم.

الحادي عشر: المحرم بالمصاهرة: وهو أن يكون الناكح قد نكح ابنتها أو جدتها أو ملك بعقد أو شبهة عقد[أ] من قبل، أو وطئهن بالشبهة في عقد، أو وطيء أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبهة عقد، فمجرد العقد على المرأة يحرم أمهاتها، ولا يحرم فروعها إلا بالوطء، أو يكون قد نكحها أبوه أو ابنه قبل.

الثاني عشر: أن تكون المنكوحة خامسة؛ أي يكون تحت الناكح أربع سواها إما في نفس النكاح أو في عدة الرجعة، فإن كانت في عدة بينونة لم تمنع الخامسة.

الثالث عشر: أن يكون تحت الناكح أختها أو عمتها أو خالتها، فيكون بالنكاح جامعاً بينهما، وكل شخصين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى لم يجز بينهما النكاح، فلا يجوز أن يجمع بينهما.

الرابع عشر: أن يكون هذا الناكح قد طلقها ثلاثاً فهي لا تحل له ما لم يطأها زوج غيره في نكاح صحيح.

الخامس عشر: أن يكون الناكح قد لاعنها، فإنها تحرم عليه أبداً بعد اللعان.

السادس عشر: أن تكون محرمة بحج أو عمرة أو كان الزوج كذلك، فلا ينعقد النكاح إلا بعد تمام التحلل.

السابع عشر: أن تكون ثيباً صغيرة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ.

الثامن عشر: أن تكون يتيمة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ.

التاسع عشر: أن تكون من أزواج رسول الله ﷺ ممن توفي عنها أو دخل بها؛ فإنهنّ أمهات المؤمنين وذلك لا يوجد في زماننا، فهذه هي الموانع المحرمة.

أما الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية: الدين، والخلق، والحسن، وخفة المهر، والولادة، والبكارة، والنسب، وأن لا تكون قرابة قريبة.

الأولى: أن تكون صالحة ذات دين: فهذا هو الأصل، وبه ينبغي أن يقع الاعتناء، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها أزرت بزوجها وسوّدت بين الناس وجهه، وشوّشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء ومحنة، وإن سلك سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشدّ؛ إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها، ويكون كالذي جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إنّ لي امرأة لا ترد يد لامس. قال: «**طَلِّقْهَا**»، فقال: إني أحبها.

(أ) قوله: أو ملك بعقد أو شبهة عقد ليس بنسخة الشارح وهو الصواب؛ لأن الملك ليس من المحرمات اهـ.

قال: «**أَمْسِكْهَا**»[1] وإنما أمره بإمساكها خوفاً عليه بأنه إذا طلقها أتبعها نفسه وفسد هو أيضاً معها، فرأى ما في دوام نكاحه من دفع الفساد عنه من ضيق قلبه أولى، وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوّشاً معه، فإن سكت ولم ينكره كان شريكاً في المعصية مخالفاً لقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] وإن أنكر وخاصم تنغص العمر، ولهذا بالغ رسول الله ﷺ في التحريض على ذات الدين فقال: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِمَالِهَا وَجَمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَدِينِهَا فَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[2]. وفي حديث آخر: «**مَنْ نَكَحَ المَرْأَةَ لِمَالِهَا وَجَمَالِهَا حُرِمَ جَمَالَهَا وَمَالَهَا، وَمَنْ نَكَحَهَا لِدِينِهَا رَزَقَهُ الله مَالَهَا وَجَمَالَهَا**»[3]، وقال ﷺ: «**لاَ تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِجَمَالِهَا فَلَعَلَّ جَمَالَهَا يُرْدِيهَا، وَلاَ لِمَالِهَا فَلَعَلَّ مَالَهَا يُطْغِيهَا، وَانْكِحِ المَرْأَةَ لِدِينِهَا**»[4]، وإنما بالغ في الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عوناً على الدين، فأما إذا لم تكن متدينة كانت شاغلة عن الدين ومشوشة له.

الثانية: حسن الخلق: وذلك أصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين: فإنها إذا كانت سليطة بذيئة اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم كان الضرر منها أكثر من النفع، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء. قال بعض العرب: لا تنكحوا من النساء ستة: لا أنّانة، ولا منّانة، ولا حنّانة، ولا تنكحوا حدّاقة، ولا برّاقة، ولا شدّاقة. أما الأنانة: فهي التي تكثر الأنين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة، فنكاح الممراضة أو نكاح المتمارضة لا خير فيه. والمنانة: التي تمن على زوجها فتقول: فعلت لأجلك كذا وكذا. والحنانة: التي تحن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر، وهذا أيضاً مما يجب اجتنابه. والحداقة: التي ترمي إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه. والبراقة: تحتمل معنيين: أحدهما: أن تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق محصل بالصنع، والثاني: أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء، وهذه لغة يمانية يقولون: برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا غضب عنده. والشداقة: المتشدقة الكثيرة الكلام، ومنه قوله عليه السلام: «**إِنَّ الله تَعَالَى يَبْغَضُ الثَّرْثَارِينَ المُتَشَدِّقِينَ**»[5].

وحكي أن السائح الأزدي لقي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره بالتزوج ونهاه عن التبتل، ثم قال: لا تنكح أربعاً: المختلعة، والمبارية، والعاهرة، والناشز؛ فأما المختلعة: فهي التي تطلب الخلع

---

(١) حديث: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن لي امرأة لا ترد يد لامس، قال: **طلقها**...» الحديث. رواه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس، قال النسائي: ليس بثابت، والمرسل أولى بالصواب. وقال أحمد: حديث منكر، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) حديث: «**تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فعليك بذات الدين**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «**من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها**...» الحديث. رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس: «**من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه**» ورواه ابن حبان في الضعفاء.

(٤) حديث: «**لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها**» أخرجه ابن ماجه من حديث عبدالله بن عمرو بسند ضعيف.

(٥) حديث: «**إن الله يبغض الثرثارين المتشدقين**» رواه الترمذي وحسنه من حديث جابر: «**وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتفيهقون**» ولأبي داود والترمذي وحسنه من حديث عبدالله بن عمرو: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها**».

كل ساعة من غير سبب. والمبارية: المباهية بغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا. والعاهرة: الفاسقة التي تعرف بخليل وخدن، وهي التي قال الله تعالى ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]. والناشز: التي تعلو على زوجها بالفعال والمقال، والنشز: العالي من الأرض، وكان علي رضي الله عنه يقول: شر خصال الرجال خير خصال النساء. البخل، والزهو، والجبن، فإنّ المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها، وإذا كانت مزهوّة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مريب، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها، واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها، فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الأخلاق المطلوبة في النكاح.

الثالثة: حسن الوجه: فذلك أيضاً مطلوب؛ إذ به يحصل التحصن، والطبع لا يكتفي بالدميمة غالباً، كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان. وما نقلناه من الحث على الدين وأن المرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجراً عن رعاية الجمال، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين، فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهوّن أمر الدين، ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال: أن الألفة والمودة تحصل به غالباً، وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال: «**إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما**»(١) أي يؤلف بينهما، من وقوع الأدمة على الأدمة: وهي الجلدة الباطنة. والبشرة، الجلدة الظاهرة، وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الائتلاف. وقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ فِي أَعْيُنِ الأَنْصَارِ شَيْئاً فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْهُنَّ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهِنَّ**»(٢) قيل: كان في أعينهن عمش، وقيل: صغر، وكان بعض الورعين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور، قال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم، ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال، وإنما يعرف الجمال من القبح. وروي أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضي الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا: حسبناه شاباً: فأوجعه عمر ضرباً وقال: غررت القوم. وروي أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما: من أنتما؟ فقال بلال: أنا بلال وهذا أخي صهيب، كنا ضالين فهدانا الله وكنا مملوكين فأعتقنا الله، وكنا عائلين فأغنانا الله، فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فسبحان الله، فقالوا: بل تزوجان والحمد لله. فقال صهيب لبلال: لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ فقال: اسكت فقد صدقت فأنكحك الصدق.

والغرور يقع في الجمال والخلق جميعاً فيستحب إزالة الغرور في الجمال بالنظر، وفي الخلق بالوصف والاستيصاف، فينبغي أن يقدم ذلك على النكاح، ولا يستوصف في أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيفرط في الثناء، ولا يحسدها فيقصر، فالطباع مائلة في مبادىء النكاح ووصف المنكوحات إلى الإفراط والتفريط، وقل من يصدق فيه ويقتصد، بل الخداع والإغراء أغلب، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوّف إلى غير زوجته، فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة أو

---

(١) حديث: «**إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما**» أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث أحمد بن مسلمة دون قوله: «**فإنه أحرى**» وللترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث المغيرة بن شعبة: أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ: «**انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**».

(٢) حديث: «**إن في أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن**» رواه مسلم من حديث أبي هريرة نحوه.

الولد أو تدبير المنزل، فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب لأنه على الجملة باب من الدنيا، وإن كان قد يعين على الدين في حق بعض الأشخاص. قال أبو سليمان الداراني: الزهد في كل شيء حتى في المرأة يتزوج الرجل العجوز إيثاراً للزهد في الدنيا. وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول: يترك أحدكم أن يتزوج يتيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير، ويتزوّج بنت فلان وفلان ـ يعني أبناء الدنيا ـ فتشتهي عليه الشهوات وتقول: اكسني كذا وكذا. واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة، فسأل: من أعقلهما؟ فقيل: العوراء، فقال: زوّجوني إياها. فهذا دأب من لم يقصد التمتع، فأما من لا يأمن على دينه ما لم يكن له مستمتع فليطلب الجمال، فالتلذذ بالمباح حصن للدين، وقد قيل: إذا كانت المرأة حسناء خيرة الأخلاق سوداء الحدقة والشعر، كبيرة العين بيضاء اللون محبة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهي على صورة الحور العين، فإن الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة في قوله: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمٰن: ٧٠] أراد بالخيرات: حسنات الأخلاق، وفيه قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الصَّافات: ٤٨] وفي قوله: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقِعَة: ٣٧] العروب: هي العاشقة لزوجها المشتهية للوقاع، وبه تتم اللذة. والحور: البياض. والحوراء: شديدة بياض العين شديدة سوادها في سواد الشعر، والعيناء الواسعة العين. وقال عليه الصلاة والسلام: «**خَيْرُ نِسَائِكُمْ مَنْ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا زَوْجُهَا سَرَّتْهُ وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ**»[1]. وإنما يسر بالنظر إليها إذا كانت محبة للزوج.

الرابعة: أن تكون خفيفة المهر: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ النِّسَاءِ أَحْسَنُهُنَّ وُجُوهاً وَأَرْخَصُهُنَّ مُهُوراً**»[2] وقد نهى عن المغالاة في المهر[3]. تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت؛ وكان رحى يد وجرّة ووسادة من أدم حشوها ليف[4] وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير[5] وعلى أخرى بمدّين من تمر ومدّين من سويق[6]، وكان عمر رضي الله عنه ينهى عن

---

(١) حديث: «**خير نسائكم التي إذا نظر إليها زوجها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله**» أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة نحوه بسند صحيح وقال «**ولا تخالفه في نفسها ولا مالها**» وعند أحمد «**في نفسها وماله**» ولأبي داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح.

(٢) حديث: «**خير النساء أحسنهن وجوهاً وأرخصهن مهوراً**» أخرجه ابن حبان من حديث ابن عباس: «**خيرهن أيسرهن صداقاً**» وله من حديث عائشة: «**من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها**» وروى أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين: «**إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوهاً وأقلهن مهوراً**» وصححه.

(٣) حديث: «**النهي عن المغالاة في المهر**» رواه أصحاب السنن الأربعة موقوفاً على عمر وصححه الترمذي.

(٤) حديث: «تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت؛ وكان رحى يد وجرة ووسادة من أدم حشوها ليف» رواه أبو داود الطيالسي والبزار من حديث أنس: «تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم». قال البزار: ورأيته في موضع آخر تزوجها على متاع بيت ورحى قيمته أربعون درهماً. ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد وكلاهما ضعيف. ولأحمد من حديث علي: «لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرتين» ورواه الحاكم وصحح إسناده، وابن حبان مختصراً.

(٥) حديث: «أولم على بعض نسائه بمدين من شعير» أخرجه البخاري من حديث عائشة.

(٦) حديث: «وأولم على أخرى بمدي تمر ومدي سويق» رواه الأربعة من حديث أنس: أولم على صفية بسويق وتمر. ولمسلم: فجعل الرجل يجيء بفضل التمر وفضل السويق. وفي الصحيحين: التمر والأقط والسمن، وليس في شيء من الأصول تقييد التمر والسويق بمدين.

المغالاة في الصداق ويقول: ما تزوّج رسول الله ﷺ ولا زوّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم(١)، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله ﷺ، وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله ﷺ على نواة من ذهب قيمتها خمسة دراهم(٢)، وزوّج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة رضي الله عنه على درهمين، ثم حملها هو إليه ليلاً فأدخلها هو من الباب ثم انصرف، ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها. ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج من خلاف العلماء فلا بأس به. وفي الخبر: «**مِنْ بَرَكَةِ المَرْأَةِ سُرْعَةُ تَزْوِيجِهَا وَسُرْعَةُ رَحِمِهَا**» أي الولادة، و «**يُسْرُ مَهْرِهَا**»(٣). وقال أيضاً: «**أَبْرَكُهُنَّ أَقَلُّهُنَّ مَهراً**»(٤)، وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل. ولا ينبغي أن ينكح طمعاً في المال. قال الثوري: إذا تزوج وقال: أي شيء للمرأة؟ فاعلم أنه لص، وإذا أهدي إليه فلا ينبغي أن يهدي ليضطرهم إلى المقابلة بأكثر منه، وكذلك إذا أهدوا إليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة، فأما التهادي: فمستحب وهو سبب المودة. قال عليه السلام: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**»(٥) وأما طلب الزيادة فداخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدَّثر: ٦] أي تعطي لتطلب أكثر، وتحت قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ [الرُّوم: ٣٩] فإنّ الربا هو الزيادة، وهذا طلب زيادة على الجملة، وإن لم يكن في الأموال الربوية فكل ذلك مكروه وبدعة في النكاح يشبه التجارة والقمار ويفسد مقاصد النكاح.

الخامسة: أن تكون المرأة ولوداً: فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها. قال عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بِالوَلُودِ الوَدُودِ**»(٦). فإن لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعي صحتها وشبابها، فإنها تكون ولوداً في الغالب مع هذين الوصفين.

السادسة: أن تكون بكراً: قال عليه السلام لجابر: وقد نكح ثيباً: «**هَلَّا بِكراً تُلاعِبُها وَتُلاعِبُكَ**»(٧). في البكارة ثلاث فوائد: إحداها: أن تحب الزوج وتألفه فيؤثر في معنى الود، وقد قال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ**

---

(١) حديث: كان عمر ينهى عن المغالاة ويقول: ما تزوج رسول الله ﷺ ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم. رواه الأربعة من حديث عمر، قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) حديث. تزوج بعض أصحاب النبي ﷺ على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم. متفق عليه من حديث أنس: أن عبدالرحمن بن عوف تزوج على ذلك وتقويمها بخمسة دراهم. رواه البيهقي.

(٣) حديث: «**من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها**» أي الولادة «**وتيسير مهرها**». رواه أحمد والبيهقي من حديث عائشة: «**من يمن المرأة أن تتيسر خطبتها وأن يتيسر صداقها وأن يتيسر رحمها**» قال عروة: يعني الولادة، وإسناده جيد.

(٤) حديث: «**أبركهن أقلهن مهراً**» رواه أبو عمر التوقاني في معاشرة الأهلين من حديث عائشة: «**إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوهاً وأقلهن مهراً**» وقد تقدم، ولأحمد والبيهقي: «**إن أعظم النساء بركة أيسرهن صداقاً**» وإسناده جيد.

(٥) حديث: «**تهادوا تحابوا**» أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد، والبيهقي من حديث أبي هريرة بسند جيد.

(٦) حديث: «**عليكم بالودود الولود**» أخرجه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار: «**تزوجوا الودود الولود**» وإسناده صحيح.

(٧) حديث قال لجابر وقد نكح ثيباً: «**هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك**» متفق عليه من حديث جابر.

بِالوَدُودِ»، والطباع مجبولة على الأنس بأوّل مألوف، وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف التي تخالف ما ألفته فتقلي الزوج. الثانية: أن ذلك أكمل في مودته لها فإن الطبع ينفر عن التي مسها غير الزوج نفرة ما، وذلك يثقل على الطبع مهما يذكر، وبعض الطباع في هذا أشد نفوراً. الثالثة: أنها لا تحن إلى الزوج الأوّل وآكد الحب ما يقع مع الحبيب الأول غالباً.

السابعة: أن تكون نسيبة: أعني أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها ستربي بناتها وبنيها. فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية، ولذلك قال عليه السلام: **«إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ»**، فقيل: ما خضراء الدمن؟[1] قال: **«المَرْأَةُ الحَسْنَاءُ فِي المَنْبِتِ السُّوءِ»**[2] وقال عليه السلام: **«تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ فَإِنَّ العِرْقَ نَزَّاعٌ»**[3].

الثامنة: أن لا تكون من القرابة القريبة فإنّ ذلك يقلل الشهوة: قال ﷺ: **«لاَ تَنْكحُوا القَرَابَةَ القَرِيبَةَ فَإِنَّ الوَلَدَ يُخْلَقُ ضَاوِياً»**[4]. أي نحيفاً، وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة، فإن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللمس، وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد، فأما المعهود الذي دام النظر إليه مدّة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة، فهذه هي الخصال المرغبة في النساء، ويجب على الولي أيضاً أن يراعي خصال الزوج، ولينظر لكريمته فلا يزوّجها ممن ساء خُلُقه أو خَلْقه، أو ضعف دينه، أو قصر عن القيام بحقها، أو كان لا يكافئها في نسبها، قال عليه السلام: **«النِّكَاحُ رِقٌّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ أَيْنَ يَضَعُ كَرِيمَتَهُ»**[5]. والاحتياط في حقها أهم؛ لأنها رقيقة بالنكاح لا مخلص لها، والزوج قادر على الطلاق بكل حال، ومهما زوّج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو شارب خمر فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله؛ لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار. وقال رجل للحسن: قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها؟ قال: ممن يتقي الله؛ فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها. وقال عليه السلام: **«مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ فَاسِقٍ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا»**[6].

* * *

---

(١) الدِّمن: المزابل.

(٢) حديث: **«إياكم وخضراء الدمن، فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء»** رواه الدارقطني في الأفراد، والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري، قال الدارقطني: تفرد به الواقدي وهو ضعيف.

(٣) حديث: **«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»** رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصراً دون قوله **«فإن العرق»**، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس: **«تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس»**، وروى أبو موسى المديني في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر: **«وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس»** وكلاهما ضعيف.

(٤) حديث: **«لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاوياً»** قال ابن الصلاح: لم أجد له أصلاً معتمداً.
قلت: إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب: **«قد أضويتم فانكحوا في النوابغ»** رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث، وقال: معناه تزوجوا الغرائب قال: ويقال: اغربوا لا تضووا.

(٥) حديث: **«النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته»** رواه أبو عمر التوقاني في معاشرة الأهلين موقوفاً على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر. قال البيهقي. وروي ذلك مرفوعاً والموقوف أصح.

(٦) حديث: **«من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها»** رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس، ورواه في الثقات من قول الشعبي بإسناد صحيح.

الباب الثالث

في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج: فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً: في الوليمة، والمعاشرة، والدعابة، والسياسة، والغيرة، والنفقة، والتعليم، والقسم، والتأديب في النشوز، والوقاع، والولادة، والمفارقة بالطلاق.

الأدب الأول: الوليمة. وهي مستحبة، قال أنس رضي الله عنه: رأى رسول الله ﷺ على عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال: «**مَا هٰذَا**»؟ فقال: تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب. فقال «**بَارَكَ الله لَكَ أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**»[١] وأولم رسول الله ﷺ على صفية بتمر وسويق[٢]. وقال ﷺ: «**طَعَامُ أَوَّلِ يَوْمٍ حَقٌّ، وَطَعَامُ الثَّانِي سُنَّةٌ، وَطَعَامُ الثَّالِثِ سُمْعَةٌ، وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ**»[٣]، ولم يرفعه إلا زيادُ بن عبدالله وهو غريب. وتستحب تهنئته فيقول من دخل على الزوج: **بارك الله لك وبارك عليك، وجمع بينكما في خير**[٤]. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك، ويستحب إظهار النكاح. قال عليه السلام: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ الدُّفُّ وَالصَّوْتُ**»[٥]، قال رسول الله ﷺ: «**أَعْلِنُوا هٰذَا النِّكَاحَ وَاجْعَلُوهُ فِي المَسَاجِدِ وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بِالدُّفُوفِ**»[٦]. وعن الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ قالت: «جاء رسول الله ﷺ فدخل علي غداة بُنِيَ بي فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفهن ويندبن من قتل من آبائي إلى أن قالت إحداهن:

وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد

فقال لها: «**اسْكُتِي عَنْ هٰذِهِ وَقُولِي الَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ قَبْلَهَا**»»[٧].

الأدب الثاني: حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترحماً عليهن لقصور عقلهن: وقال الله تعالى:

الباب الثالث في آداب المعاشرة

(١) حديث أنس: رأى رسول الله ﷺ على عبدالرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال: «**ما هذا؟**» قال: تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب، فقال: «**بارك الله لك، أولم ولو بشاة**» متفق عليه.

(٢) حديث: «**أولم على صفية بسويق وتمر**» رواه الأربعة من حديث أنس، ولمسلم نحوه وقد تقدم.

(٣) حديث: «**طعام أول يوم حق، وطعام الثاني سنّة، وطعام الثالثة سمعة، ومن سمع سمع الله به**» قال المصنف: لم يرفعه إلا زياد بن عبدالله.
قلت: هكذا قال الترمذي بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه.

(٤) حديث أبي هريرة في تهنئة الزوج: «**بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير**» رواه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه وتقدم في الدعوات.

(٥) حديث: «**فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت**» رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب.

(٦) حديث: «**أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف**» رواه الترمذي من حديث عائشة وحسنه وضعفه البيهقي.

(٧) حديث الربيع بنت معوذ: «جاء رسول الله ﷺ فدخل عليَّ غداة بُنِيَ بي فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفوفهن»... الحديث، رواه البخاري وقال: يوم بدر. وقع في بعض نسخ الإحياء: يوم بعاث، وهو وهم.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النّساء: ١٩] وقال في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النّساء: ٢١] وقال: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النّساء: ٣٦] قيل: هي المرأة. وآخر ما وصى به رسول الله ﷺ ثلاث كان يتكلم بهم حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه؛ جعل يقول: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ لاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا لاَ يُطِيقُونَ، الله الله فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ فِي أَيْدِيكُمْ** - يعني أسراء - **أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ الله وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله**»(١). وقال عليه السلام: «**مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ سُوءِ خُلُقِ امْرَأَتِهِ أَعْطَاهُ الله مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ أَيُّوبُ عَلَىٰ بَلَائِهِ، وَمَنْ صَبَرَتْ عَلَىٰ سُوءِ خُلُقِ زَوْجِهَا أَعْطَاهَا الله مِثْلَ ثَوَابِ آسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ**»(٢). واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها؛ اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل(٣). وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال: أتراجعيني يا لَكْعَاء، فقالت: إنّ أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك(٤)، فقال عمر: خابت حفصة وخسرت إن راجعته، ثم قال لحفصة: لا تغتري بابنة ابن أبي قحافة فإنها حِبُّ رسول الله ﷺ، وخوّفها من المراجعة. وروي أنه دفعت إحداهن في صدر رسول الله ﷺ فزبرتها أمها، فقال عليه السلام: «**دَعِيهَا فَإِنَّهُنَّ يَصْنَعْنَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ**»(٥). وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكماً واستشهده، فقال لها رسول الله ﷺ: «**تَكَلَّمِينَ أَوْ أَتَكَلَّمُ**»؟ فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً، فلطمها أبو بكر حتى دمي فوها وقال: يا عديّة نفسها، أو يقول غير الحق، فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي ﷺ: «**لَمْ نَدْعُكَ لِهٰذَا وَلاَ أَرَدْنَا مِنْكَ هٰذَا**»(٦)، وقالت له مرة في كلام غضبت عنده: أنت الذي تزعم أنك نبي الله، فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً(٧). وكان يقول لها: «**إِنِّي لأَعْرِفُ غَضَبَكِ مِنْ رِضَاكِ**». قالت:

---

(١) حديث: «آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ ثلاث، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه»، جعل يقول: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء فإنهن عوان عندكم**...» الحديث. أخرجه النسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ وهو في الموت جعل يقول: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**» فما زال يقولها وما يقبض بها لسانه، وأما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان في حجة الوداع. رواه مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه: «**فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله**...» الحديث.

(٢) حديث: «**من صبر على سوء خُلُق امرأة أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطي أيوب على بلائه**...» الحديث. لم أقف له على أصل.

(٣) حديث: «كان أزواجه ﷺ يراجعنه الحديث وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل». متفق عليه من حديث عمر في الحديث الطويل في قوله تعالى ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ [التّحريم: ٤].

(٤) حديث: وراجعت امرأة عمر عمر في الكلام فقال: أتراجعيني يا لكعاء، قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك... الحديث. هو الحديث الذي قبله وليس فيه قوله: «يا لكعاء»، ولا قولها: هو خير منك.

(٥) حديث: دفعت إحداهن في صدر رسول الله ﷺ فزبرتها أمها، فقال ﷺ: «**دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك**» لم أقف له على أصل.

(٦) حديث: جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكماً... الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط، والخطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف.

(٧) حديث: قالت له عائشة مرة غضبت عنده: وأنت الذي تزعم أنك نبي، فتبسم رسول الله ﷺ أخرجه أبو يعلى في مسنده، وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة، وفيه ابن إسحاق وقد عنعنه.

وكيف تعرفه؟ قال: «إِذَا رَضِيتِ قُلْتِ: لاَ وَإِلَهِ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا غَضِبْتِ قُلْتِ: لاَ وَإِلَهِ إِبْرَاهِيمَ» قالت: «صدقت إنما أهجر اسمك»[(١)] ويقال: إنّ أول حب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها[(٢)]. وكان يقول لها: «كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ، غَيْرَ أَنِّي لاَ أُطَلِّقُكِ»[(٣)]، وكان يقول لنسائه: «لاَ تُؤْذُونِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرَهَا»[(٤)] وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان[(٥)].

الثالث: أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة: فهي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق، حتى روي أنه ﷺ كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوماً، وسبقها في بعض الأيام، فقال عليه السلام: «هَذِهِ بِتِلْكَ»[(٦)]. وفي الخبر: «أنه كان ﷺ من أفكه الناس مع نسائه»[(٧)]. وقالت عائشة رضي الله عنها: «سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء، فقال لي رسول الله ﷺ: «أَتُحِبِّينَ أَنْ تَرَيْ لَعِبَهُمْ؟» قالت: قلت نعم، فأرسل إليهم فجاؤوا، وقام رسول الله ﷺ بين البابين، فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «حَسْبُكِ» وأقول اسكت مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «يَا عَائِشَةُ حَسْبُكِ» فقلت: نعم، فأشار إليهم فانصرفوا»[(٨)]. فقال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ»[(٩)]

---

(١) حديث: كان يقول لعائشة: «**إني لأعرف غضبك من رضاك...**» الحديث. متفق عليه من حديثها.

(٢) حديث: «أول حب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ عائشة» رواه الشيخان من حديث عمرو بن العاص أنه قال: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: «**عائشة...**» الحديث. وأما كونه أول، فرواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أنس، ولعله أراد بالمدينة كما في الحديث الآخر أن ابن الزبير أول مولود ولد في الإسلام يريد بالمدينة، وإلا فمحبة النبي ﷺ لخديجة أمر معروف تشهد له الأحاديث الصحيحة.

(٣) حديث: كان يقول لعائشة: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لا أطلقك**» متفق عليه من حديث عائشة دون الاستثناء، ورواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والخطيب.

(٤) حديث: «**لا تؤذوني في عائشة فإنه والله ما أنزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها**» رواه البخاري من حديث عائشة.

(٥) حديث أنس: «كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان». رواه مسلم بلفظ: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ» زاد علي بن عبدالعزيز والبغوي: والصبيان.

(٦) حديث مسابقته ﷺ لعائشة فسبقته ثم سبقها وقال: «**هذه بتلك**» رواه أبو داود والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث عائشة بسند صحيح.

(٧) حديث: «كان من أفكه الناس مع نسائه». رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس دون قوله: مع نسائه. ورواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط فقالا: مع صبي. وفي إسناده ابن لهيعة.

(٨) حديث عائشة: سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال لي رسول الله ﷺ: «**أتحبين أن تري لعبهم**» الحديث، متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء، وإنما قال: يوم عيد، ودون قولها: اسكت، وفي رواية للنسائي في الكبرى: قلت: لا تعجل، مرتين. وفيه فقال: «**يا حميراء**»، وسنده صحيح.

(٩) حديث: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله**» رواه الترمذي والنسائي واللفظ له، والحاكم وقال: رواته ثقات على شرط الشيخين.

وقال عليه السلام: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِنِسَائِي**»[(١)] وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً. وقال لقمان رحمه الله: ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي، وإذا كان في القوم وجد رجلاً. وفي تفسير الخبر المروي: «**إن الله يبغض الجعظري الجوّاظ**»[(٢)] قيل: هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه، وهو أحد ما قيل في معنى قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ﴾ [القَلَم: ١٣] قيل العتل: هو الفظّ اللسان الغليظ القلب على أهله. وقال عليه السلام لجابر: «**هَلاَّ بِكْراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ**»[(٣)]. ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت: والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج، سكيتاً إذا خرج، آكلاً ما وجد. غير مسائل عما فقد.

الرابع: أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها: بل يراعي الاعتدال فيه فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض، قال الحسن: والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبّه الله في النار. وقال عمر رضي الله عنه: خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة. وقد قيل: شاوروهن وخالفوهن. وقد قال عليه السلام: «**تَعِسَ عَبْدُ الزَّوْجَةِ**»[(٤)]، وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها وقد تعس، فإن الله ملكه المرأة فملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: ١١٩] إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً، وقد سمى الله الرجال قوّامين على النساء وسمى الزوج سيداً، فقال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يُوسُف: ٢٥] فإذا انقلب السيد مسخراً فقد بدل نعمة الله كفراً، ونفس المرأة على مثال نفسك: إن أرسلت عنانها قليلاً جمحت بك طويلاً، وإن أرخيت عذارها فتراً جذبتك ذراعاً، وإن كبحتها وشددت يدك عليها في محل الشدّة ملكتها. قال الشافعي رضي الله عنه: ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك: المرأة، والخادم، والنبطي ـ أراد به إن محضت الإكرام ولم تمزج غلظك بلينك وفظاظتك برفقك ـ. وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج، وكانت المرأة تقول لابنتها: اختبري زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه؛ انزعي زج رمحه، فإن سكت فقطعي اللحم على ترسه، فإن سكت فكسّري العظام بسيفه، فإن سكت فاجعلي الإكاف على ظهره وامتطيه فإنما هو حمارك.

وعلى الجملة: فبالعدل قامت السمٰوات والأرض، فكل ما جاوز حدّه انعكس على ضدّه، فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن، فإن

---

(١) حديث: «**خياركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي**» أخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله: «**وأنا خيركم لنسائي**» وله من حديث عائشة وصححه: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**».

(٢) حديث: «**إن الله يبغض الجعظري الجواظ**» رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وهو في الصحيحين من حديث جارية بن وهب الخزاعي بلفظ: «**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر**» ولأبي داود: «**لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري**».

(٣) حديث قال لجابر: «**هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك**» متفق عليه من حديثه، وقد تقدم.

(٤) حديث: «**تعس عبد الزوجة**» لم أقف له على أصل، والمعروف: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم...**» الحديث. رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

كيدهنّ عظيم وشرهن فاش، والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة. وقال عليه السلام: «**مَثَلُ المَرْأَةِ الصَّالِحَةِ فِي النِّسَاءِ كَمَثَلِ الغُرَابِ الأَعْصَمِ بَيْنَ مائَةِ غُرَابٍ**»(١)، والأعصم: يعني الأبيض البطن. وفي وصية لقمان لابنه: يا بني: اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل الشيب، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير، وكن من خيارهن على حذر. وقال عليه السلام: «**اسْتَعِيذُوا مِنَ الفَوَاقِرِ الثَّلاثِ**»(٢). وعدّ منهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب. وفي لفظ آخر: «**إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا سَبَّتْكَ، وَإِنْ غِبْتَ عَنْهَا خَانَتْكَ**». وقد قال عليه السلام في خيرات النساء: «**إِنَّكُنَّ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ**»(٣)؛ يعني إن صرفكن أبا بكر عن التقدّم في الصلاة ميل منكن عن الحق إلى الهوى. قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله ﷺ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] أي مالت. وقال ذلك في خير أزواجه(٤)، وقال عليه السلام: «**لاَ يُفْلِحُ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ امْرَأَةٌ**»(٥). وقد زبر عمر رضي الله عنه امرأته لما راجعته وقال: ما أنت إلا لعبة في جانب البيت؛ إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت، فإذن فيهن شر وفيهن ضعف، فالسياسة والخشونة علاج الشر، والمطايبة والرحمة علاج الضعف، فالطبيب الحاذق هو الذي يقدر العلاج بقدر الداء، فلينظر الرجل أولاً إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيها حالها.

الخامس: الاعتدال في الغيرة: وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء(٦) وفي لفظ آخر: «أن تبغت النساء». ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة: «**لاَ تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلاً**» فخالفه رجلان فسبقا، فرأى كل واحد في منزله ما يكره(٧). وفي الخبر المشهور: «**المَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ قَوَّمْتَهُ كَسَرْتَهُ**،

---

(١) حديث: «**مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب**» رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ولأحمد من حديث عمرو بن العاص: كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران، فإذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار فقال: «**لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغربان**» وإسناده صحيح، وهو في السنن الكبرى للنسائي.

(٢) حديث: «**استعيذوا من الفواقر الثلاث**» وعد منهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب وفي لفظ آخر: «**إن دخلت عليها لسنتك، وإن غبت عنها خانتك**» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. واللفظ الآخر رواه الطبراني من حديث فضالة بن عبيد: «**ثلاث من الفواقر**»: وذكر منها «**وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت عنها خانتك**» وسنده حسن.

(٣) حديث: «**إنكن صواحبات يوسف**» متفق عليه من حديث عائشة.

(٤) حديث نزول قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] في خير أزواجه، متفق عليه من حديث عمر، والمرأتان عائشة وحفصة.

(٥) حديث: «**لا يفلح قوم تملكهم امرأة**» رواه البخاري من حديث أبي بكرة نحوه. والمرأة التي ملكت فارس هي بوران بنت كسرى.

(٦) حديث: «**نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء**» رواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر: نهى أن تتطلب عثرات النساء، والحديث عند مسلم بلفظ: نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً يخونهم أو يطلب عثراتهم، واقتصر البخاري منه على ذكر النبي عن الطروق ليلاً.

(٧) حديث أنه قال قبل دخول المدينة: «**لا تطرقوا أهلكم ليلاً**» فخالفه رجلان فسعيا إلى منازلهما فرأى كل واحد في بيته ما يكره. رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند جيد.

فَدَعْهُ تَسْتَمْتِعْ بِهِ عَلَىٰ عِوَجٍ»[١] وهذا في تهذيب أخلاقها. وقال ﷺ: «إِنَّ مِنَ الغَيْرَةِ غَيْرَةً يُبْغِضُهَا الله عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ غَيْرَةُ الرَّجُلِ عَلَىٰ أَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ»[٢] لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه، فإنّ بعض الظن إثم. وقال علي رضي الله عنه: لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك. وأما الغيرة في محلها فلا بدّ منها وهي محمودة؛ وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله تَعَالَىٰ يَغَارُ وَالمُؤْمِنُ يَغَارُ وَغَيْرَةُ الله تَعَالَىٰ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ الله عَلَيْهِ»[٣]. وقال عليه السلام: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، أَنَا وَالله أَغْيَرُ مِنْهُ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي»[٤]. ولأجل غيرة الله تعالى حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ولذلك بعث المنذرين والمبشرين. ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولأجل ذلك وعد الجنة.

وقال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ ليلة أُسْرِيَ بِي فِي الجَنَّةِ قَصْراً وَبِفَنَائِهِ جَارِيَةٌ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هٰذَا القَصرُ؟ فَقِيلَ: لِعُمَرَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيهَا فَذَكَرْتُ غَيرَتَكَ يَا عُمَرُ»[٥] فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله. وكان الحسن يقول: أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج في الأسواق. قبح الله من لا يغار، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِنَ الغَيْرَةِ مَا يُحِبُّهُ الله وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُهُ الله، وَمِنَ الخُيَلاءِ مَا يُحِبُّهُ الله وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُهُ الله، فَأَمَّا الغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّهَا الله فَالغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَالغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا الله فَالغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ، وَالاخْتِيَالُ الَّذِي يُحِبُّهُ الله اخْتِيَالُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ القِتَالِ وَعِنْدَ الصَّدْمَةِ، وَالاخْتِيَالُ الَّذِي يُبْغِضُهُ الله الاخْتِيَالُ فِي البَاطِلِ»[٦]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي لَغَيُورٌ، وَمَا مِنِ امْرِىءٍ لاَ يَغَارُ إِلاَّ مَنْكُوسُ القَلْبِ»[٧]. والطريق المغني عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج إلى الأسواق. وقال رسول الله ﷺ لابنته فاطمة عليها السلام: «أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلْمَرْأَةِ»[٨]؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، فضمها إليه وقال: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عِمرَان: ٣٤] فاستحسن قولها. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسدّون الكوى والثقب في الحيطان؛ لئلا تطلع النسوان إلى الرجال. ورأى معاذ امرأته

---

(١) حديث: «المرأة كالضلع إن أردت تقيمه كسرته...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «غيرة يبغضها الله وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة» رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك.

(٣) حديث: «الله يغار والمؤمن يغار، وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه» متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري: والمؤمن يغار.

(٤) حديث: «أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه والله أغير مني....» الحديث. متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة.

(٥) حديث: «رأيت ليلة أسري بي في الجنة قصراً وبفنائه جارية، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقيل لعمر...» الحديث. متفق عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أسري بي ولم يذكر الجارية، وذكر الجارية في حديث آخر متفق عليه من حديث أبي هريرة «بينما أنا نائم رأيتني في الجنة...» الحديث.

(٦) حديث: «إن من الغيرة ما يحبه الله تعالى ومنها ما يبغضه الله تعالى...» الحديث. رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك، وهو الذي تقدم قبله بأربعة أحاديث.

(٧) حديث: «إني لغيور وما من امرىء لا يغار إلا منكوس القلب» تقدم أوله. وأما آخره فرواه أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين من رواية عبدالله بن محمد مرسلاً. والظاهر أنه عبدالله بن الحنفية.

(٨) حديث قال رسول الله ﷺ لابنته فاطمة: «أي شيء خير للمرأة؟» فقالت: أن لا ترى رجلاً... الحديث. رواه البزار والدارقطني في الأفراد من حديث علي بسند ضعيف.

تطلع في الكوة فضربها، ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها فضربها.

وقال عمر رضي الله عنه: أعروا النساء يلزمن الحجال، وإنما قال ذلك لأنهن لا يرغبن في الخروج في الهيئة الرثة. وقال: عوّدوا نساءكم «لا». وكان قد أذن رسول الله ﷺ للنساء في حضور المسجد(١) والصواب الآن المنع إلا العجائز، بل استصوب ذلك في زمان الصحابة حتى قالت عائشة رضي الله عنها: لو علم النبي ﷺ ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج(٢). ولما قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله»** فقال بعض ولده: بلى والله لنمنعهن، فضربه وغضب عليه وقال: تسمعني أقول قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تَمْنَعُوا»** فتقول: بلى(٣). وإنما استجرأ على المخالفة لعلمه بتغير الزمان، وإنما غضب عليه لإطلاقه اللفظ بالمخالفة ظاهراً من غير إظهار العذر، وكذلك كان رسول الله ﷺ قد أذن لهن في الأعياد خاصة أن يخرجن(٤) ولكن لا يخرجن إلا برضا أزواجهن، والخروج الآن مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها ولكن القعود أسلم. وينبغي أن لا تخرج إلا لمهم، فإن الخروج للنظارات والأمور التي ليست مهمة تقدح في المروءة، وربما تفضي إلى الفساد، فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال، ولسنا نقول إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقه، بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط، فإن لم تكن فتنة فلا؛ إذ لم يزل الرجال على ممر الزمان مكشوفي الوجوه والنساء يخرجن منتقبات، ولو كان وجوه الرجال عورة في حق النساء لأمروا بالتنقب أو منعن من الخروج إلا لضرورة.

السادس: الاعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق، ولا ينبغي أن يسرف، بل يقتصد. قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقد قال رسول الله ﷺ: **«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ»**(٥)، وقال ﷺ: **«دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ الله، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَىٰ مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ»**(٦). وقيل: كان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة، فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم، وقال الحسن رضي الله عنه: كانوا في الرجال مخاصيب، والإناث والثياب مجاديب. وقال ابن سيرين: يستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة فالوذجة، وكأن الحلاوة وإن لم تكن من المهمات ولكن تركها بالكلية تقتير في العادة، وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك؛ فهذا أقل درجات الخير، وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه، فإن ذلك

---

(١) حديث الإذن للنساء في حضور المساجد. متفق عليه من حديث ابن عمر **«ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد»**.

(٢) حديث قالت عائشة: لو علم النبي ﷺ ما أحدث النساء بعده لمنعهن من الخروج. متفق عليه. قال البخاري: لمنعهن من المساجد.

(٣) حديث ابن عمر: **«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»** فقال بعض ولده: بلى والله... الحديث. متفق عليه.

(٤) حديث: **«الإذن لهن في الخروج في الأعياد»** متفق عليه من حديث أم عطية.

(٥) حديث: **«خيركم خيركم لأهله»** أخرجه الترمذي من حديث عائشة وصححه، وقد تقدم.

(٦) حديث: **«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقته على أهلك»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف، فإن كان مزمعاً على ذلك فليأكله بخفية بحيث لا يعرف أهله، ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته؛ فقد قال سفيان رضي الله عنه: بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق: أن يطعمها من الحلال، ولا يدخل مداخل السوء لأجلها؛ فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها، وقد أوردنا الأخبار الواردة في ذلك عند ذكر آفات النكاح.

السابع: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب، ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى، فإنه أُمِرَ بأن يقيها النار بقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] فعليه أن يلقنها اعتقاد أهل السنة ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها، ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه، وعلم الاستحاضة يطول، فأما الذي لا بد من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض بيان الصلوات التي تقضيها، فإنها مهما انقطع دمها قبيل المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهذا أقل ما يراعيه النساء، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها خروج، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال، بل عليها ذلك ويعصي الرجل بمنعها، ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل إلا برضاه، ومهما أهملت المرأة حكماً من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل حرج الرجل معها وشاركها في الإثم.

الثامن: إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن(١)، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ فإن ظلم امرأة بليلتها قضى لها، فإن القضاء واجب عليه، وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام القسم وذلك يطول ذكره، وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَىٰ إِحْدَاهُمَا دُونَ الأُخْرَىٰ** ـ وفي لفظ ـ **وَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ**»(٢) وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار. قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ [النساء: ١٢٩] أي أن تعدلوا في شهوة القلب وميل النفس، ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع. وكان رسول الله ﷺ يعدل بينهن في العطاء والبيتوتة في الليالي، ويقول: «**اللَّهُمَّ هٰذَا جَهْدِي فِيمَا أَمْلِكُ وَلاَ طَاقَةَ لِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ**»(٣) يعني الحب. وقد كانت عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه(٤)، وسائر نسائه يعرفن ذلك.

---

(١) حديث: القرعة بين أزواجه إذا أراد سفراً. متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث: «**من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى**» وفي لفظ آخر: «**لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل**» أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة، قال أبو داود وابن حبان: «**فمال مع إحداهما**»، وقال الترمذي: «**فلم يعدل بينهما**».

(٣) حديث: كان يعدل بينهن ويقول: «**اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك**». أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة نحوه.

(٤) حديث: كانت عائشة أحب نسائه إليه. متفق عليه من حديث عمرو بن العاص أنه قال: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: «**عائشة**»، وقد تقدم.

وكان يطاف به محمولاً في مرضه في كل يوم وكل ليلة، فيبيت عند كل واحدة منهن ويقول: «**أَيْنَ أَنَا غَداً؟**» ففطنت لذلك امرأة منهن فقالت: إنما يسأل عن يوم عائشة، فقلن: يا رسول الله قد أذنّا لك أن تكون في بيت عائشة؛ فإنه يشق عليك أن تحمل في كل ليلة، فقال: «**وَقَدْ رَضِيتُنَّ بِذٰلِكَ؟**» فقلن: نعم. قال: «**فَحَوِّلُونِي إِلَىٰ بَيْتِ عَائِشَةَ**»(١)، ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ورضي الزوج بذلك ثبت الحق لها. كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت، فوهبت ليلتها لعائشة وسألته أن يقرها على الزوجية حتى تحشر في زمرة نسائه، فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ليلة ليلة(٢)، ولكنه ﷺ لحسن عدله وقوته كان إذا تاقت نفسه إلى واحدة من النساء في غير نوبتها فجامعها طاف في يومه أو ليلته على سائر نسائه؛ فمن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه في ليلة واحدة(٣). وعن أنس أنه عليه السلام طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار(٤).

التاسع: في النشوز: ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما؛ فإن كان من جانبهما جميعاً أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على إصلاحها فلا بد من حكمين: أحدهما من أهله والآخر من أهلها؛ لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، وقد بعث عمر رضي الله عنه حكماً إلى زوجين، فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، فعاد الرجل وأحسن النية وتلطف بهما فأصلح بينهما. وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، وكذا إذا كانت تاركة للصلاة فله حملها على الصلاة قهراً، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها: وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال، فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها ضرباً غير مبرح؛ بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظماً ولا يدمي لها جسم، ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه.

---

(١) حديث: كان يطاف به محمولاً في مرضه كل يوم وليلة فيبيت عند كل واحدة ويقول: «**أين أنا غداً....**» الحديث. رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن علي بن الحسين أن النبي ﷺ كان يحمل في ثوب يطاف به على نسائه وهو مريض يقسم بينهن. وفي مرسل آخر له: لما ثقل قال: «**أين أنا غداً؟**» قالوا: عند فلانة. قال: «**فأين أنا بعد غد؟**» قالوا عند فلانة، فعرف أزواجه أنه يريد عائشة... الحديث. وللبخاري من حديث عائشة: كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: «**أين أنا غداً؟**» يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء. وفي الصحيحين: لما ثقل استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذنَّ له.

(٢) حديث: «كان يقسم بين نسائه، فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت، فوهبت ليلتها لعائشة...» الحديث. رواه أبو داود من حديث عائشة: «قالت سودة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومي لعائشة...» الحديث. والطبراني: «فأراد أن يفارقها». وهو عند البخاري بلفظ: «لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها بيوم سودة»، وللبيهقي مرسلاً: «طلق سودة فقالت: أريد أن أحشر في أزواجك...» الحديث.

(٣) حديث عائشة: «طاف على نسائه في ليلة واحدة. متفق عليه بلفظ: كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه، ثم يصبح محرماً ينضح طيباً».

(٤) حديث أنس: «أنه طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار»، رواه ابن عدي في الكامل، وللبخاري: «كان يطوف على نسائه في ليلة واحدة وله تسع نسوة».

وقد قيل لرسول الله ﷺ ما حق المرأة على الرجل؟ قال: **«يُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمَ. وَيَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَىٰ. وَلاَ يُقَبِّحُ الوَجْهَ، وَلاَ يَضْرِبُ إِلاَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلاَ يَهْجُرهَا إِلاَّ فِي المَبِيتِ»**(١) وله أن يغضب عليها ويهجرها في أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر. فعل ذلك رسول الله ﷺ إذ أرسل إلى زينب بهدية فردتها عليه. فقالت له التي هو في بيتها: لقد أقمأتك إذ ردت عليك هديتك(٢). أي أذلتك واستصغرتك. فقال ﷺ: **«أَنْتُنَّ أَهْوَنُ عَلَىٰ الله أَنْ تُقْمِئْنَنِي»** ثم غضب عليهن كلهن شهراً إلى أن عاد إليهن.

العاشر: في آداب الجماع. ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى، ويقرأ قل هو الله أحد أولاً، ويكبّر ويهلل ويقول: بسم الله العلي العظيم، اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت أن تخرج ذلك من صلبي. وقال عليه الصلاة والسلام: **«لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَهُ قَالَ: اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ»**(٣) وإذا قربت من الإنزال فقل في نفسك ولا تحرك شفتيك: الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً. وكان بعض أصحاب الحديث يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته، ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالوقاع إكراماً للقبلة، وليغط نفسه وأهله بثوب. كان رسول الله ﷺ يغطي رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة: **«عَلَيْكِ بِالسَّكِينَةِ»**(٤). وفي الخبر: **«إِذَا جَامَعَ أَحَدُكُمْ أَهْلَهُ فَلاَ يَتَجَرَّدَانِ تَجَرُّدَ العَيْرَيْنِ»**(٥) أي الحمارين، وليقدم التلطف بالكلام والتقبيل. قال ﷺ: **«لاَ يَقَعَنَّ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ كَمَا تَقَعُ البَهِيمَةُ، وَلْيَكُنْ بَيْنَهُمَا رَسُولٌ»**. قيل: وما الرسول يا رسول الله؟ قال **«القُبْلَةُ وَالكَلاَمُ»**(٦). وقال ﷺ: **«ثَلاَثٌ مِنَ العَجْزِ فِي الرَّجُلِ: أَنْ يَلْقَىٰ مَنْ يُحِبُّ مَعْرِفَتَهُ فَيُفَارِقَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ، وَالثَّانِي: أَنْ يُكْرِمَهُ أَحَدٌ فَيَرُدَّ عَلَيْهِ كَرَامَتَهُ، وَالثَّالِثُ: أَنْ يُقَارِبَ الرَّجُلُ جَارِيَتَهُ أَوْ زَوْجَتَهُ فَيُصِيبَهَا قَبْلَ أَنْ يُحَدِّثَهَا وَيُؤَانِسَهَا وَيُضَاجِعَهَا، فَيَقْضِي حَاجَتَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ تَقْضِي حَاجَتَهَا مِنْهُ»**(٧) ويكره له الجماع في ثلاث ليال من الشهر: الأول، والآخر، والنصف. يقال: إن الشيطان يحضر

---

(١) حديث: قيل له: ما حق المرأة على الرجل؟ فقال: **«يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يقبح الوجه، ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح، ولا يهجرها إلا في البيت»** رواه أبو داود والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد، وقال: **«ولا يضرب الوجه ولا يقبح»**. وفي رواية لأبي داود: **«ولا تقبح الوجه ولا تضرب»**.

(٢) حديث: هجره ﷺ نساءه شهراً لما أرسل بهدية إلى زينب فردتها فقالت له التي في بيتها: لقد أقمأتك.... الحديث. ذكره ابن الجوزي في الوفاء بغير إسناد. وفي الصحيحين من حديث عمر: كان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن. وفي رواية من حديث جابر: ثم اعتزلهن شهراً.

(٣) حديث: **«لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبنا الشيطان...»** الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٤) حديث: كان يغطي رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة: **«عليك بالسكينة»** رواه الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف.

(٥) حديث: **«إذا جامع أحدكم امرأته فلا يتجردان تجرد العيرين»** أخرجه ابن ماجه من حديث عتبة بن عبد بسند ضعيف.

(٦) حديث: **«لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة....»** الحديث. رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر.

(٧) حديث: **«ثلاث من العجز في الرجل: أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه....»** الحديث. رواه أبو منصور الديلمي من حديث أخصر منه وهو بعض الحديث الذي قبله.

الجماع في هذه الليالي، ويقال: إن الشياطين يجامعون فيها، وروي كراهة ذلك عن علي ومعاوية وأبي هريرة رضي الله عنهم، ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة وليلته تحقيقاً لأحد التأويلين من قوله ﷺ: «رَحِمَ الله مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ»[(١)] الحديث. ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضي هي أيضاً نهمتها، فإن إنزالها ربما يتأخر فيهيج شهوتها، ثم القعود عنها إيذاء لها، والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر مهما كان الزوج سابقاً إلى الإنزال، والتوافق في وقت الإنزال ألذ عندها ليشتغل الرجل بنفسه عنها، فإنها ربما تستحي. وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرة فهو أعدل؛ إذ عدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد، نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحصين، فإن تحصينها واجب عليه، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها، ولا يأتيها في المحيض، ولا بعد انقضائه وقبل الغسل، فهو محرم بنص الكتاب، وقيل: إن ذلك يورث الجذام في الولد، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها في غير المأتي؛ إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى، والأذى غير المأتي دائم فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض. وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣] أي أي وقت شئتم، وله أن يستمني بيديها، وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهي سوى الوقاع. وينبغي أن تتزر المرأة بإزار من حقوها إلى فوق الركبة في حال الحيض، فهذا من الأدب، وله أن يؤاكل الحائض، ويخالطها في المضاجعة وغيرها، وليس عليه اجتنابها، وإن أراد أن يجامع ثانياً بعد أخرى فليغسل فرجه أولاً، وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول.

ويكره الجماع في أول الليل حتى لا ينام على غير طهارة، فإن أراد النوم أو الأكل فليتوضأ أولاً وضوء الصلاة فذلك سنة. قال ابن عمر: قلت للنبي ﷺ أينام أحدنا وهو جنب؟ قال: «نَعَمْ إِذَا تَوَضَّأَ»[(٢)]. ولكن قد وردت فيه رخصة. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ ينام جنباً لم يمس ماء»[(٣)] ومهما عاد إلى فراشه فليمسح وجه فراشه أو لينفضه، فإنه لا يدري ما حدث عليه بعده، ولا ينبغي أن يحلق أو يقلم أو يستحد أو يخرج الدم أو يبين من نفسه جزءاً وهو جنب؛ إذ ترد إليه سائر أجزائه في الآخرة فيعود جنباً، ويقال: إن كل شعرة تطالبه بجنابتها. ومن الآداب أن لا يعزل، بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث وهو الرحم، فما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة[(٤)]. هكذا قال رسول الله ﷺ. فإن عزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربع مذاهب؛ فمن مبيح مطلقاً بكل حال، ومن محرم بكل حال، ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل، ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة. والصحيح عندنا: أن ذلك مباح، وأما الكراهية فإنها تطلق لنهي التحريم ولنهي التنزيه ولترك الفضيلة، فهو مكروه بالمعنى الثالث

---

(١) حديث: «رحم الله من غسل واغتسل» تقدم في الباب الخامس من الصلاة.

(٢) حديث ابن عمر: «قلت للنبي ﷺ أينام أحدنا وهو جنب؟ قال: نعم إذا توضأ» متفق عليه من حديثه أن عمر سأل لا أن عبدالله هو السائل.

(٣) حديث عائشة: «كان ينام جنباً لم يمس ماء». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال يزيد بن هارون: إنه وهم، ونقل البيهقي عن الحافظ الطعن فيه، قال: وهو صحيح من جهة الرواية.

(٤) حديث: «ما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة» متفق عليه من حديث أبي سعيد.

أي فيه ترك فضيلة، كما يقال: يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة، ويكره للحاضر في مكة مقيماً بها أن لا يحج كل سنة، والمراد بهذه الكراهية ترك الأولى والفضيلة فقط، وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة في الولد، ولما روي عن النبي ﷺ **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَامِعُ أَهْلَهُ فَيُكْتَبُ لَهُ بِجِمَاعِهِ أَجْرُ وَلَدٍ ذَكَرٍ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ الله فَقُتِلَ»**[1] وإنما قال ذلك؛ لأنه لو ولد له مثل هذا الولد لكان له أجر التسبب إليه، مع أن الله تعالى خالقه ومحييه ومقويه على الجهاد، والذي إليه من التسبب فقد فعله وهو الوقاع، وذلك عند الإمناء في الرحم. وإنما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه، لأن إثبات النهي إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه، بل ههنا أصل يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلاً أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الإنزال بعد الإيلاج، فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهي ولا فرق؛ إذ الولد يتكون بوقوع النطفة في الرحم، ولها أربعة أسباب: النكاح، ثم الوقاع، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع، ثم الوقوف لينصب المني في الرحم، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث، وكذا الثالث كالثاني، والثاني كالأول، وليس هذا كالإجهاض والوأد، لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضاً مراتب. وأول مراتب الوجود: أن تقع النطفة في الرحم، وتختلط بماء المرأة، وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جناية. فإن صارت مضغة وعلقة كانت الجناية أفحش، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حياً. وإنما قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المني في الرحم لا من حيث الخروج من الإحليل، لأن الولد لا يخلق من مني الرجل وحده بل من الزوجين جميعاً إما من مائه ومائها أو من مائه ودم الحيض، قال بعض أهل التشريح: إن المضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض، وإن الدم منها كاللبن من الرائب، وإن النطفة من الرجل شرط في خثور دم الحيض وانعقاده كالأنفحة للبن؛ إذ بها ينعقد الرائب، وكيفما كان فماء المرأة ركن في الانعقاد فيجري الماءان مجرى الإيجاب والقبول في الوجود الحكمي في العقود، فمن أوجب ثم رجع قبل القبول لا يكون جانياً على العقد بالنقض والفسخ، ومهما اجتمع الإيجاب والقبول كان الرجوع بعده رفعاً وفسخاً وقطعاً، وكما أن النطفة في الفقار لا يتخلق منها الولد، فكذا بعد الخروج من الإحليل ما لم يمتزج بماء المرأة ودمها، فهذا هو القياس الجلي.

فإن قلت: فإن لم يكن العزل مكروهاً من حيث إنه دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه؛ إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الخفي.

فأقول: النيات الباعثة على العزل خمس: **الأولى**: في السراري وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الإعتاق ودفع أسبابه ليس بمنهي عنه. **الثانية**: استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق، وهذا أيضاً ليس منهياً عنه. **الثالثة**: الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء وهذا أيضاً غير منهي عنه، فإن قلة الحرج معين على الدين، نعم الكمال والفضل في

---

(١) حديث: **«إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر يقاتل في سبيل الله»** لم أجد له أصلاً.

التوكل والثقة بضمان الله حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: ٦]، ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل، ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضاً للتوكل لا نقول إنه منهي عنه. **الرابعة**: الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد في تزويجهن من المعرة كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث، فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أثم بها لا بترك النكاح والوطء، فكذا في العزل، والفساد في اعتقاد المعرة في سنة رسول الله ﷺ أشد، وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافاً من أن يعلوها رجل فكانت تتشبه بالرجال، ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح. **الخامسة**: أن تمتنع المرأة لتعززها ومبالغتها في النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع، وكان ذلك عادة نساء الخوارج لمبالغتهن في استعمال المياه، حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ولا يدخلن الخلاء إلا عراة، فهذه بدعة تخالف السنَّة، فهي نية فاسدة، واستأذنت واحدة منهن على عائشة رضي الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لها، فيكون القصد هو الفاسد دون منع الولادة.

فإن قلت: فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ النِّكَاحَ مَخَافَةَ العِيالِ فَلَيسَ مِنَّا**»[1] ثلاثاً.

قلت: فالعزل كترك النكاح. وقوله: «**لَيسَ مِنَّا**» أي ليس موافقاً لنا على سنتنا وطريقتنا، وسنتنا فعل الأفضل.

فإن قلت: فقد قال ﷺ في العزل: «**ذَاكَ الوَأْدُ الخَفِيُّ**»، وقرأ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾[2] [التكوير: ٨] وهذا في الصحيح. قلنا: وفي الصحيح أيضاً أخبار صحيحة[3] في الإباحة، وقوله: «**الوَأْدُ الخَفِيُّ**» كقوله: «**الشِّرْكُ الخَفِيُّ**» وذلك يوجب كراهة لا تحريماً.

فإن قلت: فقد قال ابن عباس: العزل هو الوأد الأصغر، فإنّ الممنوع وجوده به هو الموؤودة الصغرى.

قلنا: هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف، ولذلك أنكره عليه علي رضي الله عنه لما سمعه قال: ولا تكون موؤودة إلا بعد سبع، أي بعد الأخرى سبعة أطوار، وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي نفخنا فيه الروح، ثم تلا قوله تعالى في الآية ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ [التكوير: ٨] وإذا نظرت إلى ما قدّمناه في طريق القياس والاعتبار ظهر لك تفاوت منصب علي وابن عباس رضي الله عنهما في الغوص على المعاني ودرك العلوم، كيف وفي المتفق عليه في الصحيحين عن جابر أنه قال «كنا

---

(١) حديث: «**من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا**» تقدم في أوائل النكاح.

(٢) حديث: قال ﷺ في العزل: «**ذلك الوأد الخفي**» أخرجه مسلم من حديث جذامة بنت وهب.

(٣) أحاديث إباحة العزل، رواها مسلم من حديث أبي سعيد: أنهم سألوه عن العزل فقال: «**لا عليكم أن لا تفعلوه**» ورواه النسائي من حديث أبي صرمة، وللشيخين من حديث جابر: «**كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ**» زاد مسلم: «**فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فلم ينهنا**». وللنسائي من حديث أبي هريرة سئل عن العزل فقيل: اليهود تزعم أنها الموؤودة الصغرى، فقال: «**كذبت يهود**». قال البيهقي: رواة الإباحة أكثر وأحفظ.

نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل» وفي لفظ آخر: «كنا نعزل فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فلم ينهنا»(١) وفيه أيضاً عن جابر أنه قال: «إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إن لي جارية خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال عليه الصلاة والسلام: **«اعْزِلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِرَ لَهَا»** فلبث الرجل ما شاء الله ثم أتاه فقال: إن الجارية قد حملت، فقال: **«قَدْ قُلْتُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِرَ لَهَا»**(٢) كل ذلك في الصحيحين.

الحادي عشر: في آداب الولادة وهي خمسة:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري الخيرة له في أيهما، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له، أو يتمنى أن يكون بنتاً، بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل، قال ﷺ: **«مَنْ كَانَ لَهُ ابْنَةٌ فَأدبها فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي أَسْبَغَ الله عَلَيْهِ كَانَتْ لَهُ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الجَنَّةِ»**(٣). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْرِكُ ابْنَتَيْنِ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ إِلاَّ أَدْخَلَتَاهُ الجَنَّةَ»**(٤). وقال أنس قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَتَانِ أَوْ أُخْتَانِ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ»**(٥) وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ خَرَجَ إِلَىٰ سُوقٍ مِنْ أَسْوَاقِ المُسْلِمِينَ فَاشْتَرَىٰ شَيْئاً فَحَمَلَهُ إِلَىٰ بَيْتِهِ فَخَصَّ بِهِ الإِنَاثَ دُونَ الذُّكُورِ نَظَرَ الله إِلَيْهِ، وَمَنْ نَظَرَ الله إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ»**(٦). وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ حَمَلَ طُرْفَةً مِنَ السُّوقِ إِلَىٰ عِيَالِهِ فَكَأَنَّمَا حَمَلَ إِلَيْهِمْ صَدَقَةً حَتَّىٰ يَضَعَهَا فِيهِمْ وَلْيَبْدَأْ بِالإِنَاثِ قَبْلَ الذُّكُورِ فَإِنَّهُ مَنْ فَرَّحَ أُنْثَىٰ فَكَأَنَّمَا بَكَىٰ مِنْ خَشْيَةِ الله وَمَنْ بَكَىٰ مِنْ خَشْيَتِهِ حَرَّمَ الله بَدَنَهُ عَلَىٰ النَّارِ»**(٧). وقال أبو هريرة: قال ﷺ: **«مَنْ كَانَتْ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ أَوْ أَخَوَاتٍ فَصَبَرَ عَلَىٰ لأْوَائِهِنَّ**

---

(١) حديث جابر المتفق عليه في الصحيحين: «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فلم ينهنا»، هو كما ذكر متفق عليه، إلا أن قوله «فلم ينهنا» انفرد بها مسلم.

(٢) حديث جابر: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية وهي خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال: **«اعزل عنها إن شئت»**... الحديث. ذكر المصنف أنه في الصحيحين وليس كذلك، وإنما انفرد بها مسلم.

(٣) حديث: **«من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها وغذاها فأحسن غذاءها...»** الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٤) حديث ابن عباس: **«ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة»** أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٥) حديث أنس: **«من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما صحبتاه كنت أنا وهو في الجنة كهاتين»** رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف. ورواه الترمذي بلفظ: **«من عال جاريتين»** وقال حسن غريب.

(٦) حديث أنس: **«من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذبه»** أخرجه الخرائطي بسند ضعيف.

(٧) حديث أنس **«من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة»** أخرجه الخرائطي بسند ضعيف جداً، وأخرجه ابن عدي في الكامل. وقال ابن الجوزي: حديث موضوع.

وَضَرَّائِهِنَّ أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُنَّ»، فقال رجل: وثنتان يا رسول الله؟ قال: «وَثِنْتَانِ». فقال رجل: أو واحدة؟ فقال: «وَوَاحِدَةٌ»[(١)].

الأدب الثاني: أن يؤذَّن في أذن الولد، روى رافع عن أبيه قال: «رأيت النبي ﷺ قد أذَّن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة رضي الله عنها»[(٢)]. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ اليُمْنَىٰ وَأَقَامَ فِي أُذُنِهِ اليُسْرَىٰ دُفِعَتْ عَنْهُ أُمُّ الصِّبْيَانِ»[(٣)]. ويستحب أن يلقنوه أوّل انطلاق لسانه لا إله إلا الله، ليكون أوّل حديثه، والختان في اليوم السابع ورد به خبر[(٤)].

الأدب الثالث: أن تسميه اسماً حسناً، فذلك من حق الولد. وقال ﷺ: «إِذَا سَمَّيْتُمْ فَعَبِّدُوا»[(٥)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى الله عَبْدُاللَّهِ وَعَبْدُالرَّحْمٰنِ»[(٦)]، وقال: «سَمُّوا بِاسْمِي وَلاَ تُكَنُّوا بِكُنْيَتِي»[(٧)] قال العلماء: كان ذلك في عصره ﷺ إذ كان ينادى يا أبا القاسم والآن فلا بأس، نعم لا يجمع بين اسمه وكنيته، وقد قال ﷺ: «لاَ تَجْمَعُوا بَيْنَ اسْمِي وَكُنْيَتِي»[(٨)]. وقيل: إن هذا أيضاً كان في حياته، وتسمى رجل أبا عيسى فقال عليه السلام: «إِنَّ عِيسَىٰ لاَ أَبَ لَهُ»[(٩)] فيكره ذلك، والسقط ينبغي أن يسمى. قال عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية: بلغني أنّ السقط يصرخ يوم القيامة وراء أبيه فيقول: أنت ضيعتني وتركتني لا اسم لي، فقال عمر بن عبدالعزيز: كيف وقد لا يدري أنه غلام أو جارية فقال عبدالرحمن: من الأسماء ما يجمعهما كحمزة وعمارة وطلحة وعتبة، وقال ﷺ: «إِنَّكُمْ تُدْعَونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ»[(١٠)]. ومن كان له اسم يكره يستحب

---

(١) حديث أبي هريرة «من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن. . .» الحديث. رواه الخرائطي واللفظ له والحاكم ولم يقل: أو أخوات وقال. صحيح الإسناد.

(٢) حديث أبي رافع: رأيت رسول الله ﷺ أذّن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة. أخرجه أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذي وصححه، إلا أنهما قالا: «الحسن» مكبراً، وضعفه ابن القطان.

(٣) حديث: «من ولد له مولود وأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان» أبو يعلى الموصلي وابن السني في اليوم والليلة، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف.

(٤) حديث: «الختان في اليوم السابع»، رواه الطبراني في الصغير من حديث جابر بسند ضعيف: «أن رسول الله ﷺ عق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام» وإسناده ضعيف. واختلف في إسناده فقيل: عبدالملك بن إبراهيم بن زهير عن أبيه عن جده.

(٥) حديث: «إذا سميتم فعبدوا» رواه الطبراني من حديث عبدالملك بن أبي زهير عن أبيه معاذ، وصحح إسناده والبيهقي من حديث عائشة.

(٦) حديث: «أحب الأسماء إلى الله عبدالله وعبدالرحمن» أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

(٧) حديث: «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي» متفق عليه من حديث جابر. وفي لفظ «تسموا».

(٨) حديث: «لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي» رواه أحمد وابن حبان من حديث أبي هريرة، ولأبي داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث جابر «من سمى باسمي فلا يتكنى بكنيتي، ومن تكنى بكنيتي فلا يتسمى باسمي».

(٩) حديث: «إن عيسى لا أب له» أخرجه أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف، ولأبي داود أن عمر ضرب ابناً له تكنى أبا عيسى، وأنكر على المغيرة بن شعبة تكنيه بأبي عيسى، فقال: رسول الله ﷺ كناني، وإسناده صحيح.

(١٠) حديث: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم» أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء. قال النووي: بإسناد جيد، وقال البيهقي إنه مرسل.

تبديله، أبدل رسول الله ﷺ اسم العاص بعبدالله[(١)]. وكان اسم زينب برة، فقال عليه السلام: «تُزَكِّي نَفْسَهَا» فسماها زينب[(٢)]، وكذلك ورد النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة[(٣)] لأنه يقال: أثم بركة؟ فيقال: لا.

الرابع: العقيقة عن الذكر بشاتين، وعن الأنثى بشاة ذكراً كان أو أنثى: وروت عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ أمر في الغلام أن يعق بشاتين مكافئتين، وفي الجارية بشاة[(٤)]. وروي: أنه عقّ عن الحسن بشاة[(٥)]، وهذا رخصة في الاقتصار على واحدة. وقال ﷺ: «**مَعَ الغُلَامِ عَقِيقَتُهُ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَماً وَأَمِيطُوا عَنْهُ الأَذَىٰ**»[(٦)]، ومن السنة أن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة، فقد وردَ فيه خبر: «أنه عليه السلام أمر فاطمة رضي الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدّق بزنة شعره فضة»[(٧)]. قالت عائشة رضي الله عنها: لا يكسر للعقيقة عظم.

الخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة: وروي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «ولدت عبدالله بن الزبير بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه»[(٨)] فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرك عليه، وكان أوّل مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم.

الثاني عشر: في الطلاق: وليعلم أنه مباح، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى، وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل، ومهما طلقها فقد آذاها، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النّساء: ٣٤] أي لا تطلبوا حيلة للفراق وإن كرهها أبوه فليطلقها. قال ابن عمر رضي الله عنهما: كان تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها ويأمرني بطلاقها، فراجعت رسول الله ﷺ فقال: «يَا ابْنَ عُمَرَ طَلِّقِ امْرَأَتَكَ»[(٩)]، فهذا يدل على

---

(١) حديث: «بدل رسول الله ﷺ اسم العاص بعبدالله»، رواه البيهقي من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي بسند صحيح.

(٢) حديث: قال ﷺ لزينب وكان اسمها برة «تزكي نفسها» فسماها زينب، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة»، أخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب إلا أنه جعل مكان بركة رباحاً، وله من حديث جابر: أراد النبي ﷺ أن ينهى أن يسمى بيعلى وبركة.. الحديث.

(٤) حديث عائشة: «أمر في الغلام بشاتين مكافئتين، وفي الجارية بشاة»، أخرجه الترمذي وصححه.

(٥) حديث: «عق عن الحسن بشاة»، أخرجه الترمذي في حديث علي وقال: ليس إسناده بمتصل، ووصله الحاكم، إلا أنه قال حسين. ورواه أبو داود من حديث ابن عباس إلا أنه قال: «كبشاً».

(٦) حديث: «**مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى**» أخرجه البخاري من حديث سلمان بن عامر الضبي.

(٧) حديث: «أمر فاطمة يوم سابع حسين أن يحلق شعره ويتصدق بزنة شعره فضة»، أخرجه الحاكم وصححه من حديث علي، وهو عند الترمذي منقطع بلفظ: «حسن» وقال: ليس إسناده بمتصل، ورواه أحمد من حديث أبي رافع.

(٨) حديث أسماء: «ولدت عبدالله بن الزبير بقباء ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه...» الحديث. متفق عليه.

(٩) حديث ابن عمر: «كانت تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها، فأمرني بطلاقها...» الحديث. رواه أصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح.

أن حق الوالد مقدّم، ولكن والد يكرهها ـ لا لغرض فاسد ـ مثل عمر. ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهي جانية، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين. قال ابن مسعود في قول تعالى ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطَّلَاق: ١] مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة، وهذا أريد به في العدة ولكنه تنبيه على المقصود. وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدي ببذل مال، يكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى؛ فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع. قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩] فرد ما أخذته فما دونه لائق بالفداء. فإن سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة، قال ﷺ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»(١). وفي لفظ آخر: «**فالجنة عليها حرام**» وفي لفظ آخر: أنه عليه السلام قال: «**المُخْتَلِعَاتُ هُنَّ المُنَافِقَاتُ**»(٢)، ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور:

الأول: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه: فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه يدعى حرام وإن كان واقعاً، لما فيه من تطويل العدة عليها، فإن فعل ذلك فليراجعها. طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال ﷺ لعمر: «**مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا حَتَّىٰ تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ طَلَّقَهَا وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا، فَتِلْكَ العِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ**»(٣). وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط.

الثاني: أن يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث: لأن الطلقة الواحدة بعد العدّة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم في العدة وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة، وإذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل، وإلى الصبر مدّة، وعقد المحلل منهي عنه، ويكون هو الساعي فيه ثم يكون قلبه معلقاً بزوجة الغير وتطليقه ـ أعني زوجة المحلل بعد أن زوج منه ـ ثم يورث ذلك تنفيراً من الزوجة، وكل ذلك ثمرة الجمع، وفي الواحدة كفاية في المقصود من غير محذور، ولست أقول: الجمع حرام، لكنه مكروه بهذه المعاني، وأعني بالكراهة: تركه النظر لنفسه.

الثالث: أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق: قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٦] وذلك واجب مهما لم يسم لها مهر في أصل النكاح. كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مطلاقاً ومنكاحاً، ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال: قل لهما اعتدا، وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم، ففعل، فلما رجع إليه قال: ماذا فعلتا؟ قال: أما إحداهما فنكست رأسها وتنكست، وأما الأخرى فبكت وانتحبت وسمعتها تقول: متاع قليل من حبيب مفارق؛ فأطرق الحسن وترحم لها وقال: لو كنت

---

(١) حديث: «**أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة**» وفي لفظ «**فالجنة عليها حرام**». رواه أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان من حديث ثوبان.

(٢) حديث «**المختلعات هن المنافقات**» رواه النسائي من حديث أبي هريرة وقال: لم يسمع الحسن من أبي هريرة. قال: ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبي هريرة.
قلت: رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف.

(٣) حديث: طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال رسول الله ﷺ لعمر: «**مره فليراجعها...**» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر.

مراجعاً امرأة بعد ما فارقتها لراجعتها. ودخل الحسن ذات يوم على عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير، وبه ضربت المثل عائشة رضي الله عنها حيث قالت: لو لم أسر مسيري ذلك لكان أحب إلي من أن يكون لي ستة عشر ذكراً من رسول الله ﷺ مثل عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فدخل عليه الحسن في بيته، فعظمه عبدالرحمن وأجلسه في مجلسه وقال: ألا أرسلت إليّ فكنت أجيئك؟ فقال: الحاجة لنا. قال: وما هي؟ قال: جئتك خاطباً ابنتك، فأطرق عبدالرحمن ثم رفع رأسه وقال: والله ما على وجه الأرض أحد يمشي عليها أعز عليّ منك، ولكنك تعلم أن ابنتي بضعة مني يسوءني ما ساءها ويسرني ما سرها، وأنت مطلاق، فأخاف أن تطلقها، وإن فعلت خشيت أن يتغير قلبي في محبتك، وأكره أن يتغير قلبي عليك، فأنت بضعة من رسول الله ﷺ فإن شرطت أن لا تطلقها زوجتك، فسكت الحسن وقام وخرج، وقال بعض أهل بيته: سمعته وهو يمشي ويقول: ما أراد عبدالرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقاً في عنقي. وكان علي رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته: إن حسناً مطلاق فلا تنكحوه، حتى قام رجل من همدان فقال: والله يا أمير المؤمنين لننكحنه ما شاء، فإن أحب أمسك وإن شاء ترك، فسرَّ ذلك علياً وقال:

لو كنت بواباً على باب جنةٍ ... لقلتُ لهمدانَ ادخلي بسلامِ

وهذا تنبيه على أن من طعن في حبيبه من أهل وولد بنوع حياء فلا ينبغي أن يوافق عليه، فهذه الموافقة قبيحة، بل الأدب المخالفة ما أمكن، فإنّ ذلك أسر لقلبه وأوفق لباطن ذاته، والقصد من هذا: بيان أن الطلاق مباح، وقد وعد الله الغنى في الفراق والنكاح جميعاً فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النُّور: ٣٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النِّساء: ١٣٠].

الرابع: أن لا يفشي سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح، فقد ورد في إفشاء سر النساء في الخبر الصحيح وعيد عظيم(١). ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة، فقيل له: ما الذي يريبك فيها؟ فقال: العاقل لا يهتك ستر امرأته، فلما طلقها قيل له: لم طلقتها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري. فهذا بيان ما على الزوج.

القسم الثاني من هذا الباب: النظر في حقوق الزوج عليها:

والقول الشافي فيه: أن النكاح نوع رق، فهي رقيقة له، فعليها طاعة الزوج مطلقاً في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة. قال ﷺ: **«أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الجَنَّةَ»**(٢) وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل وكان أبوها في الأسفل، فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ تستأذن

---

(١) حديث الوعيد في إفشاء سر المرأة. رواه مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أعظم الخيانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم يفشي سرها»**.

(٢) حديث: **«أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»** أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه من حديث أم سلمة.

في النزول إلى أبيها، فقال ﷺ: «أَطِيعِي زَوْجَكِ» فمات فاستأمرته فقال: «أطيعي زوجك» فدفن أبوها فأرسل رسول الله ﷺ إليها يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها(١)، وقال ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلَتْ جَنَّةَ رَبِّهَا»(٢)، وأضاف طاعة الزوج إلى مباني الإسلام؟ وذكر رسول الله ﷺ النساء فقال: «حَامِلاَتٌ وَالِدَاتٌ مرضعَات رَحِيمَاتٌ بِأَوْلاَدِهِنَّ لَوْلاَ مَا يَأْتِينَ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ دَخَلَ مُصَلِّيَاتُهُنَّ الجَنَّةَ»(٣)، وقال ﷺ: «اطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ»، فَقُلْنَ: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قال: «يُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَيَكْفُرْنَ العَشِيرَ»(٤) يعني الزوج المعاشر. وفي خبر آخر: «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَإِذَا أَقَلُّ أَهْلِهَا النِّسَاءُ»، فقلت: أين النساء؟ قال: «شَغَلَهُنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ»(٥) يعني الحلي ومصبغات الثياب. وقالت عائشة رضي الله عنها: أتت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني فتاة أخطب فأكره التزويج، فما حق الزوج على المرأة؟ قال: «لَوْ كَانَ مِنْ فَرْقِهِ إِلَىٰ قَدَمِهِ صَدِيد فَلَحَسَتْهُ مَا أَدَّتْ شُكْرَهُ» قالت: أفلا أتزوّج؟ قال: «بَلَىٰ تَزَوَّجِي فَإِنَّهُ خَيْرٌ»(٦). قال ابن عباس: أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني امرأة أيِّم وأريد أن أتزوج، فما حق الزوج؟ قال: «إِنَّ مِنْ حَقِّ الزَّوْجِ عَلَىٰ الزَّوْجَةِ إِذَا أَرَادَهَا فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا وَهِيَ عَلَىٰ ظَهْرِ بَعِيرٍ لا تَمْنَعهُ، وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ لاَ تُعْطِي شَيْئاً مِنْ بَيْتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَإِنْ فَعَلَتْ ذٰلِكَ كَانَ الوِزْرُ عَلَيْهَا وَالأَجْرُ لَهُ، وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ لاَ تَصُومَ تَطَوُّعاً إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَإِنْ فَعَلَتْ جَاعَتْ وَعَطِشَتْ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهَا، وَإِنْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا بِغَيْرِ إِذْنِهِ لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ أَوْ تَتُوبَ»(٧) وقال ﷺ: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»(٨). وقال ﷺ: «أَقْرَبُ مَا تَكُونُ المَرْأَةُ مِنْ وَجْهِ رَبِّهَا إِذَا كَانَتْ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا، وَإِنَّ صَلاَتَهَا فِي صَحْنِ دَارِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي المَسْجِدِ،

---

(١) حديث: «كان رجل خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل وكان أبوها في السفل فمرض...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف، إلا أنه قال: «غفر لأبيها».

(٢) حديث: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها...» الحديث. أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: ذكر النساء فقال: «حاملات والدات مرضعات...» الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أمامة دون قوله: «مرضعات» وهي عند الطبراني في الصغير.

(٤) حديث: «اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٥) حديث: «اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء»، فقلت: أين النساء؟ قال: «شغلهن الأحمران الذهب والزعفران» أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف، وقال: «الحرير» بدل «الزعفران» ولمسلم من حديث عزة الأشجعية: «ويل للنساء من الأحمرين: الذهب والزعفران» وسنده ضعيف.

(٦) حديث عائشة: «أتت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، إني فتاة أخطب وإني أكره التزويج فما حق الزوج على المرأة؟» الحديث. أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث أبي هريرة دون قوله: «بلى فتزوجي فإنه خير» ولم أره من حديث عائشة.

(٧) حديث ابن عباس: «أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج؟» الحديث. أخرجه البيهقي مقتصراً على شطر الحديث، ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف.

(٨) حديث: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والولد لأبيه من عظم حقهما عليهما» أخرجه الترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة دون قوله: «والولد لأبيه» فلم أرها وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد، وابن ماجه من حديث عائشة، وابن حبان من حديث ابن أبي أوفى.

وَصَلاَتُهَا فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي صَحْنِ دَارِهَا، وَصَلاَتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي بَيْتِهَا»(١) والمخدع: بيت في بيت، وذلك للستر، ولذلك قال عليه السلام: **«المَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَت اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ»**(٢) وقال أيضاً: **«لِلْمَرْأَةِ عَشْرُ عَوْرَاتٍ، فَإِذَا تَزَوَّجَتْ سَتَرَ الزَّوْجُ عَوْرَةً وَاحِدَةً، فَإِذَا مَاتَتْ سَتَرَ القَبْرُ العَشْرَ عَوْرَاتٍ»**(٣). فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة، وأهمها أمران: أحدهما: الصيانة والستر. والآخر: ترك المطالبة بما وراء الحاجة، والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً، وهكذا كانت عادة النساء في السلف: كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار. وهمّ رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته: لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة؟ فقالت: زوجي منذ عرفته عرفته أكّالاً وما عرفته رزاقاً، ولي رب رزاق، يذهب الأكال ويبقى الرزاق. وخطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها: والله ما لي همة في النساء لشغلي بحالي، فقالت: إني لأشغل بحالي منك وما لي شهوة، ولكن ورثت مالاً جزيلاً من زوجي فأردت أن تنفقه على إخوانك، وأعرف بك الصالحين فيكون لي طريقاً إلى الله عزّ وجلّ، فقال: حتى أستأذن أستاذي، فرجع إلى أبي سليمان الداراني، قال: وكان ينهاني عن التزويج ويقول: ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير، فلما سمع كلامها قال: تزوج بها فإنها ولية لله، هذا كلام الصدّيقين، قال: فتزوجتها فكان في منزلنا كِنّ من جص ففني من غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل فضلاً عمن غسل بالأشنان. قال: وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات وتطيبني وتقول: اذهب بنشاطك وقوّتك إلى أزواجك، وكانت رابعة هذه تشبه في أهل الشام برابعة العدوية بالبصرة. ومن الواجبات عليها: أن لا تفرط في ماله بل تحفظه عليه. قال رسول الله ﷺ: **«لاَ يَحِلُّ لَهَا أَنْ تُطْعِمَ مِنْ بَيْتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِلاَّ الرَّطْبَ مِنَ الطَّعَامِ الَّذِي يُخَافُ فَسَادُهُ، فَإِنْ أَطْعَمَتْ عَنْ رِضَاهُ كَانَ لَهَا مِثْلُ أَجْرِهِ، وَإِنْ أَطْعَمَتْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كَانَ لَهُ الأَجْرُ وَعَلَيْهَا الوِزْرُ»**(٤).

---

(١) حديث: **«أقرب ما تكون المرأة من ربها إذا كانت في قعر بيتها فإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد. . . .»** الحديث. أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره وآخره رواه أبو داود مختصراً من حديثه دون ذكر صحن الدار. ورواه البيهقي من حديث عائشة بلفظ: **«ولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلي في المسجد»** وإسناده حسن، ولابن حبان من حديث أم حميد نحوه.

(٢) حديث: **«المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»** رواه الترمذي وقال: حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود.

(٣) حديث: **«للمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة. . .»** الحديث. أخرجه الحافظ أبو بكر محمد بن عمر الجعابي في تاريخ الطالبيين من حديث علي بسند ضعيف، وللطبراني في الصغير من حديث ابن عباس: **«للمرأة ستران»**. قيل: وما هما؟ قال: **«الزوج والقبر»**.

(٤) حديث: **«لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام. . .»** الحديث. أخرجه أبو داود الطيالسي، والبيهقي من حديث ابن عمر في حديث فيه: **«ولا تعطي من بيته شيئاً إلا بإذنه، فإن فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر»** ولأبي داود من حديث سعد: قالت امرأة يا رسول الله، إنا كل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا، فما يحل لنا من أموالهم؟ قال **«الرطب تأكلنه وتهدينه»**، وصحح الدارقطني في العلل أن سعداً هذا رجل من الأنصار ليس ابن أبي وقاص، واختاره ابن القطان، ولمسلم من حديث عائشة: **«إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب»**.

ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة، وآداب العشرة مع الزوج؛ كما روي أنّ أسماء بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها عند التزوّج: إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمة يكن لك عبداً، لا تلحقي به فيقلاك، ولا تباعدي عنه فينساك، إن دنا منك فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمن منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً. وقال رجل لزوجته:

خذي العفو مني تستديمي مودّتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضبُ
ولا تنقريني نقرك الدفَّ مرة فإنك لا تدرين كيف المغيَّبُ
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى ويأباك قلبي والقلوب تقلَّبُ
فإني رأيت الحب في القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبّ يذهبُ

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل: أن تكون قاعدة في قعر بيتها لازمة لمغزلها، لا يكثر صعودها واطلاعها، قليلة الكلام لجيرانها، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول، تحفظ بعلها في غيبته، وتطلب مسرته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها، لا تتعرّف إلى صديق بعلها في حاجاتها، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه، همها صلاح شأنها وتدبير بيتها، مقبلة على صلاتها وصيامها، وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضراً لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام؛ غيرة على نفسها وبعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها، متنظفة في نفسها، مستعدّة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء، مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج. وقد قال ﷺ: **«أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ فِي الجَنَّةِ: امْرَأَةٌ آمَتْ مِنْ زَوجِهَا وَحَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَىٰ بَنَاتِهَا حَتَّىٰ ثَابُوا أَوْ مَاتُوا»**(١). وقال ﷺ: **«حَرَّمَ الله عَلَىٰ كُلِّ آدَمِيٍّ الجَنَّةَ يَدْخُلُهَا قَبْلِي، غَيْرَ أَنِّي أَنْظُرُ عَنْ يَمِينِي فَإِذَا امْرَأَةٌ تُبَادِرُنِي إِلَىٰ بَابِ الجَنَّةِ فَأَقُولُ: مَا لِهٰذِهِ تُبَادِرُنِي؟ فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، هٰذِهِ امْرَأَةٌ كَانَتْ حَسْنَاءَ جَمِيلَةً وَكَانَ عِنْدَهَا يَتَامَىٰ لَهَا، فَصَبَرَتْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ بَلَغَ أَمْرُهُنَّ الَّذِي بَلَغَ فَشَكَرَ الله لَهَا ذٰلِكَ»**(٢).

ومن آدابها: أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه؛ فقد روي أن الأصمعي قال: دخلت البادية فإذا أنا بأمرأة من أحسن الناس وجهاً تحت رجل من أقبح الناس وجهاً، فقلت لها: يا هذه، أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله؟ فقالت: يا هذا، اسكت فقد أسأت في قولك، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه، أو لعلي أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي، أفلا أرضى بما رضي الله لي؟، فأسكتتني. وقال الأصمعي: رأيت في

---

(١) حديث: «**أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين. . .**» الحديث. رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشجعي بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**حرم الله على كل آدمي الجنة أن يدخل قبلي غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرني إلى باب الجنة**» رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

البادية امرأة عليها قميص أحمر وهي مختضبة وبيدها سبحة، فقلت: ما أبعد هذا من هذا؟ فقالت:

ولله مني جانب لا أضيعه ... وللهو مني والبطالة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له.

ومن آداب المرأة: ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال. روي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنيا إلاَّ قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الحُورِ العِينِ: لاَ تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ الله، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا»**[1]، ومما يجب عليها من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشراً وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة، قالت زينب بنت أبي سلمة: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب، فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره، فدهنت به جارية، ثم مسَّت بعارضيها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَىٰ مَيِّتٍ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ إلاَّ عَلَىٰ زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً»**[2]، ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدّة، وليس لها الانتقالُ إلى أهلها ولا الخروج إلاّ لضرورة.

ومن آدابها: أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها: فقد روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها قالت: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه وأعلفه، وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إليّ أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني[3]. ولقيني رسول الله ﷺ يوماً ومعه أصحابه والنوى على رأسي فقال ﷺ: «أخ أخ» لينيخ ناقته ويحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت، فجئت الزبير فحكيت له ما جرى، فقال: والله لحملك النوى على رأسك أشدّ عليّ من ركوبك معه.

تم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومَنِّهِ وصلى الله على كل عبد مصطفى

---

(١) حديث معاذ: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه...» الحديث. رواه الترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه.

(٢) حديث أم حبيبة: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» متفق عليه.

(٣) حديث أسماء: «تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرس وناضح، فكنت أعلف فرسه..» الحديث. متفق عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثالث من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

نحمد الله حمد موحد انمحق في توحيده ما سوى الواحد الحق وتلاشى، ونمجده تمجيد من يصرح بأن كل شيء ما سوى الله باطل ولا يتحاشى، وأن كل من في السمٰوات والأرض لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ولا فراشاً، ونشكره إذ رفع السماء لعباده سقفاً مبنياً، ومهَّد الأرض بساطاً لهم وفراشاً، وكوَّر الليل على النهار فجعل الليل لباساً والنهار معاشاً، لينتشروا في ابتغاء فضله وينتعشوا به عن ضراعة الحاجات انتعاشاً، ونصلي على رسوله الذي يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشاً، وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا في نصرة دينه تشمراً وانكماشاً، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن رب الأرباب ومسبب الأسباب، جعل الآخرة دار الثواب والعقاب، والدنيا دار التمحل والاضطراب، والتشمر والاكتساب. وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها، والناس ثلاثة: رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين، ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين، والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين. ولن ينال رتبة الاقتصاد من لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد، ولن ينتهض من طَلَبَ الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة، ما لم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة، وها نحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ونشرحها في خمسة أبواب:

الباب الأول: فضل الكسب والحث عليه.

الباب الثاني: في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات.

الباب الثالث: في بيان العدل في المعاملة.

الباب الرابع: في بيان الإحسان فيها.

الباب الخامس: في شفقة التاجر على نفسه ودينه.

* * *

الباب الأول

في فضل الكسب والحث عليه

أما من الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبإ: ١١] فذكره في معرض الامتنان. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠] فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ: **«مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لاَ يُكَفِّرُهَا إلاَّ الهَمُّ فِي طَلَبِ المَعِيشَةِ»**(١) وقال عليه الصلاة والسلام: **«التَّاجِرُ الصَّدُوقُ يُحْشَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ»**(٢). وقال ﷺ: **«مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلاَلاً وَتَعَفُّفاً عَنِ المَسْأَلَةِ وَسَعْياً عَلَىٰ عِيَالِهِ وَتَعَطُّفاً عَلَىٰ جَارِهِ لَقِيَ اللهَ وَوَجْهُهُ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»**(٣) وكان ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكَّر يسعى، فقالوا: ويح هذا، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال ﷺ: **«لاَ تَقُولُوا هٰذَا، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ لِيَكُفَّهَا عَنِ المَسْأَلَةِ وَيُغْنِيهَا عَنِ النَّاسِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ أَبَوَيْنِ ضَعِيفَيْنِ أَوْ ذُرِّيَّةٍ ضِعَافٍ لِيُغْنِيَهُمْ وَيَكْفِيَهُمْ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَىٰ تَفَاخُراً وَتَكَاثُراً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»**(٤). وقال ﷺ: **«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ يَتَّخِذُ المِهْنَةَ لِيَسْتَغْنِيَ بِهَا عَنِ النَّاسِ، وَيُبْغِضُ العَبْدَ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ يَتَّخِذُهُ مِهْنَةً»**(٥). وفي الخبر: **«إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ المُؤْمِنَ المُحْتَرِفَ»**(٦) وقال ﷺ: **«أَحَلُّ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ»**(٧).

كتاب آداب الكسب

الباب الأول: في فضل الكسب والحث عليه

(١) حديث: **«من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة»** تقدم في النكاح.

(٢) حديث: **«التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء»** أخرجه الترمذي، والحاكم من حديث أبي سعيد. قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم: إنه من مراسيل الحسن، ولابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر.

(٣) حديث: **«من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسألة وسعياً على عياله...»** الحديث. أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٤) حديث: «كان ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى، فقالوا: ويح هذا، لو كان جَلَده في سبيل الله...» الحديث. أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف.

(٥) حديث: **«إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس...»** الحديث. لم أجده هكذا، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي: **«إن الله يحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال»** وفيه محمد بن سهل العطار. قال الدارقطني: يضع الحديث.

(٦) حديث: **«إن الله يحب المؤمن المحترف»** أخرجه الطبراني وابن عدي وضعفه من حديث ابن عمر.

(٧) حديث: **«أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور»** أخرجه أحمد من حديث رافع بن خديج، قيل: يا رسول الله، أي الكسب أطيب؟ قال: **«عمل الرجل بيده وكل عمل مبرور»**. ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه. قال الحاكم: صحيح الإسناد، قال: وذكر يحيى بن معين أن عم سعيد: البراء بن عازب، ورواه البيهقي من رواية سعيد بن عمير مرسلاً، وقال: هذا هو المحفوظ، وخطأ قول من قال عن عمه، وحكاه عن البخاري، ورواه أحمد والحاكم من رواية جميع بن عمير عن خاله أبي بردة، وجميع ضعيف، والله أعلم.

وفي خبر آخر: «**أَحَلُّ مَا أَكَلَ العَبْدُ كَسْبُ يَدِ الصَّانِعِ إِذَا نَصَحَ**»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**عَلَيْكُمْ بِالتِّجَارَةِ فَإِنَّ فِيهَا تِسْعَةَ أَعْشَارِ الرِّزْقِ**»[٢]. وروي أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال: ما تصنع؟ قال: أتعبّد. قال: من يعولك؟ قال أخي. قال: أخوك أعبد منك. وقال نبينا ﷺ: «**إِنِّي لاَ أَعْلَمُ شَيْئاً يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلاَّ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ شَيْئاً يُبْعِدُكُمْ مِنَ الجَنَّةِ وَيُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلاَّ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رَوْعِي: إِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَوفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**». أمر بالإجمال في الطلب ولم يقل اتركوا الطلب، ثم قال في آخره: «**ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى، فإنّ الله لا يُنال ما عنده بمعصيته**»[٣]. وقال ﷺ: «**الأَسْوَاقُ مَوَائِدُ الله تَعَالَىٰ، فَمَنْ أَتَاهَا أَصَابَ مِنْهَا**»[٤] وقال عليه السلام: «**لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً أَعْطَاهُ الله مِنْ فَضْلِهِ فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**»[٥]. وقال: «**مَنْ فَتَحَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَاباً مِنَ السُّؤَالِ فَتَحَ الله عَلَيْهِ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الفَقْرِ**»[٦].

وأما الآثار: فقد قال لقمان الحكيم لابنه: يا بني: استغن بالكسب الحلال عن الفقر؛ فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الثلاث: استخفاف الناس به. وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وكان زيد بن مسلمة يغرس في أرضه، فقال له عمر رضي الله عنه: أصبت، استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم، كما قال صاحبكم أحيحة:

فلن أزال على الزوراء أغمرها ... إنّ الكريم على الإخوان ذو المالِ

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه ولا في أمر

---

(١) حديث: «**أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح**» رواه أحمد من حديث أبي هريرة: «**خير الكسب كسب العامل إذا نصح**» وإسناده حسن.

(٢) حديث: «**عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق**» رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث من حديث نعيم بن عبدالرحمن: «**تسعة أعشار الرزق في التجارة**» ورجاله ثقات، ونعيم هذا قال فيه ابن منده: ذكر في الصحابة ولا يصح. وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان: إنه تابعي فالحديث مرسل.

(٣) حديث: «**إني لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه فإن الروح الأمين نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها...**» الحديث. رواه ابن أبي الدنيا في القناعة، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهداً لحديث أبي حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين، وهما مختصران، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال: إنه منقطع.

(٤) حديث: «**الأسواق موائد الله فمن أتاها أصاب منها**» رويناه في الطيوريات من قول الحسن البصري، ولم أجده مرفوعاً.

(٥) حديث: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «**من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر**» رواه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري: «**ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر**» أو كلمة نحوها، وقال: حسن صحيح.

آخرته. وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق، أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة؟ قال: التاجر الصدوق أحب إليّ؛ لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده، وخالفه الحسن البصري في هذا. وقال عمر رضي الله عنه: ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إليّ من موطن أتسوّق فيه لأهلي أبيع وأشتري. وقال الهيثم: ربما يبلغني عن الرجل يقع فيّ فأذكر استغنائي عنه فيهون ذلك عليّ. وقال أيوب: كسب فيه شيء أحب إليّ من سؤال الناس. وجاءت ريح عاصفة في البحر، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله ـ وكان معهم فيها ـ: أما ترى هذه الشدّة؟ فقال: ما هذه الشدّة، وإنما الشدّة الحاجة إلى الناس!. وقال أيوب: قال لي أبو قلابة: الزم السوق فإنّ الغنى من العافية ـ يعني الغنى عن الناس ـ. وقيل لأحمد: ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: **«إِنَّ الله جَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»**(١) وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: **«تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»**(٢). فذكر أنها تغدو في طلب الرزق، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم والقدوة بهم. وقال أبو قلابة لرجل: لأن أراك تطلب معاشك أحب إليّ من أن أراك في زاوية المسجد. وروي أن الأوزاعي لقي إبراهيم بن أدهم رحمهم الله وعلى عنقه حزمة حطب، فقال له: يا أبا إسحاق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك، فقال: دعني عن هذا يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة. وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك؟ ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبّد. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ينادي مناد يوم القيامة: أين بغضاء الله في أرضه؟ فيقوم سؤال المساجد، فهذه مذمة الشرع للسؤال والاتكال على كفاية الأغيار. ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة.

فإن قلت: فقد قال ﷺ: **«مَا أُوحِيَ إِلَيَّ أَنِ اجْمَعِ المَالَ وَكُنْ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلٰكِنْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ اليَقِينُ»**(٣)، وقيل لسلمان الفارسي: أوصنا، فقال: من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو غازياً أو عامراً لمسجد ربه فليفعل، ولا يموتن تاجراً ولا خائناً.

فالجواب: أن وجه الجمع بين هذه الأخبار تفصيل الأحوال؛ فنقول: لسنا نقول التجارة أفضل مطلقاً من كل شيء، ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية أو الثروة أو الزيادة على الكفاية، فإن طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا ليصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مذمومة، لأنه إقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة، فإن كان مع ذلك ظالماً خائناً فهو ظلم وفسق، وهذا

---

(١) حديث: **«إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي»** رواه أحمد من حديث ابن عمر **«جعل رزقي تحت ظل رمحي»** وإسناده صحيح.

(٢) حديث: ذكر الطير فقال: **«تغدو خماصاً وتروح بطاناً»** أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) حديث: **«ما أوحي إليّ أن اجمع المال وكن من التاجرين، ولكن أوحي إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين»** رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين.

ما أراده سلمان بقوله: لا تمت تاجراً ولا خائناً، وأراد بالتاجر: طالب الزيادة، فأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعففاً عن السؤال أفضل، وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يعطى عن غير سؤال، فالكسب أفضل؛ لأنه إنما يعطى لأنه سائل بلسان حاله، ومناد بين الناس بفقره، فالتعفف والتستر أوفى من البطالة، بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب أفضل لأربعة: عابد بالعبادات البدنية، أو رجل له سير بالباطن وعمل بالقلب في علوم الأحوال والمكاشفات، أو عالم مشتغل بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي والمفسر والمحدّث وأمثالهم، أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمورهم كالسلطان والقاضي والشاهد، فهؤلاء إذا كانوا يُكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء. فإقبالهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب، ولهذا أوحي إلى رسول الله ﷺ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ولم يوح إليه أن كن من التاجرين؛ لأنه كان جامعاً لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط بها الوصف، ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضي الله عنهم بترك التجارة لما ولي الخلافة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح، ورأى ذلك أولى، ثم لما توفي أوصى برده إلى بيت المال، ولكنه رآه في الابتداء أولى، ولهؤلاء الأربعة حالتان أخريان:

إحداهما: أن تكون كفايتهم عند ترك المكسب من أيدي الناس وما يتصدق به عليهم من زكاة أو صدقة من غير حاجة إلى سؤال، فترك الكسب والاشتغال بما هم فيه أولى؛ إذ فيه إعانة الناس على الخيرات وقبول منهم لما هو حق عليهم وأفضل لهم.

الحالة الثانية: الحاجة إلى السؤال، وهذا في محل النظر، والتشديدات التي رويناها في السؤال وذمه تدل ظاهراً على أن التعفف عن السؤال أولى، وإطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير، بل هو موكول إلى اجتهاد العبد ونظره لنفسه بأن يقابل ما يلقى في السؤال من المذلة وهتك المروءة والحاجة إلى التثقيل والإلحاح بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره، فرب شخص تكثر فائدة الخلق وفائدته في اشتغاله بالعلم أو العمل، ويهون عليه بأدنى تعريض في السؤال تحصيل الكفاية، وربما يكون بالعكس، وربما يتقابل المطلوب والمحذور، فينبغي أن يستفتي المريد فيه قلبه وإن أفتاه المفتون، فإن الفتاوى لا تحيط بتفاصيل الصور ودقائق الأحوال، ولقد كان في السلف من له ثلاثمائة وستون صديقاً ينزل على كل واحد منهم ليلة ومنهم من له ثلاثون، وكانوا يشتغلون بالعبادة لعلمهم بأن المتكلفين بهم يتقلدون منة من قبولهم لمبراتهم، فكان قبولهم لمبراتهم خيراً مضافاً لهم إلى عباداتهم، فينبغي أن يدقق النظر في هذه الأمور فإن أجر الآخذ كأجر المعطي مهما كان الآخذ يستعين به على الدين والمعطي يعطيه عن طيب قلب. ومن اطلع على هذه المعاني أمكنه أن يتعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ما هو الأفضل له، بالإضافة إلى حاله ووقته، فهذه فضيلة الكسب، وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعاً لأربعة أمور: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة على الدين. ونحن نعقد في كل واحد باباً، ونبتدىء بذكر أسباب الصحة في الباب الثاني.

❋ ❋ ❋

الباب الثاني

في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة، وبيان شروط الشّرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع

اعلم: أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب؛ لأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه، والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب، ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات المعاملة فيتقيها، وما شذ عنه من الفروع المشكلة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جملي فلا يدري متى يجب عليه التوقف والسؤال، ولو قال: لا أقدّم العلم ولكني أصبر إلى أن تقع لي الواقعة فعندها أتعلم وأستفتي. فيقال له: وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جمل مفسدات العقود، فإنه يستمرّ في التصرفات ويظنها صحيحة مباحة، فلا بدّ له من هذا القدر من علم التجارة ليتميز له المباح عن المحظور، وموضع الإشكال عن موضع الوضوح، ولذلك روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول: لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه، وإلا أكل الربا شاء أم أبى، وعلم العقود كثير، ولكن هذه العقود الستة لا تنفك المكاسب عنها: وهي البيع والربا والسلم والإجارة والشركة والقراض، فلنشرح شروطها:

العقد الأول: البيع:

وقد أحله الله تعالى، وله ثلاثة أركان: العاقد، والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: العاقد: ينبغي للتاجر أن لا يعامل بالبيع أربعة: الصبي، والمجنون، والعبد، والأعمى؛ لأن الصبي غير مكلف، وكذا المجنون، وبيعهما باطل، فلا يصح بيع الصبي وإن أذن له فيه الولي عند الشافعي، وما أخذه منهما مضمون عليه لهما وما سلمه في المعاملة إليهما فضاع في أيديهما فهو المضيع له. وأما العبد العاقل فلا يصح بيعه وشراؤه إلا بإذن سيده، فعلى البقال والخباز والقصاب وغيرهم أن لا يعاملوا العبيد ما لم تأذن لهم السادة في معاملتهم، وذلك بأن يسمعه صريحاً أو ينتشر في البلد أنه مأذون له في الشراء لسيده وفي البيع له، فيعوّل على الاستفاضة أو على قول عدل يخبره بذلك، فإن عامله بغير إذن السيد فعقده باطل، وما أخذه منه مضمون عليه لسيده، وما تسلمه إن ضاع في يد العبد لا يتعلق برقبته ولا يضمنه سيده، بل ليس له إلا المطالبة إذا عتق. وأما الأعمى: فإنّه يبيع ويشتري ما لا يرى فلا يصح ذلك، فليأمره بأن يوكل وكيلاً بصيراً ليشتري له أو يبيع، فيصح توكيله ويصح بيع وكيله، فإن عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة، وما أخذه منه مضمون عليه بقيمته، وما سلمه إليه أيضاً مضمون له بقيمته. وأما الكافر فتجوز معاملته لكن لا يباع منه المصحف ولا العبد المسلم، ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب، فإن فعل فهي معاملات مردودة وهو عاص بها ربه. وأما الجندية من الأتراك والتركمانية والعرب والأكراد والسراق والخونة وأكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يتملك مما في أيديهم شيئاً؛ لأجل أنها حرام، إلا إذا عرف شيئاً بعينه أنه حلال، وسيأتي تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام.

الركن الثاني: في المعقود عليه: وهو المال المقصود نقله من أحد العاقدين إلى الآخر ثمناً كان أو مثمناً فيعتبر فيه ستة شروط:

الأول: أن لا يكون نجساً في عينه: فلا يصح بيع كلب وخنزير، ولا بيع زبل وعذرة، ولا بيع العاج والأواني المتخذة منه، فإنَّ العظم ينجس بالموت، ولا يطهر الفيل بالذبح، ولا يطهر عظمه بالتذكية، ولا يجوز بيع الخمر، ولا بيع الودك النجس المستخرج من الحيوانات التي لا تؤكل وإن كان يصلح للاستصباح أو طلاء السفن، ولا بأس ببيع الدهن الطاهر في عينه الذي نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فيه؛ فإنه يجوز الانتفاع به في غير الأكل، وهو في عينه ليس بنجس، وكذلك لا أرى بأساً ببيع بزر القز؛ فإنه أصل حيوان ينتفع به، وتشبيهه بالبيض وهو أصل حيوان أولى من تشبيهه بالروث. ويجوز بيع فأرة المسك، ويقضى بطهارتها إذا انفصلت من الظبية في حالة الحياة.

الثاني: أن يكون منتفعاً به: فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفأرة ولا الحية، ولا التفات إلى انتفاع المشعبذ بالحية، وكذا لا التفات إلى انتفاع أصحاب الحلق بإخراجها من السلة وعرضها على الناس، ويجوز بيع الهرّة والنحل وبيع الفهد والأسد وما يصلح لصيد أو ينتفع بجلده، ويجوز بيع الفيل لأجل الحمل، ويجوز بيع الطوطي وهي الببغاء والطاووس والطيور المليحة الصور وإن كانت لا تؤكل، فإن التفرّج بأصواتها والنظر إليها غرض مقصود مباح، وإنما الكلب هو الذي لا يجوز أن يقتنى إعجاباً بصورته لنهي رسول الله ﷺ عنه[(١)]. ولا يجوز بيع العود والصنج والمزامير والملاهي؛ فإنه لا منفعة لها شرعاً، وكذا بيع الصور المصنوعة من الطين كالحيوانات التي تباع في الأعياد للعب الصبيان فإن كسرها واجب شرعاً، وصور الأشجار متسامح بها، وأما الثياب والأطباق وعليها صور الحيوانات فيصح بيعها وكذا الستور، وقد قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: **«اتخذي منها نمارق»**[(٢)] ولا يجوز استعمالها منصوبة، ويجوز موضوعة، وإذا جاز الانتفاع من وجه صح البيع لذلك الوجه.

الثالث: أن يكون المتصرف فيه مملوكاً للعاقد أو مأذوناً من جهة المالك: ولا يجوز أن يشتري من غير المالك انتظاراً للإذن من المالك، بل لو رضي بعد ذلك وجب استئناف العقد، ولا ينبغي أن يشتري من الزوجة مال الزوج ولا من الزوج مال الزوجة، ولا من الوالد مال الولد ولا من الولد مال الوالد اعتماداً على أنه لو عرف لرضي، فإنه إذا لم يكن الرضا متقدماً لم يصح البيع، وأمثال ذلك مما يجري في الأسواق؛ فواجب على العبد المتدين أن يحترز منه.

الرابع: أن يكون المعقود عليه مقدوراً على تسليمه شرعاً وحساً: فما لا يقدر على تسليمه حساً لا يصح بيعه كالآبق، والسمك في الماء، والجنين في البطن، وعسب الفحل، وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان، واللبن في الضرع لا يجوز، فإنه يتعذر تسليمه لاختلاط غير المبيع بالمبيع، والمعجوز عن تسليمه شرعاً كالمرهون والموقوف، والمستولدة فلا يصح بيعها أيضاً، وكذا بيع الأم دون الولد إذا كان الولد صغيراً، وكذا بيع الولد دون الأم؛ لأن تسليمه تفريق بينهما وحرام، فلا يصح التفريق بينهما بالبيع.

الخامس: أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف: أما العلم بالعين فبأن يشير إليه بعينه،

الباب الثاني: في علم الكسب

(١) حديث: النهي عن اقتناء الكلب: متفق عليه من حديث ابن عمر: **«من اقتنى كلباً إلا كلب ماشية أو ضارياً نقص من عمله كل يوم قيراطان»**.

(٢) حديث: **«اتخذي منها نمارق»** يقوله لعائشة، متفق عليه من حديثها.

فلو قال: بعتك شاة من هذا القطيع أي شاة أردت، أو ثوباً من هذه الثياب التي بين يديك، أو ذراعاً من هذا الكرباس، وخذه من أي جانب شئت، أو عشرة أذرع من هذه الأرض، وخذه من أي طرف شئت، فالبيع باطل، وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون في الدين إلا أن يبيع شائعاً، مثل أن يبيع نصف الشيء أو عشره، فإنّ ذلك جائز، وأما العلم بالقدر فإنما يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر إليه، فلو قال: بعتك هذا الثوب بما باع به فلان ثوبه وهما لا يدريان ذلك فهو باطل، ولو قال: بعتك بزنة هذه الصنجة فهو باطل، إذا لم تكن الصنجة معلومة، ولو قال: بعتك هذه الصبرة من الحنطة فهو باطل. أو قال: بعتك بهذه الصبرة من الدراهم أو بهذه القطعة من الذهب وهو يراها صح البيع وكان تخمينه بالنظر كافياً في معرفة المقدار. وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية في الأعيان، ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته منذ مدّة لا يغلب التغير فيها، والوصف لا يقوم مقام العيان، هذا أحد المذهبين، ولا يجوز بيع الثوب في المنسج اعتماداً على الرقوم، ولا بيع الحنطة في سنبلها، ويجوز بيع الأرز في قشرته التي يدخر فيها، وكذا بيع الجوز واللوز في القشرة السفلى، ولا يجوز في القشرتين، ويجوز بيع الباقلاء الرطب في قشرته للحاجة، ويتسامح ببيع الفقاع لجريان عادة الأولين به ولكن نجعله إباحة بعوض، فإن اشتراه ليبيعه فالقياس بطلانه؛ لأنه ليس مستتراً ستر خلقة، ولا يبعد أن يتسامح به؛ إذ في إخراجه إفساده كالرمان وما يستر بستر خلق معه.

السادس: أن يكون المبيع مقبوضاً إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة: وهذا شرط خاص، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع ما لم يقبض[1]. ويستوي فيه العقار والمنقول، فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فبيعه باطل، وقبض المنقول بالنقل، وقبض العقار بالتخلية، وقبض ما ابتاعه بشرط الكيل لا يتم إلا بأن يكتاله، وأما بيع الميراث والوصية والوديعة وما لم يكن الملك حاصلاً فيه بمعاوضة، فهو جائز قبل القبض.

الركن الثالث: لفظ العقد: فلا بد من جريان إيجاب وقبول متصل به بلفظ دال على المقصود، مفهم إما صريح أو كناية، فلو قال: أعطيتك هذا بذاك، بدل قوله: بعتك، فقال: قبلته، جاز مهما قصدا به البيع؛ لأنه قد يحتمل الإعارة إذا كان في ثوبين أو دابتين، والنية تدفع الاحتمال، والصريح أقطع للخصومة، ولكن الكناية تفيد الملك أيضاً والحل فيما يختاره، ولا ينبغي أن يقرر بالبيع شرطاً على خلاف مقتضى العقد، فلو شرط أن يزيد شيئاً آخر، وأن يحمل المبيع إلى داره، أو اشترى الحطب بشرط النقل إلى داره، كل ذلك فاسد إلا إذا أفرد استئجاره على النقل بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول، ومهما لم يجر بينهما إلا المعاطاة بالفعل دون التلطف باللسان لم ينعقد البيع عند الشافعي أصلاً، وانعقد عند أبي حنيفة إن كان في المحقرات ثم ضبط المحقرات عسير، فإن رد الأمر إلى العادات فقد جاوز الناس المحقرات في المعاطاة؛ إذ يتقدم الدلال إلى البزاز يأخذ منه ثوباً ديباجاً قيمته عشرة دنانير مثلاً ويحمله إلى المشتري ويعود إليه بأنه ارتضاه، فيقول له: خذ عشرة، فيأخذ من صاحبه العشرة ويحملها ويسلمها إلى البزاز، فيأخذها ويتصرف فيها، ومشتري الثوب يقطعه ولم يجر بينهما إيجاب وقبول

(١) حديث: النهي عن بيع ما لم يقبض، متفق عليه من حديث ابن عباس.

أصلاً، وكذلك يجتمع المجهزون على حانوت البياع، فيعرض متاعاً قيمته مائة دينار مثلاً فيمن يزيد، فيقول أحدهم: هذا عليّ بتسعين، ويقول الآخر: هذا عليّ بخمسة وتسعين، ويقول الآخر: هذا بمائة، فيقال له: زن، فيزن ويسلم ويأخذ المتاع من غير إيجاب وقبول؛ فقد استمرّت به العادات، وهذه من المعضلات التي ليست تقبل العلاج؛ إذ الاحتمالات ثلاثة:

إما فتح باب المعاطاة مطلقاً في الحقير والنفيس وهو محال؛ إذ فيه نقل الملك من غير لفظ دال عليه، وقد أحل الله البيع، والبيع اسم للإيجاب والقبول، ولم يجر ولم ينطلق اسم البيع على مجرّد فعل بتسليم وتسلم، فبماذا يحكم بانتقال الملك من الجانبين، لا سيما في الجواري والعبيد والعقارات والدواب النفيسة وما يكثر التنازع فيه؛ إذ للمسلم أن يرجع ويقول: قد ندمت وما بعته؛ إذ لم يصدر مني إلا مجرّد تسليم، وذلك ليس ببيع.

الاحتمال الثاني: أن نسدّ الباب بالكلية كما قال الشافعي رحمه الله من بطلان العقد، وفيه إشكال من وجهين: أحدهما: أنه يشبه أن يكون ذلك في المحقرات معتاداً في زمن الصحابة، ولو كانوا يتكلفون الإيجاب والقبول من البقال والخباز والقصاب لثقل عليهم فعله، ولنقل ذلك نقلاً منتشراً، ولكان يشتهر وقت الإعراض بالكلية عن تلك العادة؛ فإن الأعصار في مثل هذا تتفاوت. والثاني: أن الناس الآن قد انهمكوا فيه فلا يشتري الإنسان شيئاً من الأطعمة وغيرها إلا ويعلم أن البائع قد ملكه بالمعاطاة، فأي فائدة في تلفظه بالعقد إذا كان الأمر كذلك.

الاحتمال الثالث: أن يفصل بين المحقرات وغيرها كما قال أبو حنيفة رحمه الله، وعند ذلك يتعسر الضبط في المحقرات، ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه، وقد ذهب ابن سريج إلى تخريج قول للشافعي رحمه الله على وفقه وهو أقرب الاحتمالات إلى الاعتدال، فلا بأس لو ملنا إليه لمسيس الحاجات، ولعموم ذلك بين الخلق، ولما يغلب على الظن بأن ذلك كان معتاداً في الأعصار الأولى. فأما الجواب عن الإشكالين: فهو أن نقول: أما الضبط في الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير، فإنّ ذلك غير ممكن، بل له طرفان واضحان إذ لا يخفى أن شراء البقل وقليل من الفواكه والخبز واللحم من المعدود من المحقرات التي لا يعتاد فيها إلا المعاطاة، وطالب الإيجاب والقبول فيه يعد مستقصياً ويستبرد تكليفه لذلك ويستثقل، وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حقير ولا وجه له فهذا طرف الحقارة، والطرف الثاني: الدواب والعبيد والعقارات والثياب النفيسة، فذلك مما لا يستبعد تكلف الإيجاب والقبول فيها؟ وبينهما أوساط متشابهة يشك فيها هي في محل الشبهة، فحق ذي الدين أن يميل فيها إلى الاحتياط وجميع ضوابط الشرع فيما يعلم بالعادة كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة وأوساط مشكلة، وأما الثاني؛ وهو طلب سبب لنقل الملك، فهو أن يجعل الفعل باليد أخذاً وتسليماً سبباً لعينه بل لدلالته، وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة في العادة، وانضم إليه مسيس الحاجة وعادة الأوّلين واطراد جميع العادات بقبول الهدايا من غير إيجاب وقبول مع التصرف فيها، وأي فرق بين أن يكون فيه عوض أو لا يكون؛ إذ الملك لا بد من نقله في الهبة أيضاً، إلا أن العادة السالفة لم تفرق في الهدايا بين الحقير والنفيس، بل كان طلب الإيجاب والقبول يستقبح فيه كيف كان، وفي المبيع لم يستقبح في غير المحقرات هذا ما نراه أعدل الاحتمالات، وحق الورع المتدين أن لا يدع الإيجاب والقبول للخروج عن شبهة الخلاف، فلا ينبغي أن يمتنع من ذلك لأجل أن البائع قد تملكه بغير إيجاب وقبول؛ فإنّ ذلك لا يعرف تحقيقاً، فربما اشتراه بقبول وإيجاب، فإن كان حاضراً

عند شرائه أو أقرّ البائع به فيمتنع منه وليشتر من غيره، فإن كان الشيء محقراً وهو إليه محتاج فليتلفظ بالإيجاب والقبول فإنه يستفيد به قطع الخصومة في المستقبل معه؛ إذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن، ومن الفعل ممكن.

فإن قلت: فإن أمكن هذا فيما يشتريه، فكيف يفعل إذا حضر في ضيافة أو على مائدة وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاطاة في البيع والشراء أو سمع منهم ذلك أو رآه؟ أيجب عليه الامتناع من الأكل! فأقول: يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذي اشتروه مقداراً نفيساً ولم يكن من المحقرات. وأما الأكل، فلا يجب الامتناع منه، فإني أقول: إن ترددنا في جعل الفعل دلالة على نقل الملك، فلا ينبغي أن لا نجعله دلالة على الإباحة، فإن أمر الإباحة أوسع، وأمر نقل الملك أضيق، فكل مطعوم جرى فيه بيع معاطاة، فتسليم البائع إذن في الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال، كإذن الحمامي في دخول الحمام، والإذن في الإطعام لمن يريده المشتري فينزل منزلة ما لو قال: أبحت لك أن تأكل هذا الطعام، أو تطعم من أردت؛ فإنه يحل له، ولو صرح وقال: كُلْ هذا الطعام ثم أغرم لي عوضه؛ لحل الأكل ويلزمه الضمان بعد الأكل، هذا قياس الفقه عندي، ولكنه بعد المعاطاة آكل ملكه ومتلفاً له فعليه الضمان وذلك في ذمته، والثمن الذي سلمه إن كان مثل قيمته فقد ظفر المستحق بمثل حقه، فله أن يتملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه، وإن كان قادراً على مطالبته فإنه لا يتملك ما ظفر به من ملكه؛ لأنه ربما لا يرضى بتلك العين أن يصرفها إلى دينه فعليه المراجعة. وأما ههنا فقد عرف رضاه بقرينة الحال عند التسليم، فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضاء بأن يستوفي دينه مما يسلم إليه فيأخذه بحقه، لكن على كل الأحوال جانب البائع أغمض؛ لأن ما أخذه قد يريد المالك ليتصرف فيه، ولا يمكنه التملك إلا إذا أتلف عين طعامه في يد المشتري، ثم ربما يفتقر إلى استئناف قصد التملك، ثم يكون قد تملك بمجرّد رضا استفاده من الفعل دون القول. وأما جانب المشتري للطعام وهو لا يريد إلا الأكل فهين؛ فإنّ ذلك يباح بالإباحة المفهومة من قرينة الحال، ولكن ربما يلزم من مشاورته أن الضيف يضمن ما أتلفه، وإنما يسقط الضمان عنه إذا تملك البائع ما أخذه من المشتري فيسقط، فيكون كالقاضي دينه والمتحمل عنه، فهذا ما نراه في قاعدة المعاطاة على غموضها، والعلم عند الله، وهذه احتمالات وظنون رددناها، ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون. وأما الورع فإنه ينبغي أن يستفتي قلبه ويتقي مواضع الشبه.

العقد الثاني: عقد الربا:

وقد حرّمه الله تعالى وشدّد الأمر فيه، ويجب الاحتراز منه على الصيارفة المتعاملين على النقدين، وعلى المتعاملين على الأطعمة؛ إذ لا ربا إلا في نقد أو في طعام. وعلى الصيرفي أن يحترز من النسيئة والفضل، أما النسيئة: فأن لا يبيع شيئاً من جواهر النقدين بشيء من جواهر النقدين إلا يداً بيد، وهو أن يجري التقابض في المجلس، وهذا احتراز من النسيئة، وتسليم الصيارفة الذهب إلى دار الضرب وشراء الدنانير المضروبة حرام من حيث النساء، ومن حيث إن الغالب أن يجري فيه تفاضل؛ إذ لا يرد المضروب بمثل وزنه. وأما الفضل: فيحترز منه في ثلاثة أمور: في بيع المكسر بالصحيح: فلا تجوز المعاملة فيهما إلا مع المماثلة، وفي بيع الجيد بالرديء: فلا ينبغي أن يشتري رديئاً بجيد دونه في الوزن، أو يبيع رديئاً بجيد فوقه في الوزن، أعني: إذا باع الذهب بالذهب والفضة بالفضة، فإن اختلف

الجنسان فلا حرج في الفضل. والثالث في المركبات من الذهب والفضة: كالدنانير المخلوطة من الذهب والفضة، إن كان مقدار الذهب مجهولاً لم تصح المعاملة عليها أصلاً، إلا إذا كان ذلك نقداً جارياً في البلد، فإنا نرخص في المعاملة عليه إذا لم يقابل بالنقد. وكذا الدراهم المغشوشة بالنحاس إن لم تكن رائجة في البلد لم تصح المعاملة عليها؛ لأن المقصود منها النقرة وهي مجهولة، وإن كان نقداً رائجاً في البلد رخصنا في المعاملة لأجل الحاجة وخروج النقرة عن أن يقصد استخراجها، ولكن لا يقابل بالنقرة أصلاً، وكذلك كل حلي مركب من ذهب وفضة فلا يجوز شراؤه لا بالذهب ولا بالفضة، بل ينبغي أن يشترى بمتاع آخر إن كان قدر الذهب منه معلوماً، إلا إذا كان مموّهاً بالذهب تمويهاً لا يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار، فيجوز بيعها بمثلها من النقرة بما أريد من غير النقرة.

وكذلك لا يجوز للصيرفي أن يشتري قلادة فيها خرز وذهب بذهب، ولا أن يبيعه، بل بالفضة يداً بيد إن لم يكن فيها فضة، ولا يجوز شراء ثوب منسوج بذهب يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار بذهب، ويجوز بالفضة غيرها، وأما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقابض في المجلس، اختلف جنس الطعام المبيع والمشترى أو لم يختلف؛ فإن اتحد الجنس فعليهم التقابض ومراعاة المماثلة، والمعتاد في هذا معاملة القصّاب بأن يسلم إليه الغنم ويشتري بها اللحم نقداً أو نسيئة فهو حرام، ومعاملة الخباز بأن يسلم إليه الحنطة ويشتري بها الخبز نسيئة أو نقداً فهو حرام، ومعاملة العصار بأن يسلم إليه البزر والسمسم والزيتون ليأخذ منه الأدهان فهو حرام، وكذا اللبان يعطي اللبن ليؤخذ منه الجبن والسمن والزبد وسائر أجزاء اللبن فهو أيضاً حرام، ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقداً، وبجنسه إلا نقداً ومتماثلاً، وكل ما يتخذ من الشيء المطعوم فلا يجوز أن يباع به متماثلاً ولا متفاضلاً، فلا يباع بالحنطة دقيق وخبز وسويق، ولا بالعنب والتمر دبس وخل وعصير، ولا باللبن سمن وزبد ومخيض ومصل وجبن، والمماثلة لا تفيد إذا لم يكن الطعام في حال كمال الادخار، فلا يباع الرطب بالرطب والعنب بالعنب متفاضلاً ومتماثلاً، فهذه جمل مقنعة في تعريف البيع والتنبيه على ما يشعر التاجر بمثارات الفساد حتى يستفتي فيها إذا تشكك والتبس عليه شيء منها، وإذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال، واقتحم الربا والحرام وهو لا يدري.

العقد الثالث: السلم.

وليراع التاجر فيه عشرة شروط:

الأول: أن يكون رأس المال معلوماً على مثله حتى لو تعذر تسليم المسلم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال، فإن أسلم كفاً من الدراهم جزافاً في كرّ حنطة لم يصح في أحد القولين.

الثاني: أن يسلم رأس المال في مجلس العقد قبل التفرّق فلو تفرّقا قبل القبض انفسخ السلم.

الثالث: أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه كالحبوب والحيوانات والمعادن والقطن والصوف والإبريسم والألبان واللحوم ومتاع العطارين وأشباهها، ولا يجوز في المعجونات والمركبات وما تختلف أجزاؤه، كالقسي المنوعة والنبل المعمول، والخفاف والنعال المختلفة أجزاؤها وصنعتها وجلود الحيوانات. ويجوز السلم في الخبز، وما يتطرق إليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته يعفى عنه ويتسامح فيه.

الرابع: أن يستقصي وصف هذه الأمور القابلة للوصف؛ حتى لا يبقى وصف تتفاوت به القيمة

تفاوتاً لا يتغابن بمثله الناس إلا ذكره، فإن ذلك الوصف هو القائم مقام الرؤية في البيع.

الخامس: أن يجعل الأجل معلوماً إن كان مؤجلاً فلا يؤجل إلى الحصاد ولا إلى إدراك الثمار، بل إلى الأشهر والأيام فإنّ الإدراك قد يتقدم وقد يتأخر.

السادس: أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه وقت المحل ويؤمن فيه وجوده غالباً. فلا ينبغي أن يسلم في العنب إلى أجل لا يدرك فيه، وكذا سائر الفواكه. فإن كان الغالب وجوده وجاء المحل وعجز عن التسليم بسبب آفة؛ فله أن يمهله إن شاء، أو يفسخ ويرجع في رأس المال إن شاء.

السابع: أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الغرض به؛ كي لا يثير ذلك نزاعاً.

الثامن: أن لا يعلقه بمعين فيقول: من حنطة هذا الزرع، أو ثمرة هذا البستان؛ فإن ذلك يبطل كونه ديناً. نعم لو أضاف إلى ثمرة بلد أو قرية كبيرة، لم يضر ذلك.

التاسع: أن لا يسلم في شيء نفيس عزيز الوجود مثل درة موصوفة يعز وجود مثلها، أو جارية حسناء معها ولدها، أو غير ذلك مما لا يقدر عليه غالباً.

العاشر: أن لا يسلم في طعام مهما كان رأس المال طعاماً سواء كان من جنسه أو لم يكن، ولا يسلم في نقد إذا كان رأس المال نقداً، وقد ذكرنا هذا في الربا.

العقد الرابع: الإجارة:

وله ركنان: الأجرة والمنفعة. فأما العاقد واللفظ: فيعتبر فيه ما ذكرناه في البيع والأجرة كالثمن، فينبغي أن يكون معلوماً وموصوفاً بكل ما شرطناه في المبيع إن كان عيناً، فإن كان ديناً فينبغي أن يكون معلوم الصفة والقدر، وليحترز فيه عن أمور جرت العادة بها، وذلك مثل كراء الدار بعمارتها فذلك باطل؛ إذ قدر العمارة مجهول. ولو قدر دراهم وشرط على المكتري أن يصرفها إلى العمارة لم يجز؛ لأن عمله في الصرف إلى العمارة مجهول. ومنها استئجار السلاخ على أن يأخذ الجلد بعد السلخ، واستئجار حمال الجيف بجلد الجيفة، واستئجار الطحان بالنخالة أو ببعض الدقيق فهو باطل، وكذلك كل ما يتوقف حصوله وانفصاله على عمل الأجير، فلا يجوز أن يجعل أجرة. ومنها: أن يقدر في إجارة الدور والحوانيت مبلغ الأجر، فلو قال: لكل شهر دينار ولم يقدر أشهر الإجارة؛ كانت المدة مجهولة ولم تنعقد الإجارة.

الركن الثاني: المنفعة المقصودة بالإجارة وهي العمل وحده إن كان عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير، فيجوز الاستئجار عليه. وجملة فروع الباب تندرج تحت هذه الرابطة، ولكنا لا نطوّل بشرحها فقد طوّلنا القول فيها في الفقهيات، وإنما نشير إلى ما تعم به البلوى، فليراع في العمل المستأجر عليه خمسة أمور:

الأول: أن يكون متقوماً: بأن يكون فيه كلفة وتعب، فلو استأجر طعاماً ليزين به الدكان، أو أشجاراً ليجفف عليها الثياب، أو دراهم ليزين بها الدكان، لم يجز. فإن هذه المنافع تجري مجرى حبة سمسم وحبة بر من الأعيان وذلك لا يجوز بيعه، وهي كالنظر في مرآة الغير، والشرب من بئره، والاستظلال بجداره، والاقتباس من ناره، ولهذا لو استأجر بياعاً على أن يتكلم بكلمة يروج بها سلعته لم يجز. وما يأخذه البياعون عوضاً عن حشمتهم وجاههم وقبول قولهم في ترويج السلع فهو حرام؛ إذ ليس يصدر منهم إلا كلمة لا تعب فيها ولا قيمة لها، وإنما يحل لهم ذلك إذا تعبوا بكثرة التردد أو بكثرة

الكلام في تأليف أمر المعاملة، ثم لا يستحقون إلا أجرة المثل، فأما ما تواطأ عليه الباعة فهو ظلم وليس مأخوذاً بالحق.

الثاني: أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة: فلا يجوز إجارة الكرم لارتفاقه، ولا إجارة المواشي للبنها، ولا إجارة البساتين لثمارها، ويجوز استئجار المرضعة ويكون اللبن تابعاً؛ لأن إفراده غير ممكن. وكذا يتسامح بحبر الورق وخيط الخياط لأنهما لا يقصدان على حيالهما.

الثالث: أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حساً وشرعاً: فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لا يقدر عليه، ولا استئجار الأخرس على التعليم ونحوه، وما يحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه؛ كالاستئجار على قلع سن سليمة، أو قطع عضو لا يرخص الشرع في قطعه، أو استئجار الحائض على كنس المسجد، أو المعلم على تعليم السحر أو الفحش، أو استئجار زوجة الغير على الإرضاع دون إذن زوجها، أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات، أو استئجار الصائغ على صيغة الأواني من الذهب والفضة فكل ذلك باطل.

الرابع: أن لا يكون العمل واجباً على الأجير، أو لا يكون بحيث لا تجري النيابة فيه عن المستأجر: فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد ولا سائر العبادات التي لا نيابة فيها؛ إذ لا يقع ذلك عن المستأجر، ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ودفن الموتى وحمل الجنائز. وفي أخذ الأجرة على إمامة صلاة التراويح وعلى الأذان، وعلى التصدي للتدريس وإقراء القرآن خلاف. أما الاستئجار على تعليم مسألة بعينها أو تعليم سورة بعينها لشخص معين فصحيح.

الخامس: أن يكون العمل والمنفعة معلوماً: فالخياط يعرف عمله بالثوب، والمعلم يعرف عمله بتعيين السورة ومقدارها، وحمل الدواب يعرف بمقدار المحمول وبمقدار المسافة. وكل ما يثير خصومة في العادة فلا يجوز إهماله، وتفصيل ذلك يطول، وإنما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الأحكام ويتفطن به لمواقع الإشكال، فيسأل؛ فإن الاستقصاء شأن المفتي لا شأن العوام.

العقد الخامس: القراض:

وليراع فيه ثلاثة أركان:

الركن الأول: رأس المال: وشرطه أن يكون نقداً معلوماً مسلماً إلى العامل؛ فلا يجوز القراض على الفلوس ولا على العروض؛ فإنّ التجارة تضيق فيه. ولا يجوز على صرة من الدراهم، لأن قدر الربح لا يتبين فيه، ولو شرط مالك اليد لنفسه لم يجز، لأنّ فيه تضييق طريق التجارة.

الركن الثاني: الربح: وليكن معلوماً بالجزئية؛ بأن يشرط له الثلث أو النصف أو ما شاء، فلو قال: عليَّ أن لك من الربح مائة والباقي لي، لم يجز إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة، فلا يجوز تقديره بمقدار معين بل بمقدار شائع.

الثالث: العمل الذي على العامل: وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقة عليه بتعيين وتأقيت، فلو شرط أن يشتري بالمال ماشية ليطلب نسلها فيتقاسمان النسل، أو حنطة فيخبزها ويتقاسمان الربح لم يصح؛ لأنّ القراض مأذون فيه في التجارة وهو البيع والشراء، وما يقع من ضرورتهما فقط، وهذا حرف

ـ أعني الخبز ورعاية المواشي ـ ولو ضيق عليه وشرط أن لا يشتري إلا من فلان أو لا يتجر إلا في الخز الأحمر، أو شرط ما يضيق باب التجارة فسد العقد، ثم مهما انعقد فالعامل وكيل فيتصرف بالغبطة تصرف الوكلاء، ومهما أراد المالك الفسخ فله ذلك، فإذا فسخ في حالة والمال كله فيها نقد لم يخف وجه القسمة، وإن كان عروضاً ولا ربح فيه رد عليه ولم يكن للمالك تكليفه أن يرده إلى النقد، لأن العقد قد انفسخ وهو لم يلتزم شيئاً، وإن قال العامل: أبيعه، وأبى المالك، فالمتبوع رأي المالك، إلا إذا وجد العامل زبوناً يظهر بسببه ربح على رأس المال، ومهما كان ربح فعلى العامل بيع مقدار رأس المال بجنس رأس المال لا بنقد آخر، حتى يتميز الفاضل ربحاً فيشتركان فيه، وليس عليهم بيع الفاضل على رأس المال، ومهما كان رأس السنة فعليهم تعرف قيمة المال لأجل الزكاة، فإذا كان قد ظهر من الربح شيء فالأقيس أن زكاة نصيب العامل على العامل، وأنه يملك الربح بالظهور، وليس للعامل أن يسافر بمال القراض دون إذن المالك، فإن فعل صحت تصرفاته، ولكنه إذا فعل ضمن الأعيان والأثمان جميعاً؛ لأن عدوانه بالنقل يتعدّى إلى ثمن المنقول، وإن سافر بالإذن جاز ونفقة النقل وحفظ المال على مال القراض، كما أن نفقة الوزن والكيل والحمل الذي لا يعتاد التاجر مثله على رأس المال، فأما نشر الثوب وطيه والعمل اليسير المعتاد فليس له أن يبذل عليه أجرة. وعلى العامل نفقته وسكناه في البلد، وليس عليه أجرة الحانوت. ومهما تجرد في السفر لمال القراض فنفقته في السفر على مال القراض، فإذا رجع فعليه أن يرد بقايا آلات السفر من المطهرة والسفرة وغيرهما.

العقد السادس: الشركة.

وهي أربعة أنواع: ثلاثة منها باطلة.

الأول: شركة المفاوضة: وهو أن يقولا: تفاوضنا لنشترك في كل مالنا وما علينا ومالاهما ممتازان، فهي باطلة.

الثاني: شركة الأبدان: وهو أن يتشارطا الاشتراك في أجرة العمل فهي باطلة.

الثالث: شركة الوجوه: وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول فيكون من جهته التنفيل ومن جهة غيره العمل، فهذا أيضاً باطل، وإنما الصحيح العقد الرابع المسمى شركة العنان؛ وهو أن يختلط مالاهما بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمه، ويأذن كل واحد منهما لصاحبه في التصرف، ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالين، ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط، ثم بالعزل يمتنع التصرف عن المعزول، وبالقسمة ينفصل الملك عن الملك، والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على العروض المشتراة، ولا يشترط النقد، بخلاف القراض.

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب، وإلا اقتحم الحرام من حيث لا يدري. وأما معاملة القصّاب والخبّاز والبقّال فلا يستغني عنها المكتسب وغير المكتسب، والخلل فيها من ثلاثة وجوه: من إهمال شروط البيع، أو إهمال شروط السلم، أو الاقتصار على المعاطاة؛ إذ العادات جارية بكتبه الخطوط على هؤلاء بحاجات كل يوم، ثم المحاسبة في كل مدّة. ثم التقويم بحسب ما يقع عليه التراضي، وذلك مما نرى القضاء بإباحته للحاجة، ويحمل تسليمهم على إباحة التناول مع انتظار العوض فيحل أكله، ولكن يجب الضمان بأكله وتلزم قيمته يوم الإتلاف، فتجتمع في الذمة تلك القيم، فإذا وقع التراضي على مقدار ما فينبغي أن يلتمس منهم الإبراء المطلق؛ حتى لا تبقى عليه عهدة إن تطرّق إليه

تفاوت في التقويم، فهذا ما تجب القناعة به، فإنّ تكليف وزن الثمن لكل حاجة من الحوائج في كل يوم وكل ساعة تكليف شطط، وكذا تكليف الإيجاب والقبول وتقدير ثمن كل قدر يسير منه فيه عسر، وإذا كثر كل نوع سهل تقويمه، والله الموفق.

❊ ❊ ❊

الباب الثالث

في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم: أنّ المعاملة قد تجري على وجه يحكم المفتي بصحتها وانعقادها ولكنها تشتمل على ظلم يتعرّض به المعامل لسخط الله تعالى؛ إذ ليس كل نهي يقتضي فساد العقد، وهذا الظلم يعني به ما استضر به الغير، وهو منقسم إلى ما يعم ضرره وإلى ما يخص المعامل.

القسم الأول: فيما يعم ضرره. وهو أنواع:

النوع الأول: الاحتكار؛ فبائع الطعام يدّخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار، وهو ظلم عام، وصاحبه مذموم في الشرع. قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ احْتَكَرَ الطَّعَامَ أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ تَكُنْ صَدَقَتُهُ كَفَّارَةً لاحْتِكَارِهِ**»[(١)]. وروى ابن عمر عنه ﷺ أنه قال: «**مَنِ احْتَكَرَ الطَّعَامَ أَرْبَعِينَ يَوْماً فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ الله وَبَرِيءَ الله مِنْهُ**»[(٢)] وقيل: «**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**»، وعن علي رضي الله عنه: من احتكر الطعام أربعين يوماً قسا قلبه. وعنه أيضاً أنه أحرق طعام محتكر بالنار. وروي في فضل ترك الاحتكار عنه ﷺ «**مَنْ جَلَبَ طَعَاماً فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِهِ**». وفي لفظ آخر: «**فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً**»[(٣)]. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] إنّ الاحتكار من الظلم وداخل تحته في الوعيد.

وعن بعض السلف: أنه كان بواسط فجهز سفينة حنطة إلى البصرة وكتب إلى وكيله: بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد، فوافق سعة في السعر فقال له التجار: لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله، وكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام:

الباب الثالث: في بيان العدل

(١) حديث: «**من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره**» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي، والخطيب في التاريخ من حديث أنس بسندين ضعيفين.

(٢) حديث ابن عمر: «**من احتكر الطعام أربعين يوماً فقد بريء من الله وبريء الله منه**». رواه أحمد والحاكم بسند جيد، وقال ابن عدي: ليس بمحفوظ من حديث ابن عمر.

(٣) حديث: «**من جلب طعاماً فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به**» وفي لفظ آخر: «**فكأنما أعتق رقبة**» أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف: «**ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد**» وللحاكم من حديث اليسع بن المغيرة: «**إن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله**» وهو مرسل.

يا هذا، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وإنك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين فقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله فتصدّق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافاً لا عليّ ولا لي. واعلم: أن النهي مطلق ويتعلق النظر به في الوقت والجنس. أما الجنس فيطرد النهي في أجناس الأقوات، أما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله، فلا يتعدى النهي إليه وإن كان مطعوماً. وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسدّ مسدّاً يغني عن القوت في بعض الأحوال وإن كان لا يمكن المداومة عليه، فهذا في محل النظر؛ فمن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجري مجراه. وأما الوقت فيحتمل أيضاً طرد النهي في جميع الأوقات، وعليه تدل الحكاية التي ذكرناها في الطعام الذي صادف بالبصرة سعة في السعر، ويحتمل أن يخصص بوقت قلة الأطعمة وحاجة الناس إليه حتى يكون في تأخير بيعه ضرر ما، فأما إذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطاً، فليس في هذا إضرار. وإذا كان الزمان زمان قحط كان في ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثالها إضرار، فينبغي أن يقضي بتحريمه ويعوّل في نفي التحريم وإثباته على الضرار، فإنه مفهوم قطعاً من تخصيص الطعام، وإذا لم يكن ضرار فلا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية، فإنه ينتظر مبادىء الضرار وهو ارتفاع الأسعار، وانتظار مبادىء الضرار محذور كانتظار عين الضرار ولكنه دونه، وانتظار عين الضرار أيضاً هو دون الإضرار، فبقدر درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم.

وبالجملة: التجارة في الأقوات مما لا يستحب لأنه طلب ربح، والأقوات أصول خلقت قواماً، والربح من المزايا، فينبغي أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التي لا ضرورة للخلق إليها، ولذلك أوصى بعض التابعين رجلاً وقال: لا تسلم ولدك في بيعتين ولا في صنعتين: بيع الطعام، وبيع الأكفان؛ فإنه يتمنى الغلاء وموت الناس. والصنعتان: أن يكون جزاراً فإنها صنعة تقسي القلب، أو صوّاغاً فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة.

النوع الثاني: ترويج الزيف من الدراهم في أثناء النقد فهو ظلم؛ إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسيروّجه على غيره، فكذلك الثالث والرابع، ولا يزال يتردد في الأيدي ويعم الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر الكل ووباله راجعاً عليه، فإنه هو الذي فتح هذا الباب، قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَمِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»**[1]. وقال بعضهم: إنفاق درهم زيف أشد من سرقة مائة درهم؛ لأنّ السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقضت، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها في الدين، وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة، أو مائتي سنة.. إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد من أموال الناس بسنته، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يعذب بها في قبره، ويُسأل عنها إلى آخر انقراضها، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] أي نكتب أيضاً ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدّموه، وفي مثله قوله

(١) حديث: «من سنّ سنّة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء» أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبدالله.

تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القِيَامَة: ١٣] وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره. وليعلم أن في الزيف خمسة أمور:

الأول: أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بئر بحيث لا تمتد إليه اليد، وإياه أن يروّجه في بيع آخر. وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز.

الثاني: أنه يجب على التاجر تعلم النقد لا ليستقصي لنفسه، ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفاً وهو لا يدري؛ فيكون آثماً بتقصيره في تعلم ذلك العلم. فلكل عمل علم به يتم نصح المسلمين فيجب تحصيله. ولمثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد ظاهراً لدينهم لا لدنياهم.

الثالث: أنه إن سلم وعرف المعامل أنه زيف لم يخرج عن الإثم؛ لأنه ليس يأخذه إلا ليروجه على غيره ولا يخبره، ولو لم يعزم على ذلك لكان لا يرغب في أخذه أصلاً. فإنما يتخلص من إثم الضرر الذي يخص معامله فقط.

الرابع: أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله ﷺ: **«رَحِمَ الله امْرَأً سَهْلَ البَيْعِ سَهْلَ الشّرَاءِ سَهْلَ القَضَاءِ سَهْلَ الاقْتِضَاءِ»**[1] فهو داخل في بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه في بئر. وإن كان عازماً على أن يروّجه في معاملة فهذا شر روجه الشيطان عليه في معرض الخير، فلا يدخل تحت من تساهل في الاقتضاء.

الخامس: أن الزيف نعني به ما لا نقرة فيه أصلاً بل هو مموّه. أو ما لا ذهب فيه أعني في الدنانير. أما ما فيه نقرة فإن كان مخلوطاً بالنحاس وهو نقد البلد فقد اختلف العلماء في المعاملة عليه، وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد، سواء علم مقدار النقرة أو لم يعلم. وإن لم يكن هو نقد البلد لم يجز إلا إذا علم قدر النقرة، فإن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر به معامله، وأن لا يعامل به إلا من لا يستحل الترويج في جملة النقد بطريق التلبيس، فأما من يستحل ذلك فتسليمه إليه تسليط له على الفساد، فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً، وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه، وسلوك طريق الحق بمثال هذا في التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها، ولذلك قال بعضهم: التاجر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد. وقد كان السلف يحتاطون في مثل ذلك، حتى روي عن بعض الغزاة في سبيل الله أنه قال: حملت على فرسي لأقتل علجاً، فقصَّر بي فرسي فرجعت، ثم دنا مني العلج فحملت ثانية فقصر فرسي فرجعت، ثم حملت الثالثة فنفر مني فرسي وكنت لا أعتاد ذلك منه، فرجعت حزيناً وجلست منكس الرأس منكسر القلب لما فاتني من العلج وما ظهر لي من خلق الفرس، فوضعت رأسي على عمود الفسطاط وفرسي قائم، فرأيت في النوم كأن الفرس يخاطبني ويقول لي: بالله عليك أردت أن تأخذ على العلج ثلاث مرات وأنت بالأمس اشتريت لي علفاً ودفعت في ثمنه درهماً زائفاً، لا يكون هذا أبداً. قال: فانتبهت فزعاً فذهبت إلى العلاف وأبدلت ذلك الدرهم، فهذا مثال ما يعم ضرره وليقس عليه أمثاله.

القسم الثاني: ما يخص ضرره المعامل:

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم، وإنما العدل أن لا يضر بأخيه المسلم، والضابط الكلي فيه: أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه؛ فكل ما لو عومل به شقّ عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به، بل ينبغي أن يستوي عنده درهمه ودرهم غيره، قال بعضهم: من باع أخاه شيئاً بدرهم وليس

---

(١) حديث: «ارحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء» أخرجه البخاري من حديث جابر.

يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانق فإنه قد ترك النصح المأمور به في المعاملة ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ هذه جملته.

فأما تفصيله ففي أربعة أمور: أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها، وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً أصلاً، وأن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئاً، وأن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه.

أما الأوّل: فهو ترك الثناء؛ فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذباً، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة؛ إذ الكذب الذي يروّج قد لا يقدح في ظاهر المروءة، وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه، وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لِمَ تكلم بها. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] إلا أن يثني على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشتري ما لم يذكره، كما يصفه من خفي أخلاق العبيد والجواري والدواب، فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطناب، وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه وتنقضي بسببه حاجته، ولا ينبغي أن يحلف عليه البتة؛ فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع، وإن كان صادقاً فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه، وقد أساء فيه؛ إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة، وفي الخبر: **«وَيْلٌ لِلتَّاجِرِ مِنْ: بَلَىٰ وَاللهِ وَلاَ وَاللهِ، وَوَيْلٌ لِلصَّانِعِ مِنْ غَدٍ وَبَعْدَ غَدٍ»**(١) وفي الخبر: **«الْيَمِينُ الكَاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ»**(٢). وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: عُتُلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَمَنَّانٌ بِعَطِيَّتِهِ، وَمُنْفِقٌ سِلْعَتَهُ بِيَمِينِهِ»**(٣)، فإذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروهاً من حيث إنه فضول لا يزيد في الرزق فلا يخفى التغليظ في أمر اليمين، وقد روي عن يونس بن عبيد وكان خزازاً: أنه طُلِبَ منه خز للشراء، فأخرج غلامه سقط الخز ونشره ونظر إليه وقال: اللهم ارزقنا الجنة، فقال لغلامه: رده إلى موضعه ولم يبعه، وخاف أن يكون ذلك تعريضاً بالثناء على السلعة، فمثل هؤلاء هم الذين اتجروا في الدنيا ولم يضيعوا دينهم في تجاراتهم، بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا.

الثاني: أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئاً، فذلك واجب. فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً والغش حرام، وكان تاركاً للنصح في المعاملة والنصح واجب، ومهما أظهر أحسن وجهي الثوب وأخفى الثاني كان غاشاً، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة، وكذلك إذا

---

(١) حديث: **«ويلٌ للتاجر من بلى والله ولا والله، وويل للصانع من غد وبعد غد»** لم أقف له على أصل، وذكر صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بغير إسناد نحوه.

(٢) حديث: **«اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة»** متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: **«الحلف»** وهو عند البيهقي بلفظ المصنف.

(٣) حديث أبي هريرة: **«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: عائل مستكبر، ومنان بعطيته. ومنفق سلعته بيمينه»** أخرجه مسلم من حديثه إلا أنه لم يذكر فيها إلا: **عائل مستكبر**، ولهما: **«ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطي فيها أكثر مما أعطي وهو كاذب...»** الحديث. ولمسلم من حديث أبي ذر: **«المنان، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»**.

عرض أحسن فردي الخف أو النعل وأمثاله، ويدل على تحريم الغش ما روي: أنه مرَّ عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاماً فأعجبه، فأدخل يده فيه فرأى بللاً، فقال: «**مَا هٰذَا؟**» قال: أصابته السماء، فقال: «**فَهَلاً جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّىٰ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[1]. ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روي أن النبي ﷺ لما بايع جريراً على الإسلام ذهب لينصرف فجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم[2]، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ثم خيره وقال: إن شئت فخذ وإن شئت فاترك، فقيل له: إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع، فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم. وكان واثلة بن الأسقع واقفاً فباع رجل ناقة له بثلاثمائة درهم، فغفل واثلة وقد ذهب الرجل بالناقة، فسعى وراءه وجعل يصيح به: يا هذا، اشتريتها للحم أو للظهر؟ فقال: بل للظهر، فقال: إن بخفها نقباً قد رأيته، وإنها لا تتابع السير، فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم وقال لواثلة: رحمك الله أفسدت عليَّ بيعي، فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لاَ يَحِلُّ لأَحَدٍ يَبِيعُ بَيْعاً إِلاَّ أَنْ يُبَيِّنَ آفَتَهُ، وَلاَ يَحِلُّ لِمَنْ يَعْلَمُ ذٰلِكَ إِلاَّ تَبْيِينَهُ**»[3] فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم، وهذا أمر يشق على أكثر الخلق، فلذلك يختارون التخلي للعبادة والاعتزال عن الناس؛ لأن القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة مجاهدة لا يقوم بها إلا الصدّيقون، ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين:

أحدهما: أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد في رزقه، بل يمحقه ويذهب ببركته، وما يجمعه من مفرّقات التلبيسات يهلكه الله دفعة واحدة، فقد حكي أن واحداً كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه، فجاء سيل فغرّق البقرة، فقال بعض أولاده: إن تلك المياه المتفرقة التي صببناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة. كيف وقد قال ﷺ: «**الْبَيِّعَانِ إِذَا صَدَقَا وَنَصَحَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِذَا كَتَمَا وَكَذَبَا نُزِعَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»[4] وفي الحديث: «**يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما**»[5] فإذاً: لا يزيد مال من خيانة، كما لا ينقص من صدقة، ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث. ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سبباً لسعادة الإنسان في الدنيا والدين، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سبباً لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها ويراه أصلح له في بعض أحواله، فيعرف معنى قولنا: إن الخيانة لا تزيد في المال، والصدقة لا تنقص منه.

---

(١) حديث: مرّ برجل يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فرأى بللاً فقال: «**ما هذا...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث جرير بن عبدالله: «بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم». متفق عليه.

(٣) حديث واثلة: «**لا يحل لأحد يبيع بيعاً إلا بين ما فيه، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا بينه**» أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي.

(٤) حديث: «**البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما...**» الحديث. متفق عليه من حديث حكيم بن حزام.

(٥) حديث: «**يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما**» رواه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح الإسناد.

والمعنى الثاني؛ الذي لا بد من اعتقاده ليتم له النصح ويتيسر عليه: أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها؛ فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخير كله في سلامة الدين، قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تَزَالُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تَدْفَعُ عَنِ الخَلْقِ سَخَطَ اللهِ مَا لَمْ يُؤْثِرُوا صَفْقَةَ دُنْيَاهُمْ عَلَىٰ آخِرَتِهِمْ»**[1]، وفي لفظ آخر: **«مَا لَمْ يُبَالُوا مَا نَقَصَ مِنْ دُنْيَاهُمْ بِسَلاَمَةِ دِينِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ وَقَالُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: كَذَبْتُمْ لَسْتُمْ بِهَا صَادِقِينَ»**، وفي حديث آخر **«مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الجَنَّةَ»**. قيل: وما إخلاصه؟ قال: **«أَنْ يَحْجِزَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ»**[2] وقال أيضاً: **«مَا آمَنَ بِالقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ»**، ومن علم أن هذه الأمور قادحة في إيمانه، وأن إيمانه رأس ماله في الآخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياماً معدودة. وعن بعض التابعين أنه قال: لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله وقيل لي: من خير هؤلاء؟ لقلت: من أنصحهم لهم؟ فإذا قيل: هذا، قلت: هو خيرهم. ولو قيل لي: من شرهم؟ قلت: من أغشهم لهم؟ فإذا قيل: هذا، قلت: هو شرهم. والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها، ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب، فبذلك يتخلص. وسأل رجل حذاء بن سالم فقال: كيف لي أن أسلم في بيع النعال؟ فقال: اجعل الوجهين سواء، ولا تفضل اليمنى على الأخرى، وجوّد الحشو، وليكن شيئاً واحداً تاماً، وقارب بين الخرز، ولا تطبق إحدى النعلين على الأخرى. ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين، قال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرفا إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع.

فإن قلت: فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع، فأقول: ليس كذلك؛ إذ شرط التاجر أن لا يشتري للبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه لو أمسكه ثم يقنع في بيعه بربح يسير، فيبارك الله له فيه، ولا يحتاج إلى تلبيس، وإنما تعذر هذا لأنهم لا يقنعون بالربح اليسير، وليس يسلم الكثير إلا بتلبيس، فمن تعود هذا لم يشتر المعيب، فإن وقع في يده معيب نادراً فليذكره وليقنع بقيمته. باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري: أبرأ إليك من عيب فيها، إنها تقلب العلف برجلها. وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشتري: إنها تنخمت مرة عندنا دماً. فهكذا كانت سيرة أهل الدين، فمن لا يقدر عليه فليترك المعاملة أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة.

الثالث: أن لا يكتم في المقدار شيئاً: وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل، فينبغي

---

(١) حديث: **«لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على أخراهم...»** الحديث. رواه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف. وفي رواية للترمذي الحكيم في النوادر: **«حتى إذا نزلوا بالمنزل الذي لا يبالون ما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم...»** الحديث. وللطبراني في الأوسط نحوه من حديث عائشة، وهو ضعيف أيضاً.

(٢) حديث: **«من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»** قيل: وما إخلاصها؟ قال: **«تحجزه عما حرم الله»** أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن.

أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ [المطففين: ١-٣]، ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ؛ إذ العدل الحقيقي قلما يتصور، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان، فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه. وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من الله بحبة، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة، وإذا أعطى زاد حبة، وكان يقول: ويل لمن باع بحبة جنة عرضها السمٰوات والأرض، وما أخسر من باع طوبى بويل. وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها؛ إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدي حقوقهم، ولذلك لما اشترى رسول الله ﷺ شيئاً قال للوزان لما كان يزن ثمنه: «زِنْ وَأَرْجِحْ»[1]، ونظر فضيل إلى ابنه وهو يغسل ديناراً يريد أن يصرفه ويزيل تكحيله وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال: يا بني فعلك هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة. وقال بعض السلف: عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو، يزن ويحلف بالنهار، وينام بالليل. وقال سليمان عليه السلام لابنه: يا بني كما تدخل الحبة بين الحجرين، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين. وصلى بعض الصالحين على مخنث، فقيل له: إنه كان فاسقاً، فسكت، فأعيد عليه فقال: كأنك قلت لي: كان صاحب ميزانين يعطي بأحدهما ويأخذ بالآخر، أشار به إلى أن فسقه مظلمة بينه وبين الله تعالى، وهذا من مظالم العباد، والمسامحة والعفو فيه أبعد، والتشديد في أمر الميزان عظيم، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة. وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه **﴿لاَ تَطْغَوا في الميزَانِ وأَقِيمُوا الوَزْنَ باللِّسانِ وَلاَ تُخسِرُوا المِيزَان﴾** أي لسان الميزان، فإن النقصان والرجحان يظهر بميله.

وبالجملة: كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كلمة ولا ينصف بمثل ما ينتصف، فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝﴾ [المطففين: ١، ٢] الآيات، فإن تحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكيلاً، بل لكونه أمراً مقصوداً ترك العدل والنصفة فيه، فهو جار في جميع الأعمال، فصاحب الميزان في خطر الويل، وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته، فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة، ولولا تعذر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝﴾ [مريم: ٧١]، فلا ينفك عبد ليس معصوماً عن الميل عن الاستقامة، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتاً عظيماً، فلذلك تتفاوت مدة مقامهم في النار إلى أوان الخلاص، حتى لا يبقى بعضهم إلا بقدر تحلة القسم، ويبقى بعضهم ألفاً وألوف سنين. فنسأل الله تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل، فإن الاشتداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه غير مطموع فيه، فإنه أدق من الشعرة وأحد من السيف، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار، الذي من صفته أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف، وبقدر الاستقامة على هذا الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على الصراط، وكل من خلط بالطعام تراباً أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظماً لم تجر العادة بمثله، فهو من المطففين في الوزن، وقس على هذا سائر التقديرات، حتى في الذرع الذي يتعاطاه البزاز، فإنه

(١) حديث: قال للوزان: «زن وأرجح» رواه أصحاب السنن، والحاكم من حديث سويد بن قيس. قال الترمذي: حسن صحيح وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمده مداً، وإذا باعه مده في الذرع ليظهر تفاوتاً في القدر، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل.

الرابع: أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفي منه شيئاً: فقد نهى رسول الله ﷺ عن تلقي الركبان[١] ونهى عن النجش[٢]. أما تلقي الركبان؛ فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد، فقد قال ﷺ: «**لاَ تَتَلَقَّوا الرُّكْبَانَ**» ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق، وهذا الشراء منعقد، ولكنه إن ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار، وإن كان صادقاً ففي الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبيس، ونهى أيضاً أن يبيع حاضر لباد[٣]؛ وهو أن يقدم البدوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه، فيقول له الحضري: اتركه عندي حتى أغالي في ثمنه وأنتظر ارتفاع سعره، وهذا في القوت محرم، وفي سائر السلع خلاف، والأظهر تحريمه لعموم النهي، ولأنه تأخير للتضييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولي المضيق، ونهى رسول الله ﷺ عن النجش؛ وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها، فهذا إن لم تجر مواطأة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منعقد، وإن جرى مواطأة ففي ثبوت الخيار خلاف، والأولى إثبات الخيار؛ لأنه تغرير بفعل يضاهي التغرير في المصراة وتلقي الركبان. فهذه المناهي تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ويكتم منه أمراً لو علمه لما أقدم على العقد، ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب.

فقد حكي عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر، فكتب إليه غلامه: إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة، فاشتر السكر، قال: فاشترى سكراً كثيراً، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفاً، فانصرف إلى منزله فأفكر ليلته وقال: ربحت ثلاثين ألفاً وخسرت نصح رجل من المسلمين، فلما أصبح غدا إلى بائع السكر فدفع إليه ثلاثين ألفاً وقال: بارك الله لك فيها، فقال: ومن أين صارت لي؟ فقال: إني كتمتك حقيقة الحال، وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت، فقال: رحمك الله قد أعلمتني الآن وقد طيبتها لك، قال: فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهراً وقال: ما نصحته، فلعله استحيا مني فتركها لي، فبكر إليه من الغد وقال: عافاك الله، خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبي، فأخذ منه ثلاثين ألفاً. فهذه الأخبار في المناهي والحكايات تدل على أنه ليس له أن يغتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفي من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار، فإن فعل ذلك كان ظالماً تاركاً للعدل والنصح للمسلمين، ومهما باع مرابحة بأن يقول: بعت بما قام علي أو بما اشتريته، فعليه أن يصدق، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان، ولو اشترى إلى أجل وجب ذكره، ولو اشترى مسامحة من صديقه أو ولده يجب ذكره؛ لأن المعامل يعوّل على عادته في الاستقصاء أنه لا يترك النظر لنفسه، فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره؛ إذ الاعتماد فيه على أمانته.

***

---

(١) حديث: «النهي عن تلقي الركبان». متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة.

(٢) حديث: «النهي عن النجش». متفق عليه من حديث ابن عمر وأبي هريرة.

(٣) حديث: «النهي عن بيع الحاضر للبادي». متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة وأنس.

الباب الرابع

في الإحسان في المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال. والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان، وقد قال الله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ونعني بالإحسان: فعل ما ينتفع به المعامل وهو غير واجب عليه، ولكنه تفضل منه، فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه، وتنال رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور:

الأول: في المغابنة: فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه؛ لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما، ولكن يراعي فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد إما لشدّة رغبته أو لشدّة حاجته في الحال إليه، فينبغي أن يمتنع من قبوله، فذلك من الإحسان. ومهما لم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلماً. وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار، ولسنا نرى ذلك، ولكن من الإحسان أن يحط ذلك الغبن. يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان: ضرب قيمة كل حلة منها أربعمائة، وضرب كل حلة قيمتها مائتان، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها، فاشتراها فمضى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلته، فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة، فقال: لا تساوي أكثر من مائتين فارجع حتى تردها، فقال: هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها، فقال له يونس: انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم، وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله وقال: أما استحييت، أما اتقيت الله، تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين، فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها، قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك، وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتلبيس، فهو من باب الظلم وقد سبق، وفي الحديث: «**غَبْنُ المُسْتَرْسِلِ حَرَامٌ**»[1] وكان الزبير بن عدي يقول: أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشتري لحماً بدرهم، فغبن مثل هؤلاء المسترسلين ظلم، إن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحسان، وقلّما يتم هذا إلا بنوع تلبيس وإخفاء سعر الوقت.

الباب الرابع

الإحسان في المعاملة

(١) حديث: «غبن المسترسل حرام» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف، والبيهقي من حديث جابر بسند جيد، وقال: «ربا» بدل «حرام».

وإنما الإحسان المحض ما نقل عن السري السقطي: أنه اشترى كرّ لوز بستين ديناراً وكتب في روزنامجه ثلاثة دنانير ربحه، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار، فصار اللوز بتسعين، فأتاه الدلال وطلب اللوز فقال: خذه. قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين، فقال الدلال وكان من الصالحين: فقد صار اللوز بتسعين، فقال السري: قد عقدت عقداً لا أحله، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين، فقال الدلال: وأنا عقدت بيني وبين الله أن لا أغش مسلماً، لست آخذ منك إلا بتسعين، قال: فلا الدلال اشترى منه، ولا السري باعه، فهذا محض الإحسان من الجانبين، فإنه مع العلم بحقيقة الحال.

وروي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة، فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة، فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده، فقال له: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة، فقال: يا هذا قد رضيت، فقال: وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك، فقال: أعطني خمسة، فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول: من هذا الشيخ؟ فقيل له: هذا محمد بن المنكدر، فقال: لا إله إلا الله، هذا الذي نستسقي به في البوادي إذا قحطنا. فهذا إحسان في أن لا يربح على العشرة إلا نصفاً أو واحداً على ما جرت به العادة في مثل ذلك المتاع في ذلك المكان، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها ربحاً كثيراً، وبه تظهر البركة.

كان علي رضي الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدرة ويقول: معاشر التجار: خذوا الحق تسلموا، لا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره.

قيل لعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: ما سبب يسارك؟ قال: ثلاث، ما رددت ربحاً قط، ولا طلب مني حيوان فأخرت بيعه، ولا بعت بنسيئة، ويقال: إنه باع ألف ناقة فما ربح إلا عقلها: باع كل عقال بدرهم فربح فيها ألفاً وربح من نفقته عليها ليومه ألفاً.

الثاني: في احتمال الغبن، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف أو شيئاً من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله عليه السلام: «**رَحِمَ الله امْرَأً سَهْلَ البَيْعِ سَهْلَ الشِّرَاءِ**»، فأما إذا اشترى من غني تاجر يطلب الربح زيادة على حاجته فاحتمال الغبن منه ليس محموداً، بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد، فقد ورد في حديث من طريق أهل البيت: «**المَغْبُونُ فِي الشِّرَاءِ لاَ مَحْمُودٌ وَلاَ مَأْجُورٌ**»[1]، وكان إياس بن معاوية بن قرة قاضي البصرة وكان من عقلاء التابعين يقول: لست بخب والخب لا يغبنني ولا يغبن ابن سيرين، ولكن يغبن الحسن ويغبن أبي - يعني معاوية بن قرة - والكمال في أن لا يغبن ولا يغبن، كما وصف بعضهم عمر رضي الله عنه فقال: كان أكرم من أن يخدع، وأعقل من أن يخدع. وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون في الشراء ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم: تستقصي في شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالي؟ فقال: إن الواهب يعطي فضله وإن المغبون يغبن عقله. وقال بعضهم: إنما أغبن عقلي وبصري فلا أمكن الغابن منه، وإذا وهبت أعطي لله ولا أستكثر منه شيئاً.

---

(١) حديث: «**المغبون في الشراء لا محمود ولا مأجور**» أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من رواية عبيدالله بن الحسن عن أبيه عن جده، ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن علي يرفعه. قال الذهبي: هو منكر.

الثالث: في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه: مرة بالمسامحة وحط البعض، ومرة بالإمهال والتأخير، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد، وكل ذلك مندوب إليه ومحثوث عليه: قال النبي ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَهْلَ البَيْعِ، سَهْلَ الشِّرَاءِ، سَهْلَ الاقْتِضَاءِ**»[(١)]، فليغتنم دعاء الرسول ﷺ وقال ﷺ: «**اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ تَرَكَ لَهُ حَاسَبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيراً**». وفي لفظ آخر: «**أَظَلَّهُ اللهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ**»[(٣)]. «وذكر رسول الله ﷺ رجلاً كان مسرفاً على نفسه، حوسب فلم يوجد له حسنة، فقيل له: هل عملت خيراً قط؟ فقال: لا، إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتياني: سامحوا الموسر وأنظروا المعسر[(٤)]. وفي لفظ آخر: وتجاوزوا عن المعسر، فقال الله تعالى: نحن أحق بذلك منه، فتجاوز الله عنه وغفر له» وقال ﷺ: «**مَنْ أَقْرَضَ دِينَاراً إِلَىٰ أَجَلٍ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ إِلَىٰ أَجَلِهِ، فَإِذَا حَلَّ الأَجَلُ فَأَنْظَرَهُ بَعْدَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ ذٰلِكَ الدَّيْنِ صَدَقَةٌ**»[(٥)]، وقد كان من السلف من لا يحب أن يقضي غريمه الدين لأجل هذا الخبر، حتى يكون كالمتصدق بجميعه في كل يوم، وقال ﷺ: «**رَأَيْتُ عَلَىٰ بَابِ الجَنَّةِ مَكْتُوباً: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالقَرْضُ بِثَمَانِ عَشَرَةَ**»[(٦)] فقيل في معناه: إن الصدقة تقع في يد المحتاج وغير المحتاج، ولا يحتمل ذل الاستقراض إلا محتاج. ونظر النبي ﷺ إلى رجل يلازم رجلاً بدين، فأومأ إلى صاحب الدين بيده أن ضع الشطر ففعل، فقال للمديون: «**قُمْ فَأَعْطِهِ**»[(٧)].

وكل من باع شيئاً وترك ثمنه في الحال ولم يرهق إلى طلبه فهو في معنى المقرض.

وروي أن الحسن البصري باع بغلة له بأربعمائة درهم، فلما استوجب المال قال له المشتري: اسمح يا أبا سعيد. قال: قد أسقطت عنك مائة، قال له: فأحسن يا أبا سعيد، فقال: قد وهبت لك مائة أخرى، فقبض من حقه مائتي درهم. فقيل له: يا أبا سعيد، هذا نصف الثمن، فقال: هكذا يكون الإحسان وإلا فلا.

وفي الخبر: «**خذ حقك في كفاف وعفاف وافٍ أو غير وافٍ، يحاسبك الله حساباً يسيراً**»[(٨)].

---

(١) حديث: «**رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء**» تقدم في الباب قبله.

(٢) حديث: «**اسمح يسمح لك**» أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس ورجاله ثقات.

(٣) حديث: «**من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً**» وفي لفظ آخر: «**أظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله**» رواه مسلم باللفظ الثاني من حديث أبي اليسر كعب بن عمرو.

(٤) حديث: «ذكر رجلاً كان مسرفاً على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة، فقيل له: هل عملت خيراً قط، فقال: لا، إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتياني: سامحوا الموسر...» الحديث. رواه مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري، وهو متفق عليه بنحوه من حديث حذيفة.

(٥) حديث: «**من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله. فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة**» أخرجه ابن ماجه من حديث بريدة: «**من أنظر معسراً كان له كل يوم صدقة، ومن أنظره بعد أجله كان له مثله في كل يوم صدقة**» وسنده ضعيف، ورواه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٦) حديث: «**رأيت على باب الجنة مكتوباً: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمان عشرة**» أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٧) حديث: «**أومأ إلى صاحب الدين بيده ضع الشطر...**» الحديث. متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

(٨) حديث: «**خذ حقك في عفاف...**» الحديث. أخرجه ابن ماجة من حديث أبي هريرة بإسناد حسن دون قوله: «**يحاسبك الله حساباً يسيراً**» وله ولابن حبان والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر وعائشة.

الرابع: في توفية الدين: ومن الإحسان فيه حسن القضاء، وذلك بأن يمشي إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشي إليه يتقاضاه، فقد قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً**»(١)، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته، وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن، وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر. قال ﷺ: «**مَنِ ادَّانَ دَيْناً وَهُوَ يَنْوِي قَضَاءَهُ وَكَّلَ الله بِهِ مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَهُ وَيَدْعُونَ لَهُ حَتَّىٰ يَقْضِيهِ**»(٢)، وكان جماعة من السلف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر، ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله باللطف، اقتداء برسول الله ﷺ إذ جاءه صاحب الدين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاؤه، فجعل الرجل يشدّد الكلام على رسول الله ﷺ فهمّ به أصحابه فقال: «**دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً**»(٣) ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض، فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للمتوسطين إلى من عليه الدين، فإنَّ المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة، وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر؛ فإن البائع راغب عن السلعة يبغي ترويجها، والمشتري محتاج إليها، هذا هو الأحسن، إلا أن يتعدّى من عليه الدين حده، فعند ذلك نصرته في منعه عن تعدّيه وإعانة صاحبه؛ إذ قال ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً**»، فقيل: كيف ننصره ظالماً؟ فقال: «**مَنْعُكَ إِيَّاهُ مِنَ الظُّلْمِ نُصْرَةٌ لَهُ**»(٤).

الخامس: أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متندم مستضر بالبيع، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه، قال ﷺ: «**مَنْ أَقَالَ نَادِماً صَفْقَتَهُ أَقَالَ الله عَثْرَتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٥) أو كما قال.

السادس: أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة، فقد كان في صالحي السلف من له دفتران للحساب: أحدهما ترجمته مجهولة، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول: أحتاج إلى خمسة أرطال مثلاً من هذا وليس معي ثمنه، فكان يقول: خذه واقض ثمنه عند الميسرة ولم يكن يعدّ هذا من الخيار، بل عدّ من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلاً ولا يجعله ديناً، لكن يقول: خذ ما تريد، فإن يسر لك فاقض، وإلا فأنت في حل منه وسعة، فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست، والقائم به محي لهذه السنة.

وبالجملة: التجارة محك الرجال، وبها يمتحن دين الرجل وورعه، ولذلك قيل:

لا يغرنك من المرء قميص رقعه

---

(١) حديث: «خيركم أحسنكم قضاء» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «من ادان ديناً وهو ينوي قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه» أخرجه أحمد من حديث عائشة: «ما من عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان معه من الله عون وحافظ» وفي رواية له: «لم يزل معه من الله حارس» وفي رواية للطبراني في الأوسط: «إلاّ كان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه».

(٣) حديث: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

(٥) حديث: «من أقال نادماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة» أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم.

أو إزار فـوق كـعـب الـسـاق مـنـه رفـعـه
أو جـبـيـن لاح فـيـه أثـر قـد قـلـعـه
ولـدى الـدرهـم فـانـظـر غـيـه أو ورعـه

ولذلك قيل: إذا أثنى على الرجل جيرانه في الحضر وأصحابه في السفر ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في صلاحه.

وشهد عند عمر رضي الله عنه شاهد فقال: ائتني بمن يعرفك. فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً، فقال له عمر: أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، فقال: كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ فقال: لا، قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل؟ قال: لا، قال: أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن، يخفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى، قال: نعم، فقال: اذهب فلست تعرفه. وقال للرجل: اذهب فائتني بمن يعرفك.

* * *

الباب الخامس

في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، فيكون عمره ضائعاً وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا، فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه يحفظ رأس ماله، ورأس ماله دينه وتجارته فيه. قال بعض السلف: أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه في العاجل. وأحوج شيء إليه في العاجل أحمده عاقبة في الآجل. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه في وصيته: إنه لا بدّ لك من نصيبك في الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فابدأ بنصيبك من الآخرة، فخذه فإنك ستمرّ على نصيبك من الدنيا فتنظمه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] أي لا تنس في الدنيا نصيبك منها للآخرة، فإنها مزرعة الآخرة، وفيها تكتسب الحسنات.

وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور:

الأول: حسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة: فلينو بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم، واستعانة بما يكسبه على الدين، وقياماً بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به، ولينو النصح للمسلمين، وأن يحب لسائر الخلق ما يحب لنفسه، ولينو اتباع طريق العدل والإحسان في معاملته كما ذكرناه، ولينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق، فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملاً في طريق الآخرة، فإن استفاد مالاً فهو مزيد، وإن خسر في الدنيا ربح في الآخرة.

الثاني: أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق. فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل، ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا، وعلى هذا حمل بعض الناس

قوله ﷺ: «اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ»[1] أي اختلاف هممهم في الصناعات والحرف. ومن الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب النعم والتزين في الدنيا، فليشتغل بصناعة مهمة ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً في الدين، وليجتنب صناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص وجميع ما تزخرف به الدنيا، فكل ذلك كرهه ذوو الدين، فأما عمل الملاهي والآلات التي يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم، ومن جملة ذلك خياطة الخياط القباء من الإبريسم للرجال، وصياغة الصائغ مراكب الذهب أو خواتيم الذهب للرجال، فكل ذلك من المعاصي، والأجرة المأخوذة عليه حرام، ولذلك أوجبنا الزكاة فيها وإن كنا لا نوجب الزكاة في الحلي، لأنها إذا قصدت للرجال فهي محرّمة، وكونها مهيأة للنساء لا يلحقها بالحلي المباح، ما لم يقصد ذلك بها فيكتسب حكمها من القصد. وقد ذكرنا أن بيع الطعام وبيع الأكفان مكروه، لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بغلاء السعر، ويكره أن يكون جزاراً، لما فيه من قساوة القلب، وأن يكون حجاماً أو كناساً لما فيه من مخامرة النجاسة، وكذا الدباغ وما في معناه، وكره ابن سيرين الدلالة، وكره قتادة أجرة الدلال، ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال عن الكذب والإفراط في الثناء على السلعة لترويجها، ولأن العمل فيه لا يتقدر فقد يقل وقد يكثر، ولا ينظر في مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب، هذا هو العادة وهو ظلم، بل ينبغي أن ينظر إلى قدر التعب، وكرهوا شراء الحيوان للتجارة، لأنّ المشتري يكره قضاء الله فيه وهو الموت الذي بصدده لا محالة وحلوله. وقيل: بع الحيوان واشتر الموتان، وكرهوا الصرف؛ لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير، ولأنه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها وإنما يقصد رواجها، وقلما يتم للصيرفي ربح إلا باعتماد جهالة معامله بدقائق النقد، فقلما يسلم الصيرفي وإن احتاط، ويكره للصيرفي وغيره كسر الصحيح والدنانير إلا عند الشك في جودته أو عند ضرورة. قال أحمد بن حنبل رحمه الله: ورد نهي عن رسول الله ﷺ[2]، وعن أصحابه في الصياغة من الصحاح، وأنا أكره الكسر، وقال: يشتري بالدنانير دراهم ثم يشتري بالدراهم ذهباً ويصوغه، واستحبوا تجارة البز. قال سعيد بن المسيب: ما من تجارة أحب إليّ من البز، ما لم يكن فيها أيمان. وقد روي: **«خَيْرُ تِجَارَتِكُمْ البَزُّ وَخَيرُ صِنَاعَتِكُمْ الخَرْزُ»**[3] وفي حديث آخر: **«لو اتجر أهل الجنة لاتجروا في البز، ولو اتجر أهل النار لاتجروا في الصرف»**[4] وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع: الخرز، والتجارة، والحمل، والخياطة، والحذو، والقصارة، وعمل الخفاف وعمل الحديد، وعمل المغازل،

الباب الخامس: في شفقة التاجر على دينه

(١) حديث: «**اختلاف أمتي رحمة**» تقدم في العلم.

(٢) حديث: «النهي عن كسر الدينار والدرهم» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة بن عبدالله عن أبيه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس». زاد الحاكم: «أن يكسر الدرهم فيجعل فضة، ويكسر الدينار فيجعل ذهباً». وضعفه ابن حبان.

(٣) حديث: «**خير تجارتكم البز، وخير صنائعكم الخرز**» لم أقف له على إسناد، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب.

(٤) حديث: «**لو اتجر أهل الجنة لاتجروا في البز، ولو اتجر أهل النار لاتجروا في الصرف**» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف. وروى أبو يعلى والعقيلي في الضعفاء الشطر الأول من حديث أبي بكر الصديق.

ومعالجة صيد البر والبحر، والوراقة، قال عبدالوهاب الوراق: قال لي أحمد بن حنبل: ما صنعتك؟ قلت: الوراقة. قال: كسب طيب، ولو كنت صانعاً بيدي لصنعت صنعتك، ثم قال لي: لا تكتب إلا مواسطة، واستبق الحواشي وظهور الأجزاء. وأربعة من الصناع موسومون عند الناس بضعف الرأي: الحاكة، والقطانون، والمغازليون، والمعلمون. ولعل ذلك لأن أكثر مخالطتهم مع النساء والصبيان، ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل، كما أن مخالطة العقلاء تزيد في العقل. وعن مجاهد: أن مريم عليها السلام مرّت في طلبها لعيسى عليه السلام بحاكة، فطلبت الطريق فأرشدوها غير الطريق، فقالت: اللهم انزع البركة من كسبهم، وأمتهم فقراء، وحقرهم في أعين الناس، فاستجيب دعاؤها. وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات كغسل الموتى ودفنهم، وكذا الأذان وصلاة التراويح، وإن حكم بصحة الاستئجار عليه، وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع، فإنّ هذه أعمال حقها أن يتجر فيها للآخرة، وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة ولا يستحب ذلك.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة؛ وأسواق الآخرة المساجد، قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النُّور: ٣٧] وقال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النُّور: ٣٦] فينبغي أن يجعل أوّل النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته فيلازم المسجد ويواظب على الأوراد. كان عمر رضي الله عنه يقول للتجار: اجعلوا أوّل نهاركم لآخرتكم وما بعده لدنياكم. وكان صالحو السلف يجعلون أوّل النهار وآخره للآخرة والوسط للتجارة، ولم يكن يبيع الهريسة والرؤوس بكرة إلا الصبيان وأهل الذمة، لأنهم كانوا في المساجد بعد. وفي الخبر: «**إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفيها في أوّل النهار وفي آخره ذكر الله وخير، كفر الله عنهما ما بينهما من سيّء الأعمال**»[1] وفي الخبر: «**تلتقي ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وجئناهم وهم يصلون؛ فيقول الله سبحانه وتعالى: أشهدكم أني قد غفرت لهم**»[2]، ثم مهما سمع الأذان في وسط النهار للأولى والعصر، فينبغي أن لا يعرج على شغل، وينزعج عن مكانه، ويدع كل ما كان فيه، فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام في أوّل الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها، ومهما لم يحضر الجماعة عصى عند بعض العلماء. وقد كان السلف يبتدرون عند الأذان ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة. وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت في أوقات الصلوات، وكان ذلك معيشة لهم، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٣٧] أنهم كانوا حدادين وخرازين؛ فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشفى فسمع الأذان لم يخرج الإشفى من المغرز ولم يوقع المطرقة ورمى بها وقام إلى الصلاة.

الرابع: أن لا يقتصر على هذا، بل يلازم ذكر الله سبحانه في السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح، فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل. قال ﷺ: «**ذَاكِرُ الله فِي الغَافِلِينَ كَالمُقَاتِلِ خَلْفَ الفَارِّينَ،**

---

(١) حديث: «**إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد في أول النهار وآخره ذكر وخير كفّر الله ما بينهما من سيىء الأعمال**» أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بمعناه.

(٢) حديث: «**تلتقي ملائكة الليل وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر، فيقول الله وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الغداة وصلاة العصر....**» الحديث.

وَكَالْحَيِّ بَيْنَ الأَمْوَاتِ». وفي لفظ آخر: «كَالشَّجَرَةِ الخَضْرَاءِ بَيْنَ الهَشِيمِ» وقال ﷺ: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ الله لَه أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ»[(١)] وكان ابن عمر وسالم بن عبدالله ومحمد بن واسع وغيرهم يدخلون السوق قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر. وقال الحسن: ذاكر الله في السوق يجيء يوم القيامة له ضوء كضوء القمر، وبرهان كبرهان الشمس. ومن استغفر الله في السوق غفر الله له بعدد أهلها. وكان عمر رضي الله عنه إذا دخل السوق قال: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفسوق، ومن شر ما أحاطت به السوق، اللهم إني أعوذ بك من يمين فاجرة، وصفقة خاسرة. وقال أبو جعفر الفرغاني: كنا يوماً عند الجنيد، فجرى ذكر ناس يجلسون في المساجد ويتشبهون بالصوفية ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ويعيبون من يدخل السوق، فقال الجنيد: كم ممن هو في السوق حكمه أن يدخل المسجد؟ ويأخذ بإذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه، وإني لأعرف رجلاً يدخل السوق ورده كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة. قال: فسبق إلى وهمي أنه يعني نفسه، فهكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لا للتنعم في الدنيا، فإنّ من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربح الآخرة، والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد، وإنما النجاة بالتقوى. قال ﷺ: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ»[(٢)] فوظيفة التقوى لا تنقطع عن المتجرّدين للدّين كيفما تقلبت بهم الأحوال، وبه تكون حياتهم وعيشتهم؛ إذ فيه يرون تجارتهم وربحهم. وقد قيل: من أحب الآخرة عاش، ومن أحب الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوب نفسه فتاش.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج، وبأن يركب البحر في التجارة؛ فهما مكروهان، يقال: إنّ من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق. وفي الخبر: «لاَ يُرْكَبُ البَحْرُ إلاَّ لَحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ أَوْ غَزْوٍ»[(٣)] وكان عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: لا تكن أوّل داخل في السوق ولا آخر خارج منها، فإنّ بها باض الشيطان وفرّخ. روي عن معاذ بن جبل وعبدالله بن عمر: أن إبليس يقول لولده زلنبور: سر بكتائبك فأت أصحاب الأسواق، زين لهم الكذب والحلف والخديعة والمكر والخيانة، وكن مع أوّل داخل وآخر خارج منها. وفي الخبر: «شَرُّ البِقَاعِ الأَسْوَاقُ، وَشَرُّ أَهْلِهَا أَوَّلُهُمْ دُخُولاً وَآخِرُهُمْ خُرُوجاً»[(٤)] وتمام هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته، فإذا حصل كفاية وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة، هكذا كان صالحو السلف، فقد كان منهم من إذا ربح دانقاً انصرف قناعة به. وكان حماد بن سلمة يبيع الخز في سفط بين يديه، فكان إذا ربح حبتين رفع سفطه وانصرف. وقال إبراهيم بن بشار: قلت لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: أمر اليوم أعمل في الطين فقال: يا ابن بشار، إنك طالب ومطلوب، يطلبك من

---

(١) حديث: «من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له...» الحديث. تقدم في الأذكار.

(٢) حديث: «اتق الله حيثما كنت» أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه.

(٣) حديث: «لا تركب البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزو» أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو، وقيل: إنه منقطع.

(٤) حديث: «شر البقاع الأسواق، وشر أهلها أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً» تقدم صدر الحديث في الباب السادس من العلم. وروى أبو نعيم في كتاب حرمة المساجد من حديث ابن عباس: «أبغض البقاع إلى الله الأسواق وأبغض أهلها إلى الله أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً».

لا تفوته وتطلب ما قد كفيته، أما رأيت حريصاً محروماً وضعيفاً مرزوقاً؟ فقلت: إن لي دانقاً عند البقال، فقال: عز عليّ بك، تملك دانقاً وتطلب العمل؟ وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر، ومنهم بعد العصر، ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوماً أو يومين وكانوا يكتفون به.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتقي مواقع الشبهات ومظان الريب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتي قلبه، فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه، وإذا حمل إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا أكل الشبهة، وقد حمل إلى رسول الله ﷺ لبن، فقال: «**مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هٰذَا؟**» فقالوا: من الشاة، فقال: «**وَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ هٰذِهِ الشَّاةُ؟**» فقيل: من موضع كذا، فشرب منه ثم قال: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ لاَ نَأْكُلَ إِلاَّ طَيِّباً وَلاَ نَعْمَلَ إِلاَّ صَالِحاً**»[1] وقال: «**إِنَّ الله تَعَالَىٰ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾** [البَقَرَة: ١٧٢]»[2]. فسأل النبي ﷺ عن أصل الشيء وأصل أصله ولم يزد، لأن ما وراء ذلك يتعذر. وسنبين في كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال «فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن كل ما يحمل إليه»[3]، وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله؛ فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله، وكذا الأجناد والظلمة لا يعاملهم البتة ولا يعامل أصحابهم وأعوانهم، لأنه معين بذلك على الظلم.

وحكي عن رجل أنه تولى عمارة سور لثغر من الثغور. قال: فوقع في نفسي من ذلك شيء، وإن كان ذلك العمل من الخيرات بل من فرائض الإسلام، ولكن كان الأمير الذي تولى في محلته من الظلمة. قال: فسألت سفيان رضي الله عنه فقال: لا تكن عوناً لهم على قليل ولا كثير. فقلت: هذا سور في سبيل الله للمسلمين فقال: نعم، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحب بقاءهم ليوفوك أجرك؛ فتكون قد أحببت بقاء من يعصي الله. وقد جاء في الخبر: «**مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى الله فِي أَرْضِهِ**»[4]، وفي الحديث: «**إِنَّ الله لَيَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الفَاسِقُ**»[5]، وفي حديث آخر: «**مَنْ أَكْرَمَ فَاسِقاً فَقَدْ أَعَانَ عَلَىٰ هَدْمِ الإِسْلاَمِ**»[6]، ودخل سفيان على المهدي وبيده درج أبيض، فقال: يا سفيان أعطني

---

(١) حديث: سؤاله عن اللبن والشاة، وقوله: «**إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً**» رواه الطبراني من حديث أم عبدالله أخت شداد بن أوس بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «**كان لا يسأل عن كل ما يحمل إليه**». رواه أحمد من حديث جابر: «**أن رسول الله ﷺ وأصحابه مروا بامرأة فذبحت لهم شاة....**» الحديث. فأخذ رسول الله ﷺ لقمة فلم يستطع أن يسيغها، فقال: «**هذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها....**» الحديث. وله من حديث أبي هريرة: «كان إذا أتي بطعام من غير أهله سأل عنه...» الحديث. وإسنادهما جيد. وفي هذا أنه كان لا يسأل عما أتي به من عند أهله، والله أعلم.

(٤) حديث: «**من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه**» لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت من قول الحسن، وقد ذكره المصنف هكذا على الصواب في آفات اللسان.

(٥) حديث: «**إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق**» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وابن عدي في الكامل، وأبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف.

(٦) حديث: «**من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام**» غريب بهذا اللفظ، والمعروف: «**من وقر صاحب بدعة...**» الحديث. رواه ابن عدي من حديث عائشة، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية من حديث عبدالله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزي: كلها موضوعة.

الدواة حتى أكتب، فقال: أخبرني أي شيء تكتب، فإن كان حقاً أعطيتك. وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبوسين عنده أن يناوله طيناً ليختم به الكتاب، فقال: ناولني الكتاب أولاً حتى أنظر ما فيه، فهكذا كانوا يحترزون عن معاونة الظلمة ومعاملتهم أشدّ أنواع الإعانة، فينبغي أن يجتنبها ذوو الدين ما وجدوا إليه سبيلاً.

وبالجملة: فينبغي أن ينقسم الناس عنده إلى من يعامَل ومن لا يعامَل، وليكن من يعامله أقل ممن لا يعامله في هذا الزمان. قال بعضهم: أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول: من ترون لي أن أعامل من الناس فيقال له: عامل من شئت. ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون: عامل من شئت إلا فلاناً وفلاناً، ثم أتى زمان آخر فكان يقال: لا تعامل أحداً إلا فلاناً وفلاناً، وأخشى أن يأتي زمان يذهب هذا أيضاً. وكأنه قد كان الذي كان يحذر أن يكون، إنا لله وإنا إليه راجعون.

السابع: ينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته مع واحد من معامليه، فإنه مراقب ومحاسب، فليعدّ الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة إنه لم أقدم عليها؟ ولأجل ماذا؟ فإنه يقال: إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفة، ويحاسب عن كل واحد فهو محاسب على عدد من عامله. قال بعضهم: رأيت بعض التجار في النوم، فقلت: ماذا فعل الله بك؟ فقال: نشر عليَّ خمسين ألف صحيفة، فقلت: هذه كلها ذنوب، فقال: هذه معاملات الناس بعدد كل إنسان عاملته في الدنيا، لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته إلى آخرها، فهذا ما على المكتسب في عمله من العدل والإحسان والشفقة على الدين، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقرّبين، وإن راعى مع ذلك وظائف الدين كما ذكر في الباب الخامس كان من الصّديقين، والله أعلم بالصواب.

تم كتاب الكسب والمعيشة بحمد الله ومنّه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي خلق الإنسان من طين لازب وصلصال، ثم ركب صورته في أحسن تقويم وأتم اعتدال، ثم غذاه في أوّل نشؤه بلبن استصفاه من بين فرث ودم سائغاً كالماء الزلال، ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعي الضعف والانحلال، ثم قيد شهوته المعادية له عن السطوة والصيال، وقهرها بما افترضه عليه من طلب القوت الحلال، وهزم بكسرها جند الشيطان المتشمر للإضلال، ولقد كان يجري من ابن آدم مجرى الدم السيال، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والمجال؛ إذ كان لا يبذرقه إلى أعماق العروق إلا الشهوة المائلة إلى الغلبة والاسترسال؛ فبقي لما زمت بزمام الحلال، خائباً خاسراً ما له من ناصر ولا وال. والصلاة على محمد الهادي من الضلال وعلى آله خير آل، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد قال ﷺ: «طَلَبُ الحَلَالِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ»[1]، رواه ابن مسعود رضي الله عنه، وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض: أعصاها على العقول فهماً، وأثقلها على الجوارح فعلاً، ولذلك اندرس بالكلية علماً وعملاً، وصار غموض علمه سبباً لاندراس عمله؛ إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود، وأن السبيل دون الوصال إليه مسدود، وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات، والحشيش النابت في الموات، وما عداه فقد أخبثته الأيدي العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة، وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات، لم يبق وجه سوى الاتساع في المحرمات؛ فرفضوا هذا القطب من الدين أصلاً، ولم يدركوا بين الأموال فرقاً وفصلاً، وهيهات هيهات، فالحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات، ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات.

ولما كانت هذه بدعة عم في الدين ضررها، واستطار في الخلق شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة، على وجه التحقيق والبيان، ولا يخرجه التضييق عن حيز الإمكان.

ونحن نوضح ذلك في سبعة أبواب:

كتاب الحلال والحرام

(١) حديث ابن مسعود: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم» تقدم في الزكاة دون قوله: «على كل مسلم» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس: «واجب على كل مسلم» وإسناده ضعيف.

الباب الأول: في فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام.

الباب الثاني: في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام.

الباب الثالث: في البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها في الحلال والحرام.

الباب الرابع: في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية.

الباب الخامس: في إدرارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم.

الباب السادس: في الدخول على السلاطين ومخالطتهم.

الباب السابع: في مسائل متفرّقة.

* * *

الباب الأول

في فضيلة الحلال ومذمة الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام:

قال الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل. وقيل: إن المراد به الحلال. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] الآية. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] جعل آكل الربا أول الأمر مؤذناً بمحاربة الله، وفي آخره متعرضاً للنار، والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى. وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«طَلَبُ الحَلاَلِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ»** ولما قال ﷺ: **«طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ»**[1]. قال بعض العلماء: أراد به طلب علم الحلالّ والحرام، وجعل المراد بالحديثين واحداً.

وقال ﷺ: **«مَنْ سَعَىٰ عَلَىٰ عِيَالِهِ مِن حِلِّهِ فَهُوَ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلاَلاً فِي**

(١) حديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» تقدم في العلم.

عَفَافٍ كَانَ فِي دَرَجَةِ الشُّهَدَاءِ»[(١)]، وقال ﷺ: «مَنْ أَكَلَ الحَلاَلَ أَرْبَعِينَ يَوْماً نَوَّرَ الله قَلْبَهُ وَأَجْرَىٰ يَنَابِيعَ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ»[(٢)]. وفي رواية: «زَهَّدَهُ الله فِي الدُّنْيَا» وروي أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة، فقال له: «أَطِبْ طُعْمَتَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ»[(٣)]. ولما ذكر ﷺ الحريص على الدنيا قال: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مُشَرَّدٍ فِي الأَسْفَارِ مَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالحَرَامِ، يَرْفَعُ يَدَيْهِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذٰلِكَ»[(٤)]. وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «إِنَّ للهِ مَلَكاً عَلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ يُنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ: مَنْ أَكَلَ حَرَاماً لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ»[(٥)]. فقيل: الصرف النافلة، والعدل الفريضة. وقال ﷺ: «مَنِ اشْتَرَىٰ ثَوْباً بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ وَفِي ثَمَنِهِ دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ الله صَلاَتَهُ مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ»[(٦)]. وقال ﷺ: «كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ حَرَامٍ فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ»[(٧)]. وقال ﷺ: «مَنْ لَمْ يُبَالِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَ المَالَ لَمْ يُبَالِ الله مِنْ أَيْنَ أَدْخَلَهُ النَّارَ»[(٨)]. وقال ﷺ: «العِبَادَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ: تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي طَلَبِ الحَلاَلِ»[(٩)] روي هذا مرفوعاً وموقوفاً على بعض الصحابة أيضاً. وقال ﷺ: «مَنْ أَمْسَىٰ وَانِياً مِنْ طَلَبِ الحَلاَلِ بَاتَ مَغْفُوراً لَهُ وَأَصْبَحَ وَالله عَنْهُ رَاضٍ»[(١٠)].

---

(١) حديث: «من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله، ومن طلب الدنيا في عفاف كان في درجة الشهداء» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: «من سعى على عياله ففي سبيل الله» ولأبي منصور في مسند الفردوس: «من طلب مكسبة من باب حلال يكف بها وجهه عن مسألة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين» وإسنادهما ضعيف.

(٢) حديث: «من أكل الحلال أربعين يوماً نوّر الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب: «من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» ولابن عدي نحوه من حديث أبي موسى، وقال: حديث منكر.

(٣) حديث: أن سعداً سأل النبي ﷺ أن يسأل الله أن يجعله مجاب الدعوة، فقال له: «أطب طعمتك تستجب دعوتك» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه. وسعد هو ابن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) حديث: «رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر...» الحديث.

(٥) حديث ابن عباس: «إن لله ملكاً على بيت المقدس ينادي كل ليلة: من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل» لم أقف له على أصل، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود: «من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة...» الحديث. وهو منكر.

(٦) حديث: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شيء» رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٧) حديث: «كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به» أخرجه الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه، وقد تقدم.

(٨) حديث: «من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر. قال ابن العربي في عارضة الأحوذي شرح الترمذي: إنه باطل لم يصح ولا يصح.

(٩) حديث: «العبادة عشرة أجزاء، فتسعة منها في طلب الحلال» رواه أبو منصور الديلمي من حديث أنس، إلا أنه قال: «تسعة منها في الصمت والعاشرة كسب اليد من الحلال» وهو منكر.

(١٠) حديث: «من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس: «من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له» وفيه ضعف.

وقال ﷺ: «**مَنْ أَصَابَ مَالاً مِنْ مَأْثَم فَوَصَلَ بِهِ رَحِماً أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ أَوْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله جَمَعَ الله ذٰلِكَ جَمِيعاً ثُمَّ قَذَفَهُ فِي النَّارِ**»(١) وقال عليه السلام: «**خَيْرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ**»(٢). وقال ﷺ: «**مَنْ لَقِيَ الله وَرِعاً أَعْطَاهُ الله ثَوَابَ الإِسْلَامِ كُلَّهُ**»(٣). ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه: وأما الورعون فأنا أستحي أن أحاسبهم. وقال ﷺ: «**دِرْهَمٌ مِنْ رِباً أَشَدُّ عِنْدَ الله مِنْ ثَلَاثِينَ زَنْيَةً فِي الإِسْلَامِ**»(٤). وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا سقمت صدرت بالسقم**»(٥). ومثل الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان، فإذا ثبت الأساس وقوي استقام البنيان وارتفع، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٩] الآية، وفي الحديث: «**مَنِ اكْتَسَبَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ فَإِنْ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَإِنْ تَرَكَهُ وَرَاءَهُ كَانَ زَادَهُ إِلَىٰ النَّارِ**»(٦). وقد ذكرنا جملة من الأخبار في كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال.

وأما الآثار: فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده ثم سأل عبده، فقال: تكهنت لقوم فأعطوني، فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء(٧). وفي بعض الأخبار أنه ﷺ أخبر بذلك فقال: «**أَوَ عَلِمْتُمْ أَنَّ الصِّدِّيقَ لاَ يُدْخِلُ جَوْفَهُ إِلاَّ طَيِّباً**». وكذلك شرب عمر رضي الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطاً، فأدخل أصبعه وتقيأ. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة، هو الورع. وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنه: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل

---

(١) حديث: «**من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً، ثم قذفه في النار**» رواه أبو داود في المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة مرسلاً.

(٢) حديث: «**خير دينكم الورع**» تقدم في العلم.

(٣) حديث: «**من لقي الله ورعاً أعطاه ثواب الإسلام كله**» لم أقف له على أصل.

(٤) حديث: «**درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية في الإسلام**» رواه أحمد والدارقطني من حديث عبدالله بن حنظلة وقال: «**ستة وثلاثين**» ورجاله ثقات، وقيل: عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعاً، وللطبراني في الصغير من حديث ابن عباس «**ثلاث وثلاثين**» وسنده ضعيف.

(٥) حديث أبي هريرة: «**المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة...**» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط، والعقيلي في الضعفاء وقال: باطل ولا أصل له.

(٦) حديث: «**من اكتسب مالاً من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار**» رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، ولابن حبان من حديث أبي هريرة: «**من جمع مالاً من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه**».

(٧) حديث: إن أبا بكر شرب لبناً من كسب عبده ثم سأله فقال: تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصبعه في فيه وجعل يقيء، وفي بعض الأخبار أنه ﷺ لما أخبر بذلك قال: «**أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيباً**» رواه البخاري من حديث عائشة: «كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية». فذكره، دون المرفوع منه، فلم أجده.

ما يدخل جوفه. وقال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كتبه الله صديقاً، فانظر عند من تفطر يا مسكين. وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: لم لا تشرب من ماء زمزم؟ فقال: لو كان لي دلو شربت منه. وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول والثوب النجس لا يطهره إلا الماء، والذنب لا يكفره إلا الحلال. وقال يحيى بن معاذ: الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء، وأسنانه لقم الحلال. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يقبل الله صلاة امرىء في جوفه حرام، وقال سهل التستري: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي من الظاهر والباطن، والصبر على ذلك إلى الموت. وقال: من أحب أن يكاشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة. ويقال: من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وقال ابن المبارك: رد درهم من شبهة أحب إليّ من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف، حتى بلغ إلى ستمائة ألف. وقال بعض السلف: إن العبد يأكل أكلة فيتقلب قلبه، فينغل كما ينغل الأديم ولا يعود إلى حاله أبداً. وقال سهل رضي الله عنه: من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات، وقال بعض السلف: إن أوّل لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر.

وروي في آثار السلف: أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء: تفقدوا منه ثلاثاً، فإن كان معتقداً لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سيّئ الطعمة فعن الهوى ينطق، فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه. وفي الأخبار المشهورة عن علي عليه السلام وغيره: إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب. وزاد آخرون: وشبهتها عتاب. وروي أنّ بعض الصالحين دفع طعاماً إلى بعض الأبدال فلم يأكل، فسأله عن ذلك فقال: نحن لا نأكل إلا حلالاً، فلذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالنا ونكاشف الملكوت ونشاهد الآخرة، ولو أكلنا مما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء من علم اليقين، ولذهب الخوف والمشاهدة من قلوبنا، فقال له الرجل: فإني أصوم الدهر وأختم القرآن في كل شهر ثلاثين مرة، فقال له البدل: هذه الشربة التي رأيتني شربتها من الليل أحب إليّ من ثلاثين ختمة في ثلاثمائة ركعة من أعمالك، وكانت شربته من لبن ظبية وحشية. وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة، فهجره أحمد إذ سمعه يقول: إني لا أسأل أحداً شيئاً، ولو أعطاني الشيطان شيئاً لأكلته، حتى اعتذر يحيى وقال: كنت أمزح، فقال: تمزح بالدين، أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]. وفي الخبر: أنه مكتوب في التوراة: «من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أي أبواب النيران أدخله». وعن علي رضي الله عنه: أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار طعاماً إلا مختوماً حذراً من الشبهة. واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة، فذكروا الرطب، فقال وهيب: هو من أحب الطعام إليّ، إلا أني لا آكله لاختلاط رطب مكة ببساتين زبيدة وغيرها، فقال له ابن المبارك: إن نظرت في مثل هذا ضاق عليك الخبز. قال: وما سببه؟ قال: إن أصول الضياع قد اختلط بالصوافي، فغشي على وهيب، فقال سفيان: قتلت الرجل، فقال ابن

المبارك: ما أردت إلا أن أهوّن عليه، فلما أفاق قال: لله عليَّ أن لا آكل خبزاً أبداً حتى ألقاه. قال: فكان يشرب اللبن، فأتته أمه بلبن فسألها، فقالت: هو من شاة بني فلان، فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم فذكرت، فلما أدناه من فيه قال: بقي أنها من أين كانت ترعى؟ فسكتت، فلم يشرب لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للمسلمين. فقالت أمه: اشرب فإن الله يغفر لك، فقال: ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنال مغفرته بمعصيته. وكان بشر الحافي رحمه الله من الورعين، فقيل له: من أين تأكل، فقال: من حيث تأكلون، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك. وقال: يد أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة، وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات.

أصناف الحلال ومداخله:

اعلم: أنّ تفصيل الحلال والحرام إنما يتولى بيانه كتب الفقه، ويستغني المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها، فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرّقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه في كتاب الفقه.

ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم: وهو أنّ المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه أو لخلل في جهة اكتسابه.

القسم الأول: الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرهما:

وتفصيله: أنّ الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام، فإنها إما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرهما، أو من النبات، أو من الحيوانات.

أما المعادن: فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها، فلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالآكل. وفي بعضها ما يجري مجرى السم، والخبز لو كان مضراً لحرم أكله، والطين الذي يعتاد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر. وفائدة قولنا: إنه لا يحرم مع أنه لا يؤكل، أنه لو وقع شيء منها في مرقة أو طعام مائع لم يصر به محرّماً.

وأما النبات: فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة، فمزيل العقل: البنج والخمر وسائر المسكرات، ومزيل الحياة، السموم، ومزيل الصحة: الأدوية في غير وقتها، وكأن مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والمسكرات، فإن الذي لا يسكر منها أيضاً حرام مع قلته لعينه ولصفته؛ وهي الشدّة المطربة، وأما السم: فإذا خرج عن كونه مضراً لقلته أو لعجنه بغيره فلا يحرم.

وأما الحيوانات: فتنقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل، وتفصيله في كتاب الأطعمة، والنظر يطول في تفصيله، لا سيما في الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر، وما يحل أكله منها فإنما يحل إذا ذبح ذبحاً شرعياً روعي فيه شروط الذابح والآلة والمذبح، وذلك مذكور في كتاب الصيد والذبائح، وما لم يذبح ذبحاً شرعياً أو مات فهو حرام، ولا يحل إلا ميتتان: السمك والجراد، وفي معناهما ما يستحيل من الأطعمة كدود التفاح والخل والجبن، فإنّ الاحتراز منهما غير ممكن، فأما إذا أفردت وأكلت فحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب وكل ما ليس له نفس سائلة، لا سبب في تحريمها إلا الاستقذار، ولو لم يكن لكان لا يكره، فإن وجد شخص لا يستقذره لم يلتفت إلى خصوص طبعه، فإنه التحق بالخبائث لعموم الاستقذار، فيكره أكله، كما لو جمع المخاط وشربه كره ذلك، وليست الكراهة

لنجاستها؛ فإنّ الصحيح أنها لا تنجس بالموت؛ إذ «أمر رسول الله ﷺ بأن يمقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه»[(١)]، وربما يكون حاراً ويكون ذلك سبب موته، ولو تهرت نملة أو ذبابة في قدر لم يجب إراقتها؛ إذ المستقذر هو جرمه إذا بقي له جرم، ولم ينجس حتى يحرم بالنجاسة. وهذا يدل على أن تحريمه للاستقذار، ولذلك نقول: لو وقع جزء من آدمي ميت في قدر ولو وزن دانق حرم الكل لا لنجاسته؛ فإن الصحيح أن الآدمي لا ينجس بالموت، ولكن لأن أكله محرّم احتراماً لا استقذاراً. وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تحل جميع أجزائها بل يحرم منها الدم والفرث وكل ما يقضى بنجاسته منها، بل تناول النجاسة مطلقاً محرّم، ولكن ليس في الأعيان شيء محرّم نجس إلا من الحيوانات. وأما من النبات فالمسكرات فقط دون ما يزيل العقل ولا يسكر كالبنج، فإنّ نجاسة المسكر تغليظ للزجر عنه لكونه في مظنة التشوّف، ومهما وقعت قطرة من النجاسة أو جزء من نجاسة جامدة في مرقة أو طعام أو دهن حرم أكل جميعه، ولا يحرم الانتفاع به لغير الأكل، فيجوز الاستصباح بالدهن النجس، وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها، فهذه مجامع ما يحرم لصفة في ذاته.

القسم الثاني: ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه:

وفيه يتسع النظر، فنقول: أخذ المال: إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره، فالذي يكون بغير اختياره كالإرث، والذي يكون باختياره: إما أن لا يكون من مالك كنيل المعادن، أو يكون من مالك، والذي أخذ من مالك: فإما أن يؤخذ قهراً أو يؤخذ تراضياً، والمأخوذ قهراً: إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم، أو لاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم، والمأخوذ تراضياً: إما أن يؤخذ بعوض كالبيع والصداق والأجرة، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية، فيحصل من هذا السياق ستة أقسام:

الأول: ما يؤخذ من غير مالك: كنيل المعادن، وإحياء الموات، والاصطياد، والاحتطاب، والاستقاء من الأنهار، والاحتشاش. فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذي حرمة من الآدميين، فإذا انفك من الاختصاصات ملكها آخذها. وتفصيل ذلك في كتاب إحياء الموات.

الثاني: المأخوذة قهراً ممن لا حرمة له وهو الفيء والغنيمة وسائر أموال الكفار والمحاربين، وذلك حلال المسلمين إذا أخرجوا منها الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد. وتفصيل هذه الشروط في كتاب السير من كتاب الفيء والغنيمة وكتاب الجزية.

الثالث: ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه، فيؤخذ دون رضاه، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه واقتصر على القدر المستحق، واستوفاه ممن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق، وتفصيل ذلك في كتاب تفريق الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات؛ إذ فيها النظر في صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالاً.

الرابع: ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين؛ أعني الإيجاب والقبول، مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة. وبيان ذلك في

---

(١) حديث: «الأمر بأن يمقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه» رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضمان والقراض والشركة والمساقاة والشفعة والصلح والخلع والكتابة والصداق وسائر المعاوضات.

الخامس: ما يؤخذ عن رضا من غير عوض، وهو حلال إذا روعي فيه شرط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره، وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات.

السادس: ما يحصل بغير اختيار كالميراث، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجباً، وذلك مذكور في كتاب الوصايا والفرائض. فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام أومأنا إلى جملتها؛ ليعلم المريد أنه إن كانت طعمته متفرّقة لا من جهة معينة فلا يستغني عن علم هذه الأمور، فكل ما يأكله من جهة من الجهات ينبغي أن يستفتي فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل، فإنه كما يقال للعالم: لم خالفت علمك؟ يقال للجاهل: لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قيل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم؟.

درجات الحلال والحرام:

اعلم: أن الحرام كله خبيث، لكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض وأصفى من بعض، وكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن يقول: بعضها حار في الدرجة الأولى كالسكر، وبعضها حار في الثانية كالفانيذ، وبعضها حار في الثالثة كالدبس، وبعضها حار في الرابعة كالعسل. كذلك الحرام بعضه خبيث حار في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وكذا الحلال تتفاوت درجات صفائه وطيبه، فلنقتد بأهل الطب في الاصطلاح على أربع درجات تقريباً. وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر؛ إذ يتطرّق إلى كل درجة من الدرجات أيضاً تفاوت لا ينحصر، فإنّ من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر، وكذا غيره، فلذلك نقول: الورع عن الحرام على أربع درجات:

الأولى: ورع العدول، وهو الذي يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه، وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء.

الثانية: ورع الصالحين، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتي يرخص في التناول بناء على الظاهر، فهو من مواقع الشبهة على الجملة، فلنسم التحرج عن ذلك ورع الصالحين وهو في الدرجة الثانية.

الثالثة: ما لا تحرّمه الفتوى ولا شبهة في حله، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرّم؛ وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس، وهذا ورع المتقين. قال ﷺ: **«لاَ يَبْلُغُ العَبْدُ دَرَجَةَ المُتَّقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ»**[1].

الرابعة: ما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس، ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التَّقَوّي به على عبادة الله، أو تتطرّق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية، والامتناع منه ورع الصدّيقين، فهذه درجات الحلال جملة إلى أن نفصلها بالأمثلة والشواهد.

---

(١) حديث: «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس» رواه ابن ماجه، وقد تقدم.

وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى؛ وهو الذي يشترط التورع عنه في العدالة واطراح سمة الفسق، فهو أيضاً على درجات في الخبث، فالمأخوذ بعقد فاسد كالمعاطاة مثلاً فيما لا يجوز فيه المعاطاة حرام، ولكن ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ؛ إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب وإيذاء الغير، وليس في المعاطاة إيذاء، وإنما فيه ترك طريق التعبد فقط، ثم ترك طريق التعبد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا، وهذا التفاوت يدرك بتشديد الشرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي، على ما سيأتي في كتاب التوبة عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة، بل المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو من يتيم أخبث وأعظم من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسق؛ لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذي، فهذه دقائق في تفاصيل الخبائث لا ينبغي أن يذهل عنها، فلولا اختلاف درجات العصاة لما اختلفت درجات النار، وإذا عرفت مثارات التغليظ فلا حاجة إلى حصره في ثلاث درجات أو أربعة، فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشهي، وهو طلب حصر فيما لا حاصر له، ويدلك على اختلاف درجات الحرام في الخبث ما سيأتي في تعارض المحذورات وترجيح بعضها على بعض، حتى إذا اضطر إلى أكل الميتة أو أكل طعام الغير أو أكل صيد الحرم فإنا نقدّم بعض هذا على بعض.

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها:

أما الدرجة الأولى: وهي ورع العدول، فكل ما اقتضى الفتوى تحريمه مما يدخل في المداخل الستة التي ذكرناها من مداخل الحرام لفقد شرط من الشروط فهو الحرام المطلق؛ الذي ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية، وهو الذي نريده بالحرام المطلق ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد.

وأما الدرجة الثانية: فأمثلتها: كل شبهة لا توجب اجتنابها ولكن يستحب اجتنابها كما سيأتي في باب الشبهات؛ إذ من الشبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام. ومنها ما يكره اجتنابها فالورع عنها ورع الموسوسين، كمن يمتنع من الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه، وهذا وسواس. ومنها: ما يستحب اجتنابها ولا يجب وهو الذي ينزل عليه قوله ﷺ: **«دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ»**[1] ونحمله على نهي التنزيه، وكذلك قوله ﷺ: **«كُلْ مَا أَصْمَيْتَ وَدَعْ مَا أَنْمَيْتَ»**[2] والإنماء: أن يجري الصيد فيغيب عنه ثم يدركه ميتاً؛ إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر، والذي نختاره كما سيأتي: أن هذا ليس بحرام ولكن تركه من ورع الصالحين. وقوله: **«دَعْ مَا يُرِيبُكَ»** أمر تنزيه؛ إذ ورد في بعض الروايات: «كُلْ مِنْهُ وَإِنْ غَابَ عَنْكَ مَا لَمْ تَجِدْ فِيهِ أَثَراً غَيْرَ سَهْمِكَ»، ولذلك قال ﷺ لعدي بن حاتم في الكلب المعلم: **«وَإِنْ أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ»** على سبيل التنزيه لأجل الخوف. إذ قال لأبي ثعلبة الخشني **«كُلْ مِنْهُ»** فقال: وإن أكل منه؟ فقال: **«وَإِنْ أَكَلَ منه»**[3]، وذلك

---

(١) حديث: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»** أخرجه النسائي والترمذي والحاكم وصححاه من حديث الحسن بن علي.

(٢) حديث: **«كُلْ ما أصميت ودع ما أنميت»** أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس والبيهقي موقوفاً عليه. وقال: إن المرفوع ضعيف.

(٣) حديث قال لأبي ثعلبة: **«كل منه»**، فقال: وإن أكل؟ قال: **«وإن أكل»** رواه أبو داود من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ومن حديث أبي ثعلبة أيضاً مختصراً وإسنادهما جيد، والبيهقي موقوفاً عليه وقال: إن المرفوع ضعيف.

لأن حالة أبي ثعلبة وهو فقير مكتسب لا تحتمل هذا الورع، وحال عدي كان يحتمله. يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء، مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به، فأمثله هذه الدرجة نذكرها في التعرّض لدرجات الشبهة فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة.

أما الدرجة الثالثة: وهي ورع المتقين، فيشهد لها قوله ﷺ: **«لاَ يَبْلُغُ العَبْدُ دَرَجَةَ المُتَّقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا لاَ بَأسَ بِهِ مَخافَةَ مَا بِهِ بَأسٌ»**. وقال عمر رضي الله عنه: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام، وقيل: إن هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال أبو الدرداء: إن من تمام التقوى أن يتقي العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً؛ حتى يكون حجاباً بينه وبين النار، ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان، فحملها إليه، فأخذ تسعة وتسعين وتورّع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة. وكان بعضهم يتحرّز، فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة، ليكون ذلك حاجزاً من النار، ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتسامح به الناس، فإنّ ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجرّ إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وتترك الورع.

فمن ذلك: ما روي عن علي بن معبد أنه قال: كنت ساكناً في بيت بكراء، فكتبت كتاباً وأردت أن آخذ من تراب الحائط لأتربه وأجففه، ثم قلت: الحائط ليس لي، فقالت لي نفسي: وما قدر تراب من حائط! فأخذت من التراب حاجتي، فلما نمت فإذا أنا بشخص واقف يقول: يا علي بن معبد: سيعلم غداً الذي يقول: وما قدر تراب من حائط، ولعل معنى ذلك أن يرى كيف يحط من منزلته، فإن للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين، وليس المراد به أن يستحق عقوبة على فعله.

ومن ذلك: ما روي أن عمر رضي الله عنه وصله مسك من البحرين فقال: وددت لو أنّ امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت امرأته عاتكة: أنا أجيد الوزن فسكت عنها، ثم أعاد القول فأعادت الجواب، فقال: لا، أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلاً على المسلمين. وكان يوزن بين يدي عمر بن عبدالعزيز مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال: وهل ينتفع منه إلا بريحه لما استبعد ذلك منه. وأخذ الحسن رضي الله عنه تمرة من تمر الصدقة ـ وكان صغيراً ـ فقال النبي ﷺ: **«كخ كخ»**[1] أي ألقها.

ومن ذلك ما روى بعضهم أنه كان عند محتضر، فمات ليلاً فقال: أطفئوا السراج قد حدث للورثة حق في الدهن. وروى سليمان التيمي عن نعيمة العطارة قالت: كان عمر رضي الله عنه يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين لتبيعه، فباعتني طيباً فجعلت تقوّم وتزيد وتنقص وتكسر بأسنانها، فتعلق بأصبعها شيء منه فقالت به هكذا بأصبعها، ثم مسحت به خمارها فدخل عمر رضي الله عنه فقال: ما هذه الرائحة؟ فأخبرته فقال: طيب المسلمين تأخذينه، فانتزع الخمار من رأسها وأخذ جرّة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه في التراب ثم يشمه، ثم يصب الماء ثم يدلكه في التراب ويشمه، حتى لم يبق له ريح، قالت: ثم أتيتها مرة أخرى فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها، فأدخلت أصبعها في فيها ثم مسحت به التراب، فهذا من عمر رضي الله عنه ورع التقوى؛ لخوف أداء ذلك إلى غيره،

---

(١) حديث: أخذ الحسن بن علي تمرة من الصدقة وكان صغيراً فقال النبي ﷺ: **«كخ كخ، ألقها»** أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

وإلا فغسل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين، ولكن أتلفه عليها زجراً وردعاً واتقاء من أن يتعدّى الأمر إلى غيره.

ومن ذلك: ما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في المسجد يحمل مجمرة لبعض السلاطين ويبخر المسجد بالعود فقال: ينبغي أن يخرج من المسجد، فإنه لا ينتفع من العود إلا برائحته، وهذا قد يقارب الحرام، فإنّ القدر الذي يعبق بثوبه من رائحة الطيب قد يقصد وقد يبخل به، فلا يدري أنه يتسامح به أم لا. وسئل أحمد بن حنبل عمن سقطت منه ورقة فيها أحاديث، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردها؟ فقال: لا، بل يستأذن ثم يكتب، وهذا أيضاً قد يشك في أن صاحبها هل يرضى به أم لا، فما هو في محل الشك، والأصل تحريمه فهو حرام، وتركه من الدرجة الأولى.

ومن ذلك: التورع عن الزينة: لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها، وإن كانت الزينة مباحة في نفسها. وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال السبتية فقال: أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا. ومن ذلك: أن عمر رضي الله عنه لما ولي الخلافة كانت له زوجة يحبها، فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعة في باطل فيطيعها ويطلب رضاها، وهذا من ترك ما لا بأس به مخافة مما به البأس ـ أي مخافة من أن يفضي إليه ـ وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات، حتى استكثار الأكل واستعمال الطيب للمتعزب فإنه يحرّك الشهوة، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر، والفكر يدعو إلى النظر، والنظر يدعو إلى غيره، وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم مباح في نفسه ولكن يهيج الحرص ويدعو إلى طلب مثله، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل في تحصيله، وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرّز من غوائلها بالمعرفة أولاً ثم بالحذر ثانياً، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر، وكذا كل ما أخذ بالشهوة فقلما يخلو عن خطر، حتى كره أحمد بن حنبل تجصيص الحيطان وقال: أما تجصيص الأرض فيمنع التراب، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها، واستدل بما روي عن النبي ﷺ أنه سئل أن يكحل المسجد، فقال: «لاَ، عَرِيش كَعَرِيشِ مُوسَىٰ»[1] وإنما هو شيء مثل الكحل يطلى به، فلم يرخص رسول الله ﷺ فيه، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا: من رق ثوبه رق دينه، وكل ذلك خوفاً من سريان اتباع الشهوات في المباحات إلى غيرها، فإن المحظور والمباح تشتهيهما النفس بشهوة واحدة، وإذا تعوّدت الشهوة المسامحة استرسلت، فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله، فكل حلال انفك عن مثل هذه المخافة فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة، وهو كل ما لا يخاف أداؤه إلى معصية البتة.

أما الدرجة الرابعة: وهو ورع الصديقين، فالحلال عندهم كل ما لا تتقدم في أسبابه معصية ولا يستعان به على معصية ولا يقصد منه في الحال والمآل قضاء وطر، بل يتناول لله تعالى فقط وللتقوي على عبادته واستبقاء الحياة لأجله، وهؤلاء هم الذين يرون كل ما ليس لله حراماً، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وهذه رتبة الموحدين المتجردين عن حظوظ أنفسهم،

(١) حديث: أنه سئل أن يكحل المسجد فقال: «لا، عريش كعريش موسى» أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أبي الدرداء وقال: غريب.

المنفردين لله تعالى بالقصد، ولا شك في أن من يتورّع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتورّع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية. فمن ذلك ما روي عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء، فقالت له امرأته: لو تمشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة، فكأنه لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين، فلم يجز الإقدام عليها. وعن سري رحمه الله أنه قال: انتهيت إلى حشيش في جبل وماء يخرج منه، فتناولت من الحشيش وشربت من الماء، وقلت في نفسي: إن كنت قد أكلت يوماً حلالاً طيباً فهو هذا اليوم، فهتف بي هاتف: إنّ القوّة التي أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هي؟ فرجعت وندمت. ومن هذا ما روي عن ذي النون المصري أنه كان جائعاً محبوساً، فبعثت إليه امرأة صالحة طعاماً على يد السجان فلم يأكل، ثم اعتذر وقال: جاءني على طبق ظالم، يعني أن القوّة التي أوصلت الطعام إليّ لم تكن طيبة، وهذه الغاية القصوى في الورع. ومن ذلك: أن بشراً رحمه الله كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء، فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه، وإن كان الماء مباحاً في نفسه فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء وقد أعطوا الأجرة من الحرام، ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال، وقال لصاحبه: أفسدته إذ سقيته من الماء الذي يجري في النهر الذي حفرته الظلمة، وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء، لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء. وكان بعضهم إذا مرَّ في طريق الحج لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة، مع أن الماء مباح، ولكنه بقي محفوظاً بالمصنع الذي عمل به بمال حرام، فكأنه انتفاع به. وامتناع ذي النون من تناول الطعام من يد السجان أعظم من هذا كله؛ لأن يد السجان لا توصف بأنها حرام، بخلاف الطبق المغصوب إذا حمل عليه، ولكنه وصل إليه بقوّة اكتسبت بالغذاء الحرام، ولذلك تقيأ الصديق رضي الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوّة مع أنه شربه عن جهل، وكان لا يجب إخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصِّدّيقين، ومن ذلك: التورّع من كسب حلال اكتسبه خياط يخيط في المسجد، فإن أحمد رحمه الله كره جلوس الخياط في المسجد. وسئل عن المغازلي يجلس في قبة في المقابر في وقت يخاف من المطر، فقال: إنما هي من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها. وأطفأ بعضهم سراجاً أسرجه غلامه من قوم يكره ما لهم. وامتنع من تسجير تنور للخبز وقد بقي فيه جمر من حطب مكروه. وامتنع بعضهم من أن يحكم شسع نعله في مشعل السلطان، فهذه دقائق الورع عند سالكي طريق الآخرة.

والتحقيق فيه: أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرمته الفتوى وهو ورع العدول، وله غاية وهو ورع الصديقين، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه، أو اتصل بسببه مكروه وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان العبد أشدّ تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأسرع جوازاً على الصراط، وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبث، وإذا علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط، وإن شئت فرخص؛ فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص، والسلام.

***

الباب الثاني

في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله ﷺ: **«الحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَاقَعَ الحَرَامَ، كَالرَّاعِي حَوْلَ الحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»**[(١)]، فهذا الحديث نص في إثبات الأقسام الثلاثة، والمشكل منها القسم المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة، فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها، فإن ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل، فنقول:

الحلال المطلق: هو الذي خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه، وانحلّ عن أسبابه ما تطرّق إليه تحريم أو كراهية، ومثاله: الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد يكون هو واقفاً عند جمعه وأخذه من الهواء في ملك نفسه أو في أرض مباحة.

والحرام المحض: هو ما فيه صفة محرّمة لا يشك فيها؛ كالشدّة المطربة في الخمر، والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهيّ عنه قطعاً كالمحصل بالظلم والربا ونظائره، فهذان طرفان ظاهران، ويلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكنه احتمل تغيره، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه، فإنّ صيد البر والبحر حلال، ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت منه، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد بعد وقوعه في يده وخريطته، فمثل هذا الاحتمال لا يتطرّق إلى ماء المطر المختطف من الهواء، ولكنه في معنى ماء المطر، والاحتراز منه وسواس، ولنسم هذا الفن ورع الموسوسين، حتى تلتحق به أمثاله وذلك لأن هذا وهم مجرّد لا دلالة عليه. نعم لو دل عليه دليل؛ فإن كان قاطعاً كما لو وجد حلقة في أذن السمكة، أو كان محتملاً كما لو وجد على الظبية جراحة يحتمل أن يكون كياً لا يقدر عليه إلا بعد الضبط، ويحتمل أن يكون جرحاً، فهذا موضع الورع، وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتمال المعدوم دلالته كالاحتمال المعدوم في نفسه، ومن هذا الجنس من يستعير داراً فيغيب عنه المعير فيخرج ويقول: لعله مات وصار الحق للوارث، فهذا وسواس إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك؛ إذ الشبهة المحذورة ما تنشأ من الشك، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشآ عن سببين، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوي العقد المقابل له فيصير شكاً، ولهذا نقول: من شك أنه صلى ثلاثاً أو أربعاً أخذ بالثلاث إذ الأصل عدم الزيادة.

ولو سئل إنسان أن صلاة الظهر التي أداها قبل هذا بعشر سنين كانت ثلاثاً أو أربعاً لم يتحقق قطعاً أنها أربعة، وإذا لم يقطع جوّز أن تكون ثلاثة، وهذا التجويز لا يكون شكاً؛ إذ لم يحضره سبب أوجب اعتقاد كونها ثلاثاً، فلتفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه الوهم والتجويز بغير سبب، فهذا يلتحق بالحلال المطلق. ويلتحق بالحرام المحض ما تحقق تحريمه وإن أمكن طريان محلل ولكن لم يدل عليه سبب، كمن في يده طعام لمورثه الذي لا وارث له سواه، فغاب عنه فقال: يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك

الباب الثاني: في مراتب الشبهات

(١) حديث: «**الحلال بيّن والحرام بيّن...**» الحديث. متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

إلي فأكله، فإقدامه عليه إقدام على حرام محض؛ لأنه احتمال لا مستند له، فلا ينبغي أن يعدّ هذا النمط من أقسام الشبهات، وإنما الشبهة نعني بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين. ومثارات الشبهة خمسة:

المثار الأول: الشك في السبب المحلل والمحرم:

وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلاً، أو غلب أحد الاحتمالين، فإن تعادل الاحتمالان كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب، ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد، فلنقسمه إلى أقسام أربعة:

القسم الأول: أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الإقدام عليها. مثاله: أن يرمي إلى صيد فيجرحه ويقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدري أنه مات بالغرق أو بالجرح، فهذا حرام لأن الأصل التحريم، إلا إذا مات بطريق معين وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك، كما في الأحداث والنجاسات وركعات الصلاة وغيرها، وعلى هذا ينزل قوله ﷺ لعدي بن حاتم: «**لاَ تَأْكُلْهُ فَلَعَلَّهُ قَتَلَهُ غَيْرُ كَلْبِكَ**»[١] فلذلك كان ﷺ إذا أُتي بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هدية سأل عنه حتى يعلم أيهما هو[٢]. وروي: «أنه ﷺ أرق ليلة فقالت له بعض نسائه: أرقت يا رسول الله، فقال: «**أَجَلْ، وَجَدْتُ تَمْرَةً فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ**»[٣] وفي رواية: «**فَأَكَلْتُهَا فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ**»، ومن ذلك ما روي عن بعضهم أنه قال: كنا في سفر مع رسول الله ﷺ فأصابنا الجوع، فنزلنا منزلاً كثير الضباب فبينا القدور تغلي بها إذ قال رسول الله ﷺ: «**أُمَّةٌ مُسِخَتْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ هٰذِهِ**» فأكفأنا القدور[٤]، ثم أعلمه الله بعد ذلك أنه لم يمسخ الله خلقاً فجعل له نسلاً[٥]. وكان امتناعه أولاً لأن الأصل عدم الحل وشك في كون الذبح محللاً.

القسم الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فالأصل الحل وله الحكم. كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر، فقال أحدهما: إن كان هذا غراباً فامرأتي طالق، وقال الآخر: إن لم يكن غراباً فامرأتي طالق. والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم في واحدة منهما ولا يلزمهما اجتنابهما، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما حتى يحلا لسائر الأزواج، وقد أمر مكحول بالاجتناب في هذه المسألة، وأفتى الشعبي بالاجتناب في رجلين كانا قد تنازعا، فقال أحدهما للآخر: أنت حسود، فقال الآخر:

---

(١) حديث: «**لا تأكله فلعله قتله غير كلبك**» قاله لعدي بن حاتم متفق عليه من حديثه.

(٢) حديث: «**كان إذا أتي بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هبة يسأل عنه**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: أنه أرق ليلة فقال له بعض نسائه: أرقت يا رسول الله، فقال: «**أجل، وجدت تمرة فأكلتها فخشيت أن تكون من الصدقة**» أخرجه أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن.

(٤) حديث: كنا في سفر مع رسول الله ﷺ فأصابنا الجوع، فنزلنا منزلاً كثير الضباب، فبينا القدور تغلي بها إذ قال رسول الله ﷺ: «**أمة من بني إسرائيل مسخت فأخاف أن تكون هذه**» فأكفأنا القدور. أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث عبدالرحمن وحسنه. وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث ثابت بن زيد نحوه مع اختلاف. قال البخاري: وحديث ثابت أصح.

(٥) حديث: «**أنه لم يمسخ الله خلقاً فجعل له نسلاً**». أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

أحسدنا زوجته طالق ثلاثاً، فقال الآخر: نعم، وأشكل الأمر، وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح، وإن أراد التحريم المحقق فلا وجه له؛ إذ ثبت في المياه والنجاسات والأحداث والصلوات أن اليقين لا يجب تركه بالشك، وهذا في معناه.

فإن قلت: وأي مناسبة بين هذا وبين ذلك؟ فاعلم أنه لا يحتاج إلى المناسبة، فإنه لازم من غير ذلك في بعض الصور، فإنه مهما تيقن طهارة الماء ثم شك في نجاسته جاز له أن يتوضأ به، فكيف لا يجوز أن يشربه؟ وإذا جوز الشرب فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك، إلا أن ههنا دقيقة: وهو أن وزان الماء أن يشك في أنه طلق زوجته أم لا؟ فيقال: الأصل أنه ما طلق ووزان مسألة الطائر أن يتحقق نجاسة أحد الإناءين ويشتبه عينه، فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد، لأنه قابل يقين النجاسة بيقين الطهارة فيبطل الاستصحاب، فكذلك ههنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجتين قطعاً، والتبس عين المطلقة بغير المطلقة، فنقول: اختلف أصحاب الشافعي في الإناءين على ثلاثة أوجه، فقال قوم: يستصحب بغير اجتهاد، وقال قوم: بعد حصول يقين النجاسة في مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب ولا يغني الاجتهاد، وقال المقتصدون: يجتهد وهو الصحيح، ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول: إن كان غراباً فزينب طالق، وإن لم يكن فعمرة طالق، فلا جرم ولا يجوز له غشيانهما بالاستصحاب ولا يجوز الاجتهاد؛ إذ لا علامة، ونحرّمهما عليه لأنه لو وطئهما كان مقتحماً للحرام قطعاً، وإن وطىء إحداهما وقال: أقتصر على هذه، كان متحكماً بتعيينها من غير ترجيح. ففي هذا افترق حكم شخص واحد أو شخصين؛ لأنّ التحريم على شخص واحد متحقق، بخلاف الشخصين؛ إذ كل واحد شك في التحريم في حق نفسه.

فإن قيل: فلو كان الإناءان لشخصين فينبغي أن يستغني عن الاجتهاد ويتوضأ كل واحد بإنائه لأنه تيقن طهارته وقد شك الآن فيه، فنقول: هذا محتمل في الفقه والأرجح في ظني المنع، وأن تعدد الشخصين ههنا كاتحاده، لأنّ صحة الوضوء لا تستدعي ملكاً، بل وضوء الإنسان بماء غيره في رفع الحدث كوضوئه بماء نفسه، فلا يتبين لاختلاف الملك واتحاده أثر، بخلاف الوطء لزوجة الغير فإنه لا يحل، ولأن للعلامات مدخلاً في النجاسات، والاجتهاد فيه ممكن بخلاف الطلاق، فوجب تقوية الاستصحاب بعلامة ليدفع بها قوة يقين النجاسة المقابلة ليقين الطهارة، وأبواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه، وقد استقصيناه في كتب الفقه، ولسنا نقصد الآن إلا التنبيه على قواعدها.

القسم الثالث: أن يكون الأصل التحريم، ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظنّ غالب، فهو مشكوك فيه والغالب حله، فهذا ينظر فيه؛ فإن استند غلبة الظنّ إلى سبب معتبر شرعاً فالذي نختار فيه أنه يحل، واجتنابه من الورع. مثاله: أن يرمي إلى صيد فيغيب ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر، فإن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالقسم الأوّل. وقد اختلف الشافعي رحمه الله في هذا القسم، والمختار أنه حلال؛ لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق، والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه، فطريانه مشكوك فيه، فلا يدع اليقين بالشك.

فإن قيل: فقد قال ابن عباس: كُلْ ما أصميت ودع ما أنميت. وروت عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً أتى النبي ﷺ بأرنب فقال: رميتي عرفت فيها سهمي، فقال: «**أَصْمَيْتَ أَوْ أَنْمَيْتَ؟**» فقال: بل

أنميت، قال: «**إِنَّ اللَّيلَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله لاَ يَقدر قدرهُ إلاَّ الَّذِي خَلَقَهُ، فَلَعَلَّهُ أَعَانَ عَلَىٰ قَتْلِهِ شَيْءٌ**»[١] وكذلك قال ﷺ لعدي بن حاتم في كلبه المعلم: «**وَإِنْ أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ**»[٢] والغالب أن الكلب المعلم لا يسيء خلقه ولا يمسك إلا على صاحبه، ومع ذلك نهى عنه، وهذا التحقيق: وهو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب، وتمام السبب: بأن يفضي إلى الموت سليماً من طريان غيره عليه، وقد شك فيه فهو شك في تمام السبب حتى اشتبه أنّ موته على الحل أو على الحرمة، فلا يكون هذا في معنى ما تحقق موته على الحل في ساعته ثم شك فيما يطرأ عليه.

فالجواب: أنّ نهي ابن عباس ونهي رسول الله ﷺ محمول على الورع والتنزيه، بدليل ما روي في بعض الروايات أنه قال: «**كُلْ مِنْهُ وَإِنْ غَابَ عَنْكَ مَا لَمْ تَجِدْ فِيهِ أَثَراً غيرَ سَهْمِكَ**»[٣] وهذا تنبيه على المعنى الذي ذكرناه؛ وهو أنه إن وجد أثراً آخر فقد تعارض السببان بتعارض الظن، وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة الظن فيحكم به على الاستصحاب، كما يحكم على الاستصحاب بخبر الواحد والقياس المظنون والعمومات المظنونة وغيرها. وأما قول القائل: إنه لم يتحقق موته على الحل في ساعة فيكون شكاً في السبب فليس كذلك، بل السبب قد تحقق؛ إذ الجرح سبب الموت، فطريان الغير شك فيه، ويدل على صحة هذا: الإجماع، على أن من جرح وغاب فوجد ميتاً فيجب القصاص على جارحه، بل إن لم يغب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط في باطنه، كما يموت الإنسان فجأة، فينبغي أن لا يجب القصاص إلا بحز الرقبة والجرح المذفف؛ لأن العلل القاتلة في الباطن لا تؤمن، ولأجلها يموت الصحيح فجأة، ولا قائل بذلك، مع أن القصاص مبناه على الشبهة، وكذلك جنين المذكاة حلال، ولعله مات قبل ذبح الأصل لا بسبب ذبحه أو لم ينفخ فيه الروح، وغرة الجنين تجب، ولعل الروح لم ينفخ فيه، أو كان قد مات قبل الجناية بسبب آخر، ولكن يبني على الأسباب الظاهرة، فإن الاحتمال الآخر إذا لم يستند إلى دلالة تدل عليه التحق بالوهم والوسواس كما ذكرناه، فكذلك هذا. وأما قوله ﷺ: «**أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ**» فللشافعي رحمه الله في هذه الصورة قولان، والذي نختاره الحكم بالتحريم؛ لأن السبب قد تعارض؛ إذ الكلب المعلم كالآلة والوكيل يمسك على صاحبه فيحل، ولو استرسل المعلم بنفسه فأخذ لم يحل؛ لأنه يتصوّر منه أن يصطاد لنفسه، ومهما انبعث بإشارته ثم أكل دل ابتداء انبعاثه على أنه نازل منزلة آلته وأنه يسعى في وكالته ونيابته، ودل أكله آخراً على أنه أمسك لنفسه لا لصاحبه، فقد تعارض السبب الدال فيتعارض الاحتمال، والأصل التحريم فيستصحب، ولا يزال بالشك، وهو كما لو وكل رجلاً بأن يشتري له جارية فاشترى جارية ومات قبل أن

---

(١) حديث عائشة: أن رجلاً أتى النبي ﷺ بأرنب فقال: رميتي عرفت فيها سهمي، فقال «**أصميت أو أنميت؟**» قال: بل أنميت. قال: «**إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذي خلقه لعله أعان على قتله شيء**» ليس هذا من حديث عائشة، وإنما رواه موسى بن أبي عائشة عن أبي رزين قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ بصيد فقال: إني رميته من الليل فأعياني، ووجدت سهمي فيه من الغد وعرفت سهمي، فقال «**الليل خلق من خلق الله عظيم، لعله أعانك عليه شيء**» رواه أبو داود في المراسيل، والبيهقي وقال: أبو رزين اسمه مسعود، والحديث مرسل، قاله البخاري.

(٢) حديث: قال لعدي في كلبه المعلم: «**وإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه**» متفق عليه من حديثه.

(٣) حديث: «**كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثر سهم غيرك**» متفق عليه من حديث عدي بن حاتم.

يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله يحل للموكل وطؤها، لأن للوكيل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعاً، ولا دليل مرجح والأصل التحريم. فهذا يلتحق بالقسم الأوّل لا بالقسم الثالث.

القسم الرابع: أن يكون الحل معلوماً ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً، فيرفع الاستصحاب ويقضي بالتحريم؛ إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن، ومثاله: أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما أوجبت منع الوضوء به، وكذا إذا قال: إن قتل زيد عمراً أو قتل زيد صيداً منفرداً بقتله فامرأتي طالق، فجرحه وغاب عنه فوجد ميتاً حرمت زوجته؛ لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق، وقد نص الشافعي رحمه الله أن من وجد في الغدران ماء متغيراً احتمل أن يكون تغيره بطول المكث أو بالنجاسة فيستعمله، ولو رأى ظبية بالت فيه ثم وجده متغيراً واحتمل أن يكون بالبول أو بطول المكث لم يجز استعماله؛ إذ صار البول المشاهد دلالة مغلبة لاحتمال النجاسة وهو مثال ما ذكرناه، وهذا في غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشيء.

فأما غلبة الظن لا من جهة علامة تتعلق بعين الشيء فقد اختلف قول الشافعي رضي الله عنه في أن أصل الحل هل يزال به إذا اختلف قوله في التوضؤ من أواني المشركين، ومدمن الخمر والصلاة في المقابر المنبوشة والصلاة مع طين الشوارع، أعني المقدار الزائد على ما يتعذر الاحتراز عنه، وعبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأيهما يعتبر، وهذا جار في حل الشرب من أواني مدمن الخمر والمشركين؛ لأن النجس لا يحل شربه، فإذن مأخذ النجاسة والحل واحد، فالتردد في أحدهما يوجب التردد في الآخر، والذي اختاره أن الأصل هو المعتبر، وأن العلامة إذا لم تتعلق بعين المتناول لم توجب رفع الأصل، وسيأتي بيان ذلك وبرهانه في المثار الثاني للشبهة وهي شبهة الخلط، فقد اتضح من هذا حكم حلال شك في طريان محرّم عليه أو ظن، وحكم حرام شك في طريان محلل عليه أو ظن، وبان الفرق بين ظن يستند إلى علامة في عين الشيء وبين ما لا يستند إليه، وكل ما حكمنا في هذه الأقسام الأربعة بحله فهو حلال في الدرجة الأولى والاحتياط تركه، فالمقدم عليه لا يكون من زمرة المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقضى في فتوى الشرع بفسقهم وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة، إلا ما ألحقناه برتبة الوسواس فإنّ الاحتراز عنه ليس من الورع أصلاً.

المثار الثاني للشبهة: شك منشؤه الاختلاط:

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر ولا يتميز، والخلط لا يخلو: إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانبين أو من أحدهما، أو بعدد محصور، فإن اختلط بمحصور فلا يخلو: إما أن يكون اختلاط امتزاج بحيث لا يتميز بالإشارة كاختلاط المائعات، أو يكون اختلاط استبهام مع التميز للأعيان كاختلاط الأعبد والدور والأفراس، والذي يختلط بالاستبهام فلا يخلو: إما أن يكون مما يقصد عينه كالعروض، أو لا يقصد كالنقود، فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن تستبهم العين بعدد محصور، كما لو اختلطت الميتة بمذكاة أو بعشر مذكيات، أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة، أو يتزوّج إحدى الأختين ثم تلتبس، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع؛ لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا، وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد، فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل، ولا فرق في هذا بين أن يثبت حل فيطرأ اختلاط بمحرّم؛ كما لو

أوقع الطلاق على إحدى زوجتين في مسألة الطائر، أو يختلط قبل الاستحلال؛ كما لو اختلطت رضيعة بأجنبية فأراد استحلال واحدة، وهذا قد يشكل في طريان التحريم كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب. وقد نبهنا على وجه الجواب: وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فضعف الاستصحاب، وجانب الحظر أغلب في نظر الشرع، فلذلك ترجح، وهذا إذا اختلط حلال محصور بحرام محصور. فإن اختلط حلال محصور بحرام غير محصور، فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى.

القسم الثاني: حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح نساء أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن، وهذا لا يجوز أن يعلل بكثرة الحلال؛ إذ يلزم عليه أن يجوّز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال ولا قائل به، بل العلة الغلبة والحاجة جميعاً؛ إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يسدّ عليه باب النكاح، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل، فإن كل ذلك حرج، وما في الدين من حرج. ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله ﷺ مجنّ[(١)]، وغلّ واحد في الغنيمة عباءة[(٢)]؛ لم يمتنع أحد من شراء المجان والعباء في الدنيا، وكذلك كل ما سرق، وكذلك كان يعرف أن في الناس من يربي في الدراهم والدنانير، وما ترك رسول الله ﷺ ولا الناس الدراهم والدنانير بالكلية[(٣)].

وبالجملة: إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصي، وهو محال. وإذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين، بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين؛ إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة، ولا يتصوّر الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار.

فإن قلت: فكل عدد محصور في علم الله، فما حدّ المحصور؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضاً إن تمكن منه، فاعلم: أن تحديد أمثال هذه غير ممكن، وإنما يضبط بالتقريب، فنقول: كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عدهم بمجرد النظر، كالألف والألفين فهو غير محصور، وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن، وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب، فإن الإثم حزاز القلوب. وفي مثل هذا المقام قال رسول الله ﷺ لوابصة: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ**»[(٤)] وكذا الأقسام الأربعة التي ذكرناها في المثار الأوّل يقع فيها أطراف متقابلة واضحة في النفي والإثبات وأوساط متشابهة، فالمفتي يفتي بالظن، وعلى المستفتي أن يستفتي قلبه، فإن حاك في صدره شيء فهو الآثم بينه وبين الله، فلا ينجيه في الآخرة فتوى المفتي، فإنه يفتي بالظاهر والله يتولى السرائر.

---

(١) حديث: «**سرقة المجن في زمان رسول الله ﷺ**» متفق عليه من حديث ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم».

(٢) حديث: «**غل واحد من الغنائم عباءة**» رواه البخاري من حديث عبدالله بن عمر، واسم الغال: كركرة.

(٣) حديث: «**إن في الناس من كان يربي في الدراهم والدنانير، وما ترك رسول الله ﷺ ولا الناس الدراهم بالكلية**»، هذا معروف، وسيأتي حديث جابر بعده بحديث. وهو يدل على ذلك.

(٤) حديث: «**استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك**» قاله لوابصة، تقدم.

القسم الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كحكم الأموال في زماننا هذا، فالذي يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور، وقد حكمنا ثم بالتحريم، فلنحكم هنا به، والذي نختاره خلاف ذلك: وهو أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمل أنه حرام وأنه حلال، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام، فإن لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام فتركه ورع، وأخذه حلال لا يفسق به آكله.

ومن العلامات: أن يأخذه من يد سلطان ظالم، إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتي ذكرها، ويدل عليه الأثر والقياس، فأما الأثر: فما علم في زمن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين بعده؛ إذ كانت أثمان الخمور ودراهم الربا من أيدي أهل الذمة مختلطة بالأموال، وكذا غلول الأموال، وكذا غلول الغنيمة، ومن الوقت الذي نهى ﷺ عن الربا إذ قال: «**أَوَّلُ رِبَا أَضَعُهُ رِبَا العَبَّاسِ**»[1] ما ترك الناس الربا بأجمعهم كما لم يتركوا شرب الخمور وسائر المعاصي، حتى روي أن بعض أصحاب النبي ﷺ باع الخمر، فقال عمر رضي الله عنه: لعن الله فلاناً هو أول من سن بيع الخمر؛ إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لثمنها. وقال ﷺ: «**إِنَّ فُلَاناً يَجُرُّ فِي النَّارِ عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا**»[2]. وقتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزات من خرز اليهود لا تساوي درهمين قد غلها[3]. وكذلك أدرك أصحاب رسول الله ﷺ الأمراء الظلمة ولم يمتنع أحد منهم عن الشراء والبيع في السوق بسبب نهب المدينة وقد نهبها أصحاب يزيد ثلاثة أيام، وكان من يمتنع من تلك الأموال مشاراً إليه في الورع، والأكثرون لم يمتنعوا مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة في أيام الظلمة. ومن أوجب ما لم يوجبه السلف الصالح وزعم أنه تفطن من الشرع ما لم يتفطنوا له فهو موسوس مختل العقل، ولو جاز أن يزاد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم: «إن الجدة كالأم في التحريم وابن الابن كالابن، وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن، والربا جار فيما عدا الأشياء الستة. وذلك محال فإنهم أولى بفهم الشرع من غيرهم. وأما القياس: فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسد باب جميع التصرفات وخرب العالم؛ إذ الفسق يغلب على الناس ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود ويؤدي ذلك لا محالة إلى الاختلاط.

فإن قيل: فقد نقلتم أنه ﷺ امتنع من الضب وقال: «**أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ مِمَّا مَسَخَهُ اللهُ**» وهو في اختلاط غير المحصور؟ قلنا: يحمل ذلك على التنزه والورع أو نقول الضب شكل غريب ربما يدل على أنه من المسخ فهي دلالة في عين المتناول.

فإن قيل: هذا معلوم في زمان رسول الله ﷺ وزمان الصحابة بسبب الربا والسرقة والنهب وغلول الغنيمة وغيرها، ولكن كانت هي الأقل بالإضافة إلى الحلال. فماذا تقول في زماننا وقد صار الحرام أكثر ما في أيدي الناس؛ لفساد المعاملات وإهمال شروطها وكثرة الربا وأموال السلاطين الظلمة، فمن أخذ

---

(١) حديث: «**أول ربا أضعه ربا العباس**» أخرجه مسلم من حديث جابر.

(٢) حديث: «**إن فلاناً في النار يجر عباءة قد غلها**» رواه البخاري من حديث عبدالله بن عمر، وتقدم قبله بثلاثة أحاديث.

(٣) حديث: «قتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين قد غله». رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهني.

مالاً لم يشهد عليه علامة معينة في عينه للتحريم فهل هو حرام أم لا؟ فأقول: ليس ذلك حراماً وإنما الورع تركه وهذا الورع أهم من الورع إذا كان قليلاً.

ولكن الجواب عن هذا: أن قول القائل أكثر الأموال حرام في زماننا غلط محض ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والأكثر، فأكثر الناس بل أكثر الفقهاء يظنون أن ما ليس بنادر فهو الأكثر ويتوهمون أنهما قسمان متقابلان ليس بينهما ثالث، وليس كذلك بل الأقسام ثلاثة: قليل وهو النادر وكثير وأكثر. ومثاله: أنّ الخنثى فيما بين الخلق نادر وإذا أضيف إليه المريض وجدت كثيراً، وكذا السفر حتى يقال المرض والسفر من الأعذار العامة والاستحاضة من الأعذار النادرة، ومعلوم أنّ المريض ليس بنادر وليس بالأكثر أيضاً بل هو كثير. والفقيه إذا تساهل وقال: المرض والسفر غالب وهو عذر عام أراد به أنه ليس بنادر فإن لم يرد هذا فهو غلط، والصحيح والمقيم هو الأكثر والمسافر والمريض كثير والمستحاضة والخنثى نادر. فإذا فهم هذا فنقول: قول القائل الحرام أكثر، باطل؛ لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلمة والجندية أو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة أو كثرة الأيدي التي تكرّرت من أوّل الإسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم.

أما المستند الأوّل، فباطل فإن الظالم كثير وليس هو بالأكثر، فإنهم الجندية؛ إذ لا يظلم إلا ذو غلبة وشوكة وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشيرهم، فكل سلطان يجتمع عليه من الجنود مائة ألف مثلاً فيملك إقليماً يجمع ألف ألف وزيادة، ولعل بلدة واحدة من بلاد مملكته يزيد عددها على جميع عسكره، ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لهلك الكل؛ إذ كان يجب على كل واحد من الرعية أن يقوم بعشرة منهم مثلاً مع تنعمهم في المعيشة ولا يتصّور ذلك، بل كفاية الواحد كان منهم تجمع من ألف من الرعية وزيادة، وكذا القول في السراق فإن البلدة الكبيرة تشتمل منهم على قدر قليل.

وأما المستند الثاني: وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة فهي أيضاً كثيرة وليست بالأكثر؛ إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع فعدد هؤلاء أكثر والذي يعامل بالربا أو غيره فلو عددت معاملاته وحده لكان عدد الصحيح منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الإنسان بوهمه في البلد مخصوصاً بالمجانة والخبث وقلة الدين حتى يتصوّر أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر، ومثل ذلك المخصوص نادر وإن كان كثيراً فليس بالأكثر لو كان كل معاملاته فاسدة كيف ولا يخلو هو أيضاً عن معاملات صحيحة تساوي الفاسدة أو تزيد عليها، وهذا مقطوع به لمن تأمله، وإنما غلب هذا على النفوس لاستكثار النفوس الفساد واستبعادها إياه واستعظامها له وإن كان نادراً، حتى ربما يظن أن الربا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام فيتخيل أنهم الأكثرون وهو خطأ، فإنهم الأقلون وإن كان فيهم كثرة.

وأما المستند الثالث: وهو أخيلها، أن يقال: الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان، والنبات والحيوان حاصلان بالتوالد، فإذا نظرنا إلى شاة مثلاً وهي تلد في كل سنة فيكون عدد أصولها إلى زمان رسول الله ﷺ قريباً من خمسمائة، ولا يخلو هذا أن يتطرق إلى أصل من تلك الأصول غصب أو معاملة فاسدة، فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا؟ وكذا بذور الحبوب والفواكه تحتاج إلى خمسمائة أصل أو ألف أصل مثلاً إلى أول زمان الشرع ولا يكون هذا حلالاً ما لم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حلالاً، وأما المعادن فهي التي يمكن نيلها على سبيل الابتداء، وهي أقل الأموال، وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدنانير، ولا تخرج إلا من دار الضرب، وهي في أيدي الظلمة، مثل المعادن في أيديهم يمنعون الناس منها ويلزمون الفقراء استخراجها بالأعمال

الشاقة، ثم يأخذونها منهم غصباً، فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لا يتطرق إليه عقد فاسد ولا ظلم وقت النيل ولا وقت الضرب في دار الضرب ولا بعده في معاملات الصرف، والربا بعيد نادر أو محال، فلا يبقى إذن حلال إلا الصيد والحشيش في الصحارى الموات والمفاوز والحطب المباح، ثم من يحصله لا يقدر على أكله فيفتقر إلى أن يشتري به الحبوب والحيوانات التي لا تحصل إلا بالاستنبات والتوالد، فيكون قد بذل حلالاً في مقابلة حرام فهذا هو أشد الطرق تخيلاً.

والجواب: أن هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال فخرج عن النمط الذي نحن فيه والتحق بما ذكرناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب؛ إذ الأصل في هذه الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضي عليها وقد عارضه سبب غالب يخرجه عن الصلاح له فيضاهي هذا محل القولين للشافعي رضي الله عنه في حكم النجاسات، والصحيح عندنا أنه تجوز الصلاة في الشوارع إذا لم يجد فيها نجاسة فإن طين الشوارع طاهر، وأن الوضوء من أواني المشركين جائز، وأن الصلاة في المقابر المنبوشة جائزة، فنثبت هذا أوّلاً ثم نقيس ما نحن فيه عليه، ويدل على ذلك توضؤ رسول الله ﷺ من مزادة مشركة، وتوضؤ عمر رضي الله عنه من جرّة نصرانية مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون عما نجسه شرعنا، فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم؟ بل نقول: نعلم قطعاً أنهم كانوا يلبسون الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة، ومن تأمل أحوال الدباغين والقصارين والصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة، وأنّ الطهارة في تلك الثياب محال أو نادر، بل نقول: نعلم أنهم كانوا يأكلون خبز البر والشعير ولا يغسلونه مع أنه يداس بالبقر والحيوانات وهي تبول عليه وتروث وقلما يخلص منها، وكانوا يركبون الدواب وهي تعرق وما كانوا يغسلون ظهورها مع كثرة تمرّغها في النجاسات، بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة قد تزيلها الأمطار وقد لا تزيلها وما كان يحترز عنها، وكانوا يمشون حفاة في الطرق وبالنعال ويصلون معها ويجلسون على التراب ويمشون في الطين من غير حاجة، وكانوا لا يمشون في البول والعذرة ولا يجلسون عليهما ويستنزهون منه، ومتى تسلم الشوارع عن النجاسات مع كثرة الكلاب وأبوالها وكثرة الدواب وأرواثها؟ ولا ينبغي أن نظن أن الأعصار أو الأمصار تختلف في مثل هذا حتى يظن أن الشوارع كانت تغسل في عصرهم أو كانت تحرس من الدواب، هيهات، فذلك معلوم استحالته بالعادة قطعاً فدل على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو علامة على النجاسة دالة على العين. فأما الظن الغالب الذي يستثار من رد الدراهم إلى مجاري الأحوال فلم يعتبروه، وهذا عند الشافعي رحمه الله، وهو يرى أن الماء القليل ينجس من غير تغير واقع؛ إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ويتوضؤون من الحياض وفيها المياه القليلة والأيدي المختلفة تغمس فيها على الدوام، وهذا قاطع في هذا الغرض - ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ثبت جواز شربه والتحق حكم الحل بحكم النجاسة.

فإن قيل: لا يجوز قياس الحل على النجاسة؛ إذ كانوا يتوسعون في أمور الطهارات ويحترزون من شبهات الحرام غاية التحرّز فكيف يقاس عليها؟ قلنا: إن أريد به أنهم صلوا معها مع النجاسة والصلاة معها معصية وهي عماد الدين فبئس الظن، بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احترزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها، وإنما تسامحوا حيث لم يجب، وكان في محل تسامحهم هذه الصورة التي تعارض فيها الأصل والغالب، فبان أنّ الغالب الذي لا يستند إلى علامة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح، وأما تورعهم في الحلال فكان بطريق التقوى وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس؛ لأنّ أمر الأموال مخوف والنفس

تميل إليها إن لم تضبط عنها، وأمر الطهارة ليس كذلك؛ فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه. وقد حكي عن واحد منهم أنه احترز من الوضوء بماء البحر وهو الطهور المحض، فالافتراق في ذلك لا يقدح في الغرض الذي أجمعنا فيه، على أنا نجري في هذا المستند على الجواب الذي قدّمنا في المستندين السابقين، ولا نسلم ما ذكروه من أنّ الأكثر هو الحرام، لأنّ المال وإن كثرت أصوله فليس بواجب أن يكون في أصوله حرام، بل الأموال الموجودة اليوم مما تطرق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض، وكما أن الذي يبتدأ غصبه اليوم هو الأقل بالإضافة إلى ما لا يغصب ولا يسرق، فهكذا كل مال في كل عصر وفي كل أصل، فالمغصوب من مال الدنيا والمتناول في كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل. ولسنا ندري أنّ هذا الفرع بعينه من أي القسمين؟ فلا نسلم أن الغالب تحريمه فإنه كما يزيد المغصوب بالتوالد يزيد غير المغصوب بالتوالد، فيكون فرع الأكثر لا محالة في كل عصر وزمان أكثر، بل الغالب أن الحبوب المغصوبة تغصب للأكل لا للبذر، وكذا الحيوانات المغصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتنى للتوالد، فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر، ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام؟ وليتفهم المسترشد من هذا طريق معرفة الأكثر فإنه مزلة قدم وأكثر العلماء يغلطون فيه، فكيف العوام؟ هذا في المتولدات من الحيوانات والحبوب، فأما المعادن فإنها مخلاة مسبلة يأخذها في بلاد الترك وغيرها من شاء، ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم أو يأخذون الأقل لا محالة لا الأكثر، ومن حاز من السلاطين معدناً فظلمه يمنع الناس منه، فأما ما يأخذه الآخذ منه فيأخذه من السلطان بأجرة، والصحيح: أنه يجوز الاستنابة في إثبات اليد على المباحات والاستئجار عليها، فالمستأجر على الاستقاء إذا حاز الماء دخل في ملك المستقي له واستحق الأجرة، فكذلك النيل، فإذا فرعنا على هذا لم تحرم عين الذهب إلا أن يقدر ظلمه بنقصان أجرة العمل وذلك قليل بالإضافة، ثم لا يوجب تحريم عين الذهب بل يكون ظالماً ببقاء الأجرة في ذمته، وأما دار الضرب فليس الخارج منها من أعيان ذهب السلطان الذي غصبه وظلم به الناس، بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك أو النقد الرديء ويستأجرونهم على السبك والضرب، ويأخذون مثل وزن ما سلموه إليهم إلا شيئاً قليلاً يتركونه أجرة لهم على العمل وذلك جائز، وإن فرض دنانير مضروبة من دنانير السلطان فهو بالإضافة إلى مال التجار أقل لا محالة، نعم السلطان يظلم أجراء دار الضرب بأن يأخذ منهم ضريبة لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس حتى توفر عليهم مال بحشمة السلطان، فما يأخذه السلطان عوض عن حشمته وذلك من باب الظلم، وهو قليل بالإضافة إلى ما يخرج من دار الضرب فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة ما يخرج منه من المائة واحد وهو عشر العشير، فكيف يكون هو الأكثر؟ فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم، وتشمر لتزيينها جماعة ممن رق دينهم حتى قبحوا الورع وسدّوا بابه، واستقبحوا تمييز من يميز بين مال ومال، وذلك عين البدعة والضلال.

فإن قيل: فلو قدر غلبة الحرام وقد اختلط غير محصور بغير محصور فماذا تقولون فيه إذا لم يكن في العين المتناولة علامة خاصة؟ فنقول: الذي نراه أن تركه ورع وأن أخذه ليس بحرام؛ لأن الأصل الحل ولا يرفع إلا بعلامة معينة كما في طين الشوارع ونظائرها. بل أزيد وأقول: لو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقيناً أنه لم يبق في الدنيا حلال لكنت أقول: نستأنف تمهيد الشروط من وقتنا ونعفو عما سلف، ونقول ما جاوز حدّه انعكس إلى ضدّه، فمهما حرم الكل حل الكل. وبرهانه: أنه إذا وقعت هذه الواقعة فالاحتمالات خمسة:

أحدها: أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا من عند آخرهم.

الثاني: أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسدّ الرمق يزجون عليها أياماً إلى الموت.

الثالث: أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاؤوا سرقة وغصباً وتراضياً، من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة.

الرابع: أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة.

الخامس: أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة.

أما الأول: فلا يخفى بطلانه.

وأما الثاني: فباطل قطعاً؛ لأنه إذا اقتصر الناس على سدّ الرمق وزجوا أوقاتهم على الضعف فشا فيهم الموتان وبطلت الأعمال والصناعات وخربت الدنيا بالكلية ـ وفي خراب الدنيا خراب الدين، لأنها مزرعة الآخرة ـ وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات بل أكثر أحكام الفقه مقصودها حفظ مصالح الدنيا ليتم بها مصالح الدين.

وأما الثالث: وهو الاقتصار على قدر الحاجة من غير زيادة عليه مع التسوية بين مال ومال بالغصب والسرقة والتراضي وكيفما اتفق، فهو رفع لسد الشرع بين المفسدين وبين أنواع الفساد، فتمتد الأيدي بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم منه إذ يقولون: ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عنا فإنه حرام عليه وعلينا، وذو اليد له قدر الحاجة فقط، فإن كان هو محتاجاً فإنهم أيضاً محتاجون، وإن كان الذي أخذته في حقي زائداً على الحاجة فقد سرقته ممن هو زائد على حاجته يومه، وإذا لم يراع حاجة اليوم والسنة فما الذي يراعى وكيف يضبط؟ وهذا يؤدي إلى بطلان سياسة الشرع وإغراء أهل الفساد بالفساد.

فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع وهو: أن يقال كل ذي يد على ما في يده وهو أولى به لا يجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصباً، بل يؤخذ برضاه والتراضي هو طريق الشرع، وإذ لم يجز إلا بالتراضي فللتراضي أيضاً منهاج في الشرع تتعلق به المصالح، فإن لم يعتبر فلم يتعين أصل التراضي وتعطل تفصيله؟

وأما الاحتمال الخامس: وهو الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي فهو الذي نراه لائقاً بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة، ولكن لا وجه لإيجابه على الكافة ولا لإدخاله في فتوى العامة؛ لأن أيدي الظلمة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة في أيدي الناس وكذا أيدي السراق، وكل من غلب سلب وكل من وجد فرصة سرق ويقول: لا حق له إلا في قدر الحاجة وأنا محتاج، ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدي الملاك، ويستوعب بها أهل الحاجة ويدر على الكل الأموال ـ يوماً فيوماً أو سنة فسنة ـ وفيه تكليف شطط وتضييع أموال، أما تكليف الشطط: فهو أنّ السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخلق، بل لا يتصوّر ذلك أصلاً، وأما التضييع: فهو أن ما فضل عن الحاجة من الفواكه واللحوم والحبوب ينبغي أن يلقى في البحر أو يترك حتى يتعفن؛ فإن الذي خلقه الله من الفواكه والحبوب زائد عن قدر توسع الخلق وترفههم فكيف على قدر حاجتهم؟ ثم يؤدي ذلك إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية وكل عبادة نيطت بالغنى عن الناس، إذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم وهو في غاية القبح، بل أقول: لو ورد نبي في مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر، ويمهد تفصيل أسباب الأملاك بالتراضي وسائر الطرق، ويفعل ما يفعله لو وجد جميع الأموال حلالاً من غير فرق. وأعني بقولي:

يجب عليه، إذا كان النبي ممن بعث لمصلحة الخلق في دينهم ودنياهم؛ إذ لا يتم الصلاح برد الكافة إلى قدر الضرورة والحاجة إليه، فإن لم يبعث للصلاح لم يجب هذا. ونحن نجوّز أن يقدّر الله سبباً يهلك به الخلق عن آخرهم فيفوت دنياهم ويضلون في دينهم، فإنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويميت من يشاء ويحيي من يشاء، ولكنا نقدّر الأمر جارياً على ما أُلف من سنة الله تعالى في بعثه الأنبياء لصلاح الدين والدنيا. وما لي أقدّر هذا وقد كان ما أقدّره؛ فلقد بعث الله نبينا ﷺ على فترة من الرسل وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستمائة سنة، والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبدة الأوثان وإلى مصدّقين له قد شاع الفسق فيهم كما شاع في زماننا الآن والكفار مخاطبون بفروع الشريعة. والأموال كانت في أيدي المكذبين له والمصدقين، أما المكذبون: فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام. وأما المصدّقون: فكانوا يتساهلون مع أصل التصديق، كما يتساهل الآن المسلمون مع أن العهد بالنبوة أقرب فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراماً. وعفا ﷺ عما سلف ولم يتعرض له وخصص أصحاب الأيدي بالأموال ومهد الشرع، وما ثبت تحريمه في شرع لا ينقلب حلالاً لبعثة رسول، ولا ينقلب حلالاً بأن يسلم الذي في يده الحرام، فإنا لا نأخذ في الجزية من أهل الذمة ما نعرفه بعينه أنه ثمن خمر أو مال ربا؛ فقد كانت أموالهم في ذلك الزمان كأموالنا الآن، وأمر العرب كان أشدّ لعموم النهب والغارة فيهم. فبان أن الاحتمال الرابع متعين في الفتوى، والاحتمال الخامس هو طريق الورع، بل تمام الورع: الاقتصار في المباح على قدر الحاجة، وترك التوسع في الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة. ونحن الآن نتكلم في الفقه المنوط بمصالح الخلق، وفتوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح وطريق الدين الذي لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد، ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام وخرب العالم، فإن ذلك طلب ملك كبير في الآخرة، ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا وتركوا الحرف الدنيئة والصناعات الخسيسة لبطل النظام ثم يبطل ببطلانه الملك أيضاً. فالمحترفون إنما سخروا لينتظم الملك للملوك، وكذلك المقبلون على الدنيا سخروا ليسلم طريق الدين لذوي الدين وهو ملك الآخرة، ولولاه لما سلم لذوي الدين أيضاً دينهم فشرط سلامة الدين لهم: أن يعرض الأكثرون عن طريقهم ويشتغلوا بأمور الدنيا، وذلك قسمة سبقت بها المشيئة الأزلية وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

فإن قيل: لا حاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لا يبقى حلال فإن ذلك غير واقع وهو معلوم ولا شك في أن البعض حرام، وذلك البعض هو الأقل أو الأكثر فيه نظر، وما ذكرتموه من أنه الأقل بالإضافة إلى الكل جلي، ولكن لا بدّ من دليل محصل على تجويزه ليس من المصالح المرسلة، وما ذكرتموه من التقسيمات كلها مصالح مرسلة فلا بدّ لها من شاهد معين تقاس عليه حتى يكون الدليل مقبولاً بالاتفاق، فإن بعض العلماء لا يقبل المصالح المرسلة؟.

فأقول: إن سلم أن الحرام هو الأقل فيكفينا برهاناً عصر رسول الله ﷺ والصحابة مع وجود الربا والسرقة والغلول والنهب، وإن قدر زمان يكون الأكثر الحرام هو فيحل التناول أيضاً فبرهانه ثلاثة أمور:

الأول: التقسيم الذي حصرناه وأبطلنا منه أربعة وأثبتنا القسم الخامس فإن ذلك إذا أجري فيما إذا كان الكل حراماً كان أحرى فيما إذا كان الحرام هو الأكثر أو الأقل، وقول القائل، هو مصلحة مرسلة: هوس، فإن ذلك إنما تخيل من تخيله في أمور مظنونة وهذا مقطوع به، فإنا لا نشك في أن مصلحة الدين

والدنيا مراد الشرع وهو معلوم بالضرورة، وليس بمظنون ولا شك في أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة أو إلى الحشيش والصيد مخرب للدنيا أوّلاً، وللدين بواسطة الدنيا ثانياً، فما لا يشك فيه لا يحتاج إلى أصل يشهد له وإنما يستشهد على الخيالات المظنونة المتعلقة بآحاد الأشخاص.

البرهان الثاني: أن يعلل بقياس محرّر مردود إلى أصل يتفق الفقهاء الآنسون بالأقيسة الجزئية عليه، وإن كانت الجزئيات مستحقرة عند المحصلين بالإضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر الكلي الذي هو ضرورة النبي لو بعث في زمان عم التحريم فيه حتى لو حكم بغيره لخرب العالم، والقياس المحرّر الجزئي هو أنه قد تعارض أصل وغالب فيما انقطعت فيه العلامات المعينة من الأمور التي ليست محصورة، فيحكم بالأصل لا بالغالب قياساً على طين الشوارع وجرّة النصرانية وأواني المشركين، وذلك قد أثبتناه من قبل بفعل الصحابة، وقولنا: انقطعت العلامات المعينة، احتراز عن الأواني التي يتطرّق الاجتهاد إليها. وقولنا: ليست محصورة، احتراز عن التباس الميتة والرضيعة بالذكية والأجنبية.

فإن قيل: كون الماء طهوراً مستيقن وهو الأصل، ومن يسلم أن الأصل في الأموال الحل بل الأصل فيها التحريم؟

فنقول: الأمور التي لا تحرم لصفة في عينها حرمة الخمر والخنزير خلقت على صفة تستعد لقبول المعاملات بالتراضي كما خلق الماء مستعداً للوضوء، وقد وقع الشك في بطلان هذا الاستعداد منهما فلا فرق بين الأمرين فإنها تخرج عن قبول المعاملة بالتراضي بدخول الظلم عليها، كما يخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول النجاسة عليه ولا فرق بين الأمرين. والجواب الثاني: أن اليد دلالة ظاهرة دالة على الملك نازلة منزلة الاستصحاب، وأقوى منه بدليل أن الشرع ألحقه به؛ إذ من ادعى عليه دين فالقول قوله لأن الأصل براءة ذمته وهذا استصحاب. ومن ادعى عليه ملك في يده فالقول أيضاً قوله إقامة لليد مقام الاستصحاب، فكل ما وجد في يد إنسان فالأصل أنه ملكه ما لم يدل على خلافه علامة معينة.

البرهان الثالث: هو أن كل ما دل على جنس لا يحصر ولا يدل على معين لم يعتبر، وإن كان قطعاً فبأن لا يعتبر إذا دل بطريق الظن أولى، وبيانه: أن ما علم أنه ملك زيد فحقه يمنع من التصرف فيه بغير إذنه، ولو علم أن له مالكاً في العالم ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه فهو مال مرصد لمصالح المسلمين يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة، ولو دل على أن له مالكاً محصوراً في عشرة مثلاً أو عشرين امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة، فالذي يشك في أن له مالكاً سوى صاحب اليد أم لا؟ لا يزيد على الذي يتيقن قطعاً أن له مالكاً، ولكن لا يعرف عينه فليجز التصرف فيه بالمصلحة، والمصلحة ما ذكرناه في الأقسام الخمسة، فيكون هذا الأصل شاهداً له، وكيف لا وكل مال ضائع فقد مالكه يصرفه السلطان إلى المصالح، ومن المصالح الفقراء وغيرهم، فلو صرف إلى فقير ملكه ونفذ فيه تصرفه، فلو سرقه منه سارق قطعت يده فكيف نفذ تصرفه في ملك الغير؟ ليس ذلك إلا لحكمنا بأن المصلحة تقتضي أن ينتقل الملك إليه ويحل له، فقضينا بموجب المصلحة.

فإن قيل: ذلك يختص بالتصرف فيه السلطان؟ فنقول: والسلطان لم يجوز له التصرف في ملك غيره بغير إذنه لا سبب له إلا المصلحة، وهو أنه لو ترك لضاع فهو مردد بين تضييعه وصرفه إلى مهم، والصرف إلى مهم أصلح من التضييع فرجع عليه، والمصلحة فيما يشك فيه ولا يعلم تحريمه أن يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدي؛ إذ انتزاعها بالشك وتكليفهم الاقتصار على الحاجة يؤدي إلى الضرر الذي ذكرناه، وجهات المصلحة تختلف فإن السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبني بذلك المال

قنطرة، وتارة أن يصرفه إلى جند الإسلام، وتارة إلى الفقراء ويدور مع المصلحة كيفما دارت، وكذلك الفتوى في مثل هذا تدور على المصلحة، وقد خرج من هذا: أن الخلق غير مأخوذين في أعيان الأموال بظنون لا تستند إلى خصوص دلالة في ملك الأعيان كما لم يؤاخذ السلطان والفقراء الآخذون منه بعلمهم أن المال له مالك حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه، ولا فرق بين عين المالك وبين عين الأملاك في هذا المعنى، فهذا بيان شبهة الاختلاط، ولم يبق إلا النظر في امتزاج المائعات والدراهم والعروض في يد مالك واحد وسيأتي بيانه في باب تفصيل طريق الخروج من المظالم.

المثار الثالث للشبهة: أن يتصل بالسبب المحلل معصية:

إما في قرائنه وإما في لواحقه وإما في سوابقه أو في عوضه، وكانت من المعاصي التي لا توجب فساد العقد وإبطال السبب المحلل.

مثال المعصية في القرائن: البيع في وقت النداء يوم الجمعة، والذبح بالسكين المغصوبة، والاحتطاب بالقدّوم المغصوب، والبيع على بيع الغير، والسوم على سومه، فكل نهي ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع، وإن لم يكن المستفاد بهذه الأساليب محكوماً بتحريمه. وتسمية هذا النمط شبهة فيه تسامح؛ لأن الشبهة في غالب الأمر تطلق لإرادة الاشتباه والجهل ولا اشتباه ههنا، بل العصيان بالذبح بسكين الغير معلوم، وحل الذبيحة أيضاً معلوم، ولكن قد تشتق الشبهة من المشابهة، وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه، والكراهة تشبه التحريم. فإن أريد بالشبهة هذا فتسمية هذا شبهة له وجه، وإلا فينبغي أن يسمى هذا كراهة لا شبهة، وإذا عرف المعنى فلا مشاحة في الأسامي، فعادة الفقهاء التسامح في الإطلاقات. ثم اعلم: أن هذه الكراهة لها ثلاث درجات: الأولى منها تقرب من الحرام والورع عنه مهم، والأخيرة تنتهي إلى نوع من المبالغة تكاد تلتحق بورع الموسوسين، وبينهما أوساط نازعة إلى الطرفين، فالكراهة في صيد كلب مغصوب أشد منها في الذبيحة بسكين مغصوب أو المقتنص بسهم مغصوب؛ إذ الكلب له اختيار. وقد اختلف في أن الحاصل به لمالك الكلب أو للصياد، ويليه شبهة البذر المزروع في الأرض المغصوبة، فإنَّ الزرع لمالك البذر ولكن فيه شبهة، ولو أثبتنا حق الحبس لمالك الأرض في الزرع لكان كالثمن الحرام، ولكن الأقيس أن لا يثبت حق حبس؛ كما لو طحن بطاحونة مغصوبة؛ واقتنص بشبكة مغصوبة إذ لا يتعلق حق صاحب الشبكة في منفعتها بالصيد، ويليه الاحتطاب بالقدوم المغصوب ثم ذبحه ملك نفسه بالسكين المغصوب؛ إذ لم يذهب أحد إلى تحريم الذبيحة، ويليه البيع في وقت النداء؛ فإنه ضعيف التعلق بمقصود العقد وإن ذهب قوم إلى فساد العقد؛ إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه، ولو أفسد البيع بمثله لأفسد بيع كل من عليه درهم زكاة أو صلاة فائتة وجوبها على الفور، أو في ذمته مظلمة دانق، فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجبات فليس للجمعة إلا الوجوب بعد النداء، وينجرّ ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلمة وكل من في ذمته درهم؛ لأنه اشتغل بقوله عن الفعل الواجب عليه، إلا من حيث ورد في يوم الجمعة نهي على الخصوص ربما سبق إلى الأفهام خصوصية فيه فتكون الكراهة أشد ولا بأس بالحذر منه، ولكن قد ينجر إلى الوسواس حتى يتحرج عن نكاح بنات أرباب المظالم وسائر معاملاتهم.

وقد حكي عن بعضهم أنه اشترى شيئاً من رجل فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة، فرده خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء، وهذا غاية المبالغة أنه رد بالشك. ومثل هذا الوهم في تقدير المناهي أو

المفسدات لا ينقطع عن يوم السبت وسائر الأيام، والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حد معلوم، فقد قال ﷺ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»(١) فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه، فيترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس في زماننا هذا؛ إذ ضيّق عليهم الطريق فأيسوا عن القيام به فاطرحوه، فكما أن الموسوس في الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها، فكذا بعض الموسوسين في الحلال سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسعوا فتركوا التمييز وهو عين الضلال.

وأما مثال اللواحق: فهو كل تصرف يفضي في سياقه إلى معصية. وأعلاه بيع العنب من الخمار، وبيع الغلام من المعروف بالفجور بالغلمان، وبيع السيف من قطاع الطريق. وقد اختلف العلماء في صحة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه. والأقيس: أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما يعصى بالذبح بالسكين المغصوب والذبيحة حلال، ولكنه يعصى عصيان الإعانة على المعصية إذ لا يتعلق ذلك بعين العقد، فالمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم وليس بحرام، ويليه في الرتبة: بيع العنب ممن يشرب الخمر ولم يكن خماراً، وبيع السيف ممن يغزو ويظلم أيضاً لأن الاحتمال قد تعارض، وقد كره السلف بيع السيف في وقت الفتنة؛ خيفة أن يشتريه ظالم فهذا ورع فوق الأوّل والكراهية فيه أخف، ويليه ما هو مبالغة ويكاد يلتحق بالوسواس؛ وهو قول جماعة أنه لا تجوز معاملة الفلاحين بآلات الحرث، لأنهم يستعينون بها على الحراثة، ويبيعون الطعام من الظلمة ولا يباع منهم البقر والفدان وآلات الحارث، وهذا ورع الوسوسة؛ إذ ينجرّ إلى أن لا يباع من الفلاح طعام لأنه يتقوى به على الحراثة ولا يسقى من الماء العام لذلك، وينتهي هذا إلى حد التنطع المنهي عنه. وكل متوجه إلى شيء على قصد خير لا بد وأن يسرف إن لم يذمه العلم المحقق، وربما يقدم على ما يكون بدعة في الدين ليستضر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير، ولهذا قال ﷺ: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدْنَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي**»(٢) والمتنطعون: هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤].

وبالجملة: لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن؛ فإنه إذا جاوز ما رسم وتصرف بذهنه من غير سماع كان ما يفسده أكثر مما يصلحه. وقد روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه أحرق كرمه خوفاً من أن يباع العنب ممن يتخذه خمراً. وهذا لا أعرف له وجهاً إن لم يعرف هو سبباً خاصاً يوجب الإحراق؟ إذ ما أحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدراً منه من الصحابة، ولو جاز هذا لجاز قطع الذكر خيفة من الزنى، وقطع اللسان خيفة من الكذب، إلى غير ذلك من الإتلافات.

وأما المقدمات: فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات:

الدرجة العليا: التي يشتد الكراهة فيها: ما بقي أثره في المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب أو رعت في مرعى حرام، فإن ذلك معصية وقد كان سبباً لبقائها وربما يكون الباقي من دمها ولحمها وأجزائها من ذلك العلف، وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجباً، ونقل ذلك عن جماعة من

(١) حديث: «**هلك المتنطعون**» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود، وتقدم في قواعد العقائد.

(٢) حديث: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي**» تقدم في العلم.

السلف. وكان لأبي عبدالله الطوسي التروغندي شاة يحملها على رقبته كل يوم إلى الصحراء ويرعاها وهو يصلي وكان يأكل من لبنها فغفل عنها ساعة فتناولت من ورق كرم على طرف بستان فتركها في البستان ولم يستحل أخذها.

فإن قيل: فقد روي عن عبدالله بن عمرو وعبيدالله أنهما اشتريا إبلاً فبعثاها إلى الحمى فرعته إبلهما حتى سمنت، فقال عمر رضي الله عنه: أرعيتماها في الحمى؟ فقالا: نعم؟ فشاطرهما. فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من العلف لصاحب العلف فليوجب هذا تحريماً.

قلنا: ليس كذلك، فإن العلف يفسد بالأكل واللحم خلق جديد وليس عين العلف فلا شركة لصاحب العلف شرعاً، ولكن عمر غرّمهما قيمة الكلأ ورأى ذلك مثل شطر الإبل فأخذ الشطر بالاجتهاد، كما شاطر سعد بن أبي وقاص ماله لما أن قدم من الكوفة، وكذلك شاطر أبا هريرة رضي الله عنه إذ رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافياً على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهاداً.

الرتبة الوسطى: ما نقل عن بشر بن الحارث من امتناعه عن الماء المساق في نهر احتفره الظلمة، لأن النهر موصل إليه وقد عصي الله بحفره. وامتنع آخر عن عنب كرم يسقى بماء يجري في نهر حفر ظلماً وهو أرفع منه وأبلغ في الورع. وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين في الطرق. وأعلى من ذلك امتناع ذي النون من طعام حلال أوصل إليه على يد سجان، وقوله: إنه جاءني على يد ظالم، ودرجات هذه الرتب لا تنحصر.

الرتبة الثالثة: وهي قريب من الوسواس والمبالغة: أن يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزنى أو القذف وليس هو كما لو عصي بأكل الحرام، فإن الموصل قوته الحاصلة من الغذاء الحرام والزنى والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحمل، بل الامتناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس، بخلاف أكل الحرام؛ إذ الكفر لا يتعلق بحمل الطعام. وينجر هذا إلى أن لا يؤخذ من يد من عصى الله ولو بغيبة أو كذبة وهو غاية التنطع والإسراف، فليضبط ما عرف من ورع ذي النون وبشر بالمعصية في السبب الموصل كالنهر وقوة اليد المستفادة بالغذاء الحرام. ولو امتنع عن الشرب بالكوز لأن صانع الفخار الذي عمل الكوز كان قد عصى الله يوماً بضرب إنسان أو شتمه لكان هذا وسواساً. ولو امتنع من لحم شاة ساقها آكل حرام فهذا أبعد من يد السجان؛ لأن الطعام يسوقه قوة السجان والشاة تمشي بنفسها والسائق يمنعها عن العدول في الطريق فقط فهذا قريب من الوسواس. فانظر كيف تدرّجنا في بيان ما تتداعى إليه هذه الأمور. واعلم: أن كل هذا خارج عن فتوى علماء الظاهر، فإن فتوى الفقيه تختص بالدرجة الأولى التي يمكن تكليف عامة الخلق بها، ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم دون ما عداه من ورع المتقين والصالحين. والفتوى في هذا ما قاله ﷺ لوابصة إذ قال: **«اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ»**، وعرف ذلك إذ قال: **«الإِثْمُ حَزَّازُ القُلُوبِ»**(١) وكل ما حاك في صدر المريد من هذه الأسباب فلو أقدم عليه مع حزازة القلب استضر به وأظلم قلبه بقدر الحزازة التي يجدها، بل لو أقدم على حرام في علم الله وهو يظن أنه حلال لم يؤثر ذلك في قساوة قلبه، ولو أقدم على ما هو حلال في فتوى علماء الظاهر ولكنه يجد حزازة في قلبه فذلك يضره. وإنما الذي ذكرناه في النهي عن المبالغة أردنا به أن القلب الصافي المعتدل هو الذي لا يجد حزازة في مثل تلك الأمور، فإن مال قلب موسوس

---

(١) حديث: «الإثم حزاز القلوب» تقدم في العلم.

عن الاعتدال ووجد الحزازة فأقدم مع ما يجد في قلبه فذلك يضره؛ لأنه مأخوذ في حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه. وكذلك يشدد على الموسوس في الطهارة ونية الصلاة؛ فإنه إذا غلب على قلبه أن الماء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات لغلبة الوسوسة عليه، فيجب عليه أن يستعمل الرابعة وصار ذلك حكماً في حقه وإن كان مخطئاً في نفسه، أولئك قوم شدّدوا فشدّد الله عليهم، ولذلك شدّد على قوم موسى عليه السلام لما استقصوا في السؤال عن البقرة، ولو أخذوا أوّلاً بعموم لفظ البقرة وكل ما ينطلق عليه الاسم لأجزأهم ذلك. فلا تغفل عن هذه الدقائق التي رددناها نفياً وإثباتاً، فإن من لا يطلع على كنه الكلام ولا يحيط بمجامعه يوشك أن يزل في درك مقاصده.

وأما المعصية في العوض فله أيضاً درجات:

الدرجة العليا: التي تشتد الكراهة فيها: أن يشتري شيئاً في الذمة ويقضي ثمنه من غصب أو مال حرام فينظر؛ فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع ـ أعني قبل قضاء الثمن ـ، ولا هو أيضاً من الورع المؤكد فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن، ولو لم يقضه أصلاً لكان متقلداً للمظلمة بترك ذمته مرتهنة بالدين ولا ينقلب ذلك حراماً. فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه إلا مظلمة تصرفه في الدراهم الحرام بصرفها إلى البائع، وإن أبرأه على ظن أنّ الثمن حلال فلا تحصل البراءة؛ لأنه يبرئه مما أخذه إبراء استيفاء ولا يصلح ذلك للإيفاء. هذا حكم المشتري والأكل منه وحكم الذمة. وإن لم يسلم إليه بطيب قلب ولكن أخذه فأكله حرام؛ سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده، لأن الذي تومىء الفتوى به ثبوت حق الحبس للبائع حتى يتعين ملكه بإقباض النقد كما تعين ملك المشتري، وإنما يبطل حق حبسه إما بالإبراء أو الاستيفاء ولم يجر شيء منهما ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الراهن للطعام إذا أكله بغير إذن المرتهن، وبينه وبين أكل طعام الغير فرق ولكن أصل التحريم شامل، هذا كله إذا قبض قبل توفية الثمن إما بطيبة قلب البائع أو من غير طيبة قلبه. فأما إذا وفى الثمن الحرام أولاً ثم قبض؛ فإن كان البائع عالماً بأن الثمن حرام ومع هذا أقبض المبيع بطل حق حبسه وبقي له الثمن في ذمته؛ إذ ما أخذه ليس بثمن ولا يصير أكل المبيع حراماً بسبب بقاء الثمن، فأما إذا لم يعلم أنه حرام وكان بحيث لو علم لما رضي به ولا أقبض المبيع فحق حبسه لا يبطل بهذا التلبيس فأكله حرام تحريم أكله المرهون إلى أن يبرئه أو يوفى من حلال، أو يرضى هو بالحرام ويبرىء، فيصح إبراؤه ولا يصح رضاه بالحرام.

فهذا مقتضى الفقه وبيان الحكم في الدرجة الأولى من الحِلّ والحرمة، فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم؛ لأن المعصية إذا تمكنت من السبب الموصل إلى الشيء تشتد الكراهية فيه كما سبق. وأقوى الأسباب الموصلة الثمن ولولا الثمن الحرام لما رضي الله البائع بتسليمه إليه؛ فرضاه لا يخرجه عن كونه مكروهاً كراهية شديدة، ولكن العدالة لا تنخرم به وتزول به درجة التقوى والورع. ولو اشترى سلطان مثلاً ثوباً أو أرضاً في الذمة وقبضه برضا البائع قبل توفية الثمن وسلمه إلى فقيه أو غيره صلة أو خلعة وهو شاك في أنه سيقضي ثمنه من الحلال أو الحرام فهذا أخف؛ إذ وقع الشك في تطرق المعصية إلى الثمن وتفاوت خفته بتفاوت كثرة الحرام وقلته في مال ذلك السلطان، وما يغلب على الظن فيه، وبعضه أشد من بعض والرجوع فيه إلى ما ينقدح في القلب.

الرتبة الوسطى: أن لا يكون العوض غصباً ولا حراماً ولكن يتهيأ لمعصية، كما لو سلم عوضاً عن الثمن عنباً والآخذ شارب الخمر، أو سيفاً وهو قاطع طريق؛ فهذا لا يوجب تحريماً في مبيع اشتراه في الذمة ولكن يقتضي فيه كراهية دون الكراهية التي في الغصب. وتتفاوت درجات هذه الرتبة أيضاً بتفاوت غلبة المعصية على قابض الثمن وندوره، ومهما كان العوض حراماً فبذله حرام وإن احتمل تحريمه، ولكن أبيح بظن فبذله مكروه وعليه ينزل عندي النهي عن كسب الحجام وكراهته[(١)]. إذ نهى عنه عليه السلام مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح[(٢)]، وما سبق إلى الوهم من أن سببه مباشرة النجاسة والقذر فاسد؛ إذ يجب طرده في الدباغ والكناس ولا قائل به، وإن قيل به فلا يمكن طرده في القصاب إذ كيف يكون كسبه مكروهاً وهو بدل عن اللحم، واللحم في نفسه غير مكروه، ومخامرة القصاب النجاسة أكثر منه للحجام والفصاد؛ فإن الحجام يأخذ الدم بالمحجمة ويمسحه بالقطنة، ولكن السبب أن في الحجامة والفصد تخريب بنية الحيوان وإخراجها لدمه وبه قوام حياته والأصل فيه التحريم، وإنما يحل بضرورة وتعلم الحاجة والضرورة بحدس واجتهاد، وربما يظن نافعاً ويكون ضاراً فيكون حراماً عند الله تعالى، ولكن يحكم بحله بالظن والحدس. ولذلك لا يجوز للفصاد فَصْدَ صبي وعبد ومعتوه إلا بإذن وليه وقول طبيب، ولولا أنه حلال في الظاهر لما أعطى عليه السلام أجرة الحجام[(٣)]، ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهى عنه فلا يمكن الجمع بين إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى. وهذا كان ينبغي أن نذكره في القرائن المقرونة بالسبب فإنه أقرب إليه.

الرتبة السفلى: وهي درجة الموسوسين، وذلك أن يحلف إنسان على أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوباً؛ فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة. وروي عن المغيرة أنه قال في هذه الواقعة: لا يجوز، واستشهد بأن النبي ﷺ قال: «**لَعَنَ الله اليَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيهِم الخُمُورُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا**»[(٤)] وهذا غلط لأن بيع الخمور باطل - إذ لم يبق للخمر منفعة في الشرع - وثمن البيع الباطل حرام، وليس هذا من ذلك بل مثال هذا أن يملك الرجل جارية هي أخته من الرضاع فتباع بجارية أجنبية فليس لأحد أن يتورع منه، وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف في هذا الطرف. وقد عرفنا جميع الدرجات وكيفية التدريج فيها وإن كان تفاوت هذه الدرجات لا ينحصر في ثلاث أو أربع ولا في عدد، ولكن المقصود من التعديد التقريب والتفهيم.

---

(١) حديث «النهي عن كسب الحجام وكراهته»، رواه ابن ماجه من حديث أبي مسعود الأنصاري، والنسائي من حديث أبي هريرة بإسنادين صحيحين: «نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام»، وللبخاري من حديث أبي جحيفة: «نهى عن ثمن الدم»، ولمسلم من حديث رافع بن خديج: «**كسب الحجام خبيث**».

(٢) حديث: «نهى عنه مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح»، رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث محيصة أنه استأذن النبي ﷺ في إجارة الحجام، فنهاه عنها، فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال: «**أعلفه ناضحك وأطعمه رقيقك**». وفي رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال: «ألا أطعمه أيتاماً لي، قال: «**لا**»، قال: أتصدق به؟ قال: «**لا**» فرخص له أن يعلفه ناضحه».

(٣) حديث: «أعطى رسول الله ﷺ أجرة الحجام»، متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٤) حديث المغيرة: «أن النبي ﷺ لعن اليهود إذ حرمت عليهم الخمور فباعوها». لم أجده هكذا، والمعروف أن ذلك في الشحوم، ففي الصحيحين من حديث جابر: «**قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه**».

فإن قيل: فقد قال ﷺ: «مَنِ اشْتَرَىٰ ثَوْباً بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ فِيهَا دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ الله لَهُ صَلَاةً مَا كَانَ عَلَيْهِ»[١] ثم أدخل ابن عمر أصبعيه في أذنيه وقال: صُمَّتَا إن لم أكن سمعته منه. قلنا: ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لا في الذمة، وإذا اشترى في الذمة فقد حكمنا بالتحريم في أكثر الصور فليحمل عليها، ثم كم من ملك يتوعد عليه بمنع قبول الصلاة لمعصية تطرقت إلى سببه وإن لم يدل ذلك على فساد العقد كالمشتري في وقت النداء وغيره.

المثار الرابع: الاختلاف في الأدلة:

فإن ذلك كالاختلاف في السبب؛ لأن السبب سبب لحكم الحل والحرمة. والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة فهو سبب في حق المعرفة، وما لم يثبت في معرفة الغير فلا فائدة لثبوته في نفسه وإن جرى سببه في علم الله، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع أو لتعارض العلامات الدالة أو لتعارض التشابه.

القسم الأول: أن تتعارض أدلة الشرع: مثل تعارض عمومين من القرآن أو السنّة أو تعارض قياسين أو تعارض قياس وعموم. وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح، فإن ظهر ترجيح في جانب الحظر وجب الأخذ به، وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به ولكن الورع تركه. واتقاء مواضع الخلاف مهم في الورع في حق المفتي والمقلد. وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلّده الذي يظن أنه أفضل علماء بلده، ويعرف ذلك بالتسامع كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقرائن وإن كان لا يحسن الطب. وليس للمستفتي أن ينتقد من المذاهب أوسعها عليه، بل عليه أن يبحث حتى يغلب على ظنه الأفضل ثم يتبعه فلا يخالفه أصلاً، نعم، إن أفتى له إمامه بشيء ولإمامه فيه مخالف فالفرار من الخلاف إلى الإجماع من الورع المؤكد، وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحدس وتخمين وظن فالورع له الاجتناب. فلقد كان المفتون يفتون بحل أشياء لا يقدمون عليها قط تورعاً منها وحذراً من الشبهة فيها. فلنقسم هذا أيضاً على ثلاث مراتب:

الرتبة الأولى: ما يتأكد الاستحباب في التورّع عنه وهو ما يقوى فيه دليل المخالف ويدق وجه ترجيح المذهب الآخر عليه. فمن المهمات: التورّع عن فريسة الكلب المعلّم إذا أكل منها، وإن أفتى المفتي بأنه حلال؛ لأنّ الترجيح فيه غامض، وقد اخترنا أنّ ذلك حرام وهو أقيس قولي الشافعي رحمه الله. ومهما وجد للشافعي قول جديد موافق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله أو غيره من الأئمة كان الورع فيه مهماً وإن أفتى المفتي بالقول الآخر. ومن ذلك: الورع عن متروك التسمية وإن لم يختلف فيه قول الشافعي رحمه الله؛ لأن الآية ظاهرة في إيجابها والأخبار متواترة فيه؛ فإنه ﷺ قال لكل من سأل عن الصيد: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ عَلَيْهِ اسْمَ الله فَكُلْ»[٢]. ونقل ذلك على التكرّر وقد شهر الذبح بالبسملة[٣] وكل ذلك يقوّي دليل الاشتراط ولكن لما صح قوله ﷺ: «المُؤْمِنُ يَذْبَحُ عَلَىٰ اسْمِ الله

(١) حديث: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم...» الحديث. تقدم في الباب قبله.

(٢) حديث: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فَكُلْ» متفق عليه من حديث عدي بن حاتم، ومن حديث أبي ثعلبة الخشني.

(٣) حديث: «التسمية على الذبح»، متفق عليه من حديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا، ليس السن والظفر».

تَعَالَىٰ سَمَّىٰ أَوْ لَمْ يُسَمِّ[١] واحتمل أن يكون هذا عاماً موجباً لصرف الآية وسائر الأخبار عن ظواهرها، ويحتمل أن يخصص هذا بالناسي ويترك الظواهر ولا تأويل، وكان حمله على الناسي ممكناً تمهيداً لعذره في ترك التسمية بالنسيان، وكان تعميمه وتأويل الآية ممكناً إمكاناً أقرب، رجحنا ذلك. ولا ننكر رفع الاحتمال المقابل له فالورع عن مثل هذا مهم واقع في الدرجة الأولى.

الرتبة الثانية: وهي مزاحمة لدرجة الوسواس؛ أن يتورّع الإنسان عن أكل الجنين الذي يصادف في بطن الحيوان المذبوح وعن الضب. وقد صح في الصحاح من الأخبار حديث الجنين: إنّ ذكاته ذكاة أمه[٢] صحة لا يتطرّق احتمال إلى متنه ولا ضعف إلى سنده، وكذلك صح أنه أُكِلَ الضب على مائدة رسول الله ﷺ[٣]، وقد نقل ذلك في الصحيحين. وأظن أنّ أبا حنيفة لم تبلغه هذه الأحاديث ولو بلغته لقال بها وإن أنصف، وإن لم ينصف منصف فيه كان خلافه غلطاً لا يعتد به ولا يورث شبهة، كما لو لم يخالف وعلم الشيء بخبر الواحد.

الرتبة الثالثة: أن لا يشتهر في المسألة خلاف أصلاً ولكن يكون الحل معلوماً بخبر الواحد فيقول القائل: قد اختلف الناس في خبر الواحد فمنهم من لا يقبله فأنا أتورّع. فإن النقلة وإن كانوا عدولاً فالغلط جائز عليهم والكذب لغرض خفي جائز عليهم، لأن العدل أيضاً قد يكذب والوهم جائز عليه؛ فإنه قد يسبق إلى سمعهم خلاف ما يقوله القائل وكذا إلى فهمهم، فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمعونه من عدل تسكن نفوسهم إليه. وأما إذا تطرقت شبهة بسبب خاص ودلالة معينة في حق الراوي فللتوقف وجه ظاهر وإن كان عدلاً. وخلاف من خالف في أخبار الآحاد غير معتدّ به وهو كخلاف النظّام في أصل الإجماع. وقوله: إنه ليس بحجة. ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يمتنع الإنسان من أن يأخذ ميراث الجد أبي الأب، ويقول ليس في كتاب الله ذكر إلا للبنين وإلحاق ابن الابن بالابن بإجماع الصحابة وهم غير معصومين والغلط عليهم جائز؛ إذ خالف النظام فيه، وهذا هوس ويتداعى إلى أن يترك ما علم بعمومات القرآن؛ إذ من المتكلمين من ذهب إلى أن العمومات لا صيغة لها وإنما يحتج بما فهمه الصحابة منها بالقرائن والدلالات وكل ذلك وسواس، فإذن: لا طرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو

---

(١) حديث: «**المؤمن يذبح على اسم الله سمّى أو لم يسمّ**» قال المصنف إنه صح.

قلت: لا يعرف بهذا اللفظ فضلاً عن صحته، ولأبي داود في المراسيل من رواية الصلت مرفوعاً: «**ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر**» وللطبراني في الأوسط، والدارقطني، وابن عدي، والبيهقي من حديث أبي هريرة. قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي الله، فقال: «**اسم الله على كل مسلم**» قال ابن عدي: منكر، والدارقطني والبيهقي من حديث ابن عباس: «**المسلم يكفيه اسمه، فإن نسي أن يسمي حين يذبح فليسم وليذكر اسم الله ثم ليأكل**» فيه محمد بن سنان، ضعفه الجمهور.

(٢) حديث: «**ذكاة الجنين ذكاة أمه**» قال المصنف: إنه صح صحة لا يتطرق احتمال إلى متنه ولا ضعف إلى سنده، وأخذ هذا من إمام الحرمين، فإنه كذا قال في الأساليب، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي سعيد، والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح الإسناد، وليس كذلك. وللطبراني في الصغير من حديث ابن عمر بسند جيد. وقال عبدالحق: لا يحتج بأسانيدها كلها.

(٣) حديث: «**أكل الضب على مائدة رسول الله ﷺ**» قال المصنف: هو في الصحيحين، وهو كما ذكره من حديث ابن عمر وابن عباس وخالد بن الوليد.

وإسراف فليفهم ذلك. ومهما أشكل أمر من هذه الأمور فليستفت فيه القلب وليدع الورع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وليترك حزاز القلوب وحكاكات الصدور وذلك يختلف بالأشخاص والوقائع، ولكن ينبغي أن يحفظ قلبه عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم إلا بالحق فلا ينطوي على حزازة في مظان الوسواس، ولا يخلو عن الحزازة في مظان الكراهة، وما أعز مثل هذا القلب، ولذلك لم يرد عليه السلام كل أحد إلى فتوى القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله[(١)].

القسم الثاني: تعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة: فإنه قد ينهب نوع من المتاع في وقت ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلاً في يد رجل من أهل الصلاح، فيدل صلاحه على أنه حلال ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على أنه حرام فيتعارض الأمران. وكذلك يخبر عدل أنه حرام وآخر أنه حلال أو تتعارض شهادة فاسقين أو قول صبي وبالغ، فإن ظهر ترجيح حُكم به والورع الاجتناب، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف. وسيأتي تفصيله في باب التعرّف والبحث والسؤال.

القسم الثالث: تعارض الأشباه في الصفات التي تناط بها الأحكام: مثاله: أن يوصي بمال للفقهاء فيعلم أنّ الفاضل في الفقه داخل فيه وأنّ الذي ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لا يدخل فيه، وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها، فالمفتي يفتي بحسب الظن والورع الاجتناب، وهذا أغمض مثارات الشبهة، فإنّ فيها صوراً يتحير المفتي فيها تحيراً لازماً لا حيلة له فيه؛ إذ يكون المتصف بصفة في درجة متوسطة بين الدرجتين المتقابلتين لا يظهر له ميله إلى أحدهما. وكذلك الصدقات المصروفة إلى المحتاجين فإنّ من لا شيء له معلوم أنه محتاج ومن له مال كثير معلوم أنه غني ويتصدّى بينهما مسائل غامضة؛ كمن له دار وأثاث وثياب وكتب فإنّ قدر الحاجة منه لا يمنع من الصرف إليه والفاضل يمنع والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب، ويتعدّى منه النظر في مقدار سعة الدار وأبنيتها ومقدار قيمتها لكونها في وسط البلد ووقوع الاكتفاء بدار دونها، وكذلك في نوع أثاث البيت إذا كان من الصفر لا من الخزف وكذلك في عددها وكذلك في قيمتهما وكذلك فيما لا يحتاج إليه كل يوم وما يحتاج إليه كل سنة من آلات الشتاء وما لا يحتاج إليه إلا في سنين، وشيء من ذلك لا حدّ له.

والوجه في هذا ما قاله عليه السلام: **«دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ»**[(٢)]. كل ذلك في محل الريب؛ إن توقف المفتي فلا وجه إلا التوقف وهو أهم مواقع الورع. وكذلك ما يجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال؛ إذ فيه طرفان يعلم أن أحدهما قاصر وأن الآخر زائد وبينهما أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال. والمطلع على الحاجات هو الله تعالى وليس للبشر وقوف على حدودها، فما دون الرطل المكي في اليوم قاصر عن كفاية الرجل الضخم وما فوق ثلاثة أرطال زائد على الكفاية وما بينهما لا يتحقق له حدّ. فليدع الورع ما يريبه، وهذا جار في كل حكم نيط بسبب يعرف ذلك السبب بلفظ العرب؛ إذ العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا متضمنات اللغات بحدود محدودة تنقطع أطرافها عن مقابلاتها؛ كلفظ الستة فإنه لا يحتمل ما دونها وما فوقها من الأعداد وسائر ألفاظ الحساب والتقديرات، فليست الألفاظ اللغوية كذلك فلا لفظ في

---

(١) حديث: «لم يرد كل أحد إلى فتوى قلبه» وإنما قال ذاك لوابصة، وتقدم حديث وابصة، وروى الطبراني من حديث واثلة أنه قال ذلك لواثلة أيضاً، وفيه العلاء بن ثعلبة مجهول.

(٢) حديث: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» تقدم في الباب قبله.

كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ إلا ويتطرّق الشك إلى أوساط في مقتضياتها تدور بين أطراف متقابلة فتعظم الحاجة إلى هذا الفن في الوصايا والأوقاف على الصوفية مثلاً مما يصح ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ هذا من الغوامض، فكذلك سائر الألفاظ.

وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفي على الخصوص ليعلم به طريق التصرف في الألفاظ وإلا فلا مطمع في استيفائها، فهذه اشتباهات تثور من علامات متعارضة تجذب إلى طرفين متقابلين، وكل ذلك من الشبهات يجب اجتنابها إذا لم يترجح جانب الحل بدلالة تغلب على الظن أو باستصحاب بموجب قوله ﷺ: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ**» وبموجب سائر الأدلة التي سبق ذكرها. فهذه مثارات الشبهات وبعضها أشدّ من بعض، ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ، مثل أن يأخذ طعاماً مختلفاً فيه عوضاً عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة والبائع قد خالط ماله حرام وليس هو أكثر ماله، ولكنه صار مشتبهاً به فقد يؤدي ترادف الشبهات إلى أن يشتدّ الأمر في اقتحامها، فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها وليس في قوّة البشر حصرها، فما اتضح من هذا الشرح أخذ به وما التبس فليجتنب؛ فإن الإثم حزاز القلب. وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتي أما حيث حرّمه فيجب الامتناع. ثم لا يعوّل على كل قلب، فرب موسوس ينفر عن كل شيء، ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شيء، ولا اعتبار بهذين القلبين، وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال وهو المحك الذي يمتحن به خفايا الأمور، وما أعز هذا القلب في القلوب، فمن لم يثق بقلب نفسه فليلتمس النور من قلب بهذه الصفة وليعرض عليه واقعته، وجاء في الزبور: «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: قل لبني إسرائيل: إني لا أنظر إلى صلاتكم ولا صيامكم ولكن أنظر إلى من شك في شيء فتركه لأجلي، فذاك الذي أنظر إليه وأؤيده بنصري وأباهي به ملائكتي».

* * *

الباب الثالث

في البحث والسؤال والهجوم والإهمال، ومظانها

اعلم: أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه، وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه، بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله، والقول الشافي فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة. ومنشأ الريبة ومثارها إما أمر يتعلق بالمال أو يتعلق بصاحب المال.

المثار الأول: أحوال المالك:

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال: إما أن يكون مجهولاً، أو مشكوكاً فيه، أو معلوماً بنوع ظن يستند إلى دلالة:

الحالة الأولى: أن يكون مجهولاً: والمجهول هو الذي ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه

كَزِيّ الأجناد، ولا ما يدل على صلاحه كثياب أهل التصوّف والتجارة والعلم وغيرها من العلامات. فإذا دخلت قرية لا تعرفها فرأيت رجلاً لا تعرف من حاله شيئاً ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول، وإذا دخلت بلدة غريباً ودخلت سوقاً ووجدت رجلاً خبازاً أو قصاباً أو غيره ولا علامة تدل على كونه مريباً أو خائناً، ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول ولا يدرى حاله، ولا نقول إنه مشكوك فيه؛ لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهما سببان متقابلان، وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدرى وبين ما يشك فيه، وقد عرفت مما سبق أن الورع ترك ما لا يدرى. قال يوسف بن أسباط: منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته. وتكلم جماعة في أشق الأعمال فقالوا: هو الورع، فقال لهم حسان بن أبي سنان: ما شيء عندي أسهل من الورع، إذا حاك في صدري شيء تركته. فهذا شرط الورع، وإنما نذكر الآن حكم الظاهر، فنقول: حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدّم إليك طعاماً أو حمل إليك هدية أو أردت أن تشتري من دكانه شيئاً فلا يلزمك السؤال؛ بل يده وكونه مسلماً دلالتان كافيتان في الهجوم على أخذه. وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا المسلم بعينه، وإن بعض الظن إثم. وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك ألاّ تسيء الظن به، فإن أسأت الظن به في عينه لأنك رأيت فساداً من غيره فقد جنيت عليه وأثمت به في الحال نقداً من غير شك، ولو أخذت المال لكان كونه حراماً مشكوكاً فيه. ويدل عليه: أنا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم كانوا ينزلون في القرى ولا يردون القِرى، ويدخلون البلاد ولا يحترزون من الأسواق، وكان الحرام أيضاً موجوداً في زمانهم، وما نقل عنهم سؤال إلا عن ريبة إذ كان ﷺ لا يسأل عن كل ما يحمل إليه، بل سأل في أوّل قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه: أصدقة أم هدية[١]؟ لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين المدينة وهم فقراء فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة، ثم إسلام المعطي ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة. وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل: أصدقة أم لا[٢]؟ إذ العادة ما جرت بالتصدّق بالضيافة. ولذلك دعته أم سليم[٣]، ودعاه الخياط[٤]، كما في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وقدّم إليه طعاماً فيه قرع، ودعاه الرجل الفارسي فقال عليه الصلاة والسلام: «**أَنَا وَعَائِشَةُ؟**» فقال: لا، فقال: «**فَلَا**». ثم أجابه بعد فذهب هو وعائشة يتساوقان فقرب إليهما إهالة[٥]، ولم ينقل السؤال في شيء من ذلك، وسأل

الباب الثالث

في البحث والسؤال

(١) حديث سؤاله في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه أصدقة أم هدية: رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سلمان «أن النبي ﷺ لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام، فسأله عنه أصدقة أم هدية....» الحديث. تقدم في الباب قبله من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «كان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا». هذا معروف مشهور، من ذلك في الصحيحين من حديث أبي مسعود الأنصاري في صنيع أبي شعيب طعاماً لرسول الله ﷺ ودعاه خامس خمسة.

(٣) حديث: «دعته أم سليم». متفق عليه من حديث أنس.

(٤) حديث أنس: «أن خياطاً دعا رسول الله ﷺ فقدم إليه طعاماً فيه قرع». متفق عليه.

(٥) حديث: دعاه الرجل الفارسي فقال: «**أنا وعائشة...**» الحديث. رواه مسلم عن أنس.

أبو بكر رضي الله عنه عبده عن كسبه لما رابه من أمره، وسأل عمر رضي الله عنه الذي سقاه من لبن إبل الصدقة إذ رابه وكان أعجبه طعمه ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة. وهذه أسباب الريبة وكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصياً بإجابته من غير تفتيش، بل لو رأى في داره تجملاً ومالاً كثيراً فليس له أن يقول: الحلال عزيز وهذا كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال؟ بل هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالاً أو اكتسبه فهو بعينه يستحق إحسان الظن به، وأزيد على هذا وأقول: ليس له أن يسأله بل إن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا ما يدري من أين هو فهو حسن فليتلطف في الترك، وإن كان لا بدّ له من أكله فليأكل بغير سؤال؛ إذ السؤال إيذاء وهتك ستر وإيحاش وهو حرام بلا شك.

فإن قلت: لعله لا يتأذى؟ فأقول: لعله يتأذى فأنت تسأل حذراً من «لعل» فإن قنعت فلعل ماله حلال، وليس الإثم المحذور في إيذاء مسلم بأقل من الإثم في أكل الشبهة والحرام، والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدري هو به، لأن الإيذاء في ذلك أكثر. وإن سأل من حيث لا يدري هو ففيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه تجسس وفيه تشبث بالغيبة وإن لم يكن ذلك صريحاً. وكل ذلك منهي عنه في آية واحدة قال الله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحُجرَات: ١٢] وكم زاهد جاهل يوحش القلوب في التفتيش ويتكلم الكلام الخشن المؤذي، وإنما يحسن الشيطان ذلك عنده طلباً للشهرة بأكل الحلال، ولو كان باعثه محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى أشدّ من خوفه على بطنه أن يدخله ما لا يدري، وهو غير مؤاخذ بما لا يدري إذ لم يكن ثمّ علامة توجب الاجتناب، فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس، وإذا لم يكن بدّ من الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن، هذا هو المألوف من الصحابة رضي الله عنهم، ومن زاد عليهم في الورع فهو ضال مبتدع وليس بمتبع فلن يبلغ أحد مدّ أحدهم ولا نصيفه ولو أنفق ما في الأرض جميعاً، كيف وقد أكل رسول الله ﷺ طعام بريرة فقيل: إنه صدقة، فقال: «**هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ**»(١) ولم يسأل على المتصدق عليها فكان المتصدق مجهولاً عنده ولم يمتنع.

الحالة الثانية: أن يكون مشكوكاً فيه بسبب دلالة أورثت ريبة، فلنذكر صورة الريبة ثم حكمها.

أما الخلقة: فبأن يكون على خلقة الأتراك والبوادي والمعروفين بالظلم وقطع الطريق، وأن يكون طويل الشارب، وأن يكون الشعر مفرقاً على رأسه على دأب أهل الفساد.

وأما الثياب: فالقباء والقلنسوة وزي أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم.

وأما الفعل والقول: فهو أن يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل، فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضاً في المال ويأخذ ما لا يحل، فهذه مواضع الريبة. فإذا أراد أن يشتري من مثل هذا شيئاً أو يأخذ منه هدية أو يجيبه إلى ضيافة وهو غريب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات، فيحتمل أن يقال: إن اليد تدل على الملك وهذه الدلالات ضعيفة فالإقدام جائز والترك من الورع. ويحتمل أن يقال: إن اليد دلالة ضعيفة وقد قابلها مثل هذه الدلالة فأورثت ريبة فالهجوم غير جائز، وهو الذي نختاره ونفتي به لقوله ﷺ: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ**»(٢) فظاهره أمر وإن كان يحتمل الاستحباب

---

(١) حديث: «أكله طعام بريرة فقيل إنها صدقة فقال: **هو لها صدقة ولنا هدية**» متفق عليه من حديث أنس.

(٢) حديث: «ادع ما يريبك» تقدم في البابين قبله.

لقوله ﷺ: «**الإِثْمُ حَزَّازُ القُلُوبِ**»(١) وهذا له وقع في القلب لا ينكر ولأن النبي ﷺ سأل: أصدقة هو أو هدية؟ وسأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه. وسأل عمر رضي الله عنه. وكل ذلك كان في موضع الريبة وحمله على الورع، وإن كان ممكناً ولكن لا يحمل عليه إلا بقياس حكمي، والقياس ليس يشهد بتحليل هذا فإن دلالة اليد والإسلام وقد عارضتها هذه الدلالات أورثت ريبة، فإذا تقابلا فالاستحلال لا مستند له. وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة كما إذا وجدنا الماء متغيراً واحتمل أن يكون بطول المكث، فإن رأينا ظبية بالت فيه ثم احتمل أن التغيير به تركنا الاستصحاب وهذا قريب منه. ولكن بين هذه الدلالات تفاوت، فإن طول الشوارب ولبس القباء وهيئة الأجناد يدل على الظلم بالمال. أما القول والفعل المخالفان للشرع إن تعلقا بظلم المال فهو أيضاً دليل ظاهر؛ كما لو سمعه يأمر بالغصب والظلم أو يعقد عقد الربا، فأما إذا رآه قد شتم غيره في غضبه أو أتبع نظره امرأة مرت به فهذه الدلالة ضعيفة، فكم من إنسان يتحرّج في طلب المال ولا يكتسب إلا الحلال ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة؟ فليتنبه لهذا التفاوت ولا يمكن أن يضبط هذا بحد، فليستفت العبد في مثل ذلك قلبه.

وأقول: إنّ هذا إن رآه من مجهول فله حكم، وإن رآه ممن عرفه بالورع في الطهارة والصلاة وقراءة القرآن فله حكم آخر، إذ تعارضت الدلالات بالإضافة إلى المال وتساقطتا وعاد الرجل كالمجهول؛ إذ ليست إحدى الدلالتين تناسب المال على الخصوص، فكم من متحرج في المال لا يتحرج في غيره، وكم من محسن للصلاة والوضوء والقراءة ويأكل من حيث يجد، فالحكم في هذه المواقع ما يميل إليه القلب؛ فإن هذا أمر بين العبد وبين الله، فلا يبعد أن يناط بسبب خفي لا يطلع عليه إلا هو ورب الأرباب، وهو حكم حزازة القلب. ثم ليتنبه لدقيقة أخرى وهو أن هذه الدلالة ينبغي أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام بأن يكون جندياً أو عامل سلطان أو نائحة أو مغنية، فإن دل على أن في ماله حراماً قليلاً لم يكن السؤال واجباً بل كان السؤال من الورع.

الحالة الثالثة: أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك ظناً في حل المال أو تحريمه. مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعدالته في الظاهر وجوز أن يكون الباطن بخلافه، فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما في المجهول، فالأولى الإقدام. والإقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراماً. وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء قال ﷺ: «**لاَ تَأْكُلْ إِلاَّ طَعَامَ تَقِيٍّ وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»(٢)، فأما إذا علم بالخبرة أنه جندي أو مغن أو مرب واستغنى عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والثياب؛ فههنا السؤال واجب لا محالة كما في موضع الريبة بل أولى.

المثار الثاني:

ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المالك:

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام، كما إذا طرح في سوق أحمال من طعام غصب واشتراها أهل

---

(١) حديث: «**الإثم حزاز القلوب**» تقدم في العلم.

(٢) حديث: «**لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي**» تقدم في الزكاة.

السوق، فليس يجب على من يشتري في تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أنّ أكثر ما في أيديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب. والسوق الكبير حكمه حكم بلد.

والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق وفيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرها، وكانوا لا يسألون في كل عقد، وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادراً في بعض الأحوال وهي محال الريبة في حق ذلك الشخص المعين، وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين، وربما أخذوا أموالهم واحتمل أن يكون في تلك الغنائم شيء مما أخذوه من المسلمين وذلك لا يحل أخذه مجاناً بالاتفاق، بل يرد على صاحبه عند الشافعي رحمه الله، وصاحبه أولى به بالثمن عند أبي حنيفة رحمه الله، ولم ينقل قط التفتيش عن هذا. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أذربيجان: إنكم في بلاد تذبح فيها الميتة فانظروا ذكيه من ميته. أَذِن في السؤال وأمر به ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي أثمانها؛ لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود وإن كانت هي أيضاً تباع وأكثر الجلود كان كذلك. وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنكم في بلاد أكثر قصابيها المجوس فانظروا الذكي من الميتة. فخص بالأكثر الأمر بالسؤال، ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور وفرض مسائل يكثر وقوعها في العادات فلنفرضها:

مسألة: شخص معين خالط ماله الحرام، مثل أن يباع على دكان طعام مغصوب أو مال منهوب، ومثل أن يكون القاضي أو الرئيس أو العامل أو الفقيه الذي له إدرار على سلطان ظالم له أيضاً مال موروث ودهقنة أو تجارة، أو رجل تاجر يعامل بمعاملات صحيحة ويربي أيضاً، فإن كان الأكثر من ماله حراماً لا يجوز الأكل من ضيافته ولا قبول هديته ولا صدقته إلا بعد التفتيش، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك وإلا ترك، وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشتبه فهذا في محل النظر لأنه على رتبة بين الرتبتين؛ إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بعشر ميتات مثلاً وجب اجتناب الكل، وهذا يشبهه من وجه من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور لا سيما إذا لم يكن كثير المال مثل السلطان، ويخالفه من وجه إذ الميتة يعلم وجودها في الحال يقيناً، والحرام الذي خالط ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجوداً في الحال وإن كان المال قليلاً، وعلم قطعاً أن الحرام موجود في الحال فهو ومسألة اختلاط الميتة واحد. وإن كثر المال واحتمل أن يكون الحرام غير موجود في الحال فهذا أخف من ذلك، ويشبه من وجه الاختلاط بغير محصور كما في الأسواق والبلاد، ولكنه أغلظ منه لاختصاصه بشخص واحد، ولا يشك في أن الهجوم عليه بعيد من الورع جداً، ولكن النظر في كونه فسقاً مناقض للعدالة، وهذا من حيث النقل أيضاً غامض لتجاذب الأشياء، ومن حيث النقل أيضاً غامض لأن ما ينقل فيه عن الصحابة من الامتناع في مثل هذا، وكذا عن التابعين يمكن حمله على الورع ولا يصادف فيه نص على التحريم. وما ينقل من إقدام على الأكل، كأكل أبي هريرة رضي الله عنه طعام معاوية مثلاً إن قدر في جملة ما في يده حرام فذلك أيضاً يحتمل أن يكون إقدامه بعد التفتيش واستبانة أن عين ما يأكله من وجه مباح. فالأفعال في هذا ضعيفة الدلالة ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة حتى قال بعضهم: لو أعطاني السلطان شيئاً لأخذته. وطرد الإباحة فيما إذا كان الأكثر أيضاً حراماً مهماً لم يعرف عين المأخوذ واحتمل

أن يكون حلالاً، واستدل بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين ـ كما سيأتي في باب بيان أموال السلاطين ـ فأما إن كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجوداً في الحال لم يكن الأكل حراماً، وإن تحقق وجوده في الحال ـ كما في مسألة اشتباه الذكية بالميتة ـ فهذا مما لا أدري ما أقول فيه وهو من المتشابهات التي يتحير المفتي فيها؛ لأنها مترددة بين مشابهة المحصور وغير المحصور. والرضيعة إذا اشتبهت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب وإن كانت ببلدة فيها عشرة آلاف لم يجب. وبينهما أعداد، ولو سئلت عنها لكنت لا أدري ما أقول فيها، ولقد توقف العلماء في مسائل هي أوضح من هذه؛ إذ سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل رمى صيداً فوقع في ملك غيره أيكون الصيد للرامي أو لمالك الأرض؟ فقال: لا أدري، فروجع فيه مرات فقال: لا أدري. وكثيراً من ذلك حكيناه عن السلف في كتاب العلم فليقطع المفتي طمعه عن درك الحكم في جميع الصور. وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة عن معاملته قوماً يعاملون السلاطين، فقال: إن لم يعاملوا سوى السلطان فلا تعاملهم، وإن عاملوا السلطان وغيره فعاملهم. وهذا يدل على المسامحة في الأقل، ويحتمل المسامحة في الأكثر أيضاً. وبالجملة: فلم ينقل عن الصحابة أنهم كانوا يهجرون بالكلية معاملة القصاب والخباز والتاجر لتعاطيه عقداً واحداً فاسداً أو لمعاملة السلطان مرة، وتقدير ذلك فيه بعد، والمسألة مشكلة في نفسها.

فإن قيل: فقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه رخص فيه وقال: خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام. وسئل ابن مسعود رضي الله عنه ذلك فقال له السائل: إن لي جاراً لا أعلمه إلا خبيثاً يدعونا أو نحتاج فنستسلفه، فقال: إذا دعاك فأجبه وإذا احتجت فاستسلفه، فإن لك المهنأ وعليه المأثم. وأفتى سلمان بمثل ذلك. وقد علل عليّ بالكثرة، وعلل ابن مسعود رضي الله عنه بطريق الإشارة بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ولك المهنأ أي أنت لا تعرفه. وروي أنه قال رجل لابن مسعود رضي الله عنه: إن لي جاراً يأكل الربا فيدعونا إلى طعامه أفنأتيه؟ فقال: نعم. وروي في ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه روايات كثيرة مختلفة، وأخذ الشافعي ومالك رضي الله عنهما جوائز الخلفاء والسلاطين مع العلم بأنه قد خالط مالهم الحرام.

قلنا: أما ما روي عن علي رضي الله عنه فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك؛ فإنه كان يمتنع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له إلا قميص واحد في وقت الغسل لا يجد غيره، ولست أنكر أن رخصته صريح في الجواز وفعله محتمل للورع، ولكنه لو صح فمال السلطان له حكم آخر فإنه بحكم كثرته يكاد يلتحق بما لا يحصر ـ وسيأتي بيان ذلك ـ وكذا فعل الشافعي ومالك رضي الله عنهما بمال السلطان ـ وسيأتي حكمه ـ وإنما كلامنا في آحاد الخلق وأموالهم قريبة من الحصر. وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه: فقيل إنه إنما نقله خوات التيمي وإنه ضعيف الحفظ، والمشهور عنه ما يدل على توقي الشبهات إذ قال: لا يقولن أحدكم: أخاف وأرجو، فإن الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبين ذلك أمور مشتبهات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك. وقال: اجتنبوا الحكاكات ففيها الإثم.

فإن قيل: فلم قلتم إذا كان الأكثر حراماً لم يجز الأخذ، مع أن المأخوذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص، واليد علامة على الملك، حتى إن من سرق مال مثل هذا الرجل قطعت يده، والكثرة توجب ظناً مرسلاً لا يتعلق بالعين فليكن كغالب الظن في طين الشوارع وغالب الظن في الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام، ولا يجوز أن يستدل على هذا بعموم قوله ﷺ: «دَعْ

مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ»؛ لأنه مخصوص ببعض المواضع بالاتفاق وهو أن يريبه بعلامة في عين الملك بدليل اختلاط القليل بغير المحصور، فإن ذلك يوجب ريبة ومع ذلك قطعتم بأنه لا يحرم؟.

فالجواب: أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب وإنما تؤثر إذا سلمت عن معارض قوي. فإذا تحققنا الاختلاط وتحققنا أن الحرام المخالط موجود في الحال، والمال غير خال عنه، وتحققنا أن الأكثر هو الحرام وذلك في حق شخص معين يقرب ماله من الحصر ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى اليد، وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» لا يبقى له محمل؛ إذ لا يمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور إذ كان ذلك موجوداً في زمانه وكان لا يدعه. وعلى أي موضع حمل هذا كان هذا في معناه. وحمله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس، فإن تحريم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب. وللكثرة تأثير في تحقيق الظن وكذا للحصر، وقد اجتمعا حتى قال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا تجتهد في الأواني إلا إذا كان الطاهر هو الأكثر. فاشترط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوّة الكثرة: ومن قال: يأخذ أي آنية أراد بلا اجتهاد بناء على مجرد الاستصحاب فيجوز الشرب أيضاً فيلزمه التجويز ههنا بمجرد علامة اليد. ولا يجري ذلك في بول اشتبه بماء؛ إذ لا استصحاب فيه ولا نطرده أيضاً في ميتة اشتبهت بذكية إذ لا استصحاب في الميتة، واليد لا تدل على أنه غير ميتة وتدل في الطعام المباح على أنه ملك. فههنا أربع متعلقات: استصحاب، وقلة في المخلوط أو كثرة، وانحصار أو اتساع في المخلوط، وعلامة خاصة في عين الشيء يتعلق بها الاجتهاد، فمن يغفل عن مجموع الأربعة ربما يغلط فيشبه بعض المسائل بما لا يشبهه. فحصل مما ذكرناه أن المختلط في ملك شخص واحد إما أن يكون الحرام أكثره أو أقله، وكل واحد إما أن يعلم بيقين أو بظن عن علامة أو توهم، فالسؤال يجب في موضعين: وهو أن يكون الحرام أكثر يقيناً أو ظناً كما لو رأى تركياً مجهولاً يحتمل أن يكون كل ماله من غنيمة وإن كان الأقل معلوماً باليقين، فهو محل التوقف، وتكاد تسير سير أكثر السلف. وضرورة الأحوال إلى الميل إلى الرخصة. وأما الأقسام الثلاثة الباقية فالسؤال واجب فيها أصلاً.

مسألة: إذا حضر طعام إنسان علم أنه دخل في يده حرام من إدرار كان قد أخذه أو وجه آخر، ولا يدري أنه بقي إلى الآن أم لا، فله الأكل ولا يلزمه التفتيش وإنما التفتيش فيه من الورع، ولو علم أنه قد بقي منه شيء ولكن لم يدر أنه الأقل أو الأكثر فله أن يأخذ بأنه الأقل. وقد سبق أن الأمر مشكل وهذا يقرب منه.

مسألة: إذا كان يد المتولي للخيرات أو الأوقاف أو الوصايا مالان يستحق هو أحدهما ولا يستحق الثاني لأنه غير موصوف بتلك الصفة، فهل له أن يأخذ ما يسلمه إليه صاحب الوقف؟ نظر، فإن كانت تلك الصفة ظاهرة يعرفها المتولي، وكان المتولي ظاهر العدالة فله أن يأخذ بغير بحث، لأن الظن بالمتولي أنه لا يصرف إليه ما يصرفه إلا من المال الذي يستحقه، وإن كانت الصفة خفية. وإن كان المتولي ممن عرف حاله أنه يخلط ولا يبالي كيف يفعل فعليه السؤال؛ إذ ليس ههنا يد ولا استصحاب يعوّل عليه، وهو وزان سؤال رسول الله ﷺ عن الصدقة والهدية عند تردده فيهما، لأن اليد لا تخصص الهدية عن الصدقة ولا الاستصحاب فلا ينجي منه إلا السؤال، فإن السؤال حيث أسقطناه في المجهول أسقطناه بعلامة اليد والإسلام، حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لحماً من ذبيحته، واحتمل أن يكون مجوسياً لم يجز له ما لم يعرف أنه مسلم؛ إذ اليد لا تدل في الميتة ولا الصورة تدل على الإسلام إلا إذا كان أكثر

أهل البلدة مسلمين، فيجوز أن يظن بالذي ليس عليه علامة الكفر أنه مسلم، وإن كان الخطأ ممكناً فيه فلا ينبغي أن تلتبس المواضع التي تشهد فيها اليد والحال بالتي لا تشهد.

مسألة: له أن يشتري في البلد داراً وإن علم أنها تشتمل على دور مغصوبة، لأن ذلك اختلاط بغير محصور ولكن السؤال احتياط وورع. وإن كان في سكة عشر دور مثلاً إحداها مغصوب أو وقف لم يجز الشراء ما لم يتميز ويجب البحث عنه. ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب؛ فليس له أن يسكن أيها شاء ويأكل من وقفها بغير سؤال، لأن ذلك من باب اختلاط المحصور فلا بد من التمييز، ولا يجوز الهجوم مع الإبهام لأن الرباطات والمدارس في البلد لا بد أن تكون محصورة.

مسألة: حيث جعلنا السؤال من الورع فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه، وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام، وعند ذلك لا يبالي بغضب مثله؛ إذ يجب إيذاء الظالم بأكثر من ذلك، والغالب أن مثل هذا لا يغضب من السؤال. نعم إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله ممن هو تحت رعايته فله أن يسأل مهما استراب، لأنهم لا يغضبون من سؤاله، ولأن عليه أن يسأل ليعلمهم طريق الحلال، ولذلك سأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه، وسأل عمر من سقاه من إبل الصدقة، وسأل أبا هريرة رضي الله عنه أيضاً لما أن قدم عليه بمال كثير فقال: ويحك أكل هذا طيب؟ من حيث إنه تعجب من كثرته، وكان هو من رعيته لا سيما وقد رفق في صيغة السؤال، وكذلك قال علي رضي الله عنه: ليس شيء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورفقه، ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه.

مسألة: قال الحارث المحاسبي رحمه الله: لو كان له صديق أو أخ وهو يأمن غضبه لو سأله فلا ينبغي أن يسأله لأجل الورع، لأنه ربما يبدو له ما كان مستوراً عنه فيكون قد حمله على هتك الستر ثم يؤدي ذلك إلى البغضاء، وما ذكره حسن؛ لأن السؤال إذا كان من الورع لا من الوجوب فالورع في مثل هذه الأمور الاحتراز عن هتك الستر، وإثارة البغضاء أهم. وزاد على هذا فقال: وإن رابه منه شيء أيضاً لم يسأله ويظن به أنه يطعمه من الطيب ويجنبه الخبيث، فإن كان لا يطمئن قلبه إليه فيحترز متلطفاً ولا يهتك ستره بالسؤال. قال: لأني لم أر أحداً من العلماء فعله، فهذا منه مع ما اشتهر به من الزهد يدل على مسامحة فيما إذا خالط المال الحرام القليل، ولكن ذلك عند التوهم لا عند التحقيق، لأن لفظ الريبة يدل على التوهم بدلالة تدل عليه، ولا يوجب اليقين، فليراع هذه الدقائق بالسؤال.

مسألة: ربما يقول القائل: أي فائدة في السؤال ممن بعض ماله حرام ومن يستحل المال الحرام ربما يكذب، فإن وثق بأمانته فليثق بديانته في الحلال؟ فأقول: مهما علم مخالطة الحرام لمال إنسان وكان له غرض في حضورك ضيافته أو قبولك هديته فلا تحصل الثقة بقوله فلا فائدة للسؤال منه، فينبغي أن يسأل من غيره، وكذا إن كان بياعاً وهو يرغب في البيع لطلب الربح فلا تحصل الثقة بقوله إنه حلال ولا فائدة في السؤال منه وإنما يسأل من غيره. وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن متهماً كما يسأل المتولي على المال الذي يسلمه أنه من أي جهة، وكما سأل رسول الله ﷺ عن الهدية والصدقة فإن ذلك لا يؤذي ولا يتهم القائل فيه، وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدري طريق كسب الحلال؛ فلا يتهم في قوله إذا أخبر عن طريق صحيح، وكذلك يسأل عبده وخادمه ليعرف طريق اكتسابه. فههنا يفيد السؤال، فإذا كان صاحب المال متهماً فليسأل من غيره؛ فإذا أخبره عدل واحد قَبِلَهُ، وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة حاله أنه لا يكذب ـ حيث لا غرض له فيه ـ جاز قبوله؛ لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة

النفس، وقد يحصل من الثقة بقول فاسق ما لا يحصل بقول عدل في بعض الأحوال، وليس كل من فسق يكذب ولا كل من ترى العدالة في ظاهره يصدق. وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم، فإن البواطن لا يطلع عليها. وقد قبل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق. وكم من شخص تعرفه وتعرف أنه قد يقتحم المعاصي، ثم إذا أخبرك بشيء وثقت به. وكذلك إذا أخبر به صبي مميز ممن عرفته بالتثبت فقد تحصل الثقة بقوله فيحل الاعتماد عليه. فأما إذا أخبر به مجهول لا يدري من خاله شيء أصلاً فهذا ممن جوّزنا الأكل من يده؛ لأن يده دلالة ظاهرة على ملكه. وربما يقال: إسلامه دلالة ظاهرة على صدقه؛ وهذا فيه نظر، ولا يخلو قوله عن أثر ما في النفس حتى لو اجتمع منهم جماعة تفيد ظناً قوياً إلا أن أثر الواحد فيه في غاية الضعف فلينظر إلى حدّ تأثيره في القلب، فإن المفتي هو القلب في مثل هذا الموضع، وللقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فليتأمل فيه. ويدل على وجوب الالتفات إليه ما روي عن عقبة بن الحارث[1] «أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني تزوّجت امرأة فجاءت أمة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة، فقال: «**دَعْهَا**»، فقال: إنها سوداء ـ يصغر من شأنها ـ فقال عليه السلام: «**فَكَيْفَ وَقَدْ زَعَمَتْ أَنَّهَا قَدْ أَرْضَعَتْكُمَا؟ لاَ خَيْرَ لَكَ فِيهَا دَعْهَا عَنْكَ**»[2]. وفي لفظ آخر ـ «**كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟**» ومهما لم يعلم كذب المجهول ولم تظهر أمارة غرض له فيه كان له وقع في القلب لا محالة؛ فلذلك يتأكد الأمر بالاحتراز، فإن اطمأن إليه القلب كان الاحتراز حتماً واجباً.

مسألة: حيث يجب السؤال فلو تعارض قول عدلين تساقطا وكذا قول فاسقين، ويجوز أن يترجح في قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين، ويجوز أن يرجح أحد الجانبين بالكثرة أو بالاختصاص بالخبرة والمعرفة، وذلك مما يتشعب تصويره.

مسألة: لو نهب متاع مخصوص فصادف من ذلك النوع متاعاً في يد إنسان، وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون من المغصوب، فإن كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصلاح جاز الشراء وكان تركه من الورع. وإن كان الرجل مجهولاً لا يعرف منه شيئاً؛ فإن كان يكثر نوع ذلك المتاع من غير المغصوب فله أن يشتري. وإن كان لا يوجد ذلك المتاع في تلك البقعة إلا نادراً وإنما كثر بسبب الغصب فليس يدل على الحل إلا اليد، وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع ونوعه، فالامتناع عن شرائه من الورع المهم، ولكن الوجوب فيه نظر فإن العلامة متعارضة. ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم إلا أن أرده إلى قلب المستفتي لينظر ما الأقوى في نفسه؛ فإن كان الأقوى أنه مغصوب لزمه تركه، وإلاّ حلّ له شراؤه، وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها فهي من المتشابهات التي لا يعرفها كثير من الناس، فمن توقاها فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن اقتحمها فقد حام حول الحمى وخاطر بنفسه.

مسألة: لو قال قائل: قد سأل رسول الله ﷺ عن لبن قدم إليه فذكر أنه من شاة، فسأل عن الشاة من أين هي فذكر له فسكت عن السؤال[3]، فيجب السؤال عن أصل المال أم لا؟ وإن وجب فعن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة وما الضبط فيه؟ فأقول: لا ضبط فيه ولا تقدير، بل ينظر إلى الريبة المقتضية

---

(١) محيل هو «أبو سَرْعة» الذي قتل «خبيث بن عدي» وقتل غيره، روى عنه البخاري، وأصحاب السنن.

(٢) حديث عقبة: «إني تزوّجت امرأة فجاءتنا أمة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة». رواه البخاري من حديث عقبة بن الحارث.

(٣) حديث: «سأل رسول الله ﷺ عن لبن قدم إليه..» الحديث. تقدم في الباب الخامس من آداب الكسب والمعاش.

للسؤال إما وجوباً أو ورعاً. ولا غاية للسؤال إلا حيث تنقطع الريبة المقتضية له، وذلك يختلف باختلاف الأحوال، فإن كانت التهمة من حيث لا يدري صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال فإن قال: اشتريت، انقطع بسؤال واحد، وإن قال: من شاتي، وقع الشك في الشاة. فإذا قال: اشتريت، انقطع. وإن كانت الريبة من الظلم وذلك مما في أيدي العرب ويتوالد في أيديهم المغصوب فلا تنقطع الريبة بقوله: إنه من شاتي، ولا بقوله: إن الشاة ولدتها شاتي، فإن أسنده إلى الوراثة من أبيه وحالة أبيه مجهولة انقطع السؤال. وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام فقد ظهر التحريم، وإن كان يعلم أن أكثره حرام فبكثرة التوالد وطول الزمان وتطرق الإرث إليه لا يغير حكمه. فلينظر في هذه المعاني.

مسألة: سئلت عن جماعة من سكان خانقاه الصوفية وفي يد خادمهم الذي يقدم إليهم الطعام وقف على ذلك المسكن، ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء، وهو يخلط الكل وينفق على هؤلاء وهؤلاء فأكل طعامه حلال أو حرام أو شبهة؟ فقلت: إن هذا يلتفت إلى سبعة أصول:

الأصل الأوّل: أن الطعام الذي يقدم إليهم في الغالب يشتريه بالمعاطاة. والذي اخترناه صحة المعاطاة لا سيما في الأطعمة والمستحقرات فليس في هذا إلا شبهة الخلاف.

الأصل الثاني: أن ينظر أن الخادم هل يشتريه بعين المال الحرام أو في الذمة؟ فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام، وإن لم يعرف فالغالب أنه يشتري في الذمة ويجوز الأخذ بالغالب، ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد، وهو شراؤه بعين مال حرام.

الأصل الثالث: أنه من أين يشتريه؟ فإن اشترى ممن أكثر ماله حرام لم يجز، وإن كان أقل ماله ففيه نظر قد سبق، وإذا لم يعرف جاز له الأخذ بأنه يشتريه ممن ماله حلال أو ممن لا يدري المشتري حاله بيقين كالمجهول، وقد سبق جواز الشراء من المجهول، لأن ذلك هو الغالب فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال.

الأصل الرابع: أن يشتريه لنفسه أو للقوم؟ فإن المتولي والخادم كالنائب وله أن يشتري له ولنفسه، ولكن يكون ذلك بالنية أو صريح اللفظ، وإذا كان الشراء يجري بالمعاطاة فلا يجري اللفظ، والغالب أنه لا ينوي عند المعاطاة، والقصاب والخباز ومن يعامله يعول عليه ويقصد البيع منه لا ممن لا يحضرون فيقع عن جبهته ويدخل في ملكه، وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة ولكن يثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم.

الأصل الخامس: أن الخادم يقدم الطعام إليهم فلا يمكن أن يجعل ضيافة وهدية بغير عوض فإنه لا يرضى بذلك، وإنما يقدم اعتماداً على عوضه من الوقف، فهو معاوضة ولكن ليس ببيع ولا إقراض لأنه لو انتهض لمطالبتهم بالثمن استبعد ذلك وقرينة الحال لا تدل عليه. فأشبه أصل ينزل عليه هذه الحالة الهبة بشرط الثواب ـ أعني: هدية لا لفظ فيها من شخص تقتضي قرينة حاله أنه يطمع في ثواب ـ وذلك صحيح والثواب لازم. وههنا ما طمع الخادم في أن يأخذ ثواباً فيما قدمه إلا حقهم من الوقف ليقضي به دينه من الخباز والقصاب والبقال، فهذا ليس فيه شبهة إذ لا يشترط لفظ في الهدية ولا في تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب، ولا مبالاة بقول من لا يصحح هدية في انتظار ثواب.

الأصل السادس: أن الثواب الذي يلزم فيه خلاف، فقيل: إنه أقل متمول، وقيل: قدر القيمة وقيل: ما يرضى به الواهب حتى له أن لا يرضى بأضعاف القيمة، والصحيح: أنه يتبع رضاه، فإذا لم يرض يرد عليه. وههنا الخادم قد رضي بما يأخذ من حق السكان على الوقف، فإن كان لهم من الحق

بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر، وإن كان ناقصاً ورضي به الخادم صح أيضاً، وإن علم أن الخادم لا يرضى لولا أن في يده الوقف الآخر الذي يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضي في الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام، والحرام لم يدخل في أيدي السكان، فهذا كالخلل المتطرق إلى الثمن، وقد ذكرنا حكمه من قبل، وأنه متى يقتضي التحريم ومتى يقتضي الشبهة؟ وهذا لا يقتضي تحريماً على ما فصلناه فلا تنقلب الهدية حراماً يتوصل المهدي بسبب الهدية إلى حرام.

الأصل السابع: أنه يقضي دين الخباز والقصّاب والبقال من ريع الواقفين، فإن وفى ما أخذ من حقهم بقيمة ما أطعمهم فقد صح الأمر، وإن قصر عنه فرضي القصاب والخباز بأي ثمن كان حراماً أو حلالاً، فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضاً، فليلتفت إلى ما قدمناه من الشراء في الذمة ثم قضاء الثمن من الحرام، هذا إذا علم أنه قضاه من حرام، فإن احتمل ذلك واحتمل غيره فالشبهة أبعد، وقد خرج من هذا أن أكل هذا ليس بحرام ولكنه أكل شبهة وهو بعيد من الورع، لأن هذه الأصول إذا كثرت وتطرق إلى كل واحد احتمال صار احتمال الحرام بكثرته أقوى في النفس، كما أن الخبر إذا طال إسناده صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناده. فهذا حكم هذه الواقعة وهي من الفتاوى، وإنما أوردناها ليعرف كيفية تخريج الوقائع الملتفة الملتبسة، وأنها كيف ترد إلى الأصول؛ فإن ذلك مما يعجز عنه أكثر المفتين.

* * *

الباب الرابع

في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلم: أن من تاب وفي يده مختلط فعليه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه، ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فلينظر فيهما.

النظر الأول: في كيفية التمييز والإخراج:

اعلم: أن كل من تاب وفي يده ما هو حرام معلوم العين من غصب أو وديعة أو غيره فأمره سهل؛ فعليه تمييز الحرام. وإن كان ملتبساً مختلطاً فلا يخلو إما أن يكون في مال هو من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان، وإما أن يكون في أعيان متمايزة كالعبيد والدور والثياب. فإن كان في المتماثلات أو كان شائعاً في المال كله؛ كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها في المرابحة وصدق في بعضها، أو من غصب دهناً وخلطه بدهن نفسه، أو فعل ذلك في الحبوب، أو الدراهم والدنانير فلا يخلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولاً. فإن كان معلوم القدر؛ مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف. وإن أشكل فله طريقان، أحدهما: الأخذ باليقين، والآخر: الأخذ بغالب الظن، وكلاهما قد قال به العلماء في اشتباه ركعات الصلاة. ونحن لا نجوّز في الصلاة إلا الأخذ باليقين، فإن الأصل اشتغال الذمة فيستصحب ولا يغير إلا بعلامة قوية وليس في أعداد الركعات علامات يوثق بها، وأما ههنا فلا يمكن أن يقال: الأصل أن ما في يده حرام،

بل هو مشكل، فيجوز له الأخذ بغالب الظن اجتهاداً، ولكن الورع في الأخذ باليقين، فإن أراد الورع فطريق التحري والاجتهاد أن لا يستبقي إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال. وإن أراد الأخذ بالظن فطريقه مثلاً أن يكون في يده مال تجارة فسد بعضها فيتيقن أن النصف حلال، وأن الثلث مثلاً حرام ويبقى سدس يشك فيه فيحكم فيه بغالب الظن. وهكذا طريق التحري في كل مال وهو أن يقتطع القدر المتيقن من الجانبين في الحل والحرمة. والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه وإن غلب الحل جاز له الإمساك والورع إخراجه، وإن شك فيه جاز الإمساك والورع إخراجه، وهذا الورع آكد لأنه صار مشكوكاً فيه، وجاز إمساكه اعتماداً على أنه في يده فيكون الحل أغلب عليه، وقد صار ضعيفاً بعد يقين اختلاط الحرام. ويحتمل أن يقال: الأصل التحريم ولا يأخذ إلا ما يغلب على ظنه أنه حلال، وليس أحد الجانبين بأولى من الآخر. وليس يتبين لي في الحال ترجيح وهو من المشكلات.

فإن قيل: هب أنه أخذ باليقين لكن الذي يخرجه ليس يدري أنه عين الحرام، فلعل الحرام ما بقي في يده فكيف يقدم عليه؟ ولو جاز هذا لجاز أن يقال: إذا اختلطت ميتة بتسع مذكاة فهي العشر فله أن يطرح واحدة ـ أي واحدة كانت ـ ويأخذ الباقي ويستحله ولكن يقال: لعل الميتة فيما استبقاه بل لو طرح التسع واستبقى واحدة لم تحل لاحتمال أنها الحرام؟ فنقول: هذه الموازنة كانت تصح لولا أن المال يحل بإخراج البدل لتطرق المعاوضة إليه، وأما الميتة فلا تتطرق المعاوضة إليها فليكشف الغطاء عن هذا الإشكال بالفرض في درهم معين اشتبه بدرهم آخر فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبه عينه، وقد سئل أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن مثل هذا فقال: يدع الكل حتى يتبين، وكان قد رهن آنية فلما قضى الدين حمل إليه المرتهن آنيتين وقال: لا أدري أيتهما آنيتك؟ فتركهما فقال المرتهن: هذا هو الذي لك وإنما كنت أختبرك؟ فقضى دينه ولم يأخذ الرهن وهذا ورع، ولكنا نقول إنه غير واجب.

فلنفرض المسألة في درهم له مالك معين حاضر فنقول: إذا رد أحد الدرهمين عليه ورضي به مع العلم بحقيقة الحال حل له الدرهم الآخر، لأنه لا يخلو إما أن يكون المردود في علم الله هو المأخوذ فقد حصل المقصود؛ وإن كان غير ذلك فقد حصل لكل واحد درهم في يد صاحبه، فالاحتياط: أن يتبايعا باللفظ، فإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاطاة، وإن كان المغصوب منه قد فات له درهم في يد الغاصب وعسر الوصول إلى عينه واستحق ضمانه فلما أخذ وقع عن الضمان بمجرد القبض وهذا في جانبه واضح، فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ، والإشكال في الجانب الآخر أنه لم يدخل في ملكه. فنقول: لأنه أيضاً إن كان قد تسلم درهم نفسه فقد فات له أيضاً درهم في يد الآخر فليس يمكن الوصول إليه فهو كالغائب، فيقع هذا بدلاً عنه في علم الله إن كان الأمر كذلك، ويقع هذا التبادل في علم الله كما يقع التقاص لو أتلف رجلان كل واحد منهما درهماً على صاحبه، بل في عين مسألتنا لو ألقى كل واحد ما في يده في البحر أو أحرقه كان قد أتلفه ولم يكن عليه عهدة للآخر بطريق التقاص، فكذا إذا لم يتلف فإن القول بهذا أولى من المصير إلى أن من يأخذ درهماً حراماً ويطرحه في ألف ألف درهم لرجل آخر يصير كل المال محجوراً عليه لا يجوز التصرف فيه، وهذا المذهب يؤدي إليه.

فانظر ما في هذا من البعد وليس فيما ذكرناه إلا ترك اللفظ. والمعاطاة بيع ومن لا يجعلها بيعاً فحيث يتطرق إليها احتمال؛ إذ الفعل يضعف دلالته وحيث يمكن التلفظ، وههنا هذا التسليم والتسلم للمبادلة قطعاً، والبيع غير ممكن؛ لأن المبيع غير مشار إليه ولا معلوم في عينه، وقد يكون مما لا يقبل

البيع، كما لو خلط رطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره، وكذا الدبس والرطب وكل ما لا يباع البعض منه بالبعض.

فإن قيل: فأنتم جوزتم تسليم قدر حقه في مثل هذه الصورة وجعلتموه بيعاً؟ قلنا: لا نجعله بيعاً بل نقول: هو بدل عما فات في يده، فيملكه كما يملك المتلف عليه من الرطب إذا أخذ مثله؛ هذا إذا ساعده صاحب المال فإن لم يساعده وأضر به وقال: لا آخذ درهماً أصلاً إلا عين ملكي فإن استبهم فأتركه ولا أهبه وأعطل عليك مالك. فأقول: على القاضي أن ينوب عنه في القبض حتى يطيب للرجل ماله، فإن هذا محض التعنت والتضييق، والشرع لم يرد به، فإن عجز عن القاضي ولم يجده فليحكم رجلاً متديناً ليقبض عنه، فإن عجز فيتولى هو بنفسه ويفرد على نية الصرف إليه درهماً ويتعين ذلك له ويطيب له الباقي، وهذا في خلط المائعات أظهر وألزم.

فإن قيل: فينبغي أن يحل له الأخذ وينتقل الحق إلى ذمته فأي حاجة إلى الإخراج أولاً ثم التصرف في الباقي؟ قلنا: قال قائلون: يحل له أن يأخذ ما دام يبقى قدر الحرام، ولا يجوز أن يأخذ الكل ولو أخذ لم يجز له ذلك. وقال آخرون: ليس له أن يأخذ ما لم يخرج قدر الحرام بالتوبة وقصد الإبدال، وقال آخرون: يجوز للآخذ في التصرف أن يأخذ منه، وأما هو فلا يعطي؛ فإن أعطى عصى هو دون الآخذ منه، وما جوز أحد أخذ الكل وذلك لأن المالك لو ظهر فله أن يأخذ حقه من هذه الجملة إذ يقول: لعل المصروف إليَّ يقع عين حقي. وبالتعيين وإخراج حق الغير وتمييزه يندفع هذا الاحتمال. فهذا المال يترجح بهذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم كما يقدم المثل على القيمة، والعين على المثل، فكذلك ما يحتمل فيه رجوع المثل مقدم على ما يحتمل فيه رجوع القيمة، وما يحتمل فيه رجوع العين يقدم على ما يحتمل فيه رجوع المثل، ولو جاز لهذا أن يقول ذلك لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين ويتصرف فيهما ويقول: علي قضاء حقك من موضع آخر؛ إذ الاختلاط من الجانبين، وليس ملك أحدهما بأن يقدر فائتاً بأولى من الآخر إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه فائت فيه، أو ينظر إلى الذي خلط فيجعل بفعله متلفاً لحق غيره، وكلاهما بعيدان جداً. وهذا واضح في ذوات الأمثال فإنها تقع عوضاً في الإتلافات من غير عقد. فأما إذا اشتبه دار بدور أو عبد بعبيد فلا سبيل إلى المصالحة والتراضي، فإن أبى أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه، فإن كانت متماثلة القيم فالطريق أن يبيع القاضي جميع الدور ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة، وإن كانت متفاوتة أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل، ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الاصطلاح لأنه مشكل، وإن لم يوجد القاضي فللذي يريد الخلاص وفي يده الكل أن يتولى ذلك بنفسه، هذه هي المصلحة وما عداها من الاحتمالات ضعيفة لا نختارها، وفيما سبق تنبيه على العلة. وهذا في الحنطة ظاهر، وفي النقود دونه، وفي العروض أغمض؛ إذ لا يقع البعض بدلاً عن البعض، فلذلك احتيج إلى البيع، ولترسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل:

مسألة: إذا ورث مع جماعة وكان السلطان قد غصب ضيعة لمورثهم فرد عليه قطعة معينة فهي لجميع الورثة. ولو رد من الضيعة نصفاً وهو قدر حقه ساهمه الورثة، فإن النصف الذي لا يتميز حتى يقال: هو المردود، والباقي هو المغصوب، ولا يصير مميزاً بنية السلطان، وقصده حصر الغصب في نصيب الآخرين.

مسألة: إذا وقع في يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب والمال عقار، وكان قد حصل منه انتفاع

فينبغي أن يحسب أجر مثله لطول تلك المدة، وكذلك كل مغصوب له منفعة أو حصل منه زيادة، فلا تصح توبته ما لم يخرج أجرة المغصوب، وكذلك كل زيادة حصلت منه. وتقدير أجرة العبيد والثياب والأواني وأمثال ذلك مما لا يعتاد إجارتها مما يعسر ولا يدرك ذلك إلا باجتهاد وتخمين، وهكذا كل التقويمات تقع بالاجتهاد، وطريق الورع الأخذ بالأقصى، وما ربحه على المال المغصوب في عقود عقدها على الذمة وقضى الثمن منه فهو ملك له ولكن فيه شبهة؛ إذ كان ثمنه حراماً كما سبق حكمه، وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقود كانت فاسدة، وقد قيل: تنفذ بإجارة المغصوب منه للمصلحة فيكون المغصوب منه أولى به، والقياس: أن تلك العقود تفسخ وتسترد الثمن وترد الأعواض، فإن عجز عنه لكثرته فهي أموال حرام حصلت في يده فللمغصوب منه قدر رأس ماله، والفضل حرام يجب إخراجه لتصدّق به، ولا يحل للغاصب ولا للمغصوب منه، بل حكمه حكم كل حرام يقع في يده.

مسألة: من ورث مالاً ولم يدرِ أن مورثه من أين اكتسبه؟ أمن حلال أم من حرام، ولم يكن ثمَّ علامة؟ فهو حلال باتفاق العلماء. وإن علم أن فيه حراماً وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحري، فإن لم يعلم ذلك ولكن علم أن مورثه كان يتولى أعمالاً للسلاطين، واحتمل أنه لم يكن يأخذ في عمله شيئاً، أو كان قد أخذ ولم يبق في يده منه شيء لطول المدّة، فهذه شبهة يحسن التورّع عنها ولا يجب، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر بالاجتهاد. وقال بعض العلماء: لا يلزمه والإثم على المورّث، واستدل بما روي أن رجلاً ممن ولي عمل السلطان مات، فقال صحابي: الآن طاب ماله. أي لوارثه، وهذا ضعيف؛ لأنه لم يذكر اسم الصحابي ولعله صدر من متساهل، فقد كان في الصحابة من يتساهل، ولكن لا نذكره لحرمة الصحبة، وكيف يكون موت الرجل مبيحاً للحرام المتيقن المختلط ومن أين يؤخذ هذا؟ نعم، إذا لم يتيقن يجوز أن يقال: هو غير مأخوذ بما لا يدري، فيطيب لوارث لا يدري أنّ فيه حراماً يقيناً.

النظر الثاني: في المصرف:

فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال:

إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه، وإن كان غائباً فينتظر حضوره أو الإيصال إليه، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره.

وإما أن يكون لمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عيبه، ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك، كغلول الغنيمة فإنها بعد تفرق الغزاة كيف يقدر على جمعهم؟، وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً مثلاً على ألف أو ألفين؟، فهذا ينبغي أن يتصدق به.

وإما من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات ومصانع طريق مكة، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها كل من يمر بها من المسلمين؛ ليكون عاماً للمسلمين، وحكم القسم الأول لا شبهة فيه. أما التصدّق وبناء القناطر فينبغي أن يتولاه القاضي فيسلم إليه المال إن وجد قاضياً متديناً، وإن كان القاضي مستحلاً فهو بالتسليم إليه ضامن لو ابتدأ به فيما لا يضمنه، فكيف يسقط عنه به ضمان قد استقرّ عليه، بل يحكم من أهل البلد عالماً متديناً، فإنّ التحكيم أولى من الانفراد، فإن عجز فليتول ذلك بنفسه، فإن المقصود الصرف.

وأما عين الصارف فإنما نطلبه لمصارف دقيقة في المصالح، فلا يترك أصل الصرف بسبب العجز عن صارف هو أولى عند القدرة عليه.

فإن قيل: ما دليل جواز التصدق بما هو حرام؟ وكيف يتصدّق بما لا يملك؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام. وحكي عن الفضيل أنه وقع في يده درهمان فلما علم أنهما من غير وجههما رماهما بين الحجارة وقال: لا أتصدّق إلا بالطيب، ولا أرضى لغيري ما لا أرضاه لنفسي.

فنقول: نعم، ذلك له وجه واحتمال، وإنما اخترنا خلافه للخبر والأثر والقياس. أما الخبر: فأمر رسول الله ﷺ بالتصدّق بالشاة المصلية التي قدمت إليه فكلمته بأنها حرام؛ إذ قال ﷺ: «**أَطْعِمُوهَا الأُسَارَىٰ**»[(١)]. ولما نزل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③﴾ [الرُّوم: ١-٣] كذبه المشركون وقالوا للصحابة: ألا ترون ما يقول صاحبكم، يزعم أن الروم ستغلب. فخاطرهم[(٢)] أبو بكر رضي الله عنه بإذن رسول الله ﷺ، فلما حقق الله صدقه وجاء أبو بكر رضي الله عنه بما قامرهم به، قال عليه الصلاة والسلام: «**هٰذَا سُحۡتٌ، فتصدق به**»، وفرح المؤمنون بنصر الله، وكان قد نزل تحريم القمار بعد إذن رسول الله ﷺ له في المخاطرة مع الكفار[(٣)].

وأما الأثر: فإن ابن مسعود رضي الله عنه اشترى جارية فلم يظفر بمالكها لينقده الثمن، فطلبه كثيراً فلم يجده، فتصدّق بالثمن وقال: اللهم هذا عنه إن رضي وإلاّ فالأجر لي. وسئل الحسن رضي الله عنه عن توبة الغال وما يؤخذ منه بعد تفرّق الجيش، فقال: يتصدق به. وروي أن رجلاً سوّلت له نفسه فغلّ مائة دينار من الغنيمة، ثم أتى أميره ليردها عليه فأبى أن يقبضها وقال له: تفرّق الناس، فأتى معاوية فأبى أن يقبض، فأتى بعض النساك فقال: ادفع خمسها إلى معاوية، وتصدّق بما يبقى، فبلغ معاوية قوله، فتلهف إذ لم يخطر له ذلك، وقد ذهب أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وجماعة من الورعين إلى ذلك.

وأما القياس: فهو أن يقال: إن هذا المال مردد بين أن يضيع وبين أن يصرف إلى خير؛ إذ قد وقع اليأس من مالكه، وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه في البحر، فإنا إن رميناه في البحر فقد فوّتناه على أنفسنا وعلى المالك ولم تحصل منه فائدة. وإذا رميناه في يد فقير يدعو لمالكه حصل للمالك بركة دعائه، وحصل للفقير سدّ حاجته، وحصول الأجر للمالك بغير اختياره في التصدّق لا ينبغي أن ينكر. فإن في الخبر الصحيح: «**إن للزارع والغارس أجراً في كل ما يصيبه الناس والطيور**

الباب الرابع

في كيفية خروج التائب عن المظالم

(١) حديث: أمر رسول الله ﷺ بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت بين يديه وكلمته بأنها حرام، إذ قال: «**أطعموها الأساری**» رواه أحمد من حديث رجل من الأنصار قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فلما رجعنا لقينا راعي امرأة من قريش فقال: إن فلانة تدعوك ومن معك إلى طعام. . .» الحديث. وفيه فقال: «**أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها**» وفيه فقال: «**أطعموها الأساری**» وإسناده جيد.

(٢) المخاطرة: المراهنة.

(٣) حديث: مخاطرة أبي بكر المشركين بإذنه ﷺ لما نزل قوله تعالى ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ②﴾ [الرُّوم: ١، ٢] وفيه فقال ﷺ: «**هذا سحت**» فتصدق به. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن عباس، وليس فيه أن ذلك كان بإذنه ﷺ، والحديث عند الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه دون قوله أيضاً: «**هذا سحت**» فتصدق به.

من ثماره وزرعه»(١) وذلك بغير اختياره، وأما قول القائل: لا نتصدق إلا بالطيب، فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلمة لا الأجر، وترددنا بين التضييع وبين التصدّق، ورجحنا جانب التصدّق على جانب التضييع. وقول القائل: لا نرضى لغيرنا ما لا نرضاه لأنفسنا، فهو كذلك ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه، وللفقير حلال إذ أحله دليل الشرع، وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل، وإذا حل فقد رضينا له الحلال، ونقول: إن له أن يتصدّق على نفسه وعياله إذا كان فقيراً. أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لا ينتفي عنهم بكونهم من عياله وأهله بل هم أولى من يتصدّق عليهم، وأما هو فله أن يأخذ منه قدر حاجته لأنه أيضاً فقير ولو تصدّق به على فقير لجاز وكذا إذا كان هو الفقير، ولنرسم في بيان هذا الأصل أيضاً مسائل:

مسألة: إذا وقع في يده مال من يد سلطان. قال قوم: يرد إلى السلطان فهو أعلم بما تولاه فيقلده ما تقلده وهو خير من أن يتصدّق به، واختار المحاسبي ذلك وقال: كيف يتصدّق به فلعل له مالكاً معيناً؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يسرق من السلطان ويتصدّق به. وقال قوم: يتصدق به إذا علم أن السلطان لا يرده إلى المالك لأن ذلك إعانة للظالم وتكثير لأسباب ظلمه فالرد إليه تضييع لحق المالك، والمختار أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لا يرده إلى مالكه فيتصدق به عن مالكه فهو خير للمالك إن كان له مالك معين من أن يرد على السلطان، لأنه ربما لا يكون له مالك معين ويكون حق المسلمين، فرده على السلطان تضييع، فإن كان له مالك معين فالرد على السلطان تضييع وإعانة للسلطان الظالم وتفويت لبركة دعاء الفقير على المالك وهذا ظاهر، فإذا وقع في يده من ميراث ولم يتعدّ هو بالأخذ من السلطان فإنه شبيه باللقطة التي أيس عن معرفة صاحبها إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدّق عن المالك ولكن له أن يتملكها، ثم وإن كان غنياً من حيث إنه اكتسبه من وجه مباح وهو الالتقاط وههنا لم يحصل المال من وجه مباح فيؤثر في منعه من التملك، ولا يؤثر في المنع من التصدّق.

مسألة: إذا حصل في يده مال لا مالك له، وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره، ففي قدر حاجته نظر ذكرناه في كتاب أسرار الزكاة، فقد قال قوم: يأخذ كفاية سنة لنفسه وعياله وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتسب بها للعائلة فعل، وهذا ما اختاره المحاسبي ولكنه قال: الأولى أن يتصدّق بالكل إن وجد من نفسه قوّة التوكل وينتظر لطف الله تعالى في الحلال، فإن لم يقدر فله أن يشتري ضيعة، أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه، وكل يوم وجد فيه حلالاً أمسك ذلك اليوم عنه، فإذا فني عاد إليه، فإذا وجد حلالاً معيناً تصدق بمثل ما أنفقه من قبل ويكون ذلك قرضاً عنده، ثم إنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوي عليه، وإلا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع، وما ذكره لا مزيد عليه ولكن جعل ما أنفقه قرضاً عنده فيه نظر، ولا شك في أن الورع أن يجعله قرضاً، فإذا وجد حلالاً تصدّق بمثله. ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذي يتصدّق به عليه فلا يبعد أن لا يجب عليه أيضاً إذا أخذه لفقره لا سيما إذا وقع في يده من ميراث ولم يكن متعدياً بغصبه وكسبه حتى يغلظ الأمر عليه فيه.

مسألة: إذا كان في يده حلال وحرام أو شبهة وليس يفضل الكل عن حاجته، فإذا كان له عيال

---

(١) حديث: «أجر الزارع والغارس في كل ما يصيب الناس والطيور» أخرجه البخاري من حديث أنس: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له صدقة».

فليخص نفسه بالحلال؛ لأن الحجة عليه أوكد في نفسه منه في عبده وعياله وأولاده الصغار والكبار من الأولاد يحرسهم من الحرام إن كان لا يفضي بهم إلى ما هو أشد منه، فإن أفضى فيطعمهم بقدر الحاجة. وبالجملة: كل ما يحذره في غيره فهو محذور في نفسه وزيادة، وهو أنه يتناول مع العلم والعيال ربما تعذر إذا لم تعلم؛ إذ لم تتول الأمر بنفسها فليبدأ بالحلال بنفسه ثم بمن يعول، وإذا تردد في حق نفسه بين ما يخص قوته وكسوته وبين غيره من المؤن كأجرة الحجام والصباغ والقصار والحمال والاطلاء بالنورة والدهن وعمارة المنزل وتعهد الدابة وتسجير التنور وثمن الحطب ودهن السراج فليخص بالحلال قوته ولباسه، فإن ما يتعلق ببدنه ـ ولا غنى به عنه ـ هو أولى بأن يكون طيباً، وإذا دار الأمر بين القوت واللباس فيحتمل أن يقال يخص القوت بالحلال لأنه ممتزج بلحمه ودمه، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به. وأما الكسوة ففائدتها ستر عورته ودفع الحرّ والبرد والأبصار عن بشرته! وهذا هو الأظهر عندي. وقال الحارث المحاسبي: يقدم اللباس، لأنه يبقى عليه مدة والطعام لا يبقى عليه، لما روي أنه: «**لا يقبل الله صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم فيها درهم حرام**»[(١)]، وهذا محتمل. ولكن أمثال هذا قد ورد فيمن في بطنه حرام ونبت لحمه من حرام[(٢)]. فمراعاة اللحم والعظم أن ينبته من الحلال أولى، ولذلك تقيأ الصّديق رضي الله عنه ما شربه مع الجهل حتى لا ينبت منه لحم يثبت ويبقى.

فإن قيل: فإذا كان الكل منصرفاً إلى أغراضه فأي فرق بين نفسه وغيره وبين جهة وجهة وما مدرك هذا الفرق؟ قلنا: عرف ذلك بما روي أنّ رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضحاً وعبداً حجاماً فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فنهى عن كسب الحجام، فروجع مرات فمنع منه، فقيل: إنّ له أيتاماً فقال: «**أعلفوه الناضح**»[(٣)]، فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو أو دابته، فإذا انفتح سبيل الفرق فقس عليه التفصيل الذي ذكرناه..

مسألة: الحرام الذي في يده لو تصدّق به على الفقراء فله أن يوسع عليهم، وإذا أنفق على نفسه فليضيق ما قدر، وما أنفق على عياله فليقتصد، وليكن وسطاً بين التوسيع والتضييق فيكون الأمر على ثلاث مراتب. فإن أنفق على ضيف قدم عليه وهو فقير فليوسع عليه، وإن كان غنياً فلا يطعمه إلا إذا كان في برية أو قدم ليلاً ولم يجد شيئاً؛ فإنه في ذلك الوقت فقير، وإن كان الفقير الذي حضر ضيفاً تقياً لو علم ذلك لتورّع عنه فليعرض الطعام وليخبره جمعاً بين حق الضيافة وترك الخداع، فلا ينبغي أن يكرم أخاه بما يكره، ولا ينبغي أن يعوّل على أنه لا يدري فلا يضره، فإنّ الحرام إذا حصل في المعدة أثر في قساوة القلب وإن لم يعرفه صاحبه، ولذلك تقيأ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وكانا قد شربا على

---

(١) حديث: «**لا تقبل صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم وفيها درهم حرام**» أخرجه أحمد من حديث ابن عمر، وقد تقدم.

(٢) حديث: «الجسد نبت من الحرام» تقدم.

(٣) حديث: «أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحاً وعبداً وحجاماً...» الحديث. وفيه: «**أعلفوه الناضح**» أخرجه أحمد والطبراني من رواية عباية بن رفاعة بن خديج: «أن جده حين مات ترك جارية وناضحاً وغلاماً حجاماً...» الحديث. وليس المراد بجده رافع بن خديج فإنه بقي إلى سنة أربع وسبعين، فيحتمل أن المراد جده الأعلى وهو خديج؛ ولم أر له ذكراً في الصحابة، وفي رواية للطبراني عن عباية بن رفاعة عن أبيه قال: «مات أبي» وفي رواية له عن عباية قال: «مات رفاعة على عهد النبي ﷺ ...» الحديث. وهو مضطرب. الناضح: الجمل المستخدم في السقاية.

جهل، وهذا وإن أفتينا بأنه حلال للفقراء أحللناه بحكم الحاجة إليه فهو كالخنزير والخمر إذا أحللناهما بالضرورة فلا يلتحق بالطيبات.

مسألة: إذا كان الحرام أو الشبهة في يد أبويه فليمتنع عن مؤاكلتهما، فإن كانا يسخطان فلا يوافقهما على الحرام المحض بل ينهاهما، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى، فإن كان شبهة وكان امتناعه للورع، فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاهما بل هو واجب فليتلطف في الامتناع، فإن لم يقدر فليوافق وليقلل الأكل بأن يصغر اللقمة ويطيل المضغ ولا يتوسع فإن ذلك عدوان، والأخ والأخت قريبان من ذلك، لأنّ حقهما أيضاً مؤكد، وكذلك إذا ألبسته أمه ثوباً من شبهة وكانت تسخط برده فليقبل وليلبس بين يديها ولينزع في غيبتها، وليجتهد أن لا يصلي فيه إلا عند حضورها فيصلي فيه صلاة المضطرّ، وعند تعارض أسباب الورع ينبغي أن يتفقد هذه الدقائق. وقد حكي عن بشر رحمه الله أنه سلمت إليه أمه رطبة وقالت: بحقي عليك أن تأكلها وكان يكرهه، فأكل ثم صعد غرفة فصعدت أمه وراءه فرأته يتقيأ، وإنما فعل ذلك لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة المعدة. وقد قيل لأحمد بن حنبل: سئل بشر هل للوالدين طاعة في الشبهة؟ فقال: لا. فقال أحمد: هذا شديد. فقيل له: سئل محمد بن مقاتل العباداني عنها فقال: برّ والديك؛ فماذا تقول؟ فقال للسائل: أحب أن تعفيني فقد سمعتَ ما قالا، ثم قال: ما أحسن أن تداريهما.

مسألة: من في يده مال حرام محض فلا حج عليه ولا يلزمه كفارة مالية، لأنه مفلس ولا تجب عليه الزكاة؛ إذ معنى الزكاة وجوب إخراج ربع العشر مثلاً، وهذا يجب عليه إخراج الكل: إما رداً على المالك إن عرفه، أو صرفاً إلى الفقراء إن لم يعرف المالك، وأما إذا كان مال شبهة يحتمل أنه حلال فإذا لم يخرجه من يده لزمه الحج؛ لأنّ كونه حلالاً ممكن ولا يسقط الحج إلا بالفقر ولم يتحقق فقره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧]، وإذا وجب عليه التصدّق بما يزيد على حاجته حيث يغلب على ظنه تحريمه فالزكاة أولى بالوجوب، وإن لزمته كفارة فليجمع بين الصوم والإعتاق ليتخلص بيقين. وقد قال قوم: يلزمه الصوم دون الإطعام؛ إذ ليس له يسار معلوم. وقال المحاسبي: يكفيه الإطعام. والذي نختاره: أن كل شبهة حكمنا بوجوب اجتنابها وألزمناه إخراجها من يده لكون احتمال الحرام أغلب على ما ذكرناه فعليه الجمع بين الصوم والإطعام؛ أما الصوم فلأنه مفلس حكماً، وأما الإطعام فلأنه قد وجب عليه التصدّق بالجميع، ويحتمل أن يكون له فيكون اللزوم من جهة الكفارة.

مسألة: من في يده مال حرام أمسكه للحاجة فأراد أن يتطوّع بالحج فإن كان ماشياً فلا بأس به؛ لأنه سيأكل هذا المال في غير عبادة فأكله في عبادة أولى. وإن كان لا يقدر على أن يمشي ويحتاج إلى زيادة للمركوب فلا يجوز الأخذ لمثل هذه الحاجة في الطريق، كما لا يجوز شراء المركوب في البلد. وإن كان يتوقع القدرة على حلال لو أقام بحيث يستغني به عن بقية الحرام فالإقامة في انتظاره أولى من الحج ماشياً بالمال الحرام.

مسألة: من خرج لحج واجب بمال فيه شبهة فليجتهد أن يكون قوته من الطيب، فإن لم يقدر فمن وقت الإحرام إلى التحلل، فإن لم يقدر فليجتهد يوم عرفة أن لا يكون قيامه بين يدي الله ودعاؤه في وقت مطعمه حرام وملبسه حرام؛ فليجتهد أن لا يكون في بطنه حرام ولا على ظهره حرام، فإنا وإن جوّزنا هذا بالحاجة فهو نوع ضرورة، وما ألحقناه بالطيبات، فإن لم يقدر فليلازم قلبه الخوف والغم لما

هو مضطَر إليه من تناول ما ليس بطيب فعساه ينظر إليه بعين الرحمة ويتجاوز عنه بسبب حزنه وخوفه وكراهته.

مسألة: سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال له قائل: مات أبي وترك مالاً وكان يعامل من تكره معاملته، فقال: تدع من ماله بقدر ما ربح، فقال: له دين وعليه دين، فقال: تقضي وتقتضي، فقال أفترى ذلك؟ فقال: أفتدعه محتبساً بدينه؟ وما ذكره صحيح وهو يدل على أنه رأى التحرّي بإخراج مقدار الحرام إذ قال: يخرج قدر الربح، وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له بدلاً عما بذله في المعاوضات الفاسدة بطريق التقاص والتقابل مهما كثر التصرف وعسر الرد، وعوّل في قضاء دينه على أنه يقين فلا يترك بسبب الشبهة.

***

الباب الخامس

في إدرارات السلاطين وصِلاتهم، وما يحل منها وما يحرم

اعلم: أن من أخذ مالاً من سلطان فلا بد له من النظر في ثلاثة أمور:

في مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو؟ وفي صفته التي بها يستحق الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق؟.

النظر الأول: في جهات الدخل للسلطان:

وكل ما يحل للسلطان سوى الإحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان:

مأخوذ من الكفار ـ وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر ـ، والفيء ـ وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال ـ، والجزية وأموال المصالحة ـ وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة ـ.

والقسم الثاني: المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسمان: المواريث وسائر الأموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك، والأوقاف التي لا متولي لها. أما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان. وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام.

فإذا كتب لفقيه أو غيره إدرار أو صلة أو خلعة على جهة فلا يخلو من أحوال ثمانية: فإنه إما أن يكتب له ذلك على الجزية، أو على المواريث، أو على الأوقاف، أو على ملك أحياه السلطان، أو على ملك اشتراه، أو على عامل خراج المسلمين، أو على بياع من جملة التجار، أو على الخزانة.

فالأول: هو الجزية وأربعة أخماسها للمصالح وخمسها لجهات معينة. فما يكتب على الخمس من تلك الجهات أو على الأخماس الأربعة لما فيه مصلحة وروعي فيه الاحتياط في القدر فهو حلال، بشرط أن لا تكون الجزية إلا مضروبة على وجه شرعي، ليس فيها زيادة على دينار أو على أربعة دنانير، فإنه أيضاً محل الاجتهاد، وللسلطان أن يفعل ما هو في محل الاجتهاد، وبشرط أن يكون الذمي الذي تؤخذ الجزية منه مكتسباً من وجه لا يعلم تحريمه، فلا يكون عامل السلطان ظالماً ولا بائع خمر ولا صبياً ولا

امرأة؛ إذ لا جزية عليهما. فهذه أمور تراعى في كيفية ضرب الجزية ومقدارها، وصفة من تصرف إليه، ومقدار ما يصرف. فيجب النظر في جميع ذلك.

الثاني: المواريث والأموال الضائعة، فهي للمصالح، والنظر أن الذي خلفه هل كان ماله كله حراماً أو أكثره أو أقله وقد سبق حكمه، فإن لم يكن حراماً بقي النظر في صفة من يصرف إليه بأن يكون في الصرف إليه مصلحة، ثم في المقدار المصروف.

الثالث: الأوقاف، وكذا يجري النظر فيها كما يجري في الميراث، مع زيادة أمر: وهو شرط الواقف حتى يكون المأخوذ موافقاً له في جميع شرائطه.

الرابع: ما أحياه السلطان، وهذا لا يعتبر فيه شرط، إذ له أن يعطي من ملكه ما شاء لمن شاء أي قدر شاء. وإنما النظر في أن الغالب أنه أحياه بإكراه الأجراء أو بأداء أجرتهم من حرام. فإن الإحياء يحصل بحفر القناة والأنهار وبناء الجدران وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه. فإن كانوا مكرهين على الفعل لم يملكه السلطان وهو حرام، وإن كانوا مستأجرين ثم قضيت أجورهم من الحرام فهذا يورث شبهة قد نبهنا عليها في تعلق الكراهة بالأعواض.

الخامس: ما اشتراه السلطان في الذمة من أرض أو ثياب خلعة أو فرس أو غيره فهو ملكه وله أن يتصرف فيه، ولكنه سيقضي ثمنه من حرام، وذلك يوجب التحريم تارة والشبهة أخرى. وقد سبق تفصيله.

السادس: أن يكتب على عامل خراج المسلمين أو من يجمع أموال القسمة والمصادرة وهو الحرام السحت الذي لا شبهة فيه، وهو أكثر الإدرارات في هذا الزمان، إلا ما على أراضي العراق؛ فإنها وقف عند الشافعي رحمه الله على مصالح المسلمين.

السابع: ما يكتب على بياع يعامل السلطان، فإن كان لا يعامل غيره فماله كمال خزانة السلطان. وإن كان يعامل غير السلاطين أكثر فما يعطيه قرض على السلطان، وسيأخذ بدله من الخزانة؛ فالخلل يتطرق إلى العوض. وقد سبق حكم الثمن الحرام.

الثامن: ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام. فإن لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام فهو سحت محض. وإن عرف يقيناً أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أن يكون ما يسلم إليه بعينه من الحلال احتمالاً قريباً له وقع في النفس، واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب؛ لأن أغلب أموال السلاطين حرام في هذه الأعصار، والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز، فقد اختلف الناس في هذا فقال قوم: كل ما لا أتيقن أنه حرام فلي أن آخذه، وقال آخرون: لا يحل أن يؤخذ ما لم يتحقق أنه حلال، فلا تحل شبهة أصلاً، وكلاهما إسراف والاعتدال ما قدّمنا ذكره: وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراماً حرم، وإن كان الأغلب حلالاً وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا فيه كما سبق.

ولقد احتج من جوّز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال ـ مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام ـ بما روي عن جماعة من الصحابة أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلمة وأخذوا الأموال، منهم: أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وجرير بن عبدالله، وجابر، وأنس بن مالك، والمسور بن مخرمة. فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد بن عبدالملك. وأخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج. وأخذ كثير من التابعين منهم كالشعبي وإبراهيم والحسن

وابن أبي ليلى. وأخذ الشافعي من هارون الرشيد ألف دينار في دفعة. وأخذ مالك من الخلفاء أموالاً جمة. وقال علي رضي الله عنه: خذ ما يعطيك السلطان؛ فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر. وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعاً مخافة على دينه أن يحمل على ما لا يحل. ألا ترى قول أبي ذر للأحنف بن قيس: خذ العطاء ما كان نحلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه؟. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا أعطينا قبلنا وإذا منعنا لم نسأل. وعن سعيد بن المسيب: أن أبا هريرة رضي الله عنه كان إذا أعطاه معاوية سكت وإن منعه وقع فيه. وعن الشعبي عن مسروق: لا يزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار ـ أي يحمله ذلك على الحرام لا أنه في نفسه حرام ـ وروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ثم يقول: لا أسأل أحداً ولا أرد ما رزقني الله. وأهدى إليه ناقة فقبلها، وكان يقال لها: ناقة المختار، ولكن هذا يعارضه ما روي أن ابن عمر رضي الله عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار، والإسناد في رده أثبت. وعن نافع أنه قال: بعث ابن معمر إلى ابن عمر بستين ألفاً فقسمها على الناس، ثم جاءه سائل فاستقرض له من بعض من أعطاه وأعطى السائل. ولما قدم الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه فقال: لأجيزك بجائزة لم أجزها أحداً قبلك من العرب، ولا أجيزها أحداً بعدك من العرب، قال: فأعطاه أربعمائة ألف درهم فأخذها. وعن حبيب بن أبي ثابت قال: لقد رأيت جائزة المختار لابن عمر وابن عباس فقبلاها، فقيل: ما هي؟ قال: مال وكسوة. وعن الزبير بن عدي أنه قال: قال سلمان: إذا كان لك صديق عامل أو تاجر يقارف الربا فدعاك إلى طعام أو نحوه أو أعطاك شيئاً فاقبل فإن المهنأ لك وعليه الوزر. فإن ثبت هذا في المربي فالظالم في معناه. وعن جعفر عن أبيه أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية. وقال حكيم بن جبير: مررنا على سعيد بن جبير وقد جعل عاملاً على أسفل الفرات فأرسل إلى العشارين: أطعمونا مما عندكم فأرسلوا بطعام فأكل وأكلنا معه. وقال العلاء بن زهير الأزدي: أتى إبراهيم أبي ـ وهو عامل على حلوان ـ فأجازه فقبل وقال إبراهيم: لا بأس بجائزة العمال، إن للعمال مؤنة ورزقاً. ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فما أعطاك فهو من طيب ماله.

فقد أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم في معصية الله تعالى. وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من السلف لا يدل على التحريم بل على الورع كالخلفاء الراشدين وأبي ذرّ وغيرهم من الزهاد، فإنهم امتنعوا من الحلال المطلق زهداً، ومن الحلال الذي يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعاً وتقوى. فإقدام هؤلاء يدل على الجواز، وامتناع أولئك لا يدل على التحريم. وما نقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه في بيت المال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفاً، وما نقل عن الحسن من قوله: لا أتوضأ من ماء صيرفي ـ ولو ضاق وقت الصلاة ـ لأني لا أدري أصل ماله، كل ذلك ورع لا ينكر، واتباعهم عليه أحسن من اتباعهم على الاتساع، ولكن لا يحرم اتباعهم على الاتساع أيضاً. فهذه هي شبهة من يجوز أخذ مال السلطان الظالم.

والجواب: أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل بالإضافة إلى ما نقل من ردهم وإنكارهم، وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع فيتطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاوتهم في الورع. فإن للورع في حق السلاطين أربع درجات:

الدرجة الأولى: أن لا يأخذ من أموالهم شيئاً أصلاً كما فعله الورعون منهم، وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون، حتى إنَّ أبا بكر رضي الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة

آلاف درهم فغرمها لبيت المال، وحتى إنَّ عمر رضي الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوماً فدخلت ابنة له وأخذت درهماً من المال، فنهض عمر في طلبها حتى سقطت الملحفة من أحد منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكي وجعلت الدرهم في فيها، فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطرحه على الخراج وقال: أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر، إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم. وكسح أبو موسى الأشعري بيت المال فوجد درهماً فمر بني لعمر رضي الله عنه فأعطاه إياه، فرأى عمر ذلك في يد الغلام فسأله عنه، فقال: أعطانيه أبو موسى، فقال: يا أبا موسى، ما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر، أردت أن لا يبقى من أمة محمد ﷺ أحد إلا طلبنا بمظلمة، ورد الدرهم إلى بيت المال. هذا مع أن المال كان حلالاً ولكن خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبرىء لدينه ويقتصر على الأقل امتثالاً لقوله ﷺ: **«دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ»**(١). ولقوله: **«وَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ»**(٢)، وَلِمَا سمعه من رسول الله ﷺ من التشديدات في الأموال السلطانية حتى قال ﷺ حين بعث عبادة بن الصامت إلى الصدقة: **«اتَّقِ الله يَا أَبَا الوَلِيدِ لاَ تَجِيءْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ عَلَىٰ رَقَبَتِكَ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٍ لَهَا ثُؤَاجٌ»**(٣) فقال: يا رسول الله أهكذا يكون؟ قال: **«نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ الله»**. قال: فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على شيء أبداً»(٤). وقال ﷺ: **«إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا»**(٥). وإنما خاف التنافس في المال. ولذلك قال عمر رضي الله عنه في حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال: إني لم أجد نفسي فيه إلا كالوالي مال اليتيم؛ إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف. وروي: أن ابناً لطاوس افتعل كتاباً عن لسانه إلى عمر بن عبدالعزيز فأعطاه ثلاثمائة دينار؛ فباع طاوس ضيعة له وبعث من ثمنها إلى عمر بثلاثمائة دينار، هذا مع أن السلطان ليس مثل عمر بن عبدالعزيز. فهذه الدرجة العليا في الورع.

الدرجة الثانية: هو أن يأخذ مال السلطان، ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال، فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لا يضره، وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها بأكابر الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر فإنه كان من المبالغين في الورع فكيف يتوسع في مال السلطان، وقد كان من أشدهم إنكاراً عليهم وأشدهم ذماً لأموالهم؟ وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر ـ وهو في مرضه، وأشفق على نفسه من ولايته وكونه مأخوذاً عند الله تعالى بها ـ فقالوا له: إنا لنرجو لك الخير، حفرت الآبار وسقيت الحاج وصنعت... وصنعت... وابن عمر ساكت، فقال:

الباب الخامس

في إدرارات السلاطين

(١) حديث: **«دع ما يريبك»** تقدم في الباب الأول من الحلال والحرام.

(٢) حديث: **«من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه»** متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، وقد تقدم أوله في أول الباب الثاني من الحلال والحرام.

(٣) الثؤاج: صياح الغنم.

(٤) حديث: «قال لعبادة بن الصامت حين بعثه إلى الصدقة: **«اتق الله يا أبا الوليد لا تجيء يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك...»** الحديث. أخرجه الشافعي في المسند من حديث طاوس مرسلاً، ولأبي يعلى في المعجم من حديث ابن عمر مختصراً أنه قاله لسعد بن عبادة، وإسناده صحيح.

(٥) حديث: **«إني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي إنما أخاف عليكم أن تنافسوا»** متفق عليه من حديث عقبة بن عامر.

ماذا تقول يا ابن عمر؟ فقال: أقول ذلك إذا طاب المكسب وزكت النفقة وسترد فترى. وفي حديث آخر أنه قال: إن الخبيث لا يكفر الخبيث، وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شراً. فقال له ابن عامر: ألا تدعو لي، فقال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لاَ يَقْبَلُ الله صَلاَةً بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلاَ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ»**[(١)]، وقد وليت البصرة، فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال في أيام الحجاج: ما شبعت من الطعام منذ انتهبت الدار إلى يومي هذا. وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان له سويق في إناء مختوم يشرب منه فقيل: أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه؟ فقال: أما إني لا أختمه بخلاً به، ولكن أكره أن يجعل فيه ما ليس منه، وأكره أن يدخل بطني غير طيب. فهذا هو المألوف منهم. وكان ابن عمر لا يعجبه شيء إلا خرج عنه، فطلب منه نافع بثلاثين ألفاً فقال: إني أخاف أن تفتنني دراهم ابن عامر وكان هو الطالب، اذهب فأنت حر. وقال أبو سعيد الخدري: ما منا أحد إلا مالت به الدنيا إلا ابن عمر؟ فبهذا يتضح أنه لا يظن به وبمن كان في منصبه أنه أخذ ما لا يدري أنه حلال.

الدرجة الثالثة: أن يأخذ ما أخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين، فإن ما لا يتعين مالكه هذا حكم الشرع فيه. فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظلم فقد نقول: أخذه منه وتفرقته أولى من تركه في يده، وهذا قد رآه بعض العلماء وسيأتي وجهه. وعلى هذا ينزل ما أخذه أكثرهم، ولذلك قال ابن المبارك: إن الذين يأخذون الجوائز اليوم ويحتجون بابن عمر وعائشة ما يقتدون بهما؟ لأن ابن عمر فرق ما أخذ حتى استقرض في مجلسه بعد تفرقته ستين ألفاً، وعائشة فعلت مثل ذلك، وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به وقال: رأيت أن آخذه منهم وأتصدق أحب إليّ من أن أدعها في أيديهم، وهكذا فعل الشافعي رحمه الله بما قبله من هارون الرشيد؛ فإنه فرقه على قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة.

الدرجة الرابعة: أن لا يتحقق أنه حلال ولا يفرق، بل يستبقي ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال، وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين بعد الخلفاء الراشدين، ولم يكن أكثر مالهم حراماً. ويدل عليه تعليل علي رضي الله عنه حيث قال: فإن ما يأخذه من الحلال أكثر. فهذا مما قد جوزه جماعة من العلماء تعويلاً على الأكثر، ونحن إنما توقفنا فيه في حق آحاد الناس، ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر. فلا يبعد أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى جواز أخذ ما لم يعلم أنه حرام اعتماداً على الأغلب، وإنما منعناه إذا كان الأكثر حراماً. فإذا فهمت هذه الدرجات تحققت أن إدرارات الظلمة في زماننا لا تجري مجرى ذلك، وأنها تفارقه من وجهين قاطعين:

أحدهما: أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها، وكيف لا والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان؟ ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به؛ فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره.

---

(١) حديث: **«لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول»** أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

والوجه الثاني: أن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغشون مجالسهم ولا يكثرون جمعهم، ولا يحبون بقاءهم، بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم، وينكرون المنكرات منهم عليهم، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن يأخذهم بأس، فأما الآن: فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم. فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد في الخدمة ثانياً، وبالثناء والدعاء ثالثاً، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادساً، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوىء أعماله سابعاً، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً. فإذاً: لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين. ففي أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم وخدمة عمالهم، واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم، وكل ذلك معصية ـ على ما سنبين في الباب الذي يلي هذا ـ. فإذاً: قد تبين مما تقدّم مداخل أموالهم وما يحل منها وما لا يحل. فلو تصوّر أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس في بيته يساق إليه ذلك ـ لا يحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته، ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم ولا إلى مساعدتهم ـ فلا يحرم الأخذ، ولكن يكره لمعان سننبه عليها في الباب الذي يلي هذا.

النظر الثاني من هذا الباب: في قدر الماخوذ وصفة الآخذ:

ولنفرض المال من أموال المصالح كأربعة أخماس الفيء والمواريث فإن ما عداه مما قد تعين مستحقه إن كان من وقف أو صدقة أو خمس فيء أو خمس غنيمة، وما كان من ملك السلطان مما أحياه أو اشتراه فله أن يعطي ما شاء لمن شاء. وإنما النظر في الأموال الضائعة ومال المصالح فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة، أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب، فأما الغني الذي لا مصلحة فيه: فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه، هذا هو الصحيح، وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه. وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يدل على أن لكل مسلم حقاً في بيت المال؛ لكونه مسلماً مكثراً جمع الإسلام، ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة بل على مخصوصين بصفات. فإذا ثبت هذا فكل من يتولى أمراً يقوم به تتعدّى مصلحته إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه فله في بيت المال حق الكفاية. ويدخل فيه العلماء كلهم؛ أعني العلوم التي تتعلق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه المعلمون والمؤذنون. وطلبة هذه العلوم أيضاً يدخلون فيه، فإنهم إن لم يُكفوا لم يتمكنوا من الطلب. ويدخل فيه العمال؛ وهم الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم وهم الأجناد المرتزقة الذين يحرسون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغي وأعداء الإسلام. ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء، وكل من يحتاج إليه في ترتيب ديوان الخراج ـ أعني: العمال

على الأموال الحلال لا على الحرام ـ فإنّ هذا المال للمصالح. والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا فبالعلماء حراسة الدين، وبالأجناد حراسة الدنيا. والدين والملك توأمان فلا يستغني أحدهما عن الآخر. والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر ديني ولكن يرتبط به صحة الجسد والدين يتبعه؛ فيجوز أن يكون له ولمن يجري مجراه في العلوم المحتاج إليها في مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد إدرار من هذه الأموال ليتفرغوا لمعالجة المسلمين، أعني من يعالج منهم بغير أجرة، وليس يشترط في هؤلاء الحاجة بل يجوز أن يعطوا مع الغنى. فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا بالحاجة. وليس يتقدّر أيضاً بمقدار بل هو إلى اجتهاد الإمام وله أن يوسع ويغني، وله أن يقتصر على الكفاية على ما يقتضيه الحال وسعة المال. فقد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية في دفعة واحدة أربعمائة ألف درهم. وقد كان عمر رضي الله عنه يعطي لجماعة اثني عشر ألف درهم نقرة في السنة. وأثبتت عائشة رضي الله عنها في هذه الجريدة ولجماعة عشرة آلاف ولجماعة ستة آلاف وهكذا. فهذا مال هؤلاء فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شيء. فإن خص واحداً منهم بمال كثير فلا بأس، وكذلك للسلطان أن يخص من هذا المال ذوي الخصائص بالخلع والجوائز فقد كان يفعل ذلك في السلف، ولكن ينبغي أن يلتفت فيه إلى المصلحة. ومهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث للناس وتحريض على الاشتغال والتشبه به، فهذه فائدة الخلع والصلات وضروب التخصيصات. وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان. وإنما النظر في السلاطين الظلمة في شيئين:

أحدهما: أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته، وهو إما معزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذ من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان؟.

والثاني: أنه ليس يعمم بماله جميع المستحقين فكيف يجوز للآحاد أن يأخذوا؟ أفيجوز لهم الأخذ بقدر حصصهم أم لا يجوز أصلاً؟ أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطي؟.

أما الأول: فالذي نراه أنه لا يمنع أخذ الحق، لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه، وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء؛ إذ قد ورد في الأمر بطاعة الأمراء(١)، والمنع من سل اليد عن مساعدتهم(٢) أوامر وزواجر، فالذي نراه: أن الخلافة منعقدة للمتكفل بها من بني العباس رضي الله عنه، وأن الولاية نافذة للسلاطين في أقطار البلاد والمبايعين للخليفة ـ وقد ذكرنا في كتاب المستظهري المستنبط من كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار تأليف القاضي أبي الطيب في الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه المصلحة فيه ـ والقول الوجيز: أنا نراعي الصفات والشروط في السلاطين تشوفاً إلى مزايا المصالح. ولو

---

(١) حديث: «الأمر بطاعة الأمراء» أخرجه البخاري من حديث أنس: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**» ولمسلم من حديث أبي هريرة: «**عليك بالطاعة في منشطك ومكرهك...**» الحديث. وله من حديث أبي ذر: «أوصاني النبي ﷺ أن أسمع وأطيع ولو لعبد مجدع الأطراف».

(٢) حديث: «**المنع من سل اليد عن مساعدتهم**» أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس: «**ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية**» ولمسلم من حديث أبي هريرة: «**من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية**» وله من حديث ابن عمر: «**من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له**».

قضينا ببطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأساً فكيف يفوت رأس المال في طلب الربح؟ بل الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة. فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة. ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام. وتحقيق هذا قد ذكرناه في أحكام الإمامة من كتاب الاقتصاد في الاعتقاد؛ فلسنا نطول الآن به.

وأما الإشكال الآخر: وهو أن السلطان إذا لم يعمم بالعطاء كل مستحق فهل يجوز للواحد أن يأخذ منه؟ فهذا مما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب. فغلا بعضهم وقال: كل ما يأخذه فالمسلمون كلهم فيه شركاء، ولا يدري أن حصته منه دانق أو حبة فليترك الكل. وقال قوم: له أن يأخذ قدر قوت يومه فقط، فإن هذا القدر يستحقه لحاجته على المسلمين. وقال قوم: له قوت سنة، فإنّ أخذ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حق في هذا المال فكيف يتركه؟ وقال قوم: إنه يأخذ ما يعطى، والمظلوم هم الباقون. وهذا هو القياس؛ لأن المال ليس مشتركاً بين المسلمين كالغنيمة بين الغانمين ولا كالميراث بين الورثة لأن ذلك صار ملكاً لهم. وهذا لو لم يتفق قسمه حتى مات هؤلاء لم يجب التوزيع على ورثتهم بحكم الميراث. بل هذا الحق غير متعين وإنما يتعين بالقبض. بل هو كالصدقات. ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكاً لهم ولم يمتنع بظلم المالك بقية الأصناف بمنع حقهم، هذا إذا لم يصرف إليه كل المال بل صرف إليه من المال ما لو صرف إليه بطريق الإيثار والتفضيل مع تعميم الآخرين لجاز له أن يأخذه والتفضيل جائز في العطاء. سوى أبو بكر رضي الله عنه فراجعه عمر رضي الله عنه فقال: إنما فضلهم عند الله وإنما الدنيا بلاغ. وفضل عمر رضي الله عنه في زمانه فأعطى عائشة اثني عشر ألفاً وزينب عشرة آلاف وجويرية ستة آلاف وكذا صفية. وأقطع عمر لعلي خاصة رضي الله عنهما. وأقطع عثمان أيضاً من السواد خمس جنات، وآثر عثمان علياً رضي الله عنهما بها فقبل ذلك منه ولم ينكر. وكل ذلك جائز في محل الاجتهاد وهو من المجتهدات التي أقول فيها: إن كل مجتهد مصيب، وهي كل مسألة لا نص على عينها، ولا على مسألة تقرب منها فتكون في معناها بقياس جلي كهذه المسألة ومسألة حدّ الشرب، فإنهم جلدوا أربعين وثمانين والكل سنّة وحق، وأن كل واحد من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مصيب باتفاق الصحابة رضي الله عنهم؛ إذ المفضول ما ردّ في زمان عمر شيئاً إلى الفاضل مما قد كان أخذه في زمان أبي بكر، ولا الفاضل امتنع من قبول الفضل في زمان عمر، واشترك في ذلك كل الصحابة واعتقدوا أن كل واحد من الرأيين حق. فليؤخذ هذا الجنس دستوراً للخلافات التي يصوب فيها كل مجتهد. فأما كل مسألة شذ عن مجتهد فيها نص أو قياس جلي ـ بغفلة أو سوء رأي، وكان في القوة بحيث ينقض به حكم المجتهد ـ فلا نقول فيها: إن كل واحد مصيب، بل المصيب من أصاب النص أو ما في معنى النص. وقد تحصل من مجموع هذا: أن من وجد من أهل الخصوص الموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا، وأخذ من السلطان خلعة أو إدراراً على التركات أو الجزية لم يصر فاسقاً بمجرد أخذه، وإنما يفسق بخدمته لهم ومعاونته إياهم، ودخوله عليهم وثنائه وإطرائه لهم. إلى غير ذلك من لوازم لا يسلم المال غالباً إلا بها كما سنبينه.

* * *

الباب السادس

فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم

اعلم: أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: ـ وهي شرها ـ أن تدخل عليهم.

والثانية: ـ وهي دونها ـ أن يدخلوا عليك.

والثالثة: ـ وهي الأسلم ـ أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك.

أما الحالة الأولى: وهي الدخول عليهم؛ فهو مذموم جداً في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار، فننقلها لتعرف ذم الشرع له، ثم نتعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم.

أما الأخبار: فإنه لما وصف رسول الله ﷺ الأمراء الظلمة قال: **«فَمَنْ نَابَذَهُمْ نَجَا وَمَنِ اعْتَزَلَهُمْ سَلِمَ أَوْ كَادَ أَنْ يَسْلَمَ وَمَنْ وَقَعَ مَعَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ فَهُوَ مِنْهُمْ»**(١)، وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إثمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم لتركه المنابذة والمنازعة. وقال ﷺ: **«سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ لَيسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الحَوْض»**(٢) وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال ﷺ: **«أَبْغَضُ القُرَّاءِ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ الَّذِينَ يَزُورُونَ الأُمَرَاءَ»**(٣) وفي الخبر: **«خَيْرُ الأُمَرَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ العُلَمَاءَ وَشَرُّ العُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الأُمَرَاءَ»** وفي الخبر: **«العُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَىٰ عِبَادِ الله مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ وَاعْتَزِلُوهُمْ»**(٤). رواه أنس رضي الله عنه.

وأما الآثار: فقد قال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن! قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه. وقال أبو ذرّ لسلمة: يا سلمة. لا تغشَ أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه، وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك. وقال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً.

الباب السادس

فيما يحل من مخالطة السلاطين

(١) حديث: «فمن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم» أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال: «ومن خالطهم هلك».

(٢) حديث: «سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد علي الحوض» أخرجه النسائي والترمذي وصححه الحاكم من حديث كعب بن عجرة.

(٣) حديث أبي هريرة: «أبغض القراء إلى الله عز وجل الذين يأتون الأمراء» تقدم في العلم.

(٤) حديث أنس: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان...» الحديث. أخرجه العقيلي في الضعفاء في ترجمة حفص الأبري وقال: حديثه غير محفوظ، تقدم في العلم.

وقال سمنون: ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال: عند الأمير. وكنت أسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك؛ إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ما أواجههم به من الغلظة والمخالفة لهواهم. وقال عبادة بن الصامت: حب القارىء الناسك الأمراء نفاق، وحبه الأغنياء رياء. وقال أبو ذرّ: من كثّر سواد قوم فهو منهم أي من كثر سواد الظلمة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له، قيل له: ولم؟ قال: لأنه يرضيه بسخط الله. واستعمل عمر بن عبدالعزيز رجلاً فقيل: كان عاملاً للحجاج، فعزله، فقال الرجل: إنما عملت له شيء يسير، فقال له عمر: حسبك بصحبته يوماً أو بعض يوم شؤماً وشراً. وقال الفضيل: ما ازداد رجل من ذي سلطان قرباً إلا ازداد من الله بُعداً. وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول: إن في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين. وقال وهيب: هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمّة من المقامرين. وقال محمد بن سلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارىء على باب هؤلاء. ولما خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخاً كبيراً قد أثقلتك نعم الله لما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه محمد ﷺ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٧]، واعلم: أن أيسر ما ارتكبت واخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل البغي؛ بدنوّك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطباً تدور عليك رحى ظلمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيه إلى ضلالهم، ويدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريَم: ٥٩] الآية. وإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيىء زادك فقد حضر سفر بعيد ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨] والسلام.

فهذه الأخبار والآثار تدل على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد، ولكن نفصل ذلك تفصيلاً فقهياً نميز فيه المحظور عن المكروه والمباح، فنقول: الداخل على السلطان متعرض لأن يعصي الله تعالى إما بفعله أو بسكوته، وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور.

أما الفعل: فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام، ولا يغرّنك قول القائل: إنّ ذلك مما يتسامح به الناس كتمرة أو فتات خبز فإن ذلك صحيح في غير المغصوب، أما المغصوب فلا. لأنه إن قيل: إن كل جلسة خفيفة لا تنقص الملك فهي في محل التسامح؟ وكذلك الاجتياز فيجري هذا في كل واحد فيجري أيضاً في المجموع، والغصب إنما تم بفعل الجميع، وإنما يتسامح به إذا انفرد إذ لو علم المالك به ربما لم يكرهه، فأما إذا كان ذلك طريقاً إلى الاستغراق بالاشتراك فحكم التحريم ينسحب على الكل، فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقاً اعتماداً على أن كل واحد من المارّين إنما يخطو خطوة لا تنقص الملك، لأن المجموع مفوت للملك وهو كضربة خفيفة في التعليم تباح ولكن بشرط الانفراد، فلو اجتمع جماعة بضربات توجب القتل وجب القصاص على الجميع، مع أنّ كل واحدة من الضربات لو انفردت لكانت لا توجب قصاصاً. فإن فرض

كون الظالم في موضع غير مغصوب كالموات مثلاً فإن كانت تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام، والدخول إليه غير جائز؛ لأنه انتفاع بالحرام واستظلال به، فإن فرض كل ذلك حلالاً فلا يعصى بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله: السلام عليكم، ولكن إن سجد أو ركع أو مثل قائماً في سلامه وخدمته كان مكرماً للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه، والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغني ليس بظالم لأجل غناه ـ لا لمعنى آخر اقتضى التواضع ـ نقص ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟ فلا يباح إلا مجرّد السلام. فأما تقبيل اليد والانحناء في الخدمة فهو معصية إلا عند الخوف، أو لإمام عادل أو لعالم أو لمن يستحق ذلك بأمر ديني.

قبّل أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه يد علي كرّم الله وجهه لما أن لقيه بالشام فلم ينكر عليه. وقد بالغ بعض السلف حتى امتنع عن رد جوابهم في السلام والإعراض عنهم استحقاراً لهم، وعدّ ذلك من محاسن القربات. فأما السكوت عن رد الجواب ففيه نظر، لأنّ ذلك واجب فلا ينبغي أن يسقط بالظلم. فإن ترك الداخل جميع ذلك واقتصر على السلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم، وإذا كان أغلب أموالهم حراماً فلا يجوز الجلوس على فرشهم؛ هذا من حيث الفعل.

فأما السكوت: فهو أنه سيرى في مجلسهم من الفرش الحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام. وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة. بل يسمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء، والسكوت على جميع ذلك حرام. بل يراهم لابسين الثياب الحرام وآكلين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام، والسكوت على ذلك غير جائز. فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه فهو معذور في السكوت؟ فهذا حق، ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، فإنه لو لم يدخل ولم يشاهد لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة حتى يسقط عنه بالعذر. وعند هذا أقول: من علم فساداً في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليجري ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت، بل ينبغي أن يحترز عن مشاهدته.

وأما القول: فهو أن يدعو للظالم أو يثني عليه أو يصدّقه فيما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه والحرص على طول عمره وبقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

أما الدعاء له: فلا يحل إلا أن يقول: أصلحك الله أو وفقك الله للخيرات أو طوّل الله عمرك في طاعته أو ما يجري هذا المجرى. فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما في معناه فغير جائز. قال ﷺ: **«مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَىٰ الله فِي أَرْضِهِ»**[1]، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه فيكون به كاذباً ومنافقاً ومكرماً لظالم، وهذه ثلاث معاص. وقد قال ﷺ: **«إِنَّ الله لَيَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الفَاسِقُ»**[2] وفي خبر آخر: **«مَنْ أَكْرَمَ فَاسِقاً فَقَدْ أَعَانَ عَلَىٰ هَدْمِ الإِسْلَامِ»**[3] فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول، والتزكية والثناء على ما يعمل: كان عاصياً

---

(١) حديث: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن الله في أرضه» تقدم.

(٢) حديث: «إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق» تقدم.

(٣) حديث: «من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام» تقدم أيضاً.

بالتصديق وبالإعانة؛ فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية وتحريك للرغبة فيه، كما أن التكذيب والمذمة والتقبيح زجر عنه وتضعيف لدواعيه. والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة. ولقد سئل سفيان الثوري رضي الله عنه عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، دعه حتى يموت فإن ذلك إعانة له. وقال غيره: يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه ثم يعرض عنه. فإن جاوز ذلك إلى إظهار الحب والشوق إلى لقائه وطول بقائه: فإن كان كاذباً عصى معصية الكذب والنفاق، وإن كان صادقاً عصى بحبه بقاء الظالم وحقه أن يبغضه في الله ويمقته. فالبغض في الله واجب، ومحب المعصية والراضي بها عاص. ومن أحب ظالماً فإن أحبه لظلمه فهو عاص لمحبته، وإن أحبه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يبغضه وكان الواجب عليه أن يبغضه. وإن اجتمع في شخص خير وشر وجب أن يحب لأجل ذلك الخير ويبغض لأجل ذلك الشر. وسيأتي في كتاب الإخوة والمتحابين في الله وجه الجمع بين البغض والحب. فإن سلم من ذلك كله ـ وهيهات ـ فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر إلى توسعه في النعمة ويزدري نعم الله عليه ويكون مقتحماً نهي رسول الله ﷺ حيث قال: «**يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ لاَ تَدْخُلُوا عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَسْخَطَةٌ لِلرِّزْقِ**»(١) وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول، ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه، وتجميله إياهم إن كان ممن يتجمل به، وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات. دعي سعيد بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبدالملك بن مروان فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فإن النبي ﷺ نهى عن بيعتين(٢)، فقال: ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر، فقال: لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مائة وألبس المسوح.

ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذرين:

أحدهما: أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام، وعلم أنه لو امتنع أوذي أو فسد عليهم طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية.

والثاني: أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواه أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم، فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً. فهذا حكم الدخول.

الحالة الثانية: أن يدخل عليك السلطان الظالم زائراً، فجواب السلام لا بد منه. وأما القيام والإكرام له فلا يحرم مقابلة له على إكرامه. فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للإحماد كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد، فالإكرام بالإكرام والجواب بالسلام. ولكن الأولى أن لا يقوم إن كان معه في خلوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم، ويظهر غضبه للدين وإعراضه عمن أعرض عن الله فأعرض الله تعالى عنه. وإن كان الداخل عليه في جمع فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم فلا بأس بالقيام على هذه النية. وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه فترك الإكرام بالقيام أولى. ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه، فإن كان يقارف ما لا يعرف تحريمه وهو

---

(١) حديث: «**يا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق**» أخرجه الحاكم من حديث عبدالله بن الشخير «**أقلوا الدخول على الأغنياء فإنه أجدر أن لا تزدروا نعم الله عز وجل**» وقال صحيح الإسناد.

(٢) حديث: «دعي ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبدالملك فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فإن رسول الله ﷺ نهى عن بيعتين». أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد صحيح من رواية يحيى بن سعيد.

يتوقع أن يتركه إذا عرف فليعرفه فذلك واجب. وأما ذكر تحريم ما يعلم تحريمه من السرف والظلم فلا فائدة فيه بل عليه أن يخوفه فيما يرتكبه من المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه. وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يعرف طريقاً على وفق الشرع بحيث يحصل بها غرض الظالم من غير معصية ليصده بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم. فإذاً: يجب عليه التعريف في محل جهله، والتخويف فيما هو مستجرىء عليه، والإرشاد إلى ما هو غافل عنه مما يغنيه عن الظلم، فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيه أثراً، وذلك أيضاً لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر. وعن محمد بن صالح قال: كنت عند حماد بن سلمة وإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه، ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها، فبينا أنا عنده إذ دق داق الباب فإذا هو محمد بن سليمان فأذن له فدخل وجلس بين يديه ثم قال له: ما لي إذا رأيتك امتلأت منك رعباً؟ قال حماد: لأنه قال عليه السلام: «**إِنَّ العَالِمَ إِذَا أَرَادَ بِعِلْمِهِ وَجْهَ الله هَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَكْنِزَ بِهِ الكُنُوزَ هَابَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**»[1] ثم عرض عليه أربعين ألف درهم وقال: تأخذها وتستعين بها قال:ارددها على من ظلمته بها، قال: والله ما أعطيتك إلا مما ورثته، قال: لا حاجة لي بها. قال: فتأخذها فتقسمها، قال: لعلي إن عدلت في قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل في قسمتها فيأثم، فازوها عني.

الحالة الثالثة: أن يعتزلهم فلا يراهم ولا يرونه، وهو الواجب إذ لا سلامة إلا فيه؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يحب بقاءهم ولا يثني عليهم ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم؛ وذلك إذا خطر بباله أمرهم، وإن غفل عنهم فهو الأحسن. وإذا خطر بباله تنعمهم فليذكر ما قاله حاتم الأصم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، فأما أمس فلا يجدون لذته وإني وإياهم في غد لعلى وجل، وإنما هو اليوم وما عسى أن يكون في اليوم. وما قاله أبو الدرداء إذ قال: أهل الأموال يأكلون ونأكل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منها براء. وكل من أحاط علمه بظلم ظالم ومعصية عاص فينبغي أن يحط ذلك من درجته في قلبه. فهذا واجب عليه لأن من صدر منه ما يكره نقص ذلك من رتبته في القلب لا محالة، والمعصية ينبغي أن تكره فإنه إما أن يغفل عنها أو يرضى بها أو يكره ولا غفلة مع العلم ولا وجه للرضا فلا بدّ من الكراهة، فليكن جناية كل أحد على حق الله كجنايته على حقك.

فإن قلت: الكراهة لا تدخل تحت الاختيار فكيف تجب؟ قلنا: ليس كذلك فإن المحب يكره بضرورة الطبع ما هو مكروه عند محبوبه ومخالف له، فإن من لا يكره معصية الله لا يحب الله، وإنما لا يحب الله من لا يعرفه والمعرفة واجبة والمحبة لله واجبة. وإذا أحبه كره ما كرهه وأحب ما أحبه. وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة والرضا.

فإن قلت: فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين؟ فأقول: نعم، تعلم الدخول منهم ثم

---

(١) حديث حماد بن سلمة مرفوعاً: «**إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء وإذا أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء**» هذا معضل. وروى أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث واثلة بن الأسقع: «**من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء**» وللعقيلي في الضعفاء نحوه من حديث أبي هريرة وكلاهما منكر.

ادخل؛ كما حكي أن هشام بن عبدالملك قدم حاجاً إلى مكة فلما دخلها قال: ائتوني برجل من الصحابة، فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا. فقال: من التابعين، فأتي بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال: السلام عليك يا هشام، ولم يكنه وجلس بإزائه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتى همَّ بقتله، فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك، فقال له: يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟ فازداد غضباً وغيظاً، قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبِّل يدي ولم تسلِّم عليَّ بإمرة المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت: كيف أنت يا هشام؟ قال: أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب عليَّ، وأما قولك لم تقبل يدي؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة. وأما قولك لم تسلم عليَّ بإمرة المؤمنين؛ فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب. وأما قولك لم تكنني؛ فإن الله تعالى سمى أنبياءه وأولياءه فقال: يا يحيى يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المَسَد: ١]. وأما قولك جلست بإزائي؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام. فقال له هشام: عظني، فقال: سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول: إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته. ثم قام وهرب.

وعن سفيان الثوري رضي الله عنه قال: أدخلت على أبي جعفر المنصور بمنى فقال لي: ارفع إلينا حاجتك، فقلت له: اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً. قال: فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم. فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: حجَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهماً، وأرى ههنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها، وخرج. فهكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا ألزموا وكانوا يغرّرون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم. ودخل ابن أبي شميلة على عبدالملك بن مروان فقال له: تكلم، فقال له: إنَّ الناس لا ينجون في القيامة من غصصها ومراراتها ومعاينة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه، فبكى عبدالملك وقال: لأجعلن هذه الكلمة مثالاً نصب عيني ما عشت. ولما استعمل عثمان بن عفان رضي الله عنه عبدالله بن عامر أتاه أصحاب رسول الله ﷺ وأبطأ عنه أبو ذر ـ وكان له صديقاً ـ فعاتبه، فقال أبو ذرّ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا وَلِيَ وِلَايَةً تَبَاعَدَ اللهُ عَنْهُ»[1]. ودخل مالك بن دينار على أمير البصرة فقال: أيها الأمير، قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول: ما أحمق من سلطان وما أجهل ممن عصاني ومن أعز ممن اعتز بي! أيها الراعي السوء دفعت إليك غنماً سماناً صحاحاً فأكلت اللحم ولبست الصوف وتركتها عظاماً تتقعقع، فقال له والي البصرة: أتدري ما الذي يجرئك علينا ويجنبنا عنك؟ قال: لا، قال: قلة الطمع فينا وترك الإمساك لما في أيدينا. وكان عمر بن

(١) حديث أبي ذر: «إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عز وجل منه» لم أقف له على أصل.

عبدالعزيز واقفاً مع سليمان بن عبدالملك، فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدمة الرحل، فقال له عمر: هذا صوت رَحْمته، فكيف إذا سمعت صوت عذابه؟ ثم نظر سليمان إلى الناس فقال: ما أكثر الناس، فقال عمر: خصماؤك يا أمير المؤمنين. فقال له سليمان: ابتلاك الله بهم.

وحكي أن سليمان بن عبدالملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلى أبي حازم فدعاه، فلما دخل عليه قال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب فقال: يا أبا حازم، كيف القدوم على الله؟ قال: يا أمير المؤمنين، أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لي عند الله؟ قال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين، ثم قال سليمان: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟ قال: أهل البر والتقوى قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم. قال: فأي الكلام أسمع؟ قال: قول الحق عند من تخاف وترجو قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها، قال: فأي المؤمنين أخسر؟ قال: رجل خطا في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره، قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أو تعفيني؟ قال: لا بد فإنها نصيحة تلقيها إليَّ، قال: يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم؟ فقال له رجل من جلسائه: بئسما قلت: قال أبو حازم: إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال: وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد؟ قال: أن تأخذه من حله فتضعه في حقه، فقال سليمان: ومن يقدر على ذلك؟ فقال: من يطلب الجنة ويخاف من النار. فقال سليمان: ادع لي. فقال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيري الدنيا والآخرة، وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى، فقال سليمان: أوصني، فقال: أوصيك وأوجز، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك. وقال عمر بن عبدالعزيز لأبي حازم: عظني، فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم انظر إلى ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن، فلعل تلك الساعة قريبة.

ودخل أعرابي على سليمان بن عبدالملك، فقال: تكلم يا أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال: يا أعرابي إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا نأمن غشه فكيف بمن نأمن غشه، ونرجو نصحه؟ فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين: إنه قد تكنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك، حرب الآخرة سلم الدنيا فلا تأتمنهم على ما ائتمنك الله تعالى عليه؛ فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعاً وفي الأمة خسفاً وعسفاً وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره، فقال له سليمان: يا أعرابي! أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع سيفيك. قال: أجل يا أمير المؤمنين ولكن لك لا عليك.

وحكي أن أبا بكرة دخل على معاوية فقال: اتق الله يا معاوية، واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك

وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعداً ومن الآخرة إلا قرباً، وعلى أثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علماً لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك ما يلحق بك الطالب، وإنا وما نحن فيه زائل، وفي الذي نحن إليه صائرون باق؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين ـ أعني علماء الآخرة ـ فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم فيدلونهم على الرخص، ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم. وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح، بل اكتساب الجاه والقبول عندهم. وفي هذا غروران يغتر بهما الحمقى:

أحدهما: أن يظهر أن قصدي في الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ، وربما يلبسون على أنفسهم بذلك، وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة وتحصيل المعرفة عندهم، وعلامة الصدق في طلب الإصلاح: أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره ممن هو من أقرانه في العلم، ووقع موقع القبول وظهر به أثر الصلاح، فينبغي أن يفرح به ويشكر الله تعالى كفايته هذا المهم، كمن وجب عليه أن يعالج مريضاً ضائعاً فقام بمعالجته غيره فإنه يعظم به فرحه. فإن كان يصادف في قلبه ترجيحاً لكلامه على كلام غيره فهو مغرور.

الثاني: أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامة، وهذا أيضاً مظنة الغرور. ومعياره ما تقدم ذكره.

وإذا ظهر طريق الدخول عليهم فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل:

مسألة: إذا بعث إليك السلطان مالاً لتفرّقه على الفقراء. فإن كان له مالك معين فلا يحل أخذه، وإن لم يكن بل كان حكمه أنه يجب التصدّق به على المساكين ـ كما سبق ـ فلك أن تأخذه وتتولى التفرقة ولا تعصي بأخذه. ولكن من العلماء من امتنع عنه فعند هذا ينظر في الأولى فنقول:

الأولى أن تأخذه إن أمنت ثلاث غوائل:

الغائلة الأولى: أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب، ولولا أنه طيب لما كنت تمدّ يدك إليه ولا تدخله في ضمانك، فإن كان كذلك فلا تأخذه، فإنّ ذلك محذور ولا يفي الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجراءة على كسب الحرام.

الغائلة الثانية: أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجهال فيعتقدون أنه حلال، فيقتدون بك في الأخذ ويستدلون به على جوازه ثم لا يفرقون، فهذا أعظم من الأوّل. فإن جماعة يستدلون بأخذ الشافعي رضي الله عنه على جواز الأخذ ويغفلون عن تفرقته وأخذه على نية التفرقة، فالمقتدي والمتشبه به ينبغي أن يحترز عن هذا غاية الاحتراز؛ فإنه يكون فعله سبب ضلال خلق كثير. وقد حكى وهب بن منبه أن رجلاً أتي به إلى ملك بمشهد من الناس ليكرهه على أكل لحم الخنزير فلم يأكل، فقدم إليه لحم غنم وأكره بالسيف فلم يأكل، فقيل له في ذلك فقال: إن الناس قد اعتقدوا أني طولبت بأكل لحم الخنزير، فإذا خرجت سالماً وقد أكلت؛ فلا يعلمون ماذا أكلت فيضلون. ودخل وهب بن منبه وطاوس على محمد بن يوسف ـ أخي الحجاج ـ وكان عاملاً، وكان في غداة باردة في مجلس بارز، فقال لغلامه: هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبي عبدالرحمن ـ أي طاوس ـ وكان قد قعد على كرسي فألقي عليه فلم يزل يحرّك كتفيه حتى ألقى الطيلسان عنه، فغضب مُحمد بن يوسف، فقال وهب: كنت غنياً عن أن تغضبه لو أخذت الطيلسان وتصدّقت به،

قال: نعم، لولا أن يقول من بعدي: إنه أخذه طاوس ـ ولا يصنع به ما أصنع به ـ إذن لفعلت.

الغائلة الثالثة: أن يتحرّك قلبك إلى حبه لتخصيصه إياك وإيثاره لك بما أنفذه إليك، فإن كان كذلك فلا تقبل ذلك؛ هو السم القاتل والداء الدّفين ـ أعني ما يحبب الظلمة إليك ـ فإن من أحببته لا بدّ أن تحرص عليه وتداهن فيه. قالت عائشة رضي الله عنها: جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وقال عليه السلام: «**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِي يَداً فَيُحِبَّهُ قَلْبِي**»[1]، بيَّن ﷺ أن القلب لا يكاد يمتنع من ذلك. وروي أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك بن دينار بعشرة آلاف درهم، فأخرجها كلها فأتاه محمد بن واسع فقال: ما صنعت بما أعطاك هذا المخلوق؟ قال: سل أصحابي؟ فقالوا: أخرجه كله، فقال: أنشدك الله أقلبك أشدّ حباً له الآن أم قبل أن يرسل إليك؟ قال: لا بل الآن، قال: إنما كنت أخاف هذا. وقد صدق فإنه إذا أحبه أحب بقاءه وكره عزله ونكبته وموته، وأحب اتساع ولايته وكثرة ماله، وكل ذلك حب لأسباب الظلم وهو مذموم. قال سلمان وابن مسعود رضي الله عنهما: من رضي بأمر وإن غاب عنه كان كمن شهده قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هُود: ١١٣] قيل: لا ترضوا بأعمالهم فإن كنت في القوّة بحيث لا تزداد حباً لهم بذلك فلا بأس بالأخذ. وقد حكي عن بعض عبّاد البصرة أنه كان يأخذ أموالاً ويفرّقها فقيل له: ألا تخاف أن تحبهم؟ فقال: لو أخذ رجل بيدي وأدخلني الجنة ثم عصى ربه ما أحبه قلبي، لأن الذي سخره للأخذ بيدي هو الذي أبغضه لأجله شكراً له على تسخيره إياه. وبهذا تبين أخذ المال الآن منهم، وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذور ومذموم لأنه لا ينفك عن هذه الغوائل.

مسألة: إن قال قائل: إذا جاز أخذ ماله وتفرقته فهل يجوز أن يسرق ماله أو تخفى وديعته وتنكر وتفرّق على الناس؟ فنقول: ذلك غير جائز؛ لأنه ربما يكون له مالك معين وهو على عزم أن يرده عليه، وليس هذا كما لو بعثه إليك، فإن العاقل لا يظن به أنه يتصدق بمال يعلم مالكه فيدل تسليمه على أنه لا يعرف مالكه، فإن كان ممن يشكل عليه مثله فلا يجوز أن يقبل منه المال ما لم يعرف ذلك. ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ملكه قد حصل له بشراء في ذمته؟ فإن اليد دلالة على الملك. فهذا لا سبيل إليه، بل لو وجد لقطة وظهر أن صاحبها جندي واحتمل أن تكون له بشراء في الذمة أو غيره وجب الرد عليه. فإذاً: لا يجوز سرقة مالهم لا منهم ولا ممن أودع عنده. ولا يجوز إنكار وديعتهم ويجب الحدّ على سارق مالهم، إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكاً لهم فعند ذلك يسقط الحد بالدعوى.

مسألة: المعاملة معهم حرام؛ لأن أكثر مالهم حرام فما يؤخذ عوضاً فهو حرام، فإن أدى الثمن من موضع يعلم حله فيبقى النظر فيما سلم إليهم، فإن علم أنهم يعصون الله به كبيع الديباج منهم وهو يعلم أنهم يلبسونه فذلك حرام كبيع العنب من الخمار، وإنما الخلاف في الصحة وإن أمكن ذلك وأمكن أن يلبسها نساءه فهو شبهة مكروهة، هذا فيما يعصى في عينه من الأموال. وفي معناه بيع الفرس منهم، لا سيما في وقت ركوبهم إلى قتال المسلمين أو جباية أموالهم؛ فإن ذلك إعانة لهم بفرسه وهي محظورة. فأما بيع الدراهم والدنانير منهم وما يجري مجراها مما لا يعصى في عينه بل يتوصل بها: فهو مكروه لما فيه من إعانتهم على الظلم؛ لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب وسائر الأسباب، وهذه

---

(١) حديث: «**اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً فيحبه قلبي**» أخرجه ابن مردويه في التفسير من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ، وأبو موسى المديني في كتاب: تضييع العمر والأيام مرسلاً، وأسانيده كلها ضعيفة.

الكراهة جارية في الإهداء إليهم وفي العمل لهم من غير أجرة حتى في تعليمهم وتعليم أولادهم الكتابة والترسل والحساب، وأما تعليم القرآن فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة فإن ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله، ولو انتصب وكيلاً لهم يشتري لهم في الأسواق من غير جعل أو أجرة فهو مكروه من حيث الإعانة، وإن اشترى لهم ما يعلم أنهم يقصدون به المعصية كالغلام والديباج للفرش واللبس والفرس للركوب إلى الظلم والقتل فذلك حرام. فمهما ظهر قصد المعصية بالمبتاع حصل التحريم، ومهما لم يظهر واحتمل بحكم الحال ودلالتها عليه حصلت الكراهة.

مسألة: الأسواق التي بنوها بالمال الحرام تحرم التجارة فيها ولا يجوز سكناها، فإن سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعي لم يحرم كسبه وكان عاصياً بسكناه، وللناس أن يشتروا منهم، ولكن لو وجدوا سوقاً أخرى فالأولى الشراء منها، فإن ذلك إعانة لسكناهم وتكثير لكراء حوانيتهم، وكذلك معاملة السوق التي لا خراج لهم عليها أحب من معاملة سوق لهم عليها خراج، وقد بالغ قوم حتى تحرزوا من معاملة الفلاحين وأصحاب الأراضي التي لهم عليها الخراج فإنهم ربما يصرفون ما يأخذون إلى الخراج فيحصل به الإعانة، وهذا غلوّ في الدين وحرج على المسلمين؛ فإن الخراج قد عمَّ الأراضي ولا غنى بالناس عن ارتفاق الأرض ولا معنى للمنع منه، ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لا يطلب خراجها. وذلك مما يطول ويتداعى إلى حسم باب المعاش.

مسألة: معاملة قضاتهم وعمالهم وخدمهم حرام كمعاملتهم بل أشد. أما القضاة: فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثرون جمعهم ويغرون الخلق بزيهم فإنهم على زي العلماء ويختلطون بهم ويأخذون من أموالهم، والطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بذوي الجاه والحشمة. فهم سبب انقياد الخلق إليهم. وأما الخدم والحشم: فأكثر أموالهم من الغصب الصريح ولا يقع في أيديهم مال مصلحة وميراث وجزية ولا وجه حلال حتى تضعف الشبهة باختلاط الحلال بمالهم. قال طاوس: لا أشهد عندهم وإن تحققت لأني أخاف تعديهم على من شهدت عليه.

وبالجملة: إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفاً من إنكارهم. ولذلك قال ﷺ: **«لاَ تَزَالُ هٰذِهِ الأُمَّةُ تَحْتَ يَدِ الله وَكَنَفِهِ مَا لَمْ يُمَالِىءْ قُرَّاؤُهَا أُمَرَاءَهَا»**[1]. وإنما ذكر القرّاء لأنهم كانوا هم العلماء، وإنما كان علمهم بالقرآن ومعانيه المفهومة بالسنة، وما وراء ذلك من العلوم فهي محدثة بعدهم. وقد قال سفيان: لا تخالط السلطان ولا من يخالطه. وقال: صاحب القلم وصاحب الدواة وصاحب القرطاس وصاحب الليطة[2] بعضهم شركاء بعض. وقد صدق؛ فإنّ رسول الله ﷺ لعن في الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر[3] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكِلُهُ وَشَاهِدَاهُ وَكَاتِبُهُ

---

(١) حديث: **«لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لم يمالىء قراؤها أمراءها»** أخرجه أبو عمرو الداني في كتاب الفتن من رواية الحسن مرسلاً، ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي وابن عمر بلفظ: **«ما لم يعظم أبرارها فجارها ويداهن خيارها شرارها»** وإسنادهما ضعيف.

(٢) صاحب الليطة: صاحب مال الربا. وهي من ليط أي لصق، فالربا لصيق برأس المال.

(٣) حديث: «أن النبي ﷺ لعن في الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس. قال الترمذي: حديث غريب.

مَلْعُونُونَ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ»[(١)]. وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله ﷺ[(٢)] وقال ابن سيرين: لا تحمل للسلطان كتاباً حتى تعلم ما فيه، وامتنع سفيان رحمه الله من مناولة الخليفة في زمانه دواة بين يديه وقال: حتى أعلم ما تكتب بها فكل من حواليهم من خدمهم وأتباعهم ظلمة مثلهم يجب بغضهم في الله جميعاً.

روي عن عثمان بن زائدة أنه سأله رجل من الجند وقال: أين الطريق؟ فسكت وأظهر الصمم وخاف أن يكون متوجهاً إلى ظلم فيكون هو بإرشاده إلى الطريق معيناً. وهذه المبالغة لم تنقل عن السلف مع الفساق من التجار والحاكة والحجامين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف مع غلبة الكذب والفسق عليهم، بل مع الكفار من أهل الذمة، وإنما هذا في الظلمة خاصة؛ الآكلين لأموال اليتامى والمساكين والمواظبين على إيذاء المسلمين، الذين تعاونوا على طمس رسوم الشريعة وشعائرها. وهذا لأن المعصية تنقسم إلى لازمة ومتعدّية، والفسق لازم لا يتعدّى، وكذا الكفر وهو جناية على حق الله تعالى وحسابه على الله. وأما معصية الولاة بالظلم وهو متعدّ فإنما يغلظ أمرهم لذلك وبقدر عموم الظلم وعموم التعدّي يزدادون عند الله مقتاً فيجب أن يزداد منهم اجتناباً ومن معاملتهم احترازاً، فقد قال ﷺ: **«يُقَالُ لِلشُّرْطِيِّ: دَعْ سَوْطَكَ وَادْخُلِ النَّارَ»**[(٣)]. وقال ﷺ: **«مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ رِجَالٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ»**[(٤)]، فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف، ومن لم يعرف فعلامته القباء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة. فمن رئي على تلك الهيئة تعين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن؛ لأنه الذي جنى على نفسه إذ تزيا بزيهم، ومساواة الزي تدل على مساواة القلب، ولا يتجانن إلا مجنون ولا يتشبه بالفساق إلا فاسق. نعم الفاسق قد يلتبس فيتشبه بأهل الصلاح، فأما الصالح فليس له أن يتشبه بأهل الفساد؛ لأن ذلك تكثير لسوادهم، وإنما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النّساء: ٩٧] في قوم من المسلمين كانوا يكثرون جماعة المشركين بالمخالطة، وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، فقال: ما بال الأخيار؟ قال: إنهم لا يغضبون لغضبي فكانوا يؤاكلونهم

---

(١) حديث ابن مسعود: **«آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه ملعونون على لسان محمد ﷺ»**. رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للنسائي دون قوله: **«وشاهده»** ولأبي داود: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه» قال الترمذي وصححه ابن ماجه: **«وشاهديه»**.

(٢) حديث جابر: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه قال: **هم سواء»** أخرجه مسلم من حديثه، وأما حديث عمر فأشار إليه الترمذي بقوله وفي الباب ولابن ماجه من حديثه: «إن آخر ما أنزلت آية الربا أن رسول الله ﷺ مات ولم يفسرها فدعوا الربا والريبة» وهو من رواية ابن المسيب عنه، والجمهور على أنه لم يسمع منه.

(٣) حديث: **«يقال للشرطي دع سوطك وادخل النار»** أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف.

(٤) حديث: **«من أشراط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر»** أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث أبي أمامة: **«يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر...»** الحديث. ولمسلم من حديث أبي هريرة: **«يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذناب البقر»** وفي رواية له: **«صنفان من أهل النار لم أرهما؛ قوم معهم سياط كأذناب البقر...»** الحديث.

ويشاربونهم. وبهذا يتبين أن بغض الظلمة والغضب لله عليهم واجب، وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لَعَنَ عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ إِذْ خَالَطُوا الظَّالِمِينَ فِي مَعَاشِهِمْ»**[1].

مسألة: المواضع التي بناها الظلمة كالقناطر والرباطات والمساجد والسقايات ينبغي أن يحتاط فيها وينظر. أما القنطرة: فيجوز العبور عليها للحاجة، والورع الاحتراز ما أمكن، وإن وجد عنه معدلاً تأكد الورع. وإنما جوّزنا العبور وإن وجد معدلاً لأنه إذا لم يعرف لتلك الأعيان مالكاً كان حكمها أن ترصد للخيرات وهذا خير، فأما إذا عرف أن الآجر والحجر قد نقل من دار معلومة أو مقبرة أو مسجد معين فهذا لا يحل العبور عليه أصلاً إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير، ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذي يعرفه. وأما المسجد: فإن بني في أرض مغصوبة أو بخشب مغصوب من مسجد آخر أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلاً ولا للجمعة، بل لو وقف الإمام فيه فليصل هو خلف الإمام وليقف خارج المسجد فإن الصلاة في الأرض المغصوبة تسقط الفرض وتنعقد في حق الاقتداء، فلذلك جوّزنا للمقتدي الاقتداء بمن صلى في الأرض المغصوبة، وإن عصى صاحبه بالوقوف في الغصب. وإن كان من مال لا يعرف مالكه فالورع العدول إلى مسجد آخر إن وجد، فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة والجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذي بناه ولو على بعد، وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين. ومهما كان في المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم فلا عذر لمن يصلي فيه مع اتساع المسجد ـ أعني في الورع ـ قيل لأحمد بن حنبل: ما حجتك في ترك الخروج إلى الصلاة في جماعة ونحن بالعسكر؟ فقال: حجتي: أن الحسن وإبراهيم التيمي خافا أن يفتنهما الحجاج وأنا أخاف أن أفتن أيضاً. وأما الخلوق والتجصيص فلا يمنع من الدخول؛ لأنه غير منتفع به في الصلاة وإنما هو زينة والأولى أنه لا ينظر إليه، وأما البواري التي فرشوها فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها، وإلا فبعد أن أرصدت لمصلحة عامة جاز افتراشها، ولكن الورع العدول عنها؛ فإنها محل شبهة. وأما السقاية: فحكمها ما ذكرناه وليس من الورع الوضوء والشرب منها والدخول إليها إلا إذا كان يخاف فوات الصلاة فيتوضأ وكذا مصانع طريق مكة. وأما الرباطات والمدارس: فإن كانت رقبة الأرض مغصوبة أو الآجر منقولاً من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقه فلا رخصة للدخول فيه، وإن التبس المالك فقد أرصد لجهة من الخير، والورع اجتنابه ولكن لا يلزم الفسق بدخوله. وهذه الأبنية إن أرصدت من خدم السلاطين فالأمر فيها أشدّ؛ إذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة إلى المصالح، ولأن الحرام أغلب على أموالهم؛ إذ ليس لهم أخذ مال المصالح وإنما يجوز ذلك للولاة وأرباب الأمر.

مسألة: الأرض المغصوبة إذا جعلت شارعاً لم يجز أن يتخطى فيه البتة، وإن لم يكن له مالك معين جاز، والورع العدول إن أمكن، فإن كان الشارع مباحاً وفوقه ساباط جاز العبور وجاز الجلوس تحت الساباط على وجه لا يحتاج فيه إلى السقف كما يقف في الشارع لشغل، فإذا انتفع بالسقف في

---

(١) حديث ابن مسعود: **«لعن الله علماء بني إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معايشهم»** أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه. قال رسول الله ﷺ لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي: **«نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم؛ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم»** لفظ الترمذي وقال: حسن غريب.

دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام؛ لأن السقف لا يراد إلا لذلك، وهكذا حكم من يدخل مسجداً أو أرضاً مناحة سُقفَ أو حُوّط بغصب، فإنه بمجرد التخطي لا يكون منتفعاً بالحيطان والسقف إلا إذا كان له فائدة في الحيطان والسقف لحر أو برد أو تستر عن بصر أو غيره، فذلك حرام لأنه انتفاع بالحرام؛ إذ لم يحرم الجلوس على الغصب لما فيه من المماسة بل للانتفاع، والأرض تراد للاستقرار عليها والسقف للاستظلال به فلا فرق بينهما.

※ ※ ※

الباب السابع

في مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى

مسألة: سئل عن خادم الصوفية يخرج إلى السوق ويجمع طعاماً أو نقداً ويشتري به طعاماً، فمن الذي يحل له أن يأكل منه؟ وهل يختص بالصوفية أم لا؟ فقلت: أما الصوفية فلا شبهة في حقهم إذا أكلوه، وأما غيرهم فيحل لهم إذا أكلوه برضا الخادم ولكن لا يخلو عن شبهة، أما الحل: فلأن ما يعطى خادم الصوفية إنما يعطى بسبب الصوفية وله أن يطعم غير العيال؛ إذ يبعد أن يقال: لم يخرج عن ملك المعطي ولا يتسلط الخادم على الشراء به والتصرف فيه؟ لأن ذلك مصير إلى أن المعاطاة لا تكفي وهو ضعيف، ثم لا صائر إليه في الصدقات والهدايا، ويبعد أن يقال: زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله في الخانقاه؛ إذ لا خلاف أن له أن يطعم منه من يقدم بعدهم، ولو ماتوا كلهم أو واحد منهم لا يجب صرف نصيبه إلى وارثه، ولا يمكن أن يقال: إنه وقع لجهة التصوّف ولا يتعين له مستحق؛ لأن إزالة الملك إلى الجهة لا توجب تسليط الآحاد على التصرف، فإن الداخلين فيه لا ينحصرون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة، وإنما يتصرف فيه الولاة، والخادم لا يجوز له أن ينتصب نائباً عن الجهة فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه، وإنما يطعم الصوفية بوفاء شرط التصوّف والمروءة، فإن منعهم عنه منعوه عن أن يظهر نفسه في معرض التكفل بهم حتى ينقطع وقفه كما ينقطع عمن مات عياله.

مسألة: سئل عن مال أوصى به للصوفية فمن الذي يجوز أن يصرف إليه؟ فقلت: التصوّف أمر باطن لا يطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته، بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفي، والضابط الكلي: أن كل من هو بصفة إذا نزل في خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم فهو داخل في غمارهم. والتفصيل: أن يلاحظ فيه خمس صفات: الصلاح، والفقر، وزي الصوفية، وأن لا يكون مشتغلاً بحرفة، وأن يكون مخالطاً لهم بطريق المساكنة في الخانقاه. ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم، وبعضها ينجبر بالبعض، فالفسق يمنع الاستحقاق؛ لأن الصوفي بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة، فالذي يظهر فسقه وإن كان على زيهم لا يستحق ما أوصى به للصوفية ولسنا نعتبر فيه الصغائر. وأما الحرفة والاشتغال بالكسب، فإنه يمنع هذا الاستحقاق، فالدهقان والعامل والتاجر والصانع في حانوته أو داره والأجير الذي يخدم بأجرة كل

هؤلاء لا يستحقون ما أوصى به للصوفية، ولا ينجبر هذا بالزي والمخالطة، فأما الوراقة والخياطة وما يقرب منهما مما يليق بالصوفية تعاطيها، فإذا تعاطاها لا في حانوت ولا على جهة اكتساب وحرفة فذلك لا يمنع الاستحقاق، وكان ذلك ينجبر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات، وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة لا تمنع، وأما الوعظ والتدريس: فلا ينافي اسم التصوف إذا وجدت بقية الخصال من الزي والمساكنة والفقر؛ إذ لا يتناقض أن يقال صوفي مقرىء وصوفي واعظ وصوفي عالم أو مدرس، ويتناقض أن يقال صوفي تاجر وصوفي عامل، وأما الفقر: فإن زال بغنى مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفية، وإن كان له مال ولا يفي دخله بخرجه لم يبطل حقه، وكذا إذا كان له مال قاصر عن وجوب الزكاة وإن لم يكن له خرج وهذه أمور لا دليل لها إلا العادات. وأما المخالطة لهم ومساكنتهم فلها أثر، ولكن من لا يخالطهم وهو في داره أو في مسجد على زيهم ومتخلق بأخلاقهم فهو شريك في سهمهم، وكأن ترك المخالطة يجبرها ملازمة الزي فإن لم يكن على زيهم ووجد فيه بقية الصفات فلا يستحق إلا إذا كان مساكناً لهم في الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية. فالمخالطة والزي ينوب كل واحد منهما عن الآخر. والفقيه الذي ليس على زيهم هذا حكمه، فإن كان خارجاً لم يعدّ صوفياً وإن كان ساكناً معهم ووجدت بقية الصفات لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم. وأما لبس المرقعة من يد شيخ من مشايخهم فلا يشترط ذلك في الاستحقاق، وعدمه لا يضره مع وجود الشرائط المذكورة. وأما المتأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلا يخرج بذلك عن جملتهم.

مسألة: ما وقف على رباط الصوفية وسكانه فالأمر فيه أوسع مما أوصى لهم به؛ لأن معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم، فلغير الصوفي أن يأكل معهم برضاهم على مائدتهم مرة أو مرتين، فإن أمر الأطعمة مبناه على التسامح حتى جاز الانفراد بها في الغنائم المشتركة، وللقوال أن يأكل معهم في دعوتهم من ذلك الوقف وكان ذلك من مصالح معايشهم، وما أوصى به للصوفية لا يجوز أن يصرف إلى قوال الصوفية بخلاف الوقف، وكذلك من أحضروه من العمال والتجار والقضاة والفقهاء ممن لهم غرض في استمالة قلوبهم يحل لهم الأكل برضاهم، فإن الواقف لا يقف إلا معتقداً فيه ما جرت به عادات الصوفية فينزل على العرف ولكن ليس هذا على الدوام، فلا يجوز لمن ليس صوفياً أن يسكن معهم على الدوام ويأكل وإن رضوا به، إذ ليس لهم تغيير شرط الواقف بمشاركة غير جنسهم. وأما الفقيه إذا كان على زيهم وأخلاقهم فله النزول عليهم، وكونه فقيهاً لا ينافي كونه صوفياً، والجهل ليس بشرط في التصوف عند من يعرف التصوف، ولا يلتفت إلى خرافات بعض الحمقى بقولهم: إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب. وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة في كتاب العلم، وأن الحجاب هو العلم المذموم دون المحمود، وذكرنا المحمود والمذموم وشرحهما. وأما الفقيه إذا لم يكن على زيهم وأخلاقهم فلهم منعه من النزول عليهم، فإن رضوا بنزوله فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية، فكان عدم الزي تجبره المساكنة ولكن برضا أهل الزي، وهذه أمور تشهد لها العادات. ومنها أمور متقابلة لا يخفى أطرافها في النفي والإثبات ومتشابه أوساطها. فمن احترز في مواضع الاشتباه فقد استبرأ لدينه كما نبهنا عليه في أبواب الشبهات.

مسألة: سئل عن الفرق بين الرشوة والهدية مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا ولا يخلو عن غرض، وقد حرمت إحداهما دون الأخرى. فقلت: باذل المال لا يبذله قط إلا لغرض، ولكن الغرض إما آجل كالثواب، وإما عاجل، والعاجل: إما مال، وإما فعل وإعانة على مقصود معين، وإما تقرب إلى

قلب المهدى إليه بطلب محبته؛ إما للمحبة في عينها وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراءها، فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة:

الأول: ما غرضه الثواب في الآخرة؛ وذلك إما أن يكون لكون المصروف إليه محتاجاً أو عالماً أو منتسباً بنسب ديني أو صالحاً في نفسه متديناً. فما علم الآخذ أنه يعطاه لحاجته لا يحل له أخذه إن لم يكن محتاجاً، وما علم أنه يعطاه لشرف نسبه لا يحل له إن علم أنه كاذب في دعوى النسب، وما يعطى لعلمه فلا يحل له أن يأخذه إلا أن يكون في العلم كما يعتقده المعطي، فإن كان خيل إليه كمالاً في العلم حتى بعثه بذلك على التقرب ولم يكن كاملاً لم يحل له، وما يعطى لدينه وصلاحه لا يحل له أن يأخذه إن كان فاسقاً في الباطن فسقاً لو علمه المعطي ما أعطاه. وقلما يكون الصالح بحيث لو انكشف باطنه لبقيت القلوب مائلة إليه وإنما ستر الله الجميل هو الذي يحبب الخلق إلى الخلق. وكان المتورعون يوكلون في الشراء من لا يعرف أنه وكيلهم حتى لا يتسامحوا في المبيع؛ خيفة من أن يكون ذلك أكلاً بالدين فإن ذلك مخطر والتقي خفي لا كالعلم والنسب والفقر، فينبغي أن يجتنب الأخذ بالدين ما أمكن.

القسم الثاني: ما يقصد به في العاجل غرض معين؛ كالفقير يهدي إلى الغني طمعاً في خلعته، فهذه هبة بشرط الثواب لا يخفى حكمها، وإنما تحل عند الوفاء بالثواب المطموع فيه وعند وجود شروط العقود.

الثالث: أن يكون المراد إعانة بفعل معين؛ كالمحتاج إلى السلطان يهدي إلى وكيل السلطان وخاصته ومن له مكانة عنده، فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال، فلينظر في ذلك العمل الذي هو الثواب فإن كان حراماً، كالسعي في تنجيز إدرار حرام أو ظلم إنسان أو غيره حرم الأخذ، وإن كان واجباً؛ كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه أو شهادة متعينة فيحرم عليه ما يأخذه وهي الرشوة التي لا يشك في تحريمها، وإن كان مباحاً لا واجباً ولا حراماً وكان فيه تعب بحيث لو عرف لجاز الاستئجار عليه فما يأخذه حلال مهما وفِّىَ بالغرض، وهو جار مجرى الجعالة كقوله: أوصل هذه القصة إلى يد فلان أو يد السلطان ولك دينار وكان بحيث يحتاج إلى تعب وعمل متقوّم، أو قال: اقترح على فلان أن يعينني في غرض كذا أو ينعم عليّ بكذا وافتقر في تنجيز غرضه إلى كلام طويل، فذلك جعل كما يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدي القاضي فليس بحرام إذا كان لا يسعى في حرام، وإن كان مقصوده يحصل بكلمة لا تعب فيها ولكن تلك الكلمة من ذي الجاه أو تلك الفعلة من ذي الجاه تفيد؛ كقوله للبواب: لا تغلق دونه باب السلطان أو كوضعه قصة بين يدي السلطان فقط، فهذا حرام؛ لأنه عوض من الجاه، ولم يثبت في الشرع جواز ذلك بل ثبت ما يدل على النهي عنه كما سيأتي في هدايا الملوك - وإذا كان لا يجوز العوض عن إسقاط الشفعة والرد بالعيب ودخول الأغصان في هواء الملك وجملة من الأغراض مع كونها مقصودة فكيف يؤخذ عن الجاه؟ ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينبه بها على دواء ينفرد بمعرفته؛ كواحد ينفرد بالعلم بنبت يقلع البواسير أو غيره فلا يذكره إلا بعوض، فإن عمله بالتلفظ به غير متقوم كحبة من سمسم، فلا يجوز أخذ العوض عليه ولا على علمه؛ إذ ليس ينتقل علمه إلى غيره وإنما يحصل لغيره مثل علمه ويبقى هو عالماً به، ودون هذا: الحاذق في الصناعة كالصيقلي مثلاً الذي يزيل اعوجاج السيف أو المرآة بدقة واحدة لحسن معرفته بموضع الخلل، ولحذقه بإصابته فقد يزيد بدقة واحدة مال كثير في قيمة السيف والمرآة، فهذا لا أرى بأساً بأخذ الأجرة عليه؛ لأن مثل هذه الصناعات يتعب الرجل في تعلمها ليكتسب بها ويخفف عن نفسه كثرة العمل.

الرابع: ما يقصد به المحبة وجلبها من قبل المهدي إليه، لا لغرض معين ولكن طلباً للاستئناس وتأكيداً للصحبة وتودداً إلى القلوب، فذلك مقصود للعقلاء ومندوب إليه في الشرع. قال ﷺ: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**»(١)، وعلى الجملة: فلا يقصد الإنسان في الغالب أيضاً محبة غيره لعين المحبة بل لفائدة في محبته، ولكن إذا لم تتعين تلك الفائدة ولم يتمثل في نفسه غرض معين يبعثه في الحال أو المآل سمي ذلك هدية وحل أخذها.

الخامس: أن يطلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبته لا لمحبته ولا للأنس به من حيث إنه أنس فقط، بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض له ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها، وكان لولا جاهه وحشمته لكان لا يهدي إليه، فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه؛ فإن فيه مشابهة الرشوة ولكنها هدية في ظاهرها، فإن كان جاهه بولاية تولاها من قضاء أو عمل أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية حتى ولاية الأوقاف مثلاً، وكان لولا تلك الولاية لكان لا يهدي إليه فهذه رشوة عرضت في معرض الهدية؛ إذ القصد بها في الحال طلب التقرّب واكتساب المحبة، ولكن الأمر ينحصر في جنسه إذ ما يمكن التوصل إليه بالآيات لا يخفى، وآية أنه لا يبغي المحبة أنه لو ولى في الحال غيره لسلم المال إلى ذلك الغير، فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة واختلفوا في كونه حراماً، والمعنى فيه متعارضاً فإنه دائر بين الهدية المحضة وبين الرشوة المبذولة في مقابلة جاه في غرض معين، وإذا تعارضت المشابهة القياسية وعضدت الأخبار والآثار أحمدهما تعين الميل إليه، وقد دلت الأخبار على تشديد الأمر في ذلك. قال ﷺ «**يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ السُّحْتُ بِالهَدِيَّةِ وَالقَتْلُ بِالمَوْعِظَةِ يُقْتَلُ البَرِيءُ لِتُوعَظَ بِهِ العَامَّةُ**»(٢)، وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن السحت فقال: يقضي الرجل الحاجة فتهدى له الهدية. ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لا تعب فيها أو تبرع بها لا على قصد أجرة، فلا يجوز أن يأخذ بعده شيئاً في معرض العوض. شفع مسروق شفاعة فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب وردها وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكلم فيما بقي منها. وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال: سحت. وأخذ عمر رضي الله عنه ربح مال القراض الذي أخذه ولداه من بيت المال وقال: إنما أعطيتما لمكانكما مني؛ إذ علم أنهما أعطيا لأجل جاه الولاية. وأهدت امرأة أبي عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خلوقاً فكافأتها بجوهر، فأخذه عمر رضي الله عنه فباعه وأعطاها ثمن خلوقها ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين. وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما: هدايا الملوك غلول. ولما رد عمر بن عبدالعزيز الهدية قيل له: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية(٣) فقال: كان ذلك له هدية وهو لنا رشوة. أي كان يتقرّب إليه لنبوته لا لولايته، ونحن إنما نعطى للولاية. وأعظم من ذلك كله ما روى أبو حميد الساعدي «أن رسول الله ﷺ بعث والياً على صدقات الأَزْدِ فلما

الباب السابع
في مسائل متفرقة

(١) حديث: «تهادوا تحابوا» أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة، وضعفه ابن عدي.
(٢) حديث: «يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة، يقتل البريء ليوعظ به العامة» لم أقف له على أصل.
(٣) حديث: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية». أخرجه البخاري من حديث عائشة.

جاء إلى رسول الله ﷺ أمسك بعض ما معه وقال: هذا لكم وهذا لي هدية، فقال عليه السلام: «أَلاَ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً»، ثم قال: «مَا لِي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ فَيَقُولُ: هٰذَا لَكُمْ وَهٰذَا لِي هَدِيَّةٌ أَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أُمِّهِ لِيُهْدَى لَهُ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَأْخُذُ مِنْكُمْ أَحَدٌ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاَّ أَتَىٰ اللهَ يَحْمِلُهُ، فَلاَ يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٍ تَيْعَرُ»، ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قال: «اللّٰهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ»[1]. وإذا ثبتت هذه التشديدات فالقاضي والوالي ينبغي أن يقدر نفسه في بيت أمه وأبيه؛ فما كان يعطى بعد العزل وهو في بيت أمه يجوز له أن يأخذه في ولايته، وما يعلم أنه إنما يعطاه لولايته فحرام أخذه، وما أشكل عليه في هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولاً؟ فهو شبهة فليجتنبه.

تم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومَنِّهِ وحسنِ توفيقه والله أعلم

(١) حديث أبي حميد الساعدي: «أن رسول الله ﷺ بعث والياً إلى صدقات الأزد فلما جاء قال: «هذا مالكم وهذا هدية لي». الحديث متفق عليه، وأبو حميد الساعدي: ذكره البلاذري في الصحابة. والوالي على الصدقات الأزد يسمى «ابن الكتبيّة» والشاة تَيْعر: تصيت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربع العادات الثاني

الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولاً وامتناناً، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً، ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخداناً، وفي الآخرة رفقاء وخلاناً.

والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولاً وفعلاً وعدلاً وإحساناً.

أما بعد: فإنّ التحاب في الله تعالى والأخوة في دينه من أفضل القربات، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجاري العادات ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزغات الشيطان، فبالقيام بحقوقها يتقرّب إلى الله زلفى، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى، ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في فضيلة الألفة والأخوة في الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها.

الباب الثاني: في حقوق الصحبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها.

الباب الثالث: في حق المسلم والرحم والجوار والملك، وكيفية المعاشرة مع من قد بلي بهذه الأسباب.

* * *

الباب الأول

في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والأخوة:

اعلم: أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرّق ثمرة سوء الخلق. فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر، ومهما كان المثمر محموداً كانت الثمرة محمودة. وحسن الخلق لا تخفى في الدين فضيلته، وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] وقال النبي ﷺ: «**أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ تَقْوَىٰ الله وَحُسْنُ الخُلُقِ**»[(١)]، وقال أسامة بن شريك: قلنا يا رسول الله: ما خير ما أعطي الإنسان؟ فقال: «**خُلُقٌ حَسَنٌ**»[(٢)] وقال ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَحَاسِنَ الأَخْلَاقِ**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي المِيزَانِ خُلُقٌ حَسَنٌ**»[(٤)] وقال ﷺ: «**مَا حَسَّنَ الله خُلُقَ امْرِىءٍ وَخَلْقَهُ فَيُطْعِمهُ النَّارُ**»[(٥)] وقال ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ عَلَيْكَ بِحُسْنِ الخُلُقِ**»، قال أبو هريرة رضي الله عنه: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: «**تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ**»[(٦)]، ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع الوحشة ومهما طاب المثمر طابت الثمرة، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الألفة ـ سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله ـ من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع، قال الله تعالى مظهراً عظيم منته على الخلق بنعمة الألفة: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وقال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣] أي بالألفة، ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال عز من قائل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣] إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠] وقال ﷺ: «**إِنَّ أَقْرَبَكُم مِنِّي مَجْلِساً أَحَاسِنُكُمْ**

كتاب آداب الصحبة

الباب الأول: في فضيلة الألفة والأخوة

(١) حديث: «**أول ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق**» أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح الإسناد وقد تقدم.

(٢) حديث أسامة بن شريك: يا رسول الله، ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: «**خلق حسن**»، أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح. أسامة بن شريك: الثعلبي، له صحبة ورواية عن رسول الله ﷺ.

(٣) حديث: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» رواه أحمد والبيهقي، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «**أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن**» رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء وقال: حسن صحيح.

(٥) حديث: «**ما حسن الله خلق امرىء وخلقه فتطعمه النار**» أخرجه ابن عدي والطبراني في مكارم الأخلاق وفي الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة. قال ابن عدي: في إسناده بعض النكرة.

(٦) حديث: «**يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق**» قال: وما حسن الخلق؟ قال: «**تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك**» رواه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه.

أَخْلاَقاً الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ»(١)، وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ»(٢)، وقال ﷺ في الثناء على الأخوة في الدين: «مَنْ أَرَادَ الله بِهِ خَيْراً رَزَقَهُ خَلِيلاً صَالِحاً إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ»(٣)، وقال ﷺ: «مَثَلُ الأَخَوَيْنِ إِذَا الْتَقَيَا مَثَلُ الْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ، وَمَا الْتَقَىٰ مُؤْمِنَانِ قَطُّ إِلاَّ أَفَادَ الله أَحَدَهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ خَيْراً»(٤) وقال عليه السلام في الترغيب في الأخوّة في الله: «مَنْ آخَىٰ أَخاً فِي الله رَفَعَهُ الله دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ لاَ يَنَالُهَا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ»(٥)، وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ: إني أحبك في الله، فقال له: أبشر ثم أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُنْصَبُ لِطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ كَرَاسِيُّ حَوْلَ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَهُمْ لاَ يَفْزَعُونَ وَيَخَافُ النَّاسُ وَهُمْ لاَ يَخَافُونَ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ الله الَّذِينَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ»، فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ فقال: «هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي الله تَعَالَىٰ»(٦)، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وقال فيه: «إِنَّ حَوْلَ الْعَرْشِ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ عَلَيْهَا قَومٌ لِبَاسُهُمْ نُورٌ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ»، فقالوا: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: «هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي الله وَالْمُتَجَالِسُونَ فِي الله وَالْمُتَزَاوِرُونَ فِي الله»(٧)،

(١) حديث: «إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون» رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف. الموطئون أكنافاً: المتواضعون.

(٢) حديث: «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد، والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه.

(٣) حديث: «من أراد الله به خيراً رزقه أخاً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه» غريب بهذا اللفظ، والمعروف أن ذلك في الأمير، ورواه أبو داود من حديث عائشة: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه. . .» الحديث. ضعفه ابن عدي، ولأبي عبدالرحمن السلمي في آداب الصحبة من حديث علي: «من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين».

(٤) حديث: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى» الحديث. رواه السلمي في آداب الصحبة، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب، وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات.

(٥) حديث: «من آخى أخاً في الله عز وجل رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان من حديث أنس: «ما أحدث عبد أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة» وإسناده ضعيف.

(٦) حديث: قال أبو إدريس الخولاني لمعاذ: إني أحبك في الله، فقال: أبشر ثم أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تنصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة. . .» الحديث. أخرجه أحمد والحاكم في حديث طويل: إن أبا إدريس قال: قلت والله إني لأحبك في الله قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المتحابين بجلال الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وهو عند الترمذي من رواية أبي مسلم الخولاني عن معاذ بلفظ: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» قال: حديث حسن صحيح، ولأحمد من حديث أبي مالك الأشعري: «إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على منازلهم وقربهم من الله. . .» الحديث. وفيه: «تحابوا في الله وتصافوا به يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فتجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه.

(٧) حديث أبي هريرة: «إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء. . .» الحديث. أخرجه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات.

وقال ﷺ: «مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي الله إلاَّ كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَىٰ الله أَشَدَّهُمَا حُبّاً لِصَاحِبِهِ»(١)، ويقال: إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين، والأهل بعضهم ببعض؛ لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة. قال عزّ وجلّ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وقال ﷺ: «إِنَّ الله تَعَالَىٰ يَقُولُ: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَزَاوَرُونَ مِنْ أَجْلِي وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ مِنْ أَجْلِي وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَبَاذَلُونَ مِنْ أَجْلِي وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَنَاصَرُونَ مِنْ أَجْلِي»(٢) وقال ﷺ: «إِنَّ الله تَعَالَىٰ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي اليَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي»(٣). وقال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حتى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله تَعَالَىٰ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَم شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»(٤)، وقال ﷺ: «مَا زَارَ رَجُلٌ رَجُلاً فِي الله شَوْقاً إِلَيْهِ وَرَغْبَةً فِي لِقَائِهِ إِلاَّ نَادَاهُ مَلَكٌ مِنْ خَلْفِهِ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَطَابَتْ لَكَ الجَنَّةُ»(٥). وقال ﷺ: «إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِي الله، فَأَرْصَدَ الله لَهُ مَلَكاً فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَزُورَ أَخِي فُلاَناً، فَقَالَ: لِحَاجَةٍ لَكَ عِنْدَهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: لِقَرَابَةٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَبِنِعْمَةٍ لَهُ عِنْدَكَ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَبِمَ؟ قَالَ: أُحِبُّهُ فِي الله، قَالَ: فَإِنَّ الله أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يُخْبِرُكَ بِأَنَّهُ يُحِبُّكَ لِحُبِّكَ إِيَّاهُ وَقَدْ أَوْجَبَ لَكَ الجَنَّةَ»(٦)، وقال ﷺ: «أَوْثَقُ عُرَىٰ الإِيمَانِ الحُبُّ فِي الله وَالبُغْضُ فِي الله»(٧)، فلهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله. ويروى أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، وأما انقطاعك إليّ فقد تعززت بي، ولكن هل عاديت فيَّ عدوّاً أو هل واليت فيَّ ولياً؟ وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ مِنَّةً فَتَرْزُقَهُ مِنِّي مَحَبَّةً»(٨) ويروى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام:

---

(١) حديث: «ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهم إلى الله أشدهما حباً لصاحبه» أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح الإسناد.

(٢) حديث: «إن الله يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي. . .» الحديث. أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عبسة وحديث عبادة بن الصامت، ورواه الحاكم وصححه.

(٣) حديث: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» أخرجه مسلم.

(٤) حديث أبي هريرة: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل، . . .» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٥) حديث: «ما زار رجل رجلاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة». أخرجه ابن عدي من حديث أنس دون قوله: «شوقاً إليه ورغبة في لقائه» وللترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة: «من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه مناد من السماء، طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً» قال الترمذي: غريب.

(٦) حديث: «إن رجلاً زار أخاً له في الله فأرصد الله له ملكاً فقال: أين تريد. . .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» رواه أحمد من حديث البراء بن عازب، وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه. والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٨) حديث: «اللهم لا تجعل لفاجر عليّ منة. . .» الحديث. تقدم في الكتاب الذي قبله.

«لَوْ أَنَّكَ عَبَدْتَنِي بِعِبَادَةِ أَهْلِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَحُبٌّ فِي الله لَيْسَ، وَبُغْضٌ فِي الله لَيْسَ؛ مَا أَغْنَىٰ عَنْكَ ذٰلِكَ شَيْئاً»، وقال عيسى عليه السلام: «تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم والتمسوا رضا الله بسخطهم» قالوا: يا روح الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من تذكركم الله رؤيته، ومن يزيد في عملكم كلامه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله. وروي في الأخبار السالفة أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى عليه السلام: يا ابن عمران، كن يقظاناً وارتد لنفسك إخواناً، وكل خدن وصاحب لا يؤازرك على مسرتي فهو لك عدوّ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال: يا داود ما لي أراك منتبذاً وحيداً؟ قال: إلهي قليت الخلق من أجلك، فقال: يا داود كن يقظاناً وارتد لنفسك أخداناً، وكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصاحبه؛ فإنه لك عدوّ يقسي قلبك ويباعدك مني. وفي أخبار داود عليه السلام أنه قال: يا رب كيف لي أن يحبني الناس كلهم وأسلم فيما بيني وبينك؟ قال: خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بيني وبينك. وفي بعضها: خالق أهل الدنيا، بأخلاق الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة. وقال النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَىٰ الله الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَىٰ الله المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإِخْوَانِ»[(١)]. وقال ﷺ: «إِنَّ لله مَلَكاً نِصْفُهُ مِنَ النَّارِ وَنِصْفُهُ مِنَ الثَّلْجِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ كَمَا أَلَّفْتَ بَيْنَ الثَّلْجِ وَالنَّارِ كَذٰلِكَ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ»[(٢)] وقال أيضاً: «مَا أَحْدَثَ عَبْدٌ أَخاً فِي الله إِلاَّ أَحْدَثَ الله لَهُ دَرَجَةً فِي الجَنَّةِ»[(٣)]، وقال ﷺ: «المُتَحَابُّونَ فِي الله عَلَىٰ عَمُودٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ فِي رَأْسِ العَمُودِ سَبْعُونَ أَلْفَ غُرْفَةٍ يُشْرِفُونَ عَلَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ يُضِيءُ حُسْنُهُمْ لأَهْلِ الجَنَّةِ كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ لأَهْلِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ: انْطَلِقُوا بِنَا نَنْظُرْ إِلَىٰ المُتَحَابِّينَ فِي الله فَيُضِيءُ حُسْنُهُمْ لأَهْلِ الجَنَّةِ كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ مَكْتُوبٌ عَلَىٰ جِبَاهِهِمْ: المُتَحَابُّونَ فِي الله»[(٤)].

الآثار: قال علي رضي الله عنه: عليكم بالإخوان؛ فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٠،١٠١] وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: والله لو صمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقاً غلقاً في سبيل الله، أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً. وقال ابن السماك عند موته: اللهم إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة لي إليك. وقال الحسن ـ على ضده ـ: يا ابن آدم، لا يغرنك قول من يقول: المرء مع من أحب، فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم. وهذه

---

(١) حديث: «إن أحبكم إلى الله الذين يألفون...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**إن لله ملكاً نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول: اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألف بين قلوب عبادك الصالحين**» ورواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث معاذ بن جبل، والعرباض بن سارية بسند ضعيف.

(٣) حديث: «**ما أحدث عبد أخاً في الله تعالى إلا أحدث الله له درجة في الجنة**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان من حديث أنس وقد تقدم.

(٤) حديث: «**المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة...**» الحديث. رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع، وقال الفضيل في بعض كلامه: هاه، تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟ بأي عمل عملته؟ بأي شهوة تركتها؟ بأي غيظ كظمته؟. بأي رحم قاطع وصلتها؟ بأي زلة لأخيك غفرتها؟ بأي قريب باعدته في الله؟ بأي بعيد قاربته في الله؟ ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: هل عملت لي عملاً قط؟ فقال: إلٰهي إني صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت، فقال: إن الصلاة لك برهان، والصوم جنة، والصدقة ظل، والزكاة نور، فأي عمل عملت لي؟ قال موسى: إلهي دلني على عمل هو لك؟ قال: يا موسى، هل واليت لي ولياً قط؟ وهل عاديت فيَّ عدوّاً قط؟. فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب. وقال الحسن رضي الله عنه: مصارمة الفاسق قربان إلى الله. وقال رجل لمحمد بن واسع: إني لأحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له. ثم حوّل وجهه وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أحب فيك وأنت لي مبغض. ودخل رجل على داود الطائي فقال له: ما حاجتك؟ فقال: زيارتك، فقال: أما أنت فقد عملت خيراً حين زرت، ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي: من أنت فتزار؟ أمن الزهاد أنت؟ لا والله، أمن العباد أنت؟ لا والله، أمن الصالحين أنت؟ لا والله، ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة فاسقاً فلما شخت صرت مرائياً، والله للمرائي شر من الفاسق.

وقال عمر رضي الله عنه: إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك. وقال مجاهد: المتحابون في الله إذا التقوا فكشر بعضهم إلى بعض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس. وقال الفضيل: نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة.

بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا:

اعلم: أن الحب في الله والبغض في الله غامض، وينكشف الغطاء عنه بما نذكره: وهو أن الصحبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو على باب السلطان أو في الأسفار، وإلى ما ينشأ اختياراً ويقصد، وهو الذي نريد بيانه، إذ الأخوة في الدين واقعة في هذا القسم لا محالة، إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها. والصحبة عبارة عن المجالسة والمجاورة. وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته، والذي يحب: فإما أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه، وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود، وذلك المقصود إما أن يكون مقصوراً على الدنيا وحظوظها، وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى فهذه أربعة أقسام:

أما القسم الأوّل: وهو حبك الإنسان لذاته، فذلك ممكن وهو أن يكون في ذاته محبوباً عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له، فإن كل جميل لذيذ في حق من أدرك جماله، وكل لذيذ محبوب. واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة ـ أعني حسن الخلقة ـ وإما أن يكون هو الصورة الباطنة ـ أعني كمال العقل وحسن الأخلاق ـ ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة،

ويتبع كمال العقل غزارة العلم، وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم، وكل مستحسن فمستلذ به ومحبوب، بل في ائتلاف القلوب أمر أغمض من هذا، فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحة في صورة ولا حسن في خلق وخلق، ولكن لمناسبة توجب الألفة والموافقة فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة خفية، ولها أسباب دقيقة ليس في قوّة البشر الاطلاع عليها، عبر رسول الله ﷺ عن ذلك حيث قال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»(١)، فالتناكر نتيجة التباين، والائتلاف نتيجة التناسب الذي عبر عنه بالتعارف. وفي بعض الألفاظ: «**الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشامّ في الهواء**»(٢)، وقد كنى بعض العلماء عن هذا بأن قال: إن الله تعالى خلق الأرواح ففلق بعضها فلقاً وأطافها حول العرش، فأي روحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا تواصلا في الدنيا. وقال ﷺ: «**إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِيْنِ لَيَلْتَقِيَانِ عَلَىٰ مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَمَا رَأَىٰ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ قَطُّ**»(٣)، وروي: «أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى، فنزلت المكية على المدنية فدخلت على عائشة رضي الله عنها فأضحكتها»، فقالت: أين نزلت؟ فذكرت لها صاحبتها، فقالت: صدق الله ورسوله(٤)، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ . . .**» الحديث. والحق في هذا: أن المشاهدة والتجربة تشهد للائتلاف عند التناسب، والتناسب في الطباع والأخلاق باطناً وظاهراً أمر مفهوم. وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوّة البشر الاطلاع عليها، وغاية هذيان المنجم أن يقول: إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تثليثه فهذا نظر الموافقة والمودة فتقتضي التناسب والتواد، وإذا كان على مقابلته أو تربيعه اقتضى التباغض والعداوة. فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجاري سنة الله في خلق السمٰوات والأرض لكان الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب، فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر، فما أوتينا من العلم إلا قليلاً، ويكفينا في التصديق بذلك التجربة والمشاهدة؛ فقد ورد الخبر به. قال ﷺ: «**لَوْ أَنَّ مُؤْمِناً دَخَلَ إِلَىٰ مَجْلِسٍ فِيهِ مِائَةُ مُنَافِقٍ ومُؤْمِنٌ وَاحِدٌ لَجَاءَ حَتَّىٰ يَجْلِسَ إِلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ مُنَافِقاً دَخَلَ إِلى مَجْلِسٍ فِيهِ مِائَةُ مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٌ وَاحِدٌ لَجَاءَ حَتَّىٰ يَجْلِسَ إِلَيْهِ**»، وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به، وكان مالك بن دينار يقول: لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير، ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة، قال: فرأى يوماً غراباً

---

(١) حديث: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة والبخاري تعليقاً من حديث عائشة.

(٢) حديث: «**الأرواح تلتقي فتتشام في الهواء**» أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث علي: «**إن الأرواح في الهواء جند مجندة تلتقي فتتشام . . .**» الحديث.

(٣) حديث: «**إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط**» أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «**تلتقي**» وقال: «**أحدهم**» وفيه ابن لهيعة عن دراج.

(٤) حديث: «إن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدنية فدخلت على عائشة فذكرت حديث: «**الأرواح جنود مجندة**» أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده بالقصة بسند حسن، وحديث عائشة عند البخاري تعليقاً مختصراً أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن مسعود، وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل، ولم يخرجه ولده في المسند.

مع حمامة فعجب من ذلك فقال: اتفقا وليسا من شكل واحد، ثم طارا فإذا هما أعرجان فقال: من ههنا اتفقا، ولذلك قال بعض الحكماء: كل إنسان يأنس إلى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بدّ أن يفترقا، وهذا معنى خفي تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم:

وقائلٍ كيف تفارقتما ... فقلت قولاً فيه إنصافُ
لم يكُ من شكلي ففارقته ... والناسُ أشكالٌ وألاّفُ

فقد ظهر من هذا: أن الإنسان قد يحب لذاته لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل، بل لمجرد المجانسة والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية. ويدخل في هذا القسم: الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة؛ فإن الصور الجميلة مستلذة في عينها وإن قدّر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحمرة، وإلى الماء الجاري والخضرة من غير غرض سوى عينها. وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس، ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله، إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموماً كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها. وإن لم يتصل به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم «إذ الحب إما محمود وإما مذموم وإما مباح لا يحمد ولا يذم».

القسم الثاني: أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة. ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب، ولذلك أحب الناس الذهب والفضة ولا غرض فيهما؛ إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات، فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود؛ إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطاناً لانتفاعه بماله أو جاهه، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده وتمهيدهم أمره في قلبه، فالمتوسل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه فهو أيضاً خارج عن الحب لله؛ فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فمحبوبه العلم، فإذا كان لا يقصد العلم للتقرّب إلى الله، بل لينال به الجاه والمال والقبول عند الخلق فمحبوبه الجاه والقبول، والعلم وسيلة إليه، والأستاذ وسيلة إلى العلم، فليس في شيء من ذلك حب لله؛ إذ لا يتصوّر كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى أصلاً. ثم ينقسم هذا أيضاً إلى مذموم ومباح؛ فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحيازة أموال اليتامى وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره كان الحب مذموماً، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح، وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل إليه؛ فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها.

القسم الثالث: أن يحبه لا لذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعاً إلى حظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة، فهذا أيضاً ظاهر لا غموض فيه، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة، فهذا من جملة المحبين في الله، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء؛ إذ قال عيسى ﷺ : من عَلِم وعَمِل وعَلَّم فذلك يدعى عظيماً

في ملكوت السماء. ولا يتم التعليم إلا بمتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذي هو سبب ترقيه إلى رتبة التعظيم في ملكوت السماء فهو محب في الله، بل الذي يتصدّق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيىء لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقرّباً إلى الله فأحب طباخاً لحسن صنعته في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله، بل نزيد على هذا ونقول: إذا أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه، ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله، بل نزيد عليه ونقول: إذا أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه، ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرّب إلى الله فهو محب في الله؛ فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفايتهم جماعة من أولي الثروة، وكان المواسي والمواسى جميعاً من المتحابين في الله، بل نزيد عليه ونقول: من نكح امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان ويصون بها دينه، أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدينية فهو محب في الله. ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فِيِّ امرأته[(١)] بل نقول: كل من استهتر بحب الله وحب رضاه وحب لقائه في الدار الآخرة: فإذا أحب غيره كان محباً في الله؛ لأنه لا يتصوّر أن يحب شيئاً إلا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عزّ وجلّ، بل أزيد على هذا وأقول: إذا اجتمع في قلبه محبتان: محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد المعنيان جميعاً حتى صلح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا، فإذا أحبه لصلاحه للأمرين فهو من المحبين في الله، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمؤاساة في المال فأحبه من حيث إنّ في طبعه طلب الراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة فهو وسيلة إليهما فهو محب في الله، وليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظاً البتة؛ إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة، ومن ذلك قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البَقَرَة: ٢٠١] وقال عيسى عليه السلام في دعائه: اللهم لا تشمت بي عدوّي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي لديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي. فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا، ولم يقل: ولا تجعل الدنيا أصلاً من همي، بل قال: لا تجعلها أكبر همي. وقال نبينا ﷺ في دعائه: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»**[(٢)]، وقال: **«اللَّهُمَّ عَافِنِي مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَبَلَاءِ الآخِرَةِ»**[(٣)] وعلى الجملة: فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لحب الله تعالى فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضاً لحب الله؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى، فكيف يتصوّر أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم؟ وإنما يحبها غداً لأنّ الغد سيصير حالاً راهنة، فالحالة الراهنة لا بدّ أن تكون مطلوبة أيضاً، إلا أنّ الحظوظ

---

(١) حديث: «الأجر في الانفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فِيّ امرأته» تقدم.

(٢) حديث: «اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس في الحديث الطويل في دعائه ﷺ بعد صلاة الليل، وقد تقدم.

(٣) حديث: «اللهم عافني من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة» أخرجه أحمد من حديث بشر بن أبي أرطأة نحوه بسند جيد.

العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها وهي التي احترز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها، وإلى ما لا يضاد وهي التي لم يمتنعوا منها كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك، فما يضاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبه ـ أعني أن يكرهه بعقله لا بطبعه ـ كما يكره التناول من طعام لذيذ لملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعت يده أو حزت رقبته، لا بمعنى أنّ الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتهيه بطبعه ولا يستلذه لو أكله فإنّ ذلك محال، ولكن على معنى أنه يزجره عقله عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به.

والمقصود من هذا: أنه لو أحب أستاذه لأنه يؤاسيه ويعلمه، أو تلميذه لأنه يتعلم منه ويخدمه، وأحدهما حظ عاجل والآخر آجل لكان في زمرة المتحابين في الله، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلاً أو تعذر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه فالقدر الذي ينقص بسبب فقده هو لله تعالى، وله على ذلك القدر ثواب الحب في الله وليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به، فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب، فليس حبك الذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما؛ لأنّ الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة، فإذن يزيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل في جملة الحب لله، وحدّه: هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصوّر وجوده فهو حب في الله، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة فتلك الزيادة من الحب في الله، فذلك وإن دق فهو عزيز. قال الجريري: تعامل الناس في القرن الأوّل بالدين حتى رق الدين، وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، وفي الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ولم يبق إلا الرهبة والرغبة.

القسم الرابع: أن يحب لله وفي الله لا لينال منه علماً أو عملاً أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته، وهذا أعلى الدرجات وهو أدقها وأغمضها، وهذا القسم أيضاً ممكن، فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدّى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد، فمن أحب إنساناً حباً شديداً أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه، وأحب من يثني عليه محبوبه، وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه، حتى قال بقية بن الوليد: إنّ المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كَلبه، وهو كما قال: ويشهد له التجربة في أحوال العشاق، ويدل عليه أشعار الشعراء، ولذلك يحفظ ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهته ويحب منزله ومحلته وجيرانه حتى قال مجنون بني عامر[1]:

أمرّ على الديار ديار ليلى ... أُقبّلُ ذا الجدار وذا الجدارا
وما حُبّ الديار شغفن قلبي ... ولكن حبُّ من سَكَنَ الدّيارا

فإذن: المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدّى من ذات المحبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولو من بعد، ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة، فأصل المحبة لا يكفي فيه ويكون اتساع الحب في تعديه من المحبوب إلى ما يكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوي وغلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى إلى حد الاستهتار فيتعدى إلى كل موجود سواه، فإن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته، ومن أحب إنساناً أحب صنعته

---

(١) هو: قيس بن الملوّح، المشهور بمجنون ليلى.

وخطه وجميع أفعاله، ولذلك كان ﷺ إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال: «**إنها قريب العهد بربنا**»(١)، وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من نعيمه، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته، وتارة لذاته لا لأمر آخر وهو أدق ضرب المحبة وأعلاها ـ وسيأتي تحقيقها في كتاب المحبة من ربع المنجيات إن شاء الله تعالى ـ وكيفما اتفق حب الله، فإذا قوي تعدى إلى كل متعلق به ضرباً من التعلق حتى يتعدى إلى ما هو في نفسه مؤلم مكروه، ولكن فرط الحب يضعف الإحساس بالألم، والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلام يغمر إدراك الألم، وذلك كالفرح بضربة من المحبوب أو قرصة فيها نوع معاتبة، فإن قوة المحبة تثير فرحاً يغمر إدراك الألم فيه، وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا: لا نفرق بين البلاء والنعمة؛ فإن الكل من الله ولا نفرح إلا بما فيه رضاه. حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله بمعصية الله. وقال سمنون:

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني

وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة. والمقصود: أن حب الله إذا قوي أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل، وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بآداب الشرع. وما من مؤمن محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخر جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلاً إلى العالم العابد، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته، وبحسب ضعف حبه لله وقوّته. وهذا الميل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم أنه لا يصيبه منهما خير ولا شر في الدنيا ولا في الآخرة، فذلك الميل هو حب في الله ولله من غير حظ؛ فإنه إنما يحبه لأن الله يحبه ولأنه مرضي عند الله تعالى؛ ولأنه يحب الله تعالى؛ ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر، فإذا قوي حمل على الموالاة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان، وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عزّ وجلّ، ولو كان الحب مقصوراً على حظ ينال من المحبوب في الحال أو المآل لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين، بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم في واحد منهم، وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله لأنهم خواص عباد الله. ومن أحب ملكاً أو شخصاً جميلاً أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس، وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب، وعنه عبر قول من قال:

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريدُ

وقول من قال:

وَما لِجُرحٍ إذا أرضَاكُم أَلَمُ

---

(١) حديث: «كان إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال: «**إنها قريب عهد بربها**»». أخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس، وأبو داود في المراسيل، والبيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة دون قوله: «**وأكرمها**. . .» إلخ وقال: إنه غير محفوظ، وحديث أبي هريرة في الباكورة عند بقية أصحاب السنن دون: مسح عينيه بها وما بعده، وقال الترمذي حسن صحيح.

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض؛ كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو في ثلثه أو في عشره، فمقادير الأموال موازين المحبة؛ إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يترك في مقابلته، فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئاً، مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلاً ولا مالاً فسلم ابنته التي هي قرة عينه وبذل جميع ماله. قال ابن عمر رضي الله عنهما: «بينما رسول الله ﷺ جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فأقرأه عن الله السلام وقال له: يا رسول الله ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال؟ فقال: «**أَنْفَقَ مَالَهُ عَلَيَّ قَبْلَ الفَتْحِ**»، قال: فأقرئه من الله السلام وقل له: يقول لك ربك: أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ قال: فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر وقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ هٰذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ مِنَ الله وَيَقُولُ: أَرَاضٍ أَنْتَ عَنِّي فِي فَقْرِكَ هٰذَا أَمْ سَاخِطٌ؟**» قال: فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: أعلى ربي أسخط؟! أنا عن ربي راض»[(1)]، فحصل من هذا: أن كل من أحب عالماً أو عابداً أو أحب شخصاً راغباً في علم أو في خير فإنما أحبه في الله ولله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه، فهذا شرح الحب في الله ودرجاته وبهذا يتضح البغض في الله أيضاً ولكن نزيده بياناً.

بيان البغض في الله:

اعلم: أن كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله؛ فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه؛ لأنه عاص لله وممقوت عند الله، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحب والبغض في العادات، ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين في القلب، وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال المحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة وفي المخالفة والموافقة، فإذا ظهر في الفعل سمي موالاة ومعاداة، ولذلك قال الله تعالى: هل واليت فيَّ ولياً وهل عاديت فيَّ عدوّاً؟ كما نقلناه، وهذا واضح في حق من لم يظهر لك إلا طاعاته تقدر على أن تحبه، أو لم يظهر لك إلا فسقه وفجوره وأخلاقه السيئة فتقدر على أن تبغضه، وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصي فإنك تقول: كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة والموالاة والمعاداة وأقول: ذلك غير متناقض في حق الله تعالى كما لا يتناقض في الحظوظ البشرية، فإنه مهما اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه، فمن زوجة حسناء فاجرة أو ولد ذكي خدوم ولكنه فاسق فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه ويكون معه على حالة بين حالتين؛ إذ لو فرض له ثلاثة أولاد أحدهم ذكي بار والآخر بليد عاق والآخر بليد بار أو ذكي عاق فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة بحسب تفاوت خصالهم، فكذلك ينبغي أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ومن غلبت عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب، وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب والإعراض والإقبال والصحبة والقطيعة وسائر الأفعال الصادرة منه.

---

(1) حديث ابن عمر: بينما النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال، فنزل جبريل فأقرأه من ربه السلام. . الحديث، أخرجه ابن حبان والعقيلي في الضعفاء، قال الذهبي في الميزان: هو كذب.

فإن قلت: فكل مسلم فإسلامه طاعة منه فكيف أبغضه مع الإسلام؟ فأقول: تحبه لإسلامه وتبغضه لمعصيته، وتكون معه على حالة لو قستها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما، وتلك التفرقة حب للإسلام وقضاء لحقه وقدر الجناية على حق الله والطاعة له كالجناية على حقك والطاعة لك. فمن وافقك على غرض وخالفك في آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه، ولا تبالغ في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك على جميع أغراضك، ولا تبالغ في إهانته مبالغتك في إهانة من خالفك في جميع أغراضك. ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية، وتارة إلى طرف المجاملة والإكرام عند غلبة الموافقة، فهكذا ينبغي أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ويتعرض لرضاه مرة ولسخطه أخرى.

فإن قلت: فبماذا يمكن إظهار البغض؟ فأقول: أما في القول فبكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى. وأما في الفعل فبقطع السعي في إعانته مرة وبالسعي في إساءته وإفساد مآربه أخرى. وبعض هذا أشد من بعض، وهي بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه. أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متندم عليها ولا يصر عليها فالأولى فيه الستر والإغماض. أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فإن كان ممن تأكدت بينك وبينه مودة وصحبة وأخوة فله حكم آخر ـ وسيأتي وفيه خلاف بين العلماء ـ وأما إذا لم تتأكد أخوة وصحبة فلا بد من إظهار أثر البغض؛ إما في الإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه، وإما في الاستخفاف وتغليظ القول عليه. وهذا أشد من الإعراض وهو بحسب غلظ المعصية وخفتها، وكذلك في الفعل أيضاً رتبتان، إحداهما: قطع المعونة والرفق والنصرة عنه وهو أقل الدرجات، والأخرى: السعي في إفساد أغراضه عليه كفعل الأعداء المبغضين، وهذا لا بد منه ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية، أما ما لا يؤثر فيه فلا. مثاله: رجل عصى الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكان مغبوطاً بها بالمال والجمال والجاه، إلا أن ذلك لا يؤثر في منعه من شرب الخمر ولا في بعث وتحريض عليه، فإذا قدرت على إعانته ليتم له غرضه ومقصوده وقدرت على تشويشه ليفوته غرضه فليس لك السعي في تشويشه. أما الإعانة فلو تركتها إظهاراً للغضب عليه في فسقه فلا بأس، وليس يجب تركها؛ إذ ربما يكون لك نية في أن تتلطف بإعانته وإظهار الشفقة عليه ليعتقد مودتك ويقبل نصحك فهذا حسن، وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه فذلك ليس بممنوع بل هو الأحسن إن كانت معصيته بالجناية على حقك أو حق من يتعلق بك. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النّور: ٢٢] إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ إذ تكلم مسطح بن أثاثة في واقعة الإفك[1] فحلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقه ـ وقد كان يواسيه بالمال ـ فنزلت الآية مع عظم معصية مسطح، وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله ﷺ وإطالة اللسان في مثل عائشة رضي الله عنها؟ إلا أن الصديق رضي الله عنه كان كالمجني عليه في نفسه بتلك الواقعة، والعفو عمن ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين. وإنما يحسن الإحسان إلى من أساء من ظلمك، فأما من ظلم غيرك وعصى الله به فلا يحسن إحسانك إليه؛ لأن في الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم، وحق المظلوم أولى بالمراعاة

(١) حديث: «كلام مسطح في الإفك وهجر أبي بكر له حتى نزلت: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [النّور: ٢٢] الآية». متفق عليه من حديث عائشة.

وتقوية قلبه بالإعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم، فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن في حقك العفو والصفح.

وطرق السلف قد اختلفت في إظهار البغض مع أهل المعاصي وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والمبتدعة وكل من عصى الله بمعصية متعدية منه إلى غيره، فأما من عصى الله في نفسه: فمنهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة. فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكابر في أدنى كلمة، حتى هجر يحيى بن معين لقوله: إني لا أسأل أحداً شيئاً ولو حمل السلطان إليّ شيئاً لأخذته. وهجر الحارث المحاسبي في تصنيفه في الرد على المعتزلة وقال: إنك لا بد تورد أولاً شبهتهم وتحمل الناس على التفكر فيها ثم ترد عليهم، وهجر أبا ثور في تأويله قوله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»**[١]، وهذا أمر يختلف باختلاف النية وتختلف النية باختلاف الحال، فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطرار الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أورث هذا تساهلاً في المعاداة والبغض وله وجه، ولكن قد تلتبس به المداهنة، فأكثر البواعث على الإغضاء عن المعاصي المداهنة ومراعاة القلوب والخوف من وحشتها ونفارها، وقد يلبس الشيطان ذلك على الغبي الأحمق بأنه ينظر بعين الرحمة، ومحك ذلك: أن ينظر إليه بعين الرحمة إن جنى على خاص حقه ويقول: إنه قد سخر له والقدر لا ينفع منه الحذر، وكيف لا يفعله وقد كتب عليه فمثل هذا قد تصح له نية في الإغماض عن الجناية على حق الله، وإن كان يغتاظ عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهذا مداهن مغرور بمكيدة من مكايد الشيطان فليتنبه له.

فإن قلت: فأقل الدرجات في إظهار البغض الهجر والإعراض وقطع الرفق والإعانة، فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه؟ فأقول: لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والإيجاب، فإنا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش في زمان رسول الله ﷺ والصحابة ما كانوا يهجرون بالكلية، بل كانوا منقسمين فيهم إلى من يغلظ القول عليه ويظهر البغض له، وإلى من يعرض عنه ولا يتعرض له، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتباعد، فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته، ومقتضى الأحوال في هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون في رتبة الفضائل ولا تنتهي إلى التحريم والإيجاب، فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى وأصل الحب، وذلك قد لا يتعدى من المحبوب إلى غيره وإنما المتعدي إفراط الحب واستيلاؤه، وذلك لا يدخل في الفتوى وتحت ظاهر التكليف في حق عوام الخلق أصلاً.

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم:

فإن قلت: إظهار البغض والعداوة بالفعل إن لم يكن واجباً فلا شك أنه مندوب إليه، والعصاة والفساق على مراتب مختلفة، فكيف ينال الفضل بمعاملتهم، وهل يسلك بجميعهم مسلكاً واحداً أم لا؟ فاعلم: أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يخلو إما أن يكون مخالفاً في عقده أو في عمله، والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر، والمبتدع إما داع إلى بدعته أو ساكت، والساكت إما بعجزه أو باختياره. فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة:

---

(١) حديث: **«إن الله خلق آدم على صورته»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

الأول: الكفر، فالكافر إن كان محارباً فهو يستحق القتل والإرقاق، وليس بعد هذين إهانة، وأما الذمي فإنه لا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له؛ بالاضطرار إلى أضيق الطرق، وبترك المفاتحة بالسلام، فإذا قال: السلام عليك، قلت: وعليك. والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومؤاكلته، وأما الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهي ما يقوى منها إلى حد التحريم، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الآية، وقال ﷺ: «**الْمُسْلِمُ وَالْمُشْرِكُ لاَ تَتَرَاءَىٰ نَارَاهُمَا**»(١) وقال عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المُمتحنة: ١] الآية.

الثاني: المبتدع الذي يدعو إلى بدعته؛ فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمي؛ لأنه لا يقرّ بجزية ولا يسامح بعقد ذمة. وإن كان ممن لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لا محالة، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر؛ لأن شر الكافر غير متعد، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون إلى قوله؛ إذ لا يدعي لنفسه الإسلام واعتقاد الحق. أما المبتدع الذي يدعو إلى البدعة ويزعم أن ما يدعو إليه حق فهو سبب لغواية الخلق فشره متعدّ، فالاستحباب في إظهار بغضه ومعاداته والانقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد. وإن سلم في خلوة فلا بأس برد جوابه، وإن علمت أن الإعراض عنه والسكوت عن جوابه يقبح في نفسه بدعته ويؤثر في زجره فترك الجواب أولى؛ لأن جواب الإسلام وإن كان واجباً فيسقط بأدنى غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الإنسان في الحمام أو في قضاء حاجته، وغرض الزجر أهم من هذه الأغراض، وإن كان في ملأ فترك الجواب أولى تنفيراً للناس عنه وتقبيحاً لبدعته في أعينهم، وكذلك الأولى كف الإحسان إليه والإعانة له لا سيما فيما يظهر للخلق، قال عليه السلام: «**مَنِ انْتَهَرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ مَلأَ الله قَلْبَهُ أَمْناً وَإِيمَاناً، وَمَنْ أَهَانَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ أَمَّنَهُ الله يَوْمَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَمَنْ أَلاَنَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ أَوْ لَقِيَهُ بِبِشْرٍ فَقَدِ اسْتَخَفَّ بِمَا أَنْزَلَ الله عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٢).

الثالث: المبتدع العامي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون، فالأولى أن لا يقابح بالتغليظ والإهانة بل يتلطف به في النصح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الإعراض، وإن علم أن ذلك لا يؤثر فيه لجمود طبعه ورسوخ عقده في قلبه فالإعراض أولى؛ لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها. وأما العاصي بفعله وعمله لا باعتقاده فلا يخلو إما أن يكون بحيث يتأذى به غيره؛ كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والتضريب بين الناس والمشي بالنميمة وأمثالها، أو كان مما لا يقتصر عليه ويؤذي غيره، وذلك ينقسم إلى ما يدعو غيره إلى الفساد؛ كصاحب الماخور الذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيىء أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد؛ أو لا يدعو غيره إلى فعله؛ كالذي يشرب ويزني، وهذا الذي لا يدعو غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة، وكل واحد فإما أن يكون مصراً

---

(١) حديث: «**المؤمن والمشرك لا تتراءى ناراهما**» رواه أبو داود والترمذي من حديث جرير: «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**» قالوا: يا رسول الله ولم؟ قال: «**لا تتراءى ناراهما**» ورواه النسائي مرسلاً وقال البخاري: الصحيح أنه مرسل.

(٢) حديث: «**من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً . . .**» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية، والهروي في ذم الكلام من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

عليه أو غير مصر، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام، ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من بعض ولا نسلك بالكل مسلكاً واحداً.

القسم الأول: وهو أشدّها: ما يتضرر به الناس كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة، فهؤلاء: الأولى الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم؛ لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق. ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم في الدماء وإلى من يظلم في الأموال وإلى من يظلم في الأعراض، وبعضها أشد من بعض. فالاستحباب في إهانتهم والإعراض عنهم مؤكد جداً، ومهما كان يتوقع من الإهانة زجراً لهم أو لغيرهم كان الأمر فيه آكد وأشد.

الثاني: صاحب الماخور الذي يهيىء أسباب الفساد ويسهل طرقه على الخلق، فهذا لا يؤذي الخلق في دنياهم ولكن يختلس بفعله دينهم، وإن كان وفق رضاهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه، فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب، ولكن من حيث إنه متعدّ على الجملة إلى غيره فهو شديد، وهذا أيضاً يقتضي الإهانة والإعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعاً من الزجر له أو لغيره.

الثالث: الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة محظور يخصه فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف؛ فإن النهي عن المنكر واجب، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح، وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع. فأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه؛ فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة، والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فعند هذا يقال: الأعمال بالنيات؛ إذ في الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع، وفي العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفتى فيه القلب، فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضدّه؛ إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ بإظهار العلو والإدلال بالصلاح، وقد يكون رفقه عن مداهنة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشته ونفرته في جاه أو مال بظن قريب أو بعيد، وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة، فكل راغب في أعمال الدين مجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال، والقلب هو المفتي فيه وقد يصيب الحق في اجتهاده وقد يخطىء، وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به، وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظانّ أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة، وسيأتي بيان هذه الدقائق في كتاب الغرور من ربع المهلكات. ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روي أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله ﷺ وهو يعود، فقال واحد من الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يشرب، فقال ﷺ: «**لاَ تَكُنْ عَوْناً لِلشَّيْطَانِ عَلَىٰ أَخِيكَ**»[1]، أو لفظاً هذا معناه، وكأن هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ.

---

(١) حديث: «**إن شارب خمر ضرب بين يدي النبي ﷺ . .**» الحديث. وفيه: «**لا تكن عوناً للشيطان على أخيك**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته:

اعلم: أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان. قال ﷺ: «**المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١)، ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة؛ إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول إلى المقصود فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط. ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية: أما الدنيوية: فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا. وأما الدينية: فيجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصناً به عن إيذاء من يشوّش القلب ويصدّ عن العبادة، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها التبرك بمجرد الدعاء، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة؛ فقد قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك. وروي في غريب التفسير في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦] قال: يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم. ويقال: إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه، ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد، فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها، ونحن نفصلها: أما على الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا. أما العقل فهو رأس المال، وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق؛ فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت. قال علي رضي الله عنه:

فَلاَ تَصْحَبْ أخا الجَهْلِ ... وإيَّاكَ وإيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أردَى ... حليماً حين آخاهُ
يقاسُ المرءُ بالمرءِ ... إذا ما المرءُ ماشَاهُ
وللشيءِ مِنَ الشيءِ ... مقاييسٌ وأشباهُ
وللقلبِ على القلبِ ... دليلٌ حين يلقاهُ

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري؟ ولذلك قال الشاعر:

إنـي لآمَنُ مِنْ عدوّ عاقلٍ ... وأخافُ خِلاً يعتريه جُنُونُ
فالعقلُ فنٌ واحدٌ وطريقه ... أدرى فأرصِدُ والجنونُ فُنونُ

ولذلك قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله. وقال الثوري: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة. ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهم. وأما حسن الخلق فلا بد منه؛ إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في صحبته. وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته؛ لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة ومن لا

---

(١) حديث: «المرء على دين خليله. .» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح إن شاء الله.

يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [طه: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٢٩]، وقال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق.

وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدّي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته؟ وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب قال: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم؛ فإنهم زينة في الرخاء وعدّة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه، واعتزل عدوّك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشي الله، فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى. وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال: يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى سيئة سدّها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدّق قولك، وإن حاولتما أمراً أمرك، وإن تنازعتما آثرك. فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائماً بجميعها. قال ابن أكثم: قال المأمون؛ فأين هذا؟ فقيل له: أتدري لم أوصاه بذلك؟ قال: لا. قال: لأنه أراد أن لا يصحب أحداً. وقال بعض الأدباء: لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرك ويستر عيبك؛ فيكون معك في النوائب ويؤثرك بالرغائب، وينشر حسنتك ويطوي سيئتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك.

وقال علي رضي الله عنه:

إن أخاك الحق من كان معكْ ... ومَن يضرّ نفسه لينفعكْ

ومَن إذا رَيب زمانٍ صَدَعكْ ... شتّت فيه شمله ليجمعكْ

وقال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل تتعلم منه شيئاً من أمر دينك فينفعك، أو رجل تعلمه شيئاً في أمر دينه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه. وقال بعضهم: الناس أربعة: فواحد حلو كله فلا يشبع منه، وآخر مر كله فلا يؤكل منه، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط. وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: لا تصحب خمسة: الكذاب؛ فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرّب منك البعيد ويبعد منك القريب، والأحمق؛ فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك. والبخيل؛ فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان؛ فإنه يسلمك ويفر عند الشدّة، والفاسق؛ فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها. وقال الجنيد: لأن يصحبني فاسق حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني قارىء سيىء الخلق. وقال ابن أبي الحواري: قال لي أستاذي أبو سليمان: يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين: رجلاً ترتفق به في أمر دنياك، أو رجلاً تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك، والاشتغال بغير هذين حمق كبير. وقال سهل بن عبدالله: اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقرّاء المداهنين، والمتصوّفة الجاهلين.

واعلم: أن هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحبة، والمحيط ما ذكرناه من

ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها؛ فليس ما يشترط للصحبة في مقاصد الدنيا مشروطاً للصحبة في الآخرة والأخوّة؛ كما قال بشر: الإخوان ثلاثة: أخ لآخرتك وأخ لدنياك وأخ لتأنس به. وقلما تجتمع هذه المقاصد في واحد؛ بل تتفرّق على جمع فتتفرّق الشروط فيهم لا محالة. وقد قال المأمون: الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع. وقد قيل: مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات، فمنها: ما له ظل وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة؛ فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها: ما له ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا، ومنها: ما له ثمر وظل جميعاً، ومنها: ما ليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثياب ولا طعم فيها ولا شراب، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحَجّ: ١٣]، وقال الشاعر:

النَّاسُ شَتَّى إذا ما أنت ذُقْتَهُم ... لا يستوون كما لا يستوي الشَّجرُ
هذا له ثمرٌ حلوٌ مَذَاقَتُه ... وذاكَ ليس له طَعْمٌ ولا ثَمَرُ

فإذا لم يجد رفيقاً يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به. قال أبو ذرّ رضي الله عنه: الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة، ويروى مرفوعاً. وأما الديانة وعدم الفسق. فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمَان: ١٥]، ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهوّن أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها؛ قال سعيد بن المسيب: لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة. بل هؤلاء لا سلامة في مخالطتهم، وإنما السلامة في الانقطاع عنهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفُرقان: ٦٣] أي سلامة، والألف بدل من الهاء، ومعناه: إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من معاني الأخوة وشروطها وفوائدها فلنرجع في ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بحقها. وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا؛ فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة. قال علي عليه السلام: أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: ما أوقعني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه. وقال لقمان: يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر.

* * *

الباب الثاني

في حقوق الأخوة والصحبة

اعلم: أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضي النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها قياماً بحق النكاح ـ كما سبق ذكره في كتاب آداب النكاح ـ فكذا عقد الأخوة؛ فلأخيك

عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب، بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء، وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف. وذلك يجمعه ثمانية حقوق:

الحق الأول: في المال:

قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الأَخَوَيْنِ مَثَلُ اليَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ»(١)، وإنما شبههما باليدين لا باليد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد، فكذا الأخوان إنما تتم أخوّتهما إذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد، وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المآل والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار. والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب:

أدناها: أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال، فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

الثالثة: وهي العليا؛ أن تؤثره على نفسك وتقدّم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصدّيقين ومنتهى درجات المتحابين، ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضاً، كما روي أنه سُعِيَ بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النوري فبادر إلى السياف ليكون هو أوّل مقتول، فقيل له في ذلك فقال: أحببت أن أؤثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة، فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن، وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين، فقد قال ميمون بن مهران: من رضي من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور.

وأما الدرجة الدنيا: فليست أيضاً مرضية عند ذوي الدين، روي أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه فقال: أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال: خذ ألفين، فأعرض عنه وقال: آثرت الدنيا على الله، أما استحييت أن تدعي الأخوة في الله وتقول هذا؟! ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي أن لا تعامله في الدنيا. قال أبو حازم: إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك. وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة.

وأما الرتبة العليا: فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض، وكان منهم من لا يصحب من قال: نعلي، لأنه أضافه إلى نفسه. وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائباً، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته، فأخبرت الجارية مولاها فقال: إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سروراً بما فعل. وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال: إني أريد أن أؤاخيك في الله

الباب الثاني

في حقوق الأخوة والصحبة

(١) حديث: «مثل الأخوين مثل اليدين. . .» الحديث. تقدم في الباب قبله.

فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد؟ قال: فاذهب عني. وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان. ودخل قوم على الحسن رضي الله عنه فقالوا: يا أبا سعيد أصليت؟ قال: نعم، قالوا: فإن أهل السوق لم يصلوا بعد، قال: ومن يأخذ دينه من أهل السوق؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم؛ قاله كالمتعجب منه. وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال: إني أريد أن أرافقك، فقال له إبراهيم: على أن أكون أملَك لشيئك منك: قال: لا، قال: أعجبني صدقك، قال: فكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه، وكان لا يصحب إلا من يوافقه، وصحبه رجل شراك فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شراك وجعلها في القصعة وردها إلى صاحب الهدية، فلما جاء رفيقه قال: أين الشراك؟ قال: ذلك الثريد الذي أكلته إيش كان؟ قال: كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة، قال: اسمح يسمح لك. وأعطى مرة حماراً كان لرفيقه ـ بغير إذنه ـ رجلاً رآه راجلاً، فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك. قال ابن عمر رضي الله عنهما: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: أخي فلان أحوج مني إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة. وروي أن مسروقاً أدان ديناً ثقيلاً وكان على أخيه خيثمة دين قال: فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم، ولما آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبدالرحمن: بارك الله لك فيهما[1] فآثره بما آثره به، وكأنه قبله ثم آثره به وذلك مساواة، والبداية إيثار والإيثار أفضل من المساواة. وقال أبو سليمان الداراني: لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له. وقال أيضاً: إني لألقم اللقمة أخاً من إخواني فأجد طعمها في حلقي.

كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء؛ قال علي رضي الله تعالى عنه: لعشرون درهماً أعطيها أخي في الله أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضاً: لأن أصنع صاعاً من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إليَّ من أن أعتق رقبة. واقتداء الكل في الإيثار برسول الله ﷺ، فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه، فقال له: يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم مني فقال: «**مَا مِنْ صَاحِبٍ يَصْحَبُ صَاحِباً وَلَوْ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ إلاَّ سُئِلَ عَنْ صُحْبَتِهِ هَلْ أَقَامَ فِيهَا حَقَّ الله أَمْ أَضَاعَهُ؟**»[2]. فأشار بهذا إلى أن الإيثار هو القيام بحق الله في الصحبة. وخرج رسول الله ﷺ إلى بئر يغتسل عندها فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله ﷺ حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل، فتناول رسول الله ﷺ الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا

---

(١) حديث: «لما آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس، فقال عبدالرحمن: بارك الله لك فيهما» رواه البخاري من حديث أنس.

(٢) حديث: «أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه. . .» الحديث. لم أقف له على أصل.

تفعل، فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل(١) وقال ﷺ: **«مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ قَطُّ إِلاَّ كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَىٰ الله أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ»**(٢). وروي أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائباً فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل، فقال له مالك: كف يدك حتى يجيء صاحب البيت، فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقاً فدخل الحسن وقال: يا مويلك: هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضاً حتى ظهرت أنت وأصحابك. وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النُّور: ٦١]، وقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النُّور: ٦١]؛ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوّض له التصرف كما يريد، وكان أخوه يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية، وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء.

الحق الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة:

وهذه أيضاً لها درجات كما للمواساة بالمال، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة. وقال بعضهم: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبر عليه، واقرأ هذه الآية: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعَام: ٣٦]، وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية، فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديته إلي، فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى. قال جعفر بن محمد: إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني. هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء؟ وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة؛ يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول: هل لكم زيت، هل لكم ملح، هل لكم حاجة؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه. وبهذا تظهر الشفقة والأخوة، فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها. قال ميمون بن مهران: من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته. وقال ﷺ: **«أَلاَ وَإِنَّ لله أَوَانِيَ فِي أَرْضِهِ وَهِيَ الْقُلُوبُ فَأَحَبُّ الأَوَانِي إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ أَصْفَاهَا وَأَصْلَبُهَا وَأَرَقُّهَا، أَصْفَاهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَأَصْلَبُهَا فِي الدِّينِ وَأَرَقُّهَا عَلَىٰ الإِخْوَانِ»**(٣) وبالجملة: فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة، غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت

---

(١) حديث: «ستر حذيفة للنبي ﷺ بثوب حتى اغتسل ثم ستره ﷺ لحذيفة حتى اغتسل» لم أجده أيضاً.

(٢) حديث: **«ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه»** تقدم في الباب قبله بلفظ: **«أشدهما حباً لصاحبه»**.

(٣) حديث: **«إن لله أواني في أرضه وهي القلوب فأحب الأواني إلى الله أصفاها وأصلبها»** أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني إلا أنه قال: **«ألينها وأرقها»** وإسناده جيد.

بها، ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها، بل تتقلد منة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره، ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد. كان الحسن يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة. وقال الحسن: من شيّع أخاه في الله بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة. وفي الأثر: «**ما زار رجل أخاً في الله شوقاً إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة**»[1]. وقال عطاء: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث؛ فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغيل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم. وروي: «أنّ ابن عمر كان يلتفت يميناً وشمالاً بين يدي رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك فقال: أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه، فقال: «**إذا أحببت أحداً فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، فإن كان مريضاً عدته وإن كان مشغولاً أعنته**»[2]. وفي رواية: **وعن اسم جدّه وعشيرته**. وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه: تلك معرفة النوكي. وقيل لابن عباس: من أحب الناس إليك؟ قال: جليسي، وقال: ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة له إليّ فعلمت ما مكافأته من الدنيا. وقال سعيد بن العاص: لجليسي عليّ ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدّث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له. وقد قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إشارة إلى الشفقة والإكرام. ومن تمام الشفقة: أن لا ينفرد بطعام لذيذ أو بحضور في مسرة دونه، بل يتنغص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه.

الحق الثالث: في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى:

أما السكوت: فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه؛ فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه، وليسكت عن أسراره التي بثها إليه ولا يبثها إلى غيره البتة ولا إلى أخص أصدقائه، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن، وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه، فإنّ الذي سبّك من بلّغك. وقال أنس: «كان ﷺ لا يواجه أحداً بشيء يكرهه»[3]، والتأذي يحصل أولاً من المبلّغ ثم من القائل، ثم لا ينبغي أن يخفي ما يسمع من الثناء عليه؛ فإنّ السرور به أولاً يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد. وبالجملة: فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ولم

---

(١) حديث: «**ما زار رجل أخاً في...**» الحديث. تقدم في الباب قبله.

(٢) حديث ابن عمر: «**إذا أحببت أحداً فاسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته...**» الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف، ورواه الترمذي من حديث يزيد بن نعامة وقال غريب، ولا يعرف ليزيد بن نعامة سماع من النبي ﷺ.

(٣) حديث أنس: «كان لا يواجه أحداً بشيء يكرهه» أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي في اليوم والليلة بسند ضعيف.

يجد رخصة في السكوت؛ فإذ ذاك لا يبالي بكراهته، فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوىء أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم، ويزجرك عنه أمران:

أحدهما: أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً فهون على نفسك ما تراه من أخيك، وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأي الرجال المهذب؟ وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك، فليس حقك عليه أكثر من حق الله عليك.

والأمر الثاني: أنك تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة، ولن تجد من تصاحبه أصلاً؛ فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوىء، فإذا غلبت المحاسن المساوىء فهو الغاية والمنتهى، فالمؤمن الكريم أبداً يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام، وأما المنافق اللئيم فإنه أبداً يلاحظ المساوىء والعيوب. قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات. وقال الفضيل: الفتوة: العفو عن زلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ جَارِ السُّوءِ الَّذِي إِنْ رَأَىٰ خَيْراً سَتَرَهُ وَإِنْ رَأَىٰ شَرّاً أَظْهَرَهُ**»(١)، وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ويمكن تقبيحه أيضاً. روي أن رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ، فلما كان من الغد ذمه فقال عليه السلام: «**أَنْتَ بِالأَمْسِ تُثْنِي عَلَيْهِ وَالْيَوْمَ تَذُمُّهُ؟**» فقال: والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم، إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما علمت فيه، وأغضبني اليوم فقلت أقبح ما علمت فيه. فقال عليه السلام: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً**»(٢)، وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر، ولذلك قال في خبر آخر: «**الْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ**»(٣)، وفي الحديث الآخر: «**إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ لَكُمُ الْبَيَانَ كُلَّ الْبَيَانِ**» وكذلك قال الشافعي رحمه الله: ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه، ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه. فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل، وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق الله فبأن تراه عدلاً في حق نفسك ومقتضى أخوّتك أولى. وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه يجب عليك السكوت بقلبك؛ وذلك بترك إساءة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضاً، وحدّه أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن. فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فلا يمكنك أن لا تعلمه، وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن، وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى تفرساً وهو الذي يستند إلى علامة، فإن ذلك يحرك الظن تحريكاً

---

(١) حديث: «**استعيذوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره**» أخرجه البخاري في التاريخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وللنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح: «**تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام**».

(٢) حديث أن رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ فلما كان من الغد ذمه. . .» الحديث. وفيه: «**فقال ﷺ: إن من البيان لسحراً. . .**» أخرجه الطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك من حديث أبي بكرة إلا أنه ذكر المدح والذم في مجلس واحد لا يومين، ورواه الحاكم من حديث ابن عباس أطول منه بسند ضعيف أيضاً.

(٣) حديث: «**البذاء والبيان شعبتان من النفاق**» أخرجه الترمذي وقال حسن غريب، والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

البذاءة: سفاهة اللسان وفحش الكلام. والبيان: الفصاحة.

ضرورياً لا يقدر على دفعه، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه حتى يصدر منه فعل له وجهان، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأردأ من غير علامة تخصه به، وذلك جناية عليه بالباطن وذلك حرام في حق كل مؤمن؛ إذ قال ﷺ: **«إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعِرْضَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ»**[1]، وقال ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»**[2]، وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس، وقد قال ﷺ: **«لاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً»**[3]، والتجسس في تطلع الأخبار، والتحسس بالمراقبة بالعين، فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين. ويكفيك تنبيهاً على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجميل أن الله تعالى وصف به في الدعاء فقيل: يا من أظهر الجميل وستر القبيح. والمرضي عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستار العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العبيد، فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك؟ وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً وقد كشف الريح ثوبه عنه؟ قالوا: نستره ونغطيه، قال: بل تكشفون عورته قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ فقال: أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها.

واعلم: أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوىء والعيوب، ولو ظهر له منه نقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه، فما أبعده إذا كان ينتظر منه ما لا يضمره له ولا يعزم عليه لأجله، وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١-٣] وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية. ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء الدفين في الباطن وهو الحقد والحسد، فإن الحقود الحسود يملأ باطنه بالخبث، ولكن يحبسه في باطنه ويخفيه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالاً، وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء ويترشح الباطن بخبثه الدفين. ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى، قال بعض الحكماء: ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، ولا يزيد لطف الحقود إلا وحشة منه، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره مخطر، وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله.

وقد روى عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال: كنت باليمن ولي جار يهودي يخبرني عن التوراة فقدم عليَّ اليهودي من سفر فقلت: إن الله قد بعث فينا نبياً فدعانا إلى الإسلام فأسلمنا وقد أنزل علينا كتاباً مصدقاً للتوراة، فقال اليهودي: صدقت، ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به، إنا

---

(١) حديث: **«إن الله حرم من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء»** أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله: **«وعرضه»** ورجاله ثقات إلا أن أبا علي النيسابوري قال: ليس هذا عندي من كلام النبي ﷺ إنما هو عندي من كلام ابن عباس. ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر، ولمسلم من حديث أبي هريرة: **«كل المسلم عل المسلم حرام دمه وماله وعرضه»**.

(٢) حديث: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»** متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: **«لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»** متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهو بعض الحديث الذي قبله.

نجد نعته ونعت أمته في التوراة: إنه لا يحل لامرىء أن يخرج من عتبة بابه وفي قلبه سخيمة على أخيه المسلم. ومن ذلك: أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه، وله أن ينكره وإن كان كاذباً فليس الصدق واجباً في كل مقام، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه، فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن. هذه حقيقة الأخوة وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مرائياً وخارجاً عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كمعرفته بنفسه من غير فرق، وقد قال عليه السلام: «**مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ سَتَرَهُ الله تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»(١)، وفي خبر آخر: «**فَكَأَنَّمَا أَحْيَا مَوْءُودَةً**»(٢)، وقال عليه السلام: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهُوَ أَمَانَةٌ**»(٣)، وقال: «**الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ إِلاَّ ثَلاَثَةُ مَجَالِسَ: مَجْلِسٌ يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ حَرَامٌ، وَمَجْلِسٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ فَرْجٌ حَرَامٌ، وَمَجْلِسٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ مَالٌ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ**»(٤)، وقال ﷺ: «**إِنَّمَا يَتَجَالَسُ الْمُتَجَالِسَانِ بِالأَمَانَةِ وَلاَ يَحِلُّ لأَحَدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلَىٰ صَاحِبِهِ مَا يَكْرَهُ**»(٥).

قيل لبعض الأدباء: كيف حفظك للسر؟ قال: أنا قبره. وقد قيل: صدور الأحرار قبور الأسرار. وقيل: إن قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه، أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبديه من حيث لا يدري به. فمن هذا يجب مقاطعة الحمقى والتوقي عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم. وقد قيل لآخر: كيف تحفظ السر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر. وقال آخر: أستره، وأستر أني أستره. وعبر عنه ابن المعتز فقال:

ومستودعي سِرّاً تبوأتُ كَتمه ... فأودَعته صدري فصارَ له قَبْرا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه:

وما السرُّ في صدري كثاوٍ بقبره ... لأني أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكنني أنساهُ حتّى كأنني ... بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السرّ بيني وبينه ... عن السرّ والأحشاء لم تعلم السرّا

وأفشى بعضهم سراً له إلى أخيه ثم قال له: حفظت؟ فقال: بل نسيت. وكان أبو سعيد الثوري يقول: إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيراً وكتم

---

(١) حديث: «**من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة**» أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال: «**يوم القيامة**» ولم يقل: «**في الدنيا**» ولمسلم من حديث أبي هريرة: «**من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة**» وللشيخين من حديث ابن عمر: «**من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة**».

(٢) حديث: «**فكأنما أحيا موؤودة من قبرها**» أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم من حديث عقبة بن عامر: «**من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موؤودة**» زاد الحاكم: «**من قبرها**» وقال صحيح الإسناد.

(٣) حديث: «**إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة**» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث جابر وقال حسن.

(٤) حديث: «**المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس . . .**» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه.

(٥) حديث: «**إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة، لا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره**» أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف، ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن حزم مرسلاً، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس: «**إنكم تجالسون بينكم بالأمانة**».

سرك فاصحبه. وقيل لأبي يزيد: من تصحب من الناس؟ قال: من يعلم منك ما يعلم الله، ثم يستر عليك كما يستره الله. وقال ذو النون: لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوماً، ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم؛ لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها. وقد قال بعض الحكماء: لا تصحب من يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه. بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتاً على اختلاف هذه الأحوال ولذلك قيل:

وترى الكريم إذا تصرّم وصله ... يخفي القبيحَ ويُظهِرُ الإِحسانا
وترى اللئيم إذا تقضى وصله ... يخفي الجميلَ ويُظهر البُهتَانا

وقال العباس لابنه عبدالله: إني أرى هذا الرجل - يعني عمر رضي الله عنه - يقدّمك على الأشياخ فاحفظ عني خمساً: لا تفشين له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تجرين عليه كذباً، ولا تعصين له أمراً، ولا يطلعن منك على خيانة، فقال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف. ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك. قال ابن عباس: لا تمار سفيهاً فيؤذيك ولا حليماً فيقليك. وقد قال ﷺ: **«مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَىٰ الجَنَّةِ»**(١) هذا مع أن تركه مبطلاً واجب، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل، وإنما الأجر على قدر النصب. وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع، فإن التقاطع يقع أوّلاً بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان. وقال عليه السلام: **«لاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا ولا تحاسدوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَحْرِمُهُ وَلاَ يَخْذِلُهُ بِحَسْبِ المَرْءِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ»**(٢)، وأشد الاحتقار المماراة، فإن من رد على غيره كلامه فقد نسبه إلى الجهل والحمق، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيحاش. وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتمارى فغضب وقال: **«ذَرُوا المِرَاءَ لِقِلَّةِ خَيْرِهِ وَذَرُوا المِرَاءَ فَإِنَّ نَفْعَهُ قَلِيلٌ وَإِنَّهُ يُهَيِّجُ العَدَاوَةَ بَيْنَ الإِخْوَانِ»**(٣)، وقال بعض السلف: من لاحى الإخوان وماراهم قلّت مروءته وذهبت كرامته. وقال عبدالله بن الحسن: إياك ومماراة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم. وقال بعض السلف: أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم، وكثرة المماراة توجب التضييع والقطيعة وتورث العداوة. وقد قال الحسن: لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل. وعلى الجملة: فلا باعث على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحمق والجهل، ولا معنى للمعاداة إلا هذا فكيف تضامنه

---

(١) حديث: «**من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة. . .**» الحديث. تقدم في العلم.

(٢) حديث: «**لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم. .**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس، وقد تقدم بعضه قبل هذا بسبعة أحاديث.

(٣) حديث أبي أمامة: «**خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتمارى فغضب وقال: ذروا المراء لقلة خيره فإن نفعه قليل فإنه يهيج العداوة بين الإخوان**» أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة وأبي الدرداء وواثلة وأنس دون ما بعد قوله: «**القلة خيره**» ومن هنا إلى آخر الحديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة فقط وإسنادهما ضعيف.

الأخوة والمصافاة؟ فقد روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لاَ تُمَارِ أَخَاكَ وَلاَ تُمَازِحْهُ وَلاَ تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ**»(١)، وقد قال عليه السلام: «**إِنَّكُمْ لاَ تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلٰكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وَجْهٍ وَحُسْنُ خُلُقٍ**»(٢)، والمماراة مضادة لحسن الخلق. وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حدّ لم يروا السؤال أصلاً، وقالوا: إذا قلت لأخيك: قم، فقال: إلى أين؟ فلا تصحبه. بل قالوا: ينبغي أن يقوم ولا يسأل. وقال أبو سليمان الدّاراني: كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب فأقول: أعطني من مالك شيئاً، فكان يلقي إليّ كيسه فآخذ منه ما أريد، فجئته ذات يوم، فقلت: أحتاج إلى شيء، فقال: كم تريد؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي. وقال آخر: إذا طلبت من أخيك مالاً، فقال: ماذا تصنع به؟ فقد ترك حق الإخاء. **واعلم**: أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة. قال أبو عثمان الحيري: موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم وهو كما قال.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق:

فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحاب، بل هو أخص بالأخوة؛ لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم. والسكوت معناه: كف الأذى؛ فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها. فمعنى الأخوة: المساهمة في السراء والضراء، وقد قال عليه السلام: «**إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ**»(٣)، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فإذا عرفت أنه أيضاً يحبك زاد حبك لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف. والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين، ولذلك علم فيه الطريق فقال: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**»(٤)، ومن ذلك: أن تدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره، قال عمر رضي الله عنه: ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته أوّلاً، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه. ومن ذلك: أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده، فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة. وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط، ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه، وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح، فإن إخفاء ذلك محض الحسد، ومن ذلك: أن تشكره على صنيعه في حقك بل على نيته وإن لم يتم ذلك.

---

(١) حديث ابن عباس: «**لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه**» أخرجه الترمذي وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه يعني من حديث ليث بن أبي سليم وضعفه الجمهور.

(٢) حديث: «**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق**» أخرجه أبو يعلى الموصلي والطبراني في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وضعفه، والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره**» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، والحاكم من حديث المقدام بن معد يكرب.

(٤) حديث: «**تهادوا وتحابوا**» أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة وقد تقدم غير مرة.

قال علي رضي الله عنه: من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة. وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة: الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة. وإنما شبه رسول الله ﷺ الأخوين باليدين تغسل إحداهما الأخرى لينصر أحدهما الآخر وينوب عنه[(١)] وقد قال رسول الله ﷺ: **«المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذِلُهُ وَلاَ يَثْلِمُهُ»**[(٢)]، وهذا من الانثلام والخذلان فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه. فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت؛ لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك، وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم، ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] والملك الذي يمثله في المنام ما تطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة، حتى إن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فإنه يغتاب الناس؛ لأن ذلك الملك في تمثيله يراعي المشاركة والمناسبة بين الشيء وبين مثاله في المعنى الذي يجري من المثال مجرى الروح لا في ظاهر الصور. فإذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الأخوة، وقد قال مجاهد: لا تذكر أخاك في غيبته إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك، فإذن لك فيه معياران:

أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضراً ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك؟ فينبغي أن تعامل المتعرض لعرضه به.

والثاني: أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره؛ فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بمسمع منه ومرأى؟ فينبغي أن يكون في مغيبه كذلك، فقد قال بعضهم: ما ذكر أخ لي بغيب إلا تصورته جالساً فقلت فيه ما يحب أن يسمعه لو حضر. وقال آخر: ما ذكر أخ لي إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال فيَّ. وهذا من صدق الإسلام؛ وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه. وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان في فدان فوقف أحدهما يحك جسمه فوقف الآخر؛ فبكى وقال: هكذا الإخوان في الله يعملان لله فإذا وقف أحدهما وافقه الآخر. وبالموافقة يتم الإخلاص، ومن لم يكن مخلصاً في إخائه فهو منافق. والإخلاص استواء الغيب والشهادة واللسان والقلب والسر والعلانية والجماعة والخلوة والاختلاف، والتفاوت في شيء من ذلك مماذقة في المودة وهو دخل في الدين ووليجة في طريق المؤمنين، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة، فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق، فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق. ولذلك قال عليه السلام: **«أَبَا هِرٍّ أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً وَأَحْسِنْ مُصَاحَبَةَ مَنْ صَاحَبَكَ تَكُنْ مُؤْمِناً»**[(٣)]، فانظر: كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة والإسلام جزاء الجوار؟

---

(١) حديث: «تشبيه الأخوين باليدين» تقدم في الباب قبله.

(٢) حديث: **«المسلم أخو المسلم»** تقدم في أثناء حديث قبله بسبعة أحاديث. لا يثلمه: لا يجرحه، وفي لفظ: لا يسلمه.

(٣) حديث: **«أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً»** أخرجه الترمذي وابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة بالشطر الأول فقط وقال الترمذي: **«مؤمناً»** قال: **«وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً»** وقال ابن ماجه: **«مؤمناً»** قال الدارقطني: والحديث ثابت، ورواه القضاعي في مسند الشهاب بلفظ المصنف.

فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحبة؛ فإن الصحبة تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام، والجوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم. ومن ذلك: التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه، وتخوّفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة؛ لينزجر عنه، وتنبهه على عيوبه، وتقبح القبيح في عينه وتحسن الحسن، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، إذ قال ﷺ: **«المُؤمِنُ مِرْآةُ المُؤمِنِ»**[(1)]. أي يرى منه ما لا يرى من نفسه، فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد؛ كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة. وقال الشافعي رضي الله عنه: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه. وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم، وإن قرّعني بين الملأ فلا. وقد صدق، فإن النصح على الملأ فضيحة، والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سراً، وقد يدفع كتاب عمله مختوماً إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب مختوماً ليقرأه، وأما أهل المقت: فينادون على رؤوس الأشهاد وتستنطق جوارحهم بفضائحهم؛ فيزدادون بذلك خزياً وافتضاحاً ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر. فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن. وقال ذو النون: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة.

فإن قلت: فإذا كان في النصح ذكر العيوب ففيه إيحاش القلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة؟ فاعلم: أن الإيحاش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه، فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأما الحمقى، فلا يلتفت إليهم فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك، والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات، فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد، وهي مخلوقة من نار الله الموقدة، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يستهدي ذلك من إخوانه ويقول: رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه، ولذلك قال عمر لسلمان وقد قدم عليه: ما الذي بلغك عني مما تكره؟ فاستعفى، فألح عليه فقال: بلغني أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل، وبلغني أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة، فقال عمر رضي الله عنه: أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما؟ فقال: لا. وكتب حذيفة المرعشي إلى يوسف بن أسباط: بلغني أنك بعت دينك

---

(١) حديث: «المؤمن مرآة المؤمن» أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

بحبتين: وقفت على صاحب لبن فقلت: بكم هذا؟ فقال: بسدس، فقلت له: لا. . . بثمن فقال: هو لك، وكان يعرفك. اكشف عن رأسك قناع الغافلين وانتبه عن رقدة الموتى، **واعلم**: أن من قرأ القرآن ولم يستغن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين، وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين إذ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] وهذا في عيب هو غافل عنه، فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه، فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره وإن كان يخفيه، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف في النصح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لا يؤدي إلى الإيحاش، فإن علمت أن النصح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى. وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه، أما ما يتعلق بتقصيره في حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والمكاتبة خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكل؛ إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراعاتك إياه وقيامك بحقه واحتمالك تقصيره، لا الاستعانة به والاسترقاق منه. قال أبو بكر الكتاني: صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً فوهبت له يوماً شيئاً على أن يزول ما في قلبي فلم يزل، فأخذت بيده يوماً إلى البيت وقلت له: ضع رجلك على خدي، فأبى، فقلت: لا بد، ففعل، فزال ذلك من قلبي. وقال أبو علي الرباطي: صحبت عبدالله الرازي وكان يدخل البادية فقال: على أن تكون أنت الأمير أو أنا؟ فقلت: بل أنت. فقال: وعليك الطاعة، فقلت: نعم، فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فإذا قلت له أعطني قال: ألست قلت أنت الأمير؟ فعليك الطاعة، فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عني المطر، فكنت أقول مع نفسي: ليتني مت ولم أقل أنت الأمير.

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات:

وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية، أو في حقك بتقصيره في الأخوة. أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله. فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته؛ فذهب أبو ذرّ رضي الله عنه إلى الانقطاع وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته، ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله. وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه؛ فقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك؛ فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى. وقال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه، فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً. وقال أيضاً: لا تحدّثوا الناس بزلة العالم؛ فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها. وفي الخبر: **«اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته»**(1). وفي حديث عمر وقد سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى

---

(١) حديث: **«اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته»** رواه البغوي في المعجم، وابن عدي في الكامل من حديث عمرو بن عوف المزني وضعفاه.

الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال: ما فعل أخي؟ قال: ذلك أخو الشيطان، قال: مه، قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر. قال: إذا أردت الخروج فآذني، فكتب عند خروجه إليه «بسم الله الرحمن الرحيم»: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ١-٣] الآية، ثم عاتبه تحت ذلك وعذله، فلما قرأ الكتاب بكى وقال: صدق الله ونصح لي عمر فتاب ورجع. وحكي أن أخوين ابتلي أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال: إني قد اعتللت فإن شئت أن لا تعقد على صحبتي لله فافعل، فقال: ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبداً، ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافي الله أخاه من هواه، فطوى أربعين يوماً في كلها يسأله عن هواه فكان يقول: القلب مقيم على حاله. وما زال هو يتحلل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين، فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزالاً وضراً. وكذلك حكي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه. وروي في الإسرائيليات أن أخوين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشتري من المصر لحماً بدرهم، فرأى بغياً عند اللحام فرمقها وعشقها واجتذبها إلى خلوة وواقعها، ثم أقام عندها ثلاثاً واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنايته. قال: فافتقده أخوه واهتم بشأنه فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها، فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه، وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحيائه منه فقال: قم يا أخي، فقد علمت شأنك وقصتك وما كنت قط أحب إليّ ولا أعز من ساعتك هذه، فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه. فهذه طريقة قوم وهي ألطف وأفقه من طريقة أبي ذر رضي الله عنه، وطريقته أحسن وأسلم.

فإن قلت: ولِمَ قلت هذا ألطف وأفقه؟ ومقارف هذه المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء، لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها، وعلة عقد الأخوة التعاون في الدين ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية؟ فأقول: أما كونه ألطف: فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة، ومهما قوطع وانقطع طمعه عن الصحبة أصر واستمر، وأما كونه أفقه: فمن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره وفقر الدين أشدّ من فقر المال، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها في دينه فينبغي أن يراقب ويراعى ولا يهمل، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الوقعة التي ألمت به. فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان وهذا من أشدّ النوائب، والفاجر إذا صحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياء منه. قال جعفر بن سليمان: مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إليّ نشاطي في العبادة وفارقني الكسل وعملت عليه أسبوعاً. وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لحمة كلحمة النسب والقريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ في عشيرته: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٦] ولم يقل إني بريء منكم؛ مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب. وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له: ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال: إنما أبغض عمله، وإلا فهو أخي

وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة. ولذلك قيل لحكيم: أيما أحب إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقاً لي. وكان الحسن يقول: كم من أخ لم تلده أمك؟ ولذلك قيل: القرابة تحتاج إلى مودة والمودة لا تحتاج إلى قرابة، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم مائية من قطعها قطعه الله. فإذن: الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب. وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق فإنه لم يتقدم له حق، فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لا ينبغي أن يقاطع بل يجامل، والدليل عليه: أن ترك المؤاخاة والصحبة ابتداء ليس مذموماً ولا مكروهاً بل قال قائلون: الانفراد أولى، فأما قطع الأخوة عن دوامها فمنهي عنه ومذموم في نفسه، ونسبته إلى تركها ابتداء كنسبة الطلاق إلى ترك النكاح، والطلاق أبغض إلى الله تعالى من ترك النكاح، قال ﷺ: **«شِرَارُ عِبَادِ الله المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ»**(١)، وقال بعض السلف في ستر زلات الإخوان: ودَّ الشيطان أن يلقى على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه، فماذا اتقيتم من محبة عدوّكم. وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مقارفة العصيان من محابه، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني، وإلى هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة إذ قال: **«مَهْ»** وزبره وقال: **«لاَ تَكُونُوا عَوْناً لِلشَّيطَانِ عَلَىٰ أَخِيكُمْ»**(٢)، فبهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء؛ لأن مخالطة الفساق محذورة، ومفارقة الأحباب والإخوان أيضاً محذورة، وليس من سلم عن معارضة غيره كالذي لم يسلم، وفي الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى وفي الدوام تعارضاً فكان الوفاء بحق الأخوة أولى، هذا كله في زلته في دينه.

أما زلته في حقه بما يوجب إيحاشه: فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال، بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصوّر تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة، فقد قيل: ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً، فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك، فتقول لقلبك: ما أقساك يعتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله، فأنت المعيب لا أخوك، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تغضب إن قدرت، ولكن ذلك لا يمكن، وقد قال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استُرضِيَ فلم يرض فهو شيطان. فلا تكن حماراً ولا شيطاناً، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك، واحترز أن تكون شيطاناً إن لم تقبل. قال الأحنف: حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثاً: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة. وقال آخر: ما شتمت أحداً قط، لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له، أو لئيم فلا أجعل عرضي له غرضاً، ثم تمثل وقال:

وأغفر عوراء الكريم ادخاره   وأعرض عن شتم اللئيم تكرُّما

وقد قيل:

خُذْ مِن خليلك ما صفَا   ودع الَّذي فيه الكدرْ

---

(١) حديث: **«شرار عباد الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة»** رواه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بسند ضعيف.

(٢) حديث: **«لا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم»** رواه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في الباب قبله.

فالعمرُ أقصرُ من معا تبة الخليلِ على الغِيَرْ

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذباً كان أو صادقاً فاقبل عذره. قال عليه السلام: **«مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ فَلَمْ يَقْبَلْ عُذْرَهُ فَعَلَيْهِ مِثْلُ إِثْمِ صَاحِبِ المَكْسِ»**(١)، وقال عليه السلام: **«المُؤْمِنُ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الرِّضَا»**(٢)، فلم يصفه بأنه لا يغضب. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] ولم يقل: والفاقدين الغيظ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يجرح الإنسان فلا يتألم، بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويحتمل، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب، ولا يمكن قلعه، ولكن يمكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه، فإنه يقتضي التشفي والانتقام والمكافأة، وترك العمل بمقتضاه ممكن، وقد قال الشاعر:

ولستُ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ؟

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: إذا واخيت أحداً في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول، قال: فجربته فوجدته كذلك. وقال بعضهم: الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته، والمعاتبة خير من القطيعة، والقطيعة خير من الوقيعة. وينبغي أن لا يبالغ في البغضة عند الوقيعة. قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [المُمتَحنَة: ٧] وقال عليه السلام: **«أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»**(٣)، وقال عمر رضي الله عنه: لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً، وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك.

الحق السادس: الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته:

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به، فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق؛ فقد قال ﷺ **«إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الغَيْبِ قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ مِثْلُ ذَٰلِكَ»**(٤)، وفي لفظ آخر: **«يَقُولُ الله تَعَالَىٰ: بِكَ أَبْدَأُ يَا عَبْدِي»**(٥)، وفي الحديث: **«يُسْتَجَابُ لِلرَّجُلِ فِي أَخِيهِ مَا لاَ يُسْتَجَابُ لَهُ فِي نَفْسِهِ»**(٦)، وفي الحديث:

---

(١) حديث: «من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب مكس» أخرجه ابن ماجه وأبو داود في المراسيل من حديث جودان واختلف في صحبته، وجهله أبو حاتم وباقي رجاله ثقات، ورواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف.

(٢) حديث: «المؤمن سريع الغضب سريع الرضا» لم أجده هكذا وللترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري: «ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى. . .» الحديث. وفيه: «ومنهم سريع الفيء فتلك بتلك».

(٣) حديث: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. . .» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: غريب قلت: رجاله ثقات رجال مسلم لكن الراوي تردد في رفعه.

(٤) حديث: «إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك بمثل ذلك» أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء.

(٥) حديث: «الدعاء للأخ بظهر الغيب» وفيه: «يقول الله بك أبدأ يا عبدي» لم أجد هذا اللفظ.

(٦) حديث: «يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه» لم أجده بهذا اللفظ ولأبي داود والترمذي وضعفه من حديث عبدالله بن عمرو: «إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب».

«دَعْوَةُ الرَّجُلِ لأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الغَيْبِ لاَ تُرَدُّ»(1)، وكان أبو الدرداء يقول: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم. وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلّفت، وهو منفرد بحزنك مهتم بما قدّمت وما صرت إليه، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى، وكان الأخ الصالح يقتدي بالملائكة؛ إذ جاء في الخبر: «إِذَا مَاتَ العَبْدُ قَالَ النَّاسُ: مَا خَلَّفت؟ وَقَالَتِ المَلاَئِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟»(2)، يفرحون له بما قدّم ويسألون عنه ويشفقون عليه، ويقال: من بلغه موت أخيه فترحم عليه واستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلُ المَيِّتِ فِي قَبْرِهِ مَثَلُ الغَرِيقِ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً مِنْ وَلَدٍ أَوْ وَالِدٍ أَوْ أَخٍ أَوْ قَرِيبٍ»(3)، وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال. وقال بعض السلف: الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان، من عند قريبك فلان، قال: فيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية.

الحق السابع: الوفاء والإخلاص:

ومعنى الوفاء: الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي، ولذلك قال عليه السلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَىٰ ذٰلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»(4)، وقال بعضهم: قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة، ولذلك روي أنه ﷺ أكرم عجوزاً دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: «إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ كَرَمَ العَهْدِ مِنَ الدِّينِ»(5)، فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر؛ إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى الكلب الذي على باب داره ينبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان، فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخيين في الله ومتحابين فيه، فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال مخبراً عن يوسف: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ويقال: ما تواخى اثنان في الله فتفرق بينهما إلا

---

(1) حديث: «دعوة الأخ لأخيه في الغيب لا ترد» أخرجه الدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم إلا أنه قال: «مستجابة» مكان: «لا ترد».

(2) حديث: «إذا مات العبد قال الناس ما خلف وقالت الملائكة ما قدم» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(3) حديث: «مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد. . .» الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، قال الذهبي في الميزان: إنه خبر منكر جداً.

(4) حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله. . .» الحديث. تقدم غير مرة.

(5) حديث: «إكرامه ﷺ لعجوز دخلت عليه وقوله لها: كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان» أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال: صحيح على شرط الشيخين وليس له علة.

بذنب يرتكبه أحدهما. وكان بشر يقول: إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه. وذلك لأن الإخوان مسلاة للهموم وعون على الدين. ولذلك قال ابن المبارك: ألذ الأشياء مجالسة الإخوان والانقلاب إلى كفاية، والمودة الدائمة هي التي تكون في الله، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض. ومن ثمرات المودة في الله: أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا، وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته؟ وبه وصف الله تعالى المحبين في الله تعالى فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] ووجود الحاجة هو الحسد. ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه، فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم. قال الشاعر:

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخَشِنِ

وأوصى بعض السلف ابنه فقال: يا بني، لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قربَ منك، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإنْ علت مرتبته لم يرتفع عليك. وقال بعض الحكماء: إذا ولي أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير. وحكى الربيع: أن الشافعي رحمه الله آخى رجلاً ببغداد ثم إن أخاه ولّي السيبين فتغير له عما كان عليه، فكتب إليه الشافعي بهذه الأبيات:

اذهب فَوُدُّكَ من فؤادي طالقٌ ... أبداً وليس طَلاَقُ ذاتِ البَيْنِ
فإن ارعويت فإنها تطليقةٌ ... ويدوم ودّك لي على ثنتينِ
وإن امتنعتَ شفعتها بمثالها ... فتكون تطليقين في حيضَيْنِ
وإذا الثلاث أتتك مني بتّة ... لم تغنِ عنك ولاية السيبينِ

واعلم: أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل الوفاء له المخالفة، فقد كان الشافعي رضي الله عنه آخى محمد بن عبدالحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله تعالى فقال:

مَرِضَ الحبيبُ فَعُدتُهُ ... فمَرِضتُ مِنْ حَذري عليهِ
وأتى الحبيبُ يعودني ... فبَرِئتُ مِنْ نَظَري إليهِ

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبدالله؟ فاستشرف له محمد بن عبدالحكم وهو عند رأسه ليومىء إليه، فقال الشافعي: سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطي؟ فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع. فنصح الشافعي لله وللمسلمين وترك المداهنة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى. فلما توفي انقلب محمد بن عبدالحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه، ودرس كتب مالك رحمه الله، وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله. وآثر البويطي الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف «كتاب الأم» الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به، وإنما صنفه البويطي ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره. والمقصود: أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله. قال الأحنف: الإخاء جوهرة رقيقة، إن لم

تحرسها كانت معرضة للآفات، فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير. ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء: أن تكون شديد الجزع من المفارقة، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل:

وجدتُ مُصيباتِ الزّمانِ جميعها سِوَى فرقةِ الأحبابِ هينةَ الخَطْبِ

وأنشد ابن عيينة هذا البيت وقال: لقد عهدت أقواماً فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إليّ أن حسرتهم ذهبت من قلبي. ومن الوفاء: أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لا سيما من يظهر أولاً أنه محب لصديقه ـ كيلا يتهم ـ ثم يلقي الكلام عرضاً وينقل عن الصديق ما يوغر القلب، فذلك من دقائق الحيل في التضريب، ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلاً. قال واحد لحكيم: قد جئت خاطباً لمودتك، قال: إن جعلت مهرها ثلاثاً فعلت، قال: وما هي؟ قال: لا تسمع عليّ بلاغة، ولا تخالفني في أمر، ولا توطئني عشوة. ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه. قال الشافعي رحمه الله: إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك.

الحق الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف:

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفهه عن أن يحمله شيئاً من أعبائه، فلا يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركاً بدعائه واستئناساً بلقائه واستعانة به على دينه، وتقرباً إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته. قال بعضهم: من اقتضى من إخوانه ما لا يقضونه فقد ظلمهم، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم، ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم. وقال بعض الحكماء: من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا، وتمام التخفيف بطي بساط التكليف حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه. وقال الجنيد: ما تواخى اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلاّ لعلة في أحدهما. وقال علي عليه السلام: شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار. وقال الفضيل: إنّما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه. وقالت عائشة رضي الله عنها: المؤمن أخو المؤمن لا يغتنمه ولا يحتشمه. وقال الجنيد: صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة، كل طبقة ثلاثون رجلاً: حارثاً المحاسبي وطبقته، وحسناً المسوحي وطبقته، وسرياً السقطي وطبقته، وابن الكريبي وطبقته، فما تواخى اثنان في الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لعلة في أحدهما. وقيل لبعضهم: من نصحب؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ. وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول: أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي. وقال بعض الصوفية: لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده ببر ولا تنقص عنده بإثم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء؛ وإنما قال هذا لأنّ به يتخلص عن التكلف والتحفظ، وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أنّ ذلك ينقصه عنده. وقال بعضهم: كن مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع أبناء الآخرة بالعلم، ومع العارفين كيف شئت. وقال آخر: لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت، ويعتذر إليك إذا أسأت

ويحمل عنك مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه. وقائل هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس وليس الأمر كذلك، بل ينبغي أن يؤاخي كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه؛ إذ به يكون مؤاخياً في الله وإلا كانت مؤاخاته لحظوظ نفسه فقط. ولذلك قال رجل للجنيد: قد عز الإخوان في هذا الزمان أين أخ لي في الله؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثاً، فلما أكثر قال له الجنيد: إن أردت أخاً يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل، وإن أردت أخاً في الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندي جماعة أعرفهم لك. فسكت الرجل. واعلم أن الناس ثلاثة: رجل تنتفع بصحبته، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرر به، ولكن لا تنتفع به. ورجل لا تقدر أيضاً على أن تنفعه وتتضرر به وهو الأحمق أو السيىء الخلق، فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه، فأما الثاني فلا تجتنبه؛ لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إن أطعتني فما أكثر إخوانك. أي إن واسيتهم واحتملت منهم ولم تحسدهم. وقد قال بعضهم: صحبت الناس خمسين سنة فما وقع بيني وبينهم خلاف، فإني كنت معهم على نفسي، ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه.

ومن التخفيف وترك التكلف: أن لا يعترض في نوافل العبادات. كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان: إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر، وإن نام الليل كله لم يقل له قم؟ وإن صلى الليل كله لم يقل له: نم، وتستوي حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان؛ لأنّ ذلك إن تفاوت حرّك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة. وقد قيل: من سقطت كلفته دامت ألفته، من خفت مؤنته دامت مودته. وقال بعض الصحابة: إنّ الله لعن المتكلفين، وقال ﷺ: «أَنَا وَالأَتْقِيَاءُ مِنْ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ»[(١)]، وقال بعضهم: إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به[(٢)]: إذا أكل عنده، ودخل الخلاء، وصلى، ونام. فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال: بقيت خامسة وهو: أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويجامعها. لأن البيت يتخذ للاستخفاء في هذه الأمور الخمس، وإلا فالمساجد أروح لقلوب المتعبدين، فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط. وقول العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك؛ إذ يقول أحدهم لصاحبه: مرحباً وأهلاً وسهلاً، أي لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا، ولك عندنا سهولة في ذلك كله، أي لا يشتدّ علينا شيء مما تريد. ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسيء الظن بنفسه، فإذا رآهم خيراً من نفسه فعند ذلك يكون هو خيراً منهم، وقال أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خير مني، قيل وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لي الفضل عليه، ومن فضلني على نفسه فهو خير مني، وقد قال ﷺ: «المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ وَلاَ خَيرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لاَ يَرَىٰ لَكَ مِثْلَ مَا تَرَىٰ لَهُ»[(٣)]، فهذه أقل

---

(١) حديث: «أنا وأتقياء من أمتي برآء من التكلف» أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث الزبير بن العوام: «ألا إني بريء من التكلف وصالحو أمتي» وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: «إذا صنع الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به» الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له» تقدم الشطر الأول منه في الباب قبله، وأما الشطر الثاني فرواه ابن عدي في الكامل من حديث أنس بسند ضعيف.

الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال في رؤية الفضل للأخ. ولذلك قال سفيان: إذا قيل لك يا شر الناس فغضبت فأنت شر الناس. أي ينبغي أن تكون معتقداً ذلك في نفسك أبداً. وسيأتي وجه ذلك في كتاب الكبر والعجب. وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للإخوان أبيات:

تذلّل لمن إنْ تذللتَ له ... يرى ذاكَ للفضل لا للبَلَهْ
وجانب صداقةَ مَنْ لا يزا ... ل على الأصدقاء يرى الفضل لَهْ

وقال آخر:

كم صديقٍ عرفته بصديقٍ ... صار أحظَى من الصديق العتيقِ
ورفيقٍ رأيته في طريقٍ ... صار عندي هو الصديق الحقيقي

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم. قال ﷺ: «**بِحَسْبِ المُؤْمِنِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ**»(1)، ومن تتمة الانبساط وترك التكلف: أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده، ويقبل إشاراتهم، فقد قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩]، وينبغي أن لا يخفي عنهم شيئاً من أسراره كما روي أنّ يعقوب ابن أخي معروف قال: جاء أسود بن سالم إلى عمي معروف وكان مؤاخياً له فقال: إنّ بشر بن الحرث يحب مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافهك بذلك، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوّة يحتسبها ويعتدّ بها إلا أنه يشترط فيها شروطاً: لا يحب أن يشتهر بذلك، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة، فإنه يكره كثرة الالتقاء، فقال معروف: أما أنا لو آخيت أحداً لم أحب مفارقته ليلاً ولا نهاراً، ولزرته في كل وقت وآثرته على نفسي في كل حال. ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة، ثم قال فيها. وقد آخى رسول الله ﷺ علياً فشاركه في العلم(2) وقاسمه في البدن(3) وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه، وخصه بذلك لمؤاخاته(4). وأنا أشهدك

---

(1) حديث: «**يحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في أثناء حديث «**لا تدابروا**» في هذا الباب.

(2) حديث: «آخى رسول الله ﷺ علياً وشاركه في العالم» أخرجه النسائي في الخصائص من سننه الكبرى من حديث علي قال: «جمع رسول الله ﷺ بني عبدالمطلب. . .» الحديث. وفيه «**فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي فلم يقم إليه أحد فقمت إليه**» وفيه «**حتى إذا كان في الثالثة ضرب بيده على يدي**»، وله وللحاكم من حديث ابن عباس: «**أن علياً كان يقول في حياة رسول الله ﷺ**: والله إني لأخوه ووليه ووارث علمه. . .» الحديث. وكل ما ورد في أخوته فضعيف لا يصح منه شيء، وللترمذي من حديث ابن عمر: «**وأنت أخي في الدنيا والآخرة**»، وللحاكم من حديث ابن عباس: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»، وقال صحيح الإسناد، وقال ابن حبان: لا أصل له. وقال ابن طاهر: إنه موضوع. وللترمذي من حديث علي: «**أنا دار الحكمة وعلي بابها**» وقال: غريب.

(3) حديث: «مقاسمته علياً للبدن» أخرجه مسلم في حديث جابر الطويل «ثم أعطى علياً فنحر ما عبر وأشركه في هديه».

(4) حديث: «أنه أنكح علياً أفضل بناته وأحبهم إليه» هذا معلوم مشهور ففي الصحيحين من حديث علي: «لما أردت أن أبتني بفاطمة بنت النبي ﷺ واعدت رجلاً صواغاً. . .» الحديث. وللحاكم من حديث أم أيمن «زوّج النبي ﷺ ابنته فاطمة علياً. . .» الحديث. وقال: صحيح الإسناد، وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة: «**يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين. . .**» الحديث.

أني قد عقدت له أخوّة بيني وبينه، وعقدت إخاءه في الله لرسالتك ولمسألته على أن لا يزورني إن كره ذلك، ولكني أزوره متى أحببت، ومره أن يلقاني في مواضع نلتقي بها، ومره أن لا يخفي عليّ شيئاً من شأنه، وأن يطلعني على جميع أحواله، فأخبر ابن سالم بشراً بذلك فرضي وسرّ به. فهذا جامع حقوق الصحبة وقد أجملناه مرّة وفصلناه أخرى، ولا يتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم، وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك.

أما البصر: فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك، وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك. روي أنه ﷺ كان يعطي كل من جلس إليه نصيباً من وجهه، وما استصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسألته وتوجهه للجالس إليه[(١)]، وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما يحدثونه به، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء منهم بفعله وتوقيراً له عليه السلام.

وأما السمع: فبأن تسمع كلامه متلذذاً بسماعه ومصدقاً به ومظهراً للاستبشار به، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادّة ولا منازعة ومداخلة واعتراض، فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون.

وأما اللسان: فقد ذكرنا حقوقه فإنّ القول فيه يطول، ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون.

وأما اليدان: فأن لا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد.

وأما الرجلان: فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي المتبوعين، ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدّمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه، ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعاً حيث يقعد. ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة، وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف، فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه، لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب. ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها، ومن كان نظره إلى صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهراً وباطناً، وزين باطنه بالحب لله ولخلقه، وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فإنها أعلى أنواع الخدمة لله؛ إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة.

* * *

(١) حديث: «كان يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه. . .» الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي في أثناء حديث فيه: «يعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول» ثم قال: «مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة» وفيه: «يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه»، وللترمذي من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ» وقال: غريب.

خاتمة لهذا الباب

نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء

إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوّك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع في غير مذلة. وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تستوفز، وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك، وطرد الذباب من وجهك، وكثرة التّمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها، وليكن مجلسك هادياً وحديثك منظوماً مرتباً، واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك، ولا تصنيفك وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحداً على الظلم، ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك؛ فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم وإن كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم، وخوفهم من غير عنف، ولنْ لهم من غير ضعف، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيديك، ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك، ولا تجث على ركبتيك، وإذا هدأ غيظك فتكلم، وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنان؛ فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي وكلمه بما يشتهيه ما لم يكن معصية، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلساً فالأدب فيه: البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق، والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس.

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبه: غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياد لموضع البصاق، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى.

ولا تجالس الملوك، فإن فعلت فأدبه: ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم ـ وإن ظهرت لك المودة ـ وأن لا تتجشأ بحضرتهم، ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم.

ولا تجالس العامة، فإن فعلت فأدبه: ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم. وإياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب؛ فإنّ اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترىء عليك، لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه

ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه، ويجرّىء السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته المتقون، وهو يميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة ويورث الذلة، وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر، وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب. وقد قيل: لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر. ومن بلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه. قال النبيّ ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذٰلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذٰلِكَ»(١).

* * *

الباب الثالث

في حق المسلم والرحم والجوار والملك، وكيفية المعاشرة مع من يدلي بهذه الأسباب

اعلم: أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره، وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة. وكل مخالط ففي مخالطته أدب، والأدب على قدر حقه، وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة. والرابطة إما القرابة وهي أخصها، أو أخوة الإسلام وهي أعمها، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة، وإما الجوار، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس، وإما الصداقة أو الأخوة.

ولكل واحد من هذه الروابط درجات؛ فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم آكد، وللمحرم حق ولكن حق الوالدين آكد. وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البلدي في بلاد الغربة يجري مجرى القريب في الوطن؛ لاختصاصه بحق الجوار في البلد. وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة. وللمعارف درجات فليس حق الذي عرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسماع بل آكد منه، والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط. وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها؛ فحق الصحبة في الدرس والمكتب آكد من حق صحبة السفر. وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة فإن ازدادت صارت محبة فإن ازدادت صارت خلة، والخليل أقرب من الحبيب؛ فالمحبة، ما تتمكن من حبة القلب والخلة ما تتخلل سر القلب؛ فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلاً. وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة، فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه: أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة وتعرفه من قوله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلٰكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ»(٢)، إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهراً وباطناً ويستوعبه، ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله، وقد منعته الخلة عن

---

(١) حديث: «مَنْ جَلَس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه.

الباب الثالث في حقوق المسلم والرحم والجوار

(٢) حديث: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري.

الاشتراك فيه مع أنه اتخذ علياً رضي الله عنه أخاً فقال: «**عَلِيٌّ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ إِلاَّ النُّبُوَّةَ**»[(١)]، فعدل بعلي عن النبوّة كما عدل بأبي بكر عن الخلة، فشارك أبو بكر علياً رضي الله عنهما في الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخلة وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال، فإنه نبه عليه بقوله: «**لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً**»، وكان ﷺ حبيب الله وخليله، وقد روي أنه صعد المنبر يوماً مستبشراً فرحاً فقال: «**إِنَّ الله قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، فَأَنَا حَبِيبُ الله وَأَنَا خَلِيلُ الله تَعَالَىٰ**»[(٢)]، فإذن: ليس قبل المعرفة رابطة ولا بعد الخلة درجة، وما سواهما من الدرجات بينهما، وقد ذكرنا حق الصحبة والأخوة ويدخل فيهما ما وراءهما من المحبة والخلة، وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة، حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس والمال، كما آثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا ﷺ وكما آثره طلحة[(٣)] ببدنه؛ إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز ﷺ، فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوّة الإسلام وحق الرحم وحق الوالدين، وحق الجوار، وحق الملك ـ أعني ملك اليمين ـ فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح.

حقوق المسلم:

هي: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه إذا أقسم عليك، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك[(٤)]. ورد جميع ذلك في أخبار وآثار. وقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَرْبَعٌ مِنْ حَقِّ المُسْلِمِينَ عَلَيْكَ: أَنْ تُعِينَ مُحْسِنَهُمْ، وَأَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمُذْنِبِهِمْ، وَأَنْ تَدْعُو لِمُدْبِرِهِمْ، وَأَنْ تُحِبَّ تَائِبَهُمْ**»[(٥)]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] قال: يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد ﷺ قال: اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال: اللهم اهده وتب عليه واغفر له عثرته.

---

(١) حديث: «**علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة**» متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) حديث: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً. . .**» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف، دون قوله: «**فأنا حبيب الله وأنا خليل الله**».

(٣) طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة.

الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم

(٤) هو أن يسلم عليه إذا لقيه فذكر عشر خصال. أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة: «**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض. واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»، وفي رواية لمسلم: «**حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته تسلم عليه**»، وزاد: «**وإذا استنصحك فانصح له**»، وللترمذي وابن ماجه من حديث علي: «**للمسلم على المسلم ست**» فذكر منها: «**ويحب له ما يحب لنفسه**»، وقال: «**وينصح له إذا غاب أو شهد**» ولأحمد من حديث معاذ: «**وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك**»، وفي الصحيحين من حديث البراء: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع فذكر منها: «**وإبرار القسم ونصر المظلوم**».

(٥) حديث أنس «**أربع من حقوق المسلمين عليك: أن تعين محسنهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمدبرهم، وأن تحب تائبهم**» ذكره صاحب الفردوس ولم أجد له إسناداً.

ومنها: أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، قال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتراحمهم كَمَثَلِ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَىٰ سَائِرُهُ بِالحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ»[(١)]، وروى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»[(٢)].

ومنها: أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول، قال ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[(٣)]، وقال ﷺ في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل: «فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَدَعِ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقْتَ بِهَا عَلَىٰ نَفْسِكَ»[(٤)]، وقال أيضاً: «أَفْضَلُ المُسْلِمِينَ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[(٥)]، وقال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَنِ المُسْلِمُ؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، قالوا: فمن المؤمن؟ قال: «مَنْ أَمِنَهُ المُؤْمِنُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»، قالوا: فمن المهاجر؟ قال: «مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَاجْتَنَبَهُ»[(٦)]، وقال رجل: يا رسول الله: ما الإسلام؟ قال: «أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ للهِ وَيَسْلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ» وقال مجاهد: يسلط على أهل النار الجرب فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده، فينادي: يا فلان: هل يؤذيك هذا؟ فيقول: نعم، فيقول: هذا بما كنت تؤذي المؤمنين. وقال ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا عَنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي المُسْلِمِينَ»[(٧)]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله، علمني شيئاً أنتفع به. قال: «اعْزِلِ الأَذَىٰ عَنْ طَرِيقِ المُسْلِمِينَ»[(٨)] وقال ﷺ: «مَنْ زَحْزَحَ عَنْ طَرِيقِ المُسْلِمِينَ شَيْئاً يُؤْذِيهِمْ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهِ حَسَنَةً، وَمَنْ كَتَبَ اللهُ لَهُ حَسَنَةً أَوْجَبَ لَهُ بِهَا الجَنَّةَ»[(٩)]، وقال ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِنَظْرَةٍ تُؤْذِيهِ»[(١٠)]، وقال: «لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ

---

(١) حديث النعمان بن بشير: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد. . . .» الحديث. متفق عليه.

(٢) حديث أبي موسى: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» متفق عليه.

(٣) حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو.

(٤) حديث: «فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك» متفق عليه من حديث أبي ذر.

(٥) حديث: «أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده» متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٦) حديث: «أتدرون من المسلم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أخرجه الطبراني والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب» ورواه ابن ماجه مقتصراً على: «المؤمن والمهاجر»، وللحاكم من حديث أنس وقال: على شرط مسلم، والمهاجر من هجر السوء. ولأحمد بإسناد صحيح من حديث عمرو بن عبسة: قال رجل يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك».

(٧) حديث: «لقد رأيت رجلاً في الجنة يتقلب في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٨) حديث أبي هريرة: يا رسول الله، علمني شيئاً أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين» أخرجه مسلم من حديث أبي برزة قال: قلت يا نبي الله. . . فذكره.

(٩) حديث: «من زحزح عن طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم كتب الله له بها حسنة، ومن كتب له بها حسنة أوجب له بها الجنة». رواه أحمد من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

(١٠) حديث: «لا يحل لمسلم أن ينظر إلى أخيه بنظر يؤذيه» أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسلاً بسند ضعيف، وفي البر والصلة له من زيادات الحسين المروزي حمزة بن عبدالله بن أبي سمي وهو الصواب.

أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً»، وقال ﷺ: «**إِنَّ الله يَكْرَهُ أَذَىٰ المُؤْمِنِينَ**»[١]، وقال الربيع بن خثيم: الناس رجلان، مؤمن فلا تؤذه، وجاهل فلا تجاهله.

ومنها: أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه؛ فإن الله لا يحب كل مختال فخور. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**»[٢]، ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل، قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] وعن ابن أبي أوفى: «كان رسول الله ﷺ يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته»[٣].

ومنها: أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض، قال ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[٤]، وقال الخليل بن أحمد: من نم لك نم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك.

ومنها: أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه. قال أبو أيوب الأنصاري: قال ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هٰذَا وَيُعْرِضُ هٰذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ**»[٥]، وقد قال ﷺ: «**مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً عَثْرَتَهُ أَقَالَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ**»[٦]، قال عكرمة: قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب: بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك في الدارين. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله»[٧]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزاً. وقال ﷺ: «**مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ وَمَا زَادَ الله رَجُلاً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزاً وَمَا مِنْ أَحَدٍ تَوَاضَعَ لله إِلاَّ رَفَعَهُ الله**»[٨].

ومنها: أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع، لا يميز بين الأهل وغير الأهل. روى علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «**اصْنَعِ المَعْرُوفَ فِي أَهْلِهِ**

---

(١) حديث: «**إن الله تعالى يكره أذى المؤمنين**» أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسلاً بإسناد جيد.

(٢) حديث: «**إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد**» أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن جماز ورجاله رجال الصحيح.

(٣) حديث ابن أبي أوفى: «كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته»، أخرجه النسائي بإسناد صحيح، والحاكم وقال: على شرط الشيخين. عبدالله بن أبي أوفى الأسلمي «أبو معاوية» شهد الحديبية، وروى عن رسول الله ﷺ، نزل الكوفة سنة ست وثمانين وكان آخر من مات بها من الصحابة.

(٤) حديث: «**لا يدخل الجنة قتات**» متفق عليه من حديث أبي أيوب.

(٥) حديث: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث. . .**» الحديث. متفق عليه.

(٦) حديث: «**من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة**» أخرجه أبو داود والحاكم، وقد تقدم.

(٧) حديث عائشة: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلا أن تصاب حرمة الله فينتقم لله». متفق عليه بلفظ: «إلا أن تنتهك».

(٨) حديث: «**ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وَفِي غَيرِ أَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَهُوَ أَهْلُهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ»[١]، وعنه بإسناده قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأْسُ العَقْلِ بَعْدَ الدِّينِ التَّوَدُّدُ إِلَىٰ النَّاسِ وَاصْطِنَاعُ المَعْرُوفِ إِلَىٰ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ»[٢]، قال أبو هريرة: «كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها، ولم تكن ترى ركبته خارجة عن ركبة جليسه، ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه»[٣].

ومنها: أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف. قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «الاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ؛ فَالأُولَىٰ: يَسْتَنْصِتُونَ، وَالثَّانِيَةُ: يَسْتَصْلِحُونَ، وَالثَّالِثَةُ: يَأْذَنُونَ أَوْ يَرُدُّونَ»[٤].

ومنها: أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب طريقته، فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والأمي بالفقه والعي بالبيان آذى وتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان. قال جابر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَلَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا»[٥]، وقال ﷺ: «مِنْ إِجْلَالِ الله إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ»[٦]، ومن تمام توقير المشايخ: أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن، وقال جابر: قدم وفد جهينة على النبي ﷺ فقام غلام ليتكلم، فقال ﷺ: «مَهْ فَأَيْنَ الكَبِيرِ؟»[٧]، وفي الخبر: «مَا وَقَّرَ شَابٌّ شَيْخاً إِلاَّ قَيَّضَ الله لَهُ فِي سِنِّهِ مَنْ يُوَقِّرُهُ»[٨]، وهذه بشارة بدوام الحياة فليتنبه لها فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر، وقال ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكُونَ الوَلَدُ غَيظاً وَالمَطَرُ قَيظاً وَتَفِيضَ اللِّئَامُ

---

(١) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده: «اصنع المعروف إلى أهله، فإن لم تصب أهله فأنت أهله». ذكره الدارقطني في العلل وهو ضعيف، ورواه القضاعي في مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً بسند ضعيف.

(٢) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر» أخرجه الطبراني في الأوسط، والخطابي في تاريخ الطالبيين، وعند أبي نعيم في الحلية دون قوله: «واصطناع. . . إلى آخره» وقال الطبراني: «التحبب».

(٣) حديث أبي هريرة: «كان لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها. . .» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن. ولأبي داود والترمذي وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف.

(٤) حديث أبي هريرة: «الاستئذان ثلاث؛ فالأولى يستنصتون، والثانية يستصلحون، والثالثة يأذنون أو يردون» أخرجه الدارقطني في الأفراد بسند ضعيف. وفي الصحيحين من حديث أبي موسى: «الاستئذان ثلاث؛ فإن أذن لك وإلا فارجع».

(٥) حديث جابر: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا» رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف، وهو عند أبي داود، والبخاري في الأدب من حديث عبدالله بن عمرو بسند حسن.

(٦) حديث: «من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم» أخرجه أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن.

(٧) حديث جابر: قدم وفد جهينة على النبي ﷺ فقام غلام ليتكلم، فقال ﷺ «مه فأين الكبير؟» أخرجه الحاكم وصححه.

(٨) حديث: «ما وقر شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له في سنه من يوقره» أخرجه الترمذي من حديث أنس بلفظ: «ما أكرم، ومن يكرمه» وقال: حديث غريب. وفي بعض النسخ حسن، وفيه أبو الرجال وهو ضعيف.

فَيضاً وَتَغِيضُ الكِرَامُ غَيضاً وَيَجتَرِىءُ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الكَبِيرِ وَاللَّئِيمُ عَلَىٰ الكَرِيم»[(١)]، «والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله ﷺ»[(٢)]. «كان ﷺ يقدم من السفر فيتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم»[(٣)]، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول الله ﷺ بين يديه وحملك أنت وراءه، ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم، «وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه؛ فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول: لا تزرموا الصبي بوله فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته، ويبلغ سرور أهله فيه؛ لئلا يروا أنه تأذى ببوله، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده»[(٤)].

ومنها: أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً. قال ﷺ: «**أَتَدرُونَ عَلَىٰ مَن حُرِّمَتِ النَّارُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**عَلَىٰ اللَّيِّنِ الهَيِّنِ السَّهلِ القَرِيبِ**»[(٥)]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ السَّهلَ الطَّلقَ الوَجهِ**»[(٦)]، وقال بعضهم: «يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة، فقال: «**إِنَّ مِن مُوجِبَاتِ المَغفِرَةِ بَذلَ السَّلَامِ وَحُسنَ الكَلَامِ**»[(٧)]، وقال عبدالله بن عمر: إن البر شيء هين؛ وجه طليق وكلام لين، وقال ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَو**

(١) حديث: «**لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً. . .**» الحديث. رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود. وإسنادهما ضعيف.

(٢) حديث «التلطف بالصبيان» أخرجه البزار من حديث أنس: «كان من أفكه الناس مع صبي»، وقد تقدم في النكاح. وفي الصحيحين: «**يا أبا عمير ما فعل النغير**» وغير ذلك.

(٣) حديث: «كان يقدم من السفر فتتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه. . .» الحديث. رواه مسلم من حديث عبدالله بن جعفر: «كان إذا قدم من سفر تلقى بنا، قال: فيلقى بي وبالحسن، وقال: فحمل أحدنا بين يديه والآخر خلفه» وفي رواية: «تلقى بصبيان أهل بيته وأنه قدم من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه». وفي الصحيحين: أن عبدالله بن جعفر قال لابن الزبير: «أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس؟ قال: نعم، فحملنا وتركك»، لفظ مسلم. وقال البخاري: إن ابن الزبير قال لابن جعفر، فالله أعلم.

(٤) حديث: «كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه. . .» الحديث. رواه مسلم من حديث عائشة: «كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم فأتي بصبي فبال عليه فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله». وأصله متفق عليه. وفي رواية لأحمد: فيدعو لهم، وفيه: «**صبوا عليه الماء صباً**» وللدارقطني: «بال ابن الزبير على النبي ﷺ فأخذ به أخذاً عنيفاً. . .» الحديث، وفيه الحجاج بن أرطأة ضعيف، ولأحمد بن منيع من حديث حسن بن علي عن امرأة منهم: «بينا رسول الله ﷺ مستلقياً على ظهره يلاعب صبياً إذ بال، فقامت لتأخذه وتضربه فقال: «**دعيه. ائتوني بكوز من ماء. . .**» الحديث. وإسنادهما صحيح.

(٥) حديث: «**أتدرون على من حرمت النار؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**على الهين اللين السهل القريب**» أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود ولم يقل: «**اللين**» وذكرها الخرائطي من رواية محمد بن أبي معيقيب عن أمه، قال الترمذي: حسن غريب.

(٦) حديث أبي هريرة: «**إن الله يحب السهل الطلق**» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف، ورواه من رواية مورق العجلي مرسلاً.

(٧) حديث: «**إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام**» أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث هانىء بن يزيد بإسناد جيد.

بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[(١)]، وقال ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفاً يُرَىٰ ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا»؛ فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لِمَنْ أَطَابَ الكَلاَمَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَصَلَّىٰ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[(٢)]، وقال معاذ بن جبل: قال لي رسول الله ﷺ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَصِدْقِ الحَدِيثِ وَوَفَاءِ العَهْدِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَتَرْكِ الخِيَانَةِ وَحِفْظِ الجَارِ وَرَحْمَةِ اليَتِيمِ وَلِينِ الكَلاَمِ وَبَذْلِ السَّلاَمِ وَخَفْضِ الجَنَاحِ»[(٣)]، وقال أنس رضي الله عنه: «عرضت لنبيّ الله ﷺ امرأةٌ وقالت: لي معك حاجة؛ وكان معه ناس من أصحابه، فقال: «اجْلِسِي فِي أَيِّ نَوَاحِي السِّكَكِ شِئْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ، ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها»[(٤)]، وقال وهب بن منبه: إن رجلاً من بني إسرائيل صام سبعين سنة يفطر في كل سبعة أيام، فسأل الله تعالى أن يريه كيف يغوي الشيطان الناس؟ فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال: لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربي لكان خيراً لي من هذا الأمر الذي طلبته، فأرسل الله إليه ملكاً فقال له: إن الله أرسلني إليك وهو يقول لك: إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحب إليَّ مما مضى من عبادتك، وقد فتح الله بصرك فانظر، فنظر فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض، وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب فقال: أي رب من ينجو من هذا؟ قال: الورع اللين.

ومنها: أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفي به. قال ﷺ: «العِدَةُ عَطِيَّةٌ»[(٥)]، وقال: «العِدَةُ دَيْنٌ»[(٦)]، وقال: «ثَلاَثٌ فِي المُنَافِقِ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ»[(٧)]، وقال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّىٰ»[(٨)]، وذكر ذلك.

ومنها: أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتي إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه، قال ﷺ: «لاَ يَسْتَكْمِلُ العَبْدُ الإِيمَانَ حَتَّىٰ يَكُونَ فِيهِ ثَلاَثُ خِصَالٍ: الإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ، وَالإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ، وَبَذْلُ السَّلاَمِ»[(٩)]، وقال عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ

---

(١) حديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة. . .» الحديث. متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وتقدم في الزكاة.

(٢) حديث: «إن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها. . .» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث علي، وقال: حديث غريب. قلت: وهو ضعيف.

(٣) حديث معاذ «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية ولم يقل البيهقي: «وخفض الجناح» وإسناده ضعيف.

(٤) حديث أنس «عرضت لرسول الله ﷺ امرأة وقالت: لي معك حاجة فقال: اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك. . .» الحديث. رواه مسلم.

(٥) حديث: «العدة عطية» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف.

(٦) حديث: «العدة دين» رواه الطبراني في معجميه الأوسط والأصغر من حديث علي وابن مسعود بسند فيه جهالة، ورواه أبو داود في المراسيل.

(٧) حديث: «ثلاث في المنافق: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه.

(٨) حديث: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى» رواه البخاري من حديث أبي هريرة وأصله متفق عليه، ولفظ مسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» وهذا ليس في البخاري.

(٩) حديث: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقفه البخاري عليه.

إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَلْيُؤْتِ إِلَىٰ النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ»(١)، وقال ﷺ: «يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُؤْمِناً وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِماً»(٢)، قال الحسن: أوحى الله تعالى إلى آدم ﷺ بأربع خصال وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك، واحدة لي وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق، فأما التي لي: تعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وعليَّ الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فتصحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به. وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال: أي رب أي عبادك أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه.

ومنها: أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم. روي أن عائشة رضي الله عنها كانت في سفر فنزلت منزلاً فوضعت طعامها، فجاء سائل فقالت عائشة: ناولوا هذا المسكين قرصاً، ثم مرَّ رجل على دابة فقالت: ادعوه إلى الطعام. فقيل لها: تعطين المسكين وتدعين هذا الغني؟ فقالت: إن الله تعالى أنزل الناس منازل لا بدّ لنا من أن ننزلهم تلك المنازل، هذا المسكين يرضى بقرص، وقبيح بنا أن نعطي هذا الغني على هذه الهيئة قرصاً. وروي أنه ﷺ دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ، فجاء جرير بن عبدالله البجلي فلم يجد مكاناً فقعد على الباب، فلف رسول الله ﷺ رداءه فألقاه إليه وقال: «اجْلِسْ عَلَىٰ هٰذَا» فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبّله ويبكي، ثم لفه ورمى به إلى النبي ﷺ وقال: ما كنت لأجلس على ثوبك، أكرمك الله كما أكرمتني، فنظر النبي ﷺ يميناً وشمالاً ثم قال: «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ»(٣)، وكذلك كل من له عليه حق قديم فليكرمه. روي أن ظئر رسول الله ﷺ التي أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه، ثم قال لها: «مرحباً بأمي» ثم أجلسها على الرداء، ثم قال لها: «اشْفَعِي تُشَفَّعِي وَسَلِي تُعْطَيْ» فقالت: قَوْمي. فقال: «أَمَّا حَقِّي وَحَقُّ بَنِي هَاشِمٍ فَهُوَ ذَلَكِ»؛ فقام الناس من كل ناحية وقالوا: وحقنا يا رسول الله. ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانه بحنين(٤)، فبيع ذلك من عثمان بن عفان رضي الله عنه بمائة ألف درهم، ولربما أتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فينزعها ويضعها تحت الذي يجلس إليه فإن أبى عزم عليه حتى يفعل(٥).

---

(١) حديث: «من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص نحوه، والخرائطي في مكارم الأخلاق بلفظه.

(٢) حديث: «يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف. والمعروف أنه قاله لأبي هريرة وقد تقدم.

(٣) حديث: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» وفي أوله قصة في قدوم جرير بن عبدالله أخرجه الحاكم من حديث جابر قال: صحيح الإسناد وتقدم في الزكاة مختصراً.

(٤) حديث: «إن ظئر رسول الله ﷺ التي أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه. .» الحديث. أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي الطفيل مختصراً في بسط ردائه لها دون ما بعده.

(٥) حديث: «نزعه ﷺ وسادته ووضعها تحت الذي يجلس إليه» أخرجه أحمد من حديث ابن عمرو: «أنه دخل عليه ﷺ فألقى إليه وسادة من أدم حشوها ليف. . .» الحديث. وإسناده صحيح، وللطبراني من حديث سلمان: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو متكىء على وسادة فألقاها إليَّ. .» الحديث. وسنده ضعيف، قال صاحب الميزان: هذا خبر ساقط.

ومنها: أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلاً. قال ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟» قالوا: بلى، قال: «إِصْلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ»(١)، وقال ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ»(٢)، وعن النبي ﷺ فيما رواه أنس رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك؟ قال: «رَجُلاَنِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ هٰذَا، فَقَالَ الله تَعَالَىٰ: رُدَّ عَلَىٰ أَخِيكَ مَظْلَمَتَهُ. فَقَالَ: يَا رَبِّ لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ، فَقَالَ الله تَعَالَىٰ لِلطَّالِبِ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: يَا رَبِّ فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي». ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء فقال: «إِنَّ ذٰلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَىٰ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ قال: فيقول الله تعالى ـ أي للمتظلم ـ: ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ فِي الجِنَانِ فَقَالَ: يَا رَبِّ أَرَىٰ مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لأَيِّ نَبِيٍّ هٰذَا أَوْ لأَيِّ صِدِّيقٍ أَوْ لأَيِّ شَهِيدٍ؟ قَالَ الله تَعَالَىٰ: هٰذَا لِمَنْ أَعْطَىٰ الثَّمَنَ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذٰلِكَ؟ قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ، قَالَ: بِمَاذَا يَا رَبِّ؟ قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ، قَالَ: يَا رَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ الله تَعَالَىٰ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ. ثم قال ﷺ: اتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ الله تَعَالَىٰ يُصْلِحُ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٣)، وقد قال ﷺ: «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً»(٤)، وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس، لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه، قال ﷺ: «كُلُّ الكَذِبِ مَكْتُوبٌ إِلاَّ أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الحَرْبِ، فَإِنَّ الحَرْبَ خِدْعَةٌ، أَوْ يَكْذِبَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا، أَوْ يَكْذِبَ لامْرَأَتِهِ لِيُرْضِيَهَا»(٥).

ومنها: أن يستر عورات المسلمين كلهم. قال ﷺ: «مَنْ سَتَرَ عَلَىٰ مُسْلِم سَتَرَهُ الله تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»(٦)، وقال: «لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً إِلاَّ سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ»(٧)، وقال أبو سعيد الخدري

---

(١) حديث: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، [قال]: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة» رواه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء.

(٢) حديث: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين» أخرجه الطبراني في الكبير، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عبدالله بن عمرو فيه عبدالرحمن بن زياد الإفريقي ضعفه الجمهور.

(٣) حديث أنس: «بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: يا رسول الله، بأبي وأمي ما الذي أضحكك؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله عز وجل فقال أحدهما يا رب خذ لي مظلمتي من هذا. .» الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وكذا أبو يعلى الموصلي أخرجه بطول وضعفه البخاري وابن حبان.

(٤) حديث: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً» متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

(٥) حديث: «كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب. .» الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث النواس بن سمعان وفيه انقطاع وضعف، ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة.

(٦) حديث: «من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وللشيخين من حديث ابن عمر: «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

(٧) حديث: «لا يستر عبد عبداً إلا ستره الله يوم القيامة». رواه مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً.

رضي الله عنه، قال ﷺ: «لاَ يَرَىٰ الـمُؤْمِنُ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً فَيَسْتُرُهَا عَلَيْهِ إلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ»[(١)]. وقال ﷺ لماعز لما أخبره: «لَوْ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْراً لَكَ»[(٢)] فإذن: على المسلم أن يستر عورة نفسه فحق إسلامه واجب عليه كحق إسلام غيره. قال أبو بكر رضي الله عنه: لو وجدت شارباً لأحببت أن يستره الله، ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستره الله. وروي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس: أرأيتم لو أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحدّ ما كنتم فاعلين؟ قالوا: إنما أنت إمام، فقال علي رضي الله عنه: ليس ذلك لك، إذاً: يقام عليك الحدّ، إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود، ثم تركهم ما شاء الله أن يتركهم ثم سألهم، فقال القوم مقالتهم الأولى، فقال علي رضي الله عنه مثل مقالته الأولى. وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان متردداً في أن الوالي هل له أن يقضي بعلمه في حدود الله؟ فلذلك راجعهم في معرض التقدير لا في معرض الإخبار؛ خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفاً بإخباره، ومال رأي علي إلى أنه ليس له ذلك. وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أفحشها الزّنى، وقد نيط بأربعة من العدول ـ يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالمرود في المكحلة ـ وهذا قط لا يتفق. وإن علمه القاضي تحقيقاً لم يكن له أن يكشف عنه. فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات، ثم انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه؟ فنرجو أن لا نحرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر. ففي الحديث: «إِنَّ الله إِذَا سَتَرَ عَلَىٰ عَبْدٍ عَوْرَتَهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا فِي الآخِرَةِ وَإِنْ كَشَفَهَا فِي الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ»[(٣)]، وعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة، فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه، فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا، فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحُجرَات: ١٢] فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم، وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاوية: «إِنَّكَ إِنْ تَتَبَّعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ تُفْسِدُهُمْ»[(٤)]، وقال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ: لاَ تَغْتَابُوا الـمُسْلِمِينَ

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري: «لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة» رواه الطبراني في الأوسط والصغير، والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له بسند ضعيف.

(٢) حديث: «لو سترته بثوبك كان خيراً لك». رواه أبو داود والنسائي من حديث نعيم بن هزال، والحاكم من حديث هزال نفسه، وقال: صحيح الإسناد ونعيم مختلف في صحبته.

(٣) حديث: «إن الله إذا ستر على عبده عورة في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه في الآخرة..» الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث علي: «من أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يرجع في شيء قد عفا عنه، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب عليه فالله أعدل من أن يثني العقوبة على عبده» لفظ الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولمسلم من حديث أبي هريرة: «لا ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره يوم القيامة».

(٤) حديث: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم» قاله لمعاوية. أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث معاوية.

وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ يَتَّبِعِ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ كَانَ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»(1) ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لو رأيت أحداً على حد من حدود الله تعالى ما أخذته ولا دعوت له أحداً حتى يكون معي غيري. وقال بعضهم: كنت قاعداً مع عبدالله بن مسعود رضي الله عنه إذ جاءه رجل بآخر، فقال: هذا نشوان، فقال عبدالله بن مسعود: استنكهوه فاستنكهوه فوجده نشواناً فحبسه حتى ذهب سكره، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ثم قال للجلاد: اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه، فجلده وعليه قباء أو مرط، فلما فرغ قال للذي جاء به: ما أنت منه؟ قال: عمه، قال عبدالله: ما أدبت فأحسنت الأدب ولا سترت الحرمة، إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حدّ أن يقيمه وإن الله عفوّ يحب العفو ثم قرأ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النّور: ٢٢]، ثم قال: «إني لأذكر أوّل رجل قطعه النبيّ ﷺ؛ أتي بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه، فقالوا: يا رسول الله، كأنك كرهت قطعه، فقال: **«وَمَا يَمْنَعُنِي! لاَ تَكُونُوا عَوْناً لِلشَّيَاطِينِ عَلَىٰ أَخِيكُمْ؟»** فقالوا: ألا عفوت عنه؟ فقال: **«إِنَّهُ يَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ إِذَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ حَدٌّ أَنْ يُقِيمَهُ إِنَّ الله عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفْوَ** وقرأ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّور: ٢٢]»(2) وفي رواية فكأنما سفي في وجه رسول الله ﷺ رماد لشدّة تغيره. وروي أنّ عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى فتسوّر عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر، فقال: يا عدوّ الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل، فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاثة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وقد تجسست، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البَقَرَة: ١٨٩] وقد تسوّرت عليّ، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النّور: ٢٧] الآية، وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام، فقال عمر رضي الله عنه: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم والله يا أمير المؤمنين، لئن عفوت عني لا أعود إلى مثلها أبداً، فعفا عنه وخرج وتركه. وقال رجل لعبدالله بن عمر: يا أبا عبدالرحمن كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: **«إِنَّ الله لَيُدْنِي مِنْهُ المُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ فَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ لَهُ: يَا عَبْدِي لَمْ أَسْتُرْهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الكَافِرُونَ وَالمُنَافِقُونَ:** ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(3) [هُود: ١٨]» وقال ﷺ: **«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ المُجَاهِرِينَ»**(4)، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل السوء

---

(1) حديث: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم. .» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد، وللترمذي من حديث ابن عمر وحسنه.

(2) حديث ابن مسعود: «إني لأذكر أول رجل قطعه النبي ﷺ؛ أتي بسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله ﷺ. . .» الحديث. رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، وللخرائطي في مكارم الأخلاق: «فكأنما سفي في وجه رسول الله ﷺ رماد. .» الحديث. أسف وجهه: أي ظهر الأسف في وجهه.

(3) حديث ابن عمر: «إن الله عز وجل ليدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول: أتعرف ذنب كذا. .» الحديث. متفق عليه.

(4) حديث: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

سراً ثم يخبر به، وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَمَعَ خَبَرَ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

ومنها: أن يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الغيبة، فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقال ﷺ: «كَيْفَ تَرَوْنَ مَنْ يَسُبُّ أَبَوَيْهِ؟» فقالوا: وهل من أحد يسب أبويه؟ فقال: «نَعَمْ يَسُبُّ أَبَوَيْ غَيْرِهِ فَيَسُبُّونَ أَبَوَيْهِ»(٢)، وقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أنّ رسول الله ﷺ كلم إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه رسول الله ﷺ وقال: «يَا فُلَانُ هٰذِهِ زَوْجَتِي صَفِيَّةُ»، فقال: يا رسول الله من كنت أظن فيه فإني لم أكن أظن فيك، فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ»(٣)، وزاد في رواية: «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً» وكانا رجلين فقال: «عَلَىٰ رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ»(٤) الحديث، وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان: وقال عمر رضي الله عنه: من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن. ومرَّ برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال: يا أمير المؤمنين، إنها امرأتي فقال: هلا حيث لا يراك أحد من الناس؟.

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه، قال ﷺ: «إِنِّي أُوتَىٰ وَأُسْأَلُ وَتُطْلَبُ إِلَيَّ الحَاجَةُ وَأَنْتُمْ عِنْدِي فَاشْفَعُوا لِتُؤْجَرُوا وَيَقْضِي الله عَلَىٰ يَدَيْ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ»(٥)، وقال رسول الله ﷺ: «اشْفَعُوا إِلَيَّ لِتُؤْجَرُوا إِنِّي أُرِيدُ الأَمْرَ وَأُؤَخِّرُهُ كَيْ تَشْفَعُوا إِلَيَّ فَتُؤْجَرُوا»، وقال ﷺ: «مَا مِنْ صَدَقَةٍ أَفْضَلُ مِنْ صَدَقَةِ اللِّسَانِ» قيل: وكيف ذلك؟ قال: «الشَّفَاعَةُ يُحْقَنُ بِهَا الدَّمُ وَتُجَرُّ بِهَا المَنْفَعَةُ إِلَىٰ آخَرَ وَيُدْفَعُ بِهَا المَكْرُوهُ عَنْ آخَرَ»(٦). وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث كأني أنظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال ﷺ للعباس: «أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ شِدَّةِ حُبِّ مُغِيثٍ لِبَرِيرَةَ وَشِدَّةِ بُغْضِهَا لَهُ؟» فقال النبي ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ»، فقالت: يا رسول الله أتأمرني فأفعل؟ فقال: «لاَ، إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ»(٧).

ومنها: أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام. قال ﷺ: «مَنْ بَدَأَ

---

(١) حديث: «**من استمع من قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة**» رواه البخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً عليه وعلى أبي هريرة أيضاً.

(٢) حديث: «**كيف ترون من سب أبويه؟** فقالوا: وهل من أحد يسب أبويه؟...» الحديث. متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو نحوه.

(٣) حديث أنس: «**أن رسول الله ﷺ كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فقال: يا فلان هذه زوجتي فلانة...**» الحديث. وفيه «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**» رواه مسلم.

(٤) حديث: «**إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً وقال على رسلكما إنها صفية**» متفق عليه من حديث صفية.

(٥) حديث: «**إني أوتى وأسأل وتطلب إلي الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا..**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي موسى نحوه.

(٦) حديث: «**ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان..**» الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث سمرة بن جندب بسند ضعيف.

(٧) حديث عكرمة عن ابن عباس: «**أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث كأني أنظر إليه خلفها يبكي...**» الحديث. رواه البخاري.

بالكَلاَمِ قَبْلَ السَّلاَمِ فَلاَ تُجِيبُوهُ حَتَّىٰ يَبْدَأَ بِالسَّلاَمِ»[(١)]، وقال بعضهم: دخلت على رسول الله ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: «ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟»[(٢)]. وروى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَلَّمَ أَحَدُكُمْ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ»[(٣)]، وقال أنس رضي الله عنه خدمت النبي ﷺ ثمان حجج فقال لي: «يَا أَنَسُ أَسْبِغِ الوُضُوءَ يَزِدْ فِي عُمرِكَ وَسَلِّمْ عَلَىٰ مَنْ لَقِيتَهُ مِنْ أُمَّتِي تَكْثُرْ حَسَنَاتُكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ مَنْزِلَكَ فَسَلِّمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكَ يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ»[(٤)]، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا الْتَقَىٰ المُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا سَبْعُونَ مَغْفِرَةً تِسْعٌ وَسِتُّونَ لأَحْسَنِهِمَا بِشْراً»، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النّساء: ٨٦] وقال عليه السلام: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا أَفَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ»[(٥)]، وقال أيضاً: «إِذَا سَلَّمَ المُسْلِمُ عَلَىٰ المُسْلِمِ فَرَدَّ عَلَيْهِ صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ سَبْعِينَ مَرَّةً»[(٦)] وقال ﷺ: «إِنَّ المَلاَئِكَةَ تَعْجَبُ مِنَ المُسْلِمِ يَمُرُّ عَلَىٰ المُسْلِمِ وَلاَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ»[(٧)]، وقال عليه السلام: «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَىٰ المَاشِي وَإِذَا سَلَّمَ مِنَ القَوْمِ وَاحِدٌ أَجْزَأَ عَنْهُمْ»[(٨)] وقال قتادة: كانت تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام وهي تحية أهل الجنة. وكان أبو مسلم الخولاني يمرّ على قوم فلا يسلم عليهم ويقول: ما يمنعني إلا أني أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة. والمصافحة أيضاً سنّة مع السلام، «وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، فقال عليه السلام: «عَشْرُ حَسَنَاتٍ»، فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله فقال: «عِشْرُونَ حَسَنَةً»، فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال:

---

(١) حديث: «من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في اليوم والليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين.

(٢) حديث: دخلت على رسول الله ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن فقال ﷺ: «ارجع فقل السلام عليكم أأدخل» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة.

(٣) حديث جابر: «إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه ضعف.

(٤) حديث أنس: خدمت النبي ﷺ ثماني حجج فقال لي: «يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيته من أمتي تكثر حسناتك وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك»، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف وللترمذي وصححه: «إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك».

(٥) حديث: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. . .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة» ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة ولم يسنده ولده في المسند.

(٧) حديث: «الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه». لم أقف له على أصل.

(٨) حديث: «يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم» رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلاً، ولأبي داود من حديث علي: «يجزي عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزي عن الجلوس أن يرد أحدهم»، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «يسلم الراكب على الماشي. . .» الحديث. وسيأتي في بقية الباب.

ثَلاَثُونَ»[(١)] ، وكان أنس رضي الله عنه يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم[(٢)] ، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك. وروى عبدالحميد بن بهرام: أنه ﷺ مرّ في المسجد يوماً وعصبة من النساء قعود فأومأ بيده بالسلام، وأشار عبدالحميد بيده إلى الحكاية[(٣)] ، فقال عليه السلام: **«لاَ تَبْدَؤُوا اليَهُودَ وَلاَ النَّصَارَىٰ بِالسَّلاَمِ وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُ إِلَىٰ أَضْيَقِهِ»**[(٤)] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تُصَافِحُوا أَهْلَ الذِّمَّةِ وَلاَ تَبْدَؤُوهُمْ بِالسَّلاَمِ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَىٰ أَضْيَقِ الطُّرُقِ»**.

قالت عائشة رضي الله عنها: إنّ رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك، فقال النبي ﷺ: **«عَلَيْكُمْ»** قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت بل عليكم السام واللعنة. فقال عليه السلام: **«يَا عَائِشَةُ إِنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي كُلِّ شَيْءٍ»** قالت عائشة: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: **«فَقَدْ قُلْتُ عَلَيْكُمْ»**[(٥)] وقال عليه السلام: **«يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَىٰ المَاشِي وَالمَاشِي عَلَىٰ القَاعِدِ وَالقَلِيلُ عَلَىٰ الكَثِيرِ وَالصَّغِيرُ عَلَىٰ الكَبِيرِ»**[(٦)] ، وقال عليه السلام: **«لاَ تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فَإِنَّ تَسْلِيمَ اليَهُودِ بِالإِشَارَةِ بِالأَصَابِعِ وَتَسْلِيمَ النَّصَارَىٰ بِالإِشَارَةِ بِالأَكُفِّ»**[(٧)] ، قال أبو عيسى: إسناده ضعيف.

وقال عليه السلام: **«إِذَا انْتَهَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ، ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الأُولَىٰ بِأَحَقَّ مِنَ الأَخِيرَةِ»**[(٨)] ، وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا الْتَقَىٰ المُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا سَبْعُونَ مَغْفِرَةً تِسْعَةٌ وَسِتُّونَ لأَحْسَنِهِمَا بِشْراً»**[(٩)] ، وقال عمر رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: **«إِذَا الْتَقَىٰ المُسْلِمَانِ وَسَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَىٰ صَاحِبِهِ وَتَصَافَحَا نَزَلَتْ بَيْنَهُمَا مِائَةُ رَحْمَةٍ لِلْبَادِىءِ تِسْعُونَ وَلِلْمُصَافِحِ عَشَرَةٌ»**[(١٠)] ، وقال الحسن: المصافحة تزيد

---

(١) حديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ وسلم فقال: سلام عليك، فقال ﷺ **«عشر حسنات. . .»** الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عمران بن حصين، قال الترمذي: حسن غريب، وقال البيهقي في الشعب: إسناده حسن.

(٢) حديث أنس: كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعه متفق عليه.

(٣) حديث عبدالحميد بن بهرام: **«أنه ﷺ مر في المسجد يوماً وعصبة من الناس قعود فأولى بيده بالتسليم وأشار عبدالحميد بيده»**. أخرجه الترمذي من رواية عبدالحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وقال: حسن، وابن ماجه من رواية ابن أبي حسين عن شهر، ورواه أبو داود، وقال أحمد: لا بأس به.

(٤) حديث: **«لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام. . .»** الحديث. رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث عائشة: **«إن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك. . .»** الحديث. متفق عليه.

(٦) حديث: **«يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير»** متفق عليه من حديث أبي هريرة، ولم يقل مسلم **«والصغير على الكبير»**.

(٧) حديث: **«لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع وتسليم النصارى الإشارة بالأكف»**. أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال: إسناده ضعيف.

(٨) حديث: **«إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة»** أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة.

(٩) حديث أنس **«إذا التقى المسلمان فتصافحا قسمت بينهما سبعون رحمة. . .»** الحديث. أخرجه الخرائطي بسند ضعيف، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: **«مائة رحمة تسعة وتسعون لأبشهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسالمة لأخيه»** وفيه الحسن بن كثير بن يحيى بن أبي كثير مجهول.

(١٠) حديث عمر بن الخطاب: **«إذا التقى المسلمان فسلم كل واحد على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة. . .»** الحديث. أخرجه البزار في مسنده، والخرائطي في مكارم الأخلاق، واللفظ له، والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر.

في الود. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تَمَامُ تَحِيَّاتِكُم المُصَافَحَةُ»[١]، وقال عليه السلام: «قُبْلَةُ المُسْلِمِ أخَاهُ المُصَافَحَةُ»[٢]، ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين؛ تبركاً به وتوقيراً له. وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قبلنا يد النبي ﷺ[٣]، وعن كعب بن مالك قال: لما نزلت توبتي أتيت النبي ﷺ فقبلت يده[٤]، ورُوي أنّ أعرابياً قال: يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك قال: فأذن له ففعل[٥]، ولقي أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصافحه وقبل يده وتنحيا يبكيان. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: أنه سلم على رسول الله ﷺ وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومدّ يده إليه فصافحه فقال: يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ المُسْلِمَيْنَ إذَا الْتَقَيَا فَتَصَافَحَا تَحَاتَّتْ ذُنُوبُهُمَا»[٦]، وعن النبي ﷺ قال: «إذَا مَرَّ الرَّجُلُ بِالقَوْمِ فَسَلَّمَ عَلَيهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضلُ دَرَجَةٍ لأنَّهُ ذَكَّرَهُمْ السَّلاَمَ وَإنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَلأٌ خَيرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ ـ أو قال: وَأَفْضَلُ ـ»[٧]، والانحناء عند السلام منهي عنه. قال أنس رضي الله عنه: قلنا: يا رسول الله، أينحني بعضنا لبعض؟ قال: «لاَ» قال: فيقبل بعضنا بعضاً؟ قال «لاَ» قال: فيصافح بعضنا بعضاً؟ قال: «نَعَمْ»[٨]، والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر[٩]، وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: ما لقيته ﷺ إلا صافحني، وطلبني يوماً فلم أكن في البيت فلما أخبرت جئت وهو على سرير فالتزمني فكانت أجود وأجود[١٠].

---

(١) حديث أبي هريرة: «تمام تحياتكم بينكم المصافحة» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة وضعفه.

(٢) حديث: «قبلة المسلم أخاه المصافحة» أخرجه الخرائطي وابن عدي من حديث أنس وقال: غير محفوظ.

(٣) حديث ابن عمر: «قبلنا يد رسول الله ﷺ» أخرجه أبو داود بسند حسن.

(٤) حديث كعب بن مالك: «لما نزلت توبتي أتيت النبي ﷺ فقبلت يده» أخرجه أبو بكر بن المقري في كتاب الرخصة في تقبيل اليد، بسند ضعيف.

(٥) حديث: «أن أعرابياً قال: يا رسول الله، ائذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل». أخرجه الحاكم من حديث بريدة إلا أنه قال: «رجليك» موضع: «يدك» وقال صحيح الإسناد.

(٦) حديث البراء بن عازب: «أنه سلم على رسول الله ﷺ وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ومد يده إليه فصافحه. .» الحديث. رواه الخرائطي بسند ضعيف، وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصراً: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا» قال الترمذي: حسن غريب من حديث أبي إسحاق عن البراء. تحاتت ذنوبهما: زالت كما يحت الوسخ عن الثوب.

(٧) حديث: «إذا مرّ الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملأ خير منهم وأطيب» أخرجه الخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفاً عليه بسند صحيح.

(٨) حديث أنس: قلنا: يا رسول الله، أينحني بعضنا لبعض؟ قال: «لا» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي.

(٩) حديث: «الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر» أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت: «قدم زيد بن حارثة. . .» الحديث. وفيه: «فاعتنقه وقبله» وقال حسن غريب.

(١٠) حديث أبي ذر: «ما لقيته ﷺ إلا صافحني. . .» الحديث. أخرجه أبو داود وفيه رجل من عنزة لم يسم، وسماه البيهقي في الشعب عبدالله.

والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر، فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت(١)، وأخذ عمر يغرز زيد حتى رفعه وقال: هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد.

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام، قال أنس: ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك(٢)، وروي أنه عليه السلام قال مرة: **«إِذَا رَأَيْتُمُونِي فَلَا تَقُومُوا كَمَا تَصْنَعُ الأَعَاجِمُ»**(٣)، وقال عليه السلام: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**(٤)، وقال (عليه السلام): **«لاَ يُقِم الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلٰكِنْ تَوَسَّعُوا وَتَفَسَّحُوا»**(٥)، وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهي. وقال ﷺ: **«إِذَا أَخَذَ القَوْمُ مَجَالِسَهُمْ فَإِنْ دَعَا أَحَدٌ أَخَاهُ فَأَوْسَعَ لَهُ فَلْيَأْتِهِ فَإِنَّمَا هِيَ كَرَامَةٌ أَكْرَمَهُ بِها أَخُوهُ فَإِنْ لَمْ يُوسِّعْ لَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ أَوْسَعِ مَكَانٍ يَجِدُهُ فَيَجْلِسْ فِيهِ»**(٦) وروي أنه سلم رجل على رسول الله ﷺ وهو يبول فلم يجب(٧). فيكره السلام على من يقضي حاجته، ويكره أن يقول ابتداء: عليك السلام، فإنه قاله رجل لرسول الله ﷺ فقال عليه السلام: **«إِنَّ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تَحِيَّةُ المَوْتَىٰ»** قالها ثلاثاً، ثم قال: **«إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَقُلْ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله»**(٨) ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلساً أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف. كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها، وأما الثاني فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: **«ألا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ. أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَىٰ إِلَىٰ الله فَآوَاهُ الله، وَأَمَّا الثَّانِي فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا الله مِنْهُ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عَنْهُ»**(٩)، وقال ﷺ: **«مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلاَّ غُفِرَ لَهُمَا**

---

(١) حديث: «أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت». تقدم في العلم.

(٢) حديث أنس: «ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٣) حديث: «**إذا رأيتموني فلا تقوموا كما يصنع الأعاجم**» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال: «**كما يقوم الأعاجم**» وفيه أبو العديس مجهول.

(٤) حديث: «**من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث معاوية وقال: حسن.

(٥) حديث: «**لا يقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا**» متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٦) حديث: «**إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا رجل أخاه فأوسع ـ يعني له ـ فليجلس فإنه كرامة من الله عز وجل. . .**» الحديث. أخرجه البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن شيبة ورجاله ثقات، وابن شيبة هذا ذكره أبو موسى المديني في ذيله في الصحابة، وقد رواه الطبراني في الكبير من رواية مصعب بن شيبة عن أبيه عن النبي ﷺ أخصر منه، وشيبة بن جبير والد منصور ليست له صحبة.

(٧) حديث: «أن رجلاً سلم على رسول الله ﷺ وهو يبول فلم يجب». أخرجه مسلم من حديث ابن عمر بلفظ: «فلم يرد عليه».

(٨) حديث: قال رجل لرسول الله ﷺ: عليك السلام فقال: «**إن عليك السلام تحية الميت. . .**» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن جري الهجيمي وهو صاحب القصة، قال الترمذي: حسن صحيح.

(٩) حديث: «كان ﷺ جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أبي واقد الليثي.

قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا»(١)، وسلمت أم هانىء على النبي ﷺ فقال: **«مَنْ هٰذِهِ؟»** فقيل له: أم هانىء، فقال عليه السلام: **«مَرْحَباً بِأُمِّ هَانِىءٍ»**(٢).

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر، ويرد عنه ويناضل دونه وينصره، فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام. روى أبو الدرداء: أن رجلاً نال من رجل عند رسول الله ﷺ فرد عنه رجل فقال النبي ﷺ: **«مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ»**(٣)، وقال ﷺ: **«مَا مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ إِلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَىٰ الله أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(٤)، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ المُسْلِمُ وَهُوَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَهُ فَلَمْ يَنْصُرْهُ أَذَلَّهُ الله بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ المُسْلِمُ فَنَصَرَهُ نَصَرَهُ الله تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»**(٥) وقال عليه السلام: **«مَنْ حَمَىٰ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ المُسْلِمِ فِي الدُّنْيَا بَعَثَ الله تَعَالَىٰ لَهُ مَلَكاً يَحْمِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ النَّارِ»**(٦)، وقال جابر وأبو طلحة: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: **«مَا مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ عِرْضُهُ وَيُسْتَحَلُّ حُرْمَتُهُ إِلاَّ نَصَرَهُ الله فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَهُ، وَمَا مِنِ امْرِىءٍ خَذَلَ مُسْلِماً فِي مَوْطِنٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ إِلاَّ خَذَلَهُ الله فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ»**(٧).

ومنها: تشميت العاطس؛ قال عليه الصلاة والسلام في العاطس: **«يَقُولُ: الحَمْدُ لله عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَيَقُولُ الَّذِي يُشَمِّتُهُ: يَرْحَمُكُم الله، وَيَرُدُّ عَلَيْهِ العَاطِسُ فَيَقُولُ: يَهْدِيكُمُ الله وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ»**(٨)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: **«إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، فَإِذَا قَالَ ذٰلِكَ فَلْيَقُلْ مَنْ عِنْدَهُ: يَرْحَمُكَ الله فَإِذَا قَالُوا ذٰلِكَ فَلْيَقُلْ: يَغْفِرُ الله لِي وَلَكُمْ»**(٩)، وشمت رسول الله ﷺ عاطساً ولم يشمت آخر، فسأله عن ذلك فقال: **«إِنَّهُ حَمِدَ الله وَأَنْتَ**

---

(١) حديث: **«ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا»** أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث البراء بن عازب.

(٢) حديث: سلمت أم هانىء عليه فقال: **«مرحباً بأم هانىء»** أخرجه مسلم من حديث أم هانىء.

(٣) حديث أبي الدرداء: **«من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار»** أخرجه الترمذي وحسنه.

(٤) حديث: **«ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة»** أخرجه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بنحوه، والخرائطي في مكارم الأخلاق، وهو عند الطبراني بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء وفيهما شهر بن حوشب.

(٥) حديث أنس **«من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها في الدنيا والآخرة. . .»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصراً على ما ذكر منه وإسناده ضعيف.

(٦) حديث: **«من حمى عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكاً يحميه يوم القيامة من النار»** أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن أنس نحوه بسند ضعيف.

(٧) حديث جابر وأبي طلحة: **«ما من امرىء ينصر مسلماً في موضع ينتهك فيه من عرضه ويستحل حرمته. . .»** الحديث. أخرجه أبو داود مع تقديم وتأخير واختلف في إسناده.

(٨) حديث: **«يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذي يشمته يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم»** أخرجه البخاري وأبو داود من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري: **«على كل حال»**.

(٩) حديث أبي مسعود: **«إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين. . .»** الحديث. أخرجه النسائي في اليوم والليلة وقال: حديث منكر، ورواه أيضاً أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبدالله واختلف في إسناده.

سَكَتَّ»[1]، وقال ﷺ: «يُشَمَّتُ العَاطِسُ المُسْلِمُ إذَا عَطَسَ ثَلَاثاً فَإنْ زَادَ فَهُوَ زُكَامٌ»[2]، وروي أنه شمت عاطساً ثلاثاً فعطس أخرى فقال: «إنَّكَ مَزْكُومٌ»[3]، وقال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ إذا عطس غضّ صوته واستتر بثوبه أو يده[4]. وروي خمر وجهه. وقال أبو موسى الأشعري: كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله ﷺ رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول: «يَهْدِيكُمُ الله»[5]، وروى عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه: أن رجلاً عطس خلف النبي ﷺ في الصلاة فقال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ربنا ويرضى والحمد لله على كل حال، فلما سلم النبي ﷺ قال: «مَنْ صَاحِبُ الكَلِمَاتِ؟» فقال: أنا يا رسول الله ما أردت بهن إلا خيراً، فقال: «لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكاً كُلُّهُمْ يَبْتَدِرُونَها أيُّهُمْ يَكْتُبُها»[6]، وقال ﷺ: «مَنْ عَطَسَ عِنْدَهُ فَسَبَقَ إلَىٰ الحَمْدِ لَمْ يَشْتَكِ خاصِرَتَهُ»[7]، وقال عليه السلام: «العُطَاسُ مِنَ الله وَالتَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإذَا تَثَاءَبَ أحَدُكُم فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَىٰ فِيهِ، فَإذَا قَالَ: ها ها، فَإنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ مِنْ جَوْفِهِ»[8]، وقال إبراهيم النخعي: إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله. وقال الحسن: يحمد الله في نفسه. وقال كعب: قال موسى عليه السلام: يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فقال: أنا جليس من ذكرني فقال: فإنا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها كالجنابة والغائط، فقال: اذكرني على كل حال.

ومنها: أنه إذا بلي بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه، قال بعضهم: خالص المؤمن مخالصة وخالق الفاجر مخالقة، فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر. وقال أبو الدرداء: إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم. وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، قال ابن عباس في معنى قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرّعد: ٢٢]: أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة. وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾

---

(١) حديث: «شمت رسول الله ﷺ عاطساً ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال: «إنه حمد الله وأنت سكت» متفق عليه من حديث أنس.

(٢) حديث: «شمتوا المسلم إذا عطس ثلاثاً فإن زاد فهو زكام» أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة «شمت أخاك ثلاثاً . . .» الحديث. وإسناده جيد.

(٣) حديث: أنه شمت عاطساً فعطس أخرى فقال: «إنك مزكوم» أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

(٤) حديث أبي هريرة: «كان إذا عطس غض صوته وستر بثوبه أو يده». أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وفي رواية لأبي نعيم في اليوم والليلة: «خمّر وجهه وفاه».

(٥) حديث أبي موسى: كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله ﷺ رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول: «يهديكم الله» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٦) حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة: «أن رجلاً عطس خلف النبي ﷺ في الصلاة فقال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه . . .» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وإسناده جيد.

(٧) حديث: «من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته» أخرجه الطبراني في الأوسط وفي الدعاء من حديث علي بسند ضعيف.

(٨) حديث: «العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان. .» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله: «العطاس من الله» فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وقال البخاري: «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب. . .» الحديث.

[البَقَرَة: ٢٥١]، قال: بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة. وقالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ رَجُلُ العَشِيرَةِ هُوَ»، فلما دخل ألان له القول حتى ظننتُ أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول فقال: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»(١)، وفي الخبر: «مَا وَقَىٰ الرَّجُلُ بِهِ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»(٢).

وفي الأثر: خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب. وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدّاً حتى يجعل الله له منه فرجاً.

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام، كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينَ»(٣)، وقال كعب الأحبار: كان سليمان عليه السلام في ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكيناً جلس إليه وقال: مسكين جالس مسكيناً. وقيل: ما كان من كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له: يا مسكين. وقال كعب الأحبار: ما في القرآن من: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البَقَرَة: ١٠٤] فهو في التوراة «يا أيها المساكين» وقال عبادة بن الصامت: إن للنار سبعة أبواب؛ ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين. وقال الفضيل: بلغني أن نبياً من الأنبياء قال: يا رب كيف لي أن أعلم رضاك عني؟ فقال: انظر كيف رضا المساكين عنك. وقال عليه الصلاة والسلام: «وَإِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةَ المَوْتَىٰ»، قيل: ومن الموتى يا رسول الله؟ قال: «الأَغْنِيَاءُ»(٤) وقال موسى: إلٰهي أين أبغيك؟ قال عند المنكسرة قلوبهم. وقال ﷺ: «لاَ تَغْبِطَنَّ فَاجِراً بِنِعْمَةٍ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي إِلَىٰ مَا يَصِيرُ بَعْدَ المَوْتِ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ طَالِباً حَثِيثاً»(٥)، وأما اليتيم؛ فقال ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيماً مِنْ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ حَتَّىٰ يَسْتَغْنِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّةَ»(٦)، وقال عليه السلام: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ وَهُوَ يُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ»(٧)، وقال ﷺ: «مَنْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّماً كَانَتْ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْها يَدُهُ حَسَنَةٌ»(٨)، وقال ﷺ:

---

(١) حديث عائشة: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ائذنوا له فبئس رجل العشيرة. . .» الحديث. متفق عليه.

(٢) حديث: «ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة» أخرجه أبو يعلى وابن عدي من حديث جابر وضعفه.

(٣) حديث: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والترمذي من حديث عائشة وقال: غريب.

(٤) حديث: «إياكم ومجالسة الموتى»، قيل: وما الموتى؟ قال: «الأغنياء» أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصحح إسناده من حديث عائشة: «إياك ومجالسة الأغنياء».

(٥) حديث: «لا تغبطن فاجراً بنعمة. . .» الحديث. رواه البخاري في التاريخ والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٦) حديث: «من ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنة البتة» أخرجه أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمر وفيه علي بن زيد بن جدعان متكلم فيه.

(٧) حديث: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبي هريرة.

(٨) حديث: «من وضع يده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة» أخرجه أحمد والطبراني بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة دون قوله: «ترحماً» ولابن حبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى: «من مسح يده على رأس يتيم رحمة له. .» الحديث.

«خَيْرُ بَيْتٍ مِنَ المُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ مِنَ المُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ»[1].

ومنها: النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه، قال ﷺ: «المُؤْمِنُ يُحِبُّ لِلْمُؤْمِنِ كَمَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2]، وقال ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» وقال ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ مِرْآةُ أَخِيهِ فَإِذَا رَأَىٰ فِيهِ شَيْئاً فَلْيُمِطْهُ عَنْهُ»[3]، وقال ﷺ: «مَنْ قَضَىٰ حَاجَةً لأَخِيهِ فَكَأَنَّمَا خَدَمَ الله عُمْرَهُ»[4]، وقال ﷺ: «مَنْ أَقَرَّ عَيْنَ مُؤْمِنٍ أَقَرَّ الله عَيْنَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» وقال ﷺ: «مَنْ مَشَىٰ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ قَضَاهَا أَوْ لَمْ يَقْضِهَا كَانَ خَيْراً لَهُ مِنِ اعْتِكَافِ شَهْرَيْنِ»[5]، وقال عليه السلام: «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ مَغْمُومٍ أَوْ أَعَانَ مَظْلُوماً غَفَرَ الله لَهُ ثَلاَثاً وَسَبْعِينَ مَغْفِرَةً»[6]؛ وقال ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً» فقيل كيف ينصره ظالماً؟ قال: «يَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»[7]، وقال عليه السلام: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ الله إِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَىٰ قَلْبِ المُؤْمِنِ أَوْ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُ غَمّاً أَوْ يَقْضِيَ عَنْهُ دَيْناً أَوْ يُطْعِمَهُ مِنْ جُوعٍ»[8]، وقال ﷺ: «مَنْ حَمَىٰ مُؤْمِناً مِنْ مُنَافِقٍ يَعْنِتُهُ بَعَثَ الله إِلَيْهِ مَلَكاً يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِي لَحْمَهُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»، وقال ﷺ: «خَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُما شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ: الشِّرْكُ بِالله وَالضُّرُّ لِعِبَادِ الله، وَخَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُما شَيْءٌ مِنَ البِرِّ: الإِيمَانُ بِالله وَالنَّفْعُ لِعِبَادِ الله»[9]، وقال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ»[10]،

---

(١) حديث: «خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه ضعف.

(٢) حديث: «المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه» تقدم بلفظ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ولم أره بهذا اللفظ.

(٣) حديث: «إن أحدكم مرآة أخيه. .» الحديث. رواه أبو داود والترمذي وقد تقدم.

(٤) حديث: «من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره» أخرجه البخاري في التاريخ، والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسلاً.

(٥) حديث: «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين» أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس: «لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته ـ وأشار بأصبعه ـ أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين» وللطبراني في الأوسط: «من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين» وكلاهما ضعيف.

(٦) حديث: «من فرج عن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وابن عدي من حديث أنس بلفظ: «من أغاث ملهوفاً».

(٧) حديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. .» الحديث. متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم.

(٨) حديث: «إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن. . .» الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٩) حديث: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضر بعباد الله. .» الحديث. ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يسنده ولده في مسنده.

(١٠) حديث: «من لم يهتم للمسلمين فليس منهم» أخرجه الحاكم من حديث حذيفة، والطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر وكلاهما ضعيف.

وقال معروف الكرخي: من قال كل يوم: اللهم ارحم أمة محمد كتبه الله من الأبدال ـ وفي رواية أخرى ـ اللهم أصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد ـ كل يوم ثلاث مرات ـ كتبه الله من الأبدال. وبكى علي بن الفضيل يوماً فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى وسئل عن ظلمه ولم تكن له حجة.

ومنها: أن يعود مرضاهم، فالمعرفة والإسلام كافيان في إثبات هذا الحق ونيل فضله. وأدب العائد: خفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وغض البصر عن عورات الموضع. وعند الاستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول: أنا، إذا قيل له: مَن؟ ولا يقول: يا غلام، ولكن يحمد ويسبح، وقال ﷺ: **«تَمَامُ عِيَادَةِ المَرِيضِ أَنْ يَضَعَ أَحَدُكُمْ يَدَهُ عَلَىٰ جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَىٰ يَدِهِ وَيَسْأَلَهُ كَيْفَ هُوَ؟ وَتَمَامُ تَحِيَّاتِكُمُ المُصَافَحَةُ»**، وقال ﷺ: **«مَنْ عَادَ مَرِيضاً قَعَدَ فِي مَخَارِفِ الجَنَّةِ حَتَّىٰ إِذَا قَامَ وُكِّلَ بِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ اللَّيلِ»**[(١)] وقال رسول الله ﷺ: **«إِذَا عَادَ الرَّجُلُ المَرِيضَ خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ فَإِذَا قَعَدَ عِنْدَهُ قَرَّتْ فِيهِ»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«إِذَا عَادَ المُسْلِمُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ قَالَ الله تَعَالَىٰ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مَنْزِلاً فِي الجَنَّةِ»**[(٣)]، وقال عليه السلام: **«إِذَا مَرِضَ العَبْدُ بَعَثَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فَقَالَ: انْظُرَا مَاذَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ؟ فَإِنْ هُوَ إِذَا جَاؤُوهُ حَمِدَ الله وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ رَفَعا ذٰلِكَ إِلَىٰ الله وَهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ: لِعَبْدِي عَلَيَّ إِنْ تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ وَإِنْ أَنَا شَفَيْتُهُ أَنْ أُبْدِلَ لَهُ لَحماً خَيراً مِنْ لَحْمِهِ وَدَماً خَيراً مِنْ دَمِهِ وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ»**[(٤)]، وقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ»**[(٥)]، وقال عثمان رضي الله عنه:

---

(١) حديث: **«من عاد مريضاً قعد في مخارف الجنة . .»** الحديث. أخرجه أصحاب السنن والحاكم من حديث علي: **«من أتى أخاه المسلم عائداً مشى في خرافة الجنة حتى يجلس فإذا جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي وإن كان مساء. . .»** الحديث. لفظ ابن ماجه وصححه الحاكم وحسنه الترمذي ولمسلم من حديث ثوبان: **«من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة»**.

(٢) حديث: **«إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه»** أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث جابر، وقال: **«انغمس فيها»** قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وكذا صححه ابن عبدالبر، وذكره مالك في الموطأ بلاغاً بلفظ: **«قرت فيه»** ورواه الواقدي بلفظ **«استقر فيها»**. وللطبراني في الصغير من حديث أنس: **«فإذا قعد عنده غمرته الرحمة»**، وله في الأوسط من حديث كعب بن مالك وعمرو بن حزم: **«استنقع فيها»**.

(٣) حديث: **«إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوأت منزلاً في الجنة»** أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة إلا أنه قال: **«ناداه مناد»** قال الترمذي غريب. قلت: فيه عيسى بن سنان القسملي ضعفه الجمهور.

(٤) حديث: **«إذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال: انظرا ما يقوله لعواده. . .»** الحديث. أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً من حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبدالبر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري، وفيه عباد بن كثير الثقفي ضعيف الحديث، وللبيهقي من حديث أبي هريرة قال الله تعالى: **«إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عواده أطلقته من إساري ثم أبدله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل»** وإسناده جيد.

(٥) حديث: **«من يرد الله به خيراً يصب منه»** أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

مرضت فعادني رسول الله ﷺ فقال: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أُعِيذُكَ بِاللهِ الأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ مِنْ شَرِّ مَا تَجِدُ**»[١] قالها مراراً. ودخل ﷺ على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض فقال له: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَعْجِيلَ عَافِيَتِكَ أَوْ صَبْراً عَلَىٰ بَلِيَّتِكَ أَوْ خُرُوجاً مِنَ الدُّنْيا إِلَىٰ رَحْمَتِكَ فَإِنَّكَ سَتُعْطَىٰ إِحْدَاهُنَّ**»[٢]، ويستحب للعليل أيضاً أن يقول: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إذا شكا أحدكم بطنه فليسأل امرأته شيئاً من صداقها ويشتري به عسلاً ويشربه بماء السماء فيجتمع له الهنيء والمريء والشفاء والمبارك. وقال ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَمْرٍ هُوَ حَقٌّ، مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ فِي أَوَّلِ مَضْجَعِهِ مِنْ مَرَضِهِ نَجَّاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ**»، قلت: بلى يا رسول الله قال: «**يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العِبَادِ وَالبِلاَدِ وَالحَمْدُ للهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ . اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً إِنَّ كِبْرِيَاءَ رَبِّنَا وَجَلاَلَهُ وَقُدْرَتَهُ بِكُلِّ مَكَانٍ. اللَّهُمَّ إِنْ أَنْتَ أَمْرَضْتَنِي لِتَقْبِضَ رُوحِي فِي مَرَضِي هٰذَا فَاجْعَلْ رُوحِي فِي أَرْوَاحِ مَنْ سَبَقَتْ لَهُم منك الحُسْنَىٰ وَبَاعِدْنِي مِنَ النَّارِ كَمَا بَاعَدْتَ أَوْلِيَاءَكَ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْكَ الحُسْنَىٰ**»[٣]، وروي أنه قال عليه السلام: «**عيادة المريض بعد ثلاث فواق ناقة**»[٤]. وقال طاوس: أفضل العيادة أخفها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عيادة المريض مرة سنّة فما ازدادت فنافلة، وقال بعضهم: عيادة المريض بعد ثلاث. وقال عليه السلام: «**أغبوا في العيادة وأربعوا فيها**»[٥]، وجملة أدب المريض حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر، والفزع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء.

ومنها: أن يشيع جنائزهم، قال ﷺ: «**مَنْ شَيَّعَ جَنَازَةً فَلَهُ قِيرَاطٌ مِنَ الأَجْرِ فَإِنْ وَقَفَ حَتَّىٰ تُدْفَنَ فَلَهُ قِيراطَانِ**»[٦]، وفي الخبر، «**القِيرَاطُ مِثْلُ أُحُدٍ**»[٧]، ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال: لقد فرطنا إلى الآن في قراريط كثيرة. والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول، والآخر لا عقل له. وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول: والله لا تقرّ عيني حتى أعلم إلى ما صرت، ولا والله لا أعلم ما دمت حياً. وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري لمن

---

(١) حديث عثمان: مرضت فعادني رسول الله ﷺ فقال: «**بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الأحد الصمد. .**» الحديث. أخرجه ابن السني في اليوم والليلة، والطبراني والبيهقي في الأدعية من حديث عثمان بن عفان بإسناد حسن.

(٢) حديث: دخل على علي وهو مريض فقال: «**قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك. .**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بسند ضعيف: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل وهو يشتكي ولم يسم علياً. وروى البيهقي في الدعوات من حديث عائشة: «إن جبريل علمها للنبي ﷺ وقال: إن الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكلمات».

(٣) حديث أبي هريرة «**ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار**» أخرجه ابن أبي الدنيا في الدعاء وفي المرض والكفارات.

(٤) حديث: «**عيادة المريض فواق ناقة**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بإسناد فيه جهالة.

(٥) حديث: «**أغبوا في العيادة وأربعوا**» رواه ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر وزاد: «**إلا أن يكون مغلوباً**» وإسناده ضعيف.

(٦) حديث: «**من تبع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان**» أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: «**القيراط مثل جبل أحد**» أخرجه مسلم من حديث ثوبان وأبي هريرة وأصله متفق عليه.

نعزي لحزن القوم كلهم. ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت، فقال: لو ترحمون أنفسكم لكان أولى إنه نجا من أهوال ثلاث: وجه ملك الموت قد رأى، ومرارة الموت قد ذاق، وخوف الخاتمة قد أمن. وقال ﷺ: **«يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاَثٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ»**(١).

ومنها: أن يزور قبورهم، والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب، قال ﷺ: **«مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً إِلاَّ وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»**(٢)، وقال عمر رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ فأتى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه. فبكى وبكينا، فقال: **«مَا يُبْكِيكُمْ؟»** قلنا: بكينا لبكائك. قال: **«هٰذَا قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ، اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِها فَأَذِنَ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَها فَأَبَىٰ عَلَيَّ فَأَدْرَكَنِي مَا يُدْرِكُ الوَلَدَ مِنَ الرِّقَّةِ»**(٣)، وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ»**(٤)، وقال مجاهد: أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة. فهذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟ وقال أبو ذر: ألا أخبركم بيوم فقري، يوم أوضع في قبري. كان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكرونني معادي، وإن قمت عنهم لم يغتابوني. وقال حاتم الأصم: من مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم. وقال ﷺ: **«مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلاَّ وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ القُبُورِ مَنْ تَغْبِطُونَ؟ قَالُوا: نَغْبِطُ أَهْلَ المَسَاجِدِ لأَنَّهُمْ يَصُومُونَ وَلاَ نَصُومُ وَيُصَلُّونَ وَلاَ نُصَلِّي وَيَذْكُرُونَ الله وَلاَ نَذْكُرُهُ»**(٥)، وقال سفيان: من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار. وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبراً؛ فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ومكث ساعة ثم قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠] ثم يقول: يا ربيع قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لا ترجع. وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى، وقال: يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات وأصاب الهوام من أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله؟.

وآداب المعزِّي: خفض الجناح، وإظهار الحزن، وقلة الحديث، وترك التبسم.

---

(١) حديث: **«يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد»** أخرجه مسلم من حديث أنس.

(٢) حديث: **«ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه»** أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان، وقال: صحيح الإسناد، وقال الترمذي: حسن غريب.

(٣) حديث عمر: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فأتى المقابر فجلس إلى قبر...» الحديث. في زيارته قبر أمه، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً وأحمد من حديث بريدة وفيه: «فقام إليه عمر ففداه بالأب والأم يقول: يا رسول الله، ما لك..» الحديث.

(٤) حديث عثمان بن عفان: **«إن القبر أول منازل الآخرة...»** الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده.

(٥) حديث: **«ما من ليلة إلا ينادي مناد يا أهل القبور من تغبطون؟ فيقولون: نغبط أهل المساجد..»** الحديث. لم أجد له أصلاً.

وآداب **تشييع الجنازة**: لزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكر في الموت، والاستعداد له، وأن يمشي أمام الجنازة بقربها والإسراع بالجنازة سنّة[1]، فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق.

والجملة الجامعة فيه: أن لا تستصغر منهم أحداً حيّاً كان أو ميتاً فتهلك؛ لأنك لا تدري لعله خير منك؟ فإنه وإن كان فاسقاً فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح؟ ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم، فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها، ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله. ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم؛ فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم، فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولا تعادِهم بحيث تظهر العداوة، فيطول الأمر عليك في المعاداة ويذهب دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك، إلا إذا رأيت منكراً في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة، وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرّضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم فحسبهم جهنم يصلونها، فمالك تحقد عليهم ولا تستكن إليهم في مودتهم لك وثنائهم عليك في وجهك وحسن بشرهم لك، فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحداً وربما لا تجده. ولا تشكُ إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم، ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية فذلك طمع كاذب وأنّى تظفر به؟ ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض. ولا تعل عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم، فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء. وإذا سألت أخاً منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد، وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدوّاً تطول عليك مقاساته. ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك، وليكن وعظك عرضاً واسترسالاً من غير تنصيص على الشخص. ومهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك واستعذ بالله أن يكلك إليهم. وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شراً أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستعذ بالله من شرهم. ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله. ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي.

واعتقد أنك لو استحقيت ذلك لجعل الله لك موضعاً في قلوبهم؛ فالله المحبب والمبغض إلى القلوب، وكن فيهم سميعاً لحقهم أصم عن باطلهم، نطوقاً بحقهم صموتاً عن باطلهم. واحذر صحبة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير، ينتصفون ولا ينصفون، ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون، يغرون الإخوان على الإخوان بالنميمة والبهتان، فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان، إن رضوا فظاهرهم الملق، وإن سخطوا فباطنهم الحنق، لا يؤمنون في حنقهم، ولا يرجون في ملقهم، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب، يقطعون بالظنون، ويتغامزون وراءك بالعيون، ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم. ولا تعوّل على مودة من لم تخبره حق الخبرة، بأن تصحبه مدّة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته، وغناه وفقره، أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدّة فتحتاج إليه، فإن رضيته في الأحوال فاتخذه أباً لك إن كان كبيراً أو ابناً لك إن كان صغيراً أو أخاك إن كان مثلك. فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق.

---

(١) حديث: الإسراع بالجنازة، متفق عليه من حديث أبي هريرة: «**أسرعوا بالجنازة**. . .» الحديث.

حقوق الجوار:

اعلم: أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة؛ إذ قال النبي ﷺ: **«الجِيرَانُ ثَلاَثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ. فَالجَارُ الَّذِي لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ الجَارُ المُسْلِمُ ذُو الرَّحِمِ فَلَهُ حَقُّ الجِوَارِ وَحَقُّ الإِسْلاَمِ وَحَقُّ الرَّحِمِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَالجَارُ المُسْلِمُ لَهُ حَقُّ الجِوَارِ وَحَقُّ الإِسْلاَمِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالجَارُ المُشْرِكُ»**(١)، فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار، وقد قال ﷺ: **«أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً»**(٢)، وقال النبي ﷺ: **«مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»**(٣)، وقال ﷺ: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»**(٤)، وقال ﷺ: **«لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»**(٥)، وقال ﷺ: **«أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ جَارَانِ»**(٦)، وقال عليه الصلاة والسلام: **«إِذَا أَنْتَ رَمَيْتَ كَلْبَ جَارِكَ فَقَدْ آذَيْتَهُ»**(٧)، ويروى: أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق عليَّ، فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه. وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال ﷺ: **«هِيَ فِي النَّارِ»**(٨)، وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبي ﷺ: **«اصْبِرْ»** ثم قال له في الثالثة أو الرابعة: **«اطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ»** قال: فجعل الناس يمرّون به ويقولون ما لك؟ فيقال: آذاه جاره قال: فجعلوا يقولون: لعنه الله، فجاءه جاره فقال له: رد متاعك فوالله لا أعود(٩). وروى الزهري: أنّ رجلاً أتى النبي عليه السلام فجعل يشكو جاره، فأمره النبي ﷺ أن ينادي على باب المسجد: **«أَلا إِنَّ أَرْبَعِينَ دَاراً جَارٌ»**(١٠)، قال الزهري: أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا ـ وأومأ إلى أربع جهات. وقال عليه السلام: **«اليُمْنُ وَالشُّؤْمُ فِي المَرْأَةِ وَالمَسْكَنِ وَالفَرَسِ، فَيُمْنُ المَرْأَةِ خِفَّةُ مَهْرِها وَيُسْرُ نِكَاحِها وَحُسْنُ خُلُقِها، وَشُؤْمُها غَلاَءُ مَهْرِها وَعُسْرُ نِكَاحِها وَسُوءُ خُلُقِها. وَيُمْنُ المَسْكَنِ سَعَتُهُ**

---

(١) حديث: «الجيران ثلاثة جار له حق وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق. . .» الحديث. أخرجه الحسن بن سفيان والبزار في مسنديهما، وأبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر، وابن عدي من حديث عبدالله بن عمر وكلاهما ضعيف.

(٢) حديث: «أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً» تقدم.

(٣) حديث: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر.

(٤) حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» متفق عليه من حديث أبي شريح.

(٥) حديث: «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه» أخرجه البخاري من حديث أبي شريح أيضاً.

(٦) حديث: «أول خصمين يوم القيامة جاران» أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف.

(٧) حديث: «إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته» لم أجد له أصلاً.

(٨) حديث: «إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال: «هي في النار» أخرجه أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح الإسناد.

(٩) حديث: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال: «اصبر» ثم قال له في الثالثة ـ أو الرابعة ـ: «اطرح متاعك على الطريق. . .» الحديث. أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم.

(١٠) حديث الزهري: «ألا إن أربعين داراً جار» أخرجه أبو داود في المراسيل، ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه، ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال: «أربعون ذراعاً» وكلاهما ضعيف.

وَحُسْنُ جِوَارِ أَهْلِهِ. وَشُؤْمُهُ ضِيقُهُ وَسُوءُ جِوَارِ أَهْلِهِ، وَيُمْنُ الفَرَسِ ذُلُّهُ وَحُسْنُ خُلُقِهِ، وَشُؤْمُهُ صُعُوبَتُهُ وَسُوءُ خُلُقِهِ»(١).

واعلم: أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى، فإن الجار أيضاً قد كف أذاه، فليس في ذلك قضاء حق، ولا يكفي احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف؛ إذ يقال: إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة فيقول: يا رب، سل هذا لم منعني معروفه وسدّ بابه دوني؟.

وبلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داره في دين ركبه ـ وكان يجلس في ظل داره ـ فقال: ما قمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدماً، فدفع إليه ثمن الدار وقال: لا تبعها.

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره، فقيل له: لو اقتنيت هراً؟ فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهرّ فيهرب إلى دور الجيران؛ فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي.

وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طرقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً، ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه. هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين، وقد قال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الجَارِ؟ إِنِ اسْتَعَانَ بِكَ أَعَنْتَهُ، وَإِنِ اسْتَنْصَرَكَ نَصَرْتَهُ، وَإِنِ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِنِ افْتَقَرَ عُدْتَ عَلَيْهِ، وَإِنْ مَرِضَ عُدْتَهُ، وَإِنْ مَاتَ تَبِعْتَ جَنَازَتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيرٌ هَنَّأْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ، وَلاَ تَسْتَعْلِ عَلَيْهِ بِالبِنَاءِ فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرّاً وَلاَ يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ، وَلاَ تُؤْذِهِ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا»، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الجَارِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَبْلُغُ حَقَّ الجَارِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ»(٢)، هكذا رواه عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ. قال مجاهد: كنت عند عبدالله بن عمر وغلام له يسلخ شاة، فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، حتى قال ذلك مراراً، فقال له: كم تقول

---

(١) حديث: «اليمن والشؤم مّن المرأة والمسكن والفرس، فَيُمن المرأة خفة مهرها. . .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث ابن عمر: «الشؤم في الدار والمرأة والفرس» وفي رواية له: «إن يك من الشؤم شيء حقاً» وله من حديث سهل بن سعد: «إن كان ففي الفرس والمرأة والمسكن» وللترمذي من حديث حكيم بن معاوية: «لا شؤم وقد يكون اليمن في الدار والمرأة والفرس» ورواه ابن ماجه فسماه محمد بن معاوية، وللطبراني من حديث أسماء بنت عميس: قالت يا رسول الله ما سوء الدار؟ قال: «ضيق ساحتها وخبث جيرانها» قيل: فما سوء الدابة؟ قال: «منعها ظهرها وسوء خلقها» قيل: فما سوء المرأة؟ قال: «عقم رحمها وسوء خلقها» وكلاهما ضعيف. ورويناه في كتاب الخيل للدمياطي من رواية سالم بن عبدالله مرسلاً: «إذا كان الفرس ضروباً فهو مشؤوم، وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجاً قبل زوجها فحنت إلى الزوج الأول فهي مشؤومة، وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع فيها الأذان والإقامة فهي مشؤومة» وإسناده ضعيف، ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه.

(٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته وإن استقرضك أقرضته.» الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل وهو ضعيف.

هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه[١] . وقال هشام: كان الحسن لا يرى بأساً أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك، وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: أوصاني خليلي ﷺ وقال: **«إِذَا طَبَخْتَ قِدْراً فَأَكْثِرْ مَاءَها، ثُمَّ انْظُرْ بَعْضَ أَهْلِ بَيْتٍ فِي جِيرَانِكَ فَاغْرِفْ لَهُمْ مِنْها»**[٢] ، وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين أحدهما مقبل على بابه والآخر ناء ببابه عني، وربما كان الذي عندي لا يسعهما، فأيهما أعظم حقاً؟ فقال: **«المُقْبِلُ عَلَيْكِ بِبَابِهِ»**[٣] ورأى الصّديق ولده عبدالرحمن وهو يناصي[٤] جاراً له، فقال: لا تناص جارك، فإنّ هذا يبقى والناس يذهبون. وقال الحسن بن عيسى النيسابوري: سألت عبدالله بن المبارك فقلت: الرجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى إليه أمراً والغلام ينكره، فأكره أن أضربه ولعله بريء، وأكره أن أدعه فيجد علي جاري، فكيف أصنع؟ قال: إن غلامك لعله أن يحدث حدثاً يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث، فتكون قد أرضيت جارك وأدبته على ذلك الحدث، وهذا تلطف في الجمع بين الحقين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله تعالى لمن أحب: صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، وقري الضيف، ورأسهن الحياء.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ المُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِها وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ»**[٥] ، قال ﷺ: **«إِنَّ مِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ المُسْلِمِ: المَسْكَنَ الوَاسِعَ، وَالجَارَ الصَّالِحَ، وَالمَرْكَبَ الهَنِيءَ»**[٦] ، وقال عبدالله: قال رجل: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت، قال: **«إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ: قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ»**[٧] ، وقال جابر رضي الله عنه قال النبي ﷺ: **«مَنْ كَانَ لَهُ جَارٌ فِي حَائِطٍ أَوْ شَرِيكٌ فَلَا يَبِعْهُ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ»**[٨] وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «قضى رسول الله ﷺ أن الجار يضع جذعه في حائط

---

(١) حديث مجاهد: «كنت عند عبدالله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال: يا غلام، إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي...» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب.

(٢) حديث أبي ذر: «أوصاني خليلي ﷺ إذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها» رواه مسلم.

(٣) حديث عائشة: «قلت: يا رسول الله، إن لي جارين. . .» الحديث. رواه البخاري.

(٤) يناوص: يُناوش. أو يشمخ عليه بالبناء.

(٥) حديث أبي هريرة **«يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»** رواه البخاري.

(٦) حديث: **«إن من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء»** رواه أحمد من حديث نافع بن عبدالحارث وسعد بن أبي وقاص، وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٧) حديث عبدالله: قال رجل: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت؟ قال: **«إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت»** رواه أحمد والطبراني وعبدالله هو ابن مسعود، وإسناده جيد.

(٨) حديث جابر **«من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه»** أخرجه ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار، وقال: صحيح الإسناد، وهو عند الخرائطي في مكارم الأخلاق بلفظ المصنف، ولابن ماجه من حديث ابن عباس **«من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره»** ورجاله رجال الصحيح.

جاره شاء أم أبى»[١]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَضَعَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ» وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمينها بين أكنافكم. وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك. وقال ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الله بِهِ خَيْراً عَسَّلَهُ» قيل: وما عسله؟ قال «يُحَبِّبُهُ إِلَىٰ جِيرَانِهِ»[٢].

حقوق الأقارب الرحم:

قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ الله تَعَالَىٰ: أَنَا الرَّحْمٰنُ وَهٰذِهِ الرَّحِمُ شَقَقْتُ لَها اسْماً مِن اسْمِي فَمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَها بَتَتُّهُ»[٣]، وقال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ وَيُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٤]، وفي رواية أخرى: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ وَيُوَسَّعَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَتَّقِ الله وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» وقيل لرسول الله ﷺ أي الناس أفضل؟ قال: «أَتْقَاهُم لله وَأَوْصَلُهُمْ لِرَحِمِهِ، وَآمَرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ»[٥]، وقال أبو ذر رضي الله عنه: «أوصاني خليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً»[٦]، وقال ﷺ: «إِنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، وَلَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِىءِ، وَلٰكِنَّ الوَاصِلَ الَّذِي إِذَا انْقَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَها»[٧]، وقال عليه السلام: «إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَاباً صِلَةُ الرَّحِم، حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ البَيْتِ لَيَكُونُونَ فُجَّاراً، فَتَنْمُوا أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا وَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ»[٨]. وقال زيد بن أسلم: لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال: إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك

---

(١) حديث أبي هريرة: «قضى رسول الله ﷺ أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبى». رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا، وهو متفق عليه بلفظ: «لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبة في حائطه» رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف، واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «من أراد الله به خيراً عسله» رواه أحمد من حديث أبي عتبة الخولاني، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الزهد من حديث عمرو بن الحمق. زاد الخرائطي: قيل: وما عسله؟ قال: «حببه إلى جيرانه» وقال البيهقي: «يفتح له عملاً صالحاً قبل موته حتى يرضى عنه من حوله» وإسناده جيد.

(٣) حديث: «يقول الله: أنا الرحمن وهذه الرحم. . .» الحديث. متفق عليه من حديث عائشة.

(٤) حديث: «من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه» متفق عليه من حديث أنس دون قوله: «فليتق الله» وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي بإسناد جيد.

(٥) حديث: أي الناس أفضل فقال: «أتقاهم لله وأوصلهم للرحم» رواه أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب بإسناد حسن.

(٦) حديث أبي ذر: «أوصاني خليلي ﷺ بصلة الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً». رواه أحمد وابن حبان وصححه.

(٧) حديث: «إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث عبدالله بن عمرو، وهو عند البخاري دون قوله: «الرحم معلقة بالعرش» فرواها مسلم من حديث عائشة.

(٨) حديث: «أعجل الطاعات ثواباً صلة الرحم. . .» الحديث. أخرجه ابن حبان من حديث أبي بكرة، والخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب من حديث عبدالرحمن بن عوف بسند ضعيف.

بني مدلج، فقال عليه السلام: «**إنَّ الله قَدْ مَنَعَنِي مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ بِصِلَتِهِمُ الرَّحِمَ**»[1]، وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قدمت عليّ أمي، فقلت: يا رسول الله، إنّ أمي قدمت علي وهي مشركة أفأصلها؟ قال، «**نَعَمْ**»[2]. وفي رواية: أفأعطيها؟ قال: «**نَعَمْ صِلِيها**». وقال عليه السلام: «**الصَّدَقَةُ عَلَىٰ المَسَاكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَىٰ ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ**»[3]، ولما أراد أبو طلحة أن يتصدّق بحائط كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٢][4] قال: يا رسول الله، هو في سبيل الله، وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام: «**وَجَبَ أَجْرُكَ عَلَىٰ الله، قَسِّمْهُ فِي أَقَارِبِكَ**»، وقال عليه السلام: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَىٰ ذِي الرَّحِمِ الكَاشِحِ**»[5]، وهو في معنى قوله: «**أَفْضَلُ الفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصْفَحَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**»[6] وروي أنّ عمر رضي الله عنه كتب إلى عماله: مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا، وإنما قال ذلك لأنّ التجاور يورث التزاحم على الحقوق، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم.

حقوق الوالدين والولد:

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة، فيتضاعف تأكد الحق فيها. وقد قال ﷺ: «**لَنْ يُجْزِيَ وَلَدٌ وَالِدَهُ حَتَّىٰ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ**»[7]، وقد قال ﷺ: «**بِرُّ الوَالِدَيْنِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّوْمِ وَالحَجِّ وَالعُمْرَةِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله**»[8]، وقد قال ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مُرْضِياً لأَبَوَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَمَنْ أَمْسَىٰ فَمِثْلُ ذٰلِكَ، وَإِنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِداً، وَإِنْ ظَلَماً وَإِنْ ظَلَماً وَإِنْ ظَلَماً. وَمَنْ أَصْبَحَ مُسْخِطاً لأَبَوَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إِلَىٰ النَّارِ،**

---

(١) حديث زيد بن أسلم: لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال: إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج، فقال «**إن الله منعني من بني مدلج بصلتهم الرحم**» رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وزاد: «**وطعنهم في لبات الإبل**» وهو مرسل صحيح الإسناد.

(٢) حديث أسماء بنت أبي بكر: قدمت علي أمي فقلت: يا رسول الله، قدمت علي أمي وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «**نعم صليها**» متفق عليه.

(٣) حديث: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة**» أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سليمان بن عامر الضبي.

(٤) حديث: «لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط له كان يعجبه عملاً بقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٢]. . .» الحديث. أخرجه البخاري وقد تقدم.

(٥) حديث: «**أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح**» أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي أيوب، وفيه الحجاج بن أرطاة، ورواه البيهقي من حديث أم كلثوم بنت عقبة.

(٦) حديث: «**أفضل الفضائل أن تصل من قطعك. .**» الحديث. أخرجه أحمد من حديث معاذ بن أنس بسند ضعيف، وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة وقد تقدم.

(٧) حديث: «**لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٨) حديث: «**بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد**» لم أجده هكذا. وروى أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط من حديث أنس: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه، قال: «**هل بقي من والديك أحد؟**» قال: أمي. قال «**قابل الله في برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد**» وإسناده حسن.

وَمَنْ أَمسَىٰ مِثْلُ ذٰلِكَ، وَإِنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِداً، وَإِنْ ظَلَماً وَإِنْ ظَلَماً وَإِنْ ظَلَماً»(١)، وقال ﷺ: **«إِنَّ الجَنَّةَ يُوجَدُ رِيحُها مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَلاَ يَجِدُ رِيحَها عَاقٌّ وَلاَ قَاطِعُ رَحِمٍ»**(٢)، وقال ﷺ: **«بِرَّ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ»**(٣).

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: يا موسى، إنه من بر والديه وعقني كتبته باراً، ومن برني وعق والديه كتبته عاقاً.

وقيل: لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له: فأوحى الله إليه: أتتعاظم أن تقوم لأبيك، وعزتي وجلالي لا أخرجت من صلبك نبياً.

وقال ﷺ: **«مَا عَلَىٰ أَحَدٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ أَنْ يَجْعَلَها لِوَالِدَيْهِ إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ فَيَكُونَ لِوَالِدَيْهِ أَجْرُها وَيَكُونَ لَهُ مِثْلُ أُجُورِهِما مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِما شَيْءٌ»**(٤)، وقال مالك بن ربيعة: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي عليَّ من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتهما؟ قال: **«نَعَمْ، الصَّلاَةُ عَلَيْهِمَا، وَالاسْتِغْفَارُ لَهُما، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِما، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِما، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لاَ تُوصَلُ إِلاَّ بِهِما»**(٥)، وقال ﷺ: **«إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ الأَبُ»**(٦)، وقال ﷺ: **«بِرُّ الوَالِدَةِ عَلَىٰ الوَلَدِ ضِعْفَانِ»**(٧)، وقال ﷺ: **«دَعْوَةُ الوَالِدَةِ أَسْرَعُ إِجَابَةً»**. قيل: يا رسول الله، ولم ذاك؟ قال: **«هِيَ أَرْحَمُ مِنَ الأَبِ وَدَعْوَةُ الرَّحِمِ لاَ تَسْقُطُ»**(٨).

وسأله رجل فقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ فقال: **«بِرَّ وَالِدَيْكَ»**، فقال: ليس لي والدان، فقال:

---

(١) حديث: **«من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة. . .»** الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ولا يصح.

(٢) حديث: **«إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم»** أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي هريرة دون ذكر القاطع، وهي في الأوسط من حديث جابر، إلا أنه قال: **«من مسيرة ألف عام»** وإسنادهما ضعيف.

(٣) حديث: **«بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك»** أخرجه النسائي من حديث طارق المحاربي، وأخرجه أحمد والحاكم من حديث أبي رمثة، ولأبي داود نحوه من حديث كليب بن منفعة عن جده، وله وللترمذي والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: من أبر؟ قال: **«أمك، ثم أمك، ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب»** وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: قال رجل: من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: **«أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك»** لفظ مسلم.

(٤) حديث: **«ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين. .»** الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف ـ دون قوله: **«إذا كانا مسلمين»**.

(٥) حديث مالك بن ربيعة: **«بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: هل بقي عليَّ من بر أبوي شيء. . .»** الحديث. أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٦) حديث: **«إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه»** أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

(٧) حديث: **«بر الوالدة على الولد ضعفان»** غريب بهذا اللفظ. وقد تقدم قبل هذا بثلاثة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث أبي هريرة وهو معنى هذا الحديث.

(٨) حديث: **«دعوة الوالدة أسرع إجابة. .»** الحديث. لم أقف له على أصل.

«بِرَّ وَلَدَكَ، كَمَا أَنَّ لِوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقاً كَذٰلِكَ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ»(١)، وقال ﷺ: «رَحِمَ الله وَالِداً أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَىٰ بِرِّهِ»(٢)، أي لم يحمله على العقوق بسوء عمله. وقال ﷺ: «سَاوُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي العَطِيَّةِ» وقد قيل: «ولدك ريحانتك تشمها سبعاً وخادمك سبعاً، ثم هو عدوّك أو شريكك» وقال أنس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «الغُلَامُ يُعَقُّ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُسَمَّىٰ وَيُمَاطُ عَنْهُ الأَذَىٰ، فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ سِنِينَ أُدِّبَ، فَإِذَا بَلَغَ تِسْعَ سِنِينَ عُزِلَ فِرَاشُهُ، فَإِذَا بَلَغَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ضُرِبَ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً زَوَّجَهُ أَبُوهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: قَدْ أَدَّبْتُكَ وَعَلَّمْتُكَ وَأَنْكَحْتُكَ، أَعُوذُ بِالله مِنْ فِتْنَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابِكَ فِي الآخِرَةِ»(٣)، وقال ﷺ: «مِنْ حَقِّ الوَالِدِ عَلَىٰ الوَلَدِ أَنْ يُحْسِنَ أَدَبَهُ وَيُحْسِنَ اسْمَهُ»(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينٌ أَوْ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ»(٥)، وقال قتادة: إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل عنه مثل الخيط ثم يغسل رأسه ويحلق بعد.

وجاء رجل إلى عبدالله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده، فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم. قال: أنت أفسدته.

ويستحب الرفق بالولد: رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل ولده الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»(٦)، وقالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ: «اغْسِلِي وَجْهَ أُسَامَةَ»، فجعلت أغسله وأنا أنفة، فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال: «قَدْ أَحْسَنَ بِنَا إِذْ لَمْ يَكُنْ جَارِيَةً»(٧). وتعثر الحسن،

---

(١) حديث: قال رجل يا رسول الله من أبر؟ قال «بر والديك» فقال ليس لي والدان فقال: «ولدك فكما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق» أخرجه أبو عمر النوقاني في كتاب معاشرة الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله: «فكما أن لوالديك» الخ وهذه القطعة رواها الطبراني من حديث ابن عمر، قال الدارقطني في العلل: إن الأصح وقفه على ابن عمر.

(٢) حديث: «رحم الله والداً أعان ولده على بره» أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث علي بن أبي طالب وابن عمر بسند ضعيف، ورواه النوقاني من رواية الشعبي مرسلاً.

(٣) حديث أنس: «الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة»، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الضحايا والعقيقة إلا أنه قال: «وأدبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة ولم يذكر الصوم» وفي إسناده من لم يسم.

(٤) حديث: «من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وحديث عائشة وضعفهما.

(٥) حديث: «كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه» أخرجه أصحاب السنن من حديث سمرة، قال الترمذي: حسن صحيح.

(٦) حديث: رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال: «من لا يرحم لا يُرحم» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. الأقرع بن حابس التميمي الدارمي، شهد فتح مكة وحنيناً والطائف، كان حكماً في الجاهلية، اعتبره النبي ﷺ من المؤلفة قلوبهم، توفي زمن عثمان غازياً في خراسان.

(٧) حديث عائشة: قال لي رسول الله ﷺ يوماً: «اغسلي وجه أسامة» فجعلت أغسله وأنا أنفة؛ فضرب بيدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال: «قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية» لم أجده هكذا، ولأحمد من حديث عائشة: أن أسامة عثر بعتبة الباب فدمي فجعل النبي ﷺ يمصه ويقول: «لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى أنفقها» وإسناده صحيح.

والنبي ﷺ على منبره فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥](١) وقال عبدالله بن شداد: بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس؛ إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر فقال: «**إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته**»(٢)، وفي ذلك فوائد: إحداها القرب من الله تعالى؛ فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجداً، وفيه الرفق بالولد والبر، وتعليم لأمته. وقال ﷺ: «**رِيحُ الوَلَدِ مِنْ رِيحِ الجَنَّةِ**»(٣).

وقال يزيد بن معاوية: أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس، فلما وصل إليه قال له: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة؛ فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً، فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك، فقال له معاوية: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليَّ وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد. فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقاسمه إياها على الشطر.

فهذه هي الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين وكيفية القيام بحقهما تعرف مما ذكرناه في حق الأخوة، فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة بل يزيد ههنا أمران.

أحدهما: أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض، حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما، لأن ترك الشبهة ورع، ورضا الوالدين حتم. وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل، لأنه على التأخير، والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك، وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين.

قال أبو سعيد الخدري: هاجر رجل إلى رسول الله ﷺ من اليمن وأراد الجهاد، فقال عليه السلام: «**هَلْ باليَمَنِ أَبَوَاكَ**» قال: نعم، قال: «**هَلْ أَذِنَا لَكَ؟**» قال: لا، فقال عليه السلام: «**فَارْجِعْ إِلَىٰ أَبَوَيْكَ فَاسْتَأْذِنْهُمَا، فَإِنْ فَعَلَا فَجَاهِدْ، وَإِلاَّ فَبِرَّهُما مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ ذٰلِكَ خَيْرُ مَا تَلْقَىٰ الله بِهِ بَعْدَ التَّوحِيدِ**»(٤)، وجاء آخر إليه ﷺ ليستشيره في الغزو فقال: «**أَلَكَ وَالِدَةٌ؟**» قال: نعم. قال: «**فَالْزَمْها فَإِنَّ**

---

(١) حديث: «عثر الحسن وهو على منبره ﷺ فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]»، أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة في الحسن والحسين معاً يمشيان ويعثران، قال الترمذي: حسن غريب.

(٢) حديث عبدالله بن شداد: «بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه». رواه النسائي من رواية عبدالله بن شداد عن أبيه وقال: فيه الحسن أو الحسين على الشك، ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

(٣) حديث: «ريح الولد من ريح الجنة» أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه مندل بن علي ضعيف.

(٤) حديث أبي سعيد الخدري: «هاجر رجل إلى رسول الله ﷺ من اليمن وأراد الجهاد فقال ﷺ «باليمن أبواك؟» قال: نعم. . .» الحديث. أخرجه أحمد وابن حبان دون قوله: «ما استطعت» الخ.

الجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيها»[(١)] . وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال: ما جئتك حتى أبكيت والدي، فقال: **«ارْجِعْ إِلَيْهِما فَأَضْحِكْهُما كَما أَبْكَيْتَهُما»**[(٢)] .

وقال ﷺ: **«حَقُّ كَبِيرِ الإِخْوَةِ عَلَىٰ صَغِيرِهِمْ كَحَقِّ الوَالِدِ عَن وَلَدِهِ»**[(٣)] .

وقال عليه السلام: **«إِذَا اسْتَصْعَبَتْ عَلَىٰ أَحَدِكُمْ دَابَّتُهُ أَوْ سَاءَ خُلُقُ زَوْجَتِهِ أَوْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَلْيُؤَذِّنْ فِي أُذُنِهِ»**[(٤)] .

حقوق المملوك:

اعلم: أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه في آداب النكاح، فأما ملك اليمين فهو أيضاً يقتضي حقوقاً في المعاشرة لا بد من مراعاتها، فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أن قال: **«اتَّقُوا الله فِيما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مِنَ العَمَلِ مَا لاَ يُطِيقُونَ، فَما أَحْبَبْتُم فَأَمْسِكُوا وَمَا كَرِهْتُمْ فَبِيعُوا، وَلاَ تُعَذِّبُوا خَلْقَ الله فَإِنَّ الله مَلَّكَكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَوْ شَاءَ لَمَلَّكَهُمْ إِيَّاكُمْ»**[(٥)] وقال ﷺ: **«لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ يُكَلَّفُ مِنَ العَمَلِ مَا لاَ يُطِيقُ»**[(٦)] ، وقال عليه السلام: **«لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ خَبٌّ وَلاَ مُتَكَبِّرٌ وَلاَ خَائِنٌ وَلاَ سَيِّىءُ المَلَكَةِ»**[(٧)] ، وقال عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كم نعفو عن الخادم؟

---

(١) حديث: جاء آخر إلى النبي ﷺ يستشيره في الغزو فقال **«ألك والدة؟»** فقال: نعم، قال: **«فالزمها فإن الجنة تحت قدمها»** أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جاهمة: أن جاهمة أتى النبي ﷺ . قال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٢) حديث: جاء آخر فقال: ما جئتك حتى أبكيت والدي فقال: **«ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»** أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبدالله بن عمرو قال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث: **«حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده»** أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة، ورواه أبو داود في المراسيل من رواية سعيد بن عمرو بن العاص مرسلاً، ووصله صاحب مسند الفردوس فقال: عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص وإسناده ضعيف.

(٤) حديث: **«إذا استصعب على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه»** أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب بسند ضعيف نحوه.

(٥) حديث: كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أن قال: **«اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون. . .»** الحديث. الخ وهو مفرق في عدة أحاديث: فروى أبو داود من حديث علي: كان آخر كلام رسول الله ﷺ **«الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»** وفي الصحيحين من حديث أنس: كان آخر وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت **«الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»** ولهما من حديث أبي ذر: **«أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»** لفظ رواية مسلم، وفي رواية لأبي داود: **«من يلائمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لا يلائمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى»** وإسناده صحيح.

(٦) حديث: **«للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: **«لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيىء الملكة»** أخرجه أحمد مجموعاً، والترمذي مفرقاً، وابن ماجه مقتصراً على **«سيىء الملكة»** من حديث أبي بكر وليس عند أحد منهم **«متكبر»**، وزاد أحمد والترمذي: **«البخيل والمنان»** وهو ضعيف، وحسن الترمذي أحد طريقيه.

فصمت عنه رسول الله ﷺ ثم قال: «اعْفُ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١)، وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت، فإذا وجد عبداً في عمل لا يطيقه وضع عنه منه. ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى رجلاً على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له: يا عبدالله، احمله خلفك فإنما هو أخوك، روحه مثل روحك. فحمله ثم قال: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى خلفه. وقالت جارية لأبي الدرداء: إني سممتك منذ سنة فما عمل فيك شيئاً فقال: لم فعلت ذلك؟ فقالت: أردت الراحة منك، فقال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله. وقال الزهري: متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر. وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها: أنت حرة لا بأس عليك. وكان عون بن عبدالله إذا عصاه غلامه قال: ما أشبهك بمولاك؟ مولاك يعصي مولاه وأنت تعصي مولاك، فأغضبه يوماً فقال: إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر. وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون، فقال: يا جارية أحرقتني، قالت: يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى. قال: وما قال الله تعالى؟ قلت: قال ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] قال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] قال: قد عفوت عنك، قالت: زد فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] قال: أنت حرة لوجه الله تعالى. وقال ابن المنكدر: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبداً له فجعل العبد يقول: أسألك بالله أسألك بوجه الله، فلم يعفه فسمع رسول الله ﷺ صياح العبد فانطلق إليه، فلما رأى رسول الله ﷺ أمسك يده، فقال رسول الله: «سَأَلَكَ بِوَجْهِ الله فَلَمْ تَعْفُهُ فَلَمَّا رَأَيْتَنِي أَمْسَكْتَ يَدَكَ» قال: فإنه حر لوجه الله يا رسول الله، فقال: «لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَسَفَعَتْ وَجْهَكَ النَّارُ»(٢)، وقال ﷺ: «العَبْدُ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ الله فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ»(٣)، ولما أعتق أبو رافع بكى وقال: كان لي أجران فذهب أحدهما. وقال ﷺ: «عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَأَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَأَمَّا أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: فَالشَّهِيدُ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالٍ، وَأَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ؛ وَذُو ثَرْوَةٍ لاَ يُعْطِي حَقَّ الله، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ»(٤)، وعن أبي مسعود الأنصاري قال: بينا

---

(١) حديث ابن عمر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت ثم قال: «اعف عنه كل يوم سبعين مرة» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) حديث ابن المنكدر: «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبداً له فجعل العبد يقول: أسألك بالله أسألك بوجه الله؛ فسمع رسول الله ﷺ صياح العبد. .» الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد مرسلاً وفي رواية لمسلم في حديث أبي مسعود الآتي ذكره: فجعل يقول: أعوذ بالله، قال فجعل يضربه فقال: أعوذ برسول الله فتركه، وفي رواية له: فقلت: هو حر لوجه الله، فقال: «أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار» أو «لمستك النار».

(٣) حديث: «إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين» متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٤) حديث: «عرض عليَّ أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار: فأول ثلاثة يدخلون الجنة: الشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده. .» الحديث. أخرجه الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة.

أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي «اعْلَمْ يَا أَبَا مَسْعُودٍ» مرتين فالتفت فإذا رسول الله ﷺ، فألقيت السوط من يدي فقال: «وَاللهِ للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هٰذَا»(١)، وقال ﷺ: «إِذَا ابْتَاعَ أَحَدُكُم الخَادِمَ فَلْيَكُنْ أَوَّلُ شَيْءٍ يُطْعِمُهُ الحُلْوَ فَإِنَّهُ أَطْيَبُ لِنَفْسِهِ»(٢)، رواه معاذ. وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَىٰ أَحَدَكُمْ خَادِمُه بِطَعَامِهِ فَلْيُجْلِسْهُ وَلْيَأْكُلْ مَعَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً»(٣)، وفي رواية: «إِذَا كَفَىٰ أَحَدَكُمْ مَمْلُوكُهُ صَنْعَةَ طَعَامِهِ، فَكَفَاهُ حَرَّهُ وَمُؤْنَتَهُ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ فَلْيُجْلِسْهُ وَلْيَأْكُلْ مَعَهُ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُنَاوِلْهُ أَوْ لِيَأْخُذْ أُكْلَةً فَلْيُرَوِّغْها ـ وأشار بيده ـ وَلْيَضَعْها فِي يَدِهِ وَلْيَقُلْ: كُلْ هٰذِهِ». ودخل على سلمان رجل وهو يعجن فقال: يا أبا عبدالله ما هذا؟ فقال: بعثنا الخادم في شغل، فكرهنا أن نجمع عليه عملين. وقال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ جَارِيَةٌ فَصَانَها وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا ثُمَّ أَعْتَقَها وَتَزَوَّجَها فَذٰلِكَ لَهُ أَجْرَانِ»(٤)، وقد قال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٥).

فجملة حق المملوك: أن يشركه في طعمته وكسوته، ولا يكلفه فوق طاقته، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء، وأن يعفو عن زلته، ويتفكر عند غضبه عليه بهفوته أو بجنايته في معاصيه وجنايته على حق الله تعالى وتقصيره في طاعته مع أنّ قدرة الله عليه فوق قدرته. وروى فضالة بن عبيد أن النبي ﷺ قال: «ثَلاثَةٌ لا يُسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الجَمَاعَةَ، وَرَجُلٌ عَصَىٰ إِمَامَهُ فَمَاتَ عَاصِياً فَلَا يُسْأَلُ عَنْهُما، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْها زَوْجُها وَقَدْ كَفَاها مُؤْنَةَ الدُّنْيا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ فَلَا يُسْأَلُ عَنْها. وَثَلاثَةٌ لا يُسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ يُنَازِعُ اللهَ رِدَاءَهُ وَرِدَاؤُهُ الكِبْرِيَاءُ وَإِزَارُهُ العِزُّ، وَرَجُلٌ فِي شَكٍّ مِنَ اللهِ، وَقَنُوطٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»(٦).

تم كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

---

(١) حديث أبي مسعود الأنصاري: «بينا أنا أضرب غلاماً لي سمعت صوتاً من خلفي «اعلم أبا مسعود» مرتين..» الحديث. رواه مسلم.

(٢) حديث معاذ: «إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلو فإنه أطيب لنفسه» أخرجه الطبراني في الأوسط، والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

(٣) حديث أبي هريرة: «وليأكل معه فإن أبى فليناوله» وفي رواية «إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه...» الحديث. متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطي باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر: «علاجه» وهذه اللفظة عند البخاري.

(٤) حديث: «من كانت عنده جارية فعالها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران» متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٥) حديث: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم.

(٦) حديث فضالة بن عبيد: «ثلاثة لا يسأل عنهم: رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصياً...» الحديث. أخرجه الطبراني وصححه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربع العادات من كتاب احياء علوم الدين

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته، بأن صرف هممهم إلى مؤانسته، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته، وروّح أسرارهم بمناجاته وملاطفته، وحقر في قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجاري فكرته، فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى في خلوته، واستوحش بذلك عن الأنس بالإنس وإن كان من أخص خاصته، والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته، وعلى آله وصحابته سادة الحق وأئمته.

أما بعد: فإن للناس اختلافاً كثيراً في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى، ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها، وفوائد تدعو إليها، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة، وما ذكرناه في كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم. ويحصل ذلك برسم بابين:

الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها.

الباب الثاني: في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل.

❋ ❋ ❋

الباب الأول

في نقل المذاهب والأقاويل، وذكر حجج الفريقين في ذلك

أما المذاهب: فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين؛ فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، وفضيل بن عياض، وسليمان الخوّاص، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وبشر الحافي.

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار المعارف والإخوان والتألف، والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى، ومال إلى هذا: سعيد بن المسيب،

والشعبي، وابن أبي ليلى، وهشام بن عروة، وابن شبرمة، وشريح، وشريك بن عبدالله، وابن عيينة، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وجماعة.

والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين، وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل. فلننقل الآن مطلقات تلك الكلمات؛ لنبين المذاهب فيها، وما هو مقرون بذكر العلة نورده عند التعرض للغوائل والفوائد، فنقول: قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: خذوا بحظكم من العزلة. وقال ابن سيرين: العزلة عبادة. وقال الفضيل: كفى بالله محباً، وبالقرآن مؤنساً، وبالموت واعظاً. وقيل: اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً. وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي: عظني، قال: صُمْ عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفرّ من الناس فرارك من الأسد. وقال الحسن رحمه الله: كلمات أحفظهن من التوراة؛ قنع ابن آدم فاستغنى، اعتزل الناس فسلم، ترك الشهوات فصار حرّاً، وترك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلاً فتمتع طويلاً. وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء؛ تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس. وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار: ما أصبرك على الوحدة؟ ـ وقد كان لزم البيت ـ فقال: كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا؛ كنت أجالس الناس ولا أكلمهم. وقال سفيان الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت. وقال بعضهم: كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا سبعاً لا نسمع له كلاماً، فقلنا له: يا هذا، قد جمعنا الله وإياك منذ سبع، ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا، فأنشأ يقول:

قليلُ الهمّ لا ولد يموت ... ولا أمر يحاذره يفوتُ
قضى وطَرَ الصبا وأفاد علماً ... فغايتُه التفرّد والسكوتُ

وقال إبراهيم النخعي لرجل: تفقهْ ثم اعتزل، وكذا قال الربيع بن خيثم. وقيل: كان مالك بن أنس يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعطي الإخوان حقوقهم، فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها، وكان يقول: لا يتهيأ للمرء أن يخبر كل عذر له. وقيل لعمر بن عبدالعزيز: لو تفرغت لنا؟ فقال: ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى. وقال الفضيل: إني لأجد للرجل عندي يداً؛ إذا لقيني أن لا يسلم علي، وإذا مرضت أن لا يعودني. وقال أبو سليمان الداراني: بينما الربيع بن خيثم جالس على باب داره، إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه، فجعل يمسح الدم ويقول: لقد وعظت يا ربيع، فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته. وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لزما بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها حتى ماتا بالعقيق. وقال يوسف بن أسباط: سمعت سفيان الثوري يقول: والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة. وقال بشر بن عبدالله: أَقِلَّ من معرفة الناس؛ فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة، فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلاً. ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، قال: وما هي؟ قال: أن لا تراني ولا أراك ولا تعرفني. وقال رجل لسهل: أريد أن أصحبك، فقال: إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر؟

قال: الله، قال: فليصحبه الآن. وقيل للفضيل: إن علياً ابنك يقول: لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يروني، فبكى الفضيل وقال: يا ويح علي أفلا أتمها فقال: لا أراهم ولا يروني؟. وقال الفضيل أيضاً: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا تَرى ولا تُرى. فهذه أقاويل المائلين إلى العزلة.

ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها:

احتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ١٠٥] الآية. وبقوله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]. امتن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف؛ لأن المراد به تفرّق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة، والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور؛ وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات، والعزلة لا تنافي ذلك.

واحتجوا بقوله ﷺ: «**المُؤمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ**»(١) وهذا ضعيف؛ لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتنع بسببه المؤالفة، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف، ولكنه ترك المخالطة اشتغالاً بنفسه وطلباً للسلامة من غيره.

واحتجوا بقوله ﷺ: «**مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْراً خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ**» وقال: «**مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ**»(٢)، وبقوله ﷺ: «**مَنْ شَقَّ عَصَا المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمُونَ فِي إِسْلَامٍ دَامِجٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ**»(٣)، وهذا ضعيف؛ لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة فالخروج عليهم بغي، وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم، وذلك محظور؛ لاضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم، ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة، فليس في هذا تعرض للعزلة.

واحتجوا بنهيه ﷺ عن الهجر فوق ثلاث إذ قال: «**مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ**»(٤)، وقال عليه السلام: «**لاَ يَحِلُّ لامْرِىءٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلَاثٍ وَالسَّابِقُ بِالصُّلْحِ يَدْخُلُ الجَنَّةَ**»(٥)، وقال: «**مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَافِكِ دَمِهِ**»(٦)، قالوا: والعزلة هجره بالكلية. وهذا ضعيف؛ لأن المراد

كتاب العزلة

الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها

(١) حديث: «**المؤمن إلف مألوف...**» الحديث. تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة.

(٢) حديث: «**من ترك الجماعة فمات فميتته جاهلية**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة؛ وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام.

(٣) حديث: «**من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربقة الإسلام**» أخرجه الطبراني والخطابي في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد.

(٤) حديث: «**من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار**» أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

(٥) حديث: «**لا يحل لامرىء أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة**» متفق عليه من حديث أنس دون قوله: «**والسابق بالصلح**» زاد فيه الطبراني «**والذي يبدأ بالصلح يسبق إلى الجنة**».

(٦) حديث: «**من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه**» أخرجه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حدرد بن أبي حدرد وإسناده صحيح.

به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلاً من غير غضب. مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين:

أحدهما: أن يرى فيه إصلاحاً للمهجور في الزيادة.

الثاني: أن يرى لنفسه سلامة فيه. والنهي وإن كان عاماً فهو محمول على ما وراء الموضعين المخصوصين بدليل ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ هجرها ذا الحجة والمحرّم وبعض صفر(١). وروي عن عمر: أنه ﷺ اعتزل نساءه وآلى منهن شهراً، وصعد إلى غرفة له وهي خزانته فلبث تسعاً وعشرين يوماً، فلما نزل قيل له: إنك كنت فيها تسعاً وعشرين، فقال: «**الشهر قد يكون تسعاً وعشرين**»(٢)، وروت عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «**لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ إلاَّ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لاَ تُؤْمَنُ بَوَائِقُهُ**»(٣)، فهذا صريح في التخصيص، وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال: هجران الأحمق قربة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت؛ إذ الحماقة لا ينتظر علاجها. وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلاً حتى مات، فقال: هذا شيء قد تقدّم فيه قوم؛ سعد بن أبي وقاص كان مهاجراً لعمار بن ياسر حتى مات، وعثمان بن عفان كان مهاجراً لعبدالرحمن بن عوف، وعائشة كانت مهاجرة لحفصة، وكان طاوس مهاجراً لوهب بن منبه حتى ماتا. وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة.

واحتجوا بما روي: أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال: «**لاَ تَفْعَلْ أَنْتَ وَلاَ أَحَدٌ مِنْكُمْ، لَصَبْرُ أَحَدِكُمْ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ أَرْبَعِينَ عَاماً**»(٤)، والظاهر: أنّ هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسلام، بدليل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء، فقال واحد من القوم: لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**لاَ تَفْعَلْ فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ صَلاَتِهِ فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ عَاماً، أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَتَدْخُلُوا الجَنَّةَ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ الله فَإِنَّهُ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ الله فُوَاقَ نَاقَةٍ أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ**»(٥).

واحتجوا: بما روى معاذ بن جبل أنه ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الغَنَمِ يَأْخُذُ**

---

(١) حديث: «أنه ﷺ هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر».
قلت: إنما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح.

(٢) حديث عمر: «أنه ﷺ اعتزل نساءه وآلى منهن شهراً...» الحديث. متفق عليه.

(٣) حديث عائشة: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لا يأمن بوائقه**». أخرجه ابن عدي وقال: غريب المتن والإسناد، وحديث عائشة عن أبي داود دون الاستثناء بإسناد صحيح.

(٤) حديث: أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال: «**لا تفعل**» الحديث. أخرجه البيهقي من حديث عسعس بن سلامة، قال ابن عبدالبر: يقولون: إن حديثه مرسل، وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

(٥) حديث أبي هريرة: «**غزونا على عهد رسول الله ﷺ فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء غزيرة، فقال واحد من القوم: لو اعتزلت الناس في هذا الشعب...**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم إلا أن الترمذي قال: «**سبعين عاماً**».

القَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ وَالشَّارِدَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالعَامَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَالمَسَاجِدِ»(١)، وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام العلم، وسيأتي بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة.

ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة:

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ [مريم: ٤٨] الآية. ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩] إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة، وهذا ضعيف؛ لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين، وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه إلا هجرهم، وإنما الكلام في مخالطة المسلمين وما فيها من البركة، لما روي أنه قيل: يا رسول الله الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يتطهر منها الناس؟ فقال: **«بَلْ مِنْ هٰذِهِ المَطَاهِرِ الْتِمَاساً لِبَرَكَةِ أَيْدِي المُسْلِمِينَ»**(٢)، وروي أنه ﷺ لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها، فإذا التمر المنقع في حياض الأدم وقد مغثه الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون، فاستسقى منه وقال: **«اسْقُونِي»** فقال العباس: إن هذا النبيذ شراب قد مغث وخيض بالأيدي، أفلا آتيك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر في البيت؟ فقال: **«اسْقُونِي مِنْ هٰذَا الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ أَلْتَمِسُ بَرَكَةَ أَيْدِي المُسْلِمِينَ»** فشرب منه(٣)، فإذن كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم؟.

واحتجوا أيضاً بقول موسى عليه السلام: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان: ٢١] وأنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم، وقال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦] أمرهم بالعزلة. وقد اعتزل نبينا ﷺ قريشاً لما آذوه وجفوه ودخل الشعب، وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة(٤)، ثم تلاحقوا به إلى المدينة

---

(١) حديث معاذ بن جبل: **«الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية»** أخرجه أحمد والطبراني ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعاً.

(٢) حديث: قيل له ﷺ الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يطهر منها الناس؟ فقال: **«بل من هذه المطاهر...»** الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف.

(٣) حديث: «لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم يشرب منها فإذا التمر منقع في حياض الأدم قد مغثه الناس بأيديهم...» الحديث. وفيه فقال: **«اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس»** رواه الأزرقي في تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف، ومن رواية طاوس مرسلاً نحوه.

(٤) حديث: **«اعتزاله ﷺ قريشاً لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى الحبشة...»** الحديث. رواه موسى بن عقبة في المغازي، ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب مرسلاً، ورواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن شهاب علي بن أبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام مرسلاً أيضاً، ووصله من رواية أبي سلمة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بني هاشم في الشعب، وذكر موسى بن عقبة أن أبا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ومغازي موسى بن عقبة أصح المغازي وذكر موسى بن عقبة أيضاً أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة، ولأبي داود من حديث أبي موسى: **«أمرنا النبي ﷺ أن ننطلق إلى أرض النجاشي»**. قال البيهقي: وإسناده صحيح، ولأحمد من حديث ابن مسعود: **«بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي»**. وروى ابن إسحاق بإسناد جيد، ومن طريقه البيهقي في الدلائل من حديث أم سلمة: **«إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده...»** الحديث.

بعد أن أعلى الله كلمته. وهذا أيضاً اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم، فإنه ﷺ لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار. وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار، وإنما النظر في العزلة من المسلمين.

واحتجوا بقوله ﷺ لعبدالله بن عامر الجهني لما قال: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: **«لِيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ»**[(١)]، وروي أنه قيل له ﷺ أي الناس أفضل؟ قال: **«مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَىٰ»** قيل: ثم من؟ قال: **«رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«إِنَّ الله يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ النَّقِيَّ الخَفِيَّ»**[(٣)].

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر، فأما قوله لعبدالله بن عامر: فلا يمكن تنزيله إلا على ما عرفه ﷺ بنور النبوة من حاله، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك، ورب شخص تكون سلامته في العزلة لا في المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد، وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل، وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة، ولذلك قال ﷺ: **«الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِر عَلَىٰ أَذَاهُمْ»**[(٤)]، وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام: **«رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»** فهذه إشارة إلى شرير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته. وقوله: **«إِنَّ الله يُحِبُّ التَّقِيَّ الخَفِيَّ»**، إشارة إلى إيثار الخمول وتوقي الشهرة. وذلك لا يتعلق بالعزلة فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس؟ وكم من مخالط خامل لا ذكر له ولا شهرة؟ فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة.

واحتجوا بما روي أنه ﷺ قال لأصحابه: **«أَلا أُنَبِّئُكُم بِخَيْرِ النَّاسِ؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، فأشار بيده نحو المغرب وقال: **«رَجُلٌ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله يَنْتَظِرُ أَنْ يُغِيرَ أَوْ يُغَارُ عَلَيْهِ. أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَهُ؟»** وأشار بيده نحو الحجاز وقال: **«رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ يُقِيمُ الصَّلاَةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَعْلَمُ حَقَّ الله فِي مَالِهِ اعْتَزَلَ شُرُورَ النَّاسِ»**[(٥)]، فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها من الجانبين فلا بد من كشف الغطاء؛ بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقايسة بعضها بالبعض ليتبين الحق فيها.

* * *

(١) حديث: سأله عقبة بن عامر: يا رسول الله ما النجاة؟ فقال: **«ليسعك بيتك. . .»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عقبة وقال: حسن.

(٢) حديث: أي الناس أفضل؟ فقال: **«مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»**، قيل: ثم من؟ قال: **«رجل معتزل. . .»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) حديث: **«إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي»** أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٤) حديث: **«الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»** أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر، ولم يسم الترمذي الصحابي. قال شيخ من أصحاب النبي ﷺ: والطريق واحد.

(٥) حديث: **«ألا أنبئكم بخير الناس؟»** قالوا: بلى، قال: فأشار بيده نحو المغرب وقال: **«رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه»** الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أم مبشر إلا أنه قال: نحو المشرق، بدل: المغرب، وفيه ابن إسحاق رواه بالعنعنة، وللترمذي والنسائي نحوه مختصراً من حديث ابن عباس، قال الترمذي: حديث حسن.

الباب الثاني

في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها

اعلم: أن اختلاف الناس في هذا يضاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده، فكذلك القول فيما نحن فيه. فلنذكر أولاً فوائد العزلة: وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية، والدينية: تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم، وإلى تخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء. وأما الدنيوية: فتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة؛ كتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها، وطمعه في الناس وطمع الناس فيه، وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذي بسوء خلق الجليس في مرائه أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذي بثقله وتشويه خلقته. وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلنحصرها في ست فوائد:

الفائدة الأولى:

التفرّغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه، ولهذا قال بعض الحكماء: لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى؛ والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله، الذاكرون الله بالله: عاشوا بذكر الله، وماتوا بذكر الله، ولقوا الله بذكر الله. ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم. ولذلك كان ﷺ في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوّة[(1)] فكان الخلق لا يحجبونه عن الله؛ فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله، فأخبر النبي ﷺ عن استغراق همه بالله فقال: **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلٰكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الله»**[(2)]، ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً والإقبال على الله سراً إلا قوّة النبوّة، فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه؛ فقد نقل عن الجنيد أنه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم. وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبقى لغيره فيه متسع وذلك غير منكر، ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس ببدنه وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبوبه. بل الذي دهاه ملم يشوّش عليه أمراً من أمور دنياه فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا

الباب الثاني: في فوائد العزلة وغوائلها

(١) حديث: «كان ﷺ في أول أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه». متفق عليه من حديث عائشة نحوه: «فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه...» الحديث.

(٢) حديث: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدّة استغراقه. وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء، فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة. ولذلك قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة؟ فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبت العلوم في قلوبهم؛ ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة. وقيل لبعض الرهبان: ما أصبرك على الوحدة! فقال: ما أنا وحدي أنا جليس الله تعالى؛ إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صليت. وقيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلوة؟ فقال: إلى الأنس بالله. وقال سفيان بن عيينة: لقيت إبراهيم بن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له: يا إبراهيم تركت خراسان؟ فقال: ما تهنأت بالعيش إلا ههنا، أفرّ بديني من شاهق إلى شاهق، فمن يراني يقول موسوس أو حمال أو ملاح. وقيل لغزوان الرقاشي: هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك؟ قال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي. وقيل للحسن: يا أبا سعيد ههنا رجل لم تره قط جالساً إلا وحده خلف سارية. فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني به، فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن: هذا الرجل الذي أخبرناك به وأشاروا إليه، فمضى إليه الحسن وقال له: يا عبدالله، أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس؟ فقال: أمر شغلني عن الناس، قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه؟ فقال: أمر شغلني عن الناس وعن الحسن. قال له الحسن: وما ذاك الشغل يرحمك الله؟ فقال: إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنب. فقال له الحسن: أنت يا عبدالله أفقه عندي من الحسن فالزم ما أنت عليه. وقيل: بينما أويس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس: ما جاء بك؟ قال: جئت لآنس بك، فقال أويس: ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره. وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت به وقلت: أخلو بربي، وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي. وقال عبدالله بن زيد: طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة. وقال ذو النون المصري: سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه. وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عزّ وجلّ عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره. وقال ابن المبارك: ما أحب حال من انقطع إلى الله تعالى! ويروى عن بعض الصالحين أنه قال: بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال، فلما نظر إليّ تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت: سبحان الله تبخل عليّ بالنظر إليك؟ فقال: يا هذا، إني أقمت في هذا الجبل دهراً طويلاً أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي، فسكنه الله عن الاضطراب وألفه الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأوّل، فإليك عني فإني أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب القانتين، ثم صاح: واغمّاه من طول المكث في الدنيا، ثم حوّل وجهه عني، ثم نفض يديه وقال: إليك عني، يا دنيا، لغيري فتزيني وأهلك فغري، ثم قال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان، وجمع همهم في ذكره فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته، ثم مضى وهو يقول: قدوس قدوس. فإذاً: في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل:

وإني لأستغشي وما بي غشوة ... لعلّ خيالاً منك يلقى خياليا
وأخرجُ من بين الجلوس لعلني ... أحدّث عنك النفس بالسرّ خاليا

ولذلك قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيكثر حينئذ ملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة. وقد قيل: الاستئناس من علامات الإفلاس. فإذاً: هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخواص. ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله؛ فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محباً لله عارفاً بالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة.

الفائدة الثانية:

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة: الغيبة والنميمة، والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

أما الغيبة: فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات وجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصّديقون. فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس والتفكه بها والتنفل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم، وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكاً، والمستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فهو من أصول الدين وهو واجب ـ كما سيأتي بيانه في آخر هذا الربع ـ ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكت عصى الله به، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر؛ إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاص هي أكبر مما نهى عنه ابتداء. وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق، وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً وقال: «أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِذَا رَأَىٰ النَّاسُ المُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ»**[(١)]، وقد قال ﷺ: **«إِنَّ الله لَيَسْأَلُ العَبْدَ حَتَّىٰ يَقُولَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ المُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ الله لِعَبْدٍ حُجَّتَهُ قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ»**[(٢)]، وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق، ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر، وفي العزلة خلاص، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل:

وكم سقت في آثاركم من نصيحة ... وقد يستفيد البغضة المتنصّح

---

(١) حديث أبي بكر: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنكم لتضعونها في غير موضعها...» الحديث. أخرجه أصحاب السنن، قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) حديث: «**إن الله يسأل العبد حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر في الدنيا أن تنكره...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد.

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالباً؛ فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه، فإذا سقط عليه يقول: يا ليتني تركته مائلاً. نعم لو وجد أعواناً أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام، وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك.

وأما الرياء: فهو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا. وأقل ما يلزم فيه النفاق؛ فإنك إن خالطت متعاديين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتهما كنت من شرار الناس. وقال ﷺ: **«تَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ يَأْتِي هٰؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَهٰؤُلاءِ بِوَجْهٍ»**[1]، وقال عليه السلام: **«إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ يَأْتِي هؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَهٰؤُلاءِ بِوَجْهٍ»**[2]، وأقل ما يجب في مخالطة الناس: إظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه، وهذا نفاق محض. قال سري: لو دخل أخ لي فسويت لحيتي بيدي لدخوله لخشيت أن أكتب في جريدة المنافقين. وكان الفضيل جالساً وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة يا أبا علي، فقال: هي والله بالمواحشة أشبه، هل تريد إلا أن تتزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك؟ إما أن تقوم عني أو أقوم عنك. وقال بعض العلماء: ما أحب الله عبداً إلا أحب أن لا يُشعَر به. ودخل طاوس على الخليفة هشام فقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال: لِمَ لَمْ تخاطبني بأمير المؤمنين؟ فقال: لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك، فخشيت أن أكون كاذباً. فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز فليخالط الناس وإلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين. فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون في قولهم: كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي الجواب عنه، فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا. قال حاتم الأصم لحامد اللفاف: كيف أنت في نفسك؟ قال: سالم معافى. فكره حاتم جوابه وقال: يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة. وكان إذا قيل لعيسى ﷺ كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا أملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحاذر، وأصبحت مرتهناً بعملي، والخير كله في يد غيري، ولا فقير أفقر مني. وكان الربيع بن خيثم إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفي أرزاقنا وننتظر آجالنا. وكان أبو الدرداء إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بخير إن نجوت من النار. وكان سفيان الثوري إذا قيل له: كيف أصبحت؟ يقول: أصبحت أشكر ذا إلى ذا، وأذم ذا إلى ذا، وأفر من ذا إلى ذا، وقيل لأويس القرني: كيف أصبحت؟ قال: كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدري أنه يصبح، وإذا أصبح لا يدري أنه يمسي؟ وقيل لمالك بن دينار: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد. وقيل لبعض الحكماء: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا أرضى حياتي لمماتي ولا نفسي لربي. وقيل لحكيم: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت آكل رزق ربي وأطيع عدوّه إبليس. وقيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة

---

(١) حديث: **«تجدون من شرار الناس ذا الوجهين»** متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«إن من شر الناس ذا الوجهين»** متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو الذي قبله.

مرحلة. وقيل لحامد اللفاف: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: ألست في عافية في كل الأيام؟ فقال: العافية يوم لا أعصي الله تعالى فيه. وقيل لرجل وهو يجود بنفسه: ما حالك؟ فقال: وما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة. وقيل لحسان بن أبي سنان: ما حالك؟ قال: ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب. وقال ابن سيرين لرجل: كيف حالك؟ فقال: وما حال من عليه خمسمائة درهم ديناً وهو معيل؟ فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه وقال: خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك ـ ولم يكن عنده غيرها ـ ثم قال: والله لا أسأل أحداً عن حاله أبداً. وإنما فعل ذلك لأنه خشي أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرائياً منافقاً، فقد كان سؤالهم عن أمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله، وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة. وقال بعضهم: إني لأعرف أقواماً كانوا لا يتلاقون، ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه، وأرى الآن أقواماً يتلاقون ويتساءلون حتى عن الدجاجة في البيت، ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق؟ وآية ذلك: أنك ترى هذا يقول: كيف أنت؟ ويقول الآخر: كيف أنت؟ فالسائل لا ينتظر الجواب، والمسؤول يشتغل بالسؤال ولا يجيب، وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف. ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال. قال الحسن: إنما كانوا يقولون السلام عليكم، إذا سلمت والله القلوب، وأما الآن: فكيف أصبحت عافاك الله؟ كيف أنت أصلحك الله؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة، فإن شاؤوا غضبوا علينا، وإن شاؤوا لا، وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك: كيف أصبحت بدعة. وقال رجل لأبي بكر بن عياش: كيف أصبحت؟ فما أجابه. وقال: دعونا من هذه البدعة. وقال: إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول: كيف أصبحت من الطاعون؟ ويلقاه عشية فيقول: كيف أمسيت؟ والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق، وكل ذلك مذموم، بعضه محظور وبعضه مكروه، وفي العزلة الخلاص من ذلك، فإن من لقي الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه؛ فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم.

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم؛ فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقاً مدة مع كونه منكراً عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله؛ إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له، وإنما الوازع عنه شدّة وقعه في القلب، فإذا صار مستصغراً بطول المشاهدة أوشك أن تنحلّ القوّة الوازعة، ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه. ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه؛ ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثّر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده، وتؤثّر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم. وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة، هذا تأثيره في الطبع من يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتنزه عن الدنيا، فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار، وما دام يرى نفسه مقصراً فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتماماً للاقتداء.

ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان، وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا، واعتيادهم

المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك. ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته. وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله ﷺ: **«عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ»**[(١)]، وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك، ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير. ومبدأ الرحمة: فعل الخير، ومبدأ فعل الخير: الرغبة، ومبدأ الرغبة: ذكر أحوال الصالحين، فهذا معنى نزول الرحمة.

والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه، وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة؛ لأن كثرة ذكرهم تهوّن على الطبع أمر المعاصي، واللعنة هي البعد، ومبدأ البعد من الله هو المعاصي، والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة لا على الوجه المشروع. ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب، ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع. إذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم؟ بل قد صرح بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: **«مَثَلُ الجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الكِيرِ إِنْ لَمْ يَحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ»**[(٢)]، فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به، فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به. وقال: **«مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ صَاحِبِ المِسْكِ إِنْ لَمْ يَهَبْ لَكَ مِنْهُ تَجِدْ رِيحَهُ»** ولهذا أقول: من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين، إحداهما: أنها غيبة، والثانية وهي أعظمهما: أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها، فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية، فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال: كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد؟ ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام، فكم من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتهالك على حب الرئاسة وتزيينها ويهوّن على نفسه قبحها، ويزعم أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرئاسة؟ وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرئاسة، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرئاسة ولوازمها من المعاصي. والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات، بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكائد الشيطان، ولذلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر: ١٨] وضرب ﷺ لذلك مثلاً وقال: **«مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْتَمِعُ الحِكْمَةَ ثُمَّ لاَ يَعْمَلُ إِلاَّ بِشَرِّ مَا يَسْتَمِعُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِياً فَقَالَ لَهُ: يَا رَاعِي اجْزُرْ لِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ فَقَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ خَيْرَ شَاةٍ فِيهَا فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْبِ الغَنَمِ»**[(٣)]، وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضاً.

---

(١) حديث: **«عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»** ليس له أصل في الحديث المرفوع وإنما هو من قول سفيان بن عيينة كذا رواه ابن الجوزي في مقدمة صفوة الصفوة.

(٢) حديث: **«مثل الجليس السوء كمثل الكير...»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٣) حديث: **«مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحمل منها إلا شر ما يسمع كمثل رجل أتى راعياً فقال: يا راعي اجرر لي شاة من غنمك»** الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته: أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعاداً يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم، مع أن صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب. ولذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها، وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك. والغيبة أشد من الزنى، فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها، فتفطن لهذه الدقائق وفرّ من الناس فرارك من الأسد؛ لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة، ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة. فإن وجدت جليساً يذكرك الله رؤيته وسيرته؛ فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره؛ فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن. وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء، ومهما فهمت هذه المعاني ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته؛ لم يخف عليك أن الأولى التباعد بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة. وإياك أن تحكم مطلقاً على العزلة أو الخلطة بأن إحداهما أَوْلى إذ كل مفصل، فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ولا حق في المفصل إلا التفصيل.

الفائدة الثالثة:

الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها. قال عبدالله بن عمرو بن العاص: لما ذكر رسول الله ﷺ الفتن ووصفها وقال: **«إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هٰكَذَا»** ـ وشبك بين أصابعه ـ، قلت: فما تأمرني، فقال: **«الْزَمْ بَيْتَكَ وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الخَاصَّةِ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَامَّةِ»**[(١)]، وروى أبو سعيد الخدري أنه ﷺ قال: **«يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ المُسْلِمِ غَنَماً يَتْبَعُ بِها شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ»**[(٢)]، وروى عبدالله بن مسعود أنه ﷺ قال: **«سَيَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ إِلاَّ مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَىٰ قَرْيَةٍ وَمِنْ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ وَمِنْ جُحْرٍ إِلَىٰ جُحْرٍ كَالثَّعْلَبِ الَّذِي يَرُوغُ»** قيل له: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: **«إِذَا لَمْ تُنَلِ المَعِيشَةُ إِلاَّ بِمَعَاصِي الله تَعَالَىٰ فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ الزَّمَانُ حَلَّتِ العُزُوبَةُ»** قالوا: وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج؟ قال: **«إِذَا كَانَ ذٰلِكَ الزَّمَانُ كَانَ هَلاَكُ الرَّجُلِ عَلَىٰ يَدِ أَبَوَيْهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ فَعَلَىٰ يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلَىٰ يَدَيْ قَرَابَتِهِ»**، قالوا:

---

(١) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: **«إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم...»** الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن.

(٢) حديث أبي سعيد الخدري: **«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»** رواه البخاري.

وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ اليَدِ فَيَتَكَلَّفُ مَا لاَ يُطِيقُ حَتَّىٰ يُورِدَهُ ذٰلِكَ مَوَارِدَ الهَلَكَةِ»(١)، وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه؛ إذ لا يستغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى، ولست أقول: هذا أوان ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر، ولأجله قال سفيان: والله لقد حلت العزلة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ذكر رسول الله ﷺ أيام الفتنة وأيام الهرج قلت: وما الهرج؟ قال: «حِينَ لاَ يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ» قلت: فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: «كُفَّ نَفْسَكَ وَيَدَكَ وادْخُلْ دَارَكَ» قال: قلت: يا رسول الله أرأيت إن دخل على داري؟ قال: «فَادْخُلْ بَيْتَكَ»، قلت: فإن دخل على بيتي؟ قال «فَادْخُلْ مَسْجِدَكَ وَاصْنَعْ هٰكَذَا» وقبض على الكوع «وَقُلْ: رَبِّيَ الله حَتَّىٰ تَمُوتَ»(٢)، وقال سعد ـ لما دعي إلى الخروج أيام معاوية ـ: لا . . إلا أن تعطوني سيفاً له عينان بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه، وقال: مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء فبينما هم كذلك يسيرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم، فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، وقال بعضهم: ذات الشمال فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهبت الريح وتبينت الطريق فسافروا. فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له: أين تريد؟ فقال: العراق. فإذا معه طوامير وكتب، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم فقال: لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم. فأبى، فقال: إني أحدثك حديثاً: جبريل أتى النبي ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله ﷺ، والله لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل أو أسير(٣). وكان في الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلاً. وجلس طاوس في بيته فقيل له في ذلك فقال: فساد الزمان وحيف الأئمة. ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له: لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله ﷺ فقال: رأيت مساجدكم لاهية، وأسواقكم لاغية، والفاحشة في فجاجكم عالية، وفيما هناك عما أنتم فيه عافية. فإذن الحذر من الخصومات، ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة.

الفائدة الرابعة:

الخلاص من شر الناس: فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن، والتهمة بالاقتراحات

---

(١) حديث ابن مسعود: «سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق» تقدم في النكاح.

(٢) حديث ابن مسعود: ذكر رسول الله ﷺ الفتنة وأيام الهرج قلت: وما الهرج؟ قال: «حين لا يأمن الرجل جليسه. . .» الحديث. أخرجه أبو داود مختصراً والخطابي في العزلة بتمامه وفي إسناده عند الخطابي انقطاع، ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته.

(٣) حديث ابن عمر: «أنه لما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام. . .» الحديث. وفيه: «أنه ﷺ خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة». رواه الطبراني مقتصراً على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل: «على مسيرة ثلاثة أيام». وكذا رواه البزار بنحوه وإسنادهما حسن.

والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة أو الكذب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدّخرونها لوقت تظهر فرصة للشر، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك. ولذلك قال بعض الحكماء لغيره: أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم؟ قال: ما هما؟ قال:

اخفضِ الصوتَ إنْ نطقتَ بليلٍ ... والتفتْ بالنهار قبل المَقَالِ
ليسَ للقولِ رجعةٌ حين يبدو ... بقبيحٍ يكون أو بجمالِ

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدوّ يسيء الظن به ويتوهم أنه يستعد لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتدسيس غائلة وراءه، فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها. قال المتنبي:

إذا ساء فِعْلُ المرءِ ساءتْ ظُنُونه ... وصدق ما يعتاده من توهمِ
وعادى محبيه بقولِ عُداتهِ ... فأصبح في ليلٍ من الشكِّ مُظْلمِ

وقد قيل: معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار. وأنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة، ولسنا نطول بتفصيلها ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها، وفي العزلة خلاص من جميعها، وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة؛ فقال أبو الدرداء: أخبر تقله، يروى مرفوعاً. وقال الشاعر:

مَنْ حَمِدَ الناس ولم يبلهم ... ثم بَلاهم ذم من يَحْمَدُ
وصار بالوحدة مستأنساً ... يوحشه الأقربُ والأبعدُ

وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من القرين السوء. وقيل لعبدالله بن الزبير: ألا تأتي المدينة؟ فقال: ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فَرِح بنقمة. وقال ابن السماك: كتب صاحب لنا، أما بعد: فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لا دواء له، ففرّ منهم فرارك من الأسد. وكان بعض الأعراب يلازم شجراً ويقول: هو نديم فيه ثلاث خصال، إن سمع مني لم ينم علي، وإن تفلت في وجهه احتمل مني، وإن عربدت عليه لم يغضب، فسمع الرشيد ذلك فقال: زهدني في الندماء. وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر فقيل له ذلك فقال: لم أر أسلم من وحدة، ولا أوعظ من قبر، ولا جليساً أمتع من دفتر، وقال الحسن رضي الله عنه: أردت الحج فسمع ثابت البناني بذلك ـ وكان أيضاً من أولياء الله ـ فقال: بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك، فقال له الحسن: ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه. وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة وهو بقاء الستر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر العورات، وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقال الشاعر:

ولا عار إن زالت عن الحرّ نعمة ... ولكن عاراً أن يزول التجملُ

ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأَوْلى في الدين والدنيا سترها، ولا تبقى السلامة مع انكشافها. وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فالناس اليوم شوك لا ورق فيه. إذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر. وقال

سفيان بن عيينة: قال لي سفيان الثوري ـ في اليقظة في حياته وفي المنام بعد وفاته ـ: أقلل من معرفة الناس، فإن التخلص منهم شديد، ولا أحسب أني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت. وقال بعضهم: جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته، فذهبت أطرده فقال: دعه يا هذا لا يضر ولا يؤذي، وهو خير من جليس السوء. وقيل لبعضهم: ما حملك على أن تعتزل الناس؟ قال: خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر. وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء. وقال أبو الدرداء: اتقوا الله واحذروا الناس؛ فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا خربوه، وقال بعضهم: أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك، وَأَخَفُّ لسقوط الحقوق عنك؛ لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع. وقال بعضهم: أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف.

الفائدة الخامسة:

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس: فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد؛ فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى. ومن أهون الحقوق وأيسرها: حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولائم والإملاكات، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير، ولا يمكن إظهار كل الأعذار، فيقولون له: قمت بحق فلان وقصرت في حقنا، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قيل: من لم يعد مريضاً في وقت العيادة اشتهى موته خيفة من تخجيله إذا صح على تقصيره. ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم، ولو خصص استوحشوا. وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار، فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا؟ قال عمرو بن العاص: كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء، وقال ابن الرومي:

عدوّك من صديقك مستفادُ ... فلا تستكثرنَّ مِنَ الصِّحابِ
فإن الداءَ أكثرُ ما تراه ... يكونُ مِنَ الطَّعامِ أو الشَّرابِ

وقال الشافعي رحمه الله: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام. وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوّة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك. ومهما اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] وقال ﷺ: **«انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ دُونَكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ»**(١)، وقال عون بن عبدالله: كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموماً، كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي، فجالست الفقراء فاسترحت. وحكي أن المزني رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبدالحكم في موكبه فبهره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] ثم قال: بلى أصبر وأرضى، وكان فقيراً مقلاً. فالذي هو

---

(١) حديث: **«انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

في بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن؛ فإن من شاهد زينة الدنيا فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر ـ وهو أمر من الصبر ـ، أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلك هلاكاً مؤبداً، أما في الدنيا: فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات، فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له، وأما في الآخرة: فإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه. ولذلك قال ابن الأعرابي:

إذا كان بابُ الذلّ من جانب الغنى سموتُ إلى العلياءِ من جانب الفقرِ

أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلاً.

الفائدة السادسة:

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم، فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر. قيل للأعمش: مم عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء. ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال في الخبر: «**إِنَّ مَنْ سَلَبَ الله كَرِيمَتَيْهِ عَوَّضَهُ الله عَنْهُما مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُما**»(1)، فما الذي عوضك؟ فقال ـ في معرض المطايبة ـ: عوضني الله منهما أنه كفاني رؤية الثقلاء وأنت منهم. وقال ابن سيرين: سمعت رجلاً يقول: نظرت إلى ثقيل مرة فغشي عليَّ. وقال جالينوس: لكل شيء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلاء. وقال الشافعي رحمه الله: ما جالست ثقيلاً إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل عليَّ من الجانب الآخر.

وهذه الفوائد ما سوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضاً تتعلق بالدين، فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه وأن يستنكر ما هو صنع الله، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسدة أو نميمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته. وكل ذلك يجر إلى فساد. وفي العزلة سلامة عن جميع ذلك فليُفهم.

آفات العزلة:

اعلم: أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة. فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة، وفواته من آفات العزلة، فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعي إليها ما هي، وهي التعليم والتعلم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها، فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهي سبع:

الفائدة الأولى: التعليم والتعلم:

وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم وهما أعظم العبادات في الدنيا، ولا يتصوّر ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة، وبعضها ضروري في الدنيا. فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض

---

(1) حديث: «من سلب الله كريمتيه عوضه عنهما ما هو خير منهما» أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف من حديث جرير «من سلبت كريمتيه عوضته عنهما الجنة» وله ولأحمد نحوه من حديث أبي أمامة بسند حسن، وللبخاري من حديث أنس: «يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة» يريد عينيه.

عليه عاص بالعزلة. وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل. وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران. ولهذا قال النخعي وغيره: تفقهْ ثم اعتزل، فمن اعتزل قبل التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها، ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ويبطل عمله بحيث لا يدري، ولا ينفك اعتقاده في الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها، وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العبّاد. فالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال، أعني من لا يحسن العبادة في الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزم فيها. فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه، فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف ـ لا محالة ـ مرضه. فلا تليق العزلة إلا بالعالم، وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم، ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فهو هلاك الدين. وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم.

وحكم العالم في هذا الزمان: أن يعتزل إن أراد سلامة دينه، فإنه لا يرى مستفيداً يطلب فائدة لدينه، بل لا طالب إلا لكلام مزخرف، يستميل به العوام في معرض الوعظ أو الجدل، معقد يتوصل به إلى إفحام الأقران ويتقرب به إلى السلطان، ويستعمل في معرض المنافسة والمباهاة، وأقرب علم مرغوب فيه: المذهب، ولا يطلب غالباً إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال، وتولي الولايات واجتلاب الأموال. فهؤلاء كلهم يقتضي الدين والحزم الاعتزال عنهم، فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبائر: الاعتزال عنه وكتمان العلم منه، وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف.

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بقول سفيان: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله. وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا، وهم هلكى على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أو راغبون عنها وزاهدون فيها، وليس الخبر كالمعاينة. واعلم: أن العلم الذي أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحابة؛ فإن فيها التخويف والتحذير؛ وهو سبب لإثارة الخوف من الله فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل.

وأما الكلام والفقه المجرّد ـ الذي يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات ـ المذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله، بل لا يزال متمادياً في حرصه إلى آخر عمره. ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخص فيه؛ إذ يرجى أن ينزجر به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا، وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب، فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالاً من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون، وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه، وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الإذلال على الجهال والتكبر عليهم، فآفة العلم الخيلاء[1] كما قال ﷺ ولذلك حكي عن بشر أنه دفن سبعة عشر قمطراً من كتب الأحاديث التي سمعها، وكان لا يحدث، ويقول: إني أشتهي أن

---

(١) حديث: «آفة العلم الخيلاء» المعروف ما رواه مطين في مسنده من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف: «آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء».

أحدث فلذلك لا أحدث، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت، ولذلك قال: «حدثنا» باب من أبواب الدنيا، وإذا قال الرجل: «حدثنا» فإنما يقول أوسعوا لي. وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري: نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا، قال: وفيما ذا رغبت؟ قالت: في الحديث. ولذلك قال أبو سليمان الداراني: من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا. فهذه آفات قد نبهنا عليها في كتاب العلم، والحزم الاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن، بل الذي يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له ـ إن كان غافلاً في مثل هذا الزمان ـ أن يتركه. فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال: دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال، إخوان العلانية أعداء السر؛ إذا لقوك تملقوك، وإذا غبت عنهم سلقوك، من أتاك منهم كان عليك رقيباً، وإذا خرج كان عليك خطيباً، أهل نفاق ونميمة، وغلّ وخديعة، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم، بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلماً إلى أوطارهم، وأغراضهم وحماراً في حاجاتهم، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك، ويرونه حقاً واجباً لديك، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم، وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم، وتنتهض لهم سفيهاً وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعاً خسيساً بعد أن كنت متبوعاً رئيساً. ولذلك قيل: اعتزال العامة مروءة تامة. فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه، وهو حق وصدق؛ فإنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم، ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم فكأنه يهدي تحفة إليهم ويرى حقه واجباً عليهم. وربما لا يختلف إليه ما لم يتكفل برزق له على الإدرار. ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله، فلا يزال متردداً إلى أبواب السلاطين ويقاسي الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين؛ حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام، ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتهنه ويستذله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه؛ إن سوّى بينهم: مقته المميزون، ونسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مصارفات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل، وإن فاوت بينهم: سلقه السفهاء بألسنة حداد، وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد، فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم في العقبى. والعجب أنه مع هذا البلاء كله يمني نفسه بالأباطيل ويدليها بحبل الغرور ويقول لها، لا تفتري عن صنيعك؛ فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى، ومذيعة شرع رسول الله ﷺ وناشرة علم دين الله، وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله، وأموال السلاطين لا مالك لها وهي مرصدة للمصالح وأي مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم؟ فبهم يظهر الدين ويتقوى أهله. ولو لم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام، فتلحظهم أعين الجهال ويستجرئون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لآثارهم؛ ولذلك قيل: ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك، وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء. فنعوذ بالله من الغرور والعمى؛ فإنه الداء الذي ليس له دواء.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع:

أما الانتفاع بالناس؛ فبالكسب والمعاملة. وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة، والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه ـ كما ذكرناه في كتاب الكسب ـ فإن

كان معه مال لو اكتفى به قانعاً لأقنعه فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكاسب في الأكثر إلا من المعاصي، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة، فإذا اكتسب من وجهه وتصدّق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله، أعني: من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة لا عن أوهام وخيالات فاسدة.

وأما النفع: فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة. ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب؛ وذلك لا ينال إلا بالمخالطة. ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره البتة.

الفائدة الثالثة: التاديب والتادب:

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات. وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق مَن لم تتهذب أخلاقه، ولم تذعن لحدود الشرع شهواته، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم؛ كسراً لرعونة النفس واستمداداً من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهممهم إلى الله سبحانه، وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الخالية، والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين، فصار يطلب من التواضع بالخدمة: التكثير بالاستتباع والتذرّع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الأتباع، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر، وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة، وذلك مما يحتاج إليه في بداية الإرادة، فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها، بل المراد منها أن تتخذ مركباً يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق، والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق، فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها، فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال في عضها ورفسها ورمحها، وهي لعمري فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل في البهيمة الميتة، وإنما ترد الدابة لفائدة تحصل من حياتها، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل بالنوم والموت، ولا ينبغي أن يقنع به كالراهب الذي قيل له: يا راهب، فقال: ما أنا راهب، إنما أنا كلب عقور حبست نفسي حتى لا أعقر الناس، وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه، فإنّ من قتل نفسه أيضاً لم يعقر الناس، بل ينبغي أن يتشوّف إلى الغاية المقصودة بها. ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة. فالأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أوّلاً والعزلة آخراً.

وأما التأديب: فإنما نعني به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم، وحاله حال المعلم وحكمه، ويتطرّق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرّق إلى نشر العلم إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبة العلم، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبة العلم كثرة. فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخلوة بما تيسر له من المخالطة

وتهذيب القوم، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل، وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد، ويختلف بالأحوال والأشخاص، فلا يمكن الحكم عليه مطلقاً بنفي ولا إثبات.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس:

وهو غرض مَن يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال. وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته، أو على وجه مباح. وقد يستحب ذلك لأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى، وقد يتعلق بحظ النفس. ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة، فإنّ القلوب إذا أكرهت عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة أنس يروّح القلب فهي أولى؛ إذ الرفق في العبادة من حزم العبادة، ولذلك قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**»[١]، وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروّح، وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة وهذا عنى بقوله عليه السلام: «**إِنَّ هٰذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ**» والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين، ولذلك قال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس، وقال مرة: لدخلت بلاداً لا أنيس بها، وهل يفسد الناس إلا الناس؟ فلا يستغني المعتزل إذاً عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة ساعة، فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته، فقد قال ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[٢]، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء إلى الرشد، ففي ذلك متنفس ومتروّح للنفس، فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعماراً طويلة، والراضي عن نفسه مغرور قطعاً. فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة في حق بعض الأشخاص، فليتفقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس أوّلاً ثم ليجالس.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته:

أما النيل: فبحضور الجنائز وعيادة المريض وحضور العيدين، وأما حضور الجمعة فلا بدّ منه. وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه، وذلك لا يتفق إلا نادراً، وكذلك في حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم.

وأما إنالته: فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم؛ فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إذا كان من العلماء وأذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة، وكان هو بالتمكين سبباً فيه، فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها التي ذكرناها، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة. فقد حكي عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعيادة

---

(١) حديث: «**إن الله لا يمل حتى تملوا**» تقدم.

(٢) حديث «**المرء على دين خليله**» تقدم في آداب الصحبة.

المرضى وحضور الجنائز، بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلل الجبال؛ تفرغاً للعبادة وفراراً من الشواغل.

الفائدة السادسة:

من المخالطة التواضع، فإنه من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة. فقد روي في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصحفاً في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة، فأوحى الله إلى نبيه: قل لفلان: إنك قد ملأت الأرض نفاقاً وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً، قال: فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال: الآن قد بلغت رضا ربي، فأوحى الله إلى نبيه قل له: إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم، فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم، وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم، فأوحى الله تعالى إلى نبيه: الآن قد بلغ رضاي. فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر ومانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأتقى لطراوة ذكره بين الناس، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة؛ فيتخذ البيت ستراً على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر، وعلامة هؤلاء: أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا، ويفرحون بتقرّب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم، وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال: وهل جئتني إلا لأتزين لك وتتزين لي. وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذي زاره: حاجتي أن لا أراك ولا تراني، فمن ليس مشغولاً مع نفسه بذكر الله فاعتزاله عن الناس سببه شدّة اشتغاله بالناس؛ لأن قلبه متجرّد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام. والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه:

أحدها: أنّ التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه؛ إذ كان علي رضي الله عنه يحمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله ... ما جرّ من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأُبيُّ وابن مسعود رضي الله عنهم يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول ـ وهو والي المدينة والحطب على رأسه ـ: طرقوا لأميركم. وكان سيد المرسلين ﷺ يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه، فيقول له صاحبه: أعطني أحمله فيقول: «صَاحِبُ الشَّيْءِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ»[1]. وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يمر بالسؤّال وبين أيديهم كسر فيقولون: هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله، فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

الوجه الثاني: أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور، لأنه لو

---

(١) حديث: كان يشتري الشيء ويحمله إلى بيته بنفسه ويقول له صاحبه: أعطني أحمله فيقول: «**صاحب المتاع أحق بحمله**» أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حمله السراويل الذي اشتراها.

عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً، وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه، وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضا الناس غاية لا تنال، فرضا الله أولى بالطلب؛ ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبدالأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحاً؛ إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله؟ ولذلك قيل:

مَنْ رَاقبَ النَّاس ماتَ غمًّا ... وفاز باللذة الجسورُ

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له: اعمل كذا وكذا ـ لشيء أمره به ـ فقال: يا أستاذ، لا أقدر عليه لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه وقال: لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه، وأن أحداً لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه، وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونه. وقال الشافعي رحمه الله: ليس من أحد إلا وله محب ومبغض فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله. وقيل للحسن: يا أبا سعيد، إن قوماً يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال، فتبسم وقال للقائل: هوّن على نفسك، فإني حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت، وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس؛ لأني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم. وقال موسى ﷺ: يا رب، احبس عني ألسنة الناس فقال: يا موسى، هذا شيء لم أصطفيه لنفسي فكيف أفعله بك؟. وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير: إن لم تطب نفساً بأني أجعلك علكاً في أفواه الماضغين لم أكتبك عندي من المتواضعين. فإذن من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في عناء حاضر في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٢٦]. فإذن لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكراً وفكراً وعبادة وعلماً؛ بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته. فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقى؛ فإنها مهلكات في صور منجيات.

الفائدة السابعة: التجارب:

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم. والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب؛ فالصبي إذا اعتزل بقي غمراً جاهلاً بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم، ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة. ومن أهم التجارب: أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة، فإن كل مجرب في الخلاء يسر، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه، وهذه الصفات مهلكات في أنفسها، يجب إماطتها وقهرها ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها. فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلىء بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسه غيره، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن معه من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه واعتقد فقده، ولكن لو حركه محرك أو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك. وعن هذا كان

السالكون لطريق الآخرة، الطالبون لتزكية القلوب يجربون أنفسهم. فمن كان يستشعر في نفسه كبراً سعى في إماطته حتى كان بعضهم يحمل قربة ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق ليجرب نفسه بذلك، فإن غوائل النفس ومكائد الشيطان خفية قل من يتفطن لها، ولذلك حكي عن بعضهم أنه قال: أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أني كنت أصليها في الصف الأول، ولكن تخلفت يوماً بعذر فما وجدت موضعاً في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر الناس إلي وقد سبقت إلى الصف الأوّل، فعلمت أن جميع صلواتي التي كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء، ممزوجة بلذة نظر الناس إليّ ورؤيتهم إياي في زمرة السابقين إلى الخير.

فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الخبائث وإظهارها. ولذلك قيل: السفر يسفر عن الأخلاق؛ فإنه نوع من المخالطة الدائمة. وستأتي غوائل هذه المعاني ودقائقها في ربع المهلكات، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير، وبالعلم بها يزكو العمل القليل، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل؛ إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد للصلاة إلا أفضل من الصلاة، فإنا نعلم أن ما يراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه، وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال ﷺ: **«فَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدْنَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي»**[1]، فمعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه:

أحدها: ما ذكرناه.

والثاني: عموم النفع لتعدي فائدته والعمل لا تتعدى فائدته.

والثالث: أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق؛ لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبته، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم، وهذا العلم غاية المريدين والعمل كالشرط له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فالكلم الطيب هو هذا العلم، والعمل كالحمال الرافع له إلى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع، وهذا كلام معترض لا يليق بهذا الكلام. فلنرجع إلى المقصود فنقول: إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة. ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق، ويتضح الأفضل، وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال: يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط. فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة، ويختلف ذلك بالأحوال، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل، هذا هو الحق الصراح، وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال. والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا؛ وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل، والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه، ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه، وذلك مما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبداً، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى؛ ولذلك سئل الصوفية عن الفقر فما

---

(١) حديث: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»**، تقدم في العلم.

من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر، وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه؛ إذ الحق لا يكون إلا واحداً. ولذلك قال أبو عبدالله الجلاء ـ وقد سئل عن الفقر ـ فقال: اضرب بكميك الحائط وقل ربي الله فهو الفقر. وقال الجنيد: الفقير هو الذي لا يسأل أحداً ولا يعارض، وإن عورض سكت. وقال سهل بن عبدالله: الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر. وقال آخر: هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك. وقال إبراهيم الخواص: هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى. والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان، وذلك كله حق من وجه، فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه. ولذلك لا نرى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدماً في التصوف أو يثني عليه، بل كل واحد منهم يدعي أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه؛ لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم. ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف. ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال ـ بالنظر في الظل ـ فقال بعضهم: هو في الصيف قدمان، وحكي عن آخر أنه نصف قدم، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام، وحكي عن آخر أنه خمسة أقدام، وآخر يرد عليه؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه ببلد نفسه، فصدق في قوله وأخطأ في تخطئته صاحبه؛ إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده، كما أن الصوفي لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه، والعالم بالزوال هو الذي يعرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول: في بعضها لا يبقى ظل، وفي بعضها يطول، وفي بعضها يقصر.

فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة.

فإن قلت: فمن آثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم فما آدابه في العزلة؟ فنقول: إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة. وأما آداب العزلة فلا تطول؛ فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شر نفسه عن الناس **أولاً**، ثم طلب السلامة من شر الأشرار **ثانياً**، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين **ثالثاً**، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله **رابعاً**؛ فهذه آداب نيته. ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر؛ ليجتني ثمرة العزلة وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش أكثر وقته. وليكف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض. وأحد مهمات المعتزل قطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله، والأخبار ينابيع الوساوس وأصولها، وليقنع باليسير من المعيشة وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم. وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الجيران، وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة، فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة، وحال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفاً عن سيره إلى طريق الآخرة، فإن السير إما: بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب، وإما: بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأرضه، وإما: بالتأمل في دقائق الأعمال ومفسدات القلوب وطلب طرق التحصن منها؛ وكل ذلك يستدعي الفراغ، والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوّش القلب في الحال. وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا

ينتظر. وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية الساعات. ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدّر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي على أنه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخي الأجل. وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت. وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه؛ إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة، بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه ورحمته، كما قال الله تعالى في الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] وكل متجرّد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلاً غير مدبر «**فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه**»[1]، كما صرح به رسول الله ﷺ والجهاد الأكبر جهاد النفس، كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، يعنون جهاد النفس.

تم كتاب العزلة، ويتلوه: كتاب آداب السفر، والحمد لله وحده.

---

(١) حديث: «**المجاهد من جاهد نفسه وهواه**». أخرجه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله: «وهواه» وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر، واستخلص هممهم لمشاهدة عجائب صنعه في الحضر والسفر، فأصبحوا راضين بمجاري القدر، منزهين قلوبهم عن التلفت إلى متنزهات البصر، إلا على سبيل الاعتبار بما يسبح في مسارح النظر ومجاري الفكر، فاستوى عندهم البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر، والصلاة على محمد سيد البشر وعلى آله وصحبه المقتفين لآثاره في الأخلاق والسير وسلم كثيراً.

أما بعد: فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه، أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه. والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن المستقرّ والوطن إلى الصحاري والفلوات، وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السمٰوات. وأشرف السفرين السفر الباطن. فإنّ الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد لازم درجة القصور، وقانع بمرتبة النقص، ومستبدل بمتسع فضاء: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣] ظلمة السجن وضيق الحبس، ولقد صدق القائل:

ولم أرَ في عيوبِ الناس عيباً ... كنقصِ القادرين على التمامِ

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخفير، فاقتضى غموض السبيل وفقد الخفير والدليل، وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل، اندرس مسالكه. فانقطع فيه الرفاق، وخلا عن الطائفين متنزهات الأنفس والملكوت والآفاق. وإليه دعا الله سبحانه بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فُصّلَت: ٥٣]، وبقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذّاريَات: ٢٠،٢١]، وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصَّافات: ١٣٧،١٣٨]، وبقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يُوسُف: ١٠٥]، فمن يسر له هذا السفر لم يزل في سيره متنزهاً في جنة عرضها السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقرّ في الوطن. وهو السفر الذي لا تضيق فيه المناهل والموارد ولا يضر فيه التزاحم والتوارد، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه، وتتضاعف ثمراته وفوائده؛ فغنائمه دائمة غير ممنوعة، وثمراته متزايدة غير مقطوعة، إلا إذا بدا للمسافر فترة في سفره، ووقفة في حركته، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وما الله بظلام للعبيد، ولكنهم يظلمون أنفسهم. ومن لم يؤهّل للجولان في هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان، ربما سافر بظاهر بدنه في مدّة مديدة فراسخ معدودة

مغتنماً بها تجارة للدنيا أو ذخيرة للآخرة، فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكي سبيل الآخرة، وكان له في سفره شروط وآداب؛ إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان، وإن واظب عليها لم يخلِ سفره عن فوائد تلحقه بعمال الآخرة، ونحن نذكر آدابه وشروطه في بابين إن شاء الله تعالى.

الباب الأوّل: في الآداب من أوّل النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته، وفيه فصلان.

الباب الثاني: فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات.

***

الباب الأوّل

في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع، وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان:

الفصل الأول

في فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم: أن السفر نوع حركة ومخالطة، وفيه فوائد وله آفات. كما ذكرناه في كتاب الصحبة والعزلة.

والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب؛ فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه، وإما أن يكون له مقصد ومطلب.

والمهروب عنه إما أمر له نكاية في الأمور الدنيوية؛ كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد أو خوف سببه فتنة أو خصومة أو غلاء سعر. وهو إما عام كما ذكرناه، أو خاص كمن يُقصد بأذية في بلدة فيهرب منها. وإما أمر له نكاية في الدين كمن ابتلي في بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصدّه عن التجرّد لله، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه، أو كمن يدعى إلى بدعة قهراً، أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته فيطلب الفرار منه.

وأما المطلوب فهو إما دنيوي: كالمال والجاه، أو ديني: والديني إما علم وإما عمل.

والعلم إما علم من العلوم الدينية، وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة، وإما علم بآيات الأرض وعجائبها كسفر ذي القرنين وطوافه في نواحي الأرض.

والعمل إما عبادة وإما زيارة، والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد، والزيارة أيضاً من القربات وقد يقصد بها مكان كمكة والمدينة وبيت المقدس. والثغور فإنّ الرباط بها قربة. وقد يقصد بها الأولياء والعلماء؛ وهم إما موتى فتزار قبورهم، وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم، ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوّة الرغبة في الاقتداء بهم.

فهذه هي أقسام الأسفار ويخرج من هذه القسمة أقسام:

القسم الأوّل: السفر في طلب العلم، وهو إما واجب وإما نفل، وذلك بحسب كون العلم واجباً أو نفلاً. وذلك العلم إما علم بأمور دينه أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه، وقد قال عليه السلام: «**مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله حَتَّىٰ يَرْجِعَ**»(١)، وفي خبر آخر: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقاً إِلَىٰ الجَنَّةِ**»(٢)، وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد. وقال الشعبي: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعاً. ورحل جابر بن عبدالله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهراً في حديث بلغهم عن عبدالله بن أنيس الأنصاري يحدّث به عن رسول الله ﷺ حتى سمعوه(٣). وكل مذكور في العلم محصل له ـ من زمان الصحابة إلى زماننا هذا ـ لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله، وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضاً مهم فإنّ طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه. ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها. وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخرج الله الخبء في السمٰوات والأرض، وإنما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق؛ ولذلك قال عمر رضي الله عنه للذي زكى عنده بعض الشهود: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه؟ فقال: لا، فقال: ما أراك تعرفه. وكان بشر يقول: يا معشر القراء، سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب، وإذا طال مقامه في موضع تغير. وبالجملة: فإن النفس في الوطن مع مؤاتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة وامتحنت بمشاق الغربة انكشفت

كتاب آداب السفر

الباب الأول

في الآداب من أوّل النهوض إلى آخر الرجوع

(١) حديث: «من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال: حسن غريب.

(٢) حديث: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً . . .» الحديث. رواه مسلم وتقدم في العلم.

(٣) حديث: «رحل جابر بن عبدالله من المدينة إلى مسيرة شهر في حديث بلغه عن عبدالله بن أنيس». أخرجه الخطيب في كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابي، وقال البخاري في صحيحه: «رحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس في حديث واحد»، ورواه أحمد إلا أنه قال: إلى الشام وإسناده حسن، ولأحمد: «أن أبا أيوب ركب إلى عقبة بن عامر إلى مصر في حديث»، وله: «أن عقبة بن عامر أتى سلمة بن مخلد وهو أمير مصر في حديث آخر وكلاهما منقطع.

غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها؛ فيمكن الاشتغال بعلاجها. وقد ذكرنا في كتاب العزلة فوائد المخالطة، والسفر مخالطة مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق.

وأما آيات الله في أرضه: ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والبحار وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد. وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون، لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٧]، وما أريد بالسمع السمع الظاهر ـ فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه ـ وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات، ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات. فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو نطق وراء نطق المقال، يشبه قول القائل ـ حكاية لكلام الوتد والحائط ـ: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ فقال: سل من يدقني، ولم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي. وما من ذرة في السمٰوات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدّس هي تسبيحها، ولكن لا يفقهون تسبيحها؛ لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن، ومن ركاكة لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال ـ ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام مختصاً بفهم منطق الطير، ولما كان موسى عليه السلام مختصاً بسماع كلام الله تعالى الذي يجب تقديسه عن مشابهة الحروف والأصوات. ومن يسافر ليستقرىء هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن، بل يستقرّ في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرّات، فما له وللتردد في الفلوات وله غنية في ملكوت السمٰوات؟ فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات، وهي إلى أبصار ذوي البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات، بل هي دائبة في الحركة على توالي الأوقات. فمن الغرائب: أن يدأب في الطواف بآحاد المساجد من أمرت الكعبة أن تطوف به، ومن الغرائب: أن يطوف في أكناف الأرض من يطوف به أقطار السماء. ثم ما دام المسافر مفتقراً إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد في المنزل الأوّل من منازل السائرين إلى الله والمسافرين إلى حضرته، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يفض به المسير إلى متسع الفضاء، ولا سبب لطول المقام في هذا المنزل إلا الجبن والقصور؛ ولذلك قال بعض أرباب القلوب: إنّ الناس ليقولون افتحوا أعينكم حتى تبصروا، وأنا أقول: غمضوا أعينكم حتى تبصروا، وكل واحد من القولين حق؛ إلا أنّ الأول خبر عن المنزل الأوّل القريب من الوطن، والثاني خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التي لا يطؤها إلا مخاطر بنفسه، والمجاوز إليها ربما يتيه فيها سنين وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل. والهالكون في التيه هم الأكثرون من ركاب هذه الطريق، ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم؛ وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق طلابه، ومهما عظم المطلوب قل المساعد. ثم الذي يهلك أكثر من الذي يملك. ولا يتصدّى لطلب الملك العاجز الجبان؛ لعظيم الخطر وطول التعب:

وإذا كانتِ النفوسُ كباراً تَعِبَتْ في مُرَادِها الأجسامُ

وما أودع الله العز والملك في الدين والدنيا إلا في حيز الخطر، وقد يسمي الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر كما قيل:

يرى الجبناءُ أنّ الجبنَ حزمٌ وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيمِ

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله في الأرض.

فلنرجع إلى الغرض الذي كنا نقصده ولنبين.

القسم الثاني: وهو أن يسافر لأجل العبادة؛ إما لحج أو جهاد، وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحج، ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام، وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته. ويجوز شدّ الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام: **«لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إِلَىٰ ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هٰذَا وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَالمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ»**[1]؛ لأن ذلك في المساجد، فإنها متماثلة بعد هذه المساجد، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله.

وبالجملة: زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات. والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء وبركة النظر إليهم؛ فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة، وفيه أيضاً حركة للرغبة في الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم، هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم، كيف ومجرد زيارة الإخوان في الله فيه فضل؟ كما ذكرناه في كتاب الصحبة. وفي التوراة: سر أربعة أميال زر أخاً في الله.

وأما البقاع، فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها، فالحديث ظاهر في أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة. وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب الحج.

وبيت المقدس أيضاً له فضل كبير. خرج ابن عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ثم كرّ راجعاً من الغد إلى المدينة. وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عزّ وجلّ: أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه؛ أن لا تصرف نظرك عنه ما دام مقيماً فيه حتى يخرج منه، وأن تُخرِجَهُ من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك.

القسم الثالث: أن يكون السفر للهرب من سبب مشوّش للدين، وذلك أيضاً حسن؛ فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين.

ومما يجب الهرب منه الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب، فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب، والدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله، فإن لم يتم فراغه فلا يتصور أن يشتغل بالدين. ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولكن يتصوّر تخفيفها وتثقيلها، وقد نجا المخفون وهلك المثقلون. والحمد لله الذي لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء،

---

(١) حديث: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...**» الحديث. تقدم في الحج.

بل قَبِلَ المخف بفضله وشمله بسعة رحمته. والمخف: هو الذي ليست الدنيا أكبر همه، وذلك لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علائقه، فلا يتم مقصوده إلا بالغربة والخمول وقطع العلائق التي لا بد عنها حتى يروض نفسه مدة مديدة. ثم ربما يمدّه الله بمعونته فينعم عليه بما يقوّي به يقينه ويطمئن به قلبه؛ فيستوي عنده الحضر والسفر ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها، فلا يصدّه شيء منها عما هو بصدده من ذكر الله، وذلك مما يعز وجوده جداً، بل الغالب على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للخلق والخالق، وإنما يسعد بهذه القوّة الأنبياء والأولياء، والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضاً. ومثال تفاوت القوّة الباطنة فيه كتفاوت القوّة الظاهرة في الأعضاء، فرب رجل قوي ذي مرة سوي شديد الأعصاب محكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلاً، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلاً قليلاً لم يقدر عليه، ولكن الممارسة والجهد يزيد في قوّته زيادة ما وإن كان ذلك لا يبلغه درجته، فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا، فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال. وقد كان من عادة السلف رضي الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن. وقال سفيان الثوري: هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف على المشتهرين؟ هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف في موضع تحول إلى غيره. وقال أبو نعيم: رأيت سفيان الثوري وقد علق قلّته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت: إلى أين يا أبا عبدالله؟ قال: بلغني عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها، فقلت له: وتفعل هذا؟ قال: نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها؛ فإنه أسلم لدينك وأقلّ لهمك وهذا هرب من غلاء السعر. وكان سري السقطي يقول للصوفية: إذا خرج الشتاء فقد خرج آذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا. وقد كان الخوّاص لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يوماً، وكان من المتوكلين ويرى الإقامة اعتماداً على الأسباب قادحاً في التوكل. وسيأتي أسرار الاعتماد على الأسباب في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

القسم الرابع: السفر هرباً مما يقدح في البدن: كالطاعون، أو في المال: كغلاء السعر أو ما يجري مجراه. ولا حرج في ذلك، بل ربما يجب الفرار في بعض المواضع، وربما يستحب في بعض بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد واستحبابه، ولكن يستثنى منه الطاعون فلا ينبغي أن يفرّ منه؛ لورود النهي فيه. قال أسامة بن زيد: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ هٰذَا الوَجَعَ ـ أو السقم ـ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ، ثُمَّ بَقِيَ بَعْدُ فِي الأَرْضِ مِنْهُ»**(1)، وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ فَنَاءَ أُمَّتِي بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ»** فقلت: هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: **«غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعِيرِ تَأْخُذُهُمْ فِي مَرَاقِهِمْ، المُسْلِمُ المَيِّتُ مِنْهُ شَهِيدٌ وَالمُقِيمُ عَلَيْهِ المُحْتَسِبُ كَالمُرَابِطِ فِي سَبِيلِ الله، وَالفَارُّ مِنْهُ كَالفَارِّ مِنَ الزَّحْفِ»**(2)، وعن مكحول عن أم أيمن قالت: أوصى رسول الله ﷺ بعض أصحابه: **«لاَ تُشْرِكْ بِالله شَيْئاً وَإِنْ عُذِّبْتَ أَوْ حُرِقْتَ، وَأَطِعْ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ لَكَ فَاخْرُجْ مِنْهُ. وَلاَ تَتْرُكِ الصَّلاَةَ عَمْداً فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ عَمْداً فَقَدْ بَرِئَتْ ذِمَّةُ الله مِنْهُ، وَإِيَّاكَ وَالخَمْرَ فَإِنَّها مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ، وَإِيَّاكَ وَالمَعْصِيَةَ فَإِنَّهَا تُسْخِطُ الله، وَلاَ تَفِرَّ مِنَ الزَّحْفِ، وَإِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوَتَانٌ وَأَنْتَ فِيهِمْ فَاثْبُتْ فِيهِمْ،**

---

(1) حديث أسامة بن زيد «**إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم...**» الحديث. متفق عليه واللفظ لمسلم.

(2) حديث عائشة: «**إن فناء أمتي بالطعن والطاعون...**» الحديث. رواه أحمد وابن عبدالبر في التمهيد بإسناد جيد.

أَنْفِقْ مِنْ طَوْلِكَ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكَ وَلاَ تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْهُمْ أَخِفْهُمْ بِاللهِ»[(١)]، فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهي عنه، وكذلك القدوم عليه. وسيأتي شرح ذلك في كتاب التوكل.

فهذه أقسام الأسفار، وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم وإلى محمود وإلى مباح. والمذموم ينقسم إلى حرام: كإباق العبد وسفر العاق، وإلى مكروه: كالخروج من بلد الطاعون. والمحمود ينقسم إلى واجب: كالحج، وطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم، وإلى مندوب إليه: كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم. ومن هذه الأسباب تتبين النية في السفر، فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية. ولتكن نيته الآخرة في جميع أسفاره، وذلك ظاهر في الواجب والمندوب، ومحال في المكروه والمحظور.

وأما المباح فمرجعه إلى النية. فمهما كان قصده بطلب المال مثلاً التعفف عن السؤال ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال، والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة، ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[(٢)]، فقوله ﷺ: «**الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» عام في الواجبات والمندوبات والمباحات دون المحظورات، فإن النية لا تؤثر في إخراجها عن كونها من المحظورات، وقد قال بعض السلف: إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته؛ فمن كانت نيته الدنيا أعطي منها ونقص من آخرته أضعافه، وفرق عليه همه، وكثر بالحرص والرغبة شغله. ومن كانت نيته الآخرة أعطي من البصيرة والحكمة والفطنة، وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته، وجمع له همه، ودعت له الملائكة واستغفرت له.

وأما النظر في أن السفر هو الأفضل أو الإقامة، فذلك يضاهي النظر في أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة؟ وقد ذكر منهاجه في كتاب العزلة فليفهم هذا منه، فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الأكثرين. والأفضل في هذا ما هو الأعون على الدين، ونهاية ثمرة الدين في الدنيا: تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى، والأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر. ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما. والسفر هو المعين على التعلم في الابتداء، والإقامة هي المعينة على العمل بالعلم في الانتهاء.

وأما السياحة في الأرض على الدوام: فمن المشوشات للقلب إلا في حق الأقوياء؛ فإن المسافر وماله لعلى قلق إلا ما وقى الله، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده في إقامته. وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق، فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع. ثم الشغل بالحط والترحال مشوش لجميع الأحوال، فلا ينبغي أن يسافر المريد إلا في طلب علم، أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته وتستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالسكون أولى به، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار ـ لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار

---

(١) حديث أم أيمن: أوصى رسول الله ﷺ بعض أهله: «**لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار**» أخرجه البيهقي وقال: فيه إرسال.

(٢) حديث: «**الأعمال بالنيات**» متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم.

ودقائق الأعمال، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة، وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين ـ قد ألفوا البطالة واستثقلوا العمل، واستوعروا طريق الكسب واستلانوا جانب السؤال والكدية، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم، واستخفوا عقولهم وأديانهم من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة، وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال تعللاً بكثرة الأتباع، فلم يكن لهم في الخانقاهات حكم نافذ، ولا تأديب للمريدين نافع، ولا حجر عليهم قاهر، فلبسوا المرقعات واتخذوا في الخانقاهات متنزهات، وربما تلقفوا ألفاظاً مزخرفة من أهل الطامات، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في خرقتهم وفي سياحتهم وفي لفظهم وعبارتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم؛ فيظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة، ويتوهمون أنّ المشاركة في الظاهر توجب المساهمة في الحقائق، وهيهات! فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم؟ فهؤلاء بغضاء الله، فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ. ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ، إلا من سافر لحج أو عمرة في غير رياء ولا سمعة، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدي به في علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن. والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل، لأنّ العلوم لم تندرس بعد، والعالم وإن كان عالم سوء فإنما فساده في سيرته لا في علمه، فيبقى عالماً غير عامل بعلمه، والعمل غير العلم.

وأما التصوف: فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سوى الله. وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح. ومهما فسد العمل فات الأصل. وفي أسفار هؤلاء نظر للفقهاء من حيث إنه إتعاب للنفس بلا فائدة، وقد يقال إنّ ذلك ممنوع. ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإنّ حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة، وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفوس المتحركين لهذه الحظوظ أيضاً خسيسة، ولا بأس بإتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه، فهو المتأذي والمتلذذ. والفتوى تقتضي تشتيت العوام في المباحات التي لا نفع فيها ولا ضرر؛ فالسائحون في غير مهم في الدين والدنيا بل لمحض التفرج في البلاد كالبهائم المترددة في الصحارى، فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم ولم يلبسوا على الخلق حالهم، وإنما عصيانهم في التلبيس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية، لأنّ الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه مع صفات أخر وراء الصلاح، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين، وأكل الحرام من الكبائر فلا تبقى معه العدالة والصلاح، ولو تصوّر صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وفقيه يهودي.

وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر في دينه على القدر الذي يحصل به العدالة. وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان ما أكلوه سحتاً، وأعني به إذا كان المعطي بحيث لو عرف بواطن أحوالهم ما أعطاهم، فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب رسول الله ﷺ على سبيل الدعوى، ومن زعم أنه علوي وهو كاذب وأعطاه مسلم مالاً لحبه أهل البيت ولو علم أنه كاذب لم يعطه شيئاً فأخذه على ذلك حرام، وكذلك الصوفي. ولهذا احترز المحتاطون عن الأكل بالدين فإن المبالغ في الاحتياط لدينه لا ينفك في باطنه عن عورات لو انكشفت للراغب في مواساته لفترت رغبته عن المواساة. فلا جرم كانوا لا يشترون شيئاً بأنفسهم مخافة أن يسامحوا لأجل دينهم فيكونوا قد أكلوا بالدين، وكانوا يوكلون من يشتري لهم ويشترطون على الوكيل أن

لا يظهر أنه لمن يشتري. نعم إنما يحل أخذ ما يعطى لأجل الدين إذا كان الآخذ بحيث لو علم المعطي من باطنه ما يعلمه الله تعالى لم يقتض ذلك فتوراً في رأيه فيه، والعاقل المنصف يعلم من نفسه أن ذلك ممتنع أو عزيز، والمغرور الجاهل بنفسه أحرى بأن يكون جاهلاً بأمر دينه، فإن أقرب الأشياء إلى قالبه قلبه، فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره؟ ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لا محالة أن لا يأكل إلا من كسبه؛ ليأمن من هذه الغائلة، أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعاً أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنعه ذلك عن مواساته.

فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره فليصرح له، وليقل: إنك إن كنت تعطيني لما تعتقده فيَّ من الدين فلست مستحقاً لذلك، ولو كشف الله تعالى ستري لم ترني بعين التوقير، بل اعتقدت أني شر الخلق أو من شرارهم، فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ، فإنه ربما يرضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه. ولكن ههنا مكيدة للنفس بينة ومخادعة فليتفطن لها، وهو أنه قد يقول ذلك مظهراً أنه متشبه بالصالحين في ذمهم نفوسهم واستحقارهم لها ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء، فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء، وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء. فكم من ذام نفسه وهو لها مادح بعين ذمه، فذم النفس في الخلوة مع النفس هو المحمود، وأما الذم في الملأ فهو عين الرياء إلا إذا أورده إيراداً يحصل للمستمع يقيناً بأنه مقترف للذنوب ومعترف بها. وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ويمكن تلبيسه بقرائن الأحوال. والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن مخادعته لله عزّ وجلّ أو مخادعته لنفسه محال، فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك. فهذا هو القول في أقسام السفر ونية المسافر وفضيلته.

* * *

الفصل الثاني

في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدباً

الأول: أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه. قال ابن عمر رضي الله عنهما: من كرم الرجل طيب زاده في سفره. ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام وإظهار مكارم الأخلاق في السفر، فإنه يخرج خبايا الباطن. ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر، وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر. ولذلك قيل: إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه. والسفر من أسباب الضجر، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق، وإلا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق.

وقد قيل: ثلاثة لا يلامون على الضجر: الصائم والمريض والمسافر، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكاري، ومعاونة الرفقة بكل ممكن، والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله. وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية؛ ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه.

الثاني: أن يختار رفيقاً فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق. وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسي ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه. وقد نهى ﷺ عن أن يسافر الرجل وحده[(١)] وقال: «**الثَّلاثَةُ نَفَرٌ**»[(٢)] وقال أيضاً: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فِي السَّفَرِ فَأَمِّرُوا أَحَدَكُمْ**»[(٣)]، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون: هذا أميرنا أمره رسول الله ﷺ[(٤)]. وليؤمروا أحسنهم أخلاقاً وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة. وإنما يحتاج إلى الأمير؛ لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر، ولا نظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في الكثرة. وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ومهما كان المدبر واحداً انتظم أمر التدبير. وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمير البلد، وأمير خاص كرب الدار. وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالتأمير؛ فلهذا وجب التأمير ليجتمع شتات الآراء. ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم وأن يجعل نفسه وقاية لهم، كما نقل عن عبدالله المروزي أنه صحبه أبو علي الرباطي فقال: على أن تكون أنت الأمير أو أنا، فقال: بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره فأمطرت السماء ذات ليلة، فقام عَبدالله طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كساء يمنع عنه المطر، فكلما قال له عبدالله: لا تفعل، يقول، ألم تقل إن الإمارة مسلمة لي؟ فلا تتحكم عليَّ ولا ترجع عن قولك. حتى قال أبو علي: وددت أني مت ولم أقل له أنت الأمير، فهكذا ينبغي أن يكون الأمير. وقد قال ﷺ: «**خَيْرُ الأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ**»[(٥)]، وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد أن يكون له فائدة، والذي ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحداً فيبقى في السفر بلا رفيق، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق، ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرجل واحداً، فلا يخلو أيضاً عن الخطر وعن ضيق الصدر. فإذن ما دون الأربعة لا يفي بالمقصود، وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة فلا ينعقد بينهم الترافق؛ لأن الخامس زيادة بعد الحاجة، ومن يستغني عنه لا تنصرف الهمة إليه فلا تتم المرافقة معه، نعم في كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف ولكن الأربعة خير للرفاقة الخاصة لا للرفاقة العامة. وكم من رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه.

---

(١) حديث: «النهي عن أن يسافر الرجل وحده»، أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخاري بلفظ: «**لو يعلم الناس ما في الوحدة ما سار راكب بليل وحده**».

(٢) حديث: «**الثلاثة نفر**» رويناه من حديث علي في وصيته المشهورة وهو حديث موضوع والمعروف: «**الثلاثة ركب**»، رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) حديث: «**إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم**» أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

(٤) حديث: «كانوا يفعلون ذلك ويقولون: هو أمير أمره رسول الله ﷺ» أخرجه البزار والحاكم عن عمر أنه قال: «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا عليكم أحدكم، ذا أمير أمره رسول الله ﷺ» قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(٥) حديث: «**خير الأصحاب أربعة**» أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عباس وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

الثالث: أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء: وليدع عند الوداع بدعاء رسول الله ﷺ قال بعضهم: صحبت عبدالله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله، فلما أردت أن أفارقه شيعني وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قَالَ لُقْمَانُ: إِنَّ الله تَعَالَىٰ إِذَا اسْتُوْدِعَ شَيْئاً حَفِظَهُ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُ الله دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ»**[(١)]، وروى زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ سَفَراً فَلْيُوَدِّعْ إِخْوَانَهُ، فَإِنَّ الله تَعَالَىٰ جَاعِلٌ لَهُ فِي دُعَائِهِمُ البَرَكَةَ»**[(٢)]، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: أن رسول الله ﷺ كان إذا ودع رجلاً قال: **«زَوَّدَكَ الله التَّقْوَىٰ وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجَّهَكَ إِلَىٰ الخَيْرِ حَيْثُ تَوَجَّهْتَ»**[(٣)]، فهذا دعاء المقيم للمودع.
وقال موسى بن وردان: أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته، فقال ألا أعلمك يا ابن أخي شيئاً علمنيه رسول الله ﷺ عند الوداع، فقلت: بلى، قال: قل: **«أَسْتَوْدِعُكَ الله الَّذِي لاَ تَضِيعُ وَدَائِعُهُ»**[(٤)]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني أريد سفراً فأوصني، فقال له: **«فِي حِفْظِ الله وَفِي كَنَفِهِ، زَوَّدَكَ الله التَّقْوَىٰ وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجَّهَكَ لِلْخَيْرِ حَيْثُ كُنْتَ أَوْ أَيْنَما كُنْتَ»**[(٥)]، شك فيه الراوي.

وينبغي إذا استودع الله تعالى ما يخلفه أن يستودع الجمع ولا يخصص؛ فقد روي أن عمر رضي الله عنه كان يعطي الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له، فقال له عمر: ما رأيت أشبه بأحد من هذا بك؟ فقال له الرجل: أحدّثك عنه يا أمير المؤمنين بأمر، إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت: تخرج وتدعني على هذه الحالة؟ فقلت: أستودع الله ما في بطنك، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت، فجلسنا نتحدّث فإذا نار على قبرها فقلت للقوم: ما هذه النار؟ فقالوا: هذه النار من قبر فلانة نراها كل ليلة، فقلت: والله إنها كانت لصوّامة قوّامة، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا فإذا سراج، وإذا هذا الغلام يدب، فقيل لي: إنّ هذه وديعتك، ولو كنت استودعت أمه لوجدتها، فقال عمر رضي الله عنه: لهو أشبه بك من الغراب بالغراب.

الرابع: أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة كما وصفناها في كتاب الصلاة. ووقت الخروج يصلي لأجل السفر، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها؟ إلى ابني أم أخي أم أبي؟ فقال النبي ﷺ: **«مَا اسْتَخْلَفَ عَبْدٌ فِي أَهْلِهِ مِنْ خَلِيفَةٍ أَحَبَّ إِلَىٰ الله مِنْ أَرْبَعِ رَكَعاتٍ يُصَلِّيهِنَّ فِي بَيْتِهِ إِذَا شَدَّ عَلَيْهِ ثِيابَ سَفَرِهِ، يَقْرَأُ**

---

(١) حديث ابن عمر: **«قال لقمان: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه، وإني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»**. أخرجه النسائي في اليوم والليلة، ورواه أبو داود مختصراً وإسناده جيد.

(٢) حديث زيد بن أرقم: **«إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله جاعل له في دعائهم البركة»** أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

(٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «كان إذا ودع رجلاً قال: **زودك الله التقوى**». رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والمحاملي في الدعاء وفيه ابن لهيعة.

(٤) حديث أبي هريرة: **«أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه»**. أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن.

(٥) حديث أنس **«في حفظ الله وفي كنفه زودك الله التقوى. . .»** الحديث. تقدم في الحج في الباب الثاني.

فِيهِنَّ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَقُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَقَرَّبُ بِهِنَّ إِلَيْكَ، فَاخْلُفْنِي بِهِنَّ فِي أَهْلِي وَمَالِي فَهِيَ خَلِيفَتُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَحِرْزٌ حَوْلَ دَارِهِ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ»[١].

الخامس: إذا حصل على باب الدار فليقل: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي، فإذا مشى قال: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت، اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك، اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت. وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه، فإذا ركب الدابة فليقل: بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. فإذا استوت الدابة تحته فليقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعرَاف: ٤٣] اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور.

السادس: أن يرحل عن المنزل بكرة. روى جابر: أن النبي ﷺ رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وقال: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»**[٢]. ويستحب أن يبتدىء بالخروج يوم الخميس؛ فقد روى عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس[٣]. وروى أنس: أنه ﷺ قال: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا يَوْمَ السَّبْتِ»**، وكان ﷺ إذا بعث سرية بعثها أوّل النهار[٤]. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا يَوْمَ خَمِيسِهَا»**[٥]، وقال عبدالله بن عباس: إذا كان لك إلى رجل حاجة فاطلبها منه نهاراً ولا تطلبها ليلاً واطلبها بكرة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»**[٦].

ولا ينبغي أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصياً بترك الجمعة، واليوم منسوب

---

(١) حديث أنس: أن رجلاً قال: إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها؟ إلى أبي أم أخي أم امرأتي فقال: **«ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات...»** الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف.

(٢) حديث جابر: أنه ﷺ رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال: **«اللهم بارك لأمتي في بكورها»** رواه الخرائطي وفي السنن الأربعة من حديث صخر العامري: **«اللهم بارك لأمتي في بكورها»** قال الترمذي: حديث حسن.

(٣) حديث كعب بن مالك: «قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس والسبت» أخرجه البزار مقتصراً على يوم خميسها والخرائطي مقتصراً على يوم السبت وكلاهما ضعيف.

(٤) حديث: **«كان إذا بعث سرية بعثها أول النهار»**. أخرجه الأربعة من حديث صخر العامري وحسنه الترمذي.

(٥) حديث أبي هريرة **«اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها»** أخرجه ابن ماجه والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وقال ابن ماجه: **«يوم الخميس»** وكلا الإسنادين ضعيف.

(٦) حديث ابن عباس: **«إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلبها إليه نهاراً...»** الحديث. أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وإسناده ضعيف.

إليها، فكان أوله من أسباب وجوبها. والتشييع للوداع مستحب وهو سنّة. قال ﷺ: «لأَنْ أُشَيِّعَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ الله فَأَكْتَنِفَهُ عَلَىٰ رَحْلِهِ غَدْوَةً أَوْ رَوْحَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيها»[(١)].

السابع: أن لا ينزل حتى يحمى النهار فهي السنّة ويكون أكثر سيره بالليل: قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَىٰ بِاللَّيلِ مَا لاَ تُطْوَىٰ بِالنَّهارِ»[(٢)]، ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السمٰوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه، اصرف عني شر شرارهم. فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ثم ليقل: اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق. فإذا جن عليه الليل فليقل: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣﴾ [الأنعام: ١٣]، ومهما علا شرفاً من الأرض في وقت السير فينبغي أن يقول: اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال، ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة في سفره قال: سبحان الملك القدّوس رب الملائكة والروح، جللت السمٰوات بالعزة والجبروت.

الثامن: أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفرداً خارج القافلة ـ لأنه ربما يُغتال أو ينقطع ـ ويكون بالليل متحفظاً عند النوم. كان ﷺ إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعيه نصباً وجعل رأسه في كفه[(٣)]. والغرض من ذلك، أن لا يستثقل في النوم فتطلع الشمس وهو نائم لا يدري، فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره.

والمستحب بالليل: أن يتناوب الرفقاء في الحراسة، فإذا نام واحد حرس آخر[(٤)] فهذه السنّة. ومهما قصده عدوّ أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي، وشهد الله، وسورة الإخلاص، والمعوّذتين. وليقل: بسم الله ما شاء الله لا قوّة إلا بالله، حسبي الله توكلت على الله، ما شاء الله لا يأتي بالخيرات إلا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى، ولا دون الله ملجأ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾ [المجادلة: ٢١] تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحي القيوم الذي لا يموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا. اللهم اعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين.

التاسع: أن يرفق بالدابة إن كان راكباً فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة، كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة،

---

(١) حديث: «لأن أشيع مجاهداً في سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روحة أحب إليّ من الدنيا وما فيها» رواه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس.

(٢) حديث: «عليكم بالدلجة. .» الحديث. تقدم في الباب الثاني من الحج.

(٣) حديث: «كان إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه. .» الحديث. تقدم في الحج.

(٤) حديث: «تناوب الرفقاء في الحراسة» تقدم في الحج في الباب الثاني.

وقال ﷺ: «لاَ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ كَرَاسِيَّ»[١] ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك[٢] فهو سنَّة وفيه آثار عن السلف.

وكان بعض السلف يكتري بشرط أن لا ينزل ويوفي الأجرة، ثم كان ينزل ليكون بذلك محسناً إلى الدابة، فيوضع في ميزان حسناته لا في ميزان حسنات المكاري. ومن آذى بهيمة بضرب أو حَمْلِ ما لا تطيق طولب به يوم القيامة؛ إذ في كل كبد حراء أجر. قال أبو الدرداء رضي الله عنه لبعير له عند الموت: أيها البعير، لا تخاصمني إلى ربك فإني لم أكُ أحملك فوق طاقتك. وفي النزول ساعة صدقتان، إحداهما: ترويح الدابة، والثانية: إدخال السرور على قلب المكاري. وفيه فائدة أخرى وهي رياضة البدن وتحريك الرجلين، والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب.

وينبغي أن يقرّر مع المكاري ما يحمله عليها شيئاً شيئاً ويعرضه عليه، ويستأجر الدابة بعقد صحيح لئلا يثور بينهما نزاع يؤذي القلب ويحمل على الزيادة في الكلام، فما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد. فليحترز عن كثرة الكلام واللجاج مع المكاري، فلا ينبغي أن يحمل فوق المشروط شيئاً وإن خف؛ فإن القليل يجر الكثير ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. قال رجل لابن المبارك وهو على دابة: احمل لي هذه الرقعة إلى فلان، فقال: حتى أستأذن المكاري؛ فإني لم أشارطه على هذه الرقعة. فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه، ولكن سلك طريق الورع؟.

العاشر: ينبغي أن يستصحب ستة أشياء: قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا سافر حمل معه خمسة أشياء: «المَرْآةَ وَالمُكْحَلَةَ وَالمِقْرَاضَ وَالسِّوَاكَ وَالمُشْطَ»[٣]، وفي رواية أخرى عنها، ستة أشياء: المرآة والقارورة والمقراض والسواك والمكحلة والمشط. وقالت أم سعد الأنصارية: كان رسول الله ﷺ لا يفارقه في السفر المرآة والمكحلة[٤]، وقال صهيب، قال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالإِثْمِدِ**[٥] **عِنْدَ مَضْجَعِكُمْ فَإِنَّهُ مِمَّا يَزِيدُ فِي البَصَرِ وَيُنْبِتُ الشَّعرَ**»[٦]، وروي أنه كان يكتحل ثلاثاً ثلاثاً، وفي رواية: إنه اكتحل لليمنى ثلاثاً ولليسرى اثنتين[٧]، وقد زاد الصوفية الركوة والحبل. وقال بعض الصوفية: إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل على نقصان دينه. وإنما زادوا هذا لما رأوه من الاحتياط في طهارة الماء وغسل الثياب، فالركوة: لحفظ الماء الطاهر، والحبل: لتجفيف الثوب المغسول، ولنزع الماء من الآبار. وكان الأوّلون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء، ولا يبالون بالوضوء من

---

(١) حديث: «**لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي**» تقدم في الباب الثالث من الحج.

(٢) حديث: «النزول عن الدابة غدوة وعشية» تقدم فيه.

(٣) حديث عائشة: «كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء: المرآة والمكحلة والمدرى والسواك والمشط». وفي رواية: «ستة أشياء». أخرجه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في سننه، والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة.

(٤) حديث أم سعد الأنصارية: «**كان لا يفارقه في السفر المرآة والمكحلة**». رواه الخرائطي وإسناده ضعيف.

(٥) الإثمد: نوع من الكحل.

(٦) حديث صهيب: «**عليكم بالإثمد عند مضجعكم فإنه يزيد في البصر وينبت الشعر**». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف، وهو عند الترمذي.

وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس، وصححه ابن عبدالبر وقال الخطابي: صحيح الإسناد.

(٧) حديث: «كان يكتحل لليمنى ثلاثاً ولليسرى اثنتين». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين.

الغدران ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها، حتى توضأ عمر رضي الله عنه من ماء في جرة نصرانية. وكانوا يكتفون بالأرض والجبال عن الحبل فيفرشون الثياب المغسولة عليها. فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة، وإنما البدعة المذمومة ما تضاد السنن الثابتة، وأما ما يعين على الاحتياط في الدين فمستحسن.

وقد ذكرنا أحكام المبالغة في الطهارات في كتاب الطهارة، وأن المتجرد لأمر الدين لا ينبغي أن يؤثر طريق الرخصة، بل يحتاط في الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه.

وقيل: كان الخوَّاص من المتوكلين وكان لا يفارقه أربعة أشياء في السفر والحضر: الركوة والحبل والإبرة بخيوطها والمقراض، وكان يقول: هذه ليست من الدنيا.

الحادي عشر: في آداب الرجوع من السفر: كان النبي ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: **«لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ الله وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ»**(١)، وإذا أشرف على مدينته فليقل: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً. ثم ليرسل إلى أهله من يبشرهم بقدومه؛ كيلا يقدم عليهم بغتة فيرى ما يكرهه، ولا ينبغي له أن يطرقهم ليلاً(٢)، فقد ورد النهي عنه، وكان ﷺ إذا قدم دخل المسجد أوّلاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت(٣)، وإذا دخل قال: **«تَوْباً تَوْباً لِرَبِّنَا أَوْباً أَوْباً لاَ يُغَادِرُ عَلَيْنَا حَوْباً»**(٤).

وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنَّة؛ فقد روي: أنه إن لم يجد شيئاً فليضع في مخلاته حجراً(٥) وكأن هذا مبالغة في الاستحثاث على هذه المكرمة لأن الأعين تمتدّ إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به، فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكرهم بما يستصحبه في الطريق لهم، فهذه جملة من الآداب الظاهرة.

وأما الآداب الباطنة: ففي الفصل الأوّل بيان جملة منها. وجملته: أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر. ومهما وجد قلبه متغيراً إلى نقصان فليقف ولينصرف، ولا ينبغي أن يجاوز همه منزله، بل ينزل حيث ينزل قلبه، وينوي في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها، ويجتهد أن يستفيد من كل واحد منهم أدباً أو كلمة لينتفع بها، لا ليحكي ذلك ويظهر أنه لقي المشايخ. ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك. ولا يجالس في مدّة الإقامة إلا الفقراء الصادقين. وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حدّ الضيافة إلا إذا شق على أخيه مفارقته. وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة. ولا يشغل نفسه بالعشرة فإن ذلك يقطع بركة سفره. وكلما دخل بلداً لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله، فإن كان في بيته فلا يدق عليه بابه ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج، فإذا خرج تقدّم إليه بأدب فسلم عليه، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله، فإن سأله أجاب

---

(١) حديث: «كان إذا قفل من حج أو غزوة أو غيره يكبر...» الحديث. تقدم في الحج.

(٢) حديث: «النهي عن طروق الأهل ليلاً». تقدم.

(٣) حديث: «كان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين». تقدم.

(٤) حديث: كان إذا دخل قال «توباً توباً لربنا أوباً أوباً ولا يغادر علينا حوباً» أخرجه ابن السني في اليوم والليلة، والحاكم من حديث ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٥) حديث: «إطراق أهله عند القدوم ولو بحجر» أخرجه الدارقطني من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

بقدر السؤال، ولا يسأله عن مسألة ما لم يستأذن أولاً. وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسخيائها ولا ذكر أصدقائه فيها، وليذكر مشايخها وفقراءها. ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين بل يتفقدها في كل قرية وبلدة. ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من يقدر على إزالتها. ويلازم في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره. وإذا كلمه إنسان فليترك الذكر وليجبه ما دام يحدثه، ثم ليرجع إلى ما كان عليه. فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها فالبركة في مخالفة النفس. وإذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغي له أن يسافر تبرماً بالخدمة؛ فذلك كفران نعمة. ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان عليه في الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع؛ إذ لو كان لحق لظهر أثره.

قال رجل لأبي عثمان المغربي: خرج فلان مسافراً، فقال: السفر غربة والغربة ذلة وليس للمؤمن أن يذل نفسه، وأشار به إلى أنّ من ليس له في السفر زيادة دين فقد أذل نفسه، وإلا فعز الدين لا ينال إلا بذلة الغربة. فليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه حتى يعز في هذه الغربة ولا يذل؛ فإن من اتبع هواه في سفره ذل لا محالة إما عاجلاً وإما آجلاً.

***

الباب الثاني

فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

اعلم: أن المسافر يحتاج في أوّل سفره إلى أن يتزّود لدنياه ولآخرته.

أما زاد الدنيا: فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة. فإن خرج متوكلاً من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره في قافلة أو بين قرى متصلة. وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب، فإن كان ممن يصبر على الجوع ـ أسبوعاً أو عشراً مثلاً ـ أو يقدر على أن يكتفي بالحشيش فله ذلك. وإن لم يكن له قوّة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية؛ فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة، ولهذا سر سيأتي في كتاب التوكل.

وليس معنى التوكل التباعد من الأسباب بالكلية، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو والحبل ونزع الماء من البئر، ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكاً أو شخصاً آخر حتى يصب الماء في فيه. فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح في التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه. وستأتي حقيقة التوكل في موضعها فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين.

وأما زاد الآخرة: فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصومه وصلاته وعبادته فلا بد وأن يتزود منه؛ إذ السفر تارة يخفف عنه أموراً فيحتاج إلى معرفة القدر الذي يخففه السفر كالقصر والجمع والفطر، وتارة يشدد عليه أموراً كان مستغنياً عنها في الحضر كالعلم بالقبلة وأوقات الصلوات، فإنه في البلد يكتفي بغيره من محاريب المساجد وأذان المؤذنين، وفي السفر قد يحتاج إلى أن يتعرّف بنفسه. فإذن ما يفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: العلم برخص السفر:

والسفر يفيد في الطهارة رخصتين: مسح الخفين والتيمم، وفي صلاة الفرض رخصتين: القصر والجمع، وفي النفل رخصتين: أداؤه على الراحلة وأداؤه ماشياً، وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر. فهذه سبع رخص.

الرخصة الأولى: المسح على الخفين، قال صفوان بن عسال: أمرنا رسول الله ﷺ إذا كنا مسافرين أو سفر أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن(١). فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافراً، أو يوماً وليلة إن كان مقيماً ولكن بخمسة شروط:

الأول: أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة، فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها في الخف لم يجز له المسح عند الشافعي رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسه.

الثاني: أن يكون الخف قوياً يمكن المشي فيه، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن منعلاً؛ إذ العادة جارية بالتردد فيه في المنازل لأن فيه قوّة على الجملة، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه وكذا الجرموق الضعيف.

الثالث: أن لا يكون في موضع فرض الغسل خرق، فإن تخرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجز المسح عليه. وللشافعي قول قديم إنه يجوز ما دام يستمسك على الرجل، وهو مذهب مالك رضي الله عنه، ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه وتعذر الخرز في السفر في كل وقت. والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساتراً لا تبدو بشرة القدم من خلاله، وكذا المشقوق الذي يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك فلا يعتبر إلا أن يكون ساتراً إلى ما فوق الكعبين كيفما كان. فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقي باللفافة لم يجز المسح عليه.

الرابع: أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه، فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء، فإن اقتصر على غسل القدمين جاز.

الخامس: أن يمسح على الموضع المحاذي لمحل فرض الغسل لا على الساق، وأقله ما يسمى مسحاً على ظهر القدم من الخف. وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه، والأولى أن يخرج من شبهة الخلاف وأكمله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار(٢)، كذلك فعل رسول الله ﷺ ووصفه: أن يبل اليدين ويضع رؤوس أصابع اليمنى من يده على رؤوس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه؛ بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه، ويضع رؤوس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ويمرها إلى رأس

الباب الثاني:

فيما لا بدّ للمسافر من تعلمه

(١) حديث صفوان بن عسال: «أمرنا رسول الله ﷺ إذا كنا مسافرين أو سفراً أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن». أخرجه الترمذي وصححه؛ وابن ماجه والنسائي في الكبرى، وابن خزيمة وابن حبان.

(٢) حديث: «مسحه ﷺ على الخف وأسفله». أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه، وابن ماجه من حديث المغيرة وهكذا ضعفه البخاري وأبو زرعة.

القدم. ومهما مسح مقيماً ثم سافر أو مسافراً ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة. وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف، فلو لبس الخف في الحضر ومسح في الحضر، ثم خرج وأحدث في السفر وقت الزوال مثلاً مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلي إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجليه ويعيد لبس الخف، ويراعي وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث، ولو أحدث بعد لبس الخف في الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام لأن العادة قد تقتضي اللبس قبل الخروج، ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث. فأما إذا مسح في الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين.

ويستحب لكل من يريد لبس الخف في حضر أو سفر: أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذراً من حية أو عقرب أو شوكة. فقد روي عن أبي أمامة أنه قال: دعا رسول الله ﷺ بخفيه فلبس أحدهما، فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية، فقال ﷺ: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَلْبَسْ خُفَّيْهِ حَتَّىٰ يَنْفُضَهُما»**[1].

الرخصة الثانية: التيمم بالتراب بدلاً عن الماء عند العذر، وإنما يتعذر الماء بأن يكون بعيداً عن المنزل بعداً لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث، وهو البعد الذي لا يعتاده أهل المنزل ـ في ترددهم لقضاء الحاجة ـ التردد إليه. وكذا إن نزل على الماء عدوّ أو سبع فيجوز التيمم وإن كان الماء قريباً. وكذا إن احتاج إليه لعطشه في يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم. وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقائه فلا يجوز له الوضوء. ويلزمه بذله إما بثمن أو بغير ثمن ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرقة أو لحم أو لبل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم، بل عليه أن يجتزىء بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقة. ومهما وهب له الماء وجب قبوله، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله لما فيه من المنة. وإن بيع بثمن المثل لزمه الشراء وإن بيع بغبن لم يلزمه. فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جوّز الوصول إليه بالطلب، وذلك بالتردد حوالي المنزل وتفتيش الرحل وطلب البقايا من الأواني والمطاهر. فإن نسي الماء في رحله أو نسي بئراً بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره في الطلب. وإن علم أنه سيجد الماء في آخر الوقت فالأولى أن يصلي بالتيمم في أول الوقت فإن العمر لا يوثق به. وأول الوقت رضوان الله.

تيمم ابن عمر رضي الله عنهما فقيل له: أتتيمم وجدران المدينة تنظر إليك؟ فقال: أو أبقى إلى أن أدخلها؟ ومهما وجد الماء بعد الشروع في الصلاة لم تبطل صلاته ولم يلزمه الوضوء. وإذا وجده قبل الشروع في الصلاة لزمه الوضوء.

ومهما طلب فلم يجد فليقصد صعيداً طيباً عليه تراب يثور منه غبار، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما ضربة فيمسح بها وجهه، ويضرب ضربة أخرى ـ بعد نزع الخاتم ـ ويفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه، فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى، وكيفية التلطف فيه ما ذكرناه في كتاب الطهارة فلا نعيده.

ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يتنفل ما شاء بذلك التيمم. وإن أراد الجمع بين فريضتين

---

(١) حديث أبي أمامة «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما» رواه الطبراني، وفيه من لا يعرف.

فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية، فلا يصلي فريضتين إلا بتيممين. ولا ينبغي أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها، فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم. ولينوِ عند مسح الوجه: استباحة الصلاة. ولو وجد من الماء ما يكفيه لبعض طهارته فيستعمله ثم ليتيمم بعده تيمماً تاماً.

الرخصة الثالثة: في الصلاة المفروضة، القصر: وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة:

الأوّل: أن يؤديها في أوقاتها فلو صارت قضاء فالأظهر لزوم الإتمام.

الثاني: أن ينوي القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام، ولو شك في أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام.

الثالث: أن لا يقتدي بمقيم ولا بمسافر متم، فإن فعل لزمه الإتمام، بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام، وإن تيقن بعده أنه مسافر لأن شعار المسافر لا تخفى فليكن متحققاً عند النية، وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا، بعد أن عرف أنه مسافر لم يضره ذلك؛ لأن النيات لا يطلع عليها. وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح.

وحدّ السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال فلا بدّ من معرفته. والسفر: هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم، فالهائم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذي لا يقصد موضعاً معيناً، ولا يصير مسافراً ما لم يفارق عمران البلد، ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التي يخرج أهل البلدة إليها للتنزه. وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحوطة دون التي ليست بمحوطة. ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذِ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه ما لم يجاوز العمران، وإن لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص إذ صار مسافراً بالانزعاج والخروج منه.

وأما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة:

الأول: الوصول إلى العمران من البلد الذي عزم على الإقامة به.

الثاني: العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعداً إما في بلد أو في صحراء.

الثالث: صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده، وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازه ولكنه يتعوق عليه ويتأخر، فله أن يترخص وإن طالت المدة ـ على أقيس القولين ـ لأنه منزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته، ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب، ولا فرق بين أن يكون هذا الشغل قتالاً أو غيره، ولا بين أن تطول المدة أو تقصر، ولا بين أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاؤه ثلاثة أيام أو لغيره؛ إذ ترخص رسول الله ﷺ فقصر في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد(١). وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه؛ إذ لا معنى للتقدير بثمانية عشر يوماً. والظاهر أن قصره كان لكونه مسافراً لا لكونه غازياً مقاتلاً. هذا معنى القصر.

---

(١) حديث: «قصره ﷺ في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد». أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين في قصة الفتح: «فأقام بمكة ثماني عشرة ليلة لا يصلي إلا ركعتين». وللبخاري من حديث ابن عباس: «أقام بمكة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة». ولأبي داود: «سبعة عشر». بتقديم السين وفي رواية له: «خمسة عشر».

وأما معنى التطويل: فهو أن يكون مرحلتين: كل مرحلة ثمانية فراسخ، وكل فرسخ ثلاثة أميال، وكل ميل أربعة آلاف خطوة، وكل خطوة ثلاثة أقدام.

ومعنى المباح: أن لا يكون عاقاً لوالديه هارباً منهما، ولا هارباً من مالكه، ولا تكون المرأة هاربة من زوجها، ولا أن يكون من عليه الدين هارباً من المستحق مع اليسار، ولا يكون متوجهاً في قطع طريق، أو قتل إنسان، أو طلب إدرار حرام من سلطان ظالم، أو سعي بالفساد بين المسلمين.

وبالجملة: فلا يسافر الإنسان إلا في غرض، والغرض هو المحرك؛ فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراماً ولولا ذلك الغرض لكان لا ينبعث لسفره فسفره معصية ولا يجوز فيه الترخص. وأما الفسق في السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة، بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة، ولو كان له باعثان أحدهما مباح والآخر محظور، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلاً بتحريكه ولكان لا محالة يسافر لأجله فله الترخص. والمتصوّفة الطوافون في البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة في ترخصهم خلاف، والمختار أن لهم الترخص.

الرخصة الرابعة: الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما، وبين المغرب والعشاء في وقتيهما، فذلك أيضاً جائز في كل سفر طويل مباح، وفي جوازه في السفر القصير قولان. ثم إن قدم العصر إلى الظهر فلينوِ الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقم، وعند الفراغ يقيم للعصر، ويجدد التيمم أوّلاً إن كان فرضه التيمم، ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة، فإن قدم العصر لم يجز، وإن نوى الجمع عند التحرم بصلاة العصر جاز عند المُزني، وله وجه في القياس؛ إذ لا مستند لإيجاب تقديم النية بل الشرع جوّز الجمع وهذا جمع، وإنما الرخصة في العصر فتكفي النية فيها، وأما الظهر فجار على القانون. ثم إذا فرغ من الصلاتين فينبغي أن يجمع بين سنن الصلاتين؛ أما العصر: فلا سنّة بعدها ولكن السنة التي بعد الظهر يصليها بعد الفراغ من العصر إما راكباً أو مقيماً، لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لانقطعت الموالاة وهي واجبة ـ على وجه ـ ولو أراد أن يقيم الأربع المسنونة قبل الظهر والأربع المسنونة قبل العصر فليجمع بينهنَّ قبل الفريضتين؛ فيصلي سنة الظهر أولاً ثم سنة العصر، ثم فريضة الظهر ثم فريضة العصر، ثم سنّة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الفرض.

ولا ينبغي أن يهمل النوافل في السفر فما يفوته من ثوابها أكثر مما يناله من الربح، لا سيما وقد خفف الشرع عليه وجوز له أداءها على الراحلة كي لا يتعوّق عن الرفقة بسببها. وإن أخّر الظهر إلى العصر فيجري على هذا الترتيب ولا يبالي بوقوع راتبة الظهر بعد العصر في الوقت المكروه؛ لأن ما له سبب لا يكره في هذا الوقت، وكذلك يفعل في المغرب والعشاء والوتر. وإذا قدّم أو أخر فبعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويختم الجميع بالوتر. وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جمعاً فهو نية الجمع؛ لأنه إنما يخلو عن هذه النية إما بنية الترك أو بنية التأخير عن وقت العصر، وذلك حرام والعزم عليه حرام. وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصياً؛ لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها. ويحتمل أن يقال: إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها، ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركاً في السفر بين الصلاتين، ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل الغروب. ولذلك ينقدح أن لا تشترط الموالاة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر، أما إذا قدّم العصر على الظهر لم يجز؛ لأن ما بعد الفراغ من الظهر هو الذي جعل وقتاً للعصر؛

إذ يبعد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيره. وعذر المطر مجوّز للجمع كعذر السفر. وترك الجمعة أيضاً من رخص السفر وهي متعلقة أيضاً بفرائض الصلوات. ولو نوى الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر في الحضر فعليه أداء العصر، وما مضى إنما كان مجزئاً بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر.

الرخصة الخامسة: التنفل راكباً، كان رسول الله ﷺ يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته[1] وأوتر رسول الله ﷺ على الراحلة. وليس على المتنفل الراكب في الركوع والسجود إلا الإيماء. وينبغي أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه، ولا يلزمه الانحناء إلى حدّ يتعرض به لخطر بسبب الدابة. فإن كان في مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه.

وأما استقبال القبلة فلا يجب لا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة. فليكن في جميع صلاته إما مستقبلاً للقبلة أو متوجهاً في صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها، فلو حرف دابته عن الطريق قصداً بطلت صلاته إلا إذا حرفها إلى القبلة، ولو حرفها ناسياً وقصر الزمان لم تبطل صلاته، وإن طال ففيه خلاف، وإن جمحت به الدابة فانحرفت لم تبطل صلاته ـ لأن ذلك مما يكثر وقوعه ـ وليس عليه سجود سهو؛ إذ الجماح غير منسوب إليه، بخلاف ما لو حرف ناسياً فإنه يسجد للسهو بالإيماء.

الرخصة السادسة: التنفل للماشي جائز في السفر ويومىء بالركوع والسجود، ولا يقعد للتشهد؛ لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة وحكمه حكم الراكب، لكن ينبغي أن يتحرم بالصلاة مستقبلاً للقبلة؛ لأن الانحراف في لحظة لا عسر عليه فيه؛ بخلاف الراكب فإن في تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر، وربما تكثر الصلاة فيطول عليه ذلك. ولا ينبغي أن يمشي في نجاسة رطبة عمداً، فإن فعل بطلت صلاته، بخلاف ما لو وطئت دابة الراكب نجاسة. وليس عليه أن يشوّش المشي على نفسه بالاحتراز من النجاسات التي لا تخلو الطريق عنها غالباً. وكل هارب من عدوّ أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكباً أو ماشياً كما ذكرناه في التنفل.

الرخصة السابعة: الفطر، وهو في الصوم: فللمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقيماً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم. وإن أصبح مسافراً صائماً ثم أقام فعليه الإتمام. وإن أقام مفطراً فليس عليه الإمساك بقية النهار. وإن أصبح مسافراً على عزم الصوم لم يلزمه بل له أن يفطر إذا أراد، والصوم أفضل من الفطر. والقصر أفضل من الإتمام للخروج عن شبهة الخلاف، ولأنه ليس في عهدة القضاء بخلاف المفطر فإنه في عهدة القضاء، وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى في ذمته، إلا إذا كان الصوم يضر به فالإفطار أفضل.

فهذه سبع رخص تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل وهي: القصر والفطر والمسح ثلاثة أيام، وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلاً كان أو قصيراً وهما: سقوط الجمعة وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم. وأما صلاة النافلة ماشياً وراكباً ففيه خلاف والأصح جوازه في القصير. والجمع بين الصلاتين فيه خلاف والأظهر اختصاصه بالطويل. وأما صلاة الفرض راكباً وماشياً للخوف فلا تتعلق بالسفر، وكذا أكل الميتة، وكذا أداء الصلاة في الحال بالتيمم عند فقد الماء، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها.

فإن قلت: فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك؟ فاعلم أنه

---

(١) حديث: «كان يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحلة». متفق عليه من حديث ابن عمر.

إن كان عازماً على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكباً وماشياً لم يلزمه علم شروط الترخص في ذلك؛ لأنّ الترخص ليس بواجب عليه. وأما علم رخصة التيمم فيلزمه؛ لأنّ فقد الماء ليس إليه، إلاّ أن يسافر على شاطىء نهر يوثق ببقاء مائه، أو يكون معه في الطريق عالم يقدر على استفتائه عند الحاجة، فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة. أما إذا كان يظن عدم الماء ولم يكن معه عالم فيلزمه التعلم لا محالة.

فإن قلت: التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم تجب وربما لا تجب؟ فأقول: من بينه وبين الكعبة مسافة لا تقطع إلا في سنة؛ فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر. ويلزمه تعلم المناسك لا محالة إذا كان يظن أنه لا يجد في الطريق من يتعلم منه؛ لأنّ الأصل: الحياة واستمرارها. وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، وكل ما يتوقع وجوبه توقعاً ظاهراً على الظن وله شرط لا يتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لا محالة، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته. فلا يحل إذن للمسافر أن ينشىء السفر ما لم يتعلم هذا القدر من علم التيمم. وإن كان عازماً على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضاً القدر الذي ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص، فإنه إذا لم يعلم القدر الجائز لرخصة السفر لم يمكنه الاقتصار عليه.

فإن قلت: إنه إن لم يتعلم كيفية التنفل راكباً وماشياً ماذا يضره وغايته إن صلى أن تكون صلاته فاسدة، وهي غير واجبة فكيف يكون علمها واجباً؟ فأقول: من الواجب أن لا يصلي النفل على نعت الفساد، فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام، فعليه أن يتعلم ما يحترز به عن النافلة الفاسدة حذراً عن الوقوع في المحظورات. فهذا بيان علم ما خفف عن المسافر في سفره.

القسم الثاني: ما يتجدّد من الوظيفة بسبب السفر:

وهو علم القبلة والأوقات: وذلك أيضاً واجب في الحضر، ولكن في الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه يغنيه عن طلب القبلة، ومؤذن يراعي الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت.

والمسافر قد تشتبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت فلا بدّ له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت.

أما أدلة القبلة فهي ثلاثة أقسام: أرضية: كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار، وهوائية: كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها وصباها ودبورها، وسماوية: وهي النجوم.

فأما الأرضية والهوائية: فتختلف باختلاف البلاد، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل أو شماله أو ورائه أو قدامه، فليعلم ذلك وليفهمه. وكذلك الرياح قد تدل في بعض البلاد فليفهم ذلك. ولسنا نقدر على استقصاء ذلك إذ لكل بلد وإقليم حكم آخر.

وأما السماوية: فأدلتها تنقسم إلى نهارية وإلى ليلية.

أما النهارية: فالشمس، فلا بدّ أن يراعي قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه، أهي بين الحاجبين؟ أو على العين اليمنى؟ أو اليسرى؟ أو تميل إلى الجبين ميلاً أكثر من ذلك؟ فإن الشمس لا تغدو في البلاد الشمالية هذه المواقع. فإذا حفظ ذلك فمهما عرف الزوال بدليله الذي سنذكره عرف القبلة به. وكذلك يراعي مواقع الشمس منه وقت العصر، فإنه في هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة. وهذا أيضاً لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤه.

وأما القبلة وقت المغرب فإنها تدرك بموضع الغروب. وذلك بأن يحفظ أنّ الشمس تغرب عن يمين المستقبل، أو هي مائلة إلى وجهه، أو قفاه. وبالشفق أيضاً تعرف القبلة للعشاء الأخيرة.

وبمشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح. فكأن الشمس تدل على القبلة في الصلوات الخمس، ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف؛ فإن المشارق والمغارب كثيرة وإن كانت محصورة في جهتين، فلا بد من تعلم ذلك أيضاً. ولكن قد يصلي المغرب والعشاء بعد غيبوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به، فعليه أن يراعي موضع القطب؛ وهو الكوكب الذي يقال له: الجدي. فإنه كوكب كالثابت لا تظهر حركته عن موضعه، وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل، أو على منكبه الأيمن من ظهره، أو منكبه الأيسر في البلاد الشمالية من مكة. وفي البلاد الجنوبية كاليمَن وما والاها فيقع في مقابلة المستقبل، فيتعلم ذلك، وما عرفه في بلده فليعوّل عليه في الطريق كله إلا إذا طال السفر، فإن المسافة إذا بعدت اختلف موقع الشمس وموقع القطب وموقع المشارق والمغارب، إلا أن ينتهي في أثناء سفره إلى بلاد فينبغي أن يسأل أهل البصيرة، أو يراقب هذه الكواكب وهو مستقبل محراب جامع البلد حتى يتضح له ذلك. فمهما تعلم هذه الأدلة فله أن يعوّل عليها، فإن بان له أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغي أن يقضي. وإن انحرف عن حقيقة محاذاة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء.

وقد أورد الفقهاء خلافاً في أنّ المطلوب جهة الكعبة أو عينها، وأشكل معنى ذلك على قوم إذ قالوا: إن قلنا: إن المطلوب العين فمتى يتصوّر هذا مع بعد الديار؟ وإن قلنا: إن المطلوب الجهة فالواقف في المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج ببدنه عن موازاة الكعبة لا خلاف في أنه لا تصح صلاته. وقد طوّلوا في تأويل معنى الخلاف في الجهة والعين. ولا بد أوّلاً من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة.

فمعنى مقابلة العين: أن يقف موقفاً لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لاتصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان (وهذه صورته والخط الخارج من موقف المصلي يقدر أنه خارج من بين عينيه) فهذه صورة مقابلة العين.

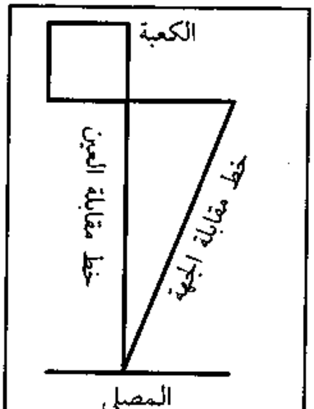

وأما مقابلة الجهة: فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجي من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة. فلو مدّ هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من يمينها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق، فيخرج عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة ـ كالخط الذي كتبنا عليه مقابلة الجهة فإنه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلاً لجهة الكعبة لا لعينها.

وحدّ تلك الجهة ما يقع بين خطين يتوهمهما الواقف مستقبلاً لجهة خارجين من العينين، فيلتقي طرفاهما في داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة، فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل في الجهة. وسعة ما بين الخطين تتزايد بطول الخطين وبالبعد عن الكعبة (وهذه صورته):

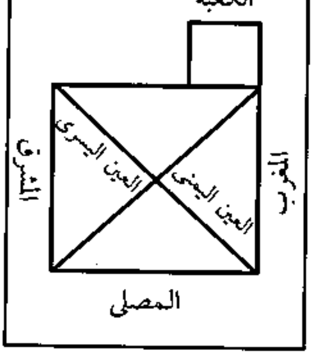

فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول: الذي يصح عندنا في الفتوى أن المطلوب العين إن كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها، وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيكفي استقبال الجهة.

فأما طلب العين عند المشاهدة فمجمع عليه، وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضي الله عنهم والقياس.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤] أي نحوه. ومَن قابل جهة الكعبة يقال: قد ولى وجهه شطرها.

وأما السنّة: فما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأهل المدينة: «**مَا بَيْنَ المَغْرِبِ والمَشْرِقِ قِبْلَةٌ**»[(١)]، والمغرب يقع على يمين أهل المدينة والمشرق على يسارهم. فجعل رسول الله ﷺ جميع ما يقع بينهما قبلة ومساحة الكعبة لا تفي بما بين المشرق والمغرب وإنما يفي بذلك جهتها. وروي هذا اللفظ أيضاً عن عمر وابنه رضي الله عنهما.

وأما فعل الصحابة رضي الله عنهم: فما روي أن مسجد قباء كانوا في صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين لبيت المقدس مستدبرين الكعبة ـ لأن المدينة بينهما ـ فقيل لهم: الآن قد حوّلت القبلة إلى الكعبة، فاستداروا في أثناء الصلاة من غير طلب دلالة[(٢)] ولم ينكر عليهم. وسمي مسجدهم «ذا القبلتين» ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها؛ فكيف أدركوا ذلك على البديهة في أثناء الصلاة وفي ظلمة الليل؟ ويدل أيضاً من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالي مكة وفي سائر بلاد الإسلام ولم يحضروا قط مهندساً عند تسوية المحاريب، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر الهندسي.

وأما القياس: فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال وبناء المساجد في جميع أقطار الأرض، ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها، بل ربما يزجر عن التعمق في علمها فكيف ينبني أمر الشرع عليها؟ فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة.

وأما دليل صحة الصورة التي صورناها: وهو حصر جهات العالم في أربع جهات فقوله عليه السلام في آداب قضاء الحاجة: «**لاَ تَسْتَقْبِلُوا بِها القِبْلَةَ وَلاَ تَسْتَدْبِرُوها وَلٰكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا**»[(٣)]، وقال: هذا بالمدينة ـ والمشرق على يسار المستقبل بها والمغرب على يمينه ـ فنهى عن جهتين ورخص في جهتين، ومجموع ذلك أربع جهات. ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض في ست أو سبع أو عشر. وكيفما كان فما حكم الباقي؟ بل الجهات تثبت في الاعتقادات بناء على خلقة الإنسان، وليس له إلا أربع جهات: قدام وخلف ويمين وشمال فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان في ظاهر النظر أربعاً. والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات فظهر أن المطلوب الجهة، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أدلة القبلة. فأما مقابلة العين فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء، ومقدار درجات طولها وهو بعدها عن أوّل عمارة في المشرق. ثم يعرف ذلك أيضاً في موقف

---

(١) حديث: «**ما بين المشرق والمغرب قبلة**». أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وقال: منكر، وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «إن أهل قباء كانوا في صلاة الصبح مستقبلين لبيت المقدس فقيل لهم: ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة فاستداروا. . .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أنس واتفقا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف.

(٣) حديث: «**لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا**». متفق عليه من حديث أبي أيوب.

المصلي، ثم يقابل أحدهما بالآخر. ويحتاج فيه إلى آلات وأسبابه طويلة، والشرع غير مبني عليها قطعاً. فإذن القدر الذي لا بد من تعلمه من أدلة القبلة: موقع المشرق والمغرب في الزوال، وموقع الشمس وقت العصر. فبهذا يسقط الوجوب.

فإن قلت: فلو خرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يعصي؟ فأقول: إن كان طريقه على قرى متصلة فيها محاريب، أو كان معه في الطريق بصير بأدلة القبلة موثوق بعدالته وبصيرته ويقدر على تقليده فلا يعصي، وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى؛ لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل علمه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره. فإن تعلم هذه الأدلة واستبهم عليه الأمر بغيم مظلم، أو ترك التعلم ولم يجد في الطريق من يقلده؛ فعليه أن يصلي في الوقت على حسب حاله، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ، والأعمى ليس له إلا التقليد فليقلد من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهداً في القبلة، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل يخبره بذلك في حضر أو سفر، وليس للأعمى ولا للجاهل أن يسافر في قافلة ليس فيها من يعرف أدلة القبلة ـ حيث يحتاج إلى الاستدلال ـ كما ليس للعامي أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرع، بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلمه دينه، وكذا إن لم يكن في البلد إلا فقيه فاسق فعليه الهجرة أيضاً؛ إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى ـ كما في الرواية ـ وإن كان معروفاً بالفقه مستور الحال في العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد من له عدالة ظاهرة؛ لأن المسافر في البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين. فإن رآه لابساً للحرير أو ما يغلب عليه الإبريسم، أو راكباً لفرس عليه مركب ذهب؛ فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله، فليطلب غيره. وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام، أو يأخذ منه إدراراً أو صلة من غير أن يعلم أن الذي يأخذه من وجه حلال، فكل ذلك فسق يقدح في العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة.

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها؛ فوقت الظهر يدخل بالزوال، فإن كل شخص لا بد أن يقع له في ابتداء النهار ظل مستطيل في جانب المغرب، ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال، ثم يأخذ في الزيادة في جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب. فليقم المسافر في موضع أو لينصب عوداً مستقيماً وليعلم على رأس الظل، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه في النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر.

وطريقه في معرفة ذلك: أن ينظر في البلد ـ وقت أذان المؤذن المعتمد ـ ظل قامته، فإن كان مثلاً ثلاثة أقدام بقدمه فمهما صار كذلك في السفر وأخذ في الزيادة صلى. فإن زاد عليه ستة أقدام ونصفاً بقدمه دخل وقت العصر؛ إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام ونصف بالتقريب. ثم ظل الزوال يزيد كل يوم وإن كان سفره من أوّل الصيف. وإن كان من أوّل الشتاء فينقص كل يوم. وأحسن ما يعرف به ظل الزوال الميزان؛ فليستصحبه المسافر، وليتعلم اختلاف الظل به في كل وقت. وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان في السفر في موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر، فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس؛ بأن تصير بين عينيه مثلاً إن كانت كذلك في البلد.

وأما وقت المغرب: فيدخل بالغروب، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عنه، فينبغي أن ينظر إلى جانب المشرق، فمهما ظهر سواد في الأفق مرتفع من الأرض قدر رمح فقد دخل وقت المغرب.

وأما العشاء: فيعرف بغيبوبة الشفق؛ وهو الحمرة، فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها، فإن ذلك يكون بعد غيبوبة الحمرة.

وأما الصبح: فيبدو في الأوّل مستطيلاً كذنب السرحان، فلا يحكم به إلى أن ينقضي زمان، ثم يظهر بياض معترض لا يعسر إدراكه بالعين لظهوره، فهذا أوّل الوقت. قال ﷺ: «**لَيسَ الصُّبْحُ هٰكَذَا**» ـ وجمع بين كفيه ـ «**وَإِنَّما الصُّبْحُ هٰكَذَا**» ـ ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما[1]، وأشار به إلى أنه معترض. وقد يستدل عليه بالمنازل وذلك تقريب لا تحقيق فيه، بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضاً؛ لأن قوماً ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب. والذي ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمنزلتين وهذا تقريب، ولكن لا اعتماد عليه فإن بعض المنازل تطلع معترضة منحرفة فيقصر زمان طلوعها، وبعضها منتصبة فيطول زمان طلوعها، ويختلف ذلك في البلد اختلافاً يطول ذكره. نعم تصلح المنازل لأن يعلم بها قرب وقت الصبح وبعده، فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمنزلتين أصلاً. وعلى الجملة: فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب، وإذا بقي قريب من منزلتين يتحقق طلوع الصبح الصادق، ويبقى بين الصبحين قدر ثلثي منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب، وهو مبدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه. فمن وقت الشك ينبغي أن يترك الصائم السحور، ويقدم القائم الوتر عليه ولا يصلي صلاة الصبح حتى تنقضي مدّة الشك، فإذا تحقق صلّى.

ولو أراد مريد أن يقدّر على التحقيق وقتاً معيناً يشرب فيه متسحراً ويقوم عقيبه ويصلي الصبح متصلاً به لم يقدر على ذلك، فليس معرفة ذلك في قوّة البشر أصلاً، بل لا بد من مهلة للتوقف والشك. ولا اعتماد إلا على العيان، ولا اعتماد في العيان إلا على أن يصير الضوء منتشراً في العرض حتى تبدو مبادئ الصفرة. وقد غلط في هذا جمع من الناس كثير يصلون قبل الوقت. ويدل عليه ما روى أبو عيسى الترمذي في جامعه بإسناده عن طلق بن علي أن رسول الله ﷺ قال: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ يُهِيبَنَّكُمُ السَّاطِعُ المُصْعِدُ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَعْتَرِضَ لَكُمُ الأَحْمَرُ**»[2] وهذا صريح في رعاية الحمرة. قال أبو عيسى: وفي الباب عن عدي بن حاتم وأبي ذرّ وسمرة بن جندب ـ وهو حديث حسن غريب، والعمل على هذا عند أهل العلم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كُلوا واشربوا ما دام الضوء ساطعاً». قال صاحب الغريبين: أي مستطيلاً. فإذاً: لا ينبغي أن يعوّل إلا على ظهور الصفرة وكأنها مباديء الحمرة. وإنما يحتاج المسافر إلى معرفة الأوقات لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه النزول، أو قبل النوم حتى يستريح. فإن وطن نفسه على تأخير الصلاة إلى أن يتيقن فتسمح نفسه بفوات فضيلة أول الوقت ويتجشم كلفة النزول وكلفة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم علم الأوقات: فإن المشكل أوائل الأوقات لا أوساطها.

تم كتاب آداب السفر، يتلوه كتاب آداب السماع والوجد، ولله الحمد

---

(١) حديث: «**ليس الصبح هكذا**» ـ وجمع كفه ـ «**إنما الصبح هكذا**» ـ ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما وأشار إلى أنه معترض ـ أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح مختصر دون الإشارة بالكف والسبابتين. ولأحمد من حديث طلق بن علي: «**ليس الفجر المستطيل في الأفق لكنه المعترض الأحمر**» وإسناده حسن.

(٢) حديث طلق بن علي: «**كلوا واشربوا ولا يهيبنكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر**» قال المصنف: رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه وقال: حسن غريب وهو كما ذكر، ورواه أبو داود أيضاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته، واسترق هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته؛ حتى أصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى، وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى، فلم يروا في الكونين شيئاً سواه، ولم يذكروا في الدارين إلا إياه، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه، ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه، ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه، ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه. فمنه سماعهم، وإليه استماعهم، فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته، واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته. والصلاة على محمد المبعوث برسالته، وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته، وسلم كثيراً.

أما بعد: فإن القلوب والسرائر، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر، وأخفيت كما أخفي الماء تحت التراب والمدر، ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع، ولا منفذ إلى القلوب إلاّ من دهليز الأسماع، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها، وتظهر محاسنها أو مساوئها، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه. كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه، فالسماع للقلب محك صادق، ومعيار ناطق، فلا يصل نفس السماع إليه، إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع حتى أبدت بواردانها مكامنها، وكشفت بها عن مساويها وأظهرت محاسنها، وجب شرح القول في السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات، وما يتطرّق إليهما من خلاف العلماء في أنهما من المحظورات أو المباحات. ونحن نوضح ذلك في بابين.

الباب الأوّل: في إباحة السماع.

الباب الثاني: في آداب السماع وآثاره في القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب.

❊ ❊ ❊

الباب الأول

في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه:

اعلم: أن السماع هو أول الأمر، ويثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد، ويثمر الوجد تحريك الأطراف؛ إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص. فلنبدأ بحكم السماع وهو الأول: وننقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه. ثم نذكر الدليل على إباحته، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه.

فأما نقل المذاهب: فقد حكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظاً يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه.

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء: إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه تُرد شهادته.

وقال القاضي أبو الطيب: استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال، سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال: قال الشافعي رضي الله عنه: صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته، وقال: وحكي عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول: وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن. وقال الشافعي رحمه الله: ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي، ولا أحب اللعب بالشطرنج، وأكره كل ما يلعب به الناس؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة.

وأما مالك رحمه الله: فقد نهى عن الغناء وقال: إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها. وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده.

وأما أبو حنيفة رضي الله عنه: فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب، وكذلك سائر أهل الكوفة: سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم. فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري.

ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع من جماعة فقال: سمع من الصحابة عبدالله بن جعفر، وعبدالله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم، وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان، وقال: لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة؛

وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية، قال: وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما. قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون؟ فقال: وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني؟ فقد كان عبدالله بن جعفر الطيار يسمع، وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع.

وروي عن يحيى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة، حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء. ورأيت في بعض الكتب هذا محكيّاً بعينه عن الحارث المحاسبي، وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره. قال: وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع. وحكى غير واحد أنه قال: اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر بن داود، وابن مجاهد في نظرائهم، فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود: حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع: أما جدّي أحمد ابن بنت منيع فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة، فقال ابن مجاهد لابن داود: دعني أنت من أبيك، وقال لابن بنت منيع: دعني أنت من جدك، أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام؟ فقال ابن داود: لا، قال: فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده؟ قال: لا، قال: فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومدّ منه المقصور أيحرم عليه؟ قال: أنا لم أقوَ لشيطان واحد فكيف أقوى لشيطانين؟ قال: وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع، وصنف فيه كتاباً وردُّ به على منكريه، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكريه.

وحكي عن بعض الشيوخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له: ما تقول في هذا السماع الذي تختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. وحكي عن ممشاد الدينوري أنه قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: ما أنكر منه شيئاً، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن. وحكي عن طاهر بن بلاد الهمداني الورّاق ـ وكان من أهل العلم ـ أنه قال: كنت معتكفاً في جامع جدّة على البحر فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانب منه قولاً ويستمعون، فأنكرت ذلك بقلبي وقلت: في بيت من بيوت الله يقولون الشعر؟ قال: فرأيت النبي ﷺ تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي ﷺ يستمع إليه، ويضع يده على صدره كالواجد بذلك، فقلت في نفسي: ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون، وهذا رسول الله ﷺ يستمع وأبو بكر يقول، فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال: «هٰذَا حَقٌّ بِحَق ـ أو قال: حَقٌّ مِنْ حَق ـ أَنَا أَشُكُّ فِيهِ».

وقال الجنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع، عند الأكل؛ لأنهم لا يأكلون إلا

عن فاقة، وعند المذاكرة؛ لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصّديقين، وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً. وعن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع فقيل له: أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات؛ لأنه شبيه باللغو، وقال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥].

هذا ما نقل من الأقاويل. ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيراً أو مائلاً إلى بعض الأقاويل بالتشهي، وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة كما سنذكره.

بيان الدليل على إباحة السماع:

اعلم: أن قول القائل: السماع حرام، معناه: أنّ الله تعالى يعاقب عليه، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص. وأعني بالنص: ما أظهره ﷺ بقوله أو فعله، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله. فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه، وبقي فعلاً لا حرج فيه كسائر المباحات. ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس، ويتضح ذلك في جوابنا على أدلة المائلين إلى التحريم. ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكاً كافياً في إثبات هذا الغرض، لكن نستفتح ونقول: قد دل النص والقياس جميعاً على إباحته.

أما القياس: فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها، فإنّ فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب، فالوصف الأعم أنه صوت طيب، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات.

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب: فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس؛ أما القياس: فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به، وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك، وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ، فلذة النظر: في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن، وبالجملة سائر الألوان الجميلة، وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة. وللشم: الروائح الطيبة، وهي في مقابلة الأنتان المستكرهة. وللذوق: الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة، وهي في مقابلة المرارة المستبشعة. وللمس: لذة اللين والنعومة والملاسة، وهي في مقابلة الخشونة والضراسة. وللعقل: لذة العلم والمعرفة، وهي في مقابلة الجهل والبلادة.

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة؛ كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة؛ كنهيق الحمير وغيرها. فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها؟.

أما النص: فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن: امتنان الله تعالى على عباده إذ قال: ﴿يَزِيدُ فِي

ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، فقيل: هو الصوت الحسن، وفي الحديث: «مَا بَعَثَ الله نَبِيّاً إلاَّ حَسَنَ الصَّوْتِ»[(١)]، وقال ﷺ: «لله أَشَدُّ أَذَناً لِلرَّجُلِ الحَسَنِ الصَّوْتِ بِالقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ القَيْنَةِ لِقَيْنَتِهِ»[(٢)]، وفي الحديث في معرض المدح لداود عليه السلام: «أَنَّهُ كَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ فِي النِّيَاحَةِ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَفِي تِلاَوَةِ الزَّبُورِ حَتَّىٰ كَانَ يَجْتَمِعُ الإِنْسُ وَالجِنُّ وَالوُحُوشُ وَالطَّيْرُ لِسَمَاعِ صَوْتِهِ، وَكَانَ يُحْمَلُ فِي مَجْلِسِهِ أَرْبَعُمِائَةِ جَنَازَةٍ وَمَا يَقْرُبُ مِنها فِي الأَوْقَاتِ»[(٣)]، وقال ﷺ في مدح أبي موسى الأشعري: «لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»[(٤)]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن. ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن. وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له، فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعاني الصحيحة؟ وإنّ من الشعر لحكمة. فهذا نظر في الصوت من حيث إنه طيب حسن.

الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيب الموزون: فإنّ الوزن وراء الحسن، فكم من صوت حسن خارج عن الوزن، وكم من صوت موزون غير مستطاب. والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة: فإنها إما أن تخرج من جماد: كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان: وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره: كصوت العنادل والقماري وذات السجع من الطيور؛ فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها. والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالخلقة. وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى باختراعها؛ فمنه تعلم الصناع وبه قصدوا الاقتداء وشرح ذلك يطول. فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور. ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان. فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي؛ كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره.

ولا يستثنى من هذه إلا الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها[(٥)] لا للذتها؛ إذ لو

كتاب السماع والوجد

الباب الأول

في ذكر اختلاف العلماء في إباحته

(١) حديث: «ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت» أخرجه الترمذي في الشمائل عن قتادة وزاد قوله: «وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت» ورويناه متصلاً في الغيلانيات من رواية قتادة عن أنس، والصواب الأول؛ قاله الدارقطني ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن أبي طالب وطرقه كلها ضعيفة.

(٢) حديث: «لله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته» تقدم في كتاب تلاوة القرآن.

(٣) حديث: «كان داود حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور...» الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود» قاله في مدح أبي موسى، تقدم في تلاوة القرآن.

(٥) حديث: «المنع من الملاهي والأوتار والمزامير». أخرجه البخاري من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والمعازف» صورته عند البخاري صورة التعليق، ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والإسماعيلي.

كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان. ولكن حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها، حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط، وكان تحريمها من قبل الاتباع؛ كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه؛ ليكون حمى للحرام ووقاية له وحظاراً مانعاً حوله، كما قال ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً وَإِنَّ حِمَىٰ الله مَحَارِمُهُ**»[1]، فهي محرمة تبعاً لتحريم الخمر لثلاث علل:

إحداها: أنها تدعو إلى شرب الخمر، فإنّ اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر.

الثانية: أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشرب فهي سبب الذكر، والذكر سبب انبعاث الشوق، وانبعاث الشوق إذا قوي فهو سبب الإقدام. ولهذه العلة «نهي عن الانتباذ في المزفت والحنتم والنقير»[2]، وهي الأواني التي كانت مخصوصة بها. فمعنى هذا: أن مشاهدة صورتها تذكرها، وهذه العلة تفارق الأولى، إذ ليس فيها اعتبار لذة في الذكر، إذ لا لذة في رؤية القنينة وأواني الشرب لكن من حيث التذكر بها. فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيراً يشوّق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهي عن السماع، لخصوص هذه العلة فيه.

الثالثة: الاجتماع عليها، لما أن صار من عادة أهل الفسق فيمنع من التشبه بهم؛ لأن مَن تشبه بقوم فهو منهم. وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعاراً لأهل البدعة خوفاً من التشبه بهم ـ وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة ـ وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين ـ وضربها عادة المخنثين، ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو، وبهذه العلة نقول: لو اجتمع جماعة وزينوا مجلساً وأحضروا آلات الشرب وأقداحه، وصبوا فيها السكنجبين، ونصبوا ساقياً يدور عليهم ويسقيهم، فيأخذون من الساقي ويشربون ويحيي بعضهم بعضاً بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم، وإن كان المشروب مباحاً في نفسه، لأن في هذا تشبهاً بأهل الفساد، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قزعاً في بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد، ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر؛ لاعتياد أهل الصلاح ذلك فيهم. فبهذه المعاني حرم المزمار العراقي والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها. وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبالين وكالطبل والقضيب، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب؛ لأن كل

= والمعازف: الملاهي، قاله الجوهري، ولأحمد من حديث أبي أمامة: «**إن الله أمرني أن أمحق المزامير والكبارات ـ يعني البرابط ـ والمعازف**» وله من حديث قيس بن سعد بن عبادة: «**إن ربي حرم علي الخمر والكوبة والقنين**» وله في حديث مكحول لأبي أمامة باستحلالهم الخمور وضربهم بالدفوف. وكلها ضعيفة، ولأبي الشيخ من حديث مكحول مرسلاً: «**الاستماع إلى الملاهي معصية...**» الحديث. ولأبي داود من حديث ابن عمر: «**سمع مزماراً فوضع أصبعيه على أذنيه**». قال أبو داود: وهو منكر.

(١) حديث: «**إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه**» تقدم في كتاب الحلال والحرام.

(٢) حديث: «**النهي عن الحنتم والمزفت والنقير**». متفق عليه من حديث ابن عباس.

ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها فلم يكن في معناها فبقي على أصل الإباحة قياساً على أصوات الطيور وغيرها، بل أقول: سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضاً. وبهذا يتبين أنه ليست العلة في تحريمها مجرّد اللذة الطيبة، بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر. كما سيأتي في العوارض المحرّمة.

الدرجة الثالثة: الموزون والمفهوم، وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوماً. والكلام المفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع؟ نعم ينظر فيما يفهم منه؛ فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به سواء كان بألحان أو لم يكن، والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال: الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح. ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان؛ فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحاً. ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظوراً لا تتضمنه الآحاد، ولا محظور ههنا وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله ﷺ[1]؟ وقال عليه السلام: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً»[2]، وأنشدت عائشة رضي الله عنها:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافهم   وبقيت في خلف كَجِلْدِ الأجربِ

وروي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما، وكان بها وباء فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرىءٍ مصبّحٌ في أهله   والموتُ أدنى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمّى يرفع عقيرته ويقول:

ألاَ ليتَ شِعْري هل أبيتنَّ ليلةً   بوادٍ وحولي إذخر وجليلُ
وهل أردن يوماً مياه مجنّة   وهل يبدون لي شامة وطفيلُ

---

(١) حديث: «إنشاد الشعر بين يدي رسول الله ﷺ» متفق عليه من حديث أبي هريرة: «أن عمر مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك...» الحديث. ولمسلم من حديث عائشة إنشاد حسان:

هجوت محمداً فأجبت عنه   وعند الله في ذاك الجزاءُ
... القصيدة

وإنشاد حسان أيضاً:

وإن سنام المجد من آل هاشم   بنو بنت مخزوم ووالدك العبدُ

وللبخاري إنشاد ابن رواحة:

وفينا رسولُ الله يتلو كِتَابَهُ   إذا انشق معروف من الفجر ساطِعُ
... الأبيات

(٢) حديث: «إن من الشعر لحكمة» رواه البخاري من حديث أبي بن كعب، وتقدم في العلم.

قالت عائشة رضي الله عنها: فأخبرت بذلك رسول الله ﷺ فقال: **«اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ»**(١)، وقد كان رسول الله ﷺ ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول:

هـذا الـحـمـال لا حـمـال خـيـبـر ... هـذا ـ أبـر ـ ربـنـا وأطـهـرُ

وقال أيضاً ﷺ مرة أخرى:

لا هـمّ إنّ الـعـيـشَ عـيـشُ الآخـره ... فـارحـم الأنـصـار والـمـهـاجـره(٢)

وهذه في الصحيحين. وكان النبي ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ مَا نَافَحَ أَوْ فَاخَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»**(٣)، ولما أنشده النابغة شعره قال له ﷺ: **«لاَ يَفْضُضِ اللهُ**

---

(١) حديث عائشة في الصحيحين: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال...» الحديث. وفيها إنشاد أبي بكر:

كـل امـرىءٍ مـصـبـح فـي أهـلـه ... والـمـوت أدنـى مـن شـراك نـعـلـه

وإنشاد بلال:

ألا لـيـت شـعـري هـل أبـيـتـن لـيـلـة ... بـوادٍ وحـولـي إذخـر وجـلـيـل

وهـل أردن يـومـاً مـيـاه مـجـنـة ... وهـل يـبـدون لـي شـامـة وطـفـيـل

قلت: هو في الصحيحين كما ذكر المصنف، لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند مسلم.

(٢) حديث: كان ﷺ ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول:

هـذا الـحـمـال لا حـمـال خـيـبـر ... هـذا أبـر ـ ربـنـا ـ وأطـهـر

وقال ﷺ مرة أخرى:

الـلـهـم إن الـعـيـش عـيـش الآخـرة ... فـارحـم الأنـصـار والـمـهـاجـرة

قال المصنف: والبيتان في الصحيحين.

قلت: البيت الأول انفرد به البخاري في قصة الهجرة من رواية عروة مرسلاً وفيه البيت الثاني أيضاً إلا أنه قال: «الأجر» بدل: «العيش» تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت، والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقولون:

الـلـهـم لا خـيـر إلا خـيـر الآخـرة ... فـانـصـر الأنـصـار والـمـهـاجـرة

وليس البيت الثاني موزوناً، وفي الصحيحين أيضاً أنه قال في حفر الخندق بلفظ: **«فبارك في الأنصار والمهاجرة»** وفي رواية **«فاغفر»** وفي رواية لمسلم **«فأكرم»** ولهما من حديث سهل بن سعد: **«فاغفر للمهاجرين والأنصار»**.

(٣) حديث: «كان يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح...» الحديث. أخرجه البخاري تعليقاً، وأبو داود والترمذي والحاكم متصلاً من حديث عائشة، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، تعليقاً، وأبو داود والترمذي والحاكم متصلاً من حديث عائشة، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وفي الصحيحين أنها قالت: «إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ».

فَاكَ»[١]، وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم»[٢]، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: أنشدت رسول الله ﷺ مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول: «هيه هيه» ثم قال: «إِنْ كَادَ فِي شِعْرِهِ لَيُسْلِمُ»[٣] وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يحدى له في السفر. وأنّ أنجشة كان يحدو بالنساء، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال، فقال رسول الله ﷺ: «يَا أَنجَشَةَ رُوَيدَكَ سَوْقَكَ بِالقَوَارِيرِ»[٤]، ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله ﷺ وزمان الصحابة رضي الله عنهم، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ. فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة.

الدرجة الرابعة: النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه. فأقول: لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً، فمن الأصوات ما يفرح، ومنها ما يحزن، ومنها ما ينوم، ومنها ما يضحك ويطرب، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس. ولا ينبغي أن يظن أنّ ذلك لفهم معاني الشعر، بل هذا جار في الأوتار حتى قيل: من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج. وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده؟ فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه. والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوّة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه، فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادي الحداء تمدّ أعناقها وتصغي إلى الحادي ناصية آذانها، وتسرع في سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها، وربما تتلف أنفسها من شدّة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها. فقد حكى أبو بكر

---

(١) حديث أنه قال للنابغة لما أنشده شعراً: «لا يفضض الله فاك» رواه البغوي في معجم الصحابة، وابن عبدالبر في الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابغة واسمه قيس بن عبدالله قال: أنشدت النبي ﷺ:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

... الأبيات

ورواه البزار بلفظ «علونا العباد عفة وتكرماً... الأبيات» وفيه: فقال «**أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك**» وللحاكم من حديث خزيم بن أوس: سمعت العباس يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال: «**قل لا يفضض الله فاك**» فقال العباس:

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حيث يخصف الورق

... الأبيات

(٢) حديث عائشة: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يتناشدون الأشعار وهو يبتسم». أخرجه الترمذي من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة.

(٣) حديث الشريد: أنشدت النبي ﷺ مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول: «هيه هيه...» الحديث. رواه مسلم.

(٤) حديث أنس: «كان يحدى له في السفر وإن أنجشة كان يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال...» الحديث. رواه أبو داود الطيالسي واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك.

محمد بن داود الدينوري ـ المعروف بالرقي ـ رضي الله عنه قال: كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خباءه، فرأيت في الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد، ورأيت جمالاً قد ماتت بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه، فقال لي الغلام: أنت ضيف ولك حق فتشفع فيّ إلى مولاي فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر، فعساه يحل القيد عني، قال: فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت: لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد، فقال: إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي، فقلت: ماذا فعل؟ فقال: إنّ له صوتاً طيباً وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجمال، فحملها أحمالاً ثقالاً وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك، قال: فأحببت أن أسمع صوته، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي، فما أظن أني سمعت قط صوتاً أطيب منه. فإذن تأثير السماع في القلب محسوس، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة. ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته. ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما في القلب.

قال أبو سليمان: السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع:

الأول: غناء الحجيج: فإنهم أولاً يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء، وذلك مباح؛ لأنها أشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرانه إن كان ثَم شوق حاصل، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلاً. وإذا كان الحج قربة والشوق إليه محموداً كان التشويق إليه بكل ما يشوق محموداً. وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه في الوعظ ويزينه بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه جاز لغيره ذلك على نظم الشعر، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقعه، فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير، وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار، نعم إن قصد به تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالذي أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج، فهذا يحرم عليه الخروج. فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع بكل كلام يشوق إلى الخروج؛ فإن التشويق إلى الحرام حرام. وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالباً لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق.

الثاني: ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو: وذلك أيضاً مباح كما للحاج، ولكن ينبغي أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم، لأن استثارة داعية الغزو ـ بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه ـ بالأشعار المشجعة. مثل قول المتنبي:

فإنْ لا تمت تحت السيوف مكرَّماً   تمت وتقاسِ الذلَّ غير مكرَّمِ

وقوله أيضاً:

يـرى الـجـبـنـاءُ أنَّ الـجـبـنَ حـزمٌ ... وتـلـك خـديـعـةُ الـطـبـعِ الـلـئـيـمِ

وأمثال ذلك. وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوّقة. وهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو. ومندوب إليه وقت يستحب فيه الغزو، ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو.

الثالث: الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء: والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة، وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس، وذلك مباح في كل قتال مباح، ومندوب في قتال مندوب، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة، وكل قتال محظور؛ لأن تحريك الدواعي إلى المحظور محظور. وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما. ولذلك نقول: ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة؛ فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس، ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال، وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب، فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة، فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاصٍ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع.

الرابع: أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة والحزن قسمان: محمود ومذموم.

فأما المذموم: فكالحزن على ما فات، قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدارك له. فهذا الحزن لما كان مذموماً كان تحريكه بالنياحة مذموماً، فلذلك ورد النهي الصريح عن النياحة(١).

وأما الحزن المحمود: فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه، وبكاؤه على خطاياه. والبكاء والتباكي والحزن والتحازن على ذلك محمود، وعليه بكاء آدم عليه السلام. وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود؛ لأنه يبعث على التشمير للتدارك، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة؛ إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكي ويحزن ويحزن حتى كانت الجنائز ترفع من مجالس نياحته. وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه، وذلك محمود؛ لأن المفضي إلى المحمود محمود. وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرققة للقلب، ولا أن يبكي ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه.

الخامس: السماع في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهييجاً له، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً؛ كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة

---

(١) حديث: «النهي عن النياحة». متفق عليه من حديث أم عطية: «أخذ علينا النبي ﷺ في البيعة أن لا ننوح».

المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز، وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به. ووجه جوازه: أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب، فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه. ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ(١):

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنا ... مِن ثَنِيّاتِ الوداع
وَجَبَ الشكر علينا ... ما دعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه ﷺ وهو سرور محمود، فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضاً محمود. فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجلوا في سرور أصابهم(٢) ـ كما سيأتي في أحكام الرقص ـ وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به، وفي كل سبب مباح من أسباب السرور. ويدل على هذا: ما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لقد رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأمه»(٣) فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو ـ إشارة إلى طول مدة وقوفها ـ وروى البخاري ومسلم أيضاً في صحيحيهما حديث عقيل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفّفان وتضربان، والنبي ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه، فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال: **«دَعْهُما يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّها أَيَّامُ عِيدٍ»** وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: **«أمناً يَا بَنِي أَرْفِدَةَ»**(٤)، يعني من الأمن، ومن حديث عمرو بن الحرث عن ابن شهاب نحوه وفيه: تغنيان وتضربان(٥). وفي حديث أبي طاهر عن ابن وهب: «والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله ﷺ وهو يسترني بثوبه ـ أو بردائه ـ لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي

---

(١) حديث: «إنشاد النساء عند قدوم رسول الله ﷺ»:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث عائشة معضلاً وليس فيه ذكر للدف والألحان.

(٢) حديث: «حجل جماعة من الصحابة في سرور أصابهم». أخرجه أبو داود من حديث علي وسيأتي في الباب الثاني.

(٣) حديث عائشة: «رأيت رسول الله ﷺ سترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد...» الحديث. وهو كما ذكره المصنف أيضاً في الصحيحين، لكن قوله إنه فيهما من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخاري كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه.

(٤) حديث عائشة: رأيت النبي ﷺ يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر فقال النبي ﷺ: **«أمناً يا بني أرفدة»** تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم... إلى آخره. رواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله: **«أمناً يا بني أرفدة»** بل قال: **«دعهم يا عمر»** زاد النسائي **«فإنما هم بنو أرفدة»** ولهما من حديث عائشة: **«دونكم بني أرفدة»** وقد ذكره المصنف بعد هذا.

(٥) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه: «يغنيان ويضربان» رواه مسلم وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب.

أنصرف»[(١)]، وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ﷺ، قالت: وكان يأتيني صواحب لي فكن يتقنعن من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يسر لمجيئهن إليّ فيلعبن معي[(٢)]. وفي رواية أن النبي ﷺ قال لها يوماً: «مَا هٰذَا؟» قالت: بناتي، قال: «فَمَا هٰذَا الَّذِي أَرَىٰ فِي وَسَطِهِنَّ؟» قالت: فرس، قال: «مَا هٰذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟» قالت: جناحان، قال: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قالت: أو ما سمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة؟ قالت: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان في اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صورته؛ بدليل ما روي في بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقاع.

وقالت عائشة رضي الله عنها: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ فأقبل عليه رسول الله ﷺ وقال: «دَعْهُمَا» فلما غفل غمزتهما فخرجتا[(٣)]. وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال: «تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ» فقلت: نعم، فأقامني وراءه وخدّي على خده ويقول: «دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ» حتى إذا مللت قال: «حَسْبُكِ» قلت: نعم، قال: «فَاذْهَبِي» وفي صحيح مسلم: فوضعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذي انصرفت.

فهذه الأحاديث كلها في الصحيحين وهو نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بحرام. وفيها دلالة على أنواع من الرخص.

الأول: اللعب: ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب.

والثاني: فعل ذلك في المسجد.

والثالث: قوله ﷺ: «دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ» وهذا أمر باللعب والتماس له، فكيف يقدر كونه حراماً؟.

والرابع: منعه لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عن الإنكار والتغيير وتعليله بأنه يوم عيد أي هو وقت سرور؟ وهذا من أسباب السرور.

والخامس: وقوفه طويلاً في مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضي الله عنها. وفيه دليل على أن حسن الخلق في تطييب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف في الامتناع والمنع منه.

والسادس: قوله ﷺ ابتداء لعائشة: «أَتَشْتَهِينَ أَنْ تَنْظُرِي؟» ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة

---

(١) حديث أبي طاهر عن ابن وهب: «والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم...» الحديث. رواه مسلم أيضاً.

(٢) حديث عائشة: «كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ﷺ..» الحديث. وهو في الصحيحين كما ذكر المصنف لكن مختصر إلى قولها: «فيلعبن معي». وأما الرواية المطولة التي ذكرها المصنف بقوله: وفي رواية: فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح. البنات: الدمى العرائس.

(٣) حديث عائشة: «دخل رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث...» الحديث. وهو في الصحيحين كما ذكر المصنف، والرواية التي عزاها لمسلم انفرد بها مسلم كما ذكر.

الأهل خوفاً من غضب أو وحشة، فإن الالتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور، فيقدم محذور على محذور. فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه.

والسابع: الرخصة في الغناء والضرب بالدف من الجاريتين، مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك.

والثامن: أن رسول الله ﷺ كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع، ولو كان يضرب بالأوتار في موضع لما جوّز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه. فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة.

فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص والضرب بالدف واللعب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج في أوقات السرور كلها ـ قياساً على يوم العيد ـ فإنه وقت سرور، وفي معناه يوم العرس والوليمة والعقيقة والختان ويوم القدوم من السفر، وسائر أسباب الفرح وهو كل ما يجوز به الفرح شرعاً، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضاً مظنة السماع.

السادس: سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهييجاً للعشق وتسلية للنفس. فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق. والشوق وإن كان ألماً ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال، فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم، وقوة لذة الرجاء بحسب قوّة الشوق والحب للشيء المرجوّ. ففي هذا السماع تهييج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء المقدر في الوصال مع الإطناب في وصف حسن المحبوب. وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته أو سريته، فيصغي إلى غنائها لتضاعف لذته في لقائها. فيحظى بالمشاهدة البصر، وبالسماع الأذن، ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب، فتترادف أسباب اللذة. فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وهذا منه. وكذلك إن غضبت منه جارية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب؛ فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده؛ إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء. وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ما تمثل في نفسه فهذا حرام؛ لأنه محرك للفكر في الأفعال المحظورة، ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه. وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك، وذلك ممنوع في حقهم؛ لما فيه من الداء الدفين لا لأمر يرجع إلى نفس السماع. ولذلك سئل حكيم عن العشق فقال: دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيجه السماع.

السابع: سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومور زناد قلبه، ومستخرج منه أحوالاً من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كَلَّ حسه عن ذوقها. وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية: وجداً مأخوذ من الوجود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالاً لم يكن يصادفها قبل السماع. ثم تكون تلك الأحوال أسباباً لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقي النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها،

فالمفضي إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي والمباحات.

وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقاً وفرحاً وحزناً وانبساطاً وانقباضاً. ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات. والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزينج، وتعجب العنين من لذة المباشرة، وتعجب الصبي من لذة الرئاسة واتساع أسباب الجاه، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته وعجائب صنعه. ولكل ذلك سبب واحد وهو أن اللذة نوع إدراك والإدراك يستدعي مدركاً ويستدعي قوة مدركة. فمن لم تكمل قوة إدراكه لم يتصوّر منه التلذذ فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق؟ وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع؟ ولذة المعقولات من فقد العقل؟ وكذلك ذوق السماع بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة في القلب، فمن فقدها عدم لا محالة لذته.

ولعلك تقول: كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع محركاً له؟ فاعلم: أن من عرف الله أحبه لا محالة، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته. والمحبة إذا تأكدت سميت عشقاً فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة. ولذلك قالت العرب: إن محمداً قد عشق ربه. لما رأوه يتخلى للعبادة في جبل حراء. واعلم: أنّ كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال، ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر. وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب. ولفظ الجمال قد يستعار أيضاً لها فيقال: إنّ فلاناً حسن وجميل ولا تراد صورته. وإنما يعني به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحساناً لها كما تحب الصورة الظاهرة. وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقاً. وكم من الغلاة في حب أرباب المذاهب كالشافعي ومالك وأبي حنيفة رضي الله عنهم؟ حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم في نصرتهم وموالاتهم ويزيدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة. ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت؟ ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال. ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه، بل على التحقيق من لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده، بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدإ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرّة من خزائن قدرته، ولمعة من أنوار حضرته، فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه؟ وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حدّاً يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلماً في حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته؟ فسبحان من احتجب عن الظهور بشدّة ظهوره واستتر عن الأبصار بإشراق نوره، ولولا احتجابه بسبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته، ولولا أنّ ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ودهشت القلوب وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء، ولو رُكّبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادي أنوار تجليه دكاً دكاً، فأنّى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش. وسيأتي تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة.

ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى؛ إذ ليس في الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله. ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره. فمن عرف الشافعي مثلاً رحمه الله وعلمه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه ـ لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية ـ فلقد عرفه، ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره، ولا جاوزت محبته إلى غيره، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله وبديع أفعاله، فمن عرفها من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره، كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواه. ومن حدّ هذا العشق: أنه لا يقبل الشركة وكل ما سوى هذا العشق فهو قابل للشركة؛ إذ كل محبوب سواه يتصوّر له نظير إما في الوجود وإما في الإمكان. فأما هذا الجمال فلا يتصوّر له ثان لا في الإمكان ولا في الوجود. فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة. نعم الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الوقاع. فمثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لفظة العشق والشوق والوصال والأنس، بل يجنب هذه الألفاظ والمعاني كما تجنب البهيمة النرجس والريحان وتخصص بالقت والحشيش وأوراق القضبان. فإنّ الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه. والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة في أمثال هذه الألفاظ، بل لا يبعد أن ينشأ من مجرّد السماع لصفات الله تعالى وجدٌ غالب يقطع بسببه نياط القلب؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر غلاماً كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه: من خلق السماء؟ قالت: الله عزّ وجلّ، قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله عزّ وجلّ، قال: فمن خلق الجبال؟ قالت .الله عزّ وجلّ، قال: فمن خلق الغيم؟ قالت: الله عزّ وجلّ، قال: إني لأسمع لله شأناً. ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع[1]. وهذا كأنه سمع ما دل على جلال الله تعالى وتمام قدرته فطرب لذلك ووجد فرمى بنفسه من الوجد. وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى. قال بعضهم: رأيت مكتوباً في الإنجيل: غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا. أي شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا. فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، وقد ظهر على القطع إباحته في بعض المواضع والندب إليه في بعض المواضع.

فإن قلت: فهل له حالة يحرم فيها؟ فأقول: إنه يحرم بخمسة عوارض: عارض في المسمع، وعارض في آلة الإسماع، وعارض في نظم الصوت، وعارض في نفس المستمع أو في مواظبته، وعارض في كون الشخص من عوام الخلق؛ لأن أركان السماع هي المسمع والمستمع وآلة الإسماع.

العارض الأوّل: أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها، وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته، وهذا حرام؛ لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء، بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضاً، وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته.

فإن قلت: فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسماً للباب، أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في

---

(١) حديث أبي هريرة: «إن غلاماً كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه: من خلق السماء؟ فقالت: الله..» الحديث. وفيه: «ثم رمى نفسه من الجبل فتقطع» رواه ابن حبان.

حق من يخاف العنت؟ فأقول: هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان:

أحدهما: أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف؛ لأنها مظنة الفتنة على الجملة. فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور.

والثاني: أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة. فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الحسم بل يتبع فيه الحال. وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أوّل هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع بل هو أشد. وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة، فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك. ولكن للغناء مزيد أثر في تحريك الشهوة. فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات. فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه. هذا هو الأقيس عندي ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضي الله عنها؛ إذ يعلم أنه ﷺ كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه، ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه فلذلك لم يحترز. فإذن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شاباً وشيخاً، ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال. فإنا نقول: للشيخ أن يقبّل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك؛ لأن القبلة تدعو إلى الوقاع في الصوم وهو محظور، والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيختلف ذلك أيضاً بالأشخاص.

العارض الثاني: في الآلة: بأن تكون من شعار أهل الشرب أو المخنثين وهو المزامير والأوتار وطبل الكوبة. فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة، وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف - وإن كان فيه الجلاجل - وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات.

العارض الثالث: في نظم الصوت وهو الشعر، فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ أو على الصحابة رضي الله عنهم، كما رتبه الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك للقائل. وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصف المرأة بين الرجال. وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز. فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينافح عن رسول الله ﷺ ويهاجي الكفار وأمره ﷺ بذلك[1]، فأما النسيب: وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القدّ والقامة وسائر أوصاف النساء، فهذا فيه نظر. والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن. وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته، فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه. ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأساً، فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه؛ سواء كان اللفظ مناسباً له أو لم يكن؛ إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة، فالذي يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلاً ظلمة الكفر، وبنضارة الخدّ نور الإيمان، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين،

---

(١) حديث: «أمره ﷺ حسان بن ثابت بهجاء المشركين». متفق عليه من حديث البراء: أنه ﷺ قال لحسان: **«اهجهم أو هاجهم وجبريل معك»**.

وبذكر الرقيب المشوّش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوّشة لدوام الأنس بالله تعالى، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ.

كما روي عن بعض الشيوخ، أنه مرَّ في السوق فسمع واحداً يقول: الخيار عشرة بحبة، فغلبه الوجد، فسئل عن ذلك فقال: إذا كان الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشرار؟. واجتاز بعضهم في السوق فسمع قائلاً يقول: يا سعتر بري، فغلبه الوجد فقيل له: على ماذا كان وجدك؟ فقال: سمعته كأنه يقول اسع تر بري، حتى إن العجمي قد يغلب عليه الوجد على الأبيات المنظومة بلغة العرب، فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان أخر. أنشد بعضهم:

وما زارني في الليل إلا خياله

فتواجد عليه رجل أعجمي، فسئل عن سبب وجده فقال: إنه يقول: ما زاريم. وهو كما يقول فإن لفظ «زار» يدل في العجمية على المشرف على الهلاك، فتوهم أنه يقول: كلنا مشرفون على الهلاك، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة.

والمحترق في حب الله تعالى وجده بحسب فهمه، وفهمه بحسب تخيله، وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد الشاعر ولغته. فهذا الوجد حق وصدق. ومن استشعر خطر هلاك الآخرة بأن يتشوّش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه. فإذن ليس في تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة، بل الذي غلب عشق مخلوق ينبغي أن يحترز من السماع بأي لفظ كان، والذي غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعاني اللطيفة بمجاري همته الشريفة.

العارض الرابع: في المستمع: وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه وكان في غرّة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها، فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخدّ والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتدّ بواعث الشر، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه الذي هو حزب الله تعالى، والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهوات، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل، إلا في قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية. وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها، فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها، فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشحيذ سيوفها وأسنّتها، والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص. فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به.

العارض الخامس: أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوباً، ولو غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظوراً. ولكنه أبيح في حقه كسائر أنواع اللذات المباحة، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيره وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته، فإن المواظبة على اللهو جناية. وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة، فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعاً إذ فعله رسول الله ﷺ، ومن هذا القبيل: اللعب بالشطرنج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة. ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب؛ إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه

فيشتغل في سائر الأوقات بالجدّ في الدنيا كالكسب والتجارة، أو في الدين كالصلاة والقراءة.

واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوهته فما أقبح ذلك، فيعود الحسن قبحاً بسبب الكثرة فما كل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام. فهذا المباح كسائر المباحات.

فإن قلت: فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولاً بالإباحة، إذ إطلاق القول في المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ؟ فاعلم: أن هذا غلط لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من عين ما فيه النظر، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق، ألا ترى أنا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا؟ قلنا: إنه حلال على الإطلاق، مع أنه حرام على المحرور الذي يستضر به، وإذا سئلنا عن الخمر قلنا: إنها حرام، مع أنها تحل لمن غص بلقمة أن يشربها مهما لم يجد غيرها، ولكن هي من حيث إنها خمر حرام وإنما أبيحت لعارض الحاجة. والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لعارض الضرر، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض، والسماع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم، وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته. فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبالي بمن يخالف بعد ظهور الدليل.

وأما الشافعي رضي الله عنه فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلاً. وقد نص الشافعي وقال في الرجل يتخذه صناعة: لا تجوز شهادته؛ وذلك لأنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل، ومن اتخذه صنعة كان منسوباً إلى السفاهة وسقوط المروءة، وإن لم يكن محرماً بيِّن التحريم. فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ولا يأتي لأجله وإنما يعرف بأنه قد يطرب في الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ولم يبطل شهادته. واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان في بيت عائشة رضي الله عنها، وقال يونس بن عبدالأعلى: سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع فقال الشافعي: لا أعلم أحداً من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه في الأوصاف، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح.

وحيث قال: إنه لهو مكروه يشبه الباطل فقوله «لَهْوٌ» صحيح. ولكن اللهو من حيث إنه لهوٌ ليس بحرام فلعب الحبشة ورقصهم لهو، وقد كان ﷺ ينظر إليه ولا يكرهه. بل اللهو واللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه؛ فإن الإنسان لو وظف على نفسه أنه يضع يده على رأسه في اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم. قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥]، فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مع أنه لا فائدة فيه لا يؤاخذ، فكيف يؤاخذ به بالشعر والرقص؟

وأما قوله: يشبه الباطل، فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه، بل لو قال: هو باطل صريحاً، لما دل على التحريم وإنما يدل على خلوه عن الفائدة، فالباطل ما لا فائدة فيه. فقول الرجل لامرأته مثلاً: بعت نفسي منك، وقولها: اشتريت، عقد باطل مهما كان القصد اللعب والمطايبة وليس بحرام، إلا إذا قصد به التمليك المحقق منع الشرع منه.

وأما قوله: «مكروه» فينزل بعض المواضع التي ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه، فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج وذكر أني أكره لعب وتعليله يدل عليه فإنه قال: ليس ذلك من عادة ذوي الدين

والمروءة. فهذا يدل على التنزيه. ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضاً، بل قد ترد الشهادة بالأكل في السوق وما يخرم المروءة، بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوي المروءة، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه. وهذا هو الظن أيضاً بغيره من كبار الأئمة. وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم.

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها:

احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [لقمَان: ٦]، قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضي الله عنهم: إنّ لهو الحديث هو الغناء. وروت عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الله تَعَالَىٰ حَرَّمَ القَيْنَةَ وَبَيْعَها وَثَمَنَها وَتَعْلِيمَها**»[1]، فنقول: أما القينة فالمراد بها الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشرب. وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفسّاق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة. بدليل ما روي في الصحيحين من غناء الجاريتين في بيت عائشة رضي الله عنها. وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالاً به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم، وليس النزاع فيه، وليس كل غناء بدلاً عن الدين مشترى به ومضلاً عن سبيل الله تعالى، وهو المراد في الآية. ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراماً.

حكي عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس؛ لما فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ فهمّ عمر بقتله، ورأى فعله حراماً لما فيه من الإضلال. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الغناء بلغة حمير ـ يعني السمد ـ فنقول: ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضاً لأن الآية تشتمل عليه.

فإن قيل: إنّ ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم؟ فهذا أيضاً مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤] وأراد به شعراء الكفار. ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه.

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**كَانَ إِبْلِيسُ أَوَّلَ مَنْ نَاحَ وَأَوَّلَ مَنْ تَغَنَّىٰ**»[2]، فقد جمع بين النياحة والغناء؟ قلنا: لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله ﷺ وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

---

(١) حديث عائشة: «**إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها**». أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف، قال البيهقي ليس بمحفوظ.

(٢) حديث جابر: «**كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى**». لم أجد له أصلاً من حديث جابر، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في مسنده.

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه ﷺ أنه قال: «**مَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ بِغِنَاءٍ إِلاَّ بَعَثَ الله لَهُ شَيْطَانَيْنِ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ يَضْرِبَانِ بِأَعْقَابِهِما عَلَىٰ صَدْرِهِ حَتَّىٰ يُمْسِكَ**»(١)، قلنا: هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه، وهو الذي يحرّك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين، فأما ما يحرّك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان؛ بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح فالتجويز في موضع واحد نص في الإباحة، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل. أما الفعل فلا تأويل له؛ إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط، وما أبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود.

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: «**كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلاَّ تَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَرَمْيَهُ بِقَوْسِهِ وَمُلاَعَبَتَهُ لامْرَأَتِهِ**»(٢)، قلنا: فقوله: «**بَاطِلٌ**» لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة، وقد يسلم ذلك على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياساً كقوله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِإِحْدَىٰ ثَلاثٍ**»(٣)، فإنه يلحق به رابع وخامس، فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ. وفي هذا دليل على أنّ التفرّج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها، وإن جاز وصفه بأنه باطل.

واحتجوا بقول عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني مذ بايعت بها رسول الله ﷺ قلنا: فليكن التمني ومس الذكر باليمنى حراماً، إن كان هذا دليل تحريم الغناء فمن أين يثبت أن عثمان رضي الله عنه كان لا يترك إلا الحرام؟.

واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه: الغناء يُنبت في القلب النفاق ـ وزاد بعضهم ـ كما ينبت الماء البقل(٤) ورفعه بعضهم إلى رسول الله ﷺ وهو غير صحيح. قالوا: ومرَّ على ابن عمر رضي الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال: ألا لا أسمع الله لكم، ألا لا أسمع الله لكم. وعن نافع أنه قال: كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق؛ فلم يزل يقول: يا نافع أتسمع ذلك؟ حتى قلت: لا؛ فأخرج أصبعيه وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع(٥). وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: الغناء رقية الزنى. وقال بعضهم: الغناء رائد من روّاد الفجور. وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء؛ فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم

---

(١) حديث أبي أمامة: «**ما رفع أحد عقيرته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك**». أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، والطبراني في الكبير وهو ضعيف.

(٢) حديث عقبة بن عامر: «**كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته**» أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب.

(٣) حديث: «**لا يحل دم امرىء إلا بإحدى ثلاث**» متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٤) حديث ابن مسعود: «**الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل**» قال المصنف: والمرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم، رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية اللؤلؤي، ورواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً.

(٥) حديث نافع: «كنت وابن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه...» الحديث. ورفعه أبو داود وقال: هذا حديث منكر.

المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين، فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنى. فنقول: قول ابن مسعود رضي الله عنه: «ينبت النفاق»: أراد به في حق المغني، فإنه في حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروّج صوته عليه، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه، وذلك أيضاً لا يوجب تحريماً. فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجة وسائر أنواع الزينة، والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك ينبت في القلب النفاق والرياء، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله. فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط، بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأثيراً. ولذلك نزل عمر رضي الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مطيته. فهذا النفاق من المباحات. وأما قول ابن عمر رضي الله عنهما: ألا لا أسمع الله لكم: فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء، بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفث، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرّد اللهو، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكراً بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام. وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال. وأما وضعه أصبعيه في أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعاً بذلك ولا أنكر عليه سماعه، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه في الحال وقلبه عن صوت ربما يحرّك اللهو ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو؛ أولى منه، وكذلك فعل رسول الله ﷺ ـ مع أنه لم يمنع ابن عمر ـ لا يدل أيضاً على التحريم، بل يدل على أنّ الأولى تركه. ونحن نرى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال، بل أكثر مباحات الدنيا الأوْلى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر في القلب. فقد خلع رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه[1]. أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب؟ فلعله ﷺ كان في حالة كان صوت زمارة الراعي يشغله عن تلك الحالة كما شغله العلم عن الصلاة. بل الحاجة إلى استثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور، بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق، وإن كان كمالاً بالإضافة إلى غيره. ولذلك قال الحصري: ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من يسمع منه؟ إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم. فالأنبياء عليهم السلام على الدوام في لذة السمع والشهود فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة. وأما قول الفضيل: هو رقية الزنى، وكذلك ما عداه من الأقاويل القريبة منه، فهو منزل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان. ولو كان ذلك عاماً لما سمع من الجاريتين في بيت رسول الله ﷺ.

وأما القياس: فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار، وقد سبق الفرق، أو يقال: هو لهو ولعب، وهو كذلك ولكن الدنيا كلها لهو ولعب. قال عمر رضي الله عنه لزوجته: إنما أنت لعبة في زاوية البيت. وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التي هي سبب وجود الولد. وكذلك المزح الذي لا فحش فيه حلال. نقل ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة، كما سيأتي تفصيله في كتاب «آفات اللسان» إن شاء الله[2]. وأي لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج في لعبهم وقد ثبت بالنص إباحته؟ على أني أقول: اللهو مروّح للقلب ومخفف عنه أعباء الفكر، والقلوب إذا أكرهت عميت، وترويحها إعانة لها على الجدّ، فالمواظب على التفقه مثلاً ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة؛ لأنّ عطلة يوم تبعث على

---

(١) حديث: «خلع رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كان عليه أعلام شغلت قلبه». تقدم في الصلاة.

(٢) حديث مزاحه ﷺ يأتي في آفات اللسان كما قال المصنف.

النشاط في سائر الأيام، والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغي أن يتعطل في بعض الأوقات، ولأجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات. فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجدّ، ولا يصبر على الجدّ المحض والحق المرّ إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام. فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال، فينبغي أن يكون مباحاً، ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء، فإذاً: اللهو على هذه النية يصير قربة، هذا في حق من لا يحرّك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها، بل ليس إلا اللذة والاستراحة المحضة، فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه. نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال؛ فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروّح نفسه بغير الحق، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين. ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه.

***

الباب الثاني

آثار السماع وآدابه

اعلم: أنّ أوّل درجة السماع فهمُ المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع، ثم يثمر الفهم الوجد، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح. فلينظر في هذه المقامات الثلاثة.

المقام الأوّل: في الفهم:

وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع.

وللمستمع أربعة أحوال:

إحداها: أن يكون سماع بمجرّد الطبع؛ أي لا حظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات، وهذا مباح وهو أخس رتب السماع؛ إذ الإبل شريكة له فيه، وكذا سائر البهائم، بل لا يستدعي هذا الذوق إلا الحياة، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة.

الحالة الثانية: أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معيناً وإما غير معين، وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات، ويكون تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم، وهذه الحالة أخس من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها.

الحالة الثالثة: أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرّة والتعذر أخرى، وهذا سماع المريدين لا سيما المبتدئين، فإنّ للمريد لا محالة مراداً هو مقصده، ومقصده معرفة الله سبحانه ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسر وكشف الغطاء، وله في مقصده طريق هو سالكه، ومعاملات هو مثابر عليها، وحالات تستقبله في معاملاته. فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت، أو تعطش إلى منتظر، أو شوق إلى وارد، أو طمع أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصال، أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب، أو همول العبرات، أو ترادف الحسرات، أو

طول الفراق أو عدة الوصال، أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار فلا بدّ أن يوافق بعضها حال المريد في طلبه فيجري ذلك مجرد القدح الذي يوري زناد قلبه، فتشتعل به نيرانه ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته، ويكون له مجال رحب في تنزيل الألفاظ على أحواله. وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه، بل لكل كلام وجوه، ولكل ذي فهم في اقتباس المعنى منه حظوظ. ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن المستمع لأبيات فيها ذكر الفم والخد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها. ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعاني من الأبيات ففي حكايات أهل السماع ما يكشف عن ذلك. فقد حكي أن بعضهم سمع قائلاً يقول:

قال الرسول غداً تزور فقلت تعقل ما تقول

فاستفزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء نوناً. فيقول: قال الرسول غداً نزور، حتى غشي عليه من شدة الفرح واللذة والسرور. فلما أفاق سئل عن وجده مم كان؟ فقال: ذكرت قول الرسول ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَزُورُونَ رَبَّهُمْ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ مَرَّةً**»(١). وحكى الرقي عن ابن الدراج أنه قال: كنت أنا وابن الفوطي مارين على دجلة بين البصرة والأبلة، فإذا بقصر حسن له منظرة، وعليه رجل بين يديه جارية تغني وتقول:

كل يوم تتلوّنْ؟ غير هذا بك أحسنْ

فإذا شاب حسن تحت المنظرة وبيده ركوة وعليه مرقعة يستمع فقال: يا جارية، بالله وبحياة مولاك ألا أعدت عليّ هذا البيت. فأعادت، فكان الشاب يقول: هذا والله تلوّني مع الحق في حالي، فشهق شهقة ومات، قال: فقلنا قد استقبلنا فرض، فوقفنا، فقال صاحب القصر للجارية: أنت حرّة لوجه الله تعالى، قال: ثم إن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه، فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر: أشهدكم أن كل شيء لي في سبيل الله، وكل جواري أحرار، وهذا القصر للسبيل. قال: ثم رمى بثيابه واتزر بإزار وارتدى بآخر، ومرّ على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم، وهم يبكون. فلم يسمع له بعد خبر. والمقصود: أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب في المعاملة، وتأسفه على تقلب قلبه وميله عن سنن الحق، فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له:

كل يوم تتلوّن؟ غير هذا بك أحسن

ومن كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه؛ فينبغي أن يكون قد أحكم قانون العلم في معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته. وإلا خطر له من السماع في حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به. ففي سماع المريد المبتدىء خطر إلا إذا لم ينزل ما يسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى. ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه، فلو سمعه في نفسه وهو يخاطب به ربه عزّ وجلّ فيضيف التلوّن إلى الله تعالى

الباب الثاني: في آداب السماع وآثاره

(١) حديث: «إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل جمعة» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه عبدالحميد بن حبيب بن أبي العشرين مختلف فيه، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال: وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعي شيئاً من هذا.

فيكفر، وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير ممزوج بتحقيق، وقد يكون عن جهل ساقه إليه نوع من التحقيق، وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه بل تقلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق، فإنه تارة يبسط قلبه وتارة يقبضه، وتارة ينوّره وتارة يظلمه، وتارة يقسيه وتارة يلينه، وتارة يثبته على طاعته ويقوّيه عليها وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق، وهذا كله من الله تعالى. ومن يصدر منه أحوال مختلفة في أوقات متقاربة فقد يقال له في العادة: إنه ذو بداوات وإنه متلوّن. ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوبه إلى التلوّن في قبوله ورده وتقريبه وإبعاده وهذا هو المعنى. فسماع هذا كذلك في حق الله تعالى كفر محض، بل ينبغي أن يعلم أنه سبحانه وتعالى يلوّن ولا يتلوّن ويغيّر ولا يتغيّر بخلاف عباده. وذلك العلم يحصل للمريد باعتقاد تقليدي إيماني. ويحصل للعارف البصير بيقين كشفي حقيقي. وذلك من أعاجيب أوصاف الربوبية وهو المغيّر من غير تغيّر، ولا يتصوّر ذلك إلا في حق الله تعالى، بل كل مغيّر سواه فلا يغيّر ما لم يتغيّر. ومن أرباب الوجد من يغلب عليه حال مثل السكر المدهش، فيطلق لسانه بالعتاب مع الله تعالى، ويستنكر اقتهاره للقلوب، وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت. فإنه المستصفي لقلوب الصديقين، والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة، ولا أمدَّ الأنبياء عليهم السلام بتوفيقه ونور هدايته لوسيلة سابقة، ولكنه قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصَّافات: ١٧١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السَّجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]، فإن خطر ببالك أنه: لم اختلفت السابقة وهم في ربقة العبودية مشتركون؟ نوديت من سرادقات الجلال لا تجاوز حد الأدب، فإنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولعمري تأدب اللسان والظاهر مما يقدر عليه الأكثرون. فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد بهذا الاختلاف الظاهر في التقريب والإبعاد والإشقاء والإسعاد، مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم. ولهذا قال الخضر عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام: إنه الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. لأنه محرّك لأسرار القلوب ومكامنها، ومشوّش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر إلا ممن عصمه الله تعالى بنور هدايته ولطيف عصمته، ولذلك قال بعضهم: ليتنا نجونا من هذا السماع رأساً برأس: ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرّك للشهوة، فإنّ غاية ذلك معصية وغاية الخطأ ههنا كفر.

واعلم: أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع، فيغلب الوجد على مستمعين لبيت واحد وأحدهما مصيب في الفهم والآخر مخطىء، أو كلاهما مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادين، ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض. كما حكي عن عتبة الغلام أنه سمع رجلاً يقول:

سبحان جبار السما ... إن المحب لفي عنا

فقال: صَدَقْتَ. وسمعه رجل آخر فقال: كَذَبْتَ. فقال بعض ذوي البصائر: أصابا جميعاً وهو الحق، فالتصديق كلام محب غير ممكن من المراد بل مصدود متعب بالصدّ والهجر. والتكذيب كلام مستأنس بالحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به، أو كلام محب غير مصدود عن مراده في الحال ولا مستشعر بخطر الصدّ في المآل؛ وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه. فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم.

وحكي عن أبي القاسم بن مروان ـ وكان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة ـ فحضر دعوة وفيها إنسان يقول:

واقفٌ في الماء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فقام القوم وتواجدوا، فلما سكنوا سألهم عن معنى ما وقع لهم من معنى البيت، فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها، فلم يقنعه ذلك فقالوا له: فماذا عندك فيه؟ فقال: أن يكون في وسط الأحوال ويكرم بالكرامات ولا يُعطى منها ذرّة. وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال، والكرامات والأحوال سوابقها، والكرامات تسنح في مبادئها، والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها. ولا فرق بين المعنى الذي فهمه وبين ما ذكروه إلا في تفاوت رتبة المتعطش إليه، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أولاً يتعطش إليها، فإن مكن منها تعطش إلى ما وراءها، فليس بين المعنيين اختلاف في الفهم، بل الاختلاف بين الرتبتين. وكان الشبلي رحمه الله كثيراً ما يتواجد على هذا البيت:

ودادُكم هجرٌ وحبّكم قِلى ووصلُكم صرمٌ وسلمكم حربُ

وهذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة بعضها حق وبعضها باطل، وأظهرها: أن يفهم هذا في الخلق بل في الدنيا بأسرها بل في كل ما سوى الله تعالى. فإن الدنيا مكارة خداعة قتالة لأربابها معادية لهم في الباطن ومظهرة صورة الود «**فما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبرة**»[1]، كما ورد في الخبر وكما قال الثعلبي في وصف الدنيا:

تنحّ عن الدّنيا فلا تخطبنّها ولا تخطبنْ قتالة من تناكحُ
فليس يفي مرجوّها بمخوفها ومكروهها إمّا تأملتَ راجحُ
لقد قال فيها الواصفون فأكثروا وعندي لها وصفٌ لعمري صالحُ
سلافٌ قصاراها زعافٌ ومركب شهيّ إذا استذللته فهو جامحُ
وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوءٍ قبائحُ

والمعنى الثاني: أن ينزله على نفسه في حق الله تعالى، فإنه إذا تفكر فمعرفته جهل، إذ ما قدروا الله حق قدره. وطاعته رياء، إذ لا يتقي الله حق تقاته، وحبه معلول، إذ لا يدع شهوة من شهواته في حبه. ومن أراد الله به خيراً بصره بعيوب نفسه فيرى مصداق هذا البيت في نفسه، وإن كان عَلِيَّ المرتبة بالإضافة إلى الغافلين، ولذلك قال ﷺ: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[3]، وإنما كان استغفاره عن أحوال هي درجات بعد بالإضافة إلى ما بعدها، وإن كانت قرباً بالإضافة إلى ما قبلها، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لا نهاية له، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير متناه، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال.

---

(١) حديث: «**ما امتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبرة**» أخرجه ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً.

(٢) حديث: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» رواه مسلم وقد تقدم.

(٣) حديث: «**إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة**» تقدم في الباب الثاني من الأذكار.

والمعنى الثالث: أن ينظر في مبادىء أحواله فيرتضيها ثم ينظر في عواقبها فيزدريها لاطلاعه على خفايا الغرور فيها، فيرى ذلك من الله تعالى فيستمع البيت في حق الله تعالى شكاية من القضاء والقدر وهذا كفر ـ كما سبق بيانه ـ وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان، وذلك بقدر غزارة علم المستمع وصفاء قلبه.

الحالة الرابعة: سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود، الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن. وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فني عن نفسه. ومهما فني عن نفسه فهو عن غيره أفنى، فكأنه فني عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود. وفني أيضاً عن الشهود، فإن القلب أيضاً إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود. فالمستهتر بالمرئي لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته، ولا إلى عينه التي بها رؤيته، ولا إلى قلبه الذي به لذته، فالسكران لا خبر له من سكره، والمتلذذ لا خبر له من التذاذه، وإنما خبره من المتلذذ به فقط. ومثاله العلم بالشيء: فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشيء، فالعالم بالشيء مهما ورد عليه العلم بالعلم بالشيء كان معرضاً عن الشيء. ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوق وتطرأ أيضاً في حق الخالق، ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم، وإن دام لم تطقه القوة البشرية، فربما اضطرب تحت أعبائه اضطراباً تهلك به نفسه.

كما روي عن أبي الحسن النوري أنه حضر مجلساً فسمع هذا البيت:

ما زلتُ أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه، فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه، حتى ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياماً ومات رحمه الله. فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهي أعلى الدرجات؛ لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهي ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله؛ أعني أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدي والسكاكين فيسمع لله وبالله وفي الله ومن الله، وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال، واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلاً، بل خمدت بالكلية بشريته وفني التفاته إلى صفات البشرية رأساً، ولست أعني بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه، ولست أعني بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عزّ وجلّ ـ عرفها من عرفها وجهلها من جهلها ـ ولذلك السر وجود. وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه، فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر. ومثاله: المرآة المجلوة، إذ ليس لها لون في نفسها بل لونها لون الحاضر فيها، وكذلك الزجاجة، فإنها تحكي لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها. وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان، ويعرب عن هذه الحقيقة ـ أعني سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه ـ قول الشاعر:

رقّ الزجاج ورقّتِ الخمرُ فتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة، منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد، وقال: أنا الحق وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلولها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم، وهو غلط محض يضاهي غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة إذ ظهر فيها لون الحمرة من مقابلها، وإذا كان هذا غير لائق بعلم المعاملة فلنرجع إلى الغرض؛ فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم المسموعات.

المقام الثاني: بعد الفهم والتنزيل، الوجد:

وللناس كلام طويل في حقيقة الوجد ـ أعني الصوفية والحكماء الناظرين في وجه مناسبة السماع للأرواح ـ فلنقل من أقوالهم ألفاظاً ثم لنكشف عن الحقيقة فيه.

أما الصوفية، فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع: إنه وارد حق جاء يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفسه تزندق. فكأنه عبر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق، وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع إذ سمى السماع وارد حق. وقال أبو الحسين الدراج مخبراً عما وجده في السماع: الوجد عبارة عما يوجد عند السماع، وقال: جال بي السماع في ميادين البهاء، فأوجدني وجود الحق عند العطاء، فسقاني بكأس الصفاء فأدركت به منازل الرضاء، وأخرجني إلى رياض التنزه والفضاء. وقال الشبلي رحمه الله: السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية. وقال بعضهم: السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة؛ لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال ويدرك برقة الطبع لرقته وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله. وقال عمرو بن عثمان المكي: لا يقع على كيفية الوجد عبارة؛ لأن سر الله عند عباده المؤمنين الموقنين. وقال بعضهم: الوجد مكاشفات من الحق. وقال أبو سعيد بن الأعرابي: الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم وملاحظة الغيب، ومحادثة السر وإيناس المفقود، وهو فناؤك من حيث أنت، وقال أيضاً: الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب، فلما ذاقوه وسطع في قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب. وقال أيضاً: الذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب؛ لأن النفس محجوبة بأسبابها فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ورق وصفا ونجحت الموعظة فيه وحل من المناجاة في محل قريب، وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خالياً، فذلك هو الوجد؛ لأنه قد وجد ما كان معدوماً عنده. وقال أيضاً: الوجد ما يكون عند ذكر مزعج أو خوف مقلق، أو توبيخ على زلة أو محادثة بلطيفة أو إشارة إلى فائدة، أو شوق إلى غائب أو أسف على فائت أو ندم على ماض، أو استجلاب إلى حال أو داع إلى واجب، أو مناجاة بسر، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن، والغيب بالغيب والسر بالسر، واستخراج ما لك بما عليك مما سبق للسعي فيه، فيكتب ذلك لك بعد كونه منك، فيثبت لك قدم بلا قدم، وذكر بلا ذكر؛ إذ كان هو المبتدىء بالنعم والمتولي، وإليه يرجع الأمر كله، فهذا ظاهر علم الوجد وأقوال الصوفية من هذا الجنس في الوجد كثيرة.

وأما الحكماء: فقال بعضهم: في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوّة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان، فلما ظهرت سرت وطربت إليها، فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر. وقال بعضهم: نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأي واستجلاب العازب من الأفكار، وحدة الكالّ من الأفهام والآراء حتى يثوب ما عزب وينهض ما عجز، ويصفو ما كدر ويمرح في كل رأي

ونية؛ فيصيب ولا يخطىء ويأتي ولا يبطىء. وقال آخر: كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلوم فالسماع يطرق القلب إلى العالم الروحاني. وقال بعضهم ـ وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات ـ فقال: ذلك عشق عقلي والعاشق العقلي لا يحتاج إلى أن يناغي معشوقه بالمنطق الجرمي، بل يناغيه ويناجيه بالتبسم واللحظ والحركة اللطيفة بالحاجب والجفن والإشارة، وهذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية، وأما العاشق البهيمي فإنه يستعمل المنطق الجرمي ليعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه الزائف. وقال آخر: من حزن فليسمع الألحان. فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها، وإذا فرحت اشتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحنين بقدر قبول القابل وذلك بقدر صفائه ونقائه من الغش والدنس.

والأقاويل المقررة في السماع والوجد كثيرة، ولا معنى للاستكثار من إيرادها، فلنشتغل بتفهيم المعنى؛ الذي الوجد عبارة عنه فنقول: إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع من نفسه، وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين: فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهات، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم، بل هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض، وهذه الأحوال يهيجها السماع ويقويها، فإن ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته، أو يطرق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يُسمّ وجداً، وإن ظهر على الظاهر سمي وجداً إما ضعيفاً وإما قوياً، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوّة وروده، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوّة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه، فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوّة صاحبه، وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك. وإلى معنى الأوّل أشار أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد: إنه مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب، ولا يبعد أن يكون السماع سبباً لكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله؛ فإن الكشف يحصل بأسباب، منها: التنبيه والسماع منبه، ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها؛ فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورود، ومنها: صفاء القلب والسماع يؤثر في تصفية القلب والصفاء يسبب الكشف، ومنها انبعاث نشاط القلب بقوّة السماع فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوّته، كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله. وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملكوت، كما أن عمل البعير حمل الأثقال، فبواسطة هذه الأسباب يكون سبباً للكشف، بل القلب إذا صفا ربما يمثّل له الحق في صورة مشاهدة، أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة، وبالرؤيا إذا كان في المنام، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة. وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة، وذلك كما روي عن محمد بن مسروق البغدادي أنه قال: خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان وكنت أغني هذا البيت:

بطورِ سيناءَ كرمٌ ما مررت به ... إلا تعجبتُ ممّن يشرب الماء

فسمعت قائلاً يقول:

وفي جهنّم ماءٌ ما تجرّعه ... خلقٌ فأبقى له في الجوف أمعاء

قال: فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة. فانظر كيف أثر الغناء في تصفية قلبه حتى

تمثل له حقيقة الحق في صفة جهنم في لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر.

وروي عن مسلم العباداني أنه قال: قدم علينا مرة صالح المري وعتبة الغلام وعبدالواحد بن زيد ومسلم الأسواري فنزلوا على الساحل، قال: فهيأت لهم ذات ليلة طعاماً فدعوتهم إليه فجاؤوا فلما وضعت الطعام بين أيديهم، إذا بقائل يقول رافعاً صوته هذا البيت:

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيها غير نافع

قال: فصاح عتبة الغلام صيحة وخرّ مغشياً عليه وبكى القوم، فرفعت الطعام وما ذاقوا والله منه لقمة.

وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضاً بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة. وفي مثل هذه الحالة تتمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام إما على حقيقة صورتها وإما على مثال يحاكي صورتها بعض المحاكاة. وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام مرتين في صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق[1] وهو المراد بقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ [النجم: ٥-٧] إلى آخر هذه الآيات. وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب، وقد يعبر عن ذلك الاطلاع بالتفرس، ولذلك قال ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»[2]. وقد حكي أن رجلاً من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول ما معنى قول النبي ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ» فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية. فسأله، فقال له: معناه: أن تقطع الزنار الذي على وسطك تحت ثوبك، فقال: صدقت هذا معناه وأسلم، وقال: الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق. وكما حكي عن إبراهيم الخواص قال: كنت ببغداد في جماعة من الفقراء في الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابي: يقع لي أنه يهودي، فكلهم كرهوا ذلك، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال: أي شيء قال الشيخ فيّ؟ فاحتشموه. فألح عليهم فقالوا له: قال إنك يهودي، قال: فجاءني وأكب على يدي وقبّل رأسي وأسلم، وقال: نجد في كتبنا أن الصديق لا تخطىء فراسته فقلت: أمتحن المسلمين، فتأملتهم فقلت: إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة، لأنهم يقولون حديثه سبحانه ويقرؤون كلامه، فلبست عليكم فلما اطلع علي الشيخ وتفرّس فيّ علمت أنه صديق. قال: وصار الشاب من كبار الصوفية.

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام: «لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ»[3] وإنما تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة فإنها مرعى الشيطان وجنده. ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفاه لم يطف الشيطان حول قلبه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٤٠]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، والسماع سبب لصفاء القلب وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء.

---

(١) حديث: «رأى جبريل عليه السلام مرتين في صورته فأخبر أنه سد الأفق». متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: حديث غريب.

(٣) حديث: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» تقدم في الصوم.

وعلى هذا يدل ما روي أن ذا النون المصري رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوّال، فاستأذنوه في أن يقول لهم شيئاً. فأذن لهم في ذلك فأنشأ يقول:

صغيرُ هواكَ عذّبني ... فكيف به إذا احتنكا
وأنتَ جمعتَ في قلبي ... هوى قد كانَ مشتركا
أما ترثي لمكتئب ... إذا ضحكَ الخليُّ بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه، ثم قام رجل آخر فقال ذو النون: الذي يراك حين تقوم. فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعاً من ذي النون على قلبه أنه متكلف متواجد، فعرفه أن الذي يراه حين يقوم هو الخصم في قيامه لغير الله تعالى ولو كان الرجل صادقاً لما جلس. فإذاً: قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات، واعلم: أن كل واحد منهما ينقسم إلى ما يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلاً، ولعلك تستبعد حالة أو علماً لا تعلم حقيقته ولا يمكن التعبير عنه عن حقيقته، فلا تستبعد ذلك فإنك تجد في أحوالك القريبة لذلك شواهد.

أما العلم: فكم من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقاً في الحكم؟ وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس، فيدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه، وإدراكه الفرق علم يصادفه في قلبه بالذوق، ولا يشك في أن لوقوعه في قلبه سبباً وله عند الله تعالى حقيقة، ولا يمكنه الإخبار عنه لا لقصور في لسانه بل لدقة المعنى في نفسه عن أن تناله العبارة. وهذا مما قد تفطن له المواظبون على النظر في المشكلات.

وأما الحال: فكم من إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضاً أو بسطاً ولا يعلم سببه، وقد يتفكر إنسان في شيء فيؤثر في نفسه أثراً فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يحس به، وقد تكون الحالة التي يحسها سروراً ثبت في نفسه بتفكره في سبب موجب للسرور، أو حزناً فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيبه. وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة عن المقصود، بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون بعض، وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها - أعني التفرقة بين الموزون والمنزحف - فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده لمن لا ذوق له. وفي النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في السماع عن غناء مفهوم، وأما الأوتار وسائر النغمات التي ليست مفهومة فإنها تؤثر في النفس تأثيراً عجيباً ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه فهو عجيب، والذي اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهين وما أشبهه ليس يدري إلى ماذا يشتاق؟ ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمراً ليس يدري ما هو؟ حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لا حب آدمي ولا حب الله تعالى. وهذا له سر وهو أن كل شوق له ركنان:

أحدهما: صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه.

والثاني: معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه، فإن وجدت الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهراً، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها أورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة.

ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم يرَ صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه الشهوة لكان يحس من نفسه بنار الشهوة، ولكن لا يدري أنه يشتاق إلى الوقاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء، فكذلك في نفسه الآدمي مناسبة مع العالم الأعلى واللذات التي وعد بها في سدرة المنتهى والفراديس العلا، إلا أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء، كالذي سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في المرآة ليعرف بالمقايسة، فالسماع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذي إليه حنينه واشتياقه بالطبع، فيتقاضاه قلبه أمراً ليس يدري ما هو؟ فيدهش ويتحير ويضطرب ويكون كالمختنق الذي لا يعرف طريق الخلاص. فهذا وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن المتصف بها أن يعبر عنها. فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره.

واعلم أيضاً: أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلف ويسمى التواجد، وهذا التواجد المتكلف فمنه مذموم وهو الذي يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها، ومنه ما هو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة، فإن للكسب مدخلاً في جلب الأحوال الشريفة، ولذلك أمر رسول الله ﷺ من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن[1]، فإن هذه الأحوال قد تتكلف مبادئها ثم تتحقق أواخرها. وكيف لا يكون التكلف سبباً في أن يصير المتكلف في الآخرة طبعاً. وكل من يتعلم القرآن أولاً يحفظه تكلفاً، ويقرؤه تكلفاً مع تمام التأمل وإحضار الذهن، ثم يصير ذلك ديدناً للسان مطرداً حتى يجري به لسانه في الصلاة وغيرها وهو غافل، فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها في حال غفلته، وكذلك الكاتب يكتب في الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يدُه فيصير الكتب له طبعاً فيكتب أوراقاً كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر، فجميع ما تحتمله النفس والجوارح من الصفات لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أوّلاً ثم يصير بالعادة طبعاً. وهو المراد بقول بعضهم: العادة طبيعة خامسة. فكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأس منها عند فقدها، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره، فلقد شوهد في العادات من اشتهى أن يعشق شخصاً ولم يكن يعشقه فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه، ويقرّر على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق المحمودة فيه حتى عشقه، ورسخ ذلك في قلبه رسوخاً خرج عن حدّ اختياره، فاشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص. فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة؛ إذا فقدها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم في النفس، وبالجلوس معهم في السماع وبالدعاء والتضرع إلى الله تعالى في أن يرزقه تلك الحلة بأن ييسر له أسبابها.

ومن أسبابها: السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحسنين والمشتاقين والخاشعين. فمن جالس شخصاً سرت إليه صفاته من حيث لا يدري. ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَنْ**

(١) حديث: «البكاء عند قراءة القرآن فإن لم تبكوا فتباكوا». تقدم في تلاوة القرآن في الباب الثاني.

يُقَرِّبُنِي إِلَىٰ حُبِّكَ»[١]، فقد فزع عليه السلام إلى الدعاء في طلب الحب. فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات وإلى أحوال وانقسامه إلى ما يمكن الإفصاح عنه وإلى ما لا يمكن، وانقسامه إلى المتكلف وإلى المطبوع.

فإن قلت: فما بال هؤلاء لا يظهر وجدهم عند سماع القرآن وهو كلام الله، ويظهر عند الغناء وهو كلام الشعراء؟ فلو كان ذلك حقاً من لطف الله تعالى ولم يكن باطلاً من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من الغناء؟ فنقول: الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه، وذلك يهيج بسماع القرآن أيضاً. وإنما الذي لا يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوق. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣]، وكل ما يوجد عقيب السماع بسبب السماع في النفس فهو وجد. فالطمأنينة والاقشعرار والخشية ولين القلب كل ذلك وجد. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال وإن لم يكن من قبيل المكاشفات، ولكن قد يصير سبباً للمكاشفات والتنبيهات، ولهذا قال ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»[٢]. وقال لأبي موسى الأشعري «لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»[٣].

وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن فكثيرة، فقوله ﷺ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»[٤]، خبر عن الوجد، فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد. وروي أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ على رسول الله ﷺ سورة النساء، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النّساء: ٤١] قال: «حَسْبُكَ» وكانت عيناه تذرفان بالدموع[٥]. وفي رواية أنه عليه السلام قرأ هذه الآية أو قرىء عنده ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزّمّل: ١٢، ١٣] فصعق[٦] وفي رواية أنه ﷺ قرأ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المَائدة: ١١٨] فبكى[٧] وكان عليه السلام إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر[٨]. والاستبشار وجد. وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد بالقرآن فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ

---

(١) حديث: «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك...» الحديث. تقدم في الدعوات.

(٢) حديث: «زينوا القرآن بأصواتكم» تقدم في تلاوة القرآن.

(٣) حديث: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود» قاله لأبي موسى تقدم فيه.

(٤) حديث: «شيبتني هود وأخواتها» أخرجه الترمذي من حديث أبي جحيفة وله وللحاكم من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري.

(٥) حديث: «إن ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النّساء: ٤١] قال: «حسبك» الحديث. متفق عليه من حديثه.

(٦) حديث: «أنه قرىء عنده: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزّمّل: ١٢، ١٣] فصعق». رواه ابن عدي في الكامل، والبيهقي في الشعب من طريقه من حديث أبي حرب بن أبي الأسود مرسلاً.

(٧) حديث: «إنه قرأ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المَائدة: ١١٨] فبكى». أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو.

(٨) حديث: «كان إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر». تقدم في تلاوة القرآن دون قوله: واستبشر.

تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وروي أن رسول الله ﷺ كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل(١).

وأما ما نقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين فكثير: فمنهم من صعق، ومنهم من بكى، ومنهم من غشي عليه، ومنهم من مات في غشيته. وروي أن زرارة بن أبي أوفى ـ وكان من التابعين ـ كان يؤم الناس بالرقة فقرأ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ [المدثّر: ٨] فصعق ومات في محرابه رحمه الله. وسمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطُور: ٧،٨] فصاح صيحة وخر مغشياً عليه فحُمل إلى بيته، فلم يزل مريضاً في بيته شهراً. وأبو جرير ـ من التابعين ـ قرأ عليه صالح المري فشهق ومات. وسمع الشافعي رحمه الله قارئاً يقرأ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المُرسَلات: ٣٥،٣٦] فغشي عليه. وسمع علي بن الفضيل قارئاً يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطفّفين: ٦] فسقط مغشياً عليه، فقال الفضيل: شكر الله لك ما قد علمه منك. وكذلك نقل عن جماعة منهم.

وكذلك الصوفية: فقد كان الشبلي في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلي خلف إمام له فقرأ الإمام: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] فزعق الشبلي زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه، واحمر وجهه وارتعدت فرائصه، وكان يقول: بمثل هذا يخاطب الأحباب، يردد ذلك مراراً. وقال الجنيد: دخلت على سري السقطي فرأيت بين يديه رجلاً قد غشي عليه فقال لي: هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشي عليه، فقلت: اقرؤوا عليه تلك الآية بعينها فقرئت فأفاق، فقال: من أين قلت هذا؟ فقلت: رأيت يعقوب عليه السلام كان عماه من أجل مخلوق، فبمخلوق أبصر، ولو كان عماه من أجل الحق ما أبصر بمخلوق، فاستحسن ذلك. ويشير إلى ما قاله الجنيد قول الشاعر:

وكأسٍ شربتُ على لذّة ... وأخرى تداويتُ منها بها

وقال بعض الصوفية: كنت أقرأ ليلة هذه الآية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] فجعلت أرددها فإذا هاتف يهتف بي: كم تردد هذه الآية؟ فقد قتلت أربعة من الجن؛ ما رفعوا رؤوسهم إلى السماء منذ خلقوا. وقال أبو علي المغازلي للشبلي: ربما تطرق سمعي آية من كتاب الله تعالى فتجذبني إلى الإعراض عن الدنيا ثم أرجع إلى أحوالي وإلى الناس فلا أبقى على ذلك، فقال: ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إليه، فذلك عطف منه عليك ولطف منه بك، وإذا ردك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك، فإنه لا يصلح لك إلا التبرّي من الحول والقوة في التوجه إليه. وسمع رجل من أهل التصوف قارئاً يقرأ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفَجر: ٢٧،٢٨] فاستعادها من القارىء وقال: كم أقول لها ارجعي وليست ترجع؟ وتواجدَ وزعق زعقة فخرجت روحه. وسمع بكر بن معاذ قارئاً يقرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] الآية. فاضطرب ثم صاح: ارحم من أنذرته ولم يقبل إليك بعد الإنذار بطاعتك، ثم غشي عليه. وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا سمع أحداً يقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١] اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد. وعن محمد بن صبيح قال: كان رجل

---

(١) حديث: «أنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل». أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي في الشمائل من حديث عبدالله بن الشخير وقد تقدم.

يغتسل في الفرات فمر به رجل على الشاطىء يقرأ: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩] فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات. وذكر أن سلمان الفارسي أبصر شاباً يقرأ فأتى على آية فاقشعر جلده فأحبه سلمان وفقده، فسأل عنه فقيل له: إنه مريض، فأتاه يعوده فإذا هو في الموت، فقال: يا عبدالله أرأيت تلك القشعريرة التي كانت بي؟ فإنها أتتني في أحسن صورة فأخبرتني أن الله قد غفر لي بها كل ذنب.

وبالجملة: لا يخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن، فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلاً فمثله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧١] بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها. قال جعفر الخلدي: دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة فقال للجنيد: متى يستوي عند العبد حامده وذامّه؟ فقال بعض الشيوخ: إذا دخل البيمارستان وقيد بقيدين، فقال الجنيد: ليس هذا من شأنك، ثم أقبل على الرجل وقال: إذا تحقق أنه مخلوق، فشهق الرجل شهقة ومات.

فإن قلت: فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئين؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في حلق القراء لا حلق المغنين؟ وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارىء لا قوال، فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لا محالة، فاعلم: أن الغناء أشد تهييجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه:

الوجه الأول: أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو مُلابس له، فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النِّساء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النُّور: ٤]، وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها، وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه. والأبيات إنما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف. نعم من يستولي عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسعاً لغيرها، ومعه تيقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الألفاظ، فقد يخرج وجده على كل مسموع، كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النِّساء: ١١] حالة الموت المحوج إلى الوصية، وأن كل إنسان لا بد أن يخلف ماله وولده وهما محبوباه من الدنيا، فيترك أحد المحبوبين للثاني ويهجرهما جميعاً، فيغلب عليه الخوف والجزع، أو يسمع ذكر الله في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النِّساء: ١١] فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته بأن تولى قسم مواريثهم بنفسه، نظراً لهم في حياتهم وموتهم فيقول: إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لنا فيهيج منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشاراً وسروراً، أو يخطر له من قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النِّساء: ١١] تفضيل الذكر بكونه رجلاً على الأنثى وأن الفضل في الآخرة لرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لا من الرجال تحقيقاً، فيخشى أن يحجب أو يؤخر في نعيم الآخرة كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا. فأمثال هذا قد يحرّك الوجد، ولكن لمن فيه وصفان.

أحدهما: حالة غالبة مستغرقة قاهرة.

والآخر: تفطن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة وذلك مما يعز، فلأجل ذلك يفزع إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها. وروي أن أبا الحسين

النوري كان مع جماعة في دعوى، فجرى بينهم مسألة في العلم، وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم:

رُبَّ ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن
ذكرتْ إلفاً ودهراً صالحاً وبكتْ حزناً فهاجت حزني
فبكائي ربّما أرّقها وبُكاها ربما أرّقني
ولقد أشكو فما أفهمها ولقد تَشكُو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضاً بالجوى تعرفني

قال: فما بقي أحد من القوم إلا قام وتواجدَ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذي خاضوا فيه، وإن كان العلم جداً وحقاً.

الوجه الثاني: أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الأسماع والقلوب، وكلّ ما سمع أولاً عظم أثره في القلوب، وفي الكرة الثانية يضعف أثره، وفي الثالثة يكاد يسقط أثره. ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان، في يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك. ولو أبدل ببيت آخر لتجدد له أثر في قلبه وإن كان معرباً عن عين ذلك المعنى. ولكن كون النظم واللفظ غريباً بالإضافة إلى الأول يحرك النفس وإن كان المعنى واحداً. وليس يقدر القارىء على أن يقرأ قرآناً غريباً في كل وقت ودعوة؛ فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه وكله محفوظ متكرر، وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون فقال: كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا، ولا تظنن أن قلب الصديق رضي الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب، وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثر به لما حصل له من الأنس بكثرة استماعه؛ إذ محال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكي، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة، ثم يرددها ويبكي، ولا يفارق الأول الآخر إلا في كونه غريباً جديداً، ولكل جديد لذة، ولكل طارىء صدمة، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة. ولذا همَّ عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقال: قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت - أي يأنسوا به -. ومن قدم حاجاً فرأى البيت أولاً بكى وزعق وربما غشي عليه إذ وقع عليه بصره، وقد يقيم بمكة شهراً ولا يحس من ذلك في نفسه بأثر. فإذاً: المغني يقدر على الأبيات الغريبة في كل وقت، ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة.

الوجه الثالث: أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيراً في النفس، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات، ولو زحف المغني البيت الذي ينشده أو لحن فيه أو مال عن حدّ تلك الطريقة في اللحن لاضطرب قلب المستمع وبطل وجده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة. وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوّش، فالوزن إذن مؤثر فلذلك طاب الشعر.

الوجه الرابع: أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والاستانات، وإنما اختلاف تلك الطرق بمدّ المقصور وقصر الممدود، والوقف في أثناء الكلمات، والقطع والوصل في بعضها. وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل، فقصره ومدّه

والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقضيه التلاوة حرام أو مكروه. وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير وإن لم يكن مفهوماً، كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم.

الوجه الخامس: أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره، لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قوي، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب، ولكل واحد منها حظ في التأثير، وواجب أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن، لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب، والقرآن جد كله عند كافة الخلق، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة وصورته صورة اللهو عند الخاصة، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث أنها لهو، بل ينبغي أن يوقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن، ولا في حال الجنابة، ولا على غير طهارة، ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم، فيعدل إلى الغناء الذي لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة. ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرآن ليلة العرس، وقد أمر رسول الله ﷺ بضرب الدف في العرس فقال: **«أَظْهِرُوا النِّكَاحَ وَلَوْ بِضَرْبِ الغِرْبَالِ»**(١)، أو بلفظ هذا معناه، وذلك جائز مع الشعر دون القرآن. ولذلك لما دخل رسول الله ﷺ بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار، فسمع إحداهن تقول: وفينا نبي يعلم ما في غد. على وجه الغناء، فقال ﷺ: **«دَعِي هٰذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ»**(٢)، وهذه شهادة بالنبوّة فزجرها عنها وردها إلى الغناء الذي هو لهو، لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة اللهو، فإذاً يتعذر بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محركاً للقلب، فواجب في الاحترام العدول إلى الغناء عن القرآن كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوّة إلى الغناء.

الوجه السادس: أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه وينهاه عنه ويستدعي غيره، فليس كل كلام موافقاً لكل حال. فلو اجتمعوا في الدعوات على القارىء فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال، فآيات الرحمة شفاء الخائف، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن. وتفصيل ذلك مما يطول. فإذاً: لا يؤمن أن لا يوافق المقروء الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلاً إلى دفعه. فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب، إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله، ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى. وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده. ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال، فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك، وهذا ما ينقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن.

وههنا وجه سابع: ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الاعتذار عن ذلك فقال: القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطيقه البشرية؛ لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة. ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدّعت ودهشت وتحيرت. والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة

---

(١) حديث: «الأمر بضرب الدف في العرس». تقدم في النكاح.

(٢) حديث: «دخل رسول الله ﷺ بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يغنين...» الحديث. أخرجه البخاري من حديثها وقد تقدم في النكاح.

الحظوظ لا نسبة الحقوق، والشعر نسبته نسبة الحظوظ. فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الأبيات من الإشارات واللطائف شاكل بعضها بعضاً كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق المخلوق. فما دامت البشرية باقية ونحن بصفاتنا وحظوظنا نتنعم بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود. وهذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره.

وقد حكي عن أبي الحسن الدرّاج أنه قال: قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه، فلما دخلت الري كنت أسأل عنه فكل من سألته عنه قال: أيش تعمل بذلك الزنديق؟ فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف. ثم قلت في نفسي: قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه، فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقرأ، فإذا هو شيخ بهي حسن الوجه واللحية، فسلمت عليه فأقبل عليَّ وقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من بغداد، فقال: وما الذي جاء بك؟ فقلت: قصدتك للسلام عليك، فقال: لو أن في بعض هذه البلدان قال لك إنسان: أقم عندنا حتى نشتري لك داراً أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجيء؟ فقلت: ما امتحنني الله بشيء من ذلك، ولو امتحنني ما كنت أدري كيف أكون؟ ثم قال لي: أتحسن أن تقول شيئاً؟ فقلت: نعم، فقال: هات فأنشأت أقول:

رأيتك تبني دائماً في قطيعتي ... ولو كنت ذا حزم لهدّمت ما تبني
كأني بكم والليت أفضل قولكم ... ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغني

قال: فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه، حتى رحمته من كثرة بكائه، ثم قال: يا بني، تلوم أهل الري يقولون يوسف زنديق، هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ في المصحف لم تقطر من عيني قطرة، وقد قامت القيامة عليَّ لهذين البيتين. فإذاً: القلوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع، ولكونه مشاكلاً للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر. وأما القرآن: فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه، وهو لذلك معجز لا يدخل في قوّة البشر لعدم مشاكلته لطبعه. وروي أن إسرافيل ـ أستاذ ذي النون المصري ـ دخل عليه رجل فرآه وهو ينكت في الأرض بأصبعه ويترنم ببيت فقال: هل تحسن أن تترنم بشيء؟ فقال: لا، قال: فأنت بلا قلب ـ إشارة إلى أن من له قلب وعرف طباعه علم أنه تحركه الأبيات والنغمات تحريكاً لا يصادف في غيرها، فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره ـ. وقد ذكرنا حكم المقام الأوّل في فهم المسموع وتنزيله، وحكم المقام الثاني في الوجد الذي يصادف في القلب، فلنذكر الآن أثر الوجد؛ أعني ما يترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره فنقول:

المقام الثالث من السماع:

نذكر فيه آداب السماع ظاهراً وباطناً وما يحمد من آثار الوجد وما يذم. فأما الآداب فهي خمس جمل:

الأوّل: مراعاة الزمان والمكان والإخوان. قال الجنيد: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع: الزمان والمكان والإخوان. ومعناه: أن الاشتغال به في وقت حضور طعام أو خصام أو صلاة أو

صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان فيراعى حالة فراغ القلب له. وأما المكان: فقد يكون شارعاً مطروقاً أو موضعاً كريه الصورة، أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك. وأما الإخوان: فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهد الظاهر، مفلس من لطائف القلوب كان مستثقلاً في المجلس واشتغل القلب به. وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته، أو متكلف متواجد من أهل التصوّف يرائي بالوجد والرقص وتمزيق الثياب، فكل ذلك مشوّشات. فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى. ففي هذه الشروط نظر للمستمع.

الأدب الثاني: هو نظر الحاضرين؛ أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغي أن يسمع في حضورهم فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر، والمريد الذي يستضر بالسماع أحد ثلاثة:

أقلهم درجة: هو الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع، فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو، ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع، فليشتغل بذكر أو خدمة وإلا فهو تضييع لزمانه.

الثاني: هو الذي له ذوق السماع، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية، ولم ينكسر بعد انكساراً تؤمن غوائله، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة، فيقطع عليه طريقه ويصدّه عن الاستكمال.

الثالث: أن يكون قد انكسرت شهوته وأمنت غائلته، وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى، ولكنه لم يُحكم ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل، فإذا فتح له باب السماع نزل المسموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز، فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفر أعظم من نفع السماع.

قال سهل رحمه الله: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. فلا يصلح السماع لمثل هذا، ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع؛ فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عبادته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه. فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه. قال الجنيد: رأيت إبليس في النوم فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشيء؟ قال: نعم في وقتين، وقت السماع ووقت النظر، فإني أدخل عليهم به. فقال بعض الشيوخ: لو رأيته أنا لقلت له: ما أحمقك من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تظفر به؟ فقال الجنيد: صدقت.

الأدب الثالث: أن يكون مصغياً إلى ما يقول القائل، حاضر القلب، قليل الالتفات إلى الجوانب، متحرزاً عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد. مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره، متحفظاً عن حركة تشوّش على أصحابه قلوبهم. بل يكون ساكن الظاهر، هادىء الأطراف، متحفظاً عن التنحنح والتثاؤب، ويجلس مطرقاً رأسه، كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه، متماسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراءاة، ساكتاً عن النطق في أثناء القول بكل ما عنه بدّ، فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم. ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه. ولا ينبغي أن يستديمه حياء من أن يقال: انقطع وجده على القرب، ولا أن يتواجد خوفاً من أن يقال: هو قاسي القلب، عديم الصفاء والرقة.

حكي أن شاباً كان يصحب الجنيد، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق، فقال له الجنيد يوماً: إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني، فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء

ولا يزعق، فحكي أنه اختنق يوماً لشدة ضبطه لنفسه؛ فشهق شهقة فانشق قلبه وتلفت نفسه. وروي أن موسى عليه السلام قصَّ في بني إسرائيل فمزق واحد منهم ثوبه أو قميصه، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له: مزق لي قلبك ولا تمزق ثوبك. قال أبو القاسم النصراباذي لأبي عمرو بن عبيد: أنا أقول: إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوّال يقول خيراً لهم من أن يغتابوا، فقال أبو عمرو: الرياء في السماع وهو أن ترى من نفسك حالاً ليست فيك شر من أن تغتاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك.

فإن قلت: الأفضل هو الذي لا يحركه السماع ولا يؤثر في ظاهره أو الذي يظهر عليه؟ فاعلم: أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان، وتارة يكون مع قوّة الوجد في الباطن لكن لا يظهر لكمال القوّة على ضبط الجوارح فهو كمال، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازماً ومصاحباً في الأحوال كلها، فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال، فإن صاحب الوجد في غالب الأحوال لا يدوم وجده فمن هو في وجد دائم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود؛ فهذا لا تغيره طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضي الله عنه: كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا، معناه: قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال، فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديداً في حقنا طارئاً علينا حتى نتأثر به. فإذاً: قوّة الوجد تحرك وقوّة العقل والتماسك تضبط الظاهر، وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدّة قوته وإما لضعف ما يقابله، ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظنن أن الذي يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجداً من الساكن باضطرابه، بل رب ساكن أتم وجداً من المضطرب. فقد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرك فقيل له في ذلك فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل في الملكوت، والجوارح متأدبة في الظاهر ساكنة. وقال أبو الحسن محمد بن أحمد ـ وكان بالبصرة ـ: صحبت سهل بن عبدالله ستين سنة فما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر أو القرآن، فلما كان في آخر عمره قرأ رجل بين يديه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد: ١٥] الآية، فرأيته قد ارتعد وكاد يسقط، فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك فقال: نعم يا حبيبي قد ضعفنا. وكذلك سمع مرة قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] فاضطرب فسأله ابن سالم ـ وكان من أصحابه ـ فقال: قد ضعفت. فقيل له: فإن كان هذا من مضعف فما قوّة الحال فقال: أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوّة حاله، فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية. وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود. كما حكي عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال: حالتي قبل الصلاة وبعدها واحدة؛ لأنه كان مراعياً للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى في كل حال. فكذلك يكون قبل السماع وبعده؛ إذ يكون وجده دائماً، وعطشه متصلاً، وشربه مستمراً، بحيث لا يؤثر السماع في زيادته. كما روي أن ممشاد الدينوري أشرف على جماعة فيهم قوال فسكنوا فقال: ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذني ما شغل همي ولا شفي بعض ما بي. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم. وفضل العلم أتم من فضل الوجد.

فإن قلت: فمثل هذا لم يحضر السماع؟ فاعلم: أن من هؤلاء من ترك السماع في كبره وكان لا يحضر إلا نادراً لمساعدة أخ من الإخوان وإدخالاً للسرور على قلبه، وربما حضر ليعرف القوم كمال قوّته فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر، فيتعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف وإن لم يقدروا على الاقتداء به في صيرورته طبعاً لهم. وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم

نائين عنهم بقلوبهم وبواطنهم. كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضي الجلوس معهم. وبعضهم نقل عنه ترك السماع ويظن أنه كان سبب تركه استغناءه عن السماع بما ذكرناه. وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحاني في السماع ولا كان من أهل اللهو، فتركه لئلا يكون مشغولاً بما لا يعنيه. وبعضهم تركه لفقد الإخوان. قيل لبعضهم: لم لا تسمع؟ فقال: ممن ومع من؟.

الأدب الرابع: أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة؛ لأنّ التباكي استجلاب للحزن، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط. فكل سرور مباح فيجوز تحريكه. ولو كان ذلك حراماً لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله ﷺ وهم يزفنون[1]. هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات. وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجلوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك؛ وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فتشاحوا في تربيتها، فقال ﷺ لعلي: **«أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنكَ»** فحجل علي وقال لجعفر: **«أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي»** فحجل وراء حجل علي وقال لزيد: **«أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلاَنَا»**، فحجل زيد وراء حجل جعفر، ثم قال عليه السلام: **«هِيَ لِجَعْفَرٍ لأَنَّ خَالَتَها تَحْتَهُ وَالخَالَةُ وَالِدَةٌ»**[2]، وفي رواية: أنه قال لعائشة رضي الله عنها: **«أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَىٰ زَفْنِ الحَبَشَةِ»** والزفن والحجل هو الرقص. وذلك يكون لفرح أو شوق فحكمه حكم مهيجه، إن كان فرحه محموداً والرقص يزيده ويؤكده فهو محمود، وإن كان مباحاً فهو مباح، وإن كان مذموماً فهو مذموم. نعم لا يليق اعتياد ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة؛ لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب، وما له صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به؛ لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به.

وأما تمزيق الثياب. فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه، وتكون صورته صورة المكره؛ إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس، فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأنين، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختياري، فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لاضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس. فكذلك الزعقة وتمزيق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم. فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحاد الغالب فقال: نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري. فروجع فيه واستبعد أن ينتهي إلى هذا الحدّ فأصر عليه ولم يرجع. ومعناه: أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحدّ في بعض الأشخاص.

فإن قلت: فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع، فإنهم يمزقونها قطعاً صغاراً ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرقة؟ فاعلم: أن ذلك مباح إذا قطع قطعاً

---

(١) حديث: «نظرت عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله ﷺ وهم يزفنون». تقدم في الباب قبله.

(٢) حديث: «اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة فقال لعلي: **«أنت مني وأنا منك»** فحجل وقال لجعفر: **«أشبهت خلقي وخلقي»** فحجل وقال لزيد: **«أنت أخونا ومولانا»** فحجل. . .» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد حسن وهو عند البخاري دون: «فحجل».

مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات. فإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص، ولا يكون ذلك تضييعاً لأنه تمزيق لغرض. وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار وذلك مقصود، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح. ولكل مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين، ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاع. وإنما منعنا في السماع التمزيق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبقى منتفعاً به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار.

الأدب الخامس: موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة فلا بد من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة. وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته. أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق؛ فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصحبة والعشرة، إذِ المخالفة موحشة ولكل قوم رسم، ولا بد من مخالقة الناس بأخلاقهم[١] كما ورد في الخبر، لا سيما إذا كانت أخلاقاً فيها حسن العشرة والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة. وقول القائل: إنّ ذلك بدعة لم يكن في الصحابة، فليس كل ما يحكم بإباحته منقولاً عن الصحابة رضي الله عنهم، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سنّة مأثورة، ولم ينقل النهي عن شيء من هذا.

والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب، بل كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقومون لرسول الله ﷺ في بعض الأحوال[٢]، كما رواه أنس رضي الله عنه. ولكن إذا لم يثبت فيه نهي عام فلا نرى به بأساً في البلاد التي جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام وتطييب القلب به، وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطييب القلب واصطلح عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهي لا يقبل التأويل، ومن الأدب: أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه، ولا يشوّش عليهم أحوالهم؛ إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذي يلوح للجميع منه أثر التكلف. ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محك للصدق والتكلف.

سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال: صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالاً غير أضداد.

فإن قلت: فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولهو ومخالف للدين، فلا يراه ذو جدّ في الدين إلا وينكره؟.

فاعلم: أنّ الجد لا يزيد على جد رسول الله ﷺ وقد رأى الحبشة يزفنون في المسجد وما أنكره لما كان في وقت لائق به وهو العيد، ومن شخص لائق به وهم الحبشة. نعم، نفرت الطباع عنه؛ لأنه يُرى غالباً مقروناً باللهو واللعب، واللهو واللعب مباح ولكن للعوام من الزنوج والحبشة ومن أشبههم. وهو مكروه لذوي المناصب؛ لأنه لا يليق بهم. وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذي المنصب فلا يجوز أن يوصف بالتحريم، فمن سأل فقيراً فأعطاه رغيفاً كان ذلك طاعة مستحسنة، ولو سأل ملكاً فأعطاه

---

(١) حديث: «مخالفة الناس بأخلاقهم». أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر: «**خالقوا الناس بأخلاقهم**...» الحديث. قال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) حديث: «كانوا لا يقومون لرسول الله ﷺ في بعض الأحوال». كما رواه أنس تقدم في آداب الصحبة.

رغيفاً أو رغيفين لكان ذلك منكراً عند الناس كافة، ومكتوباً في تواريخ الأخبار من جملة مساوئه ويعير به أعقابه وأشياعه، ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام لأنه من حيث إنه أعطى خبزاً للفقير حسن، ومن حيث إنّه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستقبح، فكذلك الراقص وما يجري مجراه من المباحات، ومباحات العوام سيئات الأبرار، وحسنات الأبرار سيئات المقرّبين، ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب. وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه هو في نفسه لا تحريم فيه والله أعلم، فقد خرج من جملة التفصيل السابق: أن السماع قد يكون حراماً محضاً، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون مستحباً.

أما الحرام: فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة.

وأما المكروه: فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين، ولكنه يتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو.

وأما المباح: فهو لمن لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن.

وأما المستحب: فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى، ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع من ربع العادات الثاني من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تستفتح الكتب إلا بحمده، ولا تستمنح النعم إلا بواسطة كرمه ورفده، والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبده، وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده.

أما بعد: فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوّة واضمحلت الديانة وعمت الفترة، وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون؛ إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلاً بعملها أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الداثرة ناهضاً بأعبائها ومتشمراً في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنّة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدّاً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها، وها نحن نشرح علمه في أربعة أبواب.

الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته.

الباب الثاني: في أركانه وشروطه.

الباب الثالث: في مجاريه وبيان المنكرات المألوفة في العادات.

الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

❋ ❋ ❋

الباب الأول

في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك ـ بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه ـ الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤] ففي الآية بيان الإيجاب؛ فإن قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤] أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥] وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين؛ إذ لم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف بل قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤]، فإذاً: مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة، وقال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١١٣، ١١٤] فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: ٧١] فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المَائدة: ٧٨، ٧٩] وهذا غاية التشديد؛ إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر، وقال عزّ وجلّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠] وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥] فبيّن أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، ويدل ذلك على الوجوب أيضاً، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المَائدة: ٢] وهو أمر جزم، ومعنى التعاون: الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسدّ سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المَائدة: ٦٣] فبين أنهم أثموا بترك النهي، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هُود: ١١٦] الآية. فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلاً منهم كانوا ينهون عن الفساد، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النِّساء: ١٣٥] وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين، وقال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا

عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ [النساء: ١١٤] وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] الآية، والإصلاح نهيٌ عن البغي وإعادة إلى الطاعة، فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] وذلك هو النهي عن المنكر.

وأما الأخبار: فمنها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1] [المائدة: ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَا مِنْ قَوْمٍ عَمِلُوا بِالمَعَاصِي وَفِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلْ إلاَّ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»**. وروي عن أبي ثعلبة الخشني: أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[2] [المائدة: ١٠٥] فقال: **«يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، مُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ فَإِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً وَهَوىً مُتَّبَعاً وَدُنْيا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ العَوَامَّ، إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيها بِمِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»** قيل: بل منهم يا رسول الله. قال: **«لاَ، بَلْ مِنْكُمْ لأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الخَيْرِ أَعْوَاناً وَلاَ يَجِدُونَ عَلَيْهِ أَعْوَاناً»**. وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال: إن هذا ليس زمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا، وتقولون فلا يقبل منكم؛ فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، وقال رسول الله ﷺ: **«لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ الله عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ ثُمَّ يَدْعُوا خِيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ»**[3]، معناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم. وقال ﷺ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله يَقُولُ: لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلاَ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»**[4]، وقال ﷺ: **«مَا أَعْمَالُ البِرِّ عِنْدَ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله إلاَّ كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ، وَمَا جَمِيعُ أَعْمَالِ البِرِّ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله عِنْدَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ إلاَّ كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ»**[5].

---

(١) حديث أبي بكر: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] الحديث. أخرجه أصحاب السنن وتقدم في العزلة.

(٢) حديث أبي ثعلبة: أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]... الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي، وحسنه وابن ماجه.

(٣) حديث: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»**. أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب، والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف، وللترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنه قال: **«أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»** قال: هذا حديث حسن.

(٤) حديث: **«يا أيها الناس إن الله سبحانه يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم»** أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة بلفظ: «مروا وانهوا» وهو عند ابن ماجه دون عزوه إلى كلام الله تعالى وفي إسناده لين.

(٥) حديث: **«ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجي»** رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس مقتصراً على الشطر الأول من حديث جابر بإسناد ضعيف، وأما الشطر الأخير فرواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلاً أو معضلاً، ولا أدري من يحيى بن عطاء؟.

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «إِنَّ الله تَعَالَىٰ لَيَسْأَلُ العَبْدَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ المُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ الله العَبْدَ حُجَّتَهُ قَالَ: رَبِّ وَثِقْتُ بِكَ وَفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ»(١)، وقال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ»، قالوا: ما لنا بدّ إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ ذٰلِكَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّها» قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غَضُّ البَصَرِ وَكَفُّ الأَذَىٰ وَرَدُّ السَّلاَمِ وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ»(٢) وقال ﷺ: «كَلامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لاَ لَهُ إِلاَّ أَمْراً بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْياً عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْراً لله تَعَالَىٰ»(٣)، وقال ﷺ: «إِنَّ الله لاَ يُعَذِّبُ الخَاصَّةَ بِذُنُوبِ العَامَّةِ حَتَّىٰ يَرَىٰ المُنْكَرَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُونَهُ»(٤)، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: «كَيفَ أَنْتُمْ إِذَا طَغَىٰ نِسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ شُبَّانُكُمْ وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ؟» قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله قال: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: «كَيفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ؟» قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ» قالوا: وما أشد منه؟ قال: «كَيفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ المَعْرُوفَ مُنْكَراً وَالمُنْكَرَ مَعْرُوفاً؟» قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ» قالوا: وما أشد منه؟ قال: «كَيفَ أَنْتُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ المَعْرُوفِ؟» قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ؟ يَقُولُ الله تَعَالَىٰ: بِي حَلَفْتُ لأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الحَلِيمُ فِيها حَيْرَانَ»(٥).

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَقِفَنَّ عِنْدَ رَجُلٍ يُقْتَلُ مَظْلُوماً فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَىٰ مَنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ، وَلاَ تَقِفَنَّ عِنْدَ رَجُلٍ يُضْرَبُ مَظْلُوماً فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَىٰ مَنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ»(٦)، قال: وقال رسول الله ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي لامْرِىءٍ شَهِدَ مَقَاماً فِيهِ حَقٌّ إِلاَّ تَكَلَّمَ بِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يُقَدِّمَ أَجَلَهُ وَلَنْ يَحْرِمَهُ رِزْقاً هُوَ لَهُ»(٧)، وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة، ولا حضور المواضع التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره، فإنه قال: «اللَّعْنَةُ

---

(١) حديث: «إن الله تعالى ليسأل العبد ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره..» الحديث. أخرجه ابن ماجه وقد تقدم.

(٢) حديث: «إياكم والجلوس على الطرقات...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد.

(٣) حديث: «كل كلام ابن أدم عليه لا له إلا أمراً بمعروف...» الحديث. تقدم في العلم.

(٤) حديث: «إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يروا المنكر...» الحديث. أخرجه أحمد من حديث عدي بن عميرة، وفيه من لم يسم والطبراني من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه.

(٥) حديث أبي أمامة: «كيف بكم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم» قالوا: وإن ذلك كائن يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون» قالوا وما أشد منه؟ قال «كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله: «كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف» ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصراً على الأسئلة الثلاثة الأول وأجوبتها دون الأخيرين وإسناده ضعيف.

(٦) حديث عكرمة عن ابن عباس: «لا تقفن عند رجل يقتل مظلوماً فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه» أخرجه الطبراني بسند ضعيف، والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن.

(٧) حديث: «لا ينبغي لامرىء شهد مقاماً فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقاً هو له» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند الحديث الذي قبله، وروى الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد «لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه».

تَنْزِلُ عَلَىٰ مَنْ حَضَرَ»، ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذاراً بأنه عاجز. ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والمجامع وعجزهم عن التغيير، وهذا يقتضي لزوم الهجر للخلق. ولهذا قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: ما ساح السواح وخلوا دورهم وأولادهم إلا بمثل ما نزل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والخبر قد اندرس، ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم، ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعتريهم، وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلمون منه؛ فرأوا أن مجاورة السباع وأكل البقول خير من مجاورة هؤلاء في نعيمهم ثم قرأ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠] قال: ففرّ قوم فلولا ما جعل الله جل ثناؤه في النبوّة من السر لقلنا ما هم بأفضل من هؤلاء. فيما بلغنا أن الملائكة عليهم السلام لتلقاهم وتصافحهم، والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه، ويسألها أين أمرت فتخبره؟ وليس بنبي. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَضَرَ مَعْصِيَةً فَكَرِهَهَا فَكَأَنَّهُ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَأَحَبَّهَا فَكَأَنَّهُ حَضَرَهَا»(١)، ومعنى الحديث: أن يحضر لحاجة أو يتفق جريان ذلك لديه. فأما الحضور قصداً فممنوع بدليل الحديث الأول. وقال ابن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ الله عَزَّ وَجَلَّ نَبِياً إِلاَّ وَلَهُ حَوَارِي فَيَمْكُثُ النَّبِيُّ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مَا شَاءَ الله تَعَالَىٰ، يَعْمَلُ فِيهِمْ بِكِتَابِ الله وَبِأَمْرِهِ حَتَّىٰ إِذَا قَبَضَ الله نَبِيَّهُ مَكَثَ الحَوَارِيُّونَ يَعْمَلُونَ بِكِتَابِ الله وَبِأَمْرِهِ وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ فَإِذَا انْقَرَضُوا كَانَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ يَرْكَبُونَ رُؤُوسَ المَنَابِرِ يَقُولُونَ مَا يَعْرِفُونَ وَيَعْمَلُونَ مَا يُنْكِرُونَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذٰلِكَ فَحَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ جِهَادُهُمْ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذٰلِكَ إِسْلاَمٌ»(٢).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان أهل قرية يعملون بالمعاصي وكان فيهم أربعة نفر ينكرون ما يعملون، فقام أحدهم فقال: إنكم تعملون كذا وكذا فجعل ينهاهم ويخبرهم بقبيح ما يصنعون، فجعلوا يردون عليه ولا يرعوون عن أعمالهم، فسبهم فسبوه وقاتلهم فغلبوه، فاعتزل ثم قال: اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني وقاتلتهم فغلبوني، ثم ذهب. ثم قام الآخر فنهاهم فلم يطيعوه فسبهم فسبوه فاعتزل ثم قال: اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني ولو قاتلتهم لغلبوني. ثم ذهب ثم قام الثالث فنهاهم فلم يطيعوه فاعتزل ثم قال: اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ولو سببتهم لسبوني ولو قاتلتهم لغلبوني. ثم ذهب ثم قام الرابع فقال: اللهم إني لو نهيتهم لعصوني ولو سببتهم لسبوني ولو قاتلتهم لغلبوني ثم ذهب. قال ابن مسعود رضي الله عنه: كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: «نَعَمْ» قيل: بم يا رسول الله؟ قال: «بِتَهَاوُنِهِمْ وَسُكُوتِهِمْ عَلَىٰ مَعَاصِي الله تَعَالَىٰ»(٣)، وقال جابر بن عبدالله: قال رسول الله ﷺ: «أَوْحَىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَىٰ مَلَكٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ أَنِ اقْلِبْ مَدِينَةَ كَذَا وَكَذَا عَلَىٰ أَهْلِهَا فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ فِيهِمْ عَبْدَكَ فُلاَناً لَمْ يَعْصِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَالَ: اقْلِبْهَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ فَإِنَّ وَجْهَهُ لَمْ

---

(١) حديث أبي هريرة: «من حضر معصية فكرهها فكأنه غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها» رواه ابن عدي وفيه يحيى بن أبي سلمان. قال البخاري: منكر الحديث.

(٢) حديث ابن مسعود: «ما بعث الله عز وجل نبياً إلا وله حواري. . .» الحديث. روى مسلم نحوه.

(٣) حديث ابن عباس: قيل: يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: «نعم» قيل: بم يا رسول الله؟ قال: «بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله» أخرجه البزار والطبراني بسند ضعيف.

يَتَمَعَّرْ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ»[1]، وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: **«عُذِّبَ أَهْلُ قَرْيَةٍ فِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفاً عَمَلُهُمْ عَمَلُ الأَنْبِيَاءِ»**، قالوا: يا رسول الله كيف؟ قال: **«لَمْ يَكُونُوا يَغْضَبُونَ لله وَلاَ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ يَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ»**[2]، وعن عروة عن أبيه قال: قال موسى ﷺ: يا رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يتسرع إلى هواي كما يتسرع النسر إلى هواه، والذي يكلف بعبادي الصالحين كما يكلف الصبي بالثدي، والذي يغضب إذا أتيت محارمي كما يغضب النمر لنفسه؛ فإن النمر إذا غضب لنفسه لم يبال قل الناس أم كثروا. وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف، وقال أبو ذرّ الغفاري: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: **«نَعَمْ يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لله تَعَالَىٰ مُجَاهِدِينَ فِي الأَرْضِ أَفْضَلَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَحْيَاءً مَرْزُوقِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ يُبَاهِي الله بِهِمْ مَلاَئِكَةَ السَّمَاءِ وَتُزَيَّنُ لَهُمُ الجَنَّةُ كَمَا تَزَيَّنَتْ أُمُّ سَلَمَةَ لِرَسُولِ الله ﷺ»**، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله ومن هم؟ قال: **«الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالمُحِبُّونَ فِي الله وَالمُبْغِضُونَ فِي الله»** ثم قال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ العَبْدَ مِنْهُمْ لَيَكُونُ فِي الغُرْفَةِ فَوْقَ الغُرُفَاتِ فَوْقَ غُرَفِ الشُّهَدَاءِ لِلْغُرْفَةِ مِنْهَا ثَلاثُمِائَةِ أَلْفِ بَابٍ مِنْهَا اليَاقُوتُ وَالزُّمُرُّدُ الأَخْضَرُ عَلَىٰ كُلِّ بَابٍ نُورٌ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُزَوَّجُ بِثَلاَثِمِائَةِ أَلْفِ حَوْرَاءَ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ عِينٍ كُلَّمَا الْتَفَتَ إِلَىٰ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَنَظَرَ إِلَيْهَا تَقُولُ لَهُ: أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا أَمَرْتَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهَيْتَ عَنِ المُنْكَرِ؟ كُلَّمَا نَظَرَ إِلَىٰ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ذَكَرَتْ لَهُ مَقَاماً أَمَرَ فِيهِ بِمَعْرُوفٍ وَنَهَىٰ فِيهِ عَنْ مُنْكَرٍ»**[3]. وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله عزّ وجلّ؟ قال: **«رَجُلٌ قَامَ إِلَىٰ وَالٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، فَقَتَلَهُ فَإِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ فَإِنَّ القَلَمَ لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ بَعْدَ ذٰلِكَ وَإِنْ عَاشَ مَا عَاشَ»**[4]. وقال الحسن البصري رحمه الله: قال رسول الله ﷺ: **«أَفْضَلُ شُهَدَاءِ أُمَّتِي رَجُلٌ قَامَ إِلَىٰ إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ فَقَتَلَهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ. فَذٰلِكَ الشَّهِيدُ مَنْزِلَتُهُ فِي الجَنَّةِ بَيْنَ حَمْزَةَ وَجَعْفَرٍ»**[5]. وقال عمر بن

---

(١) حديث جابر: **«أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال يا رب إن فيهم عبدك فلاناً. .»** الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب وضعفه وقال: المحفوظ من قول مالك بن دينار.

(٢) حديث عائشة: **«عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفاً عملهم عمل الأنبياء»** لم أقف عليه مرفوعاً وروى ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن عمر الصنعاني: **«أوحى الله إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، قال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي فكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم»**.

(٣) حديث أبي ذر: قال أبو بكر: يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين؟ قال: **«نعم يا أبا بكر إن لله تعالى مجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء»** فذكر الحديث وفيه فقال: **«هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. . .»** الحديث. بطوله لم أقف له على أصل، وهو منكر.

(٤) حديث أبي عبيدة: قلت: يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله؟ قال: **«رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله. . .»** الحديث. أخرجه البزار مقتصراً على هذا دون قوله: **«فإن لم يقتله. . . إلى آخره»** وهذه الزيادة منكرة، وفيه أبو الحسن غير مشهور لا يعرف.

(٥) حديث الحسن البصري مرسلاً: **«أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر»** لم أره من حديث الحسن، وللحاكم في المستدرك وصحح إسناده من حديث جابر: سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب: **«ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**.

الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بِئْسَ القَوْمُ قَوْمٌ لاَ يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ وَبِئْسَ القَوْمُ قَوْمٌ لاَ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ يَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ**»(١).

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرنّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم. وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه. وقال مالك بن دينار: كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى الرجال والنساء منزله يعظهم ويذكرهم بأيام الله عزّ وجلّ فرأى بعض بنيه يوماً وقد غمز بعض النساء فقال: مهلاً يا بني مهلاً، وسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه في الجيش، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه: أن أخبر فلاناً الحبر أني لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً، أما كان من غضبك لي إلا أن قلت: مهلاً يا بني مهلاً. وقال حذيفة: يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم، وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام: إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم. وقال بلال بن سعد: إن المعصية إذ أخفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة. وقال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك من قومك؟ قال: حسنة. قال كعب: إن التوراة لتقول غير ذلك، قال: وما تقول؟ قال: تقول: إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه، فقال: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم.

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال ثم قعد عنهم فقيل له: لو أتيتهم فلعلهم يجدون في أنفسهم، فقال: أرهب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي، وإن سكت رهبت أن آثم. وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ويستتر عنه حتى لا يجري بمشهد منه. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أوّل ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله. وقال سهل بن عبدالله رحمه الله: أيما عبد عمل في شيء من دينه بما أمر به أو نهى عنه وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها وتشوّش الزمان فهو ممن قد قام لله في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. معناه: أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه فقد جاء بما هو الغاية في حقه، وقيل للفضيل: ألا تأمر وتنهى؟ فقال: إن قوماً أمروا ونهوا فكفروا؛ وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصيبوا. وقيل للثوري: ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقال: إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يسكره.

فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به. فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه:

❋ ❋ ❋

---

(١) حديث عمر: «**بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر**». رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف، وأما حديث عمر: فأشار إليه أبو منصور الديلمي بقوله، وفي الباب ورواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلاً.

الباب الثاني

في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم: أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة: المحتسب، والمحتسب عليه، والمحتسب فيه، ونفس الاحتساب. فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه.

الركن الأول: المحتسب:

وله شروط: وهو أن يكون مكلفاً مسلماً قادراً. فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والعاجز، ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مأذونين، ويدخل فيه الفاسق والرقيق والمرأة. فلنذكر وجه اشتراط ما اشترطناه ووجه اطراح ما أطرحناه.

أما الشرط الأول: وهو التكليف، فلا يخفى وجه اشتراطه، فإن غير المكلف لا يلزمه أمر، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل، حتى إن الصبي المراهق للبلوغ المميز ـ وإن لم يكن مكلفاً ـ فله إنكار المنكر وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهي؛ وإذا فعل ذلك نال به ثواباً ولم يكن لأحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف. فإن هذه قربة وهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف؛ ولذلك أثبتناه للعبد وآحاد الرعية. نعم، في المنع بالفعل وإبطال المنكر نوع ولاية وسلطنة، ولكنها تستفاد بمجرّد الإيمان كقتل المشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته. فإن للصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستضر به، فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر.

وأما الشرط الثاني: وهو الإيمان، فلا يخفى وجه اشتراطه؛ لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدوّ له؟.

وأما الشرط الثالث: وهو العدالة، فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب، وربما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصَّف: ٣] وبما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِقَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَأْمُرُ بِالخَيْرِ وَلاَ نَأْتِيهِ وَنَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ»**[1]، وبما روي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى ﷺ: عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني. وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للاهتداء، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة، والإصلاح: زكاة عن نصاب الصلاح، فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟ وكل ما ذكروه

الباب الثاني

في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

(١) حديث: «مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار...» الحديث. تقدم في العلم.

خيالات، وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب وبرهانه هو أن نقول: هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوماً عن المعاصي كلها؟ فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع، ثم حسم لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلاً عمن دونهم، والأنبياء عليهم السلام قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا. والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية، وكذا جماعة من الأنبياء. ولهذا قال سعيد بن جبير: إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء؛ لم يأمر أحد بشيء، فأعجب مالكاً ذلك من سعيد بن جبير. وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغائر حتى يجوز للابس الحرير أن يمنع من الزنى وشرب الخمر فنقول:

وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر؟ فإن قالوا: لا، خرقوا الإجماع؛ إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يُمنعوا من الغزو، لا في عصر رسول الله ﷺ ولا بعده. فإن قالوا: نعم، فنقول: شارب الخمر هل له المنع من القتل أم لا؟ فإن قالوا: لا، قلنا: فما الفرق بينه وبين لابس الحرير؟ إذ جاز له المنع من الخمر، والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب كالشرب بالنسبة إلى لبس الحرير؛ فلا فرق. وإن قالوا: نعم، وفصلوا الأمر فيه بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عمّا دونه، وإنما يمنع عما فوقه: فهذا تحكم؛ فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزاني من الشرب؟ بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلمانه وخدمه من الشرب؟ ويقول: يجب عليّ الانتهاء والنهي فمن أين يلزمني من العصيان بأحدهما أن أعصي الله تعالى بالثاني؟ وإذا كان النهي واجباً عليَّ فمن أين يسقط وجوبه بإقدامي؟ إذ يستحيل أن يقال: يجب النهي عن شرب الخمر عليه ما لم يشرب فإذا شرب سقط النهي.

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يقول القائل: الواجب علي الوضوء والصلاة، فأنا أتوضأ وإن لم أصلِّ، وأتسحر وإن لم أصم، لأن المستحب لي السحور والصوم جميعاً. ولكن يقال: أحدهما مرتب على الآخر، فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويمه نفسه، فليبدأ بنفسه ثم بمن يعول. والجواب: أن التسحر يراد للصوم ولولا الصوم لما كان التسحر مستحباً، وما يراد لغيره لا ينفك عن ذلك الغير، وإصلاح الغير لا يراد لإِصلاح النفس، ولا إصلاح النفس لإِصلاح الغير، فالقول بترتب أحدهما على الآخر تحكم.

وأما الوضوء والصلاة، فهو لازم، فلا جرم أن من توضأ ولم يصل كان مؤدياً أمر الوضوء، وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعاً، فليكن من ترك النهي والانتهاء أكثر عقاباً ممن نهي ولم ينته، كيف والوضوء شرط لا يراد لنفسه؟ بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة.

وأما الحسبة فليست شرطاً في الانتهاء والائتمار فلا مشابهة بينهما.

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يقال: إذا زنى الرجل بامرأة وهي مكرهة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها، فأخذ الرجل يحتسب في أثناء الزنا ويقول: أنت مكرهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير محرم، وها أنا غير محرم لك فاستري وجهك، فهذا احتساب شنيع يستنكره قلب كل عاقل ويستشنعه كل طبع سليم؟ فالجواب: أن الحق قد يكون شنيعاً، وأن الباطل قد يكون مستحسناً بالطباع، والمتبع الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات فإنا نقول: قوله لها في تلك الحالة: «لا تكشفي وجهك» واجب أو مباح أو حرام؟ فإن قلتم: إنه واجب فهو الغرض؛ لأن الكشف معصية والنهي عن المعصية حق. وإن قلتم: إنه مباح، فإذن له أن يقول ما هو مباح، فما معنى قولكم ليس للفاسق الحسبة؟ وإن

قلتم: إنه حرام، فنقول: وكان هذا واجباً فمن أين حرم بإقدامه على الزنا؟ ومن الغريب: أن يصير الواجب حراماً بسبب ارتكاب حرام آخر.

وأما نفرة الطباع عنه واستنكارها له فهو لسببين:

أحدهما: أنه ترك الأهم واشتغل بما هو مهم. وكما أن الطباع تنفر عن ترك المهم إلى ما لا يعني، فتنفر عن ترك الأهم والاشتغال بالمهم، كما تنفر عمن يتحرج عن تناول طعام مغصوب وهو مواظب على الربا، وكما تنفر عمن يتصاون عن الغيبة ويشهد بالزور؛ لأن الشهادة بالزور أفحش وأشدّ من الغيبة التي هي إخبار عن كائن يصدق فيه المخبر، وهذا الاستبعاد في النفوس لا يدل على أن ترك الغيبة ليس بواجب، وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم تزد بذلك عقوبته، فكذلك ضرره في الآخرة من معصيته أكثر من ضرره من معصية غيره، فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر في الطبع، من حيث إنه ترك الأكثر لا من حيث إنه أتى بالأقل، فمن غُصب فرسه ولجام فرسه فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس نفرت عنه الطباع ويرى مسيئاً؛ إذ قد صدر منه طلب اللجام وهو غير منكر، ولكن المنكر تركه لطلب الفرس بطلب اللجام، فاشتد الإنكار عليه لتركه الأهم بما دونه، فكذلك حسبة الفاسق تستبعد من هذا الوجه، وهذا لا يدل على أن حسبته من حيث إنها حسبة مستنكرة.

الثاني: أن الحسبة تارة تكون بالنهي بالوعظ وتارة بالقهر، ولا ينجع وعظ من لا يتعظ أوّلاً، ونحن نقول: من علم أن قوله لا يقبل في الحسبة لعلم الناس بفسقه فليس عليه الحسبة بالوعظ؛ إذ لا فائدة في وعظه؛ فالفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه، ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام، فأما إذا كانت الحسبة بالمنع فالمراد منه القهر، وتمام القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعاً، وإذا كان فاسقاً فإن قهر بالفعل فقد قهر بالحجة؛ إذ يتوجه عليه أن يقال له: فأنت لِمَ تقدم عليه؟ فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهوراً بالحجة، وذلك لا يخرج الفعل عن كونه حقاً كما أن مَن يذب الظالم عن آحاد المسلمين ويهمل أباه وهو مظلوم معهم تنفر الطباع عنه، ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقاً. فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه لأنه لا يتعظ؛ وإذا لم يكن عليه ذلك، وعلم أنه يفضي إلى تطويل اللسان في عرضه بالإنكار فنقول: ليس له ذلك أيضاً. فرجع الكلام إلى أن أحد نوعي الاحتساب ـ وهو الوعظ ـ قد بطل بالفسق وصارت العدالة مشروطة فيه، وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك، فلا حرج على الفاسق في إراقة الخمور وكسر الملاهي وغيرها إذا قدر، وهذا غاية الإنصاف والكشف في المسألة، وأما الآيات التي استدلوا بها فهو إنكار عليهم من حيث تركهم المعروف لا من حيث أمرهم، ولكن أمرهم دل على قوّة علمهم وعقاب العالم أشدّ؛ لأنه لا عذر له مع قوة علمه، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: ٢] المراد به الوعد الكاذب، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٤٤] إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم لا من حيث إنهم أمروا غيرهم، ولكن ذكر أمر الغير استدلالاً به على علمهم وتأكيداً للحجة عليهم. وقوله: «يا ابن مريم، عظ نفسك... الحديث» هو في الحسبة بالوعظ. وقد سلمنا أن وعظ الفاسق ساقط الجدوى عند من يعرف فسقه. ثم قوله: «**فاستحي مني**» لا يدل على تحريم وعظ الغير، بل معناه: استحي مني فلا تترك الأهم وتشتغل بالمهم، كما يقال: احفظ أباك ثم جارك، وإلاّ فاستحي.

فإن قيل: فليجز للكافر الذمي أن يحتسب على المسلم إذا رآه يزني، لأن قوله لا تزن حق في نفسه فمحال أن يكون حراماً عليه، بل ينبغي أن يكون مباحاً أو واجباً.

قلنا: الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه، فيمنع من حيث إنه تسلط وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً. وأما مجرد قوله: «لا تزنِ» فليس بمحرم عليه من حيث إنه نهي عن الزنى، ولكن من حيث إنه إظهار دالة الاحتكام على المسلم، وفيه إذلال للمحتكم عليه، والفاسق يستحق الإذلال ولكن لا من الكافر الذي هو أولى بالذل منه. فهذا وجه منعنا إياه من الحسبة، وإلا فلسنا نقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله: لا تزن، من حيث إنه نهي، بل نقول: إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه إن رأينا خطاب الكافر بفروع الدين، وفيه نظر استوفيناه في الفقهيات ولا يليق بغرضنا الآن.

الشرط الرابع: كونه مأذوناً من جهة الإمام والوالي، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبة، وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عليه عصى؛ إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له. والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم وهو الإمام الحق عندهم. وهؤلاء أخس رتبة من أن يكلموا بل جوابهم أن يقال لهم ـ إذا جاؤوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دمائهم وأموالهم ـ: إن نصرتكم أمر بالمعروف، واستخراج حقوقكم من أيدي من ظلمكم نهي عن المنكر، وطلبكم لحقكم من جملة المعروف، وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق؛ لأن الإمام الحق بعد لم يخرج.

فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقاً، فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من الوالي وصاحب الأمر؟ فنقول: أما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام، والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة، وما فيه من عز السلطنة، والاحتكام لا يحوج إلى تفويض كعز التعليم والتعريف؛ إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدِّم على المنكر بجهله لا يحتاج إلى إذن الوالي، وفيه عز الإرشاد وعلى المعرف ذل التجهيل، وذلك يكفي فيه مجرد الدين وكذلك النهي.

وشرح القول في هذا: أن الحسبة لها خمس مراتب ـ كما سيأتي ـ.

أولها: التعريف.

والثاني: الوعظ بالكلام اللطيف.

والثالث: السب والتعنيف، ولست أعني بالسب الفحش، بل أن يقول: يا جاهل، يا أحمق، ألا تخاف الله، وما يجري هذا المجرى.

والرابع: المنع بالقهر بطريق المباشرة ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، واختطاف الثوب الحرير من لابسه، واستلاب الثوب المغصوب منه، ورده على صاحبه.

والخامس: التخويف والتهديد بالضرب، ومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه كالمواظب على الغيبة والقذف، فإن سلب لسانه غير ممكن، ولكن يحمل على اختيار السكوت بالضرب. وهذا قد يحوج إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين، ويجر ذلك إلى قتال وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة فإن فيها نظراً ـ سيأتي ـ، أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام؟ وأما التجهيل والتحميق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجري مجراه فهو

كلام صدق، والصدق مستحق، بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر[1]، كما ورد في الحديث. فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه؟ وكذلك كسر الملاهي وإراقة الخمور فإنه تعاطى ما يعرف كونه حقاً من غير اجتهاد فلم يفتقر إلى الإمام. وأما جمع الأعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ففيه نظر ـ سيأتي ـ، واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض، بل كل من أمر بمعروف، فإن كان الوالي راضياً به فذاك، وإن كان ساخطاً له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه، فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه، ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة.

كما روي أنّ مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل: إنما الخطبة بعد الصلاة، فقال له مروان: اترك ذلك يا فلان، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه. قال لنا رسول الله ﷺ: **«مَنْ رَأَىٰ مِنكُم مُنْكَراً فَلْيُنْكِرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»**[2]، فلقد كانوا فهموا من هذه العمومات دخول السلاطين تحتها فكيف يحتاج إلى إذنهم؟ وروي أنّ المهدي لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله، فلما أخذ في الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبدالله بن مرزوق فلببه بردائه ثم هزه وقال له: انظر ما تصنع؟ من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البعد، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه؟ وقد قال الله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج: ٢٥] من جعل لك هذا؟ فنظر في وجهه ـ وكان يعرفه لأنه من مواليهم ـ فقال: أعبدالله بن مرزوق؟ قال: نعم، فأخذ فجيء به إلى بغداد، فكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه في العامة، فجعله في اصطبل الدواب ليسوس الدواب وضموا إليه فرساً عضوضاً سيىء الخلق ليعقره الفرس، فليّن الله تعالى له الفرس، قال: ثم صيروه إلى بيت وأغلق عليه، وأخذ المهدي المفتاح عنده، فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل، فأوذن به المهدي فقال له: من أخرجك؟ فقال: الذي حبسني، فضج المهدي وصاح وقال: ما تخاف أن أقتلك؟ فرفع عبدالله إليه رأسه يضحك وهو يقول: لو كنت تملك حياة أو موتاً؟ فما زال محبوساً حتى مات المهدي ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة. قال: وكان قد جعل على نفسه نذراً: إن خلصه الله من أيديهم أن ينحر مائة بدنة، فكان يعمل في ذلك حتى نحرها.

وروي عن حبان بن عبدالله قال: تنزه هارون الرشيد بالدوين ومعه رجل من بني هاشم وهو سليمان بن أبي جعفر فقال له هارون: قد كانت لك جارية تغني فتحسن فجئنا بها، قال: فجاءت فغنت فلم يحمد غناءها، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: ليس هذا عودي، فقال للخادم، جئنا بعودها، قال: فجاء بالعود فوافق شيخاً يلقط النوى فقال: الطريق يا شيخ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض، فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربع فقال: احتفظ بهذا فإنه طلبه أمير المؤمنين، فقال له صاحب الربع: ليس ببغداد أعبد من هذا فكيف يكون طلبه أمير المؤمنين؟ فقال له: اسمع ما أقول لك، ثم دخل على هارون فقال: إني مررت على شيخ يلقط النوى فقلت له: الطريق،

---

(١) حديث: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر**» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) حديث: «**إن مروان خطب قبل الصلاة في العيد...**» الحديث. وفيه حديث أبي سعيد مرفوعاً «**من رأى منكراً...**» الحديث. رواه مسلم.

فرفع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض فكسره، فاستشاط هارون وغضب واحمرّت عيناه، فقال له سليمان بن أبي جعفر: ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين؟ ابعث إلى صاحب الربع يضرب عنقه ويرم به في الدجلة، فقال: لا، ولكن نبعث إليه ونناظره أوّلاً، فجاء الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: نعم، قال: اركب، قال: لا، فجاء يمشي حتى وقف على باب القصر، فقيل لهارون: قد جاء الشيخ، فقال للندماء: أي شيء ترون؟ نرفع ما قدّامنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ، أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر؟ فقالوا له: نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلح، فقاموا إلى مجلس ليس فيه منكر، ثم أمر بالشيخ فأدخل ـ وفي كمه الكيس الذي فيه النوى ـ فقال له الخادم: أخرج هذا من كمك وادخل على أمير المؤمنين، فقال: من هذا عشائي الليلة، قال: نحن نعشيك. قال: لا حاجة لي في عشائكم، فقال هارون للخادم: أي شيء تريد منه؟ قال: في كمه نوى قلت له: اطرحه وادخل على أمير المؤمنين فقال: دعه لا يطرحه، قال: فدخل وسلم وجلس، فقال له هارون: يا شيخ، ما حملك على ما صنعت؟ قال: وأي شيء صنعت؟ وجعل هارون يستحي أن يقول كسرت عودي، فلما أكثر عليه قال: إني سمعت أباك وأجدادك يقرؤون هذه الآية على المنبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] وأنا رأيت منكراً فغيرته، فقال: فغيره. فوالله ما قال إلا هذا، فلما خرج أعطى الخليفة رجلاً بدرة وقال: اتبع الشيخ فإن رأيته يقول: قلت لأمير المؤمنين وقال لي؛ فلا تعطه شيئاً، وإن رأيته لا يكلم أحداً فأعطه البدرة. فلما خرج من القصر إذا هو بنواة في الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحداً فقال له: يقول لك أمير المؤمنين خذ هذه البدرة، فقال: قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها. ويروى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة التي يعالج قلعها من الأرض وهو يقول:

أرى الدُّنيا لمن هي في يديه ... هموماً كلما كَثُرَتْ لديهِ
تهين المُكْرَمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانَتْ عليهِ
إذا استغنيت عن شيءٍ فَدَعْهُ ... وخُذْ مَا أنت مُحتاجٌ إليهِ

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: حج المهدي سنة ست وستين ومائة، فرأيته يرمي جمرة العقبة والناس يخبطون يميناً وشمالاً بالسياط، فوقفت فقلت: يا حسن الوجه، حدّثنا أيمن عن وائل عن قدامة بن عبدالله الكلابي قال: رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة يوم النحر على جمل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك(١)، وها أنت يخبط الناس بين يديك يميناً وشمالاً. فقال لرجل: من هذا؟ قال: سفيان الثوري. فقال: يا سفيان ،لو كان المنصور ما احتملك على هذا؟ فقال: لو أخبرك المنصور ما لقي لقصرت عما أنت فيه. قال: فقيل له: إنه قال: لك يا حسن الوجه، ولم يقل لك: يا أمير المؤمنين فقال: اطلبوه فطلب سفيان فاختفى. وقد روي عن المأمون أنه بلغه أنّ رجلاً محتسباً يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ولم يكن مأموراً من عنده بذلك، فأمر بأن يدل عليه، فلما

---

(١) حديث قدامة بن عبدالله: «رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة يوم النحر على جمل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه، وأما قوله في أوله: إن الثوري قال: حج المهدي سنة ست وستين. فليس بصحيح فإن الثوري توفي سنة إحدى وستين.

صار بين يديه قال له: إنني بلغني أنك رأيت نفسك أهلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن نأمرك وكان المأمون جالساً على كرسي ينظر في كتاب أو قصة فأغفله فوقع منه فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به ـ فقال له المحتسب: ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ما شئت. فلم يفهم المأمون مراده فقال: ماذا تقول؟ ـ حتى أعاده ثلاثاً فلم يفهم ـ فقال: إما رفعت أو أذنت لي حتى أرفع. فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبّله وخجل. ثم عاد وقال: لِمَ تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا ـ أهل البيت ـ ونحن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤١] فقال: صدقت يا أمير المؤمنين أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكن غير أنّا أعوانك وأولياؤك فيه، ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [التوبة: ٧١] الآية، وقال رسول الله ﷺ: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**»(١)، وقد مكنت في الأرض وهذا كتاب الله وسنة رسوله، فإن انقدت لهما شكرت لمن أعانك لحرمتهما، وإن استكبرت عنهما ولم تَنْقَدْ لما لزمك منهما فإنّ الذي إليه أمرك، وبيده عزك، وذلك قد شرط أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً فقل الآن ما شئت؛ فأعجب المأمون بكلامه وسرَّ به وقال: مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف، فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا. فاستمرّ الرجل على ذلك. ففي سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإذن.

فإن قيل: أفتثبت ولاية الحسبة للولد على الوالد، والعبد على المولى، والزوجة على الزوج، والتلميذ على الأستاذ، والرعية على الوالي مطلقاً، كما يثبت للوالد على الولد، والسيد على العبد، والزوج على الزوجة، والأستاذ على التلميذ، والسلطان على الرعية، أو بينهما فرق؟ فاعلم: أن الذي نراه: أنه يثبت أصل الولاية ولكن بينهما فرق في التفصيل. ولنفرض ذلك في الولد مع الوالد فنقول: قد رتبنا للحسبة خمس مراتب، وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين وهما: التعريف ثم الوعظ والنصح باللطف. وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد ولا بمباشرة الضرب وهما الرتبتان الأخيرتان، وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدي إلى أذى الوالد وسخطه؟ هذا فيه نظر، وهو بأن يكسر مثلاً عوده ويريق خمره ويحل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير، ويرد إلى الملاك ما يجده في بيته من المال الحرام الذي غصبه أو سرقه أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين ـ إذا كان صاحبه معيناً ـ، ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه والمنقورة في خشب بيته، ويكسر أواني الذهب والفضة؛ فإن فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب بخلاف الضرب والسب، ولكن الوالد يتأذى به ويسخطه بسببه، إلا أن فعل الولد حق، وسخط الأب منشؤه حبه للباطل وللحرام، والأظهر في القياس: أنه يثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك، ولا يبعد أن ينظر فيه إلى قبح المنكر وإلى مقدار الأذى والسخط. فإن كان المنكر فاحشاً وسخطه عليه قريباً كإراقة خمر من لا يشتد غضبه فذلك ظاهر، وإن كان المنكر قريباً والسخط شديداً كما لو كانت له آنية من بلور أو زجاج على صور حيوان وفي كسرها خسران مال كثير، فهذا مما يشتد فيه الغضب، وليس تجري هذه المعصية مجرى الخمر وغيره، فهذا كله مجال النظر.

---

(١) حديث: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**» متفق عليه من حديث أبي موسى، وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

فإن قيل: ومن أين قلتم: ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل، والأمر بالمعروف في الكتاب والسنة ورد عاماً من غير تخصيص؟ وأما النهي عن التأفيف والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات؟ فنقول: قد ورد في حق الأب على الخصوص ما يوجب الاستثناء من العموم؛ إذ لا خلاف في أن الجلاد ليس له أن يقتل أباه في الزنا حداً، ولا له أن يباشر إقامة الحد عليه، بل لا يباشر قتل أبيه الكافر، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص، ولم يكن له أن يؤذيه في مقابلته.

وقد ورد في ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع[1] فإذا لم يجز له إيذاؤه بعقوبة هي حق على جناية سابقة فلا يجوز له إيذاؤه بعقوبة هي منع عن جناية مستقبلة متوقعة بل أولى. وهذا الترتيب أيضاً ينبغي أن يجري في العبد والزوجة مع السيد والزوج، فهما قريبان من الولد في لزوم الحق وإن كان ملك اليمين آكد من ملك النكاح. ولكن في الخبر أنه: «**لَوْ جَازَ السُّجُودُ لِمَخْلُوقٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**»[2]، وهذا يدل على تأكيد الحق أيضاً. وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد، فليس لها معه إلا التعريف والنصح، فأما الرتبة الثالثة ففيها نظر من حيث إن الهجوم على أخذ الأموال من خزانته وردها إلى الملاك، وعلى تحليل الخيوط من ثيابه الحرير وكسر آنية الخمور في بيته يكاد يفضي إلى خرق هيبته وإسقاط حشمته، وذلك محظور ورد النهي عنه، كما ورد النهي عن السكوت على المنكر[3]، فقد تعارض فيه أيضاً محذوران والأمر فيه موكول إلى اجتهاد منشؤه النظر في تفاحش المنكر ومقدار ما يسقط من حشمته بسبب الهجوم عليه وذلك مما لا يمكن ضبطه. وأما التلميذ والأستاذ فالأمر فيما بينهما أخف؛ لأن المحترم هو الأستاذ المفيد للعلم من حيث الدين، ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه. وروي أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده؟ فقال: يعظه ما لم يغضب، فإن غضب سكت عنه.

الشرط الخامس: كونه قادراً: ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسبة إلا بقلبه إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: جاهدوا الكفار بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فافعلوا.

واعلم: أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهاً يناله، فذلك في معنى العجز، وكذلك إذا لم يخف مكروهاً ولكن علم أن إنكاره لا ينفع فليلتفت إلى معنيين؛

---

(١) الأخبار الواردة في أن الجلاد ليس له أن يجلد أباه في الزنى ولا أن يباشر إقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر وأنه لو قطع يده لم يلزم القصاص، ثم قال: وثبت بعضها بالإجماع.
قلت: لم أجد فيه إلا حديث: «**لا يقاد الوالد بالولد**» رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر. قال الترمذي: فيه اضطراب.

(٢) حديث: «**لو جاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» تقدم في النكاح.

(٣) حديث: النهي عن الإنكار على السلطان جهرة بحيث يؤدي إلى خرق هيبته. أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث عياض بن غنم الأشعري: «**من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذه بيده فليخل به فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذي عليه والذي له**». قال: صحيح الإسناد وللترمذي وحسنه من حديث أبي بكرة: «**من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله في الأرض**».

أحدهما: عدم إفادة الإنكار امتناعاً، والآخر: خوف مكروه. ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال:

إحداها: أن يجتمع المعنيان؛ بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه، ويُضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسبة، بل ربما تحرم في بعض المواضع. نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر ويعتزل في بيته حتى لا يشاهد ولا يخرج إلا لحاجة مهمة أو واجب، ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة إلا إذا كان يرهق إلى الفساد، أو يحمل على مساعدة السلاطين في الظلم والمنكرات؛ فيلزمه الهجرة إن قدر عليها، فإن الإكراه لا يكون عذراً في حق من يقدر على الهرب من الإكراه.

الحالة الثانية: أن ينتفي المعنيان جميعاً؛ بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه، فيجب عليه الإنكار وهذه هي القدرة المطلقة.

الحالة الثالثة: أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره لكنه لا يخاف مكروهاً، فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين.

الحالة الرابعة: ـ عكس هذه ـ وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرمي زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها، ويريق الخمر، أو يضرب العود الذي في يده ضربة مختطفة فيكسره في الحال، ويتعطل عليه هذا المنكر؛ ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب. ويدل عليه الخبر الذي أوردناه في فصل: «كلمة حق عند إمام جائر» ولا شك في أن ذلك مظنة الخوف. ويدل عليه أيضاً ما روي عن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه قال: سمعت من بعض الخلفاء كلاماً فأردت أن أنكر عليه وعلمت أني أقتل، ولم يمنعني القتل ولكن كان في ملأ من الناس فخشيت أن يعتريني التزين للخلق فأقتل من غير إخلاص في الفعل.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]؟ قلنا: لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على وصف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية وليس كذلك، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس التهلكة ذلك، بل ترك النفقة في طاعة الله تعالى؛ أي من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه. وقال البراء بن عازب: التهلكة هو أن يذنب الذنب ثم يقول لا يتاب عليّ. وقال أبو عبيدة: هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيراً حتى يهلك. وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز أيضاً له ذلك في الحسبة، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف أو العاجز؛ فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة. وإنما جاز له الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل، أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم جراءته واعتقادهم في سائر المسلمين قلة المبالاة وحبهم للشهادة في سبيل الله فتنكسر بذلك شوكتهم؛ فكذلك يجوز للمحتسب بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب وللقتل إذا كان لحسبته تأثير في رفع المنكر أو في كسر جاه الفاسق أو في تقوية قلوب أهل الدين، وأما إن رأى فاسقاً متغلباً وعنده سيف وبيده قدح، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح وضرب رقبته فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك. فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثراً ويفديه بنفسه.

فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له، بل ينبغي أن يكون حراماً. وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه. فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه فلا تجوز له الحسبة بل تحرم؛ لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضي ذلك إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء. بل لو علم أنه لو احتسب

لبطل ذلك المنكر، ولكن كان ذلك سبباً لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الإنكار على الأظهر، لأن المقصود عدم مناكير الشرع مطلقاً، لا من زيد أو عمرو، وذلك بأن يكون مثلاً مع الإنسان شراب حلال ـ نجس بسبب وقوع نجاسة فيه ـ وعلم أنه لو أراقه لشرب صاحبه الخمر أو تشرب أولاده الخمر، لإعوازهم الشراب الحلال فلا معنى لإراقة ذلك. ويحتمل أن يقال: إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلاً لمنكر. وأما شرب الخمر فهو الملوم فيه والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون، وليس ببعيد؛ فإن هذه مسائل فقهية لا يمكن فيها الحكم إلا بظن، ولا يبعد أن يفرق بين درجات المنكر المغير والمنكر الذي تفضي إليه الحسبة والتغيير، فإنه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها وعلم أنه لو منعه من ذلك لذبح إنساناً وأكله فلا معنى لهذه الحسبة. نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طرفه يحمله على أخذ ماله فذلك له وجه. فهذه دقائق واقعة في محل الاجتهاد وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله ولهذه الدقائق نقول: العامي ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة، فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد، فالعامي إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، وعن هذا يتأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالي؛ إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلاً لها لقصور معرفته أو قصور ديانته فيؤدي ذلك إلى وجوه من الخلل، وسيأتي كشف الغطاء عن ذلك إن شاء الله.

فإن قيل: وحيث أطلقتم العلم بأن يصيبه مكروه أو أنه لا تفيد حسبته، فلو كان بدل العلم ظن فما حكمه؟ قلنا: الظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم؛ إذ يرجح العلم اليقيني على الظن ويفرق بين العلم والظن في موضع آخر، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعاً أنه لا يفيد، فإن كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد وهو مع ذلك لا يتوقع مكروهاً فقد اختلفوا في وجوبه، والأظهر وجوبه إذ لا ضرر فيه وجدواه متوقعة، وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي الوجوب بكل حال ونحن إنما نستثني عنه بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه إما بالإجماع أو بقياس ظاهر، وهو أن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور، فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه، فأما إذا لم يكن يأس فينبغي أن لا يسقط الوجوب.

فإن قيل: فالمكروه الذي تتوقع إصابته إن لم يكن متيقناً ولا معلوماً بغالب الظن، ولكن كان مشكوكاً فيه، أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه ولكن احتمل أن يصاب بمكروه، فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه، أم يجب في كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه؟ قلنا: إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب، وإن غلب أنه لا يصاب وجب، ومجرد التجويز لا يسقط الوجوب، فإن ذلك ممكن في كل حسبة، وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر، فيحتمل أن يقال: الأصل الوجوب بحكم العمومات وإنما يسقط بمكروه، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقعاً، وهذا هو الأظهر. ويحتمل أن يقال: إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه أو ظن أنه لا ضرر عليه، والأوّل أصح؛ نظراً إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف.

فإن قيل: فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجراءة، فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريباً حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه، والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه، فعلى ماذا التعويل؟ قلنا: التعويل على اعتدال الطبع وسلامة

العقل والمزاج، فإن الجبن مرض، وهو ضعف في القلب سببه قصور في القوة وتفريط، والتهور إفراط في القوّة وخروج عن الاعتدال بالزيادة وكلاهما نقصان، وإنما الكمال في الاعتدال الذي يعبر عنه بالشجاعة. وكل واحد من الجبن والتهور يصدر تارة عن نقصان العقل. وتارة عن خلل في المزاج بتفريط أو إفراط، فإن من اعتدل مزاجه في صفة الجبن والجراءة فقد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جراءته جهله، وقد لا يتفطن لمدارك دفع الشر فيكون سبب جبنه جهله، وقد يكون عالماً بحكم التجربة والممارسة بمداخل الشر ودوافعه، ولكن يعمل الشر البعيد في تخذيله وتحليل قوّته في الإقدام بسبب ضعف قلبه ما يفعله الشر القريب في حق الشجاع المعتدل الطبع، فلا التفات إلى الطرفين. وعلى الجبان أن يتكلف إزالة الجبن بإزالة علته، وعلته جهل أو ضعف، ويزول الجهل بالتجربة، ويزول الضعف بممارسة الفعل المخفوف منه تكلفاً حتى يصير معتاداً؛ إذ المبتدىء في المناظرة والوعظ مثلاً قد يجبن عنه طبعه لضعفه، فإذا مارس واعتاد فارقه الضعف، فإن صار ذلك ضرورياً غير قابل للزوال بحكم استيلاء الضعف على القلب، فحكم ذلك الضعيف يتبع حاله، فيعذر كما يعذر المريض في التقاعد عن بعض الواجبات، ولذلك قد نقول على رأي: لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الإسلام على من يغلب عليه الجبن في ركوب البحر، ويجب على من لا يعظم خوفه منه، فكذلك الأمر في وجوب الحسبة.

فإن قيل: فالمكروه المتوقع ما حدّه؟ فإن الإنسان قد يكره كلمة، وقد يكره ضربة، وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا يتوقع منه نوع من الأذى، وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان، أو يقدح فيه في مجلس يتضرر بقدحه فيه، فما حد المكروه الذي يسقط الوجوب به؟ قلنا: هذا أيضاً فيه نظر غامض وصورته منتشرة ومجاريه كثيرة، ولكنا نجتهد في ضم نشره وحصر أقسامه.

فنقول: المكروه نقيض المطلوب ومطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور: أما في النفس فالعلم. وأما في البدن فالصحة والسلامة. وأما في المال فالثروة. وأما في قلوب الناس فقيام الجاه؛ فإذاً: المطلوب العلم والصحة والثروة والجاه. ومعنى الجاه ملك قلوب الناس، كما أن معنى الثروة ملك الدراهم؛ لأن قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض، كما أن ملك الدراهم وسيلة إلى بلوغ الأغراض - وسيأتي تحقيق معنى الجاه وسبب ميل الطبع إليه في ربع المهلكات - وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به. ويكره في هذه الأربعة أمران: أحدهما: زوال ما هو حاصل موجود. والآخر: امتناع ما هو منتظر مفقود - أعني اندفاع ما يتوقع وجوده - فلا ضرر إلا في فوات حاصل وزواله، أو تعويق منتظر، فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله، والممكن حصوله كأنه حاصل، وفوات إمكانه كأنه فوات حصوله، فرجع المكروه إلى قسمين:

أحدهما: خوف امتناع المنتظر؛ وهذا لا ينبغي أن يكون مرخصاً في ترك الأمر بالمعروف أصلاً.

ولنذكر مثاله في المطالب الأربعة، أما العلم: فمثاله: تركه الحسبة على من يختص بأستاذه خوفاً من أن يقبح حاله عنده فيمتنع من تعليمه. وأما الصحة: فتركه الإنكار على الطبيب الذي يدخل عليه مثلاً وهو لابس حريراً خوفاً من أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المنتظرة. وأما المال: فتركه الحسبة على السلطان وأصحابه وعلى من يواسيه من ماله؛ خيفة من أن يقطع إدراره في المستقبل ويترك مواساته. وأما الجاه: فتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة وجاهاً في المستقبل؛ خيفة من أن لا يحصل له الجاه؛ أو خيفة من أن يقبح حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية.

وهذا كله لا يسقط وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت، وتسمية امتناع حصول الزيادات ضرراً مجاز. وإنما الضرر الحقيقي فوات حاصل ولا يستثنى من هذا شيء إلا ما تدعو إليه الحاجة ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر، كما إذا كان محتاجاً إلى الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب، ويعلم أن في تأخره شدة الضنا به وطول المرض وقد يفضي إلى الموت. وأعني بالعلم: الظن الذي يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم، فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص في ترك الحسبة. وأما في العلم: فمثل أن يكون جاهلاً بمهمات دينه ولم يجد إلا معلماً واحداً، ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره، وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه لكون العالم مطيعاً له أو مستمعاً لقوله، فإذاً: الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على المنكر محذور، ولا يبعد أن يرجح أحدهما، ويختلف ذلك بتفاحش المنكر وبشدة الحاجة إلى العلم لتعلقه بمهمات الدين. وأما في المال: فكمن يعجز عن الكسب والسؤال وليس هو قوي النفس في التوكل، ولا منفق عليه سوى شخص واحد، ولو احتسب عليه قطع رزقه وافتقر في تحصيله إلى طلب إدرار حرام أو مات جوعاً، فهذا أيضاً إذا اشتد الأمر فيه لم يبعد أن يرخص له في السكوت. وأما الجاه: فهو أن يؤذيه شرير ولا يجد سبيلاً إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان، ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص يلبس الحرير أو يشرب الخمر، ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ووسيلة له فيمتنع عليه حصول الجاه ويدوم بسببه أذى الشرير.

فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يبعد استثناؤها، ولكن الأمر فيها منوط باجتهاد المحتسب حتى يستفتي فيها قلبه، ويزن أحد المحذورين بالآخر، ويرجح بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع، فإن رجح بموجب الدين سمي سكوته مداراة، وإن رجح بموجب الهوى سمي سكوته مداهنة. وهذا أمر باطن لا يطلع عليه إلا بنظر دقيق، ولكن الناقد بصير، فحق على كل متدين فيه أن يراقب قلبه ويعلم أن الله مطلع على باعثه، وصارفه أنه الدين أو الهوى، وستجد كل نفس ما عملت من سوء أو خير محضراً عند الله ولو في فلتة خاطر أو فلتة ناظر من غير ظلم وجور، فما الله بظلاّم للعبيد.

وأما القسم الثاني: وهو فوات الحاصل: فهو مكروه ومعتبر في جواز السكوت في الأمور الأربعة إلا العلم، فإن فواته غير مخوف إلا بتقصير منه، وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره، وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال، وهذا أحد أسباب شرف العلم فإنه يدوم في الدنيا ويدوم ثوابه في الآخرة فلا انقطاع له أبد الآباد. وأما الصحة والسلامة: ففواتهما بالضرب، فكل من علم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به في الحسبة لم تلزمه الحسبة وإن كان يستحب له ذلك ـ كما سبق ـ، وإذا فهم هذا في الإيلام بالضرب فهو في الجرح والقطع والقتل أظهر. وأما الثروة: فهو بأن يعلم أنه تنهب داره ويخرب بيته وتسلب ثيابه، فهذا أيضاً يسقط عنه الوجوب ويبقى الاستحباب إذ لا بأس بأن يفدي دينه بدنياه. ولكل واحد من الضرب والنهب حد في القلة لا يكترث به كالحبة في المال واللطمة الخفيف ألمها في الضرب، وحد في الكثرة يتعين اعتباره ووسط يقع في محل الاشتباه والاجتهاد، وعلى المتدين أن يجتهد في ذلك ويرجح جانب الدين ما أمكن. وأما الجاه: ففواته بأن يضرب ضرباً غير مؤلم أو بسبب على ملأ من الناس، أو يطرح منديله في رقبته ويدار به في البلد أو يسود وجهه ويطاف به، وكل ذلك من غير ضرب مؤلم للبدن وهو قادح في الجاه ومؤلم للقلب. وهذا له درجات، فالصواب: أن يقسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة؛ كالطواف به في البلد حاسراً حافياً فهذا يرخص له في السكوت،

لأن المروءة مأمور بحفظها في الشرع، وهذا مؤلم للقلب ألماً يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات دريهمات قليلة فهذه درجة.

الثانية: ما يعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة، فإن الخروج في ثياب فاخرة تجمل، وكذلك الركوب للخيول. فلو علم أنه لو احتسب لكلف المشي في السوق في ثياب لا يعتاد هو مثلها. أو كلف المشي راجلاً وعادته الركوب، فهذا من جملة المزايا. وليست المواظبة على حفظها محمودة. وحفظ المروءة محمود فلا ينبغي أن يسقط وجوب الحسبة بمثل هذا القدر. وفي معنى هذا ما لو خاف أن يتعرض له باللسان إما في حضرته بالتجهيل والتحميق والنسبة إلى الرياء والبهتان. وإما في غيبته بأنواع الغيبة فهذا لا يسقط الوجوب، إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التي ليس إليها كبير حاجة. ولو تركت الحسبة بلوم لائم أو باغتياب فاسق أو شتمه وتعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلاً؛ إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان المنكر هو الغيبة، وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن المغتاب ولكن أضافه إليه وأدخله معه في الغيبة فتحرم هذه الحسبة لأنها سبب زيادة المعصية، وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا تجب عليه الحسبة لأن غيبته أيضاً معصية في حق المغتاب، ولكن يستحب له ذلك ليفدي عرض المذكور بعرض نفسه على سبيل الإيثار. وقد دلت العمومات على تأكد وجوب الحسبة وعظم الخطر في السكوت عنها فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره، والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها، فأما مزايا الجاه والحشمة ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له. وأما امتناعه لخوف شيء من هذه المكاره في حق أولاده وأقاربه فهو في حقه دونه؛ لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره، ومن وجه الدين هو فوقه لأن له أن يسامح في حقوق نفسه وليس له المسامحة في حق غيره. فإذاً: ينبغي أن يمتنع فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية كالضرب والنهب فليس له هذه الحسبة؛ لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر، وإن كان يفوت لا بطريق المعصية فهو إيذاء للمسلم أيضاً وليس له ذلك إلا برضاهم. فإذا كان يؤدي ذلك إلى أذى قومه فليتركه وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان، ولكنه يقصد أقاربه انتقاماً منه بواسطته، فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها، فإن إيذاء المسلمين محذور، كما أن السكوت على المنكر محذور. نعم إن كان لا ينالهم أذى في مال أو نفس ولكن ينالهم الأذى بالشتم والسب فهذا فيه نظر، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها ودرجات الكلام المحذور في نكايته في القلب وقدحه في العرض.

فإن قيل: فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه وكان لا يمتنع عنه إلا بقتال ربما يؤدي إلى قتله فهل يقاتل عليه؟ فإن قلتم: يقاتل، فهو محال لأنه إهلاك نفس خوفاً من إهلاك طرف وفي إهلاك النفس إهلاك الطرف أيضاً، قلنا: يمنعه عنه ويقاتله؛ إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه، بل الغرض حسم سبيل المنكر والمعصية، وقتله في الحسبة ليس بمعصية وقطع طرف نفسه معصية. وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتي على قتله فإنه جائز، لا على معنى أنا نفدي درهماً من مال مسلم بروح مسلم فإن ذلك محال، ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية وقتله في الدفع عن المعصية ليس بمعصية وإنما المقصود دفع المعاصي.

فإن قيل: فلو علمنا أنه لو خلا بنفسه لقطع طرف نفسه فينبغي أن نقتله في الحال حسماً لباب

المعصية؟ قلنا: ذلك لا يعلم يقيناً ولا يجوز سفك دمه بتوهم معصية، ولكنا إذا رأيناه في حال مباشرة القطع دفعناه، فإن قاتلنا قاتلناه ولم نبال بما يأتي على روحه.

فإذاً: المعصية لها ثلاث أحوال:

إحداها: أن تكون متصرمة: فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاة لا إلى الآحاد.

الثانية: أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها؛ كلبسه الحرير وإمساكه العود والخمر، فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن ما لم تؤدِّ إلى معصية أفحش منها أو مثلها، وذلك يثبت للآحاد والرعية.

الثالثة: أن يكون المنكر متوقعاً كالذي يستعد بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعده لم يحضر الخمر؛ فهذا مشكوك فيه، إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح، فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة، وقد أقدم على السبب المؤدي إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار، وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر إليهن عند الدخول والخروج، فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته فتجوز الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف في نفسه معصية، وإن كان مقصد العاصي وراءه كما أنّ الخلوة بالأجنبية في نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية، وتحصيل مظنة المعصية معصية. ونعني بالمظنة ما يتعرّض الإنسان به لوقوع المعصية غالباً بحيث لا يقدر على الانكفاف عنها، فإذاً: هو على التحقيق حسبة على معصية راهنة لا على معصية منتظرة.

الركن الثاني: للحسبة ما فيه الحسبة:

وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد، فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها:

الأول: كونه منكراً: ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا؛ لأن المنكر أعم من المعصية؛ إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذا إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه. وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس، بل لو صادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون؛ إذ معصية لا عاصي بها محال، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية، وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة فلا تختص الحسبة بالكبائر، بل كشف العورة في الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبيات كل ذلك من الصغائر ويجب النهي عنها، وفي الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظر سيأتي في كتاب التوبة.

الشرط الثاني: أن يكون موجوداً في الحال: وهو احتراز أيضاً عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب في ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ، وإن أنكر عزمه عليه لم يجز وعظه أيضاً؛ فإن فيه إساءة ظن بالمسلم وربما صدق في قوله، وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق. وليتنبه

للدقيقة التي ذكرناها وهو: أن الخلوة بالأجنبية معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء وما يجري مجراه.

الشرط الثالث: أن يكون المنكر ظاهراً للمحتسب بغير تجسس: فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه، وقد نهى الله تعالى عنه. وقصة عمر وعبدالرحمن بن عوف فيه مشهورة ـ وقد أوردناها في كتاب آداب الصحبة ـ وكذلك ما روي أن عمر رضي الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه. فقال: وما هي؟ فقال: قد قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحُجرَات: ١٢] وقد تجسست. وقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البَقَرَة: ١٨٩] وقد تسورت من السطح وقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النُّور: ٢٧] وما سلمت. فتركه عمر وشرط عليه التوبة. ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكراً فهل له إقامة الحدّ فيه؟ فأشار علي رضي الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفي فيه واحد. وقد أوردنا هذه الأخبار في بيان حق المسلم من كتاب آداب الصحبة فلا نعيدها.

فإن قلت: فما حدّ الظهور والاستتار؟ فاعلم: أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لنعرف المعصية، إلا أن يظهر في الدار ظهوراً يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار. فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاهي وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم بحيث يسمعها أهل الشوارع فهذا إظهار موجب للحسبة. فإذن إنما يدرك مع تخلل الحيطان صوت أو رائحة، فإذا فاحت روائح الخمر فإن احتمل أن يكون ذلك من الخمور المحترمة فلا يجوز قصدها بالإراقة، وإن علم بقرينة الحال أنها فاحت لتعاطيهم الشرب فهذا محتمل، والظاهر جواز الحسبة. وقد تستر قارورة الخمر في الكم وتحت الذيل وكذلك الملاهي، فإذا رئي فاسق وتحت ذيله شيء لم يجز أن يكشف عنه ما لم يظهر بعلامة خاصة. فإن فسقه لا يدل على أن الذي معه خمر؛ إذ الفاسق محتاج أيضاً إلى الخل وغيره. فلا يجوز أن يستدل بإخفائه، وأنه لو كان حلالاً لما أخفاه لأن الأغراض في الإخفاء مما تكثر. وإن كانت الرائحة فائحة فهذا محل النظر، والظاهر أن له الاحتساب؛ لأن هذه علامة تفيد الظن والظن كالعلم في أمثال هذه الأمور. وكذلك العود ربما يعرف بشكله إذا كان الثوب الساتر له رقيقاً، فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت وما ظهرت دلالته فهو غير مستور بل هو مكشوف، وقد أمرنا بأن نستر ما ستر الله وننكر على من أبدى لنا صفحته، والإبداء له درجات: فتارة يبدو لنا بحاسة السمع، وتارة بحاسة الشم، وتارة بحاسة البصر، وتارة بحاسة اللمس، ولا يمكن أن يخصص ذلك بحاسة البصر بل المراد العلم. وهذه الحواس أيضاً تفيد العلم. فإذن: إنما يجوز أن يكسر ما تحت الثوب إذا علم أنه خمر، وليس له أن يقول: أرني لأعلم ما فيه؛ فإنّ هذا تجسس. ومعنى التجسس طلب الأمارات المعرفة، فالأمارة المعرفة إن حصلت وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها، فأما طلب الأمارة المعرفة فلا رخصة فيه أصلاً.

الشرط الرابع: أن يكون كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد: فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر، وتناوله ميراث ذوي الأرحام، وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار، إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد. نعم لو رأى الشافعي شافعياً يشرب النبيذ وينكح بلا ولي

ويطأ زوجته فهذا في محل النظر، والأظهر أن له الحسبة والإنكار؛ إذ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أن المجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتهاد غيره، ولا أن الذي أدى اجتهاده في التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فينتقد من المذاهب أطيبها عنده، بل على كل مقلد اتباع مقلَّده في كل تفصيل، فإذن: مخالفته للمقلد متفق على كونه منكراً بين المحصلين وهو عاصٍ بالمخالفة، إلا أنه يلزم من هذا أمر أغمض منه؛ وهو أنه يجوز للحنفي أن يعترض على الشافعي إذا نكح بغير ولي بأن يقول له: الفعل في نفسه حق ولكن لا في حقك، فأنت مبطل بالإقدام عليه مع اعتقادك أن الصواب مذهب الشافعي، ومخالفة ما هو صواب عندك معصية في حقك وإن كانت صواباً عند الله.

وكذلك الشافعي يحتسب على الحنفي إذا شاركه في أكل الضب ومتروك التسمية وغيره ويقول له: إما أن تعتقد أن الشافعي أولى بالاتباع ثم تقدم عليه، أو لا تعتقد ذلك فلا تقدم عليه؛ لأنه على خلاف معتقدك. ثم ينجر هذا إلى أمر آخر من المحسوسات وهو أن يجامع الأصم مثلاً امرأة على قصد الزنى وعلم المحتسب أن هذه امرأته زوّجه أبوه إياها في صغره، ولكنه ليس يدري وعجز عن تعريفه ذلك لصممه أو لكونه غير عارف بلغته، فهو في الإقدام مع اعتقاده أنها أجنبية عاص ومعاقب عليه في الدار الآخرة. فينبغي أن يمنعها عنه مع أنها زوجته وهو بعيد من حيث إنه حلال في علم الله، قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلطه وجهله. ولا شك في أنه لو علق طلاق زوجته على صفة في قلب المحتسب مثلاً من مشيئة أو غضب أو غيره وقد وجدت الصفة في قلبه وعجز عن تعريف الزوجين ذلك، ولكن علم وقوع الطلاق في الباطن، فإذا رآه يجامعها فعليه المنع ـ أعني باللسان ـ؛ لأن ذلك زنى، إلا أن الزاني غير عالم به والمحتسب عالم بأنها طلقت منه ثلاثاً، وكونهما غير عاصيين لجهلهما بوجود الصفة لا يخرج الفعل عن كونه منكراً ولا يتقاعد ذلك عن زنا المجنون، وقد بينا أنه يمنع منه، فإذا كان يمنع مما هو منكر عند الله وإن لم يكن منكراً عند الفاعل ولا هو عاص به لعذر الجهل، فيلزم من عكس هذا أن يقال: ما ليس بمنكر عند الله إنما هو منكر عند الفاعل لجهله لا يمنع منه. وهذا هو الأظهر والعلم عند الله.

فتحصل من هذا: أن الحنفي لا يعترض على الشافعي في النكاح بلا ولي، وأن الشافعي يعترض على الشافعي فيه؛ لكون المعترض عليه منكراً باتفاق المحتسب والمحتسب عليه. وهذه مسائل فقهية دقيقة والاحتمالات فيها متعارضة، وإنما أفتينا فيها بحسب ما ترجح عندنا في الحال. ولسنا نقطع بخطأ ترجيح المخالف فيها إن رأى أنه لا يجري الاحتساب إلا في معلوم على القطع، وقد ذهب إليه ذاهبون وقالوا: لا حسبة إلا في مثل الخمر والخنزير وما يقطع بكونه حراماً، ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر في حق المجتهد؛ إذ يبعد غاية البعد أن يجتهد في القبلة ويعترف بظهور القبلة عنده في جهة بالدلالات الظنية ثم يستدبرها، ولا يمنع منه لأجل ظن غيره لأن الاستدبار هو الصواب. ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلد أن يختار من المذاهب ما أراد غير معتد به، ولعله لا يصح ذهاب ذاهب إليه أصلاً. فهذا مذهب لا يثبت، وإن ثبت فلا يعتدّ به.

فإن قلت: إذا كان لا يعترض على الحنفي في النكاح بلا ولي لأنه يرى أنه حق، فينبغي أن لا يعترض على المعتزلي في قوله: إن الله لا يُرى؟ وقوله: وإن الخير من الله والشر ليس من الله؟ وقوله: كلام الله مخلوق؟ ولا على الحشوي في قوله: إن الله تعالى جسم وله صورة، وإنه مستقر على العرش؟ بل لا ينبغي أن يعترض على الفلسفي في قوله: الأجساد لا تبعث وإنما تبعث النفوس؛ لأن هؤلاء أيضاً أدى اجتهادهم إلى ما قالوه، وهم يظنون أن ذلك هو الحق.

فإن قلت: بطلان مذهب هؤلاء ظاهر، فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضاً ظاهر، وكما ثبت بظواهر النصوص أن الله تعالى يُرى والمعتزلي ينكرها بالتأويل، فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفي كمسألة النكاح بلا ولي، ومسألة شفعة الجوار ونظائرهما؟. فاعلم: أن المسائل تنقسم إلى ما يتصوّر أن يقال فيه: كل مجتهد مصيب. وهي أحكام الأفعال في الحل والحرمة، وذلك هو الذي لا يعترض على المجتهدين فيه، إذ لم يعلم خطؤهم قطعاً بل ظناً، وإلى ما لا يتصوّر أن يكون المصيب فيه إلا واحداً كمسألة الرؤية والقدر وقدم الكلام ونفي الصورة والجسمية والاستقرار عن الله تعالى، فهذا مما يعلم خطأ المخطىء فيه قطعاً ولا يبقى لخطئه الذي هو جهل محض وجه. فإذن: البدع كلها ينبغي أن تحسم أبوابها وتنكر على المبتدعين بدعهم وإن اعتقدوا أنها الحق، كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق؛ لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ في مظانّ الاجتهاد.

فإن قلت: فمهما اعترضت على القدري في قوله: الشر ليس من الله، اعترض عليك القدري أيضاً في قولك: الشر من الله، وكذلك في قولك: إنّ الله يُرى، وفي سائر المسائل؛ إذ المبتدع محق عند نفسه، والمحق مبتدع عند المبتدع، وكلٌ يدعي أنه محق وينكر كونه مبتدعاً. فكيف يتم الاحتساب؟ فاعلم: أنّا لأجل هذا التعارض نقول: ينظر إلى البلدة التي فيها أظهرت تلك البدعة؛ فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنّة فلهم الحسبة عليه بغير إذن السلطان، وإن انقسم أهل البلد إلى أهل البدعة وأهل السنة وكان في الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة فليس للآحاد الحسبة في المذاهب إلا بنصب السلطان. فإذا رأى السلطان الرأي الحق ونصره وأذن لواحد أن يزجر المبتدعة عن إظهار البدعة كان له ذلك وليس لغيره؛ فإن ما يكون بإذن السلطان لا يتقابل، وما يكون من جهة الآحاد فيتقابل الأمر فيه. وعلى الجملة: فالحسبة في البدعة أهم من الحسبة في كل المنكرات، ولكن ينبغي أن يراعى فيها هذا التفصيل الذي ذكرناه؛ كيلا يتقابل الأمر ولا ينجر إلى تحريك الفتنة. بل لو أذن السلطان مطلقاً في منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق، أو أن الله لا يرى، أو أنه مستقرّ على العرش مماس له، أو غير ذلك من البدع لتسلط الآحاد على المنع منه ولم يتقابل الأمر فيه، وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط.

الركن الثالث: المحتسب عليه:

وشرطه: أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكراً، وأقل ما يكفي في ذلك أن يكون إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً؛ إذ بيّنا أن الصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ، ولا يشترط كونه مميزاً؛ إذ بينا أن المجنون لو كان يزني بمجنونة أو يأتي بهيمة لوجب منعه منه. نعم، من الأفعال ما لا يكون منكراً في حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره. ولكنا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل؛ فإن ذلك أيضاً مما يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح. وغرضنا الإشارة إلى الصفة التي بها يتهيأ توجه أصل الإنكار عليه لا ما بها يتهيأ للتفاصيل.

فإن قلت: فاكتف بكونه حيواناً ولا تشترط كونه إنساناً، فإن البهيمة لو كانت تفسد زرعاً لإنسان لكنا نمنعها منه كما نمنع المجنون من الزنى وإتيان البهيمة؟ فاعلم: أن تسمية ذلك حسبة لا وجه لها؛ إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر، ومنع المجنون عن الزنى وإتيان البهيمة لحق الله، وكذا منع الصبي عن شرب الخمر. والإنسان إذا أتلف زرع غيره منع منه

لحقين؛ أحدهما: حق الله تعالى، فإن فعله معصية، والثاني: حق المتلف عليه، فهما علتان تنفصل إحداهما عن الأخرى. فلو قطع طرف غيره بإذنه فقد وجدت المعصية وسقط حق المجني عليه بإذنه فتثبت الحسبة والمنع بإحدى العلتين. والبهيمة إذا أتلفت فقد عدمت المعصية، ولكن يثبت المنع بإحدى العلتين، ولكن فيه دقيقة: وهو أنا لسنا نقصد بإخراج البهيمة منع البهيمة، بل حفظ مال المسلم؛ إذ البهيمة لو أكلت ميتة أو شربت من إناء فيه خمر أو ماء مشوب بخمر لم نمنعها منه، بل يجوز إطعام كلاب الصيد الجيف والميتات، ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقدرنا على حفظه بغير تعب وجب ذلك علينا حفظاً للمال، بل لو وقعت جرة لإنسان من علو وتحتها قارورة لغيره فتدفع الجرة لحفظ القارورة، لا لمنع الجرة من السقوط، فإنا لا نقصد منع الجرة وحراستها من أن تصير كاسرة للقارورة، ونمنع المجنون من الزنى وإتيان البهيمة وشرب الخمر وكذا الصبي، لا صيانة للبهيمة المأتية أو الخمر المشروب، بل صيانة للمجنون عن شرب الخمر وتنزيهاً له من حيث إنه إنسان محترم، فهذه لطائف دقيقة لا يتفطن لها إلا المحققون، فلا ينبغي أن يغفل عنها، ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه نظر؛ إذ قد يتردّد في منعهما من لبس الحرير وغير ذلك. وسنتعرّض لما نشير إليه في الباب الثالث.

فإن قلت: فكل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع إنسان فهل يجب عليه إخراجها؟ وكل من رأى مالاً لمسلم أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه؟ فإن قلتم: إن ذلك واجب، فهذا تكليف شطط يؤدي إلى أن يصير الإنسان مسخراً لغيره طول عمره، وإن قلتم: لا يجب فَلِمَ يجب الاحتساب على من يغصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير؟ فنقول: هذا بحث دقيق غامض، والقول الوجيز فيه أن نقول: مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان جاهه وجب عليه ذلك، فذلك القدر واجب في حقوق المسلم، بل هو أقل درجات الحقوق، والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة، وهذا أقل درجاتها وهو أولى بالإيجاب من رد السلام، فإن الأذى في هذا أكثر من الأذى في ترك رد السلام، بل لا خلاف في أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم وكان عند الشهادة لو تكلم بها لرجع الحق إليه وجب عليه ذلك وعصى بكتمان الشهادة، ففي معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لا ضرر على الدافع فيه، فأما إن كان عليه تعب أو ضرر في مال أو جاه لم يلزمه السعي في ذلك؛ لأن حقه مرعي في منفعة بدنه وفي ماله وجاهه كحق غيره فلا يلزمه أن يفدي غيره بنفسه، نعم الإيثار مستحب، وتجشم المصاعب لأجل المسلمين قربة، فأما إيجابها فلا، فإذاً: إن كان يتعب بإخراج البهائم عن الزرع لم يلزمه السعي في ذلك، ولكن إذا كان لا يتعب بتنبيه صاحب الزرع من نوع أو بإعلامه يلزمه، فإهمال تعريفه وتنبيهه كإهماله تعريف القاضي بالشهادة، وذلك لا رخصة فيه، ولا يمكن أن يراعى فيه الأقل والأكثر حتى يقال: إن كان لا يضيع من منفعته في مدة اشتغاله بإخراج البهائم إلا قدر درهم مثلاً وصاحب الزرع يفوته مال كثير فيترجح جانبه، لأن الدرهم الذي له هو يستحق حفظه كما يستحق صاحب الألف حفظ الألف ولا سبيل للمصير إلا ذلك، فأما إذا كان فوات المال بطريق هو معصية كالغصب أو قتل عبد مملوك للغير، فهذا يجب المنع منه وإن كان فيه تعب ما؛ لأن المقصود حق الشرع، والغرض دفع المعصية، وعلى الإنسان أن يتعب نفسه في دفع المعاصي كما عليه أن يتعب نفسه في ترك المعاصي. والمعاصي كلها في تركها تعب وإنما الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس وهي غاية التعب، ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر، بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المحذورات التي يخافها المحتسب.

وقد اختلف الفقهاء في مسألتين تقربان من غرضنا، إحداهما: أن الالتقاط هل هو واجب واللقطة ضائعة؟ والملتقط مانع من الضياع وساع في الحفظ؟ والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال: إن كانت اللقطة في موضع لو تركها فيه لم تضع بل يلتقطها من يعرفها، أو تترك كما لو كان في مسجد أو رباط يتعين من يدخله وكلهم أمناء فلا يلزمه الالتقاط. وإن كانت في مضيعة نظر؛ فإن كان عليه تعب في حفظها كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف واصطبل فلا يلزمه ذلك؛ لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك. وحقه بسبب كونه إنساناً محترماً، والملتقط أيضاً إنسان وله حق في أن لا يتعب لأجل غيره كما لا يتعب غيره لأجله. فإن كانت ذهباً أو ثوباً أو شيئاً لا ضرر عليه فيه إلا مجرد تعب التعريف، فهذا ينبغي أن يكون في محل الوجهين. فقائل يقول: التعريف والقيام بشرطه فيه تعب فلا سبيل إلى إلزامه ذلك إلا أن يتبرع فيلتزم طبقاً للثواب. وقائل يقول: إن هذا القدر من التعب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين؛ فينزل هذا منزلة تعب الشاهد في حضور مجلس الحكم، فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى إلا أن يتبرع به، فإذا كان مجلس القاضي في جواره لزمه الحضور، وكان التعب بهذه الخطوات لا يعدّ تعباً في غرض إقامة الشهادة وأداء الأمانة. وإن كان في الطرف الآخر من البلد وأحوج إلى الحضور في الهاجرة وشدّة الحر فهذا قد يقع في محل الاجتهاد والنظر، فإن الضرر الذي ينال الساعي في حفظ حق الغير له طرف في القلة لا يشك في أنه لا يبالى به، وطرف في الكثرة لا يشك في أنه لا يلزمه احتماله، ووسط يتجاذبه الطرفان، ويكون أبداً في محل الشبهة والنظر، وهي من الشبهات المزمنة التي ليس في مقدور البشر إزالتها؛ إذ لا علة تفرق بين أجزائها المتقاربة، ولكن المتقي ينظر فيها لنفسه ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه. فهذا نهاية الكشف عن هذا الأصل.

الركن الرابع: نفس الاحتساب:

وله درجات وآداب: أما الدرجات: فأولها التعرف، ثم التعريف، ثم النهي، ثم الوعظ والنصح، ثم السب والتعنيف، ثم التغيير باليد، ثم التهديد بالضرب، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه، ثم شهر السلاح، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود.

أما الدرجة الأولى: وهي التعرف: ونعني طلب المعرفة بجريان المنكر وذلك منهي عنه ـ وهو التجسس الذي ذكرناه ـ فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره. نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلاناً يشرب الخمر في داره أو بأن في داره خمراً أعده للشرب، فله إذ ذاك أن يدخل داره ولا يلزمه الاستئذان، ويكون تخطي ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر ككسر رأسه بالضرب للمنع مهما احتاج إليه. وإن أخبره عدلان أو عدل واحد ـ وبالجملة كل من تقبل روايته لا شهادته ـ ففي جواز الهجوم على داره بقولهم فيه نظر واحتمال، والأولى أن يمتنع؛ لأن له حقاً في أن لا يتخطى داره بغير إذنه، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين، فهذا أولى ما يجعل مرداً فيه. وقد قيل: إنه كان نقش خاتم لقمان، الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت.

الدرجة الثانية: التعريف: فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله، وإذا عرف أنه منكر تركه، كالسوادي يصلي ولا يحسن الركوع والسجود؛ فيعلم أنّ ذلك لجهله بأنّ هذه ليست بصلاة، ولو رضي

بأن لا يكون مصلياً لترك أصل الصلاة، فيجب تعريفه باللطف من غير عنف، وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق، والتجهيل إيذاء وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لا سيما بالشرع. ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نبه على الخطأ والجهل؟ وكيف يجتهد في مجاحدة الحق بعد معرفته؛ خيفة من أن تنكشف عورة جهله؟ والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية؛ لأن الجهل قبح في صورة النفس وسواد في وجهه، وصاحبه ملوم عليه، وقبح السوأتين يرجع إلى صورة البدن، والنفس أشرف من البدن، وقبحها أشدّ من قبح البدن. ثم هو غير ملوم عليه؛ لأنه خلقة لم يدخل تحت اختياره حصوله، ولا في اختياره إزالته وتحسينه. والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله، ويعظم ابتهاجه في نفسه بعلمه، ثم لذته عند ظهور جمال علمه لغيره. وإذا كان التعريف كشفاً للعورة مؤذياً للقلب فلا بدّ وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق فنقول له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا أيضاً جاهلين بأمور الصلاة فعلمنا العلماء، ولعل قريتك خالية عن أهل العلم، أو عالمها مقصر في شرح الصلاة وإيضاحها، إنما شرط الصلاة الطمأنينة في الركوع والسجود. وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء؛ فإن إيذاء المسلم حرام محذور، كما أن تقريره على المنكر محذور، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول على التحقيق. وأما إذا وقفت على خطأ في غير أمر الدين فلا ينبغي أن ترده عليه؛ فإنه يستفيد منك علماً ويصير لك عدواً، إلا إذا علمت أنه يغتنم العلم وذلك عزيز جداً.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى؛ وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكراً، كالذي يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعَظ ويخوّف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك، وتحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين؛ وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه؛ إذ المسلمون كنفس واحدة، وههنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة؛ وهي: أن العالم يرى ـ عند التعريف ـ عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل، فربما يقصد بالتعريف الإدلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل. فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه. ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه وهو غاية في الجهل. وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة وغرور للشيطان، يتدلى بحبله كل إنسان إلا من عرّفه الله عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته، فإن في الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين؛ **أحدهما**: من جهة دالة العلم، **والآخر**: من جهة دالة الاحتكام والسلطنة. وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفي، وله محك ومعيار ينبغي أن يمتحن المحتسب به نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه. فإن كانت الحسبة شاقة عليه ثقيلة على نفسه وهو يود أن يكفي بغيره فليحتسب فإن باعثه هو الدين، وإن كان اتعاظ ذلك العاصي بوعظه وانزجاره بزجره أحب إليه من اتعاظه بوعظ غيره فما هو إلا متبع هوى نفسه ومتوسل إلى إظهار جاه نفسه بواسطة حسبته، فليتقِ الله تعالى فيه وليحتسب أوّلاً على نفسه. وعند هذا يقال له ما قيل لعيسى عليه السلام: يا ابن مريم، عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي

مني. وقيل لداود الطائي رحمه الله: أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ فقال: أخاف عليه السوط، قال: إنه يقوى عليه، قال: أخاف عليه السيف، قال: إنه يقوى عليه، قال: أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن: وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادىء الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الأنبياء: ٦٧] ولسنا نعني بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدّماته، ولا الكذب، بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعدّ من جملة الفحش، كقوله: يا فاسق يا أحمق، يا جاهل ألا تخاف الله، وكقوله: يا سوادي يا غبي، وما يجري هذا المجرى. فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل، ولولا حمقه لما عصى الله تعالى، بل كل من ليس بكيّس فهو أحمق، والكيّس من شهد له رسول الله ﷺ بالكياسة حيث قال: **«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ»**(1).

ولهذه الرتبة أدبان: **أحدهما**: أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف. **والثاني**: أن لا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه؛ بل يقتصر على قدر الحاجة. فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغي أن يطلقه، بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته. وإن علم أنه لو تكلم ضرب، ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب، لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له.

الدرجة الخامسة: التغيير باليد: وذلك ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه، ومنعه من الجلوس عليه، ودفعه عن الجلوس على مال الغير، وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله، وإخراجه من المسجد إذا كان جالساً وهو جنب وما يجري مجراه، ويتصور ذلك في بعض المعاصي دون بعض.

فأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة.

وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه، فإن في الوقوف على حد الكسر نوع عسر، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه، وتولاه من لا حجر عليه في فعله.

الثاني: أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو أن لا يأخذ بلحيته في الإخراج، ولا برجله إذا قدر على جره بيده؛ فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر.

---

(١) حديث: «**الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت...**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.

وحد الكسر: أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناف إصلاحه إلى تعب يساوي تعب الاستئناف من الخشب ابتداء. وفي إراقة الخمور يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلاً، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمي ظروفها بحجر فله ذلك، وسقطت قيمة الظرف وتقومه بسبب الخمر؛ إذ صار حائلاً بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر، ولو ستر الخمر ببدنه لكنا نقصد بدنه بالجرح والضرب لنتوصل إلى إراقة الخمر، فإذن: لا تزيد حرمة ملكه في الظروف على حرمة نفسه. ولو كان الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها، فهذا عذر. وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع في زمانه وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها؛ فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظرف الخمر، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان.

فإن قلت: فهلا جاز الكسر لأجل الزجر؟ وهلا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر؟ فاعلم: أن الزجر إنما يكون عن المستقبل، والعقوبة تكون على الماضي، والدفع على الحاضر الراهن. وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة أو زجر عن لاحق، وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية. نعم الوالي له أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه. وأقول: له أن يأمر بكسر الظروف التي فيها الخمور زجراً. وقد فعل ذلك في زمن رسول الله ﷺ تأكيداً للزجر(١)، ولم يثبت نسخه، ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفطام شديدة. فإذا رأى الوالي باجتهاده مثل الحاجة جاز له مثل ذلك. وإذا كان هذا منوطاً بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لآحاد الرعية.

فإن قلت: فليجز للسلطان زجر الناس عن المعاصي بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التي فيها يشربون ويعصون وإحراق أموالهم التي بها يتوصلون إلى المعاصي؟ فاعلم: أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجاً عن سنن المصالح، ولكنا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها. وكسر ظروف الخمر قد ثبت عند شدة الحاجة، وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخاً، بل الحكم يزول بزوال العلة ويعود بعودها. وإنما جوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ومنعنا آحاد الرعية منه؛ لخفاء وجه الاجتهاد فيه. بل نقول: لو أريقت الخمور أولاً فلا يجوز كسر الأواني بعدها، وإنما جاز كسرها تبعاً للخمر. فإذا خلت عنها فهو إتلاف مال إلا أن تكون ضاربة بالخمر لا تصلح إلا لها.

فكان الفعل المنقول عن العصر الأول كان مقروناً بمعنيين؛ أحدهما: شدة الحاجة إلى الزجر، والآخر: تبعية الظروف للخمر التي هي مشغولة بها. وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما. ومعنى ثالث: وهو صدوره عن رأي صاحب الأمر لعلمه بشدة الحاجة إلى الزجر، وهو أيضاً مؤثر فلا سبيل إلى إلغائه. فهذه تصرفات دقيقة فقهية يحتاج المحتسب لا محالة إلى معرفتها.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف: كقوله: دع عنك هذا أو لأكسرن رأسك أو لأضربن رقبتك أو لآمرن بك وما أشبهه، وهذا ينبغي أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه. والأدب في هذه

---

(١) حديث: «تكسير الظروف التي فيها الخمور في زمنه ﷺ» أخرجه الترمذي من حديث أبي طلحة أنه قال: يا نبي الله إني اشتريت خمراً لأيتام في حجري قال: «**أهرق الخمر واكسر الدنان**» وفيه ليث بن أبي سلم، والأصح: رواية السدي عن يحيى بن عباد عن أنس أن أبا طلحة كان عندي، قاله الترمذي.

الرتبة: أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه، كقوله لأنهبن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما يجري مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب. نعم إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال، وله أن يزيد في الوعيد على ما هو في عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه. وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة في مثل ذلك معتادة؛ وهو معنى مبالغة الرجل في إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين، وذلك مما قد رخص فيه للحاجة وهذا في معناه، فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص. وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس: أنه لا يقبح من الله أن يتوعد بما لا يفعل؛ لأن الخلف في الوعيد كرم، وإنما يقبح أن يعد بما لا يفعل، وهذا غير مرضي عندنا، فإن الكلام القديم لا يتطرق إليه الخلف وعداً كان أو وعيداً، وإنما يتصور هذا في حق العباد، وهو كذلك إذ الخلف في الوعيد ليس بحرام.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح: وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف. والقاضي قد يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس، فإن أصر المحبوس وعلم القاضي قدرته على أداء الحق وكونه معانداً فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدريج كما يحتاج إليه. وكذلك المحتسب يراعي التدريج فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك ما لم تثر فتنة. كما لو قبض فاسق مثلاً على امرأة، أو كان يضرب بمزمار معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له: خل عنها أو لأرمينك إن لم تخل عنها؛ فله أن يرمي، وينبغي أن لا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدريج. وكذلك يسل سيفه ويقول: اترك هذا المنكر أو لأضربنك. فكل ذلك دفع للمنكر، ودفعه واجب بكل ممكن. ولا فرق في ذلك بين ما يتعلق بخاص حق الله وما يتعلق بالآدميين.

وقالت المعتزلة: ما لا يتعلق بالآدميين فلا حسبة فيه إلا بالكلام أو بالضرب ولكن للإمام لا للآحاد.

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح: وربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه، ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا.. فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى إذن الإمام. فقال قائلون: لا يستقل آحاد الرعية بذلك؛ لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد. وقال آخرون: لا يحتاج إلى الإذن ـ وهو الأقيس ـ لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف وأوائل درجاته تجر إلى ثوان والثواني إلى ثوالث ـ وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب ـ والتضارب يدعو إلى التعاون، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه. ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قمعاً لأهل الكفر، فكذلك قمع أهل الفساد جائز؛ لأن الكافر لا بأس بقتله والمسلم إن قتل فهو شهيد. فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله، والمحتسب المحق إن قتل مظلوماً فهو شهيد.

وعلى الجملة: فانتهاء الأمر إلى هذا من النوادر في الحسبة، فلا يغير به قانون القياس، بل يقال: كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه. فالمسألة إذن محتملة ـ كما ذكرناه ـ فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق.

باب آداب المحتسب:

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات. ونذكر الآن جملها ومصادرها، فنقول: جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب: العلم، والورع، وحسن الخلق.

أما العلم: فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقتصر على حد الشرع فيه.

والورع: ليردعه عن مخالفة معلومة فما كل من علم عمل بعلمه، بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحدّ المأذون فيه شرعاً، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض. وليكن كلامه ووعظه مقبولاً، فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب ويورث ذلك جرأة عليه.

وأما حسن الخلق: فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه ـ والعلم والورع لا يكفيان فيه ـ، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق. وعلى التحقيق: فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم.

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر. بل ربما كانت الحسبة أيضاً منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها، ودل على هذه الآداب قوله ﷺ: **«لاَ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ يَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ إِلاَّ رَفِيقٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ رَفِيقٌ فِيمَا يَنْهَىٰ عَنْهُ، حَلِيمٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ حَلِيمٌ فِيمَا يَنْهَىٰ عَنْهُ، فَقِيهٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ فَقِيهٌ فِيمَا يَنْهَىٰ عَنْهُ»**(١)، وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيهاً مطلقاً بل فيما يأمر به وينهى عنه وكذا الحلم. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلكت، وقد قيل:

لا تَلُمِ المرءَ على فِعْلِهِ ... وأنتَ منسوبٌ إلى مِثْلِهِ
مَنْ ذَمَّ شيئاً وأتى مثلَه ... فإنما يُزرى على عقلِهِ

ولسنا نعني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعاً بالفسق، ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس؛ فقد روي عن أنس رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله. فقال ﷺ: **«بَلْ مُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ، وَانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ»**(٢). وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله؛ فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى، فإذن من آداب الحسبة: توطين النفس على الصبر، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف، فقال حاكياً عن لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

---

(١) حديث: **«لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه...»** الحديث. لم أجده هكذا، وللبيهقي في الشعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: **«من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف»**.

(٢) حديث أنس: قلنا: يا رسول الله لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله، فقال ﷺ: **«بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله»** أخرجه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط، وفيه عبدالقدوس بن حبيب أجمعوا على تركه.

ومن الآداب: تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه، وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة، فقد روي عن بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئاً من الغدد لسنوره فرأى على القصاب منكراً، فدخل الدار أولاً وأخرج السنور، ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب: لا أعطينك بعد هذا شيئاً لسنورك، فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك. وهو كما قال، فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة، ومن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالثناء عليه مطلقة لم تتيسر له الحسبة. قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك بين قومك؟ قال: حسنة، قال: إن التوراة تقول، إنّ الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه. فقال أبو مسلم: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم.

ويدل على وجوب الرفق: ما استدل به المأمون إذ وعظه واعظ وعنف له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝﴾ [طه: ٤٤] فليكن اقتداء المحتسب في الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم. فقد روى أبو أمامة: أنّ غلاماً شاباً أتى النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: يا نبي الله، أتأذن لي في الزّنىٰ؟ فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ: **«قَرِّبُوهُ ادْنُ»** فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: **«أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟»** فقال: لا، جعلني الله فداك، قال: **«كَذٰلِكَ النَّاسُ لاَ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ. أَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟»** قال: لا، جعلني الله فداك، قال: **«كَذٰلِكَ النَّاسُ لاَ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ. أَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟»**[(١)]، وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحد: لا، جعلني الله فداك. وهو ﷺ يقول: **«كَذٰلِكَ النَّاسُ لاَ يُحِبُّونَهُ»** وقالا جميعاً في حديثهما أعني ابن عوف والراوي الآخر، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: **«اللّٰهُمَّ طَهِّرْ قَلْبَهُ وَاغْفِرْ ذَنْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»**، فلم يكن شيء أبغض إليه منه ـ يعني من الزنىٰ ـ.

وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله: إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال الفضيل: ما أخذ منهم إلا دون حقه، ثم خلا به وعذله ووبخه فقال سفيان: يا أبا علي، إن لم نكن من الصالحين فإنا لنحب الصالحين. وقال حماد بن سلمة: إنّ صلة بن أشيم مرّ عليه رجل قد أسبل إزاره فهمّ أصحابه أن يأخذوه بشدّة فقال: دعوني أنا أكفيكم، فقال: يا ابن أخي، إنّ لي إليك حاجة قال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك. فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره فقال لأصحابه: لو أخذتموه بشدّة لقال: لا، ولا كرامة وشتمكم. وقال محمد بن زكريا الغلابي: شهدت عبدالله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله، وإذا في طريقه غلام من قريش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت، فاجتمع الناس عليه يضربونه، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس: تنحوا عن ابن أخي، ثم قال: إليّ يا ابن أخي؛ فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه، ثم قال له: امض معي، فمضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه: بَيِّتْهُ عندك، فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه، ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به، فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى وهم بالانصراف؛ فقال الغلام: قد أمر أن تأتيه؛ فأدخله عليه فقال له: أما استحييت لنفسك؟ أما استحييت لشرفك؟ أما ترى من ولدك؟ فاتق الله وانزع عما

(١) حديث أبي أمامة: «أن شاباً قال: يا رسول الله ائذن لي في الزنى فصاح الناس به...» الحديث. رواه أحمد بإسناد جيد ورجاله رجال الصحيح.

أنت فيه، فبكى الغلام منكساً رأسه ثم رفع رأسه وقال: عاهدت الله تعالى عهداً يسألني عنه يوم القيامة أني لا أعود لشرب النبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب، فقال: ادن مني، فقبّل رأسه وقال: أحسنت يا بني. فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث: وكان ذلك ببركة رفقه ثم قال: إنّ الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكراً، فعليكم بالرفق في جميع أموركم تنالون به ما تطلبون. وعن الفتح بن شخرف قال: تعلق رجل بامرأة وتعرّض لها وبيده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره، وكان الرجل شديد البدن؛ فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح في يده إذ مر بشر بن الحارث فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل فوقع الرجل على الأرض؛ ومشى بشر فدنوا من الرجل وهو يترشح عرقاً كثيراً، ومضت المرأة لحالها فسألوه ما حالك؟ فقال: ما أدري ولكن حاكني شيخ وقال لي: إن الله عزّ وجلّ ناظر إليك وإلى ما تعمل؛ فضعُفت لقوله قدماي وهبتُه هيبة شديدة، ولا أدري من ذلك الرجل؟ فقالوا له: هو بشر بن الحارث، فقال: واسوأتاه كيف ينظر إليّ بعد اليوم؟ وحمّ الرجل من يومه ومات يوم السابع، فكذا كانت عادة أهل الدين في الحسبة. وقد نقلنا فيها آثاراً وأخباراً في باب البغض في الله والحب في الله من كتاب آداب الصحبة فلا نطوّل بالإعادة. فهذا تمام النظر في درجات الحسبة وآدابها، والله الموفق بكرمه والحمد لله على جميع نعمه.

* * *

الباب الثالث

في المنكرات المألوفة في العادات

فنشير إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها واستقصائها.

فمن ذلك: منكرات المساجد

اعلم: أنّ المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة، فإذا قلنا: هذا منكر مكروه. فاعلم: أن المنع منه مستحب، والسكوت عليه مكروه وليس بحرام، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له؛ لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه. وإذا قلنا منكر محظور، أو قلنا منكر مطلقاً، فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظوراً.

فمما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود؛ وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث، فيجب النهي عنه إلا عند الحنفي الذي يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة؛ إذ لا ينفع النهي معه. ومن رأى مسيئاً في صلاته فسكت عليه فهو شريكه ـ هكذا ورد به الأثر ـ وفي الخبر ما يدل عليه؛ إذ ورد في الغيبة أن المستمع شريك القائل[1]، وكذلك كل ما يقدح

الباب الثالث

في المنكرات المألوفة

(١) حديث: «المغتاب والمستمع شريكان في الإثم»، تقدم في الصوم.

في صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها، أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو عمى. فكل ذلك تجب الحسبة فيه.

ومنها: قراءة القرآن باللحن؛ يجب النهي عنه ويجب تلقين الصحيح. فإن كان المعتكف في المسجد يضيع أكثر أوقاته في أمثال ذلك ويشتغل به عن التطوّع والذكر فليشتغل به، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطوّعه؛ لأن هذا فرض وهي قربة تتعدّى فائدتها، فهي أفضل من نافلة تقتصر عليه فائدتها. وإن كان ذلك يمنعه عن الوراقة مثلاً أو عن الكسب الذي هو طعمته، فإن كان معه مقدار كفايته لزمه الاشتغال بذلك ولم يجز له ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا، وإن احتاج إلى الكسب لقوت يومه فهو عذر له؛ فيسقط الوجوب عنه لعجزه، والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادراً على التعلم فليمتنع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به، وإن كان لا يطاوعه اللسان؛ فإن كان أكثر ما يقرؤه لحناً فليتركه وليجتهد في تعلم الفاتحة وتصحيحها، وإن كان الأكثر صحيحاً وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ، ولكن ينبغي أن يخفض به الصوت حتى لا يسمع غيره. ولمنعه سراً منه أيضاً وجه، ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها فلست أرى به بأساً والله أعلم.

ومنها: تراسل المؤذنين في الأذان، وتطويلهم بمدّ كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر في الحيعلتين، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر، بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات. فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها؛ فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها، وكذلك إذا كان للمسجد مؤذن واحد وهو يؤذن قبل الصبح فينبغي أن يمنع من الأذان بعد الصبح، فذلك مشوّش للصوم والصلاة على الناس إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح حتى لا يعول على أذانه في صلاة وترك سحور، أو كان معه مؤذن آخر معروف الصوت يؤذن مع الصبح.

ومن المكروهات أيضاً: تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر في مسجد واحد في أوقات متعاقبة متقاربة، إما من واحد أو جماعة، فإنه لا فائدة فيه؛ إذ لم يبق في المسجد نائم ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى ينبه غيره فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف.

ومنها: أن يكون الخطيب لابساً لثوب أسود يغلب عليه الإبريسم، أو ممسكاً لسيف مذهب فهو فاسق والإنكار عليه واجب، وأما مجرد السواد فليس بمكروه لكنه ليس بمحبوب؛ إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض. ومن قال إنه مكروه وبدعة أراد به أنه لم يكن معهوداً في العصر الأوّل، ولكن إذا لم يرد فيه نهي فلا ينبغي أن يسمى بدعة ومكروهاً، ولكنه ترك للأحب.

ومنها: كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة. فالقاص إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق والإنكار عليه واجب، وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه ولا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد إظهار الرد عليه، إما للكافة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواليه، فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدع. قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٦٨] ومهما كان كلامه مائلاً إلى الإرجاء وتجرئة الناس على المعاصي، وكان الناس يزدادون بكلامه جراءة وبعفو الله وبرحمته وثوقاً يزيد بسببه رجاؤهم على خوفهم فهو منكر، ويجب منعه عنه لأن فساد ذلك عظيم، بل لو رجح خوفهم على رجائهم فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق فإنهم إلى الخوف أحوج، وإنما العدل تعديل الخوف

والرجاء كما قال عمر رضي الله عنه: لو نادى مناد يوم القيامة: ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً؛ لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نادى منادٍ: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً؛ لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل. ومهما كان الواعظ شاباً متزيناً للنساء في ثيابه وهيئته كثير الأشعار والإشارات والحركات، وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله. بل لا ينبغي أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكينة والوقار وزيه زي الصالحين، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تمادياً في الضلال. ويجب أن يضرب بين الرجال والنساء حائل يمنع من النظر؛ فإن ذلك أيضاً مظنة الفساد، والعادات تشهد لهذه المنكرات، ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة بهن فقد منعتهن عائشة رضي الله عنها فقيل لها: إن رسول الله ﷺ ما منعهن من الجماعات، فقالت: لو علم رسول الله ﷺ ما أحدثن بعده لمنعهن[1]. وأما اجتياز المرأة في المسجد مستترة فلا تمنع منه، إلا أن الأولى أن لا تتخذ المسجد مجازاً أصلاً. وقراءة القراء بين يدي الوعاظ مع التمديد والألحان على وجه يغير نظم القرآن، ويجاوز حدّ التنزيل منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف.

ومنها: الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه، فهذه الأشياء منها ما هو محرم لكونه تلبيساً وكذباً، كالكذابين من طرقية الأطباء وكأهل الشعبذة والتلبيسات، وكذا أرباب التعويذات في الأغلب يتوصلون إلى بيعها بتلبيسات على الصبيان والسوادية، فهذا حرام في المسجد وخارج المسجد ويجب المنع منه. بل كل بيع فيه كذب وتلبيس وإخفاء عيب على المشتري فهو حرام.

ومنها: ما هو مباح خارج المسجد كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة، فهذا في المسجد أيضاً لا يحرم إلا بعارض؛ وهو أن يضيق المحل على المصلين ويشوش عليهم صلاتهم، فإن لم يكن شيء من ذلك فليس بحرام والأولى تركه، ولكن شرط إباحته أن يجري في أوقات نادرة وأيام معدودة، فإن اتخاذ المسجد دكاناً على الدوام حرم ذلك ومنع منه. فمن المباحات ما يباح بشرط القلة فإن كثر صار صغيرة، كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار، فإن كان القليل من هذا لو فتح بابه لخيف منه أن ينجر إلى الكثير فليمنع منه، وليكن هذا المنع إلى الوالي أو إلى القيم بمصالح المسجد من قبل الوالي لأنه لا يدرك ذلك بالاجتهاد، وليس للآحاد المنع مما هو مباح في نفسه لخوفه أن ذلك يكثر.

ومنها: دخول المجانين والصبيان والسكارى في المسجد، ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لم يلعب، ولا يحرم عليه اللعب في المسجد ولا السكوت على لعبه، إلا إذا اتخذ المسجد ملعباً وصار ذلك معتاداً فيجب المنع منه، فهذا مما يحل قليله دون كثيره، ودليل حل قليله ما روي في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ وقف لأجل عائشة رضي الله عنها حتى نظرت إلى الحبشة يزفنون ويلعبون بالدرق والحراب يوم العيد في المسجد، ولا شك في أن الحبشة لو اتخذوا المسجد ملعباً لمنعوا منه، ولم ير ذلك على الندرة والقلة منكراً حتى نظر إليه، بل أمرهم به رسول الله ﷺ؛ لتبصرهم عائشة تطييباً لقلبها إذ قال: «دُونَكُمْ، يَا بَنِي أَرْفِدَةَ» كما نقلناه في كتاب السماع.

(١) حديث عائشة: «لو علم رسول الله ﷺ ما أحدثن ـ أي النساء ـ من بعده لمنعهن المساجد». متفق عليه.

وأما المجانين فلا بأس بدخولهم المسجد إلا أن يخشى تلويثهم له، أو شتمهم أو نطقهم مما هو فحش، أو تعاطيهم لما هو منكر في صورته ككشف العورة وغيره. وأما المجنون الهادىء الساكن ـ الذي قد علم بالعادة سكونه وسكوته ـ فلا يجب إخراجه من المسجد. والسكران في معنى المجنون، فإن خيف منه القذف ـ أعني القيء ـ أو الإيذاء باللسان وجب إخراجه، وكذا لو كان مضطرب العقل فإنه يخاف ذلك منه، وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح فهو منكر مكروه شديد الكراهة. وكيف لا ومن أكل الثوم والبصل[1] فقد نهاه رسول الله ﷺ عن حضور المساجد؟ ولكن يحمل ذلك على الكراهة والأمر في الخمر أشدّ.

فإن قال قائل: ينبغي أن يضرب السكران ويخرج من المسجد زجراً. قلنا: لا، بل ينبغي القعود في المسجد ويدعى إليه، ويؤمر بترك الشرب مهما كان في الحال عاقلاً، فأما ضربه للزجر فليس ذلك إلى الآحاد بل هو إلى الولاة وذلك عند إقراره أو شهادة شاهدين، فأما لمجرد الرائحة فلا. نعم، إذا كان يمشي بين الناس متمايلاً بحيث يعرف سكره فيجوز ضربه في المسجد وغير المسجد؛ منعاً له عن إظهار أثر السكر، فإن إظهار أثر الفاحشة فاحشة والمعاصي يجب تركها، وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها، فإن كان مستتراً مخفياً لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه. والرائحة قد تفوح من غير شرب بالجلوس في موضع الخمر، وبوصوله إلى الفم دون الابتلاع، فلا ينبغي أن يعول عليه.

منكرات الأسواق:

من المنكرات المعتادة في الأسواق: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب؛ فمن قال: اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأربح فيها كذا وكان كاذباً فهو فاسق، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته. وكذا إذا علم به عيباً فيلزمه أن ينبه المشتري عليه، وإلا كان راضياً بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام، وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان؛ يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتى يغيره.

ومنها: ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة، ولكن ذلك في محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه. وكذا في الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الإنكار فيها فإنها مفسدة للعقود. وكذا في الربويات كلها وهي غالبة. وكذا سائر التصرفات الفاسدة.

ومنها: بيع الملاهي وبيع أشكال الحيوانات المصوّرة في أيام العيد لأجل الصبيان، فتلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملاهي، وكذلك بيع الأواني المتخذة من الذهب والفضة، وكذلك بيع ثياب الحرير، وقلانس الذهب والحرير ـ أعني التي لا تصلح إلا للرجال ـ أو يعلم بعادة البلد أنه لا يلبسه إلا الرجال، فكل ذلك منكر محظور، وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة التي يلبس على الناس بقصارتها وابتذالها ويزعم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب. وكذلك تلبيس انخراق الثياب بالرفو وما يؤدي إلى الالتباس، وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبيسات وذلك يطول إحصاؤه، فليقس بما ذكرناه ما لم نذكره.

---

(١) هذا الحديث لم يخرجه العراقي، وقد خرجه الشارح عن البخاري ومسلم وغيرهما.

منكرات الشوارع:

فمن المنكرات المعتادة فيها: وضع الاسطوانات، وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة، وغرس الأشجار، وإخراج الرواشن والأجنحة، ووضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة، وإن لم يؤد إلى ضرر أصلاً لسعة الطريق فلا يمنع منه. نعم، يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه؛ وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجّس المجتازين، منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب. وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة، والمرعي هو الحاجة التي ترد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات.

ومنها: سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس؛ فذلك منكر إن أمكن شدّها وضمها بحيث لا تمزق، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك. نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل. وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه. وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح في الطريق حذاء باب الحانوت ويلوث الطريق بالدم فإنه منكر يمنع منه، بل حقه أن يتخذ في دكانه مذبحاً فإن في ذلك تضييقاً بالطريق وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة، وبسبب استقذار الطباع للقاذورات، وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق، وتبديد قشور البطيخ. أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر؛ كل ذلك من المنكرات، وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب، أو يضيق الطريق، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن. فأما ترك مياه المطر والأوحال والثلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر، ولكن ليس يختص به شخص معين، إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد، والماء الذي يجتمع على الطريق من ميزاب معين، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق، إن كان من المطر فذلك حسبة عامة فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها، وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط، وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه، وإن كان لا يؤذي إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه، بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعوداً يضيق الطريق، فكلبه أولى بالمنع.

منكرات الحمامات:

منها: الصورة التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر، فإن كان الموضع مرتفعاً لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة، فليعدل إلى حمام آخر. فإن مشاهدة المنكر غير جائزة، ويكفيه أن يشوّه وجهها ويبطل به صورتها، ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان.

ومنها: كشف العورات والنظر إليها، ومن جملتها: كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ، بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار، فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها.

ومنها: الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز، فهذا مكروه إن كان مع

حائل، ولكن لا يكون محظوراً إذا لم يخش من حركة الشهوة. وكذلك كشف العورة للحجام الذمي من الفواحش. فإن المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدنها للذمية في الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال؟.

ومنها: غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة، وغسل الإزار والطاس النجس في الحوض وماؤه قليل؛ فإنه منجس للماء، إلا على مذهب مالك فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية، ويجوز على الحنفية والشافعية، وإن اجتمع مالكي وشافعي في الحمام فليس للشافعي منع المالكي من ذلك إلا بطريق الالتماس واللطف؛ وهو أن يقول له: إنا نحتاج أن نغسل اليد أولاً ثم نغمسها في الماء، وأما أنت فمستغن عن إيذائي وتفويت الطهارة عليّ، وما يجري مجرى هذا، فإن مظان الاجتهاد لا يمكن الحسبة فيها بالقهر.

ومنها: أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون فهذا منكر، ويجب قلعه وإزالته وينكر على الحمامي إهماله فإنه يفضي إلى السقطة، وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو انخلاعه، وكذلك ترك السدر والصابون المزلق على أرض الحمام منكر؛ ومن فعل ذلك وخرج وتركه فزلق به إنسان وانكسر عضو من أعضائه، وكان ذلك في موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه فالضمان متردد بين الذي تركه وبين الحمامي؛ إذ حقه تنظيف الحمام، والوجه إيجاب الضمان على تاركه في اليوم الأول، وعلى الحمامي في اليوم الثاني، إذ عادة تنظيف الحمام كل يوم معتادة، والرجوع في مواقيت إعادة التنظيف إلى العادات، فليعتبر بها. وفي الحمام أمور أُخر مكروهة ذكرناها في كتاب الطهارة فلتنظر هناك.

منكرات الضيافة:

فمنها: فرش الحرير للرجال فهو حرام، وكذلك تبخير البخور في مجمرة فضة أو ذهب، أو الشراب، أو استعمال ماء الورد في أواني الفضة أو ما رؤوسها من فضة.

ومنها: إسدال الستور وعليها الصور.

ومنها: سماع الأوتار أو سماع القينات.

ومنها: اجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال مهما كان في الرجال شباب يخاف الفتنة منهم، فكل ذلك محظور منكر يجب تغييره. ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج، ومن لم يجز له الجلوس فلا رخصة له في الجلوس في مشاهدة المنكرات. وأما الصور التي على النمارق والزرابي المفروشة فليس منكراً، وكذلك على الأطباق والقصاع، لا الأواني المتخذة على شكل الصور، فقد تكون رؤوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه. وفي المكحلة الصغيرة من الفضة خلاف، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها. ومهما كان الطعام حراماً، أو كان الموضع مغصوباً أو كانت الثياب المفروشة حراماً فهو من أشدّ المنكرات، فإن كان من فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور؛ إذ لا يحل حضور مجالس الشرب وإن كان مع ترك الشرب، ولا يجوز مجالسة الفاسق في حالة مباشرته للفسق، وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك، وأنه هل يجب بغضه في الله ومقاطعته كما ذكرناه في باب الحب والبغض في الله، وكذلك إن كان فيهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز الجلوس معه من غير ضرورة. فإن كان الثوب على

صبي غير بالغ فهذا في محل النظر. والصحيح: أن ذلك منكر ويجب نزعه عنه إن كان مميزاً لعموم قوله عليه السلام: «هٰذَانِ حَرَامٌ عَلَىٰ ذُكُورِ أُمَّتِي»(١)، وكما يجب منع الصبي من شرب الخمر ـ لا لكونه مكلفاً، لكن لأنه يأنس به، فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه ـ فكذلك شهوة التزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده، فيكون ذلك بذراً للفساد يبذر في صدره، فتنبت منه شجرة من الشهوة راسخة يعسر قلعها بعد البلوغ. أما الصبي الذي لا يميز: فيضعف معنى التحريم في حقه ولا يخلو عن احتمال، والعلم عند الله فيه، والمجنون في معنى الصبي الذي لا يميز، نعم يحل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف. ولا أرى رخصة في تثقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها، فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص، فلا يجوز إلا لحاجة مهمة كالفصد والحجامة والختان، والتزين بالحلق غير مهم بل في التقريط بتعليقه على الأذن وفي المخانق والأسورة كفاية عنه. فهذا وإن كان معتاداً فهو حرام والمنع منه واجب، والاستئجار عليه غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام؛ إلا أن يثبت من جهة النقل فيه رخصة، ولم يبلغنا إلى الآن فيه رخصة.

ومنها: أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته، فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد؛ فإن كان لا يقدر عليه لم يجز، فإن كان المبتدع لا يتكلم ببدعته فيجوز الحضور مع إظهار الكراهة عليه والإعراض عنه كما ذكرناه في باب البغض في الله. وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور، وعند الحضور يجب الإنكار عليه، وإن كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح ـ أعني ما يقل منه ـ، فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح. وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصد به التلبيس فليس من جملة المنكرات، كقول الإنسان مثلاً: طلبتك اليوم مائة مرة، وأعدت عليك الكلام ألف مرة؛ وما يجري مجراه مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق فذلك لا يقدح في العدالة ولا ترد الشهادة به. وسيأتي حد المزاح المباح والكذب المباح في كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات.

ومنها: الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر، بل في المال منكران: أحدهما: الإضاعة، والآخر: الإسراف.

فالإضاعة: تفويت مال بلا فائدة يعتدّ بها كإحراق الثوب وتمزيقه، وهدم البناء من غير غرض. وإلقاء المال في البحر، وفي معناه صرف المال إلى النائحة والمطرب، وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرمة شرعاً فصارت كالمعدومة.

وأما الإسراف: فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى النائحة والمطرب والمنكرات، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة.

والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال فنقول: من لم يملك إلا مائة دينار مثلاً ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لهم سواه، فأنفق الجميع في وليمة فهو مسرف يجب منعه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] نزل هذا في رجل بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئاً لعياله، فطولب بالنفقة فلم يقدر على شيء وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾

---

(١) حديث: «هذان حرامان على ذكور أمتي» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي، وقد تقدم في الباب الرابع من آداب الأكل.

[الإسراء: ٢٦-٢٧]، وكذلك قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: ٦٧] فمن يسرف هذا الإسراف ينكر عليه، ويجب على القاضي أن يحجر عليه؛ إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوّة في التوكل صادقة؛ فله أن ينفق جميع ماله في أبواب البر. ومن له عيال أو كان عاجزاً عن التوكل فليس له أن يتصدق بجميع ماله. وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضاً إسراف محرم، وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام؛ لأن التزيين من الأغراض الصحيحة، ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة، فكذا الدور، وكذلك القول في التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه، ويصير إسرافاً باعتبار حال الرجل وثروته، وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها. فقس بهذه المنكرات المجامع، ومجالس القضاة ودواوين السلاطين، ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية، وخانات الأسواق، فلا تخلو بقعة عن منكر مكروه أو محذور، واستقصاء جميع المنكرات يستدعي استيعاب جميع تفاصيل الشرع أصولها وفروعها. فلنقتصر على هذا القدر منها.

المنكرات العامة:

اعلم: أن كل قاعد في بيته ـ أينما كان ـ فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي؟ ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق، وواجب أن يكون في مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه ـ فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية ـ أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد، ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، ويستصحب مع نفسه زاداً يأكله ولا يأكل من أطعمتهم؛ فإن أكثرها مغصوب، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلاّ عم الحرج الكافة أجمعين.

أما العالم: فلتقصيره في الخروج، وأما الجاهل: فلتقصيره في ترك التعلم.

وكل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرّف غيره وإلا فهو شريك في الإثم. ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالماً بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها. ولعمري: الإثم على الفقهاء أشدّ لأنّ قدرتهم فيه أظهر وهو بصناعتهم أليق، لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعايش، فهم قد تقلدوا أمراً لا بد منه في صلاح الخلق. وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله ﷺ فإن العلماء هم ورثة الأنبياء. وليس للإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي. وكذا كل من تيقن أن في السوق منكراً يجري على الدوام أو في وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت، بل يلزمه الخروج، فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج؛ لأنّ خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح، فحقّ على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلّم ذلك أهل بيته، ثم يتعدّى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم،

وهكذا إلى أقصى العالم، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، وإلا حرج به على كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً، ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه، وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة، والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ولا يتقدّم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه.

❊ ❊ ❊

الباب الرابع

في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوّله التعريف، وثانيه الوعظ، وثالثه التخشين في القول، ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة. والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان وهما: التعريف والوعظ. وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان، فإن ذلك يحرّك الفتنة ويهيج الشر، ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر، وأما التخشين في القول كقوله: يا ظالم، يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه؛ فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدّى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه. فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة، والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة. قال رسول الله ﷺ: **«خَيْرُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثُمَّ رَجُلٌ قَامَ إِلَىٰ إِمَامٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فِي ذَاتِ الله تَعَالَىٰ فَقَتَلَهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ»**(١)، وقال ﷺ: **«أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»**(٢)، ووصف النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: **«قَرْنٌ مِنْ حَدِيدٍ لاَ تَأْخُذُهُ فِي الله لَوْمَةُ لاَئِمٍ وَتَرَكَهُ قَوْلُ الحَقِّ مَا لَهُ مِنْ صَدِيقٍ»**(٣)، ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار؛ قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى، ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله. وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف، وقد أوردنا جملة

الباب الرابع

في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

(١) حديث: **«خير الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك»** أخرجه الحاكم من حديث جابر، وقال: صحيح الإسناد وتقدم في الباب قبله.

(٢) حديث: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»** تقدم.

(٣) حديث: وصفه ﷺ عمر بن الخطاب: **«بأنه قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم تركه قوله الحق ما له من صديق»**. أخرجه الترمذي بسند ضعيف مقتصراً على آخر الحديث من حديث علي: **«رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مراً تركه الحق ما له من صديق»**. وأما أول الحديث فرواه الطبراني أن عمر قال لكعب الأحبار: كيف تجد نعتي؟ قال: أجد نعتك قرناً من حديد، قال: وما قرن من حديد؟ قال: أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لائم.

من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام، ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم.

فمنها: ما روي من إنكار أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله ﷺ بالسوء. وذلك ما روي عن عروة رضي الله عنه قال: قلت لعبدالله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشاً نالت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ فقال: حضرْتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر فذكر رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل، سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا، وعابَ ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم ـ أو كما قالوا ـ فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القول قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ثم مضى، فلما مرَّ الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه عليه السلام ثم مضى، فمرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال: **«أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ فَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ»** قال: فأطرق القوم حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إنَّ أشدّهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشداً، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا؟ أنت الذي تقول كذا؟ لما كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: **«نَعَمْ أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذٰلِكَ»** قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه. قال: وقام أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه دونه يقول ـ وهو يبكي ـ: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّي الله؟، ثم انصرفوا عنه وإن ذلك لأشدّ ما رأيت قريشاً بلغت منه[1].

وفي رواية أخرى عند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلف ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم[2]؟.

وروي أنّ معاوية رضي الله عنه حبس العطاء فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال له: يا معاوية، إنه ليس من كدّك ولا من كدّ أبيك ولا من كدّ أمك. قال: فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم: مكانكم وغاب عن أعينهم ساعة، ثم خرج عليهم وقد اغتسل، فقال: إنّ أبا مسلم كلمني بكلام أغضبني وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الغَضَبُ مِنَ الشَّيطَانِ وَالشَّيطَانُ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ»**[3]، وإني دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم أنه ليس من كدّي ولا من كدّ أبي فهلموا إلى عطائكم.

---

(١) حديث عروة: قلت لعبد الله بن عمرو: «ما أكثر ما رأيت قريشاً نالت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته. . .» الحديث. أخرجه بطوله البخاري مختصراً وابن حبان بتمامه.

(٢) حديث عبدالله بن عمرو: «بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ . .» الحديث. رواه البخاري.

(٣) حديث معاوية: «الغضب من الشيطان. . .» الحديث. وفي أوله قصة أبو نعيم في الحلية وفيه من لا أعرفه.

وروي عن ضبة بن محصن العنزي قال: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه قال: فغاظني ذلك منه، فقمت إليه فقلت له: أين أنت من صاحبه تفضّله عليه؟ فصنع ذلك جمعاً ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول: إنّ ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي. فكتب إليه عمر: أن أشخصه إليّ. قال: فأشخصني إليه فقدمت فضربت عليه الباب فخرج إليّ فقال: من أنت؟ فقلت: أنا ضبة، فقال لي: لا مرحباً ولا أهلاً، قلت: أما المرحب فمن الله، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال، فبماذا استحللت يا عمر إشخاصي من مصري بلا ذنب أذنبته ولا شيء أتيته؟ فقال: ما الذي شجر بينك وبين عاملي؟ قال: قلت: الآن أخبرك به، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، ثم أنشأ يدعو لك فغاظني ذلك منه فقمت إليه فقلت له: أين أنت من صاحبه تفضّله عليه؟ فصنع ذلك جمعاً ثم كتب إليك يشكوني. قال: فاندفع عمر رضي الله عنه باكياً وهو يقول: أنت والله أوفق منه وأرشد، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك؟ قال: قلت: غفر الله لك يا أمير المؤمنين. قال: ثم اندفع باكياً وهو يقول: والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر، فهل لك أن أحدّثك بليلته ويومه؟ قلت: نعم، قال: أما الليلة: فإن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج من مكة هارباً من المشركين خرج ليلاً فتبعه أبو بكر، فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره، فقال رسول الله ﷺ: **«مَا هٰذَا يَا أَبَا بَكْرٍ؟ مَا أَعْرِفُ هٰذَا مِنْ أَفْعَالِكَ»** فقال: يا رسول الله: أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك، لا آمن عليك. قال: فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت؛ فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه، وجعل يشتدّ به حتى أتى فم الغار فأنزله، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، قال: فدخل فلم ير فيه شيئاً فحمله فأدخله، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله ﷺ فيؤذيه، وجعلن يضربن أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد، ورسول الله ﷺ يقول له: **«يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا»**، فأنزل الله سكينته عليه، والطمأنينة لأبي بكر. فهذه ليلته.

وأما يومه: فلما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب فقال بعضهم: نصلي ولا نزكي، فأتيته لا آلوه نصحاً فقلت: يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم. فقال لي: أجبّار في الجاهلية خوّار في الإسلام؟ فبماذا أتألفهم؟ قبض رسول الله ﷺ وارتفع الوحي، فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، قال: فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر، فهذا يومه. ثم كتب إلى أبي موسى يلومه(١).

---

(١) حديث ضبة بن محصن: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة وفيه عن عمر أنه قال: والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بيومه وليلته؟ فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله. رواه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد ضعيف هكذا، وقصة الهجرة رواها البخاري من حديث عائشة بغير هذا السياق، واتفق عليها الشيخان من حديث أبي بكر بلفظ آخر ولهما من حديثه قال: قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال: **«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»**. وأما قتاله لأهل الردة: ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبي بكر: «كيف تقاتل الناس. . .» الحديث.

ضبة بن محصن العنزي: تابعي مشهور، ذكره ابن حبان في ثقات التابعين. روى عن عمر وأبي موسى ـ رضي الله عنهما ـ وغيرهما.

وعن الأصمعي قال: دخل عطاء بن أبي رباح على عبدالملك بن مروان ـ وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ـ فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين: اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم. فقال له: أجل أفعل، ثم نهض وقام. فقبض عليه عبدالملك فقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها، فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف.

وقد روي أنّ الوليد بن عبدالملك قال لحاجبه يوماً: قف على الباب فإذا مرّ بك رجل فأدخله عليّ ليحدّثني. فوقف الحاجب على الباب مدّة فمرّ به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال له: يا شيخ أدخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك؛ فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن عبدالعزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال: السلام عليك يا وليد قال: فغضب الوليد على حاجبه وقال له: ويلك أمرتك أن تدخل إليّ رجلاً يحدثني ويسامرني، فأدخلت إليّ رجلاً لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله لي. فقال له حاجبه: ما مرّ بي أحد غيره، ثم قال لعطاء: اجلس، ثم أقبل عليه يحدّثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له: بلغنا أن في جهنم وادياً يقال له: «هبهب» أعده الله لكل إمام جائر في حكمه. فصعق الوليد من قوله، وكان جالساً بين يدي عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس مغشياً عليه؛ فقال عمر لعطاء: قتلت أمير المؤمنين. فقبض عطاء على ذراع عمر بن عبدالعزيز، فغمزه غمزة شديدة وقال له: يا عمر، إن الأمر جد فجد، ثم قام عطاء وانصرف. فبلغنا عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه قال: مكثت سنة أجدُ ألم غمزته في ذراعي.

وكان ابن أبي شميلة يوصف بالعقل والأدب؛ فدخل على عبدالملك بن مروان فقال له عبدالملك: تكلم، قال: بم أتكلم، وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله؟ فبكى عبدالملك ثم قال: يرحمك الله، لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين: إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ومعاينة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه، فبكى عبدالملك ثم قال: لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالاً نصب عيني ما عشت.

ويروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه، ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحباً بأبي سعيد، إليّ إليّ، ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه؛ فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنال منه ونلنا منه؛ مقاربة له وفرقاً من شره، والحسن ساكت عاض على إبهامه؛ فقال: يا أبا سعيد ما لي أراك ساكتاً؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني برأيك في أبي تراب، قال: سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] فعلي ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول: ابن عم النبي عليه السلام، وختنه على ابنته، وأحب الناس

إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله؛ لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها. وأقول: إن كانت لعلي هناة فالله حسبه والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا. فبسُرَ وجه الحجاج وتغير، وقام عن السرير مغضباً فدخل بيتاً خلفه وخرجنا. قال عامر الشعبي: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد: أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك عني يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة. أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه، وتقاربه في رأيه؟ ويحك يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت، أو سكت فسلمت؟ قال عامر: يا أبا سعيد، قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذاك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة. قال: وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال: أنت الذي تقول: قاتلهم الله، قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم؟ قال: نعم. قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذ الله على العلماء من المواثيق ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ قال: يا حسن، أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغني عنك ما أكره؛ فأفرق بين رأسك وجسدك.

وحكي أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟ قال: نعم، سل عما بدا لك، فإني عاهدت الله ـ عند المقام ـ على ثلاث خصال: إن سُئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرنّ، وإن عوفيت لأشكرنّ، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أقول: إنك من أعداء الله في الأرض؛ تنتهك المحارم وتقتل بالظنة. قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان؟ قال: أقول: إنه أعظم جرماً منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه. قال: فقال الحجاج: ضعوا عليه العذاب، قال: فانتهى به العذاب إلى أن شقّق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً. قال: فقيل للحجاج: إنه في آخر رمق فقال: أخرجوه فارموا به في السوق. قال جعفر: فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له: يا حطيط، ألك حاجة؟ قال: شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمة الله عليه.

وروي أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقرائها، فجعل يسألهم وجعل يكلم عامر الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علماً، ثم أقبل على الحسن البصري فسأله، ثم قال: هما هذان، هذا رجل أهل الكوفة ـ يعني الشعبي ـ وهذا رجل أهل البصرة ـ يعني الحسن ـ، فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعبي والحسن. فأقبل على الشعبي فقال: يا أبا عمرو، إني أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها، ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمني حقهم، فأنا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم، وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه؛ فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه في بيت المال، ومن نيتي أن أرده عليهم، فيبلغ أمير المؤمنين أني قد قبضته على ذلك النحو فيكتب إليّ أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا إنفاذ كتابه، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة، فهل عليّ في هذا تبعة وفي أشباهه من الأمور، والنية فيها على ما ذكرت؟ قال الشعبي: فقلت: أصلح الله الأمير إنما السلطان والد يخطىء ويصيب، قال: فسرّ بقولي وأعجب به ورأيت البشر في وجهه وقال: فلله الحمد، ثم أقبل على الحسن فقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ قال: قد سمعت قول الأمير يقول: إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها، ورجل مأمور على الطاعة، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة لهم، والتعهد لما يصلحهم، وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة، وإني سمعت عبدالرحمن بن سمرة

القرشي صاحب رسول الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اسْتَرْعَىٰ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِالنَّصِيحَةِ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ»[1]، ويقول: إني ربما قبضت من عطائهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم، وأن يرجعوا إلى طاعتهم، فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضتها على ذلك النحو فيكتب إليّ أن لا ترده، فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه، وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين، والله أحق أن يطاع، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فاعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عزّ وجلّ؛ فإن وجدته موافقاً لكتاب الله فخذ به، وإن وجدته مخالفاً لكتاب الله فانبذه. يا ابن هبيرة، اتق الله، فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك، وتقدم على ربك وتنزل على عملك. يا ابن هبيرة، إن الله ليمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله، وإن أمر الله فوق كل أمر، وإنه لا طاعة في معصية الله، وإني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين. فقال ابن هبيرة: اربع على ظلعك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين، فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإنما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعلمه به، وما يعلمه من فضله ونيته. فقال الحسن: يا ابن هبيرة، الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب، والله بالمرصاد، يا ابن هبيرة: إنك إنْ تلق من ينصح لك في دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلاً يغرك ويُمنيك. فقام ابن هبيرة وقد بَسُرَ وجهه وتغير لونه. قال الشعبي: فقلت: يا أبا سعيد، أغضبت الأمير وأوغرت صدره، وحرمتنا معروفه وصلته، فقال: إليك عني يا عامر، قال: فخرجت إلى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا؛ فكان أهلاً لما أدى إليه وكنا أهلاً أن يفعل ذلك بنا. فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المقارف، وما شهدنا مشهداً إلا برز علينا، وقال لله عزّ وجلّ وقلنا مقاربة لهم. قال عامر الشعبي: وأنا أعاهد الله أن لا أشهد سلطاناً بعد هذا المجلس فأحابيه. ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة فقال له: ما تقول في القَدَر؟ فقال: جيرانك أهل القبور؛ فتفكر فيهم فإن فيهم شغلاً عن القَدَر.

وعن الشافعي رضي الله عنه قال: حدثني عمي محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال: فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب قال: فسأله، فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ فقال: أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس، كثيرو الأذى لهم. فقال أبو جعفر: قد سمعتم، فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، سله عن الحسن بن زيد. فقال: يا ابن أبي ذؤيب، ما تقول في الحسن بن زيد؟ فقال: أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه. فقال: قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذُؤيب وهو الشيخ الصالح؟ فقال: يا أمير المؤمنين اسأله عن نفسك. فقال: ما تقول فيّ؟ قال: تعفيني يا أمير المؤمنين، قال: أسألك بالله إلا أخبرتني. قال: تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك؟ قال: والله لتخبرني، قال: أشهد أنك

---

(١) حديث الحسن عن عبدالرحمن بن سمرة: «من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة». رواه البغوي في معجم الصحابة بإسناد لين، وقد اتفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار.

أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاش. قال: فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له: أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك! قال: فقال ابن أبي ذؤيب: يا أمير المؤمنين، قد ولي أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم، قال: فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين، إني لأنصح لك من ابنك المهدي، قال: فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له: يا أبا الحرث، لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار، ولكن ساءني قولك له: ابنك المهدي، فقال: يغفر الله لك يا أبا عبدالله، كلنا مهدي كلنا كان في المهد.

وعن الأوزاعي عبدالرحمن بن عمرو قال: بعث إليّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد علي واستجلسني ثم قال لي: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قال: قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم، قال: فقلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئاً مما أقول لك، قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه، وفيه وجهت إليك وأقدمتك له؟ قال: قلت: أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به، قال: فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة[(١)]. فطابت نفسي وانبسطت في الكلام. فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَيُّمَا عَبْدٍ جَاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ مِنَ الله فِي دِينِهِ فَإِنَّها نِعْمَةٌ مِنَ الله سِيقَتْ إِلَيْهِ فَإِنْ قَبِلَها بِشُكْرٍ وَإِلاَّ كَانَتْ حُجَّةً مِنَ الله عَلَيْهِ لِيَزْدَادَ بِها إِثْماً وَيَزْدَادَ الله بِها سُخْطاً عَلَيْهِ»**[(٢)]، يا أمير المؤمنين: حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَيُّما وَالٍ مَاتَ غَاشّاً لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ»**[(٣)]، يا أمير المؤمنين، من كره الحق فقد كره الله، إن الله هو الحق المبين. إن الذي ليّن قلوب أمتكم لكم حين ولاّكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً مواسياً لهم بنفسه في ذات يده، محموداً عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق، وأن تكون بالقسط له فيهم قائماً ولعوراتهم ساتراً، لا تغلق عليك دونهم الأبواب، ولا تقيم دونهم الحجاب، تبتهج بالنعمة عندهم، وتبتئس بما أصابهم من سوء. يا أمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم ـ أحمرهم وأسودهم، مسلمهم وكافرهم ـ وكلٌ له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو

---

(١) حديث: الأوزاعي مع المنصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة. والقصة بجملتها رواها ابن أبي الدنيا في كتاب مواعظ الخلفاء، ورويناها في مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد، وفي إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح، قال ابن عدي: يحدث بمناكير وهو عندي من أهل الصدق، وقد رأيت سرد الأحاديث المذكورة في الموعظة لنذكر هل لبعضها طريق غير هذا الطريق؟ وليعرف صحابي كل حديث أو كونه مرسلاً فأولها.

(٢) حديث عطية بن بشر: **«أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله. . .»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء.

(٣) حديث عطية بن ياسر **«أيما وال بات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة»** أخرجه ابن أبي الدنيا فيه، وابن عدي في الكامل في ترجمة أحمد بن عبيد.

ظلامة سقتها إليه؟. يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال: كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له: يا محمد، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً[1]؟ فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه؟.

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً. فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: «**اقْتَصَّ مِنِّي**» فقال الأعرابي: قد أحللتك؛ بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيت على نفسي. فدعا له بخير[2]. يا أمير المؤمنين، رضِّ نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله ﷺ: «**لَقِيدُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيها**»[3]. يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك. يا أمير المؤمنين، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]؟ قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن؟ يا أمير المؤمنين، بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حُرِمَ عدلك وهو على بساطك؟ يا أمير المؤمنين، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] قال الله تعالى في الزبور: يا داود، إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى؛ فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه، فأمحوك عن نبوتي ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة، يا داود، إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل؛ لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة؛ ليجبروا الكسير ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء. يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السمٰوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه، يا أمير المؤمنين، حدثني يزيد بن جابر عن عبدالرحمن بن عمرة الأنصاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيماً فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أنَّ لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله قال: لا، قال: وكيف ذلك؟ قال: إنه بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ وَالٍ يَلِي شَيْئاً مِنْ أُمُورِ النَّاسِ إِلاَّ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ لاَ يَفُكُّها إِلاَّ عَدْلُهُ فَيُوقَفُ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ النَّارِ يَنْتَفِضُ بِهِ**

---

(١) حديث عروة بن رويم: «كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل وعروة ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

(٢) حديث حبيب بن مسلمة: «أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه، وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ اقتص من نفسه. وللحاكم من رواية عبدالرحمن بن أبي ليلة عن أبيه: «طعن رسول الله ﷺ في خاصرة أسيد بن حضير، فقال: أوجعتني، قال: اقتص...» الحديث. قال صحيح الإسناد.

(٣) حديث: «**لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**» أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي معضلاً لم يذكر إسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ: «القاب».

ذٰلِكَ الجِسْرُ انْتِفَاضَةً تُزِيلُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ ثُمَّ يُعادُ فَيُحَاسَبُ فَإِنْ كَانَ مُحْسِناً نَجا بِإِحْسَانِهِ وَإِنْ كَانَ مُسِيئاً انْخَرَقَ بِهِ ذٰلِكَ الجِسْرُ فَيَهْوِي بِهِ فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً»[1]، فقال له عمر رضي الله عنه: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبي ذرّ وسلمان. فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ فقال عمر: واعمراه من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذرّ رضي الله عنه: من سلت الله أنفه وألصق خدّه بالأرض. قال: فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني. ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدّك العباس النبي ﷺ إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي عليه السلام: **«يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ النَّبِيِّ نَفْسٌ تُحْيِيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا»**[2] نصيحة منه لعمه وشفقة عليه، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] فقال: **«يَا عَبَّاسُ وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّي النَّبِيِّ وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ إِنِّي لَسْتُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شَيْئاً إِنَّ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ»**[3]. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد، لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرّة، ولا تأخذه في الله لومة لائم. وقال: الأمراء أربعة: فأمير قوي ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«شَرُّ الرُّعَاةِ الحُطَمَةُ فَهُوَ الهَالِكُ وَحْدَهُ»**[4]، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً.

وقد بلغني يا أمير المؤمنين، أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: «أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة، فقال له: **«يَا جِبْرِيلُ صِفْ لِيَ النَّارَ»** فقال: إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لا يضيء جمرها ولا يطفأ لهبها، والذي بعثك بالحق، لو أنّ ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً، ولو أن ذنوباً من شرابها صب في مياه الأرض جميعاً لقتل من ذاقه، ولو أنّ ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعاً لذابت وما استقلت، ولو أنّ رجلاً أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه؛ فبكى النبي ﷺ وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال: أتبكي يا محمد، وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: **«أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً وَلِمَ بَكَيْتَ يَا جِبْرِيلُ وَأَنْتَ الرُّوحُ الأَمِينُ أَمِينُ الله عَلَىٰ وَحْيِهِ»** قال:

---

(١) حديث عبدالرحمن بن عمر: أن عمر استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة... الحديث. وفيه مرفوعاً: **«ما من والٍ يلي شيئاً من أمور الناس إلا أتى الله يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من هذا الوجه، ورواه الطبراني من رواية سويد بن عبدالعزيز عن يسار بن أبي الحكم عن أبي وائل: أن عمر استعمل بشر بن عاصم فذكر أخصر منه، وأن بشراً سمعه من النبي ﷺ يذكر فيه: سلمان.

(٢) حديث: **«يا عباس يا عم النبي نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها»** أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد، ورواه البيهقي من حديث جابر متصلاً، ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً وقال: هذا هو المحفوظ مرسلاً.

(٣) حديث: **«يا عباس ويا صفية ويا فاطمة لا أغني عنكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم»** أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً دون إسناده، ورواه البخاري من حديث أبي هريرة متصلاً دون قوله: **«لي عملي ولكم عملكم»**.

(٤) حديث: **«شر الرعاة الحطمة»** رواه مسلم من حديث عائذ بن عمرو المزني متصلاً وهو عند ابن أبي الدنيا عن الأوزاعي معضلاً كما ذكره المصنف.

أخاف أن أبتلى بما ابتلي به هاروت وماروت فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي فأكون قد أمنت مكره. فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء: يا جبريل ويا محمد، إنّ الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة»[1]، وقد بلغني يا أمير المؤمنين، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين. يا أمير المؤمنين، إنّ أشد الشدة: القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله: التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه. فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك. ثم نهضت فقال لي: إلى أين؟ فقلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله. فقال: قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها، والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثل هذا فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة. قلت: أفعل إن شاء الله، قال محمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا. وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك.

وعن ابن المهاجر قال: قدم أمير المؤمنين المنصور مكة ـ شرفها الله ـ حاجاً، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يُعلم به، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس، فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينا هو يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع. فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له: أجب أمير المؤمنين؛ فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه، فقال له المنصور: ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم؛ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور ومن أصولها، وإلا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل، فقال له: أنت آمن على نفسك، فقال: الذي دخل الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض، أنت. فقال: ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي، والحلو والحامض في قبضتي؟ قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين؟ إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم؛ فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح، ثم سجنت نفسك فيها منهم، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة؛ إن نسيت لم يذكروك، وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف، ولا الجائع ولا العاري، ولا الضعيف ولا الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر ـ الذين استخلصتهم لنفسك ـ وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك ـ

(١) حديث: «بلغني أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: أتيتك حين أمر الله بمنافيخ النار وضعت على النار تسعر ليوم القيامة...» الحديث. بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا معضلاً بغير إسناد.

تجبي الأموال ولا تقسمها قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا؟ فائتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً إلا أقصوه؛ حتى تسقط منزلته ويصغر قدره، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أوّل من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوّوا بهم على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية؛ فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل؛ فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه؛ فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير؛ فما بقاء الإسلام وأهله على هذا؛ ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي: يا أهل الإسلام، فيبتدرونه ما لك ما لك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينتصف.

ولقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك، فقدمتها مرّة وقد ذهب سمع ملكهم، فجعل يبكي فقال له وزراؤه: ما لك تبكي لا بكت عيناك؟ فقال: أما إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي، ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته، ثم قال: أما إن كان قد ذهب سمعي فإنّ بصري لم يذهب، نادوا في الناس: ألا لا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم، فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوماً فينصفه، هذا ـ يا أمير المؤمنين ـ: مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة؛ **إن قلت**: أجمعها لولدي، فقد أراك الله عبراً في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وما له على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تعطي بل الله يعطي من يشاء، **وإن قلت**: أجمع المال لأشيد سلطاني؛ فقد أراك الله عبراً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة، وما أعدّوا من الرجال والسلاح والكراع، وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد. **وإن قلت**: أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها؛ فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح.

يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشدّ من القتل؟ قال: لا، قال: فكيف تصنع بالملك الذي خوّلك الله وما أنت عليك من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك؟ فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب؟ هل يغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا؟ فبكى المنصور بكاء شديداً حتى نحب وارتفع صوته ثم قال: يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً، ثم قال: كيف احتيالي فيما خوّلت فيه ولم أرَ من الناس إلا خائناً؟ قال: يا أمير المؤمنين، عليك بالأئمة الأعلام المرشدين قال: ومن هم؟ قال: العلماء، قال: قد فروا مني، قال: هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك، ولكن افتح الأبواب،

وسهّل الحجاب، وانتصر للمظلوم من الظالم، وامنع المظالم، وخذ الشيء مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن على أنّ من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك. فقال المنصور: اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل. وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم، ثم قال للحرسي: عليك بالرجل إن لم تأتني به لأضربنّ عنقك، واغتاظ عليه غيظاً شديداً فخرج الحرسي يطلب الرجل، فبينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب فقعد حتى صلى ثم قال: يا ذا الرجل، أما تتقي الله؟ قال: بلى، قال: أما تعرفه؟ قال: بلى، قال: فانطلق معي إلى الأمير، فقد آلى أن يقتلني إن لم آته بك، قال: ليس لي إلى ذلك من سبيل، قال: يقتلني، قال: لا، قال: كيف؟ قال: تحسن تقرأ، قال: لا، فأخرج من مزود كان معه رقاً مكتوباً فيه شيء فقال: خذه فاجعله في جيبك فإن فيه دعاء الفرج، قال: وما دعاء الفرج؟ قال: لا يرزقه إلا الشهداء، قلت: رحمك الله قد أحسنت إليّ، فإن رأيت أن تخبرني ما هذا الدعاء وما فضله؟ قال: من دعا به مساء وصباحاً هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه، وبسط له رزقه وأعطي أمله وأعين على عدوّه، وكتب عند الله صدّيقاً، ولا يموت إلا شهيداً، تقول: «اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك؛ اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً. اللهم إنّ عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً وإنك المحسن إليّ وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إليّ بنعمك وأتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك، فعد بفضلك وإحسانك عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم». قال: فأخذته فصيرته في جيبي ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين، فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إليّ وتبسم ثم قال: ويلك وتحسن السحر؟ فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ فقال: هات الرق الذي أعطاك، ثم جعل يبكي وقال: وقد نجوت، وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف درهم، ثم قال: أتعرفه؟ قلت: لا، قال: ذلك الخضر عليه السلام.

وعن أبي عمران الجوني قال: لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة، ففتح بيوت الأموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد، وكان يظهر النسك والتقشف، وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري قديماً، فهجره سفيان ولم يزره، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلوا به ويحدّثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه، فاشتدّ ذلك على هارون فكتب إليه كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عَبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد، يا أخي، قد علمت أنّ الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله، واعلم: أني قد واخيتك مؤاخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك، وإني منطو لك على أفضل المحبة والإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبواً؛ لِمَا أجد لك في قلبي من المحبة، واعلم يا أبا عبدالله: أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت لك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبدالله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته، فإذا ورد عليك كتابي

فالعجل العجل. فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته فقال: عليَّ برجل من الباب، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني. فقال: يا عباد، خذ كتابي هذا فانطلق به إلى الكوفة، فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور، ثم سل عن سفيان الثوري فإذا رأيته فألقِ كتابي هذا إليه، وعِ بسمعك وقلبك جميع ما يقول؛ فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به. فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها، ثم سأل عن سفيان فقيل له: هو في المسجد. قال عباد: فأقبلت إلى المسجد فلما رآني قام قائماً وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير. قال عباد: فوقعت الكلمة في قلبي فجرحت، فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة، فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم؛ كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته، فسلمت فما رفع أحد إليَّ رأسه وردوا السلام عليَّ برؤوس الأصابع، فبقيت واقفاً فما منهم أحد يعرض عليَّ الجلوس، وقد علاني من هيبتهم الرعدة ومددت عيني إليهم فقلت: إن المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب إليه، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأن حية عرضت له في محرابه، فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه، فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال: يأخذه بعضكم يقرؤه؛ فإني أستغفر الله أن أمسَّ شيئاً مسّه ظالم بيده. قال عباد: فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من فم حية تنهشه، ثم فضه وقرأه، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فقيل له: يا أبا عبدالله، إنه خليفة! فلو كتبت إليه في قرطاس نقي. فقال: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه؛ فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب؟ فقال: اكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سُلب حلاوة الإيمان.

أما بعد: فإني قد كتبت إليك أعرّفك أني قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقليت موضعك، فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين؛ فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إليَّ تشهدني على نفسك. أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى، يا هارون، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم هل رضي بذلك خلق من رعيتك؟ فشدّ يا هارون مئزرك وأعد للمسألة جواباً وللبلاء جلباباً، واعلم: أنك ستقف بين يدي الحكم العدل؛ فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً، يا هارون، قعدت على السرير ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، يشربون الخمور ويضربون من يشربها، ويزنون ويحدون الزاني! ويسرقون ويقطعون السارق! أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟ فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ـ أي الظلمة وأعوان الظلمة ـ. فقدمت بين

يدي الله تعالى؛ ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار، كأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم: أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصح غاية، فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ في أمته، وأحسن الخلافة عليهم، واعلم: أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته، فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه، والسلام.

قال عباد: فألقى إليَّ الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت: يا أهل الكوفة، فأجابوني فقلت لهم: يا قوم، من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله؟ فأقبلوا إليّ بالدنانير والدراهم، فقلت: لا حاجة لي في المال، ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية، قال: فأتيت بذلك ونزعت ما كان عليَّ من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله؛ حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلاً، فهزأ بي من كان على باب الخليفة. ثم استؤذن لي، فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام وقعد، ثم قام قائماً وجعل يلطم رأسه ووجهه، ويدعو بالويل والحزن ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسَل، ما لي وللدنيا ما لي ولملك يزول عني سريعاً؟ ثم ألقيت الكتاب إليه منشوراً كما دفع إلي. فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه، ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره. فقال هارون: اتركونا يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه. وإن سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه. ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله. فرحم الله عبداً؛ نظر لنفسه، واتقى الله فيما يقدم عليه غداً من عمله؛ فإنه عليه يحاسب وبه يجازى، والله ولي التوفيق.

وعن عبدالله بن مهران قال: حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم ضرب بالرحيل، فخرج الناس، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج بالكناسة، والصبيان يؤذونه ويولعون به؛ إذ أقبلت هوادج هارون فكف الصبيان عن الولوع به، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته: يا أمير المؤمنين، فكشف هارون السجاف بيده عن وجهه فقال: لبيك يا بهلول، فقال: يا أمير المؤمنين، حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبدالله العامري قال: رأيت النبي ﷺ منصرفاً من عرفة على ناقة له صهباء؛ لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك (١)، وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك. قال: فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض، ثم قال: يا بهلول، زدنا رحمك الله قال: نعم يا أمير المؤمنين، رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق من ماله وعف في جماله؛ كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار. قال: أحسنت يا بهلول، ودفع له جائزة: فقال: اردد الجائزة إلى من أخذتها منه، فلا حاجة

---

(١) حديث قدامة بن عبدالله العامري: «رأيت النبي ﷺ منصرفاً عن عرفة على ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك». أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه دون قوله منصرفاً من عرفة وإنما قالوا: يرمي الجمرة، وهو الصواب وقد تقدم في الباب الثاني.

لي فيها، قال: يا بهلول، فإن كان عليك دين قضيناه، قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لا يجوز. قال: يا بهلول، فنجري عليك ما يقوتك أو يقيمك، قال: فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال: يا أمير المؤمنين، أنا وأنت من عيال الله، فمحال أن يذكرك وينساني. قال: فأسبل هارون السجاف ومضى.

وعن أبي العباس الهاشمي عن صالح بن المأمون قال: دخلت على الحارث المحاسبي رحمه الله فقلت له: يا أبا عبدالله هل حاسبت نفسك؟ فقال: كان هذا مرة، قلت له: فاليوم؟ قال: أكاتم حالي؟ إني لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضن بها أن تسمعها نفسي، ولولا أن يغلبني فيها فرح ما أعلنت بها. ولقد كنت ليلة قاعداً في محرابي فإذا أنا بفتى حسن الوجه طيب الرائحة فسلم عليَّ، ثم قعد بين يدي فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا واحد من السياحين أقصد المتعبدين في محاريبهم، ولا أرى لك اجتهاداً فأي شيء عملك؟ قال: قلت له: كتمان المصائب، واستجلاب الفوائد، قال: فصاح وقال: ما علمت أن أحداً بين جنبي المشرق والمغرب هذه صفته؟ قال الحارث: فأردت أن أزيد عليه فقلت له: أما علمت أن أهل القلوب يخفون أحوالهم ويكتمون أسرارهم، ويسألون الله كتمان ذلك عليهم. فمن أين تعرفهم؟ قال: فصاح صيحة غشي عليه منها فمكث عندي يومين لا يعقل، ثم أفاق وقد أحدث في ثيابه، فعلمت إزالة عقله فأخرجت له ثوباً جديداً وقلت له: هذا كفني قد آثرتك به فاغتسل وأعد صلاتك. فقال: هات الماء فاغتسل وصلى ثم التحف بالثوب وخرج، فقلت له: أين تريد؟ فقال لي: قم معي، فلم يزل يمشي حتى دخل على المأمون فسلم عليه وقال: يا ظالم، أنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم، أستغفر الله من تقصيري فيك، أما تتقي الله تعالى فيما قد ملّكك؟ وتكلم بكلام كثير. ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون وقال: من أنت؟ قال: أنا رجل من السياحين، فكرت فيما عمل الصديقون قبلي؛ فلم أجد لنفسي فيه حظاً فتعلقت بموعظتك لعلي ألحقهم، قال: فأمر بضرب عنقه، فأُخرج وأنا قاعد على الباب ملفوفاً في ذلك الثوب ومنادٍ ينادي: من ولي هذا فليأخذ، قال الحارث: فاختبأت عنه، فأخذه أقوام غرباء فدفنوه وكنت معهم لا أعلمهم بحاله. فأقمت في مسجد بالمقابر محزوناً على الفتى فغلبتني عيناي فإذا هو بين وصائف لم أر أحسن منهن وهو يقول: يا حارث، أنت والله من الكاتمين الذين يخفون أحوالهم ويطيعون ربهم، قلت: وما فعلوا؟ قال: الساعة يلقونك، فنظرت إلى جماعة ركبان فقلت: من أنتم؟ قالوا: الكاتمون أحوالهم، حرك هذا الفتى كلامك له؛ فلم يكن في قلبه مما وصفت شيء فخرج للأمر والنهي، وإن الله تعالى أنزله معنا وغضب لعبده.

وعن أحمد بن إبراهيم المقري قال: كان أبو الحسين النوري رجلاً قليل الفضول، لا يسأل عما لا يعنيه، ولا يفتش عما لا يحتاج إليه، وكان إذا رأى منكراً غيره ولو كان فيه تلفه، فنزل ذات يوم إلى مشرعة تعرف بمشرعة الفحامين يتطهر للصلاة؛ إذ رأى زورقاً فيه ثلاثون دناً مكتوب عليها بالقار «لطف» فقرأه وأنكره؛ لأنه لم يعلم في التجارات ولا في البيوع شيئاً يعبر عنه بلطف. فقال للملاح: إيش في هذه الدنان؟ قال: وإيش عليك امض في شغلك؟ فلما سمع النوري من الملاح هذا القول ازداد تعطشاً إلى معرفته فقال: أحب أن تخبرني إيش في هذه الدنان؛ قال: وإيش عليك، أنت والله صوفي فضولي، هذا خمر للمعتضد يريد أن يتمم به مجلسه. فقال النوري: وهذا خمر؟ قال: نعم، فقال: أحب أن تعطيني ذلك المدري، فاغتاظ الملاح عليه، وقال لغلامه: أعطه حتى أنظر ما يصنع، فلما صارت المدري في يده صعد إلى الزورق؛ ولم يزل يكسرها دناً دناً حتى أتى على آخرها إلا دناً واحداً ـ والملاح

يستغيث ـ إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ ابن بشر أفلح، فقبض على النوري وأشخصه إلى حضرة المعتضد ـ وكان المعتضد سيفه قبل كلامه، ولم يشك الناس في أنه سيقتله ـ قال أبو الحسين: فأُدخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد وبيده عمود يقلبه فلما رآني قال: من أنت؟ قلت: محتسب، قال: ومن ولاك الحسبة؟ قلت: الذي ولاك الإمامة ولاني الحسبة يا أمير المؤمنين، قال: فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إليّ وقال: ما الذي حملك على ما صنعت؟ فقلت: شفقة مني عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه. قال: فأطرق مفكراً في كلامي ثم رفع رأسه إليّ وقال: كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان؟ فقلت: في تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن، فقال: هات خبرني. فقلت: يا أمير المؤمنين، إني أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لي بذلك، وغمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق عني، فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدنّ، فاستشعرت نفسي كبراً على أني أقدمت على مثلك فمنعت، ولو أقدمت عليه بالحال الأوّل وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال. فقال المعتضد: اذهب، فقد أطلقنا يدك غير ما أحببت أن تغيره من المنكر. قال أبو الحسين فقلت: يا أمير المؤمنين، بغض إلي التغيير؛ لأني كنت أغير عن الله تعالى وأنا الآن أغير عن شرطي. فقال المعتضد: ما حاجتك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر بإخراجي سالماً، فأمر له بذلك وخرج إلى البصرة، فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد، فأقام بالبصرة إلى أن توفي المعتضد ثم رجع إلى بغداد.

فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين؛ لكونهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليّنها وأزال قساوتها. وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا. ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟ والله المستعان على كل حال.

تم كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وهو الكتاب العاشر من ربع العادات الثاني من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه، وأدب نبيه محمداً ﷺ فأحسن تأديبه، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذه صفيه وحبيبه، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه، وحرم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيراً.

أما بعد: فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساويها. ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية، ولقد كنت عزمت على أن أختم ربع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة؛ لئلا يشق على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب، ثم رأيت كل كتاب من ربع العادات قد أتى على جملة من الآداب فاستثقلت تكريرها وإعادتها، فإن طلب الإعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة المعادات، فرأيت أن أقتصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله ﷺ وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد، فأسردها مجموعة فصلاً فصلاً محذوفة الأسانيد؛ ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة، التي شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلاهم رتبة وأجلهم قدراً فكيف مجموعها؟ ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته، ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار؛ ليكون ذلك معرباً عن مكارم الأخلاق والشيم، ومنتزعاً عن آذان الجاحدين لنبوّته صمام الصمم. والله تعالى ولي التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين في الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين؛ فإنه دليل المتحيرين ومجيب دعوة المضطرين. ولنذكر فيه أولاً بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه، ثم بيان كلامه وضحكه، ثم بيان أخلاقه وآدابه في الطعام، ثم بيان أخلاقه وآدابه في اللباس، ثم بيان عفوه مع القدرة، ثم بيان إغضائه عما كان يكره، ثم بيان سخاوته وجوده، ثم بيان شجاعته وبأسه، ثم بيان تواضعه، ثم بيان صورته وخلقته، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته ﷺ.

* * *

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً ﷺ بالقرآن:

كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ حَسِّنْ خَلْقِي وَخُلُقِي**»(١)، ويقول: «**اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ**»(٢)، فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فأنزل عليه القرآن وأدبه به فكان خُلُقه القرآن.

قال سعد بن هشام: دخلت على عائشة رضي الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: «كان خُلُق رسول الله ﷺ القرآن»(٣).

وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣] وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقوله: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، ولما كسرت رباعيته وشج يوم أُحد فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ**»(٤)، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] تأديباً له على ذلك.

وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر، وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق؛ فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به، ولذلك قال ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**»(٥). ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق بما أوردناه في كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

(١) حديث: كان يقول في دعائه «**اللهم حسن خلقي وخلقي**» أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة ولفظهما: «**اللهم أحسنت خلقي فأحسن خُلُقي**» وإسنادهما جيد وحديث ابن مسعود رواه ابن حبان.

(٢) حديث: «**اللهم جنبني منكرات الأخلاق**» أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك وقال الترمذي: «**اللهم إني أعوذ بك**».

(٣) حديث سعد بن هشام: «دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن». رواه مسلم ووهم الحاكم في قوله: إنهما لم يخرجاه.

(٤) حديث: «كسرت رباعيته ﷺ يوم أُحد...» الحديث. في نزول ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] أخرجه مسلم من حديث أنس وذكره البخاري تعليقاً.

(٥) حديث: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وقد تقدم في آداب الصحبة.

فلا نعيده، ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القَلَم: ٤] فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه، ثم انظر إلى عميم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى؟ فهو الذي زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القَلَم: ٤] ثم بيّن رسول الله ﷺ للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها[١] قال علي رضي الله عنه: يا عجباً لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها مما تدل على سبيل النجاة. فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم وما هو خير منه؛ لما أتى بسبايا طيىء وقفت جارية في السبي فقالت: يا محمد، إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي. فقال ﷺ: **«يَا جَارِيَةُ هٰذِهِ صِفَةُ المُؤْمِنِينَ حَقّاً لَوْ كَانَ أَبُوكِ مُسْلِماً لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ خَلُّوا عَنها فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ وَإِنَّ الله يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»** فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ حَسَنُ الأَخْلَاقِ»**[٢]، وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ الله حَفَّ الإِسْلَامَ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ»**[٣]، ومن ذلك: حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الجانب، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وعيادة المريض المسلم براً كان أو فاجراً، وتشييع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت ـ مسلماً كان أو كافراً ـ وتوقير ذي الشيبة المسلم، وإجابة الطعام والدعاء عليه، والعفو والإصلاح بين الناس، والجود والكرم والسماحة، والابتداء بالسلام، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، واجتناب ما حرّمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها، وكل ذي وتر وكل ذي دخل، والخلبة والكذب والبخل والشح، والجفاء والمكر والخديعة والنميمة، وسوء ذات البين، وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال، والاستطالة والبذخ، والفحش والتفحش، والحقد والحسد، والطيرة والبغي والعدوان والظلم. قال أنس رضي الله عنه: فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشاً ـ أو قال عيباً، أو قال شيناً ـ إلا حذرناه ونهانا عنه[٤]. ويكفي من ذلك كله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] الآية. وقال معاذ: أوصاني رسول الله ﷺ فقال: **«يَا مُعَاذُ، أُوصِيكَ بِاتِّقَاءِ الله وَصِدْقِ الحَدِيثِ وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَتَرْكِ الخِيَانَةِ وَحِفْظِ الجَارِ وَرَحْمَةِ اليَتِيمِ**

---

(١) حديث: **«إن الله يحب معالي الأخلاق ويبغض سفاسفها»** أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متصلاً، ومن رواية طلحة بن عبيدالله بن كريز مرسلاً ورجالهما ثقات.

(٢) حديث علي قوله: «واعجباً لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً...» الحديث. وفيه مرفوعاً: «لما أتي بسبايا طيىء وقفت جارية في السبي فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني...» الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف.

(٣) حديث معاذ **«حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال...»** الحديث. بطوله لم أقف له على أصل، ويغني عنه حديث معاذ الآتي بعده بحديث.

(٤) حديث أنس: «لم يدع ﷺ نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها». لم أقف له على إسناد، وهو صحيح من حيث الواقع.

وَلِينِ الكَلَامِ وَبَذْلِ السَّلَامِ وَحُسْنِ العَمَلِ وَقِصَرِ الأَمَلِ وَلُزُومِ الإِيمَانِ وَالتَّفَقُّهِ فِي القُرْآنِ وَحُبِّ الآخِرَةِ وَالجَزَعِ مِنَ الحِسَابِ وَخَفْضِ الجَنَاحِ، وَأَنْهَاكَ أَنْ تَسُبَّ حَكِيماً أَوْ تُكَذِّبَ صَادِقاً أَوْ تُطِيعَ آثِماً أَوْ تَعْصِيَ إِمَاماً عَادِلاً أَوْ تُفْسِدَ أَرْضاً، وَأُوصِيكَ بِاتِّقَاءِ اللهِ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ وَمَدَرٍ، وَأَنْ تُحْدِثَ لِكُلِّ ذَنْبٍ تَوْبَةً السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالعَلَانِيَةُ بِالعَلَانِيَةِ»(١)، فهكذا أدب عباد الله، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار:

فقال: كان ﷺ أحلم الناس(٢)، وأشجع الناس(٣)، وأعدل الناس(٤)، وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه(٥)، وكان أسخى الناس(٦)، لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأوِ إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه(٧)، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر

---

(١) حديث: «**يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث...**» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد وقد تقدم في آداب الصحبة.

(٢) حديث: «كان ﷺ أحلم الناس». أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عبدالرحمن بن أبزى: «كان رسول الله ﷺ من أحلم الناس...» الحديث. وهو مرسل. وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبدالله بن سلام في قصة إسلام زيد بن شعنة من أحبار اليهود، وقول زيد لعمر بن الخطاب: «يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه الا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً فقد اختبرتهما...» الحديث.

(٣) حديث: «أنه كان أشجع الناس» متفق عليه من حديث أنس.

(٤) حديث: «كان أعدل الناس». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب في الحديث الطويل في صفته ﷺ لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه. وفيه: «قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء..» الحديث. وفيه من لم يسم.

(٥) حديث: «كان أعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له». أخرجه الشيخان من حديث عائشة: «ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها».

(٦) حديث: «كان ﷺ أسخى الناس». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس: «**فضلت على الناس بأربع: بالسخاء والشجاعة...**» الحديث. ورجاله ثقات. وقال صاحب الميزان إنه منكر، وفي الصحيحين من حديثه: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس» واتفقا عليه من حديث ابن عباس. وتقدم في الزكاة.

(٧) حديث: «كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط وإن فضل ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه». أخرجه أبو داود من حديث بلال في حديث طويل فيه: «أهدى صاحب فدك لرسول الله ﷺ أربع ركائب عليهن كسوة وطعام وبيع بلال لذلك ووفاء دينه، ورسول الله ﷺ قاعد في المسجد وحده. وفيه قال: «**فضل شيء**» قلت: نعم، ديناران قال: «**انظر أن تريحني منهما فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما**»، فلم يأتنا أحد فبات في المسجد حتى أصبح وظل في المسجد اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى العتمة دعاني فقال: «**ما فعل الذي قبلك؟**» قلت: قد أراحك الله منه؛ فكبر وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه...» الحديث. وللبخاري من حديث عقبة بن الحارث: «ذكرت وأنا في الصلاة فكرهت أن يمسي ويبيت عندنا فأمرت بقسمته». ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسلاً: «كان لا يقبل مالاً عنده ولا يبيته».

والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله[١]، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه[٢]، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه، حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء[٣]، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله[٤]، ويقطع اللحم معهن[٥]، وكان أشدّ الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد[٦]، ويجيب دعوة العبد والحر[٧]، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها[٨]، ويأكلها ولا يأكل الصدقة[٩]، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين[١٠]، يغضب لربه

---

(١) حديث: «كان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله». متفق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب وقد تقدم في الزكاة.

(٢) حديث: «كان لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه». أخرجه الطيالسي والدارمي من حديث سهل بن سعد، وللبخاري من حديثه: «في الرجل الذي سأله الشملة فقيل له: سألته إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً...» الحديث. ولمسلم من حديث أنس: «ما سئل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه». وفي الصحيحين من حديث جابر: ما سئل قط فقال: لا.

(٣) حديث: «أنه كان يؤثر مما ادخر لعياله حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام». هذا معلوم، ويدل عليه ما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عباس: «أنه ﷺ توفي ودرعه مرهونة بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله». وقال ابن ماجه بثلاثين صاعاً من شعير، وإسناده جيد، والبخاري من حديث عائشة: «توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين»، وفي رواية البيهقي: بثلاثين صاعاً من شعير.

(٤) حديث: «وكان ﷺ يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله». أخرجه أحمد من حديث عائشة: «كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته». ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو الشيخ بلفظ: «ويرقع الثوب». وللبخاري من حديث عائشة: «كان يكون في مهنة أهله».

(٥) حديث: «أنه كان يقطع اللحم» أخرجه أحمد من حديث عائشة: «أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسكت وقطع رسول الله ﷺ» ـ أو قالت ـ فأمسك رسول الله ﷺ وقطعت. وفي الصحيحين من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر في أثناء حديث: «وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا حز له رسول الله ﷺ من سواد بطنها».

(٦) حديث: «كان من أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد». أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها».

(٧) حديث: «كان يجيب دعوة العبد والحر». أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس: «كان يجيب دعوة المملوك». قال الحاكم: صحيح الإسناد.
قلت: بل ضعيف، وللدارقطني في غرائب مالك، وضعفه، والخطيب في أسماء من روى عن مالك من حديث أبي هريرة: «كان يجيب دعوة العبد إلى أي طعام دعي ويقول: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت**». وهذا بعمومه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عند البخاري من حديث أبي هريرة، وقد تقدم، وروى ابن سعد من رواية حمزة بن عبدالله بن عتبة: «كان لا يدعوه أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه...» الحديث. وهو مرسل.

(٨) حديث: «كان يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها»، أخرجه البخاري من حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها». وأما ذكر: جرعة اللبن، وفخذ الأرنب. ففي الصحيحين من حديث أم الفضل: «أنها أرسلت بقدح لبن إلى النبي ﷺ وهو واقف بعرفة فشربه». ولأحمد من حديث عائشة: «أهدت أم سلمة لرسول الله ﷺ لبناً...» الحديث. وفي الصحيحين من حديث أنس: «أن أبا طلحة بعث بورك أرنب أو فخذها إلى رسول الله ﷺ فقبله».

(٩) حديث: «كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة». متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(١٠) حديث: «كان لا يستكبر أن يمشي مع المسكين». أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبدالله بن أبي أوفى بسند صحيح، وقد تقدم في الباب الثاني من آداب الصحبة، ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري وقال: صحيح على شرط الشيخين.

ولا يغضب لنفسه[١]، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه. وعرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال: أنا لا أنتصر بمشرك[٢]، وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلاً بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق، بل وداه بمائة ناقة وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به[٣]، وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع[٤]، ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد، ولا يتورع من مطعم حلال وإن وجد تمراً دون خبز أكله[٥]، وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز برٍّ أو شعير أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله، لا يأكل متكئاً[٦]، ولا على خوان[٧] منديله باطن قدميه[٨]، لم يشبع من

---

(١) حديث: «كان يغضب لربه ولا يغضب لنفسه». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة وفيه: «وكان لا تغضبه الدنيا وما كان منها، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها». وفيه من لم يسم.

(٢) حديث: «وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه؛ عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد في عدد من معه فأبى وقال: **«أنا لا أستنصر بمشرك»**». أخرجه مسلم من حديث عائشة: «خرج رسول الله ﷺ فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح به أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه فلما أدركه قال: جئت لأتبعك وأصيب معك فقال له: **«أتؤمن بالله ورسوله»** قال: لا. قال **«فارجع فلن أستعين بمشرك...»**» الحديث.

(٣) حديث: «وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلاً بين اليهود فلم يحف عليهم فوداه بمائة ناقة...» الحديث. متفق عليه من حديث سهل بن أبي حثمة ورافع بن خديج، والرجل الذي وجد مقتولاً هو عبدالله بن سهل الأنصاري.

(٤) حديث: «كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع». متفق عليه من حديث جابر في قصة حفر الخندق وفيه: «فإذا رسول الله ﷺ شدّ على بطنه حجراً وأغرب»، أخرجه ابن حبان فقال في صحيحه: إنما هو الحجز ـ بضم الحاء وآخره زاي ـ جمع حجزة وليس بمتابع على ذلك. ويرد على ذلك ما رواه الترمذي من حديث أبي طلحة: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين». ورجاله كلهم ثقات.

(٥) حديث: «كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد، ولا يتورع من مطعم حلال إن وجد تمراً دون خبز أكله، وإن وجد خبز بر أو شعير أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله». انتهى. هذا كله معروف من أخلاقه؛ ففي الترمذي من حديث أم هانىء دخل علي النبي ﷺ فقال: **«أعندك شيء؟»** قلت: «لا إلا خبز يابس وخل» فقال: **«هات»** الحديث، وقال: حسن غريب. وفي كتاب الشمائل لأبي الحسن بن الضحاك بن المقري من رواية الأوزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أبالي ما رددت به الجوع»** وهذا معضل، ولمسلم من حديث جابر: «أن النبي ﷺ سأل أهله الأدم فقالوا: ما عندنا إلا خل، فدعا به...» الحديث. وله من حديث أنس: «رأيته مقعياً يأكل تمرات» والترمذي وصححه من حديث أم سلمة: «أنها قربت إليه جنباً مشوياً فأكل منه...» الحديث. وللشيخين من حديث عائشة: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً خبز بر حتى مضى لسبيله». لفظ مسلم وفي رواية له: «ما شبع من خبز شعير يومين متتابعين». والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث ابن عباس: «كان أكثر خبزهم الشعير». وللشيخين من حديث عائشة: «كان يحب الحلواء والعسل». ولهما من حديث ابن عباس: «أن النبي ﷺ شرب لبناً فدعا بماء فمضمض». والنسائي من حديث عائشة: «كان يأكل الرطب بالبطيخ» وإسناده صحيح.

(٦) حديث: «أنه كان لا يأكل متكئاً»، تقدم في آداب الأكل من الباب الأول.

(٧) حديث: «أنه كان لا يأكل على خوان»، تقدم في الباب المذكور.

(٨) حديث: «كان منديله باطن قدمه». لا أعرفه من فعله وإنما المعروف فيه ما رواه ابن ماجه من حديث جابر: «كنا زمان رسول الله ﷺ قليلاً ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا». وقد تقدم في الطهارة.

خبز برّ ثلاثة أيام متوالية[(١)]، حتى لقي الله تعالى إيثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً يجيب الوليمة[(٢)]، ويعود المرضى[(٣)]، ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس[(٤)]، أشدّ الناس تواضعاً وأسكنهم في غير كبر[(٥)]، وأبلغهم في غير تطويل[(٦)]، وأحسنهم بشراً[(٧)]، لا يهوله شيء من أمور الدنيا[(٨)]، ويلبس ما وجد، فمرّة شملة ومرة برد حبرة يمانياً ومرّة جبة صوف ما وجد من المباح لبس[(٩)]، وخاتمه فضة[(١٠)]،

---

(١) حديث: «لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله». تقدم في جملة الأحاديث التي قبله بثلاثة أحاديث.

(٢) حديث: كان يجيب الوليمة. هذا معروف وتقدم قوله: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت**»، وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس: «أنه كان الرجل من أهل العوالي ليدعو رسول الله ﷺ بنصف الليل على خبز الشعير فيجيب». وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: «كان يعود المريض ويشهد الجنازة». أخرجه الترمذي وضعفه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أنس، ورواه الحاكم من حديث سهل بن حنيف، وقال صحيح الإسناد. وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى وشهوده للجنائز.

(٤) حديث: «كان يمشي وحده بين أعدائه بلا حارس»، أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة: «كان رسول الله ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المَائدة: ٦٧] فأخرج رأسه من القبة فقال: «**انصرفوا فقد عصمني الله**» قال الترمذي غريب. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٥) حديث: «كان أشد الناس تواضعاً وأسكنهم من غير كبر». رواه أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته ﷺ: «هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه ـ إلى أن قال ـ متواضع في غير ذلة ـ وفيه ـ دائب الإطراق». وإسناده ضعيف، وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه. منها عند النسائي من حديث ابن أبي أوفى: «كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين...» الحديث. وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء: فجلس وجلسنا كأن على رؤوسنا الطير...» الحديث. ولأصحاب السنن من حديث أسامة بن شريك: «أتيت النبي ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير».

(٦) حديث: «كان أبلغ الناس من غير تطويل»، أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة: «كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه». ولهما من حديثهما: «لم يكن يسرد الحديث كسردكم»، علقه البخاري ووصله مسلم: زاد الترمذي: «ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جلس إليه»، وله في الشمائل من حديث ابن أبي هالة: «يتكلم بجوامع الكلم فصل لا فضول ولا تقصير».

(٧) حديث: «كان أحسنهم بشراً». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب: «كان رسول الله ﷺ دائم البشر سهل الخلق...» الحديث. وله في الجامع من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء: «ما رأيت أحداً كان أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ» وقال: غريب. قلت: وفيه ابن لهيعة.

(٨) حديث: «كان لا يهوله شيء من أمور الدنيا». أخرجه أحمد من حديث عائشة: «ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذو تقى». وفي لفظ له: «ما أعجب النبي ﷺ شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذو تقى». وفيه ابن لهيعة.

(٩) حديث: «كان يلبس ما وجد؛ فمرة شملة ومرة حبرة ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس». أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد: «جاءت امرأة ببردة. قال سهل: هل تدرون ما البردة؟ هي الشملة منسوج في حاشيتها» وفيه: «فخرج إلينا وإنها لإزاره...» الحديث. ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت: «أن رسول الله ﷺ صلى في شملة قد عقد عليها». فيه الأحوص بن حكيم مختلف فيه، وللشيخين من حديث أنس: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ أن يلبسها الحبرة». ولهما من حديث المغيرة بن شعبة وعليه جبة من صوف.

(١٠) حديث: «خاتمه فضة». متفق عليه من حديث أنس: «اتخذ خاتماً من فضة».

يلبسه في خنصره الأيمن[١] والأيسر[٢]، يردف خلفه عبده أو غيره[٣]، يركب ما أمكنه؛ مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة بغلة شهباء ومرة حماراً ومرة يمشي راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، يعود المرضى في أقصى المدينة[٤]، يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة[٥]، ويجالس الفقراء[٦]، ويؤاكل المساكين[٧]، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم[٨]، يصل ذوي رحمه من

---

(١) حديث: «لبسه الخاتم في خنصره الأيمن» أخرجه مسلم من حديث أنس: «أن رسول الله ﷺ لبس خاتم فضة في يمينه»، وللبخاري من حديثه: «فإني لأرى بريقه في خنصره».

(٢) حديث: «تختمه في الأيسر» أخرجه من حديث أنس: «كان خاتم النبي ﷺ في هذه ـ وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى ـ».

(٣) حديث: إردافه خلفه عبده أو غيره: «أردف ﷺ أسامة بن زيد من عرفة». كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة، وأردفه مرة أخرى على حمار وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة، وهو مولاه وابن مولاه، وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس، وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة.

(٤) حديث: «كان يركب ما أمكنه مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة بغلة شهباء ومرة حماراً راجلاً ومرة حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، يعود المرضى في أقصى المدينة». ففي الصحيحين من حديث أنس: «ركوبه ﷺ فرساً لأبي طلحة». ولمسلم من حديث جابر بن سمرة: «ركوبه الفرس عرياً حين انصرف من جنازة ابن الدحداح»، ولمسلم من حديث سهل بن سعد: «كان للنبي ﷺ فرس يقال له: اللحيف». ولهما من حديث ابن عباس: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على بعير». ولهما من حديث البراء: «رأيت النبي ﷺ على بغلته البيضاء يوم حنين». ولهما من حديث أسامة: «أنه ﷺ ركب على حمار على إكاف...» الحديث. ولهما من حديث ابن عمر: «كان يأتي قبا راكباً وماشياً». ولمسلم من حديثه في عيادته ﷺ لسعد بن عبادة: «فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص نمشي في السباخ...» الحديث.

(٥) حديث: «كان يحب الطيب والرائحة الطيبة ويكره الروائح الرديئة». أخرجه النسائي من حديث أنس: «حبب إلي النساء والطيب»، وأبو داود والحاكم من حديث عائشة: «أنها صنعت لرسول الله ﷺ جبة من صوف فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف فخلعها وكان يعجبه الريح الطيبة». لفظ الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولابن عدي من حديث عائشة: «كان يكره أن يوجد منه إلا ريح طيبة».

(٦) حديث: «كان يجالس الفقراء». أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد: «جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستتر بعضاً من العري....» الحديث. وفيه: «فجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا...» الحديث. وابن ماجه من حديث خباب: «وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا...» الحديث. في نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] إسنادهما حسن.

(٧) حديث: «مؤاكلته للمساكين» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال: «وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها».

(٨) حديث: «كان يكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي الطويل في صفته ﷺ: «وكان من سيرته إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين». وفيه: «ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم....» الحديث. وللطبراني من حديث جرير في قصة إسلامه: فألقى إليّ كساءه ثم أقبل على أصحابه ثم قال: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه». وإسناده جيد، ورواه الحاكم من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه نحوه، وقال: صحيح الإسناد.

غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم[(١)]، لا يجفو على أحد[(٢)]، يقبل معذرة المعتذر إليه[(٣)]، يمزح ولا يقول إلاّ حقاً[(٤)]، يضحك من غير قهقهة[(٥)]، يرى اللعب المباح فلا ينكره[(٦)]، يسابق أهله[(٧)]، وترفع الأصوات عليه فيصبر[(٨)]، وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها[(٩)]، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس[(١٠)]، ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد له منه

---

(١) حديث: «كان يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم». أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس: «كان يجل العباس إجلال الوالد والوالدة». وله من حديث سعد بن وقاص: أنه أخرج عمه العباس وغيره من المسجد فقال له العباس: تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن علياً فقال: «**ما أنا أخرجكم وأسكنه ولكن الله أخرجكم وأسكنه**»، قال في الأول صحيح الإسناد وسكت عن الثاني، وفيه مسلم الملائي ضعيف. فآثر علياً لفضله بتقدم إسلامه وشهوده بدراً والله أعلم، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد: «**لا يبقين في المسجد باب إلاّ سدّ إلا باب أبي بكر**».

(٢) حديث: «كان لا يجفو على أحد». رواه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي في اليوم والليلة من حديث أنس: «كان قلما يواجه رجلاً بشيء يكرهه». وفيه ضعف، وللشيخين من حديث أبي هريرة: أن رجلاً استأذن عليه ﷺ فقال: «**بئس أخو العشيرة فلما دخل ألان له القول...**» الحديث.

(٣) حديث: «يقبل معذرة المعتذر إليه». متفق عليه من حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه: «**طفق المخلفون يعتذرون إليه فقبل منهم علانيتهم...**» الحديث.

(٤) حديث: «يمزح ولا يقول إلا حقاً». أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند الترمذي بلفظ: قالوا إنك تداعبنا: قال: «**إي ولا أقول إلا حقاً**» وقال حسن.

(٥) حديث: «ضحكه من غير قهقهة» أخرجه الشيخان من حديث عائشة: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم» والترمذي من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء: «ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً». قال: صحيح غريب وله في الشمائل في حديث هند بن أبي هالة: «جل ضحكه التبسم».

(٦) حديث: «يرى اللعب المباح لا يكرهه». أخرجه الشيخان من حديث عائشة: في لعب الحبشة بين يديه في المسجد وقال لهم: «**دونكم يا بني أرفدة**» وقد تقدم في كتاب السماع.

(٧) حديث: «مسابقته ﷺ أهله». أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث عائشة، في مسابقته لها. وتقدم في الباب الثالث من النكاح.

(٨) حديث: «ترفع الأصوات عنده فيصبر»، أخرجه البخاري من حديث عبدالله بن الزبير: «قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي؟ وقال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجرَات: ١].

(٩) حديث: «وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها». أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث أم سلمة: «كان عيشنا مع رسول الله ﷺ اللبن ـ أو قالت أكثر عيشنا ـ كانت لرسول الله ﷺ لقاح بالغابة...» الحديث. وفي رواية له: «كانت لنا أعنز سبع فكان الراعي يبلغ بهن مرة الحمى ومرة أحداً ويروح بهن علينا وكانت لقاح بذي الجبل فيؤوب إلينا بألبانها بالليل...» الحديث. وفي إسنادهما محمد بن عمر الواقدي ضعيف في الحديث، وفي الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع: «كانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قرد...» الحديث. ولأبي داود من حديث لقيط بن صبرة: «**لنا غنم مائة لا نريد أن تزيد فإذا ولد الراعي بهمة ذبحنا مكانها شاة...**» الحديث.

(١٠) حديث: «كان له عبيد وإماء فلا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس». أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث سلمى قالت: «كان خدم النبي ﷺ أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد أعتقهن كلهن». وإسناده ضعيف، وروي=

من صلاح نفسه(١)، يخرج إلى بساتين أصحابه(٢)، لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه؛ يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً(٣)، قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة؛ وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقره، وفي رعاية الغنم يتيماً لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأوّلين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة، والغبطة والخلاص في الدنيا، ولزوم الواجب وترك الفضول(٤). وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يا رب العالمين.

= أيضاً: «أن أبا بكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبدالعزيز بأسماء خدم رسول الله ﷺ فذكر: بركة - أم أيمن - وزيد بن حارثة، وأبا كبشة، وأنسة، وشقران، وسفينة، وثوبان، ورباحاً، ويساراً، وأبا رافع، وأبا مويهبة، ورافعاً؛ أعتقهم كلهم، وفضالة، ومدعماً، وكركرة»، وروى أبو بكر بن الضحاك في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد ضعيف: «كان ﷺ يأكل مع خادمه». ومسلم من حديث أبي اليسر «أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون...» الحديث.

(١) حديث: «لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب: «كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزء بينه وبين الناس فرد ذلك بالخاصة على العامة...» الحديث.

(٢) حديث: «يخرج إلى بساتين أصحابه». تقدم في الباب الثالث من آداب الأكل. (خروجه ﷺ إلى بستان أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وغيرهما).

(٣) حديث: «لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحداً». أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد: «مرّ على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح...» الحديث. وفيه: «فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح...» الحديث. وفيه: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»، ومسلم من حديث أنس: «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل».

(٤) حديث: «قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى وفي فقر وفي رعاية الغنم لا أب له ولا أم، فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفصول». هذا كله معروف معلوم، فروى الترمذي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب في حديثه الطويل في صفته: «وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه...» الحديث. وفيه: «فسألته عن سيرته في جلسائه فقال: كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب...» الحديث. وفيه: «كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه». وفيه: «وقد ترك نفسه من ثلاث: من المراء والإكثار وما لا يعنيه...» الحديث. وقد تقدم بعضه، وروى ابن مردويه من حديث ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] قال: «كان نبي الله ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب». وقد تقدم في العلم، وللبخاري من حديث ابن عباس قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»، وأحمد وابن حبان من حديث أم سلمة في قصة هجرة الحبشة: «أن جعفراً قال للنجاشي: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة...» الحديث. ولأحمد من حديث أبي بن كعب: «إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر فإذا كلام فوق رأسي...» الحديث. والبخاري من حديث أبي هريرة: «كنت أرعاها - أي الغنم - على قراريط لأهل مكة» ولأبي يعلى وابن حبان من حديث حليمة: «إنما نرجو كرامة الرضاعة من والد المولود وكان يتيماً...» الحديث. وتقدم حديث «بعثت بمكارم الأخلاق».

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه:

مما رواه أبو البحتري قال: ما شتم رسول الله ﷺ أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة[١]، وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة[٢]، وقيل له وهو في القتال: لو لعنتهم يا رسول الله فقال: «إِنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً وَلَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً»[٣]. وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له[٤]. وما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم؛ فيكون أبعد الناس من ذلك[٥]. وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته[٦]. وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه: «لِمَ فَعَلْتَهُ؟» ولا لامني أحد من أهله إلا قال: «دَعُوهُ إِنَّما كَانَ هٰذَا بِكِتَابٍ وَقَدَرٍ»[٧]. قالوا: وما عاب رسول الله ﷺ مضجعاً؛ إن فرشوا له اضطجع، وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض[٨]، وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال: محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ

---

(١) حديث: «ما شتم أحداً من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة» متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه: «فأي المؤمنين لعنته شتمته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة» وفي رواية: «فاجعلها زكاة ورحمة» وفي رواية: «فاجعلها له كفارة وقربة» وفي رواية: «فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة».

(٢) حديث: «ما لعن امرأة ولا خادماً قط». المعروف: ما ضرب. مكان ما لعن. كما هو متفق عليه من حديث عائشة، وللبخاري من حديث أنس: «لم يكن فحاشاً ولا لعاناً». وسيأتي الحديث الذي بعده فيه هذا المعنى.

(٣) حديث: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «كان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعا له». أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة: «قالوا: يا رسول الله إن دوساً قد كفرت وأبت فادع عليهم. فقيل: «هلكت دوس» فقال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم».

(٥) حديث: «ما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب في سبيل الله وما انتقم في شيء صنع إليه إلا أن تنتهك حرمة الله...» الحديث. متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف، وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

(٦) حديث: «ما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته»، أخرجه البخاري تعليقاً من حديث أنس: «إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»، ووصله ابن ماجه وقال: «فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها». وقد تقدم. وتقدم أيضاً من حديث ابن أبي أوفى: «ولا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين حتى يقضي لهما حاجتهما».

(٧) حديث أنس: والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه: «لم فعلته؟» ولا لامني أحد من أهله إلا قال: «دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر» أخرجه الشيخان من حديث أنس: ما قال لشيء صنعته؟ «لم صنعته» ولا لشيء تركته «لم تركته». وروى أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من حديث له قال فيه: «ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه، فإن عاتبني أحد من أهله قال: «دعوه فلو قدر شيء كان» وفي رواية له «كذا قضي».

(٨) حديث: «ما عاب مضجعاً إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض». لم أجده بهذا اللفظ والمعروف: ما عاب طعاماً. ويؤخذ من عموم حديث علي بن أبي طالب. ليس بفظ، إلى أن قال: ولا عياب. رواه الترمذي في الشمائل، والطبراني وأبو نعيم في دلائل النبوة، وروى ابن أبي عاصم في كتاب السنة من حديث أنس: ما أعلمه عاب شيئاً قط. وفي الصحيحين من حديث عمر: اضطجاعه على حصير والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود: «نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه...» الحديث.

ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام، يأتزر على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه. وكذلك نعته في الإنجيل. وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام(١)، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف(٢)، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر(٣). وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها(٤)، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله(٥)، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال: **«أَلَكَ حَاجَةٌ؟»** فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته(٦)، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة(٧)، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه(٨)؛ لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس(٩)، وما رئي قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد، إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة(١٠)، وكان يكرم من يدخل عليه؛ حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا

---

(١) حديث: «كان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة.

(٢) حديث: «ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف»، أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي بن أبي طالب، وهو من حديث أنس: «كان إذا لقي الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف». ورواه الترمذي نحوه وقال: غريب.

(٣) حديث: «وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس الذي قبله: «كان إذا استقبل الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع». لفظ الترمذي وقال غريب.

(٤) حديث: «كان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته». أخرجه أبو داود من حديث أبي ذر: «وسأله رجل من عنزة: هل كان رسول الله ﷺ يصافحكم إذا لقيتموه؟ قال: ما لقيته قط إلا صافحني...» الحديث. وفيه الرجل الذي من عنزة ولم يسم وسماه البيهقي في الأدب عبدالله، وروينا في عموم الحديث للحاكم من حديث أبي هريرة قال: شبك بيدي أبو القاسم ﷺ وهو عند مسلم بلفظ: أخذ رسول الله ﷺ بيده.

(٥) حديث: «كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل»، أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي في حديثه الطويل في صفته وقال: على ذكر ـ بالتنوين ـ.

(٦) حديث: «كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل» عليه فقال: **«ألك حاجة؟»** فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته»ولم أجد له أصلاً.

(٧) حديث: «كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة». أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري: «كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبى بيديه» وإسناده ضعيف، والبخاري من حديث ابن عمر: «رأيت رسول الله ﷺ بفناء الكعبة محتبياً بيديه».

(٨) حديث: «إنه لم يكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه». أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر قالا: «كان النبي ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو؟ حتى يسأل...» الحديث.

(٩) حديث: «إنه حيثما انتهى به المجلس جلس». رواه الترمذي في الشمائل في حديث علي الطويل.

(١٠) حديث: «ما رئي قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد، إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه»، أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من حديث أنس وقال: باطل، والترمذي وابن ماجه: «لم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له»، زاد ابن ماجه قط، وسنده ضعيف.

رضاع يجلسه عليه[(١)]، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل[(٢)]، وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه[(٣)]، حتى يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩]. ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم؛ إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم[(٤)]، ويكني من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به[(٥)]، ويكني أيضاً النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدىء لهن الكنى[(٦)]، ويكني الصبيان فيستلين به قلوبهم[(٧)]، وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا[(٨)]، وكان أرأف الناس

---

(١) حديث: «كان يكرم من يدخل عليه؛ حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه». أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث أنس: دخل جرير بن عبدالله على النبي ﷺ وفيه: فأخذ بردته فألقاها عليه فقال: **«اجلس عليها يا جرير»** الحديث. وفيه: **«فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»** وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة. وللطبراني في الكبير من حديث جرير. فألقى إلي كساء، ولأبي نعيم في الحلية. فبسط إلي رداءه.

(٢) حديث: «كان يؤثر الداخل بالوسادة التي تكون تحته. . .» الحديث. تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

(٣) حديث: «ما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه وتوجهه للجالس إليه، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي الطويل وفيه: «ويعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه. مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة».

(٤) حديث: «كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم». في الصحيحين في قصة الغار من حديث أبي بكر: **«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»**. وللحاكم من حديث ابن عباس. أنه قال لعمر: **«يا أبا حفص، أبصرت وجه عم رسول الله ﷺ»**، قال عمر: «إنه لأول يوم كناني فيه بأبي حفص». وقال صحيح على شرط مسلم، وفي الصحيحين أنه قال لعلي: **«قم يا أبا تراب»**، وللحاكم من حديث رفاعة بن مالك: **«أن أبا حسن وجد مغصاً في بطنه فتخلفت عليه»** ـ يريد علياً ـ ولأبي يعلى الموصلي من حديث سعد بن أبي وقاص: «فقال: **من هذا؟ أبو إسحاق؟»** فقلت: نعم، وللحاكم من حديث ابن مسعود: **«أن النبي ﷺ كناه أبا عبدالرحمن ولم يولد له»**.

(٥) حديث: «كان يكني من لم يكن له كنية وكان يدعى بما كناه به» أخرجه الترمذي من حديث أنس. قال: «كناني ﷺ ببقلة كنت اختليها ـ يعني أبا حمزة ـ» قال حديث غريب وابن ماجه: «أن عمر قال لصهيب بن مالك: تكتني وليس لك ولد؟ قال: كناني رسول الله ﷺ بأبي يحيى». وللطبراني من حديث أبي بكرة: تدليت ببكرة من الطائف فقال لي النبي ﷺ: **«فأنت أبو بكرة»**.

(٦) حديث: «كان يكني النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدىء لهن الكنى». أخرجه الحاكم من حديث أم أيمن في قصة شربها بول النبي ﷺ فقال: **«يا أم أيمن قومي إلى تلك الفخارة. . .»** الحديث. وابن ماجه من حديث عائشة: أنها قالت للنبي ﷺ كل أزواجك كنيته غيري قال **«فأنت أم عبدالله»**، والبخاري من حديث أم خالد: «أن النبي ﷺ قال لها: **«يا أم خالد هذا سناه»** وكانت صغيرة وفيه مولى للزبير لم يسم ولأبي داود بإسناد صحيح: «أنها قالت: يا رسول الله كل صواحبي لهن كنى قال: **«فاكتني بابنك عبدالله بن الزبير»**.

(٧) حديث: كان يكني الصبيان. ففي الصحيحين من حديث أنس. أن النبي ﷺ قال لأخ له صغير: **«يا أبا عمير ما فعل النغير»**.

(٨) حديث: «كان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا». هذا من المعلوم ويدل عليه إخباره ﷺ: أن بني آدم خيرهم بطيء الغضب سريع الفيء. رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري وقال حديث حسن وهو ﷺ خير بني آدم وسيدهم، وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. رواه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة.

بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس[(١)] ، ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات[(٢)] ، وكان إذا قام من مجلسه قال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» ثم يقول: «عَلَّمَنِيهُنَّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ»[(٣)] .

بيان كلامه وضحكه ﷺ

كان ﷺ أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً ويقول[(٤)] :

«**أنا أفصح العرب**»[(٥)] ، وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد ﷺ[(٦)] ، وكان نزر الكلام سمح المقالة؛ إذا نطق ليس بمهذار، وكان كلامه كخرزات نظمن[(٧)] . قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا؛ كان كلامه نزراً وأنتم تنثرون الكلام نثراً[(٨)] ، قالوا: وكان أوجز الناس كلاماً وبذاك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد[(٩)] ، وكان يتكلم بجوامع الكلام لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه[(١٠)] ، وكان جهير الصوت أحسن

---

(١) حديث: «كان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس». هذا من المعلوم ورويناه في الجزء الأول من فوائد أبي الدحداح من حديث علي في صفة النبي ﷺ: «كان أرحم الناس بالناس. . .» الحديث. بطوله.

(٢) حديث: «لم تكن ترفع في مجلسه الأصوات». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي الطويل.

(٣) حديث: «كان إذا قام من مجلسه قال: «**سبحانك اللهم وبحمدك**. . .»» الحديث. أخرجه النسائي في اليوم والليلة، والحاكم في المستدرك من حديث رافع بن خديج، وتقدم في الأذكار والدعوات.

(٤) حديث: «كان أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً». أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في كتاب الشمائل، وابن الجوزي في الوفاء بإسناد ضعيف من حديث بريدة: «كان رسول الله ﷺ من أفصح العرب وكان يتكلم بالكلام لا يدرون ما هو حتى يخبرهم».

(٥) حديث: «**أنا أفصح العرب**» أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري: «**أنا أعرب العرب**». وإسناده ضعيف والحاكم من حديث عمر: «قال: قلت يا رسول الله ما بالك أفصحنا ولم تخرج [إلاّ] من بين أظهرنا؟» الحديث: وفي كتاب الرعد والمطر لابن أبي الدنيا حديث مرسل: «أن أعرابياً قال للنبي ﷺ ما رأيت أفصح منك؟».

(٦) حديث: «إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد ﷺ» أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وصححه: «**كلام أهل الجنة عربي**».

(٧) حديث «كان نزر الكلام سمح المقالة، إذا نطق ليس بمهذار وكأن كلامه خرزات النظم». أخرجه الطبراني من حديث أم معبد: «وكان منطقه خرزات نظم ينحدرن حلو المنطق لا نزر ولا هذر». وقد تقدم وسيأتي في حديث عائشة بعده: «كان إذا تكلم تكلم نزراً» وفي الصحيحين من حديث عائشة: «كان يحدثنا حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه».

(٨) حديث عائشة: «كان لا يسرد كسردكم هذا، كان كلامه نزراً وأنتم تنثرونه نثراً». اتفق الشيخان على أول الحديث، وأما الجملتان الأخيرتان فرواه الخلعي في فوائده بإسناد منقطع.

(٩) حديث: «كان أوجز الناس كلاماً وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد» أخرجه عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع، والدارقطني من حديث ابن عباس بإسناد جيد: «**أعطيت جوامع الكلم**» واختصر لي الحديث اختصاراً. وشطره الأول متفق عليه ـ كما سيأتي ـ قال البخاري: بلغني في جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك. وللحاكم من حديث عمر المتقدم: «كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل فحفظنيها».

(١٠) حديث: «كان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كلام يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه». رواه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**بعثت بجوامع الكلم**». ولأبي داود من حديث جابر: كان في كلام النبي ﷺ ترتيل أو ترسيل. وفيه شيخ لم يسم وله=

الناس نغمة[١]، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة[٢]، ولا يقول المنكر، ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق[٣]. ويعرض عمن تكلم بغير جميل[٤]، ويكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره[٥]. وكان إذا سكت تكلم جلساؤه، ولا يتنازع عنده[٦] في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة[٧]. ويقول: **«لاَ تَضْرِبُوا القُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ فَإِنَّهِ أُنْزِلَ عَلَىٰ وُجُوهٍ»**[٨]، وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما تحدثوا به وخلطاً لنفسه بهم[٩]، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه[١٠]، وكان ضحك أصحابه

= وللترمذي من حديث عائشة: «كان كلام النبي ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه». وقال الترمذي: «يحفظه من جلس إليه»، وقال الترمذي في اليوم والليلة: «يحفظه من سمعه» وإسناده حسن.

(١) حديث: «كان جهير الصوت أحسن الناس نغمة». أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث صفوان بن عسال قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر بينا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري: يا محمد فأجابه رسول الله ﷺ على نحو من صوته: «هاؤم» الحديث. وقال أحمد في مسنده: «وأجابه نحواً مما تكلم به...» الحديث. وقد يؤخذ من هذا أنه ﷺ كان جهوري الصوت ولم يكن يرفعه دائماً، وقد يقال لم يكن جهوري الصوت وإنما رفع صوته رفقاً بالأعرابي حتى لا يكون صوته أرفع من صوته وهو الظاهر، وللشيخين من حديث البراء: «ما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه».

(٢) حديث: «كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة». أخرجه في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة.

(٣) حديث: لا يقول المنكر ولا يقول في الرضى والغضب إلا الحق. أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو قال: لا كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه، وقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق» رواه الحاكم وصححه.

(٤) حديث: «يعرض عمن تكلم بغير جميل». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي الطويل: «يتغافل عما لا يشتهي» الحديث.

(٥) حديث: يكني عما اضطره الكلام بما يكره فمن ذلك قوله ﷺ لامرأة رفاعة: «حتى تذوقي عسيله ويذوق عسيلتك» رواه البخاري من حديث عائشة: ومن ذلك ما اتفقا عليه من حديثهما في المرأة التي سألته عن الاغتسال من الحيض «خذي فرصة ممسكة فتطهري بها...» الحديث.

(٦) حديث: «كان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث»، أخرجه الترمذي في الشمائل في حديث علي الطويل.

(٧) حديث: يعظ بالجد والنصيحة. أخرجه مسلم من حديث جابر: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم...» الحديث.

(٨) حديث: «لا تضربوا القرآن بعضه ببعض وأنه أنزل على وجوه» أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو بإسناد حسن: «إن القرآن يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض»، وفي رواية للهروي في ذم الكلام: «إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض» وفي رواية له: «أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض» وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف».

(٩) حديث: «كان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما تحدثوا به وخلطاً لنفسه بهم». أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ» وفي الصحيحين من حديث جرير: «ولا رآني إلا تبسم». والترمذي في الشمائل من حديث علي: «يضحك مما تضحكون منه ويتعجب مما تعجبون منه». ومسلم من حديث جابر بن سمرة: «كانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم».

(١٠) حديث: «ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه». متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود في قصة آخر من يخرج من النار وفي قصة الحبر الذي قال: إن الله يضع السمٰوات على أصبع. ومن حديث أبي هريرة في قصة المجامع في رمضان وغير ذلك.

عنده التبسم اقتداءً به وتوقيراً له[١]، قالوا: ولقد جاءه أعرابي يوماً وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا: لا تفعل يا أعرابي، فإنا ننكر لونه فقال: دعوني فوالذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يتبسم، فقال: يا رسول الله، بلغنا أن المسيح يعني الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعاً، أفترى لي بأبي أنت وأمي أنْ أكف عن ثريده تعففاً وتنزهاً حتى أهلك هزالاً، أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شبعاً آمنت بالله وكفرت به؟ قالوا: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: **«لاَ، بَلْ يُغْنِيكَ الله بِمَا يُغْنِي بِهِ المُؤْمِنِينَ»**[٢]، قالوا: وكان من أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة[٣]، وكان إذا سرَّ ورضي فهو أحسن الناس رضاً فإن وعظ وعظ بجد وإن غضب ـ وليس يغضب إلا لله ـ لم يقم لغضبه شيء، وكذلك كان في أموره كلها[٤]، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله، وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول: **«اللَّهُمَّ أَرِنِي الحَقَّ حَقاً فَأَتَّبِعَهُ وَأَرِنِي المُنْكَرَ مُنْكَراً وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ وَأَعِذْنِي مِنْ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيَّ فَأَتَّبِعَ هَوَايَ بِغَيْرِ هُدىً مِنْكَ وَاجْعَلْ هَوَايَ تِبْعاً لِطَاعَتِكَ وَخُذْ رِضا نَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي فِي عَافِيَةٍ وَاهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»**[٥].

---

(١) حديث: «كان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة في أثناء حديثه الطويل: جل ضحكه التبسم.

(٢) حديث: «جاءه أعرابي يوماً وهو متغير ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا: لا تفعل يا أعرابي، فإنا ننكر لونه فقال: دعوني والذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يتبسم. فقال: يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعاً...» الحديث. وهو حديث منكر لم أقف له على أصل ويرده قوله ﷺ في حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه حين سأله: إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال: **«هو أهون على الله من ذلك»** وفي رواية لمسلم: «إنهم يقولون معه جبالاً من خبز ولحم...» الحديث. نعم في حديث حذيفة وأبي مسعود المتفق عليهما: «إن معه ماء وناراً...» الحديث.

(٣) حديث: «كان من أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه القرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة». تقدم حديث عبدالله بن الحارث: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً منه». وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر: «كان إذا نزل عليه الوحي قلت: نذير قوم، فإذا سري عنه فأكثر الناس ضحكاً...» الحديث. ولأحمد من حديث علي أو الزبير: «كان يخطب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك في وجهه وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكاً حتى يرتفع عنه»، ورواه أبو يعلى من حديث الزبير من غير شك، وللحاكم من حديث جابر: «كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه». وهو عند مسلم بلفظ: كان إذا خطب.

(٤) حديث: «كان إذا سر ورضي فهو أحسن الناس رضاً، وإن وعظ وعظ بجد، وإن غضب ـ ولا يغضب إلا لله ـ لم يقم لغضبه شيء، وكذلك كان في أموره كلها»، أخرجه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديث ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضي فكأنما تلاحك الجدر وجهه»، وإسناده ضعيف والمراد به: المرآة توضع في الشمس فيرى ضوءها على الجدار، وللشيخين من حديث كعب بن مالك قال: وهو يبرق وجهه من السرور. وفيه: «وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه...» الحديث. ومسلم: «كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه...» الحديث. وقد تقدم، والترمذي في الشمائل في حديث هند بن أبي هالة: «لا تغضبه الدنيا وما كان منها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها»، وقد تقدم.

(٥) حديث: كان يقول: **«اللهم أرني الحق حقاً فأتبعه وأرني المنكر منكراً وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشتبه عليّ فأتبع=**

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام:

كان ﷺ يأكل ما وجد[(١)]، وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف[(٢)]، والضفف: ما كثرت عليه الأيدي، وكان إذا وضعت المائدة قال: «**بِسْمِ اللهِ اجْعَلْهَا نِعْمَةً مَشْكُورَةً تَصِلُ بِها نِعْمَةَ الجَنَّةِ**»[(٣)]، وكان كثيراً إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه، كما يجلس المصلي إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ وَأَجْلِس كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ**»[(٤)]، وكان لا يأكل الحار ويقول: «**إِنَّهُ غَيْرُ ذِي بَرَكَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَمْ يُطْعِمْنا ناراً فَأَبْرِدُوهُ**»[(٥)]، وكان يأكل مما يليه[(٦)]، ويأكل بأصابعه الثلاث[(٧)]،

= **هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعاً لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» لم أقف لأوله على أصل، وروى المستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة: كان النبي ﷺ يدعو فيقول: «**اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يرضيك عنا**» ومسلم من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل «**اهدني لما اختلف فيه**» إلى آخر الحديث.

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

(١) حديث: «كان يأكل ما وجد»، تقدم.

(٢) حديث: «كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أي كثرت عليه الأيدي»، أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل من حديث جابر بسند حسن: «أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي». ولأبي يعلى من حديث أنس: «لم يجتمع له غذاء وعشاء خبز ولحم إلا على ضفف». وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: كان إذا وضعت المائدة قال: «**بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة**»، أما التسمية فرواها النسائي من رواية؛ من خدم النبي ﷺ ثمان سنين: أنه سمع رسول الله ﷺ إذا قرب إليه طعاماً يقول: «بسم الله...» الحديث. وإسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده.

(٤) حديث: كان كثيراً إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يفعل المصلي إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد**». أخرجه عبدالرزاق في المصنف من رواية أيوب معضلاً: أن النبي ﷺ كان إذا أكل أحفز وقال: «**آكل كما يأكل العبد...**» الحديث. وروى ابن الضحاك في الشمائل من حديث أنس بسند ضعيف: كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد»، وروى أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ بسند حسن من حديث أبي بن كعب: «أن النبي ﷺ كان يجثو على ركبتيه وكان لا يتكيء». أورده في صفة أكل رسول الله ﷺ وللبزار من حديث ابن عمر: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد**»، ولأبي يعلى من حديث عائشة: «**آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد**» وسندهما ضعيف.

(٥) حديث: كان لا يأكل الحار ويقول: «إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً» أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح: أتي النبي ﷺ يوماً بطعام سخن فقال: «ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم»، ولأحمد بإسناد جيد، والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث خولة بنت قيس: وقدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجد حرها فقبضها؛ لفظ الطبراني والبيهقي، وقال أحمد: فأحرقت أصابعه. فقال: «حس». وللطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: «**أبردوا الطعام فإن الطعام الحار غير ذي بركة**» وله فيه وفي الصغير من حديثه أتي بصحفة تفور فرفع يده منها وقال: «**إن الله لم يطعمنا ناراً**» وكلاهما ضعيف.

(٦) حديث: «كان يأكل مما يليه». أخرجه أبو الشيخ ابن حبان من حديث عائشة وفي إسناده رجل لم يسم وسماه في رواية له، وكذلك البيهقي في روايته في الشعب عبيد بن القاسم نسيب سفيان الثوري، وقال البيهقي: تفرد به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب، ولأبي الشيخ من حديث عبدالله بن جعفر نحوه.

(٧) حديث: «أكله بأصابعه الثلاث»، أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك.

وربما استعان بالرابعة[(١)]، ولم يأكل بأصبعين ويقول: «**إِنَّ ذٰلِكَ أَكْلَةُ الشَّيْطَانِ**»[(٢)]، وجاءه عثمان بن عفان رضي الله عنه بفالوذج فأكل منه وقال: «**مَا هٰذَا يَا عَبْدَاللهِ؟**» قال: بأبي أنت وأمي نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار ثم نغليه، ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت فنلقيه على السمن والعسل في البرمة، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتي كما ترى، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هٰذَا الطَّعَامَ طَيِّبٌ**»[(٣)]، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول[(٤)]، وكان يأكل القثاء بالرطب[(٥)]، وبالملح[(٦)]، وكان أحب الفواكه الرطبة إليه: البطيخ والعنب[(٧)]، وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر[(٨)]، وربما أكله بالرطب[(٩)]، ويستعين باليدين جميعاً، وأكل يوماً الرطب في يمينه، وكان يحفظ النوى في يساره، فمرت شاة فأشار إليها بالنوى

---

(١) حديث: «استعانته بالرابعة». رويناه في الغيلانيات من حديث عامر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبدالله العمري هالك وفي مصنف ابن أبي شيبة من رواية الزهري مرسلاً: «كان النبي ﷺ يأكل بالخمس».

(٢) حديث: لم يأكل بأصبعين ويقول: «**إن ذلك أكلة الشيطان**» أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف: «**لا تأكل بأصبع فإنه أكل الملوك ولا تأكل بأصبعين فإنه أكل الشياطين...**» الحديث.

(٣) حديث: «جاءه عثمان بن عفان بفالوذج...» الحديث.

قلت: المعروف أن الذي صنعه عثمان: الخبيص رواه البيهقي في الشعب من حديث ليث بن أبي سليم قال: «إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان، قدمت عليه عير تحمل النقي والعسل...» الحديث. وقال هذا منقطع، وروى الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عبدالله بن سلام: أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غراراتان. وفيه: فإذا دقيق وسمن وعسل. وفيه: ثم قال لأصحابه: كلوا هذا الذي تسميه فارس الخبيص. وأما خبر الفالوذج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال: أول ما سمعنا بالفالوذج «أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: إن أمتك تفتح عليهم الأرض ويفاض عليهم من الدنيا حتى إنهم ليأكلون الفالوذج، قال النبي ﷺ: **وما الفالوذج؟** قال: يخلطون السمن والعسل جميعاً». قال ابن الجوزي في الموضوعات: هذا حديث باطل لا أصل له.

(٤) حديث: «كان يأكل خبز الشعير غير منخول». أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد.

(٥) حديث: «كان يأكل القثاء بالرطب». متفق عليه من حديث عبدالله بن جعفر.

(٦) حديث: «كان يأكل القثاء بالملح»، أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره، ورواه ابن عدي وفيه عباد بن كثير متروك.

(٧) حديث: «كان أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والعنب». أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من رواية أمية بن زيد العبسي: «أن النبي ﷺ كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ». وروى أبو الشيخ وابن عدي في الكامل والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس: «كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره ويأكل الرطب بالبطيخ؛ وكان أحب الفاكهة إليه». فيه يوسف بن عطية الصفار مجمع على ضعفه، وروى ابن عدي من حديث عائشة: «كان أحب الفاكهة لرسول الله ﷺ الرطب والبطيخ». وله من حديث آخر لها: «فإن خير الفاكهة العنب». وكلاهما ضعيف.

(٨) حديث: «كان يأكل البطيخ بالخبز والسكر». أما أكل البطيخ بالخبز فلم أره وإنما وجدت أكل العنب بالخبز فيما رواه ابن عدي من حديث عائشة مرفوعاً: «**عليكم بالمرازمة**» قيل يا رسول الله: «**وما المرازمة**»؟ قال «**أكل الخبز مع العنب، فإن خير الفاكهة العنب وخير الطعام الخبز**» وإسناده ضعيف. وأما أكل البطيخ بالسكر فإن أريد بالسكر نوع من التمر والرطب مشهور فهو الحديث الآتي بعده وإن أريد به السكر الذي هو الطبرزد، فلم أر له أصلاً إلا في حديث منكر معضل، رواه أبو عمر النوقاني في كتاب البطيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين: «أن النبي ﷺ أكل بطيخاً بسكر». وفيه موسى بن إبراهيم المروزي كذبه يحيى بن معين.

(٩) حديث: «أكل البطيخ بالرطب»، أخرجه الترمذي والنسائي من حديث عائشة وحسنه الترمذي وابن ماجه من حديث سهل بن سعد: «كان يأكل الرطب بالبطيخ». وهو عند الدارمي بلفظ: «البطيخ بالرطب».

فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة[(١)]، وكان ربما أكل العنب فرطاً يُرى زؤانه على لحيته كخرز اللؤلؤ[(٢)]، وكان أكثر طعامه الماء والتمر[(٣)]، وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين[(٤)]، وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول: **«هُوَ يَزِيدُ فِي السَّمعِ وَهُوَ سَيِّدُ الطَّعَامِ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُطْعِمنِيهِ كُلَّ يَوْمٍ لَفَعَلَ»**[(٥)]، وكان يأكل الثريد باللحم والقرع[(٦)]، وكان يحب القرع ويقول: **«إِنَّها شَجَرَةُ أَخِي يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»**[(٧)]، قالت عائشة رضي الله عنها وكان يقول: **«يَا عَائِشَةُ إِذَا طَبَخْتُمْ قِدْراً فَأَكْثِرُوا فِيها مِنَ الدُّبَّاءِ فَإِنَّهُ يَشُدُّ قَلْبَ الحَزِينِ»**[(٨)]، وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد[(٩)]، وكان لا يتبعه ولا يصيده، ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله[(١٠)]، وكان إذا أكل اللحم لم

---

(١) حديث: «استعانته باليدين جميعاً فأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة». أما استعانته بيديه جميعاً فرواه أحمد من حديث عبدالله بن جعفر قال: «آخر ما رأيت من رسول الله ﷺ في إحدى يديه رطبات وفي الأخرى قثاء يأكل من هذه ويعض من هذه». وتقدم حديث أنس في أكله بيديه قبل هذا بثلاثة أحاديث وأما قصته مع الشاة فرويناها في فوائد أبي بكر الشافعي من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «ربما أكل العنب فرطاً. . .» الحديث. أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث العباس والعقيلي في الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا مختصراً وكلاهما ضعيف.

(٣) حديث: «كان أكثر طعامه الماء والتمر». أخرجه البخاري من حديث عائشة: «توفي رسول الله ﷺ وقد شبعنا من الأسودين التمر والماء».

(٤) حديث: **«كان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين»** أخرجه أحمد من رواية إسماعيل بن أبي خالد عن أبيه قال: «دخلت على رجل وهو يجمع لبناً بتمر وقال: ادن فإن رسول الله ﷺ سماهما الأطيبين» ورجاله ثقات وإبهامه لا يضر.

(٥) حديث: كان أحب الطعام إليه اللحم ويقول: **«هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل»** أخرجه أبو الشيخ من رواية ابن سمعان قال: سمعت من علمائنا يقولون: «كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. . .» الحديث. والترمذي في الشمائل من حديث جابر: أتانا النبي ﷺ في منزلنا فذبحنا له شاة فقال: **«كأنهم علموا أنا نحب اللحم»** وإسناده صحيح وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف: **«سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم»**.

(٦) حديث: «كان يأكل الثريد باللحم والقرع» أخرجه مسلم من حديث أنس.

(٧) حديث: كان يحب القرع ويقول: **«إنها شجرة أخي يونس»** أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أنس: «كان النبي ﷺ يحب القرع». وقال النسائي: الدباء، وهو عند مسلم بلفظ: تعجبه وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي هريرة في قصة يونس: فلفظته في أصل شجرة، وهي الدباء.

(٨) حديث: **«يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد قلب الحزين»**. رويناه في فوائد أبي بكر الشافعي.

(٩) حديث: «كان يأكل لحم الطير الذي يصاد». أخرجه الترمذي من حديث أنس قال: كان عند النبي ﷺ طير فقال: **«اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي هذا الطير»** فجاء عليٌّ فأكل معه، قال: حديث غريب.
قلت: وله طرق كلها ضعيفة.
وروى أبو داود والترمذي واستغربه من حديث سفينة قال: «أكلت مع النبي ﷺ لحم حبارى».

(١٠) حديث: «كان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له فيؤتى به فيأكله».
قلت: هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال: «من تبع الصيد غفل».
رواه أبو داود والنسائي والترمذي من حديث ابن عباس وقال: حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني: «قد كانت قبلي لله رسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد» فهو ضعيف جداً.

يطأطىء رأسه إليه ويرفعه إلى فيه ثم ينتهشه انتهاشاً[(١)]، وكان يأكل الخبز والسمن[(٢)]، وكان يحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة[(٣)]، ودعا في العجوة بالبركة وقال: «هِيَ مِنَ الجَنَّةِ وَشِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ وَالسِّحْرِ»[(٤)]، وكان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء التي يقال لها الرجلة[(٥)]، وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول[(٦)]، وكان لا يأكل من الشاة سبعاً: الذكر والأنثيين والمثانة والمرارة والغدد والحيا والدم، ويكره ذلك[(٧)]، وكان لا يأكل الثوم

---

(١) حديث: «كان إذا أكل اللحم لم يطأطىء رأسه إليه ورفعه إلى فيه رفعاً ثم نهشه». أخرجه أبو داود من حديث صفوان بن أمية قال: كنت آكل مع النبي ﷺ فآخذ اللحم من العظم فقال: «**ادن اللحم من فيك فإنه أهنى وأمرأ**» والترمذي من حديثه: «**انهش اللحم نهشاً فإنه أهنى وأمرأ**» وهو منقطع والذي قبله منقطع أيضاً. وللشيخين من حديث أبي هريرة: فتناول الذراع فنهش منها نهشة...» الحديث.

(٢) حديث: «كان يأكل الخبز والسمن». متفق عليه من حديث أنس في قصة طويلة فيها: «فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففت وعصرت أم سليم عكة فأدمته...» الحديث. وفيه: «ثم أكل النبي ﷺ» وفي رواية ابن ماجه: فصنعت فيها شيئاً من سمن، ولا يصح، وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عمر: «وددت أن عندي خبزة بيضاء من بر سمراء ملبقة بسمن...» الحديث. قال أبو داود: منكر.

(٣) حديث: «كان يحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة». وروى الشيخان من حديث أبي هريرة قال: «وضعت بين يدي النبي ﷺ قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكانت أحب الشاة إليه...» الحديث. وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس: «كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف». وإسناده ضعيف ومن حديث أبي هريرة: «لم يكن يعجبه من الشاة إلا الكتف». وتقدم حديث أنس: «كان يحب الدباء». قبل هذا بستة أحاديث ولأبي الشيخ من حديث أنس: «كان أحب الطعام إليه الدباء». وله من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف: «كان أحب الصباغ إلى رسول الله ﷺ الخل». وله بالإسناد المذكور: «كان أحب التمر إلى رسول الله ﷺ العجوة».

(٤) حديث: دعا في العجوة بالبركة وقال: «**هي من الجنة وشفاء من السم والسحر**». أخرجه البزار والطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن الأسود قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في وفد سدوس فأهدينا له تمراً». وفيه: حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذامي فقال: «**بارك الله في الجذامي وفي حديقة خرج هذا منها**...» الحديث. قال أبو موسى المديني: قيل هو تمر أحمر والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة: «**العجوة من الجنة وهي شفاء من السم**»، وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص: «**من تصبح بسبع تمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر**».

(٥) حديث: «كان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء» ـ التي يقال لها الرجلة ـ رواه أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس: «عليكم بالهندباء فإنه ما يوم إلا ويقطر عليه قطرة من قطر الجنة»، وله من حديث الحسن بن علي وأنس بن مالك نحوه وكلها ضعيفة، وأما الباذروج فلم أجد فيه حديثاً وأما الرجلة فروى أبو نعيم من رواية ثوير قال: مرَّ النبي ﷺ بالرجلة وفي رجله قرحة فداواها بها فبرئت فقال رسول الله ﷺ «**بارك الله فيك انبتي حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناه الصداع**» وهذا مرسل ضعيف.

(٦) حديث: «كان يكره الكليتين لمكانهما من البول». رويناه في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبيدالله بن الشخير من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحسن بن علي العدوي أحد الكذابين.

(٧) حديث: «كان لا يأكل من الشاة الذكر والأنثيين والمثانة والمرارة والغدة والحيا والدم». أخرجه ابن عدي ومن طريقه البيهقي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ورواه البيهقي من رواية مجاهد مرسلاً.

ولا البصل ولا الكراث[(١)]، وما ذم طعاماً قط، لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه، وإن عافه لم يبغضه إلى غيره[(٢)]. وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما[(٣)]. وكان يلعق بأصابعه الصحفة ويقول: **«آخِرُ الطَّعَامِ أَكْثَرُ بَرَكَةً»**[(٤)]، وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر[(٥)]، وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول: **«إنه لا يدري في أي الطعام البركة»**[(٦)]، وإذا فرغ قال: **«الحَمْدُ لله اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَطْعَمْتَ فَأَشْبَعْتَ وَسَقَيْتَ فَأَرْوَيْتَ لَكَ الحَمْدُ غَيْرَ مَكْفُورٍ وَلاَ مُوَدَّعٍ وَلاَ مُسْتَغْنىً عَنْهُ»**[(٧)]، وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلاً جيداً، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه[(٨)]، وكان يشرب في ثلاث دفعات، وله فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات[(٩)]، وكان يمص الماء مصاً ولا يعب عباً[(١٠)]، وكان

---

(١) حديث: «كان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث». أخرجه مالك في الموطأ عن الزهري عن سليمان بن يسار مرسلاً ووصله الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري عن أنس، وفي الصحيحين من حديث جابر: «أتى بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحاً...» الحديث. وفيه قال: **«فإني أناجي من لا تناجي»** ولمسلم من حديث أبي أيوب في قصة بعثه إليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال: **«إني أكرهه من أجل ريحه»**.

(٢) حديث: «ما ذم طعاماً قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره». تقدم أول الحديث، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر في قصة الضب فقال: **«كلوا فإنه ليس بحرام ولا بأس به ولكنه ليس من طعام قومي»**.

(٣) حديث: «كان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهم». أما الضب ففي الصحيحين عن ابن عباس: **«لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»**، ولهما من حديث ابن عمر: **«أحلت لنا ميتتان ودمان»** وفيه **«أما الدمان: فالكبد والطحال»**، وللبيهقي موقوفاً على زيد بن ثابت **«إني لآكل الطحال وما بي إليه حاجة إلا ليعلم أهلي أنه لا بأس به»**.

(٤) حديث: كان يلعق الصحفة ويقول: «آخر الطعام أكثر بركة». أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر في حديث قال فيه: **«ولا ترفع القصعة حتى تلعقها - أو تلعقها - فإن آخر الطعام فيه البركة»**، ومسلم من حديث أنس: أمرنا أن نسلت الصحفة وقال: **«إن أحدكم لا يدري أي طعامه يبارك له فيه»**؟.

(٥) حديث: «كان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر». أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك دون قوله: حتى تحمر، فلم أقف له على أصل.

(٦) حديث: كان لا يمسح يده بالمناديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول: **«إنه لا يدري في أي أصابعه البركة»** أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك: «أن النبي ﷺ كان لا يمسح يده حتى يلعقها» وله من حديث جابر: **«فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة؟»**. وللبيهقي في الشعب من حديثه: **«لا يمسح أحدكم يده بالمنديل حتى يلعق يده فإن الرجل لا يدري في أي طعامه يبارك له فيه»**.

(٧) حديث: وإذا فرغ قال: **«اللهم لك الحمد أطعمت وأشبعت وسقيت وأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه»**. أخرجه الطبراني من حديث الحارث بن الحارث بسند ضعيف. وللبخاري من حديث أبي أمامة: كان إذا فرغ من طعامه قال: **«الحمد لله الذي كفانا وآوانا غير مكفي ولا مكفور»** وقال مرة: **«الحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا»**.

(٨) حديث: «كان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلاً جيداً، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه» أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف: **«من أكل من هذه اللحوم شيئاً فليغسل يده من ريح وضره لا يؤذي من حذاءه»**.

(٩) حديث: «كان يشرب في ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات، وفي آخرها ثلاث تحميدات» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورجاله ثقات ومسلم من حديث أنس: «كان إذا شرب تنفس ثلاثاً».

(١٠) حديث: «كان يمص الماء مصاً ولا يعبه عباً». أخرجه البغوي والطبراني وابن عدي وابن قانع وابن منده وأبو نعيم في الصحابة من حديث بهز: «كان يستاك عرضاً ويشرب مصاً». وللطبراني من حديث أم سلمة: «كان لا يعب»، ولأبي الشيخ من حديث ميمونة: «لا يعب ولا يلهث». وكلها ضعيفة.

يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه[١]، فإن كان من على يساره أجلّ رتبة قال للذي على يمينه: «السُّنَّةُ أَنْ تُعْطَىٰ فَإِنْ أَحْبَبْتَ آثَرْتَهُمْ»[٢]، وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ[٣]. وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه[٤]، وأتي بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال: «شُرْبَتَانِ فِي شُرْبَةٍ وَإِدَامَانِ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ؟»[٥]، ثم قال ﷺ: «لاَ أُحَرِّمُهُ وَلٰكِنِّي أَكْرَهُ الفَخْرَ وَالحِسَابَ بِفُضُولِ الدُّنْيَا غَداً وَأُحِبُّ التَّوَاضُعَ فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ اللهُ»، وكان في بيته أشدّ حياء من العاتق لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم؛ إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب[٦]، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب[٧].

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس:

كان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك[٨]، وكان يعجبه

---

(١) حديث: «كان يدفع فضل سؤره إلى من عن يمينه». متفق عليه من حديث أنس.

(٢) حديث: «استئذانه من على يمينه إذا كان على يساره أجل رتبة». متفق عليه من حديث سهل بن سعد.

(٣) حديث: «شربه بنفس واحد». أخرجه أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف، وللحاكم من حديث أبي قتادة وصححه: «إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد»، ولعل تأويل هذين الحديثين على ترك التنفس في الإناء والله أعلم.

(٤) حديث: «كان لا يتنفس في الإناء حتى ينحرف عنه». أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة: «ولا يتنفس أحدكم من الإناء إذا شرب منه ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم ليتنفس» وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٥) حديث أتي بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال: «اشربتان في شربة وإدامان في إناء واحد...» الحديث. رواه البزار من حديث طلحة بن عبيدالله دون قوله: «شربتان في شربة» إلى آخره وسنده ضعيف.

(٦) حديث: «كان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم إن أطعموه أكل وما اطعموه قبل وما سقوه شرب». ورواه الشيخان من حديث أبي سعيد: «كان أشد حياء من العذراء في خدرها...» الحديث. وقد تقدم. وأما كونه كان لا يسألهم طعاماً فإنه أراد أي طعام بعينه من حديث عائشة: أنه قال ذات يوم: «يا عائشة هل عندكم شيء؟» قالت: فقلت: ما عندنا شيء؟ الحديث. وفيه: فلما رجع قلت: أهديت لنا هدية، قال: «ما هو»؟ قلت: حيس، قال: «هاتيه». وفي رواية «قربيه» وفي رواية للنسائي: «وأصبح عندكم شيء تطعمينيه؟» ولأبي داود: «هل عندكم طعام؟» والترمذي: «أعندك غداء؟» وفي الصحيحين من حديث عائشة: فدعا بطعام فأتي بخبز وأدم من أدم البيت فقال: «ألم أر برمة على النار فيها لحم؟...» الحديث، وفي رواية لمسلم: «لو صنعتم لنا من هذا اللحم...» الحديث. فليس في قصة بريرة إلا الاستفهام والرضا. والحكمة فيه بيان الحكم لا التشهي والله أعلم. وللشيخين من حديث أم الفضل: «أنها أرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه». ولأبي داود من حديث أم هانىء: «فجاءت الوليدة بإناء فيه شراب فتناوله فشرب منه». وإسناده حسن.

(٧) حديث: «وكان ربما قام فأخذ ما يأكل أو يشرب بنفسه». أخرجه أبو داود من حديث أم المنذر بنت قيس: «دخل عليّ رسول الله ﷺ فشرب ومعه علي ـ وعلى ناقه ـ ولنا دوال معلقة فقام رسول الله ﷺ فأكل منها...» الحديث. وإسناده حسن وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث كبشة: «دخل عليّ رسول الله ﷺ فشرب من في قربة معلقة قائماً...» الحديث.

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس

(٨) حديث: «كان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك». أخرجه الشيخان من حديث عائشة: «أنها أخرجت إزاراً مما يصنع باليمن وكساء من هذه الملبدة فقالت: في هذا قبض رسول الله ﷺ. وفي رواية: «إزاراً غليظاً». ولهما من حديث أنس: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية...» الحديث. لفظ مسلم وقال البخاري: برد نجراني. وابن ماجه بسند ضعيف من حديث ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ يلبس قميصاً قصير اليدين والطول». وأبو داود والترمذي وحسنه. والنسائي من حديث أم سلمة: «كان=

الثياب الخضر، وكان أكثر لباسه البياض ويقول: «أَلْبِسُوهَا أَحْيَاءَكُمْ وَكَفِّنُوا فِيها مَوْتَاكُمْ»[١]، وكان يلبس القباء المحشوّ للحرب وغير الحرب[٢]، وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه[٣]، وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق[٤]، وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها[٥]، وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران، وربما صلى بالناس فيها وحدها[٦]، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره[٧]، وكان له كساء ملبد يلبسه

= أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص». ولأبي داود من حديث أسماء بنت يزيد: «كانت يد قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ». وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه وتقدم قبل هذا حديث: «الجبة والشملة والحبرة».

(١) حديث: كان أكثر لباسه البياض ويقول: «**ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم**» أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس: «**خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم**» قال الحاكم: صحيح الإسناد وله ولأصحاب السنن من حديث سمرة: «**عليكم بهذه الثياب البياض فيلبسها أحياؤكم وكفنوا فيها موتاكم**». لفظ الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) حديث: «كان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب» أخرجه الشيخان من حديث المسور بن مخرمة: «أن النبي ﷺ قدمت عليه أقبية من ديباج مزرر بالذهب...» الحديث. وليس في طرق الحديث لبسها إلا في طريق علقها البخاري قال: «فخرج وعليه قباء من ديباج مزرر بالذهب...» الحديث. ولمسلم من حديث جابر: «لبس النبي ﷺ يوماً قباء من ديباج أهدي له ثم نزعه...» الحديث.

(٣) حديث: «كان له قباء سندس فيلبسه...» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أنس: «أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ جبة سندس أو ديباج قبل أن ينهى عن الحرير فلبسها». والحديث في الصحيحين وليس فيه أنه لبسها وقال فيه: «وكان ينهى عن الحرير»، وعند الترمذي وصححه النسائي أنه لبسها ولكنه قال: «بجبة ديباج منسوجة فيها الذهب».

(٤) حديث: «كانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق». رواه أبو الفضل محمد بن طاهر في كتاب صفوة التصوف من حديث عبدالله بن بسر: «كانت ثياب رسول الله ﷺ إزاره فوق الكعبين وقميصه فوق ذلك، ورداؤه فوق ذلك»، وإسناده ضعيف والحاكم وصححه من حديث ابن عباس: «كان يلبس قميصاً فوق الكعبين...» الحديث. وهو عنده بلفظ: قميصاً قصير اليدين والطول وعندهما الترمذي في الشمائل من رواية الأشعث قال: «سمعت عمتي تحدث عن عمها فذكر النبي ﷺ» وفيه: «فإذا إزاره إلى نصف ساقه»، ورواه النسائي وسمى الصحابي عبيد بن خالد واسم عمه الأشعث وهم بيت الأسود ولا يعرف.

(٥) حديث: «كان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها» رواه أبو داود والبيهقي والترمذي في الشمائل من رواية معاوية بن قرة بن إياس عن أبيه قال: «أتيت النبي ﷺ في رهط من مزينة وبايعناه وأن قميصه لمطلق الأزرار». وللبيهقي من رواية زيد بن أسلم قال: «رأيت ابن عمر يصلي محلولة أزراره فسألته عن ذلك فقال: رأيت رسول الله ﷺ يفعله». وفي العلل للترمذي أنه سأل البخاري عن هذا الحديث فقال: أنا أتقي هذا الشيخ كأن حديثه موضوع يعني زهير بن محمد رواية عن زيد بن أسلم قلت: تابعه عليه الوليد بن مسلم عن زيد. رواه ابن خزيمة في صحيحه، وللطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي محتبياً محلل الأزرار».

(٦) حديث: «كان له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها». أخرجه أبو داود والترمذي من حديث قيلة بنت مخرمة قالت: «رأيت النبي ﷺ وعليه أسمال ملاءتين كانتا بزعفران». قال الترمذي: لا نعرفه إلا من عبدالله بن حسان. قلت: ورواته موثقون وأبو داود من حديث قيس بن سعد: فاغتسل ثم ناوله أبو سعد ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها. الحديث. ورجاله ثقات.

(٧) حديث: «ربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره». رواه ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ثابت بن الصامت: «أن النبي ﷺ صلى في بني عبد الأشهل وعليه كساء متلفف به...» الحديث. وفي رواية البزار في كساء.

ويقول: «إنما أنا عَبْدٌ أَلْبَسُ كَمَا يَلْبَسُ العَبْدُ»(١)، وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة(٢)، وربما لبسَ الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه(٣)، وربما أمَّ به الناس على الجنائز(٤)، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفاً به مخالفاً بين طرفيه، ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ(٥)، وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك(٦)، ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة: بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود؟ فقال: «كَسَوْتُهُ» فقالت ما رأيت شيئاً قط كان أحسن من بياضك على سواده(٧). وقال أنس: وربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقداً بين طرفيه(٨)، وكان يتختم(٩)، وربما

---

(١) حديث: كان له كساء ملبد يلبسه ويقول: «أنا عبد ألبس كما يلبس العبد» أخرجه الشيخان من رواية أبي بردة قال: «أخرجت إلينا عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: في هذين قبض رسول الله ﷺ» وللبخاري من حديث عمر: «إنما أنا عبد» ولعبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب السختياني مرفوعاً معضلاً: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد». وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة. متصلاً.

(٢) حديث: «كان له ثوبان لجمعته خاصة. . .» الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد: «فإذا انصرف طويناهما إلى مثله». ويرده حديث عائشة عند ابن ماجه: «ما رأيته يسب أحداً ولا يطوى له ثوب».

(٣) حديث: «ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره فعقد طرفيه بين كتفيه». أخرجه الشيخان من حديث عمر في حديث اعتزاله أهله: «فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره». وللبخاري من رواية محمد بن المنكدر: «صلى بنا جابر في إزار قد عقده من قبل قفاه وثيابه موضوعة على المشجب» وفي رواية له «وهو يصلي في ثوب ملتحفاً به ورداؤه موضوع» وفيه: «رأيت النبي ﷺ يصلي هكذا».

(٤) حديث: «ربما أمّ به الناس على الجنائز». لم أقف عليه.

(٥) حديث: «ربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفاً به مخالفاً بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ» أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث معاوية قال: «دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ في ثوب واحد فقلت: يا أم حبيبة أيصلي النبي ﷺ في الثوب الواحد؟ قالت: نعم، وهو الذي كان فيه ما كان ـ تعني الجماع» ـ ورواه الطبراني في الأوسط.

(٦) حديث: «ربما كان يصلي بالليل ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه». أخرجه أبو داود من حديث عائشة: «أن النبي ﷺ صلى في ثوب بعضه عليّ» ولمسلم: «كان يصلي في الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض وعليّ مرط بعضه على رسول الله ﷺ».
وللطبراني في الأوسط من حديث أبي عبدالرحمن حاضن عائشة: «رأيت النبي ﷺ وعائشة يصليان في ثوب واحد نصفه على النبي ﷺ ونصفه على عائشة». وسنده ضعيف.

(٧) حديث: «كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة: بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء؟. . .» الحديث. لم أقف عليه من حديث أم سلمة. ولمسلم من حديث عائشة: «خرج النبي ﷺ وعليه مرط مرجل أسود». ولأبي داود والنسائي: «صنعت للنبي ﷺ بردة سوداء من صوف فلبسها. . .» الحديث. وزاد فيه ابن سعد في الطبقات: «فذكرت بياض النبي ﷺ وسوادها»، ورواه الحاكم بلفظ: جبة. وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٨) حديث أنس: «ربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقداً بين طرفيها». أخرجه البزار وأبو يعلى بلفظ: «صلى بثوب واحد وقد خالف بين طرفيه». وللبزار: «خرج في مرضه الذي مات فيه مرتدياً بثوب قطن فصلى بالناس» وإسناده صحيح. وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت: «صلى في شملة قد عقد عليها». وفي كامل ابن عدي: «قد عقد عليها هكذا ـ وأشار سفيان إلى قفاه» ـ وفي جزء الغطريف: «فعقدها في عنقه ما عليه غيرها». وإسناده ضعيف.

(٩) حديث: «كان يتختم». أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر وأنس.

خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء[(١)]، وكان يختم به على الكتب ويقول: الخاتم على الكتاب خير من التهمة[(٢)]، وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها[(٣)]، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته[(٤)]، وكانت له عمامة تسمى: السحاب، فوهبها من علي فربما طلع علي فيها فيقول ﷺ: **«أَتَاكُمْ عَلِيٌّ فِي السَّحَابِ»**[(٥)]، وكان إذا لبس ثوباً لبسه من قبل ميامنه[(٦)]، ويقول: **«الحَمْدُ للهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ»**[(٧)]، وإذا نزع ثوبه وأخرجه من مياسره[(٨)]، وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً ثم يقول: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِماً مِنْ سَمَلِ ثِيَابِهِ لاَ يَكْسُوهُ إلاَّ للهِ إلاَّ كَانَ فِي ضَمَانِ اللهِ وَحِرْزِهِ وَخَيْرِهِ مَا وَارَاهُ حَيّاً وَمَيِّتاً»**[(٩)]، وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان

---

(١) حديث: «ربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء». أخرجه ابن عدي من حديث واثلة بسند ضعيف: «كان إذا أراد الحاجة أوثق في خاتمه خيطاً». وزاد الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث ابن عمر: ليذكره به. وسنده ضعيف.

(٢) حديث: كان يختم به على الكتب ويقول: **«الخاتم على الكتاب خير من التهمة»**. أخرجه الشيخان من حديث أنس: «لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قالوا: إنهم لا يقرؤون إلا كتاباً مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة. . .» الحديث. والنسائي والترمذي في الشمائل من حديث ابن عمر: «اتخذ خاتماً من فضة كان يختم به ولا يلبسه». وسنده صحيح وأما قوله: **«الخاتم على الكتاب خير من التهمة»** فلم أقف له على أصل.

(٣) حديث: «كان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها». أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ يلبس قلنسوة بيضاء». ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس: «كان لرسول الله ﷺ ثلاث قلانس. قلنسوة بيضاء مضربة وقلنسوة برد حبرة وقلنسوة ذات آذان يلبسها في السفر فربما وضعها بين يديه إذا صلى» وإسنادهما ضعيف. ولأبي داود والترمذي من حديث ركانة: «فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس». قال الترمذي: غريب وليس إسناده بالقائم.

(٤) حديث: «ربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته». أخرجه من حديث ابن عباس: «صعد رسول الله ﷺ المنبر وقد عصب رأسه بعصابة دسماء. . .» الحديث.

(٥) حديث: كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من علي فربما طلع علي فيها فيقول ﷺ: **«أتاكم علي في السحاب»**. أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جداً، ولأبي نعيم في دلائل النبوة من حديث عمر في أثناء حديث: «عمامته السحاب. . .» الحديث.

(٦) حديث: «كان إذا لبس ثوباً يلبسه من قبل ميامنه». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ورجاله رجال الصحيح وقد اختلف في رفعه.

(٧) حديث: **«الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس»** أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب.

(٨) حديث: «كان إذا نزع ثوبه خرج من مياسره». أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر: «كان إذا لبس شيئاً من الثياب بدأ بالأيمن وإذا نزع بدأ بالأيسر». وله من حديث أنس: «كان إذا ارتدى أو ترجل أو انتعل بدأ بيمينه وإذا خلع بدأ بيساره». وسندهما ضعيف وهو في الانتعال في الصحيحين من حديث أبي هريرة من قوله لا من فعله.

حديث: «كان له ثوب لجمعته خاصة» الحديث. تقدم قريباً بلفظ: «ثوبين».

(٩) حديث: كان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً ثم يقول: **«ما من مسلم يكسو مسلماً. .»** الحديث. أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب من حديث عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ دعا بثيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال: **«الحمد لله الذي كساني ما أتجمل به في حياتي وأواري به عورتي»** ثم قال: **«ما من مسلم يلبس ثوباً جديداً. . .»** الحديث. دون ذكر: «تصدقه ﷺ بثيابه» وهو عند الترمذي وابن ماجه دون ذكر: «لبس النبي ﷺ لثيابه» وهو أصح وقد تقدم. قال البيهقي: وهو غير قوي.

أو نحوه، وعرضه ذراع وشبر أو نحوه[(١)]، وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تُثنى طاقين تحته[(٢)]، وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره[(٣)]، وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه، وكان اسم رايته: العقاب. واسم سيفه الذي يشهد به الحروب: ذو الفقار. وكان له سيف يقال له: المخذم، وآخر يقال له: الرسوب، وآخر يقال له: القضيب. وكانت قبضة سيفه محلاة بالفضة[(٤)].

وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة[(٥)]، وكان اسم قوسه: الكتوم. وجعبته الكافور[(٦)]. وكان اسم ناقته: القصواء ـ وهي التي يقال لها: العضباء ـ، واسم بغلته: الدلدل. وكان اسم

---

(١) حديث: «كان له فراش من أدم حشوه ليف...» الحديث. متفق عليه من حديث عائشة مقتصراً على هذا دون ذكر: عرضه وطوله. ولأبي الشيخ من حديث أم سلمة: «كان فراش النبي ﷺ نحو ما يوضع الإنسان في قبره». وفيه: من لم يسم.

(٢) حديث: «كانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تفرش طاقين تحته». أخرجه ابن سعد في الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة: «دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية...» الحديث. ولأبي سعيد عنها: «أنها كانت تفرش للنبي ﷺ عباءة باثنين...» الحديث. وكلاهما لا يصح والترمذي في الشمائل من حديث حفصة: «وسئلت ما كان فراشه؟ قالت: مسح نثنيه اثنتين فينام عليه...» الحديث. وهو منقطع.

(٣) حديث: «كان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره». متفق عليه من حديث عمر: في قصة اعتزال النبي ﷺ نساءه.

(٤) حديث: «كان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي يشهد به الحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له: المخدوم وآخر يقال له: الرسوب وآخر يقال له: القضيب وكان قبضة سيفه محلاة بالفضة». أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس: «كان لرسول الله ﷺ سيف قائمته من فضة وقبيعته من فضة وكان يسمى: ذا الفقار، وكانت له قوس تسمى: السداد، وكانت له كنانة تسمى: الجمع، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى: ذات الفضول، وكانت له حربة تسمى: النبعة، وكانت له مجن تسمى: الدفن، وكان له ترس أبيض يسمى: موجزاً، وكان له فرس أدهم يسمى: السكب، وكان له سرج يسمى: الداج المؤخر، وكان له بغلة شهباء يقال له: الدلدل، وكانت له ناقة تسمى: القصواء، وكان له حمار يسمى: يعفور، وكان له بساط يسمى: الكر، وكانت له عنزة تسمى: النمر، وكانت له ركوة تسمى: الصادر، وكانت له مرآة تسمى: المرآة، وكان له مقراض يسمى: الجامع، وكان له قضيب شوحط يسمى: الممشوق». وفيه علي بن غررة الدمشقي نسب إلى وضع الحديث. ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء تسمى: العقاب» ورواه أبو الشيخ من حديث الحسن مرسلاً وله من حديث علي بن أبي طالب: «كان اسم سيف رسول الله ﷺ ذو الفقار». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس: «أنه ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر» والحاكم من حديث علي في أثناء حديث وسيفه ذو الفقار وهو ضعيف، ولابن سعد في الطبقات من رواية مروان بن أبي سعيد بن المعلى مرسلاً قال: «أصاب رسول الله ﷺ من سلاح بني قينقاع ثلاثة أسياف: سيف قلعي وسيف يدعى: بتاراً وسيف يدعى: الحتف، وكان عنده بعد ذلك المخذم ورسوب أصابهما من القلس»، وفي سنده الواقدي، وذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه: أنه يقال إنه ﷺ قدم المدينة ومعه سيفان يقال لأحدهما: «العضب شهد به بدراً» ولأبي داود والترمذي وقال: حسن، والنسائي وقال: منكر من حديث أنس: «كانت قبيعة سيف رسول الله ﷺ فضة».

(٥) حديث: «كان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة» لم أقف له على أصل، ولابن سعد في الطبقات وأبي الشيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسلاً: «كان في درع النبي ﷺ حلقتان من فضة».

(٦) حديث: «كان اسم قوسه الكتوم وجعبته الكافور». لم أجد له أصلاً وقد تقدم في حديث ابن عباس: «أنه كانت له قوس تسمى: السداد، وكانت له كنانة تسمى الجمع»، وقال ابن أبي خيثمة في تاريخه: «أخذ رسول الله ﷺ يوم أُحد من سلاح بني قينقاع ثلاثة قسي، وقوس اسمها: الروحاء، وقوس شوحط تدعى: البيضاء، وقوس صفراء تدعى: الصفراء من سبع».

حماره: يعفور، واسم شاته التي يشرب لبنها: عينة[(١)]، وكان له مطهرة من فخار؛ يتوضأ فيها ويشرب منها[(٢)]، فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله ﷺ فلا يدفعون عنه، فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم ويبتغون بذلك البركة.

بيان عفوه ﷺ مع قدرته:

كان ﷺ أحلم الناس[(٣)]، وأرغبهم في العفو مع القدرة حتى أُتي بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل، فقال: **«وَيْحَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي»** فلما ولّى قال: **«رُدُّوهُ عَلَيَّ رُوَيْداً»**[(٤)]. روى جابر: أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال فقال له رجل: يا رسول الله، اعدل فقال له رسول الله ﷺ: **«وَيْحَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ فَقَدْ خِبْتُ إِذَنْ وَخَسِرْتُ إِنْ كُنْتُ لاَ أَعْدِلُ»**، فقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق فقال: **«مَعَاذَ الله أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي»**[(٥)]. وكان رسول الله ﷺ في حرب فرأوا من المسلمين غرّة، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ فقال: **«الله»** فقال: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال: **«من يمنعك مني»**؟: فقال: كن خير آخذ قال: **«قُلْ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله»**: فقال: لا، غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فجاء أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس[(٦)]. وروى أنس: أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها فجيء بها إلى النبي ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت قتلك، فقال: **«ما كان الله**

---

(١) حديث: «كان اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها: العضباء، واسم بغلته: الدلدل، واسم حماره: يعفور، واسم شاته التي يشرب لبنها: عينة». تقدم بعضه من حديث ابن عباس عند الطبراني، وللبخاري من حديث أنس: «كان للنبي ﷺ ناقة يقال لها: العضباء» ولمسلم من حديث جابر في حجة الوداع: «ثم ركب القصواء» والحاكم من حديث علي: «ناقته القصواء وبغلته دلدل وحماره عفير...» الحديث. ورويناه في فوائد ابن الدحداح فقال: «حماره يعفور وفيه شاته بركة»، والبخاري من حديث معاذ: «كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له: عفير»، ولابن سعد في الطبقات من رواية إبراهيم بن عبدالله من ولد عتبة بن غزوان: «كانت منائح رسول الله ﷺ من الغنم سبعاً: عجوة وزمزم وسقيا وبركة ورشة وإهلال وأطراف». وفي سنده الواقدي وله من رواية مكحول مرسلاً: «كانت له شاة تسمى: قمر».

(٢) حديث: «كانت له مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب فيها». الحديث. لم أقف له على أصل.

بيان عفوه مع القدرة

(٣) حديث: كان أحلم الناس. تقدم.

(٤) حديث: «أتي بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه..» الحديث. أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد.

(٥) حديث جابر: «أنه كان يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال له رجل: يا نبي الله اعدل...» الحديث. رواه مسلم.

(٦) حديث: «كان في حرب فرئي في المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف...» الحديث. متفق عليه من حديث جابر بنحوه، وهو في مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وسمى الرجل غورث بن الحارث.

ليسلطك على ذلك»، قالوا: أفلا تقتلها؟ فقال: «**لا**»[١]، وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحل العقد، فوجد لذلك خفة وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط[٢]. وقال علي رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمراً من أمر رسول الله ﷺ فقال: «**يا حاطب ما هذا؟**» قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقاً في قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعل ذلك كفراً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتداداً عن ديني، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ صَدَقَكُمْ**». فقال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «**إِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدِ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[٣]. وقسم رسول الله ﷺ قسمة فقال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله؟ فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمرّ وجهه وقال: «**رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَىٰ قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هٰذَا فَصَبَرَ**»[٤]، وكان ﷺ يقول: «**لاَ يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئاً فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ**»[٥].

بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه:

كان رسول الله رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن، يعرف في وجهه غضبه ورضاه[٦]، وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة[٧]، وكان لا يشافه أحداً بما يكرهه. دخل عليه رجل وعليه

---

(١) حديث أنس: «أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة...» الحديث. رواه مسلم وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «سحره رجل من اليهود فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه...» الحديث. أخرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره في الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر.

(٣) حديث علي: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد وقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ...**»» الحديث. متفق عليه.

(٤) حديث: «قسم رسول الله ﷺ قسمة فقال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله...». الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٥) حديث: «**لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**». أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود وقال: غريب من هذا الوجه.

بيان إغضائه ﷺ عما يكرهه

(٦) حديث: «كان رقيق البشرة لطيف الظاهر يعرف في وجهه غضبه». أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ يعرف رضاه وغضبه بوجهه...» الحديث. وقد تقدم.

(٧) حديث: «كان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة...» الحديث. وقد تقدم. أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة بإسناد حسن.

صفرة فكرهها فلم يقل له شيئاً حتى خرج فقال لبعض القوم: «لَوْ قُلْتُمْ لِهٰذَا أَنْ يَدَعَ هٰذِهِ»[(١)]، يعني: الصفرة. وبال أعرابي في المسجد بحضرته فهمّ به الصحابة فقال ﷺ: «لاَ تُزْرِمُوهُ» أي: لا تقطعوا عليه البول ثم قال له: «إِنَّ هٰذِهِ المَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنَ القَذَرِ وَالبَوْلِ وَالخَلاَءِ»[(٢)]، وفي رواية: «قَرِّبُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا». وجاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه ﷺ ثم قال له: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، قال: فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال له النبي ﷺ: «إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ وَفِي نَفْسِ أَصْحَابِي شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّىٰ يَذْهَبَ مِنْ صُدُورِهِمْ مَا فِيهَا عَلَيْكَ» قال: نعم، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي ﷺ: «إِنَّ هٰذَا الأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَزِدْنَاهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ أَكَذٰلِكَ؟» فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ هٰذَا الأَعْرَابِيِّ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلاَّ نُفُوراً فَنَادَاهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي فَإِنِّي أَرْفَقُ بِها وَأَعْلَمُ فَتَوَجَّهَ لَهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ بَيْنَ يَدَيْها فَأَخَذَ لَها مِنْ قُمَامِ الأَرْضِ فَرَدَّها هَوْناً حَتَّىٰ جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ وَشَدَّ عَلَيْها رَحْلَها وَاسْتَوَىٰ عَلَيْها وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ»[(٣)].

بيان سخاوته وجوده ﷺ:

كان ﷺ أجود الناس وأسخاهم في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئاً[(٤)]، وكان علي رضي الله عنه إذا وصف النبي ﷺ قال: كان أجود الناس كفاً، وأوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله[(٥)]. وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه[(٦)]، وأنّ رجلاً أتاه فسأله فأعطاه غنماً سدّت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال: أسلموا، فإنّ محمداً يعطي عطاء من

---

(١) حديث: «كان لا يشافه أحداً بما يكرهه». دخل عليه رجل وعليه صفة فكرهه فلم يقل شيئاً حتى خرج فقال لبعض القوم: «لو قلتم لهذا أن يدع هذه» يعني الصفرة. أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في اليوم والليلة من حديث أنس وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: بال أعرابي في المسجد بحضرته فقال ﷺ «لا تزرموه...» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

(٣) حديث: «جاء أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه رسول الله ﷺ ثم قال: «أحسنت إليك» فقال الأعرابي: لا، ولا أجملت..» الحديث. بطوله أخرجه البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

بيان سخائه وجوده ﷺ

(٤) حديث: «كان أجود الناس وأسخاهم وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة». أخرجه الشيخان من حديث أنس: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس». ولهما من حديث ابن عباس: «كان أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان ـ وفيه ـ: فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة».

(٥) حديث: «كان علي إذا وصف النبي ﷺ قال: كان أجود الناس كفاً وأجرأ الناس صدراً...» الحديث. رواه الترمذي وقال ليس إسناده بمتصل.

(٦) حديث: «ما سئل شيئاً قط على الإسلام إلا أعطاه...» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

لا يخشى الفاقة. وما سئل شيئاً قط فقال لا[(١)]، وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها[(٢)]. وجاء رجل فسأله فقال: «**مَا عِنْدِي شَيْءٌ وَلٰكِنْ ابْتَعْ عَلَيَّ فَإِذَا جَاءَنَا شَيْءٌ قَضَيْنَاهُ**»، فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ ذلك فقال الرجل: أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، فتبسم النبي ﷺ وعرف السرور في وجهه[(٣)]، ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ وقال: «**أَعْطُونِي رِدَائِي لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هٰذِهِ العِضَاهَ نَعَماً لَقَسَمْتُهَا بَيْنَكُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً**»[(٤)].

بيان شجاعته ﷺ:

كان ﷺ أنجد الناس وأشجعهم[(٥)]، قال علي رضي الله عنه: لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدوّ وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً[(٦)]، وقال أيضاً: كنا إذا احمرّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه[(٧)]، قيل: وكان ﷺ قليل الكلام قليل الحديث، فإذا أمر الناس بالقتال تشمر وكان من أشدّ الناس بأساً[(٨)]، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدوّ[(٩)]، وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة

---

(١) حديث: ما سئل شيئاً قط فقال: لا، متفق عليه من حديث جابر.

(٢) حديث: «حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها». أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث الحسن مرسلاً: «أن رسول الله ﷺ قدم عليه مال من البحرين ثمانون ألفاً لم يقدم عليه مال أكثر منه، ولم يسأله يومئذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلاً ولم يعط ساكتاً فقال له العباس...» الحديث. وللبخاري تعليقاً من حديث أنس: «أتي النبي ﷺ بمال من البحرين وكان أكثر مال أُتي به رسول الله ﷺ..» الحديث. وفيه: «فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاءه العباس...» الحديث. ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه.

(٣) حديث: جاءه رجل فسأله فقال: «ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه»، فقال عمر: «يا رسول الله ما كلفك الله...» الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة القروي لم يروه غير ابنه هارون.

(٤) حديث: «لما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه..» الحديث. أخرجه البخاري من حديث جبير بن مطعم.

بيان شجاعته ﷺ

(٥) حديث: «كان أنجد الناس وأشجعهم». أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر بسند صحيح: «ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمى من رسول الله ﷺ. وللشيخين من حديث أنس: «كان أشجع الناس وأحسن الناس...» الحديث.

(٦) حديث علي: «لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ...» الحديث. أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ بإسناد جيد.

(٧) حديث علي أيضاً: «كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ...» الحديث. أخرجه النسائي بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء.

(٨) حديث: «كان قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر بالقتال تشمر...» الحديث. أخرجه أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض الثمالي مرسلاً.

(٩) حديث: «كان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث البراء: «والله إذا حمي الوطيس نتقي به وإن الشجاع منا الذي يحاذي به».

إلا كان أوّل من يضرب[(١)]، وقالوا: كان قوي البطش[(٢)]، ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول:

«أنــــا الـــنــــبــــيُّ لا كــــذب   أنــــا ابـــن عـــبـــدالــــمـــطـــلـــب»

فما رُئيَ يومئذ أحد كان أشدّ منه[(٣)].

بيان تواضعه ﷺ:

كان ﷺ أشدّ الناس تواضعاً في علو منصبه[(٤)]، قال ابن عامر: رأيته يرمي الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك[(٥)]، وكان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف[(٦)]، وكان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك[(٧)]، ويخصف النعل ويرقع الثوب، وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم[(٨)]، وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك[(٩)]، وكان يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم[(١٠)]، وأُتيَ ﷺ برجلٍ فأرعد من هيبته فقال له: **«هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»**[(١١)]، وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو؟ حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب؛ فبنوا له

---

(١) حديث عمران بن حصين: «ما لقي كتيبة إلا كان أول من يضرب». أخرجه أبو الشيخ أيضاً وفيه من لم أعرفه.

(٢) حديث: «كان قوي البطش». أخرجه أبو الشيخ أيضاً من رواية أبي جعفر معضلاً، وللطبراني في الأوسط من حديث عبدالله بن عمرو: **«أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع»** وسنده ضعيف.

(٣) حديث: لما غشيه المشركون نزل فجعل يقول: **«أنا النبي لا كذب...»** الحديث. متفق عليه من حديث البراء دون قوله: «فما رئي أحد يومئذ أشد منه». وهذه الزيادة لأبي الشيخ وله من حديث علي في قصة بدر: «وكان من أشد الناس يومئذ بأساً».

بيان تواضعه ﷺ

(٤) حديث: «كان أشد الناس تواضعاً في علو منصبه» أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري في حديث طويل في صفته قال فيه: «متواضع في غير مذلة». وإسناده ضعيف.

(٥) حديث: «قال ابن عامر: رأيته يرمي الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك». أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث قدامة بن عبدالله بن عمار. قال الترمذي: حسن صحيح وفي كتاب أبي الشيخ قدامة بن عبدالله بن عامر كما ذكره المصنف.

(٦) حديث: «كان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف». متفق عليه من حديث أسامة بن زيد.

(٧) حديث: «كان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك». أخرجه الترمذي وضعفه، والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وتقدم منقطعاً.

(٨) حديث: «كان يخصف النعل ويرقع الثوب ويصنع في بيته مع أهله في حاجته». هو في المسند من حديث عائشة وقد تقدم في أوائل آداب المعيشة.

(٩) حديث: «كان أصحابه لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك». هو عند الترمذي من حديث أنس وصححه وتقدم في آداب الصحبة.

(١٠) حديث: «كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم». متفق عليه من حديث أنس وتقدم في آداب الصحبة.

(١١) حديث: أتي برجل فأرعد من هيبته فقال: **«هون الله عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»**. أخرجه الحاكم من حديث جرير وقال: صحيح على شرط الشيخين.

دكاناً من طين فكان يجلس عليه[(١)]، وقالت له عائشة رضي الله عنها: كُلْ ـ جعلني الله فداك ـ متكئاً فإنه أهون عليك قال: فأصغى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ثم قال: **«بل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»**[(٢)]، وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق بالله تعالى[(٣)]، وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال: **«لبيك»**[(٤)]، وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدّث معهم، وإن تكلموا في الدنيا تحدّث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم[(٥)]، وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلا عن حرام[(٦)].

بيان صورته وخلقته ﷺ:

وكان من صفة رسول الله ﷺ أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ﷺ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما فإذا فارقاه نسبا إلى الطول ونسب هو عليه السلام إلى الربعة ويقول ﷺ: **«جُعِلَ الخَيرُ كُلُّهُ فِي الرَّبْعَةِ»**[(٧)].

---

(١) حديث: «كان يجلس مع أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو؟...» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر وقد تقدم.

(٢) حديث: «قالت عائشة كُلْ ـ جعلني الله فداك ـ متكئاً فإنه أهون عليك...» الحديث. أخرجه أبو الشيخ من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عنها بسند ضعيف.

(٣) حديث: «كان ﷺ لا يأكل على خوان ولا سكرجة حتى لقي الله». أخرجه البخاري من حديث أنس وتقدم في آداب الأكل.

(٤) حديث: وكان ﷺ لا يدعوه أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال: **«لبيك»**. أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة وفيه حسين بن علوان متهم بالكذب وللطبراني في الكبير بإسناد جيد من حديث محمد بن حاطب في أثناء حديث: أن أمة قالت: يا رسول الله فقال: **«لبيك وسعديك»** الحديث.

(٥) حديث: «كان ﷺ إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى أمر الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم..» الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث زيد بن ثابت دون ذكر: الشراب، وفيه سليمان بن خارجة تفرد عنه الوليد بن أبي الوليد وذكره ابن حبان في الثقات.

(٦) حديث: «كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون قوله: «ولا يزجرهم إلا عن الحرام».

بيان صورته وخلقته ﷺ

(٧) حديث: «كان من صفة رسول الله ﷺ أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد...» الحديث. بطوله. أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة بزيادة ونقصان دون شعر أبي طالب الآتي ودون قوله: «وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ». ودون قوله: «وربما كان واسع الجبهة ـ إلى قوله ـ وكان سهل الخدين»، وفيه صبيح بن عبدالله الفرغاني منكر الحديث قاله الخطيب. وفي الصحيحين من حديث البراء: «له شعر يبلغ شحمة أذنيه»، وأبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه من حديث أم هانىء: «قدم إلى مكة وله أربع غدائر» والترمذي من حديث علي في صفته ﷺ: «أدعج العينين أهدب الأشفار...» الحديث. وقال ليس إسناده بمتصل وله في الشمائل من حديث ابن أبي هالة: «أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب. أقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية سهل الخدين ضليع الفم مفلج الأسنان...» الحديث.

وأما لونه: فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض. والأزهر: هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان، ونعته عمه أبو طالب فقال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[(١)]

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة فقالوا: إنما كان المشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة، والأزهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه. وكان عرقه ﷺ في وجهه كاللؤلؤ أطيب من المسك الأذفر.

وأما شَعره: فقد كان رجل الشعر حسنه، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل. وقيل: كان شعره يضرب منكبيه، وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه. وربما جعله غدائر أربعاً تخرج كل أذن من بين غديرتين. وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ. وكان شيبه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة، ما زاد على ذلك.

وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً وأنورهم، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته، وكانوا يقولون: هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يقول:

أمين مصطفى للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان ﷺ واسع الجبهة أزج الحاجبين سابغهما، وكان أبلج ما بين الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة، وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما، وكان في عينيه تمزج من حمرة، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها، وكان أقنى العرنين ـ أي مستوي الأنف ـ، وكان مفلج الأسنان ـ أي متفرّقها ـ، وكان إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ، وكان من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم، وكان سهل الخدين صلبهما ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم، كث اللحية، وكان يعفي لحيته ويأخذ من شاربه، وكان أحسن عباد الله عنقاً، لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهباً يتلألأ في بياض الفضة وفي حمرة الذهب، وكان ﷺ عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً؛ كالمرآة في استوائها وكالقمر في بياضه، موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان، وكان عظيم المنكبين أشعرهما، ضخم الكراديس ـ أي رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوزكين ـ، وكان واسع الظهر، ما بين كتفيه خاتم النبوّة وهو مما يلي منكبه الأيمن، فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس، وكان عبل العضدين والذراعين، طويل الزندين رحب الراحتين، سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة، كفه ألين من الخز، كأن كفه كف عطار

(١) حديث: نعته عمه أبو طالب فقال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ذكره ابن إسحاق في السيرة، وفي المسند عن عائشة: «أنها تمثلت بهذا البيت، وأبو بكر يقضي، فقال أبو بكر: ذاك رسول الله ﷺ»، وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه. وأخرجه البخاري تعليقاً من حديث ابن عمر: «ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر وجه رسول الله ﷺ ليستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب فأنشده». وقد وصله بإسناد صحيح.

طيباً ـ مسها بطيب أو لم يمسها ـ يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه، وكان عبل ما تحت الإزار من الفخذين والساق، وكان معتدل الخلق في السمن، بدن في آخر زمانه وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن.

وأما مشيه ﷺ فكان يمشي كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب، يخطو تكفياً ويمشي الهوينى بغير تبختر ـ والهوينى تقارب الخطا ـ وكان عليه الصلاة والسلام يقول: **«أَنَا أَشْبَهُ النَّاسِ بِآدَمَ ﷺ وَكَانَ أَبِي إِبْرَاهِيم ﷺ أَشْبَهَ النَّاسِ بِي خَلْقاً وَخُلُقاً»**، وكان يقول: **«إِنَّ لِي عِنْدَ رَبِّي عَشَرَةَ أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو الله بِي الكُفْرَ، وَأَنَا العَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ، وَأَنَا الحَاشِرُ يَحْشُرُ الله العِبَادَ عَلَىٰ قَدَمِي، وَأَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ وَرَسُولُ التَّوْبَةِ وَرَسُولُ المَلَاحِمِ وَالمُقَفِّي قَفَّيْتُ النَّاسَ جَمِيعاً وَأَنَا قُثَمٌ»**(١)، قال أبو البحتري: والقثم: الكامل الجامع، والله أعلم.

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه:

اعلم: أن من شاهد أحواله ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق، وهدايته إلى ضبطهم، وتألفه أصناف الخلق، وقوده إياهم إلى طاعته مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضائق الأسئلة، وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوّة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوّة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتى إن العربي القح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب. فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله، فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده؟.

وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق، وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام وعلوّ منصبه ومكانته العظيمة عند الله؛ إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أمي لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم، ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتيماً ضعيفاً مستضعفاً، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه ـ مثلاً فقط ـ دون غيره من العلوم فضلاً عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه، وغير ذلك من خواص النبوّة لولا صريح الوحي؟، ومن أين لقوّة البشر الاستقلال بذلك؟، فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية. وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل.

---

(١) حديث: **«إن لي عند ربي عشرة أسماء...»** الحديث. أخرجه ابن عدي من حديث علي وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة بإسناد ضعيف. وله ولأبي نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل: **«لي عند ربي عشرة أسماء»** قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية. فذكرها بزيادة ونقص وذكر سيف بن وهب: أن أبا جعفر قال: إن الاسمين طه ويس. وإسناده ضعيف، وفي الصحيحين من حديث جبير بن مطعم: **«لي أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الحاشر وأنا الماحي وأنا العاقب»**. ولمسلم من حديث أبي موسى: **«والمقفى ونبي التوبة ونبي الرحمة»**. ولأحمد من حديث حذيفة: **«ونبي الملاحم»**. وسنده صحيح.

فقد خرق الله العادة على يده غير مرة؛ إذ شق له القمر بمكة لما سألته قريش آية[١]، وأطعم النفر الكثير في منزل جابر[٢]، وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق[٣]، ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق[٤]، وهو من أولاد المعز فوق العتود، ومرة أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس في يده[٥]، ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها؛ فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم[٦]، ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام؛ فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه[٧]، وأهراق عليه السلام وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها، ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشتا بالماء؛ فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا، وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء[٨]، وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزوّد أربعمائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة البعير ـ وهو موضع بروكه ـ فزوّدهم كلهم منه وبقي منه فحبسه[٩]، ورمى

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

(١) حديث: «انشقاق القمر». متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس.

(٢) حديث: «إطعام النفر الكثير في منزل جابر»، متفق عليه من حديثه.

(٣) حديث: «إطعامه النفر الكثير في منزل أبي طلحة». متفق عليه من حديث أنس.

(٤) حديث: «إطعامه ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق». أخرجه الإسماعيلي في صحيحه ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة من حديث جابر وفيه: «أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة» وهو عند البخاري دون ذكر العدد، وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة: «وهم ألف».

(٥) حديث: «إطعامه أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس في يده». أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه: «حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ثم أكل النبي ﷺ بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤراً». وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل: «حتى أكل منه بضع وثمانون رجلاً». وهو متفق عليه بلفظ: «والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً».

(٦) حديث: «إطعامه أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها...» الحديث. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق، حدثنا سعيد بن ميناء عن ابنة بشير بن سعد وإسناده جيد.

(٧) حديث: «نبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر وهم عطاش وتوضؤوا..» الحديث. متفق عليه من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط، ولأبي نعيم من حديثه: «خرج إلى قباء فأتى من بعض بيوتهم بقدح صغير». وفيه: ثم قال: «هلم إلى الشرب» قال أنس: بصر عيني نبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القدح حتى رووا منه. وإسناده جيد وللبزار واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس: «كان في سفر فشكا أصحابه العطش فقال: «ائتوني بماء» فأتوه بإناء فيه ماء فوضع يده في الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه...» الحديث.

(٨) حديث: «إهراقه وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشتا بالماء...» الحديث. رواه مسلم من حديث معاذ بقصة عين تبوك، ومن حديث سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية وفيه: «فإما دعا وإما بصق فيها فجاشتا...» الحديث. وللبخاري من حديث البراء: «أنه توضأ وصبه فيها». وفي الحديثين معاً: «أنهم كانوا أربع عشرة مائة» وكذا عند البخاري من حديث البراء وكذلك عندهما من حديث جابر، وقال البيهقي: إنه الأصح، ولهما من حديثه أيضاً: ألف وخمسمائة. ولمسلم من حديث ابن أبي أوفى: ألف وثلاثمائة.

(٩) حديث: «أمر عمر أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان كربضة البعير..» الحديث. أخرجه أحمد من حديث النعمان بن مقرن وحديث دكين وابن سعيد بإسنادين صحيحين وأصل حديث دكين عند أبي داود مختصراً من غير بيان لعددهم.

الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١)، وأبطل الله تعالى الكهانة بمبعثه ﷺ فعدمت وكانت ظاهرة موجودة(٢)، وحنَّ الجذع الذي كان يخطب إليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل، فضمه إليه فسكن(٣)، ودعا اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه(٤)، وهذا مذكور في سورة يقرأ بها في جميع جوامع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة ـ جهراً ـ تعظيماً للآية التي فيها.

وأخبر عليه السلام بالغيوب وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة(٥)، وبأن عماراً تقتله الفئة الباغية(٦)، وأن الحسن يصلح الله به فئتين من المسلمين عظيمتين(٧)، وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار(٨)، فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه، وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف البتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر، لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه. واتبعه سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض، وأتبعه دخان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس، وأنذره بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى(٩)، فكان كذلك، وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قتله(١٠)، وخرج على مائة

---

(١) حديث: «رميه الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع دون ذكر نزول الآية، فرواه ابن مردويه في تفسيره من حديث جابر وابن عباس.

(٢) حديث: «إبطال الكهانة بمبعثه» أخرجه الخرائطي من حديث مرداس بن قيس الدوسي قال: «حضرت النبي ﷺ وذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه..» الحديث. ولأبي نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس في استراق الجن السمع فيلقونه على أوليائهم: «**فلما بعث محمد ﷺ دحروا بالنجوم**» وأصله عند البخاري بغير هذا السياق.

(٣) حديث: «**حنين الجذع**»، أخرجه البخاري من حديث جابر وسهل بن سعد.

(٤) حديث: «**دعا اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه**...» الحديث. أخرجه البخاري من حديث ابن عباس: «**لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا**...» الحديث. وللبيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس: «**«لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه» فأبوا أن يفعلوا**...» الحديث. وإسناده ضعيف.

(٥) حديث: «إخباره بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة». متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

(٦) حديث: «إخباره بأن عماراً تقتله الفئة الباغية». أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة وأم سلمة والبخاري من حديث أبي سعيد.

(٧) حديث: «إخباره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين». أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة.

(٨) حديث: «إخباره عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار». متفق عليه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد.

(٩) حديث: «اتباع سراقة بن مالك له في قصة الهجرة فساخت قدما فرسه في الأرض...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق.

(١٠) حديث: «إخباره بمقتل الأسود العنسي ليلة قتل وهو بصنعاء اليمن ومن قتله». وهو مذكور في السير والذي قتله فيروز الديلمي وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحى إليّ في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا، فتأولتهما كذابين يخرجان بعدي**». فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء...» الحديث.

من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه[(١)]، وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له[(٢)]، وقال لنفر من أصحابه مجتمعين: «**أَحَدُكُمْ فِي النَّارِ ضِرْسُهُ مِثْلُ أُحُدٍ**» فماتوا كلهم على استقامة وارتد منهم واحد فقتل مرتداً[(٣)]، وقال لآخرين منهم: «**آخِرُكُمْ مَوْتاً فِي النَّارِ**»، فسقط آخرهم موتاً في النار فاحترق فيها فمات[(٤)]، ودعا شجرتين فأتتاه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا. وكان عليه السلام نحو الربعة فإذا مشى مع الطوال طالهم[(٥)]، ودعا عليه السلام النصارى إلى المباهلة فامتنعوا، فعرّفهم ﷺ أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا، فعلموا صحة قوله فامتنعوا[(٦)]، وأتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله عليه السلام، فحيل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بغدة، وهلك أربد بصاعقة أحرقته[(٧)]، وأخبر عليه السلام أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي فخدشه يوم أُحُد خدشاً لطيفاً فكانت منيته فيه[(٨)].

وأُطعم عليه الصلاة والسلام السم، فمات الذي أكله معه وعاش هو ﷺ بعده أربع سنين، وكلمه الذراع المسموم[(٩)].

---

(١) حديث: «خرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه». أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه: أنهم كانوا مائة. وكذلك رواه ابن إسحاق من حديث محمد بن كعب القرظي مرسلاً.

(٢) حديث: «شكا إليه البعير وتذلل له». أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن جعفر في أثناء حديث وفيه: «**فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه**». وأول الحديث عند مسلم دون ذكر قصة البعير.

(٣) حديث: قال لنفر من أصحابه: «**أحدكم ضرسه في النار مثل أحد...**» الحديث. ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة بغير إسناد في ترجمة الرجال بن عنفرة وهو الذي ارتد ـ وهو بالجيم ـ وذكر عبدالغني ـ بالمهملة ـ وسبقه إلى ذلك الواقدي والمدائني، والأول أصح وأكثر كما ذكره الدارقطني وابن ماكولا، ووصله الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ: «**أحد هؤلاء النفر في النار**». وفي الواقدي عن عبدالله بن نوح متروك.

(٤) حديث: قال لآخرين منهم: «**آخركم موتاً في النار**» فسقط آخرهم موتاً في نار فاحترق فيها فمات. أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل من حديث ابن محذورة، وفي رواية البيهقي: أن آخرهم موتاً سمرة بن جندب، لم يذكر أنه احترق، ورواه البيهقي من حديث أبي هريرة نحوه ورواته ثقات. وقال ابن عبدالبر: «إنه سقط في قدر مملوءة ماء حاراً فمات». روى ذلك بإسناد متصل إلا أن فيه داود بن المحبر وقد ضعفه الجمهور.

(٥) حديث: «دعا شجرتين فأتتاه فاجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا». أخرجه أحمد من حديث علي بن مرة بسند صحيح.

(٦) حديث: «دعا النصارى إلى المباهلة وأخبر إن فعلوا ذلك هلكوا فامتنعوا». أخرجه البخاري من حديث ابن عباس في أثناء حديث: «ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً».

(٧) حديث: «أتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله فحيل بينهما وبين ذلك...» الحديث.
أخرجه الطبراني في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس بطوله بسند لين.

(٨) حديث: «إخباره أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي فخدشه يوم أُحد خدشاً لطيفاً فكانت منيته». أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية عروة بن الزبير مرسلاً.

(٩) حديث: «إنه أطعم السم فمات الذي أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين، وكلمه الذراع المسموم». أخرجه أبو داود من حديث جابر في رواية له مرسلة: «أن الذي مات بشر بن البراء»، وفي الصحيحين من حديث أنس: «أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها...» الحديث. وفيه: «فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ».

وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجلاً رجلاً، فلم يتعدّ واحد منهم ذلك الموضع[(١)]، وأنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك[(٢)]، وزويت له الأرض فأري مشارقها ومغاربها، وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ ما زوي له منها، فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول المشرق: من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر، ولم يتسعوا في الجنوب ولا في الشمال ـ كما أخبر ﷺ سواء بسواء[(٣)] ـ، وأخبر فاطمة ابنته رضي الله عنها بأنها أول أهله لحاقاً به[(٤)]، فكان كذلك. وأخبر نساءه بأن أطولهنّ يداً أسرعهنّ لحاقاً به، فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهنّ يداً بالصدقة أولهنّ لحوقاً به رضي الله عنها[(٥)].

ومسح ضرع شاة حائل لا لبن لها فدرت[(٦)]، وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضي الله عنه. وفعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية. ونذرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه السلام بيده، فكانت أصح عينيه وأحسنهما[(٧)]، وتفل في عين علي رضي الله عنه وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية[(٨)]، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ﷺ[(٩)]، وأصيبت رِجل بعض أصحابه ﷺ فمسحها بيده فبرأت من حينها[(١٠)]، وقلّ زاد جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع ما بقي فاجتمع شيء يسير جداً، فدعا فيه بالبركة، ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء في العسكر إلا ملىء من ذلك[(١١)]، وحكى الحكم بن العاص بن وائل[(أ)] مشيته عليه السلام مستهزئاً فقال ﷺ: «**كَذَٰلِكَ فَكُنْ**».

---

(١) حديث: «إخباره ﷺ يوم بدر بمصارع صناديد قريش...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) حديث: «إخباره بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك» متفق عليه من حديث أم حرام.

(٣) حديث: «زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ ما زوي له منها...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة وفاطمة أيضاً.

(٤) حديث: «إخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقاً به» متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضاً.

(٥) حديث: «أخبر نساءه أن أطولهن يداً أسرعهن لحاقاً به فكانت زينب» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي الصحيحين: «أن سودة كانت أولهن لحوقاً به». قال ابن الجوزي: وهذا غلط من بعض الرواة بلا شك.

(٦) حديث: «مسح ضرع شاة حائل لا لبن لها فدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود». أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود بإسناد جيد.

(٧) حديث: «ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنهما». أخرجه أبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان، وهو الذي سقطت عينه ففي رواية للبيهقي: «أنه كان ببدر». وفي رواية أبي نعيم: «أنه كان بأحد»، وفي إسناده اضطراب، وكذا رواه البيهقي فيه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٨) حديث: «تفل في عين علي وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية». متفق عليه من حديث علي ومن حديث سهل بن سعد أيضاً.

(٩) حديث: «كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه». أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود.

(١٠) حديث: «أصيبت رجل بعض أصحابه فمسحها بيده فبرأت من حينها». أخرجه البخاري في قصة قتل أبي رافع.

(١١) حديث: «قلّ زاد جيش معه فدعا بما بقي فاجتمع شيء يسير فدعا فيه بالبركة...» الحديث. متفق عليه من حديث سلمة بن الأكوع.

(أ) قوله: الحكم بن العاص بن وائل وهكذا في النسخ، وصوابه كما في الشارح: الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس. اهـ مصححه.

فلم يزل يرتعش حتى مات[١]، وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها: إن بها برصاً ـ امتناعاً من خطبته واعتذاراً ـ ولم يكن بها برص فقال عليه السلام: «فَلْتَكُنْ كَذٰلِكَ»[٢]، فبرصت وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر. إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته ﷺ. وإنما اقتصرنا على المستفيض. ومن يستريب في انخراق العادة على يده ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواتراً، بل المتواتر هو القرآن فقط؛ كمن يستريب في شجاعة علي رضي الله عنه، وسخاوة حاتم الطائي، ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة، ولكن مجموع الوقائع يورث علماً ضرورياً، ثم لا يتمارى في تواتر القرآن وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق، وليس لنبي معجزة باقية سواه ﷺ؛ إذ تحدى بها رسول الله ﷺ بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم. وكان ينادي بين أظهرهم ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه، حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسبي، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه، ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقاً وغرباً قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر، وقد انقرض اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يقدر أحد على معارضته.

فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله، ثم في أقواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه؛ ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه.

وما أعظم توفيق من آمن به وصدّقه واتبعه في كل ما ورد وصدر، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمنّه وسعة جوده.

---

(١) حديث: حكى الحكم بن العاص مشيته مستهزئاً به فقال «كذلك فكن...» الحديث. أخرجه البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد، وللحاكم في المستدرك من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم، وقال صحيح الاسناد.

حديث: «يد طلحة لمّا أزال ما كان بها من شلل أصابها يوم أحد حين مسحها بيده». رواه النسائي من حديث جابر: «لمّا كان يوم أحد...» وفيه: «فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه» فقال: حسن. وليس فيه أنه مسحها، وللبخاري من حديث قيس: «رأيت يد طلحة شلاء وقي بها النبي يوم أحد».

(٢) حديث: خطب امرأة فقال أبوها إن بها برصاً امتناعاً من خطبته واعتذاراً ولم يكن بها برص فقال: «فلتكن كذلك» فبرصت المرأة. وذكرها ابن الجوزي في التلقيح وسماها جمرة بنت الحارث بن عوف المزني وتبعه على ذلك الدمياطي في جزء له في نساء النبي ﷺ ولم يصح ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ]

الحمد لله الذي تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر، وتدهش في مبادىء إشراق أنواره الأحداق والنواظر، المطلع على خفيات السرائر، العالم بمكنونات الضمائر، المستغني في تدبير مملكته عن المشاور والموازر، مقلب القلوب وغفار الذنوب، وستار العيوب، ومفرّج الكروب.

والصلاة على سيد المرسلين، وجامع شمل الدين، وقاطع دابر الملحدين. وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم كثيراً.

أما بعد: فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدّته وذخره، وإنما استعدّ للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه؛ فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات؛ يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرّد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه؛ إذ كل إناء ينضح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل؛ إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته: بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته، ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، وأنه كيف يهوي مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين. ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩] فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين.

وإذ فرغنا من الشطر الأوّل من هذا الكتاب من النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات ـ وهو العلم الظاهر ـ، ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات ـ وهو العلم الباطن ـ، فلا بدّ أن نقدّم عليه كتابين: كتاباً في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه، وكتاباً في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه. ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات.

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام، فإنّ التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام.

بيان معنى النفس، والروح، والقلب، والعقل، وما هو المراد بهذه الأسامي:

اعلم: أنّ هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب. ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها، ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة. ونحن نشرح في معنى هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا:

اللفظ الأول: لفظ القلب، وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته؛ إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية. وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت. ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة؛ إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين.

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب. ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته؛ فإنّ تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة. أو تعلق المتمكن بالمكان، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين:

أحدهما: أنه متعلق بعلوم المكاشفة، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة.

والثاني: أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ[1]؛ فليس

---

(١) حديث: «أنه ﷺ لم يتكلم في الروح». متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح. وفيه: «فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم، فعلمت أنه يوحى إليه. . » الحديث. وقد تقدم.

لغيره أن يتكلم فيه، والمقصود: أنّا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها.

اللفظ الثاني: الروح، وهو أيضاً يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين:

أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، وليس شرحه من غرضنا؛ إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان؛ فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً.

المعنى الثاني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وهو أمر عجيب رباني، تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

اللفظ الثالث: النفس، وهو أيضاً مشترك بين معان، ويتعلق بغرضنا منه معنيان:

أحدهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوّة الغضب والشهوة في الإنسان على ما سيأتي شرحه، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوّف؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**»(١).

المعنى الثاني: هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. قال الله تعالى في مثلها: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، والنفس بالمعنى الأوّل لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى؛ فإنها مبعدة عن الله، وهي من حزب الشيطان. وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوّامة؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه. قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢]، وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء. قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء: هي النفس بالمعنى الأوّل، فإذاً: النفس بالمعنى الأوّل مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة؛ لأنها نفس الإنسان، أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

---

(١) حديث: «**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**» أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبدالرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.

اللفظ الرابع: العقل، وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان:

أحدهما: أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

والثاني: أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة. ونحن نعلم أنّ كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه، والصفة غير الموصوف، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك، وهو المراد بقوله ﷺ: **«أَوَّلُ ما خَلَقَ الله العَقْلُ»**[1]: فإنّ العلم عرض لا يتصوّر أن يكون أوّل مخلوق، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه، ولأنه لا يمكن الخطاب معه. وفي الخبر: **«أنه قال له تعالى: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر...»** الحديث.

فإذاً: قد انكشف لك أنّ معاني هذه الأسماء موجودة: وهي القلب الجسماني، والروح الجسماني، والنفس الشهوانية، والعلوم. فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها، فالمعاني خمسة، والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين، وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها؛ فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون: هذا خاطر العقل، وهذا خاطر الروح، وهذا خاطر القلب، وهذا خاطر النفس، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدّمنا شرح هذه الأسامي، وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب، فالمراد به: المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها الأوّل بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها، ولذلك شبّه سهل التستري القلب بالعرش، والصدر بالكرسي فقال: القلب هو العرش والصدر هو الكرسي. ولا يظنّ به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه، فإن ذلك محال، بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضاً إلا من بعض الوجوه، وشرح ذلك أيضاً لا يليق بغرضنا فلنجاوزه.

بيان جنود القلب:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدّثّر: ٣١] فللّه سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو. ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب، فهو الذي يتعلق بغرضنا. وله جندان: جند يُرى بالأبصار، وجند لا يُرى إلا بالبصائر، وهو في حكم الملك، والجنود في حكم الخدم والأعوان، فهذا معنى الجند. فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة؛ فإنّ جميعها خادمة للقلب ومسخرة له، فهو المتصرف فيها والمردد لها، وقد خلقت مجبولة على طاعته؛ لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرّداً، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم

---

(١) حديث: **«أول ما خلق الله العقل»** وفي الخبر أنه قال له: **«أقبل فأقبل وقال: أدبر فأدبر...»** الحديث تقدم في العلم.

به تكلم، وكذا سائر الأعضاء. وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافاً، بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإنما يفترقان في شيء: وهو أنّ الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها، والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه، فلأجله خلقت القلوب. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريَات: ٥٦] وإنما مركبه البدن وزاده العلم. وإنما الأسباب التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التزوّد منه هو العمل الصالح، وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا، فإنّ المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهي منزل من منازل الهدى، وإنما سميت دنيا: لأنها أدنى المنزلتين، فاضطرّ إلى أن يتزوّد من هذا العالم، فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين: باطن: وهو الشهوة. وظاهر: وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن: وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء. وظاهر: وهو اليد والرجل اللتين بهما يعمل بمقتضى الغضب، وكل ذلك بأمور خارجة؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها، ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه، فافتقر للمعرفة إلى جندين: باطن: وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق. وظاهر: وهو العين والأذن والأنف وغيرها. وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول، ولا تحويه مجلدات كثيرة. وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به.

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف: صنف باعث ومستحث: إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة، وإما إلى دفع الضارّ المنافي كالغضب، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة. والثاني: هو المحرّك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة: وهي جنود مبثوثة في سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوتار. والثالث: هو المدرك المتعرّف للأشياء كالجواسيس: وهي قوّة البصر والسمع والشم والذوق واللمس، وهي مبثوثة في أعضاء معينة، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة، وهي الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود، فإنّ قوّة البطش إنما هي بالأصابع، وقوّة البصر إنما هي بالعين، وكذا سائر القوى، ولسنا نتكلم في الجنود الظاهرة ـ أعني الأعضاء ـ فإنها من عالم الملك والشهادة، وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها. وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة: وهي الحواس الخمس ـ أعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس ـ وإلى ما أسكن منازل باطنة: وهي تجاويف الدماغ، وهي أيضاً خمسة، فإنّ الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين

المحسوسات؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه؛ فتلك القوى أيضاً جنود باطنة وأماكنها أيضاً باطنة، فهذه هي أقسام جنود القلب، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول. ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء، ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم.

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة:

اعلم: أن جندي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تاماً، فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه وتحسن مرافقتهما في السفر الذي هو بصدده، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد، وللقلب جند آخر: وهو العلم والحكمة والتفكر، كما سيأتي شرحه، وحقه أن يستعين بهذا الجند؛ فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان. فإن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقيناً وخسر خسراناً مبيناً، وذلك حالة أكثر الخلق، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة، وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه، ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة:

المثال الأول: أن نقول: مثل نفس الإنسان في بدنه ـ أعني بالنفس اللطيفة المذكورة ـ كمثل ملك في مدينته ومملكته، فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل. والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة. والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث، يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته حتى أنه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة، كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنياً في تدبيراته بوزيره مستشيراً له ومعرضاً عن إشارة هذا العبد الخبيث، مستدلاً بإشارته في أن الصواب في نقيض رأيه، أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره، وجعله مؤتمراً له مسلطاً من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره، حتى يكون العبد مسوساً لا سائساً، ومأموراً مدبَراً لا أميراً مدبِراً، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب، وسلطتها على الشهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال تعالى فيه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقال عزّ وجلّ فيمن نهى النفس عن الهوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وسيأتي كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى.

المثال الثاني: اعلم: أن البدن كالمدينة والعقل ـ أعني المدرك ـ من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمارة بالسوء التي هي

الشهوة والغضب كعدوّ ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط، فإن هو جاهد عدوّه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥] وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة: يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير، اليوم أنتقم منك[(١)]، كما ورد في الخبر. وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله ﷺ: **«رَجَعْنا مِنَ الجِهادِ الأَصْغَرِ إلَى الجِهادِ الأَكْبَرِ»**[(٢)].

المثال الثالث: مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه مؤدباً معلماً كان جديراً بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً، فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصاً شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه.

بيان خاصية قلب الإنسان:

اعلم: أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمي؛ إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضاً، حتى أن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه، فذلك هو الإدراك الباطن.

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى. وهو راجع إلى علم وإرادة.

أما العلم: فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية، فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل، إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وهذا حكم منه على كل شخص. ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص، فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس. وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر.

وأما الإرادة: فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة، وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة. فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها. والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض، والعاقل يجد في نفسه زاجراً عنها، وليس ذلك زاجر الشهوة. ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعاً على التحقيق.

فإذاً: قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان، بل ينفك عنها الصبي في أوّل

---

(١) حديث: «يقال يوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة...» الخبر، لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

الفطرة، وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ. وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي.

ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان:

إحداهما: أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة، فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة؛ فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد.

الثانية: أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له: كاتب وإن لم يكن مباشراً للكتابة بقدرته عليها. وهذه هي غاية درجة الإنسانية. ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها، وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها؛ إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول. وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء، فدرجات الترقي فيه غير محصورة، إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها. وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف، بل بكشف إلهي في أسرع وقت، وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قرباً بالمعنى والحقيقةِ والصفة لا بالمكان والمسافة، ومراقي هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل. فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علماً، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال ﷺ: «**إنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ لَنَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا**»(١)، والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة ـ كما سيأتي بيانه ـ وإلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ: «**يَنْزِلُ الله كُلَّ لَيلَةٍ إلى سَمَاءِ الدُّنيا فَيَقُول هَلْ مِن داعٍ فَأَسْتَجِيب لَهُ؟**» وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عزّ وجلّ: «**لَقَدْ طَالَ شَوْقُ الأَبْرارِ إلى لِقَائِي وَأَنَا إلى لِقَائِهِم أَشَدُّ شَوْقاً**»(٢)، وبقوله تعالى [في الحديث القدسي]: «**مَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليهِ ذِراعاً**»(٣)، كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم ـ تعالى عن البخل والمنع علوّاً كبيراً ـ ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب، فإنّ القلوب كالأواني؛ فما دامت ممتلئة بالماء لا

---

(١) حديث: «**إن لربكم في أيام دهركم لنفحات...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم.

(٢) حديث: «**يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي...**» الحديث. لم أجد له أصلاً إلا أن صاحب الفردوس أخرجه من حديث أبي الدرداء، ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسناداً.

(٣) حديث: «**يقول الله: من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً**». متفق عليه من حديث أبي هريرة.

يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: **«لَوْلا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ»**[1]، ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة.

وأشرف أنواع العلم: هو العلم بالله وصفاته وأفعاله، فبه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال. فالبدن مركب للنفس، والنفس محل للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق، وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكرّ والفرّ وحسن الهيئة؛ فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصية، فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار. وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقهما في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقرّبين من ربّ العالمين. والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث يحس ويتحرّك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء.

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة؛ فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكاً وربانياً، كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يُوسُف: ٣١].

ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمراً كثور، وإما شرهاً كخنزير، وإما ضرياً ككلب أو سنور، أو حقوداً كجمل، أو متكبراً كنمر، أو ذا روغان كثعلب، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد.

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى ـ كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر ـ فمن استعمله فيه فقد فاز، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب. وجملة السعادة في ذلك: أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده، والدار الآخرة مستقرّه، والدنيا منزله، والبدن مركبه، والأعضاء خدمه. فيستقرّ هو ـ أعني المدرك من الإنسان ـ في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك، ويُجري القوّة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده، إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده، ويُجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه، ويُجري اللسان مجرى ترجمانه، ويُجري الأعضاء المتحركة مجرى كتابه، ويُجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه، فيوكّل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع؛ فيوكّل العين بعالم الألوان، والسمع بعالم الأصوات، والشم بعالم الروائح. وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم، ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد، ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة، ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو بصدده، وقمع عدوّه الذي هو مبتلى به، ودفع قواطع الطريق عليه. فإذا فعل ذلك كان موفقاً سعيداً شاكراً نعمة الله، وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة، أو في عمارة طريقه دون منزله ـ إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره، ووطنه ومستقرّه

---

(١) حديث: **«لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم. . .»** الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه. وقد تقدم في الصيام.

الآخرة ـ كان مخذولاً شقياً كافراً بنعمة الله تعالى، مضيعاً لجنود الله تعالى، ناصراً لأعداء الله؛ مخذلاً لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد في المنقلب والمعاد. نعوذ بالله من ذلك.

وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك[1]، فإذا طاب الملك طابت جنوده، فقالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول. وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب: إن لله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها، ثم فسره فقال: أصلبها في الدين، وأصفاها في اليقين، وأرقها على الإخوان، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النُّور: ٣٥] قال أبي بن كعب رضي الله عنه: معناه مثل نور المؤمن وقلبه، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ [النُّور: ٤٠] مثل قلب المنافق. وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البُرُوج: ٢٢] وهو قلب المؤمن. وقال سهل: مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي. فهذه أمثلة القلب.

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته:

اعلم: أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي: الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية. فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره. ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: ٨٥] فإنه يدعي لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص، والاستبداد بالأمور كلها، والتفرّد بالرياسة، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع، ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها؛ بل يدعي لنفسه العلم، والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نسب إلى العلم، ويحزن إذا نسب إلى الجهل. والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك. ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر في معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.

وكل إنسان فيه شوب[2] من هذه الأصول الأربعة ـ أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية ـ وكل ذلك مجموع في القلب. فكأن المجموع في إهاب الإنسان: خنزير وكلب وشيطان وحكيم.

فالخنزير: هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموماً للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه.

والكلب: هو الغضب فإنّ السبع الضاري والكلب العقور ليس كلباً وسبعاً باعتبار الصورة واللون

---

(١) حديث عائشة: «الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان...» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي، والطبراني في مسند الشاميين، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه، وله ولأحمد من حديث أبي ذر: «وأما الأذن فقمع وأما العين فمقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شيء».

(٢) شوب: خليط ومزيج.

والشكل، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر، وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه. فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر، والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء.

والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه.

والحكيم ـ الذي هو مثال العقل ـ مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره؛ بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه؛ إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير.

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة، ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرة وراكعاً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره. فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته، أو رأى نفسه ماثلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً، سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه، مدققاً بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه؛ فإنه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه، فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعياً طول النهار في عبادة هؤلاء، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكاً والرب مربوباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً؛ إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعاً وَرَيْناً مهلكاً للقلب ومميتاً له، أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها. وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف، وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها. وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والتضريب والغش والخب[1] والخنا وأمثالها. ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب، ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها.

---

(١) الخب: الخداع.

فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب. أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونوراً وضياءً حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله ﷺ: **«إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدٍ خَيْراً جَعَلَ لَهُ واعِظاً مِنْ قَلْبِهِ»**[(١)]، وبقوله ﷺ: **«مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الله حَافِظٌ»**[(٢)]، وهذا القلب هو الذي يستقرّ فيه الذكر. قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨].

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤] وقال عزّ وجلّ: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠] فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب، كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة، ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك ﴿يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [المُمتحَنة: ١٣] وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة.

قال ميمون بن مهران: إذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران، وقد قال النبي ﷺ: **«قَلْبُ المُؤْمِنِ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ وَقَلْبُ الكَافِرِ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ»**[(٣)]. فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب، ومعاصيه مسودات له، فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه، ومن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح، فإنها لا تخلو عن كدورة. وقد قال ﷺ: **«القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ فَذٰلِكَ قَلْبُ المُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ فَذٰلِكَ قَلْبُ الكَافِرِ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ فَذٰلِكَ قَلْبُ المُنَافِقِ وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ فِيهِ إِيمانٌ وَنِفاقٌ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب. ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها؟»**[(٤)] وفي رواية: ذهبت به. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ

---

(١) حديث: **«إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظاً من قلبه»** أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد.

(٢) حديث: **«من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ»** لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: **«قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر...»** الحديث. أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه.

(٤) حديث: **«القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر...»** الحديث. أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري، وقد تقدم.

ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا. فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة:

اعلم: أن محل العلم هو القلب؛ أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح، وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات؛ فكما أن للمتلون صورة، ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها، وكما أن المرآة غير، وصور الأشخاص غير، وحصول مثالها في المرآة غير، فهي ثلاثة أمور. فكذلك ههنا ثلاثة أمور: القلب، وحقائق الأشياء، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه.

فالعالم: عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الأشياء، والمعلوم: عبارة عن حقائق الأشياء. والعلم: عبارة عن حصول المثال في المرآة.

وكما أن القبض مثلاً يستدعي (قابضاً) كاليد (ومقبوضاً) كالسيف، ووصولاً بين السيف واليد ـ بحصول السيف في اليد ـ ويسمى (قبضاً)، فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علماً، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلاً، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب، كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلاً لعدم وقوع السيف في اليد، نعم، القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد، والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب، فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها، فتمثيله بالمرآة أولى؛ لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له. وكذا حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علماً.

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور:

أحدها: نقصان صورتها، كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل.

والثاني: لخبثه وصدئه وكدورته، وإن كان تام الشكل.

والثالث: لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها، كما إذا كانت الصورة وراء المرآة.

والرابع: لحجاب مرسل بين المرآة والصورة.

والخامس: للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة، حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها.

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها، وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة:

أولها: نقصان في ذاته، كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه.

والثاني: لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: **«مَنْ قَارَفَ**

ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً»[1] أي حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها، إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب، فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نوراً. فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ»**[2].

الثالث: أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق؛ لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها، أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً عن انكشاف جلية الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها، فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي؟.

الرابع: الحجاب، فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك؛ لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق، ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد، وهذا أيضاً حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض؛ لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم، وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق.

الخامس: الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه، حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة، بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى. ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان، وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم. ومثاله: ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها، بل مثاله: أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلاً

---

(١) حديث: **«من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً»** لم أر له أصلاً.

(٢) حديث: **«من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»** رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم.

بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها، فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعي مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة، يعز على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات.

فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور. وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق؛ لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف. وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى. وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد. وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في الأصل، ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها. ولذلك قال ﷺ: **«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»**(١)، وقول رسول الله ﷺ: **«لَوْلا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ»**(٢)، إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلوب وبين الملكوت.

وإليه الإشارة بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله: يا رسول الله، أين الله في الأرض أو في السماء؟ قال: **«في قلوب عباده المؤمنين»**(٣)، وفي الخبر: **«قَالَ الله تَعَالَى: لَمْ يَسَعْنِي أَرْضِي وَلا سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ اللَّيِّنِ الوَادِعِ»**(٤). وفي الخبر أنه قيل: يا رسول الله من خير الناس؟ فقال: **«كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومُ القَلْبِ»** فقيل: وما مخموم القلب؟ فقال: **«هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لا غِشَّ فِيهِ وَلا بَغْيَ وَلا غَدْرَ وَلا غِلَّ وَلا حَسَدَ»**(٥). ولذلك قال عمر رضي الله عنه: رأى قلبي ربي. إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السمٰوات والأرض، أما جملتها فأكثر سعة من السمٰوات والأرض؛ لأن السمٰوات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة، وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة، وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه، ولكنه في نفسه

---

(١) حديث: **«كل مولود يولد على الفطرة...»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم...»** الحديث. تقدم.

(٣) حديث ابن عمر: أين الله؟ قال: **«في قلوب عباده المؤمنين»**. لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي ﷺ قال: **«إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين...»** الحديث. فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث.

(٤) حديث: **«قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع»** لم أر له أصلاً، وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني بعد قوله: **«وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها»**.

(٥) حديث: قيل: من خير الناس؟ قال: **«كل مؤمن مخموم القلب...»** الحديث. أخرجه ابن ماجة من حديث عبدالله بن عمر بإسناد صحيح.

وبالإضافة إلى علم الله لا نهاية له. وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية، لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات؛ إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله، فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله. وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩] ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه، أعني إشراق نور المعرفة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وبقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢].

نعم، هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إيمان العوام؛ وهو إيمان التقليد المحض.

والثانية: إيمان المتكلمين؛ وهو ممزوج بنوع استدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام.

والثالثة: إيمان العارفين؛ وهو المشاهد بنور اليقين.

ونبين لك هذه المراتب بمثال: وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في الدار له ثلاث درجات.

الأولى: أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع، وهذا [هو] الإيمان بمجرد التقليد، وهو مثل إيمان العوام؛ فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاؤوا به، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم؛ لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين؛ وليسوا من المقربين؛ لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين؛ إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد، بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات، فقلوب اليهود والنصارى أيضاً مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم، إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم ألقي إليهم الخطأ، والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقي إليهم كلمة الحق.

الرتبة الثانية: أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار؛ فتستدل به على كونه في الدار. فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع، فإنك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقيناً؛ لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص؛ وهذا إيمان ممزوج بدليل، والخطأ أيضاً ممكن أن يتطرق إليه؛ إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع؛ لأنه ليس يجعل للتهمة موضعاً، ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضاً.

الرتبة الثالثة: أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية. وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين، ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ. نعم، وهم أيضاً يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف.

أما درجات الكشف: فمثاله: أن يبصر زيداً في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق

الشمس فيكمل له إدراكه، والآخر يدركه في بيت أو من بعد أو في وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو؛ ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته. ومثل هذا متصوّر في تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية.

وأما مقادير العلوم: فهو بأن يرى في الدار زيداً وعمراً وبكراً غير ذلك، وآخر لا يرى إلا زيداً، فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة. فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم. والله تعالى أعلم بالصواب.

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية:

اعلم: أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق، ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية. والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة. والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية.

أما العقلية: فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع، وهي تنقسم إلى ضرورية: لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً معاً؛ فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها، ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له؟ أعني أنه لا يدري له سبباً قريباً، وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهداه. وإلى علوم مكتسبة: وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلاً.

قال علي رضي الله عنه:

رأيتُ العقلَ عقلين ... فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفع مسموعٌ ... إذا لم يكُ مطبوعُ
كما لا تنفعُ الشمس ... وضوء العينِ ممنوعُ

والأول هو المراد بقوله ﷺ لعلي: «**ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل**»(١)، والثاني هو المراد بقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك**»(٢). إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة. ولكن مثل علي رضي الله عنه هو الذي يقدر على التقرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينال القرب من رب العالمين، فالقلب جار مجرى العين، وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوّة البصر في العين، وقوة الإبصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل، والعلم الحاصل منه في القلب جار مجرى قوّة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيان الأشياء. وتأخر العلوم عن عين العقل في مدّة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على

---

(١) حديث: «**ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل**» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد ضعيف، وقد تقدم في العلم.

(٢) حديث: «**إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك**» أخرجه أبو نعيم من حديث علي بإسناد ضعيف.

المبصرات. والقلم الذي سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس. وإنما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم، والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سبباً لحصول نقش العلوم في قلوب البشر. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٤،٥]، وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه، كما لا يشبه وصفه وصف خلقه، فليس قلمه من قصب ولا خشب، كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض؛ فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه، إلا أنه لا مناسبة بينهما في الشرف؛ فإن البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة، وهي كالفارس والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس، بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر. ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: ١١] سمى إدراك الفؤاد رؤية، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان، ولذلك سمي ضد إدراكه عمى، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [الإسراء: ٧٢] فهذا بيان العلم العقلي.

أما العلوم الدينية: فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفهم معانيهما بعد السماع، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدواء والأمراض، فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجاً إليها، كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن، بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء؛ إذ مجرد العقل لا يهتدي إليه، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل.

فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنّة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضرّ بها كما يستضر المريض بالغذاء. وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقض في الدين، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين، وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضاً في الدين وهيهات، وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم: ما بال هذه الأواني تركت على الطريق لم لا ترد إلى مواضعها؟ فقالوا له: تلك الأواني في مواضعها، وإنما أنت لست تهتدي للطريق لعماك، فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على تقصير غيرك؟ فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية.

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية. فالدنيوية: كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات. والأخروية: كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته

وأفعاله ـ كما فصلناه في كتاب العلم ـ، وهما علمان متنافيان ـ، أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ـ ولذلك ضرب علي رضي الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال: هما ككفتي الميزان، وكالمشرق والمغرب، وكالضرّتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالاً في أمور الآخرة. والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالاً في أكثر علوم الدنيا، لأن قوة العقل لا تفي بالأمرين جميعاً في الغالب فيكون أحدهما مانعاً من الكمال في الثاني. ولذلك قال ﷺ: «**إنّ أكثرَ أهلِ الجنّةِ البُلْهُ**»[1]، أي البله في أمور الدنيا.

وقال الحسن في بعض مواعظه: لقد أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم: مجانين ولو أدركوكم لقالوا: شياطين. فمهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين جحده أهل الكياسة في سائر العلوم، فلا يغرّنك جحودهم عن قبوله؛ إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب، فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: ٧] الآية. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝﴾ [الرُّوم: ٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠] فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم؛ وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها. فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها.

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم، والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار:

اعلم: أن العلوم التي ليست ضرورية ـ وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال ـ تختلف الحال في حصولها؛ فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم. فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً. ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب. **والأول**: يسمى إلهاماً ونفثاً في الروع. **والثاني**: يسمى وحياً وتختص به الأنبياء. والأول يختص به الأولياء والأصفياء. والذي قبله ـ وهو المكتسب بطريق الاستدلال ـ يختص به العلماء. وحقيقة القول فيه: أن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة ـ التي سبق ذكرها ـ، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة. وتجلي حقائق

(١) حديث: «**أكثر أهل الجنة البله**» أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه، وصححه القرطبي في التذكرة، وليس كذلك فقد قال ابن عدي: إنه منكر.

العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه. وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل. وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء، وينكشف أيضاً في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى، فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف، وأخرى على التوالي إلى حد ما. ودوامه في غاية الندور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه، ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فإذا عرفت هذا فاعلم: أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية. فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية. فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة.

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. فمن كان لله كان الله له. وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه: الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحدّ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت، ثم يعود وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا

يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار فقط.

وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤوا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل في حال فثباته أبعد منه؛ إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب، وقال رسول الله ﷺ: **«قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَشَدُّ تَقَلُّباً مِنَ الْقِدْرِ فِي غَلَيَانِهَا»**(١)، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: **«قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ»**(٢)، وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض. وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه. وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ذلك وصار فقيهاً بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق، وأنا أيضاً ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه، ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً؛ فكذلك هذا. وقالوا: لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة.

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس:

اعلم: أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس، لأن القلب أيضاً خارج عن إدراك الحس وما ليس مدركاً بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس. ونحن نقرّب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين:

أحدهما: أنه لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر. فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار. وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلىء علماً، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله.

فإن قلت: فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه؟ فاعلم: أن هذا من عجائب أسرار

---

(١) حديث: **«قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها»** أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود.

(٢) حديث: **«قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»** أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر.

القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة، بل القدر الذي يمكن ذكره: أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ، بل في قلوب الملائكة المقربين. فكما أن المهندس يصوّر أبنية الدار في بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة، فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ، ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة، والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها، ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال. والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الإنسان وقلبه. والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ.

فكأن للعالم أربع درجات في الوجود: وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي - أعني وجود صورته في الخيال -، ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي - أعني وجود صورته في القلب -.

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية. والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض، وهذا اللطف من الحكمة الإلهية؛ إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها، ثم يسري من وجودها في الحس وجود إلى الخيال، ثم منه وجود في القلب، فإنك أبداً لا تدرك إلا ما هو واصل إليك، فلو لم يجعل للعالم كله مثالاً في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك، فسبحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها.

ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول: القلب قد يتصوّر أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته، تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس، تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها. فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه، وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض. ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ، كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس؛ فإذن: للقلب بابان: باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة. وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة. فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك، وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علماً يقينياً بالتأمل في عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل، أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس. وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى، وقال ﷺ: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قيل: ومن هم المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الْمُتَنَزِّهُونَ بِذِكْرِ الله تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا القِيَامَةَ خفافاً**»، ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى فقال: «**ثُمَّ أُقْبِلُ بِوَجْهِي عَلَيْهِمْ أَتُرَى مَنْ وَاجَهْتُهُ بِوَجْهِي يَعْلَمُ أَحَدٌ أَيَّ**

شَيْءٍ أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَهُ؟ ثم قال تعالى: **أَوَّلُ مَا أُعْطِيهِمْ أَنْ أَقْذِفَ النُّورَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيُخْبِرُونَ عَنِّي كَمَا أُخْبِرُ عَنْهُمْ»**[(1)]، ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن فإذاً: الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا؛ وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يتأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمي الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى في علم المعاملة. فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين.

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العملين، أعني عمل العلماء وعمل الأولياء: فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط، فقد حكي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً، فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ؟ فقيل: وكيف فرغتم من غير صبغ فقالوا: ما عليكم ارفعوا الحجاب، فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق؛ إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين، وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم، فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت، وعلمه عند الموت لا يمحى، وصفاؤه لا يتكدّر. وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله: التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى.

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال. فصاحب الدرهم غني، وصاحب الخزائن المترعة غني، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم؛ قال الله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢] وقد روي في الخبر: **«إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على إبهام قدميه فيضيء مرة وينطفىء أخرى فإذا أضاء قدّم قدميه فمشى وإذا أطفىء قام، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالسحاب، ومنهم**

---

(١) حديث: **«سبق المفردون»** قيل: ومن هم؟ قال: **«المستهترون بذكر الله...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مقتصراً على أول الحديث وقال فيه: وما المفردون؟ قال **«الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»**، ورواه الحاكم بلفظ: **«قال الذين يستهترون بذكر الله»** وقال: صحيح على شرط الشيخين، وزاد فيه البيهقي في الشعب: **«يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافاً»**. ورواه هكذا الطبراني في المعجم من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره، وكلاهما ضعيف.

من يمر كانقضاض الكواكب، ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه، والذي أعطي نوراً على إبهام قدمه يحبو حبواً على وجهه ويديه ورجليه يجر يداً ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص»[(١)]. الحديث. فبهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان، ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح. فهذا أيضاً يضاهي قول القائل: لو وزن نور الشمس بنورِ السرج كلها لرجح؛ فإيمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم، وإيمان الأنبياء كالشمس. وكما ينكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ولا ينكشف في نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين. ولذلك جاء في الخبر: «**أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة**»[(٢)]. كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان، وأن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع دخول النار، وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار؛ إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولاً، وأن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها. وكذلك قوله ﷺ: «**لَيسَ شَيْءٌ خَيْراً مِنْ أَلْفٍ مِثْلِهِ إلاَّ الإِنْسَانُ المُؤْمِنُ**»[(٣)]. إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام. وقد قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩] تفضيلاً للمؤمنين على المسلمين، والمراد به: المؤمن العارف دون المقلد. وقال عزّ وجلّ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجَادلة: ١١] فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم، وميزهم عن الذين أوتوا العلم. ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف.

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجَادلة: ١١] فقال: يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وقال ﷺ: «**أَكْثَرُ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِي الأَلْبَابِ**»[(٤)]، وقال ﷺ: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي**»[(٥)]، وفي رواية: «**كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**» فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم، ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الغني الذي يملك عشرة دراهم إلى الغني الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب، وكل

---

(١) حديث: «**إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطى نوره على إبهام قدمه...**» الحديث. أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) حديث: «**يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه ربع مثقال من إيمان...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله: «**ربع مثقال**».

(٣) حديث: «**ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن**». أخرجه الطبراني من حديث سلمان بلفظ: «**الإنسان**» ولأحمد من حديث ابن عمر: «**لا نعلم شيئاً خيراً من مائة مثله إلا الرجل المؤمن**» وإسنادها حسن.

(٤) حديث: «**أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب**» تقدم دون هذه الزيادة، ولم أجد لهذه الزيادة أصلاً.

(٥) حديث: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي**» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه. وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية.

واحد منهما غني ولكن ما أعظم الفرق بينهما! وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد:

اعلم: أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات:

أما الشواهد: فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام. وقال ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ وَوَفَّقَهُ فِيما يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ الجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَعْلَمُ تَاهَ فِيما يَعْلَمُ وَلَمْ يُوَفَّقْ فِيمَا يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ»**(١)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] من الإشكالات والشبه. ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٣] يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة. وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩] قيل: نوراً يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات، ولذلك كان ﷺ يكثر في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام: **«اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُوراً وَزِدْنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُوراً وَفِي قَبْرِي نُوراً وَفِي سَمْعِي نُوراً وَفِي بَصَرِي نُوراً، حَتَّى قالَ: فِي شَعْرِي وَفِي بَشَرِي وَفِي لَحْمِي وَدَمِي وَعِظامِي»**(٢)، وسئل ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] ما هذا الشرح؟ فقال: **«هُوَ التَّوسِعَةُ إنَّ النُّورَ إذا قُذِفَ بِهِ فِي القَلْبِ اتَّسَعَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْشَرَحَ»**(٣)، وقال ﷺ لابن عباس: **«اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»**(٤). وقال علي رضي الله عنه: ما عندنا شيء أسره النبي ﷺ إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه وليس هذا بالتعلم؟(٥). وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ٢٦٩] إنه الفهم في كتاب الله، وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩] خص ما انكشف باسم الفهم. وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم. وقال بعض السلف: ظن المؤمن كهانة.

---

(١) حديث «من عمل بما علم. . .» الحديث. تقدم في العلم دون قوله: «ووفقه فيما يعمل» فلم أرها.

(٢) حديث: «اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً. . .» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٣) حديث: «سئل عن قوله تعالى: أفمن شرح الله صدره للإسلام. . .» الحديث. وفي المستدرك من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في العلم.

(٤) حديث: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» قاله لابن عباس. متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله: «وعلمه التأويل» فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه. وقد تقدم في العلم.

(٥) حديث علي: «ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله ﷺ إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في كتابه». تقدم في آداب تلاوة القرآن.

وقال ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله تَعَالَى»(١)، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٨]. وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العِلْمُ عِلْمَانِ فَعِلْمٌ باطِنٌ فِي القَلْبِ فَذٰلِكَ هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ»(٢)، وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً. وقد قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وَمُعَلَّمِينَ وَمُكَلَّمِينَ وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»(٣)، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] وَلاَ مُحَدَّثٍ يعني الصديقين، والمحدث هو الملهم، والملهم: هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة.

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف؛ وذلك علم من غير تعلم. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يُونس: ٦] خصصها بهم وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٨]. وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس. وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنياً، بل اللّدنّي: الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج. فهذه شواهد النقل، ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر.

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضاً خارج عن الحصر، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته: إنما هما أخواك وأختاك، وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتاً فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت. وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته: يا سارية الجبل الجبل؛ إذ انكشف له أن العدوّ قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريقي فنظرت إليها شزراً وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت: يدخل عليّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه، أما علمت أن زنا العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت: أوحي بعد النبي؟ فقال: لا، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة. وعن أبي سعيد الخراز قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هذا وأشباهه كلّ على الناس، فناداني وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥] فاستغفرت الله في سري فناداني، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، ثم غاب عني ولم أره.

---

(١) حديث: «اتقوا فراسة المؤمن...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

(٢) حديث: «العلم علمان...» الحديث. تقدم في العلم.

(٣) حديث: «إن من أمتي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر» ورواه مسلم من حديث عائشة.

وقال زكريا بن داود: دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي ـ وهو عليل وكان ذا عيال، ولم يعرف له سبب يعيش به ـ قال: فلما قمت، قلت في نفسي: من أين يأكل هذا الرجل؟ قال: فصاح بي: يا أبا العباس، رد هذه الهمة الدنية فإن لله تعالى ألطافاً خفية. وقال أحمد النقيب: دخلت على الشبلي فقال مفتوناً: يا أحمد. فقلت: ما الخبر؟ قال: كنت جالساً فجرى بخاطري أنك بخيل، فقلت: ما أنا بخيل، فعاد مني خاطري وقال: بل أنت بخيل، فقلت: ما فتح اليوم علي بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني، قال: فما استتم الخاطر حتى دخل عليّ صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون ديناراً فقال: اجعلها في مصالحك، قال: وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الدنانير، فقال: أعطها المزين، فقلت: إن جملتها كذا وكذا، قال: أوليس قد قلنا لك إنك بخيل؟ قال: فناولتها المزين، فقال المزين: قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجراً، قال: فرميت بها في دجلة وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله الله عزّ وجلّ. وقال حمزة بن عبدالله العلوي: دخلت على أبي الخير النيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاماً، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقاً فيه طعام وقال: يا فتى، كُلْ فقد خرجت الساعة من اعتقادك، وكان أبو الخير النيناني هذا مشهوراً بالكرامات، وقال إبراهيم الرقي: قصدته مسلماً عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستوياً فقلت في نفسي: ضاعت سفرتي، فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدني سبع، فعدت إلى أبي الخير وقلت: قصدني سبع، فخرج وصاح به وقال: ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني؟ فتنحى الأسد فتطهرت، فلما رجعت قال لي: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد.

وما حكي من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر، بل ما حكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه، ومن سماع صوت الهاتف، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية، لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل، والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران:

أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات. فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه!.

والثاني: إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره؛ إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبياً بل يسمى ولياً، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان: باب إلى خارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي، فإذا أقر بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيل إليه فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت، وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحوج إلى التعبير، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه؛ فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها. فقد قال

بعض المكاشفين: ظهر لي الملك فسألني أنْ أملي عليه شيئاً من ذكري الخفي عن مشاهدتي من التوحيد وقال: ما نكتب لك عملاً ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عزّ وجلّ فقلت: ألستما تكتبان الفرائض؟ قالا: بلى، قلت: فيكفيكما ذلك. وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة. وقال بعض العارفين: سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم التفت إلى يمينه فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أطرق إلى صدره وقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته. فسألته عن التفاته فقال: لم يكن عندي في المسألة جواب عتيد، فسألت صاحب الشمال فقال: لا أدري. فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدري. فنظرت إلى قلبي وسألته فحدثني بما أجبتك فإذا هو أعلم منهما. وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام: «**إنَّ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وإنَّ عُمَرَ مِنهُمْ**».

وفي الأثر: إن الله تعالى يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه. وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه: القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة، فأي باب فتح له عمل فيه فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا. ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المطيعين؛ فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة. وقال بعض العلماء: يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق. وقال آخر: لو شئت لقلت: إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره.

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها:

اعلم: أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه. وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال؛ أما من الظاهر: فالحواس الخمس، وأما من الباطن: فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر، وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر. والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب. وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر؛ وأعني بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار، والأذكار، وأعني به إدراكاته علوماً، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر؛ فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها. والخواطر هي المحركات للإرادات؛ فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء. والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر ـ أعني إلى ما يضر في العاقبة ـ، وإلى ما يدعو إلى الخير ـ أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة ـ. فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً، والخاطر المذموم ـ أعني الداعي إلى الشر ـ يسمى

وسواساً، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث. ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنّة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب. فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة.

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة. والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخره لذلك، والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر. فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها. فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك. وقد قال ﷺ: «**فِي القَلْبِ لَمَّتَانِ لَمَّةٌ مِنَ المَلَكِ إيعادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذٰلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَلْيَحْمَدِ الله، وَلَمَّةٌ مِنَ العَدُوِّ إيعادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ وَنَهْيٌ عَنِ الخَيْرِ فَمَنْ وَجَدَ ذٰلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ**، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] الآية»[(١)]. وقال الحسن: إنما هما همان يجولان في القلب همٌّ من الله تعالى وهمّ من العدوّ، فرحم الله عبداً وقف عند همه؛ فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده.

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله ﷺ: «**قَلْبُ المُؤمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ**»[(٢)]، فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب، منقسمة بالأنامل، ولكن روح الأصبع سرعة التقليب، والقدرة على التحريك والتغيير، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله في التقليب والترديد كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك. والله تعالى يفعل ما يفعل باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في تقليب القلوب، كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام مثلاً. والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه؛ لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم. ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال ﷺ: «**ما مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ**

---

(١) حديث: «**في القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير...**» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث: «**قلب المؤمن بين أصبعين...**» الحديث. تقدم.

وَلَه شَيطَانٌ» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: **«وَأَنَا إلاَّ أَنَّ الله أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلا يَأْمُرُ إلاَّ بِخَيْرٍ»**[1]، وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحدّ الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر، فالشيطان المتدرّع بها لا يأمر إلا بالخير. ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس. ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم.

والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثاني اختلاساً. وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها؛ فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى. ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة. وقال جابر بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص، فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه. يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان. وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله. ولذلك قال عمرو بن العاص للنبي ﷺ «يا رسول الله، حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال: **«ذَلِكَ شَيطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ فَإذا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِالله مِنْهُ وَاتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثلاثاً»** قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني»[2].

وفي الخبر: **«إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه»**[3]، ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال. ولا يعالج الشيء إلا بضدّه، وضدّ جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوّة، وهو معنى قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [النّاس: ٤] قال: هو منبسط على القلب؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه. فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام، وبين الليل والنهار، ولتضادهما قال الله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩] وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الشَّيطَانَ واضِعٌ**

---

(١) حديث: «**ما منكم من أحد إلا وله شيطان...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث ابن أبي العاص: «إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص.

(٣) حديث: «**إن للوضوء شيطاناً يقال له: الولهان...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي من كعب وقال: غريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث.

خُرْطُومَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ هُوَ ذَكَرَ الله تَعَالَى خَنَسَ وَإِنْ نَسِيَ الله تَعَالَى الْتَقَمَ قَلْبَهُ»[(١)]، وقال ابن وضاح في حديث ذكره: «**إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال: بأبي وجه من لا يفلح**»[(٢)].

وكما أنّ الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضاً سارية في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال ﷺ: «**إنَّ الشَّيطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ**»[(٣)]. وذلك لأنّ الجوع يكسر الشهوة، ومجرى الشيطان الشهوات. ولأجلِ اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخباراً عن إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ وقال ﷺ: «**إنَّ الشَّيطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِطُرُقٍ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَتْرُكُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ أَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ فَقَالَ: أَتُجَاهِدُ وَهُوَ تَلَفُ النَّفْسِ وَالمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ نِسَاؤُكَ وَيُقْسَمُ مَالُكَ، فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ**»[(٤)]، وقال رسول الله ﷺ: «**فَمَنْ فَعَلَ ذَٰلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقّاً عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ**» فذكر رسول الله ﷺ معنى الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد، وهذه الخواطر معلومة. فإذاً: الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه، فاسم سببه الشيطان ولا يتصوّر أن ينفك عنه آدمي وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته، ولذلك قال عليه السلام: «**ما مِنْ أَحَدٍ إلاّ وَلَهُ شَيطانٌ**»[(٥)].

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان. فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم، وإن كان جسماً فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة. بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل، فمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لا محالة، وعلم أنّ الداعي إلى الشر المحذور في المستقبل عدوّ فقد عرف العدوّ لا محالة، فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠] فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدوّ عن نفسه، لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه. نعم ينبغي

---

(١) حديث أنس: «**إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكائد الشيطان وأبو يعلى الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه.

(٢) حديث ابن وضاح «**إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال: بأبي وجه من لا يفلح**» لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**» تقدم.

(٤) حديث: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق...**» الحديث. رواه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه، بإسناد صحيح.

(٥) حديث: «**ما من أحد إلا له شيطان...**» الحديث. تقدم.

أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه، وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين. فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته ـ نعوذ بالله منه ـ وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات، فلا يحتاج في علم المعاملة إلى معرفته. نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعاً أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه وسوسة، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاماً، وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان؟ فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير، والتمييز في ذلك غامض، وأكثر العباد به يهلكون، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصوّر الشر بصورة الخير، كما يقول للعالم بطريق الوعظ: أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار؟ أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة؟ فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم، ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم؟ وهو لا يزال يقرّر ذلك في نفسه ويستجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له: إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم، ولم يهتدوا إلى الحق. ولا يزال يقرّر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار، فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك؛ فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول، فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان، وهو من الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لَيُؤَيِّدُ هٰذا الدِّينَ بِقَوْمٍ لا خَلاقَ لَهُمْ**»[1]، و«**إنَّ الله لَيُؤَيِّدُ هٰذا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**»[2]، ولذلك روي أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم ﷺ فقال له: قل لا إله إلا الله. فقال: كلمة حق ولا أقولها بقولك. لأن له أيضاً تحت الخير تلبيسات، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى، وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة.

وسنذكر جملة من مكايد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع. ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتاباً على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد لاسيما في المذاهب والاعتقادات، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها. كل ذلك إذعاناً لتلبيسات الشيطان ومكايده.

فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له؛ ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان، وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي رجعوا إلى نور العلم: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه، ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر. وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧] قيل: هي أعمال ظنوها

---

(١) حديث: «**إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم**» أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد جيد.

(٢) حديث: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**» متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم.

حسنات فإذا هي سيئات. وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان، وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه. ولا ينجى من كثرة الوسواس إلا سدّ أبواب الخواطر. وأبوابها الحواس الخمس، وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا. والخلوة في بيت مظلم تسد باب الحواس. والتجرّد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن، ويبقى مع ذلك مداخل باطنة في التخيلات الجارية في القلب، وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى، ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بدّ من مجاهدته، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت؛ إذ لا يتخلص أحد من الشيطان ما دام حياً. نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد، ولكن لا يستغني قط عن الجهاد والمدافعة ما دام الدم يجري في بدنه. فإذاً: ما دام حياً فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق؛ وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها ـ كما سيأتي شرحها ـ ومهما كان الباب مفتوحاً والعدوّ غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة.

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أينام الشيطان؟ فتبسم وقال: لو نام لاسترحنا. فإذن: لا خلاص للمؤمن منه. نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوّته. قال ﷺ: **«إِنَّ المُؤْمِنَ يُنْضِي شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ»**(١)، وقال ابن مسعود: شيطان المؤمن مهزول. وقال قيس بن الحجاج: قال لي شيطاني: دخلت فيك وأنا مثل الجزور، وأنا الآن مثل العصفور، قلت: ولم ذاك؟ قال: تذيبني بذكر الله تعالى. فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سدّ أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة ـ أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة ـ وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ. والمشكل: أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة، وباب الملائكة باب واحد، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة. والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى. والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ مما يهدي إلى غوامض طرقه، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً وقال: **«هذا سبيل الله»** ثم خط خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله ثم قال: **«هٰذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنها شَيْطانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»** ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] لتلك الخطوط(٢) فبين ﷺ كثرة طرقه.

وقد ذكرنا مثالاً للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة، فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الذي لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه: وذلك كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«كانَ رَاهِبٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَعَمِدَ الشَّيْطانُ إِلَى جَارِيَةٍ فَخَنَقَها وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ أَهْلِها أَنَّ دَوَاءَها عِنْدَ الرَّاهِبِ، فَأَتَوْا بِها إِلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى قَبِلَها،**

---

(١) حديث: «**إن المؤمن ينضي شيطانه...**» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة.

(٢) حديث ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً فقال: «**هذا سبيل الله...**» الحديث. أخرجه النسائي في الكبرى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَهُ لِيُعَالِجَها أتاهُ الشَّيطَانُ فَزَيَّنَ لَهُ مُقَارَبَتَهَا وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى وَاقَعَهَا فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فَوَسْوَسَ إلَيْهِ وَقَالَ: الآنَ تُفْتَضَحُ يَأْتِيكَ أَهْلُها فَاقْتُلْهَا فَإِنْ سَأَلُوكَ فَقُلْ مَاتَتْ، فَقَتَلَها وَدَفَنَهَا، فَأَتَى الشَّيْطان أَهْلَها فَوَسْوَسَ إلَيْهِمْ وَأَلْقَى فِي قُلُوبِهِمِ أَنَّهُ أَحْبَلَهَا ثُمَّ قَتَلَهَا وَدَفَنَهَا، فَأَتَاهُ أَهْلُهَا فَسَأَلُوهُ عَنْهَا فَقَالَ: ماتَتْ، فَأَخَذُوهُ لِيَقْتُلُوهُ بِها فَأَتَاهُ الشَّيطَانُ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي خَنَقْتُها وَأَنَا الَّذِي أَلْقَيْتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِها فَأَطِعْنِي تَنجُ وَأُخَلِّصكَ مِنْهُمْ قَالَ: بِمَاذا؟ قالَ: اسْجُدْ لِي سَجْدَتَيْنَ؛ فَسَجَدَ لَهُ سَجْدَتَينِ فَقَالَ لَهُ الشَّيطَانُ: إنِّي بَريءٌ مِنْكَ. فَهُوَ الَّذِي قَالَ الله تَعَالَى فِيهِ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦]»[1] . فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر، وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين، وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير، فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجرّه البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصاً: فنعوذ بالله من تضييع أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله ﷺ: **«مَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»**[2] .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب:

اعلم: أنّ مثالَ القلب مثالُ حصنٍ والشيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدوّ إلّا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب مِنْ وسواس الشيطان واجبة، وهو فرض عين على كل عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة؛ فإنّ الغضب هو غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان. ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة. فقد روي أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليماً، وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربي أن يتوب عليّ، فقال موسى: نعم، فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عزّ وجلّ وأراد النزول قال له ربه: أدِّ الأمانة، فقال موسى: يا رب، عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه، فأوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى، قد قضيت حاجتك مُرْهُ أن يسجد لقبر آدم حتى يُتاب عليه، فلقي موسى إبليس فقال له: قد قضيت حاجتك أُمرتَ أن تسجد لقبر آدم حتى يُتاب عليك، فغضب واستكبر وقال: لم أسجد له حياً، أأسجد له ميتاً؟ ثم قال له: يا موسى، إن لك عليّ حقاً بما شفعت لي إلى ربك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن: اذكرني حين تغضب؛ فإن روحي

---

(١) حديث: **«كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب...»** الحديث. بطوله في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦] رواه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان، وابن مردويه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعة مرسلاً، وللحاكم نحوه موقوفاً على علي بن أبي طالب، وقال: صحيح الإسناد ووصله بطين في مسنده من حديث علي.

(٢) حديث: **«من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»** متفق عليه من حديث النعمان بن بشير: **«من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه»** لفظ البخاري.

في قلبك وعيني في عينك وأجري منك مجرى الدم؛ اذكرني إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت في أنفه فما يدري ما يصنع، واذكرني حين تلقى الزحف؛ فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولي، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك. فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص؛ فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا، وامتناعه من السجود لآدم ميتاً هو الحسد وهو أعظم مداخله، وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم؟ فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى. فقد حكي أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال: الحدّة، فإن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقيل: إن الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه، وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟

ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص: فمهما كان العبد حريصاً على شيء أعماه حرصه وأصمه. إذ قال ﷺ: «**حُبّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ**»[1]، ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر، فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسّن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكراً وفاحشاً. فقد روي أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى، فرأى في السفينة شيخاً لم يعرفه فقال له نوح: ما أدخلك؟ فقال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك؛ فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك، فقال له نوح: اخرج منها يا عدوّ الله فإنك لعين، فقال له إبليس: خمس أهلك بهن الناس، وسأحدّثك منهن بثلاث ولا أحدّثك باثنتين، فأوحى الله تعالى إلى نوح: أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدّثك بالاثنتين، فقال له نوح: ما الاثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني، هما اللتان لا تخلفاني، بهما أهلك الناس؛ الحرص والحسد، فبالحسد لعنت وجعلت شيطاناً رجيماً، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة. فأصبت حاجتي منه بالحرص.

ومن أبوابه العظيمة: الشبع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً؛ فإنّ الشبع يقوّي الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان. فقد روي أنّ إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم. فقال: فهل فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا. قال: لله عليَّ أن لا أملأ بطني من الطعام أبداً. فقال له إبليس: ولله عليَّ أن لا أنصح مسلماً أبداً. ويقال: في كثرة الأكل ست خصال مذمومة؛ أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه. الثاني: أن يذهب رحمة الخلق من قلبه؛ لأنه يظن أنهم كلهم شباع. والثالث: أنه يثقل عن الطاعة. والرابع: أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة. والخامس: أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس. والسادس: أن يهيج فيه الأمراض.

ومن أبوابه: حب التزين من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض، فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى. ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه.

---

(١) حديث: «**حبك للشيء يعمي ويصم**» أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

ومن أبوابه المظيمة: الطمع في الناس، لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده، فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك. وأقل أحواله: الثناء عليه بما ليس فيه، والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبدالله بن حنظلة فقال له: يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعلمك به فقال: لا حاجة لي به. قال: انظر: فإن كان خيراً أخذت، وإن كان شراً رددت، يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت، فإني أملكك إذا غضبت.

ومن أبوابه العظيمة: العجلة وترك التثبت في الأمور، وقال ﷺ: «**العَجَلَةُ مِنَ الشَّيطَانِ وَالتَّأَنّي مِنَ الله تَعَالَى**»[1]. وقال عزّ وجلّ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وقال لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يروّج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري. فقد روي أنه لما ولد عيسى ابن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا: أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها، فقال: هذا حادث قد حدث مكانكم، فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئاً، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به، فرجع إليهم فقال: إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة.

ومن أبوابه العظيمة: الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار؛ فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب. فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى، فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنياً، وقد صار محتاجاً إلى تسعمائة ليشتري داراً يعمرها، وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به. وذلك لا آخر له، فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه. قال ثابت البناني[2]: لما بعث رسول الله ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاؤوا وقالوا: ما ندري؟ قال: أنا آتيكم بالخبر. فذهب ثم جاء وقال: قد بعث الله محمداً ﷺ قال: فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء؛ نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك، فقال لهم إبليس: رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا[3].

وروي: أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوماً حجراً فمرّ به إبليس فقال: يا عيسى، رغبت في الدنيا؟ فأخذه عيسى ﷺ فرمى به من تحت رأسه وقال: هذا لك مع الدنيا، وعلى الحقيقة من يملك

---

(١) حديث: «**العجلة من الشيطان والتأني من الله**» أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد بلفظ: «**الأناة**» وقال: حسن.

(٢) ثابت البناني: من مشاهير التابعين، أكثر روايته عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) حديث ثابت: «لما بعث ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان هكذا مرسلاً.

حجراً يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدّة للشيطان عليه. فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر، يمكن أن يتوسده، فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال، ولا تتحرّك رغبته إلى النوم. هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد المثيرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة، فمتى ينشط لعبادة الله تعالى؟.

ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم، وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز. قال خيثمة بن عبدالرحمن: إن الشيطان يقول: ما غلبني ابن آدم غلبة فلن يغلبني على ثلاث؛ أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، ومنعه من حقه. وقال سفيان: ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر، فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء.

ومن آفات البخل: الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق هي معشش الشياطين. وقال أبو أمامة إن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ إبْلِيسَ لَمَّا نَزَلَ إلى الأرْضِ قَالَ: يا رَبِّ أنْزَلْتَنِي إلى الأرْضِ وَجَعَلْتَنِي رَجِيماً فَاجْعَلْ لِي بَيْتاً. قَالَ: الحَمَّامُ، قَالَ: اجْعَلْ لِي مَجْلِساً. قَالَ: الأسْوَاقُ وَمَجَامِعُ الطُّرُقِ، قَالَ: اجْعَلْ لِي طَعَاماً. قَالَ: طَعَامُكَ ما لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عَلَيْهِ، قَالَ: اجْعَلْ لِي شَرَاباً. قَالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ، قَالَ: اجْعَلْ لِي مُؤَذِّناً قَالَ: المَزَامِيرُ، قَالَ: اجْعَلْ لِي قُرْآناً. قَالَ: الشِّعْرُ، قَالَ: اجْعَلْ لِي كِتَاباً. قَالَ: الوَشْمُ، قَالَ: اجْعَلْ لِي حَدِيثاً. قَالَ: الكَذِبُ، قَالَ: اجْعَلْ لِي مَصَايِدَ قَالَ: النِّسَاءُ**»[1].

ومن أبوابه العظيمة التوصل: التعصب للمذاهب والأهواء، والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعاً، فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خيّل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق، وكان موافقاً لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين، فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد، ولو رآه أبو بكر لكان أوّل عدوّ له؛ إذ موالي أبي بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه، وكان من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه. فأنى لهذا الفضولي أن يدعي ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته؟ وترى فضولياً آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه، وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوباً اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسغ، ونرى الفاسق لابساً ثياب الحرير ومتجملاً بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه، وهو أول خصمائه يوم القيامة. وليت شعري من أخذ ولداً عزيزاً لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعي حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم من الأهل والولد، بل من أنفسهم. والمقتحمون لمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدوّ الله إبليس وعدوّ

---

(١) حديث أبي أمامة: «**إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيماً فاجعل لي بيتاً قال: الحمام...**» الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جداً، ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً.

أوليائه، فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله ﷺ لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محباً لأبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محباً لعلي لم يكن عليه خوف، وهذا رسول الله ﷺ يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه[1]: «**اعْمَلِي فَإِنِّي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئاً**»[2]. وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء. وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة، فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان؛ فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذباً؟.

وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم، وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم، وضعفت في الدين بصيرتهم، وقويت في الدنيا رغبتهم، واشتد على الاستتباع حرصهم، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب، فحبسوا ذلك في صدورهم ولم ينبهوهم على مكائد الشيطان فيه، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته، فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم. فقد هلكوا، وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم. وقال الحسن: بلغنا أن إبليس قال: سوّلت لأمة محمد ﷺ المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار، فسوّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء. وقد صدق الملعون؛ فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها؟

ومن عظيم حيل الشيطان: أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات. قال عبدالله بن مسعود: جلس قوم يذكرون الله تعالى، فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع، فأتى رفقة أخرى يتحدّثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون ـ وليس إياهم يريد ـ، فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم، وذلك مراد الشيطان منهم.

ومن أبوابه: حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا يبلغها حدّ عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين، أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كافراً أو مبتدعاً وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة، وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله. فأشدّ الناس حماقة أقواهم اعتقاداً في عقل نفسه، وأثبت الناس عقلاً أشدّهم اتهاماً لنفسه وأكثرهم سؤالاً من العلماء. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ الله؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذٰلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ عَنْهُ**»[3].

---

(١) حديث: «**فاطمة بضعة مني**» متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة.

(٢) حديث: «**إني لا أغني عنك من الله شيئاً**». قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث عائشة «**إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله...**» الحديث. أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى في مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة.

والنبي ﷺ لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس؛ فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء، وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء، فالعامي لو يزني ويسرق كان خيراً له من أن يتكلم في العلم، فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة، ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تحصر، وإنما أردنا بما أوردناه المثال.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجرَات: ١٢] فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه. وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم، فقال ﷺ: **«اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَمِ»**(١)، حتى احترز هو ﷺ من ذلك. روي عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي ﷺ كان معتكفاً في المسجد قالت: فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمرَّ به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال: **«إنها صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ»** فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً، فقال: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ الجَسَدِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكُما»**(٢). فانظر كيف أشفق ﷺ على دينهما فحرسهما؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة؛ حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله؟ فيقول: مثلي لا يظن به إلا الخير إعجاباً منه بنفسه. فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم؛ وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار؛ فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر. فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب، فاعلم: أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق. فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب. ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره، فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله.

فإن قلت: فما العلاج في دفع الشيطان، وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فاعلم: أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره. وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد ـ على ما سيأتي شرحه ـ نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله

---

(١) حديث: «اتقوا مواضع التهم» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث صفية بنت حيي: «أن النبي ﷺ كان معتكفاً فأتيته فتحدثت عنده...» الحديث. وفيه: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» متفق عليه.

تعالى؛ لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] خصص بذلك المتقي، فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك؛ فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، فمجرد الصوت يدفعه. فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه، فيستقر الشيطان في سويداء القلب. وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات، بل لخلوّها بالغفلة عن الذكر، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر.

قال أبو هريرة: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر، فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاسٍ، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: ما لك مهزول؟ قال: أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعاً، وإذا شرب سمى الله فأظل عطشاناً، وإذا لبس سمى الله فأظل عرياناً، وإذا ادهن سمى الله فأظل شعثاً، فقال: لكني مع رجل لا يفعل شيئاً من ذلك؛ فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه. وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدواً بصيراً بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم. اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير. قال: فتمثل له إبليس يوماً في طريق المسجد فقال له: يا ابن واسع هل تعرفني؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا إبليس، فقال: وما تريد؟ قال: أريد أن لا تُعَلِّمَ أحداً هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك، قال: والله لا أمنعها ممن أرادها، فاصنع ما شئت. وعن عبدالرحمن ابن أبي ليلى قال: كان شيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له: قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن. فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه[1]. وقال الحسن: نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي[2]. وقال ﷺ: «**أَتَانِي الشَّيْطَانُ فَنَازَعَنِي ثُمَّ نَازَعَنِي فَأَخَذْتُ بِحَلْقِهِ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ ما أَرْسَلْتُهُ**

---

(١) حديث عبدالرحمن بن أبي ليلى: «كان الشيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان هكذا مرسلاً. ولمالك في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلاً، ووصله ابن عبدالبر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامي عن ابن مسعود، ورواه أحمد والبزار من حديث عبدالرحمن بن حبيش وقيل له: «كيف صنع رسول الله ﷺ ليلة كادته الشياطين؟» فذكر نحوه.

(٢) حديث الحسن: «**نبئت أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك**...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان هكذا مرسلاً.

حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ مَاءِ لِسَانِهِ عَلَى يَدِي، وَلَوْلا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ لأَصْبَحَ طَرِيحاً فِي المَسْجِدِ»[1]. وقال ﷺ: «ما سَلَكَ عُمَرُ فَجّاً إلاّ سَلَكَ الشَّيْطانُ فَجّاً غَيْرَ الَّذِي سَلَكَهُ عُمَرُ»[2]. وهذا لأن القلوب كانت مطهّرة عن مرعى الشيطان وقوته وهي الشهوات، فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالاً، وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء، والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة، ويطمع أن ينفعه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة، والذكر الدواء، والتقوى احتماء، وهي تخلي القلب عن الشهوات. فإذا نزل الذكر قلباً فارغاً عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحَجّ: ٤]. ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه. وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقاً بأن الذكر يطرد الشيطان[3]، ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك، فليس الخبر كالعيان، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة؛ فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك: كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين، وكيف يمرّ بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك، ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت؟ فالصلاة محك القلوب، فبها يظهر محاسنها ومساويها؛ فالصلاة لا تُقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا، فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدّم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فرّ من عمر رضي الله عنه. ولذلك قال وهب بن منبه: اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر؛ أي أنت مطيع له. وقال بعضهم: يا عجباً لمن يعصي المحسن بعد معرفته بإحسانه، ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه. وكما أن الله تعالى قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وأنت تدعوه ولا يستجيب لك، فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك؛ لفقد شروط الذكر والدعاء.

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؟ قال: لأن قلوبكم ميتة، قيل: وما الذي أماتها؟ قال: ثمان خصال؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده، وقلتم: نحب رسول الله ﷺ ولم تعملوا بسنته، وقلتم: نخشى الموت ولم تستعدوا له، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: ٦] فواطأتموه على المعاصي، وقلتم: نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها، وقلتم: نحب الجنة ولم تعملوا لها، وإذا

---

(١) حديث: «أتاني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسلاً هكذا، وللبخاري من حديث أبي هريرة: «أن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه...» الحديث. والنسائي في الكبرى من حديث عائشة: «كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه» قال: «حتى وجدت برد لسانه على يدي...» الحديث. وإسناده جيد.

(٢) حديث: «ما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير فجه» متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ: «يا ابن الخطاب ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً...» الحديث.

(٣) الحديث الوارد: «بأن الذكر يا عمر يطرد الشيطان». تقدم.

قمتم من فرشكم: رميتم عيوبكم وراء ظهورِكم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم، فكيف يستجيب لكم؟.

فإن قلت: فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون؟ فاعلم: أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة. فاشتغل بدفع العدوّ ولا تسأل عن صفته. كُلِ البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة، ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار: أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطاناً يخصُّه ويدعو إليه، فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار: فقد قال مجاهد: لإبليس خمسة من الأولاد؛ قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره: ثبر، والأعور، ومبسوط، وداسم، وزلنبور. فأما ثبر: فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية. وأما الأعور: فإنه صاحب الزنى يأمر به ويزيّنه. وأما مبسوط: فهو صاحب الكذب. وأما داسم: فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم، وأما زلنبور: فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظلمين. وشيطان الصلاة يسمى خنزب[(١)]، وشيطان الوضوء يسمى الولهان[(٢)]، وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة.

وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة. وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة، واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به، وقد قال أبو أمامة الباهلي: قال رسول الله ﷺ: **«وُكِّلَ بِالمُؤْمِنِ مائَةٌ وَسِتُّونَ مَلَكاً يَذُبُّونَ عَنْهُ ما لَمْ يُقدَّرْ عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ؛ لِلْبَصَرِ سَبْعَةُ أَمْلاكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يُذَبُّ الذُّبَابُ عَنْ قَصْعَةِ العَسَلِ فِي اليَوْمِ الصَّائِفِ. وَمَا لَوْ بَدَا لَكُمْ لَرَأَيْتُمُوهُ عَلَى كُلِّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ كُلٌّ بَاسِطٌ يَدَهُ فَاغِرٌ فَاهُ، وَلَوْ وُكِّلَ العَبْدُ إلى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ»**[(٣)].

وقال أيوب بن يونس بن يزيد: بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشؤون معهم. وروى جابر بن عبدالله: أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال: يا رب، هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تُعنّي عليه لا أقوى عليه، قال: لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك، قال: يا رب زدني، قال: أجزي بالسيئة سيئة وبالحسنة عشراً إلى ما أريد، قال: رب زدني، قال: باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد الروح، قال إبليس: يا رب هذا العبد الذي كرمته عليّ إن لا تعني عليه لا أقوى عليه؟ قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد. قال: يا رب زدني، قال: تجري منهم مجرى الدم، وتتخذون صدورهم بيوتاً، قال: رب زدني، قال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿غُرُورًا﴾. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خلَقَ الله الجنَّ ثَلاثَةَ أَصْنافٍ: صِنفٌ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ وَخِشَاشُ الأَرْضِ، وَصِنفٌ كَالرِّيحِ فِي الهَوَاءِ، وَصِنفٌ عَلَيْهِمُ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ. وَخَلَقَ الله تَعَالَى الإنْسَانَ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنفٌ كَالبَهَائِم كمَا قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾** [الأعراف: ١٧٩] **وَصِنفٌ أَجْسَامُهُمْ أَجْسَامُ بَنِي آدَمَ وَأَرْوَاحُهُم أَرْوَاحُ**

---

(١) حديث: «**إنّ شيطان الصلاة يسمى: خنزب**» أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص، وقد تقدم أول الحديث.

(٢) حديث: «**إن شيطان الوضوء يسمى: الولهان**» تقدم وهو عند الترمذي من حديث أبي.

(٣) حديث أبي أمامة: «**وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف.

الشَّيَاطِينِ، وَصِنفٌ فِي ظِلِّ الله تَعَالَى يَوْمَ القِيامَةِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّهُ»[1]، وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال: إني أريد أن أنصحك، قال: لا حاجة لي في نصحك ولكن أخبرني عن بني آدم قال: هم عندنا ثلاثة أصناف: أما صنف منهم ـ وهم أشد الأصناف علينا ـ نُقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه، ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا، فنحن منه في عناء. وأما الصنف الآخر: فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم، نقلبهم كيف شئنا، قد كفونا أنفسهم. وأما الصنف الثالث: فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء.

فإن قلت: فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين؟ فاعلم: أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما، ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوّة، فما رأى النبي ﷺ جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين[2]، وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسدّ الأفق من المشرق إلى المغرب، ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالباً[3]، فكان يراه في صورة دحية الكلبي[4]، وكان رجلاً حسن الوجه. والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة، فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه، فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين.

وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام، كما روي عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى خنس. ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها، وكانت الجيفة مثال الدنيا. وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية، فإن القلب لا بدّ وأن تظهر فيه

---

(١) حديث أبي الدرداء: **«خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب. . .»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصراً: **«في الجن فقط ثلاثة أصناف»**. من حديث أبي ثعلبة الخشني وقال: صحيح الإسناد.

(٢) حديث: **«أنه ﷺ ما رأى جبريل في صورته إلا مرتين»** أخرجه الشيخان من حديث عائشة، وسئلت: هل رأى محمد ربه؟ وفيه: «ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين».

(٣) حديث: «أنه كان يرى جبريل في صورة الآدمي غالباً» أخرجه الشيخان من حديث عائشة، وسئلت: «فأين قوله ثم دنا فتدلى قالت: ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل. . .» الحديث.

(٤) حديث: «أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي» أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد: «أن جبريل أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام. قال النبي ﷺ لأم سلمة: **«من هذا؟»** قالت: دحية. .» الحديث.

حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت، وعند ذلك يشرق أثره على وجه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر.

وقد بيَّنا أن القلب له وجهان: وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي، ووجه إلى عالم الشهادة. فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى، حتى يرى شخصاً جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر؛ لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس. أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها، لأن الشيطان في صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها، فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة؛ فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها، ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر، وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير. وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب، ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة. وإنما المقصود: أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم، وتارة بطريق الحقيقة، والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى ـ هو مثال المعنى لا عين المعنى ـ إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة، وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم.

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به:

اعلم: أن هذا أمر غامض، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماسرة العلماء بالشرع. فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**عُفِيَ عَنْ أُمَّتِي ما حَدَّثَتْ بِهِ نُفُوسَها ما لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ**»(١)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ لِلْحَفَظَةِ: إذا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلا تَكْتُبُوها فَإِنْ عَمِلَها فَاكْتُبُوها سَيِّئَةً، وَإذا هَمَّ بِحَسَنَةٍ لَمْ يَعْمَلْها فَاكْتُبُوها حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَها فَاكْتُبُوها عَشْراً**»(٢)، وقد خرَّجه البخاري ومسلم في الصحيحين، وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة. وفي لفظ آخر: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَها كُتِبَتْ لَهُ إِلَى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ وإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ**» وفي لفظ آخر: «**وَإِذا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنا أَغْفِرُها لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْها**»، وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ

---

(١) حديث: «**عفي لأمتي عما حدثت به نفوسها**» متفق عليه من حديث أبي هريرة: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها...**» الحديث.

(٢) حديث أبي هريرة: «**يقول الله إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه...**» الحديث. قال المصنف: أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين. قلت: هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قدمه في الذكر.

مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦] فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

فنقول: أوّل ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة، وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها.

والثاني: هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع، وهذا يتولد من الخاطر الأول، ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس.

والثالث: حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها، فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات، وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل، ويسمى هذا اعتقاداً وهو يتبع الخاطر والميل.

الرابع: تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هماً بالفعل ونية وقصداً، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف، ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل، وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه، وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

فههنا أربعة أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة: الخاطر ـ وهو حديث النفس ـ، ثم الميل، ثم الاعتقاد، ثم الهم.

فنقول: **أما الخاطر** فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضاً تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله ﷺ: **«عفي عن أمتي ما حدثت به نفوسها»** فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل، **فأما الهم والعزم** فلا يسمى حديث النفس، بل حديث النفس كما روي عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي ﷺ: يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلّق خولة[(١)]، قال: **«مَهلاً إنَّ مِن سُنَّتِي النِّكَاحَ»** قال: نفسي تحدثني أن أجبّ نفسي، قال: **«مَهلاً خِصَاءُ أُمّتِي دُؤوبُ الصِّيام»** قال: نفسي تحدثني أن أترهب، قال: **«مَهلاً رَهْبَانِيَّةُ أُمّتِي الجِهَادُ وَالحَجُّ»** قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال: **«مَهلاً فإنّي أُحِبُّهُ وَلَوْ أَصَبْتهُ لأَكَلْتُهُ وَلَوْ سَأَلْتُ الله لأَطْعَمَنِيه»**[(٢)]، فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله ﷺ إذ لم يكن معه عزم وهمّ بالفعل.

---

(١) خولة: هي بنت ثعلبة، نزلت فيها وفي زوجها عثمان بن مظعون الآيات الأولى من سورة المجادلة.

(٢) حديث: إن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال: **«مهلاً إن من سنتي النكاح..»** الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلاً نحوه، وفيه القاسم بن عبيدالله العمري كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وللدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله ﷺ فقال: **«يا عثمان إني لم أؤمر بالرهبانية..»** الحديث. وفيه: **«من رغب عن سنتي فليس مني»** وهو عندكم بلفظ: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا. وللبغوي، والطبراني في معجمي الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون: أنه قال: يا رسول الله، إني رجل تشق عليّ هذه العزوبة في المغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء=

وأما الثالث: وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل؛ فهذا تردد بين أن يكون اضطراراً أو اختياراً، والأحوال تختلف فيه؛ فالاختياري منه يؤاخذ به، والاضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع: وهو الهم بالفعل؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفاً من الله تعالى وندماً على همه كتبت له حسنة؛ لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة، والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوّة عظيمة فجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى، والعمل لله تعالى أشدّ من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لأنه رجح جدّه في الامتناع وهمه به على همه بالفعل، وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفاً من الله تعالى كتبت عليه سيئة، فإن همه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل: ما روي في الصحيح مفصلاً في لفظ الحديث؛ قال رسول الله ﷺ: **«قَالَتِ المَلَائِكَةُ عَلَيهِمُ السَّلامُ رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإنْ هُوَ عَمِلَها فَاكْتُبُوها لَهُ بِمِثْلِها، وَإنْ تَرَكَها فَاكْتُبُوها لَهُ حَسَنَةً إنَّما تَرَكَها مِنْ جَرَّائِي»**[1]، وحيث قال: فإن لم يعملها: أراد به تركها لله، فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة؟ وقد قال ﷺ: **«إنَّمَا يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»**[2]، ونحن نعلم: أن من عزم ليلاً على أن يصبح ليقتل مسلماً أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة؛ مات مصراً ويحشر على نيته وقد همَّ بسيئة ولم يعملها.

والدليل القاطع فيه: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيفَيهِما فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ فِي النَّارِ»** فقيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **«لأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»**[3]، وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوماً، فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم؟ بل كل همٍّ دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة. وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق، ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ وقالوا:

= فأختصي قال: **«لا، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة»** ولأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبدالله بن عمرو: **«خصاء أمتي الصيام والقيام»** وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه ضعف: إن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله ائذن لي في الاختصاء، فقال له رسول الله ﷺ: **«إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف..»** الحديث. وابن ماجه بسند ضعيف من حديث عائشة: **«النكاح من سنتي»** ولأحمد وأبي يعلى من حديث أنس: **«لكل نبي»** وقال أبو يعلى: **«لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»** وفيه زيد العمي وهو ضعيف. ولأبي داود من حديث أبي أمامة: **«إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»** وإسناده جيد.

(١) حديث: **«قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر..»** الحديث. قال المصنف: إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«إنما يحشر الناس على نياتهم»** أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله: **«إنما»** وله من حديث أبي هريرة: **«إنما يبعث الناس على نياتهم»** وإسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة: **«يبعثهم الله على نياتهم»** وله من حديث أم سلمة: **«يبعثون على نياتهم»**.

(٣) حديث: **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي بكر.

كلفنا ما لا نطيق؛ إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال ﷺ: **«لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَتِ اليَهُودُ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»**[1] فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، فظهر به. أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به. فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس. وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط، وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب! بل ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾؟ أي ما يدخل تحت الاختيار. فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤاخذ به، فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذاً به لأنه مختار، فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى، بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل. قال رسول الله ﷺ: **«التَّقْوَى هٰهُنا وَأَشَارَ إِلَى القَلْبِ»**[2]، وقال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحَج: ٣٧] وقال ﷺ: **«الإِثْمُ حَوَّازُ القُلُوبِ»**[3]، وقال: **«البِرُّ ما اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ»**[4]، حتى إنا نقول: إذا حكم القلب المفتي بإيجاب شيء وكان مخطئاً فيه صار مثاباً عليه، بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي. فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله. فإن تذكر ثم تركه كان معاقباً عليه. ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية. فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كانت زوجته. وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح.

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا؟

اعلم: أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق:

فقالت فرقة: الوسوسة تنقطع بذكر الله عزّ وجلّ لأنه عليه السلام قال: **«فإذا ذكر الله خنس»**[5]، والخنس هو السكوت فكأنه يسكت.

وقالت فرقة: لا ينعدم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر؛ لأن القلب إذا صار مستوعباً بالذكر كان محجوباً عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمّه، فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه.

وقالت فرقة: لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضاً، ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف.

---

(١) حديث: «لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا كلفنا ما لا نطيق. .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه.

(٢) حديث: «**التقوى ههنا ـ وأشار إلى القلب**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال: إلى صدره.

(٣) حديث «الإثم حواز القلوب» تقدم في العلم.

(٤) حديث: «**البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك**» أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه: «**وإن أفتاك الناس وأفتوك**» وقد تقدما.

(٥) حديث: «**وإذا ذكر الله خنس**» أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث: «**إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم. . .**» الحديث. وقد تقدم قريباً.

وقالت فرقة: ينعدم عند الذكر في لحظة وينعدم الذكر في لحظة، ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدرتها بسرعة تواصلها بالحركة، واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر، ولا وجه له إلا هذا.

وقالت فرقة: الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقاً لا ينقطع، وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين في حالة واحدة، فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين، فقد قال ﷺ: «**ما مِنْ عَبْدٍ إلاَّ وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ: عَيْنَانِ فِي رَأْسِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ**»[1]، وإلى هذا ذهب المحاسبي. والصحيح عندنا: أن كل هذه المذاهب صحيحة، ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه.

والوسواس أصناف:

الأول: أن يكون من جهة التلبيس بالحق، فإنّ الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان: تترك التنعم باللذات؟ فإن العمر طويل، والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه: الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشدّ منه، ولا بد من أحدهما. فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدّد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب؛ إذ لا يستطيع أن يقول له: النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول: المعصية لا تفضي إلى النار، فإنّ إيمانه بكتاب الله عزّ وجلّ يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه. وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول: أي عبد يعرف الله كما تعرفه، ويعبده كما تعبده؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى! فيتذكر العبد حينئذٍ أنّ معرفته وقلبه وأعضاءه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به؟ فيخنس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله، فإن المعرفة والإيمان يدفعه. فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة.

الصنف الثاني: أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها، وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقيناً أنه معصية وإلى ما يظنه بغالب الظن. فإن علمه يقيناً خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة، ولم يخنس عن التهييج وإن كان مظنوناً، فربما يبقى مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه، فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة.

الصنف الثالث: أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكر في غير الصلاة مثلاً، فإذا أقبل على الذكر تصوّر أن يندفع ساعة ويعود، ويندفع ويعود، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصوّر أن يتساوقا جميعاً حتى يكون الفهم مشتملاً على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب. وبعيد جدّاً أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر، ولكنه ليس محالاً إذ قال عليه السلام: «**مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ فِيهِمَا نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِن**

---

(١) حديث: «**ما من عبد إلا وله أربعة أعين: عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ: «**الآخرة**» مكان «**دينه**» وفيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروي السماخي الحافظ كذبه الحاكم والآفة منه.

ذَنْبِهِ»[1]، فلولا أنه متصوّر لما ذكره، إلا أنه لا يتصوّر ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر، فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدوّ تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوّه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوّه، وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه، ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه، ولو كلمه غيره لم يسمع، ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه. وإذا تصوّر هذا في خوف من عدوّ وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصوّر من خوف النار والحرص على الجنة، ولكن ذلك عزيز، لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أنّ لكل مذهب من المذاهب وجهاً ولكن في محل مخصوص.

وبالجملة: فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد، ولكن الخلاص منه عمراً طويلاً بعيد جداً، ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله ﷺ، فقد روي: أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال: «**شَغَلَنِي عَنِ الصَّلاةِ**» وقال: «**اذْهَبُوا بِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ**»[2]، وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به وقال: «**نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ**»[3]، وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب ـ وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به ـ فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بالرمي والمفارقة، فما دام يملك شيئاً وراء حاجته ـ ولو ديناراً واحداً ـ لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره، وأنه كيف يحفظه؟ وفيماذا ينفقه؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد؟ وكيف يظهره حتى يتباهى به؟ إلى غير ذلك من الوساوس. فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أنّ الذباب لا يقع عليه فهو محال. فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان، وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة. قال حكيم من الحكماء: الشيطان يأتي ابن آدم من قِبَلِ المعاصي، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة، فإن أبى أمره بالتحرّج والشدّة حتى يحرم ما ليس بحرام، فإن أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً عفيفاً فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه، وعند ذلك يشتدّ إلحاحه فإنها آخر درجة، ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة.

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات:

اعلم: أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته. فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره. فتارة يكون

---

(١) حديث: «من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا . . .»، تقدم في الصلاة

(٢) حديث: «أنه ﷺ نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة. . .» الحديث. تقدم.

(٣) حديث: كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المنبر فرماه فقال: «نظرة إليكم» أخرجه النسائي من حديث ابن عباس، وتقدم في الصلاة.

متنازعاً بين ملكين، وتارة بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان ـ لا يكون قط مهملاً ـ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] ولاطلاع رسول الله ﷺ على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول: «**لا وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ**»[(١)]، وكان كثيراً ما يقول: «**يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» قالوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: «**وَمَا يُؤْمِنُنِي وَالقَلْبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ يُقَلِّبُهُ كَيفَ يَشَاءُ**»[(٢)]، وفي لفظ آخر: «**إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ**».

وضرب له ﷺ ثلاثة أمثلة: فقال: «**مَثَلُ القَلْبِ مَثَلُ العُصْفُورِ يَتَقَلَّبُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ**»[(٣)]، وقال عليه السلام: «**مَثَلُ القَلْبِ فِي تَقَلُّبِهِ كَالقِدْرِ إذا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَاناً**»[(٤)]، وقال: «**مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ فِي أَرْضٍ فَلاةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ**»[(٥)]، وهذه التقلبات وعجائب صنع الله في تقلبها من حيث لا تهدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى.

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردّد بينهما، ثلاثة:

قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق؛ تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده، فينكشف له بنور البصيرة وجهه، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره طاهراً بتقواه مستنيراً بضياء العقل معموراً بأنوار المعرفة، فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهبطاً، فعند ذلك يمدّه بجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام، ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧] وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية، حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، فلا

---

(١) حديث: «**لا ومقلب القلوب**» أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

(٢) حديث: «**يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك..**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه والحاكم من حديث جابر، وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»، والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم من حديث النواس بن سمعان: «**ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه**» والنسائي في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة.

(٣) حديث: «**مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة**». وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح.
قلت: رواه البغوي في معجمه من حديث أبي عبيد غير منسوب وقال: لا أدري له صحبة أم لا.

(٤) حديث: «**مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غلياناً**» أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري من حديث المقداد بن الأسود.

(٥) حديث: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة...**» الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن، وللبزار نحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف.

يخفى على هذا النور خافية، ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان، بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غروراً فلا يلتفت إليه. وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمنجيات ـ التي سنذكرها ـ من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك. وهو القلب الذي أقبل الله عزّ وجلّ بوجهه عليه، وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨] وبقوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧].

القلب الثاني: القلب المخذول المشحون بالهوى، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث، المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة. ومبدأ الشر فيه: أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به، واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى، فتستولي النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته؛ لانحباس جند العقل عن مدافعته. فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة؛ إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفىء أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار، ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمي عن الفهم، وصمّ عن السمع، وهاجت الشهوة فيه، وسطا الشيطان، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره. وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣،٤٤] وبقوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ [يس: ٧] وبقوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [يس: ١٠] ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذي يتورّع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر، ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار، بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفىء منه أنواره؛ فينطفىء نور الحياء والمروءة والإيمان، ويسعى في تحصيل مراد الشيطان.

القلب الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل، ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب، فتميل النفس إلى نصح العقل، فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوي داعي الهوى ويقول: ما هذا التحرّج البارد؟ ولم تمتنع عن هواك فتؤذي نفسك؟ وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على

نفسك حتى تبقى محروماً شقياً متعوباً، يضحك عليك أهل الزمان؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان، وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شراً لامتنع منه؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه؟ فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول: هل لك إلا من اتبع لذة الحال ونسي العاقبة؟ أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتّباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أنّ عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك؟ أرأيت لو كنت في يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص؟ فكيف تخالف الناس خوفاً من حر الشمس ولا تخالفهم خوفاً من حرّ النار؟. فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها، غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان، معرضاً عن حزب الله تعالى وأوليائه، ومساعداً لحزب الشيطان وأعدائه، وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان، وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن - أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب - أعني: التقلب والانتقال من حزب إلى حزب، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين، وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت، وهي أيضاً إذا ظهرت كانت علامات تعرّف أرباب القلوب سابق القضاء. فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات، ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي، وسلط عليه أقران السوء، وألقي في قلبه حكم الشيطان، فإنه بأنواع الحكم يغر الحمقى بقوله: إنّ الله رحيم فلا تبال، وإنّ الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم، وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غداً: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠] يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] فهو الهادي والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه. خلق الجنة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة، وخلق النار وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعاصي. وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] ثم قال تعالى فيما روي عن نبيه ﷺ: «**هٰؤلاءِ في الجَنَّةِ وَلا أُبالي وَهٰؤلاءِ في النَّارِ وَلا أُبالي**»[١]، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤] ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

---

(١) حديث: «**قال الله عز وجل هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي**» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبدالرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: إنه مضطرب الإسناد.

ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب؛ فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها؛ لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر، ولا يجتزىء بالقشر عن اللباب، بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب. وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق.

تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة.
ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق،
والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب
وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره، وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره، وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره، وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره، وامتنّ عليهم بتسهيل صعبه وعسيره، والصلاة والسلام على محمد عبدالله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره، الذي كان يلوح أنوار النبوّة من بين أساريره، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد: فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين. والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوّت حياة الأبد، وأين منه المرض الذي لا يفوّت إلا حياة الجسد؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب؛ إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] وإهمالها هو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠] ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة، من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع، وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها. ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالاً له؛ ليقرب من الأفهام دركه، ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق، ثم بيان حقيقة حسن الخلق، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة، ثم بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق، ثم بيان الطرق التي بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس، ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب، ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير، ثم بيان علامات حسن

الخلق، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة. فهي أحد عشر فصلاً يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق:

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: ٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ خُلُقه القرآن[١]. وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] ثم قال ﷺ: **«هُوَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»**[٢]، وقال ﷺ: **«إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ»**[٣]، وقال ﷺ: **«أَثْقَلُ ما يُوضَعُ فِي المِيزَانِ يَوْمَ القِيامَةِ تَقْوَى الله وَحُسْنُ الخُلُقِ»**[٤]. وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: **«حُسْنُ الخُلُقِ»** فأتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: **«حُسْنُ الخُلُقِ»**. ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال: **«حُسْنُ الخُلُقِ»** ثم أتاه من ورائه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: **«أَمَا تَفْقَهُ؟ هُوَ أَنْ لا تَغْضَبَ»**[٥]، وقيل: يا رسول الله ما الشؤم قال: **«سُوءُ الخُلُقِ»**[٦]، وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أوصني فقال: **«اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ»** قال: زدني قال: **«أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها»** قال زدني قال: **«خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»**[٧]، وسئل عليه السلام: أي الأعمال أفضل؟ قال: **«خُلُقٌ حَسَنٌ»** وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما حَسَّنَ الله خَلْقَ عَبْدٍ وَخُلُقَهُ فَيُطْعِمَهُ النَّارَ»**[٨]، وقال الفضيل: قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق؛ تؤذي جيرانها بلسانها قال: **«لا خَيْرَ فِيها هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»**، وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: **«أَوَّلُ مَا يُوضَعُ فِي المِيزَانِ حُسْنُ الخُلُقِ وَالسَّخَاءُ وَلَمَّا خَلَقَ الله الإِيمَانَ قَالَ اللَّهُمَّ قَوِّنِي فَقَوَّاهُ بِحُسْنِ الخُلُقِ وَالسَّخَاءِ، وَلَمَّا خَلَقَ الله الكُفْرَ قَالَ**

كتاب رياضة النفس

(١) حديث عائشة: «كان خُلُقه القرآن» تقدم وهو عند مسلم.

(٢) حديث: «تأويل قوله تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية **«هو أن تصل من قطعك..»** الحديث. أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حِسان.

(٣) حديث: **«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»** أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصحبة.

(٤) حديث: **«أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن»** أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء.

(٥) حديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ من بين يديه فقال: ما الدين؟ قال: **«حسن الخلق..»** الحديث. أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلاً.

(٦) حديث: ما الشؤم؟ قال: **«سوء الخلق»** أخرجه أحمد من حديث عائشة: **«الشؤم سوء الخلق»** ولأبي داود من حديث رافع بن مكيث: **«سوء الخلق شؤم»** وكلاهما لا يصح.

(٧) حديث: قال رجل: أوصني قال: **«اتق الله حيثما كنت..»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وقال: حسن صحيح.

(٨) حديث: **«ما حسن الله خلق امرىء وخلقه فتطعمه النار»**، تقدم في آداب الصحبة.

اللَّهُمَّ قَوِّنِي فَقَوَّاه بِالبُخْلِ وَسُوءِ الخُلُقِ»(١)، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إِنَّ اللهَ اسْتَخْلَصَ هٰذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ وَلا يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلاَّ السَّخَاءُ وَحُسْنُ الخُلُقِ أَلاَ فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِمَا»**(٢)، وقال عليه السلام: **«حُسْنُ الخُلُقِ خُلُقُ اللهِ الأَعْظَمُ»**(٣)، وقيل: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: **«أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»**(٤)، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: **«إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِبَسْطِ الوَجْهِ وَحُسْنِ الخُلُقِ»**(٥)، وقال أيضاً صلى الله تعالى عليه وسلم: **«سُوءُ الخُلُقِ يُفْسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ»**(٦)، وعن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ حَسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ فَحَسِّنْ خُلُقَكَ»**(٧)، وعن البراء بن عازب قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً(٨)، وعن أبي مسعود البدري قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: **«اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي»**(٩)، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الدعاء فيقول: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصِّحَّةَ وَالعَافِيَةَ وَحُسْنَ الخُلُقِ»**(١٠)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: **«كَرَمُ المُؤْمِنِ دِينُهُ، وَحَسَبُهُ حُسْنُ خُلُقِهِ، وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ»**(١١)، وعن

---

(١) حديث أبي الدرداء **«أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق. .»** الحديث. لم أقف له على أصل هكذا، ولأبي داود والترمذي من حديث أبي الدرداء: **«ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»** وقال: غريب وقال: في بعض طرقه حسن صحيح.

(٢) حديث: **«إن الله استخلص هذا الدين لنفسه. . .»** الحديث. أخرجه الدارقطني في كتاب المستجاد، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين.

(٣) حديث: **«حسن الخلق خلق الله الأعظم»**. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف.

(٤) حديث: قيل: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضلهم إيماناً؟ قال: **«أحسنهم خلقاً»** أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ: **«أكمل المؤمنين»** والطبراني من حديث أبي أمامة **«أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً»**.

(٥) حديث: **«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق»** أخرجه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات.

(٦) حديث: **«سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»**. أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضعفهما ابن جرير.

(٧) حديث: **«إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك»**. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب وفيه ضعف.

(٨) حديث البراء: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن.

(٩) حديث أبي مسعود البدري: **«اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي»** أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبدالله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري وإنما هو ابن مسعود أي عبدالله، هكذا رواه ابن حبان في صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة.

(١٠) حديث عبدالله بن عمرو: **«اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق»**. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناد فيه لين.

(١١) حديث أبي هريرة: **«كرم المرء دينه ومروءته وعقله وحسن خلقه»**. أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهقي. قلت: فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تكلم فيه. قال البيهقي: وروي من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفاً على عمر وقال: إسناد صحيح.

أسامة بن شريك قال: شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون: ما خير ما أعطي العبد؟ قال: «خُلُقٌ حَسَنٌ»[(١)]، وقال ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقاً»[(٢)]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلا تَعْتَدُّوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ، تَقْوَى تَحْجُزُهُ عَنْ مَعَاصِي الله أَوْ حِلْمٌ يَكُفُّ بِهِ السَّفِيهَ أَوْ خُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ»[(٣)]، وكان من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم في افتتاح الصلاة: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلاقِ لا يَهْدِي لِأَحْسَنِها إلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَها لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَها إلاَّ أَنْتَ»[(٤)]، وقال أنس: بينما نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوماً إذ قال: «إِنَّ حُسْنَ الخُلُقِ لَيُذِيبُ الخَطِيئَةَ كَمَا تُذِيبُ الشَّمْسُ الجَلِيدَ»[(٥)]، وقال عليه السلام: «مِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ حُسْنُ الخُلُقِ»[(٦)]، وقال ﷺ: «اليُمْنُ حُسْنُ الخُلُقِ»[(٧)]، وقال عليه السلام لأبي ذر: «يا أبا ذَرٍّ لاَ عَقْلَ كالتَّدْبِيرِ وَلاَ حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ»[(٨)] وعن أنس قال: قالت أم حبيبة لرسول الله ﷺ: أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون؟ قال: «لِأَحْسَنِهِمَا خُلُقاً كَانَ عِنْدَها فِي الدُّنْيا، يا أُمَّ حَبِيبَةَ ذَهَبَ حُسْنُ الخُلُقِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[(٩)]، وقال ﷺ: «إِنَّ المُسْلِمَ المُسَدِّدَ لَيُدْرِكُ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ بِحُسْنِ خُلُقِهِ وَكَرَمِ مَرْتَبَتِهِ»[(١٠)]، وفي رواية: «دَرَجَةَ الظَّمْآنِ فِي الهَوَاجِرِ» وقال عبدالرحمن بن سمرة: كنا عند النبي ﷺ فقال: «إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلاً من أمتي جاثياً

---

(١) حديث أسامة بن شريك: شهدت الأعاريب يسألون رسول الله ﷺ: ما خير ما أعطي العبد؟ قال: «خلق حسن» أخرجه ابن ماجه وتقدم في آداب الصحبة.

(٢) حديث: «إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً» أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة: «إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً» وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر: «إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً» وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة.

(٣) حديث ابن عباس: «ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله...» الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف، ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة.

(٤) حديث: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث علي.

(٥) حديث أنس: «إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف، ورواه الطبراني والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه، وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضاً.

(٦) حديث: «من سعادة المرء حسن الخلق» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف.

(٧) حديث: «اليمن حسن الخلق» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناد ضعيف.

(٨) حديث: «يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق» أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر.

(٩) حديث أنس: «قالت أم حبيبة: يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان...» الحديث. أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف.

(١٠) حديث: «إن المسلم المسدّد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه...» الحديث. أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بالرواية الأولى، ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة.

على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى»[١]، وقال أنس: قال النبي ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الآخِرَةِ وَشَرَفَ المَنَازِلِ وَإِنَّهُ لَضَعِيفٌ فِي العِبَادَةِ**»[٢]، وروي: أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي ﷺ وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك فقال عمر رضي الله عنه: مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ فقال: «**عَجِبْتُ لِهٰؤُلاءِ اللاَّتِي كُنَّ عِنْدِي لَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادَرْنَ الحِجَابَ**» فقال عمر: أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال: يا عدوّات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**إيهاً يا ابْنَ الخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما لَقِيَكَ الشَّيطَانُ قَطُّ سَالِكاً فَجّاً إلاّ سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ**»[٣]، وقال ﷺ: «**سُوءُ الخُلُقِ ذَنْبٌ لا يُغْفَرُ وَسُوءُ الظَّنِّ خَطِيئَةٌ تَفُوحُ**»[٤]، وقال عليه السلام: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَبْلُغُ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرْكِ جَهَنَّمَ**»[٥].

الآثار: قال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبت، أي الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين، قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال. قال: فإذا كانت ثلاثاً؟ قال: الدين والمال والحياء، قال: فإذا كانت أربعاً؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمساً؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء، قال: فإذا كانت ستاً؟ قال: يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي، ولله ولي، ومن الشيطان بري، وقال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه. وقال أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد، ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد. وقال يحيى بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وقال وهب بن منبه: مثل السيىء الخلق كمثل الفخارة المكسورة؛ لا ترقع ولا تعاد طيناً. وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيىء الخلق. وصحب ابن المبارك رجلاً سيىء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخلقه معه لم يفارقه. وقال الجنيد: أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه؛ الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان. وقال الكناني: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف. وقال عمر رضي الله عنه: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال. وقال

---

(١) حديث عبدالرحمن بن سمرة: «**إني رأيت البارحة عجباً...**» الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة..**» الحديث. أخرجه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق، وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد.

(٣) حديث: «**إن عمر استأذن على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه..**» الحديث. متفق عليه.

(٤) حديث: «**سوء الخلق ذنب لا يغفر..**» الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير من حديث عائشة: «**ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه**». وإسناده ضعيف.

(٥) حديث: «**إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم**» أخرجه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بحديثين.

يحيى بن معاذ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات. وسئل ابن عباس: ما الكرم؟ فقال: هو ما بيّن الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] قيل فما الحسب؟ قال: أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً. وقال: لكل بنيان أساس، وأساس الإسلام حسن الخلق. وقال عطاء: ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى ﷺ فأقرب الخلق إلى الله عزّ وجلّ السالكون آثاره بحسن الخلق.

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق:

اعلم: أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضراً في ذهنه، ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب، وذلك كقول الحسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى. وقال الواسطي: هو أن لا يخاصِم ولا يخاصَم من شدّة معرفته بالله تعالى. وقال شاه الكرماني: هو كف الأذى واحتمال المؤن. وقال بعضهم: هو أن يكون من الناس قريباً، وفيما بينهم غريباً. وقال الواسطي مرة: هو إرضاء الخلق في السراء والضراء. وقال أبو عثمان: هو الرضا عن الله تعالى. وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه، وقال مرة: أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور؛ فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس. وقال علي رضي الله عنه: حسن الخلق في ثلاث خصال؛ اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال. وقال الحسين بن منصور: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق. وقال أبو سعيد الخراز: هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى. فهذا وأمثاله كثير، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه، ثم ليس هو محيطاً بجميع الثمرات أيضاً. وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة.

فنقول: الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخُلُق والخَلْق ـ أي حسن الباطن والظاهر ـ فيراد بالخَلْق: الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق: الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر، ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر. ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢]. فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد؛ فالخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً. وإنما قلنا إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم.

فهاهنا أربعة أمور: **أحدها**: فعل الجميل والقبيح. **والثاني**: القدرة عليهما. **والثالث**: المعرفة بهما. **والرابع**: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين؛ إما الحسن وإما القبيح.

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء. وليس هو عبارة عن القوّة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدّين واحد. وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء. وليس هو عبارة عن المعرفة؛ فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذاً: عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة. وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق. فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوّة العلم، وقوة الغضب، وقوّة الشهوة، وقوّة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوّة العلم: فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال. فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال الله فيها: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩].

وأما قوّة الغضب: فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حدّ ما تقتضيه الحكمة؛ وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

وأما قوّة العدل: فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع.

فالعقل: مثاله مثال الناصح المشير. وقوة العدل هي القدرة، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل. والغضب: هو الذي تنفذ فيه الإشارة، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس. والشهوة: مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد؛ فإنه تارة يكون مروّضاً مؤدّباً وتارة يكون جموحاً. فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة؛ كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض. وحسن القوّة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة. وحسن قوّة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة.

فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبناً وخوراً. وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهاً، وإن مالت إلى النقصان تسمى جموداً.

والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان، بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور.

وأما الحكمة: فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجربزة، ويسمى تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

فإذاً: أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. ونعني بالحكمة: حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية. ونعني بالعدل: حالة للنفس وقوّة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها. ونعني بالشجاعة: كون قوّة الغضب منقادة للعقل في إقدامها واحجامها. ونعني بالعفة: تأدّب قوّة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها.

إذ من اعتدال قوّة العقل: يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس. ومن إفراطها: تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء. ومن تفريطها: يصدر البله والغمارة والحمق والجنون ـ وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء ـ والفرق بين الحمق والجنون: أن الأحمق: مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد، فلا تكون له رؤية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون: فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار، فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً.

وأما خلق الشجاعة: فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة. وأما إفراطها ـ وهو التهوّر ـ فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب. وأما تفريطها: فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما خلق العفة: فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع. وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط: فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة: وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه. فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً؛ يرجع الخلق كلهم إليه، ويقتدون به في جميع الأفعال. ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد، فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد، فينبغي أن يبعد، كما أن الأوّل قريب من الملك المقرّب فينبغي أن يقتدي به ويتقرّب إليه، فإن رسول الله ﷺ لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال[1].

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥] فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب: هو قوّة اليقين وهو ثمرة العقل. ومنتهى الحكمة

---

(١) حديث: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» تقدم في آداب الصحبة.

والمجاهدة بالمال: هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة. والمجاهدة بالنفس: هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوّة الغضب على شرط العقل وحدّ الاعتدال. فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إشارة إلى أن للشدّة موضعاً وللرحمة موضعاً، فليس الكمال في الشدّة بكل حال، ولا في الرحمة بكل حال. فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة:

اعلم: أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة، والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته، فزعم أن الأخلاق لا يتصوّر تغييرها، فإن الطباع لا تتغير.

واستدل فيه بأمرين:

أحدهما: أن الخُلُق هو صورة الباطن كما أن الخَلْق هو صورة الظاهر. فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

والثاني: أنهم قالوا: حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب. وقد جرّبنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة. فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: «**حَسِّنُوا أَخْلاقَكُمْ**»(١)، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد. وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً، وسائر أجزاء الحيوانات. وبالجملة: كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً،

---

(١) حديث: «**حسنوا أخلاقكم**» أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ: «**يا معاذ حسن خلقك للناس**» منقطع ورجاله ثقات.

ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى. نعم، الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول، ولاختلافها سببان:

أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدّة الوجود، فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم وجوداً؛ إذ الصبي في مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

والسبب الثاني: أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له، وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً، والناس فيه على أربع مراتب:

الأولى: وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح، بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات، ولم تستتم شهوته أيضاً باتباع اللذات، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة؛ فيحسن خلقه في أقرب زمان.

والثانية: أن يكون قد عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعوّد العمل الصالح، بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول؛ إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه؛ إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أوّلاً من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم.

والثالثة: أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

والرابعة: أن يكون من نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به، يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به، ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب. وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب. **والأول** من هؤلاء: جاهل فقط. **والثاني**: جاهل وضال. **والثالث**: جاهل وضال وفاسق. **والرابع**: جاهل وضال وفاسق وشرير.

وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به؛ وهو قولهم: إن الآدمي ما دام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة، حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل

المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب: حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهوّر وعن الجبن جميعاً. وبالجملة: أن يكون في نفسه قوياً ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك؛ إذ قال ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ**»[١]، وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمرّ وجنتاه، ولكن لا يقول إلا حقاً، فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق[٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ولم يقل: والفاقدين الغيظ، فرد الغضب والشهوة إلى حدّ الاعتدال، بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق، فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش.

وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها، والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين: أن السخاء خلق محمود شرعاً، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وكذلك المطلوب في شهوة الطعام: الاعتدال دون الشره والجمود. قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال في الغضب: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ﷺ: «**خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا**»[٣]، وهذا له سر وتحقيق، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٩] والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما؛ أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك، فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين، وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر لا حار ولا بارد، بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن والتهوّر. والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. نعم يجب

---

(١) حديث: «**إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر**». أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة: «**إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر**».

(٢) حديث: «أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً، فكان الغضب لا يخرجه عن الحق» أخرجه الشيخان من حديث عبدالله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال: «**لأن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ**» ولهما من حديث أبي سعيد الخدري: «**وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه**». ولهما من حديث عائشة: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله»، ولمسلم: «**ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه...**» الحديث.

(٣) حديث: «**خير الأمور أوساطها**» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبدالله معضلاً.

على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأساً، ويذم إمساك المال رأساً، ولا يرخص له في شيء منه؛ لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذراً في استبقاء بخله وغضبه، وظن أنه القدر المرخص فيه. فإذا قصد قطع الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سورته بحيث يعود إلى الاعتدال، فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود. فلا يكشف هذا السر للمريد فإنه موضع غرور الحمقى؛ إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق.

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة:

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوّة العقل وكمال الحكمة، وإلى اعتدال قوّة الغضب والشهوة، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما: بجود إلهي وكمال فطري، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفي سلطان الشهوة والغضب، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع؛ فيصير عالماً بغير تعليم ومؤدباً بغير تأديب، كعيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا عليهما السلام، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب؛ فرب صبي خلق صادق اللهجة سخياً جرياً، وربما يخلق بخلافه، فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق، وربما يحصل بالتعلم.

والوجه الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة؛ وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه: أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه: أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسّر عليه. وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً؛ فالسخي: هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع: هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال ﷺ: **«وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»**(١)، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به. نعم، المواظبة عليها بالمجاهدة خير، ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البَقَرَة: ٤٥] وقال ﷺ: **«اعْبُدِ الله فِي الرِّضا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى ما تَكْرَهُ خَيرٌ كَثِيرٌ»**(٢)، ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل، ولذلك لما سئل ﷺ عن السعادة فقال: **«طُولُ**

---

(١) حديث: **«وجعلت قرة عيني في الصلاة»** أخرجه النسائي من حديث أنس، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير»** أخرجه الطبراني.

العُمُرِ فِي طَاعَةِ الله تَعَالَى»[1]، ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة. وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل، والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى وأرسخ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات.

وغاية هذه الأخلاق: أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى، فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عزّ وجلّ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه، وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل، ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين. ومصير العبادات لذيذة؛ فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك؛ فإنا قد نرى الملوك والمنعمين في أحزان دائمة، ونرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً، ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة. وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحسّ بألمها؛ لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط، وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوّته في الصبر على ذلك، حتى يرى ذلك فخراً لنفسه، ويقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره، فيصر على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كمالاً وشجاعة ورجولية، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره، بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث في تشبهه بالإناث في نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء، فترى المخنث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنثه يتباهى به مع المخنثين، حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء. فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف. فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عزّ وجلّ، ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض.

فإذاً: قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ـ أعني النفس

---

(١) حديث: سئل عن السعادة فقال: «طول العمر في عبادة الله» رواه القضاعي في مسند الشهاب، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، وللترمذي من حديث أبي بكرة وصححه: أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن علمه».

والبدن ـ فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دور، ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية ـ حتى يصير كاتباً بالطبع ـ فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق، ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب، ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع.

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس. وكذلك من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له، فلا علاج له إلا ذلك، وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم. وهو معنى قولنا: إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد، ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها، ثم تتداعى قليلاً قليلاً حتى تأنس النفس بالكسل، وتهجر التحصيل رأساً فيفوتها فضيلة الفقه. وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة. وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدريج ـ مثل نمو البدن وارتفاع القامة ـ فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال، ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة، فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد، فلكل واحد منها تأثير، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي، فله ثواب لا محالة. فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية. وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه. فكذا من يستهين صغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة، أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة؛ إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات، لا يمكن تخليصه من مخالبها. وهو المعني بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩] الآية. ولذلك قال علي رضي الله تعالى عنه: إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء؛ كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل العبد الإيمان ابيضّ القلب كله. وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء؛ كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد، فإذا استكمل النفاق اسودّ القلب كله.

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح؛ إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً. فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم، وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عزّ وجلّ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ

﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧،٨] ـ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

قد عرفت من قبل: أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها. كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالاً. فنقول:

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه. وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ـ أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل ـ، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه؛ فكذلك النفس منك؛ إن كانت زكية طاهرة مهذبة: فينبغي أن تسعى لحفظها، وجلب مزيد قوّة إليها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء: فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً. وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد. وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ـ ويختلف ذلك بالشدة والضعف، والدوام وعدمه، وبالكثرة والقلة، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه؛ فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ـ فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار. وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان، وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها.

فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه، وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته. فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً لمعصية

فيأمره أولاً بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه، نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه، فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات، وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال، فإن عزة النفس والرئاسة لا تنكسر إلا بالذل، ولا ذلّ أعظم من ذلك السؤال؛ فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة، وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلاً إلى ذلك فرحاً به ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه، وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة؛ فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنماً فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله، ومن راعى في ثوبه شيئاً سوى كونه حلالاً وطاهراً مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه.

ومن لطائف الرياضة: إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة؛ فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه، كالذي يغسل الدم بالبول، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم. كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل إلى جاه أخف منه، وكذلك سائر الصفات. وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفه أن يهيىء الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها؛ حتى يقوي بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه. وكذلك إذا رآه شاباً متشوقاً إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم، وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء. ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته... فلا علاج في مبدأ الإرادة أنفع من الجوع. وإن رأى الغضب غالباً عليه ألزمه الحلم والسكوت، وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه.

كما حكي عن بعضهم: أنه كان يعوّد نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل. وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب، فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج. وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة. وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل؛ ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع. وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر؛ إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل.

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب. وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ـ فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب ـ وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠،٤١] والأصل المهم في

المجاهدة: الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها، ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عوَّد نفسه ترك العزم أَلِفَتْ ذلك ففسدت، وإذا اتفق منه نقض عزم، فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه ـ كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة ـ وإذا لم يخوّف النفس بعقوبة غلبته، وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية.

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة:

اعلم: أنّ كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش. ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار. وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته، والتلذذ بذكره، وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه، والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] ففي كل عضو فائدة، وفائدة القلب الحكمة والمعرفة. وخاصية النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم، فإنه لم يتميز عنها بالقوّة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها؛ بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه. وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عزّ وجلّ الذي جعلها أشياء. فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عزّ وجلّ فكأنه لم يعرف شيئاً. وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات. كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤] إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض، كما أنّ كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة. فهذه علامات المرض، وبهذا يعرف أنّ القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله، إلا أنّ من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها؛ ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه. وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح. فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً والمرض مزمناً واندرس هذا العلم، وأُنكر بالكلية طب القلوب وأُنكر مرضها. وأقبل الخلق على حب الدنيا، وعلى أعمال ظاهرها عبادات، وباطنها عادات ومراءاة. فهذه علامات أصول الأمراض.

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة: فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عزّ وجلّ، وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه، ولكنه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبذراً فيكون التبذير أيضاً داء، فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة. وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له، مثل: أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم: أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ

عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير؛ فارجع إلى المواظبة على الإمساك، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتسيير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك؛ فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليماً عن هذا المقام خاصة. ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها ولا متشوّقة إلى أسبابها، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية، داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: ٦٩].

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر وأحدّ من السيف فلا جرم أنَّ من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم ـ أعني الوسط ـ حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقاً بالجانب الذي مال إليه. ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم: ٧١،٧٢] أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه. ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفَاتِحَة: ٦] إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

فقد روي: أنَّ بعضهم رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال: قد قلتَ يا رسول الله شيبتني هود، فلم قلت ذلك؟ فقال عليه السلام: «لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هُود: ١١٢]». فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها. فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة؛ فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليعدّدها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب. فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين.

بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه:

اعلم: أنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم؛ يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه. فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته. وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه، فيعرّفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه. وهذا قد عز في الزمان وجوده.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، فينصّبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي. وكان يسأل سلمان عن عيوبه، فلما قدم عليه قال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه؟ فاستعفى، فألح عليه فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل، قال: وهل بلغك غير هذا؟ قال: لا، فقال: أما هذان فقد كفيتهما. وكان يسأل حذيفة ويقول له: أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، فهل ترى عليَّ شيئاً من آثار النفاق؟. فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه.

فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه، إلا أن هذا أيضاً قد عز فقلَّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب. فلا تخلو في أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك.

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له: لِمَ لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي؟. فكانت شهوة ذوي الدين أن ينتبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أنّ أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرّفنا عيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان؛ فإنّ الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منه منة وفرحنا به، واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوماً فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبداً أو آلافاً من السنين. ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له: وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت، وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه. ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب. وأصل كل ذلك ضعف الإيمان. فنسأل الله عزّ وجلّ أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوئنا بمنه وفضله.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساويا. ولعل انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدوّ وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه؛ فإن مساويه لا بدّ وأن تنتشر على ألسنتهم.

الطريق الرابع: أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى. فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب.

قيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته. وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس، مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشتغلاً بتهذيب عباد الله تعالى ناصحاً لهم، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب؛ فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده.

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات:

اعلم: أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد، فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فمن صدّق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عزّ وجلّ ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النّساء: ٩٥].

والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر. قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: ٤٠ ـ ٤١] وقال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحُجرَات: ٣] قيل: نزع منها محبة الشهوات. وقال ﷺ: **«المُؤْمِنُ بَيْنَ خَمْسِ شَدَائِد: مُؤْمِنٌ يَحْسُدُهُ وَمُنَافِقٌ يَبْغُضُهُ وَكَافِرٌ يُقَاتِلُهُ وَشَيْطَانٌ يُضِلُّهُ وَنَفْسٌ تُنَازِعُهُ»**(١)، فبين أن النفس عدوّ منازع يجب عليه مجاهدتها.

ويروى: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود، حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة. وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره، وقال نبينا ﷺ لقوم قدموا من الجهاد: **«مَرْحَباً بِكُمْ قَدِمْتُمْ مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ»** قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: **«جِهَادُ النَّفْسِ»**(٢)، وقال ﷺ: **«المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ»**(٣)، وقال ﷺ: **«كُفَّ أَذَاكَ عَنْ نَفْسِكَ وَلا تُتَابِعْ هَوَاهَا فِي مَعْصِيةِ الله تَعَالَى إِذَنْ تُخَاصِمكَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَلْعَنُ بَعْضُكَ بَعْضاً إِلاَّ أَنْ يَغْفِرَ الله تَعَالَى وَيَسْتُرَ»**(٤)، وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نفسي مرة لي ومرة عليّ، وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: يا نفس، لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين، ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين، كأني بك بين الجنة والنار تُحبسين، يا نفس ألا تستحين!. وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة. والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام؛ فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء، والصبر على الأذى، وإذا تحركت

---

(١) حديث: «**المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده ومنافق يبغضه**...» الحديث. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**». أخرجه البيهقي في الزهد، وقد تقدم في شرح عجائب القلب.

(٣) حديث: «**المجاهد من جاهد نفسه**» أخرجه الترمذي في أثناء حديث، وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد.

(٤) حديث: «**كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله**...» الحديث. لم أجده بهذا السياق.

من النفس إرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جَرَّدْتَ سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام؛ حتى تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام، وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية، خفيفة روحانية، فتجول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطاعات؛ كالفرس الفارة في الميدان، وكالملك المتنزه في البستان. وقال أيضاً: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

قال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها، محصوراً في سجن هواها، مقهوراً مغلولاً زمامه في يدها، تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد. وقال جعفر بن حميد: أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم. وقال أبو يحيى الوراق: من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات. وقال وهيب بن الورد: ما زاد على الخبز فهو شهوة. وقال أيضاً: من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل.

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام ـ بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه، وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته ـ: سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له، إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً... فقال يوسف: كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٩٠].

وقال الجنيد: أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها، فأردت أن أنام فلم أقدر، فجلست فلم أطق الجلوس، فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي قال: يا أبا القاسم إلى الساعة، فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ فقال: بلى سألت الله عزّ وجلّ أن يحرك لي قلبك، فقلت: قد فعل، فما حاجتك؟ قال: فمتى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها؛ فأقبل على نفسه فقال: اسمعي فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ها قد سمعتيه، ثم انصرف وما عرفته. وقال يزيد الرقاشي: إليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي لا أحرمه في الآخرة. وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت، قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال علي رضي الله عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا. وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبري، فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك عليَّ.

فإذاً: قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات، فالإيمان بهذا واجب. وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه. وحاصل الرياضة وسرها: أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة، فيكون مقتصراً من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه، فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه، ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لا حظ له في الآخرة بحال، ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولاً بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع إليه، ولا قوّة على ذلك إلا بالله، ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط. فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه، والناس فيه أربعة:

الأول: رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة؛ فهو من الصديقين. ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة.

الثاني: رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس، حيث يذكره باللسان لا بالقلب؛ فهذا من الهالكين.

والثالث: رجل اشتغل بالدنيا والدين، ولكن الغالب على قلبه هو الدين؛ فهذا لا بد له من ورود النار، إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه.

والرابع: رجل اشتغل بهما جميعاً، ولكن الدنيا أغلب على قلبه؛ فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه. اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ.

وربما يقول القائل: إن التنعم بالمباح مباح، فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عزّ وجلّ؟ وهذا خيال ضعيف، بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة. والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو سبب البعد ـ وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا ـ وقد قال إبراهيم الخواص: كنت مرة في جبل اللكام فرأيت رماناً فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها، فرأيت رجلاً مطروحاً وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا إبراهيم، فقلت: كيف عرفتني؟ فقال: من عرف الله عزّ وجلّ لم يخف عليه شيء، فقلت: أرى لك حالاً مع الله عزّ وجلّ فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير؟ فقال: وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان؛ فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة. ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا، فتركته ومضيت. وقال السري: أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزة في دبس فما أطعتها.

فإذاً: لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات، فمن أراد حفظ لسانه من الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق، فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة. ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يحل، وكذلك سائر الشهوات؛ لأن الذي يشتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي الحرام، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعوّدها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته. فهذه إحدى آفات المباحات، ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه، وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطراً حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره. وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب. قال الله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس: ٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠] الآية. وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة.

فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا؛ فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر، وجربوها في حالة الحزن؛ فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر. فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر، ففطموها عن ملاذها

وعوّدوها الصبر عن شهواتها ـ حلالها وحرامها ـ وعلموا: أن حلالها حساب وحرامها عقاب، ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب، فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب. فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عزّ وجلّ والاشتغال بطاعته. وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب؛ فإنه يحبس أولاً في بيت مظلم وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جوّ الهواء، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال، ثم يرفق به باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً إذا دعاه أجابه، ومهما سمع صوته رجع إليه. فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أوّلاً؛ ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثمّ عودت الثناء والذكر والدعاء ثانياً في الخلوة؛ حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عزّ وجلّ عوضاً عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات، وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية، كالصبي يفطم عن الثدي وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة؛ فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام، ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلاً عن اللبن، ولكنه إذا منع اللبن رأساً يوماً فيوماً وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفاً، ثم يصير له طبعاً. فلو ردَّ بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه، فيهجر الثدي ويعاف اللبن ويألف الطعام. وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً، وتمنع عن السرج الذي ألفته بالسلاسل والقيود أوّلاً، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد. فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب، وتأديبها بأن تُمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت؛ إذ قيل له: أحبب ما أحببت فإنك مفارقه. فإذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه؛ وهو ذكر الله تعالى، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه. وكل ذلك يتم بالصبر أولاً أياماً قلائل، فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة، وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهراً ليتنعم به سنة أو دهراً. وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا، فلا بد من الصبر والمجاهدة. فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى، كما قاله علي رضي الله عنه.

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله. والأصل فيه: أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا، فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة، فينبغي أن يترك أوّلاً ما به فرحه، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له: ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به، فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها، وذلك مهلك في حقه. ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه، وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر؛ فإن لكل وسوسة سبباً، ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة. وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت.

بيان علامات حسن الخلق:

اعلم: أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي

ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق. فإن حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق. وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق. فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١-٣] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون: ١٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى قوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة. من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجودُ جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقدُ جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال: **«المُؤْمِنُ يُحِبُّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»**(١)، وقال عليه السلام: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»**(٢)، وقال ﷺ: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»**(٣)، وقال: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيراً أَوْ لِيَصْمُتْ»**(٤)، وذكر: أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق، فقال ﷺ: **«أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيماناً أَحْسَنُهُمْ أَخلاقاً»**(٥)، وقال ﷺ: **«إذا رَأَيْتُم المُؤْمِنَ صَمُوتاً وَقُوراً فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الحِكْمَةَ»**(٦)، وقال: **«مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»**(٧)، وقال: **«لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظْرَةٍ تُؤْذِيهِ»**(٨)، وقال عليه السلام: **«لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً»**(٩)، وقال ﷺ: **«إنّما يَتَجالَسُ المُتَجالِسَانِ بِأَمَانَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَلا يَحِلُّ لأَحَدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلَى أَخِيهِ ما يَكْرَهُهُ»**(١٠).

---

(١) حديث: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه». أخرجه الشيخان من حديث أنس: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

(٢) حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» متفق عليه من حديثهما، وهو بعض الحديث الذي قبله.

(٤) حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» متفق عليه أيضاً من حديثهما، وهو بعض الذي قبله.

(٥) حديث: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» تقدم غير مرة.

(٦) حديث: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة» أخرجه ابن ماجه في حديث أبي خلاد بلفظ: «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق».

(٧) حديث: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى، ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة.

(٨) حديث: «لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه»، أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلاة مرسلاً وقد تقدم.

(٩) حديث: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً» أخرجه الطبراني والطيالسي من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث عمر، وإسناده ضعيف.

(١٠) حديث: «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله...» الحديث. تقدم في آداب الصحبة.

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى، كثير الصلاح صدوق اللسان، قليل الكلام كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول، براً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً، رضياً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً، لا لعاناً ولا سباباً ولا نماماً ولا مغتاباً ولا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً، يحب في الله ويبغض في الله، ويرضى في الله ويغضب في الله؛ فهذا هو حسن الخلق.

وسئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن والمنافق فقال: **«إنَّ المُؤمِنَ هِمَّتُهُ فِي الصَّلاةِ وَالصِّيامِ وَالعِبَادَةِ، وَالمُنَافِقُ هِمَّتُهُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كَالبَهِيمَةِ»**(١). وقال حاتم الأصم: المؤمن مشغول بالفكر والعبر، والمنافق مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله، والمنافق راج كل أحد إلا الله، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يقدم ماله دون دينه، والمنافق يقدم دينه دون ماله، والمؤمن يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة، والمنافق يحب الخلطة والملأ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد.

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق: الصبر على الأذى واحتمال الجفاء، ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه، فإن حسن الخلق احتمال الأذى، فقد روي أن رسول الله ﷺ كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية، قال أنس رضي الله عنه: حتى نظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البرد من شدّة جذبه، فقال: يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، ثم أمر بإعطائه(٢)، ولما أكثرت قريش إيذاءه وضربه قال: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**(٣)، قيل: إنّ هذا يوم أُحد فلذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

ويحكى: أن إبراهيم بن أدهم خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة. فقال الجندي: إنما أردت العمران؟ فقال: هو المقبرة، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا: ما الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا: هذا إبراهيم بن أدهم! فنزل الجندي عن فرسه وقبّل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه، فقيل بعد ذلك له: لم قلت له أنا عبد؟ فقال: إنه لم يسألني: عبد من أنت بل قال: أنت عبد؟ فقلت: نعم، لأني عبدالله، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة قيل: كيف وقد ظلمك؟ فقال: علمت أنني أؤجر على ما نالني منه، فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر.

ودعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة ـ وكان الداعي قد أراد تجربته ـ فلما بلغ منزله قال له: ليس

---

(١) حديث: سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال: «إن المؤمن همه في الصلاة والصيام...» الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «كان يمشي فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية...» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

(٣) حديث: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل بن سعد، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: أنه حكاه ﷺ عن نبي من الأنبياء ضربه قومه.

لي وجه، فرجع أبو عثمان، فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ، ارجع، فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فرده، حتى عامله بذلك مرات، وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال: يا أستاذ، إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك فقال: إنّ الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعي أجاب وإذا زجر انزجر.

وروي عنه أيضاً أنّه اجتاز يوماً في سكة فطرحت عليه إجانة رماد، فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً، فقيل: ألا زبرتهم؟ فقال: إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وروي أنّ علي بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل إلى السواد ـ إذ كانت أمه سوداء ـ، وكان بنيسابور حمام على باب داره، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي، فدخل ذات يوم فأغلق الحمامي الباب ومضى في بعض حوائجه، فتقدّم رجل رستاقي إلى باب الحمام ففتحه، ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام، فقال له: قم واحمل إليَّ الماء فقام علي بن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به، فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاقي وسمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما، فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له: إنه خاف مما جرى فهرب. قال: لا ينبغي له أن يهرب، إنما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء.

وروي أن أبا عبدالله الخياط كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوسي يستعمله في الخياطة فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبدالله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ولا يردّها عليه، فاتفق يوماً أن أبا عبدالله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسي فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهماً زائفاً، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه، فلما عاد أبو عبدالله أخبره بذلك فقال: بئس ما عملت. هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها في البئر لئلا يغرّ بها مسلماً.

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.

وسئل سهل عن حسن الخلق فقال: أدناه: احتمال الأذى، وترك المكافأة، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه. وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم فقال: من قيس بن عاصم، قيل: وما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.
وقيل: إن أويساً القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوتاه، إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة. وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك.

وروي أن علياً كرم الله وجهه دعا غلاماً فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى.

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله: يا مرائي. فقال: يا هذه، وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة. وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له: لِمَ تمسكه؟ فقال: لأتعلم الحلم عليه.

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق. فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرنا. فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق؛ فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون.

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوْهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم:

اعلم: أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى؛ وصيانته: بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث. ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم، ولا يلطخ يده ولا ثوبه، وأن يعوّد الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً، ويقبح عنده كثرة الأكل؛ بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل، ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أيّ طعام كان، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون

والإبريسم، ويقرّر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين، وأن الرجال يستنكفون منه ويكرّر ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عُوّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه، فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكياد ومجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشغل في المكتب، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم؛ لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويُحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين؛ فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح، وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلاً ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم؛ بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا تُرِك تعود فعل القبيح. ويعوّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل، ويعوّد أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي، ولا يرخي يديه بل يضمها إلى صدره، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته، بل يعوّد التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشمين، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة، وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها.

وبالجملة: يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضاً، وينبغي أن يعوّد أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلاً على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل. ويعلم كيفية الجلوس، ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام، ويمنع اليمين رأساً ـ صادقاً كان أو كاذباً ـ حتى لا يعتاد ذلك في الصغر، ويمنع أن يبتدىء بالكلام، ويعوّد أن لا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك؛ فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ

من قرناء السوء. وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً. وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم. ومهما بلغ سن التمييز، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويخوّف من السرقة وأكل الحرام، ومن الخيانة والكذب والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان، فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور، فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عزّ وجلّ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممرّ لا دار مقرّ، وأن الآخرة دار مقرّ لا دار ممرّ، وأن الموت منتظر في كل ساعة، وأن الكيّس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان، فإذا كان النشو صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر. وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس. فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى، فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين.

قال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ وَإنَّما أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1].

قال سهل بن عبدالله التستري: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرّك به لسانك، الله معي الله ناظر إليَّ الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلته فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل، من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية، فكنت أخلو بنفسي فبعثوا بي إلى المكتب فقلت: إني لأخشى أن يتفرّق عليَّ همي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، فمضيت إلى الكتّاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين، وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها، فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشفِ أحد عني شيئاً، فخرجت إلى عبادان؛ إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن

---

(١) حديث: «**كل مولود يولد على الفطرة...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وسبق تخريجه.

أبي عبدالله العباداني فسألته عنها فأجابني، فأقمت عنده مدّة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه، ثم رجعت إلى تُستر فجعلت قوتي اقتصاداً على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحتاً من غير ملح ولا أدم، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة. ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة. ثم خمساً، ثم سبعاً، ثم خمساً وعشرين ليلة، فكنت على ذلك عشرين سنة، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين، ثم رجعت إلى تُستر وكنت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى. قال أحمد: ما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى.

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة:

واعلم: أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريداً حرث الآخرة مشتاقاً إليها، سالكاً سبيلها مستهيناً بنعيم الدنيا ولذاتها، فإن من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة وقويت إرادته في بيعها بالجوهرة، ومن ليس مريداً حرث الآخرة ولا طالباً للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر.

ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص، فإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة، إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها، وأما حقيقتها فلا. ومثل هذا المصدّق إذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة، فإذاً: المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها، فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدتهم وليس في علماء الدين من ينبههم، فإن تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سبباً لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه. ومهما كان المطلوب محجوباً والدليل مفقوداً والهوى غالباً والطالب غافلاً امتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة، فإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم أنّ له شروطاً لا بدّ من تقديمها في بداية الإرادة، وله معتصم لا بدّ من التمسك به، وله حصن لا بدّ من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق.

أما الشروط التي لا بدّ من تقديمها في الإرادة: فهي رفع السدّ والحجاب الذي بينه وبين الحق، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السدّ على الطريق. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩].

والسد بين المريد وبين الحق أربعة: المال، والجاه، والتقليد، والمعصية. وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عزّ وجلّ. وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول، والهرب من أسباب الذكر، وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه. وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب، وأن يصدق بمعنى قوله: «لا إِلَٰهَ إلاّ الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله» تصديق إيمان ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى ـ وأعظم معبود له الهوى ـ حتى إذا

فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليداً، فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة، فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجاباً، إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلاً. وأما المعصية: فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم، وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضى، ورد المظالم وإرضاء الخصوم. فإنّ من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة، وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب، فإنّ ترجمة عربية القرآن لا بد من تقديمها أوّلاً ثم الترقي منها إلى أسرار معانيه، فكذلك لا بد من تصحيح الشريعة أوّلاً وآخراً، ثم الترقي إلى أغوارها وأسرارها.

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرّد عن المال والجاه، وكان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر. فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد بحيث يفوّض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده ولاصدره، ولا يبقي في متابعته شيئاً ولا يذر، وليعلم أنّ نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب، فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور: الخلوة، والصمت، والجوع، والسهر. وهذا تحصن من القواطع، فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه.

أما الجوع: فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة كما أنّ قساوته سبب الحجاب. ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدوّ فإنّ مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين: جوّعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم. وقال سهل بن عبدالله التستري: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال، بإخماص البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس. ففائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة. وسيأتي بيان وجه التدريج فيه في كتاب كسر الشهوتين.

وأما السهر: فإنه يجلو القلب ويصفيه وينوّره، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدري والمرآة المجلوّة فيلوح فيه جمال الحق، ويشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها، فتتمّ بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة. والسهر أيضاً نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن، والنوم يقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب. فقد قيل في صفة الأبدال: إنّ أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة. وقال إبراهيم الخوّاص رحمه الله: أجمع رأي سبعين صدّيقاً على أنّ كثرة النوم من كثرة شرب الماء.

وأما الصمت: فإنه تسهله العزلة، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة؛ فإن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم، فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرّد للذكر والفكر فيستريح إليه. فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى.

وأما حياة الخلوة: ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهليز القلب. والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص. فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية. أما ترى أن نداء رسول الله ﷺ بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ - ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾(١).

فهذه الأربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق، فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق، وإنما سلوكه بقطع العقبات، ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض. والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل. وهي تلك الصفات؛ أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة، وآثارها؛ أعني المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوّف إلى المعاصي، فلا بد أن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة، وفيه تطول المجاهدة، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال؛ فرب شخص قد كفي أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبة على نفس المريد - كما سبق ذكره - فإذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام، ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده ورداً واحداً. وهو لباب الأوراد وثمرتها؛ أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلوّ من ذكر غيره، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتاً إلى علائقه.

قال الشبلي للحصري: إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شيء غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتيني. وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا همّ واحد. فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال، وعند ذلك يلقنه ذكراً من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً: الله الله. أو: سبحان الله سبحان الله. أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه،

---

(١) حديث: بدىء رسول الله ﷺ وهو مدثر فقيل له: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ - ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ متفق عليه من حديث جابر: «جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني...» الحديث. وفيه: «فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي الماء بارداً فدثروني وصبوا علي ماء بارداً» قال: «فنزلت: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝﴾» [المدّثّر: ١] وفي رواية: «فقلت: زملوني زملوني» ولهما من حديث عائشة فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره ـ أي شيء كان ـ فإذا اشتغل بذكر الله تعالى ـ وهو المقصود ـ خلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا، وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ـ ولو في لحظة ـ خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً نقصاناً، فليجتهد في دفع ذلك. ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وأنها: ما هي؟ وما معنى قولنا: الله؟ ولأي معنى كان إلهاً وكان معبوداً؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر، وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة. ومهما كان كارهاً لذلك ومتشمراً لإماطته عن القلب لم يضره ذلك. وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزه عنه، ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره، فشرطه أن لا يبالي به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١] وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه، بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى علقة أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه، وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحداً، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق؛ فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته، وإن علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه، وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف به، فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها، فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة؟ وذلك هو الهلاك العظيم. ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر، فإن سلم كان من ملوك الدين، وإن أخطأ كان من الهالكين. ولذلك قال ﷺ: «**عليكم بدين العجائز**»[1] وهو تلقي أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير، فإن الخطر في العدول عن ذلك كثير. ولذلك قيل: يجب على الشيخ أن يتفرس في المريد فإن لم يكن ذكياً فطناً متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة، أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم؛ فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وتعمه بركتهم، وإن كان لا يبلغ درجتهم، ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات. ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتوراً في طريقه ووقوفاً، بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة

---

(١) حديث: «**عليكم بدين العجائز**» قال ابن طاهر في كتاب التذكرة: هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لمحمد بن عبدالرحمن بن السلماني عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «**إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية**»، والنسائي وابن السلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها. انتهى، وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني والله أعلم.

العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلوة.

قال بعض السياحين: قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلى التحقيق؟ فقال: أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق. وقال مرة: قلت له: دلني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام. فقال لي: لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بد لي من ذلك، قال: فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بد لي من ذلك، قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعلة، قال: يا هذا، أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام؟ هذا ما لا يكون أبداً.

فإذاً: منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق، وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً، وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصحاً ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة، فتدعوه تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المعاني وتحسين الألفاظ المعبرة عنها، وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار، وتحسين صنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع، فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه وما لك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه، وأجزل لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام، فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محركه كيد القبول، وإن كان محركه هو الحق حرصاً على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول: الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن وازرني على إصلاح عباده. كالذي وجب عليه مثلاً أن يحمل ميتاً ليدفنه إذ وجده ضائعاً وتعين عليه ذلك شرعاً فجاء من أعانه عليه؛ فإنه يفرح به ولا يحسد من يعينه، والغافلون موتى القلوب، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم، ففي كثرتهم استرواح وتناصر، فينبغي أن يعظم الفرح بذلك، وهذا عزيز على الوجود جداً فينبغي أن يكون المريد على حذر منه فإنه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق؛ فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ [الأعلى: ١٦] ثم بيّن أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى.

فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي، فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه ـ أعني به الشهوات المتعلقة بها ـ ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه، وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأساً، وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور.

فلهذا: وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله

تعالى: كتاب في كسر شهوة البطن والفرج، وكتاب في آفات اللسان، وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد، وكتاب في ذم الدنيا وتفصيل خدعها، وكتاب في كسر حب المال وذم البخل، وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه، وكتاب في ذم الكبر والعجب، وكتاب في مواقع الغرور. وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى، فإن ما ذكرناه في الكتاب الأوّل هو شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والمنجيات، وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب. أما تفصيلها فإنه يأتي في هذه الكتب إن شاء الله تعالى.

تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

الحمد لله المنفرد بالجلال في كبريائه وتعاليه، المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه، القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه، المتطوّل بالفضل فيما ينعم به ويسديه، المتكفل بحفظ عبده في جميع موارده ومجاريه، المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفي بأمانيه، فهو الذي يرشده ويهديه، وهو الذي يميته ويحييه، وإذا مرض فهو يشفيه، وإذا ضعف فهو يقويه، وهو الذي يوفقه للطاعة ويرتضيه، وهو الذي يطعمه ويسقيه، ويحفظه من الهلاك ويحميه، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجاري الشيطان الذي يناويه، ويكسر به شهوة النفس التي تعاديه، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه، هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه، كل ذلك يمتحنه به ويبتليه، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه، وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه. والصلاة على محمد عبده النبيه، ورسوله الوجيه، صلاة تزلفه وتحظيه، وترفع منزلته وتعليه، وعلى الأبرار من عترته وأقربيه، والأخيار من صحابته وتابعيه.

أما بعد: فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أخرج آدم عليه السلام وحوّاء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما، حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما. والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات؛ إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عزّ وجلّ ولم تسلك سبيل البطر والطغيان، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى، ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا، وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها، ووجب

إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها، وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تابعة لها. ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده، ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس، ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة، ثم القول في شهوة الفرج، ثم بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله، ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين.

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع:

قال رسول الله ﷺ: «**جَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بِالجُوعِ وَالعَطَشِ فَإِنَّ الأَجْرَ فِي ذٰلِكَ كَأَجْرِ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله وَإِنَّهُ لَيسَ مِنْ عَمَلٍ أَحَبُّ إِلَى الله مِنْ جُوعٍ وَعَطَشٍ**»[1]، وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**لا يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاءِ مَنْ مَلأَ بَطْنَهُ**»[2]، وقيل: يا رسول الله أيُّ الناس أفضل؟ قال: «**مَنْ قَلَّ مَطْعَمُهُ وَضَحِكُهُ وَرَضِيَ بِمَا يَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتَهُ**»[3]، وقال النبي ﷺ: «**سَيِّدُ الأَعْمَالِ الجُوعُ وَذُلُّ النَّفْسِ لِبَاسُ الصُّوفِ**»[4]، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**الْبَسُوا وَكُلُوا وَاشْرَبُوا فِي أَنْصَافِ البُطُونِ فَإِنَّهُ جُزْءٌ مِنَ النُّبُوَّةِ**»[5]، وقال الحسن: قال النبي ﷺ: «**الفِكْرُ نِصْفُ العِبَادَةِ وَقِلَّةُ الطَّعَامِ هِيَ العِبَادَةُ**»[6]، وقال الحسن أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُكُمْ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ أَطْوَلُكُمْ جُوعاً وَتَفَكُّراً فِي الله سُبْحَانَهُ، وَأَبْغَضُكُمْ عِنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ كُلُّ نَؤُومٍ أَكُولٍ شَرُوبٍ**»[7]، وفي الخبر: «أن النبي ﷺ كان يجوع من غير عوز»[8]، أي مختاراً لذلك، وقال ﷺ: «**إِنَّ الله تَعَالَى يُبَاهِي المَلائِكَةَ بِمَنْ قَلَّ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ الله تَعَالَى: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ابْتَلَيْتُهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الدُّنْيَا فَصَبَرَ وَتَرَكَهُمَا اشْهَدُوا يا مَلائِكَتِي ما مِنْ أَكْلَةٍ يَدَعُهَا إلاَّ أَبْدَلْتُهُ بِها دَرَجَاتٍ فِي الجَنَّةِ**»[9]، وقال ﷺ: «**لا تُمِيتُوا**

كتاب كسر الشهوتين

(١) حديث: «**جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش**» لم أجد له أصلاً.
(٢) حديث ابن عباس: «**لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه**» لم أجده أيضاً.
(٣) حديث: أي الناس أفضل؟ قال: «**من قل مطعمه وضحكه ورضي بما يستر عورته**» يأتي الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث.
(٤) حديث: «**سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف**».
(٥) حديث أبي سعيد الخدري: «**البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون**».
(٦) حديث: «**الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة**».
(٧) حديث الحسن: «**أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً...**» الحديث. لم أجد لهذه الأحاديث المتقدمة أصلاً.
(٨) حديث: «**كان يجوع من غير عوز ـ أي مختاراً لذلك ـ**» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة قالت: «**لو شئنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمداً ﷺ كان يؤثر على نفسه**». وإسناده معضل.
(٩) حديث: «**إن الله يباهي الملائكة بمن قل مطعمه في الدنيا...**» الحديث. أخرجه ابن عدي في الكامل، وقد تقدم في الصيام.

القُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ القَلْبَ كَالزَّرْعِ يَمُوتُ إذا كَثُرَ عَلَيْهِ المَاءُ»[(١)]، وقال ﷺ: «ما مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءَ شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ حَسْبُ ابنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ وَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلاً فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ»[(٢)]، وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه: «إن أقرب الناس من الله عزّ وجلّ يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا، الأحفياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا، تعرفهم بقاع الأرض وتحف بهم ملائكة السماء، نَعِمَ الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عزّ وجلّ، افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب، ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم، تبكي الأرض إذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعثاً غبراً يراهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء، ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمر الله الذي أذهب عنهم الدنيا، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس، لهم الشرف في الآخرة، يا أسامة إذا رأيتهم في بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يعذب الله قوماً هم فيهم. الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض. اتخذهم لنفسك إخواناً عسى أن تنجو بهم. وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل. فإنك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين. وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلي عليك الجبار»[(٣)].

روى الحسن عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «الْبَسُوا الصُّوفَ وَشَمِّرُوا وَكُلُوا فِي أَنْصَافِ البُطُونِ تَدْخُلُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ»[(٤)]. وقال عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين: أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عزّ وجلّ»[(٥)]. وروي ذلك أيضاً عن نبينا ﷺ رواه طاوس. وقيل: مكتوب في التوراة: إن الله ليبغض الحبر السمين؛ لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالحبر. ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله تعالى يبغض القارىء السمين وفي خبر مرسل: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش»[(٦)]، وفي الخبر: «إن الأكل على الشبع يورث البرص»[(٧)]، وقال ﷺ: «المُؤمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالمُنَافِقُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ

---

(١) حديث: «لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب» الحديث. لم أقف له على أصل.

(٢) حديث: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث المقدام، وقد تقدم.

(٣) حديث أسامة بن زيد وأبي هريرة: «أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه...» الحديث. بطوله أخرجه الخطيب في الزهد من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير، ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات وفيه حباب بن عبدالله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضاً، ورواه الحارث بن أبي أسامة من هذا الوجه.

(٤) حديث الحسن عن أبي هريرة: «البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف.

(٥) حديث طاوس مرسلاً: «أجيعوا أكبادكم...» الحديث. لم أجده أيضاً.

(٦) حديث: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم...» الحديث. تقدم في الصيام دون الزيادة التي في آخره، وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة أيضاً.

(٧) حديث: «إن الأكل على الشبع يورث البرص» لم أجد له أصلاً.

أَمْعَاءٍ»[١]، أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته. وذكر المعي كناية عن الشهوة لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعي. وليس المعنى زيادة عدد معي المنافق على معي المؤمن.

وروى الحسن عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أَدِيمُوا قَرْعَ بَابِ الجَنَّةِ يُفْتَحْ لَكُمْ»** فقلت: كيف نديم قرع باب الجنة؟ قال: **«بِالجُوعِ وَالظَّمَأ»**[٢]. وروي: «أن أبا جحيفة[٣] تجشأ في مجلس رسول الله ﷺ فقال له: **«أَقْصِرْ مِنْ جُشَائِكَ فَإِنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ جُوعاً يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ شِبَعاً فِي الدُّنْيَا»**[٤]، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: إن رسول الله ﷺ لم يمتلىء قط شبعاً وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوّيك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: **«يا عَائِشَةُ إِخْوَانِي مِنْ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ قَدْ صَبَرُوا عَلَى مَا هُوَ أَشَدّ مِنْ هٰذا مَضَوْا عَلَى حَالِهِمْ فَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ وَأَجْزَلَ ثَوَابَهُمْ فَأَجِدُنِي أَسْتَحِي إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يُقَصِّرَ بِي غَداً دُونَهُمْ فَالصَّبْرُ أَيَّاماً يَسِيرَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَنْقُصَ حَظِّي غَداً فِي الآخِرَةِ وَما مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِأَصْحَابِي وَإِخْوَانِي»** قالت عائشة: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه»[٥]، وعن أنس قال: جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله ﷺ فقال: **«ما هٰذِهِ الكِسْرَةُ؟»** قالت: قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَام دَخَلَ فَمَ أَبِيكِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّام»**[٦]، وقال أبو هريرة: ما أشبع النبي ﷺ أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا[٧]، وقال ﷺ: **«إِنَّ أَهْلَ الجُوعِ فِي الدُّنْيا هُمْ أَهْلُ الشِّبَعِ فِي الآخِرَةِ، وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى الله المُتْخَمُونَ المَلأَى وَمَا تَرَكَ عَبْدٌ أَكْلَةً يَشْتَهِيهاَ إلاّ كَانَتْ لَهُ دَرَجَة فِي الجَنَّةِ»**[٨].

وأما الآثار: فقد قال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة نتن في الممات. وقال شقيق البلخي: العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة. وقال لقمان لابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه: أي شيء تخافين؟ أتخافين أن تجوعي؟ لا تخافي ذلك؛ أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع

---

(١) حديث: **«المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»** متفق عليه من حديث عمر وحديث أبي هريرة.

(٢) حديث الحسن عن عائشة: **«أديموا قرع باب الجنة...»** الحديث. لم أجده أيضاً.

(٣) وأبو جحيفة هو: وهب بن عبدالله السوائي؛ قدم على النبي ﷺ أواخر حياته وَصَحِبَهُ. ثم صحب علياً. تولى شرطة الكوفة على عهد علي وكان يسميه وهب الخير. مات زمن ولاية بشر بن مروان على العراق.

(٤) حديث: «إن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله ﷺ فقال: **«أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا»** أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي جحيفة وأصله عند الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر: «تجشأ رجل...» الحديث. لم يذكر أبا جحيفة.

(٥) حديث عائشة: «ﷺ لم يمتلىء شبعاً قط وربما بكيت رحمة له لما أرى به من الجوع» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني مطولاً في كتاب استحلاء الموت وأورد منه عياض في الشفاء.

(٦) حديث أنس: «جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله ﷺ...» الحديث. أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بسند ضعيف.

(٧) حديث أبي هريرة: «ما شبع النبي ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا...» أخرجه مسلم وقد تقدم.

(٨) حديث: **«إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة»** أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

محمد ﷺ وأصحابه. وكان كهمس يقول: إلهي أجعتني وأعريتني، وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلستني، فبأي وسيلة بلغتني ما بلغتني؟. وكان فتح الموصلي إذا اشتدّ مرضه وجوعه يقول: إلهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به عليَّ؟. وقال مالك بن دينار: قلت لمحمد بن واسع: يا أبا عبدالله، طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس. فقال لي: يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعاً وهو عن الله راض. وكان الفضيل بن عياض يقول: إلهي أجعتني وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك؟. وقال يحيى بن معاذ: جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة، وجوع المجتهدين كرامة، وجوع الصابرين سياسة، وجوع الزاهدين حكمة. وفي التوراة: اتق الله وإذا شبعت فاذكر الجياع. وقال أبو سليمان: لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليَّ من قيام ليلة إلى الصبح، وقال أيضاً: الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه. وكان سهل بن عبدالله التستري يطوي نيفاً وعشرين يوماً لا يأكل، وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال: لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي ﷺ في أكله. وقال: لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا. وقال: لا أعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل. وقال: وضعت الحكمة والعلم في الجوع، ووضعت المعصية والجهل في الشبع. وقال: ما عُبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال، وقد جاء في الحديث: **«ثلث للطعام فمن زاد عليه فإنما يأكل من حسناته»**[١]، وسئل عن الزيادة فقال: لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين، فإذا كان ذلك وجد الزيادة. وقال: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بإخماص البطون والسهر والصمت والخلوة. وقال: رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع، ورأس كل فجور بينهما الشبع. وقال: من جوّع نفسه انقطعت عنه الوساوس. وقال: إقبال الله عزّ وجلّ على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله. وقال: اعلموا: أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد. وقال: ما مرَّ على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روي فسلم من المعصية ـ وإن شكر الله تعالى ـ فكيف الشبع من الطعام؟. وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي؟ قال: قيدها بالجوع والعطش، وذللها بإخمال الذكر وترك العز، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة، واكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها، واصحبها بخلاف هواها. وكان عبدالواحد بن زيد يقسم بالله تعالى أنّ الله تعالى ما صافى أحداً إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع. وقال أبو طالب المكي: مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار؛ إنما حسن صوته لخفته ورقته ولأنه أجوف غير ممتلىء، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام. وقال أبو بكر بن عبدالله المزني: ثلاثة يحبهم الله تعالى: رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة.

وروي: أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فإذا رغيف موضوع بين يديه، فجلس يبكي على فقد المناجاة، وإذا شيخ قد أظله فقال له

---

(١) حديث: «ثلث للطعام» تقدم.

عيسى: بارك الله فيك يا ولي الله، ادع الله تعالى فإني كنت في حالة فخطر ببالي الخبز فانقطعت عني، فقال الشيخ: اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي، بل كان إذا حضر لي شيء أكلته من غير فكر وخاطر. وروي أن موسى عليه السلام لما قرّبه الله عزّ وجلّ نجياً كان قد ترك الأكل أربعين يوماً ـ ثلاثين ثم عشراً ـ على ما ورد به القرآن؛ لأنه أمسك بغير تبييت يوماً فزيد عشرة لأجل ذلك.

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع:

قال رسول الله ﷺ: **«جَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بِالجُوعِ وَالعَطَشِ فَإِنَّ الأَجْرَ فِي ذٰلِكَ»** ولعلك تقول: هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو؟ وما سببه؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى، فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه، وقطعه للحمه، وتناوله الأشياء المكروهة، وما يجري مجراه؟ فاعلم: أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته، فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط، بل نفعه في خاصية في الدواء وليس لكونه مراً، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء، ومن جوع نفسه مصدقاً لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة، كما أنّ من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً.

ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم. قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١] فنقول: في الجوع عشر فوائد:

الفائدة الأولى: صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإنّ الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه، وصار بطيء الفهم والإدراك. وقال أبو سليمان الداراني: عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب، وهو يورث العلم السماوي. وقال ﷺ: **«أَحْيُوا قُلُوبَكُمْ بِقِلَّةِ الضَّحِكِ وَقِلَّةِ الشّبَعِ وَطَهِّرُوها بِالجُوعِ تَصْفُو وَتَرِقُّ»**(١)، ويقال: مثل الجوع مثل الرعد، ومثل القناعة مثل السحاب، والحكمة كالمطر. وقال النبي ﷺ: **«مَنْ أَجَاعَ بَطْنَهُ عَظُمَتْ فِكْرَتُهُ وَفَطِنَ قَلْبُهُ»**(٢)، وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: **«مَنْ شَبِعَ وَنَامَ قَسَا قَلْبُهُ»** ثم قال: **«لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ البَدَنِ الجُوعُ»**(٣)، وقال الشبلي: ما جعت لله يوماً إلا رأيت في قلبي باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط. وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة،

---

(١) حديث: **«أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق»** لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: **«من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه»** كذلك لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: **«من شبع ونام قسا قلبه»**، ثم قال: **«إن لكل شيء زكاة وإن زكاة الجسد الجوع»** أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة: **«لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم»** وإسناده ضعيف.

فبالحري أن تكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنة. ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال أبو يزيد البسطامي: الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة. وقال النبي ﷺ: **«نُورُ الحِكْمَةِ الجُوعُ، وَالتَّبَاعُدُ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ الشِّبَعُ، وَالقُرْبَةُ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ حُبُّ المَسَاكِينِ والدُّنُوُّ مِنْهُمْ. لا تَشْبَعُوا فَتُطْفِئُوا نُورَ الحِكْمَةِ مِنْ قُلُوبِكُمْ وَمَنْ بَاتَ فِي خِفَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ بَاتَ الحُورُ حَوْلَهُ حَتَّى يُصْبِحَ»**[(١)].

الفائدة الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه، وقال أبو سليمان الداراني: أحلى ما تكون إليَّ العبادة إذا التصق ظهري ببطني. وقال الجنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة. وقال أبو سليمان: إذا جاع القلب وعطش صبا ورقَّ، وإذا شبع عمي وغلظ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة ثانية.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها، وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره، وإنما سعادته في أن يكون دائماً مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز، ومولاه بعين العز والقدرة والقهر، فليكن دائماً جائعاً مضطراً إلى مولاه مشاهداً للاضطرار بالذوق، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي ﷺ قال: **«لا، بَلْ أَجُوعُ يَوماً وَأَشْبَعُ يَوماً فَإِذَا جُعْتُ صَبَرْتُ وَتَضَرَّعْتُ وَإِذا شَبِعْتُ شَكَرْتُ»**[(٢)]، أو كما قال: فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع، والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع. ومن أغلق باباً من أبواب النار فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة؛ لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب، فالقرب من أحدهما بُعْد من الآخر.

الفائدة الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء؛ فإنّ الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل، فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها، فإنه هو الذي يهيج الخوف، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء، وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع؛ فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة. وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل. ولذلك قيل ليوسف عليه السلام: لم تجوع وفي يديك خزائن

---

(١) حديث: **«نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع...»** الحديث. ذكره أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وكتب عليه أنه مسند وهي علامة ما رواه بإسناده.

(٢) حديث: **«أجوع يوماً وأشبع يوماً...»** الحديث. تقدم وهو عند الترمذي.

الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع، فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عزّ وجلّ. والشبعان في غفلة من ألم الجائع.

الفائدة الخامسة: ـ وهي من أكبر الفوائد ـ: كسر شهوات المعاصي كلها، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادّة القوى والشهوات ـ لا محالة ـ الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوّة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس. كما قيل لبعضهم: ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهدّ؟ فقال: لأنه سريع المرح فاحش الأشر فأخاف أن يجمح بي فيورطني، فلأن أحمله على الشدائد أحب إليّ من أن يحملني على الفواحش. وقال ذو النون: ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية. وقالت عائشة رضي الله عنها: أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع؛ إنّ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا. وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد. ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله تعالى. وأقل ما يندفع بالجوع: شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا تتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها، فيمنعه الجوع من كل ذلك، وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكه لا محالة بأعراض الناس، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

وأما شهوة الفرج: فلا تخفى غائلتها، والجوع يكفي شرها. وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوّش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثلاً، وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع. قال حكيم: كل مريد صبر على السياسة ـ فيصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيئاً من الشهوات ويأكل في نصف بطنه ـ رفع الله عنه مؤنة النساء.

الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه، ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: معاشر المريدين: لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً. وأجمع رأي سبعين صدّيقاً على أن كثرة النوم من كثرة الشرب. وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها. ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة، ثم المتعزب إذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضاً من التهجد، ويحوجه إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذى به، أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام، فإن فيه أخطاراً ذكرناها في كتاب الطهارة، وكل ذلك أثر الشبع. وقد قال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال. فالنوم منبع الآفات، والشبع مجلبة له، والجوع مقطعة له.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة، فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات؛ لأنه يحتاج إلى

زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه. والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه. قال السري: رأيت مع علي الجرجاني سويقاً يستف منه فقلت: ما حملك على هذا؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة، فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه في المضغ. وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها، فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها، وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته.

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل: الدوام على الطهارة وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته. ومن جملته: الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين، لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ [الرُّوم: ٧].

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال: من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق؛ لأنه إذا شبع ظنّ أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق. ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب، ويمنع من الذكر والفكر، وينغص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله.

حكي: أن الرشيد جمع أربعة أطباء: هندي، ورومي، وعراقي، وسوادي. وقال: ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه. فقال الهندي: الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود. وقال العراقي: هو حب الرشاد الأبيض. وقال الرومي: هو عندي الماء الحار. وقال السوادي: ـ وكان أعلمهم ـ الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء. قالوا: فما عندك؟ فقال: الدواء الذي لا داء معه عندي: أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. فقالوا: صدقت. وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي ﷺ: **«ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»**(١)، فتعجب منه وقال: ما سمعت كلاماً في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم. وقال ﷺ: **«البِطْنَةُ أَصْلُ الدَّاءِ وَالحِمْيَةُ أَصْلُ الدَّوَاءِ وَعَوِّدُوا كُلَّ جِسْمٍ ما اعْتَادَه»**(٢)، وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك. وقال ابن سالم: من أكل خبز الحنطة بحتاً بأدب لم يعتل إلا علة الموت. قيل: وما الأدب؟ قال: تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع. وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار: إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان، وأضر ما أدخل معدته

---

(١) حديث: «ثلث للطعام» تقدم أيضاً.

(٢) حديث: «البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاد» لم أجد له أصلاً.

المالح؛ ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان. وفي الحديث: «**صُومُوا تَصِحُّوا**»[1]، ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما.

الفائدة التاسعة: خفة المؤونة؛ فإنّ من تعوّد قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعوّد الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له آخذاً بمخنقه في كل يوم، فيقول: ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام فيعصي أو من الحلال فيذل. وربما يحتاج إلى أن يمدّ أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة. وقال بعض الحكماء: إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي. وقال آخر: إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي. وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيُقال: إنها غالية فيقول: أرخصوها بالترك. وقال سهل رحمه الله: الأكول مذموم في ثلاثة أحوال؛ إن كان من أهل العبادة فيكسل، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات، وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه.

وبالجملة: سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج، شهوة البطن. وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار، وفي حسمها فتح أبواب الجنة كماقال ﷺ: «**أَدِيمُوا قَرْعَ بَابِ الجنَّةِ بِالجُوعِ**» فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً؛ وصار حرّاً واستغنى عن الناس واستراح من التعب، وتخلى لعبادة الله عزّ وجلّ وتجارة الآخرة، فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة، وأما المحتاج فتلهيه لا محالة.

الفائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته[2] كما ورد به الخبر: فما يأكله كان خزانته الكنيف، وما يتصدّق به كان خزانته فضل الله تعالى، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدّق فأبقى، أو أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، فالتصدّق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع. وكان الحسن رحمة الله عليه إذا تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢] قال: عرضها على السمٰوات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت، فقالت: لا، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت، ثم عرضها على الجبال الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: فذكر الجزاء والعقوبة، فقالت: لا، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوماً لنفسه، جهولاً بأمر ربه. فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً فماذا صنعوا فيها؟ وسعوا بها دورهم، وضيقوا بها قبورهم، وأسمنوا براذينهم، وأهزلوا دينهم، وأتعبوا أنفسهم بالغدوّ والرواح إلى باب السلطان، يتعرّضون للبلاء وهم من الله في عافية، يقول أحدهم: تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكيء على شماله ويأكل من غير ماله،

---

(١) حديث: «**صوموا تصحوا**» أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**كل امرىء في ظل صدقته**» أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر، وقد تقدم.

حديثه سخرة وماله حرام، حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال: يا غلام، ائتني بشيء أهضم به طعامي، يا لكع أطعامك تهضم؟ إنما تهضم دينك، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة؛ وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر، فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه. ونظر رسول الله ﷺ إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال: «**لَوْ كَانَ هٰذا في غَيْرِ هٰذا لَكَانَ خَيْراً لَكَ**»[1]، أي لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك. وعن الحسن قال: والله لقد أدركت أقواماً كان الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام ما يكفيه، ولو شاء لأكله فيقول: والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله.

فهذه عشر فوائد للجوع، يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة. ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة. بل ذلك صريح في الأخبار التي رويناها، وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة. فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين في الإيمان والله أعلم بالصواب.

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن:

اعلم: أن على المريد في بطنه ومأكوله أربع وظائف: الأولى: أن لا يأكل إلا حلالاً، فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار. وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام، وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل: وهو تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة، وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة، وتعيين الجنس المأكول في تناول المشتهيات وتركها.

أما الوظيفة الأولى: في تقليل الطعام، فسبيل الرياضة فيه التدريج، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته، فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد. فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف، وهو أن ينقص جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً، أو جزءاً من ثلاثين جزءاً، فيرجع إلى رغيف في شهر، ولايستضر به ولا يظهر أثره، فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة، فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس. ثم هذا فيه أربع درجات.

أقصاها: أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين. وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه إذ قال: إن الله استعبد الخلق بثلاث: بالحياة، والعقل، والقوة، فإن خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل أكل وأفطر إن كان صائماً، وتكلف الطلب إن كان فقيراً. وإن لم يخف عليهما بل على القوة قال: فينبغي أن لا يبالي. ولو ضعف حتى صلى قاعداً وأرىٰ أن صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل. وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال: كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم، كنت آخذ بدرهم دبساً، وبدرهم دقيق الأرز، وبدرهم سمناً، وأخلط الجميع وأسوي منه

---

(١) حديث: نظر إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال: «**لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك**» أخرجه أحمد والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب من حديث جعدة الجشمي وإسناده جيد.

ثلاثمائة وستين أكرة، آخذ في كل ليلة أكرة أفطر عليها، فقيل له: فالساعة كيف تأكل؟ قال: بغير حدّ ولا توقيت. ويحكى عن الرهابين أنهم قد يردّون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام.

الدرجة الثانية: أن يردّ نفسه بالرياضة في اليوم والليلة إلى نصف مدّ، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه مناً، ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين ـ كما ذكره النبي ﷺ ـ وهو فوق اللقيمات؛ لأن هذه الصيغة في الجمع للقلة فهو لما دون العشرة، وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم.

الدرجة الثالثة: أن يردها إلى مقدار المد، وهو رغيفان ونصف، وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين، ويكاد ينتهي إلى ثلثي البطن، ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر. وفي بعض الألفاظ: «ثلث للذكر» بدل قوله «للنفس».

الدرجة الرابعة: أن يزيد على المد إلى المنّ، ويشبه أن يكون ما وراء المن إسرافاً مخالفاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأنعَام: ١٤١] أعني في حق الأكثرين، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن، والشخص، والعمل الذي يشتغل به. وها هنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد، ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق، ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة.

وقد ذكر للجوع الصادق علامات: إحداها: أن لا تطلب النفس الأدم بل تأكل الخبز وحده بشهوة ـ أي خبز كان ـ فمهما طلبت نفسه خبزاً بعينه أو طلبت أدماً فليس ذلك بالجوع الصادق. وقد قيل: من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه؛ أي لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة، ومعرفة ذلك غامض. فالصواب للمريد: أن يقدر مع نفسه القدر الذي لا يضعفه عن العبادة التي هو بصددها، فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته.

وعلى الجملة: فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص. نعم، قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من حنطة في كل جمعة، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً، وصاع الحنطة أربعة أمداد، فيكون كل يوم قريباً من نصف مدّ ـ وهو ما ذكرناه أنه قدر ثلث البطن ـ، واحتيج في التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه. وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يقول: طعامي في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله ﷺ، والله لا أزيد عليه شيئاً حتى ألقاه فإني سمعته يقول: «**أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيامَةِ وَأَحَبُّكُمْ إِلَيَّ مَنْ مَاتَ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ اليَوْمَ**»[(١)]، وكان يقول في إنكاره على بعض الصحابة: قد غيرتم، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل، وخبزتم المرقق وجمعتم بين إدامين، واختلف عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر، ولم يكونوا هكذا على عهد رسول الله ﷺ، وكان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم[(٢)] والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى. وكان الحسن رحمة الله عليه يقول: المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف، والقبضة

---

(١) حديث أبي ذر: «**أقربكم مني مجلساً يوم القيامة وأحبكم إليّ من مات على ما هو عليه اليوم**». أخرجه أحمد في كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم في الحلية دون قوله: «**وأحبكم إليّ**» وهو منقطع.

(٢) حديث: «**كان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم**» أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث طلحة البصري.

من السويق، والجرعة من الماء، والمنافق مثل السبع الضاري بلعاً بلعاً وسرطاً سرطاً، لا يطوي بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضله، وجهوا هذه الفضول أمامكم. وقال سهل: لو كانت الدنيا دماً عبيطاً، لكان قوت المؤمن منها حلالاً؛ لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط.

الوظيفة الثانية: في وقت الأكل ومقدار تأخيره، وفيه أيضاً أربع درجات:

الدرجة العليا: أن يطوي ثلاثة أيام فما فوقها، وفي المريدين من رد الرياضة إلى الطي لا إلى المقدار، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً، وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم: محمد بن عمرو القرني، وعبدالرحمن بن إبراهيم، ورحيم، وإبراهيم التيمي، وحجاج بن فرافصة، وحفص العابد المصيصي، والمسلم بن سعيد، وزهير، وسليمان الخواص، وسهل بن عبدالله التستري، وإبراهيم بن أحمد الخوّاص، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوي ستة أيام، وكان عبدالله بن الزبير يطوي سبعة أيام، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوي سبعاً. وروي أن الثوري وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً، كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة.

قال بعض العلماء: من طوى لله أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت. أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية. وقد حكي أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب فذاكره بحاله، وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من الغرور، فكلمه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الراهب: إن المسيح كان يطوي أربعين يوماً وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لنبي أو صدّيق، فقال له الصوفي: فإن طويت خمسين يوماً، تترك ما أنت عليه وتدخل في دين الإسلام، وتعلم أنه حق وأنك على باطل؟ قال: نعم. فجلس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً، ثم قال: وأزيدك أيضاً فطوى إلى تمام الستين، فتعجب الراهب منه وقال: ما كنت أظن أن أحداً يجاوز المسيح؟ فكان ذلك سبب إسلامه. وهذه درجة عظيمة قلَّ من يبلغها إلاّ مكاشف محمول، شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته، واستوفى نفسه في لذته وأنساه جوعته وحاجته.

الدرجة الثانية: أن يطوي يومين إلى ثلاثة، وليس ذلك خارجاً عن العادة، بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة.

الدرجة الثالثة: ـ وهي أدناها ـ أن يقتصر في اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل، وما جاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع، وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تغدّى لم يتعشَّ وإذا تعشى لم يتغد[١]، وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة، وقال النبي ﷺ لعائشة: **«إيَّاكِ وَالسَّرَفَ فَإنَّ أكْلَتَيْنِ فِي يَوْمٍ مِنَ السَّرَفِ، وَأَكْلَةَ وَاحِدَةَ فِي كُلِّ يَوْمَيْنِ إقْتَارٌ، وَأَكْلَةَ فِي كُلِّ يَوْمٍ قِوَامٌ بَيْنَ ذٰلِكَ»**[٢]، وهو المحمود في كتاب الله عزّ وجلّ.

ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام، وخلو القلب لفراغ المعدة

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري: «كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغدّ» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: قال لعائشة: «**إياك والإسراف فإن أكلتين في يوم من السرف**» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال: في إسناده ضعف.

ورقة الفكر، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم، فلا تنازعه قبل وقته. وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما قام رسول الله ﷺ قيامكم هذا قط، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماه، وما واصل وصالكم هذا قط غير أنه قد أخَّرَ الفطر إلى السحر(١)، وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يواصل إلى السحر(٢)، فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب في التهجد، فالأولى أن يقسم طعامه نصفين، فإن كان رغيفين مثلاً أكل رغيفاً عند الفطر ورغيفاً عند السحر؛ لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد وبالثاني على الصوم. ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر، ويوم صومه وقت السحر. فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه.

الوظيفة الثالثة: في نوع الطعام وترك الإدام، وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه، وأوسطه شعير منخول، وأدناه شعير لم ينخل. وأعلى الأدم اللحم والحلاوة، وأدناه الملح والخل، وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم. وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات، فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه، وأنساً له بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى، وتصير الدنيا جنة في حقه ويكون الموت سجناً له. وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجناً عليه ومضيقاً له فاشتهت نفسه الإفلات منها، فيكون الموت إطلاقها. وإليه الإشارة بقول يحيى بن معاذ حيث قال: معاشر الصدّيقين، جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس، فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس. فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فإنه يجري في كل الشهوات وتناول اللذات فلا نطول بإعادته، فلذلك يعظم الثواب في ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر في تناولها، حتى قال ﷺ: «**شِرارُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَأْكُلُونَ مُخَّ الحِنطَةِ**»(٣)، وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يعص، ومن داوم عليه أيضاً فلا يعصي بتناوله، ولكن تتربى نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا، وتألف اللذات وتسعى في طلبها فيجرها ذلك إلى المعاصي فهم شرار الأمة، لأن مخ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور، تلك الأمور معاص. وقال ﷺ: «**شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ وَنَبَتَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ**»(٤)، وإنما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون في الكلام. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات. وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة وتمرين

---

(١) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة: «ما قام رسول الله ﷺ قيامكم هذا قط وإن كان ليقوم حتى تزلع قدماه». رواه النسائي مختصراً: «كان يصلي حتى تزلع قدماه». وإسناده جيد.

(٢) حديث: «كان يواصل إلى السحر». لم أجده من فعله وإنما هو من قوله: «**فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر**». رواه البخاري من حديث أبي سعيد: وأما هو فكان يواصل. وهو من خصائصه.

(٣) حديث: «**شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة**» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «**شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم...**» الحديث. أخرجه ابن عدي في الكامل ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ وروي من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلاً. قال الدارقطني في العلل: إنه أشبه بالصواب، ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة بإسناد لا بأس به.

النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة، حتى روي أن وهب بن منبه قال: التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر: من أين؟ قال: أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لعنه الله، وقال الآخر: أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد. فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير. ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل وقال: اعزلوا عني حسابها. فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات ـ كما أوردناه في كتاب رياضة النفس ـ. وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضاً فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد، ثم وجدت بعد كذا وكذا، فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام: لفها برغيفها وادفعها إليه، فقال له الغلام: أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها، فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف، فنحن نعطيه ثمنها، فقال: لفها وادفعها إليه. ثم قال الغلام للسائل: هل لك أن تأخذ درهماً وتتركها؟ قال: نعم فأعطاه درهماً وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال: قد أعطيته درهماً وأخذتها منه. فقال: لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَيُّمَا امْرِىءٍ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ بِها عَلَى نَفْسِهِ غَفَرَ الله لَهُ**»(١) وقال ﷺ: «**إذا سَدَدْتَ كَلْبَ الجُوعِ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنَ المَاءِ القَرَاحِ فَعَلَى الدُّنْيا وَأَهْلِها الدَّمَارُ**»(٢)، أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما دون التنعم بلذات الدنيا. وبلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له: إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني، فأعلمه فدخل عليه فقرّب عشاؤه فأتوه بثريد لحم فأكل معه عمر، ثم قرّب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال: الله الله يا يزيد بن أبي سفيان، أطعام بعد طعام؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم. وعن يسار بن عمير قال: ما نخلت لعمر دقيقاً قط إلا وأنا له عاص. وروي أن عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويجففه في الشمس، ثم يأكله ويقول: كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء والطعام الطيب. وكان يأخذ الكوز فيغرف به من جب كان في الشمس نهاره فتقول مولاة له: يا عتبة، لو أعطيتني دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماء؟ فيقول لها: يا أم فلان، قد شردت عني كلب الجوع.

قال شقيق بن إبراهيم: لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل ـ عند مولد النبي ﷺ ـ يبكي وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت إليه وقعدت عنده وقلت: إيش هذا البكاء يا أبا إسحاق؟ فقال: خير، فعاودته مرة واثنتين وثلاثاً، فقال: يا شقيق، استر عليّ فقلت: يا أخي قل ما شئت، فقال لي: اشتهت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجاً فمنعتها جهدي، حتى إذا كان البارحة كنت جالساً وقد غلبني النعاس إذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج، قال: فاجتمعت بهمتي عنه فقرّبه وقال: يا إبراهيم، كُلْ. فقلت: ما آكل قد تركته لله عزّ وجلّ. فقال لي: قد أطعمك الله كُلْ. فما

---

(١) حديث نافع: «أن ابن عمر كان مريضاً فاشتهى سمكة...» الحديث. وفيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيما امرىء اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له**» أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب بإسناد ضعيف جداً، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) حديث: «**إذا سددت الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

كان لي جواب إلا أني بكيت، فقال لي: كُلْ رحمك الله. فقلت: قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم. فقال: كل عافاك الله فإنما أعطيته، فقيل لي: يا خضر، اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها. اعلم يا إبراهيم، أني سمعت الملائكة يقولون: من أعطي فلم يأخذ طلب فلم يعط، فقلت: إن كان كذلك فها أنا بين يديك لأجل العقد مع الله تعالى، ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئاً وقال: يا خضر، لقمه أنت، فلم يزل يلقمني حتى نعست فانتبهت وحلاوته في فمي، قال شقيق: فقلت: أرني كفك. فأخذت بكفه فقبلتها وقلت: يا من يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع، يا من يقدح في الضمير اليقين، يا من يشفي قلوبهم من محبته، أترى لشقيق عندك حالاً؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت: بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذي وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك. قال: فقام إبراهيم ومشى حتى أدركنا البيت.

وروي عن مالك بن دينار أنه بقي أربعين سنة يشتهي لبناً فلم يأكله. وأهدي إليه يوماً رطب فقال لأصحابه: كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة. وقال أحمد بن أبي الحواري: اشتهى أبو سليمان الداراني رغيفاً حاراً بملح فجئت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي وقال: عجلت إلى شهوتي بعد إطالة جهدي، وا شقوتي قد عزمت على التوبة فأقلني!. قال أحمد: فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى. وقال مالك بن ضيغم: مررت بالبصرة في السوق فنظرت إلى البقل فقالت لي نفسي: لو أطعمتني الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة. ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال: يا أهل البصرة، عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة، فما زاد فيكم ما نقص مني ولا نقص مني ما زاد فيكم. وقال: طلقت الدنيا منذ خمسين سنة، اشتهت نفسي لبناً منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى. وقال حماد بن أبي حنيفة: أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعته يقول: نفسي اشتهيت جزراً فأطعمتك جزراً، ثم اشتهيت تمراً فآليت أن لا تأكليه أبداً، فسلمت ودخلت فإذا هو وحده. ومرّ أبو حازم يوماً في السوق فرأى الفاكهة فاشتهاها، فقال لابنه: اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التي لا مقطوعة ولا ممنوعة، فلما اشتراها وأتى بها إليه قال لنفسه: قد خدعتيني حتى نظرت واشتهيت وغلبتيني حتى اشتريت، والله لا ذقتيه فبعث بها إلى يتامى من الفقراء. وعن موسى الأشج أنه قال: نفسي تشتهي ملحاً جريشاً منذ عشرين سنة. وعن أحمد بن خليفة قال: نفسي تشتهي منذ عشرين سنة ما طلبت مني إلا الماء حتى تروى فما أرويتها. وروي أن عتبة الغلام اشتهى لحماً سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال: استحييت من نفسي أن أدافعها منذ سبع سنين ـ سنة بعد سنة ـ فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها وتركتها على رغيف فلقيت صبياً فقلت: ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك؟ قال: بلى، فناولته إياها. قالوا: وأقبل يبكي ويقرأ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨] ثم لم يذقه بعد ذلك. ومكث يشتهي تمراً سنين، فلما كان ذات يوم اشترى تمراً بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه قال: فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففزع الناس، فأقبل عتبة على نفسه يقول: هذا لجراءتي عليك وشرائي التمر بالقيراط، ثم قال لنفسه: ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك؟ على أن لا تذوقيه. واشترى داود الطائي بنصف فلس بقلاً وبفلس خلاً، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه: ويلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة، ثم لم يأكل بعده إلا قفاراً. وقال عتبة الغلام يوماً لعبد الواحد بن زيد: إن

فلاناً يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسي فقال: لأنك تأكل مع خبزك تمراً وهو لا يزيد على الخبز شيئاً قال: فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة؟ قال: نعم، وغيرها. فأخذ يبكي، فقال له بعض أصحابه: لا أبكى الله عينك أعلى التمر تبكي؟ فقال عبدالواحد: دعه؛ فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك، وهو إذا ترك شيئاً لم يعاوده. وقال جعفر بن نصر: أمرني الجنيد أن أشتري له التين الوزيري، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها في فمه ثم ألقاها وجعل يبكي، ثم قال: احمله. فقلت له في ذلك فقال: هتف بي هاتف: أما تستحي؟ تركته من أجلي ثم تعود إليه!. وقال صالح المري: قلت لعطاء السلمي إني متكلف لك شيئاً فلا ترد عليَّ كرامتي، فقال: افعل ما تريد، قال: فبعثت إليه مع ابني شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل، فقلت: لا تبرح حتى يشربها، فلما كان من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها، فعاتبته ولمته على ذلك وقلت: سبحان الله رددت عليَّ كرامتي. فلما رأى وجدي لذلك قال: لا يسوؤك هذا، إني قد شربتها أوّل مرة، وقد راودت نفسي في المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٧] الآية قال صالح: فبكيت وقلت في نفسي: أنا في واد وأنت في واد آخر. وقال السري السقطي: نفسي منذ ثلاثين سنة تطالبني أن أغمس جزرة في دبس فما أطعمتها. وقال أبو بكر الجلاء: أعرف رجلاً تقول له نفسه: أنا أصبر لك على طي عشرة أيام وأطعمني بعد ذلك شهوة أشتهيها، فيقول لها: لا أريد أن تطوي عشرة أيام ولكن اتركي هذه الشهوة. وروي: أن عابداً دعا بعض إخوانه فقرّب إليه رغفاناً فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد: مه أي شيء تصنع؟! أما علمت أن في الرغيف الذي رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانعاً، حتى استدار من السحاب الذي يحمل الماء والماء الذي يسقي الأرض والرياح والبهائم وبني آدم حتى صار إليك، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به.

وفي الخبر: **«لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعاً أولهم ميكائيل عليه السلام، الذي يكيل الماء من خزائن الرحمة، ثم الملائكة التي تزجي السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض، وآخرهم الخباز: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾** [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨]»[(١)]. وقال بعضهم: أتيت قاسماً الجرعي فسألته عن الزهد: أي شيء هو؟ فقال: أي شيء سمعت فيه؟ فعددت أقوالاً فسكت فقلت: وأي شيء تقول أنت؟ فقال: اعلم: أن البطن دنيا العبد فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد، وبقدر ما يملكه بطنه تملكه الدنيا، وكان بشر بن الحارث قد اعتل مرة، فأتى عبدالرحمن الطبيب يسأله عن شيء يوافقه من المأكولات، فقال: تسألني فإذا وصفت لك لم تقبل مني، قال: صف لي حتى أسمع، قال: تشرب سكنجبيناً وتمص سفرجلاً وتأكل بعد ذلك اسفيذباجاً. فقال له بشر: هل تعلم شيئاً أقل من السكنجبين يقوم مقامه، قال: لا، قال: أنا أعرف، قال: ما هو؟ قال: الهندباء بالخل، ثم قال: أتعرف شيئاً أقل من السفرجل يقوم مقامه؟ قال: لا، قال أنا أعرف قال: ما هو؟ قال: الخرنوب الشامي، قال: فتعرف شيئاً أقل من الاسفيذباج يقوم مقامه؟ قال: لا، قال: أنا أعرف؛ ماء الحمص بسمن البقر في معناه، فقال له عبدالرحمن: أنت أعلم مني بالطب؛ فلم تسألني؟.

---

(١) حديث: **«لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعاً أولهم ميكائيل...»** الحديث. لم أجد له أصلاً.

فقد عرفت بهذا: أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الأقوات، وكان امتناعهم للفوائد التي ذكرناها، وفي بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرخصوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان: الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وما وراء الخبز شهوة. وهذا هو النهاية. فمن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لا يغفل عن نفسه ولا ينهمك في الشهوات، فكفى بالمرء إسرافاً أن يأكل كل ما يشتهيه، ويفعل كل ما يهواه فينبغي أن لا يواظب على أكل اللحم. وقال علي كرم الله وجهه: من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوماً قسا قلبه. وقيل: إن للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر. ومهما كان جائعاً وتاقت نفسه إلى الجماع فلا ينبغي أن يأكل ويجامع، فيعطي نفسه شهوتين فتقوى عليه، وربما طلبت النفس الأكل لينشط في الجماع. ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين؛ فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك، ولكن ليصلّ أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر. وفي الحديث: «**أَذِيبُوا طَعَامَكُمْ بِالذِّكْرِ وَالصَّلاةِ وَلا تَنَامُوا عَلَيْهِ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ**»[1]، وأقل ذلك أن يصلي أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءاً من القرآن عقيب أكله. فقد كان سفيان الثوري إذا شبع ليلة أحياها، وإذا شبع في يوم واصله بالصلاة والذكر، وكان يقول: أشبع الزنجي وكدّه ومرة يقول: أشبع الحمار وكدّه. ومهما اشتهى شيئاً من الطعام وطيبات الفواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلاً منه لتكون قوتاً، ولا تكون تفكهاً لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة.

نظر سهل إلى ابن سالم وفي يده خبز وتمر فقال له: ابدأ بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك. ومهما وجد طعاماً لطيفاً وغليظاً فليقدم اللطيف فإنه لا يشتهي الغليظ بعده، ولو قدّم الغليظ لأكل اللطيف أيضاً للطافته. وكان بعضهم يقول لأصحابه لا تأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحبوها، وطلب بعض أنواع الخبز شهوة. قال عبدالله بن عمر رحمة الله عليهما: ما تأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز. فرأى ذلك الخبز فاكهة.

وعلى الجملة: لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات واتباعها بكل حال، فبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخرة بشهواته. قال بعض أهل البصرة: نازعتني نفسي خبز أرز وسمكاً فمنعتها، فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة، فلما مات قال بعضهم: رأيته في المنام فقلت: ماذا فعل الله بك؟ قال: لا أحسن أن أصف ما تلقاني به ربي من النعم والكرامات، وكان أول شيء استقبلني به خبز أرز وسمكاً. وقال: كل اليوم شهوتك هنيئاً بغير حساب. وقد قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقَّة: ٢٤] وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات. ولذلك قال أبو سليمان: ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها. وفقنا الله لما يرضيه.

---

(١) حديث: «**أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم**» أخرجه الطبراني وابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف.

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه:

اعلم: أنّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق: الوسط؛ إذ خير الأمور أوساطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومىء إلى أنّ الإفراط فيه مطلوب وهيهات، ولكن من أسرار حكمة الشريعة: أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه، على وجه يومىء عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان. والعالم يدرك أنّ المقصود الوسط، لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً فيتقاومان ويحصل الاعتدال، فإنّ من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية؛ فإنه إن أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته، كما أنّ الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم لما علم النبي ﷺ من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه[1]. فإذا عرفت هذا فاعلم: أنّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل: أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة، وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها. فالمقصود: أن يأكل أكلاً لا يبقى للمأكول فيه أثر ليكون متشبهاً بالملائكة فإنهم مقدّسون عن ثقل الطعام وألم الجوع، وغاية الإنسان الاقتداء بهم. وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال.

ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض، فإنّ النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها. فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط، فلو ماتت ماتت على الوسط؛ لأنّ الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة، فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة، ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص، فأشبه أحواله بهم البعد، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط، فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة. وعنه عبر بقوله ﷺ: **«خَيْرُ الأُمورِ أَوْسَاطُها»**[2]، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١] ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر، وخف في نفسه وقوي على العمل مع خفته، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع.

أما في بداية الأمر: إذا كانت النفس جموحاً متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها، بل لا بد من المبالغة في إيلامها بالجوع، كما يبالغ في إيلام الدابة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها. ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو في نفسه، فيأمره بالجوع وهو

---

(١) حديث: «النهي عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله» تقدم.

(٢) حديث: **«خير الأمور أوساطها»** أخرجه البيهقي في الشعب مرسلاً، وقد تقدم.

لا يجوع، ويمنعه الفواكه والشهوات، وقد لا يمتنع هو منها، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب. ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح والامتناع عن العبادة كان الأصلح لها الجوع؛ الذي تحس بألمه في أكثر الأحوال لتنكسر نفسه. والمقصود: أن تنكسر حتى تعتدل فترد بعد ذلك الغذاء أيضاً إلى الاعتدال. وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة: إما صدّيق وإما مغرور أحمق.

أما الصديق: فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم، واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق. **وأما المغرور**: فلظنه بنفسه أنه الصدّيق المستغني عن تأديب نفسه الظان بها خيراً. وهذا غرور عظيم وهو الأغلب. فإن النفس قلما تتأدب تأدباً كاملاً، وكثيراً ما تغتر فتنظر إلى الصدّيق ومسامحته نفسه في ذلك فيسامح نفسه، كالمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك. والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير ـ في وقت مخصوص ونوع مخصوص ـ ليس مقصوداً في نفسه ـ وإنما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال ـ: أن رسول الله ﷺ لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم[1]، وكان يدخل على أهله فيقول: «**هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ شَيْءٍ**» فإن قالوا: نعم أكل، وإن قالوا: لا قال: «**إني إذاً صائم**»[2]، وكان يقدّم إليه الشيء فيقول: «**أَمَا إنّي قَدْ أَرَدْتُ الصَّوْمَ**» ثم يأكل[3]، وخرج ﷺ يوماً وقال: «**إنّي صَائِمٌ**» فقالت له عائشة رضي الله عنها: قد أهدي إلينا حيس فقال: «**كُنْتُ أَرَدْتُ الصَّوْمَ وَلٰكِنْ قَرِّبِيهِ**»[4].

ولذلك حكي عن سهل أنه قيل له: كيف كنت في بدايتك؟ فأخبر بضروب من الرياضات، منها أنه كان يقتات ورق النبق مدة، ومنها: أنه أكل دقاق التين مدّة ثلاث سنين، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقيل له: فكيف أنت في وقتك هذا؟ فقال: آكل بلا حدّ ولا توقيت. وليس المراد بقوله بلا حدّ ولا توقيت: أني آكل كثيراً، بل أني لا أقدّر بمقدار واحد ما آكله. وقد كان معروف الكرخي يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل، فقيل له: إن أخاك بشراً لا يأكل مثل هذا؟ فقال: إن أخي بشراً قبضه الورع وأنا بسطتني المعرفة، ثم قال: إنما أنا ضيف في دار مولاي فإذا أطعمني أكلت وإذا جوعني صبرت، ما لي والاعتراض والتمييز؟. ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم وقال: خذ لنا بهذه الدراهم زبداً وعسلاً وخبزاً حوارياً فقيل: يا أبا إسحاق، بهذا كله؟ قال: ويحك، إذا وجدنا أكلنا

---

(١) حديث عائشة: «كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم». متفق عليه.

(٢) حديث: كان يدخل على أهله فيقول: «**هل عندكم من شيء؟**» فإن قالوا: نعم أكل وإن قالوا: لا قال: «**إني صائم**» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث عائشة، وهو عند مسلم بنحوه كما سيأتي.

(٣) حديث: كان يقدم إليه الشيء فيقول: «**أما إني كنت أريد الصوم**» أخرجه البيهقي من حديث عائشة بلفظ: «**وإن كنت قد فرضت الصوم**»، وقال: إسناده صحيح وعند مسلم: «**قد كنت أصبحت صائماً**».

(٤) حديث: خرج وقال: «**إني صائم**» فقالت عائشة: يا رسول الله قد أهدي إلينا حيس فقال: «**كنت أردت الصوم ولكن قربيه**» أخرجه مسلم بلفظ: «**قد كنت أصبحت صائماً**» وفي رواية له: «**أدنيه فقد أصبحت صائماً**» فأكل، وفي لفظ للبيهقي: «**إني كنت أريد الصوم ولكن قربيه**».

أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال. وأصلح ذات يوم طعاماً كثيراً ودعا إليه نفراً يسيراً فيهم الأوزاعي والثوري فقال له الثوري: يا أبا إسحاق: أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً؟ فقال: ليس في الطعام إسراف، إنما الإسراف في اللباس والأثاث.

فالذي أخذ العلم من السماع والنقل تقليداً يرى هذا من إبراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال: ما دخل بيتي الملح منذ عشرين سنة. وعن سري السقطي أنه منذ أربعين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في دبس فما فعل. فيراه متناقضاً فيتحير أو يقطع بأن أحدهما مخطىء. والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق؛ ولكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال، ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أو غبي مغرور. فيقول المحتاط: ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سري السقطي ومالك بن دينار، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدى بهم. والمغرور يقول: ما نفسي بأعصى عليَّ من نفس معروف الكرخي وإبراهيم بن أدهم فأقتدي بهم وأرفع التقدير في مأكولي، فأنا أيضاً ضيف في دار مولاي فما لي وللاعتراض؟ ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمقى، بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوّة، فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانقباضه، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية، فيكون عاملاً لله في أكله وإفطاره، فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضي الله عنه، فإنه كان يرى رسول الله ﷺ يحب العسل ويأكله[1]، ثم لم يقس نفسه عليه، بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الإناء في يده ويقول: أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها. اعزلوا عني حسابها، وتركها.

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ أن يكاشف بها مريده، بل يقتصر على مدح الجوع فقط، ولا يدعوه إلى الاعتدال فإنه يقصر لا محالة عما يدعوه إليه. فينبغي أن يدعوه إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال. ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغني عن الرياضة، فإن الشيطان يجد متعلقاً من قلبه فيلقي إليه كل ساعة: إنك عارف كامل، وما الذي فاتك من المعرفة والكمال. بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها؛ كي لا يخطر بباله أن الشيخ يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته. والقوي إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير؛ لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبهاً بهم وتلطفاً في سياقتهم إلى السعادة. وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء. وإذا كان الاعتدال خفياً في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغي أن لا يترك في كل حال. ولذلك أدب عمر رضي الله عنه ولده عبدالله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحماً مأدوماً بسمن، فعلاه بالدرة وقال: لا أم لك، كُلْ يوماً خبزاً ولحماً، ويوماً خبزاً ولبناً، ويوماً خبزاً وسمناً، ويوماً خبزاً وزيتاً، ويوماً خبزاً وملحاً، ويوماً خبزاً قفاراً. وهذا هو الاعتدال، فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار. وهذا قوام بين ذلك، والله تعالى أعلم.

---

(١) حديث: «كان يحب العسل ويأكله». متفق عليه من حديث عائشة: «كان يحب الحلواء والعسل...» الحديث. وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه.

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام:

اعلم: أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات:

إحداهما: أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها، ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها، فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة، وهذا هو الشرك الخفي. سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له: هل تعلم به بأساً؟ قال: يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة. وهذه آفة عظيمة، بل حق العبد إذا ابتلي بالشهوات وحبها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال، وهو بدل عن فوات المجاهدات بالأعمال، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان، والكذب مع الإخفاء كذبان، فيكون مستحقاً لمقتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين. ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]؛ لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر، فكان ستره لكفره كفراً آخر؛ لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه، وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره، والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء. بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمنزلته من قلوب الخلق. وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين، وإنما يقصد به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لا يشوشون عليه حاله.

فنهاية الزهد: الزهد في الزهد بإظهار ضدّه، وهذا عمل الصدّيقين. فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذبين. وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرّعها كأس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميه؛ فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا. وهذا يضاهي طريق من يعطي جهراً فيأخذ ويرد سراً ليكسر نفسه بالذل جهراً وبالفقر سراً. فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه. ولا ينبغي أن يغره قول الشيطان: إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروّجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره، فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه، واعلم: أن من اطلع عليه ليس يقتدى به في الفعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات.

الآفة الثانية: أن يقدر على ترك الشهوات، لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات، فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الأكل، وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه، وتلك هي الشهوة الخفية فمهما أحس بذلك من نفسه فكسرُ هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام، فليأكل فهو أولى له. قال أبو سليمان: إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصب منها شيئاً يسيراً ولا تعط نفسك مناها، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نغصت عليها إذ لم تعطها شهوتها. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا قدمت إليّ شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها، عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً. وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية.

وبالجملة: من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء، كان كمن هرب من عقرب وفزع إلى حية؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيراً من شهوة الطعام. والله ولي التوفيق.

القول في شهوة الفرج:

اعلم: أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين:

إحداهما: أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة. فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد. والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة، فإن ما لا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق.

الفائدة الثانية: بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها. ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] معناه شدة الغلمة، وعن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفَلَق: ٣] قال: هو قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله ﷺ إلا أنه قال في تفسيره: الذكر إذا دخل. وقد قيل: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله[(١)]، وكان ﷺ يقول في دعائه: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَبَصَرِي وَقَلْبِي وَهَنِيِّ وَمَنِيِّ»**[(٢)]، وقال عليه السلام: **«النِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيطانِ وَلَوْلا هٰذِهِ الشَّهْوَةُ لَمَا كَانَ لِلنِّسَاءِ سَلْطَنَةٌ عَلَى الرِّجَالِ»**[(٣)].

روي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه؛ إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه، ثم أتاه فقال: السلام عليك يا موسى، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس، فقال: لا حياك الله ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه، قال: فما الذي رأيت عليك؟ قال: برنس أختطف به قلوب بني آدم. قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه. قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه، وأحذرك ثلاثاً: لا تخل بامرأة لا تحل لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها وأفتنها به، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها. ثم ولى وهو يقول: علم موسى ما يحذر به بني آدم. وعن سعيد بن المسيب قال: ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء، ولا شيء أخوف عندي منهن، وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتي وبيت ابنتي أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح. وقال بعضهم: إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطىء، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي. فنصف جنده الشهوة، ونصف جنده الغضب.

وأعظم الشهوات: شهوة النساء. وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفريط واعتدال، فالإفراط: ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجواري، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش. وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين:

---

(١) حديث: ابن عباس موقوفاً مسنداً في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفَلَق: ٣]. وقال: هو قيام الذكر وقال الذي أسنده: الذكر إذا دخل. هذا حديث لا أصل له.

(٢) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وهني ومني» تقدم في الدعوات.

(٣) حديث: «النساء حبائل الشيطان» أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني بإسناد فيه جهالة.

أحدهما: أن يتناولوا ما يقوي شهواتهم على الاستكثار من الوقاع ـ كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوي المعدة لتعظم شهوة الطعام ـ وما مثال ذلك إلا كمن ابتلي بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص.

فإن قلت: فقد روي في غريب الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**شَكَوْتُ إلى جِبْرَائِيلَ ضَعْفَ الوِقَاعِ فَأَمَرَنِي بِأَكْلِ الهَرِيسَةِ**»؟[1] فاعلم: أنه ﷺ كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالإمتاع، وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن، فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع.

والأمر الثاني: أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق، وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع، وهو مجاوزة في البهيمية لحد البهائم؛ لأن المتعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع ـ وهي أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحيا منه ـ حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضي إلا من محل واحد، والبهيمة تقضي الشهوة أين اتفق فتكتفي به؟ وهذا لا يكتفي إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلاً إلى ذل، وعبودية إلى عبودية، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة ومحتالاً لأجلها، وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا هم له. وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر، وإلا فإذا استحكم عسر دفعه. فكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج، فإن هذه الأمور قد تستولي على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها البتة.

ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور، فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدي إلى نزع الروح.

فإذن: إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جداً. وتفريطها: بالعنة أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة، وهو أيضاً مذموم. وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع في انقباضها وانبساطها. ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح. قال ﷺ: «**مَعَاشِرَ الشَّبَابِ عَلَيْكُمْ بِالبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَالصَّوْمُ لَهُ وِجَاءٌ**»[2].

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله:

اعلم: أنّ المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج؛ فإنّ ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجرّه إلى الأنس بالزوجة. ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله، ولا يغرّنه كثرة

---

(١) حديث: «**شكوت إلى جبريل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الهريسة**» أخرجه العقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث حذيفة، وقد تقدم، وهو موضوع.

(٢) حديث: «**معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج...**» الحديث. تقدم في النكاح.

نكاح رسول الله ﷺ؛ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى[١]، فلا تقاس الملائكة بالحدادين. ولذلك قال أبو سليمان الداراني: من تزوّج فقد ركن إلى الدنيا. وقال: ما رأيت مريداً تزوّج فثبت على حاله الأول. وقيل له مرة: ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها؟ فقال: لا آنسني الله بها، أي أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى، وقال أيضاً: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم. فكيف يقاس غير رسول الله ﷺ به؟ وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حدّ كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسري ذلك إلى قالبه فيهدمه. فلذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحياناً ويقول: **«كَلِّمِينِي يا عَائِشَةُ»** لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه[٢]، فقد كان طبعه الأنس بالله عزّ وجلّ، وكان أنسه بالخلق عارضاً رفقاً ببدنه، ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم، فإذا ضاق صدره قال: **«أرحنا بها يا بلال»**[٣]، حتى يعود إلى ما هو قرّة عينه[٤]، فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور؛ لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله ﷺ. فشرط المريد العزبة في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة، هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلاً، وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة، وإلا فمهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرّق عليه همه، وربما وقع في بلية لا يطيقها. وزنى العين من كبائر الصغائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنى الفرج. ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه. قال عيسى عليه السلام: إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة. وقال سعيد بن جبير: إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة. ولذلك قال لابنه عليه السلام: يا بني، امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة. وقيل ليحيى عليه السلام: ما بدء الزنى؟ قال: النظر والتمني. وقال الفضيل: يقول إبليس: هو قوسي القديمة وسهمي الذي لا أخطىء به - يعني النظر -. وقال رسول الله ﷺ: **«النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَها خَوْفاً مِنَ الله تَعَالَى أَعْطَاهُ الله تَعَالَى إيماناً يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»**[٥]، وقال ﷺ: **«ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»**[٦]، وقال ﷺ: **«اتَّقُوا فِتْنَةَ الدُّنْيا وَفِتْنَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ»**[٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النّور: ٣٠] الآية. وقال عليه السلام: **«لِكُلِّ ابْنِ آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزِّنَى فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيانِ وَزِنَاهُما الْبَطْشُ، والرِّجْلانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا المَشْيُ،**

---

(١) حديث: **«كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع ما في الدنيا»**. تقدم.

(٢) حديث: كان يضرب يده على فخذ عائشة أحياناً ويقول: **«كلميني يا عائشة»** لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: **«أرحنا بها يا بلال»** تقدم في الصلاة.

(٤) حديث: **«إن الصلاة كانت قرة عينه»**. تقدم أيضاً.

(٥) حديث: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. . .»** الحديث. تقدم أيضاً.

(٦) حديث: **«ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»** متفق عليه من حديث أسامة بن زيد.

(٧) حديث: **«اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»** أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري.

وَالفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ القُبْلَةُ، وَالقَلْبُ يَهُمُّ أَوْ يَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذٰلِكَ الفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[(١)]، وقالت أم سلمة: استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله ﷺ وأنا وميمونة جالستان، فقال عليه السلام: **«احْتَجِبَا»** فقلنا: أوليس بأعمى لا يبصر؟ فقال: **«وَأَنْتُمَا أَلا تُبْصِرَانِهِ»؟**[(٢)]. وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في المآتم والولائم، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة، وإنما جوّز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به، فإنّ الشر في الصبيان أكثر، فإنّه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح. والنظر إلى وجه الصبي بالشهوة حرام، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له النظر إليه.

فإن قلت: كل ذي حسّ يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة، ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة؟ فأقول: لست أعني تفرقة العين فقط، بل ينبغي أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة، وبين ماء صاف وماء كدر، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها، فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه ولكن ميلاً خالياً عن الشهوة، ولأجل ذلك لا يشتهي ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها، ولا تقبيل الماء الصافي، وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين إليها، وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لا شهوة فيها. ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة، فمهما وجد ذلك الميل في قلبه، وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والأثواب المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام، وهذا مما يتهاون به الناس ويجرّهم ذلك إلى المعاطب وهم لا يشعرون.

قال بعض التابعين: ما أنا بأخوف من السبع الضاري على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه. وقال سفيان: لو أنّ رجلاً عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطاً. وعن بعض السلف قال: سيكون في هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون: صنف ينظرون، وصنف يصافحون، وصنف يعملون.

فإذاً: آفة النظر إلى الأحداث عظيمة. فمهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح؛ فرب نفس لا يسكن توقانها بالجوع.

وقال بعضهم: غلبت علي شهوتي في بدء إرادتي بما لم أطق فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى، فرأيت شخصاً في المنام فقال: ما لك؟ فشكوت إليه فقال: تقدّم إليّ، فتقدمت إليه فوضع يده على صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي، فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة، ثم عاودني ذلك فأكثرت الاستغاثة، فأتاني شخص في المنام فقال لي: أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك؟ قلت: نعم، فقال: مدّ رقبتك؟ فمددتها فجرّد سيفاً من نور فضرب به عنقي، فأصبحت وقد زال

---

(١) حديث: «لكل ابن آدم حظه من الزنى فالعينان تزنيان...» الحديث. أخرجه مسلم والبيهقي واللفظ له من حديث أبي هريرة، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه.

(٢) حديث أم سلمة: استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال: «احتجبا»، الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح.

ما بي فبقيت معافى سنة، ثم عاودني ذلك أو أشدّ منه، فرأيت كأن شخصاً فيما بين جنبي وصدري يخاطبني ويقول: ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يحب رفعه؟ قال: فتزوجت فانقطع ذلك عني وولد لي.

ومهما احتاج المريد إلى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه، أما في ابتدائه فبالنية الحسنة، وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة ـ كما فصلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح فلا نطول بإعادته ـ، وعلامة صدق إرادته: أن ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية. قال بعضهم: من تزوج غنية كان له منها خمس خصال، مغالاة الصداق، وتسويف الزفاف، وفوت الخدمة، وكثرة النفقة، وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً على ذهاب مالها. والفقيرة بخلاف ذلك. وقال بعضهم: ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته: بالسنّ، والطول، والمال، والحسب، وأن تكون فوقه بأربع: بالجمال، والأدب، والورع، والخلق، وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح: الخلق.

تزوج بعض المريدين بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت: قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ سنين ما ذهبت إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبلي إليه؟. وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدري، فاشتدّ حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبحها، فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد، ثم أراهم أن بصره قد ذهب، حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك، فقيل له في ذلك فقال: تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا، فقيل له: قد سبقت إخوانك بهذا الخلق. وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له: لم لا تطلقها؟ فقال: أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها. فإن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون، وإن قدر على الترك فهو أولى له، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله، كما روي أن محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى. فكتب إليها: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم، وليس تمضي الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبيني. فكتبت إليه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابي هذا فهيّىء زادك وقدم لمعادك، وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك؛ فصم الدهر وليكن فطرك الموت. وأما أنا: فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خوّلك وأضعافه ما سرني أن أشتغل عن الله طرفة عين.

وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان، فلينظر المريد إلى حاله وقلبه فإن وجده في العزوبة فهو الأقرب، وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به. ودواء هذه العلة ثلاثة أمور: الجوع، وغض البصر، والاشتغال بشغل يستولي على القلب. فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط. ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات، قال سعيد بن المسيب: ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء، وقال سعيد أيضاً ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى ـ: ما شيء أخوف عندي من

النساء. وعن عبدالله بن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدني أياماً فلما أتيته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها. فقال: هلاّ أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا، فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، فحمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين ـ أو قال: ثلاثة ـ قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح؟ فصرت إلى منزلي وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي فأسرجت، وكنت صائماً فقدمت عشائي لأفطر ـ وكان خبزاً وزيتاً ـ وإذا بابي يقرع فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ـ وذلك أنه لم يُرَ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد ـ قال: فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد لو أرسلت إليّ لأتيتك؟ فقال: لا، أنت أحق أن تؤتى، قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك، وهذه امرأتك، وإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب ورده؛ فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه؛ ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاؤوني وقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم زوّجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا: أو سعيد زوّجك؟ قلت: نعم، قالوا: وهي في الدار؟ قلت: نعم، فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، قال: فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها؛ فإذا هي أجمل من النساء، وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج، قال: فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه؛ فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته فسلمت عليه فرد عليّ السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس، فقال: ما حال ذلك الإنسان؟ فقلت: بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو، قال: إن رابك منه أمر فدونك والعصا. فانصرفت إلى منزلي فوجه إليّ بعشرين ألف درهم. قال عبدالله بن سليمان: وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبدالملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه، فلم يزل عبدالملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف. فاستعجال سعيد في الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين إلى تطفئة نارها بالنكاح رضي الله تعالى عنه ورحمه.

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين:

اعلم: أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان، وأعصاها عند الهيجان على العقل، إلا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه ويخشى من اقتحامه، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه، وليس في شيء من ذلك ثواب؛ فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر. نعم، من العصمة أن لا يقدر ففي هذه العوائق فائدة وهي دفع الإثم، فإن من ترك الزنى اندفع عنه إثمه بأي سبب كان تركه؟ وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسُّر الأسباب، لا سيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصدّيقين. ولذلك قال ﷺ:

«مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ»(١)، وقال عليه السلام: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم الله يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّهُ ـ وَعَدَّ منهم: رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذاتُ جَمَالٍ وَحَسَبٍ إِلَى نَفْسِهَا فقالَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ العَالَمِينَ»(٢)، وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة، وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة.

وروي: أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها، وخرج هارباً من منزله وتركها فيه. قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف الذي هممت، وأنت سليمان الذي لم تهم ـ أشار إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: ٢٤] ـ، وعنه أيضاً ما هو أعجب من هذا: وذلك أنه خرج من المدينة حاجاً ومعه رفيق له حتى نزلا بالأبواء، فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئاً، وجلس سليمان في الخيمة وكان من أجمل الناس وجهاً وأورعهم، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه ـ وعليها البرقع والقفازان ـ، فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت: أهنئني؛ فظن أنها تريد طعاماً، فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها فقالت: لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله؟ فقال: جهزك إليَّ إبليس؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في النحيب فلم يزل يبكي، فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها. وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال: ما يبكيك؟ قال: خيرٌ، ذكرت صبيتي. قال: لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديداً، فقال سليمان: وأنت ما يبكيك؟ قال: أنا أحق بالبكاء منك لأني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها، فلم يزالا يبكيان، فلما انتهى سليمان إلى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر، فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام، وإذا رجل وسيم طويل، له شارة حسنة ورائحة طيبة، فقال له سليمان: رحمك الله من أنت؟ قال له: أنا يوسف، قال: يوسف الصدّيق؟ قال: نعم، قال: إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لعجباً. فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب.

وروي عن عبدالله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انْطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ المَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوا فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا إِنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ إلاَّ أَنْ تَدْعُوا الله تَعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلا مَالاً، فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْماً فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَمَالاً، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ فِي يَدِي أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ حَوْلَ قَدَمِي فَاسْتَيقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُما، اللَّهُمَّ إِنْ

---

(١) حديث: «من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد» أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس وقال: أنكر على سويد بن سعيد، ثم قال: يقال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال: لو كان لي فرس ورمح غزوت سويداً، ورواه الخرائطي من غير طريق سويد بسند فيه نظر.

(٢) حديث: «سبعة يظلّهم الله في ظله...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

كُنتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا ما نَحْنُ فِيهِ مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئاً لا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهُ. وَقالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّه كانَ لِي ابْنَةُ عَمٍ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ فَراوَدْتُها عَنْ نَفْسِها فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُها مائَةً وَعِشْرِينَ دِيناراً عَلَى أَنْ تُخْلِيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِها فَفَعَلَتْ، حَتَّى إذا قَدَرْتُ عَلَيْها قالَتْ: اتَّقِ الله وَلا تَفُضَّ الخاتَمَ إلاّ بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْها فَانْصَرَفْتُ عَنْها وَهِيَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُها، اللَّهُمَّ إنْ كُنتُ فَعَلْتُهُ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا ما نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْها. وَقالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَراءَ وَأَعْطَيْتُهُمْ أُجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ واحِدٍ فَإِنَّهُ تَرَكَ الأَجْرَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَنَمَّيْتُ لَهُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوالُ، فَجاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقالَ: يا عَبْدَ الله أَعْطِنِي أَجْرِي، فَقُلْتُ كُلُّ ما تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقالَ: يا عَبْدَالله أَتَهْزَأُ بِي؟ فَقُلْتُ: لا أَسْتَهْزِىءُ بِكَ فَخُذْهُ، فَاسْتاقَهُ وَأَخَذَهُ كُلَّهُ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئاً، اللَّهُمَّ إنْ كُنتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا ما نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَت الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»(١).

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوات فعف، وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين، فإن العين مبدأ الزنى فحفظها مهم، وهو عسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه، والآفات كلها منه تنشأ. والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها. قال ﷺ: «**لَكَ الأُولَى وَعَلَيْكَ الثَّانِيَةُ**»(٢)، أي النظرة. وقال العلاء بن زياد: لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع في القلب شهوة، وقلما يخلو الإنسان في تردداه عن وقوع البصر على النساء والصبيان. فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة، وعنده ينبغي أن يقرر في نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التحسر، وإن استقبح لم يلتذ وتألم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه، فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر. ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق. فقد روي عن أبي بكر بن عبدالله المزني: أن قصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له: لا تفعل لأنا أشدّ حباً لك منك لي ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال: ما لك؟ قال: العطش. قال: تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية، قال ما لي من عمل صالح فأدعو، فادع أنت، قال: أنا أدعو وأمن أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول: زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك، لتخبرني بأمرك، فأخبره فقال الرسول: إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه.

---

(١) حديث ابن عمر: «**انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار...**» فذكر الحديث بطوله. رواه البخاري.

(٢) حديث: «**لك الأولى وليست لك الثانية**» أي النظرة. أخرجه أبو داود والترمذي من حديث بريدة. قاله لعلي، قال الترمذي: حديث غريب.

وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شاب متعبد، لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له: يا فتى، اسمع مني كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت، فمضى ولم يكلمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له: يا فتى، اسمع مني كلمات أكلمك بها، فأطرق ملياً وقال لها: هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً، فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوّف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها، وجملة ما أقول لك: إن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك، قال: فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله، وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، اعلمي أيتها المرأة: أن الله عزّ وجلّ إذا عصاه العبد حلم، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه؟ فإن كان ما ذكرت باطلاً فإني أذكرك يوماً تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعهن، وتجثوا الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإن كان ما ذكرت حقاً فإني أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة، ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فإني مشغول عنك بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٨، ١٩]، فأين المهرب من هذه الآية؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت: يا فتى، لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى، ثم بكت بكاء شديداً وقالت: أسأل لك الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك، ثم إنها تبعته وقالت: امنن علي بموعظة أحملها عنك وأوصني بوصية أعمل عليها، فقال لها: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وأذكرك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الانعام: ٦٠] قال: فأطرقت وبكت بكاء شديداً أشدّ من بكائها الأول، ثم إنها أفاقت ولزمت بيتها، وأخذت في العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمداً، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكي، فيقال له: مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك؟ فيقول: إني قد ذبحت طمعها في أول أمرها، وجعلت قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالى، فأنا أستحي منه أن أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى.

تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه. يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليماً كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات
من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعدله، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمّله، وعلمه البيان فقدمه به وفضله، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله، ثم أرسل عليه ستراً من رحمته وأسبله، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله، ويكشف عنه ستره الذي أرسله، وأطلق بالحق مقوله، وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله، من علم حصله ونطق سهله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أكرمه وبجله، ونبيه الذي أرسله بكتاب أنزله، وأسمى فضله وبين سبله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله، ما كبر الله عبد وهلله.

أما بعد: فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه؛ إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان؛ وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحدّ، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان؛ سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار؛ إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعِلْمُ ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان؛ فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان. ونحن ـ بتوفيق الله وحسن تدبيره ـ نفصل مجامع آفات اللسان، ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها، ونعرّف طريق الاحتراز عنها، ونورد ما ورد من الأخبار

والآثار في ذمها. فنذكر أولاً فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعني، ثم آفة فضول الكلام، ثم آفة الخوض في الباطل، ثم آفة المراء والجدال؛ ثم آفة الخصومة، ثم آفة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان، ثم آفة الغناء بالشعر ـ وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده ـ ثم آفة المزاح، ثم آفة السخرية والاستهزاء، ثم آفة إفشاء السر، ثم آفة الوعد الكاذب، ثم آفة الكذب في القول واليمين، ثم بيان التعاريض في الكذب، ثم آفة الغيبة، ثم آفة النميمة، ثم آفة ذي اللسانين؛ الذي يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه، ثم آفة المدح، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عزّ وجلّ وعن كلامه وعن الحروف أهي قديمة أو محدثة؟ وهي آخر الآفات وما يتعلق بذلك، وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت:

اعلم: أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»(١)، وقال عليه السلام: «الصَّمْتُ حُكْمٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ»(٢)، أي حكمة وحزم. وروى عبدالله بن سفيان عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» قال: قلت: فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه(٣)، وقال عقبة بن عامر: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»(٤)، وقال سهل بن سعد الساعدي: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَتَكَفَّلْ لِي بِمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ أَتَكَفَّلْ لَهُ بِالجَنَّةِ»(٥)، وقال ﷺ: «مَنْ وُقِيَ شَرَّ قَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ وَلَقْلَقِهِ فَقَدْ وُقِيَ الشَّرَّ كُلَّهُ»(٦)، القبقب: هو البطن.

كتاب آفات اللسان

(١) حديث: «من صمت نجا» أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بسند فيه ضعف، وقال: غريب، وهو عند الطبراني بسند جيد.

(٢) حديث: «الصمت حكمة وقليل فاعله» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ: «حكم» بدل «حكمة» وقال: غلط فيه عثمان بن سعد، والصحيح رواية ثابت قال: والصحيح عن أنس أن لقمان قال: ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء بسند صحيح إلى أنس.

(٣) حديث سفيان الثقفي: «أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك...» الحديث. أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه، وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان.

(٤) حديث عقبة بن عامر: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك...» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن.

(٥) حديث سهل بن سعد: «من يتوكل لي بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة» رواه البخاري.

(٦) حديث: «من وقي شر قبقبه وذبذبه ولقلقه...» الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ: «فقد وجبت له الجنة».

والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج، وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: **«تَقْوَى الله وَحُسْنُ الخُلُقِ»** وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال: **«الأَجْوَفَانِ: الفَمُ وَالفَرْجُ»**(١). فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه؛ فقد قال معاذ بن جبل: قلت: يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: **«ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا ابْنَ جَبَلٍ وَهَلْ يَكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»**(٢). وقال عبدالله الثقفي: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، فقال: **«قُلْ رَبِّيَ الله ثُمَّ اسْتَقِمْ»** قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسانه وقال: **«هذا»**(٣). وروي أن معاذاً قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه(٤). وقال أنس بن مالك: قال ﷺ: **«لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ العَبْدِ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ولا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ الجَنَّةَ رَجُلٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»**(٥)، وقال ﷺ: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْلَمَ فَلْيَلْزَمِ الصَّمْتَ»**(٦)، وعن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتِ الأَعْضَاءُ كُلُّهَا تُذَكِّرُ اللِّسَانَ أَيْ تَقُولُ اتَّقِ الله فِينا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»**(٧). وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: هذا أوردني الموارد، إن رسول الله ﷺ قال: **«لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الجَسَدِ إلاَّ يَشْكُو إِلَى الله اللِّسَانَ عَلَى حِدَّتِهِ»**(٨). وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان: قل خيراً تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، فقيل له:

---

(١) حديث: **«سئل عن أكثر ما يدخل الجنة...»** الحديث. أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث معاذ: قلت: يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: **«ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»** أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٣) حديث عبدالله الثقفي: **«قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به...»** الحديث. رواه النسائي. قال ابن عساكر: وهو خطأ والصواب سفيان بن عبدالله الثقفي كما رواه الترمذي وصححه ابن ماجه، وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث.

(٤) حديث: «إن معاذاً قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه». أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت قال: «أصبعه» مكان «يده».

(٥) حديث أنس: **«لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف.

(٦) حديث: **«من سره أن يسلم فليلزم الصمت»** أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وأبو الشيخ في فضائل الأعمال، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٧) حديث: **«إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان..»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رفعه، ووقع في الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعاً وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه، ورواه الترمذي موقوفاً على عمار بن زيد وقال: هذا أصح.

(٨) حديث: إن عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: إن هذا أوردني الموارد، إن رسول الله ﷺ قال: **«ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حدته»** أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وأبو يعلى في مسنده، والدارقطني في العلل، والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر، وقال الدارقطني: إن المرفوع وهم على الدراوردي قال: وروي هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له.

يا أبا عبدالرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ فقال: لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»[(١)]. وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ الله عَوْرَتَهُ وَمَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ وَقَاهُ الله عَذَابَهُ وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى الله قَبِلَ الله عُذْرَهُ»[(٢)]. وروي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله، أوصني قال: «اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي المَوْتَى وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِمَا هُوَ أَمْلَكُ لَكَ مِنْ هٰذا كُلِّهِ»، وأشار بيده إلى لسانه[(٣)]، وعن صفوان بن سليم[(٤)] قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَيْسَرِ العِبَادَةِ وَأَهْوَنِها عَلَى البَدَنِ. الصَّمْتُ وَحُسْنُ الخُلُقِ»[(٥)].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَسْكُتْ»[(٦)]، وقال الحسن: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «رَحِمَ الله عَبْداً تَكَلَّمَ فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ»[(٧)]. وقيل لعيسى عليه السلام: دلنا على عمل ندخل به الجنة قال: لا تنطقوا أبداً، قالوا: لا نستطيع ذلك، فقال: فلا تنطقوا إلا بخير. وقال سليمان بن داود عليهما السلام: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وعن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «أَطْعِمِ الجَائِعَ واسْقِ الظَّمْآنَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ»[(٨)]، وقال ﷺ: «اخْزُنْ لِسَانَكَ إلاّ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ بِذٰلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ»[(٩)]، وقال ﷺ: «إِنَّ الله عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ فَلْيَتَّقِ الله امْرُؤٌ عَلِمَ ما يَقُولُ»، وقال عليه السلام: «إذا رَأَيْتُمُ المُؤْمِنَ صَمُوتاً وَقُوراً فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الحِكْمَةَ»[(١٠)]، وقال ابن مسعود، قال رسول الله ﷺ: «النَّاسُ ثَلاثَةٌ: غَانِمٌ وَسَالِمٌ وَشَاحِبٌ. فَالغَانِمُ الَّذِي يَذْكُرُ الله تَعَالَى، والسَّالِمُ السَّاكِتُ، وَالشَّاحِبُ الَّذِي يَخُوضُ فِي البَاطِلِ»[(١١)]،

---

(١) حديث ابن مسعود: أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيراً تغنم. وفيه مرفوعاً: «إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه» أخرجه الطبراني، وابن أبي الدنيا في الصمت، والبيهقي في الشعب بسند حسن.

(٢) حديث ابن عمر: «من كف لسانه ستر الله عورته» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن.

(٣) حديث: إن معاذاً قال أوصني قال: «اعبد الله كأنك تراه. . .» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني ورجاله ثقات، وفيه انقطاع.

(٤) واحد من الذين جمعوا القرآن، شهد فتح دمشق، وفتح مصر، وولاه معاوية عليها، غزا جزيرة «رودس» سنة سبع وأربعين.

(٥) حديث صفوان بن سليم مرفوعاً: «ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق» أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات، ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضاً مرفوعاً.

(٦) حديث أبي هريرة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت» متفق عليه.

(٧) حديث الحسن: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين.

(٨) حديث البراء: جاء أعرابي فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة قال: «أطعم الجائع». الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

(٩) حديث: «اخزن لسانك إلا من خير. . .» الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير، ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر.

(١٠) حديث: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ: «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة» وقد تقدم.

(١١) حديث ابن مسعود: «الناس ثلاثة: غانم وسالم وشاحب. . .» الحديث. أخرجه الطبراني وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «المجالس»، وضعفه ابن عدي ولم أجده. «ثلاثة» من حديث ابن مسعود.

وقال عليه السلام: «إِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ وَرَاءَ قَلْبِهِ فَإذا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِشَيءٍ تَدَبَّرَهُ بِقَلْبِهِ ثُمَّ أَمْضَاهُ بِلِسَانِهِ، وَإِنَّ لِسَانَ الْمُنَافِقِ أَمَامَ قَلْبِهِ، فَإذا هَمَّ بِشَيءٍ أَمْضَاهُ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَتَدَبَّرْهُ بِقَلْبِهِ»(١). وقال عيسى عليه السلام: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار من الناس. وقال نبينا ﷺ: «مَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»(٢).

الآثار: كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال عبدالله بن مسعود: والله الذي لا إلّه إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال طاوس: لساني سبع إن أرسلته أكلني. وقال وهب بن منبه: في حكمة آل داود؛ حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه. وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وقال بعضهم: الصمت يجمع للرجل فضيلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه. وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت فقال له: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت، وأخشاك إن صدقت. وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقيل: أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة. وقيل: ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً؛ فكل ما تكلم به كتبه، ثم يحاسب نفسه عند المساء.

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟ فاعلم: أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات. فهذه آفات كثيرة وهي سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان؛ فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب، فإن ذلك من غوامض العلم ـ كما سيأتي تفصيله ـ. ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة، والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة. فقد قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

---

(١) حديث: «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه. . .» الحديث. لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال: «كانوا يقولون».

(٢) حديث: «من كثر كلامه كثر سقطه. .» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف. وقد رواه أبو حاتم بن حبان في روضة العقلاء، والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب.

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر؛ وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلا بدّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر.

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه؛ فيكون الإنسان به مخاطراً. ومن عرف دقائق آفات اللسان ـ على ما سنذكره ـ علم قطعاً أن ما ذكره ﷺ هو فصل الخطاب حيث قال: «مَنْ صَمَتَ نَجا»[١]، فلقد أوتي ـ والله ـ جواهر الحكم قطعاً وجوامع الكلم[٢]، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء، وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى. ونحن الآن نعدّ آفات اللسان ونبتدىء بأخفها ونترقى إلى الأغلظ قليلاً، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول، وهي عشرون آفة. فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك:

اعلم: أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه، ولا على مسلم أصلاً، إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك، ومحاسب على عمل لسانك، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هلّلت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك. فكم من كلمة يبنى بها قصرٌ في الجنة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإنّ المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً[٣]، هكذا قال النبي ﷺ. بل رأس مال العبد أوقاته؛ ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله. ولهذا قال النبي ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ**»[٤]، بل ورد ما هو أشدّ من هذا قال أنس: استشهد غلام منا يوم أُحُد فوجدنا على بطنه حجراً مربوطاً من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت: هنيئاً لك الجنة يا بني، فقال ﷺ: «**وَمَا**

---

(١) حديث: «من صمت نجا» تقدم.

(٢) حديث: «ﷺ أوتي جوامع الكلم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك

(٣) حديث: «**المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً**» لم أجد له أصلاً، وروى محمد بن زكريا العلائي أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله أمرني أن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً ونظري عبرة**».

(٤) حديث: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

يُدْرِيكِ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لا يَعْنِيهِ وَيَمْنَعُ مَا لا يَضُرُّهُ؟»(١)، وفي حديث آخر: أنّ النبي ﷺ فقد كعباً فسأل عنه فقالوا: مريض. فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال: **«أَبْشِرْ يا كَعْبُ»** فقالت أمه: هنيئاً لك الجنة يا كعب فقال ﷺ: **«مَنْ هٰذِهِ المُتَأَلِّيَةُ عَلَى الله»** قال: هي أمي يا رسول الله، قال: **«وَمَا يُدْرِيكِ يا أُمَّ كَعْبٍ لَعَلَّ كَعْباً قالَ ما لا يَعْنِيهِ أَوْ مَنَعَ مَا لا يُغْنِيهِ»**(٢)، ومعناه: أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه في مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب. وعن محمد بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هٰذا البَابِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»**. فدخل عبدالله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك وقالوا: أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به فقال: إني لضعيف، وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني(٣). وقال أبو ذرّ: قال لي رسول الله ﷺ: **«أَلاَ أُعَلِّمُكَ بِعَمَلٍ خَفِيفٍ عَلَى البَدَنِ ثَقِيلٍ فِي المِيزَانِ؟»** قلت: بلى يا رسول الله قال: **«هُوَ الصَّمْتُ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَتَرْكُ ما لا يَعْنِيكَ»**(٤)، وقال مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: خمس لهنّ أحب إليّ من الدهم الموقوفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً فإنّ الحليم يقليك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاحترام. وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني. وقال مورق العجلي: أمرٌ أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا: وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني. وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعرض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك: أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال ولا مال، مثاله: أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم

---

(١) حديث: **«استشهد منا غلام يوم أُحُد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع..»** الحديث. وفيه: **«لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره»** أخرجه الترمذي من حديث أنس مختصراً وقال: غريب، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف.

(٢) حديث: **«أن النبي ﷺ فقد كعباً فسأل عنه فقالوا: مريض...»** الحديث. وفيه: **«لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه»**. أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرمة بإسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه.

(٣) حديث محمد بن كعب: **«إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة»** فدخل عبدالله بن سلام الحديث. وفيه: **«إن أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني»**. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً. وفيه أبو نجيح اختلف فيه.

(٤) حديث أبي ذر: **«ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن...»** الحديث. وفيه: **«هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك»** أخرجه ابن أبي الدنيا بسند منقطع.

تأثم ولم تستضر، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك .وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها؟ ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك، فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرّق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات. فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له: هل أنت صائم؟ فإن قال: نعم، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذباً، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه. وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول له: ماذا تقول؟ وفيم أنت؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول: من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه. . . وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها، والمسؤول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري؛ فيجيب عن غير بصيرة.

ولست أعني بالتكلم فيما لا يعني هذه الأجناس، فإنّ هذا يتطرّق إليه إثم أو ضرر. وإنما مثال ما لا يعني: ما روي أنّ لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال: نعم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله، أي حصل العلم به من غير سؤال، فاستغنى عن السؤال. وقيل: إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال. فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب هو مما لا يعني، وتركه من حسن الإسلام؛ فهذا حدّه.

وأما سببه الباعث عليه: فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله: أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله. وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين؛ فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين. هذا علاجه من حيث العلم. وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جداً.

الآفة الثانية: فضول الكلام:

وهو أيضاً مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإنّ من يعنيه أمر: يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره. ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول ـ أي فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم ـ لما سبق ـ، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. قال عطاء بن أبي رباح: إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أنّ عليكم حافظين، كراماً

كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه. وعن بعض الصحابة قال: إنّ الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلي من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً. وقال مطرف: ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار: اللهم اخزه وما أشبه ذلك.

واعلم: أنّ فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النِّساء: ١١٤] وقال ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ أَمْسَكَ الفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ وَأَنْفَقَ الفَضْلَ مِنْ مَالِهِ**»(١)، فانظر: كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان، وعن مطرف بن عبدالله عن أبيه قال: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر فقالوا: أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغرّاء، وأنت وأنت فقال: «**قُولُوا قَوْلَكُمْ وَلا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»(٢)، إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها. وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم؛ حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته. وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكّت ابنه فيقول، أبتاع لك كذا وكذا؟ فيكتب كذاباً. وقال الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك، فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل.

وروي: أنّ سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفراً ينظرون ما يقول ويخبرونه، فأخبروه بأنه مرَّ في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه. فسأله سليمان عن ذلك فقال: عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون! ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون!. وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً. وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه. وقال عمرو بن دينار: تكلم رجل عند النبي ﷺ فأكثر، فقال له ﷺ: «**كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ؟**» فقال: شفتاي وأسناني، قال: «**أَفَمَا كانَ لَكَ ما يَرُدُّ كَلامَكَ؟**»(٣). وفي رواية: أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ثم قال: ما أوتي رجل شراً من فضل في لسانه. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه: إنه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة. وقال بعض الحكماء: إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت، وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلم. وقال يزيد بن أبي حبيب: من فتنة

الآفة الثانية: فضول الكلام

(١) حديث: «**طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله**» أخرجه البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة، والبيهقي من حديث ركب المصري، وقال ابن عبدالبر: إنه حديث حسن. وقال البغوي: لا أدري سمع من النبي ﷺ أم لا. وقال ابن منده: مجهول لا نعرف له صحبة، ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث مطرف بن عبدالله عن أبيه: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من عامر فقالوا: «أنت والدنا وأنت سيدنا...» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ آخر، ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

(٣) حديث عمرو بن دينار: تكلم رجل عند النبي ﷺ فأكثر فقال: «**كم دون لسانك من حجاب**..» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات.

العالم: أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان. وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة، فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها. وقال إبراهيم: يهلك الناس خلتان: فضول المال وفضول الكلام. فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه. وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل:

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام. وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه. نعم، من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل. وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث[1]: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الرَّجلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله ما يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ ما بَلَغتْ فَيَكْتُبُ الله بِهَا رِضْوَانه إلَى يَوْمِ القِيامَةِ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَط الله ما يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ ما بَلَغتَ فَيَكْتُبُ الله عَلَيْهِ بِهَا سَخطَهُ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**[2]، وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث. وقال النبي ﷺ: **«إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ يَهْوِي بِهَا أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا»**[3]، وقال أبو هريرة: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يهوي بها في جهنم، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة. وقال ﷺ: **«أَعْظَمُ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضاً فِي البَاطِلِ»**[4]، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥﴾ [المدَّثِّر: ٤٥] وبقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النِّساء: ١٤٠] وقال سلمان: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله. وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول لهم: توضؤوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث. فهذا هو الخوض في الباطل، وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها، أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضاً الخوض

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل

(١) بلال بن الحارث: المزني، من أهل المدينة، حامل لواء فزينة يوم الفتح. أقطعه النبي ﷺ العقيق. ثم سكن البصرة، مات سنة ستين، له رواية عن رسول الله ﷺ.

(٢) حديث بلال بن الحارث: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح.

(٣) حديث: «**إن الرجل ليتكلم الكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا**» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن، وللشيخين والترمذي: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار**» لفظ الترمذي وقال: حسن غريب.

(٤) حديث: «**أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل**» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً ورجاله ثقات، ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح.

في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه.

الآفة الرابعة: المراء والجدال:

وذلك منهي عنه. قال ﷺ: «لا تُمَارِ أَخَاكَ وَلا تُمَازِحْهُ وَلا تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ»[1]، وقال عليه السلام: «ذَرُوا المِرَاء فَإِنَّهُ لا تُفْهَمُ حِكْمَتُهُ ولا تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ»[2]، وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ»[3]، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ ما عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي وَنَهَانِي عَنْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَشُرْبِ الخَمْرِ مُلاحَاةُ الرِّجَالِ»[4]، وقال أيضاً: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ الله تَعَالَى إِلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ»[5]، وقال أيضاً: «لا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمانِ حَتَّى يَدَعَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً»[6]، وقال أيضاً: «سِتٌّ مَنْ كُنَّ فِيهِ بَلَغَ حَقِيقَةَ الإِيمانِ: الصِّيامُ فِي الصَّيْفِ، وَضَرْبُ أَعْدَاءِ الله بِالسَّيْفِ، وَتَعْجِيلُ الصَّلاةِ فِي اليَوْمِ الدَّجْنِ، وَالصَّبْرُ عَلَى المُصِيبَاتِ، وَإِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَتَرْكُ المِرَاءِ وَهُوَ صَادِقٌ»[7]، وقال الزبير لابنه: لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنّة.

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل. وقال مسلم بن يسار: إياكم والمراء؛ فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته. وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل. وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال أيضاً: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن. وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تجادل العلماء فيمقتوك. وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجاًممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته. وقال سفيان: لو خالفت أخي في رمانة فقال: حلوة وقلت: حامضة لسعى بي إلى السلطان. وقال أيضاً:

الآفة الرابعة: المراء والمجادلة

(١) حديث: «لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

(٢) حديث: «ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته» أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع بإسناد ضعيف دون قوله: «لا تفهم حكمته»، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود.

(٣) حديث: «من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة...» الحديث. تقدم في العلم.

(٤) حديث أم سلمة: «إن أول ما عهد إليَّ ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، والطبراني والبيهقي بسند ضعيف، وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم.

(٥) حديث: «ما ضل قوم إلا أوتوا الجدل» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وزاد: «بعد هدى كانوا عليه» وتقدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف.

(٦) حديث: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وإن كان محقاً» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ: «لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاحة والمراء وإن كان صادقاً».

(٧) حديث: «ست من كنَّ فيه بلغ حقيقة الإيمان...» الحديث. وفيه: «وترك المراء وهو صادق». أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ: «خصال من الخير...» الحديث.

صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش. وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي، فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه. وقال أبو الدرداء: كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً. وقال ﷺ: «تَكْفِيرُ كُلِّ لِحَاءٍ[1] رَكْعَتَانِ»[2]، وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث؛ لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به. ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه. وقال عيسى عليه السلام: من كثر كذبه ذهب جماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه سقم جسمه، ومن ساء خلقه عذب نفسه. وقيل لميمون بن مهران: ما لك لا تترك أخاك عن قلى؟ قال: لأني لا أشاريه ولا أماريه. وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى.

وحدّ المراء: هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض. فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه.

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة، أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير. وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان. وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله.

وأما في المعنى: فبأن يقول ليس كما تقول؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا.

وأما في قصده: فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

وأما المجادلة: فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك: أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عند المجادل، يحب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأما الباعث على هذا: فهو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه. وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها. أما إظهار الفضل: فهو من قبيل تزكية النفس، وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء، وهي من صفات الربوبية. وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية، فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، وإنما قوّتهما المراء والجدال. فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة، وهذا مجاوز حد الكراهة، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير. ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصوّر له؛ فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين؛ يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه.

---

(١) الملاحة: المشاتمة.

(٢) حديث: «تكفير كل لحاء ركعتان» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعث له على تنقيص غيره ـ كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب ـ، فإن علاج كل علة بإماطة سببها. وسبب المراء والجدال ما ذكرناه، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً؛ حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه.

روي أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم، قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ عليَّ منها. وهو كما قال؛ لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جداً. ولذلك قال ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى الله لَهُ بَيْتاً فِي أَعْلَى الجَنَّةِ**» لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد. فإن المراء طبع؛ فإذا ظن أن له عليه ثواباً اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه، وذلك خطأ محض، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، وإذا رأى مبتدعاً تلطف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد. فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه، وقال ﷺ: «**رَحِمَ الله مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَهْلِ القِبْلَةِ إلاّ بِأَحْسَنِ ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ**»[1]، وقال هشام بن عروة: كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات. وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولاً قويت فيه هذه المهلكات، ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل. وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها؟.

الآفة الخامسة: الخصومة:

وهي أيضاً مذمومة، وهي وراء الجدال والمراء؛ فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير. وإظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً. والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ**»[2]. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جَادَلَ فِي خُصُومَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ الله حَتَّى يَنْزِعَ**»[3]، وقال بعضهم: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين. ويقال: ما خاصم ورع قط في الدين. وقال ابن قتيبة: مرّ بي بشر بن عبدالله بن أبي

---

(١) حديث: «**رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه**» أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي ﷺ مرسلاً، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ: «**رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين**» وهو منقطع وضعيف جداً.

الآفة الخامسة: الخصومة

(٢) حديث عائشة: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**» أخرجه البخاري، وقد تقدم.

(٣) حديث أبي هريرة: «**من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع**» أخرجه ابن أبي الدنيا، والأصفهاني في الترغيب والترهيب، وفيه رجاء أبو يحيى؛ ضعفه الجمهور.

بكرة فقال: ما يجلسك هاهنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك عندي يداً وإني أريد أن أجزيك بها، وإني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة؟ قال: فقمت لأنصرف فقال لي خصمي: ما لك؟ قلت: لا أخاصمك، قال: إنك عرفت أن الحق لي، قلت: لا، ولكن أكرم نفسي عن هذا. قال: فإني لا أطلب منك شيئاً هو لك.

فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم، فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته؟ فاعلم: أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل، والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضي فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان، فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول: إنما قصدي عناده وكسر عرضه، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً. فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة، ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره؛ حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جداً، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته، إلا أنه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركاً للأولى ولا يكون آثماً، نعم، أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب؛ إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام. وقد قال ﷺ: «**يُمْكِنُكُمْ مِنَ الجَنَّةِ طِيبُ الكَلامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ**»(١). وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَة: ٨٣]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سلَّم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسياً؛ إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النِّساء: ٨٦] وقال ابن عباس أيضاً: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه. وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفاً يُرَى ظَاهِرُها مِنْ بَاطِنِها وَبَاطِنُها مِنْ ظَاهِرِها أَعَدَّها الله تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَلانَ الكَلامَ**»(٢). وروي أن عيسى عليه السلام مرّ به

---

(١) حديث: «**يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام**» أخرجه الطبراني من حديث جابر وفيه من لا أعرفه، وله من حديث هانىء أبي شريح بإسناد جيد: «**يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام**».

(٢) حديث أنس: «**إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها...**» الحديث. أخرجه الترمذي، وقد تقدم.

خنزير فقال: مر بسلام، فقيل: يا روح الله: أتقول هذا لخنزير؟ فقال: أكره أن أعود لساني الشر. وقال نبينا عليه السلام: **«الكلمة الطيبة صدقة»**[1]، وقال: **«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»**[2]. وقال عمر رضي الله عنه: البرّ شيء هين وجه طليق وكلام لين. وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح. وقال بعض الحكماء: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين. وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش، المهيج للغضب الموغر للصدر. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

الآفة السادسة: التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة... الخ

التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدّمات، وما جرى به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة. وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«أَنَا وَأَتْقِياءُ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ»**، وقال ﷺ: **«إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً الثَّرْثَارُونَ المُتَفَيهِقُونَ المُتَشَدِّقُونَ فِي الكَلامِ»**[3]، وقالت فاطمة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: **«شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُّوا بِالنَّعِيمِ يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الكَلامِ»**[4]، وقال ﷺ: **«أَلاَ هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»**[5] ـ ثلاث مرّات ـ»، والتنطع هو التعمق والاستقصاء. وقال عمر رضي الله عنه: [إن] شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان. وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة، فتكلم بين يدي حاجته بكلام، فقال له سعد: ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَخَلَّلُونَ الكَلامَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ الكَلأَ بِلِسَانِها»**[6]، وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبب والمقدّمة المصنوعة المتكلفة. وهذا أيضاً من آفات اللسان، ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات؛ إذ قضى رسول الله ﷺ بغرّة في الجنين فقال بعض قوم الجاني: كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح ولا استهل، ومثل ذلك بطل؟ فقال: **«أَسَجْعاً كَسَجْعِ الأَعْرَابِ»**[7]، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بيّن عليه، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء

---

(١) حديث: **«الكلمة الطيبة صدقة»**. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة...»** الحديث. متفق عليه من حديث عدي بن حاتم. وقد تقدم.

الآفة السادسة: التقعر في الكلام والتشدق

(٣) حديث: **«إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»** أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند الترمذي من حديث جابر وحسنه بلفظ: **«إن أبغضكم إليّ»**.

(٤) حديث فاطمة: **«شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم...»** الحديث. وفيه: **«ويتشدقون»**. أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب.

(٥) حديث: **«ألا هلك المتنطعون»** من حديث ابن مسعود.

(٦) حديث سعد: **«يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها»** رواه أحمد.

(٧) حديث: **«كيف ندي من لا شرب ولا أكل..»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلها عند البخاري أيضاً.

على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم. ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به. فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق، والاشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة. وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان:

وهو مذموم ومنهي عنه ومصدره الخبث واللؤم. قال ﷺ: **«إيَّاكُمْ وَالفُحْشَ فَإنَّ الله تَعالَى لا يُحِبُّ الفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ»**[(١)]، ونهى رسول الله ﷺ عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال: **«لا تَسُبُّوا هٰؤلاءِ فإنَّهُ لا يَخلُصُ إلَيهِمْ شَيْءٌ مِمَّا تَقُولُونَ وَتُؤذُونَ الأَحْياءَ ألا إنَّ البِذَاءَ لُؤمٌ»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«لَيسَ المُؤمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ اللَّعَّانِ وَلا الفَاحِشِ وَلا البَذِيءِ»**[(٣)]، وقال ﷺ: **«الجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ فَاحِشٍ أنْ يَدْخُلَها»**[(٤)]، وقال ﷺ: **«أَرْبَعَةٌ يُؤذُونَ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ عَلَى ما بِهِمْ مِنَ الأَذَى يَسْعَوْنَ بَيْنَ الحَمِيمِ وَالجَحِيمِ يَدْعُونَ بِالوَيْلِ وَالثُّبورِ: رَجُلٌ يَسِيلُ فُوهُ قَيحاً وَدَماً فَيُقَالُ لَهُ: ما بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانا عَلَى ما بِنا مِنَ الأذَى؟ فَيَقُولُ: إنَّ الأَبْعَدَ كانَ يَنْظُرُ إلَى كُلِّ كَلِمَةٍ قَذِعَةٍ خَبِيثَةٍ فَيَستَلِذُّها كَمَا يَسْتَلِذُّ الرَّفَثَ»**[(٥)]، وقال ﷺ لعائشة: **«يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»**[(٦)]، وقال ﷺ: **«البَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ»**[(٧)]، فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه، ويحتمل أيضاً المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حدّ التكلف، ويحتمل أيضاً البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى، فإن

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان

(١) حديث: **«إياكم والفحش...»** الحديث. أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«النهي عن سب قتلى بدر من المشركين»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلاً ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح: «إن رجلاً وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فلطمه...» الحديث. وفيه: **«لا تسبوا أمواتنا فيتأذوا أحياءنا»**.

(٣) حديث: **«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»** أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال: حسن غريب وصححه، وروي موقوفاً. قال الدارقطني في العلل: والموقوف أصح.

(٤) حديث: **«الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها»** أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبدالله بن عمرو.

(٥) حديث: **«أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى...»** الحديث. وفيه: **«إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث»**. أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع، واختلف في صحبته فذكره أبو نعيم في الصحابة، وذكره البخاري وابن حبان في التابعين.

(٦) حديث: **«يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»** أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها.

(٧) حديث: **«البذاء والبيان شعبتان من النفاق»**. أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه على شرطهما من حديث سلمة عنها.

إلقاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه؛ إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس، فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب، ولكن ذكره مقروناً بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان، وقال ﷺ: **«إنَّ الله لا يُحبُّ الفَاحِشَ المُتَفَحِّشَ الصَّيَّاحَ فِي الأَسْوَاقِ»**(١)، وقال جابر بن سمرة: كنت جالساً عند النبي ﷺ وأبي أمامي فقال ﷺ: **«إنَّ الفُحْشَ وَالتَّفَاحُشَ لَيْسَا مِنَ الإِسْلامِ فِي شَيْءٍ وَإنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلاماً أَحَاسِنُهُمْ أَخْلاقاً»**(٢)، وقال إبراهيم بن ميسرة يقال: يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب. وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوأ الداء: اللسان البذيء، والخلق الدنيء.

فهذه مذمة الفحش. فأما حدّه وحقيقته: فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها. ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها، وقال ابن عباس: إن الله حيي كريم يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع، فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة. وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش، وبعضها أفحش من بعض. وربما اختلف ذلك بعادة البلاد، وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها، وليس يختص هذا بالوقاع، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول، والغائط أولى من لفظ التغوّط والخراء وغيرهما، فإن هذا أيضاً مما يخفى، وكل ما يخفى يستحيا منه، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال: قالت زوجتك كذا، بل يقال: قيل في الحجرة، أو من وراء الستر، أو قالت أم الأولاد. فالتلطف في هذه الألفاظ محمود، والتصريح فيها يفضي إلى الفحش، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير. بل يقال: العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه، فالتصريح بذلك داخل في الفحش، وجميع ذلك من آفات اللسان.

قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبدالعزيز يتحفظ في منطقه: فخرج تحت إبطه خرّاج فأتيناه نسأله لنرى ما يقول؟ فقلنا: من أين خرج؟ فقال: من باطن اليد. والباعث على الفحش: إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السّبُّ. وقال أعرابي لرسول الله ﷺ: أوصني فقال: **«عَلَيْكَ بِتَقْوَى الله وَإنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ فَلا تُعَيِّرْهُ بِشَيْءٍ فِيهِ يَكن وَبَالُهُ عَلَيْهِ وَأَجْرُهُ لَكَ وَلا تَسُبَّنَّ شَيْئاً»**(٣). قال: فما سببت شيئاً بعده. وقال عياض بن حمّار: قلت:

---

(١) حديث: **«إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصَّياح في الأسواق»**، أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف، وله وللطبراني من حديث أسامة بن زيد: **«إن الله لا يحب الفاحش المتفحش»** وإسناده جيد.

(٢) حديث جابر بن سمرة: **«إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء. . .»** الحديث، أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

(٣) حديث: قال أعرابي: أوصني، فقال: **«عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه. .»** الحديث. أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي. قيل: اسمه جابر بن سليم بن جابر.

يا رسول الله، إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني، هل عليَّ من بأس أن أنتصر منه؟ فقال: **«المُتَسَابَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَعَاوَيَانِ وَيَتَهَارَجَانِ»**(١)، وقال ﷺ: **«سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر»**(٢)، وقال ﷺ: **«المُسْتَبَّانِ ما قَالا فَعَلَى البَادِىءِ مِنهُمَا حَتَّى يَعْتَدِي المَظْلُومُ»**(٣)، وقال ﷺ: **«مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالدَيْهِ»**(٤)، وفي رواية: **«مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»** قالوا: يا رسول الله، كيف يسب الرجل والديه؟ قال: **«يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ الآخَرُ أَبَاهُ»**.

الآفة الثامنة: اللعن:

إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم. قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن ليس بلعان»**(٥)، وقال ﷺ: **«لا تَلاعَنُوا بِلَعْنَةِ الله وَلا بِغَضَبِهِ وَلا بِجَهَنَّمَ»**(٦)، وقال حذيفة: ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول. وقال عمران بن حصين: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها، فقال ﷺ: **«خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَأَعْرُوها فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ»**(٧). قال: فكأني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد. وقال أبو الدرداء: ما لعن أحد الأرض إلا قالت: لعن الله أعصانا الله. وقالت عائشة رضي الله عنها: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال: **«يا أبا بكر أصدّيقين ولعانين كلا ورب الكعبة ـ** مرتين أو ثلاثاً ـ**»**(٨)، فأعتق أبو بكر يومئذٍ رقيقه وأتى النبي ﷺ وقال: لا أعود. قال رسول الله ﷺ **«إِنَّ اللَّعَانِينَ لا يَكُونُونَ شُفَعَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(٩)، وقال أنس: كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير، فلعن بعيره فقال ﷺ:

---

(١) حديث عياض بن حمار: قلت: يا رسول الله، الرجل من قومي يسبني وهو دوني، هل عليَّ من بأس أن أنتصر منه؟ فقال **«المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران»** أخرجه أبو داود والطيالسي وأصله عند أحمد.

(٢) حديث: **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) حديث: **«المستبان ما قالا فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم»**. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال: **«ما لم يعتد»**.

(٤) حديث: **«ملعون من سب والديه»** وفي رواية: **«من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه...»** الحديث. أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد، واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبدالله بن عمرو.

الآفة الثامنة: اللعن

(٥) حديث: **«المؤمن ليس بلعان»** تقدم حديث ابن مسعود **«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان...»** الحديث. قبل هذا بأحد عشر حديثاً، وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر: **«لا يكون المؤمن لعاناً»**.

(٦) حديث: **«لا تلاعنوا بلعنة الله»** الحديث. أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٧) حديث عمران بن حصين: **«بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها...»** الحديث. رواه مسلم.

(٨) حديث عائشة: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال: **«يا أبا بكر لعانين وصديقين...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور، وكان أحمد حسن الرأي فيه.

(٩) حديث: **«إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»**. أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء.

«يا عَبْدَ الله لا تَسِرْ مَعَنَا عَلَى بَعِيرٍ مَلْعُونٍ»[1]، وقال ذلك إنكاراً عليه. واللعن: عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عزّ وجلّ وهو الكفر والظلم، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطراً؛ لأنه حكم على الله عزّ وجلّ بأنه قد أبعد الملعون، وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه.

والصفات المقتضية لِلَّعْنِ ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق. واللعن في كل واحدة ثلاث مراتب.

الأولى: اللعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة.

الثانية: اللعن بأوصاف أخص منه كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض، أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا، وكل ذلك جائز. ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر؛ لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع منه العوام؛ لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعاً بين الناس وفساداً.

الثالثة: اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، والتفصيل فيه: أن كل شخص ثبتت لعنته شرعاً فتجوز لعنته كقولك: فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعاً. وأما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله، وهو يهودي مثلاً فهذا فيه خطر؛ فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله فكيف يحكم بكونه ملعوناً؟..

فإن قلت: يلعن لكونه كافراً في الحال كما يقال للمسلم: رحمه الله، لكونه مسلماً في الحال، وإن كان يتصور أن يرتد، فاعلم: أن معنى قولنا: رحمه الله: أي: ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة، ولا يمكن أن يقال: ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة، فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر، بل الجائز أن يقال: لعنه الله إن مات على الكفر، ولا لعنه الله إن مات على الإسلام. وذلك غيب لا يدرى، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر، وليس في ترك اللعن خطر. وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى، فلعن الأعيان فيه خطر؛ لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عين قوماً باللعن فكان يقول في دعائه على قريش: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ»[2]، وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إنّ من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روي: أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهراً فنزل قوله تعالى: «﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]»[3]، يعني: أنهم

---

(١) حديث أنس: كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال: **«يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون»** أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

(٢) حديث: **«اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة»** وذكر جماعة. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) حديث: «أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهراً فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]» أخرجه الشيخان من حديث أنس: «دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحاً...» الحديث. وفي رواية لهما: «قنت شهراً يدعو على رعل وذكوان...» الحديث. ولهما من حديث أبي هريرة: «وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه...» الحديث: وفيه **«اللهم العن لحيان ورعلاً...»** الحديث. وفيه: «ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لفظ مسلم.

ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم، فإن كان لم يجز، كما روي أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مرَّ به وهو يريد الطائف فقال: هذا قبر رجل كان عاتياً على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال: يا رسول الله: هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة، فقال أبو بكر: يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام؟ فقال ﷺ: **«اكْفُفْ عَنْ أَبِي بَكْرٍ»** فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال: **«يا أبا بَكْرٍ إذا ذَكَرْتُمُ الكُفَّارَ فَعَمِّمُوا فَإِنَّكُمْ إذا خَصَصْتُمْ غَضِبَ الأَبْنَاءُ لِلآبَاءِ»** فكف الناس عن ذلك[(١)]. وشرب نعيمان الخمر فحدّ مرات في مجلس رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال ﷺ: **«لا تَكُنْ عَوناً لِلشَّيطَانِ عَلَى أَخِيكَ»**[(٢)]، وفي رواية: **«لا تَقُلْ هٰذا فإِنَّهُ يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ»**، فنهاه عن ذلك، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز. وعلى الجملة: ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب، ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره.

فإن قيل: هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آمر به؟ قلنا: هذا لم يثبت أصلاً، فلا يجوز أن يقال: إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت، فضلاً عن اللعنة، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق. نعم يجوز أن يقال: قتل ابن ملجم علياً وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فإن ذلك ثبت متواتراً. فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق. قال ﷺ: **«لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالكُفْرِ وَلا يَرْمِيهِ بِالفسْقِ إلاّ ارْتَدَّتْ عَلَيهِ إنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذٰلِكَ»**[(٣)]، وقال ﷺ: **«ما شَهِدَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ بِالكُفْرِ إلاّ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُما، إنْ كانَ كافِراً فَهُوَ كَمَا قالَ. وَإنْ لَمْ يَكُنْ كافِراً فَقَدْ كَفَرَ بِتَكْفِيرِه إيَّاهُ»**[(٤)]، وهذا معناه: أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئاً لا كافراً. وقال معاذ:

---

(١) حديث: إن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر مرَّ به وهو يريد الطائف فقال: **«هذا قبر رجل كان عاتياً على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه...»** الحديث. أخرجه أبو داود في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال: **«لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر: لمن هذا القبر؟ قالوا: قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر: لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله...»** الحديث. وفيه: **«فإذا سببتم المشركين فسبوهم جميعاً»**.

(٢) حديث: شرب نعمان الخمر فحد مرات في مجلس رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تكن عوناً للشيطان على أخيك»** وفي رواية: **«لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله»**. أخرجه ابن عبدالبر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلاً، ومحمد هذا ولد في حياته ﷺ وسماه محمداً وكناه عبدالملك. وللبخاري من حديث عمر: أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ كان اسمه عبدالله وكان يلقب حماراً وكان يُضحك رسول الله ﷺ وكان قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي ﷺ: **«لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»** من حديث أبي هريرة في رجل شربه ولم يسم وفيه: **«لا تعينوا عليه الشيطان»** وفي رواية: **«لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»**.

(٣) حديث: **«لا يرمي رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك»** متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق.

(٤) حديث: **«ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه»** أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف.

قال لي رسول الله ﷺ: **«أَنْهَاكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِماً أَوْ تَعْصِيَ إماماً عَادِلاً، وَالتَّعَرُّضُ لِلأَمْوَاتِ أَشَدُّ»**[(١)]، قال مسروق: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت: ما فعل فلان لعنه الله؟ قلت: توفي. قالت: رحمه الله، قلت: وكيف هذا؟ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إلى ما قَدَّمُوا»**[(٢)]، وقال عليه السلام: **«لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا بِهِ الأَحْيَاءَ»**[(٣)]، وقال عليه السلام: **«أَيُّها النَّاسُ احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي وَأَصْهَارِي وَلا تَسُبُّوهُمْ، أَيُّها النَّاسُ إذا مَاتَ المَيِّتُ فَاذْكُرُوا مِنْهُ خَيْراً»**[(٤)].

فإن قيل: فهل يجوز أن يقال: قاتل الحسين لعنه الله؟ أو الآمر بقتله لعنه الله؟ قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله. لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة، فإن وحشياً قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعاً ولا يجوز أن يُلعن، والقتل كبيرة ولا تنتهي إلى رتبة الكفر، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أولى.

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها. والمؤمن ليس بلعان؛ فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين. فالاشتغال بذكر الله أولى، فإن لم يكن ففي السكوت سلامة.

قال مكي بن إبراهيم: كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا: يا بن عون إنما نذكره لما ارتكب منك. فقال: إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلا الله ولعن الله فلاناً، فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله أحبُّ إليَّ من أن يخرج منها لعن الله فلاناً. وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصني فقال: **«أُوصِيكَ أَنْ لا تَكُونَ لَعَّاناً»**[(٥)]. وقال ابن عمر: إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان. وقال بعضهم: لعنُ المؤمن يعدل قتله. وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا: لو قلت إنه مرفوع لم أبال. وعن أبي قتادة قال: كان يقال: **«مَنْ لَعَنَ مُؤْمِناً فَهُوَ مِثْلُ أَنْ يَقْتُلَهُ»**[(٦)]، وقد نقل ذلك حديثاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) حديث معاذ: **«أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصي إماماً عادلاً»** أخرجه أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل.

(٢) حديث عائشة: **«لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»** أخرجه البخاري، وذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة.

(٣) حديث: **«لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء»** أخرجه الترمذي من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجل لم يسم.

(٤) حديث: **«أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبوهم، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيراً»** أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصاري: **«احفظوني في أصحابي وأصهاري»** وإسناده ضعيف، وللشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة: **«لا تسبوا أصحابي»** ولأبي داود والترمذي وقال: غريب من حديث ابن عمر: **«اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم»** وللنسائي من حديث عائشة: **«لا تذكروا موتاكم إلا بخير»** وإسناده جيد.

(٥) حديث: قال رجل: أوصني قال: **«أوصيك أن لا تكون لعاناً»** أخرجه أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرموز الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم.

(٦) حديث: **«لعن المؤمن كقتله»** متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك.

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر، حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلاً: لا صحح الله جسمه ولا سلمه الله، وما يجري مجراه، فإن ذلك مذموم. وفي الخبر: **«إنَّ المَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى الظَّالِمِ حَتَّى يُكَافِئَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(١).

الآفة التاسعة: الغناء والشعر:

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده، وأما الشعر: فكلامٌ حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرّد له مذموم. قال رسول الله ﷺ: **«لَأَنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيحاً حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِىءَ شعراً»**(٢)، وعن مسروق: أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال: أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر. وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال: اجعل مكان هذا ذكراً؛ فإن ذكر الله خير من الشعر. وعلى الجملة: فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره. قال ﷺ: **«إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً»**(٣)، نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب، وقد يدخله الكذب، وقد أمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح(٤)، فإنه وإن كان كذباً فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر:

ولو لم يكن في كفّه غير روحه ... لجادَ بها فليتّقِ الله سَائِلُهْ

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كاذباً، وإن كان سخياً فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته. وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله ﷺ لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه. قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت جالسة أغزل، فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً قالت: فبهتّ فنظر إليَّ فقال: **«ما لَكِ بَهِتِّ؟»** فقلت: يا رسول الله، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره قال: **«وَمَا يَقُولُ يا عَائِشَةُ أَبُو كَبِيرٍ الهُذَلِيُّ»** قلت: يقول هذين البيتين:

ومبرأ من كل غُبَّرِ حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيلِ
وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلّلِ

قال: فوضع ﷺ ما كان بيده وقام إليَّ وقبل ما بين عينيَّ وقال: **«جَزَاكِ الله خَيراً يا عَائِشَةُ ما**

---

(١) حديث: «إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة» لم أقف له على أصل، وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

الآفة التاسعة: الغناء والشعر

(٢) حديث: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلىء شعراً» أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص، واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد.

(٣) حديث: «إن من الشعر لحكمة» تقدم في العلم وفي آداب السماع.

(٤) حديث: «أمره حساناً أن يهجو المشركين». متفق عليه من حديث البراء: أنه ﷺ قال لحسان: «اهجهم وجبريل معك».

سُررْتِ مِنّي كَسُرُورِي مِنْكِ»[١]، ولما قسّم رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره:

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمعِ
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يُرفعِ

فقال ﷺ: «اقْطَعُوا عَنّي لِسَانَهُ» فذهب به أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ثم رجع وهو من أرضى الناس، فقال له ﷺ: «أتَقُولُ فِيّ الشِّعْرِ؟» فجعل يعتذر إليه ويقول: بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر دبيباً على لساني كدبيب النمل، ثم يقرصني كما يقرص النمل فلا أجد بداً من قول الشعر، فتبسم ﷺ وقال: «لا تَدَعُ العَرَبُ الشِّعْرَ حَتّى تَدَعَ الإِبِلُ الحَنِينَ»[٢].

الآفة العاشرة: المزاح:

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه. قال ﷺ: «لا تُمَارِ أَخَاكَ وَلا تُمَازِحْهُ»[٣]، فإن قلت: المماراة فيها إيذاء؛ لأنّ فيها تكذيباً للأخ والصديق أو تجهيلاً له، وأما المزاح فمطايبة، وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه؟ فاعلم: أنّ المنهي عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه. أما المداومة؛ فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه، واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه؛ فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم، كما روي عن

---

(١) حديث عائشة: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت أغزل قالت: «فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً..» الحديث. وفيه إنشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي:

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث. رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(٢) القلائص: الإناث الفتيّة من الإبل. حديث: لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره:

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال ﷺ «اقطعوا عني لسانه» الحديث. أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج، أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ـد بين عيينة والأقرعِ
وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمعِ
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليومَ لا يُرفعِ

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة، وزاد في رواية: أعطى علقمة بن علاثة مائة، وأما زيادة: «اقطعوا عني لسانه» فليست في شيء من الكتب المشهورة.

الآفة العاشرة: المزاح

(٣) حديث: «لا تمار أخاك ولا تمازحه» أخرجه الترمذي، وقد تقدم.

النبي ﷺ أنه قال: «**إنّي لأَمْزَحُ وَلا أَقولُ إلاّ حَقّاً**»[١]، إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرَّجلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ يُضحِكُ بِها جُلَسَاءَهُ يَهوِي بها فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا**»[٢]. وقال عمر رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه. ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَبَكَيتُمْ كَثِيراً وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً**»[٣].
وقال رجل لأخيه: يا أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قيل: فما رؤي ضاحكاً حتى مات. وقال يوسف بن أسباط: أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك. وقيل: أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك. ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال: إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين! وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين!. وكان عبدالله بن أبي يعلى يقول: أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار؟. وقال ابن عباس: من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي. وقال محمد بن واسع: إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من بكائه؟ قيل: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه!. فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكاً، والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السنّ ولا يسمع له صوت. وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ[٤]. قال القاسم مولى معاوية: أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوص له صعب فسلم، فجعل كلما دنا من النبي ﷺ ليسأله يفرّ به. فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون منه، ففعل ذلك مراراً ثم وقصه فقتله فقيل: يا رسول الله، إن الأعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك، فقال: «**نَعَمْ، وَأَفْوَاهُكُمْ مَلأَى مِنْ دَمِهِ**»[٥]. وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه: من مزح استخف به. وقال محمد بن المنكدر: قالت لي أمي: يا بني، لا تمازح الصبيان فتهون عندهم. وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيء فيجترىء عليك. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: اتقوا الله، وإياكم والمزاح؛ فإنه يورث الضغينة ويجرّ إلى القبيح، تحدّثوا بالقرآن وتجالسوا به، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال. وقال عمر رضي الله عنه: أتدرون لم سمي المزاح مزاحاً؟ قالوا: لا، قال: لأنه أزاح صاحبه عن الحق. وقيل: لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح. ويقال: المزاح مسلبة للنهى مقطعة للأصدقاء.

---

(١) حديث: «**إني أمزح ولا أقول إلا حقاً**» تقدم.

(٢) حديث: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا**» تقدم.

(٣) حديث: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**». متفق عليه من حديث أنس وعائشة.

(٤) حديث: «**كان ضحكه التبسم**». تقدم.

(٥) حديث القاسم مولى معاوية: أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوص صعب له فسلم، فجعل كلما دنا إلى النبي ﷺ ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي ﷺ يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله، فقيل: يا رسول الله، إن الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك قال: «**نعم وأفواهكم ملأى من دمه**». أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل.

فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنه؟ فأقول: إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله ﷺ وأصحابه؛ وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذي قلباً ولا تفرّط فيه وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك فيه، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأنّ رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد، وهو خطأ؛ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار. فلا ينبغي أن يغفل عن هذا[(١)]، نعم، روى أبو هريرة أنهم قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا فقال: «**إنّي وَإنْ دَاعَبْتُكُمْ لاَ أَقُولُ إلاَّ حَقّاً**»[(٢)]، وقال عطاء: إنّ رجلاً سأل ابن عباس: أكان رسول الله ﷺ يمزح؟ فقال: نعم، قال: فما كان مزاحه؟ قال: كان مزاحه أنه ﷺ كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها: «**الْبَسِيهِ وَاحْمَدِي وَجُرّي مِنْهُ ذَيْلاً كَذَيْلِ العَرُوسِ**»[(٣)]، وقال أنس: إن النبي ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه[(٤)]، وروي أنه كان كثير التبسم[(٥)]. وعن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فقال لها ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ**» فبكت فقال: «**إنَّكِ لَسْتِ بِعَجُوزٍ يَوْمَئِذٍ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾** [الواقعة: ٣٥، ٣٦]»[(٦)]. وقال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها: أم أيمن جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: «**وَمَنْ هُوَ أَهُوَ الَّذِي بِعَيْنِهِ بَيَاضٌ؟**» قالت: والله ما بعينه بياض فقال: «**بلى إن بعينه بياضاً**» فقالت: لا والله، فقال ﷺ: «**ما من أحد إلا وبعينه بياض**». وأراد به البياض المحيط بالحدقة[(٧)]، وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله احملني على بعير فقال: «**بل نحملك على ابن البعير**» فقالت: ما أصنع به إنه لا يحملني. فقال ﷺ: «**ما مِنْ بَعِيرٍ إلاّ وَهُوَ ابْنُ بَعِيرٍ**»[(٨)]، فكان يمزح به. وقال أنس: كان لأبي طلحة ابن يقال له: أبو عمير وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول: «**يا أَبَا عُمَيْرٍ ما فَعَلَ النُّغَيْرُ**»[(٩)]، لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور. وقالت عائشة رضي الله عنها: خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال: «**تعالي حتى أسابقك**» فشددت درعي على بطني، ثم خططنا خطاً فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال:

---

(١) حديث: «إذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد» تقدم.

(٢) حديث أبي هريرة: قالوا إنك تداعبنا قال: «**إني وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقاً**» أخرجه الترمذي وحسنه.

(٣) حديث عطاء: «إن رجلاً سأل ابن عباس: أكان رسول الله ﷺ يمزح؟ فقال ابن عباس: نعم...» الحديث. فذكر منه قوله لامرأة من نسائه: «البسيه واحمدي وجري منه ذيلاً كذيل العروس» لم أقف عليه.

(٤) حديث أنس: «كان من أفكه الناس» تقدم.

(٥) حديث: «أنه كان كثير التبسم» تقدم.

(٦) حديث الحسن: «**لا يدخل الجنة عجوز**» أخرجه الترمذي في الشمائل هكذا مرسلاً، وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف.

(٧) حديث زيد بن أسلم: في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت: إن زوجي يدعوك: «**أهو الذي بعينه بياض...**» الحديث. أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف.

(٨) حديث: قوله لامرأة استحملته: «**نحملك على ابن البعير...**» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ: «**أنا حاملك على ولد الناقة**».

(٩) حديث أنس: «**يا أبا عمير ما فعل النغير؟**» متفق عليه، وتقدم في أخلاق النبوة.

«هٰذِهِ مَكَانُ ذِي المَجَازِ»(١)، وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذي المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال: «أَعْطِينِيهِ» فأبيت وسعيت وسعى في أثري فلم يدركني. وقالت أيضاً: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملت اللحم سابقني فسبقني، وقال: «هذه بتلك»(٢) وقالت أيضاً رضي الله عنها: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة(٣) وجئت به فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت بيدي من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك(٤). وروي: أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلاً دميماً قبيحاً، فلما بايعه النبي ﷺ قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء ـ وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب ـ، أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوّجها وعائشة جالسة تسمع، فقالت: أهي أحسن أم أنت؟ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه لأنه كان دميماً(٥). وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان ﷺ يدلع لسانه للحسن بن علي عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له، فقال له عيينة بن بدر الفزاري: والله ليكونن لي الابن قد تزوّج وبقل وجهه وما قبلته قط! فقال ﷺ: «إِنّ مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم»(٦). فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان، وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل، وقال ﷺ مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمراً: «أَتَأكُلُ التَّمرَ وَأَنْتَ رَمِدٌ؟» فقال: إنما آكل بالشقّ الآخَرِ يَا رَسُولَ الله. فتبسم ﷺ(٧). قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه. وروي: أن خوّات بن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة،

(١) حديث عائشة: في مسابقته ﷺ في غزوة بدر فسبقها وقال: «هذه مكان ذي المجاز» لم أجد له أصلاً، ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر.

(٢) حديث عائشة: «سابقني فسبقته». أخرجه النسائي وابن ماجه، وقد تقدم في النكاح.

(٣) الحريرة: من الدقيق والسكر والسمن. وتسمى: عصيدة.

(٤) حديث عائشة: «في لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل ﷺ يضحك». أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة، وأبو يعلى بإسناد جيد.

(٥) حديث: «إن الضحاك بن سفيان الكلابي قال: عندي امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة ـ قبل أن يضرب الحجاب ـ فقالت: أهي أحسن أم أنت؟ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك النبي ﷺ لأنه كان دميماً». أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبدالله بن حسن مرسلاً أو معضلاً، وللدارقطني نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة.
والضحاك بن سفيان الكلابي عقد له النبي ﷺ لواءً، كان على صدقات قومه، وكان سيافاً لرسول الله ﷺ.

(٦) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة: أنه ﷺ كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيهش إليه، فقال عيينة بن بدر الفزاري: والله ليكونن لي الابن رجلاً قد خرج وجهه وما قبلته قط فقال: «إن من لا يرحم لا يرحم» أخرجه أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده. وحكى الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك أحدهما: أنه عيينة بن حصن، والثاني: أنه الأقرع بن حابس. وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم».

(٧) حديث: قال لصهيب وبه رمد: «أتأكل التمر وأنت رمد؟» فقال: إنما آكل على الشق الآخر، فتبسم النبي ﷺ. أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات.

فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: «يا أَبَا عَبْدِالله ما لَكَ مَعَ النِّسْوَةِ؟» فقال: يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود، قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثم عاد فقال: «يَا أبا عَبْدِالله أَمَا تَرَكَ ذٰلِكَ الجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ؟»، قال: فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفرّر منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمت المدينة وبعدما قدمت المدينة قال: فرآني في المسجد يوماً أصلي فجلس إليّ فطوّلت فقال: «لا تُطَوِّلْ فإنّي أَنْتَظِرُكَ» فلما سلمت قال: «يا أبا عَبْدِالله أَمَا تَرَكَ ذٰلِكَ الجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ؟» قال: فسكت واستحييت، فقام وكنت بعد ذلك أتفرّر منه، حتى لحقني يوماً وهو على حمار وقد جعل رجليه في شق واحد فقال: «أَبَا عَبْدِالله أَمَا تَرَكَ ذٰلِكَ الجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ؟» فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت فقال: «الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ اللّٰهُمَّ اهْدِ أَبَا عَبْدِالله» قال: فحسن إسلامه وهداه الله(١). وكان نعيمان الأنصاري رجلاً مزاحاً، فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي ﷺ فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة: لعنك الله، فقال النبي ﷺ: «لا تَفْعَلْ فَإِنَّهُ يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ». وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، أعطه ثمن متاعه، فيقول له ﷺ: «أَوَلَمْ تُهْدِهِ لَنَا» فيقول: يا رسول الله، إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه، فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه(٢). فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب.

الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء:

وهذا محرم مهما كان مؤذياً كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحُجرات: ١١]. ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة. قالت عائشة رضي الله عنها: حاكيت إنساناً فقال لي النبي ﷺ: «والله ما أُحِبُّ أنّي حَاكَيْتُ إِنْسَاناً وَلِي كَذَا وَكَذَا»(٣). وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك. وهذا إشارة إلى أن الضحك على

---

(١) حديث: إن خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، فطلع عليه النبي ﷺ فقال: «يا أبا عبدالله ما لك مع النسوة؟» فقال يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود... الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات: ربيعة بن عمرو.
خوات بن جبير الأنصاري، من البدريين. وشهد المشاهد كلها بعد ذلك، روى عن رسول الله ﷺ، مات سنة أربعين.

(٢) حديث: «كان نعيمان رجلاً مزاحاً وكان يشرب الخمر فيؤتى به إلى النبي ﷺ فيضربه...» الحديث. وفيه: «أنه كان يشتري الشيء ويهديه إلى النبي ﷺ ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه..» الحديث. أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة، ومن طريقه ابن عبدالبر من رواية محمد بن حزم مرسلاً، وقد تقدم أوله.

الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء

(٣) حديث عائشة: حاكيت إنساناً فقال لي النبي ﷺ: «ما يسرني أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا» أخرجه أبو داود والترمذي وصححه.

الناس من جملة الذنوب والكبائر. وعن عبدالله بن زمعة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال: «عَلامَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ»[(١)]. وقال ﷺ: «إنَّ المُسْتَهزِئِينَ بِالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ بَابٌ مِنَ الجَنَّةِ فَيُقَالُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ فَإذا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ آخَرُ فَيُقَالُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وغَمِّهِ فَإذَا أتاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَحُ لَهُ البَابُ فَيُقَالُ لَهُ هَلُمَّ هَلُمَّ فلا يَأْتِيهِ»[(٢)]، وقال معاذ بن جبل: قال النبي ﷺ: «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ»[(٣)]. وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له. وعليه نبه قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أي لا تستحقره استصغاراً فلعله خير منك.

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح ـ وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ـ، وإنما المحرم استصغار يتأذى به المسهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون. وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب. فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية للنهي عنها.

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر:

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء. قال النبي ﷺ: «إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ الحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ»[(٤)]، وقال مطلقاً: «الحَدِيثُ بَيْنَكُمْ أَمَانَةٌ»[(٥)]، وقال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك. ويروى أن معاوية رضي الله عنه أسرَّ إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لأبيه: يا أبت إن أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثاً وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك؟ قال: فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه، قال: فقلت: يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه؟ فقال: لا والله يا بني، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر، قال: فأتيت معاوية فأخبرته فقال: يا وليد: أعتقك أبوك من رق الخطأ، فإفشاء السر خيانة.

وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار. وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة.

---

(١) حديث عبدالله بن زمعة: وعظهم في الضحك من الضرطة وقال: «علام يضحك أحدكم مما يفعل» متفق عليه.

(٢) حديث: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم بابٌ من الجنة فيقال هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسلاً، ورويناه في تمنيات النجيب من رواية أبي هدبة أحد الهالكين عن أنس.

(٣) حديث معاذ بن جبل: «من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله» أخرجه الترمذي دون قوله: «قد تاب منه». وقال: حسن غريب وليس إسناده بمتصل. قال الترمذي: قال أحمد بن منيع قالوا: «من ذنب قد تاب منه».

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر

(٤) حديث: «إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر.

(٥) حديث: «الحديث بينكم أمانة» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلاً.

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب:

فإن اللسان سبّاق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء؛ فيصير الوعد خلفاً. وذلك من أمارات النفاق. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] وقال ﷺ: **«العِدَةُ عَطِيَّةٌ»**(١) وقال ﷺ: **«الوَأْيُ مِثْلُ الدَّيْنِ أَوْ أَفْضَلُ»**(٢). والوأي: الوعد. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤] قيل: إنه وعد إنساناً في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي، فبقي إسماعيل اثنين وعشرين يوماً في انتظاره. ولما حضرت عبدالله بن عمر الوفاة قال: إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان إليه مني شبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق! أشهدكم أني قد زوجته ابنتي. وعن عبدالله بن أبي الخنساء قال: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، فنسيت يومي والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه، فقال: **«يا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أنا هاهنا مُنْذُ ثَلاثٍ أَنْتَظِرُكَ»**(٣). وقيل لإبراهيم: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء، قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء. وكان رسول الله ﷺ إذا وعد وعداً قال: **«عسى»**(٤)، وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول: إن شاء الله وهو الأولى.

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: **«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإذا ائْتُمِنَ خَانَ»**(٥). وقال عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: **«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كانَ مُنَافِقاً وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها: إذا حَدَّثَ كَذَبَ وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ وإذا خَاصَمَ فَجَرَ»**(٦)، وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة؛ فقد روي أن رسول الله ﷺ كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادماً، فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحداً،

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب

(١) حديث: **«العدة عطية»** أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلاً.

(٢) حديث: **«الوأي مثل الدين أو أفضل»**. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية ابن لهيعة مرسلاً، وقال: الوأي يعني الوعد، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف.

(٣) حديث عبدالله بن أبي الخنساء: بايعت النبي ﷺ فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فنسيت يومي والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال: **«يا بني قد شققت عليَّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك»** رواه أبو داود واختلف في إسناده وقال ابن مهدي: ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه. وعبدالله بن أبي الخنساء العامريّ.

(٤) حديث: كان إذا وعد وعداً قال: **«عسى»** لم أجد له أصلاً.

(٥) حديث أبي هريرة **«ثلاث من كن فيه فهو منافق...»** الحديث. وفيه: **«إذا وعد أخلف»** متفق عليه، وقد تقدم.

(٦) حديث عبدالله بن عمرو: **«أربع من كن فيه كان منافقاً...»** الحديث. متفق عليه.

فأتت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه خادماً وتقول: ألا ترى أثر الرحى بيدي؟ فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول: «كَيْفَ بِمَوْعِدِي لِأَبِي الهَيْثَم؟»(١) فآثره به على فاطمة ـ لما كان قد سبق من موعده له ـ مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة. ولقد كان ﷺ جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعداً يا رسول الله. قال: «صَدَقْتَ، فَاحْتَكِمْ ما شِئْتَ» قال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها، قال: «هِيَ لَكَ»، وقال: «احْتَكَمْتَ يَسِيراً(٢)، وَلَصَاحِبَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ الَّتِي دَلَّتْهُ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ كانَتْ أَحْزَمَ مِنْكَ وَأَجْزَلَ حُكْماً مِنْكَ حِينَ حَكَّمَها مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَتْ: حُكْمِي أَنْ تَرُدَّنِي شَابَّةً وَأَدْخُلَ مَعَكَ الجَنَّةَ» قيل: فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعلا مثلاً فقيل: أشح من صاحب الثمانين والراعي. وقد قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الخُلْفُ أَنْ يَعِدَ الرَّجُلَ الرَّجُلَ وَفِي نِيَّتِهِ أَنْ يَفِيَ»(٣). وفي لفظ آخر: «إِذا وَعَدَ الرَّجُلَ أَخاهُ وَفِي نِيَّتِهِ أَنْ يَفِيَ فَلَمْ يَجِدْ، فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ».

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين:

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب. قال إسماعيل بن واسط: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أوّل ـ ثم بكى ـ وقال: «إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ»(٤)، وقال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الكَذِبَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النِّفَاقِ»(٥)، وقال الحسن: كان يقال: إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج، وإن الأصل الذي بني عليه النفاق الكذب. وقال عليه السلام: «كَبُرَتْ خِيانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخاكَ حَدِيثاً هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كاذِبٌ»(٦). وقال ابن مسعود: قال

---

(١) حديث: «كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادماً؛ فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحداً، فجاءت فاطمة تطلب منه...» الحديث. وفيه فجعل يقول: «كيف بموعدي لأبي الهيثم؟» فآثره به على فاطمة. تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة.

(٢) حديث: أنه كان جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال: إن لي عندك موعداً، قال: «صدقت فاحتكم ما شئت...» الحديث. وفيه: «الصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك...» الحديث. أخرجه ابن حبان والحاكم في المستدرك من حديث أبي موسى مع اختلاف، قال الحاكم: صحيح الإسناد وفيه نظر.

(٣) حديث: «ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي» وفي لفظ آخر: «إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه» أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قالا: «فلم يف».

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين.

(٤) حديث أبي بكر الصديق: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أول ـ ثم بكى ـ وقال: «إياكم والكذب...» الحديث. أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة، وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر، وإنما هو أوسط بن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن.

(٥) حديث أبي أمامة: «إن الكذب باب من أبواب النفاق». أخرجه ابن عدي في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهي ضعيف جداً ويغني عنه قوله ﷺ «ثلاث من كن فيه فهو منافق»، وحديث «أربع من كن فيه كان منافقاً» قال في كل منهما: «إذا حدث كذب» وهما في الصحيحين، وقد تقدما في الآفة التي قبلها.

(٦) حديث: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب» أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد، وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدي، ورواه أحمد والطبراني من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد.

النبي ﷺ: «لا يَزالُ العَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً»(١)، ومرَّ رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان، يقول أحدهما: والله لا أنقصك من كذا وكذا، ويقول الآخر: والله لا أزيدك على كذا وكذا، فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال: «أَوْجَبَ أَحَدُهُمَا بالإِثْمِ وَالكَفَّارَةِ»(٢)، وقال عليه السلام: «الكَذِبُ يُنقِصُ الرِّزْقَ»(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ التُّجّارَ هُمُ الفُجّارُ» فقيل: يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال: «نَعَمْ وَلٰكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ فَيأْثَمُونَ وَيُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ»(٤)، وقال ﷺ: «ثَلاثَةٌ نَفَرٍ لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيهِمْ: المَنَّانُ بِعَطِيَّتِهِ وَالمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الفاجِرِ وَالمُسْبِلُ إِزارَهُ»(٥)، وقال ﷺ: «ما حَلَفَ حالِفٌ بالله فأَدْخَلَ فِيها مِثْلَ جَناحِ بَعوضَةٍ إلاّ كانَتْ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ»(٦)، وقال أبو ذر قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ يُحِبُّهُمُ الله: رَجُلٌ كَانَ فِي فِئَةٍ فَنَصَبَ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَفْتَحَ الله عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارُ سُوءٍ يُؤْذِيهِ فَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ، وَرَجُلٌ كَانَ مَعَهُ قَوْمٌ فِي سَفَرٍ أَوْ سَرِيَّةٍ فَأَطَالُوا السُّرَى حَتَّى أَعْجَبَهُمْ أَنْ يَمَسُّوا الأَرْضَ فَنَزَلُوا فَتَنَحَّى يُصَلِّي حَتَّى يُوقِظَ أَصْحَابَهُ لِلرَّحِيلِ. وَثَلاثَةٌ يَشْنَؤهُمُ الله: التَّاجِرُ أَوِ البَيَّاعُ الحَلاَّفُ، وَالفَقِيرُ المُخْتالُ وَالبَخِيلُ المَنَّانُ»(٧)، وقال ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ»(٨)، وقال ﷺ: «رَأَيْتُ كَأَنَّ رَجُلاً جَاءَنِي فَقَالَ لِي: قُمْ فَقُمْتُ مَعَهُ، فَإِذا أَنَا بِرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا قَائِمٌ وَالآخَرُ جَالِسٌ، بِيَدِ القَائِمِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُلْقِمُهُ فِي شِدْقِ الجَالِسِ فَيَجْذِبُهُ حَتَّى يَبْلُغَ كَاهِلَهُ، ثُمَّ يَجْذِبُهُ فَيُلْقِمُهُ الجَانِبَ الآخَرَ فَيَمُدُّهُ فَإِذا مَدَّهُ رَجَعَ الآخَرُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ لِلَّذِي أَقامَنِي: ما هٰذا؟ فَقَالَ: هٰذا رَجُلٌ كَذَّابٌ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ»(٩). وعن عبدالله بن جراد قال: سألت

---

(١) حديث ابن مسعود: «لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» متفق عليه.

(٢) حديث: «مرَّ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان...» الحديث. وفيه فقال: «أوجب أحدهما بالإثم والكفارة» أخرجه أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي، وهكذا رويناها في أمالي ابن سمعون، وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ، وقال أبو حاتم: هو عبدالله بن ناسخ.

(٣) حديث: «الكذب ينقص الرزق». أخرجه أبو الشيخ في طبقات الأصبهانيين من حديث أبي هريرة، ورويناه كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر وإسناده ضعيف.

(٤) حديث: «إن التجار هم الفجار...» الحديث. وفيه: «ويحدثون فيكذبون» أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبدالرحمن بن شبل.

(٥) حديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمسبل إزاره». أخرجه مسلم من حديث أبي ذر.

(٦) حديث: «ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة» أخرجه الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث عبدالله بن أنيس.

(٧) حديث أبي ذر: «ثلاثة يحبهم الله...» الحديث. وفيه: «وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الحلاف». أخرجه أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولا يعرف حاله، ورواه هو والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد، وللنسائي من حديث أبي هريرة: «أربعة يبغضهم الله البياع الحلاف...» الحديث. وإسناده جيد.

(٨) حديث: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له». أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي في الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

(٩) حديث: «رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي: قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس...» الحديث. أخرجه البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث طويل.

رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: هل يزني المؤمن؟ قال: **«قَدْ يَكُونُ ذٰلِكَ»**. قال: يا نبي الله هل يكذب المؤمن؟ قال: **«لا»**[(١)]، ثم أتبعها ﷺ بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]. وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يدعو فيقول في دعائه: **«اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ وَفَرْجِي مِنَ الزِّنَى وَلِسَانِي مِنَ الكَذِبِ»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»**[(٣)]، وقال عبدالله بن عامر: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي: يا عبدالله تعال حتى أعطيك فقال ﷺ: **«وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ»** قالت: تمراً، فقال: **«أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي لَكُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ»**[(٤)]، وقال ﷺ: **«لَوْ أَفَاءَ الله عَلَيَّ نِعَماً عَدَدَ هٰذا الحَصَى لَقَسَمْتُها بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذَّاباً وَلا جَبَاناً»**[(٥)]، وقال ﷺ وكان متكئاً: **«ألاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِالله وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»** ثم قعد وقال: **«ألاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»**[(٦)]، وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ العَبْدَ لَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ لِيَتَبَاعَدُ المَلَكُ عَنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتْنِ ما جَاءَ بِهِ»**[(٧)]، وقال أنس: قال النبي ﷺ: **«تَقَبَّلُوا إِلَيَّ بِسِتٍّ أَتَقَبَّلْ لَكُمْ بِالجَنَّةِ»** فقالوا: وما هن؟ قال: **«إِذا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلا يَكْذِبْ وَإِذا وَعَدَ فَلا يُخْلِفْ وَإِذا اؤْتُمِنَ فَلا يَخُنْ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»**[(٨)]. وقال ﷺ: **«إِنَّ لِلشَّيْطَانِ كُحْلاً وَلَعُوقاً وَنُشُوقاً: أَمَّا لَعُوقُهُ فَالكَذِبُ، وَأَمَّا نُشُوقُهُ فَالغَضَبُ، وَأَمَّا كُحْلُهُ فَالنَّوْمُ»**[(٩)]. وخطب عمر رضي الله عنه

---

(١) حديث عبدالله بن جراد: «أنه سأل النبي ﷺ: هل يزني المؤمن؟ قال: **«قد يكون من ذلك»** قال: هل يكذب؟ قال: **«لا»**. . .» الحديث. أخرجه ابن عبدالبر في التمهيد بسند ضعيف، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصراً على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء. وعبدالله بن جُراد العامري من أهل الطائف. روى عن أبي هريرة.

(٢) حديث أبي سعيد: **«اللهم طهّر قلبي من النفاق وفرجي من الزنى ولساني من الكذب»** هكذا وقع في نسخ الإحياء عن أبي سعيد وإنما هو عن أم معبد، وكذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله: **«وفرجي من الزنى»** وزاد: **«وعملي من الرياء وعيني من الخيانة»** وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: **«ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم. . .»** الحديث. وفيه: **«والإمام الكذاب»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث عبدالله بن عامر: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي: يا عبدالله تعال أعطيك فقال: **«وما أردت أن تعطيه؟»** قالت: تمراً فقال: **«إن لم تفعلي كتبت عليك كذبة»**. رواه أبو داود وفيه: «من لم يسمّ»، عبدالله بن عامر ـ أبو محمد ـ، كان عمره خمس سنوات عندما توفي النبي ﷺ، مات سنة بضع وثمانين. وقال الحاكم: إن عبدالله بن عامر ولد في حياته ﷺ ولم يسمع منه.
قلت: وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة.

(٥) حديث: **«لو أفاء الله عليّ نعماً عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً»** رواه مسلم، وتقدم في أخلاق النبوة.

(٦) حديث: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر. .»** الحديث. وفيه: **«ألا وقول الزور»** متفق عليه من حديث أبي بكرة.

(٧) حديث ابن عمر: **«إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به»** أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٨) حديث أنس: **«تقبلوا إليّ بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب. . .»** الحديث. أخرجه الحاكم في المستدرك والخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي، ووثقه ابن معين، ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال: صحيح الإسناد.

(٩) حديث: **«إن للشيطان كحلاً ولعوقاً. . .»** الحديث. أخرجه الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف، وقد تقدم.

يوماً فقال: قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي هذا فيكم فقال: «**أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ عَلَى اليَمِينِ وَلَمْ يُسْتَحْلَفْ وَيَشْهد وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ**»[١]، وقال النبي ﷺ: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِين**»[٢]، وقال ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِإِثْم لِيَقْتَطِعَ بِها مَالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»[٣]، وروي عن النبي ﷺ «أَنَّهُ رَدَّ شَهَادَةَ رَجُلٍ في كذبةٍ كَذَبَهَا»[٤]، وقال ﷺ: «**كُلُّ خَصْلَةٍ يُطْبَعُ أَوْ يُطْوى عَلَيْهَا المُسْلِمُ إِلاَّ الخِيَانَةَ وَالكَذِب**»[٥]، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب، فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عزّ وجلّ منها[٦]. وقال موسى عليه السلام: يا رب، أي عبادك خير لك عملاً؟ قال: من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه. وقال لقمان لابنه: يا بني، إياك والكذب فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه. وقال عليه السلام في مدح الصدق: «**أَرْبَعٌ إِذا كُنَّ فِيكَ لا يَضُرُّكَ ما فَاتَكَ مِن الدُّنيَا: صِدْقُ الحَدِيثِ وَحِفْظُ الأَمَانَةِ وَحُسْنُ خُلُقٍ وَعِفَّةُ طُعْمَةٍ**»[٧]، وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة بعد وفاة رسول الله ﷺ: قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامي هذا عام أول ـ ثم بكى ـ وقال: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ البر وَهُمَا فِي الجَنَّةِ**»[٨]، وقال معاذ: قال لي رسول الله ﷺ: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله وَصِدْقِ الحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ وَبَذْلِ السَّلامِ وَخَفْضِ الجَنَاحِ**»[٩].

---

(١) حديث: «خطب عمر بالجابية...» الحديث. وفيه: «**ثم يفشو الكذب**» أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر.

(٢) حديث: «**من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين**» أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب.

(٣) حديث: «**من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم...**» الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٤) حديث: «**أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها**». أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلاً وموسى روى معمر عنه مناكير، قاله أحمد بن حنبل.

(٥) حديث علي: «**كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب**» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدي في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضاً وأبي أمامة أيضاً ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في العلل.

(٦) حديث: «ما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة». أخرجه أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره، وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة: ولم يشك وهو صحيح.

(٧) حديث: «**أربع إذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث...**» الحديث. أخرجه الحاكم والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عبدالله بن عمرو وفيه ابن لهيعة.

(٨) حديث أبي بكر «**عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة**» أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة، وقد تقدم بعضه في أول هذا النوع.

(٩) حديث معاذ: «**أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث**» أخرجه أبو نعيم في الحلية، وقد تقدم.

وأما الآثار: فقد قال علي رضي الله عنه: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه: ما كذبت كذبة منذ شددت عليَّ إزاري. وقال عمر رضي الله عنه: أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسماً، فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقاً، فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة. وعن ميمون بن أبي شبيب قال: جلست أكتب كتاباً فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت، فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقال الشعبي: ما أدري أيهما أبعد غوراً في النار الكذاب أو البخيل؟. وقال ابن السماك: ما أراني أؤجر على ترك الكذب لأني إنما أدعه أنفة. وقيل لخالد بن صبيح: أيسمى الرجل كاذباً بكذبة واحدة؟ قال: نعم. وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب: ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله؛ فإن كان صادقاً صدق، وإن كان كاذباً قرضت شفتاه بمقاريض من نار، كلما قرضتا نبتتا. وقال مالك بن دينار: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه. وكلم عمر بن عبدالعزيز الوليدَ بن عبدالملك في شيء فقال له: كذبت، فقال عمر: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه.

بيان ما رخص فيه من الكذب:

اعلم: أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، فإن أقل درجاته: أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه، وربما كان واجباً.

قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك فقال: أرأيت فلاناً؟ ما كنت قائلاً؟ ألست تقول: لم أره؟ وما تصدق به. وهذا كذب واجب.

فنقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً، وواجب إن كان المقصود واجباً، كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حدّ الضرورة، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة.

والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها(١)، وقالت أيضاً: قال رسول الله ﷺ: **«لَيسَ بِكَذَّابٍ مَن**

(١) حديث أم كلثوم: «ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث». أخرجه مسلم، وقد تقدم.
أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط المهاجرة المبايعة الممتحنة.

أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً أَوْ نَمَى خَيْراً»[١] وقالت أسماء بنت يزيد: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ الكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إلاَّ رَجُلٌ كَذَبَ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا**»[٢]، وروي عن أبي كاهل قال: وقع بين اثنين من أصحاب النبي ﷺ كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت: ما لك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا، ثم قلت: أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت النبي ﷺ فقال: «**يا أبا كَاهِلٍ أَصْلِحْ بَيْنَ النَّاسِ**»[٣]. أي ولو بالكذب. وقال عطاء بن يسار: قال رجل للنبي ﷺ: أكذب على أهلي؟ قال: «**لا خَيْرَ فِي الكَذِبِ**» قال: أعدها وأقول لها؟ قال: «**لا جُنَاحَ عَلَيْكَ**»[٤].

وروي أن ابن أبي عذرة الدؤلي ـ وكان في خلافة عمر رضي الله عنه ـ كان يخلع النساء اللاتي يتزوّج بهن، فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها، فلما علم بذلك أخذ بيد عبدالله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله، ثم قال لامرأته: أنشدك بالله هل تبغضيني؟ قالت: لا تنشدني، قال: فإني أنشدك الله، قالت: نعم، فقال لابن الأرقم: أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال: إنكم لتحدّثون أني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم، فسأله فأخبره، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال: أنت التي تحدّثين لزوجك أنك تبغضينه؟ فقالت: إني أوّل من تاب وراجع أمر الله تعالى، إنه ناشدني فتحرّجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم فاكذبي، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدّثه بذلك، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب.

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما لِي أَرَاكُمْ تَتَهَافَتُونَ فِي الكَذِبِ تَهَافُتَ الفَرَاشِ فِي النَّارِ؟ كُلُّ الكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ لا مَحَالَةَ إلاَّ أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الحَرْبِ، فَإِنَّ الحَرْبَ خُدْعَةٌ، أَوْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ شَحْنَاءُ فَيُصْلِحَ بَيْنَهُما، أَوْ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ يُرْضِيها**»[٥]، وقال ثوبان: الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلماً أو دفع عنه ضرراً. وقال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن النبي ﷺ فلأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة.

---

(١) حديث أم كلثوم أيضاً: «**ليس بكذاب من أصلح بين الناس...**» الحديث. متفق عليه، وقد تقدم، والذي قبله عند مسلم بعض هذا.

(٢) حديث أسماء بنت يزيد: «**كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما**». أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذي مختصراً وحسنه. أسماء بنت يزيد بن السكن الانصارية.

(٣) حديث أبي كاهل: «وقع بين رجلين من أصحاب النبي ﷺ كلام...» الحديث. وفيه «**يا أبا كاهل أصلح بين الناس**» رواه الطبراني ولم يصح.

(٤) حديث عطاء بن يسار: قال رجل للنبي ﷺ: أكذب على أهلي؟ قال: «**لا خير في الكذب**» قال: أعدها وأقول لها، قال: «**لا جناح عليك**» أخرجه ابن عبدالبر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلاً، وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم معضلاً من غير ذكر عطاء بن يسار.

(٥) حديث النواس بن سمعان: «**ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار؟ كل الكذب مكتوب...**» الحديث. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بلفظ: «**تتبايعون**» إلى قوله: «**في النار**» دون ما بعده، فرواه الطبراني وفيهما شهر بن حوشب.

النواس بن سمعان الكلابي، قال عنه في الإصابه: له ولأبيه صُحبة، وحديثه عند مسلم في صحيحه.

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره. أما ماله: فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك، فيقول: ما زنيت وما سرقت. وقال ﷺ: «مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئاً مِنْ هٰذِهِ القَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ الله»[(١)]، وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً.

وأما عرض غيره: فبأن يُسأل عن سر أخيه فله أن ينكره، وأن يصلح بين اثنين، وأن يصلح بين الضرات من نسائه؛ بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به. ولكن الحدّ فيه: أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور. فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشدّ وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة، فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذوراً، حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات، وذلك حرام. وقالت أسماء: سمعت امرأة سألت رسول الله ﷺ قالت: إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك فهل علي شيء فيه؟ فقال ﷺ: «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَي زُورٍ»[(٢)]، وقال ﷺ: «مَنْ تَطَعَّمَ بِمَا لا يُطْعَمُ أَوْ قَالَ لِي وَلَيْسَ لَهُ أَوْ أُعْطِيتُ وَلَمْ يُعْطَ فهو كَلابِسِ ثَوْبَي زُورٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٣)]، ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه، وروايته الحديث الذي لا يتثبته، إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه، فهو لذلك يستنكف من أن يقول: لا أدري، وهذا حرام. ومما يلتحق بالنساء الصبيان، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحاً. نعم، روينا في الأخبار أن ذلك يكتب كذباً، ولكن الكذب المباح أيضاً قد يكتب ويحاسب عليه، ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه، وإنما يتعلل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب. وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا؟

---

(١) حديث: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله» أخرجه الحاكم من حديث عمر بلفظ: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله» وإسناده حسن.

(٢) حديث أسماء: «قالت امرأة: إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل...» الحديث. متفق عليه وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق.

(٣) حديث: «من تطعم بما لا يطعم وقال لي وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة» لم أجده بهذا اللفظ.

وذلك غامض جداً، والحزم تركه إلا أن يصير واجباً بحيث لا يجوز تركه كما لو أدّى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان.

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض؛ إذ قال ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١)، وهذا لا يرتكب إلا لضرورة، ولا ضرورة إذ في الصدّق مندوحة عن الكذب، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها. وقول القائل: إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه، وما هو جديد فوقعه أعظم، فهذا هوس؛ إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى، ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلاً. والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء. نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين.

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض:

قد نقل عن السلف: أن في المعاريض مندوحة عن الكذب. قال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب. وروي ذلك عن ابن عباس وغيره. وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً، ولكن التعريض أهون. ومثال التعريض: ما روي أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال: ما رفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله. وقال إبراهيم: إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل: إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء. فيكون قوله: «ما» حرف نفي عند المستمع، وعنده للإبهام. وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته: «ما جئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء. فقال: كان عندي ضاغط، قالت: كنت أميناً عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه. فبعث عمر معك ضاغطاً؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذاً وقال: بعثت معك ضاغطاً؟ قال: لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئاً فقال: أرضها به ـ ومعنى قوله ضاغطاً يعني رقيباً وأراد به الله تعالى ـ وكان النخعي لا يقول لابنته: أشتري لك سكراً، بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكراً؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك. وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس ها هنا كيلا يكون كذباً. وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية: ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ها هنا. وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة كما روى عبدالله بن عتبة قال: دخلت مع أبي على عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه فخرجت وعليّ ثوب، فجعل الناس يقولون: هذا كساكه أمير المؤمنين؟ فكنت أقول: جزى الله أمير المؤمنين خيراً، فقال لي أبي: يا بني: اتق الكذب وما أشبهه، فنهاه عن ذلك لأنّ فيه تقريراً لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة. وهذا غرض باطل لا فائدة فيه.

نعم، المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ

---

(١) حديث: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» متفق عليه من طرق، وقد تقدم في العلم.

عَجُوزٌ»(١)، وقوله للأخرى: «الَّذِي فِي عَيْنِ زَوْجِكِ بَيَاضٌ» وللأخرى: «نَحْمِلُكَ عَلَى وَلَدِ البَعِيرِ»، وما أشبهه. وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضرير إذ قال له: إنه نعيمان، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمقى بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك؛ فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصَف صاحبها بالفسق، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه. قال ﷺ: «لا يَكْمُلُ لِلْمَرْءِ الإيمانُ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَحَتَّى يَجْتَنِبَ الكَذِبَ فِي مُزَاحِهِ»(٢)، وأما قوله عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لِيُضْحِكَ بِها النَّاسَ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا»(٣)؛ أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح.

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق: ما جرت به العادة في المبالغة كقوله: طلبتك كذا وكذا مرة، وقلت لك كذا مائة مرة، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب. ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال: كُلِ الطعام، فيقول: لا أشتهيه. وذلك منهي عنه وهو حرام، وإن لم يكن فيه غرض صحيح. قال مجاهد: قالت أسماء بنت عميس، كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ومعي نسوة قالت: فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحاً من لبن، فشرب ثم ناوله عائشة، قالت: فاستحيت الجارية فقلت: لا تردّي يد رسول الله ﷺ خذي منه، قالت: فأخذت منه على حياء فشربت منه، ثم قال: «ناولي صواحبك» فقلن: لا نشتهيه، فقال: «لا تَجْمَعْنَ جُوعاً وَكَذِباً» قالت: فقلت: يا رسول الله: إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه: لا أشتهيه أيعد ذلك كذباً؟ قال: «إِنَّ الكَذِبَ لَيُكْتَبُ كَذِباً، حَتَّى تُكْتَبَ الكُذَيْبَةُ كُذَيْبَةً»(٤)، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب.

قال الليث بن سعد: كانت عينا سعد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه، فقال له: لو مسحت عينيك؟ فيقول: وأين قول الطبيب: لا تمس عينيك؟ فأقول: لا أفعل. وهذه مراقبة أهل

---

(١) حديث: «لا يدخل الجنة عجوز» وحديث: «في عين زوجك بياض» وحديث: «نحملك على ولد البعير» تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة.

(٢) حديث: «لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه» ذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الذماري وقال: فيه نظر، وللشيخين من حديث أنس: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة: «لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه» قال أحمد بن حنبل: منكر.

(٣) حديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوي بها أبعد من الثريا» تقدم في الآفة الثالثة.

(٤) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس: «كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ...». الحديث. وفيه: قال: «لا تجمعن جوعاً وكذبا». أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، والطبراني في الكبير، وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب، فإن أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة، لكن في طبقات الأصبهانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس: «زففنا إلى النبي ﷺ بعض نسائه...» الحديث. فإذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك.

أسماء بنت عميس: زوجة جعفر بن أبي طالب، تزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد استشهاد جعفر في مؤتة، فولدت له محمد بن أبي بكر.

الورع. ومن تركه انسل لسانه في الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر. وعن خوات التيمي قال: جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يا بني؟ فجلس الربيع وقال: أرضعتيه؟ قالت: لا، قال: ما عليك لو قلت، يا ابن أخي فصدقت؟ ومن العادة أن يقول: يعلم الله فيما لا يعلمه. قال عيسى عليه السلام: إن من [أعظم] الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم، لما لا يعلم. وربما يكذب في حكاية المنام، والإثم فيه عظيم، إذ قال عليه السلام: **«إنَّ مِنْ أَعْظَمِ الفِرْيَةِ أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ إلى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ فِي المَنَامِ مَا لَمْ يَرَ أَوْ يَقُولَ عَلَيَّ مَا لَم أَقُلْ»**(١). وقال عليه السلام: **«مَنْ كَذَبَ فِي حُلُمٍ كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ بَيْنَهما أَبَداً»**(٢).

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة:

والنظر فيها طويل، فلنذكر أولاً مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحُجرَات: ١٢]، وقال عليه السلام: **«كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»**(٣)، والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم. وقال أبو برزة: قال عليه السلام: **«لا تَحَاسَدُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَفَاحَشُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً»**(٤)، وعن جابر وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَالْغِيبَةَ فَإِنَّ الغِيبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَى، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَزْنِي وَيَتُوبُ فَيَتُوبُ الله سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ وَإِنَّ صَاحِبَ الغِيبَةِ لا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ»**(٥)، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: **«مَرَرْتُ لَيْلَةَ سرى بِي عَلَى أَقْوَامٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ بِأَظَافِيرِهِمْ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤلاءِ؟ قَالَ: هَؤلاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»**(٦)، وقال سليم بن جابر: أتيت النبي عليه الصلاة والسلام فقلت: علمني خيراً أنتفع به، فقال: **«لا تُحَقِّرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَصُبَّ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ المُسْتَقِي، وَأَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِبِشْرٍ حَسَنٍ وَإِنْ أَدْبَرَ فَلا تَغْتَابَنَّهُ»**(٧)، وقال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال: **«يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لا تَغْتَابُوا**

---

(١) حديث: **«إن من أعظم الفري أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يري عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول عليّ ما لم أقل»**. أخرجه البخاري من حديث واثلة بن الأسقع، وله من حديث ابن عمر: **«من أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تريا»**.

(٢) حديث: **«من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرة»** أخرجه البخاري من حديث ابن عباس.

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة

(٣) حديث: **«كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث أبي هريرة **«لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً»**. متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله: **«ولا يغتب بعضكم بعضاً»**، وقد تقدم في آداب الصحبة.

(٥) حديث جابر وأبي سعيد: **«إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنى...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وابن حبان في الضعفاء، وابن مردويه في التفسير.

(٦) حديث أنس **«مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم...»** الحديث. أخرجه أبو داود مسنداً ومرسلاً؛ والمسند أصح.

(٧) حديث سليم بن جابر: **«أتيت رسول الله ﷺ فقلت علمني خيراً ينفعني الله به...»** الحديث. أخرجه أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له، ولم يقل فيه أحمد **«وإذا أدبر فلا تغتابنه»** وفي إسنادهما ضعف.

المُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»(١). وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أوّل من يدخل النار. وقال أنس: أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم فقال: «**لا يُفْطِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى آذَنَ لَهُ**» فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء فيقول: يا رسول الله، ظللت صائماً فائذن لي لأفطر؛ فيأذن له، والرجل والرجل، حتى جاء رجل فقال: يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا. فأعرض عنه ﷺ ثم عاوده فأعرض عنه، ثم عاوده فقال: «**إِنَّهُمَا لَمْ يَصُومَا وَكَيفَ يَصُومُ مَنْ ظَلَّ نَهَارَهُ يَأْكُلُ لَحْمَ النَّاسِ؟ اذْهَبْ فَمُرْهُما إِنْ كَانَتَا صَائِمَتَيْنِ أَنْ تَسْتَقِيئا**»، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ بَقِيَتَا فِي بُطُونِهِمَا لأَكَلَتْهُمَا النَّارُ**»(٢)، وفي رواية: أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال: يا رسول الله، والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا، فقال ﷺ: «**ائْتُونِي بهما**» فجاءتا فدعا رسول الله ﷺ بقدح فقال لإحداهما: «**قِيئِي**» فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح، وقال للأخرى: «**قِيئِي**» فقاءت كذلك، فقال: «**إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ الله لَهُمَا وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ الله عَلَيْهِما، جَلَسَتْ إِحْدَاهُما إِلَى الأُخْرَى فَجَعَلَتَا تَأْكُلانِ لُحُومَ النَّاسِ**»(٣)، وقال أنس: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظم شأنه فقال: «**إِنَّ الدِّرْهَمَ يُصِيبُهُ الرَّجُلُ مِنَ الرِّبَا أَعْظَمُ عِنْدَ الله فِي الخَطِيئَةِ مِنْ سِتٍ وَثَلاثِينَ زَنْيَةٍ يَزْنِيها الرَّجُلُ وَأَرْبَى الرِّبَا عِرْضُ المُسْلِم**»(٤)، وقال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال: «**إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغْتَابُ النَّاسَ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ**»، فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال: «**أَمَا إِنَّهُ سَيُهَوَّنُ مِنْ عَذَابِهِمَا مَا كَانَتَا رَطْبَتَيْنِ ـ أَوْ مَا لَمْ يَيْبَسَا ـ**»(٥). ولما رجم رسول الله ﷺ ماعزاً في الزنى قال رجل لصاحبه: هذا أقعص كما يقعص الكلب، فمرّ ﷺ وهما معه بجيفة فقال: «**انْهَشَا مِنْهَا**» فقالا: يا رسول الله، ننهش جيفة؟ فقال: «**مَا أَصَبْتُما مِنْ أَخِيكُمَا أَنْتَن مِنْ**

---

(١) حديث البراء «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد.

(٢) حديث أنس: أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال «**لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس...**» الحديث. «في ذكر المرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وابن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه، ويزيد ضعيف.

(٣) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه: «**إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما...**» الحديث. أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المبهم.

(٤) حديث أنس: «خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه...» الحديث. وفيه: «**وأربى الربا عرض الرجل المسلم**» أخرجه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف.

(٥) حديث جابر: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال: «**أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يغتاب الناس...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب بإسناد جيد، وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة وللطيالسي فيه: «**أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس**» ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة نحوه بإسناد جيد.

هٰذِهِ»[١]، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة، ويرون ذلك أفضل الأعمال، ويرون خلافه عادة المنافقين. وقال أبو هريرة: من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة، وقيل له: كله ميتاً كما أكلته حياً، فيأكله فينضج ويكلح[٢]، وروي مرفوعاً كذلك. وروي أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثاً فترك ذلك. فقالا: لقد بقي فيه منه شيء، وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس، فحاك في أنفسهما ما قالا، فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين. وعن مجاهد أنه قال في ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهُمَزة: ١] الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الذي يأكل لحوم الناس. وقال قتادة: ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول. وقال الحسن: والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد. وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس. وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك. وقال أبو هريرة: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه. وكان الحسن يقول: ابن آدم، إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا. وقال مالك بن دينار: مرَّ عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون: ما أنتن ريح هذا الكلب! فقال عليه الصلاة والسلام: ما أشدّ بياض أسنانه! كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلاً يغتاب آخر فقال له: إياك والغيبة؛ فإنها إدام كلاب الناس. وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء. نسأل الله حسن التوفيق لطاعته.

بيان معنى الغيبة وحدودها:

اعلم: أن حدَّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة، وجميع ما يتصوّر أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان. وأما النسب: فبأن تقول: أبوه نبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكاف، أو زبال، أو شيء مما يكرهه كيفما كان. وأما الخلق: فبأن تقول: هو سيىء الخلق بخيل متكبر مراء، شديد الغضب جبان عاجز، ضعيف القلب متهوّر وما يجري مجراه. وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك: هو سارق أو كذاب أو شارب خمر، أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود، أو لا يحترز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها

---

(١) حديث: قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال: «انهشا منها...» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد جيد.

(٢) حديث أبي هريرة: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتاً كما أكلته حياً...» الحديث. أخرجه ابن مردويه في التفسير مرفوعاً، وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنعنة.

أو لا يحسن قسمها، أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس. **وأما فعله المتعلق بالدنيا**: فكقولك: إنه قليل الأدب متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً، أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو أنه كثير الكلام نؤوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه. **وأما في ثوبه**: فكقولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب.

وقال قوم: لا غيبة في الدين؛ لأنه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز، بدليل ما روي أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال: **«هِيَ فِي النَّارِ»**(١)، وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال: **«فَمَا خَيْرُهَا إِذَنْ»**(٢). فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضهم التنقيص، ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول ﷺ، والدليل عليه: إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله ﷺ في حد الغيبة.

وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه، بدليل ما روي أن النبي ﷺ قال: **«هَلْ تَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ»** قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقوله؟ قال: **«إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»**(٣) وقال معاذ بن جبل: ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا: ما أعجزه! فقال ﷺ: **«اغتبتم أخاكم»**. قالوا: يا رسول الله قلنا ما فيه، قال: **«إِنْ قُلْتُمْ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَتُّمُوهُ»**(٤)، وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة فقالت: إنها قصيرة فقال ﷺ: **«اغْتَبْتِيهَا»**(٥). وقال الحسن: ذكر الغير ثلاثة: الغيبة والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله عزّ وجلّ؛ فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك، وذكر ابن سيرين رجلاً فقال: ذاك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله إني أراني قد اغتبته. وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور. وقالت عائشة: لا يغتابن أحدكم أحداً؛ فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي ﷺ إن هذه لطويلة الذيل فقال لي: **«الْفُظِي الْفُظِي»** فلفظت مضغة لحم(٦).

---

(١) حديث: ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذي جيرانها فقال: **«هي في النار»** أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال: **«فما خيرها إذن»** أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسلاً، ورويناه في أمالي ابن شمعون هكذا.

(٣) حديث: **«هل تدرون ما الغيبة؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«ذكرك أخاك بما يكره...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث معاذ: «ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا: ما أعجزه...» الحديث. أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

(٥) حديث عائشة: أنها ذكرت امرأة فقالت: إنها قصيرة فقال: **«اغتبتيها»** رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة، وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا، والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي. واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب.

(٦) حديث عائشة: قلت لامرأة: إن هذه طويلة الذيل فقال ﷺ: **«الفظي»** فلفظت مضغة من لحم. أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير، وفي إسناده امرأة لا أعرفها.

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان:

اعلم: أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام. فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها: دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال عليه السلام: «اغْتَبْتِيهَا»[1]، ومن ذلك المحاكاة يمشي متعارجاً أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة؛ لأنه أعظم في التصوير والتفهيم، ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكت امرأة قال: «مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَاكَيْتُ إِنْسَاناً وَلِي كَذَا وَكَذَا»[2]. وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين. وذكر المصنف شخصاً معيناً وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره ـ كما سيأتي بيانه ـ وأما قوله: قال قوم كذا: فليس ذلك غيبة، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت. ومن الغيبة أن تقول: بعض من مرَّ بنا اليوم، أو بعض من رأيناه، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم، فأما إذا لم يفهم عينه جاز. كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئاً قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا»[3]، فكان لا يعين. وقولك: بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعي العلم، إنْ كانت معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة.

وأخبث أنواع الغيبة: غيبة القراء المرائين؛ فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء. وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول: ما أحسن أحوال فلان! ما كان يقصر في العبادات، ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر. فيذكر نفسه، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه، فيكون مغتاباً ومرائياً ومزكياً نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة. ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم، فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم. ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول: سبحان الله ما أعجب هذا! حتى يصغي إليه ويعلم ما يقول، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة في تحقيق خبثه، وهو يمتن على الله عزّ وجلّ بذكره جهلاً منه وغروراً، وكذلك يقول: ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروّح نفسه، فيكون كاذباً في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدعاء

---

(١) حديث عائشة: دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أي قصيرة فقال النبي ﷺ: «قد اغتبتيها» أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها، وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات.

(٢) حديث: «ما يسرني أني حكيت ولي كذا وكذا» تقدم في الآفة الحادية عشرة.

(٣) حديث: كان إذا كره من إنسان شيئاً قال: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا...» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله: «وكان لا يعيره» ورجاله رجال الصحيح.

له، بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته، ولو كان يغتم به لاغتم أيضاً بإظهار ما يكرهه. وكذلك يقول: ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء، والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا.

ومن ذلك: الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب؛ فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول: عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة، بل الساكت شريك المغتاب. قال ﷺ: **«المُسْتَمِعُ أَحَدُ المُغْتَابِينَ»**[1]، وقد روي عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه: إن فلاناً لنؤوم ثم إنهما طلبا أدماً من رسول الله ﷺ ليأكلا به الخبز، قال ﷺ: **«قد ائتدمتما»** فقالا: ما نعلمه؟ قال: **«بَلَى إِنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْ لَحْمِ أَخِيكُمَا»**[2] فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعاً. وقال للرجلين اللذين قال أحدهما: أقعص الرجل كما يقعص الكلب: **«انْهَشَا مِنْ هٰذِهِ الجِيفَةِ»**[3]، فجمع بينهما، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه، وإن قال بلسانه اسكت وهو مشتهٍ لذلك بقلبه فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اسكت، أو يشير بحاجبه وجبينه، فإن ذلك استحقار للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحاً وقال ﷺ: **«مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ أَذَلَّهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ»**[4]، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالغَيْبِ كَانَ حَقّاً عَلَى الله أَنْ يَرُدَّ عَنْ عِرْضِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»**[5]، وقال أيضاً: **«مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالغَيْبِ كَانَ حَقّاً عَلَى الله أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ»**[6]، وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة، وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها.

---

(١) حديث: **«المستمع أحد المغتابين»** أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر: «نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة». وهو ضعيف.

(٢) حديث: أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه: إن فلاناً لنؤوم ثم طلبا أدماً من رسول الله ﷺ فقال: **«قد ائتدمتما؟»** فقالا: ما نعلم؟ فقال: **«بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما»**. أخرجه أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبدالرحمن بن أبي ليلى مرسلاً نحوه.

(٣) حديث: **«انهشا من هذه الميتة»** قاله للرجلين اللذين قال أحدهما: أقعص كما يقعص الكلب. تقدم قبل هذا باثني عشر حديثاً.

(٤) حديث: **«من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق»** أخرجه الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة.

(٥) حديث أبي الدرداء: **«من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة»** أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب، وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ **«رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»** وفي رواية له: **«كان له حجاباً من النار»** وكلاهما ضعيف.

(٦) حديث: **«من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار»** أخرجه أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد.

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة:

اعلم: أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سبباً: ثمانية منها تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة.

أما الثمانية:

فالأوّل: أن يشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروّج كذبه بالصدق الأوّل ويستشهد ويقول: ما من عادتي الكذب، فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت.

الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرىء نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل؛ ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

السادس: الحسد؛ وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه؛ لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد، فإنّ ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق.

السابع: اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب.

الثامن: السخرية والاستهزاء استحقاراً له، فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في الغيبة، ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به.

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات، وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر.

الأول: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان! فإنه قد يكون به صادقاً ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري. ومن ذلك قول الرجل: تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل؟.

الثاني: الرحمة؛ وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به، فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه ورحمته خيراً، وكذا تعجبه، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه؛ فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث: الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه، فيظهر غضبه ويذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام، فإنهم يظنون أنّ التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم وهو خطأ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم ـ كما سيأتي ذكره ـ، روي عن عامر بن واثلة: أنّ رجلاً مرَّ على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله تعالى. فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت والله لننبئنه، ثم قالوا: يا فلان ـ لرجل منهم ـ قم فأدركه وأخبره بما قال. فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله فقال: قد قلت ذلك، فقال ﷺ: **«لم تبغضه؟»** فقال: أنا جاره، وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة. قال: فاسأله يا رسول الله، هل رآني أخرتها عن وقتها، أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله، هل رآني قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً؟ فسأله عنه فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يعطي سائلاً ولا مسكيناً قط، ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها؟ فسأله فقال: لا، فقال ﷺ للرجل: **«قم فلعله خير منك»**(١).

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة:

اعلم: أن مساوي الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فلنفحص عن سببها، وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التفصيل.

---

(١) حديث عامر بن واثلة: «أن رجلاً مرَّ على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله. . .» الحديث. بطوله. وفيه فقال: **«قم فلعله خير منك»** أخرجه أحمد بإسناد صحيح.

أما على الجملة: فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عزّ وجلّ ومشبه عنده بآكل الميتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب. قال ﷺ: «**مَا النَّارُ فِي اليَبَسِ بِأَسْرَعَ مِنَ الغِيبَةِ فِي حَسَنَاتِ العَبْدِ**»(١). وروي أن رجلاً قال للحسن: بلغني أنك تغتابني، فقال: ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي. فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفاً من ذلك، وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ**»(٢)، ومهما وجد عيباً فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمراً خلقياً فالذم له ذم للخالق؛ فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها. قال رجل لحكيم: يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهي إليّ فأحسنه. وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب، فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه. فهذه معالجات جميلة.

أما التفصيل: فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب.

أما الغضب: فيعالجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول: إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه عليّ بسبب الغيبة؛ إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره، وقد قال ﷺ: «**إِنَّ لِجَهَنَّمَ بَاباً لا يَدْخُلُ مِنْهُ إلاَّ مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ الله تَعَالَى**»(٣)، وقال ﷺ: «**مَنِ اتَّقَى رَبَّهُ كَلَّ لِسَانُهُ وَلَمْ يُشْفِ غَيْظَهُ**»(٤)، وقال ﷺ: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُمْضِيَهُ دَعَاهُ الله تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الحُورِ شَاءَ**»(٥). وفي بعض الكتب

---

(١) حديث: «**ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد**» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «**طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس**» أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث: «**إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله**» أخرجه البزار وابن أبي الدنيا وابن عدي والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(٤) حديث: «**من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف، ورويناه في الأربعين البلدانية للسلفي.

(٥) حديث: «**من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه. . .**» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس.

المنزلة على بعض النبيين: يا ابن آدم: اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق.

وأما الموافقة: فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى؟ وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء، بل ينبغي أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة.

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغني عن ذكر الغير، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين، وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقيناً، ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا! فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة، وتخسر حسناتك بالحقيقة، ويحصل لك ذم الله تعالى نقداً، وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان.

وأما عذرك: كقولك: إن أكلت الحرام ففلان يأكله، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل، لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائناً من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه، ولو وافقته لسفه عقلك. ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه، وسجلت مع الجمع المعصيتين على جهلك وغباوتك، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردي نفسها من قلة الجبل، فهي أيضاً تردي نفسها، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر وقالت: العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل، لكنت تضحك من جهلها، وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك.

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقيناً بما عند المخلوقين وهماً، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً.

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين، لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذباً بالحسد، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة، فكنت خاسراً نفسك في الدنيا فصرت أيضاً خاسراً في الآخرة لتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك. فإذا أنت صديقه وعدوّ نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته، ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حَسُودُ

وأما الاستهزاء: فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام، فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك!، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك، فإنك سخرت به عند نفر قليل، وعرّضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة

بيدك على ملأ من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار، مستهزئاً بك وفرحاً بخزيك، ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك، وتسلطه على الانتقام منك.

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن، ولكن حسدك إبليس فأضلك، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك، فيكون جبراً لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً، وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً؛ إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجد الغيبة، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة؛ ليحبط أجر غضبك وتصير معرّضاً لمقت الله عزّ وجلّ بالغيبة.

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت؟ كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه، وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا؛ وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك. فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان، فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة.

بيان تحريم الغيبة بالقلب:

اعلم: أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوي الغير فليس لك أن تحدّث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء. فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشك أيضاً معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب. فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجرَات: ١٢]، وسبب تحريمه: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحُجرَات: ٦]، فلا يجوز تصديق إبليس، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم تجز أن تصدق به، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به، حتى إنّ من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحدّ؛ إذ يقال: يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها، أو حمل عليه قهراً، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها، وقد قال ﷺ: **«إنَّ الله حَرَّمَ على المُسْلِمِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ»**(١)، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

فإن قلت: فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث؟ فنقول: أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان، فينفر عنه نفوراً ما، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه. فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه.

---

(١) حديث: «إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف، ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر.

وقد قال ﷺ: «**ثَلاثٌ فِي المُؤْمِنِ وَلَهُ مِنهُنَّ مَخرَجٌ، فَمَخْرَجُهُ مِنْ سُوءِ الظَّنِ أَنْ لا يُحَقِّقَهُ**»[(١)]، أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل، لا في القلب ولا في الجوارح. **أما في القلب**: فبتغيره إلى النفرة والكراهة. **وأما في الجوارح**: فبالعمل بموجبه. والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته.

وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذوراً، لأنك لو كذبته لكنت جانياً على هذا العدل إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضاً من سوء الظن، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر. نعم، ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو[(٢)]، فلك عند ذلك أن تتوقف، وإن كان عدلاً فلا تصدقه ولا تكذبه، ولكن تقول في نفسك: المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى، وكان أمره محجوباً عني، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل، فإن المغتاب فاسق، وإن كان ذلك عادته ردت شهادته، إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة، ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق.

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه؛ لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار، وتترفع عليه بإبداء الوعظ. وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك: وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة. فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته، وأجر الإعانة له على دينه.

ومن ثمرات سوء الظن: التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهي عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحُجرَات: ١٢]، فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة. ومعنى التجسس: أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه. وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة:

اعلم: أن المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة، وهي ستة أمور:

---

(١) حديث: «**ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج**» أخرجه الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو**» أخرجه الترمذي من حديث عائشة وضعفه: «**لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حداً ولا ذي غمر لأخيه**»، وفيه: «**ولا ظنين في ولاء ولا قرابة**» ولأبي داود وابن ماجه بإسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ رد شهادة الخائن والخائنة وذي الغمر على أخيه».

الأوّل: التظلم، فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً إن لم يكن مظلوماً. أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به. قال ﷺ: «**إِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً**»(١) وقال عليه السلام: «**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ**»(٢)، وقال عليه السلام: «**لَيُّ الوَاجِدِ يُحِلُّ عُقُوبَتَهُ وَعِرْضَهُ**»(٣).

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح، كما روي أن عمر رضي الله عنه مرّ على عثمان ـ وقيل: على طلحة ـ رضي الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم. وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ١-٣] الآية فتاب، ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة؛ إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح، فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، كما يقول للمفتي: ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص؟. والأسلم التعريض بأن يقول: ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر؛ لما روي عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، أفآخذ من غير علمه؟. فقال: «**خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ**»(٤)، فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ، إذ كان قصدها الاستفتاء.

الرابع: تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه، فلك أن تكشف له بدعته وفسقه، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره، وذلك موضع الغرور؛ إذ قد يكون الحسد هو الباعث، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق. وكذلك من اشترى مملوكاً وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك، فإن سكوتك ضرر المشتري وفي ذكرك ضرر العبد، والمشتري أولى بمراعاة جانبه. وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعناً، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه، على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة. فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله: لا تصلح لك، فهو الواجب وفيه الكفاية، وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به؛ إذ قال رسول الله ﷺ: «**أترعَوونَ عَنْ ذِكْرِ الفَاجِرِ اهْتِكُوهُ حَتَّى يَعْرِفَهُ النَّاسُ اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ**»(٥)، وكانوا يقولون: ثلاثة لا غيبة لهم: الإمام الجائر، والمبتدع، والمجاهر بفسقه.

---

(١) حديث: «**لصاحب الحق مقال**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «**مطل الغني ظلم**» متفق عليه من حديثه.

(٣) حديث: «**لي الواجد يحل عرضه وعقوبته**» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الشريد بإسناد صحيح.

(٤) حديث: «إن هنداً قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح». متفق عليه من حديث عائشة.

(٥) حديث: «**أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس**» أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله: «**حتى يعرفه الناس**» ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرف عن عيبه كالأعرج والأعمش، فلا إثم على من يقول: روى أبو الزناد عن الأعرج، وسلمان عن الأعمش، وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به. نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى، ولذلك يقال للأعمى: البصير، عدولاً عن اسم النقص.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور، والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له، ولا يكره أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك. قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ فَلا غِيبَةَ لَهُ»**[(١)]، وقال عمر رضي الله عنه: ليس لفاجر حرمة، وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر؛ إذ المُستتر لا بد من مراعاة حرمته. وقال الصلت بن طريف: قلت للحسن: الرجل الفاسق المعلن بفجوره، ذِكري له بما فيه غيبة له؟ قال: لا ولا كرامة. وقال الحسن: ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر؛ فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره؟!. نعم، لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم. وقال عوف: دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال: إن الله حكم عدل، ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصبته أشدّ عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج.

بيان كفارة الغيبة:

اعلم: أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله؛ ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحلّ المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته، وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله؛ إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادماً، فيكون قد قارف معصية أخرى. وقال الحسن: يكفيه الاستغفار دون الاستحلال. وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«كفارة من اغتبته أن تستغفر له»**[(٢)]، وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير. وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال: أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت، فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت، وهذا هو الأصح. وقول القائل: العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال، كلام ضعيف؛ إذ قد وجب في العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به. بل في الحديث الصحيح ما روي أنه ﷺ قال: **«من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته»**[(٣)]،

---

(١) حديث: **«من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له»** أخرجه ابن عدي، وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«كفارة من اغتبته أن تستغفر له»** أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث: **«من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله. . .»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى؛ إنها طويلة الذيل: قد اغتبتيها فاستحلّيها. فإذن: لا بد من الاستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائباً أو ميتاً فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء، ويكثر من الحسنات.

فإن قلت: فالتحليل هل يجب؟. فأقول: لا، لأنه تبرع والتبرع فضل، وليس بواجب ولكنه مستحسن، وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة.

وكان بعض السلف لا يحلل. قال سعيد بن المسيب: لا أحلل من ظلمني. وقال ابن سيرين: إني لم أحرمها عليه فأحللها له، إن الله حرم الغيبة عليه، وما كنت لأحلل ما حرم الله أبداً.

فإن قلت: فما معنى قول النبي ﷺ: «**ينبغي أن يستحلّها**» وتحليل ما حرّمه الله تعالى غير ممكن؟ فنقول: المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالاً، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة، فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة.

فإن قلت: فما معنى قول النبي ﷺ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى النَّاسِ**»(١)، فكيف يتصدّق بالعرض؟ ومن تصدق به فهل يباح تناوله؟ فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه؟. فنقول: معناه أني لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه، وإلا فلا تصير الغيبة حلالاً به ولا تسقط المظلمة عنه، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم، فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أنّ له ذلك. بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف، ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا، وعلى الجملة فالعفو أفضل.

قال الحسن: إذا جثت الأمم بين يدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة نودوا: ليقم من كان له أجر على الله؛ فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا. وقد قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فقال النبي ﷺ: «**يَا جِبْرِيلُ مَا هٰذَا الْعَفْوُ**»؟، فقال: إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك(٢). وروي عن الحسن أن رجلاً قال له: إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال: قد بلغني أنك أهديت إليّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

الآفة السادسة عشرة: النميمة:

قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلَم: ١١] ثم قال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلَم: ١٣] قال عبدالله بن المبارك: الزنيم ولد الزنى الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى أن كل من لم يكتم

---

(١) حديث: «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال: اللهم إني تصدقت بعرضي على الناس**» أخرجه البزار. وابن السني في اليوم والليلة، والعقيلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف، وذكره ابن عبدالبر من حديث ثابت مرسلاً عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة.
قلت: وإنما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلي.

(٢) حديث: نزول ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية فقال: «**يا جبريل ما هذا**»، فقال: «إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك» تقدم في رياضة النفس.

الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنى استنباطاً من قوله عز وجل: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القَلَم: ١٣] والزنيم هو الدعي، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهُمَزة: ١] قيل: الهمزة: النمام، وقال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المَسَد: ٤] قيل: إنها كانت نمامة حمالة للحديث، وقال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم: ١٠] قيل: كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون، وقد قال ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ»(١)، وفي حديث آخر: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ» والقتات: هو النمام. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّكُمْ إِلَى اللهِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقاً المُوطِئُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللهِ المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإِخْوَانِ، المُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ العَثَرَاتِ»(٢)، وقال ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ» قالوا: بلى، قال: «المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ البَاغُونَ لِلْبُرَآءِ العَيْبَ»(٣)، وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَشَاعَ عَلَى مُسْلِمٍ كَلِمَةً لِيَشِينَهُ بِهَا بِغَيْرِ حَقٍّ شَانَهُ اللهُ بِها فِي النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٤)، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ لِيَشِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُذِيبَهُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ فِي النَّارِ»(٥)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ عَلَى مُسْلِمٍ بِشَهَادَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(٦)، ويقال: إن ثلث عذاب القبر من النميمة. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الجَنَّةَ قَالَ لَهَا تَكَلَّمِي. فَقَالَتْ: سَعِدَ مَنْ دَخَلَنِي، فَقَالَ الجَبَّارُ جَلَّ جَلالُهُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا يَسْكُنُ فِيكِ ثَمَانِيَةُ نَفَرٍ مِنَ النَّاسِ، لا يَسْكُنُكِ مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلا مُصِرٌّ عَلَى الزِّنَى، وَلا قَتَّاتٌ وَهُوَ النَّمَامُ، وَلا دَيُوثٌ، وَلا شُرطِيٌّ، وَلا مُخَنَّثٌ، وَلا قَاطِعُ رَحِمٍ، وَلا الَّذِي يَقُولُ: عَلَيَّ عَهْدُ اللهِ إِنْ لَمْ أَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ لَمْ يَفِ بِهِ»(٧).

الآفة السادسة عشرة: النميمة

(١) حديث: «لا يدخل الجنة نمام» وفي حديث آخر: «قتات» متفق عليه من حديث حذيفة، وقد تقدم.

(٢) حديث أبي هريرة: «وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً» أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير، وتقدم في آداب الصحبة.

(٣) حديث: «ألا أخبركم بشراركم» قالوا: بلى، قال: «المشاؤون بالنميمة...» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي مالك الأشعري، وقد تقدم.

(٤) حديث أبي ذر: «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة». أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في مكارم الأخلاق، وفيه عبدالله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث.

(٥) حديث أبي الدرداء: «أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها بريء ليشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار...» أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفاً على أبي الدرداء. ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعاً من حديثه، وقد تقدم.

(٦) حديث أبي هريرة: «من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار». أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا في الإسناد.

(٧) حديث ابن عمر: «إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت: سعد من دخلني. قال الجبار: وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية» فذكر منها «ولا قتات» وهو النمام، لم أجده هكذا بتمامه ولأحمد: «لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث»، وللنسائي من حديث عبدالله بن عمرو: «لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر»، وللشيخين من حديث حذيفة: «لا يدخل الجنة قتات»، ولهما من حديث جبير بن مطعم: «لا يدخل الجنة قاطع»، وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس: «لما خلق الله الجنة قال لها: تكلمي تزيني فتزينت. فقالت: طوبى لمن دخلني ورضي عنه إلهي، فقال الله عز وجل: لا سكنك مخنث ولا نائحة».

وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط، فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا، فأوحى الله تعالى إليه: إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة. فقال موسى: يا رب، من هو؟ دلني عليه حتى أخرجه من بيننا. قال: يا موسى، أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً، فتابوا جميعاً، فسقوا. ويقال: اتبع رجل حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال: إني جئتك للذي أتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها؟ وعن الأرض وما أوسع منها؟ وعن الصخر وما أقسى منه؟ وعن النار وما أحرّ منها؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه؟ وعن البحر وما أغنى منه؟ وعن اليتيم وما أذل منه؟ فقال له الحكيم: البهتان على البريء أثقل من السمٰوات، والحق أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر، والحرص والحسد أحرّ من النار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم.

بيان حد النميمة وما يجب في ردها:

اعلم: أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليست النميمة مختصة به. بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة: إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة. فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرّج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

وكل من حملت إليه النميمة وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو في ممالأة عدوّك، أو تقبيح حالك، أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور.

الأول: أن لا يصدقه؛ لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحُجرَات: ٦].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك، وينصح له، ويقبح عليه فعله. قال الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمَان: ١٧].

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى؛ فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء؛ لقول الله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحُجرَات: ١٢].

الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث لتتحقق، اتباعاً لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحُجرَات: ١٢].

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه. ولا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً، وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت.

وقد روي عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل، فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك؛ فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن﴾ [الحُجرَات: ٦]، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القَلَم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً.

وذكر: أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه، فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات، بغضت أخي إليَّ، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

وروي: أن سليمان بن عبدالملك كان جالساً وعنده الزهري، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيَّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، ثم قال للرجل: اذهب بسلام.

وقال الحسن: من نمَّ إليك نمَّ عليك. وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض، ولا يوثق بقوله ولا بصداقته. وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة، والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة، وهو ممن يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢] والنمام منهم. وقال ﷺ: **«إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنِ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ»**(١)، والنمام منهم. وقال: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ»** قيل: وما القاطع؟ قال: **«قَاطِعٌ بَيْنَ النَّاسِ»**(٢)، وهو النمام. وقيل: قاطع الرحم.

وروي عن علي رضي الله عنه أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: يا هذا، نحن نسأل عما قلت؛ فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين. وقيل لمحمد بن كعب القرظي: أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال: كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد. وقال رجل لعبدالله بن عامر ـ وكان أميراً ـ: بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء، قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك، قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني، وحسبي أني لم أصدقه فيما قال، ولا أقطع عنك الوصال.

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال: ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم؟. وقال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية؛ لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي؛ فلو كان صادقاً في قوله لكان لئيماً في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة. والسعاية هي النميمة إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية، وقد قال ﷺ: **«السَّاعِي بِالنَّاسِ إِلَى النَّاسِ لِغَيْرِ رُشْدَةٍ»**(٣)،

---

(١) حديث: **«إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره»** متفق عليه من حديث عائشة نحوه.

(٢) حديث: **«لا يدخل الجنة قاطع»** متفق عليه من حديث جبير بن مطعم.

(٣) حديث: **«الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة»** أخرجه الحاكم من حديث أبي موسى: **«من سعى بالناس فهو لغير رشدة»** أو فيه شيء منها وقال: له أسانيد هذا أمثلها.

قلت: فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة: منكر الرواية، قال: والحديث لا أصل له، وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية، ورواه الطبراني بلفظ: **«لا يسعى على الناس إلا ولد بغي وإلا من فيه عرق منه»**، وزاد بين سهل وبين بلال بن أبي بردة: أبا الوليد القرشي.

يعني ليس بولد حلال. ودخل رجل على سليمان بن عبدالملك فاستأذنه في الكلام وقال: إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام، فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال: قل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، ولا تصغ إليهم فيما استحفظك الله إياه، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفاً، وفي الأمانة تضييعاً والأعراض قطعاً وانتهاكاً، أعلى قربهم البغي والنميمة، وأجلّ وسائلهم الغيبة والوقيعة، وأنت مسؤول عما أجرموا، وليسوا المسؤولين عما أجرمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك؛ فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره. وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبدالملك، فجمع بينهما للموافقة، فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً ... فخنت وإما قلت قولاً بلا علمِ
فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثمِ

وقال رجل لعمرو بن عبيد: إن الأسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشرّ، فقال له عمرو: يا هذا، ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أدّيت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع على ظهرها: السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكاً في مستور، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوقّ ـ يا ملعون ـ العيب فإن الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمره الله، والساعي لعنه الله. وقال لقمان لابنه: يا بني، أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيداً: ابسط خلقك للقريب والبعيد، وامسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك، وليكن إخوانك، من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك. وقال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذل. وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترىء بالشتم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك.

وعلى الجملة: فشرّ النمام عظيم ينبغي أن يتوقى. قال حماد بن سلمة: باع رجل عبداً وقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال: رضيت. فاشتراه، فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه: إن سيدي لا يحبك وهو يريد أنْ يتسرى عليك، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين. فنسأل الله حسن التوفيق.

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين:

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق. قال عمار بن ياسر: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي**

الدُّنْيَا كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«تَجِدُونَ مِنْ شَرِّ عِبَادِ الله يَوْمَ القِيَامَةِ ذَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِحَدِيثٍ وَهَؤُلاءِ بِحَدِيثٍ»**(٢)، وفي لفظ آخر: **«الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ، بِوَجْهٍ وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ»**. وقال أبو هريرة: لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً عند الله. وقال مالك بن دينار: قرأت في التوراة بطلت الأمانة، والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين. وقال ﷺ: **«أَبْغَضُ خَلِيقَةِ الله إِلَى الله يَوْمَ القِيَامَةِ الكَذَّابُونَ وَالمُسْتَكْبِرُونَ وَالَّذِينَ يُكْثِرُونَ البَغْضَاءَ لِإِخْوَانِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ فَإِذَا لَقُوهُمْ تَمَلَّقُوا لَهُمْ وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ كَانُوا بِطَاءً وَإِذَا دُعُوا إِلَى الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ كَانُوا سِرَاعاً»**(٣)، وقال ابن مسعود: لا يكونن أحدكم إمعة. قالوا: وما الإمعة؟ قال: الذي يجري مع كل ريح. واتفقوا على أنّ ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها.

وقد روي: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر: يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصلّ عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه منهم، فقال: نشدتك الله أنا منهم أم لا؟ قال: اللهم لا، ولا أؤمن منها أحداً بعدك.

فإن قلت: بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حدّ ذلك؟. فأقول: إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة؛ إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء ـ كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة ـ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين، وهو شر من النميمة؛ إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام، وإن لم ينقل كلاماً ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته، وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين. بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين، ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوّه.

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال: كنا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ(٤). وهذا نفاق مهما كان مستغنياً عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق؛ لأنه الذي أحوج نفسه

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين

(١) حديث عمار بن ياسر: **«من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة»** أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن.

(٢) حديث أبي هريرة: **«تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين...»** الحديث. متفق عليه بلفظ: **«تجد من شر الناس»** لفظ البخاري، وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

(٣) حديث: **«أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم، فإذا لقوهم تملقوا لهم...»** الحديث. لم أقف له على أصل.

(٤) حديث: **«قيل لابن عمر: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره قال: كنا نعد ذلك نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ»** أخرجه الطبراني من طرق.

إلى ذلك، فإن كان مستغنياً عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق. وهذا معنى قوله ﷺ: «**حُبُّ المَالِ وَالجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ**»(١)، لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم. فأما إذا ابتلي به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور، فإن اتقاء الشر جائز. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم. وقالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «**ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ رَجُلُ العَشِيرَةِ هُوَ**» ثم لما دخل ألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله، قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول، فقال: «**يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ الَّذِي يُكْرَمُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**»(٢)، ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم. فأما الثناء فهو كذب صراح، ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله ـ كما ذكرناه في آفة الكذب ـ بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو منافق، بل ينبغي أن ينكر، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

الآفة الثامنة عشرة: المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع. أما الذم: فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها. والمدح يدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح، **فالأولى**: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب. قال خالد بن معدان: من مدح إماماً أو أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه.

والثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، روي أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي ﷺ فقال له عليه السلام: «**وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ**»، ثم قال: «**إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ لا بُدَّ مَادِحاً أَخَاهُ فَلْيَقُلْ أَحْسَبُ فُلاناً وَلا أُزَكِّي عَلَى الله أَحَداً حَسِيبُهُ الله إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذٰلِكَ**»(٣)، وهذه الآفة تتطرّق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله: إنه متق وورع وزاهد وخير، وما يجري مجراه، فأما إذا قال: رأيته يصلي بالليل ويتصدّق ويحج فهذه أمور مستيقنة. ومن ذلك قوله: إنه عدل رضا؛ فإنّ ذلك خفي، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه. سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل فقال: أسافرت معه؟، قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة؟، قال: لا. قال: فأنت جاره صباحه ومساءه؟، قال: لا. فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه.

---

(١) حديث: «**حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال «**حب الغناء**» وقال: «**العشب**» مكان «**البقل**».

(٢) حديث عائشة: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «**ائذنوا له فبئس رجل العشيرة. . .**» الحديث. وفيه: «**إن شر الناس الذي يكرم اتقاء لشره**» متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها.

الآفة الثامنة عشرة: المدح

(٣) حديث: إن رجلاً مدح رجلاً عند رسول الله ﷺ فقال: «**ويحك قطعت عنق صاحبك**» متفق عليه من حديث أبي بكرة بنحوه، وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الفَاسِقُ**»(١)، وقال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم، ولا يمدح ليفرح.

وأما الممدوح فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان. قال الحسن رضي الله عنه: كان عمر رضي الله عنه جالساً ومعه الدرّة والناس حوله؛ إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟. قال: ما لي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطيء منك.

الثاني: هو أنه إذا أثني عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشمره، وإنّما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال عليه السلام: «**قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ**» وقال ﷺ: «**إِذَا مَدَحْتَ أَخَاكَ فِي وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمْرَرْتَ عَلَى حَلْقِهِ مُوسى وَمِيضاً**»(٢)، وقال أيضاً لمن مدح رجلاً «**عقرت الرجل عقرك الله**»(٣). وقال مطرف: ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إليّ نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان، ولكن المؤمن يراجع، فقال ابن المبارك: لقد صدق كلاهما، أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص. وقال ﷺ: «**لَوْ مَشَى رَجُلٌ إِلَى رَجُلٍ بِسِكِّينٍ مُرْهَفٍ كَانَ خَيْراً لَهُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ**»(٤). وقال عمر رضي الله عنه: المدح هو الذبح. وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل، والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح؛ لذلك شبهه به. فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس، بل ربما كان مندوباً إليه. ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة فقال: «**لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ العَالَمِ لَرَجَحَ**»(٥)، وقال في عمر: «**لَوْ لَمْ أُبْعَثْ لَبُعِثْتَ يَا عُمَرُ**»(٦)، وأي ثناء يزيد على هذا؟. ولكنه ﷺ قال عن صدق وبصيرة. وكانوا رضي الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وفتوراً. بل مدح الرجل نفسه قبيح؛ لما فيه من الكبر والتفاخر، إذ

---

(١) حديث: «**إن الله يغضب إذا مدح الفاسق**» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس، وفيه خلف خادم أنس ضعيف، ورواه أبو يعلى الموصلي وابن عدي بلفظ: «**إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش**» قال الذهبي في الميزان: منكر، وقد تقدم في آداب الكسب.

(٢) حديث: «**إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضاً**» أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلاً.

(٣) حديث: «**عقرت الرجل عقرك الله**» قاله لمن مدح رجلاً، لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «**لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه**» لم أجده أيضاً.

(٥) حديث: «**لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح**» تقدم في العلم.

(٦) حديث: «**لو لم أبعث لبعثت يا عمر**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو منكر، والمعروف من حديث عقبة بن عامر: «**لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب**» رواه الترمذي وحسنه.

قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ**»[1]، أي لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم. وذلك لأن افتخاره ﷺ كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم؛ كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدّمه على بعض رعاياه. وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال ﷺ: «**وجبت**»[2]، لما أثنوا على بعض الموتى. وقال مجاهد: إن لبني آدم جلساء من الملائكة، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة: ولك بمثله، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة: يا ابن آدم، المستور عورتك، أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عورتك. فهذه آفات المدح.

بيان ما على الممدوح:

اعلم: أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه، ويتأمل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح. قال ﷺ: «**احْثُوا التُّرَابَ فِي وُجُوهِ المَادِحِينَ**»[3]. وقال سفيان بن عيينة: لا يضر المدح من عرف نفسه. وأثني على رجل من الصالحين فقال: اللهم إنّ هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني. وقال آخر لما أثني عليه: اللهم إنّ عبدك هذا تقرّب إليّ بمقتك وأنا أشهدك على مقته. وقال علي رضي الله عنه لما أثني عليه: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون. وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال: أتهلكني وتهلك نفسك؟ وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه ـ وكان قد بلغه أنه يقع فيه ـ فقال: أنا دون ما قلت، وفوق ما في نفسك.

الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ.

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله. مثاله: ما قال حذيفة: قال النبي ﷺ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ الله وَشِئْتُ وَلْكِنْ لِيَقُلْ مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئْتُ**»[4]، وذلك لأنّ في العطف المطلق تشريكاً وتسوية، وهو

---

(١) حديث: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث جابر وقال: صحيح الإسناد، وله من حديث عبادة بن الصامت: «**أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر**»، ولمسلم من حديث أبي هريرة: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**».

(٢) حديث: «**وجبت**» قاله لما أثنوا على بعض الموتى. متفق عليه من حديث أنس.

(٣) حديث: «**احثوا في وجوه المداحين التراب**» أخرجه مسلم من حديث المقداد.

الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ

(٤) حديث حذيفة: «**لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت...**» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح.

على خلاف الاحترام. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وما شئت، فقال ﷺ: **«أَجَعَلْتَنِي لله عَدِيلاً بَلْ مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ»**(١). وخطب رجل عند رسول الله ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى فقال: **«قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى»**(٢)، فكره رسول الله ﷺ قوله: ومن يعصهما، لأنه تسوية وجمع. وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. وأن يقول: لولا الله ثم فلان؟ ولا يقول: لولا الله وفلان؟، وكره بعضهم أن يقال: اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول: العتق يكون بعد الورود. وكانوا يستجيرون من النار ويتعوّذون من النار. وقال رجل: اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد ﷺ فقال حذيفة: إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد، وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين. وقال إبراهيم: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار يا خنزير؛ قيل له يوم القيامة: حماراً رأيتني خلقته، خنزيراً رأيتني خلقته. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه، فيقول: لولاه لسُرقنا الليلة. وقال عمر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الله تَعَالَى يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ»**(٣)، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها: وقال ﷺ: **«لا تُسَمُّوا العِنَبَ كَرْماً إِنَّما الكَرْمُ الرَّجُلُ المُسْلِمُ»**(٤)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَلا أَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ الله وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ الله وَلْيَقُلْ غُلامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلا يَقُولُ المَمْلُوكُ رَبِّي وَلا رَبَّتِي وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي فَكُلُّكُمْ عَبِيدُ الله وَالرَّبُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»**، وقال ﷺ: **«لا تَقُولُوا لِلْفَاسِقِ سَيِّدَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ»**(٥)، وقال ﷺ: **«مَنْ قَالَ أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الإِسْلامِ فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الإِسْلامِ سَالِماً»**(٦). فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره.

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ: **«مَنْ صَمَتَ نَجَا»**(٧)، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب، وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم من الكل، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح، وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين.

---

(١) حديث ابن عباس: جاء رجل إلى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وشئت، فقال: **«أجعلتني لله عدلاً قل ما شاء الله وحده»**. أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه.

(٢) حديث: «خطب رجل عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عدي بن حاتم.

(٣) حديث عمر: **«إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم»**. متفق عليه.

(٤) حديث: **«لا تسموا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم»** متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: **«لا تقولوا للمنافق سيدنا...»** الحديث. أخرجه أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح.

(٦) حديث: **«من قال: أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال...»** الحديث. أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث بريدة بإسناد صحيح.

(٧) حديث: **«من صمت نجا»** أخرجه الترمذي، وقد تقدم في أول آفات اللسان.

الآفة العشرون:

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة؟ ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن، إلا أنّ ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب. والعامي يفرح بالخوض في العلم؛ إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري. وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته. وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم، يستحقون به المقت من الله عزّ وجلّ ويتعرّضون لخطر الكفر، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة. وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم، فإنه بالإضافة إليه عامي. ولذلك قال ﷺ: **«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»**(١)، وقال أنس: سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال: **«سَلُونِي ولا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ»** فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: **«أَبُوكَ حُذَافَةُ»**، فقام إليه شابان أخوان فقالا: يا رسول الله، من أبونا؟ فقال: أبوكما الذي تدعيان إليه، ثم قام إليه رجل آخر فقال: يا رسول الله، أفي الجنة أنا أم في النار؟ فقال: **«لا، بل في النار»**. فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، فقال: **«اجْلِسْ يَا عُمَرُ رَحِمَكَ الله إِنَّكَ مَا عَلِمْت لَمُوَفَّقٌ»**(٢).

وفي الحديث: نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال(٣)، وقال ﷺ: **«يُوشِكُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَقُولُوا قَدْ خَلَقَ الله الخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ الله؟ فَإِذَا قَالُوا ذٰلِكَ فَقُولُوا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ حَتَّى تَخْتِمُوا السُّورَةَ ثُمَّ لِيَتْفُلْ أَحَدُكُمْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثاً وَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»**(٤).

وقال جابر: ما نزلت أية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال(٥). وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام

الآفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى

(١) حديث: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال: «سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به...» الحديث. متفق عليه مقتصراً على سؤال عبدالله بن حذافة وقول عمر. ولمسلم من حديث أبي موسى: «فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوك سالم مولى شيبة».

(٣) حديث: «النهي عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال». متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة.

(٤) حديث: «يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٥) حديث جابر: «ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال». رواه البزار بإسناد جيد.

تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِى فَلَا تَسۡـَٔلۡنِى عَن شَىۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِى مِنۡ أَمۡرِى عُسۡرًا﴾ [الكهف: ٧٣] فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثاً قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِى وَبَيۡنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] وفارقه.

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات، وهو من المثيرات للفتن، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك. وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتاباً ورسم له فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منها، وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة. فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى. والله تعالى أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراجون، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون، الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون، ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون، وامتحن بهم حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون، فقال: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ [يس: ٤٩، ٥٠] والصلاة والسلام على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه النبيون، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين، والسادة المرضيين، صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد، كاستخراج الحجر النار من الحديد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاستعار، والحركة والاضطراب. ومن نتائج الغضب الحقد والحسد، وبهما هلك من هلك، وفسد من فسد، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد، وإذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد إلى مواطن العطب فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه؛ ليحذر ذلك ويتقيه، ويميطه عن القلب ـ إن كان ـ وينفيه، ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه، ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه، ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقصيه.

ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب، ويجمعها بيان ذم الغضب، ثم بيان حقيقة الغضب، ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا؟ ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ، ثم بيان فضيلة الحلم، ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام، ثم القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق، ثم القول في ذم الحسد، وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته، ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده، وقلته في غيرهم وضعفه، ثم بيان الدواء الذي به يُنفى مرض الحسد عن القلب، ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب. وبالله التوفيق.

بيان ذم الغضب:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] الآية. ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة. وروى أبو هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بعمل وأقلل، قال: «**لا تَغْضَبْ**» ثم أعاد عليه فقال: «**لا تَغْضَبْ**»(١)، وقال ابن عمر: قلت لرسول الله ﷺ قل لي قولاً وأقلله لعلّي أعقله، فقال: «**لا تَغْضَبْ**» فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إليَّ «**لا تغضب**»(٢)، وعن عبدالله بن عمرو: أنه سأل رسول الله ﷺ ماذا ينقذني من غضب الله؟ قال: «**لا تَغْضَبْ**»(٣)، وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «**ما تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟**» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: «**لَيسَ ذٰلِكَ وَلٰكِنَّ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»(٤)، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**لَيسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»(٥)، وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: «**مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ الله عَوْرَتَهُ**»(٦)، وقال سليمان بن داود عليهما السلام: يا بني، إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم. وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٩] قال: السيد الذي لا يغلبه الغضب. وقال أبو الدرداء: قلت: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «**لا تَغْضَبْ**»(٧)، وقال يحيى لعيسى عليهما السلام: لا تغضب، قال: لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر، قال: لا تقتن مالاً، قال: هذا عسى. وقال ﷺ: «**الغَضَبُ يُفْسِدُ الإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الصَّبْرُ العَسَلَ**»(٨)، وقال ﷺ: «**ما غَضِبَ أَحَدٌ إِلاَّ أَشْفَى عَلَى جَهَنَّمَ**»(٩)، وقال له

كتاب الغضب والحقد والحسد

(١) حديث أبي هريرة: إن رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بعمل وأقلل قال: «**لا تغضب**» ثم أعاد عليه، فقال: «**لا تغضب**» رواه البخاري.

(٢) حديث ابن عمر: «قلت لرسول الله ﷺ: قل لي قولاً وأقلل...» الحديث. أخرجه نحوه أبو يعلى بإسناد حسن.

(٣) حديث عبدالله بن عمرو: سأل رجل رسول الله ﷺ: ما يبعدني من غضب الله؟ قال: «**لا تغضب**» أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن عبدالبر في التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد: وأن عبدالله بن عمرو هو السائل.

(٤) حديث ابن مسعود: «**ما تعدون الصرعة...**» الحديث. رواه مسلم.

(٥) حديث أبي هريرة «**ليس الشديد بالصرعة...**» الحديث. متفق عليه.

(٦) حديث ابن عمر: «**من كف غضبه ستر الله عورته**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العفو وذم الغضب وفي الصمت، وتقدم في آفات اللسان.

(٧) حديث أبي الدرداء: دلني على عمل يدخلني الجنة؟ قال: «**لا تغضب**» أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن.

(٨) حديث: «**الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل**» أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف.

(٩) حديث: «**ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم**» أخرجه البزار وابن عدي من حديث ابن عباس: «**للنار باب لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله**»، وإسناده ضعيف، وتقدم في آفات اللسان.

رجل: أي شيء أشدّ عليَّ؟ قال: «**غضب الله**» قال: فما يبعدني عن غضب الله؟ قال: «**لا تغضب**»[1].

الآثار: قال الحسن: يا ابن آدم، كلما غضبت وثبت، ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار. وعن ذي القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً ازداد به إيماناً ويقيناً، قال: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة. وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً. وعن وهب بن منبه: أن راهباً كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع، فجاءه حتى ناداه فقال له: افتح، فلم يجبه فقال: افتح فإني إن ذهبت ندمت، فلم يلتفت إليه فقال: إني أنا المسيح، قال الراهب: وإن كنت المسيح فما أصنع بك، أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة، فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك؟ فقال: إني الشيطان وقد أردت أن أضلّك فلم أستطع؟ فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك، فقال: ما أريد أن أسألك عن شيء، قال: فولى مدبراً، فقال الراهب: ألا تسمع، قال: بلى، قال: أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ فقال: الحدّة، إن الرجل إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقال خيثمة: الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه؟ وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟. وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر. وقال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدّة وقائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، والحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه. وقال مجاهد: قال إبليس: ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقُدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم، ونبخله بما في يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه. وقيل لحكيم: ما أملك فلاناً لنفسه! قال: إذاً: لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب. وقال بعضهم: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار. وقيل: اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل. وقال عبدالله بن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع؟. وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عامله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً. وقال علي بن زيد: أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبدالعزيز القول فأطرق عمر زماناً طويلاً ثم قال: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً؟. وقال بعضهم لابنه: يا بني، لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة، فأقل الناس غضباً أعقلهم، فإن كان للدنيا كان دهاء ومكراً، وإن كان للآخرة كان حلماً وعلماً، فقد قيل: الغضب عدوّ العقل والغضب غول العقل. وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب قال في خطبته: أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب. وقال بعضهم: من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار. وقال الحسن: من علامات المسلم قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وعلم في حلم، وكيس في رفق، وإعطاء في حق، وقصد في غنى، وتجمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وتحمل في رفاقة، وصبر في شدّة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تغلبه شهوة، ولا تفضحه بطنه،

---

(١) حديث: قال رجل: أي شيء أشد عليَّ؟ قال «**غضب الله**» قال: فما يبعدني من غضب الله؟ قال: «**لا تغضب**».
أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بالشطر الأخير منه، وقد تقدم قبله بست أحاديث.

ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف، ولا يبخل ولا يبذر، ولايسرف ولا يقتر، يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء. وقيل لعبدالله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة. فقال: اترك الغضب. وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه: من يتكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي؟ فقال شاب من القوم: أنا، ثم أعاد عليه فقال الشاب: أنا أوفي به، فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل، سمي به لأنه تكفل بالغضب ووفى به. وقال وهب بن منبه: للكفر أربعة أركان: الغضب، والشهوة، والخرق، والطمع.

بيان حقيقة الغضب:

اعلم: أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرّضاً للفساد والموتان، بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه؛ أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك، إلى أجل معلوم سماه في كتابه.

أما السبب الداخلي: فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخاراً يتصاعد منها، فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان، وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء؛ كالموكل به في جبر ما انكسر وسد ما انثلم؛ ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب.

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان: فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها، فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها في الإنسان وعجنها بطينته. فمهما صدّ عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب، وثارت ثوراناً يغلي به دم القلب، وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين، والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها. وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزناً، ولذلك يصفرّ اللون، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمرّ ويصفرّ ويضطرب.

وبالجملة: فقوة الغضب محلها القلب، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها. والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها، ولا تسكن إلا به. ثم إن الناس في القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال.

أما التفريط: فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنه لا حمية له. ولذلك قال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار. فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً فهو ناقص جداً، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بالشدة والحمية فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال لنبيه ﷺ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] الآية، وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب.

وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى

للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر. وسبب غلبته: أمور غريزية وأمور اعتيادية: فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار[1]. كما قال ﷺ: **«وإنما برودة المزاج تطفئه وتكسر سورته»**. وأما الأسباب الاعتيادية: فهو أن يخالط قوماً يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، فيقول الواحد منهم: أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال، ولا أحتمل من أحد أمراً. ومعناه: لا عقل فيّ ولا حلم. ثم يذكره في معرض الفخر بجهله، فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم؛ فيقوى به الغضب. ومهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة، فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضباً، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر؛ إذ ينطفىء نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب، فإن معدن الفكر الدماغ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولي على معادن الفكر، وربما يتعدّى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود عليه الدنيا بأسرها، ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار، فاسودّ جوّه، وحمي مستقره، وامتلأ بالدخان جوانبه، وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو انطفأ نوره، فلا تثبت فيه قدم، ولا يسمع فيه كلام، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج، بل ينبغي أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ. وربما تقوى نار الغضب فتفني الرطوبة التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهدّ أعاليه على أسفله، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجزائه، فهكذا حال القلب عند الغضب.

وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً؛ إذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه. ومن آثار هذا الغضب في الظاهر: تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن، فقس الثمرة بالمثمرة، فهذا أثره في الجسد.

وأما أثره في اللسان: فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ.

أما أثره على الأعضاء: فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه، وقد يضرب بيده على الأرض، ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير، وربما يسقط سريعاً لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية، وربما يضرب

---

(١) حديث: **«الغضب من النار»** أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد بسند ضعيف: **«الغضب جمرة في قلب ابن آدم»** ولأبي داود من حديث عطية السعدي: **«إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار»**.

الجمادات والحيوانات، فيضرب القصعة مثلاً على الأرض، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها. ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول: إلى متى منك هذا يا كيت وكيت؟ كأنه يخاطب عاقلاً، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه: فالحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة بالمساءات، والحزن بالسرور، والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والاستهزاء، وغير ذلك من القبائح، فهذه ثمرة الغضب المفرط.

وأما ثمرة الحمية الضعيفة: فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة، واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس والقماءة وهو أيضاً مذموم؛ إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام وهو خنوثة. قال ﷺ: **«إِنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَإِنَّ الله أَغْيَرُ مِنِّي»**(١)، وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب. ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب. ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها. ومن ضعف الغضب: الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات، وقد قال ﷺ: **«خير أمتي أحداؤها»**(٢)، يعني في الدين وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٢] بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه؛ إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة. ففقد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفيء حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط الذي وصفه رسول الله ﷺ حيث قال: **«خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»**(٣)، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوي غضبه. ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جرّه إلى التهوّر واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين؛ فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف، فإن عجز عنه فليطلب القرب منه، قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النِّساء: ١٢٩] فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله، ولكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض. فهذه حقيقة الغضب ودرجاته. نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير.

بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة: أم لا؟

اعلم: أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج. وهذا رأي من يظن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير، وكلا

---

(١) حديث: **«إن سعداً لغيور...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه وتقدم في النكاح.

(٢) حديث: **«خير أمتي أحداؤها»** أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف وزاد: **«الذين إذا غضبوا رجعوا»**.

(٣) حديث: **«خير الأمور أوساطها»** أخرجه البيهقي في الشعب مرسلاً، وقد تقدم.

الرأيين ضعيف. بل الحق فيه ما نذكره وهو: أنه ما بقي الإنسان يحب شيئاً ويكره فلا يخلو من الغيظ والغضب، وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب ما يوافقه ويكره ما يخالفه، والغضب يتبع ذلك فإنه مهما أُخذ منه محبوبه غضب لا محالة، وإذا قصد بمكروه غضب لا محالة.

إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما هو ضرورة في حق الكافة؛ كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته، وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه، أو أريق ماؤه الذي لعطشه، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها.

القسم الثاني: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق؛ كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور، حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكنزان، ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنياً عنهما في القوت، فهذا الجنس مما يتصوّر أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لا يغضب؛ إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة، فلا يغضب بأخذها، فإنه لا يحب وجودها، ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها، وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري كالجاه والصيت والتصدّر في المجالس والمباهاة في العلم، فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المحافل، ومن لا يحب ذلك فلا يبالي ولو جلس في صفّ النعال، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه. وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكارهه فأكثرت غضبه، وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص، لأن الحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثر النقص، والجاهل أبداً جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته، وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن، حتى ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له: إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج، ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير، وما يجري مجراه من الرذائل، فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري؛ لأن حبه ليس بضروري.

القسم الثالث: ما يكون ضرورياً في حق بعض الناس دون البعض، كالكتاب مثلاً في حق العالم لأنه مضطر إليه فيحبه، فيغضب على من يحرقه ويغرقه، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها، فإنما هو وسيلة إلى الضروري، والمحبوب يصير ضرورياً ومحبوباً، وهذا يختلف بالأشخاص، وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ وَلَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيا بِحَذَافِيرِهَا**»[1]، ومن كان بصيراً بحقائق الأمور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب في غيرها. فهذه ثلاثة أقسام، فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها.

---

(١) حديث: «**من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عبيدالله بن محصن دون قوله: «**بحذافيرها**» قال الترمذي: حسن غريب.

أما القسم الأول: فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب، ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً، فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن. نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن، وينتهي ضعفه إلى أن يظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديد جداً. وهذا حكم القسم الثالث أيضاً؛ لأن ما صار ضرورياً في حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه، فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه.

وأما القسم الثاني: فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه؛ إذ يمكن إخراج حبه من القلب، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة، وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزوّد منها قدر الضرورة، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره، فيزهد في الدنيا ويمحو حبها عن قلبه، ولو كان للإنسان كلب لا يحبه لا يغضب إذا ضربه غيره، فالغضب تبع للحب. فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع الغضب وهو نادر جداً، وقد تنتهي إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون.

فإن قلت: الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب، فمن له شاة مثلاً وهي قوته فماتت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة، وليس من ضرورة كل كراهة غضب، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام، فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه؛ إذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم، فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها؛ إذ يرى الذبح والموت من الله عزّ وجلّ فيندفع الغضب بغلبة التوحيد، ويندفع أيضاً بحسن الظن بالله، وهو أن يرى أن الكل من الله تعالى، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخيرة، وربما تكون الخيرة في مرضه وجوعه وجرحه وقتله، فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لأنه يرى أن الخيرة فيه، فيقول هذا على هذا الوجه غير محال، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف، تغلب في أحوال مختلفة ولا تدوم، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعياً لا يندفع عنه، ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله ﷺ فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه[1]، حتى قال: «**اللَّهُمَّ أنا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ فَأَيُّما مُسْلِمٍ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ أَوْ ضَرَبْتُهُ فَاجْعَلْها مِنِّي صَلاةً عَلَيْهِ وَزَكَاةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بها إِلَيْكَ يَوْمَ القِيامَةِ**»[2]. وقال عَبدالله بن

---

(١) حديث: «ﷺ يغضب حتى تحمر وجنتاه». أخرجه مسلم من حديث جابر: «كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه». وللحاكم: «كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه». وقد تقدم في أخلاق النبوة.

(٢) حديث: «اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله: «أغضب كما يغضب البشر» وقال: «جلدته» بدل «ضربته» وفي رواية: «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر» وأصله متفق عليه. وتقدم. ولمسلم من حديث أنس: «إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر» ولأبي يعلى من حديث أبي سعيد أو ضربت.

عمرو بن العاص: يا رسول الله، أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال: «**اكْتُبْ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ نَبِيّاً ما يَخرُجُ مِنْهُ إلاّ حَقٌّ**» وأشار إلى لسانه[(١)]، فلم يقل إني لا أغضب، ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق، أي لا أعمل بموجب الغضب. وغضبت عائشة رضي الله تعالى عنها مرة فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما لَكِ؟ جَاءَكِ شَيطَانُكِ؟**» فقالت: وما لك شيطان؟ قال: «**بَلَى وَلٰكِنِّي دَعَوْتُ الله فَأَعَانَنِي عَلَيهِ فَأَسْلَمَ فلا يَأْمُرُنِي إلاّ بِالخَيرِ**»[(٢)]، ولم يقل: لا شيطان لي، وأراد شيطان الغضب لكن قال: لا يحملني على الشر. وقال علي رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له[(٣)]. فكان يغضب على الحق، وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فإنما غضب لله، فلا يمكن الانفكاك عنه. نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه، فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره، فإن استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه.

وهذا كما أن سلمان لما شتم قال: إن خفّت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول؛ فقد كان همه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم. وكذلك شُتم الربيع بن خثيم فقال: يا هذا، قد سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول. وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه فقال: ما ستر الله عنك أكثر؛ فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقي الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته، فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان؛ إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان، وذلك لجلالة قدره. وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائي، فقال: ما عرفني غيرك. فكأنه كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء، ومنكراً على نفسه ما يلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه. وسب رجل الشعبي فقال: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به، واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم، فإذاً: اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب؛ فإذاً: يتصوّر فقد الغيظ إما باشتغال القلب بمهم، أو بغلبة نظر التوحيد، أو بسبب ثالث: وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ فيطفىء شدة حبه لله غيظه، وذلك غير محال في أحوال نادرة. وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب؛ وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها ـ كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا ـ، ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر أسباب الغضب، وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه؛ فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه إنه على كل شيء قدير. والحمد لله وحده.

---

(١) حديث عبدالله بن عمرو: يا رسول الله، أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا؟ قال: «**اكتب فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه إلا حق**»، وأشار إلى لسانه. أخرجه أبو داود بنحوه.

(٢) حديث: «غضبت عائشة فقال النبي ﷺ: «**ما لك جاءك شيطانك؟**...»» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة.

(٣) حديث علي: «كان لا يغضب للدنيا...» الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل، وقد تقدم.

بيان الأسباب المهيجة للغضب:

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب. وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله، فما يقرب من غضب الله، قال: أن تغضب، قال: فما يبدي الغضب وما ينبته؟ قال عيسى: الكبر والفخر والتعزز والحمية.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادّة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها.

فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك ـ كما سيأتي بيانه في كتاب الكبر والعجب ـ، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك، إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد؛ وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتاً، فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة؟. وأما المزاح: فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك. وأما الهزل: فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة. وأما الهزء: فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك. وأما التعيير: فالحذر عن القول القبيح، وصيانة النفس عن مر الجواب. وأما شدة الحرص على مزايا العيش: فتزال بالقناعة بقدر الضرورة، طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة.

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل، وتخلصت أيضاً عن الغضب الذي يتولد منها. ومن أشدّ البواعث على الغضب عند أكثر الجهال: تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه. وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل، وهو لضعف النفس ونقصانها، وآية أنه لضعف النفس: أن المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، وذو الخلق السيىء والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة، حتى إنه يغضب على أهله وولده وأصحابه. بل القوي من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1]. بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن

(١) حديث: «**ليس الشديد بالصرعة**» تقدم قبله.

ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء، وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم.

بيان علاج الغضب بعد هيجانه:

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج، فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت؛ حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل.

أما العلم فهو ستة أمور: **الأول**: أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفيء عنه غيظه، قال مالك بن أوس بن الحدثان: غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت: يا أمير المؤمنين: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] فكان عمر يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] فكان يتأمل في الآية، وكان وقافاً عند كتاب الله مهما تلي عليه، كثير التدبر فيه، فتدبر فيه وخلى الرجل. وأمر عمر بن عبدالعزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] فقال لغلامه: خل عنه.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه علي يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو. فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة: يا ابن آدم، اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق. وبعث رسول الله ﷺ وصيفاً إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال: «**لَوْلا القِصَاصُ لأَوْجَعْتُكَ**»[(١)]، أي القصاص في القيامة. وقيل: ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها: ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة. فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدوّ لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه ـ وهو لا يخلو عن المصائب ـ فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة. وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه؛ لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة، وتصير حقيراً في

---

(١) حديث: «**لولا القصاص لأوجعتك**» أخرجه أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف.

أعين الناس، فيقول لنفسه: ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة، والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك؟، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين؟ فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله، فما له وللناس؟ وذلُّ من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة: ليقم من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يكرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده، فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

وأما العمل: فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ[١]، وكان رسول الله ﷺ إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال: «**يا عُوَيْشُ قُولِي اللَّهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلاَّتِ الفِتَنِ**»[٢]. فيستحب أن تقول ذلك، فإن لم يزل بذلك؛ فاجلس إن كنت قائماً، واضطجع إن كنت جالساً، واقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك، واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة، وسبب الحرارة الحركة. فقد قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي القَلْبِ**»[٣]، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء؛ فقد قال ﷺ: «**إذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ بِالمَاءِ فَإِنَّمَا الغَضَبُ مِنَ النَّارِ**»[٤]، وفي رواية: «**إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّما تُطْفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ**»، وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «**وإذا غضبت فاسكت**»[٥]، وقال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه[٦]، وقال أبو سعيد الخدري: قال النبي ﷺ: «**ألا**

---

(١) حديث: «الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ». متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال: «كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه...» الحديث. وفيه: «**لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد**» فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: «**تعوذ بالله من الشيطان الرجيم...**» الحديث.

(٢) حديث: كان إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال: «**يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي...**» الحديث. أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديثها، وتقدم في الأذكار والدعوات.

(٣) حديث: «**إن الغضب جمرة توقد في القلب...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله: «**توقد**»، وقد تقدم، ورواه بهذا اللفظ البيهقي في الشعب.

(٤) حديث: «**إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد...**» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث عطية السعدي دون قوله «**بالماء البارد**» وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها المصنف، وقد تقدم.

(٥) حديث ابن عباس: «**إذا غضبت فاسكت**» أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ لهما والبيهقي في شعب الإيمان وفيه ليث بن أبي سليم.

(٦) حديث أبي هريرة: «كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه». أخرجه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد بإسناد جيد في أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع فقيل له: لم جلست ثم اضطجعت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**» والمرفوع عند أبي داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الأسود.

إنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ(١) . **ألاَ تَرَوْنَ إلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئاً فَلْيُلْصِقْ خَدَّهُ بِالأَرْضِ»** وكأن هذا إشارة إلى السجود، وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب؛ لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب.

وروي أن عمر غضب يوماً فدعا بماء فاستنشق وقال: إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب. وقال عروة بن محمد: لما استعملت على اليمن قال لي أبي: أوليت؟ قلت: نعم، قال: فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك، ثم عظِّم خالقهما. وروي أن أبا ذرّ قال لرجل: يا ابن الحمراء ـ في خصومة بينهما ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«يا أبَا ذَرٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ اليَوْمَ عَيَّرْتَ أَخَاكَ بِأُمِّهِ»** فقال: نعم، فانطلق أبو ذرّ ليرضي صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«يَا أَبَا ذَرّ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّكَ لَسْتَ بِأَفْضَلَ مِنْ أَحْمَرَ فِيها وَلا أَسْوَدَ إلاَّ أَنْ تَفْضُلَهُ بِعَمَلٍ»** ثم قال: **«إذا غَضِبْتَ فإنْ كُنْتَ قَائِماً فَاقْعُدْ وَإنْ كُنْتَ قَاعِداً فَاتَّكِىءْ وَإنْ كُنْتَ مُتَّكِئاً فَاضْطَجِعْ»**(٢) . وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتدّ غضبه، فكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول: إذا غضبت فأعطني هذه، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فأعطني هذه. فاشتد غضبه يوماً فأعطي الصحيفة الأولى فإذا فيها: ما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً، فسكن بعض غضبه، فأعطي الثانية فإذا فيها: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، فأعطي الثالثة فإذا فيها: خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلحهم إلا ذلك ـ أي لا تعطل الحدود ـ. وغضب المهدي على رجل فقال شبيب: لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه، فقال: خلوا سبيله.

فضيلة كظم الغيظ:

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] وذكر ذلك في معرض المدح. وقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ الله عَنْهُ عَذَابَهُ، وَمَنِ اعْتَذَرَ إلَى رَبِّهِ قَبِلَ الله عُذْرَهُ، وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ الله عَوْرَتَهُ»**(٣) ، وقال ﷺ: **«أَشَدُّكُمْ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ وَأَحْلَمُكُمْ مَنْ عَفَا عِنْدَ القُدْرَةِ»**(٤) ،

---

(١) حديث أبي سعيد **«ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم. . .»** الحديث. أخرجه الترمذي وقال حسن.

(٢) حديث أبي ذر: **«أنه قال لرجل: يا ابن الحمراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك النبي ﷺ. . .»** الحديث. وفيه فقال: **«يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر. . .»** الحديث. وفيه: ثم قال: **«إذا غضبت»** إلى آخره. أخرجه ابن أبي الدنيا في العفو وذم الغضب بإسناد صحيح، وفي الصحيحين من حديثه قال: كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمُّه أعجمية فعيرته بأمه فشكاني إلى النبي ﷺ فقال: **«يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية»** ولأحمد أنه ﷺ قال له: **«انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى»** ورجاله ثقات.

فضيلة كظم الغيظ

(٣) حديث: **«من كف غضبه كف الله عنه عذابه. . .»** الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس بإسناد ضعيف ولابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر **«من ملك غضبه وقاه الله عذابه. . .»** الحديث. وقد تقدم في آفات اللسان.

(٤) حديث: **«أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة»** أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث علي بسند ضعيف والبيهقي في الشعب بالشطر الأول من رواية عبدالرحمن بن عجلان مرسلاً بإسناد جيد، وللبزار والطبراني في مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث: **«أشدكم أملككم لنفسه عند الغضب»** وفيه عمران القطان مختلف فيه.

وقال ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيظاً وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ لأَمْضَاهُ مَلأَ الله قَلْبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ رِضاً» وفي رواية: «مَلأَ الله قَلْبَهُ أَمْناً وَإِيمَاناً»(١)، وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ما جَرَعَ عَبْدٌ جَرْعَةً أَعْظَمَ أَجْراً مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله تَعَالَى»(٢)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال ﷺ: «إِنَّ لِجَهَنَّمَ باباً لا يَدْخُلُهُ إلاَّ مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ الله تَعَالَى»(٣)، وقال ﷺ: «ما مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى الله تَعَالَى مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَها عَبْدٌ وَما كَظَمَها عَبْدٌ إلاَّ مَلأَ الله قَلْبَهُ إِيمَاناً»(٤)، وقال ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ الله عَلَى رُؤوسِ الخَلائِقِ وَيُخَيِّرُهُ مِنْ أَيِّ الحُورِ شاء»(٥).

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك، واعرف قدرك تنفعك معيشتك. وقال أيوب: حلم ساعة يدفع شراً كثيراً. واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع. وقال رجل لعمر رضي الله عنه: والله ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] فهذا من الجاهلين، فقال عمر: صدقت، فكأنما كانت ناراً فأطفئت. وقال محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله؛ إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. وجاء رجل إلى سلمان فقال: يا عبدالله، أوصني، قال: لا تغضب، قال لا أقدر، قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك.

بيان فضيلة الحلم:

اعلم: أن الحلم أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم - أي تكلف الحلم -، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً.

---

(١) حديث: «من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا» وفي رواية: «أمناً وإيماناً» أخرجه ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن أبيه، ورواها ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم.

(٢) حديث ابن عمر: «ما جرع رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله» أخرجه ابن ماجه.

(٣) حديث ابن عباس: «إن لجهنم باباً لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله» تقدم في آفات اللسان.

(٤) حديث: «ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد، وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيماناً» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلفق من حديث ابن عمر وحديث الصحابي الذي لم يسم، وقد تقدما.

(٥) حديث: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء» تقدم في آفات اللسان.

قال ﷺ: «**إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ وَمَنْ يَتَخَيَّرِ الخَيرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَوقَّ الشَّرَّ يُوْقَهُ**»[١]، وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولاً وتكلفه، كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**اطْلُبُوا العِلْمَ وَاطْلُبُوا مَعَ العِلْمِ السَّكِينَةَ وَالحِلْمَ، لِينَوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ وَلِمَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ، وَلا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ العُلَمَاءِ فَيَغْلِبَ جَهْلُكُمْ حِلْمَكُمْ**»[٢]، وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذي يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين. وكان من دعائه ﷺ «**اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية**»[٣]، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**ابتغوا الرفعة عند الله**». فالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَحْلُمُ عَمَّنْ جَهِلَ عَلَيْكَ**»[٤]، وقال ﷺ: «**خَمْسٌ مِنْ سُنَنِ المُرْسَلِينَ: الحَيَاءُ وَالحِلْمُ وَالحِجَامَةُ والسِّوَاكُ وَالتَّعَطُّرُ**»[٥]، وقال علي كرم الله وجهه: قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ لَيُدْرِكُ بِالحِلْمِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ وَإِنَّهُ لَيُكْتَبُ جَبَّاراً عَنِيداً وَلا يَمْلِكُ إِلاَّ أَهْلَ بَيْتِهِ**»[٦]، وقال أبو هريرة: إن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، ويجهلون عليَّ واحلم عنهم، قال: «**إِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المل ولاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ ما دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[٧]، المل: يعني به الرمل. وقال رجل من المسلمين: اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ إني قد غفرت له[٨]، وقال ﷺ: «**أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي**

فضيلة الحلم

(١) حديث: «**إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم...**» الحديث. أخرجه الطبراني والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

(٢) حديث أبي هريرة: «**اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم...**» الحديث. أخرجه ابن السني في رياضة المتعلمين بسند ضعيف.

(٣) حديث: كان من دعائه: «**اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية**» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «**ابتغوا الرفعة عند الله**» قالوا: وما هي؟ قال: «**تصل من قطعك...**» الحديث. أخرجه الحاكم والبيهقي وقد تقدم.

(٥) حديث: «**خمس من سنن المرسلين: الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر**» أخرجه أبو بكر بن أبي عاصم في المثاني والآحاد، والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية مليح بن عبدالله الخطمي عن أبيه عن جده، وللترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب: «**أربع**» فأسقط «**الحلم والحجامة**» وزاد «**النكاح**».

(٦) حديث علي: «**إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم...**» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف.

(٧) حديث أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ويجهلون عليّ وأحلم عنهم...» الحديث. رواه مسلم.

(٨) حديث: «قال رجل من المسلمين: اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو صدقة عليه...» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الصحابة والبيهقي في الشعب من رواية عبدالمجيد بن أبي عبس بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد لين، زاد البيهقي عن علبة بن زيد، وعلبة هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث وذكر ابن عبدالبر في الاستيعاب أنه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة: أن رجلاً من المسلمين ولم يسمه وقال: أظنه أبا ضمضم.

قلت: وليس بأبي ضمضم إنما هو علبة بن زيد، وأبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم.

ضَمْضَم» قالوا: وما أبو ضمضم؟ قال: «رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كانَ إذا أَصْبَحَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إنِّي تَصَدَّقْتُ اليَوْمَ بِعِرْضِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي»(١).

وقيل في قوله تعالى: ﴿رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عِمرَان: ٧٩] أي حلماء علماء. وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ قال: حلماء؛ إن جهل عليهم لم يجهلوا. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي حلماء. وقال ابن أبي حبيب في قوله عزّ وجلّ ﴿وَكَهْلًا﴾ [آل عِمرَان: ٤٦] قاله: الكهل منتهى الحلم. وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفُرقان: ٧٢] أي إذا أوذوا صفحوا.

وروي: أن ابن مسعود مر بلغو معرضاً فقال رسول الله ﷺ: «أَصْبَحَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَمْسَى كَرِيماً»(٢)، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لا يُدْرِكْنِي وَلا أُدْرِكُهُ زَمَانٌ لا يَتَّبِعُونَ فِيهِ العَلِيمَ وَلاَ يَسْتَحْيُونَ فِيهِ مِنَ الحَلِيمِ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ العَجَمِ وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ العَرَبِ»(٣)، وقال ﷺ: «لِيَلِيَنِي مِنْكُمْ ذَوُو الأَحْلامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، وَلا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الأَسْوَاقِ»(٤). وروي: أنه وفد على النبي ﷺ الأشج فأناخ راحلته ثم عقلها، وطرح عنه ثوبين كانا عليه، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما. وذلك بعين رسول الله ﷺ يرى ما يصنع، ثم أقبل يمشي إلى رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «إِنَّ فِيكَ يا أَشَجُّ خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ وَرَسُولُهُ» قال: ما هما بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «الحِلْمُ وَالأَنَاةُ» فقال: خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما؟ فقال: «بل خلقان جبلك الله عليهما» فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله(٥)، وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الحَلِيمَ الحَيِيَّ الغَنِيَّ المُتَعَفِّفَ أَبا العِيالِ التَّقِيَّ وَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ السَّائِلَ المُلْحِفَ الغَبِيَّ»(٦)، وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلا تَعْتَدُّوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ: تَقْوَى تَحْجُزُهُ عَنْ مَعَاصِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَحِلْمٌ يَكُفُّ بِهِ السَّفِيهَ، وَخُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ»(٧)، وقال رسول الله ﷺ: «إِذا جَمَعَ اللهُ الخَلائِقَ يَوْمَ القِيامَةِ نادَى مُنَادٍ: أَيْنَ أَهْلُ الفَضْلِ؟ فَيَقُومُ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرٌ فَيَنْطَلِقُونَ سِراعاً إِلَى الجَنَّةِ فَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ فَيَقُولُونَ لَهُمْ: إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعاً إِلَى الجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الفَضْلِ، فَيَقُولُونَ

---

(١) حديث: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم...» الحديث. تقدم في آفات اللسان.

(٢) حديث: أن ابن مسعود مر بلغو معرضاً فقال النبي ﷺ: «أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً» أخرجه ابن المبارك في البر والصلة.

(٣) حديث: «اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لايتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم...» الحديث. أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف.

(٤) حديث: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله: «ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه، وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود.

(٥) حديث: «يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة...» الحديث. متفق عليه.

(٦) حديث: «إن الله يحب الحفي الحليم الغني المتعفف...» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث سعد: «إن الله يحب العبد التقي الغني الحفي».

(٧) حديث ابن عباس «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله» أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة بإسناد لين وقد تقدم في آداب الصحبة.

لَهُمْ: ماكانَ فَضْلُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا إذا ظُلِمْنَا صَبَرْنَا وَإذا أُسِيءَ إلَيْنَا عَفَوْنَا وَإذا جُهِلَ عَلَيْنَا حَلِمْنَا. فَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الجَنَّةَ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ»(١).

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم. وقال علي رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى. وقال الحسن: اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم. وقال أكثم بن صيفي: دعامة العقل الحلم، وجماع الأمر الصبر. وقال أبو الدرداء: أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه، فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، إن عرفتهم نقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، قالوا: كيف نصنع؟ قال: تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك. وقال علي رضي الله عنه: إن أوّل ما عوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل. وقال معاوية رحمه الله تعالى: لا يبلغ مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم. وقال معاوية لعمرو بن الأهتم: أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه. قال: أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لصلاح دينه. وقال أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤] إلى قوله ﴿عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١٦]: هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي. وقال بعضهم: شتمت فلاناً من أهل البصرة فحلم علي فاستعبدني بها زماناً. وقال معاوية لعرابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرابة؟ قال: يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم. فمن فعل فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه. وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال: يا عكرمة، هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى. وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز: أشهد أنك من الفاسقين، فقال: ليس تقبل شهادتك. وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم: أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعد من الله عزّ وجلّ، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى مدح بعد الذم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير، وقال رجل لجعفر بن محمد: إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر، وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لي: إن تركك له ذل، فقال جعفر: إنما الذليل الظالم. وقال الخليل بن أحمد: كان يقال: من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته. وقال الأحنف بن قيس: لست بحليم ولكنني أتحلم. وقال وهب بن منبه: من يَرْحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يجهل يغلب، ومن يعجل يخطىء، ومن يحرص على الشر لا يسلم، ومن لا يدع المراء يشتم، ومن لا يكره الشر يأثم، ومن يكره الشر يعصم، ومن يتبع وصية الله يحفظ، ومن يحذر الله يأمن، ومن يتول الله يمنع، ومن لا يسأل الله يفتقر، ومن يأمن مكر الله يخذل، ومن يستعن بالله يظفر. وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني بسوء، قال، أنت إذاً أكرم علي من نفسي، إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي. وقال بعض العلماء: الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به. وقال رجل لبعض الحكماء: والله لأسبنك سباً يدخل معك في قبرك،

---

(١) حديث: «**إذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس...**» الحديث. وفيه: «**إذا جهل علينا حلمنا**» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال البيهقي: في إسناده ضعف.

فقال: معك يدخل لا معي. ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شراً، فقال لهم خيراً. فقيل له: إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً؟ فقال: كل ينفق مما عنده. وقال لقمان: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه. ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاماً، فخرجت امرأة الحكيم ـ وكانت سيئة الخلق ـ فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضباً فتبعه الحكيم وقال له: تذكر يوم كنا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا؟ قال: نعم، قال: فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة؛ فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال: صدق الحكيم، الحلم شفاء من كل ألم. وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب، فقيل له في ذلك فقال: أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب. وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنبٍ ... وإن كَثُرتْ منه عليَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلا واحد من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته عرضي وإن لام لائمُ
وأما الذي مثلي فإن زلّ أو هفا ... تفضلت إن الفضلَ بالحلم حاكمُ

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام:

اعلم: أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا مقابلة التجسس بالتجسس، ولا السب بالسبّ، وكذلك سائر المعاصي. وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فصلناه في الفقه. وأما السب فلا يقابل بمثله إذ قال رسول الله ﷺ: **«إنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِمَا فِيكَ فَلا تُعَيِّرْهُ بِمَا فِيهِ»**[(١)]، وقال: **«المُسْتَبَّانِ ما قالا فَهُوَ عَلَى البَادِيءِ ما لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُومُ»** وقال: **«المُسْتَبَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ»**[(٢)]، وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت، فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: إنك كنت ساكتاً لما شتمني فلما تكلمت قمت. قال: **«لأنَّ المَلَكَ كَانَ يُجِيبُ عَنْكَ فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ ذَهَبَ المَلَكُ وَجَاءَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لأَجْلِسَ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الشَّيْطَانُ»**[(٣)]، وقال قوم: تجوز المقابلة بما لا كذب فيه، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه، والأفضل تركه ولكنه لا يعصي به. والذي يرخص فيه أن تقول: من أنت؟ وهل أنت إلا من بني فلان؟ كما قال سعد بن مسعود: وهل أنت إلاّ من بني هذيل؟ وقال ابن مسعود: وهل أنت إلا من بني أمية؟. ومثل قوله: يا أحمق، قال مطرف: كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض. وقال ابن عمر في حديث طويل: حتى ترى الناس كلهم حمقى في

---

(١) حديث: «إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه» أخرجه أحمد من حديث جابر بن مسلم، وقد تقدم.

(٢) حديث: «المستبان شيطانان يتهاتران» تقدم.

(٣) حديث: «شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام ﷺ..» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة متصلاً ومرسلاً. قال البخاري: المرسل أصح.

ذات الله تعالى[1]، وكذلك قوله: يا جاهل؛ إذ ما من أحد إلا وفيه جهل؛ فقد آذاه بما ليس بكذب. وكذلك قوله: يا سيىء الخلق، يا صفيق الوجه، يا ثلاباً للأعراض، وكان ذلك فيه. وكذلك قوله: لو كان فيك حياء لما تكلمت، وما أحقرك في عيني بما فعلت، وأخزاك الله وانتقم منك.

فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق، لما روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام، فذكر رجل خالداً عند سعد، فقال سعد: مه، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا ـ يعني أن يأثم بعضنا في بعض ـ فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنى والفحش والسب: ما روت عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي ﷺ أرسلن إليه فاطمة، فجاءت فقالت: يا رسول الله أرسلني إليك أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، والنبي ﷺ نائم، فقال: **«يا بنية أتحبين ما أحب»**؟ قالت: نعم، قال: **«فَأَحِبِّي هٰذِهِ»** فرجعت إليهن فأخبرتهن بذلك، فقلن: ما أغنيت عنا شيئاً، فأرسلن زينب بنت جحش، قالت: وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت: بنت أبي بكر وبنت أبي بكر، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لي رسول الله ﷺ في الجواب، فأذن لي فسببتها حتى جف لساني، فقال النبي ﷺ: **«كَلاَّ إِنَّها ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ»**[2]، يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قط وقولها: سببتها، ليس المراد به الفحش، بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق. وقال النبي ﷺ: **«المُسْتَبَّانِ ما قَالاَ فَعَلَى البَادِىءِ مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِيَ المَظْلُومُ»**[3]، فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي. فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق. ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ما وراءه، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حدّ الشرع فيه، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سريعاً، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام. والناس في الغضب أربعة: فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود، وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود؛ وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا هو شرهم. وفي الخبر: **«المُؤْمِنُ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الرِّضَى فَهٰذِهِ بِتِلْكَ»**[4]، وقال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرضى فهو شيطان. وقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: **«أَلاَ إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى فَمِنْهُمْ بَطِيءُ الغَضَبِ سَرِيعُ الفَيْءِ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الفَيْءِ؛ فَتِلْكَ بِتِلْكَ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ بَطِيءُ الفَيْءِ، أَلاَ وَإِنَّ خَيْرَهُمُ البَطِيءُ الغَضَبِ السَّرِيعُ الفَيْءِ وَشَرَّهُمُ السَّرِيعُ الغَضَبِ البَطِيءُ الفَيْءِ»**[5]، ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان

---

(١) حديث ابن عمر في حديث طويل: «حتى ترى الناس كأنهم حمقى في ذات الله عز وجل» تقدم في العلم.

(٢) حديث عائشة: «إن أزواج النبي ﷺ أرسلن فاطمة فقالت: يا رسول الله، أرسلني أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة. .» الحديث. رواه مسلم.

(٣) حديث: **«المستبان ما قالا فعلى البادىء. . .»** الحديث. رواه مسلم وقد تقدم.

(٤) حديث: **«المؤمن سريع الغضب سريع الرضى»** تقدم.

(٥) حديث أبي سعيد الخدري: **«ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات. . .»** الحديث. تقدم.

وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حالة غضبه، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظاً عليه؛ فيكون متشفياً لغيظه ومريحاً نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحب حظ نفسه، فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه. ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعزره، فشتمه السكران فرجع عمر، فقيل له: يا أمير المؤمنين، لما شتمك تركته؟ قال: لأنه أغضبني، ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحب أن أضرب مسلماً حمية لنفسي. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لرجل أغضبه: لولا أنك أغضبتني لعاقبتك.

القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق:

اعلم: أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً، ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى، وقد قال ﷺ: «**المُؤمِنُ لَيسَ بِحَقُودٍ**»(١)، فالحقد ثمرة الغضب.

والحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسد: وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين. وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى.

الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع: وهو دون أن تعرض عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة. وكل ذلك حرام.

وأقل درجات الحقد: أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به، ولكن تستثقله في الباطن، ولا تنهى قلبك عن بغضه، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته، والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له، أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته. فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين، ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل، وإن كان لا يعرّضك لعقاب الله.

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ـ وكان قريبه ـ لكونه تكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [النّور: ٢٢] إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النّور: ٢٢] فقال أبو بكر: نعم نحب ذلك، وعاد إلى الإنفاق عليه(٢).

فضيلة العفو

(١) حديث: «المؤمن ليس بحقود» تقدم في العلم.

(٢) حديث: «لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [النّور: ٢٢] الآية» متفق عليه من حديث عائشة.

والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس وإرغاماً للشيطان فذلك مقام الصدّيقين، وهو من فضائل أعمال المقرّبين. فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة.

أحدها: أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان؛ وهو العدل.

الثاني: أن يحسن إليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل.

الثالث: أن يظلمه بما لا يستحقه؛ وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل، والثاني: هو اختيار الصدّيقين، والأول: هو منتهى درجات الصالحين، ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان.

فضيلة العفو والإحسان:

اعلم: أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرىء عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ؛ فلذلك أفردناه. قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال الله تعالى ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال رسول الله ﷺ: **«ثَلاثٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كُنْتُ حَلافاً لَحَلَفْتُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا، وَلا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إلاَّ زَادَهُ الله بِهَا عِزّاً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلاَّ فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ»**(١)، وقال ﷺ: **«التَّوَاضُعُ لا يَزِيدُ العَبْدَ إلاَّ رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمُ الله، وَالعَفْوُ لا يَزِيدُ العَبْدَ إلاَّ عِزّاً فَاعْفُوا يُعِزُّكُمُ الله، وَالصَّدَقَةُ لا تَزِيدُ المَالَ إلاَّ كَثْرَةً فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمْكُمُ الله»**(٢)، وقالت عائشة رضي الله عنها: **«مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ مُنْتَصِراً مِنْ مَظْلَمَةٍ ظَلَمَهَا قَطُّ مَا لَمْ يُنْتَهَكْ مِنْ مَحَارِمِ الله، فَإِذَا انْتُهِكَ مِنْ مَحَارِمِ الله شَيءٌ كَانَ أَشَدَّهُمْ فِي ذٰلِكَ غَضَباً، وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إثْماً»**(٣)، وقال عقبة: لقيت رسول الله ﷺ يوماً فابتدرته، فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال: **«يا عقبة ألا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ أَخْلاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ»**(٤)، وقال ﷺ: **«قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ عَلَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي إذَا قَدِرَ عَفَا»**(٥)، وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال: الذي يعفو إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله، وجاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو مظلمة، فأمره النبي ﷺ أن يجلس، وأراد أن يأخذ له بمظلمته، فقال له ﷺ: **«إنَّ المَظْلُومِينَ هُمُ المُفْلِحُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(٦)، فأبى أن يأخذها حين سمع

---

(١) حديث: **«ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً لحلفت عليهن: ما نقصت صدقة من مال...»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري، ولمسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«التواضع لا يزيد العبد إلاّ رفعة فتواضعوا يرفعكم الله»** أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث عائشة: **«ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط...»** الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل، وهو عند مسلم بلفظ آخر، وقد تقدم.

(٤) حديث عقبة بن عامر: **«يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف، وقد تقدم.

(٥) حديث: **قال موسى يا رب أي عبادك أعز عليك؟ قال الذي إذا قدر عفا**: أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة.

(٦) حديث: **«إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة»**، وفي أوله قصة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسلاً.

الحديث. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدِ انْتَصَرَ». وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَعَثَ الله الخَلائِقَ يَوْمَ القِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ: يَا مَعْشَرَ المُوَحِّدِينَ، إِنَّ الله قَدْ عَفَا عَنْكُمْ فَلْيَعْفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ»(١)، وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: «مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟» فقالوا: نقول أخ وابن عم حليم رحيم ـ قالوا ذلك ثلاثاً ـ فقال ﷺ: «أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يُوسُف: ٩٢]»(٢) قال: فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام. وعن سهيل بن عمرو قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال: «لا إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ» ثم قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟» قال: قلت: يا رسول الله، نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن عم رحيم، وقد قدرت، فقال رسول الله ﷺ: «أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يُوسُف: ٩٢]»(٣)، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذا وَقَفَ العِبَادُ نَادَى مُنَادٍ لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى الله فَلْيَدْخُلِ الجَنَّةَ»، قيل: ومن ذا الذي له على الله أجر؟ قال: «العَافُونَ عَنِ النَّاسِ، فَيَقُومُ كَذَا وَكَذَا أَلْفاً فَيَدْخُلُونَها بِغَيْرِ حِسَابٍ»(٤)، وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْبَغِي لِوالِي أَمْرٍ أَنْ يُؤْتَى بِحَدٍّ إِلاَّ أَقَامَهُ، وَالله عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفْوَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ [النُّور: ٢٢] الآيَة»(٥)، وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوابِ الجَنَّةِ شَاءَ وَزُوِّجَ مِنَ الحُورِ العِينِ حَيْثُ شَاءَ: مَنْ أَدَّى دَيْناً خَفِيّاً وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١] عَشْرَ مَرَّاتٍ وَعَفَا عَنْ قَاتِلِهِ» قال أبو بكر: أو إحداهن يا رسول الله. قال: «أَو إحداهن»(٦).

---

(١) حديث أنس: «إذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات: يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض»: أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقري في كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ: «ينادِ مناد من بطنان العرش يوم القيامة: يا أمة محمد إن الله تعالى يقول ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي» وإسناده ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ: «نادى مناد يا أهل الجمع تاركوا المظالم بينكم وثوابكم عليّ» وله من حديث أم هانىء: «ينادي مناد: يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعليّ الثواب».

(٢) حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: «ما تقولون...» الحديث. رواه ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف.

(٣) حديث سهيل بن عمرو: «لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يده على باب الكعبة» الحديث. بنحوه: لم أجده.

(٤) حديث أنس: «إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة» قيل: من ذا الذي أجره على الله؟ قال: «العافون عن الناس...» الحديث. أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه.

(٥) حديث ابن مسعود: «لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو...» الحديث. أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وتقدم في آداب الصحبة.

(٦) حديث جابر: «ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط وفي الدعاء بسند ضعيف.

الآثار: قال إبراهيم التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه. وهذا إحسان وراء العفو؛ لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب. وقال بعضهم: إذا أراد الله أنْ يتحف عبداً قيَّض له من يظلمه. ودخل رجل على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه فقال له عمر: إنك إن تلقى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها. وقال يزيد بن ميسرة: إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول: إنَّ آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوي. وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه: كِلِ الظالم إلى ظلمه؛ فإنه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل، وقمن أن لا يفعل. وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال: بلغنا أن الله تعالى يأمر منادياً يوم القيامة فينادي: من كان له عند الله شيء فليقم، فيقوم أهل العفو، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس. وعن هشام بن محمد قال: أتي النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فعفا عنه، والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه وقال:

تعفو الملوك عن العظيم ... من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير ... وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف حلمها ... ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال: وفد سوار بن عبدالله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر، قال: فكنت عنده إذ أتي برجل فأمر بقتله فقلت: يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر، فقلت: يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثاً سمعته من الحسن؟ قال: وما هو؟ قلت: سمعته يقول: إذا كان يوم القيامة جمع الله عزّ وجلّ الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيقوم مناد فينادي: من له عند الله يد فليقم، فلا يقوم إلا من عفا، فقال: والله لقد سمعته من الحسن؟ فقلت: والله لسمعته منه، فقال: خلينا عنه. وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال.

وروي: أن راهباً دخل على هشام بن عبدالملك فقال للراهب: أرأيت ذا القرنين أكان نبياً؟ فقال: لا، ولكنه إنما أعطي ما أعطي بأربع خصال كن فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا حدث صدق، ولا يجمع شغل اليوم لغد. وقال بعضهم: ليس الحليم من ظلم فحلم، حتى إذا قدر انتقم؛ ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا. وقال زياد: القدرة تذهب الحفيظة ـ يعني الحقد والغضب ـ وأتي هشام برجل بلغه عنه أمر، فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته، فقال له هشام: وتتكلم أيضاً؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاماً؟ قال هشام: بلى ويحك تكلم.

وروي: أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له: اقطعه فإنه من أعدائنا، فقال: بل أستر عليه لعل الله يستر عليَّ يوم القيامة. وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاماً، فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلت فقال: لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون: اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا، فقال عبدالله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه. وقال

الفضيل: ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان؛ جلس إليّ في المسجد ثم قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه فجعل يبكي فقلت: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا، ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله عزّ وجلّ، فأشرف عقلي على إدحاض حجته فبكائي رحمة له؟. وقال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلاً وهو على البصرة أمير، وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه، فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له في الجب فقال: باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس ثم قال: أيها الأمير، ماذا صنع الله به؟ أداله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله؟ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يُوسُف: ٩٢] يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه قال الحكم: فأنا أقول: لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبي هذا لواريتكم تحته. وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: فلان هارب من زلته إلى عفوك لائذ منك بك. واعلم: أنه لن يزداد الذنب عظماً إلا ازداد العفو فضلاً. وأتي عبدالملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ قال: إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو، فعفا عنهم.

وروي: أن زياداً أخذ رجلاً من الخوارج فأفلت منه، فأخذ أخاً له فقال له: إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك، فقال: أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي؟ قال: نعم. قال: فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم، وأقيم عليه شاهدين، إبراهيم وموسى، ثم تلا ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النّجم: ٣٦ ـ ٣٨] فقال زياد: خلوا سبيله، هذا رجل قد لقن حجته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان.

فضيلة الرفق:

اعلم: أن الرفق محمود، ويضاده العنف والحدة ـ والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ـ والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة، وقد يكون سبب الحدة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت. فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال. ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق وبالغ فيه فقال: **«يا عائشة، إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة»**(١)، وقال رسول الله ﷺ: **«إِذَا أَحَبَّ الله أَهْلَ بَيْتٍ أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ»**(٢)، وقال ﷺ: **«إِنَّ الله لَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ**

فضيلة الرفق

(١) حديث: **«يا عائشة إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة...»** الحديث. رواه أحمد والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبدالرحمن بن أبي بكر المليكي وضعفه عن القاسم عن عائشة. وفي الصحيحين من حديثهما: **«يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله»**.

(٢) حديث: **«إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق»** أخرجه أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة.

مَا لا يُعْطِي عَلَى الخَرق وَإِذَا أَحَبَّ الله عَبْداً أَعْطَاهُ الرِّفْقَ وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرِّفْقَ إلاَّ حُرِمُوا مَحَبَّةَ الله تَعَالَى»(١)، وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: **«إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيهِ ما لا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ»**(٢)، وقال ﷺ: **«يا عَائِشَةُ ارْفُقِي فَإِنَّ الله إذا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيتٍ كَرَامَةً دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ»**(٣)، وقال ﷺ: **«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيرَ كُلَّهُ»**(٤)، وقال ﷺ: **«أَيُّما وَالٍ وَلِيَ فَرَفِقَ وَلانَ رَفِقَ الله تَعَالَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(٥)، وقال ﷺ: **«تَدْرُونَ مَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ»**(٦)، وقال ﷺ: **«الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالخَرْقُ شُؤْمٌ»**(٧)، وقال ﷺ: **«التَّأَنِّي مِنَ الله وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيطَانِ»**(٨). وروي: أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال: يا رسول الله، إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصني منك بخير فقال: **«الحمد لله»** مرتين أو ثلاثاً ثم أقبل عليه فقال: **«هل أنت مستوص»** مرتين أو ثلاثاً قال: نعم. قال: **«إن أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه وإن كان سوى ذلك فانته»**(٩)، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ: **«يا عَائِشَةُ عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ فَإِنَّهُ لا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ»**(١٠).

الآثار: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أيتها الرعية، إن لنا عليكم حقاً؛ النصيحة

---

(١) حديث: **«إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق...»** الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جرير بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: **«إن الله رفيق يحب الرفق...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة.

(٣) حديث: **«يا عائشة ارفقي إن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق»** أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبي داود: **«يا عائشة ارفقي»**.

(٤) حديث: **«من يحرم الرفق يحرم الخير كله»**. أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله: **«كله»** فهي عند أبي داود.

(٥) حديث: **«أيما وال ولي فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة»** أخرجه مسلم من حديث عائشة، وفي حديث فيه: **«ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»**.

(٦) حديث: **«تدرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب»** أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود، وتقدم في آداب الصحبة.

(٧) حديث: **«الرفق يمن والخرق شؤم»** أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف.

(٨) حديث: **«التأني من الله والعجلة من الشيطان»**. أخرجه أبو يعلى من حديث أنس، ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ: **«الأناة من الله»**، وقد تقدم.

(٩) حديث: **«أتاه رجل فقال يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك...»** الحديث. وفيه: **«فإذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه...»** الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث أبي جعفر هو المسمى عبدالله بن مسور الهاشمي ضعيف جداً، ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده: **«إذا هممت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته»** وإسناده ضعيف.

(١٠) حديث عائشة: **«عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه...»** الحديث. رواه مسلم.

بالغيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة، إن للرعية عليكم حقاً، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه، وليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرقه، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه.

وقال وهب بن منبه: الرفق ثني الحلم.

وفي الخبر موقوفاً ومرفوعاً: **«العِلْمُ خَلِيلُ المُؤْمِنِ، وَالحِلْمُ وَزِيرُهُ، وَالعَقْلُ دَلِيلُهُ، وَالعَمَلُ قَيِّمُهُ، وَالرِّفْقُ وَالِدُهُ، وَاللِّينُ أَخُوهُ، وَالصَّبْرُ أَمِيرُ جُنُودِهِ»**[1]. وقال بعضهم: ما أحسن الإيمان يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم. وقال عمرو بن العاص لابنه عبدالله: ما الرفق؟ قال: تكون ذا أناة فتلاين الولاة. قال فما الخرق؟ قال: معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك. وقال سفيان لأصحابه: تدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: أن تضع الأمور من مواضعها: الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه؛ وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل.

ووضع الندى في موضع السيف بالعُلاَ مُضِرٌ كوضع السيف في موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محله حسناً كما أن الرفق في محله حسن، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى، وهو ألذ من الزبد بالشهد وهكذا. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: روي أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني فكتب إليه معاوية: أما بعد: فإن الفهم في الخير زيادة رشد، وإن الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيباً، وإن العجل مخطىء أو كاد أن يكون مخطئاً، وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق، ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالي. وعن أبي عون الأنصاري قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها. وقال أبو حمزة الكوفي: لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه، فإن مع كل إنسان شيطاناً. واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه. وقال الحسن: المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل. فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور، وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف، فيعطي كل أمر حقه، فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق، فإن النجاح معه في الأكثر.

---

(١) حديث: **«العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده»**. أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف، ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف.

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم: أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه، والغضب أصل أصله، ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى. وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة: قال رسول الله ﷺ: «**الحَسَدُ يَأكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**»(١)، وقال ﷺ في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته: «**لا تَحَاسَدُوا وَلا تَقَاطَعُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إخْوَاناً**»(٢)، وقال أنس: كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ مِنَ هٰذا الفَجّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**» قال: فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه، قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل، وقاله في اليوم الثالث، فطلع ذلك الرجل، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال له: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت، فقال: نعم، فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم لصلاة الفجر(*)؛ قال: غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبدالله، لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا، فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً فما الذي بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه، قال عبدالله: فقلت له: هي التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق(٣). وقال ﷺ: «**ثَلاثٌ لا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ: الظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ وَالحَسَدُ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِالمَخْرَجِ مِنْ ذٰلِكَ: إذا ظَنَنْتَ فَلا تُحَقِّقْ؛ وَإذا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ، وَإذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ**»(٤)، وفي رواية: «**ثَلاثٌ لا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُنَّ**» فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة. وقال ﷺ: «**دَبَّ إلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، وَالبِغْضَةُ هِيَ الحَالِقَةُ، لا أَقُولُ حالِقَةُ الشَّعْرِ وَلٰكِنْ حَالِقَةُ الدِّينِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا**

القول في ذم الحسد

(١) حديث: «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا...**» الحديث. متفق عليه، وقد تقدم.

(*) في ط: (وقام لصلاة الفجر) والمعنى واحد؛ أي لم يصل حتى قام لصلاة الفجر. [الناشر].

(٣) حديث أنس: «كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «**يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة... الحديث بطوله**» وفيه: «أن ذلك الرجل قال: لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله» رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ورواه البزار وسمى الرجل في رواية له سعداً وفيها ابن لهيعة.

(٤) حديث: «**ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن والطعن والحسد**» الحديث. وفي رواية: «**وقل من ينجو منهن**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور، والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبدالرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف، وللطبراني من حديث حارثة بن النعمان نحوه، وتقدم في آفات اللسان.

وَلَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذٰلِكَ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»(١)، وقال ﷺ: «**كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً وَكَادَ الحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ القَدَرَ**»(٢)، وقال ﷺ: «**إِنَّهُ سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الأُمَمِ**» قالوا: وما داء الأمم؟ قال: «**الأَشَرُ وَالبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّبَاعُدُ وَالتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ البَغْيُ ثُمَّ الهَرْجُ**»(٣)، وقال ﷺ: «**لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك**»(٤)، وروي: أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلاً فغبطه بمكانه فقال: إن هذا لكريم على ربه، فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال: أحدثك من عمله بثلاث: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة. وقال زكريا عليه السلام: قال الله تعالى: الحاسد عدوّ لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي. وقال ﷺ: «**أَخْوَفُ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ يَكْثُرَ فِيهِمُ المَالُ فَيَتَحَاسَدُونَ وَيَقْتَتِلُونَ**»(٥)، وقال ﷺ: «**اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ الحَوَائِجِ بِالكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ**»(٦)، وقال ﷺ: «**إِنَّ لِنِعَمِ اللهِ أَعْدَاءً**» فقيل: ومن هم؟ فقال: «**الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**»(٧)، وقال ﷺ: «**سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الحِسَابِ بِسَنَةٍ**» قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «**الأُمَرَاءُ بِالجَوْرِ، وَالعَرَبُ بِالعَصَبِيَّةِ، وَالدَّهَاقِينَ بِالتَّكَبُّرِ، وَالتُّجَّارُ بِالخِيَانَةِ، وَأَهْلُ الرُّسْتَاقِ بِالجَهَالَةِ، وَالعُلَمَاءُ بِالحَسَدِ**»(٨).

الآثار: قال بعض السلف: أول خطيئة هي الحسد؛ حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن

---

(١) حديث: «**دب إليكم داء الأمم: الحسد والبغضاء...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير.

(٢) حديث: «**كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر**» أخرجه أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ: «**كادت الحاجة أن تكون كفراً**» وفيه ضعف أيضاً.

(٣) حديث: «**إنه سيصيب أمتي داء الأمم قبلكم**» قالوا: وما داء الأمم؟ قال: «**الأشر والبطر...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد، والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.

(٤) حديث: «**لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك**» أخرجه الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفي رواية ابن أبي الدنيا: «**فيرحمه الله**».

(٥) حديث: «**أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد: «**إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**» ولهما من حديث عمرو بن عوف البدري «**والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا...**» الحديث. ولمسلم من حديث عبدالله بن عمرو: «**إذا فتحت عليكم فارس والروم...**» الحديث. وفيه: «**يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون...**» الحديث. ولأحمد والبزار من حديث عمر: «**لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**».

(٦) حديث: «**استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود**» أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف.

(٧) حديث: «**إن لنعم الله أعداء**» قيل: ومن أولئك؟ قال «**الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس: «**إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم**».

(٨) حديث: «**ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة**» قيل: يا رسول الله ومن هم؟ قال: «**الأمراء بالجور...**» الحديث. وفيه: «**والعلماء بالحسد**» أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين.

يسجد له، فحمله الحسد على المعصية. وحكي: أن عون بن عبدالله دخل على الفضل بن المهلب ـ وكان يومئذٍ على واسط ـ فقال: إني أريد أن أعظك بشيء فقال: وما هو؟ قال: إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به، ثم قرأ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤] الآية، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة، أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السمٰوات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها، ثم قرأ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ [البَقَرَة: ٣٨] إلى آخر الآية، وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده، ثم قرأ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المَائدة: ٢٧]، الآيات، وإذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ فأمسك، وإذا ذكر القدر فاسكت، وإذا ذكرت النجوم فاسكت. وقال بكر بن عبدالله: كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر، فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فإنه إذ دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر، فقال له: انصرف حتى أنظر، فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك على عادته فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فقال له الملك: ادن مني فدنا فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا قد صدق؟ قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أوصلة، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله: إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به إليّ. فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: خط الملك لي بصلة، فقال هبه لي فقال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العامل، فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك، قال: إن الكتاب ليس هو لي، فالله الله في أمري حتى تراجع الملك، فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً وبعث به، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله؛ فعجب الملك وقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له، قال له الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر، قال: ما قلت ذلك؟ قال: فلم وضعت يدك على فيك؟ قال: لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمه، قال: صدقت، ارجع إلى مكانك فقد كفى المسيء إساءته. وقال ابن سيرين رحمه الله: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة؟!، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟! وقال رجل للحسن: هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ نعم، ولكن غمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولا لساناً. وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده!. وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة لا يرضيه إلا زوالها، ولذلك قيل:

كل العداوات قد ترجى إماتتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ، وحسب الحسود ما يلقى. وقال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه. وقال الحسن: يا ابن آدم: لم تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله؟، وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار؟. وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً، ولا ينال من الملائكة إلا

لعنة وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً، ولا ينال عند النزع إلا شدّة وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً.

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه:

اعلم: أنه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسداً. فالحسد: حدّه: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه.

الحالة الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها. وهذه تسمى غبطة، وقد تختص باسم المنافسة.

وقد تسمى المنافسة حسداً والحسد منافسة، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني. وقد قال ﷺ: «**إنَّ المُؤمِنَ يَغْبِطُ وَالمُنَافِقَ يَحْسُدُ**»(١).

فأما الأول فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته. ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠] وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البَقَرَة: ١٠٩] فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النِّساء: ٨٩] وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام، وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يُوسُف: ٨، ٩] فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه غيبوه عنه وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحَشر: ٩] أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون، فأثنى عليهم بعدم الحسد. وقال تعالى في معرض الإنكار: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النِّساء: ٥٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البَقَرَة: ٢١٣] إلى قوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢١٣] قيل في التفسير: حسداً، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم، فتحاسدوا واختلفوا، إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض. قال ابن عباس: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوماً

بيان حقيقة الحسد وحكمه

(١) حديث: «**المؤمن يغبط والمنافق يحسد**» لم أجد له أصلاً مرفوعاً، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد.

قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله، وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا[1]. فكانوا ينصرون. فلما جاء النبي ﷺ من ولد إسماعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٨٩] إلى قوله: ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾ [البَقَرَة: ٩٠] أي حسداً. وقالت صفية بنت حُيَيّ للنبي ﷺ: جاء أبي وعمي من عندك يوماً، فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنه النبي الذي بشر به موسى. قال: فما ترى؟ قال: أرى معاداته أيام الحياة[2]. فهذا حكم الحسد في التحريم.

وأما المنافسة: فليست بحرام، بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد، قال قثم بن العباس: لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي ﷺ فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة ـ قالا لعلي حين قال لهما: لا تذهبا إليه فإنه لا يُؤَمِّرُكُما عليها ـ فقالا له: ما هذا منك إلا نفاسة، والله لقد زوّجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك[3]، أي هذا منك حسد، وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة.

والمنافسة في اللغة: مشتقة من النفاسة. والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحَديد: ٢١] وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها، فكيف وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ الله مالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاهُ الله تَعَالَى عِلْماً فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ**»[4]، ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال: «**مَثَلُ هٰذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةٍ: رَجُلٌ آتاهُ الله مالاً وَعِلْماً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ، وَرَجُلٌ آتاهُ الله عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مالاً فَيَقُولُ: رَبِّ لَوْ أَنَّ لِي مالاً مِثْلَ مَالِ فُلانٍ لَكُنْتُ أَعْمَلُ فِيهِ بِمِثْلِ عَمَلِهِ، فَهُما فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ ـ وَهٰذا مِنْهُ حُبٌّ لأَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ مَالِهِ فَيَعْمَلَ ما يَعْمَلُ مِنْ غَيْرِ حُبِّ زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْهُ قالَ: ـ وَرَجُلٌ آتاهُ الله مالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي مَعَاصِي الله، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مالاً فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَالِ فُلانٍ لَكُنْتُ أُنْفِقُهُ فِي مِثْلِ ما**

---

(١) حديث ابن عباس: «قوله: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله...» الحديث: وفي نزول قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البَقَرَة: ٨٩] أخرجه ابن إسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: «أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ» فذكره نحوه وهو منقطع.

(٢) حديث: «قالت صفية بنت حيي للنبي ﷺ: جاء أبي وعمي من عندك يوماً فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنه النبي الذي بشر به موسى...» الحديث. أخرجه ابن إسحاق في السيرة قال: حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً.
أبو صفية رضي الله عنها هو حُيي بن أخطب اليهودي، وعمها سلام بن أبي الحقيق والد زوجها كنانة بن أبي الحقيق.

(٣) حديث: «قال قثم بن العباس: لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي ﷺ فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي...» الحديث. هكذا وقع للمصنف أنه قثم والفضل وإنما هو الفضل والمطلب بن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: «اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبدالمطلب فقالا: والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس: ائتيا إلى رسول الله ﷺ فكلماه»؛ فذكر الحديث.

(٤) حديث: «**لا حسد إلا في اثنتين**...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمرو، وقد تقدم في العلم.

أَنْفَقَهُ فِيهِ مِنَ المَعَاصِي فَهُما فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ»[(١)]، فذمه رسول الله ﷺ من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ما له. فإذاً: لا حرج على من يغبط غيره في نعمه ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له. نعم، إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة، وهو أن يحب أن يكون مثله، لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات، فالمنافسة فيها مندوب إليها، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللحوق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة، وكانت تحت هذه النعمة أمران، أحدهما: راحة المنعم عليه، والآخر: ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له.

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات، نعم، ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة، ولكنه لا يوجب العصيان. وههنا دقيقة غامضة: وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يحب زوال النقصان، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك، أو بأن تزول نعمة المحسود، فإذا انسدّ أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشفى عنده من دوامها؛ إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره، وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقي الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسداً مذموماً، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك، فيعفى عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارهاً لذلك من نفسه بعقله ودينه، ولعله المعنى بقوله ﷺ: **«ثلاثٌ لا يَنفَكُّ المُؤمِنُ عَنهُنَّ: الحَسَدُ وَالظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ»**[(٢)]، ثم قال: **«وله منهن مخرج»**: **«إذا حَسَدْتَ فَلا تَبْغِ»** أي إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به. ويبعد أن يكون الإنسان مريداً اللحاق بأخيه في النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة؛ إذ يجد ـ لا محالة ـ ترجيحاً له على دوامها. فهذا الحدّ من المنافسة يزاحم الحسد الحرام، فينبغي أن يحتاط فيه فإنه موضع الخطر، وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوي الإيمان رزين التقوى. ومهما كان محرّكه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم، وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه، حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة، وذلك لا رخصة فيه أصلاً، بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا، ولكن يعفى عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له. فهذه هي حقيقة الحسد وأحكامه.

وأما مراتبه فأربع:

الأولى: أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه؛ وهذا غاية الخبث.

الثانية: أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة، مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة

---

(١) حديث أبي كبشة: **«مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالاً. . .»** الحديث. رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) حديث: **«ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة. . .»** الحديث. تقدم غير مرة.

أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها.

الثالثة: أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما.

الرابعة: أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه.

وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم، والثانية أخف من الثالثة، والأولى مذموم محض. وتسمية الرتبة حسداً فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [النِّساء: ٣٢] فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم.

بيان أسباب الحسد والمنافسة:

أما المنافسة: فسببها حب ما فيه المنافسة، فإن كان ذلك أمراً دينياً فسببه حب الله تعالى وحب طاعته، وإن كان دنيوياً فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها. وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب: العداوة، والتعزز، والكبر، والتعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها. فإنه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير، وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك، بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه، أو إلى من يحبه. وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه، وهو المراد بالتعزز. وإما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر. وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيماً فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب. وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه. وإما أن يكون يحب الرياسة التي تنبني على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها. وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى. ولا بد من شرح هذه الأسباب.

السبب الأول: العداوة والبغضاء، وهذا أشدّ أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه. وبالجملة: فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به ـ أعني الحسد بالعداوة ـ إذ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١١٩-١٢٠] الآية. وكذلك قال تعالى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ﴾ [آل عِمرَان: ١١٨] والحسد بسبب البغض ربما

يفضي إلى التنازع، والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر، وما يجري مجراه.

السبب الثاني: التعزز؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره. فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبر عليه، وهو لا يطيق تكبره، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

السبب الثالث: الكبر؛ وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته، أو ربما يتشوّف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه. ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطىء رؤوسنا؟ فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١][1] أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيماً. وقال تعالى يصف قول قريش: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] كالاستحقار لهم والأنفة منهم.

السبب الرابع: التعجب، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤] فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم، وأحبوا زوال النبوّة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدّم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب، وقالوا متعجبين: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] الآية.

السبب الخامس: الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كان واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده. ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال والجاه، وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم، وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين؛ إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له.

السبب السادس: حب الرياسة، وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود. وذلك كالرجل

---

(١) حديث: «سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]» ذكره ابن إسحاق في السيرة: «وإن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين، فأنزل الله فيما بلغني هذه الآية». ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيريهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قالا مسعود بن عمرو، وفي رواية لابن مردويه حبيب بن عمير الثقفي وهو ضعيف.

الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك، وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرّد هو به ويفرح بسبب تفرّده، وليس السبب في هذا عداوة ولا تعزز ولا تكبر على المحسود، ولا خوف من فوات المقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد. وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة. وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به؛ خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده؛ كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته. ويقال: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس، ورذالة في الطبع، عليه وقعت الجبلة، ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصوّر زوالها فيطمع في إزالتها، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته. فهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوى قوّة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة، بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة. وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب، وقلما يتجرّد سبب واحد منها.

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه:

اعلم: أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر؛ إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر، ولأنه يتكبر ولأنه عدوّ، ولغير ذلك من الأسباب. وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وتترادف جملة من هذه الأسباب؛ إذ لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك في محلتين، نعم، إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما، فيثور من التناقض التنافر والتباغض، ومنه تثور بقية أسباب الحسد، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد الإسكاف، ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة. ويحسد الرجل أخاه وابن عمه

أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته. لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد؛ إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر؛ إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز. ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر. وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم؛ لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض، وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع. ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب، لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص. فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهما. نعم، من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم ـ وإن بعد ـ ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين؛ أما الآخرة فلا ضيق فيها، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمٰواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الاستفادة والإفادة. فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى؛ لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم. نعم، إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا؛ لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر، ومعنى الجاه ملك القلوب، ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة؛ فيكون سبباً للمحاسدة، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلىء قلب غيره بها وأن يفرح بذلك.

والفرق بين العلم والمال: أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى، والعلم في قلب العالم مستقر، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية، فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره، والعلم لا نهاية له ولا يتصوّر استيعابه، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم، ولم يكن ممنوعاً منه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق؛ لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة، فإن نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته، يأمن زوالها وهو أبداً يجني ثمارها؛ فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه، وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة، بل قطوفها دانية، فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين، بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧] فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى؟ فإذن: لا يتصوّر

أن يكون في الجنة محاسدة، ولا أن يكون بين أهل الدنيا في الجنة محاسدة، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً، فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين، ولذلك وسم به الشيطان اللعين، وذكر من صفاته: أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء، ولما دعي إلى السجود استكبر وأبى وتمرّد وعصى. فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل. ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار، فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً. فعليك ـ إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً ـ أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها؟ ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عزّ وجلّ، ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السمٰوات والأرض. ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً. فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها، وفتر عنها رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور؛ إذ العنين لا يشتاق إلى لذة الوقاع، والصبي لا يشتاق إلى لذة الملك، فإن هذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين، فكذلك لذة المعرفة يختص بإدراكها الرجال ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٣٧] ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزّخرُف: ٣٦].

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب:

اعلم: أنّ الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد: هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدّين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت هذا عن بصيرة ـ ولم تكن عدوّ نفسك وصديق عدوّك ـ فارقت الحسد لا محالة. أما كونه ضرراً عليك في الدين: فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته. وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين. وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم. وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وتمحوها كما يمحو الليل النهار. وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا: فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم؛ إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموماً محروماً متشعب القلب ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوّك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقداً، ومع هذا، فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة ـ إن كنت عاقلاً ـ أن تحذر من

الحسد؛ لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرّض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة؟ وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح؛ لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بدّ أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدّره الله سبحانه فلا حيلة في دفعه، بل كل شيء عنده بمقدار، ولكل أجل كتاب. ولذلك شكا نبي من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه: فرّ من قدامها حتى تنقضي أيامها أي: ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره، فاصبر حتى تنقضي المدّة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها. ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا، ولا يكون عليه إثم في الآخرة، ولعلك تقول: ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي. وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أوّلاً لنفسك، فإنك أيضاً لا تخلو عن عدوّ يحسدك، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق، ولا نعمة الإيمان أيضاً، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] إذ ما يريد الحسود لا يكون. نعم، هو يضل بإرادته الضلال لغيره فإن أراد الكفر كفر. فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار، وكذا سائر النعم. وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة؛ فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضاً يشتهي أن يخص بهذا الخاصية، ولست بأولى من غيرك، فنعمة الله تعالى عليك في إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها، وأنت بجهلك تكرهها.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح. أما منفعته في الدين: فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه، وهتك ستره وذكر مساويه، فهذه هدايا تهديها إليه؛ أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً عن النعمة، كما حرمت في الدنيا عن النعمة، فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل. نعم، كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة.

وأما منفعته في الدنيا: فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين. ولا عذاب أشدّ مما أنت فيه من ألم الحسد، وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوّك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد؛ لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسداً. ولذلك قيل:

لا مات أعداؤك بل خلدوا ... حتى يروا فيك الذي يكمدُ
لا زلت محسوداً على نعمة ... فإنما الكاملُ من يحسدُ

ففرح عدوّك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده، فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوّك، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدوّ نفسك وصديق عدوّك؛ إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة، وانتفع به عدوّك في الدنيا والآخرة. وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق شقياً في الحال والمآل، ونعمة

المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك، لأنه لما رآك محروماً من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوّك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك، فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب، فبغّضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك.

وقد قال أعرابي للنبي ﷺ: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولم يلحق بهم، فقال النبي ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[١]، وقام أعرابي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: «يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال: «**ما أَعْدَدْتَ لَها؟**» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»[٢]، قال أنس: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذٍ»، إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله. قال أنس: فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم، ونرجو أن نكون معهم. وقال أبو موسى: قلت: يا رسول الله، الرجل يحب المصلين ولا يصلي، ويحب الصوام ولا يصوم، حتى عدّ أشياء. فقال النبي ﷺ: «**هو مع من أحب**»[٣]، وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز: إنه كان يقال: إن استطعت أن تكون عالماً فكن عالماً، فإن لم تستطع أن تكون عالماً فكن متعلماً، فإن لم تستطع أن تكون متعلماً فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم، فقال: سبحان الله! لقد جعل الله لنا مخرجاً.

فانظر الآن: كيف حسدك إبليس ففوّت عليك ثواب الحب، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك، وحملك على الكراهة حتى أثمت، وكيف لا، وعساك تحاسد رجلاً من أهل العلم وتحب أن يخطيء في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح؟ وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم، أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم، وأي إثم يزيد على ذلك؟ فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة، وقد جاء في الحديث: «**أَهْلُ الجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: المُحْسِنُ والمُحِبُّ لَهُ وَالكَافُّ عَنْهُ**»[٤]، أي من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة، فانظر: كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك، بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي سهماً إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشدّ من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه فيعود ثالثة فيعود على رأسه فيشجه، وعدوّه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه. وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه، بل حالك في الحسد أقبح من هذا؛ لأن الرمية العائدة لم تفوّت إلا العينين ولو بقيتا لفاتتا

---

(١) حديث: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «**هو مع من أحب**» متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث: سؤال الأعرابي متى الساعة؟ فقال: «**ما أعددت لها...**» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

(٣) حديث أبي موسى: «قلت: يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي...» الحديث. وفيه: «**هو مع من أحب**» متفق عليه من حديث أبي موسى بلفظ آخر مختصراً: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال: «**المرء مع من أحب**».

(٤) حديث: «**أهل الجنة ثلاثة: المحسن والمحب له والكاف عنه**» لم أجد له أصلاً.

بالموت لا محالة. والحسد يعود بالإثم، والإثم لا يفوت بالموت، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار، فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار. فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذ أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد؛ إذ السلامة من الإثم نعمة، والسلامة من الغم والكمد نعمة قد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فَاطِر: ٤٣] وربما يبتلى بعين ما يشتهيه لعدوّه، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلها، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما تمنيت لعثمان شيئاً إلا نزل بي، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت. فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجرّ إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الأعداء؟ وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة.

فهذه هي الأدوية العلمية. فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر، انطفأت نار الحسد من قلبه، وعلم أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه، ومسخط ربه ومنغص عيشه.

وأما العمل النافع فيه: فهو أن يحكم الحسد، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه، وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه، ويحمله على مقابلة ذلك الإحسان، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخراً، ولا يصدّنه عن ذلك قول الشيطان له: لو تواضعت وأثنيت عليه حملك على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة ـ تكلفاً كانت أو طبعاً ـ تكسر سورة العداوة من الجانبين، وتقل مرغوبها وتعوّد القلوب التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض.

فهذه هي أدوية الحسد، وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً، ولكن النفع في الدواء المرّ. فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء؛ وإنما تهون مرارة هذا الدواء ـ أعني التواضع للأعداء والتقرّب إليهم ـ بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوّة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه. وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل، وعند ذلك يريد ما لا يكون؛ إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين: إما بأن يكون ما تريد، أو بأن تريد ما يكون، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه. وأما الثاني: فللمجاهدة فيه مدخل، وتحصيله بالرياضة ممكن، فيجب تحصيله على كل عاقل. هذا هو الدواء الكلي.

فأما الدواء المفصل: فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يغني ـ وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى ـ، فإنها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة، فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده، فإنه ما دام محباً للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه، ويغمه ذلك لا محالة، وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه، والله الموفق.

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب:

اعلم: أن المؤذي ممقوت بالطبع، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له، ولكن إن قوّى ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك، وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] وقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠] أما الفعل فهو غيبة وكذب، وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد، بل محل الحسد القلب دون الجوارح. نعم، هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها، بل هو معصية بينك وبين الله تعالى، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح، فأما إذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أديت الواجب عليك، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا، فأما تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي والمحسن، ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء؛ فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ما دام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا، إلاّ أن يصير مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة، ويرى الكل عباد الله، وأفعالهم أفعالاً لله، ويراهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه، ويعود العدوّ إلى منازعته ـ أعني الشيطان ـ فإنه ينازع بالوسوسة. فمهما قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه. وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه، لما روي عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال: غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده. وروي عنه موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «**ثَلاثَةٌ لا يَخْلُو مِنْهُنَّ المُؤْمِنُ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ**» فمخرجه من الحسد أن لا يبغي، والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو، وتلك الكراهة تمنعه من البغي والإيذاء، فإن جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال. فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد. فإذن كونه آثماً بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد، والأظهر: ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى؛ إذ يبعد أن يعفى عن العبد في إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة.

وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال.

أحدها: أن تحب مساءتهم بطبعك، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك، وتمقت نفسك عليه، وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك، وهذا معفو عنه قطعاً لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه.

الثاني: أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو الحسد المحظور قطعاً.

الثالث: وهو بين الطرفين؛ أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك، ومن غير إنكار منك على قلبك، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه، وهذا في محل الخلاف. والظاهر: أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه. والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي عرّف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها، ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة، وإن أساءت مرة جعلتها سنة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة. فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم، فهي خداعة مكارة، طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها؛ كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها. بينما أصحابها منها في سرور وإنعام؛ إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد. إن ملكت واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس؛ جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس. تمني أصحابها سروراً وتعدهم غروراً؛ حتى يأملون كثيراً ويبنون قصوراً؛ فتصبح قصورهم قبوراً، وجمعهم بوراً. وسعيهم هباء منثوراً، ودعاؤهم ثبوراً، هذه صفتها وكان أمر الله قدراً مقدوراً، والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً. وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيراً، وعلى الظالمين نصيراً وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الدنيا عدوة لله: وعدوة لأولياء الله، وعدوة لأعداء الله. أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله. ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها. وأما عداوتها لأولياء الله عزّ وجلّ: فإنها تزينت لهم بزينتها، وعمتهم بزهرتها ونضارتها، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعداء الله: فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها، فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها، وعولوا عليها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها، فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد. فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون. بل يقال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٦].

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بدّ أولاً من معرفة حقيقة الدنيا وما هي؟ وما الحكمة في خلقها مع عداوتها؟ وما مدخل غرورها وشرورها؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه. ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثلتها، وحقيقتها وتفصيل معانيها، وأصناف الأشغال المتعلقة بها، ووجه الحاجة

إلى أصولها، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى. وهو المعين على ما يرتضيه.

بيان ذم الدنيا:

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة. وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة. بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها. فقد روي أنّ رسول الله ﷺ مرّ على شاة ميتة فقال: **«أترون هذه الشاة هينة على أهلها؟»** قالوا: من هوانها ألقوها. قال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ هٰذِهِ الشَّاةِ عَلَى أَهْلِها وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**(١) . وقال ﷺ: **«الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»**(٢)، وقال رسول الله ﷺ: **«الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إلاّ ما كَانَ للهِ مِنْهَا»**(٣)، وقال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا ما يَبْقَى عَلَى ما يَفْنَى»**(٤)، وقال ﷺ: **«حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»**(٥)، وقال زيد بن أرقم: كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: **«هٰذِهِ الدُّنْيَا مَثَلَتْ لِي فَقُلْت لَهَا: إِلَيْكِ عَنِّي ثُمَّ رجَعَت فَقَالَتْ: إِنَّكَ إِنْ أَفْلَتَّ مِنِّي لَمْ يَفْلَتْ مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ»**(٦)، وقال ﷺ: **«يا عَجَباً كُلَّ العَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ الخُلُودِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الغُرُورِ»**(٧).

كتاب ذم الدنيا

(١) حديث: مر على شاة ميتة فقال: **«أترون هذه الشاة هينة على صاحبها...»** الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي، وقال: حسن صحيح، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة، ولمسلم نحوه من حديث جابر.

(٢) حديث: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: **«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها»** أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد: **«إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم»**.

(٤) حديث أبي موسى الأشعري: **«من أحب دنياه أضر بآخرته...»** الحديث. أخرجه أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه.

(٥) حديث: **«حب الدنيا رأس كل خطيئة»** أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلاً.

(٦) حديث زيد بن أرقم: **«كنا مع أبي بكر فدعا بشراب فأتي بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى...»** الحديث. وفيه: «كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً...» الحديث. أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصحح إسناده وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه.

(٧) حديث: **«يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور»** أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسلاً.

وروي: أن رسول الله ﷺ وقف على مزبلة فقال: «**هَلِمُّوا إِلَى الدُّنْيَا وَأَخَذَ خِرَقاً قَدْ بَلِيَتْ عَلَى تِلْكَ المَزْبَلَةِ وَعِظَاماً قَدْ نَخِرَتْ فَقَالَ: هٰذِهِ الدُّنْيَا**»(١)، وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق، وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاماً بالية. وقال ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا بُسِطَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَمُهِّدَت تَاهُوا فِي الحِلْيَةِ وَالنِّسَاءِ وَالطِّيبِ وَالثِّيابِ**»(٢). وقال عيسى عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه؛ فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: يا معشر الحواريين، إني قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي، فإن من خبث الدنيا أن عُصي الله فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً، وقال أيضاً: بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة. وقال أيضاً: الدنيا طالبة ومطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه.

وقال موسى بن يسار: قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنَّهُ مُنْذُ خَلَقَهَا لَمْ يَنظُرْ إِلَيهَا**»(٣). وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام مرَّ في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال: فمر بعابد من بني إسرائيل فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً، قال: فسمع سليمان وقال: لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود، فإن ما أعطي ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى. وقال ﷺ: «**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مالِي مالِي وَهَلْ لَكَ مِن مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ؟**»(٤) وقال ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ، وَلَها يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ، وَعَلَيها يُعَادِي مَنْ لا عِلْمَ لَهُ، وَعَلَيها يَحْسُدُ مَنْ لا فِقْهَ لَهُ، وَلَهَا يَسْعَى مَنْ لا يَقِينَ لَهُ**»(٥)، وقال ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيا أَكْبَرُ هَمِّهِ فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ وَأَلْزَمَ الله قَلْبَهُ أَرْبَعَ خِصَالٍ: هَمّاً لا يَنْقَطِعُ عَنْهُ أَبَداً، وَشُغْلاً لا يَتَفَرَّغُ مِنْهُ أَبَداً، وَفَقْراً لا يَبْلُغُ غِنَاهُ أَبَداً،**

---

(١) حديث: إنه وقف على مزبلة فقال: «**هلموا إلى الدنيا...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا، والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسلاً، وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس.

(٢) حديث: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون...**» الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله: «**إن بني إسرائيل... الخ**» والشطر الأول متفق عليه، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلاً بالزيادة التي في آخره.

(٣) حديث موسى بن يسار: «**إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها**» أخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغاً والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل.

(٤) حديث: «**ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن الشخير.

(٥) حديث: «**الدنيا دار من لا دار له...**» الحديث. أخرجه أحمد من حديث عائشة مقتصراً على هذا وعلى قوله: «**ولها يجمع من لا عقل له**» دون بقيته، وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه: «**ومال من لا مال له**» وإسناده جيد.

وَأَمَلاً لا يَبْلُغُ مُنْتَهَاه أَبَداً»(١). وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هُرَيْرَةَ أَلاَ أُرِيكَ الدُّنيَا جَمِيعَها بِمَا فِيها؟» فقلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام، ثم قال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ هٰذِهِ الرُّؤوسُ كَانَتْ تَحْرِصُ كَحِرْصِكُمْ وَتَأْمُلُ كَأَمَلِكُمْ ثُمَّ هِيَ اليَوْمَ عِظَامٌ بِلا جِلْدٍ ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ رَمَاداً، وَهٰذِهِ العُذْرَاتُ هِيَ أَلْوانُ أَطْعِمَتِهِم اكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ اكْتَسَبُوهَا ثُمَّ قَذَفُوهَا فِي بُطُونِهِمْ فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامَوْنَها، وَهٰذِهِ الخِرَقُ البَالِيَةُ كَانَتْ رِيَاشَهُمْ وَلِبَاسَهُمْ فَأَصْبَحَتْ وَالرِّيَاحُ تَصْفِقُها، وَهٰذِهِ العِظَامُ عِظَامُ دَوَابِّهِمُ الَّتِي كانُوا يَنْتَجِعُونَ عَلَيْها أَطْرَافَ البِلادِ، فَمَنْ كانَ بَاكِياً عَلَى الدُّنْيَا فَلْيَبْكِ» قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا(٢).

ويروى أن الله عزّ وجلّ لما أهبط آدم إلى الأرض قال له: ابن للخراب وَلِد للفناء. وقال داود بن هلال: مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام: يا دنيا، ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم، إني قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك، وما خلقت خلقاً أهون عليّ منك، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد ولا يدوم لك أحد، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إلي من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم، والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي. وقال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيا مَوْقُوفَةٌ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ، مُنْذُ خَلَقَها الله تَعَالَى لَمْ يَنْظُرْ إِلَيها، وَتَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: يا رَبِّ اجْعَلْنِي لأَدْنَى أَوْلِيائِكَ اليَوْمَ نَصِيباً فَيَقُولُ: اسْكُتِي يا لا شَيْءَ إِنِّي لَمْ أَرْضَكِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا أَأَرْضَاكِ لَهُم اليَوْمَ»(٣).

وروي في أخبار آدم عليه السلام: أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها، قال: فجعل يدور في الجنة، فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه فقال له: قل له: أي شيء تريد؟ قال آدم: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى، فقيل للملك: قل له: في أي مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار، هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك؟ اهبط إلى الدنيا. وقال ﷺ: «لَيَجِيئَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَعْمَالُهُمْ كَجِبالِ تِهَامَةَ فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ» قالوا: يا رسول الله مصلين؟ قال: «نَعَمْ كانُوا يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَأْخُذُونَ هَنَةً مِنَ اللَّيْلَةِ فَإِذا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيا وَثَبُوا عَلَيْهِ»(٤)، وقال ﷺ في بعض خطبه: «المُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما الله صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ

---

(١) حديث: «من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر من دون قوله: «وألزم الله قلبه... الخ»، وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة، وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف.

(٢) حديث أبي هريرة: ««ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة فإذا مزبلة...» الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها...» الحديث. تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلاً ولم أجد باقيه.

(٤) حديث: «ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار...» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً.

لا يَدْرِي مَا الله قَاضٍ فِيهِ؟ فَلْيَتَزَوَّدِ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَمِنْ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ وَمِنْ شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلآخِرَةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما بَعْدَ المَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إلاّ الجَنَّةُ أَوْ النَّار»[(١)]، وقال عيسى عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد.

وروي: أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. وقيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذت بيتاً يكنك. قال: يكفينا خلقان من كان قبلنا. وقال نبينا ﷺ: «احْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّها أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ»[(٢)]، وعن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال: «هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُذْهِبَ الله عَنْهُ العَمَى وَيَجْعَلَهُ بَصِيراً: أَلاَ إنَّهُ مَنْ رَغِبَ فِي الدُّنْيَا وَطَالَ أَمَلُهُ فِيها أَعْمَى الله قَلْبَهُ عَلَى قَدْرِ ذٰلِكَ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا وَقَصَرَ فِيها أَمَلَهُ أَعْطَاهُ الله عِلْماً بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ، وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ، ألا إنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ لا يَسْتَقِيمُ لَهُمُ المُلْكُ إلاّ بِالقَتْلِ وَالتَّجَبُّرِ، وَلا الغِنَى إلاّ بِالفَخْرِ وَالبُخْلِ، وَلا المَحَبَّةُ إلاّ بِاتِّبَاعِ الهَوَى؛ أَلاَ فَمَنْ أَدْرَكَ ذٰلِكَ الزَّمَانَ مِنْكُمْ فَصَبَرَ عَلَى الفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الغِنَى، وَصَبَرَ عَلَى البَغْضَاءِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى المَحَبَّةِ، وَصَبَرَ عَلَى الذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى العِزِّ لا يُرِيدُ بِذٰلِكَ إلاّ وَجْهَ الله تَعَالَى أَعْطَاهُ الله ثَوَابَ خَمْسِينَ صِدِّيقاً»[(٣)].

وروي: أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوماً، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال: إلهي، جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى، فأوحى الله تعالى إليه: مأواك في مستقر رحمتي لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا، ولآمرن منادياً ينادي أين الزهاد في الدنيا، زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم. وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها، وتغره ويأمنها، ويثق بها وتخذله، وويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون؟ وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غداً بذنبه؟ وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى: ما لك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار، أخرج منها همك وفارقها بعقلك، فبئست الدار هي إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هي، يا موسى: إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم.

وروي: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين؛ فسمعت الأنصار

---

(١) حديث: «المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى...» الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه انقطاع.

(٢) حديث: «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت» أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية أبي الدرداء الرهاوي مرسلاً، وقال البيهقي: إن بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة. قال الذهبي: لا يدرى من أبو الدرداء قال: وهذا منكر لا أصل له.

(٣) حديث الحسن: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه هكذا مرسلاً، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم.

بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ فَوَالله ما الفَقر أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(١). وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَكْثَرَ ما أَخافُ عَلَيْكُمْ ما يُخْرِجُ الله لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ» فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا»(٢). وقال ﷺ: «لا تَشْغَلُوا قُلُوبَكُمْ بِذِكْرِ الدُّنْيا»(٣)، فنهى عن ذكرها فضلاً عن إصابة عينها.

وقال عمار بن سعيد: مرَّ عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق، فقال: يا معشر الحواريين، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا، فقالوا: يا روح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم. فسأل الله تعالى فأوحى إليه: إذا كان الليل فنادهم يجيبوك، فلما كان الليل أشرف على نشز، ثم نادى: يا أهل هذه القرية، فأجابه مجيب: لبيك يا روح الله! فقال: ما حالكم وما قصتكم؟ قال: بتنا في عافية وأصبحنا في الهاوية، قال: وكيف ذاك؟ قال: بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي، قال: وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال: حب الصبي لأمه؛ إذا أقبلت فرحنا بها، وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها، قال: فما بال أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد، قال: فكيف أجبتني أنت من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدري أأنجو منها أم أكبكب فيها؟ فقال المسيح للحواريين: لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة.

وقال أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق فجاء أعرابي بناقة له فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: «إِنَّهُ حَقٌّ عَلَى الله أَنْ لا يَرْفَعَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيا إِلاَّ وضعه»(٤)، وقال عيسى عليه السلام: من الذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً. وقيل لعيسى عليه السلام: علّمنا علماً واحداً يحبنا الله عليه، قال: ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى. وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَهَانَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَلآثَرْتُمُ الآخِرَةَ»(٥)، ثم قال أبو الدرداء ـ من قبل نفسه ـ: لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون

---

(١) حديث: «بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة». متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البدري.

(٢) حديث أبي سعيد: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض...» الحديث. متفق عليه.

(٣) حديث: «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا» أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثي مرسلاً.

(٤) حديث أنس: «كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق...» الحديث. وفيه: «حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه» أخرجه البخاري.

(٥) حديث أبي الدرداء: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة» أخرجه الطبراني دون قوله «ولهانت... الخ» وزاد «ولخرجتم إلى الصعدات...» الحديث. وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر «وما تلذذتم بالنساء على الفرش»، وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة.
العضباء: العصواء ـ أيضاً ـ لها هذين الاسمين.

وتبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلا ما لا بدّ لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبته، ما لكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله، وما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم، ما لكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة؟ ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم. فإن قلتم: حب العاجلة غالب؟ فإنا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمر لعلكم لا تدركونه، فبئس القوم أنتم، ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم، فإن كنتم في شك مما جاء به محمد ﷺ فائتونا لنبين لكم ولنريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم، والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم، إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم، ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم، وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم، وعامتكم قد تركوا كثيراً من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم، إني لأرى الله قد تبرأ منكم، يلقى بعضكم بعضاً بالسرور وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله؛ فاصطحبتم على الغل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الأجل، ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته ولو كان حياً لم يصابركم، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً، وبالله أستعين على نفسي وعليكم. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين، ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا. وفي معناه قيل:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ... وما أراهم رضوا في العيش بالدُّونِ
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما اسـ ... ـتغنى الملوك بدنياهم عن الدينِ

وقال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبر: تركك الدنيا أبر. وقال نبينا ﷺ: **«لَتَأْتِيَنَّكُمْ بَعْدِي دُنيَا تَأْكُلُ إِيمَانَكُمْ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ»**[1]، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى، لا تركنن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها. ومرَّ موسى عليه السلام برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي، فقال موسى: يا رب، عبدك يبكي من مخافتك فقال: يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا.

الآثار: قال علي رضي الله عنه: من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً؛ أولها: من عرف الله وأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها. وقال الحسن: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً. وقال أيضاً رحمه الله: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فَأَلْقِها في نحره. وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني، إن الدنيا بحر

---

(١) حديث: **«لتأتينكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب»** لم أجد له أصلاً.

عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عزّ وجلّ، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عزّ وجلّ، لعلك تنجو وما أراك ناجياً. وقال الفضيل: طالت فكرتي في هذه الآيـــة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝﴾ [الكهف: ٧، ٨]، وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا عشاء ليلة وغداء يوم، فلا تهلك في أكلة، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار. وقيل لبعض الرهبان: كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان ويجدّد الآمال. ويقرّب المنية ويبعد الأمنية. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفر به تعب، ومن فاته نصب. وفي ذلك قيل:

ومن يحمدِ الدُّنيا لعيش يسرّه ... فسوف لعمري عن قليل يلومُها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومُها

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها؛ فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية. وقال بعضهم: من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحق، لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص. وقال سفيان: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها. وقال أبو سليمان الداراني: من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر. ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر، وليس لهذا غاية. وقال رجل لأبي حازم: أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار، فقال: انظر ما آتاكه الله عزّ وجلّ منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه، ولا يضرك حب الدنيا. وإنما قال هذا لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها. وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك، وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى؛ لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى. فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى؟. وقال أبو حازم: إياكم والدنيا، فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً للدنيا فيقال: هذا عظّم ما حقره الله. وقال ابن مسعود: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وما له عارية، فالضيف مرتحل والعارية مردودة. وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بدّ يوماً أن تردَّ الودائع

وزار رابعة أصحابها، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره. وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقعُ
فطوبى لعبد آثر الله ربه ... وجاد بدنياه لما يتوقعُ

وقيل أيضاً في ذلك:

أرى طالبَ الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سروراً وأنعُما
كبانٍ بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدّما

وقيل أيضاً في ذلك:

هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذاك إلى انتقالِ
وما دنياك إلا مثل فيءٍ ... أظلك ثم آذن بالزوالِ

وقال لقمان لابنه: يا بني، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً. وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر؛ فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. وقال بعضهم: الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب. وفي ذلك قيل:

يا خاطبَ الدُّنيا إلى نفسها ... تنحّ عن خطبتها تسلمِ
إن التي تخطب غدارة ... قريبة العُرس من المأتمِ

وقال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها. وفي ذلك قيل:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت ... له عن عدوّ في ثياب صديقِ

وقيل أيضاً:

يا راقدَ الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادثَ قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التي كانت منعمة ... كرّ الجديدين إقبالاً وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملكٍ ... قد كان في الدهر نفاعاً وضرارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ... يمسي ويصبح في دنياه سفارا
هلاّ تركت من الدنيا معانقة ... حتى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: لما بعث محمد ﷺ أتت إبليس جنوده فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة، قال: يحبون الدنيا؟ قالوا: نعم، قال: لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي ألا يعبدوا الأوثان، وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث: أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله من هذا نبع. وقال رجل لعلي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا، قال: وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، ومتشابهها العتاب. وقيل له ذلك مرة أخرى فقال: أطول أم اقصر؟ فقيل: قصر، فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب. وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء ـ يعني الدنيا ـ. وقال أبو سليمان الداراني: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة. وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح؛ إذ قال: الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له. وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همّ

الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج همّ الدنيا من قلبك. وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه حيث قال: الدنيا والآخرة ضرتان، فبقدر ما ترضي إحداهما تسخط الأخرى. وقال الحسن: والله لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا؟. وقال رجل للحسن: ما تقول في رجل آتاه الله مالاً فهو يتصدق منه ويصل منه، أيحسن له أن يتعيش فيه؟ ـ يعني يتنعم ـ فقال: لا، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره. وقال الفضيل: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليّ حلالاً لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه. وقيل: لما قدم عمر رضي الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل، فسلم وسأله، ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر رضي الله عنه: لو اتخذت متاعاً؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل. وقال سفيان: خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك. وقال الحسن: والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا. وقال وهب: قرأت في بعض الكتب، الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال، لم يعرفوها حتى خرجوا منها، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا. وقال لقمان لابنه: يا بني، إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها. وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر. وقال عمرو بن العاص على المنبر: والله ما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم، والله ما مرَّ برسول الله ﷺ ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له[1]. وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمَان: ٣٣] من قال ذا؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب. وقال أيضاً: مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب وحرامها عذاب، إن أخذه من حله حوسب به، وإن أخذه من حرام عذب به، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من مصيبته في دنياه.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز: سلام عليك، أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات. فأجابه عمر: سلام عليك، كأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل. وقال الفضيل بن عياض: الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد. وقال بعضهم: عجباً لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح؟ وعجباً لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك؟ وعجباً لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها؟ وعجباً لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب؟. وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال: سنيات بلاء وسنيات رخاء، يوم فيوم وليلة فليلة، يولد ولد ويهلك هالك، فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها. فقال له: سل ما شئت، قال: عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه؟ قال: لا أملك ذلك، قال: لا حاجة لي إليك. وقال داوود الطائي رحمه الله: يا ابن آدم، فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم

---

(١) حديث عمرو بن العاص: «والله ما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم...» الحديث. أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه.

سوّفت بعملك كأن منفعته لغيرك. وقال بشر: من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه. وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوءك. وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه. وقيل لبعض العباد؛ قد نلت الغنى، فقال: إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا. وقال أبو سليمان: لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة. وقال مالك بن دينار: اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً، ولا يدعنا الله على هذا، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا؟ وقال أبو حازم: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة. وقال الحسن: أهينوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها. وقال أيضاً: إذا أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك، فإذا نفد أعاد عليه، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطاً. وكان بعضهم يقول في دعائه: يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عني. وقال محمد بن المنكدر: أرأيت لو أنّ رجلاً صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا ينام، وتصدق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارم الله، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال: إن هذا عظم في عينه ما صغره الله، وصغر في عينه ما عظمه الله، كيف ترى يكون حاله؟ فمن منا ليس هكذا؟ الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا؟. وقال أبو حازم: اشتدّت مؤنة الدنيا والآخرة، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعواناً، وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه. وقال أبو هريرة: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالي تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها: يا رب يا رب لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء.

وقال عبدالله بن المبارك: حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته، فمتى يصل الخير إليه؟. وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقط أخطأ الحكمة، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب. وقيل لبشر: مات فلان فقال: جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة، ضيع نفسه. قيل له: إنه كان يفعل ويفعل ـ وذكروا أبواباً من البر ـ فقال: وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا؟ وقال بعضهم: الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت إلينا؟. وقيل لحكيم: الدنيا لمن هي؟ قال: لمن تركها. فقيل: الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها. وقال حكيم: الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها. وقال الجنيد: كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا، وعظ أخاً له في الله وخوفه بالله فقال: يا أخي إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله وارض برزق الله، لا تتسلف من دار بقائك إلى دار فنائك، فإن عيشك فيء زائل وجدار مائل، أكثر من عملك وأقصر من أملك. وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال: دينار في اليقظة فقال: كذبت، لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام، والذي تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة. وعن إسماعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة، فيقولون: إليك عنا يا خنزيرة، فلو وجدوا لها اسماً أقبح من هذا لسموها به. وقال كعب: لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها. وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: العقلاء ثلاثة، من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضاً: الدنيا

بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها؟. وقال بكر بن عبدالله: من أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا كان كمطفىء النار بالتبن. وقال بندار: إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان. وقال أيضاً: من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها ـ يعني الحرص ـ حتى يصير رماداً، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به، ومن أقبل على الله عزّ وجلّ أحرقته نيران التوحيد فصار جوهراً لا حدّ لقيمته. وقال علي كرم الله وجهه: إنما الدنيا ستة أشياء؛ مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومركوب، ومنكوح ومشموم، فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب، وأشرف المشروبات الماء ويستوي فيه البر والفاجر، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال، وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها، وأشرف المشمومات المسك وهو دم.

بيان المواعظ في ذم الدنيا وصفتها:

قال بعضهم: يا أيها الناس، اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خدّاعة، قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلية، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دار كثير بوائقها، وذمها خالقها، جديدها يبلى، وملكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقل، ودها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلان عليل أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل، وهل إلى الطبيب من سبيل؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء، ثم يقال: فلان أوصى ولماله أحصى، ثم يقال: قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه، وعرق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك، وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسلوك وكفنوك، فانقطع عوّادك واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهناً بأعمالك. وقال بعضهم لبعض الملوك: إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطي حاجته منها، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه، أو تأتي سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه، فالدنيا أحق بالذم، هي الآخذة ما تعطي، الراجعة فيما تهب، بينا هي تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره، وبينا تبكي له إذ أبكت عليه، وبينا هي تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد، فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غداً، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفاً، وترضى بكل من كل بدلاً.

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد، فإنّ الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين فإنّ الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل. تذلّ من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه. فكن فيها كالمداوي جراحه؛ يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء

مخافة طوال الداء، فاحذر هٰذه الدار الغدّارة الختالة الخدّاعة؛ التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها، وحلت بآمالها وسوّفت بخطابها، فأصبحت كالعروس المجلية. العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قالية. فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأوّل مزدجر، ولا العارف بالله عزّ وجلّ حين أخبره عنها مذّكر. فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد، فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه، فعظمت ندامته وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته. وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يروح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السارّ في أهلها غار، والنافع فيها غدّار ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب الأحزان لا يرجع منها ما ولى وأدبر، ولا يدري ما هو آت فينتظر. أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر، إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عزّ وجلّ عنها زاجر وفيها واعظ؟ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها[1]. إذ كره أن يخالف على الله أمره، أو يحب ما أبغضه خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسي ما صنع الله عز وجل بمحمد ﷺ حين شدّ الحجر على بطنه[2]. ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عزّ وجلّ أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول: إدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، وصلاتي في الشتاء في مشارق الشمس، وسراجي القمر، ودابتي رجلاي، وطعامي وفاكهتي ما أنبتت الأرض، أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على الأرض أحد أغنى مني.

وقال وهب بن منبه: لما بعث الله عزّ وجلّ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال: لا يروعنكما لباسه الذي لبس من الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني، ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنما هي زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك فأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي؛ إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع

---

(١) حديث الحسن، وكتب به إلى عمر بن عبدالعزيز: «عرضت أي الدنيا على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً، ورواه أحمد والطبراني متصلاً من حديث أبي مويهبة في أثناء حديث فيه: «**إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة...**» الحديث. وسنده صحيح وللترمذي من حديث أبي أمامة: «**عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً...**» الحديث.

(٢) حديث الحسن مرسلاً في شده الحجر على بطنه. أخرجه ابن أبي الدنيا أيضاً هكذا وللبخاري من حديث أنس: «**رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين**». وقال: حديث غريب.

الهلكة، وإني لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن منازل الغرة، وما ذلك لهوانهم عليّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً، إنما يتزين لي أوليائي بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت في قلوبهم وتظهر على أجسادهم، فهي ثيابهم التي يلبسون، ودثارهم الذي يظهرون، وضميرهم الذي يستشعرون، ونجاتهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إياه يأملون، ومجدهم الذي به يفخرون، وسيماهم التي بها يعرفون، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أنه من أخاف لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة.

وخطب علي كرم الله وجهه يوماً خطبة فقال فيها: اعلموا أنكم ميتون، ومبعوثون من بعد الموت، وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا، فإنها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نزالها، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور. أحوال مختلفة، وتارات منصرفة. العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة. ترميهم بسهامها، وتقصيهم بحمامها. وكل حتفه فيها مقدور، وحظه فيها موفور. واعلموا عباد الله: أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعماراً وأشدّ منكم بطشاً وأعمر دياراً وأبعد آثاراً؛ فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها، وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية. واستبدلوا بالقصور المشيدة، والسرر والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاطئة الملحدة، فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان، على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنوّ الدار. وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلا وأكلتهم الجنادل والثرى؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد نضارة العيش رفاتاً، فجع بهم الأحباب وسكنوا تحت التراب، ظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة في دار المثوى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع. فكيف بكم لو عاينتم الأمور، وبعثرت القبور وحصل ما في الصدور؟ وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩] الآية. جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه متبعين لأوليائه؛ حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد.

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بدنك؟ لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت ممرّ الساعة بك، ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها، وإنها لأمرّ من العلقم إذا عجنها الحكيم، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ، اللهم أرشدنا إلى الصواب. وقال بعض الحكماء: وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال: الدنيا وقتك الذي يرجع إليك فيه طرفك، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأت

فلا علم لك به، والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان، والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل وتنقل الدول، والأمل طويل والعمر قصير، وإلى الله تصير الأمور.

وخطب عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه فقال: يا أيها الناس، إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدّقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى، إنما خلقتم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون، عباد الله، إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص، ومن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

وقال علي كرّم الله وجهه في خطبته: أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقاً وكأنهم قطعوه، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية؟ وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه.

وقال محمد بن الحسين: لمّا علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عزّ وجلّ قد أهان الدنيا، وأنه لم يرضها لأوليائه، وأنها عنده حقيرة قليلة، وأنّ رسول الله ﷺ زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها؛ أكلوا منها قصداً وقدّموا فضلاً، وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي، لبسوا من الثياب ما ستر العورة، وأكلوا من الطعام أدناه مما سدّ الجوعة، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية، وإلى الآخرة أنها باقية، فتزوّدوا من الدنيا كزاد الراكب، فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم، فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم، تعبوا قليلاً وتنعموا طويلاً، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم، أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم.

بيان صفة الدنيا بالأمثلة:

اعلم: أنّ الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرّة وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها، ومثالها الظل فإنه متحرّك ساكن؛ متحرّك في الحقيقة ساكن في الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال:

أحلام نوم أو كظلّ زائل ... إن اللبيبَ بمثلها لا يُخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيراً ويقول:

يا أهل لذّات دنيا لا بقاء لها ... إن اغتراراً بظلٍّ زائل حمق

وقيل: إن هذا من قوله. ويقال: إن أعرابياً نزل بقوم فقدموا إليه طعاماً فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه، فقام وهو يقول:

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ... ولا بد يوماً أن ظلك زائلُ

وكذلك قيل:

وإن امـرأ دنـيـاه أكـبـر هـمـه ... لـمـسـتـمـسـك مـنـهـا بـحـبـل غـرور

مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها تشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا حُلُمٌ وَأَهْلُهَا عَلَيْهَا مُجَازَوْنَ وَمُعَاقَبُونَ»[1]، وقال يونس بن عبيد. ما شبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به. وقيل لبعض الحكماء. أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال: أحلام النائم.

مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها: اعلم: أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولاً والتوصل إلى الإهلاك آخراً، وهي كامرأة تتزين للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم. وقد روي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين!، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك عل حذر!؟.

مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها: اعلم: أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر، وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها. وقال العلاء بن زياد: رأيت في المنام عجوزاً كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها، فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها: ويلكِ من أنت؟ قالت: أو ما تعرفني؟ قلت: لا أدري! من أنت؟ قالت: أنا الدنيا، قلت: أعوذ بالله من شرك، قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فابغض الدرهم. قال أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوّهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائي أقبلت عليّ فقالت: لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء. ثم بكى أبو بكر وقال: رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد. وقال الفضيل بن عياض: قال ابن عباس: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية ومشوّه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تناحرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عزّ وجلّ: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها. وقال الفضيل: بلغني أن رجلاً عرج بروحه فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلي والثياب، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرّحته، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس، عجوز شمطاء زرقاء عمشاء قال: فقلت: أعوذ بالله منك! قالت: لا والله. لا يعيذك الله مني حتى تبغض الدرهم!. قال: فقلت من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

---

(١) حديث: «الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون» لم أجد له أصلاً.

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها: اعلم: أن الأحوال ثلاثة: حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل، وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل؛ وهي أيام حياتك في الدنيا؛ فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد. ولذلك قال ﷺ: **«ما لِي وَللدُّنيَا وَإِنَّما مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَرُفِعَتْ له شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَ ظِلِّهَا سَاعَةً ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**[(١)]، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركنْ إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية، بل لا يبني لبنة على لبنة. توفي رسول الله ﷺ وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[(٢)]. ورأى بعض الصحابة يبني بيتاً من جص فقال: **«أَرَى الأَمْرَ أَعْجَلَ مِنْ هٰذا»**[(٣)] وَأَنْكَرَ ذٰلِكَ، وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الميل الأوّل على رأس القنطرة، واللحد هو الميل الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها. وكيفما كان فلا بد له من العبور، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان.

مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها: اعلم: أن أوائل الدنيا هينة لينة، يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها، وهيهات؛ فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد، وقد كتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي بمثالها فقال: مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام.

مثال آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الدُّنْيَا كَالمَاشِي فِي المَاءِ هَلْ يَسْتَطِيعُ الَّذِي يَمْشِي فِي المَاءِ أَنْ لا تَبْتَلَّ قَدَمَاهُ»**[(٤)]، وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة، وذلك مكيدة من الشيطان، بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها، فكما

---

(١) حديث: **«ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب...»** الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه، ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس.

(٢) حديث: «ما وضع لبنة على لبنة...» الحديث. أخرجه ابن حبان في الثقات وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف **«من سأل عني أو سره أن ينظر إليّ فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة...»** الحديث.

(٣) حديث: رأى بعض أصحابه يبني بيتاً من جص فقال: **«أرى الأمر أعجل من هذا»** أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبدالله بن عمرو وقال: حسن صحيح.

(٤) حديث: **«إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن قال: «بلغني أن رسول الله ﷺ قال...» فذكره. ووصله البيهقي في الشعب، وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس.

أن المشي على الماء يقتضي بللاً لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة. قال عيسى عليه السلام: بحق أقول لكم: كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا، وبحق أقول لكم: إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها، كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ، وبحق أقول لكم: إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل، كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة. وقال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا بَلاءٌ وَفِتْنَةٌ، وإِنَّمَا مَثَلُ عَمَلِ أَحَدِكُمْ كَمَثَلِ الوِعَاءِ إذا طَابَ أَعْلاهُ طَابَ أَسْفَلُهُ وَإذا خَبُثَ أَعْلاهُ خَبُثَ أَسْفَلُهُ**»(١).

مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة لما سبق: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ هٰذِهِ الدُّنْيَا مَثَلُ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذٰلِكَ الخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ**»(٢).

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك: قال عيسى عليه السلام: مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر؛ كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها: **اعلم**: أن شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها، وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعماً وأكثر دسماً وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتناً، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى، فنتنها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشدّ، بل هي في الدنيا مشاهدة، فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا. وقد روي أن النبي ﷺ قال للضحاك بن سفيان الكلابي: «**أَلَسْتَ تُؤْتَى بِطَعَامِكَ وَقَدْ مُلِّحَ وَقُزِّحَ ثُمَّ تَشْرَبُ عَلَيْهِ اللَّبَنَ وَالمَاءَ**»؟، قال: بلى؛ قال: «**فَإِلامَ يَصِيرُ**» قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله، قال: «**فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ مَثَلَ الدُّنْيَا بِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ طَعَامُ ابْنِ آدَمَ**»(٣)، وقال أبي بن كعب: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا ضُرِبَتْ مَثَلاً لابْنِ آدَمَ فَانْظُرْ مَا يَخْرُجُ مِنِ ابْنِ آدَمَ وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ إِلامَ يَصِيرُ**»(٤)، وقال ﷺ: «**إِنَّ الله ضَرَبَ الدُّنْيَا لِمَطْعَمِ ابْنِ آدَمَ مَثَلاً وَضَرَبَ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ لِلدُّنْيَا مَثَلاً**

---

(١) حديث: «**إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية فرّقه في موضعين ورجاله ثقات.

(٢) حديث: «**مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره**». أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث: أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابي: «**ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح...**» الحديث. وفيه: «**فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم**» أخرجه أحمد والطبراني من حديثه بنحوه وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه.

(٤) حديث أبي بن كعب: «**إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم...**» الحديث. أخرجه الطبراني وابن حبان بلفظ: «**إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلاً**» ورواه عبدالله بن أحمد في زياداته بلفظ: «**جعل**».

وإنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ[1]، وقال الحسن: قد رأيتهم يطيبونه بالأفاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عَبَسَ: ٢٤] قال ابن عباس: إلى رجيعه، وقال رجل لابن عمر: إني أريد أن أسألك وأستحيي قال: فلا تستحي واسأل. قال: إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه، قال: نعم، إن الملك يقول له: انظر إلى ما بخلت به انظر إلى ماذا صار. وكان بشر بن كعب يقول: انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة: قال رسول الله ﷺ: **«ما الدُّنيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ كَمَثَلِ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ»**[2].

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها: اعلم: أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوّفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة، ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة، وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقرّ فيه. وبعضهم أكبَّ على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حمله من الحجارة ضيقاً وصار ثقيلاً عليه ووبالاً، فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكاناً لوضعه، فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف. وبعضهم تولج الغياض ونسي المركب وبعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الأنوار والتفرّج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات والنكبات، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه، وشوكة تدخل في رجله وصوت هائل يفزع منه، وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراده، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً فبقي في الشط حتى مات جوعاً. وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة، فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم من نهشته الحيّات، فتفرقوا كالجيف المنتنة.

وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار، فقد استرقته وشغله الحزن

---

(١) حديث: **«إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً. . .»** الحديث. الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحاك بن سفيان: **«إن الله ضرب ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنيا»**.

(٢) حديث: **«ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع إليه»** أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد.

بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكمدت تلك الألوان والأحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها. فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هرباً منها، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيماً، مدبراً. ومن رجع قريباً ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، ومن رجع أوّلاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً. فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم. وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغرّه أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم النبت وهي زينة الدنيا، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت، بل يصير كلاً ووبالاً عليه، وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه. وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عزّ وجلّ.

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم: قال الحسن رحمه الله: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **«إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْرُوا ما سَلَكُوا مِنْهَا أَكْثَرُ أو ما بقي؟ أَنْفَدُوا الزَّادَ وَخَسِرُوا الظَّهْرَ وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانَي المَفَازَةِ ولا زَادَ وَلا حَمُولَةَ فَأَيْقَنُوا بِالهَلَكَةِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَٰلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ تَقْطُرُ رَأْسَهُ، فَقَالُوا: هٰذا قَرِيبُ عَهْدٍ بريفٍ وَمَا جَاءَكُمْ هٰذا إلاّ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قالَ: يا هٰؤلاءِ، فَقَالُوا: يا هٰذا، فَقَالَ: عَلامَ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: عَلَى ما تَرَى، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَدَيْتُكُمْ إِلَى مَاءٍ رَوَاءٍ وَرِياضٍ خُضرٍ ما تَعْمَلُونَ؟ قَالُوا: لا نَعْصِيكَ شَيْئاً، قالَ: عُهُودَكُمْ وَمَوَاثِيقَكُمْ بِالله، فَأَعْطَوْهُ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ بِالله لا يَعْصُونَهُ شَيْئاً قالَ: فَأَوْرَدَهُمْ مَاءً رَوَاءً وَرِياضاً خُضراً فَمَكَثَ فِيهِمْ ما شَاءَ الله ثُمَّ قالَ: يا هٰؤلاءِ، قَالُوا: يا هٰذا، قالَ: الرَّحِيلُ قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى مَاءٍ لَيْسَ كَمَائِكُمْ وَإِلَى رِياضٍ لَيْسَتْ كَرِياضِكُمْ، فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ: وَالله ما وَجَدْنا هٰذا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّا لَنْ نَجِدَهُ وَما نَصْنَعُ بِعَيْشٍ خَيْرٍ مِنْ هٰذا؟ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ ـ وَهُمْ أَقَلُّهُمْ ـ أَلَمْ تُعْطُوا هٰذا الرَّجُلَ عُهُودَكُمْ وَمَوَاثِيقَكُمْ بِالله لا تَعْصُوهُ شَيْئاً وَقَدْ صَدَقَكُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ فَوَالله لَيَصْدُقَنَّكُمْ فِي آخِرِهِ. فَرَاحَ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ وَتَخَلَّفَ بَقِيَّتُهُمْ، فَبَدَرَهُمْ عَدُوٌّ فَأَصْبَحُوا بَيْنَ أَسِيرٍ وَقَتِيلٍ»**[(1)].

مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها: اعلم، أنّ مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ داراً وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً، واحداً بعد واحد، فدخل واحد داره فقدّم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه، فجهل رسمه وظن أنه قد وهب ذلك فتعلق به قلبه لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وتفجع، ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر، وكذلك من عرف سنّة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزوّدوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها. فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه.

---

(١) حديث الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **«إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان» الحديث. وفيه: **«فقال: ـ أي أحد الملكين ـ: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة»** فذكر نحوه أخصر منه وإسناده حسن.

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد:

اعلم: أنّ معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب؟ فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي؟ فنقول: دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت، فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك، إلا أنّ جميع ما لك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم، بل هو ثلاثة أقسام.

القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت. وهو شيئان: العلم والعمل فقط؛ وأعني بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه، والعلم بشريعة نبيه. وأعني بالعمل: العبادة الخالصة لوجه الله تعالى، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظاً عاجلاً في الدنيا. ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلاً. بل قلنا إنه من الآخرة، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه، حتى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل، وكان آخر يقول: اللهم ارزقني قوّة الصلاة والركوع والسجود في القبر. فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنوّ، ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك، وقد قال ﷺ: **«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاثٌ: النِّسَاءُ والطِّيبُ وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»**[1]، فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا. وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فلذلك أضافها إلى الدنيا، إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة، فنقول: هذه ليست من الدنيا.

القسم الثاني: ـ وهو المقابل له على الطرف الأقصى ـ كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً، كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث والغلمان والجواري والخيول والمواشي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة وفيما يعدّ فضولاً أو في محل الحاجة نظر طويل؛ إذ روي عن عمر رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفاً أنفق عليه درهمين، فكتب إليه عمر: من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك. فلم يزل بها حتى مات. فهذا رآه فضولاً من الدنيا فتأمل فيه.

---

(١) حديث: **«حبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة»** أخرجه النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله: **«ثلاث»** وتقدم في النكاح.

القسم الثالث: ـ وهو متوسط بين الطرفين ـ كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة؛ كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل. وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول؛ لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه. فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا. ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب؛ أعني طهارته من الأدناس، وأنسه بذكر الله تعالى، وحبه لله عزّ وجلّ. وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا، والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة. ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر. وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت.

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا؛ فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الأخبار: «**إِنَّ أَعْمَالَ العَبْدِ تُنَاضِلُ عَنْهُ فَإِذَا جَاءَ العَذَابُ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ جَاءَ قِيَامُ اللَّيْلِ يَدْفَعُ عَنْهُ؛ وَإِذَا جَاءَ مِنْ جِهَةِ يَدَيْهِ جَاءَتِ الصَّدَقَةُ تَدْفَعُ عَنْهُ**»(1)، الحديث.

وأما الأنس والحب؛ فهما من المسعدات، وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة، فيصير القبر روضة من رياض الجنة، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد؟ وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله، فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسروراً سليماً من الموانع آمناً من العوائق؟. وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذباً ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه، وسدّت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه؟ ولذلك قيل:

ما حال من كان له واحد ... غيب عنه ذلك الواحدُ

وليس الموت عدماً، إنما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله تعالى. فإذاً: سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث: وهي الذكر والفكر والعمل الذي يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن، وصحة البدن لا تنال إلا بقوت وملبس ومسكن، ويحتاج كل واحد إلى أسباب. فالقدر لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها، إلا أنّ الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراماً، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالاً. والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل

---

(1) حديث: «**مناضلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فدفع عنه...**» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث عبدالرحمن بن سمرة بطوله، وفيه خالد بن عبدالرحمن المخزومي. ضعفه البخاري وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر: «**إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً أحزبه عمله الصلاة والصيام...**» الحديث. وإسناده صحيح.

المحاسبة أيضاً عذاب، فمن نوقش الحساب عذب[١]؛ إذ قال رسول الله ﷺ: «**حَلالُها حِسَابٌ وَحَرَامُها عَذَابٌ**»[٢]، وقد قال أيضاً: «**حلالها عذاب**» إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام، بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدّرجات العلا في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفوتها لحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها هو أيضاً عذاب، وقس به حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات منصرمة لا بقاء لها؟ منغصة بكدورات لا صفاء لها، فما حالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الدهور دون غايتها؟ فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه، وهو المعنّي بقوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**هٰذا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُ عَنْهُ**»[٣]، أشار به إلى الماء البارد. والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار، وكل ذلك من نقصان الحظ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: اعزلوا عني حسابها. حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فأداره في كفه ثم امتنع عن شربه، فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا. وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه؛ إذ تمثل له إبليس وقال: رغبت في الدنيا!. وحتى أن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهاناً وشدّة، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد، ولهذا روي أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا ﷺ فكان يطوي أياماً[٤]، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع[٥]، ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل، كل ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه، ويلزم ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباً له لا بخلاً عليه. وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا.

فإن قلت: فما الذي هو لله؟ فأقول: الأشياء ثلاثة أقسام:

منها: ما لا يتصوّر أن يكون لله؛ وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التنعمات في المباحات، وهي الدنيا المحضة المذمومة، فهي الدنيا صورة ومعنى.

ومنها: ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة: الفكر والذكر والكف عن الشهوات،

---

(١) حديث: «**من نوقش الحساب عذب**» متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث: «**حلالها حساب وحرامها عذاب**» أخرجه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ: «**وحرامها النار**» ولم أجده مرفوعاً.

(٣) حديث: «**هذا من النعيم الذي تسأل عنه**» تقدم في الأطعمة.

(٤) حديث: «زوى الله الدنيا عن نبينا ﷺ فكان يطوي أياماً». أخرجه محمد بن خفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال: قلت: «يا رسول الله، عجباً لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك...» الحديث. وهو من طريق إسحاق معنعناً وللترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله...» الحديث. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) حديث: «كان يشد الحجر على بطنه من الجوع» تقدم.

فإن هذه الثلاثة إذا جرت سراً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى.

ومنها: ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله، وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده، فإن كان القصد لحظ النفس فهو من الدنيا، وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه، وإن كانت صورته صورة الدنيا. قال ﷺ: **«مَنْ طَلَبَ الدُّنْيا حَلالاً مُكاثِراً مُفاخِراً لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيهِ غَضْبَانُ، وَمَنْ طَلَبَهَا اسْتِعْفافاً عَنِ المَسْأَلَةِ وَصِيانَةً لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ القِيامَةِ وَوَجْهُهُ كَالقَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ»**(١)، فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد، فإذاً: الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النّازعَات: ٤٠، ٤١] ومجامع الهوى خمسة أمور: وهي ما جمعه الله تعالى في قوله: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠] والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة: يجمعها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عِمـرَان: ١٤]، فقد عرفت أنّ كل ما هو لله فليس من الدنيا، وقدر ضرورة القوت وما لا بدّ منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله، والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله. وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة. ولها طرفان وواسطة: طرف يقرب من حدّ الضرورة فلا يضر، فإنّ الاقتصار على حدّ الضرورة غير ممكن، وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغي أن يحذر منه، وبينهما وسائط متشابهة، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

والحزم في الحذر والتقوى والتقرّب من حدّ الضرورة ما أمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حدّ الضرورة، حتى إن أويساً القرني كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه، فبنوا له بيتاً على باب دارهم فكان يأتي عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجهاً، وكان يخرج أوّل الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة، وكان طعامه أن يلتقط النوى، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره، وإن لم يصب ما يقوّته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوّته، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها، فكان ذلك لباسه. وكان ربما مرّ الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون، فيقول لهم: يا إخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فارموني بأحجار صغار، فإني أخاف أن تدموا عقبي، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء. فهكذا كانت سيرته. ولقد عظم رسول الله ﷺ أمره فقال: **«إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن»** إشارة إليه رحمه الله(٢). ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: أيها الناس، من

---

(١) حديث: «**من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان**...» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٢) حديث: «**إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن**» أشار به إلى أويس القرني. تقدم في قواعد العقائد ولم أجد له أصلاً.

كان منكم من العراق فليقم، قال: فقاموا. فقال: اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة، فجلسوا، فقال: اجلسوا إلا من كان من مراد، فجلسوا فقال: اجلسوا إلا من كان من قرن، فجلسوا كلهم إلا رجلاً واحداً فقال له عمر: أقرني أنت؟ فقال: نعم. فقال: أتعرف أويس بن عامر القرني؟ فوصفه له، فقال: نعم، وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين! والله ما فينا أحمق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه، فبكى عمر رضي الله تعالى عنه ثم قال: ما قلت ما قلت إلا لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر»**[1]، فقال هرم بن حيان: لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي هم إلا أن أطلب أويساً القرني وأسأل عنه، حتى سقطت عليه جالساً على شاطىء الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه، قال: فعرفته بالنعت الذي نعت لي، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جداً، كريه الوجه متهيب المنظر، قال: فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام ونظر إليَّ، فقلت: حياك الله من رجل، ومددت يدي لأصافحه فأبى أن يصافحني، فقلت: رحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله؟ ثم خنقتني العبرة من حبي إياه ورقتي عليه؛ إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى، فقال: وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان، كيف أنت يا أخي ومن دلك عليَّ؟ قال: قلت: الله. فقال: لا إله إلا الله سبحان الله ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] قال: فعجبت حين عرفني، ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآني فقلت: من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم؟ قال: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣] وعرفت روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد، وإنّ المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل، قال: قلت حدّثني رحمك الله عن رسول الله ﷺ بحديث أسمعه منك. قال: إني لم أدرك رسول الله ﷺ ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله، ولكن رأيت رجالاً قد صحبوه وبلغني من حديثه كما بلغك، ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون محدثاً أو مفتياً أو قاضياً، في نفسي شغل عن الناس يا هرم بن حيان. فقلت: يا أخي، اقرأ عليَّ آية من القرآن أسمعها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك، فإني أحبك في الله حباً شديداً، قال: فقام وأخذ بيدي على شاطىء الفرات ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم بكى. ثم قال: قال ربي والحق قول ربي وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه، ثم قرأ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدّخان: ٤٢] فشهق شهقة ظننت أنه قد غشي عليه ثم قال: يا ابن حيان، مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فإما إلى جنة وإما إلى نار، ومات أبوك آدم، وماتت أمك حوّاء، ومات نوح، ومات إبراهيم خليل الرحمن، ومات موسى نجي الرحمن، ومات داود خليفة الرحمن، ومات محمد ﷺ وعليهم، وهو رسول رب العالمين، ومات أبو بكر خليفة المسلمين، ومات عمر بن الخطاب أخي وصفيي، ثم قال: يا عمراه يا عمراه، قال: فقلت: رحمك الله إن عمر لم يمت، قال: فقد نعاه إلي ربي ونعى إلي نفسي! ثم قال: أنا وأنت في الموتى كأنه

---

(١) حديث عمر: **«يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر»** يريد أويساً ورويناه في جزء ابن السماك من حديث أبي أمامة **«يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر»**، وإسناده حسن، وليس فيه ذكر لأويس بل في آخره: فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان.

قد كان، ثم صلى على النبي ﷺ ثم دعا بدعوات خفيات، ثم قال: هذه وصيتي إياك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إلي نفسي ونفسك، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعاً، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة، إدع لي ولنفسك، ثم قال: اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك، فعرّفني وجهه في الجنة وأدخله علي في دارك دار السلام، واحفظه ما دام في الدنيا حيثما كان، وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير، وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيراً، واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين، واجزه عني خير الجزاء ثم قال: أستودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبني، فإني أكره الشهرة والوحدة أحب إلي، إني كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء الناس ما دمت حياً فلا تسأل عني ولا تطلبني، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك ولم ترني فاذكرني وادع لي فإني سأذكرك وأدعو لك إن شاء الله، انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا. فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى عليّ وفارقته فبكى وأبكاني، وجعلت أنظر في قفاه حتى دخل بعض السكك، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحداً يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له.

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا.

وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء: أن حد الدنيا: كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء إلا ما كان لله عزّ وجلّ من ذلك، وضدّ الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوّة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا. ويتبين هذا بمثال: وهو أنّ الحاج إذ حلف أنه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج بل يتجرّد له، ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل ما لا بد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولاً بغير الحج، فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر، فتعهد البدن بما تبقى به قوّته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا. نعم، إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفاً عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة. قال الطنافسي: كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاوياً فسمعت في الليلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة والنوم: ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه. فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك. فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى.

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم:

اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، وللإنسان فيها حظ، وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾ [الكهف: ٧] فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقرّ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح.

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن، والنبات، والحيوان. أما النبات: فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي، وأما المعادن: فيطلبها للآلات والأواني؛ كالنحاس والرصاص، وللنقد؛ كالذهب

والفضة، ولغير ذلك من المقاصد. وأما الحيوان: فينقسم إلى الإنسان والبهائم. أما البهائم: فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمركب والزينة. وأما الإنسان: فقد يطلب الآدمي: أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان، أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان، ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين. فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤] وهذا من الإنس ﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آل عِمرَان: ١٤] وهذا من الجواهر والمعادن؛ وفيه تنبيه على غيرها من اللآلىء واليواقيت وغيرها ﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [آل عِمرَان: ١٤] وهي البهائم والحيوانات ﴿وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٤] وهو النبات والزرع.

فهذه هي أعيان الدنيا، إلا أن لها مع العبد علاقتين: علاقة مع القلب؛ وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا. ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا؛ كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر، وهذه هي الدنيا الباطنة. وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها.

العلاقة الثانية مع البدن؛ وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين: علاقة القلب بالحب، وعلاقة البدن بالشغل. ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى، وأعني بالدابة البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال.

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده: مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج، حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة، وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته. والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي، فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج. وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة. فكذلك البصير في السفر إلى الآخرة لا يشغل بتعهد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة، ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها. وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن، فإن القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا، وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها، ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم، واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فتاهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها.

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا، وكيفية حدوث الحاجة إليها، وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم؟ فنقول: الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها. وسبب كثرة الأشغال: هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث: القوت، والمسكن، والملبس. فالقوت؛ للغذاء والبقاء.

والملبس؛ لدفع الحرّ والبرد. والمسكن؛ لدفع الحرّ والبرد، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال. ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحاً بحيث يستغني عن صنعة الإنسان فيه.

نعم، خلق ذلك للبهائم، فإن النبات يغذي الحيوان من غير طبخ، والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغني عن البناء ويقنع بالصحراء، ولباسها شعورها وجلودها، فتستغني عن اللباس.

والإنسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات، وأوائل الأشغال الدنيوية، وهي الفلاحة، والرعاية، والاقتناص، والحياكة، والبناء. أما البناء فللمسكن. والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس. والفلاحة للمطعم. والرعاية للمواشي والخيل أيضاً للمطعم والمركب. والاقتناص نعني به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب. فالفلاح يحصل النبات والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها، والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمي، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي، ونعني بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدّة. ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما، أو من جلود الحيوانات. فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع أخر من الصناعات: النجارة، والحدادة، والخز، وهؤلاء هم عمال الآلات، ونعني بالنجار؛ كل عامل في الخشب كيفما كان. وبالحدّاد، كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والإبري وغيرهما. وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة. وأما الخراز؛ فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها. فهذه أمهات الصناعات.

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه، وذلك لسببين:

أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما.

والثاني: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد، فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة، والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت. ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة. فإنّ الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها، وتحتاج الآلة إلى حدّاد ونجار، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز، وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة؟ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع. ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحرّ والبرد والمطر واللصوص، فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات والأثاث والمنازل، تدفع الحرّ والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل، فحدثت البلاد لهذه الضرورة.

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات؛ إذ تحدث رئاسة وولاية للزوج على الزوجة، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به، ومهما حصلت

الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم؛ إذ ليس لها قوّة المخاصمة وإن ظلمت. فأما المرأة فتخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين. هذا في المنزل.

وأما أهل البلد أيضاً فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والأراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لا محالة. ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة، ولو ترك ضائعاً لهلك، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا، ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له.

فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى. فمنها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل. ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم. ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع، وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها. فهذه أمور سياسية لا بدّ منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرّغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش، ويحتاج أهل البلد إليهم، إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلاً تعطلت الصناعات، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس، فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معايشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لا مالك لها إن كانت، أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار، فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح، وإن أرادوا التوسع فتمس الحاجة لا محالة إلى أن يمدّهم أهل البلد بأموالهم ليمدوهم بالحراسة، فتحدث الحاجة إلى الخراج. ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخر؛ إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال. وإلى من يستوفي منهم بالرفق وهم الجباة والمتخرجون، وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان، وإلى من يفرّق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر. وهذه الأعمال لو تولاها عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصاً، ويختار لكل واحد ما يليق به ويراعي النصفة في أخذ الخراج وإعطائه، واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم، وتعيين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل طائفة منهم، إلى غير ذلك من صناعات الملك، فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يراقبهم بالعين الكالئة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال. ثم هؤلاء أيضاً يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج. وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف؛ الفلاحون والرعاة والمحترفون والثانية: الجندية الحماة بالسيوف. والثالثة: المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم. فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن وإلى ماذا انتهى. وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا وينفتح بسببه أبواب أخر. وهكذا تتناهى إلى غير حدّ محصور كأنها هاوية لا نهاية لعمقها، من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى، وهكذا على التوالي.

فهذه هي الحرف والصناعات إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات. والمال عبارة عن أعيان الأرض

وما عليها مما ينتفع به، وأعلاها الأغذية، ثم الأمكنة التي يأوي الإنسان إليها وهي الدور، ثم الأمكنة التي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والأسواق والمزارع، ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته، ثم آلات الآلات، وقد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد، والبقر آلة الحراثة، والفرس آلة الركوب في الحرب. ثم يحدث من ذلك حاجة البيع، فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة. فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح، فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة، إلا أن النجار مثلاً إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آلته فلا يبيعه، والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتعوّق الأغراض، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات؛ وإلى أبيات يجمع إليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الأبيات ليترصد به أرباب الحاجات، فظهرت لذلك الأسواق والمخازن، فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجاً باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات طمعاً في الربح، وكذلك في جميع الأمتعة والأموال. ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات، وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنتظم أمور الناس في البلاد بسببهم؛ إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام، فالبعض يحتاج إلى البعض فيحوج إلى النقل، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة، فيتعبون طول الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم، ونصيبهم منها جمع المال الذي يأكله لا محالة غيرهم؛ إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم، ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاماً للبلاد ومصلحة للعباد. بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة، ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا في الدنيا، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش، ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضاً.

ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة، ويصير الكراء نوعاً من الاكتساب أيضاً، ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين؛ فإن من يريد أن يشتري طعاماً بثوب فمن أين يدري المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو؟ والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب، فلا بدّ من حاكم عادل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال، ثم يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم. وأبقى الأموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس، ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة إلى دار الضرب والصيارفة. وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ما تراه. فهذه أشغال الخلق وهي معاشهم. وشيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء.

وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزاً عن الاكتساب لعجزه عن الحرف، فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره، فيحدث منه حرفتان خسيستان: اللصوصية والكداية؛ إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعي غيرهما، ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدّين ويحفظون عنهم أموالهم، فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير.

أما اللصوص: فمنهم من يطلب أعواناً ويكون في يديه شوكة وقوّة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد. وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة، وإما بأن يكون طرّاراً أو سلالاً، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها.

وأما المكدي: فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فما لك والبطالة فلا يعطى شيئاً، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم في البطالة، فاحتالوا للتعلل بالعجز؛ إما بالحقيقة: كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون، وإما بالتعامي والتفالج والتجانن والتمارض، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق، ليكون ذلك سبب الرحمة، وجماعة يلتمسون أقوالاً وأفعالاً يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها، فيسخوا برفع اليد عن قليل من المال في حال التعجب، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم. وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة، وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت. والشعر الموزون أشدّ تأثيراً في النفس، لا سيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب؛ كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت، أو الذي يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين في الأسواق، وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات، والحشيش الذي يخيل بائعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين. ويدخل في هذا الجنس: الوعاظ والمكدون على رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمي، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين. وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة. فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدّرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدّة أوجه:

فطائفة: غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا: المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا، فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكل، فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا، وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم في الدنيا ولا قدم في الدين؛ فإنه يتعب نهاراً ليأكل ليلاً ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً، وذلك كسير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت.

وطائفة أخرى: زعموا أنهم تفطنوا الأمر، وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا؛ بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا؛ وهي شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان وجمع لذائذ الأطعمة، يأكلون كما تأكل الأنعام، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة، فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر.

وطائفة: ظنوا أنّ السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار، ويترددون في الأعمال الشاقة ويكتسبون، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً عليها أن تنقص، وهذه لذتهم، وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت؛ فيبقى تحت الأرض، أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات؛

فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته. ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

وطائفة: ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء، والمدح بالتجمل والمروءة؛ فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال: إنه غني وإنه ذو ثروة، ويظنون أن ذلك هو السعادة، فهمتهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس.

وطائفة أخرى: ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس، وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات، وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة، وأن ذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته، وعن التفكر في آخرتهم ومعادهم.

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وإنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها، وانجرّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال، وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده، وعالم بحظه ونصيبه منه، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه، وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له، وإن تعدّى به قدر الضرورة كثرت الأشغال، وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية، فتتشعب به الهموم، ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها. فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا. وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا، فحسدهم الشيطان ولم يتركهم، وأضلهم في الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف.

فظنت طائفة: أن الدنيا دار بلاء ومحنة، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند، فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا.

وظنت طائفة أخرى: أن القتل لا يخلص، بل لا بد أولاً من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية، وأنّ السعادة في قطع الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة وشدّدوا على أنفسهم، حتى هلك بعضهم بشدّة الرياضة، وبعضهم فسد عقله وجن وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال، وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد. وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد، لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة، وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد.

وظن طائفة: أنّ المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا

حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوام الخلق.

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفاً وسبعين فرقة، وإنما الناجي منها فرقة واحدة؛ وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل، ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حدّ مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة، فإنه عليه السلام لما قال: **«النَّاجِي مِنها وَاحِدَةٌ»** قالوا: يا رسول الله ومن هم؟ قال: **«أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ»** فقيل: ومن أهل السنة والجماعة؟ قال: **«ما أنا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»**[1]، وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى ـ كما سبق ذكره في مواضع ـ والله أعلم.

تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أوّلاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) حديث: افتراق الأمة وفيه: **«الناجي منهم واحدة»** قالوا: ومن هم؟ قال: **«أهل السنة والجماعة. . .»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو وحسنه: **«تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة»** فقالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: **«ما أنا عليه وأصحابي»**، ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة وأسانيدها جياد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط، وكاشف الضر بعد القنوط، الذي خلق الخلق، ووسع الرزق، وأفاض على العالمين أصناف الأموال، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال، ورددهم فيها بين العسر واليسر، والغنى والفقر، والطمع واليأس، والثروة والإفلاس، والعجز والاستطاعة، والحرص والقناعة، والبخل والجود، والفرح بالموجود، والأسف على المفقود، والإيثار والإنفاق، والتوسع والإملاق، والتبذير والتقتير، والرضا بالقليل، واستحقار الكثير، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلاً، وابتغى عن الآخرة عدولاً وحولاً، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولاً، والصلاة على محمد الذي نسخ بملته مللاً، وطوى بشريعته أدياناً ونحلاً، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللاً، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف، واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطم محنها، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً. وبالجملة: فهي لا تخلو من الفوائد والآفات، وفوائدها من المنجيات، وآفاتها من المهلكات، وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين من العلماء الراسخين دون المسترسمين المغترين. وشرح ذلك مهم على الانفراد، فإن ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً في المال خاصة بل في الدنيا عامة؛ إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل، والمال بعض أجزاء الدنيا، والجاه بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وتشفي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها، والكبر وطلب العلو بعضها. ولها أبعاض كثيرة. ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل. ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده؛ إذ فيه آفات وغوائل، وللإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده وصف الغنى؛ وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان.

ثم للفاقد حالتان: القناعة والحرص، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة. وللحريص حالتان: طمع فيما في أيدي الناس، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس مع الخلق، والطمع شر الحالتين.

وللواجد حالتان: إمساك بحكم البخل والشح، وإنفاق. وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة. وللمنفق حالتان: تبذير واقتصاد، والمحمود هو الاقتصاد.

وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم. ونحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلاً إن شاء الله تعالى وهو: بيان ذم المال، ثم مدحه، ثم تفصيل فوائد المال وآفاته، ثم ذم الحرص والطمع، ثم علاج الحرص والطمع، ثم فضيلة السخاء، ثم حكايات الأسخياء، ثم ذم البخل، ثم حكايات البخلاء، ثم الإيثار وفضله، ثم حد السخاء والبخل، ثم علاج البخل، ثم مجموع الوظائف في المال. ثم ذم الغنى ومدح الفقر، إن شاء الله تعالى.

بيان ذم المال وكراهة حبه:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسراناً عظيماً. وقال عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥] الآية. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧] فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر: ١]

وقال رسول الله ﷺ: **«حُبُّ المَالِ وَالشَّرَفِ يُنْبِتَان النِّفَاقَ فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ»**[(١)]، وقال ﷺ: **«ما ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلا فِي زَرِيبَةِ غَنَم بِأَكْثَرَ إفْسَاداً فِيها مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالمَالِ وَالجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ المُسْلِم»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«هَلَكَ المُكْثِرُونَ إلا مَنْ قالَ بِهِ فِي عِبادِ الله هٰكَذا وَهٰكَذا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ»**[(٣)]، وقيل: يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال: **«الأغنياء»**[(٤)]، وقال ﷺ: **«سَيَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ**

كتاب ذم البخل وحب المال

(١) حديث: «**حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل**» لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ: «**الجاه**» بدل «**الشرف**».

(٢) حديث: «**ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً لها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم**». أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا: «**جائعان**» مكان: «**ضاريان**» ولم يقولا: «**في زريبة**». وقالا: «**الشرف**» بدل «**الجاه**». قال الترمذي: حسن صحيح، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد: «**ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم...**» الحديث. وللبزار من حديث أبي هريرة: «**ضاريان جائعان**» وإسناد الطبراني فيهما ضعيف.

(٣) حديث: «**هلك الأكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا...**» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث عبدالرحمن بن أبزى بلفظ: «**المكثرون**» ولم يقل: «**في عباد الله**»، ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بلفظ: «**المكثرون**» وهو متفق عليه من حديث أبي ذر بلفظ: «**هم الأخسرون**» فقال أبو ذر: من هم؟ فقال «**هم الأكثرون أموالاً إلا من قال، هكذا...**» الحديث.

(٤) حديث: قيل: يا رسول الله، أي أمتك شر؟ قال: «**الأغنياء**» غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبدالله بن جعفر «**شرار أمتي الذين ولدوا في النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألواناً**» وفيه أصرم بن حوشب ضعيف، ورواه هناد بن السري في الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلاً، وللبزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: «**إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم**».

أَطَايِبَ الدُّنْيَا وَأَلْوَانَهَا وَيَرْكَبُونَ فُرَّةَ الخَيْلِ وَأَلْوَانَها وَيَنْكِحُونَ أَجْمَلَ النِّسَاءِ وَأَلْوَانَها وَيَلْبَسُونَ أَجْمَلَ الثِّيَابِ وَأَلْوَانَهَا، لَهُمْ بُطُونٌ مِنَ القَلِيلِ لا تَشْبَعُ وَأَنْفُسٌ بِالكَثِيرِ لا تَقْنَعُ، عَاكِفُونَ عَلَى الدُّنْيَا يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ إِلَيْهَا، اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ إِلٰهِهِمْ وَرَبّاً دُونَ رَبِّهِمْ، إِلَى أَمْرِها يَنْتَهُونَ وَلِهَوَاهُمْ يَتَّبِعُونَ، فَعَزِيمَةٌ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله لِمَنْ أَدْرَكَهُ ذٰلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقِبِ عَقِبِكُمْ وَخَلَف خَلَفِكُمْ أَن لا يُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَلا يَعُودَ مَرْضَاهُمْ وَلا يَتْبَعَ جَنَائِزَهُمْ وَلا يُوَقِّرَ كَبِيرَهُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الإِسْلامِ»[1]، وقال ﷺ: «دَعُوا الدُّنْيَا لأَهْلِها، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ ما يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لا يَشْعُرُ»[2]، وقال ﷺ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مالِي مالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»[3]، وقال رجل: يا رسول الله، مالي لا أحب الموت فقال: «هَلْ مَعَكَ مِنْ مَالٍ؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «قَدِّم مَالَكَ فإِنَّ قَلْبَ المُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ، إِنْ قَدَّمَهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ وَإِنْ خَلَّفَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ»[4]، وقال ﷺ: «أَخِلاَّءُ ابْنِ آدَمَ ثَلاثَةٌ. وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ، وَالثَّانِي إِلَى قَبْرِهِ، وَالثَّالِثُ إِلَى مَحْشَرِهِ. فَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ فَهُوَ مَالُهُ، وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَهُوَ أَهْلُهُ، وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلى مَحْشَرِهِ فَهُوَ عَمَلُهُ»[5].

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما لك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟ فقال لهم: ما منزلة الدينار والدرهم عندكم؟ قالوا: حسنة، قال: لكنهما والمدر عندي سواء. وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: يا أخي، إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدي شكره، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي أَطَاعَ الله فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ: امْضِ فَقَدْ أَدَّيْتَ حَقَّ الله فِيَّ، ثُمَّ يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُطِعِ الله فِيها وَمَالُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ كُلَّما تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ: وَيْلَكَ أَلاَ أَدَّيْتَ حَقَّ الله فِيَّ، فَمَا يَزَالُ كَذٰلِكَ يَدْعُو بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ»[6].

---

(١) حديث: «سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها...» الحديث. بطوله أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة: «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون في الكلام أولئك شرار أمتي» وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلاً.

(٢) حديث: «دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر». أخرجه البزار من حديث أنس وفيه هانىء بن المتوكل ضعفه ابن حبان.

(٣) حديث: «يقول العبد مالي مالي...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن الشخير وأبي هريرة، وقد تقدم.

(٤) حديث: «قال رجل: يا رسول الله، ما لي لا أحب الموت...» الحديث. لم أقف عليه.

(٥) حديث: «أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره...» الحديث. أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه، ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضاً، وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد...» الحديث.

(٦) حديث: «كتب سلمان إلى أبي الدرداء» وفيه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه...» الحديث.

قلت: ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان؛ كذا رواه البيهقي في الشعب وقال: بدل «الدنيا» «المال» وهو منقطع.

وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في ذمِّ الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال، فلا نطوّل بتكريره، وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم، لأن المال أعظم أركان الدنيا. وإنما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة.

قال ﷺ: **«إذا مَاتَ العَبْدُ قَالَتِ المَلائِكَةُ: ما قَدَّمَ؟ وَقَالَ النَّاسُ: ما خَلَّفَ»**[(١)]، وقال ﷺ: **«لا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتُحِبُّوا الدُّنْيا»**[(٢)].

الآثار: روي: أن رجلاً نال من أبي الدرداء وأراه سوءاً فقال: اللهم من فعل بي سوءاً فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله. فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر؟ لأنه لا بد وأن يفضي إلى الطغيان. ووضع علي كرم الله وجهه درهماً على كفه ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني. وروي: أن عمر رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت: ما هذا؟ قالوا: أرسل إليك عمر بن الخطاب، قالت: غفر الله له، ثم سلت ستراً كان لها فقطعته وجعلته صرراً، وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها، ثم رفعت يديها فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فكانت أوّل نساء رسول الله ﷺ لحوقاً به. وقال الحسن: والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله. وقيل: إن أوّل ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما وقال: من أحبكما فهو عبدي حقاً. وقال سميط بن عجلان: إن الدرهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون بها إلى النار. وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه، قيل: وما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه. وقال العلاء بن زياد: تمثلت لي الدنيا وعليها من كل زينة فقلت: أعوذ بالله من شرك فقالت: إن سرك أن يعيذك الله مني فابغض الدرهم والدينار. وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها؛ إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا، وفي ذلك قيل:

إني وجدت فلا تظنوا غيره ... أن التورّع عند هذا الدرهمِ
فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفي ذلك قيل أيضاً:

لا يغرّنك من المر ... ء قميص رقعه
أو إزار فوق عظم السـ ... ـاق منه رفعه
أوجبين لاح فيه ... أثر قد خلعه
أره الدرهم تعرف ... حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبدالملك: أنه دخل على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله عند موته فقال:

---

(١) حديث: **«إذا مات العبد قالت الملائكة: ما قدم...»** الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة يبلغ به، وقد تقدم في آداب الصحبة.

(٢) حديث: **«لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا»** أخرجه الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ: **«فترغبوا»**.

يا أمير المؤمنين، صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ـ وكان له ثلاثة عشر من الولد ـ. فقال عمر: أقعدوني فأقعدوه فقال: أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً فإني لم أمنعهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم، وإنما ولدي أحد رجلين: إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين، وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع. وروي: أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالاً كثيراً فقيل له: لو ادخرته لولدك من بعدك؟ قال: لا، ولكني أدخره لنفسي عند ربي وأدخر ربي لولدي. ويروى: أن رجلاً قال لأبي عبد ربه: يا أخي، لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير! فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم. وقال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله.

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم:

اعلم: أن الله تعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال عزّ وجلّ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البَقَرَة: ١٨٠] الآية وقال رسول الله ﷺ: **«نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»**(١)، وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال؛ إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢] وقال تعالى ممتناً على عباده: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نُوح: ١٢] وقال ﷺ: **«كاد الفقر أن يكون كفراً»**(٢)، وهو ثناء على المال. ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله؛ حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر، فإنه ليس بخير محض ولا هو شر محض، بل هو سبب للأمرين جميعاً، وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة ويذم أخرى، ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم، وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم، والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم والملك المقيم. والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس؛ إذ قيل لرسول الله ﷺ من أكرم الناس وأكيسهم؟ فقال: **«أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً»**(٣). وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا وهي: الفضائل النفسية: كالعلم وحسن الخلق، والفضائل البدنية: كالصحة والسلامة، والفضائل الخارجة عن البدن: كالمال وسائر الأسباب. وأعلاها النفسية، ثم البدنية، ثم الخارجة.

فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات، وأدناها الدراهم والدنانير، فإنهما خادمان ولا خادم لهما، ومرادان لغيرهما. ولا يرادان لذاتهما؛ إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها، وأنها

---

(١) حديث: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»** أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ: **«نعما»** وقالا **«للمرء»**.

(٢) حديث: **«كاد الفقر أن يكون كفراً»** أخرجه أبو مسلم الليثي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس، وتقدم في كتاب ذم الغضب.

(٣) حديث: من أكرم الناس وأكيسهم؟ قال: **«أكثرهم للموت ذكراً. . .»** الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ: **«أي المؤمنين أكيس؟»** ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد.

تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء، والمطاعم والملابس تخدم البدن. وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن، ومن المناكح إبقاء النسل، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير، ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها فقد أحسن وانتفع، وكان ما حصل له الغرض محموداً في حقه، فإذاً: المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة؛ وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسدّ سبيل العلم والعمل. فهو إذاً محمود مذموم، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم. فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر(١) كما ورد به الخبر.

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله، وكان المال مسهلاً لها وآلة إليها، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية، فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً**»(٢)، فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ**»(٣)، واستعاذ إبراهيم فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة؛ إذ رتبة النبوّة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة؛ إذ قد كفي قبل النبوّة عبادتها مع الصغر، وإنما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما والركون إليهما، قال نبينا ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَتَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ وَلا انْتَعَشَ وَإِذَا شِيكَ فَلا انتقشَ**»(٤)، فبين أن محبهما عابد لهما، ومن عبد حجراً فهو عابد صنم. بل كل من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم، أي قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم، وهو شرك إلا أن الشرك شركان: شرك خفي لا يوجب الخلود في النار، وقلما ينفك عنه المؤمنون، فإنه أخفى من دبيب النمل، وشرك جلي يوجب الخلود في النار. نعوذ بالله من الجميع.

بيان تفصيل آفات المال وفوائده:

اعلم: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه. فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره.

أما الفوائد: فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية: أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها، فإن معرفتها مشهورة

---

(١) حديث: «**من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر**». تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية: «**احذروا الدنيا**».

(٢) حديث: «**اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «**اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً**» أخرجه الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

(٤) حديث: «**تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم...**» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل: «**وانتقش**» وإنما علق آخره بلفظ: «**تعس وانتكس**» ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم.

مشتركة بين أصناف الخلق، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها. وأما الدينية فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع.

النوع الأول: أن ينفقه على نفسه إما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة. أما في العبادة: فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما. وأما فيما يقويه على العبادة: فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية. ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام: الصدقة، والمروءة، ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام.

أما الصدقة: فلا يخفى ثوابها، وإنها لتطفىء غضب الرب تعالى، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم.

وأما المروءة: فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها، فإن هذه لا تسمى صدقة، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج، إلا أن هذا من الفوائد الدينية؛ إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء، وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء. فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها.

وأما وقاية العرض: فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم، وهو أيضاً مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية. قال رسول الله ﷺ: «**مَا وَقَى بِهِ الْمَرْءُ عِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»[1]، وكيف لا، وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

وأما الاستخدام: فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه، وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه، وكل ما يتصوّر أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به؛ إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر ما لا يتصوّر أن يقوم به غيرك، فتضييع الوقت في غيره خسران.

النوع الثالث: ما لا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجباب في الطريق، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات، وهي من الخيرات المؤبدة الدارّة بعد الموت، المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية، وناهيك بها خيراً. فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء، والوقار والكرامة في القلوب، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية.

---

(١) حديث: «**ما وقى المرء عرضه به فهو صدقة**» رواه أبو يعلى من حديث جابر، وقد تقدم.

وأما الآفات فدينية ودنيوية، أما الدينية فثلاث:

الأولى: أن تجر إلى المعاصي؛ فإن الشهوات متفاضلة، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية، ومن العصمة أن لا يجد. ومهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته، فإذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته، والمال نوع من القدرة يحرّك داعية المعاصي وارتكاب الفجور، فإن اقتحم ما اشتهاه هلك، وإن صبر وقع في شدّة؛ إذ الصبر مع القدرة أشدّ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يجر إلى التنعم في المباحات، وهذا أوّل الدرجات، فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن، ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن لا يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه، فيصير التنعم مألوفاً عنده ومحبوباً لا يصبر عنه، ويجرّه البعض منه إلى البعض، فإذا اشتدّ أنسه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال؛ فيقتحم الشبهات ويخوض في المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة؛ لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس، ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن ينافقهم، ويعصي الله في طلب رضاهم، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلاً. ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان، ولا يخلو عن التعدي أيضاً إلى سائر الجوارح. وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد؛ وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام: في المال ثلاث آفات، أن يأخذه من غير حله، فقيل: إن أخذه من حله؟ فقال: يضعه في غير حقه، فقيل: إن وضعه في حقه، فقال: يشغله إصلاحه عن الله تعالى. وهذا هو الداء العضال. فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكر في جلاله، وذلك يستدعي قلباً فارغاً، وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبته، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود، وخصومة أعوان السلطان في الخراج، وخصومة في الأجراء على التقصير في العمارة، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم. وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه وانفراده بالربح، وتقصيره في العمل وتضييعه للمال. وكذلك صاحب المواشي، وهكذا سائر أصناف الأموال. وأبعدها عن كثرة الشغل: النقد المكنوز تحت الأرض، ولا يزال الفكر متردداً فيما يصرف إليه في كيفية حفظه، وفي الخوف مما يعثر عليه، وفي دفع أطماع الناس عنه. وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها، والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك. فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد، وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه، فإذن: ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات. نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه، إنه على ذلك قدير.

بيان ذم الحرص والطمع، ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس:

اعلم: أن الفقر محمود ـ كما أوردناه في كتاب الفقر ـ ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه

ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن، ويقتصر على أقله قدراً وأخسه نوعاً، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر. فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وتدنس ـ لا محالة ـ بالطمع وذل الحرص، وجرّه الحرص والطمع إلى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات، وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة. قال رسول الله ﷺ: **«لَوْ كانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثاً وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلاّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ»**(١)، وعن أبي واقد الليثي: قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه أتيناه يعلمنا مما أوحي إليه، فجئته ذات يوم فقال: **«إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إنَّا أَنْزَلْنَا المَالَ لإقامِ الصَّلاةِ وَإيتاءِ الزَّكاةِ، وَلَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثانٍ وَلَوْ كَانَ لَهُ الثَّانِي لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلاّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ»**(٢)، وقال أبو موسى الأشعري: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها: «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»(٣). وقال ﷺ: **«مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومُ العِلْمِ وَمَنْهُومُ المَالِ»**(٤)، وقال ﷺ: **«يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مَعَهُ اثْنَانِ: الأَمَلُ وَحُبُّ المَالِ»** أو كما قال(٥).

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال ﷺ: **«طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإسْلام وَكانَ عَيْشُهُ كَفَافاً وَقَنِعَ بِهِ»**(٦)، وقال ﷺ: **«ما مِنْ أَحَدٍ فَقِيرٍ وَلاَ غَنِيٍّ إلاَّ وَدَّ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتاً فِي الدُّنْيا»**(٧)، وقال ﷺ: **«لَيسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ إنَّمَا الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»**(٨)، ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال: **«أيُّها النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإنَّهُ لَيسَ لِعَبْدٍ إلاَّ ما كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيا حَتَّى يَأْتِيَهُ ما كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»**(٩).

وروي: أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال: أي عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم مما أعطيته،

---

(١) حديث: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً...**» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس.

(٢) حديث أبي واقد الليثي: «**إن الله عز وجل يقول: أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة...**» الحديث. أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح.

(٣) حديث أبي موسى: «نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال...» الحديث. أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله: «**إن الله يؤيد هذا الدين**» ورواه بهذه الزيادة الطبراني وفيه علي بن زيد متكلم فيه.

(٤) حديث: «**منهومان لا يشبعان...**» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٥) حديث: «**يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان...**» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

(٦) حديث: «**طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به**» أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر: «**وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه**».

(٧) حديث: «**ما من أحد غني ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه كان أوتي في الدنيا قوتاً**» أخرجه ابن ماجه من رواية نفيع بن الحارث عن أنس ونفيع ضعيف.

(٨) حديث: «**ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٩) حديث: «**ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له**». أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح إسناده، وقد تقدم في آداب الكسب والمعاش.

قال: فأيهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوْعِي أنَّ نَفساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»[(١)]. وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أَبَا هُرَيْرَةَ إذا اشْتَدَّ بِكَ الجُوعُ فَعَلَيْكَ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلَى الدُّنْيا الدَّمَارُ**»، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعاً تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً**»[(٢)]، ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري: أنَّ أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، عظني وأوجز فقال: «**إذا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ وَلا تُحَدِّثَنَّ بِحَدِيثٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَداً، وَأَجْمِعِ اليَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ**»[(٣)]، وقال عوف بن مالك الأشجعي: كنا عند رسول الله ﷺ - تسعة أو ثمانية أو سبعة - فقال: «**أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله**» قلنا: أو ليس قد بايعناك يا رسول الله؟ ثم قال: «**أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله**» فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا: قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «**أَنْ تَعْبُدُوا الله وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَتُصَلُّوا الخَمْسَ، وَأَنْ تَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا**» وأسر كلمة خفية: «**ولا تسألوا الناس شيئاً**»[(٤)]، قال: فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه.

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إنّ الطمع فقر وإنّ اليأس غنى، وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك، وفي ذلك قيل:

العيش ساعات تمرّ ... وخطوب أيام تكرّ
اقنع بعيشك ترضه ... واترك هواك تعش حرّ
فلرب حتف ساقه ... ذهب وياقوت ودرّ

وكان محمد بن واسع يبلّ الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد. وقال سفيان: خير دنياكم ما لم تبتلوا به، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم. وقال ابن مسعود: ما من يوم إلا وملك ينادي: يا ابن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال سميط بن عجلان: إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار؟ وقيل لحكيم: ما مالك؟ قال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس. ويروى أن الله عزّ وجلّ قال: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن. وقال ابن مسعود: إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلباً يسيراً ولا يأتي الرجل فيقول: إنك وإنك فيقطع ظهره، فإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق. وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم

---

(١) حديث ابن مسعود: «**إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف، وقد تقدم فيه.

(٢) حديث أبي هريرة: «**كن ورعاً تكن أعبد الناس...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه، وقد تقدم.

(٣) حديث أبي أيوب: «**إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما في أيدي الناس**» أخرجه ابن ماجه، وتقدم في الصلاة، وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: صحيح الإسناد.

(٤) حديث عوف بن مالك: كنا عند رسول الله ﷺ - سبعة أو ثمانية أو تسعة - فقال: «**ألا تبايعون...**» الحديث. وفيه: «**ولا تسألوا الناس**» أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل: فقال قائل، ولا قال: تسمعوا. وقال: سوط أحدهم. وهي عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف.

ـ يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه ـ فكتب إليه: قد رفعت حوائجي إلى مولاي، فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت. وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أسر للعاقل، وأيما شيء أعون على دفع الحزن؟ فقال: أسرها إليه ما قدّم من صالح العمل، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء. وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرّط. وفي ذلك قيل:

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة ... أنّ الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إنّ القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في دهره شيئاً يؤرّقه

وقد قيل أيضاً:

حتى متى أنا في حلّ وترحَالِ ... وطُولِ سعي وإدبارٍ وإقبالِ
ونازحِ الدّار لا أنفك مغترباً ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي
بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها ... لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قنعت أتاني الرزق في دعة ... إنّ القنوع الغني لا كثرة المالِ

وقال عمر رضي الله عنه: ألا أخبركم بما استحل من مال الله تعالى: حلتان لشتائي وقيظي، وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم، فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا؟. كأنه شك في أنّ هذا القدر، هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها؟. وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال: يا أخي، أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك، وما أنت فيه قد نقلت عنه، وكأنك يا أخي لم تر حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً. وفي ذلك قيل:

أراك يزيدك الإثراء حرصاً ... على الدنيا كأنك لا تموتُ
فهل لك غاية إن صرت يوماً ... إليها قلت حسبي قد رضيتُ

وقال الشعبي: حكي: أنّ رجلاً صاد قنبرة فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك، قالت: والله ما أشفي من قرم ولا أشبع من جوع، ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي. أما واحدة: فأعلمك وأنا في يديك، وأما الثانية: فإذا صرت على الشجرة، وأما الثالثة: فإذا صرت على الجبل، قال: هات الأولى، قالت: لا تلهفنّ على ما فاتك، فخلاها فلما صارت على الشجرة قال: هات الثانية قالت: لا تصدّقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درّتين زنة كل درّة عشرون مثقالاً، قال: فعض على شفته وتلهف وقال: هات الثالثة، قالت: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة؟ ألم أقل لك: لا تلهفنّ على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالاً؟ ثم طارت فذهبت. وهذا مثال لفرط طمع الآدمي فإنه يعميه عن درك الحق، حتى يقدّر ما لا يكون أنه يكون. وقال ابن السماك: إن الرجاء حبل في قلبك وقيد في رجلك، فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك. وقال أبو محمد اليزيدي: دخلت على الرشيد

فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب، فلما رآني تبسم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية، فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثاً. وأنشدني:

إذا سدّ باب عنك من دون حاجةٍ فدعه لأخرى ينفتح لك بابُها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابُها
ولاتك مبذالاً لعرضك واجتنب ركوب المعاصي يجتنبك عقابُها

وقال عبدالله بن سلام لكعب: ما يُذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها؟ قال: الطمع وشره النفس وطلب الحوائج. وقال رجل للفضيل: فسرّ لي قول كعب، قال: يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه، وأما الشره فشره النفس في هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خرم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له. فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به، وعدته إذا مرض؛ لم تسلم عليه لله عزّ وجلّ ولم تعده لله، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك. ثم قال: هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان. قال بعض الحكماء: من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدّة التمتع وتوقع الزوال. وقال عبدالواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له: من أين تأكل؟ قال: من بيدر اللطيف الخبير، الذي خلق الرحا يأتيها بالطحين ـ وأومأ بيده إلى رحا أضراسه ـ، فسبحان القدير الخبير.

بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة:

اعلم: أنّ هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر والعلم والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسدّ عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويردّ نفسه إلا ما لا بدّ له منه، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة، بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن، ويقنع بأي طعام كان، ويقلل من الإدام ما أمكنه، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيردّ كل واحد إلى هذا القدر؛ فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد. ويمكن معه الإجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة وهو الأصل في القناعة؛ ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الخرق فيه، قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأمْرِ كُلِّهِ»**(١)، وقال ﷺ: **«ما عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ»**(٢)، وقال ﷺ: **«ثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ؛ خَشْيَةُ الله فِي السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ، وَالقَصْدُ فِي الغِنَى والفَقْرِ، وَالعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ»**(٣)، وروي: أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حباً من الأرض وهو

---

(١) حديث: **«إن الله يحب الرفق في الأمر كله»** متفق عليه من حديث عائشة، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«ما عال من اقتصد»** أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ: **«مقتصد»**.

(٣) حديث: **«ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب»** أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف.

يقول: إن من فقهك رفقك في معيشتك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبيّ ﷺ: «**الاقْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ وَالهَدْيُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ بِضْعٍ وَعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ**»(١).

وفي الخبر: «**التَّدْبِيرُ نِصْفُ المَعِيشَةِ**»(٢)، وقال ﷺ: «**مَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ الله، وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ الله، وَمَنْ ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّهُ الله**»(٣)، وقال ﷺ: «**إذا أَرَدْتَ أَمْراً فَعَلَيْكَ بِالتُّؤَدَةِ حَتَّى يَجْعَلَ الله لَكَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً**»(٤)، والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور.

الثاني: أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدّر له فلا بدّ وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه، فإن شدّة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى إذ قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: ٦] وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من الفقر، ويضحك عليه في احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون. وفي مثله قيل:

مَنْ ينفقِ السّاعات في جمع مالهِ   مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله ﷺ فقال لهما: «**لا تَيْأَسا مِنَ الرِّزْقِ ما تَهَزْهَزَتْ رُؤُوسُكُمَا فَإِنَّ الإنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ الله تَعَالَى**»(٥)، ومرّ رسول الله ﷺ بابن مسعود وهو حزين فقال له: «**لا تُكْثِرْ هَمَّكَ، ما قُدِّرَ يَكُنْ وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ**»(٦)، وقال ﷺ: «**ألا أَيُّها النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إلاّ ما كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيا حَتَّى يَأْتِيَهُ ما كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**»(٧)، ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب

---

(١) حديث ابن عباس: «**الاقتصاد وحسن السمت والهدي الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة**» أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال: «**السمت الصالح**»، وقال: «**من خمسة وعشرين**» ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبدالله بن سرجس وقال: «**التؤدة**» بدل «**الهدي الصالح**» وقال: «**من أربعة**».

(٢) حديث: «**التدبير نصف المعيشة**» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين.

(٣) حديث: «**من اقتصد أغناه الله. . . .**» الحديث. أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيدالله دون قوله: «**ومن ذكر الله أحبه الله**» وشيخه فيه عمران بن هارون البصري. قال الذهبي: شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكر أي هذا الحديث، ولأحمد وأبي يعلى في حديث لأبي سعيد: «**من أكثر من ذكر الله أحبه الله**».

(٤) حديث: «**إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجاً ومخرجاً**» رواه ابن المبارك في البر والصلاة، وقد تقدم.

(٥) حديث: «**لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما. . .**» الحديث. رواه ابن ماجه من حديث: حبة وسواء ابني خالد، وقد تقدم.

(٦) حديث: «**لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك**» قاله لابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته، ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المعافري مرسلاً.

(٧) حديث: «**ألا أيها الناس أجملوا في الطلب. . .**» الحديث. تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثاً.

أكثر. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢،٣] فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله، وقال ﷺ: **«أَبى الله أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ المُؤْمِنَ إلاّ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»**(١)، وقال سفيان: اتق الله فما رأيت تقياً محتاجاً. أي لا يترك التقي فاقداً لضرورته، بل يلقي الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه. وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي من أين معاشك؟ قال: نذر الحاج، قلت: فإذا صدروا، فبكى وقال: لو لم نعش إلا من حيث ندري لم نعش. وقال أبو حازم رضي الله عنه: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً منهما هو لي، فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السماوات والأرض، وشيئاً منهما هو لغيري فلذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقي، يمنع الذي لغيري مني كما يمنع الذي لي من غيري، ففي أي هذين أفني عمري؟. فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان. وإنذاره بالفقر.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الحرص والطمع من الذل، فإذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذل. وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول؛ وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة، وذلك مما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم. ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه المداهنة، وذلك يهلك دينه، ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان، قال ﷺ: **«عز المؤمن استغناؤه عن الناس»**(٢)، ففي القناعة الحرّية والعز. ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى ما شئت تكن أميره.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الأكراد والأعراب والأجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء، وإلى سمت الخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة والتابعين، ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم. ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس، أو على الاقتداء بمن هم أعز أصناف الخلق عند الله، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير، فإنه إن تنعم في البطن، فالحمار أكثر أكلاً منه، وإن تنعم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه، وإن تزين في الملبس والحلي ففي اليهود من هو أعلى زينة منه، وإن قنع بالقليل ورضي به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر ـ كما ذكرناه في آفات المال ـ وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع؛ وما في خلو اليد من الأمن والفراغ، ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء. ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه، فإن الشيطان

---

(١) حديث: **«أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»** أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بإسناد واه، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) حديث: **«عز المؤمن استغناؤه عن الناس»** أخرجه الطبراني في الأوسط، والحاكم وصحح إسناده، وأبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد: أن جبريل قاله للنبي ﷺ في أثناء حديث، وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه، وجعله القضاعي في مسند الشهاب من قول النبي ﷺ

أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول: لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس، ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول: ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله؟ والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم؟. قال أبو ذرّ: أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي[1] أي في الدنيا. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«إذا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَهُ الله عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ»**[2]، فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة. وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهراً طويلاً، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدّة طمعه في انتظار الشفاء.

بيان فضيلة السخاء:

اعلم: أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة. وعنه عبر النبي ﷺ حيث قال: **«السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الجَنَّةِ أَغْصَانُهَا مُتَدَلِّيَةٌ إِلَى الأَرْضِ فَمَنْ أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنها قَادَهُ ذٰلِكَ الغُصْنُ إِلَى الجَنَّةِ»**[3]، وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: **«قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: قَالَ الله تَعَالَى: «إِنَّ هٰذا دِينٌ ارْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي وَلَنْ يُصْلِحَهُ إلا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الخُلُقِ فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا اسْتَطَعْتُمْ»**[4]، وفي رواية: **«فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا ما صَحِبْتُمُوهُ»**، وعن عائشة الصدِّيقة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ما جَبَلَ الله تَعَالَى وَلِيّاً لَهُ إلا عَلَى حُسْنِ الخُلُقِ وَالسَّخَاءِ»**[5] وعن جابر قال: قيل: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: **«الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ»**[6]، وقال عبدالله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: **«خُلُقَانِ يُحِبُّهُمَا الله عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ**

---

(١) حديث أبي ذر: «أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوقي» أخرجه أحمد وابن حبان في أثناء حديث. وقد تقدم.

(٢) حديث أبي هريرة: **«إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»** متفق عليه. وقد تقدم.

(٣) حديث: **«السخاء شجرة في الجنة...»** الحديث. أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة، وابن عدي والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة، وسيأتي بعده، وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد.

(٤) حديث جابر مرفوعاً: حكاية عن جبريل عن الله تعالى: **«إن هذا دين رضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق»** أخرجه الدارقطني في المستجاد، وقد تقدم.

(٥) حديث عائشة: **«ما جبل الله ولياً له إلا على السخاء وحسن الخلق»** أخرجه الدارقطني في المستجاد دون قوله: **«وحسن الخلق»** بسند ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات. وذكره بهذه الزيادة ابن عدي من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة، ويوسف ضعيف جداً.

(٦) حديث جابر: أي الإيمان أفضل؟ قال: **«الصبر والسماحة»** أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء بلفظ: «سئل عن الإيمان». وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور، ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عبسة بلفظ: ما الإيمان؟ قال: **«الصبر والسماحة»** وفيه شهر بن حوشب، ورواه البيهقي في الزهد بلفظ: أي الأعمال أفضل قال: **«الصبر والسماحة»** و**«حسن الخلق»** وإسناده صحيح.

يُبْغِضُهُمَا الله عَزّ وَجَلَّ، فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا الله تَعَالَى فَحُسْنُ الخُلُقِ وَالسَّخَاءُ، وَأَمَا اللَّذَانِ يُبْغِضُهُمَا الله فَسُوءُ الخُلُقِ وَالبُخْلُ، وَإِذا أَرادَ الله بِعَبْدٍ خَيراً اسْتَعْمَلَهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ»(١)، وروى المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة قال: «إِنَّ من مُوجِبَاتِ المَغْفِرَةِ بَذْلُ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءُ السَّلام وَحُسْنُ الكَلام»(٢)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ فَمَنْ كَانَ سَخِياً أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنها فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذٰلِكَ الغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»(٣)، وقال أبو سعيد الخدري. قال النبي ﷺ: «يَقُولُ الله تَعَالَى: اطْلُبُوا الفَضْلَ مِنَ الرُّحَمَاءِ مِنْ عِبادِي تَعِيشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ فإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي، وَلا تَطْلُبُوهُ مِنَ القَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ فإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِم سَخَطِي»(٤)، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فإِنَّ الله آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ»(٥)، وقال ابن مسعود: قال ﷺ: «الرِّزْقُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعام أَسْرَعُ مِنَ السِّكِّينِ إِلَى ذِرْوَةِ البَعِيرِ وَإِنَّ الله تَعَالَى لَيُبَاهِي بِمُطْعِمِ الطَّعَامِ المَلائِكَةَ عَلَيهِمُ السَّلامُ»(٦)، وقال ﷺ: «إِنَّ الله جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ وَيُحِبُّ مَكارِمَ الأَخْلاقِ

---

(١) حديث عبدالله بن عمرو: «خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء...» الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي دون قوله في آخره: «وإذا أراد الله بعبد خيراً» وقال فيه: «الشجاعة» بدل «حسن الخلق» وفيه محمد بن يونس الكديمي كذبه أبو داود وموسى بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب، وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفاً على عبدالله بن عمرو، وروى الديلمي أيضاً من حديث أنس: «إذا أراد الله بعبده خيراً صير حوائج الناس إليه» وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان.

(٢) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده: «إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام» أخرجه الطبراني بلفظ: «بذل السلام وحسن الكلام»، وفي رواية له: «يوجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام»، وفي رواية له: «عليك بحسن الكلام وبذل الطعام».

(٣) حديث أبي هريرة: «السخاء شجرة في الجنة...» الحديث. وفيه: «والشح شجرة في النار...» الحديث. أخرجه الدارقطني في المستجاد وفيه عبدالعزيز بن عمران الزهري ضعيف جداً.

(٤) حديث أبي سعيد: «يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم...» الحديث. أخرجه ابن حبان في الضعفاء، والخرائطي في مكارم الأخلاق، والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف، ورواه العقيلي في الضعفاء فجعله عبدالرحمن السدي وقال: إنه مجهول، وتابع محمد بن مروان السدي عليه عبدالملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان، وتابعه عليه عبدالغفار بن الحسن بن دينار. قال فيه أبو حاتم: لا بأس بحديثه، وتكلم فيه الجوزجاني والأزدي، ورواه الحاكم من حديث علي وقال: إنه صحيح الإسناد، وليس كما قال.

(٥) حديث ابن عباس: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر» أخرجه الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق. وقال الخرائطي: «أقيلوا السخي زلته» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني.

(٦) حديث ابن مسعود: «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير...» الحديث. لم أجده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ: «الخير أسرع إلى البيت الذي يغشى» وفي حديث ابن عباس: «يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير» ولأبي الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر: «الرزق إلى أهل البيت الذي فيه السخاء...» الحديث. وكلها ضعيفة.

وَيَكْرَهُ سَفَاسِفها»[١]، وقال أنس: إن رسول الله ﷺ لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة، فرجع إلى قومه فقال: «يا قوم، أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة»[٢] وقال ابن عمر: قال ﷺ: «إِنَّ للهِ عِبَاداً يَخُصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ العِبَادِ، فَمَنْ بَخِلَ بِتِلْكَ المَنَافِعِ عَلَى العِبَادِ نَقَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَحَوَّلَها إِلَى غَيْرِهِ»[٣]، وعن الهلالي قال: أتي رسول الله ﷺ بأسرى من بني العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً، فقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا رسول الله، الرب واحد والدين واحد والذنب واحد، فما بال هذا من بينهم؟ فقال ﷺ: «نَزَلَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ فَقَالَ: اقْتُلْ هٰؤلاءِ وَاتْرُكْ هٰذا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى شَكَرَ لَهُ سَخَاءَ فِيهِ»[٤]، وقال ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةً وَثَمَرَةُ المَعْرُوفِ تَعْجِيلُ السَّرَاحِ»[٥]، وعن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «طَعَامُ الجَوَادِ دَوَاءٌ وَطَعَامُ البَخِيلِ دَاءٌ»[٦]، وقال ﷺ: «مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عِنْدَهُ عَظُمَتْ مؤْنَةُ النَّاسِ عَلَيْهِ»[٧]، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال. وقال عيسى عليه السلام: استكثروا من شيء لا تأكله النار، قيل: وما هو؟ قال: المعروف. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «الجَنَّةُ دَارُ الأَسْخِيَاءِ»[٨]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّ البَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ

---

(١) حديث: «إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سفاسفها» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيدالله بن كريز وهذا مرسل، وللطبراني في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقي من حديث سهل بن سعد: «إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور»، وفي الكبير والبيهقي: «معالي الأخلاق...» الحديث. وإسناده صحيح، وتقدم آخر الحديث في أخلاق النبوة.

(٢) حديث أنس: «لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، فأتاه رجل فسأله، فأمر له بشاء كثير بين جبلين...» الحديث. أخرجه مسلم، وتقدم في أخلاق النبوة.

(٣) حديث ابن عمر: «إن لله عباداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد...» الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتي وفيه لين، ووثقه ابن معين يرويه عن أبي عثمان عبدالله بن زيد الحمصي، ضعفه الأزدي.

(٤) حديث الهلالي: «أتي النبي ﷺ بأسرى من بني العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً...» الحديث. وفيه: «فإن الله شكر له سخاء فيه» لم أجد له أصلاً.

(٥) حديث: «إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح» لم أقف له على أصل.

(٦) حديث نافع عن ابن عمر: «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء». أخرجه ابن عدي، والدارقطني في غرائب مالك، وأبو علي الصدفي في عواليه وقال: رجاله ثقات أئمة. قال ابن القطان: وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه.

(٧) حديث: «من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه». رواه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بلفظ: «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره» وفيه أحمد بن مهران. قال أبو حاتم: مجهول والحديث باطل، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمر بإسناد منقطع، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين، ورواه العقيلي من حديث ابن عباس قال ابن عدي: يروى من وجوه كلها غير محفوظة.

(٨) حديث عائشة: «الجنة دار الأسخياء». أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد والخرائطي. قال الدارقطني: ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات. وقال الذهبي: حديث منكر ما آفته سوى جحدر.
قلت: رواه الدارقطني فيه من طريق آخر، وفيه محمد بن الوليد الموقري وهو ضعيف جداً.

بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ، وَأَدْوَأُ الدَّاءِ البُخْلُ»[١]، وقال ﷺ: «اصْنَعِ المَعْرُوفَ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ بِأَهْلِهِ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَقَدْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ، وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ»[٢]، وقال ﷺ: «إِنَّ بُدَلاَءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِصَلاةٍ وَلا صِيَامٍ وَلٰكِنْ دَخَلُوها بِسَخَاءِ الأَنْفُسِ وَسَلامَةِ الصُّدُورِ وَالنُّصْحِ لِلْمُسْلِمِينَ»[٣]، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وُجُوهاً مِنْ خَلْقِهِ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ المَعْرُوفَ وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فِعَالَهُ وَوَجَّهَ طُلاَّبَ المَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ وَيَسَّرَ عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَهُ كَمَا يَسَّرَ الغَيْثَ إِلَى البَلْدَةِ الجَدْبَةِ فَيُحْيِيهَا وَيُحْيِي بِهِ أَهْلَهَا»[٤]، وقال ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ كُتِبَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا وَقَى بِهِ الرَّجُلُ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ مِنْ نَفَقَةٍ فَعَلَى اللهِ خَلَفُهَا»[٥] وقال ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَالدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ وَاللهُ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ»[٦]، وقال ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ فَعَلْتَهُ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ صَدَقَةٌ»[٧]، وروي: أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: لا تقتل السامري فإنه سخي. وقال جابر: بعث رسول الله ﷺ بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة، فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب، فحدّثوا رسول الله ﷺ بذلك فقال ﷺ: «إِنَّ الجُودَ لَمِنْ شِيمَةِ أَهْلِ ذٰلِكَ البَيْتِ»[٨].

---

(١) حديث أبي هريرة: «إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة...» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب ولم يذكر فيه: «وأدوأ الداء البخل» ورواه بهذه الزيادة الدارقطني فيه.

(٢) حديث: «اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله». أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً، وتقدم في آداب المعيشة.

(٣) حديث: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس...» الحديث. أخرجه الدارقطني في المستجاد وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس، وفيه محمد بن عبدالعزيز المبارك الدينوري أورد ابن عدي له مناكير، وفي الميزان: أنه ضعيف منكر الحديث، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المري متكلم فيه.

(٤) حديث أبي سعيد: «إن الله جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبب إليهم المعروف...» الحديث. أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هارون العبدي عنه وأبو هارون ضعيف، ورواه الحاكم من حديث علي وصححه.

(٥) حديث: «كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة...» الحديث. أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد، والخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث جابر، وفيه عبدالحميد بن الحسن الهلالي وثقه ابن معين وضعفه الجمهور، والجملة الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة.

(٦) حديث: «كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان» أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقاً، فالجملة الأولى تقدمت قبله، والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره، والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضاً وفيها زياد النميري ضعيف.

(٧) حديث: «كل معروف فعلته إلى غني أو فقير صدقة» أخرجه الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود، وابن منيع من حديث ابن عمر بإسنادين ضعيفين.

(٨) حديث جابر: «بعث رسول الله ﷺ بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم...» الحديث. وفيه: فقال: «إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت» أخرجه الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر، ولا يعرف اسمه ولا حاله.

الآثار: قال علي كرم الله وجهه: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى، وأنشد:

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرفُ
وإن تولّت فأحرى أن تجود بها فالحمدُ منها إذا ما أدبرت خلفُ

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم عن المروءة والنجدة والكرم فقال: أما المروءة: فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية. وأما النجدة: فالذب عن الجار والصبر في المواطن، وأما الكرم: فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل. ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال: حاجتك مقضية. فقيل له يا ابن رسول الله، لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك. فقال: يسألني الله عزّ وجلّ عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته. وقال ابن السماك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه. وسئل بعض الأعراب: من سيدكم؟ فقال: من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا. وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخياً، وإنما السخي من يبتدىء بحقوق الله تعالى في أهل طاعته، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاماً. وقيل للحسن البصري: ما السخاء؟ فقال: أن تجود بمالك في الله عزّ وجلّ. قيل: فما الحزم؟ قال: أن تمنع مالك فيه، قيل: فما الإسراف؟ قال: الانفاق لحب الرئاسة. وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه: لا مال أعون من العقل، ولا مصيبة أعظم من الجهل، ولا مظاهرة كالمشاورة. ألا وإن الله عزّ وجلّ يقول: إني جواد كريم لا يجاورني لئيم، واللؤم من الكفر وأهل الكفر في النار، والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة. وقال حذيفة رضي الله عنه: فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنة بسماحته. وروي: أنّ الأحنف بن قيس رأى رجلاً في يده درهم فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال: لي، فقال: أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. وفي معناه قيل:

أنت للمالِ إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمالُ لكْ

وسمي واصل بن عطاء الغزال؛ لأنه كان يجلس إلى الغزالين؛ فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئاً. وقال الأصمعي: كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم يعتب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه: خير المال ما وقي به العرض. وقيل لسفيان بن عيينة: ما السخاء؟ قال: السخاء: البر بالإخوان والجود بالمال. قال: وورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صرراً إلى إخوانه، وقال: قد كنت أسأل الله تعالى لإخواني الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالمال؟. وقال الحسن: بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود. وقيل لبعض الحكماء: من أحب الناس إليك؟ قال: من كثرت أياديه عندي، قيل: فإن لم يكن، قال: من كثرت أياديّ عنده. وقال عبدالعزيز بن مروان: إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده. وقال المهدي لشبيب بن شبة: كيف رأيت الناس في داري؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الرجل منهم ليدخل راجياً ويخرج راضياً، وتمثل متمثل عند عبدالله بن جعفر فقال:

إنَّ الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصابَ بها طريق المصنعِ
فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها لله أو لذوي القرابة أو دعِ

فقال عبدالله بن جعفر: إن هذين البيتين لبخلان الناس، ولكن أمطر المعروف مطراً، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللئام كنت له أهلاً.

حكايات الأسخياء:

عن محمد بن المنكدر عن أم درّة ـ وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها ـ قالت: إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية: هلم فطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكرتيني لفعلت.

وعن أبان بن عثمان قال: أراد رجل أن يضار عبيدالله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال: يقول لكم عبيدالله: تغدوا عندي اليوم، فأتوه حتى ملؤوا عليه الدار، فقال: ما هذا؟ فأخبر الخبر، فأمر عبيدالله بشراء فاكهة، وأمر قوماً فطبخوا وخبزوا، وقدّمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا، فقال عبيدالله لوكلائه: أو موجود لنا هذا كل يوم؟ قالوا: نعم، قال: فليتغد عندنا هؤلاء في كل يوم.

وقال مصعب بن الزبير: حج معاوية، فلما انصرف مرّ بالمدينة، فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن: لا تلقه ولا تسلم عليه، فلما خرج معاوية، قال الحسن: إن علينا ديناً فلا بدّ لنا من إتيانه، فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدَينه، فمروا عليه ببختي عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا، وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه، فقال معاوية: ما هذا؟ فذكر له، فقال: اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد.

وعن واقد بن محمد الواقدي قال: حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه، فوقع المأمون على ظهر رقعته: إنك رجل اجتمع فيك خصلتان، السخاء والحياء، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك، وإن لم أكن قد أصبت فجنايتك على نفسك. وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد؛ عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس: أن النبي ﷺ قال للزبير بن العوام: «**يا زُبَيْرُ اعْلَمْ أَنَّ مَفَاتِيحَ أَرْزَاقِ العِبَادِ بِإزاءِ العَرْشِ يَبْعَثُ الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهِ، فَمَنْ كَثَّرَ كُثِّرَ لَهُ، وَمَنْ قَلَّلَ قُلِّلَ لَهُ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**»(١)، قال الواقدي: لمذاكرة المأمون إياي بالحديث أحب إليّ من الجائزة وهي مائة ألف درهم.

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة فقال له: يا هذا، حق سؤالك إياي يعظم لدي، ومعرفتي بما يجب لك تكبر علي، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله تعالى قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت، فقال: يا ابن رسول الله، أقبل وأشكر العطية، وأعذر على المنع، فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفضل من الثلاثمائة ألف درهم، فأحضر خمسين ألفاً قال: فما فعلت بالخمسمائة دينار؟ قال: هي عندي، قال: أحضرها، فأحضرها

---

(١) حديث أنس: «**يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش...**» الحديث. وفي أوله قصة مع المأمون. أخرجه الدارقطني فيه وفي إسناده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالعنعنة ولا يصح.

فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل وقال: هات من يحملها لك، فأتاه بحمالين، فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين، فقال له مواليه: والله ما عندنا درهم فقال: أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم.

واجتمع قرّاء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا: لنا جار صوّام قوّام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوّج ابنته من ابن أخيه وهو فقير، وليس عنده ما يجهزها به، فقام عبدالله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره، وفتح صندوقاً فأخرج منه ست بدر فقال: احملوا، فحملوا، فقال ابن عباس: ما أنصفناه، أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى، ففعل وفعلوا.

وحكي: أنه لما أجدب الناس بمصر وعبدالحميد بن سعد أميرهم فقال: والله لأعلمنّ الشيطان أني عدوّه؛ فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم، فرهنهم بها حلي نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف، فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته.

وكان أبو طاهر بن كثير شيعياً فقال له رجل: بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي نخلتك بموضع كذا وكذا، فقال: قد فعلت، وحقه لأعطينك ما يليها، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل.

وكان أبو مرثد أحد الكرماء، فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك، ولكن قدمني إلى القاضي وادَّع علي بعشرة آلاف درهم حتى أقرّ لك بها ثم احبسني، فإن أهلي لا يتركوني محبوساً، ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم، وأخرج أبو مرثد من الحبس.

وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقيين بالبصرة، فحضر بابه شاعر فأقام مدّة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له، فقال يوماً لبعض خدّام معن: إذا دخل الأمير البستان فعرّفني، فلما دخل الأمير البستان أعلمه، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها:

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي   فما لي إلى معنٍ سواك شفيعُ

فقال: من صاحب هذه؟ فدعي بالرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقال له، فأمر له بعشر بدر، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم، فلما أخذها الرجل تفكر، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج، فلما كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن: حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

وقال أبو الحسن المدائني: خرج الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر حجاجاً، ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمرّوا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها. ففعلوا ذلك ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها، ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا؛ فإنا صانعون بك خيراً، ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال: ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين: نفر من قريش؟

قال: ثم بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعير إليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه، فمرّت العجوز ببعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها: يا أمة الله أتعرفيني؟ قالت: لا، قال: أنا ضيفك يوم كذا ويوم كذا، فقالت العجوز: بأبي أنت وأمي أنت هو؟ قال: نعم. ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر لها الحسين أيضاً بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبدالله بن جعفر، فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها عبدالله بألفي شاة وألفي دينار، وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار.

وخرج عبدالله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه، فقال له عبدالله: ألك حاجة يا غلام؟ قال: صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي، وأعوذ بالله إن طار بجناحك مكروه، فأخذ عبدالله بيده ومشى معه إلى منزله، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال: استنفق هذا فنعم ما أدبك أهلك.

وحكي: أنّ قوماً من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة، فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاؤوا من سفر بعيد؛ فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له: هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي؟ وكان السخي الميت قد خلف نجيباً معروفاً به، ولهذا الرجل بعير سمين، فقال له في النوم: نعم، فباعه في النوم بعيره بنجيبه، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره في النوم، فانتبه الرجل من نومه فإذا الدم يثج من نحر بعيره، فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب، فقال رجل منهم: من فلان ابن فلان منكم؟ ـ باسم ذلك الرجل ـ فقال: أنا، فقال له: هل بعت من فلان ابن فلان شيئاً؟ وذكر الميت صاحب القبر، قال: نعم، بعت بعيري بنجيبه في النوم، فقال: خذ هذا نجيبه، ثم قال: هو أبي وقد رأيته في النوم وهو يقول: إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان وسماه.

وقدم رجل من قريش من السفر، فمرّ برجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض، فقال: يا هذا، أعنا على الدهر، فقال الرجل لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف، فبكى فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقللت ما أعطيناك؟ قال: لا، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

واشترى عبدالله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون لدارهم، فقال: يا غلام، ائتهم فأعلمهم أنّ المال والدار لهم جميعاً.

وقيل: بعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار؛ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب هارون وقال: أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفاً وأنت من رعيتي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ لي من غلتي كل يوم ألف دينار؛ فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم. وحكي: أنه لم تجب عليه الزكاة مع أنّ دخله كل يوم ألف دينار. وحكي: أنّ امرأة سألت الليث بن

سعد رحمة الله عليه شيئاً من عسل، فأمر لها بزق من عسل، فقيل له: إنها كانت تقنع بدون هذا؟ فقال: إنها سألت على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا. وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاثمائة وستين مسكيناً.

وقال الأعمش: اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبدالرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني: هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إليَّ في علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

وقال عبدالملك بن مروان لأسماء بن خارجة: بلغني عنك خصال فحدثني بها، فقال: هي من غيري أحسن منها مني، فقال: عزمت عليك إلا حدّثتني بها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوماً إلا كانوا أمن علي مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيته إياه.

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبدالملك، وكان سعيد رجلاً جواداً، فإذا لم يجد شيئاً كتب لمن سأله صكاً على نفسه حتى يخرج عطاؤه، فلما نظر إليه تمثل بهذا البيت فقال:

إنـي سـمـعـت مـع الـصـبـاح مـنـاديـاً يـا مـن يـعـيـن عـلـى الـفـتـى الـمـعـوانِ

ثم قال: ما حاجتك؟ قال: دَيني. قال: وكم هو؟ قال: ثلاثون ألف دينار، قال: لك دَينك ومثله.

وقيل: مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً فنادى: من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده.

وعن أبي إسحاق قال: صليت الفجر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريماً لي، فلما صليت وضع بين يديَّ حلة ونعلان، فقلت: لست من أهل هذا المسجد، فقالوا: إنّ الأشعث بن قيس الكندي قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين.

وقال الشيخ أبو سعد الحركوشي النيسابوري رحمه الله: سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول: سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول: كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئاً، فولد لبعضهم مولود قال: فجئت إليه وقلت له: ولد لي مولود وليس معي شيء، فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال: رحمك الله كنت تفعل وتصنع، وإني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء، قال: ثم قام وأخرج ديناراً وقسمه نصفين وناولني نصفه، وقال: هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء، قال: فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال: فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال: سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب، ولكن احضر منزلي وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون، ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرجل، فلما كان من الغد تقدّم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له: اجلس. وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاؤوا بها فوضعوها بين يديه، فقال: هذا مالكم وليس لرؤياي حكم، فقالوا: هو يتسخى ميتاً ولا نتسخى نحن أحياء؟ فلما ألحوا عليه حمل

الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة، قال: فأخذ منها ديناراً فكسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر، وقال: يكفيني هذا، وتصدّق به على الفقراء، فقال أبو سعيد: فلا أدري أي هؤلاء أسخى؟

وروي: أنّ الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال: مروا فلاناً يغسلني، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال: ائتوني بتذكرته، فأتي بها فنظر فيها، فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين، فكتبها على نفسه وقضاها عنه، وقال: هذا غسلي إياه ـ أي أراد به هذا ـ. وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي: لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيماء الخير وآثار الفضل فقلت: بلغ أثره في الخير إليهم، وظهرت بركته فيهم، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] وقال الشافعي رحمه الله: لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه؛ أنه كان ذات يوم راكباً حماره فحركه فانقطع زرّه، فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوّي زرّه، فقال الخياط: والله لا نزلت فقام الخياط إليه فسوّى زرّه فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتذر إليه من قلتها، وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه:

يا لهفَ قلبي على مالٍ أجودُ به ... على المقلّين من أهل المروءاتِ
إنّ اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي لمن إحدى المصيباتِ

وعن الربيع بن سليمان قال: أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال: يا ربيع، أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني. وقال الربيع: سمعت الحميدي يقول: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار، فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر، ونفض الثوب وليس عليه شيء. وعن أبي ثور قال: أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال، وكان قلما يمسك شيئاً من سماحته، فقلت له: ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك، قال: فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال، فقال: ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها، ولكني بنيت بمنى مضرباً يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه. وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول:

أرى نفسي تتوقُ إلى أمورٍ ... يقصرُ دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخلٍ ... ومالي لا يبلّغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي: دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون، فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين، منع الموجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائة ألف أخرى.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى، فقال له سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى.

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلاً، فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه، وقال: عسى أن أقوم من مرضي فأكافئه، فأقام شهرين فأوحشه طول المقام فكتب إليه يقول:

إنّ حراماً قبول مدحتنا ... وترك ما نرتجي من الصفدِ

كمـا الـدراهـم والـدنـانـيـر فـي الـبـيـت حـرامٌ إلا يـداً بـيـدِ

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه: كم أقام بالباب؟ قال: شهرين، قال: أعطه ثلاثين ألفاً وجئني بدواة، فكتب إليه:

أعـجـلـتـنـا فـأتـاك عـاجـل بـرِّنـا قـلا ولـو أمـهـلـتـنـا لـم نـقـلـلِ
فـخـذِ الـقـلـيـلَ وكـن كـأنـك لـم تـقـل ونـقـول نـحـن كـأنـنـا لـم نـفـعـلِ

وروي: أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك. وقالت سعدى بنت عوف: دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلاً، فقلت له: مالك؟ فقال: اجتمع عندي مال وقد غمني، فقلت: وما يغمك ادع قومك؟ فقال: يا غلام، علي بقومي، فقسمه فيهم فسألت الخادم: كم كان؟ قال: أربعمائة ألف. وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرّب إليه برحم فقال: إنّ هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك، إنّ لي أرضاً قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فإن شئت فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن، فقال: الثمن، فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن.

وقيل: بكى علي كرّم الله وجهه يوماً فقيل: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

وأتى رجل صديقاً له فدق عليه الباب فقال: ما جاء بك؟ قال: عليّ أربعمائة درهم دين، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي، فقالت امرأته: لم أعطيته إذ شق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي. فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين.

بيان ذم البخل:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٧] وقال ﷺ: **«إيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»**(١)، وقال ﷺ: **«إيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فإنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ»**(٢)، وقال ﷺ: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ بَخِيلٌ ولا خَبٌّ ولاَ خَائِنٌ**

---

(١) حديث: «إياكم والشح...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث جابر بلفظ: **«واتقوا الشح فإن الشح...»** الحديث. ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو: **«إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا»**.

(٢) حديث: **«إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم»** أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ: **«حرماتهم»** مكان **«أرحامهم»** وقال: صحيح على شرط مسلم.

ولا سَيِّىءُ المَلَكَةِ»(١)، وفي رواية: «وَلاَ جَبَّارٌ» وفي رواية: «ولا منان». وقال ﷺ: «ثَلاثٌ مُهلِكَاتٌ: شُحٌ مُطَاعٌ وَهَوىً مُتَّبعٌ وَإعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ»(٢)، وقال ﷺ: «إنَّ الله يُبْغِضُ ثَلاثَةً: الشَّيخَ الزَّانِي، وَالبَخِيلَ المَنَّانَ، وَالمُعِيلَ المُخْتَالَ»(٣)، وقال ﷺ: «مَثَلُ المُنْفِقِ وَالبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِن حَدِيدٍ مِنْ لَدُنْ ثُدِيِّهِمَا إلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ فلا يُنْفِقُ شَيْئاً إلا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِي بَنَانَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إلاَّ قَلَصَتْ وَلَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا حَتَّى أَخَذَتْ بِتَرَاقِيهِ فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَتَّسِعُ»(٤)، وقال ﷺ: «خَصْلَتَانِ لا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: البُخْلُ وَسُوءُ الخُلُقِ»(٥)، وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إلَى أَرْذَلِ العُمُرِ»(٦)، وقال ﷺ: «إيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإيَّاكُمْ وَالفُحْشَ إنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفَاحِشَ وَلا المُتَفَحِّشَ، وَإيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فإنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الشُّحُّ، أَمَرَهُمْ بالكَذِبِ فَكَذَبُوا وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا»(٧)، وقال ﷺ: «شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ»(٨). وقتل شهيد على عهد رسول الله ﷺ فبكته باكية فقالت: واشهيداه، فقال ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّهُ شَهِيدٌ؟ فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيما لا يَعْنِيهِ أَوْ يَبْخَلُ بِمَا لا يَنْقُصُهُ»(٩)، وقال جبير بن مطعم: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: «أَعْطُونِي رِدَائِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هٰذِهِ العِضَاةِ نَعَماً لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً»(١٠)، وقال عمر رضي الله عنه: قسم رسول الله ﷺ قسماً فقلت:

---

(١) حديث: «لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيِّىء الملكة» وفي رواية: «ولا منان» أخرجه أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله: «ولا منان» فهي عند الترمذي وله ولابن ماجه: «لا يدخل الجنة سيِّىء الملكة».

(٢) حديث: «ثلاث مهلكات...» الحديث. تقدم في العلم.

(٣) حديث: «إن الله يبغض ثلاثاً: الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال» أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله: «البخيل المنان» وقال فيه: «الغني الظلوم» وقد تقدم وللطبراني في الأوسط من حديث علي: «إن الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال» وسنده ضعيف.

(٤) حديث: «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: غريب.

(٦) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن...» الحديث. أخرجه البخاري من حديث سعد، وتقدم في الأذكار.

(٧) حديث: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة...» الحديث. أخرجه الحاكم من حديث عبدالله بن عمرو دون قوله: «أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا» قال عوضاً عنهما: «وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا» وكذا رواه أبو داود مقتصراً على ذكر الشح، وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث، ولمسلم من حديث جابر: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح» فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش.

(٨) حديث: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع» أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد.

(٩) حديث: «وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه». أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وللبيهقي في الشعب من حديث أنس أن أمة قالت: «ليهنك الشهادة» وهو عند الترمذي: «إلا أن رجلاً قال له: أبشر بالجنة».

(١٠) حديث جبير بن مطعم: «بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به...» الحديث. أخرجه البخاري، وتقدم في أخلاق النبوة.

غير هؤلاء كان أحق به منهم؟ فقال: «إِنَّهُمْ يُخَيِّرُونِي بَيْنَ أَنْ يَسْأَلُونِي بِالفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي وَلَسْتُ بِبَاخِلٍ»(١)، وقال أبو سعيد الخدري: دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين؛ فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفاً، وشكرا ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا. فقال ﷺ: «لٰكِنْ فُلانٌ أَعْطَيْتُهُ ما بَيْنَ عَشَرَةٍ إِلَى مائَةٍ وَلَمْ يَقُلْ ذٰلِكَ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَسْأَلُنِي فَيَنْطَلِقُ فِي مَسْأَلَتِهِ مُتَأَبِّطَها وَهِيَ نَارٌ»؛ فقال عمر: فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: «يَأْبَوْنَ إلا أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْبَى الله لِيَ البُخْلَ»(٢)، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الجُودُ مِنْ جُودِ الله تَعَالَى فَجُودُوا يَجُدِ الله لَكُمْ أَلا إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الجُودَ فَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَجَعَلَ رأسَهُ رَاسِخاً فِي أَصْلِ شَجَرَةِ طُوبَى، وَشَدَّ أَغْصَانَها بِأَغْصَانِ سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِها إِلَى الدُّنْيا، لمنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنها أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ، ألا إِنَّ السَّخَاءَ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ. وَخَلَقَ البُخْلَ مِنْ مَقْتِهِ وَجَعَلَ رَأْسَهُ راسِخاً فِي أَصْلِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِها إِلَى الدُّنْيا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْهَا أَدْخَلَهُ النَّارَ، أَلا إِنَّ البُخْلَ مِنَ الكُفْرِ وَالكُفْرُ فِي النَّارِ»(٣)، وقال ﷺ: «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الجَنَّةِ فَلا يَلِجُ الجَنَّةَ إِلاَّ سَخِيٌّ، وَالبُخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي النَّارِ فَلا يَلِجُ النَّارَ إِلاَّ بَخِيلٌ»(٤) وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ لِوَفْدِ بني لحيان: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يا بَنِي لحيانَ؟» قالوا: سيدنا جدّ بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل، فقال ﷺ: «وَأَيُّ داءٍ أَدْوأُ مِنَ البُخْلِ وَلٰكِنْ سَيِّدُكُم عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ»(٥)، وفي رواية أنهم قالوا: سيدنا جدّ بن قيس، فقال: «بم تسودونه؟» قالوا: إنه أكثر مالاً، وإنا على ذلك لنرى منه البخل، فقال عليه السلام: «وأي داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم» قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال: «سيدكم بشر بن البراء». وقال علي رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله يُبْغِضُ البَخِيلَ فِي حَيَاتِهِ السَّخِيَّ عِنْدَ مَوْتِهِ»(٦)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «السَّخِيُّ الجَهُولُ أَحَبُّ إِلَى الله مِنَ العَابِدِ البَخِيلِ»(٧)، وقال أيضاً:

---

(١) حديث عمر: «قسم النبي ﷺ قسماً...» الحديث. وفيه: «ولست بباخل» أخرجه مسلم.

(٢) حديث أبي سعيد: «في الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله ﷺ دينارين فلقيهما عمر فأثنيا وقالا معروفاً...» الحديث. وفيه: «ويأبى الله لي البخل» رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحمد: إنهما سألاه ثمن بعير، ورواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر، ورجال أسانيدهم ثقات.

(٣) حديث ابن عباس: «الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم...» الحديث. بطوله ذكره صاحب الفردوس، ولم يخرجه ولده في مسنده ولم أقف له على إسناد.

(٤) حديث: «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج في الجنة إلا سخي...» الحديث. تقدم دون قوله «فلا يلج في الجنة» إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٥) حديث أبي هريرة: «من سيدكم يا بني لحيان؟» قالوا: «سيدنا جد بن قيس...» الحديث. أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم بلفظ «يا بني سلمة»، وقال: «سيدكم بشر بن البراء» وأما الرواية التي قال فيها: «سيدكم عمرو بن الجموح» فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن.

(٦) حديث علي: «إن الله ليبغض البخيل في حياته السخي عند موته» ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده، ولم أجد له إسناداً.

(٧) حديث أبي هريرة: «السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل» أخرجه الترمذي بلفظ: «ولجاهل سخي» وهو بقية حديث: «إن السخي قريب من الله»، وقد تقدم.

قال ﷺ: «**الشُّحُّ وَالإِيمَانُ لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ**»(١)، وقال أيضاً: «**خَصْلَتَانِ لا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: البُخْلُ وَسُوءُ الخُلُقِ**»(٢)، وقال ﷺ: «**لا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ بَخِيلاً وَلا جَبَاناً**»(٣)، وقال ﷺ: «**يَقُولُ قَائِلُكُمْ: الشَّحِيحُ أَعْذَرُ مِنَ الظَّالِمِ وَأَيُّ ظُلْمٍ أَظْلَمُ عِنْدَ الله مِنَ الشُّحِّ، حَلَفَ الله تَعَالَى بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلاَ بَخِيلٌ**»(٤).

وروي: أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي فقال ﷺ: «**وَمَا ذَنْبُكَ صِفهُ لِي؟**» فقال: هو أعظم من أن أصفه لك فقال: «**وَيْحَكَ ذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الأَرَضُونَ؟**» فقال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «**فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الجِبَالُ؟**» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «**فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ البِحَارُ؟**» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «**فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ السَّمٰوَاتُ؟**» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «**فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ العَرْشُ؟**» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «**فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الله؟**» قال: بل الله أعظم وأعلى، قال: «**وَيْحَكَ فَصِفْ لِي ذَنْبَكَ**» قال: يا رسول الله، إني رجل ذو ثروة من المال، وإنّ السائل ليأتيني يسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من نار، فقال ﷺ: «**إِلَيْكَ عَنِّي لا تُحْرِقْنِي بِنَارِكَ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالهِدَايَةِ وَالكَرَامَةِ لَوْ قُمْتَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمَقَامِ ثُمَّ صَلَّيْتَ أَلْفَيْ أَلْفِ عَامٍ ثُمَّ بَكَيْتَ حَتَّى تَجْرِيَ مِنْ دُمُوعِكَ الأَنْهَارُ وَتُسْقَى بِهَا الأَشْجَارُ ثُمَّ مِتَّ وَأَنْتَ لَئِيمٌ لأَكَبَّكَ الله فِي النَّارِ، وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ البُخْلَ كُفْرٌ وَأَنَّ الكُفْرَ فِي النَّارِ، وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ:** ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمَّد: ٣٨]. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]»(٥).

الآثار: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما خلق الله جنة عدن قال لها: تزيني فتزينت، ثم قال لها: أظهري أنهارك. فأظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم؛ فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن، ثم قال لها: أظهري سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك. فأظهرت، فنظر إليها فقال: تكلمي فقالت: طوبى لمن دخلني. فقال الله تعالى: وعزتي لا أسكنك بخيلاً. وقالت أم البنين أخت عمر بن عبدالعزيز: أف للبخيل، لو كان البخل قميصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته. وقال طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه: إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر. وقال محمد بن المنكدر: كان يقال: إذا أراد الله بقوم شراً أمر الله عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم. وقال علي كرّم الله وجهه في خطبته: إنه سيأتي على الناس زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يده ولم يؤمر بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٧]. وقال عبدالله بن عمرو: الشح أشد من البخل؛ لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل هو

---

(١) حديث أبي هريرة: «**لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد**» أخرجه النسائي وفي إسناده اختلاف.

(٢) حديث: «**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

(٣) حديث: «**لا ينبغي لمؤمن أن يكون جباناً ولا بخيلاً**» لم أره بهذا اللفظ.

(٤) حديث: «**يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأي ظلم أظلم من الشح...**» الحديث. وفيه: «**لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل**» لم أجده بتمامة، وللترمذي من حديث أبي بكر «**لا يدخل الجنة بخيل**» وقد تقدم.

(٥) حديث: «**كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي...**» الحديث. في ذم البخل وفيه قال: «**إليك عني لا تحرقني بنارك...**» الحديث. بطوله، وهو باطل لا أصل له.

الذي يبخل بما في يده. وقال الشعبي: لا أدري أيهما أبعد غوراً في نار جهنم البخل أو الكذب؟ وقيل: ورد على أنوشروان حكيمُ الهند وفيلسوفُ الروم فقال للهندي: تكلم، فقال: خير الناس من ألفي سخياً، وعند الغضب وقوراً، وفي القول متأنياً، وفي الرفعة متواضعاً، وعلى كل ذي رحم مشفقاً. وقام الرومي فقال: من كان بخيلاً ورث عدوّه ماله، ومن قلّ شكره لم ينل النجح، وأهل الكذب مذمومون، وأهل النميمة يموتون فقراء، ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه. وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨] قال: البخل، أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى. وقال كعب: ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان: اللهم عجل لممسك تلفاً وعجل لمنفق خلفاً. وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً وقد وصف رجلاً فقال: لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه. وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا أرى أن أعدل بخيلاً؛ لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة. وقال علي كرّم الله وجهه: والله ما استقصى كريم قط حقه، قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]. وقال الجاحظ: ما بقي من اللذات إلا ثلاث: ذم البخلاء، وأكل القديد، وحك الجرب. وقال بشر بن الحارث: البخيل لا غيبة له، قال النبي ﷺ: «**إنَّكَ إذاً لَبَخِيلٌ**». ومدحت امرأة عند رسول الله ﷺ فقالوا: صوّامة قوامة إلا أنّ فيها بخلاً قال: «**فَمَا خَيْرُهَا إذاً**»(١)، وقال بشر: النظر إلى البخيل يقسي القلب، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين. وقال يحيى بن معاذ: ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجاراً، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبراراً. وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه. ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام، إبليس في صورته فقال له: يا إبليس، أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك، قال: أحب الناس إلي؛ المؤمن البخيل، وأبغض الناس إلي؛ الفاسق السخي، قال له: لم؟ قال: لأن البخيل قد كفاني بخله، والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله، ثم ولى وهو يقول: لولا أنك يحيى لما أخبرتك.

حكايات البخلاء:

قيل: كان بالبصرة رجل موسر بخيل، فدعاه بعض جيرانه، وقدّم إليه طباهجة ببيض، فأكل منه فأكثر، وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت، فجعل يتلوّى، فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال: لا بأس عليك، تقيأ ما أكلت، فقال: هاه، أتقيأ طباهجة ببيض؟ الموت ولا ذلك.

وقيل: أقبل أعرابي يطلب رجلاً، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه، فجلس الأعرابي، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، فقرأ ﴿وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التين: ١، ٢] فقال: وأين التين؟ قال: هو تحت كسائك.

ودعا بعضهم أخاً له ولم يطعمه شيئاً، فحبسه إلى العصر حتى اشتد جوعه وأخذه مثل الجنون، فأخذ صاحب البيت العود وقال له: بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال: صوت المقلى.

ويحكى: أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه، فقال له قائل: صف لي مائدته فقال: هي فتر في فتر، وصحافة منقورة من حب الخشخاش، قيل: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون. قال: فما يأكل معه أحد؟ قال: بلى، الذباب. فقال: سوأتك

---

(١) حديث: «مدحت امرأة عند النبي ﷺ فقالوا: صوامة قوامة إلا أن فيها بخلاً...» الحديث. تقدم في آفات اللسان.

بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق، قال: أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً، ثم جاءه جبريل وميكائيل، ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه إبرة، ويسألونه إعارتهم إياها؛ ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ من دُبُر ما فعل.

ويقال: كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم إليه، فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له: نراك لا تأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك؟، قال: نعم، الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام، ولا يستطيع أن يغبنني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه، إن مس عيناً أو أذناً أو خداً وقفت على ذلك، وآكل منه ألواناً، عينه لوناً، وأذنه لوناً، ولسانه لوناً، وغلصمته لوناً، ودماغه لوناً، وأكفى مؤونة طبخه؛ فقد اجتمعت لي فيه مرافق. وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي، فقالت له امرأة من أهله: ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟. فقال: إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهماً، فأعطي ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانق. واشترى مرّة لحماً بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق وقال: أكره الإسراف. وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول: لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً فيأبى عليه الأعمش، فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش، فقال: سر بنا، فدخل منزله فقرّب إليه كسرة وملحاً، فجاء سائل فقال له رب المنزل: بورك فيك، فأعاد عليه المسألة فقال له: بورك فيك، فلما سأل الثالثة قال له: اذهب، وإلا والله خرجت إليك بالعصا، قال: فناداه الأعمش وقال: اذهب ويحك، فلا والله ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه، هو منذ مدّة يدعوني على كسرة وملح، فوالله ما زادني عليهما.

بيان الإيثار وفضله:

اعلم: أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجة السخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة. وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشدّ. وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن؛ ولو وجدها مجاناً لأكلها. فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة، وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه. فانظر ما بين الرجلين؟ فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وقال النبي ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِىءٍ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ عَلَى نَفْسِهِ غُفِرَ لَهُ**»(١)، «وقالت عائشة رضي الله عنها: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا»(٢)، ونزل برسول الله ﷺ ضيف

---

(١) حديث: «**أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له**». أخرجه ابن حبان في الضعفاء وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف، وقد تقدم.

(٢) حديث عائشة: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا». أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ: «ولكنه كان يؤثر على نفسه». وأول الحديث عند مسلم بلفظ: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى لسبيله». وللشيخين: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعاً حتى قبض». زاد مسلم: «من طعام».

فلم يجد عند أهله شيئاً، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمدّ يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل، حتى أكل الضيف، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «لَقَدْ عَجِبَ الله مِنْ صَنِيعِكُمُ اللَّيْلَةَ إِلَى ضَيْفِكُمْ»، ونزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: ٩](١). فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى، والإيثار أعلى درجات السخاء. وكان ذلك من أدب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: ٤] وقال سهل بن عبدالله التستري: قال موسى عليه السلام: يا رب، أرني بعض درجات محمد ﷺ وأمته فقال: يا موسى، إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي، قال: فكشف له عن ملكوت السمٰوات، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى، فقال: يا رب، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار، يا موسى، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته، وبوّأته من جنتي حيث يشاء.

وقيل: خرج عبدالله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه؛ إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله، وعبدالله ينظر إليه فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبدالله بن جعفر: ألام على السخاء، إنّ هذا الغلام لأسخى مني، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه.

وقال عمر رضي الله عنه: أهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج مني إليه فبعث به إليه، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأوّل.

وبات علي كرم الله وجهه على فراش رسول الله ﷺ فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام: إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختارا كلاهما الحياة وأحباها؛ فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: أفلا كنتما كمثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبي محمد ﷺ فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبريل عليه السلام يقول: بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب، والله تعالى يباهي بك الملائكة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧](٢).

---

(١) حديث: «نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله...» الحديث. في نزول قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: ٩] متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «بات عليّ على فراش رسول الله ﷺ فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر...» الحديث. في نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧]. أخرجه أحمد مختصراً من حديث ابن عباس: «شرى عليّ نفسه فلبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه...» الحديث. وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل، ولم أقف لهذه الزيادة على أصل، وفيه أبو بلج مختلف فيه والحديث منكر.

وعن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً ـ وكانوا في قرية بقرب الريّ ـ ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان وأطفؤوا السراج وجلسوا للطعام، فلما رفع فإذا الطعام بحاله، ولم يأكل أحد منه شيئاً؛ إيثاراً لصاحبه على نفسه.

وروي: أن شعبة جاءه وليس عنده شيء؛ فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه، ثم اعتذر إليه.

وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه، فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم، فإذا رجل يقول: آه... فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه... فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات. رحمة الله عليهم أجمعين.

وقال عباس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث؛ فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه، واستعار ثوباً فمات فيه.

وعن بعض الصوفية قال: كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد، فتبعنا كلب من البلد، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بدابة ميتة، فصعدنا إلى موضع عال وقعدنا. فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلباً، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب في الميتة، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلد، فقام ذلك الكلب وجاء إلى تلك العظام، فأكل مما بقي عليها قليلاً ثم انصرف.

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة هنا، وبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عزّ وجلّ.

بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما:

لعلك تقول: قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات، ولكن ما حدّ البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلاً؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخياً وربما يراه غيره بخيلاً، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم: هذا بخل، ويقول آخرون ليس هذا من البخل. وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حباً للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلاً فإذاً لا ينفك أحد عن البخل. وإذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك؟ وما حدّ السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها؟. فنقول: قد قال قائلون: حدّ البخل منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل، وهذا غير كاف؛ فإن من يرد اللحم مثلاً إلى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعدّ بخيلاً بالاتفاق. وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يفرضه القاضي ثم يضايقهم في لقمة ازدادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله يعد بخيلاً. ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عدّ بخيلاً. وقال قائلون: البخيل هو الذي يستصعب العطية، وهو أيضاً قاصر، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية، فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها، ويستصعب ما فوق ذلك؟ وإن أريد به أنه

يستصعب بعض العطايا: فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم. فهذا لا يوجب الحكم بالبخل. وكذلك تكلموا في الجود، فقيل: الجود عطاء بلا منّ وإسعاف من غير روية. وقيل: الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل. وقيل: الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن. وقيل: الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عزّ وجلّ، فيعطي عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر. وقيل: من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل.

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل، بل نقول: المال خلق لحكمة ومقصود؛ وهو صلاحه لحاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلا ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل، فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير. وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه؛ إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء، وقد قيل له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]. فالجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين البسط والقبض، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخ وليس بسخي، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه.

فإن قلت: فقد صار هذا موقوفاً على معرفة الواجب فما الذي يجب بذله؟.

فأقول: إن الواجب قسمان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة والعادة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة، أو يؤديها ولكنه يشق عليه، فإنه بخيل بالطبع، وإنما يتسخى بالتكلف، أو الذي يتيمم الخبيث من ماله، ولا يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله، أو من وسطه، فهذا كله بخل.

وأما واجب المروءة: فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص. فمن كثر ماله استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومماليكه ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح من الجار ما لا يستقبح مع البعيد، ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب؛ إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها، ويستقبح في شراء الكفن مثلاً أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة ما لا يستقبح في غيره من المضايقة. وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي. وبمن منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير. فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة، وذلك لا يمكن التنصيص على

مقداره. ولعل حد البخل هو: إمساك المال عن غرض، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال، فإنّ صيانة الدين أهم من حفظ المال، فمانع الزكاة والنفقة بخيل. وصيانة المروءة أهم من حفظ المال، والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل.

ثم تبقى درجة أخرى، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة؛ ولكن معه مال كثير قد جمعه، ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدّة على نوائب الزمان، وغرض الثواب ليكون رافعاً لدرجاته في الآخرة، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس، وليس ببخل عند عوام الخلق، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا؛ فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهماً، وربما يظهر عند العوام أيضاً سمة البخل عليه إن كان في جواره محتاج فمنعه، وقال: قد أديت الزكاة الواجبة وليس علي غيرها. ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله، وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه. فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل. نعم، لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات، فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير. ودرجات ذلك لا تحصر، وبعض الناس أجود من بعض، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء؛ فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد، فإنه يشتري المدح بماله، والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه، والجود هو بذل الشيء من غير عوض. هذا هو الحقيقة ولا يتصوّر ذلك إلا من الله تعالى، وأما الآدمي فاسم الجود عليه مجاز؛ إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة، أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً، أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود؛ لأنه مضطر إليه بهذه البواعث، وهي أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد، كما روي عن بعض المتعبدات أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت: هل فيكم من أسأله عن مسألة؟ فقالوا لها: سلي عما شئت ـ وأشاروا إلى حبان بن هلال ـ فقالت: ما السخاء عندكم؟ قالوا: العطاء والبذل والإيثار، قالت: هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين؟ قالوا: أن نعبد الله سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة، قالت: فتريدون على ذلك أجراً؟ قالوا. نعم، قالت، ولم؟ قالوا: لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها، قالت: سبحان الله فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأي شيء تسخيتم عليه؟ قالوا لها: فما السخاء عندك يرحمك الله؟ قالت: السخاء عندي: أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين، لا تريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء؟ إن هذا في الدنيا لقبيح. وقالت بعض المتعبدات: أتحسبون أن السخاء في الدراهم والدينار فقط؟ قيل: ففيم؟ قالت: السخاء عندي في المهج. وقال المحاسبي: السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عزّ وجلّ، ويسخو قلبك ببذلك مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك.

بيان علاج البخل:

اعلم: أن البخل سببه حب المال. ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله؛ إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم. ولذلك قال عليه السلام: **«الوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ»**(١)، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني: أن يحب عين المال؛ فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره، إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف، وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها، يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ومع هذا، فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة، وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه. ومثال صاحبه: مثال رجل عشق شخصاً فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ، ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة. فهذه أسباب حب المال. وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران، وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد ولم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر، وأن ولده إن كان تقياً صالحاً فالله كافيه، وإن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته إليه. ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم. ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه. ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال، وأنه لماذا خلق؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه، والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله. فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً، فإن تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه.

حكي: أنّ أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذاً له وقال: انزع عني القميص

---

(١) حديث: **«الولد مبخلة»** زاد في رواية: **«محزنة»** ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله: **«محزنة»** رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبي سعيد، والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح.

وادفعه إلى فلان، فقال: هلا صبرت حتى تخرج؟ قال: لم آمن على نفسي أن تتغير، وكان قد خطر لي بذله. ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقرّه؛ حتى إذا سافر وفارق تكلفاً وصبر عنه مدّة تسلى عنه قلبه، فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفاً بأن يبذله، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له. ومن لطائف الحيل فيه: أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال، كما يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب، ولكن لينفك عن الثدي إليه، ثم ينقل عنه إلى غيره، فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به، إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء، فيبذل الأقوى بالأضعف، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه، فإنه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها، إلا أن علامة ذلك: أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء، فلذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه، فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل، فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه.

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال: إن الميت تستحيل جميع أجزائه دوداً ثم يأكل بعض الديدان البعض، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضاً حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت، فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها، ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها. ومنع القوت عن الصفات: أن لا يعمل بمقتضاها، فإنها تقتضي لا محالة أعمالاً، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت. مثل البخل فإنه يقتضي إمساك المال، فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التعب فيه، فإن علاج البخل بعلم وعمل، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة، فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة؛ كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت.

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريدين: أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم. وكان إذا توهم في مريد فرحه بزاويته وما فيها نقله إلى زاوية غيرها، ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه، أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره، ويلبسه ثوباً خلقاً لا يميل إليه قلبه.

فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا. فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها، فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبه له، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة؛ لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك.

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة أو فقراً، قال: كيف؟ قال: إن كسر كان مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر، ثم اتفق يوماً أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال: صدق الحكيم، ليته لم يحمل إلينا! وهذا شأن جميع أسباب الدنيا، فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى النار، وعدوّة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها، وعدوّة الله إذ تقطع طريقه على عباده، وعدوّه نفسها، فإنها تأكل نفسها فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس. والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير، فالمال يأكل نفسه ويضادّ ذاته حتى يفنى، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح به ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل؛ لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل ولا يحتاج إليه، فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله، بل هو كالماء على شط الدجلة؛ إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة.

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله:

اعلم: أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه. ومثاله مثال حية يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري، ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأولى: أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب، ولا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

الثانية: أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وكالسؤال الذي فيه الذل وهتك المروءة وما يجري مجراه.

الثالثة: في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل، بل القدر الواجب، ومعياره الحاجة، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم. ولكل واحد ثلاث درجات: أدنى، وأوسط، وأعلى. وما دام مائلاً إلى جانب القلة ومتقرّباً من حد الضرورة كان محقاً ويجيء من جملة المحقين، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها، وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد.

الرابعة: أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء.

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال، ولذلك قال علي رضي الله عنه: لو أنّ رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد. فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله، مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة، فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة في حقك. وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما

يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه. والعامي إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبي الذي يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدي به، ويظن أنه أخذها مستحسناً صورتها وشكلها ومستلينا جلدها، فيأخذها اقتداء به فتقتله في الحال، إلا أنّ قتيل الحية يدري أنه قتيل، وقتيل المال قد لا يعرف. وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل:

هي دنيا كحية تنفث السُّـ ـمَ وإنْ كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير في تخطي قلل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل في تناول المال.

بيان ذم الغنى ومدح الفقر:

اعلم: أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر ـ وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ـ، ولكنا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال، ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضي الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء، حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبدالرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم، والمحاسبي رحمه الله حبر الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغور العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه. وقد قال ـ بعد كلام له في الرد على علماء السوء ـ: بلغنا أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال: يا علماء السوء، تصومون وتصلون وتصدّقون ولا تفعلون ما تؤمرون، وتدرسون ما لا تعلمون؛ فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة؛ كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم. يا عبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم. بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم؛ فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة؛ فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون؟ ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محل المتحيرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم؟ كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطلة! يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم، فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم. ثم قال الحارث رحمه الله: إخواني، فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة، وأذلوا

الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشين، وفي الآخرة هم الخاسرون، أو يعفو الكريم بفضله.

وبعد: فإني رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص، فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصي، وإلى البوار والتلف مصيره، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه ولم يسلم له دينه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحَج: ١١] فيا لها من مصيبة ما أفظعها ورزية ما أجلها، ألا فراقبوا الله ـ إخواني ـ ولا يغرّنكم الشيطان وأولياؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله، فإنهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج، ويزعمون أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانت لهم أموال فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون. ويحك أيها المفتون، إنّ احتجاجك بمال عبدالرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك! لأنك متى زعمت أنّ أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم، ومتى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد ازدريت محمداً والمرسلين، ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت، ومتى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى من تركه، فقد زعمت أنّ رسول الله ﷺ لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال(١)، وقد علم أنّ جمع المال خير للأمة؛ فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال، كذبت ورب السماء على رسول الله ﷺ! فلقد كان للأمة ناصحاً وعليهم مشفقاً وبهم رؤوفاً. ومتى زعمت أنّ جمع المال أفضل فقد زعمت أنّ الله عزّ وجلّ لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أنّ جمع المال خير لهم؛ أو زعمت أنّ الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فلذلك نهاهم عنه، وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل، لذلك رغبت في الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك، تعالى الله عن جهلك أيها المفتون؛ تدبر بعقلك ما دهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة! ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبدالرحمن بن عوف وقد ودّ عبدالرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتاً؟.

ولقد بلغني: أنه لما توفي عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: إنا نخاف على عبدالرحمن فيما ترك، فقال كعب: سبحان الله وما تخافون على عبدالرحمن كسب طيباً وأنفق طيباً وترك طيباً، فبلغ ذلك أبا ذرّ فخرج مغضباً يريد كعباً فمر بعظم لحي بعير فأخذه بيده، ثم انطلق يريد كعباً، فقيل لكعب: إن أبا ذرّ يطلبك، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر، وأقبل أبو ذرّ يقص الأثر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذرّ، فقال له أبو ذرّ: هيه يا ابن اليهودية! تزعم أن لا بأس بما ترك عبدالرحمن بن عوف، ولقد خرج رسول الله ﷺ يوماً نحو أحد وأنا معه فقال: **«يا أبا ذر»** فقلت: لبيك يا رسول الله فقال **«الأَكْثَرُونَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيامَةِ إلا مَنْ قَالَ هٰكَذَا وَهٰكَذَا عَنْ**

---

(١) حديث: «النهي عن جمع المال». أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود: **«ما أوحى الله إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين. . .»** الحديث. ولأبي نعيم والخطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث **«لا تجمعوا ما لا تأكلون»** وكلاهما ضعيف.

يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَقُدَّامِهِ وَخَلْفِهِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» ثم قال: «يَا أَبَا ذَرّ» قلت: نَعَم يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: «ما يَسُرُّنِي أَنْ لِي مِثْلَ أُحُدٍ أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ الله أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطَيْنِ» قلت: أو قنطارين يا رسول الله؟ قال: «بل قيراطان» ثم قال: «يا أبا ذَرّ أَنْتَ تُرِيدُ الأَكْثَرَ وَأَنَا أُرِيدُ الأَقَلّ»(١)، فرسول الله يريد هذا وأنت تقول ـ يا ابن اليهودية ـ لا بأس بما ترك عبدالرحمن بن عوف؟ كذبت وكذب من قال!. فلم يرد عليه خوفاً حتى خرج.

وبلغنا: أن عبدالرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما هذا؟ قيل: عير قدمت لعبدالرحمن، قالت: صدق الله ورسوله ﷺ، فبلغ ذلك عبدالرحمن فسألها فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فُقَرَاءَ المُهَاجِرِينَ وَالمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ سَعْياً، وَلَمْ أَرَ أَحَداً مِنَ الأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُها مَعَهُمْ إلا عَبْدَالرَّحْمٰنِ بْنَ عَوْفٍ يَدْخُلُها مَعَهُمْ حَبْواً»(٢)، فقال عبدالرحمن: إن العير وما عليها في سبيل الله، وإن أرقاءها أحراراً لعلي أدخلها معهم سعياً.

وبلغنا: أن النبي ﷺ قال لعبدالرحمن بن عوف: «أَمَا إِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أَغْنِياءِ أُمَّتِي وَمَا كِدْتَ أَنْ تَدْخُلَها إلاَّ حَبْواً»(٣).

ويحك أيها المفتون، فما احتجاجك بالمال وهذا عبدالرحمن في فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الأموال في سبيل الله مع صحبته لرسول الله ﷺ وبشراه بالجنة(٤) أيضاً يوقف في عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع المعروف، وأنفق منه قصداً، وأعطى في سبيل الله سمحاً، منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين، وصار يحبو في آثارهم حبواً؟ فما ظنك بأمثالنا الغرقى في فتن الدنيا؟ وبعد: فالعجب كل العجب لك يا مفتون تتمرّغ في تخاليط الشبهات والسحت، وتتكالب على أوساخ الناس، وتتقلب في الشهوات والزينة والمباهاة، وتتقلب في فتن الدنيا ثم تحتج

---

(١) حديث أبي ذر: «**الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا...**» الحديث. متفق عليه، وقد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبدالرحمن بن عوف: «**كسب طيباً وترك طيباً**». وإنكار أبي ذر عليه؛ فلم أقف على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد المحاسبي بلغني كما ذكره المصنف، وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخصر من هذا ولفظ كعب: «إذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما أحب لو كان هذا الجبل لي ذهباً...**» الحديث. وفيه ابن لهيعة.

(٢) حديث عائشة: «**رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً...**» الحديث. في أن عبدالرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً. رواه أحمد مختصراً في كون عبدالرحمن يدخل حبواً دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين، وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه.

(٣) حديث: أنه قال: «**أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت تدخلها إلا حبواً**» أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبدالرحمن بن عوف: «**يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفاً**». وقال صحيح الإسناد.

قلت: بل ضعيف، فيه خالد بن أبي مالك ضعفه الجمهور.

(٤) حديث: «بشّر النبي ﷺ عبدالرحمن بن عوف بالجنة». أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديثه: «**أبو بكر في الجنة...**» الحديث. وفيه: «**وعبدالرحمن بن عوف في الجنة**» وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخاري والترمذي: وهذا أصح.

بعبدالرحمن، وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم؟ ويحك إن هذا من قياس إبليس ومن فتياه لأوليائه! وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف؛ لتعرف فضائحك وفضل الصحابة. ولعمري: لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله، فكسبوا حلالاً وأكلوا طيباً وأنفقوا قصداً، وقدموا فضلاً، ولم يمنعوا منها حقاً، ولم يبخلوا بها، لكنهم جادوا لله بأكثرها، وجاد بعضهم بجميعها، وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيراً، فبالله أكذلك أنت؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم.

وبعد: فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله في أرزاقهم واثقين، وبمقادير الله مسرورين، وفي البلاء راضين، وفي الرخاء شاكرين، وفي الضراء صابرين، وفي السراء حامدين، وكانوا لله متواضعين، وعن حب العلو والتكاثر ورعين. لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم ورضوا بالبلغة منها، وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها، وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهرتها. فبالله أكذلك أنت؟.

ولقد بلغنا: أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته من الله، وإذا رأوا الفقر مقبلاً قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. وبلغنا: أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيباً حزيناً، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحاً مسروراً، فقيل له: إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا، وإذا كان عندهم شيء فرحوا، وأنت لست كذلك! قال: إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت؛ إذ كان لي برسول الله ﷺ أسوة، وإذا كان عند عيالي شيء اغتممت؛ إذ لم يكن لي بآل محمد أسوة. وبلغنا: أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا: ما لنا وللدنيا وما يراد بها؛ فكأنهم على جناح خوف، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا: الآن تعاهدنا ربنا. فهذه أحوال السلف ونعتهم، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفناه. فبالله أكذلك أنت؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم.

وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضداً لأحوالهم، وذلك أنك تطغى عند الغنى، وتبطر عند الرخاء، وتمرح عند السراء، وتغفل عن شكر ذي النعماء، وتقنط عند الضراء، وتتسخط عند البلاء، ولا ترضى بالقضاء. نعم، وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة؛ وذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم. وأنت تدّخر المال وتجمعه خوفاً من الفقر؛ وذلك من سوء الظنّ بالله عزّ وجلّ وقلة اليقين بضمانه، وكفى به إثماً، وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها. ولقد بلغنا: أن رسول الله ﷺ قال: «**شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ فَرَبَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ**»(١)، وبلغنا أنّ بعض أهل العلم قال: ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا، فيا لها حسرة ومصيبة! نعم، وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا، وقد بلغنا: أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان، وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو. نعم، وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله، فأنت تكره

---

(١) حديث: «**شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم...**» الحديث. تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه: «**من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة**».

لقاء الله والله للقائك أكره، وأنت في غفلة، وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا؛ وقد بلغنا، أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. وَقِيلَ سَنَةٍ»**. وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله. نعم، ولعلك تخرج من دينك، أحياناً لتوفير دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سروراً بها، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسُرَّ بِهَا ذَهَبَ خَوْفُ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ»**[(١)]، وبلغنا: أنّ بعض أهل العلم قال: إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى، وعساك تعني بأمور دنياك وأضعاف ما تعني بأمور آخرتك، وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك، نعم، وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب، وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة في الدنيا، وعساك ترضي المخلوقين مساخطاً لله تعالى كيما تكرم وتعظم. ويحك! فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك، وعساك تخفي من المخلوقين مساوئك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها، فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس، فكأن العبيد أعلى عندك قدراً من الله، تعالى الله عن جهلك! فكيف تنطق عند ذوي الألباب وهذه المثالب فيك؟ أف لك! متلوثاً بالأقذار وتحتج بمال الأبرار؟ هيهات هيهات، ما أبعدك عن السلف الأخيار، والله لقد بلغني: أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرّم عليكم، إن الذي لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم، وكانوا للزلة الصغيرة أشدّ استعظاماً منكم لكبائر المعاصي، فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم؟ وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل؟ ليت صومك على مثال إفطارهم؟ وليت اجتهادك في العبادة مثل فتورهم ونومهم؟ وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم. وقد بلغني عن بعض الصحابة أنه قال: غنيمة الصدّيقين ما فاتهم من الدنيا، ونهمتهم ما زوي عنهم منها، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة، فسبحان الله! كم بين الفريقين من التفاوت؟ فريق خيار الصحابة في العلو عند الله، وفريق أمثالكم في السفالة، أو يعفو الله الكريم بفضله.

وبعد: فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل في سبيل الله فتدبر أمرك، ويحك! هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم؟ أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا، لقد بلغني أن بعض الصحابة قال: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام، أفتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط؟ لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك، ويحك! كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: **«من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام»**[(٢)]، أيها المغرور، أما علمت أنّ خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات، وبذلها في سبيل الله وسبيل البر؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال:

---

(١) حديث: **«من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه»** لم أجده إلا بلاغاً للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه.

(٢) حديث: **«من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام»** متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه، وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث.

لأن تدع درهماً واحداً مخافة أن لا يكون حلالاً خير لك من أن تتصدّق بألف دينار من شبهة لا تدري أيحل لك أو لا؟ فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله، ويحك! إن كنت كما زعمت بالغاً في الورع فلا تتعرّض للحساب، فإن خيار الصحابة خافوا المسألة، وبلغنا: أن بعض الصحابة قال: ما سرني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله، ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجمعة، قالوا: ولم ذاك رحمك الله؟ قال: لأني غني عن مقام يوم القيامة فيقول: عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أنفقت؟ فهؤلاء المتقون كانوا في جدّة الإسلام والحلال موجود لديهم، تركوا المال وجلاً من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشره، وأنت بغاية الأمن، والحلال في دهرك مفقود. تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال، ويحك أين الحلال فتجمعه؟.

وبعد: فلو كان الحلال موجوداً لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك، وقد بلغنا: أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه؟ أفتطمع أن يكون قلبك أنقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الخلق في أمرك وأحوالك؟ لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمّارة بالسوء، ويحك! إني لك ناصح، أرى لك أن تقنع بالبلغة، ولا تجمع المال لأعمال البر، ولا تتعرض للحساب، فإنه بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»[1]، وقال عليه السلام: «**يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ القِيَامَةِ وَقَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَامٍ فَيُقَالُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مالاً مِنْ حَلالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَامٍ فَيُقَالُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلالٍ فَيُقَالُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مالاً مِنْ حَلالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلالٍ فَيُقَالُ لَهُ: قِفْ لَعَلَّكَ قَصَّرْتَ فِي طَلَبِ هٰذا بِشَيْءٍ مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيْكَ مِنْ صَلاةٍ لَمْ تُصَلِّها لِوَقْتِها، وَفَرَّطْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَوُضُوئِهَا فيقول: لا يَا رَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلالٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلالٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ، فَيُقَالُ: لَعَلَّكَ اخْتَلْتَ فِي هٰذا المَالِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَرْكَبٍ أَوْ ثَوْبٍ بَاهَيْتَ بِهِ، فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ لَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أُبَاهِ فِي شَيْءٍ، فَيُقَالُ: لَعَلَّكَ مَنَعْتَ حَقَّ أَحَدٍ أَمَرْتُكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنْ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلالٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلالٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ وَلَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أُبَاهِ وَلَمْ أُضَيِّعْ حَقَّ أَحَدٍ أَمَرْتَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ، قَالَ: فَيَجِيءُ أُولٰئِكَ فَيُخَاصِمُونَهُ فَيَقُولُونَ: يا رَبِّ أَعْطَيْتَهُ وَأَغْنَيْتَهُ وَجَعَلْتَهُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَأَمَرْتَهُ أَنْ يُعْطِيَنَا، فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُمْ وَمَا ضَيَّعَ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئاً مِنَ الفَرَائِضِ وَلَمْ يَخْتَلْ فِي شَيْءٍ فَيُقَالُ: قِفْ، الآنَ هَاتِ شُكْرَ كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكَ مِنْ أَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ أَوْ لَذَّةٍ فَلا يَزَالُ يُسْأَلُ**»[2]، ويحك! فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي تقلب في الحلال، وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها، حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدنيا وتخاليطها وشبهاتها وشهواتها وزينتها؟ ويحك، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال، فلك ـ ويحك ـ بهؤلاء الأخيار أسوة، فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى، ولم تجمع

---

(١) حديث: «من نوقش الحساب عذب» متفق عليه من حديث عائشة، وقد تقدم.

(٢) حديث: «يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالاً من حرام وأنفقه في حرام فيقال: اذهبوا به إلى النار...» الحديث. بطوله، لم أقف له على أصل.

المال إلا من حلال ـ بزعمك ـ للتعفف والبذل في سبيل الله، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلا بحق، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله، ولم تسخط الله في شيء من سرائرك وعلانيتك، ويحك! فإن كنت كذلك ـ ولست كذلك ـ فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوي الأموال إذا وقفوا للسؤال وتسق مع الرعيل الأول في زمرة المصطفى، لا حبس عليك للمسألة والحساب، فإما سلامة وإما عطب. فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: **«يَدْخُلُ صَعَالِيكُ المُهَاجِرِينَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمُ الجَنَّةَ بِخَمْسِمائَةِ عَامٍ»**[١]، وقال عليه السلام: **«يَدْخُلُ فُقَرَاءُ المُؤْمِنِينَ الجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ فَيَأْكُلُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ وَالآخَرُونَ جُثَاةٌ عَلَى رُكَبِهِمْ فَيَقُولُ قِبَلُكُمْ طِلْبَتِي أَنْتُمْ حُكَّامُ النَّاسِ وَمُلُوكُهُمْ فَأَرُونِي مَاذا صَنَعْتُمْ فِيمَا أَعْطَيْتُكُمْ»**[٢].

وبلغنا: أن بعض أهل العلم قال: ما سرني أن لي حمر النعم ولا أكون في الرعيل الأول مع محمد عليه السلام وحزبه. يا قوم، فاستبقوا السباق مع المخفين في زمرة المرسلين عليهم السلام، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله ﷺ وجل المتقين. لقد بلغني أن بعض الصحابة ـ وهو أبو بكر رضي الله عنه ـ عطش فاستسقى فأتي بشربة من ماء وعسل، فلما ذاقه خنقته العبرة ثم بكى وأبكى، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد في البكاء، فلما أكثر البكاء قيل له: أكل هذا من أجل هذه الشربة؟ قال: نعم، بينا أنا ذات يوم عند رسول الله ﷺ وما معه أحد في البيت غيري، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول: **«إليك عني»** فقلت له. فداك أبي وأمي، ما أرى بين يديك أحداً فمن تخاطب؟ فقال: **«هٰذِهِ الدُّنْيَا تَطَاوَلَتْ إِلَيَّ بِعُنُقِهَا وَرَأْسِها فَقَالَتْ لِي: يا مُحَمَّدُ خُذْنِي، فَقُلْتُ: إِلَيْكِ عَنِّي، فَقَالَتْ: إِنْ تَنْجُ مِنِّي يا مُحَمَّدُ فَإِنَّهُ لا يَنْجُو مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ»** فأخاف أن تكون هذه لحقتني تقطعني عن رسول الله ﷺ[٣]. يا قوم، فهؤلاء الأخيار بكوا وجلاً أن تقطعهم عن رسول الله ﷺ شربة من حلال! ويحك! أنت في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع؟ أف لك ما أعظم جهلك! ويحك! فإن تخلفت في القيامة عن رسول الله ﷺ محمد المصطفى لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء، ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب عسير، ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وعويل، ولئن رضيت بأحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين، ولتبطئن عن نعيم المتنعمين، ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتبسين في أهوال يوم الدين. فتدبر ـ ويحك ـ ما سمعت. وبعد: فإن زعمت أنك في مثال خيار السلف، قانع بالقليل، زاهد في الحلال، بذول لمالك، مؤثر على نفسك، لا تخشى الفقر، ولا تدخر شيئاً لغدك، مبغض للتكاثر والغنى، راض بالفقر والبلاء، فرح بالقلة والمسكنة، مسرور بالذل

---

(١) حديث: **«يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام»** أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد بلفظ **«فقراء»** مكان **«صعاليك»** ولهما وللنسائي في الكبرى من حديث أبي هريرة: **«يدخل الفقراء الجنة. . .»** الحديث. ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر: **«إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين خريفاً»**.

(٢) حديث: **«يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون. . .»** الحديث. لم أر له أصلاً.

(٣) حديث: **«إن بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتي بشربة ماء وعسل. . .»** الحديث. في دفع النبي ﷺ الدنيا عن نفسه وقوله: **«إليك عني. . .»** الحديث. أخرجه البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال: **«كنا عند أبي بكر فدعا بشراب فأتي بماء وعسل. . .»** الحديث. قال الحاكم: صحيح الإسناد، قلت: بل ضعيف، وقد تقدم قبل هذا الكتاب.

والضعة، كاره للعلو والرفعة، قوي في أمرك، لا يتغير عن الرشد قلبك، قد حاسبت نفسك في الله، وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله، ولن توقف في المسألة، ولن يحاسب مثلك من المتقين، وإنما تجمع المال الحلال للبذل في سبيل الله، ويحك أيها المغرور فتدبر الأمر وأمعن النظر! أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال، وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار والفكر والاعتبار أسلم للدين وأيسر للحساب، وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة، وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله أضعافاً. بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال: لو أن رجلاً في حجره دنانير يعطيها، والآخر يذكر الله لكان الذاكر أفضل. وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر، قال: تركه أبرّ به. وبلغنا: أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين، أحدهما: طلب الدنيا حلالاً فأصابها، فوصل بها رحمه وقدم لنفسه. وأما الآخر: فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها، فأيهما أفضل؟ قال: بعيد والله ما بينهما، الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها. ويحك! فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها، ولك في العاجل إن تركت الاشتغال بالمال، وإن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك، وأنعم لعيشك وأرضى لبالك، وأقل لهمومك. فما عذرك في جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر؟ نعم، وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله، فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل في الآجل.

وبعد: فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا. ويحك! تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجانبة الدنيا، فسر مع لواء المصطفى سابقاً إلى جنة المأوى. فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «**سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الجَنَّةِ مَنْ إذا تَغَدَّى لَمْ يَجِدْ عَشَاءً، وَإذا اسْتَقْرَضَ لَمْ يَجِدْ قَرْضاً، وَلَيْسَ لَهُ فَضْلُ كُسْوَةٍ إلا ما يُوَارِيهِ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أنْ يَكْتَسِبَ ما يُغْنِيهِ، يُمْسِي مَعَ ذٰلِكَ وَيُصْبِحُ رَاضِياً عَنْ رَبِّهِ**: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]»(١). ألا يا أخي، متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنك مبطل فيما أدعيت أنك للبر والفضل تجمعه، لا! ولكنك خوفاً من الفقر تجمعه، وللتنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال! ويحك! راقب الله واستحي من دعواك أيها المغرور. ويحك! إن كنت مفتوناً بحب المال والدنيا فكن مقرّاً أن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول، نعم، وكنت عند جمع المال مزرياً على نفسك معترفاً بإساءتك وجلاً من الحساب، فذلك أنجى لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال. إخواني: اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجوداً وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم في المباح لهم، ونحن في دهر الحلال فيه مفقودٌ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القود وستر العورة. فأما جمع المال في دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه.

وبعد: فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم؟ وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم؟ دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها، وعن قريب يكون الورود. فيا سعادة المخفين يوم النشور، وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط، وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل.

---

(١) حديث: «**سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء...**» الحديث. عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصراً بلفظ: «**سادة الفقراء في الجنة...**» الحديث. ولم أره في معاجم الطبراني.

وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين. هذا آخر كلامه وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه. ويشهد لذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ذم الدنيا، وفي كتاب الفقر والزهد.

ويشهد له أيضاً: ما روي عن أبي أمامة الباهلي: أن ثعلبة بن حطاب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: **«يا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ»** قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: **«يا ثَعْلَبَةُ أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ؟ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ الله تَعَالَى؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِي الجِبَالُ ذَهَباً وَفِضَّةً لَسَارَتْ»** قال: والذي بعثك بالحق نبياً لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، ولأفعلن ولأفعلن، قال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً»** فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ويدع ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة، وسأل رسول الله ﷺ عنه فقال: **«ما فَعَلَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ؟»** فقيل: يا رسول الله، اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة؛ وأخبر بأمره كله، فقال: **«يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ»** قال وأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم على الصدقة، وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا من المسلمين، وقال: **«مُرَّا بِثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ وَبِفُلانٍ ـ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ـ وَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا»**: فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذهَ إلا جزية، ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليّ فانطلقا نحو السليمي فسمع بهما، فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها؛ فلما رأوها قالوا: لا يجب عليك ذلك، وما نريد نأخذ هذا منك، قال: بلى خذوها، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرّا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: **«يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ»** قبل أن يكلماه ودعا للسليمي. فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالذي صنع السليمي فأنزل الله تعالى في ثعلبة: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال: لا أم لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا كذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: **«إِنَّ الله مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ»** فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: **«هٰذا عَمَلُكَ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي»**، فلما أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان(١)، فهذا

---

(١) حديث أبي أمامة: أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً قال: **«يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه...»** الحديث. بطوله، أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث، ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى آثر رسول الله ﷺ الفقر لنفسه ولأهل بيته، حتى روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال: كانت لي من رسول الله منزلة وجاه فقال: «**يا عِمْرَانُ إنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجاهاً فَهَلْ لَكَ فِي عِيادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ**» فقلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال: «**السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟**» فقالت: ادخل يا رسول الله، قال: «**أنا ومن معي؟**» قالت: ومن معك يا رسول الله؟ فقال: «**عمران بن حصين**» فقالت: والذي بعثك بالحق نبياً ما عليَّ إلا عباءة: فقال: «**اصْنَعِي بِهَا هٰكَذَا وَهٰكَذَا**» وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي فقد واريته، فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: «**شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكِ**» ثم أذنت له فدخل، فقال: «**السَّلامُ عَلَيْكِ يا بِنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ؟**» قالت: أصبحت والله وجعة، وزادني وجعاً على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله، فقد أجهدني الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «**لا تَجْزَعِي يا بِنْتَاهُ فَوَالله ما ذُقْتُ طَعَاماً مُنْذُ ثَلاثَةٍ، وَإِنِّي لأَكْرَمُ عَلَى الله مِنْكِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لأَطْعَمَنِي، وَلٰكِنِّي آثَرْتُ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا**» ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِها وَقالَ لَهَا: «**أَبْشِرِي فَوَالله إنَّكِ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فقالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران؟ فقال: «**آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِساءِ عَالَمِها، وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِها، وَخَدِيجَةُ سَيِّدَةُ نِساءِ عَالَمِها، وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ، إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لا أَذى فِيها وَلا صَخَبٌ**» ثم قال لها: «**اقْنَعِي بِابْنِ عَمِّكِ فَوَالله لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّداً فِي الدُّنْيَا وَسَيِّداً فِي الآخِرَةِ**»(١)، فانظر الآن إلى حال فاطمة رضي الله عنها وهي بضعة من رسول الله ﷺ كيف آثرت الفقر وتركت المال؟ ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات؛ إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوقي من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغال الهم بإصلاحه وانصرافه عن ذكر الله؛ إذ لا ذكر إلا مع الفراغ، ولا فراغ مع شغل المال.

وقد روي عن جرير عن ليث قال: صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السلام فقال: أكون معك وأصحابك، فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، قال: فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها، قال: فدعا أحدهما فأتاه، فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل، ثم قال للخشف: قم بإذن الله، فقام فذهب، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، ثم انتهيا إلى وادي ماء، فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء، فلما جاوزا قال له: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، فانتهيا إلى مفازة فجلسا، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع تراباً وكثيباً ثم قال: كن ذهباً بإذن الله تعالى، فصار ذهباً، فقسمه ثلاثة أثلاث ثم قال: ثلث لي وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف، فقال: أنا الذي أخذت الرغيف، فقال: كله لك، وفارقه عيسى عليه السلام، فانتهى إليه رجلان في

---

(١) حديث عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه فقال: «**فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ . .**» الحديث. بطوله وفيه: «**لقد زوجتك سيداً في الدنيا وسيداً في الآخرة**» لم أجده من حديث عمران، ولأحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار: وضأت النبي ﷺ ذات يوم فقال: «**هل لك في فاطمة تعودها. . .**» الحديث. وفيه: «**أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتي سلما وأكثرهم علماً وأعظمهم حلما**» وإسناده صحيح.

المفازة ومعه المال، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه، فقال: هو بيننا أثلاثاً، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاماً نأكله، قال: فبعثوا أحدهم، فقال الذي بعث: لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال؟ لكني أضع في هذا الطعام سماً فأقتلهما وآخذ المال وحدي، قال: ففعل، وقال ذانك الرجلان: لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال؟ ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا، قال: فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى، فمرّ بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه: هذه الدنيا فاحذروها.

وحكي: أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبوراً، فإذا أصبح تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها، ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قيض لهم في ذلك معايش من نبات الأرض، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له: أجب ذو القرنين، فقال: ما لي إليه حاجة، فان كان له حاجة فليأتني. فقال ذو القرنين: صدق، فأقبل إليه ذو القرنين وقال له: أرسلت إليك لتأتيني فأبيت، فها أنا قد جئت، فقال: لو كان لي إليك حاجة لأتيتك، فقال له ذو القرنين: ما لي أراكم على حال لم أر أحداً من الأمم عليها؟ قال: وما ذاك؟ قال: ليس لكم دنيا ولا شيء، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما؟ قالوا: إنما كرهناهما لأن أحداً لم يعط منهما شيئاً إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه. فقال: ما بالكم قد احتفرتم قبوراً، فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها؟ قالوا: أردنا: إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل. قال: وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها؟ قالوا: كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها، ورأينا في نبات الأرض بلاغاً، وإنما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام، وأيما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعماً كائناً ما كان من الطعام؟ ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة؛ فقال: يا ذا القرنين أتدري من هذا؟ قال: لا! ومن هو؟ قال: ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا، فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقى، وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته. ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال: يا ذا القرنين، هل تدري من هذا؟ قال: لا أدري، ومن هو؟ قال: هذا ملك ملكه الله بعده؛ قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر؛ فتواضع وخشع لله عزّ وجلّ وأمر بالعدل في أهل مملكته، فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله، حتى يجزيه به في آخرته. ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال: وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع؟ فقال له ذو القرنين: هل لك في صحبتي فأتخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني الله من هذا المال؟ قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعاً، قال ذو القرنين: ولم؟ قال: من أجل أن الناس كلهم لك عدوّ ولي صديق، قال: ولم؟ قال: يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا، ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء، قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظماً به. فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدّمناه من قبل، وبالله التوفيق.

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه،
ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ]

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله علام الغيوب، المطلع على سرائر القلوب، المتجاوز عن كبائر الذنوب، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا الغيوب، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات، الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا، فإنه المنفرد بالملكوت، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك. والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ، الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ»**(١)، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء فضلاً عن عامة العباد والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكائدها. وإنما يبتلي به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم؛ فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات، وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ والإطراء، ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام، وتبركوا بمشاهدته ولقائه، ورغبوا في بركة دعائه، وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات، وقدموه في المجالس، وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين، وانقادوا له في أغراضه موقرين، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات، وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات، لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية، ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق، وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين، وهو يظن أنه

كتاب ذم الجاه والرياء

(١) حديث: **«إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية»** أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا: «الشرك» بدل «الرياء» وفسراه بالرياء. قال الحاكم: صحيح الإسناد.

قلت: بل ضعيفه، وهو عند ابن المبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بلفظ المصنف.

عند الله من المقرّبين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصدّيقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقرّبون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة.

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه، ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين؛ الشطر الأول: في حب الجاه والشهرة، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول، وبيان ذم الجاه، وبيان معنى الجاه وحقيقته، وبيان السبب في كونه محبوباً أشدّ من حب المال، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم. وبيان العلاج في حب الجاه، وبيان علاج حب المدح، وبيان علاج كراهة الذم، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم. فهي اثنا عشر فصلاً، منها تنشأ معاني الرياء فلا بدّ من تقديمها، والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه.

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت:

اعلم: ـ أصلحك الله ـ أن أصل الجاه: هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم، بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه. قال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«حَسْبُ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ»**(١)، وقال جابر بن عبدالله: قال رسول الله ﷺ: **«بِحَسْبِ المَرْءِ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنَ السُّوءِ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْه بالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ. إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**(٢)، ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلاً ولا بأس به؛ إذ روى هذا الحديث فقيل له: يا أبا سعيد، إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع، فقال: إنه لم يعن هذا، وإنما عنى به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه، وقال علي كرّم الله وجهه: تبذل ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم؛ تسر الأبرار وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال أيوب السختياني: والله ما صدق الله عبدٌ إلا سره أن لا يشعر بمكانه. وعن خالد بن معدان: أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة. وعن أبي العالية: أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام. ورأى طلحة قوماً يمشون معه نحواً من عشرة، فقال: ذباب طمع وفراش نار. وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبيّ بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرّة. فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع. وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه

---

(١) حديث أنس: **«حسب امرىء من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه»** أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٢) حديث جابر: **«بحسب امرىء من الشر...»** الحديث. مثله وزاد في آخره **«إن الله لا ينظر إلى صوركم...»** الحديث. هو غير معروف من حديث جابر، معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله، ورواه مسلم مقتصراً على الزيادة التي في آخره، وروى الطبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ: **«كفى بالمرء إثماً»** ورواه ابن يونس في تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ: **«هلاك بالرجل»** وفسر دينه بالبدعة ودنياه بالفسق، وإسنادهما ضعيف.

ناس فالتفت إليهم فقال: علام تتبعوني، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان. وقال الحسن: إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى. وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن. وروي: أن رجلاً صحب ابن محيريز في سفر، فلما فارقه قال: أوصني، فقال: إن استطعت أن تَعرف ولا تُعرف وتَمشي ولا يُمشى إليك وتَسأل ولا تُسأل فافعل. وخرج أيوب في سفر فشيعه ناس كثيرون فقال: لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عزّ وجلّ. وقال معمر: عاتبت أيوب على طول قميصه فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره. وقال بعضهم: كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال: إياكم وهذا الحمار الناهق! يشير به إلى طلب الشهرة. وقال الثوري: كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة؛ إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً. وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال: أخمل ذكرك وطيب مطعمك. وكان حوشب يبكي ويقول: بلغ اسمي مسجد الجامع. وقال بشر: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح. وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس. رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

بيان فضيلة الخمول:

قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ[(١)] مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ» وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ، لَوْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ لأَعْطَاهُ الجَنَّةَ وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً»[(٢)]، وقال ﷺ: «أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الجَنَّةِ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ وَأَهْلِ النَّارِ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ مُسْتَكْبِرٍ جَوَّاظٍ»[(٣)]، وقال أبو هريرة: قال ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ كُلُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يُنْكَحُوا وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْصَتْ لِقَوْلِهِمْ حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَخَلْخَلُ فِي صَدْرِهِ لَوْ قُسِمَ نُورُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوَسِعَهُمْ»، وقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَى أَحَدَكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَاراً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاه وَلَوْ سَأَلَهُ دِرْهَماً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ فَلْساً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ، وَلَوْ سَأَلَ الله الجَنَّةَ لأَعْطَاهُ إِيَّاها، وَلَوْ سَأَلَهُ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاها، وَمَا مَنَعَهَا إِيَّاهُ إِلاَّ لِهَوَانِهَا عَلَيْهِ، رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ»[(٤)]، وروي: أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر

---

(١) حديث: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره» وللحاكم: «رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره» وقال: صحيح الإسناد، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف: «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك» وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال: صحيح الإسناد. قلت: بل ضعيفه.

(٢) حديث ابن مسعود: «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً» أخرجه ابن أبي الدنيا. ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف.

(٣) حديث: «ألا أدلكم على أهل الجنة: كل ضعيف مستضعف...» الحديث. متفق عليه من حديث حارثة بن وهب.

(٤) حديث: «إن من أمتي من لو أتى أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله: «ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعها إياه إلا لهوانها عليه».

رسول الله ﷺ فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ اليَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وإنَّ الله يُحِبُّ الأَتْقِياءَ الأَخْفِياءَ الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ»**[1].

وقال محمد بن سويد: قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبي ﷺ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال: يا رب، أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة، فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام، وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق، فقال: يا رب، إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم، وسكن، وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال: إني أتيتك في حاجة فقال: ما هي؟ قال: تخصني بدعوة، قال: سبحان الله! أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة؟ ثم قال: ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني، فسألت الله فأعطاني. وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى، أحلاس البيوت سرج الليل، جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض. وقال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ: **«يَقُولُ الله تَعَالَى: إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلاةٍ، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وكَانَ غَامِضاً فِي النَّاسِ لا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ ثُمَّ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ»** قال: ثم نقر رسول الله ﷺ بيده فقال: **«عَجِلَتْ مَنِيَّتُهُ وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ»**[2]. وقال عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أحب عباد الله إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء، قال: الفارّون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام. وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده؟ ألم أنعم عليك! ألم أسترك! ألم أخمل ذكرك!. وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك. وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء. وقال إبراهيم بن أدهم: ما قرّت عيني يوماً في الدنيا قط إلا مرة، بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن، فجرّني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد. وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك ألاّ تعرف، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى؟. فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول. وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل فساد.

فإن قلت: فأي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم: أن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم. نعم، فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك.

---

(١) حديث معاذ بن جبل: **«إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء...»** الحديث. أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد، قلت: بل ضعيفه فيه عيسى بن عبدالرحمن وهو الزرقي متروك.

(٢) حديث أبي أمامة: **«إن أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ...»** الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسنادين ضعيفين.

بيان ذم الجاه ومعناه:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً. وقال عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [هود: ١٥،١٦] وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه؛ فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها. وقال رسول الله ﷺ: **«حُبّ المَالِ وَالجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ»**(١)، وقال ﷺ: **«ما ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَسْرَعَ إِفْسَاداً مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالمال فِي دِينِ الرَّجُلِ المُسْلِم»**(٢)، وقال ﷺ لعلي كرم الله وجهه: **«إِنَّمَا هَلاكُ النَّاسِ بِاتِّبَاعِ الهَوَى وَحُبِّ الثَّنَاءِ»**(٣). نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه.

بيان معنى الجاه وحقيقته:

اعلم: أن الجاه والمال هما ركنان الدنيا. ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها. وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير ـ أي: يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ـ فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه. وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه، بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال للقلب. وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، وكما أن محبّ المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم، ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم، لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه، ولو خلي ورأيه انسل عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً، ويبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع، مع الفرح بالعبودية والطاعة له، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير. فإذاً: معنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه. فهذا هو معنى الجاه وحقيقته، وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن

---

(١) حديث: «المال والجاه ينبتان النفاق. . .» الحديث. تقدم في أول هذا الباب ولم أجده.

(٢) حديث: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم. . .» الحديث. تقدم أيضاً هناك.

(٣) حديث: «إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء» لم أره بهذا اللفظ، وقد تقدم في العلم من حديث أنس: «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع. . .» الحديث. ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف: «حب الثناء من الناس يعمي ويصم».

ذكر ما يعتقده، فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده؛ فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام، وتسليم الصدر في المحافل، والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب، ومعنى قيام الجاه في القلب: اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق، أو نسب أو ولاية، أو جمال في صورة أو قوة في بدن، أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه، والله تعالى أعلم.

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة:

اعلم: أن السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً، بل يقتضي أن يكون أحبّ من المال، كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانهما؛ إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس، وإنما هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه، فكذلك ملك القلوب من الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض، فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرّر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له، فإذاً: الجاه آلة ووسيلة إلى المال، فمن ملك الجاه فقد ملك المال، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال، فلذلك صار الجاه أحب.

الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن، ويتطرق إليه أخطار كثيرة، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرّض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والغصاب، وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم، ولا يستغني عن المراقبة والحفظ، وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها، والجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها. نعم، إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال، وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاولة فعله.

الثالث: أن ملك القلوب يسري وينمي ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر، لأن ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم، فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردّ معين، وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه، ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة، والجاه أبداً في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر

الصيت، وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال. وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح.

فإن قلت: فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه. نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم، أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه، فحبه للمال والجاه معلوم؛ إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز، وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ، وحب ذلك ثابت في الطبع، ويكاد يظن أن ذلك جهل، فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة؟ فنقول: نعم، هذا الحب لا تنفك عنه القلوب. وله سببان؟ أحدهما: جلي تدركه الكافة. والآخر: خفي وهو أعظم السببين، ولكنه أدقهما وأخفاهما، وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع؛ لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون.

فأما السبب الأول: فهو دفع ألم الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مولع، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل، ويخطر بباله أنّ المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه، ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة، فهو أبداً لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدّر طول الحياة، ويقدّر هجوم الحاجات، ويقدّر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ مَنْهُومُ العِلْمِ وَمَنْهُومُ المَالِ»**(١)، ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم، ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم؛ لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

وأما السبب الثاني وهو الأقوى: لأن الروح أمر رباني، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. ومعنى كونه ربانياً أنه من أسرار علوم المكاشفة، ولا رخصة في إظهاره إذ لم يظهره رسول الله ﷺ(٢)، ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أنّ للقلب ميلاً إلى صفات

---

(١) حديث: «**منهومان لا يشبعان...**» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبزار والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين، وقد تقدم.

(٢) حديث: «أنه ﷺ لم يظهر سر الروح» أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود، وقد تقدم.

بهيمية كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء؛ وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية: التوحد بالكمال والتفرّد بالوجود على سبيل الاستقلال. فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوباً للإنسان، والكمال بالتفردّ بالوجود، فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصاً في حقها؛ إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، فلم يكن موجوداً معه؛ لأن المعية توجب المساواة في الرتبة، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال، بل الكامل من لا نظير له في رتبته. وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً ولا يكون متبعاً، فإذن: معنى الربوبية التفرّد بالوجود وهو الكمال. وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: ٢٤] ولكنه ليس يجد له مجالاً، وهو كما قال؛ فإن العبودية قهر على النفس. والربوبية محبوبة بالطبع، وذلك للنسبة الربانية التي أومأ إليها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: ٨٥]، ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهي محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته، ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته. وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرّد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات، فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك، فإن لم يكن منك فأن تكون مستولياً عليه، فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع، لأنه نوع كمال. وكل موجود يعرف ذاته فإنه يحب ذاته، ويحب كمال ذاته ويلتذ به، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه. إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته. وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولي عليه قدرة الخلق، كالأفلاك والكواكب وملكوت السمٰوات، ونفوس الملائكة والجن والشياطين، وكالجبال والبحار. وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها، وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات.

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسمٰوات، أحب الإنسان أن يستولي على السمٰوات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء؛ إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم، والعالم كالمستولي عليه، فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب، وجميع عجائب السمٰوات، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها، والاستيلاء نوع كمال. وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها، كمن يعجز عن وضع الشطرنج، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع؟ وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو

الشعبذة أو جرّ الثقيل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه، ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه.

وأما القسم الثاني: وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها، فإنه يحب بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان: أجساد وأرواح.

أما الأجساد: فهي الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادراً عليها يفعل فيها ما شاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فإن ذلك قدرة والقدرة كمال، والكمال من صفات الربوبية، والربوبية محبوبة بالطبع، فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه، وبذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة؛ حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار، وإن لم يملك قلوبهم، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوباً لها ويقوم القهر منزلته فيها، فإن الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة.

القسم الثاني: نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له، متصرفة تحت إشارته وإرادته؛ لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية، والقلوب إنما تتسخر بالحب، ولا تحب إلا باعتقاد الكمال، فإن كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية، والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان، وهو الذي لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه بالتراب فيأكله، فإنه محل الإيمان والمعرفة، وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه. فإذن معنى الجاه تسخير القلوب، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها، والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية. فإذن محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه من أسباب القدرة، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات، وما دام يبقى معلوم، أو مقدور فالشوق لا يسكن، والنقصان لا يزول. ولذلك قال ﷺ: «**منهومان لا يشبعان**» فإذن: مطلوب القلوب الكمال. والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوباً، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات، لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية، فكان محبوباً بالطبع، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى.

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له:

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرّد بالوجود إلا في العلم والقدرة، ولكن الكمال الحقيقي فيه متلبس بالكمال الوهمي، وبيانه: أن كمال العلم لله تعالى، وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث كثرة المعلومات وسعتها، فإنه محيط بجميع المعلومات، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى.

الثاني: من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به، وكون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تاماً، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه، فلذلك مهما كان

علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى.

الثالث: من حيث بقاء العلم أبد الآباد؛ بحيث لا يتغير ولا يزول، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى.

والمعلومات قسمان: متغيرات وأزليات.

أما المتغيرات: فمثالها: العلم بكون زيد في الدار، فإنه علم له معلوم، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلاً، نقصاناً لا كمالاً، فكلما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً، ويعود علمك جهلاً. ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم، كعلمك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض، وبعد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات؛ فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب.

القسم الثاني: هو المعلومات الأزلية؛ وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أزلية أبدية؛ إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً، ولا الجائز محالاً، ولا المحال واجباً. فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له، وما يستحيل في صفاته، ويجوز في أفعاله، فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السمٰوات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى، ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت، وتكون هذه المعرفة نوراً للعارفين بعد الموت: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي فإنه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور الخفي على سبيل الاستتمام، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] فإذن: لا سعادة إلا في معرفة الله تعالى، وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما، ومنها ما له منفعة في الإعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار؛ فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات؛ إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى، ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، فهي من تكملة معرفة الله تعالى.

وهذا حكم كمال العلم، ذكرناه وإن لم يكن لائقاً بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

وأما القدرة: فليس فيها كمال حقيقي للعبد، بل للعبد علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بإحداث الله ـ كما قرّرناه في كتاب الصبر والشكر، وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربع المنجيات ـ فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى. فأما كمال القدرة فلا. . . نعم، له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال، وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للإدراك، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن، وذلك إلى قدر معلوم، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب، ومن ظن ذلك كمالاً فقد جهل، فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال. فلما اعتقدوا ذلك أحبوه، ولما أحبوه طلبوه، ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه؛ فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية.

أما العلم: فما ذكرناه من معرفة الله تعالى.

وأما الحرية: فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا، والاستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة. ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه، ومنزلته عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورده في أقسام الكمال؛ لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان، فإنّ التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها، والهلاك نقص في اللذات وفي صفات الكمال.

فإذن: الكمالات ثلاثة ـ إن عددنا (عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالاً) ككمال العلم وكمال الحرية؛ وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية ـ وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية، ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته؛ إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت، ومعرفته وحرّيته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالاً فيه ووسيلة إلى القرب من الله تعالى. فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان، فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال، وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦] فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالاً في النفس، والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤] الآية. وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف:

٤٥] إلى قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات. فقد عرفت بهذا: أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل، وإليه أشار أبو الطيب بقوله:

وَمَنْ يُنفِقِ السّاعاتِ في جمعِ مالِه مخافةَ فقرٍ فالذي فعلَ الفقرُ

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقي. اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك.

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم:

مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها، فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مزرعة الآخرة، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزوّد منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس، فلا بدّ من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، ورفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم. وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم. وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم، فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال، فلا فرق بينهما. إلا أنّ التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطرّ إليه لقضاء حاجته، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء، فهذا على التحقيق ليس محباً لبيت الماء، فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه. وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أنّ الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام، ولو كُفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته، كما أنه لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبقي مستصحباً لنكاحها؛ فهذا هو الحب دون الأوّل، وكذلك الجاه والمال. وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين، فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة معصية. وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة، فإنّ التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي.

فإن قلت: طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان، أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص؟ فأقول: يطلب ذلك على ثلاثة أوجه؛ وجهان مباحان، ووجه محظور.

أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها، مثل العلم والورع والنسب، فيظهر لهم أنه علوي أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك. فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة.

وأما أحد المباحين: فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها؛ كقول يوسف ﷺ فيما أخبر عنه الرب تعالى: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: ٥٥] فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليماً، وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه.

والثاني: أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به، فهذا أيضاً مباح، لأن حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح. وهذا ليس فيه تلبيس، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع، فإن قوله: إني ورع تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب.

ومن جملة المحظورات: تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله، فكيف يكون مخلصاً؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية، وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال.

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه:

اعلم: أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

السبب الأول: وهو الأقوى: شعور النفس بالكمال فإنا بينا أن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ. فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جلياً ظاهراً أو يكون مشكوكاً فيه، فإن كان جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة به أقل، ولكنه لا يخلو عن لذة؛ كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون، فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم؛ كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق، فإن الإنسان ربما يكون شاكاً في كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها، لا يجازف في القول إلا عن تحقيق، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه في غاية اللذة، وإن صدر ممن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيراً بذلك الوصف ضعفت اللذة، وبهذه العلة يبغض الذم أيضاً ويكرهه؛ لأنه يشعره بنقصان نفسه، والنقصان ضد الكمال المحبوب، فهو ممقوت والشعور به مؤلم، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته، وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر، ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير؛ فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة، وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم.

السبب الثالث: أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ، فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس.

السبب الرابع: أن المدح يدل على حشمة الممدوح، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته، فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد.

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها. أما العلة الأولى ـ وهي استشعار الكمال ـ فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في قوله، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم يعلم أو متورع عن المحظورات؛ وهو يعلم من نفسه ضد ذلك، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء، فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلاً لذة لفوات الأسباب الثلاثة. فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم. وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته؛ إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض. والله الموفق بكرمه ولطفه، وصلى الله على كل عبد مصطفى.

بيان علاج حب الجاه:

اعلم: أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءات لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك ـ لا محالة ـ إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين، وقال عليه السلام: «**إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل**» إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم، وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك هو عين النفاق.

فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال؛ وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه؛ وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وقد بينا أنّ ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له. فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن فَهِم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي ـ كما سبق ـ صغر الجاه في عينه، إلا أنّ ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها، ويستحقر العاجلة، ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبدالعزيز: (أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات). فانظر كيف مدّ نظره نحو المستقبل وقدره كائناً. وكذلك حال عمر بن عبدالعزيز حين كتب في جوابه: (أما بعد: فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل)، فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى؛ إذ علموا أنّ العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة، لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١] فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشدّ تغيراً من القدر في غليانها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه، فلا يفي في الدنيا مرجوّها بمخوفها فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة. وأما من نفذت بصيرته وقوي إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا، فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما من حيث العمل: فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق، وتفارقه لذة القبول، ويأنس بالخمول، ويرد الخلق، ويقنع بالقبول من الخالق. وهذا هو مذهب الملامتية؛ إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه، وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس؛ كما رُوي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد، فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني. ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس. وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه، إلا أنّ أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير، كما فعل بعضهم؛ فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره، وخرج فوقف في الطريق

حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا: إنه طرّار، وهجروه. وأقوى الطرق في قطع الجاه: الاعتزال عن الناس، والهجرة إلى موضع الخمول، فإنّ المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور، لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته، فإنه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها، ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، ويتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة. ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال، بل هو شر منه فإنّ فتنة الجاه أعظم، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة، فمن قنع استغنى عن الناس، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع. ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة. وينظر في أحوال السلف وإيثارهم للذل على العز، ورغبتهم في ثواب الآخرة، رضي الله عنهم أجمعين.

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم:

اعلم: أنّ أكبر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم.

أما السبب الأول: فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح. فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية؛ فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول كما قال المتنبي:

أشدّ الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها، بوجودها. والمدح ليس هو سبب وجودها. وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخطر الخاتمة باقٍ، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا، بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح، فإن اللذة في استشعار الكمال والكمال موجود في فضل الله لا من المدح، والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح، والمدح لا يزيدك فضلاً، وإن

كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول: سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه، وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجته، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان، ثم يفرح بذلك. إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل. فإذاً: المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

وأما السبب الثاني: وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير قلب آخر، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب ـ وقد سبق وجه معالجته ـ وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به؟

وأما السبب الثالث: وهو الحشمة التي اضطرّت المادح إلى المدح، فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ـ كما نقل ذلك عن السلف ـ؛ لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ـ كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان ـ. قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه. وقال بعضهم: إذا قيل لك: نعم الرجل أنت، فكان أحب إليك من أن يقال لك: بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل. وروي في بعض الأخبار ـ فإن صح فهو قاصم للظهور ـ: أنّ رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله ﷺ: **«لَوْ كَانَ صَاحِبُكَ حَاضِراً فَرَضِيَ الَّذِي قُلْتَ فَمَاتَ عَلَى ذٰلِكَ دَخَلَ النَّارَ»**(١)، وقال ﷺ مرّة للمادح: **«وَيْحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ لَوْ سَمِعَكَ ما أَفْلَحَ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ»**(٢)، وقال عليه السلام: **«أَلا لا تَمادَحُوا وَإِذا رَأَيْتُمُ المَادِحِينَ فاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»**(٣). فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته، وما يدخل على القلب من السرور العظيم به، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلاً عن شيء فقال: أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم، فغضب وقال: إني لم آمرك بأن تزكيني، وقيل لبعض الصحابة: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله، فغضب وقال: إني لأحسبك عراقياً. وقال بعضهم ـ لما مدح ـ: اللهم إن عبدك تقرّب إليّ بمقتك فأشهدك على مقته. وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبغض إليهم مدح الخلق، لأن الممدوح هو المقرّب عند الله، والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله، الملقى في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه؛ إذ ليس أمره بيد الخلق. ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم، وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه. والله الموفق للصواب برحمته.

---

(١) حديث: أن رجلاً أثنى على رجل خيراً فقال: **«لو كان صاحبك حاضراً فرضي الذي قلت ومات على ذلك دخل النار»** لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: **«ويحك قطعت ظهره. . .»** الحديث. قاله للمادح، تقدم.

(٣) حديث: **«ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»** تقدم دون قوله: **«ألا لا تمادحوا»**.

بيان علاج كراهة الذم:

قد سبق: أن العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضاً يفهم منه. والقول الوجيز فيه: أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال:

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة، وإما أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنت، وإما أن يكون كاذباً.

فإن كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منه فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته. وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة. فمهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت تدري، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة، فقال قائل: أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك، فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمة، وجميع مساوىء الأخلاق مهلكة في الآخرة، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن يغتنمه.

وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه، وهو نعمة منه عليك، فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به؟

الحالة الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه.

والثاني: أن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك، فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه، وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك. فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقرّبك إلى الله تعالى، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله.

وأما الثالث: فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله، وأهلك نفسه بافترائه وتعرّض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم ارحمه، كما قال ﷺ: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»**(1)، لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أُحُد. ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال: علمت أني مأجور بسببه

---

(1) حديث: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»** قاله لما ضربه قومه. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وقد تقدم، والحديث في الصحيح: «أنه ﷺ قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه».

وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي. ومما يهوّن عليك كراهة المذمة: قطع الطمع، فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه، وأصل الدين القناعة، وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً.

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

اعلم: أنّ للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح:

الحالة الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم ويحقد على الذام، ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية: أن يمتعض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته، ويفرح باطنه، ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

الحالة الثالثة: وهي أوّل درجات الكمال: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فلا تغمه المذمة ولا تسره استثقالاً. وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته. وعلاماته: أن لا يجد في نفسه استثقالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موت المادح المطري له أشدّ نكاية في قلبه من موت الذام، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام. فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة، وما أبعد ذلك وما أشدّه على القلوب. وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون؛ حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام، والشيطان يحسن له ذلك ويقول: الذام قد عصى الله بمذمتك، والمادح قد أطاع الله بمدحك، فكيف تسوّي بينهما؟ وإنما استثقالك للذام من الدين المحض. وهنا محض التلبيس، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في مذمته، ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم، ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره. ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه، والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره. فإذاً: العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه؛ فيزيده ذلك بعداً من الله، ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوّت عليه الدنيا ويخسره في الآخرة، وفيهم قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

الحالة الرابعة: وهي الصدق في العبادة؛ أن يكره المدح ويمقت المادح، إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر، مضرة له في الدين، ويحب الذام إذ يعلم أن مهد إليه عيبه، ومرشد له إلى مهمه،

ومهد إليه حسناته، فقد قال ﷺ: «رَأْسُ التَّوَاضُعِ أَنْ تَكْرَهَ أَنْ تُذْكَرَ بِالبِرِّ وَالتَّقْوَى»(١)، وقد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح؛ إذ روي أنه ﷺ قال: «وَيْلٌ لِلصَّائِمِ وَوَيْلٌ لِلْقَائِمِ وَوَيْلٌ لِصَاحِبِ الصُّوفِ إلا مَنْ...» فقيل: يا رسول الله إلا من؟ فقال: «إلا مَنْ تَنَزَّهَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْغَضَ المِدْحَةَ وَاسْتَحَبَّ المَذَمَّةَ»(٢)، وهذا شديد جداً، وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية، وهو أن يضمر الفرح والكراهية على الذام والمادح، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل، فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها. ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإنها لا تفي بها، لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه، ولا نقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب، ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد، فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى، فكيف بما بعده من المرتبتين؟ وكل واحدة من هذه الرتب أيضاً فيها درجات.

أما الدرجات في المدح: فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائي بالعبادات، ولا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح، وهذا من الهالكين.

ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا على شرف جرف هار، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جداً.

ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه، فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها، وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية، وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة؛ فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه.

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص.

ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له؛ فإن ذلك عين النفاق، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه؛ وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام، وأوّل درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن في قلبه حنق وحقد على نفسه؛ لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدوّ، والإنسان يفرح ممن يذم عدوّه، وهذا شخص عدوّه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها، ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها، فيكون ذلك كالتشفي

---

(١) حديث: «رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف...» الحديث. لم أجده هكذا، وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس: «ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله» ولم يخرجه ولده في مسنده.

له من نفسه، ويكون غنيمته عنده إذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس، وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خيراً لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها، ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوي عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره، وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها، ولا يقطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل.

* * *

الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء: وفيه بيان ذم الرياء، وبيان حقيقة الرياء وما يرائي، وبيان درجات الرياء، وبيان الرياء الخفي، وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط، وبيان دواء الرياء وعلاجه، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب، وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق، وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها. وهي عشرة فصول وبالله التوفيق.

بيان ذم الرياء:

اعلم: أن الرياء حرام، والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٤-٦] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠] قال مجاهد: هم أهل الرياء. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩] فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضده. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠](1) نزل بعد ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله. **وأما الأخبار:** فقد قال ﷺ حين سأله رجل فقال: يا رسول الله، فيم النجاة؟ فقال: **«أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس»**، وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة ـ المقتول في سبيل الله، والمتصدق بماله، والقارىء لكتاب الله، كما أوردناه في كتاب الإخلاص ـ: وإن الله عزّ وجلّ يقول لكل واحد منهم: كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع، كذبت بل

---

(1) حديث: «نزول قوله تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] الآية، فيمن يطلب الآخرة والحمد بعباداته وأعماله». أخرجه الحاكم من حديث طاوس: «قال رجل: إني أقف الموقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية». هكذا في نسختين من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة، وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف: **«من صام رياء فقد أشرك...»** الحديث. وفيه: «أنه ﷺ تلا هذه الآية».

أردت أن يقال فلان قارىء. فأخبر ﷺ أنهم لم يثابوا، وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم(١)، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: **«مَنْ رَاءَى رَاءَى الله بِهِ وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ»**(٢)، وفي حديث آخر طويل: **«إنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ لِمَلائِكَتِهِ إنَّ هٰذا لَمْ يُرِدْنِي بِعَمَلِهِ فَاجْعَلُوهُ فِي سِجِّينٍ»**(٣)، وقال ﷺ: **«إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»** قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **«الرِّياءُ، يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»**(٤). وقال ﷺ: **«اسْتَعِيذُوا بِالله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُبِّ الحزن»** قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: **«وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ المُرَائِينَ»**(٥)، وقال ﷺ: **«يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ وَأَنا مِنْهُ بَرِيءٌ وَأَنا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»**(٦). وقال عيسى المسيح ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق. وقال نبينا ﷺ: **«لا يَقْبَلُ الله عَزَّ وَجَلَّ عَمَلاً فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ»**(٧)، وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي ﷺ يقول: **«إنَّ أَدْنَى الرِّيَاء شِرْكٌ»**(٨)، وقال ﷺ: **«أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ»**(٩)، وهي أيضاً ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه، وقال ﷺ: **«إنَّ فِي ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ رَجُلاً تَصَدَّقَ بِيَمِينِهِ فَكَادَ يُخْفِيها عَنْ شِمَالِهِ»**(١٠)، ولذلك

---

(١) حديث أبي هريرة في الثلاثة: «المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء لكتابه فإن الله تعالى يقول لكل واحد منهم: كذبت». رواه مسلم، وسيأتي في كتاب الإخلاص.

(٢) حديث ابن عمر: **«من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به»** متفق عليه من حديث جندب بن عبدالله، وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ: **«من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره»** وفي الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع: إنه من حديث عبدالله بن عمرو.

(٣) حديث: **«إن الله يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين»** أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلاً، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٤) حديث: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر...»** الحديث. أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج.

(٥) حديث: **«استعيذوا بالله من جب الحزن»** قيل: وما هو؟ قال: **«واد في جهنم أعد للقراء المرائين»** أخرجه الترمذي وقال غريب، وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدي.

(٦) حديث: **«يقول الله من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله...»** الحديث. أخرجه مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله: **«وأنا منه بريء»** ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضاً، وهي عند ابن ماجه بسند صحيح.

(٧) حديث: **«لا يقبل الله عملاً فيه مقدار ذرة من رياء»** لم أجده هكذا.

(٨) حديث معاذ: **«إن أدنى الرياء شرك»** أخرجه الطبراني هكذا والحاكم بلفظ: **«إن اليسير من الرياء شرك»**، وقد تقدم.

(٩) حديث: **«أخوف ما أخاف عليكم الرياء...»** الحديث. تقدم في أول هذا الكتاب.

(١٠) حديث: **«إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله»** متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث: **«سبعة يظلهم الله في ظله»**.

ورد: «أنَّ فُضْلَ عَمَلُ السِّرِّ عَلَى عَمَلِ الجَهْرِ بِسَبْعِينَ ضِعْفاً»(١)، وقال ﷺ: «إنَّ المُرَائِي يُنَادَى عَلَيْهِ يَوْمَ القِيامَةِ يا فاجِرُ يا غَادِرُ يا مُرَائِي ضَلَّ عَمَلُكَ وَحَبِطَ أَجْرُكَ اذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ»(٢)، وقال شدّاد بن أوس: رأيت النبي ﷺ يبكي فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «إنِّي تَخَوَّفْتُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ أَما إِنَّهُمْ لا يَعْبُدُونَ صَنَماً وَلا شَمْساً وَلا قَمَراً وَلا حَجَراً وَلٰكِنَّهُمْ يُرَاؤُونَ بِأَعْمَالِهِمْ»(٣) وقال ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ الله الأَرْضَ مَادَتْ بِأَهْلِها فَخَلَقَ الجِبَالَ فَصَيَّرَها أَوْتاداً لِلأَرْضِ، فقالتْ المَلائِكَةُ: «ما خَلَقَ رَبُّنا خَلْقاً هُوَ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالِ» فَخَلَقَ الله الحَدِيدَ فَقَطَعَ الجِبَالَ، ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ فَأَذَابَتِ الحَدِيدَ، ثُمَّ أَمَرَ الله المَاءَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ، وَأَمَرَ الرِّيحَ فَكَدَّرَتِ المَاءَ، فاخْتَلَفَتِ المَلائِكَةُ فَقَالَتْ: نَسْأَلُ الله تَعَالَى، قَالُوا: يا رَبِّ ما أَشَدُّ ما خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ؟ قَالَ الله تَعَالَى: لَمْ أَخْلُقْ خَلْقاً هُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ بِيَمِينِهِ فَيُخْفِيها عَنْ شِمَالِهِ فَهٰذا أَشَدُّ خَلْقاً خَلَقْهُ»(٤).

وروى عبدالله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل: حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال: سمعت النبي ﷺ قال لي: «يا معاذ» قلت: لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال: «إنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثاً إنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ أَنتَ ضَيَّعْتَهُ وَلَمْ تَحْفَظْهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ الله يَوْمَ القِيامَةِ، يا مَعَاذُ إنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰواتِ فَجَعَلَ لِكُلِّ سَماءٍ مِنَ السَّبْعَةِ مَلَكاً بَوَّاباً عَلَيْها قَدْ جَلَّلَها عِظَماً فَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ مِنْ حِينَ أَصْبَحَ إلى حِينَ أَمْسَى، لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ، حَتَّى إذا صَعِدَتْ بِهِ إلى السَّماءِ الدُّنْيا زَكَّتْهُ فَكَثَّرَتْهُ فَيَقُولُ المَلَكُ لِلْحَفَظَةِ: اضْرِبُوا بِهٰذا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، أنا صَاحِبُ الغِيبَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أن لا أَدَعَ عَمَلَ مَنِ اغْتَابَ النَّاسَ يُجَاوِزُنِي إلَى غَيْرِي» قال: «ثُمَّ تَأْتِي الحَفَظَةُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ أَعْمالِ العَبْدِ فَتَمُرُّ بِهِ فَتُزَكِّيهِ وَتُكَثِّرُهُ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إلى السَّماءِ الثَّانِيَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِها: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هٰذا عَرَضَ الدُّنْيا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إلَى غَيْرِي إنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ» قال: «وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلٍ يَبْتَهِجُ نُوراً مِنْ صَدَقَةٍ وَصِيامٍ وَصَلاةٍ قَدْ أَعْجَبَ الحَفَظَةَ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إلى السَّماءِ الثَّالِثَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، أنا مَلَكُ الكِبْرِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إلى غَيْرِي إنَّهُ كانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ» قال: «وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ يُزْهِرُ كما يُزْهِرُ الكَوْكَبُ

---

(١) حديث: «تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين»، ضعفه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء «إن الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً» قال البيهقي: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف: «يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة».

(٢) حديث: «إن المرائي ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك. . .» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم وزاد: «يا كافر يا خاسر» ولم يقل: «يا مرائي» وإسناده ضعيف.

(٣) حديث شداد بن أوس: «إني تخوفت على أمتي الشرك. . .» الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه، وقد تقدم قريباً.

(٤) حديث: «لما خلق الله الأرض مادت بأهلها. . .» الحديث. وفيه: «لم أخلق خلقاً هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله» أخرجه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال: غريب.

الدُّرِّيِّ لَهُ دَوِيٌّ مِنْ تَسْبِيحٍ وَصَلاةٍ وَحَجٍ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يُجاوِزُوا بِهِ السَّماءَ الرَّابِعَةَ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِها: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، أنا صَاحِبُ العُجْبِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كانَ إِذا عَمِلَ عَمَلاً أَدْخَلَ العُجْبَ في عَمَلِهِ» قال: «وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ حَتَّى يُجاوِزُوا بِهِ السَّماءَ الخَامِسَةَ كَأَنَّهُ العَرُوسُ المَزْفُوفَةُ إِلَى أَهْلِها فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِها: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ وَاحْمِلُوهُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنا مَلَكُ الحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَّاسَ مَنْ يَتَعَلَّمُ وَيَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ وَكُلَّ مَنْ كانَ يَأْخُذُ فَضْلاً مِنَ العِبادَةِ يَحْسُدُهُمْ وَيَقَعُ فِيهِمْ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي». قال: «وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ مِنْ صَلاةٍ وَزَكاةٍ وَحَجٍ وَعُمْرَةٍ وَصِيامٍ فَيُجاوِزُونَ بِهَا إِلَى السَّماءِ السَّادِسَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِها: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ لا يَرْحَمُ إِنساناً قَطُّ مِنْ عِبَادِ الله أَصَابَهُ بَلاءٌ أَوْ ضُرٌّ أَضَرَّ بِهِ بَلْ يَشْمَتُ بِهِ، أنا مَلَكُ الرَّحْمَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي». قال: «وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ إِلَى السَّماءِ السَّابِعَةِ مِنْ صَوْمٍ وَصَلاةٍ وَنَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهادٍ وَوَرَعٍ لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ الرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ مَعَهُ ثَلاثَةُ آلافِ مَلَكٍ فَيُجاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّماءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِها: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذا العَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، اضْرِبُوا بِهِ جَوارِحَهُ، أَقْفِلُوا بِهِ عَلَى قَلْبِهِ إِنِّي أَحْجُبُ عَنْ رَبِّي كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يُرَدْ بِهِ وَجْهُ رَبِّي إِنَّهُ أَرادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ الله تَعالَى، إِنَّهُ أَرادَ رِفْعَةً عِنْدَ الفُقَهاءِ وَذِكْراً عِنْدَ العُلَماءِ وَصِيتاً فِي المَدائِنِ، أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي، وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لله خَالِصاً فَهُوَ رِياءٌ وَلاَ يَقْبَلُ الله عَمَلَ المُرائِي». قال: «وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِعَمَلِ العَبْدِ مِنْ صَلاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيامٍ وَحَجٍ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرٍ لله تَعالَى وَتُشَيِّعُهُ مَلائِكَةُ السَّمٰوَاتِ حَتَّى يَقْطَعُوا بِهِ الحُجُبَ كُلَّها إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ المُخْلِصِ لله». قال: «فَيَقُولُ الله لَهُمْ: أَنْتُم الحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنا الرَّقِيبُ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهٰذا العَمَلِ وَأَرادَ بِهِ غَيْرِي فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي، فَتَقُولُ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ: عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنا، وتَقُولُ السَّمَاوَاتُ كُلُّهَا: عَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَلَعْنَتُنا وَتَلْعَنُهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ» قال معاذ: قلت يا رسول الله، أنت رسول الله وأنا معاذ قال: «اقْتَدِ بِي وَإِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ نَقْصٌ، يا مُعاذُ حافِظْ عَلَى لِسانِكَ مِنَ الوَقِيعَةِ فِي إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ القُرْآنِ وَاحْمِلْ ذُنُوبَكَ عَلَيْكَ وَلا تَحْمِلْها عَلَيْهِمْ، وَلا تُزَكِّ نَفْسَكَ بِذَمِّهِمْ، وَلا تَرْفَعْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ، وَلا تُدْخِلْ عَمَلَ الدُّنْيا فِي عَمَلِ الآخِرَةِ، وَلا تَتَكَبَّرْ فِي مَجْلِسِكَ لِكَيْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ، وَلا تُناجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ، وَلا تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرُ الدُّنْيا، وَلا تُمَزِّقِ النَّاسَ فَتُمَزِّقَكَ كِلابُ النَّارِ يَوْمَ القِيامَةِ فِي النَّارِ. قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَالنَّشِطَتِ نَشْطًا ۝٢﴾ [النّازعات: ٢] أَتَدْرِي مَنْ هُنَّ يا مُعاذُ؟» قلت: ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «كِلابٌ فِي النَّارِ تَنْشَطُ اللَّحْمَ وَالعَظْمَ». قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: «يا مُعاذُ إِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ»[1]. قال: فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث.

---

(١) حديث معاذ الطويل: «إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السمٰوات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بوّاباً عليها. . .» الحديث. بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاه المصنف إلى رواية عبدالله بن المبارك بإسناده عن رجل عن معاذ، وهو كما قال، رواه في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

وأما الآثار: فيروى أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته قال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب، ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك. وقال علي كرّم الله وجهه: للمرائي ثلاث علامات؛ يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم. وقال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله، أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك... الحديث. وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر، فقال له: أتحب أن تمقت؟ قال: لا، قال: فإذا عملت لله عملاً فأخلصه. وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك، ولا يقولن هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له. وضرب عمر رجلاً بالدرة ثم قال له: اقتص مني فقال: لا بل أدعها لله ولك. فقال له عمر: ما صنعت شيئاً إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده، فقال: ودعتها لله وحده، فقال: فنعم إذن. وقال الحسن: لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة. ويقال: إن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي يا غادر يا خاسر يا فاجر، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا. وقال الفضيل بن عياض: كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون. وقال عكرمة: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله؛ لأنّ النية لا رياء فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى، وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء؟ فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه. وقال قتادة: إذا راءى العبد يقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي يستهزىء بي. وقال مالك بن دينار: القرّاء ثلاثة: قرّاء الرحمن، وقرّاء الدنيا، وقرّاء الملوك، وأن محمد بن واسع من قرّاء الرحمن. وقال الفضيل: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إليَّ. وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار؛ لأن السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. وقال أبو سليمان: التوقي عن العمل أشدّ من العمل. وقال ابن المبارك: إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: يحب أن لا يذكر أنه مجاور بمكة. وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أراد أن يشتهر.

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به:

اعلم: أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير، إلا أنّ الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات. واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها، فحدّ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد، والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك، والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام؛ وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو: البدن، والزي، والقول، والعمل، والأتباع والأشياء الخارجة. وكذلك أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة إلا أنّ

طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأوّل: الرياء في الدين بالبدن: وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد؛ وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين، وعدم التفرّغ لتسريح الشعر. وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة. ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وأنّ وقار الشرع هو الذي خفض من صوته، أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته. وعن هذا قال المسيح عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه. وكذلك روي عن أبي هريرة، وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء؛ ولذلك قال ابن مسعود: أصبحوا صياماً مدهنين. فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن.

فأما أهل الدنيا: فيراؤون بإظهار السمن وصفاء اللون، واعتدال القامة وحسن الوجه، ونظافة البدن وقوّة الأعضاء وتناسبها.

الثاني: الرياء بالهيئة والزي: أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس، وحلق الشارب، وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق، وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً، كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه، ومقتد فيه بعباد الله الصالحين، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة، ولبس الثياب الزرق تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوّف في الباطن. ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة، وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة. ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم؛ ليوهم أنه من أهل العلم.

والمراؤون بالزي على طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة؛ ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا، ولو كلف أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا. وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء، ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيأته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح؛ خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الديبقي والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم ـ وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم؛ لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح: قد رغبوا في زي أهل الدنيا ـ وكل طبقة منهم رأى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه، أو إلى ما فوقه وإن كان مباحاً خيفة من المذمة.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع، والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت ووفرة الخيول، وبالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة، ويشتدّ عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة.

الثالث: الرياء بالقول: ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار، لأجل الاستعمال في المحاورة، وإظهاراً لغزارة العلم، ودلالة على شدّة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي، وتضعيف الصوت في الكلام، وترقيق الصوت بقراءة القرآن؛ ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ، والدق على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث، والمبادرة إلى أنّ الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوّته في علم الدين. والرياء بالقول كثير، وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال، والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل، وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

الرابع: الرياء بالعمل: كمراءاة المصلي بطول القيام ومدّ الظهر، وطول السجود والركوع وإطراق الرأس. وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام، وبالإخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى إنّ المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدّد الخشوع له، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس يفتقر إلى التغيير، ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً، فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة؛ ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله وحياء منه.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا، والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين: كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العباد ليقال: إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمال السلطان ليقال: إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين. وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة، واستفاد منهم فيباهي بشيوخه، ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً، ودرت البلاد وخدمت الشيوخ. وما يجري مجراه فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد. ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة؟ وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدّة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في

قلوب الخلق، ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته؛ لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتدّ لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم، ولكنه يحب مجرّد الجاه ـ فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه ـ فإنه نوع قدرة وكمال في الحال، وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال، ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد. ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه. ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده؛ فيقوم له بذلك جاه عند العامة، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراؤون بالأسباب التي ذكرناها، فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ فأقول: فيه تفصيل: فإن الرياء هو طلب الجاه، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال، فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما لا يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود، فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: ٥٥] وكما أن المال فيه سم نافع وترياق نافع فكذلك الجاه، وكما أن كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة، فكذلك كثير الجاه بل أشدّ، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنّا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضاً تملك القلوب الكثيرة حرام، إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز. نعم، انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها، وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم، فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة وهو ليس بحرام، لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم. والدليل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة، فكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره فقالت: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ قال: **«نَعَمْ إِنَّ الله تَعَالَى يُحِبُّ مِنَ العَبْدِ أَنْ يَتَزَيَّنَ لإِخْوَانِهِ إِذا خَرَجَ إِلَيهِمْ»**[(١)]. نعم، هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة؛ لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه، فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم، فإنّ أعين عوام الخلق تمتدّ إلى الظواهر دون السرائر، فكان ذلك قصد رسول الله ﷺ، ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمهم ولومهم، واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان. ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم.

---

(١) حديث عائشة: «أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره...» الحديث. أخرجه ابن عدي في الكامل، وقد تقدم في الطهارة.

فإذن: المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها. ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخي فهذا مراءاة وليس بحرام، وكذلك أمثاله.

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان؛ إحداهما: أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأنَّ الأعمال بالنيات، وهذا ليس بقصد العبادة، ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة، بل يعصي بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات.

والمعنى في أمران:

أحدهما: يتعلق بالعباد: وهو التلبيس والمكر؛ لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به، لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر.

والثاني: يتعلق بالله: وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزىء بالله. ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته: انظروا إليه يستهزىء بي.

ومثاله: أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم، وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك أو غلام من غلمانه، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله؟ وأنه أولى بالتقريب من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته؟ وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات، ولهذا سماه رسول الله ﷺ الشرك الأصغر(١).

نعم، بعض درجات الرياء أشد من بعض ـ كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى ـ، ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة، ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرائي عظم في قلبه الناس، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله، فعن هذا كان شركاً خفياً لا شركاً جليّاً، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم، ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على

---

(١) حديث: «سمى الرياء الشرك الأصغر». أخرجه أحمد من حديث محمود بن لبيد، وقد تقدم، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقدم قريباً، وللحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس: «كنا نعد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشرك الأصغر».

صنيعه، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا؟ فكيف في يوم ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] بل تقول الأنبياء فيه: نفسي نفسي؟، فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس؟، فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً، هذا إذا لم يقصد الأجر، فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص. وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص، ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت: إنه لا أجر له فيه أصلاً.

بيان درجات الرياء:

اعلم: أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه. وأركانه ثلاثة: المراءى به والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: نفس قصد الرياء؛ وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الثواب. فإن كان كذلك لا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة، فتكون الدرجات أربعاً:

الأولى: وهي أغلظها: أن لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرّد قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى. وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب، ولو خلا بنفسه لما أداها، فهذه الدرجة العليا من الرياء.

الثانية: أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل، فهذا قريب مما قبله، وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل، لا ينفي عنه المقت والإثم.

الثالثة: أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين، بحيث لو كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل، فلما اجتمعا انبعثت الرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب، وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص.

الرابعة: أن يكون إطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه، فالذي نظنه ـ والعلم عند الله ـ أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه، أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله ﷺ: **«يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»** فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءى به وهو الطاعات؛ وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات، وإلى الرياء بأوصافها.

القسم الأول وهو الأغلظ: الرياء بالأصول، وهو على ثلاث درجات.

الأولى: الرياء بأصل الإيمان: وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١] أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وقال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣] والآيات فيهم كثيرة. وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداءً لغرض، وذلك مما يقل في زماننا، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلاً إلى قول المُلْحِدة، أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين في النار، وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشدّ حالاً من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين: وهذا أيضاً عظيم عند الله، ولكنه دون الأول بكثير. ومثاله: أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمه، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة؛ ولكن خوفاً من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك. فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل، وينشط عند إطلاع الناس، فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته في محمدتهم أشدّ من رغبته في ثواب الله، وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت، وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها في الخلوة؛ لفتور رغبته في ثوابها، ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب، ثم يبعثه الرياء على فعلها، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وغسل الميت، وكالتهجد بالليل، وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الإثنين والخميس. فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للمحمدة، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض. فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله، فإن الذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق. وهذا أيضاً قد فعل ذلك واتقى ذمّ الخلق دون ذم الخالق، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها، وكأنه على شطر من الأوّل وعقابه نصف عقابه. فهذا هو الرياء بأصول العبادات.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها: وهو أيضاً على ثلاث درجات:

الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا

يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود، وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين، وقد قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عزّ وجلّ؛ أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة، فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة، ومن جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة؛ كان ذلك منه تقديماً للغلام على السيد، واستهانة بالسيد لا محالة. وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة. وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيّد خوفاً من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق، لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة، فهذا أيضاً من الرياء المحظور؛ لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوّعات.

فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية؟ فيقال له: هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس، وليس الأمر كذلك، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكانت شفقتك على نفسك أكثر، وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها، فيهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف، ولا يبالي به إذا كان الملك وحده، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفاً من مذمة غلمانه، وذلك محال بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر.

نعم للمرائي فيه حالتان: إحداهما: أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعاً. والثانية: أن يقول: ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود، ولو خففت كانت صلاتي عندهم ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم، فأستفيد بتحسين الهيبة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر. والصحيح: أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص، فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة، فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله؛ فإن ذلك استهزاء كما سبق.

الدرجة الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود، ومدّ القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى، وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على السور المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت، وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة، وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة. وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه.

الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل؛ كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول، وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجري مجراه. وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائى به؛ وبعضه أشدّ من بعض. والكل مذموم.

الركن الثالث: المرائى لأجله: فإن للمرائي مقصوداً لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، وله أيضاً ثلاث درجات:

الأولى: ـ وهي أشدّها وأعظمها ـ أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات، وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولي القضاء أو

الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها، أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج، ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي. وقد يظهر بعضهم زي التصوّف وهيئة الخشوع، وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير، وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن، يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام. وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله؛ لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلماً إلى معصيتهم، واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم، ويقرب من هؤلاء ـ وإن كان دونهم ـ من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها، ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة، كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال: إنه يتصدق بمال نفسه، فكيف يستحل مال غيره؟ وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام، فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة، كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير؛ لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء، فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة، وكالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد؛ فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته. فهذا رياء محظور؛ لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا، ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد، ويعتقد أنه من جملة العامة كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال: إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار؛ فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن، ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير، وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والإثنين، أو يتصدقون فيوافقهم؛ خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم، وقد لا يصرح بأني صائم ولكن يقول: لي عذر، وهو جمع بين خبيثين، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال: إنه ساتر لعبادته، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً؛ بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم، أو يقول أفطرت تطييباً لقلب فلان، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أن يعتذر رياء، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً؛ مثل أن يقول: إن فلاناً محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألح علي اليوم ولم أجد بداً من تطييب قلبه. ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب مشفقة عليَّ، تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن. أما المخلص فإنه لا

يبالي كيف نظر الخلق إليه؟ فإن لم يكن له رغبة في الصوم ـ وقد علم الله ذلك منه ـ فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه، غيره، وقد يخطر له أنّ في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور ـ وسيأتي شرح ذلك وشروطه ـ.

فهذه درجات الرياء، ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، وإن من شدّته: أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر، يزل فيه فحول العلماء فضلاً عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب. والله أعلم.

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل:

اعلم: أنّ الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه، وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه، وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان، وأخفى من ذلك ما لا يؤثره في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته: أن يسرّ باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له، وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً وغذاء للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرّك على نفسه حركة خفية، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض، وإلقاء الكلام عرضاً وإن كان لا يدعو إلى التصريح، وقد يخفي فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً ولكن بالشمائل، كإظهار النحول والصفار، وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق، وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد، وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد لذلك استبعاداً في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل[1]. وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصدِّيقون.

---

(١) حديث: **«في الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل»** أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري: **«اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل»** ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق، وضعفه هو والدارقطني.

وقد روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: إن الله عزّ وجلّ يقول للقراء يوم القيامة، ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدؤون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث: «لا أَجْرَ لَكُمْ قَدِ اسْتَوْفَيْتُمْ أُجُورَكُمْ». وقال عبدالله بن المبارك: روي عن وهب بن منبه أنه قال: إن رجلاً من السوّاح قال لأصحابه: إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح: ما هذا؟ قيل: هذا الملك قد أظلك، فقال للغلام: ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلاً عنيفاً فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، قال: كيف أنت؟ قال: كالناس، وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك: ما عند هذا من خير. فانصرف عنه، فقال السائح: الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام. فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق؛ إذ علموا أنّ الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص، وعلموا شدّة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزي والد عن ولده، ويشتغل الصدّيقون بأنفسهم فيقول كل واحد: نفسي نفسي! فضلاً عن غيرهم، فكانوا كزوّار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص؛ لعلمهم أن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والبهرج، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجي إلا الخالص من النقد، فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزوّدونه له من التقوى. فإذن: شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومهما أدرك من نفسه تفرقه بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء، فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا، فلو كان مخلصاً قانعاً بعلم الله لاستحقر العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم، وعلم أنّ العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب، كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر مفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قلت: فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟ فنقول: أولاً، كل سرور فليس بمذموم، بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم.

فأما المحمود فأربعة أقسام:

الأوّل: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية، ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به.

الثاني: أن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة؛ إذ

قال رسول الله ﷺ: «ما ستر الله على عبد ذنباً إلا ستره عليه في الآخرة»[1] فيكون الأوّل فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل، وهذا التفات إلى المستقبل.

الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً، وأجر السر بما قصده أولاً، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة.

الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم، وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة؛ إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله. وعلامة الإخلاص في هذا النوع: أن يكون فرحه بحمده غيره، مثل فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم وهو الخامس: فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس؛ حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه. والله تعالى أعلم.

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط:

فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل؛ إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالماً عن الرياء، فما يطرأ بعده فيرجو أن ينعطف عليه أثره، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، ولم يتمن إظهاره وذكره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه. نعم، لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف.

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط. فقد روي عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة البقرة، فقال: ذلك حظه منها. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل قال له: صمتُ الدهر يا رسول الله. فقال له: «ما صُمْتَ ولا أفْطَرْتَ»[2]، فقال بعضهم: إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل: هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر. وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ ومن ابن مسعود استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به؛ إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً لثواب العمل، بل الأقيس أن يقال: إنه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل. وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً

---

(١) حديث: «ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: قال لرجل: قال صمت الدهر: «ما صمت ولا أفطرت» أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة: قال عمر: يا رسول الله، كيف بمن يصوم الدهر؟ قال: «لا صام ولا أفطر» وللطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث، فيه: فقال رجل: إني صائم، قال بعض القوم: إنه لا يفطر إنه يصوم كل يوم. قال النبي ﷺ: «لا صام ولا أفطر من صام الأبد» ولم أجده بلفظ الخطاب.

وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل، وإما أن يكون رياءً باعثاً على العمل، فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به حبط أجره. ومثاله: أن يكون في تطوّع فتجددت له نظارة، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفاً من مذمة الناس، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة، وقد قال ﷺ: **«العَمَلُ كَالوِعَاءِ إذا طَابَ آخِرُهُ طَابَ أوَّلُهُ»**[١] أي النظر إلى خاتمته. وروي أنه: **«مَنْ رَاءَى بِعَمَلٍ سَاعَةً حَبِطَ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ»**[٢]، وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة، فإن كل جزء من ذلك مفرد، فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي، والصوم والحج من قبيل الصلاة. وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً، فهذا رياء قد أثر في العمل وانتهض باعثاً على الحركات، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغموراً، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنّا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها، ويحتمل أن يقال: لا يفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب، وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه.

ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا وقال: إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ـ يعني سروراً هو كحب المنزلة والجاه ـ قال: قد اختلف الناس في هذا؛ فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأوّل، وركن إلى حمد المخلوقين، ولم يختم عمله بالإخلاص، وإنما يتم العمل بخاتمته، ثم قال: ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل، ولا آمن عليه، وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس، والأغلب على قلبي: أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال: فإن قيل: قد قال الحسن رحمه الله تعالى: إنهما حالتان، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية، وقد روي: أن رجلاً قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني قال: **«لك أجران أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ العَلاَنِيَةِ»**[٣]، ثم تكلم على الخبر والأثر فقال: أما الحسن فإنه أراد بقوله: لا يضره، أي لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره. وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل، يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه.

أحدها: أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ، وليس في الحديث أنه قبل الفراغ.

---

(١) حديث: **«العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله»** أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ: **«إذا طاب أسفله طاب أعلاه»**، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله»** لم أجده بهذا اللفظ، وللشيخين من حديث جندب: **«من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به»**. ورواه مسلم من حديث ابن عباس.

(٣) حديث: «إن رجلاً قال أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني فقال: **«لك أجران...»** الحديث. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود، ورواه الترمذي وابن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال: **«له أجر السر والعلانية»**. قال الترمذي: غريب، وقال: إنه روي عن أبي صالح وهو ذكر أنه مرسل.

الثاني: أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل، لا سروراً بسبب حب المحمدة والمنزلة، بدليل أنه جعل له به أجراً، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجراً، وغايته أنه يعفى عنه، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائي أجران؟.

والثالث: أنه قال: أكثر من يروي الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح، ومنهم من يرفعه، فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء أولى. هذا ما ذكره ولم يقطع به، بل أظهر ميلاً إلى الإحباط.

والأقيس عندنا: أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادراً عن باعث الدين، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل؛ لأنه لم ينعدم به أصل نيته، وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام.

وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال، ولا ينبغي أن يفسد الصلاة، ولا يبعد أن يقال: إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ـ والخالص ما لا يشوبه شيء ـ فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه. وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاماً أوفى مما أوردناه الآن فليرجع إليه، فهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ.

القسم الثالث: الذي يقارن حال العقد بأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء، فإن استمر عليه سلم، فلا خلاف في أنه يقضي ولا يعتد بصلاته، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام، ففيما يلزمه ثلاثة أوجه:

قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف.

وقالت فرقة: تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة؛ لأن التحريم عقد، والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقداً.

وقالت فرقة: لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة، كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله.

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل، فقالوا: إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله، ولو سجد لغير الله لكان كافراً، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته. ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جداً، خصوصاً من قال: يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالاً زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة. وكذلك قول من يقول: لو ختم بالإخلاص صح نظراً إلى الآخر فهو أيضاً ضعيف، لأن الرياء يقدح في النية، وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الافتتاح، فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال: إن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصلّ، ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجساً أيضاً كان يصلي لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين، وههنا لا باعث ولا إجابة. فأما إذا

كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يصلي إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فله ثواب بقدر قصده الصحيح، وعقاب بقدر قصده الفاسد، ولا يحبط أحدهما الآخر. وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضاً أو نفلاً، فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه؛ إذ اجتمع في قلبه الباعثان، ولا يمكن أن يقال: صلاته فاسدة والاقتداء به باطل، حتى إن من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به، فإن المصير إلى هذا بعيد جداً، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص، فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان، وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما؛ فهذا لا يسقط الواجب عنه، لأن الإيجاب لم ينتهض باعثاً في حقه بمجرده واستقلاله، وإن كان كل باعث مستقلاً حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعاً لأجل الرياء فهذا محل النظر، وهو محتمل جداً، فيحتمل أن يقال: إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص، ويحتمل أن يقال: الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه، كما لو صلى في دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه، وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة، أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة، مثل من بادر إلى الصلاة في أوّل الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء، فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت، فهذا أبعد من القدح في النية، هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة. فهذا ما نراه لائقاً بقانون الفقه، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات، بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه، والعلم عند الله عزّ وجلّ فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه:

قد عرفت مما سبق: أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرّة البشعة، وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم؛ إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتدّ العين إلى الخلق، كثير الطمع فيهم؛ فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه، وإنما يشعر بكونه مهلكاً بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء

في قلبه وترسخ فيه، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات. فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً وفي علاجه مقامان:

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: في قلع عروقه واستئصال أصوله: وأصله حب المنزلة والجاه. وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول: وهي لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى: أن أعرابياً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل[1] حمية ـ ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب ـ قال: والرجل يقاتل ليرى مكانه ـ وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب ـ والرجل يقاتل للذكر ـ وهذا هو الحمد باللسان ـ فقال ﷺ: **«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله»**. وقال ابن مسعود: إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم؛ فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك، والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا. وقال عمر رضي الله عنه: يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال ﷺ: **«مَنْ غَزَا لا يَبْتَغِي إلاَّ عِقَالاً فَلَهُ ما نَوَى»**[2]، فهذا إشارة إلى الطمع. وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم، كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره، وكالجبان بين الشجعان لا يفرّ من الزحف خوفاً من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال. ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد. وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل، ويفتي بغير علم ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل، كل ذلك حذراً من الذم. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة.

ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء، وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة. ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله، وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر؛ حيث ينادى على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي، أما استحييت إذا اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله، وتزينت لهم بالشين عند الله، وتقرّبت إليهم بالبعد من الله، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله، أما كان أحد أهون عليك من الله، فمهما تفكر

---

(١) حديث أبي موسى: «أن أعرابياً قال: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية...» الحديث. متفق عليه.

(٢) حديث: «من غزا لا يبغي إلا عقالاً فله ما نوى». أخرجه النسائي، وقد تقدم.

العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد، والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط من ثواب الأعمال، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوي إلى النار. فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره، وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصدّيقين، وقد حط عنهم بسبب الرياء، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإنّ رضا الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق، ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه، وأسخطهم أيضاً عليه، ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم؟ ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة، وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أنّ الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطىء، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه، ولا يزيده ذمهم شيئاً ما لم يكتبه عليه الله، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له، وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم، كما قال شاعر من بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين فقال له رسول الله ﷺ: «كَذَبْتَ؛ ذَاكَ الله الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»[1]، إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه، فأي خير لك في مدح الناس، وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار؟ وأي شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقرَّبين؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه، وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق، واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق من قلبه، وانحل عنه داعية الرياء، وتذلل له منهج الإخلاص. فهذا وما قدّمناه في الشطر الأوّل هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله، أو إطلاعه على عباداته، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم

---

(١) حديث: «قال شاعر من بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين: فقال: «كذبت ذاك الله» أخرجه أحمد من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل: «ذلك» دون قوله: «كذبت» ورجاله ثقات، إلا أني لا أعرف لأبي سلمة بن عبدالرحمن سماعاً من الأقرع، ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ: فقال رجل: «إن حمدي».

غير الله به. وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدّة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله، وما يمدّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١] فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبَة: ١٢٠] ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: ٤٠].

المقام الثاني: في دفع العارض منه في أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم؛ فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزعاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية، فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة ـ قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد، وقد تترادف على التدريج ـ فالأول: العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم. ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم. ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه. فالأول: معرفة، والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة، والثالث: فعل يسمى العزم وتصميم العقد. وإنما كمال القوّة في دفع الخاطر الأوّل وردّه قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال: ما لك وللخلق، علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالك، فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرّضه للمقت عند الله في القيامة، وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله، فكما أنّ معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة؛ إذ يتفكر في تعرّضه لمقت الله وعقابه الأليم، والشهوة تدعوه إلى القبول، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع ـ لا محالة ـ أقواهما وأغلبهما.

فإذن: لا بدّ في ردّ الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة، والإباء. وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص، ثم يردّ خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطوياً عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد، واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته؛ إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم، وهو كالذي يحدّث نفسه بالحلم وذم الغضب، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب، ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبه، فينسى سابقة عزمه ويمتلىء قلبه غيظاً يمنع من تذكرة آفة الغضب ويشغل قلبه عنه، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب. وإليه أشار جابر بقوله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفرّ، ولم نبايعه على الموت، فأنسيناها يوم حنين[1]، حتى نودي: يا أصحاب الشجرة فرجعوا. وذلك

(١) حديث جابر: «بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفر...» الحديث. أخرجه مسلم مختصراً دون ذكر «يوم حنين» فرواه مسلم من حديث العباس.

لأنّ القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكّروا، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون؛ إذ ينسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان. ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة، فإن الكراهة ثمرة المعرفة. وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرّضه لسخط الله، ولكن يستمر عليه لشدّة شهوته، فيغلب هواه عقله، ولا يقدر على ترك لذة الحال، فيسوّف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدّة الشهوة، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك، ولكنه يستمرّ عليه فتكون الحجة عليه أوكد؟ إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموماً عند الله، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة. وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوّة الشهوة، وهذا أيضاً لا ينتفع بكراهته؛ إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذن: لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث: وهي المعرفة، والكراهة، والإباء. فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة، وبعض ذلك ينتج بعضاً ويثمره، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات؛ فهو رأس كل خطيئة، ومنبع كل ذنب، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه، وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم.

فإن قلت: فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء، ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير محبب إليه، فهل يكون في زمرة المرائين؟ فاعلم: أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها مع معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به. ويدل على ذلك من الأخبار: ما روي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها، فقال عليه السلام: **«أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ»** قالوا: نعم قال: **«ذٰلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»**(١)، ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له، ولا يمكن أن يقال: أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة، والرياء كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، وكذلك يروى عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أنه قال: **«الحَمْدُ لله الَّذِي رَدَّ كَيدَ الشَّيطَانِ إلى الوَسْوَسَةِ»**(٢)، وقال أبو حازم: ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه. فإذن:

---

(١) حديث: «شكوى الصحابة ما يعرض في قلوبهم وقوله: **«ذلك صريح الإيمان»** أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال: **«ذلك محض الإيمان»** والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان في صحيحه، ورواه النسائي فيه من حديث عائشة.

(٢) حديث ابن عباس: **«الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة»** أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ: **«كيده»**.

وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل، إلا أنّ للشيطان ههنا مكيدة؛ وهي: أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله، فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله.

والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب:

الأولى: أن يرده على الشيطان فيكذبه، ولا يقتصر عليه، بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه، وهو على التحقيق نقصان؛ لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك.

الثانية: أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك، فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته.

الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلّت؛ بل يكون قد قرّر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمرّ على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة.

الرابعة: أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع. يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: إن فلاناً يذكرك، فقال، والله لأغيظن من أمره، قيل: ومن أمره؟ قال: الشيطان. اللهم اغفر له - أي لأغيظنه بأن أطيع الله فيه -، ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته. وقال إبراهيم التيمي: إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم، فلا يطعه وليحدث عند ذلك خيراً، فإذا رآه كذلك تركه. وقال أيضاً: إذا رآك الشيطان متردداً طمع فيك، وإذا رآك مداوماً ملّك وقلاك.

وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً، فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدّم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال ليفوّت عليه بقدر تأخره. فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه. ومرَّ به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله، بل استمرّ على ما كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية. فمرّ الرابع فلم يتوقف له، وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير؛ فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله.

فإن قلت: فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟ قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه:

فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان؛ لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم ـ كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمر والزنى ـ فصارت ملاذ الدنيا عندهم ـ وإن كانت مباحة ـ كالخمر والخنزير، فارتحلوا من حبها بالكلية، فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر.

وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره، ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر، ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر.

وقالت فرقة من أهل العلم: لا بد من الحذر من الشيطان، وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غروراً؛ إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا، بل في صفات الله تعالى وأسمائه، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحد من الخطر فيه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]. وقال النبي ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي**»[(١)]، مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير[(٢)]، فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور، ولم يؤمنهم من كيد الشيطان، ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما: ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٧، ١١٩] ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد، فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع المحن والفتن، ومعدن الملاذ والشهوات المنهيّ عنها؟ وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى: ﴿هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [القصص: ١٥] ولذلك حذر الله منه جميع الخلق، فقال الله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] والقرآن من أوّله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله، فإن من الحب له: امتثال أمره، وقد أمر بالحذر من العدوّ كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النّساء: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدوّ الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدوّ يراك ولا تراه أولى. ولذلك قال ابن محيريز: صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك. فأشار إلى الشيطان، فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو

---

(١) حديث: «**إنه ليغان على قلبي**»، تقدم.

(٢) حديث: «**إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير**»، تقدم أيضاً.

شهادة، وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله. وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ، فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] لا يناقض امتثال التوكل، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله تعالى، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله، ويرى الأسباب وسائط مسخرة، كما ذكرناه في التوكل.

وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله، وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد.

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم: إذا حذرنا الله تعالى العدوّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب في قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له، فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا. وقال قوم: إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان؛ وذلك مراد الشيطان منا، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى، ولا ننسى الشيطان وعداوته، والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين، فإنا إن نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسب، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله، فالجمع أولى. وقال العلماء المحققون: غلط الفريقان؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله فلا يخفى غلطه، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدّنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا، وهو منتهى ضرر العدوّ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره، وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ـ إبليس وغيره ـ فالحق: أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة، ولا يخطر بباله أمر الشيطان، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له، وعند التنبه يشتغل بدفعه، والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان، بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح؛ فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر، مع أنه بالنوم غافل عنه، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدوّ إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى، وأحيا فيه نور العقل والعلم، وأماط عنه ظلمة الشهوات، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله، ودفعوا بالذكر شر العدو، واستضاؤوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو. فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي. فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب، ولكنه تركه جارياً إليها من جانب آخر؛ فيطول تعبه ولا تجف

البئر من الماء القذر، والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سداً وملأها بالماء الصافي، فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم: أن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء. قال الحسن: قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة، ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٧١].

والإظهار قسمان:

أحدهما: في نفس العمل.

والآخر: التحدث بما عمل.

القسم الأول: إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها، كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه، فقال النبي ﷺ: **«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِها كَانَ لَهُ أَجْرُها وَأَجْرُ مَنْ اتَّبَعَهُ»**(١)، وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها، ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب. نعم، الغازي إذا همَّ بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضل له؛ لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به. فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه، وإظهار الرغبة فيه للتحريض، بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام. فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم: السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة، وقال قوم: السر أفضل من علانية لا قدوة فيها، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر. ويدل على ذلك: أن الله عزّ وجلّ أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين. ويدل عليه قوله عليه السلام: **«فَلَهُ أَجْرُها وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»**. وقد روي في الحديث: **«إِنَّ عَمَلَ السِّرِّ يُضَاعَفُ عَلَى عَمَلِ العَلانِيَةِ سَبْعِينَ ضِعْفاً وَيُضَاعَفُ عَمَلُ العَلانِيَةِ إِذا اسْتُنَّ بِعَامِلِهِ عَلَى عَمَلِ السِّرِّ سَبْعِينَ ضِعْفاً»**(٢)، وهذا لا وجه للخلاف فيه؛

---

(١) حديث: «من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه»، وفي أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبدالله البجلي.

(٢) حديث: «إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن به على عمل السر سبعين ضعفاً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصراً على الشطر الأول بنحوه وقال: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين، وله من حديث ابن عمر: «عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء» وقال: تفرد به بقية عن عبدالملك بن مهران، وله من حديث عائشة: «يفضل ـ أو يضاعف ـ الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفاً» وقال: تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدى به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به، فلا خلاف في أن السر أفضل منه. ولكن على من يظهر العمل وظيفتان:

إحداهما: أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظناً، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلته، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة. فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به، فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به.

والثانية: أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك، والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم مدّة مديدة، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء؛ فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء، والتفطن لذلك غامض، ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير، فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم؟ فليحذر العبد خدع النفس، فإن النفس خدوع، والشيطان مترصد، وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً والسلامة في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

القسم الثاني: أن يتحدّث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشدّ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة، إلا أنه لو تطرّق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أنّ من قوي قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات، لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء. قال سعد بن معاذ: ما صليت صلاةً منذ أسلمت فحدّثت نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازة فحدّثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها، وما سمعت النبي ﷺ يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق. وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر، لأني لا أدري أيهما خير لي؟. وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها. وقال عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت

رسول الله ﷺ[1]. وقال شدّاد بن أوس: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها، غير هذه وكان قد قال لغلامه: ائتنا بالسفرة لنبعث بها حتى ندرك الغداء. وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا عليّ فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: ما قضى الله فيَّ بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله.

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يرائي بها، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به. فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها، فلا ينبغي أن يسدّ باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء، بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي. فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله؟ وقد روي: أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنف!، فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم[2]، كما ورد في الأخبار، وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم، والله تعالى أعلم.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له:

اعلم: أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية، كما قال عمر رضي الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية، قال: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه. وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد. ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره إطلاع الناس عليها، لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك. فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك، بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك، فهذا هو ستر المرائي.

وأما الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه:

الأوّل: أن يفرح بستر الله عليه، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره، وخاف أن يهتك ستره في القيامة؛ إذ ورد في الخبر: «**أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة**»[3]، وهذا غم ينشأ من قوّة الإيمان.

---

(١) حديث عثمان قوله: «ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ..» الحديث. أخرجه أبو يعلى الموصلي في معجمه بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث، وإن عثمان قال: يا رسول الله، فذكره بلفظ: «منذ بايعتك»، قال: «**هو ذاك يا عثمان**».

(٢) حديث: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم**» هما حديثان؛ فالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم، والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح، وتقدم أيضاً.

(٣) حديث: «**إن من ستر عليه في الدنيا يستر عليه في الآخرة**»، تقدم.

الثاني: أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال ﷺ: «**من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله**»[1] فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله. وهذا ينشأ من قوّة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ويغتم بسببه.

الثالث: أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر. وهذا أيضاً من قوّة الإيمان؛ إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان.

الرابع: أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص، وإنما يعصي إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذراً من ذمهم، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به، نعم، كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه؛ لعلمه أن الضارّ والنافع هو الله، وأن العباد كلهم عاجزون، وذلك قليل جداً، وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان، ورب تألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء الله، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين، فكيف لا يغتم به؟ نعم. الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع، كأنه يحب أن يحمد بالورع، ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله، فيكون قد طلب الله ثواباً من غيره، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد.

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم، فله الستر حذراً من ذلك، ويتصوّر أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم. وإنما مراده أن يتركه الناس حمداً وذماً، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم؟ إذ الحمد بطلب اللذة، وعدم اللذة لا يؤلم، وأما الذم فإنه مؤلم؛ فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد؛ وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله، فإن ذلك غاية النقصان في الدين، بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر.

الخامس: أن يكره الذم من حيث إن الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضاً، فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع.

السادس: أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب، فله أن يستر ذلك حذراً منه.

السابع: مجرد الحياء؛ فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر، وهو خلق كريم يحدث في أوّل الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت، وهو منه وصف محمود؛ إذ قال

---

(١) حديث: «**من ارتكب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله**» أخرجه الحاكم في المستدرك، وقد تقدم.

رسول الله ﷺ: **«الحَيَاءُ خَيرٌ كُلُّهُ»**[١]، وقال ﷺ: **«الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ»**[٢]، وقال ﷺ: **«الحَيَاءُ لا يَأتِي إلاَّ بِخَيرٍ»**[٣]، وقال ﷺ: **«إنَّ الله يُحِبُّ الحَيِيَّ الحَلِيمَ»**[٤]، فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس جمع إلى الفسق والتهتك والوقاحة فقد الحياء، فهو أشدّ حالاً ممن يستتر ويستحي، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباهاً عظيماً قل من يتفطن له، ويدعي كل مراء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس، وذلك كذب، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم، وتهيج عقبه داعية الرياء وداعية الإخلاص، ويتصوّر أن يخلص معه ويتصوّر أن يرائي معه.

وبيانه: أن الرجل يطلب من صديق له قرضاً ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحيي من رده، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي، ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب، فله عند ذلك أحوال؛ أحدها أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء، وهذا فعل من لا حياء له. فإن المستحي إما أن يتعلل أو يقرض.

فإن أعطى فيتصوّر له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يمزج الرياء بالحياء، بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول: ينبغي أن تعطي حتى يثني عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء، أو ينبغي أن تعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل، فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء، وكان المحرّك للرياء هو هيجان الحياء.

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء، ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء، فيهيج داعي الإخلاص ويقول له: إنّ الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة، ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى، فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه.

الثالث: أن لا يكون له رغبة في الثواب، ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب. والمرائي يستحي من المباحات أيضاً، حتى إنه يرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدوء، أو ضاحكاً فيرجع إلى الانقباض، ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء. وقد قيل: إنّ بعض الحياء ضعف وهو صحيح، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح، كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة، وهو في الصبيان والنساء محمود وفي العقلاء غير محمود. وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه؛ لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، وهذا الحياء حسن، وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوي يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس، والضعيف قد لا يقدر عليه، فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب.

الثامن: أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به، وهذه العلة الواحدة فقط هي

---

(١) حديث: **«الحياء خير كله»** أخرجه مسلم من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«الحياء شعبة من الإيمان»**. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٣) حديث: **«الحياء لا يأتي إلا بخير»** متفق عليه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم.

(٤) حديث: **«إن الله يحب الحيي الحليم»** أخرجه الطبراني من حديث فاطمة، وللبزار من حديث أبي هريرة: **«إن الله يحب الغني الحليم المتعفف»** وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة، ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به، وبهذه العلة ينبغي أيضاً أن يخفي العاصي أيضاً معصيته من أهله وولده؛ لأنهم يتعلمون منه.

ففي ستر الذنوب: هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائياً كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة.

فإن قلت: فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه، وقد قال رجل للنبي ﷺ: دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبوك**»[1]؟ فنقول: حبك لحب الناس لك قد يكون مباحاً وقد يكون محموداً وقد يكون مذموماً. فالمحمود؛ أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك، فإنه تعالى إذا أحب عبداً حببه في قلوب عباده. والمذموم؛ أن تحب حبهم، وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله. والمباح؛ أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة؛ فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات:

اعلم: أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به وذلك غلط وموافقة للشيطان، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره، وهو أن الطاعات تنقسم إلى: ما لا لذة في عينه؛ كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عند اطلاع الناس عليه. وإلى ما هو لذيذ؛ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق، ولما فيه من اللذة.

القسم الأول: الطاعات اللازمة للبدن ـ التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها ـ كالصوم والصلاة والحج، فخطرات الرياء فيها ثلاث:

إحداها: ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين، فهذا مما ينبغي أن يترك؛ لأنه معصية لا طاعة فيه، فإنه تدرّع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها: ألا تستحيين من مولاك ولا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عباده؟ حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل.

الثانية: أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأوّلها، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثاً دينياً، فليشرع في العمل، وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعالجات التي ذكرناها؛ من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول. .

الثالثة: أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص، ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتمم العمل، لأن الشيطان يدعوك أوّلاً إلى ترك العمل، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء، فإذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك: هذا

---

(١) حديث: قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله. . .**» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ: «**وازهد فيما في أيدي الناس**»، وقد تقدم.

العمل ليس بخالص وأنت مراء، وتعبك ضائع فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا تركته فقد حصلت غرضه. ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائياً: كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال: خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصاً صافياً نقياً. فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل، فلا معنى له. ومن هذا القبيل: أن يترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا: إنه مراء فيعصون الله به. فهذا من مكايد الشيطان لأنه أوّلاً أساء الظن بالمسلمين، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة، وترك العلم خوفاً من قولهم إنه مراء هو عين الرياء، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فما له ولقولهم قالوا: إنه مراء أو قالوا: إنه مخلص؟ وأي فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال: إنه مراء، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال: إنه غافل مقصر؟ بل ترك العمل أشدّ من ذلك. فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال، ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له: الآن يقول الناس: إنك تركت العمل ليقال: إنه مخلص لا يشتهي الشهرة، فيضطرك بذلك إلى أن تهرب، فإن هربت ودخلت سرباً تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه؟ بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والإباء قلبك، وتستمرّ مع ذلك على العمل ولا تبالي، وإن نزغ العدوّ نازغ الطبع فإنّ ذلك لا ينقطع، وترك العمل لأجل ذلك يجرّ إلى البطالة وترك الخيرات. فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل. فإن قال لك الشيطان: أنت مراء، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجرّد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد، فمن شرع في العمل لله فلا بدّ أن يبقى معه أصل قصد الثواب.

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة. روي أنّ إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يرى هذا أنّا نقرأ كل ساعة. وقال إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت، وإذا أعجبك السكوت فتكلم. وقال الحسن: إن كان أحدهم ليمرّ بالأذى ما يمنعه من دفعه إلاّ كراهة الشهرة، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة. وقد ورد في ذلك آثار كثيرة. قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه.

وبالجملة: ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل. والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء، فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدّة الخوف، فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء. وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله، واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته، فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء، وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك. وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع

خشبة من الطريق، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا بمجرّد خوف الرياء. وأما قول التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام؛ كالفصاحة في الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث العجب، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور، فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب. فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه، على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني، وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة وزجراً من طلبها.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى، ثم إنفاق المال.

أما الخلافة والإمارة: فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص، وقد قال النبي ﷺ: **«لَيَوْم مِنْ إمَام عَادِلٍ خَيرٌ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ سِتِّينَ عَاماً»**[(١)]، فأعظِم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة، وقال ﷺ: **«أوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ ثَلاثَةٌ: الإمَامُ المُقْسِطُ»**[(٢)] أحدهم. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإمامُ العَادِلُ»**[(٣)] أحدهم. وقال ﷺ: **«أقْرَبُ النَّاسِ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيامَةِ إمَامٌ عَادِلٌ»**[(٤)] رواه أبو سعيد الخدري. فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظم الخطر؛ إذ تتحرّك بها الصفات الباطنة ويغلب النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا؛ فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقاً، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه. ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول: من يأخذها بما فيها، وكيف لا، وقد قال النبي ﷺ: **«ما مِنْ وَالِي عَشَرَةٍ إلاَّ جَاءَ يَوْمَ القِيامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إلَى عُنُقِهِ أطْلَقَهُ عَدْلُهُ أوْ أوْبَقَهُ جَوْرُهُ»**[(٥)]، رواه معقل بن يسار، وولاه

---

(١) حديث: **«ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً. . .»** الحديث. أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«أول من يدخل الجنة ثلاثة: الإمام المقسط. . .»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث عياض بن حماد: **«أهل الجنة ثلاث: ذو سلطان مقسط. . .»** الحديث. ولم أر فيه ذكر الأولية.

(٣) حديث أبي هريرة: **«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل»**، تقدم.

(٤) حديث أبي سعيد الخدري: **«أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل»** أخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه، وفيه أيضاً إسحاق بن إبراهيم الديباجي ضعيف أيضاً.

(٥) حديث: **«ما من والي عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلولة إلى عنقه لا يفكها إلا عدله»** أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت، ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة، وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه، ورواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة، ورواه البزار والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان، وله من حديث أبي الدرداء: **«ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه. . .»** الحديث. وقد عزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار، والمعروف من حديث معقل بن يسار: **«ما من عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة»** متفق عليه.

عمر ولاية فقال: يا أمير المؤمنين، أشر عليَّ، قال: اجلس واكتم عليَّ. وروى الحسن: «أنّ رجلاً ولاه النبي ﷺ فقال للنبي: خر لي قال: «**اجْلِسْ**»[1]، وكذلك حديث عبدالرحمن بن سمرة إذ قال له النبي ﷺ: «**يا عَبْدَالرَّحْمٰنِ لا تَسْأَلِ الإمَارَةَ فَإنَّكَ إنْ أُوتِيتَها مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنتَ عَلَيْها وَإنْ أُوتِيتَها عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إلَيْهَا**»[2]، وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر: لا تأمر على اثنين، ثم ولّيَ هو الخلافة فقام بها فقال له رافع: ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد ﷺ فقال: بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله، يعني لعنة الله. ولعل قليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الإمارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك، بل الحق فيه أنّ الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات، وأنّ الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، وأعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم، وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق، وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم، فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق، ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة، ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات، ومن جرّب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية، وأن تستحلي الجاه وتستلذّ نفاذ الأمر فتكره العزل، فيداهن خيفة من العزل؛ فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية؟ فقال قائلون: لا يجب؛ لأن هذا خوف أمر في المستقبل، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس، والصحيح: أنّ عليه الاحتراز؛ لأنّ النفس خدّاعة مدعية للحق واعدة بالخير، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليه أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد.؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل، بعد الشروع، فالعزل مؤلم وهو كما قيل: العزل طلاق الرجال، فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمارة الشر، ولذلك قال ﷺ: «**إنَّا لا نُوَلِّي أَمْرَنا مَنْ سَأَلَنا**»[3]، فإذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف علمت أنّ نهي أبي بكر رافعاً عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض.

---

(١) حديث الحسن: أن رجلاً ولاه النبي ﷺ فقال للنبي ﷺ: خر لي قال: «**اجلس**» أخرجه الطبراني موصولاً من حديث عصمة هو ابن مالك، وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكرة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم، ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ: «**الزم بيتك**» وفيه الغراب بن أبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدي وقال أبو حاتم: صدوق.

(٢) حديث عبدالرحمن بن سمرة: «**لا تسل الإمارة...**» الحديث. متفق عليه.

عبدالرحمن بن سمرة، كان اسمه عبد حلال وسماه النبي ﷺ عبدالرحمن، أسلم يوم الفتح، وشهد غزوة تبوك، وشهد فتوح العراق. وهو الذي فتح سجستان، وغيرها في خلافة عثمان، ثم نزل البصرة ومات بها سنة خمسين، روى عن النبي ﷺ.

(٣) حديث: «**إنا لا نولي أمرنا من سألنا**» متفق عليه من حديث أبي موسى.

وأما القضاء: فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناهما، فإن كل ذي ولاية أمير ـ أي له أمر نافذ ـ والإمارة محبوبة بالطبع، والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق، والعقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحق، وقد قال النبي ﷺ: «**الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الجَنَّةِ**»[1]، وقال عليه السلام: «**مَنْ اسْتُقْضِيَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ**»[2]، فحكمه حكم الإمارة، ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم. ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم؛ إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق، ولا يكون خوف العزل عذراً مرخصاً له في الإهمال أصلاً، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه ثواباً؟ وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار.

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية، وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضاً عظيمة مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلاً، وكانوا يقولون: حدّثنا، باب من أبواب الدنيا، ومن قال: حدثنا، فقد قال: أوسعوا لي. ودفن بشر كذا وكذا قمطراً من الحديث وقال: يمنعني من الحديث أني أشتهي أن أحدّث، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت. والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلاً، ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقاً، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم، فلا يسمع حديثاً وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولاً، ثم يقول: إذا أنعم الله عليَّ بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون. فهذا أيضاً مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر، فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه، إلى أن ترتاض نفسه وتقوى في الدين همته، ويأمن على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه.

فإن قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق؟ فنقول: قد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الإمارة وتوعد عليها[3]، حتى قال: «**إِنَّكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ وَإِنَّها حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ القِيامَةِ إِلاَّ مَنْ أَخَذَها بِحَقِّها**»[4]، وقال: «**نِعْمَتِ المُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ**

---

(١) حديث: «**القضاة ثلاثة...**» الحديث. أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة، وتقدم في العلم وإسناده صحيح.

(٢) حديث: «**من استقضى فقد ذبح بغير سكين**» أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي هريرة بلفظ: «**من جعل قاضياً**» وفي رواية: «من ولي القضاء» وإسناده صحيح.

(٣) حديث: النهي عن طلب الإمارة هو حديث عبدالرحمن بن سمرة: «**لا تسل الإمارة**»، وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث.

(٤) حديث: «**إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة يوم القيامة وندامة إلا من أخذها بحقها**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله: «**إلا من أخذها بحقها**» وزاد في آخره: «**فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة**» ودون قوله: «حسرة» وهي في صحيح ابن حبان.

الفَاطِمَةُ»[١]، ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعاً، وثار القتال بين الخلق، وزال الأمن، وخربت البلاد، وتعطلت المعايش فَلِمَ نهى عنها مع ذلك؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب ـ حين رأى قوماً يتبعونه ـ وهو في ذلك يقول: أبي سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن، فمنع من أن يتبعوه وقال: ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه، واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال: أتمنعني من نصح الناس؟ فقال: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ـ إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق ـ والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى، وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما، فأما قول القائل: نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط؛ إذ نهي رسول الله ﷺ عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء[٢]، بل الرياسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها. وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإنّ الله لا يضيعهم، وانظر لنفسك، ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم، وإلا فليعلم أنّ كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة، فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعاً للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمعته في الظاهر، وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه، وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له: اشتغل وجاهد نفسك، فإن قال: لست أقدر على نفسي فنقول: اشتغل وجاهد، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده، فنجعله فداء للقوم ونقول: لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يُؤَيِّدُ هٰذا الدِّينَ بِأَقْوامٍ لا خَلاَقَ لَهُمْ**»[٣]، ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة، ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته. فأمآ ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف للمسلمين، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان، وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الواردة في حق علماء السوء ما يبيّن لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله.

ولهذا قال المسيح عليه السلام: يا علماء السوء: تصومون وتصلون، وتتصدّقون ولا تفعلون ما تأمرون، وتدرسون ما لا تعلمون، فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم، يا عبيد

---

(١) حديث: «**نعمت المرضعة وبئست الفاطمة**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وهو بقية الحديث الذي قبله، ورواه ابن حبان بلفظ «**فبئست المرضعة وبئست الفاطمة**».

(٢) حديث: «**النهي عن القضاء...**» أخرجه مسلم من حديث أبي ذر: «**لا تؤمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم**».

(٣) حديث: «**إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم**» أخرجه النسائي، وقد تقدم قريباً.

الدنيا: كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم، بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأي ناس أخس منكم لو تعلمون، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين، وتقيمون في محلة المتجبرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة! يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم، فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوءاتكم، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم. وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة، وأذلوا الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشين، وفي الآخرة هم الخاسرون.

فإن قلت: فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة، حتى قال رسول الله ﷺ: **«لَأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً خَيرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»**(١)، وقال ﷺ: **«أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدىً وَاتُّبِعَ عَلَيْهِ، كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ»**(٢)، إلى غير ذلك من فضائل العلم، فينبغي أن يقال للعالم: اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق، كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة: لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك؟ فاعلم: أن فضل العلم كبير، وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة، ولا نقول لأحد من عباد الله: اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما الآفة، في إظهاره بالتصدّي للوعظ والتدريس ورواية الحديث، ولا نقول له أيضاً: اتركه ما دام يجد في نفسه باعثاً دينياً ممزوجاً بباعث الرياء، أما إذا لم يحركه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم. وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها، أما إذا خطر له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم.

وبالجملة فالمراتب ثلاث:

الأولى: الولايات؛ والآفات فيها عظيمة، وقد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة.

الثانية: الصوم والصلاة والحج والغزو؛ وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة. وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة.

---

(١) حديث: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»** متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ: **«خير لك من حمر النعم»**، وقد تقدم في العلم.

(٢) حديث: **«أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه»** أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بزيادة في أوله، ولمسلم من حديث أبي هريرة: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه...»** الحديث.

الثالثة: وهي متوسطة بين الرتبتين؛ وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء، ومناصب العلم بينهما، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم.

وهاهنا رتبة رابعة وهي: جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين، فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلاباً للثناء، وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس، والآفات فيها أيضاً كثيرة.

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال: القاعد أفضل؛ لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى. وقال أبو الدرداء: ما يسرني أنني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها، أما إني لا أحرم البيع والشراء، ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وقد اختلف العلماء فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل، وقال قوم: الجلوس في دوام ذكر الله أفضل، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله، وقد قال المسيح عليه السلام: يا طالب الدنيا ليبرّ بها، تركك لها أبرّ، وقال: أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله، وذكر الله أكبر وأفضل. وهذا فيمن سلم من الآفات، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبرّ، والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل.

وبالجملة: ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه، وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع.

وبالجملة: ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه؛ لأن النفس لا تشير إلا بالشر، وقلما تستلذ الخير وتميل إليه، وإن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه، ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل. ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات أفضل من إمساكه، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب: أن الأفضل الكسب والإنفاق، أو التجرد للذكر؟ وذلك لما في الكسب من الآفات، فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال.

فإن قلت: فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه، غير مريد رياء الناس؟ فاعلم: أن لذلك علامات.

إحداها: أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً أو أغزر منه علماً والناس له أشدّ قبولاً فرح به ولم يحسده. نعم، لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه.

والأخرى: أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه، بل بقي كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعين واحدة.

والأخرى: أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق، والمشي خلفه في الأسواق. ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها.

وقد روي عن سعيد بن أبي مروان قال: كنت جالساً إلى جنب الحسن؛ إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر، فدخل المسجد على برذونه، فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن، فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن، فلما رآه الحسن متوجهاً إليه تجافى له عن ناحية مجلسه، قال سعيد: وتجافيت له أيضاً عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه، والحسن يتكلم بكلام له ـ يتكلم به في كل يوم ـ فما قطع الحسن كلامه، قال سعيد: فقلت في نفسي؛ لأبلون الحسن اليوم، ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرّب إليه، أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه؟ فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبرّ، فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقاً وعادة، فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ مَجَالِسَ الذِّكْرِ رِيَاضُ الجَنَّةِ**»[1]، ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها، قال: ثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته، فلما فرغ طفق فقام، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن ـ حين قام الحجاج ـ فقال: عباد الله المسلمين: ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير، وأني أغزو فأكلف فرساً وبغلاً، وأكلف فسطاطاً، وأن لي ثلاثمائة درهم من العطاء، وأنّ لي سبع بنات من العيال؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه، والحسن مكب، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: ما لهم ـ قاتلهم الله ـ اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وقتلوا الناس على الدينار والدرهم، فإذا غزا عدوّ الله غزا في الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة، وإذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً راجلاً؟ فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدّه، فقام رجل من أهل الشام كان جالساً إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا: أجب الأمير، فقام الحسن ـ وأشفقنا عليه من شدّة كلامه الذي تكلم به ـ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يبتسم، وقلما رأيته فاغراً فاه يضحك إنما كان يتبسم، فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال: إنما تجالسون بالأمانة، كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم، إن الخيانة أشدّ الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار! إني أتيت هذا الرجل فقال: أقصر عليك من لسانك وقولك: إذا غزا عدوّ الله غزا كذا وكذا، وإذا أغزى أخاه: أغزاه كذا! لا أبا لك! تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك، فأقصر عليك من لسانك، قال: فدفعه الله عني.

وركب الحسن حماراً يريد المنزل، فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوماً يتبعونه فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء، وإلا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد؟ فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن. ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون. اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين.

---

(١) حديث: «أن مجالس الذكر رياض الجنة». تقدم في الأذكار والدعوات.

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح:

اعلم: أنّ الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم، ولولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال، ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير، أو تمكنه من التمتع بزوجته، أو المحادثة مع أهله وأقاربه، أو الاشتغال بأولاده، أو مطالعة حساب له مع معامليه، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر رغبته عن الخير، وحصلت له أسباب باعثة على الخير، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله؛ فتتحرّك داعيته للدين لا للرياء، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام، والنفس لا تسمح بالتهجد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق، وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سلم منها قوي الباعث. فهذا وأمثاله من الأسباب يتصوّر وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول: لا تعمل فإنك تكون مرائياً إذا كنت لا تعمل في بيتك، ولا تزد على صلاتك المعتادة، وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لا سيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته، وعند ذلك قد يقول الشيطان: صل فإنك مخلص ولست تصلي لأجلهم، بل لله وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق، وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم. وهذا أمر مشتبه إلا على ذوي البصائر، فإذا عرف أنّ المحرّك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة، لأنه يعصي الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق.

وعلامة ذلك: أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه، هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن سخت نفسه فليصل فإن باعثه الحق، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك، فإن باعثه الرياء. وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى، وقد يتحرّك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد، فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد، بل ينبغي أن يردّ ذلك على نفسه

بالكراهية ويشتغل بالعبادة. وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكي، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب، وقد لا يحضره البكاء فيتباكى ـ تارة رياءً وتارة مع الصدق ـ إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفاً، وذلك محمود. وعلامة الصدق فيه: أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه، هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم، فإنما خوفه من أن يقال: إنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي.

قال لقمان عليه السلام لابنه: لا تري الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر. وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال، تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك، فإن تجرّدت هذه الداعية فهي الرياء، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه. وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرّض لسخط الله تعالى به، وقد يكون أصل الأنين عن الحزن، ولكن يمدّه ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء، وهو محظور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء، فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له، أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء. وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط، ثم يستحي أن يقال له: إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة، فيزعق ويتواجد تكلفاً ليري أنه سقط لكونه مغشياً عليه، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتجزع نفسه أن يقال: حالته غير ثابتة، وإنما هي كبرق خاطف، فيستديم الزعقة والرقص ليري دوام حاله، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال: لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه، فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكىء على غيره يري أنه يضعف عن القيام، ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي. فهذه كلها مكايد الشيطان ونزغات النفس. فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميرة لمقتوه، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشدّ مقتاً، كما روي عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعق، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال: يا شيخ! ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾؟ فجلس الشيخ. وكل ذلك من أعمال المنافقين.

وقد جاء في الخبر: **«تعوذوا بالله من خشوع النفاق»**[(١)] وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع، ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة. فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة، وهي مع تقاربها متشابهة، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك، وانظر ما هو ومن أين هو؟ فإن كان لله

---

(١) حديث: **«تعوذوا بالله من خشوع النفاق»**. أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق، وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه أحمد وابن معين.

فامضه، واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدّد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً، فإذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقته لك. وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال: يا أيوب، أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته. وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أني أخشاك وأنت لي ماقت. وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما: اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي، وتقبح لك فيما أخلو سريرتي، محافظاً على رياء الناس من نفسي، مضيعاً لما أنت مطلع عليه مني، أبدي للناس أحسن أمري، وأفضي إليك بأسوأ عملي، تقرباً إلى الناس بحسناتي، وفراراً منهم إليك بسيئاتي، فيحل بي مقتك، ويجب عليَّ غضبك، أعذني من ذلك يا رب العالمين. وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام: يا أيوب، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم؟ فهذه جمل آفات الرياء. فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففي الخبر: **«إن للرياء سبعين باباً»**[1]، وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض، حتى إن بعضه مثل دبيب النمل، وبعضه أخفى من دبيب النمل، وكيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود، فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه.

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه:

اعلم: أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء وتقول: مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك! فما في الخلق من يقدر على مثله، فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك، وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده، ويعلم أنّ إظهاره لغيره محبب إليه، وسقوط عند الله، وإحباط للعمل العظيم فيقول: وكيف أتبع هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزق ولا أجل؟

---

(١) حديث: **«الرياء سبعون باباً»** هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا، وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه: «الرياء» بالمثناة وإنما هو: «الربا» بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ: **«الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه»** وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه، وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: **«الربا ثلاث وسبعون باباً»** وإسناده صحيح. هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات، وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ: **«الربا بضع وسبعون باباً والشرك مثل ذلك»**، وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه: «الرياء» بالمثناة لاقترانه مع الشرك. والله أعلم.

فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم، فيترك المجاهدة في الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقي؛ لأن المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة، والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل، فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض وهلك به، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج.

وقد روى تميم الداري عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُحَاسَبُ العَبْدُ يَوْمَ القِيامَةِ فَإِنْ نَقَصَ فَرْضُهُ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَ بِهِ فَرْضُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَوُّعٌ أُخِذَ بِطَرَفَيْهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ**»[1]، فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في جبر الفرائض وتكفير السيئات، ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل، وأما المتقي فجهده في زيادة الدرجات، فإن حبط تطوّعه بقي من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة.

فإذن: ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدّث به، وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله، خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فيكون شاكاً في قبوله ورده، مجوزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده إلا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن يكون متيقناً في الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به، ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك في أنه هل أفسده برياء؟ فيكون رجاء القبول أغلب، وبذلك تعظم لذته في المناجاة والطاعات.

فالإخلاص: يقين، والرياء: شك. وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه. والذي يتقرّب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه، فإن ذلك يحبط الأجر. فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه، أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره. نعم، إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذ كان لا ينتظره ولا يريده منه، ولا يستبعده منه لو قطعه. ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا، حتى إن بعضهم وقع في بئر فجاء قوم فأدلوا حبلاً ليرفعوه، فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً، خيفة أن يحبط أجره.

وقال شقيق البلخي: أهديت لسفيان الثوري ثوباً فرده عليّ، فقلت له: يا أبا عبدالله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده عليّ قال: علمت ذاك، ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره.

وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين، وكان أبوه صديقاً لسفيان، وكان سفيان يأتيه كثيراً، فقال

---

(١) حديث تميم الداري: في إكمال فريضة الصلاة بالتطوع. أخرجه أبو داود وابن ماجه، وتقدم في الصلاة.

له: يا أبا عبدالله، في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك ـ كان وكان وأثنى عليه ـ فقال: يا أبا عبدالله: قد عرفت كيف صار هذا المال إليَّ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك.

قال: فقبل سفيان ذلك.

قال: فلما خرج قال لولده: يا مبارك الحقه فرده عليَّ، فرجع فقال: أحب أن تأخذ مالك، فلم يزل به حتى رده عليه. وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك. قال ولده: فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت: ويلك أي شيء قلبك هذا! حجارة؟ عد أنه ليس لك عيال! أما ترحمني؟ أما ترحم إخوتك؟ أما ترحم عيالنا؟ فأكثرت عليه فقال لي: يا مبارك، تأكلها أنت هنيئاً مريئاً وأسأل عنها أنا.

فإذن: يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده، لا عند المعلم وعند الخلق. وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبته، فيتعلم منه، وهو خطأ؛ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال، والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد؟ فكيف يخسر في الحال عملاً نقداً على توهم علم وذلك غير جائز، بل ينبغي أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله، لا ليكون له في قلبه منزلة، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة، فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره. وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين، ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال، وسيكشف الله عن ريائه، وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً. وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله، فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به، وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان، منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: فما طعامك؟ قال: يا حنيفي وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال: في كل ليلة حمصة. قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي، ويطوفون حولها ويعظموني، فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال: حسبك أو أزيدك؟ قلت: بلى، قال: انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي: ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير اجتمع عليَّ النصارى فقالوا: يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته. قالوا: فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا: ساوم قلت: عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال: يا حنيفي ما الذي صنعت؟ قلت: بعته منهم، قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً، قال: أخطأت! لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك، هذا عز من لا تعبده، فانظر كيف يكون عز من تعبده؟ يا حنيفي، أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة.

والمقصود: أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة وقد لا يشعر العبد

به، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته: أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع، ولم يضق به ذرعاً إلا كراهة ضعيفة، إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه، فإنه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً، ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه، ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه؛ إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع، والانقباض كي لا ينبسطوا إليه، فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور؛ إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمح نفسه بذلك؟ فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة؛ فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم، ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها، فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق.

ومن علامة الصدق فيه: أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه، لا كرامة إلا إذا كان في الغنى زيادة علم أو زيادة ورع، فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغنى، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة، ويحبب إلى القلب المسكنة، والنظر إلى الأغنياء بخلافه، فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير؟ وقد حكي: أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري، كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه. نعم، لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير ألبتة، فإن الفقير أكرم على الله من الغني، فإيثارك له لا يكون طمعاً في غناه ورياء له، ثم إذا سوّيت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير، وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي، كما قال ابن السماك لجارية له: ما لي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة؟ فقالت: الطمع يشحذ لسانك؛ وقد صدقت! فإن اللسان ينطق عند الغني بما لا ينطق به عند الفقير، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير. ومكايد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر، ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات، ولكن في بدنه سقم، وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات، وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة، وعود نفسه شرب الأدوية المرة، وصبر على بشاعتها، وهجر جميع اللذات، وصبر على مفارقتها، فبدنه كل يوم يزداد نحولاً لقلة أكله، ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصاناً لشدّة احتمائه، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام عليه، وأداه ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته، الموجب لشماتة الأعداء به، ومهما اشتدّ عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنيء وبدن صحيح، وقلب رخي وأمر نافذ، فيخف عليه

مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات. فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته وفي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل، واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف، وترك المؤانسة بالخلق خوفاً من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك، ورجاء أن ينجو من عذابه، فخف ذلك كله عليه عند شدّة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره، وبما أعدّ له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد، ثم علم أن الله كريم رحيم لعباده المريدين لمرضاته عوناً، وبهم رؤوفاً، وعليهم عطوفاً، ولو شاء لأغناهم عن التعب، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلاً، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير، وحط عنه الأعباء وسهل عليه الصبر، وحبب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات، ويقويه على إماتة الشهوات، ويتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته، فإن الكريم لا يضيع سعي الراجي، ولا يخيب أمل المحب، وهو الذي يقول: «من تقرّب إليَّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» ويقول تعالى: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني إلى لقائهم أشدّ شوقاً» فليظهر العبد في البداية جدّه وصدقه وإخلاصه، فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الخالق البارىء المصوّر العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه، وارتفع عن حدّ قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه، وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه، جل جلاله وتقدّست أسماؤه، والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: **«قَالَ اللهُ تَعَالَى: الكِبْرِياءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِما قَصَمْتُهُ»**(١)، وقال ﷺ: **«ثَلاثٌ مُهْلِكاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوىً مُتَّبَعٌ وَإعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ»**(٢)، فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان. وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب؛ فإنهما من قبائح المرديات. ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين: شطر في الكبر، وشطر في العجب.

الشطر الأول من الكتاب: في الكبر؛ وفيه: بيان ذم الكبر، وبيان ذم الاختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة التكبر وآفته، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر، وبيان ما به التكبر، وبيان البواعث على التكبر، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر، وبيان علاج الكبر. وبيان امتحان النفس في خلق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه.

بيان ذم الكبر:

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ

كتاب ذم الكبر والعجب

(١) حديث: **«قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته»** أخرجه الحاكم في المستدرك دون ذكر: **«العظمة»**، وقال: صحيح على شرط مسلم، وتقدم في العلم، وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر.

(٢) حديث: **«ثلاث مهلكات. . .»** الحديث. أخرجه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف، وتقدم فيه أيضاً.

يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] وقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وذم الكبر في القرآن كثير، وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»**(١)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«يَقُولُ الله تَعَالَى: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلا أُبَالِي»**(٢)، وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: التقى عبدالله بن عمرو وعبدالله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبدالرحمن؟ فقال: هذا ـ يعني عبدالله بن عمرو ـ زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ أَكَبَّهُ الله فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ»**(٣)، وقال رسول الله ﷺ: **«لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ العَذَابِ»**(٤)، وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوماً ـ للطير والإنس والجنّ والبهائم ـ: اخرجوا، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات، ثم خفض حتى مسّت أقدامه البحر، فسمع صوتاً: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرّة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته. وقال ﷺ: **«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وعينانِ تُبْصِرَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ: وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ. بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ الله إِلٰهاً آخَرَ، وَبِالمُصَوِّرِينَ»**(٥)، وقال ﷺ: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلا جَبَّارٌ وَلا سَيِّءُ المَلَكَةِ»**(٦)، وقال ﷺ: **«تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ وَعَجَزَتُهُمْ؟ فَقَالَ الله لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا»**(٧)، وقال ﷺ:

---

(١) حديث: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث أبي هريرة: «**يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم**» أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له، وقال أبو داود: «**قذفته في النار**» وقال مسلم: «**علبته**» وقال: «**رداؤه**» و«**إزاره**» بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضاً.

(٣) حديث عبدالله بن عمرو: «**من كان في قلبه مثقال حبة من كبر أكبه الله في النار على وجهه**» أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح.

(٤) حديث: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين...**» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله: «**من العذاب**».

(٥) حديث: «**يخرج من النار عنق له أذنان...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب.

(٦) حديث: «**لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة**». تقدم في أسباب الكسب والمعاش والمعروف: «**خائن**» مكان «**جبار**».

(٧) حديث: «**تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

«بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى وَنَسِيَ الجَبَّارَ الأَعْلَى، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاخْتَالَ وَنَسِيَ الكَبِيرَ المُتَعَالَ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ غَفِلَ وَسَهَا وَنَسِيَ المَقَابِرَ وَالبِلَى، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ عَتَا وَبَغَى وَنَسِيَ المَبْدَأَ وَالمُنْتَهَى»(١)، وعن ثابت أنه قال: بلغنا أنه قيل: يا رسول الله، ما أعظم كبر فلان! فقال: «أَلَيْسَ بَعْدَهُ المَوْتُ»(٢)، وقال عبدالله بن عمرو: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ وَقَالَ: إِنِّي آمُرُكُما بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ، أَنْهَاكُمَا عَنِ الشِّرْكِ وَالكِبْرِ، وَآمُرُكُمَا بِلا إِلَهَ إِلاَّ الله. فَإِنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرَضِينَ وَمَا فِيهِنَّ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ المِيزَانِ وَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله فِي الكِفَّةِ الأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ مِنْهُمَا، وَلَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرَضِينَ وَمَا فِيهِنَّ كَانَتَا حَلْقَةً فَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله عَلَيْها لَقَصَمتها، وَآمُرُكُما بِسُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّها صَلاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِها يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ»(٣)، قال المسيح عليه السلام: طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً. وقال ﷺ: «أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، وَأَهْلُ الجَنَّةِ الضُّعَفَاءُ المُقِلُّونَ»(٤)، وقال ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الآخِرَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقاً، وإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا الثَّرْثَارُونَ المُتَشَدِّقُونَ المُتَفَيْهِقُونَ» قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المُتَكَبِّرُونَ»(٥)، وقال ﷺ: «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ فِي مِثْلِ صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ، ذَرّاً فِي مِثْلِ صُوَرِ الرِّجَالِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصِّغَارِ، ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولُس يَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينِ الخَبَالِ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ»(٦)، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «يُحْشَرُ الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى الله تَعَالَى»(٧)، وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له: يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِياً يُقَالُ لَهُ هَبْهَبُ حَقٌّ عَلَى الله أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ

---

(١) حديث: «بئس العبد عبد تجبر واعتدى...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير، وقال: غريب وليس إسناده بالقوي، ورواه الحاكم في المستدرك، وصححه، ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه.

(٢) حديث ثابت: بلغنا أنه قيل: يا رسول الله، ما أعظم كبر فلان! فقال: «أليس بعده الموت» أخرجه البيهقي في الشعب هكذا مرسلاً بلفظ: «تجبر».

(٣) حديث عبدالله بن عمرو: «إن نوحاً لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك والكبر...» الحديث. أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في نقله قال: صحيح الإسناد.

(٤) حديث: «أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع» وهذه الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزاعي: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر».

(٥) حديث: «إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً...» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة الخشني بلفظ: «إلي» و«مني» وفيه انقطاع، ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة، وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث.

(٦) حديث: «يحشر المتكبرون يوم القيامة ذراً في صور الرجال...» الحديث. أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب.

(٧) حديث أبي هريرة: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر...» الحديث. أخرجه البزار هكذا مختصراً دون قوله «الجبارون» وإسناده حسن.

جَبَّارٍ، فَإِيَّاكَ يا بِلالُ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَسْكُنُهُ»[١]، وقال ﷺ: «**إِنَّ فِي النَّارِ قَصْراً يُجْعَلُ فِيهِ المُتَكَبِّرُونَ وَيُطْبَقُ عَلَيْهِمْ**»[٢]، وقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الكِبْرِياءِ**»[٣] وقال: «**مَنْ فَارَقَ رُوحُهُ جَسَدَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلاثٍ دَخَلَ الجَنَّةَ: الكِبْرِ وَالدَّيْنِ وَالغُلُولِ**»[٤].

الآثار: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يوماً ومصعب مادّ رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن آدم، يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات. وقد قيل في ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١] هو سبيل الغائط والبول. وقد قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلّ أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال: الكبر. وقال النعمان بن بشير ـ على المنبر ـ: إن للشيطان مصالي وفخوخاً، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله. نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه.

بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب:

قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَنْظُرُ الله إِلَى رَجُلٍ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَراً**»[٥]، وقال ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَتِهِ إِذْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ الله بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيها إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ**»[٦]، وقال ﷺ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لا يَنْظُرُ الله إِلَيْهِ يَوْمَ القِيامَةِ**». وقال زيد بن أسلم: دخلت على ابن عمر فمرّ به عبدالله بن واقد

---

(١) حديث أبي موسى: «**إن في جهنم وادياً يقال له: هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار**» أخرجه أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
قلت: فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث.

(٢) حديث: «**إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم**» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال: «**توابيت**» مكان: «**قصراً**» وقال: «**فيقفل**» مكان «**يطبق**» وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف.

(٣) حديث: «**اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء**» لم أره بهذا اللفظ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ في أثناء حديث: «**أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه**» قال: نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة، ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه، تكلم فيه أبو داود، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب.

(٤) حديث: «**من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاثة دخل الجنة: الكبر والدين والغلول**» أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان، وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور في الرواية أنه الكبر بالموحدة والراء. لكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال: إنما هو الكنز بالنون والزاي، وكذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤].

(٥) حديث: «**لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث: «**بينما رجل يتبختر في برديه قد أعجبته نفسه. . .**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وعليه ثوب جديد فسمعته يقول: أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يَنْظُرُ الله إلَى مَنْ جَرَّ إزَارَهُ خُيَلاَءَ»**(١). وروي: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال: **يقول الله تعالى: «ابْنَ آدَمَ أَتُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هٰذِهِ! حَتَّى إذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إذا بَلَغَتِ التَّرَاقِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ! وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ»**(٢)، وقال ﷺ: **«إذا مَشَتْ أُمَّتِي المُطَيْطَاءَ وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ سَلَّطَ الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»**(٣)، قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال. وقال ﷺ: **«مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»**(٤).

الآثار: عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز، قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر؛ إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف... أف... شامخ بأنفه ثاني عطفه، مصعّر خده ينظر في عطفيه، أي حميق أنت، تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها، والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لفتة، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال: لا تعتذر إليَّ وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧]؟.

ومرَّ بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله، كأن القبر قد وارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك داو قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

وروي: أن عمر بن عبدالعزيز حج قبل أن يستخلف؛ فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال: ليست هذه مشية من في بطنه خراء؟ فقال عمر كالمعتذر: يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها. ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله!. ورأى ابن عمر رجلاً يجرّ إزاره فقال: إنّ للشيطان إخواناً ـ كررها مرتين أو ثلاثاً ـ. ويروى أن مطرف بن عبدالله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز، فقال: يا عبدالله، هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أوّلك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة! فمضى المهلب وترك مشيته تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ [القيامة: ٣٣] أي يتبختر. وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع، والله تعالى أعلم.

---

(١) حديث ابن عمر **«لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء»** رواه مسلم مقتصراً على المرفوع دون ذكر مرور عبدالله بن واقد على ابن عمر، وهو رواية لمسلم أن المار رجل من بني ليث غير مسمى.

(٢) حديث: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليها وقال: **«يقول الله: ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه...»** الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث بشر بن جحاش.

(٣) حديث: **«إذا مشت أمتي المطيطاء...»** الحديث. أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر: المطيطاء بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة من تحت مصغراً ولم يستعمل مكبراً.

(٤) حديث: **«من تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله وهو عليه غضبان»** أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر.

بيان فضيلة التواضع:

قال رسول الله ﷺ: «ما زَادَ الله عَبْداً بِعَفْوٍ إلاَّ عِزّاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ الله»(١)، وقال ﷺ: «ما مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَمَعَهُ مَلَكَانِ وَعَلَيْهِ حَكَمَةٌ يُمْسِكَانِهِ بها فَإِنْ هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَذَاهَا ثُمَّ قالا: اللَّهُمَّ ضَعْهُ وَإِنْ وَضَعَ نَفْسَهُ قالا: اللَّهُمَّ ارْفَعْهُ»(٢)، وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالمَسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الفِقْهِ وَالحِكْمَةِ»(٣)، وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل، فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال: «ما هذا؟» قلنا: يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً من عسل فوضعه وقال: «أَمَا إِنِّي لا أُحَرِّمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ الله، وَمَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ الله، وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ الله، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الله أَحَبَّهُ الله»(٤).

وروي: أن النبي ﷺ «كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكرّه منها فأذن له، فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه ثم قال له: «اطْعَمْ» فكأن رجلاً من قريش اشمأز منه وتكرّه، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها(٥)» وقال ﷺ: «خَيَّرَنِي رَبِّي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُونَ عَبْداً رَسُولاً أَوْ مَلِكاً نَبِيّاً فَلَمْ أَدْرِ أَيُّهُمَا أَخْتَارُ وَكَانَ صَفِيِّي مِنَ المَلائِكَةِ جِبْرِيلُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ عَبْداً رَسُولاً»(٦). وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي، وقال ﷺ: «الكَرَمُ التَّقْوَى وَالشَّرَفُ التَّوَاضُعُ وَاليَقِينُ الغِنَى»(٧)، وقال

---

(١) حديث: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٢) حديث: «ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها...» الحديث. أخرجه العقيلي في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف.

(٣) حديث: «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة...» الحديث. أخرجه البغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب المصري، والبزار من حديث أنس، وقد تقدم بعضه في العلم وبعضه في آفات اللسان.

(٤) حديث أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان صائماً...» الحديث. وفيه: «من تواضع رفعه الله...» الحديث. رواه البزار من رواية طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيدالله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله: «ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله» ولم يقل: «بقباء». وقال الذهبي في الميزان: إنه خبر منكر، وقد تقدم. ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت: أتي رسول الله ﷺ بقدح فيه لبن وعسل...» الحديث. وفيه «أما إني لا أزعم أنه حرام...» الحديث. وفيه: «من أكثر ذكر الموت أحبه الله»، وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله: «ومن بذر أفقره الله» وذكرا فيه قوله «ومن أكثر ذكر الله أحبه الله»، وتقدم في ذم الدنيا.

(٥) حديث السائل الذي كان به زمانة منكرة وأنه ﷺ أجلسه على فخذه ثم قال: «اطعم» الحديث. لم أجد له أصلاً والموجود حديث: «أكله مع مجذوم» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي: غريب.

(٦) حديث: «خيرني ربي بين أمرين عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً...» الحديث. أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس، وكلا الحديثين ضعيف.

(٧) حديث: «الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلاً، وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال: صحيح الإسناد.

المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة. وقال بعضهم: بلغني أنّ النبي ﷺ قال: **«إذا هَدَى الله عَبْداً لِلإسْلام وَحَسَّنَ صُورَتَهُ وَجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذٰلِكَ تَوَاضُعاً فَذٰلِكَ مِنْ صَفْوَةِ الله»**[١]، وقال ﷺ: **«أَرْبَعٌ لا يُعْطِيهُمْ الله إلاّ مَنْ أَحَبَّ: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ العِبَادَةِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى الله. وَالتَّوَاضُعُ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا»**[٢]، وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تَوَاضَعَ العَبْدُ رَفَعَهُ الله إلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ»**[٣]، وقال ﷺ: **«التَّوَاضُعُ لا يَزِيدُ العَبْدَ إلاّ رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرحَمْكُمُ الله»**[٤]، ويروى: أن رسول الله ﷺ كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر، فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه[٥]، وقال ﷺ: **«إنَّهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ فِي يَدِهِ يَكُونُ مهنَةً لِأَهْلِهِ يَدْفَعُ بِهِ الكِبْرَ عَنْ نَفْسِهِ»**[٦]، وقال النبي ﷺ لأصحابه يوماً: **«ما لِي لا أَرَى عَلَيْكُمْ حَلاوَةَ العِبَادَةِ»** قالوا: وما حلاوة العبادة[٧]؟ قال: **«التَّوَاضُعُ»**، وقال ﷺ: **«إذا رَأَيْتُمُ المُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإذا رَأَيْتُمُ المُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذٰلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارٌ»**[٨].

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إنّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال: انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال: اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير، حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير. وقال جرير بن عبدالله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له، وقد جاوزت الشمس النطع فسوّيته عليه، ثم إنّ الرجل استيقظ فإذا هو سلمان

---

(١) حديث: **«إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته...»** الحديث. أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه، وفيه المسعودي مختلف فيه.

(٢) حديث: **«أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب: الصمت وهو أول العبادة، والتوكل على الله والتواضع، والزهد في الدنيا»** أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس: **«أربع لا يصبن إلا بعجب. الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء»** قال الحاكم: صحيح الإسناد.

قلت: فيه العوام بن جويرية. قال ابن حبان: يروي الموضوعات ثم روى له هذا الحديث.

(٣) حديث ابن عباس: **«إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة»** أخرجه البيهقي في الشعب نحوه، وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور.

(٤) حديث: **«إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة...»** الحديث. أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جداً، ورواه ابن عدي من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبدالرحمن الاحتياصي وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف.

(٥) حديث: كان يطعم فجاءه رجل أسود به جدري فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه. لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم. رواه أبو داود والترمذي وقال: غريب، وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم.

(٦) حديث: **«إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه»**. غريب.

(٧) حديث: **«ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة»** قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: **«التواضع»** غريب أيضاً.

(٨) حديث: **«إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار»** غريب أيضاً.

الفارسي، فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير، تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير، أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات؛ التواضع. وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع من كثير العمل، ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد. وقال الفضيل ـ وقد سئل عن التواضع ما هو؟ ـ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل. وقال قتادة: من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثياباً أو علماً ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة. وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك. وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقاً من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبدالملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة، وترك النصرة عن قوّة. ودخل ابن السماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ امرأ آتاه الله جمالاً في خلقته، وموضعاً في حسبه، وبسط له في ذات يده؛ فعف في جماله، وواسى من ماله، وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده. وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين. وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدّون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة.

روي: أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً. وقال مجاهد: إنّ الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت، وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه. وقال أبو سليمان: إنّ الله عزّ وجلّ اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلباً أشدّ تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام. وقال يونس بن عبيد ـ وقد انصرف من عرفات ـ: لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم، إني أخشى أنهم حرموا بسببي. ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه. وقال زياد النمري: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر. وقال مالك بن دينار: لو أن منادياً ينادي بباب المسجد: ليخرج شركم رجلاً، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوّة أو سعي قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكاً. وقال الفضيل: من أحب الرياسة لم يفلح أبداً. وقال موسى بن القاسم: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبدالله أنت إمامنا فادع الله عزّ وجلّ لنا، فبكى ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: إنّ الله عزّ وجلّ رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له: ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته، فقال: أنا النقطة التي تحت الباء فقال له الشبلي:

أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعاً. وقال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل اليهود. ويقال: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب. وعن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له: يا أبا الحسن عظني، فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله، وأحسن من تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عزّ وجلّ. وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه. وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظنّ أنّ في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عزّ وجلّ ومعرفته بنفسه، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصايد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم. وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع. ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح. ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عزّ وجلّ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزّ وجلّ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عزّ وجلّ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عزّ وجلّ.

وقال أبو علي الجوزجاني: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيراً لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عزّ وجلّ، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عزّ وجلّ.

وعند الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه: لولا أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ زَعِيمُ القَوْمِ أَرْذَلُهُمْ»**(١)، ما تكلمت عليكم. وقال الجنيد أيضاً: التواضع عند أهل التوحيد تكبر. ولعل مراده أنّ التواضع يثبت نفسه ثم يضعها، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس، قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لي: ما لك تنظر إليّ؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة، ووصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس. وقال المغيرة: كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول: إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء. وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض، وقال: هذا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس. وكان بشر الحافي يقول: سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم. ودعا رجل لعبدالله بن

---

(١) حديث: **«يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم»** أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة: **«إذا اتخذ الفيء دولاً...»** الحديث. وفيه **«كان زعيم القوم أرذلهم»** الحديث. وقال: غريب وله من حديث علي بن أبي طالب: **«إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء»** فذكر منها: **«وكان زعيم القوم أرذلهم»** ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة: **«من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة»** فذكرها منها، وفيهما فرج بن فضالة ضعيف.

المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه، فقال: إنّ الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة؟. وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوماً فقال سلمان: لكنني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان، فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم. وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع. نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

اعلم: أنّ الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر. فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال: تكبر، وإذا لم يظهر يقال: في نفسه كبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه، فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب ـ كما سيأتي ـ؛ فإنّ العجب لا يستدعي غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصوّر أن يكون معجباً، ولا يتصوّر أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاث يحصل فيه خلق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح، وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر. ولذلك قال النبي ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الكِبْرِياءِ**»(١)، وكذلك قال عمر: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح. فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين ـ وهو الاستعظام ـ كبر وانتفخ وتعزز.

فالكبر: عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضاً عزة وتعظماً، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] قال: عظمة لم يبلغوها، ففسر الكبر بتلك العظمة. ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبراً، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه، وأقصاه عن نفسه وأبعده، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه إن اشتدّ كبره، فإن كان أشدّ من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته، وتقدّم عليه في مضايق الطرق، وارتفع عليه في المحافل، وانتظر أن يبدأه بالسلام، واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول، وإن وعظ عنف في النصح، وإن رد عليه شيء من قوله غضب، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً.

---

(١) حديث: «**أعوذ بك من نفخة الكبرياء**»، تقدم فيه.

والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة. فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ؟»**(١) وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز. ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه. والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة. وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] إلى قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] ثم قال: ﴿ادْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٢] ثم أخبر أن أشدّ أهل النار عذاباً أشدّهم عتياً على الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم: ٦٩] وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢] وقال عزّ وجلّ: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبإ: ٣١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير، سأحجب قلوبهم عن الملكوت. وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. ولذلك قال المسيح عليه السلام: إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أنّ من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن طأطأ أظله وأكنه. فهذا مثل ضربه للمتكبرين، وأنهم كيف يحرمون الحكمة، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال: **«مَنْ سَفِهَ الحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ»**(٢).

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه:

اعلم: أنّ المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فإذن: التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

---

(١) حديث: **«لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»**، تقدم فيه.

(٢) حديث الكبر: **«من سفه الحق وغمص الناس»** أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال: **«بطر الحق وغمط الناس»** ورواه الترمذي فقال: **«من بطر الحق وغمص الناس»** وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا.

الأول: التكبر على الله؛ وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ، فإنه كان يحدّث نفسه بأن يقاتل رب السماء، وكما يحكى عن جماعة من الجهلة. بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى؛ إذ استنكف أن يكون عبداً لله، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

القسم الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظانّ أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكى الله قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]. ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] وقال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩] فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً. قال وهب: قال له موسى عليه السلام: آمن ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان، فشاور هامان فقال هامان: بينما أنت رب يعبد إذ صرت عبداً تعبد، فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام. وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا: غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال الله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدّمهم. وقالت قريش لرسول الله ﷺ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم، وتكبروا عن مجالستهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] إلى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨][(1)] ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢] قيل: يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة، فجهل كونه ﷺ محقاً، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف، قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عزّ وجلّ وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

---

(١) حديث: «قالت قريش لرسول الله ﷺ: «كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء...» الحديث. في نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال: «فقال المشركون» وقال ابن ماجة: «قالت قريش».

القسم الثالث: التكبر على العباد؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم؛ فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله: أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزي والنكال! وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه! وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته». أي إنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي، وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه؛ إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه. نعم، الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك.

الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين، ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين؛ إذ وصفهم الله تعالى فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٢٦] فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذ ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٦].

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] قام رجل يأمر بالمعروف فقتل، فقام آخر فقال: تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبراً. وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله قال: عليك نفسك وقال ﷺ لرجل: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**» قال: لا أستطيع، فقال النبي ﷺ: «**لاَ اسْتَطَعْتَ**» فما منعه إلا كبره، قال: فما رفعها بعد ذلك[1] أي اعتلت يده. فإذن: تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله، وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به، فإنه قال: أنا خير منه، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحمله ذلك على أن يمتنع من

---

(١) حديث: قال لرجل: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع فقال: «لا استطعت» الحديث. أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجرّه ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين؛ إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا رسول الله، إني امرؤ قد حبب إليّ من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: **«لا وَلَٰكِنَّ الكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ»**[(١)] وفي حديث آخر: **«مَنْ سَفِهَ الحَقَّ»**[(٢)] وقوله: **«وَغَمَصَ النَّاسَ»** أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذا الآفة الأولى: **«وسفه الحق»** هو رده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى، ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

بيان ما به التكبر:

اعلم: أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني: هو العلم والعمل، والدنيوي: هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب.

الأول: العلم؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال ﷺ: **«آفَةُ العِلْمِ الخُيَلَاءُ»**[(٣)]، فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم: يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلى البهائم، ويستجهلهم ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو ردّ عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا. أما في أمر الآخرة؛ فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة، وحجة الله على العلماء، وعظم خطر العلم فيه ـ كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم ـ وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً، ويقتضي أن يرى كل الناس

---

(١) حديث: **«قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حبب إليّ من الجمال ما ترى...»** الحديث. وفيه: **«الكبر من بطر الحق وغمص الناس»**. أخرجه مسلم والترمذي، وقد تقدم قبله بحديثين.

(٢) حديث: **«الكبر من سفه الحق وغمص الناس»**، تقدم معه.

(٣) حديث: **«آفة العلم الخيلاء»**.

قلت: هكذا ذكره المصنف والمعروف: **«آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء»** هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف. وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس **«آفة الجمال الخيلاء»** وفيه الحسن بن عبدالحميد الكوفي لا يدرى من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع. قاله صاحب الميزان.

خيراً منه؛ لعظم حجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم. ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علماً ازداد وجعاً وهو كما قال.

فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً؟

فاعلم: أن لذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨] فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرّد الإنسان لها حتى امتلأ بها امتلأ بها كبراً ونفاقاً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالباً.

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيىء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم ـ أي علم كان ـ صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها، فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً، فالعلم من أعظم ما يتكبر به؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٥] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] ووصف أولياءه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: ٥٤] وكذلك قال ﷺ فيما رواه العباس رضي الله عنه: «**يكون قوم يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا**» ثم التفت إلى أصحابه وقال: «**أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار**»(١). ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم. ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال: إنه الذبح. واستأذنه رجل كان إمام قوم إنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال: إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا. وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال: لتلتمسن إماماً غيري أو لتصلنّ وحدانا؛ فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟ فما أعز على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال له: عالمٌ ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادةً فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله؛ لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وسجيته، وهيهات فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم؟ فهم أرباب

---

(١) حديث العباس: «**يكون قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا...**» الحديث.
أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق.

الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا في القرن الأوّل ومن يليهم، بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضاً إما معدوم وإما عزيز. ولولا بشارة رسول الله ﷺ بقوله: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بِعُشْرِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ نَجَا**»[1]، لكان جديراً بنا أن نقتحم ـ والعياذ بالله تعالى ـ ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكنا بعشر عشره. فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله، ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد، ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في الدنيا: فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم، والتوسع لهم في المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى، وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ ـ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء ـ وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً ـ مهما رأى ذلك ـ قال ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»[2]، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله، آمن من مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شراً احتقاره لغيره. قال ﷺ: «**كَفَى بِالمَرْءِ شَرّاً أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ**»[3]، وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه، ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه، وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل!، وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال! كما روي أن رجلاً في بني إسرائيل كان يقال له: خليع بني إسرائيل ـ لكثرة فساده ـ مرَّ برجل آخر يقال له: عابد بني إسرائيل، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعل الله يرحمني فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل فكيف يجلس إليّ؟ فأنف منه وقال له: قم عني، فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان: مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرى: فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع.

وهذا يعرّفك أنّ الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذلّ خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب. وكذلك روي أن رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطىء على رقبته وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك[4]،

---

(١) حديث: «**سيأتي على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا**» أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبي ذر.

(٢) حديث: «**إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: «**كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «**امرؤ من الشر**».

(٤) حديث: «الرجل من بني إسرائيل الذي وطىء على رقبة عابد من بني إسرائيل وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك» الحديث. أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي: «والله لا يغفر الله لك أبداً» وهو بغير هذا السياق وإسناده حسن.

فأوحى الله إليه: أيها المتألي بل أنت لا يغفر الله لك، وكذلك قال الحسن: وحتى إن صاحب الصوف أشدّ كبراً من صاحب المطرّز الخز، أي أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له، وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه، وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله، ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده، وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله، وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدّى ويقول: سترون ما يجري عليه؟ وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته، وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه، وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به. ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين.

وأما الأكياس من العباد: فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كانت تهب ريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي، ولو مات عطاء لتخلصوا. وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم، فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهراً وباطناً وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه، وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتن على الله بعمله. ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض، وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، ولذلك روي أن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك، فقال: «**إنيّ أَرَى فِي وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيطَانِ**»، فسلم ووقف على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**أَسْأَلُكَ بالله حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ أَنْ لَيْسَ فِي القَوْمِ أَفْضَلَ مِنْكَ**» قال: اللهم نعم[1]، فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوّة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله.

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أن يجتهد ويتواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس، والتقدّم على الأقران، وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خدّه للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخد حتى يصعر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم؛ إنما الورع في القلوب، قال رسول الله ﷺ: «**التَّقْوَى هٰهُنَا**» وأشار إلى

---

(١) حديث: أن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله، هذا الذي ذكرناه لك فقال: «**إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان**» الحديث. أخرجه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس.

صدره[1]. فقد كان رسول الله ﷺ أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقاً، وأكثرهم بشراً وتبسماً وانبساطاً[2]. ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله من المسلمين مثله، ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه ﷺ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٥] وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالاً ممن هو في الرتبة الثالثة، وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة، وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات، والتشمر لغلبه الغير في العلم والعمل.

أما العابد: فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد: من هو وما عمله ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص، ثم يثني على نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كذا وكذا، ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم، وفلان ينام سحراً ولا يكثر القراءة، وما يجري مجراه، وقد يزكي نفسه ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض، أو ما يجري مجراه؛ يدعي الكرامة لنفسه. وأما مباهاته: فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قوّته وعجزهم، وكذلك يشتدّ في العبادة خوفاً من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم: فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته: فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه.

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله ﷺ: **«لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»**[3]، كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله ﷺ يقول: **«إنه من أهل النار؟»** وإنما العظيم من خلا عن هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له: إن لك عندنا قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لها قدراً فلا قدر لك عندنا. ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدراً. فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب؛ فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد، ويأنف من

---

(١) حديث: **«التقوى ههنا»** وأشار إلى صدره. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٢) حديث: «كان أكرم الخلق وأتقاهم...» الحديث. تقدم في كتاب أخلاق النبوة.

(٣) حديث: **«لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»**. تقدم.

مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره: يا نبطي ويا هندي ويا أرمني، من أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان ابن فلان، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إليَّ؟ ومع مثلي تتكلم؟ وما يجري مجراه. وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحاً وعاقلاً، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه، كما روي عن أبي ذر أنه قال: قاولت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء! فقال النبي ﷺ: **«يَا أَبا ذَرّ طَفَّ الصَّاعُ طَفَّ الصَّاعُ لَيسَ لابْنِ البَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ السَّوْدَاءِ فَضْلٌ»**[(١)]، فقال أبو ذَرّ رحمه الله: فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ على خدي. فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء، وأن ذلك خطأ وجهل؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه؛ إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل؟ ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان ابن فلان فمن أنت لا أم لك؟ فقال النبي ﷺ: **«افْتَخَرَ رَجُلانِ عِنْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلانُ ابْنُ فُلانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً فَأَوْحَى الله تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: قُلْ لِلَّذِي افْتَخَرَ: بَلِ التّسْعَةُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ»**[(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: **«لَيَدعَنَّ قَوْمٌ الفَخْرَ بِآبَائِهِمْ وَقَدْ صَارُوا فَحْماً فِي جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى الله مِنَ الجُعْلانِ الَّتِي تَذْرِفُ بِآنافِها القَذَرَ»**[(٣)].

الرابع: التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء، ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك: ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة، فقال النبي ﷺ: **«قَدِ اغْتَبْتِها»**[(٤)]، وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت.

الخامس: الكبر بالمال؛ وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم، وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين في أراضيهم، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له: أنت مكد ومسكين، وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك، ومن أنت؟ وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك؟ وأنا أنفق في اليوم ما لا تأكله في سنة؟ وكل

---

(١) حديث أبي ذر: «قاولت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء...» الحديث. أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي ﷺ قال له: **«انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى»**.

(٢) حديث: «أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك؟...» الحديث. أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح، ورواه أحمد موقوفاً على معاذ بقصة موسى فقط.

(٣) حديث: **«ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان...»** الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث عائشة: «دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا، أي أنها قصيرة...» الحديث. تقدم في آفات اللسان.

ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] حتى أجابه فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: ٤٠، ٤١] وكان ذلك منه تكبراً بالمال والولد، ثم بيَّن الله عاقبة أمره بقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] ومن ذلك تكبر قارون، إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩].

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة: فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين، لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به؛ لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به، أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده. وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى، كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه؛ لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه. نسأل الله العون بلطفه ورحمته، إنه على كل شيء قدير.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له:

اعلم: أن الكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة، وينبغي أن تسمى تكبراً، ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر ـ كما سيأتي معناه ـ، فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه استعظم وتكبر.

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما.

أما السبب الذي في المتكبر فهو: العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه: هو الحقد، والحسد. والذي يتعلق بغيرهما: هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء.

أما العجب: فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن، والكبر يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأما الحقد: فإنه يحمل على التكبر من غير عجب؛ كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع، فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له؟ ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته، وعلى الأنفة من قبول

نصحه، وعلى أن يجتهد في التقدم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك، وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه، ولا يسأله عما هو جاهل به.

وأما الحسد: فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء، وسبب يقتضي الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل؛ لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه؟ فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأما الرياء: فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة؛ خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه. وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنه كاذب، ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب، ويترفع عليه في المجالس، ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين، وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار، وهو إن سمي متكبراً فلأجل التشبه بأفعال الكبر. نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر:

اعلم: أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه ونظره شزراً وإطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها: التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال علي كرم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام. وقال أنس: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك(١).

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه، وكان عبدالرحمن بن عوف لايعرف من عبيده؛ إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد. وكان رسول الله ﷺ في

---

(١) حديث أنس: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له...» الحديث. تقدم في آداب الصحبة وفي أخلاق النبوة.

بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم[(١)]، إما لتعليم غيره، أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب، كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين[(٢)].

ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال فحدثنا، فجاء سفيان فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه؟.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب: جلست إلى عبدالعزيز بن أبي روّاد فمس فخذي فخذه، فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه، وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف رجلاً منكم شراً مني؟ وقال أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء[(٣)].

ومنها: أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر: دخل رجل ـ وعليه جدري قد تقشر ـ على رسول الله ﷺ وعنده ناس من أصحابه يأكلون، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه[(٤)]، وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه: روي أن عمر بن عبدالعزيز أتاه ليلةً ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أوّل نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتاً فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء! وخير الناس من كان عند الله متواضعاً.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك[(٥)]، وقال علي كرم الله وجهه: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله، وكان أبو عبيدة بن الجراح ـ وهو أمير ـ يحمل سطلاً له من خشب إلى الحمام. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذٍ خليفة لمروان،

---

(١) حديث: كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم. أخرجه منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً: أنه خرج يمشي إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال: «**إني سمعت خَفق نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر**» وهو منكر. فيه جماعة ضعفاء.

(٢) حديث: إخراجه الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخليع.
قلت: المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة وليس الأنبجانية، وكلاهما تقدم في الصلاة.

(٣) حديث أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ الحديث. تقدم في آداب المعيشة.

(٤) حديث: الرجل الذي به جدري وإجلاسه إلى جنبه، تقدم قريباً.

(٥) حديث: حمله متاعه إلى بيته. أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله، وتقدم.

فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك. وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم: رأيت علياً رضي الله عنه قد اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

ومنها: اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي ﷺ: «**البَذَاذَةُ مِنَ الإِيمانِ**»[1]، فقال هارون: سألت معناً عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة، وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم. وعوتب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء في القلب. وقال طاوس: إني لأغسل ثوبي هذين فأنكر قلبي ما داما نقيين. ويروى أنّ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها. فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول: ما أجوده لولا لينه، فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن لي نفساً ذوّاقة، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطبقات تاقت إلى ما عند الله عزّ وجلّ. وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبدالعزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة، وإن أفضل العفو عند القدرة، وقال ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ زِينَةً لله وَوَضَعَ ثِياباً حَسَنَةً تَوَاضُعاً لله وَابْتِغَاءَ لِمَرْضَاتِهِ كَانَ حَقّاً عَلَى الله أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ عَبْقَرِيَّ الجَنَّةِ**»[2].

فإن قلت: فقد قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب. وقد سئل نبينا ﷺ عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال: «**لاَ وَلَكِنْ مَنْ سَفِهَ الحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ**»[3] فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم: أنَّ الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، وهو الذي عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال: إني امرؤ حبب إليّ من الجمال ما ترى[4]، فعرف أنّ ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع. وعلامة المتكبر: أن يطلب التجمل إذا رآه الناس، ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان. وعلامة طالب الجمال: أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته، وحتى في سنور داره، فذلك ليس من التكبر. فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أنّ

---

(١) حديث: «**البذاذة من الإيمان**» أخرجه أبو داود وابن ماجة من حديث أبي أمامة بن ثعلبة، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**من ترك زينة لله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله...**» الحديث. أخرجه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية. وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس: «**من ترك زينة لله...**» الحديث. وفي إسناده نظر.

(٣) حديث: سئل عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر؟ فقال: «**لا**» الحديث. تقدم غير مرة.

(٤) حديث: «**إن ثابت بن قيس قال للنبي ﷺ: إني امرؤ حبب إليّ الجمال...**» الحديث. هو الذي قبله سمي فيه السائل وقد تقدم.

قوله: خيلاء القلب؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب، وقول نبينا ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْكِبْرِ**» يعني أن الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر. وبالجملة: فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس، الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة. وقد قال ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سَرَفٍ وَلا مَخِيلَةٍ**»[١]. «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»[٢] وقال بكر بن عبدالله المزني: البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية. وإنما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح. وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية.

ومنها: أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد. وبالجملة: فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فيه، فينبغي أن يقتدى به، ومنه ينبغي أن يتعلم. وقد قال أبو سلمة: قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي، كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله ﷺ في بيته، كان يعلف الناضح ويعقل البعير، ويقم البيت ويحلب الشاة، ويخصف النعل ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه، وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليس له حلة لمدخله وحلة لمخرجه، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل[٣]، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء، هين المؤنة لين الخلق، كريم الطبيعة جميل المعاشرة، طليق الوجه بسام من غير ضحك، محزون من غير عبوس، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة، جواد من غير سرف، رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق، لم يبتسم قط من شبع ولا يمد يده من طمع، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله ﷺ فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر؛ إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلىء قط شبعاً ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليظل جائعاً يلتوي ليلته حتى يصبح، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل، وربما بكيت رحمةً له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: «**يا عائِشَةُ إِخْوَانِي مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ قَدْ صَبَرُوا عَلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هٰذا فَمَضَوْا عَلَى حَالِهِمْ وَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ وَأَجْزَلَ ثَوَابَهُمْ**

---

(١) حديث: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة**» أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) حديث: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضاً، وقد جعلهما المصنف حديثاً واحداً.

(٣) الدَّقل: أسوأ أنواع التمر.

فَأجدُني أَسْتَحِي إنْ تَرَفَّهتُ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يُقَصِّرَ بِي دُونَهُمْ فأصبر أيَّاماً يَسِيرَةً أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ يَنْقُصَ حَظِّي غَداً فِي الآخِرَةِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِإِخْوَانِي وَأَخِلائِي». قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عزّ وجلّ(١).

فما نقل من أحواله ﷺ يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به، ومن رأى نفسه فوق محله ﷺ ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشدّ جهله! فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: إنَّا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غيره، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام. وقال أبو الدرداء: اعلم: أنّ لله عباداً يقال لهم: الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوّة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد ﷺ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية، ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن، وتواضع في غير مذلة، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون صدّيقاً أو ثلاثون رجلاً، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه، واعلم يا أخي: إنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه، ولا يحسدون أحداً ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكةً وأسخاهم نفساً، علامتهم السخاء، وسجيتهم البشاشة، وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة، ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم، لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] قال الراوي: فقلت: يا أبا الدرداء، ما سمعت بصفة أشدّ عليَّ من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة، وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا، وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة، واعلم يا ابن أخي: أنّ ذلك في كتاب الله تعالى المنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨] قال يحيى بن كثير: فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته. اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يا رب العالمين؛ فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له:

اعلم: أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله من سنخه، وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري وعائشة: «قال الخدري لأبي سلمة: عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته كان يعلف الناضح. . .» الحديث. وفيه: قال أبو سلمة: فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبي سعيد فقالت: «ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلىء قط شبعاً. . .» الحديث. بطوله لم أقف له على إسناد.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول، وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله؛ فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عَبَسَ: ١٧-٢٢] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان: فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، وقد كان في حيز العدم دهوراً، بل لم يكن لعدمه أول، وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها؛ إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئاً مذكوراً، فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً، بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرّك، ولا ينطق ولا يبطش، ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوّته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عَبَسَ: ١٨، ١٩] ومعنى قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسَان: ١، ٢] كذلك خلقه أولاً ثم امتن عليه فقال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عَبَسَ: ٢٠] وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدّة حياته إلى الموت. وكذلك قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسَان: ٢، ٣] ومعناه: أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً تراباً أولاً ونطفة ثانياً، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر، وقوّاه بعد الضعف، وعلّمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء ـ بما فيها من العجائب والآيات ـ بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرُّوم: ٢٠] فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجوداً بعد العدم، وحياً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمى، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد الجهل، ومهدياً بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وغنياً بعد الفقر؟ فكان في ذاته لا شيء، وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئاً. وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضاً؛ ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا. ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البَلَد: ٨-١٠] وعرف خسته أولاً فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾

ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ [القِيَامَة: ٣٧، ٣٨] ثم ذكر منته عليه فقال: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القِيَامَة: ٣٩] ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولاً بالاختراع. فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء، وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم، لو أكمله وفوّض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة، والآفات المختلفة والطباع المتضادة، من المرّة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى، رضي أم سخط، فيجوع كرهاً، ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه، ويختلس عقله ويختطف روحه، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطرّ ذليل؛ إن ترك بقي وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنّى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عَبَسَ: ٢١، ٢٢] ومعناه: أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جماداً كما كان أوّل مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرةً كما كان في الأوّل نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما وبخدّيه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدّة الإنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان، فيصير مفقوداً بعد ما كان موجوداً. وصار كأن لم يغن بالأمس، حصيداً كما كان في أوّل أمره أمداً مديداً، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً. لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرّقة، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة، وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسرَاء: ١٤] فيقول: وما هو، فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها، وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير، وأكل وشرب وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عَبَسَ: ٢٢] فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والأشر؟ فقد ظهر له أوّل حاله ووسطه ولو ظهر آخره ـ والعياذ بالله تعالى ـ ربما اختار أن يكون كلباً

أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً، ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع؛ إذ أوله التراب وآخره التراب، وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق. ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة ـ إلا أن يعفو الله عنه، وهو على شك من العفو ـ كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر، وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً؟ وأي عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظنّ به ولا قوة إلا بالله. أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط، فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا؟ كيف يكون ذله في السجن، أفترى أنه يتكبر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى، ولا يدري كيف يكون آخر أمره؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً. فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ، حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ**»(١)، وقيل لسلمان: لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: إنما أنا عبد، فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً؛ أشار به إلى العتق في الآخرة. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً، وقيل: الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، حتى قال حكيم بن حزام: بايعت النبي ﷺ على أن لا أخرّ إلا قائماً فبايعه النبي ﷺ عليه، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك(٢)، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة؛ أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم، ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقاً، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح، وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت، والقلب من عالم الملكوت.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي، فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة.

الأوّل: النسب؛ فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أمرين:

---

(١) حديث: كان يأكل على الأرض ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد**»، تقدم في آداب المعيشة.

(٢) حديث حكيم بن حزام: «بايعت رسول الله ﷺ على أن لا أخر إلا قائماً...» الحديث. رواه أحمد مقتصراً على هذا وفيه إرسال خفي.

أحدهما: أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباءٍ ذوي شرفٍ ... لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حياً لكان له أن يقول: الفضل لي: ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي؟ أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس؟ هيهات! بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة.

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجدّه البعيد تراب ذليل، وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السَّجدَة: ٧،٨] فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنوناً كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال: يا أذل من التراب، ويا أنتن من الحمأة، ويا أقذر من المضغة.

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذن أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل. وهذه غاية خسة النسب، فالأصل يوطأ بالأقدام والفضل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان، ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله ـ بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله ـ كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه، فلم يزل فيه نخوة الشرف، فبينما هو كذلك، إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم، أفترى أن ذلك يبقي شيئاً من كبره؟ لا، بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم، فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره. فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله، وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب؛ إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه؟.

السبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى الظاهر نظر العقلاء، ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم. ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال، فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين؛ ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه.

وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور، من النطفة ودم الحيض، وأخرج من مجرى الأقذار. إذ خرج من الصلب، ثم من الذكر مجرى البول، ثم من الرحم مفيض دم الحيض، ثم خرج من مجرى القذر. قال أنس رحمه الله: كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا

ويقول: خرج أحدكم من مجرى البول مرتين: وكذلك قال طاوس لعمر بن عبدالعزيز: ما هذه مشية من في بطنه خراء؟ إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته، وهذا أوّله ووسطه.

ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط. فإذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن في أقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار؛ لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك إذ صار هشيماً تذروه الرياح، كيف ولو كان جماله باقياً، وعن هذه القبائح خالياً لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح؛ إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له، بل هو في كل حين يتصوّر أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوّة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه، وأن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمى يوم تحلّل من قوّته ما لا ينجبر في مدّة. فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة، ولا يقدر على أنّ يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوّته! ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟.

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار، والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوّة والعلم. وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشدّ غلياناً من القدر، فإن تغير عليه كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودي! وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً؟ فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده، وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك، وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء. ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره.

ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوّته وجماله وماله وحرّيته واستقلاله، وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه؛ إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأنّ أبويه كانا مملوكين له، فعلم ذلك وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به؛ لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكاً، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام، وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله، ولا يعرف طريقاً في الخلاص ألبتة، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوّته وكماله أم يذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير، فإنه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض

وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك. فمن هذا حاله لا يتكبر بقوّته وقدرته؛ إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما، ولكن التكبر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدّة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل. ولذلك قال كعب الأحبار: إنّ للعلم طغياناً كطغيان المال. وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: العالِم إذا زل زل بزلته عالَم، فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل؛ لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم. ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن يعلم أنّ حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش؛ إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال ﷺ: «**يُؤتَى بالعَالِم يَوْمَ القِيامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بها كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَى فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُ بِالخَيْرِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ**»[1]، وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عزّ وجلّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجُمُعَة: ٥] أراد به علماء اليهود. وقال في بلعم بن باعوراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعرَاف: ١٧٥] حتى بلغ ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعرَاف: ١٧٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوتي بلعم كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فمثله بالكلب: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعرَاف: ١٧٦]. أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطر، فأي عالم لم يتبع شهوته، وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه. فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر من هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم، وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي، ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة! ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً أوكل! ويقول الآخر: ليتني لم أك شيئاً مذكوراً! كل ذلك خوفاً من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من الطير ومن التراب. ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

---

(١) حديث: «**يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه...**» الحديث. متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ: «**يؤتى بالرجل**»، وتقدم في العلم.

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها، فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها، وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبر أنّ سيده أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلاً، ويلقيه على بابه في الحرّ والشمس زماناً طويلاً، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه، وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أنّ سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره، وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه، وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عزّ وجلّ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي، فلا بدّ وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه، وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصور ذلك. وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام؛ إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلم: أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه؛ إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان، ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره، وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين؟ إلا أبا بكر وحده، فالعواقب مطوية عن العباد، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة. فإذن: من حق العبد أن لا يتكبر على أحد، بل إن نظر إلى الجاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني. وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال: هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إليّ، كما لم يكن ابتداؤها إليّ؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه، ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان على نفسه. فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرّغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر؛ إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟ فاعلم: أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق؛ إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده، وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه، وهو ظان أنه قد غضب لله؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شراً، والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير، فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون.

والذي يخلصك من هذا: أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك؛ ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك، وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك؛ إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال؛ لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرّة عينه، وقد وكّل الغلام بالولد ليراقبه، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به، ويغضب عليه. فإن كان الغلام محباً مطيعاً لمولاه فلا يجد بداً أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به، ولأنه يريد التقرّب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام. فإذن: ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق، وتظنّ أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك، إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة. فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور: فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور. فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد، وسبيله: أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدّم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان؛ لما عرفه

من فضيلة العلم، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩] وقال ﷺ: **«فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي»**[(١)]، إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.

فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر، فيقال له: أما عرفت أنّ الحسنات يذهبن السيئات، وكما أنّ العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن، وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام: **«فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي»**؟ فاعلم: أن ذلك كان ممكناً لو علم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم، وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفاً على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال. فهذا العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوباً وأكثر منه عبادةً وأشد منه حباً لله، وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنباً، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة. نعم، يمكن أن تعلم أنّ ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه؛ إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى، وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك، بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

وقد قال وهب بن منبه: ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال، فعدّ تسعة حتى بلغ العاشر فقال: العاشرة وما العاشرة! بها شاد مجده وبها علا ذكره؛ أن يرى الناس كلهم خيراً منه. وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة ويقول: لعل برّ هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله فيرحمه الله، ويتوب عليه، ويختم له بأحسن الأعمال، ويرى ظاهره فذلك شر

---

(١) حديث: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»** أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة، وتقدم في العلم.

لي. فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها، ثم قال: فحينئذٍ كمل عقله وساد أهل زمانه. فهذا كلامه. وبالجملة: فمن جوّز أن يكون عند الله شقياً وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال.

نعم. إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيراً من نفسه وذلك هو الفضيلة، كما روي أن عابداً آوى إلى جبل فقيل له في النوم: ائت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو لك. فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله، فأُتي في النوم ثانياً فقيل له: ائت فلاناً الإسكاف فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي: أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد: بهذه.

والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطُّور: ٢٦] وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدؤوب بالإشفاق، فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل ـ وينكشف عند خاتمة الأجل ـ غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك، والتواضع دليل الخوف وهو مسعد. فإذن: ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق، والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال. فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه: أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة.

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له، والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق؛ فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه. أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول: ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرياء. وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني. فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه، ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة، وهو أن يجلس في صف النعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخفّ على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلوّ الطريق فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩]. ويروى عن عبدالله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له: يا أبا يوسف: قد كان في غلمانك وبنتك ما يكفيك! قال: أجل، ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جرّبها أهي صادقة أم كاذبة؟ وفي الخبر: **«من حمل الفاكهة أو الشيء فقد بريء من الكبر»**[(١)].

الامتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر. وكان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل، وقد قال ﷺ: **«مَنِ اعْتَقَلَ الْبَعِيرَ وَلَبِسَ الصُّوفَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ الكِبْرِ»**[(٢)]، وقال عليه الصلاة والسلام: **«إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ بِالأَرْضِ وَأَلْبَسُ الصُّوفَ وَأَعْقِلُ الْبَعِيرَ وَأَلْعَقُ أَصَابِعِي وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**[(٣)]. وروي: أنّ أبا موسى الأشعري قيل له: إنّ أقواماً يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس. وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر، فما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر؛ فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

---

(١) حديث: **«من حمل الشيء والفاكهة فقد بريء من الكبر»** أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ: **«من حمل بضاعته»**.

(٢) حديث: **«من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد بريء من الكبر»** أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم اليعمري ضعيف جداً.

(٣) حديث: **«إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف. . .»** الحديث. تقدم بعضه ولم أجد بقيته.

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً. والمحمود: أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع؛ أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه. والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل؛ وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام، والرفق في السؤال، وإجابة دعوته، والسعي في حاجته، وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره، وهو لا يعرف خاتمة أمره. فإذن: سبيله في اكتساب التواضع، أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان، فليرفع نفسه؛ إذ ليس للمؤمن أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان ـ وهو التملق ـ أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان، وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق: هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب، كما يعرف ذلك بالشرع والعادة، ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

الشطر الثاني من الكتاب في العجب: وفيه بيان ذم العجب وآفاته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه.

بيان ذم العجب وآفاته:

اعلم: أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] ذكر ذلك في معرض الإنكار، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَظَنُّوٓا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل. وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه. وقال ﷺ: **«ثلاثٌ مُهلِكاتٌ شُحٌ مُطَاعٌ وَهَوىً مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ»**[1]، وقال لأبي ثعلبة ـ حيث

(١) حديث: «ثلاث مهلكات. . .» الحديث. تقدم غير مرة.

ذكر آخر هذه الأمة فقال: «**إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك**»[1]. وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى. فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له، ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما. وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النّجم: ٣٢] قال ابن جريج: معناه إذا عملت خيراً فلا تقل: عملت. وقال زيد بن أسلم: لا تبروها، أي لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب. ووقى طلحة رسول الله ﷺ يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه، فكأنه أعجبه فعله العظيم؛ إذ فداه بروحه حتى جرح، فتفرس ذلك عمر فيه فقال: ما زال يعرف في طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله ﷺ[2]. والنأو: هو العجب ـ في اللغة ـ إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلماً، ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس: أين أنت من طلحة؟ قال: ذلك رجل فيه نخوة. فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم؟ وقال مطرف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً. وقال ﷺ: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذٰلِكَ العُجْبُ العُجْبُ**»[3]، فجعل العجب أكبر الذنوب. وكان بشر بن منصور من الذين إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى والدار الآخرة؛ لمواظبته على العبادة، فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر، فلما انصرف عن الصلاة قال له: لا يعجبنك ما رأيت مني، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدّة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه. وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن، وقد قال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤] والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب. فظهر بهذا أن العجب مذموم جدّاً.

بيان آفة العجب:

اعلم: أنّ آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه ـ كما ذكرناه ـ فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق

---

(١) حديث أبي ثعلبة: «**إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك**»، أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه، وقد تقدم.

(٢) حديث: «وقى طلحة رسول الله ﷺ بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه» أخرجه البخاري من رواية قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبيّ ﷺ

(٣) حديث: «**لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب**» أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبي الصهباء. قال البخاري: منكر الحديث. وقال أحمد: حسن الحديث، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جداً.

والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً، فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأنّ له عند الله منةً وحقاً بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال؛ فيستبدّ بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه، ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه، فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به، ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم، وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق. فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات، ومن أعظم آفاته: أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنى، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما:

اعلم: أنّ العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان.

إحداهما: أن يكون خائفاً على زواله ومشفقاً على تكدّره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب.

والأخرى: أن لا يكون خائفاً من زواله، لكن يكون فرحاً به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضاً ليس بمعجب.

وله حالة ثالثة: هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة؛ لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له، لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه. فإذن: العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم. فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقاً، وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالاً بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، وكذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات، أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدّثّر: ٦] أي لا تدل بعملك، وفي الخبر: «**إنّ صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك**»[1]، والإدلال وراء العجب. فلا مدل إلا وهو معجب، ورب معجب لا يدل؛ إذ العجب يحصل

(١) حديث: «إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه...» الحديث. لم أجد له أصلاً.

بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلاً بعمله، لأنه لا يعجب من رد دعاء الفاسق، ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك، فهذا هو العجب والإدلال، وهو من مقدّمات الكبر وأسبابه، والله تعالى أعلم.

بيان علاج العجب على الجملة:

اعلم: أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضدّه، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوّة والنسب، وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه.

فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب، إنما يعجب به من حيث إنه فيه، فهو محله ومجراه، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوّته؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل؛ لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله؛ إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة، فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمة، فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه؟ ولا ينبغي أن يعجب بنفسه. نعم، يجوز أن يعجب العبد فيقول: الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب، فلولا أنه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها، فيقال: وتلك الصفة أيضاً هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك، من غير وسيلة، أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضاً لم يكن لك أن تعجب بها، بل كان كما لو أعطاك فرساً فلم تعجب به. فأعطاك غلاماً فصرت تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلاماً لأني صاحب فرس، فأما غيري فلا فرس له، فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معاً، أو يعطيك أحدهما بعد الآخر! فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك. وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة، وهذا يتصوّر في حق الملوك، ولا يتصوّر في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبي له، فيقال: ومن خلق الحب في قلبك؟ فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك؛ إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك، وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك! فإذاً: لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه، وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه؛ لأن كل ذلك من فضل الله، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضاً من فضله وجوده.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي وإني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثواباً، ولولا أنها عملي

لما انتظرت ثواباً، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال مني وبقدرته فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين:

أحدهما: هو صريح الحق.

والآخر: فيه مسامحة.

أما صريح الحق: فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين، بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع، إلا أنه خلقه على ترتيب، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علماً بالمراد، ولم يخلق علماً ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت. وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله؛ سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنه أليق به فارجع إليه.

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات، ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة.

أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها، فمددت يدك وأخذتها، كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد وأخذها؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن، لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة، وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح. فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكُل بك فالعمل هين عليك، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله، ليس شيء منها إليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكنك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك، ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله، وأبعد العاصي وأشقاه بعدله، فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك! فإذن: لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلاً إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرّك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً، فله الشكر والمنة لا لك - وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل

إلا الله ولا خالق سواه -، والعجب ممن يتعجب - إذا رزقه الله عقلاً وأفقره - ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل، وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل؟ حتى يكاد يرى هذا ظلماً، ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال؛ إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب، لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما، فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما؟ وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إنّ عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

والعجب: أنّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالاً من نفسه، ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضاً عن عقلك وفقرك لامتنع عنه! فإذن: ذلك يدل على أنّ نعمة الله عليه أكبر؛ فلم يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح؟ ولا تدري المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال؟ فإذن: نعمة الله عليها أكبر. وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه: يا رب، لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول: أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب الفرس؟ فيقول: كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس، فهب أني ما أعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها، ومنشأ جميع ذلك الجهل، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأنّ العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال، ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة. ومن عرف هذا لم يتصوّر أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أنّ ذلك من الله تعالى، ولذلك قال داود عليه السلام: يا رب ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم - وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك؛ إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك - فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ومن أين لهم ذلك؟ إنّ ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوني إياك ما قويت، وسأكلك إلى نفسك، قال ابن عباس: إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله؛ إذ أضافه إلى آل داود مدلاً به حتى وكل إلى نفسه، فأذنب ذنباً أورثه الحزن والندم. وقال داود: يا رب، إنّ بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: إني ابتليتهم فصبروا، فقال: يا رب، وأنا إن ابتليتني صبرت، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى: فإني لم أخبرهم بأي شيء أبتليهم ولا في أي شهر ولا في أي يوم، وأنا مخبرك في سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك، فوقع فيما وقع فيه. وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين على قوّتهم وكثرتهم، ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا، لا نغلب اليوم من قلة[1] وكُلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. روى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال: إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد

---

(١) حديث: «قولهم يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة...» أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلاً: أن رجلاً قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس: «لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا: اليوم نقاتل؛ ففروا» فيه الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور.

عليّ أمر إلا آثرت هواك على هواي، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب، أنّى لك ذلك؛ أي من أين لك ذلك؟ قال: فأخذ رماداً ووضعه على رأسه وقال: منك يا رب منك يا رب، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النُّور: ٢١] وقال النبي ﷺ لأصحابه ـ وهم خير الناس ـ: **«ما منكم من أحد ينجيه عمله»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»**(١) ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا تراباً وتبناً وطيراً مع صفاء أعمالهم وقلوبهم، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه؟ فإذن: هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب، ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل، فيخاف من ذلك فيقول: إنّ من لا يبالي أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن قد ارتدّ ومطيع قد فسق وختم له بسوء! وهذا لا يبقى معه عجب بحال، والله تعالى أعلم.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

اعلم: أنّ العجب بالأسباب التي بها يتكبر ـ كما ذكرناه ـ، وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله، فما به العجب ثمانية أقسام:

الأوّل: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته، وصحته وقوّته، وتناسب أشكاله وحسن صورته، وحسن صوته، وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى، وهو بعرضة الزوال في كل حال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال؛ وهو التفكر في أقذار باطنه وفي أوّل أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني: البطش والقوّة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا ـ فيما أخبر الله عنهم ـ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصّلَت: ١٥] وكما اتكل عوج على قوّته وأعجب بها فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت في عنقه، وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما روي عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة ولم يقل إن شاء الله تعالى، فحرم ما أراد من الولد(٢)، وكذلك قول داود عليه السلام: إن ابتليتني صبرت، وكان إعجاباً منه بالقوة، فلما ابتلي بالمرأة لم يصبر، ويورث العجب بالقوة: الهجوم في الحروب، وإلقاء النفس في التهلكة، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه، وهو أن يعلم أنّ حمّى يوم تضعف قوته! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الثالث: العجب بالعقل والكياسة، والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل، واستحقاراً لهم وإهانة، وعلاجه: أن يشكر الله تعالى

---

(١) حديث: «ما منكم من أحد ينجيه عمله...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: قال سليمان: «لأطوفن الليلة بمائة امرأة...» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري. فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير، ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجباً.

الرابع: العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد، وعلاجه: أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب، بل الخوف والإزدراء على النفس، واستعظام الخلق ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحُجرَات: ١٣] أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] ثم بيَّن أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] ولما قيل لرسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل: من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: **«أَكْرَمُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً»**(١)، وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة: فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة؟ فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] وقال النبي ﷺ: **«إِنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَيْبَةَ الجَاهِلِيَّةِ - أَيْ كِبْرَهَا - كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»**(٢) وقال النبي ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لا تَأْتِي النَّاسُ بِالأَعْمَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَتَأْتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَها عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ هٰكَذَا - أَيْ أُعْرِضُ عَنْكُمْ -»**(٣)، فبيَّن أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش. ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] ناداهم بطناً بعد بطن، حتى قال: **«يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمَّةَ رَسُولِ الله ﷺ اعْمَلا لأَنْفُسِكُمَا فَإِنِّي لا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ الله شَيْئاً»**(٤)، فمن عرف

---

(١) حديث: لما قيل له: من أكرم الناس من أكيس الناس؟ قال: **«أكثرهم للموت ذكراً...»** الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله: «وأكرم الناس» وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب.

(٢) حديث: **«إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية...»** الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة، ورواه الترمذي أيضاً من حديث ابن عمر وقال: غريب.

(٣) حديث: **«يا معشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم...»** الحديث. أخرجه الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال: **«يا معشر بني هاشم»** وسنده ضعيف.

(٤) حديث لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] ناداهم بطناً بعد بطن حتى قال: **«يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبدالمطلب...»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث عائشة.

هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه ـ بلسان حاله ـ مهما انتمى إليهم، ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

فإن قلت: فقد قال ﷺ بعد قوله لفاطمة وصفية: **«إنِّي لا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ الله شَيْئاً إلاَّ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبِلالِها»**[(١)]، وقد قال عليه الصلاة والسلام: **«أَتَرْجُو سُلَيْمٌ شَفَاعَتِي وَلا يَرْجُوهَا بَنُو عَبْدِ المُطَّلِبِ»**[(٢)]، فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة؟ فاعلم: أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله ﷺ، والنسيب أيضاً جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة، كالذنوب عند ملوك الدنيا، فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتدّ عليه غضب الملك، فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] وبقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سَبَإ: ٢٣] وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدّثّر: ٤٨]، وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه؛ وجب الخوف والإشفاق لا محالة، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشاً بالطاعة، ولما نهى رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها عن المعصية، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة. فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالاً على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره، وذلك جهل؛ لأن سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها، فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرّد الطب، بل للطبيب أثر على الجملة؛ ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج. فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب، فإنه كذلك قطعاً، وذلك لا يزيل الخوف والحذر، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله ﷺ أصحابه، وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم، وصفاء قلوبهم، وما سمعوه من وعد رسول الله ﷺ إياهم بالجنة خاصة، وسائر المسلمين بالشفاعة عامة، ولم يتكلوا عليه، ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم؟

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية الجهل، وعلاجه: أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله، وأنهم الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم، ولتبرأ من الانتساب إليهم، ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً واستحقاراً لهم، ولو انكشف له ذلهم في القيامة

---

(١) حديث: قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية: **«ألا إن لكما رحماً سأبلها ببلالها»**. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: **«غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»**.

(٢) حديث: **«أترجو سليم شفاعتي ولا ترجوها بنو عبد المطلب»**. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبدالله بن جعفر، وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جداً.

وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرّونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد؛ لتبرأ إلى الله منهم، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة ـ إن عصمهم الله من ظلمهم ـ أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم، ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، فأما العجب فجهل محض.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع، كما قال الكفار: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سَبَإ: ٣٥] وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نغلب اليوم من قلة، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر؛ وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً. و﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩]، ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده، لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئاً، وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عَبَسَ: ٣٤-٣٦] الآية. فأي خير فيمن يفارقك في أشدّ أحوالك ويهرب منك؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك؟

السابع: العجب بالمال كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه، فقال عليه السلام: «**أَخَشِيتَ أَنْ يَعْدُوَ إِلَيْكَ فَقْرُهُ**»[1]، وذلك للعجب بالغنى، وعلاجه: أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذ أَمَرَ الله الأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيها إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ**»[2]، أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وقال أبو ذرّ، كنت مع رسول الله ﷺ فدخل المسجد فقال لي: «**يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ**» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد، ثم قال: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ**» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي: «**يَا أَبَا ذَرٍّ هٰذَا عِنْدَ الله خَيْرٌ مِنْ قِرَابِ الأَرْضِ مِثْلَ هٰذَا**»[3]، وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى، فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار، فكيف يعجب بماله؟

الثامن: العجب بالرأي الخطأ. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فَاطِر: ٨] وقال

---

(١) حديث: «رأى النبي ﷺ رجلاً غنياً جلس لجنبه فقير فانقبض منه...» الحديث. رواه أحمد في الزهد.

(٢) حديث: «بينما رجل في حلة قد أعجبته نفسه...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٣) حديث أبي ذر: «كنت مع النبي ﷺ فدخل المسجد فقال لي: «يا أبا ذر ارفع رأسك» فرفعت رأسي...» الحديث. وفيه: «هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا». أخرجه ابن حبان في صحيحه.

تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وقد أخبر رسول الله ﷺ أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة[1]، وبذلك هلكت الأمم السالفة؛ إذ افترقت فرقاً، فكلٌ معجب برأيه: و﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظنّ كونه حقاً، وعلاج هذا العجب أشدّ من علاج غيره؛ لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف، فتعسر مداواته جداً. لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان معجباً برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه، فقد سلّط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه، وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة: أن يكون متهماً لرأيه أبداً، لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّ وتشمر في الطلب، وممارسة للكتاب والسنة، ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره في العلم: أن لا يخوض في المذاهب ولا يصغي إليها ولا يسمعها، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنّة السلف، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل، بل يقول: آمنا وصدّقنا، ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات، والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر. هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له: معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى، وهو عزيز الوجود جداً، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال، ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده،
وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) حديث: «أنه يغلب على آخر هذه الأمة الإعجاب بالرأي» هو حديث أبي ثعلبة المتقدم: «فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك» وهو عند أبي داود والترمذي.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور، ومورد أعدائه ورطات الغرور، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور، صلاة تتوالى على ممرّ الدهور، ومكرّ الساعات والشهور.

أما بعد: فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] والمغترون قلوبهم: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم، فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء. والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً، ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه؛ ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه، فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره؛ وبنى على الحزم والبصيرة أمره.

ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادىء الأمور، الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء، وفرق المغترين كثيرة، ولكن يجمعهم أربعة أصناف:

الصنف الأول: من العلماء.

الصنف الثاني: من العباد.

الصنف الثالث: من المتصوفة.

الصنف الرابع: من أرباب الأموال. والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة، فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المسجد ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى؛ كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه، ومنهم من يترك

الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر؛ كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف، إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة. ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء، ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده.

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته:

اعلم: أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمَان: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ [الحَديد: ١٤] الآية. كاف في ذم الغرور، وقد قال رسول الله ﷺ: **«حَبَّذَا نَوْمُ الأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ كَيْفَ يَغْبِنُونَ سَهَرَ الحَمْقَى وَاجْتِهَادَهُمْ وَلَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَيَقِينٍ أَفْضَلُ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِنَ المُغْتَرِّينَ»**(١)، وقال ﷺ: **«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»**(٢)، وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل؛ إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور، بل يستدعي الغرور: مغروراً فيه مخصوصاً ومغروراً به وهو الذي يغره. فمهما كان المجتهد المعتقد شيئاً يوافق الهوى، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً سمي الجهل الحاصل به غروراً. فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق، فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور.

المثال الأول: غرور الكفار، فمنهم من غرّته الحياة الدنيا ومنهم من غرّه بالله الغرور، أما الذين غرّتهم الحياة الدنيا: فهم الذين قالوا: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد والآخرة نسيئة، فهي إذن خير فلا بد من إيثارها، وقالوا: اليقين خير من الشك، ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك، فلا نترك اليقين بالشك. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعرَاف: ١٢] وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٨٦] وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان؛ أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النّحل: ٩٦] وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٨] وقوله: ﴿وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]

كتاب ذم الغرور

(١) حديث: «**حبذا نوم الأكياس وفطرهم...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بنحوه وفيه انقطاع، وفي بعض الروايات: أبي الورد، موضع أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً.

(٢) حديث: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت...**» الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] وقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمَان: ٣٣] وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدّقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان(١)، ومنهم من قال: نشدتك الله أبعثك الله رسولاً؟ فكان يقول: «نَعَمْ» فيصدق(٢)، وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور، وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب، مع أنه لا يدري وجه كونه خيراً.

وأما المعرفة بالبيان والبرهان: فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان، فإن كل مغرور فلغروره سبب، وذلك السبب هو دليل، وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه، وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء. فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أصلان.

أحدهما: أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح.

والآخر: قوله: إن النقد خير من النسيئة، وهذا محل التلبيس فليس الأمر كذلك، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير، وإن كان أقل منها فالنسيئة خير، فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة، ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل؛ فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة. والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقداً لأجل الراحة والربح نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة، وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة. فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حدّ، وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة، فإذن قد غلط في قوله: النقد خير من النسيئة، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص، فغفل به المغرور عن خصوص معناه. فإن من قال: النقد خير من النسيئة، أراد به خيراً من نسيئة هي مثله ـ وإن لم يصرح به ـ.

وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو: أن اليقين خير من الشك إذا والآخرة شك، وهذا القياس أكثر فساداً من الأول لأن كلا أصليه باطل؛ إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله، وإلاً فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك، والمتفقه في جهاده على يقين وفي إدراكه رتبة العلم على شك، والصياد في تردده في المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على شك، وكذا الحزم دأب العقلاء

---

(١) حديث: «تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله ﷺ وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور في السنن، من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيعتهم، وهي عند أحمد من حديث جابر وفيه: حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه...» الحديث. وهو عند أحمد بإسناد جيد.

(٢) حديث: قول من قال له: نشدتك الله أبعثك رسولاً؟ فيقول: «نعم» فيصدق. متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبة، وقوله للنبي ﷺ: آلله أرسلك للناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم» وفي آخره: فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وللطبراني من حديث ابن عباس في ضمام قال: نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى؟ قال: «نعم» الحديث.

بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك، ولكن التاجر يقول: إن لم أتجر بقيت جائعاً وعظم ضرري، وإن اتجرت كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً، وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين، ولكن يقول: ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت، فكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذباً؛ فما يفوتني إلا التنعم أيام حياتي، وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم، فأحسب أني بقيت في العدم. وإن كان ما قيل صدقاً فأبقى في النار أبد الآباد وهذا لا يطاق. ولهذا قال علي كرم الله وجهه لبعض الملحدين: إن كان ما قلته حقاً فقد تخلصت وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلكت؛ وما قال هذا عن شك منه في الآخرة، ولكن كلَّم الملحد على قدر عقله، وبيَّن له أنه وإن لم يكن متيقناً فهو مغرور.

وأما الأصل الثاني من كلامه: وهو أن الآخرة شك، فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان.

أحدهما: الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء، وذلك أيضاً يزيل الغرور، وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص، ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني، فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم، ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعمل به، ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك، وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطب، بل لا علم له بالطب، فيعلم كذبه بقولهم، ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمهم بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً، فكذلك من نظر إلى المقرّين بالآخرة والمخبرين عنها، والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء، فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هذا الغني الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء. وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق، وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة، والغرور يزول به.

وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة: فهو الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء، ولا تظنن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه، كما أن معرفتك تقليد للنبي ﷺ حتى تكون معرفتك مثل معرفته، وإنما يختلف المقلد فقط وهيهات! فإنّ التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح، والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد. وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى، وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذي يقابل النهي، لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام في جميع المخلوقات بل العالم عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق، ولله الخلق والأمر، فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الأمر الخلق؛ إذ

الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان، وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر، وشرح ذلك سر الروح، ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسرِّ القدر الذي منع من إفشائه، فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته، وأنه في العالم الجسماني غريب، وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته، وذلك العارض الغريب ورد على آدم ﷺ، وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته، فإنها في جوار الرب تعالى، وأنه أمر رباني وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه. ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩] أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم. يقال: فسقت الرطبة عن كمامها؛ إذا خرجت عن معدنها الفطري. وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون، وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون، فإنها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجعل، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش. وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية، ويسمى صاحبه ولياً عارفاً، وهي مبادي مقامات الأنبياء. وآخر مقامات الأولياء أوّل مقامات الأنبياء.

ولنرجع إلى الغرض المطلوب، فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدي، وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن، والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور؛ لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، نعم، أمرهم أخف لأنّ أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين، ولكنهم أيضاً من المغرورين، فإنهم اعترفوا بأنّ الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ثم قال النبي ﷺ **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»**(١)، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣] فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعاً لا بالإيمان وحده، فهؤلاء أيضاً مغرورون؛ أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها، المترفين بنعيمها المحبين لها، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده، فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعاً.

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله: فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم: إنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا، ونحن أوفر حظاً فيه وأسعد حالاً، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦] وجملة أمرهما كما نقل في التفسير: أن الكافر منهما بنى قصراً بألف دينار، واشترى بستاناً بألف دينار، وخدماً بألف دينار، وتزوّج امرأة على ألف دينار، وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول: اشتريت قصراً يفنى ويخرب، ألا اشتريت قصراً في الجنة لا يفنى!

(١) حديث: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»** متفق عليه من حديث ابن عمر، وقد تقدم.

واشتريت بستاناً يخرب ويفنى، ألا اشتريت بستاناً في الجنة لا يفنى، وخدماً لا يفنون ولا يموتون، وزوجةً من الحور العين لا تموت! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول: ما هناك شيء، وما قيل من ذلك فهو أكاذيب! وإن كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا. وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] فقال الله تعالى رداً عليه: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا﴾ [مريم: ٧٨، ٧٩]، وروي عن خباب بن الأرت أنه قال: كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي فقلت: إني آخذه في الآخرة؛ فقال لي: إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالاً وولداً أقضيك منه. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم: ٧٧][1] وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وهذا كله من الغرور بالله.

وسببه: قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨] فقال تعالى جواباً لقولهم: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨] ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر؛ فيزدرون بهم ويستحقرونهم، فيقولون: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] ويقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب، وكل محب فإنه يحسن أيضاً في المستقبل، كما قال الشاعر:

لقد أحسن الله فيما مضى ... كذلك يحسن فيما بقي

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول: لولا أني كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلي. والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب، لا بل تحت ظنه أنَّ إنعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة، بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان. ومثاله: أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه من اللعب، ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب، ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية التي تنفعه. والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد؛ فيلعب ولا يدخل المكتب، ويأكل كل ما يشتهي، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم؛ لأنه مكّنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنعه ولم يحجر عليه، وذلك محض الغرور، وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله، «**فإن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه**»[2]، هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر.

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته، ورأوا ذلك علامة المقت

---

(١) حديث خباب بن الأرت: «قال: كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه...» الحديث. في نزول قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ [مريم: ٧٧] الآية. أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) حديث: «**إن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه...**» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان.

والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظنّ أنها كرامة من الله، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥ـ١٦] فأجاب الله عن ذلك: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧] أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت، فبيَّن أنّ ذلك غرور. قال الحسن: كذبهما جميعاً بقوله: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧] يقول: ليس هذا بإكرامي ولا هذا بهواني، ولكنّ الكريم من أكرمته بطاعتي غنياً كان أو فقيراً، والمهان من أهنته بمعصيتي غنياً كان أو فقيراً.

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد.

أما البصيرة: فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعد عن الله، ووجه كون التباعد عنها مقرّباً إلى الله، ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة.

وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق: فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدّق رسوله، وقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٦،٥٥] وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وقال تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] أنهم كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عِمرَان: ١٧٨]وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور، فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداءً ثم دمرهم تدميراً فقال تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريَم: ٩٨] الآية، وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعرَاف: ٩٩] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النَّمل: ٥٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٧] فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكراً منه وكيداً مع أنّ السيد لم يحذره مكر نفسه، فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى، فإذن: من أمن مكر الله فهو مغتر، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة، وهذا هو حدّ الغرور.

المثال الثاني: غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه، واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أنّ الرجاء مقام محمود في الدين، وأنّ نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم، وأين معاصي العباد في بحار رحمته وإنّا موحدون ومؤمنون؟ فنرجوه بوسيلة الإيمان. وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم، كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع، وظنهم أنهم أكرم

على الله من آبائهم؛ إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون. وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى. فقياس الشيطان للعلوية؛ أنّ من أحب إنساناً أحب أولاده، وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة، وينسى المغرور أنّ نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المغرقين: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هُود: ٤٥] فقال تعالى: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ [هُود: ٤٦] وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه. وأن نبينا صلى الله عليه وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار، فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله[(١)]، فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى، وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع، ولو كان الحب يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضاً، بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى. ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه. ويصير عالماً بتعلم أبيه، ويصل إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه. فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئاً وكذا العكس، وعند الله جزاء التقوى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝﴾ [عَبَسَ: ٣٤، ٣٥] إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتدّ غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له ـ كما سبق في كتاب الكبر والعجب ـ.

فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة والفجار: إن الله كريم وإنّا نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب؟ فاعلم: أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب، ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله**»[(٢)]، وهذا هو التمني على الله تعالى، غيّر الشيطان اسمه فسماه: رجاء، حتى خدع به الجهال. وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢١٨] يعني أنّ الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أنّ ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قال الله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] أفترى أنّ من استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها، وكان الشارط كريماً يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف، بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر، ويزعم أنّ المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرّة. قيل للحسن: قوم يقولون: نرجو الله ويضيعون العمل، فقال: هيهات هيهات، تلك أمانيهم يترجحون فيها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه. وقال مسلم بن يسار: لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي! فقال له رجل: إنّا لنرجو الله! فقال مسلم: هيهات هيهات؟ من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه. وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعد لم ينكح، أو نكح ولم يجامع، أو جامع ولم ينزل فهو معتوه، فكذلك من رجا رحمة الله

---

(١) حديث: أنه ﷺ استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار. . . الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «**الكيس من دان نفسه**». تقدم قريباً.

وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يعمل صالحاً، أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور. فكما أنه إذا نكح ووطىء وأنزل بقي متردداً في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد، ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي متردداً بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه، وأن لا يدوم عليه، وأن يختم له بالسوء، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيس، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨] وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح؛ فارجعنا نعمل صالحاً فقد علمنا الآن صدقك في قولك: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠] ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [المُلك: ٨، ٩] أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وأنه: ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨١] وأن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدّثّر: ٣٨] فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم؟ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [المُلك: ١٠، ١١].

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟ فاعلم: أنه محمود في موضعين:

أحدهما: في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: وأنّى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى؛ فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٥٣] وأنّ الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأنّ التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزُّمَر: ٥٣، ٥٤] أمرهم بالإنابة، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢] فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان: إنك لا تدرك الجمعة، فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو، وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج، وإن استمرّ على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت، أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين؛ حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢] إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١] فالرجاء الأوّل: يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني: يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر، فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان: ما لك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم؟ فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرّة، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف

نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد، مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هذه سنّته في عباده وقد خوّفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغتر به؟

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور. ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور؛ فقد أخبر ﷺ وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة[١]، وقد كان ما وعد به ﷺ، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهويني فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار[٢]: **«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَخْلَقُ فِيهِ القُرْآنُ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ كَمَا تَخْلَقُ الثِّيَابُ عَلَى الأَبْدَانِ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ يَكُونُ طَمَعاً لا خَوْفَ مَعَهُ، إِنْ أَحْسَنَ أَحَدُهُمْ قَالَ: يُتَقَبَّلُ مِنِّي، وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ: يُغْفَرُ لِي»**[٣]، فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه. وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] ومعناه أنهم: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] أي هم علماء ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩] أي شهواتهم من الدنيا حراماً كان أو حلالاً. وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦] ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهذونه هذّا، يخرجون الحروف من مخارجها، ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم مع أن ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل، فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من

---

(١) حديث: **«إن الغرور يغلب على آخر هذه الأمة»** تقدم في آخر ذم الكبر والعجب، وهو حديث أبي ثعلبة. في إعجاب كل ذي رأي برأيه.

(٢) معقل بن يسار المزني: أسلم قبل الحديبية وشهد بيعة الرضوان، هو الذي حفر نهر معقل بالبصرة بأمر عمر. نزل البصرة ومات بها في خلافة معاوية في أواخرها، روى عن النبي ﷺ.

(٣) حديث: معقل بن يسار: **«يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال»** الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل.

الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدّق به من أموال المسلمين! وهو يتكل عليه ويظنّ أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدّق بعشرة من الحرام أو الحلال، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كَفةٍ ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله. نعم. ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه؛ لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبِّح الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة، وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحة مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨] فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات، ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين، يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان. وذلك محض الغرور.

ولعمري: لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته، وما نطق به في فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه! فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه، ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها. لقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين، وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن، وإنّا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران. فسبحان من صدّنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقي ولا يغتر به اتكالاً على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى، والله أعلم.

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف:

الصنف الأول: أهل العلم والمغترون منهم فرق:

ففرقة: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أنّ العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة؛ وهو العلم بالله وبصفاته، المسمى بالعادة: علم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة: كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. فمثال هذا كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء، فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء، وفصَّل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تجتلب، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن، ورجع إلى

بيته وهو يكرّرها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترى أنّ ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً؟ هيهات هيهات، لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرّره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً، إلا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته، ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه، فكيف إذا لم يشربه أصلاً؟ فمهما ظن أنّ ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره.

وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور؛ إذ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ۝﴾ [الشمس: ٩] ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها، وكتب علم ذلك وعلمه الناس، وعند هذا يقول له الشيطان: لا يغرنك هذا المثال فإنّ العلم بالدواء لا يزيل المرض، وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب، ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم. فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً وافق ذلك مراده وهواه فاطمأنّ إليه وأهمل العمل، وإن كان كيساً فيقول للشيطان: أتذكرني فضائل العالم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجُمُعَة: ٥] فأي خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار؟ وقد قال ﷺ: **«مَنِ ازْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدىً لَمْ يَزْدَدْ مِنَ الله إلاّ بُعْداً»**(١)، وقال أيضاً: **«يُلْقَى العَالِمُ فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ فِي الرَّحَى»**(٢)، وكقوله عليه الصلاة والسلام: **«شَرُّ النَّاسِ العُلَمَاءُ السُّوءُ»**(٣)، وقول أبي الدرداء: ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات؛ أي أنّ العلم حجة عليه إذ يقال له: ماذا عملت، فيما علمت وكيف قضيت شكر الله؟ وقال ﷺ: **«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ الله بِعِلْمِهِ»**،(٤) فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه وذلك عين الغرور، فإنه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء، وأن حالهم عند الله أشدّ من حال الجهال. فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير ـ مع تأكد حجة الله عليه ـ غاية الغرور.

وأما الذي يدعي علوم المكاشفة: كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشدّ، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به عليه، وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به

---

(١) حديث: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى...» الحديث. تقدم في العلم.

(٢) حديث: «يلقى العالم في النار فتندلق أقتابه...» الحديث. تقدم غير مرة.

(٣) حديث: «شر الناس علماء السوء». تقدم في العلم.

(٤) حديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه». تقدم فيه.

متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك، عاطلاً عن جميع ما يحبه، متوسلاً إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته، فهذا مغرور جداً؛ إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه، لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني؛ إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه. فلا يتصوّر أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. نعم، من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الأسد، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافاً مؤلفة وأبدّ عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثراً، ولم تأخذه عليه رقة، ولا اعتراه عليه جزع. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨] وفاتحة الزبور: «رأس الحكمة خشية الله». وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً. واستفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال: وهل رأيت فقيهاً قط؟ الفقيه القائم ليله الصائم نهاره، الزاهد في الدنيا. وقال مرة: الفقيه لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله؛ فإن قبلت منه حمد الله، وإن ردت عليه حمد الله. فإذن: الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه، وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم. و«**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء، وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها، ولا يلتفت إلى قوله ﷺ: «**أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ**»(1)، وإلى قوله عليه السلام: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(2)، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**»(3)، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**حُبُّ الشَّرَفِ وَالمَالِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ**»(4)، إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة. فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(5)، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب ـ والقلب هو الأصل ـ؛ إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ومثال هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه؛ فاستنار ظاهره وباطنه مظلم، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فجصص باب داره وترك المزابل في صدر داره، ولا يخفى أن ذلك غرور، بل أقرب مثال إليه: رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه

---

(1) حديث: «**أدنى الرياء شرك**». تقدم في ذم الجاه والرياء.

(2) حديث: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**». تقدم غير مرة.

(3) حديث: «**الحسد يأكل الحسنات...**» الحديث. تقدم في العلم وغيره.

(4) حديث: «**حب الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب...**» الحديث. تقدم.

(5) حديث: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم...**» الحديث. تقدم.

حشيش يفسده، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله، فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب، فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة، إلا مع الآفات الكثيرة. بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه، فقنع بالطلاء وترك الدواء، وبقي يتناول ما يزيد في المادة، فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن.

وفرقة أخرى: علموا أنّ هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا: ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين! وإني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك، وكان ذلي ذلاً على الإسلام، ونسي المغرور أن عدوّه الذي حذره منه مولاه هو الشيطان، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به، وينسى أنّ النبي ﷺ بماذا نصر الدين، وبماذا أرغم الكافرين؟ ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة، حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال: إنّا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره، ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والإبريسم - المحرّم - والخيول والمراكب، ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين! وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئاً من كلامه لم يظنّ بنفسه أنّ ذلك حسد ولكن قال: إنما هذا غضب للحق وردّ على المبطل في عدوانه وظلمه، ولم يظن بنفسه الحسد، حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله؟ أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع؟ بل ربما يفرح به، فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه، وهكذا يرائي بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال: هيهات! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله تعالى؛ فيتخلصوا من عقاب الله تعالى، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر، وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضاً ويقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي، فإنما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق قولي! هذا ما يظنه بنفسه، والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل؛ حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره. وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان: هيهات! إنما ذلك عند الطمع في مالهم، فأما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم، وتدفع شر أعدائك عن نفسك! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل. وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه

حرام قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟

فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور:

أحدها: في أنه مال لا مالك له؛ فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء، وأولادهم وورثتهم أحياء، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخالطها فلا خلاف في أنه مال حرام، ولا يقال هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر.

الثاني والثالث: في قوله إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين؛ ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين، ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله، فهو على التحقيق دجال الدين وقوّام مذهب الشياطين لا إمام الدين؛ إذ الإمام: هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف. والدجال: هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته، وهو يزعم أنه قوام الدين. ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية، ولكنهم بعد مغرورون؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض، وظن أن الكل قد ظهر وبرز، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها وهو يظن أنه قد اقتلعها، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري. فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن، فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها، وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أنّ باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته. ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر، وانتشار الصيت في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء، والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمات، وإيثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد، والتمتع بتحريك الرؤوس إلى كلامه، والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا، لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص. ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوّش عليه

قلبه وتختلط أوراده ووظائفه. وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه. وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره، وينبو قلبه عمن عرف حدّ فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله. وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشدّ إصغاء إليه وأحرص على خدمته، ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه؛ فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه. وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه؛ لفقده في العزلة ولاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة، ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان: من زعم من بني آدم أنه بعلمه امتنع مني فبجهله وقع في حبائلي.

وعساه يصنف ويجتهد فيه ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف، فلو ادعى مدع تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن في غيره، ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علماً، ولقد كان في غنية عن الطعن فيه، ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه فيعزيه إلى قائله، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه، فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق، ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركاكة، ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس. وعساه غافلاً عما روي أن بعض الحكماء وضع ثلاثمائة مصحف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه: قل له: قد ملأت الأرض نفاقاً، وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً. ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعاً أو غيره، فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا، ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه، فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه، ولعل واحداً منهم إذا تحرّكت فيه مبادىء الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالطعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك، ويقول: إنما غضبت لدين الله لا لنفسي. ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه ـ يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين ـ وسر قلبه راض به ومريد له، والله مطلع عليه في ذلك. فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أنّ أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه، فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال، وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه، الممتن على الله بعمله وعلمه،

الظانّ أنه من خيار خلقه، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار، ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال. وهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم.

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم، وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه. فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح، ولم يخرسوا اللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات. فهؤلاء مغرورون من وجهين.

أحدهما: من حيث العمل.

والآخر: من حيث العلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض، ولكن يقول: ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك، وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال، وقد دهاه الشيطان وما يشعر؛ إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية. هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه، فهذا غروره من حيث العمل.

وأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظنّ أنه علم الدين وترك كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وربما طعن في المحدثين وقال: إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى، فتراه آمناً من الله مغتراً به، متكلاً على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوام دينه، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور، وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى؛ إذ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم: حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة والبدن مركب. وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة؛ فهي الحجاب بين

العبد وبين الله تعالى، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله. فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف، ولا شك في أنه لو لم يكن لتعطل الحج، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسبيله ـ وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم ـ، ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات، ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب، والتفقد لعيوب الأقران، والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء وهمهم السفه، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة ـ كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة ـ فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل، وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ وفهم معانيهما. وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام وإقامة سوق الجدل بها، فغرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة، واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها.

ثم هم فرقتان: ضالة ومحقة؛ فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنّة، والمحقة هي التي تدعو إلى السنّة، والغرور شامل لجميعهم. أما الضالة: فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضاً، وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها ولم تحكم أوّلاً شروط الأدلة ومنهاجها، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة، وأما الفرقة المحقة: فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث، وأنّ من صدّق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرّب عند الله.

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل، والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة، وأحدهم يظن أنّ اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل، ولكنه لالتذاذه بالغلبة والإفحام ولذة الرياسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأوّل، فإن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات، وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول؛ فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته، وإذا

رأوا مصراً على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر، بل قالوا: إنّ الحق هو الدعوة إلى السنّة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنّة. إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»**[١].

وخرج رسول الله ﷺ يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقىء في وجهه حب الرمان[٢] ـ حمرة من الغضب ـ فقال: **«أَلِهٰذَا بُعِثْتُمْ أَبِهٰذَا أُمِرْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ انْظُرُوا إِلَى مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»**. فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال. ثم إنهم رأوا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة، ودفع سؤال وإيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه، لأنّ ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم، فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله، بل يزيده التعصب والخصومة تشدّداً في بدعته، فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه؟ وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة؟ فالأولى أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه؛ لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات، وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون، ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والأسباب، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين. بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائي بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزهد في الدنيا

---

(١) حديث: **«ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»**. تقدم في العلم وفي آفات اللسان.

(٢) حديث: «خرج يوماً على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون، فغضب حتى كأنه فقىء في وجهه حب الرمان. . .» الحديث. تقدم.

لشدة حرصه على الدنيا وقوّة رغبته فيها، فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فارّ، ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس، ويقرّب إلى الله وهو منه متباعد، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصاً ـ لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت ـ، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غمّاً وحسداً، ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه.

فهؤلاء أعظم الناس غرّة وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به، فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف. نعم، إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة، وهو أن يدعي مثلاً حب الله فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله؟ ويدّعي الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف؟ ويدعي الزهد فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعي الأنس بالله فمتى طابت له الخلوة ومتى استوحش من مشاهدة الخلق؟. لا، بل يرى قلبه يمتلىء بالحلاوة إذا أحدق به المريدون، وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى، فهل رأيت محباً يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره؟ فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة، ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ، والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون، بل يطرحون في النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى، كما ورد به الخبر لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه، وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم قد قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه، وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها، وذهب عليهم أنّ القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة، فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف، بل ربما زاد أمنه وقل خوفه، وظهر إلى الخلق ميله وضعف في قلبه حب الله تعالى؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته، ويصف الصحة والشفاء، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به، وإنما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب، فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها، ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور. فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم.

وفرقة أخرى: منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ؛ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله، على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب، وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر هممهم بالأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن تكثر في

مجالستهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فإنّ الأوّلين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم. وأما هؤلاء فإنهم يصدّون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ورغبة في الدنيا، لا سيما إذا كان الواعظ متزيناً بالثياب والخيل والمراكب، فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا، فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلاً، ويضل خلقاً كثيراً ولا يخفى وجه كونه مغروراً.

وفرقة أخرى: منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها، فبعضهم يفعل ذلك على المنابر، وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية؛ إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض، وصار مغفوراً له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه. وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

وفرقة أخرى: استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث؛ أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية، فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان ولقد رأيت فلاناً ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري، وغرورهم من وجوه:

منها: أنهم كحملة الأسفار؛ فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنّة، فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل، ويظنون أنّ ذلك يكفيهم.

ومنها: أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها، وقد يفهمون بعضها أيضاً ولا يعملون به.

ومنها: أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالي منها، ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك.

ومنها: وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضاً لا يقيمون بشرط السماع، فإن السماع بمجرّده وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث، إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر. وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب، ثم يكتب اسم الصبي في السماع فإذا كبر تصدّى ليسمع منه، والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغيّر ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه، وكل ذلك جهل وغرور. إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله ﷺ فيحفظه كما سمعه، ويرويه كما حفظه، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعته من الصحابة أو التابعين، وصار سماعك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله ﷺ؛ وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروي كما حفظت، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفاً، ولو غير غيرك منه حرفاً أو أخطأ علمت خطأه.

ولحفظك طريقان:

أحدهما: أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار، كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال.

والثاني: أن تكتب كما تسمع، وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك، فإنه لو امتدّت إليه يد غيرك ربما غيره، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره، فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك، فيكون كتابك مذكراً لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف.

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس، ثم رأيت نسخةً لذلك الشيخ وجوّزت أن يكون ما فيه مغيراً أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجز لك أن تقول: سمعت هذا الكتاب، فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة، فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان: إنَّا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح. وأقل شروط السماع: أن يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير، ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ، فالصبي الذي يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس بينهم ولا يحفظ، وإن استجرأ جاهل فقال: يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن، فإن فرّق بينهما بأنّ الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت، فليقتصر إذا صار شيخاً على أن يقول: سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلساً يروى فيه حديث كان يقرع سمعي صوته ولا أدري ما هو؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح، وما زاد عليه فهو كذب صريح، ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لأنه سمع صوتاً غفلاً لجاز إثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل. ومن أين يأخذ هذا؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله ﷺ: **«نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَها»**(١)، وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أفحش أنواع الغرور. وقد بلي بهذا أهل الزمان، ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخاً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة، إلا أنّ للمحدّثين في ذلك جاهاً وقبولاً، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم، وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا، فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجري؟ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين؛ لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه، وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضاً مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد، وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة، وسالك طريقها

---

(١) حديث: **«نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها...»** الحديث. أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس.

ربما يكفيه الحديث الواحد عمره، كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أوّل حديث روي قوله عليه الصلاة والسلام: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**[(١)]، فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره. فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به، وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة؛ إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو. فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة، ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها، ويزعم أنّ العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بدّ من تعلمها وتصحيحها، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أنّ لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغريبين في الأحاديث والكتاب، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب، فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضاً مغرور، بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور؛ إذ المقصود من الحروف المعاني وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء، وضيع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين؛ فهو من الجهال المغرورين، فكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجرّدوا لها وعرجوا عليها ـ أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين ـ فاللب الأقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل، وهو كالقشر للعمل وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة ولب بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف، والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حمل النفس عليه، وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات. فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالإضافة إليه، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد. وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها. فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محموداً، ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى. والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى، فمن اتخذ القشر مقصوداً وعرج عليه فقد اغتر به.

وفرقة أخرى: عظم غرورهم في فن الفقه، فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في

(١) حديث: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسلاً، وقد تقدم.

مجلس القضاء، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساؤوا تأويل الألفاظ المبهمة، واغتروا بالظواهر وأخطؤوا فيها. وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتاوى مما يكثر. ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة: فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برىء الزوج بينه وبين الله تعالى، وذلك خطأ بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتبرىء الزوج لتتخلص منه، فهو إبراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النّساء: ٤]، وطيبة النفس غير طيبة القلب، فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن. نعم، القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر، والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه، ولكن مهما تصدّى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيل الإبراء، ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه، فلو طلب من الإنسان مالاً على ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه، وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه، ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال، وردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة؛ إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر، وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت؛ لأنه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب، وكذلك من يعطي اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام. ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال ـ بعد أن غفر له ـ: يا رب كيف لي بخصمي؟ فأمر بالاستحلال منه وكان ميتاً، فأمر بندائه في صخرة بيت المقدّس، فنادى: يا أوريا، فأجابه: لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فماذا تريد؟ فقال: إني أسأت إليك في أمر فهبه لي، قال: قد فعلت ذلك يا نبي الله، فانصرف وقد ركن إلى ذلك، فقال له جبريل عليه السلام: هل ذكرت له ما فعلت؟ قال: لا، قال: فارجع فبيِّن له، فرجع فناداه فقال: لبيك يا نبي الله، فقال: إني أذنبت إليك ذنباً، قال: ألم أهبه لك؟ قال: ألا تسألني ما ذلك الذنب؟ قال: ما هو يا نبي الله؟ قال: كذا وكذا، وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب، فقال: يا أوريا ألا تجيبني؟ قال: يا نبي الله ما هكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله، فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه في الآخرة. فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خلي الإنسان واختياره، حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه، لا أن تضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل والإلزام.

ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لإسقاط الزكاة، فالفقيه يقول: سقطت الزكاة، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه فقد صدق؛ فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال، وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون كمن لم يملك المال، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة، فإن سر الزكاة تطهير

القلب عن رذيلة البخل، فإن البخل مهلك قال ﷺ: **«ثلاث مهلكات شح مطاع»**[(١)]، وإنما صار شحه مطاعاً بما فعله وقبله لم يكن مطاعاً. فقد تم هلاكه بما يظن أنّ فيه خلاصه فإنّ الله مطلع على قلبه وحبه المال وحرصه عليه، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسدّ على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأماني والفضول والشهوات وبين الحاجات، بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة، فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته، وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته، ولو ذهبنا نصِف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات، والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإنّ ذلك يطول.

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الصلاة، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن، ومنهم في الحج، ومنهم في الغزو، ومنهم في الزهد، وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً عن غرور إلا الأكياس وقليل ما هم.

فمنهم فرقة: أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة؛ إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وذلك منهي عنه[(٢)]، وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، إلا أن الشيطان يصدّ الخلق عن الله بطريق سني، ولا يقدر على صدّ العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك.

وفرقة أخرى: غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة، بل يشوّش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت، وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه، يفعلون ذلك في أوّل الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم، ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أوّل الصلاة، وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم.

وفرقة أخرى: تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا

(١) حديث: **«ثلاث مهلكات...»** الحديث. تقدم غير مرة. تمامه: **[وهوى متبع، وإعجاب المرء نفسه]**.

(٢) حديث: النهي عن الإسراف في الوضوء. أخرجه الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث أبي بن كعب: **«إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان...»** الحديث. وتقدم في عجائب القلب.

يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته، لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه، ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره. وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام.

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرةً بعد أخرى، وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل.

وفرقة آخرى: اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذّاً، وربما يختمونه في اليوم والليل مرة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني؛ إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه.

ومثاله: مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور. نعم، تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هي لذته في صوته، ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته.

وفرقة آخرى: اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة، وخواطرهم عن الرياء، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير، فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه، وذلك غاية الغرور.

وفرقة آخرى: اغتروا بالحج، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء، فيعصي الله تعالى في كسب الحرام أوّلاً، وفي إنفاقه بالرياء ثانياً، فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدّم تطهيره على حضوره، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه، فهو مغرور.

وفرقة آخرى: أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة، وإذا باشر منكراً ورد عليه غضب وقال: أنا المحتسب فكيف تنكر عليّ؟. وقد يجمع الناس إلى مسجده، ومن تأخر عنه أغلظ

القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله، ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال: لم آخذ حقي وزوحمت على مرتبتي، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال: إنه إمام مسجد، فلو تقدّم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه.

وفرقة أخرى: جاوروا بمكة أو المدينة، واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم، فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أنّ فلاناً مجاور بذلك، وتراه يتحدّى ويقول: قد جاورت بمكة كذا كذا سنة، وإذا سمع أنّ ذلك قبيح ترك صريح التحدّي وأحب أن يعرفه الناس بذلك، ثم إنه قد يجاور ويمدّ عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس، وإذا جمع من ذلك شيئاً شح به وأمسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدّق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع، وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة، ولكن حب المحمدة وأن يقال: إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات، فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين، فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة، وفي الحج من كتاب الحج، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب.

وفرقة أخرى: زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرّد الزهد، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين، فإنّ الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب، فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا؛ ولم يدر أنّ منتهى لذاتها الرياسة، وأنّ الراغب فيها لا بدّ وأن يكون منافقاً وحسوداً ومتكبراً ومرائياً ومتصفاً بجميع خبائث الأخلاق. نعم، وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور؛ إذ يتطول بذلك على الأغنياء ويخشن معهم الكلام، وينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويعجب بعمله، ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لا يدري، وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال: بطل زهده، ولو قيل له: إنه حلال فخذه في الظاهر ورده في الخفية لم تسمح به نفسه خوفاً من ذم الناس، فهو راغب في حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور، ومع ذلك فربما لا يخلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء، والميل إلى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه. وفي العباد من يشدّد على نفسه في أعمال الجوارح؛ حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ويختم القرآن، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدري أنّ ذلك مهلك، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات! وذرة من ذي تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح، ثم لا يخلو هذا المغرور ـ مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه ـ عن الرياء وحب الثناء، فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور

بذلك وصدق به وزاده ذلك غروراً، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله، ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه.

وفرقة آخرى: حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**ما تَقَرَّبَ الـمُتَقَرِّبُونَ إلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ**»[1]، وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور. بل قد يتعين في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد؛ إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أباك**» قال: ثم من؟ قال: «**أدناك فأدناك**»[2]، فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع. وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدّم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه. وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه، وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك؛ فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة. وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور. وهذا غرور في غاية الغموض؛ لأنّ المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها. ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب؛ لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه. فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدّم عليهم يعمي عليه حتى يغتر به مع نفسه، ويظنّ أنه مشغول بهم دينه.

الصنف الثالث: المتصوّفة وما أغلب الغرور عليهم! والمغترون منهم فرق كثيرة.

ففرقة منهم: وهم متصوّفة أهل الزمان إلا من عصمه الله؛ اغتروا بالزي والهيئة والمنطق، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم، وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس

---

(١) حديث: «**ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم**» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: «**ما تقرب إليّ عبدي**».

(٢) حديث: من أبر؟ قال: «**أمك...**» الحديث. أخرجه الترمذي والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده، وقد تقدم في آداب الصحبة.

وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضاً صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية، كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها؟ بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه. وهؤلاء غرورهم ظاهر، ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها، وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان، وكيف تحريكهم الأيدي، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها في الشجاعة، فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر؟ فقيل لها: أجئت للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم؟ خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت إلى الفيل. فهٰكذا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء، وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزي والمرقع بل إلى القلب.

وفرقة أخرى: زادت على هؤلاء في الغرور، إذ شق عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب والرضا بالدون، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدّاً من التزين بزيهم، فتركوا الحرير والإبريسم، وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمةً من الحرير والإبريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوّف بمجرّد لون الثوب وكونه مرقعاً، ونسي أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد، فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة، ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق؛ إذ يهلك من يقتدي بهم، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة، ويظنّ أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم.

وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال، والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزدراء فضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً معدودة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول في العباد: إنهم أجراء

متعبون، ويقول في العلماء: إنهم بالحديث عن الله محجوبون، ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يحكم قط علماً ولم يهذب خلقاً، ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه.

وفرقة أخرى: وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام، فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي، وبعضهم يقول: قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن، وإنما يغتر به من لم يجرب، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال. ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما، بل إنما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع. وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة، حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية. وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به. وإحصاء أصنافهم يطول.

وفرقة أخرى: جاوزت حدّ هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله، ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي حب الله قبل معرفته، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عزّ وجلّ وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى. وليس يدري [أن كل] ذلك يناقض الحب، وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل؛ فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به، وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور، وقد اغتر به قوم. وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها.

وفرقة أخرى: ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص، وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك، وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبد بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي. فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور.

وفرقة أخرى: ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدّوا لخدمة الصوفية؛ فجمعوا قوماً وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال، وإنما غرضهم التكبر، وهم يظهرون الخدمة

والتواضع وغرضهم الارتفاع، وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستتباع، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق، وباعث جميعهم الرياء والسمعة، وآية ذلك: إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهراً وباطناً، ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه. ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علماً وحرفة، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها، فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيباً عيب، والالتفات إلى كونه عيباً عيب، ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها، ومن جعل طول عمره في التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج، فذلك لا يغنيه.

وفرقة أخرى: جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤوا سلوك الطريق وانفتحت لهم أبواب المعرفة، فكلما تشمموا من مبادىء المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفاف إليها والتفكر فيها، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

وفرقة أخرى: جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حدّ القربة إلى الله تعالى، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا، فإن لله تعالى سبعين حجاباً من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل. وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى إخباراً عنه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦] وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحداً، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم عليه السلام لا يغرّه الكوكب الذي لا يغرّ السوادية. ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عزّ وجلّ وهي على طريق السالكين، ولا يتصوّر الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض، وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أوّل ما كان يلقاه أنه قد وصل، ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً فيترقى إليه ويقول: قد وصلت فيكشف له ما وراءه، حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده، فقال: ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] إلى أن قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الأول، وأوّل الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضاً أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى؛ أعني سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أوّل الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له، فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول: أنا الحق. فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس، فهو مغرور وهذا محل الالتباس؛ إذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل:

رقّ الزجاج ورقّتِ الخمرُ ... فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح؛ فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمدّ يده إليه ليأخذه وهو مغرور، وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات، ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة، وذلك مما لا رخصة في ذكره، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه، إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره، والذي لم يسلكه لاينتفع بسماعه، بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم، ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذي هو فيه، بل ربما يصدّق بأنّ الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف، ويصدّق أيضاً بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله، ومن عظم غروره ربما أصر مكذباً بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل.

الصنف الرابع: أرباب الأموال؛ والمغترون منهم فرق:

ففرقة منهم: يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها، ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك. وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرّضوا لسخطه في انفاقها، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها، فإذن: قد عصوا الله بكسبها، فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله، وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين، وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر، وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لبقاء الخير.

والوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كلف

واحد منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب، ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك.

وفرقة أخرى: ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد؛ وهي أيضاً مغرورة من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها، وإنما يخف عليهم الصرف على المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

والثاني: أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم(١)، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك، ووبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعدّ ذلك وسيلة إلى الله تعالى، وهو مع ذلك قد تعرّض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لأمره، وقد شوّش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد، وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا، فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رقبته؛ إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى. قال مالك بن دينار: أتى رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلي لا يدخل بيت الله، فكتبه الملكان عند الله صديقاً. فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى. وقال الحواريون للمسيح عليه السلام: انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه! فقال: أمتي أمتي بحق أقول لكم: لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض، وبها يخرّب إذا كانت على غير ذلك. وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «**إذا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ**»(٢). وقال الحسن: «إنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ مَسْجِدَ المَدِينَةِ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ لَهُ: ابْنِهِ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ طُولاً فِي السَّمَاءِ لا تُزَخْرِفْهُ وَلا تَنْقُشْهُ»(٣)، فغرور هذا من حيث إنه رأى المنكر واتكل عليه.

وفرقة أخرى: ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف، ويكرهون التصدّق في السر، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفراناً، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى،

---

(١) حديث: «النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش». أخرجه البخاري من قول عمر بن الخطاب: أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر.

(٢) حديث: «**إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم**». أخرجه ابن المبارك في الزهد، وأبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفاً على أبي الدرداء.

(٣) حديث الحسن مرسلاً. لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل فقال: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه. لم أجده.

وربما تركوا جيرانهم جياعاً، ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب، يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه. وقال أبو نصر التمار: إن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث وقال: قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم. قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحداً فافعل؛ فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل اليقين.

وفرقة أخرى: من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون؛ لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين؟. ولذلك قيل لبشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه، ومن جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

وفرقة أخرى: غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم، ومن يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخار في خدمة، أو من لهم فيه على الجملة غرض، أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلةً فيقوم بحاجاته، وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر؛ إذ طلب بعبادة الله عوضاً من غيره، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضاً لا يحصى. وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور.

وفرقة أخرى: من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادةً، ويظنون أنّ لهم على مجرّد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجراً، وهم مغرورون؛ لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير، فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها، وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم، أو نعوذ بالله، أو سبحان الله!، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع

ما يجري، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئاً. فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا؛ فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً.

فإن قلت: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لايتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه، وهذا يوجب اليأس؛ إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات؟ فأقول: الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله، وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه، وإذا أراد أن يقنص الوحوش المطلقة في البراري والصحارى اقتنصها، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها، وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخراج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات، فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد، وسخر البازي لاقتناص الطيور، وهيأ الشبكة لاصطياد السمك، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي. كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه، فلو همه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد هو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل، وقال: هذا محال، ومن الذي يقدر عليه؟ وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد، بل هو كما يقال:

لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها.

فإن قلت: قد قرّبت الأمر فيه مع أنك أكثرت في ذكر مداخل الغرور، فبم ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم: أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل والعلم والمعرفة. فهذه ثلاثة أمور لا بد منها.

أما العقل: فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء، فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة، والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بدّ منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن. نعم، إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة، قال رسول الله ﷺ: **«تَبَارَكَ الله الَّذِي قَسَمَ العَقْلَ بَيْنَ عِبَادِهِ أشْتَاتاً»**(١)، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد، وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين. وعن أبي الدرداء أنه قيل: يا رسول الله، أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدّق ويغزو

---

(١) حديث: «تبارك الذي قسم العقل بين عباده...» الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلاً وفي أوله قصة، وإسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضاً.

في سبيل الله، ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة. فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ**»(١)، وقال أنس: أثني على رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا خيراً، فقال رسول الله ﷺ: «**كَيْفَ عَقْلُهُ**»، قالوا: يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال: «**كَيفَ عَقْلُهُ فإنَّ الأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الفَاجِرِ. وَإِنَّما يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ**»(٢)، وقال أبو الدرداء: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدّة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا: حسن قال: «**أَرْجُوهُ**» وإن قالوا غير ذلك: قال «**لَنْ يَبْلُغَ**»(٣)، وذكر له شدّة عبادة رجل فقال: «**كَيفَ عَقْلُهُ**» قالوا: ليس بشيء قال: «**لَنْ يَبْلُغَ صَاحِبُكُمْ حَيثُ تَظُنُّونَ**». فالذكاء صحيح وغريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة، فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها.

الثاني: المعرفة؛ وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة؛ فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعاً هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه، فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة، وفي كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب التفكر، وكتاب الشكر؛ إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله، ويحصل به التنبه على الجملة وكمال المعرفة وراءه، فإن هذا من علوم المكاشفة، ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة. وأما معرفة الدنيا والآخرة: فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت؛ ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور.

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى **الثالث** وهو العلم؛ أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يقرّبه من الله وما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله. (وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله، فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه، ويعرف من

---

(١) حديث أبي الدرداء: «**أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل. . .**» الحديث. وفيه: «**إنما يجزى على قدر عقله**» أخرجه الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء.

(٢) حديث أنس: أثني على رجل عند النبي ﷺ فقال: «**كيف عقله؟ . . .**» الحديث. أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل وهو ضعيف. وتقدم في العلم.

(٣) حديث أبي الدرداء: «كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة، سأل عن عقله. . .» الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر، وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه.

ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها)، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله: أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فإن قلت: فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه؟ فأقول: يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق أو نشر العلم ودعوته الناس إلى ما عرفه من دين الله، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفّاه من جميع المكدّرات، واستوى على الصراط المستقيم، وصغرت الدنيا في عينه فتركها، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم، ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه، وقد عجز الشيطان عن إغرائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه، فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صماً عمياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون، وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب، فغلب على قلبه الرحمة لهم، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبيّن لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم، فوجد له دواء عفواً صفواً من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرىء وصح؛ فطاب نومه بالليل بعد طول سهره، وهدأ بالنهار بعد شدة القلق، وطاب عيشه بعد نهاية الكدر؛ وأصاب لذة العافية بعد طول السقام، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم، فتذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان، فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم، فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفي من أمراض القلوب؛ شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم وإشفاؤهم، وسهل عليه دواؤهم؛ فانبعث من ذات النفس عزم جازم في الاشتغال بنصحهم، وحرّضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالاً للفتنة، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعاه إلى الرياسة دعاء خفياً أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد، فلم يزل ذلك الدبيب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئة، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك؛ إذ رأوه شافياً لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولاً كالعبيد والخدم، فخدموه وقدّموه في المحافل، وحكموه على الملوك والسلاطين، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدّت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة. وأمارة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان: أنه لو أخطأ فردّ عليه بين يدي الخلق غضب، فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل إليه أنّ ذلك غضب لله؛ لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور، فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع، ووقع في الكبر الذي هو تمرّد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات، وكذلك إذا سبقه الضحك أو فتر

عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه، وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة، ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه، ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يغتنم ذلك؛ إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقي من البئر بسببه، فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه، فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر، فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار؛ فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه، أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه يثقل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهتدوا بغيره فلِمَ يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه. فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء.

فإن قلت: فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس؟ فأقول: إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يودّ لو وجد من يعينه، أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم، فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده، ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم. أما إلى السادات: فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيراً منه لجهله بالخاتمة، وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع!، بل راعي الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه. فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم، ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه.

فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب؟ فأقول: قد قال رسول الله ﷺ: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ**»[1]، ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والأبدان جميعاً، إلا أنه ﷺ علم أنّ حب الدنيا مهلك وأنّ ذكر كونه مهلكاً لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفاً من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السَّجدَة: ١٣]، فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول: إنّ الوعظ لحب الرياسة حرام، كما لا يدع الخلق الشرب والزنى والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله: إنّ ذلك حرام، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب

---

(١) حديث: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً، وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا.

من حديث الناس، فإنّ الله تعالى يصلح خلقاً كثيراً بإفساد شخص واحد وأشخاص، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١] وإنّ الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ، فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبداً.

فإن قلت: فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح، أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه، فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الاغترار؟ فاعلم: أنه بقي عليه أعظمه وهو أنّ الشيطان يقول له: قد أعجزتني وأفلتَّ مني بذكائك وكمال عقلك، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك! وما أعظم عند الله قدرك ومحلك؛ إذ قوّاك على قهري، ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري! فيصغي إليه ويصدّقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر، فالعجب أعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: يا ابن آدم، إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي.

فإن قلت: فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أنّ ذلك من الله تعالى لا منه، وإنّ مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى، فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب؟ فأقول: يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره، ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدّاً، بل سبيله أن يكون مشاهداً جملة ذلك من فضل الله، ثم خائفاً على نفسه أن يكون قد سدّت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه، ويكون خائفاً أن يسلب حاله في كل طرفة عين، غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال: أفلت مني يا فلان؟ فقال: لا، بعد. ولذلك قيل: الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فإذن: المغرور هالك، والمخلص الفارّ من الغرور على خطر، فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبداً.

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة، فإنّ الأمور بخواتيمها.

تم كتاب ذم الغرور، وبه تم ربع المهلكات، ويتلوه في أوّل ربع المنجيات «كتاب التوبة»، والحمد لله أوّلاً وآخراً، وصلى الله وسلّم على من لا نبي بعده وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدّر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الثواب، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التوّاب، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب.

ونصلي على نبيه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب. وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب.

أما بعد: فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأوّل إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وما أجدر بالأولاد، الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم، فهي شنشنة نعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم، ولقد قرع آدم سن الندم، وتندّم على ما سبق منه وتقدم. فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم. بل التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان؛ فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيتان. وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان؛ فالتائب قد أقام البرهان، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان. فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان؛ فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجناً محكماً لا يخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان، وإليك الآن اختيار أهون النارين، والمبادرة إلى أخف الشرين، قبل أن يطوى بساط الاختيار، ويساق إلى دار الاضطرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار. وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها، والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان:

الركن الأول: في نفس التوبة وبيان حدّها، وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال، وأنها إذا صحت كانت مقبولة.

الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهو الذنوب، وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر، وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر.

الركن الثالث: في بيان شروط التوبة ودوامها، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم، وكيفية تكفير الذنوب، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة.

الركن الرابع: في السبب الباعث على التوبة، وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين.

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عزّ وجلّ.

* * *

الركن الأول

في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها:

اعلم: أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم الأوّل، والحال الثاني، والفعل الثالث. والأوّل موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطراد سنّة الله في الملك والملكوت. أما العلم؛ فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال: فبالترك للذنب الذي كان ملابساً، وأما بالاستقبال: فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر. وأما بالماضي: فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر، فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات؛ وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب؛ حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب؛ فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم كالسابق، والمقدّمة

والترك كالثمرة، والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[(١)]. إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه؛ فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعني ثمرته ومثمره، وبهذا الاعتبار قيل في حدّ التوبة: إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ؛ فإن هذا يعرض لمجرّد الألم، ولذلك قيل: هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب، وباعتبار معنى الترك قيل في حدّ التوبة: إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء. وقال سهل بن عبدالله التستري: التوبة: تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال. وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة، والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر، وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجرّدة.

بيان وجوب التوبة وفضلها:

اعلم: أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار[(٢)] والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره، حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل، مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه، وإما بصير يهدى إلى أوّل الطريق ثم يهتدي بنفسه، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنّة رسوله، وربما يعوزه ذلك فيتحير؛ فسير هذا وإن طال عمره وعظم جدّه مختصر وخطاه قاصرة. ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة، ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدّة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أوّلاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى. وقول القائل: صار واجباً بالإيجاب حديث محض، فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم. وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني، والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً، وعلم أنه لا مقرّب من لقاء الله

---

(١) حديث: «الندم توبة» أخرجه ابن ماجه وابن حبان وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) الأخبار الدالة على وجوب التوبة: أخرج مسلم من حديث الأغر المزني: «يا أيها الناس توبوا إلى الله. . .» الحديث. ولابن ماجه في حديث جابر: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا. . .» الحديث. وسنده ضعيف.

إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم، والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى؛ فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١] وهذا أمر على العموم، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التّحريم: ٨] الآية. ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب؛ مأخوذ من النصح. ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢] وقال عليه السلام: **«التائبُ حَبِيبُ الله وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ»**(١)، وقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُه فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحَرُّ وَالعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ: أَرْجِع إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ»**(٢). وفي بعض الألفاظ: **«قال من شدّة فرحه إذ أراد شكر الله: أنا ربك وأنت عبدي»**.

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عزّ وجلّ على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: يا آدم، قرّت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه: يا آدم، ورّثت ذويك التعب والنصب وورّثتهم التوبة، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب. والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها؛ إذ معناه العلم بأنّ الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى، وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها. ومن معانيها: ترك المعاصي في الحال

---

(١) حديث: **«التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»** أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول، وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة، وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف: **«إن الله يحب الشاب التائب»** ولعبدالله بن أحمد في زوائد المسند وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث علي: **«إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب»**.

(٢) حديث: **«الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة..»** الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس. زاد مسلم في حديث أنس: **«ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»** ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير، ومن حديث أبي هريرة مختصراً.

والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يشك في وجوبه. وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب، وهو روح التوبة، وبه تمام التلاقي، فكيف لا يكون واجباً، بل هو نوع ألم يحصل ـ لا محالة ـ عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله.

فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؟ فاعلم: أنّ سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصّافات: ٩٦]. هذا هو الحق عند ذوي الأبصار وما سوى هذا ضلال.

فإن قلت: أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا: نعم، وذلك لا يناقض قولنا: إنّ الكل من خلق الله تعالى، بل الاختيار أيضاً من خلق الله، والعبد مضطر في الاختيار الذي له، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختياراً، ولا بدّ من حصوله عند تمام أسبابه، فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحرّكت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة؛ إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضرورياً، فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وهما أيضاً من خلق الله، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع، وهما أيضاً من خلق الله تعالى، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيباً جرت به سنّة الله تعالى في خلقه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة، وما لم يخلق فيها حياة، وما لم يخلق إرادة مجزومة، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل، ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم؛ فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة، والقدرة والإرادة أبداً تستردف الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل، والكل من اختراع الله تعالى، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض، فلذلك يجب تقدّم البعض وتأخر البعض، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم؛ فيكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة لا أن الحياة تتولد من الجسم، ويكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم لا أنّ العلم يتولد من الحياة، ولكن لا يستعدّ المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً، ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة لا أنّ العلم يولد الإرادة، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال، فمهما وجد شرط الوصف استعدّ المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب،

والعبد مجرىٰ هذه الحوادث المرتبة، وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير، وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]. وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر: خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة، وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت، وقالوا: يا أيها الرجل قد تحرّكت ورميت وكتبت، ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وما قتلت إذ قتلت. ولكن ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]. وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة؛ فمن قائل إنه جبر محض، ومن قائل إنه اختراع صرف، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأنّ القصور شامل لجميعهم. فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه، وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوّة نافذة إلى عالم الغيب، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة، لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء، ومن حرّك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر، وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه، وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال؟ فاعلم: أنّ جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه، فقالوا: لا بدّ لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فطلبوه، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه، ووقع يد بعضهم على نابه، ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا: قد عرفناه، فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرجل: إنّ الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها، وقال الذي لمس الناب: ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه، وأملس لا خشونة فيه، وليس في غلظ الأسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود، وقال الذي لمس الأذن: لعمري هو لين وفيه خشونة، فصدق أحدهما فيه ولكن قال: ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه؛ إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه، وإن كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرّك أمواجها وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أنّ التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك، وأنّ الندم داخل في الوجوب لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله.

بيان أن وجوب التوبة على الفور:

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور والمتقصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه، فإنّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصي عن عهدته ما لم يصر باعثاً عليه؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً لتركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عليه السلام: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[1]، وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإنّ ذلك لا ينفيه الزنى والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنى مبعداً عن الله تعالى، موجباً للمقت، كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله يقال: تناول وهو غير مؤمن؛ لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيباً وغير مصدّق به، بل المراد أنه غير مصدّق بقوله: إنه سم مهلك؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً. فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان، وليس الإيمان باباً واحداً، بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب، مقلوم الأظافر، نقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها، وهذا مثال مطابق، فالإيمان كالإنسان، وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدّها وتقوّيها؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدّمة قدوم ملك الموت ووروده؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا ما يسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت. وقول العاصي للمطيع: إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف؛ فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار:

وسوف ترى إذا انجلى الغبارُ ... أفَرَسٌ تحتك أم حمارُ

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدّماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون؛ فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالباً لا يقع فجأة، فيقال له: الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت، وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم

---

(١) حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

إذا ختم له بالسوء ـ والعياذ بالله ـ وجب الخلود في النار. فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصي، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور، والمبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية؛ فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن، ما دام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدّته؛ إذ ليس لمدّته آخر ألبتة. فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم، ولا ينفع بعده الاحتماء، فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين، ويدخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس: ٨-١٠] ولا يغرّنك لفظ الإيمان، فنقول: المراد بالآية الكافر؛ إذ بيّن لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد: وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل، فلا يستغني أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها، فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها، ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم.

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة:

اعلم: أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فعمم الخطاب. ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه؛ إذ معنى التوبة: الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، ولا يتصوّر ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان. إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة؛ إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل

فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان، ووقع القلب به أنس، وألِف ـ لا محالة ـ مقتضيات الشهوات بالعادة، وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٦٢]، وإن كمل العقل وقوي كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان إلى طريق الله تعالى، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله، وغريزته ـ التي هي عدة الشيطان ـ متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان نبياً كان أو غبياً، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل:

فلا تحسبنّ هنداً لها الغدرُ وحدها ... سجية نفس، كل غانيةٍ هندُ

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس، لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدّل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها، فإذن: كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره، فإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه، وكل هذا رجوع وتوبة، فدل على أنّ التوبة فرض عين في حق كل شخص يتصوّر أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم، فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلاً. وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال: فهو أنّ كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه؛ إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب؟ فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضدّه والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصوّر الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بدّ منه، ولهذا قال عليه السلام: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[١] الحديث، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَتْح: ٢]. وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟.

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص، وأنّ الكمال في الخلو عنه، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال، وأنّ الانتقال

(١) حديث: «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة**» أخرجه مسلم من حديث الأغر المزني، إلا أنه قال: «**في اليوم مائة مرة**» وكذا عند أبي داود، وللبخاري من حديث أبي هريرة: «**إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة**» وفي رواية البيهقي في الشعب: «سبعين» لم يقل: «**أكثر**»، وتقدم في الأذكار والدعوات.

إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع، والرجوع توبة، ولكن هذه فضائل لا فرائض، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة؛ إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع: فما المراد بقولك: التوبة واجبة في كل حال؟ فاعلم: أنه قد سبق أنّ الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً، وليس معنى التوبة تركها فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: ١٤]، فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده، وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث، ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب، كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: **«أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»**[1]، فإذن: لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات؛ هذا في قلب حصل أوّلاً صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة. فأما التصقيل الأوّل ففيه يطول الصقل؛ إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة؛ فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً، وكل ذلك يرجع إلى التوبة، فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجباً، بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم: أن الواجب له معنيان:

أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق؛ وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرّغ أحد للتقوى، بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار.

والواجب الثاني: هو الذي لا بدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال: الطهارة واجبة في صلاة التطوّع - أي لمن يريدها -، فإنه لا يتوصل إليه إلا بها. فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها، كما يقال: العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان، يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا، فأما من قنع بأصل الحياة ورضي أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها

---

(١) حديث: **«أتبع السيئة الحسنة تمحها»** أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره، وقال حسن صحيح، وقد تقدم في رياضة النفس.

تنتهي الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة، وفيه سعي الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، وعليه كان حرصهم، وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً في منامه، فجاء إليه الشيطان وقال: أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم، وما الذي حدث؟ فقال: توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؟. فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم. أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة؟ أفترى أن نبينا محمداً ﷺ لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه[١]، وشغله شراك نعله الذي جدّده حتى أعاد الشراك الخلق[٢]؛ لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة عباده؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به؟ أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه؟ فلم تاب عن شرابه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرّفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصدّيقون.

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله، وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله، وإياك مرة واحدة أن تغرّك الحياة الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور، فهذه أسرار من استنشق مبادىء روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمّر عُمر نوح، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشدّ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جوهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً، وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً. فإن كنت لا تبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإنّ نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلاً، وهو

---

(١) حديث: نزعه ﷺ الثوب الذي كان عليه في الصلاة: تقدم في الصلاة أيضاً.

(٢) حديث: نزعه الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق: تقدم في الصلاة أيضاً.

أوّل ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سَبَأ: ٥٤] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١٠، ١١] فقيل: الأجل القريب الذي يطلبه: معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد: يا ملك الموت: أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي، وأتوب وأتزوّد صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: فأخرني ساعة فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه، ويتجرّع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه؛ فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة ـ والعياذ بالله ـ خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا يقال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النّساء: ١٨] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النّساء: ١٧] ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندّم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال ﷺ: «**أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**» ولذلك قال لقمان لابنه: يا بني، لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو.

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، ولذلك ورد في الخبر: «**إن أكثر صياح أهل النار من التسويف**»[1]، فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة؛ إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر.

قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام:

أحدهما: إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إليّ كيف تلقاني.

والثاني: عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٤٠] وبقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون: ٨].

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة:

اعلم: أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا: أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعدّ لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى، وعلموا: أن القلب خلق سليماً في

---

(١) حديث: «**إن أكثر صياح أهل النار من التسويف**» لم أجد له أصلاً.

الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمته السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أنّ كل ثوب نظيف فهو مقبول، فإنما عليك التزكية والتطهير. وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له، وهو المسمى فلاحاً في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أنّ القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأنّ بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يَبْقِ من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه؛ إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه، فمن يتوهم أنّ التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أنّ الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم، قد يقول باللسان: تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه: قد غسلت الثوب، وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية، فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ [غافر: ٣] إلى غير ذلك من الآيات. وقال ﷺ: «**للَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ....**» الحديث. والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة. وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالتَّوْبَةِ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[1]، وبسط اليد: كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل. وقال ﷺ: «**لَوْ عَمِلْتُم الخَطَايَا حَتى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ نَدِمْتُمْ لَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**»[2]، وقال أيضاً: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ**، فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال:

---

(١) حديث: «**إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار...**» الحديث. رواه مسلم من حديث أبي موسى بلفظ: «**يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار...**» الحديث. وفي رواية للطبراني «**المسيء الليل أن يتوب بالنهار...**» الحديث.

(٢) حديث: «**لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم**» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ «**لو أخطأتم**» وقال: «**ثم تبتم**».

يَكُونُ نُصبَ عَينِه تائباً مِنهُ فارّاً حَتّى يَدخُلَ الجَنّةَ»[(١)]، وقال ﷺ: «كَفّارَة الذّنبِ النّدامَة»[(٢)]، وقال ﷺ: «التّائب مِنَ الذّنبِ كَمَن لا ذَنبَ لَهُ».

ويروى: «أن حبشياً قال: يا رسول الله، إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «نعم» فولى ثم رجع فقال: يا رسول الله، أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «نعم»، فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه»[(٣)].

ويروى: أن الله عزّ وجلّ لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه[(٤)].

وقال ﷺ: «إنَّ الحَسَناتِ يُذهِبنَ السَّيئاتِ كَمَا يُذهِبُ المَاءُ الوَسَخَ»[(٥)]، والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٥] في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الفضيل: قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصدّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم.

وقال طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: من ذكر خطيئة ألمَّ بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب.

ويروى: أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لئن عدت لأعذبنك، فقال: يا ربّ أنت أنت وأنا أنا، وعزتك إن لم تعصمني لأعودن، فعصمه الله تعالى.

---

(١) حديث: «**إن العبد ليذنب فيدخل به الجنة...**» الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة: «**إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له...**» الحديث. وفيه صالح المري، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث. ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر: «**إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه**» والحديث غير محفوظ، قاله العقيلي.

(٢) حديث: «**كفارة الذنب الندامة**» أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس، وفيه يحيى بن عمرو بن مالك اليشكري ضعيف.

(٣) حديث: أن حبشياً قال: يا رسول الله، إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «**نعم**» الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «**إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح...**» الحديث. أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد: «**أن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»، أورده المصنف بصيغة: ويروى كذا ولم يعزه إلى النبي ﷺ فذكرته احتياطاً.

(٥) حديث: «**إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ**» لم أجده بهذا اللفظ، وهو صحيح المعنى، وهو بمعنى: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**» رواه الترمذي، وتقدم قريباً.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشفقاً منه، فيغفر له.

ويروى: أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمّ به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان؛ فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس.

وقال عبدالرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبدالرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فقال: إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً، ولقد بلغني: أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

وقال عبدالله بن سلام: لا أحدّثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

وقال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوّابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال بعضهم: أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب عليَّ.

وقال آخر: أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة، أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة.

ويروى: أنه كان في بني إسرائيل شاب عبدالله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ـ ولا يرى شخصاً ـ: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً، فجنوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عيّ ولا بكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم، وقرؤوا صحيفة الخطايا، فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

فإن قلت: أفتقول ما قالته المعتزلة من أنّ قبول التوبة واجب على الله؟ فأقول: لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وأنه العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش، وأنّه إذا منع الماء مدّة وجب العطش، وأنّه إذا دام العطش وجب الموت، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى، بل

أقول: خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلاً للعطش، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة، فلا واجب على الله تعالى، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة.

فإن قلت: فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه؟ فأقول: شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة، فإنّ للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتي، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل؟ وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة، وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى.

* * *

الركن الثاني

فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم: أنّ التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً، فمعرفة الذنوب إذن واجبة، والذنب: عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل، وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أوّلها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها، والله الموفق للصواب برحمته.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم: أنّ للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة ـ على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ـ، ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية. وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة، فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران في السكنجبين آثاراً مختلفة. **فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية** فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى، وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً: وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات.

الثانية: هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر، وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال.

الثالثة: الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلَب، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنى واللواط والسرقة، وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفة السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجم على الناس بالضرب والشتم

والقتل واستهلاك الأموال، ويتفرع عنها جمل من الذنوب، وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أوّلاً ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق. فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح.

قسمة ثانية: اعلم: أنّ الذنوب تقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد. فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر: الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك: فالديوان الذي يغفر: ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر: فالشرك بالله تعالى، وأما الديوان الذي لا يترك؛ فمظالم العباد[1]. أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها.

قسمة ثالثة: اعلم: أنّ الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها، فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة، وهذا ضعيف؛ إذ قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] وقال ﷺ: **«الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر»**[2]. وفي لفظ آخر: **«كفارات لما بينهن إلا الكبائر»**، وقد قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص: **«الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس»**[3]، واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، فقال ابن مسعود: هن أربع. وقال ابن عمر: هن سبع. وقال عبدالله بن عمرو: هن تسع. وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر: الكبائر سبع، يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع، وقال مرة: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة. وقال غيره: كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر. وقال بعض السلف: كل ما أوجب عليه الحدّ في الدنيا فهو كبيرة، وقيل: إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة. وقال ابن مسعود ـ لما سئل عنها ـ: اقرأ من أوّل سورة النساء إلى

---

(١) حديث: **«الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر. . .»** الحديث. أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره، وله شواهد من حديث سلمان، رواه الطبراني.

(٢) حديث: **«والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر»** رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث عبدالله بن عمرو: **«الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس»** رواه البخاري.

رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النّساء: ٣١] فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة. وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشر جمعتها من جملة الأخبار(١)،

---

(١) الأخبار الواردة في الكبائر: حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال: الكبائر سبع عشرة جميعها من جملة الأخبار، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم: الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره، وشهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسحر، وشرب الخمر، والمكر، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا، والزنى، واللواط، والقتل، والسرقة، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين. انتهى. وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً، وقد تقدم أربعة منها في حديث عبدالله بن عمرو، وفي الصحيحن من حديث أبي هريرة: **«اجتنبوا السبع الموبقات»** قالوا: يا رسول الله، وما هي؟ قال: **«الشرك بالله والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات»** ولهما من حديث أبي بكرة: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال: **«الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور ـ أو قال: قول الزور ـ »**، ولهما من حديث أنس: سئل عن الكبائر قال: **«الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين»** وقال: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** قال: **قول الزور**، أو قال: **شهادة الزور»**، ولهما من حديث ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»** قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»** قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني حليلة جارك»**. وللطبراني من حديث سلمة بن قيس: **«إنما هي أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا»**، وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت: **«بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا»**. وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس: **«الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر»** وفيه موقوفاً على عبدالله بن عمرو: **«أعظم الكبائر شرب الخمر»** وكلاهما ضعيف. وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: **«الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله»**، وله من حديث بريدة: **«أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضل الماء، ومنع الفحل»** وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وله من حديث أبي هريرة: **«الكبائر أولهن الإشراك بالله»** وفيه: **«والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته»** وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف، وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حثمة في الكبائر **«والتعرب بعد الهجرة»** وفيه ابن لهيعة، وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري: **«الكبائر سبع»** وفيه **«والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة»** وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني، وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه: **«الكبائر تسع»** فذكر منها **«واستحلال البيت الحرام»**، وللطبراني من حديث واثلة: **«إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل عليّ ما لم أقل»**، وله أيضاً من حديثه: **«إن من أكبر الكبائر أن ينتفي الرجل من ولده»**، ولمسلم من حديث جابر: **«بين الشرك ـ أو الكفر ترك الصلاة»**، ولمسلم من حديث عبدالله بن عمرو: **«من الكبائر شتم الرجل والديه»**، ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد: **«من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»**، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: أنه ﷺ مرَّ على قبرين فقال: **«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»** الحديث. ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة: **«أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس»** الحديث، ولأبي داود والترمذي من حديث أنس: **«عرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»** سكت عليه أبو داود واستغربه البخاري والترمذي. وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس: **«لا صغيرة مع إصرار»** وفيه أبو شيبة الخراساني، والحديث منكر يعرف به. وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: **«الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»**.

وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال: **«الكبائر الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وأكل الربا،** =

وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم؛ أربعة في القلب وهي: الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربع في اللسان وهي: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس - وهي التي يحق بها باطلاً أو يبطل بها حقاً، وقيل: هي التي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً ولو سواكاً من أراك. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار -، والسحر - وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة -. وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم. واثنتان في الفرج وهما: الزنى واللواط. واثنتان في اليدين وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي: الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين. وواحدة في جميع الجسد وهي: عقوق الوالدين. قال: وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما، وإن يسباه فيضربهما، ويجوعان فلا يطعمهما، هذا ما قاله وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء؛ إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر، وهي جناية على الأموال، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل، فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرّض له، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله، كيف وفي الخبر: **«مِنَ الكَبائِرِ السَّبَّتَانِ بِالسَّبَّةِ وَمِنَ الكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ المُسْلِم»**[1]، وهذا زائد على قذف المحصن. وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر[2]. وقالت طائفة: كل عمد كبيرة، وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وكشف الغطاء عن هذا: أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا: لا يصح ما لم يفهم معنى الكبيرة، والمراد بها كقول القائل: السرقة حرام أم لا؟ لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أوّلاً ثم البحث عن وجوده في السرقة؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأنّ الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب

= **والسحر، والزنى، واليمين الغموس الفاجرة، والغلول، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وشرب الخمر، وترك الصلاة متعمداً وأشياء مما فرضها الله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم».**

وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس: **«كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة»**، وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله: **«لا صغيرة مع الإصرار»**، وإسناده جيد؛ فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون، إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم، وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف. وللبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له: الكبائر سبع، فقال: هي إلى سبعين أقرب. وروى البيهقي أيضاً فيه عن ابن عباس قال: **«كل ما نهى الله عنه كبيرة»**. والله أعلم.

(١) حديث: **«من الكبائر السبتان بالسبة، ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم»** عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد، والذي عندهما من حديثه: **«من أربى الربا استطالة الرجل في عرض المسلم بغير حق»**. كما تقدم.

(٢) حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر. أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح وقال: **«من الموبقات»** بدل الكبائر. ورواه البخاري من حديث أنس، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال: صحيح الإسناد.

إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة، صغيرة بالإضافة إلى الزِّنى، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه، صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة، ونعني بوصفه بالكبيرة: أنّ العقوبة بالنار عظيمة، وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيراً إلى أنّ ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول: تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه، ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة؛ إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردّد بين هذه الجهات، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات، نعم، من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وقول رسول الله ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلاَّ الكَبَائِر**» فإن هذا إثبات حكم الكبائر. والحق في ذلك: أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه، فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لم يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول: إني أردت بالكبائر عشراً أو خمساً ويفصلها، فإن لم يرد هذا، بل ورد في بعض الألفاظ: «**ثَلاثٌ مِنَ الكَبَائِرِ**»[(١)]، وفي بعضها: «**سَبْعٌ مِنَ الكَبَائِرِ**»[(٢)]، ثم ورد: «**أَنَّ السَّبَّتَيْنِ بِالسَّبَّةِ الوَاحِدَةِ مِنَ الكَبَائِرِ**» وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟ وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها، نعم، لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق. وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته. وبيانه: أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليكونوا عبيداً لي. ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية، ولا بدّ أن يعرف نفسه وربه، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهو المعنيُّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «**الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ**»[(٣)]، فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه. والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسدّ باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر، ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس، ويليه باب ما يسدّ المعايش التي بها

---

(١) حديث: «**ثلاث من الكبائر**» أخرجه الشيخان من حديث أبي بكرة: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاث ـ**» الحديث. وقد تقدم.

(٢) حديث: «**سبع من الكبائر**» رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد: «**الكبائر سبع**»، وقد تقدم، وله في الكبير من حديث عبدالله بن عمر: «**من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر...**» الحديث. ثم عدهن سبعاً. وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة: «**اجتنبوا السبع الموبقات**».

(٣) حديث: «**الدنيا مزرعة الآخرة**» لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً، وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم: «**نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته**» الحديث. وإسناده ضعيف.

حياة الناس، فهذه ثلاث مراتب. فحفظ المعرفة على القلوب، والحياة على الأبدان، والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصوّر أن تختلف فيها الملل، فلا يجوز أنّ الله تعالى يبعث نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال، فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب:

الأولى: ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر؛ إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله، ويتلو الجهل الذي يسمىٰ كفراً؛ الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته، فإن هذا أيضاً عين الجهل، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً، ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشدّ من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه، ومراتب ذلك لا تنحصر، وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل، وإلى ما يشك فيه، وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع.

المرتبة الثانية: النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود؛ إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنى واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود.

وأما الزنى: فإنه لا يفوت أصل الوجود، ولكن يشوّش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنى ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنى مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح، وينبغي أن يكون الزنى في الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله، ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرّك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل، وينبغي أن يكون أشدّ من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين، فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته.

المرتبة الثالثة: الأموال؛ فإنها معايش الخلق، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها، وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها، نعم، إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق:

أحدها: الخفية؛ وهي السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً كيف يتدارك.

الثاني: أكل مال اليتيم؛ وهذا أيضاً من الخفية وأعني به في حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف، وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه.

الثالث: تفويتها بشهادة الزور.

الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس؛ فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك، ولا يجوز أن

تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً، وبعضها أشدّ من بعض، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس. وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها.

وأما أكل الربا: فليس إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع، ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يجعل الغصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع، وإن عظم الشرع الرِّبا بالزجر عنه فقد عظم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة، والمصير إلى أنّ أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر، وذلك واقع في مظنة الشك، وأكثر ميل الظنّ إلى أنه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضرورياً في الدين، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين. أما الشرب لما يزيل العقل: فهو جدير بأن يكون من الكبائر، وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً، لأن العقل محفوظ كما أنّ النفس محفوظة، بل لا خير في النفس دون العقل، فإزالة العقل من الكبائر، ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة، وإنما هو شرب ماء نجس، والقطرة وحدها في محل الشك، وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع، وليس في قوّة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع، ولا فللتوقف فيه مجال. وأما القذف: فليس فيه إلا تناول الأعراض، والأعراض دون الأموال في الريبة، ولتناولها مراتب، وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنى، وقد عظم الشرع أمره، وأظن ظناً غالباً أن الصحابة كانوا يعدّون كل ما يجب به الحدّ كبيرة، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرّده لا يدل على كبره وعظمته، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأنّ العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرّد شهادته، فإن لم تقبل شهادته فحدّه ليس ضرورياً في مصالح الدنيا، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات، فإذن: هذا أيضاً يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، فأما من ظن أنّ له أن يشهد وحده، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر.

وأما السحر: فإن كان فيه كفر فكبيرة، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره. وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين: فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنى، وضربهم، والظلم لهم بغصب أموالهم، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم، وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر ـ إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه ـ، فالتوقف في هذا أيضاً غير بعيد، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر. فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع، وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعاً، وإلى ما ينبغي أن تكفره، وإلى ما يتوقف فيه، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات، وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة، وإذن لا مطمع فيه، فطلب رفع الشك فيه محال.

فإن قلت: فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدّها، فكيف يردّ الشرع بما يستحيل معرفة حدّه؟

فاعلم: أنّ كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرّق إليه الإبهام، لأن دار التكليف هي دار الدنيا، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنى وغيرهما، وإنما حكم الكبيرة أنّ الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر، فلا يتجرؤون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس، وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النّساء: ٣١] ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإنّ مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشدّ تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه؛ فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنيناً أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز، أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي مقدّماته كسماع الملاهي والأوتار، نعم، من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع، فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع، فكل هذه أحكام أخروية، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص، ولم يرد النص بعد ولا حدّ جامع، بل ورد بألفاظ مختلفات، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الصَّلاةُ إِلَى الصَّلاةِ كَفَّارَةٌ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إلاّ مِنْ ثَلاثٍ: إِشْرَاكٌ بِاللَّهِ، وَتَرْكُ السُّنَّةِ، وَنَكْثُ الصَّفْقَةِ»**[1]، قيل: ما ترك السنة؟ قيل: الخروج عن الجماعة. ونكث الصفقة: أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حدّ جامع؛ فيبقى لا محالة مبهماً.

فإن قلت: الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة، وهذا من أحكام الدنيا! فاعلم: أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر، فلا خلاف في أنّ من يسمع الملاهي، ويلبس الديباج، ويتختم بخاتم الذهب، ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته، ولم يذهب أحد إلى أنّ هذه الأمور من الكبائر. وقال الشافعي رضي الله عنه: إذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة، فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدح في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات. كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن، والكذب في بعض الأقوال، وسماع الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الشبهات، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائداً على المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لا يتصوّر أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرّد لأمور الآخرة، ويجاهد نفسه مدّة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير وسماع

---

(١) حديث: **«الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة. . .»** الحديث. أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال: صحيح الإسناد.

الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردّها لا إلى الكبيرة والصغيرة، ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أنّ المباح يصير صغيرة بالمواظبة، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره، فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر.

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا:

اعلم: أنّ الدنيا من عالم الملك والشهادة، والآخرة من عالم الغيب والملكوت، وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك، يسمى القريب الداني منها دنيا، والمتأخر آخرة. ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة، فإنا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك، وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت، ولا يتصوّر شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال، ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العَنكبوت: ٤٣] وهذا لأنّ عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت، ولذلك قال ﷺ: **«النَّاسُ نَيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا»**(١)، وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال، وأعني بكثرة الأمثال ما نعرفه من علم التعبير، ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة.

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال: رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال: إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر، قال: صدقت. وجاء رجل آخر فقال: رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون، فقال: إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صغرك، لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره. وقال له آخر: رأيت كأني أقلد الدرّ في أعناق الخنازير، فقال: إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال، والتعبير من أوّله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال، وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقاً، وإن نظر إلى صورته وجده كاذباً، فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً، فإنه لم يختم به قط، وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم أنهم في النوم، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا، وعرفوا أن المثل صادق، ولذلك قال ﷺ: **«قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ»**(٢)، وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون، فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلاً، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً، فيثبت لله تعالى يداً وأصبعاً، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً. وكذلك في قوله ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ**

---

(١) حديث: **«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»** لم أجده مرفوعاً، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب.

(٢) حديث: **«قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»**. تقدم.

خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[1] ، فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك، تعالى الله عن قوله علوّاً كبيراً. من هاهنا زل من زلّ في صفات إلهية حتى في الكلام؛ وجعلوه صوتاً وحرفاً إلى غير ذلك من الصفات، والقول فيه يطول، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده، كقوله ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبَحُ»[2] ، فيثور الملحد الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول: يا سبحان الله، الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسماً؟ وهل هذا إلا محال، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: ٤٣]، ولا يدري المسكين أن من قال: رأيت في منامي أنه جيء بكبش وقيل: هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح، فقال المعبر: صدقت، والأمر كما رأيت، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط، لأن المذبوح وقع اليأس منه، فإذن: المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرّفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقاً وكان معناه صحيحاً؛ فالرسل أيضاً إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة، حكمة من الله ولطفاً بعباده، وتيسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل، فقوله: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ» مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها، ولذلك عبر القرآن بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعَام: ٧٣] عن نهاية القدرة، وعبر ﷺ بقوله: «قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ» عن سرعة التقليب. وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في «كتاب قواعد العقائد» من ربع العبادات فلنرجع الآن إلى الغرض، فالمقصود: أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال، فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته. فنقول: الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها، ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلاً البتة، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول: الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين. ومثاله في الدنيا: أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذب بعضهم مدّة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلي بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون، فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلوّ درجته، ولا يخلي إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بجزّ الرقبة أو تنكيلاً

---

(١) حديث: «إن الله خلق آدم على صورته». تقدم.

(٢) حديث: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد.

بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدّة وطول المدّة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر، فكذلك فافهم أنّ الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالك، ومن معذب مدّة، ومن ناج يحل في دار السلامة، ومن فائز. والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر[1]، وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية توزعها عليها.

الرتبة الأولى: وهي رتبة الهالكين: ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى؛ إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجرّدين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه، فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق، والجاحدون هم المنكرون، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد؛ وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة، وكل محجوب من محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة، فهو لا محالة يكون مخترقاً نار جهنم بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للحور العين، وإنما مطالبنا اللقاء، ومهربنا من الحجاب فقط، وقالوا: من يعبد الله بعوض فهو لئيم؛ كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها. إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد، ولذلك قيل:

وفي فؤاد المحبّ نار جوى أحرّ نار الجحيم أبردُها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة؛ إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا، فقد رئي من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه، وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال؛ لأنّ الغضب نار في القلب»، قال رسول الله ﷺ: **«الغضب قطعة من النار»**[2]، واحتراق الفؤاد أشدّ من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه، فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرّق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشدّ إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشدّ إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب، ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدّة هذا الألم ويستحقره

---

(١) حديث: **«إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة»** أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه: **«وأطولهم مكثاً فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة، وذلك سبعة آلاف سنة»**.

(٢) حديث: **«الغضب قطعة من النار»** أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه، وقد تقدم.

بالإضافة إلى ألم الجسم، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان، وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً، ولم يعدّ ذلك ألماً وقال: العدْو في الميدان مع الصولجان أحب إليّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه، بل من تغلبه شهوة البطن لو خيِّر بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوباً، ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذاً، وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان، وليس لكل إنسان قلب؛ ولو كان لما صح قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب. ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر، بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر، واللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته، ولله الخلق والأمر جميعاً، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] هو الأمير والملك؛ لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيباً، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق، وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد. من عرفها فقد عرف نفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، وعند ذلك يشم العبد مبادىء روائح المعنى المطوي تحت قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**». ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه، وإلى المتعسفين في طريق تأويله، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر، فالحقيقة: فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وحكمته يختص بها من يشاء: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] ولنعد إلى الغرض، فقد أرخينا الطول وطوّلنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب، فقد ظهر أنّ رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر، فلذلك لم نوردها.

الرتبة الثانية: رتبة المعذبين: وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه، فإنّ رأس الإيمان هو التوحيد، وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعَام: ٩١] وهو أن تذر بالكلية غير الله، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحدّ من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة؛ فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير؛ إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل، وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم، فذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن، فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين من وجهين، ولكن شدّة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدّة إنما يكون بسبب أمرين: أحدهما: قوّة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته، وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن

واحد من الأمرين. قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي: يا حنان يا منان[1] قال الحسن: يا ليتني كنت ذلك الرجل. واعلم: أن في الأخبار ما يدل على أنّ آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة، وأن الاختلاف في المدّة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة؛ حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد، وأنّ الاختلاف بالشدّة لا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب، ويتطرّق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدّة والشدّة وهو اختلاف الأنواع؛ إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد، واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب، والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره؛ فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع؛ وهي بحسب اختلاف قوّة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها. أما شدّة العذاب فبشدّة قبح السيئات وكثرتها، وأما كثرته فبكثرتها، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات، وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصّلَت: ٤٦] وبقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧] وبقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩] وبقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمة أرجح؛ إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ: «سَبقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: ٤٠] فإذن: هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً، ومستنده ظواهر الأخبار، ونوع حدس يستمدّ من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض ـ أعني الأركان الخمسة ـ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرّقة لم يصر عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته؛ إذ ورد في الأخبار: أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهنّ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفراً للصغائر، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية، نعم، التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرّبين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى، فكذلك يتبع أصناف الإيمان، لأن الإيمان إيمانان: تقليدي كإيمان العوام يصدّقون بما

---

(١) حديث: «من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان» أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسملي عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون.

(٢) حديث: «سبقت رحمتي غضبي» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

يستمعون ويستمرّون عليه، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله؛ حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه، فيتضح أنّ الكل إلى الله مرجعه ومصيره؛ إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله، فهذا الصنف هم المقرّبون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى، وهم أيضاً على أصناف: فمنهم السابقون ومنهم من دونهم، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى. ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر؛ إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق. وإنما يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله، فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم. وأما المؤمن إيماناً تقليدياً فمن أصحاب اليمين، ودرجته دون درجة المقرّبين، وهم أيضاً على درجات؛ فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته الأدنى من درجات المقرّبين، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها؛ أعني الأركان الخمسة التي هي: النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج. فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام، فإن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب؛ لأنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلاً، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت؛ إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإن التقليد وإن كان جزماً فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان ـ إلا أن يعفو الله ـ عذاباً يزيد على عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدّة بحسب قبح الكبائر، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدّة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين: ففي الخبر: «**آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنيَا كُلِّها عَشَرَةَ أَضْعَافٍ**»(١)، فلا تظن أنّ المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين؛ فإنّ هذا جهل بطريق ضرب الأمثال، بل هذا كقول القائل: أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشيره، بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها، فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال: أعطيته عشرة أمثاله كان صادقاً، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون؛ فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرّد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر، فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول: ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال، ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله: إني أعطيته عشرة أمثاله، والكاذب بالتحقيق هو الصبي، ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال، وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال، فعند ذلك ينكشف له الصدق، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر. صدق

---

(١) حديث: «**إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف**» متفق عليه من حديث ابن مسعود.

رسول الله ﷺ في هذه الموازنة؛ إذ يقول ﷺ: «**الجَنَّةُ فِي السَّمٰوَاتِ**»(١)، كما ورد في الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة، وكذلك تفهيم البدوي، وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلي بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة، فالعارف مرحوم إذا بلي بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة، ولذلك قال ﷺ: «**ارْحَمُوا ثَلَاثَةً: عَالِماً بَيْنَ الجُهَّالِ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ، وَعَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ**»(٢)، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله، وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي، وهو المعني بقوله عليه الصلاة والسلام: «**البَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ**»(٣)، فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن؛ فإنّ بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم؛ إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً، ولذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس قال: «**رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»(٤)، فإذن: لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين، ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين، وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين، فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّه يُعْطِي آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مَرَّاتٍ**»، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس، وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم؛ فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله؛ إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسي الله أنساه الله ـ لا محالة ـ نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقي إلى الأفق الأعلى، وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرّضاً لنقمته إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة، فإنّ البهيمة تتخلص بالموت، وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها، وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه،

---

(١) حديث: «كون الجنة في السموات»: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن**».

(٢) حديث: «**ارحموا ثلاثة: عالماً بين الجهال. . .**» الحديث. أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس، وعيسى ضعيف، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال: «**عالم تلاعب به الصبيان**» وفيه أبو البختري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين.

(٣) حديث: «**البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل**» أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء»؟ فذكره دون ذكر: «**الأولياء**» وللطبراني من حديث فاطمة: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون. . .**» الحديث.

(٤) حديث: «**رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**». أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود.

وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة؛ إذ المرجع والمصير للكل إليه؛ إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السَّجدَة: ١٢] فبين أنهم عند ربهم، إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويُعطىٰ مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر، ولا يخرج من النار إلا موحد. ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغانمين عن ماله، ومدّة الرقبة والمال مدّة الحياة، فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان، وإنما ينفع الصدق في التوحيد، وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله. وعلامته: أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه؛ إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل، وهذا التوحيد متفاوت، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال، ومنهم من له مثقال، ومنهم من له مقدار خردلة وذرّة، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أوّل من يخرج من النار. وفي الخبر يقال: «**أَخرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينارٍ مِنْ إِيمَانٍ**»(١)، وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان، وما بين المثقال والذرّة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة، والموازنة بالمثقال والذرّة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها؛ ففي الأثر: إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال، لو سلمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة: يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير، فيقول الله تعالى: «ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكاً إلى النار». وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم؛ إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلم به، وقد حكي عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال: لا أفعل، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها. وقال هو وغيره: ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي ـ فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين، فإنّ ذلك ظنّ يصيب في أكثر الأحوال، ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم؛ إذ ليس في قوّة البشر الوقوف على كنهها، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا، وعما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام، ووراء

---

(١) حديث: «**أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان**» الحديث. تقدم.

ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها، فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة؛ فإنّ الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً، ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت: ٤٦] ولا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النِّسَاء: ٤٠]، وكل ذلك صحيح، فليس للإنسان إلا ما سعى، وسعيه هو الذي يرى، وكل نفس بما كسبت رهينة، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١]، وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر؛ إذ البصر يمكن الغلط فيه؛ إذ قد يرى البعيد قريباً والكبير صغيراً، ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾ [النَّجم: ١١].

الرتبة الثالثة: رتبة الناجين: وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف، وحلول طائفة من الخلق[1] فيه معلوم يقيناً من الآيات والأخبار ومن أنوار الاعتبار؛ فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم؛ فهذا مظنون وليس بمستيقن، والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة، ويبعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء، والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة. حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: «**وَمَا يُدْرِيكِ**»[2] فإذن: الإشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام.

---

(١) حديث: «حلول طائفة من الخلق الأعراف» أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: «**هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم على سور بين الجنة والنار...**» الحديث. وفيه عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبدالرحمن المدني عن أبيه مختصراً، وأبو معشر نجيح السندي ضعيف، ويحيى بن شبل لا يعرف. وللحاكم عن حذيفة قال: «**أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة...**» الحديث. وقال: صحيح على شرط الشيخين. وروى الثعلبي عن ابن عباس قال: «**الأعراف موضع عالٍ في الصراط عليه العباس وحمزة وعلي وجعفر...**» الحديث. هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين.

(٢) حديث عائشة: أنها قالت لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال: «**ما يدريك**» رواه مسلم، قال المصنف: والأخبار في حق الصبيان متعارضة.

قلت: روى البخاري من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبيّ ﷺ وفيه: «**وأما الرجل الطويل في الروضة فإبراهيم**=

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقرّبون السابقون، فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين، وهؤلاء هم المقرّبون وما يلقى هؤلاء يجاوز حدّ البيان، والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧] وقوله عزّ وجلّ: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»، والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم، وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلي والأساور فإنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات، ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها: كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار؛ فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه، ويعبر على هذه الحالة بأنه فني عن نفسه، ومعناه: أنه صار مستغرقاً بغيره، وصارت همومه هماً واحداً وهو محبوبه، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصوّر أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصوّر أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العَنكبوت: ٦٤]. فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات، والله الموفق بلطفه.

= **عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة»** فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: **«وأولاد المشركين»** وللطبراني من حديثه: سألنا رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: **«هم خدمة أهل الجنة»** وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة، وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب، وقد ضعفه ابن حبان. وللنسائي من حديث الأسود بن سريع: **«كنا في غزاة لنا...»** الحديث. في قتلى الذرية، وفيه **«ألا إن خياركم أبناء المشركين»** ثم قال: **«لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة...»** الحديث. وإسناده صحيح، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة **«كل مولود يولد على الفطرة...»** الحديث. وفي رواية لأحمد: **«ليس مولود يولد إلا على هذه الملة»** ولأبي داود في آخر الحديث: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ فقال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»**، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: سئل النبيّ ﷺ عن أولاد المشركين فقال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»** وللطبراني من حديث ثابت بن الحارث الأنصاري: كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فقال النبيّ ﷺ: **«كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد...»** الحديث. وفيه عبدالله بن لهيعة، ولأبي داود من حديث ابن مسعود: **«الوائدة والموؤودة في النار»**، وله من حديث عائشة: قلت: يا رسول الله ذراري المؤمنين؟ فقال: **«مع آبائهم»** قلت: بلا عمل؟ قال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»** قلت: فذراري المشركين؟ قال: **«مع آبائهم»** قلت: بلا عمل؟ قال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»** وللطبراني من حديث خديجة: قلت: يا رسول الله، أين أطفالي منك؛ قال: **«في الجنة»** قلت: بلا عمل؟ قال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»** قلت: أطفالي قبلك؟ قال: **«في النار»** قلت: بلا عمل؟ قال: **«لقد علم الله ما كانوا عاملين»** وإسناده منقطع بين عبدالله بن الحارث وخديجة. وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين **«هم من آبائهم»** وفي رواية **«هم منهم»**.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

اعلم: أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ الأَعْمَالِ أَدْوَمُها وَإِنْ قَلَّ**»[1]، والأشياء تستبان بأضدادها، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أنّ الكبيرة قلما يتصوّر الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصوّرت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.

ومنها: أن يستصغر الذنب، فإنّ الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره كبر عند الله تعالى؛ لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به، واستصغاره يصدر عن الألف به، وذلك يوجب شدّة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة؛ فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر «**المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره**»[2]، وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد: ليت كل ذنب عملته مثل هذا، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة، بل كل مخالفة فهي كبيرة. وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين: وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات؛ إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف؛ لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجّح به؛ لشدّة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت

---

(١) حديث: «**خير الأعمال أدومها وإن قلت**» متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «**أحب**»، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه...**» الحديث. أخرجه البخاري من رواية الحارث بن سويد قال: حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبيّ ﷺ والآخر عن نفسه، فذكر هذا وحديث: «**لله أفرح بتوبة العبد**» ولم يبين المرفوع من الموقوف، وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا.

عرضه، ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته، وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته، وكيف استخففت به، وكيف لبست عليه؟. ويقول المعامل في التجارة: أما رأيت كيف روّجت عليه الزائف، وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟. فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدوّ عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

ومنها: أن يأتي الذنب ويظهره؛ بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الخبر: «**كُلُّ النَّاسِ مُعَافىً إلاّ المُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ**»(١)، وهذا لأن من صفات الله ونعمه: أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة. وقال بعضهم: لا تذنب، فإن كان ولا بدّ فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهوّنها عليه.

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين وتردّده عليهم، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، وتعدّيه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه. وفي الخبر: «**من سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً**»(٢)، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل، وقال ابن عباس: ويل للعالِم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها، ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق. وقال بعضهم: مثل زلة العالِم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها.

وفي الإسرائيليات: إن عالماً كان يضل الناس بالبدعة، ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً،

---

(١) حديث: «**كل الناس معافى إلا المجاهرين...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «**كل أمتي**»، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**مَن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبدالله، وقد تقدم في آداب الكسب.

فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له: إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار، فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى إخفاؤه، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتُّبعوا، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير، ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك، فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران، وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها.

***

الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا: أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلاً بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط فلا بدّ من بيانها: أما العلم: فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي. وأما الندم: فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته: طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه، وأي عقوبة أشد من النار، وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي، وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيباً: أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم: رقة القلب وغزارة الدمع، وفي الخبر: «**جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً**»(١)، ومن علامته: أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة.

وفي الإسرائيليات: إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ـ وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته ـ فقال: وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه.

فإن قلت: فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟.

---

(١) حديث: «**جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة**» لم أجده مرفوعاً، وهو من قول عون بن عبدالله. رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال: «**جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب**»، وقال أيضاً: «**فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب**» وقال أيضاً: «**التائب أسرع دمعة وأرق قلباً**».

فأقول: من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه، ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا؟ فإن قلت: لا، فهو جحد للمشاهدة والضرورة، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضاً لشبهه به، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان. ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون، فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى، متهاوناً بالذنوب، مصراً عليها، فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم؛ إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنى بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى، وذلك جار في كل ذنب. وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال. وله تعلق بالماضي؛ وهو تدارك ما فرط. وبالمستقبل؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت.

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي: أن يرد فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً ونفساً نفساً، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

وأما الصوم: فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقض؛ فيتعرّف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه.

وأما الزكاة: فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أوّل ملكه ـ لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي ـ، فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضي جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف، ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء.

وأما الحج: فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً، قال عليه السلام: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إنْ شَاءَ يَهُودِيّاً وَإنْ شَاءَ نَصْرَانِيّاً**»(١)، والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج. فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها.

---

(١) حديث: «**من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً...**» الحديث. تقدم في الحج.

وأما المعاصي: فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاهٍ وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذاً من قوله ﷺ: «**اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[(١)]، بل من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هُود: ١١٤] فيكفر سماعَ الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكثرة تقبيله بأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه، وعدّ جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى، ويدل على أن الشيء يكفر بضده: أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها، فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له؛ إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال ﷺ: «**مِنَ الذُّنوبِ ذُنُوبٌ لا يُكَفِّرُها إلاّ الهُمُومُ**»[(٢)]، وفي لفظ آخر: «**إلاّ الهَمّ بِطَلَبِ المَعِيشَةِ**» وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه»[(٣)]، ويقال: إنّ الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع.

فإن قلت: همّ الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة؟ فاعلم: أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة، ولو تمتع به لتمت الخطيئة، فقد روي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له: كيف تركت الشيخ الكئيب؟ فقال: قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال: فما له عند الله؟ قال: أجر مائة شهيد. فإذن: الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله. فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

---

(١) حديث: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها**». أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه، وتقدم أوله في آداب الكسب وبعضه في أوائل التوبة، وتقدم في رياضة النفس.

(٢) حديث: «**من الذنوب لا يكفرها إلا الهموم**» وفي لفظ آخر: «**إلا الهم في طلب المعيشة**» أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، تقدم في النكاح.

(٣) حديث: «**إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم**»، وتقدم أيضاً في النكاح، وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ: «**ابتلاه الله بالحزن**».

وأما مظالم العباد: ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى، فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب؛ لأن تلك إحياء؛ إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده، والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد، وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة، ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد، ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب ـ أعني به الإيذاء المحض ـ.

أما النفوس: فإن جرى عليه قتل خطأ؛ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول، وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه، فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله، ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين، فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ما روي أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني. فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فرده الثانية، فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم، فكان الناس فيه فريقين: فقائل يقول: لقد هلك وأحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أصدق من توبته، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»**(١)، وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني. فردها، فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله لم تردني؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى: فقال ﷺ: **«أما الآن فاذهبي حتى تضعي»** فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته، قال: **«اذهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ»**، فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت: يا نبي الله، قد فطمته وقد أكل الطعام! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع رسول الله ﷺ سبَّه إياها فقال: **«مَهْلاً يا خَالِدُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَها صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ» ثُمَّ أَمَرَ بها فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ**(٢).

وأما القصاص وحدّ القذف: فلا بدّ من تحليل صاحبه المستحق فيه، وإن كان المتناول مالاً تناوله

---

(١) حديث: اعتراف ماعز بالزنى ورده ﷺ حتى اعترف أربعاً وقوله: «لقد تاب توبة...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الخصيب.

(٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنى ورجمها وقوله ﷺ: «لقد تابت توبة...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله.

بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه؛ لا من حدّ بلوغه بل من أوّل مدّة وجوده، فإنّ ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه، فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به؛ إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أوّل يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقِش قبل أن يناقَش، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإن حصل مجموع ما عليه بظنّ غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً، وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه، فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره. فهذا طريق كل تائب في رد المظالم، وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدّة الظلم، فكيف وذلك مما لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريباً؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشدّ من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات. هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

أما أمواله الحاضرة: فليردّ إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً، وما لا يعرف له مالكاً فعليه أن يتصدّق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدّق بذلك المقدار، كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام.

وأما الجناية على القلوب: بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم في الغيبة، فيطلب كل من تعرّض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحداً واحداً منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته، وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعدّيه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته، فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوّفه به فقد انسدّ عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها، ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

وأما الذكر والتعريف: فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنيّ عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبْد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مالَ بحسنة، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالاً فجاء بمثله فامتنع من له

المال من القبول وعن الإبراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين.

وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: **«كَانَ فِيمنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لا. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِها أُناساً يَعْبُدُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّها أَرْضُ سُوءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ المَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ العَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ العَذَابِ: إِنَّه لَمْ يَعْمَلْ خَيراً قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ حَكَماً بَيْنَهُمْ فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ»**(١)، وفي رواية: **«فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها»**. وفي رواية: **«فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»**، فبهذا تعرف: أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرّة، فلا بدّ للتائب من تكثير الحسنات، هذا حكم القصد المتعلق بالماضي.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال: فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً، ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزماً جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه، فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصوّر أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصوّر أن يتم ذلك للتائب في أوّل أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام، فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه، ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات؟ وقد قال بعضهم: من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها. وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً. ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً: أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذي يتوب عن الشرب والزّنى والغصب مثلاً، وليست هذه توبة مطلقة.

وقد قال بعض الناس: إنّ هذه التوبة لا تصح، وقال قائلون: تصح، ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل، بل نقول لمن قال لا تصح: إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك! فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب، وقلتها سبب لقلته. ونقول لمن قال تصح: إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ! بل النجاة والفوز بترك الجميع، هذا حكم الظاهر، ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله، فإن قال من

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه: **«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض...»** الحديث. هو متفق عليه ـ كما قال المصنف ـ من حديث أبي سعيد.

ذهب إلى أنها لا تصح: إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم. وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة؛ ويستحيل أن يندم عليها دون الزّنى إن كان توجعه لأجل المعصية، فإنّ العلة شاملة لهما؛ إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين؛ لأنّ توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزّنى فكيف يتوجع على البعض دون البعض؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوّتة للمحبوب من حيث إنها معصية، فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر، فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذن: معنى عدم الصحة: أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم، ولا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول: إن العقد لا يصح أي لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك، وتحقيق هذا أنّ ثمرة مجرّد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمرة الندم تكفير ما سبق، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها، ولا يتصوّر الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي، وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء.

فنقول: التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر، أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن؛ لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته، والصغائر أقرب إلى تطرّق العفو إليها، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندّم عليه، كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل مستحقراً للجناية على الدابة، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى. وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده، وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر.

الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض؛ وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أنّ بعض الكبائر أشدّ وأغلظ عند الله، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه، فهذا أيضاً ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر، لأنّ الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنى مثلاً؛ إذ يتضح له أنّ الخمر مفتاح الشرور، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري، فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي.

الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر، فهو أيضاً ممكن، ووجه إمكانه: أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها؛ لأسباب توجب ضعف

الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوّة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ولا قوياً عليه، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية، وقد تشتدّ ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك؟ بل يقول هذا الفاسق في نفسه: إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلية، بل أجاهده في بعض المعاصي، فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي. ولو لم يتصوّر هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصلي ويصوم، ولقيل له: إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرّب إلى الله تعالى ما لم تتقرّب بترك الفسق؛ وهذا محال بأن يقول: لله تعالى عليّ أمران، ولي على المخالفة فيهما عقوبتان، وأناملي في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي، فكيف لا يتصوّر هذا وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته، ولا سبب له إلا هذا، وإذا فهم هذا فهم أنّ غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم، وقد قال النبي ﷺ: **«النَّدَمُ تَوْبَةٌ»** ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال: **«التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ»** ولم يقل التائب من الذنوب كلها، وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل: إنّ التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة؛ لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرّض إلى سخط الله تعالى، نعم، يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط، ويتوب عن الكثير دون القليل لأنّ لكثرة الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى، كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله، بل لا بدّ وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه إما في شدّة المعصية وإما في غلبة الشهوة، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف والندم، فيتصوّر اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب، وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي.

فإن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنى الذي قارفه قبل طريان العنة؟ فأقول: لا، لأنّ التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه، ولكني أقول: لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنى الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم؛ بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فإني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته؛ إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين، وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أنّ ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنى لو ظهر قصده، فإذن: لا يستحيل أن تبلغ قوّة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدّر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله.

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: أحدهما: حرقة الندم والآخر: شدة المجاهدة بالترك في المستقبل. وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً.

فإن قلت: إذا فرضنا تائبين؛ أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل؟ فاعلم: أن هذا مما اختلف العلماء فيه، فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني: إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة. وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة.

والحق فيه: أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان:

إحداهما: أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوّة نفسه واستيلاء دينه على شهوته، فهو دليل قاطع على قوّة اليقين وعلى قوّة الدين؛ وأعني بقوّة الدين: قوة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً. وقول القائل: إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ. وهو كقول القائل: العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة، والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدوّ له، والملك ربما يغلب مرّة وإن غلب مرّات، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر، غير عالم بأن العز في الأخطار، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار. بل كقول القائل: الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدي عليه، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد.

الحالة الثانية: أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة؛ إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها. فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل: ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد، فإن الجهاد ليس مقصوداً لعينه، بل المقصود قطع ضراوة العدوّ حتى لا يستجرّك إلى شهواته، وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت، وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر. ومثاله كمثال من قهر العدوّ واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم. ومثاله أيضاً مثال من علّم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد، ولقد زل في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق. وظن آخرون أن

قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرّب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال: هذا محال، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة، واسترسل في اتباع الشهوات. وكل ذلك جهل وضلال، وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات.

فإن قلت: فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه فأيهما أفضل؟ فاعلم: أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذهبين عندنا على حق، ولكن بالإضافة إلى حالين.

وكلام المتصوّفة أبداً يكون قاصراً، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجدّ؛ حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره؛ إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله. وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم، فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية؟

فأقول: تصور الذنب وذكره والتفجّع عليه كمال في حق المبتدىء، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله. فهو بالإضافة إلى الغافل كمال، ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان، فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق، بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك، فإن ظهر له مبادىء الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال. بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل، فلو جلس على شاطىء البحر بعد عبوره يبكي متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع. نعم، إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر؛ ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله، فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك ـ وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات ـ، بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته، ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور، فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة. بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركاً للشهوة، فالمبتدىء أيضاً قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك. ولا يصدّنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج؛ لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم، فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها، وقد كان مستغنياً عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس؛ تسهيلاً للأمر على المريد. ولذلك قال ﷺ: **«أَمَا إِنِّي لا أَنْسَى وَلَكِنِّي**

أُنَسَّى لِأُشَرِّعَ»[1]، وفي لفظ «**إنما أسهو لأسنّ**». ولا تعجب من هذا، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة. أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال ﷺ للحسن: «**كخ كخ**»[2]، لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فإنها حرام، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته. بل الذي يعلم شاة أو طائراً يصوّت به رغاء أو صفيراً تشبهاً بالبهيمة والطائر تلطفاً في تعليمه. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة:

اعلم: أن التائبين في التوبة على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوّة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة: التوبة النصوح. واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ: «**سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ الْمُسْتَهتِرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خِفَافاً**»[3]. فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم. وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات؛ فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ولم يشغله عن السلوك صرعها، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها وردها، ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة، وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع. وكذلك يختلفون من حيث طول العمر، فمن مختطف يموت قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة، ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته؛ وحال هذا أعلى وأفضل؛ إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء: إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى، واشتراط هذا بعيد، وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض. ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته. بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسّرة له حتى يسد

---

(١) حديث: «**أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع**» ذكره مالك بلاغاً بغير إسناد، وقال ابن عبدالبر: لا يوجد في الموطأ إلا مرسلاً لا إسناد له، وكذا قال حمزة الكتاني: إنه لم يرد من غير طريق مالك، وقال أبو طاهر الأنماطي: وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال: وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً.

(٢) حديث أنه قال للحسن: «**كخ كخ**» لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها في فيه. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وتقدم في كتاب الحلال والحرام.

(٣) حديث: «**سبق المفردون المستهترون بذكر الله...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه، وقد تقدم.

طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته في الابتداء.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لها. وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة؛ إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد، وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النّجم: ٣٢] فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥] فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه: «**خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ**»(١)، وفي خبر آخر: «**المُؤْمِنُ كَالسُّنْبلَةِ يَفِيءُ أَحْيَاناً وَيمِيلُ أَحْيَاناً**»(٢)، وفي الخبر: «**لا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيهِ الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ**»(٣)، أي الحين بعد الحين، فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين. ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارّة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة. وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه. بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات، قال النبي ﷺ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاؤُونَ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ المُسْتَغْفِرُونَ**»(٤)، وقال أيضاً: «**المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه**»(٥) أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القَصَص: ٥٤] فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً.

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم

---

(١) حديث علي: «خياركم كل مفتن تواب» أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٢) حديث: «المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً» أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس: والطبراني من حديث عمار بن ياسر، والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً وكلها ضعيفة وقالوا: «تقوم» بدل: «تفيء»، وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس.

(٣) حديث: «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة» أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة.

(٤) حديث: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون» أخرجه الترمذي واستغربه، والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال: «التوابون» بدل «المستغفرون». قلت: فيه علي بن مسعدة ضعفه البخاري.

(٥) حديث: «المؤمن واهٍ راقع، فخيرهم من مات على رقعه» أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف، وقالا: «فسعيدهم» بدل «فخيرهم».

عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسوّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم. فهذه النفس هي التي تسمى: النفس المسوّلة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم، دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين. فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس، فكما لا يصلح لمنصب الرئاسة والقضاء والتقدّم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير. هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب. ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۞﴾ [الشمس: ٧-١٠] فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان. قال ﷺ: **«إنَ العَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إنَّهُ مِنْ أَهْلِها وَلا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إلاّ شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها»**(١)، فإذن: الخوف من الخاتمة قبل التوبة. وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المحذور، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أنّ يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هي: النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير؛ ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده، وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم. فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرّد الرجاء مع خراب

---

(١) حديث: **«إن العبد ليعمل بعمل الجنة سبعين سنة. . .»** الحديث. متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله: **«سبعين سنة»** ولمسلم من حديث أبي هريرة: **«إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة. . .»** الحديث. ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة: **«إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة»** وشهر: مختلف فيه.

الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم، وليت من اتجر استغنى، وليت من صام وصلى غفر له، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعدّ عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين ـ وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله ـ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعدّ عند أرباب القلوب من المعتوهين. والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول: إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار، وإذا قيل له: إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب، فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ويقول: ما هذا الهوس؟ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب، هكذا قدّره مسبب الأسباب وأجرى به سنته، ولا تبديل لسنة الله، ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد، وأنّ سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً، وأنه قد أخبر إذ قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا؟ وكيف يقول: ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم، وأنّ ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة، وهذا يمنعه مع شدّة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا؟ وينسى قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فنعوذ بالله من العمى والضلال، فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس، وانغماس في ظلمات الجهل، وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السَّجدَة: ١٢] أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فارجعنا نسعى. وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب، السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب.

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق:

اعلم: أنّ الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب: فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو، ويتذلل تذلل العبد الآبق، ويكون ذلك بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد، وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

وأما باللسان: فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول: رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي

ذنوبي، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ـ كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار ـ.

وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات. وفي الآثار ما يدل على أنّ الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوّاً؛ أربعة من أعمال القلوب وهي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الإقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له. وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن تصلي عقيب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدّق بصدقة، ثم تصوم يوماً، وفي بعض الآثار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين(1)، وفي بعض الأخبار: **تصلي أربع ركعات**(2)، وفي الخبر: «**إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها، السر بالسر والعلانية بالعلانية**»(3)، ولذلك قيل: صدقة السر تكفر ذنوب الليل، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار. وفي الخبر الصحيح: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض عليَّ بحكم الله تعالى فقال ﷺ: «**أَوَمَا صَلَّيْتَ مَعَنَا صَلَاةَ الغَدَاةِ؟**» قال: بلى، فقال ﷺ: «**إن الحسنات يذهبن السيئات**»(4)، وهذا يدل على أنّ ما دون الزنى من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ: «**الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر**»، فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم، ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات.

فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار، وفي الخبر: «**المُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالمُسْتَهْزِىءِ بِآيَاتِ اللَّهِ**»(5)، وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولي أستغفر الله، وقيل: الاستغفار باللسان توبة الكذابين. وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير؟ فاعلم: أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ـ ذكرناها في كتاب الأذكار

---

(1) أثر: «**إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين**» أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «**ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له**» لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً، فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقوف فذكرته احتياطاً، وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي.

(2) حديث: «**التكفير بصلاة أربع ركعات**»: أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال: «كان رجل من أصحاب النبيّ ﷺ يهوى امرأة...» الحديث. وفيه: فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة فقام نادماً فأتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبيّ ﷺ: «**صل أربع ركعات**» فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هُود: ١١٤] الآية. وإسناده جيد.

(3) حديث: «**إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية**» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم، ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ: «**وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة، السر بالسر...**» الحديث.

(4) حديث: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس...» الحديث. في نزول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: ١١٤] متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله: «**أو ما صليت معنا صلاة الغداة**» ورواه مسلم من حديث أنس وفيه: «**هل حضرت معنا الصلاة**»؟ قال: نعم، ومن حديث أبي أمامة وفيه: «**ثم شهدت الصلاة معنا**» قال: نعم. الحديث.

(5) حديث: «**المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله**» أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: «**كالمستهزىء بربه**» وسنده ضعيف.

والدعوات ـ حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣] فكان بعض الصحابة يقول: كان لنا أمانان: ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا[(١)]. فنقول: الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرّد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة: أستغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار: نعوذ بالله منها؛ من غير أن يتأثر به قلبه، وهذا يرجع إلى مجرّد حركة اللسان ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها، فتصلح لأن تدفع بها السيئة، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال ﷺ: **«ما أَصَرَّ من استَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»**[(٢)]، وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب. وللتوبة والاستغفار درجات، وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها، ولذلك قال سهل: لا بدّ للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء؛ فإن عصى قال: يا رب استر عليَّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تب عليَّ، فإذا تاب قال: يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل قال: يا رب تقبل مني. وسئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال: أوّل الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق، ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة، ولا يستقرّ هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاؤه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش. وسئل أيضاً عن قوله ﷺ: **«التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ»** فقال: إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] الآية. وقال: الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه.

والمقصود أن للتوبة ثمرتين:

إحداهما: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

والثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيباً. وللتكفير أيضاً درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات ـ وإن خلا عن حل عقدة الإصرار ـ من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها. بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧] صدق، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرّات وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير

---

(١) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] الآية. «كان لنا أمانان ذهب أحدهما» أخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه: **«أنزل الله علي أمانين...»** الحديث. وضعفه، وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس.

(٢) حديث: **«ما أصر من استغفر...»** الحديث. تقدم في الدعوات.

إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول: أي غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب؟ ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة. فإذن: التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً. بل أقول: الاستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر، والقرآن وقلبي غافل. فقال: اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوّده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول. وما ذكره حق؛ فإن تعوّد الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي. فمن تعوّد لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما تعوّد فقال: أستغفر الله. ومن تعوّد الفضول سبق لسانه إلى قول: ما أحمقك وما أقبح كذبك! ومن تعوّد الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان: نعوذ بالله، وإذا تعوّد الفضول قال: لعنه الله، فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] ومعاني قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة ﴿أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١] فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روّجها الشيطان بلعنته على المغرورين، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر، فأي خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب؟ فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. أما السابق فقال: صدقت يا ملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلاً. فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين؛ فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب، فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه. وأما الظالم المغرور: فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر، فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل: وافق شنّ طبقه وافقه فاعتنقه. وأما المقتصد: فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول، فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير. فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتباً. والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً. والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لا أنكر مقدمة الحياكة، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس، فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة. ولذلك قالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد، فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات

الأبرار سيئات المقربين. فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة، بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث؛ رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحداً فلعله ولي الله تعالى. وزاد: وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه.

***

الركن الرابع

في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم: أن الناس قسمان: شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«تعجب ربك من شاب ليست له صبوة»**[1]، وهذا عزيز نادر. والقسم الثاني: هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين، وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه. فاعلم: أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء؛ إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله، ولا يبطل الشيء إلا بضدّه. ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة، ولا يضاد الغفلة إلا العلم، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل: ١٠٩] فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما، فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار. فإذن: لهذا الدواء أصلان: أحدهما العلم والآخر الصبر، ولا بد من بيانهما.

فإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ فاعلم: أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة، ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار. فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول: يحتاج المريض إلى التصديق بأمور:

الأول: أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإنّ من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك. وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أنّ للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة وللشقاوة سبباً هو المعصية، وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع، وهذا لا بدّ من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد، وكلاهما من جملة الإيمان.

---

(١) حديث: **«يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة»** أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر، وفيه ابن لهيعة.

الثاني: أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب، فإنّ إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان. ووزانه مما نحن فيه: العلم بصدق الرسول ﷺ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

الثالث: أنه لا بد أن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء؛ فتكون شدّة الخوف باعثة له على الاحتماء. ووزانه من الدين: الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة؛ حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج.

الرابع: أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرّفه أوّلاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء، بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص. ووزانه من الدين: أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة؟ وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها.

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين؛ وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدري أنّ ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء، ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم، فإنّ مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم، كما أنّ الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافة. وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس دينهم، فإنّ الخلق لا يولدون إلا جهالاً فلا بدّ من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع. والدنيا دار المرضى؛ إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم. ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان. والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العلم يسلم إلى السلطان ليكف شره، كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس.

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداها: أنّ المريض به لا يدري أنه مريض.

والثانية: أنّ عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض البدن فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهد. وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

والثالثة: وهو الداء العضال؛ فقد الطبيب، فإنّ الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار

مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً، لأنّ الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء، وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا، فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة، لأن ذلك ألذ في الأسماع وأخف على الطباع، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله.

ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائباً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه. فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادي العلة. أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية: فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال. وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت: يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء. فإذن: فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلاً.

فإن قلت: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق، فاعلم: أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه. نعم، نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع:

الأوّل: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار مثل قوله ﷺ: **«ما مِن يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ ولا لَيلَةٍ غابَ شَفَقُها إلاّ وَمَلَكانِ يَتَجاوَبانِ بِأرْبَعَةِ أصْواتٍ يَقُولُ أحَدُهُما: يا لَيتَ هَذا الخَلْقَ لَمْ يُخلَقُوا وَيَقُولُ الآخَرُ: يا لَيْتَهُمْ إذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الآخَرُ: يا لَيتَهُمْ إذْ عَلِمُوا لِمَاذا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا»**[1]، وفي بعض الروايات: **«ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ويقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا»** وقال بعض السلف: إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال ـ وهو أمير عليه ـ أن يرفع القلم عنه ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها. وقال بعض السلف: ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً؛ فيقول الله تعالى للأرض والسماء: كفا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) حديث: **«ما من يوم طلع ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا...»** الحديث. غريب، لم أجده هكذا. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف: **«إن لله ملكاً ينادي في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده...»** الحديث. وفيه: **«ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا...»** الحديث.

وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١]. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها»(١). وفي حديث مجاهد: «القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنباً انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسدّ على القلب فذلك هو الطبع»(٢). وقال الحسن: إنّ بين العبد وبين الله حدّاً من المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير.

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله ﷺ، فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه(٣).

النوع الثاني: حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق، مثل أحوال آدم ﷺ في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة، حتى روي: أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه، ونودي من فوق العرش: اهبطا من جواري فإنه لا يجاورني من عصاني. قال: فالتفت آدم إلى حوّاء باكياً وقال: هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب.

وروي: أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً، وقيل: لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال: نعم ولم يفعل، وقيل: بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه، فسلب ملكه أربعين يوماً، فهرب تائهاً على وجهه، فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال: أطعموني فإني سليمان بن داود شج وطرد وضرب. وحكي: أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه. وفي رواية: أخرجت عجوز جرّة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين ـ أيام العقوبة ـ قال: فجاءت الطيور فعكفت على رأسه، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله، فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال: لا ألومكم فيما فعلتم من قبل، ولا أحمدكم في عذركم الآن، إنّ هذا أمر كان من السماء ولا بدّ منه.

وروي في الإسرائيليات: أنّ رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها، فجاهدها واستعصم، قال: فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبياً في بني إسرائيل. وفي

---

(١) حديث عمر: «**الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات**...» الحديث. أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر.

(٢) حديث مجاهد: «**القلب مثل الكف المفتوحة**» قلت: هكذا قال المصنف وفي حديث مجاهد، وكأنه أراد به قول مجاهد، وكذا ذكره المفسرون في قوله وليس بمرفوع وقد رويناه في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة.

(٣) حديث: «أنه ﷺ ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة» أخرجه البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة. ولمسلم من حديث عائشة: ما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً. وفي حديث أبي الدرداء: «**إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم**...» الحديث. وقد تقدم في العلم.

قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام: بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالى. وروي: أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديداً فكأنه أعجبه قال: فوضعته الريح، فقال: لم فعلت هذا ولم آمرك؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله. وروي: أنّ الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدري لم فرّقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا، قال: لقولك لإخوته: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يُوسُف: ١٣] لم خفت عليه الذئب ولم ترجني، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟ وتدري لم رددته عليك؟ قال: لا، قال: لأنك رجوتني وقلت: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يُوسُف: ٨٣] وبما قلت: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟﴾ [يُوسُف: ٨٧] وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُف: ٤٢] قال الله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٤٢].

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر، ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار؛ لتعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟ نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشدّ وأكبر. فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرّر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوف به، فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر، كما حكي في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه، قال ﷺ: «**إنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»(١)، وقال ابن مسعود: إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه؛ وهو معنى قوله عليه السلام: «**مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً**»(٢)، وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاً في المال، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه، وهو كما قال؛ لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين، بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون.

وحكي عن بعض العارفين: أنه كان يمشي في الوحل جامعاً ثيابه محترزاً عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط، فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين، فعندها يخوض في الذنوب خوضاً. وهو إشارة إلى أنّ الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر. ولذلك قال الفضيل: ما أنكرتَ من تغير الزمان وجفاء

---

(١) حديث: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال: «**الرجل**» بدل «**العبد**» من حديث ثوبان.

(٢) حديث: «**من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً**» تقدم.

الإخوان فذنوبك ورّثتك ذلك. وقال بعضهم: إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري. وقال آخر: أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي. وقال بعض صوفية الشام: نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر إليه، فمرّ بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحييت منه فقلت: يا أبا عبدالله، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار! فغمز يدي وقال: لتجدنّ عقوبتها بعد حين، قال: فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة. وقال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وقال: لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه. وفي الخبر: **«ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم»**(١)، وفي الخبر: **«يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي»**(٢). وحكي عن أبي عمرو بن علوان ـ في قصة يطول ذكرها ـ قال فيها: كنت قائماً ذات يوم أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال، فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إليّ فأشخصني من الرقة، فلما أتيته قال لي: أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى، فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون، قال: فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة؟.

واعلم: أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه، فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإن كان شقياً أخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار. والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره. بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة: أن يكسب ما بعده صفته، فإن ابتلي بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يضاعف شقاؤه، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه. **وأما المطيع**: فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها، وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب؛ كالخمر والزنى والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد، وكل ذلك مما لا يمكن حصره، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرّض لما وقف عليه اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد: أوصني يا رسول الله ولا تكثر عليّ قال: **«لا تَغْضَبْ»**(٣)، وقال له آخر: أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام: **«عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الغِنَى، وإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الفَقْرُ الحَاضِرُ، وَصَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ»**(٤)، وقال رجل لمحمد بن

---

(١) حديث: **«ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم»** أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال: غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبدالله بن هانيء. قلت: هو متهم بالكذب. قال ابن أبي حاتم: روى عن أبيه بواطيل.

(٢) حديث: **«يقول الله إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي»** غريب لم أجده.

(٣) حديث: قال رجل أوصني ولا تكثر عليّ قال: **«لا تغضب»**. تقدم.

(٤) قال له آخر: أوصني قال: **«عليك باليأس. . .»** الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم، وقد تقدم.

واسع: أوصني، فقال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال: وكيف لي بذلك؟ قال: الزم الزهد في الدنيا. فكأنه ﷺ توسم في السائل الأوّل مخايل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل. وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا. وقال رجل لمعاذ: أوصني، فقال: كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً. فكأنه تفرّس فيه آثار الفظاظة والغلظة. وقال رجل لإبراهيم بن أدهم، أوصني فقال: إياك والناس وعليك بالناس، ولا بدّ من الناس فإنّ الناس هم الناس، وليس كل الناس بالناس، ذهب الناس وبقي النسناس، وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء الياس. فكأنه تفرّس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته، وكان الغالب أذاه بالناس. والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل. وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ سَخَطَ اللَّهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ**»[1]، والسلام عليك. فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها؟ وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم. وكتبت إليه مرة أخرى، أما بعد: فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس. وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام.

فإذن: على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة، والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان.

فإن قلت: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل؟ فاعلم: أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه، إما على العموم وإما على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل.

ومثاله ما روي: أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري: أوصني، قال: عليك بتقوى الله عزّ وجلّ فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان، وقال رجل للحسن: أوصني، فقال: أعزّ أمرَ الله يعزك الله. وقال لقمان لابنه: يا بني، زاحم العلماء بركبتيك، ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاًّ، وصم صوماً يكسر شهوتك، ولا تصم صوماً يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين. وقال أيضاً لابنه: يا بني، لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك؛ فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بني، إن من يرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يَقُلِ الخير يغنم ومن يَقُلِ الشر يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم. وقال رجل لأبي حازم: أوصني، فقال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه. وقال موسى

---

(١) حديث عائشة: «**من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس...**» الحديث. أخرجه الترمذي والحاكم، وفي مسند الترمذي من لم يسم.

للخضر عليهما السلام: أوصني، فقال: كن بساماً ولا تكن غضاباً، وكن نفاعاً ولا تكن ضراراً، وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران. وقال رجل لمحمد بن كرام: أوصني، فقال: اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك. وقال رجل لحامد اللفاف: أوصني فقال: اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات، قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك طلب الدنيا إلا ما لا بدّ منه، وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بدّ منه، وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بدّ منه. وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمهم الله تعالى: أما بعد، فخف مما خوّفك الله، واحذر مما حذّرك الله، وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه: أما بعد: فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك، ولا بدّ لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب، واعلم: أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك. وكتب مطرف بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: أما بعد: فإن الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، فكن فيها ـ يا أمير المؤمنين ـ كالمداوي جرحه يصبر على شدّة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء. وكتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى عدي بن أرطأة: أما بعد: فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله، فأما أولياؤه فغمتهم، وأما أعداؤه فغرتهم. وكتب أيضاً إلى بعض عماله: أما بعد: فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم: أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم: أن الله عزّ وجلّ آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام.

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته، فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها. ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستشرى الفساد، وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعاً وينشدون أبياتاً، ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم، فسقط عن قلوب العامة وقارهم، ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب، بل القائل متصلف والمستمع متكلف، وكل واحد منهما مدبر ومتخلف.

فإذن: كان طلب الطبيب أول علاج المرضى، وطلب العلماء أول علاج العاصين. فهذا أحد أركان العلاج وأصوله.

الأصل الثاني الصبر: ووجه الحاجة إليه: أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يتناول ذلك: إما لغفلته عن مضرته، وإما لشدة غلبة شهوته. فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة. فيبقى علاج الشهوة ـ وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس ـ وحاصله: أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره، ثم يصبر بقوّة الخوف على الألم الذي يناله في تركه، فلا بدّ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته؛ فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فإذا

اشتدّ خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته. ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة، ومن داخل: تناول لذائذ الأطعمة، وعلاجه الجوع والصوم الدائم. وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك. فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى، فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى، وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى، وإنما لله الآخرة والأولى.

فإن قلت: فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه، والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يكون إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان؛ فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن، فاعلم: أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان؛ إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة. ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور:

أحدها: أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق، وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف ـ والعادة طبيعة خامسة ـ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة: ٢٠،٢١] وقال عزّ وجلّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ۝١٦﴾ [الأعلى: ١٦] وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ: **«حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»**(١)، وقوله ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ: اذْهَبْ فَانْظُر إلَيها، فَنَظَرَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أحَدٌ فَيَدْخُلَهَا! فَحَفَّها بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فانْظُرْ إلَيْهَا فَنَظَرَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أنْ لا يَبْقَى أحَدٌ إلاّ دَخَلَهَا. وَخَلَقَ الجَنَّةَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إلَيهَا، فَنَظَرَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أحَدٌ إلاّ دَخَلَهَا فَحَفَّهَا بِالمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إلَيهَا، فَنَظَرَ إلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أنْ لا يَدْخُلَهَا أحَدٌ»**(٢)، فإذاً: كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخراً إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان، فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدّة عطشه مكذباً بأصل الطب ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه، ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر.

الثالث: أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات،

---

(١) حديث: **«حفت الجنة بالمكاره...»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«إن الله خلق النار فقال لجبريل: اذهب فانظر إليها...»** الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة.

وقد وعد بأن ذلك يجبره، إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير، فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان.

الرابع: أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالاً على فضل الله تعالى. فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

نعم، قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر، كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض، فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به. فهذا هو الكفر.

فإن قلت: فما علاج الأسباب الخمسة؟ فأقول: هو الفكر، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب، أن كل ما هو آت آت وأن غداً للناظرين قريب، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً، ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال؛ إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظنّ أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال، بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده، ومفارقته للدنيا لا بدّ منها، فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً؟ فلينظر: كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا؟ وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر ـ وهي أيام قلائل ـ فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأن المسوّف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء، فلعله لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد! فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها. وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق. وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته؛ إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف.

وأما المعنى الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى: فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل، وقال: أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو

عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري، أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار! فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة! وقد حكي في الأسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله. فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل؛ إذ قد لا يمكن ولا يكون.

وأما الخامس: وهو شك فهذا كفر، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول. ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحدّ عقله، فيقال له: ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن؟ أو تقول: أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة. فإن قال: أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء. وإن قال: أنا شاك فيه، فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة؟ فيقول: أتركه لا محالة لأني أقول: إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام، والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب، وإن صدق فتفوتني الحياة، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد. فيقال له: يا سبحان الله، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات، وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ـ ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الألباب ـ عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضاً فيما يقول؟ فليس في العقلاء إلا من صدّق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدّرة. فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر؛ إذ لا نسبة لمدّة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائراً يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئاً، فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعرّي:

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسرٍ ... أو صحّ قولي فالخسار عليكما

ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ـ وكان شاكاً ـ: إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصت وهلكت! أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال.

فإن قلت: هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته؟ وما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟ فاعلم: أنّ المانع من الفكر أمران:

أحدهما: أنّ الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب؛ فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرّج والاستراحة.

والثاني: أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخراً لشهوته، فهو

مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك.

وأما علاج هذين المانعين: فهو أن يقول لقلبه: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألماً بذكره مع استحقار ألم مواقعته، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به؟ وأما الثاني: وهو كون الفكر مفوتاً للذات الدنيا؛ فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها، ولذات الدنيا سريعة الدثور، وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر. وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به؟ ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة؟ نعم، هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدناً كما كان الشر ديدناً، فالنفس قابلة ـ ما عوّدتها تتعوّد ـ والخير عادة والشر لجاجة.

فإذن: هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات، ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر، فيصير الفكر موافقاً للطبع فيميل القلب إليه. ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق؛ إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة. وقد روي في حديث طويل: أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الكفر على ماذا بني؟ فقال علي رضي الله عنه: بني على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء. ومن عمي نسي الذكر. ومن غفل حاد عن الرشد. ومن شك غرّته الأماني فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر، وهذا القدر في التوبة كاف. وإذا كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة فلا بدّ من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله أهل الحمد والثناء، المنفرد برداء الكبرياء، المتوحد بصفات المجد والعلاء، المؤيد صفوة الأولياء بقوّة الصبر على السراء والضراء، والشكر على البلاء والنعماء، والصلاة على محمد سيد الأنبياء، وعلى أصحابه سادة الأصفياء، وعلى آله قادة البررة الأتقياء، صلاة محروسة بالدوام عن الفناء، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء.

أما بعد: فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر[1]، كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار. وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى؛ إذ سمى نفسه صبوراً وشكوراً، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن، ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان، دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان، فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان. ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى.

الشطر الأول: في الصبر: وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوّة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه. فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى.

* * *

كتاب الصبر والشكر

(١) حديث: «**الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف.

بيان فضيلة الصبر: وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السَّجدَة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعـرَاف: ١٣٧] وقـال تـعـالـى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القَصَص: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠] فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى: «**الصوم لي وأنا أجزي به**» فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفَال: ٤٦] وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٢٥] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٧] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ: «**الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمَانِ**»(١) على ما سيأتي وجه كونه نصفاً وقال ﷺ: «**مِنْ أَقَلِّ ما أُوتيتُمْ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعطِيَ حَظَّه مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيلِ وَصِيَامِ النَّهارِ، وَلأَن تَصْبِرُوا علىَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِيَنِي كُلُّ امْرِيءٍ مِنكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُم الدُّنْيَا بَعْدِي فَيُنْكِر بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَيُنْكِرُكُمْ أَهْلُ السَّماءِ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ**، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم﴾ [النَّحل: ٩٦]، الآية»(٢). وروى جابر أنه سأل ﷺ عن الإيمان فقال: «**الصَّبْرُ والسَّمَاحَةُ**»(٣)، وقال أيضاً: «**الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**»(٤)، وسئل مرة: «ما الإيمان؟ فقال: **الصبر**»(٥) وهذا يشبه قوله ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**»(٦) معناه معظم الحج عرفة وقال أيضاً ﷺ: «**أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ما أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ**»(٧) وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تخلّق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور. وفي حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: «**أمؤمنون أنتم**»؟ فسكتوا،

---

(١) حديث: «**الصبر نصف الإيمان**» أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود، وتقدم في الصوم.

(٢) حديث: «**من أقل من أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر...**» الحديث. بطوله تقدم في العلم مختصراً، ولم أجده هكذا بطوله.

(٣) حديث جابر: سئل عن الإيمان فقال: «**الصبر والسماحة**» أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف، ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده.

(٤) حديث: «**الصبر كنز من كنوز الجنة**» غريب. لم أجده.

(٥) حديث: سئل مرة عن الإيمان فقال: «**الصبر**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً: «**الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد**» ويزيد ضعيف.

(٦) حديث: «**الحج عرفة**». تقدم في الحج.

(٧) حديث: «**أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس**» لا أصل له مرفوعاً، وإنما هو من قول عمر بن عبدالعزيز؛ هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس.

فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: «**وما علامة إيمانكم**»؟ قالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال ﷺ: «**مؤمنون ورب الكعبة**»(١)، وقال ﷺ: «**فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ**»(٢)، وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون. وقال رسول الله ﷺ: «**لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحب الصابرين**»(٣)، والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار: فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: عليك بالصبر، واعلم: أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر؛ الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم: أن الصبر ملاك الإيمان، وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر. وقال علي كرم الله وجهه: بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له. وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين؛ يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير، وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧]. وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] بكى وقال: واعجباه، أعطى وأثنى أي هو المعطي للصبر وهو المثني. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر. هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه؛ إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف، فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق.

بيان حقيقة الصبر ومعناه:

اعلم: أن الصبر مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال، والأحوال تثمر الأعمال؛ فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى. واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل ـ كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد ـ، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم. فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة؛ أما في البهائم فلنقصانها، وأما في الملائكة فلكمالها.

وبيانه: أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها، فلا باعث لها على الحركة

---

(١) حديث: عطاء عن ابن عباس: «دخل ﷺ على الأنصار فقال: «**أمؤمنون أنتم**؟» فسكتوا فقال عمر: نعم يا رسول الله...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء.

(٢) حديث: «**في الصبر على ما تكره خير كثير**» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

(٣) حديث: «**لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً**» أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي.

والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوّة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوّة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً.

وأما الملائكة عليهم السلام: فإنهم جرّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأما الإنسان: فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، على الترتيب، وليس له قوّة الصبر ألبتة؛ إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم، ولكنّ الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم، فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين؛ أحدهما يهديه، والآخر يقويه، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين: إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب. وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف. فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ. وأما الدواء النافع مع كونه مضراً في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر.

فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثاً دينياً، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى. وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد. ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى. فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإن ثبت حتى قهره واستمرّ على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين.

فإذن: ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى: الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة. وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. فإذا قوي يقينه ـ أعني المعرفة التي تسمى إيماناً؛ وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى ـ قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوّة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة. وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها. وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما، وهما من الكرام الكاتبين، وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين.

وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوّي لم يخف عليك أنّ جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست الذي ينبغي أن يكون مسلماً به. فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال.

وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة. فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب إعراضه سيئة، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة. وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه، فهو به مسيء إليه فيثبت عليه سيئة، وبالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيثبت له به حسنة. وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سميا كراماً كاتبين. أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة، وأما الكاتبون فلإثباتهما الحسنات والسيئات، وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين: مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت؛ إذ قال ﷺ: **«من مات فقد قامت قيامته»**[1]، وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وفيها يقال: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق، وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمراً لا آحاداً. والهول الأول هو هول القيامة الصغرى، ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلاً فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال: قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره، فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان. واعلم: أنك أرضي مخلوق من التراب، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط، فأما بدن غيرك فليس بحظك، والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان، وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه، وإلا فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط، فهي أرضك وترابك الخاص بك، وعظامك جبال أرضك، ورأسك سماء أرضك، وقلبك شمس أرضك، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك، وشعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفاً، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كوّرت الشمس تكويراً، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكداراً، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقاً، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيراً، فإذا التفّت

---

(١) حديث: **«من مات فقد قامت قيامته»** أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلاً، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدّت؛ حتى ألقت ما فيها وتخلت، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول: بمجرّد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك. فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب، والأعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة، وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه؛ إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس، فمن لا رأس له لا سماء له، فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره؟ فهذه هي القيامة الصغرى. والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر، وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السمٰوات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال.

واعلم: أن هذه الصغرى وإن طوّلنا في وصفها فإنا لم نذكر عشير أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى؛ فإن للإنسان ولادتين:

إحداهما: الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام، فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم. فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضاً إلى الرحم، بل أوسع وأعظم. فقس الآخرة بالأولى فـ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقِعَة: ٦١] فالمقرّ بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت. والمقرّ بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين؛ وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال.

فما أعظم غفلتك يا مسكين ـ وكلنا ذلك المسكين ـ وبين يديك هذه الأهوال، فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء: **«كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظاً»**[1] أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ: **«اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ المَوْتِ»**[2]، أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فيأتيهم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون، ويأتيهم الشيب رسولاً منه فما يعتبرون فـ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون؟ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يس: ٣١] أم يحسبون أنّ الموتى سافروا من عندهم

---

(١) حديث: «كفى بالموت واعظاً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف، ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر، وهو معروف من قول الفضيل بن عياض. رواه البيهقي في الزهد.

(٢) حديث: «اللهم هون على محمد سكرات الموت» أخرجه الترمذي وقال: غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ «اللهم أعني على سكرات الموت».

فهم معدومون كلا ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: ٣٢] ولكن ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام: ٤] وذلك لأنا ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [يس: ٩،١٠].

ولنرجع إلى الغرض، فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول: ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين، ولا يكتبان شيئاً على الصبيان والمجانين؛ إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصوّر منهما إقبال وإعراض، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض. ولعمري، إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سنّ التمييز وتنمو على التدريج إلى سنّ البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضارّ الآخرة بل إلى مضارّ الدنيا، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً ولا يعاقب على تركها في الآخرة، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق ـ إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ـ أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب. فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة؛ فيكون مع النبيين والمقرّبين والصدّيقين، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: **«أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ كَهاتَيْنِ فِي الجَنَّةِ»**[1]، وأشار إلى أصبعيه الكريمتين ﷺ.

بيان كون الصبر نصف الإيمان:

اعلم: أنّ الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارة يطلق عليهما جميعاً، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً. واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات. ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين:

أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً. فيكون للإيمان ركنان: أحدهما: اليقين، والآخر: الصبر. والمراد باليقين: المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين، والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين؛ إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارّة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر؛ وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل. فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال: **«مِنْ أَقَلِّ ما أُوتِيتُمْ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ...»** الحديث. إلى آخره.

الاعتبار الثاني: أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر. فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار، كما أن اليقين أحد

---

(١) حديث: **«أنا وكافل اليتيم كهاتين»** أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد، وتقدم.

الشطرين بالاعتبار الأوّل. وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر. وقد يرفع أيضاً إلى رسول الله ﷺ.

ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين، باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب؛ فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، قال ﷺ بهذا الاعتبار: **«الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»** لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعاً، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان. فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان، والأصل فيه: أن تعرف كثرة أبواب الإيمان، فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة.

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر:

اعلم: أن الصبر ضربان: أحدهما: ضرب بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها، وهو إما بالفعل: كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها. وإما بالاحتمال: كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة. وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر: وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى. ثم هذا الضرب إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر. فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها. وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر. وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن. وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ويضاده التذمر. وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر. وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوماً. وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضاده الحرص. وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره. فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال: **«هو الصبر»** لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال: **«الحج عرفة»**[1]، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبراً فقال تعالى: ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] أي: المصيبة. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] أي: الفقر ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] أي: المحاربة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] فإذن: هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أنّ هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفة، والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعاني أوّلاً فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني. فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع، ومن يطلب الأصول من التوابع لا بدّ وأن يزل. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك: ٢٢] فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات. نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه.

---

(١) حديث: **«الحج عرفة»** أخرجه أصحاب السنن من حديث عبدالرحمن بن يعمر، وتقدم في الحج.

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف:

اعلم: أنّ باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال: من صبر ظفر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصدّيقون المقربون ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فُصّلَت: ٣٠] فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين. وإياهم ينادي المنادي ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله. وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السَّجدَة: ١٣] وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النَّجم: ٢٩، ٣٠] وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني وهو غاية الحمق، كما قال ﷺ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**»[1]، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلست أطمع فيها، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال: إنّ الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيراً عندهم، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطاً لما فيه من معرفة الله وباعث الدين، وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطاً عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين، وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه. فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرقّ مسلماً لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته! لأن الهوى أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى، والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبَة: ١٠٢] هذا باعتبار القوّة والضعف. ويتطرّق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما

(١) حديث: «**الكيس من دان نفسه...**» الحديث. تقدم في ذم الغرور.

يصبر عنه: فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات، أو لا يغلب شيئاً منها، أو يغلب بعضها دون بعض. وتنزيل قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى. والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً؛ إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقاً المدبر يقيناً، ولذلك قيل:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً كنقصِ القادرين على التمامِ

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس؛ فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥،٧] ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإنّ الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوّة، بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر. ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين. فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى؛ فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين. ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا ـ كما سيأتي في كتاب الرضا ـ، فالرضا أعلى من الصبر، ولذلك قال ﷺ: **«اعْبُدِ اللَّهَ عَلَى الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى ما تَكْرَهُ خَيرٌ كَثِيرٌ»**[1].

وقال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاثة مقامات:

أوّلها: ترك الشهوة وهذه درجة التائبين.

وثانيها: الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين.

وثالثها: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين.

وسنبين في كتاب المحبة أنّ مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، كما أنّ مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. وكأنَّ هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا.

واعلم: أنّ الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض. وعلى المكاره نفل. والصبر على الأذى المحظور محظور؛ كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتاً. وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة، ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم. والصبر المكروه: هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر. فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أنّ جميعه محمود، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

---

(١) حديث: **«اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير»** أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

بيان مظانّ الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال:

اعلم: أنّ جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين:

أحدهما: هو الذي يوافق هواه.

والآخر: هو الذي لا يوافقه بل يكرهه. وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما. فهو إذن لا يستغني قط عن الصبر.

النوع الأول: ما يوافق الهوى: وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا. وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صدّيق. وقال سهل: الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء، ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وقال ﷺ: «**الوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ**»(١). ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال: «**صَدَقَ اللَّهُ** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] **إنّي لَمَّا رَأَيْتُ ابْنِي يَتَعَثَّرُ لَم أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ أَخَذْتُهُ**»(٢)، ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها: أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يسترجع على القرب، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه، وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ـ كما سيأتي ـ وإنما كان الصبر على السراء أشدّ لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه، فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، وهما ضربان:

---

(١) حديث: «**الولد مجبنة مبخلة محزنة**» أخرجه أبو يعلى الموصلي من حديث أبي سعيد، وتقدم.

(٢) حديث: «**لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن المنبر...**» الحديث. أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا: الحسن والحسين، وقال الترمذي: حسن غريب.

الضرب الأوّل: الطاعة، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: ٢٤]، ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء.

فإذن: العبودية شاقة على النفس مطلقاً. ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس. وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى**»[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البَيِّنَة: ٥] ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هُود: ١١].

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [العَنكبوت: ٥٨، ٥٩] أي صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل؛ إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمَّد: ٣٣] وكما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤] فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم. وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

الضرب الثاني: المعاصي، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] وقال ﷺ: «**المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ، وَالمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ**»[2]. والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة، فإذا

---

(١) حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**» متفق عليه من حديث عمر، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه**» أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائي في الكبرى بالشطر الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيدالله بإسنادين جيدين، وقد تقدما.

انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس؛ كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً. وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزدراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس. فللنفس فيه شهوتان: إحداهما: نفي الغير، والأخرى: إثبات نفسه. وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضدّ ما أمر به من العبودية. ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس، ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزّنى[1]، ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوّتها وضعفها. وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب على القلب همٌ آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه.

القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أوذي بفعل أو قول وجني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة. قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعدّ إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى. وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقسم رسول الله ﷺ مرة مالاً، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأخبر به رسول الله ﷺ فاحمرّت وجنتاه ثم قال: «**يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هٰذا فَصَبَرَ**»[2]، وقال تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] أي: تصبروا عن المكافأة. ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦] وقال ﷺ: «**صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**»[3]. ورأيت في الإنجيل: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: لقد قيل لكم من قبل: إن السن بالسن والأنف

---

(١) حديث: «**إن الغيبة أشد من الزنى**». تقدم في آفات اللسان.

(٢) حديث: «قسمه مرة مالاً وقول بعض الأعراب: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم.

(٣) حديث: «**صل من قطعك...**» الحديث. تقدم.

بالأنف، وأنا أقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل من ضرب خدك الأيمن فحوّل إليه الخدّ الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك، ومن سخرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين. وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى. فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر؛ لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره؛ كالمصائب: مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء. وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة. وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصدّيقين فإنّ ذلك شديد على النفس. ولذلك قال ﷺ: **«أَسْأَلُكَ مِنَ اليَقِينِ ما تُهَوِّنُ عَلَيَّ بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيا»**[(١)]، فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

وقال أبو سليمان: والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره؟ وقال النبي ﷺ: **«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنه أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذٰلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَاناً أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيواناً»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«انْتِظَارُ الفَرَجِ بِالصَّبْرِ عِبَادَةٌ»**[(٣)]، وقال ﷺ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ اللَّهُمَّ اؤْجُرْنِي بِمُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْراً مِنْها إلاَّ فَعَلَ اللَّه بِهِ ذٰلِكَ»**[(٤)]، وقال أنس: حدّثني رسول الله ﷺ **«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: يا جِبْرِيلُ ما جَزَاءُ مَنْ سلبْت كَرِيمَتَيْهِ قَالَ: سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا قَالَ الله تَعَالَى: جَزَاؤُهُ الخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي»**[(٥)]، وقال ﷺ: **«يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِبَلاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَبْدَلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ فَإِذَا أَبْرَأْتُهُ**

---

(١) حديث: **«أسألك من اليقين ما تهون به عليّ مصائب الدنيا»** أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي، وقد تقدم في الدعوات.

(٢) حديث: **«قال الله: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل...»** الحديث. أخرجه ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث: **«انتظار الفرج بالصبر»** القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله: **«بالصبر»** وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة، وللترمذي من حديث ابن مسعود: **«أفضل العبادة انتظار الفرج»**. وتقدم في الدعوات.

(٤) حديث: **«من ما عبد أصيب بمعصيبة فقال كما أمره الله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦]...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أم سلمة.

(٥) حديث أنس: **«إن الله قال: يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه...»** الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسملي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس. ورواه البخاري بلفظ: **«إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة»**. رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ: **«إذا أخذت كريمتي عبدي لم أرض له ثواباً دون الجنة»** قلت: يا رسول الله، وإن كانت واحدة قال: **«وإن كانت واحدة»** وفيه سعيد بن سليم. قال ابن عدي: ضعيف.

أبرأته وَلاَ ذَنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي»[1]، وقال داود عليه السلام: يا رب، ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك، قال: جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبداً. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله في خطبته: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوّضه منها الصبر إلا كان ما عوّضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠]. وسئل فضيل عن الصبر فقال: هو الرضا بقضاء الله، قيل: وكيف ذلك؟ قال: الراضي لا يتمنى فوق منزلته. وقيل: حبس الشبلي رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ قالوا: أحباؤك جاؤوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال: لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُّور: ٤٨]. ويقال: إنّ امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إنّ لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وقال داود لسليمان عليهما السلام: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات. وقال نبينا ﷺ: «مِنْ إِجْلاَلِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّه أَنْ لا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ»[2]. ويروى عن بعض الصالحين: أنه خرج يوماً وفي كمه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه فقال: بارك الله له فيها، لعله أحوج إليها مني. وروي عن بعضهم أنه قال: مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له: أسقيك ماء؟ فقال: جرّني قليلاً إلى العدوّ واجعل الماء في الترس فإني صائم فإن عشت إلى الليل شربته. فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

فإن قلت: فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى؟، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار؟ فاعلم: أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرّاً على عادته، ويعتقد أنّ ذلك كان وديعة فاسترجعت. كما روي عن الرميصاء أم سليم[3] رحمها الله، أنها قالت: توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت، فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت: بأحسن حال بحمد الله ومنه، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا! قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا! فقلت: هذا ابنك كان عارية

---

(١) حديث: «يقول الله إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه...» الحديث. أخرجه مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد انتهى. وعبد بن كثير ضعيف. ورواه البيهقي موقوفاً على أبي هريرة.

(٢) حديث: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال: «من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك».

(٣) هي أم سليم، اشتهرت بكنيتها، وهي أيضاً أم أنس بن مالك رضي عنه عنهما، اشتهرت بكنيتها واختلف في اسمها والأشهر أنها سهلة بنت ملحان، تزوجها أبو طلحة الأنصاري وكان صداقها إسلامه. لها أخبار مشهورة، روت عن النبي ﷺ، ماتت سنة إحدى وستين.

من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع، ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**اللهم بارك لهما في ليلتهما**»[(١)]، قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرؤوا القرآن، وروى جابر أنه عليه السلام قال: «**رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ**». وقد قيل: الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرجه عن حدّ الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع؛ إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء، ولأنّ البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: «**إِنَّ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»، بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرضا، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه ـ وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ـ. وكتب ابن أبي نجيح يعزي بعض الخلفاء: إنّ أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له: واعلم: أنّ الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك. واعلم: أنّ أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه.

فإذن: مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين. نعم، من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب. وقد قيل: من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة. فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أنّ وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، فإنّ الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهراً، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً. فإن اختلاج الخواطر لا يسكن، وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بدّ وأن يحصل منه ما هو مقدّر، فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون، هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصوراً عليه، ولا يكون ذلك غالباً، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات؛ إذ لا يزال ينازع كل من تحرّك على خلاف غرضه في جميع عمره، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته، ولا يزال في شغل دائم، فللشيطان جندان: جند يطير وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار. وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة، فلا يتصوّر نار مشتعلة لا تتحرّك بل لا تزال تتحرّك بطبعها. وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجداً لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فإذن: حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده

---

(١) حديث الرميصاء أم سليم: «توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت...» الحديث. أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية، والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف.

لأولاده. ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه. وانقياده بالإذعان سجود منه ـ فهو روح السجود ـ، وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح. ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصوّر ذلك، كما أن الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافاً بالعادة، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب! فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب، وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالاً فيك، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين.

ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الشَّابَّ الفَارِغَ**»[1]، وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ، ثم تزدوج أفراخه أيضاً وتبيض مرة أخرى وتفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده، فلا تزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسري شيئاً فشيئاً على الاتصال. فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة، فإذن: إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة نفسك، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج ـ حين كان يصلب ـ وقد سئل عن التصوف ما هو؟ فقال: هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك.

فإذن: حقيقة الصبر وكماله: الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه:

اعلم: أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل. فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج؛ إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها. واستيفاء ذلك مما يطول، ولكنا نعرف الطريق في بعض الأمثلة.

فنقول: إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً، وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها

---

(١) حديث: «**إن الله يبغض الشاب الفارغ**» لم أجده.

فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه، إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة «فنقول»: قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر؛ فلزمنا هاهنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة ـ من حيث نوعها ومن حيث كثرتها ـ فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة في الحال، فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظانّ الشهوة؛ إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية، قال رسول الله ﷺ: **«النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ»**(١)، وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه. فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبتَ عن صوب الصور لم يصبك سهمه.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه، وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإنّ قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال، ولذلك قال ﷺ: **«عَلَيْكُمْ بِالبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ»**(٢).

فهذه ثلاثة أسباب، فالعلاج الأول ـ وهو قطع الطعام ـ يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته. الثاني: يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها. والثالث: يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب.

وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين:

أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة.

وفي الأثر: إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة؛ إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر. ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال، وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى، فإن قوي قوّى باعث الدين وهيجه تهييجاً شديداً وإن ضعف ضعفه، وإنما قوّة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر.

---

(١) حديث: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»**. تقدم غير مرة.

(٢) حديث: **«عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم. . .»** الحديث. تقدم في النكاح.

والثاني: أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرىء عليها وتقوى منته في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوّة الحمالين والفلاحين والمقاتلين. وبالجملة: فقوّة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة.

فالعلاج الأوّل: يضاهي أطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة، ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٢].

والثاني: يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه منته. فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت، ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه، وإنما أشدّها كف الباطن عن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرّغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإنّ الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب. وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به، ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم هماً واحداً وهو الله تعالى. ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السمٰوات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإنّ الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها؛ إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدّد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط؛ إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة. فهذا أحد الأنواع الشاغلة.

وأما النوع الثاني: فهو ضروري أشدّ ضرورة من الأوّل؛ وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش، فإن تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه. ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السمٰوات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد، فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق. فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ، والمعوّل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد. نعم، اختيار العبد في أن يتعرّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين. وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ: «**إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا**» وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية؛ إذ قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

[الذاريات: ٢٢] وهذا من أعلى أنواع الرزق. والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق، فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدّر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلي سنة عن مطر، فكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات. فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرّضه لمهاب رياح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان، فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء، وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم في أقطار الجبال والبحار، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجاباً بينك وبينها، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب. وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها. ولكونه حاضراً في القلب ومنسياً بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكراً، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾ [القمر: ١٧] فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر، عن العلائق كلها مقدّم على الصبر عن الخواطر.

قال الجنيد رحمه الله: السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن، وهجران الخلق في حب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد، فذكر شدّة الصبر عن شواغل القلب ثم شدّة هجران الخلق.

وأشد العلائق على النفس: علاقة الخلق وحب الجاه. فإنّ لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وليس القلب مذموماً على حبه ذلك، وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضله وأغواه، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه، وعزاً لا ذل فيه، وأمناً لا خوف فيه، وغنى لا فقر فيه، وكمالاً لا نقصان فيه، وهذه كلها من أوصاف الربوبية. وليس مذموماً على طلب ذلك، بل حق كل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له، وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة، ولكن الملك ملكان: ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا، وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل... وقد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة ـ التي في طبعه ـ فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة، وتوسل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة، ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة، كما قال ﷺ: «**وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي**» فانخدع المخذول بغروره، واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر

إمكانه، ولم يتدل الموفق بحبل غروره، إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة. فعبر عن المخذولين بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧] وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل، وأوحوا إليهم ما تم على الخلق من إهلاك العدوّ وإغوائه، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة؛ أما ملك الدنيا: فالزهد فيها والقناعة باليسير منها، وأما ملك الآخرة: فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه، وعزاً لا ذل فيه، وقرّة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس.

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضرتان، ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضاً، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه. ثم مهما تسلم وتتم الأسباب ينقضي العمر ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] فضرب الله تعالى لها مثلاً فقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] والزهد في الدنيا لما أن كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه فصده عنه.

ومعنى الزهد: أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً. وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسخراً مثل البهيمة مملوكاً يستجره زمام الشهوة آخذاً بمخنقه إلى حيث يريد ويهوى. فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً! وينال الربوبية بأن يصير عبداً! ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد: هل من حاجة؟ قال: كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ فقال: كيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبد لي! فقال: كيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك، وقد ملكتُ هؤلاء كلهم فهم عبيد لي. فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة. فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً.

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية، ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته؛ إذ تصير بتركه ملكاً في الحال وترجو به ملكاً في الآخرة.

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف؛ بل لا بدّ وأن يضيف إليه العمل. وعمله في ثلاثة أمور:

أحدها: أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة، ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النِّساء: ٩٧].

الثاني: أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده، فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع، وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه، فينبغي أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده. فلا معنى للمعالجة إلا المضادة.

الثالث: أن يراعي في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض، إلى أن يقنع بالبقية. وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه. وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله ﷺ: **«إِنَّ هٰذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَلا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ فَإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضاً قَطَعَ وَلا ظَهْراً أَبْقَى»**(١)، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: **«لا تُشَادُّوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّ مَنْ يُشَادَّهُ يَغْلِبهُ»**(٢).

فإذن: ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول. ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه، فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه. وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات، فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً، فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر؛ فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب. وإلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ فقال: الصبر في الله تعالى، فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فقال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠] اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله. وقيل: الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء. وقد قيل في معناه:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمودُ

وقيل أيضاً:

الصبرُ يجمل في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجملُ

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره.

---

(١) حديث: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر، وتقدم في الأوراد.

(٢) حديث: «لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه». تقدم فيه.

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان:

الأول: في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه.

الثاني: في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة.

الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

***

الركن الأول

في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر:

اعلم: أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العَنكبوت: ٤٥] فقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النِّساء: ١٤٧] وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٥] وقال عزّ وجلّ إخباراً عن إبليس اللعين: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعرَاف: ١٦] قيل: هو طريق الشكر، ولعلوّ رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ولا تجد أكثرهم شاكرين. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: ١٣] وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] واستثنى في خمسة أشياء؛ في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبَة: ٢٨] وقال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعَام: ٤١] وقال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البَقَرَة: ٢١٢] وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: ٤٨] وقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبَة: ١٥] وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغَابُن: ١٧] وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٧٤] وقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُونس: ١٠].

وأما الأخبار: فقد قال رسول الله ﷺ: «**الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ**»(١)، وروي عن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجباً؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي ـ أو قالت: في لحافي ـ حتى مس جلدي جلده ثم قال: «**يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي**» فقالت: قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك فأذنت له، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على

---

(١) حديث: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**» علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة، ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف.

صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٤] الآية»[١]. وهذا يدل على أنّ البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً. وإلى هذا السر يشير ما روي: أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغيرة يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال: منذ سمعت قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البَقَرَة: ٢٤] فأنا أبكي من خوفه، فسأله أن يجيره من النار فأجاره، ثم رآه بعد مدّة على مثل ذلك فقال: لم تبكي الآن؟ فقال: ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور. وقلب العبد كالحجارة أو أشدّ قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً. وروي عنه ﷺ أنه قال: «**ينادى يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَقُم الحَمَّادُون فَتَقُومُ زُمْرَةٌ فَيُنصَبُ لَهُمْ لِوَاءٌ فَيَدْخلُونَ الجَنَّةَ**» قيل: ومن الحمادون؟ قال: «**الذين يشكرون الله تعالى على كل حال**»[٢]، وفي لفظ آخر: «**الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَرَاءِ**» وقال ﷺ: «**الحَمْدُ رِدَاءُ الرَّحْمٰنِ**»[٣]. وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي - في كلام طويل -، وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين: أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم، وبالنظر إلي أزيدهم. ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: أي المال نتخذ؟ فقال عليه السلام: «**لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَاناً ذَاكِراً وَقَلْباً شَاكِراً**»[٤]، فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً من المال. وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان.

بيان حدّ الشكر وحقيقته:

اعلم: أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل، فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه. ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان، ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه.

فالأصل الأوّل: العلم: وهو علم بثلاثة أمور: بعين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات

---

(١) حديث: عطاء: «دخلت علي عائشة فقلت لها: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فقالت: وأي أمره لم يكن عجباً. . .» الحديث. في بكائه في صلاة الليل. أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء، وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور، ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: «وأي أمره لم يكن عجباً. . .» وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث.

(٢) حديث: ينادى يوم القيامة: «**وليقم الحمادون. . .**» الحديث. أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: «**أول من يدعى إلى الجنة الحمادون. . .**» الحديث. وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور.

(٣) حديث: «**الحمد رداء الرحمن**» لم أجد له أصلاً، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة: «**الكبر رداؤه. . .**» الحديث. وتقدم في العلم.

(٤) حديث عمر: «**ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً. . .**» الحديث. تقدم في النكاح.

المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه. فإنه لا بد من: نعمة، ومنعم، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة، فهذه الأمور لا بد من معرفتها. هذا في حق غير الله تعالى، فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم، والوسائط مسخرون من جهته.

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها. بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان: التقديس. ثم إذا عرف ذاتاً مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس؛ وهو التوحيد. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة؛ إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل. وعن هذا عبر رسول الله ﷺ حيث قال: **«مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَلَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَمَنْ قَالَ الحَمْدُ لِلَّهِ فَلَهُ ثَلاثُونَ حَسَنَةً»**[1]، وقال ﷺ: **«أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِلَّهِ»**[2]، وقال: **«لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الأَذْكَارِ يُضَاعَفُ ما يُضَاعَفُ الحَمْدُ لِلَّهِ»**[3]، ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب، «فسبحان الله» كلمة تدل على التقديس، و«لا إله إلا الله» كلمة تدل على التوحيد، و«الحمد لله» كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين.

واعلم: أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه، بل منه بوجه ومن غيره بوجه، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك. نعم، لا يغض من توحيده في حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما؛ لأنه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضاً مضطرّان من جهة الملك في الإيصال، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئاً، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد، فلا يورث ذلك شركاً في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك.

وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالعلم مثلاً في يد الكاتب، وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل ـ شاءت أم أبت ـ، كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلاً إلى مخالفة الملك، ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده. فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر؛ إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي، وألقى في نفسه أنّ خيره في الدنيا والآخرة أن

---

(١) حديث: **«من قال سبحان الله فله عشر حسنات. . .»** الحديث. تقدم في الدعوات.

(٢) حديث: **«أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله»** أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر.

(٣) حديث: **«ليس شيء من الأذكار يضاعف الحمد لله»** لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي. يقال: إن الحمد أكثر الكلام تضعيفاً.

يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به. وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلاً إلى تركه، فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك، ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نفعك، فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك، فليس منعماً عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها. وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك. فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله، وكنت موحداً وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجرّدها شاكراً.

ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي: خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك؟ فقال الله عزّ وجلّ: اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكراً.

فإذن: لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح، وبنقصان فرحك ينقص عملك. فهذا بيان هذا الأصل.

الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل المعرفة: وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضاً في نفسه شكر على تجرّده كما أن المعرفة شكر، ولكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه، وشرطه: أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلاً فنقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفره، فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس، وأنه مال ينتفع به، ومركوب يوافق غرضه، وأنه جواد نفيس، وهذا فرح من لا حظّ له في الملك بل غرضه الفرس فقط، ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

الوجه الثاني: أن يفرح به لا من حيث إنه فرس، بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه، حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً؛ لاستغنائه عن الفرس أصلاً، أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك.

الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته القرب منه، وربما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب، فهذه ثلاث درجات، فالأولى: لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً؛ لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية: داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم، ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى،

والنزول في جواره، والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا، وأمارته: أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج، بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. وقال الخوّاص رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب، فإنّ القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرّة كما قيل:

ومَنْ يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريض ... يجد مرّاً به الماء الزلالا

فإذن: هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فمعزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه.

الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم. وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، أما بالقلب: فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان: فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيه، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء، والشكر باللسان: لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به؛ فقد قال ﷺ لرجل: **«كَيفَ أَصْبَحْتَ؟»** قال بخير، فأعاد ﷺ السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال ﷺ: **«هٰذا الَّذِي أَرَدْتُ مِنْكَ»**[1]، وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعاً والمستنطق له به مطيعاً وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء. وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] فالشكر

---

(١) حديث قال ﷺ لرجل: **«كيف أصبحت؟»** فقال: بخير، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال: **«هذا الذي أردت منك»** أخرجه الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً نحوه، قال في الثالثة: أحمد الله. ورواه في المعجم الكبير من حديث عبدالله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال: أحمد الله إليك، وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه، ورواه مالك في الموطأ موقوفاً على عمر بإسناد صحيح.

باللسان من جملة الشكر. وقد روي: أن وفداً قدموا على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكبر الكبر! فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك! فقال: تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته.

فأما قول من قال: إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب. وقول من قال: إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرّد عمل اللسان. وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان. وقول حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيلياً إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط، وقول الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص، وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين؛ لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالاً بما يهمهم عما لا يهمهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقاً بحالة السائل، اقتصاراً على ذكر القدر الذي يحتاج إليه، وإعراضاً عما لا يحتاج إليه؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها، بل لا يظن ذلك بعاقل أصلاً إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني، أم يتناول بعضها مقصوداً وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء، والله الموفق برحمته.

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى:

لعلك يخطر ببالك: أنّ الشكر إنما يفعل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض، مقدّس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعاً سجداً. فشكرنا إياه بما لا حظ فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع؛ إذ لا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له، ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها.

الوجه الثاني: أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا؛ إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة. ولو أعطانا الملك مركوباً فأخذنا مركوباً آخر له وركبناه، أو أعطانا الملك مركوباً آخر لم يكن الثاني شكر للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأوّل، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى، فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالاً في حق الله تعالى من هذين الوجهين. ولسنا نشك

في الأمرين جميعاً، والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع؟ فاعلم: أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام، وكذلك لموسى عليه السلام فقال: يا رب، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب عليّ الشكر لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني. وفي خبر آخر: إذا عرفت أنّ النعمة مني رضيت منك بذلك شكراً.

فإن قلت: فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحي إليهم؛ فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالى، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكراً فلا أفهمه، فإنّ هذا العلم أيضاً نعمة منه فكيف صار شكراً؟ وكأنّ الحاصل يرجع إلى أنّ من لم يشكر فقد شكر، وأنّ قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى، والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه.

فاعلم: أنّ هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم المعاملة، ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول: هاهنا نظران: نظر بعين التوحيد المحض؛ وهذا النظر يعرّفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور، وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً، لأن الغير هو الذي يتصوّر أن يكون له بنفسه قوام، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد؛ إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه، وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره؛ فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة، وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً، فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم، ولا قيوم إلا واحد، ولا يتصوّرأن يكون غير ذلك؛ فإذن: ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد. فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه، فهو الشاكر وهو المشكور، وهو المحب وهو المحبوب، ومن هاهنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فقال: واعجباه أعطى وأثنى؛ إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى، فهو المثني وهو المثنى عليه، ومن هاهنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرىء بين يديه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فقال: لعمري يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك، فلا يخفى عليك أنّ المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته؛ فإن أحبه فما أحب إلا نفسه، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس؛ أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول: كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالاً من الخبز، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣] ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم؛ إذ قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المطففين: ٣٤،٣٥] وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل

السفينة قال: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هُود: ٣٨] فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه، وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون، وعماهم في كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً، وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم، وإنما وجودهم من حيث أُوجدوا لا من حيث وجدوا، وفرق بين الموجود وبين الموجَد، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان، وإذا كان كل من عليها فان، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثاني: ليس بهم عمى ولكن بهم عور، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق؛ فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما أنّ الذي قبله جاحد تحقيقاً. فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين، فأثبت عبداً ورباً، فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد، ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه، وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى، فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو، فينمحي عن رؤية ما سوى الله فلا يرى إلا الله، ليكون قد بلغ كمال التوحيد، وحيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد، وبينهما درجات لا تحصى، فبهذا تتفاوت درجات الموحدين، وكتبُ الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار، والأنبياء هم الكحالون، وقد جاؤوا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول **«لا إله إلا الله»** ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد؛ إذ عبدة الأوثان قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣] فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً، والمتوسطون هم الأكثرون، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز.

لكل إلى شأو العلا حركاتُ ولكن عزيز في الرجال ثباتُ

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب القرب فقيل له: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العَلق: ١٩] قال في سجوده: **«أَعوذُ بِعَفوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»**(١)؛ فقوله ﷺ: **«أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ»** كلام عن مشاهدة فعل الله فقط، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله، فاستعاذ بفعله من فعله، ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال: **«أعوذ برضاك من سخطك»** وهما صفتان، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب ورقي من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال **«وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»** وهذا فرار منه إليه من غير

---

(١) حديث قال في سجوده: **«أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك. . .»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة: **«أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك. . .»** الحديث.

رؤية فعل وصفة، ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذاً ومثنياً، ففني عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» فقوله ﷺ: «**لا أُحْصِي**» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها، وقوله: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» بيان أنه المثني والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله، فيستعيذ بفعل من فعل: فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق، ولقد كان ﷺ لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[(١)]، فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاماً بعضها فوق البعض: أوّلها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها، فكان استغفاره لذلك. ولما قالت عائشة رضي الله عنها: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[(٢)]، معناه: أفلا أكون طالباً للمزيد في المقامات. فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول: الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات، وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول: يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوباً وملبوساً ونقداً لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك، ثم يكون له حالتان:

إحداهما: أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته، ويكون له عناية في خدمته.

والثانية: أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه، بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء، وغيبته لا تنقص من ملكه؛ فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه، فمنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى؛ فإن الأولى محال على الله تعالى، والثانية غير محال. ثم اعلم: أن العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يقم بخدمته التي أرادها الملك منه. وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً، ومع ذلك يتصوّر أن يكون شاكراً وكافراً، ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه

---

(١) حديث: «**إنه ليغان على قلبي...**» الحديث. تقدم في التوبة، وقبله في الدعوات.

(٢) حديث عائشة لما قالت له: «**غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء...**» الحديث. رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً، وكذلك هو في الصحيحين مختصراً من حديث المغيرة بن شعبة.

إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه؛ فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه؛ إذ استعمل نعمته في محبته؛ أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه، وإن ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته؛ أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه، وإن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته؛ إذ أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته، وإنما سعادتهم في القرب منه، فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التين: ٤-٦] الآية. فإذن: نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب، والله تعالى غني عنه قرب أم بعد، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه، وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية، وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى. فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة، بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه. ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه، وقد انحل بهذا الإشكال الأوّل: وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر؛ وبهذا أيضاً ينحل الثاني؛ فإنا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله، فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد، وفعلك عطاء من الله تعالى، ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى، وصار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته، فله الشكر على كل حال، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك؛ فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شيء؛ إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً وإنما أنت لا شيء إذا كنت أنت ظاناً لنفسك شيئاً من ذاتك. فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذ جعلك شيئاً، فإن قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقاً، وإلى هذا أشار ﷺ حيث قال: «**اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له**»[(١)]، لما قيل له: يا رسول الله، ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل؟. فتبين أن الخلق مجاري قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض. وقوله: «**اعملوا**» وإن كان جارياً على لسان الرسول ﷺ فهو فعل من أفعاله، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة، وانبعاث الداعية أيضاً من أفعال الله

---

(١) حديث: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» من حديث علي وعمران بن حصين.

تعالى، وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضاً من أفعال الله تعالى، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض؛ أي الأوّل شرط للثاني كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله، وخلق الحياة شرط لخلق العلم، وخلق العلم شرط لخلق الإرادة، والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض؛ أي هو شرط، ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستعدّ لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعدّ لقبول العلم إلا ذو حياة، ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أنّ بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه.

فإن قلت: فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان، وما إلينا شيء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى؟ فاعلم: أنّ هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها، فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة، ويعبر عن مثله بأن كلاً ميسر لما خلق له، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ وكلام العلماء؛ فإذا لم يسمع لم يعلم، وإذا لم يعلم لم يخف، ، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان، وإن جهنم لموعدهم أجمعين. فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه. وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل؛ وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهراً، والمجرمون يقادون إلى النار قهراً، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار، ولا قادر إلا الملك الجبار، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص، ولكنّ الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف. فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك.

بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه:

اعلم: أنّ فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه؛ إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع: ومستنده الآيات والأخبار.

والثاني: بصيرة القلب: وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير، وهو لأجل ذلك عزيز. فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً. وأما الثاني ـ وهو النظر بعين الاعتبار ـ فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه؛

إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية.

أما الجلية: فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها، بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه؛ إذ قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ [عَبَسَ: ٢٥-٢٨] الآية.

وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق، والقدْر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصَّافات: ٦] فجميع أجزاء العالم؛ سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرّة من ذرّاته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها؛ كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للمشي، والرجل للمشي لا للشم، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدراً يسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥]. فإذن: كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد؛ إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس؛ إذ الإبصار يتم بهما، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما، فقد استعملها في غير ما أريدتا به، وهذا لأنَّ المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها: أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهراً وباطناً، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، فلذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذّاريَات: ٥٦،٥٧] الآية. فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بدّ منها لإقدامه على تلك المعصية. ولنذكر مثالاً واحداً للحِكَم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا، وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته،

وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه؛ كمن يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه، ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بدّ في مقدار العوض من تقدير؛ إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال: يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة. وكذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار، فهذه الأشياء لا تناسب فيها، فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جداً، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم بينهما بحكم عدل، فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقرّرت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدّر الأموال بهما، فيقال: هذا الجمل يسوى مائة دينار، وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً، ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر، فإذن: خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء، لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشيء إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها، كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون، فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها، فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما، فإذن: من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه. لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة؛ إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما فإنهما حجران، وإنما خلقا لتتداولها الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقوّمة للمراتب، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة - أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله ﷺ حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كنز، لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس، والحبس أهون منه؛ وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدّد، وإنما الأواني لحفظ المائعات، ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود، فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له: من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما

يجرجر في بطنه نار جهنم[(١)]، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض في عينهما، فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة؛ إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم، ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة؛ إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب، فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده، فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما، وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام، كما قال النحويون: إنّ الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره، وكموقع المرآة من الألوان. فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيداً عنده وينزل منزلة المكنوز، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم، كما أن حبسه ظلم، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصوداً للادخار وهو ظلم.

فإن قلت: فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر، ولم جاز بيع الدرهم بمثله؟ فاعلم: أن أحد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل؛ إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلاً قليلاً، ففي المنع منه ما يشوّش المقصود الخاص به؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره. وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر، فإنه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر، وذلك أيضاً لا يتصور جريانه؛ إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد. وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء، لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته، وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد. وأما إذا باع درهماً بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض، وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر. والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر، فهو أيضاً ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعارضة، وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها، فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له، فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة، فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها؛ إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجاً ولم يجعله بضاعة تجارة؟ وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه، فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضاً مستغن عنه، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب. نعم، بائع البر بالتمر معذور؛ إذ أحدهما لا يسدّ مسدّ الآخر في الغرض، وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت

---

(١) حديث: «من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم» متفق عليه من حديث أم سلمة، ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً.

في الجودة، ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد.

وأما جيد برديئين فقد يقصد، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فإنه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافيات، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصص بالأطعمة دون المكيلات؛ إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول، ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات، ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد، وتحديد هذا كان ممكناً بالقوت وكان ممكناً بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء، وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة، ولو لم يحدّ لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص. فعين المعنى بكمال قوّته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحدّ ضرورياً، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطَّلَاق: ١]، ولأنّ أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد، كما يحدّ شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر، وقد حدّه شرعنا بكونه من جنس المسكر؛ لأنّ قليله يدعو إلى كثيره، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين، فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال، فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩]، ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب، ولذلك قال ﷺ: **«لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ»**[1]، وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصوّر أن ينفك عنهما، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه الحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف الحظر، فأقول مثلاً: لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين؛ إذ خلق الله لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل، وتفضيل الناقص عدول عن العدل، والله لا يأمر بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل، وكذلك إذا بصقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم، لأنه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك وقسم الجهات إلى ما لم يشرفها وإلى ما شرفها؛ بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات، وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق، فإذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت

---

(١) حديث: **«لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء»**، تقدم في الصوم.

نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت؛ لأن الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروهاً، حتى إن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الحنطة وكان يتصدّق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن أكفره بالصدقة، نعم، الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام، وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها. فقبيح أن يقال: الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره قد تعدّى من وجهين:

أحدهما: الشرب **والآخر** الأخذ باليسار، ومن باع خمراً في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال: خان من وجهين:

أحدهما: بيع الخمر، **والآخر**: البيع في وقت النداء. ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه، فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، فينمحق بعضها في جنب البعض، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب، بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقرّ الشياطين، وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد. أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة. وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوّة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه، فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك؛ إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان، فإنهما جميعاً فانيان هالكان، فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدّة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضاً وإن كان محتاجاً، لأنّ كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلماً، فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا بسعي آدمي اختص بمغرسه أو بغرسه، فلا بدّ من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه، فللسابق خاصية السبق، فالعدل هو أن يكون أولى به، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك، وهو مجاز محض؛ إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذي له ما في السموات والأرض، وكيف يكون العبد مالكاً وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره، نعم، الخلق عباد الله والأرض مائدة الله؛ وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم، كالملك ينصب مائدة لعبيده، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء

عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه؛ لا لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد ـ فإن اليد وصاحب اليد أيضاً مملوك ـ ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص، والأخذ اختصاص ينفرد به العبد، فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عباده، ولذلك نقول: من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا؛ إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم، نعم، لا يدخل هذا في حدّ فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية، والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة، وأواخر الأعمار غير معلومة، فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه؛ إذ قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ [محمّد: ٣٧]؛ بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه: أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو، وخارج عن مقصود الحكمة، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة، فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَأ: ١٣] وفرح إبليس لعنه الله بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعرَاف: ١٧]، فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأموراً أخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مباديها، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير.

فإن قلت: فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر، وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، ولكن الإشكال باق: وهو أنّ فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرة وكافراً أخرى؟ فاعلم: أنّ تمام التحقيق في هذا يستمدّ من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير، ويجحدها من عجز عن الإيضاع في السير، فضلاً عن أن يجول في جوّ الملكوت جولان الطير فنقول: إن لله عزّ وجلّ في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتدّ طرف فهمهم إلى مبادي إشراقها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش

عن نور الشمس، لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش، فاضطرّ الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جدّاً، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق، فقلنا: لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة، فهي توهم منها أمراً مجملاً عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدر. ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها، وإلى ما يقف دون الغاية، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة، وقيل: إنهما جميعاً داخلان في وصف المشيئة، ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمراً مجملاً عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات. ثم انقسم عباده ـ الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه ـ إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها، ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم، وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة، فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال، فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى، وأعطى النكال ثم قبح وأردى، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه، فإذا تمم زينته قال: يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك؛ فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثني على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة، فهكذا كانت الأمور في الأزل، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث، بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء، وقيل: إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية. وقيل: إنّ شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل، وكان بعضهم ـ لقصوره ـ لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم: اسكنوا فما لهذا خلقتم ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وامتلأت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض، وكان زيتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسته نار فاشتعل نوراً على نور، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها، فأدركوا

الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم: تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا[1]؛ فإن للحيطان آذاناً وحواليكم ضعفاء الأبصار، فسيروا بسير أضعفكم، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوّكم؛ ليأنس بكم الضعفاء، ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس، وكونوا كمن قيل فيهم:

شربنا شراباً طيباً عند طيب ... كذاك شراب الطيبين يطيبُ
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ... وللأرض من كأس الكرام نصيبُ

فهكذا كان أوّل هذا الأمر وآخره، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له، وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حدّ ما، فإذا ضاق الطريق وصار أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجرّ وراءه أعمى، وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلا بالسباحة، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه، وربما لم يقدر على أن يستجرّ وراءه آخر. فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلم، فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوّة اليقين؛ ولذلك قيل للنبي ﷺ: إن عيسى عليه السلام يقال: إنه مشى على الماء! فقال ﷺ: **«لَوِ ازْدَادَ يَقِيناً لَمَشى عَلَى الهَوَاءِ»**[2]، فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها، وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق؛ إذ عرّف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين. ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٨] والإغواء: هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه، وعندك في العادة له مثال، فالملك إذا كان محتاجاً إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا

---

(١) حديث: **«إذا ذكر القدر فأمسكوا»** رواه الطبراني من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في العلم، ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً.

(٢) حديث قيل له: يقال: إن عيسى مشى على الماء قال: **«لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء»** هذا حديث منكر لا يعرف هكذا، والمعروف: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبدالله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم: توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء، فذكر حديثاً فيه أن عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل: **«لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال»**.

يفوّض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه. ولا ينبغي أن تقول «هذا فعلي، ولم يكون فعله دون فعلي؟» فإنك أخطأت إذا أضفت ذلك إلى نفسك، بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل، فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها، وتارة يتم فيك فإنك أيضاً من أفعاله، فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة، إلا أنك لا ترى إلا نفسك، فتظن أنّ ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبذ الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورؤوسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد. وأما العقلاء: فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيده، فكذلك صبيان أهل الدنيا؛ والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة، ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها، وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات، وشاهدوا أيضاً ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم، وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فقال: لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني، وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر.

ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول:

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه، وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب، وما منهم إلا وله مقام معلوم، وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام، وإنما علوّ درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض، ويلي درجتهم درجة الأنبياء فإنهم في أنفسهم أخيار، وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته، وأعلاهم رتبة نبينا ﷺ وعليهم؛ إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق، ودرجة كل واحد منهم بقدر

ما أصلح من نفسه ومن غيره، ثم يليهم السلاطين بالعدل؛ لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم، ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء، ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم، ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع.

واعلم: أن السلطان به قوام الدين، فلا ينبغي أن يستحقر وإن كان ظالماً فاسقاً. قال عمرو بن العاص رحمه الله: إمام غشوم خير من فتنة تدوم. وقال النبي ﷺ: **«سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ، وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بهم أَكْثَرَ، فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُم الأَجْرُ وَعَلَيْكُمْ الشُّكْرُ، وَإِنْ أَسَاؤُوا فَعَلَيْهِم الوِزْرُ وَعَلَيْكُم الصَّبْرُ»**(1)، وقال سهل: من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل. وسئل: أي الناس خير؟ فقال: السلطان، فقيل: كنا نرى أن شر الناس السلطان! فقال: مهلاً، إن الله تعالى له كل يوم نظرتين: نظرة إلى سلامة أموال المسلمين، ونظرة إلى سلامة أبدانهم، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه، وكان يقول: الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصاً يقصون.

* * *

الركن الثاني

من أركان الشكر: ما عليه الشكر

وهو النعمة، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم؛ فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فنقدم أموراً كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم، ثم نشتغل بذكر الآحاد، والله الموفق للصواب.

بيان حقيقة النعمة وأقسامها:

اعلم: أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي

---

(١) حديث: **«سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أم سلمة: **«يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون»** ورواه الترمذي بلفظ: **«سيكون عليكم أئمة»** وقال حسن صحيح، وللبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر: **«السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر»** وأما قوله: **«وما يصلح الله بهم أكثر»** فلم أجده بهذا اللفظ، إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبدالله: اصبروا فإن جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول... فذكر حديثاً فيه: **«والإمارة الفاجرة خير من الهرج»**. رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به.

لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية. والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات:

القسمة الأولى: أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً؛ كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل؛ كالتلذذ باتباع الشهوات، وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل؛ كقمع الشهوات ومخالفة النفس، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق، والضارّ فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضدهما، والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي البصائر؛ وتظنه الجهال نعمة. ومثاله: الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم فإنه يعدّه نعمة إن كان جاهلاً، وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه. والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهال. ومثاله: الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة، فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء، والعاقل يعدّه نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيىء له أسبابه، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه، ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدواً له، ولو عقل لعلم أن الأم عدوّاً باطناً في صورة صديق، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشدّ من الحجامة، ولكن الصديق الجاهل شر من العدوّ العاقل، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدوّ.

قسمة ثانية: **اعلم**: أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب، ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافىء ضرره نفعه. وهذه أمور تختلف بالأشخاص؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات، فهو مع هذه التوفيق نعمة في حقه، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضاً إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربه طالباً للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه.

قسمة ثالثة: **اعلم**: أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره، وإلى مؤثر لغيره، وإلى مؤثر لذاته ولغيره.

فالأوّل: ما يؤثر لذاته لا لغيره؛ كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها.

الثاني: ما يقصد لغيره ولا غرض أصلاً في ذاته؛ كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة، ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصاً فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في

محبة الرسول محبة الأصل، فيعرض عنه طول عمره، ولا يزال مشغولاً بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده، وهو غاية الجهل والضلال.

الثالث: ما يقصد لذاته ولغيره؛ كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا، وتقصد أيضاً لذاتها. فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضاً سلامة الرجل من حيث إنها سلامة، فإذن: المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقاً، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأوّل، فأما ما لا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة، بل من حيث هما وسيلتان، فيكونان نعمة في حق من يقصد أمر ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة.

قسمة رابعة: اعلم: أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ: هو الذي تدرك راحته في الحال، والنافع: هو الذي يفيد في المآل، والجميل: هو الذي يستحسن في سائر الأحوال. والشرور أيضاً تنقسم إلى ضارّ وقبيح ومؤلم، وكل واحد من القسمين ضربان: مطلق ومقيد، فالمطلق: هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة؛ أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضارّ وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة، ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادّان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة. الضرب الثاني: المقيد: وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن. ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع، فقد قيل: استراح من لا عقل له فإنه لا يتهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه، ورب نافع من وجه ضارّ من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق، فإنه ضارّ للمال نافع للنفس في نجاتها. والنافع قسمان: ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة؛ وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما، وإلى ما لا يكون ضرورياً كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء، فإنه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه.

قسمة خامسة: اعلم: أنّ النعمة يعبر بها عن كل لذيذ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع: عقلية، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات. أما العقلية: فكلذة العلم والحكمة؛ إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج، وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل، وهذه أقل اللذات وجوداً وهي أشرفها، أما قلتها: فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم، وما أقل أهل العلم والحكمة، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم. وأما شرفها: فلأنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودائمة لا تمل، فالطعام يشبع منه فيمل، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل، والعلم والحكمة قط لا يتصوّر أن تمل وتستثقل، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد إذا

رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره، وأقل أمر فيه: أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال؛ إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص بالإنفاق، والمال يسرق والولاية يعزل عنها، والعلم لا تمتدّ إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل، فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً، وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً، ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبداً، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيراً في مواضع. وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم فإما لعدم الذوق، فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق؛ إذ الشوق تبع الذوق، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرّاً، وإما لقصور فطنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء.

فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة: إما من لم يحيى باطنه كالطفل، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات: وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البَقَرَة: ١٠] إشارة إلى مرض العقول. وقوله عزّ وجلّ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] إشارة إلى من لم يحيى حياة باطنة، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان. الثانية: لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات. الثالثة: ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج، وهذه أكثرها وجوداً وهي أخسها، ولذلك اشترك فيها كل ما دبّ ودرج حتى الديدان والحشرات، ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة، وهو أشدّها التصاقاً بالمتغافلين، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة، لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وهذه رتبة الصدّيقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حب الرياسة. وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون، وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصدّيقون. فأما قمعها بالكلية، حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر. نعم، تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه. وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله، وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية. وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية. وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة. أما الأول فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد. وأما الثاني فالدنيا طافحة به. وأما الثالث والرابع فموجدان ولكن على غاية الندور، ولا يتصوّر أن يكون ذلك نادراً شاذاً، وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام، فلا يزال يزداد العهد طولاً وتزداد مثل هذه القلوب

قلة إلى أن تقرب الساعة ويقضي الله أمراً كان مفعولاً، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً لأنه مبادي ملك الآخرة، والملك عزيز والملوك لا يكثرون، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة، فإنّ الدنيا مرآة الآخرة، فإنها عبارة عن عالم الشهادة، والآخرة عبارة عن عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب. كما أنّ الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك، فإنك لا ترى نفسك، وترى صورتك في المرآة أولاً فتتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة، فالقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدّماً؛ وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الحق به فقال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم، وهذا الحبس مملوء ناراً من شأنها أن تطلع على الأفئدة، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجاباً، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا: الجنة والنار مخلوقتان، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين، وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين، فلذلك قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ٥،٦] أي في الدنيا ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٧] أي في الآخرة، فإذن: قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً كالشخص الصالح لملك الدنيا.

قسمة سادسة: حاوية لمجامع النعم: **اعلم**: أنّ النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية. أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له. وسرور لا غم فيه؛ وعلم لا جهل معه؛ وغنى لا فقر بعده؛ وهي النعمة الحقيقية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**لا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ**»(١)، وقال ذلك مرّة في الشدة تسلية للنفس، وذلك في وقت حفر الخندق في شدّة الضر. وقال ذلك مرة في السرور منعاً للنفس من الركون إلى سرور الدنيا؛ وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع(٢). وقال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال النبي ﷺ: «**وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ**»؟ قال: لا. قال: «**تَمَام النِّعْمَةِ دُخُولُ الجَنَّةِ**»(٣).

وأما الوسائل: فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس، وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة، وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية، فهي إذن أربعة أنواع:

---

(١) حديث قوله عند حفر الخندق: «**لا عيش إلا عيش الآخرة**» متفق عليه من حديث أنس.

(٢) حديث قوله في حجة الوداع: «**لا عيش إلا عيش الآخرة**» رواه الشافعي مرسلاً، والحاكم متصلاً وصححه، وتقدم في الحج.

(٣) حديث: «قال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث معاذ بسند حسن.

النوع الأول: وهو الأخص؛ الفضائل النفسية: ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق، وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة؛ وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، وإلى علوم المعاملة. وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين: ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة، ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله ﷺ إذ قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٨، ٩] فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان. ومن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان. وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان، فإذن: الفضائل الخاصة بالنفس المقرّبة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة. ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية وهي أربعة: الصحة، والقوّة، والجمال، وطول العمر. ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث؛ وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهي أربعة: المال، والأهل، والجاه، وكرم العشيرة، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع؛ وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده، فمجموع هذه النعم ست عشرة إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة، وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة. أما الحاجة الضرورية، فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق؛ إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما، فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزوّد من الدنيا، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري. وأما الحاجة النافعة على الجملة: فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة.

فإن قلت: فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشيرة؟ فاعلم: أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود. أما المال: فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساع إلى الهيجا بغير سلاح، وكبازي يروم الصيد بلا جناح، ولذلك قال ﷺ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»(١)، وقال ﷺ: «**نِعْمَ العَوْنُ عَلى تَقْوَى اللَّهِ المَالُ**»(٢)، وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأقوات في طلب الأوقات وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرّض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات.

وقال بعض الحكماء وقد قيل له: ما النعيم؟ فقال: الغنى؛ فإني رأيت الفقير لا عيش له. قيل:

---

(١) حديث: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**» رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد.

(٢) حديث: «**نعم العون على تقوى الله المال**» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر. ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلاً، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب هكذا مرسلاً.

زدنا؛ قال: الأمن؛ فإني رأيت الخائف لا عيش له. قيل: زدنا، قال: العافية؛ فإني رأيت المريض لا عيش له. قيل: زدنا، قال: الشباب؛ فإني رأيت الهرم لا عيش له. وكأنّ ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِناً فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**»[1]، وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما؛ إذ قال ﷺ: «**نِعْمَ العَوْنُ عَلَى الدِّينِ المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»[2]، وقال ﷺ في الولد: «**إِذَا مَاتَ العَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ...**» الحديث[3]. وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح. وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطال شغله، وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين، فهو إذن نعمة. وأما العز والجاه: فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم، ولا يستغني عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدوّ يؤذيه وظالم يشوّش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه، وقلبه رأس ماله، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه، ولذلك قيل: الدين والسلطان توأمان. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١] ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب، كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه. فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، وجبة تدفع عنه البرد، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته، فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشر به عن نفسه، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه، وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم والاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم. ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله الله ﷺ حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه، ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة[4].

---

(١) حديث: «**من أصبح معافى في بدنه آمناً في سربه...**» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث عبدالله بن محصن الأنصاري، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**نعم العون على الدين المرأة الصالحة**» لم أجد له إسناداً، ولمسلم من حديث عبدالله بن عمرو: «**الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**».

(٣) حديث: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وتقدم في النكاح.

(٤) حديث: ما ناله ﷺ من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة: أنها قالت للنبيّ ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل...**» الحديث. وللترمذي. وصححه وابن ماجه من حديث أنس «**لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال**» قال الترمذي: معنى هذا حين خرج النبيّ ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال. وللبخاري عن عروة قال: سألت عبدالله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبيّ ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فدفعه عنه...» الحديث. وللبزار وأبي يعلى من حديث أنس قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. وإسناده صحيح على شرط مسلم.

فإن قلت: كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول: نعم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ»**(١)، ولذلك كان ﷺ من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام(٢) وقال ﷺ: **«تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمُ الأَكْفَاءَ»**(٣)، وقال ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ»** فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: **«المَرْأَةُ الحَسْنَاءُ فِي المَنْبَتِ السُّوءِ»**(٤)، فهذا أيضاً من النعم ولست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله ﷺ وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل.

فإن قلت: فما معنى الفضائل البدنية؟ فأقول: لا خفاء بشدّة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر؛ إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما، ولذلك قال ﷺ: **«أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ العُمُرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى»**(٥)، وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال، فيقال: يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحرّي الخيرات، ولعمري الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضاً، أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها، وأما في الآخرة فمن وجهين:

أحدهما: أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة، وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه؛ إذ هو نوع قدرة؛ إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها.

والثاني: أنّ الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن، فالمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان، ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن فقالوا: الوجه والعين مرآة الباطن. ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم، ولذلك قيل: طلاقة الوجه عنوان ما في النفس. وقيل: ما في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن ما فيه. واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح، فاستنطقه فإذا هو ألكن، فأسقط اسمه من الديوان وقال: الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة، أو على الباطن ففصاحة، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن، وقد قال ﷺ: **«اطْلُبُوا الخَيْرَ عِنْدَ صِبَاحِ الوُجُوهِ»**(٦). وقال عمر رضي الله تعالى عنه: إذا بعثتم رسولاً

---

(١) حديث: **«الأئمة من قريش»** رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح.

(٢) حديث: «كان ﷺ من أكرم الناس أرومة في نسب آدم. الأرومة الأصل، هذا معلوم، فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»** وفي رواية الترمذي: **«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل»** وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب بن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه: **«إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم»** وفي حديث ابن عباس: **«ما بال أقوام يبتذلون أصلي، فوالله لأنا أفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً»**.

(٣) حديث: **«تخيروا لنطفكم»** أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة، وتقدم في النكاح.

(٤) حديث: **«إياكم وخضراء الدمن»**. تقدم فيه أيضاً.

(٥) حديث: **«أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله»** غريب بهذا اللفظ، وللترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلاً قال: يا رسول الله: أي الناس خير؟ قال: **«من طال عمره وحسن عمله»** وقال: حسن صحيح.

(٦) حديث: **«اطلبوا الخير عند حسان الوجوه»** أخرجه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة، وخيرة وأمها لا أعرف حالهما. ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر، وله طرق كلها ضعيفة.

فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم. وقال الفقهاء: إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة، وقال تعالى ممتناً بذلك: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة، وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه.

فإن قلت: فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم، وقد ذم الله تعالى المال والجاه، وكذا رسول الله ﷺ[1]، وكذا العلماء. قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغَابُن: ١٤] وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغَابُن: ١٥] وقال علي كرّم الله وجهه في ذم النسب: الناس أبناء ما يحسنون، وقيمة كل امرىء ما يحسنه. وقيل: المرء بنفسه لا بأبيه. فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً؟ فاعلم: أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤوّلة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها، إلا أنّ فيها فتناً ومخاوف؛ فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة، وإن أصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآليء، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالماً بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه، وإن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيراً، ومدحه رسول الله ﷺ وقال: «**نِعْمَ العَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى المَالُ**» وكذلك مدح الجاه والعز؛ إذ منّ الله تعالى على رسوله ﷺ بأن أظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق، وهو المعني بالجاه، ولكن المنقول في مدحهما قليل، والمنقول في ذم المال والجاه كثير، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه؛ إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب. ومعنى الجاه ملك القلوب، وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسمّ المال قبل الوصول إلى ترياقه، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره، ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوّة الملك كما كان لرسولنا ﷺ ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام: فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزمون، فقد يضر الصبي ما لا يضر المعزم. نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه، وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك، فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضرراً كثيراً، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه، فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب، ويقبح صورتها في عينه، ويعرّفه أنّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منه أحد، ولا يحدّثه أصلاً

---

(١) حديث: ذم المال والجاه. أخرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه**» وقد تقدم في ذم المال والبخل.

بما فيها من نفع الترياق، فإنّ ذلك ربما يغرّه فيقدم عليه من غير تمام المعرفة. وكذلك الغوّاص إذا علم أنه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك؛ فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر، فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل؛ فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه. فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء. ولذلك قال ﷺ: **«إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»**[١]، وقال ﷺ: **«إنكم تَتَهَافَتُونَ عَلَى النَّارِ تَهَافُتَ الفَرَاشِ وَأَنَا آخُذ بِحجَزِكُمْ»**[٢]، وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه، فإن الإنفاق فيه الترياق، وفي الإمساك السم، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق، فلذلك قبحت الأموال، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذتها، فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله، فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار. وقوله عليه الصلاة والسلام: **«لِيَكُنْ بَلَاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ»**[٣]، معناه لأنفسكم خاصة، وإلا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة. ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدّة استأذنه عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام، وقال: «مره بأن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقري الضيف...»[٤] الحديث ـ فإذن: النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوّها بمخوفها ونفعها بضرها ـ فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقياً داءها ومستخرجاً دواءها، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظانّ الأخطار، فلا تعدل بالسلامة شيئاً في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه.

فإن قلت: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد؟ فاعلم: أن التوفيق لا يستغني عنه أحد؛ وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره،

---

(١) حديث: **«إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله: **«لولده»**، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم»** متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ **«مثلي ومثل الناس»**. وقال مسلم: **«ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه»**. ولمسلم من حديث جابر: **«وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي»**.

(٣) حديث: **«ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب»** أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال: **«بلغة»** وقال: **«مثل زاد الراكب»** وقال: صحيح الإسناد. قلت: هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين، وقال ابن ماجه **«عهد إلي أن يكفي أحدكم مثل زاد الراكب»**.

(٤) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال: **«مره أن يطعم المسكين...»** الحديث. أخرجه الحاكم من حديث عبدالرحمن بن عوف وقال: صحيح الإسناد، قلت: كلا، فيه خالد بن مالك ضعيف جداً.

وهذا يشمل الخير والشر، وما هو سعادة وما هو شقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق، وكذا الارتداد، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فأما الهداية: فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها، لأنّ داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته، ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحاً فمن أين ينفعه مجرّد الإرادة؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية، ولذلك قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ [النُّور: ٢١] وقال ﷺ: «**ما مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلاّ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى**» أي بهدايته، فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا**»[1]، وللهداية ثلاث منازل:

الأولى: معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: ١٠] وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فُصّلَت: ١٧] فأسباب الهدى: هي الكتاب والرسل وبصائر العقول، وهي مبذولة، ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا، والأسباب التي تعمي القلوب وإن كانت لا تعمي الأبصار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: ٤٦] ومن جملة المعميات: الإلف والعادة وحب استصحابهما، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزّخرُف: ٢٢] الآية. وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزّخرُف: ٣١] وقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القَمَر: ٢٤] فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء.

والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة، وهي التي يمدّ الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال، وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: ٦٩] وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محَمَّد: ١٧].

والهداية الثالثة وراء الثانية؛ وهو النور الذي يشرق في عالم النبوّة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها، إلا ما لا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف، وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدّمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾ [البَقَرَة: ١٢٠] وهو المسمى حياة في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعَام: ١٢٢] والمعنى بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] وأما الرشد: فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده؛ فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده،

---

(١) حديث: «**ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله**». متفق عليه من حديث أبي هريرة: «**لن يدخل أحدكم عمله الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة**» وفي رواية لمسلم: «**ما من أحد يدخله عمله الجنة...**» الحديث. واتفقا عليه من حديث عائشة، وانفرد به مسلم من حديث جابر، وقد تقدم.

ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١] فالرشد: عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها، فالصبي إذا بلغ خبيراً بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيداً؛ لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطي الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطي الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرّد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة. وأما التسديد: فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتدّ في صوب الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجرّدها لا تكفي، بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي، بل لا بدّ من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه، فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرّك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، وأما التأييد فكأنه جامع للكل، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل، وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر، يصير كمانع من باطنه غير محسوس، وإياه عنى بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] فهذه هي مجامع النعم، ولن تتثبت إلا بما يخوّله الله من الفهم الصافي الثاقب، والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع، والمعلم الناصح، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته، القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته، والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء، ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسباباً، وتستدعي تلك الأسباب أسباباً إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين؛ وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجاً ليعلم به معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وبالله التوفيق.

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء:

اعلم: أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضرباً، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل: فلا يخفى أن الأكل فعل، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة، وكل حركة لا بدّ لها من جسم متحرّك هو آلتها، ولا بدّ لها من قدرة على الحركة، ولا بد من إرادة للحركة، ولا بدّ من علم بالمراد وإدراك له، ولا بدّ للأكل من مأكول، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل، ولا بدّ له من صانع يصلحه؛ فلنذكر أسباب الإدراك، ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء.

الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك:

اعلم: أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجوداً من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمي ولا تغذي؛ فإنّ النبات خلق فيه قوّة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله

وعروقه التي في الأرض، وهي له آلات، فبها يجتذب الغذاء؛ وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة، ثم تغلظ أصولها، ثم تتشعب، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر، إلا أنّ النبات مع هذا الكمال ناقص، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك، فأوّلها حاسة اللمس؛ وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه، وهذا أوّل حس يخلق للحيوان، ولا يتصوّر حيوان إلا ويكون له هذا الحس، لأنه إذا لم يحس أصلاً فليس بحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه، فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة، وهذا الحس موجود لكل حيوان، حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب، لا كالنبات فإنّ النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصاً كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك، بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية، فتحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه، وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً؛ إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب، وتبصر عدوّاً لا حجاب بينك وبينه، وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدوّ فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع، فاشتدّت إليه حاجتك فخلق لك ذلك، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق؛ إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك، كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدّمة دماغك إدراك آخر يسمى حساً مشتركاً تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه، ولولاه لطال الأمر عليك؛ فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانياً لولا الحس المشترك؛ إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة، فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بدّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً، حتى إذا أدرت الصفرة حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوله ثانياً، وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات؛ إذ للشاة هذه الحواس كلها، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً. فإنّ البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت، وقد تلقي نفسها في بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت؛ إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، فأما إدراك العواقب فلا، فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهي أشرف من الكل وهو العقل، فبه تدرك

مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل، وأقل الحكم فيه، بل الحكمة الكبرى فيه: معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس في حقك، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختصّ به، فواحدة منها بأخبار الألوان، والأخرى بأخبار الأصوات، والأخرى بأخبار الروائح، والأخرى بأخبار الطعوم، والأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك، والحس المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمها؛ إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها، فأما معرفة حقائق ما فيها فلا، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم الانهاءات إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرّك الجنود وهي الأعضاء؛ مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تعنّ له، فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات، ولا تظنن أنا استوفيناها؛ فإنّ الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات، والبصر واحد من جملة الحواس، والعين آلة واحدة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب، لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم، فهذا في حس واحد، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس. بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة، مع أنّ جملته لا تزيد على جوزة صغيرة؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات:

اعلم: أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلاً في حقه، فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة، ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة؛ لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة؛ فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضي الذي يضطرّك إلى التناول حتى تتناول وتغتذي فتبقى بالغذاء، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات. ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمي يقدّر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى

في خلق الرحم وخلق دم الحيض، وتأليف الجنين من المني ودم الحيض، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب؛ تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظماً ولحماً ودماً، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب، فضلاً عما تراه الآن، ولكنا لسنا نريد أن نتعرّض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام؛ فإذن: شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات، وذلك لا يكفيك، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب، فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته، وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال، وأما في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرّف للعواقب، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل؛ إذ كان مجرّد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة، وهذه الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب، وقد سمينا هذه الإرادة باعثاً دينياً، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا.

الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة:

اعلم: أن الحس لا يفيد إلا الإدراك، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب، وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب، فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما، فلا بدّ من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة؛ لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً وبمقتضى الكراهية هرباً، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها؛ فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للإنسان والجناح للطير والقوائم للدواب، ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً؛ فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة، ومنها ما خلق له أربع قوائم، ومنها ما له رجلان، ومنها ما يدب. وذكر ذلك يطول، فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول: رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه، فافتقرت إلى آلة باطشة؛ فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدّتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات، فتمتدّ وتنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة، ثم جعل رأس اليد عريضاً بخلق الكف، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع، وجعلها في صفين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية، ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك، فوضعها وضعاً إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض، ثم خلق لها أظفاراً وأسند إليها رؤوس

الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه، فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام، فخلق لك اللحيين من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحناً، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً، وبذلك لا يتم الطحن. فجعل اللحى الأسفل متحرّكاً حركة دورية، واللحى الأعلى ثابتاً لا يتحرّك، فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنعه الله تعالى؛ إذ يدور منه الأسفل على الأعلى، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرّك الطعام إلى ما تحت الأسنان، أو كيف تستجرّه الأسنان إلى نفسها، وكيف يتصرف باليد في داخل الفم؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوّة النطق والحكم التي لسنا نطنب بذكرها، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر! فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك، ثم هذا الطعام المطحون المتعجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتدّ فتجذب الطعام، فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوي إلى المعدة في دهليز المريء، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة، بل لا بد وأن يطبخ طبخاً تاماً حتى تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، فلا يزال لابثاً فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة؛ إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال، ومن قدّام الترائب، ومن خلف لحم الصلب، فتتعدّى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته، وهو بعد لا يصلح للتغذية؛ فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد؛ فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوّة الكبد فتصبغه بلون الدم، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم

فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ: إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي، والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء، ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً في تجويفه، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي، فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية، ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية، ولا خرج منها متصاعداً إلى الأعضاء، فخلق الله سبحانه الكليتين، وأخرج من كل واحدة منهما عنقاً طويلاً إلى الكبد.

ومن عجائب حكمة الله تعالى: أن عنقهما ليس داخلاً في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد؛ إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافياً من الفضلات الثلاث نقياً من كل ما يفسد الغذاء، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقاً، ثم قسمها بعد الطلوع أقساماً، وشعب كل قسم بشعب، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهراً وباطناً، فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها، وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره. ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة: أما المرارة: فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلقة، ويحدث في الأمعاء لذع يحركها للدفع، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك. وأما الطحال: فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض، ثم يرسل منها كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرّك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل، وأما الكلية: فإنها تغتذي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة. ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل. ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ، واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه، وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس، وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء، ثم كيفية تركب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه، بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة، وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرّك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولاً لتقوى بعدها على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والحمار أيضاً يعلم أنه يجوع فيأكل، ويتعب فينام، ويشتهي فيجامع، ويستنهض فينهض ويرمح، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط، فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه

حذراً من التطويل، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب، ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب، فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها، كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه، ولكنه جعل السراج سبباً له بحكمته. وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح؛ ومحله القلب، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة، والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة، والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت، وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفىء مهما انقطع غذاؤه، وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفىء السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفىء مع وجود الغذاء؛ فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تتشبث النار به. وكما أن السراج تارة ينطفىء بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفىء بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل. وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدّرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر؛ فكذلك انطفاء الروح. وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب، فكذلك انطفاء الروح. وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح؛ وهي أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة، فهذا أيضاً رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] عزّ وجلّ: فتعساً لمن كفر بالله تعساً، وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً.

فإن قلت: فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥][(١)]، فلم يصفه لهم على هذا الوجه.

فاعلم: أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح، فإنّ الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطوّل بذكرها، ونحن إنما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به، حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدّة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدّة فيها ويعالجونها بما يفتح السدّة، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء، وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل. وأما الروح التي هي الأصل، وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه، ولا رخصة في وصفه إلا بأن

---

(١) حديث: أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال: «الروح من أمر ربي» متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في شرح عجائب القلب.

يقال: هو أمر رباني كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: ٨٥] والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات، وتتزلزل في ذكر مبادىء وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض، المحبوسة في مضيقها، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل؛ يشرق ذلك النور في عالم النبوّة والولاية، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال، وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها؛ لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب، وعلى أوّل الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني. فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز، ولا لحافظ العتبة مشاهدة، واستحال أن يصل الميدان؛ فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية، ولذلك قيل: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه. وأنى يصادف هذا خزانة الأطباء؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه؟ بل المعنى المسمى روحاً عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك، فمن عرف الروح الطبي فظنّ أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحرّكها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك، ولا يشك في أنّ خطأه فاحش، وهذا الخطأ أفحش منه جدّاً، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ أن يتحدّث عنه، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئاً، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته، أما نسبته ففي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: ٨٥] وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] ولنرجع الآن إلى الغرض، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل.

الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته:

اعلم: أن الأطعمة كثيرة، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى، وأسباب متوالية لا تتناهى، وذكر ذلك في كل طعام مما يطول، فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية، فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الأغذية فنقول: إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعاً، فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك، فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء؛ لأنه يغتذي بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذي أنت وتجتذب، ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، ولكن نشير إلى غذائه فنقول: كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص، فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء، ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها، ولو تركتها في الماء لم تزد، ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد، بل لا بدّ من أرض فيها

ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾ [عَبَس: ٢٤-٢٩] الآية، ثم لا يكفي الماء والتراب؛ إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] وإنما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض، ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف؛ فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة، فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد؛ إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الأنهار، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب ثقال حوامل بالماء، ثم انظر كيف يرسله مدراراً على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي، ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها، وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان، فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد، والحر عند الحاجة إلى الحر! فهذه إحدى حكم الشمس، والحكم فيها أكثر من أن تحصى، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم! ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضاً، ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه، بل نقول: كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب، فلا يخلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثاً وباطلاً ولم يصح قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عِمرَان: ١٩١] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة، والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك، وشرح ذلك يطول، ولا ينبغي أن تظن أنّ الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسباباً لها بحكم الحكمة مخالف للشرع؛ لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم[1]، بل المنهي عنه في النجوم أمران:

---

(١) حديث: النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم. أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان: «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا» وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم في العلم. ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: يا رسول الله، أموراً كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان! قال: «فلا تأتوا الكهان...» الحديث.

أحدهما: أن تصدّق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها؛ وهذا كفر.

والثاني: تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها، لأنهم يقولون ذلك عن جهل، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام، ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحاً في الدين بل هو حق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك: أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال: قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك، وقس بهذا سائر الآثار، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول. فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر؛ فإذن: الكواكب ما خلقت عبثاً، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى، ولهذا نظر رسول الله ﷺ إلى السماء وقرأ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١] ثم قال ﷺ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هٰذِهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ»[(١)]، ومعناه: أن يقرأ ويترك التأمل، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته، فلله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى؛ فإن من أحب عالماً فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى، فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرّك حركات موزونة متناسبة، فلا تعجب من اللعب فإنها خرق محرّكة لا متحركة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار؛ فإذن: المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أهملناه، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات.

الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك:

اعلم: أنّ هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان، بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في

---

(١) حديث: قرأ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١] ثم قال: **«ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته»** أي ترك تأملها. أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ: **«ولم يتفكر فيها»** وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف.

بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون فإما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدّ أعدائهم لو عرفوا، فانظر: كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح، ويركبوا الأخطار ويغرّروا بالأرواح في ركوب البحر، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك! وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها! وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري! وانظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة، وإلى الحمار كيف جعل صبوراً على التعب، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج! وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج إليه السفن، فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدّ الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن، ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز.

الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة:

اعلم: أنّ الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل، وهو كذلك، بل لا بدّ في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور أخر لا تحصى، واستقصاء ذلك في كل طعام يطول، فلنعين رغيفاً واحداً، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض، فأوّل ما يحتاج إليه الحارث ليزرع ويصلح الأرض، ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدّة، ثم تنقية الأرض من الحشيش، ثم الحصاد، ثم الفرك والتنقية، ثم الطحن، ثم العجين ثم الخبز؛ فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره، وعدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره، وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار، وحدّاد وغيرهما!، وانظر إلى حاجة الحدّاد إلى الحديد والرصاص والنحاس!، وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن! وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة! فإن فتشت علمت أنّ رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع، فابتدىء من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع، كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات، حتى إن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمساً وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملاً، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلاً بعد نباته لنفذ عمرك وعجزت عنه، أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة! فانظر إلى المقراض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر

فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض، وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها؛ فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان، وسبحان من منع النبيين مع هذا البيان، فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً، أو عن الحدّاد، أو عن الحجام الذي هو أخس العمال، أو عن الحائك، أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها؟ فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته. ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء.

الطرف السابع: في إصلاح المصلحين:

اعلم: أن هؤلاء [الصناع] المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبدّدوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض، بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد، فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد، ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة، ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدّهم بالقوة والعدّة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض، فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق، واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون؛ حتى صار الحدّاد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحدّاد، وصار الحجام ينتفع بالحراث، والحرّاث بالحجام، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض. وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا، وعرّفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم، وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين!، وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرّب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى!؛ فالخباز يخبز العجين، والطحان يصلح الحب بالطحن، والحرّاث يصلحه بالحصاد، والحدّاد يصلح آلات الحراثة، والنجار يصلح آلات الحدّاد، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة، والسلطان يصلح الصناع، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم، والعلماء يصلحون السلاطين، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام، ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة

من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا، وإن سكنا فبقهره انقبضنا؛ إذ لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى، لأنا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار، وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار.

الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام:

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم، ولا تظنن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية، والسماوية، وحملة العرش، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما. واعلم: أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك، وبيانه: أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف، وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر، ثم يصير لحماً وعظماً، وإذا صار لحماً وعظماً تم اغتذاؤك، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار، فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجيناً ثم خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصناع، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعروقاً وعصباً إلا بصناع؛ والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة، فأقول: لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عليه صورة الدم، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً، ولا بد من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأفخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل، وإلا بطلت الصورة وربا بعض المواضع وضعف بعض المواضع، بل لو لم يراع هذا الملك العادل في القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلاً لبقيت تلك الرجل كما كانت في حدّ الصغر وكبر جميع البدن، فكنت ترى شخصاً في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه ألبتة؛ فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوّضة إلى ملك من الملائكة، ولا تظنن أنّ الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإنّ محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا

يدري ما يقول؛ فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم، وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز، والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس، المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت، جبار السمٰوات والأرض، مالك الملك ذو الجلال والإكرام. والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجرّ من جانب إلى جانب[1] أكثر من أن تحصى؛ فلذلك تركنا الاستشهاد به.

فإن قلت: فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم أفتقر إلى سبعة أملاك، والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً، ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً، ثم إلى من يعجن رابعاً، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامساً، ثم إلى من يرقها رغفاناً عريضة سادساً، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعاً، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به. فهلا كانت أعمال الملائكة باطناً كأعمال الإنس ظاهراً؟ فاعلم: أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصّافات: ١٦٤]؛ فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس، فإنّ البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا هما يتنازعان الشم؛ وليس كاليد والرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشاً ضعيفاً فتزاحم به اليد، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب، ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل، ولذلك نرى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير

---

(١) حديث: الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسمٰوات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب...؛ ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء. «**قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح، وفيه: أتى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح...**» الحديث. ولهما من حديث أبي هريرة: «**إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام**» وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل: «**فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين...**» الحديث. ولهما من حديث أنس: «**إن الله وكل بالرحم ملكاً...**» الحديث. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي: «**ما من نبت ينبت إلا وتحته ملك موكل حتى يحصد...**» الحديث. وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكراوي واسمه عثمان بن عبدالرحمن وكلاهما ضعيف. وللطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف: «**إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزال إلا دابة في عنقها جرس**» وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس: قالت اليهود: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال: «**ملك من الملائكة موكل بالسحاب**» ولمسلم من حديث أبي هريرة: «**بينما رجل بفلاة من الأرض سمع صوتاً من سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة...**» الحديث.

ممكن في طباع الملائكة، بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، والراكع منهم راكع أبداً، والساجد منهم ساجد أبداً، والقائم قائم أبداً، لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه، وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلاً بإشارتك، فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه؛ إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحاً وإطباقاً والملائكة أحياء عالمون بما يعملون؛ فإذن: هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسماوية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها، فإنا لم نطول بذكرها؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات، فإذن: قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة، ثم قال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخَلق من الحسد وسوء الظن والبدعة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة، بل أقول: كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه، وإن انتفع غيره أيضاً به فإن لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن؛ إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود، ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين؛ إذ البياض يفرّق الضوء والسواد يجمعه، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفاً واحداً: أن يكون مانعاً للهوام من الدبيب إلى باطن العين، ومتشبثاً للأقذاء التي تتناثر في الهواء، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل: وهو أنّ غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك الشعر، فيكون شباك الشعر مانعاً من وصول القذى من خارج، وغير مانع من امتداد البصر من داخل، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة، فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار، وخرجت الأقذار إلى زوايا العين والأجفان، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين، فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار، وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب، ولعلنا نستأنف له كتاباً مقصوداً فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى، فلنرجع إلى غرضنا فنقول: من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بعين، ولا العين إلا برأس، ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسمٰوات، ولا السمٰوات إلا بالملائكة، فإنّ الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض، فإذن قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى؛ فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا

نبات ولا جماد إلا ويلعنه، ولذا ورد في الأخبار: أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم[١]، وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر[٢]، وأن الملائكة يلعنون العصاة[٣] في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في الملك والملكوت، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها، فيتبدل اللعن بالاستغفار، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه. وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: «يا أيوب، ما من عبدٍ لي من الآدميين إلا ومعه ملكان، فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان: اللهم زده نعماً على نعم، فإنك أهل الحمد والشكر. فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علوّ رتبة، وعندي أني أشكر شكرهم، وملائكتي يدعون لهم، والبقاع تحبهم، والآثار تبكي عليهم».

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة، فاعلم: أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين؛ إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب، ولو سدّ متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وفي كل ساعة قريب من ألف نفس، وكل نفس قريب من عشر لحظات، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم، فانظر هل يتصوّر إحصاء ذلك أم لا؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قال: إلهي: كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت أصلها، وأن طمست رأسها؟ وكذا ورد في الأثر: أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه.

وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب؛ فاعتبر ما سواه من النعم به، فإنّ البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطمع.

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر:

اعلم: أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله. ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عزّ وجلّ فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما **الغفلة عن النعم**: فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم؛ لأنها عامة للخلق

---

(١) حديث: «**إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم**» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «**إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر**». تقدم في العلم.

(٣) حديث: «**إن الملائكة يلعنون العصاة**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: «**الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه**».

مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعدّه نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حارّ أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غماً؛ فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدّر ذلك نعمة وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعدّه نعمة، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهل نعمة، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائماً، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرّق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدّة اغتمامه به فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا، فقال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً.

وحكي: أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأنّ قائلاً يقول له: تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار؟ قال: لا، قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال: لا، فعدّد عليه سوراً ثم قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو. فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني. فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم، فقال: لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه؟ قال: نعم. قال: فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء.

فبهذا تبين: أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة ـ وقد ذكرنا النعم العامة ـ فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول: ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعماً كثيرةً تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة، بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس، وقل من يسأل الله العقل، وإنّ من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه، فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره؛ لأنه في حقه كالباقي.

وأما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيىء.

وأما العلم: فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة! فإذن: لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد. فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقاً، وإما في بعض الأمور. فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أموراً لو سلب ذلك منه وأعطي ما خصص به غيره لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً وحياً لا جماداً وإنساناً لا بهيمة وذكراً لا أنثى وصحيحاً لا مريضاً وسليماً لا معيباً؛ فإنّ كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضاً، فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها، بل له أمور لا يبدّلها بأحوال الآدميين أيضاً، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر. فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره، وإذا كان لا يعرف شخص يرتضي لنفسه حالة بدلاً عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص؛ فإذن: لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه، وما باله لا يسوي دنياه بدينه، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة! فينظر أبداً في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه، فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه، وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق، فكيف لا يلزمه الشكر، وإذا قال ﷺ: **«مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللَّهُ صَابِراً وَشَاكِراً. وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ صَابِراً وَلا شَاكِراً»**[1]. فإذن: كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعماً كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك، ولذلك قيل:

من شاء عيشاً رحيباً يستطيل به ... في دينه ثمّ في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعاً ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال ﷺ: **«مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بآياتِ اللَّهِ فَلاَ أَغْنَاهُ اللَّهُ»**[2]، وهذا إشارة إلى نعمة العلم. وقال عليه السلام: **«إِنَّ القُرْآنَ هُوَ الغِنَى الَّذِي لا غِنَى بَعْدَهُ وَلا فَقْرَ مَعَهُ»**[3]، وقال عليه السلام: **«مَنْ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ**

---

(١) حديث: **«من نظر في الدنيا من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابراً شاكراً...»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو وقال: غريب، وفيه المثنى بن الصباح ضعيف.

(٢) حديث: **«من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله»**، لم أجده بهذا اللفظ.

(٣) حديث: **«إن القرآن هو الغناء الذي لا غناء بعده ولا فقر معه»** أخرجه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ: **«إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه»** قال الدارقطني: رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلاً، وهو أشبه بالصواب.

فظن أَنَّ أَحَداً أَغْنَى مِنْهُ فَقَدِ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللَّهِ»[(١)]، وقال ﷺ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»[(٢)]، وقال عليه السلام: «**كَفَى بِاليَقِينِ غِنىً**»[(٣)]، وقال بعض السلف: يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة: إن عبداً أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي؛ عن سلطان يأتيه، وطبيب يداويه، وعما في يد أخيه. وعبر الشاعر عن هذا فقال:

إذا ما القوتُ يأتيك ... كذا الصحة والأمنُ
وأصبحت أخا حزنٍ ... فلا فارقك الحزنُ

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد؛ حيث عبر ﷺ عن هذا المعنى فقال: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافىً فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ: فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**»[(٤)]. ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث؛ مع أنها وبال عليهم، لا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له: خذها عوضاً عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه؛ وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة، بل لو قيل له: لك في الآخرة ما ترجوه بكماله، فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه؛ لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدّرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها، هكذا كانت إلى الآن، وهكذا تكون ما بقي من الزمان؛ إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت؛ كالمرأة الجميل ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغني، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها. ولا ينبغي أن نقول: إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها، فإنّ المقبل عليها أيضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة، وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى:

---

(١) حديث: «**من آتاه الله القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله**» أخرجه البخاري في التاريخ من حديث رجاء الغنوي بلفظ: «**من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد صغر أعظم النعم**»، وقد تقدم في فضل القرآن، ورجاء: مختلف في صحبته. وورد من حديث عبدالله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة.

(٢) حديث: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**». تقدم في آداب التلاوة.

(٣) حديث: «**كفى باليقين غنى**» رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر، ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفاً عليه؛ وقد تقدم.

(٤) حديث: «**من أصبح آمناً في سربه. . .**» الحديث. تقدم غير مرة.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤] فإذن: إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة.

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر؟ فأقول: أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة. وأما القلوب البليدة التي لا تعدّ النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها؛ فسبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية؛ إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود؛ فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم، ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات، ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن، ويحضر المقابر فيعلم أنّ أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً، أما من عصى الله تعالى فليتدارك، وأما من أطاع فليزد في طاعته، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول: كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات، وأما العاصي فغبنه ظاهر، فإذا شاهد المقابر وعلم أنّ أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له؛ فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله؛ ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة. فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر. وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمعرفة، فكان قد حفر في داره قبراً، فكان يضع غلاً في عنقه وينام في لحده ثم يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩،١٠٠] ثم يقوم ويقول: يا ربيع، قد أعطيت ما سألت، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر. وفي الخبر: «**مَا عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللّهِ تَعَالَى عَلَى عَبْدٍ إلاَّ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إلَيْهِ فَمَنْ تَهَاوَنَ بِهِمْ عرَّضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ**»[1]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١]. فهذا تمام هذا الركن.

***

(١) حديث: «**ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه...**» الحديث. أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل وقال: إنه موضوع على حجاج الأعور.

الركن الثالث

من كتاب الصبر والشكر: فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد:

لعلك تقول: ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فما معنى الصبر إذن؟ وإن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء؟ وقد ادعى مدّعون أنا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة، فكيف يتصوّر الشكر على البلاء، وكيف يشكر على ما يصبر عليه، والصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما يتضادان؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟ فاعلم: أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان؛ ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه؛ أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما. وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه؛ كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد: أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدّة وإما أبداً. وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق. وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة. وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي، نعم، الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذن: يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه، فلذلك يتصوّر أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر؛ فإن الغنى مثلاً يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده، والصحة أيضاً كذلك. فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة؛ فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] وقال ﷺ: «**إِنّ اللَّهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ المُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُم مَرِيضَهُ**»(١)، وكذلك الزوجة والولد والقريب، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم ـ سوى الإيمان وحسن

---

(١) حديث: «**إن الله ليحمي عبده من الدنيا...**» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، وقد تقدم.

الخلق ـ فإنها يتصوّر أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعماً في حقهم؛ إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدها نعمة، مثاله: جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه؛ إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه، وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه؛ إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه؛ إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاً عليه في الدنيا والآخرة، بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه، فإنه ربما يكون ولياً لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم، فليس من آذى نبياً أو ولياً وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها: إبهام الله تعالى أمر القيامة، وإبهامه ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، وإبهامه بعض الكبائر، فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم. وحيث قلنا إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق، وذلك مطرد في حق كل أحد، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس، وهي أيضاً قد تكون نعمة في حق المتألم بها، فإن لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به، وألم الكفار في النار فهو أيضاً نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد. ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار. أما ترى أهل الدنيا ليس يشتدّ فرحهم بنور الشمس مع شدّة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبذولة، ولا يشتدّ فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها، فإذن: قد صح ما ذكرناه من أنّ الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم، فإذن: في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً إما على المبتلى أو على غير المبتلى، فإذن: كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان: الصبر والشكر جميعاً.

فإن قلت: فهما متضادان فكيف يجتمعان؛ إذ لا صبر إلا على غم، ولا شكر إلا على فرح؟ فاعلم: أن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح. وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها.

أحدها: أن كل مصيبة ومرض فيتصوّر أن يكون أكبر منها؛ إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا.

الثاني: أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه. قال رجل لسهل رضي الله تعالى عنه: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي! فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟. ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال: اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علي فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه. وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال له: اشكر الله، فضربه.

فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال: اشكر الله، فجيء بمجوسي فحبس عنده وكان مبطوناً فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسي، فأرسل إليه فقال: اشكر الله، فكان المجوسي يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضي حاجته، فكتب إليه بذلك، فقال: اشكر الله، فقال: إلى متى هذا، وأي بلاء أعظم من هذا؟ فقال: لو جعل الزنار الذي في وسطه علي وسطك ماذا كنت تصنع؟. فإذن: ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهراً وباطناً في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلاً وآجلاً، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداهما فهو مستحق للشكر. ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد، فسجد لله تعالى سجدة الشكر، فقيل له: ما هذه السجدة؟ فقال: كنت أنتظر أن تصب علي النار، فالاقتصار على الرماد نعمة، وقيل لبعضهم: ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار! فقال: أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطيء الحجر.

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟ فاعلم: أن الكافر قد خبيء له ما هو أكثر، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٨] وأما المعاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنى وسائر المعاصي بالجوارح، ولذلك قال تعالى في مثله: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النُّور: ١٥] فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك؟

وهذا هو الوجه الثالث في الشكر: وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصوّر أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها، ومصيبة الآخرة تدوم، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي؛ إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانياً؛ إذ قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً فَأَصَابَتْهُ شِدةٌ أَوْ بَلَاءٌ فِي الدُّنْيَا فَالله أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ ثَانِياً»**(١).

الرابع: أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بدّ من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها، فهذه نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها؛ فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين:

أحدهما: الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض، ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي؛ فإنه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب، فكان يخسر جميع عمره، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك

---

(١) حديث: **«إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً»** أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث علي: «من أصاب في الدنيا ذنباً عوقب به فالله أعدل من أن يلي حوبته على عبده...» الحديث. لفظ ابن ماجه. وقال الترمذي **«من أصاب حداً فعجل عقوبته في الدنيا»** وقال: حسن. وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت **«ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له...»** الحديث.

الإنسان في بعض الأحوال، بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه، فالملاحدة غداً يتمنون لو كانوا مجانين أو صبياناً ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدّر فيه الخيرة ويشكره عليه، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد، وغداً يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه؛ إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد، فقد روي أنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أوصني قال: **«لا تَتَّهِمِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ»**[(١)]. ونظر ﷺ إلى السماء فضحك، فسئل فقال: **«عَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ قَضَى لَهُ بِالسَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالضَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْراً لَهُ»**[(٢)].

الوجه الثاني: أنّ رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجناً عليه، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن، ولذلك قال ﷺ: **«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»**[(٣)]. والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضي بها واطمأنّ إليها، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا، شديد الحنين إلى الخروج منها، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي، وبقدر حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفي، بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق. فإذن: في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به، وأما التألم فهو ضروري، وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجاناً، أو يسقيك دواء نافعاً بشعاً مجاناً، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة، فرأى وجهاً حسناً لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالاً وبلاء عليه، لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد. فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة. فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصوّر منه الشكر؛ لأنّ الشكر

---

(١) حديث: قال له رجل أوصني قال: **«لا تتهم الله في شيء قضاه عليك»** رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله، وفي إسناده ابن لهيعة.

(٢) حديث: نظر إلى السماء فضحك، فسئل فقال: **«عجبت لقضاء الله للمؤمن...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء، وضحكه: **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»**، وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص: **«عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر...»** الحديث.

(٣) حديث: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة. وحكي: أن أعرابياً عزى ابن عباس على أبيه فقال:

اصبرْ نكن بك صابرين فإنما ... صبرُ الرعية بعد صَبْرِ الراسِ
خير من العباس أجرك بعده ... والله خير منك للعباسِ

فقال ابن عباس: ما عزاني أحد أحسن من تعزيته.

والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ**»(١)، وقال ﷺ: «**قال الله تعالى: إذا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِن عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَاناً أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَاناً**» وقال عليه السلام: «**ما مِن عَبْدٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] **اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْراً مِنْهَا إلاَّ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِهِ**»، وقال ﷺ: «**قال الله تعالى: مَنْ سَلَبْتُهُ كَرِيمَتَيْهِ فَجَزَاؤُهُ الخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي**». وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال ﷺ: «**لا خَيْرَ فِي عَبْدٍ لا يَذْهَبُ مَالُهُ وَلاَ يَسْقَمُ جِسْمُهُ، إِنَّ اللَّهَ إذا أَحَبَّ عَبْداً ابْتَلاهُ وَإِذَا ابْتَلاهُ صَبَّرَهُ**»(٢)، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الدَّرَجَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لا يَبْلُغُها بِعَمَلٍ حَتَّى يُبْتَلَى بِبَلاءٍ فِي جِسْمِهِ فَيَبْلُغُها بِذَلِكَ**»(٣)، وعن خباب بن الأرت قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: يا رسول الله، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمراً لونه ثم قال: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ حَفِيرَةٌ وَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ ما يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ**»(٤). وعن علي كرّم الله وجهه قال: أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد، وإن ضربه فمات فهو شهيد، وقال عليه السلام: «**مِنْ إِجْلالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لا تَشْكُو وَجَعَكَ وَلا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ**». وقال أبو

---

(١) حديث: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**» رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب مالي وسقم جسدي فقال: «**لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده، إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري: «**إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين.

(٣) حديث: «**إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك**» رواه أبو داود في رواية ابن داسة، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده، وليس في رواية اللؤلؤي. ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه، ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقي، وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد، وذكر أبو نعيم: أن ابن منده سمي جده اللجلاج بن سليم، فالله أعلم. وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور، روى عنه جماعة. ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبدالبر في الصحابة من رواية عبدالله بن أبي فاطمة ذاك عن أبيه عن جده. ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فالله أعلم.

(٤) حديث خباب بن الأرت: «أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه...». تقدم.
خباب بن الأرت: هو الذي كان يقرىء القرآن لفاطمة بنت الخطاب وسعيد بن زائد رضي الله عنهما يوم إسلام عمر، وهو الذي بشر عمر بما قاله النبي ﷺ في دعائه: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين.
استشهد يوم الرجيع، وقع أسيراً وحمل إلى الكوفة وقتله القرشيون في التنعيم.

الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون للموت وتعمرون للخراب، وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبقى، ألا حبذا المكروهات الثلاث: الفقر، والمرض، والموت. وعن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: **«إذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيراً وَأَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلاَء صَبّاً وَثَجَّهُ عَلَيْهِ ثَجّاً، فَإِذا دَعَاهُ قَالَتِ المَلائِكَةُ: صَوْتٌ مَعْرُوفٌ وَإِنْ دَعَاهُ ثَانياً فَقَالَ: يا رَبِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ لا تَسْأَلُنِي شَيْئاً إلاَّ أَعْطيتكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ ما هُوَ خَيرٌ وَادخَرْتُ لَكَ عِنْدِي ما هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، فَإذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ جِيءَ بِأَهْلِ الأَعْمَالِ فَوُفُّوا أَعْمَالَهُمْ بالمِيزَانِ: أَهْلُ الصَّلاَةِ وَالصِّيَام وَالصَّدَقَةِ وَالحَجِّ، ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ البَلاَءِ فَلاَ يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلاَ يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوانٌ، يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الأَجْرُ صَبّاً كَمَا كان يُصَبُّ عَلَيْهِمُ البَلاَءُ صَبّاً فَيَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ فِي الدُّنيا لَوْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالمَقَارِيضِ لِمَا يَرَوْنَ ما يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ البَلاءِ مِنَ الثَّوابِ»**(١)، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا؛ فأوحى الله تعالى إليه: «إنّ العباد لي والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي، فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه، حتى يلقاني فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا، حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته.

وروي: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: ١٢٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: **«غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الأَذَىٰ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ فَهَذَا مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ»**(٢)، يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك. وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: **«إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللَّهُ ما يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذٰلِكَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى:** ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]»(٣) يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي بما أعطوا من الخير ﴿أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾.

وعن الحسن البصري رحمه الله: أن رجلاً من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية، فكلمها ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه، فأتى

---

(١) حديث أنس: «**إذا أراد الله بعبد خيراً وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله: «**فإذا كان يوم القيامة... إلى آخره**» وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان. ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه، وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضاً ضعيف. الثج: التدفق.

(٢) حديث لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: ١٢٣] قال أبو بكر الصديق: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال ﷺ: «**غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض...**» الحديث، من رواية من لم يسم عن أبي بكر، ورواه الترمذي من وجه آخر وضعفه. قال: وليس له إسناد صحيح. وقال الدارقطني: وروي أيضاً من حديث عمر ومن حديث الزبير، قال: وليس فيهما شيء يثبت.

(٣) حديث عقبة بن عامر: «**إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج...**» الحديث. رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن.

النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خيراً عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا»[١]، وقال علي كرم الله وجهه: ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن؟ قالوا: بلى، فقرأ عليهم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار. فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً، وإن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «ما تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جُرْعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ رَدَّهَا بِحِلْمٍ، وَجُرْعَة مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا. وَلا قَطَرَتْ قَطْرَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ قَطْرَةِ دَمْعٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلا يَرَاهُ إِلاَّ اللَّهُ. وَمَا خَطَا عَبْدٌ خَطْوَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَطْوَةٍ إِلَى صَلاةِ الفَرِيضَةِ، وَخَطْوَةٍ إِلَى صِلَةِ الرَّحِمِ»[٢].

وعن أبي الدرداء قال: توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجداً شديداً فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم، فقال أحدهما: بذرت بذراً فلما استحصد مرَّ به هذا فأفسده، فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يميناً وشمالاً فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام: ولم بذرت على الطريق، أما علمت أن لا بدّ للناس من الطريق؟ قال: فلم تحزن على ولدك، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟. فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك.

ودخل عمر بن عبدالعزيز على ابن له مريض، قال: يا بني، لأن تكون في ميزاني أحب إليَّ من أن أكون في ميزانك، فقال: يا أبت، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه نعي إليه ابنة له، فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى: ،قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وعن ابن المبارك: أنه مات له ابن، فعزاه مجوسي يعرفه؛ فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال ابن المبارك: اكتبوا عنه هذه.

وقال بعض العلماء: إن الله ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وما له ذنب.

وقال الفضيل: إن الله عزّ وجلّ ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير.

---

(١) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط... الحديث، وفيه: «إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا» أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبدالله بن معقل مرفوعاً ومتصلاً. ووصله الطبراني أيضاً من رواية الحسن عن عمار بن ياسر، ورواه أيضاً من حديث ابن عباس، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي.

(٢) حديث أنس: «ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها...» الحديث. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين، وفيه محمد بن صدقة وهو الفلكي منكر الحديث. وروى ابن ماجه من حديث أبي عمر بإسناد جيد: «ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله». وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة: «ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله، أو قطرة دمع في سواد الليل...» الحديث. وفيه محمد بن صدقة، وهو الفلكي المنكر الحديث.

وقال حاتم الأصم: إن الله عزّ وجلّ يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس؛ على الأغنياء بسليمان، وعلى الفقراء بالمسيح، وعلى العبيد بيوسف، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم.

وروي: أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك، فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا، فأنَّ منه أنة؛ فأوحى الله تعالى إليه: يا زكريا، لئن صعدت منك أنّة ثانية لأمحونك من ديوان النبوّة، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين.

وقال أبو مسعود البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوباً أو ضرب صدراً فكأنما أخذ رمحاً يريد أن يقاتل به ربه عزّ وجلّ.

وقال لقمان رحمه الله لابنه: يا بني، إن الذهب يجرّب بالنار والعبد الصالح يجرّب بالبلاء، فإذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

وقال الأحنف بن قيس: أصبحت يوماً أشتكي ضرسي، فقلت لعمي: ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثاً، فقال: لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد. وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام: «إذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي واشك إلي؛ كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضائحك» نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة.

بيان فضل النعمة على البلاء:

لعلك تقول: هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول: لا وجه لذلك، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة[(١)]، وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: «**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَة**»[(٢)]، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها[(٣)].

وقال علي كرّم الله وجهه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ البَلَاءَ فَاسْأَلْهُ العَافِيَةَ**»[(٤)].

---

(١) حديث: أنه ﷺ كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة. رواه مسلم من حديث بشر بن أبي أرطأة بلفظ: «**أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**» وإسناده جيد. ولأبي داود من حديث عائشة: «**اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة**» وفيه بقية وهو مدلس، ورواه بالعنعنة.

(٢) حديث: كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس: كان أكثر دعوة يدعو بها النبيّ ﷺ يقول: «**اللهم آتنا في الدنيا**...» الحديث. ولأبي داود والنسائي من حديث عبدالله بن السائب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ما بين الركنين: «**ربنا آتنا**...» الحديث.

(٣) حديث: كان يستعيذ من شماتة الأعداء: تقدم في الدعوات.

(٤) حديث: قال علي رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: «**لقد سألت الله البلاء فسله العافية**» رواه الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه، ولم يسم علياً وإنما قال: سمع رجلاً. وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث علي: «كنت ساكناً فمر بي رسول الله ﷺ وأنا أقول...» الحديث. وفيه: فإن كان بلاء فصبرني، فضربه برجله وقال: «**اللهم عافه واشفه**» وقال: حسن صحيح.

وروى الصدّيق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**سَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنَ العَافِيَةِ إلاَّ اليَقِينِ**»(١)، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلى من عافية البدن.

وقال الحسن رحمه الله: الخير الذي لا شر فيه: العافية مع الشكر، فكم من منعم عليه غير شاكر.

وقال مطرّف بن عبدالله: لأن أعافى فأشكر أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر.

وقال ﷺ في دعائه: «**وَعَافِيَتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ**»(٢).

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين: أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب؛ فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته؛ فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه على الصبر.

فإن قلت: فقد قال بعضهم: أود أن أكون جسراً على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار. وقال سمنون رحمه الله تعالى:

ليس لي في سواك حظ ... فكيفما شئت فاختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء، فاعلم: أنه حكي عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلي بعد هذا البيت بعلة الحصر، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب. وأما محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظنّ المحب بنفسه حباً لمثل ذلك، فمن شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعوّل عليه، كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني، ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لأجلك؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال: يا نبي الله، كلام العشاق لا يحكى، وهو كما قال، وقال الشاعر:

أريد وصاله ويريد هجري ... فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضاً محال، ومعناه؛ أني أريد ما لا يريد؛ لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر، فكيف أراد الهجر الذي لم يرده، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين.

أحدهما: أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلى الوصال في الاستقبال؛ فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب، والوسيلة إلى

---

(١) حديث أبي بكر الصديق: «**سلوا الله العافية...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد جيد، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**وعافيتك أحب إلي**» ذكره ابن إسحاق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ: «**وعافيتك أوسع لي**» وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلاً، ورواه أبو عبدالله بن منده من حديث عبدالله بن جعفر مسنداً، وفيه من يجهل.

المحبوب محبوبة، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهماً في درهمين فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال.

الثاني: أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث إنه رضاه فقط، ويكون له لذة في استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته، فعند ذلك يتصوّر أن يريد ما فيه الرضا، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا، فهؤلاء إذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت، وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال؟ هذا فيه نظر، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء، فنسأل الله تعالى المانّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين.

بيان الأفضل من الصبر والشكر:

اعلم: أنّ الناس اختلفوا في ذلك، فقال قائلون: الصمت أفضل من الشكر. وقال آخرون: الشكر أفضل. وقال آخرون: هما سيان. وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل، فلا معنى للتطويل بالنقل، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى. فنقول: في بيان ذلك مقامان.

المقام الأوّل: البيان على سبيل التساهل: وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته، وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوعاظ؛ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم، والظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات، بل باللبن اللطيف، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوّته، ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول: هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل، ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله ﷺ: «**مِنْ أَفْضَلِ ما أُوتِيتُمُ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ**»[(١)]، وفي الخبر: «**يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له: أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر، فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كلا، أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت، لأضعفن لك الأجر عليه، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين**»[(٢)]. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠] وأما قوله: «**الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ**»[(٣)]، فهو دليل على أنّ الفضيلة في

---

(١) حديث: «**من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر**». تقدم.

(٢) حديث: «**يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض...**» الحديث. لم أجد له أصلاً...

(٣) حديث: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**» أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر، وهو كقوله ﷺ: **«الجُمُعَةُ حَجُّ المَسَاكِينِ وَجِهَادُ المَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ»**(١)، وكقوله ﷺ: **«شَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ الوَثَنِ»**(٢)، وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة، فكذلك قوله ﷺ: **«الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ»** لا يدل على أنّ الشكر مثله، وهو كقوله عليه السلام: **«الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»** فإنّ كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت، كما يقال: الإيمان هو العلم والعمل؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنّ العمل يساوي العلم. وفي الخبر عن النبي ﷺ: **«آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولاً الجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ. وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولاً الجَنَّةَ عَبْدُالرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ لِمَكَانِ غِنَاهُ»**(٣)، وفي خبر آخر: **«يَدْخُلُ سُلَيْمَانُ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً»**(٤)، وفي الخبر: **«أَبْوَابُ الجَنَّةِ كُلُّهَا مِصْرَاعَانِ إلاّ بَابَ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهُ أَهْلُ البَلَاءِ أَمَامَهُمْ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»**(٥).

وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر؛ لأنّ الصبر حال الفقير، والشكر حال الغني، فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم.

المقام الثاني: هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح فنقول فيه: كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان. والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول: قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة: علوم،

---

(١) حديث: **«الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل»** أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف، والطبراني بالشطر الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت: كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال: **«طاعة أزواجهن»**. وفي رواية: ما جزاء غزوة المرأة؟ قال: **«طاعة الزوج...»** الحديث. وفيه القاسم بن فياض، وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات.

(٢) حديث: **«شارب الخمر كعابد الوثن»** أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ: **«مدمن الخمر»** ورواه بلفظ: «شارب» الحارث بن أبي أسامة من حديث عبدالله بن عمر، وكلاهما ضعيف، وقال ابن عدي: إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهاني.

(٣) حديث: **«آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه، وآخر أصحابي دخولاً الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه»** أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل: **«يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً»** وقال: لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة. وروى البزار من حديث أنس **«أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبدالرحمن بن عوف»** وفيه أغلب بن تميم ضعيف.

(٤) حديث: **«يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً»** تقدم حديث معاذ قبله. ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك، ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس، والحديث منكر.

(٥) حديث: **«أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد...»** الحديث. لم أجد له أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة؛ فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة: **«والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وبصرى»**، وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان: ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة؛ وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

وأحوال، وأعمال، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال، والأحوال تراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك؛ فإن الأعمال تراد للأحوال، والأحوال تراد للعلوم؛ فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه. وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد المعارف، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة؛ ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر، فنقول: فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، فأرفع علوم المكاشفة: معرفة الله سبحانه، وهي الغاية التي تطلب لذاتها، فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة؛ فهي المعرفة الحرّة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها. وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها، فإنها إنما تراد لأجلها.

ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى، فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة، فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل. وأما الأحوال: فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق، فإذن: فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره، وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة، وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب، فالحالة القريبة أو المقرّبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود، وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه. واسم الأول المعصية، واسم الثاني الطاعة، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته. فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول: الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة، وأنّ الحج أفضل من الصدقة، وأنّ قيام الليل أفضل من غيره، ولكن التحقيق فيه: أنّ الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام؛ لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع، فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه، والشح المطاع من جملة المهلكات، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة، بل لا يزيله إلا إخراج المال؛ فعليه أن يتصدّق بما معه، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه. فإذن: باعتبار هذه الأحوال يختلف، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب

المطلق فيه خطأ؛ إذ لو قال لنا قائل: الخبز أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، فإن تساويا فهما متساويان، وكذا إذا قيل: السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر؟ لم يصح الجواب عنه مطلقاً أصلاً، نعم لو قيل لنا: السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء؟ فنقول: عدم الصفراء، لأن السكنجبين مراد له، وما يراد لغيره فلذلك الغير أفضل منه لا محالة، فإذن: في بذل المال عمل وهو الإنفاق، ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب، ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه، فالأفضل المعرفة، ودونها الحال، ودونها العمل.

فإن قلت: فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] وقال تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [التوبَة: ١٠٤] فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل؟ فاعلم: أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً، فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه، فإنه لا يشعر به، ولو ذكر له لا يصدق به. والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً إن كان ماء الورد يزيل البرص، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه.

ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول: من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظاً لقال: إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبداً، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم، فيشكل عليه الأمر فيقول: ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به، وأعلم أن لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلاً عن عدم علمهم بالقرآن، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه؛ فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبراً محروماً من حيث لا يدري، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا: إن الله تعالى غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا، فأي معنى لقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم، كما قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] وقالوا أيضاً: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦] فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى، ثم قالوا: لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد، ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك

سبب سعادته في الدنيا، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفاً به في استجراره إلى ما فيه سعادته، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق، فإذن: هذا المسكين الآخذ لمالك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك، فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك؛ فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام. ولا يخرج الحجام عن كونه خادماً بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدم، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله ﷺ مِنْ أخذها وانتهى عنها[1]، كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها[2]، والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات، والقلب بحسب تأثيرها مستعدّ لقبول الهداية ونور المعرفة، فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف.

ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول: في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال، أو العمل في الآخر، بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب، وبعد التناسب يظهر الفضل، ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة؛ إذ معرفة الشاكر: أن يرى نعمة العينين مثلاً من الله تعالى. ومعرفة الصابر: أن يرى العمى من الله، وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرتا في البلاء والمصائب.

وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية، وفيهما يتحد الصبر والشكر لأنّ الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى شكراً بالإضافة إلى باعث الدين؛ إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة: وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة، فهما عبارتان عن معنى واحد، فكيف يفضل الشيء على نفسه؛ فإذن: مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة، والمعصية، والبلاء، وقد ظهر حكمها في الطاعة والمعصية، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلاً، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين: أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية، والآخر أن يستعملهما في الطاعة، وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر؛ فإن الأعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكراً لنعمة العينين، وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين، فقد دخل الصبر في شكره، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضاً فيه من صبر على الطاعة، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، فيكون هذا الشكر

---

(١) حديث: امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها. أخرجه مسلم من حديث عبدالمطلب بن ربيعة: «**إن هذه الصدقة لا تحل لنا إنما هي أوساخ القوم وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد**» وفي رواية له: «**أوساخ الناس**».

(٢) حديث: النهي عن كسب الحجام تقدم.

أفضل من الصبر، ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلاً وقد كان ضريراً من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلاً، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جداً؛ لأنّ كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين، وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين، وذلك لا يكون إلا بصبر، وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه، ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر، ووجود الزيادة نعمة، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات، أو أن لا تستعمل في المعصية، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرح بنعمة الله تعالى، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر هاهنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات، لأنّ الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى، وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوّة. والغني أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح، والمباح فيه مندوحة عن الحرام، ولكن لا بدّ من قوّة في الصبر عن الحرام أيضاً، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوّة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوّة التي يدل العمل عليها، فإنّ الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب، وتلك القوّة حالة للقلب تختلف بحسب قوّة اليقين والإيمان، فما دل على زيادة قوّة في الإيمان فهو أفضل لا محالة، وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص؛ لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال الغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية، لا أن يصرفها إلى الطاعة، فإذن: الصبر أفضل من الشكر، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر: أيهما أفضل؟ فقال: ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم، وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما، فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزعجها أتم حالاً ممن متع صفته ونعمها. والأمر على ما قاله، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه، وهو لم يرد سواه. ويقال: كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة، فكان يقول: دعوة الجنيد أصابتني، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر.

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أنّ لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير؛ إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه، على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، ثم

إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة، بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده، فهذا أفضل من الفقير الصابر.

فإن قلت: فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر، فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق؟.

فاعلم: أنّ الذي نراه: أنّ من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهراً. وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة، فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذيذاً عنده، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذاً وقد كان مؤلماً له أوّلاً، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية ـ بل قبل البداية بكثير ـ كالصبيان، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق، فإذاً: إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام. فإذا أردت التحقيق ففصل، فإنّ للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر، ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمور دونها؛ فإنّ حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر، والاعتراف بأنّ النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر، والعلم بأنّ الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر؛ إذ قال عليه السلام: **«من لم يشكر الناس لم يشكر الله»**[1]، وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر. وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار.

وقد روي عن بعضهم أنه قال: رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال: إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني، فاتفق أنها زوّجت مني، فليلة زفافها قلت: تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكراً لله تعالى على ما جمعنا، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرّغ أحدنا إلى صاحبه، فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك، فصلينا طول الليل، فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة، أليس كذلك يا فلانة؟ قالت العجوز: هو كما يقول الشيخ. فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أو لو لم يجمع الله بينهما، وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه، فلا يخفى عليك أنّ هذا الشكر أفضل؛ فإذن: لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق. والله أعلم.

(١) حديث: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، تقدم في الزكاة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله المرجوّ لطفه وثوابه، المخوف مكره وعقابه، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه، حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقرّ أعدائه. وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته، وصدّهم عن التعرّض لأئمته والتهدّف لسخطه ونقمته، قوداً لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته. والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته، وعلى آله وأصحابه وعترته.

أما بعد: فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء. ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم ـ مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات ـ إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف، فلا بدّ إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما. ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين: الشطر الأوّل في الرجاء، والشطر الثاني في الخوف.

أما الشطر الأوّل: فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء، والطريق الذي يجتلب به الرجاء.

بيان حقيقة الرجاء:

اعلم: أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض؛ فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب، وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب. وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال، والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة، وبيانه: أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً، وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سمي وجداً وذوقاً وإدراكاً، وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء؛ فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده،

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدّ وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب. وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا؛ إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب، لأنّ ذلك مقطوع به، نعم، يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه. وقد علم أرباب القلوب أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوّس، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته؛ سمي انتظاره رجاء. وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً، ثم انتظر الحصاد منه؛ سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء. وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً؛ سمي انتظاره تمنياً لا رجاء. فإذن: اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات. فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، وكان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور، قال ﷺ: **«الأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الجَنَّةَ»**[1]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: ٥٩] وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]. فإذن: العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة. وأما قبول التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها؛ فحقيق بأن

(١) حديث: «**الأحمق من أتبع نفسه هواها...**» الحديث. تقدم غير مرة.

يرجو من الله التوفيق للتوبة؛ لأنّ كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢١٨] معناه: أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع؛ فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية. قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عزّ وجلّ مع الإفراط:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبسِ

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلاً إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس، واليأس يمنع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت؛ فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدها، والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم وهو ضدّه لأنه صارف عن العمل، والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة، فإذن: حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له؛ فإن هذه الأحوال لا بدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني، فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل، ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل؛ إذ قال لرسول الله ﷺ: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد؟ فقال: «**كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟**» قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه. فقال: «**هَذِهِ عَلَامَةُ اللَّهِ فِيمن يُرِيدُ وَلَوْ أَرَادَكَ لِلأُخْرَى هَيأَكَ لَهَا ثُمَّ لا يُبَالِي فِي أيِّ أَوْدِيَتِها هَلَكْتَ**»[1]. فقد ذكر ﷺ علامة من أريد به الخير، فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور.

---

(١) حديث: قال زيد الخيل: «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد...» الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، وفيه أنه قال: «**أنت زيد الخير**» وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبيّ ﷺ زيد الخير يروى عنه حديث، وذكره في حديث يروى: فقام زيد الخير فقال: يا رسول الله... الحديث، سمعت أبي يقول ذلك.

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه:

اعلم: أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت: قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فحرم أصل اليأس، وفي أخبار يعقوب عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه: أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، لم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له. وقال ﷺ: **«لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ باللَّهِ تَعَالَى»**(١)، وقال ﷺ: **«يقول الله عزّ وجلّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي ما شَاءَ»**(٢)، ودخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: **«كَيْفَ تَجِدُكَ؟»** فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال ﷺ: **«ما اجتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْد في هٰذا المَوْطِنِ إلاّ أَعْطَاهُ اللَّهُ ما رَجَا وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ»**(٣)، وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا، يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك. وقال سفيان: من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدّره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه، قال: لأن الله عزّ وجلّ عيّر قوماً فقال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فُصِّلَت: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وقال ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيامَةِ: ما مَنَعكَ إذْ رَأَيتَ المُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فإنْ لَقَّنَهُ اللَّهُ حُجَّتَهُ قَالَ: يا رَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ. قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ غَفَرْتُهُ لَكَ»**(٤)، وفي الخبر الصحيح: **«أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط، فقال الله عزّ وجلّ: من أحق بذلك منا»**(٥)، فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: ٢٩] ولما قال ﷺ: **«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصَّعَدَاتِ تَلْدِمُونَ صُدُورَكُمْ وَتَجْأَرُونَ إِلَى رَبِّكُمْ»** فهبط جبريل عليه السلام فقال: إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوّقهم(٦). وفي الخبر: **«إن الله تعالى**

---

(١) حديث: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»** أخرجه مسلم من حديث جابر.

(٢) حديث: **«أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء»** أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله: **«فليظن بي ما شاء»**.

(٣) حديث: دخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: **«كيف تجدك؟»** الحديث. رواه الترمذي وقال: غريب، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي: إسناده جيد.

(٤) حديث: **«إن الله يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره...»** الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد، وقد تقدم في الأمر بالمعروف.

(٥) حديث: **«إن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي مسعود: **«حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك، تجاوزوا عنه»**. واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبي هريرة بنحوه.

(٦) حديث: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً...»** الحديث. وفيه: **«فهبط جبريل...»** الحديث. أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة، فأوله متفق عليه من حديث أنس، ورواه بزيادة: **«ولخرجتم إلى الصعدات»** أخرجه أحمد والحاكم، وقد تقدم.

أوحى إلى داود عليه السلام: أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي. فقال: يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل»[1]. ورئي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال: أوقفني الله تعالى بين يديه فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: أردت أن أحببك إلى خلقك، فقال: قد غفرت لك. ورئي يحيى بن أكثم بعد موته في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني الله بين يديه وقال: يا شيخ السوء، فعلت وفعلت، قال: فأخذني من الرعب ما يعلم الله، ثم قلت: يا رب، ما هكذا حدثت عنك، فقال: وما حدثت عني؟ فقلت: حدثني عبدالرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك ﷺ عن جبريل عليه السلام أنك قلت: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء، وكنت أظن بك أن لا تعذبني، فقال الله عزّ وجلّ: صدق جبريل وصدق نبيي، وصدق أنس، وصدق الزهري، وصدق معمر، وصدق عبدالرزاق وصدقت قال: فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة، فقلت: يا لها من فرحة. وفي الخبر: **«أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم، قال: فيقول له الله تعالى يوم القيامة: اليوم أُوَيْئِسُكَ من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها»**[2]، وقال ﷺ: **«إِنَّ رَجُلاً يَدْخُلُ النَّارَ فَيَمْكُثُ فِيها أَلْفَ سَنَةٍ يُنَادِي: يا حَنَّانُ يا مَنَّانُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَائْتِنِي بِعَبْدِي. قَالَ: فَيَجِيءُ بِهِ فَيُوقِفُهُ عَلَى رَبِّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ؟ فَيَقُولُ: شَرَّ مَكَانٍ. قَالَ: فَيَقُولُ رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ. قَالَ: فَيَمْشِي وَيَلْتَفِتُ إِلَى وَرَائِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَلْتَفِتُ فَيَقُولُ: لَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ لا تُعِيدَنِي إِلَيْها بَعْدَ إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْها، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ»**[3]، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب:

اعلم: أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال. فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي؛ فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه، وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها، فإنّ المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها؛ فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين

---

(١) حديث: **«إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحبني وأحب من يحبني...»** الحديث. لم أجد له أصلاً، وكأنه من الإسرائيليات كالذي قبله.

(٢) حديث: **«أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط ويشدد عليهم...»** الحديث. رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم، فذكره مقطوعاً.

(٣) حديث: **«إن رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله، والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس.

عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً. قال علي كرّم الله وجهه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله.

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً؛ لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذي يظن أنّ كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان. وحال الرجاء يغلب بشيئين، أحدهما: الاعتبار، والآخر: استقراء الآيات والأخبار والآثار.

أما الاعتبار: فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعدّ له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء، وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود؛ وإنما كان يفوّت به مزية جمال، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أنّ أكثر الخلق قد هيىء له أسباب السعادة في الدنيا، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداً مثلاً أو لا يحشر أصلاً فليست كراهتهم للعدم إلا لأنّ أسباب النعم أغلب لا محالة، وإنما الذي يتمنى الموت نادر، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة، فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلاً، فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد، وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوي به أسباب الرجاء، ومن الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء. فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ فقال: الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه؟

الفن الثاني: استقراء الآيات والأخبار، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر. أما الآيات: فقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣] وفي قراءة رسول الله ﷺ: **«ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم»**(١) وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] وأخبر تعالى أنّ النار أعدّها

---

(١) حديث: **«اقرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي»**، أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال: حسن غريب.

لأعدائه، وإنما خوّف بها أولياءه فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١] وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٤-١٦] وقال عز وجلّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرّعد: ٦] ويقال: إن النبي ﷺ لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له: أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرّعد: ٦][(١)]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٥] قال: «**لا يَرْضَى مُحَمَّدٌ وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِهِ فِي النَّارِ**» وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول: أنتم أهل العراق تقولون: أرجى آية في كتاب الله عز وجلّ قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] الآية، ونحن أهل البيت نقول: أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٥].

وأما الأخبار: فقد روى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال: «**أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لا عَذَابَ عَلَيْهَا في الآخِرَةِ عَجَّلَ اللَّهُ عِقَابَها فِي الدُّنْيَا: الزَّلازِل وَالفِتَن، فَإِذا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ فَقِيلَ: هٰذا فِدَاؤكَ مِنَ النَّارِ**»[(٢)]. وفي لفظ آخر: «**يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول: هذَا فَدَائِي مِنَ النَّارِ فَيُلْقَى فِيها**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ وَهِيَ حَظُّ المُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ**»[(٤)]، وروي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التّحريم: ٨] أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام: إني أجعل حساب أمتك إليك. قال: «**لا يَا رَبِّ أَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي**». فقال: «**إِذَنْ لا نُخْزِيكَ فِيهِمْ**»[(٥)]. وروي عن أنس: أن رسول الله ﷺ سأل ربه في ذنوب أمته فقال: «**يا رَبِّ اجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَيَّ لئلاً يَطَّلِعَ عَلَى مَسَاوِيهِمْ غَيْرِي**» فأوحى الله تعالى إليه: هم أمتك وهم عبادي، وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك[(٦)]. وقال ﷺ: «**حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ، أَمَّا**

---

(١) حديث: إن النبيّ ﷺ لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له: أما ترضى وقد أنزل عليك: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرّعد: ٦] لم أجده بهذا اللفظ. وروى ابن أبي حاتم والثعلبي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «**لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش...**» الحديث.

(٢) حديث أبي موسى: «**أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن...**» الحديث. أخرجه أبو داود دون قوله: «**فإذا كان يوم القيامة... الخ**» فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف، وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه.

(٣) حديث: «**يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي موسى: «**إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول: هذا فداؤك من النار**» وفي رواية له: «**لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً**».

(٤) حديث: «**الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار**» أخرجه أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة، وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه.

(٥) حديث: إن الله أوحى إلى نبيه ﷺ إني أجعل حساب أمتك إليك. فقال: «**لا يا رب أنت خير لهم مني...**» الحديث. في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التّحريم: ٨] أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله.

(٦) حديث أنس: أنه ﷺ سأل ربه في ذنوب أمته فقال: «**يا رب اجعل حسابهم إلي...**» الحديث. لم أقف له على أصل.

حَيَاتِي فَأَسُنُّ لَكُم السُّنَنَ وَأُشَرِّعُ لَكُم الشَّرَائِعَ. وَأَمَّا مَوْتِي فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا حَسَناً حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيِّئاً اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى لَكُمْ»[١]، وقال ﷺ يوماً: «يا كريم العفو» فقال جبريل عليه السلام: أتدري ما تفسير: يا كريم العفو؟ هو إن عفا عن السيئات برحمة بدّلها حسنات بكرمه[٢]. وسمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة. فقال: «هَلْ تَدْرِي مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ؟» قال: لا. قال: «دُخُولُ الجَنَّةِ»[٣]. قال العلماء: قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وفي الخبر: «إِذَا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْباً فَاسْتَغْفَرَ الله يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ»[٤]، وفي الخبر: «لَوْ أَذْنَبَ العَبْدُ حَتَّى تَبْلُغَ ذُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ غَفَرْتُهَا لَهُ ما اسْتَغْفَرَنِي وَرَجَانِي»[٥]، وفي الخبر: «لَوْ لَقِيَنِي عَبْدِي بِقرابِ الأَرْضِ ذُنُوباً لَقِيتُهُ بِقرابِ الأَرْضِ مَغْفِرَةً»[٦]، وفي الحديث: «إِنَّ المَلَكَ لَيرفَعُ القَلَمَ عَنِ العَبْدِ إذا أَذْنَبَ سِتَّ سَاعَاتٍ، فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يكْتُبْهُ عَلَيْهِ وَإِلاَّ كَتَبَها سَيِّئَةً»[٧]، وفي لفظ آخر: «فَإِذَا كَتَبَهَا عَلَيْهِ وَعَمِلَ حَسَنَةً قَالَ صَاحِبُ اليَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَيْهِ: أَلْقِ هٰذِهِ السَّيِّئَةَ حَتَّى أُلْقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةً تَضْعِيفَ العَشْرِ وَأَرْفَعَ لَهُ تِسْعَ حَسَنَاتٍ، فَتُلْقَى عَنْهُ السَّيِّئَةُ». وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِذَا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْباً كُتِبَ عَلَيْهِ» فقال أعرابي: وإن تاب عنه؟ قال: «مُحِيَ عَنْهُ» قال: فإن عاد؟ قال النبي ﷺ: «يُكْتَبُ عَلَيْهِ» قال الأعرابي: فإن تاب؟ قال: «مُحِيَ مِنْ صَحِيفَتِهِ» قال: إلى متى؟ قال: «إِلَى

---

(١) حديث: «حياتي خير لكم وموتي خير لكم...» الحديث. أخرجه البزار من حديث عبدالله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عبدالمجيد بن عبدالعزيز بن أبي داود وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون، ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: قال ﷺ يوماً: «يا كريم العفو» فقال جبريل: أتدري ما تفسير يا كريم العفو؟ الحديث. لم أجده عن النبيّ ﷺ. والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل، هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد. ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال: حدثني بعض الزهاد... فذكره.

(٣) حديث: «سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة...» الحديث. تقدم.

(٤) حديث: «إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «إن عبداً أصاب ذنباً فقال: أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي...» الحديث. وفي رواية «أذنب عبد ذنباً فقال...» الحديث.

(٥) حديث: «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أنس: «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك» وقال: حسن.

(٦) حديث: «لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة» أخرجه مسلم من حديث أبي ذر: «ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة»، وللترمذي من حديث أنس الذي قبله «يا ابن آدم لو لقيتني...» الحديث.

(٧) حديث: «إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه...» الحديث. قال: وفي لفظ آخر: «فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه: ألق هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة من تضعيف العشر...» الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول، ورواه أيضاً أطول منه وفيه: «إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال» وليس فيه: «أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة»، ولم أجد لذلك أصلاً.

أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ مِنَ المَغْفِرَةِ حَتَّى يَمَلَّ العَبْدُ مِنَ الاسْتِغْفَارِ؛ فَإِذَا هَمَّ العَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا صَاحِبُ اليَمِينِ حَسَنَةً قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعِفُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، وَإِذَا هَمَّ بِخَطِيئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ خَطِيئَةً وَاحِدَةً وَوَرَاءَهَا حُسْنُ عَفْوِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[(١)].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوّع، أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: **«نَعَمْ مَعِي، إذا حَفِظْتَ قَلْبَكَ مِن اثْنَتَيْنِ: الغِلِّ، وَالحَسَدِ. وَلِسَانَكَ مِن اثْنَتَيْنِ: الغِيبَةِ، وَالكَذِبِ. وَعَيْنَيْكَ مِن اثْنَتَيْنِ: النَّظَرِ إِلَى ما حَرَّمَ اللَّهُ، وَأَنْ تَزْدَرِيَ بِهِمَا مُسْلِماً. دَخَلْتَ مَعِي الجَنَّةَ عَلَى رَاحَتِيَّ هَاتَيْنِ»**[(٢)]. وفي الحديث الطويل لأنس: أنّ الأعرابي قال: يا رسول الله، من يلي حساب الخلق؟ فقال: **«الله تبارك وتعالى»** قال: هو بنفسه؟ قال: **«نعم»** فتبسم الأعرابي؛ فقال ﷺ: **«مِمَّ ضَحِكْتَ يا أَعْرَابِيُّ؟»** فقال: إنّ الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، فقال النبي ﷺ: **«صَدَقَ الأَعْرَابِيُّ، أَلا لا كَرِيمَ أَكْرَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، هُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ»** ثم قال: **«فَقُهَ الأَعْرَابِيُّ»**[(٣)]، وفيه أيضاً: **«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَّفَ الكَعْبَةَ وَعَظَّمَهَا وَلَوْ أَنَّ عَبْداً هَدَمَهَا حَجَراً حَجَراً ثُمَّ أَحْرَقَهَا ما بَلَغَ جُرْمَ مَنِ اسْتَخَفَّ بِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى»** قال الأعرابي: ومن أولياء الله تعالى؟ قال: **«المُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٧]**. وفي بعض الأخبار: **«المُؤْمِنُ أَفْضَلُ مِنَ الكَعْبَةِ»**[(٤)]، و: **«المُؤْمِنُ طَيِّبٌ طَاهِرٌ»**[(٥)]، و: **«المُؤْمِنُ**

---

(١) حديث أنس: **«إذا أذنب ذنباً كتب عليه»** فقال أعرابي: فإن تاب عنه؟ قال: **«محي عنه»** قال: فإن عاد؟. الحديث. وفيه **«إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار»** الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ: فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنباً. قال: **«استغفر ربك»** قال: فأستغفر ثم أعود. قال: **«فإذا عدت فاستغفر ربك»** ثلاث مرات أو أربعاً. قال: **«فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور»** وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر الحديث. وروي أيضاً من حديث عقبة بن عامر: أحدنا يذنب؟ قال: **«يكتب عليه»** قال: ثم يستغفر ويتوب؟ قال: **«يغفر له ويتاب عليه»** قال: فيعود... الحديث. وفيه **«لا يمل الله حتى تملوا»** وليس في الحديثين قوله في آخره: **«فإذا هم العبد بحسنة... الخ»** وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: **«فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همّ بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»** زاد مسلم في رواية: **«أو محاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك»** ولهما نحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع...»** الحديث. تقدم.

(٣) حديث أنس الطويل: قال أعرابي: يا رسول الله، من يلي حساب الخلق؟ قال: **«الله تبارك وتعالى»** فقال: هو بنفسه؟ قال: **«نعم»** فتبسم الأعرابي... الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: **«المؤمن أفضل من الكعبة»** أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ: **«ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً»** وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وقد تقدم.

(٥) حديث: **«المؤمن طيب طاهر»** لم أجده بهذا اللفظ، وفي الصحيحين من حديث حذيفة: **«المؤمن لا ينجس»**.

أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ المَلاَئِكَةِ»[١]، وفي الخبر: «خَلَقَ اللَّهُ تَعالَى جَهَنَّمَ مِنْ فَضْلِ رَحْمَتِهِ سَوْطاً يَسُوقُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ»[٢]، وفي خبر آخر: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّمَا خَلَقْتُ الخَلْقَ لِيَرْبَحُوا عَلَيَّ وَلَمْ أَخْلُقْهُمْ لأَرْبَحَ عَلَيْهِمْ»[٣]. وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «ما خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئاً إِلاَّ جَعَلَ لَهُ ما يَغْلِبُه وَجعَلَ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ»[٤]. وفي الخبر المشهور: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»[٥]، وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لا إِلٰه إِلا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»[٦] و: «مَنْ كان آخِرُ كَلاَمِهِ لا إِلٰه إِلا اللَّهُ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ»[٧]، و: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً حَرُمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ»[٨]. و: «لا يَدْخُلُها مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»[٩]. وفي خبر آخر: «لَوْ عَلِمَ الكَافِرُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ ما أَيِسَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»[١٠]. ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] قال: «أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هٰذا؟ هٰذا

---

(١) حديث: «**المؤمن أكرم على الله من الملائكة**» أخرجه ابن ماجه من رواية أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ: «**المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة**» وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين، ورواه ابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف.

(٢) حديث: «**خلق الله من فضل رحمته سوطاً يسوق به عباده إلى الجنة**» لم أجده هكذا، ويغني عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة: «**عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل**».

(٣) حديث: «**قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم أخلقهم لأربح عليهم**»، لم أقف له على أصل.

(٤) حديث أبي سعيد: «**ما خلق الله شيئاً إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه**»، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب، وفيه عبدالرحمن بن كردم جهله أبو حاتم، وقال صاحب الميزان: ليس بواه ولا بمجهول.

(٥) حديث: «**إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي**» متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٦) حديث معاذ وأنس: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**» أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ: «**من مات يشهد**». وتقدم من حديث معاذ، وهو في اليوم والليلة للنسائي بلفظ: «**من مات يشهد...**» وقد تقدم من حديث معاذ، ومن حديث أنس أيضاً، وتقدم في الأذكار.

(٧) حديث: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار**» أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ: «**دخل الجنة**».

(٨) حديث: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار**» أخرجه الشيخان من حديث أنس أنه ﷺ قال لمعاذ: «**ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار**» وزاد البخاري: «**صادقاً من قلبه**» وفي رواية له: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة**»، ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ «**جعله الله في الجنة**»، وللنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة**».

(٩) حديث: «**لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان**» أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء: «**من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار**» وفيه انقطاع، وله من حديث عثمان بن عفان: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حرم على النار**» قال عمر بن الخطاب: هي كلمة الإخلاص، وإسناده صحيح، ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخوله جماعة من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة، نعم، لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد، وفيه: «**فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه**» وقال مسلم: «**من خير**» بدل: «**من إيمان**».

(١٠) حديث: «**لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد**» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

يَوْمَ يُقَالُ لآدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلامُ: قُمْ فَابْعَثْ بعث النَّارِ مِنْ ذُرِّيتك، فَيَقُولُ: كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْف تِسْعُمائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الجَنَّةِ» قال: فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال: «ما لَكُمْ لا تَعْمَلُونَ» فقالوا: ومن يشتغل بعمل بعدما حدثتنا بهذا؟ فقال: «كَمْ أَنْتُمْ فِي الأُمَمِ؟ أَيْنَ تَاوِيلُ وَتَارِيث وَمَنْسَكُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أُمَمٌ لا يُحْصِيها إلاّ اللَّهُ تَعَالَى، إِنَّما أَنْتُمْ فِي سَائِرِ الأُمَمِ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثورِ الأَسْوَدِ، وَكَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ»[1]. فانظر كيف كان الخوف يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى؛ إذ ساقهم بسياط الخوف أوّلاً، فلما خرج ذلك بهم عن حدّ الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال، والقصد والآخر لم يكن مناقضاً للأوّل ولكن ذكر في الأوّل ما رآه سبباً للشفاء واقتصر عليه، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر، فعلى الواعظ أن يقتدي بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه، وفي الخبر: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقاً يُذْنِبُونَ فَيَغْفِر لَهُمْ»[2]، وفي لفظ آخر: «لَذَهَبَ بِكُمْ وَجاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ». وفي الخبر: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ ما هُوَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبَ» قيل: وما هو؟ قال: «العُجْبُ»[3]، وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَده لَلَّه أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا»[4]، وفي الخبر: «لَيَغْفِرَنَّ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْفِرَةً ما خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ، حَتَّى إِنَّ إِبْلِيسَ لَيَتَطَاوَلُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ»[5]، وفي الخبر: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مائَةَ رَحْمَةٍ ادَّخَرَ مِنْهَا عِنْدَهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِي الدُّنْيا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، فَتَحِنُّ الوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِها وَتَعْطِفُ البَهِيمَةُ عَلَى وَلَدِها. فإِذَا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ضَمَّ هٰذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التِّسْعِ وَالتِّسْعِينَ ثُمَّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَكُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قَالَ: فَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّه يَوْمَئِذٍ إلاّ هَالِكٌ»[6]، وفي الخَبر: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ وَلاَ يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلا أَنَا إِلاّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»[7]، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَداً لَنْ يُنْجِيَهُ عَمَلُهُ»[8]،

---

(١) حديث: «لما تلا ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحَج: ١] قال: **أتدرون أي يوم هذا؟...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال: حسن صحيح.
قلت: هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد.

(٢) حديث: «**لو لم تذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم**». وفي لفظ: «**لذهب بكم...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي أيوب، واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريباً منه.

(٣) حديث: «**لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب**» قيل ما هو؟ قال: «**العجب**» أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أنس، وتقدم في ذم الكبر والعجب.

(٤) حديث: «**والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها**» متفق عليه من حديث عمر بنحوه.

(٥) حديث: «**ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف.

(٦) حديث: «**إن لله تعالى مائة رحمة...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث: «**ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٨) حديث: «**اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحداً لن ينجيه عمله**». تقدم أيضاً.

وقال ﷺ: «**إني اختبأتُ شفاعتي لأهلِ الكبائرِ من أمتي أترونها للمطيعين المتقين بل هي للمتلوثين المخلطين**»[(١)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**بُعثتُ بالحنيفيةِ السمحةِ السهلةِ**»[(٢)]، وقال ﷺ وعلى كل عبد مصطفى: «**أحبُّ أن يعلمَ أهلُ الكتابينِ أن في ديننا سماحةً**»[(٣)]. ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] وقال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] قال: «**يا جبريل، وما الصفح الجميل؟**» قال عليه السلام: «إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه» فقال: «**يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه**» فبكى جبريل وبكى النبي ﷺ فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال: إن ربكما يقرئكما السلام ويقول: كيف أعاتب من عفوت عنه، هذا ما لا يشبه كرمي[(٤)].

والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى.

وأما الآثار: فقد قال علي كرّم الله وجهه: من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة. وقال الثوري: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما. وقال بعض السلف: المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه. وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه: إن العبد إذا كان مسرفاً على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول: يا رب، حجبت الملائكة صوته، وكذا الثانية والثالثة، حتى إذا قال الرابعة: يا ربي، قال الله تعالى: حتى متى تحجبون عني صوت عبدي، قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيري، أشهدكم أني قد غفرت له. وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه: خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت: يا ربّ اعصمني حتى لا أعصيك أبداً، فهتف بي هاتف من البيت: يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟. وكان الحسن يقول: لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السماوات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين

---

(١) حديث: «**إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي...**» الحديث. أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة: «**لكل نبي دعوة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي**». ورواه مسلم من حديث أنس، وللترمذي من حديثه. وصححه، وابن ماجه من حديث جابر: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» ولابن ماجه من حديث أبي موسى، ولأحمد من حديث ابن عمر: «**خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين...**» الحديث. وفيه من لم يسم.

(٢) حديث: «**بعثت بالحنيفية السمحة السهلة**» أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله: «**السهلة**» وله وللطبراني من حديث ابن عباس: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**» وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنعنة.

(٣) حديث: «**أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة**» رواه أبو عبيد في غريب الحديث، وأحمد.

(٤) حديث محمد بن الحنفية عن علي: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] قال: «**يا جبريل وما الصفح الجميل؟**» قال: إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه...» الحديث. أخرجه ابن مردويه في تفسيره موقوفاً على علي مختصراً، قال: الرضا بغير عتاب، ولم يذكر بقية الحديث، وفي إسناده نظر.

محمد بن خولة الحنفية ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ينسب محمد إلى أمه تميزاً له عن أولاد فاطمة الزهراء رضي الله عنهما.

بالمحسنين. ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له: إلى كم تحدث الناس بالرخص؟ فقال: يا أبا يحيى، إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح. وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه ـ وكان من خيار التابعين، وهو ممن تكلم بعد الموت ـ قال: لما مات أخي سجي بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعداً، وقال: إني لقيت ربي عزّ وجلّ فحياني بروح وريحان وربي غير غضبان، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا، وأن محمداً ﷺ ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت، فحملناه ودفناه.

وفي الحديث: أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى، فكان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره، فكان يقول: دعني وربي، أبُعِثْتَ عليَّ رقيباً، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال: لا يغفر الله لك. قال: فيقول الله تعالى يوم القيامة: أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي، اذهب أنت فقد غفرت لك، ثم يقول للعابد: وأنت فقد أوجبت لك النار. قال: فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته(١).

وروي أيضاً: أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة، فمرّ عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين، فقال اللص في نفسه: هذا نبي الله يمرّ وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً، قال: فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيماً للحواري ويقول في نفسه: مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد. قال: وأحس الحواري به، فقال في نفسه: هذا يمشي إلى جانبي، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: قل لهما ليستأنفا العمل؛ فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما؛ أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه، فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حوارييه.

وروي عن مسروق: أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً فوطىء عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته، قال: فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضباً فقال: «اذْهَبْ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ»، فأوحى الله تعالى إليه: تتألى عليَّ في عبادي، إني قد غفرت له.

ويقرب من هذا: ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨] الآية، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام(٢).

---

(١) حديث: «إن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً...» الحديث. رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.

(٢) حديث ابن عباس: «كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨] فترك الدعاء عليهم...» الحديث. أخرجه البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً» بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨] إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]، ورواه الترمذي وسماهم أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد: «فتاب عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم» وقال: حسن غريب. وفي رواية له: «أربعة نفر» ولم يسمهم وقال: «فهداهم الله للإسلام» وقال: حسن غريب صحيح.

وروي في الأثر: أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة، قال: فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه، فيقول: يا رب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته عليّ في عليين، فيقول الله سبحانه: إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤله.

وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل، لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف، فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه. ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن، ولذلك قال ﷺ: **«سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً»**(١)، وقال: **«إذا سَأَلْتُم اللَّهَ فَأَعْظِمُوا الرَّغْبَةَ وَاسْأَلُوا الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ»**(٢).

وقال بكر بن سليم الصوّاف: دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها فقلنا: يا أبا عبدالله: كيف تجدك؟ قال: لا أدري ما أقول لكم، إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه.

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته: يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إياك مع الأعمال؛ لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

وقيل: إن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال: إن أسلمت أضفتك. فمرّ المجوسي، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم: لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك؛ فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسي فرده وأضافه. فقال له المجوسي: ما السبب فيما بدا لك؟ فذكر له؛ فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني ثم قال: اعرض علي الإسلام، فأسلم.

ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد، فقال له: كيف حالك؟ فقال: وجدنا الأمر أهون مما توهمنا.

ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف، فقال له: يا أستاذ، بم نلت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي.

وحكي: أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه كأن القيامة قد

---

(١) حديث: **«سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً»** لم أجده بهذا اللفظ. وللترمذي من حديث ابن مسعود: **«سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل»** وقال: هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ.

(٢) حديث: **«إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوه الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاظمه شيء»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: **«إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم وليعظم الرغبة، فإن الله عز وجل لا يتعاظمه شيء أعطاه»** والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث: **«فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»** ورواه الترمذي من حديث معاذ وعبادة بن الصامت.

قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ قال: فجاؤوا، ثم قال: ماذا عملتم فيما علمتم؟ قال: فقلنا: يا رب، قصرنا وأسأنا. قال: فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جواباً غيره، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا به فقد غفرت لكم، ومات بعد ذلك بثلاث ليال.

وقيل: كان رجل شريب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئاً من الفواكه للمجلس، فمرّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئاً ويقول: من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات، قال: فدفع الغلام إليه الدراهم، فقال منصور: ما الذي تريد أن أدعو لك؟ فقال: لي سيد أريد أن أتخلص منه، فدعا منصور وقال: الأخرى. قال: أن يخلف الله علي دراهمي، فدعا، ثم قال: الأخرى. قال: أن يتوب الله على سيدي، فدعا، ثم قال: الأخرى. فقال: أن يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم، فدعا منصور، فرجع الغلام فقال له سيده: لم أبطأت؟ فقص عليه القصة. قال: وبم دعا، فقال: سألت لنفسي العتق، فقال له: اذهب فأنت حرّ. قال: وأيش الثاني؟ قال: أن يخلف الله علي الدراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم. وأيش الثالث؟ قال: أن يتوب الله عليك، قال: تبت إلى الله تعالى. قال: وأيش الرابع؟ قال: أن يغفر الله لي ولك وللقوم، قال: هذا الواحد ليس إلي، فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلاً يقول له: أنت فعلت ما كان إليك، أفترى أني لا أفعل ما إلي؟ قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين.

وروي عن عبدالوهاب بن عبدالحميد الثقفي قال: رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة، قال: فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت، فقلت للمرأة: من كان هذا الميت منك؟ قالت: ابني. قلت: ولم يكن لكم جيران؟ قالت: بلى ولكن صغروا أمره. قلت: وأيش كان هذا؟ قالت: مخنثاً، قال: فرحمتها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثياباً، قال: فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني، فقلت: من أنت؟ فقال: المخنث الذي دفنتموني اليوم، رحمني ربي، باحتقار الناس إياي.

وقال إبراهيم الأطروش: كنا قعوداً ببغداد مع معروف الكرخي على دجلة؛ إذ مرَّ أحداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون، فقالوا لمعروف: أما تراهم يعصون الله مجاهرين؟ ادع الله عليهم، فرفع يديه وقال: إلهي كما فرّحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة. فقال القوم: إنما سألناك أن تدعو عليهم فقال: إذا فرّحهم في الآخرة تاب عليهم. وكان بعض السلف يقول في دعائه: يا رب، وأي أهل دهر له لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم داراً؟ سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدرّ الرزق حتى كأنك يا ربنا لا تغضب.

فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإنّ أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف؛ كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام. وأما ضدّ ذلك فيسدّ عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا.

❋ ❋ ❋

الشطر الثاني من الكتاب: في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف، وبيان درجاته، وبيان أقسام المخاوف، وبيان فضيلة الخوف، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء، وبيان دواء الخوف، وبيان معنى سوء الخاتمة، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم، ونسأل الله حسن التوفيق.

بيان حقيقة الخوف:

اعلم: أنّ الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: الخوف حجاب بين الله وبين العبد. وقال أيضاً: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف. وبالجملة: فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود، وإنما دوام الشهود غاية المقامات، ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول: حال الخوف ينتظم أيضاً من علم وحال وعمل.

أما العلم: فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه، وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويجوّز العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقماً وكونه محفوفاً بمن يحثه على الانتقام خالياً عمن يتشفع إليه في حقه، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوّة الخوف وشدّة تألم القلب، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف؛ كالذي وقع في مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالباً وإن كان افتراسه بالاختيار، وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه، كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإنّ الماء يخاف؛ لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق، وكذا النار على الإحراق؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً. وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبيَاء: ٢٣] فتكون قوّة خوفه. فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه؛ ولذلك قال ﷺ: «أنا أخوفكم لله»(١)، وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨] ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض

---

(١) حديث: «أنا أخوفكم لله» أخرجه البخاري من حديث أنس: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له» وللشيخين من حديث عائشة: «والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات. أما في البدن: فالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنشق به المرارة فيفضي إلى الموت، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس. وأما في الجوارح: فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه. وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه. وقيل لذي النون: متى يكون العبد خائفاً؟ قال: إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام. وأما في الصفات: فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرّغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره. هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين. وقوّة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوّة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً، فإن زادت قوّته كف عما يتطرّق إليه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى؛ إذ التقوى: أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرّد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق، وصاحبه جدير بأن يسمى صدّيقاً، ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة؛ فإذن: الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدّد له بسبب الكف اسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً، ووراءه اسم الصديق والمقرّب، وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم؛ فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل، كما أنك تقول: الإنسان إما عربي وإما عجمي، والعربي إما قرشي أو غيره، والقرشي إما هاشمي أو غيره، والهاشمي إما علوي أو غيره، والعلوي إما حسني أو حسيني، فإذا ذكرت أنه حسني مثلاً فقد وصفته بالجميع، وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه، فكذلك إذا قلت صدّيق فقد قلت: إنه تقي وورع وعفيف، فلا ينبغي أن تظنّ أنّ كثرة هذه الأسامي تدل على معان كثيرة متباينة، فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعاني، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفاً وإقداماً.

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف:

اعلم: أن الخوف محمود، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد: وهو غلط، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي، ولكن ذلك لا يدل على أنّ المبالغة في الضرب محمودة، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال. والمحمود هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه: فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله، وذلك مما قد عز وجوده الآن؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: «لا» كفرت، وإن قلت: «نعم» كذبت، وأشار به إلى أنّ الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً.

وأما المفرط: فإنه الذي يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل؛ فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل، ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز. أما الجهل فإنه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأنّ المخوف هو الذي يتردد فيه.

وأما العجز: فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه؛ فإذن: هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي، وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال في ذاته، وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه، كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، وقد يخرج إلى الموت، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها، وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور، فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم، وفائدة الخوف: الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم.

فإن قلت: من خاف فمات من خوفه فهو شهيد، فكيف يكون حاله مذموماً! فاعلم: أنّ معنى كونه

شهيداً أنّ له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف، فهو بالإضافة إليه فضيلة، فأما فضيلة بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه، وهو محال، فلا ينبغي أن يظن هذا، بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى؛ فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر! كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصدّيقين، فإذن: الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره، فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصدّيقين؛ وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع، فهذا أقصى ما يحمد منه، وذلك مع بقاء الصحة والعقل، فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه، ولو كان محموداً لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياماً كثيرة: احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل.

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه:

اعلم: أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار، وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة، وكما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت، فلا بدّ لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروهاً من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه، ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة، فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروهاً لذاته بل لغيره؛ كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد، أو خوف ضعف القوّة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى، أو خوف زوال رقة القلب وتبدّلها بالقساوة. أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة، أو خوف أن يكِلَه الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء، أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيب العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل. فهذه كلها مخاوف، ولكل واحد خصوص فائدة. وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس، وهكذا إلى بقية الأقسام.

وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة، فإن الأمر فيه مخطر، وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة؛ لأنّ الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد، فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عماذا يظهر، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته، وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد؛ وإليه أشار النبي ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال: «**هٰذَا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاء آبَائِهِمْ لا يَزَادُ فِيهِمْ وَلا يُنْقَصُ**» ثم قبض كفه اليسرى وقال: «**هٰذَا كِتَابُ اللّهِ كُتِبَ فِيهِ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاء آبَائِهِمْ لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلا يُنْقَصُ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ السَّعَادَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ حَتَّى يُقَال كَأَنَّهُمْ منهم بَلْ هُمْ هُمْ، ثُمَّ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ المَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ. وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ، ثُمَّ يَسْتَخرجُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ المَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ، السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللّهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللّه، وَالأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيم**»(١) . وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصدّيقين، وأما الآخر فهو في عرصة الغرور والأمن. إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصدّيقين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية، بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله تعالى ولم يخف معصيته، ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها، ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات، فالعاصي قد قضي عليه بالمعصية شاء أم أبى، وكذا المطيع. فالذي يرفع محمداً ﷺ إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله، فإنّ من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضرورياً، والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضرورياً، فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه، وكيف يحال ذلك على العبد؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة، فقد جاء

(١) حديث: «**هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وقال: حسن صحيح غريب.

في الخبر: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ: يا دَاوُدُ خَفْنِي كما تَخَافُ السَّبُعَ الضَّارِيَ»[1]. فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه؛ فإنّ الوقوف على سببه وقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا لأهله. والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك، وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك، بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حياً كنت أو ميتاً بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحد؛ إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته، ولله المثل الأعلى، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله «هؤلاء إلى الجنة لا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة.

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدّته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدّته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها. وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين، ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكراً وتعجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدّق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم. فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له، ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه.

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه:

اعلم: أنّ فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار.

أما الاعتبار: فسبيله أنّ فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة؛ إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل

---

(١) حديث: «إن الله تعالى أوحى إلى داود: يا داود، خفني كما يخاف السبع الضاري» لم أجد له أصلاً، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات، فإنه عبر عنه بقوله: جاء في الخبر، وكثيراً ما يعبر بذلك عن الإسرائيليات التي هي غير مرفوعة.

الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرّب إلى الله زلفى.

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار: فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان، وقال الله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وصفهم بالعلم لخشيتهم. وقال عزّ وجلّ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: ٨] وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأنّ الخوف ثمرة العلم، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: وأما الخائفون فإنّ لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء. ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم، ولذلك لما خير رسول الله ﷺ في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول: «**أسألك الرفيق الأعلى**»(١)، فإذن: إن نظر إلى مثمره فهو العلم، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما، حتى إنّ العاقب صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها، كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعالى والصلاة برسول الله ﷺ حتى يقال: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة على سيدنا محمد ﷺ وآله أجمعين. وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف ـ كما سبق ـ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرات: ١٣]، ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان، فلذلك لا يتصوّر أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه، وقال رسول الله ﷺ في فضيلة التقوى: «**إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا هُمْ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَقْصَاهُمْ كَمَا يُسْمِعُ أَدْنَاهُمْ فَيَقُولُ: يا أيها النّاسُ إني قد أنصتُ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إليّ اليوم، إنّما هي أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ. أيّها النّاسُ إنّي قَدْ جَعَلْتُ نَسَباً وَجَعَلْتُمْ نَسَباً، فَوَضَعْتُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُمْ نَسَبَكُمْ، قُلْتُ:** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرات: ١٣] **وَأَبَيْتُمْ إلاَّ أَنْ تَقُولُوا فُلانُ بْنُ فُلانٍ وَفُلانٌ أَغْنَى مِنْ فُلانٍ، فَالْيَوْمَ أَضَعُ نَسَبَكُمْ**

---

(١) حديث: لما خير في مرض موته كان يقول: «**أسألك الرفيق الأعلى**» متفق عليه من حديث عائشة قالت: كان النبيّ ﷺ يقول وهو صحيح: «**إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير**» فلما نزل به ورأسه في حجري غشي عليه ثم أفاق فأشخص ببصره إلى سقف البيت ثم قال: «**اللهم الرفيق الأعلى**» فعلمت أنه لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح... الحديث.

وَأَرْفَعُ نَسَبِي، أَيْنَ المُتَّقُونَ؟ فَيُرْفَعُ لِلْقَوْمِ لِوَاءٌ فَيَتْبَعُ القَوْمُ لِوَاءَهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[(١)] . وقال عليه الصلاة والسلام: **«رأس الحكمة مخافة الله»**[(٢)] وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود: **«إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي»**[(٣)]، وقال الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير. وقال الشبلي رحمه الله: ما خفت الله يوماً إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط. وقال يحيى بن معاذ: ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان: خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين. وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام: وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب.

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف، فإن خلت عن الخوف لم تسمَّ بهذه الأسامي، وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى، وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦] وقال ﷺ **«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِنْ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»**[(٤)]، وقال ﷺ: **«مَنْ خَافَ اللَّهَ تَعَالَى خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللَّهِ خَوَّفَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»**[(٥)]، وقال ﷺ: **«أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ خَوْفاً لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَحْسَنُكُمْ فِيما أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَراً»**[(٦)]، وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه: مسكين ابن آدم؛ لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة. وقال ذو النون رحمه الله تعالى: من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لبه. وقال ذو النون أيضاً: ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوّش القلب. وكان أبو الحسين الضرير يقول: علامة السعادة خوف الشقاوة، لأنّ الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين. وقيل ليحيى بن معاذ: من آمن الخلق غداً؟ فقال: أشدهم خوفاً اليوم. وقال سهل رحمه الله: لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال. وقيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نجالس أقواماً يخوّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوّفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب. وقالت عائشة رضي الله عنها: «قلت

---

(١) حديث: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أدناهم فيقول: يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إليّ اليوم، إنما هي أعمالكم ترد عليكم، أيها الناس إني جعلت نسباً. . .»** الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك بسند ضعيف والثعلبي في التفسير مقتصراً على آخره: **«إني جعلت نسباً. . .»** الحديث. من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: **«رأس الحكمة مخافة الله»** رواه أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب، وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضاً.

(٣) حديث: **«إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي»** قاله لابن مسعود: لم أقف له على أصل.

(٤) حديث: **«لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين»** أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلاً.

(٥) حديث: **«من خاف الله خافه كل شيء. . .»** الحديث. رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل، وقد تقدم.

(٦) حديث: **«أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً. . .»** الحديث. لم أقف له على أصل، ولم يصح في فضل العقل شيء.

يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: «**لا، بَل الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ**»[١]، والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف، لأنّ مذمة الشيء ثناء على ضدّه الذي ينفيه، وضدّ الخوف الأمن، كما أن ضدّ الرجاء اليأس، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له، بل نقول: كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان، فإنّ كل من رجا محبوباً فلا بدّ وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذاً لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجياً. فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر، نعم، يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه؛ إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف؛ فإذن: المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة؛ فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكاً فيه، نعم، أحد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السّجدة: ١٦] ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء، فقال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣] أي لا تخافون، وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما؛ إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه، بل أقول: كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية، فإنّ البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢] وقال تعالى: ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ وقال ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئاً مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ إلاَّ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ**»[٢]، وقال ﷺ: «**إذَا اقْشَعَرَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُها**»[٣]، وقال ﷺ: «**لا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ**»[٤]، وقال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال:

---

(١) حديث عائشة: قلت: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: «**لا...**» الحديث. رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

قلت: بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب. قال الترمذي: وروي عن عبدالرحمن بن حازم عن أبي هريرة.

(٢) حديث: «**ما من مؤمن يخرج من عينه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب...**» الحديث. أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٣) حديث: «**إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه...**» الحديث. أخرجه الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف.

(٤) حديث: «**لا يلج النار عبد بكى من خشية الله...**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[(١)]، وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب؟ قال: «نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ ذُنُوبَهُ فَبَكَى»[(٢)]، وقال ﷺ: «ما مِنْ قَطْرَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةِ دَمْعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»[(٣)]، وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ تَشْفِيَانِ القَلْبَ بِذُرُوفِ الدَّمْعِ مَعَ خَشْيَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الدُّمُوعُ دَماً والأَضْرَاسُ جَمْراً»[(٤)]، وقال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ» وَذَكَرَ مِنْهُمْ «رَجُلاً ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[(٥)].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك.

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع.

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأوّل قطرة منها بحاراً من النيران، ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة.

وقال أبو سليمان: البكاء من الخوف، والرجاء والطرب من الشوق.

وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: والذي نفسي بيده؛ لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحبّ إليّ من أن أتصدق بجبل من ذهب.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليَّ من أن أتصدّق بألف دينار.

وروي عن حنظلة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي فدنت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا في الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي: قد نافقت؛ حيث

---

(١) حديث عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: «أمسك عليك لسانك...» الحديث. تقدم.

(٢) حديث عائشة: قلت: أيدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب؟ قال: «نعم، من ذكر ذنوبه فبكى» لم أقف له على أصل.

(٣) حديث: «ما من قطرة أحب إلي من قطرة دمعة من خشية الله...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن غريب، وقد تقدم.

(٤) حديث: «اللهم ارزقني عينين هطالتين يشفيان القلب بذروف الدمع...» الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير في الدعاء، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن، ورواه الحسين المروزي في زياداته على الزهد، والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبدالله مرسلاً دون ذكر ذكر: «الله». وذكر الدارقطني في العلل أن من قال فيه: «عن أبيه» وهم، وإنما هو عن سالم بن عبدالله مرسلاً، وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبدالله المحاربي وليس بابن عمر، انتهى. وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ، ومسلم في الكنى، وابن أبي حاتم عن أبيه، وأبي أحمد الحاكم فإن الراوي له عن سالم عبدالله أبو سلمة، وإنما ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم. نعم، حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروي عن سالم المحاربي أو سالم بن عبدالله بن عمر.

(٥) حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

تحوّل عني ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادي: نافق حنظلة، فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: كلا، لم ينافق حنظلة، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظلة، فقال رسول الله ﷺ: **«كَلاَّ لَمْ يُنَافِقْ حَنظَلَةُ»** فقلت: يا رسول الله، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه. فقال ﷺ: **«يا حَنظَلَةُ لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ أَبداً عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ لَصَافَحَتْكُم المَلائِكَةُ فِي الطَّرِيقِ وَعَلَى فِرَاشِكُمْ؛ وَلَكِنْ يا حَنظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً»**(١).

فإذن: كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف؛ لأنّ جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب.

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما:

اعلم: أنّ الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما، وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب؛ فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأنّ كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود؛ فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل، ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه: الخبز أفضل من السكنجبين؛ إذ يعالج بالخبز مرض الجوع، وبالسكنجبين مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل؛ لأنّ المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء.

وعلى الجملة: فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي. فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. وروي: أنّ علياً كرّم الله وجهه قال لبعض ولده: يا بني، خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل.

---

(١) حديث حنظلة: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا... الحديث، وفيه: «نافق حنظلة» الحديث. وفيه: **«ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** أخرجه مسلم مختصراً.

وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي؛ فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه، فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثني من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره.

فإن قلت: مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه، بل ينبغي أن يغلب رجاؤه كما سبق في أول كتاب الرجاء، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوّة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه، فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين! فاعلم: أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله، وذلك وإن أوردناه مثالاً فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة؛ إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرّب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها، وهي في بلاد ليس يدري أتكثر الصواعق فيها أم لا، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه، والبذر في مسألتنا هو الإيمان ـ وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب ـ وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة؛ إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك مما لم يجرّب مثله، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرّب، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه ـ لا محالة ـ كما سيحكى في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه، فأما أن يغلب رجاؤه فلا. ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً؛ إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين[1]، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه؟ وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة؟ وقد قال ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إلاَّ شبر**»[2]. وفي رواية: «**إلا قَدْرُ فَوَاقِ نَاقَةٍ فَيَسْبِقَ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**» وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر

---

(١) حديث: أن حذيفة خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين؛ أخرجه مسلم من حديث حذيفة: «**في أصحابي اثنا عشر منافقاً**» تمامه: «**لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط...**» الحديث.

(٢) حديث: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر**» وفي رواية: «**إلا قدر فواق ناقة...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: «**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار**» وللبزار وللطبراني في الأوسط: «**سبعين سنة**» وإسناده حسن. وللشيخين في أثناء حديث لابن مسعود: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع...**» الحديث. ليس فيه تقدير للعمل بخمسين سنة ولا ذكر: «**شبر**» ولا «**فواق ناقة**».

يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء، فكيف يؤمن ذلك؟ فإذن: أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: ١٦] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وأين مثل عمر رضي الله عنه؟ فالخلق الموجودة في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أنْ لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي، فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدّر جميع الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط.

وقد قال يحيى بن معاذ: من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادّكار.

وقال مكحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

فإذن: لا بد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى، فإنّ من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب، والمقصود من العلوم والأعمال كلها: معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة، فإن المصير إليه والقدوم بالموت عليه، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدّت محنته وعذابه.

فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا، فالدنيا جنته؛ إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن، ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدّر، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به

نبينا ﷺ إذ قال: «**اللَّهُمَّ ارزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبكَ وَاْجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ المَاءِ البَارِدِ**»[١]، والغرض: أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال ﷺ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ**»[٢]، وقال تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**» ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه: يا بني، حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به. وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه. وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن حببني إلى عبادي. فقال: بماذا؟ قال: بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي. فإذن: غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير، فسأله؟ فقال: الآن أفلت، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له: إنه مات البارحة.

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف:

اعلم: أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء، لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة، والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف، ولذلك قال علي كرم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات. ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرّد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام، ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى المحبة، ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقام سوى الصبر، وبه المجاهدة والتجرّد لله ظاهراً وباطناً، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل. فإذن: فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية، ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول: الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله: أنّ الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف، وربما مدّ اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها، فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب منها قام معه وغلب

---

(١) حديث: «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك. . .» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث معاذ، وتقدم في الأذكار والدعوات.

(٢) حديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» أخرجه مسلم من حديث جابر، وقد تقدم.

عليه الخوف ووافقه في الهرب؛ فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته، وأما خوف الابن فإيمانه بمجرّد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه، فيعلم أنّ السبع مخوف ولا يعرف وجهه، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم: أن الخوف من الله تعالى على مقامين: أحدهما: الخوف من عذابه، والثاني: الخوف منه؛ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨] وقوله عزّ وجلّ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢]. **وأما الأوّل:** فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة، وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم، فإنّ فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير، **وأما الثاني:** وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف، أعني: أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه. قال ذو النون رحمه الله تعالى: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجيّ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِر: ٢٨] ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية، ولكن هو بمجرد التقليد أيضاً هي خوف الصبي من الحية تقليداً لأبيه، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب، حتى إن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه، والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدّة طويلة على الاستمرار. فإذن: من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالبه، فلا يحتاج إلى حيلة سواه، فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف، قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي. وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى، ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم أبى، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعاً بها بالضرورة، فإن كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية؟ هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية، أو يقف لا محالة على أوّل لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل، وعن هذا المعنى عبر ﷺ إذ قال: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عِنْدَ رَبِّهِما، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، قال مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، ثُمَّ أَهْبَطتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلى الأَرْضِ. فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيها تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِياً، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللَّهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَاماً. قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا** ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] **قال: نَعَم. قَالَ:**

أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَعْمَلَهُ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، قال ﷺ: **فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»**[(١)]، فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر، ومن سمع هذا فآمن به وصدّق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف. فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه، وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقاً، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقاً، والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع؛ لأنّ السبع مسخر؛ إن سلط عليه الجوع افترس، وإن سلط عليه الغفلة خلي وترك، فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته، فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع، بل إذا كشف الغطاء علم أنّ الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى، لأنّ المهلك بواسطة السبع هو الله، فاعلم: أنّ سباع الآخرة مثل سباع الدنيا، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلاً يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له، فخلق الجنة وخلق لها أهلاً سخروا لأسبابها شاؤوا أم أبوا، وخلق النار وخلق لها أهلاً سخروا لأسبابها شاؤوا أم أبوا، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار؛ فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء.

وأما الآمنون: فهم الفراعنة والجهال والأغبياء. أما رسولنا ﷺ فهو سيد الأوّلين والآخرين[(٢)]، وكان أشدّ الناس خوفاً[(٣)]، حتى روي أنه كان يصلي على طفل، ففي رواية أنه سُمع في دعائه يقول: **«اللَّهُمَّ قِهِ عَذَابَ القَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ»**[(٤)]، وفي رواية ثانية: أنه سمع قائلاً يقول: هنيئاً لك، عصفور من عصافير الجنة، فغضب وقال: **«ما يُدْرِيكَ أَنَّه كَذَلِكَ، واللَّهِ إِنِّي رَسُولُ اللَّه، وَمَا أَدْرِي ما يُصْنَعُ بِي إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلا يُنْقَصُ مِنْهِمْ»**[(٥)]. وروي أنه ﷺ قال ذلك أيضاً على

---

(١) حديث: **«احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى. . .»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بألفاظ أخر.

(٢) حديث: كان سيد الأولين والآخرين. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر. . .»** الحديث.

(٣) حديث: كان أشد الناس خوفاً. تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثاً. قوله: **«والله إني لأخشاكم لله»** وقوله: **«والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»**.

(٤) حديث: إنه كان يصلي على طفل فسمع في دعائه يقول: **«اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار»** أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبيّ ﷺ صلى على صبي أو صبية وقال: **«لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي»** واختلف في إسناده، فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب: أن صبياً دفن فقال رسول الله ﷺ: **«لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي»**.

(٥) حديث: إنه سمع قائلة تقول لطفل مات: هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة، فغضب وقال: **«ما يدريك. . .»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت: توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة. . . الحديث. وليس فيه فغضب، وقد تقدم.

جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لما قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك: والله لا أزكي أحداً بعد عثمان[١]. وقال محمد بن خولة الحنفية: والله لا أزكي أحداً غير رسول الله ﷺ ولا أبي الذي ولدني، قال: فثارت الشيعة عليه، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه، وروي في حديث آخر: عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه: هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة، هاجرت إلى رسول الله ﷺ وقتلت في سبيل الله، فقال ﷺ: **«وَمَا يُدْرِيك لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لا يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ ما لا يَضُرُّهُ»**[٢]، وفي حديث آخر: «أنه دخل ﷺ على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئاً لك الجنة، فقال ﷺ: **«مَنْ هٰذِهِ المُتَأَلِّيَةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟»** فقال المريض: هي أمي يا رسول الله، فقال: **«وَمَا يُدْرِيكِ، لَعَلَّ فُلاناً كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لا يَعْنِيهِ وَيَبْخَلُ بِمَا لا يُغْنِيهِ»**[٣]، وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم، وهو ﷺ يقول: **«شيبتني هود وأخواتها»**[٤]؛ سورة الواقعة وإذا الشمس كوّرت وعم يتساءلون فقال العلماء: لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هُود: ٦٠] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هُود: ٦٨] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هُود: ٩٥] مع علمه ﷺ بأنه لو شاء الله ما أشركوا؛ إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝﴾ [الواقعة: ٢ ـ ٣] أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة: إما خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدنيا، وإما رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدنيا. وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝﴾ [التكوير: ١٢ ـ ١٤] وفي عم يتساءلون: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبَإ: ٤٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبَإ: ٣٨] والقرآن من أوّله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ۝﴾ [طٰه: ٨٢] لكان كافياً؛ إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها، وأشدّ منه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ۝﴾ [القَصَص: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزَاب: ٨] وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝﴾ [الرَّحمٰن: ٣١] وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعرَاف: ٩٩] الآية. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝﴾ [هُود: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝﴾ [مريَم: ٨٥] الآيتين. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريَم: ٧١] الآية. وقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فُصّلَت: ٤٠]

---

(١) حديث: لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة... الحديث. أخرجه البخاري من حديث أم العلاء الأنصارية وهي القائلة: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، قال: **«وما يدريك؟»** الحديث. وورد أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد، ولم أجد فيه ذكر أم سلمة.

(٢) حديث: إن رجلاً من أهل الصفة استشهد فقالت أمه: هنيئاً لك يا بني الجنة. رواه البيهقي في الشعب، إلا أنه قال: فقالت أمه: هنيئاً لك الشهادة وهو عند الترمذي، إلا أنه قال: إن رجلاً قال له: أبشر بالجنة، وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف.

(٣) حديث: دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئاً له الجنة... الحديث. تقدم أيضاً.

(٤) حديث: **«شيبتني هود وأخواتها...»** الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس، وهو في الشمائل من حديث أبي جحيفة. وقد تقدم في كتاب السماع.

الآية. وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] الآية. وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧] الآيتين. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ [الفرقان: ٢٣] الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ١، ٢] إلى آخر السورة. فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] حتى روي أن النبي وجبريل عليهما السلام بكيا خوفاً من الله تعالى، فأوحى الله إليهما: لم تبكيان وقد أمنتكما؟ فقالا: **ومن يأمن مكرك؟**(١). وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور، لم يأمنا أن يكون قوله: «قد أمنتكما» ابتلاء وامتحاناً لهما ومكراً بهما، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما، كما أنّ إبراهيم ﷺ لما وضع في المنجنيق قال: حسبي الله، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء، حتى قال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله، فأخبر الله تعالى عنه فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧] أي بموجب قوله: حسبي الله، وبمثل هذا أخبر عن موسى حيث قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة؛ إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدّد عليه الأمن وقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال ﷺ: **«اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هٰذِهِ العِصَابَةُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ»**(٢)، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك، فكان مقام الصدّيق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله، وكان مقام رسول الله ﷺ مقام الخوف من مكر الله وهو أتم؛ لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر، وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة، ولذلك قال المسيح ﷺ لما قيل له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٨] الآية، فوّض الأمر إلى المشيئة، وأخرج نفسه بالكلية من البين؛ لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء، وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حدّ المعقولات والمألوفات، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلاً عن التحقيق والاستيقان، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين؛ إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد، ثم يخبر عنه ويقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ

---

(١) حديث: أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفاً من الله عز وجل، فأوحى الله إليهما: لم تبكيان؟ الحديث. أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر، رويناه في مجلس من أمان أبي سعيد النقاش بسند ضعيف.

(٢) حديث قال يوم بدر: **«اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك»**. أخرجه البخاري من حديث ابن عباس بلفظ: **«اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم. . .»** الحديث.

أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ [السَّجدَة: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هُود: ١١٩] الآية. فكيف لا يخاف ما حق من القول في الأزل ولا يطمع في تداركه، ولو كان الأمر آنفاً لكانت الأطماع تمتدّ إلى حيلة فيه، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة؛ إذ كل ميسر لما خلق له، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه على الله مقبلاً كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقاً به، ولكنّ خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالاً ولا يمكنها من الانطفاء، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، وأن القلب أشدّ تقلباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [المَعَارج: ٢٨] فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف. فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب. قال بعض العارفين: لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد، لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب. وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام، لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار. وكان أبو الدرداء يحلف بالله؛ ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه. وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبدالله، عليك بالرجاء فإنّ عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أو على ذنوبي أبكي؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا.

وحكي عن بعض الخائفين: أنه أوصى بعض إخوانه فقال: إذا حضرتني الوفاة فاقعد على رأسي، فإن رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزاً وسكراً وانثره على صبيان أهل البلد، وقل: هذا عرس المنفلت، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة. قال: وبم أعلم ذلك؟ فذكر له علامة، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرّقه.

وكان سهل يقول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

وكان أبو زيد يقول: إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطي زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار، فهذا لي في كل يوم خمس مرات.

وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال: يا معشر الحواريين، أنتم تخافون المعاصي، ونحن ـ معاشر الأنبياء ـ نخاف الكفر.

وروي في أخبار الأنبياء: أنّ نبياً شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف، فأوحى الله تعالى إليه: عبدي: أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى، قد رضيت يا رب فاعصمني من الكفر.

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوّة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخاف الضعفاء؟

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن: لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس. وما عنوا به النفاق الذي هو ضدّ أصل الإيمان، بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً منافقاً، وله علامات كثيرة: قال ﷺ: **«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّه مُسْلِمٌ، وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها: مَنْ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذا ائْتُمِنَ خَانَ، وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ»**[١]، وفي لفظ آخر: **«وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»**.

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صديق؛ إذ قال الحسن: إنّ من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني؟ بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونسي كونها منكر بالكلية، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوّة، فكيف الظن بزماننا! حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقاً إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات[٢]. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر[٣]. وقال بعضهم: علامة النفاق: أن تكره من الناس ما تأتي مثله، وأن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من الحق. وقيل: من النفاق: أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك. وقال رجل لابن عمر رحمه الله: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم؛ فقال: كنا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[٤]. وروي: أنه سمع رجلاً يذم الحجاج ويقع فيه، فقال: أرأيت لو كان الحجاج حاضراً أكنت تتكلم بما تكلمت به؟ قال: لا. قال: كنا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[٥]. وأشدّ من ذلك ما روي أنّ نفراً قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه، فقال: تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا، فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[٦].

---

(١) حديث: «**أربع من كن فيه فهو منافق...**» الحديث. متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو، وقد تقدم في قواعد العقائد.

(٢) حديث حذيفة: «إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقاً...» الحديث. أخرجه أحمد من حديث حذيفة، وقد تقدم في قواعد العقائد.

(٣) حديث أصحاب رسول الله ﷺ: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر...» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أنس وأحمد، والبزار من حديث أبي سعيد، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده، وتقدم في التوبة.

(٤) حديث: «قال رجل لابن عمر: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون...» الحديث. رواه أحمد والطبراني، وقد تقدم في قواعد العقائد.

(٥) حديث: «سمع ابن عمر رجلاً يذم الحجاج ويقع فيه فقال: أرأيت لو كان الحجاج حاضراً...» الحديث. تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج.

(٦) حديث: «إن نفراً قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه، فلما خرج سكتوا...» الحديث. لم أجد له أصلاً.

وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق، وكان يقول: إنه يأتي على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة، ويأتي عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة. فقد عرفت بهذا: أنّ خوف العارفين من سوء الخاتمة، وأنّ سببه أمور تتقدّمه: منها البدع، ومنها المعاصي، ومنها النفاق، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك! وإن ظنّ أنه خلا عنه فهو النفاق؛ إذ قيل: من أمن النفاق فهو منافق. وقال بعضهم لبعض العارفين: إني أخاف على نفسي النفاق، فقال: لو كنت منافقاً لما خفت النفاق، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما. ولذلك قال ﷺ: **«العَبْدُ المُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لا يَدْرِي ما اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا بَعْدَ المَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، ولا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إلاَّ الجَنَّةَ أَو النَّارَ»**[1]، والله المستعان.

بيان معنى سوء الخاتمة:

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة، فما معنى سوء الخاتمة؟

فاعلم: أن سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم من الأخرى. فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك، وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد. والثانية: وهي دونها؛ أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها. ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب؛ إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه، فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار: جز يا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي. فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه؛ إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال؛ فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت؛ فإن كان إيمانه في القوة إلى حدّ مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بدّ وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين.

فإن قلت: فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار إليه عقيب موته، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة؟.

---

(١) حديث: «**العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى...**» الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ، وقد تقدم في ذم الدنيا: ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغاً، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس.

فاعلم: أنّ كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان، بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحت به الأخبار وهو: أنّ القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة(١)، وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم(٢)، كما وردت به الأخبار، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة. وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر(٣) والتعذيب بعده(٤)، ثم المناقشة في الحساب(٥) والافتضاح على ملأ من الأشهاد في القيامة(٦)، ثم بعد ذلك خطر الصراط(٧) وهول الزبانية(٨)... إلى آخر ما وردت به الأخبار، فلا يزال الشقي متردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته، ولا تظنن أن محل الإيمان لا يأكله التراب، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية.

فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟

فاعلم: أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها: أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين:

أحدهما: يتصوّر مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال: كالمبتدع الزاهد فإنّ عاقبته مخطرة جداً، وإن كانت أعماله صالحة ولست أعني مذهباً فأقول إنه بدعة؛ فإنّ بيان ذلك يطول القول فيه، بل أعني بالبدعة: أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه، إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعوّل وبه يغتر، وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله، فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً؛ إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادىء سكراته

---

(١) حديث: «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: غريب، وتقدم في الأذكار.

(٢) حديث: «إنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم». لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر. تقدم في قواعد العقائد.

(٤) حديث: عذاب القبر: تقدم فيه.

(٥) حديث: المناقشة في الحساب: تقدم فيه.

(٦) حديث: الافتضاح على ملأ الأشهاد في القيامة: رواه أحمد والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد جيد: «من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا فضحه الله على رؤوس الأشهاد» وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: «وأما الكافر والمنافق فينادي بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم»، والطبراني والعقيلي في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض: «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة» وهو حديث طويل منكر.

(٧) حديث خطر الصراط: تقدم في قواعد العقائد.

(٨) حديث: هول الزبانية أخرجه الطبراني من حديث أنس: «الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران» قال صاحب الميزان: حديث منكر. وروى ابن وهب عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم معضلاً في خزنة جهنم: ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب.

منه، فقد ينكشف به بعض الأمور؛ فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه، لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص، بل ظن أنّ كل ما اعتقده لا أصل له؛ إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧] وبقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣،١٠٤] وكما أنه ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب؛ فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور؛ إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت، فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ما هي عليه، فيكون مثل هذه الحال سبباً للكشف، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق، والبله بمعزل عن هذا الخطر، أعني: الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجملاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام؛ الذين لم يخوضوا في البحث والنظر، ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً، ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة، ولذلك قال ﷺ: «**أَكْثَرُ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ**»[1]. ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عزّ وجلّ جميعاً وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه، ومنعوهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض، والقلوب لما ألقي إليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة، فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول ـ مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال أو الإحاطة بكنه الحق ـ انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم، وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم، فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرّضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم. ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظنّ وحسبان، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان، وأنه صفو الإيمان، ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨] وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

---

(١) حديث: «**أكثر أهل الجنة البله**» أخرجه البزار من حديث أنس، وقد تقدم.

أحسنت ظنك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تخف سُوءَ ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صَفْوِ الليالي يحدث الكَدرُ

واعلم يقيناً: أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرّض لهذا الخطر، ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد، والهلاك عليه أغلب. وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إما مع الأدلة التي حرّروها في تعصباتهم أو دون الأدلة، فإن كان شاكاً فيه فهو فاسد الدين، وإن كان واثقاً فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوّة وذلك هو الكبريت الأحمر، وأنى يتيسر، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول. فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة.

وأما السبب الثاني: فهو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب. ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب ـ أعني: حب الله ـ ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، كما أنّ الذي يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً، والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى؛ فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضاً فهو أبعد عن هذا الخطر، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى؛ إذ لا يحبه إلا من عرفه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]. فإذن: كل من فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال، وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرّد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام.

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان:

أحدهما: كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي، وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت. فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى، فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جداً عن هذا الخطر، والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جداً، ونعرّف هذا بمثال: وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره، حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهدته في اليقظة، وحتى إن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة، ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع، ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه، لأنه إنما يظهر في حال النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب، والموت شبيه النوم ولكنه فوقه، ولكن سكرات الموت وما يتقدّمه من الغشية قريب من النوم، فيقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف، فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجح، وكذلك تخالف أيضاً منامات الصالحين منامات الفساق، فتكون غلبة الإلف سبب لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته، وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها، وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها، كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه.

أما بالمشابهة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلاً آخر، **وأما بالمضادة:** فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحاً ويتأمل في شدة التفاوت بينهما، **وأما بالمقارنة:** فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين، مثل أن ينتقل من شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثاني، ولا يكون بين الثالث والأوّل مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأوّل مناسبة، فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت، فعلى هذا ـ والعلم عند الله ـ من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يوميء إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل إصبعه التي لها عادة بالكستبان ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمدّ يده إلى المقراض، ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات، فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامِ نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر من الشر عدّة وذخيرة

لحالة سكرات الموت؛ فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة ستة أربعة، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت.

وقال بعض العارفين من السلف: العرش جوهرة تتلألأ نوراً، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش؛ فربما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف، وما ذكره صحيح، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك، فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوّة، فإذاً: رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولاً كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير، فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة، لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة، حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال: حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت: رأيتك قلت لي كذا. فقلت: لم ذاك؟ قال: فهجرني شهراً ولم يكلمني وقال: لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال؛ إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه.

فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة، وقد ظهر لك بهذا أنّ الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية، فإن كنت تعلم أنّ ذلك محال أو عسير فلا بدّ وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك، وقد عرفت بهذا أنّ أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً، ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا! ولذلك قال حامد اللفاف: إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا: كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا. وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له: علام تبكي؟ فقال: بكينا على الذنوب زماناً، فالآن نبكي على الإسلام.

وبالجملة: من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشدّ اضطراباً من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاماً من أمواج البحر، وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«إنَّ الرَّجلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ خَمسِينَ سَنَةً حَتَّى لا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إلاّ فُوَاقُ نَاقَةٍ فَيُخْتَمُ لَهُ بِمَا**

سَبَقَ بِهِ الكِتَابُ»[1]، ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف. وقال سهل: رأيت كأني أدخلت الجنة، فرأيت ثلاثمائة نبي فسألتهم: ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا؟ قالوا: سوء الخاتمة. ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها، وكانت موت الفجأة مكروهاً، أما الموت فجأة؛ فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يخول عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة. وأما الشهادة؛ فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب؛ إذ لا يهجم على صف القتال موطناً نفسه على الموت إلا حباً لله وطلباً لمرضاته، وبائعاً دنياه بآخرته وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب، ومجرّد حب العوض المطلوب في قلبه، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها، فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار[2].

وإذا بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها؛ فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك، وإياك أن تسوّف وتقول: سأستعدّ لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك؛ إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كل تطريفة، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا ما دمت في يقظتك، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسانك فإنّ حركة اللسان بمجرّدها ضعيفة الأثر.

واعلم قطعاً: أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليها، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه، وتحقق قطعاً ويقيناً أنّ الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك، وآمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة، وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين؛ فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر

---

(١) حديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة...» الحديث. تقدم.

(٢) حديث: «المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة» متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري: «إن رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟»، فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وفي رواية: «الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء». وفي رواية غضباً.

عظيم فكيف إذا لم تفعل. والناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

واعلم: أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك؛ إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه؛ فهما ضرورتان في الجبلة، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك.

واعلم: أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوي على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك، فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه، أما الوقت: فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم، وأما قدره: فبأن لا يزيد على ثلث البطن، وأما جنسه: فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله، فإنّ الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحرّ والبرد وستر العورة؛ فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة، وقس بهذا ما تدفع به الحرّ والبرد عن بدنك؛ فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده. بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفاً والأرض مستقراً، فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد، فإن طلبت مسكناً خاصاً طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك، وعمرك هو بضاعتك، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلاً بينك وبين الأبصار، ومن السقف سوى كونه دافعاً للأمطار؛ فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورّطت في مهواة يبعد رقيك منها، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله، وقدرت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لخاتمتك، وإن جاوزت حدّ الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك. فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك.

واعلم: أنّ متسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك، فإنك تتحقق أنّ عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم؛ لم اشتدّ بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق، وبعضهم يدهش، وبعضهم يسقط مغشياً عليه، وبعضهم يخرّ ميتاً إلى الأرض، ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك؛ فإنّ قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشدّ قسوة ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف:

روت عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة، ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله[(١)]. وقرأ ﷺ آية في سورة الواقعة فصعق[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] ورأى رسول الله ﷺ صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق[(٣)]. وروي أنه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزاً كأزيز المرجل[(٤)]. وقال ﷺ: **«ما جَاءَنِي جِبْرِيلُ قَطُّ إلاّ وَهُوَ يُرْعِدُ فَرَقاً مِنَ الجَبَّارِ»**[(٥)]، وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان، فأوحى الله إليهما: ما لكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا رب، ما نأمن مكرك. فقال الله تعالى: هكذا كونا، لا تأمنا مكري.

وعن محمد بن المنكدر قال: لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق بنو آدم عادت.

وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل: **«مَا لِي لا أَرَى مِيكَائِيلَ يَضْحَكُ؟»** فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار[(٦)].

ويقال: إنّ لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار؛ مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال: **«يا ابْنَ عُمَرَ، مَا لَكَ لا تَأْكُلُ؟»** فقلت: يا رسول الله، لا أشتهيه، فقال: **«لَكِنّي أَشْتَهِيهِ وَهٰذَا صُبْحُ رَابِعَةٍ لَمْ أَذُقْ طَعَاماً وَلَمْ أَجِدْهُ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لأَعْطَانِي مُلْكَ قَيْصَرَ وَكِسْرَى**

---

(١) حديث عائشة: «كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه...» الحديث. متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث: قرأ في سورة الحاقة فصعق، المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرىء عنده ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [المُزمّل: ١٢، ١٣] فصعق، كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلاً، وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم.

(٣) حديث: إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق. أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد: سأل النبيّ ﷺ جبريل أن يراه في صورته؟ فقال: ادع ربك، فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير، فلما رآه صعق. ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلاً بلفظ: فغشي عليه. وفي الصحيحين عن عائشة: رأى جبريل في صورته مرتين. وهما عن ابن مسعود: رأى جبريل له ستمائة جناح.

(٤) حديث: كان إذا دخل في الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل. رواه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي من حديث عبدالله بن الشخير، وتقدم في كتاب السماع.

(٥) حديث: **«ما جاءني جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائصه من الجبار»** لم أجد هذا اللفظ. وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقاً من عذاب الله...» الحديث. وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته.

(٦) حديث أنس أنه ﷺ قال لجبريل: **«ما لي لا أرى ميكائيل يضحك»** فقال: **ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار**. رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد، ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسلاً، وورد ذلك أيضاً في حق إسرافيل. رواه البيهقي في الشعب، وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين.

فَكَيْفَ بِكَ يا ابْنَ عُمَرَ إذا بقِيتَ فِي قَوْمٍ يَخْبَؤُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ وَيَضْعُفُ اليَقِينُ فِي قُلُوبِهِمْ؟» قال: فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العَنكبوت: ٦٠] قال: فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِكَنْزِ المَالِ وَلا بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، مَنْ كَنَزَ دَنَانِيرَ يُرِيدُ بِهَا حَيَاةً فَانِيَةً فَإنَّ الحَيَاةَ بِيَدِ اللَّهِ، أَلاَ وَإنِّي لا أَكْنِزُ دِيناراً وَلا دِرْهَماً وَلاَ أَخْبَأُ رِزْقاً لِغَدٍ»**[(١)].

وقال أبو الدرداء: كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن ﷺ إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه.

وقال مجاهد: بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه، فنودي: يا داود: أجائع أنت فتطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أم عار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حرّ جوفه، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال: يا رب، اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته، قال: وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه. ويروى عنه عليه السلام: أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عزّ وجلّ، وكان يقول في مناجاته: إلهي، إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتدّت إلي روحي، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني، فبؤساً للقانطين من رحمتك.

وقال الفضيل: بلغني أنّ داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء. وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتغال الحشا، وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقال عبدالعزيز بن عمر: لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال: إلهي، بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين. وروي: أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتدّ غمه، فقال: يا رب، أما ترحم بكائي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك، فقال: إلهي وسيدي، كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه، وسكن هبوب الريح، وأظلني الطير على رأسي، وأنست الوحوش إلى محرابي، إلهي وسيدي، فما هذه الوحشة التي بيني وبينك، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية، يا داود، آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري، وشكا لي الوحدة فزوجته حواء أمتي وأسكنته جنتي، عصاني فطردته عن جواري عرياناً ذليلاً، يا داود، اسمع مني والحق أقول: أطعتنا فأطعناك، وسألتنا فأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك. وقال يحيى بن أبي كثير: بلغنا، أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل

---

(١) حديث ابن عمر: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل. الحديث. أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر، قال البيهقي: هذا إسناد مجهول، والجراح بن منهال ضعيف.

الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية، فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع، فينادي فيها: ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت، قال: فتأتي الوحوش من البراري والآكام، وتأتي السباع من الغياض، وتأتي الهوام من الجبال، وتأتي الطير من الأوكار، وتأتي العذارى من خدورهن، وتجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه. فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس، ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سلمان كثرة الموتى قال: يا أبتاه، قد مزقت المستمعين كل ممزق، وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام، فيأخذ في الدعاء، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل: يا داود، عجلت بطلب الجزاء على ربك قال: فيخرّ داود مغشياً عليه، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر منادياً ينادي: ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله؛ فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار، فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول: يا من قتله ذكر النار، يا من قتله خوف الله، ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول: يا إله داود، أغضبان أنت على داود؟ ولا يزال يناجي ربه، فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول: يا أبتاه، تقوّ بهذا على ما تريد، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم. وقال يزيد الرقاشي: خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوّفهم، فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً وما رجع إلا في عشرة آلاف، قال: وكان له جاريتان اتخذهما، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف، ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدّوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس، فهاله ذلك، فرجع إلى أبويه فمرّ بصبيان يلعبون، فقالوا له: يا يحيى، هلم بنا لنلعب فقال: إني لم أخلق للعب، قال: فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة، فخرج ولزم أطواد الأرض وَغِيرانَ الشعاب، فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول: وعزتك وجلالك؛ لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه، فمدح بالبر، فرده أبواه إلى بيت المقدس، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه، فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خدّيه وبدت أضراسه للناظرين، فقالت له أمه: يا بني، لو أذنت لي أن أتخذ لك شيئاً تواري به أضراسك عن الناظرين فأذن لها، فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خدّيه، فكان إذا قام يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال: اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين، فقال له زكريا يوماً:

يا بني، إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقرّ عيناي بك، فقال يحيى: يا أبت، إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكَّاء. فقال زكريا عليه السلام: يا بني، فابك.

وقال المسيح عليه السلام: معاشر الحواريين، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا. بحق أقول لكم: إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل.

وقيل: كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه، ويسمع اضطراب قلبه ميلاً في ميل، فيأتيه جبريل فيقول له: ربك يقرئك السلام ويقول: هل رأيت خليلاً يخاف خليله؟ فيقول: يا جبريل، إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي، فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقرّبين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف:

روي: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر: ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً.

وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: وددت لو أني شجرة تعضد، وكذلك قال طلحة.

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لم أبعث.

وقالت عائشة رضي الله عنها: وددت أني كنت نسياً منسياً.

وروي: أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه، فكان يعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً، يا ليتني كنت نسياً منسياً، يا ليتني لم تلدني أمي. وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. ولما قرأ عمر رضي الله عنه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١] وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠] خرّ مغشياً عليه، ومرّ يوماً بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ [الطُّور: ١] فوقف يستمع، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطُّور: ٧، ٨] نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زماناً، ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه.

وقال علي كرّم الله وجهه ـ وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده ـ: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين، ثم قام. فما رئي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم.

وقال عمران بن حصين: وددت أن أكون رماداً تنسفني الرياح في يوم عاصف.

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقي.

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟.

وقال موسى بن مسعود: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه.

وقرأ مضر القارىء يوماً: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩] الآية. فبكى عبدالواحد بن زيد حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: وعزتك لا عصيتك جهدي أبداً، فأعني بتوفيقك على طاعتك.

وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئاً من القرآن لشدّة خوفه، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياماً، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥،٨٦] فقال: أنا من المجرمين ولست من المتقين، أعد علي القول أيها القارىء، فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة.

وقرىء عند يحيى البكاء: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٠] فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة.

وقال مالك بن دينار: بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: يا رب، كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها، يا رب، أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار؟ وتبكي. فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر، قال مالك: فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخاً أقول: ثكلت مالكاً أمه.

وروي: أن الفضيل رئي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن غفرت، ثم انقلب مع الناس.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين؟ فقال: قلوبهم بالخوف فرحة، وأعينهم باكية، يقولون: كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله ربنا موقفنا.

ومرّ الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس، فقال له الحسن: يا فتى: هل مررت بالصراط؟ قال: لا. قال: فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال: لا. قال: فما هذا الضحك؟ قال: فما رُئي ذلك الفتى بعدها ضاحكاً.

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزاً على قدميه، فيقال له: لو اطمأننت؟ فيقول: تلك جلسة الآمن، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى.

وقال عمر بن عبدالعزيز: إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى.

وقال مالك بن دينار: لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي! ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي! ولا تغتر بكثرة العلم فإن

بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم، فانظر ماذا لقي! ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى ﷺ ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه!

وقال السري: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسودّ وجهي. وقال أبو حفص: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلي نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك.

وخرج ابن المبارك يوماً على أصحابه فقال: إني اجترأت البارحة على الله سألته الجنة.

وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها: يا بني، إني أعرفك صغيراً طيباً وكبيراً طيباً، وكأنك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليلك ونهارك! فقال: يا أماه، ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع علي وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال: وعزتي وجلالي لا غفرت لك.

وقال الفضيل: إني لا أغبط نبياً مرسلاً، ولا ملكاً مقرّباً، ولا عبداً صالحاً، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة! إنما أغبط من لم يخلق.

وروي: أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار، فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت، فجاء النبي ﷺ فدخل عليه واعتنقه فخرَّ ميتاً، فقال ﷺ: «**جهِّزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده**»[(١)].

وروي عن ابن أبي ميسرة: أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول: يا ليت أمي لم تلدني، فقالت له أمه: يا ميسرة، إن الله تعالى قد أحسن إليك؛ هداك إلى الإسلام، قال: أجل، ولكن الله قد بيَّن لنا أنا واردوا النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها.

وقيل لفرقد السبخي: أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل! فقال: بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعاً في يوم واحد.

وكان عطاء السلمي من الخائفين، ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو. وقيل له في مرضه: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعاً للشهوة. إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة. وأنه رفع رأسه يوماً ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق، وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ. وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال: هذا من أجلي يصيبهم، لو مات عطاء لاستراح الناس. وقال عطاء: خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء، قد تورّمت أقدامهم من طول القيام، وغارت أعينهم في رؤوسهم، ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين، فبينما هم يمشون إذ مرّ أحدهم بمكان فخرّ مغشياً عليه، فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقاً، فجاؤوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره؟ فقال: إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان.

وقال صالح المري: قرأت على رجل من المتعبدين: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦﴾ [الأحزاب: ٦٦] فصعق ثم أفاق فقال: زدني يا صالح فإني أجد غماً،

---

(١) حديث: «أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة، والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر.

فقرأت: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السّجدة: ٢٠] فخرّ ميتاً.

وروي: أن زرارة بن أبي أوفى[(١)] صلى بالناس الغداة فلما قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدّثّر: ٨] خرّ مغشياً عليه، فحمل ميتاً.

ودخل يزيد الرقاشيّ على عمر بن عبدالعزيز فقال: عظني يا يزيد. فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لست أوّل خليفة يموت، فبكى ثم قال: زدني، قال: يا أمير المؤمنين، ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت، فبكى ثم قال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين، ليس بينك وبين الجنة والنار منزل، فخرّ مغشياً عليه.

وقال ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾ [الحجر: ٤٣] صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هارباً ثلاثة أيام لا يقدرون عليه[(٢)].

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول: يا ابناه، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولاً؟ فصعق داود وسقط مكانه.

وقيل: مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال: هذا رجل قطع الخوف كبده، ثم جاء وجس عروقه ثم قال: ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله.

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: سألت الله عزّ وجلّ أن يفتح عليّ باباً من الخوف، ففتح فخفت على عقلي؛ فقلت: يا رب، على قدر ما أطيق، فسكن قلبي.

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده؛ لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه، وكأنه أشار إلى معنى قوله ﷺ: **«لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»**[(٣)].

وقال العنبري: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض، فاطلع عليهم من كوّة وهو يبكي ولحيته ترجف، فقال: عليكم بالقرآن، عليكم بالصلاة، ويحكم! ليس هذا زمان حديث، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق، إنما هذا زمان: احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر.

ورئي الفضيل يوماً وهو يمشي، فقيل له: إلى أين؟ قال: لا أدري. وكان يمشي والهاً من الخوف.

وقال ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذر: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب، فقال: يا بني، ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

وحكي: أنّ قوماً وقفوا بعابد وهو يبكي فقالوا: ما الذي يبكيك يرحمك الله؟ قال: قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم. قالوا: وما هي؟ قال: روعة النداء بالعرض على الله عزّ وجلّ.

وكان الخوّاص يبكي ويقول في مناجاته: قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني.

وقال صالح المري: قدم علينا ابن السماك مرة فقال: أرني شيئاً من بعض عجائب عبادكم،

---

(١) زرارة بن أبي أوفى تابعي معروف ثقة. كان قاضياً بالبصرة.

(٢) حديث ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] صاح سلمان الفارسي. لم أقف له على أصل.

(٣) حديث: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**، تقدم في قواعد العقائد.

فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له، فاستأذنا عليه، فإذا رجل يعمل خوصاً، فقرأت عليه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] فشهق الرجل شهقة وخرّ مغشياً عليه، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله، وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخرّ مغشياً عليه، فذهبنا واستأذنا على ثالث، فقال: ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا، فقرأت: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه، وجعل يتشحط في دمه حتى يبس. فتركناه على حاله وخرجنا فأدرته على ستة أنفس كل تخرج من عنده وتتركه مغشياً عليه. ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا، فإذا امرأة من داخل الخص تقول: ادخلوا، فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاه، فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا، فقلت بصوت عال: ألا إنّ للخلق غداً مقاماً، فقال الشيخ: بين يدي من ويحك! ثم بقي مبهوتاً فاتحاً فاه شاخصاً بصره، يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت، فقالت امرأته: اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم؛ فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى. وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتاً متحيراً لا يؤدي فرضاً، فلما كان بعد ثلاث عقل.

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أن لا يضحك أبداً، ولا ينام مضطجعاً، ولا يأكل سمناً أبداً، فما رئي ضاحكاً ولا مضطجعاً ولا أكل سمناً حتى مات رحمه الله.

وقال الحجاج لسعيد بن جبير: بلغني أنك لم تضحك قط! فقال: كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدّت.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة؟ على أي حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة. قال الحسن: حالي أشدّ من حالهم.

ودخلت مولاة لعمر بن عبدالعزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها؛ فرقدت فاستبكت في منامها، ثم انتبهت فقالت: يا أمير المؤمنين، إني والله رأيت عجباً، قال: وما ذلك؟ قالت: رأيت النار وهي تزفر على أهلها، ثم جيء بالصراط ووضع على متنها، فقال: هيه، قالت: فجيء بعبدالملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم فقال عمر: هيه، قالت: ثم جيء بالوليد بن عبدالملك فحمل عليه فما مضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم، فقال عمر: هيه، قالت: ثم جيء بسليمان بن عبدالملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك، فقال عمر: هيه، قالت: ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين؛ فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خرّ مغشياً عليه، فقامت إليه فجعلت تنادي في أذنه: يا أمير المؤمنين، إني رأيتك والله قد نجوت، إني رأيتك والله قد نجوت! قال: وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه. ويحكى: أنّ أويساً القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقاً فيتبعه الناس فيقولون: مجنون مجنون.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إنّ المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طير ذكر جهنم نوم الخائفين.

وقال الحسن البصري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، يا ليتني كنت ذاك الرجل، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة. وروي أنه ما ضحك أربعين سنة؛ قال: وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قد قدّم لتضرب عنقه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، فإذا سكت كأنّ النار تسعر بين عينيه. وعوتب في شدّة حزنه وخوفه فقال: ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع فيّ على بعض ما يكره فمقتني فقال: اذهب فلا غفرت لك؛ فأنا أعمل في غير معتمل.

وعن ابن السماك قال: وعظت يوماً في مجلس، فقام شاب من القوم فقال: يا أبا العباس، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها. قلت: وما هي رحمك الله؟ قال: قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد، فأتيته أعوده فقلت: يا أخي، ما الذي أرى بك؟ فقال: يا أبا العباس، ذلك من قولك؛ لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. قال: ثم مات رحمه الله فرأيته في المنام فقلت: يا أخي، ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة. قلت: بماذا؟ قال: بالكلمة.

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين، ونحن أجدر بالخوف منهم، لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا، وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا، فلا قرب الرحيل ينبهنا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوّفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد ينفعنا.

ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا. وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وشهرنا، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا، والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٦] ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا، فما هذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا، بل نسأله أن يشوّق إلى التوبة سرائر قلوبنا، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا، فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل، إذا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا، فلا علامة للخذلان أعظم من هذا. فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله.

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه. فإنّ القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغني. ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني ـ وكان من خيار العباد ـ أنه رآه على باب بيت المقدس واقفاً كهيئة المحزون من شدّة الوله، ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء، فقال عيسى: لما رأيته هالني منظره، فقلت: أيها الراهب، أوصني بوصية أحفظها عنك، فقال: يا أخي، بماذا أوصيك، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام؛

فهو مذعور القلب وجل، فهو في المخالفة ليله وإن أمن المغترون، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون. ثم ولى وتركني فقلت: لو زدتني شيئاً عسى أن ينفعني؟ فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسره. وقد صدق فإنّ القلب الصافي يحرّكه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ، وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحوناً بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها، وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وإنما هي في صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل، وإلا فوطّن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلاً عن ظاهر بشرتك، والسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الظلال، وتتدكدك من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال؛ ما استقبح دون مبادي إشراقه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال، وهي متلفلفة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال، ثم لا تجتزىء معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال؛ زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل.

أما بعد: فإنّ الدنيا عدوّة لله عزّ وجلّ، بغرورها ضل من ضل، وبمكرها زل من زل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات ورأس القربات. وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها، لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما، ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول:

الشطر الأول من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقر مطلقاً، وبيان خصوص فضيلة الفقراء، وبيان فضيلة الفقير على الغني، وبيان أدب الفقير في فقره، وبيان أدبه في قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغني المحرّم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق بلطفه وكرمه.

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه:

اعلم: أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً، وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً، وإذا فهمت هذا لم تشك في أنّ كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير؛ لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال، ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده، فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاداً له من غيره فهو الغني المطلق، ولا يتصوّر أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحداً، فليس في الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدّوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محَمَّد: ٣٨] هذا معنى الفقر مطلقاً، ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر، لأنّ حاجاته لا حصر لها. ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط، فنقول: كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقه، ثم يتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر. ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها:

الحالة الأولى: وهي العليا؛ أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشغله وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفواً عفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً؛ إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

الرابعة: أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطرّاً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرّاً كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة، فهذه خمسة أحوال: أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرّقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرّقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره؛ إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد، فإنّ من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه، فهو

إذن فقير من وجه، وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضاً، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه. وليس فاقداً له ليحتاج إلى الدخول في يده، فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب. وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنياً بل مستغنياً؛ ليبقى الغني اسماً لمن له الغنى المطلق عن كل شيء. وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجوداً أو عدماً فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه، فإنّ القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حرّ، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق، والقلوب متقلبة بين الرق والحرّية في أوقات متقاربة؛ لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلا مجازاً.

واعلم: أن الزهد درجة هي كمال الأبرار، وصاحب هذه الحالة من المقرّبين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصاناً؛ إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى؛ إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجاباً، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوباً عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى، والمشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه. فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص، ولكن أحدهما أخف من الآخر، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضاً وحباً، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة. فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب؛ إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود؛ فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله، فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها، فهما سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها، وليس محموداً بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها، فلا ينبغي أن تظنّ أن بغض الدنيا مقصود في عينه، بل الدنيا عائق عن الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج، فإذن: قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو

كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه، فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة، وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة، ولا أبخل به على أحد، فهكذا ينبغي أن يكون المال؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حياً كما يأتيك قدر حاجتك من الماء، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدوّ يوسوس لي أن اللص قد أخذها، قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية؛ قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها، فبين أنّ كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان.

فإن قلت: فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار؟ فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففرّوا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها[1]؛ إذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر، وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات، وهذا حال الضعفاء، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال، وهذا حكم جميع الخلق، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء، وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا، كما يفرّ الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء، فقد عرفت إذن أن المراتب ست، وأعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص. وأما المضطرّ فيتصوّر في حقه أيضاً الزهد والرضى والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال، واسم الفقير يطلق على هذه

---

(١) حديث: إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف، وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقاً مجزوماً به من حديث أنس: أتي النبيّ ﷺ بمال من البحرين وكان أكثر مال أتي به، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فقلما كان يرى أحداً إلا أعطاه. ووصله عمر بن محمد البحيري في صحيحه من هذا الوجه. وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف: قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه. . . الحديث، ولهما من حديث جابر: لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثاً، فلم يقدم حتى توفي رسول الله ﷺ فأمر أبو بكر منادياً فنادى: من كان له على رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا، فقلت: إن النبيّ ﷺ وعدني، فحثا لي ثلاثاً.

الخمسة. أما تسمية المستغني فقيراً فلا وجه لها بهذا المعنى، بل إن سمي فقيراً فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّ بها؛ فإنه أحق باسم العبد من الغافلين. وإن كان اسم العبد عاماً للخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير، واسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنَ الفَقْرِ**»[١]، وقوله عليه السلام: «**كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً**»[٢]، لا يناقض قوله: «**أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً**»[٣]، إذ فقر المضطرّ هو الذي استعاذ منه، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه ﷺ وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء.

بيان فضيلة الفقر مطلقاً:

أما من الآيات: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحَشر: ٨] الآية. وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣] ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وأما الأخبار في مدح الفقر: فأكثر من أن تحصى: روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟**» فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: «**نعم الرجل هذا وليس به**» قالوا: فمن خير الناس يا رسول الله؟ قال: «**فَقِيرٌ يُعْطِي جُهْدَهُ**»[٤]، وقال ﷺ لبلال: «**الْقَ اللَّهَ فَقِيراً وَلا تَلْقَهُ غَنِياً**»[٥] وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الفَقِيرَ المُتَعَفِّفَ أَبَا العِيَالِ**»[٦]، وفي الخبر المشهور: «**يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ**»[٧]، وفي حديث آخر «**بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً**»[٨]، أي أربعين سنة، فيكون المراد به تقدير تقدّم الفقير الحريص على الغني

---

(١) حديث: «**أعوذ بك من الفقر**». تقدم في الأذكار والدعوات.

(٢) حديث: «**كاد الفقر أن يكون كفراً**». تقدم في ذم الحسد.

(٣) حديث: «**اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً**» رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

(٤) حديث: ابن عمر أنه ﷺ قال لأصحابه: «**أي الناس خير؟**» فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: «**نعم الرجل هذا وليس به**» قالوا: فمن خير الناس؟ قال: «**فقير يعطي جهده**»، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصراً على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له.

(٥) حديث: قال لبلال: «**الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً**» أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال. ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ: «**مت فقيراً ولا تمت غنياً**» وكلاهما ضعيف.

(٦) حديث: «**إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال**» أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم.

(٧) حديث: «**يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام**» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح، وقد تقدم.

(٨) حديث: دخولهم قبلهم بأربعين خريفاً: أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو، إلا أنه قال: «**فقراء المهاجرين**»، والترمذي من حديث جابر وأنس.

الحريص، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدّم الفقير الزاهد على الغني الراغب، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرّفك بالضرورة تفاوتاً بين الفقراء في درجاتهم، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد؛ إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة، ولا تظنن أن تقدير رسول الله ﷺ يجري على لسانه جزافاً وبالاتفاق، بل لا يستنطق ﷺ إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وهذا كقوله ﷺ: «**الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ جُزءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزءاً مِنَ النُّبُوَّةِ**»[1]، فإنه تقدير تحقيق لا محالة، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين، فأما بالتحقيق فلا؛ إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره، وهو يختص بأنواع من الخواص:

أحدها: أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة، لا كما يعلمه غيره بل مخالفاً له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف.

والثاني: أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا؛ وهي القدرة، وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى.

والثالث: أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات.

والرابع: أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام؛ إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين، فلا ندري تحقيقاً أنه الذي أراده رسول الله ﷺ أم لا، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة، واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به، والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله ﷺ على سبيل الاتفاق، وحاشا منصب النبوّة عن ذلك، ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال ﷺ أيضاً: «**خَيرُ هٰذِهِ الأُمَّةِ فُقَراؤُهَا وَأَسْرَعُها تَضَجُّعاً فِي الجَنَّةِ ضُعَفَاؤُهَا**»[2]، وقال ﷺ: «**إنَّ لِي حِرْفَتَينِ اثْنَتَينِ فَمَنْ أحبهما فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي: الفَقْرُ وَالجِهَادُ**»[3]، وروي: أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن الله عزّ

---

(١) حديث: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد، ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ: «**رؤيا المؤمن جزء...**» الحديث. وقد تقدم.

(٢) حديث: «**خير الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجعاً في الجنة ضعفاؤها**». لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «**إن لي حرفتين اثنتين...**» الحديث. وفيه «**الفقر والجهاد**». لم أجد له أصلاً.

وجلّ يقرأ عليك السلام ويقول: «أتحبّ أن أجعل هذه الجبال ذهباً»[1] وتكون معك أينما كنت، فأطرق رسول الله ﷺ ثم قال: **«يا جِبْرِيلُ، إنَّ الدُّنيا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَه»** فقال له جبريل: يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت.

وروي: أن المسيح ﷺ مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه وقال: يا نائم، قم فاذكر الله تعالى، فقال: ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له: فَنَم إذن يا حبيبي.

ومر موسى ﷺ برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة، ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة، فقال: يا رب، عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها.

وعن أبي رافع أنه قال: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال: **«قُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلِفْنِي أَوْ بِعْنِي دَقِيقاً إِلَى هِلالِ رَجَب»** قال: فأتيته فقال: لا والله إلا برهن، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: **«أَمَا واللَّهِ إِنِّي لأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لأَدَّيْتُ إِلَيْهِ، اذْهَبْ بِدِرْعِي هٰذَا إِلَيْهِ فَارْهَنْهُ»، فَلَمَّا خَرَجْتُ نَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ:** ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١]»[2] الآية، وهذه الآية تعزية لرسول الله ﷺ عن الدنيا، وقال ﷺ: **«الفَقْرُ أَزْيَنُ بِالمُؤْمِنِ مِنَ العذَارِ الحَسَنِ عَلَى خَدّ الفَرَس»**[3]، وقال ﷺ: **«مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافىً فِي جِسْمِهِ آمِناً فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قوتُ يَوْمِه؛ فَكَأَنَّمَا حيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»**[4].

وقال كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى، إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين.

وقال عطاء الخراساني: مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتاناً، فقال: بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء، ثم مرَّ بآخر فقال: باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها. فقال النبي ﷺ: يا رب، ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك، فقال الله تعالى للملائكة: اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال: رضيت يا رب.

---

(١) حديث: «أن جبريل نزل فقال: إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً...» الحديث، وفيه: **«إن الدنيا دار من لا دار له...»** الحديث. هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة: **«عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً»** الحديث. وقال: حسن. ولأحمد من حديث عائشة: **«الدنيا دار من لا دار له...»** الحديث. وقد تقدم في ذم الدنيا.

(٢) حديث أبي رافع: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر... الحديث في نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١]. أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

(٣) حديث: **«الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس»**. رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف، والمعروف أنه من كلام عبدالرحمن بن زياد بن أنعم، رواه ابن عدي في الكامل هكذا.

(٤) حديث: **«من أصبح منكم معافى في جسمه...»** الحديث. أخرجه الترمذي، وقد تقدم.

وقال نبينا ﷺ: «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ» وفي لفظ آخر: «فَقُلْتُ: أَيْنَ الأَغْنِيَاءُ؟ فَقِيلَ: حَبَسَهُمُ الجَدُّ» وفي حديث آخر: «فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ فَقُلْتُ: مَا شَأْنُهُنَّ؟ فقيل: شَغَلَهُنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ»[1]، وقال ﷺ: «تُحْفَةُ المُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا الفَقْرُ»[2]، وفي الخبر: «آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولاً الجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيهِما السَّلامُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ، وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولاً الجَنَّةَ عَبْدُالرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ لأَجْلِ غِنَاهُ»[3]، وفي حديث آخر: «رَأَيْتُهُ يَدْخُلُ الجَنَّةَ زَحْفاً»[4].

وقال المسيح ﷺ: بشدة يدخل الغني الجنة.

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْداً ابْتَلاهُ، فَإِذا أَحَبَّهُ الحُبَّ البَالِغَ اقْتَنَاهُ» قيلَ: وَمَا اقْتَنَاهُ؟ قالَ: «لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلاً وَلا مَالاً»[5].

وفي الخبر: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته»[6].

وقال موسى عليه السلام: يا رب، من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير؛ فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد، ويمكن أن يراد به الشديد الضر.

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه: إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء، وكان أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له: يا مسكين. ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً يجيئون إليك ولا نجيء، ونجيء إليك ولا يجيئون؛ يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذرّ وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدّة الحر؛ فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتدّ ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم، فأجابهم رسول الله ﷺ أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد؛ فنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] يعني الفقراء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] يعني: الأغنياء ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] يعني: الأغنياء

---

(١) حديث: «اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء...» الحديث. تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره.

(٢) حديث: «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر» رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به، ورواه أبو منصور أيضاً فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جداً.

(٣) حديث: «آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان.» الحديث. تقدم، وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد، وفيه نكارة.

(٤) حديث: «رأيته يعني عبدالرحمن بن عوف دخل الجنة زحفاً». تقدم، وهو ضعيف.

(٥) حديث: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه...» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني.

(٦) حديث: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام...» فذكره بزيادة في أوله. ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] الآية[١].

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش، فشق ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④﴾ [عَبَسَ: ١-٤] يعني: ابن أم مكتوم. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥﴾ [عَبَسَ: ٥،٦][٢] يعني: هذا الشريف.

وعن النبي ﷺ أنه قال: **«يُؤتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيامَةِ فَيَعْتَذِرُ اللَّهُ تَعَالَى إلَيْهِ كَمَا يَعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنيا فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ما زَوَيْتُ الدُّنْيا عَنْكَ لِهَوانِكَ عَلَيَّ وَلٰكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الكَرامَةِ وَالفَضِيلَةِ، اخْرُجْ يا عَبْدِي إِلَى هٰذِهِ الصُّفُوفِ، فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيَّ أَوْ كَسَاكَ فِيَّ يُرِيدُ بِذٰلِكَ وَجْهِي فَخُذْ بِيَدِهِ فَهُوَ لَكَ، وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُم العَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ وَيَنْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ بِهِ فَيأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الجَنَّةَ»**[٣].

وقال عليه السلام: **«أَكْثِرُوا مَعْرِفَةَ الفُقَرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُم الأَيَادِي فَإنَ لَهُمْ دَوْلَةً»** قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: **«إذا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ قِيلَ لَهُم انْظُروا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كِسْرَة أَوْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً أَوْ كَسَاكُمْ ثَوْباً فَخُذُوا بِيَدِهِ ثُمَّ امْضُوا بِهِ إلَى الجَنَّةِ»**[٤]، وقال ﷺ: **«دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةً أَمَامِي فَنَظَرْتُ فَإذا بِلالٌ، وَنَظَرْتُ فِي أَعْلاهَا فَإذا فُقَراءُ أُمَّتِي وَأَوْلادُهُمْ، وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإذا فِيهِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ؛ فَقلْتُ: يا رَبِّ ما شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: أَمَّا النِّسَاءُ فَأَضَرَّ بِهِنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالحَرِيرُ، وَأَمَّا الأَغْنِيَاءُ فَاشْتَغَلُوا بِطُولِ الحِسَابِ، وَتَفَقَّدْتُ أَصْحَابِي فَلَم أَرَ عَبْدَالرَّحْمٰنِ بْنَ عَوْفٍ، ثُمَّ جاءَنِي بَعْدَ ذٰلِكَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا خَلَّفَكَ عَنِّي؟ قَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ المُشَيِّبَاتِ وَظَنَنْتُ أَنّي لا أَرَاكَ، فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كُنْتُ أُحَاسَبُ بِمَالِي»**[٥]. فانظر إلى هذا وعبدالرحمن صاحب

---

(١) حديث: «قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً...» الحديث. في نزوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ㉘﴾ [الكهف: ٢٨]، تقدم من حديث خباب، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا، وهذه الزيادة من حديث سلمان.

(٢) حديث: استئذان ابن أم مكتوم على النبيّ ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾ [عَبَسَ: ١] أخرجه الترمذي من حديث عائشة وقال: غريب قال: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) حديث: **«يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت عنك الدنيا لهوانك عليّ»** الحديث. أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف: **«يقول الله عز وجل يوم القيامة: أدنوا مني أحبائي، فتقول الملائكة: ومن أحباؤك؟ فيقول: فقراء المسلمين، فيدنون منه فيقول: أما إني لم أزو الدنيا منكم لهوان كان بكم عليّ ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم، فتمنوا عليّ ما شئتم اليوم...»** الحديث. دون آخر الحديث، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية، وسيأتي في الحديث الذي بعده.

(٤) حديث: **«أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة...»** الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف: **«اتخذوا عند الفقراء أيادي، فإن لهم دولة يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: سيروا إلى الفقراء، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا»**.

(٥) حديث: **«دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي، فنظرت فإذا بلال، ونظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم...»** الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه، وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر.

السابقة العظيمة مع رسول الله ﷺ، وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة[١]، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: **«إلاّ مَنْ قَالَ بِالمَالِ هٰكَذَا وَهٰكَذَا»**[٢]، ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحدّ.

ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال: **«لَوْ قُسِمَ نُورُ هٰذا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَوَسِعَهُمْ»**[٣].

وقال ﷺ: **«أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟»** قالوا: بلى يا رسول الله قال: **«كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»**[٤].

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: **«يا عِمْرَانُ، إنَّ لَكَ عِنْدَنا مَنْزِلَةً وَجَاهاً، فَهَلْ لَكَ في عِيادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»** قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب وقال: **«السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟»** فقالت: ادخل يا رسول الله. قال: **«أَنا وَمَنْ مَعِي؟»** قالت: ومن معك يا رسول الله؟ قال: **«عِمْرَانُ»** فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحق نبياً ما عليَّ إلا عباءة. قال: **«اصْنَعِي بِها هٰكَذَا وَهٰكَذَا»** وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: **«شدّي على رأسك»** ثم أذنت له فدخل فقال: **«السَّلامُ عَلَيْكُمْ يا ابْنَتَاهُ، كَيْفَ أَصْبَحْتِ؟»** قالت: أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: **«لا تَجْزَعِي يا ابْنَتَاهُ فَوَاللَّهِ ما ذُقْتُ طَعَاماً مُنْذُ ثَلاثٍ، وَإِنِّي لأَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكِ، وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لأَطْعَمَنِي وَلٰكِن آثَرْتُ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا»** ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: **«أَبْشِرِي فَوَاللَّهِ إِنَّكِ لَسيدةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ»** قالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران؟ قال: **«آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالمها، وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالمها، وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالمكِ، إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لا أَذًى فِيها وَلا صَخَبَ وَلا نَصَبَ»** ثم قال لها: **«اقْنَعِي بِابْنِ عَمِّكِ فَوَاللَّهِ لقد زوجتك سيداً في الدنيا وسيداً في الآخرة»**[٥].

وروي عن علي كرم الله وجهه: أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إذا أَبْغَضَ النَّاسُ فُقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُم اللَّهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: فَالْقَحْطُ مِنَ الزَّمَانِ، وَالجَوْرُ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالخِيَانَةُ مِن ولاةِ الأَحْكَامِ، وَالشَّوْكَة مِنَ الأَعْدَاءِ»**[٦].

---

(١) حديث: إن عبدالرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة. رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد، قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) حديث: **«إلا من قال بالمال هكذا وهكذا»** متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم.

(٣) حديث: دخل على رجل فقير ولم ير له شيئاً فقال: **«لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم»** لم أجده.

(٤) حديث: **«ألا أخبركم عن ملوك الجنة. . .»** الحديث. متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصراً ولم يقل: **«ملوك»** وقد تقدم، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ: **«ألا أخبركم عن ملوك الجنة. . .»** الحديث. دون قوله **«أغبر أشعث»**.

(٥) حديث عمران بن حصين. كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: **«يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجاهاً، فهل لك في عيادة فاطمة؟»** الحديث. تقدم.

(٦) حديث: **«إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا. . .»** الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جهالة، وهو منكر.

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشدّ حبساً أو قال: أشدّ حساباً من ذي الدرهم.

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزيناً كئيباً فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشدّ من ذلك، ثم قال: أريني درعك الخلق فشقه وجعله صرراً وفرقه، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غِمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ**»(١).

وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له: أيها تريد.

وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخطَّ، لو كنت غنياً لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم؛ لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً.

وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر.

[وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرنّ أحداً لخلقان ثيابه فإن ربك وربه واحد].

وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وفي الأخبار عن الكتب السالفة: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صباً.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرّق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما، وإنّ درعها لمرقوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه! وكانت صائمة، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال: «**إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَعَلَيْكِ بِعَيْشِ الفُقَرَاءِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلا تَنْزَعِي دِرْعَكِ حَتَّى تَرْقَعِيه**»(٢).

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً. رضي الله عنه.

---

(١) حديث سعيد بن عامر: «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام...**» الحديث. وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيباً حزيناً وفرقها، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال: «**تسعين عاماً**» وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه، وفي رواية له: «**بأربعين سنة**» وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه، وقد تقدم.

(٢) حديث: قال لعائشة: «**إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء...**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم وصححه نحوه من حديثها، وقد تقدم.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين:

قال رسول الله ﷺ: «**طُوبى لِمَنْ هُدِيَ إلَى الإِسْلاَم وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافاً وقَنِعَ بِهِ**»[1] وقال ﷺ: «**يا مَعْشَرَ الفُقَرَاءِ أعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تظفرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وإلاَّ فَلاَ**»[2]، فالأوّل القانع وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه أنّ الحريص لا ثواب له على فقره، ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أنّ له ثواباً كما سيأتي تحقيقه، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، وربّ راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ لِكُل شَيْءٍ مِفْتَاحاً وَمِفْتَاحُ الجَنَّةِ حُبُّ المَسَاكِينِ وَالفُقَرَاءِ لِصَبْرِهِمْ؛ هُمْ جُلَسَاءُ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ**»[3].

وروي عن علي كرم الله وجهه: عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَحَبُّ العِبَادِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى الفَقِيرُ الْقَانِعُ برزْقِهِ الرَّاضِي عَنِ اللَّهِ تَعَالَى**»[4]. وقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً**»[5]. وقال: «**ما مِنْ أَحَدٍ غَنِيٍّ ولا فقير إلاَّ وَدَّ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّه كَانَ أُوتِيَ قُوتاً فِي الدُّنْيا**»[6]، وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون. وقال ﷺ: «**لاَ أَحَدَ أَفْضَلُ مِنَ الفَقِير إذَا كَانَ رَاضِياً**»[7]، وقال ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي؟ فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: وَمَنْ هُمْ يَا رَبَّنا؟ فَيَقُولُ: فُقَرَاءُ المُسْلِمِينَ القَانِعُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدَرِي، أَدْخِلُوهُمُ الجَنَّةَ. فَيَدْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَالنَّاسُ فِي الحِسَاب يَتَرَدَّدُونَ**»[8]، فهذا في القانع والراضي. وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الآثار: في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أنّ القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر واليأس غنى، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم.

---

(١) حديث: «**طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به**» رواه مسلم، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم...**» الحديث. رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف جداً، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث.

(٣) حديث: «**إن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين...**» الحديث. رواه الدارقطني في غرائب مالك، وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر.

(٤) حديث: «**وأحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله**» لم أجده بهذا اللفظ، وتقدم عند ابن ماجه حديث: «**إن الله يحب الفقير المتعفف**».

(٥) حديث: «**اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بلفظ: «**قوتاً**»، وقد تقدم.

(٦) حديث: «**ما من أحد غني ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا**» أخرجه ابن ماجه من حديث أنس، وقد تقدم.

(٧) حديث: «**لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً**»، لم أجده بهذا اللفظ.

(٨) حديث: «**يقول الله يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين..**» الحديث. رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش؛ يا ابن آدم: قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان؟ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم؛ إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل، أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم. قال: فشبعت؟ قال: نعم. قال: ثم نمت طيباً؟ قال: نعم. فقال إبراهيم في نفسه، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

ومرَّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبدالله، أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى. قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدّقوه، ثم قرأ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

وكان أبو ذرّ رضي الله عنه يوماً جالساً في الناس فأتته امرأته فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة، فقال: يا هذه، إن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلا كل مخف، فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له.

وقيل لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس.

وروي: أنّ الله عزّ وجلّ قال في بعض الكتب السالفة المنزلة: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك.

وقد قيل في القناعة:

اضرعْ إلى الله لا تضرع إلى الناس ... واقنعْ بيأسٍ فإن العزَّ في الياسِ
واستغنِ عن كل ذي قربى وذي رحمٍ ... إنَّ الغني من استغنى عن النَّاسِ

وقد قيل في هذا المعنى أيضاً:

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه ... مقدراً أي باب منه يغلقُه
مفكراً كيف تأتيه منيته ... أغادياً أم بها يسري فتطرقُه
جمعت مالاً فقل لي: هل جمعت له ... يا جامعَ المالِ أياماً تفرّقُه
المال عندك مخزونٌ لوارثهِ ... ما المالُ مالك إلا يوم تنفقُه

أرفه ببال فتى يغدو على ثقة أنّ الذي قسم الأرزاق يرزقُه
فالعِرْضُ منه مصون ما يدنسه والوجهُ منه جديدٌ ليس يخلقه
إن القناعةَ من يحلل بساحتها لم يبقَ في ظلها هَمٌّ يؤرِّقُه

بيان فضيلة الفقر على الغنى:

اعلم: أنّ الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيد والخوّاص والأكثرون إلى تفضيل الفقر. وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر. ويقال: إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته محنة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر، وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأنّ ذلك لا يمكن إلا بتفصيل.

فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقاً لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر، ولا بدّ فيه من تفصيل فنقول: إنما يتصوّر الشك في مقامين.

أحدهما: فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على إمساك المال.

والثاني: فقير حريص مع غني حريص؛ إذ لا يخفى أنّ الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص، أما الأوّل فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال، والغني متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه، فأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصورّ أن يفضل على الفقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أنّ الفقراء شكوا إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال عليه السلام: **«ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»**(١).

وقد استشهد ابن عطاء أيضاً لما سئل عن ذلك فقال: الغني أفضل لأنه وصف الحق، أما دليله الأوّل ففيه نظر؛ لأنّ الخبر قد ورد مفصلاً تفصيلاً يدل على خلاف ذلك: وهو أنّ ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني، وأنّ فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث الفقراء رسولاً إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك؛ فقال: **«مَرْحَباً بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أُحِبُّهُمْ»** قال: قالوا: يا رسول الله، إنّ الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم؛ فقال النبي ﷺ: **«بَلِّغْ عَنِّي الفُقَرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلاثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلأَغْنِيَاءِ. أَما خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ: فَإِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الأَرْضِ إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ، لا يَدْخُلُها إلاّ نَبِيٌّ فَقِيرٌ، أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ، أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ، وَالثَّانِيَةُ: يَدْخُلُ الفُقَرَاءُ الجَنَّةَ قَبْلَ**

---

(١) حديث: شكا الفقراء إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات... الحديث. وفي آخر: فقال: **«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»** متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه.

الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالثَّالِثَةُ: إِذَا قَالَ الغَنِيُّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَقَالَ الفَقِيرُ مِثْلَ ذٰلِكَ لَمْ يَلْحَقِ الغَنِيّ بِالفَقِيرِ وَلَوْ أَنْفَقَ فِيهَا عَشَرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ، وَكَذٰلِكَ أَعْمَالُ البِرِّ كُلُّهَا» فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ فقالوا: رضينا رضينا[1]، فهذا يدل على أنّ قوله: **«ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»** أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم.

وأما قوله: إنّ الغني وصف الحق، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال: أترى أنّ الله تعالى غني بالأسباب والأعراض، فانقطع ولم ينطق، وأجاب آخرون فقالوا: إنّ التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، ثم قالوا: بل هذا يدل على أنّ الفقر أفضل؛ لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا ﷺ: **«الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ»**[2]. وقال سهل: حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها؛ إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر، فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى، والجهل والغفلة وصف العبد، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر؛ وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر مطلوباً لعينه لكن لأنّ فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه، وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله عزّ وجلّ مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما الغنى قد يكون من الشواغل، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا؛ إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها. فإذن: إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد؛ إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده؛ إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد؛ إذ فتنة السراء أشدّ من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا

---

(١) حديث زيد بن أسلم عن أنس: بعث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولاً: أن الأغنياء ذهبوا بالجنة، يحجون ولا نقدر عليه... الحديث، وفيه: **«بلغ عني الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء...»** الحديث. لم أجده هكذا بهذا السياق، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل الله به عليهم أغنياءهم، فقال: **«يا معشر الفقراء ألا أبشركم إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام»** وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: **«قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»**. تقدم في العلم وغيره.

بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادراً.

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر ـ والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر ـ زجر الشرع عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه، حتى قال المسيح عليه السلام: لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم.

وفي الخبر: «**إنّ لكل أمة عجلاً وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم**»[1]، وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضاً، واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصوّر للأنبياء عليهم السلام والأولياء، ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة؛ إذ كان النبي ﷺ يقول للدنيا: «**إِلَيْكِ عَنِّي**»[2]. إذ كانت تتمثل له بزينتها. وكان علي كرم الله وجهه يقول: يا صفراء، غرّي غيري، ويا بيضاء غري غيري، وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادىء الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه، وذلك هو الغنى المطلق؛ إذ قال عليه الصلاة والسلام: «**لَيْسَ الغِنَى مِنْ كَثْرَةِ العَرَضِ إنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»[3]. وإذا كان ذلك بعيداً فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدّقوا به وصرفوه إلى الخيرات، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أُنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة، وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله؛ إذ لا يتصوّر قلب فارغ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان، فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها، فإذن: فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور، فإنّ الغني ربما يظنّ أنه منقطع القلب عن المال، ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فليجرّب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه، فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه، فتحقق إذن أنه كان مغروراً، وأنّ العشق كان مستكناً في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء. وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل، لأنّ علاقة الفقير وأنسه بالدنيا

---

(١) حديث: «**لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم**» رواه أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبدالرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة.

(٢) حديث: كان يقول للدنيا: «**إليك عني...**» الحديث. رواه الحاكم مع اختلاف. وقد تقدم.

(٣) حديث: «**ليس الغنى عن كثرة العرض...**» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإنّ حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول، ولذلك قال بعض السلف: مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غني ألف عام.

وعن الضحاك قال: من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهيه فصبر واحتسب كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى.

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله: ادع الله لي فقد أضرّ بي العيال، فقال: إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت، فإنّ دعاءك أفضل من دعائي. وكان يقول: مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء. وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء. وقد قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف. وإذا كان مثل الصدّيق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أنّ فقد المال أصلح من وجوده هذا، مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالاً وينفق طيباً، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره، ومن نوقش الحساب فقد عذب، ولهذا تأخر عبدالرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولاً بالحساب كما رآه رسول الله ﷺ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحب أنّ لي حانوتاً على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين ديناراً وأتصدّق بها في سبيل الله تعالى. قيل: وما تكره؟ قال: سوء الحساب، ولذلك قال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء. اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب. وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح، ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوي عنده كلاهما، فأما إذا كان غنياً بوجوده ومفتقراً إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى؛ لأن الله تعالى غني بذاته لا بما يتصوّر زواله، والمال يتصوّر زواله بأن يسرق، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنياً بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال، وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له: أي يكون له من كل واحد نصيب، وأما التكبر فلا يليق بالعبد، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به. نعم، قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر، والمطيع أكبر من العاصي، والعالم أكبر من الجاهل، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات، وأقرب إلى الله تعالى منها. فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة

له ولائقة به وفضيلة في حقه، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة، وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر؛ إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر، فلم يكن ذلك لائقاً به لقصور علمه عن معرفة العاقبة. ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كمالاً في حقه لأنه في صفات الله تعالى، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصاناً في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصوّر في العبد من صفات الله تعالى، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء، فإذن: لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة، أما الغني بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلاً. فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر.

* * *

المقام الثاني: في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص

ولنفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده، فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأي حالتيه أفضل؟ فنقول: ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بدّ منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل، لأنّ الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخوله بشغل، والمكفي هو القادر، ولذلك قال ﷺ: **«اللَّهُمَّ اجْعَل قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كُفَافاً»** وقال: **«كاد الفقر أن يكون كفراً»** أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بدّ منه، وإن كان المجلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح؛ لأنهما استويا في الحرص وحب المال، واستويا في أنّ كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرّض لمعصية بسبب الفقر والغنى، ولكن افترقا في أنّ الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغي الخلاص منه، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشدّ ركوناً إلى الدنيا، فحاله أشدّ لا محالة؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا، وقد قال ﷺ: **«إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي روعِي: أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ»**(١)، وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه. وكل من فارق محبوباً فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقد أنسه، وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصاً عليها، فإذن: قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين: أحدهما: غني مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم، فيكون الوجود مزيداً له؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم؛ والثاني: الفقر عن مقدار الضرورة

---

(١) حديث: **«إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه»**. تقدم.

فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوّته وحياته على الكفر والمعاصي، ولو مات جوعاً لكانت معاصيه أقل، فالأصلح له أن يموت جوعاً ولا يجد ما يضطرّ إليه أيضاً. فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر. ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه، وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بُعدهما عن الله تعالى بقدر قوّة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده؛ والعلم عند الله تعالى فيه.

بيان آداب الفقير في فقره:

اعلم: أنّ للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها.

فأما أدب باطنه: فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ـ وإن كان كارهاً للفقر ـ كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجام ولا كارهاً للحجام، بل ربما يتقلد منه منة، فهذا أقل درجاته وهو واجب، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر، وهو معنى قوله عليه السلام: «**يا مَعْشَرَ الفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلاَّ فَلَا**» وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعلمه بغوائل الغنى، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى، واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة، ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف. وقد قال علي كرّم الله وجهه: إنّ لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة: أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته إذا كان عقوبة: أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء، وهذا يدل أنّ كل فقير فليس بمحمود، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر لعلمه بثمرته؛ إذ قيل: ما أُعطي عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له: خذه على ثلاث أثلاث: شغل، وهم، وطول حساب.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث: «**إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الفَقِيرَ المُتَعَفِّفَ أَبا العِيالِ**» وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣] وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة. وقال بعضهم: ستر الفقر من كنوز البر.

وأما في أعماله فأدبه: أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، بل يتكبر عليه. قال علي كرّم الله وجهه: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عزّ وجلّ، فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع. قال الثوري رحمه الله: إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. وقال بعض العارفين: إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضل. وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء.

وأما أدبه في أفعاله: فألاّ يفتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإنّ ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غني. روى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**دِرْهَمٌ مِنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ**». قيل: وكيف ذلك

يا رسول الله؟ قال: «أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرَضِ مَالِهِ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَم فَتَصَدَّقَ بِهَا، وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَماً مِنْ دِرْهَمَيْنِ لا يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ، فَصَارَ صَاحِبُ الدِّرْهَم أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ المائَةِ أَلْف»[1]، وينبغي ألاّ يدّخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات.

إحداها: أن لا يدّخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصدّيقين.

والثانية: أن يدّخر لأربعين يوماً فإنّ ما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوماً. وهذه درجة المتقين.

والثالثة: أن يدّخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته، وغنى الخصوص في أربعين يوماً، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة، وقد قسم النبي ﷺ نساءه على مثل هذه الأقسام. فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل، وبعضهن قوت أربعين يوماً، وبعضهن يوماً وليلة وهو قسم عائشة وحفصة.

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال:

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال: فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب.

وأما غرض المعطي: فلا يخلو: إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرّد، وإما ممزوجاً ببقية الأغراض.

أما الأوّل: ـ وهو الهدية ـ فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ[2]، ولكن ينبغي ألاّ يكون فيها منة، فإن كان فيها منة فالأولى تركها، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض؛ فقد أهدي إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش، فقبل السمن والأقط ورد الكبش[3]، وكان ﷺ يقبل من بعض الناس ويرد على بعض[4]، وقال: «لَقَدْ هَمَمْتُ ألاّ أتّهِبَ إلاّ مِنْ قُرَشِيّ أَوْ ثَقَفِيّ أَوْ أَنْصَارِيّ أَوْ دَوْسِيّ»[5]، وفعل هذا جماعة من التابعين. وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسون

---

(١) حديث زيد بن أسلم: «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف» قيل: وكيف يا رسول الله؟ قال: «أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف. . .» الحديث. أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً، وقد تقدم في الزكاة، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلاً.

(٢) حديث: أن قبول الهدية سنة: تقدم أنه ﷺ كان يقبل الهدية.

(٣) حديث: أهدي إلى النبيّ ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش. أخرجه أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة: وأهديت إليه كبشين وشيئاً من سمن وأقط، فقال النبيّ ﷺ: «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر» وإسناده جيد. وقال وكيع: مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه.

(٤) حديث: كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض، رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة: «وايم الله لا أقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجرياً. . .» الحديث. فيه محمد بن إسحاق ورواه بالعنعنة.

(٥) حديث: «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: روي من غير وجه عن أبي هريرة، قلت: ورجاله ثقات.

درهماً فقال: حدّثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِن غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّما يَرُدُّهُ عَلَى اللَّهِ»**(١)، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرها. وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً، ولكن حمل إليه رجل كيساً ورزمة من رقيق ثياب خراسان، فرد ذلك وقال: من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة وليس له خلاق. وهذا يدل على أنّ أمر العالم والواعظ أشدّ في قبول العطاء. وقد كان الحسن يقبل من أصحابه. وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول: اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وأمارة هذا: أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين. وقال بشر: ما سألت أحداً قط شيئاً إلا سريا السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا، فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب. وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال: أفرّقه على الفقراء، فقال: ما أريد هذا. قال: ومتى أعيش حتى آكل هذا؟ قال: ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلاوات والطيبات، فقبل ذلك منه، فقال الخراساني: ما أجد في بغداد أمنّ علي منك، فقال الجنيد: ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك.

الثاني: أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارفاً لمعصية في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرّب إلى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه، كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن، فإنّ أخذه حرام محض لا شبهة فيه.

الثالث: أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله؛ إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد. وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت. وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال: إنما أرد صلتهم إشفاقاً عليهم ونصحاً لهم؛ لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ: فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بدّ منه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ، قال النبي ﷺ: **«ما المُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الآخِذِ إذا كَانَ مُحْتَاجاً»**(٢)، وقال ﷺ: **«مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ**

---

(١) حديث عطاء مرسلاً: **«من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فإنما يرد على الله عز وجل»** لم أجده مرسلاً هكذا، ولأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني: **«من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه»** وأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة: **«من آتاه الله من هذا المال شيئاً من غير أن يسأله فليقبله»** وفي الصحيحين من حديث عمر: **«ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه...»** الحديث.

(٢) حديث: **«ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً»** رواه الطبراني من حديث ابن عمر، وقد تقدم في الزكاة.

مِنْ هٰذا المَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ»[1]، وفي لفظ آخر: «**فلا يرده**». وقال بعض العلماء: من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط. وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئاً فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد فإنها أشدّ من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد عليَّ ما قلت! فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلاّ لأنّ عندي قوت شهر، فاحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ. وقد قال بعض العلماء: يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره، فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالباً طريق الآخرة، فإنّ ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم له مقامان:

أحدهما: أن يأخذ في العلانية ويرد في السر، أو يأخذ في العلانية ويفرّق في السر، وهذا مقام الصديقين، وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة.

والثاني: أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية. وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه. وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله. فإنما كان لاستغنائه عنه؛ إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره؛ فإنّ في ذلك آفات وأخطاراً، والورع يكون حذراً من مظانّ الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه. وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي: أنا جائع كما ترى عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا؛ فحملتها إليه، فنظر إليها ثُم أخذ منها خمسة دراهم وقال: أربعة ثمن مئزرين، ودرهم أنفقه ثلاثاً فلا حاجة بي إلى الباقي فرده. قال: فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان، فهجس في نفسي منه شيء، فالتفت إليَّ فأخذ بيدي، فأطافني معه أسبوعاً كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين؛ منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس، فقال: هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأنّ هذه أثقال وفتنة، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة، والمقصود من هذا: إن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقد قال ﷺ: «**لا حَقَّ لابْنِ آدَمَ إلاَّ في ثَلاثٍ: طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ، فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ**»[2]،

---

(١) حديث: «**من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه**» وفي لفظ آخر: «**فلا يرده**»، تقدما قبل هذا بحديث.

(٢) حديث: «**لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب**» أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال: «**وجلف الخبز والماء**» بدل قوله: «**طعام يقيم صلبه**» وقال: صحيح.

فإذن: أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب، وإن عصيت الله فأنت متعرّض للعقاب.

ومن الاختبار أيضاً: أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرّباً إلى الله تعالى وكسراً لصلة النفس فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن بها قوّة عقلك، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها، فردّ ذلك مهم وهو الزهد، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصدّيقون: وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدّخره، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك، وقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك، ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظنّ بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة، فإن رزقه الله من حلال قضاه، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد، بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] قيل معناه: ليبع أحد ثوبيه. وقيل معناه: فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله. وقال بعضهم: إن لله تعالى عباداً ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف: الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقيل: من هؤلاء؟ فقال: أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى، وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله تعالى، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى، فإذن: مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فليأخذه، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي؛ لأنّ المعطي واسطة قد سخر للعطاء، وهو مضطرّ إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات. وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقاً في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة، فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول: من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدّمته فطعامي عليه حرام، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شاباً منهم كان دونهم في الدرجة، فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال: أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم. وقال موسى عليه السلام: يا رب، جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً ويعشيني هذا ليلة! فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه.

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة؛ وآداب الفقير المضطر فيه:

اعلم: أنه قد وردت مناهٍ كثيرة في السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة؛ إذ

قال ﷺ: «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ»(١)، وفي الحديث: «رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحَرَّقٍ»(٢)، ولو كان السؤال حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المتعدّي على عدوانه والإعطاء إعانة، فالكاشف للغطاء فيه: أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بدّ فهو حرام، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة.

الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى؛ إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة.

الثاني: أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤول.

الثالث: أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله ﷺ: «مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الفَوَاحِشِ ما أُحِلَّ مِنَ الفَوَاحِشِ غَيْرُهَا»(٣)، فانظر كيف سماها فاحشة، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال ﷺ: «مَنْ سَأَلَ عَنْ غِنىً فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ»(٤)، «وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ يَتَقَعْقَعُ وَلَيسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ» وفي لفظ آخر: «كانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشاً وَكُدُوحاً فِي وَجْهِهِ»(٥)، وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد. وبايع رسول الله ﷺ قوماً على الإسلام فاشترط

---

(١) حديث: «للسائل حق وإن جاء على فرس» رواه أبو داود من حديث الحسين بن علي، ومن حديث علي، وفي الأول يعلى بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وفي الثاني شيخ لم يسم، وسكت عليهما أبو داود، وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال: أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها: «للسائل حق...» الحديث. فإنه لا يصح عن أحمد، فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده.

(٢) حديث: «ردوا السائل ولو بظلف محرق» رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي واللفظ له من حديث أم بجيد. وقال ابن عبدالبر: حديث مضطرب.

(٣) حديث: «مسألة الناس من الفواحش، وما أحل الله من الفواحش غيرها». لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «من سأل عن غنى فإنه يستكثر من جمر جهنم...» الحديث. رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية مقتصراً على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة، ولمسلم من حديث أبي هريرة: «من يسأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً...» الحديث. وللبزار والطبراني من حديث مسعود بن عمر: «ولا يزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه» وفي إسناده لين، وللشيخين من حديث ابن عمر: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم» وإسناده جيد.

(٥) حديث: «من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه» رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود، وتقدم في الزكاة.

عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية: «**ولا تسألوا الناس شيئاً**»[(١)]، وكان ﷺ يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول: «**مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ فَهُوَ خَيْرٌ**» قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «**وَمِنِّي**»[(٣)]. وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه: عشِّ الرجل، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال: ألم أقل لك عش الرجل؟ قال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال: لست سائلاً ولكن تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة، وقال: لا تعد. ولولا أنّ سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخلاته، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول: أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده؟ أفترى أنه لم يعلم أنّ المصادرة بالمال غير جائزة، أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضباً في معصية الله وحاشاه، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله، وهيهات فإن ذلك أيضاً معصية، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنياً عن السؤال، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج، وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه، مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه؛ إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم، فبقي مالاً لا مالك له، فوجب صرفه إلى المصالح، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذباً كأخذ العلوي بقوله: إني علوي وهو كاذب. فإنه لا يملك ما يأخذه، كأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه ـ وقد ذكرنا في مواضع: أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم، ويجب عليهم الرد إلى مالكه ـ فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء، وقد قرّرناه في مواضع، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر.

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة، فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطراً إليه، أو محتاجاً إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة. أو مستغنى عنه؛ فهذه أربعة أحوال.

أما المضطرّ إليه: فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً، والمسؤول

---

(١) حديث: بايع قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية: «**ولا تسألوا الناس شيئاً**». أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي.

(٢) حديث: «**من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا**» أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه، وباقيهم ثقات.

(٣) حديث: «**استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير...**» الحديث. أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس: «**استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك**»، وإسناده صحيح، وله في حديث: «**فتعففوا ولو بحزم الحطب**» وفيه من لم يسم، وليس فيه: «**وما قل من السؤال...**» الخ.

منه بكونه راضياً في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة.

وأما المستغني: فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله وأمثاله، فسؤاله حرام قطعاً، وهذان طرفان واضحان.

وأما المحتاج حاجة مهمة: فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف، وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حدّ الضرورة، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة، فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضاً حاجة محققة، ولكن الصبر عنه أولى، وهو بالسؤال تارك للأولى، ولا يسمى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال وقال: ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أطيقه ولكن يشق عليّ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى.

وأما الحاجة الخفيفة: فمثل سؤاله قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسؤول فهو حرام، لأنّ مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة.

فإن قلت: فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ فاعلم: أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج، ولكن يقول: أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس، فيخرج به عن حدّ الشكوى، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله، أو الرجل السخي الذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك، فإنّ الذل لازم للمنة لا محالة. وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصاً بالسؤال بعينه، بل يلقي الكلام عرضاً بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة، وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء، فإنه ربما يبذل كرهاً خوفاً من الملامة، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة، وأما إذا كان يسأل شخصاً معيناً فينبغي ألاّ يصرح بل يعرض تعريضاً يبقى له سبيلاً إلى التغافل إن أراد، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذٍ به، وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه، فإنّ الحياء من السائل يؤذي كما أنّ الرياء مع غير السائل يؤذي.

فإن قلت: فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة؟ فأقول: ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة؛ إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام، وضرب الباطن أشدّ نكاية في قلوب العقلاء، ولا يجوز أن يقال: هو في

الظاهر قد رضي به، وقد قال ﷺ: «**إِنَّمَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ**»(١)، فإنّ هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات؟ إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال، فاضطرّوا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن الضرورة دعت إليه، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى، والحاكم فيه أحكم الحاكمين، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك، فإنّ المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة، كما أنّ بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذاً: ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه، فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن عهدته، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى، وهو عاص بالتصرف فيه بالسؤال الذي حصل به الأذى.

فإن قلت: فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه، فكيف السبيل إلى الخلاص منه، فربما يظن السائل أنه راضٍ ولا يكون هو في الباطن راضياً؟ فأقول: لهذا ترك المتقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً، فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السري رحمة الله عليهما، وقال: لأني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب، وإنما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا، لأنّ الأذى إنما يحل بضرورة؛ وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص، ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة، فكان الامتناع طريق الورعين، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه، ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضاً ويرد بعضاً، كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأقط، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة، ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو طلباً للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين:

أحدهما: الضرورة؛ فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة: سليمان، وموسى، والخضر عليهم السلام. ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم.

والثاني: السؤال من الأصدقاء والإخوان؛ فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان، لأنّ أرباب القلوب علموا أنّ المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال، وحدّ إباحة السؤال: أن تعلم أنّ المسؤول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك، فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن، وحالة لا يشك في الكراهة، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق، وفي الثانية سحت، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وإدراك ذلك

---

(١) حديث: «**إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر**»، لم أجد له أصلاً، وكذا قال المزي لما سئل عنه.

بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته، فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله ﷺ: **«إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ»**[(١)]، وقد أوتي جوامع الكلم، لأنّ من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أيدي الناس، وإن أعطي بغير سؤال فإنما يعطى بدينه، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراماً، وإن أعطي بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل؟ وأين من يقتصر في السؤال على حدّ الضرورة، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أنّ جميع ما يأكله أو أكثره سحت، وأنّ الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو مورّثك، فإذن: بعيدٌ أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس. فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده، فإنه على ما يشاء قدير.

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال:

اعلم: أن قوله ﷺ: **«مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»** صريح في التحريم، ولكن حدّ الغنى مشكل وتقديره عسير، وليس إلينا وضع المقادير، بل يستدرك ذلك بالتوقيف، وقد ورد في الحديث: **«اسْتَغْنُوا بِغِنَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ غَيْرِهِ»** قالوا: وما هو؟ قال: **«غَدَاءُ يَوْمٍ وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ»**[(٢)]، وفي حديث آخر: **«مَنْ سَأَلَ وَلَهُ خَمْسُونَ دِرْهَماً أَوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافاً»**[(٣)]، وورد في لفظ آخر: **«أَرْبَعُونَ دِرْهَماً»** ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة، فإنّ الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً والتقدير ممتنع، وغاية الممكن فيه تقريب، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين، فنقول: قال رسول الله ﷺ: **«لا حَقَّ لابْنِ آدَمَ إلاّ فِي ثَلاثٍ: طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي بِهِ عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ»**، فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات، **فأما الأجناس**: فهي هذه الثلاث، ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي، وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضاً. **وأما المقادير**: فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوي الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس، وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه، وليقس على هذا أثاث البيت جميعاً، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد من النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة. وأما الطعام: فقدره في اليوم مدّ وهو ما قدّره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير. والأدم على الدوام فضلة، وقطعه بالكلية

---

(١) حديث: **«إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه»**، تقدم.

(٢) حديث: **«استغنوا بغنى الله»** قالوا: وما هو؟ قال: **«غداء يوم وعشاء ليلة»**، تقدم في الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية قالوا: ما يغنيه؟ قال: **«ما يغديه أو يعشيه»** ولأحمد من حديث علي بإسناد حسن: قالوا: وما ظهر غنى؟ قال: **«عشاء ليلته»** وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث: **«من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافاً»** وفي لفظ آخر: **«أربعون درهماً»**، تقدما في الزكاة.

إضرار، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة. وأما المسكن: فأقله ما يجزىء من حيث المقدار وذلك من غير زينة، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى، وأما بالإضافة إلى الأوقات: فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يسكنه فلا شك فيه، فأما سؤاله للمستقبل: فهذا له ثلاث درجات.

إحداها: ما يحتاج إليه في غد.

والثانية: ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين يوماً.

والثالثة: ما يحتاج إليه في السنة، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهماً في الحديث، فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة، فإن كان قادراً على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال؛ لأنه مستغن في الحال، وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر. وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال، لأنّ أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يعينه، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدّة التي فيها يحتاج إلى السؤال، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى، فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكاً طريق الآخرة، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم، وقناعته بقوت الوقت أظهر؛ فدرجته عند الله تعالى أعلى، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥] وقال عزّ وجلّ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٨] والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشدّ من حال من ملك مالاً موروثاً وادخره لحاجة وراء السنة، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أحوال السائلين:

كان بشر رحمه الله يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أُعطي لا يأخذ؛ فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أُعطي أخذ؛ فهذا مع المقرّبين في جنات الفردوس. وفقير يسأل عند الحاجة؛ فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين.

فإذن: قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة.

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا. وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء، فقال شقيق: هكذا تركت كلاب بلخ عندنا، فقال له إبراهيم: فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟

فقال: الفقراء عندنا إن منعوا شكروا، وإن أعطوا آثروا. فقبَّل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

فإذن: درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة، فلا بدّ لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد إلى أسفل سافلين، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعاً، وإنما الشك فيمن عرف ذلك، فإنه ربما لا يقدر عليه، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإنّ مثل هذه الأعمال بالنيات، وذلك كما روي: أنّ بعضهم رأى أبا إسحاق الثوري رحمه الله يمدّ يده ويسأل الناس في بعض المواضع، قال: فاستعظمت ذلك واستقبحته له، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال: لا يعظم هذا عليك، فإنّ الثوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم، وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم، وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ: «يَدُ المُعْطِي هِيَ العُلْيَا»[1]، فقال بعضهم: يد المعطي هي يد الآخذ للمال لأنه يعطي الثواب والقدر له لا لما يأخذه، ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره، فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم؟ واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى الثوري فقال: هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئاً وأخذ ما زاد على المائة قال: فزاد تعجبي، فسألته فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه: وزن المائة لنفسه طلباً لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عزّ وجلّ، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه. قال: فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا، الله المستعان.

فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم، وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل، كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه. ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن يشرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حظ واف من الجهل. بل البصير أحد رجلين: إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم؛ فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به؛ فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين. ولعلم اليقين أيضاً رتبة وإن كان دون عين اليقين، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين، ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين؛ الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عِمرَان: ٧].

---

(١) حديث: «يد المعطي هي العليا»، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

الشطر الثاني من الكتاب: في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد، وبيان فضيلة الزهد، وبيان درجات الزهد وأقسامه، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة، وبيان علامة الزهد.

بيان حقيقة الزهد:

اعلم: أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها ـ كما قال السلف ـ ترجع إلى عقد وقول وعمل، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مراداً لعينه، وإن لم يكن صادراً عن حال سمي إسلاماً ولم يسم إيماناً، والعلم هو السبب في حال يجري مجرى المثمر، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل أما الحال: فنعني بها ما يسمى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً، فإذن: يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً؛ إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً، وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من المبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زاهداً فيه، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف: ٢٠] معناه باعوه، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه؛ إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعاً في العوض، فإذن: كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهداً ولكن في الآخرة، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة، وإن كان هو للميل في وضع اللسان.

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصوّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضاً زاهد ولكنه دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهد صحيح، كما أنّ التوبة عن بعض المعاصي صحيحة، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات.

فإذن: الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة، ولذلك قيل لابن المبارك: يا زاهد، فقال: الزاهد عمر بن عبدالعزيز؛ إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففي ماذا زهدت؟.

وأما العلم: الذي هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصوّر أن تزول الرغبة عن المبيع، فكذلك من عرف أنّ ما عند الله باق وأنّ الآخرة خير وأبقى، أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى، كما تكون الجواهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً، ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلىء، فهكذا مثال الدنيا والآخرة، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة، حتى إنّ من قوي يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] ثم بيّن أن صفقتهم رابحة فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: ١١١] فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر، وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا، إما لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت. وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠] فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه، ولما لم يتصوّر الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له النبي ﷺ: **«لا تَقُلْ هٰكَذَا وَلٰكِنْ قُلْ: أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ»**[(1)]، وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير. والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً؛ لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراه متفاوتاً بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره.
وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد؛ لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدّماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب، ويوظف على اليد

---

(١) حديث: قال رجل: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له **«لا تقل هكذا، ولكن قل: أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك»** ذكره صاحب الفردوس مختصراً: **«اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك»** من حديث أبي القصير ولم يخرجه ولده.

والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن، فإذا وفى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به؛ فإن الذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد، فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد، وما دام ممسكاً للدنيا لا يصح زهده أصلاً، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يُوسُف: ٨]، وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك، ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه، بل عند التسليم والبيع، فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج؛ فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد، لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله، فإنك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدّر ولا خوف من الخلق وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإياك أن تثق بوعدها في المباحات، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها: أن تجرّبها مرة بعد مرة في حال القدرة، فإذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما، ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع.

وبالجملة: فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة. قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة: ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتي في مسألة إلا رد علينا ـ يعني أبا حنيفة ـ فقال ابن شبرمة: لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها، وهربت منا فطلبناها، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله ﷺ: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النِّساء: ٦٦][1]. قال ابن مسعود رحمه الله: قال لي رسول الله ﷺ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ـ يعني من القليل ـ قال: وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢][2]. واعلم: أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوّة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة. فأما كل نوع من الترك فإنه يتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، ولكن لا يكون زهداً؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنأ من

---

(١) حديث: قال المسلمون: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساء: ٦٦]، لم أقف له على أصل.

(٢) حديث ابن مسعود: ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢]، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن.

المال، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعاً في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعاً في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالاً له لما في حفظ المال من المشقة والعناء. والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلاً، بل هو استعجال حظ آخر للنفس؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفواً عفواً وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس، فتركها خوفاً من أن يأنس بها، فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره. أو تركها طمعاً في ثواب الله في الآخرة، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة، وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعاً في الحور العين، وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة، وخوفاً من أن يقال له: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً؛ لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

بيان فضيلة الزهد:

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩].. إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ [القصص: ٨٠] فَنَسَبَ الزُّهْدَ إِلَى العُلَمَاءِ وَوَصَفَ أَهْلَهُ بِالعِلْمِ وَهُوَ غَايَةُ الثَّنَاءِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٤] وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾ [الكهف: ٧] قيل: معناه أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝﴾ [الشورى: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝﴾ [طه: ١٣١] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣] فوصف الكفار بذلك، فمفهومه أنّ المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه؛ وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا.

وأما الأخبار: فما ورد منها في ذم الدنيا كثير، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربع المهلكات؛ إذ حب الدنيا من المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات، وهو المعنى بالزهد، وقد قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيا إلاَّ ما كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ هَمَّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»**[1]، وقال ﷺ: **«إذا رَأَيْتُمُ العَبْدَ وَقَدْ أُعْطِيَ صَمْتاً وَزُهْداً فِي الدُّنْيا فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى الحِكْمَةَ»**[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ

---

(١) حديث: «**من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه.

(٢) حديث: «**إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة**» رواه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف.

﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال: قلنا: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: **«كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ القَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ»** قلنا: يا رسول الله، وما مخموم القلب؟ قال: **«التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لا غِلَّ فِيهِ وَلا غِشَّ وَلا بَغْيَ وَلا حَسَدَ»** قلنا: يا رسول الله، فمن على أثره؟ قال: **«الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة»**[1]، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا. وقال ﷺ: **«إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُحِبَّكَ اللَّهُ فَازْهَدْ فِي الدُّنْيَا»**[2]، فجعل الزهد سبباً للمحبة، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضاً أن محب الدنيا متعرّض لبغض الله تعالى، وفي خبر من طريق أهل البيت: **«الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة، فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا»**[3]، ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ: أنا مؤمن حقاً قال: **«وَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟»** قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزاً، فقال ﷺ: **«عَرَفْتَ فَالْزَمْ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالإِيمَانِ»**[4]، فانظر: كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين، وكيف زكاه رسول الله ﷺ إذ قال: **«عبد نوّر الله قلبه بالإيمان»**. ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعَام: ١٢٥] وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: **«إِنَّ النُّورَ إذا دَخَلَ فِي القَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ»** قيل: يا رسول الله، وهل لذلك من علامة؟ قال: **«نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»**[5]، فانظر: كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور؟ وقال ﷺ: **«اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»** قالوا: إنا لنستحيي منه تعالى، فقال: **«لَيسَ كَذٰلِكَ، تَبْنُونَ ما لا تَسْكُنُونَ، وَتَجْمَعُونَ مَا لا تَأْكُلُونَ»**[6]، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى، ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال: **«وَمَا عَلامَةُ إِيمَانِكُمْ»** فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: **«إِنْ كُنْتُمْ كَذٰلِكَ فَلاَ تَجْمَعُوا مَا لاَ تَأْكُلُونَ وَلاَ تَبْنُوا مَا لاَ تَسْكُنُونَ، وَلاَ تَنَافَسُوا فِيمَا**

---

(١) حديث: قلنا: يا رسول الله، وما مخموم القلب؟ قال: **«التقي النقي...»** الحديث. رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبدالله بن عمرو دون قوله: يا رسول الله، فمن على أثره، وقد تقدم، ورواه بهذه الزيادة بالإسناد المذكور الخرائطي في مكارم الأخلاق.

(٢) حديث: **«إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا»** رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه، وقد تقدم.

(٣) حديث: **«الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة، فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا»** لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: لما قال له حارثة: أنا مؤمن حقاً، فقال: **«وما حقيقة إيمانك...»** الحديث. أخرجه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف.

(٥) حديث: سئل عن قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ [الأنعَام: ١٢٥]... الحديث. أخرجه الحاكم، وقد تقدم.

(٦) حديث: **«استحيوا من الله حق الحياء...»** الحديث. رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بنت الخطاب بإسناد ضعيف.

عَنْهُ تَرْحَلُونَ»[١]، فجعل الزهد تكملة لإيمانهم. وقال جابر رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ جَاءَ بِلاَ إِلٰه إِلاَّ اللَّهُ لا يَخْلِطُ بِهَا غَيْرَها وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»، فقام إليه علي كرّم الله وجهه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله؛ ما لا يخلط بها غيرها؟ صفه لنا فسره لنا، فقال: «حُبُّ الدُّنْيَا طَلَباً لَهَا وَاتِّباعاً لَهَا، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلونَ عَملَ الجَبَابِرَةِ، فَمَنْ جَاءَ بِلا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ لَيْسَ فِيها شَيْءٌ مِنْ هٰذَا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[٢] وفي الخبر: «السَّخَاءُ مِنَ اليَقِينِ وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ، وَالبُخْلُ مِنَ الشَّكِّ وَلا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ شَكَّ»[٣]، وقال أيضاً: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار»[٤]، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد، والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة.

وروي عن ابن المسيب عن أبي ذرّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللَّهُ الحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَعَرَّفَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِماً إِلى دَارِ السَّلَامِ»[٥]، وروي: أنه ﷺ مرَّ في أصحابه بعشار من النوق حفل، وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ [التكوير: ٤] قال: فأعرض عنها رسول الله ﷺ وغض بصره، فقيل له: يا رسول الله، هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها؟ فقال: «قَدْ نَهَانِي اللَّهُ عَنْ ذٰلِكَ» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ [طه: ١٣١][٦] الآية. وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله؛ ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع؟ فقال: **لا يا عائشة؛ والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها؛ يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد؛ يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم؛ فقال:** ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾

---

(١) حديث: لما قدم عليه بعض الوفود قالوا: «وما علامة إيمانكم...» الحديث. رواه الخطيب وابن عساكر في تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر.

(٢) حديث: «من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئاً وجبت له الجنة» لم أره من حديث جابر، وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.

(٣) حديث: «السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن...» الحديث. ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء، ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٤) حديث: «السخي قريب من الله...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٥) حديث أبي ذر: «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه...» الحديث. لم أره من حديث أبي ذر، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلاً، ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري: «من زهد في الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقال: حديث منكر. وقال الذهبي باطل: ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصراً من حديث أبي أيوب: «من أخلص لله» وكلها ضعيفة.

(٦) حديث: «مرَّ في أصحابه بعشار من النوق حفل...» الحديث. وفيه: ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١] لم أجد له أصلاً.

[الأحقاف: ٣٥] **والله ما لي بد من طاعته وإني والله لأصبرنّ كما صبروا بجهدي ولا قوّة إلا بالله»**(١).

وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها: البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة: ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت: بلى. قال: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبي ﷺ لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرّبتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال: **«مَنَعْتُمُونِي قِيَامَ اللَّيْلَةِ بِهَذِهِ العَبَاءَةِ اثْنُوهَا بِاثْنَتَيْنِ كَمَا كُنْتُمْ تَثْنُونَهَا»**؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزاراً ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها وبكي عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج(٢). وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا

---

(١) حديث مسروق عن عائشة قلت: يا رسول الله: ألا تستطعم ربك فيطعمك، قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع... الحديث. وفيه: **«يا عائشة، إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر...»** الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبدالرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصراً: **«يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم»**، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ومجالد مختلف في الاحتجاج به.

(٢) حديث: أن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة: البس لين الثياب إذا قدمت عليك الوفود... الحديث بطوله، وفيه: ناشدتك الله هل تعلمين كذا: يذكرها ما كان عليه النبي ﷺ حتى أبكاها وبكى... الخ. لم أجده هكذا مجموعاً في حديث، وهو مفرق في عدة أحاديث؛ فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله غداء وعشاء من خبز وشعير حتى لقي ربه، وفيه عمرو بن عبدالله القدري متروك الحديث. وللترمذي من حديث عائشة قالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قلت: لم؟ قالت: أذكر الحال التي فارق رسول الله ﷺ الدنيا عليها، والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم، وقال: حديث حسن. وللشيخين من حديثها: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعاً حتى قبض. وللبخاري من حديث أنس: كان لا يأكل على خوان... الحديث، وتقدم في آداب الأكل. وللترمذي في الشمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت: ما كان فراش النبي ﷺ **«مسح نثنيه ثنتين فينام عليه...»** الحديث. ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة: أنها كانت تفرش للنبي ﷺ عباءة باثنتين... الحديث، وتقدما في آداب المعيشة، وللبزار من حديث أبي الدرداء قال: كان رسول الله ﷺ لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد. وقال: لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد. قال يونس بن بكير: قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها. قلت: فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم. ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت: صلى في شملة قد عقد عليها. زاد الغطريفي في جزئه المشهور: فعقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف، وتقدم في آداب المعيشة.

طريقاً، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَقَدْ كَانَ الأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالفَقْرِ فَلا يَلْبَسُ إلاَّ العَبَاءَةَ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ وَكَانَ ذٰلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ العَطَاءِ إِلَيْكُمْ**»[(١)].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال؛ فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة.

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] قال ﷺ: «**تَبّاً لِلدُّنْيَا تَبّاً لِلدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ**» فقلنا: يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة، فأي شيء ندخر؟ فقال ﷺ: «**لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَاناً ذَاكِراً وَقَلْباً شَاكِراً وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ**»[(٢)].

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ابْتَلاهُ اللَّهُ بِثَلاثٍ: هَمّاً لا يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَداً وَفَقْراً لا يَسْتَغْنِي أَبَداً وَحِرْصاً لا يَشْبَعُ أَبَداً**»[(٣)].

وقال النبي ﷺ: «**لا يَسْتَكْمِلُ العَبْدُ الإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَنْ لا يُعْرَفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ؛ وَحَتَّى يَكُونَ قِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ**»[(٤)].

وقال المسيح ﷺ: «الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَاعْبُرُوهَا ولا تَعْمُرُوهَا». وقيل له: يا نبي الله، لو أمرتنا أن نبني بيتاً نعبد الله فيه؟ قال: «**اذْهَبُوا فَابْنُوا بَيْتاً عَلَى المَاءِ**»، فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال: «**وَكَيْفَ تَسْتَقِيمُ عِبَادَةٌ مَعَ حُبِّ الدُّنْيَا**»؟.

وقال نبينا ﷺ: «**إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً فَقُلْتُ: لاَ يا رَبِّ**

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري: «**كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباء**». الحديث. بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله: دخلت على النبيّ ﷺ وهو يوعك دون قوله: «**وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل**».

(٢) حديث عمر: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، قال: «**تباً للدينار والدرهم...**» الحديث. وفيه: فأي شيء ندخر؟ أخرجه الترمذي وابن ماجه، وتقدم في النكاح دون قوله: «**تباً للدينار والدرهم**» والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان، وإنما قال المصنف: إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي ﷺ: أي المال يتخذ؟ كما في رواية ابن ماجه، وكما رواه البزار من حديث ابن عباس.

(٣) حديث حذيفة: «**من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث...**» الحديث. لم أجده من حديث حذيفة، أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن: «**من أشرق في قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث: شقاء لا ينفد عناه، وحرص لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه**»، وفي آخره زيادة.

(٤) حديث: «**لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرته**» لم أجد له إسناداً، وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن أبي طلحة مرسلاً: «**لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته، وحتى يكون أن يعرف ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله**» ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس، وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم. وروي عن ابن عباس، لكن روايته عنه مرسلة، فالحديث إذن معضل.

وَلٰكِنْ أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً، فَأَمَّا اليَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ، وَأَمَّا اليَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي ﷺ: **«يا جِبْرِيلُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا أَمْسَى لآلِ مُحَمَّدٍ كَفُّ سَوِيقٍ وَلا سَفَّةُ دَقِيقٍ»**، فَلَمْ يَكُنْ كَلامُهُ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ سَمِعَ هَدَّةً مِنَ السَّمَاءِ أَفْزَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَمَرَ اللَّهُ القِيَامَةَ أَنْ تَقُومَ؟»** قال: لا وَلٰكِنْ هَذَا إِسرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ نَزَلَ إِلَيْكَ حِينَ سَمِعَ كَلامَكَ، فَأَتَاهُ إِسْرَافِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمِعَ ما ذَكَرْتَ فَبَعَثَنِي بِمَفَاتِيحِ الأَرْضِ وَأَمَرَنِي أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُسَيِّرَ مَعَكَ جِبَالَ تِهَامَةَ زُمُرُّداً وَيَاقُوتاً وَذَهَباً وَفِضَّةً فَعَلْتُ، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيّاً مَلِكاً، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيّاً عَبْداً، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ تَوَاضَعْ لِلَّهِ فَقَالَ: **«نَبِيّاً عَبْداً»** ثلاثاً[(١)].

وقال ﷺ: **«إذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْراً زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ في الآخِرَةِ وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ»**[(٢)].

وقال ﷺ لرجل: **«ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»**[(٣)].

وقال صلوات الله عليه: **«مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيهُ اللَّهُ عِلْماً بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا»**[(٤)]، وقال ﷺ: **«مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الخَيْرَاتِ، وَمَنْ خَافَ مِنَ النَّارِ لَهَى عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ المَوْتَ تَرَكَ اللَّذَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ المُصِيبَاتُ»**[(٥)].

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام: **«أَرْبَعٌ لا يُدْرَكْنَ إِلاَّ بِتَعَبٍ: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ العِبَادَةِ، وَالتَّوَاضُعُ، وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ، وَقِلَّةُ الشَّيْءِ»**[(٦)]، وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن، فإنّ الأنبياء ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة، وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان.

وأما الآثار: فقد جاء في الأثر: **لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عزّ وجلّ ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم».** وفي لفظ آخر: **«ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله، قال الله تعالى: كذبتم، لستم بها صادقين».**

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا.

---

(١) حديث ابن عباس: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا...» الحديث. في نزول إسرافيل. وقوله: إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة... الحديث. تقدم مختصراً.

(٢) حديث: **«إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه»** رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله: **«ورغبه في الآخرة»** وزاد: **«فقهه في الدين»** وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: **«ازهد في الدنيا يحبك الله...»** الحديث. تقدم.

(٤) حديث: **«من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا»** لم أجد له أصلاً.

(٥) حديث: **«من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات...»** الحديث. رواه ابن حبان في الضعفاء في حديث علي بن أبي طالب.

(٦) حديث: **«أربع لا يدركن إلا بتعب: الصمت وهو أول العبادة...»** الحديث. رواه الطبراني والحاكم من حديث أنس، وقد تقدم.

وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين: أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيراً منكم. قيل: ولم ذلك؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم.

وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.

وقال بلال بن سعد: كفى به ذنباً أنّ الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها.

وقال رجل لسفيان: أشتهي أن أرى عالماً زاهداً، فقال: ويحك؛ تلك ضالة لا توجد.

وقال وهب بن منبه: إنّ للجنة ثمانية أبواب، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوّابون يقولون: وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة.

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله: إني لأشتهي من الله ثلاث خصال: أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم، ولا يكون عليَّ دين، ولا على عظمي لحم، فأعطى ذلك كله.

وروي: أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها، فقال له بنوه: قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال: أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعاً خير لكم من أن تذبحوها فضيلاً.

وقال عبيد بن عميرة: كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر، وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدّخر لغد، أينما أدركه المساء نام.

وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم: هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بدّ لنا من الطعام والثياب والحطب! فقال لها أبو حازم: من هذا كله بدّ، ولكن لا بدّ لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار.

وقيل للحسن: لم لا تغسل ثيابك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وقال إبراهيم بن أدهم: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح؛ فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً.

وقال بعض السلف: نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا، وكأنه التفت إلى معنى قوله ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ المُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُم الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ»**(1)، فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدي إلى السقم.

وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء.

---

(١) حديث: «إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا. . .» الحديث. تقدم.

وقال سهل: لا يخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء: الجوع، والعري، والفقر، والذل.

وقال الحسن البصري: أدركت أقواماً وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب؛ كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطله ثوب ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم. كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك، والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه.

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه؛ وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه:

اعلم: أنّ الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوّته على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: ـ وهي السفلى منها ـ: أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد يذيب أوّلاً نفسه ثم كيسه، والزاهد أولاً يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه، والمتزهد على خطر، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لأجل درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه؛ فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده، ويظن في نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده؛ إذ لا يرى أنه ترك شيئاً؛ إذ عرف أنّ الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً. والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد. وسببه كمال المعرفة، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أنّ تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبدالرحيم: في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزهد، قال: في أي شيء؟ قال: في الدنيا، فنفض يده وقال: ظننت أنه يتكلم في شيء، والدنيا لا شيء، إيش يزهد فيها.

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح

والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذّتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع، ثم يبقى ثقلها في المعدة، ثم تنتهي إلى النتن والقذر، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل، فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها، ونسبة الدنيا كلها ـ أعني ما يسلم لكل شخص منها وإن عمِّر مائة سنة ـ بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا؛ إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدّرة غير صافية، فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد، فإذن: لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتدّاً به، ولا يراه شيئاً معتدّاً به إلا لقصور معرفته، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة، فهذا تفاوت درجات الزهد، وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات؛ إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده.

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر، ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار؛ إذ فيها: «**إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواء**»(١)، فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها، وهذا زهد الراجين؛ فإنّ هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له.

الدرجة الثالثة: ـ وهي العليا ـ أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى؛ وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد، وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلب غير الله من الشرك الخفي، وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه، وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره، ولا تظنن أنّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي

---

(١) حديث: «**إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواء**» أخرجه أحمد من حديث ابن عباس: «**التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غني، ومؤمن فقير...**» الحديث. وفيه: «**إني حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء**»، وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته، قال أحمد: حديثه مثله.

الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك، لا لأنّ اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل. فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل. أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضاً، والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها. وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه؛ إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب؛ إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أنّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها، فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عِمرَان: ١٤] ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عزّ وجلّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحَديد: ٢٠] ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محَمَّد: ٣٦] ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النّازعَات: ٤٠، ٤١] فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه. وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى.

فالحاصل: أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء؛ فإنّ من أراد شيئاً أراد دوامه. ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها، ولذلك لما كتب عليهم القتال: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النِّساء: ٧٧] فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النِّساء: ٧٧] أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين. أما الزاهدون المحبون لله تعالى: فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى إنّ خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول: كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعاً في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز، فلما مات عدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات. هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأما المنافقون: ففرّوا من الزحف خوفاً من الموت فقيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجُمُعَة: ٨] فإيثارهم البقاء

على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦]. وأما المخلصون: فإنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلاً أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به، فهذا بيان المزهود فيه.

وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكره المتكلمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه، فقال بشر رحمه الله تعالى: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة. وقال قاسم الجوعي: الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف؛ فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة، ولعمري، هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي المهيجة لأكثر الشهوات. وقال الفضيل: الزهد في الدنيا هو القناعة، وهذا إشارة إلى المال خاصة. وقال الثوري: الزهد هو قصر الأمل، وهو جامع لجميع الشهوات، فإنّ من يميل إلى الشهوات يحدّث نفسه بالبقاء فيطول أمله، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها. وقال أويس: إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه، وما قصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد. وقال أويس أيضاً: الزهد هو ترك الطلب للمضمون، وهو إشارة إلى الرزق، وقال أهل الحديث: حب الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول، والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة، وهذا إن أريد به الرأي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات، فإنّ من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة، وقد طوّلوها حتى ينقضي عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده، وقال الحسن: الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال: هذا أفضل مني، فذهب إلى أنّ الزهد هو التواضع، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد، وقال بعضهم: الزهد هو طلب الحلال، وأين هذا ممن يقول: الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال، وقد كان يوسف بن أسباط يقول: من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد.

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحداً ولا يتصوّر أن يختلف، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني، إذ قال: سمعنا في الزهد كلاماً كثيراً، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عزّ وجلّ، وقد فصل مرة وقال: من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدّاً للزهد، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩] فقال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال: إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة. فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف

المزهود فيه؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة، كما قاله إبراهيم بن أدهم، فالفرض: هو الزهد في الحرام. والنفل: هو الزهد في الحلال. والسلامة: هو الزهد في الشبهات. وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد؛ إذ قيل لمالك بن أنس: ما الزهد؟ قال: التقوى، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه؛ إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات، لا سيما خفايا الرياء فإنّ ذلك لا يطلع عليه إلا سماسرة العلماء، بل الأحوال الظاهرة أيضاً درجات الزهد فيها لا تتناهى، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام؛ إذ توسد حجراً في نومه فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك؟ قال: وما الذي تجد؟ قال: توسدك الحجر، أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم، فرمى الحجر وقال: خذه مع ما تركته لك. وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركاً للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس، فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى، آثرت على الدنيا، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه. وقال أحمد رحمه الله تعالى: الزهد زهد أويس، بلغ من العري أن جلس في قوصرة. وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط، فإذن: درجات الزهد ظاهراً وباطناً لا حصر لها، وأقل درجاته: الزهد في كل شبهة ومحظور. وقال قوم: الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور، فليس ذلك من درجاته في شيء، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصوّر الزهد الآن.

فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أنّ الزهد ترك ما سوى الله، فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى؟

فاعلم: أنّ معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكراً وفكراً، ولا يتصوّر ذلك إلا مع البقاء، ولا بقاء إلا بضروريات النفس؛ فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلاً بغير الله، فإنّ ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوي على طاعة الله تعالى، فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد، وإن قلت: فلا بدّ وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع؛ فاعلم: أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ، فإنّ شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش، ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصوداً عنده ومطلوباً بالقصد، فلا يكون القلب منصرفاً إليه؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعاً لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحارّ ويقول: من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة

الدنيا. فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط، فإنه وإن كان شاقاً فمدّته قريبة والاحتماء مدّة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة:

اعلم: أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم؛ فالفضول كالخيل المسوّمة مثلاً؛ إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي، والمهم كالأكل والشرب، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضروري، والمهم أيضاً يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بدّ من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال. والجاه يطلب لأغراض. وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة.

الأول المطعم: ولا بدّ للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد؛ فأما طوله: فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به، وأما عرضه: ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله، أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّة الجوع وخوف المرض، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر من غدائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا.

الدرجة الثانية: أن يدّخر لشهر أو أربعين يوماً.

الدرجة الثالثة: أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدّاً فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مدّ واحد؛ وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد ما لم يكن له من الزهد في البطن نصيب، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت، ولو الخبز من النخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلاً عن أوائله.

وأما الأدم: فأقله الملح أو البقل والخل، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاه اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإن صار دائماً أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائماً، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات، ولينظر إلى أحوال رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار. قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء(١). وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

وقال الحسن: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض. ويقول: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا تَأْكُلُ العَبِيدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ العَبِيدُ**»(٢).

وقال المسيح عليه السلام: بحق أقول لكم: إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له، والنوم على المزابل مع الكلاب كثير.

وقال الفضيل: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر(٣).

وكان المسيح ﷺ يقول: يا بني إسرائيل، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر، فإنكم لن تقوموا بشكره. وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده.

ولما أتى النبي ﷺ أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال: «**أَمَا إِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُهُ وَلَكِنْ أَتْرُكُهُ تَوَاضُعاً لِلَّهِ تَعَالَى**»(٤).

وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال: اعزلوا عني حسابها. وقد قال يحيى بن معاذ الرازي: الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله؛ والعبادة حرفته، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى.

المهم الثاني: الملبس: وأقل درجته: ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطى به. وأوسطه: قميص وقلنسوة ونعلان. وأعلاه: أن يكون معه منديل وسراويل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد. وشرط الزاهد: أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه. بل يلزمه القعود في البيت. فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار. أما الجنس: فأقله المسوح الخشنة، وأوسطه: الصوف الخشن، وأعلاه: القطن الغليظ. وأما من حيث الوقت: فأقصاه ما يستر سنة، وأقله ما يبقى يوماً، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه، وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه، فطلب ما يبقى أكثر من سنة

---

(١) حديث عائشة: «كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار...» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة: «كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان...» الحديث. وفي رواية له: ما يوقد فيه بنار. ولأحمد: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار. وفي رواية له: ثلاثة أهلة.

(٢) حديث الحسن: «كان رسول الله ﷺ يركب الحمار..» الحديث، تقدم دون قوله: «إنما أنا عبد» فإنه ليس من حديث الحسن، إنما هو من حديث عائشة، وقد تقدم.

(٣) حديث: «ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر». تقدم.

(٤) حديث: «لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده...» الحديث، تقدم.

خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد، إلا إذا كان المطلوب خشونته، ثم قد يتبع ذلك قوّته ودوامه؛ فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدّق به، فإن أمسكه لم يكن زاهداً بل كان محباً للدنيا، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس؛ قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين[(١)]. وقال ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ المُتَبَذِّلَ الَّذِي لا يُبَالِي مَا لَبِسَ»**[(٢)]. وقال عمرو بن الأسود العنسي: لا ألبس مشهوراً أبداً، ولا أنام بليل أبداً على دثار أبداً، ولا أركب على مأثور أبداً، ولا أملأ جوفي من طعام أبداً، فقال عمر: من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى عمرو بن الأسود[(٣)]. وفي الخبر: **«ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيباً»**[(٤)]، واشترى رسول الله ﷺ ثوباً بأربعة دراهم[(٥)].

وكانت قيمة ثوبيه عشرة[(٦)]، وكان إزاره أربعة أذرع ونصفاً[(٧)]، واشترى سراويل بثلاثة دراهم[(٨)]. وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف[(٩)]، وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ. وفي الخبر: كان قميص رسول الله ﷺ كأنه

---

(١) حديث: أخرجت عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين. رواه الشيخان، وقد تقدم في آداب المعيشة.

(٢) حديث: **«إن الله يحب المتبذل لا يبالي ما لبس»** لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث عمر: **«من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدي عمرو بن الأسود»** رواه أحمد بإسناد جيد.

(٤) حديث: **«ما من عبد لبس ثوب شهرة...»** الحديث. رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله: **«وإن كان عنده حبيباً»**.

(٥) حديث: «اشترى رسول الله ﷺ ثوباً بأربعة دراهم. أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة، قال: دخلت يوماً السوق مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم...» الحديث، وإسناده ضعيف.

(٦) حديث: كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم، لم أجده.

(٧) حديث: كان إزاره أربعة أذرع ونصفاً. أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عروة بن الزبير مرسلاً: كان رداء رسول الله ﷺ أربعة أذرع، وعرضه ذراعان ونصف... الحديث، وفيه ابن لهيعة. وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة: كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر، وفيه محمد بن عمر الواقدي.

(٨) حديث: اشترى سراويل بثلاثة دراهم. المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم تقدم عند أبي يعلى، وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر مقدار ثمنه، قال الترمذي: حسن صحيح.

(٩) حديث: كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ، تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة. وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء: رأيته في حلة حمراء، ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل اليمن وقال: رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل. وفي الصحيحين من حديث عائشة: أنه ﷺ قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن، وتقدم في آداب المعيشة. ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة: وعليه بردان أخضران، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي. وللبزار من حديث قدامة الكلابي: وعليه حلة حبرة، وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف؛ قاله الذهبي.

قميص زيات[(١)]. ولبس رسول الله ﷺ يوماً واحداً ثوباً سيراء من سندس قيمته مائتا درهم[(٢)] فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله: أنزل عليك هذا من الجنة تعجباً، وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية، فأراد أن يكرمه بلبسه، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج. وكأنه إنما لبسه أولاً تأكيداً للتحريم، كما لبس خاتماً من ذهب يوماً ثم نزعه[(٣)]، فحرم لبسه على الرجال، وكما قال لعائشة في شأن بريرة: **«اشترطي لأهلها الولاء»**[(٤)]، فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرّمه، وكما أباح المتعة ثلاثاً ثم حرّمها لتأكيد أمر النكاح[(٥)]، وقد صلى رسول الله ﷺ في خميصة لها علم، فلما سلم قال: **«شغلني النظر إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته»**[(٦)] يعني كساءه، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه، فلما سلم قال: **«أَعِيدُوا الشِّرَاكَ الخَلَقَ وَانْزَعُوا هٰذا الجَدِيدَ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلاَةِ»**، ولبس خاتماً من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال: **«شَغَلَنِي هٰذا عَنْكُمْ، نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ»**[(٧)]، وكان ﷺ قد احتذى مرة نعلين جديدين؛ فأعجبه حسنهما، فخر ساجداً وقال: **«أَعْجَبَنِي حُسْنُهُمَا فَتَوَاضَعْتُ لِرَبِّي خَشْيَةَ أَنْ يَمْقتني»** ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه[(٨)].

وعن سنان بن سعد قال: حيكت لرسول الله ﷺ جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: **«انْظُرُوا مَا أَحْسَنَها ومَا أَلْيَنَها»** قال: فقام إليه أعرابي فقال: يا رسول الله، هبها لي، وكان رسول الله ﷺ إذا سئل شيئاً لم يبخل به، قال: فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى، فمات ﷺ وهي في المحاكة[(٩)].

وعن جابر قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: **«يا فَاطِمَةُ؛ تَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيا لِنَعِيمِ الأَبَد»**، **فَأَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْهِ:** ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥][(١٠)] وقال ﷺ: **«إنَّ مِنْ خِيارِ أُمّتي فِيمَا**

---

(١) حديث: كان قميصه كأنه قميص زيات. أخرجه الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف: كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات.

(٢) حديث: «لبس يوماً واحداً ثوباً سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه...» الحديث.

(٣) حديث: «لبس يوماً خاتماً من ذهب ثم نزعه». متفق عليه، وقد تقدم.

(٤) حديث قال لعائشة في شأن بريرة: **«اشترطي لأهلها...»** الحديث. متفق عليه من حديثها.

(٥) حديث: «أباح المتعة ثلاثاً ثم حرمها». أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

(٦) حديث: «صلى في خميصة لها علم...» الحديث. متفق عليه، وقد تقدم في الصلاة.

(٧) حديث: لبس خاتماً فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال: **«شغلني هذا عنكم...»** الحديث. تقدم.

(٨) حديث: «احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما...» الحديث. تقدم.

(٩) حديث سنان بن سعد: «حيكت لرسول الله ﷺ جبة صوف من صوف أنمار...» الحديث. رواه أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله: وأمر أن يحاك له أخرى، فهي عند الطبراني فقط، وفيه زمعة بن صالح ضعيف، ويقع في كثير من نسخ الإحياء: سيار بن سعد وهو غلط.

(١٠) حديث جابر: «دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى...» الحديث. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف الآية.

أَنْبَأَنِي المَلأُ الأَعْلَى قَوْماً يَضْحَكُونَ جَهْراً مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَبْكُونَ سِرّاً مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ، مُؤْنَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الخُلْقَانَ وَيَتْبَعُونَ الرُّهْبَانَ؛ أَجْسَامُهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَفْئِدَتُهُمْ عِنْدَ العَرْشِ»(١)، فهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في الملابس، وقد أوصى أمته عامة باتباعه؛ إذ قال: «مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي»(٢)، وقال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٣). وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وأوصى رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها خاصة وقال: «إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلا تَنْزَعِي ثَوْباً حَتَّى تُرَقِّعِيهِ»(٤). وعدّ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم. واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوباً بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال: الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه. وقال الثوري وغيره: البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال، وكان يقول: إن الفقير ليمرّ بي وأنا أصلي فأدعه يجوز، ويمرّ بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم: قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق. وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف: البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة، ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة؛ ثوب لله وهو ما يستر العورة، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم: من رق ثوبه رق دينه. وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهماً، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه. وقال بعض السلف: أوّل النسك الزي، وفي الخبر: «البَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ» وفي الخبر: «مَنْ تَرَكَ ثَوْبَ جَمَالٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ تَوَاضُعاً لِلَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءَ لِوَجْهِهِ كَانَ حقاً عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنْ عَبْقَرِيِّ الجَنَّةِ فِي تخاتِ اليَاقُوتِ»، وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي. ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ، فقال: انظروا إلى أميركم؛ يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ـ وكان عليه ثياب رقاق. وجاء عبدالله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذرّ في بزته، فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبي ذرّ راحته على فيه، وجعل يضرط به، فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر فقال: أنت صنعت بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة. وقال علي كرّم الله وجهه: إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره. ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم.

---

(١) حديث: «**إن من خيار أمتي فيما آتاني العلي الأعلى قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم، ويبكون سراً من خوف عذابه...**» الحديث. تقدم، وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه.

(٢) حديث: «**من أحبني فليستن بسنتي**» تقدم في النكاح.

(٣) حديث: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين...**» الحديث. رواه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية.

(٤) حديث قال لعائشة: «**إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء**» أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم وصححه من حديث عائشة، وقد تقدم.

ونهى ﷺ عن التنعم وقال: «إِنَّ لِلّهِ تَعَالَى عِبَاداً لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ»[1]، ورئي فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافياً فقيل له: أنت الأمير وتفعل هذا؟ فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء، وأمرنا أن نحتفي أحياناً[2]. وقال علي لعمر رضي الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع. وقال عمر: اخشوشنوا وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر، وقال علي كرم الله وجهه: من تزيا بزي قوم فهو منهم. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَأَلْوَانَ الثِّيابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الكَلامِ»[3]. وقال ﷺ: «إِزْرَةُ المُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَعْبَيْنِ، وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذٰلِكَ فَفِي النَّار، وَلا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَراً»[4]، وقال أبو سليمان الداراني: قال رسول الله ﷺ: «لا يَلْبَسُ الشَّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إِلاّ مُرَاءٍ أَوْ أَحْمَق»[5]، وقال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنّة، وفي الحضر بدعة. ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف؛ فقال له قتيبة: ما دعاك إلى مدرعة الصوف؟ فسكت، فقال: أكلمك ولا تجيبني، فقال: أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو فقراً فأشكو ربي. وقال أبو سليمان: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً أوحى إليه: أن وار عورتك من الأرض، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحداً سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سراويلين فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: مالك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال: وما للعبد والثوب الحسن، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبداً. ويروى عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي. وقال الحسن لفرقد السبخي: تحسب أن لك فضلاً عن الناس بكسائك، بلغني أنّ أكثر أصحاب النار [أصحاب] الأكسية نفاقاً. وقال يحيى بن معين: أرأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها، فقلت: إنك تكسي خيراً من هذا فقال: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، فجعل يحيى بن معين يحدّث بها ويبكي.

المهم الثالث: المسكن، وللزهد، فيه أيضاً ثلاث درجات.

أعلاها: أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة.

وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه مثل كوخ مبني من سعف أو خص أو ما يشبهه.

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فإن طلب التشييد

---

(١) حديث: نهى عن التنعم وقال: «إن لله عباداً ليسوا بالمتنعمين» أخرجه أحمد من حديث معاذ، وقد تقدم.

(٢) حديث فضالة بن عبيد: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاه، وأمرنا أن نحتفي أحياناً. أخرجه أبو داود بإسناد جيد.
فضالة بن عبيد الأوسي الأنصاري أسلم قديماً، لم يشهد بدراً وشهد أحداً وما بعدها. وشهد فتح مصر والشام. وسكن الشام. ولاه معاوية قضاء دمشق بعد أبي الدرداء، توفي سنة ثلاث وخمسين.

(٣) حديث: «إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم...» الحديث. رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام...» الحديث. وآخره: «أولئك شرار أمتي» وقد تقدم.

(٤) حديث: «إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه...» الحديث. رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد، ورواه أيضاً النسائي من حديث أبي هريرة. قال محمد بن يحيى الذهلي: كلا الحديثين محفوظ.

(٥) حديث أبي سليمان: «لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق» لم أجد له إسناداً.

والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حدّ الزهد في المسكن؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكاً أو مستأجراً أو مستعاراً، والزهد مدخل في جميع ذلك. وبالجملة: كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدّ الضرورة، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين، والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا، وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جداً، وقد قيل: أوّل شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله ﷺ التدريز والتشييد، يعني بالتدريز: كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلاً. والتشييد: هو البنيان بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد[(١)]. وقد جاء في الخبر: **«يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية»** وأمر رسول الله ﷺ العباس أن يهدم علية كان قد علا بها[(٢)]. ومرّ عليه السلام بجنبذة معلاة فقال: **«لمن هذه؟»** قالوا: لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان، فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه ﷺ فأخبر، فذهب فهدمها، فمر رسول الله ﷺ بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير[(٣)].

وقال الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[(٤)]. وقال النبي ﷺ: **«إذا أَرَادَ اللَّه بِعَبْدٍ شَرّاً أَهْلَكَ مَالَهُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ»**[(٥)]، وقال عبدالله بن عمر: مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصاً، فقال: **«ما هذا؟»** قلنا: خص لنا قد وهى فقال: **«أَرَى الأَمْرَ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ»**[(٦)]، واتخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيت؟ فقال: هذا كثير لمن يموت. وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحته؟ فقال: كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله. وقال النبي ﷺ: **«مَنْ بَنَى فَوْقَ ما يَكْفِيهِ**

---

(١) حديث: كانت الثياب تشل شلاً وكانوا يبنون بالسعف والجريد. أما شل الثياب من غير كف فروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ. وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة: «فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة. . .» الحديث. ولهما من حديث أبي سعيد: كان المسجد على عريش فوكف المسجد.

(٢) حديث: أمر العباس أن يهدم علية له كان قد علاها. رواه الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبيّ ﷺ: «اهدمها. . .» الحديث. وهو منقطع.

(٣) حديث: مرّ بجنبذة معلاة فقال: «لمن هذه؟» فقالوا: لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه. . .» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ: فرأى قبة مشرفة الحديث، والجنبذة: القبة.

(٤) حديث الحسن: «مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة. . .» الحديث. رواه ابن حبان في الثقات، وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلاً. وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة: **«من سأل عني أو سره أن ينظر إليّ فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة. . .»** الحديث. وإسناده ضعيف.

(٥) حديث: **«إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين»** رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد: **«يخضر له في الطين واللبن حتى يبني»**.

(٦) حديث عبدالله بن عمر: «مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصّاً قد وهى. . .» الحديث. رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه.

كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١]، وفي الخبر: **«كُلُّ نَفَقَةٍ لِلعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيهَا إلاَّ مَا أَنْفَقَهُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ»**[٢]، وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] إنه الرئاسة والتطاول في البنيان. وقال ﷺ: **«كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ إلاَّ مَا أَكَنَّ مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ»**[٣]، وقال ﷺ للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله: **«اتَّسِعْ فِي السَّمَاءِ»**[٤]، أي في الجنة. ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر، فكبَّر وقال: ما كنت أظنّ أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون؛ يعني قول فرعون ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨] يعني به الآجر، ويقال: إنّ فرعون هو أوّل من بني له بالجص والآجر، وأوّل من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة، وهذا هو الزخرف. ورأى بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال: أدركت هذا المسجد مبنياً من الجريد والسعف، ثم رأيته مبنياً من رهص، ثم رأيته الآن مبنياً باللبن، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خيراً من أصحاب اللبن. وكان في السلف من يبني داره مراراً في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال: لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه. وقال الفضيل: إني لم أعجب ممن بنى وترك، ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين، ويستعملون البراذين، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم.

المهم الرابع: أثاث البيت، وللزهد فيه أيضاً درجات:

أعلاها: حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى؛ إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنساناً يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز، وهذا حكم كل أثاث، فإنه إنما يراد لمقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة. وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف، ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به.

---

(١) حديث: **«من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله»** رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع.

(٢) حديث: **«كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين»** رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ: **«إلا في التراب»** أو قال: **«في البناء»**.

(٣) حديث: **«كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد»** رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ: **«إلا ما لا»** يعني: ما لا بد منه.

(٤) حديث: قال للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله: **«اتسع في السماء»** قال المصنف: أي في الجنة. رواه أبو داود في المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال: شكا خالد بن الوليد فذكره، وقد وصله الطبراني فقال: عن اليسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد، إلا أنه قال: **«ارفع إلى السماء واسأل الله السعة»**، وفي إسناده لين.

وأوسطها: أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف.

وأدناها: أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول، ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف(١). وقال الفضيل: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف(٢).

وروي: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط، فجلس، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عينا عمر، فقال له النبي ﷺ: «**مَا الَّذِي أَبْكَاكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ**؟» قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط؟ فقال ﷺ: «**أَمَا تَرْضَى يا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُم الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**» قال: بلى يا رسول الله؟ قال: «**فذلك كذلك**»(٣). ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمت هاهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي. ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي، فقال عمر: صدقت رحمك الله، وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة، فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله ﷺ فسأله أبو رافع فقال: «**مِنْ أَجْلِ السِّتْرِ وَالسِّوَارَيْنِ**» فأرسلت بهما بلالاً إلى رسول الله ﷺ وقالت: قد تصدّقت بهما فضعهما حيث ترى، فقال: «**اذْهَبْ فَبِعْهُ وَادْفَعْهُ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ**»، فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم، فدخل عليها ﷺ فقال: «**بِأَبِي أَنْتَ قَدْ أَحْسَنْتِ**»(٤)، ورأى رسول الله ﷺ على باب عائشة ستراً فهتكه وقال: «**كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ**

---

(١) حديث عائشة: كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف. رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وابن ماجه.

(٢) حديث: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف. رواه الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة، وقد تقدم، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة، وقد تقدم قبله بعض طرقه.

(٣) حديث: «دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط على جنبه...» الحديث. متفق عليه من حديثه، وقد تقدم.

(٤) حديث: «قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة فرجع...» الحديث. لم أره مجموعاً، ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة بإسناد جيد: أنه ﷺ جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة لعلي: انظر فأرجعه... الحديث، رواه النسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال: جاءت ابنة هبيرة إلى النبي ﷺ وفي يدها فتخ من ذهب... الحديث. وفيه: أنه وجد=

الدُّنْيَا أَرْسِلِيهِ إِلَى آلِ فُلَانٍ»[١]، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشاً جديداً ـ وقد كان ﷺ ينام على عباءة مثنية ـ فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال لها: «**أَعِيدِي العَبَاءَةَ الخَلَقَةَ وَنَحِّي هٰذا الفِرَاشَ عَنِّي قَدْ أَسْهَرَنِي اللَّيْلَةَ**»[٢]، وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلاً فبيتها، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل. قالت عائشة رضي الله عنها: فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال: «**مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللّٰه وَهٰذِهِ عِنْدَهُ**»[٣]، وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوباً قط؛ كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

المهم الخامس: المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبدالله وقال: قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال: كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية. والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم، والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله. وكشف الحق فيه: أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح، فيكون ترك النكاح من الزهد، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله، ولكن ترك النكاح احترازاً عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازاً من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً، فإنّ الولد مقصود لبقاء نسله، وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات، واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره؛ إذ لم تكن هي المقصد والمطلب، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازاً من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء، لأن في ترك ذلك فوات بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله، فلا يجوز أن يترك النكاح زهداً في لذته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح رسول الله ﷺ، وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق

= في يد فاطمة سلسلة من ذهب. وفيه: «**يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار**» وأنه خرج ولم يقعد، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبداً فأعتقته، فلما سمع قال: «**الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار**».

(١) حديث: «رأى على باب عائشة ستراً فهتكه...» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي في الكبرى من حديثها.

(٢) حديث: «فرشت له ذات ليلة فراشاً جديداً. وفيه: كان ينام على عباءة مثنية...» الحديث. رواه ابن حبان في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديثها قالت: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إليَّ بفراش حشوه صوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: «**ما هذا...**» الحديث. أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته، وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل.

(٣) حديث: «أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله...» الحديث. وفيه: «**ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده**»، أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه: «**يا عائشة، ما فعلت بالذهب**» فجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول: «**ما ظن محمد...**» الحديث. وزاد «**أنفقها**» وفي رواية: سبعة أو تسعة دنانير، وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وهو شاهم الوجه، قالت: فحسبت ذلك من وجع، فقلت: يا نبي الله، ما لك شاهم الوجه؟ فقال: «**من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس، أمسينا وهي في خصم الفراش**» وفي رواية: «**أمسينا ولم ننفقها**».

عليهن[1]، فلا معنى لزهده فيهن حذراً من مجرّد لذة الوقاع والنظر، ولكن أنى يتصوّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك.

قال أبو سليمان: الزهد في النساء: أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة.

وقال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدىء أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث، والتزوّج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه؛ فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعاً.

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه. أما الجاه: فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه، وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم، فأما النفع: فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة، وأما دفع الضر: فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب، والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً؛ فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار، فكيف بين المسلمين، فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة؛ إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن: طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلاً، واليسير منه داع إلى الكثير، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره. وأما المال: فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه، فإن كان كسوباً فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام، هذا شرط الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوّة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكل ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله، فلا يكون هذا من الزهاد. وقولنا: إنه خرج من حدّ الزهاد نعني به: أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، وقد قال أبو سليمان: لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء؛ معناه: أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه. كل

(١) حديث: كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن، تقدم في النكاح.

ذلك في عياله، نعم، لا ينبغي أن يجيبهم أيضاً فيما يخرج عن حدّ الاعتدال، وليتعلم من رسول الله ﷺ؛ إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين، لأنّ ذلك من الزينة لا من الحاجة، فإذاً: ما يضطرّ الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سم قاتل، والمقتصر عن الضرورة دواء نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سماً قاتلاً فهو مضر، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعاً لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين؛ لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط.

ويدل عليه ما روي: أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً فلم يقرضه، فرجع مهموماً، فأوحى الله تعالى إليه: لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يا رب، عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئاً، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فإذن، قدر الحاجة من الدين، وما وراء ذلك وبال في الآخرة، وهو في الدنيا أيضاً كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداء له، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معيناً لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حياً ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصاً فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراءاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، ولو ترك محبوباً من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة، فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة، فيكون أهون أحواله عند الموت: أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره، فما ظنك بألم يتمكن أوّلاً من صميم القلب مخصوصاً به لا بطريق السراية إليه من غيره، فهذا أوّل عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم؛ إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه؟ فنسأل الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا ما نفث في روع رسول الله ﷺ حيث قيل له: أحبب من أحببت فإنك مفارقه[1]. وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر:

---

(١) حديث: نفث في روعه «أحبب من أحببت فإنك مفارقه»، تقدم.

كدود كدود القز ينسج دائماً ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكلية، حتى قال الحسن: رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم. وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشدّ فرحاً منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم: مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا: ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا أشراركم قالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يفسد على قلبي، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠] فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال: أخرج مالك والحقني. فقال: لا أستطيع، فقال عيسى عليه السلام: بعجب يدخل الغني الجنة ـ أو قال بشدة ـ. وقال بعضهم: ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات: ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب، يقول أحدهم بالمشرق: يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر. ويقول الآخر: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً. ويقول اللذان بالمغرب؛ أحدهما: لدوا للموت وابنوا للخراب. ويقول الآخر: كلوا وتمتعوا لطول الحساب.

بيان علامات الزهد:

اعلم: أنه قد ظنّ أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإنّ ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديراً لا باب له، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة، بل لا بدّ من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا، بل قد يدعي جمال الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة، كما قال الخوّاص في وصف المدعين إذ قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموّهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم، لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين، ويحتجون لنفوسهم بأتباع العلم وأنهم على السنة، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم. هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين؛ لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالاً لهم، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى. فهذا كله كلام الخواص رحمه الله. فإذن: معرفة الزهد أمر مشكل، بل حال الزهد على الزهد مشكل.

وينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات:

العلامة الأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا

فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] بل ينبغي أن يكون بالضدّ من ذلك؛ وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده.

العلامة الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأوّل علامة الزهد في المال؛ والثاني علامة الزهد في الجاه.

العلامة الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة؛ إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان. وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال: إلى الأنس بالله. فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان.

وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي.

وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس ـ وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه ـ وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ وأن يكون في أحد هذين المقامين، ومقامه الأوّل أن يشغل نفسه بنفسه، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم، ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً.

قال ابن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان: أكان داود الطائي زاهداً؟ قال: نعم. قلت: قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً فأنفقها في عشرين سنة، فكيف كان زاهداً وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد، وأراد بالحقيقة الغاية، فإنّ الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس. ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها. فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجراً كما فعله المسيح عليه السلام، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيباً وإن قلّ، فإن أمثالنا لا يستجرىء على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه. وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء، فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتماداً على الجواد المجاوز لكل كمال.

فإذن: علامة الزهد: استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة؛ مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها.

وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول: أبني رباطاً أو أعمر مسجداً.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد: السخاء بالموجود.

وقال ابن خفيف: علامته: وجود الراحة في الخروج من الملك. وقال أيضاً: الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

وقال أبو سليمان: الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم.

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله: علامة الزهد: قصر الأمل. وقال سري: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

وقال النصرأباذي: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد ثلاث: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رئاسة. وقال أيضاً: الزاهد لله يعطك الخل والخردل، والعارف يشمك المسك والعنبر. وقال له رجل: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح. وقال أيضاً: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها. وقال السري: مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه.

وقال الفضيل رحمه الله: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه، وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت، الرافع للسماء بغير عماد، المقدر فيها أرزاق العباد. الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب، ورفع هممهم عن الالتفاف إلى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه، فلم يعبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغي عندهم الرزق، وأنه ما من ذرّة إلا إلى الله خلقها، وما من دابة إلا على الله رزقها؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

والصلاة على محمد قامع الأباطيل، الهادي إلى سواء السبيل، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن التوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقرّبين وهو في نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل، ووجه غموضه من حيث الفهم: أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير في وجه العقل، وانغماس في غمرة الجهل. وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدّة الخفاء إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا. ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة، ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب، ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني.

***

بيان فضيلة التوكل:

أما من الآيات: فقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:

٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه، ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه، فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم، فإنّ المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦] فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية؛ فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسَان: ١] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] أي عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعرَاف: ١٩٤] بين أنّ كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر، حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العَنكبوت: ١٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنَافِقون: ٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يُونس: ٣] وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار.

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود: **«أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملؤوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئاتهم، فقيل لي: أرضيت؟ قلت: نعم، قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب»**. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: **«الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**، فقام عكاشة وقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»** فقام آخر فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: **«سَبَقَكَ بِها عُكاشَةُ»**[(١)]، وقال ﷺ: **«لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»**[(٢)] وقال ﷺ: **«مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا»**[(٣)] وقال ﷺ: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ»**[(٤)] ويروى عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: **«قُومُوا إِلَى الصَّلاةِ»** ويقول: **«بِهٰذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»** قال عزّ وجلّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ

---

(١) حديث ابن مسعود: **«أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملؤوا السهل والجبل...»** الحديث. رواه ابن منيع بإسناد حسن، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس.

عكاشة: هو عكاشة بن محسن الأسدي رضي الله عنه، أما الآخر: ففي رواية أنه أنصاري لم يذكر اسمه.

(٢) حديث: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير...»** الحديث. أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر، وقد تقدم.

(٣) حديث: **«من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة...»** الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا، ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم.

(٤) حديث: **«من سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده»** رواه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

﴿بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢][(١)] الآية. وقال ﷺ: «لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنْ اسْتَرْقَى وَاكْتَوى»[(٢)].

وروي: أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام ـ وقد رمي إلى النار بالمنجنيق ـ ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وفاء بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل؛ إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً.

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن جبير: لدغتني عقرب فأقسمت على أمي لتسترقين، فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ.

وقرأ الخوّاص قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] إلى آخرها، فقال: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى.

وقيل لبعض العلماء في منامه: من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته. وقال بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل؛ فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك.

وقال يحيى بن معاذ: في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أنّ الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال إبراهيم بن أدهم: سألت بعض الرهبان: من أين تأكل؟ فقال لي: ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني؟.

وقال هرم بن حيان لأويس القرني: أين تأمرني أن أكون؟ فأومأ إلى الشام. قال هرم: كيف المعيشة؟ قال أويس: أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة.

وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كل خير سبيلاً. نسأل الله تعالى حسن الأدب.

بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل:

اعلم: أن التوكل من أبواب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل، وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل.

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب فهو علم، وإذا قوي سمي يقيناً، ولكن أبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) والإيمان

---

(١) حديث: كان إذا أصاب أهله خصاصة قال «قوموا إلى الصلاة» ويقول: «بهذا أمرني ربي» قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. رواه الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبدالله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية. ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبدالله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه.

(٢) حديث: «لم يتوكل من استرقى واكتوى» أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبير والطبراني واللفظ له، إلا أنه قال: أو من حديث المغيرة بن شعبة، وقال الترمذي: «من اكتوى أو استرقى فقد برىء من التوكل» وقال النسائي: ما توكل من اكتوى أو استرقى.

بالقدرة التي يترجم عنها قولك: (له الملك)، والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك: (وله الحمد) فمن قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل، أعني: أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول، وهو من علم المكاشفة، ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال، ولا يتم علم المعاملة إلا بها، فإذن: لا نتعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له، فنقول: للتوحيد أربع مراتب؛ وينقسم إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر. ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإنّ له قشرتين، وله لب، وللب دهن هو لب اللب.

فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين.

والثانية: أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقرّبين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصدّيقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق؛ فالأوّل موحد بمجرّد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان. والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه، وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقدته، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف، ويقصد بها أيضاً إحكام هذه العقدة وشدّها على القلب وتسمى كلاماً، والعارف به يسمى متكلماً، وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته. والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه. ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه، لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإنّ تلك رتبة العوام والمتكلمين؛ إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة. والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد؛ فالأوّل كالقشرة العليا من الجوز، والثاني كالقشرة السفلى، والثالث كاللب، والرابع كالدهن المستخرج من اللب. وكما أنّ القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مرّ المذاق، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر، وإن اتخذ حطباً أطفأ النار وأكثر الدخان، وإن ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدّة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه؛ فكذلك التوحيد بمجرّد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن، لكنه ينفع مدّة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت، والقشرة السفلى هي القلب والبدن. وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب،

والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة، وإنما يتجرّد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطباً لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب، وكذلك مجرّد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرّد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه؛ إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وبقوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] وكما أنّ اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق.

فإن قلت: كيف يتصوّر أن لا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟

فاعلم: أنّ هذه غاية علوم المكاشفات. وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة. نعم، ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن. وهو أنّ الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أنّ الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد؛ فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه، والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع، والملتفت إلى الكثرة في تفرقه، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير، وبعضها أشدّ كثرة من بعض، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوّة وإن لم تكن نبياً كان لك نصيب منه بقدر قوّة إيمانك. وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر، والدوام نادر عزيز. وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخوّاص يدور في الأسفار فقال: فيماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل ـ وقد كان من المتوكلين ـ؛ فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكأنّ الخوّاص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال.

فإن قلت: فلا بدّ لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه

فأقول: أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه، وليس التوكل أيضاً مبنياً عليه، بل يحصل حال

التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأوّل: وهو النفاق فواضح، وأما الثاني: وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في عالم الكلام، وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه. وأما الثالث: فهو الذي يبنى عليه التوكل، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب.

وحاصله: أن يكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عزّ وجلّ لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة من ملكوت السموات والأرض، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصدّك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين: أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات. والثاني: الالتفات إلى الجمادات، وأما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه، وعلى الغيم في نزول المطر، وعلى البرد في اجتماع الغيم، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها. وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥] قيل: معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا. ومن انكشف له أمر العلم كما هو عليه علم أنّ الريح هو الهواء والهواء لا يتحرّك بنفسه ما لم يحرّكه محرّك، وكذلك محرّكه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأوّل الذي لا محرّك له ولا هو متحرك في نفسه عزّ وجلّ؛ فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعفو عنه وتخليته، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول: لولا القلم لما تخلصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل. ومن علم أنّ القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض، وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب، بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أنّ الملك الموقع هو الكاتب التوقيع، والحق أنّ الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فإذا انكشف لك أنّ جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائباً وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك، فأتاك في المهلكة الثانية؛ وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول: كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره؛ فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك، وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك، فكيف لا تخافه؟ وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه؟ ويقول له أيضاً: نعم، إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له؟ وعند هذا زل أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخراً مضطراً، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخراً، وعرفوا أنّ غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسوّد الكاغد، ولم يمتدّ بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً عن صاحب اليد

فغلطت وظنت أنّ القلم هو المسوّد للبياض، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهراً وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون، ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات، فإنّ الحمار شريك فيه، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم، وإنما أريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي.

فإن قلت: فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل؛ فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت، وكيف سبحت وقدّست، وكيف شهدت على نفسها بالعجز؟

فاعلم: أنّ لكل ذرّة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى، فإنها كلمات تستمدّ من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ [الكهف: ١٠٩] الآية، ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت، وإفشاء السر لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، وهل رأيت قط أميناً على أسرار ملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق؟ ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**»(١)، بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون. ولما نهى عن إفشاء سر القدر(٢)، ولما قال: «**إذا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا وَإذا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإذا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا**»(٣)، ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار(٤). فإذن عن حكايات مناجاة ذرّات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان:

أحدهما: استحالة إفشاء السر.

والثاني: خروج كلماتها عن الحصر والنهاية، ولكنا في المثال الذي كنا فيه ـ وهي حركة القلم ـ نحكي من مناجاتها قدراً يسيراً يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفاً وأصواتاً، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول: قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ـ وقد رآه اسود وجهه بالحبر ـ: ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً والآن قد ظهر عليه السواد؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه؟ فقال الكاغد: ما أنصفتني في هذه المقالة، فإني ما سوّدت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر

---

(١) حديث: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً...**» الحديث. تقدم غير مرة.

(٢) حديث النهي عن إفشاء سر القدر: رواه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر: «القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره» لفظ أبي نعيم، وقال ابن عدي «لا تكلموا في القدر فإنه سر الله» الحديث. وهو ضعيف، وقد تقدم.

(٣) حديث: «**إذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا**» الحديث. أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء، وتقدم في العلم.

(٤) حديث: أنه خص حذيفة ببعض الأسرار، تقدم.

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان صاحب سر الرسول الله ﷺ كما هو معروف ومشهور.

عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً فقال: صدقت، فسأل الحبر عن ذلك؟ فقال: ما أنصفتني فإني كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها، فاعتدى عليَّ القلم بطمعه الفاسد، واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبدّدني كما ترى على ساحة بيضاء، فالسؤال عليه لا عَلَيَّ! فقال: صدقت، ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراجه الحبر من أوطانه فقال: سل اليد والأصابع؛ فإني كنت قصباً نابتاً على شط الأنهار متنزهاً بين خضرة الأشجار، فجاءتني اليد بسكين فنحت عني قشري ومزقت عني ثيابي، واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنابيبي، ثم برتني وشقت رأسي، ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته، وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك، فتنح عني وسل من قهرني، فقال: صدقت، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له، فقالت اليد: ما أنا إلا لحم وعظم ودم، وهل رأيت لحماً يظلم أو جسماً يتحرّك بنفسه؟ وإنما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له: القدرة والعزة، فهي التي ترددني، وتجول بي في نواحي الأرض، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدّى شيء منها مكانه ولا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر، أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم، ثم لا معاملة بينها وبين القلم، فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم، فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزعجني من ركبني، فقال: صدقت، ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها، فقالت: دع عنك لومي ومعاتبتي، فكم من لائم ملوم، وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمري؟ وكيف ظننت أني ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك، وما كنت أحرّكها ولا استسخرها، بل كنت نائمة ساكنة نوماً ظنّ الظانون بي أني ميتة أو معدومة، لأني ما كنت أتحرّك ولا أحرّك حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني، فكانت لي قوّة على مساعدته، ولم تكن لي قوّة على مخالفته، وهذا الموكل يسمى الإرادة، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله؛ إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي، فقال: صدقت، ثم سأل الإرادة: ما الذي جرّأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقاً لم تجد عنه مخلصاً ولا مناصاً، فقالت الإرادة: لا تعجل عليَّ فلعل لنا عذراً وأنت تلوم، فإني ما انتهضت بنفسي ولكن أنهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد عليّ من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار، فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل، ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته، لكني أدري أني في دعة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد القاهر، وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفاً وألزمت طاعته إلزاماً، بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة، لعمري ما دام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه، فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك، فإني كما قال القائل:

متى ترحلت عن قوم وقد قَدِروا أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

فقال: صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً لهم ومعاتباً إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة، فقال العقل: أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت، وقال

القلب: أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت، وقال العلم: أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي، فكم كان هذا اللوح قبل خالياً عني، فسل القلم عني لأنّ الخط لا يكون إلا بالقلم، فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال: قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره، ولكني كنت أطيب نفساً بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال. فأما قولك: إني خط ونقش، وإنما خطني قلم فلست أفهمه فإني لا أعلم قلماً إلا من القصب، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطاً إلا بالحبر، ولا سراجاً إلا من النار، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئاً، أسمع جعجعة ولا أرى طحناً، فقال له القلم: إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة؛ فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه، فما هذا بعشك، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له، وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد.

واعلم: أنّ العوالم في طريقك هذا ثلاثة: عالم الملك والشهادة أوّلها، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، والثاني عالم الملكوت وهو ورائي؛ فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله وفيه المهامة والفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة، ولا أدري كيف تسلم فيها، والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت؛ لأنّ عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء، فلا هي في حدّ اضطراب الماء ولا هي في حدّ سكون الأرض وثباتها، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة، فإن جاوزت قوّته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت، فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع. فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي، وأوّل عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء، أما سمعت قول رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام «**لَوِ ازْدَادَ يَقِيناً لمشى عَلَى الهَوَاءِ**»[1]، لما قيل له إنه كان يمشي على الماء، فقال السالك السائل: قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق، ولست أدري أطيق قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا؟ فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدّقه نحوي؛ فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع باباً من أبواب الملكوت كوشف بالقلم، أما ترى أنّ النبي ﷺ في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العَلَق: ٣-٥] فقال السالك: لقد فتحت بصري وحدقته، فوالله ما أرى قصباً ولا خشباً، ولا أعلم قلماً إلا كذلك، فقال العلم: لقد أبعدت النجعة، أما سمعت أنّ متاع البيت يشبه رب البيت، أما علمت أنّ الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فكذلك لا

---

(١) حديث: قيل له إن عيسى يمشي على الماء، قال: «**لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء**»، تقدم.

تشبه يده الأيدي ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت، فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه بصوت وحرف، ولا خطه رقم ورسم، ولا حبره زاج وعفص، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثاً بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه، مذبذباً بين هذا وذا، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها؟ ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه؟ فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ: «إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبهاً مطلقاً، كما يقال: كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالتوراة، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزهاً صرفاً ومقدّساً فحلاً، واطوِ الطريق فإنك بالواد المقدّس طوى، واستمع بسر قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادي بما نودي به موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]، فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه، فاشتعل قلبه ناراً من حدّة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فلما نفخ فيه العلم بحدّته اشتعل زيته فأصبح نوراً على نور، فقال له العلم: اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه؛ ما هو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم، وكأن له في كل قلب رأساً ولا رأس له، فقضى منه العجب وقال: نعم الرفيق العلم، فجزاه الله تعالى عني خيراً؛ إذ الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم؛ فإني أراه قلماً لا كالأقلام. فعند هذا ودع العلم وشكره وقال: قد طال مقامي عندك ومرادتي لك، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه، فسافر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى إشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات؟ فقال: أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد؟ قال: لم أنس ذلك. قال: فجوابي مثل جوابه. قال: كيف وأنت لا تشبهه؟ قال القلم: أما سمعت أنّ الله تعالى خلق آدم على صورته؟ قال: نعم. قال: فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فإني في قبضته، وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر؛ فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة. فقال: فمن يمين الملك؟ فقال القلم: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]؟ قال: نعم. قال: والأقلام أيضاً في قبضة يمينه هو الذي يرددها. فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه، والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان، ويد لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع؛ فرأى القلم محرّكاً في قبضته، فظهر له عذر القلم، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم؟ فقال: جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة؛ إذ اليد لا حكم لها في نفسها وإنما محرّكها القدرة لا محالة. فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت: إنما أنا صفة فاسأل القادر؛ إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت

ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] فغشيته هيبة الحضرة، فخر صعقاً يضطرب في غشيته، فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك، وما لي إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك، فأقول: اشرح لي صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لأثني عليك؛ فنودي من وراء الحجاب: إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء، بل ارجع إليه، فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه، وما قاله لك فقله؛ فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال: «**سُبْحَانَكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[(١)]، فقال: إلهي، إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك، فنودي: إياك أن تتخطى رقاب الصدّيقين، فارجع إلى الصدّيق الأكبر فاقتد به؛ فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، أما سمعته يقول: العجز عن درك الإدراك إدراك، فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا. فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها: اقبلوا عذري فإني كنت غريباً حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة، فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل، والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أنّ المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن؛ فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له: كيف يكون هو الأوّل والآخر وهما وصفان متناقضان، وكيف يكون هو الظاهر والباطن؛ فالأول ليس بآخر، والظاهر ليس بباطن؟ فقال: هو الأوّل بالإضافة إلى الموجودات؛ إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السفر، فهو آخر في المشاهدة أوّل في الوجود، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت، فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل ـ أعني من انكشف له أنّ الفاعل واحد ـ.

فإن قلت: قد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتني على الإيمان بعالم الملكوت، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه؟

فأقول: أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له: إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس، فإن قال: وأنا منهم؛ فإني لا أهتدي إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه، فيقال: إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس، فإنهم قالوا: ما نراه لا نثق به، فلعلنا نراه في المنام. فإن قال: وأنا من جملتهم فإني شاك أيضاً في المحسوسات فيقال: هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه، فيترك أياماً قلائل، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء. هذا حكم الجاحد، وأما

---

(١) حديث: «**سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»، تقدم.

الذي لا يجحد ولكن لا يفهم. فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت، فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك ﷺ بخواص أصحابه، فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرّات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإنّ في عالم الشهادة أيضاً توحيداً؛ إذ يعلم كل أحد أنّ المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد بأميرين، فيقال له على حدّ عقله: إله العالم واحد والمدبر واحد؛ إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله، وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حدّ عادتهم في المحاورة.

فإن قلت: فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلاً فيه؟

فأقول: نعم؛ فإن الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال، إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالباً، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده. وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك، بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً وإن كان يزداد وضوحاً، كما أنّ الذي يرى إنساناً في وقت الإسفار لا يزداد يقيناً عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام، ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ بل ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] فإنّ البيان والكشف يمنع التغيير. وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان، فلما نظروا إلى عجل السامري وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل، لأنّ كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير. وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد اختلافاً وتضاداً أصلاً.

فإن قلت: ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أنّ الوسائط والأسباب مسخرات، وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان فإنه يتحرّك إن شاء ويسكن إن شاء، فكيف يكون مسخراً؟

فاعلم: أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء؛ لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط، ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه؛ إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية، وإذا لم تكن المشيئة إليه فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة، فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة، والقدرة متحرّكة ضرورة عند انجزام المشيئة؛ فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب. فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة

إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة، فهو مضطر في الجميع.

فإن قلت: فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار، وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً؟

فأقول: لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور، فهو إذن مجبور على الاختيار، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار، فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما ذكره متطفلاً وتابعاً؛ فإنّ هذا الكتاب لم نقصد به إلا علم المعاملة، ولكني أقول لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه؛ إذ يقال: الإنسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة، ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات: فنسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً، ونسمي تنفسه فعلاً إرادياً، ونسمي كتابته فعلاً اختيارياً، والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي؛ لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة وقد يكون الخرق بعد التخطي ضرورياً، والتنفس في معناه؛ فإنّ نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن، فمهما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق بعده، وليس الثقل إليه، وكذلك الإرادة ليست إليه، ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطراراً، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أنّ تغميض الأجفان اضطراراً فعل إرادي، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة، وحدثت الحركة بها، ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً. وأما الثالث ـ وهو الاختياري ـ: فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق، وهو الذي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وتارة يشاء وتارة لا يشاء؛ فيظن من هذا أنّ الأمر إليه، وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه: أنّ الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك، والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد، وإلى ما قد يتردد العقل فيه؛ فالذي تقطع به من غير تردد: أن يقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدنك بسيف، فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق، فلا جرم تنبعث الإرادة بالعلم. والقدرة بالإرادة، وتحصل حركة الأجفان بالدفع، وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة، ويكون ذلك بالإرادة، ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية فكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك، فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية فكر، فانبعثت الإرادة هاهنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان؛ فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير، أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة، ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه، إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية، فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقف، وعن هذا قيل: إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين، ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة، وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث لحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً، وقتل نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوّة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق؛ فإنّ

العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد؛ لأن تردده بين شر الشرين؛ فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه، كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمي بنفسه من السطح مثلاً وإن مهلكاً ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمي نفسه، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي، فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبعث له داعية ألبتة، لأنّ داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس، والقدرة مسخرة للداعية، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدّر بالضرورة فيه من حيث لا يدري، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور، فأما أن يكون منه فكلا ولا، فإذن: معنى كونه مجبوراً: أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه، ومعنى كونه مختاراً: أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فإذا هو مجبور على الاختيار، ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض، وفعل الله تعالى اختيار محض، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة، لأنه لما كان فناً ثالثاً وائتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه، وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد، فإنّ ذلك في حقه محال، وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه.

فإن قلت: فهل تقول إن العلم ولد الإرادة، والإرادة ولدت القدرة، والقدرة ولدت الحركة، وأن كل متأخر حدث من المتقدّم؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى، وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض؟

فاعلم: أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على معنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية، وهو الأصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه، والكافة وقفوا على مجرّد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق، وبيان ذلك يطول، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط؛ فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة، وكما لا يجوز أن يقال: الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدّم متقدّم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم، وكذلك جميع أفعال الله تعالى، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين - تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً - وإلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث، وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه، والمشروط قبل الشرط محال، والمحال لا يوصف بكونه مقدوراً، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم، وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق، ليس في شيء من ذلك لعب

واتفاق، بل كل ذلك بحكمة وتدبير، وتفهيم ذلك عسير، ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالاً يقرب مبادىء الحق من الأفهام الضعيفة، وذلك بأن نقدّر إنساناً محدثاً قد انغمس في الماء إلى رقبته، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له، فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه، فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث، فربما يظن الجاهل أنّ الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيبه؛ إذ يقول: كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعاً والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فإذن غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرداة والإرادة بالعلم، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة، فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدّرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات، فلنترك جميع ذلك فإنّ مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل، فإنّ الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد، واستيفاء ذلك في عمر نوح محال، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه، وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله، وما أخف مؤنته على اللسان! وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب! وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم.

فإن قلت: فكيف الجمع بين التوحيد والشرع، ومعنى التوحيد: أن لا فاعل إلا الله تعالى. ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد؛ فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً؟ وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم. **فأقول:** نعم، ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنىً واحد، وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملاً مردداً بينهما لم يتناقض، كما يقال: قتل الأمير فلاناً، ويقال: قتله الجلاد، ولكن الأمير قاتل بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر؛ فكذلك العبد فاعل بمعنى، والله عزّ وجلّ فاعل بمعنى آخر؛ فمعنى كون الله تعالى فاعلاً أنه المخترع الموجد، ومعنى كون العبد فاعلاً: أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم، فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع، وكل ما له ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلاً له كيفما كان الارتباط، كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً؛ لأنّ القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين، فلذلك سمي فعلاً لهما، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه، فقال تعالى في الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السَّجدَة: ١١] ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢] وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الواقِعَة: ٦٣] أضاف إلينا ثم قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ [عَبَس: ٢٥-٢٨] وقال عزّ وجلّ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريَم: ١٧] ثم قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبيَاء: ٩١] وكان النافخ

جبريل عليه السلام، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨] قيل في التفسير: معناه إذا قرأه عليك جبريل. وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه، والتعذيب هو عين القتل، بل صرح وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً، ولكن معناه: وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به رامياً إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً؛ إذ هما معنيان مختلفان. وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ٤، ٥] ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: ١، ٢] وقال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ٤] وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٩] وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩] ثم قال رسول الله ﷺ في وصف ملك الأرحام: **«إِنَّهُ يَدْخُلُ الرَّحِمَ فَيَأْخُذُ النُّطْفَةَ فِي يَدِهِ ثُمَّ يُصَوِّرُهَا جَسَداً، فَيَقُولُ: يا رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَسَوِيٌّ أَمْ مُعْوَجٌّ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ما شَاءَ وَيَخْلُقُ المَلَكُ»**[(١)]، وفي لفظ آخر: **«وَيُصَوِّرُ المَلَكُ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّقَاوَةِ»**. وقد قال بعض السلف: إنّ الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحاً يلج في جسم، ولذلك سمي روحاً، وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم، فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل، والحكم به دون النقل تخمين مجرّد، وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] فبين أنه الدليل على نفسه؛ وذلك ليس متناقضاً بل طرق الاستدلال مختلفة، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت، ثم فوّض الموت والحياة إلى ملكين، ففي الخبر: **«أنّ ملكي الموت والحياة تناظرا، فقال ملك الموت: أنا أميت الأحياء، وقال ملك الحياة: أنا أحيي الموتى، فأوحى الله تعالى إليهما: كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع، وأنا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواي»**[(٢)]، فإذن: الفعل يستعمل على وجوه مختلفة، فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت، ولذلك قال ﷺ للذي ناوله التمرة: **«خُذْهَا لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لأَتَتْكَ»**[(٣)]، أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة، ومعلوم أنّ التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي

---

(١) حديث: وصف ملك الأرحام: **«أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسداً. . .»** الحديث. رواه البزار وابن عدي من حديث عائشة: **«إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكاً فيدخل الرحم فيقول: يا رب ماذا. . .»** الحديث. وفي آخره: **«فما من شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم»** وفي سنده جهالة. وقال ابن عدي: إنه منكر، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه.

(٢) حديث: **«إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت: أنا أميت الأحياء، وقال ملك الحياة: أنا أحيي الأموات، فأوحى الله إليهما: أن كونا على عملكما. . .»** الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: قال للذي ناوله التمرة: **«خذها لو لم تأتها لأتتك»** أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل، ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح.

الإنسان إليها وكذلك لما قال التائب: أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد، فقال ﷺ: **«عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ»**[١]، فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز والمستعير في كلامه، وللتجوّز وجه كما أنّ للحقيقة وجهاً، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظن أنّ الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلاً بحركته وظن أنه تحقيق، وتوهم أنّ نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد، فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا: إن الفاعل قد وضعته أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلا الله، فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز. أي: تتجوّز به عما وضعه اللغوي له، ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً صدّقه رسول الله ﷺ فقال: **«أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرَ قَوْلُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللَّهَ بَاطِلُ»**[٢] أي: كل ما لا قوام له بنفسه ـ وإنما قوامه بغيره ـ فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيته، وحقيقته بغيره لا بنفسه، فإذن: لا حق بالحقيقة إلى الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء، فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته، فهو الحق وما سواه باطل، ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فإنه اليوم كما كان.

فإن قلت: فقد ظهر الآن أن الكل جبر، فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا، وكيف غضبه على فعل نفسه؟.

فاعلم: أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بإعادته، فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ولا يتم حال التوكل ـ كما سيأتي ـ إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل، وهذا الإيمان أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول، فلنذكر حاصله ليعتقده الطلب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه: وهو أن يصدّق تصديقاً يقيناً لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عزّ وجلّ لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرّفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا

---

(١) حديث: أنه قال للذي قال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد: **«عرف الحق لأهله»**، تقدم في الزكاة.

(٢) حديث: **«أصدق بيت قالته العرب بيت لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»**. متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: **«قاله الشاعر»** وفي رواية لمسلم: **«أشعر كلمة تكلمت بها العرب»**.

وهذا شطر من بيت وتمامه:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ولقد رد أحد الصحابة على من استشهد به بقوله:

صدق القائل من الشطر الأول وكذب في الثاني لأن نعيم الجنة لا يزول.

والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرّة ولا أن يخفض منها ذرّة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلي به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره؛ إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة. وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل، وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس؛ فإنّ الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً، وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل؛ لأنه فداء كامل بناقص، فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة، فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه. وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون.

والحاصل: أن الخير والشر مقضيّ به، وقد كان ما قضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

الشطر الثاني من الكتاب: في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل، وبيان ما قاله الشيوخ في حدّ التوكل، وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعيل، وبيان التوكل بترك الادخار، وبيان التوكل في دفع المضارّ، وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوي وغيره، والله الموفق برحمته.

بيان حال التوكل:

قد ذكرنا أنّ مقام التوكل ينتظم من: علم، وحال، وعمل. وذكرنا العلم.

فأما الحال: فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه، وإنما العلم أصله والعمل ثمرته، وقد أكثر الخائضون في بيان حدّ التوكل واختلفت عباراتهم، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كما جرت عادة أهل التصوّف به، ولا فائدة في النقل والإكثار، فلنكشف الغطاء عنه ونقول:

التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكَّل أمره إلى فلان. أي: فوّضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه: وكيلاً، ويسمى المفوض إليه: متكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً. فالتوكل: عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده. ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول: من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله، إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية، ومنتهى القوّة، ومنتهى الفصاحة، ومنتهى الشفقة. أما الهداية: فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً. وأما القدرة والقوّة؛ فليستجرىء على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن عليه أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به. وأما الفصاحة؛ فهي أيضاً من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه، فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس. وأما منتهى الشفقة؛ فيكون باعثاً على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود، فإنّ قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ولا يبالي به، ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك؛ فإن كان شاكاً في الأربعة أو في واحدة منها أو جوّز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله، بل بقي منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير؛ ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه، ويكون تفاوت درجة أحواله في شدّة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوّة اعتقاده لهذه الخصال فيه، والاعتقادات والظنون في القوّة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوّة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه، كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية، وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقدرهم بياناً وأقدرهم على نصرة الحق، بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق. فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى، فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوّته، فإنه لا حول ولا قوّة إلا بالله ـ كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ـ فإنّ الحول عبارة عن الحركة، والقوة عبارة عن القدرة، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين: إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين، فإنّ من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه جماد في الحال،

وأنّ سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادراً عليه، كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور أسداً وإن كان قادراً عليه، ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو المبيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل، وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه، فإذن: لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً؛ إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر، فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله؛ فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة؛ وذلك لا يكون في البداية أصلاً، وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب، فإنّ اليهودي مطمئن القلب إلى تهوّده، وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً، وإنما يتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين، إلا أنهم معرضون عنه. فإذن: الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل، كما أنّ ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب، وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى؛ وقد قيل: مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته إنسان مثله، وقد قال ﷺ: «**من استعز بالعبيد أذله الله تعالى**»(١).

وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أنّ تلك الحالة لها في القوّة والضعف ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: ما ذكرناه؛ وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.

الثانية: وهي أقوى؛ أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه؛ فإنها مفزعه، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له، ويظن أنه طبع من حيث إنّ الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه، ولكن كل ذلك وراء الإدراك، فمن كان باله إلى الله عزّ وجلّ ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً؛ فإنّ الطفل متوكل على أمه. والفرق بين هذا وبين الأول: أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله؛ إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الأوّل: فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانياً عن توكله؛ لأنّ له التفاتاً إلى توكله وشعوراً به، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده. وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل: ما أدناه؟ قال: ترك الأماني. قيل: وأوسطه؟ قال: ترك الاختيار، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية. وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال: لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه.

---

(١) حديث: «**من اعتز بالعبيد أذله الله**» أخرجه العقيلي في الضعفاء، وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر، أورده العقيلي في ترجمة عبدالله بن عبدالله الأموي وقال: لا يتابع على حديثه، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال: يخالف في روايته.

الثالثة: وهي أعلاها؛ أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحرّكه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت، وهو الذي قوي يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات، وأن كلاّ يحدث جبراً فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه، ويفارق الصبي فإنّ الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها، بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه. وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته، وأنه يعطي ابتداء أفضل مما يسأل، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق! والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط.

فإن قلت: فهذه الأحوال هل يتصور وجودها؟.

فاعلم: أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر، والمقام الثاني والثالث أعزها، والأوّل أقرب إلى الإمكان، ثم إذا وجد الثالث والثاني فداومه أبعد منه، بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجل، فإنّ انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوّة والأسباب طبع وانقباضه عارض، كما أنّ انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض. والوجل: عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة، فإنّ البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوّة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم. وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم، فإنه قد يدوم يوماً ويومين. والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول.

فإن قلت: فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال؟.

فاعلم: أنّ المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية، بل يكون صاحبها كالمبهوت. والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط. والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسننه دون صريح إشارته، فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له: لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور، ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه؛ إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوّته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له؛ إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر؛ فقوله: وأما المعلوم من عادته واطراد سنته: فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الخصم إلا من السجل، فتمام توكله إن كان متوكلاً عليه: أن يكون معولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها؛ وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته؛ فإذن لا يستغني عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل، ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكله فكيف يكون فعله نقصاً فيه؟ نعم، بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظراً إلى محاجته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوّته؛ إذ لم يبق له حول ولا قوّة، وقد كان فزعه إلى حوله وقوّته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته، وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري. وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس

من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل، وأنّ كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال، فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوّته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل؛ لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى؛ فإذن لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوّته بل من حيث إنّ الوكيل جعله معتمداً لمحاجته، وعرّفه ذلك بإشارته وسنته، فإذن: لا حول ولا قوّة إلا بالوكيل، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل؛ لأنه ليس خالقاً حوله وقوته، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى؛ إذ هو خالق الحول والقوّة ـ كما سبق في التوحيد ـ وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد. فإذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً، فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله[1]، وذلك قد يستبعد فيقال: كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها؟ وهيهات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد، ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة (لا إله إلا الله) وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى؛ إذ في هذه الكلمة إضافة شيئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه، فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين، فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين، وإلى اللبين الإشارة بقوله ﷺ: «**مَنْ قالَ لا إله إلاّ اللّهُ صَادِقاً مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصاً وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ**»[2]، وحيث أطلق من غير الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع، والمراد به المقيد بالعمل الصالح، فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضاً حديث ولكنه حديث نفس، وإنما الصدق والإخلاص وراءهما، ولا ينصب سرير الملك إلا للمقرّبين وهم المخلصون. نعم، لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك، أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦﴾ [الواقِعَة: ١٥، ١٦] ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد في ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والحور العين، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام، وأين لذات البهائم من لذة الملك، والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين، ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة، أفترى أنّ أحوال البهائم ـ وهي مسيبة في الرياض متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد ـ أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوي الكمال مغبوطة ـ من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين، هيهات هيهات! ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حماراً أو

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله: تقدمت في الدعوات.

(٢) حديث: «**من قال لا إله إلا الله صادقاً مخلصاً من قلبه وجبت له الجنة**» رواه الطبراني من حديث زيد بن أرقم، وأبو يعلى من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام! وليس يخفى أنّ شبه كل شيء منجذب إليه، وأنّ النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة، وهؤلاء هم الذين يقال فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وإنما كانوا أضل؛ لأن الأنعام ليس في قوّتها طلب درجة الملائكة، فتركها الطلب للعجز. وأما الإنسان ففي قوته ذلك، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال. وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المقصود، فقد بيّنا معنى قول: (لا إله إلا الله) ومعنى قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل.

فإن قلت: ليس في قولك: (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلا نسبة شيئين إلى الله، فلو قال قائل: السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟

فأقول: لا؛ لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين، ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوزاً، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى، فأما الحول والقوة: فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعي أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدّة نظره، فهي مهلكة مخطرة، ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون؛ إذ أثبتوا لأنفسهم أمراً، وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى، فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذي يصدق قول لا حول ولا قوّة إلا بالله. وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان:

إحداهما: النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات.

والثانية: النظر إلى اختيار الحيوانات، وهي أعظم العقبتين وأخطرهما ويقطعهما كمال سر التوحيد، فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة. أعني: ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها؛ فإذاً: رجع حال التوكل إلى التبري من الحول والقوّة والتوكل على الواحد الحق، وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى.

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل:

ليتبين أنّ شيئاً منها لا يخرج عما ذكرناه ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال، فقد قال أبو موسى الديلي: قلت لأبي يزيد: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرك. فقال أبو يزيد: نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل. فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة. وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك

الاحتراز عن الحيات شرطاً في المقام الأوّل من التوّكل؛ فقد احترز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سدّ منافذ الحيات[1] إلا أن يقال: فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره، أو يقال: إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله ﷺ لا في حق نفسه، وإنما يزول التوّكل بتحرّك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه، وللنظر في هذا مجال، ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوّكل؛ فإنّ حركة السر من الحيات هو الخوف، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات؛ إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله، فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير.

وسئل ذو النون المصري عن التوكل؟ فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب. فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال، وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له: زدنا! فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية. وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط.

وسئل حمدون القصار عن التوكل؟ فقال: إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك. وهذا إشارة إلى مجرّد الإيمان بسعة القدرة، وأن في المقدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة.

وسئل أبو عبدالله القرشي عن التوكل؟ فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال، فقال السائل: زدني! فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك. فالأوّل عام للمقامات الثلاث، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة، وهو مثل توكل إبراهيم ﷺ إذ قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا؛ إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك، فيكون هو المتولي لذلك، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره، وهو حال عزيز في نفسه، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز.

وقال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب. ولعله يشير إلى المقام الثاني، فسكونه بلا اضطراب: إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به، واضطراب بلا سكون: إشارة إلى فزعه إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها.

وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، والمسلم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه، فإنّ العلم هو الأصل، والوعد يتبعه، والحكم يتبع الوعد، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك. وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل. فهذا ما يتعلق بحال التوكل، والله الموفق برحمته ولطفه.

---

(١) حديث: «إن أبا بكر سدّ منافذ الحيات في الغار شفقة على النبيّ ﷺ»، تقدم.

بيان أعمال المتوكلين:

اعلم: أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال. وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال، فإنّ ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين! بل نكشف الغطاء عنه ونقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وسعي العبد باختياره: إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار، أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة: وهو جلب النافع أو حفظه، أو دفع الضارّ أو قطعه، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقروناً بشواهد الشرع.

الفن الأول: في جلب النافع: فنقول فيه: الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون ظناً يوثق به، وموهوم وهماً لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه.

الدرجة الأولى: المقطوع به، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف، كما أنّ الطعام إذا كان موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمدّ اليد إليه وتقول أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي ومدّ اليد إليه سعي وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعاً دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكاً ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام، فكل ذلك جنون، وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه. فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم. **أما العلم**: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوّة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك. **وأما الحال**: فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام، وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج؟ وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك؟ وكيف تعول على حضور الطعام، وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرّق بينك وبين طعامك؟ وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول، فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمدّ اليد فإنه متوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أنّ المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيداً، كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطاً في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأوّلين، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق، ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخوّاص.

فإن قلت: فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة.

فاعلم: أنّ ذلك يخرج عن كونه حراماً بشرطين:

أحدهما: أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسوّاها على الصبر عن الطعام أسبوعاً وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوّش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى.

والثاني: أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة؛ فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزىء به فيحيا به مجاهداً نفسه. والمجاهدة عماد التوكل، وعلى هذا كان يعول الخوّاص ونظراؤه من المتوكلين. والدليل عليه: أنّ الخواص كان لا يفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول: هذا لا يقدح في التوكل. وسببه: أنه علم أنّ البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض، وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة؛ فإنّ المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام، وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرّق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة في البوادي غالباً عند كل صلاة، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي، فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضاً يلتحق بالدرجة الثانية؛ لأنه مظنون ظناً ليس مقطوعاً به؛ لأنه يحتمل أن لا يتخرّق الثوب أو يعطيه إنسان ثوباً أو يجد على رأس البئر من يسقيه، ولا يحتمل أن يتحرّك الطعام ممضوغاً إلى فيه، فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأوّل. ولهذا نقول: لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلاً، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه، كما روي: أنّ زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعاً وقال: لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي، فقعد سبعاً فكاد يموت ولم يأته رزق، فقال: يا رب إن أحييتني فائتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك، فأوحى الله جل ذكره إليه: وعزتي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس، فدخل المصر وقعد، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا! أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إليّ من أن أرزقه بيد قدرتي. فإذن: التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عزّ وجلّ دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلاً في الوكيل بالخصومة من قبل، ولكنّ الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب.

فإن قلت: ما قولك في القعود في البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟.

فاعلم: أن ذلك ليس بحرام؛ لأنه كفعل صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكاً نفسه، فهذا كيف كان لم يكن مهلكاً نفسه حتى يكون فعله حراماً، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراماً إلا أن يشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل، وهو من مقامات التوكل؛ وهو أن يشتغل

بالله تعالى ولا يهتم برزقه، فإنّ الرزق يأتيه لا محالة، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء: وهو أنّ العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصياً، ولقال له: يا جاهل، كيف أخلقك ولا أرزقك؟ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلا الله تعالى. وقال ﷺ: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً وَلَزَالَتْ بِدُعَائِكُمُ الجِبَالُ**»(١). وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم؛ فإن قلتم: نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون. وقال بعضهم: العبيد كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار، وبعضهم بامتهان كالصناع، وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها؛ وهو الذي فيه الناس كلهم، أعني: من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح. فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل، وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطير والكي بالإضافة إلى إزالة الضارّ، فإن النبي ﷺ وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئاً، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب. وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها. وقال سهل في التوكل: إنه ترك التدبير، وقال: إنّ الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه، وإنما حجابهم بتدبيرهم. ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية. فإذن: قد ظهر أن الأسباب منقسمة: إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج، وأن الذي يخرج ينقسم: إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل، وعلمه؛ وهو الاتكال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. وأما المظنونات: فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً، والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات:

الأوّل: مقام الخواص ونظرائه؛ وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً وما فوقه، أو تيسير حشيش له أو قوت، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك، فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعاً، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده.

---

(١) حديث: «**لو توكلتم على الله حق توكله...**» الحديث. وزاد في آخره: «**ولزالت بدعائكم الجبال**». وقد تقدما قريباً دون هذه الزيادة، فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه لين: «**لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال**» ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلاً دون قوله: «**المشيتم على البحور**» وقال: هذا منقطع.

المقام الثاني: أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار، وهذا أضعف من الأوّل، ولكنه أيضاً متوكل؛ لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية، ولكنه بالقعود في الأمصار متعرّض لأسباب الرزق؛ فإن ذلك من الأسباب الجالبة، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد؛ إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم.

المقام الثالث: أن يخرج ويكتسب اكتساباً على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب، وهذا السعي لا يخرجه أيضاً عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوّته وجاهه وبضاعته، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له، بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرّك؟ وإلى ماذا يميل؟ وبم يحكم؟ ثم إن كان هذا المكتسب مكتسباً لعياله أو ليفرّق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع؛ فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته، والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق: أن الصدّيق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذاً الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي، حتى كرهه المسلمون وقالوا: كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوّة؟ فقال: لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع، حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى، ويستحيل أن يقال: لم يكن الصديق في مقام التوكل! فمن أولى بهذا المقام منه؟ فدل على أنه كان متوكلاً لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب، وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا. نعم، يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد. وقال أبو جعفر الحداد ـ وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما ـ وكان من المتكلمين: أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق، كنت أكتسب في كل يوم ديناراً ولا أبيت منه دانقاً ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام، بل أخرجه كله قبل الليل. وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته وكان يقول: أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي. واعلم: أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف، ولكن يقوى بالحال والعلم، كتوكل المكتسب؛ وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم، لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقاً، فهو كدخول السوق، ولا يكون داخل السوق متوكلاً إلا بشروط كثيرة كما سبق.

فإن قلت: فما الأفضل أن يقعد في بيته، أو يخرج ويكتسب؟.

فاعلم: أنه إن كان يتفرّغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك، وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاً بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى، فالقعود له أولى. وإن كان يضطرب قلبه في

البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى؛ لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك الكسب، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم. كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئاً فضلاً عما كان استأجره عليه، فرده، فلما ولّى قال له أحمد: الحقه وأعطه فإنه يقبل، فلحقه وأعطاه فأخذه، فسأل أحمد عن ذلك؟ فقال: كان قد استشرفت نفسه فرد، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ. وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئاً. وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره: رأيت الخضر ورضي بصحبتي ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصاً في توكلي. فإذن: المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو: أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلاً.

فإن قلت: فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية؟.

فأقول: علامته؛ أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوّق أمر من أموره كان راضياً به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً، فإنّ من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه. وكان بشر يعمل المغازل فتركها؛ وذلك لأنّ البعادي كاتبه قال: بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك، الرزق على من؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها. وقيل: تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها. وقيل: فعل ذلك لما مات عياله، كما كان لسفيان خمسون ديناراً يتجر فيها، فلما مات عياله فرّقها.

فإن قلت: فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أنّ الكسب بغير بضاعة لا يمكن؟.

فأقول: بأن يعلم أنّ الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة، وأنّ الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة، وأن يوطن نفسه على أنّ الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سبباً لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به، وغايته أن يموت جوعاً، فينبغي أن يعتقد أنّ الموت جوعاً خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها، ففي الخبر: **«إنَّ العَبْدَ لَيَهُمُّ مِنَ اللَّيْلِ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ التِّجَارَةِ مِمَّا لَوْ فَعَلَهُ لكانَ فِيهِ هَلاكُهُ فينظر اللَّهُ تعالى إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ عرشِهِ فيصرفه عنه فيصبح كئيباً حَزِيناً يَتَطَيَّرُ بجاره وابن عمه: مَنْ سَبَقَنِي؟ مَنْ دَهَانِي؟ وما هِيَ إلاَّ رَحْمَةٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بها»**[1]، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً، فإني لا أدري أيهما خير لي. ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصوّر منه التوكل؛ ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإني ما شممت منه رائحة. هذا كلامه مع علوّ قدره، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال: ما أدركته، ولعله أراد إدراك أقصاه، وما لم يكمل الإيمان

---

(١) حديث: **«إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه. . .»** الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جداً نحوه، إلا أنه قال: **«إن العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا. . .»** الحديث. بنحوه.

بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدّره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد، لم يكمل حال التوكل؛ فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور ـ كما سبق ـ وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبني على أصولها من الإيمان. وبالجملة: التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين، ولذلك قال سهل: من طعن على التكسب فقد طعن على السنة، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد.

فإن قلت: فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظنّ بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية؟.

فأقول: نعم، هو أن تعرف أنّ سوء الظن تلقين الشيطان، وحسن الظن تلقين الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٨] فإنّ الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان؛ ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظن مولع. وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضاً تبطل التوكل، فقد حكي عن عابد: أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم، فقال له الإمام: لو اكتسبت لكان أفضل لك، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثاً، فقال في الرابعة: يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين، فقال: إن كان صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك، فقال: يا هذا، لو لم تكن إماماً تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك؛ إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق. وقال إمام المسجد لبعض المصلين: من أين تأكل؟ فقال: يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك.

وينفع حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية: أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه، وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعاً، كما روي عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إليّ إبراهيم وقال: يا حذيفة، أرى بك الجوع، فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال: عليّ بدواة وقرطاس، فجئت به إليه فكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، أنت المقصود إليه بكل حال، والمشار إليه بكلّ معنى، وكتب شعراً:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ... فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إليّ الرقعة فقال: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك، فخرجت فأول من لقيني كان رجلاً على بغلة، فناولته الرقعة فأخذها، فلما وقف عليها بكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إليّ صرة فيها ستمائة دينار، ثم لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة فقال: هذا نصراني، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمسها فإنه يجيء الساعة، فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم.

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري: جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفاً، فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئاً يسكن ضعفي، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها، فوجدت في قلبي منها وحشة وكأنّ قائلاً يقول لي: جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت، فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال: هذه لك، فقلت: كيف خصصتني بها؟ قال: اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق، فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين، وأنت أول من لقيته، فقلت: افتحها، ففتحها فإذا فيها سميد مصري ولوز مقشور وسكر كعاب، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت: رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم، وقد قبلتها، ثم قلت في نفسي: رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي.

وقال ممشاد الدينوري: كان عليَّ دين فاشتغل قلبي بسببه، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول: يا بخيل، أخذت علينا هذا المقدار من الدين، خذ، عليك الأخذ وعلينا العطاء، فما حاسبت بعد ذلك بقالاً ولا قصاباً ولا غيرهما.

وحكي عن بنان الحمال قال: كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد؛ فجاءتني امرأة وقالت لي: يا بنان، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك، قال: فرميت بزادي، ثم أتى عليَّ ثلاث لم آكل، فوجدت خلخالاً في الطريق فقلت في نفسي: أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطيني شيئاً فأرده عليه، فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لي: أنت تاجر تقول: عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئاً! ثم رمت لي شيئاً من الدراهم وقالت: أنفقها، فاكتفيت بها إلى قريب من مكة.

وحكي: أن بناناً احتاج إلى جارية تخدمه، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا: هو ذا يجيء النفير فنشتري ما يوافق، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا: إنها تصلح له، فقالوا لصاحبها: بكم هذه؟ فقال: إنها ليست للبيع، فألحوا عليه فقال: إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة.

وقيل: كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص فقال: إن أكلته مت، فوكَّل الله عزّ وجلّ به ملكاً وقال: إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده.

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت البادية بغير زاد فأصابتني فاقة، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت، ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره، وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة وواريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتاً في نصف الليل عالياً: يا أهل المرحلة، إن لله تعالى ولياً حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية.

وروي: أنّ رجلاً لازم باب عمر رضي الله عنه فإذا هو بقائل يقول: يا هذا، هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى؟ اذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة، فجاءه عمر فقال له: إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني؟ فقال: إني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر، فقال عمر: رحمك الله فما الذي وجدت فيه؟ فقال وجدت فيه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢] فقلت: رزقي في السماء وأنا أطلبه في

الأرض، فبكى عمر وقال: صدقت، فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه.

وقال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت: لا والله لا أستغيث، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نسدّ رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر، فهممت أن أصيح فقلت في نفسي: إلى من أصيح هو أقرب منهما، وسكنت، فبينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول: تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك، فتعلقت به فأخرجني، فإذا هو سبع، فمرّ وهتف بي هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن، نجيناك من التلف بالتلف، فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشفَ الهوى ... وأغنيتني بالفهم منك عن الكشفِ
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرك باللطفِ
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما ... تبشرني بالغيب أنك في الكفِ
أراك وبي من هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطفِ
وتحيي محباً أنت في الحب حتفه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتفِ

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر، وإذا قوي الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عزّ وجلّ ولذلك حبسه عنه، تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات، وإلا فلا يتم أصلاً.

بيان توكل المعيل:

اعلم: أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد؛ لأنّ المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين:

أحدهما: قدرته على الجوع أسبوعاً من غير استشراف وضيق نفس.

والآخر: أبواب من الإيمان ذكرناها، من جملتها: أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأته رزقه، علماً بأنّ رزقه الموت والجوع، وهو إن كان نقصاً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة، فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له: وهو رزق الآخرة، وأنّ هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضياً بذلك، وأنه كذا قضى وقدّر له، فبهذا يتم التوكل للمنفرد. ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع، ولا يمكن أن يقرّر عندهم الإيمان بالتوحيد وأنّ الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادراً، وكذا سائر أبواب الإيمان، فإذن: لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث، كتوكل أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه إذ خرج للكسب. فأما دخول البوادي وترك العيال توكلاً في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلاً في حقهم فهذا حرام، وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذاً بهم، بل التحقيق: أنه لا فرق بينه وبين عياله، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدّة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة في الآخرة، فله أن يتوكل في حقهم، ونفسه أيضاً عيال عنده، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدّة، فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوّش عليه عبادته لم يجز له التوكل؛ ولذلك روي: أنّ أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام، فقال له: لا يصلح لك التصوّف، الزم السوق. أي: لا تصوّف إلا مع

التوكل. ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام، وقال أبو علي الروذباري: إذا قال الفقير بعد خمسة أيام: أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب، فإذن: بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله؛ وإنما يفارقهم في شيء واحد: وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله، وقد انكشف لك من هذا: أن التوكل ليس انقطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدّة، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادراً، وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى؛ إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر، والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي، وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدّوا تلك أسباباً، وذلك لضعف إيمانهم وشدّة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب. فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطراراً من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدّر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم! فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت، فإنه لم يكن قادراً على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته، نعم، كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جداً فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين، وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق عليه واحداً والآن المشفق عليه ألف وزيادة، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجاً، ولو رأوه يتيماً لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه، فما رئي إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعاً مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحداً والمشفق الآن ألف، نعم، كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالاً هو أحسن من حال من له أب وأم! فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول:

جَرَى قَلَمُ القضاءِ بما يكون فسيَّان التحرّك والسكونُ
جنون منك أن تسعى لرزقٍ ويرزق في غشاوته الجنينُ

فإن قلت: الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزاً بصباه، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون: هو مثلنا فليجتهد لنفسه؟.

فأقول: إن كان هذا القادر بطالاً فقد صدقوا فعليه الكسب، ولا معنى للتوكل في حقه فإنّ التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرّغ لله تعالى؛ فما للبطال والتوكل. وإن كان مشتغلاً بالله ملازماً لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك، بل اشتغاله بالله تعالى يقرّر حبه في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته، وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس، وما رئي إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعاً ولا يرى قط، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه، فإن من كان لله تعالى كان الله عزّ وجلّ له، ومن اشتغل بالله عزّ وجلّ ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها، فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيراً كافياً لأهل الملك والملكوت. فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب، نعم، ما دبره تدبيراً يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة، وقد يقع ذلك أيضاً في بعض الأحوال، لكن دبره تدبيراً يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة، والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة، وليس ذلك من طريق الآخرة، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب، وهو في الغالب أيضاً ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادراً، وفي النادر أيضاً قد يحصل بغير اضطراب؛ فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته، فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز عبداً من عباده رزقه، وإن سكن إلا نادراً ندوراً عظيماً يتصور مثله في حق المضطرب. فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال: وددت أن أهل البصرة في عيالي، وأن حبة بدينار.
وقال وهيب بن الورد: لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً واهتممت برزقي لظننت أني مشرك، فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أنّ التوكل مقام مفهوم في نفسه، ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين: الإفلاس عن وجود المقام ذوقاً، والإفلاس عن الإيمان به علماً. فإذن: عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا تحتسب، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢،٣]، الآية. إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة؛ فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأنّ إلى ضمانه؛ فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء. قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝﴾ [الذاريات: ٢٢] وأسرار السماء لا يطلع عليها، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال: ماذا تطلبون؟ قالوا: نطلب الرزق، فقال: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه. قالوا: نسأل الله. قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه، فقالوا: ندخل البيت ونتوكل وننظر

ما يكون. فقال: التوكل على التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة. وقال أحمد بن عيسى الخرّاز: كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاماً، فقلت: ليس هذا من أفعال المتوكلين، فطالبتني أن أسأل الله صبراً، فلما هممت بذلك سمعت هاتفاً يهتف بي ويقول:

ويزعم أنه منا قريب وأنّا لا نضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهداً كأنّا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أنّ من انكسرت نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبداً واثقاً بالله عزّ وجلّ؛ فإنّ أسوأ حاله أن يموت، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئناً، فإذن: تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب، والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق، فاقنع وجرّب تشاهد صدق الوعد تحقيقاً بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك، ولا تكن في توكلك منتظراً للأسباب بل لمسبب الأسباب، كما لا تكون منتظراً لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم، والمحرّك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه، وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو خامل. وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ، وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام، بل يأتيه أضعافه، فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب، فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء أقبح؛ لأنّ شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن. فإنّ الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرّب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ـ لأنه تفرغ لله عز وجل ـ وإعانة للمعطي على نيل الثواب، ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أنّ الرزق ليس على قدر الأسباب، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيماً عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال: أراد الصانع أن يدل على نفسه؛ إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أنّ العقل رزق صاحبه، فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم، قال الشاعر:

ولو كَانَتِ الأرزَاقُ تجري على الحِجَا هَلَكْنَ إذن من جهلهنّ البهائِمُ

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال:

اعلم: أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام، فأخرج إليهم غلماناً كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز، وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفاً رغيفاً ويجتهدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم، وأمر منادياً حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلماني إذا خرجوا إليكم، بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم، فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلاً به إلى أن أتقدم لعقوبته في ميعاد معلوم

عندي ولكن أخفيه، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فإني أختصه بخلعة سنية في الميعاد المذكور لعقوبة الآخر، ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له، ومن أخطأه غلماني فما أوصلوا إليه شيئاً فبات الليلة جائعاً غير متسخط للغلمان ولا قائلاً ليته أوصل إلي رغيفاً فإني غداً أستوزره وأفوّض ملكي إليه، فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة وقالوا: من اليوم إلى غد فرج! ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين، فسبقت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة، وقسم قالوا: إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفاً واحداً ونقنع به؛ فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة، وقسم رابع اختفوا في زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا: إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد، وإن أخطؤونا قاسينا شدّة الجوع الليلة، فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك، فما نفعهم ذلك، إذا اتبعهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفاً واحداً، وجرى مثل ذلك أياماً حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش، فباتوا في جوع شديد، فقال اثنان منهم: ليتنا تعرّضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة، فهذا مثال الخلق، والميدان هو الحياة في الدنيا، وباب الميدان الموت، والميعاد المجهول يوم القيامة، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعاً راضياً من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة، لأنّ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، والمتعلق بالغلمان هو المعتدي في الأسباب، والغلمان المسخرون هم الأسباب، والجالس في ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون، والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور، فإن مات واحد منهم جائعاً راضياً فله الشهادة والقرب من الله تعالى. وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرّضين للسبب بمجرّد حضورهم واشتهارهم، وساح في البوادي ثلاثة، وتسخط منهم اثنان، وفاز بالقرب واحد، ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة، وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف.

الفن الثاني: في التعرّض لأسباب الادخار: فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعاً، ويلبس إن كان عارياً، ويشتري مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذه ولا يدّخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدّخره على هذه النية. فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقاً وهي الدرجة العليا.

الحالة الثانية: المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل: أن يدّخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً؛ وقد قيل: لا يدّخر من الحيوانات إلا ثلاثة: الفأرة، والنملة، وابن آدم.

الحالة الثالثة: أن يدّخر لأربعين يوماً فما دونها، فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود

الموعود في الآخرة للمتوكلين؟ اختلفوا فيه: فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حدّ التوكل. وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوماً ويخرج بما يزيد على الأربعين. وقال أبو طالب المكي: لا يخرج عن حدّ التوكل بالزيادة على الأربعين أيضاً، وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار، نعم، يجوز أن يظن ظان أنّ أصل الادخار يناقض التوكل، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوّزع على تلك الرتبة، وتلك الرتبة لها بداية ونهاية، ويسمى أصحاب النهايات السابقين، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين، ثم أصحاب اليمين أيضاً على درجات، وكذلك السابقون، وأعالي درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين، فلا معنى للتقدير في مثل هذا؛ بل التحقيق أنّ التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس، فإنّ ذلك كالممتنع وجوده. أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات، وأقصاه ما يتصوّر أن يكون عمر الإنسان، وبينهما درجات لا حصر لها. فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة، وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد؛ فإنّ تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوماً لِسِرّ جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور، كما قال عليه السلام: **«إنّ الله خَمّرَ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً»**[1]، لأنّ استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفاً على مدّة مبلغها ما ذكر، فإذن: ما وراء السنة لا يدّخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب، فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب، فإنّ أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرّر بتكرّر السنين غالباً، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهراً ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر، بل هو بينهما في الرتبة، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل، فالأفضل أن لا يدّخر أصلاً وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر، وقد روي: في الفقير الذي أمر ﷺ علياً كرّم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته، فلما دفنه قال لأصحابه: **«إنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجْهُهُ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَلَوْلا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لَبُعِثَ وَوَجْهُهُ كالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ»** قلنا: وما هي يا رسول الله؟ قال: **«كانَ صَوَّاماً قَوَّاماً كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إذَا جَاءَ الشِّتَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيْفِ لِصَيْفِهِ، وَإذَا جَاءَ الصَّيْفُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الشِّتَاءِ لِشِتَائِهِ»**، ثم قال ﷺ: **بَلْ أَقَلُّ مَا أُوتِيتُمُ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ»**[2]. الحديث، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك، فإنّ ادخاره لا ينقص الدرجة، وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف، وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق، بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق، فإن كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى، بل لو أمسك ضيعة يكون

---

(١) حديث: **«خمّر طينة آدم بيده أربعين صباحاً»** رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جداً، وهو باطل.

(٢) حديث: أنه قال في حق الفقير الذي أمر علياً أو أسامة فغسله وكفنه ببردته: **«أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر...»** الحديث. وفي آخره: **«من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر»** لم أجد له أصلاً، وتقدم في آخر الحديث قبل هذا.

دخلها وافياً بقدر كفايته وكان لا يتفرّغ قلبه إلا به فذلك له أولى، لأنّ المقصود إصلاح القلب ليتجرّد لذكر الله، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه، والمحذور ما يشغل عن الله عزّ وجلّ، وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها، ولذلك بعث رسول الله ﷺ إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أنّ فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى، وعمدة الاشتغال بالله عزّ وجلّ القلب، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته، كما أنّ صواب القوي ترك الادخار، وهذا كله حكم المنفرد. فأما المعيل فلا يخرج عن حدّ التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل، لأنّ الأسباب تتكرّر عند تكرّر السنين، فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه، وذلك يناقض قوّة التوكل، فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة. وقد ادخر رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة(١)، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدّخر له شيئاً لغد(٢)، ونهى بلالاً عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها، فقال ﷺ: **«أَنفِقْ بلالا ولا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إقلالا»**(٣)، وقال ﷺ: **«إذا سُئِلْتَ فَلا تَمْنَعْ وَإذا أُعْطِيتَ فَلا تَخْبَأْ»**(٤)، اقتداء بسيد المتوكلين ﷺ، وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول: **«ما يُدْرِينِي لَعَلِّي لا أَبْلُغُهُ»**(٥)، وقد كان ﷺ لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره، ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليماً للأقوياء من أمته، فإنّ أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوّته، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله، ولكن ليسنّ ذلك للضعفاء من أمته، بل أخبر: **«إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»**(٦)، تطييباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات، فما أرسل رسول الله ﷺ إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم، وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر، ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي: أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن، فقال ﷺ: **«فَتِّشُوا ثَوْبَهُ»** فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال ﷺ:

---

(١) حديث: ادخر لعياله قوت سنة. متفق عليه، وتقدم في الزكاة.

(٢) حديث: نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لغد. تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها.

(٣) حديث: نهى بلالاً عن الادخار وقال: **«أنفق بلالا ولا تخشى من ذي العرش إقلالا»** رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال: دخل عليه النبي ﷺ وعنده صبر من تمر، فقال ذلك. وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة، وكلها ضعيفة. وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز، فلم أره.

(٤) حديث قال لبلال: **«إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تخبأ»** رواه الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد، وهو ثقة.

(٥) حديث أنه ﷺ بال وتيمم مع قرب الماء ويقول: **«ما يدريني لعلي لا أبلغه»** أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(٦) حديث: **«إن الله يحب أن تؤتى رخصه...»** الحديث. أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر، وقد تقدم.

«كَيَّتَانِ»(١)، وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه، وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين:

أحدهما: أنه أراد كيتين من النار، كما قال تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس.

والثاني: أن لا يكون ذلك عن تلبيس، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه، وذلك لا يكون عن تلبيس، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة؛ إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدره من الآخرة. وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدّخر ليس من ضرورته بطلان التوكل، فيشهد له ما روي عن بشر. قال الحسين المغازلي من أصحابه: كنت عنده ضحوة من النهار، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحد غيره، قال: ودفع إلي كفاً من دراهم وقال: اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب، وما قال لي قط مثل ذلك، قال: فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره، قال: فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير، فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف، فعجبت من ذلك وكرهته له، فقال لي بشر: لعلك أنكرت فعله؟ قلت: نعم، أخذ بقية الطعام من غير إذن، فقال: ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلمنا أنّ التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار.

الفن الثالث: في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف: **اعلم**: أنّ الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً؛ أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجاري السيل من الوادي أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر، فكل ذلك منهي عنه، وصاحبه قد عرّض نفسه للهلاك بغير فائدة. نعم، تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها، ومظنونة، وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية؛ فإنّ الكي والرقية قد يقدم به على المحذور دفعاً لما يتوقع، وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة، ورسول الله ﷺ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة، والجبة تلبس دفعاً للبرد المتوقع، وكذلك كل ما في معناها من الأسباب. نعم، الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهييجاً لقوّة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة، ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩، ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال عز وجل: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩] وهذا في أذى الناس، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب، فترك دفعها

(١) حديث أبي أمامة: توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخلة إزاره، فقال ﷺ: «كيتان» رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه.

ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه، ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين، وترتب الأسباب هاهنا كترتبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالإعادة، وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً، ولذلك قال ﷺ للأعرابي لما أن أهمل البعير وقال: توكلت على الله: «**اعقلها وتوكل**»[1]، وقال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النّساء: ٧١] وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النّساء: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ [الدّخان: ٢٣] والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب، واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر[2]، وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعاً قطعاً كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعاً، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع، وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه.

فإن قلت: فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرّك.

فأقول: وقد حكي عن جماعة: أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا ينبغي أن يغرّك ذلك المقام؛ فإنه وإن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطاً في التوكل، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها.

فإن قلت: وهل من علامة أعلم بها أني قد وصلت إليها؟

فأقول: الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات، ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه: أن يسخّر لك كلباً هو معك في إهابك يسمى الغضب، فلا يزال يعضك ويعض غيرك، فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بإشارتك وكان مسخراً لك، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع، وكلب دارك أولى بأن يكون مسخراً لك من كلب البوادي، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر.

فإن قلت: فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذراً من العدوّ وأغلق بابه حذراً من اللص وعقل بعيره حذراً من أن ينطلق، فبأي اعتبار يكون متوكلاً؟

فأقول: يكون متوكلاً بالعلم والحال، فأما العلم: فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه؛ فكم من باب يغلق ولا ينفع، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب؛ فلا تتكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب، كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل يتكل على كفاية الوكيل وقوّته، وأما الحال: فهو أن يكون راضياً بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول: اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك؛ فإني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها، أو عارية ووديعة فتستردها، ولا أدري أنه

(١) حديث: «**اعقلها وتوكل**» أخرجه الترمذي من حديث أنس، قال يحيى القطان: منكر. ورواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد «**قيدها**».

(٢) حديث: اختفى رسول الله ﷺ عن أعين الأعداء دفعاً للضرر، تقدم في قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة.

رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري، وكيفما قضيت فأنا راض به، وما أغلقت الباب تحصناً من قضائك وتسخطاً له؛ بل جرياً على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب، فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب، ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى، وإن لم يجده بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه، فإن وجده راضياً أو فرحاً بذلك، عالماً أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه، وإن تألم قلبه به ووجد قوّة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل؛ لأنّ التوكل مقام بعد الزهد، ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي، بل يكون على العكس منه، فكيف يصح له التوكل؟ نعم، قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس، وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه، فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى، فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدّق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها؛ فإنها خدّاعة أمارة بالسوء مدعية للخير.

فإن قلت: فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟

فأقول: المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه، وإناء يتوضأ منه، وجراب يحفظ به زاده، وعصا يدفع بها عدوّه، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت. وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده، وإنما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة؛ لأنّ سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع، والخروج عن سنة الله عزّ وجلّ ليس شرطاً في التوكل، ولذلك كان الخوّاص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين.

فإن قلت: فكيف يتصوّر أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه، فإن كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه، وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟

فأقول: إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه، فاستدل على ذلك بتيسير الله عزّ وجلّ وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به؛ إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر، فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به، فيقول: لولا أنّ الله عزّ وجلّ علم أنّ الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني، فبمثل هذا الظن يتصوّر أن يندفع عنه الحزن؛ إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفاً، وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله، فإن قدّم إليه الغذاء فرح وقال: لولا أنه يعرف أنّ الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله

لما قرّبه إليّ، وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضاً فرح وقال: لولا أنّ الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه، وكل من لا يعتقد لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلاً. ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب، فإنه لا يدري أي الأسباب خير له، كما قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً؛ فإني لا أدري أيهما خير لي؛ فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق؛ فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان! وكم من غني يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول يا ليتني كنت فقيراً!

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم:

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه:

الأوّل: أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق، وكجمعه أغلاقاً كثيرة. فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشدّه بشريط ويقول: لولا الكلاب ما شددته أيضاً.

الثاني: أن لا يترك في البيت متاعاً يحرّض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم، ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال: خذها لا حاجة لي إليها. قال: لم؟ قال: يوسوس إليّ العدوّ أن اللص يأخذها، فكأنه احترز من أن يعصي السارق، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها، ولذلك قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها.

الثالث: أن ما يضطرّ إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول: ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى، وإن كان فقيراً فهو عليه صدقة، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى، فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير.

إحداهما: أن يكون ماله مانعاً من المعصية، فإنه ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده، وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل.

والثانية: أن لا يظلم مسلماً آخر فيكون ماله فداءاً لمال مسلم آخر، ومهما ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوي دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله ﷺ: **«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً»**[1]، ونصر الظالم: أن تمنعه من الظلم، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له، وليتحقق أنّ هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه؛ إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي. ولكن يتحقق بالزهد نيته، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضاً، كما روي عن رسول الله ﷺ فيمن ترك العزل فأقرّ النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له[2]، لأنه ليس أمر الولد إلا

---

(١) حديث: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام...**» الحديث. لم أجد له أصلاً.

الوِقاع، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه، فلو خلق لكان ثوابه على فعله، وفعله لم ينعدم، فكذلك أمر السرقة.

الرابع: أنه إذا وجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول: لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عزّ وجلّ، فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين، وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه، فإنه قد قدّمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة، فإن أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عزّ وجلّ، وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم؛ لأن الملك لا يزول بمجرّد تلك النية، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين.

وقد روي: أنّ ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا، ثم قال: في سبيل الله تعالى، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن: إنّ ناقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام، ثم قال: أستغفر الله وجلس، فقيل له: ألا تذهب فتأخذها فقال: إني كنت قلت في سبيل الله.

وقال بعض الشيوخ: رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازلي فيها فرأيتها، قال: وهو مع ذلك كئيب حزين فقلت: قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين! فتنفس الصعداء ثم قال: نعم إني لا أزال حزيناً إلى يوم القيامة. قلت: ولم؟ قال إني لما رأيت منازلي في الجنة رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت، ففرحت بها، فلما هممت بدخولها نادى منادي من فوقها: اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل، فقلت: وما إمضاء السبيل؟ فقيل لي: كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك.

وحكي عن بعض العباد بمكة: أنه كان نائماً إلى جنب رجل معه هميانه، فانتبه الرجل ففقد هميانه فتهمه به، فقال له: كم كان في هميانك؟ فذكر له، فحمله إلى البيت ووزنه من عنده، ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحاً معه، فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب، فأبى وقال خذه حلالاً طيباً، فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عزّ وجلّ، فلم يقبل، فألحوا عليه، فدعا ابنه وجعل يصره صرراً ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء.

فهكذا كانت أخلاق السلف، وكذلك من أخذ رغيفاً ليعطيه فقيراً فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيراً آخر، وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات.

الخامس: ـ وهو أقل الدرجات ـ أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات، وبطل زهده، ولو بالغ بطل أجره أيضاً فيما أصيب به؛ ففي الخبر: «**من دعا على ظالمه فقد انتصر**»[1]. وحكي: أنّ الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفاً وكان قائماً يصلي، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه، فجاءه قوم يعزونه فقال: أما إني قد كنت رأيت وهو يحله. قيل: وما منعك أن تزجره؟ قال: كنت فيما هو أحب إليّ من ذلك ـ يعني الصلاة ـ فجعلوا يدعون عليه فقال: لا تفعلوا وقولوا خيراً فإني قد جعلتها صدقة عليه.

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له: ألا تدعو على ظالمك. قال: ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه. قيل: أرأيت لو رد عليك؟ قال: لا آخذه ولا أنظر إليه لأني كنت قد أحللته له.

---

(١) حديث: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر» تقدم.

وقيل لآخر: ادع الله على ظالمك، فقال: ما ظلمني أحد، ثم قال: إنما ظلم نفسه، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شراً.

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه، فقال: لا تغرق في شتمه؛ فإنَّ الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه.

وفي الخبر: «**إنَّ العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم**»(١).

السادس: أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرّضه لعذاب الله تعالى، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً، وجعل ذلك نقصاً في دنياه لا نقصاً في دينه، فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال: إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين.

وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا والله، ولكن على المسكين أن يسأل يوم القيامة ولا تكون له حجة.

وقيل لبعضهم: ادع على من ظلمك، فقال: إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه. فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين.

الفن الرابع: في السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله: اعلم: أنَّ الأسباب المزيلة للمرض أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب. أعني: معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب، وإلى موهوم كالكي والرقية. أما المقطوع فليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الموهوم فشرط التوكل تركه؛ إذ به وصف رسول الله ﷺ المتوكلين، وأقواها الكي، ويليه الرقية، والطيرة آخر درجاتها، والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب، وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضاً للتوكل بخلاف الموهوم، وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين، ويدل على أنّ التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به. أما قوله فقد قال ﷺ: «**ما مِن دَاءٍ إلاّ وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إلاّ السَّام**»(٢)، يعني الموت. وقال عليه السلام:

---

(١) حديث: «**إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة...**» الحديث. تقدم.

(٢) حديث: «**ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام**» رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله: «**إلا السام**» وهو عند ابن ماجه مختصراً دون قوله: «**عرفه... إلى آخره**» وإسناده حسن، وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك: «**إلا الهرم**» وللطبراني في الأوسط والبزار من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف، والبخاري من حديث أبي هريرة: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**» ولمسلم من حديث جابر «**لكل داء دواء**».

«تَدَاوَوا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ»(١). وسئل عن الدواء والرقي هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»(٢)، وفي الخبر المشهور: «ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مُرْ أمتك بالحجامة»(٣)، وفي الحديث أنه أمر بها وقال: «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم»(٤)، فذكر أنّ تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى، وبين أنّ إخراج الدم خلاص منه؛ إذ لا فرق إلا بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت، وليس من شرط التوكل ترك ذلك، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلاً. وفي خبر مقطوع: «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة»(٥)، وأما أمره ﷺ فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية(٦)، وقطع لسعد بن معاذ عرقاً(٧) أي فصده، وكوى سعد بن زرارة(٨)، وقال لعلي رضي الله عنه وكان رمد العين: «لا تَأْكُلْ مِنْ هَذَا» يعني الرطب «وَكُلْ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ»(٩)، يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير. وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين: «تأكل تمراً وأنت أرمد» فقال: «إني آكل من الجانب الآخر، فتبسم ﷺ»(١٠)، وأما فعله عليه الصلاة والسلام: فقد روي في حديث من طريق أهل البيت: أنه كان يكتحل كل ليلة، ويحتجم كل

---

(١) حديث: «تداووا عباد الله...» رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك.

(٢) حديث: سئل عن الدواء والرقي هل يرد من قدر الله؟ فقال: «هي من قدر الله...» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزامة، وقيل عن أبي خزامة عن أبيه، قال الترمذي: وهذا أصح.

(٣) حديث: «ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا: مر أمتك بالحجامة» رواه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف.

(٤) حديث: «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين...» الحديث. أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفاً، ورفعه الترمذي بلفظ: «إن خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة...» الحديث. دون ذكر التبيغ، وقال: حسن غريب، وقال البزار: إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق، ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف: «من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر...» الحديث. يتبيغ بكم: يثور.

(٥) حديث: «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة» رواه الطبراني من حديث معقل بن يسار، وابن حبان في الضعفاء، من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على رواية في الصحابية، وكلاهما فيه زين العمي وهو ضعيف.

(٦) حديث: أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه: «تداووا...» الحديث. وسيأتي في قصة علي وصهيب في الحمية بعده.

(٧) حديث: قطع عرقاً لسعد بن معاذ، أخرجه مسلم من حديث جابر قال: رمي سعد في أكحله فحسمه النبي ﷺ بيده بمشقص... الحديث.

(٨) حديث: أنه كوى أسعد بن زرارة، رواه الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف، ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل.

(٩) حديث: قال لعلي وكان رمداً: «لا تأكل من هذا...» الحديث. رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه من حديث أم المنذر.

(١٠) حديث: قال لصهيب ـ وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين ـ: «تأكل تمراً وأنت رمد...» الحديث. تقدم في آفات اللسان.

شهر، ويشرب الدواء كل سنة[1]، وقيل: ألسنا المكي. وتداوى ﷺ غير مرة من العقرب وغيرها[2]. وروي: أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء[3]. وفي خبر: أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء، وقد جعل على قرحة خرجت بيده تراباً[4]، وما روي في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر، وقد صنف في ذلك كتاب وسمي طب النبي ﷺ[5]، وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات: أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته، فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال: لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء، فطالت علته فقالوا له: إن دواء هذه العلة معروف مجرّب، وإنا نتداوى به فنبرأ، فقال: لا أتداوى، وأقامت علته، فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي وجلالي: لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داووني بما ذكرتم، فداووه فبرأ، فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟.

وروي في خبر آخر: أنّ نبياً من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها، فأوحى الله تعالى إليه: كل البيض. وشكا نبي آخر الضعف، فأوحى الله تعالى إليه: كل اللحم باللبن فإن فيهما القوّة، قيل: هو الضعف عن الجماع.

وقد روي: أنّ قوماً شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم، فأوحى الله تعالى إليه: مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع؛ إذ فيه يصور الله تعالى الولد، وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل، والنفساء الرطب.

فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب، فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين:

أحدهما: أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص، فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول.

---

(١) حديث من طريق أهل البيت: أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة، أخرجه ابن عدي من حديث عائشة وقال: إنه منكر، وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

(٢) حديث: أنه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها، رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق: أن رسول الله ﷺ لدغته عقرب فغشي عليه فرقاه الناس... الحديث. وله في الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى تقمح كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً، ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن جعفر: أن النبي ﷺ احتجم بعد ما سم، وفيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور.

(٣) حديث: كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيغلفه بالحناء، أخرجه البزار وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة، وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم: كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء، رواه الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى، قال الترمذي: غريب.

(٤) حديث: جعل على قرحة خرجت بيده تراباً، رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة: كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي ﷺ بيده هكذا، ووضع سفيان بن عيينة الراوي سبابته بالأرض ثم رفعها وقال: «بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا».

(٥) ليس طب النبي ﷺ، وإنما: (الطب النبوي).

والثاني: أن الدواء يسهل، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها، وربما يفوّت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال. وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطاً كثيرة، وقد يتفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبداً ينحصر في هذين الشيئين، وإلا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره، وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته، فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء؛ فقد روي عن موسى ﷺ: أنه قال: يا رب، ممن الداء والدواء؟ فقال تعالى: مني. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال: يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قضائي؛ فإذن: معنى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال، كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع، فأما ترك التداوي رأساً فليس شرطاً فيه.

فإن قلت: فالكي أيضاً من الأسباب الظاهرة النفع.

فأقول: ليس كذلك؛ إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقي المبردات للمحرور. وأما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه، وقلما يعتاد الكي في أكثر البلاد، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب؛ فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فإنه ما من وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق، فالإحراق بالنار جرح مخرّب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسدّ مسدهما غيرهما، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الكي دون الرقى[1]. وكل واحد منهما بعيد عن التوكل. وروي: أنّ عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكي فامتنع، فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى، فكان يقول: كنت أرى نوراً وأسمع صوتاً وتسلم عليَّ الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عني، وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت، ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبدالله: ألم تر أن الملائكة التي كان أكرمني الله بها قد ردها الله تعالى عليَّ بعد أن كان أخبره بفقدها. فإذن: الكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل؛ لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير، ثم هو مذموم، ويدل ذلك على شدّة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها، والله أعلم.

بيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله ﷺ

اعلم: أنّ الذين تداووا من السلف لا ينحصرون، ولكن قد ترك التداوي أيضاً جماعة من الأكابر، فربما يظن أنّ ذلك نقصان، لأنه لو كان كمالاً لتركه رسول الله ﷺ إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله.

وقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له: لو دعونا لك طبيباً؟ فقال: الطبيب قد نظر إلي

---

(١) حديث: نهى رسول الله ﷺ عن الكي دون الرقى، رواه البخاري من حديث ابن عباس: «**وأنهى أمتي عن الكي**» وفي الصحيحين من حديث عائشة: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من كل ذي حمة.

وقال: إني فعال لما أريد. وقيل لأبي الدرداء في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي. قالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني.

وقيل لأبي ذرّ وقد رمدت عيناه: لو داويتهما؟ قال: إني عنهما مشغول؛ فقيل: لو سألت الله تعالى أن يعافيك فقال: أسأله فيما هو أهم عليَّ منهما.

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج، فقيل له: لو تداويت؟ فقال: قد هممت ثم ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وكان فيهم الأطباء، فهلك المداوي والمُداوَى، ولم تغن الرقى شيئاً.

وكان أحمد بن حنبل يقول: أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره وإن كان به علل، فلا يخبر المتطبب بها أيضاً إذا سأله.

وقيل لسهل: متى يصح للعبد التوكل؟ قال: إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلاً بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه.

فإذاً: منهم من ترك التداوي وراءه، ومنهم من كرهه، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله ﷺ وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوي. فنقول: إن لترك التداوي أسباباً:

السبب الأول: أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه، ويكون ذلك معلوماً عنده تارة برؤيا صادقة، وتارة بحدس وظنّ، وتارة بكشف محقق، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوي من هذا السبب، فإنه كان من المكاشفين، فإنه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث: إنما هنّ أختاك، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملاً فولدت أنثى، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضاً بانتهاء أجله، وإلا فلا يظن ربه إنكار التداوي وقد شاهد رسول الله ﷺ تداوى وأمر به.

السبب الثاني: أن يكون المريض مشغولاً بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلاً بحاله، وعليه يدل كلام أبي ذرّ إذ قال: إني عنهما مشغول. وكلام أبي الدرداء إذ قال: إنما أشتكي ذنوبي، فكان تألم قلبه خوفاً من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته، أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له: لا تأكل وأنت جائع؟ فيقول: أنا مشغول عن ألم الجوع، فلا يكون ذلك إنكاراً لكون الأكل نافعاً من الجوع ولا طعناً فيمن أكل، ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له: ما القوت؟ فقال: هو ذكر الحي القيوم، فقيل: إنما سألناك عن القوام؟ فقال: القوام هو العلم. قيل: سألناك عن الغذاء؟ قال: الغذاء هو الذكر. قيل: سألناك عن طعمة الجسد؟ قال: مالك وللجسد، دع من تولاه أولاً يتولاه آخراً: إذا دخل عليه علة فرده إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها.

السبب الثالث: أن تكون العلة مزمنة والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع جار مجرى الكي والرقية، فيتركه المتوكل؛ وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال: ذكرت عاداً وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوى. أي: أن الدواء غير موثوق به، وهذا قد يكون كذلك في نفسه، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له، فلا يغلب على ظنه كونه نافعاً، ولا شك في أنّ الطبيب المجرّب أشدّ اعتقاداً في الأدوية من غيره، فتكون الثقة والظنّ بحسب الاعتقاد، والاعتقاد

بحسب التجربة، وأكثر من ترك التداوي من العباد والزهاد، هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئاً موهوماً لا أصل له، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في البعض. ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظراً واحداً، فيرى التداوي تعمقاً في الأسباب كالكي والرقى، فيتركه توكلاً.

السبب الرابع: أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى، أو ليجرّب نفسه في القدرة على الصبر. فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره. فقد قال ﷺ: **«نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَل يُبْتَلَى العَبْدُ عَلَى قَدْرِ إيمَانِهِ فَإِنْ كَانَ صُلْبَ الإِيمَانِ شُدِّدَ عَلَيْهِ البَلاءُ. وَإِنْ كَانَ فِي إِيمَانِهِ ضَعْفٌ خُفِّفَ عَنْهُ البَلاءُ»**[1]، وفي الخبر: **«إِنَّ اللَّهَ يُجرِّبُ عَبْدَهُ بِالبلاءِ كَمَا يُجَرِّبُ أَحَدُكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ فمنهم من يخرجُ كالذَّهَبِ الإبريزِ لا يزيد، ومنهم دُونَ ذَلِكَ ومِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجَ أَسْوَدَ مُحْتَرِقاً»**[2]، وفي حديث من طريق أهل البيت: **«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إذا أَحَبَّ عَبْداً ابْتَلاَهُ، فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ، فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ»**[3]، وقال ﷺ: **«تُحِبونَ أَنْ تَكُونُوا كَالحُمُرِ الضَّالَّةِ لا تَمْرَضُونَ وَلا تَسْقَمُونَ»**[4]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تجد المؤمن أصح شيء قلباً وأمرضه جسماً، وتجد المنافق أصح شيء جسماً وأمرضه قلباً، فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسي العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أنّ الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه، وإنما يمنع المرض جوارحه، وعلموا أنّ صلاتهم قعوداً مثلاً مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياماً مع العافية والصحة، ففي الخبر: **«إن الله تعالى يقول لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي»**[5]، وقال ﷺ: **«أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ما أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ»**[6]، فقيل: معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]. وكان

---

(١) حديث: **«نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل...»** الحديث. رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف، وقد تقدم مختصراً، ورواه الحاكم أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) حديث: **«إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه...»** الحديث. رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

(٣) حديث: من طريق أهل البيت: **«إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه...»** الحديث. ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده، وللطبراني من حديث أبي عنبة: **«إذا أراد الله بعبد خيراً ابتلاه، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالاً ولا ولداً»** وسنده ضعيف.

(٤) حديث: **«تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون»** أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، وأبو نعيم وابن عبدالبر في الصحابة، والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة، وهو صدر حديث: **«إن الرجل تكون له المنزلة عند الله...»** الحديث. وقد تقدم.

(٥) حديث: **«إن الله يقول للملائكة: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فإنه في وثاقي...»** الحديث. أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمر، وقد تقدم.

(٦) حديث: **«أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»** تقدم، ولم أجده مرفوعاً.

سهل يقول: ترك التداوي وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوي لأجل الطاعات. وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها، وكان يداوي الناس منها، وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول: صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوّة والصلاة قائماً، وسئل عن شرب الدواء فقال: كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف، ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل، لأنه إن أخذ شيئاً من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسأل عنه لم أخذه؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه. وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأنّ ذرّة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالباً مدهشاً. وقال سهل رحمه الله: علل الأجسام رحمة، وعلل القلوب عقوبة.

السبب الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها، فيرى المرض إذا طال تكفيراً فيترك التداوي خوفاً من أن يسرع زوال المرض فقد قال ﷺ: «**لا تَزَالُ الحُمَّى وَالمَلِيلَةُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ كَالبَرَدَةِ ما عَلَيْهِ ذَنْبٌ ولا خَطِيئَةٌ**»(١)، وفي الخبر: «**حُمَّى يَوْمٍ كَفَّارَةُ سَنَةٍ**»(٢)، فقيل: لأنها تهدّ قوّة سنة، وقيل للإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً فتدخل الحمى في جميعها ويجد من كل واحد ألماً فيكون كل ألم كفارة يوم. ولما ذكر ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عزّ وجلّ أن لا يزال محموماً فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله، وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزايلهم(٣)، ولما قال ﷺ: «**مَنْ أَذْهَبَ اللَّهُ كَرِيمَتَيْهِ لَمْ يَرْضَ لَهُ ثَوَاباً دُونَ الجَنَّةِ**»(٤)، قال: «**فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى**». وقال عيسى عليه السلام: لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه.

---

(١) حديث: «**لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة**» أخرجه أبو يعلى وابن عدي من حديث أبي هريرة، والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال: «**الصداع**» بدل: «**الحمى**» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس: «**مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها**» وأسانيده ضعيفة.

(٢) حديث: «**حمى يوم كفارة سنة**» رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال: «**ليلة**» بدل: «**يوم**».

(٣) حديث: لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموماً... الحديث. وسأل ذلك طائفة من الأنصار: أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد: أن رجلاً من المسلمين قال: يا رسول الله: أرأيت هذه الأمراض تصيبنا ما لنا فيها. قال: «**كفارات**» قال أبي: وإن قلت؟ قال: «**فإن شوكة فما فوقها**» قال: فدعا أبي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت... الحديث. وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال: يا رسول الله، ما جزاء الحمى؟ قال: «**تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق**»، فقال: اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجاً في سبيلك ولا خروجاً إلى بيتك ولا لمسجد نبيك... الحديث. والإسناد مجهول، قاله علي بن المديني.

(٤) حديث: «**من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثواباً دون الجنة**» تقدم المرفوع منه دون قوله: «**فلقد كان في الأنصار من يتمنى العمى**».

وروي: أنّ موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال: يا رب، ارحمه فقال تعالى: كيف أرحمه فيما به أرحمه ـ أي به أكفر ذنوبه ـ وأزيد في درجاته.

السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادىء البطر والطغيان بطول مدّة الصحة فيترك التداوي خوفاً من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان، أو طول الأمل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات، فإنّ الصحة عبارة عن قوّة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرّك الشهوات وتدعو إلى المعاصي، وأقلها أن تدعو إلى التنعم في المباحات، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات، وإذا أراد الله بعبد خيراً لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب، ولذلك قيل: لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة. وقد روي: «أن الله تعالى يقول: الفقر سجني والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقي» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأي خير يزيد عليه؟ ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه؛ فالعافية في ترك المعاصي، فقد قال بعض العارفين لإنسان: كيف كنت بعدي؟ قال: في عافية، قال: إن كنت لم تعص الله عزّ وجلّ فأنت في عافية، وإن كنت قد عصيته فأي داء أدوأ من المعصية؟ ما عوفي من عصى الله. وقال علي كرّم الله وجهه ـ لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد ـ: ما هذا الذي أظهروه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، هذا يوم عيد لهم، فقال: كل يوم لا يعصى الله عزّ وجلّ فيه فهو لنا عيد.

وقال تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قيل العوافي. ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: ٦،٧] وكذلك إذا استغنى بالعافية. قال بعضهم: إنما قال فرعون: أنا ربكم الأعلى لطول العافية، لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس، ولم يحم له جسم، ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ـ لعنه الله ـ ولو أخذته الشقيقة يوماً لشغلته عن الفضول فضلاً عن دعوى الربوبية. وقال ﷺ: «**أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»(١)، وقيل: الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [التوبة: ١٢٦] قيل: يفتنون بأمراض يختبرون بها. ويقال: إنّ العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت: يا غافل، جاءك مني رسول بعد رسول فلم تجب.

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال. وقالوا: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يروّع روعة أو يصاب ببلية حتى روي: أنّ عمار بن ياسر تزوّج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها. وأنّ النبي ﷺ عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى همّ أن يتزوّجها، فقيل: وإنها ما مرضت قط، فقال: «**لا حاجة لي فيها**»(٢)، وذكر رسول الله ﷺ الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع ما أعرفه؟ فقال ﷺ: «**إِلَيْكَ عَنِّي مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ**

---

(١) حديث: «**أكثروا ذكر هادم اللذات**» أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٢) حديث: عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى همّ أن يتزوجها، فقيل: فإنها ما مرضت قط، فقال: «**ما حاجة لي فيها**» أخرجه أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد.

مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هٰذا وَهٰذا»[1]، لأنه ورد في الخبر: «الحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ»[2].

وفي حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال: «نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ المَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ عِشْرِينَ مَرَّةً»[3] وفي لفظ آخر: «الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فَتُحْزِنُهُ» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها؛ إذ رأوا لأنفسهم مزيداً فيها لا من حيث رأوا التداوي نقصاناً؟ وكيف يكون نقصاناً وقد فعل ذلك ﷺ.

بيان الرد على من قال: ترك التداوي أفضل بكل حال:

فلو قال قائل: إنما فعله رسول الله ﷺ ليسنّ لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء؟ فيقال: ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم.

فإن قيل: إنّ ذلك أيضاً شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه؛ إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأي فرق بينهما؟. فإن قال: وذلك أيضاً شرط التوكل؟ فيقال: ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة. وهذا لا قائل به.

ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته. ويدل على أنّ ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون؛ فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتاً عظيماً ووباء ذريعاً، فافترق الناس فرقتين، فقال بعضهم: لا ندخل على الوباء فنلقي بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى: بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى، ولا نفرّ من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٣] فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه، فقال: نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له المخالفون في رأيه: أنفرّ من قدر الله تعالى، قال عمر: نعم، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط وادياً له شعبتان: إحداهما مخصبة: والأخرى مجدبة، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى؟ فقالوا: نعم، ثم طلب عبدالرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه ـ وكان غائباً ـ فلما أصبحوا جاء عبدالرحمن فسأله عمر عن ذلك، فقال: عندي فيه

---

(١) حديث: ذكر رسول الله ﷺ الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع، ما أعرفه؟ فقال: «إليك عني...» الحديث. رواه أبو داود من حديث عامر البرام أخي الخضر بنحوه، وفي إسناده من لم يسم.

(٢) حديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار» رواه البزار من حديث عائشة، وأحمد من حديث أبي أمامة والطبراني في الأوسط من حديث أنس، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود، وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان.

(٣) حديث أنس وعائشة: قيل: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال: «نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة» لم أقف له على إسناد.

يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله ﷺ فقال عمر: الله أكبر، فقال عبدالرحمن: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِذَا سَمِعْتُمْ بِالوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ وَإِذا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ»**[1]، ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذا وافق رأيه، ورجع من الجابية بالناس. فإذن: كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل؟.

فإن قلت: فلم نهي عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء، وسبب الوباء في الطب الهواء، وأظهر طرق التداوي الفرار من المضر، والهواء هو المضر فلم يرخص فيه؟. فاعلم: أنه لا خلاف في أن الفرار عن المضر غير منهي عنه؛ إذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح، وهذا لا يدل على المقصود. ولكن الذي ينقدح فيه ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقي ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له، فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن، فالخروج من البلد لا يخلص غالباً من الأثر الذي استحكم من قبل، ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما، ولو تجرّد هذا المعنى لكان مناقضاً للتوكل ولم يكن منهياً عنه، ولكن صار منهياً عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر؛ وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقي في البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعياً في إهلاكهم تحقيقاً، وخلاصهم منتظر كما أنّ خلاص الأصحاء منتظر؛ فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعاً بالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقين، والمسلمون كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه. فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم. نعم، لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول هاهنا لأجل الإعانة، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرّض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف[2]؛ لأنّ فيه كسراً لقلوب بقية المسلمين وسعياً في إهلاكهم. فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه، وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير، وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك.

فإن قلت: ففي ترك التداوي فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله ﷺ التداوي لينال الفضل؟ فنقول: فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن

---

(١) حديث عبدالرحمن بن عوف: **«إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا. . .»** الحديث. وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية، وأنه بلغهم أن بالشام وباء. . . » الحديث. رواه البخاري.

(٢) حديث: تشبيه الفرار من الطاعون بالفار من الزحف: رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد، ومن حديث جابر بإسناد ضعيف، وقد تقدم.

مقامات الراضين والمتوكلين، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوماً كالرقى، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوي وكان التداوي يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع؛ فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوي، وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله ﷺ، بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها؛ إذ كان حاله يقتضي أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها، فإنه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب، ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أنّ الرغبة في المال نقص، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالاً فهي أيضاً نقص بالإضافة إلى من يستوي عنده وجود المال وعدمه، فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر، وكان حاله ﷺ استواء المدر والذهب عنده، وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من إمساكه، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغرّه الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها[1]، فكذلك يستوي عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة، وإنما لم يترك استعمال الدواء جرياً على سنّة الله تعالى وترخيصاً لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف ادخار الأموال فإنّ ذلك يعظم ضرره. نعم، التداوي لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعاً دون خالق الدواء وهذا قد نهي عنه، ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهي عنه، والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك، وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعاً بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سبباً للنفع كما لا يرى الماء مروياً ولا الخبز مشبعاً، فحكم التداوي في مقصوده كحكم الكسب، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه، فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها: أن ترك التداوي قد يكون أفضل في بعض الأحوال، وأن التداوي قد يكون أفضل في بعض، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات، وأن واحداً من الفعل والترك ليس شرطاً في التوكل إلا ترك الموهومات كالكي والرقى، فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين.

بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه:

اعلم: أن كتمان المرض وإخفاء الفقر، وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات؛ لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عزّ وجلّ فكتمانه أسلم عن الآفات.

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت به النية والمقصد. ومقاصد الإظهار ثلاثة:

الأول: أن يكون غرضه التداوي فيحتاج إلى ذكره للطبيب، فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى. فقد كان بشر يصف لعبدالرحمن المطبب أوجاعه، وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالى فيَّ.

الثاني: أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكيناً في المعرفة، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها،

---

(١) حديث: أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها. تقدم، ولفظه: عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها.

فيتحدّث به كما يتحدّث بالنعم. قال الحسن البصري: إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى.

الثالث: أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى، وذلك يحسن ممن تليق به القوّة والشجاعة ويستبعد منه العجز، كما روي: أنه قيل لعلي في مرضه رضي الله عنه: كيف أنت؟ قال: بشرّ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية، فقال: أتجلد على الله؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوّة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي ﷺ إياه حيث مرض علي كرّم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول: اللهم صبرني على البلاء، فقال له ﷺ: **«لَقَدْ سَأَلْتَ الله تَعَالَى البَلاءَ فَسَلِ اللّهَ العَافِيَةَ»**[1].

فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام ـ كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ـ ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه، لأنه ربما يوهم الشكاية، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة، ومن ترك التداوي توكلاً فلا وجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء، وقد قال بعضهم: من بث لم يصبر، وقيل في معنى قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يُوسُف: ١٨] لا شكوى فيه. وقيل ليعقوب عليه السلام: ما الذي أذهب بصرك؟ قال: مُر الزمان وطول الأحزان: فأوحى الله تعالى إليه: تفرّغت لشكواي إلى عبادي، فقال: يا رب، أتوب إليك. وروي عن طاوس ومجاهد أنهما قالا: يكتب على المريض أنينه في مرضه، وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل: ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه، فجعل الأنين حظه منه.

وفي الخبر: **«إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعوّاده فإن حمد الله وأثنى بخير ادعوا له وإن شكا وذكر شراً قالا: كذلك تكون»**[2]، وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم، منهم: فضيل ووهيب وبشر، وكان فضيل يقول: أشتهي أن أمرض بلا عوّاد، وقال: لا أكره العلة إلا لأجل العواد. رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

كَمُل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه. يتلوه إن شاء الله تعالى: كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى الموفق.

---

(١) حديث: مرض علي فسمعه رسول الله ﷺ وهو يقول: اللهم صبرني على البلاء، فقال: **«لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية»** تقدم مع اختلاف.

(٢) حديث: **«إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده...»** الحديث. تقدم.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتها، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال: صبراً أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصدّ والوصول غرقى في بحر معرفته، ومحترقة بنار محبته، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوّته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيراً.

أما بعد: فإنّ المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدّمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال. ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه. ولا بدّ من كشف الغطاء عن هذا الأمر.

ونحن نذكر في هذا الكتاب: بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أنّ أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى، ثم بيان سبب زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوّية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى، ثم بيان

معنى الانبساط في الأنس، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته، ثم بيان حقيقته، ثم بيان أنّ الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه، وكذا الفرار من المعاصي، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة. فهذه جميع بيانات هذا الكتاب.

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى:

اعلم: أنّ الأمة مجمعة على أنّ الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له، وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بدّ وأن يتقدّم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب. ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عزّ وجلّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥] وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه. وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة؛ إذ قال أبو رزين العقيلي: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: **«أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا»**(١)، وفي حديث آخر: **«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»**(٢)، وفي حديث آخر: **«لا يُؤْمِنُ العَبْدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**(٣) وفي رواية: **«وَمِنْ نَفْسِهِ»** كيف وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤] الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار. وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة فقال: **«أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ إِيَّايَ»**(٤)، ويروى: أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحبك، فقال ﷺ: **«استعدّ للفقر»** فقال إني أحب الله تعالى، فقال: **«اسْتَعِدَّ لِلْبَلاءِ»**(٥)، وعن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبي ﷺ: **«انْظُرُوا إِلَى هٰذا الرَّجُلِ الَّذِي نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْهِ يغذوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَدَعَاهُ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ»**(٦).

---

(١) حديث أبي رزين العقيلي: أنه قال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: **«أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما»** أخرجه أحمد بزيادة في أوله.

(٢) حديث: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»** متفق عليه من حديث أنس بلفظ: **«لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله»** وذكره بزيادة.

(٣) حديث: **«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»**. وفي رواية: **«ومن نفسه»** متفق عليه من حديث أنس، واللفظ لمسلم دون قوله: **«ومن نفسه»**، وقال البخاري: **«من والده وولده»** وله من حديث عبدالله بن هشام: قال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال: **«لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»** فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال: **«الآن يا عمر»**.

(٤) حديث: **«أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقال: حسن غريب.

(٥) حديث: إن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحبك، فقال: **«استعد للفقر...»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن مغفل بلفظ: **«فأعد للفقر تجفافاً»** دون آخر الحديث وقال: حسن غريب.

(٦) حديث عمر قال: «نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به...» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن.

وفي الخبر المشهور: «إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض»[1]، وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه.

وقد قال نبينا ﷺ في دعائه: **«اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وحبَّ ما يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ المَاءِ البَارِدِ»**[2]، وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: **«ما أَعْدَدْتَ لَهَا»** فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: **«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»**[3]، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق مِن خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال الحسن: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن. وقال أبو سليمان الداراني: إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا؟.

ويروى: أن عيسى عليه السلام مرَّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حقّ على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً كأن على وجوههم المرائي من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: نحب الله عزّ وجلّ، فقال: أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون. وقال عبدالواحد بن زيد: مررت برجل قائم في الثلج، فقلت أما تجد البرد؟ فقال: من شغله حب الله لم يجد البرد. وعن سري السقطي: تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال: يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد، غير المحبين لله تعالى فإنهم ينادون: يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً.

وقال هرم بن حيان: المؤمن إذا عرف ربه عزّ وجلّ أحبه وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهي تحسره في الدنيا وتروّحه في الآخرة. وقال يحيى بن معاذ: عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه؟. وفي بعض الكتب: عبدي أنا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محباً. وقال يحيى بن معاذ: مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب. وقال يحيى بن معاذ: إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني في الأحوال، وقلبتني

---

(١) حديث: «إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يقبض خليله...» الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: **«اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك...»** الحديث. تقدم.

(٣) حديث: قال أعرابي: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: **«ما أعددت لها...»** الحديث. متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه.

في الأعمال ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ورضاً وحباً، تسقيني من حياضك، وتهملني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشغوفاً بقولك، ولما طرّ شاربي ولاح طائري، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً؟ فلي ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأني محب، وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به.

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى:

اعلم: أنّ المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شروطها وأسبابها، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى:

فأوّل ما ينبغي أن يتحقق: أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك؛ إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه، ولذلك لم يتصورّ أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك. ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ. فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً. فإذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به، ومعنى كونه محبوباً: أن في الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً: أن في الطبع نفرة عنه. فالحب: عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً. والبغض: عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوي سمي مقتاً. فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته.

الأصل الثاني: أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة انقسم - لا محالة - بحسب انقسام المدركات والحواس، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم. فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعوم، ولذة اللمس في اللين والنعومة.

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة، أي كان للطبع السليم ميل إليها، حتى قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثلاثٌ: الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»[1]، فسمى الطيب محبوباً، ومعلوم أنه لا حظ للعين والسمع فيه؛ بل للشم فقط، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فيهنّ إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع، وسمى الصلاة قرّة عين وجعلها أبلغ المحبوبات، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس، بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب. ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان، فإن كان الحب مقصوراً على مدركات الحواس الخمس - حتى يقال: إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا

---

(١) حديث: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء...» الحديث. أخرجه النسائي من حديث أنس دون قوله: «ثلاث»، وقد تقدم.

يحب ـ فإذن: قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس؛ الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات، فلا مشاحة فيه وهيهات، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشدّ إدراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة ـ كما سيأتي تفصيله ـ، فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً.

الأصل الثالث: أنّ الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه، وهل يتصوّر أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه؟ هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنوا أنه لا يتصوّر أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته. والحق: أنّ ذلك متصوّر وموجود، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها، وبيانه: أنّ المحبوب الأوّل عند كل حي: نفسه وذاته، ومعنى حبه لنفسه: أن في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده، ونفرة عن عدمه وهلاكه، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب، وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل، لا لمجرّد ما يخافه بعد الموت، ولا لمجرّد الحذر من سكرات الموت، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لذلك، ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة. ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم، بل لأنّ فيه زوال البلاء، فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب. وكما أنّ دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضاً محبوب؛ لأن الناقص فاقد للكمال، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه. والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال الوجود كما أنه ممقوت في أصل الذات، ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب. وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فإذن: المحبوب الأوّل للإنسان ذاته، ثم سلامة أعضائه، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه. فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة؛ لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها، والمال محبوب لأنه أيضاً آلة في دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب. فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله؛ لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له، فلفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً. نعم، لو خير بين قتله وقتل ولده ـ وكان طبعه باقياً على اعتداله ـ آثر بقاء نفسه على بقاء ولده، لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه؛ فإنه يرى نفسه كثيراً بهم قوياً بسببهم متجملاً بكمالهم، فإنّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة. فإذن: المحبوب الأوّل عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضدّ ذلك. فهذا هو أوّل الأسباب.

السبب الثاني: الإحسان؛ فإن الإنسان عبد الإحسان، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن

إليها وبغض من أساء إليها، وقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ يَداً فَيُحِبَّهُ قَلْبِي»[(١)]، إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطراراً لا يستطاع دفعه، وهو جبلة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها. وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة. وهذا إذا حقّق رجع إلى السبب الأوّل، فإن المحسن من أمدّ بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود، إلا أنّ الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب، ولكن قد يكون سبباً له كالطبيب يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة؛ إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة، وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب. وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام. فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه. فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقاً، بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد، ويتطرّق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه.

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال، لأنّ إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصوّر إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية؟. وقد كان رسول الله ﷺ يعجبه الخضرة والماء الجاري[(٢)]، والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان، الحسنة النقش، المتناسبة الشكل، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر. فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»[(٣)].

الأصل الرابع: في بيان معنى الحسن والجمال؛ اعلم: أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون، وكون

---

(١) حديث: «اللهم لا تجعل لكافر عليّ يداً فيحبه قلبي» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس: من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع، وقد تقدم.

(٢) حديث: كان يعجبه الخضرة والماء الجاري... أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري، وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: «إن الله جميل يحب الجمال» رواه مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان، فإنّ الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوناً مقدّر فلا يتصوّر حسنه، وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوباً. وهذا خطأ ظاهر فإنّ الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة. فإنا نقول: هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن، بل نقول: هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن، فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة؟. ومعلوم أنّ العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة. وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء؟ فلا بدّ من البحث عنه. وهذا البحث يطول، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه، فنصرح بالحق ونقول: كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرّ وفرّ عليه، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضدّه، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

فإن قلت: فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس؟.

فاعلم: أنّ الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة، وهذه أخلاق جميلة، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته، وآية ذلك وأنّ الأمر كذلك: أنّ الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم، وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا، بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم؛ حتى إنّ الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه، فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب، وليت شعري من يحب الشافعي مثلاً فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة، فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً مع التراب، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين، وانتهاضه لإفادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم، وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة، فأما الحواس فقاصرة عنها. وكذلك من يحب أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه ويفضله على غيره، أو يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم

والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره، فمعلوم أنّ من يحب الصدّيق رضي الله تعالى عنه مثلاً ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله؛ إذ كل ذلك زال وتبدّل وانعدم، ولكن بقي ما كان الصدّيق به صديقاً؛ وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة، فكان الحب باقياً ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور. وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين، وهما غير مدركين بالحس، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة. وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله، فإذن: الجمال موجود في السِّيَر، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حباً فالمحبوب مصدر السير الجميلة، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة، وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس، حتى إن الصبي المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائباً أو حاضراً حياً أو ميتاً لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة. فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه، فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لا تدرك بالحواس؟. بل لما وصف الناس حاتماً بالسخاء ووصفوا خالداً بالشجاعة أحبتهم القلوب حباً ضرورياً، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب، مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأي الديار. فإذن: ليس حب الإنسان مقصوراً على من أحسن إليه، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر، والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشاً مصوّراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة.

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب؛ إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرّد تناسب الأرواح كما قال ﷺ: **«فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»**[(1)]، وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه؛ لأنه أيضاً من عجائب أسباب الحب، فإذن: ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب: وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه، وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه، وحبه من كان محسناً في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسناً إليه، وحبه لكل ما هو جميل في ذاته؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة، وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن. فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوباً لا محالة غاية الحب،

---

(١) حديث: **«فما تعارف منها ائتلف»** أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في آداب الصحبة.

وتكون قوّة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوّة هذه الخلال في نفسها، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب ـ لا محالة ـ في أعلى الدرجات. فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصوّر كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى، فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده:

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، وحب الرسول ﷺ محمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه. وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة في حق الله تعالى، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل، وهو مجاز محض لا حقيقة له، ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة ضدّ ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً، وبان أن التحقيق يقتضي أن لا تحب أحداً غير الله تعالى.

فأما السبب الأوّل: وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي، ولا يتصوّر أن ينفك عنها، وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى، فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له وهو المبقي له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال، وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته. وبالجملة: فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به، فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوّماً لغيره، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوّتها، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها. وكيف يتصوّر أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟. ومعلوم أن المبتلى بحرّ الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر، والنور بالإضافة إلى الشمس، فإنّ الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام؛ إذ تخيلوا أنّ النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها، وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار؛ أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق. فإذن: إن كان

حب الإنسان نفسه ضرورياً فحبه لمن به قوامه أوّلاً ودوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضروري إن عرف ذلك كذلك، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته، وقصر نظره على شهواته ومحسوساته، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه البهائم في التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة، فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

وأما السبب الثاني: وهو حبه من أحسن إليه؛ فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته وانتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده، وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أنّ المحسن إليه هو الله تعالى فقط، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدّها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر، ولكنا نقتصر الآن على بيان أنّ الإحسان من الناس غير متصوّر إلا بالمجاز، وإنما المحسن هو الله تعالى. ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فإنك تظن أنّ هذا الإحسان منه، وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته، ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله. ومهما سلط الله عليه الدواعي وقرّر في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً في التسليم لا يستطيع مخالفته، فالمحسن هو الذي اضطرّه لك وسخره، وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك، وصاحب اليد مضطرّ في ذلك اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر، فإنه لا يتصوّر الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه، أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل إما آجل وهو الثواب، وإما عاجل وهو المنة والاستسخار، أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم، أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة، وكما أنّ الإنسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده، وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال، فقد استسخرك في القبض للتوصل إلى غرض نفسه، فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من ماله، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتة. فإذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين:

أحدهما: أنه مضطرّ بتسليط الله الدواعي عليه فلا قدرة له على المخالفة، فهو جار مجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه، لأنه من جهة الأمير مضطرّ إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه، وألقى في نفسه أنّ حظه ديناً ودنيا في بذله فبذله لذلك.

والثاني: أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله، فكما لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر، وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها، فالإحسان في الجود، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل، وذلك محال من غير الله سبحانه، فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم ولأجلهم، لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض، فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز، ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان، فإن كان في الطبع حب المحسن، فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالى؛ إذ الإحسان من غيره محال، فهو المستحق لهذه المحبة وحده، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته.

وأما السبب الثالث: وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه. وهذا أيضاً موجود في الطباع. فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضاً بعيد عنك؛ فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما؛ إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأوّل وهو الحب، ونفرة عن الثاني وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأوّل وآمن من شر الثاني؛ لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما، فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك، وهذا أيضاً يقتضي حب الله تعالى بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلاً إلا من حيث يتعلق منه بسبب، فإنّ الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق؛ أولاً: بإيجادهم، وثانياً: بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم، وثالثاً: بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظانّ حاجاتهم وإن لم تكن في مظانّ الضرورة، ورابعاً: بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم.

ومثال الضروري من الأعضاء: الرأس والقلب والكبد، ومثال المحتاج إليه: العين واليد والرجل. ومثال الزينة: استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة.

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان: الماء والغذاء. ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفواكه. ومثال المزايا والزوائد: خضرة الأشجار، وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة.

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش. فإذن هو المحسن؛ فكيف يكون غيره محسناً وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته؟ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان، فالحب بهذه العلة لغيره أيضاً جهل محض، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى.

وأما السبب الرابع: وهو حب كل جميل لذات الجمال، لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال: فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني

يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا. وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هذا في المشاهدة: حب الأنبياء والعلماء وذوي المكارم السنية والأخلاق المرضية، فإن ذلك متصور مع تشوّش صورة الوجه وسائر الأعضاء، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحسن لا يدرك. نعم، يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه، فمن يحب رسول الله ﷺ أو الصدّيق رضي الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال؛ إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها، فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجمل، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدراً. وأجل المعلومات هو الله تعالى، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى، وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به.

فإذن: جمال صفات الصدّيقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور:

أحدها: علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه.

والثاني: قدرتهم على إصلاح أنفسهم، وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة.

والثالث: تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر، وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم، فانسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى:

أما العلم: فأين علم الأوّلين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية؛ حتى لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥] بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]. والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن: ٣، ٤] فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً، وكان هو في نفسه زينة وكمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى. فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته. والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية، يتصوّر في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد، وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية؛ إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية.

وأما صفة القدرة: فهي أيضاً كمال، والعجز نقص، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيذ، حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً

ضرورياً بمجرّد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة، ويورث ذلك حباً في القلب ضرورياً للمتصف به، فإنه نوع كمال، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، فأعظم الأشخاص قوّة وأوسعهم ملكاً، وأقواهم بطشاً، وأقهرهم للشهوات، وأقمعهم لخبائث النفس، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولسانه من الخرس، وأذنه من الصمم، وبدنه من المرض، ولا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها، والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها، فلا قدرة له على ذرّة منها. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم، وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة، ثم تلك الغبرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه، فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فهو الجبار القاهر والعليم القادر، السموات مطويات بيمينه، والأرض وملكها وما عليها في قبضته، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرّة. وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته، فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء، فإن كان يتصوّر أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلاً.

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدّس عن الرذائل والخبائث: فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة، والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصوّر كمال التقدّس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدّوس ذي الجلال والإكرام.

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص، بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخراً مضطراً هو عين العيب والنقص، فالكمال لله وحده، وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره، فإنّ منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبداً مسخراً لغيره قائماً بغيره وذلك محال في حق غيره، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدّس عن العيوب. وشرح وجوه التقدّس والتنزه في حقه عن النقائص يطول، وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطوّل بذكره. فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً فلا تتم حقيقته إلا له، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقاً بل بالإضافة إلى ما هو أشدّ منه نقصاناً، كما أنّ للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمار، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس. وأصل النقص شامل للكل، وإنما يتفاوتون في درجات النقصان.

فإن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندّ له، الفرد الذي لا ضدّ له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه،

ولا معقب لقضائه، العالِم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السموات والأرض، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة، الأزلي الذي لا أول لوجوده، الأبدي الذي لا آخر لبقائه، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به، جبار السموات والأرض، خالق الجماد والحيوان والنبات، المنفرد بالعزة والجبروت، والمتوحد بالملك والملكوت، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول، وتخرس في وصفه الألسنة، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، ومنتهى نبوّة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[1]، وقال سيد الصدّيقين رضي الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك. سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقاً ويجعله مجازاً؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن؟ أينكر كون الله تعالى موصوفاً بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوباً بالطبع عند من أدركه؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى؛ الذين هم عن نار الحجاب مبعدون، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان؛ لأنّ الإحسان يزيد وينقص. ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنّ أود الأوداء إلي: من عبدني بغير نوال لكن ليعطي الربوبية حقها. وفي الزبور: من أظلم ممن عبدني لجنة أو نار، لو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع. ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا: نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم: مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتم. ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا: نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله فقال: أنتم أولياء الله حقاً، معكم أمرت أن أقيم. وقال أبو حازم: إني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل. وفي الخبر: «**لا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ كَالأَجِيرِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يُعْطَ أَجْراً لَمْ يَعْمَلْ، وَلا كَالْعَبْدِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ**»[2].

وأما السبب الخامس للحب: فهو المناسبة والمشاكلة؛ لأن شبه الشيء منجذب إليه، والشكل إلى الشكل أميل. ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح. وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار، كما استقصيناه في باب الأخوّة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه. وإذا كانت المناسبة سبب المحبة، فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا، وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه، كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي ﷺ إذ قال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ**

---

(١) حديث: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» تقدم.

(٢) حديث: «**لا يكون أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل**» لم أجد له أصلاً.

مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنها اخْتَلَفَ» فالتعارف هو التناسب، والتناكر هو التباين، وهذا السبب أيضاً يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يسطر، بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك.

فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عزّ وجلّ في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء، والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية؛ من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير، والرحمة على الخلق والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات.

وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومىء إليها قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] إذ بيّن أنه أمر رباني خارج عن حدّ عقول الخلق. وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] ولذلك أسجد له ملائكته. ويشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله ﷺ: «**إنّ الله خلق آدم على صورته**»[(١)]، حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوّروا، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام: «مرضت فلم تعدني فقال: يا رب وكيف ذلك؟ قال: مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده»[(٢)]، وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى: «**لا يزال يتقرّب العبد إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به**»[(٣)]. وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه؛ فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر، وإلى غالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول، حتى قال بعضهم: أنا الحق. وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا: هو الإله، وقال آخرون منهم: تدرع الناسوت باللاهوت، وقال آخرون: اتحد به. وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون. ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل:

لا زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله، حتى تشققت قدماه وتورّمتا ومات من ذلك. وهذا هو أعظم أسباب الحبّ وأقواها، وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجوداً. فهذه هي

(١) حديث: «**إن الله خلق آدم على صورته**»، تقدم.
(٢) حديث: قوله تعالى: «مرضت فلم تعدني، فقال: وكيف ذاك قال: مرض فلان...»، الحديث تقدم.
(٣) حديث قوله تعالى: «**لا يزال يتقرب العبد إلي بالنوافل حتى أحبه...**» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

المعلومة من أسباب الحب، وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً، وفي أعلى الدرجات لا في أدناها، فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى فقط، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب، والشركة نقصان في الحب وغض من كماله. ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال، ولا شريك له في ذلك وجوداً، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكاناً، فلا جرم لا يكون في حبه شركة، فلا يتطرّق النقصان إلى حبه كما لا تتطرّق الشركة إلى صفاته. فهو المستحق ـ إذ الأصل المحبة ـ ولكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى من حرم هذه اللذة:

اعلم: أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوّة وغريزة لذة، ولذتها في نيلها المقتضي طبعها الذي خلقت له، فإن هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان عبثاً بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع. فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها. وغريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبعها، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها. فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] وقد تسمى العقل، وقد تسمى البصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين، ولا معنى للاشتغال بالأسامي فإنّ الاصطلاحات مختلفة، والضعيف يظنّ أن الاختلاف واقع في المعاني؛ لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة، كإدراكه خلق العالَم، أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية، ولنسم تلك الغريزة عقلاً بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تذم، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها، وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ـ ولو في شيء خسيس ـ يفرح به، والذي ينسب إلى الجهل ـ ولو في شيء حقير ـ يغتم به، وحتى إن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدّي بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة. فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم؛ لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه؛ فيعجب بنفسه ويلتذ به، ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السمٰوات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف

العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رئاسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس، فإن كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير، وكان تمدّحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشدّ، وحبه له أكثر؛ لأن لذته فيه أعظم. فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها. وليت شعري، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية؛ التي لا يحيط بمبادىء جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين؟ فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار، وبهذا تبين أنّ العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته ـ من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين ـ. فينبغي أن يعلم أنّ لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ـ أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ـ، فإنّ اللذات مختلفة بالنوع أوّلاً، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع، ولذة المعرفة للذة الرئاسة. وهي مختلفة بالضعف والقوّة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال. وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة؛ إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمرّ اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل؛ فيعلم به أنّ لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل. فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات، فنعود ونقول:

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس، وإلى باطنة كلذة الرئاسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها؛ إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق، والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرئاسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة، وإن كان علي الهمة كامل العقل اختار الرئاسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياماً كثيرة. فاختياره للرئاسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة. نعم، الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي، أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرئاسة، وكما أنّ لذة الرئاسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته، فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرئاسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وغاية العبارة عنه أن يقال: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم

مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧] وأنه أعدّ لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرّد والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرئاسة، ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رئاسته وفناء من عليه رئاسته، وكونه مشوباً بالكدورات التي لا يتصوّر الخلو عنها، وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بدّ من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها؛ فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم بكبرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها؛ إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة، ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت؛ إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي، وإنما الموت يغيّر أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمها فلا، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩، ١٧٠] الآية. ولا تظنن أنّ هذا مخصوص بالمقتول في المعركة، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد، وفي الخبر: **«إنّ الشهيد يتمنى في الآخرة أن يردّ إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء»**[1].

فإذن: جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض. وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله، ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرئاسة ولكن يؤثرون الرئاسة، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له؛ لأن القلب معدن هذه القوة، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين، لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال: من ذاق عرف. ولعمري: طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات، وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها، فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية، فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ـ ولو الشيء اليسير ـ فإنه يصادف في قلبه

---

(١) حديث: «**إن الشهيد يتمنى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى...**» الحديث. متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم، وليس فيه: «**وإن الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء...**» الحديث.

عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أنَّ معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها.

ولهذا قال أبو سليمان الداراني: إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له: أخبرني يا أبا محفوظ، أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت وقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده؛ إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. وفي أخبار عيسى عليه السلام: إذا رأيت الفتى مشغوفاً بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه. ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال: ما فعل أبو نصر التمار وعبدالوهاب الوراق؟ فقال: تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان، قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه. وعن علي بن الموفق قال: رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة، فرأيت رجلاً قاعداً على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل، ورأيت رجلاً قائماً على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضاً ويرد بعضاً، قال: ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف، فقلت لرضوان: من هذا؟ فقال: معروف الكرخي؛ عبد الله لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته بل حباً له، فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة. وذكر أن الآخرين: بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل. ولذلك قال أبو سليمان: من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غداً مشغول بربه. وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته؛ فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه، وقالت في معنى المحبة نظماً:

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى: حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبحبه لما هو أهل له: الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكياً عن ربه تعالى: **«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»**[1]، وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ولذلك قال بعضهم: إني أقول: يا رب يا الله، فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال؛ لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليساً ينادي جليسه؟ وقال: إذا بلغ الرجل

---

(١) حديث: قال ﷺ حاكياً عن ربه تعالى: **«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت...»** الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة، أي يخرج كلامه عن حدّ عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً. فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط، فهي قرّة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقاً بنعيمها، فلو ألقي في النار لم يحس بها لاستغراقه، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، وليت شعري، من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يأمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وما له صورة ولا شكل؟ وأي معنى لو عدّ الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم؟ بل من عرف الله عرف أنّ اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرقةٌ ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ... ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإنّ الجنة معدن تمتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط.

ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما نذكره: وهو أن الصبي في أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها، ثم تظهر لذة الرئاسة والعلو والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾ [الحديد: ٢٠] الآية. ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكل متأخر فهو أقوى، وهذا هو الأخير؛ إذ يظهر حب اللعب في سنّ التمييز، وحب النساء والزينة في سنّ البلوغ، وحب الرئاسة بعد العشرين، وحب العلوم بقرب الأربعين، وهي الغاية العليا، وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرئاسة؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرئاسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى. والعارفون يقولون: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا:

اعلم: أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال؛ كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة، والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات، وإلى ما لا يدخل في الخيال، كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها. ومن رأى إنساناً ثم غض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين؛ لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتمّ انكشافاً ووضوحاً، وهو كشخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار

ضوء النهار ثم رُئي عند تمام الضوء؛ فإنه لا يفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف. فإذن: الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف، وسمي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية.

وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم: أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان إحداهما: أولى. والثانية: استكمال لها. وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئي، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية. وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي، ولا بدّ من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرّد التخيل، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار. والقول في سبب كونها حجاباً يطول ولا يليق بهذا العلم. ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعرَاف: ١٤٣] وقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعَام: ١٠٣] أي في الدنيا، والصحيح أن رسول الله ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج[(١)]، فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ـ نعوذ بالله من ذلك ـ، ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين ـ كما وردت به الأخبار ـ سبعة آلاف سنة[(٢)]، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما، وإن قلّت، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريَم: ٧١، ٧٢] فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها، فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة ـ وذلك وقت

---

(١) حديث: أنه ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج في الصحيح، هذا الذي صححه المصنف وهو قول عائشة، ففي الصحيحين: أنها قالت: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب. ولمسلم من حديث أبي ذر: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «**نورٌ أنّى أراه**» وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له، وعائشة لم ترو ذلك عن النبي ﷺ وحديث أبي ذر قال فيه أحمد: ما زلت له منكراً. وقال ابن خزيمة: في القلب من صحة إسناده شيء، مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر: «**رأيته نوراً أنى أراه**» ورجال إسناده رجال الصحيح.

(٢) حديث: «**إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة**» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة: «**إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي...**» الحديث. وفيه: «**وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة**» وإسناده ضعيف.

مبهم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه فإنه واقع بعد القيامة؛ ووقت القيامة مجهول ـ فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لأنّ فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى، فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تخيله. وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية، فإذن: الرؤية حق، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصوّر مخصوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل وصورة، فتراه في الآخرة كذلك. بل أقول: المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، كما ضربناه من المثال في استكمال الخيال بالرؤية. فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضاً جهة وصورة؛ لأنها هي بعينها لا تفترق منها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعاً، ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل الزرع؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر؛ إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوّتها وضعفها، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلِأَبِي بَكْرٍ خَاصَّةً»**[1]، فلا ينبغي أن يظنّ أنّ غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره، ولما فضل من الناس بسر وقر في صدره فضلِ ـ لا محالة ـ بتجل انفرد به، وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح؛ وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعاً؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة؛ إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة، والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب؛ وسائر الخلق مشغولون به. ولذلك لما قيل لرابعة: ما تقولين في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار. فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة. وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة؛ إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا

(١) حديث: **«إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة»** أخرجه ابن عدي من حديث جابر. وقال: باطل بهذا الإسناد وفي الميزان للذهبي: أن الدارقطني رواه عن المحاملي عن علي بن عبدة وقال الدارقطني: أن علي بن عبدة كان يضع الحديث، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة.

يحشر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به؛ كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإنّ ذلك منتهى لذته، وإنما طيبة الجنة أن لكل واحد فيها ما يشتهي، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره، بل ربما يتأذى به. فإذن: نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى، وحب الله تعالى بقدر معرفته؛ فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان.

فإن قلت: فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها، لأنّ لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حدّ قريب لا ينتهي في القوّة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها؟.

فاعلم: أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها؟ فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته، ولا لذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع.

وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول: لذة النظرة إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب:

أحدها: كمال جمال المعشوق ونقصانه، فإنّ اللذة في النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة.

والثاني: كمال قوّة الحب والشهوة والعشق؛ فليس التذاذ من اشتدّ عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه.

والثالث: كمال الإدراك، فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعده كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرّد.

والرابع: اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب؛ فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرّد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بمهم من المهمات.

فقدّر عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه، فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء، واندفع عنه المؤذيات، وبقي سليماً فارغاً، وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتدّ بها، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة. فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن، وضعف الشهوة، والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور، والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوّشات ولا يتصوّر أن يخلو عنها ألبتة. نعم، قد تضعف هذه العوائق في

بعض الأحوال ولا تدوم، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلّما يدوم؛ بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوّشه وينغصه، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية، فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت، وإنما العيش عيش الآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت، ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة؛ فإنّ المعرفة كالبذر، وبحر المعرفة لا ساحل له، فالإحاطة بكنه جلال الله محال، فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت؛ كثر النعيم في الآخرة وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا، ولا يزرع إلا في صعيد القلب، ولا حصاد إلا في الآخرة. ولهذا قال رسول الله ﷺ: **«أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ العُمْرِ فِي طَاعَةِ اللّهِ»**[1]، لأنّ المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرّد للطلب، ويستدعي ذلك زماناً لا محالة، فمن أحب الموت أحبه؛ لأنه رأى نفسه واقفاً في المعرفة بالغاً إلى منتهى ما يسر له، ومن كره الموت كرهه؛ لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصيل له بطول العمر، ورأى نفسه مقصراً عما تحتمله قوّته لو عمر، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة.

وأما سائر الخلق؛ فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا، إن اتسعت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت. وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة. فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة. والعلم والمعرفة أسباب كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة، ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القوية، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال، وإن لم تكن كذلك عند ذوي النقصان، كما لم تكن الرئاسة ألذ من المطعومات عند الصبيان.

فإن قلت: فهذه الرؤيا محلها القلب أو العين في الآخرة؟.

فاعلم: أنّ الناس قد اختلفوا في ذلك، وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف، ولا ينظرون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو جبهته، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له، والحق فيه أنّ القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا في حكم الجواز، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع[2]، والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع: أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ

---

(١) حديث: **«أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله»** أخرجه إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبي ﷺ قال: **«السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله»** ووالد المطلب عبدالله بن حنطب مختلف في صحبته ولأحمد من حديث جابر: **«إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة»** والترمذي من حديث أبي بكرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: **«من طال عمره وحسن عمله»** قال: هذا حديث حسن صحيح، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«رؤية الله في الآخرة حقيقية»** متفق عليه من حديث أبي هريرة: أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **«هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر...»** الحديث.

الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره؛ إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم.

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى:

اعلم: أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من دوام مشاهدة أبد الآباد من غير منقص ومكدر، ومن غير رقيب ومزاحم، ومن غير خوف انقطاع! إلا أن هذا النعيم على قدر قوّة الحب؛ فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا، وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن؛ لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوّة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقاً فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بسببين.

أحدهما: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب، فإنّ القلب مثل الإناء لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] وكمال الحب في أن يحب الله عزّ وجلّ بكل قلبه. وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله، وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه. وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ [الأنعام: ٩١] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصّلت: ٣٠] بل هو معنى قولك: «لا إله إلا الله» أي لا معبود ولا محبوب سواه، فكل محبوب فإنه معبود، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به، وكل محب فهو مقيد بما يحبه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] وقال ﷺ: **«أَبْغَضُ إِلٰهٍ عُبِدَ فِي الأَرْضِ الهَوَى»**، ولذلك قال عليه السلام: **«مَنْ قَالَ لا إِله إِلاَّ اللَّهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الجَنَّةَ»**[(١)]، ومعنى الإخلاص: أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه، وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد، وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلي من السجن، ومكن من المحبوب، وروّح بالأمن أبد الآباد، فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوّة حب الدنيا؛ ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمتنزهات حتى إن المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا، ومتعرّض لنقصان حب الله تعالى بسببه، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها، فالدنيا والآخرة ضَرَّتَانِ، وهما كالمشرق والمغرب، وقد انكشف ذلك لذوي القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب: سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء. فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدّمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوّله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار، ثم يتشعب منه

---

(١) حديث: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة». تقدم.

الخوف والرجاء، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما. ثم ينجرّ ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه؛ فكل ذلك مقدّمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة. وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**الطهور شطر الإيمان**»[1]، كما ذكرناه في أوّل كتاب الطهارة.

السبب الثاني: لقوة المحبة. قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني. ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة، وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] أي المعرفة ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم، وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أوّلاً من الدنيا ثم إدامة طهارته، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة، وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل، فالعلم هو الأوّل وهو الآخر، وإنما الأوّل علم المعاملة وغرضه العمل، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة، ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه، ومهما أحبه حصلت اللذة، فاللذة تبع المحبة بالضرورة، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم، والجدّ البالغ في الطلب، والنظر المستمرّ في الله تعالى وفي صفاته، وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته.

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى: **الأقوياء**: ويكون أوّل معرفتهم بالله تعالى، ثم به يعرفون غيره. وإلى **الضعفاء**: ويكون أوّل معرفتهم بالأفعال، ثم يترقون منها إلى الفاعل. وإلى الأوّل الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصّلت: ٥٣] وبقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] ومنه نظر بعضهم حيث قيل له: بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي، ولولا ربي لما عرفت ربي، وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: ٥٣] الآية. وبقوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا﴾ [الأعراف: ١٨٥] وبقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وبقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [المُلك: ٣،٤] وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين، وهو الأوسع على السالكين، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار، والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

فإن قلت: كلا الطريقين مشكل، فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة.

فاعلم: أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض، والكلام فيه

---

(١) حديث: «**الطهور شطر الإيمان**» أخرجه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري، وقد تقدم.

خارج عن حدّ فهم أكثر الخلق، فلا فائدة في إيراده في الكتب، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حدّ الأفهام؛ وإنما قصرت الأفهام عنه؛ لإعراضها عن التدبر، واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته، وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية؛ إذ ما من ذرّة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته، ومنتهى جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة، ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجار ليقع التنبيه لجنسه فنقول:

أسهل الطريقين: النظر إلى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ـ أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ـ فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص، فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هو مركوزة فيه، فإنه لا نسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة، وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك. فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار، فقد قال رسول الله ﷺ: «**الأَرْضُ فِي البَحْرِ كَالإِصْطَبْلِ فِي الأَرْضِ**»[(١)]، ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة، وعلم أن المكشوف في الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض، ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب ـ الذي هو جزء من الأرض ـ وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، ودع عنك جميع ذلك، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه، فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطوماً مثل خرطومه، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه، وأخرج يده ورجله، وشق سمعه وبصره، ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات، هذا في شكله وصفاته، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه، وعرّفه أنّ غذاءه دم الإنسان، ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان! وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدّد الرأس! وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد منها! ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم! وكيف علمه المص والتجرّع للدم! وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوّفاً حتى يجري فيه الدم الرقيق، وينتهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه! ثم كيف عرّفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته! وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد ـ وهي بعد بعيدة منه ـ فيترك المص ويهرب! ثم إذا سكنت اليد يعود! ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه.

وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره، وكانت الأجفان

---

(١) حديث: «**الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض**» لم أجد له أصلاً.

مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار؛ خلق للبعوض والذباب يدين؛ فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه. وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر، وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين، وتعين على الإبصار، وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار؛ فينظر من وراء شباك الأهداب، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار. وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان، وعلمها كيفية التصقيل باليدين، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لأنّ بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظنّ أنه في بيت مظلم، وأنّ السراج كوّة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء، فلا يزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه إليه، فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق، ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها، فاعلم: أنّ جهل الإنسان أعظم من جهلها، بل صورة الآدمي في الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار؛ إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها، ولا يدري أنّ تحتها السم الناقع القاتل، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكاً مؤبداً، فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال، والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة، ولذلك كان ينادي رسول الله ﷺ ويقول: **«إِنّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَهَافَتُونَ فِيها تَهَافُتَ الفَرَاشِ»**(١)، فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأوّلون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته، ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى.

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره، فانظر إلى النحل وعجائبها، وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار، وطاعتها لواحد من جملتها؛ هو أكبرها شخصاً وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ـ حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة ـ لقضيت منها عجباً آخر العجب إن كنت بصيراً في نفسك، وفارغاً من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك. ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدّس، فلا تبني بيتاً مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدّساً، لخاصية في الشكل المسدّس يقصر فهم المهندسين عن دركها، وهو أنّ أوسع الأشكال وأحواها: المستديرة وما يقرب منها، فإنّ المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإنّ الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من

---

(١) حديث: **«إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيه تهافت الفراش»** متفق عليه من حديث أبي هريرة: **«مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه»**. لفظ مسلم: واقتصر البخاري على أوله، ولمسلم من حديث جابر: **«وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدي»**.

المستدير، ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى اجتماعها فرجة إلا المسدس، وهذه خاصية هذا الشكل، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفاً به وعناية بوجوده، وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه!

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات، ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات، فإنّ القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه، بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علماً في جنب علم الله تعالى، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة، فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك، واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم، فعساك تحظى منها بقدر يسير، ولكن تنال بذلك اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له.

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب:

اعلم: أنّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لاشتراكهم في أصل المحبة، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا؛ إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها، وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون، والعارفون بالحقائق هم المقرّبون. وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] الآية. فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالاً فنقول: أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حب الشافعي - رحمه الله - الفقهاء منهم والعوام، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله، ولكن العامي يعرف علمه مجملاً والفقيه يعرفه مفصلاً، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحبه له أشدّ، فإنّ من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال إليه قلبه، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حباً، وكذا سائر الصناعات والفضائل. والعامي قد يسمع أنّ فلاناً مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف؛ فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل، والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف. والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه، والعامي يعلم ذلك ويعتقده، وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه، حتى يرى في البعوض - مثلاً - من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله، ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه - لا محالة - عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حباً، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعاً استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله، وازداد به معرفة وله حباً. وبحر هذه المعرفة - أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى - بحر لا ساحل له، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له،

ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب، فإنّ من يحب الله مثلاً لكونه محسناً إليه منعماً عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته؛ إذ تتغير بتغير الإحسان، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء. وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه. فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة. والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه:

اعلم: أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، وترى الأمر بالضدّ من ذلك، فلا بدّ من بيان السبب فيه. وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال: وهو أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط مثلاً كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة؛ إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه؛ كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته. أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح. ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا، وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة، وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته. والموجودات المدركة لا حصر لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس لها يشهد إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده؛ فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصوّر في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله؟ إذ كل ذرّة فإنها تنادي بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرّك لها، يشهد بذلك أوّلاً تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة، فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها، كما نعلم أنّ يد الكاتب لم تتحرّك بنفسها، ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه.

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان:

أحدهما: خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله.

والآخر: ما يتناهى وضوحه، وهذا كما أنّ الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره ولكن لشدّة ظهوره، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا ترى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره.

فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإنّ الأشياء تستبان بأضدادها، وما عم وجوده حتى إنه لا ضدّ له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر. ومثاله، نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظنّ أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما، فإنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض، فأما الضوء فلا ندركه وحده، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أنّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور، هذا مع أنّ النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره، انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضدّه؟ فالله تعالى هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدّت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين. ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدّة الظهور خفاء، فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره؛ يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله. وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها. ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزاً له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف، ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف، وكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله، وعرفه من حيث إنه فعل الله، وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظراً إلا في الله ولا عارفاً إلا بالله ولا محباً إلا له، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله، فهذا الذي يقال فيه: إنه فني في التوحيد وإنه فني عن نفسه. وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن. فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة

للغرض إلى الأفهام، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم. فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله تعالى خارقاً للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فقال: «سبحان الله» وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها، ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً ثم انقشعت غشاوة عينه فامتدّ بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة، لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة العجائب لخالقها.

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سدّ على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة، فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكباً لحماره وهو يطلب حماره، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة. فهذا سر هذا الأمر فليحقق. ولذلك قيل:

فقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ... فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى:

اعلم: أنّ من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بدّ وأن ينكر حقيقة الشوق؛ إذ لا يتصورّ الشوق إلا إلى محبوب، ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى، وكون العارف مضطرّاً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار. أما الاعتبار: فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب، فكل محبوب يشتاق إليه في غيبته لا محالة، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لا يطلب. ولكن بيانه أنّ الشوق لا يتصوّر إلا إلى شيء، أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، فأما ما لا يدرك أصلاً فلا يشتاق إليه، فإنّ من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه ولا يتصوّر أن يشتاق إليه، وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصوّر أن يكون له شوق، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات.

فنقول مثلاً: من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصوّر أن يشتاق إليه، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه.

والثاني: أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته، وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية، ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية؛ فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط.

والوجهان جميعاً متصوران في حق الله تعالى، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية ـ وإن كان في غاية الوضوح ـ فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات، فإنّ الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات، وهي مكدرات للمعارف ومنغصات، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلي، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين. فهذا أحد نوعي الشوق، وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحاً ما.

الثاني: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة. والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة.

والشوق الأول: ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا. وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال: قلت ذات يوم: يا رب إن أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضرّ بي القلق، قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال: يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا رب تهت في حبك فلم أدر ما أقول، فاغفر لي وعلمني ما أقول، فقال: قل: اللهم رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك. فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة.

وأما الشوق الثاني: فيشبه: أن لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لا نهاية له. ولا يزال العبد عالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه، لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم، ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية، فلا يزال النعيم واللذة متزايداً أبد الآباد، وتكون لذة ما يتجدّد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلاً، فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفاً على حدّ لا يتضاعف ولكن يكون مستمرّاً على الدوام. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] محتمل لهذا المعنى. وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزوّد من الدنيا أصل النور، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق، فيكون هو المراد بتمامه. وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] يدل على أنّ الأنوار لا بدّ وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً، فأما أن يتجدّد نور فلا، والحكم في هذا برجم الظنون مخطر، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ورشداً ويرينا الحق حقاً. فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى، فمما اشتهر من دعاء رسول الله أنه كان يقول: **«اللّٰهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ وَبَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الكَرِيمِ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»**(١)، وقال أبو الدرداء لكعب: أخبرني عن أخص آية ـ يعني في التوراة ـ فقال: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني إلى لقائهم لأشدّ شوقاً. قال: ومكتوب إلى جانبها: من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا. وفي أخبار داود عليه السلام: إنّ الله تعالى قال: يا داود، أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدّمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني؛ فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وائنسوا بي أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجيي ومحمد صفيي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي.

وروي عن بعض السلف: أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصدّيقين: إن لي عباداً من عبادي يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليَّ وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك، قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليَّ أقدامهم، وافترشوا إلي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوا إلي بإنعامي، فبين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيها من موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، فترى من أقبلت عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود، إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إليّ، قال: يا رب من المشتاقون إليك؟ قال: إن المشتاقين إليَّ الذين صفيتهم من كل كدر، ونبهتهم بالحذر، وخرقت من قلوبهم إلي خرقاً ينظرون إلي، وإني لأحمل قلوبهم بيدي وأضعها على سمائي، ثم أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي، فأقول: إني لم أدعكم لتسجدوا لي ولكني دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي، وأباهي بكم أهل الشوق إلي؛ فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض، يا داود، إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدّثي، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلي يزدادون في كل يوم شوقاً، قال داود: يا رب أرني أهل محبتك، فقال:

---

(١) حديث: أنه كان يقول في دعائه: **«اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت. . .»** الحديث. أخرجه أحمد والحاكم وتقدم في الدعوات.

يا داود، ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول، فإذا أتيتهم فأقرئهم مني السلام وقل لهم: إن ربكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألون حاجة فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عزّ وجلّ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرّقوا عنه، فقال داود: إني رسول الله إليكم، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم، فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: إني رسول الله إليكم، جئتكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألون حاجة؟ ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة؟ قال: فجرت الدموع على خدودهم، فقال شيخهم: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك، فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك، أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا، فأدم لنا لزوم الطريق إليك، وأتمم بذلك المنة علينا. وقال الآخر: نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بجودك. وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومننت علينا بالتفكر في عظمتك، أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك؟ وطلبتنا الدنوّ من نورك. وقال الآخر: كلت ألسنتنا من دعائك لعظم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة منتك على أهل محبتك. وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك، وفرّغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك. وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا؛ إنما هي النظر إلى وجهك. وقال الآخر: كيف يجترىء العبد على سيده؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجودك، فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات من أطباق السموات، وقال آخر: ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا. وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا. وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك. وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة. وقال الآخر: قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك، فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك. فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لهم: قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سرباً فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي. فقال داود: يا رب، بم نالوا هذا منك؟ قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها، والخلوات بي ومناجاتهم لي، وإنّ هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها، وفرّغ قلبه لي، واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتي في كل ساعة، وأقرّبه من نور وجهي، إن مرض مرّضته كما تمرّض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكري، فإذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يفتر عن الاشتغال بي، يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي لا يرى غيري ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه، وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري، أباهي به ملائكتي وأهل سمٰواتي يزداد خوفاً وعبادة، وعزتي وجلالي يا داود لأقعدنه في الفردوس، ولأشفين صدره من النظر إليّ حتى يرضى وفوق الرضا.

وفي أخبار داود أيضاً: قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضركم إذا احتجبت عن خلقي، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي.

في أخبار داود أيضاً: إن الله تعالى أوحى إليه: تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإنّ حبي وحبها لا يجتمعان في قلب. يا داود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة، ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال، أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقاً على أني أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد، وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدي وأنه لا غنى به عني، فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك، فإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها، أضف الأشياء إلي لا تضاد عملك فتكون متعنياً ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتي حدّاً فليس لها غاية، ومتى طلبت مني الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة مني حدّاً، ثم أعلم بني إسرائيل: أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ضعني بين عينيك وانظر إلي ببصر قلبك، ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها؛ فإني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف، تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها. يا داود: لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيداً، ومن كتبته عندي جهيداً لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين. يا داود: تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محتني لا تؤيس عبادي من رحمتي، اقطع شهوتك لي فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقي، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني فإني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها. يا داود: لا تجعل بيني وبينك عالماً يحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم، وإياك والتجربة في الإفطار فإنّ محبتي للصوم إدمانه. يا داود: تحبب إلي بمعاداة نفسك امنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة، إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت عليك به، وإني أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي.

وأوحى الله تعالى إلى داود: يا داود، لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود: هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين عليّ. يا داود: أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي. فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق.

بيان محبة الله للعبد ومعناها:

اعلم: أنّ شواهد القرآن متظاهرة على أنّ الله تعالى يحب عبده فلا بدّ من معرفة معنى ذلك، ولنقدم

الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصَّف: ٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] وقد روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْداً لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ.** ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]»(١) ومعناه: إنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ وَلا يُعْطِي الإِيمَانَ إلاَّ مَنْ يُحِبُّ**»(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ**»(٣)، وقال عليه السلام: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**»(٤)، الحديث. وقال زيد بن أسلم: إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اعمل ما شئت فقد غفرت لك. وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر.

وقد ذكرنا: أنّ محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز؛ إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط. وقد بينا أنّ الإحسان موافق للنفس، والجمال موافق أيضاً، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر، وتارة يدرك بالبصيرة، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر.

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً، بل الأسامي كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً، حتى إن اسم «الوجود» ـ الذي هو أعم الأسماء اشتراكاً ـ لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد، بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع. وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم؛ إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلاً، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر، وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه، وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق. وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامي أولاً للخلق؛ فإنّ الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوّز والنقل. والمحبة في وضع اللسان:

---

(١) حديث أنس: «**إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له**» ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده، وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود، وتقدم في التوبة.

(٢) حديث: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب...**» الحديث. أخرجه الحاكم وصحح إسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود.

(٣) حديث: «**من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله**» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله: «**ومن أكثر... إلى آخره**» ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة، وفيه ابن لهيعة.

(٤) حديث: «**قال الله تعالى: لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...**» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالاً فتلتذ بنيله، وهذا محال على الله تعالى، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبداً وأزلاً، ولا يتصور تجدّده ولا زواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرىء عليه قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فقال: بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه، على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره، فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو إذن لا يحب إلا نفسه، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤوّل ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى: «لا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه» فيكون تقرّبه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه.

ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرّب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه، إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيىء أسباب طعامه وشرابه، فيقال: إن الملك يحبه، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له. وقد يقرب عبداً ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق المرضية، والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظ من قربه، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال: قد أحبه، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال: قد توصل وحبب نفسه إلى الملك. فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول، وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدّد القرب، فإنّ الحبيب هو القريب من الله تعالى، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية، فهو قرب بالصفة لا بالمكان، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغير، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدّد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً؛ إذ صار قريباً بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى؛ إذ التغير عليه محال، بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال.

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحرّكهما جميعاً، وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرّك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر، بل القرب في الصفات أيضاً كذلك، فإنّ التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله، والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرّك بالنزول إلى درجة تلميذه، والتلميذ متحرّك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم، فلا يزال دائباً في التغير والترقي إلى أن يقرب من أستاذه، والأستاذ ثابت غير متغير، فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب، فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوّة في قهر الشيطان وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال، ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله. نعم، قد يقدر التلميذ على

القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال، فإنه لا نهاية لكماله، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا إلى حدّ محدود فلا مطمع له في المساواة، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال.

فإذن: محبة الله للعبد: تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

وأما محبة العبد لله: فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته، وإذا أدرك منه شيئاً يلتذ به، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى.

فإن قلت: محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله؟ فأقول: يستدل عليه بعلاماته. وقد قال ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْداً ابْتَلاهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الحُبَّ البَالِغَ اقْتَنَاهُ**» قيل: وما اقتناه؟ قال: «**لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلاً وَلا مَالاً**»[1]. فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره. قيل لعيسى عليه السلام: لم لا تشتري حماراً فتركبه؟ فقال: أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار. وفي الخبر: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْداً ابْتَلاَهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ**»[2]. وقال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك؛ فاعلم: أنه يريد أن يصافيك. وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طولعت بشيء من المحبة فقال: يا بني، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه؟ قال: لا، قال: فلا تطمع في المحبة؛ فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْداً جَعَلَ لَهِ وَاعِظاً مِنْ نَفْسِهِ وَزَاجِراً مِنْ قَلْبِهِ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ**»[3]، وقد قال: «**إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه**»[4]. فأخص علاماته: حبه لله تعالى؛ فإنّ ذلك يدل على حب الله تعالى له.

وأما الفعل الدال على كونه محبوباً: فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره؛ فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه والمسدّد لظاهره وباطنه، والجاعل همومه هماً واحداً، والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته. فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد. فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالى فإنها أيضاً من علامات حب الله تعالى للعبد.

القول في علامات محبة العبد لله تعالى:

اعلم: أنّ المحبة يدّعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين

---

(١) حديث: «**إذا أحب الله عبداً ابتلاه...**» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه...**» الحديث. ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب، ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٣) حديث: «**إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه...**» الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ: «**إذا أراد الله بعبد خيراً**».

(٤) حديث: «**إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف.

والأدلة. والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة.

فمنها: حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، فلا يتصوّر أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت؛ فينبغي أن يكون محباً للموت غير فارّ منه، فإنّ المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة. قال ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللّهِ أَحَبَّ اللّهُ لِقَاءَهُ»**(١). وقال حذيفة عند الموت: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود، فقدّم حب لقاء الله على السجود. وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله، حيث قالوا: إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصَّف: ٤] وقال عزّ وجلّ: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبَة: ١١١]. وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما: الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء، والباطل خفيفٌ وهو مع خفته وبيء، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه. ويروى عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدّثني أبي أنّ عبدالله بن جحش قال له يوم أُحُد: ألا ندعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا عبدالله بن جحش فقال: يا رب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدوّ غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حَرَده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ويبقر بطني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبدالله من جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك يا رب وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: فلقد رأيته آخر النهار وإنّ أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط(٢). قال سعيد بن المسيب: أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوّله. وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان: لا يكره الموت إلا مريب، لأنّ الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه. وقال البويطي لبعض الزهاد: أتحب الموت؟ فكأنه توقف فقال: لو كنت صادقاً لأحببته، وتلا قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ٩٤] فقال الرجل: فقد قال النبي ﷺ: **«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ المَوْتَ»**(٣)، فقال: إنما قاله لضر نزل به؛ لأنّ الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه.

فإن قلت: من لا يحب الموت فهل يتصوّر أن يكون محباً لله؟ فأقول: كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى؛ لأنّ الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من

---

(١) حديث: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»** متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة.

(٢) حديث: إسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدثني أبي أن عبدالله بن جحش قال له يوم أحد: ألا ندعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا عبدالله بن جحش فقال: يا رب، إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجدع أنفي وأذني. . .» الحديث. أخرجه الطبراني، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد.

(٣) حديث: **«لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به. . .»** الحديث. متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم.

حب الله تعالى ضعيفة، فإنّ الناس متفاوتون في الحب. ويدل على التفاوت ما روي: أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا: أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى؟ فقال: والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خير منها، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله، فقالوا: وكيف وهي أختك وهو مولاك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ بِكُلِّ قَلْبِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِمٍ»(١). فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضاً غيره، فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها.

وأما **السبب الثاني للكراهة**: فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب، وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلاً، وعلامته الدؤوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه؛ فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرّباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه. وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ومن بقي مستقراً على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل:

أريدُ وصالَه ويريد هجري ... فأترك ما أريد لما يريدُ

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب، كما روي: أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى، فكان يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوّفت به إلى النهار وقالت: يا يوسف، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه، فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلاً، حتى قال لها: إن الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين، فقالت: أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلني طريقاً إليه فطاعة لأمر الله تعالى، فعندها سكنت إليه. فإذن من أحب الله لا يعصيه، ولذلك قال ابن المبارك فيه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إن المحبَّ لمن يحب مطيعُ

---

(١) حديث أبي حذيفة بن عتبة: أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك. وفيه: فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن ينظر إلى رجل يحب بكل قلبه فلينظر إلى سالم» لم أره من حديث حذيفة. وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه من حديث عمر: «أن سالماً يحب الله حقاً من قلبه» وفي رواية له: «أن سالماً شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ما عصاه» وفيه عبدالله بن لهيعة.

وفي هذا المعنى قيل أيضاً:

وأترُكُ ما أهوى لما قد هويته ... فأرضى بما ترضى وإن سَخِطَتْ نَفْسي

وقال سهل رحمه الله تعالى: علامة الحب إيثاره على نفسك، وليس كل من عمل بطاعة الله عزّ وجلّ صار حبيباً، وإنما الحبيب من اجتنب المناهي. وهو كما قال، لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤]، وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه، وإنما عدوّه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته. ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٤٥].

فإن قلت: فالعصيان هل يضاد أصل المحبة؟.

فأقول: إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره؟ وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه. ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة. ويدل عليه ما روي: أنّ نعيمان كان يؤتى به رسول الله ﷺ في كل قليل فيحدّه في معصية يرتكبها إلى أن أتي به يوماً فحدّه، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسول الله ﷺ؟ فقال ﷺ: «**لا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**»[١]، فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة. نعم، تخرجه المعصية عن كمال الحب. وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حباً متوسطاً، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي. وبالجملة: في دعوى المحبة خطر، ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك أتحب الله تعالى؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت. ولقد قال بعض العلماء: ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشدّ من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك.

ومنها: أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله: حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ وحب كل من ينسب إليه، فإنّ من يحب إنساناً يحب كلب محلته. فالمحبة إذا قويت تعدّت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه، وذلك ليس شركة في الحب، فإنّ من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، فلم يجاوز حبه إلى غيره، بل هو دليل على كمال حبه، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه، فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحبة، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] وقال رسول الله ﷺ: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِلَّهِ تَعَالَى**»[٢]. وقال سفيان: من أحب من يحب الله تعالى

---

(١) حديث: أتي بنعيمان يوماً فحدّه فلعنه رجل قال: ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**» أخرجه البخاري، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه...**» الحديث. تقدم.

فإنما أحب الله، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله. وحكي عن بعض المريدين قال: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلاً ونهاراً، ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال: فسمعت قائلاً يقول في المنام: إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي، أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي، قال: فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالي. وقال ابن مسعود: لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عزّ وجلّ، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وقال سهل ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنّة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً وبلغة إلى الآخرة.

ومنها: أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته؟ قيل لإبراهيم بن أدهم ـ وقد نزل من الجبل ـ: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله. وفي أخبار داود عليه السلام: لا تستأنس إلى أحد من خلقي، فإني إنما أقطع عني رجلين؛ رجلاً استبطأ ثوابي فانقطع، ورجلاً نسيني فرضي بحاله، وعلامة ذلك: أن أَكِلَهُ إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشاً من الله تعالى ساقطاً عن درجة محبته. وفي قصة برخ ـ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام ـ أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: إنّ برخاً نعم العبد هو لي إلا أنّ فيه عيباً، قال: يا رب وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء. وروي: أنّ عابداً عبد الله تعالى في غيضة دهراً طويلاً فنظر إلى طائر وقد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها، فقال: لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال: ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان: قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً. فإذن: علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به، وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة. وعلامة الأنس: مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذة المناجاة، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به، ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرّر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه. فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد: ٢٨] قال: هشت إليه واستأنست به. وقال الصدّيق رضي الله تعالى عنه: من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال مطرف بن أبي بكر: المحب لا يسأم من حديث حبيبه، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قد كذب من ادّعى محبتي إذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه، فها أنا ذا موجود لمن طلبني. وقال موسى عليه السلام: يا رب، أين أنت فأقصدك؟ فقال: إذا قصدت فقد وصلت. وقال يحيى بن معاذ: من

أحب الله أبغض نفسه. وقال أيضاً: من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب؛ يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق، والعبادة على خدمة الخلق.

ومنها: أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عزّ وجلّ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة. قال بعض العارفين: إنّ لله عباداً أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاماً، وما شاء كان، فما كان لهم فهو واصل إليهم، وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم. وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته: أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب، ويسأله ويقول: رب، بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك، وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة، وتكون هفوته سبباً لتجدّد ذكره وصفاء قلبه. ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئاً إلا منه لم يتأسف ولم يشك، واستقبل الكل بالرضا، وعلم أنّ المحبوب لم يقدّر له إلا ما فيه خيرته، ويذكر قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

ومنها: أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة. وقال الجنيد: علامة المحب: دوام النشاط والدؤوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه. وقال بعضهم: العمل على المحبة لا يدخله الفتور. وقال بعض العلماء: والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل. فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات، فإنّ العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه، ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقاً على بدنه، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به، فهكذا يكون حب الله تعالى، فإن كل حب صار غالباً قهر لا محالة ما هو دونه، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه. وقيل لبعض المحبين ـ وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ـ: ما كان سبب حالك هذه في المحبة؟ فقال: سمعت يوماً محباً وقد خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبي كله، وأنت معرض عني بوجهك كله، فقال له المحبوب: إن كنت تحبني فأيش تنفق علي؟ قال: يا سيدي أُمَلِّكُكَ ما أملِكُ، ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك، فقلت: هذا خلق لخلق وعبد لعبد، فكيف بعبيد لمعبود؟ فكل هذا بسببه.

ومنها: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحيماً بهم، شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفَتْح: ٢٩]، ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، وبه وصف الله أولياءه إذ قال: الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء؛ ويأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره، ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد؛ فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا، فانظر إلى هذا المثال، فإنّ الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلاً، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه، فإن نام أخذه معه في ثيابه، فإذا انتبه عاد وتمسك به، ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه. وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدّة غضبه أنه يهلك نفسه. فهذه علامات المحبة، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه؛ فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه؛ إذ يمزج شرابه بقدر من شراب

المقرّبين، كما قال تعالى في الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٣] ثم قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطفّفين: ٢٥-٢٨] فإذا طاب شراب الأبرار لشرب الشراب الصرف الذي هو للمقرّبين. والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطفّفين: ١٨] ثم قال: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطفّفين: ٢١] فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقرّبون، وكما أنّ الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقرّبين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون حالهم في الآخرة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وكما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبإ: ٢٦] أي وافق أعمالهم، فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب. وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧،٨] - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١] - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النّساء: ٤٠] - ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] فمن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور؛ مكن من الجنة ليتبوّأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان؛ فهناك تنتهي لذته في الآخرة، لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه. ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق، أنزل: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٥] فالأبرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان. والمقرّبون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها، يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرّة منها، فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون، وللمجالسة أقوام آخرون، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«أكْثَرُ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِي الأَلْبَابِ»**(١)، ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ [المطفّفين: ١٩] كما قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١-٣].

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وقد يظنّ أنّ الخوف يضاد الحب وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أنّ إدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض، فأوّلها خوف الإعراض، وأشدّ منه خوف الحجاب، وأشدّ منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين(٢) إذ سمع قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به، فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد، ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فإنا قدّمنا أن درجات القرب لا نهاية لها، وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قرباً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«مَن اسْتَوَى يَوْمَاهُ**

---

(١) حديث: **«أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب»** أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصراً على الشطر الأول، وقد تقدم، والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري ولعله أدرج فيه.

(٢) حديث: **«شيبتني هود»** أخرجه الترمذي، وقد تقدم غير مرة.

فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ أَمسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ»[١] وكذلك قال عليه السلام: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً»[٢]، وإنما كان استغفاره من القدم الأوّل فإنه كان بعداً بالإضافة إلى القدم الثاني، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب، كما روي أنّ الله تعالى يقول: إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي. فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرّد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادىء اللطف، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة، ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته. سمع إبراهيم بن أدهم قائلاً يقول ـ وهو في سياحة وكان على الجبل ـ:

كل شيء منك مغفو ر سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فا ت فهب لنا ما فات منا

فاضطرب وغشي عليه، فلم يفق يوماً وليلة، وطرأت عليه أحوال ثم قال: سمعت النداء من الجبل؛ يا إبراهيم كن عبداً. فكنت عبداً واسترحت.

ثم خوف السلو عنه، فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد، ولا يتسلى إلا بلطف جديد، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته. والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوّة البشر الاطلاع عليها، فإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء، ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان، وكما أنّ من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب؛ وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة، فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء، وذلك من مقدّمات المكر والشقاء والحرمان. ثم خوف الاستبدال به، فانتقال القلب من حبه إلى حب غيره، وذلك هو المقت، والسلو عنه مقدمة هذا المقام، والإعراض والحجاب مقدمة السلو، وضيق الصدر بالبر، وانقباضه عن دوام الذكر، وملاله لوظائف الأوراد، أسباب هذه المعاني ومقدماتها. وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت ـ نعوذ بالله منه ـ، وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب، فإنّ من أحب شيئاً خاف لا محالة فقده، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته. وقد قال بعض العارفين: من عبد الله تعالى بمحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحب الله تعالى فقرّبه ومكنه وعلمه، فالمحب لا يخلو عن خوف، والخائف لا يخلو عن

---

(١) حديث: «من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون» لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله، أوصني، فقال ذلك بزيادة في آخره، رواه البيهقي في الزهد.

(٢) حديث: «إنه ليغان على قلبي» متفق عليه من حديث الأغر، وقد تقدم.

محبة، ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال: هو في مقام المحبة ويعد من المحبين، وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب. فقد روي في بعض الأخبار: أنّ بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرّة من معرفته، ففعل ذلك، فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه، وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال: يا رب، أنقصه من الذرّة بعضها، فأوحى الله تعالى إليه، إنما أعطيناه جزءاً من مائة ألف جزء من المعرفة، وذلك أنّ مائة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته، فقسمت ذرّة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك، فقال: سبحانك، يا أحكم الحاكمين أنقصه مما أعطيته!، فأذهب الله عنه جملة الجزء، وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن، وصار كسائر العارفين، وقد قيل في وصف حال العارف:

قريبُ الوجد ذو مرمى بعيد ... عن الأحرار منهم والعبيدِ
غريب الوصف ذو علم غريب ... كأن فؤاده زبر الحديدِ
لقد عزت معانيه وجلت ... عن الأبصار إلا للشهيدِ
يرى الأعياد في الأوقات تجري ... له في كل يوم ألف عيدِ
وللأحباب أفراح بعيد ... ولا يجد السرور له بعيدِ

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتاً يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره. وهي هذه الأبيات:

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم ... فحلُّوا بقرب الماجد المتفضلِ
عراصاً بقرب الله في ظل قدسه ... تجول بها أرواحهم وتنقلِ
مواردهم فيها على العز والنهى ... ومصدرهم عنها لما هو أكملِ
تروح بعز مفرد من صفاته ... وفي حلل التوحيد تمشي وترفلِ
ومن بعد هذا ما تدق صفاته ... وما كتمه أولى لديه وأعدلِ
سأكتم من علمي به ما يصونه ... وأبذل منه ما أرى الحق يبذلِ
وأعطي عباد الله منه حقوقهم ... وأمنع منه ما أرى المنع يفضلِ
على أن للرحمن سراً يصونه ... إلى أهله في السر والصون أجملِ

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوماً لخربت الدنيا لزهدهم فيها، وبطلت الأسواق والمعايش، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم، ولكن لله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم، كما أن

له في الخير أسراراً وحكماً، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته.

ومنها: كتمان الحب واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار الوجد والمحبة، تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيره على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب، ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء، وتعظم العقوبة عليه في العقبى، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا. نعم، قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه. فالقادر على الكتمان يقول:

وقالوا: قريب، قلت: ما أنا صانع ... بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري
فما لي منه غير ذكر بخاطر ... يهيج نار الحب والشوق في صدري

والعاجز عنه يقول:

يخفى فيبدي الدمع أسراره ... ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضاً:

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ... ومن سرّه في جفنه كيف يكتُم؟

وقد قال بعض العارفين: أكثر الناس من الله بعداً أكثرهم إشارة به. كأنه أراد: من يكثر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عزّ وجلّ. ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ـ ممن كان يذكر المحبة ـ فرآه مبتلى ببلاء فقال: لا يحبه من وجد ألم ضره، فقال الرجل: لكني أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره، فقال ذو النون: ولكني أقول: لا يحبه من شهر نفسه بحبه، فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

فإن قلت: المحبة منتهى المقامات، وإظهارها إظهار للخير، فلماذا يستنكر؟

فاعلم: أنّ المحبة محمودة وظهورها محمود أيضاً، وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار، وحق المحب أن ينم على حبه الخفي أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله. وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب، بل ينبغي أن يكون قصد المحب إطلاع الحبيب فقط، فأما إرادته إطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه، كما ورد في الإنجيل: إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك. فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك. فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه.

حكي: أن رجلاً رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه، فأخبر ذلك معروفاً الكرخي رحمه الله فتبسم ثم قال: يا أخي، له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين! فهذا الذي رأيته من مجانينهم. ومما يكره: التظاهر بالحب، بسبب أنّ المحب إن كان عارفاً ـ وعرف أحوال الملائكة في حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذي به يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ـ لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه، وعلم قطعاً أنه من أخس المحبين في مملكته، وأنّ حبه أنقص من حب كل محب لله. قال بعض المكاشفين من المحبين: عبدت الله تعالى ثلاثين سنة

بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أنّ لي عند الله شيئاً، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها: فبلغت صفاً من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن المحبون لله عزّ وجلّ، نعبده هاهنا منذ ثلاثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولاذكرنا غيره، قال: فاستحييت من أعمالي فوهبتها لمن حق عليه الوعيد؛ تخفيفاً عنه في جهنم.

فإذن: من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى. نعم، يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته؛ كما حكي عن الجنيد أنه قال: مرض أستاذنا السريّ رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سبباً، فوصف لنا طبيب حاذق. فأخذ قارورة مائه، فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليها ملياً ثم قال لي: أراه بول عاشق! قال الجنيد: فصعقت وغشي علي ووقعت القارورة من يدي، ثم رجعت إلى السري فأخبرته، فتبسم وقال: قاتله الله ما أبصره، قلت: يا أستاذ وتبين المحبة في البول؟! قال: نعم. وقد قال السري مرة: لو شئت أقول: ما أيبس جلدي على عظمي ولا سل جسمي إلا حبه. ثم غشي عليه. وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدّمات الغشية. فهذه مجامع علامات الحب وثمراته.

ومنها: الأنس والرضا ـ كما سيأتي ـ.

وبالجملة: جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق. نعم، قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه. والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين، ولذلك قال الجنيد: الناس في محبة الله تعالى عام وخاص، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرّد بالملك. ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه، إذ استحق عندهم المحبة بذلك، لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم، نعم، من الناس من يحب هواه. وعدوّ الله إبليس ـ وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل ـ فيظن أنه محب لله عزّ وجلّ، وهو الذي فقدت فيه هذه العلامات، أو يلبس بها نفاقاً ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا، وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه، وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال: يا دوست ـ أي يا حبيب ـ فقيل له: قد لا يكون حبيباً فكيف تقول هذا؟ فقال في أذن القائل سراً: لا يخلو إما أن يكون مؤمناً أو منافقاً: فإن كان مؤمناً فهو حبيب الله عزّ وجلّ، وإن كان منافقاً فهو حبيب إبليس. وقد قال أبو تراب النخشبي ـ في علامات المحبة ـ أبياتاً:

لا تخدعنّ فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسماً ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهماً ... لكلام من يحظى لديه السائل

ومن الدلائل أن يرى متقشفاً ... متحفظاً من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ:

ومن الدلائل أن تراه مشمراً ... في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكياً ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلّماً ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضياً ... بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان معنى الأنس بالله تعالى:

فقد ذكرنا أنّ الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه، وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمر غائب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد؛ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنساً، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة، وخطر إمكان الزوال والبعد؛ تألم القلب بهذا الاستشعار، فيسمى تألمه خوفاً. وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها، فالأنس معناه استبشار القلب فرحه بمطالعة الجمال، حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرّق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا، إنما الشوق إلى غائب، فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله، غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف.

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، كما حكي أنّ إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره؛ فيخرج من القلب عذوبة ما سواه. ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه: يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه. وقال الله عزّ وجلّ لداود عليه السلام: كن لي مشتاقاً وبي متأنساً ومن سواي مستوحشاً. وقيل لرابعة: بم نلت هذه المنزلة؟ قالت: بتركي ما لا يعنيني، وأنسي بمن لم يزل. وقال عبدالواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له: يا راهب، لقد

أعجبتك الوحدة؟ فقال: يا هذا، لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة، فقلت: يا راهب، ما أقل ما تجده في الوحدة؟ قال: الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم، قلت: يا راهب، متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود وخلصت المعاملة، قلت: ومتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم فصار هماً واحد في الطاعة، وقال بعض الحكماء: عجباً للخلائق كيف أرادوا بك بدلاً؟ عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك؟.

فإن قلت: فما علامة الأنس؟.

فاعلم: أنّ علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق، والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر، فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة وغائب في حضور، مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر، كما قال علي كرّم الله وجهه في وصفهم: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر؛ فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه. فهذا معنى الأنس بالله، وهذه علامته وهذه شواهده.

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ومنهم أحمد بن غالب، يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق، حتى أنكر بعضهم مقام الرضا، وقال: ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصوّر. وهذا كله كلام ناقص قاصر، لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور، فظن أنه لا وجود إلا للقشر، فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراؤه اللب المطلوب، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أنّ الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور ولكن عذره غير مقبول، وقد قيل:

الأنس بالله لا يحويه بطال ... وليس يدركه بالحول محتالُ
والآنسون رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة لله عمالُ

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس:

اعلم: أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوّشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب، فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر.

ومثاله: مناجاة برخ الأسود؛ الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفاً، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم، سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له: برخ، فقل له يخرج حتى أستجيب له، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عزّ وجلّ فسلم

عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طُلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا. فخرج فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك؟ وما الذي بدا لك! أنقصت عليك عيونك، أم عاندت الرياح عن طاعتك، أم نفد ما عندك، أم اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست كنت غفاراً قبل خلق الخطائين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف، أم تُرينا أنك ممتنع، أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة، قال: فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر، وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، قال: فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفني؟ فهمّ موسى عليه السلام به، فأوحى الله تعالى إليه: إن برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن قال: احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخص، قال: فأتي بشيخ فقال: يا شيخ، ما بال خصك لم يحترق؟ قال: إني أقسمت على ربي عزّ وجلّ أن لا يحرقه، فقال أبو موسى رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَكُونُ في أَمَّتِي قَوْمٌ شَعِثَةٌ رُؤوسُهُمْ، دَنِسَةٌ ثِيَابُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُمْ»(١)، قال: ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخوّاص فجعل يتخطى النار، فقال له أمير البصرة: انظر لا تحترق بالنار، فقال: إني أقسمت على ربي عزّ وجلّ أن لا يحرقني بالنار، قال: فاعزم على النار أن تطفأ، قال: فعزم عليها فطفئت. وكان أبو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش، فقال له أبو حفص: ما أصابك؟ فقال: ضل حماري ولا أملك غيره، قال: فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره، قال: فظهر حماره في الوقت، ومرّ أبو حفص رحمه الله.

فهذا وأمثاله يجري لذوي الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله: أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة: لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك. وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تخالجهم زهو بسيدهم ... والعبد يزهو على مقدار مولاهُ
تاهوا برؤيته عما سواه له ... يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما، ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني، ولو فطنت وفهمت، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار، فإنما هي عند ذوي الاعتبار من الأسماء.

فأوّل القصص، قصة آدم عليه السلام وإبليس. أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا في الاجتباء والعصمة. أما إبليس فأبلس عن رحمته، وقيل إنه من المبعدين. وأما آدم عليه السلام فقيل فيه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

وقد عاتب الله نبيه ﷺ في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد، وهما في العبودية سيان، ولكن في الحال مختلفان، فقال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عَبَسَ: ٨-١٠] وقال في الآخر: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ [عَبَسَ: ٥،٦] وكذلك أمره بالقعود مع طائفة، فقال عزّ

---

(١) حديث الحسن عن أبي موسى: «يكون في أمتي قوم شعثة رؤوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة.

وجل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] وأمره بالإعراض عن غيرهم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] حتى قال: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

فكذلك الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض. فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقوله في التعليل والاعتذار لما قيل له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤] فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٢، ١٣] وقوله: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب؛ لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل، ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت ـ في ظلمات ثلاث ـ ونودي عليه إلى يوم القيامة: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [القلم: ٤٩]. قال الحسن: العراء هو القيامة. ونهى نبينا ﷺ أن يقتدى به. وقيل له: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨].

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] وقد قال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فكان عيسى عليه السلام من المفضلين، ولإدلاله سلّم على نفسه، فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٣] وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس.

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء، فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ١٥].

وانظر: كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه بيوسف، وقد قال بعض العلماء: قد عددت من أوّل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨] إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفاً وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع، فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر، حتى قيل محي من ديوان النبوّة، وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء، فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك. وكان آصف من المسرفين، وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه. فقد روي: أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام: يا رأس العابدين، ويا ابن محجة الزاهدين، إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرّة بعد مرّة، فوعزتي وجلالي لئن أخذته عصفة من عصفاتي عليه لأتركنه مثلة لمن معه ونكالاً لمن بعده، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كثيباً من رمل، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال: إلهي وسيدي أنت أنت وأنا أنا، فكيف أتوب إن لم تتب علي، وكيف أستعصم؟ إن لم تعصمني لأعودنّ، فأوحى الله تعالى إليه: صدقت يا آصف، أنت أنت وأنا أنا، استقبل التوبة وقد تبت عليك، وأنا التواب الرحيم. وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه.

وفي الخبر: «إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة: كم من ذنب

واجهتني به غفرته لك قد أهكلت في دونه أمة من الأمم» فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الأزلية.

وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرّف إليهم بالتقديس فيقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤] وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] وتارة يتعرّف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوّة، فيتلو عليهم سننه في أعدائه وفي أنبيائه فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: ٦، ٧] ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١].

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي: الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده. ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس؛ وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن فقال: **«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الإِخْلَاصِ فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ»**(١)، لأنّ منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور؛ لا يكون حاصلاً منه من هو نظيره وشبهه. ودل عليه قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣] ولا يكون حاصلاً ممن هو نظيره وشبهه. ودل عليه قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعاً من هو مثله. ودل عليه قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] ويجمع جميع ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] وجملته تفصيل قول: **«لا إله إلا الله»** فهذه أسرار القرآن، ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرآن ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: نوّروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأوّلين والآخرين. وهو كما قال، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفاً له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر، وأنه خارج عن حدّ إستطاعة البشر. وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار، فكن حريصاً على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه. فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته:

اعلم: أنّ الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقرّبين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي، وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق، وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى. ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع

---

(١) حديث: **«من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن»** أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح، ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه.

ظواهر الشرع لما دعا رسول الله ﷺ لابن عباس حيث قال: «**اللّهمّ فقّهْهُ في الدّينِ وَعلّمْهُ التّأْوِيلَ**»[١]، فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا، ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم نذكر حقيقة الرضا، وكيفية تصوّره فيما يخالف الهوى، ثم نذكر ما يظنّ أنه من تمام الرضا وليس منه؛ كترك الدعاء والسكوت على المعاصي.

بيان فضيلة الرضا:

أما من الآيات: فقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمٰن: ٦٠] ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى. وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فكما أنّ مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة، بل هو غاية مطلب سكان الجنان.

وفي الحديث: «**إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول: سلوني فيقولون: رضاك**»[٢]، فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل. وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته، إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه، ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه. وعلى الجملة: فلا رتبة فوق النظر إليه، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر، فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه، وعلموا أنّ الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب. وقال الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] قال بعض المفسرين: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين؛

إحداها: هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

والثانية: السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً؛ وهو قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨].

والثالثة: يقول الله تعالى: إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أي من النعيم الذي هم فيه. فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد.

وأما من الأخبار: فقد روي أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه: «**ما أنتم؟**» فقالوا: مؤمنون،

---

(١) حديث: دعائه لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» متفق عليه دون قوله: «**وعلمه التأويل**» ورواه أحمد بهذه الزيادة، وتقدم في العلم.

(٢) حديث: «**إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول: سلوني فيقولون: رضاك**» أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه: «**فيتجلى لهم يقول: أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت نعمتي وهذا محل إكرامي فسلوني فيسألونه الرضا...**» الحديث. ورواه أبو يعلى بلفظ: «**ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك...**» الحديث. ورجاله رجال الصحيح.

فقال: «ما عَلاَمَةُ إيمَانِكُمْ؟» فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء. فقال: «مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ»[(١)] وفي خبر آخر أنه قال: «حُكَمَاء عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ»[(٢)]، وفي الخبر: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به»[(٣)]، وقال ﷺ: «مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ بِالقَلِيلِ مِنَ العَمَلِ»[(٤)]، وقال أيضاً: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْداً ابْتَلاَهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ» وقال أيضاً: «إذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَنْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى لِطَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي أَجْنِحَةً فَيَطِيرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الجِنَانِ يَسْرَحُونَ فِيها وَيَتَنَعَّمُونَ فِيها كَيْفَ شَاؤُوا، فَتَقُولُ لَهُمُ المَلاَئِكَةُ: هَلْ رَأَيْتُمُ الحِسَابَ؟ فَيَقُولُون: ما رَأَيْنا حِسَاباً، فَتَقُولُ لَهُمْ: هَلْ جُزْتُمُ الصِّرَاطَ؟ فَيَقُولُونَ: ما رَأَيْنا صِرَاطاً، فَتَقُولُ لَهُمْ: هَلْ رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: ما رَأَيْنَا شيئاً، فَتَقُولُ المَلاَئِكَة: مِنْ أُمَّةِ مَنْ أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَتَقُولُ: نَاشَدْنَاكُمُ اللَّهَ حَدِّثُونا ما كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ: خَصْلَتَانِ كَانَتَا فِينا فَبَلَغْنَا هٰذِهِ المَنْزِلَةَ بِفَضْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَيَقُولُونَ: وَما هُمَا؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا إذا خَلَوْنَا نَسْتَحِي أَنْ نَعْصِيه وَنَرْضَى بِاليَسِيرِ مِمَّا قُسِمَ لَنَا، فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: يَحِقُّ لَكُمْ هٰذا»[(٥)]، وقال ﷺ: «يا مَعْشَرَ الفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وإلاّ فَلاَ»[(٦)].

وفي أخبار موسى عليه السلام: إن بني إسرائيل قالوا له: سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا، فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى، قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم. ويشهد لهذا ما روي عن نبينا ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ ما لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ ما لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ العَبْد مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ»[(٧)].

وفي أخبار داود عليه السلام: ما لأوليائي والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود، إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون.

وروي أنّ موسى عليه السلام قال: يا رب، دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه: إن رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره، قال: يا رب دلني عليه، قال: فإنّ رضاي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام: أي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني، قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني في الأمر فإذا

---

(١) حديث: سأل طائفة من أصحابه: «ما أنتم» فقالوا: مؤمنون فقال «ما علامة إيمانكم...» الحديث. تقدم.

(٢) حديث: إنه قال في حديث آخر: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» تقدم أيضاً.

(٣) حديث: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به» أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد بلفظ: «وقنع» وقال: صحيح، وقد تقدم.

(٤) حديث: «من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل» رويناه في أمالي المحاملي بإسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب، ومن طريق المحاملي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

(٥) حديث: «إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها» رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبدالرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن علي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن، وللأحاديث الصحيحة في الورود وغيره.

(٦) حديث: «أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا» تقدم.

(٧) حديث: «من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده...» الحديث. أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ: «منزلته» و«منزلة الله».

قضيت له سخط قضائي. وقد روي ما هو أشدّ من ذلك وهو أنّ الله تعالى قال: **«أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرضَ بقضائي فليتخذ ربّاً سوائي»**(١)، ومثله في الشدّة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ أنه قال: **«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَدَّرْتُ المَقَادِيرَ وَدَبَّرْتُ التَّدْبِيرَ وَأَحْكَمْتُ الصُّنْعَ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِي، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخط مني حَتَّى يَلْقَانِي»**(٢)، وفي الخبر المشهور: **«يقول الله تعالى: خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويل ثم ويل لمن قال: لم وكيف»**(٣).

وفي الأخبار السالفة: أن نبياً من الأنبياء شكا إلى الله عزّ وجلّ الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو، هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك، أم تريد أن أبدل ما قدّرته عليك، فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزتي وجلالي؛ لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوّة. وروي: أنّ آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ـ يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على أضلاعه كذلك، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ـ فقال له بعض ولده: يا أبت! أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا! فقال: يا بني إني رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، إني تحرّكت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: لم لا فعلته، ولا قال في شيء كان: ليته لم يكن، ولا في شيء لم يكن: ليته كان، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله يقول: **«دعوه لو قضي شيء لكان»**(٤). ويروى: أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام؛ يا داود، إنك تريد وأريد، وإنما يكون ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

وأما الآثار: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوّل من يدعى إلى الجنة يوم القيامة: الذين يحمدون الله تعالى على كل حال. وقال عمر بن عبدالعزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر، وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله. وقال ميمون بن مهران: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه

---

(١) حديث: **«قال الله: أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي...»** الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الداري مقتصراً على قوله: **«من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتمس رباً سواي»** وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: **«قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرضا...»** الحديث. لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة: **«خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين...»** الحديث. وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: **«يقول الله: خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه...»** الحديث. أخرجه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف.

(٤) حديث أنس: خدمت النبي ﷺ فما قال لي لشيء فعلته: **«لم فعلته...»** الحديث. متفق عليه، وقد تقدم.

دواء. وقال الفضيل: إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك. وقال عبدالعزيز بن أبي رواد: ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر، ولكنّ الشأن في الرضا عن الله عزّ وجلّ. وقال عبدالله بن مسعود: لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليّ من أن أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان. ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع، فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة، فقال: إني لأشكرها منذ خرجت؛ إذ لم تخرج في عيني.

وروي في **الإسرائيليات**: أن عابداً عبد الله دهراً طويلاً فأري في المنام؛ فلانة الراعية رفيقتك في الجنة؛ فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثاً ينظر إلى عملها، فكان يبيت قائماً وتبيت نائمة ويظل صائماً وتظل مفطرة. فقال: أما لك عمل غير ما رأيت؟ فقالت: ما هو والله إلا ما رأيت، لا أعرف غيره، فلم يزل يقول: تذكري، حتى قالت: خصيلة واحدة هي فيَّ؛ إن كنت في شدّة لم أتمنّ أن أكون في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة، وإن كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل، فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه خصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وعن بعض السلف: إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان: الصبر للحكم والرضا بالقدر. وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رخاء. وقال الثوري يوماً عند رابعة: اللهم ارض عني، فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض؟ فقال: أستغفر الله، فقال جعفر بن سليمان الضبعي: فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة. وكان الفضيل يقول: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى. وقال أحمد بن أبي الحواري: قال أبو سليمان الداراني: إنّ الله عزّ وجلّ من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم قلت: وكيف ذاك؟ قال: أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه؟ قلت: نعم، قال: فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه. وقال سهل: حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عزّ وجلّ. وقد قال النبي ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالفَرَحَ فِي الرِّضَا وَاليَقِينِ، وَجَعَلَ الغَمَّ وَالحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ»**[1].

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى:

اعلم: أنّ من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر؛ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين.

أحدهما: أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها. ومثاله: الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس

(١) حديث: «إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا...» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال: «بقسطه» وقد تقدم.

بألم ذلك لشغل قلبه. بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به. وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتمّ له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف؛ تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم، فإنّ الحب أيضاً يتصوّر تضاعفه في القوّة كما يتصوّر تضاعف الألم، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجري عليه. فقد روي: أن امرأة فتح الموصلي عثرت، فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه، فقيل له في ذلك فقال: يا دوست، ضرب الحبيب لا يوجع!.

وأما الوجه الثاني: فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه مريداً له ـ أعني بعقله ـ وإن كان كارهاً بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة؛ فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه، ومتقلد من الفصاد به منّة بفعله، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم. وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طيّب عنده مشقة السفر وجعله راضياً بها. ومهما أصابه بلية من الله تعالى، وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبه، وشكر الله عليه. هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه، ويجوز أن يغلب الحب؛ بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق، وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث، بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة. وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كبيراً، فترى الصغير كبيراً والكبير صغيراً، والبعيد قريباً والقبيح جميلاً، فإذا تصوّر استيلاء هذا الحب، فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط، ولا يدور بها الموت، بل تبقى بعد الموت حية عند الله، فرحة برزق الله تعالى، مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم.

فقد قال شفيق البلخي: من يرى ثواب الشدّة لا يشتهي المخرج منها. وقال الجنيد: سألت سرياً السقطي هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا. قلت: وإن ضرب بالسيف! قال: نعم، وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة، ضربة على ضربة. وقال بعضهم: أحببت كل شيء يحبه، حتى لو أحبّ النار أحببت دخول النار. وقال بشر بن الحارث: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشق، فقلت له: ولم سكت؟ قال: لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إليّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر. قال:

فزعق زعقة خرّ ميتاً. وقال يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم ـ من لذة النظر إلى الله تعالى ـ ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله؟؛ إذا لاحظت جلاله هابت، وإذا لاحظت جماله تاهت!. وقال بشر: قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه، فرفعت رأسه فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام، فلما أفاق قال: مَنْ هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي، لو قطعني إرباً إرباً ما ازددت له إلا حباً؟ قال بشر: فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها. وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث: إنّ أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصدّيق عليه السلام، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع. بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهنّ لاستهتارهنّ بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك. وقال سعيد بن يحيى: رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شاباً، وفي يده مدية، وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله، وهو يقول:

يومُ الفراق من القيامة أطولُ ... والموتُ من ألم التفرق أجملُ
قالوا الرحيل فقلت لست براحلٍ ... لكن مهجتي التي تترحلُ

ثم بقر بالمدية بطنه وخرّ ميتاً، فسألت عنه وعن أمره فقيل لي: إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوماً واحداً. ويروى: أنّ يونس عليه السلام قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض. فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي: متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول. ويروى عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه اشتكى له ابن فاشتدّ وجده عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث، فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشدّ سروراً أبداً منه، فقيل له في ذلك، فقال ابن عمر: إنما كان حزني رحمة له، فلما وقع أمر الله رضينا به. وقال مسروق: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم، والكلب يحرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحاً فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب بعد ذلك، فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى. فإذن: من عرف خفيّ لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال. ويروى: أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد، مضروب الجنبين بفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه، فقال له عيسى: يا هذا أي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟ فقال: يا روح الله، أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال له: صدقت، هات يدك، فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة، وقد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه. وقطع عروة بن الزبير رجله ـ من ركبته ـ من أكلة خرجت بها ثم قال: الحمد لله الذي أخذ مني واحدة، ولئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت، ثم لم يدع ورده تلك الليلة.

وكان ابن مسعود يقول: الفقر والغنى مطيّتان ما أبالي أيتهما ركبت؛ إن كان الفقر فإنّ فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل. وقال أبو سليمان الداراني: قلت قد نلت من كل مقام حالاً إلا الرضا فما لي منه إلا مشام الريح، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضياً. وقيل لعارف آخر: هل نلت غاية الرضا عنه؟ فقال: أما الغاية فلا، ولكن مقام الرضا قد نلته، لو جعلني جسراً على جهنم يعبر الخلائق عليّ إلى الجنة ثم ملأ بي جهنم ـ تحلة لقسمه وبدلاً من خليقته ـ؛ لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه. وهذا كلام من علم أنّ الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار، فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار. واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان بعيداً من أحوالنا الضعيفة، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء، ويظنّ أنّ ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء. وقال الروذباري: قلت لأبي عبدالله بن الجلاء الدمشقي، قول فلان: وددت أنّ جسدي قرض بالمقاريض، وأن هذا الخلق أطاعوه؛ ما معناه؟ فقال: يا هذا، إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف، وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف، قال: ثم غشي عليه. وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ـ قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ـ، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة!. قال: لا تبك، فإنّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إليّ! ثم قال: أحدّثك شيئاً لعل الله أن ينفعك به، واكتم عليّ حتى أموت، إنّ الملائكة تزورني فآنس بها، وتسلم علي فأسمع تسليمها، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة! فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضياً به؟. قال: ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده، فرأينا ثوباً ملقى فما ظننا أن تحته شيئاً حتى كشف، فقالت له امرأته: أهلي فداؤك ما نطعمك، ما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة ودبرت الحراقيف. وأصبحت نضواً لا أطعم طعاماً ولا أسيغ شراباً منذ كذا، فذكر أياماً، وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ـ وقد كان كف بصره ـ جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا ـ وكان مجاب الدعوة ـ قاله عبدالله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرّفت إليه فعرفني وقال: أنت قارىء أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس، فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك! فتبسم وقال: يا بني، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري. وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر، فقيل له: لو سألت الله تعالى أن يرده عليك، فقال: اعتراضي عليه فيما قضى أشدّ علي من ذهاب ولدي. وعن بعض العباد أنه قال: إني أذنبت ذنباً عظيماً فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة ـ وكان: قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب ـ فقيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان، ليته لم يكن. وقال بعض السلف: لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه: ليته لم يقضه. وقيل لعبد الواحد بن زيد: هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده فقال له: يا حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال: أنست به؟ قال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال: نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة! ومعناه: أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت تعدّ في طبقات أصحاب اليمين؛ لأن

مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم. ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه، وقد جمع بين يديه حجارة، فقال: من أنتم؟ فقالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال: ما بالكم ادعيتم محبتي، إن صدقتم فاصبروا على بلائي!.

وللشبلي رحمه الله تعالى:

إن المحبةَ للرحمن أسكرني ... وهل رأيت محباً غير سكران؟

وقال بعض عباد أهل الشام: كلكم يلقى الله عزّ وجلّ مصدّقاً ولعله قد كذبه، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها، ولو كان بها شلل ظل يواريها؛ يعني بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه. وقيل: إنه وقع الحريق في السوق فقيل للسري: احترق السوق وما احترق دكانك فقال: الحمد لله، ثم قال: كيف قلت: الحمد لله على سلامتي دون المسلمين! فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره؛ توبة واستغفاراً من قوله الحمد لله.

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعاً أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين. ومهما كان ذلك ممكناً في حب الخلق وحظوظهم كان ممكناً في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعاً. وإمكانه من وجهين.

أحدهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود، كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء.

والثاني: الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له؛ فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه، ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه. كما قيل:

فما لجرح إذا أرضاكُمُ ألمُ

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم، وقد يستولي الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه!؛ لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه. فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه.

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت:

علامة ذل الهوى ... على العاشقين البُكَا
ولا سيما عاشق ... إذا لم يجد مُشْتَكى

فقال لها الفتى: أحسنت والله يا سيدتي أفتأذنين لي أن أموت!. فقالت: مت راشداً!. قال: فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه، فحركناه فإذا هو ميت. وقال الجنيد: رأيت رجلاً متعلقاً بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة، فالتفت إليه الصبي وقال له: إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي؟ فقال: قد علم الله أني صادق فيما أورده، حتى لو قلت لي: مت لمت، فقال: إن كنت صادقاً فمت، قال: فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتاً. وقال سمنون المحب: كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيساً، فبينا هو يحرّك القدر إذ

قالت الجارية: آه قال: فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرّك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه! فقالت الجارية: ما هذا؟ قال: هذا مكان قولك: آه. وحكي عن محمد بن عبدالله البغدادي قال: رأيت بالبصرة شاباً على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول:

من مات عشقاً فليمت هكذا   لا خيرَ في عشق بلا موت!

ثم رمى بنفسه إلى الأرض؛ فحملوه ميتاً. فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم، الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضاً هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا:

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضاً. وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين، وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عزّ وجلّ فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل، وغفلة عن أسرار الشرع.

فأما الدعاء فقد تعبدنا به، وكثرة دعوات رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام ـ على ما نقلناه في كتاب الدعوات ـ تدل عليه. ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات من الرضا. وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس: ٧] وقال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٧] وفي الخبر المشهور: «**من شهد منكراً فرضي به فكأنه قد فعله**» وفي الحديث: «**الدال على الشر كفاعله**»[(١)]، وعن ابن مسعود: إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه وقيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به. وفي الخبر: «**لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكاً في قتله**»[(٢)]. وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وقال النبي ﷺ: «**لا حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَبُثُّها فِي النَّاسِ وَيُعَلِّمُها وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ**»[(٣)]، وفي لفظ آخر: «**وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّه**

---

(١) حديث: «**الدال على الشر كفاعله**» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جداً.

(٢) حديث: «**لو أن رجلاً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر في المغرب كان شريكاً في قتله**» لم أجد له أصلاً بهذا اللفظ ولابن عدي من حديث أبي هريرة: «**من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها**»، وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف.

(٣) حديث: «**لا حسد إلا في اثنتين. . .**» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، ومسلم من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في العلم.

القُرآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آناء اللَّيلِ وَالنَّهَارِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ: لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ ما آتى هٰذا لَفَعَلْتُ مِثْلَ ما يَفْعَلُ».

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم: فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المَائدة: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ [الأنعَام: ١٢٩] وفي الخبر: **«إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن»**[١]، وقال عليه السلام: **«المرء مع من أحب»**[٢]، وقال: **«مَنْ أَحَبَّ قَوْماً وَوَالاهُمْ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»**[٣]، وقال عليه السلام: **«أَوْثَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ»**[٤]. وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلا نعيده.

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى[٥]، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه، وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟.

فاعلم: أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض، بل نقول: الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه؛ إذ قد يموت عدوّك الذي هو أيضاً عدوّ بعض أعدائك وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوّ عدوّك وترضاه من حيث إنه مات عدوّك. وكذلك المعصية لها وجهان: وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته؛ فيرضى به من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتاً عند الله وبغيضاً عنده حيث سلّط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال:

---

(١) حديث: **«إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق...»** الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: **«المرء مع من أحب»**. تقدم.

(٣) حديث: **«من أحب قوماً ووالاهم حشر معهم»** أخرجه الطبراني من حديث أبي قرصافة وابن عدي من حديث جابر: **«من أحب قوماً على أعمالهم حشر في زمرتهم»** زاد ابن عدي: **«يوم القيامة»** وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف.

(٤) حديث: **«أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»** رواه أحمد، وتقدم في آداب الصحبة.

(٥) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله رواها الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص: **«من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل...»** الحديث. وقال غريب وتقدم حديث: **«ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»** وحديث: **«إن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا»**. وتقدم في حديث الاستخارة: **«واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به»** وحديث: **«من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل»**. وحديث: **«أسألك الرضا بالقضاء...»** الحديث. وغير ذلك.

فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبيه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشتم لي. حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوّاً لي، فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدّوي، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبّي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة. فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة؛ فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك. وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم. ولكنه كان مرادك منه؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك وتعويقاً في مرادك، وأنا كاره لفوات مرادك، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك؛ إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه، ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك. وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك، وأنا على موافقتك أيضاً مبغض له، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيباً ولعدوّه عدوّاً. وأما بغضه لك فإني أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك، وبغضه ومقته لك أيضاً عندي مكروه من حيث إنه وصفه، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي. وإنما التناقض أن يقول: هو من حيث إنه مرادك مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه، وأما إذا كان مكروهاً لا من حيث إنه فعله ومراده، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه، ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه، ونظائر ذلك لا تحصى.

فإذن: تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجرّه ذلك إلى حب المعصية ويجرّه الحب إلى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً؛ ليجرّه الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم. ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره، يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه، وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده ـ أعني تسليط دواعي المعصية عليه ـ يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته. فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله، ويمقت من مقته الله، ويعادي من أبعده الله عن حضرته ـ وإن اضطّره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ـ فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة، وإن كان بعيداً بإبعاده قهراً ومطروداً بطرده واضطراره. والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتاً بغيضاً إلى جميع المحبين ـ موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده.

بهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عزّ وجلّ. وهذا كله يستمد من سر القدر ـ الذي لا رخصة في إفشائه ـ وهو أنّ الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة

والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه، والخير مراد مرضيّ به. فمن قال: ليس الشر من الله فهو جاهل، وكذا من قال: إنهما جميعاً منه ـ من غير افتراق في الرضا والكراهة ـ فهو أيضاً مقصر. وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه؛ فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال ﷺ: **«القَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فَلا تُفْشُوهُ»**[١]، وذلك يتعلق بعلم المكاشفة. وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه.

وبهذا يعرف أيضاً أنّ الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف. كما أنّ حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلباً لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به. وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جرياً على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل ـ واستقصيناه في كتاب التوكل ـ فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به. نعم، إظهار البلاء في معرض الشكوى، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا. وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض. وقد قال بعض السلف: من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول: هذا يوم حار ـ أي في معرض الشكاية ـ وذلك في الصيف فأما الشتاء فهو شكر، والشكوى تناقض الرضا بكل حال، وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى؛ لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع، والكل من صنع الله تعالى. وقول القائل: الفقر بلاء ومحنة، والعيال همٌّ وتعب، والاحتراف كدّ ومشقة. كل ذلك قادح في الرضا، بل ينبغي أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها، ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً، فإني لا أدري أيهما خير لي.

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظانّ المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا:

اعلم: أنّ الضعيف قد يظن أن نهي رسول الله ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون[٢] يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال؛ بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزالاً وضراً، ولذلك شبهه رسول الله ﷺ في بعض الأخبار بالفرار من الزحف[٣]. ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف ـ وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل ـ. وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فراراً من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بدّ من الفرار منه.

---

(١) حديث: «القدر سر الله فلا تفشوه» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف.

(٢) حديث: النهي عن الخروج من بلد الطاعون. تقدم في آداب السفر.

(٣) حديث: إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف. تقدم فيه.

وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها ـ لأجل التنفير عن المعصية ـ ليست مذمومة. فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها، فقال ابن المبارك: قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد! قيل: وكيف؟ قال: هو بلد تزدرى فيه نعمة الله، وتستصغر فيه معصية الله. ولما قدم خراسان قيل له: كيف رأيت بغداد؟ قال: ما رأيت بها إلا شرطياً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارئاً حيران!. ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة؛ لأنه لم يتعرّض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به، وإنما قصد بذلك تحذير الناس. وكان يخرج إلى مكة ـ وقد كان مقامه ببغداد ـ يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوماً، فكان يتصدّق بستة عشر دينار لكل يوم دينار كفارة لمقامه. وقد ذم العراق جماعة: كعمر بن عبدالعزيز وكعب الأحبار. وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له: أين تسكن؟ فقال: العراق، قال: فما تصنع به؟ بلغني أن ما من أحد يسكن العراق إلا قيض الله له قريناً من البلاء. وذكر كعب الأحبار يوماً العراق فقال: فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. وقد قيل: قسم الخير عشرة أجزاء؛ فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق، وقسم الشر عشرة أجزاء؛ على العكس من ذلك. وقال بعض أصحاب الحديث: كنا يوماً عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال: أين تسكن؟ فقال: بغداد. فأعرض عنه وقال: يأتينا أحدهم في زي الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال: في عش الظلمة؟. وكان بشر بن الحارث يقول: مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش. وكان يقول: لا تقتدوا بي في المقام بها!، من أراد أن يخرج فليخرج. وكان أحمد بن حنبل يقول: لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي، قيل: وأين تختار السكنى؟ قال: بالثغور. وقال بعضهم ـ وقد سئل عن أهل بغداد ـ: زاهدهم زاهد وشريرهم شرير.

فهذا يدل: على أنّ من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها، بل ينبغي أن يهاجر، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النّساء: ٩٧] فإن مَنَعَهُ عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئن النفس إليه، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلاً على الدوام: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النّساء: ٧٥] وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفَال: ٢٥] فإذن: ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال.

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث؛ رجل يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله تعالى، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى، ورجل قال: لا أختار شيئاً بل أرضى بما اختاره الله تعالى. ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين، فقال: صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولاً. واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط، فقال الثوري: كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، واليوم وددت أني مت، فقال له يوسف: لم؟ قال: لما أتخوّف من الفتنة، فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء، فقال سفيان: لم؟ قال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً، فقيل لوهيب: إيش تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله سبحانه وتعالى، فقبله الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة.

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم:

قيل لبعض العارفين: إنك محب فقال: لست محباً إنما أنا محبوب والمحب متعوب. وقيل له أيضاً: الناس يقولون إنك واحد من السبعة؟ فقال: أنا كل السبعة. وكان يقول: إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلاً، قيل: وكيف وأنت شخص واحد؟ قال: لأني رأيت أربعين بدلاً وأخذت من كل بدل خلقاً من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام؟ فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه!

وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال: ما حدّثت نفسي يوماً قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولياً لم أعرفه. وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة: حدّثنا عن مشاهدتك من الله تعالى، فصاح ثم قال: ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك! قيل: فحدّثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى، فقال: وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه. قيل: فحدّثنا عن رياضة نفسك في بدايتك، فقال: نعم، دعوت نفسي إلى الله فجمحت عليَّ، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك.

ويحكى عن يحيى بن معاذ: أنه رأى أبا يزيد ـ في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ـ مستوفزاً على صدور قدميه، رافعاً أخمصيه مع عقبيه عن الأرض، ضارباً بذقنه على صدره شاخصاً بعينيه لا يطرف، قال: ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال: اللهم إنّ قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، حتى عدّ نيفاً وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء، ثم التفت فرآني فقال: يحيى فقلت: نعم يا سيدي؛ فقال: منذ متى أنت هاهنا؟ قلت: منذ حين، فسكت، فقلت: يا سيدي حدّثني بشيء فقال: أحدّثك بما يصلح لك، أدخلني في الفلك الأسفل فدوّرني في الملكوت السفليّ وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوّف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك؟ فقلت: يا سيدي ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إياه! فقال: أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي صدقاً، لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء. قال يحيى: فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت: يا سيدي، لم لا سألته المعرفة به؟ وقد قال لك ملك الملوك: سلني ما شئت، قال: فصاح بي صيحة وقال: اسكت ويلك! غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه.

وحكي: أنّ أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته، فقال له أبو تراب يوماً: لو رأيت أبا يزيد؟ فقال: إني عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا زيد، هاج وجد المريد فقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد، قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد؟ قال أبو تراب: فهاج طبعي ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغتر بالله عزّ وجلّ، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة! قال: فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال: وكيف ذلك؟ قال له: ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره؟ فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه، فذكر قصة قال في

آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ـ وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع ـ قال: فمرّ بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى: هذا أبو يزيد فانظر إليه. فنظر إليه الفتى فصعق، فحركناه فإذا هو ميت، فتعاونا على دفنه فقلت لأبي يزيد: يا سيدي نظره إليك قتله، قال: لا، ولكن كان صاحبكم صادقاً، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله، لأنه في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك.

ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعهم؟ فسكت ثم قال: إنّ لله عباداً في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة؛ ولكن لا يفعلون، قيل: لم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطاع ذكرها، حتى قال: ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها. وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها؛ فإن القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له. ولذلك كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك، فإنّ عنده فوق ذلك أضعافاً مضاعفة، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به، وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل. وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن، فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوماً، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لي: انظر إليهن، قال: فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن وقلت: أعوذ بك مما سواك! لا حاجة لي بهذا، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني.

فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الإيمان عليه، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص، وإخراج حظوظ النفس، وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهراً وباطناً، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصناً بحصن الخمول. فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم، وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس. وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادي الحق، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة، فنظر المنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال.

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء، إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه، وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئاً ولو من مبادي الطريق، كما قيل لبشر: بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ قال: كنت أكاتم الله تعالى حالي. معناه: أسأله أن يكتم عليّ ويخفي أمري. وروي أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له: ادع الله تعالى لي، فقال: يسر الله عليك طاعته، قلت: زدني، قال: وسترها عليك. فقيل: معناه سترها عن الخلق، وقيل: معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها. وعن بعضهم أنه قال: أقلقني الشوق إلى الخضر عليه

السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئاً كان أهم الأشياء عليَّ، قال: فرأيته فما غلب على همي ولا همتي إلا أن قلت له: يا أبا العباس، علمني شيئاً إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة، فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة، فقال: قل: اللهم أسبل عليَّ كثيف سترك، وحط عليَّ سرادقات حجبك، واجعلني في مكنون غيبك، واحجبني عن قلوب خلقك، قال: ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك، فما زلت أقول هذه الكلمات في كل يوم، فحكي أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن ـ حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به ـ فكانت راحته ركود قلبه، واستقامة حاله في ذله وخموله. فهكذا حال أولياء الله تعالى، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة، وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم كما قال تعالى: أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري. وقال ﷺ: **«رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ»**[1].

وبالجملة: فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني: القلوب المتكبرة، المعجبة بأنفسها، المستبشرة بعملها وعلمها. وأقرب القلوب إليها: القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعاراً إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضاً بعدم التفاته إلى الذل، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلاً في حقه، بل يرى نفسه دون ذلك، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته. فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادىء هذه الروائح، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله، فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محباً لأولياء الله مؤمناً بهم فعسى أن يحشر مع من أحب. ويشهد لهذا ما روي: أن عيسى عليه السلام قال لبني إسرائيل: أين ينبت الزرع؟ قالوا: في التراب، فقال: بحق أقول لكم: لا تنبت الحكمة إلا في قلب مثل التراب. ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة، حتى روي: أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرّة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت. وعنه أيضاً أنه قال: نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح، فتشتت علي قلبي، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت، وجعلت أمشي قليلاً قليلاً. فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضرباً، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي.

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى، وشغله بنفسه حجاب له، فليس بين القلب وبين الله حجاب بُعد وتخلل حائل، وإنما بُعْدُ القلوب شغلها بغيره أو بنفسها، وأعظم الحجب شغل النفس.

---

(١) حديث: «رب أشعث أغبر ذي طمرين» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

ولذلك حكي: أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً وأنا أصدّق به وأحبه، فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرّة! قال: ولم؟ قال: لأنك محجوب بنفسك، قال: فلهذا دواء؟ قال: نعم، قال: قل لي حتى أعمله، قال: لا تقبله، قال: فاذكره لي حتى أعمل، قال: اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً، واجمع الصبيان حولك وقل: كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك، فقال الرجل: سبحان الله! تقول لي مثل هذا! فقال أبو يزيد: قولك: «سبحان الله» شرك، قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك! فقال: هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره! فقال: ابتدىء بهذا قبل كل شيء. فقال: لا أطيقه، قال: قد قلت لك إنك لا تقبل؟. فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه، ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله، فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض، أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً. فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً.

وهذه أمور جلية في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعدّ نفسه من علماء الشرع، فقد قال ﷺ: **«لا يَسْتَكْمِلُ العَبْدُ الإيمانَ حَتّى تَكُونَ قِلَّةُ الشيْءِ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ كَثْرَتِهِ وَحَتّى يَكُونَ أَنْ لا يُعْرَفَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ»**(١)، وقد قال عليه السلام: **«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمانَهُ: لا يَخافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِم، وَلا يُرائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِذا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرانِ أَحَدُهُما لِلدُّنْيا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ آثَرَ أَمْرَ الآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيا»**(٢)، وقال عليه السلام: **«لا يَكْمُلُ إِيمانُ عَبْدٍ حَتّى يَكُونَ فِيهِ ثَلاثُ خِصالٍ: إِذا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الحَقِّ، وَإِذا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضاه فِي بَاطِلٍ، وَإِذا قَدرَ لَمْ يَتَناوَلْ ما لَيْسَ لَهُ»**(٣)، وفي حديث آخر: **«ثَلاثٌ مَنْ أُوتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ: العَدْلُ فِي الرِّضا وَالغَضَبِ، وَالقَصْدُ فِي الغِنَى وَالفَقْرِ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ»**(٤)، فهذه شروط ذكرها رسول الله ﷺ لأولي الإيمان. فالعجب ممن يدّعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرّة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليّة وراء الإيمان. وفي الأخبار:

---

(١) حديث: **«لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف»** ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة، وعلى هذا فهو معضل فعلي بن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: **«ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم. . .»** الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادي ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه عبدالواحد.

(٣) حديث: **«لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال: إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق. . .»** الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير بلفظ: **«ثلاث من أخلاق الإيمان»** وإسناده ضعيف.

(٤) حديث: **«ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود: العدل في الرضا والغضب»** غريب بهذا اللفظ، والمعروف: **«ثلاث منجيات. . .»**.

أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: إنما أتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري، ولا يكون له هم غيري، ولا يؤثر عليّ شيئاً من خلقي، وإن حُرّقَ بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألماً. فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات؟ وكل ذلك وراء الحب، والحب وراء كمال الإيمان، ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له. ولذلك قال عليه السلام للصديق رضي الله تعالى عنه: **«إنَّ اللَّهَ تَعالَى قَدْ أَعْطَاكَ مِثْلَ إيمانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِي مِنْ أُمَّتِي وَأَعْطَانِي مِثْلَ إيمانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ وَلَد آدَمَ»**(١)، وفي حديث آخر: **«إنَّ للَّهِ تَعالَى ثَلاثَمِائَةَ خُلُقٍ مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الجَنَّةَ»** فقال أبو بكر: يا رسول الله هل فيَّ منها خلق؟ فقال: **«كُلُّها فِيكَ يا أَبا بَكْرٍ وَأَحَبُّها إلَى اللَّهِ تَعَالَى السَّخَاء»**(٢)، وقال عليه السلام: **«رَأَيْتُ مِيزَاناً دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعْتُ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ بِهِمْ، وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كِفَّةٍ وَجِيءَ بِأُمَّتِي فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَ بِهِمْ»**(٣)، ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله ﷺ بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال: **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلٰكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ تَعَالَى»**(٤) يعني نفسه.

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها:

قال سفيان: المحبة اتباع رسول الله ﷺ. وقال غيره: دوام الذكر، وقال غيره: إيثار المحبوب. وقال بعضهم: كراهية البقاء في الدنيا. وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة، فأما نفس المحبة فلم يتعرَّضوا لها. وقال بعضهم: المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته. وقال الجنيد: حرّم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة. وقال: كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة. وقال ذو النون: قل لمن أظهر حب الله: احذر أن تذلّ لغير الله. وقيل للشبلي رحمه الله: صف لنا العارف والمحب، فقال: العارف إن تكلم هلك، والمحب إن سكت هلك، وقال الشبلي رحمه الله:

يا أيُّها السيِّدُ الكريمُ ... حبّك بين الحشا مقيمُ
يا رافعَ النومِ عن جفوني ... أنت بما مرّ بي عليمُ

---

(١) حديث: إنه قال للصديق: **«إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي...»** الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير، والحارث ضعيف.

(٢) حديث: **«إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة...»** الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً من الله: **«خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة»**، ومن حديث ابن عباس: **«الإسلام ثلاثمائة شريعة وثلاث عشرة شريعة»**، وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبدالرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ: **«الإيمان»**، وللبزار من حديث عثمان بن عفان: **«إن لله تعالى مائة وسبعة عشرة شريعة...»** الحديث. وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة.

(٣) حديث: **«رأيت ميزاناً دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم...»** الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

(٤) حديث: **«لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً...»** الحديث. متفق عليه، وقد تقدم.

ولغيره:

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي ... وهل أنسى فأذكر ما نسيتُ
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا حسن ظني ما حييتُ
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً ... فكم أحيا عليك وكم أموتُ
شربت الحبَّ كأساً بعد كأسٍ ... فما نفدَ الشراب وما رويت؟
فليت خياله نصب لعيني ... فإن قصرت في نظري عميتُ

وقالت رابعة العدوية يوماً: من يدلنا على حبيبنا، فقالت خادمة لها: حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه. وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: إني إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي. وقيل: تكلم سمنون يوماً في المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه؛ فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات. وقال إبراهيم بن أدهم: إلهي: إنك تعلم أنّ الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك. وقال السري رحمه الله: من أحب الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوبه فتاش. وقيل لرابعة: كيف حبك للرسول ﷺ؟ فقالت: والله إني لأحبه حباً شديداً، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين. وسئل عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال: الرضا عن الله تعالى والحب له. وقال أبو يزيد: المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاه مولاه. وقال الشبلي: الحب: دهش في لذة، وحيرة في تعظيم. وقيل: المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك. وقيل: المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح. وقال الخوّاص: المحبة محو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات. وسئل سهل عن المحبة فقال: عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه. وقيل: معاملة المحب على أربع منازل: على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم، وأفضلها التعظيم والمحبة؛ لأنّ هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما. وقال هرم بن حبان: المؤمن إذا عرف ربه عزّ وجلّ أحبه، وإذا أحبه أقبل عليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهي تحسره في الدنيا وتروّحه في الآخرة. وقال عبدالله بن محمد: سمعت امرأة من المتعبدات تقول ـ وهي باكية والدموع على خدها جارية ـ: والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقائه، قال: فقلت لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا، ولكن لحبي إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود، هذه إرادتي في المدبرين عليَّ فكيف إرادتي في المقبلين عليَّ، يا داود، أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجل ما يكون عبدي إذا رجع إليَّ. وقال أبو خالد الصفار: لقي نبي من الأنبياء عابداً فقال له: إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق. وقال الشبلي رحمه الله: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، ذكري للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وزيارتي للمشتاقين، وأنا خاصة

للمحبين، وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام: يا آدم، من أحب حبيباً صدّق قوله، ومن أنس بحبيبه رضي فعله، ومن اشتاق إليه جدّ في مسيره. وكان الخوّاص رحمه الله يضرب على صدره ويقول: واشوقاه لمن يراني ولا أراه. وقال الجنيد رحمه الله: بكى يونس عليه السلام حتى عمي، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد، وقال: وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقاً مني إليك. وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «**المَعْرِفَةُ رَأس مَالِي وَالعَقْلُ أَصْلُ دِينِي وَالحُبُّ أَسَاسِي وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي وَذِكْرُ اللَّهِ أَنِيسِي وَالثِّقَةُ كَنْزِي وَالحُزْن رَفِيقِي وَالعِلْمُ سِلاَحِي وَالصَّبْرُ رِدَائِي وَالرِّضَا غَنِيمَتِي وَالعَجْزُ فَخْرِي وَالزهْدُ حِرْفَتِي وَاليَقِين قُوتِي وَالصِّدْقُ شَفِيعِي وَالطَّاعَةُ حُبِّي وَالجِهَادُ خُلُقِي وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[1]. وقال ذو النون: سبحان من جعل الأرواح جنوداً مجندة؛ فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة، وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا. وقال بعض المشايخ: رأيت في جبل اللكام رجلاً أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول:

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال: الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات. فهذا القدر كاف في شرح المحبة والأنس والشوق والرضا، فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب.

تم كتاب المحبة والشوق والأنس، يتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق.

(١) حديث علي: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «**المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني...**» الحديث. ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب، ولم أجد له إسناداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقرّ بوحدانيته إقرار الصادقين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وخالق السموات والأرضين، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقرّبين؛ أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيّنَة: ٥] فما لله إلا الدين الخالص المتين، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين، وعلى جميع النبيين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد: فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فالعمل بغير نِيّةٍ عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفُرقان: ٢٣] وليت شعري: كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أوّلاً لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص.

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: في حقيقة النية ومعناها.

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائقه.

الباب الثالث: في الصدق وحقيقته.

❋ ❋ ❋

الباب الأوّل

في حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيراً من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيان فضيلة النية:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال ﷺ: **«إنَّما الأَعْمَالُ بالنيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى ما هَاجَرَ إِلَيْهِ»**(١)، وقال ﷺ: **«أَكْثَرُ شُهَدَاءِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الفُرُشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ»**(٢)، وقال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النّساء: ٣٥] فجعل النية سبب التوفيق. وقال ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ تَعَالَى لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**(٣)، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية: وقال ﷺ: **«إنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ أَعْمالاً حَسَنَةً فَتَصْعَدُ المَلائِكَةُ فِي صُحُفٍ مُخَتَّمةٍ فَتُلْقَى بَيْنَ يَدَي اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ: أَلْقُوا هٰذِهِ الصَّحِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِمَا فِيها وَجْهِي ثُمَّ يُنَادِي المَلائِكَةَ اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا اكتبوا له كذا وكذا فَيَقُولُونَ: يا رَبَّنا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّهُ نَوَاهُ»**(٤) وقال ﷺ: **«النَّاسُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْماً وَمالاً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ آتانِي اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَ ما آتاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتاه اللَّهُ تَعَالَى مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يَتَخَبَّطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ آتانِي اللَّهُ مِثْلَ ما آتاهُ عَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ»**(٥)، ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه. وكذلك في حديث أنس بن مالك: لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال: **«إنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْواماً ما قَطَعْنا وَادِياً وَلا وَطِئْنَا مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلا أَنْفَقْنَا نَفَقَةً وَلا أَصَابَتْنا مَخْمَصَةٌ إلاّ شَرِكُونا فِي ذٰلِكَ وَهُمْ بِالمَدِينَةِ»**. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ وليسوا معنا؟ قال: **«حَبَسَهُم العُذْرُ فَشَرِكُوا بِحُسْنِ النِّيَّةِ»**(٦). وفي حديث ابن مسعود: «مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي

---

(١) حديث: **«إنما الأعمال بالنيات...»** الحديث. متفق عليه من حديث عمر، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته»** أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبدالله بن لهيعة.

(٣) حديث: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٤) حديث: **«إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة...»** الحديث. أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن.

(٥) حديث: **«الناس أربعة: رجل آتاه الله علماً ومالاً...»** الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ: **«مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر...»** الحديث. وقد تقدم، ورواه الترمذي بزيادة وفيه: **«وإنما الدنيا لأربعة نفر...»** الحديث. وقال: حسن صحيح.

(٦) حديث أنس: **«إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً...»** الحديث. أخرجه البخاري مختصراً وأبو داود.

شَيْئاً فَهُوَ لَهُ، فهاجر رجل فتزوّج امرأة منا فكان يسمى مُهَاجِرَ أُم قَيْس»[(١)]. وكذلك جاء في الخبر: «**إنَّ رَجُلاً قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَان يُدْعَى قَتِيلَ الحِمَارِ**»[(٢)]، لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته. وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ: «**مَنْ غَزَا وَهُوَ لا يَنْوِي إلاّ عِقَالاً فَلَهُ ما نَوَى**»[(٣)]، وقال أبي: استعنت رجلاً يغزو معي فقال: لا، حتى تجعل لي جعلاً، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «**لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ إلاّ ما جَعَلْتَ لَهُ**»[(٤)].

وروي في الإسرائيليات: أن رجلاً مرَّ بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له: إن الله تعالى قد قبل صدقتك، وقد شكر حسن نيتك، وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدّقت به. وقد ورد في أخبار كثيرة: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ**»[(٥)]. وفي حديث عبدالله بن عمرو: «**مَنْ كانَتِ الدُّنْيا نِيَّتَهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَها أَرْغَبَ مَا يَكُونُ فِيهَا وَمَنْ تَكُنِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَفَارَقَها أَزْهَدَ ما يَكُونُ فِيها**»[(٦)]. وفي حديث أم سلمة: أن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم البيداء فقلت: يا رسول الله، يكون فيهم المكره والأجير فقال: «**يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»[(٧)]، وقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّما يَقْتَتِلُ المُقْتَتِلُونَ عَلَى النِّيَّاتِ**»[(٨)]، وقال عليه السلام: «**إذا الْتَقَى الصَّفَّانِ نَزَلَتِ المَلائِكَةُ تَكْتُبُ الخَلْقَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فُلانٌ يُقَاتِلُ لِلدُّنيا فُلانٌ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً فُلان يُقَاتِلُ عَصبِيَّةً ألا فَلا تَقُولُوا: فُلانٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّه هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[(٩)]، وعن

---

(١) حديث ابن مسعود: «**من هاجر يبتغي شيئاً فهو له**» هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى: مهاجر أم قيس. أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

(٢) حديث: «**إن رجلاً قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار**» لم أجد له أصلاً في الموصولات، وإنما رواه أبو إسحاق الفراوي في السنن من وجه مرسل.

(٣) حديث: «**من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى**» أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت، وتقدم غير مرة.

(٤) حديث أبي: استعنت رجلاً يغزو معي فقال: لا، حتى تجعل لي جعلاً فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «**ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلته له**» أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية: أنه استأجر أجيراً للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبي ﷺ: «**وما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمى**».

(٥) حديث: «**من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة**». متفق عليه، وقد تقدم.

(٦) حديث عبدالله بن عمرو: «**من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله: «**وفارقها أرغب ما يكون فيها**» ودون قوله: «**وفارقها أزهد ما يكون فيها**» وفيه زيادة، ولم أجده من حديث عبدالله بن عمرو.

(٧) حديث أم سلمة: في الجيش الذي يخسف بهم «**يحشرون على نياتهم**» أخرجه مسلم وأبو داود، وقد تقدم.

(٨) حديث: «**إنما يقتتل المقتتلون على النيات**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ: «**إنما يبعث**»، ورويناه في فوائد تمام بلفظ: «**إنما يبعث المسلمون على النيات**» ولابن ماجه من حديث أبي هريرة «**إنما يبعث الناس على نياتهم**» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

(٩) حديث: «**إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل للدنيا...**» الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففي الصحيحين من حديث أبي موسى: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

جابر: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى ما مَاتَ عَلَيْهِ**»[١]، وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة: «**إذا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بَسَيْفَيهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**لأنَهُ أرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ**»[٢]. وفي حديث أبي هريرة: «**مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ لا يَنْوِي أَدَاءَهُ فَهُوَ زَانٍ، وَمَن ادَانَ دَيناً وَهُوَ لا يَنْوِي قَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ**»[٣]، وقال ﷺ: «**مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ**»[٤].

وأما الآثار: فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرّم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى. وكتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز: اعلم: أنّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية؛ فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره. وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية. وقال داود الطائي: البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة، وكذلك الجاهل بعكس ذلك. وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى؛ فإني لا أحب أن يأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله، فقيل له: قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهمّ بعمله فإنّ الهام بعمل الخير كعامله. وكذلك قال بعض السلف: وإنّ نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها، وإنّ ذنوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك. وقال عيسى عليه السلام: طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم. وقال أبو هريرة: يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمّد: ٣١] يبكي ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. وقال الحسن: إنما خلّد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات. وقال أبو هريرة: مكتوب في التوراة: ما أريد به وجهي فقليله كثير، وما أريد به غيري فكثيره قليل. وقال بلال بن سعد: إنّ العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عزّ وجلّ وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه، فإن تورّع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك، فإذن: عماد الأعمال النيات، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق.

---

(١) حديث جابر: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**» رواه مسلم.

(٢) حديث الأحنف عن أبي بكرة: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» متفق عليه.

(٣) حديث أبي هريرة: «**من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان**» أخرجه أحمد من حديث صهيب، ورواه ابن ماجة مقتصراً على قصة: الدين، دون ذكر: الصداق.

(٤) حديث: «**من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك...**» الحديث. أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً.

بيان حقيقة النية:

اعلم: أنّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفه للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل.

العلم: يقدمه؛ لأنه أصله وشرطه.

والعمل: يتبعه؛ لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأنّ كل عمل ـ أعني كل حركة وسكون ـ اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة. لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بدّ وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يرد فلا بدّ من إرادة. ومعنى الإرادة: انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضارّ المنافي عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع؛ حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهي الحواس الظاهرة والباطنة ـ وليس ذلك من غرضنا ـ، ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه؛ إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحرّكة إليه، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة ـ وأعني به نزوعاً في نفسه إليه وتوجهاً في قلبه إليه ـ، ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه مريد تناوله عاجزاً عنه لكونه زمناً؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحرّكة حتى يتم به التناول، والعضو لا يتحرّك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد؛ وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له، فإذا جزمت المعرفة بأنّ الشيء موافق ولا بدّ وأن يفعل، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء. فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل. فالمحرّك الأوّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث، والغرض الباعث هو المقصد المنوي، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل، إلا أنّ انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع؟ وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً. فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام: فلنذكر لكل واحد مثالاً واسماً.

أما الأوّل: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرّد، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضارّاً فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره، وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها «إخلاصاً» بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه: أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس: أن

يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوّة كان كافياً في الحمل لو انفرد. ومثاله في غرضنا: أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرّد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرّد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته، وفقير أجنبي فيرغب أيضاً فيه. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأوّل فلنسم هذا «مرافقة للبواعث».

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس: أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به. ومثاله في غرضنا: أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهماً فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر. وكذلك الرجل يتصدّق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرّد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقاً لا ثواب في التصدّق عليه لكان لا يبعثه مجرّد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب. ولنسم هذا الجنس «مشاركة».

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله في المحسوس: أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل، ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإنّ ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه. ومثاله في غرضنا: أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أنّ عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرّد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرّق إلى النية. ولنسم هذا الجنس «المعاونة».

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً. وسنذكر حكمها في باب الإخلاص. والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإنّ العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه. ولذلك قيل: «**إنما الأعمال بالنيات**» لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع.

بيان سر قوله ﷺ: «نِيَّةُ المُؤْمنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»(١):

اعلم: أنه قد يظن أنّ سبب هذا الترجيح: أنّ النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل الظاهر ولعمل السر فضل، وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيراً من التفكر، وقد يظن أنّ سبب الترجيح: أنّ النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف، لأنّ ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك، فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيراً من عمله. وقد يقال: إنّ معناه: أنّ النية بمجرّدها

---

(١) حديث: «**نية المؤمن خير من عمله**» أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان، وكلاهما ضعيف.

خير من العمل بمجرّده دون النية، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد؛ إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلاً، والنية بمجرّدها خير؛ وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير، بل المعنى: أنّ كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما؛ فهذا معناه.

وأما سبب كونها خيراً ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد، وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود. فمن قال: الخبز خير من الفاكهة، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أنّ للغذاء مقصداً وهو الصحة والبقاء، وأنّ الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض، فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله تعالى عارفاً بالله، ولن يحبه إلا من عرفه، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له. فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة، ولن يتفرّغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرّغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له، نافراً عن الشر مبغضاً له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنّ سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما. وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإنّ المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها. فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكّد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق. بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك زبراً ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي.

وهكذا جميع الصفات والخيرات والظلمات كلها هي التي تراد بها الآخرة، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة. وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرّغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح، لأنّ بين الجوارح وبين القلب علاقة؛ حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون، إلا أنّ القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع. فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: **«إنّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ لها سائِرُ**

الجَسَدِ»[1] . وقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةَ»[2] . وأراد بالراعي القلب. وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهي صفة القلب. فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح. ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له.

وغرضنا من الأعمال بالجوارح: أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود، وهذا كما أنّ المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر، وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضاً إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة، فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع.

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها؛ إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن أنّ في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإنّ من يجد في نفسه تواضعاً، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبّله تأكدت الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً، لأنّ من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنه يمسح ثوباً لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً، فيقال: العبادة بغير نية باطلة. وهذا معناه إذا فعل من غفلة، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها؛ وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا. فهذا وجه كون النية خير من العمل.

وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ» لأنّ همّ القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيداً، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثاراً لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والتقوى هاهنا صفة القلب؛ ولذلك قال ﷺ: «إنّ قوماً بالمدينة قد شركونا في جهادنا» ـ كما تقدّم ذكره ـ لأنّ قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات. وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية، فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة.

---

(١) حديث: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد» متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، وقد تقدم.

(٢) حديث: «اللهم أصلح الراعي والرعية». تقدم ولم أجده.

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

اعلم: أنّ الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات.

القسم الأوّل: المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام: «**إنما الأعمال بالنيات**» فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام؛ وقصده الخير. فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية. بل قصده الخير بالشر ـ على خلاف مقتضى الشرع ـ شرّ آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله؛ إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً؟ هيهات، بل المروّج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى؛ فإنّ القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل! قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئاً أشد من الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل. وهو كما قال، لأنّ الجهل بالجهل يسدّ بالكلية باب التعلم، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أنّ رأس الجهل: الجهل بالجهل. فإنّ من لا يعلم العلم النافع من العلم الضارّ اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود: أنّ من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم. وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وقال النبي ﷺ: «**لا يُعْذَرُ الجَاهِلُ عَلَى الجَهلِ، وَلا يَحِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ، وَلا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ**»(١).

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرّب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور؛ القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين. فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى، ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالِم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث

---

(١) حديث: «**لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله...**» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله: «**لا يعذر الجاهل على الجهل**» وقال: «**لا ينبغي**» بدل: «**ولا يحل**»، وقد تقدم في العلم.

يقول: «**إنما الأعمال بالنيات**» وقد قصدت بذلك نشر علم الدين؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير. وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه. وليت شعري، ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعدّ له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده؛ ويقول: إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإن إعداد الخيل والرباط والقوّة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي، وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى؛ حتى قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلاثَمِائَةِ خُلقٍ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الجَنَّةَ وَأَحَبُّها إِلَيْهِ السَّخَاءُ**»(١). فليت شعري: لم حرم هذا السخاء؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم، فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمدّه بغيره؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى، وقد يعاون به أعداء الله عزّ وجلّ وهو الهوى! فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فلو رأوا منه تقصيراً في نفل من النوافل؛ أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجوراً واستحلال حرام؛ هجروه ونفوه عن مجالسهم، وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوّذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوّذوا من الفاجر الجاهل، حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره، حتى قال: بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع، وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم. فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم. وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدّم على الأقران.

فإذن: قوله عليه السلام: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً، نعم، للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها ـ كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة ـ.

القسم الثاني: الطاعات: وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل؛ فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل: فبكثرة النيات الحسنة، فإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب؛ إذ كل

---

(١) حديث: «**إن لله ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء**». تقدم في كتاب المحبة والشوق.

واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها[(١)]. كما ورد به الخبر.

ومثاله: القعود في المسجد؛ فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين، ويبلغ به درجات المقرّبين.

أوّلها: أن يعتقد أنه بيت الله وأنّ داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ حيث قال: «**مَنْ قَعَدَ فِي المَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللّٰهَ تعالى وَحَقٌّ عَلَى المَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ**»[(٢)].

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى ﴿وَرَابِطُواْ﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠].

وثالثها: الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإنّ الاعتكاف كف - وهو في معنى الصوم - وهو نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي القُعُودُ في المَسَاجِدِ**»[(٣)].

ورابعها: عكوف الهم على الله، ولزوم السر للفكر في الآخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

وخامسها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر: «**من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى**»[(٤)].

وسادسها: أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر؛ إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له؛ فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين، فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يستفيد أخاً في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستظرفاً، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات

---

(١) حديث: تضعيف الحسنة بعشر أمثالها، تقدم.

(٢) حديث: «**من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره**» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح، وقد تقدما في الصلاة.

(٣) حديث: «**رهبانية أمتي القعود في المساجد**» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «**من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى**» هو معروف من قول كعب الأحبار، رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة: «**من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج تاماً حجه**» وإسناده جيد، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح**».

كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه. فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

القسم الثالث: المباحات: وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة، ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال ﷺ: «**حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ**»[١]، وفي حديث معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِأُصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ**»[٢]. وفي خبر آخر: «**مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ**» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية.

فإن قلت: فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس، وكيف يتطيب لله؟.

فاعلم: أنّ من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصوّر أن يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن، ولأمور أخرى لا تحصى. وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأوّل وهو التلذذ والتنعم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسأل عنه، ومن نوقش الحساب عذب. ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى، ويخسر زيادة نعيم لا يفنى. وأما النية الحسنة فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله ﷺ يوم الجمعة[٣]. وينوي بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]

---

(١) حديث: «**حلالها حساب وحرامها عذاب**»، تقدم. (أي: المباحات).

(٢) حديث معاذ: «**إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه**». لم أجد له إسناد.

(٣) حديث: «**إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة**» أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد: «**من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه...**» الحديث. ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبدالله بن سلام: «**ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته**»، وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين: «**أن عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال: يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة...**» الحديث.

أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه. وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات، وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس، وليس ذلك من النية في شيء.

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها، فقس بهذا الواحد ما عداه، ولهذا قال بعض العارفين من السلف: إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرّب إلى الله تعالى، لأنّ كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل التقوّي على العبادة، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد ﷺ كان مطيعاً بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول: هو في سبيل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوي ذلك بسكوته عن الجواب. ففي الخبر: **«إنَّ العَبْدَ لَيُحَاسَبُ فتبطل أعمالُهُ لدخولِ الآفةِ فيها حتى يستوجبَ النَّارِ، ثم ينشرُ له من الأعمالِ الصَّالِحَة ما يستوجبُ به الجَنَّةَ فَيتعجبُ ويقول: يا رَبِّ هٰذِهِ أَعْمَالٌ ما عَمِلْتُها قَطُّ؟ فيقال: هذه أعمال الذين اغتابوك وآذَوْكَ وظلموك»**[1]، وفي الخبر: **«إنَّ العَبْدَ ليوافي يوم القيامة بحسناتٍ أمثال الجِبَالِ لو خلصت له لدخلَ الجَنَّةَ فيأتي وقد ظَلَمَ هٰذا وَشَتَمَ هٰذا وَضَرَبَ هٰذا فيقتصُّ لِهٰذا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلِهٰذا مِنْ حسناته حتى لا يبقى لَهُ حسنة. فتقول الملائكة: قد فَنِيَتْ حسناتُهُ وبقيَ طالبونَ فيقولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَلْقُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكاً إِلَى النَّارِ»**[2].

وبالجملة: فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب، فإنّ الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] وقال بعض السلف: كتبت كتاباً وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرّجت ثم قلت: تراب وما تراب! فتربته فهتف بي هاتف: سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقى غداً من سوء الحساب. وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمدّ يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه، فسأله عن ذلك فقال: إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله. وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله! فيقول: والله ما أعرفك؟ فيقول: بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطاً من ثوبي! فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين، فإن كنت من أولي العزم والنهى،

---

(١) حديث: «إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة. . .» الحديث. وفيه: «هذه أعمال الذين اغتابوك. . .» الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوي مختصراً: «إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول: هذا لي ولم أعملها فيقال: بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر» وفيه ابن لهيعة.

(٢) حديث: «إن العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال» وفيه: «ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا. . .» الحديث. تقدم مع اختلاف.

ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك، ولا تسكن ولا تتحرّك ما لم تتأمل أوّلاً أنك لم تتحرك وماذا تقصد، وما الذي تنال به من الدنيا، وما الذي يفوتك من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك، ثم راقب أيضاً قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدّ له من نية صحيحة، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات، وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار.

فقد روي عن زكريا عليه السلام: أنه كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجيراً لقوم فقدّموا له رغيفاً ـ إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده ـ فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده، وظنوا أنّ الخير في طلب المساعدة في الطعام، فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة وقدّموا إليّ الرغيف لأتقوّى به على عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم. فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله، فإنّ ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل، ولا حكم للفضائل مع الفرائض. وقال بعضهم: دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال: لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه. وقال سفيان: من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه. فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف؛ فإنّ النية لا تدخل تحت الاختيار.

بيان أنّ النية غير داخلة تحت الاختيار:

اعلم: أنّ الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله ﷺ: «**إنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرّس لله أو آكل لله، ويظنّ ذلك نية وهيهات! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر، أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك. وإنما النية: انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أنّ فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً.

والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرّد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي، فذلك محال. بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أنّ غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده. وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال. فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة؛ إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة

النكاح[1] اتباعاً لرسول الله ﷺ يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه، وهو حديث محض ليس بنية. نعم، طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوي أوّلاً إيمانه بالشرع ويقوي إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحرّكه تلك الرغبة وتتحرّك أعضاؤه لمباشرة العقد، فإذا انتهضت القدرة المحرّكة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً، فإن لم يكن كذلك فما يقدّره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان.

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس تحضرنا فيه نية، حتى إن ابن سيرين لم يصلِّ على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية. ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى، فقالت: أجيء بالمرآة؟ فسكت ساعة ثم قال: نعم، فقيل له في ذلك فقال: كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى. ومات حماد بن سليمان ـ وكان أحد علماء أهل الكوفة ـ فقيل للثوري: ألا تشهد جنازته؟ فقال: لو كان لي نية لفعلت. وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول: إن رزقني الله تعالى نية فعلت. وكان طاوس لا يحدّث إلا بنية، وكان يسأل أن يحدّث فلا يحدّث، ولا يسأل فيبتديء! فقيل له في ذلك قال: أفتحبون أن أحدّث بغير نية؟ إذا حضرتني نية فعلت. وحكي: أنّ داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه، فنظر فيه أحمد صفحاً ورده فقال: ما لك؟ قال: فيه أسانيد ضعاف، فقال له داود: أنا لم أخرجه على الأسانيد فانظر فيه بعين الخبر، إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت، قال أحمد: فرده عليّ حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال: جزاك الله خيراً فقد انتفعت به. وقيل لطاوس: ادع لنا! فقال: حتى أجد له نية. وقال بعضهم: أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد. وقال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: ليس من نيتي.

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف، وهو سبب مقت لا سبب قرب، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه: نويت، بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى، فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها. نعم، من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً. ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته. وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا، وهذه أعز النيات وأعلاها، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها

---

(١) حديث: «إن النكاح سنة رسول الله ﷺ». تقدم في آداب النكاح.

فضلاً عمن يتعاطاها. ونيات الناس في الطاعات أقسام: إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار. ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة، وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه ـ كالأجير السوء ـ، ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله؛ إذ أكثر أهل الجنة البله. وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حباً لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة فإنهم لم يقصدوها، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشدّ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشدّ وأعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهنّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: ١١٨] ـ ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] ـ ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هُود: ١١٩].

حكي: أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عزّ وجلّ في المنام فقال له: كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني، ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال: يا رب، كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال إليَّ. ورُئي الشبلي بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد: قلت يوماً: أي خسارة أعظم من خسران الجنة؟ فقال: أي خسارة أعظم من خسران لقائي.

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها. ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالاً لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء، فإنا نقول: من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات. وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل. ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوّى على العبادات في المستقبل، وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له. بل لو ملّ العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته، وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة. قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق. وقال علي كرم الله وجهه: روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت. وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أوّلاً قوته ليحتمل المعالجة بالضدّ، والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى

الغلبة، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه. وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكرّ عليه فيقهره. فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب، والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه، ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه، بل ينبغي أن يقف عند حدّ بصيرته، وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما، ومن الله حسن التوفيق.

❊ ❊ ❊

الباب الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥] وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمَر: ٣] وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ [النّساء: ١٤٦] وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠] نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه. وقال النبي ﷺ: **«ثلاثٌ لا يغلُّ عَلَيهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إخلاصُ العَمَلِ لِلَّهِ»**(١)، وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظنّ أبي أنّ له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: **«إنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ بِضُعَفَائِهَا وَدَعْوَتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»**(٢). وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: الإِخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي»**(٣)، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول، فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: **«أَخْلِصِ العَمَلَ يَجْزِكَ منه القَلِيلُ»**(٤)، وقال عليه السلام: **«ما مِنْ عَبْدٍ**

---

(١) حديث: **«ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله»** أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير.

(٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه: أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: **«إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم»** رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ: **«هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»**. مصعب بن سعد بن أبي وقاص.

(٣) حديث الحسن مرسلاً: **«يقول الله تعالى: الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي»** رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواته: سألت فلاناً عن الإخلاص فقال: وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبدالواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى، وأحمد بن عطاء وعبدالواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف.

(٤) حديث: أنه قال لمعاذ: **«أخلص العمل يجزك منه القليل»** أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ، وإسناده منقطع.

يُخْلِصُ لِلَّهِ العَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوماً إلاَّ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «أوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ آتاهُ الله العِلْمَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ما صَنَعْتَ فِيما عَلِمْتَ فَيَقُولُ: يا رَبِّ كُنْتُ أَقُومُ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ وَتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ عَالِمٌ ألاَ فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ. وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالاً فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ: يا رَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرافَ النَّهَارِ. فيقول الله تعالى: كذبت وتقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد ألا فقد قيل ذلك. وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ماذا صَنَعْتَ فَيَقُولُ: يا رَبِّ أُمِرْتُ بِالجِهادِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ وَتَقُولُ المَلائِكَةُ: كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ شُجَاعٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ» قال أبو هريرة: ثم خبط رسول الله ﷺ فخذي وقال: «يا أَبا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ نَارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢). فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك، فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال: صدق الله إذ قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هُود: ١٥] الآية.

وفي الإسرائيليات: أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إنّ هاهنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة، قال: وما أنت وذاك! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرّغت لغير ذلك! فقال: إنّ هذا من عبادتي، قال: فإني لا أتركك أن تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه فقال إبليس: يا هذا، إنّ الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك! وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك، ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها! فقال العابد: لا بدّ لي من قطعها، فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك، إنما أنت كلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس! قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر ولك عليَّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدّقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها! فتفكر العابد فيما قال وقال: صدق الشيخ! لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً. فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة فقال: كذبت، والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها، قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أوّل مرة

---

(١) حديث: «**ما من عبد يخلص لله أربعين يوماً**» أخرجه ابن عدي، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم...**» الحديث. قد تقدم.

فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا، غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أوّلاً وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أوّل مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك، وهذه المرّة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك.

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحِجر: ٤٠] إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول: يا نفس، أخلصي تتخلصي. وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. وقال سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس. وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل. وقال أيوب السختياني: تخليص النيات على العمال أشدّ عليهم من جميع الأعمال. وكان مطرف يقول: من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه. ورُئي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لقطتها من طريق، وحتى هرّة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً فقلت: موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها؟ فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك: قد مات، قلت: في لعنة الله، فبطل أجرك فيه، ولو قلت: في سبيل الله، لوجدته في حسناتك. وفي رواية قال: وكنت قد تصدّقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي فوجدت ذلك لا علي ولا لي. قال سفيان ـ لما سمع هذا ـ: ما أحسن حاله؟ إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه. وقال يحيى بن معاذ: الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم. وقيل: كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم، فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا: أن أطلقوا الحرّة فقد وجدنا الدرّة.

وقال بعض الصوفية: كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارّه بشيء فقال أبو عبيد: لا، فمرّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني، فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألني أن أحج معه، قلت: لا، قلت: فهلا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرّضت لمقت الله تعالى، لأني أدخل في عمل الله شيئاً غيره، فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة.

ويروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت: أشتريها فأنتفع بها في غزوي، فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأنّ شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملي عليه: خرج فلان متنزهاً وفلان مرائياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي وقال: اكتب فلان خرج تاجراً، فقلت. الله الله في أمري! ما

خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو، فقال: يا شيخ، قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجراً فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: اكتب خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عزّ وجلّ فيه بما يرى. وقال سري السقطي رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو. وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز. ويقال: العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص. وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً؛ أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها. وقال السوسي: مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط. وقال الجنيد: إنّ لله عباداً عقلوا فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع. وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل. فإذن: أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين.

بيان حقيقة الإخلاص:

اعلم: أنّ كل شيء يتصوّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصاً. قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضادّه الإشراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية. والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضدّه يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات. وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص. ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ـ ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات ـ وأقل أموره ما ورد في الخبر من: «**إنّ المُرَائِي يُدْعَى يَوْمَ القِيامَةِ بِأَرْبَعِ أسامٍ: يا مُرائِي يا مُخَادِعُ يا مُشْرِكُ يا كَافِرُ**»[1].

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب عن عدوّ له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياماً، أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها، أو

(١) حديث: «**إن المرائي يدعى يوم القيامة: يا مرائي يا مخادع. . .**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والإخلاص، وقد تقدم.

يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة، أو ليكون عقاره أو ماله محروساً بعز العلم عن الأطماع، أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث، أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقاً في الدنيا، أو كتب مصحفاً ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه، أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء، أو توضأ ليتنظف أو يتبرد، أو اغتسل لتطيب رائحته، أو روى الحديث ليعرف بعلوّ الإسناد، أو اعتكف في المسجد ليخف كراء المسكن، أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرّغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها، أو تصدّق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه، أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور؛ فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك. وقد قال تعالى: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكَةِ**».

وبالجملة: كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ـ قل أم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكدّر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس. فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا. وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى. وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة ـ كما سبق في النية ـ. وبالجملة: فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر ـ كما سنذكره ـ، وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها ـ قليلها وكثيرها ـ حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصوّر إلا من محب لله مستهتر بالله، مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى. فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً، فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلوّ والرياسة ـ وبالجملة غير الله ـ فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً. فإذن: علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص. وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنها خالصة

لوجه الله ويكون فيها مغرور؛ لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، كما حكي عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأوّل لأني تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أنّ نظر الناس إليّ في الصف الأوّل كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر. وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كلّها في الآخرة سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٧ ـ ٤٨] وبقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣،١٠٤] وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ. وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره. ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك، لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك؛ إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده. وليت شعري: لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محموداً أو مذموماً؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموماً، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر. فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد. وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٤٠]، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص:

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص. وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب؛ وهو من جملة الآفات. والخالص: ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرّض لآفة واحدة. وقال سهل رحمه الله تعالى: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى. وقيل لسهل: أي شيء أشدّ على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيب. وقال رويم:

الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين. وهذا إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجلاً وعاجلاً، والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصدّيقين وهو الإخلاص المطلق. فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط، وهو القائل: لا يتحرّك الإنسان إلا لحظ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر. وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدّعي البراءة من الحظوظ وقال: هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظاً، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمجرّد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، وهذا لا يعدّه الناس حظاً بل يتعجبون منه. وهؤلاء لو عوّضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سراً وجهراً جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه؛ فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ، ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره. وقال أبو عثمان: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط. وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط؛ ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه؛ فإنه إشارة إلى مجرّد الإخفاء. وقد قيل: الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق. وهذا أجمع للمقاصد. وقال المحاسبي: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب. وهذا إشارة إلى مجرّد نفي الرياء. وكذلك قول الخوّاص: من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية. وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد. وهذا أيضاً تعرّض لترك الرياء، وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوّشة للإخلاص. وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات. وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها. وهذا هو البيان الكامل. والأقاويل في هذا كثيرة، ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة.

وإنما البيان الشافي بيان سيد الأوّلين والآخرين ﷺ؛ إذ سئل عن الإخلاص فقال: **«أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت»**[1]. أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت، وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقاً.

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص:

اعلم: أن الآفات المشوّشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر مشوّشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالاً.

---

(١) حديث: سئل عن الإخلاص فقال: **«أن تقول: ربي الله ثم تستقيم كما أمرت»** لم أره بهذا اللفظ، وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به قال: **«قل ربي الله ثم استقم»** وهو عند مسلم بلفظ: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: **«قل آمنت بالله ثم استقم»**.

فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك! فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته؛ وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه، ويستمرّ في صلاته كما كان. فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهذا أغمض من الأوّل وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأوّل، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضى لغيره تركه، فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة، ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبيس، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه، وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها؛ أن يجرّب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان، ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضاً كذلك. فهذا أيضاً من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق. بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأنّ نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملأ وهيهات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعاً، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملأ والخلا جميعاً، وهذا من المكايد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى؛ أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه، واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه، ويظن أنّ ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحاجة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة: أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سبباً، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص، مدنس الباطن بالشرك الخفي من

الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[(١)]، كما ورد في الخبر. ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى، لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإنّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرّك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص، لعمري: الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة. فمنها ما يغلب، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير. وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيراً، ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموّه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرّ الغبي. فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم. ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالاً، والفطن يغنيه القليل عن الكثير، والبليد لا يغنيه التطويل أيضاً. فلا فائدة في التفصيل.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به:

اعلم: أنّ العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي ثواباً أم يقتضي عقاباً أم لا يقتضي شيئاً أصلاً فلا يكون له ولا عليه؟ أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعاً وهو سبب المقت والعقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له[(٢)]. وليس

---

(١) حديث: «الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة». تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء.

(٢) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال: وليس تخلو الأخبار عن تعارض. رواه أبو داود من حديث أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له...» الحديث. وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: «لا شيء له» فأعادها ـ ثلاث مرات ـ يقول: «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه» وللترمذي وقال: غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال: «له أجران أجر السر وأجر العلانية». وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

تخلو الأخبار عن تعارض فيه. والذي ينقدح لما فيه ـ والعلم عند الله ـ أن ينظر إلى قدر قوّة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم، العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرّب. وإن كان قصد التقرّب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الديني، وهذا لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد. وكشف الغطاء عن هذا: أنّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها. فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه. وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها. فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضاً تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما؛ فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوّته، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثر، فكما لا يضيع مثقال ذرّة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرّة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثيره في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده، فإذا جاء بما يقرّبه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقرّبه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لا محالة شبر، وقد قال النبي ﷺ: **«أتبع السيئة الحسنة تمحها»**[1]، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بدّ وأن يتدافعا بالضرورة. ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. نعم، يمكن أن يقال: إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة. ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما. وعندي: أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم، بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. نعم، لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ، فقد روى طاوس وغيره من التابعين: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف ـ أو قال: يتصدّق ـ فيجب أن يحمد ويؤجر، فلم يدر ما

---

(١) حديث: **«أتبع السيئة الحسنة تمحها»**. تقدم في رياضة النفس وفي التوبة.

يقول له حتى نزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠](١). وقد قصد الأجر والحمد جميعاً. وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ**»(٢)، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ: خُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ**»(٣). وروي عن عبادة: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشَّرِكَةِ مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً فَأَشْرَكَ مَعِي غَيْرِي وَدَعْتُ نَصِيبِي لِشَرِيكِي». وروى أبو موسى: أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(٤). وقال عمر رضي الله عنه: تقولون: فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ؟**»(٥).

فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه، بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله: «**من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا**» وكان ذلك هو الأغلب على همه، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان، لا لأن طلب الدنيا حرام، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام؛ لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً في خطر، فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاً، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط، ويجوز أن يقال أيضاً: منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو. وبعيد أن يقال: من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرّد الغزو ـ وإن لم يكن غنيمة ـ وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء ـ لإعلاء كلمة الله وللغنيمة ـ لا ثواب له على غزوه البتة، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك؛ فإن هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكون في إحباطه فلا. نعم، الإنسان فيه على خطر عظيم؛ لأنه ربما يظنّ أن الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفاء. فلا يحصل

---

(١) حديث طاوس وعدة من التابعين: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف ـ أو قال: يتصدق ـ فيجب أن يحمد ويؤجر فنزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلاً، وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

(٢) حديث معاذ: «**أدنى الرياء شرك**» أخرجه الطبراني والحاكم، وتقدم.

(٣) حديث أبي هريرة: «**يقال لمن أشرك في عمله: خذ أجرك ممن عملت له**» تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد، وتقدم فيه حديث أبي هريرة: «**من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه**» وفي رواية مالك في الموطأ: «**فهو له كله**».

(٤) حديث أبي موسى: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**». تقدم فيه.

(٥) حديث ابن مسعود: «**من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له**». تقدم في الباب الذي قبله.

الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد متردداً بين الرد والقبول، خائفاً أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها. وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتدّ بما ظهر من عملي. وقال عبدالعزيز بن أبي روّاد: جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا علي. ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء؛ فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص. ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً. وقد حكي: أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوماً ـ يريد إخلاص الحركات ـ فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقال أبو سعيد: لا تفعل؛ إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة، فواظب على العمل، واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك: اترك العمل وإنما قلت لك: أخلص العمل. وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك.

***

الباب الثالث

في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق:

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال النبي ﷺ: **«إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى البِرِّ وَالبِرُّ يَهْدِي إلَى الجَنَّةِ وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً وَإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلَى الفُجُورِ وَالفُجُور يَهْدِي إلَى النَّارِ وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً»**[1]، ويكفي في فضيلة الصدق، أن الصدّيق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١] وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم: ٥٦] وقال ابن عباس: أربع من كنّ فيه فقد ربح؛ الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحارث: من عامل الله بالصدق استوحش من الناس. وقال أبو عبدالله الرملي: رأيت منصوراً الدينوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل، فقلت له: أحسن ما توجه

الباب الثالث في الصدق

(١) حديث: «إن الصدق يهدي إلى البر...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم.

العبد به إلى الله ماذا؟ قال: الصدق، وأقبح ما توجه به الكذب. وقال أبو سليمان: اجعل الصدق مطيتك، والحق سيفك، والله تعالى غاية طلبتك. وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقاً! فقال له: لو كنت صادقاً لعرفت الصادقين. وعن محمد بن علي الكناني قال: وجدنا دين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان؛ على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول. وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُّمَر: ٦٠] قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته. وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة، فقال الشبلي: إن كان صادقاً فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام، وإن كان كاذباً فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون. وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ـ ولا يتم بعضها إلا ببعض ـ؛ الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم. وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها: لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت. وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة. وقال أبو بكر الورّاق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق. وقيل لذي النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال:

قد بقينا من الذنوب حيارى … نطلب الصدق ما إليه سبيلُ
فدعاوى الهوى تخف علينا … وخلاف الهوى علينا ثقيلُ

وقيل لسهل: ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه؟ فقال: الصدق والسخاء والشجاعة. فقيل: زدنا، فقال: التقى والحياء وطيب الغذاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سئل عن الكمال فقال: «**قَوْلُ الحَقِّ وَالعَمَلُ بِالصِّدْقِ**»(١)، وعن الجنيد في قوله تعالى: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزَاب: ٨] قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه:

اعلم: أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها.

---

(١) حديث ابن عباس: سئل عن الكمال فقال: «**قول الحق والعمل بالصدق**». لم أجده بهذا اللفظ.

فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضاً على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول: صدق اللسان؛ وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إمّا أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، ولكن لهذا الصدق كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض؛ فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب؛ إذ المحذور من الكذب تفهيم على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أنّ ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم، وفي الحذر عن الظلمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطرّ إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه، لأنّ الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم، في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً. كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره[1]، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد، وليس هذا من الكذب في شيء، قال رسول الله ﷺ: «**لَيسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً أَوْ نَمَى خَيْراً**»[2]، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب. والصدق هاهنا يتحوّل إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجرّدت للخير إرادته صار صادقاً وصديقاً كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. وطريقه: ما حكي عن بعضهم: أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي: ليس هو هاهنا، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس في الدار. فالكمال الأول في اللفظ: أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضاً إلا عند الضرورة.

والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعَام: ٧٩] فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز تحقيقه؛ فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا! وقال نبينا ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الحُلَّةِ وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ**»[3]، فسمي كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له.

---

(١) حديث: كان إذا أراد سفراً ورى بغيره. متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

(٢) حديث: «ليس بكاذب من أصلح بين الناس. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وقد تقدم.

(٣) حديث: «تعس عبد الدينار. . .» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم. (الخميصة: كساء أسود معلّم).

وإنما العبد الحق ـ لله عزّ وجلّ ـ من أعتق أوّلاً من غير الله تعالى فصار حرّاً مطلقاً، فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرّية؛ وهو أن يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرّاً، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرّاً. وصار مفقوداً لنفسه موجوداً لسيده ومولاه، إن حرّكه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصدّيقين. وأما الحرّية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا صديقاً، فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني: في النية والإرادة؛ ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً ـ كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم: ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال: فلان عالم[1] ـ فإنه لم يكذبه ولم يقل له: لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد. وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقد قالوا: إنك لرسول الله وهذا صدق، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرّق إلى الخبر. وهذا القول يتضمن إخباراً بقرينة الحال؛ إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص، فكل صادق فلا بدّ وأن يكون مخلصاً.

الصدق الثالث: صدق العزم؛ فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه، أو بشطره، أو إن لقيت عدوّاً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال: لفلان شهوة صادقة. ويقال: هذا المريض شهوته كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ. فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

---

(١) حديث الثلاثة: «حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت. . .» الحديث. تقدم.

ومراتب الصدّيقين في العزائم تختلف؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدّم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصدّيق.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم؛ فإنّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فقد روي عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أُحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو، إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة! إني أجد ريحها دون أُحد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه، فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣][(١)] ووقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير ـ وقد سقط على وجهه يوم أُحد شهيداً، وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ ـ فقال عليه السلام: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣][(٢)]. وقال فضالة بن عبيد: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ العَدُوَّ، فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذٰلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ هٰكَذَا**، وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى وقعت قلنسوته ـ قال الراوي: فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ ـ، **وَرَجُلٌ جَيِّدُ الإيمان إذا لقي العَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهُهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ أَتَاهُ سَهْمٌ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذٰلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَرَجُلٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ**»[(٣)]، وقال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا: إن رزقنا الله تعالى مالاً لنتصدّقن فبخلوا به فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التوبة: ٧٥] وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] فجعل العزم عهداً، وجعل الخلف فيه كذباً، والوفاء به صدقاً. وهذا الصدق أشدّ

---

(١) حديث أنس: «أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ. . .» الحديث. وفي قتاله بأحد حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ [الأحزاب: ٢٣] الآية. أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى، وهو عند البخاري مختصراً أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر.

(٢) حديث: وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية. أخرجه أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلاً.

(٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب: «**الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان. . .**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن.

من الصدق الثالث، فإنّ الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء؛ لشدّته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب. ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسوّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن، لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها. أشار بذلك إلى شدّة الوفاء بالعزم. وقال أبو سعيد الخرّاز: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد، فقالا لي: صدقت، وعرجا إلى السماء.

الصدق الخامس: في الأعمال؛ وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال، وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره. ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذباً في دلالة الظاهر على الباطن.

إذن: مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص؛ وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ اجْعَل سَرِيرَتِي خَيراً مِنْ عَلانِيَتِي وَاجْعَل عَلانِيَتِي صَالِحَةً»**[(١)].

وقال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وأنشدوا:

إذا السرّ والإعلان في المؤمن استوى ... فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سراً فما له ... على سعيه فضلٌ سوى الكدّ والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافقٌ ... ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا

وقال عطية بن عبدالغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول: هذا عبدي حقاً. وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكّاء بالليل بسّام بالنهار. وقال عبدالواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه. وكان أبو عبدالرحمن الزاهد يقول: إلهي: عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة، ويبكي. وقال أبو يعقوب النهرجوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية.

فإذن: مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

---

(١) حديث: «اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي...» الحديث. تقدم ولم أجده.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه، كما يقال: فلان صدق القتال. ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥] إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧] وسئل أبو ذرّ عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية[(١)].

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه. ولذلك قال ﷺ: **«لَمْ أَرَ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلا مِثْلَ الجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا»**[(٢)]، فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه، فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها، ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: **«أُحِبُّ أَنْ أَرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي هِيَ صُورَتُكَ»** فقال: لا تطيق ذلك قال: **«بل أرني»**، فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي ﷺ فإذا هو به قد سدّ الأفق - يعني جوانب السماء - فوقع النبي ﷺ مغشياً عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى، فقال النبي ﷺ: **«ما ظننت أن أحداً من خلق الله هكذا»** قال: وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى، وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع[(٣)] يعني كالعصفور الصغير، فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم. وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: **مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى»**[(٤)]. يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير، وكذلك الصحابة كانوا خائفين، وما كانوا

---

(١) حديث أبي ذر: سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧] رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له إسناداً.

(٢) حديث: **«لم أر مثل النار نام هاربها»** الحديث. تقدم.

(٣) حديث: قال لجبريل: **«أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك»** فقال: «لا تطيق ذلك...» الحديث. تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا، والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين.

(٤) حديث: **«مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله...»** الحديث. أخرجه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور. وقال البيهقي: ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عطارد وهذا مرسل.
الحلس: مِسْح يُبْسط في البيت وتجلل به الدابة.

وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، ولا بدّ من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

المقام الأوّل من المرابطة: المشارطة:

اعلم: أنّ مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح، وكما أنّ التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٩،١٠] وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة. والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة؛ إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أنّ الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أوّلاً؛ فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجوّ وانفرد بالمال. ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء، ولا خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير. ولذلك قيل:

أشدّ الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق

عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها. فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم؛ فإنّ كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس: أنّ اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر: «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه»[(١)]، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبناً، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار. وقد قال بعضهم: هب أنّ المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] فهذه وصيته لنفسه في أوقاته.

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة: وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إليها، فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة. وإنّ لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين: فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، فإنّ الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما

كتاب المحاسبة والمراقبة

(١) حديث: «ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فنفتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسناته...» الحديث. بطوله لم أجد له أصلاً.

يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنّة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن.

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك - مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله - مع أنه خلق للذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين وسائر خيراته، فليشترط على نفسه: أن لا يحرّك اللسان طول النهار إلا في الذكر: فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة و: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وأما البطن: فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة. ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها. هكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء. واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرّر عليه في اليوم والليلة، ثم النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها. وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعوّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها، وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حق. ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس؛ إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها، فعليه أن يشترط على نفسه: الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها، ويحذرها مغبة الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرّد؛ فإن النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥] فهذا وما يجري مجراه هو أوّل مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل. والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وهذا للمستقبل. وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن﴾ [الحجرات: ٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للاحتراز منه في المستقبل. وروى عبادة بن الصامت: أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه: «**إذا أردتَ أمراً فَتَدَبّر عَاقِبَتَهُ فَإنْ كَانَ رَشَداً فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ**»[1]. وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون

---

(١) حديث عبادة بن صامت: «**إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته...**» الحديث. تقدم.

العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة، فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة. وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة. وروى شدّاد بن أوس عنه ﷺ أنه قال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**»[1]. دان نفسه: أي حاسبها. ويوم الدين: يوم الحساب. وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصَّافات: ٥٣] أي لمحاسبون. وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيؤوا للعرض الأكبر. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدّة. وقال لكعب: كيف تجدها في كتاب الله؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء؛ فعلاه بالدرّة وقال: إلا من حاسب نفسه، فقال كعب: يا أمير المؤمنين، إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف؛ إلا من حاسب نفسه. وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال: من دان نفسه يعمل لما بعد الموت. ومعناه: وزن الأمور أوّلاً وقدّرها، ونظر فيها وتدبرها، ثم أقدم عليها فباشرها.

المرابطة الثانية: المراقبة:

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة؛ فإنها إن تركت طغت وفسدت. ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

أما الفضيلة: فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»[2]، وقال عليه السلام: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[3]، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرّعد: ٣٣] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العَلق: ١٤] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨] ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المعَارج: ٣٣] وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى؛ فسأله عن تفسيره فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عزّ وجلّ. وقال عبدالواحد بن زيد: إذا كان سيدي رقيباً علي فلا أبالي بغيره. وقال أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة: المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرنا هذا مبني على أصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله عزّ وجلّ، ويكون العلم على ظاهرك قائماً. وقال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرّنك اجتماعهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكي: أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدّمه، فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدّة طيور، وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد، ودفع إلى الشاب مثل ذلك، وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً، ورجع الشاب والطائر حي في يده، فقال: مالك لم تذبح كما

---

(١) حديث: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت...**» الحديث. تقدم.

(٢) حديث: سأل جبريل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث عمر، وقد تقدم.

(٣) حديث: «**اعبد الله كأنك تراه...**» الحديث. تقدم.

ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحد؛ إذ الله مطلع عليَّ في كل مكان، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرَّم.

وحكي: أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار!. وحكي عن بعض الأحداث: أنه راود جارية عن نفسها فقالت له: ألا تستحي؟ فقال: ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها؟. وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر، فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه. وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة: من يخاف على فوت حظه من ربه عزّ وجلّ. وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة، قيل له: ومن يسكنها؟ قال: يقول الله عزّ وجلّ: إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أوّلها علم القلب بقرب الله تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة. ويروى: أنّ الله تعالى قال لملائكته: أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن. وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه. وقال سهل: لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأنّ الله شاهده حيث كان. وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: ٨] فقال: معناه: ذلك لمن راقب ربه عزّ وجلّ وحاسب نفسه وتزوّد لمعاده. وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس؛ استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب. وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ
ألم ترَ أن اليومَ أسرع ذاهب ... وأن غداً للناظرين قريبُ

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظنّ أنه لا يراك فلقد كفرت. وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة. وقال فرقد السنجي: إنّ المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى. وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق، فانحدر عليه راع من الجبل فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذا الغنم، فقال: إني مملوك، فقال: قل لسيدك: أكلها الذئب؟ قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر رضي الله عنه، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها:

اعلم: أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب. أما الحالة: فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه. وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة: فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفسٍ بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً ـ أعني أنها خلت عن الشك ـ ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته؛ فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين.

الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين؛ وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة؛ فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب، أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد. بل يسدّد الرعية من ملك كلية الراعي، والقلب هو الراعي، فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم. ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به، وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه، حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني. ولا تستبعد هذا؛ فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدّة استغراقهم بهم، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي، فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له. وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة! فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام، فقال له عبدالواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقال: من موضع كذا ـ وكان طريقه على السوق ـ فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً. ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه مرّ بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جداراً. وحكي عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى! فقلت: أنت وحدك؟ فقال: معي ربي وملكاي! فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء، وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغل عنك. فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى؛ لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه، فهذا

لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرّك إلا بما هو فيه. ودخل الشبلي على أبي الحسين النووي وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنّور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرّك لها شعرة. وقال أبو عبدالله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري ـ المعروف بالزاهد ـ: إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما؟ فدخلت صوراً وأنا جائع عطشان، وفي وسطي خرقة، وليس على كتفي شيء، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله إلا رددتما عليّ السلام. فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلي وقال: يا ابن خفيف، الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل، فخذ من القليل الكثير، يا ابن خفيف، ما أقل شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا. قال: فأخذ بكليتي. ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلما كان وقت العصر قلت: عظني. فرفع رأسه إليّ وقال: يا ابن خفيف، نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا، فلما كان اليوم الثالث قلت في سري: أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع بعظتهما، فرفع الشاب رأسه وقال لي: يا ابن خفيف، عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله، والسلام؛ قم عنا!. فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة. نعم، غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم، بل عن حياء، فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك. وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به، لا حياء منه. فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى.

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته. وبالجملة: جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل.

أمّا قبل العمل: فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه، ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه، وعرّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها، وأنها عدوّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته. وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حدّ

البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه، فإن في الخبر: إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل: لم؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن[1]؟ ومعنى «لِمَ»: أي لم فعلت هذا؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا، فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظنّ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت؟ ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك: «لا إله إلا الله» فيكون أجرك على الله، أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه، أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا، أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك، وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي؛ إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] ويحك: أما سمعتني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٣] فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب، وأعد للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت، ولا يحرّك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل. وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَل عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتْهِ الطِّينَ بِأَصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ»**[2]. وقال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدّق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه. وقال الحسن: رحم الله تعالى عبداً وقف عند همه؛ فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر. وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان: «اتق الله عند همك إذا هممت»[3]، وقال محمد بن علي: إنّ المؤمن وقّاف متأنّ يقف عند همه ليس كحاطب ليل. فهذا هو النظر الأوّل في هذه المراقبة.

ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوّه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولا تظنن أنّ الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر! هيهات، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة؛ فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران. فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه، ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به، فإنّ

---

(١) حديث: «**ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الأول: لم. والثاني: كيف. والثالث: لمن**» لم أقف له على أصل.

(٢) حديث: قال لمعاذ: «**إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه...**» الحديث. تقدم في الذي قبله.

(٣) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن: «اتق الله عند همك إذا هممت» أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع، تقدم.

الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم، والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأوّل وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه. ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين، وليفرّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشدّ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي؛ أولئك قطاع الطريق على عبادي. فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدّة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوّها، وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا؟ فلتكن همة المريد أوّلاً في أحكام العلم، أو في طلب عالم، معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها. وقد قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ البَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبهَاتِ وَالعَقْلَ الكَامِلَ عِنْدَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ»**[١]، جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً؛ فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات. ولذلك قال عليه السلام: **«مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً»**[٢]، فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الآدمي به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب، ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار، فإنّ الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه. وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم، وتجرّدوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرّغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه. وفي الخبر: **«أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت»**[٣]، ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر؛ كسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة وغيرهم. فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه، وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذ قال: **«فَإِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً وَهَوىً مُتَّبَعاً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ»** وكلُّ من خاض في شبهةٍ بغير تحقيقٍ فقد خالف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦][٤] وقوله عليه السلام: **«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ»**[٥]، وأراد به ظناً بغير دليل؛ كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه. ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه: اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه؛ ولا تجعله متشابهاً علي فأتبع الهوى. وقال عيسى عليه السلام: «الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه،

---

(١) حديث: **«إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات...»** الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين، وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور.

(٢) حديث: **«من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً»**. تقدم، ولم أجده.

(٣) حديث: **«أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المثبت»** لم أجده.

(٤) حديث: **«فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً...»** الحديث. تقدم.

(٥) حديث: **«إياكم والظن...»** الحديث. تقدم.

وأمر استبان غيه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكِله إلى عالمه»(١)، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْم»**(٢)، فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم؛ ولذلك قال تعالى امتناناً على عبده: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وأراد به العلم وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل: ١٢] وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٩] وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقال علي كرم الله وجهه: الهوى شريك العمى، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة، ونِعْمَ طارد الهم اليقين، وعاقبة الكذب الندم، وفي الصدق السلامة، رب بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب، والصديق من صدق غيبه، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن، نعم الخلق التكرم، والحياء سبب إلى كل جميل، وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك، والرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك، وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك، واستدل على ما لم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً، وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلفت، وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت. وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله: «ومن التوفيق التوقف عند الحيرة» فإذن: النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله أم للهوى؟ وقد قال ﷺ: **«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ: لا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِم، وَلا يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ، وَإذا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ آثَرَ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا»**(٣) وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ: **«مَنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ»**(٤).

النظر الثاني: للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل؛ ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه، وهذا ملازم له في جميع أحواله، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب. فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ: **«خَيْرُ المَجَالِسِ ما اسْتُقْبِلَ بِهِ القِبْلَةَ»**(٥)، ولا يجلس متربعاً؛ إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول: هكذا تجالس الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعاً. وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة ـ مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها ـ، فكل ذلك داخل في المراقبة، بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة.

---

(١) حديث: «قال عيسى: الأمور ثلاثة...» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم». لم أجده.

(٣) حديث: «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم...» الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٤) حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، تقدم.

(٥) حديث: «خير المجالس ما استقبل به القبلة» أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

فإذن: لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة، أو في معصية، أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة: بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات.

وإن كان في معصية: فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر.

وإن كان في مباح: فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بدّ له من الصبر عليها، ونعمة لا بدّ له من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته، أو محظور يلزمه تركه، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته. ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١] فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة، فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها؛ فإنّ من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون، والأرباح تنال بمزايا الفضائل؛ فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة. فإنّ الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية. وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها؟ وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه. فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى. ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه؛ وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام: «**لا يَكُونُ المُؤْمِنُ ظَاعِناً إلاّ فِي ثَلاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ**»[1]، وما روي عنه أيضاً في معناه: «**وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب**»[2]، فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات. ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح. والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار: فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه، وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ـ كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر ـ، وهذا مقام ذوي الألباب.

---

(١) حديث أبي ذر «**لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث: تزود لمعاد...**» الحديث. أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه ﷺ قال: «**إنه في صحف موسى**»، وقد تقدم.

(٢) حديث: «**وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي بها ربه...**» الحديث. وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله.

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة: ويلاحظون وجه الاضطرار إليه، ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته، وهذا مقام الزاهدين.

وقسم يرون في الصنعة الصانع: ويترقون منها إلى صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين؛ إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جداً.

وقسم رابع: ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى، وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله، ولذلك قال النبي ﷺ: **«لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فإنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»**(١)، فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال، وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول.

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل. ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها:

أما الفضيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحَشر: ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا. وفي الخبر: أنه عليه السلام جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أوصني، فقال: **«أَمُسْتَوْصٍ أَنْتَ؟»** فقال: نعم، قال: **«إذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فإنْ كَانَ رَشَداً فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ»**. وفي الخبر: وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات؛ ساعة يحاسب فيها نفسه. وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١] والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه. وقد قال ﷺ: **«إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي اليَوْمِ مائَةَ مَرَّةٍ»**(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعرَاف: ٢٠١] وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم. وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل. وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر، ثم قال لها: كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال فقال: لا أحد أعز علي من عمر. فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها!. وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته ـ فتدبر ذلك ـ، فجعل حائطه صدقة لله تعالى، ندماً ورجاء للعوض مما فاته(٣).

---

(١) حديث: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة». تقدم غير مرة.

(٣) حديث أبي طلحة: حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة، تقدم غير مرة.

وفي حديث ابن سلام: أنه حمل حزمة من حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال: أردت أن أجرّب نفسي هل تنكره؟. وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي، ولكن هيهات حيل بيني وبينك! وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله. وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً، فسمعته يقول ـ وبيني وبينه جدار ـ وهو في الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القِيَامَة: ٢] قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه، وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً. وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه. وقال ميمون بن مهران: التقي أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح. وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين؟ فقلت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً! قلت: فأنت في الأمنية فاعملي. وقال مالك بن دينار: سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرأ نظر في مكياله، رحم الله امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني. وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل:

اعلم: أنّ العبد كما يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها. كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته! ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه بما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك. ومعنى المحاسبة مع الشريك، أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي. وموسم هذه التجارة جملة النهار، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أوّلاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها، وإنّ فوتها

من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها؛ ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرّط ـ كما يصنع التاجر بشريكه ـ، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خدّاعة ملبسة مكارة، فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لِمَ سكت؟ وعن سكونه لم سكن؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوباً له، فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون. أما بعضها: فبالغرامة والضمان، وبعضها: برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء. ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة ابن الصمة ـ وكان بالرقة وكان محاسباً لنفسه ـ فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي، ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خرّ مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى. فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدّة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

المرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها:

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها؛ فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته. هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة. فقد روي عن منصور بن إبراهيم: أن رجلاً من العباد كلم امرأة، فلم يزل حتى وضع يده على فخذها، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست. وروي: أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زماناً طويلاً، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهمّ بها، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات! رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي؟ لا يكون والله ذلك أبداً! فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت؛ فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره.

ويحكى عن الجنيد قال: سمعت ابن الكريبي يقول: أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة، فوجدت في نفسي تأخراً وتقصيراً، فحدّثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء

أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت: واعجباً، أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له عليّ حق، فلا أجد فيّ المسارعة وأجد الوقوف والتأخر! آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه! وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس. ويحكى: أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال: إنك للحاظة إلى ما يضرك. ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش.

ويحكى: أن حسان بن أبي سنان مرّ بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة فصامها. وقال مالك بن ضيغم: جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا: إنه نائم، فقال: أنوم هذه الساعة! هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له: ألا نوقظه لك! فجاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عني شيئاً، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليك؟ ينام الرجل متى شاء، وما يدريك أنّ هذا ليس وقت نوم؟ تتكلمين بما لا تعلمين؟ أما إن لله علي عهداً لا أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل، سوأة لك، أما تستحين كم توبخين؟ وعن غيك لا تنتهين؟ قال: وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته.

ويحكى عن تميم الداري: أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد؛ فقام سنة لم ينم فيها، عقوبة للذي صنع. وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال: «انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقي ونار جهنم أشدّ حرّاً، أجيفة بالليل بطالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي! فقال له النبي ﷺ: **«أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بُدٌّ مِنَ الَّذِي صَنَعْتَ أَمَا لَقَدْ فُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّماءِ وَلَقَدْ بَاهَى اللَّهُ بِكَ المَلائِكَةَ»** ثم قال لأصحابه: **«تَزَوَّدُوا مِنْ أَخِيكُمْ»** فجعل الرجل يقول له: يا فلان، ادع لي! يا فلان، ادع لي! فقال النبي ﷺ: **«عمهم»** فقال: اللهم اجعل التقوى زادهم، واجمع على الهدى أمرهم. فجعل النبي ﷺ يقول: **«اللهم سدّده»** فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم»[1]. وقال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل: كيف تصنع بنفسك في شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إلي منها فكيف أعطيها شهواتها؟ ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات ـ وهو في بيته على التراب ـ فقال: يا داود، سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له. وعن وهب بن منبه: أن رجلاً تعبد زماناً، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجته فلم يعطها، فرجع إلى نفسه وقال: منك أتيت، لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك! فنزل إليه ملك وقال: يا ابن آدم، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت، وقد قضى الله حاجتك. وقال عبدالله بن قيس: كنا في غزاة لنا فحضر العدو، فصيح في الناس، فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت! ألم أشهد

---

(١) حديث طلحة: «انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه: ونار جهنم أشد حراً...» الحديث. بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل، ولا أدري من طلحة هذا.

مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت! والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك! فقلت: لأرمقنه اليوم، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعاً، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة. وقد ذكرنا حديث أبي طلحة: لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك. وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول: ماذا عملت اليوم؟. وعن مجمع: أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة؛ فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا. وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا؟. وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه: ويحك! إنما أريد بك الخير. ورأى محمد بن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح! فقال له: لو أكلته بملح! فقال: إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة، ولا ذاق داود ملحاً ما دام في الدنيا.

فكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم، والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك وأشد طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة، وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها.

المرابطة الخامسة: المجاهدة:

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد فارقت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم، وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين. وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة. وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصدق بجميع ماله. كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها؟.

فأقول: سبيلك في ذلك: أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين[1]. ومن أنفع

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أخرجها أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين» وله وللنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته» وللترمذي من حديث بلال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم. . .» الحديث. وقال: غريب ولا يصح، وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك.

أسباب العلاج: أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة؛ فتلاحظ أقواله وتقتدي به. وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً. إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم ملكهم وما أشدّ حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة! ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد! نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم، فقد قال رسول الله ﷺ: **«رَحِمَ اللَّهُ أَقْوَاماً يَحْسَبُهُمُ النَّاسُ مَرْضَى وَ مَا هُمْ بِمَرْضَى»**(١). قال الحسن: أجهدتهم العبادة! قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال الحسن: يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله! وقال رسول الله ﷺ: **«طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»**(٢). ويروى: أن الله تعالى يقول لملائكته: ما بال عبادي مجتهدين، فيقولون: إلهنا خوفتهم شيئاً فخافوه، وشوّقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه! فيقول الله تبارك وتعالى: فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشدّ اجتهاداً. وقال الحسن: أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم. إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويحكى: أنّ قوماً دخلوا على عمر بن عبدالعزيز يعودونه في مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم، فقال عمر له: يا فتى، ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله إلا صدقتني! فقال: يا أمير المؤمنين، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه.

وقال أبو نعيم: كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز. فقيل له في ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. ودخل رجل عليه يوماً فقال: إنّ في سقف بيتك جذعاً مكسوراً فقال: يا ابن أخي، إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف. وكانوا يكرهون فضول

---

(١) حديث: **«رحم الله أقواماً تحسبهم مرضى وما هم بمرضى»** لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع. لكن رواه أحمد في الزهد موقوفاً على علي في كلام له قال فيه: ينظر إليهم فيقول مرضى وما بالقوم من مرض.

(٢) حديث: **«طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»** أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة: «عن» وهو مدلس، وللترمذي من حديث أبي بكرة: **«خير الناس من طال عمره وحسن عمله»** وقال: حسن صحيح، وقد تقدم.

النظر كما يكرهون فضول الكلام. وقال محمد بن عبدالعزيز: جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة! فقيل له في ذلك فقال: إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة. وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة! وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له. وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر. وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحرّ حتى يخضر جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذّب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد. وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا؟ فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئاً إلا جئت به. وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة، حتى أقعد من رجليه فكان يصلي جالساً ألف ركعة، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك! عجبت للخليقة كيف أنِسَت بسواك! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك!. وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري. وقال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري؛ أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رئي مضطجعاً إلا في علة الموت! وقال الحارث بن سعد: مرّ قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدّة اجتهاده، فكلموه في ذلك فقال: وما هذا عندما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم؟ فبكى القوم عن آخرهم. وعن أبي محمد المغازلي قال: جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمدّ رجليه، فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له: يا أبا محمد، بم قدرت على اعتكافك هذا؟ فقال: علم صدق باطني فأعانني على ظاهري، فأطرق الكتاني ومشى مفكراً. وعن بعضهم قال: دخلت على فتح الموصلي فرأيته قد مدّ كفيه يبكي ـ حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه ـ فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة! فقلت: ولم بالله يا فتح بكيت الدم؟ فقال: لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك، نعم، بكيت دماً فقلت له: على ماذا بكيت الدموع؟ فقال: على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع؟ قال: فرأيته بعد موته في المنام فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت له: فماذا صنع في دموعك؟ فقال: قرّبني ربي عزّ وجلّ وقال لي: يا فتح؛ الدمع على ماذا؟ قلت: يا رب على تخلفي عن واجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ فقلت: على دموعي أن لا تصح لي، فقال لي: يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة.

وقيل: إنّ قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته، فقالوا: يا راهب، إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق؟ فأومأ برأسه إلى السماء، فعلم القوم ما أراد، فقالوا: يا راهب، إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟ فقال: سلوا ولا تكثروا فإنّ النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث، فعجب القوم من كلامه، فقالوا: يا راهب، علام الخلق غداً عند مليكهم؟ فقال: على نياتهم، فقالوا: أوصنا، فقال: تزودوا على قدر سفركم فإنّ خير الزاد ما بلغ البغية. ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته.

وقال عبدالواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته: يا راهب، فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني، فناديته الثالثة فأشرف عليَّ وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه، وعظمه في كبريائه، وصبر على بلائه، ورضي بقضائه، وحمده على آلائه، وشكره على نعمائه، وتواضع لعظمته وذلّ لعزته، واستسلم لقدرته وخضع لمهابته، وفكر في حسابه وعقابه؛ فنهاره صائم وليله قائم، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار، فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم! فقلت: يا راهب، فما الذي قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه؟ فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله تعالى إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصي والذنوب، والعاقل من رمى بها عن قلبه، وتاب إلى الله تعالى من ذنبه، وأقبل على ما يقرّبه من ربه.

وقيل لداود الطائي: لو سرحت لحيتك. فقال: إني إذن لفارغ. وكان أويس القرني يقول: هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال: هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة. وقيل: لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك! قال: الرفق أطلب! دعيني أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً. وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً. وكان سفيان الثوري يقول: عند الصباح يحمد القوم السرى، وعند الممات يحمد القوم التقى. وقال عبدالله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه؛ أي كان لا ينام طول الليل، وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شر! فلما ضعف اقتصر على خمسمائة، ثم كان يبكي ويقول: ذهب نصف عملي. وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: يا ابنتاه إنّ أباك يخاف البيات. ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته: يا بني لعلك قتلت قتيلاً قال: نعم يا أماه، قالت: فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك، فيقول: يا أماه هي نفسي. وعن عمر ـ ابن أخت بشر بن الحارث ـ قال: سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي: يا أختي جوفي وخواصري تضرب عليَّ، فقالت له أمي: يا أخي أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك فقال لها: ويحك! أخاف أن يقول: أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدري إيش أقول له. فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم. قال عمر: ورأت أمي ما ببشر من شدّة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أمي: يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك! فسمعته يقول لها: وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدتني لم يدر ثديها عليَّ. قال عمر: وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار.

وقال الربيع: أتيت أويساً فوجدته جالساً حتى صلى الفجر، ثم جلس فجلست فقلت: لا أشغله عن التسبيح؛ فمكث مكانه حتى صلى الظهر، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نوّامة ومن بطن لا تشبع! فقلت: حسبي هذا منه، ثم رجعت. ونظر رجل إلى أويس فقال: يا أبا عبدالله، ما لي أراك كأنك مريض؟ فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضاً يطعم المريض وأويس غير طاعم، وينام المريض وأويس غير نائم. وقال أحمد بن حرب: يا عجباً لمن يعرف أنّ الجنة تزين فوقه وأنّ النار تسعر تحته كيف ينام بينهما. وقال رجل من النساك: أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة، ولم يحدث وضوءاً

فحاك ذلك في صدري فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعاً ثم لم تجدّد الوضوء، فقال: كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم؟

وقال ثابت البناني: أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبواً. وقيل: مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش، ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله. وقيل: كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة. وعن أبي بكر المطوعي قال: كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه: قل هو الله أحد؛ إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة ـ شك الراوي ـ. وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت، لعلك يا بني أصبت نفساً لعلك قتلت قتيلاً؟ فيقول: يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي. وقيل لعامر بن عبدالله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر، وكان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها، وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يمسي، فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعضهم: صحبت عامر بن عبدالقيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار.

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً يشبههم؛ كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجّداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، وكأن القوم باتوا غافلين ـ يعني من كان حوله ـ. وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوّف به نفسه وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا مني، فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتي. وكان يقول: أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا. كلا والله لنزاحمهم عليه زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً. وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: القيامة غداً؛ ما وجد متزايداً، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحرّ فلا ينام، وأنه مات وهو ساجد، وأنه كان يقول: اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي. وقال القاسم بن محمد: غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أسلم عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطُّور: ٢٧] وتبكي وتدعو وتردد الآية، فقمت حتى مللت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو.

وقال محمد بن إسحاق: لما ورد علينا عبدالرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء. وقال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل. وقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: سيما الصالحين صفرة

الألوان من السهر، وعمش العيون من البكاء، وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين. وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره. وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهي: خلقتني ولم تؤامرني، وتميتني ولا تعلمني، وخلقت معي عدوّاً وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا أراه، ثم قلت لي: استمسك، إلهي كيف أستمسك إن لم تمسكني؟ إلهي: في الدنيا الهموم والأحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح؟. وقال جعفر بن محمد: كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة، قال جعفر بن محمد: فحدّثت به بعض البصريين فقال: لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح!. وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب ـ وكان له أهل وبنات ـ وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون! أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون؛ فيسمع من هاهنا باك ومن هاهنا داع ومن ههنا قارىء ومن هاهنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعض الحكماء: إنّ لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه؛ فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتاً للحكمة، وتوابيت للعظمة، وخزائن للقدرة، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفاً أن يصفه، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً وهم الظاهر مناديل، مبذولون لمن أرادهم تواضعاً. وهذه طريقة لا يُبلغ إليها بالتكلف، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال، فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨] قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرّ مغشياً عليه، فقلت: وا أسفاه هذا لشقائي. ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين، أعوذ بك من أعمال البطالين، أعوذ بك من إعراض الغافلين. ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين، وإليك فزعت آمال المقصرين، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نفض يده فقال: ما لي وللدنيا وما للدنيا ولي؟ عليك يا دنيا بأبناء جنسك ألأَف نعيمك! إلى محبيك فاذهبي، وإياهم فاخدعي، ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة، في التراب يبلون، وعلى الزمان يفنون، فناديته: يا عبدالله، أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك! فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها، ثم لهى عني ساعة وقرأ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧] ثم صاح صيحة أخرى أشدّ من الأولى وخرّ مغشياً عليه! فقلت: قد خرجت روحه، فدنوت منه فإذا هو يضطرب، ثم أفاق وهو يقول: من أنا، ما خاطري؟ هب لي إساءتي من فضلك، وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك. فقلت له: بالذي ترجوه

لنفسك! وتثق به إلا كلمتني فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه، ودع كلام من أوبقته ذنوبه، إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عوناً علي ليخرجني مما أنا فيه غيرك؟ فإليك عني يَا مخدوع فقد عطلت عليّ لساني، وميلت إليّ حديثك شعبة من قلبي! وأنا أعوذ بالله من شرك، ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويتفضل عليّ برحمته. قال: فقلت: هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا! فانصرفت وتركته.

وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليَّ فقال لي: يا هذا، قم فإن الموت لم يمت، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] اللهم بارك لي في الموت، فقلت: وفيما بعد الموت، فقال: من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقرّ، ثم قال: يا من لوجهه عنت الوجوه، بيض وجهي بالنظر إليك واملأ قلبي من المحبة لك، وأجرني من ذل التوبيخ غداً عندك؛ فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ثم قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي، ثم مضى وتركني. وقد أنشدوا في هذا المعنى:

نحيلُ الجسمِ مكتئبُ الفؤادِ ... تراه بقمةٍ أو بطن وادي
ينوحُ على معاصٍ فاضحات ... يكدّر ثقلها صفو الرقادِ
فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته: أغثني يا عمادي
فأنت بما ألاقيه عليمٌ ... كثير الصفح عن زلل العبادِ

وقيل أيضاً:

ألذ من التلذذ بالغواني ... إذا أقبلنَ في حللٍ حسانِ
منيب فرّ من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكانِ
ليخمل ذكره ويعيش فرداً ... ويظهر في العبادة بالأماني
تلذذه التلاوة أين ولّى ... وذكر بالفؤاد وباللسانِ
وعند الموت يأتيه بشيرٌ ... يبشر بالنجاة من الهوانِ
فيدرك ما أراد وما تمنى ... من الراحات في غرف الجنانِ

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات، ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له: قد أجهدت نفسك! فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم؟ يعني: أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيراً وكنت بالرغبة فيه جديراً، فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها؟. فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها. فمهما تمرّدت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء؛ فليس الخبر كالمعاينة، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء، فإن لم تكن إبل فمعزى، وخيّر نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم

وغمارهم ـ وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين ـ وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك، ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء.

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس، لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة، فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها! ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات: فقد روي عن حبيبة العدوية: أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي، قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهي، هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر؛ فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها عليّ فأعزّى؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت؛ لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

ويروى عن عجرة: أنها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر، فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون: إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أوّل زمرة السابقين، وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين، وأن تلحقني بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم، ثم تخرّ ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر.

وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها؟ فقال: أنت وذاك، قال: فأتيناها، فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريدين؟ قال: فبكت، ثم قالت: والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي، ثم أبكي دماً حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي، وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء. فلم تزل تردد: «وأنى لي بالبكاء» حتى غشي عليها.

وقال محمد بن معاذ: حدثتني امرأة من المتعبدات قالت: رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم، فقلت: ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها! فقلت: ومن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها: شعوانة. قالت: فقلت: أختي والله، قالت: فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت: يا أختي، أما ترين مكاني من مكانك، فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك؟ قالت: فتبسمت إليّ وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين: ألزمي الحزن قلبك، وقدمي محبة الله على هواك، ولا يضرك متى مت.

وقال عبدالله بن الحسن: كانت لي جارية رومية وكنت بها معجباً، فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول: بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي، فقلت لها: لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك، فقالت: يا مولاي، بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام، وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشم القرشي: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها: سرية؛ فنزلت في بعض ديارنا، قال: فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً، فقلت يوماً لخادم لي: أشرف على هذه المرأة، ماذا تصنع؟ قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً، غير أنها لا تردّ طرفها عن السماء وهي مستقبلة

القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة، بعد فلتة: أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير.

وقال ذو النون المصري: خرجت ليلة من وادي كنعان، فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليَّ وهو يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧] ويبكي، فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت؟ غير فزعة مني، فقلت: رجل غريب، فقالت: يا هذا، وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها فقالت: ما الذي أبكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله، والصادق لا يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب، فسكتُّ متعجباً من قولها.

وقال أحمد بن علي: استأذنا على عفيرة فحجبتنا، فلازمنا الباب، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول: اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها: يا أمة الله ادعي لنا، فقالت: جعل الله قراءكم في بيتي المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء، فحانت منه نظرة فخر مغشياً عليه فأصابه فتق في بطنه، فيا ليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص! ويا ليتها إذا عصت لم تعد!. وقال بعض الصالحين: خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت: لا تبرحي حتى أنصرف إليك، قال: فانصرفت فلم أجدها في الموضع، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت: يا مولاي، لا تعجل علي؛ إنك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكراً لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع!. فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرّة. فقالت: ساء لي ما صنعت؛ كنت أخدمك فيكون لي أجران، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة، تعبدت، وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها في كثرة البكاء قال: فدخلنا عليها فقلنا: يا بريرة، كيف أصبحت؟ قالت: أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب، فقلنا لها: ما هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه؟ فقالت: إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا؟ ثم أعرضت. قال: فقال القوم: قوموا بنا، فهي والله في شيء غير ما نحن فيه. وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي، فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح.

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها، وقمت أنا إلى ناحية من البيت، فلم تزل قائمة إلى السحر، فلما كان السحر قلت: ما جزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن تصوم له غداً. وكانت شعوانة تقول في دعائها: إلهي، ما أشوقني إلى لقائك، وأعظم رجائي لجزائك، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي: إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي؛ فإن عفوت فمن أولى

منك بذلك، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك، إلهي: قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسعدها، إلهي: إنك لم تزل بي براً أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي، ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه، إلهي: كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي، إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني؛ فتول من أمري ما أنت أهله، وعد بفضلك على من غره جهله، إلهي: لو أردت إهانتي لما هديتني، ولو أردت فضيحتي لم تسترني، فمتعني بما له هديتني، وأدم لي ما به سترتني، إلهي: ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري، إلهي: لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

وقال الخواص: دخلنا على رحلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أقعدت؛ وكانت تصلي قاعدة، فسلمنا عليها، ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر، قال: فشهقت ثم قالت: علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي، والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكوراً، ثم أقبلت على صلاتها.

فعليك ـ إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك ـ أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين؛ لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك؛ فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله. وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر. وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب: «حلية الأولياء» فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين. فإن حدّثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت: إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت طابت، فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها، وقل لها: أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق، فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت؟ أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق ـ وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ـ فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت: أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها.

المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها:

اعلم: أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر فرّارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوّامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس

المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك. أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا ابن مريم، عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. وسبيلك: أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها، وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتدّ أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها: يا نفس، ما أعظم جهلك؛ تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشدّ الناس غباوة وحمقاً! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غداً، فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً؟ أما تعلمين أن كل ما هو آتٍ قريب وأن البعيد ما ليس بآت؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتي في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف، ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل، ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الشباب، ولا في الشباب دون الصبا، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة. ثم يفضي إلى الموت. فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب؟ أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣] ويحك يا نفس؛ إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشدّ وقاحتك وأقل حياءك، ويحك يا نفس؛ لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟ فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات هيهات! جرّبي نفسك! إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك، فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا! وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. ويحك يا نفس؛ ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة، فإنك تدّعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك، ألم يقل لك سيدك ومولاك: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال في أمر الآخرة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩] فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر! ما هذا من علامات الإيمان؟ لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ ويحك يا نفس؛ كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات! أتحسبين أنك تُتركين سدى! ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك! أما تتفكرين أنه من ماذا خلقك؛

من نطفة خلقك فقدّرك، ثم السبيل يسرك، ثم أماتك فأقبرك، أفتكذبينه في قوله؛ ثم إذا شاء أنشرك؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك؟ ولو أن يهودياً أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقلّ عندك من قول صبي من جملة الأغبياء! أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه! ما هذه أفعال العقلاء! بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد، ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك. أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدّة قريبة، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى! ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة، وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس، وهذا محال وجوده، أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين: غداً غداً؛ فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس، لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز وأعجز؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها إلى سنة أخرى، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً ووهناً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب. والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟

ولعلك تقولين: ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات، فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد، ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فربَّ أكلة تمنع أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم؟ وجميع

عمرك بالإضافة إلى الأبد ـ الذي هو مدّة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ـ أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته. وليت شعري: ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي. أما الكفر الخفي: فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب. وأما الحمق الجلي: فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مَكْرِهِ واستدراجه واستغنائه عن عبادتك ـ مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل ـ وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله ﷺ حيث قال: «**الكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي**».

ويحك يا نفس؛ لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ولا يغرّنك بالله الغرور، فانظري لنفسك فما أمرُك بمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها. يا نفس: أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته؛ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدّة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدّة والبرودة! أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حرّ النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات، وإنما كرم الله تعالى في أن عرّفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك؛ إذ خلقه سبباً لاستراحتك، فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين. ويحك يا نفس؛ انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] و ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] و ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً.

ويحك يا نفس؛ ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودّتها، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك وما لك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت، ولذلك قال سيد البشر ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رَوعِي، أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفارِقُه واعمَل ما شِئتَ فَإِنَّكَ مَجزِيٌّ بِهِ وَعِشْ ما شِئتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ**»[1].

(١) حديث: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه...» الحديث. تقدم في العلم وغيره.

ويحك يا نفس؛ أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لايدري؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم، أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون؛ ويبنون ما لا يسكنون، ويؤملون ما لا يدركون؛ يبني كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقرّه قبر محفور تحت الأرض، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً. أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم، واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء؛ فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء. يا نفس: ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك، عجباً لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة! ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب. كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك؟ فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك، فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها، وتنزهاً عن كثرة عنائها، وتوقياً من سرعة فنائها؟ أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها، وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء! فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكوني في زمرة المقرّبين من النبيين والصدّيقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين؛ لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل. فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين! فبادري ـ ويحك ـ يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير. فمن ذا يصلي عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت.

ويحك يا نفس؛ ما لك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك؟ أما تعلمين يا نفس: أنّ الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس: أنّ عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم؟ أما تعلمين يا نفس: أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة؟ ويحك يا نفس: أما تستحيين؟ تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر

بالعظائم، أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق؟ ويحك؛ أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنا متلطخة بالرذائل، تدعين إلى الله وأنت عنه فارّة؛ وتذكرين بالله وأنت له ناسية؟ أما تعلمين يا نفس: أنّ المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها؛ فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك؟ ويحك يا نفس؛ لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك! ويحك يا نفس؛ قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح في يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه؟ ويحك يا نفس، ما أغدرك، ويحك يا نفس، ما أوقحك ويحك يا نفس؛ ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي! ويحك؛ كم تعقدين فتنقضين، ويحك؛ كم تعهدين فتغدرين، ويحك يا نفس، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيراً وبنوا مشيداً وأملوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً؟ ويحك يا نفس، أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة، أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟ هيهات هيهات، ساء ما تتوهمين! ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك؛ فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدّعين البصيرة والفطنة، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص؟.

ويحك يا نفس، تعرِضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك! فكم من مستقبَل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه، فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك؟ فاحذري أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته، فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله، وبأي لسان تجيبين، وأعدّي للسؤال جواباً وللجواب صواباً، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقامة، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً، وسعيك لها اضطراراً، ورفضك لها اختياراً، وطلبك للآخرة ابتداراً، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهى الناس ولا ينتهي، واعلمي يا نفس: أنه ليس للدين عوض، ولا للإيمان بدل، ولا للجسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يُسار به وإن لم يسر. فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة؛ فإنّ من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام، فإن لم يزل فبقلة المخالطة والكلام، فإن

لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تزل فاعلمي أنّ الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه، فوطني نفسك على النار؛ فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فكل ميسر لما خلق له، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك ـ والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ـ فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء، فانظري الآن: هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت ـ فمستقى الدمع من بحر الرحمة ـ فقد بقي فيك موضع للرجاء، فواظبي على النياحة والبكاء واستعيني بأرحم الراحمين، واشتكي إلى أكرم الأكرمين، وأدمني الاستغاثة ولا تملّي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فإن مصيبتك قد عظمت، وبليتك قد تفاقمت، وتماديك قد طال، وقد انقطعت منك الحيل، وراحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك، فافزعي إليه بالتضرع، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرّة وإلى رحمته محتاجة، وقد ضاقت بك السبل، وانسدت عليك الطرق، وانقطعت منك الحيل، ولم تنجع فيك العظات، ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم والمسؤول جواد والمستغاث به برّ رؤوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي: يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر، أنا الجريء الذي لا أقلع، أنا المتمادي الذي لا أستحي، هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق، فعجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوّة عظمتك يا أرحم الراحمين. اقتداء بأبيك آدم عليه السلام. فقد قال وهب بن منبه: لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة، فاطلع الله عزّ وجلّ عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم، ما هذا الجهد الذي أرى بك؟ قال: يا رب، عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة، وفي دار الشقاء بعد السعادة، وفي دار النصب بعد الراحة، وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكي على خطيئتي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم، ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي، ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي؛ فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي، فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين. فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام.

وكان عبيدالله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله: إلهي: أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي، أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى. واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى، واعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى! واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ! واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى. وقال منصور بن عمار: سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابداً يناجي ربه وهو يقول: يا رب، وعزتك ما أود بمعصيتك مخالفتك، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف،

ولكن سوّلت لي نفسي، وأعانني على ذلك شقوتي، وغرني سترك المرخي علي، فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي؛ فمن عذابك الآن من يستنقذني، أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفّين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي، ويلي كلما طال عمري كثرت معاصيّ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود؟ أما آن لي أن أستحي من ربي!.

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم، وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً، ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً والسلام.

تم كتاب المحاسبة والمراقبة. يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي لم يقدّر لانتهاء عزته نحواً ولا قطراً، ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسراً، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً، ثم قيل لها: أجيلي في ذل العبودية منك فكراً لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدراً، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمراً فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى، وجدّدي لكل نعمة منها ذكراً وشكراً، وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشراً، ونفعاً وضراً، وعسراً ويسراً، وفوزاً وخسراً، وجبراً وكسراً، وطياً ونشراً، وإيماناً وكفراً، وعرفاناً ونكراً، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمراً إمراً، وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلماً وجوراً، فقد انبهرت العقول دون مبادىء إشراقه وانتقصت على أعقابها اضطراراً وقهراً، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعدّ سيادته فخراً، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدّة وذخراً، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدراً ولطوائف المسلمين صدراً، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد وردت السنة بأن: «**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**»(1)، وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار. ولا يخفى أنّ الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه؟ فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أوّلاً فضيلة التفكر، ثم حقيقة التفكر وثمرته، ثم مجاري الفكر ومسارحه. إن شاء الله تعالى.

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

كتاب التفكر

(1) حديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» أخرجه ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ: «ستين سنة» بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ: «ثمانين سنة» وإسناده ضعيف جداً، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ: «خير من قيام ليلة».

﴿هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عِمرَان: ١٩١] وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنّ قوماً تفكروا في الله عزّ وجلّ فقال النبي ﷺ: «**تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقدِرُوا قَدْرَهُ**»[(1)]، وعن النبي ﷺ: «أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: «**ما لكم لا تتكلمون؟**» فقالوا: نتفكر في خلق الله عزّ وجلّ قال: «**فَكَذٰلِكَ فَافْعَلُوا، تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ وَلا تَتَفَكَّرُوا فِيهِ فَإِنَّ بِهٰذا المَغْرِبِ أَرْضاً بَيْضاءَ، نُورُها بَيَاضُها وَبَيَاضُها نُورُها، مَسِيرَةُ الشَّمْسِ أَرْبَعِينَ يَوْماً بِها خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَعْصُوا اللَّهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ**» قالوا: يا رسول الله، فأين الشيطان منهم؟ قال: «**ما يَدْرُونَ خُلِقَ الشَّيْطَانُ أَمْ لا**» قالوا: من ولد آدم؟ قال: «**لا يَدْرُونَ خُلِقَ آدَمُ أَمْ لا**»[(2)].

وعن عطاء قال: «انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا»؟ قال: قول رسول الله ﷺ: «**زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً**»، قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «**ذريني أتعبد لربي عزّ وجلّ**» فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال يا رسول الله: ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**وَيْحَكَ يا بِلالُ وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠]» ثم قال: «**وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَها وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيها**»[(3)]، فقيل للأوزاعي: ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن ويعقلهن.

وعن محمد بن واسع: أنّ رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذرّ ـ بعد موت أبي ذرّ ـ فسألها عن عبادة أبي ذرّ فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر. وعن الحسن قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وعن الفضيل قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل. وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرءُ كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله، هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم، من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي. وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو، وفي قوله

---

(1) حديث ابن عباس: إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبيّ ﷺ: «**تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره**» أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال: هذا إسناد فيه نظر. قلت: فيه الوازع بن نافع متروك.

(2) حديث: خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: «**ما لكم لا تتكلمون**» فقالوا: نتفكر في خلق الله...» الحديث. رويناه في جزء من حديث عبدالله بن سلام.

(3) حديث عطاء: «انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة...» الحديث. قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ .. الحديث. في نزول ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٤] وقال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**» تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء.

تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّها مِنَ العِبَادَةِ»**، فقالوا: يا رسول الله، وما حظها من العبادة؟ قال: **«النَّظَرُ فِي المُصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ وَالاعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ»**(١)، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصفُ لهم في الدنيا عيش ولم تقرّ لهم في الدنيا عين. وكان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان: إنّ طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة. وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرىء قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل، وقال عمر بن عبدالعزيز: الفكرة في نعم الله عزّ وجلّ من أفضل العبادة. وقال عبدالله بن المبارك يوماً لسهل بن علي ورآه ساكناً متفكراً: أين بلغت! قال: الصراط. وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عزّ وجلّ. وعن ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وبينما أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي. وقال أبو سليمان: عوّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر. وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب، وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف. وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه. ويروى: أنّ الله تعالى قال في بعض كتبه: إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلم.

وقال الحسن: إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة. وقال إسحاق بن خلف: كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وبيده سيف وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال: من ذا الذي طرحك من السطح؟ قال: ما شعرت بذلك. وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عزّ وجلّ، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوّة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم. وقال أيضاً: الفضائل أربع:

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري: «**أعطوا أعينكم حظها من العبادة**. . .» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف.

إحداها: الحكمة وقوامها في الفكرة.

والثانية: العفة وقوامها في الشهوة.

والثالثة: القوّة وقوامها في الغضب.

والرابعة: العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها.

بيان حقيقة الفكر وثمرته:

اعلم: أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله: أنّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجّرد قوله، وهذا ما يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة.

والطريق الثاني: أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أنّ الآخرة أبقى. فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين.

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً. أما التدبر والتأمل والتفكر: فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة. وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر: فهي مختلفة المعاني، وإن كان أصل المسمى واحد؛ كما أنّ اسم: الصارم، والمهند، والسيف؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة. فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد.

فكذلك الاعتبار: ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: التذكر، لا اسم: الاعتبار. وأما النظر والتفكر؛ فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً، فكل متفكر فهو متذكر، وليس كل متذكر متفكراً. وفائدة التذكار: تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب. وفائدة التفكر: تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة. فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة. فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية، وإنما تنسدّ طريق زيادة المعارف بالموت، أو بالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكير. وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم، ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها.

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار: تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ـ وذلك عزيز جداً ـ وقد تكون بالتعليم والممارسة وهو الأكثر. ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد. فكم من إنسان يعلم أنّ الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين: وهو أنّ الأبقى أولى بالإيثار وأنّ الآخرة أبقى من الدنيا، فتحصل له معرفة ثالثة: وهو أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة.

وأما ثمرة الفكر: فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة، العلم، لا غير. نعم، إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذن: هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن الفكر ذكر وزيادة. وذكر القلب خير من الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر. فإذن: التفكر أفضل من جملة الأعمال. ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فقيل: هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وقيل: هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]. وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإنّ الفكر فيه يعرّفنا أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا. وهذا ما عنيناه بالحال؛ إذ كان للقلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها.

وبهذه المعرفة تغير حال القلب، وتبدلت إرادته ورغبته، ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة. فهاهنا خمس درجات:

أولاها: التذكر: وهو إحضار المعرفتين في القلب.

وثانيها: التفكر: وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

والرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة: هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه. ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب، كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره. فإذن ثمرة الفكر: العلوم والأحوال، والعلوم لا نهاية لها، والأحوال التي تتصوّر أن تنقلب على القلب لا يمكن حصرها. ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه في ماذا يتفكر لم يقدر عليه؛ لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية. نعم، نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة

إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطاً جملياً، فإنّ تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها، فإنها مشتملة على علوم، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة، فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجاري الفكر.

بيان مجاري الفكر:

اعلم: أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر. ونعني بالدين: المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى؛ فجميع أفكار العبد: إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين. وما يتعلق بالعبد: إما أن يكون نظراً فيما هو محبوب عند الرب تعالى، أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين. وما يتعلق بالرب تعالى: إما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وإما أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما.

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يضاهي حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا، فنقول: العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه.

فإن تفكر في معشوقه: فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته؛ ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته؛ ليكون ذلك مضعفاً للذة ومقوياً لمحبته.

وإن تفكر في نفسه: فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها، أو في الصفات التي تقرّبه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها.

فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام: فذلك خارج عن حدّ العشق، وهو نقصان فيه؛ لأن العشق التام الكامل؛ ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره. فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه، ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة أصلاً. فلنبدأ بالقسم الأوّل: وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر: هو الذي تعلق بعلم المعاملة الذي هو مقصوده بهذا الكتاب، وأما القسم الآخر: فيتعلق بعلم المكاشفة.

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله، أو محبوب ينقسم إلى ظاهر؛ كالطاعات والمعاصي، وإلى باطن؛ كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب ـ وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات.

والمعاصي: تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة، وإلى ما ينسب إلى جميع البدن؛ كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام. ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور:

الأوّل: التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا؟ فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر.

والثاني: التفكر في أنه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه؟.

والثالث: أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فليتركه؟ أو هو متعرّض له في الاستقبال فيحترز عنه؟ أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات، فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في الأقسام على مائة، والعبد مدفوع إلى الفكر، إما في جميعها أو في أكثرها. وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع: الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات، فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه.

النوع الأول: المعاصي: ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم؟ أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها؟.

فينظر في اللسان ويقول: إنه متعرّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني، إلى غير ذلك من المكاره، فيقرّر أوّلاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى، ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدّة العذاب فيها، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد، أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله، وإلا فيضع حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له، فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز.

ويتفكر في سمعه: أنه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر.

فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه؛ أنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب؛ إما بكثرة الأكل من الحلال، فإن ذلك مكروه عند الله ومقوّي للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدوّ الله؛ وإما بأكل الحرام أو الشبهة، فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه؟. ويتفكر في طريق الحلال ومداخله، ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وإن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام(١) كما ورد الخبر به.

فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء. فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء منها.

وأما النوع الثاني: وهو الطاعات: فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير؟ أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل؟ ثم يرجع إلى عضو عضو، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً:

إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر

---

(١) حديث: «**إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام**» أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول، وقد تقدم.

في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله؟.

وكذلك يقول في سمعه: إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر، فما لي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لأشكره؟ فما لي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله؟.

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح، وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة.

وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله، وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج مني إلى ذلك المال.

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات، ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظانّ الاستحقاق حتى يزكو بها عمله، وقس على هذا سائر الطاعات.

وأما النوع الثالث: فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب، فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات: وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات: فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق، كما كان الأوّلون يجربون به أنفسهم، وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره، ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات. وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا؟ ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات، فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة.

كما لو رأى في نفسه عجباً بالعمل، فيتفكر ويقول: إنما عمل ببدني وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إلي وإنما هو من خلق الله وفضله علي، فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي، وهو الذي حرّك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي؟.

فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها: لم ترين نفسك أكبر؟ والكبير من هو عند الله كبير؛ وذلك ينكشف بعد الموت، وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقياً بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة؟.

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة، فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين.

وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه؛ تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال؛ لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولما اتصف به البهائم، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرّبين أبعد. وكذلك يقرّر على نفسه في الغضب، ثم يتفكر في طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب، فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بدّ له من تحصيل ما في هذه الكتب.

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات: فهو التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له. وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته. فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم: فليفتش ذنوبه أولاً، وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى، حتى ينبعث له حال الندم. وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر: فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه ـ على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك ـ وإذا أراد حال المحبة والشوق: فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه ـ كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر ـ وإذا أراد حال الخوف: فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير، ثم في الصراط ودقته وحدّته، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جراً، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها. وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء: فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم.

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة، أو التنزه عن صفات مذمومة. وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر، أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة! فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم، فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن

صفاء القلب بعد صدق المعاملة، وكذلك مطالعة أخبار رسول الله ﷺ فإنه قد أوتي جوامع الكلم[(١)]، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره. وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله ﷺ: **«إنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ فِي روعي: أحبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَعِشْ ما شِئتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَاعْمَل مَا شِئتَ فَإِنَّكَ مَجزِيٌّ بِهِ»**[(٢)]. فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأوّلين والآخرين، وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر؛ إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم، ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية.

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى، أو مكروهة. والمبتدىء: ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصدّيقين؛ وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى، وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه؛ أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب؛ كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه؛ وهو منتهى لذة العشاق.

فأما ما ذكرناه: فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب؟ ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل، فقال الحسين: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد؟ فالفناء في الواحد الحق: هو غاية مقصد الطالبين، ومنتهى نعيم الصدّيقين. وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدّة في النكاح، وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها؛ فإن استغرقت جميع عمرها، في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء المحبوب.

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة، فإنّ بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً، فإذا قضيت حق الأعمال كنتِ من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون. وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساء، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقرّبة إليه سبحانه وتعالى. بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ـ فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ـ وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدّة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء،

---

(١) حديث: أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم، تقدم.

(٢) حديث: «**إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه**...» الحديث. تقدم غير مرة.

واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع له.

فهذه عشرون خصلة؛ عشرة مذمومة، وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته، ويدع الفكر فيها، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أنّ ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات؛ فإذا اتصف بواحدة منها؛ كالتوبة والندم مثلاً خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر.

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة؛ كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاصٍ هم بمعزل عنها. مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت، إما بالتدريس أو بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصدّيقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع، وذلك من المهلكات. وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول: إنّ غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد، على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد، أو الإعراض لم يخلُ عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد، حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله. فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع، وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين! ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ويكون بلقائه أشدّ فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره، وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه. وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك، ولا مطمع له في سلامة العوام.

فمن أحس في نفسه بهذه الصفات، فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل. فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جميعاً من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم مفتون، وكانوا يتدافعون الفتوى. وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره. وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا: لا تفعل هذا؛ فإنّ هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من

بين الخلق، وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فإنه قد كان معموراً قبلي وكذلك يكون بعدي، ولو مت لا تنهدم أركان الإسلام فإنّ الدين مستغن عني، وأما أنا فلست مستغنياً عن إصلاح قلبي. وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل، فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرئاسة والعلوّ يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم، فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرئاسة، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة. بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هٰذا الدِّينَ بِأَقْوام لا خَلاقَ لَهُمْ»**[1]. **«وإنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هٰذا الدين بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ»**[2]، فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق. قال ﷺ: **«حُبُّ الجَاهِ وَالمَالِ يُنْبِتُ النفاق فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ»**[3]. وقال رسول الله ﷺ: **«مَا ذِئْبَانِ ضَارِيانِ أُرْسِلا فِي زَرِيبَةِ غَنَم بِأَكْثَرَ إفْسَاداً فيها مِن حُبِّ الجَاهِ وَالمَالِ فِي دِينِ المَرْءِ المُسْلِم»**[4]. ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس، والهرب من مخالطتهم، وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم.

فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، وفي استنباط طريق الخلاص منها، وهذه وظيفة العالم المتقي. فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوّي إيماننا بيوم الحساب؛ إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار! فإن من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي ونحن منهمكون فيها، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها. فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها، ويقال: لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا. فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا، فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا.

فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدراً مقطوعاً، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة، ولا طريق له في كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه. وهذه الصفات المذمومة عقارب وهي مؤذيات ومشوّشات، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات. فهذا القدر كافٍ في التنبيه

---

(١) حديث: «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»، تقدم.

(٢) حديث: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، تقدم في العلم.

(٣) حديث: «حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب...» الحديث. تقدم.

(٤) حديث: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم...» الحديث. تقدم.

على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عنه ربه تعالى.

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه؛ وفيه مقامان: المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا مما منع منه حيث قيل: تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله، وذلك؛ لأنّ العقول تتحير فيه فلا يطيق مدّ البصر إليه، إلا الصدّيقون ثم لا يطيقون دوام النظر، بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنه لا يطيقه البتة، بل يختفي نهاراً وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض. وأحوال الصدّيقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس، فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو أدام النظر، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر. وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل، فالصواب إذن: أن لا يتعرّض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته، فإنّ أكثر العقول لا تحتمله، بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو: أنّ الله تعالى مقدّس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته، بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم: إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو، وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم، فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله، حتى قال بعض الحمقى من العوام: إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله! لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء؛ وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه؛ نعم، غايته أن يقدّر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره، فلا جرم غايته أن يقدّر ذلك في حق الله ـ تعالى وتقدّس ـ حتى يفهم العظمة، بل لو كان للذباب عقل وقيل له: ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟ أفيكون مقصوص الجناح؟ أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران؟ أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري؟. وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل، وإن الإنسان لَجهول ظلوم كفار، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون.

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه، لكنا نعدل إلى المقام الثاني: وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه، فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أنّا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس. ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب؛ لأن نور الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر. وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود. ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته ـ تعالى وتقدس ـ إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى نرى الشمس فيه ويمكن النظر إليها، فيكون الماء واسطة يغض قليلاً من نور الشمس

حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال، فهذا سر قوله ﷺ: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى**».

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى:

اعلم: أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن؛ لأنه لو كان البحر مداداً لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره، ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه.

فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى: ما لا يعرف أصلها؛ فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦] وقال: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]. وإلى: ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها. وهي منقسمة: إلى ما أدركناه بحس البصر، وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر؛ فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك. ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض. فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر: وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما، فالسمٰوات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها.

فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام، ويتشعب كل قسم إلى أصناف، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك مجال الفكر، فلا تتحرّك ذرّة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه.

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٠]. من أول القرآن إلى آخره، فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات.

فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة ـ وأقرب شيء إليك نفسك ـ وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه. فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]. وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧-٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ

تَنتَشِرُونَ ۝﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝﴾ [يس: ٧٧] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]. ثم ذكر: كيف جعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] الآية.

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز، ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة ـ وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضر بها الهواء فسدت وأنتنت ـ وكيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب؟ وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الإلفة والمحبة في قلوبهم؟ وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع؟ وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع؟ وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم؟.

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر؟ وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء؟ ثم كيف جعلها مضغة؟ ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم؟ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق: الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص؟ ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر؟ فركب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا نقضي فيه الأعمار.

فانظر الآن إلى العظامَ وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له، ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت وعريض ودقيق؟. ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، مفتقراً للتردد في حاجاته، لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس؟ وكيف جمعها وركبها؟ وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس ـ كما تراه ـ فمنها ستة تخص القحف، وأربعة عشر للحي الأعلى، واثنان للحي الأسفل، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع: وهي الأنياب والأضراس والثنايا، ثم جعل الرقبة مركباً

للرأس وركبها من سبع خرزات مجوّفات مستديرات، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ـ ويطول ذكر وجه الحكمة فيها.

ثم ركب الرقبة على الظهر، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة، فيتصل به من أسفله عظم العصعص؛ وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين، فلا نطول بذكر عدد ذلك. ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً، سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل. فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة.

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرِّحون، إنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدّرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها؟ وخصصها بهذا العدد المخصوص؛ لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه، ولو نقص منها واحداً؛ لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها؛ ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها، فشتان بين النظرين.

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام؟ وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة ـ والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ـ وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها.

فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين. وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص. وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ـ وشرحه يطول ـ فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء، ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن، وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرّق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها مغاربها. فلا تظنن أن ذرّة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم، بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان. بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ [النّازعات: ٢٧-٢٩].

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أوّلاً وما صارت إليه ثانياً، وتأمل أنه لو اجتمع الجنّ والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنق النقّاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليه: كأنه إنسان! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أنّ تلك الصورة إنما

تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه.

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة، فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها، وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة. وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتّساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها، ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مراً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها، وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم. ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه. وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً عما في القلب. وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدّد رؤوسها وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب؛ كأنها الدرّ المنظوم، وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسدّ منفذه وليتم بها حروف الكلام. وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت، وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها. ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرّد الصوت في الظلمة. ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ، وزين الوجه باللحية والحاجبين، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل، وزين العينين بالأهداب.

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كلّ واحد لفعل مخصوص؛ فسخر المعدة لنضج الغذاء، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد. فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها، والكلية تخدمها لجذب المائية عنها، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها، ثم تخرجه في طريق الإحليل. والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن. ثم خلق اليدين وطوّلهما لتمتد إلى المقاصد، وعرّض الكف، وقسم الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع. ولو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإنْ جمعها كانت له آلة للضرب، وإن ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له. ثم خلق

الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه. ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتدّ إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل. ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتدّ إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصوّر ولا آلته! فهل رأيت مصوّراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه!.

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه؟

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي؟ ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً؟ وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً، فإنّ الطفل لا يطيق منه إلا القليل؟ ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع؟.

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين؟ لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السنّ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة؟! ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه؛ فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل؟ فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً؛ إما كفوراً أو شكوراً مطيعاً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ١-٣]. فانظر إلى اللطف والكرم، ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية.

والعجب كل العجب ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه! ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته! ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته؟.

فهذه نبذة عن عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل. والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب

الآفاق والأنفس؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر في زمرة النبيين والصدّيقين مقرّباً من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير؛ إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك، فتفكر في الأرض التي هي مقرّك، ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات؛ أما الأرض: فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجاً وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارّة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [المُلك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقرّ للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المُرسَلات: ٢٥، ٢٦].

فانظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات. ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح، يفضل بعضها على بعض في الأكل، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة؟.

فإن قلت: إنّ اختلافها باختلاف بذورها وأصولها؟ فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؟ ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها تراباً متشابهاً، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة؟.

فهذا النبات يغذي وهذا يقوّي وهذا يحيي وهذا يقتل، وهذا يبرد وهذا يسخن، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق، وهذا يستحيل إلى الصفراء، وهذا يقمع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دماً، وهذا يفرّح وهذا ينوّم وهذا يقوّي وهذا يضعف! فلم تنبت من الأرض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها. وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص؛ فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر. ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات.

ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض. ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل؟ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها. ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر، فيستحيل ملحاً مالحاً محرقاً لا يمكن تناول مثقال منه، ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك. وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس. ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

ومن آياته: أصناف الحيوانات: وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي. وانقسام ما يمشي: إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة، كما يشاهد في بعض الحشرات. ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع. فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت؛ ـ وهي من صغار الحيوانات ـ في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك. فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أوّلاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه، ثم يبتدىء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً، حتى إذا أحكم مقاعد القمط ورتب الخيوط كالسدي اشتغل باللحمة، فيضع اللحمة على السدي ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدي، ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير؛ فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله. وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى. أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كوّنه آدمي أو علمه أو لا هادي له ولا معلم؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز؟ بل الفيل العظيم شخصه، الظاهرة قوّته، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم. فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات. وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة. نعم إذا رأى حيواناً

غريباً ولو دوداً تجدّد تعجبه وقال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات، وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصوّرها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها، فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة لوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته، فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه؟ بل هو كما أثنى على نفسه، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته.

ومن آياته: البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي ﷺ: **«الأَرْضُ فِي البَحْرِ كَالإِصْطَبْلِ فِي الأَرْضِ»**[1]، فانسب إصطبلاً إلى جميع الأرض، واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله.

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرّك ويعلم أنها حيوان. وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر. وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء؟ وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات على هيئة شجرة ينبت من الحجر ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن، ثم عرّف الملاحين موارد الرياح ومهابّها ومواقيتها؟! ولا يستقصي على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات. وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر! وهو كيفية قطره الماء، وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد، لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا

---

(١) حديث: **«الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض»** تقدم، ولم أجده.

في إخراجها! فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء، إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها! فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال. وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها، منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذي لب: أما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي؟ أتظنّ أني كوّنت نفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط، ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه.

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون: توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي، فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدّي وشفتي، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها، ولا داخل الرحم ولا خارجه، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم! فما هذا النقاش بأعجب مما نشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أنّ الذي صوّر ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصوّر، كما أنّ نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع ـ فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين ـ فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب؟ فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبيين مع هذا التبيان جدير بأن تتعجب منه، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرّات العالم وأجزائه، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

ومن آياته: الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض، لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه، ولا يرى بالعين شخصه، وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، فإذا حرّك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فإن شاء جعله نشراً بين يدي رحمته كما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعدّ للنماء، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]، ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدّته وقوّته مهما ضغط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه. فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء؛ لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح

الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوّتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف، كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوى في البئر؛ فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوى والغوص في الماء! فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد.

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق؛ فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدّخان: ٣٨]؛ وهذا هو الذي بينهما. وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٤]، وحيث تعرّض للرعد والبرق والسحاب والمطر، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة! فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى، فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه. فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن في إرسال الماء وتقطيع القطرات، كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدّم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة، فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يخلقوا منها أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها. ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب، مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني! هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى. كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته، فيقول الجاهل المغرور: إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها، ولو قيل له: ما معنى الطبع وما الذي خلقه؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل؟ وما الذي رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق، فيغذي كل جزء من كل ورقة، ويجري إليها في تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار ـ فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة ـ فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها، وكذلك إلى سائر أجزاء

الفواكه. فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذي سخر ذلك الجاذب؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أوّل الأمر؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل.

ومن آياته: ملكوت السمٰوات والأرض وما فيها من الكواكب، وهو الأمر كله، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقاً. فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر. ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج: ١] - ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق: ١] - ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات: ٧] - ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس: ٥] وكقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشمس: ١، ٢]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١] - ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون - وما أقسم الله بها - فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢] وأثنى على المفكرين فيه فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال رسول الله ﷺ: **«وَيْلٌ لِمَنْ قَرأَ هٰذِهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ»**(١)، أي تجاوزها من غير فكر؛ وذم المعرضين عنها فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماه الله تعالى محفوظاً فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ [النبإ: ١٢]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، فانظر إلى الملكوت؛ لترى عجائب العز والجبروت. ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

فأجِل أيها العاقل فكرَك - في الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: رأى قلبي ربي؛ وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى، وأدنى شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرك، ثم الهواء المكتنف لك، ثم النبات والحيوان وما

---

(١) حديث: «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته». أي: قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. تقدم.

على وجه الأرض، ثم عجائب الجو؛ وهو ما بين السماء والأرض، ثم السموات السبع بكواكبها، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم الملائكة الذي هم حمَلة العرش وخزان السموات، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما، فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة، وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك وتقول: قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر وإلى ماذا أتطلع؟.

فارفع الآن رأسك إلى السماء، وانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام - من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها، بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب -، وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي. ثم انظر كيفية أشكالها: فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان، وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء. ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدّة سنة، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار معاشاً، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص. وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتدّ القيظ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان. وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر، واعتقد على طريق الجملة: أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه، ثم في مقداره، ثم في شكله، ثم في لونه، ثم في وضعه من السماء، وقربه من وسط السماء وبعده، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك؛ إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة، وأمر السماء أعظم، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه. وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، وفي الأخبار ما يدل على عظمها[(1)] ثم الكواكب التي تراها أصغرها مثل الأرض ثماني مرات وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها؛ إذ للبعد صارت ترى صغاراً ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النّازعات: ٢٨].

---

(١) الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبدالله بن عمر: رأى رسول الله ﷺ الشمس حين غربت فقال: «**في نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض**» وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة: «**وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته**».

وفي الأخبار: أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام[1]، فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافاً فانظر، إلى كثرة الكواكب. ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها. ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن أن تدرك سرعتها، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب؛ لأن الزمان من طلوع أوّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه، وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي ﷺ: «**هَلْ زَالَتِ الشَّمْسُ؟**» فقال: لا... نعم، فقال: «**كَيْفَ تَقُولُ لا... نَعَمْ**» فقال: من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام[2]. فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها. فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوّقاً بالصبغ مموّهاً بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه، ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه! فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت! ومع هذا فلا تنظر إليه؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك؟ ليس لك همّ إلا شهوتك أو حشمتك. وغاية شهوتك أن تملأ بطنك، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات. وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك، وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض، ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك. وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدّث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها. فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيرها. وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه

---

(١) حديث: «**بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام**» أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال: غريب، قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا: ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصرة عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصرة سماع من أبي ذر.

(٢) حديث: أنه قال لجبريل: «**هل زالت الشمس؟**» فقال: لا... نعم، فقال: «**كيف تقول لا... نعم؟**» فقال: من حين قلت: لا، إلى أن قلت: نعم، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام. لم أجد له أصلاً.

وغفلت أيضاً عن سكانه، فأنت أيضاً غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سماواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك. نعم، ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه. ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخِر له، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ، وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقرّبون كإسرافيل وجبريل وغيرهما، ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب، فسبحان من عرّف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥].

فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم. وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه، فلا تزال تطلع على غريبه من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك. فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً، وإنما لكل عبد منهما بقدر ما رزق، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر، فإنا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته. وما من ذرّة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به، ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي وارتدى فنعوذ بالله من الضلال، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته.

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين.

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد بالحق فأرداهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرّغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزاً، واتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً؟ وانظر: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأطل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للأتقياء وموعداً في حقهم للقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في السموات والأرض. وله الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقرّه، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده؛ أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وتربص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت، وقد قال رسول الله ﷺ: **«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ»**[1]، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه. ونحن نذكر من أمر الموت ومقدّماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بدّ للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار، ليكون ذلك مستحثاً على الاستعداد فقد قرب لما

كتاب ذكر الموت وما بعده

(١) حديث: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»** تقدم غير مرة.

بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين:

***

الشطر الأوّل

في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول: في فضل ذكر الموت والترغيب فيه.

الباب الثاني: في ذكر طول الأمل وقصره.

الباب الثالث: في سكرات الموت وشدّته، وما يستحب من الأحوال عند الموت.

الباب الرابع: في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

الباب الخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين.

الباب السادس: في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور.

الباب السابع: في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور.

الباب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام.

***

الباب الأول

في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم: أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة: ٨]. ثم الناس: إما منهمك، وإما تائب مبتدىء، أو عارف منته. أما المنهمك: فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً. وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقاءَه»(١)، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت

الباب الأول: في ذكر الموت والترغيب فيه

(١) حديث: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

لقاء الله لقصوره وتقصيره؛ وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارهاً للقائه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا، وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائماً؛ لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت ويحب مجيئه؛ ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين. كما روي عن حذيفة: أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم؛ اللهم إن كنت تعلم أنّ الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، والموت أحب إلي من العيش فسهل علي الموت حتى ألقاك. فإذن: التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما رتبة من فوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه. فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا؛ إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته. وكل ما يكدّر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة.

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان:

قال رسول الله ﷺ: **«أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِم اللَّذَّاتِ»**[١]، ومعناه نغصوا بذكره اللذات، حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى. وقال ﷺ: **«لو تَعْلَمُ البَهَائِمُ مِنَ المَوْتِ ما يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ ما أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِيناً»**[٢]، وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: **«نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ المَوْتَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً»**[٣]. وإنما سبب هذه الفضيلة كلها؛ أنّ ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا. وقال ﷺ: **«تُحْفَةُ المُؤْمِنِ المَوْتُ»**[٤]، وإنما قال هذا؛ لأن الدنيا سجن المؤمن؛ إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعه شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب، والإطلاق تحفة في حقه. وقال ﷺ: **«المَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»**[٥]. وأراد بهذا: المسلم حقاً المؤمن صدقاً الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصغائر، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض، قال عطاء الخراساني: مرَّ رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال: **«شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَّاتِ»**. قالوا: وما

---

(١) حديث: **«أكثروا من ذكر هاذم اللذات»**. أخرجه الترمذي، وقال: حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سميناً»** أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم.

(٣) حديث: قالت عائشة: هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: **«نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»**، تقدم.

(٤) حديث: **«تحفة المؤمن الموت»**. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبدالله بن عمر مرسلاً بسند حسن.

(٥) حديث: **«الموت كفارة لكل مسلم»**. أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين: إنه حسن وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء.

مكدّر اللذات؟ قال: «**المَوْتُ**»(١). وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا**»(٢). وقال ﷺ: «**كَفَى بِالمَوْتِ مُفرِّقاً**»(٣)، وقال عليه السلام: «**كفى بالموت واعظاً**»(٤)، وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدّثون ويضحكون، فقال: «**اذْكُرُوا المَوْتَ أما وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**»(٥). وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: «**كيف ذكر صاحبكم للموت؟**» قال: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت! قال: «**فإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيسَ هُنَالِكَ**»(٦)، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبي ﷺ - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «**أَكْثَرُهُمْ ذِكْراً لِلْمَوْتِ وَأَشَدُّهُمْ اسْتِعْداداً لَهُ أُولَئِكَ هُم الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ**»(٧).

وأما الآثار: فقد قال الحسن رحمه الله تعالى: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً. وقال الربيع بن خثيم: ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت. وكان يقول: لا تشعروا بي أحداً وسلوني إلى ربي سلاً. وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده. وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه. وكان عمر بن عبدالعزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأنّ بين أيديهم جنازة. وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عزّ وجلّ. وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها. وقال مطرف: رأيت فيما يرى النائم كأنّ قائلاً يقول - في وسط مسجد البصرة -: قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين. وقال أشعث: كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت. وقالت صفية رضي الله تعالى عنها: إنّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها. وكان عيسى عليه السلام

---

(١) حديث عطاء الخراساني: مر النبي ﷺ بمجلس قد استعلاه الضحك فقال: «**اشوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مرسلاً ورويناه في أمالي الجلال من حديث أنس ولا يصح.

(٢) حديث أنس: «**أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا**» أخرجه ابن الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جداً.

(٣) حديث: «**كفى بالموت مفرقاً**» أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف. ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبدالرحمٰن الحبلي مرسلاً.

(٤) حديث: «**كفى بالموت واعظاً**» أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف؛ وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد.

(٥) حديث: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال: «**اذكروا الموت...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٦) حديث: ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال: «**كيف كان ذكر صاحبكم للموت...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال: أخبرنا مالك بن مغول فذكره بلاغاً بزيادة فيه.

(٧) حديث ابن عمر: «**أتيت النبي ﷺ - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد.

إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دماً. وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه. وقال الحسن: ما رأيت عاقلاً قط إلا أصبته من الموت حذراً وعليه حزيناً. وقال عمر بن عبدالعزيز لبعض العلماء: عظني. فقال: لست أوّل خليفة تموت. قال: زدني، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك، فبكى عمر لذلك. وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت، وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد. وقال مطرف بن عبدالله بن الشخير: إنّ هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه. وقال عمر بن عبدالعزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك. وقال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون؛ أتحبين الموت؟ قالت: لا، قلت: لم؟ قالت: لو عصيت آدمياً ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته.

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب:

اعلم: أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه؛ فالطريق فيه، أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت في قلبه، فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه. وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبدّدت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، فمهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت وانخداعه بمؤاتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه. وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه ـ إلى عشر سنين ـ في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار؛ فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره. وقال عمر بن عبدالعزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عزّ وجلّ تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى: هو الذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه

بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال، أنه لا بد له من مفارقته. نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاء شديداً حتى ارتفع صوته.

❋ ❋ ❋

الباب الثاني

في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل:

قال رسول الله ﷺ لعبدالله بن عمر: «**إذا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالمَسَاءِ وَإذا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ وَمِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ فَإنَّكَ يا عَبْدَاللَّهِ لا تَدْرِي ما اسْمُكَ غداً**»(١). وروى علي كرّم الله وجهه أنه ﷺ قال: «**إنَّ أَشَدَّ ما أَخَافُ عَلَيْكُمْ خَصْلَتَانِ اتِّبَاعُ الهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الهَوَى فإنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَإنَّهُ الحُبُّ لِلدُّنْيَا**»، ثم قال: «**ألا إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَإذا أَحَبَّ عَبْداً أَعْطَاهُ الإيمَانَ، أَلاَ إنَّ لِلدِّينِ أَبْنَاءَ وَلِلدُّنْيَا أَبْنَاءَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدِّينِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، أَلا إنَّ الدُّنْيَا مُوَلِّيَةٌ أَلاَ إنَّ الآخِرَةَ قَدِ ارْتَحَلَتْ مُقْبِلَةً، أَلا وَإنَّكُمْ فِي يَوْمِ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ أَلاَ وَإنَّكُمْ تُوشِكُونَ فِي يَوْمِ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ**»(٢). وقالت أم المنذر(٣): اطّلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا تَسْتَحُونَ مِنَ اللَّهِ؟**». قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**تَجْمَعُونَ ما لا تَأْكُلُونَ وَتَأْمَلُونَ ما لا تُدْرِكُونَ وَتَبْنُونَ ما لا تَسْكُنُونَ**»(٤). وقال أبو سعيد الخدري: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار ـ إلى شهر ـ فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا تَعْجَبُونَ مِن أُسَامَةَ المُشْتَرِي إلى شَهْرٍ، إنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الأَمَلِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما طَرَفَتْ عَيْنَايَ إلاّ ظَنَنْتُ أَنَّ شَفْرَيَّ لا يَلْتَقِيانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِي وَلا رَفَعْتُ طَرْفِي فَظَنَنْتُ أَنِّي وَاضِعُهُ حَتَّى أُقْبَضَ، وَلا لَقَمْتُ لُقْمَةً إلاّ ظَنَنْتُ أَنِّي لا أُسِيغُها حَتَّى أَغَصَّ بِهَا مِنَ المَوْتِ**»، ثم قال: «**يا بَنِي آدَمَ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ المَوْتَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ** ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم

الباب الثاني في طول الأمل

(١) حديث: قال لعبد الله بن عمر «**إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء...**» الحديث. أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث: «**كن في الدنيا كأنك غريب**».

(٢) حديث علي: «**إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل...**» الحديث. بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف.

(٣) (أم المنذر) الأنصارية سلمى بنت قيس، هكذا قيل. وقال ابن إسحاق: اسمها رعينة بنت زرارة. (الإصابة).

(٤) حديث أم المنذر: «**أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى**». قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**تجمعون ما لا تأكلون...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف، وقد تقدم.

بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ [الأنعام: ١٣٤]»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: «**ما يُدْرِينِي لَعَلِّي لا أَبْلُغُهُ**»[2]، وروي: أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «**هل تدرون ما هذا**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هٰذا الإِنْسَانُ وَهٰذا الأَجَلُ وَذاكَ الأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الأَجَلُ دُونَ الأَمَلِ**»[3]، وقال عليه السلام: «**مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً إِنْ أَخْطَأَتْهُ المَنَايا وَقَعَ فِي الهَرَمِ**»[4]. قال ابن مسعود: هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه، والهرم وراء الحتوف، والأمل وراء الهرم، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل. قال عبدالله: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً، وخط وسطه خطاً، وخط خطوطاً إلى جنب الخط، وخط خطاً خارجاً وقال: «**أَتَدْرُونَ مَا هٰذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هٰذا الإِنْسَانُ ـ لِلْخَط الَّذِي فِي الوَسَطِ ـ وَهٰذا الأَجَلُ مُحِيطٌ بِهِ، وَهٰذِهِ الأَعْرَاضُ ـ للخطوط التي حوله ـ تَنْهَشُهُ إِنْ أَخْطَأَهُ هٰذا نهشه هٰذا، وَذاكَ الأَمَلُ ـ يَعْنِي الخط الخارج**»[5]، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ: الحِرْصُ وَالأَمَلُ**»[6]. وفي رواية: «**وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر**». وقال رسول الله ﷺ: «**نَجا أَوَّلُ هٰذِهِ الأُمَّةِ بِاليَقِينِ وَالزُّهْدِ وَيُهْلِكُ آخِرُ هٰذِهِ الأُمَّةِ بِالبُخْلِ وَالأَمَلِ**»[7]، وقيل: بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض، فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى: اللهم اردد إليه الأمل، فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير! فألقيت المسحاة واضطجعت، ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت، فقمت إلى مسحاتي. وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: «**أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ**

---

(١) حديث أبي سعيد: اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار ـ إلى شهر ـ فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا تعجبون من أسامة...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٢) حديث ابن عباس: كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول: الماء منك قريب فيقول: «**ما يدريني لعلي لا أبلغه**». أخرجه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبزار بسند ضعيف.

(٣) حديث: «**أنه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه...**» الحديث. أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي المتوكل مرسلاً.

(٤) حديث: «**مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن الشخير وقال: حسن.

(٥) حديث ابن مسعود: «**خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً وخط وسطه خطاً...**» الحديث. رواه البخاري.

(٦) حديث أنس: «**يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان: الحرص والأمل**»، وفي رواية: «**ويشب معه اثنان: الحرص على المال والحرص على العمر**» ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح.

(٧) حديث: «**نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل**» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

يَدْخُلَ الجَنَّةَ؟» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «**قَصِّرُوا مِنَ الأَمَلِ وَثَبِّتُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»(١)، وكان ﷺ يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُنْيَا تَمْنَعُ خَيْرَ الآخِرَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ المَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ العَمَلِ**»(٢).

الآثار: قال مطرف بن عبدالله: لو علمت متى أجلي لخشيت عليّ ذهاب عقلي؟ ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنؤوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق. وقال الحسن: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري: بلغني أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش وقال أبو سعيد بن عبدالرحمن: إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، مؤمل الدنيا والموت يطلبه. وغافل وليس يغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، فراق الأحبة ـ محمد وحزبه ـ وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار. وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل. وقال الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة. وسأل المفضل بن فضالة ربه: أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب، ثم دعا ربه فرد عليه الأمل، فرجع إلى الطعام والشراب. وقيل للحسن: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال: الأمر أعجل من ذلك. وقال الحسن: الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم. وقال بعضهم: أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه. وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهراً لرأيتني قد أتيت عظيماً، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار؟.

وحكي: أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له: أبو هاشم الرماني ـ وفي طرف كسائه شيء مصرور ـ فقال له أستاذه: أيش هذا معك؟ فقال: لوزات دفعها إليّ أخ لي وقال: أحب أن تفطر عليها، فقال: يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبداً. قال: فأغلق في وجهي الباب ودخل. وقال عمر بن عبدالعزيز في خطبته: إن لكل سفر زاداً لا محالة فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى، وكونوا كَمن عاين ما أعدّ الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغتراً، وإنما تقرّ عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة، فأما من لا يداوي كلماً إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة، لقد عنيتم بأمر لو

---

(١) حديث الحسن: «**أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟**» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «**قصروا من الأمل...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلاً.

(٢) حديث: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل**» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي ﷺ وفي إسناده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب.

عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما.

وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد: فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام. وكتب آخر إلى أخ له: إن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل، والسلام. وقال الحسن: كان آدم عليه السلام ـ قبل أن يخطىء ـ أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره. وقال عبدالله بن سميط: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتاً قط من غير سقم، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً قط من غير عدّة، إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدّم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون، أم الموت تأمنون، أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط، ثم يقال: رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت، رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الموت. وقال أبو زكريا التيمي: بينما سليمان بن عبدالملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور، فطلب من يقرؤه، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه: ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة، فبكى سليمان بكاء شديداً.

وقال بعضهم: رأيت كتاباً من محمد بن يوسف إلى عبدالرحمن بن يوسف، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد: فإني أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك، فإن يكن الله معك فلا يأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين، فكم من مفتضح ومستور، وكم من هالك وناج، وكم من معذب ومرحوم، فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ففي هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين، فإنما نحن به وله والسلام.

وخطب عمر بن عبدالعزيز، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فخاب وشقي غداً عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجنته التي عرضها السموات والأرض، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف واتقى وباع قليلاً بكثير وفانياً بباق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون. ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عزّ وجلّ، قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب، وايم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما

أعلم من نفسي، ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله، ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات.

وقال القعقاع بن حكيم: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء. وقال الثوري: رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء. وقال عبدالله بن ثعلبة: تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار. وقال أبو محمد بن علي الزاهد: خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن، فجئت فقعدت قريباً منه فتكلم فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب. واعلم يا أخي: أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم، واعلم: أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون. وروي: أن معروفاً الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة، قال محمد بن أبي توبة: فقال لي: تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل. وقال عمر بن عبدالعزيز في خطبته: إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها الظعن عنها، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى، إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين؛ إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنها تسر قليلاً وتحزن طويلاً. وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه: أنه كان يقول في خطبته: أين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا!

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه:

اعلم: أنّ طول الأمل له سببان، أحدهما: الجهل، والآخر: حب الدنيا.

أما حب الدنيا: فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه. والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدّر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير شيخاً. فإذا صار شيخاً قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفرة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرغ من قهر هذا العدوّ الذي يشمت بك فلا يزال يسوّف ويؤخر، ولا يخوض في شغل إلا

ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون: واحزناه من سوف. والمسوف المسكين لا يدري أنّ الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدّة قوة ورسوخاً، ويظنّ أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات! فما يفرغ منها إلا من طرحها.

فما قضى أحد منها لبانته ... وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأماني كلها: حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله ﷺ: «**أحبب من أحببت فإنك مفارقه**»(١).

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد، وإنما قلوا؛ لأنّ الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب. وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أنّ ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد، وكل مرض فإنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً. ولو تفكر هذا الغافل وعلم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل جهله بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدّر أن تشيع جنازته؛ لأنّ هذا قد تكرّر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هذه، فهو الأوّل وهو الآخر. وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بدّ وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللّبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض.

وإذا عرفت أنّ سببه الجهل وحب الدنيا، فعلاجه دفع سببه.

أما الجهل: فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حب الدنيا: فالعلاج في إخراجه من القلب شديد، وهو الداء العضال الذي أعيا الأوّلين والآخرين علاجه؛ ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير. فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدّر منغص، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده، ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا. أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً، وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً. فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه، وليتدبر أنها

(١) حديث: «**أحبب من أحببت فإنك مفارقه...**» الحديث. تقدم غير مرة.

كيف تأكلها الديدان لا محالة؟ وكيف تتفتت عظامها؟ وليتفكر أنّ الدود يبدأ بحدقته اليمنى أوّلاً أو اليسرى؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وما له من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى، وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر. فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له.

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره:

اعلم: أنّ الناس في ذلك يتفاوتون؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البَقَرَة: ٩٦]، ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم، وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه، وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً، قال رسول الله ﷺ: **«الشَّيْخُ شَابَ فِي حُبِّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنْ الْتَفَّتَ مِنَ الكِبَرِ إلاّ الّذِينَ اتَّقوا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ»**(١)، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدّر لنفسه وجوداً في عام قابل، ولكن هذا يستعدّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف، فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة. ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف، ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة، فلا يستعدّ إلا لنهاره وأما للغد فلا. قال عيسى عليه السلام: لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم، وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم. ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ: **«يا عَبْدَ اللّهِ إذا أَصْبَحْتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالمَسَاءِ، وَإذا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَحدثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ»**. ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله ﷺ يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول: **«لَعَلّي لا أَبْلُغُهُ»**، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى(٢). وكما نقل عن الأسود؛ وهو حبشي أنه كان يصلي ليلاً ويلتفت يميناً وشمالاً، فقال له قائل: ما هذا؟ قال: انظر ملك الموت من أي جهة يأتيني.

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله تعالى، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النّساء: ٤٠] ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧]، ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب، وإنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في

---

(١) حديث: **«الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم»** لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: **«قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال»**.

(٢) حديث: سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال: «ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف.

سنة، فيدل ذلك على طول أمله. وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح؛ وهكذا إذا أصبح. ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناماً لكل نفس أمهلت فيه.

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير:

اعلم: أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غداً. فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار. فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً يرى لنفسه متسعاً في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله ﷺ: **«ما يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيا إلاَّ غِنًى مُطْغِياً أَوْ فَقْراً مُنْسِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُقَيِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ الدَّجَّال، فَالدَّجَّالُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ»**[(١)].

وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه: **«اغْتَنِم خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شغلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ»**[(٣)]. أي إنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما، وقال ﷺ: **«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ»**[(٤)]، وقال رسول الله ﷺ: **«جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَجَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ»**[(٥)]، وكان رسول الله ﷺ إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرّة نادى فيهم بصوت رفيع: **«أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة»**[(٦)]. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«أَنَا النَّذِيرُ، وَالمَوْتُ المُغِيرُ، وَالسَّاعَةُ المَوْعِدُ»**[(٧)]. وقال ابن عمر: خرج

---

(١) حديث: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً أو فقراً منسياً...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ: «هل ينتظرون إلا غناء...» الحديث. وقال: حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم.

(٢) حديث ابن عباس: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلاً.

(٣) حديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» أخرجه البخاري من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

(٤) حديث: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال: حسن.

(٥) حديث: «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة...» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب.

(٦) حديث: «كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع: أتتكم المنية...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السليمي مرسلاً.

(٧) حديث أبي هريرة: «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد» أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين.

رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «**ما بَقِيَ مِنَ الدُّنْيا إلاّ كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِنَا هٰذا فِي مِثْلِ ما مَضَى مِنْهُ**»[1]، وقال ﷺ: «**مَثَلُ الدُّنْيا كَمَثَلِ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذٰلِكَ الخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ**»[2]. وقال جابر: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرّت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحْتُكُمْ وَمَسَّيْتُكُمْ ـ بُعِثْتُ أَنا وَالسَّاعَةُ كَهاتَيْنِ ـ وقرن بين أصبعيه ـ**[3]»»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقال: «**إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ**» فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال: «**نَعَمْ التَّجافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**»[4] وقال السدي: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢] أي أيكم أكثر للموت ذكراً وأحسن له استعداداً وأشد منه خوفاً وحذراً. وقال حذيفة: ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها الناس الرحيل الرحيل. وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾ [المدّثّر: ٣٥-٣٧] في الموت.

وقال سحيم ـ مولى بني تميم ـ: جلست إلى عامر بن عبدالله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال: أرحني بحاجتك فإني أبادر، قلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت رحمك الله، قال: فقمت عنه وقام إلى صلاته. ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال: دعني إنما أبادر خروج نفسي. قال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة. وقال المنذر: سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه: ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر؛ ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر! حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني. وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عزّ وجلّ، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]. يعني الأنفاس، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك ـ واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلي أقل من ذلك! قال: فلم يزل على ذلك حتى مات. وكان يقول لامرأته: شدي رحلك فليس على جهنم معبر. وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا، واعلموا أن الدنيا

---

(١) حديث ابن عمر: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «**ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه**» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن وللترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه.

(٢) حديث: «**مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح.

(٣) حديث جابر: «كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه...» الحديث. أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له.

(٤) حديث ابن مسعود: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فقال: «**إن النور إذا دخل القلب انفسح...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك، وقد تقدم.

ليست لهم بدار فاستبدلوا، واستعدّوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جدّ بكم، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يجدّ به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدّة، فالتقى عند ربه من ناصح نفسه، وقدّم توبته وغلب شهوته؛ فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له، والشيطان موكل به يمينه التوبة ليسوّفها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيا لها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة الله معصية، ولا يحل به بعد الموت حسرة، إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فعّال لما يشاء.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤]. قال: بالشهوات واللذات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤]. قال: بالتوبة ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤]. قال: شككتم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤]. قال: الموت. ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]. قال: الشيطان: وقال الحسن: تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية؛ والضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وقال أبو عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال: مرحباً بكم وأهلاً حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن، فإن من رأى محمداً ﷺ فقد رآه غادياً ورائحاً لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الواحاً ألواحاً النجا النجا علام تعرجون، أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معاً، رحم الله عبداً جعل العيش واحداً فأكل كسرة ولبس خلقاً ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[1]. وقال عاصم الأحول: قال لي فضيل الرقاشي ـ وأنا سائله ـ: يا هذا لا يشغلك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب هاهنا وهاهنا فينقطع عنك النهار في لا شيء، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم.

* * *

الباب الثالث

في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم: أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن

(١) حديث أبي عبيدة الباجي: «دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال: مرحباً بكم...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل، وابن حبان في الثقات، وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه.

يطول فيه فكره ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك. وقال لقمان لابنه: يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو، فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور. واعلم: أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه. فأما القياس الذي يشهد له: فهو أن كلّ عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده!

والنزع: عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق؛ لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار، فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم.

وأما الجراحة: فإنما تصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، فلا تسأل عن كربه وألمه، حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض؛ لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه؛ لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه، وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوّة وضعّف كل جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة.

أما العقل: فقد غشيه وشوّشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها. ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره، وقد تغير لونه واربدّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، وقد جذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر في داخله وخارجه، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه، وتتقلص الشفتان، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما، وتخضر أنامله.

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه! ولو كان المجذوب عرقاً واحداً؛ لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق. ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجاً فتبرد أوّلاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط

به الحسرة والندامة، وقال رسول الله ﷺ: «**تُقْبَلُ تَوْبَةُ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[1]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾ [النّساء: ١٨]. قال: إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته! ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ المَوْتِ**»[2]. والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوّة والولاية، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت، حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن عليّ هذه السكرة ـ يعني الموت ـ فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت.

وروي: أن نفراً من بني إسرائيل مروا بمقبرة، فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألونه؟ فدعوا الله تعالى، فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال: يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي. وقالت عائشة رضي الله عنها: لا أغبط أحد يهوّن عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ وروي أنه عليه السلام كان يقول: «**اللَّهُمَّ إنَّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ العَصَبِ وَالقَصَبِ وَالأَنَامِلِ. اللَّهُمَّ فَأَعِنِّي عَلَى المَوْتِ وَهَوِّنْهُ عَلَيَّ**»[3]. وعن الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «**هُوَ قَدْرُ ثَلاثِمِائَةِ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ**»[4]، وسئل ﷺ عن الموت وشدّته فقال: «**إنَّ أَهْوَنَ المَوْتِ بِمَنْزِلَةِ حَسَكَةٍ فِي صُوفٍ فَهَلْ تَخْرُجُ الحَسَكَةُ مِنَ الصُّوفِ إلا وَمَعَها صُوفٌ**»[5]، ودخل ﷺ على مريض ثم قال: «**إنِّي أَعْلَمُ ما يَلْقَى، ما مِنْهُ عِرْقٌ إلاَّ وَيَأْلَمُ لِلْمَوْتِ عَلَى حِدَتِهِ**»[6]، وكان علي كرّم الله وجهه يحض على القتال ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موت على فراش. وقال الأوزاعي: بلغنا أنّ الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره. وقال شدّاد بن أوس: الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشدّ من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور، ولو أنّ الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها

---

(١) حديث: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر.

(٢) حديث كان يقول: «**اللهم هون على محمد سكرات الموت**»، تقدم.

(٣) حديث كان يقول: «**اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعمة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي.

(٤) حديث الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه، فقال: «**هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف**». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلاً ورجاله ثقات.

(٥) حديث: سئل عن الموت وشدته، فقال: «**إن أهون الموت بمنزلة حسكة...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلاً.

(٦) حديث: دخل على مريض فقال: «**إني لأعلم ما يلقى ما منه عرق إلا ويألم للموت على حدته**» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلاً مع اختلاف ورجاله ثقات.

بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هوّن عليه في الموت؛ ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار. وعن بعضهم: أنه كان يسأل كثيراً من المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض؛ وكأنّ نفسي يخرج من ثقب إبرة. وقال ﷺ: **«موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر»**[(١)]. وروي عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: **«لَوْ أَنَّ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ المَيِّتِ وُضِعَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لأَنَّ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ المَوْتَ وَلا يَقَعُ المَوْتُ بِشَيْءٍ إلاَّ مَاتَ»**[(٢)]. ويروى: **«لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ أَلَمِ المَوْتِ وُضِعَتْ عَلَى جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لَذَابَتْ»**[(٣)]، وروي: أنّ إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له: كيف وجدت الموت يا خليلي؟ قال: كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب. فقال: أما إنا قد هوّنا عليك. وروي عن موسى عليه السلام: أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير، وروي عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب. وروي عن النبي ﷺ: أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: **«اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ سَكَرَاتِ المَوْتِ»**[(٤)]. وفاطمة رضي الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه! وهو يقول: **«لا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ اليَوْمِ»**[(٥)]. وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب حدثنا عن الموت؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين: إنّ الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى. وقال النبي ﷺ: **«إنَّ العَبْدَ لَيُعَالِجُ كُرَبَ المَوْتِ وَسَكَرَاتِ المَوْتِ وَإنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلامُ تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**[(٦)].

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه. فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث:

---

(١) حديث: **«موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر»**. أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد صحيح قال: **«وأخذة أسف»** ولأبي داود من حديث خالد السلمي: **«موت الفجأة أخذة أسف»**.

(٢) حديث مكحول: **«لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه: **«لو أن ألم شعرة»** وزاد: **«وإن في يوم القيامة لتسعين هولاً أدناها هولاً يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف»** وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل. والحديث مرسل حسن الإسناد.

(٣) حديث: **«لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت»**. لم أجد له أصلاً ولعل المصنف لم يورده حديثاً، فإنه قال: ويروى.

(٤) حديث: **«إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت»** فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: **«اللهم هوّن عليّ سكرات الموت»** متفق عليه من حديث عائشة.

(٥) حديث: **«إن فاطمة قالت: واكرباه لكربك يا أبت...»** الحديث. أخرجه البخاري من حديث أنس بلفظ: واكرب أبتاه، وفي رواية لابن خزيمة: واكرباه.

(٦) حديث: **«إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض...»** الحديث. رويناه في الأربعين لأبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك.

الأولى: شدة النزع كما ذكرناه.

الداهية الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب؛ فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوّة لم يطق رؤيته. فقد روي عن إبراهيم الخليل عليه السلام: أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك. قال: بلى، قال: فأعرض عني فأعرض عنه. ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان؛ فغشي على إبراهيم عليه السلام، ثم أفاق وقد عاد الموت إلى صورته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: **«أنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ كانَ رَجُلاً غَيُوراً وَكانَ إذا خَرَجَ أَغْلَقَ الأَبْوَابَ، فَأَغْلَقَ ذاتَ يَوْمٍ وَخَرَجَ فَأَشْرَفَتِ امْرَأَتُهُ فإذا هِيَ بِرَجُلٍ فِي الدَّارِ فَقَالَتْ: مَنْ أَدْخَلَ هٰذا الرَّجُلَ لَئِنْ جاءَ دَاوُدُ لَيَلْقَيَنَّ مِنْهُ عَنَاءً؟ فَجَاءَ دَاوُدُ فَرَآهُ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنا الَّذِي لا أَهَابُ المُلُوكَ وَلاَ يُمْنَعُ مِنِّي الحِجَابُ، فَقَالَ: فَأَنْتَ وَاللَّهِ إذَنْ مَلَكُ المَوْتِ وَزَمَلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلامُ مَكَانَهُ»**(1).

وروي: أنّ عيسى عليه السلام مرَّ بجمجمة فضربها برجله فقال: تكلمي بإذن الله فقالت: يا روح الله، أنا ملك زمان كذا وكذا وبينما أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي؛ إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله، ثم خرجت نفسي إليه، فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة! ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة! فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون، فقد حكى الأنبياء مجرّد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك، ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره! فكيف برؤيته في مثل تلك الحال؟.

وأما المطيع: فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها! فقال: أنا ربها، فقال: أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك، فقال: من أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت، قال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، فأعرض عني، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين. قال وهيب: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله، فإن كان مطيعاً قالا له: جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا، وإن كان فاجراً قالا له: لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيراً. فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبداً.

الداهية الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة؛ فإنهم في حال

---

(١) حديث أبي هريرة: «**إن داود كان رجلاً غيوراً**...» الحديث. أخرجه أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه.

السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين: إما أبشر يا عدوّ الله بالنار، أو أبشر يا ولي الله بالجنة. ومن هذا كان خوف أرباب الألباب، وقد قال النبي ﷺ: **«لَنْ يَخْرُجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ أَو النَّارِ»**(١)، وقال ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»** فقالوا: كلنا نكره الموت قال: **«لَيْسَ ذَاكَ بِذَاكَ إِنَّ المُؤْمِنَ إذا فُرِّجَ لَهُ عَمَّا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»**(٢). وروي: أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود ـ وهو لما به من آخر الليل: قم فانظر أي ساعة هي؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال: قد طلعت الحمراء، فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ودخل مروان على أبي هريرة، فقال مروان: اللهم خفف عنه، فقال أبو هريرة: اللهم اشدد! ثم بكى أبو هريرة وقال: والله ما أبكي حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار. وروي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنَّ اللَّهَ إذا رَضِيَ عَنْ عَبْدٍ. قَالَ: يا مَلَكَ المَوْتِ اذْهَبْ إِلَى فُلانٍ فَأْتِنِي بِرُوحِهِ لأرِيحَهُ، حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أَحِبُّ، فَيَنْزِلَ مَلَكُ المَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ المَلائِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبانُ الرَّيْحَانِ وَأُصُولُ الزَّعْفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبِشَارَةٍ سِوَى بِشَارَةِ صَاحِبِهِ، وَتَقُومُ المَلائِكَةُ صَفَّيْنِ لِخُرُوجِ رُوحِهِ، مَعَهُمُ الرَّيْحَانُ، فإذا نَظَرَ إِلَيْهِمْ إبليس وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ. قَالَ: فَيَقُول لَهُ جُنُودُهُ: مَا لَكَ يا سَيِّدَنا فيقولُ: أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هٰذا العَبْدُ مِنَ الكَرَامَةِ أَيْنَ كُنْتُمْ مِنْ هٰذا؟ قالوا: قَدْ جَهِدْنا بِهِ فَكَانَ مَعْصُوماً»**(٣). وقال الحسن: لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه. وقيل لجابر بن زيد ـ عند الموت ـ: ما تشتهي؟ قال: نظرة إلى الحسن، فلما دخل عليه الحسن قيل له: هذا الحسن! فرفع طرفه إليه ثم قال: يا إخوتاه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة. وقال محمد بن واسع ـ عند الموت ـ: يا إخواناه عليكم السلام! إلى النار أو يعفو الله. وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبداً ولا يبعث لثواب ولا عقاب. فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين؛ وهو من الدواهي العظيمة عند الموت. وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع، ولكننا لا نطول بذكره وإعادته.

---

(١) حديث: «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفاً: «لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار». وفي رواية: «حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار»، وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك: «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته...» الحديث.

(٢) حديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاؤه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه...» الحديث. متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

(٣) حديث: «إن الله إذا رضي على عبدٍ قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة، ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع، وللنسائي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح: «إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان...» الحديث.

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت:

اعلم: أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر؛ هو الهدوء والسكون! ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

أما الصورة: فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ارْقُبُوا المَيتَ عِنْدَ ثَلاثٍ: إذا رَشَحَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَيَبِسَتْ شَفَتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ، وَإذا غَطَّ غَطِيطَ المَخْنُوقِ وَاحْمَرَّ لَوْنُهُ وَأَزْبَدتْ شَفَتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ**»(١).

وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة: فهي علامة الخير. قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لا إلَهَ إلا اللَّهُ**»(٢) وفي رواية حذيفة: «**فَإِنَّهَا تَهْدِمُ ما قَبْلَها مِنَ الخَطَايَا**»(٣) وقال عثمان: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أن لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٤)، وقال عبيد الله: «**وَهُوَ يَشْهَدُ**» وقال عثمان: إذا احتضر الميت فلقنوه: «**لا إله إلا الله**» فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة. وقال عمر رضي الله عنه: احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم: لا إله إلا الله. وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حَضَرَ مَلَكُ المَوْتِ رَجُلاً يَمُوتُ فَنَظَرَ فِي قَلْبِهِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئاً، فَفَكَّ لَحْيَيهِ فَوَجَدَ طَرَفَ لِسَانِهِ لاصِقاً بِحَنَكِهِ يقولُ: لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ، فَغُفِرَ لَهُ بِكَلِمَةِ الإِخْلاصِ**»(٥).

وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة.

وإنما معنى هذه الكلمة: أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه. وإن كان القلب مشغوفاً بالدنيا ملتفتاً إليه متأسفاً على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها، وقع الأمر في خطر المشيئة، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول.

وأما حسن الظنّ: فهو مستحب في هذا الوقت ـ وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء ـ وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظنّ بالله. دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ قال: أغرقتني ذنوب لي وأشرفت علي هلكة ولكني أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي ما**

---

(١) حديث: «**ارقبوا الميت عند ثلاث: إذا رشح جبينه وذرفت عيناه...**» الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح.

(٢) حديث: «**لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله**»، تقدم.

(٣) حديث حذيفة: «**فإنها تهدم ما قبلها**»، تقدم.

(٤) حديث: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»، تقدم.

(٥) حديث أبي هريرة: «**حضر ملك الموت رجلاً يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئاً...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلاً لم يسم، وسمي في رواية الطبراني إسحاق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف.

شاء»[1] ودخل النبي ﷺ على شاب وهو يموت فقال: «**كيف تجدك**». قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال النبي ﷺ: «**ما اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هٰذا المَوْطِنِ إلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ الَّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ**»[2].

وقال ثابت البناني: كان شاب به حدّة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له: يا بني إن لك يوماً فاذكر يومك، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له: يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً، فقال: يا أمه إن لي رباً كثير المعروف وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه. قال ثابت: فرحمه الله بحسن ظنه بربه. وقال جابر بن وداعة: كان شاب به رهق فاحتضر، فقالت له أمه: يا بني توصي بشيء؟ قال: نعم، خاتمي لا تسلبينيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني، فلما دفن رئي في المنام فقال: أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني وأن الله قد غفر لي. ومرض أعرابي فقيل له: إنك تموت، فقال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه. وقال أبو المعتمر بن سليمان: قال أبي لما حضرته الوفاة: يا معتمر حدّثني بالرخص لعلي ألقى الله عزّ وجلّ وأنا حسن الظنّ به. وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

بيان الحسرة عند لقاء مَلَك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها:

قال أشعث بن أسلم: سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت ـ واسمه عزرائيل وله عينان: عين في وجهه وعين في قفاه ـ فقال: يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع؟ قال: أدعوا الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين، وقال: قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء، قال وهو يبشره بأنه خليل الله عزّ وجلّ. وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام: ما لي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا؟ قال: ما أنا بذلك بأعلم منك! إنما هي صحف أو كتب تلقى إليّ فيها أسماء. وقال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه ـ بعد مرات ـ وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه، حتى أتي بدواب فركب أحسنها؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبراً. ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام، فأخذ بلجام دابته فقال: أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً! قال: إن لي إليك حاجة قال: اصبر حتى أنزل قال: لا الآن، فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها! قال: هو سر، فأدنى له رأسه فسارّه وقال: أنا ملك الموت، فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبداً! فقبض روحه فخرّ كأنه خشبة. ثم مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال: هات فسارّه وقال: أنا ملك الموت! فقال: أهلاً ومرحباً

---

(١) حديث: دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ وفيه: «**يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**» أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه، وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعاً.

(٢) حديث: دخل النبي على شاب وهو يموت فقال: «**كيف تجدك؟**» فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. . .» الحديث. تقدم.

بمن طالت غيبته عليّ فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك! فقال ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجتُ لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى! قال: فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم إني أمرت بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد.

وقال أبو بكر بن عبدالله المزني: جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي؟ فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره، فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له: ما يبكيك؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرّق بين روحك وبدنك قال: فالمهلة حتى أفرّقه قال: هيهات انقطعت عنك المهلة، فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك؟ فقبض روحه.

وروي: أنّ رجلاً جمع مالاً فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذه، وابتنى قصراً وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرساً من غلمانه، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا. قال: يا نفس انعمي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك. فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين، فقرع الباب بشدّة عظيمة قرعاً أفزعه وهو على فراشه، فوثب إليه الغلمان وقالوا: ما شأنك؟ فقال: ادعوا إليّ مولاكم فقالوا: وإلى مثلك يخرج مولانا؟ قال: نعم فأخبروه بذلك، فقال: هلا فعلتم به وفعلتم، فقرع الباب قرعة أشدّ من الأولى، فوثب إليه الحرس فقال: أخبروه أني ملك الموت، فلما سمعوه ألقي عليهم الرعب، ووقع على مولاهم الذل والتخشع، فقال: قولوا له قولاً ليناً وقولوا هل تأخذ به أحداً؟ فدخل عليه وقال: اصنع في مالك ما أنت صانع، فإني لست بخارج منها حتى أخرج روحك، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه: لعنك الله من مال: أنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي، فأنطق الله المال، فقال: لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقي عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بي، وتجلس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك؟ خلقت يا ابن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق بإثم، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط. وقال وهب بن منبه: قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة: لمن كنت أشدّ رحمة ممن قبضت روحه؟ قال: أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره، وكونه في فلاة لا متعهد له بها. فقالت الملائكة: الجبار الذي قبضت الآن روحه: هو ذلك المولود الذي رحمته، فقال ملك الموت: سبحان اللطيف لما يشاء! قال عطاء بن يسار: إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة، فيقال: اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة. قال: فإنّ العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبني البنيان وإنّ اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري.

وقال الحسن: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات، فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول: والله ما أكلت له رزقاً ولا أفنيت له عمراً ولا انتقصت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقي منكم أحداً. قال الحسن: فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن

ميتهم ولبكوا على أنفسهم. وقال يزيد الرقاشي: بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله؛ إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً، فقال له: من أنت ومن أدخلك داري؟ فقال: أما الذي أدخلني الدار فربها، وأما أنا فالذي لا يمنع من الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد. قال: فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكباً على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجدياً متذللاً له، فقال له: أنت إذن ملك الموت! قال: أنا هو. قال: فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهداً؟ قال: هيهات! انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك، فليس إلى تأخيرك سبيل! قال: فإلى أين تذهب بي؟ قال: إلى عملك الذي قدّمته وإلى بيتك الذي مهدته. قال: فإني لم أقدم عملاً صالحاً ولم أمهد بيتاً حسناً. قال: فإلى لظى نزاعة للشوى، ثم قبض روحه فسقط ميتاً بين أهله، فمن بين صارخ وباك. قال يزيد الرقاشي: لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر. وعن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليَّ كأنه يريدني قال: فماذا تريد؟ قال: أريد أن تخلصني منه فتأمر الريح، حتى تحملني إلى أقصى الهند! ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن آتاه ثانياً: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي، قال: نعم، كنت أتعجب منه؛ لأني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة، وكان عندك فعجبت من ذلك!

* * *

الباب الرابع

في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله ﷺ:

اعلم: أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ـ حياً وميتاً وفعلاً وقولاً ـ وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين؛ إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه، إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه، وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته، وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان، وخيرات حسان، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن، فاشتد مع ذلك في النزع كربه وظهر أنينه، وترادف قلقه وارتفع حنينه، وتغير لونه وعرق جبينه، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه، حتى بكى لمصرعه من حضره، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدوراً؟ وهل راقب الملك فيه أهلاً وعشيراً؟ وهل سامحه إذا كان للحق نصيراً وللخلق بشيراً ونذيراً؟ هيهات! بل امتثل ما كان به مأموراً واتبع ما وجده في اللوح مسطوراً. فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود، وهو أوّل من تنشق عنه الأرض، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض، فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة

فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات! وقرناء المعاصي والسيئات! فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين، لعلنا نظن أننا مخلدون، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون، هيهات! هيهات! بل نتيقن أنا جميعاً على النار واردون، ثم لا ينجو منها إلا المتقون، فنحن للورود مستيقنون، وللصدور عنها متوهمون، لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين، فما نحن والله من المتقين، وقد قال الله رب العالمين: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١،٧٢]. فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين، ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين؛ إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا! وكيف اشتدّ أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى. قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ، ثم قال: «**مَرْحَباً بِكُمْ حَيَّاكُم اللَّهُ، آواكم الله، نَصَرَكُم اللَّهُ، وَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّه، وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين، ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى، فأقرؤوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمة الله**»[1].

وروي: أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته: «**مَنْ لأُمَّتِي بَعْدِي**»؟ فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته. فقال: «**الآنَ قَرَّتْ عيني**»[2]. وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أُحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال: «**أَمَّا بَعْدُ: يا مَعْشَر المُهَاجِرِينَ فَإِنَّكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحَتِ الأَنْصَارُ لا تَزِيدُ عَلَى هيئتها التِي هِيَ عَلَيْها اليَوْمَ، وإِنَّ الأَنْصَارَ عيبَتِي الَّتِي أَوَيْتُ إِلَيْها فَأَكْرِموا كَرِيمَهُمْ ـ يَعْنِي مُحْسِنَهُمْ ـ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»، ثم قال: «**إِنَّ عَبْداً خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ ما عِنْدَ اللَّهِ فَاخْتَارَ ما عِنْدَ اللَّهِ**». فبكى أبو بكر رضي الله عنه، وظن أنه يريد نفسه، فقال النبي ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكَ يا أَبا بَكْرٍ سُدُّوا هٰذه الأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي المَسْجِدِ إِلاّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ فَإِنِّي لا أَعْلَمُ**

الباب الرابع في وفاة النبي ﷺ

(١) حديث ابن مسعود: «دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق...» الحديث. رواه البزار، وقال: هذا الكلام قد روي عن مرة عن عبدالله من غير وجه وأسانيدها متقاربة، قال: وعبدالرحمن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة. قال: ولا أعلم أحداً رواه عن عبدالله غير مرة.
قلت: وقد روي من غير ما وجه. رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود. ورويناه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان، والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط.

(٢) حديث: أنه ﷺ قال لجبريل عند موته: «من لأمتي بعدي» فأوحى الله تعالى إلى جبريل: «أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته...» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه: «**من لأمتي المصطفاة من بعدي**». قال: أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول: وقد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال: «**الآن طابت نفسي**». وإسناده ضعيف.

أَمْراً أَفْضَلَ عِنْدِي فِي الصُّحْبَةِ مِنْ أَبِي بَكْر»[1]. قالت عائشة رضي الله عنها: فقبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل عليّ أخي عبدالرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك، فقلت له: آخذه لك، فأومأ برأسه أن: نعم، فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتدّ عليه فقلت: ألينه لك؟ فأومأ برأسه أن: نعم، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول: «لا إِلٰهَ إلاَّ اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ»، ثم نصب يده يقول: «الرَّفِيقَ الأَعْلَى، الرَّفِيقَ الأَعْلَى»، فقلت: إذن والله لا يختارنا[2].

وروى سعيد بن عبدالله عن أبيه قال: لما رأت الأنصار أنّ النبي ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك، ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فأعلمه بمثله، فمدّ يده وقال «ها» فتناولوه، فقال: «ما تقولون» قالوا: نقول: نخشى أن تموت، وتصايح نساؤهم؛ لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئاً على علي والفضل، والعباس أمامه، ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر، وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ المَوْتَ كَأَنَّهُ اسْتِنْكَارٌ مِنْكُم لِلْمَوْتِ، وَما تُنْكِرُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُم أَلَمْ أُنْعَ إِلَيْكُمْ وَتُنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ؟ هَلْ خُلِّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فِيمَنْ بُعِثَ فَأُخَلَّدَ فِيكُمْ؟ ألا إِنِّي لاحِقٌ بِرَبِّي وإِنَّكُمْ لاحِقُونَ بِهِ وَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِالمَهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ خَيْراً وَأُوصِي المُهَاجِرِينَ فِيما بَيْنَهُمْ فإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ١-٣] ـ إلى آخرها ـ وإِنَّ الأُمُورَ تَجْرِي بِإِذْنِ اللَّهِ فَلا يَحْمِلَنَّكُم اسْتِبْطَاءُ أَمْرٍ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ مَنْ غَالَبَ الله غَلَبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللَّهَ خَدَعَهُ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ [محمَّد: ٢٢]. وَأُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ خَيْراً فَإِنَّهُم الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُوكُمْ الثِّمَارَ أَلَمْ يُوَسِّعُوا عَلَيْكُمْ فِي الدِّيَارِ أَلَمْ يُؤْثِرُوكُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمْ الخَصَاصَةُ؟ ألا فَمَنْ وَلِيَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ، أَلا وَلا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ أَلا وَإِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لاَحِقُونَ بِي، أَلا وَإِنَّ مَوْعِدَكُم الحَوْضُ، حَوْضِي أَعْرَضُ مِمَّا بَيْنَ بُصْرَى الشَّامِ وَصَنْعَاءِ اليَمَنِ، يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابُ الكَوْثَرِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ وَأَحْلَى مِنَ الشُّهْدِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً، حَصْبَاؤُهُ اللُّؤْلُؤُ وبَطْحَاؤُهُ المِسْكُ، مَنْ حُرِمَهُ فِي المَوْقِفِ غَداً حُرِمَ الخَيْرَ كُلَّهُ، أَلا فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَداً فَلْيَكْفُفْ لِسَانَه وَيَدَهُ إِلاَّ مِمَّا يَنْبَغِي»، فقال العباس: يا نبي الله أوص بقريش فقال: «إِنَّمَا أُوصِي بِهٰذا الأَمْرِ قُرَيْشاً وَالنَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ بَرُّهُمْ لِبَرِّهِمْ وَفَاجِرُهمْ لِفَاجِرِهِمْ، فَاسْتَوْصُوا آلَ قُرَيْشٍ بِالنَّاسِ خَيْراً، يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ الذُّنُوبَ تُغَيِّرُ النِّعَمَ وَتُبَدِّلُ القِسَمِ، فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ بَرَّهُمْ أَئِمَّتُهُمْ وَإِذا فَجَرَ النَّاسُ عَقُّوهُمْ قالَ

---

(١) حديث عائشة: «أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد. .» الحديث. أخرجه الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحاق؛ وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة.

(٢) حديث عائشة: «قبض في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت. . .» الحديث. متفق عليه. سحري: صدري. ونحري: عُنُقي.

اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٢٩][(١)].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «سل يا أبا بكر» فقال: يا رسول الله دنا الأجل؟ فقال: «قَدْ دَنا الأَجَلُ وَتَدَلَّى». فقال: ليهنك يا نبي الله ما عند الله! فليت شعري عن منقلبنا، فقال: «إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى ثُمَّ إِلَى جَنَّةِ المَأْوَى وَالفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وَالكَأْسِ الأَوْفَى وَالرَّفِيقِ الأَعْلَى وَالحَظِّ وَالعَيْشِ المُهَنَّا». فقال: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: «رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى». قال: ففيم نكفنك؟ فقال: «فِي ثِيَابِي هٰذِهِ وَفِي حُلَّةٍ يَمَانِيَّةٍ وَفِي بَيَاضِ مِصْرَ». فقال: كيف الصلاة عليك منا؟ وبكينا وبكى ثم قال: «مَهْلاً غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَجَزَاكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْراً، إِذا غَسَلْتُمُونِي وَكَفَّنْتُمُونِي فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي هٰذَا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي، ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً، فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ثُمَّ يَأْذَنُ لِلمَلائِكَةِ فِي الصَّلاةِ عَلَيَّ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَيُصَلِّي عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ مِيكَائِيلُ ثُمَّ إِسْرَافِيلُ ثُمَّ مَلَكُ المَوْتِ مَعَ جُنُودٍ كَثِيرَةٍ، ثُمَّ المَلائِكَةُ بِأَجْمَعِها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَنْتُمْ فَادْخُلُوا عَلَيَّ أَفْوَاجاً فَصَلُّوا عَلَيَّ أَفْوَاجاً زُمْرَةً زُمْرَةً وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً، وَلا تُؤْذُونِي بِتَزْكِيَةٍ ولا صَيْحَةٍ وَلا رَنَّةٍ وَلْيَبْدَأْ مِنْكُم الإِمامُ وَأَهْلُ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى، ثُمَّ زُمَرُ النِّسَاءِ ثُمَّ زُمَرُ الصِّبْيَانِ» قال: فمن يدخلك القبر؟ قال: «زُمَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى مَعَ مَلائِكَةٍ كَثِيرَةٍ لا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يرونَكُمْ قُومُوا فَأَدُّوا عَنِّي إِلَى مَنْ بَعْدِي»[(٢)].

وقال عبدالله بن زمعة: جاء بلال في أوّل شهر ربيع الأوّل، فأذن بالصلاة. فقال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ». فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، فقام عمر فلما كبّر وكان رجلاً صيتاً سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير فقال: «أَيْنَ أَبو بَكْرٍ؟ يَأْبَى اللَّهُ ذٰلِكَ وَالمُسْلِمُونَ». قالها ثلاث مرات، «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء! فقال: «إِنَّكُنَّ صُوَيْحِباتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». قال: فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر، فكان عمر يقول لعبدالله بن زمعة ـ بعد ذلك ـ: ويحك ماذا صنعت بي والله لولا أني ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت. فيقول عبدالله: إني لم أر أحداً أولى بذلك منك! قالت عائشة رضي الله عنها: وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبي بكر؛ لا رغبة به عن الدنيا، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله، وخشيت أيضاً أن لا يكون الناس يحبون رجلاً صلى في مقام النبي ﷺ وهو حي أبداً إلا أن يشاء الله، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر أمر الله

---

(١) حديث سعيد بن عبدالله عن أبيه قال: «لما رأت الأنصار رسول الله ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد، فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر...» الحديث. في خروجه متوكئاً معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر. فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلاً وأبوه عبدالله بن ضرار بن الأزور تابعي. روى عن ابن مسعود. قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد: ليس بالقوي.

(٢) حديث ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «سل يا أبا بكر». فقال: يا رسول الله دنا الأجل؟ فقال: «قد دنا الأجل...» الحديث. في سؤالهم له: «من يلي غسلك وفيم نكفنك؟ وكيفية الصلاة عليك». رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر؛ وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود؛ وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

والقضاء قضاؤه، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين[(١)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء، فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك. قال رسول الله ﷺ: **«اخرجن عني! هذا الملك يستأذن عليّ»**. فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلاً، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة: **«ادخلن»** فقلت: ما هذا بحس جبريل عليه السلام؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أَجَلْ يا عَائِشَةُ هٰذا مَلَكُ المَوْتِ جَاءَنِي فَقَالَ: إنَّ اللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِي وأَمَرَنِي أَنْ لا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إلاَّ بِإذْنٍ، فَإنْ لَمْ تَأْذَنْ لِي أرجعْ وَإنْ أَذِنْتَ لِي دَخَلْتُ، وَأَمَرَنِي أَنْ لا أَقْبِضَكَ حَتَّى تَأْمُرَنِي فَمَاذَا أَمْرُكَ؟ فَقُلْتُ: اكْفُفْ عَنِّي حَتَّى يَأْتِيَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فهذه ساعة جبريل عليه السلام»**، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئاً وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا. قالت: وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال: إن الله عزّ وجلّ يقرأ عليك السلام ويقول: كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنّة في أمتك فقال: **«أجدني وجعاً»**. فقال: أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال: **«يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليّ»**، وأخبره الخبر، فقال جبريل: يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك؟ لا والله تعالى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبداً، إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق. قال: **«فَلا تَبْرَحْ إذَنْ حَتَّى يَجِيءَ»**، وأذن للنساء، فقال: **«يا فَاطِمَةُ ادْنِي»** فاكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام، ثم قال: **«أَدْنِي مِنِّي رَأْسَكِ»** فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام، فكان الذي رأينا منها عجباً، فسألتها بعد ذلك. فقالت: أخبرني وقال: **«إنِّي مَيِّتٌ اليَوْمَ»** فبكيت ثم قال: **«إنِّي دَعَوْتُ اللّٰهُ أَنْ يُلْحِقَكِ بِي فِي أَوَّلِ أَهْلِي وَأَنْ يَجْعَلَكِ مَعِي»** فضحكت، وأدنت ابنيها منه فشمهما. قالت: وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك: ما تأمرنا يا محمد؟ قال: **«أَلْحِقْنِي بِرَبِّي الآنَ»**. فقال: بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج. قالت: وجاء جبريل، فقال: السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبداً، طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك، وما لي فيها حاجة إلا حضورك، ثم لزوم موقفي لا والذي بعث

---

(١) حديث عبدالله بن زمعة: «جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي ﷺ: **«مروا أبا بكر فليصل بالناس»** فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر...» الحديث. أخرجه أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصراً دون قوله: «فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق... إلى آخره». ولم يقل: في أول ربيع الأول، وقال: **«مروا من يصلي بالناس»**، وقال: **«يأبى الله ذلك والمؤمنون»** مرتين وفي رواية له فقال: **«لا لا لا... ليصل للناس ابن أبي قحافة»** يقول ذلك مغضباً، وأما ما في آخره قول عائشة ففي الصحيحين من حديثها، فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء! فقال: **«إنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس»**.

محمداً بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا، قالت: فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره، وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له ـ إذا أفاق ـ: بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح؟ فقال: **«يا عَائِشَةُ إنَّ نَفسَ المُؤمِنِ تَخرُجِ بِالرَّشْحِ وَنَفسُ الكَافِرِ تَخرُجُ مِن شِدْقَيهِ كَنَفَسِ الحِمَارِ»**. فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي، بعثه إليّ أبي، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد، وإنما صدهم الله عنه؛ لأنه ولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمي عليه قال: **«بَل الرَّفِيقَ الأعْلَى»** كأن الخيرة تعاد عليه، فإذا أطاق الكلام قال: **«الصَّلاةَ الصَّلاةَ إنَّكُمْ لا تَزَالُونَ مُتَمَاسِكِينَ ما صَلَّيتُمْ جَمِيعاً»**. الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول: **«الصَّلاةَ الصَّلاةَ»**[1].

قالت عائشة رضي الله عنها: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين[2]. قالت فاطمة رضي الله عنها: ما لقيت من يوم الإثنين، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة ـ وقالت أم كلثوم ـ يوم أصيب علي كرّم الله وجهه بالكوفة ـ مثلها: ما لقيت من يوم الإثنين، مات فيه رسول الله ﷺ وفيه قتل علي، وفيه قتل أبي، فما لقيت من يوم الإثنين. وقالت عائشة رضي الله عنها: لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه ـ فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته، وعلي

---

(١) حديث عائشة: «لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك. قال رسول الله ﷺ: **«أخرجن عني، هذا ملك يستأذن عليّ...»** الحديث. بطوله في مجيء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته ﷺ؛ أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه: فلما كان يوم الإثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد ﷺ في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه. وفيه: «دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال: **«يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل؟ قال: خلفته في سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له، وفيه: «ادن يا ملك الموت فانته إلى ما أمرت به...»»** الحديث. وفيه: فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي ﷺ وذكر كربه لذلك، إلى أن قال: فقبض رسول الله ﷺ وهو حديث طويل في ورقتين كبار؛ وهو منكر، وفيه عبدالمنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه. قال أحمد: كان يكذب على وهب بن منبه، وأبوه إدريس أيضاً متروك قاله الدارقطني، ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسين بن علي: أن جبريل جاءه أولاً، فقال له عن ربه: كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولاً فسأله ثم استأذن ملك الموت. وقوله: **«امض لما أمرت به»**. وهو منكر أيضاً فيه عبدالله بن ميمون القداح. قال البخاري: ذاهب الحديث، ورواه أيضاً من حديث ابن عباس في مجيء ملك الموت أولاً واستئذانه وقوله: «إن ربك يقرئك السلام فقال: **«أين جبريل»**. فقال: هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل...» الحديث. وفيه المختار بن نافع منكر الحديث.

(٢) حديث عائشة: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين. رواه ابن عبدالبر.

فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس. فخرج عمر على الناس، وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وليرجعنه الله عزّ وجلّ، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت، إنما واعده الله عزّ وجلّ كما واعد موسى وهو آتيكم(١).

وفي رواية أنه قال: يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله ﷺ فإنه لم يمت، والله لا أسمع أحداً يذكر أن رسول الله ﷺ قد مات إلا علوته بسيفي هذا. وأما علي فإنه أقعد فلا يبرح البيت. وأما عثمان فجعل لا يكلم أحداً ـــ يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ـ ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عزّ وجلّ أيدهما بالتوفيق والسداد، وإن كان الناس لم يرعووا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال: والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت، ولقد قال وهو بين أظهركم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزُّمَر: ٣٠، ٣١].

وبلغ أبا بكر الخبر، وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله تعالى ليذيقك الموت مرتين، فقد والله توفي رسول الله ﷺ ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ...﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] الآية(٢). فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ.

وفي رواية: أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ ـ وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال ـ فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: بأبي وأنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حياً وميتاً انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوّة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون، فأما ما لا نستطيع

---

(١) حديث عائشة: «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه ـ فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون. وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته، وعلي فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس. فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت...» الحديث. إلى قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣١]. لم أجد له أصلاً؛ وهو منكر.

(٢) حديث: «بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين...» الحديث. إلى آخر قوله: «وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ». أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة: أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حيرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه وبكى، ثم قال: بأبي وأمي أنت، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. ولهما من حديث ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس... الحديث. وفيه: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر. لفظ البخاري فيهما.

نفيه عنا فكمد واذّكار محالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا(١).

وعن ابن عمر: أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجاً سمعه أهل المصلى، كلما ذكر شيئاً ازدادوا، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال: السلام عليكم يا أهل البيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] الآية. إن في الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخافة، فالله تعالى فارجوا وبه فثقوا. فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحداً. ثم عادوا فبكوا فناداهم منادٍ آخر لا يعرفون صوته: يا أهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين، إنّ في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغيبة، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا. فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي ﷺ(٢).

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال: قام أبو بكر في الناس خطيباً حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده، فللّه الحمد وحده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما شرع وأن الدين كما شرع

---

(١) حديث: «إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ ـ وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال ـ فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه...» الحديث. إلى قوله: «واحفظه فينا.» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف: «جاء أبو بكر ورسول الله ﷺ مسجى فكشف الثوب عن وجهه...» الحديث. إلى آخره.

(٢) حديث ابن عمر في سماع التعزية به ﷺ: إن في الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا. ثم سمعوا آخر بعده: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغيبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا. فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع. لم أجد له ذكر: «اليسع» وأما ذكر: «الخضر» في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال: إنما ذكره الأصحاب. قلت: بلى قد رواه الحاكم في المستدرك في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضاً قال: لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بعضادتي باب البيت، فبكى على رسول الله ﷺ، ثم أقبل على أصحابه فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب. ثم ذهب الرجل. فقال أبو بكر: عليّ بالرجل، فنظروا يميناً وشمالاً فلم يروا أحداً، فقال أبو بكر: لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا. ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جداً ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث علي بن أبي طالب: لما قبض رسول الله ﷺ جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه. قال: السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضاً من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم. فقال علي: تدرون من هذا؟ هو الخضر. وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه، وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي، والمعروف عن علي بن الحسين مرسلاً من غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر، «الخضر».

وأن الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين، اللهم فصلّ على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة، اللهم قرّب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون، والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد. أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت، وإن الله قد تقدّم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً، فإن الله عزّ وجلّ قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ﷺ فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النِّساء: ١٣٥]. ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتننكم عن دينكم، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه، ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم.

وقال ابن عباس: لما فرغ أبو بكر من خطبته قال: يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله ﷺ أما ترى أن نبي الله ﷺ قال يوم كذا: كذا وكذا ويوم كذا: كذا وكذا، وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٠]. فقال: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما أنزل، وأن الحديث كما حدث، وأن الله حي لا يموت ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦]، وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله ﷺ ثم جلس إلى أبي بكر.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما اجتمعوا لغسله قالوا: والله ما ندري كيف نغسل رسول الله ﷺ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه؟ قالت: فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائماً ثم قال قائل ـ لا يدرى من هو ـ: غسلوا رسول الله ﷺ في ثيابه، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله ﷺ في قميصه، حتى إذا فرغوا من غسله كفن. وقال علي كرم الله وجهه: أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله ﷺ ثيابه. فأقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا مستلقياً ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه، وإن معنا لحفيفاً في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون. فهكذا كانت وفاة رسول الله ﷺ ولم يترك سبداً ولا لبداً إلا دفن معه. قال أبو جعفر: فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش، ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة[1] ففي وفاته عبرة تامة وللمسلمين به أسوة حسنة.

---

(١) حديث أبي جعفر: فرش لحده بمفرشة وقطيفة، وفيه: فلم يترك بعد وفاته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة، أما وضع المفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله ﷺ وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا، وأما كونه لم يترك مالاً فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته، فتقدم أيضاً.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

فكشف عن وجهه، وقال: ليس كذا ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت. وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأراملِ

فقال أبو بكر: ذاك رسول الله ﷺ ودخلوا عليه فقالوا: ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ قال: قد نظر إليّ طبيبي وقال: إني فعال لما أريد. ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده فقال: يا أبا بكر أوصنا فقال: إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذنّ منها إلا بلاغك، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك.

ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف، فاستخلف عمر رضي الله عنه، فقال الناس له: استخلفت علينا فظاً غليظاً فماذا تقول لربك؟ فقال: أقول استخلفت على خلقك خير خلقك. ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه فجاء فقال: إني موصيك بوصية؛ اعلم: أن لله حقاً في النهار لا يقبله في الليل، وأن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا بالحق أن يثقل. وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: أنا دون هؤلاء ولا أبلغ هؤلاء؛ فإن اللّه ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا، فيقول القائل: أنا أفضل من هؤلاء، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ولا يلقي بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدّ لك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بدّ لك منه، ولست بمعجزه.

وقال سعيد بن المسيب: لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ زوّدنا فإنا نراك لما بك. فقال أبو بكر: من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين، قالوا: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار، يغشاه كل يوم مائة رحمة، فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان. «اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم، ثم جعلتهم فريقين فريقاً للنعيم وفريقاً للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير. اللهم إنك خلقت الخلق فرقاً وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقياً وسعيداً وغوياً ورشيداً، فلا تشقني بمعاصيك، اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت، فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك. اللهم إنّ أحداً لا يشاء حتى تشاء، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك. اللهم إنك قد قدّرت حركات العباد فلا يتحرّك شيء إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في تقواك. اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به، فاجعلني من خير

القسمين. اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلاً، فاجعلني من سكان جنتك، اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم، فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك، فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقرّبني إليك زلفى. اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك، فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله». قال أبو بكر: هذا كله في كتاب الله عزّ وجلّ.

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

قال عمرو بن ميمون: «كنت قائماً غداة أصيب عمر وما بيني وبينه إلا عبدالله بن عباس، وكان إذا مرَّ بين الصفين قام بينهما، فإذا رأى خللاً قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدّم فكبر. قال: وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ـ أو نحو ذلك ـ في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني ـ أو أكلني ـ الكلب، حين طعنه أبو لؤلؤة، وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمرّ على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، فمات منهم تسعة ـ وفي رواية سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه. وتناول عمر رضي الله تعالى عنه عبدالرحمن بن عوف فقدّمه، فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت، وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله! فصلى بهم عبدالرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا. قال: يا ابن العباس انظر من قتلني قال: فغاب ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة بن شعبة، فقال عمر رضي الله عنه: قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً. ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة! وكان العباس أكثرهم رقيقاً، فقال ابن عباس: إن شئت فعلت؛ أي إن شئت قتلناهم. قال: بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال: وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ! قال: فقائل يقول: أخاف عليه، وقائل يقول: لا بأس. فأتي بنبيذ فشرب فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشرب فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت. قال: فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عزّ وجلّ؛ قد كان لك صحبة من رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال: وددت أن ذلك كان كفافاً لا عليّ ولا لي. فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال: ردوا علي الغلام، فقال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك، ثم قال: يا عبدالله انظر ما عليّ من الدين؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه. فقال: إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، وأدِّ عني هذا المال وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فذهب عبدالله فسلم واستأذن ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي! فلما أقبل قيل: هذا عبدالله بن عمر قد جاء فقال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت. قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليّ من ذلك! فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر! فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً فسمعنا بكاءها من داخل. فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين واستخلف، فقال: ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض؛ فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبدالرحمن وقال: يشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الأمر شيء، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعداً فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدوّ وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله عزّ وجلّ وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم. قال: فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلم عبدالله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب، فقالت: أدخلوه، فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه... الحديث...

وعن النبي ﷺ قال: «**قَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: لِيَبْكِ الإِسْلامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرَ**»(١). وعن ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي فالتفت، فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر، وقال: ما خلفت أحد أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله مِنك! وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «**ذَهَبْتُ أَنا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»(٢). فإني كنت ـ لأرجو أو لأظن ـ أن يجعلك الله معهما.

وفاة عثمان رضي الله عنه:

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبدالله بن سلام: أتيت أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور، فدخلت عليه، فقال: مرحباً يا أخي! رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة ـ وهي خوخة في البيت ـ فقال: «**يا عُثْمَانُ حَصَرُوكَ؟**». قلت: نعم قال: «**عَطشُوكَ**». قلت: نعم، فأدلى إليَّ دلواً فيه ماء فشربت حتى رويت ـ حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي ـ وقال لي: «**إنْ شِئْتَ نُصِرْتَ عَلَيْهِمْ وَإِنْ شِئْتَ أَفْطَرْتَ عِنْدَنا**». فاخترت أن أفطر عنده! فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه. وقال عبدالله بن سلام لمن حضر: تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط؟ قالوا: سمعناه يقول: اللهم اجمع أمة محمد ﷺ ـ ثلاثاً ـ قال: والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة.

---

(١) حديث: «**قال لي جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر**» أخرجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جداً وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) حديث ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون، فذكر قول علي بن أبي طالب: كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «**ذهبت أنا وأبو بكر وعمر...**» الحديث. متفق عليه.

وعن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال: ائتوني بصاحبيكم اللذين ألباكم عليّ! قال: فجيء بهما كأنما هما حملان أو حماران، فأشرف عليهما عثمان رضي الله عنه فقال: أنشدكم بالله والإسلام؛ هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال: من يشتري رومة، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين، بخير له منها في الجنة؟ فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله والإسلام؛ هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم الله والإسلام؛ هل تعلمون أنّ المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلان فَيَزِيدُها فِي المَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْها فِي الجَنَّةِ؟»** فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا: اللهم نعم؛ قال: أنشدكم الله والإسلام؛ هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال: فركضه برجله وقال: **«اسْكُنْ ثَبِيرُ فَمَا عَلَيْكَ إلاّ نَبِيٌّ وَصِدِيقٌ وَشَهِيدانِ؟»** قالوا: اللهم نعم، قال: الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد[1].

وروي عن شيخ من ضبة: أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] اللهم إني استعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني.

وفاة علي كرم الله وجهه:

قال الأصبغ الحنظلي: لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام علي يمشي وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ابن ملجم فضربه. فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول: ما لي ولصلاة الغداة! قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة؛ وقتل أبي صلاة الغداة.

وعن شيخ من قريش: أنّ علياً كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال: فزت ورب الكعبة. وعن محمد بن علي: أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض.

ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الحسين رضي الله عنه فقال: يا أخي، لأي شيء تجزع؟ تقدم على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك! قال: يا أخي، أقدم على أمر لم أقدم على مثله.

---

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيري: «شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان...» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن والنسائي.

وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال: لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه، قام في أصحابه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد نزل من الأمر ما ترون! وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء، ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى، وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرماً.

***

الباب الخامس

في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني، فأقعد، فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه وقال: يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك.

وروي عن شيخ من قريش: أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غضوناً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بحدّتنا وباستلذاذنا بعيشنا، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالاً بعد حال وعروة بعد عروة، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا، أفٌ للدنيا من دار، ثم أفٌ لها من دار.

ويروى: أنّ آخر خطبة خطبها معاوية أن قال: أيها الناس، إني من زرع قد استحصد، وإني وليتكم ولن يليكم أحد من بعدي إلا وهو شر مني، كما كان من قبلي خيّراً مني! ويا يزيد: إذا وفى أجلي فولِّ غسلي رجلاً لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفي وفمي وأذني وعيني، واجعل الثوب على جلدي دون أكفاني، ويا يزيد: احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جديدي ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين. وقال محمد بن عقبة: لما نزل بمعاوية الموت قال: يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى وإني لم أل من هذا الأمر شيئاً.

ولما حضرت عبدالملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوي ثوباً بيده ثم يضرب به المغسلة، فقال عبدالملك: ليتني كنت غسالاً آكل من كسب يدي يوماً بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيئاً، فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمنّ ما هم فيه. وقيل لعبدالملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] الآية. ومات.

وقالت فاطمة بنت عبدالملك بن مروان ـ امرأة عمر بن عبدالعزيز ـ: كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار. فلما كان اليوم الذي قبض فيه

خرجت من عنده فجلست في بيت آخر ـ بيني وبينه باب وهو في قبة له ـ فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣] ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاماً فقلت لوصيف له: انظر أنائم هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت. وقيل له لما حضره الموت: اعهد يا أمير المؤمنين. قال: أحذركم مثل مصرعي هذا فإنه لا بدّ لكم منه.

وروي: أنه لما ثقل عمر بن عبدالعزيز دعي له طبيب فلما نظر إليه قال: أرى الرجل قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يسق السم! قال الطبيب: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال: فتعالج يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك، قال: ربي خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته. اللهم خير لعمر في لقائك. فلم يلبث إلا أياماً حتى مات، وقيل: لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سنناً وأظهر بك عدلاً! فبكى ثم قال: أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق؟ فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها؛ فكيف بكثير مما ضيعنا؟ وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات. ولما قرب وقت موته قال: أجلسوني! فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر فقيل له في ذلك فقال: إني لأرى خضرة؛ ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله.

وحكي عن هارون الرشيد: أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقّة: ٢٨، ٢٩].

وفرش المأمون رماداً واضطجع عليه وكان يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

وكان المعتصم يقول عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت.

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس إلا هذا؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة.

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة ـ وقد نظر إلى صناديق لبنيه ـ: من يأخذها بما فيها، ليته كان بعراً.

وقال الحجاج عند موته: اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لي. فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها، ولما حكي ذلك للحسن قال: أقالها؟ قيل: نعم. قال: عسى.

* * *

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوّف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذاً رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. ولما اشتد به النزع ونزع نزعاً لم ينزعه أحد

كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال: رب، ما أخنقني خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك.

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعاً على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بُلْغَةُ أحدنا من الدنيا كزاد الراكب[1]. فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهماً.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: بل واطرباه! غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه.

وقيل: فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصَّافات: ٦١].

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولاً يبشرني بالجنة أو بالنار.

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته؛ ولكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم.

ولما حضرت عامر بن عبدالقيس الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء.

ولما حضرت فضيلاً الوفاة غشي عليه، ثم فتح عينيه وقال: وابعد سفراه! واقلة زاداه!

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب، فبكى نصر فقال له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً! قال: اسكت! فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء، ثم قال له: لقني ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان.

وقال عطاء بن يسار: تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له: نجوت، فقال: ما آمنك بعد.

وبكى بعضهم عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله تعالى قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال: إن أمراً هذا أوله لجدير أن يتقى آخره، وإن أمراً هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله. وقال الجريري: كنت عند الجنيد في حال نزعه ـ وكان يوم الجمعة ويوم النيروز ـ وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت له: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال: ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي؟

وقال رويم: حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول:

حنينُ قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسرّ
أديرت كؤوسُ المنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي الشكرِ
همومهمُ جوّالة بمعسكرٍ ... به أهل ودّ الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا من مسّ بؤس ولا ضرّ

---

(١) حديث: «لما حضرت سلمان الوفاة بكى، وفيه عهد إلينا رسول الله ﷺ أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب» أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وقد تقدم.

وقيل للجنيد: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقاً. وقيل لذي النون ـ عند موته ـ: ما تشتهي؟ قال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

وقيل لبعضهم وهو في النزع: قل: الله، فقال: إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله. وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال: السلام عليكم؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه؟ قال: فأشاروا إليه بمكان ـ وكان ثم عين ماء ـ فجدد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله، ومضى إلى ذلك المكان ومدّ رجليه ومات. وكان أبو عباس الدينوري يتكلم في مجلسه، فصاحت امرأة تواجداً فقال لها: موتي، فقامت المرأة، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت: قد مت ووقعت ميتة. ويحكى عن فاطمة ـ أخت أبي علي الروذباري ـ قالت: لما قرب أجل أبي علي الروذباري ـ وكان رأسه في حجري ـ فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول: يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها ثم أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا ... بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ ... وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد: قل لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذكره. وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري ـ خادم الشبلي ـ ما الذي رأيت منه؟ فقال: قال عليّ درهم مظلمة، وتصدقت عن صاحبه بألوف، فما على قلبي شغل أعظم منه ثم قال: وضئني للصلاة؛ ففعلت فنسيت تخليل لحيته ـ وقد أمسك على لسانه ـ فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة؟

وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر ـ وكان يشق عليه ـ: كأنك تحب الحياة؟ فقال: القدوم على الله شديد. وقيل لصالح بن مسمار: ألا توصي بابنك وعيالك؟ فقال: إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره!

ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا: أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم، فقال لهم: ألا تقولون: احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير؟

ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له: أوصنا. فقال: احفظوا مراد الحق فيكم.

واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: عليك أبكي! فقال: إن كنت باكية فابكي على نفسك! فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة. وقال الجنيد: دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت: كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ... والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروّحه فقال: كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق؟ ثم أنشأ يقول:

القلبُ محترقٌ والدمعُ مستبقٌ ... والكرب مجتمع والصبر مفترقُ
كيف القرار على من لا قرار له ... مما جناه الهوى والشوق والقلقُ
يا رب إن يك شيء فيه لي فرج ... فامنن عليَّ به ما دام لي رَمَقُ

وحكي: أنّ قوماً من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له: قل لا إله إلا الله، فأنشأ يقول:

إن بيتاً أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السرجِ
وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتي الناس بالحججِ
لا أتاح الله لي فرجاً ... يوم أدعو منك بالفرجِ

وحكي: أنّ أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه، ثم أجاب بعد ساعة وقال: اعذرني فإني كنت في وردي! ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبّر ومات. وقيل للكناني لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ فقال: لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به! وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مرّ فيه غير الله حجبته عنه. وحكي عن المعتمر قال: كنت فيمن حضر الحكم بن عبدالملك حين جاءه الحق، فقلت: اللهم هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ـ فذكرت محاسنه ـ فأفاق فقال: من المتكلم؟ فقلت: أنا! فقال: إنّ ملك الموت عليه السلام يقول لي: إني بكل سخي رفيق، ثم طفيء.

ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقاً فقال: يا أبا محمد، هذا أوان القلق والجزع؟ فقال: يا أبا عبدالله، وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي! فقال حذيفة: واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم صدق الله في شيء من عمله. وعن المغازلي قال: دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة ـ وهو عليل ـ وهو يقول: يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي. ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له: فعل الله تعالى وصنع ـ من باب الدعاء ـ فضحك ثم قال: منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي. وقيل لرويم عند الموت: قل: لا إله إلا الله، فقال: لا أحسن غيره. ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له: قل: لا إله إلا الله، فقال: أليس ثم أمر؟. ودخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سُلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرّما
ولولاك لم يغوى بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال: يا بني، باب كنت أدقه خمساً وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لي، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة؟ فآن لي أوان الجواب.

فهذه أقاويلهم، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

* * *

الباب السادس

في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور

اعلم: أنّ الجنائز عبرة للبصير، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون، ولا يتفكرون أنّ المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولاً عليها، فإنه محمول عليها على القرب وكأن قد، ولعله في غد أو بعد غد.

ويروى عن أبي هريرة: أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا فإنا على الأثر. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأوّل والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير: ما شهدت جنازة فحدّثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه. ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول: والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه، ولا أعلم ما دمت حيّاً.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي؟ لحزن الجميع. وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعاً باكياً.

فهكذا كان خوفهم من الموت. والآن! لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه، ولا يتفكر واحد منهم ـ إلا ما شاء الله ـ في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها. ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا. فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة؛ فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت. نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال: لو ترحمون على أنفسكم لكان خيراً لكم، إنه نجا من أهوال ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن. وقال أبو عمرو بن العلاء: جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعراً فأطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني والله هذه الجنائز. وأنشأ يقول:

تروّعنا الجنائز مقبلات ... ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب ... فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز: التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع ـ كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه ـ ومن آدابه: حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة لا تدري حقيقتها. ولذلك روي عن عمر بن ذرّ: أنه مات واحد من جيرانه، وكان مسرفاً على نفسه، فتجافى كثير من الناس عن جنازته، فحضرها هو وصلى عليها، فلما دلي في قبره وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا أبا فلان، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود، وإن قالوا مذنب وذو خطايا؟ فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا؟.

ويحكى: أنّ رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه، فأستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد، فحملتها إلى الصحراء للدفن؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلي عليها، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال: قيل لي في المنام: انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلِّ عليه فإنه مغفور له، فزاد تعجب الناس! فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته؟ قالت: كما عُرف، كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر! فقال: انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير؟ قالت: نعم؛ ثلاثة أشياء: كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق.

والثاني: أنه كان أبداً لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده، وكان شديد التفقد لهم.

والثالث: أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول: يا رب، أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعني نفسه. فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره. وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة   وإلا فإني لا إخالك ناجيا

بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور:

قال الضحاك: قال رجل: يا رسول الله، من أزهد الناس؟ قال: **«مَنْ لَمْ يَنْسَ القَبْرَ وَالبِلَى وَتَرَكَ فَضْلَ زِينَةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ ما يَبْقَى عَلَى ما يَفْنَى ولَمْ يَعُدَّ غَداً مِنْ أَيَّامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ»**(١)، وقيل لعلي كرّم الله وجهه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ قال: إني أجدهم خير جيران، أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة. وقال رسول الله ﷺ: **«ما رَأَيْتُ مَنْظَراً إلاَّ وَالقَبْرُ أَفْظَع مِنْهُ»**(٢). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه، فبكى وبكيت وبكوا فقال: **«ما يُبْكِيكُمْ؟»** قلنا: بكينا لبكائك! قال: **«هٰذا قَبْرُ أُمِّي آمِنَةَ بِنْت وَهَب اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي، فَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَها فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَدْرَكَنِي ما يُدْرِكُ الوَلَدَ مِنَ الرِّقَّةِ»**(٣)، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فسئل عن ذلك وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي! وتبكي إذا وقفت على قبر؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ**

---

(١) حديث الضحاك: قال رجل: يا رسول الله، من أزهد الناس؟ قال: **«من لم ينس القبور والبلى...»** الحديث. تقدم.

(٢) حديث: **«ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه»** تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

(٣) حديث عمر: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم...» الحديث. وفيه: **«هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي...»**. وتقدم في آداب الصحبة أيضاً، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب، وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفيه أيوب بن هانيء ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم: صالح.

مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَما بَعْدَهُ أَيْسَر مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ»(١)، وقيل: إنّ عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين، فقيل له: هذا شيء لم تكن تصنعه؟ فقال: ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرّب إلى الله بهما. وقال مجاهد: أوّل ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟ وقال أبو ذرّ: ألا أخبركم بيوم فقري، يوم أوضع في قبري. وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكروني معادي وإذا قمت لم يغتابوني. وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلاً ويقول: يا أهل القبور، ما لي إذا دعوتكم لا تجيبوني! ثم يقول: حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر. وقال عمر بن عبدالعزيز لبعض جلسائه: يا فلان، لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب، قال: ثم شهق شهقة خرّ مغشياً عليه. وكان يزيد الرقاشي يقول: أيها المقبور في حفرته، والمتخلي في القبر بوحدته، المستأنس في بطن الأرض بأعماله، ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي إخوانك اغتبطت؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول: استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى، وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور. وقال حاتم الأصم: من مرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم. وكان بكر العابد يقول: يا أماه، ليتك كنت بي عقيماً، إن لابنك في القبر حبساً طويلاً، ومن بعد ذلك منه رحيلاً. وقال يحيى بن معاذ: يا ابن آدم، دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه؟ إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها، وإن أجبته من قبرك منعتها. وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن ظواهرك! إنما الدواهي في بواطنك!، وكان عطاء السلمي إذا جنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول: يا أهل القبور، متم فواموتاه! وعاينتم أعمالكم فواعملاه! ثم يقول: غداً عطاء في القبور، غداً عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح. وقال سفيان: من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومَن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار. وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبراً، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] يرددها، ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعتك فاعمل. وقال أحمد بن حرب: تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوي فراشه للنوم، فتقول: يا ابن آدم، لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء! وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم! أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى، وأصابت الهوام مقيلاً في أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله. وقال ثابت البناني: دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول: يا ثابت، لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها. ويروى: أن فاطمة بنت

---

(١) حديث عثمان: كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته. وفيه: إن القبر أول منازل الآخرة. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه، وتقدم في آداب الصحبة.

الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت:

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية   لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل: إنها ضربت على قبره فسطاطاً واعتكفت عليه سنة. فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة، فسمعوا صوتاً من جانب البقيع: هل وجدوا ما فقدوا؟ فسمعوا من الجانب الآخر: بل يئسوا فانقلبوا؟ وقال أبو موسى التميمي: توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة ـ وفيهم الحسن ـ فقال له الحسن: يا أبا فراس، ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة. فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال:

أخاف وراء القبر إن لم تعافني   أشدّ من القبر التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ   عنيفٌ وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى   إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور:

قِفْ بالقبور وقلْ على ساحاتها   مَنْ منكم المغمور في ظُلُمَاتِها
ومن المكرّم منكم في قعرها   قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذي العيون فواحد   لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسنٍ   تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازلٌ في روضة   يفضي إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرمُ الطاغي بها متقلبٌ   في حفرة يأوي إلى حيّاتها
وعقارب تسعى إليه فروحه   في شدّة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول:

عدمت الحياة ولا نلتها   إذا كنت في القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى   وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت: يا ابناه، بأي خديك بدأ الدود؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشياً عليه. وقال مالك بن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول:

أتيت القبورَ فناديتها   فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه   وأين المزكى إذا ما افتخر

قال: فنوديت من بينها، أسمع صوتاً ولا أرى شخصاً وهو يقول:

تفانوا جميعاً فما مخبر   وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى   فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا   أما لك فيما ترى معتبر

قال: فرجعت وأنا باك.

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

ووجد مكتوباً على قبر:

تناجيك أجداثٌ وهنَّ صموتُ ... وسكَّانها تحت التراب خفوتُ
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه ... لمن تجمع الدنيا وَأنتَ تموتُ

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

أيا غانم أما ذراك فواسع ... وقبرك معمور الجوانب محكمُ
وما ينفع المقبور عمران قبره ... إذا كان فيه جسمه يتهدمُ

وقال ابن السماك: مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب:

يمرّ أقاربي جنبات قبري ... كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي ... وما يألون أن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا ... فيالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوباً:

إن الحبيب من الأحباب مختلسُ ... لا يمنع الموت بواب ولا حَرَسُ
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يا من يعدّ عليه اللفظ والنَّفَسُ
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً ... وأنت دهرك في اللذات منغمسُ
لا يرحم الموت ذا جهل لغرّته ... ولا الذي كان منه العلم يقتبسُ
كم أخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لساناً ما به خَرَسُ
قد كان قصرك معموراً له شرف ... فقبرك اليوم في الأجداث مُندرِسُ

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

وقفت على الأحبّة حين صفت ... قبورهم كأفراس الرهانِ
فلما أن بكيت وفاض دمعي ... رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

قد قلت لما قال لي قائل ... صار لقمان إلى رمسهِ
فأين ما يوصف من طبّه ... وحذقه في الماء مع جسّهِ
هيهات لا يدفع عن غيره ... من كان لا يدفع عن نفسهِ

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

يا أيها الناسُ كان لي أمل ... قصر بي عن بلوغه الأجلُ
فليتق الله ربه رجل ... أمكنه في حياته العملُ

ما أنا وحدي نقلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقلُ

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت. والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم؛ فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها، فوطّن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار. فقد قال بعض الصالحين: رأيت أخاً لي في الله ـ فيما يرى النائم ـ فقلت: يا فلان، عشت الحمد لله رب العالمين، قال: لأن أقدر على أن أقولها ـ يعني الحمد لله رب العالمين ـ أحب إلي من الدنيا وما فيها، ثم قال: ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلاناً قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.

بيان أقاويلهم عند موت الولد:

حقّ على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله ـ في تقدمه عليه في الموت ـ منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدّم وتأخر. وهكذا الموت فإنّ معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه، لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزي به كل مصاب، قال رسول الله ﷺ: **«لأَنْ أُقَدِّمَ سِقْطاً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخَلِّفَ مِائَةَ فَارِسٍ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»**(١)، وإنما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى، وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب. وقال زيد بن أسلم: توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً شديداً فقيل له: ما كان عدله عندك؟ قال: ملء الأرض ذهباً! قيل له: فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك، وقال رسول الله ﷺ: **«لا يَمُوتُ لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فَيَحْتَسِبَهُمْ إلاَّ كَانُوا لَهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ»** فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: أو اثنان؟ قال: **«أو اثنان»**(٢)، وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة.

وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي. ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال: اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فإنك أجود وأكرم. ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من بري فهب له ما قصر فيه من طاعتك. ولما مات ذرّ بن عمر بن ذرّ قام أبوه عمر بن ذرّ

---

(١) حديث: **«لأن أقدم سقطاً أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله»** لم أجد فيه ذكر: **«مائة فارس»** وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة: **«السقط أقدمه بين يدي أحبّ إلي من فارس أخلفه خلفي»**.

(٢) حديث: **«لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد...»** الحديث. تقدم في النكاح.

ـ بعد ما وضعه في لحده ـ فقال: يا ذرّ، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك. فليت شعري، ماذا قلت وماذا قيل لك؟ ثم قال: اللهم إن هذا ذرّ متعتني به ما متعتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، اللهم ما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه. فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذرّ وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة، فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك. ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال: ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن! فقالت: يا عبدالله، إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد، قال: فكيف؟ قالت: إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر: أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة؟ قال: نعم، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطاً في دمه، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشاً من شدّة الحر، قالت: فأرادني الدهر كما ترى. فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدّة الجزع، فما من مصيبة إلا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر.

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به:

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد(١).

روي عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّها تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ غَيْرَ أَنْ لا تَقُولُوا هُجْراً»**(٢)، وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكياً أكثر من يومئذ(٣)، وفي هذا اليوم قال: **«أُذِنَ لِي فِي الزِّيارَةِ دُونَ الاسْتِغْفَارِ»**(٤). كما أوردنا من قبل. وقال ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة رضي الله عنها يوماً من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبدالرحمن، فقلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم، ثم أمر بها(٥)،

---

(١) حديث: نهيه عن زيارة القبور ثم إذنه في ذلك، أخرجه مسلم من حديث بريدة، وقد تقدم.

(٢) حديث علي: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجراً»** رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى: **«غير أن لا تقولوا هجراً»** وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة، قال البخاري: لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات.

(٣) حديث: زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكياً أكثر من يومئذ. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك، ورواه بنحوه من وجه آخر: كنا معه قريباً من ألف راكب وفيه: أنه لم يأذن له في الاستغفار لها.

(٤) حديث: وقال في هذا اليوم: **«أذن لي في الزيارة دون الاستغفار»** تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة: أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها. ورواه مسلم من حديث أبي هريرة: **«فاستأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي»**.

(٥) حديث ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة يوماً من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبدالرحمن، قلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم ثم أمر بها. أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد.

ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر، فإنهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها. نعم، لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر.

وقال أبو ذرّ: قال رسول الله ﷺ: **«زُرِ القُبُور تَذْكُرْ بِها الآخِرَةَ، وَاغْسِلِ المَوْتَى فَإِنَّ مُعالَجَةَ جَسَدٍ خاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ، وَصَلِّ عَلى الجَنائِزِ لَعَلَّ ذٰلِكَ أَنْ يُحْزِنَكَ فَإِنَّ الحَزِينَ فِي ظِلِّ اللَّهِ»**(١). وقال ابن أبي مليكة: قال رسول الله ﷺ: **«زُورُوا مَوْتاكُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ عِبْرَةً»**(٢) وعن نافع: أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه. وعن جعفر بن محمد عن أبيه: أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام، فتصلي وتبكي عنده. وقال النبي ﷺ: **«مَنْ زارَ قَبْرَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدِهِما فِي كُلِّ جُمُعَةٍ غُفِرَ لَهُ وَكُتِبَ بَرّاً»**(٣). وعن ابن سيرين قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالِداهُ وَهُوَ عاقٌّ لَهُما فَيَدْعُو اللَّهَ لَهُما مِنْ بَعْدِهِما فَيَكْتُبُهُ اللَّهُ مِنَ البارِّينَ»**(٤)، وقال النبي ﷺ: **«مَنْ زارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفاعَتِي»**(٥)، وقال ﷺ: **«مَنْ زارَنِي بِالمَدِينَةِ مُحْتَسِباً كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً وَشَهِيداً يَوْمَ القِيامَةِ»**(٦)، وقال كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ، حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه.

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً بوجهه الميت، وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله، فإن ذلك من عادة النصارى. قال نافع: كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، وينصرف. وعن أبي أمامة قال: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ رَجُلٍ**

---

(١) حديث أبي ذر: «**زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد.

(٢) حديث ابن أبي مليكة: «**زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلاً وإسناده حسن.

(٣) حديث: «**من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب براً**» أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك.

(٤) حديث ابن سيرين: «**إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين**» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عقبة أبي الغيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال: ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف.

(٥) حديث: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**» تقدم في أسرار الحج.

(٦) حديث: «**من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة**» تقدم فيه.

يَزُورُ قَبْرَ أخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ إلاَّ اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ»(١) وقال سليمان بن سحيم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله، هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال: «**نعم وأردُّ عليهم**». وقال أبو هريرة: إذا مرَّ الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام. وقال رجل من آل عاصم الجحدري: رأيت عاصماً في منامي بعد موته بسنتين فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، فقلت: أين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبدالله المزني فنتلاقى أخباركم. قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال: نعم، نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قلت: وكيف ذاك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل: لو أخرت إلى يوم الإثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوّراهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده. وقال الضحاك: من زار قبراً قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم، لا يزيد على هذه الكلمات. قال الرجل: فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلي ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاؤوني فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر. قلت: ما جاء بكم؟ قالوا: إنك قد عوّدتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو لنا بها، قلت: فإني أعود بذلك، فما تركتها بعد ذلك. وقال بشار بن غالب النجراني: رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي: يا بشار بن غالب، هداياك تأتينا على طبق من نور مخمرة بمناديل الحرير. قلت: وكيف ذاك؟ قالت: وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور وخمر ومناديل الحرير، ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك. قال رسول الله ﷺ: «**ما المَيتُ فِي قَبْرِهِ إلاَّ كَالغَرِيقِ المُغَوِّثِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ، فإذا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيها، وَإِنَّ هَدَايا الأَحْيَاءِ لِلأَمْوَاتِ الدُّعَاءُ وَالاسْتِغْفَارُ**»(٢).

وقال بعضهم: مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت: ما كان حالك حيث وضعت في قبرك؟ قال: أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لي لرأيت أنه سيضربني به.

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له. قال سعيد بن عبدالله الأزدي: شهدت أبا

---

(١) حديث عائشة: «**ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم**» أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبدالله بن سمعان ولم أقف على حاله، ورواه ابن عبدالبر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبدالحق الإشبيلي.

(٢) حديث: «**ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له...**» الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبدالواحد، قال الذهبي: حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل.

أمامة الباهلي وهو في النزع فقال: يا سعيد، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال: **«إذا مات أحدكم فسوّيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره، ثم يقول: يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعداً ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول: أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنك رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن إماماً، فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول: انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته، ويكون الله عزّ وجلّ حجيجه دونهما»**، فقال رجل: يا رسول الله، فإن لم يعرف اسم أمه؟ قال: «فَلْيَنْسُبْهُ إلَى حَوَّاءَ»[1].

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور. روي عن علي بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد: يا هذا، إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد: يا أبا عبدالله، ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي؟ قال: ثقة. قال: هل كتبت عنه شيئاً؟ قال: نعم، قال: أخبرني مبشر بن اسماعيل عن عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها، وقال: سمعت ابن عمر يوصي بذلك، فقال له أحمد: فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ، وقال محمد بن أحمد المروزي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا دخلتم المقابر فاقرؤوا بفاتحة الكتاب والمعوّذتين وقل هو الله أحد، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم. وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول: لقد آذيتني منذ الليلة، ثم قال: إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال: للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال: جزى الله عنا أهل الدنيا خيراً أقرئهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نوراً مثل الجبال.

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه. فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به. وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصوّر في قلبه الميت كيف تفرّقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال: كانت عجوز في عبدالقيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور، فبلغني أنها عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت: إنّ القلب القاسي إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة، فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشدّ تلفها للأبدان، بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبدالعزيز؛ حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له: يا فلان، لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت

---

(١) حديث سعيد بن عبدالله الأزدي قال: شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال: يا سعيد، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال: **«إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول: يا فلان ابن فلانة...»** الحديث. في تلقين الميت في قبره. أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف.

الشفتان عن الأسنان. وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن.

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: **«إذا ماتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلا تَقَعُوا فِيهِ»**[1]، وقال ﷺ: **«لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوا إلَى ما قَدَّمُوا»**[2]، وقال ﷺ: **«لا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إلاَّ بِخَيْرٍ فَإِنَّهُمْ إنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ تَأْثَمُوا وَإنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَحَسْبُهُمْ ما هُمْ فِيهِ»**[3]، وقال أنس بن مالك: مرّت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً فقال عليه السلام: **«وَجَبَتْ»** ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيراً فقال رسول الله ﷺ: **«وَجَبَتْ»** فسأله عمر عن ذلك فقال: **«إنَّ هٰذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّة، وَهٰذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارَ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّه فِي الأَرْضِ»**[4]. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ العَبْدَ لَيَمُوتُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ القَوْمُ الثنَاءَ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلائِكَتِهِ: أُشْهِدُكُمْ أنّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عَبِيدي عَلَى عَبْدِي وَتَجَاوَزْتُ عَنْ عِلْمِي فِي عَبْدِي»**[5].

***

الباب السابع

في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت:

اعلم: أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد أخطؤوا فيها.

فظنّ بعضهم: أنّ الموت هو العدم، وأنه لا حشر له ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر، وأنّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات. وهذا رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وظنّ قوم: أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر.

---

(١) حديث: **«إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه»** أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد.

(٢) حديث: **«لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»** أخرجه البخاري من حديث عائشة أيضاً.

(٣) حديث: **«لا تذكروا موتاكم إلا بخير...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة بإسناد جيد مقتصراً على ما ذكر منه هنا بلفظ: **«هلكاكم»** وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني.

(٤) حديث أنس: مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً فقال: **«وجبت»** الحديث. متفق عليه.

(٥) حديث أبي هريرة: **«إن العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك...»** الحديث أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ يرويه على ربه عز وجل: **«ما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير إلا قال الله عز وجل: قد قبلت شهادة عبادي على ما علموا وغفرت له ما أعلم»**.

وقال آخرون: إنّ الروح باقية لا تنعدم بالموت، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد، وإنّ الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً.

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق. بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أنّ الموت معناه تغير حال فقط، وأنّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب ههنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء. فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث. والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده. وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها. وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها، وأعني بالروح: المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذات الأفراح. ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا بطل منها الأفراح والغموم، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات. والإنسان ـ بالحقيقة ـ هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت ـ أي لا ينعدم ـ ومعنى الموت: انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له، كما أنّ معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة. فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية.

نعم، تغير حاله من جهتين:

إحداهما: أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحالتين. وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه، ويعتدّ بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقته، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلاً ويفرح به، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلي بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل؛ إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة.

والثاني: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأوّل ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سر قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل

الدنيا، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسرَاء: ١٤] وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن، وتشتعل فيه نيران الفراق ـ أعني ـ: فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه. وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه، فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه. وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن.

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه، ولكن حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتماداً على أنَّ الملك يتساهل في أمره، أو على أنَّ الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دوّنت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرّة ذرّة وخطوة خطوة، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه، وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه. فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم. فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به، بل عند موته نعوذ بالله منه، فإنَّ الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما. فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة.

نعم، لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت؛ إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسرَاء: ٨٥](١)، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت.

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة.

أما الآيات: فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩، ١٧٠] ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺ فقال: **«يا فلان يا فُلان يا فُلان قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقّاً؟»** فقيل: يا رسول الله، أتناديهم وهم أموات؟ فقال ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لأَسْمَعُ لِهٰذا الكَلامِ مِنْكُمْ إلاَّ أَنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ عَلَى الجَوَابِ»**(٢)، فهذا نص في روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفتها والآيةَ نص في أرواح الشهداء. ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة. وقال ﷺ: **«القَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ**

---

(١) حديث: إنه لم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم في الروح. متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح ونزول قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسرَاء: ٨٥]، وقد تقدم.

(٢) حديث: نداءه من قتل من صناديد قريش يوم بدر: **«يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً...»** أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب.

حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ»(١)، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخير، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته»(٢)، وقال ﷺ: «إذا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيَةً إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِن الجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِن النَّارِ وَيُقَالُ: هٰذا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٣)، وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال: كنا مع علقمة في جنازة فقال: أما هذا فقد قامت قيامته. وقال علي كرم الله وجهه: حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ غَرِيباً مَاتَ شَهِيداً وَوُقِيَ فَتَّاني القَبْرِ وَغُدِيَ وَرِيحَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ مِنَ الجَنَّةِ»(٤) وقال مسروق: ما غبطت مؤمناً في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى. وقال يعلى بن الوليد: كنت أمشي يوماً مع أبي الدرداء فقلت له: ما تحب لمن تحب؟ قال: الموت، قلت: فإن لم يمت؟ قال: يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن، والموت إطلاق المؤمن من السجن. وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا، والأنس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء. فكل ما سوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة. ولهذا قال عبدالله بن عمرو: إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها. وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه؛ فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات، وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع.

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله؛ لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا، مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعاً بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوّق إليها، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه! وتجرّد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير. والقتال سبب للموت فكان سبباً لإدراك الموت على مثل هذه الحالة؛ فلهذا عظم النعيم؛ إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده قال الله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة، وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾

---

(١) حديث: «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد، وتقدم في الرجاء والخوف.

(٢) حديث أنس: «الموت القيامة، من مات فقد قامت قيامته» أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف، وقد تقدم.

(٣) حديث: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٤) حديث أبي هريرة: «من مات غريباً مات شهيداً ووقي فتاني القبر» أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال: «فتنة القبر» وقال ابن أبي الدنيا: «فتان».

[سَبَإٍ: ٥٤] فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم. وهذا النعيم يدركه الشهيد ـ كما انقطع نفسه ـ من غير تأخير. وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين. وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ لجابر: **«ألا أبشرك يا جابر»** ـ وكان قد استشهد أبوه يوم أُحُد ـ فقال: بلى بشرك الله بالخير فقال: **«إن الله عزّ وجلّ قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال: تمن عليّ يا عبدي ما شئت أعطيكه فقال: يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له: إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع»**[(١)]. وقال كعب: يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له: لم تبكي وأنت في الجنة؟ قال: أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة! فكنت أشتهي أن أرد فأقتل فيه قتلات.

واعلم: أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور، فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم، وقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلاً فقال لرجل مات: **«أَصْبَحَ هٰذا مُرْتَحِلاً عَنِ الدُّنْيا وَتَرَكَها لأَهْلِها فَإِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ فَلا يُسرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيا كَمَا لا يُسَرُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ»**[(٢)]، فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم. وقال ﷺ: **«إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إذا خَرَجَ مِنْ بَطْنِها بَكَى عَلَى مَخْرَجِهِ حَتَّى إذا رَأَى الضَّوْءَ وَوُضِعَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَكَانِهِ»**[(٣)]، وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله ﷺ: **«إِنَّ فُلاناً قَدْ مَاتَ فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ أَوْ مُسْتَرَاحٌ مِنْهُ»**[(٤)]، أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه. وقال أبو عمر صاحب السقيا: مرّ بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال: إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً، وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة. وعن عمرو بن دينار قال: ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده، وإنهم ليغسلونه ويكفنونه

---

(١) حديث عائشة: **«ألا أبشرك يا جابر...»** الحديث. وفيه: **«إن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعف وللترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر: **«ألا أبشرك بما لقي الله به أباك»** قال: «بلى يا رسول الله...» الحديث. وفيه قال: **«يا عبدي تمن علي أعطك قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم لا يرجعون»**.

(٢) حديث: قال لرجل مات: **«أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه»** أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلاً ورجاله ثقات.

(٣) حديث: **«إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه»** أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم عن عامر الجنائزي مرسلاً هكذا.

(٤) حديث: قيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً قد مات فقال: **«مستريح أو مستراح منه»** متفق عليه من حديث أبي قتادة بلفظ: مر عليه بجنازة فقال ذلك، وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف.

وإنه لينظر إليهم. وقال مالك بن أنس: بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت. وقال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «**ألاَ إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إلاّ مِثْلُ الذُّبَابِ يَمُورُ فِي جَوّها فاللَّهَ اللَّه فِي إخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ**»(١)، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**لا تَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيِّئاتِ أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّها تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ**»(٢)، ولذلك قال أبو الدرداء: اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبدالله بن رواحة ـ وكان قد مات وهو خاله ـ. وسئل عبدالله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال: في حواصل طير بيض في ظل العرش، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ المَيِّتَ يَعْرِفُ مَنْ يغسِلُهُ وَمَنْ يَحْمِلُهُ وَمَنْ يُدَلِّيهِ فِي قَبْرِهِ**»(٣). وقال صالح المري: بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم: كيف كان مأواك وفي أي الجسدين كنت في طيب أو خبيث؟ وقال عبيد بن عمير: أهل القبور يترقبون الأخبار، فإذا أتاهم الميت قالوا: ما فعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم.. أو ما قدم عليكم؟ فيقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] سلك به غير سبيلنا. وعن جعفر بن سعيد قال: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب. وقال مجاهد: إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره. وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ نَفْسَ المُؤْمِنِ إذا قُبِضَتْ تَلَقاها أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا يَتَلَقَّى البَشِيرُ فِي الدُّنْيا يَقُولُونَ: أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيد فَيَسْأَلُونَهُ: ماذا فَعَلَ فُلانٌ وَمَاذا فَعَلَتْ فُلانَةُ؟ وَهَلْ تَزَوَّجَتْ فُلانَة؟ فَإذا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ قَبْلَهُ وَقَالَ: مَاتَ قَبْلِي قَالُوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] ذُهِبَ بِهِ إلَى أمه الهَاوِيَةِ**»(٤).

بيان كلام القبر للميت:

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال؛ التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال

---

(١) حديث النعمان بن بشير: «**ألا إنه لم يبق من الدنيا مثل الذباب يمور في جوفها فالله الله في إخوانكم من أهل القبور، فإن أعمالكم تعرض عليهم**» أخرجه ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدي عن النعمان من قوله: «**الله الله**» ورواه بكماله الأزدي في الضعفاء وقال: لا يصح إسناده، وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكماله في ترجمة أبي إسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدي ونقل عن أبيه: أن كلاً منهما مجهول، قال الأزدي: لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدي.

(٢) حديث أبي هريرة: «**لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور**» أخرجه ابن أبي الدنيا والمحاملي بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنساناً عن أنس: «**إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات...**» الحديث.

(٣) حديث أبي سعيد الخدري: «**إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره**» رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبدالملك بن حسن.

(٤) حديث أبي أيوب: «**أن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون: انظروا أخاكم حتى يستريح**» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف، ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي أيوب بإسناد جيد، ورفعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.

في تفهيم الأحياء. قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ القَبْرُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يُوضَعُ فِيهِ: وَيْحَكَ يا ابْنَ آدَمَ ما غَرَّكَ بِي! أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي بَيْتُ الفِتْنَةِ وَبَيْتُ الظُّلْمَةِ وَبَيْتُ الوَحْدَةِ وَبَيْتُ الدُّودِ ما غَرَّكَ بِي إِذْ كُنْتَ تَمُرُّ بِي فذاذاً؟ فإِنْ كانَ مُصْلِحاً أجابَ عَنْهُ مُجِيبُ القَبْرِ فيقولُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهى عَنِ المُنْكَرِ فَيَقُولُ القَبْرُ: إِنِّي إذاً أَتَحَوَّلُ عَلَيْهِ خضراً وَيَعُودُ جَسَدُهُ نوراً وَتَصْعَدُ رُوحُهُ إِلَى اللَّهِ تَعالَى**»(١). والفذاذ: هو الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي. وقال عبيد بن عمير الليثي: ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها: أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد، فإن كنت في حياتك لله مطيعاً كنت عليك اليوم رحمة، وإن كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة، أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً، ومن دخلني عاصياً خرج مثبوراً. وقال محمد بن صبيح: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره عذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى: أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه، أما كان لك فينا معتبر، أما كان لك في متقدّمنا إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك؟ وتناديه بقاع الأرض: أيها المغتر بظاهر الدنيا؛ هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض ممن غرّته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولاً تهاداه أحبته إلى المنزل الذي لا بدّ له منه؟ وقال يزيد الرقاشي: بلغني أنّ الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت: أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا. وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة. قال: فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه، فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بي القيام لله عليهما، فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه، فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه. قال: فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئاً طبت حياً وطبت ميتاً. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة ويفسح له في قبره مدّ بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره. وقال عبدالله بن عبيد بن عمير في جنازة: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ المَيِّتَ يقْعدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشَيِّعِيهِ فَلا يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إلاّ قَبْرُهُ وَيَقُولُ: وَيْحَكَ يا ابْنَ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حذرْتَنِي وَحذرْتَ ضِيقِي وَنَتْنِي وَهَوْلِي وَدُودِي فَماذَا أَعْدَدْتَ لِي**»(٢).

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذابِ القَبْرِ**». ثلاثاً، ثم قال: «**إِنَّ**

---

(١) حديث: «**يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في الكنى من حديث أبي الحجاج الثمالي بإسناد ضعيف.

(٢) حديث عبدالله بن عبيد بن عمير: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول: ويحك يا ابن آدم...**» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلاً ورجاله ثقات. ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال: بلغني ولم يرفعه.

المُؤْمِنِ إذا كانَ فِي قبلِ مِنَ الآخِرَةِ بَعَثَ اللَّهُ مَلائِكَةً كَأَنَّ وُجُوهَهُم الشَّمسُ مَعَهُمْ حَنُوطُهُ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِسُونَ مَدَّ بَصَرِهِ، فإذا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كلُّ ملكٍ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّماءِ، وَفتحتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ منها بابٌ إلاّ يُحِبُّ أَنْ يُدْخَلَ بروحِهِ مِنْهُ، فإذا صُعِدَ بِرُوحِهِ قِيلَ: أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ فلانٌ فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ ما أَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الكَرَامَةِ فَإِنِّي وَعَدْتُهُ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. وإنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا وَلَّوا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالُ: يا هٰذا مَنْ رَبُّكَ وما دِينُكَ وَمَنْ نبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ وَدِينِي الإِسْلامُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. قال: «فَيَنْتَهِرَانِهِ انْتِهاراً شَدِيداً وَهِيَ آخِرُ فرصة تُعْرَضُ عَلَى المَيِّتِ، فإذا قالَ ذٰلِكَ نَادَى مُنَادٍ أَنْ قد صَدَقْتَ وَهِيَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ الثِّيَابِ فيقولُ: أَبْشِرْ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ وَجَنَّاتٍ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ، فيقول: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ مَنْ أَنْتَ؟ فيقولُ: أَنا عَمَلُكَ الصَّالِحُ وَاللَّهِ ما عَلِمْتُ إنْ كُنْتَ لَسَرِيعاً إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ بَطِيئاً عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً». قال: «ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنِ افْرُشُوا لَهُ مِنْ فَرْشِ الجَنَّةِ وافْتَحُوا لَهُ باباً إلى الجَنَّةِ فَيُفْرَشُ لَهُ مِنْ فَرشِ الجَنَّةِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّةِ فيقولُ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ قِيامَ السَّاعَةِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمالِي». قال: «وأَمَّا الكافِرُ فإنَّهُ إذا كانَ فِي قبلٍ مِنَ الآخِرَةِ وانقطاعٍ مِنَ الدُّنْيا نزلت إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ معهم ثيابٌ مِن نارٍ وَسَرَابِيلُ مِنْ قَطِرَانٍ فَيَحْتَوِشُونَهُ فإذا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بينَ السَّماءِ وَالأرضِ وكلُّ مَلَكٍ فِي السَّماء وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ السَّماءِ فَلَيسَ مِنها بابٌ إلاَّ يَكْرَهُ أنْ يدخلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ، فإذا صَعِدَ بروحِهِ نُبِذَ وَقِيلَ: أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ فلانٌ لم تَقْبَلْهُ سَماءٌ وَلا أَرْضٌ، فيقول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْجِعُوهُ فَأَرُوهُ ما أعددت له من الشَّرِّ إنِّي وَعَدْتُه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. وإنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا وَلَّوا مُدْبِرِينَ حَتَّى يقال لهُ: يا هٰذا مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ وَما دِينُكَ؟ فيقولُ: لا أَدْرِي فيقالُ: لا دَرَيْتَ، ثُمَّ يأتيهِ آتٍ قَبِيحُ الوجهِ مُنْتِنُ الرِّيحِ قبيحُ الثِّيابِ فيقولُ: أَبْشِرْ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّه وَبِعَذابٍ أَلِيمٍ مُقِيمٍ فيقولُ: بَشَّرَكَ اللَّهُ شَرّاً مَنْ أَنْتَ؟ فيقولُ: أنا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، واللَّهِ إنْ كنتَ لَسَرِيعاً فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ بطيئاً عن طاعةِ اللَّهِ فجزاك اللَّهُ شرّاً، فيقولُ: وَأَنْتَ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرّاً، ثم يُقَيَّضُ له أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ مَعَهُ مرزبةٌ مِنْ حديدٍ لو اجتمعَ عليها الثَّقَلانِ على أنْ يُقِلُّوها لم يَسْتَطِيعُوا، لَوْ ضُرِبَ بها جبلٌ صَارَ تُراباً، فيضربُهُ بها ضربةً فَيَصِيرُ تراباً، ثم تَعُودُ فيه الرُّوحُ فيضربُهُ بها بين عينيه ضربةً يَسْمَعُهَا مَنْ عَلَى الأَرْضِينَ، ليسَ الثَّقَلَيْنِ». قال: «ثم يُنادِي مُنادٍ أن افرشوا له لَوْحَيْنِ مِنْ نارٍ وَافْتَحُوا لَهُ باباً إلى النَّارِ فَيُفْرَشُ لَهُ لَوْحَانِ مِن نارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ بابٌ إِلَى النَّارِ»(١).

وقال محمد بن علي: ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة. قال: فيشخص إلى حسناته، ويطرق عن سيئاته.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المُؤْمِن إذا احتضرَ أَتَتْهُ المَلائِكَةُ بِحَرِيرَةٍ فيه مِسْكٌ وَضَبَائِرُ الرَّيْحَانِ فَتُسَلُّ رُوحُهُ كَما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ ويقالُ: أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي رَاضِيَةً وَمَرْضِياً عَنْكِ إِلَى رُوحِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فإذا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى ذٰلِكَ المِسْكِ وَالرَّيْحَانِ وَطُوِيَتْ عَلَيْهَا الحَرِيرَةُ وَبُعِثَ بِها إلى عِلِّيِّينَ وإنَّ الكَافِرَ إذا احتضِرَ أَتَتْهُ المَلائِكَةُ بِمِسْحٍ فِيهِ جَمْرَةٌ فَتُنْزَعُ رُوحُهُ

---

(١) حديث البراء: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر...» الحديث. بطوله أخرجه أبو داود والحاكم بكماله، وقال: صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصراً.

انْتِزاعاً شَدِيداً ويقال: أيَّتُها النَفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطاً عَلَيْكِ إِلَى هَوَانِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فإذا أُخرِجَت رُوحُهُ وُضِعَتْ على تِلْكَ الجَمْرَةِ وإِنَّ لها نَشِيشاً وَيُطْوَى عَليها المِسْح وَيُذْهَبُ بِها إلى سِجِّين»(١).

وعن محمد بن كعب القرظي: أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩،١٠٠]. قال: أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار؟ قال: لا، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت، قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. أي: ليقولنَّها عند الموت. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: **«المُؤمِن فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ وَيُرْحَبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً وَيُضِيءُ حَتَّى يَكُونَ كالقَمَرِ ليلةَ البَدْرِ، هَلْ تَدْرُونَ فِي ماذا أُنْزِلَتْ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]».** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«عَذَابُ الكافِرِ فِي قَبْرِهِ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّيناً هَلْ تَدْرُونَ ما التِّنِّينُ، تسعةٌ وتِسْعُونَ حَيَّةً لكلِّ حَيَّةٍ تسعةُ رؤوس يخدشونهُ ويلحسونهُ وينفخونَ فِي جِسْمِهِ إلى يَوْمَ يُبْعَثُونَ»**(٢). ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات، فإن لها أصولاً معدودة، ثم تتشعب منها فروع معدودة، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام. وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوّة. فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم.

فإن قلت: فنحن نشاهد الكافر في قبره مدّة ونراقبه ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة؟ فاعلم: أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا.

أحدها: وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدّق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت. أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك، وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى.

المقام الثاني: أن تتذكر أمر النائم، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه

---

(١) حديث أبي هريرة: «إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيه مسك وضبائر الريحان. . .» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف.

(٢) حديث أبي هريرة: «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً. . .» الحديث. ورواه ابن حبان.

يصيح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه، وكل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكناً ولا ترى حواليه حية، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد. وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد.

المقام الثالث: أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم، ثم السم ليس هو الألم، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم؛ لكان العذاب قد توفر، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه؛ لتكون الإضافة للتعريف بالسبب، وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب، والسبب يراد لثمرته لا لذاته.

وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات. وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذياً عند موت المعشوق، فإنه كان لذيذاً فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلماً، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال، بل هذا بعينه؛ هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه، فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتدّ عذابه ويتمنى ويقول: ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط، فكنت لا أتأذى بفراقه؟ فالموت: عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة.

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحدُ

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا، فتؤخذ منه وتسلم إلى أعدائه؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عزّ وجلّ، فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى، وذلك هو العذاب الذي يعذب به؛ إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾ [المطففين: ١٥،١٦]. وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقاً إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

والمقصود: أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب. فإذن: ألم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب، وحبه الفرس؛ هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه. فليستعد لهذه اللدغات؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه، ويأخذ منه جاهه وقبوله، بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك إليه. فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك إذا مات؛ لأنا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشدّ؛ لأنه في الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من

مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت؛ إذ قد انسدّ عليه طرق التسلي وحصل اليأس. فإذن: كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفاً عليه ومعذباً به، فإن كان مخفاً في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم: نجا المخفون، وإن كان مثقلاً عظم عذابه. وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير، فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين؛ وهو المعنى بقوله ﷺ: **«صاحب الدرهم أخفّ حساباً من صاحب الدرهمين»**[1]، وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك.

وإنما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وفرحوا بها واطمأنوا إليها. فهذه مقامات الإيمان في حيّات القبر وعقاربه وفي سائر أنواع عذابه.

رأى أبو سعيد الخدري ابناً له قد مات في المنام، فقال له: يا بني عظني. قال: لا تخالف الله تعالى فيما يريد. قال: يا بني زدني. قال: يا أبت لا تطيق! قال: قل. قال: لا تجعل بينك وبين الله قميصاً، فما لبس قميصاً ثلاثين سنة.

فإن قلت: فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث؟ فاعلم: أن في الناس من لم يثبت إلا الأوّل وأنكر ما بعده، ومنهم من أنكر الأوّل وأثبت الثاني، ومنهم من لم يثبت إلا الثالث. وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار: أن كل ذلك في حيز الإمكان. وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور. بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب. ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره.

هذا هو الحق فصدّق به تقليداً فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً، والذي أوصيك به: أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك، ولا تشتغل بمعرفته، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان. فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموس؟ وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم، فينبغي أن يكون الاستعداد له. فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان.

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر:

قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: **«إذا مَاتَ العَبْدُ أتاهُ مَلَكَانِ أسْوَدَانِ أزْرَقَانِ يقالُ لأحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلآخَرَ نَكِيرٌ، فيقولان لهُ: ما كنتَ تقولُ في النَّبيِّ؟ فَإنْ كانَ مؤمناً قال: هُوَ عَبْدُ الله ورسولُهُ أَشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ اللَّهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله، فيقولان: إنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أنَّكَ تقولُ ذلك، ثم يُفسح له في قبرِهِ سبعون ذِراعاً في سبعين ذراعاً ويُنوَّر له في قبره، ثم يقال له: نَمْ فيقولُ: دَعُونِي أَرْجِعُ إلى أهلي**

---

(١) حديث: «صاحب الدرهم أخف حساباً من صاحب الدرهمين». لم أجد له أصلاً.

فَأُخْبِرهُمْ، فيقالُ له: نَمْ فينامُ كَنَوْمَةِ العروس الذي لا يُوقِظُهُ إلا أَحَبُّ أهلِهِ إليهِ، حَتَّى يبعثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذلكَ. وإنْ كان مُنافقاً. قال: لا أَدْرِي كنتُ أَسْمَعُ الناسَ يقولونَ شيْئاً وكنتُ أقولُه، فيقولان: إنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تقولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِم عَلَيهِ، حتى تَخْتَلِفَ فِيها أَضلاعُهُ فلا يزالُ مُعَذباً حَتَّى يبعثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذلِكِ»[1].

وعن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟»**. فقال عمر: ويكون معي مثل عقلي الآن؟ قال: **«نَعَمْ»** قال: **«إذن: أكفيكهما»**[2]. وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء. فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان، لا يتغير من عقله شيء. وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض؛ بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء. ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ، ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم.

وقال محمد بن المنكدر: بلغني أنّ الكافر يسلط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة، لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه.

وقال أبو هريرة: إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن، وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه، وإن أتاه من قبل يده، قالت اليدان: والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية، فيقول: أما إني لو رأيت خللاً لكنت أنا صاحبه. قال سفيان: تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده، ثم يقال له عند ذلك: بارك الله لك في مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك.

وعن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر، ثم جعل ينظر فيه، ثم قال: **«يُضْغَطُ المُؤمِنُ فِي هٰذا ضَغْطَةً تُرَدُّ مِنْهُ حَمَائِلُهُ»**[3]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال

---

(١) حديث أبي هريرة: **«إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير...»** الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف.

(٢) حديث عطاء بن يسار: قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: **«يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر...»** الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلاً ورجاله ثقات. قال البيهقي في الاعتقاد: رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلاً.
قلت: ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس، ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر، وقال: غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل، ولأحمد وابن حبان من حديث عبدالله بن عمر؛ فقال عمر: أيرد إلينا عقولنا؟ فقال: **«نعم كهيئتكم اليوم»** فقال عمر: بفيه الحجر.

(٣) حديث حذيفة: «كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه...» الحديث. رواه أحمد بسند ضعيف.

رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنها أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ»[1]. وعن أنس قال: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة، فتبعها رسول الله ﷺ فساءنا حاله، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة، فلما خرج أسفر وجهه، فقلنا: يا رسول الله رأينا منك شأناً فمم ذلك؟ قال: «ذكرتُ ضَغْطَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذابِ القَبْرِ، فَأَتَيْتُ فَأُخبِرتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَفَّفَ عَنْها وَلَقَدْ ضُغِطَتْ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَها ما بَيْنَ الخَافِقَيْنِ»[2].

* * *

الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم: أن أنوار البصائر ـ المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن مناهج الاعتبار ـ تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء. ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلاً، فإنا إن عوّلنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له؟ وإن عوّلنا على صلاحه الظاهر، فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان، ولكنّ الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها، ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه.

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام، فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه، والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا. ولذلك رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ، وفي حق زينب ابنته[3]. وكذلك حال أبي جابر لما استشهد؛ إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه وليس بينهما ستر. ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم.

---

(١) حديث عائشة: «إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ». رواه أحمد بإسناد جيد.

(٢) حديث أنس: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة... الحديث. وفيه «**لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين**». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه.

سقامة: كثيرة السقم، أي المرض.

الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

(٣) حديث: رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد، تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله.

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة، إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام؛ وهي من أنوار النبوّة. قال رسول الله ﷺ: **«الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ جُزءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»**(١). وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق. ومن كثر كذبه لم تصدّق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالطهارة عند النوم لينام طاهراً(٢). وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها. ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل، كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في النوم، حتى نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧](٣). وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة، والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي؛ وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة، فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة.

ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا، مثال يفهمك المقصود؛ وهو أن تعلم: أنّ القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور، وأنّ كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح، وتارة بالكتاب المبين، وتارة بإمام مبين؛ كما ورد في القرآن. فجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين. ولا تظنن أنّ ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم، وأنّ الكتاب من كاغد أو رق، بل ينبغي أن تفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم. بل إن كنت تطلب له مثالاً يقرّبه إلى فهمك فاعلم أنّ ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه، فإنه مسطور فيه، حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه، ولو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخط حرفاً. وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشاً بجميع ما قدّره الله تعالى وقضاه. واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور، فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب، فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت، فإن هبت ريح حرّكت هذا الحجاب ورفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف، وقد يثبت ويدوم، وقد لا يدوم وهو الغالب. وما دام متيقظاً فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة، وهو حجاب عن عالم الملكوت.

---

(١) حديث: **«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»**، تقدم.

(٢) حديث: أمره بالطهارة عند النوم. متفق عليه من حديث البراء: **«إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة...»** الحديث.

(٣) حديث: انكشف دخول مكة لرسول الله ﷺ في النوم. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسلاً.

ومعنى النوم: أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافياً في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما، إلا أنّ النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه، فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيل والمعاني، وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير. ويكفيك مثال واحد وهو أنّ رجلاً قال لابن سيرين: رأيت كأنّ بيدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء. فقال: أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان، قال: صدقت! فانظر أنّ روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم. وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه، وهو كونه مانعاً للناس من الأكل والشرب، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية.

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه! وكيف لا وهو أخو الموت، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب، حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وإما مكنوفاً بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢] ويقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطُّور: ١٥، ١٦] وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧] فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل همّ وغمّ إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع؟ وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة؟ لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر.

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا! وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذرّيتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقيناً، ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه، فيقول ما قال لسيد النبيين: «**أحبب من أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به**»[(١)]، فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[(٢)]، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً[(٣)]، ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً. نعم، قال: «**لَوْ كُنتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ**

---

(١) حديث: «**إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه...**» الحديث. تقدم.

(٢) حديث: لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، تقدم أيضاً.

(٣) حديث: لم يخلف ديناراً ولا درهماً، تقدم أيضاً.

خَلِيلُ الرَّحْمٰنِ»[1] . فبين أنّ خلة الرحمن تخللت باطن قلبه، وأنّ حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعاً لخليل ولا حبيب! وقد قال لأمته: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]. فإنما أمته من اتبعه، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة، فإنه ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة؛ فقد سلكت سبيله الذي سلكه، وبقدر ما سلكت سبيله؛ فقد اتبعته. وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النَّازعَات: ٣٧ - ٣٩]. فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل ـ وكلنا ذلك الرجل ـ لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة، ولا تتحرّك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا، ثم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه! وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القَلَم: ٣٥،٣٦].

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده، ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به؛ إذ ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات.

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة:

فمن ذلك رؤيا رسول الله ﷺ وقد قال عليه السلام: **«مَنْ رَآنِي فِي المَنَام فَقَدْ رَآنِي حَقاً فَإِنَّ الشَّيطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِي»**[2]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فرأيته لا ينظر إليَّ فقلت: يا رسول الله ما شأني! فالتفت إلي وقال: **«ألست المقبِل وأنت صائم؟»** قال: والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً. وقال العباس رضي الله عنه: كنت وداً لعمر فاشتهيت أن أراه في المنام، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كان عرشي ليهدّ لولا أني لقيته رؤوفاً رحيماً. وقال الحسن بن علي: قال لي علي رضي الله عنه: إنّ رسول الله ﷺ سنح لي الليلة في منامي، فقلت: يا رسول الله ما لقيت من أمتك؟ قال: **«ادع عليهم»**، فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني! فخرج فضربه ابن ملجم. وقال بعض الشيوخ: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فأعرض عني فقلت: يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله: إنك لم تسأل شيئاً قط فقلت: لا، فأقبل عليَّ فقال: **«غَفَرَ اللَّهُ لَكَ»**[3].

وروي عن العباس بن عبدالمطلب قال: كنت مؤاخياً لأبي لهب مصاحباً له، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يريني إياه في المنام قال: فرأيته يلتهب ناراً فسألته عن حاله فقال: صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروّح إلا ليلة الإثنين في كل الأيام والليالي! قلت: وكيف ذلك؟ قال: ولد في تلك الليلة محمد ﷺ فجاءتني أميمة

---

(١) حديث: **«لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن»**، تقدم أيضاً.

(٢) حديث: **«من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتخيل بي»**، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر: ما سئل النبيّ ﷺ شيئاً قط فقال: **«لا»**. رواه مسلم وقد تقدم.

فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحاً به، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة إثنين.

وقال عبدالواحد بن زيد: خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ فسألته عن ذلك فقال: أخبرك عن ذلك؛ خرجت أول مرة إلى مكة ومعي أبي، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل؛ فبينا أنا نائم إذ أتاني آت، فقال لي: قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه! قال: فقمت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه، فإذا هو ميت أسود الوجه، فداخلني من ذلك رعب، فبينما أنا في ذلك الغم إذا غلبتني عيني فنمت، فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين، فقال لهم: تنحوا، فمسح وجهه بيده ثم أتاني، فقال: قم فقد بيَّض الله وجه أبيك! فقلت له: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقال: أنا محمد. قال: فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله ﷺ.

وعن عمر بن عبدالعزيز. قال: رأيت رسول الله ﷺ ـ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده ـ فسلمت وجلست، فبينما أنا جالس؛ إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة.

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال: قتل الحسين والله! ـ وكان ذلك قبل قتله ـ فأنكره أصحابه، فقال: رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال: ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدي؟ قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى. فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه.

ورئي الصديق رضي الله عنه فقيل له: إنك كنت تقول أبداً في لسانك: هذا أوردني الموارد، فماذا فعل الله بك؟ قال: قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة.

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين:

قال بعض المشايخ: رأيت متمماً الدورقي في المنام فقلت: يا سيدي ما فعل الله بك؟ فقال: دير بي في الجنان فقيل لي: يا متمم هل استحسنت فيها شيئاً؟ قلت: لا يا سيدي، فقال: لو استحسنت منها شيئاً لوكلتك إليه ولم أوصلك إلي. ورئي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي؛ قيل: بماذا؟ قال: ما خلطت جداً بهزل. وعن منصور بن إسماعيل. قال: رأيت عبدالله البزار في النوم. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً فإني استحييت أن أقرّ به، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي، فقلت: ما كان ذلك الذنب؟ قال: نظرت إلى غلام جميل، فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره.

وقال أبو جعفر الصيدلاني: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وحوله جماعة من الفقراء، فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما: بيده طشت، وبيد الآخر: إبريق، فوضع الطشت بين يدي رسول الله ﷺ فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا، ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما للآخر: لا تصب على يده فإنه ليس منهم! فقلت: يا رسول الله أليس قد روي عنك أنك قلت: **«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»**؟ قال: بلى، قلت: يا رسول الله فإني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء، فقال ﷺ: **«صُبَّ عَلَى يَدِهِ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ»**.

وقال الجنيد: رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس، فوقف علي ملك فقال: أقرب ما تقرّب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا؟ فقلت: عمل خفي بميزان وفي! فولّى الملك، وهو يقول: كلام موفق والله. ورئي مجمع في النوم فقيل له: كيف رأيت الأمر؟ فقال: رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة. وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد: رأيتك في النوم كأنك في الجنة! فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال: لعل الشيطان أراد أمراً فعصمت منه فأشخص رجلاً يقتلني! وقال محمد بن واسع: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره. وقال صالح بن بشير: رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له: رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، قال: أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً، فقلت: في أي الدرجات أنت؟ فقال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام: أي، الأعمال أفضل عندكم؟ فقال: الرضا وقصر الأمل. وقال يزيد بن مذعور: رأيت الأوزاعي في المنام فقلت: يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى! قال: ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين. قال: وكان يزيد شيخاً كبيراً، فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه. وقال ابن عيينة: رأيت أخي في المنام فقلت: يا أخي ما فعل الله بك؟ فقال: كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي. وقال علي الطلحي: رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت: من أنت؟ فقالت: حوراء، فقلت زَوجيني نفسك، قالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني، قلت: وما مهرك؟ قالت: حبس نفسك عن آفاتها. وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: رأيت زبيدة في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، فقلت لها: بما أنفقت في طريق مكة؟ قالت: أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها، وغفر لي بنيتي. ولما مات سفيان الثوري رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وضعت أوّل قدمي على الصراط والثاني في الجنة. وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيت فيما يرى النائم جارية ـ ما رأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نوراً ـ فقلت لها: مماذا ضوء وجهك؟ قالت: تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها؟ قلت: نعم، قالت: أخذت دمعك فمسحت به وجهي، فمن ثم ضوء وجهي كما ترى.

وقال الكتاني: رأيت الجنيد في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل. ورئيت زبيدة في المنام فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي بهذه الكلمات الأربع: لا إله إلا الله أفني بها عمري، لا إله إلا الله أدخل بها قبري، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي، لا إله إلا الله ألقى بها ربي. ورئي بشر في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني ربي عزّ وجلّ وقال: يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف. ورئي أبو سليمان في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني وما كان شيء أضر عليّ من إشارات القوم إلي. وقال أبو بكر الكتاني: رأيت في النوم شاباً لم أر أحسن منه فقلت له: من أنت؟ قال: التقوى! قلت: فأين تسكن؟ قال: كل قلب حزين! ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت: من أنت؟ قالت: أنا السقم قلت: فأين تسكنين؟ قالت: كل قلب فرح مرح! قال: فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة. وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن إبليس وثب عليّ، فأخذت العصا؛ لأضربه فلم يفزع منها، فهتف بي هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من نور يكون في القلب. وقال المسوحي: رأيت إبليس في النوم يمشي عرياناً فقلت: ألا تستحي من

الناس؟ فقال: بالله هؤلاء ناس! لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية. وقال أبو سعيد الخراز: كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي ﷺ جاءني متكئاً على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فجاء فوقف علي وأنا أقول شيئاً من الأصوات وأدق في صدري، فقال: شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ [الصّافات: ٦١]، فقلت له: أوصني، قال: أقلل من معرفة الناس، وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة. قال: رأيت سفيان الثوري فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي ... هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قوّاماً إذا أظلم الدجى ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته ... وزرني فإني منك غير بعيد

ورئي الشبلي بعد موته بثلاثة أيام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: ناقشني حتى أيست، فلما رأى يأسي تغمدني برحمته. ورئي مجنون بني عامر بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين. ورئي الثوري في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، فقيل له: ما حال عبدالله بن المبارك؟ فقال: هو ممن يلج على ربه في كل يوم مرتين. ورئي بعضهم فسئل عن حاله فقال:

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا

ورئي مالك بن أنس فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحي الذي لا يموت. ورئي في الليلة التي مات فيها الحسن البصري كأن أبواب السماء مفتحة، وكأن منادياً ينادي: ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض. ورئي الجاحظ فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

ولا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عرياناً فقال: ألا تستحي من الناس؟ فقال: وهؤلاء ناس! الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي! قال الجنيد: فلما انتبهت عدوت إلى المسجد، فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون، فلما رأوني. قالوا: لا يغرّنك حديث الخبيث. ورئي النصر آباذي بمكة ـ بعد وفاته ـ في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت: يا أبا القاسم، أبعد الاتصال انفصال؟ فقلت: لا يا ذا الجلال، فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي. ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة، فقالت: يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئاً فيحال بيني وبينك، فقال عتبة: طلقت الدنيا ثلاثاً لا رجعة لي عليها حتى ألقاك. وقيل: رأى أيوب السختياني جنازة عاص، فدخل الدهليز كيلا يصلي عليها. فرأى الميت بعضهم في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وقال: قل لأيوب ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]. وقال بعضهم: رأيت في الليلة التي مات فيها داود الطائي نوراً، وملائكة نزولاً وملائكة صعوداً؛ فقلت: أي ليلة هذه؟ فقالوا: ليلة مات فيها داود

الطائي، وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه. وقال أبو سعيد الشحام: رأيت سهلاً الصعلوكي في المنام، فقلت: أيها الشيخ! قال: دع التشيخ، قلت: تلك الأحوال التي شاهدتها، فقال: لم تغن عنا! فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز. وقال أبو بكر الرشيدي: رأيت محمداً الطوسي المعلم ـ في النوم ـ فقال لي: قل لأبي سعيد الصفار المؤدب:

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد ـ وحياة الحب ـ حلتم وما حلنا

قال: فانتبهت فذكرت ذلك له فقال: كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة. وقال ابن راشد: رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته، فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى. قلت: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخ بخ ذاك: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النِّساء: ٦٩] الآية. وقال الربيع بن سليمان: رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام، فقلت: يا أبا عبدالله ما صنع الله بك؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب. ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن منادياً ينادي: ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ٣٣] ـ واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه. وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي: رأيت في منامي رجلاً آدم طوالاً والناس يتبعونه فقلت: من هذا؟ قالوا: أويس القرني، فأتيته فقلت: أوصني رحمك الله، فكلح في وجهي فقلت: مسترشداً فأرشدني أرشدك الله، فأقبل عليّ وقال: اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولى وتركني.

وقال أبو بكر بن أبي مريم: رأيت ورقاء بن بشر الخضرمي فقلت: ما فعلت يا ورقاء؟ قال: نجوت بعد كل جهد. قلت: فأي الأعمال وجدتموها أفضل؟ قال: البكاء من خشية الله. وقال يزيد بن نعامة: هلكت جارية في الطاعون الجارف، فرآها أبوها في المنام، فقال لها: يا بنية، أخبريني عن الآخرة؟ قالت: يا أبت قدمنا على أمر عظيم، نعلم ولا نعمل وتعلمون ولا تعملون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إليّ من الدنيا وما فيها. وقال بعض أصحاب عتبة الغلام: رأيت عتبة في المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك! قال: فلما أصبحت جئت إلى بيتي، فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت: (يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم، والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين). وقال موسى بن حماد: رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت: يا أبا عبدالله بم نلت هذا؟ فقال: بالورع، قلت: فما بال علي بن عاصم؟ قال: ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب. ورأى رجل من التابعين النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله عظني، قال: نعم، من لم يتفقد النقصان، فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له.

وقال الشافعي رحمة الله عليه: دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عزّ وجلّ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي، فقال لي: يا محمد بن إدريس، قل: اللهم إني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية؛ فلما أصبحت أعدت ذلك

فلما ترحل النهار أعطاني الله عزّ وجلّ طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه، فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها. فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقرّبة إلى الله زلفى، فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أو في النار، والحمد لله حمد الشاكرين.

***

الشطر الثاني
من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار.

وفيه بيان نفخة الصور، وصفة أرض المحشر وأهله، وصفة طول يوم القيامة، وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها، وصفة المساءلة عن الذنوب، وصفة الميزان، وصفة الخصماء ورد المظالم، وصفة الصراط، وصفة الشفاعة، وصفة الحوض، وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها، وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم، وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان، وصفة النظر إلى وجه الله تعالى. وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى.

صفة نفخة الصور:

قد عرفت فيما سبق تأثير أحوال الميت في سكرات الموت، وخطره في خوف العاقبة، ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه. وأعظم من ذلك كله؛ الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار، والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط مع دقته وحدّته، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء. فهذه أحوال وأهوال لا بدّ لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم، فقال لصاحبه ـ الذي أخبر ـ: صدقت، ثم مدّ يديه لتناوله؛ كان مصدقاً بلسانه ومكذباً بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان. وقد قال النبي ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: شَتَمَنِي ابْن آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي، وَكَذَّبَنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَيَقُولُ: إِنَّ لِي وَلَداً وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي**»[1]. وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور

---

(١) حديث: «**قال الله تعالى: شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي أن يكذبني...**» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

لقلة الفهم في هذا العالم؛ لأمثال تلك الأمور، ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له: إن صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف؛ لاشتد نفور باطنه عن التصديق به، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩]. ففي خلق الآدمي - مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه - أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته؟ فإن كان في إيمانك ضعف فقوّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوي الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار، وتفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة. فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك مغبراً بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتاً من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر. كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدَّثر: ٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٤٨-٥٢]. فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السمٰوات والأرض - يعني يموتون بها - إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة. ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنى الْجَبْهَةَ وَأَصْغَى بِالأُذُنِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ»**(١).

قال مقاتل: الصور هو القرن؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض؛ أي مات كل حيوان من شدّة الفزع إلا من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]؛ على أرجلهم ينظرون إلى البعث، وقال رسول الله ﷺ: **«حِينَ بُعِثَ إِلَيَّ بُعِثَ إِلَى صَاحِبِ الصُّورِ فَأَهْوَى بِهِ إِلَى**

---

(١) حديث: **«كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة...»** الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد، وقال: حسن. ورواه ابن ماجه بلفظ: **«إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران»**؛ وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطأة مختلف فيه.

فِيهِ وَقَدَّمَ رِجْلاً وَأَخَّرَ أُخْرَى مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ ألا فَاتَّقُوا النَّفْخَةَ»(١)، فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكاناتهم عند الانبعاث؛ خوفاً من هذه الصعقة، وانتظاراً لما يقضى عليه من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم. بل إن كنت في الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين، فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطؤون بالأقدام مثل الذرّة، وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها، ولكن حشرتهم شدّة الصعقة وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝﴾ [التكوير: ٥]. ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعتوّها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝﴾ [مريم: ٦٨]. فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك.

صفة أرض المحشر وأهله:

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلاً إلى أرض المحشر؛ أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا ترى عليها ربوة يختفي الإنسان وراءها، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها. بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمراً، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض، إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة، والراجفة: هي النفخة الأولى والرادفة: هي النفخة الثانية، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة. قال رسول الله ﷺ: **«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرصِ النَّقِي لَيسَ فِيها مَعْلَمٌ لأَحَدٍ»**(٢).

قال الراوي: والعفرة: بياض ليس بالناصع. والنقي: هو النقي عن القشر والنخالة. ومعلم: أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر.

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨](٣). قال ابن عباس: يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها

---

(١) حديث: **«حين بعث إلي بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلاً وأخر أخرى»** الحديث. لم أجده هكذا بل قد ورد: أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة: **«إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر»**. قال البخاري: ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ: **«ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان»**، وإسنادها جيد.

(٢) حديث: **«يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد»**. متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخاري قوله: **«ليس فيها معلم لأحد»** فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه.

(٣) حديث: **«يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان»** قالت سودة راوية الحديث: «واسوأتاه. . .» الحديث. أخرجه الثعلبي والبغوي وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي القائلة: «واسوأتاه» ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي القائلة: «واسوأتاه».

وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدّ مدّ الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها. فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدّته، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر، وأظلمت الأرض لخمود سراجها. فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدّتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها في سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدّتها! ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة. قال رسول الله ﷺ: «**يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً قَدْ أَلْجَمَهُم العَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الآذانِ**». قالت سودة ـ زوج النبي ﷺ راوية الحديث ـ: قلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «**شغل الناس عن ذلك بهم**: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ [عَبَس: ٣٧]». فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات. كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم. قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: رُكْبَاناً وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهِمْ**، فقال رجل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: **الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِم قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ**»[1]، في طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحية؛ وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوّر المشي على غير رجل، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكاراً لها، فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة.

صفة العرق:

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجنّ وشيطان ووحش وسبع وطير، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرّها وتبدّلت عما كانت عليه من خفة أمرها، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين. ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقرّبون، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحرّ الشمس قد صهرته بحرها واشتدّ كربه وغمه من وهجها، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة. ثم ارتفع على

---

(١) حديث أبي هريرة: «**يحشر الناس يوم القيامة ركباناً ومشاة على وجوههم...**» الحديث. رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس: أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**».

أبدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه. قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: **«يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»**(١). وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ **«يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي سَبْعِينَ بَاعاً وَيَلْجُمَهُمْ وَيَبْلُغَ أَذقنهم»**(٢)، كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح. وفي حديث آخر: **«قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب»**(٣)، وقال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: **«تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَعْرَقُ النَّاسُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَخِذَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ** ـ وَأشار بيده فألجمها فاه ـ **وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ العَرَقُ** ـ وَضرب بيده على رأسه هكذا ـ»(٤) فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم، وفيهم من ينادي فيقول: رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار، وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق؟.

واعلم: أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله ـ من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر ـ فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمراً وأقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة، فإنه يوم عظيمة شدّته طويلة مدته.

صفة طول يوم القيامة:

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم. قال كعب وقتادة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [المطفّفين: ٦]. قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام. بل قال عبدالله بن عمرو: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: **«كَيْفَ بِكُمْ إِنْ جَمَعَكُم اللهُ كَمَا تُجْمَعُ النَّبْلُ فِي الكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ»**(٥). وقال الحسن: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف

---

(١) حديث ابن عمر: **«يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»**، متفق عليه.

(٢) حديث أبي هريرة: **«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً. . .»** الحديث. أخرجاه في الصحيحين كما ذكره المصنف.

(٣) حديث: **«قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب»** أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدي: لا أظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه.

(٤) حديث عقبة بن عامر: **«تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه. . .»** الحديث. رواه أحمد وفيه ابن لهيعة.

(٥) حديث ابن عمر. تلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [المطفّفين: ٦]، ثم قال: **«كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم»**.

قلت: إنما هو عبدالله بن عمرو، ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبدالرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راوياً غير ابن وهب ولهم غير عبدالرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون.

سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً واحترقت أجوافهم جوعاً انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرّها واشتدّ لفحها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرّم على مولاه ليشفع في حقهم، فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال: دعوني! نفسي نفسي؟ شغلني أمري عن أمر غيري. واعتذر كل واحد بشدّة غضب الله تعالى وقال: قد غضب اليوم ربنا غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]. فتأمل في طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر.

واعلم: أنّ من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة. قال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم، فقال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيها فِي الدُّنيا»**[(١)]، فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلاً لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفاً لكان ربحك كثيراً وتعبك يسيراً.

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه:

فاستعدّ يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كوّرت، والجبال قد سيرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوّجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدّت، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة، يوم ترج الأرض فيه رجاً وتبس الجبال بساً فكانت هباء منبثاً، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسف فيه الجبال نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر

---

(١) حديث: سئل عن طول ذلك اليوم، فقال: **«والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»**. أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة، وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد: **«يهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب»** ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال: أظنه رفعه بلفظ: **«إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة»**.

السحاب، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام، ولا يسأل فيه عن الإجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدّمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين، إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله قال: «**شَيَّبَتْنِي هُود وَأَخَوَاتُها**»[1]. وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت، فيا أيها القارىء العاجز: إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرّك به اللسان، ولو كنت متفكراً فيما تقرؤه لكنت جديراً بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن، فالقيامة أحد ما ذكر فيه. وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لنقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الغرض تنبيه أولي الألباب، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى، فاحرص على معرفة معانيها.

ونحن الآن نجمع لك أساميها. وهي: يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المحاسبة، ويوم المساءلة، ويوم المسابقة، ويوم المناقشة، ويوم المنافسة، ويوم الزلزلة، ويوم الدمدمة، ويوم الصاعقة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الراجفة، ويوم الرادفة، ويوم الغاشية، ويوم الداهية، ويوم الآزفة، ويوم الحاقة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة، ويوم التلاق، ويوم الفراق، ويوم المساق، ويوم القصاص، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم المآب، ويوم العذاب، ويوم الفرار، ويوم القرار، ويوم اللقاء، ويوم البقاء، ويوم القضاء، ويوم الجزاء، ويوم البلاء، ويوم البكاء، ويوم الحشر، ويوم الوعيد، ويوم العرض، ويوم الوزن، ويوم الحق، ويوم الحكم، ويوم الفصل، ويوم الجمع، ويوم البعث، ويوم الفتح، ويوم الخزي، ويوم عظيم، ويوم عقيم، ويوم عسير، ويوم الدين، ويوم اليقين، ويوم النشور، ويوم المصير، ويوم النفخة، ويوم الصيحة، ويوم الرجفة، ويوم الرجة، ويوم الزجرة، ويوم السكرة، ويوم الفزع، ويوم المنتهى، ويوم الجزع، ويوم المأوى، ويوم الميقات، ويوم الميعاد، ويوم المرصاد، ويوم القلق، ويوم العرق، ويوم الافتقار، ويوم الانكدار، ويوم الانتشار، ويوم الانشقاق، ويوم الوقوف، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم التغابن، ويوم عبوس، ويوم معلوم، ويوم موعود، ويوم مشهود، ويوم لا ريب فيه، ويوم تبلى فيه السرائر، ويوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ويوم تشخص فيه الأبصار، ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا، ويوم يسحبون في النار على وجوههم، ويوم تقلب وجوههم في النار، ويوم لا يجزي والد عن ولده، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، يوم لا مرد له من الله، يوم هم بارزون، ويوم هم على النار يفتنون، يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار. يوم تخشع فيه الأبصار، وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات، وتبرز الخفيات، وتظهر الخطيئات، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد، ويشيب الصغير ويسكر الكبير، فيومئذ وضعت الموازين

---

(١) حديث: «**شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**». أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، وقد تقدم.

ونشرت الدواوين، وبرزت الجحيم وأغلي الحميم، وزفرت النار ويئس الكفار، وسعرت النيران وتغيرت الألوان، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان.

فيا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين، يرسل لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرّفنا غفلتنا ويقول: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣] ثم يعرّفنا قرب القيامة فيقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١] - ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦، ٧] - ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه. فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

صفة المساءلة:

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاهاً من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير. فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى مواقف العرض على الجبار. قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكاً مَا بَيْنَ شُفْرَيْ عَيْنَيْهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ»**(١)، فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلاً هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده. وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين. فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع، فيقولون للملائكة: أفيكم ربنا؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا: سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد! وعند ذلك تقوم الملائكة صفاً محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة، لشدة اليوم.

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٦، ٧]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. فيبدأ سبحانه بالأنبياء: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [المائدة: ١٠٩]. فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة؛ إذ يقال لهم: ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون، فيقولون من شدة الهيبة: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب. وهم في ذلك الوقت

---

(١) حديث: «إن لله عز وجل ملكاً ما بين شفري عينيه. مسيرة مائة عام». لم أره بهذا اللفظ.

صادقون، إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له: هل بلغت، فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فيبقى متشحطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال، ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً: يا فلان بن فلانة، هلم إلى موقف العرض. وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار، ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق.

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزُّمَر: ٦٩]، وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك: يا جبريل ائتني بالنار، فيجيء لها جبريل ويقول: يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك. فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره، فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعاً ورعباً فتساقطوا جثياً على الركب، وولوا مدبرين: يَوْمَ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون نفسي نفسي. فبينما هم كذلك، إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين.

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل، وقال: ماذا أجبتم؟ فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتدّ الفزع على العصاة، ففرّ الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته، وبقي كل واحد منتظراً لأمره، ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه. قال أبو هريرة: قالوا: يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: **«هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ في الظَّهِيرَةِ لَيسَ دُونَها سَحَابٌ»**. قالوا: لا. قال: **«فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ لَيسَ دُونَهُ سَحَابٌ»**. قالوا: لا. قال: **«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رِبِّكُمْ؛ فَيلْقَى العَبْدَ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرَأَسُ وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ العَبْدُ: بَلَى؛ فَيَقُولُ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لا، فَيَقُولُ: فَأَنَا أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»**(١).

فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهاً، فيقول لك: ألم أنعم عليك بالشباب ففي ماذا أبليته؟ ألم أمهل لك في العمر ففي ماذا أفنيته؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفي ماذا أنفقته؟ ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك؟ فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك. قال أنس رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال: **«أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ»**.

---

(١) حديث أبي هريرة: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **«هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب...»** الحديث. متفق عليه دون قوله **«فيلقى العبد... الخ»**، فانفرد بها مسلم.

قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**مَنْ مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ**». قال: «**يَقُولُ: بَلَى**». قال: «**فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إلاّ شَاهِداً مِنِّي فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً وَبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُوداً**». قال: «**فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالِ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي**». قال: «**فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلام فَيَقُولُ لأَعْضَائِهِ: بُعْداً لَكُنَّ وَسُحْقاً فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»(١). فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره.

سأل ابن عمر رجل، فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: نَعَمْ، ثُمَّ يَقُولُ: إنِّي سَتَرْتُها عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا وَإنِي أغْفرها لَكَ اليَوْمَ**»(٢)، وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَتَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٣). فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك؛ إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدّة الهول مظلم، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمٰن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه: يا ابن آدم ادن مني، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها؟ فكم لك من خجل وجبن؟ وكم لك من حصر وعجز؟ فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول؟ ثم تفكر في عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاهاً، إذ يقول: يا عبدي. أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادي؟ استخففت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيري، ألم أنعم عليك؟ فماذا غرّك بي أظننت أني لا أراك وأنك لا تلقاني؟ قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاّ وَيَسْأَلُهُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ لَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلا ترَجمَانٌ**»(٤). وقال رسول الله ﷺ: «**لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فيقول لَهُ: أَلَمْ أُنعِم عَلَيْكَ أَلَمْ أُوتِكَ مَالاً؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَقُولُ: أَلَمْ أُرسِلْ إلَيكَ رَسُولاً؟ فَيَقُولُ: بَلَى: ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلا يَرَى إلاّ النَّارَ ثم يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلا يَرَى إلاّ النَّار، فَلْيَتَّقِ أَحَدُكُمُ النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِن لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»(٥). وقال ابن مسعود: ما

---

(١) حديث أنس: «**أتدرون مم أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه...**» الحديث. رواه مسلم.

(٢) حديث: «**سأل ابن عمر رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى...**» الحديث. رواه مسلم.

(٣) حديث: «**من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة**»، تقدم.

(٤) حديث: «**ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين...**» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ: «**إلا سيكلمه**» الحديث.

(٥) حديث: «**ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان...**»، أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم.

منكم من أحد إلا سيخلو الله عزّ وجلّ به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول: يا ابن آدم ما غرّك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين، يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك ألم أكن رقيباً على أذنيك، وهكذا حتى عدّ سائر أعضائه، وقال مجاهد: لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عزّ وجلّ حتى يسأله عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفي ماذا أنفقه؟ فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك فإنك بين أن يقال لك: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ـ فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأوّلون والآخرون ـ وإما أن يقال للملائكة: خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديراً بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرّطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك!.

صفة الميزان:

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق:

فرقة: ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب، وينطوي عليهم ويلقيهم في النار، فتبتلعهم النار وينادى عليهم: شقاوة لا سعادة بعدها.

وقسم آخر: لا سيئة لهم، فينادي مناد: ليقم الحمادون لله على كل حال؛ فيقومون، ويسرحون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى. وينادى عليهم: سعادة لا شقاوة بعدها.

ويبقى **قسم ثالث**: وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلا أن يعرّفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق.

وروى الحسن: أن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس، فذكرت الآخرة فبكت، حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله ﷺ، فانتبه فقال: «**ما يُبْكِيكِ يا عَائِشَةُ؟**» قالت: ذكرت الآخرة، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَإِنَّ أَحَداً لا يَذْكُرُ إلاّ نَفْسه: إذَا وُضِعَت المَوَازِينُ وَوُزِنَت الأَعْمَالُ حَتَّى يَنْظُرَ ابْنُ آدَمَ أَيَخفّ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الصُّحُفِ حَتَّى يَنْظُرَ أَبِيَمِينِهِ يَأْخُذُ كِتَابه أَوْ بِشِمَالِهِ، وَعِنْدَ الصِّراطِ**»[1].

وعن أنس: «يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك، فإن

---

(١) حديث الحسن: «أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت. . .» الحديث. وفيه، فقال: «**ما يبكيك يا عائشة**». قالت: «ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة. . .» الحديث. أخرجه أبو داود من رواية الحسن: أنها ذكرت النار فبكت، فقال: «**ما يبكيك**» دون كون رأسه ﷺ في حجرها وأنه نعس وإسناده جيد.

ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً. وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار». قال رسول الله ﷺ في يوم القيامة: **«إِنَّهُ يَوْمٌ يُنَادِي اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَيَقُولُ لَه: قُمْ يا آدَمُ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ فَيَقُولُ: وَكَمْ بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ»** فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا، حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما عند أصحابه. قال: **«اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتا مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلاّ كَثرَتَاهُ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ»**. قالوا: وما هما يا رسول الله؟ قال: **«يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ»**. قال: فسري عن القوم، فقال: **«اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ البَعِيرِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ»**[1].

صفة الخصماء ورد المظالم:

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة: ٦-١١].

واعلم: أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته. كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا. وإنما حسابه لنفسه؛ أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصيره من فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه، وبطيب قلوبهم، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة، فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلببه. هذا يقول: ظلمتني، وهذا يقول: شتمتني، وهذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: ذكرتني في الغيبة بما يسوءني، وهذا يقول: جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول: عاملتني فغششتني، وهذا يقول: بايعتني فغبنتني وأخفيت عني عيب سلعتك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: رأيتني محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمتني، وهذا يقول: وجدتني مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظلم عني، فداهنت الظالم وما راعيتني. فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم، وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ـ حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم ـ إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]. فعند ذلك ينخلع

---

(١) حديث: «يقول الله: يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري، ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه، وقد تقدم.

قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٤] الآية.

فما أشدّ فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم! وما أشدّ حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل، وشوفهت بخطاب السياسة، وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذراً؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَنِ المُفْلِسِ**». قلنا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع. قال: «**المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هٰذَا وَقَذَفَ هٰذا وَأَكَلَ مَالَ هٰذا وَسَفَكَ دَمَ هٰذا وَضَرَبَ هٰذا فَيُعْطى هٰذا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهٰذا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاته قَبْلَ أَنْ يَقْضِي مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»(١). فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم. إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك! فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء؟ فقد روى أبو ذرّ: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان، فقال: «**يا أَبا ذَرّ أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ؟**». قلت: لا، قال: «**وَلَكِنَّ اللَّه يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٢).

وقال أبو هريرة في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ـ البهائم والدواب والطير وكل شيء ـ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. فكنت أنت يا مسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك، فتقول: أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتدّ بسبب الكف عنها عناؤك، فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط! فيقال: هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الأَصْنَامُ بِأَرْضِ العَرَبِ وَلٰكِنْ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِمَا هُوَ دُونَ ذٰلِكَ بِالمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ المُوبِقَاتُ، فَاتَّقُوا الظُّلْمَ ما اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ العَبْدَ لَيَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الجِبَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ فَيَرَى أَنَّهُنَّ سَيُنْجِينَهُ فَمَا يَزَالُ عَبْدٌ يَجِيءُ فَيَقُولُ: رَبِّ إِنَّ فُلاناً ظَلَمَنِي بِمَظْلَمَةٍ فيقولُ: امْحُ مِنْ حسناتِهِ فما يزالُ كَذٰلِكَ حَتَّى لا يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ، وإِنَّ مَثَلَ ذٰلِكَ مَثَلُ سَفْرٍ نَزَلُوا بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ حَطَبٌ فَتَفَرَّقَ القَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أَعْظَمُوا نَارَهُمْ**

---

(١) حديث أبي هريرة: «هل تدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع... الحديث. تقدم.

(٢) حديث: «يا أبا ذر أتدري فيم ينتطحان». قلت: لا، قال: «ولكن ربك يدري وسيقضي بينهما». أخرجه أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر.

وَصَنَعُوا ما أَرَادُوا»[1]، وكذلك الذنوب. ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزُّمَر: ٣٠،٣١]. قال الزبير: يا رسول الله، أيكرّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «**نَعَمْ لَيُكَرَّرَنَّ عَلَيكُمْ حَتَّى تُؤَدُّوا إلى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»[2]. قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. فأعظم بشدّة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة، حتى ينتقم للمظلوم من الظالم! قال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَحْشُرُ اللَّهُ العِبَادَ عُرَاةً غُبراً بهماً**». قال: قلنا: ما بهماً؟ قال: «**ليس معهم شيء، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه؛ حتى اللطمة**». قلنا: وكيف وإنما نأتي الله عزّ وجلّ عراة غبراً بهماً! فقال: «**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**»[3] فاتقوا الله عباد الله، ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة، فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم، فليكثر من حسناته ليوم القصاص، وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى، فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم، كما روي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه يضحك، حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «**رجُلاَنِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْطِ أَخاكَ مَظْلَمَتَهُ. قالَ: يا رَبِّ لم يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شيءٌ، فقال الله تعالى لِلطَّالب: كَيْفَ تصنعُ وَلَمْ يبقَ مِنْ حسناته شَيْءٌ. قالَ: يا ربِّ يَتَحَمَّل عَنِي مِنْ أَوْزَارِي**». قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: «**إنَّ ذٰلِكَ اليومَ عَظِيمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ**» قال: «**فقالَ اللَّهُ للطالبِ: ارْفَعْ رَأْسَكَ فانْظُرْ في الجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقالَ: يا ربِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ مرتفعة وقصوراً مِنْ ذهبٍ مُكَلَّلَةً باللؤلؤ لأيِّ نَبيَ هٰذا أو لأيِّ صدِّيقٍ هٰذا؟ أو لأيِّ شهيدٍ هٰذا؟ قال: لِمَنْ أعطَانِي الثَّمَنَ، قالَ: يا ربِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ثمَنه؟ قالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ، قالَ: وَما هُوَ؟ قال: عَفْوُكَ عَنْ أَخِيكَ، قالَ: يا رَبِّ إنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، قال اللَّهُ تعالى: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ**»، ثُمّ قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «**اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَينِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بَيْنَ**

---

(١) حديث ابن مسعود: «**إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما دون ذلك المحقرات وهي الموبقات...**» الحديث. وفي آخره: «**وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة...**» الحديث. رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصراً على آخره: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً... الحديث. وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصراً من حديث جابر: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم**».

(٢) حديث: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزُّمَر: ٣٠،٣١]. قال الزبير: «يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا...» الحديث. أخرجه أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير، وقال حسن صحيح.

(٣) حديث: أنس: «**يحشر العباد عراة غبراً بهماً**» قلنا: ما بهما؟ قال: «**ليس معهم شيء...**» الحديث.
قلت: ليس من حديث أنس وإنما هو عبدالله بن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن، وقال: «**غرلاً**» مكان «**غبراً**».

المُؤْمِنِينَ»[(١)]، وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله؛ وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق.

فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم، أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد: كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء، وقد خلع عليك خلعة الرضا، وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء، وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء؟ وعند ذلك طار قلبك سروراً وفرحاً وابيض وجهك واستنار وأشرق، كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك، وخلق الأوّلين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك، ومن خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه، وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً! أفترى أنّ هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه، فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به.

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة، وهي عند الله عظيمة فمقتك لأجلها، فقال: عليك لعنتي يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى، فيقولون: وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين، وعند ذلك تتثال إليك الزبانية، وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك، وأنت تنادي بالويل والثبور، وهم يقولون لك: لا تدع اليوم ثبوراً واحداً وادع ثبوراً كثيراً وتنادي الملائكة، ويقولون: هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله، أو طلباً للمكانة في قلوبهم، أو خوفاً من الافتضاح عندهم، فما أعظم جهلك، إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملإ العظيم مع التعرّض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط.

صفة الصراط:

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وفي قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصَّافات: ٢٣، ٢٤]. فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ـ وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر ـ فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف

(١) حديث أنس: بينما رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه ضحك، حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العالمين...». الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرك وقد تقدم.

على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى؛ تعثر في أوّل قدم من الصراط وتردى. فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم، فيا له من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك، تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق، وهم يتهافتون في النار والرسول عليه السلام يقول: «**يا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ**» والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك؟ فناديت بالويل والثبور، وقلت: هذا ما كنت أخافه فيا ليتني قدّمت لحياتي! يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً! يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً! يا ليتني كنت تراباً! يا ليتني كنت نسياً منسياً! يا ليت أمي لم تلدني! وعند ذلك تختطفك النيران ـ والعياذ بالله ـ وينادي المنادي: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاوناً فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه! فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه ـ وإن سلمت ـ فناهيك به هولاً وفزعاً ورعباً! قال رسول الله ﷺ: «**يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَي جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوّلَ مَنْ يُجِيزُ بِأُمَّتِهِ مِنَ الرُّسُلِ، ولا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إلاّ الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يومئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّم كلاليبُ مثل شَوكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟**». قالوا: نَعَمْ يا رسول الله. قال: «**فَإِنَّها مثلُ شَوكِ السَّعْدانِ غَيرَ أَنَّهُ لا يعلمُ قدرَ عظمها إلاّ اللَّهُ تعالى تَخْتَطِفُ النَّاسَ بأعمالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن يُوبَقُ بِعَمَلِهِ ومنهمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو**»(١).

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكلاليبُ وَخطاطِيفُ تَخْتَطِفُ النَّاسَ يميناً وشِمالاً وعلى جَنْبَتَيْهِ ملائكةٌ يقولونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ البَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ المُجْرى، ومنهم مَن يسعى سَعياً، ومنهم مَنْ يمشي مَشياً، ومنهم مَنْ يَحْبُو حَبْواً، ومنهم مَنْ يزحف زَحفاً، فأمّا أهلُ النارِ الذينَ هُمْ أَهْلُها فلا يموتون ولا يَحْيَونَ، وأمّا ناسٌ فَيُؤْخَذُونَ بِذنوبٍ وخطايا فَيَحْتَرِقُونَ فَيكونونَ فَحْماً ثُمَّ يُؤْذَنُ في الشَّفَاعَةِ**»(٢). وذكر إلى آخر الحديث.

---

(١) حديث: «**ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز**». متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل.

(٢) حديث أبي سعيد: «**يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف...**» الحديث. متفق عليه مع اختلاف ألفاظ.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالأَخَرِينَ لميقاتِ يوم مَعلوم قياماً أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أبصارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ ينتظرونَ فَصْلَ القَضَاءِ**». وذكر الحديث إلى أن ذكر وقتَ سجود المؤمنين. قال: «**ثم يقولُ للمؤمِنينَ ارْفَعُوا رؤوسَكُمْ فيرفعونَ رؤوسَهُمْ فيعطيهم نُورَهُمْ على قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فمنهم مَنْ يُعْطى نَورَهُ مِثْلَ الجَبَلِ العظيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ، ومنهم مَنْ يُعْطى نُورَهُ أَصْغَرَ من ذٰلِكَ، ومنهم مَنْ يُعْطى نورَهُ مثلَ النَّخْلَةِ، ومنهم مَنْ يُعْطى نُورَهُ أَصْغَرَ من ذٰلِكَ، حتى يكون آخِرُهُمْ رَجُلاً يُعْطى نُورَهُ على إبهام قَدَمِهِ فيضيءُ مَرَّةً ويخبو مرةً فإذا أضاء قَدمَ قَدَمَهُ فَمَشَى وإذا أَظْلَم قَامَ**». ثم ذكر مرورهم على الصراط على قَدْرِ نُورِهِمْ: «**فمنهمْ من يَمُرُّ كَطَرْفِ العَيْنِ، ومنهم مَنْ يَمرُّ كالبرقِ، ومنهمْ من يَمُرُّ كالسَّحَابِ، ومنهمْ مَنْ يَمُرُّ كانقضاضِ الكَوَاكِبِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدِّ الفَرَسِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ حتى يَمُرَّ الَّذِي أعطِيَ نُورَهُ على إبهام قدمِهِ يَحْبُو على وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ ورجليهِ تجرُّ مِنْهُ يَدٌ وَتعلقُ أخرى وتعلَّقُ رجلٌ وتجرُّ أخرى وتصيبُ جوانبهُ النَّارُ**». قال: «**فلا يَزَالُ كذلِكَ حتى يخلصَ فإذا خَلَصَ وَقَفَ عليها ثمَّ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ ما لَمْ يُعْطِ أَحَداً إذ نَجَّانِي مِنْها بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُها فَينْطَلِقُ بِهِ إلى غَدِيرٍ عِنْدَ بابِ الجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُ**»(١).

وقال أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ أَوْ كَحَدِّ الشَّعْرَةِ وَإِنَّ المَلائِكَةَ يِنجُونَ المؤمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيهِ السَّلامُ لآخِذٌ بِحُجْزَتِي وَإِنِّي لأَقُولُ: يا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ فَالزَّالُّونَ والزَّالاَّتُ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ**»(٢).

فهذه أهوال الصراط وعظائمه، فطوّل فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة. ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك، ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب، وتعود إلى لهوك ولعبك؟ فما هذا من الخوف في شيء؟ بل من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه. فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته. وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى، إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة، فقال أحدهم: استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم. وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم. فالشيطان يضحك من استعاذتهم، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد. قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدّة بنيانه وإحكام أركانه؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغني عنه ذلك من السبع. وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: «لا إله إلا الله» صادقاً ومعنى صدقه؛ أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر

---

(١) حديث ابن مسعود: «**يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء**». قال: وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدي والحاكم، وقد تقدم بعضه مختصراً.

(٢) حديث أنس: «**الصراط كحد السيف. أو كحد الشعرة...**» الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب، وقال: هذا إسناد ضعيف قال: وروي عن زياد النميري عن أنس مرفوعاً: «**الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف**»، قال: وهي رواية صحيحة ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة.

في نفسه، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محباً لرسول الله ﷺ حريصاً على تعظيم سننه، ومتشوّقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركاً بأدعيتهم، فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة.

صفة الشفاعة:

اعلم: أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصدّيقين، بل شفاعة العلماء والصالحين، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه، فكن حريصاً على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة؛ وذلك بأن لا تحقر آدمياً أصلاً، فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده؛ فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله، ولا تستصغر معصية أصلاً؛ فإن الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه، ولا تستحقر أصلاً طاعة؛ فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه؛ ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه.

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة: قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾ [الضحى: ٥]. روى عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، ثم رفع يديه وقال: «أمتي أمتي»، ثم بكى فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل فسأله فأخبره - والله أعلم به - فقال: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»[1]. وقال ﷺ: **«أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَتُرَابُها طَهُوراً فأيّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَة، وَكُلُّ نَبِيّ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»**[2]، وقال ﷺ: **«إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَةِ كنتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ مِنْ غَيرِ فَخْرٍ»**، وقال ﷺ: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عنهُ وأَوَّلُ مَنْ شافع وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ بِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ تَحْتَهُ آدم فَمَنْ دُونَهُ»**[3]، وقال ﷺ: **«لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ**

---

(١) حديث عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، ثم رفع يديه، ثم قال: **«أمتي أمتي»** ثم بكى. وفيه: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك ولا نسوءك في أمتك.
قلت: ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبدالله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبدالله من بعض النساخ.

(٢) حديث: **«أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي...»** الحديث. وفيه **«وأعطيت الشفاعة»**. متفق عليه من حديث جابر: **«إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر»**. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) حديث: **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر...»** الحديث. أخرجه الترمذي، وقال: حسن. وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري.

مُسْتَجَابَةٌ فَأُرِيدُ أن أَختبِيءَ دَعْوَتِي شفاعةً لأُمّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «يُنْصَبُ لِلأَنْبِيَاءِ منابِرُ مِن ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيها، وَيَبْقَى مِنْبَرِي لا أَجْلِسُ عليه قائِماً بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي منتصباً مخافةَ أن يبعث بي إلى الجَنَّةِ وَتَبْقَى أمّتِي بَعْدِي، فَأَقولُ: يا ربِّ أُمّتِي فيقولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يا محمدُ وما تريدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأُمّتِكَ؟ فَأَقولُ: يا رَبِّ عَجِّل حِسَابَهُمْ فما أَزالُ أشفعُ حتى أُعطَى صِكاكاً برجال قد بُعِثَ بِهِمْ إلى النَّارِ وحتّى إنَّ مالكاً خازِنَ النَّارِ يقولُ: يا محمدُ ما تَرَكت للنَّار لغضب ربك في أمتك من بَقِيَّةٍ»[(٢)]. وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنّي لأَشْفَعُ يوم القِيَامَةِ لأكثرَ مِمَّا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ»[(٣)].

وقال أبو هريرة: أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد المرسلين يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله. فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري

---

(١) حديث: «لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة». متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث ابن عباس: «ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف.

(٣) حديث: «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر». أخرجه أحمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن.

اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتون فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب؟ فقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»، ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كما بَيْنَ مَكةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَما بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[1].

وفي حديث آخر: هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم؛ وهو قوله في الكواكب هذا ربي، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا، وقوله: إني سقيم. فهذه شفاعة رسول الله ﷺ، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضاً، حتى قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رجل مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ»[2]، وقال ﷺ: «يُقَالُ لرَّجُلٍ: قُمْ يا فلانُ فاشفعْ فيقوم الرَّجلُ فيشفع لِلْقَبِيلَةِ ولِأَهْلِ البيتِ وَللرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ على قَدْرِ عَمَلِهِ»[3].

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يشرفُ يومَ القيامَةِ على أَهْلِ النَّارِ فيناديهِ رجلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ويقولُ: يا فلانُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: لا واللَّهِ ما أعرفكَ مَنْ أنتَ؟ فيقولُ: أنا الَّذِي مَرَرْتَ بِي في الدُّنْيا فاسْتَسْقَيْتَنِي شربةَ ماءٍ فَسَقَيْتُكَ، قال: قد عَرَفْتُ، قال: فاشْفَعْ لي بها عند رَبِّكَ! فيسألُ اللَّهَ تعالى ذكره ويقولُ: إنّي أَشْرَفْتُ على أهلِ النَّارِ فَنادانِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِها فقالَ: هل تعرفني؟ فقلتُ: لا مَنْ أنتَ؟ فقالَ: أنا الذي استسقيتني في الدُّنيا فسقيتكَ فاشفعْ لي عندَ رَبِّكَ فَشَفِّعْنِي فيهِ، فَيُشَفِّعُهُ اللَّهُ فيه فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ»[4]، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنا أَوَّلُ النَّاسِ خروجاً إذا بُعِثُوا وَأَنا خَطِيبُهُمْ إذا وَفَدُوا وأنا مُبَشِّرُهُمْ إذا يَئِسُوا، لواءُ الحَمْدِ يومئذٍ بِيَدِي وأنا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ

---

(١) حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ أتي بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منه نهشة ثم قال: «أنا سيد الناس...» الحديث. بطوله في الشفاعة، قال: وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم.

(٢) حديث: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر» رويناه في جزء أبي عمر بن السماك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال: «مثل أحد الحيين ربيعة ومضر» وفيه: فكأن المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبدالله بن أبي الجدعاء: «يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم». قالوا: سواك. قال: «سواي» قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح، قيل: أراد بالرجل أويساً.

(٣) حديث: «يقال لرجل: قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد «أن من أمتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة...» الحديث. قال: حسن. وللبزار من حديث أنس: «أن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة».

(٤) حديث أنس: «إن رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول: يا فلان هل تعرفني؟ فيقول: لا والله ما أعرفك من أنت؟ فيقول: أنا الذي مررت بي في الدنيا يوماً فاستسقيتني شربة فسقيتك...» الحديث. في شفاعته فيه وإخراجه من النار. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف.

عَلَى رَبِّي ولا فَخْرَ»[١]. وقال رسول الله ﷺ: «**إنِّي أقومُ بينَ يَدَيْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَأُكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الجَنَّةِ ثم أقومُ عن يمينِ العَرْشِ ليسَ أَحَدٌ مِنَ الخلائِقِ يقُومُ ذلك المقامَ غَيْرِي**»[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً إنّ الله عزّ وجلّ اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً! وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليماً! وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه! وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم ﷺ فسلم وقال: «**قَدْ سَمِعْتُ كلامَكُمْ وَتَعَجُّبَكُمْ إنَّ إبراهيمَ خليلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذٰلِكَ، وَمُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ وَهُوَ كَذٰلِكَ، وَعِيسى روحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وهو كذلك، وآدَمَ اصْطَفَاهُ اللَّهُ تعالى وهو كذلك، ألا وأنا حَبِيبُ الله ولا فَخْرَ، وأنا حامِلُ لواءِ الحمد يومِ القيامة ولا فخر وأنا أوّلُ شافع وأول مُشَفَّعٍ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ، وأنا أوّلُ مَنْ يُحَرِّكَ حلقَ الجَنَّةِ فيفتحُ اللَّهُ لِي فأدخلها ومعي فقراء المُؤمِنِينَ ولا فَخْرَ، وأنا أكرمُ الأوَّلينَ والآخِرِينَ وَلا فَخْرَ**»[٣].

صفة الحوض:

اعلم: أنّ الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه، فإن من صفاته؛ أنّ من شرب منه لم يظمأ أبداً. قال أنس: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً، فقالوا له: يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال: «**آية أنزلت علي آنفاً**». وقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] حتى ختمها ثم قال: «**هَلْ تَدْرُونَ ما الكَوْثَرُ؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**إنَّهُ نَهرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ في الجنةِ عليه خَيْرٌ كَثِيرٌ عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يومَ القيامةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّماءِ**»[٤]. وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَما أنا أسيرُ في الجَنَّةِ إذا بنهرٍ حافَّتَاهُ قِبابُ اللؤلؤ المجوفِ قلت: ما هٰذا يا جبريلُ؟ قال: هٰذا الكَوْثر الذي أعطاكَ رَبكَ فضربَ الملكُ بيدِهِ فإذا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ**»[٥]، وقال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**ما بَيْنَ لابَتَيْ حَوْضِي مِثْل ما بَيْنَ المَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ ـ أو مِثْلُ ما بينَ المَدِينة وعُمَانَ ـ**»[٦].

---

(١) حديث أنس: «**أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا...**» الحديث. أخرجه الترمذي. وقال: حسن غريب.

(٢) حديث: «**فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش...**» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن غريب صحيح.

(٣) حديث ابن عباس: «جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم، فقال بعضهم عجباً: إن الله اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً...» الحديث. رواه الترمذي وقال: غريب.

(٤) حديث أنس: أغفي رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً، فقالوا له: يا رسول الله، لم ضحكت؟ فقال: «**آية نزلت علي آنفاً**». وقرأ بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، رواه مسلم.

(٥) حديث أنس: «**بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف...**» الحديث. أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس: «لما عرج بالنبيّ ﷺ إلى السماء...» الحديث. وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبيّ ﷺ

(٦) حديث أنس: «**ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان**». رواه مسلم.

وروى ابن عمر: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]. قال رسول الله ﷺ: **«هُوَ نَهرٌ فِي الجَنَّةِ حافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وأحْلَى مِنَ العَسَلِ وأطيبُ رِيحاً مِنَ المِسْكِ يَجْرِي على جَنَادِلِ اللؤلؤِ وَالمَرْجَانِ»**(١)، وقال ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ حَوْضِي ما بينَ عدن إلى عمانَ البلقان ماؤهُ أَشَدُّ بياضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ وأكوابهُ عَدَدُ نجومِ السَّماءِ، مَنْ شَرِبَ منهُ شربةً لم يَظمَأْ بعدها أبداً، أوَّل النَّاسِ وُرُوداً عَلَيْهِ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ»**. فقال عمر بن الخطاب: ومن هم يا رسول الله؟ قال: **«هُمُ الشُّعْثُ رؤوساً الدُّنْسُ ثِياباً الَّذِينَ لا يَنْكِحُونَ المُتَنَعِّمَاتِ ولا تُفْتَحُ لَهُمْ أبوابُ السُّدَدِ»**(٢)، فقال عمر بن عبدالعزيز: والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبدالملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله، لا جرم لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ.

وعن أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله: ما آنية الحوض؟ قال: **«والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ وَكَوَاكِبِها فِي الليلةِ المظلمةِ المُضْحِيَةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ. آخِر ما عَلَيْهِ يشخبُ فيهِ من الجنةِ عَرْضُه مثلُ طُولِهِ ما بينَ عُمَانَ وَأَيْلَةَ، ماؤهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ»**(٣).

وعن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهُونَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وإنِّي لأَرْجُو أن أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً»**(٤)، فهذا رجاء رسول الله ﷺ؛ فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين، وليحذر أن يكون متمنياً ومغتراً وهو يظن أنه راج، فإنّ الراجي للحصاد من بث البذر ونقّى الأرض وسقاها الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد. فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين في شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى. نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإنّ الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها:

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]. فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك. فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك

---

(١) حديث ابن عمر: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] قال رسول الله ﷺ: **«هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب...»** الحديث. أخرجه الترمذي مع اختلاف لفظ وقال: حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف.

(٢) حديث ثوبان: **«إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء...»** الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب وابن ماجه.

(٣) حديث أبي ذر: قلت يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: **«والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء...»** الحديث. رواه مسلم.

(٤) حديث سمرة: **«إن لكل نبي حوضاً وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة...»** الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب. قال: روى الأشعث بن عبدالملك هذا الحديث عن الحسن عن النبيّ ﷺ مرسلاً ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح.

تستعدّ للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البراء من سوء المنقلب. وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان، المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان: ٤٩] فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم ومستقرّهم الجحيم، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها؛ يا مالك، قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود. فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان! ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسؤوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون؛ فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين. النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل. ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، قد عرّيت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون! فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سوّدت وجوههم أشد سواداً من الحميم، وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزقت جلودهم، وغلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم. وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سارٍ في بواطن أجزائهم، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، هذا بعض جملة أحوالهم.

وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضاً في أودية جهنم وشعابها، فقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ أَلْفَ وَادٍ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شِعْبٍ فِي كُلِّ شِعْبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ثُعْبَانٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ عَقْرَبٍ لا يَنْتَهِي الكافِرُ وَالمُنَافِقُ حَتَّى يُوَاقِعَ ذلك كُلَّهُ**»(١)، وقال علي كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: «**تَعَوَّذُوا**

---

(١) حديث سمرة بن جندب: «**إن في جهنم سبعين ألف واد كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله**» لم أجده هكذا بجملته، وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب.

بِاللَّهِ مِنْ جُبِّ الحزنِ ـ أَوْ وَادِي الحزنِ ـ» قيل: يا رسول الله، وما وادي ـ أو جب ـ الحزن؟ قال: «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنهُ جهنمُ كُلَّ يومٍ سبعينَ مرَّةً أَعَدَّهُ اللَّهُ تعالى لِلْقُرَّاءِ المُرَائِينَ»(١)، فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها. وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض؛ الأعلى جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حدّ لعمقها كما لا حدّ لعمق شهوات الدنيا، فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها. قال أبو هريرة: كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هٰذا حَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ منذُ سبعينَ عاماً الآنَ انْتَهى إلى قَعْرِها»(٢).

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان، بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه. قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عذاباً يومَ القيامةِ ينتعلُ بنعلينِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ»(٣). فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه. ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به. ثم اعلم أنك أخطأت في القياس؛ فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات! لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هرباً مما هم فيه. وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل: «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا»(٤) بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم فقال: «أَمَرَ اللَّهُ تعالى أنْ يُوقَدَ على النَّارِ أَلفَ عامٍ حتى احمرتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْها أَلفَ عام حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»(٥)، وقال ﷺ: «اشْتَكَتِ النَّارُ إلى رَبِّها فقالت: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بعضاً فَأَذِنَ لها في نَفَسَيْنِ نَفَس فِي الشِّتاء، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ ما تَجِدُونَهُ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّها وَأَشَدّ ما تَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ زَمْهَرِيرِها»(٦).

---

(١) حديث علي: «تعوذوا بالله من جب الحزن ـ أو وادي الحزن. . .» الحديث. رواه ابن عدي بلفظ: «وادي الحزن» وقال: باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف، ورواه الترمذي وقال: غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ: «جب الحزن» وضعفه ابن عدي وتقدم في ذم الجاه والرياء.

(٢) حديث أبي هريرة: «كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة. . .» الحديث. وفيه: «هذا حجر أرسل في جهنم. . .» الحديث. رواه مسلم.

(٣) حديث: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار. .» الحديث. متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

(٤) حديث: «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا» ذكر ابن عبدالبر من حديث ابن عباس: «وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد» وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف: «وما وصلت إليكم» حتى أحسبه قال: «انضحت بالماء فتضيء عليكم».

(٥) حديث: «أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت. . .» الحديث. تقدم.

(٦) حديث: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقال أنس بن مالك: يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال: اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت نعيماً قط فيقال: لا. ويؤتى بأشد الناس ضراً في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له: هل رأيت ضراً قط؟ فيقول: لا. وقال أبو هريرة: لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا. وقد قال بعض العلماء في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته عند أعقابهم.

ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق: قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّ دَلْواً مِنْ غَسَاقِ جَهَنَّمَ أُلْقِيَ فِي الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْلَ الأَرْضِ**»(١)، فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧] ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾ [الواقعة: ٥١-٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ [الصافات: ٦٤-٦٨] وقال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية: ٤، ٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ [المزمل: ١٢، ١٣] وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم**»(٢)، فكيف من يكون طعامه ذلك؟ وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**ارْغَبُوا فِيما رَغَّبَكُم اللَّهُ وَاحْذَرُوا وَخَافُوا ما خَوَّفَكُم اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الجَنَّةِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُم الَّتِي أَنتمْ فيها طَيَّبَتْها لَكُمْ، وَلَوْ كَانَتْ قطرةٌ مِنَ النَّارِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُم الَّتِي أنتم فيها خَبَّثَتْهَا عَلَيْكُمْ**»(٣)، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «**يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوع حَتَّى يَعْدِلَ ما هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بالطَّعَام فَيُغَاثُونَ بِطَعَام مِنْ ضَرِيع لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَام فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، فَيذكرون أنهم كما كانوا يُجِيزُونَ الغُصَصَ في الدنيا بشَرابٍ فَيَسْتَغِيثُونَ بشرابٍ فيرفع إليهمْ الحَمِيمِ بكلاليب الحَدِيدِ، فإذا دَنَتْ من وجوههم شَوَتْ وُجُوهَهُمْ، فإذا دَخَلَ الشَّرَابُ بُطُونَهُمْ قطعَ ما في بُطُونِهِمْ فيقولون: ادْعُوا خَزَنَةَ جهنمَ، قال: فيدعون خزنةَ جهنَّم أن ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ**

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري: «**لو أن دلواً من غساق ألقي في الدنيا لأنتن أهل الأرض**» أخرجه الترمذي وقال: إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف.

(٢) حديث ابن عباس «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم...**» الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح وابن ماجة.

(٣) حديث أنس: «**ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم...**» الحديث. لم أجد له إسناداً.

إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠] قال: «**فَيَقُولُونَ ادْعُوا مَالِكاً فيدعون فَيَقُولُونَ**: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: «**فَيُجِيبُهُمْ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ**»(١).

قال الأعمش: أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال: فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧] قال: فيجيبهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل. وقال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧] قال: «**يُقَرَّبُ إِلَيهِ فَيَتَكَرَّهُهُ فإذا أُدْنِيَ منهُ شَوَى وَجهَهُ فَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ. فَإذا شَرِبَهُ قَطَّعَ أمعاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ**». يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمّد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]. «**فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم**»(٢).

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم، فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة! قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ آتاهُ اللَّهُ مالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَومَ القِيامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهَازِمِهِ - يعني أشداقه - فَيَقُولُ: أنا مَالُكَ أنا كَنْزُكَ**»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ...﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية(٣) وقال الرسول ﷺ: «**إنَّ فِي النَّارِ لَحَيَّاتٍ مِثْلَ أَعْنَاقِ البُخْتِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَها أربعِينَ خَرِيفاً، وإنَّ فيها لَعَقارِبَ كالبِغَالِ المُوكَفَةِ يَلْسَعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتها أربعينَ خريفاً وَهٰذِهِ الحَيَّات وَالعَقَارِبُ إنَّما تُسَلَّطُ على مَنْ سُلِّطَ عليهِ فِي الدُّنْيا البُخْلُ وَسُوءُ الخُلُقِ وَإِيذاءُ النَّاسِ وَمَنْ وُقِيَ ذٰلِكَ وُقِيَ هذه الحَيَّاتِ فَلَمْ تَمْثُلْ لَهُ**»(٤)، ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإنّ الله تعالى يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**ضِرسُ الكافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وغِلظُ جِلْدِهِ مَسيرَةُ ثَلاثٍ**»(٥)، وقال رسول الله ﷺ: «**شَفَتُهُ السُّفْلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالعُلْيا قَالِصَةٌ قَدْ غَطَّتْ وجْهَهُ**»(٦) وقال عليه السلام:

---

(١) حديث أبي الدرداء: «**يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام**». الحديث. أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، قال الدارمي: والناس لا يعرفون هذا الحديث، وإنما روي عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله.

(٢) حديث أبي أمامة: في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧] قال: يقرب إليه... الحديث أخرجه الترمذي وقال: غريب.

(٣) حديث أبي هريرة: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع...**» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه.

(٤) حديث: «**إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة...**» الحديث. أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبدالله بن الحارث بن جزة.

(٥) حديث أبي هريرة: «**ضرس الكافر في النار مثل أحد...**» الحديث. رواه مسلم.

(٦) حديث: «**شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه**» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: حسن صحيح غريب.

«**إنَّ الكَافِرَ لَيَجُرُّ لِسَانَهُ فِي سِجِّينٍ يَوْمَ القِيَامَةِ يَتَوَاطَؤُهُ النَّاسُ**»(1) ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدّد جلودهم ولحومهم. قال الحسن في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النِّساء: ٥٦] قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا.

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور، فإن ذلك يسلط عليهم في أوّل إلقائهم في النار قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سبعونَ ألْفَ زمام مَعَ كُلِّ زمام سبعونَ ألْفَ مَلَكٍ**»(2)، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**يُرْسَلُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ البُكَاءُ فيبكُونَ حتى تنقطعَ الدُّموعُ ثم يبكونَ الدَّمَ حتى يُرَى فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ وما دام يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي البُكَاءِ وَالشَّهِيقِ وَالزَّفِيرِ وَالدَّعْوَةِ بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ فَلَهُمْ فِيهِ مُسْتَروحٌ وَلٰكِنَّهُمْ يُمْنَعُونَ أيضاً مِنْ ذٰلِكَ**»(3)، قال محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عزّ وجلّ في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فيقول الله تعالى مجيباً لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] ثم يقولون: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبداً وذلك غاية شدّة العذاب. قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] قال: صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]، وقال ﷺ: «**يُؤتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ كأنه كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُذْبَحُ بينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ويقالُ: يا أهلَ الجَنَّةِ خلودٌ بلا مَوْتٍ ويا أهلَ النَّارِ خلودٌ بلا مَوْتٍ**»(4). وعن الحسن قال: يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل. ورئي الحسن رضي الله عنه جالساً في زاوية وهو يبكي فقيل له: لم تبكي؟ فقال: أخشى أن يطرحني في النار ولا يبالي.

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة، وتفصيل عمومها وأجزائها ومحنها وحسرتها لا نهاية له، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب حسرة: فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى

---

(1) حديث: «**إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس**» أخرجه الترمذي من رواية أبي المخارق عن ابن عمر وقال: غريب وأبو المخارق لا يعرف.

(2) حديث: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود.

(3) حديث أنس: «**يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع...**» الحديث. أخرجه ابن ماجه من رواية الرقاشي عن أنس، والرقاشي ضعيف.

(4) حديث: «**يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح**» أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياماً قصيرة وكانت غير صافية، بل كانت مكدّرة منغصة فيقولون في أنفسهم: واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا؟ وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياماً قلائل، ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان؟ فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم. فقد قال رسول الله ﷺ: **«يؤتَى يومَ القيامَةِ بناسٍ مِنَ النَّارِ إلى الجنَّةِ حَتَّى إذا دَنَوا مِنها وَاسْتَنْشَقُوا رَائِحَتَها وَنَظَرُوا إلى قُصُورها وإلى ما أعدَّ اللَّهُ لأهْلِها فيهَا نُودُوا أنِ اصْرِفُوهُمْ عَنها لا نَصِيبَ لَهُمْ فِيها فَيَرْجِعُونَ بحسرةٍ ما رَجَعَ الأوّلونَ والآخرُونَ بِمِثْلِها، فَيَقُولُونَ: يا رَبَّنَا لَوْ أدْخَلْتَنا النَّارَ قبلَ أنْ تُرِيَنا ما أريتنا من ثوابك وما أعْدَدْتَ فيها لأوليائك كان أهْوَنَ عَلَيْنا، فيقولُ اللَّهُ تعالى: ذاكَ أرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إذا خَلَوْتُمْ بارَزْتُمُونِي بالعَظَائِمِ وإذا لَقِيتُم النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُرَاؤُونَ النَّاسَ بخلافِ ما تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ هِبْتُم النَّاسَ وَلَمْ تهابُونِي وَأجْلَلْتُم النَّاسَ ولم تُجِلُّونِي وَتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتركُوا لِي فَالْيَوْمَ أُذِيقُكُم العَذَابَ الألِيمَ مَعَ ما حَرَمْتُكُمْ مِنَ الثَّوَابِ المُقِيمِ»**[1] قال أحمد بن حرب: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار. وقال عيسى عليه السلام: كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غداً بين أطباق النار يصيح. وقال داود: إلهي: لا صبر لي على حرّ شمسك فكيف صبري على حر نارك؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك؟.

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩] ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة، بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك!.

فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي وإلى ماذا مآلي ومرجعي وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإنّ كلاً ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضيٌّ عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم.

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها:

اعلم: أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى. فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال

---

(١) حديث: «يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا روائحها...» الحديث. رويناه في الأربعين لأبي هدبة عن أنس وأبو هدبة إبراهيم بن هدبة هالك.

الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم، فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم، جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان؛ كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يمشين في درجات الجنان، إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان، قاصرات الطرف عين، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون، في مقام أمين في جنات وعيون، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة، بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً في أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور، ويؤتون بأكواب وأي أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته، لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه. فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها! وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته؛ كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرير ممتعون، لهم فيها كل ما يشتهون، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون، وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون، وهم من زوالها آمنون. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«يُنَادِي مُنَادٍ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أَبَداً: فذلك قوله عزّ وجلّ:** ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»[(١)].

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ من قوله

---

(١) حديث أبي هريرة: «ينادي مناد: **إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً...**» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦] إلى آخر سورة الرحمن، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور. وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها، وتأمل أوّلاً عدد الجنان. قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦] قال: **«جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»**[1]، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ كُلِّها وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَاب، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيام، وَمَنْ كَانَ مِنَ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد»**. فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: **«نعم، وأرجو أن تكون منهم»**[2].

وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه: أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكراً لا أحفظه ثم قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر: ٧٣] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبداً، ولا تشعث رؤوسهم كأنما دهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٣] ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة، يقولون له: أبشر أعدّ الله لك من الكرامة كذا، قال: فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: قد جاء فلان ـ باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا ـ فتقول: أنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته وهو بأثري، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق، ولولا أن الله تعالى قدّره لألم أن يذهب بصره، ثم يطأطىء رأسه فإذا أزواجه ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغَاشِيَة: ١٤-١٦] ثم اتكأ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعرَاف: ٤٣] ثم ينادي مناد: تحيون فلا تموتون أبداً، وتقيمون فلا تظعنون أبداً، وتصحون فلا تمرضون أبداً، وقال رسول الله ﷺ: **«آتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بابَ الجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لا أَفْتَحَ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»**[3].

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر

---

(١) حديث: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٢) حديث أبي هريرة: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة...» الحديث. متفق عليه.

(٣) حديث: «آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت فأقول محمد...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أنس.

تفضيلاً. وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] والعجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها، فقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ فَوْقَهُمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الغَائِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ لتَفَاضُلِ ما بَيْنَهُمْ»** قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: **«بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصدَّقُوا المُرْسَلِينَ»**(١)، وقال أيضاً: **«إنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا»**(٢)، وقال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: **«ألا أُحَدِّثُكُمْ بِغُرَفِ الجَنَّةِ»**؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليك، بأبينا أنت وأمنا قال: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً مِنْ أَصْنَافِ الجَوْهَرِ كُلُّهُ يُرَى ظَاهِرُها مِنْ بَاطِنِها وَباطِنُها مِنْ ظَاهِرِهَا وَفيها مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَالسُّرُورِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»** قال: قلت: يا رسول الله، ولمن هذه الغرف؟ قال: **«لِمَنْ أَفْشَى السَّلامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ»** قال: قلنا: يا رسول الله، ومن يطيق ذلك؟ قال: **«أُمَّتِي تُطِيقُ ذَٰلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَٰلِكَ. مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَى السَّلامَ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَمن كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ، وَمَنْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ وَصَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ»**(٣)، يعني اليهود والنصارى والمجوس. وسئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢] قال: **«قُصُورٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ سبعونَ داراً مِنْ ياقوتٍ أَحْمَرَ، في كلِّ دارٍ سبعونَ بيتاً من زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ، في كُلِّ بيت سَرِير، على كلِّ سرير سبعونَ فِراشاً مِنْ كلِّ لَوْنٍ، على كُلِّ فِراشٍ زوجةٌ مِنَ الحُورِ العِينِ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ مائدةً. على كُلِّ مائدةٍ سبعونَ لوناً مِنَ الطَّعَام، فِي كلِّ بيتٍ سبعونَ وَصِيفَةً، وَيُعْطَى المُؤْمِنُ في كُلِّ غَدَاةٍ** ـ يعني من القوة ـ **ما يأتي على ذَٰلِكَ أَجْمَعَ»**(٤).

---

(١) حديث أبي سعيد: **«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تراءون الكوكب. . .»** الحديث. متفق عليه، وقد تقدم.

(٢) حديث: **«إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع»** رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد.

(٣) حديث جابر: **«ألا أحدثكم بغرف الجنة»** قلت: بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا قال: **«إن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر. . .»** الحديث. أخرجه أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر.

(٤) حديث: سئل عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢] قال: **«قصور من لؤلؤ. . .»** الحديث. أخرجه أبو الشيخ بن حبان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولم يصح، والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم، والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور.

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها:

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضاً عنها فقد قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ حَائِطَ الجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِن ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُهَا مِسْكٌ»(١)، وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال: «دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ»(٢)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَسقِيَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الخَمْرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْها فِي الدُّنْيا، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوَهُ اللَّهُ الحَرِيرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهُ فِي الدُّنْيا»(٣)، وقال: «أَنْهارُ الجَنَّةِ تَتَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلالٍ ـ أَوْ تَحْتَ جِبَالِ ـ المِسْكِ(٤)، ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عزّ وجلّ به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها»(٥)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّها مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُها اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝﴾ [الواقِعَة: ٣٠]»(٦)، وقال أبو أمامة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنّ الله عزّ وجلّ ينفعنا بالأعراب ومسائلهم؛ أقبل أعرابي فقال: يا رسول الله، قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أدري أنّ في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما هِيَ؟» قال: السدر فإن لها شوكاً، فقال: «قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝﴾ [الواقِعَة: ٢٨] يَخْضُدُ اللَّهُ شَوْكَهُ فَيَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً ثُمَّ تَنْفتِقُ الثَّمَرَةُ مِنْهَا عَنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ ما مِنْها لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ»(٧). وقال جرير بن عبدالله: نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه، فقلت للغلام: انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال: يا جرير، تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري! قال: ظلم الناس بعضهم بعضاً، ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من صغره فقال: يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده، قلت: يا أبا عبدالله فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر.

---

(١) حديث أبي هريرة: «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك» أخرجه الترمذي بلفظ: «وملاطها المسك» وقال: ليس إسناده بذلك القوي وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً بإسناد صحيح.

(٢) حديث: سئل عن تربة الجنة فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص» أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبيّ ﷺ عن ذلك فذكره. درمكة: الدَرْمك: التراب الناعم.

(٣) حديث أبي هريرة: «من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا» أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة».

(٤) حديث: «أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك» أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: «لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

(٦) حديث: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث أبي أمامة: «أقبل أعرابي فقال: يا رسول الله، قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال: «ما هي» قال: السدر...» الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلاً من غير ذكر لأبي أمامة.

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم:

قال الله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فَاطِر: ٣٣] والآيات في ذلك كثيرة، وإنما تفصيله في الأخبار؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَم وَلا يَبْأَس لا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُ، فِي الجَنَّةِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[(١)]، وقال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج؟ فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ مِنْ جَاهِلٍ سَأَلَ عَالِماً**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**بَلْ يَنْشَقُّ عَنْها ثَمَرُ الجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ**»[(٢)]، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لا يَبْصُقُونَ فِيها وَلا يَمْتَخِطُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَرَشْحُهُم المِسْكُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ ولا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً**» وفي رواية: «**عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً**»[(٣)]، وقال ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] قال: «**إِنَّ عَلَيهِم التِّيجَانَ وإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ فِيهَا تُضِيءُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**»[(٤)]، وقال ﷺ: «**الخَيمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ طُولها فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ لا يَرَاهُم الآخَرُونَ**»[(٥)]، رواه البخاري في الصحيح. قال ابن عباس: الخيمة درّة مجوّفة فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب. وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقِعَة: ٣٤] قال: «**ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض**»[(٦)].

صفة طعام أهل الجنة:

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البَقَرَة: ٢٥] وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة، وقد قال ثوبان

---

(١) حديث أبي هريرة: «**من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه...**» الحديث. رواه مسلم دون قوله: «**في الجنة ما لا عين رأت...**» فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة «**قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت...**» الحديث.

(٢) حديث: قال رجل: «**يا رسول الله، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقاً أم تنسج نسجاً...**» الحديث. أخرجه النسائي من حديث عبدالله بن عمرو.

(٣) حديث أبي هريرة: «**أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر...**» الحديث. متفق عليه.

(٤) حديث: في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] قال: «**إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب**» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال: لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

(٥) حديث: «**الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً...**» الحديث. عزاه المصنف للبخاري، وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

(٦) حديث أبي سعيد: في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقِعَة: ٣٤] قال: «**ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض**» أخرجه الترمذي بلفظ: «**ارتفاعها لكما بين السماء والأرض**» وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

ـ مولى رسول الله ﷺ ـ: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال: فمن أوّل إجازة ـ يعني على الصراط ـ؟ فقال: **«فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ»** قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: **«زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ»** قال: فما غداؤهم على أثرها؟ قال: **«يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كانَ يَأْكُلُ فِي أَطْرَافِها»** قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **«مِنْ عَيْنٍ فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً»** فقال: صدقت[(١)].

وقال زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقال: يا أبا القاسم، ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقرّ لي بها خصمته، فقال رسول الله ﷺ: **«بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالجِمَاعِ»** فقال اليهودي: فإنّ الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة؟ فقال رسول الله ﷺ: **«حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلَ المِسْكِ فإذا البَطْنُ قَدْ ضَمرَ»**[(٢)]، وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّكَ لَتَنْظُرُ إلى الطَّيْرِ في الجنة فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيّاً»**[(٣)]، وقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ فِي الجَنَّةِ طَيْراً مِثْلَ البُخَاتِي»**. قال أبو بكر رضي الله عنه: إنها لناعمة يا رسول الله؟ قال: **«أَنْعَم مِنْها مَنْ يَأْكُلُها وَأَنْتَ مِمَّنْ يَأْكُلُها يا أبا بَكْرٍ»**[(٤)]، وقال عبدالله بن عمر في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ [الزخرُف: ٧١] قال: يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧﴾ [المطفِّفين: ٢٧] قال: يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقرّبون صرفاً. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: في قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطفِّفين: ٢٦] قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم وقال: لو أنّ رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها.

صفة الحور العين والولدان:

قد تكرّر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه. روى أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيها وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعِ قَدَمِهِ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيها، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلى الأَرْضِ**

---

(١) حديث ثوبان: جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال: فمن أول الناس إجازة؟ يعني على الصراط فقال: **«فقراء المهاجرين»** قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: **«زيادة كبد الحوت...»** الحديث. رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره.

(٢) حديث زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم، ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون... الحديث. وفيه: **«حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك»** أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح.

(٣) حديث ابن مسعود: **«إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً»** أخرجه البزار بإسناد صحيح.

(٤) حديث حذيفة: **«إن في الجنة طيراً أمثال البخاتي...»** الحديث. غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح: **«إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة»** قال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه الطير ناعمة قال: **«أكلتها أنعم منها»** قالها ثلاثاً: **«وإني أرجو أن تكون ممن يأكل منها»** وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال: **«فيه طير أعناقها كأعناق الجزر»** قال عمر: إن هذه لناعمة... الحديث. وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال: حسن. البخاتي: الجمال.

لأَضَاءَتْ وَلَمَلأَتْ ما بَيْنَهُمَا رَائِحَةً وَلَنَصِيفُها عَلَى رَأْسِها خَيرٌ مِنَ الدُّنيا بَما فِيها»[1]، يعني الخمار، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرَّحمٰن: ٥٨] قال: «تنظُرُ إلَى وَجْهِهَا فِي خِدْرِها أَصْفَى مِنَ المِرآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤةٍ عَلَيْها لَتضِيءُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَإِنَّهُ يَكُون عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْباً يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يرَى مُخ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ»[2].

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي دَخَلْتُ فِي الجَنَّةِ مَوْضِعاً يُسَمَّى البَيْدَخَ عَلَيْهِ خِيَامُ اللُّؤلُؤ وَالزَّبَرْجَدِ الأَخْضَر وَاليَاقُوتِ الأَحْمَر فَقُلْنَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقُلْتُ: يا جِبْرِيل مَا هٰذا النِّدَاءُ؟ قَالَ: هٰؤلاءِ المَقْصُورَاتُ فِي الخِيام اسْتَأْذَنَّ رَبَّهُنَّ فِي السَّلامِ عَلَيْكَ فَأَذِنَ لَهُنَّ، فَطَفِقْنَ يَقُلْنَ: نَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلا نَسْخَط أبداً وَنَحْنُ الخَالِدَاتُ فلا نَظْعَنُ أَبداً» وقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾ [الرَّحمٰن: ٧٢][3].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٥] قال: من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد. وقال الأوزاعي: ﴿فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥] قال: شغلهم افتضاض الأبكار. وقال رجل: يا رسول الله، أيباضع أهل الجنة؟ قال: «يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ مِنَ القُوَّةِ فِي اليَوْمِ الوَاحِدِ أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ مِنْكُمْ»[4]، وقال عبدالله بن عمر: إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى له ألف خادم على عمل ليس عليه صاحبه. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيَتَزَوَّجُ خَمْسمائَةِ حَوْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلاف بِكْرٍ وَثَمَانِيَةَ آلافِ ثَيبٍ يُعَانِقُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنهُنَّ مِقْدَارَ عُمْرِهِ فِي الدُّنْيَا»[5]. وقال

---

(١) حديث: «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها...» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أنس.

(٢) حديث أبي سعيد الخدري: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرحمن: ٥٨] قال: «تنظر إلى وجهها في خصرها أصفى من المرآة...» الحديث. أخرجه أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة، ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبيّ ﷺ مرسلاً دون ذكر أبي سعيد وللترمذي من حديث ابن مسعود: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة...» الحديث. ورواه عنه موقوفاً قال: وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم».

(٣) حديث أنس: «لما أسري بي دخلت في الجنة موضعاً يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر...» الحديث. وفيه: «أن جبريل قال: هؤلاء المقصورات في الخيام» وفيه: «فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط» لم أجده هكذا بتمامه. وللترمذي من حديث علي: «إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق مثلها يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له». وقال: غريب. ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند صحيح: «فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات...» الحديث.

(٤) حديث: قال رجل: يا رسول الله، أيباضع أهل الجنة؟ قال: «يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم» أخرجه الترمذي وصححه، وابن حبان من حديث أنس: «يعطى المؤمن في الجنة كقوة كذا وكذا من الجماع» فقيل: أو يطيق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة».

(٥) حديث: «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا» أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال: «مائة حوراء» ولم يذكر فيه عناقه لهن، وإسناده ضعيف، وتقدم قبله بحديث.

النبي ﷺ: «إنَّ فِي الجَنَّةِ سُوقاً ما فيها بَيْعٌ وَلا شِرَاءٌ إلاَّ الصُّورُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَإذا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيها، وَإنَّ فِيها لَمُجْتَمَعَ الحور العِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعِ الخَلائِقِ مِثْلها يَقُلْنَ: نَحْنُ الخَالِدَاتُ فَلا نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلا نَيْأَسُ وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلا نَسْخَطُ فَطوبَى لِمَنْ كانَ لَنَا وَكُنا لَهُ»(١) وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحُورَ العِينَ فِي الجَنَّةِ يَتَغَنَّيْنَ: نَحْنُ الحُور الحِسَانُ خُبِئْنَا لأَزْوَاجٍ كِرَامٍ»(٢)، وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الرُّوم: ١٥] قال: السماع في الجنة. وقال أبو أمامة الباهلي: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلاَّ وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ اثْنَتَانِ مِنَ الحُورِ العِين يُغَنِّيانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الإِنْسُ وَالجِنُّ وَلَيْس بِمِزْمَارِ الشَّيطَانِ وَلٰكِنْ: بِتَحمِيدِ اللَّهِ وَتَقْدِيسِهِ»(٣).

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار:

روى أسامة بن زيد: أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا هَلْ مِنْ مُشَمِّرٍ لِلْجَنَّةِ إنَّ الجَنَّةَ لا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزّ وَقَصْرٌ مُشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ فِي حبرَةٍ وَنِعْمَةٌ فِي مُقَامٍ أبداً وَنَضْرَةٍ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ سَلِيمَةٍ» قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله. قال: «قُولُوا: إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى». ثم ذكر الجهاد وحضّ عليه(٤). وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟ قال: «إنْ أَحْبَبْتَ ذٰلِكَ أُتِيتَ بِفَرسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ فَتَطِيرُ بِكَ فِي الجَنَّةِ حَيثُ شِئْتَ» وقال له رجل: إنّ الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال: «يا عَبْدَ اللَّهِ إن أُدْخِلْتَ الجَنَّةَ فَلَكَ فِيهَا ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنَاكَ»(٥).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُولَدُ لَهُ الوَلَد كَمَا يَشْتَهِي، يَكُونُ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ وَشَبَابُه فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ»(٦). وقال رسول الله ﷺ: «اسْتَقَرَّ أَهْلُ الجَنَّةِ فِي

---

(١) حديث: «إن في الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء...» الحديث. أخرجه الترمذي فرقه في موضعين من حديث علي، وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين.

(٢) حديث أنس: «إن الحور في الجنة يتغنين فيقلن: نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام». أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر. قال البخاري: يتكلمون فيه، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

(٣) حديث أبي أمامة: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه اثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه» أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

(٤) حديث أسامة بن زيد: «ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها...» الحديث. أخرجه ابن ماجه وابن حبان.

(٥) حديث: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال له: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ، وفيه المسعودي مختلف فيه، ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبدالرحمن بن سابط مرسلاً، قال الترمذي: وهذا أصح، وقد ذكر أبو موسى المديني عبدالرحمن بن سابط في ذيله علي ابن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة.

(٦) حديث أبي سعيد: «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي، ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة» أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن غريب، قال: وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، انتهى. ولأحمد من حديث لأبي رزين: «يلذ ويلم مثل لذاتكم في الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لا توالد».

الجَنَّةِ اشْتَاقَ الإِخْوَانُ إلى الإِخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرُ هٰذا إلى سَرِيرِ هٰذا فَيَلْتَقِيَانِ وَيَتَحَدَّثَانِ ما كانَ بَيْنَهُمَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فيقولُ: يا أَخِي تَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا فِي مَجْلِسِ كَذَا فَدَعَوْنا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَغَفَرَ لَنا»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ بِيضٌ جِعَادٌ مُكَحَّلُونَ أبناء ثلاثٍ وَثلاثينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ سِتونَ ذِرَاعاً فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ وثنتان وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لؤلؤ وزبرجدٍ وياقوتٍ كما بينَ الجابيةِ إلى صَنْعَاءَ وإنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجانَ وإنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ مِنها لَتُضِيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ»[3]. وقال ﷺ: «نظرتُ إِلَى الجنةِ فإذا الرُّمانَةُ مِنْ رمَّانِها كجلد البَعِيرِ المُقَتَّبِ وَإذا طَيْرُها كالبُخْتِ، وإذا فيها جَارِيَةٌ فقلتُ: يا جَارِيَةُ لِمَنْ أَنْتِ؟ فقالتْ: لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وإذا في الجَنَّةِ ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[4]. وقال كعب: خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الجنة بيده ثم قال لها: تكلمي فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: ١]. فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلاً.

وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال: إنَّ رمانها مثل الدلاء، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرؤوس، وإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد، طولهم ستون ذراعاً في السماء، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار، وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة، وإن لهم فيها خيلاً وإبلاً هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها، وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة، قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت، لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك، لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً، أما إنه ليس

---

(١) حديث: «إذا استقر أهل الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا» أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال: لا نعلمه يروى عن النبيّ ﷺ إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى. والربيع بن صبيح ضعيف جداً، ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلاً دون ذكر أنس.

(٢) حديث: «أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله: «بيض جعاد» ودون قوله: «على خلق آدم» إلى آخره ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة مختصراً: «أهل الجنة جرد مرد كحل» وقال: غريب. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً».

(٣) حديث: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعاً من أوله إلى قوله: «وإن عليهم التيجان» ومن هنا بإسناد أيضاً وقال: لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

(٤) حديث: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت...» الحديث. رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد، وأبو هارون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جداً، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

ليل يكرّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدّ له في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها، في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوّله، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد: إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه. وأرفعهم الذي ينظر إلى ربه بالغداة والعشي. وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة؛ سوار من ذهب، وسوار من لؤلؤ، وسوار من فضة. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال لها: العيناء؛ إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟. وقال يحيى بن معاذ: ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشدّ وترك الدنيا مهر الآخرة. وقال أيضاً: في طلب الدنيا ذل النفوس، وفي طلب الآخرة عز النفوس، فيا عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى.

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى:

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة ـ وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة ـ، وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة. قال جرير بن عبدالله البجلي: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال: «**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تغلبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠][(١)]، وهو مخرج في الصحيحين.

وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «**إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نادَى مُنادٍ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، إنَّ لَكُمْ عِندَ اللَّهِ مَوْعِداً يريدُ أَنْ يُنجِزَكُمُوهُ؟**» قالوا: **ما هٰذا المَوْعِدُ؟ أَلَم يُثَقِّلْ مَوازِينَنا وَيُبَيِّضْ وَجُوهَنا وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَيُجِرنَا مِنَ النَّارِ؟**» قال: «**فَيُرْفَعُ الحِجَابُ وَيَنْظُرُونَ إلى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فما أُعْطُوا شيئاً أَحَبَّ إِلَيهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيهِ**»[(٢)]. وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة، وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى، وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء: وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى. وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى.

---

(١) حديث جرير: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال: «**إنكم ترون ربكم...**» الحديث. هو في الصحيحين كما ذكر المصنف.

(٢) حديث صهيب: في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] رواه مسلم كما ذكره المصنف.

نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك:

فقد كان رسول الله ﷺ يحب الفأل[١]، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله ﷺ في التفاؤل، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النِّساء: ١١٠].

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه. ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض. ونحن خلق من خلق الله عزّ وجلّ لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه. فقد قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ لِلّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنها رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالبَهائِمِ وَالهَوَامِّ فيها يَتَعَاطَفُونَ وَبِها يَتَرَاحَمُونَ وَأَخَّرَ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِها عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»**[٢].

ويروى: **«أنه إذا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَخْرَجَ اللّهُ تعالى كِتاباً مِنْ تحتِ العَرْشِ فِيهِ: إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فيخرجُ مِنَ النَّارِ مثلا أَهْلِ الجَنَّةِ»**[٣]. وقال رسول الله ﷺ: **«يَتَجَلى اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ لنا يومَ القِيامَةِ ضاحِكاً فيقولُ: أَبْشِرُوا مَعْشَرَ المسلمينَ فإنهُ ليسَ منكم أحَدٌ إلاّ وَقَدْ جَعلتُ مكانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِياً»**[٤]، وقال النبي ﷺ: **«يُشَفِّعُ اللّهُ تَعالَى آدمَ يومَ**

---

(١) حديث: كان رسول الله ﷺ يحب التفاؤل. متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث: **«ويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة»** ولهما من حديث أبي هريرة **«وخيرهما الفأل؟»** قالوا: وما الفأل؟ قال: **«الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»**.

(٢) حديث: **«إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجنّ والإنس...»** الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان.

(٣) حديث: **«إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتاباً من تحت العرش فيه أن رحمتي سبقت غضبي...»** الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة: **«لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي»** لفظ البخاري وقال مسلم: **«كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي»**.

(٤) حديث: **«يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول: أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً»**. أخرجه مسلم من حديث أبي موسى: **«إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل=**

القِيَامَةِ مِنْ جَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ فِي مِائَةِ أَلْفِ أَلْفٍ وَعَشَرَةِ آلافِ أَلْفٍ»[(١)] وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ: هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي؟ فيقولونَ: نَعَمْ يا رَبَّنا فيقولُ: لِمَ؟ فيقولونَ: رَجَونا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ. فيقولُ: قد أَوْجَبْت لكمْ مَغْفِرَتِي»[(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: «يقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَومَ القِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْماً أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ»[(٣)]، وقال رسول الله ﷺ: «إذا اجْتَمَعَ أَهْلُ النارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ قَالَ الكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ: أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قالوا: بَلَى فيقولونَ: ما أَغْنَى عنكم إسلامُكُمْ إِذْ أنتم مَعَنَا فِي النَّارِ فيقولونَ: كانَتْ لنا ذنوبٌ فَأُخِذْنا بها، فيسمعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ما قالوا فيأْمُرُ بإِخْرَاجِ مَن كان فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فَيُخْرَجُونَ فإذا رَأَى ذلكَ الكفارُ قالوا: يا لَيْتَنا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنُخْرَجَ كَمَا أُخْرِجُوا»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: ٢][(٤)]، وقال رسول الله ﷺ: «لَلَّه أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الوَالِدَةِ الشفيقةِ بِوَلَدِها»[(٥)]، وقال جابر بن عبدالله: من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب، ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة. وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره.

ويروى: أنّ الله عزّ وجلّ قال لموسى عليه السلام: يا موسى، استغاث بك قارون فلم تغثه، وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه. وقال سعد بن بلال: يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار، فيقول الله تبارك وتعالى: ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد، ويأمر بردهما إلى النار، فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيأمر بردهما ويسألهما عن فعلهما، فيقول الذي عدا إلى النار: قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية، ويقول الذي

= مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول: هذا فداؤك من النار». ولأبي داود: «أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة...» الحديث. وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضاً: «يتجلى الله ربنا لنا ضاحكاً يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول: ارفعوا رؤوسكم فليس هذا يوم عبادة» وفيه علي بن زيد بن جدعان.

(١) حديث: «يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف» أخرجه الطبراني من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٢) حديث: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين: هل أحببتم لقائي فيقولون: نعم...» الحديث. أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف.

(٣) حديث: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام» أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال: حسن غريب.

(٤) حديث: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى فيقولون: ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار...» الحديث. في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: ٢] أخرجه النسائي في الكبرى من حديث جابر بإسناد صحيح.

(٥) حديث: «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها» متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله: قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته ببطنها فأرضعته.

تلكأ: حسن ظني بك كان يشعرني أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها، فيأمر بهما إلى الجنة، وقال رسول الله ﷺ: **«يُنادِي مُنادٍ مِنْ تَحتِ العَرْشِ يَوْمَ القِيامَةِ: يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَمَّا ما كانَ لِي قبلكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ وَبَقِيَتْ التبعات فَتَوَاهَبُوها وَادْخُلُوا الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي»**(١).

ويروى: أنّ أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]؛ فقال الأعرابي: فوالله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها، فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه. وقال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال: مهلاً... لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدّثتكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحدّثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ النَّارَ عَلَيْهِ»**(٢)، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: قال رسول الله ﷺ: **«إِنْ الله يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سجلاً كُلُّ سجلٍ مِنها مِثْلِ مَدّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنكِرُ مِنْ هٰذا شيئاً أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ. فيقولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَيُخْرِجُ بطاقَةً فيها: أَشْهَدُ أَنْ لا إِله إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَد أَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللَّهِ فيقولُ يا رَبِّ ما هٰذِهِ البطاقَةُ مَعَ هٰذِهِ السِّجلاَّتِ؟ فيقولُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ»** قال: **«فَتُوضَعُ السِّجلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ»** قال: **«فَطَاشَتِ السِّجلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»**(٣)، وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط: **«إِنَّ اللَّهَ يَقولُ لِلملائِكَةِ: مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مثقالَ دينارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كثيراً ثم يقولونَ: يا رَبَّنا لم نَذَرْ فيها أحداً مِمَّنْ أَمَرْتَنا بِهِ، ثم يقولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قلبِهِ مثقالَ نصف دينار مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خلقاً كثيراً، ثمَّ يقولونَ: يا ربَّنا لم نَذَرْ فيها أحداً مِمَّنْ أَمَرْتَنا به ثُمَ يقولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وجدْتُمْ في قَلْبِهِ مثقالَ ذَرَةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرُجُونَ خلقاً كثيراً ثُمَّ يقولونَ: يا رَبَّنا لم نَذَرْ فِيها أحداً مِمَّنْ أَمَرْتَنا بِهِ»**. فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النِّساء: ٤٠] قال: فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في جميل السيل، ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل أبيض، قالوا: يا رسول الله: كأنك كنت

---

(١) **«ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة: يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتي»** رويناه في سباعيات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس، وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب: ليس بثقة.

(٢) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت: **«من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرمه الله على النار»** أخرجه مسلم من هذا الوجه، واتفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر.

(٣) حديث عبدالله بن عمرو: **«إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينتشر له تسعة وتسعون سجلاً»** فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال: حسن غريب.

ترعى بالبادية! قال: «فَيَخْرُجونَ كَاللؤْلؤِ فِي رِقابِهِم الخَوَاتِيمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ يَقُولُونَ: هٰؤلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمٰن الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقولُ: ادْخُلُوا الجَنَّةَ فما رأيتم فَهُوَ لَكُمْ فيقولونَ: رَبَّنا أَعْطَيْتَنَا ما لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ، فيقولُ اللَّهُ تعالَى: إنَّ لَكُمْ عِنْدِي ما هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هٰذا. فيقولونَ: يا رَبَّنا أيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هٰذا؟ فيقولُ: رِضَائِي عَنْكُمْ فلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَه أبداً»(١)، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَم يَمُرُّ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلانِ وَالنَّبِيُّ لَيسَ معهُ أَحَدٌ والنبيُّ معهُ الرَّهْط. فرأيت سواداً كثيراً فَرَجَوْتُ أن تكونَ أُمَّتِي فقيلَ لي: هٰذا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثمَّ قيلَ لي: انْظُرْ فرأيتُ سَوَاداً كَثيراً قَدْ سَدَّ الأُفقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هٰكَذَا وَهٰكَذَا فَرَأَيْتُ سَواداً كثيراً، فَقيلَ لِي: هٰؤلاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هٰؤلاءِ سَبْعُونَ أَلفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسابٍ». فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله ﷺ فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ وَلا يَسْتَرقُونَ وَلا يَتَطَيرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله. فقال: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة، فقال النبي ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ»(٢).

وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال: تغيَّب عنا رسول الله ﷺ ثلاثاً لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا: يا رسول الله، احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال: «لَمْ يَحْدُثْ إلاَّ خَيْرٌ إنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي هٰذِهِ الثَّلاثَةِ أَيَّامِ المَزِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّي ماجداً واجداً كَريماً فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفاً سَبْعِينَ أَلْفاً» قالَ: «قُلْتُ: يا رَبِّ وَتَبْلُغُ أُمَّتِي هٰذا؟ قالَ: أُكْمِلُ لَكَ العَدَدَ مِنَ الأَعْرَابِ»(٣).

وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «عَرَضَ لِي جِبْرِيلُ في جَانِبِ الحَرَّةِ فقالَ: بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةَ، فَقُلْتُ: يا جِبْرِيلُ وإنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنى؟ قَالَ: نَعَمْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى، قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قالَ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى. قلتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قالَ: وإنْ سَرَقَ

---

(١) حديث: «إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً...» الحديث. في إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة «فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد.

(٢) حديث ابن عباس: «عرضت علي الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد...» الحديث. إلى قوله: «سبقك بها عكاشة» رواه البخاري.

(٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثاً لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه: «إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفاً لا حساب عليهم» وفيه: «أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً» أخرجه البيهقي في البعث والنشور، ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر: «فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً» وفيه رجل لم يسم، ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرفقال عمر: فهلا استزدته؟ فقال: «قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً» قال عمر: فهلا استزدته؟ قال: «قد استزدته فأعطاني هكذا» وفرج عبدالله بن أبي بكر بين يديه. قال عبدالله: وبسط باعيه وحثى عليه، وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف.

وَإِنْ زَنَى وَإِنْ شَرِبَ الخَمْرَ»[١]، وقال أبو الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦] فقلت: وإن سرق وإن زنى يا رسول الله؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦]. فقلت وإن سرق وإن زنى؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦]، فقلت: وإن سرق وإن زنى يا رسول الله؟ قال: **«وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاءِ»**[٢]. وقال رسول الله ﷺ: **«إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ فَقِيلَ لَهُ: هٰذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ»**[٣].

وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة: أنه حدّث عمر بن عبدالعزيز عن أبيه أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: **«لا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إلاّ أَدْخَلَ اللّهُ تَعَالَى مكانَهُ النَّارَ يَهُودِياً أَوْ نَصْرَانِياً»** فاستحلفه عمر بن عبدالعزيز بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أن أباه حدّثه عن رسول الله ﷺ. فحلف له[٤].

وروي: أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه فيمن يزيد ـ في يوم صائف شديد الحرّ ـ فبصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتدّ وأقبل أصحابها خلفها، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحرّ، وقالت: ابني ابني! فبكى الناس وتركوا ما هم فيه، فأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف عليهم فأخبروه فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال: **«أَعَجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هٰذِهِ لابْنِهَا؟»** قالوا: نعم، قال ﷺ: **«فَإِنَّ اللّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِكُمْ جَمِيعاً مِنْ هٰذِهِ بِابْنِهَا»**[٥] فتفرّق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة.

فهذه الأحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى، فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه، ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته.

---

(١) حديث أبي ذر: **«عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال: بشر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. . .»** الحديث. متفق عليه بلفظ: **«أتاني جبريل فبشرني»** وفي رواية لهما: **«أتاني آت من ربي»**.

(٢) حديث أبي الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦]، فقلت: **«وإن زنى وإن سرق. . .»** الحديث. رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٣) حديث: **«إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له: هذا فداؤك من النار»** رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه، وقد تقدم.

(٤) حديث أبي بردة: أنه حدث عمر بن عبدالعزيز عن أبيه أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: **«لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً»** عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك.

(٥) حديث: **«وقف صبي في بعض المغازي، ينادي عليه: فيمن يزيد، في يوم صائف شديد الحر، فبصرت به امرأة. . .»** الحديث. وفيه: **«الله أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها»** متفق عليه مختصراً مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ **«أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»** قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أرحم بعباده من هذه بولدها»** لفظ مسلم وقال البخاري: **«فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها إذ وجدت صبياً. . .»** الحديث.

والحمد لله تعالى عوداً على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهدء.

يقول مؤلفه عبدالرحيم بن الحسين العراقي: إنني أكملت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٦١، وأكملت تبييض هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ترجمة الإمام أبي حامد الغزالي	٥
ترجمة العلامة الحافظ العراقي	٦
خطبة كتاب إحياء علوم الدين	٧
كتاب العلم	
الباب الأول: في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل	١١
فضيلة العلم	١١
فضيلة التعلم	١٥
فضيلة التعليم	١٧
في الشواهد العقلية	١٩
الباب الثاني: في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما	٢١
بيان العلم الذي هو فرض عين	٢١
بيان العلم الذي هو فرض كفاية	٢٤
الباب الثالث: فيما يُعِدُّهُ العامة من العلوم المحمودة وليس منها	٣٨
بيان علة ذم العلم المذموم	٣٨
بيان ما بدل من ألفاظ العلوم	٤١
بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة	٤٩
الباب الرابع: في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها	٥٢
بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف	٥٣
بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق	٥٦
الباب الخامس: في آداب المتعلم والمعلم	٦٠

الموضوع	الصفحة
أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل	٦٠
بيان وظائف المرشد المعلم	٦٧
الباب السادس: في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء	٧١
الباب السابع: في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه	٩٨
بيان شرف العقل	٩٨
بيان حقيقة العقل وأقسامه	١٠٠
بيان تفاوت النفوس في العقل	١٠٣

كتاب قواعد العقائد

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول: في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام	١٠٦
الفصل الثاني: في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد	١١١
الفصل الثالث: من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس	١٢٣
الركن الأول: من أركان الإيمان في معرفة ذات اللّه سبحانه وتعالى وأنَّ اللّه تعالى واحد، ومداره على عشرة أصول	١٢٤
الركن الثاني: العلم بصفات اللّه تعالى، ومداره على عشرة أصول	١٢٧
الركن الثالث: العلم بأفعال اللّه تعالى، ومداره على عشرة أصول	١٣٠
الركن الرابع: في السمعيات وتصديقه ﷺ فيما أخبر عنه، ومداره على عشرة أصول	١٣٤
الفصل الرابع: من قواعد العقائد في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرّق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه، وفيه ثلاث مسائل	١٣٦
مسألة: اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره	١٣٦
مسألة: فإن قلت فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص	١٤١
مسألة: فإن قلت ما وجه قول السلف: «أنا مؤمن إن شاء الله»	١٤٣

كتاب أسرار الطهارة

الموضوع	الصفحة
القسم الأوّل: في طهارة الخبث، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة	١٥١
الطرف الأوّل: في المزال	١٥١
الطرف الثاني: في المزال به	١٥١
الطرف الثالث: في كيفية الإزالة	١٥٣
القسم الثاني: طهارة الأحداث، ومنها الوضوء والغسل والتيمم، ويتقدمها الاستنجاء	١٥٤
باب آداب قضاء الحاجة	١٥٤
كيفية الاستنجاء	١٥٥
كيفية الوضوء	١٥٦

الموضوع	الصفحة

فضيلة الوضوء ١٥٩
كيفية الغسل ١٦٠
كيفية التيمم ١٦٠
القسم الثالث من النظافة: التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهي نوعان: أوساخ وأجزاء ١٦١
النوع الأول: الأوساخ والرطوبات المترشحة وهي ثمانية ١٦١
النوع الثاني: فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية ١٦٥
فصل: في اللحية ١٦٨

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

الباب الأول: في فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها ١٧٢
فضيلة الأذان ١٧٢
فضيلة المكتوبة ١٧٣
فضيلة إتمام الأركان ١٧٤
فضيلة الجماعة ١٧٥
فضيلة السجود ١٧٦
فضيلة الخشوع ١٧٧
فضيلة المسجد وهو موضع الصلاة ١٧٩
الباب الثاني: في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله ١٨٠
القراءة ١٨٢
الركوع ولواحقه ١٨٢
السجود ١٨٣
التشهد ١٨٣
المنهيات ١٨٤
تمييز الفرائض والسنن ١٨٦
الباب الثالث: في الشروط الباطنة من أعمال القلب ١٨٨
بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب ١٨٨
بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة ١٩١
بيان الدواء النافع في حضور القلب ١٩٣
بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة ١٩٥
حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضي الله عنهم ٢٠٢
الباب الرابع: في الإمامة والقدوة وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان الصلاة وبعد السلام ٢٠٤

الموضوع	الصفحة
أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فستة	٢٠٤
وأما وظائف القراءة فثلاثة	٢٠٧
وأما وظائف الأركان فثلاثة	٢٠٩
وأما وظائف التحلل فثلاثة	٢١٠
الباب الخامس: فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها	٢١٠
فضيلة الجمعة	٢١٠
بيان شروط الجمعة	٢١٢
بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر جمل	٢١٣
بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعمّ جميع النهار، وهي سبعة أمور	٢١٩
الباب السادس: في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها	٢٢٣
فأما المسائل التي تقع نادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه	٢٢٣
الباب السابع: في النوافل من الصلوات	٢٢٧
القسم الأول: ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية، خمسة هي رواتب الصلوات الخمس، وثلاثة وراءها وهي صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجد	٢٢٨
القسم الثاني: ما يتكرر بتكرر الأسابيع وهي صلاة أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة	٢٣٣
القسم الثالث: ما يتكرر بتكرر السنين	٢٣٧
القسم الرابع: من النوافل: ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلّق بالمواقيت وهي تسعة	٢٤٠

كتاب أسرار الزكاة

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول: في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها، والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع: زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر	٢٤٨
الفصل الثاني: في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة	٢٥١
بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة	٢٥٣
الفصل الثالث: في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه	٢٦١
بيان أسباب الاستحقاق	٢٦١
بيان وظائف القابض وهي خمسة	٢٦٣
الفصل الرابع: في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها	٢٦٦
بيان فضيلة الصدقة	٢٦٦
بيان إخفاء الصدقة وإظهارها	٢٦٨
بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة	٢٧٢

الموضوع الصفحة

كتاب أسرار الصوم

الفصل الأول: في الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده ٢٧٥
أما الواجبات الظاهرة فستة ٢٧٥
وأما لوازم الإفطار فأربعة ٢٧٦
الفصل الثاني: في أسرار الصوم وشروطه الباطنة ٢٧٧
الفصل الثالث: في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه ٢٨٠

كتاب أسرار الحج

الفصل الأول: في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى، وشدّ الرحال إلى المساجد ٢٨٣
فضيلة الحج ٢٨٣
فضيلة البيت ومكة المشرفة ٢٨٦
فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكراهيته ٢٨٧
فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد ٢٨٨
الفصل الثاني: في شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته ٢٩٠
الباب الثاني: في ترتيب الأعمال الظاهرة من أوّل السّفر إلى الرجوع، وهي عشر جمل ٢٩٢
الجملة الأولى: في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية ٢٩٢
الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة ٢٩٤
الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة ٢٩٥
الجملة الرابعة: في الطواف ٢٩٦
الجملة الخامسة: في السعي ٢٩٨
الجملة السادسة: في الوقوف وما قبله ٢٩٩
الجملة السابعة: في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف ٣٠٢
الجملة الثامنة: في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع ٣٠٥
الجملة التاسعة: في طواف الوداع ٣٠٥
الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها ٣٠٥
فصل في سنن الرجوع من السفر ٣٠٩
الباب الثالث: في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة ٣١٠
بيان دقائق الآداب وهي عشرة ٣١٠

الموضوع الصفحة

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة، وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره ٣١٤

كتاب آداب تلاوة القرآن

الباب الأول: في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته ٣٢٢
فضيلة القرآن ٣٢٢
الآثار ٣٢٣
في ذم تلاوة الغافلين ٣٢٤
الباب الثاني: في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة ٣٢٦
الباب الثالث: في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة ٣٣٢
الباب الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ٣٤١

كتاب الأذكار والدعوات

الباب الأول: في فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار .. ٣٤٨
فضيلة مجالس الذكر ٣٥٠
فضيلة التهليل ٣٥١
فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار ٣٥٤
الباب الثاني: في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ ٣٦٠
فضيلة الدعاء ٣٦٠
آداب الدعاء وهي عشرة ٣٦١
فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ وفضله ﷺ ٣٦٦
فضيلة الاستغفار ٣٦٩
الباب الثالث: في أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها المرء صباحاً ومساء وبعقب كل صلاة ٣٧٢
فمنها: دعاء رسول الله ﷺ بعد ركعتي الفجر ٣٧٢
دعاء عائشة رضي الله عنها ٣٧٣
دعاء فاطمة رضي الله عنها ٣٧٣
دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٣٧٣
دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه ٣٧٤
دعاء قبيصة بن المخارق ٣٧٤
دعاء أبي الدرداء رضي الله عنه ٣٧٤
دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٣٧٥

الموضوع	الصفحة
دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام	٣٧٥
دعاء الخضر عليه السلام	٣٧٥
دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه	٣٧٥
دعاء عتبة الغلام	٣٧٦
دعاء آدم عليه الصلاة والسلام	٣٧٦
دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٣٧٦
دعاء ابن المعتمر وهو سليمان التيمي وتسبيحاته رضي الله عنه	٣٧٧
دعاء إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه	٣٧٧
الباب الرابع: في أدعية مأثورة عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله	٣٧٨
أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي ﷺ	٣٨٢
الباب الخامس: في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث	٣٨٤

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها	٣٩٣
فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى	٣٩٣
بيان أعداد الأوراد وترتيبها	٣٩٤
بيان أوراد الليل وهي خمسة	٤٠٥
بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال	٤١٤
الباب الثاني: في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين، وكيفية قسمة الليل	٤١٨
فضيلة إحياء ما بين العشاءين	٤١٨
فضيلة قيام الليل	٤٢٠
بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل	٤٢٤
بيان طرق القسمة لأجزاء الليل	٤٢٧
بيان الليالي والأيام الفاضلة	٤٣٠

كتاب آداب الأكل

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: فيما لا بد للمنفرد منه وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه	٤٣٣

الموضوع	الصفحة
القسم الأول: في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي سبعة	٤٣٣
القسم الثاني: في آداب حالة الأكل	٤٣٥
القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام	٤٣٧
الباب الثاني: فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة	٤٣٨
الباب الثالث: في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين	٤٤٠
الباب الرابع: في آداب الضيافة	٤٤٤
وللإجابة خمسة آداب	٤٤٥
وأما إحضار الطعام، فله آداب خمسة	٤٤٨
فأما الانصراف، فله ثلاثة آداب	٤٥١
فصل يجمع آداباً ومناهي طبية وشرعية متفرقة	٤٥٢

كتاب آداب النكاح

الباب الأول: في الترغيب في النكاح والترغيب عنه	٤٥٦
الترغيب في النكاح	٤٥٦
أما آفات النكاح فثلاث	٤٦٩
الباب الثاني: فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد	٤٧٢
الباب الثالث: في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة	٤٨٠
القسم الثاني من هذا الباب: النظر في حقوق الزوج عليها	٤٩٧

كتاب آداب الكسب والمعاش

الباب الأول: في فضل الكسب والحث عليه	٥٠٣
الباب الثاني: في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة، وبيان شروط الشَّرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع	٥٠٧
العقد الأول: البيع	٥٠٧
العقد الثاني: عقد الربا	٥١١
العقد الثالث: السلم.	٥١٢
العقد الرابع: الإجارة	٥١٣
العقد الخامس: القراض	٥١٤
العقد السادس: الشركة.	٥١٥
الباب الثالث: في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة	٥١٦

الموضوع	الصفحة
القسم الأول: فيما يعم ضرره، وهو أنواع	٥١٦
القسم الثاني: ما يخص ضرره المعامل	٥١٨
الباب الرابع: في الإحسان في المعاملة	٥٢٤
الباب الخامس: في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته	٥٢٨

كتاب الحلال والحرام

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: في فضيلة الحلال ومذمة الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه	٥٣٥
فضيلة الحلال ومذمة الحرام	٥٣٥
أصناف الحلال ومداخله	٥٣٩
القسم الأول: الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرهما	٥٣٩
القسم الثاني: ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه	٥٤٠
درجات الحلال والحرام	٥٤١
أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها	٥٤٢
الباب الثاني: في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام	٥٤٦
المثار الأول: الشك في السبب المحلل والمحرم	٥٤٧
المثار الثاني للشبهة: شك منشؤه الاختلاط	٥٥٠
المثار الثالث للشبهة: أن يتصل بالسبب المحلل معصية	٥٥٩
وأما المقدمات: فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات	٥٦٠
وأما المعصية: في العوض فله أيضاً درجات	٥٦٢
المثار الرابع: الاختلاف في الأدلة	٥٦٤
الباب الثالث: في البحث والسؤال والهجوم والإهمال، ومظانها	٥٦٧
المثار الأول: أحوال المالك	٥٦٧
المثار الثاني: ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المالك	٥٧٠
الباب الرابع: في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية	٥٧٧
النظر الأول: في كيفية التمييز والإخراج	٥٧٧
النظر الثاني: في المصرف	٥٨٠
الباب الخامس: في إدرارات السلاطين وصِلاتهم، وما يحل منها وما يحرم	٥٨٥
النظر الأول: في جهات الدخل للسلطان	٥٨٥
النظر الثاني من هذا الباب: في قدر المأخوذ وصفة الآخذ	٥٩٠
الباب السادس: فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم	٥٩٣

الموضوع	الصفحة
الباب السابع: في مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى	٦٠٥

كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها	٦١١
فضيلة الألفة والأخوة	٦١١
بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا	٦١٥
بيان البغض في الله	٦٢١
بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم	٦٢٣
بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته	٦٢٦
الباب الثاني: في حقوق الأخوة والصحبة	٦٢٨
الحق الأول: في المال	٦٢٩
الحق الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة	٦٣١
الحق الثالث: في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى	٦٣٢
الحق الرابع: على اللسان بالنطق	٦٣٧
الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات	٦٤٠
الحق السادس: الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته	٦٤٣
الحق السابع: الوفاء والإخلاص	٦٤٤
الحق الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف	٦٤٦
خاتمة لهذا الباب نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء	٦٥٠
الباب الثالث: في حق المسلم والرحم والجوار والملك، وكيفية المعاشرة مع من يدلي بهذه الأسباب	٦٥١
حقوق المسلم	٦٥٢
حقوق الجوار	٦٧٥
حقوق الأقارب الرحم	٦٧٨
حقوق الوالدين والولد	٦٧٩
حقوق المملوك	٦٨٣

كتاب آداب العزلة

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: في نقل المذاهب والأقاويل، وذكر حجج الفريقين في ذلك	٦٨٦
ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها	٦٨٨

الموضوع	الصفحة
ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة	٦٩٠
الباب الثاني: في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها	٦٩٢
الفائدة الأولى: التفرغ للعبادة والفكر... إلخ	٦٩٢
الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها... إلخ	٦٩٤
الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس... إلخ	٦٩٨
الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس	٦٩٩
الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس	٧٠١
الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم	٧٠٢
آفات العزلة	٧٠٢
الفائدة الأولى: التعليم والتعلم	٧٠٢
الفائدة الثانية: النفع والانتفاع	٧٠٤
الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب	٧٠٥
الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس	٧٠٦
الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته	٧٠٦
الفائدة السادسة: من فوائد المخالطة التواضع	٧٠٧
الفائدة السابعة: التجارب	٧٠٨

كتاب آداب السفر

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع، وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان:	٧١٣
الفصل الأول: في فوائد السفر وفضله ونيته	٧١٣
الفصل الثاني: في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدباً	٧٢٠
الباب الثاني: **فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات**	٧٢٧
القسم الأول: العلم برخص السفر	٧٢٨
القسم الثاني: ما يتجدّد من الوظيفة بسبب السفر	٧٣٣

كتاب آداب السماع والوجد

الموضوع	الصفحة
الباب الأول: في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه	٧٣٩
بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه	٧٣٩
بيان الدليل على إباحة السماع، مواضع إباحة السماع وأنواع الرخص	٧٤١
بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها	٧٥٧
الباب الثاني: آثار السماع وآدابه	٧٦٠

الموضوع الصفحة

المقام الأوّل: في الفهم ٧٦٠
المقام الثاني: بعد الفهم والتنزيل، الوجد ٧٦٥
المقام الثالث: من السماع نذكر فيه آداب السماع ظاهراً وباطناً... إلخ ٧٧٥

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته ٧٨٢
الباب الثاني: في أركان الأمر بالمعروف وشروطه ٧٨٨
الركن الأول: المحتسب ٧٨٨
الركن الثاني: للحسبة ما فيه الحسبة ٨٠١
الركن الثالث: المحتسب عليه ٨٠٤
الركن الرابع: نفس الاحتساب ٨٠٦
باب آداب المحتسب ٨١١
الباب الثالث: في المنكرات المألوفة في العادات ٨١٣
منكرات الأسواق ٨١٦
منكرات الشوارع ٨١٧
منكرات الحمامات ٨١٧
منكرات الضيافة ٨١٨
المنكرات العامة ٨٢٠
الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر ٨٢١

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً ﷺ بالقرآن ٨٣٨
بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار ٨٤٠
بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه ٨٤٧
بيان كلامه وضحكه ﷺ ٨٥٠
بيان أخلاقه وآدابه في الطعام ٨٥٣
بيان آدابه وأخلاقه في اللباس ٨٥٨
بيان عفوه ﷺ مع قدرته ٨٦٣
بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه ٨٦٤
بيان سخاوته وجوده ﷺ ٨٦٥

الموضوع	الصفحة
بيان شجاعته ﷺ	٨٦٦
بيان تواضعه ﷺ	٨٦٧
بيان صورته وخلقته ﷺ	٨٦٨
بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه	٨٧٠
كتاب شرح عجائب القلب	
بيان معنى النفس، والروح، والقلب، والعقل، وما هو المراد بهذه الأسامي	٨٧٧
بيان جنود القلب	٨٧٩
بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة	٨٨١
بيان خاصية قلب الإنسان	٨٨٢
بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته	٨٨٥
بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة	٨٨٨
بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية	٨٩٢
بيان الفرق بين الإلهام والتعلم، والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار	٨٩٤
بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس	٨٩٦
بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد	٩٠٠
بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها	٩٠٣
بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب	٩٠٩
بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به	٩١٩
بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا؟	٩٢٢
والوسواس أصناف	٩٢٣
بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات	٩٢٤
والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردّد بينهما، ثلاثة	٩٢٥
كتاب رياضة النفس	
بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق	٩٣٠
بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق	٩٣٤
بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة	٩٣٧
بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة	٩٤٠
بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق	٩٤٣

الموضوع — الصفحة

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة ٩٤٥
بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه ٩٤٦
بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات ٩٤٨
بيان علامات حسن الخلق ٩٥١
بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشؤهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم ٩٥٥
بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة ٩٥٨

كتاب كسر الشهوتين

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع ٩٦٥
بيان فوائد الجوع وآفات الشبع ٩٦٩
بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن ٩٧٤
بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه ٩٨٢
بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام ٩٨٥
القول في شهوة الفرج ٩٨٦
بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله ٩٨٧
بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين ٩٩١

كتاب آفات اللسان

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت ٩٩٦
الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك ١٠٠٠
الآفة الثانية: فضول الكلام ١٠٠٢
الآفة الثالثة: الخوض في الباطل ١٠٠٤
الآفة الرابعة: المراء والجدال ١٠٠٥
الآفة الخامسة: الخصومة ١٠٠٧
الآفة السادسة: التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة.. الخ ١٠٠٩
الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان ١٠١٠
الآفة الثامنة: اللعن ١٠١٢
الآفة التاسعة: الغناء والشعر ١٠١٦
الآفة العاشرة: المزاح ١٠١٧
الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء ١٠٢١
الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر ١٠٢٢

الموضوع | الصفحة

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب ١٠٢٣
الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين ١٠٢٤
بيان ما رخص فيه من الكذب ١٠٢٨
بيان الحذر من الكذب بالمعاريض ١٠٣١
الآفة الخامسة عشرة: الغيبة ١٠٣٣
بيان معنى الغيبة وحدودها ١٠٣٥
بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان ١٠٣٧
بيان الأسباب الباعثة على الغيبة ١٠٣٩
بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة ١٠٤٠
بيان تحريم الغيبة بالقلب ١٠٤٣
بيان الأعذار المرخصة في الغيبة ١٠٤٤
بيان كفارة الغيبة ١٠٤٦
الآفة السادسة عشرة: النميمة ١٠٤٧
بيان حد النميمة وما يجب في ردها ١٠٤٩
الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين ١٠٥١
الآفة الثامنة عشرة: المدح ١٠٥٣
بيان ما على الممدوح ١٠٥٥
الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام ١٠٥٥
الآفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ١٠٥٧

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

بيان ذم الغضب ١٠٦٠
بيان حقيقة الغضب ١٠٦٢
بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة: أم لا؟ ١٠٦٤
بيان الأسباب المهيجة للغضب ١٠٦٨
بيان علاج الغضب بعد هيجانه ١٠٦٩
فضيلة كظم الغيظ ١٠٧١
بيان فضيلة الحلم ١٠٧٢
بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ١٠٧٦
القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ١٠٧٨
فضيلة العفو والإحسان ١٠٧٩
فضيلة الرفق ١٠٨٢

الموضوع	الصفحة
القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته	١٠٨٥
بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه	١٠٨٨
بيان أسباب الحسد والمنافسة	١٠٩١
بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه	١٠٩٣
بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب	١٠٩٥
بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب	١٠٩٩
كتاب ذم الدنيا	
بيان ذم الدنيا	١١٠٢
بيان المواعظ في ذم الدنيا وصفتها	١١١٢
بيان صفة الدنيا بالأمثلة	١١١٥
بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد	١١٢١
بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم	١١٢٦
كتاب ذم البخل وذم حب المال	
بيان ذم المال وكراهة حبه	١١٣٥
بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم	١١٣٨
بيان تفصيل آفات المال وفوائده	١١٣٩
بيان ذم الحرص والطمع، ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس	١١٤١
بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة	١١٤٥
بيان فضيلة السخاء	١١٤٨
حكايات الأسخياء	١١٥٣
بيان ذم البخل	١١٥٨
حكايات البخلاء	١١٦٢
بيان الإيثار وفضله	١١٦٣
بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما	١١٦٥
بيان علاج البخل	١١٦٨
بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله	١١٧٠
بيان ذم الغنى ومدح الفقر	١١٧١

الموضوع الصفحة

كتاب ذم الجاه والرياء

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت ١١٨٣
بيان فضيلة الخمول ١١٨٤
بيان ذم الجاه ومعناه ١١٨٦
بيان معنى الجاه وحقيقته ١١٨٦
بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة ١١٨٧
وأما السبب الثاني وهو الأقوى ١١٨٨
بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له ١١٩٠
بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم ١١٩٣
بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم
ونفرتها منه ١١٩٤
بيان علاج حب الجاه ١١٩٥
بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم ١١٩٧
بيان علاج كراهة الذم ١١٩٩
بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم ١٢٠٠
الشطر الثاني من الكتاب: في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات ١٢٠٢
بيان ذم الرياء ١٢٠٢
بيان حقيقة الرياء وما يراءى به ١٢٠٦
بيان درجات الرياء ١٢١١
بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل ١٢١٥
بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط ١٢١٧
بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه ١٢٢٠
بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات ١٢٢٨
بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له ١٢٣٠
بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات ١٢٣٣
وبالجملة فالمراتب ثلاث ١٢٣٩
بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح ١٢٤٢
بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه ١٢٤٤

كتاب ذم الكبر والعجب

بيان ذم الكبر ١٢٤٩
بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب ١٢٥٢

الموضوع	الصفحة
بيان فضيلة التواضع	١٢٥٤
بيان حقيقة الكبر وآفته	١٢٥٨
بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه	١٢٥٩
بيان ما به التكبر	١٢٦٢
بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له	١٢٦٨
بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر	١٢٦٩
بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له	١٢٧٣
بيان غاية الرياضة في خلق التواضع	١٢٨٥
بيان ذم العجب وآفاته	١٢٨٥
بيان آفة العجب	١٢٨٦
بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما	١٢٨٧
بيان علاج العجب على الجملة	١٢٨٨
بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه	١٢٩١

كتاب ذم الغرور

الموضوع	الصفحة
بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته	١٢٩٧
بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف	١٣٠٦

كتاب التوبة

الموضوع	الصفحة
الركن الأول: في نفس التوبة	١٣٣٦
بيان حقيقة التوبة وحدها	١٣٣٦
بيان وجوب التوبة وفضلها	١٣٣٧
بيان أن وجوب التوبة على الفور	١٣٤١
بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة	١٣٤٢
بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة	١٣٤٦
الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها	١٣٥٠
بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد	١٣٥٠
بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا	١٣٥٨
بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب	١٣٦٨
الركن الثالث: في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر	١٣٧٠
بيان أقسام العباد في دوام التوبة	١٣٨٠

الموضوع	الصفحة
بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق	١٣٨٣
الركن الرابع: في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار	١٣٨٧

كتاب الصبر والشكر

الموضوع	الصفحة
بيان فضيلة الصبر	١٤٠٠
بيان حقيقة الصبر ومعناه	١٤٠١
بيان كون الصبر نصف الإيمان	١٤٠٥
بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر	١٤٠٦
بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف	١٤٠٧
بيان مظانّ الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال	١٤٠٩
بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه	١٤١٥
الشطر الثاني من الكتاب: في الشكر	١٤٢١
الركن الأول: في نفس الشكر	١٤٢١
بيان فضيلة الشكر	١٤٢١
بيان حدّ الشكر وحقيقته	١٤٢٢
بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى	١٤٢٦
بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه	١٤٣١
الركن الثاني: من أركان الشكر: ما عليه الشكر	١٤٤١
بيان حقيقة النعمة وأقسامها	١٤٤١
بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء	١٤٥٢
الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك	١٤٥٢
الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات	١٤٥٤
الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة	١٤٥٥
الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته	١٤٥٩
الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك	١٤٦١
الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة	١٤٦٢
الطرف السابع: في إصلاح المصلحين	١٤٦٣
الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام	١٤٦٤
بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر	١٤٦٧
الركن الثالث: من كتاب الصبر والشكر: فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر	١٤٧٢

الموضوع الصفحة

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد ١٤٧٢
بيان فضل النعمة على البلاء ١٤٧٩
بيان الأفضل من الصبر والشكر ١٤٨١

كتاب الخوف والرجاء

بيان حقيقة الرجاء ١٤٨٨
بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه ١٤٩١
بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب ١٤٩٢
الشطر الثاني من الكتاب: في الخوف ١٥٠٣
بيان حقيقة الخوف ١٥٠٣
بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف ١٥٠٥
بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه ١٥٠٦
بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه ١٥٠٨
بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما ١٥١٣
بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف ١٥١٦
بيان معنى سوء الخاتمة ١٥٢٣
بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف ١٥٣١
بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف ١٥٣٤

كتاب الفقر والزهد

الشطر الأول من الكتاب: في الفقر ١٥٤١
بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه ١٥٤٢
بيان فضيلة الفقر مطلقاً ١٥٤٥
بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين ١٥٥٢
بيان فضيلة الفقر على الغنى ١٥٥٤
المقام الثاني: في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص ١٥٥٨
بيان آداب الفقير في فقره ١٥٥٩
بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال ١٥٦٠
بيان تحريم السؤال من غير ضرورة؛ وآداب الفقير المضطر فيه ١٥٦٣
بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ١٥٦٨
بيان أحوال السائلين ١٥٦٩
الشطر الثاني من الكتاب: في الزهد ١٥٧١

الموضوع الصفحة

بيان حقيقة الزهد ١٥٧١
بيان فضيلة الزهد ١٥٧٤
بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه؛ وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه ١٥٨١
بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة ١٥٨٦
بيان علامات الزهد ١٥٩٨

كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل ١٦٠١
بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل ١٦٠٣
الشطر الثاني من الكتاب: في أحوال التوكل وأعماله ١٦١٨
بيان حال التوكل ١٦١٨
بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل ١٦٢٣
بيان أعمال المتوكلين ١٦٢٥
بيان توكل المعيل ١٦٣٢
بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال ١٦٣٥
بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم ١٦٤٢
بيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله ﷺ ١٦٤٧
بيان الرد على من قال: ترك التداوي أفضل بكل حال ١٦٥٢
بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه ١٦٥٤

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى ١٦٥٧
بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى ١٦٥٩
بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده ١٦٦٤
بيان أن أجلّ اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى من حرم هذه اللذة ١٦٧١
بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا ١٦٧٥
بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ١٦٨٠
بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ١٦٨٤
بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه ١٦٨٥
بيان معنى الشوق إلى الله تعالى ١٦٨٧

الموضوع الصفحة

بيان محبة الله للعبد ومعناها ١٦٩١
القول في علامات محبة العبد لله تعالى ١٦٩٤
بيان معنى الأنس بالله تعالى ١٧٠٥
بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس ١٧٠٦
القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته ١٧٠٩
بيان فضيلة الرضا ١٧١٠
بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى ١٧١٣
بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا ١٧١٨
بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظانّ المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا ١٧٢١
بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم ١٧٢٣
خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها ١٧٢٧

كتاب النية والإخلاص والصدق

الباب الأوّل: في حقيقة النية ومعناها ١٧٣١
بيان فضيلة النية ١٧٣١
بيان حقيقة النية ١٧٣٤
بيان سر قوله ﷺ: «نِيَّةُ الْمُؤمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ» ١٧٣٥
بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية ١٧٣٨
بيان أنّ النية غير داخلة تحت الاختيار ١٧٤٣
الباب الثاني: في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته ١٧٤٦
فضيلة الإخلاص ١٧٤٦
بيان حقيقة الإخلاص ١٧٤٩
بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص ١٧٥١
بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص ١٧٥٢
بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به ١٧٥٤
الباب الثالث: في الصدق وفضيلته وحقيقته ١٧٥٧
فضيلة الصدق ١٧٥٧
بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه ١٧٥٨

كتاب المراقبة والمحاسبة

المقام الأوّل من المرابطة: المشارطة ١٧٦٦
المرابطة الثانية: المراقبة ١٧٦٩

الموضوع — الصفحة

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها ١٧٧١
المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل. ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها ١٧٧٧
بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل ١٧٧٨
المرابطة الرابعة: في معاقبة النفس على تقصيرها ١٧٧٩
المرابطة الخامسة: المجاهدة ١٧٨١
المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها ١٧٩٠

كتاب التفكر

فضيلة التفكر ١٧٩٨
بيان حقيقة الفكر وثمرته ١٨٠١
بيان مجاري الفكر ١٨٠٣
بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى ١٨١١

كتاب ذكر الموت وما بعده

الشطر الأوّل: في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه ثمانية أبواب ١٨٢٦
الباب الأول: في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره ١٨٢٦
بيان فضل ذكر الموت كيفما كان ١٨٢٧
بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب ١٨٢٩
الباب الثاني: في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل، وسبب طوله وكيفية معالجته ١٨٣٠
فضيلة قصر الأمل ١٨٣٠
بيان السبب في طول الأمل وعلاجه ١٨٣٤
بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره ١٨٣٦
بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير ١٨٣٧
الباب الثالث: في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده ١٨٣٩
بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت ١٨٤٥
بيان الحسرة عند لقاء مَلَك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها ١٨٤٦
الباب الرابع: في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده ١٨٤٨
وفاة رسول الله ﷺ ١٨٤٨
وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ١٨٥٧
وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ١٨٥٨

الموضوع	الصفحة
وفاة عثمان رضي الله عنه	١٨٥٩
وفاة علي كرم الله وجهه	١٨٦٠
الباب الخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين	١٨٦١
بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوّف رضي الله عنهم أجمعين	١٨٦٢
الباب السادس: في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور	١٨٦٦
بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور	١٨٦٧
أبيات وجدت مكتوبة على القبور	١٨٧٠
بيان أقاويلهم عند موت الولد	١٨٧١
بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به	١٨٧٢
الباب السابع: في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور	١٨٧٦
بيان حقيقة الموت	١٨٧٦
بيان كلام القبر للميت	١٨٨١
بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير	١٨٨٢
بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر	١٨٨٦
الباب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام	١٨٨٨
بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة	١٨٩١
بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين	١٨٩٢
الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار.	١٨٩٦
صفة نفخة الصور	١٨٩٦
صفة أرض المحشر وأهله	١٨٩٨
صفة العرق	١٨٩٩
صفة طول يوم القيامة	١٩٠٠
صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه	١٩٠١
صفة المساءلة	١٩٠٣
صفة الميزان	١٩٠٦
صفة الخصماء ورد المظالم	١٩٠٧
صفة الصراط	١٩١٠
صفة الشفاعة	١٩١٣
صفة الحوض	١٩١٦
القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها	١٩١٧

الموضوع	الصفحة
القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها	١٩٢٣
صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها	١٩٢٧
صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم	١٩٢٨
صفة طعام أهل الجنة	١٩٢٨
صفة الحور العين والولدان	١٩٢٩
بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار	١٩٣١
صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى	١٩٣٣
نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك	١٩٣٤
فهرس الموضوعات	١٩٣٩